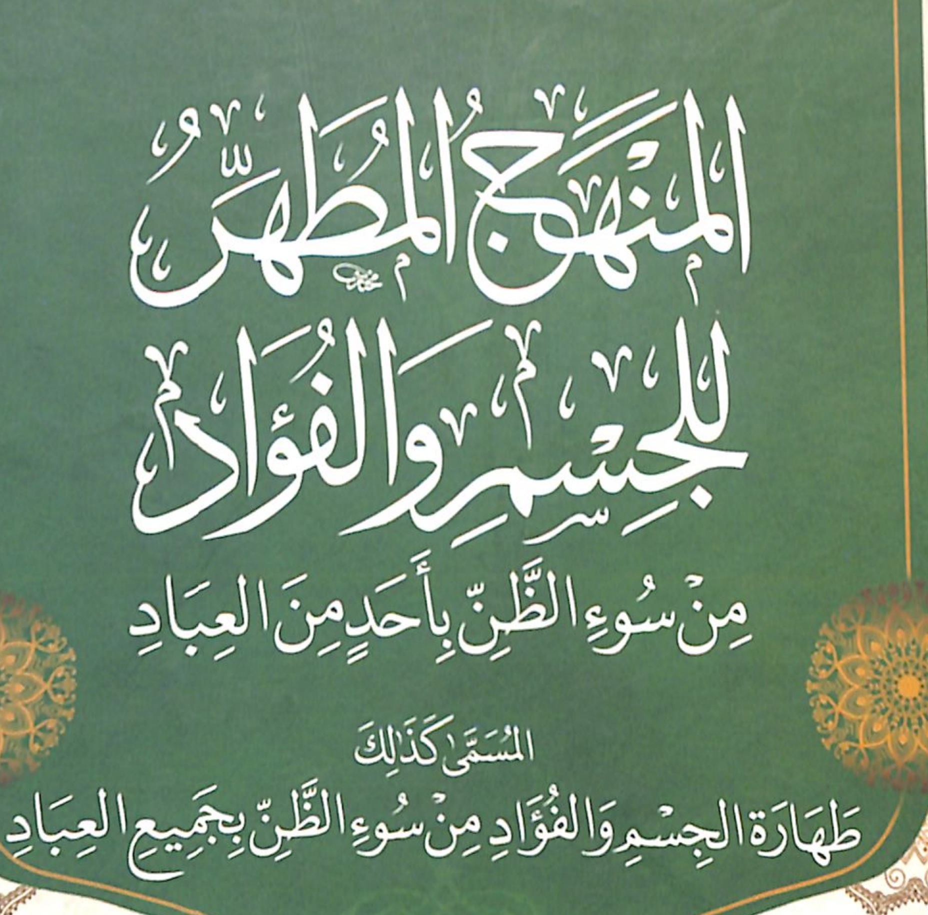


المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد

المسمى كذلك

طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد

تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

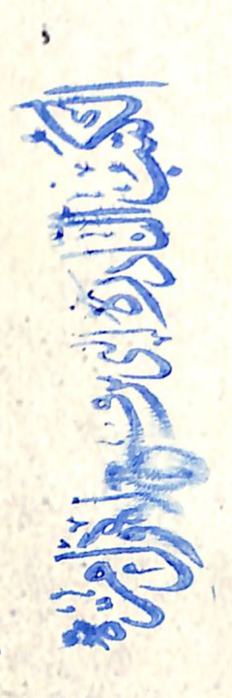
المتوفى سنة ٩٧٣هـ

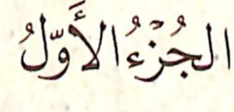
تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار





الجزء الأول





دار الإحسان للنشر والتوزيع



هاتف محمول: ٠١١٢١٠٧٧١٧٤ ٠٠٢

Email: darelehsan@gmail.com

الكتاب: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد

تأليف: الإمام عبد الوهاب الشعراني

تحقيق: محمود مرسي حسن

الناشر: دار الإحسان

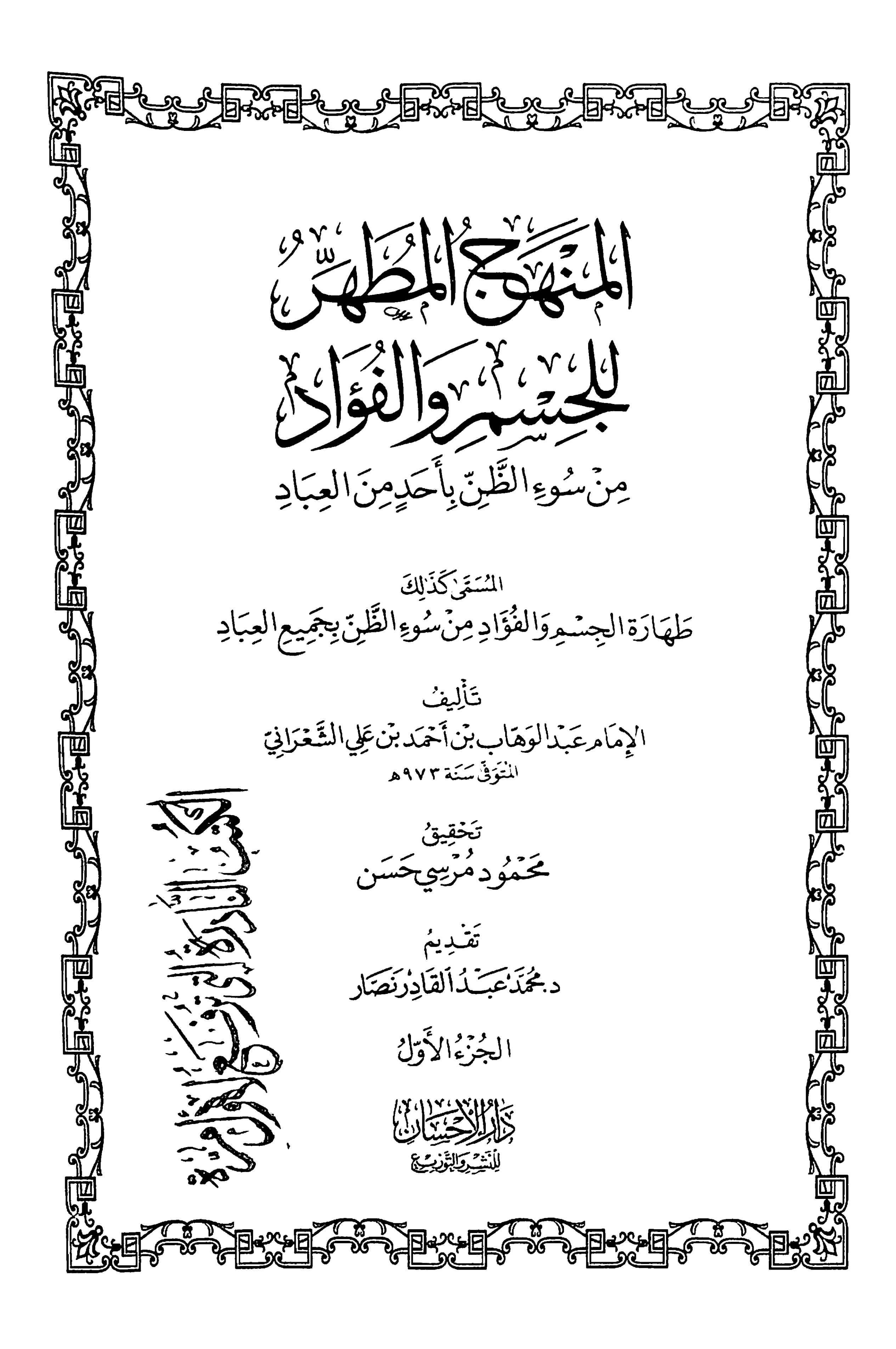
سنة الطباعة: ٢٠٢٣

بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٧٥٨٢/ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: 978-977-6816-43-5



المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد

المسمى كذلك

طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد

تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣هـ

تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار

الجزء الأول

دار الإحسان

للنشر والتوزيع



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي المتقين والصلاة والسلام على خير النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه.

كانت بداية كتاب المنهج المطهر منذ نحو اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا حين استقدمت نسخته المخطوطة الأولى من السعودية بما كلفني في ذلك الوقت قدرًا معتبرًا من المال، أي عشرة آلاف جنيه مصري اليوم بسعر الريال في السوق السوداء. ثم يسر الله بنسخة أخرى من مقتنيات مكتبة شهيد علي باشا كتبت لحفيد المؤلف الشيخ يحيى بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب الشعراني سنة ١٠٣٣ بعد انتقال الإمام الشعراني بستين عامًا فقط. وهذا النسخة كان أخبرني بها الشيخ أبو أحمد كابر الشنقيطي ثم المدني الذي توفي منذ شهور قليلة رحمه الله تعالى. وهو من الكتب التي لم تكثر مخطوطاتها ربما لحجمه الكبير وتأخر تأليفه في حياة الإمام إذ يفوق حجمه «المنن الكبرى» و«العهود المحمدية».

واستغرق نسخ الكتاب نحو عام كامل نظرًا لعظم حجمه وكان هذا نحو سنة ٢٠١٠ شمسية. ثم ظل ملف الكتاب على الحاسوب في طي الحفظ إلى ما بعد إنشاء دار الإحسان بخمس سنوات حين انتهينا من نشر مؤلفين كبيرين آخرين للقطب الشعراني هما الطبقات الوسطى ومختصر الفتوحات المكية. ثم أعطيت الملف للمحقق كي يبدأ العمل فيه. وانتهى من تحقيقه على النسخة السعودية التي وإن كثرت مزاياها من جمال الخط وحسن التنسيق والزخرفة، لم تخل من سقط وتصحيف. ثم ظهرت النسخة التركية، فتوجب مقابلة الكتاب كاملًا عليها. وغني عن البيان أنَّ كلا النسختين مصري الأصل، أي إنهما نسختا في مصر أرض الكنانة التي حوت مشاهد كبارٍ من آل بيت النبي ﷺ في القرنين الحادي عشر ومطلع الثاني عشر.

وغير ممكن في هذه السطور الوفاء بذكر ما لهذا الكتاب الفريد من المزايا، وحسبه

أنه يختلف في خطته ومادته عن بقية كتب الأخلاق التي ألفها العارف الشعراني، كـ«بهجة النفوس والأحداق»، و«المنن الكبرىٰ» و«الأخلاق المتبولية» و«هادي الحائرين» وغيرها. وأهم ما يتميز به الكتاب أنه يخرج عن دائرة الأخلاق المغلقة نسبيًا إلىٰ الحياة العامة ليسجل مشاهد شديدة الثراء موضوعًا ولغةً للحياة في القرن العاشر الهجري بما يُحْضِرُ هذا القرنَ وما قبله وأحيانًا ما بعده أمام أعيننا بتفاصيله ودقائقه، ولا يقترب كتاب آخر في هذا الثراء اللغوي والاجتماعي من كتابنا هذا سوىٰ كتاب «المنن الكبرىٰ» لاعتناء القطب الشعراني فيه بذكر الكثير من تفاصيل حياته الشخصية.

وقد كنت أود أن أتشرف بالمشاركة مع محقق الكتاب الشيخ محمود مرسي النقشبندي الجودي بأكثر مما شاركت به، ولكن حالت أحوال الدنيا دون ذلك، ومع بعض الأسف علىٰ عدم تيسر ذلك، فحسبي أن أجد عند العارف السكندري بعض السلوىٰ إذ يقول: «لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أراد لاستعملك بغير إخراج» و«لا ترقب فراغ الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه». وقد استعملنا الله تعالىٰ فيما استعملنا فيه، فليس لنا إلا الرضا باختياره تبارك وتعالىٰ.

وأحمد الله تعالىٰ- وقد جاوزت من العمر ستة وخمسين عامًا بالسنين الهجرية قضيت ردحًا منها خادمًا لكتب سيدي عبد الوهاب الشعراني تحقيقًا ونشرًا، ولا يزال في الجعبة المزيد- علىٰ ما وفق إليه وأسأله تعالىٰ أن يحسن ختامنا ويصلح أعمالنا ويحققنا بما حقّق به أولياءه الصالحين وأحبابه المقربين كسيدي عبد الوهّاب الشعراني، رضي الله عنه وعن مشايخنا الجودية وعنا بهم.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

محمد نصار

القاهرة في العشرين من جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٤٤٤

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد خير خلق الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه

وبعد:

فإن للتراث الشعراني مركزًا رئيسًا في حقل المؤلفات الإسلامية عمومًا، ودوائر التربية خصوصًا، فيكاد ينعقد إجماع أهل الطريق علىٰ أن من خصائص كتب الإمام الشعراني تربية المريد وتهذيب نفسه، لاسيما إن جمع مع مطالعتها السلوك علىٰ يد شيخ مربٍّ.

وقد سبق لدار الإحسان المباركة أن أخرجت موسوعتين عظيمتين من الحدائق الشعرانية الغناء، هما «مختصر الفتوحات المكية» و«الطبقات الوسطىٰ». وهذه موسوعة أخرىٰ أكبر تتضمن عصارة ذوق الإمام، وخلاصة سيره، وعلومشهده ﷺ.

وكانت عناية شيخنا د. محمد نصار بهذا الكتاب قديمة تعود إلىٰ سنوات حيث قام بدفعه للنسخ فور أن حصل علىٰ مخطوطه، ثم شاء الله تعالىٰ أن يتأخر صدوره عشر سنوات وازدادوا ثلاثًا أوخمسًا، ثم منَّ الله عليَّ، فدفعه إليَّ شيخي، فعملتُ علىٰ العناية به مدةً طويلة من الشهور والأيام تخللتها بعض الأعمال الأخرىٰ، فلما أوشك علىٰ دخول مرحلة الطباعة ظهر لنا مخطوط آخر، فأخرنا صدور الكتاب لنقابله علىٰ المخطوط الجديد، حتىٰ صار الكتاب أخيرًا بين يدي القاريء الكريم.

يبدأ الإمام كتابه الجليل بمقدمة دسمة تهيئة للقاريء وتمهيدًا للولوج إلىٰ الكتاب، كما يذكر فيها بعض الأمور المعينة علىٰ حسن الظن، كتحري أكل الحلال الخالص، إذ بقدر ما يشوب مال الإنسان من الشبهات يتمكن منه سوء الظن بقدر ذلك.

وفي المقدمة نبه الإمام ﷺ علىٰ مسلكين خطيرين جدًّا يقع فيهما بعض الناس وخصوصًا طلبة العلم الشريف:

الأول: أخذ التصوف ومعرفة أمراض النفس وعللها والسعي في طرق علاجها من كتب التصوف مباشرةً دون سلوك علىٰ يد شيخ من الأحياء، إذ لكل عصر علله وأمراضه المختلفة عن تلك التي عالجها المشايخ السابقون، وإن توافقت بعض العلل والأمراض التي لا يخلو عصر منها، إلا أنه لا تخلص منها أيضًا إلا بالسلوك علىٰ يد شيخ.

الثاني: عدم حمله الأوصاف التي يصف بها المشايخ مدعي الطريق علىٰ نفسه، بل يقيمها ميزانًا يزن بها غيره من المشايخ وأهل الطريق، فيحاكمهم لما يقرأ، ويرميهم بالادعاء، ويتباكىٰ علىٰ خلوِّ الطريق من الصادقين، بينما كان مقصود أولئك المشايخ أن يفتش الإنسان في نفسه عن هذه الصفات المذمومة ويعالجها علىٰ يد شيخ مربٍّ.

ثم يذكر الإمام أنه قسَّم الكتاب إلىٰ مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة:

الباب الأول: في الأجوبة عن الأنبياء عمومًا.

الباب الثاني: في الأجوبة عن بعض الأنبياء خصوصًا

الباب الثالث: في الأجوبة عن بعض الصحابة والتابعين.

الباب الرابع: في الأجوبة عمن بعدهم من العلماء والفقهاء والأمراء والتجار والمباشرين وغيرهم من بقية المؤمنين.

وأما الخاتمة: ففي الجواب عمن آذىٰ الإمام الشعراني!

غير أن الإمام لم يلتزم بتقسيم الكتاب أربعة أبواب، ولكنه زاد عليها حتىٰ بلغت ثلاثة عشر بابًا، وإن كانت كلها في نفس نوع الباب الرابع. والعجيب أن الإمام لم يعد إلىٰ المقدمة لتعديل هذه الخطة، مما يرجح أنه كتب المقدمة قبل أن يشرع في الكتاب. ويستبعد أن يكون الإمام قد رأىٰ لطول الباب الرابع تقسيمه أبوابًا ثم نسي أن يذكر ذلك في المقدمة؛ لأنه يحيل أحيانًا في الأجوبة علىٰ أبواب بعد الباب الرابع، فيقول مثلًا: «وقد أجبنا عنه في الباب السادس، فانظره»[1].

---

(١) بالنظر إلىٰ أن هذا مع وقع في «الطبقات الوسطىٰ» من النص علىٰ الاقتصار علىٰ ترجمة من له كلام في

وهنا لا بد من التنبيه علىٰ حصول سبق قلم من الإمام في عد الأبواب، فقد ذكر الباب السابع بعد الرابع مباشرةً، دون أن يعنون للبابين الخامس والسادس، ثم كرر العنونة بالباب التاسع مرتين وراء بعضهما البعض، وكذلك حصل في الباب الثاني عشر تكرار العنونة به مرتين، ثم انتقل للباب الثالث عشر. وقد قمنا بتعديل ذلك، لذلك فالأبواب علىٰ الحقيقة اثنا عشر بابًا، بلغت عدد الأجوبة فيها (١٤٢٠) جوابًا. وبعيد أن تحدث هذه الأخطاء من الناسخين في النسختين معًا، خاصةً مع وجود الاختلافات بينهما، أي إن إحداهما ليس مأخوذًا عن الأخرىٰ.

تجديد باب النبوَّات:

خصص الإمام الباب الأول كما قلنا للأجوبة عن الأنبياء عمومًا، والباب الثاني للأجوبة عن أعيانهم صلوات الله وسلامه عليهم ونفعنا بهم. وأجوبة الإمام عن الأنبياء هي بحق تجديدٌ بالمعنىٰ التراثي للكلمة، أي إعادة إحياء ما اندرس من كمال الاعتقاد في الأنبياء، وإن لم يُسبَق ﷺ إلىٰ إبراز وتدوين مثل هذه الأجوبة إلا ما رجع إليه من «الفتوحات المكية» ذلكم البحر الخضم الذي يجيد الإمام استخراج درره، ولكن استشهاده بنصوص «الفتوحات» استشهاد الذائق بما يوافق ذوقه، أو يدل عليه، إذ مستقبحٌ في التجديد بمعناه التراثي لا الحداثي مخالفة أئمة الهدىٰ السابقين، أو مخالفة مناهجهم أو أصولها، وإنما الجديد المقبول ما وافق الأصول والمناهج، وأعاد إحياء الدين وتعظيمه في قلوب المؤمنين. وقد صرَّح الإمام ﷺ أنه لم يجب عن الأنبياء إلا علىٰ حسب ذوقه من مقامهم العالي. بل لقد حذَّر من الهجوم علىٰ الأجوبة عن الأنبياء دون أن يكون للمجيب إشراف علىٰ سامي مقامهم. ومن تلك الأجوبة تستطيع أن تستخلص قواعد عامة ترد إلىٰ كل قاعدة منها الفرع الموافق لها، فمثلًا:

السلوك ينتفع به مع ما نجده من ترجمته للعديد من المجاذيب وعدم تعديل الإمام للمقدمة، قد يستنتج أيضًا أنه ترك الأمر علىٰ ما هو عليه لأن الواردَ عارَض الفكرَ، فكان تركه للمقدمتين دون تعديل إشارة إلىٰ سير المؤلف علىٰ ما يقع في قلبه بخلاف ما كان انتواه بفكره.

• **قاعدة:** كل ما ورد من خطاب لوم أو عتاب أو أمر بمزيد تقوىٰ أو نهي موجهًا للأنبياء، فالمراد منهم أممهم. وإنما وُجِّه الخطاب للأنبياء لقدرتهم علىٰ تحمل صولة الخطاب الإلهي، بخلاف أممهم.

• **قاعدة:** كل استغفار يقع من الأنبياء أو بكاء علىٰ الذنوب ونحو ذلك، فالقصد منه استغفارهم عن ذنوب أمتهم، أو تعليم أمتهم كيفية التضرع، أو استغفارهم مما ترتب آثار دعوتهم من دخول المعاندين في دائرة الإثم والعذاب، وذلك لعظيم شفقتهم. وهذا التعليل الأخير هو ما كان يجيب به الإمام غير ما مرة عن سيد الوجود رحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ.

• **قاعدة:** إقبال الأنبياء علىٰ صناديد قومهم وكبارهم إقبال منهم علىٰ صفات الكبرياء والعز لله عز وجل التي كان مظاهرها أولئك الصناديد والأكابر.

• **قاعدة:** خوف بعض الأنبياء من بعض المخلوقين سواء كان خوف أذىٰ أو شماتة إنما هو خوف من الله تعالىٰ، لكون جميع الكون مظاهر أفعاله.

وبهذا تستطيع أن ترد كل حادثة ترد عليك إلىٰ واحدة من تلك القواعد وغيرها مما استخلصته من أجوبة الإمام.

ولا يخلو باب النبوات من نكات علمية تكاد لا تجدها في غير هذا الكتاب، كعدم كون المعجزةِ هي الباعثة علىٰ إيمان من آمن، بل آمن من آمن بالأنبياء لوجود النور في قلبه الموافق للنور الذي جاء به النبي المرسل، وإنما كان احتجاجهم بالمعجزات كالعذر لهم عند قومهم.

ومن النكات اللطيفة أيضًا أن للنبي الرسول حالة يكون فيها مرسلًا لا نبيًّا، وذلك إذا أُمر بتبليغ ما لم يؤمر هو نفسه بالعمل به.

وقد خصص الإمام القسم الأول من الباب الثاني للأجوبة عن أعيان الأنبياء سوىٰ سيدنا محمد ﷺ، وخصص القسم الثاني منه للأجوبة عن سيدنا محمد ختام الأنبياء

والرسل وإمامهم ﷺ. كما أنه خص أبوي النبي ﷺ بمبحث طويل للرد على من يقول بعدم نجاتهما نفعنا الله بهما في الجواب (٧٠).

علو مقام الصحبة:

أما الباب الثالث الذي خصه الإمام بالأجوبة عن الصحابة والتابعين، فهو فريد عجيب، يدهشك حين تقرأ فيه كيف يغفل أكثر الناس تعظيمًا للصحابة عن مثل هذا الجواب؟ بل ربما يقعون في انتقاص الصحابي دون أن يقصدوا، كجوابه ﵁ عنهم في قوله تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ هذا غير جوابه ﵁ عن أعيانهم.

وجوب تحسين الظن في الصحابة الذين طعن فيهم المبتدعة كالسيدين معاوية وعمرو ﵄:

لا يفوت إمام عظيم مثل مولانا الشعراني في موسوعةٍ علمية منهجية كـ«المنهج المطهّر» التي يقصد من إبرازها تطهير الفؤاد والجسم والعقل من سوء الظن التنبيهُ علىٰ أخطر مزلق يجر لسوء الظن في الصحابة ألا وهو سوء الاعتقاد في سيدنا معاوية ﵁، بل عدَّ الإمام مجرد الوقوع في سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص رفضًا يجب علىٰ العالم أو شيخ الطريق أن يحذر منه، ويسعىٰ في إزالته، ويحكي عن نفسه أنه «قد تردد إليَّ بعض الراوفض الذين كانوا يسبون معاوية وعمرو بن العاص، فلا زلتُ بهم حتىٰ ترضوا عنهما». وأفرد للجواب عن سيدنا معاوية الجواب رقم (١٠٢). هذا غير جوابه عنه في ضمن أجوبة أخرىٰ: (٧٣) (٩٢) (٤٢٠).

الأجوبة عن التابعين:

وهو القسم الثاني من الباب الثالث، فقد خصصه الإمام للجواب عن التابعين وتابعيهم، وغالب الأجوبة إنما هي توجيه وتفسير لبعض أقوالهم المشكلة أو اختياراتهم الفقهية المؤدية لسوء الاعتقاد فيهم أو تجهيلهم.

الباب الرابع: بحر خضم ودر كامن

يتناول الإمام في هذا الباب الجواب عن عموم الناس، والمقصود بعموم الناس هنا من سوىٰ الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم، من العلماء والصوفية والفقهاء والأطباء والتجار والأمراء وعوام المسلمين، بل والنصارىٰ واليهود كما تراه في الجواب رقم (١٣٠٧).

نمط جواب الإمام:

يسير الإمام علىٰ نمط واحد في حكاية الفعل أو القول محل الجدل، ثم يذكر قول المعترض المنكِر، فيقول مثلًا: ومما أجبتُ به عن العالم - الشيخ ، ولاث الناس به أو أنكر الناس عليه، ثم يسوق اللوث أو الإنكار. وقد لاحظتُ أنه يعبر عن كبار أهل العلم بـ«العلماء»، وعن متوسطهم أو من لم يُعرَف بغير نقل الأقوال الفقهية بـ«الفقهاء» وعن شيوخ التربية بـ«المشايخ»، وعن بقية الصوفية من المريدين أو من لم يبلغ درجة المشيخة أو عوام الصوفية بـ«الصوفي» أو «الفقير».

أما المعترضون فيصفهم بصفة مما يلي: الناس، طلبة العلم، الحاذقون من الفقراء، الصادقون، الفقهاء، الحاذقون، المجادلون، الأقران، جماعة الأقران، العلماء.

ويلاحظ من تنويعه في ذلك أنه ليس كل الاعتراضات المؤدية إلىٰ سوء الظن قد تصدر من أصحاب النفوس الخبيثة، بل قد تصدر من الصادق. كما أن تعبيره بقوله «الناس» يشعر بأن بعض هذه التصرفات يتساوىٰ في سوء الظن بأهلها جميع الناس، بخلاف تعبيره بالحاذقين فهو مشعر بأنه لا يظن الظن السيء في مثل تلك الواقعة المجاب عنها إلا الحاذق الذكي الذي لم يلجم عنان فكره بحسن الظن، وعدم قياس مقاصد العلماء أو المشايخ علىٰ مقاصده هو. وإذا علمنا ذلك علمنا أنه حيث عبَّر عن المعترضين بـ«المجادلين» أفاد أن مثل هذا الاعتراض لا يصدر إلا عن مجادل لا يبغي لنصرة الحق سبيلًا.

وقد يكرر الإمام الجواب عن نفس القول أو الفعل بطريقة أخرىٰ، ولذلك أحلنا عند تكرار الجواب بطريقة أخرىٰ إلىٰ الأجوبة الأولىٰ.

مقاصد الكتاب تطهير القلب من سوء الظن لا تصحيح أفعال الفاسدين:

قد يقول قائل: إذا كانت جميع الأفعال التي ظاهرها الفساد لها تأويل كما يذكر الإمام، فقد ارتفع الفساد جملة، بل ولا يكاد يوجد فاسد واحد، وهو خلاف الواقع.

والجواب: أن مقصود الإمام ليس تصحيح فعل الفاسد نفسه، بل مقصوده تطهير القلب من سوء الظن بالخلق، إذ كل فرد مطالب بمناقشة نفسه لا مناقشة غيره، وحينئذٍ فلو لم يكن مقصد أحد المجاب عنهم من الفعل أو القول الذي أنكر عليه نحو ما أجاب به الإمام عنه، فعليه حينئذٍ أن يتوب عن ذلك. ولا أدل علىٰ ذلك من تنبيه الإمام في بعض أجوبته إلىٰ عدم جواز الإنكار إلا بعد معرفة المقصد بسؤال الشخص عنه، أو بتعليمه، فإن أصر علىٰ خطئه، وجب الإنكار عليه بقدر خطئه. ومما يؤيد ذلك أيضًا أن الإمام قد يجيب عن المنكَر عليه في فعله الموهِم، والمنكِر عليه في اعتراضه.

وهناك بعض الأقوال أو الأفعال التي لا يصح تأويلها لمخالفتها القطعي، ومن ذلك الجواب رقم (١١٠٣) حيث أنكر الإمام علىٰ الصوفي صاحب الواقعة ولم يجب عنه.

جحا وأشعب:

من الملفت للنظر جوابه عن جحا وأشعب، وقد كان الجواب عن السيد جحا آخر جواب في الباب الثالث، والجواب عن أشعب أول جواب في الباب الرابع. وهذان الرجلان بالخصوص صارا مادةً للتندر والتفكه، الأول بسذاجته الشديدة، والثاني بما يبدر منه من بوادر أطلقت عليه «أشعب الطماع»، فيرىٰ الإمام أن التندر عليهما سوء ظن لا يليق أن تظنه بمسلم، فضلًا عن كونه من التابعين كالسيد جحا، وأما ما نقل عنهما فسببه صفاء قلب الأول ونقاؤه، حتىٰ يظن أن لا أحد يخدعه. وأما الثاني فلظنه في إخوانه المسلمين الخير والكرم، وأنهم لا يمنعونه من طعامهم.

التصوف السنيُّ نوعان:

نستنبط من أجوبة الإمام عن الصوفية أن التصوف السنيَّ عنده نوعان:

الأول: التصوف الجنيدي، وهو تصوف المجاهدات والذكر وسلوك وسائل السلوك المختلفة باختلاف المشارب. وهذا النوع من التصوف هو الذي يُشترَط في شيخ الطريق فيه الشروط المعروفة عند القوم التي قد يحصل لها بعض التغير حسب المناسب لأحوال الزمان.

الثاني: تصوف الخرقة، وهو تصوف الرسوم وإقامة شعار الذكر والحضرات دون سلوك مجاهدة حقيقية تخلع المرء عن نفسه لترقىٰ به مراقي السلوك وقطع عقبات النفس. وهو غالب ما يكون بين العوام. ولهذا لا يُشترَط في الشيخ في مثل هذا النوع من التصوف الشروط اللازمة للشيخ من النوع السابق؛ لأنه مجرد اجتماع علىٰ الذكر. ومع ذلك لا يخلو أهل هذا النوع من وليٍّ يكون بينهم، بل قد يبلغ الواحد منهم أن يربيه المشايخ في البرزخ، وإن كان هذا نادرًا شديد الندرة.

التكيف مبدأ صوفي متجدد:

يراد بالتكيف تغير طريقة التربية حسب ما يلائم العصر. وقد أشار الإمام لمفهوم التكيف دون المصطلح عند سوقه الفرق بين السلوك عند السلف، والسلوك عند الخلف:

* فالسلوك عند السلف- كما يقول الإمام الشعراني- لم يكن فيه تلمذة مريد علىٰ شيخ واحد والتزام به كما في عصور الخلف، بل كان بمجرد صحبة بعضهم بعضًا، فيُلَقِّحُون بواطن بعضهم بعضًا. أما الخلف فمالوا إلىٰ اختصاص المريد بشيخ واحد، وانحصاره عليه، لما زادت الكثائف والحجب، جمعًا للهمة، ومنعًا للشتات.

* كذلك كان السلوك عند السلف الأوائل بتغليب الخوف، حتىٰ عهد الإمام الجيلانيّ، فرأىٰ المشايخ تغليب الرجاء علىٰ الخوف، لضعف همم الخلف عن همة السلف.

وأما مصطلح «التكيف» نفسه فقد استفدتُه من الشيخ عبد الواحد يحيىٰ، إذ يستخدمه للدلالة علىٰ تغير أشكال التربية والسلوك بحسب كل عصر. وإلىٰ هذا المبدأ يمكن إرجاع كل التغيرات التي طرأت علىٰ أنماط التربية منذ عصر السلف إلىٰ عصرنا الحالي.

ومما يدخل في باب «التكيف» زيارة الأولياء والاستمداد منهم. ومن العجيب أننا صرنا نرىٰ من بعض من يدعي التصوف التهوين من زيارة الأولياء، أو النداء عليهم بالمدد، أو الاستغاثة بهم ونحو ذلك، زعمًا منه أن ذلك كله ليس من أساس التصوف، وإنما هو من مكمِّلاته -إن أحسن التعبير- أو من الدخيل عليه.

والحق أنه بالنظر إلىٰ عمل المشايخ المتأخرين وتسليكهم، نجد أن زيارة الأولياء، والاستمداد منهم جزء لا يتجزأ من ذات السلوك. وقد سُئل شيخُنا محمد نصار ﷺ مرةً عن اهتمام متأخري المشايخ بالزيارات والاستمداد بما لم يكن في أولهم، فقال: لأن استعداد الأوائل كان مناسبًا للتلقي من الأسماء والصفات مباشرة، بخلاف الأواخر، فكان لا بد من الواسطة.

ومما يُحمل أيضًا علىٰ مبدأ التكيُّف قول الإمام زروق: «ارتفعت التربية بالاصطلاح ولم يبق إلا التربية بالهمة والحال» فقوله بالاصطلاح إشارة إلىٰ التربية علىٰ النمط الأول المعهود.

وما زال المشايخ يتعاملون مع كل زمن بمبدأ التكيف، لذا قد يظن الجاهل أو الغافل اختلال شرط من شروط التربية في مشايخ عصره أو طرق زمانه، أو في أنماط التربية وكيفيتها في العصور المتأخرة إذا حاكمهم إلىٰ المدوَّنات السابقة، وهذا خطأ جسيم، لأن كل ذلك وسائل قد يرىٰ مشايخ كل عصر الأخذ بغيرها، تكيفًا مع الزمان واستعدادات أهله. ومن هنا قال ولي الله الدهلوي: «ولم يعلموا أن عناية الحق واحدة في الحقيقة تتلون ألوانًا وتتنوع أنواعًا، بحسب مصلحة الناس... وكان الناس يحكمون بحكم ما تدرجوا في السلوك وبحكم ما رأوا من استعداد الناس».

فالتكيُّف في الطرق الصوفية هو أجلىٰ مظاهر المرونة والتجديد في الدعوة والسلوك، وما التصوف غير جانب عظيم عملي من جوانب المنهج السني القويم. والمرجع الأول والأخير في ذلك للمشايخ المأذونين في كل عصر. ولو تتبعنا تغير بعض الأنماط والأشكال والوسائل في كل عصر عن سابقه، لوجدنا أمثلة متعددة.

مصادر تمويل الزوايا والصوفية:

كانت مصادر تمويل الزوايا الصوفية -كما سنطالع في هذا الكتاب- تعتمد بشكل رئيس علىٰ ثلاثة:

الأول: الأوقاف الخاصة بالزواية.

الثاني: هبات وزراء إستانبول، وعطايا الأمراء المماليك، وكبار موظفي الدولة بمصر.

الثالث: نفقات كبار التجار.

أما تخصيص راتب للمشايخ الذين لا تقع تحت أيديهم زوايا، فكان يتم غالبًا من الجوالي (وهي ما يدفعه أهل الذمة) وكان هذا الأمر يستدعي سفر المشايخ بأنفسهم إلىٰ إستنابول، ليرسم له السلطان راتبًا دائمًا من الجوالي. ونادرًا ما نجد شيخًا صاحب أملاك ينفق منها علىٰ مريديه وزاويته.

وكان المصدر الثاني والثالث وسفرة الجوالي سببًا للوث الناس بمشايخ الوقت حينها ممن يعتمدون علىٰ تلك المصادر. وكان هذا اللوث بالمشايخ يأتي من الداعمين أنفسهم إذا غضب منهم الشيخ، أو لم يبد لهم موافقة أو دعمًا فيما يريدونه؛ إذ الداعم المموِّل أميرًا كان أو تاجرًا، كان يرىٰ لنفسه في كثير من الأحيان الفضل المباشر علىٰ هؤلاء المشايخ وزواياهم، لذلك نرىٰ الإمام الشعراني يؤكد في غير ما موضع أن الفضل للقابل لا للمعطي، وأنه لا ينبغي الإقدام علىٰ هذا الدعم إلا إن رأىٰ الفضل لمشايخ الوقت بقبول هبته.

ويأتي بعد ذلك المنكِر الثاني، وهم عموم الناس ممن لا يفهمون مقصود المشايخ، فيحسبون تقديمهم للأمراء، وتقريبهم للتجار، وقبولهم العطايا منهم، توسلًا إلىٰ نيل الدنيا والجاه، وهو ما نفاه الإمام هنا، موضحًا مقاصد المشايخ كما تراه في غير ما جواب.

لكن الأعجب حين يمر بك إنكار العامة أو مريدي الزاوية علىٰ الشيخ إذا ردَّ عطايا الأمراء! فليوثون به، بحجة أن إطعام الفقراء والنفقة عليهم بأموال أو مكوِّنات هذه

الأعطيات والهبات المردودة أنفع وأجدىٰ!

علاج الهجوم المعاصر علىٰ السنة:

أساس الهجوم المعاصر علىٰ السنة قياس المعاصرين عقول ونفوس علماء السلف علىٰ عقول ونفوس أهل عصرهم، فالنقاد الحداثيون «ذاهلون في تطبيقهم لمنهجهم التاريخي عن أنهم يحاولون إسقاط عقليتهم اللاأدرية المتفشية في الدوائر الأكاديمية اليوم علىٰ عقلية المحدِّثين التراثيين وعلماء الحديث، ويظنون أنهم يتناولون موضوع الدين بطريقة معزولة تمكنهم من تزييف أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يعلمون أن مسألة الجحيم والنار كانت عند علماء المسلمين حقائق ملموسة لا فكرًا تجريديًا. وكانت مخافة الله سبحانه وتعالىٰ أقوىٰ من كل ما يستطيع الدارس الحديث أن يتصور. ومن العبث اتهام ناس كهؤلاء بذنب لا يُغتفَر مثل تزييف أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام. وما من شيء أبعد عما يسمَّىٰ علميًا من إسقاط العقلية الحداثية التي تعد عاهة في تاريخ الإنسان علىٰ زمن عاش فيه الإنسان في عالم الفكر التراثي بحقائق الدين التي صاغت حياته ذاتها»[١].

وهذا القياس للغير علىٰ النفس، أو للسلف علىٰ أهل العصر هو ما يعالجه هذا الكتاب الجليل، إذ إن أساس الاعتراضات الموجهة لأئمة الحديث الشريف سوء الظن والقياس الفاسد وعدم تصور المقاصد الصحيحة.

فلسفة علم الجرح والتعديل:

أبان الإمامُ الشعراني في بعض أجوبته هنا عن بعض وجوه فلسفة الجرح والتعديل عند علماء المسلمين، فإذا كان مبنىٰ كتابه هذا علىٰ إحسان الظن بالمسلمين جميعًا، والتماس المخارج الحسنة لهم، فكيف يُفهَم تجريح علماء الحديث لبعض الرواة. هنا يجيب الإمام ﵀ أنه لما كان القصد من الجرح حفظ الشريعة الإسلامية، كان تجريح

---

(١) سيد حسين نصر، «مثالات الإسلام وحقائقه» (ص٩٨) دار آفاق.

المحدِّث لبعض الرواة أمرًا مطلوبًا، بل يثاب عليه.

وفي بيان أعمق يوضح الإمام الشعراني أن الإثابة قد تنال بعض المجروحين أنفسهم إذا كانوا ليسوا كذلك في نفس الأمر. وهنا ينتقل الإمام لقضية خطيرة، وهي إذا كان هناك احتمال - وهو احتمال متحقق - أن بعض الرواة المجروحين لم يتحقق فيهم شرط جرحهم، بل هم عدول في نفس الأمر، مما يعني أن مروياتهم التي ردها العلماء أحاديث يُعمَل بها، وفي ردها بسبب التجريح منع للعمل بها، فيجيب الإمام أن الفائدة من هذا حصول التخفيف على الأمة، بتضعيف بعض الأحاديث أو ردها بناء على تجريح راويها، وهذا التخفيف هو مراد الشارع: «ذروني ما تركتكم». ومن هنا نستطيع أن نفهم معنى تصحيح الصوفية لبعض الأحاديث كشفًا، كحديث «من عرف نفسه، فقد عرف ربه». ولذا فإن بعض تلك الأحاديث التي يصححها كشف الصوفية يصعب على العامة العمل بها، فوقع التخفيف لهم بردها على وفق قواعد الجرح والتعديل، فلم يكلفوا بها، وأوجد الله طائفة من أوليائه تدرك صحتها، فتعمل بها، فلا يخرج حديث عن العمل به..

الميول الشهوانية المنحرفة:

من القضايا المهمة التي تناولها الإمام قضية التخنث، أو مرض الأبَنَة كما عُرِف في ذلك العصر، أو المثلية (الشذوذ الجنسي) كما في اللغة المعاصرة. وكان الإمام ﷺ يرى أنه مرض كسائر الامراض بسبب اختلال في طبيعة المخنَّث (الشاذ جنسيًّا)، فالمصاب بهذا الشذوذ غير آثم ما لم ينجر إلى الممارسة المحرَّمة، فإن وقع في الرذيلة لحقه الإثم، ووجب عليه الحدُّ.

ثم يأخذنا الإمامُ إلى صور من معاملة السلف الصالح، وكبار الأولياء مع المصابين بهذا المرض حيث الاحتواء والتذكير دائمًا بعاقبة الصبر عن الوقوع في المحرَّم، والتعامل معهم كالتعامل مع غيرهم من المرضي بلا نفور أو تنفير، بل كان يصل الأمر ببعض المشايخ إلى استضافة أولئك المخنثين في بيوتهم، وإعانتهم على مجاوزة هذا الأمر، إما

بعلاج طبي، أو بالسلوك. والعلاج الطبي ذكره الإمام الشعراني هنا كما ستراه في الجواب رقم (٩٢٩). وقد كان الإمام نفسه يستضيف أولئك المرضىٰ ويعينهم علىٰ تجاوز مرضهم، واعتبر أن ذلك من الأخلاق التي منَّ الله عليه بها، كما في «لطائف المنن والأخلاق».

المشايخ والأمراء: حل المشكلة

شكلت علاقة الروحي بالزمني (ممثلي الدين بالحكام) جدلًا واسعًا علىٰ مدار التاريخ الإسلامي خاصة في العصور المتأخرة. ويمثل الكتاب الذي بين أيدينا كنزًا فريدًا في علاج هذه القضية. فللمشايخ عند الإمام الشعراني مواقف مختلفة من الحكام حسب اختلاف المشرب والمشهد، غير أنهم يشتركون جميعًا في عدم الانطلاق من الأغراض النفسانية في الاعتراض والسطوة أو في الموافقة والمخالطة، فأهل الطريق منزهون عن مثل ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فنمط تجاوب المشايخ مع الحكام ليس واحدًا، فبعض المشايخ يذهب مذهب العزلة وعدم المخالطة واجتناب الشفاعات عند الحكام، نفورًا من الدخول في دائرة أهل الظلم، - ولا يخلو حاكم بعد الخلافة الراشدة عن ظلم يقع فيه- ولبعض آخر من المشايخ مشهد مختلف، وهم المشايخ الجلاليون خاصة المأذون لهم بالتصرف في الحكام، فأولئك لهم السطوة الكاملة علىٰ الحاكم، وقد يتوجهون إلىٰ الله في عزله أو حبسه أو مرضه إن خالف أمرهم ورد شفاعتهم، ومن أشهرهم سيدي الولي الكامل السلطان الحنفي الشاذلي، وسيدي إبراهيم الجعبري، إلا أن هذه السطوة مشروطة بوجود الإذن الخاص، وليس كما يظن بعض القاصرين من إمكانيتها لكل من بلغ الغاية في الولاية والعلم.

وهذان النمطان ليسا غريبين، ولكنهما كذلك ليسا وحيدين بحيث ينتفي النمط الثالث، وهو مخالطة الحكام والأمراء بالتودد والإعظام، لأجل ما يعود علىٰ الرعية من مصلحة وراء ذلك، كقبول الشفاعة في المظلومين، وتخفيف وطأة الحاكم عليهم، فيخالط أهلُ هذا النمط الحاكمَ، ويجيبون عنه، ويأكلون من طعامهم، ويقلبون هداياهم وأعطياتهم، وفيهم من يستخلص الله له الحلال الصرف من مال الأمير كما يستخلص اللبن من بين الفرث والدم، فلا يقع في إثم الأكل من مال الأمراء الغير الحلال، أو يكون من أصحاب

العلامات الذين يكشف الله لهم حل المال من عدمه طعامًا كان أو أعطية. ومنهم من لا يستخلص الله له الحلال، وليس من أصحاب العلامات، إلا أنه يأكل ويقبل الهدايا والأعطيات، ليميل إليه قلب الأمير فيقبل شفاعته وتوسطه للناس. لكن مع ذلك فإنه يتحمل عن الأمير أو الحاكم آثار بعض مظالمه ديانة وفتوةً، ويؤخذ من حسناته ليوضع في ميزان الأمير. بل إن دواوين الحكام والأمراء لا تخلو من وليّ يتظاهر بوظيفةٍ رسميةٍ ليرفع بعض البلاء عن المتهمين لدىٰ الحاكم، كما كان حال سيدي داود بن ماخلا.

وهناك نمط أخير وهم الذين يشاهدون في الأمراء مظهر الكبرياء الإلهي، فأولئك يكون تعظيمهم للحاكم من هذا المشهد، أي لظهوره علىٰ العباد بتجلي صفة الكبرياء، فهو يعظمه من باب تعظيم المظهر. وكان علىٰ هذا القدم سيدي علي الخواص ﷺ كان يقبل أيدي الأمراء من هذا المشهد.

وليس الاختيار بين نمط من هذه الأنماط متروكًا للنفس وما ترجحه بعقلها، وإنما مبناه علىٰ الذوق الصوفي والإذن. ومن هنا فإن المقلد لنمط من هذه الأنماط من غير ذوق أو إذن تنزلق قدمه وينحدر، سواء قلد نمط السطوة، أو نمط التودد، فلا بد من السلوك والتحقق بالمشهد ذوقًا لا تفعلًا.

مساق علاقة الروحي والزمني بين ذوق الشعراني واستقراء رينيه جينو (عبد الواحد يحيىٰ):

من خلال استقراء أجوبة الإمام الشعراني نرىٰ أن مراحل علاقة الأمير بالشيخ –والمراد به هنا الشيخ الولي- تبدأ أولًا بطلب الأمير من الشيخ أن يتوجه بهمته لينال هذا الأمير ولاية أو منصبًا كبيرًا، مع وعد بالإصلاح والشفاعة في المظلومين والرجوع للمشايخ الأولياء فيما يعن له، أي إنه إقرار من السلطة الزمنية بخضوعها للسلطة الروحية خضوعًا مطلقًا، فإذا ما حصلت للأمير الإمارة التي رغب فيها بتوجه الشيخ غالبًا ما يدير ظهره له، ويتمرد علىٰ الخضوع له، فلا ينفذ له أمرًا، ولا يقبل له شفاعة. واستقراء عبد الواحد يحيىٰ موافق لهذا، فـ«هذا الصراع يقع دائمًا بنفس الطريقة، وذلك أننا نرىٰ المحاربين وهم

أصحاب السلطة الزمنية يثورون ضد السلطة الروحية بعد أن كانوا خاضعين لكلمتها، لكنهم ينقلبون عليها ويعلنون استقلالهم عن أي سلطة عليا، بل يسعون إلىٰ أن تكون هذه السلطة تابعة لهم تأتمر بأمرهم، وأن تكون أداة لخدمة سلطتهم، مع أنهم استمدوا سلطتهم منها في بادئ الأمر. وهذا وحده كافٍ لبيان أن مثل هذه الثورة لا بد أن تنطوي علىٰ انقلاب في العلاقات الطبيعية»(١)

صور من الحياة الاجتماعية:

يعطي الكتاب صورًا متنوعة عن الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، كحفلات الختان وحضور المهرجين (خلبوص المغاني) فيها. وككون طبخ الملوخية إشارة للفرح، فكان الناس يمتنعون عن طبخها إن أصاب جارهم مصاب، ويستعيبون من يطبخها في وقت مصاب جاره.

كما يعطينا صورة عن كيفية خروج الحج وترتيب القافلة، بدءًا من تعيين أمير الحاج، وبحث ذلك الأمير عن شيخ يخرج معه تبركًا به ليتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في حماية قافلة الحج من هجوم قطاع الطريق، وتقطير الإبل أي جعلهم في شكل قطار، وأن السفر يكون علىٰ الهودج، أو علىٰ المحفة التي تحمل بين جملين، وكان لا يقدر عليها إلا كبار القوم من الأغنياء والأمراء وكانت دليلًا علىٰ الترف. ويخبرنا أيضًا عن الملاقاة، وهي التمويل الذي يأتي من قلعة الأزلم أو العقبة لبعض أعضاء القافلة تتكون غالبًا من دقيق وبقسماط. وفي أثناء السفر هناك محطات تنزل فيها قافلة الحج لأكل الطعام، وكذلك يعقد الأمير خيام مطابخ، ويرسل منها ما يسمَّىٰ عند المصريين «طَبْلِيَّة» لمن يفضلهم الأمير من أهل القافلة. وأما عند الرجوع للبلد، فأول دخول الحجيج إلىٰ البلد يتفرق تقطير الجمال في عشوائية ملاحَظة، ويأتي المعارف إلىٰ الحاج مهنئين بالحج مع حملهم له بعض العطايا والهدايا، وكذلك الحاج يتحف كل من زاره بهدية.

وأما عن الاصطياف قديمًا، فقد كانت الخلجان المنتشرة في القاهرة مصطاف أهلها، وكانت البيوت التي علىٰ النيل والخلجان تؤجر في الموسم لراغبي الاستجمام والتمتع بنظر

---

(١) رينيه جينو، «الهيئة الروحية والسلطة الزمنية» منشورات رواق البحوث العمية والتحقيق بالأزهر، ص ٣٥.

الخلجان والنيل والمراكب فيها، وكان مالكو هذه المنازل يرفعون أجرتها أيام الموسم.

كما نجد في الكتاب بعض الأمثال التي كانت جارية في هذا العصر كقولهم «العداوة في الأهل، والحسد في الجيران»، «ما عند أهل الجنة خير من أهل النار».

وإلىٰ هنا نمسك عنان القلم عن الجولان في هذه الحدائق الغناء التي لا ينضب معينها، وإلا فما زالت الفوائد والفرائد لم نعرضها بعد، كمتىٰ يصح إنكار الفقهاء علىٰ الصوفية؟ وكيف يكون ذلك الإنكار؟ وهل تكسف شمس معرفة العارف؟ وما أثر ذلك؟ وهل درجة الكمال واحدة لجميع الرجال؟ أم أن الكمال أمر نسبي؟ وكجوابه عن بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة وابن تيمية والزمخشري والبقاعي، وحديثه عن الأولياء الذين يمدون علماء الأمصار بالعلوم، وما سر نجاح شفاء المريض علىٰ يد طبيب دون آخر؟ ولم كان التجديد للدين كل مئة عام؟ وبم يتحقق التجديد؟ وهل كان كبار الأولياء كالجيلاني والجنيد وأضرابهما مجتهدين مطلقين؟ وما هي العهود التي دست عليه في «البحر المورود»؟ وغير ذلك الكثير والكثير.

ولا يفوتني في الختام أن أتوجه بالشكر إلىٰ فضيلة الدكتور محمد سعد الذي عمل علىٰ تخريج الأحاديث وترجمة الأعلام الواردة في الكتاب.

أسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يحققنا بمقصود هذا الكتاب

من حسن الظن وطهارة القلب والجسم

ببركة مؤلفه العارف العظيم.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم

محمود مرسي حسن

شبرا مصر – القاهرة المحروسة

عصر الخميس ١٤/ جمادىٰ الأولىٰ/ ١٤٤٤هـ

الموافق ٨/ ١٢/ ٢٠٢٢م

منهج التحقيق

١- نسخ النص وتصحيحه.

٢- مقابلة الأصلين.

٣- استكمال السقط إذا لم يوجد في الأصلين من مصادر الإمام كـ«الفتوحات المكية» أو من كتبه الأخرىٰ. وكذلك الحال عند وجود خطأ في الأصلين.

٤- تخريج الأحاديث الشريفة تخريجًا مختصرًا في أول موضع يرد فيه الحديث.

٥- الترجمة للأعلام.

٦- ترقيم الأجوبة.

٧- تفسير الكلمات الغامضة.

٨- وضع عناوين للفقرات داخل الأجوبة.

٩- التصحيح اللغوي لبعض الكلمات إلا ما غلب علىٰ الظن أنها محكية عن العوام فتركناها كما هي.

١٠- الإحالة في علىٰ رقم الأجوبة التي يشير إليها الإمام عند سوقه لأجوبة أخرىٰ.





تحقيق اسم الكتاب

ورد هذا الكتاب باسم «المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد» على صفحة عنوان المخطوطين. وفي خاتمة الكتاب أسماه الإمام: «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد».

وقد ذكر المليجي في رسالته: «السر الرباني» عدة كتب تدور في فلك العنوان والموضوع نفسه:

١- «طهارة أجسام الموحدين من سوء الظن بأحد من المسلمين».

٢- وكتاب «المنهج المطهر للقلب والفؤاد من سوء الظن بأحدٍ من العباد».

٣- وكتاب «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالسعداء من العباد».

٤- كتاب «الأجوبة عن الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين».

٥- «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالى وبالعباد».

٦- وكتاب «مختصر طهارة الجسم والفؤاد»، وهو على النصف منه.

٧- وكتاب «طهارة لسان المؤمن وفؤاده من سوء الظن بالله تعالى وبعباده».

٨- وكتاب «طهارة الجسم والجنان من سوء الظن بالله والملائكة والجان».

والغالب أنها كتب مختلفة في نفس الموضوع إلا أن الإمام كتبها على مستويات مختلفة.

وقد اخترنا لعنوان الكتاب الجمع بين ما ثبت على صفحة عنوان المخطوطين وبين ما ذكره الإمام في خاتمة الكتاب، خاصة أن أحد المخطوطين كُتِبَ لحفيد الإمام الشعراني الشيخ الشيخ شرف الدين يحيى الشعراني.

وصف المخطوطات

١- نسخة شهيد علي باشا. ورقمها بالمكتبة ١٤٩٠، وتقع في ٣٧٥ لوحة. كتبت في سنة ١٠٣٣ هجرية لحفيد المؤلف وشيخ السجادة الشعرانية في وقته الشيخ شرف الدين يحيىٰ بن عبد الرحمن بن سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ. وناسخها أحمد خادم الأبواب الشعرانية، هكذا دون اسمه. وجاء العنوان علىٰ الصفحة السابقة علىٰ صفحة العنوان: طهارة الجسم والفؤاد في المواعظ والنصائح. ثم جاء اسم الكتاب علىٰ صفحة الغلاف: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد، كما في النسخة الأخرىٰ. وقد كتبت بخط نسخي واضح وجميل كالنسخة الأخرىٰ. ومسطرة هذه النسخة ٣٥ سطرًا. ورمزنا لها بالرمز «أ».

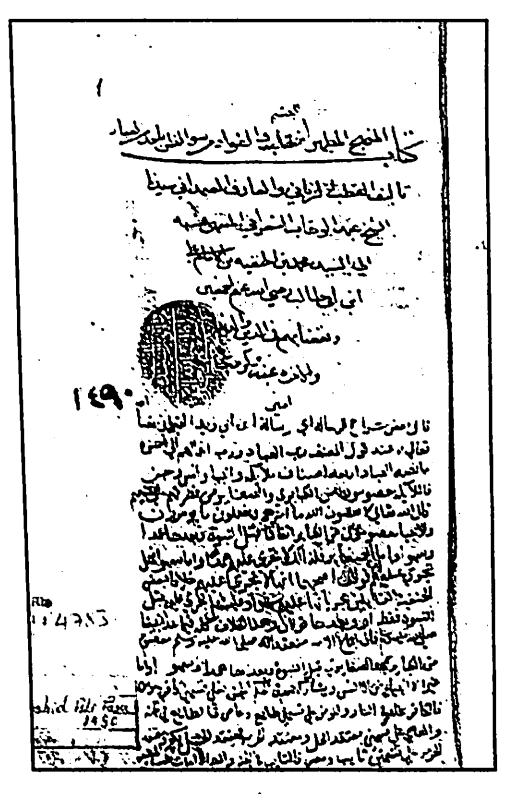
٢- نسخة مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، وأصلها بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، ورقمها ١٦٢/ ٢١٧. وجاء العنوان عليها: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد. وقد سبقت صفحة الغلاف إضافة فهرس كامل للكتاب في صورة جدول. وهي نسخة ثمينة جدًا مذهبة الحواف. وتقع في ٣٢٩ لوحة. وناسخها الشيخ محمد النجاحي سنة ١١١١ هجرية. ومسطرتها ٣٥ كالنسخة الأخرىٰ. ورمزنا لها بالرمز «ب».

ومن الواضح أن بين النسختين نسبًا، وأنهما مأخوذتان عن أصل واحد، إذ يتوافقان أحيانًا في السقط، كما توافقا في الخطأ في عد الأبواب كما أشرنا إليه في المقدمة.

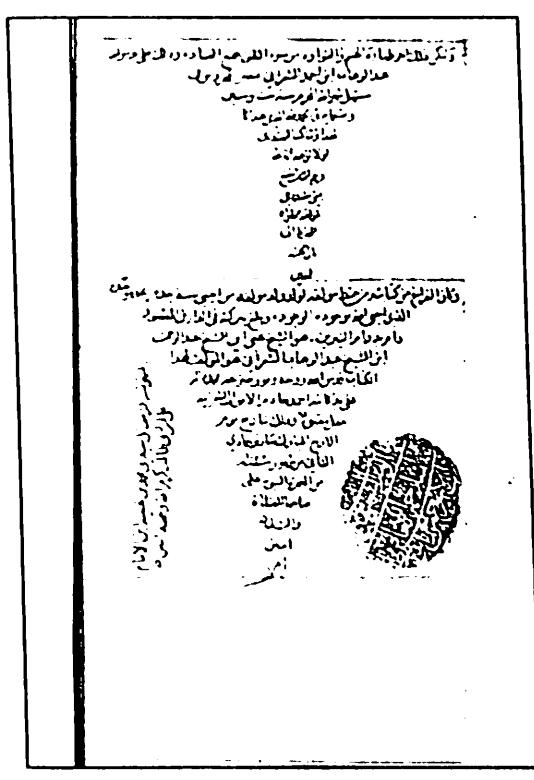


صور المخطوطات

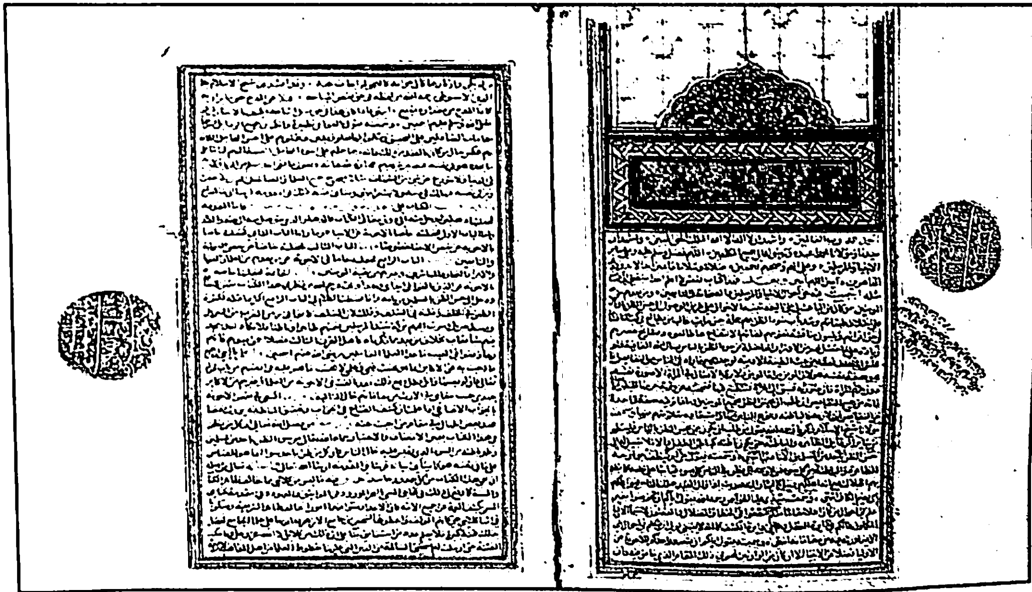
النسخة (أ)



صفحة العنوان

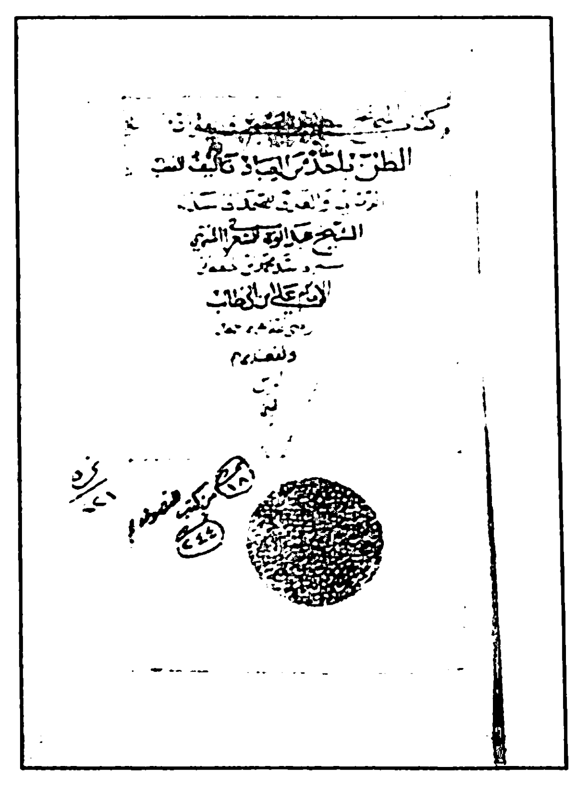


الصفحة الأخيرة



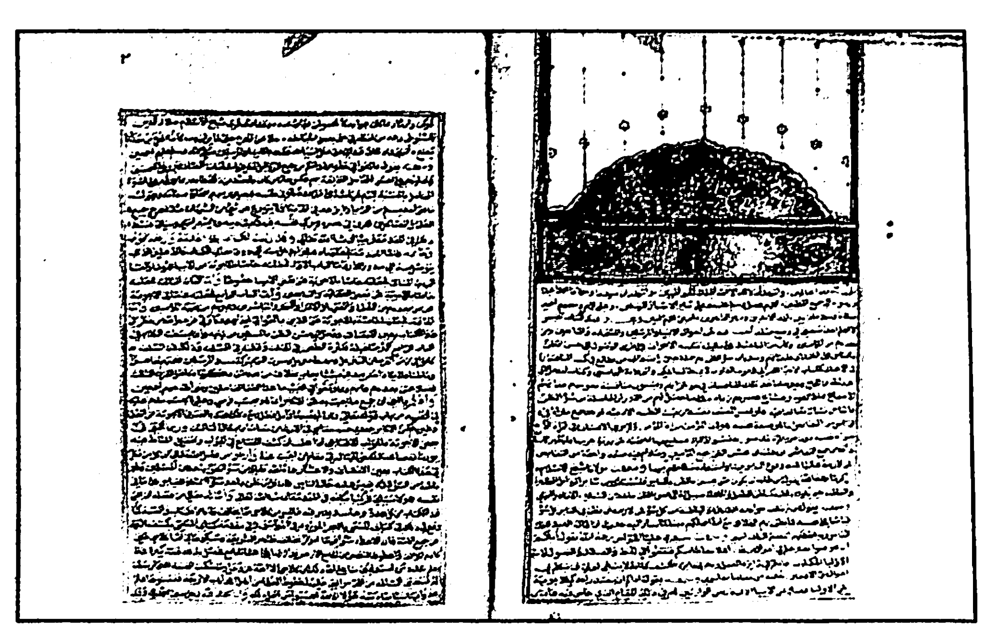
الصفحة الأولى

النسخة (ب)



صفحة العنوان

الصفحة الأخيرة



الصفحة الأولى

صورة من فهرست النسخة (ب)

صورة أخرىٰ من فهرست (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله إلىٰ جميع المكلفين، اللهم فصلِّ وسلم عليه وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آلهم وصحبهم أجمعين، صلاةً وسلامًا دائمين، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، آمين اللهم آمين.

وبعد:

فهذا كتاب نفيس، لا أعلم أحدًا سبقني إلىٰ وضع مثله، أجبت فيه عن أحوال الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المؤمنين. وكان من الباعث لي علىٰ تأليفه تنبيهُ الإخوان علىٰ طريق الوصول إلىٰ حسن الظن بالناس علىٰ اختلاف طبقاتهم، وسدُّ باب سوء الظن بهم جملةً، حين رأيتُ غالب من يطالع في كتب المناقشات في الأعمال ككتاب «الإحياء» للغزالي[1]، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكي[2]، و«الرعاية» للمحاسبي[3]، وكتاب «المدخل» لأبي عبد الله بن الحاج[4] وغيرها، يأخذ

(١) محمد بن محمد بن محمد الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الطوسي الشافعي ولد سنة ٤٥٠ هـ بطوس، له مصنفات منها: «إحياء علوم الدين»، «الوسيط»، «تهافت الفلاسفة»، «الاقتصاد في الاعتقاد». توفي: ٥٠٥هـ. طبقات الشافعية (٦/ ١٩١)، الأعلام (٧/ ٢٢).

(٢) أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي ثم المكّي. نشأ بمكة، وتزهد، وسلك، ولقي الصوفية، وصنّف، ووعظ، وكان صاحب رياضة ومجاهدة، من مؤلفاته: «قوت القلوب»، «علم القلوب»، وغيرهما، توفي ببغداد سنة: ٣٨٦هـ. شذرات الذهب (٤/ ٤٦٠) ووفيات الأعيان (٤/ ٣٠٣).

(٣) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالمًا بالأصول والمعاملات، واعظًا مُبكيًا، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. له مصنفات منها: «آداب النفوس» «الرعاية لحقوق الله عزوجل» «رسالة المسترشدين» وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره توفي: ٢٤٣هـ. الأعلام (٢/ ١٥٣)، معجم المؤلفين (٣/ ١٧٤).

(٤) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي، المعروف بابن الحاج، كان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك سمع بالمغرب من بعض شيوخه. وقدم القاهرة وسمع بها الحديث وحدث بها، وهو مشهور بالزهد والخير والصلاح، من مصنفاته: «المدخل»، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٧ هـ. شجرة النور الزكية (١/ ٣١٣) والديباج المذهب (٢/ ٣٢١).

تلك المناقشات في حقِّ أقرانهم، وينسون مناقشة نفوسهم، ففاتهم الانتفاع بمن ضعفوه وبمشايخ عصرهم، زيادةً على ما حصل لهم من الأوزار الحاصلة من سوء الظن بالناس. نسأل الله العافية.

فلو فتَّش المنصِف نفسه من حيثُ الطينةُ الآدميةُ لوجد جميع ما رآه في الناس من النقائص إنما هو صفة نفسه هو، لأن المؤمن مرآة المؤمن، ولا يرىٰ الإنسان في المرآة إلا صورة نفسه دون جرم المرآة، فإن صورته تسبق إلىٰ المرآة فتنطبع فيها، فتحجبه عن رؤية جرمها، فليطهر الإنسان ذاته من جميع النقائص إن طلب أن يحسن الظن بجميع المؤمنين، وما دام فيه صفة واحدة من النقائص، فمِن لازمه غالبًا ظنه وقوع الناس فيها واستبعاده سلامتهم منها.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا[1] رحمه الله يقول: من طلب أن يكون ممن يحسن الظن بالناس، فليتطهر من سائر الرذائل الظاهرة والباطنة حتىٰ يكون باطنه كباطن الطفل الصغير، وإلا فلا سبيل له إلىٰ حسن الظن بأحد من المسلمين إلا نادرًا. انتهىٰ.

وسمعته يقول: من لم ينظف جوارحه الظاهرة والباطنة من كل سوء، فمِن لازمه أن يظن في الناس كلَّ سوء قياسًا علىٰ نفسه، كما يظن بهم الهلاك، مع أنه أهلكُهم دينًا، كما أشار إليه حديث «إذا قال العبد: هلك الناس؛ فهو أهلكُهم»[2] أي بضم الكاف. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص[3] رحمه الله يقول: إياكم أن تخوضوا بغير علم في أحوال من

---

(١) شيخ الإسلام أبو يحيىٰ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري المصري الشافعيّ، قاض مفسر، من حفاظ الحديث، ولد (٨٢٣هـ) وتعلم في القاهرة وكُف بصره سنة ٩٠٦ هـ نشأ فقيرًا معدمًا، له مصنفات منها: «فتح الرحمن» في التفسير و«شرح إيساغوجي» في المنطق و«أسنىٰ المطالب في شرح روض الطالب» في الفقه الشافعي و«شرح شذور الذهب» في النحو. توفي: ٩٢٦هـ ودفن قريبًا من الإمام الشافعي. الأعلام (٣/ ٤٦) والكواكب السائرة (١/ ١٩٨) هدية العارفين (١/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٣)، وأبو داود (٤٩٨٣) وأحمد (٧٦٨٥) بلفظ: إذا قال الرجل.

(٣) سيدي علي الخواص البرلسي، أحد العارفين بالله، وأستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعراني الذي أكثر اعتماده في مؤلفاته علىٰ كلامه وطريقه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك كان يتكلم علىٰ الكتاب،

كان أعلىٰ مقامًا منكم، فتقعوا في الخطأ والضلال والفضول، لاسيما الأولياء المكمَّلون، فإنكم في دائرة العقل وهم في دائرة الكشف، كما أنه لا ينبغي لولي أن يتكلم في أحوال نبي إلا فيما ورثه فيه من مقاماته. انتهىٰ.

وسمعته يقول: إياكم أن يتصدر أحدُكم للأجوبة عن الأولياء فضلًا عن الأنبياء إلا إن كان من الوارثين لهم في ذلك المقام الذي خاض فيه، فإن من لم يكن وارثًا ربما كان جوابه كالهجو لمن أجاب عنه.

وقد أنشدني شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي[1] رحمه الله من لفظه في حق بعض أشياخه:

علا عن المدح حتىٰ ما يزان به كأنما المدح في مقداره يصنع

انتهىٰ.

فإذا كان هذا في حق مثل أشياخه، فكيف بالأنبياء والمرسلين صلىٰ الله عليهم أجمعين؟!

وسمعته يقول: بالغوا في تطهير ذواتكم من جميع الرذائل، لتعرفوا مقامات الصادقين علىٰ التحقيق، [وتتكلموا فيها بعلم ويقين][2] وتحملوهم علىٰ أحسن المحامل اللائقة بهم، عكس حال من كان بالضد من ذلك، فإنه ربما حملهم علىٰ أسوأ المحامل بالنسبة إليهم، قياسًا علىٰ ما يجده هو في نفسه، فيصير يرميهم بحجارة صفاته ويقول: ما بقي أحد يسلم من الرياء، ولا يزهد في الدنيا، ولا يتورع عن شيء من الشبهات مثلًا، فيخرِج جميعَ العلماء والصالحين الذين في عصره، ويزكي نفسه، فيهلك في دينه ولا يشعر. انتهىٰ.

والسنة، وأحوال القوم ومقاماتهم بكلام نفيس عال، كان يذعن لكلامه جماعة من علماء مصر الشيخ شهاب الدين ابن السبكي، والشيخ شهاب الدين الرملي وغيرهما، ت سنة ٩٩٣ هـ. الكواكب السائرة (٢/ ٢١٩).

(١) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، ولد مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ. ونشأ في القاهرة يتيمًا، وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالًا وغريبًا ومتنًا وسندًا واستنباطًا للأحكام منه، وأخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها «الإتقان في علوم القرآن»، «تدريب الراوي»، «جمع الجوامع» وغيرها. ت ٩١١ هـ. شذرات الذهب (١٠/ ٧٤)، الأعلام (٣/ ٣٠١).

(٢) ساقط من «ب».

وسيأتي بسط ذلك في المقدمة قريبًا إن شاء الله تعالىٰ.

وقد رتَّبتُ الكتاب علىٰ مقدمة وأربعة أبواب[1] وخاتمة.

فأما المقدمة، فجعلتُها دهليزًا يُدخَل منه إلىٰ ذوق معاني الكتاب، كالدهليز الذي يُتوصَّل منه إلىٰ صدر الدار.

وأما الباب الأول، فجعلتُه خاصًا بالأجوبة عن الأنبياء عمومًا.

وأما الباب الثاني، فجعلتُه خاصًا بالأجوبة عن بعض الأنبياء خصوصًا.

وأما الباب الثالث، فجعلتُه خاصًا بالأجوبة عن بعض الصحابة والتابعين.

وأما الباب الرابع، فجعلتُه عامًا في الأجوبة عمن بعدهم من العلماء والفقهاء والأمراء والتجار والمباشرين وغيرهم من بقية المؤمنين[2].

وأما الخاتمة، فجعلتُها خاصةً بالأجوبة عن الذين بالغوا في إيذائي وعداوتي.

فرحم الله من نظر في هذا الكتاب بعين الإنصاف، ودخل إلىٰ حسن الظن بالمسلمين من بابه.

وإنما بَسطت الكلامَ في الباب الرابع أكثر مما قبله، لكثرة الطعن في الخلف، وقِلته في السلف، وذلك لأن السلف كانوا في زمن القرب من التنزيل، ومهبط جبريل، وسرت إليهم بركةُ سيِّد المرسلين، فعمَّتْهم ظاهرًا وباطنًا، فلا يكاد أحد يجد فيهم شيئًا يُعاب، بخلاف من بعدهم ممن ذكرناه، كأهل القرن الثالث، فضلًا عمن بعدهم، فإنهم ربما وقعوا في العيب، ماعدا العلماء العاملين رضي الله عنهم أجمعين.

واعلم يا أخي أن جميع ما أجبتُ به عن الأكابر إنما هو بحسب فهمي وعلمي، لا

---

(١) لم يلتزم الإمام بتقسيم الكتاب علىٰ أربعة أبواب، بل بلغ عددها (١٣) بابًا، غير أنه أسقط منها في العد الخامس والسادس، فبلغت جملة الأبواب فعليًّا أحد عشر بابًا. مع العلم أن الأجوبة من بداية الباب الرابع في نوع واحد وهو الجواب عن عموم الناس.

(٢) وزاد الإمام علىٰ ذلك بأن أجاب عن بعض غير المسلمين من النصارىٰ واليهود، كما سيطالع القارئ الكريم في الجواب رقم (١٣٠٧).

بحسب ما هم عليه في أنفسهم، من باب قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ومع ذلك فقد بالغتُ في الأجوبة عن العلماء وغيرهم من الأكابر جَهْدي حسب مقامي في الإرث من مقاماتهم حالَ التأليف.

وربما أكتفي في بعض الأجوبة بالجواب الإقناعي[1] إذا علمت أن كشف القناع في الجواب وتحقيق المناط فيه يورث نقصًا عند بعض الجهال في مقام من أجبت عنه!

وأرجو من فضل الله تعالىٰ أن كل من نظر في هذا الكتاب بعين الإنصاف والاعتبار حماه الله تعالىٰ من سوء الظن بأحد من المسلمين، وطهَّر باطنه من السوء الذي يقيس عليه حالَ الناس، فإن كل من ظن بأحد سوءًا إنما هو للقياس علىٰ ما في نفسه هو، كما سيأتي قريبًا بيانه في المقدمة إن شاء الله تعالىٰ.

وأسأله تعالىٰ من فضله أن يحمي هذا الكتاب من كل عدو وحاسد يدس فيه ما ليس من كلامي مما يخالف ظاهر الكتاب والسنة، كما وقع لي ذلك في كتابي المسمَّىٰ بـ«البحر المورود في المواثيق والعهود» وفي مقدمة كتابي المسمَّىٰ بـ«كشف الغمة عن جمع الأمة» فإن الأعداء دسُّوا فيهما أمورًا تخالف ظاهر الشريعة، وسكبوها في أثناء كلامي حتىٰ كأنهم المؤلِّف، وأعطوها لشخص من الجامع الأزهر، فدار بها علىٰ علماء الجامع، فحصل بذلك فتنة كبيرة، فلا يعلم عددَ من استغابني بناءً علىٰ أن ذلك من كلامي إلا اللهُ عزَّ وجلَّ. وما سكتت الفتنةُ حتىٰ أرسلتُ لهم نسختي السالمةَ من الدس التي عليها خطوطُ العلماءِ من أهل المذاهب الأربعة، ففتشوها فلم يجدوا فيها شيئًا مما دسه هؤلاء الأعداءُ، فسبُّوا من فعل ذلك.

وأنا بحمد الله رجلٌ سنيٌّ محمديٌّ، وقد قرأتُ كتب الشريعة وآلاتها من فقه وحديث وتفسير، ونحو وأصول، ومعاني وبيان وعقائد علىٰ أئمة الشريعة قبل أن أؤلف الكتب، فلا يكاد يخفىٰ عليَّ شيءٌ مما دسوه أنه مخالفٌ لأهل السنة والجماعة، فكيف أضعه في مؤلَّفي؟!

---

(١) أي الذي لا يحتاج إلىٰ تحقيق البراهين والأدلة، بل يُكتفىٰ فيه بالقدر الذي يقنع السامع؛ ولهذا سمي إقناعي.

وقد أخبرني الشيخ الصالحُ العلامةُ الشيخُ شهابُ الدين ابن الشِّلْبي الحنفيّ[1] أنهم دسوا علىٰ الإمام مصطفىٰ القرماني[2] في شرحه لمقدمة أبي الليث السمرقنديّ[3] قولهم عند قول المؤلِّف: (ولا يستقبل الشمس والقمر): أي لأن الخليل عليه الصلاة والسلام كان يعبدهما؛ فأفتىٰ علماء مصر بكفره وقتله، فخرج هاربًا في الليل، فلم يرجع إلىٰ مصر. انتهىٰ.

واعلم يا أخي أني من تلك الواقعة ما ألفتُ كتابًا ولا نصيحة إلا وتعرضتُ في ذلك لذكر ما دسه الأعداء في كتبي، لأزيلَ ما بقي في نفوس بعض المتهورين من إضافة تلك الأمور المدسوسة إليّ، مع أنهم لم يجالسوني ولا خالطوني ولا فاوضوني في علم ولا سمعوه مني، ولا بلغهم ذلك علىٰ لسان من يوثق به.

فأسأل الله تعالىٰ أن يسامح الداسَّ والمصدِّق في ذلك، وجميعَ من استغابني بقصد التشفي للنفس، أو بقصد نصرة الشريعة. آمين اللهم آمين.

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن غالب مؤلفاتي لا يكاد أحد يعرف موادها، ولا محل استنباطها من الكتاب والسنة وكلام الأئمة، فهو فتح من الله تعالىٰ بحسب الوارد في ذلك الوقت. وإن قدر أني ذكرتُ فيها كلامًا لغيري، فإنما ذلك علىٰ وجه الاستشهاد لصحة كلامي، فإني لا أحبُّ أن أنفردَ بقول في العلم لا يوافقني الإخوان عليه وإن كان حقًّا في نفس الأمر. ومن شك في قولي هذا فلينظر إلىٰ كتبي التي ألفتُها في الأخلاق والآداب

---

(١) شهاب الدين المصري الحنفي، المعروف بابن الشِّلْبي، كان عالمًا كريم النفس، كثير الصدقة علىٰ الفقراء والمساكين، وله اعتقاد في الصالحين والمجاذيب، ذا حياء وعلم وعفو. ت ٩٤٧هـ وكانت جنازته حافلة بالأمراء والعلماء والتجار وغيرهم، ودفن في حارة باب النصر. الكواكب السائرة (٢/ ١١٦) شذرات الذهب (١٠/ ٣٨٢).

(٢) مصطفىٰ بن زكريا بن أيدغمش القرماني، مصلح الدين من فقهاء الحنفية، من أهل القاهرة، له تصانيف، منها: «التوضيح في شرح مقدمة الصلاة» لأبي الليث السمرقندي ورسالة في «حكم اللعب بالنرد والشطرنج» ت ٨٠٩هـ. الأعلام (٧/ ٢٣٤)، الضوء اللامع (١٠/ ١٦٠)

(٣) أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي الإمام الفقيه المحدث الزاهد، الملقب بإمام الهدىٰ، من مؤلفاته: «تفسير القرآن»، «بستان العارفين»، «تنبيه الغافلين»، ت ٣٧٣هـ. السير (١٦/ ٣٢٢)، الأعلام (٨/ ٢٧).

ككتابي المسمَّىٰ بـ«العهود المحمدية» أو المسمَّىٰ بـ«البحر المورود» أو المسمىٰ بـ«الميزان الخضرية في عقائد أكابر الصوفية» أو «الميزان الخضرية المدخلة لجميع أقوال أئمة المذاهب ومقلديهم في الشريعة المحمدية» وغيرها من كتبي، **فإن فائدة تأليف الكتب إنما هو ذكر ما يفتح الله به علىٰ قلوب المؤلِّفين مما لم يذكره أحد قبله. وأما ذكر مقالات الناس وجمعها فغايته أنه سواد في بياض.**

وقد بلغنا أن الشيخ أبا مدين[1]، والشيخ أبا الحسن الشاذلي[2]، والشيخ أبا العباس المرسي[3] وأتباعهم لم يضعوا شيئًا من الكتب، وقالوا: كتب الإنسان إنما هي قلوب أصحابه. وكانوا يقولون لأصحابهم إذا نقلوا لهم كلامًا لغيرهم ممن مضىٰ: **لا تطعمونا القديد، أي لا تنقلوا إلينا إلا ما فتح الله تعالىٰ به علىٰ قلوبكم من الأسرار في هذا الزمان، لنستفيده منكم**، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ولنشرع بعون الملك الوهاب في مقدمة الكتاب، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي الزاهد شيخ أهل المغرب، سكن تلمسان، وكان كبير الصوفية والعارفين في عصره، من أهل العمل والاجتهاد منقطع القرين في العبادة والنسك، كان آخر كلامه الله الحي ثم فاضت نفسه، ت ٥٩٠هـ وقد قارب الثمانين، وقبره بها مشهور. الوافي بالوفيات (١٦/ ٩٥) شذرات الذهب (٦/ ٤٩٥).

(٢) أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة «حزب الشاذلي» ولد في بلاد «غمارة» بريف المغرب، تفقه وتصوف بتونس، وسكن «شاذلة» قرب تونس، ورحل إلىٰ بلاد المشرق فحجّ ودخل بالعراق، ثم سكن الإسكندرية. ت ٦٥٦هـ بصحراء عيذاب في طريقه إلىٰ الحج. الوافي بالوفيات (٢١/ ١٤١)، الأعلام (٤/ ٣٠٥).

(٣) أبو العباس المرسي أحمد بن عمر الأنصاري العارف الشهير، قطب زمانه ورأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وعلامة أوانه في العلوم الإسلامية، وله القدم الراسخ في علم التحقيق، وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه، ت ٦٨٦هـ بالإسكندرية. حسن المحاضرة (١/ ٥٢٣) ذيل مرآة الزمان (٤/ ٣١٨).

مُقَدِّمَة

في ذكر أمور هي كالدهليز للتخلق بحسن الظن بجميع عباد الله المؤمنين وللتخلق بعدم المبادرة إلى الإنكار

[كيفية التخلق بحسن الظن]

اعلم يا أخي أنه لا يصح لعبد من أمثالنا التخلُّق بحسن الظن بعباد الله تعالىٰ إلا بأحد شيئين: إما بالجذبات الإلهية، وإما بالسلوك علىٰ يد شيخ صادق، بحيث يُملِّكُه قيادَ نفسه ويحكِّمُه فيها، حتىٰ يطهِّرَه من سائر الرعونات النفسانية، والرذائل البشرية، ولا يبقىٰ في باطنه قيامُ غلٍّ ولا حقد ولا مكر ولا حسد ولا خداع مذموم، ولا شيء يكرهه الله تعالىٰ جملةً واحدةً، حتىٰ لو أن جميع ما في سريرته برز للناس لفرح به واستبشر، ولم يخجل ولم يتكدر، فإنه حينئذٍ لا يصير يظنُّ في الناس إلا خيرًا قياسًا علىٰ حاله هو، حتىٰ لو أراد أن يسيء الظن بأحد من الخلق لما اهتدىٰ إلىٰ ذلك.

وما دام في باطنِ العبد أو ظاهرِه خصلةٌ واحدةٌ مذمومةٌ، فمِن لازمه سوءُ الظن بالناس في تلك الخصلة، ولعلَّ جميعَ أعمال العبد الخالصة لا يرضىٰ بها يوم القيامة واحدٌ من أخصامه الذين أساء بهم الظن ولو مرة واحدة، لاسيما إن كان المظنون به السوء من اللئام الذين لا يغفرون زلَّة ولا يسترون عورة. فإذا كان هذا في سوء الظن بواحد من الناس فقط، فكيف بمن أساء الظن بخلائق لا تُحصَىٰ؟! فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم.

واعلم يا أخي أن كلَّ من فتح علىٰ نفسه بابَ سوء الظن بالناس، كثُرت أخصامه يوم القيامة، وربما فنيت حسناته التي يُوفىٰ منها الخصوم، ثم وضعوا عليه من سيئاتهم، وقُذِف به في النار كما ورد[١].

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا

ومن المعلوم أن أعمالَ أمثالِنا لا يكادُ يتحصَّل لنا منه شيء يصل إلىٰ الدار الآخرة، لكثرة ما يدخلها من الآفات المحبِطة لها، فيا طول تعب أحدنا! ويا خسارتنا في يوم تطيش فيه الموازين بالذرة الواحدة!

فالعاقل من عمل علىٰ سد باب سوء الظن بالخلق جملة واحدة، ليبقىٰ له بعض حسنات تستره بين الناس في الدار الآخرة. ولا يتهاون في العمل علىٰ سدِّ هذا الباب إلا كلُّ من ليس عنده كمالُ إيمان بيوم الحساب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من فتح علىٰ نفسه بابَ سوء الظن بالناس، هتك الحقُّ تعالىٰ سريرته، وفضحه بها في الدنيا والآخرة. انتهىٰ. فبابٌ يحصل عليك يا أخي من فتحه ما ذكرنا، يجب علىٰ كل عاقل غلقُه بإجماع كل عاقل.

[أكل الحلال من الأمور المعينة على حسن الظن]

ثم من الأمور المعينة لك يا أخي علىٰ حسن الظن بالله تعالىٰ وبعباده أكلُ الحلال، فقد أجمعوا علىٰ أن كل من أكلَ الحرامَ أظلمَ قلبُه ولو كان من أكابر الأولياء. وإذا أظلم علىٰ العبد قلبُه، وقع في المعاصي، وصار لا يفرِّق بين طريق الحق والباطل. وربما اغتر بعد ذلك بكثرة حلم الله تعالىٰ عليه، وعدم معاجلته بالعقوبة مع إسباغ النعم عليه، حتىٰ غرق في الخطايا وصار يقول: ما ثَمَّ أحد من الأمة الآن يسلم من أكل الحرام، ولا من الوقوع في المعاصي؛ قياسًا علىٰ حاله هو، حتىٰ لو أراد أن يحسِنَ ظنه بأحد من الأولياء، فضلًا عن غيرهم، لما قدر علىٰ ذلك، بل يزِن الناسَ كلَّهم بميزان عقله الجائر، ونظره القاصر، وجلَّ مقامُ الأولياء والأكابر من العلماء عمَّا ظنَّه هذا الجاهلُ فيهم، بل سمعتُ بعضَهم يقول: إن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر؛ فلذلك أفردتُ للأنبياء بابًا كما مرت الإشارةُ إليه في الخُطبة، وأجبتُ عنهم فيه بحسب مقامي في الإرث لهم حالَ

من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» والترمذي (٢٤١٨).

كتابتي للجواب عنهم. فمن وجد عن الأنبياء أو أكابر الأولياء والعلماء جوابًا أحسن من جوابي، فليلحقه بذلك الموضع من هذا الكتاب[١] رجاءَ الأجر والثواب، وقيامًا بواجب حقِّ الأنبياء والأولياء والصالحين.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: سمعت سيدي إبراهيم المتبولي[٢] يقول: قد أجمع القومُ كلُّهم على أن جميع أعمال العبد وأقواله وعقائده وخواطره لا تكون إلا على صورة اللقمة حِلًّا وشبهةً، نورًا وظلمة، فمن أكل الحلال الخالص كانت أعمالُه كلُّها خالصةً سالمةً من جميع الآفات التي تحبطها أو تنقص أجرها. ومن أكل الحرام والشبهة كانت أفعالُه وأقوالُه وعقائدُه وخواطرُه كلُّها كذلك مذمومةً من كبائر وصغائر ومكروهات، وخلاف الأولى، على حسب المادة التي تقوَّى بها العبدُ على ذلك الفعل، فلو أراد الذي يأكل حلالًا خالصًا أن يعصي ربه لما وجد عنده داعية لذلك، ولو أراد من يأكل الحرام أو الشبهة أن يطيع ربه طاعةً خالصةً لما وجد عنده كذلك داعية للفعل. قال: ومن شك في قولي هذا، فليمتحن نفسه عند أكله الحلالَ والحرامَ والشبهاتِ، فهناك يعرف صدق قولي يقينًا. انتهى.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر رحمه الله[٣] يقول: الأعمالُ الصالحةُ الصرفُ تنشأ من أكل الحلال الصرف، والأعمالُ الحرامُ الصرفُ تنشأ من أكل الحرام الصرف، والأعمالُ التي

(١) أي في هامش الكتاب لا في المتن نفسه، كما أفاده غير واحد.

(٢) برهان الدين إبراهيم بن علي بن عمر الأنصاري المتبولي ثم القاهري الأحمدي، قدم من بلده متبول من الغربية إلى طنطا فأقام بضريحها مدة ثم تحول إلى القاهرة ونزل بظاهر الحسينية فكان يدير بها مزرعة ويباشر بنفسه العمل فيها من عزق وتحويل وغير ذلك من مصالحها، وكانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد. ت ٨٧٧هـ. الضوء اللامع (١/ ٨٥)، الأعلام (١/ ٥٢).

(٣) شمس الدين أبو عبد الله المنير البلبيسي الأصل الخانكي، أحد أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي، كان يحفظ كتاب الروضة للنووي على ظهر قلب، ومكث في بدايته ثلاثين سنة، يقرأ في النهار ختمة، وفي الليل ختمة كل يوم وليلة، وكان يحج كل سنة، ويرد إلى مصر، ويقيم بها شهرًا، ثم يزور بيت المقدس، توفي ٩٣١هـ. الكواكب السائرة (١/ ٩٥) الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١١٤).

دخلَها التخليطُ تنشأ من أكل الشبهات، فلا يكاد يسلم لمن يأكل الشبهاتِ عملٌ صالحٌ أبدًا، بل أعماله كلها مخلوطة بالرياء والنفاق والكبر والإعجاب، وحب الصيت والشهرة بالصلاح، ونحو ذلك على قدْر ما في تلك اللقمة من الحلال والحرام، والحكم في ذلك للأغلب حِلًّا وحرمة، فإن كان الحرام غالبًا كان الرياء والنفاق ونحوهما غالبًا، شاء العبد أم أبىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول مرارًا: الجسد يتلون بلون القلب، والقلب يتلون بحسب اللقمة، ومن قال غير ذلك فليس عنده تحقيق.

وسمعتُ سيدي محمد بن عنان رحمه الله[1] يقول: الأعمال تابعة لنور القلب أو ظلمته الناشئين من نور تلك الطُّعْمة أو ظلمتها من حيثُ الحِلُّ والحرمةُ، فصاحب النور لا يفعل إلا صالحًا، ولا يظن بالناس إلا خيرًا، وصاحب الظلمة بالعكس. انتهىٰ.

فكل يا أخي حلالًا إن طلبتَ أن تكون حسنَ الظنِّ بعباد الله، واسأل الله تعالىٰ أن يفتحَ عين بصيرتك للتورع في اللقمة وغيرها لينوِّرَ قلبك، وبالغ في التورع جَهْدَك، كما كان عليه سلفك الطاهر، فقد بلغنا أن أحدهم كان لا يأكل لأحد طعامًا إلا إن علم تداول عشرة أيدي عليه في الحِلِّ قبل صاحب ذلك الطعام.

وبلغنا أن أحدهم كان لا يأكل لمن يُعتقَد فيه الصلاحُ طعامًا، لأن هذا إنما سمح له بطعامه لأجل صلاحه، وهو لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون صالحًا في باطن الأمر كما ظنَّه صاحبُ الطعام، فهذا قد أكل بصلاحه طعامًا؛ وإما أن يكون علىٰ خلاف ما ظنَّه صاحبُ الطعام فيه، فهذا قد أكل حرامًا بالنصب والحيل والتلبيس.

وبلغنا أن أحدهم كان له أرض ورثها من آبائه، وكانت من إقطاع النبي ﷺ لجده الأعلىٰ، وكان يحرث فيها ويزرع ويأكل منها، فاشتغل يومًا عن ملاحظة بقرته التي يرعاها فيها، فخرجت إلىٰ طين جاره، ورجعت وفي قوائمها طين من طين جاره، فتكدر لذلك وصار يبكي

(١) محمد بن عنان رضي الله عنه، كان رضي الله عنه من الزهاد العباد، وكان علىٰ قدم في العبادة، والصيام، وقيام الليل من حين البلوغ، وكان يضرب به المثل في قيام الليل، وفي العفة، والصيانة، ولما بلغ خبره إلىٰ الشيخ كمال الدين إمام جامع الكاملية سافر إلىٰ بلاد الشرقية بقصد رؤيته فقط. توفي ٩٢٢هـ. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ١٠٣).

إلىٰ أن مات ويقول: كيف آكل من هذه الأرض بعد أن اختلط فيها شيء من طين جاري؟!

وبلغ من ورع السلف أن أحدهم استعار من أمّه رداء ليخرج به [إلىٰ] السوق. فحضرت الصلاةُ، فصلَّىٰ فيه فأعاد تلك الصلاة، وقال: كيف يقبل الله صلاتي وعليَّ رداءٌ لم أستأذن صاحبتَه أن أصلي فيه؟!

وبلغني من ورعهم أن أحدهم كان يصطاد السمك من الدِّجْلة ويأكل منه، فنفض جندي يومًا سفرته في الدجلة، فأكل السمك من ذلك اللباب، فما أكل للدِّجلة سمكًا حتىٰ مات. كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «تنبيه المغترين».

وكان طريقُ وصولي إلىٰ حسن الظن بالمسلمين حتىٰ ألفت هذا الكتاب شدةَ تحرزي من أكل الحرام والشبهات، حتىٰ إنني صرتُ لا آكل طعام قاضٍ ولا مباشر ولا تاجر يبيع علىٰ الظلمة وأعوانهم، ولا طعام فقير ليس له حرفة يأكل منها، لأنه ربما أكل بدينه وصار ما عنده من الطعام إنما هو مما يرسله الناس إليه لأجل دينه وصلاحه. وكذلك كنتُ لا آكل طعامَ الأعراس الواسعة، ولا طعام النذور، ولا طعام تمام الشهر والجمع للأموات، ولا من طعام أحد يمسك الميزان من قباني[1] وغيره إلا إن وثقت بدينه وورعه.

وبالغتُ في التورع حتىٰ كنتُ لا أمرُّ تحت ظل عمارة أحد من الولاة وأعوانهم. ولما عمل السلطان الغوري[2] الساباط[3] الذي علىٰ مدرسته وقبته الزرقاء[4]، تكدَّرتُ غاية

---

(١) القباني: من يقوم بوزن الكميات الكبيرة من السلع.

(٢) السلطان الملك الأشرف أبو النّصر قانصوه بن عبد الله الجركسي، المشهور بالغوري وسمّاه ابن طولون جندب، وجعل قانصوه لقبا له. والغوري نسبة إلىٰ طبقة الغور أحد الطبقات التي كانت بمصر معدة لتعليم المؤدبين. كان يذكر أن مولده في حدود (٨٥٠هـ). ومهد طريق الحجّ بحيث كان يسافر فيه النّفر اليسير، وكانت فيه خصال حسنة، وكان يصرف لمطبخ الجامع الأزهر في رمضان ستمئة وسبعين دينارًا، ومائة قنطار عسل، وخمسمئة إردب قمح للخبز المفرق فيه. ت٩٢٢هـ. انظر: شذرات الذهب (١٠/ ١٥٩)، الأعلام (٣/ ٢٣٣).

(٣) وهي المظلة الخشبية المعلقة بين جامع السلطان الغوري ومدرسته بقيت حتىٰ سنة ١٨٨٢م، ثم أعيد بناؤها.

(٤) كانت القبة مكسوة بقاشاني أزرق، إلا أنها لم تلبث كثيرًا حتىٰ ظهر بها خلل جسيم سنة (٩١٧هـ) فأمر السلطان الغوري بهدمها وإعادة بنائها وكسوتها، ولم يمض عامان علىٰ إعادة البناء حتىٰ عاد إليها الخلل سنة

التكدير، وكنتُ إذا أردتُ حاجةً في ناحية باب زويلة[١]، أدخل من سوق الوراقين وأخرج من الباب الذي وراء ذلك الساباط.

فاعلم ذلك يا أخي، واسْعَ في تنظيف طعامك من الشبهات، ولا تتهور في ذلك، فإنك تصير من أحباب الله، وربما أراحك الحقُّ تعالىٰ من تعب التفتيش في الورع إذا صدقتَ معه تعالىٰ في ذلك، واستخلَص لك الحلالَ من بين فرث الحرام ودم الشبهة بحوله وقدرته، كما يستخلِص لعباده اللبن من بين فرث ودم، فإن من لم يستخلِص الحقُّ تعالىٰ له الحلالَ كما ذكرنا، فيا طول تعبه وأكله من الحرام والشبهات! ويا كثرة وقوعه في سوء الظن بالعباد!

[دقيقة في التورع الجارِّ لسوء الظن]

ثم إن هنا[٢] دقيقة ينبغي التفطن لها، وهو أن في ضمن التورع بالعلامات المتوهَمة سوءَ الظنِّ بصاحب ذلك الطعام مثلًا، فإن المتورِّع لو أحسن به الظن ما تورع عن أكل طعامه. وهذا هو ورع غالب الناس ليوم القيامة، فما ربح هذا المتورع بتركه الأكل لذلك الطعام ربما خسره بسوء ظنه بصاحبه، وربما رجح إثم سوء الظن المذكور علىٰ ثواب ذلك التورع، فلا خلاص للعبد إلا باستخلاص الحق تعالىٰ له الحلال [لا][٣] غير ذلك[٤].

(٩١٩هـ) فأمر بهدمها مرة أخرىٰ وإعادة بنائها وكسوتها، ثم هدمت القبة وأبدلت بقبة خشبية سنة ١٨٨١م، ثم هدمت وحل محلها السقف الخشبي الحالي.

(١) أحد أبواب مصر القديمة، وهو معروف مشهور بالقاهرة، ويقع في ناحية سوق الغورية.

(٢) بالأصلين: هذه.

(٣) زيادة من عندنا اقتضاها السياق.

(٤) ورد في «لطائف المنن» لسيدي ابن عطاء الله السكندري: «وأخبرني الشيخ العارف ياقوت: قال: عزم عليَّ إنسان فقدَّم لي طعامًا، فرأيتُ عليه ظلمة كالمكب، فقلتُ في نفسي: هذا حرام، فامتنعتُ من أكله، ثم دخلتُ علىٰ الشيخ أبي العباس ﷺ، فقال أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يُقدَّم له طعام فيرىٰ عليه

فاعمل يا أخي على رضا الله عزَّ وجلَّ يُعْطِك معرفة الحلال والحرام بالرؤية أو بالذوق أو الشم، ويُغْنِك عن جميع العلامات المتوهَمة، كما عليه أهلُ الله عزَّ وجلَّ. فيجد أحدُهم الحلالَ طيبَ الرائحة، والحرامَ مُنْتِنًا كالجيفة، فيأكل أو يترك، فالعاقل من تنبه لهذه الدقيقة إن أراد السلامةَ من الإثم في تورعه.

[فائدة أخرى لأكل الحلال]

وسمعتُ سيدي محمد بن داود رحمه الله[1] يقول: من فوائد أكل الحلال إجابةُ دعاء العبد لنفسه ولإخوانه في الشدائد. وإن من يأكل الحرام لا يستحقُ إجابةَ الحقِّ تعالى دعاءَه. وقد روى الطبراني عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يجعلني مجاب الدعوة. فقال: يا سعد أطب مطعمك تكن مجاب الدعوة»[2]. انتهى.

فيجب على كل من صار ملجأً للناس في قضاء حوائجهم عند الله تعالى، أو عند أحد من الخلق أن يحتمي عن أكل الحرام والشبهات، ليجيبَ الحقُّ تعالى دعاءَه للناس في إزالة كربهم، ويفوز بحسن ظنه الخير في جميع الناس كما جُرِّب.

وليحذر من خوف عاقبة حسن الظن بكل الناس عملًا بظاهر حديث: «احترسوا من

ظلمة، فيقول: هذا حرام، يا مسكين ما يساوي ورعك سوء ظنك في أخيك المسلم، هلا قلت هذا طعام لم يردني الله به» [الأعمال الكاملة، ابن عطاء الله (ص ٤٥٧)، دار الإحسان].

(١) محمد بن داود النسيمي المنزلاوي، الشيخ الصالح أحد المتمسكين بالسنة المحمدية في أقوالهم وأفعالهم. ألف رسالة سماها «طريقة الفقر المحمدي» ضبط فيها أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله التي ظهرت لأمته، وكان يقول: ليس لنا شيخ إلا رسول الله ﷺ وكان يضرب به المثل بمصر، وبسيدي محمد بن عنان، والشيخ يوسف الحديدي في اتباع السنة. توفي:٩٠١هـ ببلدة النسيمية، ودفن بجوار زاويته وقبره بها ظاهر يزار رحمه الله. الكواكب السائرة (١/ ٤٦) و شذرات الذهب (١٠/ ١٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٩٥).

الناس بسوء الظن»[1]، وبحديث: «من الحزم سوء الظن»[2] فإنه ليس مراد الشارع بذلك الحث علىٰ إساءتنا الظن بالناس؛ لأن ذلك شرع لم يأذن به الله تعالىٰ، وإنما المراد: عاملوا الناس وأنتم علىٰ حذر منهم، كمعاملة من يسيء بهم الظن، مع عدم سوء الظن بهم.

فاعلم ذلك يا أخي، واعمل عليه تجنِ ثمرته، فإن الله تعالىٰ لا يعاتب عبدًا في الآخرة علىٰ حسن ظنه بعباده أبدًا، وإنما يعاتبه علىٰ إساءته الظن بهم[3]. وفي الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي خيرًا»[4]، فانظر يا أخي كيف أمرنا الحق تعالىٰ بأن يكون ظننا به الخير دون الشر، ليقتدي به عباده في ظنهم الخير ببعضهم بعضًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إياكم وسوء الظن بالله تعالىٰ أو بأحد من عباده، فتجنوا ثمرةَ ذلك من وقوع عذاب الله تعالىٰ بكم في الآخرة. وسمعتُه يقول: من ظنَّ بالله تعالىٰ عند موته أنه لا يعذبه في قبره، ولا يشدد عليه الحساب، ولا يخسِر له الميزان، ويثبت قدميه علىٰ الصراط حتىٰ يجاوزه إلىٰ الجنة، فعل له ذلك. ومن ظنَّ به الضدَّ من ذلك فربما فعل معه ذلك. انتهىٰ.

فرحم الله من أتىٰ إلىٰ حسن الظن بالله وبعباده من بابه الذي ذكرناه، عملًا بقوله تعالىٰ

---

(١) أخرجه مرفوعًا الطبراني في «الأوسط» (٥٩٨)، وابن أبي الدنيا في «مدارة الناس» (١١٣)، ورواه من قول مطرف بن الشخير أحمد في «الزهد» (١٣٥٤)، والبيهقي في «السنن» (٢٠٤١٦)، وذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص٦٥ من عدة طرق وقال: وكلها ضعيفة، وبعضها يتقوىٰ ببعض. قلت: وظاهره يوهم التعارض مع قوله تعالىٰ وقد أجاب العجلوني في «كشف الخفا» (١/ ٥٥) بقوله: يجاب بحمل الحديث «احترسوا» ونحوه علىٰ أهل التهمة ونحوهم، والآية ونحوها علىٰ خلافهم.

(٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في «مدارة الناس» مرفوعًا (١١٤)، وأخرجه موقوفًا علىٰ عمر ﵁ ابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ٨٠١).

(٣) وكان بشر الحافي يقول: «صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، وصحبة الأخيار تورث حسن الظن بالأشرار، وإن الله عز وجل لا يسأل قط عبدًا في الآخرة لم حسنت ظنك بعبادي» [انظر ترجمته في «الطبقات الوسطىٰ» ترجمة رقم (١٤٢)، دار الإحسان].

(٤) أخرجه البخاري بنحوه (٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥).

من طريق الإشارة: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وسلك طريق القوم على يد أشياخ الطريق، حتى ينظفوا باطنه من سائر الرذائل، وسعى في سد باب سوء الظن بالله تعالى وبعباده جملةً، لتسلم له أعماله الصالحة إلى الدار الآخرة، ويحصل له أجرُها لا سيما أعمال أمثالنا، فإن مثلها لو وُضِعَ في كفة، ووُضِعَ سوء الظن في الكفة الأخرى، لربما رجح عليها إثم سوء ذلك الظن، كما سيأتي بسطُه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي[١] إذا أخذ على من يريد [الطريق] العهد بالتوبة يقول له: وعليك يا ولدي بحفظ قلبك ولسانك. واعلم أنه لا يصح لك الإخلاصُ في شيء من أعمالك الصالحة، وأنت متلطخ بشيء يكرهه الله عزَّ وجلَّ في ظاهرك أو باطنك. وما لم تنظف باطنك من سائر المذمومات الشرعية حتى تصير في مقام لا يخطر الميل إلى الفحشاء على خاطرك، كما لا يخطر على قلب الشيخ الفاني الميل إلى الشرب من ثدي أمه، فأعمالك كلها محتفَّة بالآفات المحبطة لها، وربما لم يصل لك من أعمالك الصالحة عندك شيء إلى الدار الآخرة. انتهى، وسيأتي بسط ذلك قريبًا إن شاء الله تعالى.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: كلُّ من أساء الظن بأحد من المسلمين أو غيرهم فكأنه ينادي على نفسه على رؤوس الأشهاد: ألا اشهدوا على أن ذلك هو صفة باطني.

وكان يقول: أكثرُ الناس ظنًّا للسوء أهلُ السوء، وأعرفُهم بالآفات أكثرُهم آفات، إلا أن يكون أحدُهم من مشايخ الطريق، فإن مشايخ الطريق إنما يعرفون آفاتِ المريدين من طريق الإلهام غالبًا، لا من صفات أنفسهم، لتطهرهم من الآفات بالمجاهدات. انتهى. فعُلم أن غالبَ من ينصح إخوانَه من المريدين، لا ينصحُهم إلا بما ذاقه في نفسه من الآفات.

---

(١) نور الدين علي بن خليل المرصفي الشافعي العالم الصالح المربي، كان ملازمًا للذكر والعبادة والتواضع والخير، ومن الأئمة الراسخين في العلم، له المؤلفات النافعة في الطريق، واختصر رسالة القشيري ﷺ، وتكلم على مشكلاتها، ت سنة نيف وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقنطرة الأمير حسين بمصر، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ. الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١١١)، الأعلام (٤/ ٢٨٦).

وكان محمد بن عبد الله التميمي رحمه الله[1] يقول: لا يعيب أحدٌ علىٰ الناس إلا بفضل ما عنده من العيب، إلا أن يكون نبيًّا يُوحىٰ إليه، أو وليًّا مُلْهَمًا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم أن تحملوا شيخكم إذا بيَّن لكم عيوبكم علىٰ أنه ما اهتدىٰ لذلك إلا بذوقه لها في نفسه قبل ذلك، فإنه سوء أدب لا يليق بالمريدين، إنما الواجب علىٰ المريد أن يعتقد في شيخه الكمال والتطهير من سائر الأدناس، وأن جميع ما ينصحه به من الأمور إنما يعرفها من طريق الإلهام لمكان صدق المريد.

وكان الإمام النووي رحمه الله[2] يقول: يجب علىٰ طالب العلم أن لا يبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من إخوانه إلا بعد حمله علىٰ سبعين محمَلًا من الخير. فإن لم يقبل باطنُه من تلك المحامل محملًا، وطلب السلامة من الإنكار، فليرجع علىٰ نفسه باللوم وليقل لها: يحتمِل فعلُ أخيك أو قولُه سبعين محملًا ولا تحملينه علىٰ واحد منها! أنت إذًا والله أسوأ حالًا من أخيك! ونحو ذلك في مقدمات «شرح المهذب».

وقد أنشد بعضهم في ذلك:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم
وعادىٰ محبيه بقول عداته ... وأصبح في بحر من الشك مظلم

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إن أردت يا أخي أن تسلم من سوء ظنك بالناس، وتسلم لك أعمالك الصالحة من الآفات، فاسلك طريق القوم علىٰ يد شيخ صادق، ليخرجَك بالتدريج من ظلمات المعاصي إلىٰ نور الطاعات، حتىٰ لا يصير في باطنك شيء من الأدناس، وهناك تصير تحسن الظن بالناس ضرورةً، قياسًا علىٰ حالك

---

(١) محمد بن عبد الله التميمي، أبو مخلد البصري. ذكره البخاري في «تاريخه» وذكره ابن حبان في «الثقات» روىٰ عن ثابت البناني وأيوب السختياني وعلي بن يزيد بن جدعان ويزيد الرقاشي. «تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٨٦).

(٢) أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي الإمام الحافظ المؤرّخ الفقيه، ولد سنة ٦٣١هـ ونشأ نشأة صالحة، حفظ القرآن صغيرًا، وكان كثير العبادة والذكر والصيام، من مصنفاته: «روضة الطالبين»، «المجموع»، «الأذكار» وغيرها، ت ٦٧٦هـ. شذرات الذهب (١/ ٥٥)، الأعلام (٨/ ١٤٩).

من طريق الإشارة: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وسلك طريق القوم على يد أشياخ الطريق، حتى ينظفوا باطنه من سائر الرذائل، وسعى في سد باب سوء الظن بالله تعالى وبعباده جملةً، لتسلم له أعماله الصالحة إلى الدار الآخرة، ويحصل له أجرُها لا سيما أعمال أمثالنا، فإن مثلها لو وُضِعَ في كفة، ووُضِعَ سوء الظن في الكفة الأخرى، لربما رجح عليها إثم سوء ذلك الظن، كما سيأتي بسطُه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي[1] إذا أخذ على من يريد [الطريق] العهد بالتوبة يقول له: وعليك يا ولدي بحفظ قلبك ولسانك. واعلم أنه لا يصح لك الإخلاصُ في شيء من أعمالك الصالحة، وأنت متلطخ بشيء يكرهه الله عزَّ وجلَّ في ظاهرك أو باطنك. وما لم تنظف باطنك من سائر المذمومات الشرعية حتى تصير في مقام لا يخطر الميل إلى الفحشاء على خاطرك، كما لا يخطر على قلب الشيخ الفاني الميل إلى الشرب من ثدي أمه، فأعمالك كلها محتفَّة بالآفات المحبطة لها، وربما لم يصل لك من أعمالك الصالحة عندك شيء إلى الدار الآخرة. انتهى، وسيأتي بسط ذلك قريبًا إن شاء الله تعالى.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: كلُّ من أساء الظن بأحد من المسلمين أو غيرهم فكأنه ينادي على نفسه على رؤوس الأشهاد: ألا اشهدوا على أن ذلك هو صفة باطني.

وكان يقول: أكثرُ الناس ظنًّا للسوء أهلُ السوء، وأعرفُهم بالآفات أكثرُهم آفات، إلا أن يكون أحدُهم من مشايخ الطريق، فإن مشايخ الطريق إنما يعرفون آفاتِ المريدين من طريق الإلهام غالبًا، لا من صفات أنفسهم، لتطهرهم من الآفات بالمجاهدات. انتهى. فعُلم أن غالبَ من ينصح إخوانَه من المريدين، لا ينصحُهم إلا بما ذاقه في نفسه من الآفات.

---

(١) نور الدين علي بن خليل المرصفي الشافعي العالم الصالح المربي، كان ملازمًا للذكر والعبادة والتواضع والخير، ومن الأئمة الراسخين في العلم، له المؤلفات النافعة في الطريق، واختصر رسالة القشيري ﷺ، وتكلم على مشكلاتها، ت سنة نيف وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقنطرة الأمير حسين بمصر، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ. الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١١١)، الأعلام (٤/ ٢٨٦).

وكان محمد بن عبد الله التميمي رحمه الله[1] يقول: لا يعيب أحدٌ على الناس إلا بفضل ما عنده من العيب، إلا أن يكون نبيًّا يُوحىٰ إليه، أو وليًّا مُلْهَمًا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رضي الله عنه يقول: إياكم أن تحملوا شيخكم إذا بيَّن لكم عيوبكم علىٰ أنه ما اهتدىٰ لذلك إلا بذوقه لها في نفسه قبل ذلك، فإنه سوء أدب لا يليق بالمريدين، إنما الواجب علىٰ المريد أن يعتقد في شيخه الكمال والتطهير من سائر الأدناس، وأن جميع ما ينصحه به من الأمور إنما يعرفها من طريق الإلهام لمكان صدق المريد.

وكان الإمام النووي رحمه الله[2] يقول: يجب علىٰ طالب العلم أن لا يبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من إخوانه إلا بعد حمله علىٰ سبعين محمَلًا من الخير. فإن لم يقبل باطنُه من تلك المحامل محملًا، وطلب السلامة من الإنكار، فليرجع علىٰ نفسه باللوم وليقل لها: يحتمِل فعلُ أخيك أو قولُه سبعين محملًا ولا تحملينه علىٰ واحد منها! أنت إذًا والله أسوأ حالًا من أخيك! ونحو ذلك في مقدمات «شرح المهذب».

وقد أنشد بعضهم في ذلك:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

وعادىٰ محبيه بقول عداته ... وأصبح في بحر من الشك مظلم

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رضي الله عنه يقول: إن أردت يا أخي أن تسلم من سوء ظنك بالناس، وتسلم لك أعمالك الصالحة من الآفات، فاسلك طريق القوم علىٰ يد شيخ صادق، ليخرجَك بالتدريج من ظلمات المعاصي إلىٰ نور الطاعات، حتىٰ لا يصير في باطنك شيء من الأدناس، وهناك تصير تحسن الظن بالناس ضرورةً، قياسًا علىٰ حالك

---

(١) محمد بن عبد الله التميمي، أبو مخلد البصري. ذكره البخاري في «تاريخه» وذكره ابن حبان في «الثقات» روىٰ عن ثابت البناني وأيوب السختياني وعلي بن يزيد بن جدعان ويزيد الرقاشي. «تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٨٦).

(٢) أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي الإمام الحافظ المؤرّخ الفقيه، ولد سنة ٦٣١هـ ونشأ نشأة صالحة، حفظ القرآن صغيرًا، وكان كثير العبادة والذكر والصيام، من مصنفاته: «روضة الطالبين»، «المجموع»، «الأذكار» وغيرها، ت ٦٧٦هـ. شذرات الذهب (١/ ٥٥)، الأعلام (٨/ ١٤٩).

أنت، ولا تكاد تصدق أن أحدًا منهم يقع في معصية فيما بينه وبين الله تعالىٰ. انتهىٰ.

[التحذير من طلب التخلص من الآفات من الكتب دون السلوك على شيخ]

فإياك أن تطلب الوصول إلىٰ مقام حسن الظن بالله تعالىٰ وبعباده بمطالعة شيء من كتب المتصوفة كـ«الإحياء» للإمام الغزالي، و«القوت» لأبي طالب المكي، و«رسالة القشيري» ونحو ذلك من كتب الرقائق، فإننا ما رأينا أحدًا قط بلغ مقامات الرجال بمطالعة كتاب. وأيضًا فإن بينك وبين أصحاب هذه الكتب من الزمان نحو خمسمئة سنة، ومعلوم أن الأمراض التي بنا الآن لم تكن في زمانهم حتىٰ يعلمونا طريق الشفاء منها، وإنما وضعوا ما في كتبهم دواءً لأمراض أهل عصرهم، وأين المقام من المقام؟! بل سمعتُ بعضَهم يقول: إن فسقة ذلك الزمان كانوا أحسن من كثير من المريدين الآن!

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من أراد الدخول إلىٰ مقام حسن الظن بالناس، فلا ينظر في كتاب «المدخل» لأبي عبد الله بن الحاج رحمه الله، فربما سبق فهمُ من ينظر فيه إلىٰ أخذ تلك المناقشات التي فيه في حق غيره وينسىٰ نفسه، فيهلك بسوء ظنه في سائر المسلمين من علماء وصلحاء، ومعتكفين وصائمين، وحاجين ومجاهدين، وطباخين وغيرهم من سائر المسلمين. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول: إياكم أن تبادروا إلىٰ الإنكار علىٰ أحد في فعل يحتمل التأويل، لأن المبادرة لا تجب إلا في المعاصي المحقَّقة كشرب الخمر والغصب. انتهىٰ.

وقد نهيتُ مرةً شخصًا من طلبة العلم عن مطالعة كتاب «المدخل» فحذرتُه من وقوعه في سوء الظن بالعباد والزهاد والعلماء والصالحين وغيرهم، فلم يُصْغِ إلىٰ قولي وطالع فيه، فأورثه ذلك الوسوسةَ في المآكل والمشارب والملابس، وصار لا يأكل شيئًا أو يلبسه إلا بعد أن يغسله سبعًا إحداهن بتراب، أو يغسل فمه منه كذلك، وصار لا يصلي خلف أحد في الصلوات الخمس ولا غيرها، نسأل الله العافية.

وسبب ذلك أنه صار يطالع الكتاب ويجعل تلك المناقشات التي جعلها الشيخ في

كتابه في حق غيره وينسىٰ نفسه، وغاب عنه أن الشيخ ؒ إنما قصد أن كل من طالع فيه يأخذ تلك المناقشات في حق نفسه، ويسعىٰ في إزالة ما عنده من العيوب والنقائص والدسائس علىٰ يد أحد من العلماء العاملين، لا أنه يشتغل بعيوب الناس وينسىٰ عيب نفسه، ويصير يزدري العلماء والصالحين.

وقد نقل الشيخ محيي الدين الكافيجي الحنفي ؒ[1] عن علماء الحنفية: من ازدرىٰ عالـمًا يُخشَىٰ عليه الكفر. وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي ؓ[2] يقول: كل من ازدرىٰ أحدًا من العلماء والصالحين ضُرِبَ بسهم مسموم في قلبه، ولم يمت حتىٰ تفسد عقيدتُه في الله تعالىٰ ورسوله، فلا يصير يرجو من الله تعالىٰ مغفرةً ولا من رسول الله شفاعةً، فيجني ثمرة ذلك في الدنيا والآخرة، بموت القلب في الدنيا، والعذاب في الآخرة. انتهىٰ.

وقد روىٰ الطبراني وغيره أن الصحابي الذي قتل إنسانًا في الجهاد بعد أن قال: لا إله إلا الله، وقال: إنه إنما قالها متعوذًا بها لا إيمانًا، لما مات لم تقبله -أي ذلك القائل- الأرض وأنهم دفنوه ثلاث مرات والأرض تقذفه، فأعلموا بذلك رسول الله ﷺ، فأمر بوضعه في غار وأن يسدُّوا الغار عليه، وقال: «سبحان الله! إن الأرض لتقبل من هو شر من هذا، ولكن أخرجه الله تعالىٰ لكم لتعتبروا»[3] الحديث بمعناه، فانظر يا أخي عقوبة سوء الظن، فإن هذا القائل لو كان أحسن الظن بمن قال له: لا إله إلا الله، لم يُعاقَب بعدم قبول الأرض له، والله تعالىٰ أعلم.

---

(١) أبو عبد الله محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد الكافيجي الحنفي، ولد سنة ٧٨٨هـ، واشتغل بالعلم أول ما بلغ، وكان الشيخ ؒ صحيح العقيدة في الديانات، حسن الاعتقاد في الصوفية، محبًا لأهل الحديث من مصنفاته: «شرح قواعد الإعراب»، «حاشية علىٰ تفسير البيضاوي». توفي ليلة الجمعة رابع جمادىٰ الأولىٰ سنة ٨٧٩هـ. بغية الوعاة (١/ ١١٧)، ديوان الإسلام (٤/ ٦٤).

(٢) الشيخ عبد الله القرشي كان ؓ جليل القدر، وكان يعظم الفقراء أشد التعظيم، ويقول: إنهم انتسبوا إلىٰ الله تعالىٰ، وكان ؓ يقول: ما رأينا أحدًا قط أنكر علىٰ الفقراء، وأساء بهم الظن إلا ومات علىٰ أسوأ حالة. وأخباره كثيرة مشهورة ؓ. انظر: الطبقات الكبرىٰ للشعراني (١/ ١٣٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٦٢) وابن ماجه (٣٩٣٠)، وأحمد (١٩٩٣٧).

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: مثال من يطالع كتاب «المدخل» أو ربع المهلكات من كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي، ويأخذ تلك المناقشات في حق غيره دون نفسه، مثال واعظ وقف على شفير بحر النيل أيام زيادته والجروف تنهدم شيئًا بعد شيء، وجعل ظهره للبحر ووجهه للناس، وصار يقول للناس: إياكم أن تقربوا من الجرف ينهدم بكم، فما درى إلا وقد انهدم به جرفه قبل الناس. انتهى.

وسمعتُ أخي أفضل الدين[1] رحمه الله يقول: من أكل الحرام، كثرت خصومه يوم القيامة. فقلت له: لماذا؟! فقال: لأن قلبه يظلم فيصير مِقْرَاضًا في العلماء والصالحين وأهل الخير والموحدين لا يعجبه حال أحد منهم، حتى يصيروا[2] كلُّهم أخصامه يوم القيامة. وسمعتُه يقول: إذا أكل الحرام مُنِع من دخول حضرة الله، وطُرِد إلى حضرة الشيطان، وصار يمدح الفسقة ويذم الصالحين. انتهى.

وكان أبو تُراب النَخْشَبي[3] رضي الله عنه يقول لأصحابه كثيرًا: إياكم والدخول إلى حضرة الشياطين، فإن من دخلها كره فراقها. وكان يقول: إذا ألف القلب الإعراض عن الله، صحبته الوقيعة في أولياء الله، ورماهم بالبهتان والزور، وآذاهم بغير ما اكتسبوا. انتهى.

وسمعتُ سيدي محمد بن عنان رحمه الله يقول: من أراد أن يكون من أهل حضرة الله عزَّ وجلَّ فليتطهر من سائر الأدناس، وما دام عند العبد خصلة واحدة من الرذائل، فليس هو

---

(١) الشيخ أبو الفضل الأحمدي صاحب الكشوفات الربانية، والاتفاقات السماوية، والمواهب اللدنية، من أكابر أولياء الله، حج رضي الله عنه مرات على التجريد فلما كان آخر حجة كان ضعيفًا قيل له: في هذه الحالة تسافر. فقال: لترابي فإن نطفتي مرغوها في تربة الشهداء ببدر؛ فكان كما قال، فمرض مرضًا شديدًا قبل بدر بيومين ثم توفي، ودفن ببدر كما قال، وذلك في سنة:٩٤٢هـ. وهو من إخوة الشيخ الشعراني في الطريق. انظر: الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١٤٩).

(٢) بالأصلين: يصيرون.

(٣) أبو تراب عسكر بن الحصين النَخْشَبي الإمام القدوة شيخ الطائفة، صحب حاتمًا الأصم حتى مات، ثم خرج إلى الشام، وكتب الحديث الكثير، ونظر في كتب الشافعي، ودخل البصرة وتزوج بها، وصحب شقيقًا البلخي ثم نزل مكة، ت ٢٤٥هـ. السير (١١/ ٥٤٥)، شذرات الذهب (٣/ ٢٠٨).

من أهلها، فإن رؤوس الحضرة الإلهية ثلاثة أصناف: أنبياء، وأولياء، وملائكة، وليس عند أحد من هؤلاء شيء من الأدناس، لاسيما رؤية العبد نفسه فوق أحد من المسلمين، فإنه هو الذنب الذي أُخرِج به إبليسُ من الحضرة الإلهية، ولُعِن وطُرِد.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: ينبغي أن يُقال لمن يقع في أعراض الناس ويسيء الظن بهم: هل أنت يا أخي أحسن حالًا منهم أو مثلهم أو دونهم؟ فإن قال: أنا خير منهم، قلنا له: فإذن أنت وإبليس سواء في ذلك؛ وإن قال: أنا مثلهم، قلنا له: فاعذرهم بما تعذر به نفسك في العوج، وإن قال: أنا دونهم في الدين والتقوىٰ، قلنا له: فاشتغل بنفسك ولا ترم الناس بحجارتك، ولعله يتنبه لنقص حاله، ويكف عن سوء الظن بالناس، قال تعالىٰ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وسمعته رحمه الله يقول: لسوء الظن بالناس مقدمات من الظان والمظنون فيه، فإذا أحس العبدُ بشيء من ذلك، فينبغي له أن يجعلَ موضعَ سوءِ الظنِّ النصيحةَ، والتوبةَ عن الوقوع في تلك المقدمات والقرائن، فإنها أنفع لكلٍّ منهما، بخلاف سوء الظن لا فائدة فيه بوجه من الوجوه، إنما هو محض إثم لا غير. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ما ثَمَّ أكثر خصومًا يوم القيامة ممن يأكل الحرام، ويسيء الظن بالناس، فإن غالب أهل عصره كلَّهم يصيرون أخصامًا له من علماء وصلحاء وزهاد وعبَّاد وأمراء وتجار ومباشرين، حتىٰ لا يكاد أحد من أهل بلده أو غيره من معارفه يسلم منه، فهو من أشقىٰ العالمين. ولو أنه نظر بعين البصيرة في أعماله الصالحة كلها، لوجدها لا ترضي واحدًا من خصمائه يوم القيامة، فضلًا عن خلائق لا يحصون.

قال: وبلغنا أن صاحب سوء الظن بالناس يُمسَك علىٰ الصراط وهو يتنفض بأهله حتىٰ تذوب مفاصلهم، وفي رواية «يحبس في جهنم، ويقال له: اثبت هنا ما ظننتَه من السوء في فلان، فإن لم يثبت ذلك، سقط إلىٰ النار»[1] انتهىٰ. وسمعته أيضًا يقول: ربما

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ وإنما أخرج أبو داود (٤٨٨٣) من حديث أنس الجهني عن النبي ﷺ، قال: «... ومن رمىٰ مسلمًا بشيءٍ يريد شينه به، حبسه الله علىٰ جسر جهنم حتىٰ يخرج مما قال» وأحمد (١٥٦٤٩)

لا [يخلص للعبد الصالح من أعماله الصالحة شيء يرضىٰ به خصم واحد يوم القيامة.
وسمعتُه مرارًا يقول: ربما لا][1] يسلم لأمثالنا شيء من الأعمال حتىٰ يصل إلىٰ الدار الآخرة، بل يضمحل كلُّه ويذهب في هذه الدار، لكثرة الآفات المحتفة بها.

وسمعته مرارًا يقول أيضًا: لا يصل عمل عبد إلىٰ الدار الآخرة إلا بعد زهده في الدنيا وشهواتها. وأما من ملكته شهوات الدنيا، فعمله تابع للدنيا في الفناء، بخلاف من كمل له حب الآخرة وصار من أبنائها، فإن أعماله باقية ببقاء الآخرة التي لا فناء لها. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن من لازمِ محب الدنيا الميلَ إلىٰ أكل الشهوات ولو حرامًا، وحب الرئاسة والجاه، والرياء والنفاق والشحناء، والكبر والحسد والحقد والمكر، والخديعة والسخريةَ بالمؤمنين، ومراعاةَ الخلق بأعمالهم، حتىٰ يُضْعِف مراعاتَه للحقِّ جلَّ وعلا.
ومعلوم أن الأعمال تابعة للنية صلاحًا وفسادًا، كما أنها تابعة لأغراض الدار التي يعمل لأجلها، فمن كانت أعماله لأجل شيء من حظوظ الدنيا، فلا يكاد يصل إلىٰ الآخرة منها بشيء، بل يفنىٰ بفنائها، إلا ما كان عليه من حقوق العباد، فإنها باقية مع صاحبها يوم القيامة، حتىٰ يُقتَصَّ منه لأربابها. وما دام العبد يميل إلىٰ من يمدحه ويكره من يذمه، فهو من أبناء الدنيا، فلا يصل من أعماله الصالحة عنده شيء إلىٰ الآخرة يثاب عليه. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله[2] يقول: علامةُ أبناء الآخرة أن يفرحَ أحدُهم بالبلاء والجذام والبرص والجوع والفقر والأوجاع التي تمنعه من أن يتهنىٰ بأكل أو نوم، فمن فرح بذلك فهو من أبناء الآخرة في الأجر والثواب. قال: وفوق هذا من عمل محبةً في امتثال أمر الله، لا للدنيا ولا للآخرة، كما عليه الأنبياء وكمَّل ورثتهم.

والطبراني في «الكبير» (٤٣٣).

(١) ساقط من «ب».

(٢) عبد القادر بن محمد الدشطوطي الشيخ الصالح المعمر، كان مقبول الشفاعة في الدولتين الجراكسية والعثمانية، وكان متقشفًا يحب سماع القرآن، وكلام الصوفية، وهو من أكابر أرباب الأحوال ت ٩٢٤هـ. الكواكب السائرة (١/ ٢٤٧).

وسمعتُه يقول: من عمل للآخرة، أي لأجل ثوابها خالصًا، كان عمله أضوأ وأنور من عمل محب الدنيا. ومن عمل امتثالًا لأمر الله ومحبةً لمجالسته تعالىٰ في الآخرة، كان عمله أضوأ وأنور ممن عمل لأجل الحور والقصور، والتلذذ بالمآكل والمشارب في الجنة.

فاعمل يا أخي علىٰ أن يكون عملُك خالصًا لوجه الله، لتُحْشَرَ مع الأنبياء والمرسلين وكمَّل العارفين، والله يتولىٰ هداك وهو يتولىٰ الصالحين. وعليك بحسن الظن بعموم المسلمين من فقراء وفقهاء وأمراء، ومباشرين وتجار ودلالين، وسائر المحترفين.

وقد سمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﵀ يقول: لا يكمل الفقير حتىٰ يخلصَ من تبعات الخلائق كلِّها من مال وعِرْض وسوء ظن. ويقبح علىٰ من جعله الله قدوةً في هذه الدار، ومربيًا للمريدين، ومرشدًا للسالكين أن يُوقَف يوم القيامة في موقف يشيب فيه الوليد، ويصير الخلائق يدَّعون عليه بما وقع فيه من أعراضهم وسوء ظنه بهم، ومن كان يعتقده في دار الدنيا واقف ينظر إلىٰ ذلك، فيا فضيحة أمثالنا في ذلك الموقف العظيم الذي يُفتضَح فيه أهل النصب والتلبيس وموافقة إبليس!

وسمعتُه ﵁ يقول: يحتاج من يريد أن يكون حسنَ الظنِّ بالناس غيرَ مبادر إلىٰ الإنكار عليهم إلىٰ أمرين عزيزين:

الأول: أن يعمل علىٰ جلاء باطنه من سائر الرذائل والأدناس.

الثاني: أن يتحقق ذلك المنكر الذي أساء بصاحبه الظن من طريق كشفه. وهيهات أن يصل أحد من أمثالنا إلىٰ ذلك، وغالب الظن الواقع من الناس اليوم ببعضهم بعضًا وهم وتلبيس، وحظ نفس وحسد.

وسمعته ﵁ يقول: لا يجب الإنكار علىٰ أحد إلا بمشاهدة فعله لذلك المنكَر أو ببينة عادلة ليس عندها تعصب ولا حسد، وحينئذٍ له المبادرة إلىٰ الإنكار. وإن احتاط لنفسه، فليتربص وينتحل لصاحب ذلك المنكر بادئ الرأي المحاملَ الحسنة، فإذا لم يصح حمل صاحب ذلك الفعل علىٰ محمل حسن منها بوجه من الوجوه، فحينئذٍ له المبادرة إلىٰ الإنكار.

وسمعتُه يقول: إياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار بناءً علىٰ ما أشاعه بعض الأعداء عن بعضهم بعضًا، سواء كانت العداوة ظاهرة أو بالقرائن، كمعاداة الأقران لمن ارتفع عليهم من أقرانهم، وأقبل عليه الناس بالاعتقاد وقبول الشفاعات والهدايا ونحو ذلك، فإن أقرانه ربما تنفسوا في حقه لشدة ما عندهم من الحسد والبغض، وحملوه علىٰ أسوأ المحامل. ورموه بالكبائر الباطنة حين عجزوا عن إثبات وقوعه في شيء من الكبائر الظاهرة، إذ الغالبُ علىٰ أهل العلمِ والدينِ السلامةُ من الوقوع في مثل ذلك، وما بقي للحسود إلا أن يرمي من يكرهه بمثل الرياء والنفاق وحب الرياسة ونحو ذلك من الأمور الباطنة، ويقول: لعلها تُقبَل في حقِّه، فينقص قدْره عند الناس.

فإياكم أيها الإخوان والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ شخص بالإشاعة، واعملوا علىٰ جلاء بواطنكم من الرذائل، وحلُّوها بالمحاسن، حتىٰ يصير أحدكم لا يحمل الناس إلا علىٰ المحامل الحسنة قياسًا علىٰ حاله هو.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا يقول: ما ثم أعز من الورع في المنطق، فإياكم أن تظنوا في أحد سوءًا بإشاعة الناس في هذا الزمان، ولو سمعتموه من المشهورين بالعلم والصلاح، فإن غالبهم يغلب عليه السذاجة، فيظن أن أحدًا لا يكذب في قوله، وينسىٰ ما يترتب علىٰ ذلك من المفاسد.

وسمعتُه ﷺ يقول: لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار بسوء الظن في الأمور المحتملة للخير وللشر، وإنما تكون المبادرة في مثل ما إذا رأينا شخصًا مكلَّفًا جالسًا عندنا، فقام إلىٰ جرَّة خمر، فشرب منها من غير جهل ولا إكراه ولا ضرورة، أو فيما إذا أخرج صلاةً عن وقتها عامدًا، فمثل ذلك هو الذي ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، ولا يمكن حمله علىٰ محمل حسن، لأن ذلك كالمكابرة في المحسوسات، بخلاف ما إذا بلغنا مثل ذلك علىٰ ألسنة الناس الذين لا يتورَّعُون في المنطق، فإننا نحمله علىٰ المحامل الحسنة جَهْدَنا إلىٰ سبعين محملًا كما مر بيانه، فإن لم يصح حمله علىٰ واحد منها، أنكرنا عليه أدبًا- لا وجوبًا- واحتياطًا، ثم رجعنا علىٰ أنفسنا باللوم حيث لم نحمله علىٰ المحامل الحسنة،

لأن معلومات الله لا تنحصر في علمنا، ولعل له في ذلك عذرًا لم يطلعنا الله تعالىٰ عليه.

فإن وقع أن أحدًا من المجادلين نازعنا في ذلك، وقال بالمبادرة إلىٰ الإنكار بالإشاعة، وأنه يبعد الكذب من الناس في مثل ذلك؛ قلنا له: إن التزمتَ معنا ذلك في حق نفسك، وأن جميع ما يقوله أعداؤك أو المتهورون فيك صحيح، سَلَّمنا لك، فإن قال: هذا لا يصح في حق مثلي، بخلاف غيري؛ قلنا له: هذه دعوىٰ تحتاج إلىٰ دليل، ولعل حجته تندحض بيقين.

وسمعت أخي أفضل الدين ﷺ يقول: عليكم بحسن الظنِّ بإخوانكم المسلمين، وإياكم وسوءَ الظن والعملَ بالقرائن في مثل ذلك، فإن الله تعالىٰ لم يتعبدنا بسوء الظن بأحد من خلقه، وإنما تعبدنا بحسن الظن بخلقه، فلا يسألنا سبحانه لم حسَّنتم ظنَّكم بعبادي؟! إنما يسألنا عن سوء ظننا بهم. انتهىٰ.

وتقدم في هذه المقدمة أن المراد بحديث: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[1]، وبحديث: «من الحزم سوء الظن»[2] أي عاملوا الناس وأنت علىٰ حذر منهم، كمعاملة من تسيئون به الظن مع عدم سوء الظن بهم، وأن الحث علىٰ سوء الظن بالناس لم يأت لنا به الشرع. انتهىٰ.

وقد جاء النهي عن التجسس علىٰ عيوب الناس في الكتاب والسنة، وأجمع العلماء علىٰ تحريم ذلك، وعلىٰ حمل الناس علىٰ المحامل السيئة، وقالوا: كل من رأيتموه يحمل الناس علىٰ المحامل السيئة، فإنما ذلك صورة حاله هو في نفسه، ولو أنه كان طاهر الباطن من سائر الرذائل، لحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة علىٰ صورة حاله هو، إلا أن يكون من أشياخ الطريق، فإنه يحمل علىٰ الاطلاع علىٰ ذلك من طريق الإلهام كما مر بيانه.

ومن شك فيما قلناه من هذا الميزان، فلينظر إلىٰ من خُلِق عنينًا لم يذق حلاوةَ الجماع ومقدماتِه أبدًا، لو أنه رأىٰ شابًّا يكلِّم أجنبية في عطفة ويساررها وهو يلتفت يمينًا وشمالًا كيف لا يظنُّ به سوءًا أبدًا، وإنما يقول: إن تلك المرأة زوجته أو من محارمه مثلًا، بخلاف

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الشاب الذي يتمنىٰ أنه لو قدر علىٰ الزنا لفعل، فإنه ربما يبادر إلىٰ سوء الظن بذلك الرجل، قياسًا علىٰ نفسه هو.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص يقول: أجمع القوم علىٰ أنه لا يصح لأحد مقامُ حسنِ الظنِّ بالناس إلا بعد تطهير باطنه من سائر الرذائل، بحيثُ لو أخرج جميع ما في باطنه للناس في طبق لم يجدوا فيه شيئًا يستحيي منه أو يخجل به.

فإياك يا أخي أن تحمل أحدًا علىٰ محمل سيء ما دُمتَ لم تتنظف من سائر الرذائل، بل الواجب عليك أن تنتحل له الأجوبةَ الحسنةَ ما أمكن، ولو لم تعتقد أنه من أهلها بالقرائن التي ظهرت منه، كما أن الواجب عليك إذا رأيت في أحد نقصًا ولو من طريق الحس فضلًا عن الكشف أن ترجع علىٰ نفسك باللوم والتوبيخ. ثم يجب عليك أن تروض نفسك بالجوع والمجاهدة والرياضة علىٰ يد أحد من أشياخ الطريق، حتىٰ يصير خاطرُ الفحشاء لا يستقر في قلبك، كما عليه أهل الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

فعُلم أن كلامنا هذا إنما هو في الأمور التي قد يُخفىٰ معرفة ميزانها علينا، أما نحو أخذ المكس وشرب الخمر والغيبة في الناس بغير طريق شرعي، والسعاية بهم عند الحكام ونحو ذلك من الذنوب، فلا يجوز لنا حمل من فعلها علىٰ المحامل الحسنة إجماعًا كما مرت الإشارة إليه قريبًا، بخلاف ما يحتمل ويحتمل.

ومن فهم ما قررنا من وجوب تطهير الباطن من سائر الرذائل، عذر القوم في قلة إنكارهم للمنكرات المتوهَمة المبنية علىٰ سوء الظن، فإنهم لشدة نظافة بواطنهم من الرذائل، لم يصر عندهم سوء يحملون الناس علىٰ مثله. وربما قال بعض الفقهاء عنهم: إن أحدهم لا يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر علىٰ وجه نسبتهم إلىٰ قلة الدين، وهو خطأ، فإن كل من تطهر باطنه لا يكاد يرىٰ منكرًا محققًا إلا في النار.

وقد بلغنا عن سيدي أحمد الزاهد ﵀[1] أنه هجر فقيرًا من جماعته حين كسر جرة

---

(١) أحمد بن أبي أحمد بن محمد بن سليمان أبو العباس شهاب الدين المعروف بالزاهد، فقيه متصوف شافعي من أهل القاهرة، كان مولعا بترميم المساجد القديمة، نقموا عليه فتواه برأيه من غير نظر، جيد

خمر على باب الجامع كانت مع غلام جندي، فقيل للشيخ في ذلك، فقال: لم أهجره من حيثُ إزالتُه المنكَر، وإنما ذلك من حيثُ ظنُّه السوءَ بالناس، ورفعُ طرفه بغير حاجة، ولم لا كان غض طرفه؟! فلم ينظر إلا إلى مواقع قدميه، أو كان ظن بتلك الجرة أنها خَلٌّ. انتهى.

وبلغنا عن إبراهيم بن أدهم[1] أن شخصًا صحبه مدة طويلة، فقال: يا إبراهيم، لمَ لمْ تنصحني؟! فقال: إن الفقراء ينظرون إلى إخوانهم بعين الوداد لا بعين الانتقاد، ومن كان كذلك عمي عن نقائص الناس، فسل عن عيوبك غيري. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من علامة من طهَّر الله تعالى باطنه بالرياضة من المريدين أن يصيرَ يبادرُ لحسن الظن بالناس، ولا يحتاج إلى تفكُّرٍ في ذلك عكس من لم يتطهر. انتهى.

ولا يخفى عليك يا أخي أن جميعَ ما في هذا الكتاب من الأجوبة ابنُ وقته كما مرَّت الإشارة إليه في الخُطبة، لأن تأليفي له إنما هو بحسب الوارد، لكن يتجدد في كل يوم، ومثل ذلك يحتاج إلى من يتعقبه ضرورةً، لعدم قدرة المؤلِّف على استحضار جميع شروط كل مسألة، وما يرد على منطوقها ومفهومها حالَ التأليف.

فرحم الله تعالى من تعقب كلامي في هذا الكتاب وغيره بقيد أو شرط أو توجيه أوضح مما قلته، نصيحةً لدين الله ولرسوله وللمؤمنين، فإني والله أغار على دين إخواني المسلمين أن ينقص بسوء ظنهم في بعضهم، أو مقابلتهم بالأذى، وسوء الظن لمن آذاهم أو أساء بهم الظن، فضلًا عن زيادتهم على ذلك بالعداوة والبغضاء والشحناء وتمني السوء ونحو ذلك مما ورد أنه يَخلِق الدين، ويمنع رفع الأعمال إلى السماء وقبولها.

في العلم مع سلامة الباطن والعبادة، من مؤلفاته «رسالة النور»، «هدية المتعلم وعمدة المعلم»، «تحفة المبتدي ولمعة المنتهي» ت ٨١٩هـ. إنباء الغمر (٧/ ٢٢٩)، الأعلام (١/ ٢٢٦).

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور القدوة الإمام العارف سيد الزهاد، أبو إسحاق الخراساني البلخي، نزيل الشام، ولد في حدود ١٠٠هـ، وهو من أولاد الملوك، صحب الثوري والفضيل بن عياض ت ١٦٢هـ. السير (٧/ ٣٨٧) وفوات الوفيات (١/ ١٣)

ثم لا يخفى عليك يا أخي أيضًا أنني إنما وضعتُ هذا الكتاب بالأصالة للأجوبة عن عالم الشهادة من الإنس، وسد باب سوء الظن ببعضهم بعضًا، كما هو الغالب على كل من جمعتهم علة الجنسية من أهل الحرف والصنائع، فيجد الأمير لم يزل مشغولًا بذكر أقرانه من الأمراء تارةً بالتصريح بتنقيصهم، وتارةً بالتعريض، ولا يكاد يجده مشغول القلب بأحد من غير أقرانه إلا نادرًا، وكذلك القول في العالم، والفقير الذي لم يفطم على يد شيخ، وكذلك جميع مشايخ الأسواق ومشايخ الدلالين، وكبراء التجار والمباشرين، ولا يجد أحدهم تعبان القلب إلا من جهة من هو في حرفته.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من شأن البشر وقوعُ الحسد منهم لبعضهم بعضًا إذا ارتفع أحدُهم عليهم، وكذلك كان أولَ ابتلاء ابتلى الله تعالى به عباده أن أرسلَ إليهم رسلًا من جنسهم، امتحانًا لهم، لينظر تعالى وهو العالم بما يقع منهم في المستقبل هل ينقادون لمن أرسله ربهم إليهم من جنسهم أم يعصون أمره، فيحق عليهم الشقاء. وقد طلب بعض الكفار أن الله تعالى يرسل إليهم رسولًا من الملائكة، ووعدوا ربهم أن يطيعوه إذا وقع ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩] أي لما سبق في علمنا من وجود أهل القبضتين اللتين للجنة والنار، أي ولو جعلنا الرسول إليهم ملكًا، لجعلناه في حكم الرجل من حيثُ وقوعُهم في العصيان لأمره بحكم القبضتين، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١] الآية. ونظيرُ ما قررناه قولُ الكفار في النار: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فإنهم ما قالوا ذلك إلا بلسان الحال الذي ذاقوه في النار، فظنُّوا أن ذلك الذوق يبقى معهم إذا رجعوا إلى دار الدنيا، ولذلك ردَّ الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] أي ولو رددناهم إلى الدنيا لم نردهم إلا بحكم القبضتين كما سبق في علمنا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا حسد إلا بين الجنس الواحد، ولذلك

كان لا حسد بين الملك والبشر. انتهىٰ.

فلهذا المعنىٰ أكثرتُ في الكتاب الأجوبةَ عن الأنبياء والصحابة والتابعين، والأكابر من العلماء والعارفين، لأنهم هم الذين ارتفعوا في المقام عن جنسهم وقومهم، ودعوا الناس إلىٰ حضرة الله عزَّ وجلَّ.

كما أني أكثرت الأجوبة عن أفعال القدرة الإلهية في كتاب «الرد علىٰ الملحدين»[1] خوفًا علىٰ بعض إخواني من المسلمين أن يقع في شيء فيه رائحة الاعتراض علىٰ أفعال القدرة الإلهية، وبيانًا لكل شيء أبرزته القدرة كاملًا في ذاته، وهو عين الحكمة لا مخلوق بالحكمة، لئلا تكون الحكمة الإلهية تحت حكم غيرها، فإن الله تعالىٰ عليم خبير، وأحكم الحاكمين، فلا ينبغي لأحد أن يقول: لولا أن الله تعالىٰ فعل كذا، لكان أراحنا من كذا، كما يقع فيه بعض من بعُد عن حضرة الأدب مع الله تعالىٰ، فخفتُ علىٰ بعض إخواني من المقت، وأعلمتُهم أن الواجب علىٰ كل عبد العملُ علىٰ جلاء مراقبة قلبه من جميع الرذائل حتىٰ يقربَ من حضرة الله تعالىٰ، وينظرَ أفعالَه تعالىٰ من خلف حجاب سرِّ القدَر، ويراها كلَّها فعل حكيم عليم، سبق بها العلم الإلهي الذي لا يقبل التبديل ولا التغيير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: يجب علىٰ كل مؤمن أن يجيب عن أنبياء الله تعالىٰ، وعن أوليائه وجميع المسلمين، لاسيما شيخ الإنسان، ونقلة الأخبار من الحفاظ، فإن تجريحهم وتنقيصهم يؤدي إلىٰ الطعن في كل ما جاؤونا به عن الشارع ﷺ من الأحكام وغيرها. انتهىٰ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول لبعض طلبة العلم: أجب عن العلماء والصالحين من أهل عصرك أو غيرهم جَهْدَك، ولا تقل نحن لا نعرف مقاماتهم حتىٰ نجيبَ عنهم، فإن الله تعالىٰ يقبل جُهْدَ المقل. وقد بلغنا عن شخص من بني إسرائيل وصف الحقِّ جل وعلا في تنزيهه له بما لا يليق إلا بالخلق، فنهاه المسيح عليه السلام عن ذلك، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا عيسىٰ دعه فإنه مجدني بقدر وسعه وطاقته. انتهىٰ.

---

(١) لم أقف علىٰ مخطوط له، ولعله من الكتب المفقودة للإمام رضي الله عنه.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: لا ينبغي أن يتكلم علىٰ مقامات الأنبياء ويخوض في معاني أفعالهم وأحوالهم إلا من كان وارثًا لهم. وأما من لا نصيب له في إرثهم، فلا يصلح له أن يجيب عن أحد منهم، وإن كان له الأجر في ذلك بحسب علمه وفهمه ونيته الصالحة.

قال: وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي، الذي أذعن له الأشياخ في سائر العلوم وترجموه بأنه «مربي العارفين» وغيره مربي المريدين، يقول: ليس لأحدنا ذوق في مقامات الأنبياء، أي في عينها، وإنما للناس الإشراف عليها بحكم المجاورة فقط، كما يرىٰ أحدنا خيال النجوم علىٰ وجه الماء في الأرض. انتهىٰ.

وبلغنا عن الشيخ الكامل أبي يزيد البَسْطَامي رضي الله عنه [1] أنه كان يقول: منحني الله تعالىٰ من مقام رسول الله ﷺ مقدارَ شعرة من جلد ثور عبورًا لا مكث فيه، فكدتُ أحترق، فناديتُ الإقالةَ، وطلبتُ الإغاثةَ بالخروج منه، وعلمتُ أنه لا طاقةَ لولي بدخول مقام أحد من الأنبياء فضلًا عن المكث فيه، وإنما للأولياء المجاورة لمقامات الأنبياء فقط، كما يجاور آحاد الناس أحدًا من الأنبياء في دور أهل الدنيا والآخرة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: جميع من تكلم في مقامات الأنبياء كالقاضي عياض [2] ونحوه إنما تكلم في ظل مقامهم وخياله، لا في شخصه وعينه وحقيقته. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: يجب علىٰ كل عالم أن يجيب

---

(١) سلطان العارفين أبو يزيد طيفور بن عيسىٰ بن شروسان البسطامي أحد الزهاد كان جده مجوسيًا أسلم، كان يقول: إذا رأيت الرجل قد أعطي من الكرامات حتىٰ يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والوقوف عند الشريعة، له مقامات ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة، توفي ٢٦١هـ. السير (١٣/ ٨٦) البداية والنهاية (١١/ ٤١).

(٢) شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي، استبحر من العلوم، وجمع، وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، من مؤلفاته: «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ»، «إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم»، «مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار». ت ٥٤٤هـ. السير (٢٠/ ٢١٢) طبقات الحفاظ للسيوطي ص٤٧٠.

عن أهل حضرة الله تعالىٰ، فقلتُ له: ومن هم أهل حضرة الله تعالىٰ؟ فقال: العلماء العاملون، والفقراء الصادقون، وأهل الخير من أصحاب الصنائع من المؤمنين، وهكذا.

وسمعته مرة أخرىٰ يقول: أهل حضرة الله تعالىٰ هم الأنبياء والملائكة والأولياء. وأما غيرهم فإنما هم كالخدم لهم، فينبغي الجواب عنهم بحكم التبعية. انتهىٰ.

[طريق معرفة أولياء الله تعالى]

فإن قال قائل: فمن أين تعرف أولياء الله تعالىٰ في هذا الدار؟ **فالجواب:** أنهم يُعرَفون بأحد أمرين: إما برؤية أحدهم في حضرة الله تعالىٰ من طريق الكشف؛ وإما بتقيد أحدهم في جميع أعماله وأحواله بالكتاب والسنة، فيكون زاهدًا ورعًا، عابدًا مخلصًا، لا يكاد أحد يراه علىٰ شيء يخالف ظاهر الشريعة مما يكتبه كاتب الشمال أبدًا، فلا بد في طريق معرفة الولي من أحد هذين الأمرين، وإن كان المنقول عن أئمة الشرع أن المعصية لا تنافي الولاية، مع أن الله تعالىٰ لا بد أن يمنَّ عليه بالتوبة علىٰ الفور حتىٰ لا تضره الجناية، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: أعظمُ علامة تكون لنا علىٰ ولاية شخص شهودُ قلوبنا له في حضرة الله تعالىٰ في حال الصلوات الخمس، أو في حال الذكر، أو في حال المراقبة. وما عدا ذلك فإنما غايته حسن ظن به لا غير، فإن حكمَ من يدخل حضرة الله تعالىٰ في معرفة أوليائه حكمُ أهل الحارة الواحدة أو البلد الواحد أو السوق الواحد، فإن الغالبَ عليهم معرفةُ بعضهم بعضًا، لا يكاد أحدهم يجهل أحدًا من أهل حارته أو بلده أو سوقه.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يعرف من قام الليل ممن نام برؤية وجهه. ونمتُ ليلةً عن قيام الليل، فأتاني وقال لي: ما رأيناك الليلة هناك! يعني في حضرة القائمين في الليل للتهجد أو غيره من العبادات.

وسمعتُه مرةً يقول: معرفة أحدنا للولي في هذه الدار لا تنافي حديث «إن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه في عباده»[1]، لأن معرفتنا لا تتعدىٰ الظن إلىٰ القطع، فكان ذلك الولي خفيٌّ

---

(١) أورده البيهقي في «الزهد الكبير» من كلام ذي النون المصري (٧٥٩).

عنا، أو يكون المراد بالحديث أن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه عن عباده المحجوبين الذين لا كشف عندهم، دون عباده الخواص من أهل الكشف.

فإن أردتَ يا أخي معرفة أهل حضرة الله تعالىٰ، فتخلق بصفاتهم من زهد وورع وقيام ليل، وكف جوارح عن المعاصي ظاهرًا وباطنًا، وأنت تصير تعرفهم بوجوههم وصفاتهم ويتعرفون إليك. وقد طلب الإمام عبد الرحمن الأوزاعي[1] من إبراهيم بن أدهم الصحبة فلم يجبه، وقال: الطيرُ لا يطير إلا مع شكله. انتهىٰ.

[المقصود بحضرة الله في كلام القوم]

فإن قال قائل: فما هي حضرة الله تعالىٰ التي يشير إليها القوم، يقول أحدهم: دخلتُ حضرة الله، وخرجتُ من حضرة الله، ورأيتُ فلانًا في حضرة الله، ونحو ذلك؟ **فالجواب:** أن مرادَهم بحضرة الله تعالىٰ استحضارُ العبد أنه بين يدي الله عزَّ وجلَّ وهو تعالىٰ ينظر إليه، أو شهود العبد لربه كأنه من شدة قربه من حضرته يراه، وهي حضرة الإحسان المشار إليها بحديث «اعبد الله كأنك تراه»[2]، فما دام أحدهم يشهد أحد هذين المشهدين، فهو في حضرة الله عزَّ وجلَّ، ومتىٰ حُجِب عن أحدهما خرج من الحضرة. وقد أشار بعضهم إلىٰ حضرة الإحسان بقوله:

ويشاهدكم قلبي كأني لكم أرىٰ

فلم يثبت الرؤية للحق تعالىٰ، وإنما شاهده كأنه يراه من غير جزم بالرؤية، فعُلِم أنه ليس الحضرة مكانًا معينًا من السماوات أو الأرض كما قد يتوهمه بعضهم، والله أعلم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ما كلُّ أحد يطيق شهود أنه بين يدي الله

(١) أبو عمرو الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام. كان مولده في حياة الصحابة سنة: ٨٨هـ. وكان يسكن بمحلة الأوزاع بدمشق، ثم تحول إلىٰ بيروت مرابطًا بها إلىٰ أن مات. وقيل: كان مولده ببعلبك، يقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها ت ١٥٧هـ. السير (٧/ ١٠٧)، الوافي بالوفيات (١٨/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

عزَّ وجلَّ وإنما ذلك خاص بأكابر الأولياء، وأما غيرهم فربما يُمنَع أحدُهم من دخول الحضرة ليلًا ونهارًا، لعدم قدرته علىٰ دوام هذا الشهود، بل لو تكلَّف ذلك لاحترق، لأنها حضرة يؤاخذ العبد فيها بالخطرات وفعل المكروهات، كما يؤاخذ غيرهم بالكبائر.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﷺ يقول: لا يحصل لأحد القدرةُ علىٰ طول دوام شهوده أنه في الحضرة الإلهية إلا بعد طول إدمان لتقلب النفس من صاحبها في تلك الحضرة، وسرعة خروجها من حضرة الله عزَّ وجلَّ بإسدال الحجاب، لاسيما إن كانت متلطخة بشيء من المعاصي الظاهرة أو الباطنة، بل لو قدِّر أنه أكره نفسه علىٰ المكث في حضرة الله تعالىٰ، لزهقت وتقلبت من ذلك الشهود في أسرع من لمح البصر. ومن أراد أن تكون له قدرة علىٰ المكث في حضرة الله عزَّ وجلَّ فليُكْرِه نفسه علىٰ المكث فيها شيئًا فشيئًا، من دقيقة إلىٰ ثانية إلىٰ عشر درجة إلىٰ خمسها إلىٰ ربعها إلىٰ ثلثها إلىٰ نصفها، وهكذا إلىٰ درجة ثم إلىٰ درجتين، ثم إلىٰ أكثر من ذلك، بحكم التدريج إلىٰ ساعة ثم إلىٰ ساعتين ثم إلىٰ ثلاث، وهكذا إلىٰ يوم كامل أو ليلة كاملة إلىٰ يوم وليلة، ثم أكثر من ذلك، ثم إلىٰ جمعة، ثم إلىٰ شهر، ثم إلىٰ سنة، ثم إلىٰ أكثر إلىٰ نحو ثلاثين سنة، كما هو معروف بين القوم، وهناك يصير أحدهم لا يخرج من حضرة الله تعالىٰ، لأنه لا يجد مكانًا في الوجود إلا وهو فيه في حضرة الله عزَّ وجلَّ. وقد كان سهل بن عبد الله ﷺ [1] يقول: لي أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكلم الله تعالىٰ، والناس يظنُّون أني أكلمُهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا كمُل الإنسان في مقام الحضور مع الله تعالىٰ، صار قلبُه مع الله تعالىٰ في سائر الأماكن التي يرىٰ العبد نفسه فيها، لا يتكلف للحضور مع الله تعالىٰ، كما لا يتكلف لدخول النَّفَس وخروجه، وربما أعطىٰ الله تعالىٰ له هذا المقام في السكتة التي تقع بعد مجلس الذكر، فيصير الحق تعالىٰ بعد كل شيء أو مع كل شيء أو

---

(١) سهل بن عبد الله بن يونس أبو محمد التَستُري شيخ العارفين الصوفي الزاهد ولد سنة ٢٠٠هـ، وصحب خاله محمد بن سوار، ولقي في الحج ذا النون المصري وصحبه، وكان من أعيان الشيوخ في زمانه، وله كلام في التصوف والسنة، توفي في الحرم ٢٨٣هـ. تاريخ الإسلام (٦/ ٧٥٦)، شذرات الذهب (٣/ ٣٤٢).

قبل كل شيء، فلا يحجبه عن ربه شيء من الكون كما عليه رؤوس أهل الحضرة المحمدية.

ثم اعلم يا أخي أن جميع ما أُجِيبَ به عن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ومقلديهم في هذا الكتاب ليس هو من باب حسن الظن بهم فقط من غير علم بمَنازِع أقوالهم وأفعالهم كما قد يُتوهَم، وإنما أجبتُ عنهم بعد اطلاعي على مستندات أقوالهم من الكتاب والسنة أو القياس أو الإجماع، كما بينت ذلك في كتاب «الميزان الخضرية المدخلة لجميع أقوال المجتهدين ومقلديهم في الشريعة المحمدية»[1] وهو مجلد ضخم.

ومما وقع لي حين فرغت من تأليف هذا «الميزان» أنني رأيتُ الإمام أبا حنيفة[2] والإمام مالكًا[3] رحمهما الله تعالىٰ مع أبينا آدم عليه الصلاة والسلام في قبة وهما يقولان للناس: ما أحد أجاب عنا مثل ما أجاب هذا الشاب. فلا يعلم أحد مقدار ما حصل لي من السرور بكلام هذين الإمامين إلا الله عزَّ وجلَّ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إياكم أن تطعنوا في قول عالم أو فعله إلا إن كنتم أعلم منه بالكتاب والسنة، فإن الشريعة جاءت على ثلاثمئة وستين طريقة، لا يتبع عبد منها طريقة واحدة إلا أدخلته الجنة، كما رواه الطبراني مرفوعًا[4]. انتهىٰ.

فإن كنتَ يا أخي اطلعتَ علىٰ هذه الطرق كلِّها ولم تجد كلام هذا العالم الذي اعترضتَ عليه يوافق طريقةً واحدةً من هذه الطرق، فحينئذٍ لك الإنكار.

---

(١) مطبوع، مشهور باسم «الميزان».

(٢) أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي بن زوطىٰ التيمي، الكوفي، مولىٰ بني تيم الله بن ثعلبة. الإمام، فقيه الملة، عالم العراق. ولد: ٨٠هـ في حياة صغار الصحابة، وعني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهىٰ، والناس عليه عيال في ذلك. ت ١٥٠هـ. السير (٦/ ٣٩٠)، الوافي بالوفيات (٢٧/ ٨٩).

(٣) شيخ الإسلام حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك ولد سنة ٩٣هـ، نشأ في صون ورفاهية وتجمل، كان صلبًا في دينه، بعيدًا عن الأمراء والملوك، قال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، من أجل مصنفاته «الموطأ» ت ١٩٧هـ. السير (٨/ ٤٨)، الأعلام (٥/ ٢٥٧).

(٤) لم أقف عليه فيما اطلعت عليه من مصادر، وقد ذكره الشعراني في لواقح الأنوار (٢/ ٢٧٨).

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا يخلو كلامُ أحدٍ من الأمة من ثلاثة أحوال: إما أن يوافقَ صريحَ السنة، وإما أن يخالفَ صريحَها، وإما أن لا يظهر لنا فيه موافقةٌ ولا مخالفة، فإن كان موافقًا للشريعة، وجب علىٰ كل أحدٍ العمل به؛ وإن كان مخالفًا لها، حرم علىٰ كل مسلم العمل به؛ وإن لم يظهر لنا موافقته ولا مخالفته، فأحسن أحواله الوقف، فلا نذمُّ قائله ولا نمدحُه. انتهىٰ.

وأنا أرجو من فضل الله عزَّ وجلَّ أن كل من نظر إليَّ يوم القيامة من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، وجميعِ من أجبت عنه من المؤمنين يبتسم في وجهي، ثم يأخذ بيدي في أهوال ذلك اليوم وشدائده، كما أن من اعترض علىٰ أحد منهم ولم يجب عنه، ربما ينظر إليه شزرًا نظر الغضب، ثم لا يأخذون بيده عقوبةً له.

علىٰ أن جوابي عندي في حق الأكابر كالهجو لهم لاتهامي لنفسي في ذوقي لمقامهم، لأن غايتي إنما هو النظر إلىٰ مقاماتهم من بعيد، كما ينظر أهل الأرض إلىٰ خيال نجوم السماء في الماء.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: يجب علىٰ كل مسلم الرد عن أكابر المسلمين بحسب مقامه هو، وقد يستأنس لذلك بقوله تعالىٰ: فإن لم يصبها وابل فطل.

وكان يقول: اعتقادنا في جميع ما أجبنا به عن الأكابر من العلماء العاملين أنه دون مقامهم الذي يجب لهم، وربما يكون ما يتقرب أحدنا به إلىٰ الله تعالىٰ يستغفر هؤلاء الأكابر منه، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن كل شخص محبوس في دائرة من هو فوقه في المقام من شيخه إلىٰ دائرة رسول الله ﷺ التي هي أوسع دوائر الخلق أجمعين في معرفة الله عزَّ وجلَّ ومعرفة أحكامه وشرائعه، فقد أجمع أهل الكشف علىٰ أن جميع علوم الخلق وداوئر عقولهم من باطنية علم رسول الله ﷺ وباطنية عقله.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: احرص علىٰ أن تكون يا أخي من جملة ورثة رسول الله ﷺ في علوم شريعته، فإن دائرة علمه تحتوي علىٰ دوائر جميع الأنبياء

والمرسلين، وجميع العلماء والصالحين إلىٰ يوم الدين، فمن حصل له مقام هذا الإرث، فكأنه ورث جميع مقامات المقربين، كما كان عليه الإمام علي بن أبي طالب، وأكابر الأولياء كالشيخ أبي مدين، والشيخ محيي الدين[1]، وقد ترجم بعض العارفين الشيخ أبا مدين بقوله: الشيخ أبو مدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين.

وسمعته ﷺ يقول: كل من لم يحصل له مقام الإرث لرسول الله ﷺ ولو في بعض المقامات، فليس له أن يجيب عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لبعده عن مقام الإشراف علىٰ مقاماتهم، فإن أجاب عن أحد منهم مع عدم الإشراف، فإن ذلك من باب الحدس بالظن، أين الثريا من الثرىٰ؟!

قال: وربما كان العالم وارثًا لنبي من الأنبياء غير محمد ﷺ، فينطق عند طلوع روحه باسم ذلك النبي من العزير أو المسيح أو موسىٰ أو إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فيظن بعض الحاضرين أن ذلك العالم تهوَّد أو تنصَّر عند موته، لعدم نطقه بمن هو من أمته، وهو محمد ﷺ، والحال أنه مؤمن بمحمد ﷺ، وإنما نطق باسم ذلك النبي لكونه واسطة بينه وبين رسول الله ﷺ، فاستغاث به ليأخذ بيده ويوصله إلىٰ حضرة محمد ﷺ، ليشاهد وجهه، فيحصل له الأمان من أن تناله النار إن شاء الله تعالىٰ ببركته ﷺ، فإنه ﷺ نبيُّ الأنبياء، فهم كالوزراء له، وهو الملك الأعظم كما هو مقرر في كتب الخصائص، فكان كل نبي ممن يتقدمه بالظهور يُبعَث بطائفة معينة من شريعة محمد ﷺ، لينوب عنه في تبليغها مدة عمره، كما يؤيد ذلك ما ورد من حكم عيسىٰ إذا نزل بشريعة محمد ﷺ دون شريعته التي كان بُعث بها أيام غيبة جسم محمد ﷺ، فكان حكمها حكم ما نُسِخ من شريعة محمد ﷺ.

فإن قال قائل: إن من يكون من هذه الأمة لا يحتاج إلىٰ أحد من الأنبياء يأخذ بيده

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، المعروف بابن عربي، صاحب التصنيفات في التصوف وغيره، ولد في شهر رمضان سنة ٥٦٠هـ بمرسية «بالأندلس» سمع ببغداد ومكة ودمشق، وسكن الروم، من مؤلفاته: «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» و«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» وغيرها ت ٦٣٨هـ. فوات الوفيات (٣/ ٤٣٥) والأعلام (٦/ ٢٨١)

لاستغنائه عنه برسول الله ﷺ، **فالجواب**: صحيح ما قلت، وهو عين ما قررناه، فإن ذلك النبي ما أخذ بيد أحد من هذه الأمة إلا من باطنية محمد ﷺ، فإن الأنبياء حكمهم بعد ظهوره كحكم علماء أمته، لو أن أحدهم ظهر ما كان يحكم إلا بشريعة محمد ﷺ بقرينة قوله ﷺ: «لو كان موسىٰ وعيسىٰ حيين لما وسعهما إلا اتباعي»[1]. انتهىٰ.

فحكمُ أخذِ أحدٍ من الأنبياء حكمُ أخذِ أحدٍ من الأولياء بيد مريده علىٰ حد سواء، فلا يقدح ذلك في استناده -أي ذلك المؤمن- إلىٰ محمد ﷺ، فإن المريد وشيخه ومن فوق شيخه من الأشياخ إلىٰ رسول الله ﷺ لم يخرجوا عن دائرة محمد ﷺ، فكل شيء حصل من الخير علىٰ يد أحد من هؤلاء الوسائط، فهو ببركة رسول الله ﷺ، لأنه نبيُّ الأنبياء كلِّهم، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠] ما قال الله تعالىٰ: «فبهم اقتده» وإنما قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ أي إن هداهم لك بالأصالة، فاهتداؤك بهديهم الذين بُعثوا به هو هداك بالأصالة، فما اهتدىٰ حقيقة إلا بهداه لا بهداهم. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فإن أخذ العهد علىٰ الأنبياء بالإيمان بمحمد ونصرته يصيرهم كأنهم من جملة أتباعه من أمته. فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول كثيرًا: الأنبياء كلهم بالنسبة إلىٰ محمد ﷺ كأنهم أمراء العساكر وهو الملك الأعظم، فكان كلُّ نبي منهم يبعث بطائفة من شريعة محمد علىٰ قدر حظه ونصيبه من النيابة.

قال: ولذلك جاء النسخ في شريعة محمد ﷺ، وذلك ليحصل لأمة محمد ﷺ أجر العمل بتلك الشريعة التي نُسخت بموت ذلك النبي مثلًا، فيتعبد الأمة بذلك الحكم مدة من الزمان،

---

(١) قال الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري في أفضل مقول في مناقب أفضل رسول ﷺ ص١١٦: الحديث بهذا اللفظ باطل لا أصل له. قلت الحديث موجود بلفظ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي» أخرجه أحمد (١٥١٥٦)، والدارمي (٤٤٩).

ثم يأمرهم الشارع بتركه وفعل أمر آخر غير الأول، فكانت شريعة محمد ﷺ هي مجموع الشرائع المتقدمة كلها، وكأنه أرسل بها كلها وعمل بها أمته، فللعامل بشريعة محمد ﷺ من الصحابة من حين بعث النبي ﷺ إلىٰ أن مات أجر من عمل بجميع شرائع الأنبياء المتقدمين.

قال: وقد فتشنا من طريق كشفنا، فلم نجد حديثًا نُسخ أو آية نُسخت إلا وكانت شرعًا لنبي ممن تقدم، كلُّ ذلك لشدة اعتناء الحق تعالىٰ بمحمد ﷺ وأمته، حتىٰ لا يفوتهم ثوابُ غالب شرع أحد ممن تقدم، حتىٰ إن هذه الحقيقة سرت في أئمة المذاهب ومقلديهم، فيقبل المجتهد علىٰ العمل بما ظهر له من الأحكام مدة، ويدين الله به هو وأتباعه، ثم يبدو له حكم آخر من ذلك الحديث مثلًا هو أولىٰ عنده من الحكم الأول، فيتركه ويعمل بالحكم الذي ظهر له ثانيًا، كما هو مشاهد في كتب الأئمة، فيُقال لأحدهم: هذا مذهب فلان، فيقول: هذا ضعيف، ولا يجد في قلبه داعية للعمل به، وقد كان أصحابه وأتباعه يعتمدونه ويعملون به، ويدينون الله تعالىٰ به إلىٰ أن ماتوا. انتهىٰ.

فإن قال قائل: فهل يصل أحد من الأولياء إلىٰ مقام أحد من الأنبياء في الإرث لمحمد ﷺ، أم حظُّ الولي من الإرث ولو كان قطبًا دون حظِّ ذلك النبي من مقام الإرث لرسول الله ﷺ؟ **فالجواب**: لا يصل وليٌّ أبدًا إلىٰ مقام نبي أبدًا لا من حيثُ نبوتُه ولا من حيثُ ولايتُه، لأنه إذا كانت دائرة ولاية النبي تبتدي من بعد انتهاء دائرة ولاية أكبر الأولياء، فكيف بدائرة النبوة؟! انتهىٰ.

وقد تلخص من جميع ما ذكرناه في هذه المقدمة أنه يجب علىٰ كل مسلم التطهرُ من سائر الأدناس الظاهرة والباطنة، ليصيرَ يجيبُ عن الأكابر من أنبياء أو أولياء أو غيرهم علىٰ وجه يقرب من الصواب اللائق بمقامهم، فإن كلَّ من لم يتطهر كما ذكرنا فهو بعيد عن حضرتهم، وليس له إشراف علىٰ مقام أحد منهم حتىٰ يجيب عنهم، وأنه يجب علىٰ كل مسلم أن يجيب عن جميع أعدائه فضلًا عن أصدقائه، وأن ينتحل لهم الأجوبة الحسنة ما استطاع، وأنه لا يجوز له الوقوف مع سوء الظن لحظةً واحدة، لما في ذلك من عدم الوفاء بحق أخوة الإسلام، وأنه يحرم علىٰ الناظر في هذا الكتاب أن يحملَ

مؤلِّفه على المحامل السيئة، وأنه إنما أجاب عن أقرانه من أهل عصره، ليفعلوا معه نظيرَ ما فعل معهم بغير نية صالحة، بل يجب على كل ناظر في هذا الكتاب، وكل سامع أحدًا يجيب عن أحد أن يحمله على أحسن المحامل، كأن يجيب عن الناس ليميلوا إليه، فلا يقعون في غيبته رحمةً بهم بالأصالة، وبنفسه بحكم التبع، فإن وقوع الأشياخ أو المريدين الصادقين في مثل ذلك بعيد جدًّا، كما يظن ذلك من لم يخالطهم، وربما أنشد مع ذلك قوله مالك بن دينار رضي الله عنه(١):

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضًا ليدفع مُعوِر(٢) عن مُعورِ

لأن ذلك من مالك جرى على الغالب من حال العوام دون الخواص، فإن العامي ربما كان يجيب عن هفوات صاحبه، ليجيب الآخر عن هفواته كذلك لغرض نفساني. وأما الخواص فلا يجيب أحد عن أخيه إلا لغرض شرعي، سواء كان ذلك الجواب في غيبة أخيه أو حضوره.

فاعلم ذلك يا أخي وتأمل في هذه المقدمة، وأمعن النظر فيها كلَّ الإمعان قبل أن تدخل إلى مطالعة الكتاب، فإنها تعينك على تعقل ما فيه من الأجوبة وعلى حسن الظن بجميع العباد من عالم الشهادة.

وأما عالم الغيب من الجان والملائكة، فقد ألفتُ فيهما كتابًا سميتُه بـ«طهارة الجسم والجنان من سوء الظن بالله تعالى أو بالملائكة والجان» وصدَّرتُه بأجوبة ترد على الذين يلحدون في آيات الله تعالى بغير علم، كما يصفون الملائكة والجان بما ليس هما عليه من الصفات، وذلك لتسلم الناس من الطعن في المقدورات الإلهية، ومن الغيبة في الملائكة

(١) مالك بن دينار مولى لبني ناجية بن سامة بن لؤي بن غالب القرشي أبو يحيى من زهاد التابعين وعبادهم ممن يصبر على الفقر الشديد، والورع الجهيد وكان يأكل من كد يده من الوراقة، وهو من أعيان من كتبة المصاحف مات ١٢٣هـ. مشاهير علماء الأمصار ص١٤٧، السير (٥/ ٣٦٢).

(٢) المُعْوِرُ من الرِّجالِ: القبيحُ السِّيرة.

والجان، فإن وصف الشخص بما ليس هو عليه من الصفات الموفية بالنسبة إليه مُلْحَقٌ بالغيبة المحرمة، فأحببتُ للإخوان السلامة من مثل ذلك.

وقد كمل بهذين الكتابين الجوابُ عن جناب القدرة الإلهية، وعن عالم الغيب والشهادة. فرحم الله من حمي سمعه وبصره ولسانه وفؤاده عن الخوض بغير علم في ذات الله وصفاته وأحوال أنبيائه ورسله وجميع عباده من الملائكة والجان، فإن جميع أعمال العبد ربما لا يرضىٰ بها كلٌّ واحد يوم القيامة في نظير سوء الظن به.

وقد سمعتُ شيخَنا شيخَ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إذا أراد الله تعالىٰ أن يرقي عبدًا من عبيده إلىٰ الدرجات العلىٰ التي لا يبلغها بعمل، فربما قيَّض له الأعداء، فأشاعوا عنه شيئًا من الرذائل في بلده أو إقليمه، حتىٰ لا يكاد أحدٌ من العلماء والصالحين، فضلًا عن غيرهم يسلم من الوقوع في عرضه بغير علم، فينقل الله تعالىٰ أعمالهم الصالحة إلىٰ صحيفته، فيصبح في ليلة واحدة وهو أكثر الناس عملًا من حيثُ لا يشعر الذين وقعوا في غيبته، وهم مع ذلك يظنون أنهم أحسن حالًا منه. انتهىٰ.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واحذروا من سوء الظن بأحد من الخلق إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

ولنشرع في مقصود الكتاب فنقول وبالله التوفيق:



الباب الأول

فيما أجبتُ به عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحكم الإجمال

[وجوب اعتقاد أن النبوة غير مكتسبة]

اعلم يا أخي أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أن النبوة مكتسبة، فإن الكسب لا يصل إلىٰ مثل ذلك، لأن الحق جلَّ وعلا لما خلق الخلق قدَّرهم علىٰ منازل متفاوتة بحسب ما سبق في علمه تعالىٰ، فخلق الملائكة ملائكة، والرسل منهم أو من البشر رسلًا، والأنبياء أنبياء، والأولياء أولياء، والكافر كافرًا، والمؤمن مؤمنًا، والمنافق منافقًا، وهكذا لا يُزاد في كل نوع ولا ينقص، وليس لمخلوق عمل ولا تحصيل لمقام لم يُخلَق له، بل وقع الفراغ من ذلك كلِّه، فلا يجري أحد في غير مجراه، ولا يمشي أحد في مَدْرَجة أحد. ولو أن ذلك يصح لأحد لحصل مقام النبوة لمن ليس بنبي في الأزل، وذلك محال، فلكلِّ شخص سُلَّمٌ يخصه إن كان سعيدًا، أو دَرَكٌ يخصه إن كان شقيًا، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحف.

[شبهة من قال: إن النبوة مكتسبة]

فإن قلتَ: فما شبهة من قال إن النبوة مكتسبة؟ **فالجواب**: لعل شبهته ما بلغه من أنه لابد للأنبياء قبل رسالتهم من التعبد والعزلة والانقطاع عن الخلق إلىٰ الحق تعالىٰ، ليتقوىٰ استعدادُ أحدِهم، ويرجع إلىٰ حالته التي جعلها الحق تعالىٰ له حين قدَّر المقادير، فلما نظر بعض الحكماء إلىٰ ذلك، ظَنَّ أن النبوة حصلت بتلك العزلة والانقطاع والتعبد، فقال به، وذلك وهم وقصور نظر.

فإن قلتَ: فما سبب إنكار بعضهم النبوات علىٰ هذا الوجه المعروف؟ **فالجواب**: لعل سببه توهمه أن كلَّ من صفا جوهرُ ذاته من كدورات الشهوات، والتزمَ مكارمَ الأخلاق، صار نبيًّا من غير أن يُوحَىٰ إليه علىٰ لسان ملك سماوي، لانتقاش جميع العلوم السماوية في مرآة قلبه حينئذٍ، فاستغنىٰ عمن يخبره بجميع الأحكام التي كان يُوحىٰ بها إليه، ولا شك أن الأمر علىٰ خلاف ما توهمه هؤلاء الفلاسفة، فما بلغنا قط عن وليٍّ مُلْهَمٍ أو حكيمٍ

صفا جوهرُه أنه أحاط علمًا بما يجري عليه حاله في كلِّ نَفَسٍ أبدًا. وغايته أن يعلم بعضًا ويجهل بعضًا، ويخطيء تارةً ويصيب أخرىٰ، بل لو سُئل اللوحُ المحفوظُ عما خطَّ الحقُّ تعالىٰ فيه من العلوم الإلهية والكونية ما عرف ذلك، كما سيأتي بسطُه في هذا الباب. فعُلم أن النبوة اختصاصٌ إلهيٌّ، وليست من فيض العقل والأرواح العلوية. وقد جهل وأخطأ من قال إنها مكتسبة.

[ضابط الفرق بين الوهب والكسب]

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والثمانين من «الفتوحات المكية» أن ضابط الوهب والكسب أن يقال: كلُّ ما كلفنا الشارع به فهو مقام مكتسب، وكلُّ ما لم يكلفنا به فهو وهب، ولذلك قال القوم: إن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب. فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(١) ومما أجبتُ به من يتوهم أن المكر يدخل فيما جاءت به الرسل إلينا، كالقول فيما جاءنا من طريق الإلهام عن الله تعالىٰ.

والجواب: قد أجمع أهل الكشف علىٰ أنه لا يصح أن يدخل المكر الإلهي في شيء جاءنا علىٰ ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن الله تعالىٰ ما أرسل رسله إلا ليهدونا ويبينوا لنا ما أشكل علينا لا ليمكروا بنا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] قولًا مطلقًا، فكل مؤمن أخذ بما جاء به رسوله فهو آمن فيه من مكر الله، خلاف ما يأخذه المؤمن عن الله من طريق الوجه الخاص المسمىٰ بالإلهام، لا بد من عرضه علىٰ الكتاب والسنة قبل العمل به، لأنه يدخله المكر والاستدراج، فإن لله تعالىٰ في عباده مكرًا خفيًّا قد لا يشعر به العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] فمن أراد السلامة من مكر الله به، فلا يضع ميزان الشرع من يده، فيزن به كل ما جاءه عن ربه من طريق الإلهام، فإن قبلته الشريعة عمل به وإلا أهمله.

وقد قال الشيخ الأكبر في الباب الثالث والأربعين وخمسمئة من «الفتوحات»: اعلم أن الحقَّ تعالىٰ تارةً يعطي عباده الوحيَ منه إليهم، وتارةً علىٰ أيدي رسلهم، فما جاءك

علىٰ يد الرسل فخذه من غير ميزان، وما جاءك من غير واسطة بينك وبين الله تعالىٰ فخذه بميزان الشريعة، فإن الله تعالىٰ نهاك أن تأخذ منه كلَّ عطاء، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فصار أخذك من رسولك أنفع لك، وأحصل لسعادتك، لعصمته ﷺ، فعُلم أن أخذك من الرسل علىٰ الإطلاق، وأخذك من الله علىٰ التقييد لعدم عصمتك. فانظر في هذا الأمر ما أعجبه! كون الرسول مقيَّدًا، والأخذ عنه مطلقًا، والحق تعالىٰ مطلقًا والأخذ منه مقيَّدًا. انتهىٰ، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الأنبياء الذين لم يرسلوا كان الوحي إليهم في المنام علىٰ لسان جبريل.

والجواب: أن الذي عليه جمهور العلماء أن الوحي إليهم كان في اليقظة علىٰ لسان جبريل، ورأيتُ في كتاب «الدرر الملتقطة» لسيدي الشيخ عبد العزيز الديريني[١] أن وحي الأنبياء الذين لم يرسلوا كان في المنام علىٰ لسان جبريل دون اليقظة. انتهىٰ فلا أدري هل رأىٰ في ذلك دليلًا صحيحًا أم لا؟ والله أعلم.

(٣) ومما أجبتُ به من يقول: إن خواص الملائكة أفضل من خواص البشر.

والجواب: أن الأدب الوقف عن مثل ذلك حتىٰ نجد دليلًا صريحًا في ذلك. وأيضًا فإن من شرط التفاضل أن يكون في جنس واحد، والملك والبشر جنسان، فلا يُقال: الحمار مثلًا أفضل من الفرس، وإنما يُقال: هذا الفرس أفضل من هذا الفرس، اللهم إلا أن يُقال: التفاضل راجع إلىٰ الأرواح، فلا منع، لأن أرواح البشر كالملائكة، فالملك علىٰ هذا جزء من الإنسان، فالكل من الجزء، والجزء من الكل. وقد قال بعض أهل الكشف: كنتُ لا أذهب في مسألة تفضيل الملائكة علىٰ البشر إلىٰ شيء، حتىٰ رأيتُ رسول الله

---

(١) عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني فقيه شافعيّ من الزهاد. نسبته إلىٰ «ديرين» في غربية مصر، وقبره بها، من مؤلفاته: «التيسير في علم التفسير» و«الدرر الملتقطة في المسائل المختلطة» و«طهارة القلوب» توفي: ٦٩٤هـ. الأعلام (٤/ ١٣)، شذرات الذهب (٧/ ٧٨٥)، معجم المؤلفين (٥/ ٢٤١).

ﷺ في بعض الوقائع[1] وأخبرني بأن خواص الملائكة أفضل من خواص البشر. وأعطاني الدليل علىٰ ذلك. انتهىٰ.

قلتُ: وهذا لا ينهض دليلًا يُعتمَد عليه لعدم عصمة الرائي.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: ما ذهب إليه المعتزلة من تفضيل خواص البشر بحسب ما فهموه من قوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] لا ينهض دليلًا لهم، لاحتمال أن لا يكون المراد بالآية الترقي من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، وإنما المراد نفيُ استنكاف كلٍّ من المسيح والملائكة المقربين عن أن يكون عبدًا لله عزَّ وجلَّ وكأن لسان حضرة الله عزَّ وجلَّ يقول: إذا كان المسيح الذي ادعيتُم فيه الألوهة لا يستنكف أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون، فغير المسيح عندكم وغير الملائكة المقربين من باب أولىٰ، فليس في ذلك نص علىٰ تفضيل خواص الملائكة علىٰ خواص البشر، مع أن نشأة الإنسان أكمل من نشأة الملك، لأنه يثاب علىٰ اجتنابه المنهيات دون الملك، فإنه لا يتوجه إليه. انتهىٰ، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] فليتأمل.

ثم إن الخلاف لا ينبغي أن يكون إلا في غير مولانا محمد ﷺ. أما هو فقد وقع الإجماع علىٰ أنه أفضل خلق الله علىٰ الإطلاق، فلا مخلوق أفضل منه، كما سيأتي بسطه في الجواب عن محمد ﷺ فراجعه[2]، والحمد لله رب العالمين.

ثم إن مما تمسك به من يفضل خواص الملائكة علىٰ خواص البشر كونُ الملائكة دائمًا عاكفين في مقام القرب من الله تعالىٰ، وليس لخواص البشر هذا المقام إلا في حال صلاتهم فقط، إلا أن يمدَّ الله تعالىٰ أحدًا منهم بما فوق ذلك، كمحمد ﷺ ومن ورث مقامه من أكابر أتباعه، ومما تمسك به من فضَّل خواص البشر علىٰ خواص الملائكة ما

---

(١) أي في بعض الرؤىٰ.

(٢) انظر رقم: (٥٢)، (٦٢).

ورد «إن الله تعالىٰ يباهي بالمصلين خواص ملائكته»[١]. انتهىٰ.

وكأن لسان حال حضرة الله عزَّ وجلَّ يقول للملائكة: إني لم أبتلِ أحدًا منكم مما ابتليتُ به البشر، لأني قربتُكم ابتداءً، وأما البشر فجعلتُ بينهم وبين مقام شهودهم القرب مني حُجُبًا كثيرة، وموانع عظيمة من أمراض نفسية، وشهوات حسية، وبديع أهل ومال، وولد وخدَّام، وأهوال عظام، فقطعوا ذلك كله بالمجاهدة حين سجدوا واقتربوا. انتهىٰ.

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل: من شرَّفه الله ابتداءً أو من ابتلاه ثم شرَّفه؟ ولكل منهما وجه، فمن وجد دليلًا صريحًا في فضل الملك علىٰ البشر أو عكسه، فليلحقه بهذا الموضع، والحمد لله رب العالمين.

(٤) ومما أجبتُ به من يفاضل بين الأنبياء والرسل بعقله ما عدا محمدًا ﷺ: اعلم يا أخي أنه لا ذوق لنا في مقامات الأنبياء حتىٰ نتكلم عليها، وغايةُ أمرنا أن نتكلم عليها بحسب الإرث المناسب لحالنا. وقد أخبرنا الحق جل وعلا أنه فضَّل بعض النبيين علىٰ بعض من غير أن يعين لنا من هو الأفضل، ولولا أن رسول الله قال: «أنا سيد ولد آدم»[٢] ما ساغ لنا أن نفضله بعقولنا ولا عرفنا مقامه.

ثم إنه يكفينا الإيمان بكونهم متفاضلين في نفس الأمر، اللهم إلا أن يُطلِع الله تعالىٰ أحدًا من أهل الكشف علىٰ شيء، فله المفاضلة به في نفسه دون إذاعته للناس.

وقد رأيتُ في الكلام علىٰ صلاة الجمعة من «الفتوحات» ما نصُّه لولا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفاضلوا بين الأنبياء»[٣] لعينتُ من هو أفضل الرسل بعد رسول الله ﷺ علىٰ

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما جاء عن عبد الله بن عمرو قال: «صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع من رجع، وعَقَّبَ من عَقَّبَ، فجاء رسول الله ﷺ مسرعًا، قد حَفَزَهُ النفس، وقد حسر عن ركبتيه، فقال: أبشروا، هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء، يباهي بكم الملائكة. يقول: انظروا إلىٰ عبادي قد قضوا فريضةً، وهم ينتظرون أخرىٰ» أخرجه ابن ماجه (٨٠١) وأحمد (٦٧٥٠) والبزار (٢٣٦٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٢٧٨) وأبو داود (٤٦٧٣) والترمذي (٣١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٤) بلفظ «لا تفاضلوا بين أنبياء الله» ومسلم (٢٣٧٣).

الترتيب، ولكن تركنا ذلك لما يؤدي إليه من تشويش قلب المحجوبين. انتهىٰ.

وقال في الباب الثاني والستين وأربعمئة: لا يعرف مراتب الرسل والأنبياء إلا عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام إذا نزل آخر الزمان، فهو الذي يترجم عن مقامات الرسل لكونه منهم، وأما نحن فلا سبيل لنا إلىٰ ذلك. انتهىٰ.

وذكر في الباب الثالث والسبعين من «الفتوحات المكية» أيضًا: من فاضل بعقله بين الأنبياء فقد وقع في الفضول، فإن نحو قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] لا ينهض دليلًا في تفضيل إبراهيم علىٰ موسىٰ وعكسه، للجهل بأي المقامين أفضل: الكلام أم الخُلَّة. وأطال في ذلك، ثم قال: فعُلِم أن كلَّ من فاضل بين الرسل بغير نص صريح، فقد دخل في التفرقة بين الرسل، ويُخشَىٰ أن يكون ذلك قريبًا من الكفر.

وقال في الباب الثامن والخمسين والمئة: من فاضل بين الأنبياء والمرسلين بغير نص، فقد وقع في غيبتهم وتنقيصهم، قياسًا علىٰ قول العلماء بكراهة التفضيل بين الناس، لما يؤدي إليه من كراهة أحدهم تفضيل أحد من أقرانه عليه، وما فضلت الأنبياء والمرسلون علىٰ بعضهم بعضًا من جهة رسالتهم فقط، وإنما فضلوا بأحوال أُخر ما هي عين ما وقع فيه الاشتراك. وما من جماعة يشتركون في مقام إلا والأصل أنهم متساوون فيما اشتركوا فيه. وقد يكون ما يقع به التفاضل يؤدي إلىٰ التساوي كما هو مذهب أبي القاسم ابن قَسي[1] رحمه الله، ومن قال بقوله من الطائفة، فيكون كل واحد من الرسل فاضلاً من وجه، مفضولًا من وجه آخر.

قال الشيخ محيي الدين: والذي عندنا أن كلَّ رسول ورد فيه نص بالتفضيل يكون

(١) أحمد بن الحسين أبو القاسم ابن قسي، أول ثائر في الأندلس عند اختلال دولة الملثمين. وهو رومي الأصل، استعرب وتأدب وقال الشعر ثم عكف علىٰ الوعظ وكثر مريدوه. من مصنفاته: «خلع النعلين في الوصول إلىٰ حضرة الجمعين» مختصر في التصوف، شرحه محيي الدين ابن عربي. توفي: ٥٤٥هـ. الأعلام (١/ ١١٦)، هدية العارفين (١/ ٨٤).

فاضلًا من جميع الوجوه على غيره، كما في محمد ﷺ، فلم يساوِه أحد من الرسل في مقام من مقاماته. انتهى.

وقال في «الفتوحات» في الجواب التاسع والعشرين من أسئلة[1] الحكيم الترمذي[2]: الذي نقول به نحن أن معنى المفاضلة المعقولة من قوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] أي أعطينا هذا ما لم نعط هذا، وأعطينا هذا ما لم نعْطِ من فضله، ولكن من مراتب الشرف، فمنهم من فضَّله الله تعالى بأن خلقه بيديه وأسجد له ملائكته، ومنهم من فضله بالكلام كموسى، ومنهم من فضله بالخلة، ومنهم من فضله بالصفوة وهو يعقوب عليه السلام، فهذه كلها صفات مجد وشرف. لا يُقال: إن خلته أشرف من كلامه، ولا كلامه أشرف من خلقه بيديه، لأن ذلك كله راجع إلى ذات واحدة لا تقبل الكثرة ولا العدد، إذ جميع المراتب مرتبطة بالأسماء الإلهية، فمن فاضل بعقله فكأنه يقول: الأسماء الإلهية بعضها أشرف من بعض، ولا قائل بذلك شرعًا ولا عقلًا. انتهى، فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٥) ومما أجبتُ به من يتوهم أن كلَّ رسولٍ خليفة.

والجواب: أن الرسول لا يكون خليفة إلا إن نصَّ الله تعالى على خلافته، كداود عليه الصلاة والسلام، فهو رسول وخليفة، لقوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]. وأما آدم فأجمل له الخلافة ولم يأمره بأن يحكم. وقد سُئل الشيخ محيي الدين عن الفرق بين الخليفة والرسول، فقال: كل من أمر ونهى، وعاقب وعفا، وأمرنا الله بطاعته ولم يكن له إذن من الله في نفسه أن يأمر وينهى، بل تبرع بذلك، فهو رسول لا خليفة. انتهى.

---

(١) وهي ١٥٥ سؤالاً، وضعها الإمام العارف الحكيم الترمذي على سبيل الامتحان لأصحاب الدعاوى من غير المحققين. وقد أجاب عنها في الباب (٧٣) من «الفتوحات المكية». والسؤال التاسع والعشرون المقصود هنا هو:؟

(٢) محمد بن علي بن الحسن بن بشر المحدث الزاهد أبو عبد الله الحكيم الترمذي الصوفي. سمع الكثير من الحديث بخراسان والعراق، من مؤلفاته: «ختم الولاية وعلل الشريعة» و«نوادر الأصول في أحاديث الرسول» و«الرياضة وأدب النفس» ت ٢٩٣هـ. الأعلام (٦/ ٢٧٢) وطبقات الشافعية للسبكي (٢/ ٢٤٥).

والشح فيهم، وتعالي الله عن مثل ذلك إذا استخدم أحدًا من الداعين إليه في دعاء عباده إلىٰ حضرته، فصح حينئذٍ طلب الأجرة المجهولة من الله تعالىٰ بخلاف الخلق. انتهى.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: من ردَّ رسالة نبي ولم يؤمن بها، كان لذلك النبي أجر المصيبة، وأجره علىٰ الله تعالىٰ بعدد من رد رسالته كثروا أم قلوا، فالنبي مأجور علىٰ كلِّ حال من حيثُ نيتُه الصالحةُ وأمنيته، فيعطيه الله تعالىٰ ثواب دعاء جميع من كان يحب هدايتهم للإيمان وفروعه ولم يهتدوا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الرسالة نعت إلهي.

والجواب: أنها نعتٌ كونيٌّ، إذ هي أمر متوسطٌ بين مرسِل ومرسَل إليه. والمرسَلُ به قد يُعبَّر عنه بالرسالة، وقد تكون الرسالةُ حالَ الرسول، فتزول بانقضاء التبليغ، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[المائدة: ٩٩] فلا يثبتها الرسول إلا بواسطة روح قدسي ينزل بها تارةً علىٰ قلبه، وتارةً يتمثل له الملك رجلًا. وكلُّ وحيٍّ لا يكون كهذه الصفة، فلا يسمَّىٰ رسالة بشرية، وربما يسمىٰ وحيًا إلهامًا ووجودًا، فافهم، والله أعلم[١].

(٩) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الغيب الذي يطلع الله تعالىٰ عليه من ارتضىٰ من رسول لا يكون إلا بواسطة ملك.

والجواب: أنه قد يكون من غير واسطة ملك، قال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥] إذ هذا الروح مقامه فوق مقام الملائكة، بل الملائكة لا تعرفه، لأنه ليس من جنسها، فإنه روح مجرَّد غير محمول ولا نوراني، والملائكة لا تعرف إلا من كان روحًا في نور[٢]، فالروح هنا هو المُلقىٰ من عند الله علىٰ قلوب عباده. والرسالة في هذا المقام مرتفعة، لأن عين الوحي المنزَّل هو عين الروح.

ثم إن المراد بهذا الغيب الذي يطلع الله تعالىٰ عليه من ارتضاه من رسله هو علم

(١) انظر الجواب (١٤).

(٢) «الفتوحات» الباب (٢٨٧).

التكاليف، لا الغيب المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولذلك قال في آخر الآية ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، لأن هذا الغيب هو الذي يغيب عنه العباد، ولا تستقلُّ عقولهم بإدراكه، ولهذا جعل الحق تعالىٰ له الملائكة رَصَدًا لئلا يلقي الشيطان إلىٰ ذلك الرسول ما ليس من جنس تلك التكاليف.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إن قيل: هل هذا الغيب الذي يطلع الله تعالىٰ عليه من ارتضاه من رسول يكون بواسطة ملك أو بلا واسطة؟ **فالجواب**: قد سُئل عن ذلك الشيخ محيي الدين، فقال: تكون بلا واسطة ملك، وتكون الملائكة الرَّصَد تحف ذلك الرسول، كالهالة حول القمر، والشياطين من ورائها لا تجد سبيلًا إلىٰ هذا الرسول، حتىٰ يظهر الله تعالىٰ لذلك الرسول من علم الغيب المتعلِّق بالتكاليف ما شاء، فإنه هو الذي كان خفيًّا عنه وعن العباد[1].

وأما الغيب الذي انفرد به الحقُّ تعالىٰ فيسمىٰ الغيب المحالي، لا يقدر أحد علىٰ تصوره حتىٰ يتكلم عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠) ومما أجبتُ به من يتوهم في الأنبياء أن تغير أجسامهم عند الوحي لضعف استعدادهم، وكذلك البرد الذي يأخذهم عند الوحي، كما أشار إليه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]

والجواب: أنه ما ثم في الخلق أقوىٰ من الأنبياء، لأنهم حملوا الوحي، وسمعوا من الكفار في حقِّ الله تعالىٰ ما لم تقدر السماوات والأرض والجبال أن تحمله كما سيأتي بسطه، ولكن سبب البرد أن الملَك إذا ورد علىٰ رسول بأمر من الله عزَّ وجلَّ وتلقىٰ ذلك منه الروح الإنساني، وتلاقيا أحدهما بالإصغاء والآخر بالإلقاء وهما نوران، نشأ من ذلك احتداد المزاج واشتعل، وتقوت بذلك الحرارة الغريزية المزاجية، وتغير وجه الشخص بذلك، وهو المعبَّر عنه بالحال، وذلك أشدُّ ما يكون.

---

(١) «الفتوحات» الباب (٣٢١).

ثم إن تلك الرطوبات البدنية تصعد بخاراتٍ إلىٰ سطح كرة البدن لاستيلاء الحرارة، ومن ذلك يكون العرق الذي يطرأ علىٰ صاحب الحال للانضغاط الذي يحصل بين الطبائع من التقاء الروحين.

ثم إن الهواء الخارج من البدن بالرطوبات يغمر المسام بقوته، فلا يتخلل الهواء البارد من خارج، لكن إذا سرىٰ عن ذلك النبي وانصرف الملَك عنه، سكَن المزاج وزالت تلك الحرارة، وانفتحت المسام، وقبل الجسمُ الهواءَ الباردَ من خارج، فتخلل الجسم وحصل البرد في المزاج، واستولىٰ علىٰ الحرارة فأضعفها، فذلك سبب البرد والقشعريرة الحاصلين لصاحب الوحي، فطلب زيادة الثياب عليه ليسخن بدنه. وهذا خاص بما إذا كان التنزل علىٰ القلب بالصفة الروحانية. أما إذا كان التنزل علىٰ ظاهر الرسول، فلا يحصل شيء من ذلك، كما هو مقرر في شرح البخاري وغيره.

[سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند تلقي الوحي]

وقد سُئل الشيخ محيي الدين عن سبب اضطجاع الأنبياء علىٰ ظهورهم عند نزول الوحي، فقال: سبب ذلك قوة الوارد، وإلا فما ثم أقوىٰ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإذا ورد عليهم الوارد الإلهيُّ الذي هو صفة القيومية، اشتغل الروح الإنساني المدبِّر عن تدبيره بما يتلقاه من الوارد الإلهيِّ من العلوم الإلهية، فلم يبقَ للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده، فلذلك رجع إلىٰ أصله، وهو لصوقه بالأرض المعبَّر عنه بالاضطجاع ولو كان علىٰ سرير، فإن السرير هو المانع له من وصوله إلىٰ التراب.

ثم إذا فرغ روحه من ذلك التلقي وصدر الوارد إلىٰ ربه، رجع الروح إلىٰ تدبير جسمه، فأقامه من ضجعته. وما بلغنا قط عن نبي أنه تخبط عقله وجسده عند نزول الوحي أبدًا. هذا مع وجود الواسطة في الوحي وهو الملَك، فكيف إذا كان برفع الوسائط، فربما كاد أن يذوبَ جسدُه فضلًا عن الاضطجاع[1]. انتهىٰ.

---

(١) «الفتوحات» الباب (٣٣).

وذكر أيضًا في الباب الثاني والأربعين وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أن أقوىٰ العباد من ينزل عليهم الوحي، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن الوحي الذي أُنزِل عليهم لو نزل علىٰ الجبل تصدع من خشية الله. ومما يشهد لهم بالقوة كونُهم سمعوا في الله تعالىٰ ما لا يليق بجلاله، وثبتوا عند ذلك مما ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠].

قال: وسبب ذلك أن الحق تعالىٰ تجلىٰ لهم في حضرة ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [الزمر: ٤]، ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ [الأنبياء: ١٧]، فعلموا- يعني الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- من الله تعالىٰ ما لم تعلمه السماوات والأرض والجبال، فأنتج لهم هذا العلمُ قوةً في نفوسهم حملوا بها ما سمعوا من الأقوال التي لا تليق في جناب الحقِّ جلَّ وعلا، من نحو: المسيح ابن الله، والعزير ابن الله، فلم يتزلزلوا. ولو أن مثلَ ذلك نزل علىٰ من ليس له هذه القوة، لذاب عظمه. فانظر يا أخي ما أكثف حجاب من اعتقد أن لله ولدًا! وما أشد عماه عن إدراك الحقائق! انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١) ومما أجبتُ به من يتوهم أن حكم النبوة ينقضي بانقضاء الدنيا كالرسالة.

والجواب كما أجمع عليه أهل الكشف: أن حكم النبوة باقٍ في الجنة لا يختص حكمه بالدنيا، بخلاف الرسالة، فإن حكمها إنما يبقىٰ إلىٰ دخول الخلق الجنةَ أو النارَ فقط.

وإيضاح ذلك أن حقيقةَ الرسالة إبلاغُ كلامٍ من متكلم إلىٰ سامع، فهو حال لا مقام، والأحوال لا بقاء لها، وإنما تتجدد الرسالة في كل حين وزمان، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ [الشعراء: ٥] فهو محدَث الإنزال والتنزل لا الوجود؛ لأن كلامه تعالىٰ قديم، ولذلك كان علمُ الرسالة يظهر للنائم في صورة اللبن، لأن الرَّسْل هو اللبن، والله أعلم.

(١٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الأنبياء الذين كانوا قبل نوح عليه الصلاة والسلام كانوا مرسلين فهمًا من عموم قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

والجواب: قد أجمع الناس علىٰ أن أول رسول أُرسل بعد الفَتْرة الأولىٰ هو نوح عليه الصلاة والسلام، فليس قبله رسول، إنما كانوا أنبياء فقط، فكان كلٌّ واحد علىٰ شريعة من ربه عزَّ وجلَّ فمن شاء من الناس دخل مع ذلك النبي شرعَه، ومن شاء لم يدخل.

ثم إن دخل معه أحد ورجع كان كافرًا، ومن لم يدخل ليس بكافر، وكذلك من أدخل نفسه ثم كذَّب الأنبياء يكون كافرًا، ومن لم يفعل وبقي علىٰ التصديق والبراءة لم يكن كافرًا، ولا ينافي ذلك الذي قررناه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] فإنه ليس بنص في الرسالة، وإنما هو نص في أن في كل أمة شخصًا عالمًا بالله تعالىٰ وبأمور الآخرة ينذرهم لا علىٰ وجه الرسالة، وذلك هو النبي لا الرسول، إذ لو كان المراد به الرسول لقال إليها ولم يقل فيها، فلم يكن بعد آدم رسول إلا نوح عليه الصلاة والسلام.

قال الشيخ محيي الدين ﷺ: وكان من هؤلاء الأنبياء الذين لم يرسلوا إدريس، فلم يأت لنا نص في القرآن برسالته، إنما جاء أنه كان صدِّيقًا نبيًّا فكان هو والأنبياء الذين جاؤوا بعد آدم عالمين بالله تعالىٰ، وكان كل من شاء وافقهم ودخل معهم في دينهم وتحت حكم شريعتهم، ومن شاء لم يكلف ذلك، فأول شخص افتتح الله به الرسالة بعد الفترة الأولىٰ نوح، والسلام. فاعلم ذلك فإنه نفيس.

(١٣) ومما أجبتُ به من يتوهم أن ردَّ قوم الرسول رسالته عليه وعدم انقيادهم له لضعف همته.

والجواب: أن عدم انقيادهم لرسولهم ليس لضعف في همته، وإنما ذلك لغلبة الرحمة عليه، فلا يقدح ذلك في كمال ذلك الرسول، فيسقط بذلك قول من يقول: لو كان الواعظ مخلصًا في وعظه، لأثَّر كلامُه في الحاضرين، فإنه لا أصدق من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك فلم يؤثر قولهم في جميع السامعين، بل قال نوح الصادق الأمين: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦] فلما لم يَعُم قبول كلامه في السامعين مع تحققنا علو همة الرسل، علمنا أن الهمة ما لها أثر جملة واحدة في

المدعوين، وإنما قَبِل من قَبِل من حيثُ ما وهب الله تعالىٰ له من المزاج الذي اقتضىٰ له قبول مثل ذلك، وهو المزاج الخاص الذي لا يعلمه إلا الله، وبه كان كفر أول من كفر ممن ليس له أبوان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. ولو كان تأثير الكلام إنما هو من صدق الداعي فقط، لأسلم كل من شافهه نبي من الأنبياء بمجرد خطابه له، كائنًا من كان.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من سمع من واعظٍ قولًا ولم يؤثر فيه، فالعيب منه لا من الواعظ، ولو كان ذلك السامع سليم العقل، لأثر فيه كلُّ حقٍّ من كلام جاءه[1] علىٰ يد كل إنسان ولو كان كافرًا، لأن الحقَّ حقٌّ ولو كان علىٰ لسان كافر لم يعمل به، فكل عامل يقبل كلَّ حق جيء إليه به، ولا يلتفت إلىٰ من جاء به.

ثم إن وقع أن ذلك الشخص الذي لم يؤثر فيه كلام الواعظ إذا حضر مجلس واعظ آخر وأثر فيه، فليس ذلك من حيثُ صدقُ الواعظ الثاني، وإنما ذلك من حيثُ وجودُ نسبة بينه وبين الواعظ الثاني من اعتقاد فيه أو إحسان له ونحو ذلك. فما أثر في السامع سوىٰ نفسه، والسلام.

وفي القرآن العظيم ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٧٢] أي الذين قبلوا التوفيق علىٰ مزاج خاص، فللهادي الذي هو الله الإبانة والتوفيق، وليس للهادي من المخلوقين إلا الإبانة خاصة.

(١٤) ومما أجبتُ به من يتوهم أن النبوة نعت كوني فقط دون كونها نعتًا إلهيًّا.

والجواب: أن النبوة من النعوت الإلهية، كما صرح بها الشيخ محيي الدين في الباب الخامس وخمسين ومئة من «الفتوحات»، وقال: إن مما يثبتها في جناب الحضرة الإلهية الاسم «السميع» كما يثبت حكمها أيضًا صيغة الأمر الذي في الدعاء، نحو: ربنا اغفر لنا وارحمنا، وإجابة الحق تعالىٰ لعباده فيما سألوه فيه.

قال: وليست النبوة بمعقول أمر زائد علىٰ ما ذكرناه، إلا أنه تعالىٰ لم يطلق علىٰ نفسه

(١) بالأصلين: حياة، والصواب ما أثبتناه.

اسم النبي[1]، كما أطلق علىٰ نفسه اسم الولي، مع كونه تعالىٰ أخبرنا وسمع دعانا. انتهىٰ.
فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين[2].

(١٥) ومما أجبتُ به من يقول: يجوز اجتماع رسولين معًا في آن واحد لشخص واحد أخذًا من قصة موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام.

والجواب: أن ذلك ممتنع في العصر الواحد، إلا أن يكونا ينطقان في رسالتهما بلسان واحد في آن واحد، فإن موسىٰ وهارون هكذا كانا، قال تعالىٰ: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤] ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧] ونحوهما من الآيات، فلم يكن لكل واحد منهما عبارة تخصه دون الآخر، لاسيما وموسىٰ يقول عن هارون: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ [القصص: ٣٤]، فكانت رسالة هارون حقيقة من باطنية موسىٰ لا مستقلًا.

ويلغز بذلك فيُقال لنا: رسول أُرسل من باطن رسول؟ وهو هارون من باطنية موسىٰ، لكنها رسالة مقيدة لا مطلقة. وإيضاح ذلك أن رسالة هارون كانت بسؤال موسىٰ، كما أشار إليه قوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾[القصص: ٣٤]، ومعلوم أن الرسالة المستقلة المطلقة لا تكون بسؤال، بل هي موهبة من الله تعالىٰ. وبما قررنا عُلِمَ أن من قال برسالة هارون مطلقًا، فما حقق النظر، أو منع رسالته مطلقًا، فما حقق النظر، والحمد لله رب العالمين.

(١٦) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الشيطان له تسليط علىٰ قلب الرسول أو النبي فهمًا من قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢] الآية.

الجواب: أنه ليس للشيطان علىٰ قلوب الأنبياء سبيل، فهو يلقي إليهم وهم لا يعلمون ما يلقيه إليهم، فهم معصومون من العمل بوسوسته، لا من إلقائه إليهم الأمرَ الذي وسوس به.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: الأنبياء معصومون من العمل بوسوسة

(١) بالأصلين: الشيء، والصواب ما أثبتناه.

(٢) انظر الجواب (٨).

إبليس حالَ تنزل الوحي عليهم وغير ذلك، ألا ترىٰ أن الشيطان لما علم أن النبي ﷺ بهذه المثابة من عصمة قلبه كيف أتاه بشعلة من نار مخيَّلَة من جهة القبلة، فرمىٰ بها في وجهه ﷺ، ليفتنه بذلك عن صلاته والإقبال عليها، فتأخر النبي ولم يقطع صلاته وأخبر بذلك أصحابه[1]، فاعلم ذلك.

وقد أجمع أهل الكشف قاطبةً علىٰ أن جميع المرسلين معصومون من مطاوعة إبليس في شيء من الأمور قطعًا، لتوقف حجية السنة علىٰ القول بالعصمة، ولأن الرسول مشرِّع لنا بجميع أفعاله وأقواله وتقريراته، فلو صدق عليه الوقوع في مخالفة، لصدق عليه تشريع المعاصي، ولا قائل بذلك.

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي يقول: يُشترَط في حق الرسول العصمةُ في جميع ما يبلغه لقومه[2] عن الله عزَّ وجلَّ، فإن عصم من غير هذا الوجه فهو من مقام آخر غير هذا، كأن يُخاطَب بالتأسي به، فيصير ذلك التأسي أصلًا لا يجوز عليه فعل حرام قطعًا ولا مكروه إلا لبيان الجواز[3].

قال المحققون: ومن الفرق بين المعصوم والمحفوظ أن الأنبياء معصومون من كل فعل لا ثواب فيه حتىٰ المباح، بخلاف الأولياء، فإذا فعل الأنبياء المباح لا يفعلونه إلا علىٰ بيان أنه مباح، فهو واجب عليهم، أعني فعل المباح، لأن التبليغ واجب عليهم، بخلاف الأمة، والله أعلم.

---

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي الدرداء قال: «قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك. ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثًا. وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: إن عدو الله إبليس، جاء بشهابٍ من نار ليجعله في وجهي. فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات. ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة» أخرجه مسلم (٥٤٢) وابن حبان (١٩٧٩) والنسائي (١٢١٥).

(٢) بالأصلين: لقوله.

(٣) «الفتوحات» الباب (١٦٠).

وذكر في «الفتوحات» في الباب الثامن والستين وثلاثمئة في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] الآية: هذا يُسمىٰ علم الحاصل في عين الفائت. فيفضل الحاصل علىٰ الفائت من حيثُ إنه قد يكون في ذلك الحاصل سعادةُ العبد[١].

قال: ومنه ما رُوي أن رسول الله ﷺ قبل رسالته حين كان يرعىٰ الغنم بالبادية، كان يريد أن يدخل إلىٰ مكة، فيصيب فيها ما يصيب الشباب من اللعب المباح، فكان يدخل مكة فيرسل الله تعالىٰ عليه النوم، فيفوته تحصيل ما دخل لأجله، فيستعجل الرجوعَ إلىٰ غنمه[٢]، فكان في ذلك عصمته من حيثُ لا يشعر، ومن هنا قالوا: من العصمة أن لا تجد. انتهىٰ.

(١٧) ومما أجبتُ به من يفهم من أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي قصها الحقُّ تعالىٰ علينا ما لا يليق بمقامهم، كآدم والخليل وموسىٰ ولوط وسليمان عليهم الصلاة والسلام.

والجواب كما ذكره الشيخ في الباب الثاني والسبعين وثلاثمئة من «الفتوحات» أنه يجب تنزيهُ جميع الأنبياء مما نسبه إليهم بعضُ من فسَّر القرآنَ مما لم يجيء في كتاب ولا سنة، زاعمًا أنه فسَّر القرآن بالكتاب والسنة.

وقد جاء من فعل مثلَ ذلك بأكبر الكبائر والطامَّات، قال: وذلك كمسألة إبراهيم الخليل وما نسبوه إليه مما يوهم وقوعه في الشك، ولم ينظروا في قوله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم»[٣]، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يشك في إحياء الموتىٰ، معاذ

---

(١) ولإيضاح المعنىٰ أكثر إليك هذا الموضع من «الفتوحات المكية» الباب (٣٦٨): «ورأيت في هذا المنزل علوما جمة، منها: علم الحاصل في عين الفائت؛ لأنه لو لا ذلك ما علمتَ فضل الحاصل علىٰ الفائت في حقك إذا كان فيه سعادتك، ولا فضل الفائت علىٰ الحاصل إذا كان الفائت مطلوبك ولو حصل لك أشقاك وأنت لا تعلم، فكان الفضل فيه في حقك فوته، فإن بفوته سعدتَ، وهذا لا يكون إلا لمن أسعده الله، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٧٢)، والحاكم وقال: صحيح علىٰ مسلم ووافقه الذهبي (٧٦١٩).

(٣) أخرجه البخاري(٣١٩٢) ومسلم (١٥١).

الله أن يشك نبيٌّ في مثل ذلك! ولكن لـمَّا عَلِمَ أن لإحياء الموتىٰ وجوهًا متعددة، لم يدر بأي وجه منها يكون إحياء الله تعالىٰ الموتىٰ، وهو مجبول عليه الصلاة والسلام علىٰ طلب العلم، عيَّن الله تعالىٰ له وجهًا من تلك الوجوه، حتىٰ سكن ما كان عنده، فعلم كيف يحيي الله الموتىٰ، لا نفس إحياء الموتىٰ.

قال: وكذلك قصة لوط ويوسف وداود ويونس وغيرهم كلُّها يجب تأويلها علىٰ أحسن الوجوه.

قال: وكذلك ما نسبوه في قصة سليمان إلىٰ الملكين. وكل ذلك، أي مما لا يليق ولا يقبل التأويل، إنما هو نقل عن اليهود استحلوا بذلك أعراض الأنبياء والملائكة. وقد جرح الله تعالىٰ اليهود وغضب عليهم، فلم يلتفت الناس الذين قبلوا كلامهم لتجريح الله تعالىٰ لهم، بل ملؤوا تفاسيرهم للقرآن بذلك، فالله يحفظنا وإخواننا من غلطات الأفكار، آمين آمين آمين. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب الرابع والخمسين ومئة من «الفتوحات»: ينبغي للوعاظ أن يراقبوا الله تعالىٰ ويستحيوا منه، ويكون أحدهم عالمًا بما يورده مما ينبغي لجلال الله ولمقام أنبيائه، ويجتنب الطامات في وعظه، لا سيما ما ذكره المؤرِّخون عن اليهود من ذكر زلات للأنبياء الذين أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم، ومدحهم في كتابه العزيز بالاصطفاء والاجتباء. وأطال في ذلك.

ثم قال: والداهيةُ العظمىٰ أن يجعلَ أحدُهم ذلك تفسيرًا لكلام الله عزَّ وجلَّ ويقول: قال المفسرون كذا في نحو قصة آدم وداود عليهما الصلاة والسلام، ويذكر تأويلات فاسدة، وأحاديث واهية لم تأتِ لنا من طريق يحتج بها، بل ينتهي النقل فيها عن اليهود الذين قالوا في الله تعالىٰ ما قالوا من البهتان والزور، فمن أورد مثل ذلك في مجلس وعظه مثلًا، مقتته الملائكة ونفروا عنه، بل مقته الله لكونه فتح لمن في قلبه مرض من العصاة باب حجة يحتج بها إذا وقع في معصية، ويقول في نفسه: إذا كان الأنبياء وقعوا في مثل هذا مع علو مقامهم، فأيش أكون أنا؟! وحاشا والله الأنبياء أن يفعلوا ما فهمه اليهود من قصصهم. وأطال في ذلك.

ثم قال: فالواجب على الواعظ أن لا يذكر في وعظه إلا الأخبار الصحيحة، أو ما فيه ترهيب أو ترغيب بشرطه المعروف بين المحدِّثين.

[سبب تأذي الملائكة ممن يذكر في الأنبياء ما لا يليق بمقامهم]

فإن قلتَ: فما سبب تأذي الملائكة ونفرتهم ممن يذكر في الأنبياء ما لا يليق بمقامهم؟ ومن أين عرفوا تنزيه الأنبياء عما لا يليق؟ **فالجواب**: سبب ذلك أن الله تعالىٰ عرَّف الملائكةَ ذلك من طريق الإلهام، فإذا سمعوا في حقِّ الأنبياء ما لا يليق، نفروا من ذلك المجلس، خوفًا من نزول البلاء عليهم بسبب وقوع ذلك الواعظ في أنبيائه وأصفيائه بالجهل، فالملائكة عالمون بقصص الأنبياء وأحوالهم. وفي الحديث: «إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلًا- يعني من نتن رائحته ورائحة ما لفظ به- فتمقته الملائكة»[1]. فعُلِمَ أنه لا ينبغي للواعظ أن يذكر إلا ما فيه تعظيم الله تعالىٰ وتعظيم أنبيائه وأحكامه وتعظيم حرماته، والتوبيخ لمن تعداها.

والغرض الأعظم من الواعظ أن يرغب الناس في أعمال الآخرة ويخوِّفهم من الوقوع في المعاصي والرغبة في الدنيا لا غير. ويختم ذلك بذكر جملة من أهوال يوم القيامة وذكر الحساب والميزان والصراط، ليتأهب الناس لمثل ذلك قبل موتهم، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين، والله أعلم.

(١٨) ومما أجبتُ به من يتوهم عدم تأكد برِّ آبائه الذين لم يذكرهم من آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ أبيه الأقرب، وينسىٰ تنبيه الحق تعالىٰ له علىٰ ذلك بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

والجواب: أنه يتأكد علىٰ كل مؤمن برَّ آبائه من الأنبياء وغيرهم بطريقه الشرعي، والدعاء لهم بالرفعة في الدرجات، رجاء أن يكون ذلك وسيلةً إلىٰ محبتهم لنا، والأخذ بيدنا في أهوال يوم القيامة.

وعبارة الشيخ محيي الدين في الباب النيف والخمسين والأربعمئة من «الفتوحات»:

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٢) والطبراني في «الأوسط» (٧٣٩٨).

يجب علىٰ كل مسلم برُّ أجداده وآبائه المسلمين، كما ينبغي له أيضًا برُّ غير آبائه من الأنبياء[١] من آدم إلىٰ أبيه الأقرب.

قال: ولقد اعتمرتُ مرةً عن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وأمرتُ أصحابي بذلك، فوجدنا أبواب سماء الدنيا التي فيها آدم قد فُتحِت تلك الليلة، وعرجت ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالىٰ، ونزلت ملائكة إلىٰ الأرض كذلك، وتلقونا بالترحيب والتهليل إلىٰ أن بُهِتنا منهم وذهلنا من كثرتهم، لأجل صلة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام تلك الليلة، فعُلِمَ أن رحم أبينا آدم مقطوعة عند غالب الناس، ولأجل ذلك عظُم اهتمامُ الملائكة لما وصلت، لقلة وقوع ذلك من الناس.

قال الشيخ: وقد ألهمني الله تعالىٰ صلتها فوصلتها، ووُصِلَت بسببي أيضًا[٢]، وكان ذلك بتوفيق إلهي، ولم أر لأحد من أقراني في ذلك قدمًا حتىٰ أمشي علىٰ أثره فيها. وما قال تعالىٰ في غير موضع من القرآن: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ إلا ليذكرنا ببر أبينا عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فلم ينتبه أحد لهذه الأبوة ولا لوجوب حقِّها وبرِّها، وما أشبه هذه الذكرىٰ من الله تعالىٰ بقوله: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ وأين زمن هارون عليه الصلاة والسلام من زمن مريم عليها الصلاة والسلام؟! فاعلم ذلك. انتهىٰ.

وسيأتي آخر الباب إن شاء الله تعالىٰ وجوبُ اعتقاد أن أبوي نبينا محمد ﷺ من أهل الجنة، وذلك [في] أقسام أهل الفترات[٣]، فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٩) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الدليل علىٰ من يدعي أنه رسول لا ينسحب في

---

(١) بالأصلين: الأولياء. والسيخ نقل العبارة مع تصرف من «الفتوحات المكية».

(٢) لأنه أمر تلاميذه أن يعتمروا عن سيدنا آدم مثله يقول الشيخ: «ولقد رأيتُ ذلك ذوقًا بمكة في عمرة اعتمرتُها عن أبينا آدم ﷺ، فظهر لي ذلك في مبشرة رآها بعض الناس لنا وللجماعة التي أمرتهم في تلك الليلة بالاعتمار معي عن أبينا آدم رأىٰ فيها من التقريب الإلهي وفتح أبواب السماء وعروج تلك الجماعة، وتلقاهم الملأ الأعلىٰ بالتأهيل والسهل والترحيب إلىٰ أن بهت وذهل مما رأىٰ» انظر «الفتوحات» الباب (٤٥٤).

(٣) الجواب (٧٠).

الدلالة علىٰ ما جاء به ذلك المرسَل، وأنه يحتاج إلىٰ دليل آخر.

والجواب: أن الذي عليه المحققون أن الدليل علىٰ تصديق من يدعي الرسالة ينسحب في الدلالة علىٰ ما جاء به الرسول، ولا يحتاج إلىٰ دليل آخر.

[هل يكون الرسول غير نبي؟]

فإن قلتَ: فهل يُتصوَرُ لنا تجرد الرسالةِ عن النبوة، فيكون رسولًا غير نبي؟ **فالجواب:** قد ذهب بعضُهم إلىٰ تصور ذلك، وهو فيما إذا أُوحِيَ إلىٰ الرسول بشرع يتعلق بأمته دونه، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨] ونحوِ ذلك مما لا نصيب له هو في العمل به، ويكون ذلك واردًا علىٰ تعريفهم الرسول بأنه نبي أُوحي إليه بشرع ليبلغه إلىٰ غيره، زيادة علىٰ عمله هو به قبل ذلك. والذي نقول به أنه نبي أيضًا من حيثُ قولُ الله تعالىٰ له: قل كذا لأمتك. والله تعالىٰ أعلم.

(٢٠) ومما أجبتُ به من يتوهم بعقله أن لا فائدة لإرسال الرسل مع وجود العقل، كما عليه بعضهم في تحكيمهم العقل في التحسين والتقبيح.

والجواب: أن الشريعة قد جاءت علىٰ قسمين: قسم يستقلُ العقل بإدراكه؛ وقسم ليس للعقل فيه مجال، فإنا نجهل بالضرورة ما لنا وإلىٰ أين ننتقل، كما نجهل سبب سعادتنا إن سعدنا، أو شقاوتنا إن شقينا، كل ذلك لجهلنا بما في علم الله تعالىٰ وما يريده بنا، ولماذا خلقنا، فنحن مفتقرون بالضرورة إلىٰ التعريف الإلهي بذلك علىٰ ألسنة الرسل، فلولا إرسال الرسل ما عرفنا الفرق بين طاعة ولا معصية، ولا تميز أحد من أهل القبضتين في هذه الدار، قال تعالىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فما قامت حجة الله تعالىٰ علىٰ عباده ظاهرًا إلا بإرسال الرسل، وما سعد من سعد وشقي من شقىٰ إلا بالقسمة الإلهية، وليس للرسل أثر في ذلك، إنما عليهم البلاغ فقط، قال الله تعالىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[المائدة: ٩٩]، وإذا عمل أحد بما جاء به رسوله فليس ذلك من أثر الرسول، وإنما هو بالقسمة.

ولسان حال من لم يعمل بما جاء به رسولُه يقول إذا أمره رسولُه بفعل شيءٍ: هل نفعل ما قسمه الحقُّ تعالىٰ لنا أم ما لم يقسمه؟ فلا يسعُ الرسول إلا أن يقول: افعلوا ما قسمه الحقُّ تعالىٰ لكم.

فإذا قالوا له: هل نفعل ذلك في الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ فيه [أم قبله؟ فلا يسعه أن يقول إلا: في الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ فيه][1] فإذا قالوا له: فإذن لا يُطلَب الفعل المذكور منا إلا إذا دخل الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ فيه، فاصبر علينا. فيقول لهم: بهذا أمرتُ.

فقد بان لك حكمةُ بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام في كل زمان، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فما عاند بعد إرسال الرسل إلا من لم ينصح نفسه ممن حُقَّ عليهم كلمةُ العذاب.

[النواميس الوضعية والشرائع الإلهية]

وكان الشيخ محيي الدين ابن العربي ﵀ يقول: جميع الحدود التي حدَّها الربُّ جلَّ وعلا في هذه الدار لا تخرج عن قسمين: قسم يُسمَّىٰ سياسة حِكمية بكسر الحاء؛ وقسم يُسمَّىٰ شريعة، وكلاهما إنما جاء لمصلحة بقاء أعيان الممكنات في هذه الدار.

فأما القسم الأول: فطريقُه الإلقاءُ بمثابة الإلهام عندنا، وذلك لعدم ظهور شريعة بين أظهر أهل ذلك الزمان، فكان الحق تعالىٰ يلقىٰ في فطر نفوس الأكابر من الناس الحكمةَ، فيحدون الحدود ويضعون النواميس، كلُّ مدينة وإقليم وجهة بحسب ما يقتضيه مزاجُ أهلِ كلٍّ واحدة منها وطبعائهم، فانحفظ بذلك أموال الناس ودماؤهم وأهلوهم وأرحامهم وأنسابهم، وسَمُّوا ذلك نواميس، ومعناها أسباب خير؛ لأن الناموس في الاصطلاح هو الذي يأتي بخير عكس الجاسوس. فهذه هي النواميس الحكمية التي وضعها العقلاءُ عن إلهام من الله تعالىٰ من حيثُ لا يشعرون، وذلك لأجل نظام العالم وصلاحه وصحةِ ارتباط بعضه ببعض.

قالوا: ويتعين عقلًا استعمال النواميس الوضعية أيام الفَترات لنظم شمل العالم. وقد

---

(١) ساقط من «ب».

بأجر الله تعالىٰ من وضع ذلك في زمن الفترات. انتهىٰ[1].

وقال أيضًا في الباب التاسع وثلاثين وثلاثمئة من «الفتوحات»: اعلم أن الشرع علىٰ قسمين: شرع منزل إلهي؛ وشرع حكمي سياسي عند فقد هذا الشرع. فلا تخلو أمة من تدبير يقوم بسياستها، لإبقاء المصلحة في حقها، سواء كان ذلك الشرع إلهيًا أو سياسيًا.

فإن قلتَ: فهل كان لواضعي هذه النواميس علم بأنها تقربهم إلىٰ الله أم لا؟ فالجواب: لم يكن لهم علم بذلك، بل ولا يعلمون إن ثم بعثًا ولا نشرًا ولا حشرًا، ولا جنة ولا نارًا ولا شيئًا من أحوال الآخرة، لأن ذلك ممكن، وعدمه أيضًا ممكن، ولا دليل في ترجيح أحد الممكنين، بل رهبانية ابتدعوها، فلهذا كان مبنىٰ نواميسهم ومصالحهم علىٰ إبقاء الصلاح في هذه الدار لا غير.

ثم إنهم لما انفردوا في نفوسهم بالعلوم الإلهية من توحيد الله تعالىٰ، وما ينبغي لجلاله من التعظيم والتقديس، وعدم المثل والشبيه، صاروا يحرضون الناس علىٰ النظر الصحيح، وكان جُلّ انشغالهم في ذلك.

ثم لما عرفوا ذلك، بحثوا عن حقائق نفوسهم حين رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شيء، فعلموا أن المدرِكَ والمحرِك لهذا الجسم أمرٌ آخر زائد عليه، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد، فعرفوا نفوسهم بما حده لهم عقلُهم لا غير، فأورثهم ذلك ترددًا بين التنزيه والتشبيه، وحيرةً بين سلب المعرفة وإثباتها في حق العالم.

فلما أورثهم ذلك ما ذُكر، أقام الحقُّ تعالىٰ لهذا الجنس الإنساني شخصًا ذكر أنه جاءهم من عند الله برسالة يخبرهم بها، فنظروا بالقوة المفكِرة، فرأوا أن الأمر جائز ممكن، فلم يعزموا علىٰ تكذيبه، ولم يروا علامةً تدل علىٰ صدقه، فوقفوا وسألوه: هل جئت بعلامة من الله تعالىٰ نعرف بها صدقك في أنك رسوله؟ فإنه لا فرق بيننا وبينك إلا ذلك، فجاءهم بالمعجزة، فمنهم من آمن عندها، ومنهم من كفر. انتهىٰ[2].

---

(١) «الفتوحات المكية» الباب (٦٦).

(٢) نفس المصدر والباب.

وسيأتي قريبًا بسطُ ذلك، وسيأتي الكلامُ علىٰ المعجزة والفرق بينها وبين السحر والكرامة في هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢١) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالأصالة للموحدين، ليرقوهم في الدرجات، وغيرهم إنما هو بحكم التبع.

والجواب: أن الذي عليه أهل الكشف قاطبةً أنهم لم يُبعثوا بالأصالة إلا للمشركين، ليدعوهم إلىٰ التوحيد، لكون المشركين أبعدَ الخلق من حضرة الله تعالىٰ، فكانوا هم الأصل في إرسال الرسل، ليردوهم إلىٰ الله تعالىٰ بعد شرودهم من حضرة القرب. وبذلك أجاب الشيخ محيي الدين من سأله عن ذلك في الباب الثاني والسبعين من «الفتوحات» قال: ولهذا أهدىٰ النبي ﷺ البُدْن[1] مع قوله عنها: «إنها شياطين»[2] ليثبت عند العقلاء العالمين بمثل ذلك أن من مقامه ﷺ رد البعداء من حضرة البعد إلىٰ محل القرب. وإنما أشعرها في جنب سنامها الأيمن مع أن سنامها أرفع ما فيها، لينبه علىٰ كبرياء المشركين التي كانوا عليه في نفوسهم. وأيضًا فإن الصفحة مشتقةٌ من الصَّفْح، فكان فيها إشعار من الله تعالىٰ أن يصفح عمن كان هذه صفته إذا طلب التقرب من حضرة الله تعالىٰ.

فإن قيل: فما حكمةُ جعله ﷺ النعال في رقاب البدن؟ **فالجواب:** حكمةُ ذلك الإشارة إلىٰ زوال الكبرياء التي كانت عند المشركين قبل إسلامهم وإهدائهم البُدْن، وزوال صفة الشيطنة التي كانت في البُدْن، فكأنها توضع النعال في رقابها تُصْفَع بها كما يُفْعَل بأهل الهوان والذلة، ومن وصل إلىٰ مثل هذه الحالة، فما بقي عنده كبرياء تظهر.

فإن قيل: قد أهدىٰ ﷺ مرةً غنمًا وهي طاهرة من الشيطنة، فما الحكمة من ذلك؟ **فالجواب:** هو إشارة إلىٰ مثل تقريب الموحدين قربانهم، ليترقوا في مقامات التوحيد، فقد علمتَ بذلك أن حكمةَ بعثة الرسل ردُّهم الشاردين، وترقيتَهم للموحدين. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري عن علي ﷺ (١٧١٨)، ومسلم (١٣١٧).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث البراء بن عازب (١٨٤) والنسائي (٤٣٥٦).

[الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾]

فإن قلتَ: فما الحكمة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] دون أن يقول «شخصًا» بدل ﴿رَسُولًا﴾، ولم قال ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ دون قوله «مثيبين»؛ فالجواب: إنما قال تعالىٰ: ﴿رَسُولًا﴾ ولم يقل «شخصًا» لأنه لا بد من إثبات رسالة النبي المبعوث عند من وُجِّه إليه أولًا حتىٰ يجب عليه امتثالُ أمره واجتنابُ نهيه، فلو قال تعالىٰ: «شخصًا» بدل ﴿رَسُولًا﴾ ما كان يفيدُ ما ذكرناه، فلابد أن تقومَ الدلالةُ الظاهرةُ عند كلِّ شخص شخص ممن بُعِثَ إليهم، فرب آية يكون فيها غموض أو احتمال بحيث أن لا يدرك بعضُ الناس دلالتَها، فلا بدَّ أن يكون الدليلُ علىٰ صحة الرسالة في غايةِ الوضوح عند كلِّ من قام له، حتىٰ يثبت عنده أنه رسول، وحينئذٍ إن جحد بعدما تيقن، تعينت مؤاخذتُه.

قال الشيخ محيي الدين: وفي هذه الآية رحمةٌ عظيمةٌ لما هم الخلق عليه من اختلاف الفِطَر المؤدي إلىٰ اختلاف النظر. وما فعل الله تعالىٰ ذلك إلا ليفتح به بابَ الرَّحمة علىٰ من يريد رحمتَه من عباده. انتهىٰ[1].

وأما حكمة قوله تعالىٰ: ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ دون «مثيبين» فلما قدمنا من أن إرسال الرسل بالأصالة إنما هو للمشركين ليدعوهم إلىٰ التوحيد. وأما ترقية الموحدين في مقامات التوحيد والأعمال الصالحة فهم بحكم التبع، فكان ذكر التعذيب للمشركين هو اللائق بالحال.

[السبب المانع من العمل لمن سمع كلام الدعاة إلى الله]

فإن قلتَ: فما السبب المانع من العمل لمن سمع كلام الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ من الموحدين الجامعين لشروط التكليف، العالمين بوجوب العمل بما سمعوه منهم؟ وهل حكمه في الآخرة كحكم من لم يسمع أصلًا تمسكًا بظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، فيكون الحقُّ تعالىٰ قد تفضل عليه وعفا عنه، أو يكون حكمه كحكم من سمع ولم ينتفع، فيكون تحت المشيئة؟ فالجواب

---

(١) «الفتوحات» الباب (٣٧٤).

عن السؤال الأول: أن المانع هو عدم القسمة، وإن كان ذلك لا ينهض حجة له شرعًا. وأما الجواب عن السؤال الثاني: فالمسؤول عنه تحت المشيئة الإلهية.

[ليس من شرط الداعي نفوذ بصره في غالب المدعوين]

فإن قلتَ: فهل من شرط الداعي إلىٰ الله تعالىٰ من رسول أو وارث نفوذ البصر في غالب المدعوين؟ **فالجواب:** ليس ذلك شرطًا في حقه، إنما الشرط نفوذ بصره في المدعو إليه فقط، فهو ينظر في عين كل مدعو ويدعوه، فإن رآه يجيب ولابد، دعاه من الطريق التي يمكن المدعو منها الإجابة بطريق الإلحاح والتشديد؛ وإن رآه لا يجيب دعاه من غير إلحاح ولا تشديد، لإقامة الحجة عليه خاصة. ومن هنا قالوا في كل داع إلىٰ الله إنه حجة علىٰ أهل زمانه، والله أعلم.

[السبب المانع من سماع خطاب الحق لعباده]

فإن قلتَ: فما السبب المانع من سماع خطاب الحق تعالىٰ لعباده، ومن استغنائهم عن إرسال رسول إليهم؟ **فالجواب:** أنه لم يسبق في علمه أن يكون الأمر إلا علىٰ ذلك، فلا سبيل إلىٰ تغيير ما سبق. وأيضًا فإنه ليس كل مخلوق يطيق سماع خطاب الله عزَّ وجلَّ ولو أنه قوَّىٰ عباده علىٰ ذلك، لبطلت حكمةُ إرسال الرسل التي سبق بها العلم.

وقد سُئل عن مثل ذلك الشيخُ أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله[1]: فأجاب بقوله: اعلم يا أخي أن الحقَّ جلَّ جلالُه لما خلق جميعَ الكائناتِ من فضله وإحسانه، لم يتركهم هَمَلًا غافلين عما يرجع إلىٰ مصالحهم في الأمور الدينية والدنيوية، بل بعث إليهم منهم رسلًا مبشرين ومنذرين، ليبلغوا إلىٰ أسماع عباده كلامَه، حين كان تعالىٰ منزهًا عن المجيء إليهم والنزول عليهم. وبتقدير أن يجيء إليهم أو ينزل وَحيه إليهم كالرسل ما

---

(١) أبو محمد طاهر بن أحمد بن محمد القزويني، كان أديبًا فاضلاً، كان يغلب عليه علم الكلام، له تصانيف منها: سراج العقول في منهاج الأصول، نور الحقيقة ونور الطريقة. يواقيت العلوم ودراري النجوم، ت ٥٨٠هـ. التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٩٦)، معجم الأدباء (٤/ ١٤٥٦).

كانوا يهتدون إلىٰ فهم كلامه تعالىٰ بغير صوت ولا حرف، ولا يطيقون رؤيته وسماع كلامه كفاحًا، لعدم سبق علمه تعالىٰ بإقدارهم علىٰ ذلك.

قال: وقد ألمَّ بعضُ الشعراء بهذا المعنىٰ، فقال:

ولـمـا تـعـذر أن نلتقي ... وطـال الـنـزاع وزاد الألـم

سعيت إلـيـك بـرجـل الـرسـول ... ونـاجـاك عني لـسـان الـقـلـم[1]

قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فعُلِمَ أنه تعالىٰ لم يرسل لنا الرسل إلا بفضله، كما أنه ما خلق الكون إلا بفضله، إذ لا يجبُ علىٰ الحق تعالىٰ شيء ولو أوجبه علىٰ نفسه، كما هو مقررٌ في كتب العقائد.

قال: ومن هنا كانت النبوة غير مكتسبة، بل محض فضل منه ورحمة، خلاف ما ادعاه المعتزلة ومن تابعهم من قولهم بوجوب النبوات عقلًا من جهة اللطف. وعند أهل الحق أن النبوات جائزة عقلًا، واجبة تواترًا ونقلًا تنتهي إلىٰ المعاينة، وأنها من فضل الله ورحمته وتدبيره في الملك والملكوت بأوامره ونواهيه علىٰ ما يشاء كيف يشاء.

[حقيقة النبوة]

قال: وحقيقةُ النبوة خطابُ الله تعالىٰ لشخص بقوله: «أنت رسولي» «وقد اصطنعتك لنفسي»، الله أعلم حيث يجعل رسالاته[2]، ولذلك لم تكن مكتسبة يتوصل إليها بالنسك والرياضة كالولاية كما ظن بعض الحمقىٰ؛ لأن الله تعالىٰ قد حكىٰ عن الرسل ما يخالف ذلك بقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وأمر محمدًا ﷺ أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] فقد علمت أن النبوة صفة راجعة إلىٰ اصطفاء الحق تعالىٰ شخصًا بخطابه، لا إلىٰ نفس ذلك الشخص الذي هو النبي حتىٰ يُقال: إنه استحق النبوةَ لذاته، فافهم.

---

(١) لأبي إسحاق الصابي.

(٢) كذا بالأصلين.

[بقاء النبوة بعد الموت، والرد على المعترض على ذلك]

فإن قلتَ: فإذن النبوة باقية بعد الموت لا تبطل به ولا بالنوم والغفلة؛ **فالجواب**: وهو كذلك. **فإن قال قائل**: إن النبوة مأخوذة من النبأ أي الخبر، إذ النبي مخبِر عن الله تعالىٰ، ومن مات لا يخبر؛ **قلنا له**: حدُّ النبوة صادقٌ عليه أبدًا حيًّا وميتًا كحكم نكاحه، كما قال ﷺ: «زوجاتي في الدنيا زوجاتي في الآخرة»[1]، وقال أيضًا: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»[2].

[الحكمة في عدم كون الرسل من الملائكة]

فإن قال قائل: هلا كان الحق تعالىٰ أرسل الملائكة بدل الرسل من البشر، لأنهم بهيئتهم الملَكية كانوا أدعىٰ إلىٰ الحق والاستجابة لهم، حتىٰ إن الكفار كانوا لا يقولون ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤]؛ **فالجواب**: أن السؤال قد سبق من كفار مكة، وأجابهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]. والمعنىٰ في ذلك والله أعلم: أن في الرسالة امتحانًا واختبارًا للناس، فينظر تعالىٰ ما يكون من عباده إذا أرسل إليهم رسولًا منهم، وهو العالم بما يكون قبل أن يكون هل يقوم بهم داء الحسد، فلا يطيعون ذلك الرسول، أم يطيعونه؟ إذ الحسد لا يكون إلا في الجنس الواحد، فليس بين البشر والملك حسد.

وأيضًا فإن غالب البشر لا يطيقون رؤيةَ صور الملائكة بحقائقهم وصفاتهم، فضلًا عن سماع كلامهم، والجنس إنما يستأنس بالجنس. ولا عجب من فزع الآدميِّ من صورة الملَك الذي يَسدُّ الخافقين بنشر جناح واحد من أجنحته[3].

---

(١) قال الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٢٨١) لم أجده بهذا اللفظ، وفي البخاري (٧١٠٠) عن عمار أنه ذكر عائشة فقال: إني لأعلم أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

(٢) أخرجه البزار (٦٨٨٨)، وأبو يعلىٰ (٣٤٢٥) والبيهقي في «حياة الأنبياء» (١).

(٣) إشارة إلىٰ حديث أخرجه البخاري (٣٧٤٨) عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ» قال: « رأىٰ جبريل، له ستمائة جناح»، زاد أحمد (٣٧٤٨) «كل جناح منها قد سد الأفق».

وقد ذكر الشيخ أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله أن الله تعالىٰ خلق في أقاصي بلاد الصين وجزائرها أناسًا لو أبصرونا خرُّوا لوجوههم موتىٰ. ولو أبصر واحد من صورة أحدهم لانشقت مرارته خيفة منه. انتهىٰ[1].

وحديث بدء الوحي مشهور، فإن رسول الله ﷺ مع قوته وشهامته لما رأىٰ المَلَك أولًا بجبل حراء، قاعدًا علىٰ كرسيّ بين السماء والأرض، وله صوتٌ هائل، امتلأ منه رعبًا وهوىٰ من الجبل إلىٰ الأرض، وجاء إلىٰ بيت خديجة وهو يقول: «زملوني زملوني»[2] فعلىٰ هذا لو بعث الله تعالىٰ ملائكةً رسلًا إلىٰ عباده، لفروا منهم ولم يطيقوا سماع كلامهم، بل ربما صعقوا لهيبتهم وماتوا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] أي لماتوا من هيبته في الحال.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: أولُ ابتلاءٍ ابتلىٰ الله الخلقَ به في الدنيا إرسالُه الرسل إليهم منهم. وكان من رحمة الله بنا أننا آمنا بهم من غير اجتماع. ولو أننا كنا في زمنهم، لربما قام بأحدهم داء الحسد، فلم يؤمن برسوله، فكان يدخل النار. انتهىٰ.

وكان يقول أيضًا: كان للصحابة كمالُ الإيمان، وللتابعين كمالُ العلم، ولتابع التابعين كمالُ العمل. ولما فات غير الصحابة مشاهدة رسول الله ﷺ، أعطاهم الله الإيمان بالغيب، جبرًا لما فاتهم من كمال الإيمان، فأشبهوا الصحابة في درجة إيمانهم بالغيب، بل قال بعضهم: إن الصحابة ما فضلوا إلا لمشاهدتهم رسول الله ومعجزاته. وأما نحن فصدَّقنا ما بلغنا عنه من غير مشاهدة شيء من أحواله، فكان لنا الفضل بذلك عند الله تعالىٰ حيثُ صدَّقنا وآمنا بما وجدناه منقولًا في أوراق سواد في بياض، ولم نطلب علىٰ ذلك دليلًا ولا ظهور آية، فلله الحمد علىٰ مجيئه بنا في الزمن الأخير، ولو أننا جئنا في عصره ﷺ لما عرفنا ما كان يقع عند مشاهدته ﷺ، هل إذا كان يقوم بنا داءُ الحسد فلا نطيقه، أم كنا نغلب نفوسنا ونطيقه؟ فإن الصحابة لولا مَنَّ الله تعالىٰ عليهم بقوة الإيمان،

---

(١) القزويني، «سراج العقول» (٣٥٧).

(٢) حديث بدء الوحي أخرجه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

لربما توقفوا عن تصديقه. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من فائدة كون الرسول من جنس المرسَل إليهم الاستئناسُ بحكم الجنسية، ليمكنها الأخذ عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لما اصطفىٰ الله تعالىٰ الأنبياء في سابق علمه للنبوة وأداء الرسالة، رشحهم كذلك في مبادئ أمورهم، وحماهم من مكايد الشيطان، وصفَّىٰ سرائرهم من الكدورات، وشرح صدورهم بنوره، وزينهم بالأخلاق الجميلة، وطهَّرهم عن الرجس والرذائل، كما يشهد لذلك ما في البخاري وغيره «من أن جبريل عليه السلام شقَّ عن قلب رسول الله ﷺ وهو يلعب مع الصبيان، فأخذه وصرعه وشقَّ عن قلبه، فاستخرج منه شبه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب من ماء زمزم، ثم لأمه وأعاده كما كان في مكانه»[1]. انتهىٰ.

وهذا لا يستحيل في العقل حتىٰ يحتاج إلىٰ التأويل كما أنكره الروافض ومن تبعهم. انتهىٰ.

قال سيدي علي الخواص رحمه الله: وليست صورةُ الشقِّ المذكور في الحديث مثلَ صورة شقِّ الذبح بالسكين كما قد يُتوهم، وإنما ذلك كشف لباطنه ﷺ بيد جبريل من غير ألم يصيبه أو دم يصبُّه، وحاشا حشاه ﷺ من مثل ذلك، بأبي هو وأمي.

قال: وهذا قريب مما قالوه في إخراج الذرية من ظهر آدم. وما توقف في تصور ما قلناه إلا من وقف مع المألوفات ولم يخرج عنها. ويؤيد ما قلناه قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١] أي لم يحصل في صدرك للهوىٰ منفذًا، ولا للشيطان عليك سبيلًا، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الثابت في البخاري حادثة شق صدره ﷺ في الإسراء (٧٠٧٩)، أما ما نقله الشيخ رحمه الله فقد أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الشرع جاء مخالفًا للطبع فهمًا من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧] الآية.

والجواب: أن الشرع ما جاءنا إلا بموافقة الطبع السليم، كما ذكره الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والتسعين ومئتين من «الفتوحات» وقال: إذا كان الأمر كذلك، فلا أدري من أين جاء الإنسان المشقة والكلفة. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن الصفات التي جُبِل الإنسان عليها لا يصح أن تتبدل، إذ هي ذاتية له في هذه النشأة الدنيوية والمزاج الخاص، وذلك كالشح والجبن والبخل، والحسد والحرص والتكبر، والغلظة وطلب القهر، وأمثال ذلك، ولما كانت لا تتبدل جعلَ الحقُّ تعالىٰ لها مصارف، وصرفها إليها حكمًا مشروعًا، فإن تبعت النفسُ تلك المصارف، سعدت ونالت الدرجات، وتجنبت إتيان المحارم، لما تتوقعه من خوف وقوع المضرة، وشحَّت بدينها، وحسدت من أنفق المال في مرضاة الله تعالىٰ، أو طلب العلم لله تعالىٰ وعمل به، وحرضت علىٰ فعل الخير، وتكبرت بالله تعالىٰ علىٰ من تكبر عن امتثال أمر الله، وأغلظت القول والفعل في كل موطن علمت أنه يرضي الله، وطلبت القهر لكل من عادىٰ الحق تعالىٰ وقاتل أولياءه، وهكذا.

فقد علمت بهذا أن النفس لم تزل عن صفاتها، وإنما صرفت تلك الصفات في المصارف التي علمت أن ربها يحمدها عليها، فالاسم الاسم، والمعنىٰ مختلف. وعلمت بذلك أيضًا أن الحق تعالىٰ لم يحجر علىٰ العبد ما يقتضيه طبعه كما توهمه صاحب السؤال السابق، فلم يهلك الخلق إلا سُلطان الأغراض النفسانية، فإنه هو الذي أدخل عليهم الألم والمكروه، ولو أنهم صرفوا أغراضهم إلىٰ ما أحبه لهم خالقهم، لاستراحوا ولم يلحقهم ضيق ولا حصر.

[حاجة الناس إلى نور التوفيق]

فإن قلتَ: فهل يحتاج الناس مع الشرع الوضَّاح إلىٰ أمر آخر في طريق هدايتهم؟

فالجواب: نعم يحتاجون إلىٰ نور التوفيق المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى

ﱡﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﱠ... ﴿اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[النور: ٣٥]، فلا تكمل الهداية إلا بنور الشرع مع نور التوفيق، والنور الواحد بمجرده لا يظهر له ضوء، ولاشك أن نور الشرع الآن قد وضح كوضوح الشمس، ومع ذلك فلم يبصره الأعمىٰ ولم يؤمن به، ولو كان نور البصيرة موجودًا كذلك بمجرده ولم يظهر للشرع نور، لم يدر صاحب نور البصيرة كيف يسلك؛ لأنه في طريق مجهولة لا يعرف ما فيها ولا ما ينتهي إليه، فالماشي في هذه الطريق إن لم يحفظ سراجه من الأهواء وإلا هبت عليه الرياح الزعازع، فأطفأته وأذهبت نوره. ومرادنا بالزعازع كل ريح تؤثر في نور توحيده وإيمانه، فإذا هبت ريح لينة، أمالت سراجه ولسانه- يعني السراج- حتىٰ تحير في الطريق، فتلك الريح كمتابعة الهوىٰ في فروع الشريعة، وهي المعاصي التي لا يكفر بها الإنسان، ولا تقدح في توحيده وإيمانه. فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣) ومما أجبتُ به من يتوهم أن المعجزة شرط لإجابة دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

والجواب: أن الذي عليه الجمهور من أهل الكشف أن المعجزة ليست بشرط في ذلك، لأنها ما خرجت عن كونها ممكنة، والقدرة لا تتعلق إلا بإيجاد الممكنات. وإذا أتىٰ الرسول بالممكن، فإنما يكون المعجِزُ في ذلك عدمَ الإتيان ممن أُرسل إليهم بمثل ذلك الذي تحدَّىٰ به الرسول، مع كون ذلك ممكنًا ولابد، فيحتمل وقوعه وعدم وقوعه.

ثم إذا نظرنا إلىٰ الذين انساقوا بالمعجزة إلىٰ الإيمان، رأينا أن ذلك إنما كان لاستقرار الإيمان عندهم، فتوقفت استجابتهم علىٰ المعجزة لضعف إيمانهم. وأما غيرهم فما احتاج إلىٰ ظهور ذلك، بل آمن بأول وهلة بما جاء به رسولُه، لقوة نصيبه من الإيمان، فلذلك استجاب بأيسر سبب. وأما من ليس له نصيب من الإيمان فلم يستجب بالمعجزة ولا بغيرها، كأبي جهل وأبي لهب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنعام: ١٢٥].

فقد علمت أن أصحاب العقول السليمة إذا شاهدوا المعجزات، لم يبقَ عندهم شك في أن ما جاء به ذلك الرسول حقٌّ من عند ربه عزَّ وجلَّ بخلاف العقول المؤوفة[1]. وفي مثل ذلك نظم بعضُ يهود الشام أبياتًا، وقدمها للشيخ صدر الدين القونوي[2]، فأجابه الشيخ عليها، وهي هذه:

أيا علماء الدين ذمي دينكم	تحير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضىٰ ربي بكفري بزعمكم	ولم يرضه مني فما وجه حيلتي
دعاني وسدَّ الباب دوني فهل إلىٰ	الدخول من سبيل بينوا لي قضيتي
قضىٰ بضلالي ثم قال: ارض بالقضا	فها أنا راض بالذي فيه شقوتي
فإن كنت بالمقضي يا قوم راضيًا	فربي لا يرضىٰ بشؤم بليتي
وهل لي رضا ما ليس يرضاه سيدي	وقد حرت دلوني علىٰ كشف حيرتي
إذا شاء ربي الكفر مني مشيئة	فها أنا راض باتباع المشيئة
وهل لي اختيار أن أخالف حكمه	فبالله فاشفعوا بالبراهين غلتي

فأجابه الشيخ صدر الدين رحمه الله بقوله[3]:

صدقتَ، قضىٰ ربي الحكيم بكل ما	يكون وما قد كان وفق المشيئة
وهذا إذا حققتَه متأملًا	فليس يسد الباب من بعد دعوة

---

(١) أي أصابتها آفة.

(٢) الشيخ الكبير الشهير صدر الدين، أبو عبد الله القونوي محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف. صحب الشيخ محي الدين ابن عربي. وله تصانيف في السلوك منها: «النفحات» و«تحفة الشكور» و«تجليات» و«تفسير الفاتحة» في مجلدة. توفي بقونية ٦٧٢هـ وأوصىٰ أن يُحمل تابوته إلىٰ دمشق ويُدفن مع شيخه ابن عربي فلم يتهيأ له ذلك. انظر: الوافي بالوفيات (٢/ ١٤١) وهدية العارفين (٢/ ١٣٠).

(٣) الصحيح أن الأبيات لعلاء الدين القونوي، وهو علي بن إسماعيل بن يوسف الشافعي، كان تقيًّا حسن السمت كثير العلم والإفادة، انتفع به الناس في مصر والشام، أقام بالقاهرة ثلاثين سنة، ثم ولي قضاء الشام وأقام دون عامين إلىٰ أن مات في رابع عشر ذي القعدة سنة (٧٢٩هـ) تسع وعشرين وسبعمائة وعمره (٦٢) سنة. «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (١٠/ ١٣٤).

لأن من المعلوم أن قضاءه ... بأمر على تعليقه بشريطة
يجوز لا يأباه عقل كما ترىٰ ... حدوث أمور أخرىٰ تأدت
كما الري بعد الشرب والشبع الذي ... يكون عقيب الأكل في كل مرة
فليس يبدع أن يكون مُعلَّقًا ... قضاء الإله الحق رب البرية
بكفرك مهما كنت بالبغي رافضًا ... تعاطي أسباب الهوىٰ مع مكنة
فمن جملة الأسباب مما رفضته ... مع الأمر والإمكان لفظ الشهادة
فأنت كمن لا يأكل الدهر قائلًا ... أموت بجوع إذ قضىٰ لي بجوعة

فلم يكتف اليهودي بهذا الجواب، وطلب منه جوابًا أوضح من ذلك، فقال له: الجواب الذي يريده لا يذكر إلا مشافهة لمن يكتم أسرار الله.

[حدُّ المعجزة التي أيَّد الله تعالى بها رسله عليهم السلام]

فإن قلتَ: فما حدُّ المعجزة التي أيَّد الله تعالىٰ بها رسله؟ **فالجواب:** قد حدَّها علماءُ الأصول بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة من المرسَل إليهم، بأن لا يظهر بينهم مثل ذلك الخارق.

والمراد بـ«التحدي» هو الدعوىٰ للرسالة، وبـ«المثل» هو المثل العادي وإن لم يقترن بالتحدي، إذ المراد اكتفاؤنا بدعواه الرسالة لا غير. فإذا قيل له: إن كنت رسولًا، فأتِ لنا بمعجزة، فأظهر الله تعالىٰ لنا علىٰ يديه معجِزًا، كان ظهوره دليلًا علىٰ صدقه، ونازلًا منزلة التصريح بتصديق الله له علىٰ التحدي. قالوا: وأصل التحدي أنه تَفَعُّل من الحَدِي، أي تكلف الحَدِي علىٰ وجه يباري فيه الحادي شخصًا آخر. وخرج بقولهم: «مقرون بالتحدي» الخارق المتقدم علىٰ التحدي، وذلك يتناول ما وُجِد من النبي قبل النبوة، وهو المسمىٰ عند علماء الأصول «إرهاصًا» أي تأسيسًا للنبوة من أرهصت الحائط إذا أسسته. وخرج أيضًا بـ«الخارق للعادة» غيرُ الخارق كطلوع الشمس كل يوم، والخارقُ من غير تحدٍّ، ككرامات

الأولياء(١)، وخرج أيضًا الخارق المتقدم علىٰ التحدي والمتأخر عنه بما يخرجه عن المقارنة العرفية، وخرج أيضًا الشِّعر والشعبذة والكهانة من المرسَل إليهم، إذ لا معارضة بذلك.

فمرادهم بالخارق علىٰ ما قررناه أن يظهر علىٰ خلاف العادة، كإحياء ميت، وإعدام جبل، وانفجار ماءٍ من بين الأصابع، ونحو ذلك.

[الفارق بين ما وقع على أيدي الأنبياء، وما سيقع على يد الدجَّال]

فإن قيل: قال العلماء: إن المعجزة دليل واضح علىٰ صدق الرسول لاستحالتها علىٰ يد كاذب، وقد ورد في الدجال أنه يحيي ويميت إذا خرج(٢)، فكيف الحال في ذلك؟

والجواب: أن ما يقع علىٰ يد الدجال أمور مُخيَّلة لا حقيقة لها، بخلاف ما يقع علىٰ يد الأنبياء، هذا ما ظهر لي في الجواب.

وقد توقف الشيخ محيي الدين في الجواب عن ذلك حيثُ سُئل عنه، وقال في باب الصلاة من «الفتوحات» في قوله ﷺ: «وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»(٣) إنما استعاذ ﷺ من فتنته تشريعًا لأمته لا منه، لعظيم فتنته، وذلك لما يظهر للخلق في دعواه الألوهية، وما يخيله للناس من الأمور الخارقة للعادة، مثل: إحياء الموتىٰ وإمطار السماء، وغير ذلك مما ثبت في الأخبار والآثار. ثم إن جعله ذلك آيات علىٰ صدق دعواه في غاية الإشكال، وذلك من أكبر القوادح فيما قرره أهل الكلام في العلم بالنبوات من استحالة المعجِزة علىٰ

---

(١) ويجوز أن يتحدىٰ الولي بكرامته علىٰ دعوىٰ ولايته، وحينئذٍ تفارق الكرامة المعجزة أن المعجزة خارق يتحدىٰ به علىٰ دعوىٰ الرسالة، والكرامة خارق يتحدىٰ به علىٰ دعوىٰ الولاية، قال الشيخ عبد الله الشرقاوي في حاشيته علىٰ الهدهدي: « والصحيح أنه يجوز أن يدعي الولاية ويتحدىٰ بالكرامة، أي يدعيها دليلًا علىٰ صدقه، فيقول: أنا ولي الله تعالىٰ. وآية ولايتي أن ينفلق البحر مثلًا. ويعلم أنه نفسه ولي بخلق علم ضروري له بذلك. وحينئذ فلا تفترق المعجزة من الكرامة إلا بدعوىٰ الرسالة فقط. وعلىٰ هذا يكون تعريف المعجزة المذكور شاملًا للكرامة، فإن كلًّا أمرٌ خارق للعادة مقرون بالتحدي».

(٢) أخرجه البخاري (١٨٨٢)، ومسلم (٢٩٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٩٨) ومسلم (٥٨٩).

يد الكاذب، فإنه يبطلُ بهذه الفتنة عند من لم يبلغه تكذيبه من الصادق كلُّ دليل قرروه.

وأيُّ فتنة أعظم من فتنة تقدح في الدليل الذي أوجب السعادة للعباد؟![1] فأسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا وإخواننا من أهل الكشف والوجود، الجامعين بين المعقول والمشهود، آمين. انتهىٰ.

وكان الشيخ أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله يقول: البرهان القاطع علىٰ ثبوت نبوة الأنبياء هو المعجزات، وهو فعل يخلقه الله تعالىٰ خارقًا للعادة علىٰ يد مدعي النبوة مقترنًا بدعواه. وذلك الفعل يقوم مقامَ قول الله عزَّ وجلَّ له: «أنت رسولي» تصديقًا لما ادعاه.

مثاله: قام إنسان في ملأ من الناس بحضرة ملك مُطاع، فقال: يا معشر الحاضرين، إني رسول من عند هذا الملك، وإن علامة صدقي أن الملك يقوم فيرفع التاج عن رأسه. فيقوم الملك في الحال ويرفع التاج عن رأسه عقب دعوىٰ هذا المدعي، أليس ذلك الفعل منه يتنزل منزلة قول الملك: صدقتَ أنت رسولي؟ لكن يجب أن يراعىٰ في ذلك ثلاثة أمور كما قررناه، وهي: الفعل الخارق للعادة، واقترانه بالدعوىٰ، وسلامته من المعارضة، إذ لو رفع الملك التاج بقول غيره أو بعد ذلك بمدة لا يكون حجة لهذا المدعي. فهذه الثلاثة أمور بمجموعها برهان قاطع علىٰ صدق مدعي الرسالة نازل منزلة التصديق بالقول، وهو مثل حصول العلم بسائر الأشياء من شواهد المقال وقرائن الأحوال.

[رد قول المعترض: إن اقتران المعجزة بدعوى النبي لا ينهض دليلًا على صدقه]

فإن قيل: إن اقتران المعجزة بدعواه لا ينهض دليلًا علىٰ صدقه، لأن نفس الاقتران بالإضافة إلىٰ دعواه وإلىٰ غير دعواه من طريق الأقوال والأفعال بمثابة واحدة؛ **فالجواب**: أن سبيل تعريف الله تعالىٰ عباده صدق الرسل بالمعجزات، كسبيل تعريفه تعالىٰ ألوهيته

---

(١) وقد أجاب الإمام الشعرانيُّ عما يقع علىٰ يد الدجَّال بأنه أمور متخيَّلة غير حقيقية يفتن بها ضعاف العقول، فإن الدجل هو إظهار الباطل في صورة الحقِّ، وما كلُّ أحد ينفذ بصره حتىٰ يدرك الأمور المتوهمة ويميزها عن غيرها. انظر: «اليواقيت والجواهر» (المبحث التاسع والعشرين). وانظر تعليقه علىٰ الموضع المذكور في «مختصر الفتوحات المكية» ص: (١/ ٣٢٠).

بالآيات الدالة عليها، وذلك قد يكون مرة بالقول ومرة بالفعل. فتصديق القول كقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وتصديقه بالفعل كما علَّم آدم الأسماء كلَّها، ثم قال للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، وقد علَّم الله تعالىٰ نبيَّنا ﷺ القرآن، ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] [و] كما عجزت الملائكة عن معارضة آدم عليه الصلاة والسلام، كذلك عجزت العرب عن معارضة محمد ﷺ بالقرآن، فدلت الأسماء هناك والقرآن هنا علىٰ صدق النبي الذي هو أول الأنبياء، وعلىٰ صدق محمد الذي هو آخر الأنبياء، فعلىٰ هذه الصفة صح أن المقترن بدعواه المعجزة له تأثير عظيم وينتهض دليلًا، بخلاف الاقتران بما لا يعجز الخلق عنه عادة.

[خرق العوائد على وجوه كثيرة]

فإن قلتَ: فهل خرق العوائد أمر متحد أم هو علىٰ وجوه كثيرة؟ **فالجواب**: هو علىٰ وجوه كثيرة، منها ما يكون عن قوة نفسية، فإن أجرام العالم تنفعل للهمم النفسية، هكذا جعل الله تعالىٰ الأمر فيها؛ وقد تكون عن حيل طبيعية كالقلفطريات ونحوها، وهي معلومة عند العلماء؛ وقد تكون عن نظم حروف بطوالع، وذلك لأهل الرصد؛ وقد يكون بأسماء يتلفظ بها ذاكرها، فيظهر عنها ذلك الفعل المسمَّىٰ خرق عادة في عين الرائي لا في نفس الأمر، وهذه الأمور كلها تحت قدرة المخلوق بجعل الله تعالىٰ.

قال الشيخ أبو طاهر: ولا يكون خرق العادة إلا لمن خرق العادة من نفسه بكثرة العبادة والطهارة الباطنة والظاهرة، بحيث صار منقادًا للشرع في كلِّ حركة وسكون، فإن خرق العادة إن لم يكن عن استقامة فهو مكر واستدراج لصاحبه من حيثُ لا يشعر.

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي يقول: ليس خرق العادة إلا مرة واحدة، فإذا عاد ثانيًا صار عادةً، [و] في الحقيقة الأمر جديد دائمًا، وما ثم ما يعود، فما ثم خرق عادة، وإنما هو أمر يظهر في زي غيره لا عينه، فلم يعد فما هو عادة. فلو عاد لكان عادة، وانحجب الناس عن هذه الحقيقة. قال: وقد نبهتك علىٰ ما هو الأمر عليه إن كنت تغفل ما أقول،

لأن الله تعالىٰ خلَّاق علىٰ الدوام، فأين التكرار؟![1]

فإن قلتَ: فكم يكون الإعجاز علىٰ ضرب؟ **فالجواب**: يكون علىٰ ضربين لا ثالث لهما: **الأول**: أن يمكن صدقه، فيدعي في ذلك أن الذي هو مقدور لكم في العادة إذا أتيتُ به دليل علىٰ صدق دعواي، فإن الذي أرسلني يصرفكم عنه، فلا يقدرون علىٰ معارضته، وكل من كان في قدرته ذلك يجد العجز في ذلك الوقت، فلا يقدر علىٰ إتيان ما كان قبل هذه الدعوىٰ يقدر عليه، وهذا أقطع للبس[2] من **الضرب الثاني**، وهو أن يأتي بأمر لا يكون في مقدور البشر أبدًا، ولا يقدر عليه إلا الله، كإحياء الميت ونحوه من إنزال المطر، لكن الوصولُ إليه علىٰ طريق العلم أنه حي في نفس الأمر عزيزٌ لا يدركه إلا أهل الكشف منا، فإننا رأينا عصا موسىٰ حية، وعصي السحرة حيات، ولم يفرق العامة بين الحياتين، فلهذا كان الوصول إلىٰ علم ذلك عزيزًا جدًّا[3].

[المراد بتلقُّف عصا موسى لما صنعوا]

فإن قلتَ: فما المراد بتلقُّف عصا موسىٰ لما صنعوا؛ **فالجواب**: المراد بتلقفها انكشاف الحال للسحرة والناس أنها حبال وعصي حين ظهرت حجة موسىٰ عليهم، لا أن الحبال والعصي انعدمت، إذ لو انعدمت لدخل عليهم اللبس في عصا موسىٰ، وكانت الشبهة تدخل عليهم فلا يؤمنون، فتنبه يا أخي لذلك فإنه نفيس، وإيضاحه أن الله تعالىٰ قال: تلقف ما صنعوا، والسحرة لم يصنعوا الحبال والعصي بسحرهم، وإنما صنعوا في أعين الناس صور الحيات، وهو الذي تلقَّفته عصا موسىٰ، ولو كان علىٰ خلاف ما قلنا، لقال: «تلقفت حبالهم وعصيهم» فكانت الآية عند السحرة خوف موسىٰ من الحيات، وأخذ صورها من الحبال والعصي. وعلىٰ ما توهمه بعضهم من أن عصا موسىٰ ابتعلت الحبال والعصي في بطنها يقال: إن الذي جاء به موسىٰ من قبيل ما جاءت به السحرة، إلا

---

(١) انظر «الفتوحات»، الباب ١٨٦.

(٢) بالأصلين: للنفس. والمثبت من «الفتوحات».

(٣) انظر «الفتوحات»، الباب ١٨٧.



أن سحر موسىٰ أقوىٰ من سحر السحرة.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: إنما أظهر موسىٰ الخوف من عصاه حين ظهرت في صورة حية، ليعلم السحرة أن ذلك منه ليس بسحر، لعلمهم أن أحدًا لا يخاف من فعل نفسه. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أن المرادَ بتلقفها للحبال والعصي انكشافُ الحال للناس والسحرة أنها حبال وعصي، كما يبطل الخصمُ بالحقِّ حجةَ خصمِه ويظهر بطلانها، لا انعدم الحبال والعصي. ذكره في الباب السادس عشر والباب الأربعين من «الفتوحات».

قال: والسحر مأخوذ من السَّحَر الزماني، وهو اختلاط الضوء والظلام، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، ولا هو بنهار لعدم طلوع الشمس، فكذلك القول في هذا الذي يُسمَّىٰ سحرًا ما هو باطل محقق فيكون عدمًا، فإن العين أدركت أمرًا ما لا شك فيه، وما هو حقٌّ محض، فيكون له وجود في عينه، فإنه ليس هو في نفسه كما يشهده العين ويظنه الرائي، والله أعلم.

[هل قولهم «كل معجزة لنبي تجوز أن تكون كرامة لوليٍّ» مطلق أم مقيَّد]

فإن قلتَ: فهل يجب تقييد كلام العلماء في قولهم: «ما كان معجزة لنبي، جاز أن يكون طريقة لولي» بقيد أم هو مطلق؟ **فالجواب**: الذي عليه الجمهور أن ذلك جائزٌ مطلقًا ما لم يكن من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وخالف في ذلك المعتزلة والشيخ أبو إسحاق الإسفرايني[1] فقالوا: لا يجوز أن يكون ما ظهر معجزةً لنبي أن يكون مثله كرامةً لوليٍّ من سائر الخوارق، وإنما مبلغ الكرامة إجابة دعوة، أو موافاة ماء في محل لا يُعهَد فيه ماء، ونحو ذلك مما ينحط عن خرق العادات.

---

(١)) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفرايني، الملقب بركن الدين، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي. نشأ في إسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج إلىٰ نيسابور وبنيت له فيها مدرسة عظيمة فدرّس فيها. من مؤلفاته: «الجامع في أصول الدين»، و«رسالة في أصول الفقه. توفي:٤١٨هـ. وفيات الأعيان (١/ ٢٨)، الأعلام (١/ ٦١).

وقال الشيخ محيي الدين: ما قاله الأستاذ رضي الله عنه هو الصحيح عندنا، إلا أنا نشترط أمرًا آخر لم يذكره الأستاذ، وهو أنا نقول: لا يجوز أن تكون المعجزة كرامةً لوليٍّ إلا إذا قام الوليُّ بذلك الأمر المعجِز عادةً علىٰ وجه التصديق لذلك النبي، دون أن يقوم به علىٰ وجه الكرامة لنفسه، فلا يمتنع ذلك كما هو مشهود بين الأولياء.

قال: ويقع لنا كثير من ذلك، قال: اللهم إلا أن يقول ذلك الرسول في وقت تحديه بمنع وقوعها من غيره في ذلك الوقت خاصة، أو في مدة حياته خاصة، فإنه جائز أن يقع ذلك الفعل كرامة لغيره بعد انقضاء زمانه الذي اشترطه. وأما إن أطلق ذلك النبي ولم يقيد، فلا سبيل إلىٰ ما قال الأستاذ . انتهىٰ. ذكره في الباب السابع والثمانين بعد المئة من «الفتوحات».

وظاهر إطلاقهم أنه لا فرق في تلك المعجزة التي تصح أن تكون كرامةً لوليٍّ بين القرآن وغيره للزوم التحدي به أيضًا[1]. وبذلك صرح اليافعي رحمه الله قال: ولا التفات إلىٰ من يقول: إن ذلك يؤدي إلىٰ الالتباس بين الكرامات والمعجزات، لأن بينهما فرقًا واضحًا، وهو أن المعجزة إذا توقفت الإجابة عليها، يجب علىٰ النبي أن يتحدىٰ بها ويظهرها. والكرامة يجب علىٰ الوليِّ أن يخفيها إلا عن ضرورة أو إذن أوحال غالب عليه لا يكون له فيه تعمُّلٌ ولا اختيار. ومن ذلك أن يريد بإظهارها تقوية يقين المريدين، كما وقع لبعضهم أنه غرف عسلًا من الهواء ووضعه في يد مريده. وأيضًا فإن الولي لا يدعو إلا إلىٰ شرع مقرر ثابت لا شك فيه، فهو بحكم التبع لنبيه فيما دعا إليه، فلا يحتاج إلىٰ دليل علىٰ صحة طريقه ودعواه، بخلاف النبي، لأنه يدعو بشرع أتاه من ربه عزَّ وجلَّ ربما يكون فيه نسخ شريعة لغيره، فيحتاج إلىٰ ما يؤيده.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كانت معجزات الأنبياء بحسب ما هو غالب علىٰ قومهم، فأتىٰ موسىٰ بما يبطل السحر لما كان السحر غالبًا علىٰ قومه، وأتىٰ عيسىٰ بإبراء الأكمه والأبرص لما كان الطب غالبًا علىٰ قومه، وأتىٰ محمد ﷺ بالقرآن

---

(١) أي وليس ذلك مرادًا لهم، فلا يقع التحدي بمثل القرآن، بل يقع التحدي بأسرار القرآن، فيكون للولي كرامة، وللنبي معجزة.

الكريم المعجِز بفصاحة كل بليغ و مِصْقَع[1] فصيح، لما كان الغالب على قريش التفاخر بالفصاحة والبلاغة. انتهىٰ.

[الرد على من يعترض على كون القرآن معجزة مع أنه ليس فعلًا]

فإن قال قائل: قد شرطتُم في المعجزة أن تكون فعلًا كما مر، ثم إنكم ادعيتم أن القرآن معجزة، والقرآن كلام الله وصفة من صفاته كالعلم والقدرة، فلو جاز أن يكون صفة الكلام معجزة، لجاز أن يكون صفة العلم والقدرة معجزة؛ **فالجواب**: أن المعجِز حقيقة إنما هو الله تعالىٰ، فإنه خالق العجز والقدرة. وإنما سُمِّي الفعلُ الخارقُ للعادة معجزةً علىٰ طريق التوسع والمجاز لا علىٰ الحقيقة، كمن نظر إلىٰ صاعقة تقع من السماء فيقول: انظروا إلىٰ قدرة الله تعالىٰ، والحال أنها إنما هي من آثار قدرته لا عين قدرته، فإن العجز إنما يكون عن مقدور عليه، وليس إحياء الميت مثلًا من مقدور البشر حتىٰ يقال إنه عجز عن إحياء الموتىٰ.

وقد يحس الإنسان من نفسه عدم القدرة علىٰ شيء، والقدرة علىٰ شيء، ويعلم أن عدم القدرة ليس بعجز مطلقًا، كما أن عدم العلم ليس بجهل مطلقًا، فإن الجدار مثلًا عادم للعلم وليس بجاهل، لفقده شرط العلم والجهل معًا الذي هو الحياة.

والعامة يعبرون عن عدم القدرة بالعجز، وذلك وهم وتخييل، لأن العجز يقارن المعجوز عنه، كالقدرة تقارن المقدور عليه، فعُلِمَ أن مرادهم بقولهم القرآن معجزة، أي من حيثُ نظمُه وتأليفُه علىٰ الهيئة الغريبة والأساليب العجيبة، وذلك من فعل الله تعالىٰ الخالق لكل شيء. فمن هنا كان معجزة لنبينا ﷺ؛ لأن الله تعالىٰ قد أعجز جميع قومه أن يأتوا بمثله دلالةً علىٰ صدق رسوله ﷺ. وليس مرادهم بقولهم القرآن معجزة من حيثُ إنه صفة قائمة بذات الله تعالىٰ، فزال الإشكال، لأن القرآن يُطلق علىٰ القراءة وعلىٰ المقروء، كما هو مقرر في علم الكلام، فافهم.

(١) مِصْقَع: فصيح بليغ.

[الفرق بين المعجزة والكرامة]

فإن قلتَ: فما الفرق بين المعجزة والكرامة؟ **فالجواب:** قد ذكر الأئمة في ذلك فروقًا كثيرة، فقال بعضهم: إن الفرق بينهما أن المعجزةَ تقع عند قصد النبي وتحديه، والكرامةَ تقع من غير قصد الولي. وضعَّف بعضهم هذا الفرق وقال: إنه يجوز أيضًا أن الكرامة تقع بقصد الولي، وإنما الفرق الصحيح أن المعجزة تقع مع التحدي، والكرامة لا يتحدىٰ بها الولي. وقال بعضهم: التحدي لا يختص بالنبي، فيجوز للوليِّ أن يتحدىٰ بكرامته علىٰ ولايته إذا عرف في ذلك مصلحة ومنفعة له وللخلق، ليهديهم إلىٰ طريق الحقِّ. وقال بعضهم: الفرق بينهما أن المعجزة لا تقع إلا بعد دعوىٰ ومع سكوته لا يكون معجزة، بخلاف الكرامة يجوز أن تقع مع كلامه ومع سكوته معًا، والله أعلم.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ؒ يقول: أظهر الفروق بين المعجزة والكرامة ما قاله أشياخنا: إن الولي إذا ادعىٰ بالفعل الخارق أنه وليٌّ صُدِّق، لأنه لا يقدح في معجزة النبي. وإن ادعىٰ بالفعل الخارق أنه نبي كذبناه، والكاذب لا يكون وليًّا لله تعالىٰ، فلا يظهر علىٰ يديه ما يظهر علىٰ أيدي الأنبياء والأولياء. ويؤيد ذلك قولُ الأشياخ: إن المعجزات علامات صدق حيثُ وُجِدَت، فلا تظهر علىٰ يد الأولياء إذا ادعوا النبوة، لأنها لو وُجدت عندهم لانقلب الصدق كذبًا، وذلك محال، والله أعلم.

[الفرق بين السحر والشعبذة]

فإن قلتَ: فما الفرق بين السحر والشعبذة؟ **فالجواب:** أن السحر في اللغة أداء الباطل في صورة الحق؛ والشعبذة خفة اليد في تقليب الأشياء، منسوبة إلىٰ رجل اسمه شعباذ معرَّب.

[السحر ثابت واقع]

فإن قلتَ: فهل السحر حق؟ **فالجواب:** نعم، هو عندنا حق علىٰ معنىٰ أنه ثابت واقع، خلافًا للمعتزلة والروافض والدهرية في إنكارهم السحر. ودليلُنا علىٰ ثبوته إجماعُ الأمم سلفًا وخلفًا من المسلمين والكفار من بلاد الإسلام وبلاد الهند والروم والفرس، ونطقُ القرآن بذلك.

[الفرق بين المعجزة والسحر والشعبذة]

فإن قلتَ: فما الفرق بين المعجزة والسحر؟ فالجواب: أن من الفرق بينهما أن المعجزة قد تبقىٰ بعد النبي زمانًا، والسحرُ سريعُ الزوال.

فإن قلتَ: فما الفرق بين الشعبذة والمعجزة؟ فالجواب: أن المعجزة يُظهرها النبيُّ علىٰ رؤوس الأشهاد وعظماء البلاد. وأما الشعبذة فلا يظهرها صاحبها إلا علىٰ الصغار وضعفاء العقول وجهلة الناس.

[السحر لا يبدل الصورة]

واعلم يا أخي أن الناس قد اختلفوا في السحر وأثره، فقيل: إنه يمكن به تبديل الصورة، فيقلب الإنسان كلبًا أو خنزيرًا أو تمساحًا. والذي يظهر لنا أن مثل ذلك من خرافات العوام والنساء.

وأما التفريق به بين المرء وزوجه فهو ثابت بصريح القرآن، وقد ذمت الشريعة الساحر، لأن الله تعالىٰ قد أمر بالاجتماع والألفة، والساحر يفرق بين الناس غالبًا.

ثم إن الله تعالىٰ لما علم أزلًا أن الافتراق لابد منه لكل مجموع مؤلَّف، لحقيقة خفيت عن الخلق، شرع لنا الطلاق رحمةً بنا، لنكون تحت الإذن في جميع أحوالنا، محمودين عنده غير مذمومين، إرغامًا للشياطين الذين يطلبون التفرقة بين الخلق، ومع ذلك فقد ورد «أبغض الحلال إلىٰ الله الطلاق»[1] وذلك لأنه كالرجوع إلىٰ العدم، فإن بائتلاف الطبائع ظهر وجود التركيب، وبعدم الائتلاف كان العدم وتعطيل كثير من تأثيرات الأسماء الإلهية، فلأجل هذه الرائحة، كره التفريق بين الزوجين وغيرهما، لعدم الائتلاف والاجتماع، والله أعلم.

[الفرق بين المعجزة والكهانة]

فإن قيل: فما الفرق بين المعجزة والكهانة؟ فالجواب: أن الفرق بينهما أن المعجزة فعل خارق للعادة مقرون بالتحدي -كما مر تقريره- يقوم مقام تصديق الله تعالىٰ لذلك الرسول

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨)، والبيهقي في السنن (١٤٨٩٤).

بالقبول. وأما الكهانة فهي كلمات تجري علىٰ لسان الكاهن تارة توافق، وتارة تخالف. ومن الفرق بين الكاهن والنبي: أن النبي لا يكون قط إلا كامل الخُلُق والخَلْق، وأما الكاهن فالغالب عليه أن يكون ناقص الخَلْق، مختل العقل، فإن قُدِّر أنه ادعىٰ النبوة بكهانته، فربما يقابله بدعواها كاهن آخر، فلا يُقدَر علىٰ الفرق بين الكاهنين البتة، بخلاف النبوة، فإن النبي إذا تحدىٰ بالمعجزة وقابله مدعٍ كاذب لا يجوز أن يظهر له معجزة مثل معجزة الصادق. وقد تقدم أن معنىٰ المعجزة تصديق الله الصادق، فكيف يكون تصديقًا للكاذب؟! فاعلم ذلك.

[ردُّ قول من يجوِّز إظهار المعجزات على يد الكاذب]

فإن قلتَ: إذا جوزتم إضلال الله من شاء من عباده وإغواءهم فما يشعركم أنه تعالىٰ يؤيد بالمعجزة بعض الكذابين إضلالًا وإغواء؛ **والجواب**: أن ذلك محال، لأن تأييد الله تعالىٰ العبد بالمعجزة نازل منزلة قول الحق تعالىٰ لذلك العبد: «صدقتَ وأنت رسولي» كما مرَّ، وتصديق الكاذب من المحال لذاته وعينه، إذ كلُّ من قال الحقُّ تعالىٰ له: «أنت رسولي» صار رسولًا وخرج عن كونه كاذبًا، والجمع بين كونه كاذبًا وكونه رسولًا صادقًا محال.

وكان أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله يقول: ذكر بعض الأئمة أن إظهار المعجزة علىٰ يد الكاذب من المقدورات، بناءً علىٰ أن ما علم الله أن لا يكون لا يخرج عن كونه مقدورًا، وخلاف المعلوم مقدور، ثم هو وإن كان مقدورًا فهو غير واقع قطعًا، كما لا ينقلب العلم جهلًا، والقدرة عجزًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤) ومما أجبتُ به من عنده قصور نظر عن معرفة أسرار الشارع في بعض الأحكام التي أباحها، ويجد في نفسه ضيقًا وحرجًا من فعلها ويقول: أي شيء أعمل؟! هذا شيء أباحه الشرع! كأنه يقول في نفسه: إن عنده من الحكم ما هو أحوط في الدين، ولا يتفكر في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ **[النساء: ٦٥]**

والجواب: أن من اختار غير ما اختار الله تعالىٰ، حُرِم الإيمان أو قَرُب من الكفر، كما

يقع في ذلك كثيرًا من غلب عليه الخبث، فيرىٰ أمورًا قد أباحها الشارع، فيكره ذلك ويجد في نفسه منها ضيقًا وحرجًا، ويقول: لو أن الحكم لي فيها، لحجرتُها وحرمتُها، فيرجِّح نظره في ذلك علىٰ نظر الشارع، ويجعل نفسه أرجح ميزانًا منه، وينخرط في سلك الجاهلين.

وقد كان الشيخ محيي الدين يقول: إياك أن تعيب علىٰ الناس وتغضب عليهم إذا فعلوا أشياء من مباحات الشرع، وتقول إذا عجزتَ عن كف الناس عنها: أي شيء أصنع؟! هذا شيء قد أباحه الشرع! فتصير علىٰ كره وحنق في نفسك في استعمال الناس شرع ربهم، وذلك من أعظم ما يكون من سوء الأدب. ذكره أواخر باب الحج من «الفتوحات» وأطال في ذلك[1].

ثم قال: ومثل هذا المعترض ممن أضله الله علىٰ علم، فإننا نعلم ونتحقق أن الشارع[2] هو الله. وأما الرسول فإنما هو مبلِّغ عن الله تعالىٰ في أحكامه فيما أراه الله، لا ينطق قط عن هوىٰ نفسه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وفي الحديث: «وسكت عن أشياء رحمةً بكم فلا تسألوا عنها»[3]، فما قرر الشارع من الشرائع إلا ما تحصل به المصلحةُ في العالم، فلا يُزاد فيها ولا يُنقَص منها. ومهما زيد فيها أو نقص منها أو لم يعمل بما قرره الشارع، فقد اختل نظامُ المصلحة المقصودة للشارع فيما أنزله من الشرائع وقرره من الأحكام. وقد عاب العارفون بالله تعالىٰ علىٰ من قال: لو رأىٰ النبي ﷺ ما أحدث الناس من كذا أو كذا، ما أباحه؛ لإيهام هذا القول أن الله تعالىٰ لم يعلم أن مثل ذلك يقع من عباده إذ كان هو المشرِّع سبحانه وتعالىٰ لا غيره، فرجَّح مثل هذا نظره علىٰ نظر الله تعالىٰ، ولا يخفىٰ ما فيه.

فإن قلتَ: فإذا كان الله تعالىٰ هو المشرِّع وحده، فما معنىٰ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

(٢) بالأصلين: الشرع. والمثبت من «الفتوحات» وهو الصواب.

(٣) أخرجه الحاكم بنحوه (٧١١٤)، والبيهقي في «السنن» (١٩٧٢٥) والدارقطني في «السنن» (٤٣٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٩) وقال ابن حجر في المطالب العالية (٢٩٣٤): رجاله ثقات إلّا أنه منقطع.

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فهل دعاء الله غير دعاء الرسول أو هو عينه؟ فالجواب كما قال الشيخ في الباب التاسع عشر وخمسمئة من «الفتوحات»: إن دعاء الله تعالىٰ له خصوصية علىٰ دعاء الرسول، وذلك أن الرسول إن دعانا بالقرآن فهو مبلِّغ وترجمان عن الله تعالىٰ، والله تعالىٰ هو الداعي لا الرسول، فإجابتنا حينئذٍ لله تعالىٰ، والإسماع للرسول. وأما إذا دعانا بغير القرآن، فهذا هو دعاء الرسول، فتكون إجابتنا فيه للرسول. ثم إنه لا فرق في الحقيقة بين الدعاءين ولا بين الإجابتين، لرجوع ما دعانا به الرسول إلىٰ الله تعالىٰ، وإن تميز[1] كل منهما عن الآخر بخصوص وصف. وقد روي الطبراني مرفوعًا: «إني شرعت لكم مثل القرآن أو أكثر»[2]، وفي حديث آخر: «إن الله تعالىٰ فرض فرائض، وفرضتُ فرائض»[3].

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: من استحكم فيه سلطانُ الإيمان بما أنزل الله تعالىٰ، لا يجد في نفسه قط حرجًا مما قضي الشرع بإباحته صريحًا أو سكت عنه، كاجتماع الناس في مواضع التنزهات، وحضور النساء الواعظ، والتفرج علىٰ خروج الحاج[4] ونحو ذلك. وفي الحديث: «لا تمنعو إماء الله مساجد الله»[5] قولًا عامًا، فلا يمنع النساء من المساجد إلا عند حصول ريبة أو فاحشة، وحينئذٍ لا فرق بين المساجد وغيرها، كخروجها للسوق لبيع غزلها مثلًا.

---

(١) بالأصلين: يمين. والمثبت من «الفتوحات».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما أخرجه أبو داود (٣٠٥٠) من حديث العرباض بن سارية السلمي بلفظ «ألا وإني والله قد وعظت، وأمرت، ونهيت، عن أشياء إنها لمثل القرآن، أو أكثر»، والبيهقي في «السنن» (١٨٧٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٧٢٢٦).

(٣) الجزء الأول منه أخرجه الطبراني في الصغير (١١١١)، والدارقطني في السنن (٤٨١٤) أما الجزء الثاني من الحديث «وفرضت فرائض» فلم أقف عليه.

(٤) أي علىٰ موكب الحجاج.

(٥) أخرجه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢).

ثم شرطُ المنع التحقُّقُ لا التوهُّم، فلا ينبغي للفقيه أن يغار إلا في المواطن التي شَرَع الحقُّ تعالىٰ له الغيرةَ فيها ولا يتعداها، فإن كلَّ غيرةٍ خرجت عن حكم الشرع، فهي خارجة عن حكم تمام العقل، وعن الأدب مع الشارع، لانبعاثها من هوىٰ النفس، كما إذا غار الشخصُ علىٰ زوجته إذا كشفت وجهها في الصلاة أو في الإحرام، فإن الله تعالىٰ قد شرع لها ذلك، بل أوجب عليها كشف وجهها في الإحرام، مع أنه أغير من جميع خلقه، كما في حديث الصحيحين: «إن سعدًا لغيور، وأنا أغير من سعد، والله تعالىٰ أغير منا»[١]، وفي رواية: «لا أحد أغير من الله، ومن غيرته أنه حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[٢]. انتهىٰ.

فمن زاد علىٰ ما جعل الله تعالىٰ له الغيرةَ فيه، فكأنه يقول: أنا أغير من الله ومن رسوله؛ لأنه قد غار علىٰ أمر ليس هو بفاحشة عند الله تعالىٰ. وما أحسن قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، فإنه تعالىٰ نفىٰ الإيمان عمن هذه صفته، وأقسم بنفسه تعالىٰ لنبيه أن من وجد حرجًا ولم يسلم، فليس بمؤمن، فلو عرض هذا المعترض حالَ نفسه في الإيمان، لوجدها بعيدة عن مقام الإيمان. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول: لولا تعلق الأغراض النفسانية ما أنزل الله تعالىٰ آية الحجاب، فإنها إنما أنزلت باستدعاء بعض النفوس، ولذلك كان أهل الله تعالىٰ يفرقون بين الحكم الإلهي إذا نزل ابتداءً من الله تعالىٰ، وبين الحكم الإلهي إذا كان نزوله بعد استدعاء بعض العباد، فكأنه تعالىٰ مسؤول في ذلك الحكم[٣].

قال: وقد كان ﷺ يحب التخفيف عن أمته ما أمكن. وقال لمن سأله عن الحج: «أكل عام يا رسول الله؟ قال: لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولم تستطيعوا»[٤].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو عوانة في المستخرج (٤٧١٨)، وأصله عند مسلم (١٤٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠) بلفظ: «ولذلك حرم الفواحش»... بدلا من: «ومن غيرته أنه...».

(٣) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٣٣٧)، وأحمد (١٠٦٠٧).

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول[١]: من أدب العارف أن يأخذ الأمر الإلهي المنزَّل ابتداءً بالاعتناء به أشد من الاعتناء بما نزل عن سؤال، فالله تعالىٰ يُفهمنا وإخواننا مقاصد الشارع، حتىٰ لا نخرج عما شرع.

ثم إن المرجحين نظرهم علىٰ نظر الشارع في المعنىٰ علىٰ قسمين: **أحدهما**: من يغلِّب الحرمة؛ **والثاني**: من يغلِّب رفع الحرج عن هذه الأمة رجوعًا إلىٰ الأصل، فهذا الثاني أقرب منزلة عند الله تعالىٰ من الذي يغلِّب الحرمة، إذ الحرمة أمر عارض عرض للأصل، ورافع الحرج قد دار مع الأصل الذي يعود حال الناس في الجنة إليه يتبؤون من الجنة حيث شاؤوا، وأطال في ذلك[٢].

ثم قال: فإياك يا أخي وهوس الطبيعة، فإن العبد ممكور به وهو لا يشعر، وما أغفل أهل الأهواء عن هذه المسألة وإن كانوا مؤمنين! «وقد دعا بعض الصحابة رسول الله ﷺ إلىٰ طعامه، فقال له النبي ﷺ: وهذه؟ وأشار إلىٰ عائشة رضي الله عنها. فقال الرجل: لا، فأبىٰ أن يجيبه مرارًا حتىٰ قال: نعم، فخرج النبي ﷺ وعائشة يتدافعان حتىٰ وصلا إلىٰ منزل ذلك الرجل»[٣]. وفي القرآن العظيم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأين إيمانك اليوم؟! وأين تأسيك برسول الله ﷺ في مثل ذلك لو رأيت صاحب منصب من شيخ أو قاض أو وزير أو سلطان يفعل مثل هذا تأسيًا برسول الله ﷺ؟ هل كنت تنسبه إلا إلىٰ سَفْسَاف الأخلاق؟ وكذلك كان ﷺ يردف زوجته وراءه علىٰ البعير وغيره، وأظنك لا تفعل اليوم مثل ذلك، بل تعيب علىٰ من فعله وغاب عنك أن مثل هذه الأمور لو لم تكن من مكارم الأخلاق ما فعلها رسول الله ﷺ، فإنه بُعِث ليتمم مكارم الأخلاق[٤].

---

(١) الكلام المنقول عن الخواص نقله المصنِّف عن الشيخ الأكبر في «مختصر الفتوحات» فلعل الشيخ الخواص قاله علىٰ سببيل الحكاية عن الشيخ الأكبر، أو توافق كلام الخواص مع كلام الشيخ الأكبر.

(٢) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

(٣)أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه مسلم (٢٠٣٧)، والنسائي (٣٤٣٦).

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

وكان الشيخ محيي الدين ﷺ يقول: عليك يا أخي بالغَيْرة الإيمانية الشرعية لا تزد عليها، فتشقىٰ في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فلكونك لا تزال متعوب النفس فيما لا ينبغي الاعتراض عليه. وأما في الآخرة فلما يؤدي إلىٰ سؤال الحق تعالىٰ لك عليه، بنحو قوله تعالىٰ: كيف ترجِّح نظرك علىٰ نظري ونظر رسولي؟ انتهىٰ(١).

وذكر أيضًا في الكلام علىٰ صلاة العيدين من «الفتوحات» أن من الأدب مع الشارع أن لا يشتغل العبد في يوم العيد إلا بما شرعه الشارع للنفوس من أكل وشرب وبعال، فإن هذه الأمور في يوم العيد مثل سنن الصلاة في الصلاة، وإن كان أصلها مباحة، فتعود سنةً في يوم العيد، كما أن جميع ما يفعله يوم العيد من الفرائض بمنزلة الأركان في الصلاة، فلا يزال العبد في يوم العيد في جميع أفعاله كالمصلي.

قال: ولهذا سُمِّي يوم العيد؛ لأنه يعود علىٰ الإنسان بالأجر في كلِّ مباح يفعله تأسيًا. وقد قررنا مرارًا أن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام [يعطي](٢) بذاته الاعتراض عليهم من النفوس الأبية إذا أمروها بما لا تهواه، فلذلك شرع لنا أن نسلِّم علىٰ نبينا في التشهد، كأنا نقول: أنت في أمان من اعتراضنا عليك يا رسول الله، أو مخالفة شرعك، لتقر بذلك عينه ﷺ. انتهىٰ.

وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في مبحث وجوب الإذعان لما جاءت به الرسل من كتابنا المسمىٰ بـ«اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» فراجعه ترَ العجب، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥) ومما أجبتُ به من يتوهم من نحو قوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ **[طه: ٤٤] أنهما كانا يغلظان القول علىٰ فرعون، ومن يتوهم من نحو قوله تعالىٰ لنبينا محمد ﷺ:** ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ **[الحجر: ٨٨]، وقوله:** ﴿أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾

(١) نفس المصدر والباب.

(٢) زيادة ضروية لاستكمال السياق.

[الزمر: ١١]، وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥] **ونحوها أنه ﷺ كان متكبرًا قبل أن يخفض جناحه، أو غير مخلص قبل أن يؤمر بالإخلاص، أو مرتكبًا للرجز قبل أن يؤمر بهجره.**

والجواب: أن ذلك وهم باطل، فإن عنصر الأنبياء مطهَّر مما ذُكِر بسابق العناية لا بعمل عملوه، ولا بخير قدَّموه، فلم يكن في أحدٍ منهم قبيح اللفظ، ولا متكبرًا ولا مرائيًا ولا متلطخًا برجز لتقديس ذواتهم، ولكن الحق تعالىٰ اختار لهم أن تكون أحوالُهم كلُّها تحت أمره لا بحكم الطبع، ليحصل لهم ثواب امتثال الأمر، فإن من ليس هو تحت أمر لا ثواب له بحكم الأصالة شرعًا، وإن كان النبي ﷺ قال لحكيم بن حزام: «أسلمتَ علىٰ ما سلف لك من خير»[1] حين سأله عن أمور كان تبرر بها في الجاهلية، فافهم.

وسمعتُ مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الغلظة الناشئة عن حظ النفس. وإن وقع من أحدهم غلظة، فإنما ذلك غيرة لجناب الحقِّ حين انتُهكت حرماتُه. انتهىٰ.

[مدخَل تكبر فرعون وأبي جهل وغيرهما ممن لم يمتثل أمر الرسل]

فإن قلتَ: فمن أين دخل التكبر علىٰ فرعون وأبي جهل وغيرهما ممن لم يمتثل أمر الرسل عليهم الصلاة والسلام، والحقُّ تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال ابن عباس: إلا ليعرفون، ومن عرف الله تعالىٰ كيف يصح له التكبر علىٰ رسله وما جاء به رسله؟ **فالجواب**: أنه دخل الكبر علىٰ من خالف الرسل من جهة القسمة الإلهية. والنكتة في ذلك كونه تعالىٰ أضاف العبادة التي هي الذلة والافتقار إليهم في اللغة، فلو قال تعالىٰ: «وما خلقتُ الجن والإنس إلا لأذلهم» لم يصح من أحد تكبر من سائر الجن والإنس، كما لا يصح تكبر من غير التعليق علىٰ أحد.

[سبب تكبر الثقلين عن الاستجابة دون غيرهما]

وقد سُئل الشيخ محيي الدين رحمه الله عن سبب تكبر الثقلين دون غيرهما [من سائر

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٦) (٢٢٢٠)، ومسلم (١٢٣).

المخلوقات، فقال: سبب تكبر الثقلين دون غيرهما][1] كون المتوجه على إيجادهما أسماء اللطف والحنان والرحمة والشفقة والتنزل الإلهي، فلما أبرزهم إلى هذا الوجود، لم يروا عظمة غيرهم ولا عزّه ولا كبرياءه ولا جبروته، فقالوا: ربنا لم خلقتنا؟ فقال تعالىٰ: لتعبدوني، أي لتكونوا أذلاء بين يدي، فلم يروا صفة قهر ولا عزة تذلهم، ورأوا الحقَّ تعالىٰ قد أضاف فعل الإذلال إليهم، فتكبروا بذلك. ولو أنه تعالىٰ قال: ما خلقتكم إلا لأذلكم، لبادروا إلىٰ الذلة من نفوسهم، خوفًا من سطوة هذه الكلمة وقهرها، كما قال تعالىٰ للسماوات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] لأجل قوله تعالىٰ ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ فافهم.

وأما غير الثقلين فإنما لم يقع منهم تكبر، لأن المتوجِه علىٰ إيجادهم من الأسماء الإلهية أسماءُ الجبروت والكبرياء والعظمة والعزة والقهر، فلذلك خرجوا أذلاء تحت هذا القهر الإلهي، فلم يتمكن لهم أن يرفعوا أنفسهم علىٰ أحد من خلق الله عزَّ وجلَّ فضلًا عن رسل الله، بل لم يجدوا في أنفسهم طمعًا للكبرياء علىٰ أحد[2]، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦) ومما أجبتُ به من يتوهم جواز أن الله تعالىٰ قد يخاطب أولياءه بأمر يخالف ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من غير علم الرسل.

والجواب: أن ذلك ممتنعٌ قطعًا، فإن كلَّ ولي محبوس في دائرة رسوله لا يصح أن يصل إلىٰ حضرة الله تعالىٰ إلا بواسطة نبيه، فلا يصح أن الحقَّ يسارر وليًا بحكم يخالف شرع نبيه أصلًا، ولا يجوز تصديقه علىٰ ذلك؛ لأن الله قد راعىٰ شرعَه الظاهرَ علىٰ لسان نبيه، فلو قال إنسان: إن الله تعالىٰ أباح لي الحرامَ الفلانيَّ، أو أوجب عليَّ المندوبَ الفلانيَّ؛ كذبناه، لأن في تصديقه نسخ الشريعة المطهَّرة، ولا يكون نسخ شريعتنا إلا علىٰ

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر: «الفتوحات» الباب (٤٩).

لسان نبينا لعدم وجود من ينسخ شرعه إلىٰ يوم القيامة. ومن هنا يُعلَم أن قولَ بعض أهل الشطح: «إن أكل الحرام أو ترك الصلاة لا يؤثر فيَّ» كذبٌ علىٰ الله تعالىٰ.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في باب أسرار الصوم من «الفتوحات» أنه لو كُشِف لوليٍّ عن تقدير الله تعالىٰ عليه معصيةً لا يجوز له المبادرة إلىٰ فعلها، كما لا يجوز له المبادرة إلىٰ الفطر في يوم كشف له أنه يمرض فيه، بل يجب عليه التربصُ حتىٰ تقع المعصية في فعله[1] أو سهوًا أو يحصل له المرض، وذلك لأن الله تعالىٰ ما شرع له الفطر إلا مع التلبس بالحال المبيح للفطر.

قال: وهذا هو مذهبنا ومذهب المحققين من أهل الله تعالىٰ عزَّ وجلَّ. وأما قوله ﷺ لعمر بن الخطاب: «وما يدريك أن الله تعالىٰ اطلع علىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غَفرتُ لكم؟»[2] فلا ينافي ما قلناه، لأنه قال: قد غفرتُ لكم، ولم يقل أبحتُ لكم، بل أبقىٰ المعاصي علىٰ حالها، والمغفرة لا تكون إلا عن وجود ذنب.

فإن قلتَ: فإذا كُشِف للعبد عن كون الحقِّ تعالىٰ لا يؤاخذه علىٰ معصية، فهل يجوز له فعلها؟ **فالجواب**: لا يجوز له ذلك، علىٰ أن الاطلاع علىٰ عدم مؤاخذته ليس عندنا بواقع أصلًا، وإن كان جائزًا عقلًا.

وقد ذكر الشيخ في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» أن باب الوحي بالأحكام قد أُغلِق بعد موت محمد ﷺ إلىٰ يوم القيامة، وما بقي للأولياء إلا وحي الإلهام بتعريف الولي بأسرار الشريعة لا غير، وذلك داخل في جملة الشريعة غير خارج عنها. ولو أن الوحي علىٰ لسان جبريل كان باقيًا بعد موت محمد ﷺ، لكان عيسىٰ إذا نزل ربما لا يحكم بشريعة محمد ﷺ، وإنما كان يحكم بشريعته التي يوحي بها إليه جبريلُ، وقد صحَّت الأحاديث بأنه يحكم إذا نزل بشريعة محمد ﷺ. انتهىٰ.

ومما يؤيد أن باب الوحي قد أُغلِق بعد موت رسول الله ﷺ أيضًا قولُ الشيخ في الباب

---

(١) بالأصلين: عقله. والموضع منقول بالمعنىٰ من «الفتوحات» وما أثبتناه الأنسب للمعنىٰ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٥)، ومسلم (٢٤٩٤) بلفظ: «لعل الله اطلع ...».

الثامن والثلاثين من «الفتوحات»: اعلم أن الله تعالىٰ لما أغلق باب الرسالة بعد موت رسول الله ﷺ، كان من أشد ما تجرعت الأولياءُ مرارتَه، لانقطاع الوحي الذي يكون به الوصلة بينهم وبين الله تعالىٰ، ولكن قد لطف الله تعالىٰ بهم، وجعل لهم الحضور معه حال مُناجاته بكلامه في الصلاة وغيرها. انتهىٰ.

ومما يؤيد ذلك أيضًا قولُه في الباب الثالث والسبعين: اعلم أنه بموت رسول الله ﷺ ارتفعت نبوة التشريع، لقوله ﷺ: «إن النبوة والرسالة قد انقطعتا، فلا نبي بعدي ولا رسول»(١) أي لا نبي بعدي ولا رسول يشرِّع شريعةً مستقلةً غيرَ شريعتي، فلا يصح لأحد أن يشرِّع بعد رسول الله شرعًا مستقلًا أبدًا، وإنما يشرِّع المجتهدون ما اقتضاه نظرُهم في الأحكام، فهو من جملة شريعته؛ لأنه هو الذي قرر حكم المجتهد، وأعطاه الدليل في ذلك، فلولا تقريره ذلك ما ساغ لنا اتباعُ أحد بعده، بدليل أن المجتهد لو شرع شيئًا لم يعطه الشارع فيه دليلًا، فلا يُعمل به، لأنه شرع ما لم يأذن به الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب العاشر وثلاثمئة من «الفتوحات»: قد ارتفعت نبوة التشريع بموت رسول الله ﷺ، وانسدت أبواب الأوامر الإلهية والنواهي، فلا أحد يصح له أن يدعي شرعًا مستقلًا بعده ﷺ إلىٰ يوم القيامة. ومن ادعىٰ ذلك، وجب علينا تكذيبه سواء أوافق ذلك شرع محمد ﷺ أو خالفه.

قال: وأما قبل بعثة محمد ﷺ، فلم يكن في ذلك تحجير، ولذلك قال العبد الصالح خضرٌ عليه الصلاة والسلام: وما فعلتُه عن أمري، فإن زمانه أعطىٰ ذلك، وهو علىٰ شريعة من ربه فيما أمره تعالىٰ به، وقد شَهِد له الحقُّ تعالىٰ بذلك عند موسىٰ وعندنا وزكَّاه. وأما اليوم فإن الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام علىٰ شريعة محمد ﷺ إما بحكم الوفاق، وإما بحكم الاجتماع. وعلىٰ كل حال، فذلك لا يكون لهما إلا من باب التعريف الإلهي علىٰ يد ملك الإلهام لا بواسطة جبريل، وذلك ليس بنبوة، وكذلك عيسىٰ إذا أُنزل لا يحكم إلا بشريعة محمد ﷺ يُلهمه الله تعالىٰ بها علىٰ سبيل التعريف لا علىٰ سبيل

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٧٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٨١٧٨)، وأبو يعلىٰ (٣٩٤٧).

النبوة وإن كان نبيًا. انتهىٰ.

وذكر الشيخ أيضًا في الباب العاشر وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أن الوحي لا ينزل به الملك قط بعد موت محمد ﷺ علىٰ أحد من الأولياء، فضلًا عن غيرهم، ولا يأمره بأمر إلهيّ جملة واحدة، لأن الشريعة قد استقرت وتبين الفرض والمندوب والحرام والمكروه والمباح، فانقطع الأمرُ الإلهيُّ بانقطاع النبوة والرسالة، وما بقي أحد من خلق الله تعالىٰ يأمره الله تعالىٰ بأمر يكون شرعًا يتعبد به أبدًا.

فإن قُدِّر أنه تعالىٰ أمره بفرض أو غيره أو نهاه عن حرام أو غيره، كان الشارع قد سبقه به. وإن قال: إن الله تعالىٰ أمرني بفعل المباح الفلاني؛ قلنا له: لا يخلو أن يرجع ذلك المباح في حقِّك واجبًا أو مندوبًا، وذلك عين نسخ الشريعة التي أنت عليها، حيث صيرتَ المباح واجبًا يُعصَىٰ الله تعالىٰ بتركه، أو مندوبًا برأيك. وإن قال: إنما أوحي إليّ بأن المباح مباح علىٰ حاله الذي جاءت به الشريعة؛ قلنا له: لا فائدة إذًا في الوحي الذي جيء به إليك. وإن قال: لم يخبرني بذلك ملك، وإنما أمرني الله تعالىٰ به من غير واسطة؛ قلنا له: هذا أعظم من الأول، لأنك ادعيتَ أن الله تعالىٰ كلَّمك كما كلَّم موسىٰ عليه الصلاة والسلام، ولا قائل بذلك لا من علماء النقل ولا من علماء الذوق. ثم إنه تعالىٰ لو كلَّمك أو قال لك ما كان يلقي إليك في كلامه إلا علومًا وأخبارًا، لا أحكامًا وشرعًا، بل لا يصح أن يأمرك بأمر جملة واحدة. انتهىٰ.

وقال في الباب الحادي والعشرين: من قال بعد محمد ﷺ من الأمة أن الله تعالىٰ أمره بشيء، كذَّبناه وقلنا له: هذا تلبيسٌ من النفس أو الشيطان، فإن الأمرَ من قسم الكلام وصفته، وذلك باب قد سُدَّ بعد رسول الله ﷺ، وما بقي في الحضرة الإلهية أمرٌ تكليفيٌّ إلا وهو مشروع، وما بقي للأولياء إلا سماع الشريعة وامتثال أمرها واجتناب نهيها.

فإن قلتَ: إن للأولياء المناجاة الإلهية مع الله تعالىٰ؛ قلنا: المناجاة لا أمر فيها ولا نهي، وإنما هي كالدعاء أو الحديث والسمر، وما وصل أحد من الأمة إلىٰ المحل الذي أخذ منه محمد ﷺ الشرع أبدًا ولا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقال في الباب الثاني والستين وأربعمئة: اعلم أن الله تعالىٰ قد ختم بشرع محمد ﷺ جميع الشرائع، فلا رسول بعده يشرِّع شريعةً إلا ما قرره من اجتهاد علماء أمته في استنباط الأحكام من الكتاب والسنة.

قال: وأعني بالسنة الحديث لا الاستنباط من قياس فرع علىٰ فرع، بل فرع علىٰ أصل، فإن قياس الفرع علىٰ الأصل هو الحقيق باسم الاستنباط والاجتهاد. وقد جعل العلماء القياس أصلًا رابعًا، كما جعلوا الإجماع أصلًا ثالثًا، وقالوا: إن الأمة لم تجمع علىٰ أمر إلا ولا بد أن يعرفوا له دليلًا يرجعون إليه، ولكن لم يصل إلينا ذلك، وذلك لأن فطر العلماء مختلفة ونظرهم مختلف، وإذا أجمعوا علىٰ أمر، فذلك الأمر مقطوع به، وهم فيه علىٰ بصيرة من شرع نبيهم. انتهىٰ.

[الفرق بين تنزل الوحي على قلب النبي وتنزله على قلب الوليِّ]

فإن قلتَ: فما الفرق بين تنزل الوحي علىٰ قلب النبي وتنزله علىٰ قلب الولي؟

فالجواب كما قاله الشيخ في الباب العاشر ومئة: أن الفرق بينهما أن تنزله علىٰ النبي يكون علىٰ قلبه وعلىٰ صدره، وذلك لكون نبوته مشهودة له. وأما تنزله علىٰ الوليِّ من طريق ملَك الإلهام، فيكون من جنبه من خلف حجب كثيرة، وذلك لأن الوحي له علىٰ يد ملك مغيَّب لا يراه، فهو للولي في الظَّهْر لا في الظهور. وإلىٰ ذلك الإشارة بقول القوم: إن أبا يزيد البَسْطَامي لم يمت حتىٰ استظهر القرآن، أي من الله تعالىٰ عليه بتعرف معاني القرآن من جهة ظهره بطريق الإلهام. ومن استظهر القرآن هكذا فهو الذي أدرجت النبوة بين جنبيه كما ورد[1].

قال الشيخ محيي الدين: وأنا ممن استظهر القرآن كذلك، حتىٰ أني نسيتُ آيات من القرآن، فأتاني بها ملَك الإلهام عن الله تعالىٰ، ورأيتُ لها حلاوةً وذوقًا لم أجده قبل ذلك. هكذا قال ﷺ، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الحاكم (٢٠٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحىٰ إليه...» وابن أبي شيبة (٢٩٩٥٣).

(٢٧) ومما أجبتُ به من يتوهم من نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤] أن لرسول الله ﷺ أن يتصرف بالعبارة فيما أنزله الله تعالىٰ عليه، وأن هذا القرآن ترجمة محمد ﷺ لا من ترجمة الله تعالىٰ لما فيه من الصوت والحرف.

والجواب: قد أجمعت الأمة سلفًا وخلفًا علىٰ أن ما نتلوه بالحرف والصوت هو كلام الله حقيقة، ولا يلزم من تلاوتنا له بالصوت والحرف أن يكون في أصله بصوت وحرف، وذلك كما ينطق الواحد منا بالقرآن بصوت وحرف، وهو في قلبه لا صوت ولا حرف، وأكثر من ذلك لا يُقال.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في الباب الحادي والستين وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أن الله تعالىٰ لما أنزل الكتب الإلهية لم يكتف بنزولها من غير إبانة الرسل لها، لما في العبارة من الإجمال والتفصيل. ومعلوم أنه لا يفصِّل العبارة إلا العبارة، فنابت الرسل مناب الحق تعالىٰ في تفصيل ما أجمله في كتابه. ولولا أن حقيقة الإجمال سارية في العالم ما شُرِحَت الكتب، ولا تُرجِمَت من لسان إلىٰ لسان، ولا من حال إلىٰ حال، قال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] وهو ما أنزل خاصة. وأما ما فصَّله الرسول وأبان عنه فهو تفصيل ما نزل لا عين ما نزل، إذ البيان وقع بعبارة أخرىٰ. انتهىٰ.

وقد قلتُ مرةً لسيدي عليّ الخوَّاص ﵀: هل كان لرسول الله ﷺ أن يتصرف فيما أنزل الله تعالىٰ عليه بعبارة من تلقاء نفسه؟ فقال: لا يصح ذلك، وحاشاه من مثل ذلك حاشاه! قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] فلو صدق في حقِّه أنه تصرف في القرآن، لكان مبلِّغًا لنا عبارته هو وفهمه لا عين ما أنزل الله، وذلك محال أن يقع منه، لعصمته ﷺ عن مثل ذلك.

ثم إنه ﷺ إذا تصرَّف في العبارة فلا يخلو إما أن يأتي بعبارة تنقص معانيها عن معاني كلام الله، أو جامعة لمعاني الكلام علىٰ التمام، وكلاهما ممتنع في حقه. ثم أيُّ فائدة لعدوله ﷺ عن كلام الله تعالىٰ وإتيانه بكلام آخر؟! فتأمل واعتقد أن رسول الله ﷺ ما بلغ الأمة إلا عين ما نزل عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨) ومما أجبتُ به من يتوهم في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي قصها الحقُّ تعالىٰ عنهم أنهم كغيرهم من الناس، فيَلْحَق الذمُّ بهم كآحاد الناس.

والجواب: أن حال الأنبياء يخالف حال غيرهم في سائر الأحوال لارتفاع مقامهم، فلو قُدِّر أن أحدًا من الأنبياء وقع في صورة الذنب، فهو يترقىٰ به كطاعاته، بخلاف غيرهم من الأمم، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: إن الأنبياء لا ينقلون قط من حال إلا لأعلىٰ منه، لترقيهم مع الأنفاس. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ إذا أراد إيقاع صورة مخالفة من عبد مقرَّب لحكمة يظهرها في الوجود بحسب ما سبق به في علمه، فلا بد أن يزين لذلك العبد المقرب الوقوعَ في تلك المخالفة بتأويل يقع له فيه وجهة الحق، لا يقصد به ذلك المقرَّب انتهاك حرمة أحكام الحق، ولا يستحضر قبح ما يفعله، لأن معرفة المقرَّب وحضور عقله يمنعه من الوقوع في مسمَّىٰ المخالفة، كما سيأتي بسطُه في الجواب عن آدم عليه الصلاة والسلام إن شاء الله تعالىٰ.

ثم إن ذلك المقرَّب إذا وقع منه ذلك الفعل بتأويل أو تزيين، فلا بد أن يظهر الله تعالىٰ له فساد ذلك التأويل الذي أداه إلىٰ فعل ما ذُكر، كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام حين وقع في الأكل من الشجرة بالتأويل.

ثم إذا علم بفساد ذلك التأويل وأنه خطأ، علم حينئذٍ أنه عصىٰ الأمر، لغلبة سلطان الإرادة عليه، وحكم عليه لسان الشريعة بالعصيان، ويشهد علىٰ نفسه عند نفسه أنها عصت. أما حال وقوع الفعل فلا يظهر له أنه عصىٰ لشبهة التأويل، فكان حكم المقرَّب في حال نفوذ الأقدار فيه بالتأويل، كحكم المجتهد في زمان فتواه إياه بأمر ما اعتقادًا منه أن ذلك عين الحكم المشروع في المسألة.

ثم في الزمان التالي يظهر له بالدليل أنه أخطأ، فيكون لسان الظاهر يحكم عليه أنه مخطيء في زمان ظهور الدليل الأول لا قبل ذلك. وبعيدٌ أن يأتي أحد من المقربين مسمَّىٰ المخالفة بتعشق وميل كما يقع لآحاد الناس، فافترق حكم المقرَّبين عن حكم غيرهم. وفي كلام السلف الصالح: ليس من يأتي المخالفة وهو يبكي كمن يأتيها وهو يضحك.

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والخمسين وخمسمئة من «الفتوحات»: اعلم أن مشهدَ الأنبياء والأكابر وقوعُ الأفعال الإلهية علىٰ يديهم من حيثُ ما هي وقوع لا من حيثُ ما هي حكم، تنزيهًا لهم عن انتهاك حرمة، وذلك من جملة ما يكون لهم من الشهود الأخروي، عجله الله تعالىٰ لهم في هذه الدار. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تعتقد في الأنبياء أنهم كغيرهم من مسمًّىٰ المعصية والخطيئة، فإنهم في حضرة الإحسان علىٰ الدوام، مشاهدون لرؤية الله تعالىٰ لهم، فلا يصح منهم وقوع معصية حقيقية، وكذلك كُمَّل ورثتهم من الأولياء.

فإن قيل: قد سُئل أبو يزيد البَسْطَامي ﷺ: هل يزني العارف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ **فالجواب**: أن مرادَ العارفين عدمُ التحجير علىٰ الحقِّ تعالىٰ، لغلبة شهودهم لحضرة الإطلاق التي يفعل الله منها ما يشاء، فكذلك جوَّز أبو يزيد وقوعَ العارف في الزنا أدبًا مع الله تعالىٰ، هروبًا من التحجير والتقييد، كأنه يقول: إن كان الحقُّ تعالىٰ قدَّر علىٰ العارف في سابق علمه ذلك وقع وإلا فلا، لكن لا بد للعارف من حجاب حتىٰ يقع، أدناه التأويل والتزيين.

ويؤيد ذلك حديث: «إذا أراد الله تعالىٰ إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم، حتىٰ إذا أنفذ فيهم قضاءه وقدره، ردَّها عليهم ليعتبروا» رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»[١]، ومعنىٰ «ليعتبروا» ليستغفروا ويتوبوا فورًا، و«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٢] كما ورد في الصحيح.

واعلم يا أخي أنه ليس المرادُ بهذه العقول التي تُسلَب عقولَ التكاليف الشرعية، لأن

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٠٨)، والديلمي (٩٦٦) قال الحافظ السخاوي: رواه، أبو نُعيم في «تاريخ أصبهان» ومن طريقه الديلمي في «مسنده» من حديث سعيد بن سليمان بن حرب عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس به مرفوعًا، وكذا أخرجه الخطيب وغيره بلفظ: «إن الله إذا أحب نفاذ أمر» وذكره، وأعله الخطيب بلاحق بن الحسين، وقال: إنه كذاب يضع. انتهىٰ، وسعيد أيضًا متروك. انظر: المقاصد الحسنة (ص: ٨٠)، ولم أقف عليه في «نوادر الأصول».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٢٨١)، والبيهقي في «السنن» (٢٠٥٦١).

ذلك يؤدي إلىٰ رفع إثم المعاصي من الأرض جملةً، لخروج العاصي عن حد التكليف. وإنما المراد بها تعقل حضور العبد مع الله حال المعصية، إذ من المحال أن يعصي أحد ربه علىٰ الكشف والشهود. فاعلم ذلك وإياك والغلط، والله تعالىٰ أعلم.

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والستين وثلاثمئة من «الفتوحات» في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] أن المراد بـ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ هنا المعصومون من الأنبياء، والمحفوظون من الأولياء، لأن هؤلاء الذين أخلصهم الله تعالىٰ إليه بما ألقىٰ إليهم وفيهم من نور العصمة والحفظ، فلا يجد الشيطان إليهم سبيلًا يسلك إليهم منه، فإذا عجز إبليس من ذلك النبي أو الولي، تجسد له في صورة إنسان مثله، فيتخيل الولي مثلًا أنه إنسان ويأتيه بالإغواء من قبل أذنه، فيُدْخِل له فيما حُجِرَ عليه التأويلات، أدناها أن ذلك التأويل يسهل عليه الوقوع في تلك المخالفة، ويقول له: لا يضرك مثل هذا الذنب، لتكفيره باستغفارك وطاعاتك، ولولا الذنب ما كانت المغفرة، ويقول له: أيش كنت أنت؟! فإنك لم تقدّر علىٰ نفسك الذنب، ولو أنك لم تذنب لم يظهر للحق تعالىٰ حكم علىٰ عباده، كما أشار إليه حديث: «لو لم تذنبوا»[1] ويطيل له إبليس في التأويلات. وإنما يفعل مع المؤمن ذلك لعلمه لعنه الله أن الإنسان العاقل لا يقدم علىٰ معصية الله تعالىٰ ابتداءً دون تأويل وتزيين من النفس أو الشيطان.

ثم إنه إذا جاء للمؤمن بهذه الأمور وزيَّن له سوء عمله حتىٰ رآه حسنًا، مال المؤمن إلىٰ الوقوع في المخالفة، لا يكاد يشعر به إلا الفَطِن الحاذق في دينه، وصار كأنه من أهل الاجتهاد عند نفسه إن أخطأ فله أجر، وقال له الشيطان: أنت مأجور علىٰ كل حال، وحينئذٍ يتم للشيطان مراده من العبد. وإن أيقظ الله العبد لكيد هذا العدو، لم يتم له مراده، ورد إبليس خاسئًا.

وتأمل يا أخي في إبليس لما أُري أن آدم محفوظ من الله تعالىٰ، وجنود العصمة قد أحاطت به من جميع الجهات كيف قال له: إن الله تعالىٰ ما نهاك إلا عن القرب من الشجرة لا من الأكل منها؛ فجاءه بصورة القرب لا بصورة الأكل، وصدق إبليس وهو

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٧٤٩)، والترمذي (٢٥٢٦).

الكذوب في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] [وكذلك كان الأمر والله، فأورثه ذلك الأكل الخلد في الجنة والملك الذي لا يبلىٰ][(١)] والاجتباءِ، وما قال له: متىٰ، بل عمّىٰ عليه الأمر.

[الفرق بين الإرادة من الله، والأمر من الله]

فإن قلتَ: ما الفرق بين الإرادة من الله والأمر من الله، فإن المعاصي بإرادة الله لا بأمره؟ **والجواب**: أن فلك الإرادة واسع، فلا يتوقف علىٰ ما فيه رضا الله، بل يكون فيه وفي غيره، فإن الأمر فيه نوع ترجيح لرضا الله وحث علىٰ الوقوع، بخلاف الإذن والإرادة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. هذا من حيثُ الحكمُ الشرعيُّ، وأما من حيثُ كونُ الطاعة والمعصية خلق الله تعالىٰ علىٰ يد المكلَّف، فمؤداهما واحد لرجوعهما إلىٰ واحد. وقد قال ﷺ: «والخير كله في يديك، والشر ليس إليك»[(٢)] ففرق بين الخير والشر، مع علمه بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، فاعلم ذلك، وارفع مقام الأنبياء علىٰ غيرهم كما هو في نفس الأمر، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩) ومما أجبتُ به من يتوهم أن استغفار الأنبياء ومغفرة الله لهم لا بد أن يكونا عن ذنب وقعوا فيه، ولو لم نعرفه نحن.

والجواب: قد أجمع أهل الكشف علىٰ أنه لا يُشترَط في استغفار الأكابر وجودُ ذنب وقع منهم، كما صرح به الشيخُ محيي الدين في الباب السابع والأربعين ومئتين من «الفتوحات». وإنما يستغفرون مما لعله يقع منهم في المستقبل من الأمور التي كان ينبغي سترها عنهم، بمعنىٰ أن الله تعالىٰ يحول بينهم وبين الوقوع فيها، حذرًا من حيثُ حضرةُ الإطلاق، وإلا فهم عالمون بعصمتهم من حيثُ حضرةُ التقييد.

قال: ولهذا ما بلغنا عن نبي قط أنه ندم علىٰ ما قاله مما أُوحِيَ به إليه.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠).

قال: وأما ما كان عن نظر من غير وارد وحي، فقد يندم على ما جرىٰ منه، كما وقع له في أسارىٰ بدر، وكما وقع له في تأبير النخل لما مر على الأنصار وهم على رؤوس النخل، فقال: «ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يا رسول الله، يلقِحُون النخل. فقال: ما أرىٰ هذا يجدي شيئًا؛ فتركوا التلقيح، فجاء البلح شِيصًا[1]، وقل حمل النخل، فأخبروه بذلك. فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: ١١٠]، فإذا أخبرتكم بشيء عن الله فخذوه، وما أخبرتكم به من قبل نفسي، فأنتم أعلم بأمور دنياكم»[2]. انتهىٰ.

وقد سألت سيدي عليًّا الخواص عن مثل ذلك، فقال: لا ينقص مقام الأنبياء بنقص تدبيرهم في أمور الدنيا، لغلبة الاشتغال بالله تعالىٰ وبالدار الآخرة علىٰ قلوبهم، حتىٰ لم يبقَ لأحدهم التفات إلىٰ عمارة دار ولا ترقيع ثوب ولا غسله، لكن لم يمت رسول الله ﷺ حتىٰ صار أعلم الناس كلِّهم بأمور الدنيا، لا يشغله ذلك عن ربه ولا عن الدار الآخرة. انتهىٰ. وفي القرآن العظيم: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: ١١٠]، فساواهم، ثم قال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فانصرف عنهم.

وقد أجاب أكابر العلماء عن استغفار رسول الله ﷺ بأنه إنما كان لأمته لما أوحىٰ الله تعالىٰ إليه بما يكون بينهم من الحروب والفتن بعده، فكان كلما تذكر ذلك، استغفر لهم. ويؤيده كونه ﷺ أطلق الاستغفار وقال: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»[3] فلم يقل: «أستغفر من ذنوبي التي أقع أنا فيها» فافهم.

فقلتُ له: فما تقولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فجعل له ذنبًا؟ فقال ﷺ: المراد بالذنب ذنب أمته. وإنما أضافه له من حيثُ إنه مشرِّع مبيِّن، فلولا بيانه لما كان ذنبًا، فاسم الذنب مضاف إليه، والفاعل به غيره. انتهىٰ، وسيأتي بسط ذلك في الأجوبة عن نبينا ﷺ.

---

(١) الشِّيصُ: تمر لم يتم نضجه لسوء تأبيره أو لفسادٍ آخَرَ.

(٢) أخرج قصة تأبير النخل مسلم (٢٣٦١)، وأحمد (١٣٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧)، والترمذي (٣٢٥٩).

فإن قال قائل: فما تقولون في استغفار غيره من الأنبياء؟ فالجواب: كان استغفار الأنبياء السابقين على زمن رسول الله ﷺ ومغفرة الله تعالىٰ لهم إنما هو من جهة كون الحقِّ تعالىٰ ستر عنهم كونهم نوَّابًا لمحمد ﷺ مدةَ غيبة جسمه في الأصلاب، فكانوا يظنون أنهم أنبياء مستقلون غير نواب له، فلأجل ذلك استغفروا حين أطلعهم الله تعالىٰ علىٰ كونهم نوَّابًا. هذا ما أعطاه الكشف، والله أعلم. انتهىٰ.

وسُئل الشيخ محيي الدين رحمه الله عن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وعن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فقال رضي الله عنه: من علم العليم الخبير أن يؤدِّب الصغير بالكبير، فأدَّب الله تعالىٰ الأمم بتأديب رسلها، لتبلغ باستعمال أدب رسلها إلىٰ مأمولها من الدرجات، فخاطب الرسول، والمراد من أُرسل إليه، فابحث عليه. وفي المثل الساري: «إياك أعني واسمعي يا جارة» فالخطاب للرسل، والمراد به غيرهم من أممهم[1].

[الحكمة في توجيه الخطاب للأنبياء حين يكون المقصود منه أممهم]

قال: والحكمة في ذلك قوة الأنبياء علىٰ تحمل صولة خطاب الله عزَّ وجلَّ بالزواجر والقوارع دون أممهم، فرحمهم بذلك لضعفهم. هذا إن كان المراد بالخطاب المؤمنين، فإن كان المراد به الكفار، كانت الحكمة في ذلك مقابلة الإعراض بالإعراض، فإن الكفار لما أعرضوا عما جاءت به رسلُهم من عند ربهم ولم يعملوا به، أعرض الله عنهم بالخطاب، فأسمعهم في غيرهم عقوبةً لهم، وإلا فقرائن الأحوال وقواعد الشرائع تشهد بأن الأنبياء معصومون من الوقوع في كل شيء يحبط أعمالهم ويسخط ربهم[2]. فافهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠) ومما أجبتُ به من يتوهم أن ولاية الأولياء قد تفضل بعض الأنبياء، كما وقع في بعض أهل الشطح.

---

(١) «الفتوحات» الباب (٥٥٩).

(٢) نفس المصدر السابق، نفس الباب.

والجواب: أن الذي عليه جمهور أهل الكشف من الأولياء أن ولاية الوليِّ لا تلحق في الشرف والرفعة ولايةَ النبي أبدًا، وكما فضل النبي علىٰ الولي من جهة النبوة، كذلك فضله من جهة الولاية، وكما أن ولاية الوليِّ وإن جلت وعظمت لا تلحق نهايتُها بدايةَ النبوة، فكذلك ولاية الولي وإن عظُمت لا تلحق بدايةَ ولاية النبي، هذا هو الحقُّ الذي ندين الله تعالىٰ به.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من ظن أن مقامَ الولاية يلحق مقام النبوة في حال من الأحوال، فقد أخطأ الطريق، فإن الله تعالىٰ شرَّف الأنبياء علىٰ الأمم بسابق العناية، فلا يلحقهم أحد. ولو أن وليًّا تقدَّم إلىٰ العين التي أخذ منها الأنبياء لاحترق.

وسمعتُه يقول: الأولياء علىٰ مَدْرَجة الرسل سلكوا، فكما كان ﷺ يتعبد قبل نبوته بشرع من قبله من الأنبياء- أي علىٰ رأي بعضهم- فكذلك الأولياء يتعبدون قبل فتحهم بشريعة محمد ﷺ تقليدًا للعلماء من غير اجتماع برسول الله ﷺ، فإذا اجتمعوا به- أي من طريق كشفهم- استغنوا عن التقليد. وبعضهم يُلهَم بشريعة محمد ﷺ علىٰ يد ملَك الإلهام، حتىٰ كأنه أخذ الشريعة عن رسول الله ﷺ من غير واسطة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: كما أن النبي ﷺ لما جاءه الوحي، انقطع عن التعبد بشرع غيره واتبع ما أُوحِيَ إليه، فكذلك الولي له العمل بما جاءه من طريق الإلهام الخاص في حقِّ نفسه لا في حق الأمة، وإن خالف ما عليه بعض المجتهدين، ولا يمتنع عليه العمل إلا بما فيه خرق للإجماع، فافترق عن النبي بذلك، مع أن جميع ما يأتي به ملَك الإلهام إلىٰ الوليِّ لا يكون إلا من باطنية شرع محمد ﷺ بلا شك، فلا يصح أن يأتيه بشيء من خارج دائرة شرع محمد أبدًا بإجماع أهل الكشف والوجود، فهم كالمقررين بإلهامهم شريعة محمد ﷺ، كما كانت أنبياء بني إسرائيل يقررون شرع التوراة بوحيهم، فافهم.

وقد ذكر الشيخ في الباب الأحد والتسعين وأربعمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أنه ليس لأحد ممن تقدَّم أو تأخر علمٌ في الدنيا والآخرة إلا من باطنية علم محمد ﷺ، فإنه

ﷺ أخبرنا أنه أُوتيَ علم الأولين والآخرين(١)، يعني الأنبياء والعلماء المتقدمين على زمن بعثته والمتأخرين عنها، ونحن من الآخرين بلا شكٍّ، وقد عمم ﷺ الحكم في العلم الذي أوتيه، فشمل كلَّ منقول ومعقول، ومفهوم وموهوب. فاجهد يا أخي أن تكون ممن يأخذ علمه من نبيِّه محمد ﷺ، لكونه أعلم خلق الله بالله تعالى وبجميع أحكامه على الإطلاق، وإياك أن تُخَطِيء أحدًا من علماء أمته بفهمك إلا بعد تثبت وطول تأمل، فإن ذلك العلم الذي تُخَطِيء ذلك الشخص فيه قد يكون من جملة علم رسول الله ﷺ الذي أخبر أنه أوتيه.

قال: وهذا الذي نبهتُك يا أخي عليه من كون جميع علوم الأولين والآخرين لا يكون إلا من باطنية علم محمد ﷺ من علوم الأسرار، فاحتفظ به وإياك أن تقول: لقد حجرت واسعًا، وإن الله تعالى قد يعطي بعض المقرَّبين علمًا من الوجه الخاص الذي يكون بينه وبين قلب عبده المؤمن من غير واسطة محمد، كما أعطي الخضر ما شاء من العلوم التي لم يعطها موسى عليه الصلاة والسلام الذي هو رسول زمانه؛ لأنا نقول: نحن ما حجرنا عليك أن لا تعلم مطلقًا، وإنما حجرنا عليك أن لا يكون لك علم ذلك إلا من باطنية محمد ﷺ، شعرتَ بذلك أم لم تشعر به.

قال: وقد وافقنا على ذلك أهل الكشف قاطبةً كما مرت الإشارة إليه. وصرح بذلك الإمام أبو القاسم ابن قسي صاحب كتاب «خلع النعلين» وهو من روايتنا عن ولده عنه في سنة تسعين وخمسمئة بتونس، رحمه الله. انتهى.

فعُلِمَ مما قررناه أنه ليس في وحي الإلهام للولي تشريع، وإنما هو تعريف له بأسرار الشريعة لا غير، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بموت محمد ﷺ، وغايةُ أمر الولي أنه يقوي إيمانه بشريعة محمد ﷺ بوحي الإلهام، حتى يصير كأنه أخذها عن رسول الله ﷺ بلا واسطة، وهناك يصحُّ لهذا الوليِّ مقامُ الأخذ عن رسول الله ﷺ والتصدر لإرشاد أمته، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[يوسف: ١٠٨] الآية.

وعُلِمَ أيضًا أن مراد من قال: «إن مقام الولاية أتمُّ من مقام الرسالة» وإن كان الصحيح

---

(١) تقدم تخريجه.

خلاف قوله أنه في حق ولاية النبي مع رسالته، لا في حق ولاية الولي مع رسالة النبي، فافهم. ولعل شبهته شرف المتعلَّق ودوامه، فإن الرسالة لها الانقطاع لتعلق حكمها بالخلق والتكاليف. وأما الولاية فإن متعلَّق حكمها بالله تعالىٰ، ولها الدوام في الدنيا والآخرة. انتهىٰ.

[ردُّ ما أُشيع عن الشيخ الأكبر أنه يقول بتفضيل الولاية على الرسالة]

واعلم يا أخي أن من جملة من أُشِيعَ عنه أنه يقول بتفضيل الولاية علىٰ الرسالة علىٰ الإطلاق الشيخَ محيي الدين بن العربي رحمه الله، وحاشاه من مثل ذلك، فإنه جهل بمقام الأنبياء. وقد ذكر في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أنه لم يقصم ظهور الأولياء شيء غير انقطاع النبوة والرسالة بموت محمد ﷺ، فقد قصم والله ذلك ظهورهم، لفقدهم الوحي الإلهي الذي هو قوت قلوبهم وأرواحهم.

قال: ولو كان أحد من الأولياء في مقام أحد من الأنبياء فضلًا عن كون الولاية أتم وأكمل ما قصمت ظهورهم، ولا كانوا احتاجوا إلىٰ وحي علىٰ لسان غيرهم، لكن من جملة رحمة الله بالأولياء أنه أبقىٰ عليهم وحي المبشرات في المنام علىٰ لسان ملَك الإلهام، ليستأنسوا برائحة الوحي. انتهىٰ.

وقال في الكلام علىٰ التشهد في باب أسرار الصلاة من «الفتوحات»: قد سَدَّ الله تعالىٰ باب الرسالة عن كل مخلوق بموت رسول الله ﷺ إلىٰ يوم القيامة. وتبين لنا بذلك أنه لا مناسبة بيننا وبينه ﷺ في المقام، فإنه في المرتبة التي لا ينبغي أن تكون لنا. انتهىٰ.

وقال في شرحه لـ«ترجمان الأشواق»[1]: اعلم أن مقام النبي ممنوع لنا دخوله، وغاية معرفتنا به من طريق الإرث النظر إليه كما ينظر من هو في أسفل الجنة إلىٰ أهل عليين، وكما ينظر أهل الأرض إلىٰ كواكب السماء.

قال: وقد بلغنا عن أبي يزيد البَسْطَامي أنه قال: فُتِحَ لي من مقام النبوة مقدار خرم إبرة

---

(١) ديوان شعري للشيخ الأكبر، وقد شرحه بنفسه في «ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق».

تجليًا [لا][1] دخولاً، فأردت دخوله فكدتُ أحترق. انتهىٰ.

وقال في الباب الثاني والستين والأربعمئة من «الفتوحات»: اعلم أنه لا ذوق لنا في مقام النبوة حتىٰ نتكلم عليه، وإنما نتكلم علىٰ ذلك بقدر ما أُعطينا من الإرث فقط، وذلك كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود. وإيضاح ذلك أنه لا يصح لأحد منا دخول مقام الرسالة، وإنما يراه كالنجم علىٰ الماء.

وقال في الباب السابع والستين وثلاثمئة: لقد أعطيتُ من مقام العبودية التي اختُص بها رسول الله ﷺ مقدار الشعرة، فما استطعت القيام به. انتهىٰ.

فهذه نصوص الشيخ محيي الدين ؒ ترد قول من نسب إليه القول بتفضيل الولاية علىٰ مقام الرسالة، فإن كلامه وكلام غيره ليس في تفضيل ولاية الولي مع رسالة الرسول، وإنما هو في ولاية الرسول مع مقام رسالته هو، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٣١) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الوحي الذي ينزل به ملَك الإلهام علىٰ الولي له رتبة الوحي الذي ينزل به الملَك علىٰ النبي في نفس الأمر، وأن الأنبياء ما فضلوا الأولياء سوىٰ بالشهرة كما سمعتُه من بعض أهل الشطح.

والجواب: أن وحي الأولياء لا يلحق وحي الأنبياء بوجه من الوجوه أبدًا، وذلك لأن وحي الأنبياء لا يكون إلا بتشريع، وأما وحي الأولياء فإنما يكون بالأمر باتباع نبيهم، وتفهيم ما جاء به مما لم يتحقق للولي علمه، أو تبيين معانيه للناس، أو بيان مرتبته في الصحة، كحديثٍ قال العلماء بضعفه، فيخبره ملَك الإلهام بأنه صحيح ونحو ذلك.

وذكر الشيخ في الباب الرابع والستين وثلاثمئة في وحي الأولياء ما نصه: اعلم أن جماعة من أصحابنا غلطوا في الفرق بين وحي النبي ووحي الولي، كأبي حامد الغزالي وأضرابه، فقالوا: الفرق بين وحي النبي والولي نزول الملَك، فإن الولي ملهمٌ لا ينزل

---

(١) ساقط من «ب».

عليه ملَك، والنبي هو الذي ينزل عليه الملَك، مع أنه يشارك الأولياء أيضًا في أمور يكون مُلهَمًا فيها من حيثُ إنه جامع بين الولاية والنبوة. انتهىٰ.

قال الشيخ محيي الدين: والحقُّ أن الكلام لا ينبغي أن يكون إلا في الفرق فيما نزل به الملَك، لا في نزول الملَك، فإن الذي ينزل به الملَك علىٰ الرسول أو النبي خلاف ما ينزل به الملَك علىٰ الوليِّ التابع. وقد ينزل الملَك علىٰ الوليِّ ببشرىٰ من الله بأنه من أهل السعادة، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] في الذين قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال: ولعل سبب من منع تنزل الملَك علىٰ الولي عدم ذوقه لذلك، وظنه أنه قد عم بسلوكه جميع المقامات، فلما ظن ذلك بنفسه ولم ير ملَكًا نزل عليه أنكره وقال: نزول الملَك خاص بالأنبياء، فذوقه صحيح وحكمه غير صحيح، مع أن هؤلاء الذين منعوا نزول الملَك علىٰ الولي قائلون بأن زيادة الثقة مقبولة، وأهل الله كلُّهم ثقات عدول.

قال: ولو أن أبا حامد ومن قال بقوله اجتمعوا في زمانهم بأحد من خواص أهل الله تعالىٰ، وأخبرهم بتنزل الملَك علىٰ الوليِّ، لقبلوا منه ذلك ولم ينكروه.

وقال الشيخ محيي الدين: وقد نزل علينا ملَك الإلهام ما لا يُحصَىٰ، وأخبرنا بذلك جماعة ممن كانوا ينكرون تنزل الملَك علىٰ الوليِّ، فرجعوا إلىٰ قولنا. انتهىٰ.

وقال في الباب الثالث والعشرين وثلاثمئة: اعلم أن وحي البشائر للأولياء هو الوحي الأعمُّ الذي يكون من الحقِّ تعالىٰ إلىٰ العبد من غير واسطة، يؤيد الله تعالىٰ به من صدق مع الله تعالىٰ من الأولياء. وقد يكون أيضًا بواسطة ملَك مغيَّب عن الولي، ولكن النبوة من شأنها الواسطة ولابد، فلابد من الملَك فيها، والمبشرات ليست كذلك، فالعارف لا يبالي ما فاته من الوحي المتعلِّق بالبشائر علىٰ لسان نبيه[1]، مع بقاء المبشرات عليه من جهة ولايته هو. انتهىٰ.

وقال في الباب الثامن ومئتين: اعلم أن علوم الغيب تنزل [بها][2] الأرواح علىٰ قلوب

---

(١) في «الفتوحات»: ما فاته من النبوة.

(٢) ساقط من «ب».

العباد، فمن عرفهم تلقاهم بالأدب، وأخذ منهم بالأدب، ومن لم يعرفهم أخذ علم الغيب ولا يدري عمن أخذه، كالكهنة وأهل الزجر وأصحاب الخواطر وأهل الإلهام[١]، فكل هؤلاء يجدون العلم بذلك في قلوبهم ولا يعرفون من جاءهم به، بخلاف أهل الله، فإنهم يشاهدون تنزل الأرواح على قلوبهم، لكونهم لا يرون الملَك النازل، لأن رؤيته حال الإلقاء من خصائص النبوة والرسالة. فالولي إن شهد الملائكة لا يسمع إلقاءها عليه. وإن سمع إلقاءها عليه لا يشهد أشخاصها، مع كونه يعلم أن ذلك الوحي من الملَك بلا شكٍّ، فلا يجمع بين رؤية الملك وسماع الإلقاء منه إليه إلا نبي أو رسول، وبهذا يفرق بين الولي والنبي.

[محلُّ الإلهام من العبد]

فإن قلتَ: فما محل الإلهام من العبد؟ **فالجواب:** محله النفس، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] أي فجورها لتجتنبه ولا تعمل به، وتقواها لتعمل به وتعلمه، فهو إلهام إفهام وإعلام، لا كما يظنه من لا علم له. قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] والدسُّ إلحاق خفي بازدحام، فألحق هذا الجاهلُ العملَ بالفجور بالعمل بالتقوى، وجمع في موضع التفريق، لكونه جمع بينهما في العلم والعمل، فأخطأ الشرائع. وسبب ذلك رمي ميزان الشريعة من يده، ولو أن ميزان الشريعة كانت في يده لعلم أنه مأمور بالتقوى، منهي عن الفجور، وتبين له الفرق بين الأمرين، والله أعلم[٢].

[أنواع وحي الأولياء]

فإن قلتَ: فهل وحي الأولياء على نوع واحد دائمًا أو على أنواع؟ **فالجواب:** هو على أنواع: **فمنها ما يكون متلقى بالخيال** كالمبشرات في عالم الخيال، وهو الوحي في النوم، فالمتلقى خيال، والنازل كذلك، والموحى به كذلك؛ **ومنها ما يكون خيالًا في حسٍّ** على ذي حس؛ **ومنها ما يكون معنى** يجده الوليُّ في نفسه من غير تعلُّق حس ولا خيال بمن

---

(١) بالأصلين: الأفهام. والمثبت من نص «الفتوحات».

(٢) انظر «الفتوحات» الباب (٣٥٣).

نزل به؛ ومنها ما يكون كتابة، ويقع ذلك كثيرًا للأولياء كحبيب العجمي[1] وأبي عبد الله قضيب البان[2] وبقي بن مخلد[3] تلميذ الإمام أحمد بن حنبل[4]، وكان أضعف الجماعة في ذلك، فكان لا يجده إلا بعد القيام من النوم مكتوبًا في ورقة بخط مخالف لخط سائر الخلق، وتقرأ من سائر الجوانب، والله أعلم.

[لا يُشترَط في وحي المبشرات أن يكون في النوم]

فإن قلتَ: فهل يُشترَط في وحي المبشرات أن يكون في النوم دون اليقظة؟ **فالجواب**: لا يُشترط فيه النوم، فقد يكون في اليقظة، وقد يكون في النوم، وعلىٰ كلِّ حال فكل ما جاء للوليِّ من وحي المبشرات فهو رؤيا بالخيال في الحس لا بالحس، فإن المتخيَّل قد يكون من دخل في القوة، وقد يكون من بخار بتمثل روحاني، وقد يكون هو التجلي المعروف بين القوم إذا كان المزاج مستقيمًا مهيأً لقبول وارد الحق، فيكون حينئذ خيالًا حقيقيًّا، والله أعلم.

[كيفية تنزل الوحي على قلوب الأولياء من طريق الإلهام]

فإن قلتَ: فما كيفيةُ تنزل الوحي علىٰ قلوب الأولياء من طريق الإلهام وحفظهم من الشيطان؟ **فالجواب**: كيفية ذلك أن الحق تعالىٰ إذا أراد أن يوحي إلىٰ وليٍّ من الأولياء

---

(١) حبيب بن محمد العجمي أبو محمد البصري الزاهد، أحد الزهاد المشهورين الموصوفين بالزهد والورع والكرامات و استجابة الدعاء ت ١١٩هـ. تاريخ الإسلام (٣/ ٦٢٧)، تهذيب الكمال (٥/ ٣٨٩).

(٢) الحسين بن عيسىٰ بن يحيىٰ الحسني، أبو عبد الله المعروف بقضيب البان: متصوف من أهل الموصل. تفقه حنبليًا وصحب عبد القادر الكيلاني وغيره. له أخبار في الزهد كثيرة. توفي: ٥٧٣هـ الأعلام (٢/ ٢٥١).

(٣) بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي الحافظ أحد الأعلام، وصاحب التفسير والمسند. ولد في رمضان سنة ٢٠١هـ، وهوالذي نشر الحديث بالأندلس وكثره. توفي في جمادىٰ الآخرة ٢٧٦هـ. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٤٠) الأعلام (٢/ ٦٠).

(٤) أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي أبو عبد الله، إمام في الحديث والفقه، صاحب المذهب الحنبلي. ولد ببغداد ونشأ بها وسمع الحديث من شيوخها، من مؤلفاته: «المسند» و«الزهد» و«فضائل الصحابة» توفي ببغداد:٢٤١هـ. وفيات الأعيان (١/ ٦٣)، معجم المؤلفين (٢/ ٩٦).

بأمر ما، جلَّىٰ لقلب ذلك الولي صورة ذلك الأمر، فيفهم الولي من ذلك التجلي بمجرد مشاهدته له ما يريد الحق تعالىٰ أن يُعْلِمَ ذلك الولي به، فيجد الولي في نفسه علم ما لم يكن يعلم قبل ذلك، كما وجد النبي ﷺ العلم في الضربة بين كتفيه[1] وفي شربة اللبن[2] ثم إن من الأولياء من يشعر بذلك، ومنهم من لا يشعر به، بل يقول: وجدت في خاطري كذا وكذا، ولا يعلم من أتاه به، هل هو من لمَّة الملك أو غيره، ولكن من عرف ذلك فهو أتم، لأنه حينئذٍ يُحفَظ من الشيطان.

[المحدَّثون يعرفون حديث الحقِّ معهم]

فإن قلتَ: فهل يعرف المحدَّثون -بفتح الدال- وهم الذين يحدثهم الحقُّ تعالىٰ في سرائرهم بحكم الإرث لعمر بن الخطاب ﷺ حديثَ الحقِّ تعالىٰ معهم في نفوسهم أم لا؟ **فالجواب:** نعم، يعرفون حديثه تعالىٰ لما هم عليه من الصفاء وعدم الكدر، قال ﷺ: «إن يكن من أمتي محدَّثون فعمر»[3] أي أصالة. ولابد لكلِّ مقام من وارث بعد صاحبه إلا ما يخرج بالنص. ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن مرتبة التحديث دون مرتبة الكلام الذي يكون للأنبياء، فإياك والغلط.

[إرث الأولياء من الأنبياء السابقين]

فإن قلتَ: فهل يكون كلُّ واحد من الأولياء علىٰ قلب واحد من الأنبياء كما ورد في

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣) من حديث ابن عباس ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة. قال: أحسبه في المنام فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟ قال: قلت: لا. قال: فوضع يده بين كتفي حتىٰ وجدت بردها بين ثديي. أو قال: في نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض...» وأحمد (٣٤٨٤) وابن أبي شيبة (٣٢٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨٢) من حديث ابن عمر ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم، أُتيت بقدح لبن، فشربت حتىٰ إني لأرىٰ الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم» ومسلم (٢٣٩١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٦)، ومسلم (٢٣٩٨).

حديث: «إن لله تعالىٰ أولياء منهم من هو علىٰ قلب إبراهيم، ومنهم من هو علىٰ قلب عيسىٰ... إلىٰ آخره»[1]. **فالجواب**: هم في ذلك علىٰ حالين: منهم من يكون علىٰ قلب نبي، ومنهم من يكون علىٰ قدمه دون قلبه.

وقد قال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والأربعين وثلاثمئة: كنتُ قبل أن اجتمع بالأنبياء في واقعة أظنُّ أن الأولياء كلَّهم علىٰ قلوب الأنبياء، فلمَّا اجتمعتُ بهم، قالوا لي: لا تقل علىٰ قلوب الأنبياء، وقل علىٰ أقدامهم، لأنهم علىٰ آثارنا مقتدون، ولو أنهم كانوا علىٰ قلوبنا لنالوا ما نلنا. فلما أطلعني الله تعالىٰ علىٰ ذلك، صرتُ أجيب من سألني عن ذلك بأن للأولياء معراجين: أحدهما يكونون فيه علىٰ قلوب الأنبياء، لكن من حيثُ هم عليهم الصلاة والسلام أولياء وأنبياء فيما لا تشريع فيه، لكن لا يخفىٰ أنه لا يلزم من كون الوليِّ علىٰ قلب بعض الأنبياء مساواته له في المقام، بل لابد للنبي من خصوص وصف يتميز به عن الوليِّ الذي هو علىٰ قلبه، فافهم.

والمعراج الثاني يكونون فيه علىٰ أقدام الأنبياء أصحاب الشرائع، فيأخذون معاني شرعهم بالتعريف من الله تعالىٰ، ولكن من مشكاة نور الأنبياء، فلا يخلص لهم الأخذ عن الله تعالىٰ، ولا من الروح القدسي، وما عدا ذلك فإنه يخلص لهم من الله ومن الروح القدسي من طريق الإلهام. انتهىٰ.

وقال الشيخ أيضًا في الباب الخامس والعشرين من «الفتوحات»: لم يبق للأولياء بعد موت رسول الله ﷺ إلا الفهم في الكتاب والسنة، كما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]، وما

---

(١) ذكره الشيخ الأكبر في الفتوحات (١/ ١٦١) ولم يذكر أنه حديث، ولم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرج الطبراني في الكبير (١٠٣٩٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: لا يزال أربعون رجلًا من أمتي قلوبهم علىٰ قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال. ...» وأحمد (٢٢٧٥١) بنحوه، وأبي نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٥٠٦).

(٢) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ، أول الناس إسلامًا في قول كثيرين، ولد قبل البعثة بعشر سنين، شهد المشاهد كلها إلا تبوك استخلفه النبي ﷺ علىٰ المدينة، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد، ومناقبه كثيرة جدًا، ولي الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه، ت سنة ٤٠ هـ. أسد الغابة (٤/ ٨٧)، الإصابة (٤/ ٤٦٤).

بقيٰ بأيدي العلماء بالله إلا أن يرزقهم الله تعالىٰ الفهم في القرآن. انتهىٰ.

[حفظ الوليّ من تلبيس إبليس]

فإن قلتَ: فمتىٰ يُحفظ الوليُّ من إبليس ومن التلبيس؟ **فالجواب:** أن هذا السؤال سُئل عنه الإمام الغزالي وابن سيدبون[1] رجل من وادي آشت، فقالا: إذا ارتقىٰ الولي من عالم العناصر وفُتِحَ لقلبه أبواب السماء، حُفِظَ من إبليس ومن التلبيس، لأن كلَّ ما يراه الولي هناك حقٌّ. انتهىٰ.

وغلطهما الشيخ محيي الدين في ذلك، فقال في الباب الثالث والثمانين ومئتين من «الفتوحات»: مما غلط فيه الغزالي وجماعة قولُهم: إن الولي إذا ارتقىٰ إلىٰ ما فوق عالم العناصر، حُفظ من إبليس، وذلك لا يصح إلا إذا كان العروج للوليِّ بجسمه مع روحه، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ إن صح أن أحدًا يرثه في هذا المعراج، ولكن لم يبلغنا وقوع ذلك لأحد بعده ﷺ. أما من عرج بخاطره وروحه من غير انفصال بموت وجسده في بيته، فقد لا يُحفظ من التلبيس، اللهم إلا أن يكون ذلك الولي ممن له علامة بينه وبين الله تعالىٰ يفرِّق بها بين وحي الحق تعالىٰ وبين وحي إبليس، فهذا محفوظ من التلبيس. ومن الأولياء ما يأخذ ما يلقيه إليه إبليس بوجه آخر عن الله تعالىٰ، فيرد إبليس خاسئًا، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «اليواقيت والجواهر».

وفي الباب الثامن والستين من «الفتوحات» أن الله تعالىٰ ربما مكر بإبليس، فيستعمله في ضد مرتبته، وذلك أنه تعالىٰ يلهم إبليس فعل الخير مع بعض العباد من حيثُ لا يشعر إبليس بذلك، فيفعل العبد ذلك الخير، فيسعد به علىٰ رغم أنف إبليس، كأن يقع لإبليس الوسوسة للعبد أيضًا بفعل خير ليفعله طاعةً له، ثم بعد ذلك يستدرجه إلىٰ فعل ما يكره الله عزَّ وجلَّ، فيؤجر العبد علىٰ تلك الطاعات، ثم يحفظه الله تعالىٰ من مطاوعته في

---

(١) أحمد بن سيدبون، من خلفاء أبي مدين. التقاه الشيخ الأكبر بمرسية سنة (٥٩٥هـ). لقبه الشيخ بـ«الإمام الأوحد». توفي سنة (٦٢٤هـ). يُنظر: «بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي»، الشيخ عبد الباقي مفتاح.

المستقبل. فلو عَلِم إبليس أن ذلك العبد يسعد بوسوسته له بفعل الخير ما كان ألقىٰ إليه شيئًا. وتسمّىٰ الصوفية مثل هذا من إبليس استدراجًا للعبد، فإنه إنما يأمره بخير ليجره بعد ذلك إلىٰ الشر. قال الشيخ: ولم أر أحدًا نبه علىٰ مكر الله بإبليس أبدًا. انتهىٰ.

[سبب خلع الله تعالى على الأولياء اسم «الوليّ» دون الأنبياء]

فإن قلتَ: لم خلع الله تعالىٰ علىٰ الأولياء اسم «الولي» دون الأنبياء؟ مع أن الأنبياء أحق بأن يخلع تعالىٰ عليهم اسم «الولي» الذي هو علىٰ صورة اسم من أسمائه، لشدة قربهم من حضرته تعالىٰ؛ **فالجواب**: أن ذلك لحكمة بالغة، وهي أنه تعالىٰ لما أغلق باب الوحي بعد رسول الله ﷺ، كان ذلك من أشد ما يجرع الأولياء من أثره، لانقطاع الوصلة بينهم وبين من يكون واسطتهم إلىٰ الله تعالىٰ، فجبر الله تعالىٰ مصيبتهم ورحمهم بأن خلع عليهم جواز إطلاق اسم «الولي» الذي هو من جملة أسمائه تعالىٰ.

وأما حكمة عدم خلع الحق تعالىٰ علىٰ الأنبياء اسم «الولي» فلاستغنائهم عن الجبر بما هم عليه من كمال الأدب مع الله تعالىٰ، فلا يحتاجون إلىٰ الجبر. وأيضًا فإنهم معصومون من محبة مشاركتهم للحق تعالىٰ في شيء فيه تعظيم لهم، ليتميز الحقُّ بصفات التعظيم دونهم، ولذلك لم يشتهر نبينا ﷺ باسم «الولي» وإن كان وليًا قطعًا، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] بل سمَّاه بـ«العبد» وبالرسول الَّذين لا يليقان بالله تعالىٰ، تشريفًا له ﷺ عن أن يزاحم رتبة ربِّه تعالىٰ في الأسماء.

فإن قلتَ: فإن الله تعالىٰ قد سماه «رؤوفًا رحيمًا»؛ **فالجواب**: أن ذلك كان له ﷺ من الوجه الخاص المطلق، ليغيظ بذلك قومًا مخصوصين. ولما علم رسول الله ﷺ ما تجرَّعه علماء أمته من مرارة انقطاع الوحي والرسالة، جعل لهم نصيبًا من الرسالة، ليكونوا بذلك عبيد الله تبعًا له ﷺ، إذ أشرف لقب يكون للعبد أن يُقال: «عبد الله» فقال: «ليبلِّغ الشاهد الغائب»[1] فأمرهم بالتبليغ، ليصدق عليهم اسم الرسالة التي هي من ألقاب العبيد، بمعنىٰ أنهم رسل رسول الله ﷺ. وقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امرأ»، وفي رواية «نضر الله

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

امرأ سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها»[1]. انتهىٰ، أي حرفًا بحرف من غير تصرُّف في العبارة التي قلتُها، كما تبلِّغ الرسل كلام ربها باللفظ الذي يلقيه إليهم بواسطة أو بغيرها. وما فاز بهذه الدرجة حقيقةً إلا المحدِّثون الذين يروون أحاديثه بالألفاظ التي بلغتهم عن رسول الله ﷺ من غير تغيير لها -أي المقالة- فهؤلاء هم الذين فازوا حقيقة بدعاء رسول ﷺ لهم بالرحمة والنضارة التي هي الجمال، بخلاف من يروي الحديث بالمعنىٰ، فإنه ربما لا يناله شيء من دعاء رسول الله ﷺ، لأنه إنما ينقل إلينا صورة فهمه هو.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: لا يحشر يوم القيامة في صفوف الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا من بلَّغ الوحي من كتاب وسنة بلفظه كما سمعه، فإذا نقل الصحابة الوحي علىٰ لفظه، فهم رسل رسول الله، وإذا نقله عنهم التابعون فهم رسل الصحابة، وهكذا الحكم جيلًا بعد جيل إلىٰ يوم القيامة، فإن شئنا قلنا في المبلِّغ إلينا: إنه رسولُ رسولِ الله، وإن شئنا أضفناه لمن بلَّغ عنه. وإنما جوزنا حذف الوسائط، لأن رسول الله ﷺ كان يخبره بالوحي جبريلُ أو ملَكٌ من الملائكة عن الله تعالىٰ، ولا نقول فيه إنه رسول جبريل ولا رسول ذلك الملَك.

وكان رحمه الله يقول: كلُّ عبد سُمِّي بـ«الوليّ» فقد نقص من عبوديته بقَدْر ما أخذ من هذا الاسم. ومن أراد أن لا ينقص الولي فليسمه بالمحدَّث -بفتح الدال المشددة- فإنه أولىٰ له من اسم «الوليّ» كما أفادنيه الخضر عليه الصلاة والسلام.

[الوصول لأخبار السماوات يكون للأنبياء والأولياء]

فإن قيل: فهل الوصول إلىٰ أخبار السماوات خاص بالرسل أم يكون للأولياء كذلك؟

فالجواب: يكون ذلك للأنبياء وللأولياء، لكن مع اختلاف الطريق، فإن النبي يعرف أخبار السماوات تارةً بالإسراء بالجسم أو بالوحي علىٰ يد ملَك، وتارةً بالكشف الروحي من طريق ولايته، والوليُّ لا يعرف ذلك إلا من طريق الكشف الصحيح إذا انجلت مرآة قلبه، إذ القلب إذا انجلىٰ صار كالمرآة الصقيلة المقابلة للوجود العلوي والسفلي.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠) والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٠).

ومن جملة ما ينطبع في مرآة قلوبهم الملأ الأعلىٰ وألواح المحو والإثبات وما يكتب فيها؛ لأنه يرتسم كلُّه في قلب الولي بحكم التمثيل، كما مُثِلَت الجنةُ لرسول الله ﷺ في عَرْض الحائط وقال: «لما تقدمتُ أردتُ أن أقطف لكم من تمرها قطفًا، فلو أخرجتُه إليكم لأكلتُم منه ما بقيت الدنيا»[1] وقال: «لما تأخرُت خفتُ أن يصيبني لهب النار» وأخبر أنه رأىٰ فيها عمرو بن لحي[2] الذي سيَّب السوائب، وصاحب المحجن، والمرأة التي حبست الهرة حتىٰ ماتت جوعًا إلىٰ آخر ما قال[3].

[المراد بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء]

فإن قيل: فما المراد بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، هل هم علماء الظاهر أو علماء الحقيقة؟ **فالجواب**: كلُّ الفريقين وارث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالعلماء هنا حفَّاظ الأحكام الشرعية، والأولياء حفَّاظ الأحكام الباطنة في علم الحقيقة زيادةً علىٰ الأحكام الظاهرة، فهم المراد بالعلماء حقيقة، لجمعهم بين مقامي علم الظاهر والباطن الموروث عن الأنبياء.

[الفرق بين الوارث المحمدي والوارث لغيره من الأنبياء]

فإن قلتَ: فما الفرق بين الوارث المحمدي والوارث لغيره من الأنبياء؟ **فالجواب**: من الفرق بينهما أن ورثة الأنبياء آياتهم في الآفاق من خرق العوائد وغيرها، وآية الوارث المحمدي في قلبه، فلذلك كان **الوارث المحمدي مجهولًا في العموم، معلومًا في الخصوص**، لأن خرق عادته إنما هو حال وعلم في القلب، فهو في كل نَفَس يزداد علمًا بربه علم حال وذوق، ولا يشعر أحد بذلك علىٰ مرور الزمان[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥) ومسلم (٩٠٧).

(٢) عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، من قحطان: أول من غير دين إسماعيل ودعا العرب إلىٰ عبادة الأوثان. كنيته أبو ثمامة. وفي نسبه خلاف شديد. الأعلام (٥/ ٨٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٠٤) والنسائي (١٤٨٢) وابن حبان (٢٨٣٨).

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٤٣٨).

فإن قلتَ: إن الأنبياء الذين كانوا أصلًا في الإرث لنبينا محمد ﷺ مدة غيبة جسمه كان لهم آيات ظاهرة، مثل بعض الآيات التي وقعت لنبينا محمد ﷺ؛ **فالجواب**: أن تلك الآيات إنما ظهرت من حيثُ كونُهم رسلًا لا من حيثُ كونُهم ورثته، وكان ذلك من الله تعالىٰ لطفًا بأمة ذلك النبي، وإقامة للحجة علىٰ من لم يمتثل أمره، ألا ترىٰ إلىٰ قصة الإسراء برسول الله ﷺ وتكذيب بعض قومه له لما خرج إليهم صباح ليلة الإسراء، وذكر لأصحابه ما جرىٰ له في إسرائه وما رأىٰ من العجائب، وما وقع بينه وبين ربه من المكالمة كيف أنكر عليه بعض الناس، لكونهم لم يروا لذلك أثرًا في الظاهر، لاسيما وقد زادهم حكمًا في التكليف.

وانظر إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما جاء من عند ربه، وكساه الله تعالىٰ نورًا علىٰ وجهه حتىٰ تميز به عن الناس، كيف صدَّقه قومه فيما ادعاه وما رآه أحد إلا عمي، فكان يمسح وجه كل من عمي بثوب مما عليه، فيرد الله عليه بصره من شدة نوره الذي سرىٰ إلىٰ ثيابه من جسده، ولذلك ورد أنه كان يتبرقع حتىٰ لا يرىٰ أحد وجهه فيعمىٰ[1].

فإن قلتَ: فهل أُعطِيَ أحد من الأولياء هذه الكرامة؟ **فالجواب**: نعم، كانت للشيخ أبي يعِزَّىٰ المغربي[2]؛ لكونه كان موسويَّ المقام، فكان لا يراه أحد إلا عمي.

قال الشيخ محيي الدين: وممن رآه فعمي شيخنا أبو مدين لما دخل إليه، فمسح عينيه بالثوب الذي كان علىٰ أبي يَعِزَّىٰ ، فرد الله عليه بصره.

[المفاضلة بين من فاض نوره على وجهه وبين من كان نوره في قلبه]

فإن قلتَ: فهل الأفضل من الأولياء من فاض نوره علىٰ وجهه أو من كان نوره في قلبه وليس علىٰ وجهه منه شيء؟ **فالجواب**: من كان نوره في قلبه فهو الأفضل، لكونه يعلم ما يأتي وما يذر من الأفعال والأقوال والأحوال، فإن النور علىٰ الوجه فتنة علىٰ صاحبه إن لم يكن

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢/ ٦٩) من كلام وهب.

(٢) أبو يعِزَّىٰ يلنور بن ميمون بن عبد الله الدكالي الهزميري، وقيل: هو من بني صبيح من هشكورة، دفين قرية تاغيا من بلاد مغراوة، المعروف بـ أبي يعزىٰ: أحد الزهاد المشتهرين في المغرب توفي ٥٧٢ هـ وقد نيف علىٰ المائة بنحو الثلاثين سنة. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ (٢/ ٢١٠)، الأعلام (٨/ ٢٠٨).

معصومًا أو محفوظًا، اللهم إلا أن يفيض النور من قلبه علىٰ ظاهره من غير قصد، فلا حرج علىٰ الوليّ في ذلك. وقد كان أبو الحسين النُّوري[1] إذا دخل المسجد أضاء المسجد من نور وجهه حتىٰ رأىٰ بعضهم إبرة كانت وقعت منه، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ في ذلك المقام. وقد مر رجل من إخواننا علىٰ سيدي عليّ الخواص، فقلتُ له: يا سيدي انظروا إلىٰ نور وجه هذا الرجل! فرفع رأسه إليه وقال: اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت! فقلتُ: لماذا؟! فقال: إذا أراد الله بعبد خيرًا، جعل نوره في قلبه، ليميز بين الحقِّ والباطل. وإذا أراد به سوءًا، جعل نوره علىٰ وجهه، وسلب قلبه النور، فوقع في كل فاحشة. انتهىٰ.

[فرق آخر بين الوارث المحمدي والوارث لغيره من الأنبياء]

وقال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين وأربعمئة من «الفتوحات»: **إن قيل**: ما الفرق بين الوارث المحمدي والوارث لغير محمد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ **فالجواب**: الفرق بينهما أن الوارث المحمدي يشهد نفسه خلف كلِّ نبي في أماكن بعددهم، لكون جميع الأنبياء جُمعت حقائقهم وشرائعهم في محمد ﷺ وفي شريعته، فمن آمن به وصدقه، فقد آمن بجميع الأنبياء حقيقة.

فإن قيل: فهل إذا تعددت صورتُه خلف جميع الأنبياء، يصير يعلم بنفسه وأنه هو أم لا؟ **فالجواب**: نعم، يعلم في نفسه أنه هو عينه في كل صورة، وليست صورة أولىٰ من أخرىٰ، والله أعلم.

فإن قيل: فإذا أُقيم العبدُ في عمل ليس فيه نصٌّ عن الشارع، وإنما قلَّد فيه مجتهدًا ما من علماء الأمة، فهل يُحشر يوم القيامة وارثًا لذلك المجتهد أو وارثًا لرسول الله ﷺ من حيثُ إنه هو الذي قرر ما استنبطه المجتهد؟ **فالجواب**: يُحشر يوم القيامة وارثًا لذلك المجتهد،

---

(١) أبو الحسين أحمد بن محمد بن الحسين النّوريّ البغداديّ المولد والمنشأ، وأصله من خراسان وإنما سمّي النّوريّ؛ لأنه كان إذا حضر في مكان ينوّر، كان أعظم مشايخ الصوفيّة في وقته، كان صاحب لسان وبيان، كان من أقران الجنيد بل أعظم، من تصانيفه: «مقامات القلوب» توفي: ٢٩٥هـ. النجوم الزاهرة (٣/ ١٦٣)، معجم المؤلفين (٢/ ١٦٦).

ومتبعًا للنبي ﷺ أيضًا، وإن كان ذلك في نفس الأمر شرعًا له.

فإن قلتَ: فما حكم من أُقيم في عمل لا عن نصٍ ولا عن تقليد، بل عن نظر واجتهاد، فهل يكون وارثًا لأحد في هذه المسألة أم لا؟ **فالجواب**: لا يصح أن يكون وارثًا إلا من أصاب الحقَّ فيها، فإن أصابه كان وارثًا، وإن أخطأ لم يكن وارثًا.

فإن قلتَ: فما حكم من انفرد في العمل الذي عمله من كل رسول ونبي ومجتهد ولم يتبع نص أحد منهم؟ **فالجواب**: أن مثل هذا يُحشر أمةً وحده، كقسِّ بن ساعدة[1]. ثم إنه معدود من أتباع رسول الله ﷺ من حيثُ انشراحُ صدره، لأن صدر الموحِّد لا ينشرح إلا لما يوافق دين الإسلام، فإن سرَّ رسول ﷺ أعطاه المادةَ التي نظر فيها حتىٰ انقدح له ما انقدح في تلك المسألة عند نفسه، فهو وإن أخطأ فيها، فهو مأجور معذور. هكذا سمعتُه من بعض العارفين، فتأمله.

[هل العلم الذي يدركه العقل والحواس يسمى موروثًا عن الأنبياء؟]

فإن قلتَ: فهل العلم الذي يدركه العقل والحواس يسمىٰ موروثًا عن الأنبياء؟ **فالجواب**: لا يُسمَّىٰ ذلك موروثًا، إذ الموروث إنما هو ما جاءت به الأنبياء مما لا تستقل العقول بدركه، كما تقدم في هذا الباب مما تحيله العقول بأدلتها.

[هل يورث علم العالم في حياته؟]

فإن قلتَ: فهل يُسمَّىٰ ما اكتسبناه من عالم في حياته موروثًا أم لا إرث إلا بعد موته؟ **فالجواب**: لا يُسمَّىٰ موروثًا إلا ما كان بعد موت المورِث وانتقاله إلىٰ البرزخ. وأما ما اكتسبناه منه حالة حياته فيُسمَّىٰ هبات وعطيات ومنحًا، ويكون الوارث فيها نائبًا وخليفةً لا وارثًا.

فإن قلتَ: فما المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) قس بن ساعدة بن عمرو الإيادي، خطيب العرب وشاعرها وحكيمها وحليمها في عصره، وهو أول من علا علىٰ شرف وخطب عليه، وأول من اتكأ في خطبته علىٰ سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه: أما بعد وأدركه رسول الله ﷺ قبل النبوة ورآه بعكاظ وكان يؤثر عنه كلامًا سمعه منه. الوافي بالوفيات (٢٤/ ١٨٠) ومعجم الشعراء (ص: ٣٣٨) والمعارف (١/ ٦١).

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] كيف يكون الظالم لنفسه من ورثة الكتاب؟ والجواب: أن المراد بمن ظلم نفسه هنا هو من حمَّلَها من الطاعات فوق طاقتها، إيثارًا لجناب الحقِّ تعالىٰ علىٰ إراحته نفسه، لا من ظلم نفسه بالمعاصي، لأن مثله لا يكون مصطفىٰ من هذه الحيثية، بأن كان مصطفىٰ من حيثُ كونُه مسلمًا. وقد قيل لأبي الدرداء[١]: إلىٰ كم تحمِّل نفسك في العبادة فوق طاقتها؟ فقال: إنما أريد بذلك إسعادها يوم القيامة. انتهىٰ.

وذكر الشيخ في الباب الثمانين والثلاثمئة: أن الإرث للأنبياء كلَّه يرجع إلىٰ نوعين: معنوي ومحسوس. فالمحسوس هو حفظ الأخبار المتعلِّقة بأفعاله ﷺ وأقواله وأحواله. وأما المعنوي فهو تطهير النفس من مذامِّ الأخلاق، وتحليتها بالمكارم، وتذكره رؤية الله تعالىٰ له في كل حال يكون فيه، ويؤيده قول عائشة ﵂: «كان ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه»[٢]. انتهىٰ.

وقال في الباب السادس والثلاثين من «الفتوحات» في حديث: «العلماء ورثة الأنبياء»[٣]: [اعلم أن المراد بهذا إنما هم علماء هذه الأمة المحمدية، لأنه قال: «ورثة الأنبياء»][٤] ولم يقل: ورثة نبي خاص، فكل من عمل الآن بجميع شريعة محمد ﷺ، فكأنه عمل بجميع شرائع الأنبياء، وله من الأجر والثواب مثل أجر من عمل بجميع شرائعهم في حياتهم، لكن فيما قررتُه شريعتنا من شرائعهم لا مطلقًا، فإن ما نسخته شريعتنا لا ثواب في العمل به بعد النسخ.

---

(١) أبو الدرداء مشهور بكنيته وباسمه، واختلف في اسمه فقيل: عويمر بن زيد، وعويمر بن عامر، ويقال: ابن عبد الله الأنصاري الخزرجي، أسلم يوم بدر، وأول مشاهده أحد، كان فقيهًا عاقلًا حكيمًا، آخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان، وجمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ، وهو سيد القراء بدمشق ت ٣٢هـ. الاستيعاب (٤/ ١٦٤٦)، الإصابة (٤/ ٦٢١).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا كتاب «الأذان» باب «هل يتبع المؤذن فاه ههنا وههنا...» (١/ ١٢٩)، ومسلم (٣٧٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وأحمد (٢١٧١٥).

(٤) ساقط من «ب».

[الكشف الصحيح لا يخالف الشريعة أبدًا]

فإن قلتَ: فهل الكشف الصحيح يخالف الشريعة في شيء من الأحكام؟ **فالجواب**: لا يخالفُ الكشفُ الصحيحُ الشريعةَ أبدًا؛ لأنه يخبر بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها، وذلك هو الشريعة بعينها. قال الشيخ محيي الدين: وقد صححنا أحاديث كثيرة من طريق كشفنا، ثم وجدناها في كتب الحفَّاظ صحيحةً، ولم يكن لنا علم بها قبل الكشف، **فإن الكشف الصحيح لا يأخذ من الشارع إلا ما صح**. وهذا هو مقام الخضر عليه الصلاة والسلام.

[المجتهدون وارثون لرسول الله ﷺ في مقام اجتهاده]

فإن قلتَ: فهل المجتهدون وارثون لمحمد ﷺ في مقام اجتهاده باستنباطهم الأحكام من الكتاب والسنة؟ **فالجواب**: نعم، وهم من أكبر الوارثين للنبوة، وإن تفاوت الاجتهادان من حيثُ إن اجتهاده ﷺ ينتهي إلىٰ اليقين، وغيره قد لا يتعدىٰ الظنَّ. وإيضاح ذلك أن الشارع أمر المجتهدَ المطلقَ أن يعمل بكل ما أدىٰ إليه الاجتهاد [في الأحكام][1].

فإن قلت: فإذن المجتهدون الوارثون لرسول الله ﷺ في منازل الأنبياء والرسل من حيثُ الاجتهادُ؛ **فالجواب**: نعم، وهو كذلك، فإنه ﷺ أباح لهم الاجتهاد في الأحكام، وذلك تشريع عن خبر الشارع، فكل مجتهد مصيب من حيثُ التشريعُ، كما أن كلَّ نبي معصوم. انتهىٰ.

وفي هذا القدر كفاية في الجواب عن الأنبياء عمومًا. ولنشرع بعون الله تعالىٰ في الأجوبة عنهم خصوصًا، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) زيادة من «ب».

الباب الثاني

في الأجوبة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحكم الخصوص

اعلم يا أخي أنه لا ذوق لنا في شيء من أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتىٰ نتكلم عليها بحكم المطابقة، فإن طاعتهم ليست كطاعتنا في المقام، ولا ذنوبهم التي قصها الله تعالىٰ علينا كذنوبنا في الوصف، وأين الثريا من الثرىٰ؟! فاللائق بنا الإيمان بما أضافه الحقُّ تعالىٰ إليهم منها علىٰ علم الله تعالىٰ فيها، لا علىٰ حدِّ ما نتعقله نحن منها قياسًا علىٰ أحوالنا في طاعاتنا ومخالفاتنا. وذلك قريب من مقام اتباعنا لإيمان السلف بآيات الصفات وأخبارها، بجامع قصور فهمنا عن إدراك حقيقة كلٍّ من المقامين وإن تفاوتا.

وهذا الذي ذكرناه أسلم لنا وأحوط في ديننا، لكونه طريقًا بين طريقين، إذ لا سبيل إلىٰ سلب ما أضافه الحقُّ تعالىٰ إليهم من اسم الذنب، ولا إلىٰ إلحاق الذنوب بهم علىٰ حدِّ ما نتعقله نحن من ذنوبنا من حيثُ الذمُّ والقبحُ. ومن هنا قال بعض العارفين: إن جميعَ ما قصَّه الله علينا في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من اسم الذنب كلَّه صوريٌّ لا حقيقي. انتهىٰ.

إذا علمت ذلك، أقول وبالله التوفيق:

(٣٢) مما أجبت به عن سيدنا ومولانا والد الأنبياء والمرسلين السيد آدم عليه الصلاة والسلام في نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]: اعلم يا أخي أن معصية أبينا آدم عليه الصلاة والسلام إنما كانت صورة ما يقع من أولاده الذين هم في ظهره لا منه عليه الصلاة والسلام، فالحكاية عنه والمراد بها غيره، نظير قوله تعالىٰ في حقِّ نبينا محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، فإن هذه الأمور ونحوها من المحال وقوعه ﷺ في شيء منها لعصمته. وبذلك قال جمهور العلماء وأهل الكشف.

وكان الشيخ الكامل الراسخ سيدي عبد العزيز الديريني ﷺ يقول: لم تكن معصية

أبينا آدم عليه الصلاة والسلام حقيقية، وإنما كانت صورية، فأوقع الله تعالىٰ علىٰ يديه ما وقع، لينتقل ذلك عنه إذا مات إلىٰ بنيه سلفًا لخلف علىٰ وجه التحذير والاعتبار، فكأنه عليه الصلاة والسلام يعلِّم بنيه الذين يقعون بعده في المعاصي بصورة ما وقع علىٰ يديه من الأكل من الشجرة، وما وقع له بسببها من تطاير الحُلَل والهبوط والندم والبكاء وكثرة الاستغفار كيف يفعلون إذا وقعوا في شيء من المعاصي والرذائل الحقيقية، فيتوبون ويستغفرون، ولا يحتجون علىٰ حضرة الله تعالىٰ بالقضاء والقدر كما وقع لإبليس.

وقد درج الأكابر من أهل الله عزَّ وجلَّ علىٰ كثرة لوم نفوسهم إذا وقعوا في شيء من المخالفات، مع علمهم بأن جميع ما وقع منهم كان بقضاء وقدَر لا مرد له، وما مرق من إقامة الحجة عليه إلا من مقته الله وأشقاه.

وقد قررنا مرارًا أنه يجب علىٰ العبد أن يقيم الحجة علىٰ نفسه دون حضرة ربه، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، لأن الحق تعالىٰ لا يخبر إلا بالواقع، فيجب علىٰ كلِّ عبدٍ الإيمان بما أضافه الحقُّ تعالىٰ إليه، وإن لم يتعقله. انتهىٰ.

وكذلك قررنا مرارًا أن العبد لو قَدِرَ أن يقول: كيف تؤاخذني علىٰ أمر قدرته عليَّ قبل أن أُخلق؛ لقال له الحقُّ جل وعلا: وهل تعلَّق علمي بك في الأزل إلا علىٰ صورة ما أنت عليه؟ فلا يسعه إلا أن يقول: نعم. ومن هنا قال السيد آدم عليه الصلاة والسلام حين أكل من الشجرة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، مع علمه عليه الصلاة والسلام يقينًا بأن ما وقع فيه صورةً كان بقضاء وقدر لا مرد له، وأن الله تعالىٰ قدَّر ذلك عليه قبل أن يخلقه من التراب، ففتح عليه الصلاة والسلام بذلك لأولاده بابَ التوبة والندم والاستغفار وكثرة البكاء والنوح إذا وقع أحدُهم في مخالفة، كما فتح إبليس لأتباعه وجنوده بابَ الإصرار والشقاء والإدبار والاستكبار وعدم الرضا بإقامة حجة الله عليه ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وهنا أسرار من علمها عَرَف حكمة قوله تعالىٰ في آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾، وفي إبليس ﴿أَبَىٰ

﴿وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] لكن يجب عليه كتم تلك الحكمة، ولا ينبغي له وضعها في كتاب، لأن الكتاب يقع في يد أهله وغير أهله.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: كان في أكل أبينا آدم عليه الصلاة والسلام من شجرة النهي بيان حكم حضرتي الأمر والنهي، وأن من كمال العبد المؤمن من حيثُ الحكمةُ الإلهيةُ معرفتَه لهما، ليدرك الفرق بين مقدار الوصل ومقدار الهجر، فيشكر إذا قربه الحقُّ تعالىٰ من حضرته بالطاعات، ويندم ويحزن ويستغفر إذا أبعده الحقُّ تعالىٰ بالوقوع في المخالفات. ومن هنا قالوا: إن نشأة بني آدم أكمل في المقام من نشأة الملائكة؛ لأن الملائكة لا يذوقون للنهي طعمًا لعدم ميلهم إليه ووقوعهم فيه، ففاتهم الأجر الذي جعله الله لبني آدم في نظير اجتنابهم للنهي، وفاتهم مقام محبة الله تعالىٰ المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وإن كانت تلك المحبة وردت علىٰ سبيل الجبر لما وقعوا فيه من كسر القلب بالوقوع في المعاصي.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: لولا ذوق بني آدم للأكل من شجرة النهي التي هي كناية عن الوقوع في المعاصي ما عرفوا مقدار ما أنعم الله تعالىٰ به عليهم في امتثالهم أمره بالوقوف بين يديه في العبادات، لأنه لا يُعرَف مقدار شيء إلا بضده.

وكان يقول أيضًا: لولا أن السيد آدم عليه الصلاة والسلام لم يأكل من الشجرة الأكل الصوري، لربما كان غير المعصومين من ذريته المؤمنين ناقصين من الأجر والثواب، وكثرة الشكر لله عزَّ وجلَّ لعدم من كان يعلِّمهم كمال الأدب مع الله في كيفية التوبة. وأما هو عليه الصلاة والسلام فكان كاملًا في كل حال، والله تعالىٰ عنه راضٍ حال أكله من الشجرة وحال توبته وندمه علىٰ حد سواء، لأن تلك المعصية كان المراد بها تأديب غيره من ذريته، وتحذيرهم من مواطن السخط، لا هو عليه الصلاة والسلام.

وقد أجمع أهل الكشف قاطبةً علىٰ أن ترقي الأنبياء في المقامات الشريفة دائم، فلا ينتقلون من حال إلا لأعلىٰ منها وأكمل، وأن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ الأرض كان هبوط كرامة وشرف وترقٍ في المقام، إذ الأرض هي محلُّ خلافته التي شرُف بها، ولم

يجعل الحقُّ تعالىٰ تلك الجنة التي كان فيها محلًّا لخلافته، ولا محلًّا لإخراج ذريته من صلبه من سائر الأنبياء وأتباعهم وجميع المؤمنين والكافرين الذين هم أهل الدارين، فلو لم يخرج من تلك الجنة، لكان كالعقيم ولم تعمر الدنيا، ولم تحكم حضرات الأسماء في أهلها، ولا كان إرسال أنبياء ولا شرائع، كما هو الأمر في الدار الآخرة.

وإنما كان وصف الحقِّ تعالىٰ له بالعصيان والغواية وغير ذلك تقبيحًا لصورة المعصية من حيثُ هي، ليحذر بنوه من الوقوع في المعاصي الحقيقية بطريق الأولىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله يقول: كان خروجُ آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة التي كان فيها خروجَ كرامة وزيادة في مقامه؛ لأن الرجل الذي يخرج من ظهره ذرية أتمُّ نشأة ممن لا يولد له. وقد امتن الله تعالىٰ علىٰ الرسل عليهم الصلاة والسلام من طريق الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: لو لم يكن من فائدة آدم عليه الصلاة والسلام إلا كون مثل حسنات جميع أولاده المسلمين في صحيفته، لكان ذلك كفاية في شرفه، لأن حسنات الولد من حسنات الوالد، وليس علىٰ الوالد من أوزار بنيه شيء. انتهىٰ.

وسمعت أخي الكامل الراسخ أفضل الدين رحمه الله يقول: جميع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان الحقُّ تعالىٰ قد أطلعه عليه قبل ذلك، وكأن لسان حال الحضرة الإلهية يقول لأهلها: إنه قد سبق في علم الله أنه تعالىٰ قال: لابد أن أخرِج من ظهر آدم ذرية طائعة وعاصية، وأرسل إليهم رسلًا علىٰ لسان جبريل وغيره من الملائكة يأمرونهم بالطاعات، وينهونهم عن المخالفات من طريق وحي التشريع الظاهر والإلهام الباطن، وأجعل من ذريته أنبياء ورسلًا وأولياء صالحين، ومؤمنين وكافرين، وجاحدين ومقرين، وأنزِل إليهم كتبًا فيها شرائع وأحكام وتكاليف، وأخلُق لهم دارين: اسم إحداهما الجنة، والأخرىٰ النار، وأجعل معهم الجنَّ كذلك في الدارين، فالجنة للأنبياء والمرسلين ومن أطاعهم وصدَّقهم، والنار لإبليس ولجميع الأشقياء الذين خالفوا كتبي ورسلي، ويكون

شرف عبدي آدم بذلك.

وسبق في علمي أيضًا أن أوقع على يديه صورة ما يقع من بعض بنيه من المعاصي، وأعلِّمه كيف يخلصون منها إذا وقعوا فيها، لنرشدهم إلىٰ ذلك، وأن من تاب منهم وأكثر من الاستغفار والندم، قُبلَت توبته، ولم ينقص بذلك مقامه عندي. ثم إنه لابد له ولمن تبعه في صورة ما يقع علىٰ يديه من أن أقيم الحُجة عليهم في الظاهر، وأنادي عليهم بالعصيان تقبيحًا في عين أولاده المحجوبين لا في عينه، وتقييدًا لهم عن الوقوع في محارمي لئلا يتساهلوا في الوقوع فيها وينظروا لوجه إرادتي وقضائي وقدرتي، فلا يتوبون ولا يستغفرون، فإن ذلك وإن كان بإرادتي فأنا غير راض عنهم فيه بحسب ما سبق في علمي، فاثبت يا آدم ولا تضجر مما نسبتُه إليك ظاهرًا، فإنك عندي من المصطفَين الأخيار. واعلم يا صفيي بأنه لا يكمل في مقام المحبة لي إلا من يقدِّم حقي في المراعاة علىٰ حظِّ نفسه، ويقيم الحُجة عليها في المخالفة، ويلومها أشدَّ اللوم.

واعلم يا آدم أني كريم حليم، ولا ينبغي للكريم الحليم أن يخرِج أحدًا من حضرته وجواره إلا بحُجة يقيمها عليه، أي ليميز سيده بالكمال المطلق، ويميز نفسه بالنقص المقيد النسبي، يعني من حيثُ كسبُه، وإلا فالأفعال كلها خلق الله عزَّ وجلَّ ليس فيها نقص؛ لأنه تعالىٰ ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] فافهم. انتهىٰ.

ثم لما أعلمه الله تعالىٰ بما ذكرناه، صار عليه الصلاة والسلام مترقبًا لخروجه من تلك الجنة التي كان فيها إلىٰ الأرض التي هي محل خلافته وكرامته، لتخرج تلك الذرية من ظهره، ويطيع من يطيع منهم، ويعصي أمر ربه من يعصي منهم، وترتب الأسباب علىٰ مسبَّباتها بحسب ما سبق في علمه تعالىٰ.

وقد قال ابن عباس ﵄ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]: إنه تعالىٰ علَّم آدم الأسماء الإلهية والكونية كلَّها، حتىٰ القصعة والقُصيعة، والفسوة والفُسية، والمحراث والطاحون والفأس والقِدْر، وغير ذلك مما يحتاج إليه الخلق في تلك الجنة التي كان فيها، وفي الدار التي يهبط إليها، فلما استعمل الخلق الذين هم في الجنة الأسماء

المتعلِّقة بهم، بقيت الأسماء المتعلقة بأهل الدنيا متعطلة عن الاستعمال، فكان آدم عليه الصلاة والسلام ينتظر خروجه إلىٰ الأرض، ليستعمل أهلها تلك الأسماء والآلات المتعلِّقة بهم، إذ الجنة التي كان فيها ليس فيها طاحون ولا محراث ولا فأس ولا قِدْر ولا نحو ذلك، لعدم حاجة أهلها إليها فيها، وكلُّ محب لله تعالىٰ من المؤمنين يحب تنفيذ قضاء الله تعالىٰ السابق وقَدَره في عباده، ليظهر فضله وكرمه علىٰ عباده، ولا يقع الخُلْف فيما أخبر به علىٰ ألسنة رسله، وكأن لسان حال القدرة الإلهية يقول لآدم عليه الصلاة والسلام في سره: إني لا أخرجك من جواري الخاص إلا بحُجة تُقام عليك بعد أكلك من الشجرة، ونهيي لك عن قربها، فإذا فعلتَ ذلك فهو أوان إخراجي لك من جواري الخاص إلىٰ محل آخر من جواري غير الخاص بالنسبة إلىٰ شهود أولادك المحجوبين، وإلا فليس شيء أقرب إليَّ من شيء، إنما الأمر رفع حجاب وإسداله لا غير، فأرفع الحجاب رحمةً بأولادك الطائعين، ليناجوني علىٰ الكشف والشهود، وأسدِل الحجاب علىٰ أولادك العاصين من المسلمين، حتىٰ يقعوا فيما قدرتُه عليهم من المعاصي رحمةً بهم، وإزالةً لخجلهم مني حال وقوعهم في معصيتي لو لم أسدِل الحجاب بيني وبينهم، فأنا أراهم وهم لا يروني، ولا يحجبني عنهم حجاب.

واعلم يا آدم أنني ما قدرتُ عليك القربَ من الشجرة والأكلَ منها دون أن آمرك بالأكل منها في الظاهر إلا لما سبق في علمي أني أملأ الدارين من أهلها من المطيعين والعاصين، فلو أنىٰ رضيتُ لك الأكل منها ظاهرًا مع نهيي لك عنه، لصار الأشقياء من أولادك سعداء، وصارت القبضتان قبضة واحدة، لامتثالهم أمري، فلذلك أردتُ بك الوقوع فيما ذُكِرَ، ولم آمرك به، لتعمر الداران الجنة والنار بأهلهما تبعًا لأعمالهما، فأنا أريد الفحشاء من عبادي ولا أرضاها ولا آمر بها، إن الله لا يأمر بالفحشاء.

فكانت المسألة بمثابة جماعة من خوَاص ملك قال لهم ملكهم: إني أريد أن أحدِث في ملكي أمرًا، وأرتب عليه أحكامًا، وأنهىٰ خليفتي عن شيء في الظاهر، وأريد وقوعه منه في الباطن، وأجعل عدم الإذن له في ذلك الشيء ظاهرًا، كالإذن له في الباطن، ولله المثل الأعلىٰ،

فكل من كان حاضرًا ذلك الاتفاق من المقرَّبين أو اطلع عليه من طريق كشفه أو آمن بذلك لا يسمي آدم عاصيًا حقيقة أبدًا. وكل من كان غائبًا عن مجلس هذا الاتفاق [يسميه عاصيًا بلا شك، وكذلك القول فيمن لم يُكشَف له عن هذا الاتفاق به][1] أو لم يؤمن به، يجزم بأن آدم عاصٍ جزمًا، ويستدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] ونحوها من الآيات.

فما ثم عند من حضر ذلك الاتفاق من المقرَّبين إلا مطيع، فمن لم يطع الأمر، أطاع الإرادة، وما خرج أحد عن قبضة تصريف الحقِّ تعالىٰ فيه أبدًا، حتىٰ فرعون والنمرود حين ادعيا الألوهية، ما ادعياها إلا بإرادة الله تعالىٰ، فافهم، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا، فالإرادة لها الفَلَك العام، وإن كان لا يجوز الاحتجاج بها علىٰ وجه الإطلاق؛ لأنه لا يسعَد إلا من جمع بين موافقة الأمر والإرادة دون من احتج بالإرادة وحدها، وذلك لأن من امتثل أمر ربه ما امتثله إلا بالإرادة، وما كل من أطاع الإرادة يكون مطيعًا لأمر الله تعالىٰ، لأن الكفار ما كفروا إلا بإرادة الله تعالىٰ، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: كُلُّ من احتج بالإرادة المجردة عن امتثال الأمر فهو شقي ليس له في السعادة قدم، فإنه لا يصح لأحد أن يعصي ربَّه أو يطيعه إلا بالإرادة، فلا يخرج عبد عن أن يكون مطيعًا لربه من وجه واحد أو من وجهين، فإن تعلقت الإرادة الإلهية للعبد بامتثال الأمر، امتثله لا محالة، وسُمِّي ذلك العبد مطيعًا لله تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا من الوجهين؛ لأن الأمر وافق الإرادة. وإن لم تقض الإرادة الإلهية للعبد امتثال الأمر، لا يصح له فعل طاعة، وسُمِّي عاصيًا للأمر [ظاهرًا][2]، مطيعًا للإرادة باطنًا. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﵀ يقول في قوله تعالىٰ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾: اعلم يا أخي أنه بلغنا أن الحقَّ تعالىٰ كان قد أوحىٰ إلىٰ آدم عليه الصلاة والسلام وهو في الجنة التي كان فيها من الوجه الخاص الذي يكون بين العبد وربِّه المسمَّىٰ بالإلهام وقال له: يا آدم، إني أريد أن أبرز ما كان في مكنون علمي من باب ترتيب الأسباب الإلهية والكونية علىٰ مسبَّباتها،

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

وأقدر علىٰ يديك صورة ما يقع من ذريتك المؤمنين من المعاصي دون ما يقع من أولادك الكفار، فاثبت لذلك، فإني لا أواخذك بصورة ما يقع علىٰ يديك مما يقع بنوك فيه حقيقة، وأجعل صورةَ ما يقع علىٰ يديك صورةَ نفوذ الأقدار الإلهية في دار لا تكليف فيها مما ليس فيه انتهاك لمحارمي ولا غضب مني علىٰ فاعله، فاعلم ذلك ولا تخبر به أحدًا من أولادك، فتفتح لهم باب انتهاك محارمي والاحتجاج عليَّ، فلا يندمون ولا يستغفرون. انتهىٰ.

فإذا علمت يا أخي ما ذكرنا لك، لاح لك أن نداء الحقِّ تعالىٰ علىٰ آدم عليه الصلاة والسلام بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ إنما هو لأجل المحجوبين عن حضرة الاتفاق المذكور، لأنهم هم الذين يتعدون في العادة حدودَ الله تعالىٰ ويقعون في المعاصي، بخلاف من رُفع حجابهم من المقرَّبين، فإنهم يعرفون الأمر علىٰ ما هو عليه، وأن ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام من الأكل من الشجرة والنداء عليه بالعصيان كان المراد به غيره بلا شك، وقد يزجر الملكُ عبدَه المقرَّبُ عنده ليخوِّف عبده الآبق عن طاعته، برضا ذلك العبد المقرَّب دون كراهة منه لذلك، باتفاق علىٰ ذلك بينه وبينه، ليقول العبيد الخارجون عن طاعة الملك: إذا كان هذا فعله مع عبده المقرَّب، فكيف فعله بالعبد المطرود من أمثالنا عن حضرته؟! ويأخذون في أسباب دخولهم في قاعة الملك خوفًا ورهبًا. فكان آدم عليه الصلاة والسلام بما وقع منه من الأكل والتوبة فاتحًا لباب أحكام الدنيا، وحاملًا عن جميع بنيه المؤمنين شدة الندم والحزن والبكاء والنوح. فقد نقل وهب بن مُنبِّه[1] أن آدم عليه الصلاة والسلام لما وقع في الأكل من الشجرة، بكىٰ حتىٰ اجتمع من دموعه بركة ماء مكثت البهائم والسباع والطيور تشرب منها نحو ثمانين سنة، فكان من فتوته وشدة عزمه وحسن شفقته ورحمته أن تحمل عن عصاة بنيه الموحدين هذا البكاء العظيم الذي كان اللائق بهم فعله إذا وقعوا في المعاصي الحقيقية. ولولا ذلك لاشتد عليهم البكاء والنحيب

---

(١) وهب بن مُنبِّه بن كامل الإمام العلامة الأخباري القصصي أبو عبد الله الأبناوي اليماني الصنعاني. أخو: همام بن مُنبِّه، ولد في زمن عثمان ﷺ سنة ٣٤هـ ورحل وحج وروىٰ عن: ابن عباس، وأبي هريرة وأبي سعيد، والنعمان بن بشير، وغيرهم ت ١١٤هـ. السير (٤/ ٥٤٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٤٩).

والندم والحزن حتىٰ منعهم معايشهم وأكلهم وشربهم، فجزاه الله تعالىٰ عن بنيه خيرًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: أجمع أهل الكشف علىٰ أن نداء الحق جلَّ وعلا علىٰ أبينا آدم عليه الصلاة والسلام بالعصيان والغواية كان المراد به غيره، فكان من فتوته عليه الصلاة والسلام أن تحمَّل عن أولاده المسلمين صولةَ الخطاب الإلهي، ولولا أنه حمل ذلك عنهم لذابوا من صولته، نظير ما حمل نبينا محمد ﷺ عن أمته صولة خطاب الحق تعالىٰ بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ونحوهما من الآيات. وأما نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٧٨] فكذلك لم يكن لهم الخطاب بذلك إلا علىٰ لسان رسول الله ﷺ، فكأنهم لم يسمعوا ذلك إلا منه، فلذلك حملوه، ولو أنهم سمعوا ذلك من الله تعالىٰ بلا واسطة لذابوا. فكان من رحمة الله تعالىٰ بعباده أن جعل فيهم أنبياء وأولياء يتحملون عن أممهم وأتباعهم ما لا يطيقون حمله من صولة الخطاب الإلهي. هذا في أولاد آدم عليه الصلاة والسلام الموحدين.

وأما المشركون فكان من حكمة الله تعالىٰ أن أمرهم ونهاهم في حجابية أحبابه وأصفيائه، بنحو قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فكان ذلك في مقابلة الإعراض بالإعراض، لما أعرضوا عن خدمة ربهم وعبادته، أعرض الله عنهم بالخطاب بغضًا لهم، لعدم استحقاقهم له، وخاطبهم بالواسطة علىٰ لسان رسله بنحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ [الجمعة: ٦] فحُرِمُوا لذةَ خطاب الله تعالىٰ في الدنيا. وأما في الآخرة فإنما خطابهم علىٰ وجه التوبيخ نحو قوله تعالىٰ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لم يحب أولياء الله تعالىٰ التجارة للدنيا وشهواتها، وإنما أحبوها ليتلذذوا بخطاب الحق تعالىٰ لهم بنحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ

﴿اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢] لم يخاطب بالقرض إلا أهل الجِدَة[1] لا الفقراء الذين لا يملكون شيئًا زائدًا علىٰ ضروراتهم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي ﷺ يقول: يجب جزمًا اعتقاد أن الله تعالىٰ قد عصم أنبياءه من الوقوع في كل شيء يكرهه، لشدة اعتنائه تعالىٰ بهم، وجميع ما خاطبهم تعالىٰ به من العنف والشدة كان برضا منه ومنهم، فكما تجلىٰ لهم بالجمال الممزوج بالجلال، كذلك ينبغي للأنبياء أن يخاطبوا قومهم باللين والشفقة والرحمة، لأنهم علىٰ الأخلاق الإلهية درجوا، فكما أن الحقَّ تعالىٰ لو تجلىٰ بالجلال الصرف للموحدين لذابوا، فكذلك الأنبياء لو خاطبوا قومهم بشدة وغلظة لنفروا منهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فافهم.

فعُلِمَ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا بمحل للمخالفات مطلقًا، بل المخالفات تنفر منهم كما تنفر الظلمة من النور، ومن كان كذلك لا يحتاج إلىٰ نهي عن الوقوع في شيء من المخالفات ولا شدة خطاب بالقوارع والزواجر، فرحم الله من اعتقد تطهير أنبياء الله تعالىٰ من كل شيء يشينهم في الدنيا والآخرة. آمين، آمين، آمين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقيمون دائمًا في حضرة الإيقان التي هي فوق حضرة الإحسان، فهم دائمًا يعبدون الله تعالىٰ علىٰ الكشف والمشاهدة له من غير حجاب سوىٰ حجاب العظمة، فإن نزلوا عن ذلك وخرجوا من حضرة الإيقان، دخلوا حضرة الإحسان، فيعبدون الله تعالىٰ فيها كأنهم يرونه، فلا يصح في حقِّهم معصية حقيقة بوجه من الوجوه، فإذا كانت حضرة الإحسان لا يصح منهم فيها الوقوع في شيء من المعاصي، فكيف بحضرة الإيقان؟! فإنه لا بد للعاصي من حجاب حتىٰ يقع في المعصية، ومحال أن يعصي عبد ربه علىٰ الكشف والشهود بأنه يراه تعالىٰ، إذ لا بد من ضرب الحقِّ تعالىٰ الحجاب علىٰ العاصي لئلا يهلك من شدة الحياء ومن شدة الهيبة. انتهىٰ.

---

(١) الجِدة: الغنىٰ.

وسمعته ﷺ يقول: ما أخبرنا الشارع أن الله تعالىٰ خلق آدم علىٰ صورته -أي التي يتجلىٰ فيها للنائم حتىٰ يراه- إلا لكون صورة آدم منه وإليه لا يصح أن يتدنس بشيء من المخالفات، لما هي عليه من الشرف والعظمة.

قال: ومن هنا يعلم كل عارف أن الإنسان هو بذاته علم الله عزَّ وجلَّ فإنه المقصود من العالم، ولما خلقه الله تعالىٰ كانت حقائقه كلها متبددة في جميع العالم، فلما ناداها الحقُّ تعالىٰ من جميع العالم، أجابت واجتمعت، فكان من جميعها الإنسان. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ما وقع أحد في معصية إلا وهو محجوب عن شهوده الحقِّ تعالىٰ بسبعين ألف حجاب.

وكان كثيرًا ما يقول لمن سأله عن معاصي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: إياك يا ولدي والخوض في مثل ذلك، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يصح في حقِّهم معصية حقيقية، وإذا كان الوليُّ إذا دخل حضرة الإحسان لا يصح منه وقوع في معصية فيها، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟! ولما دخلها الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه[1] وهو صغير كان يقول: أعرف عبدًا لله في هذا الزمان من منذ وعىٰ علىٰ نفسه لم يأتِ معصية لله تعالىٰ قط؛ فكان أصحابه يعرفون أنه يعني بذلك نفسه، لأنه لا أحد يعرف ذلك من غيره إلا بوحي إلهيٍّ. وكذلك بلغنا عن معروف الكرخي رحمه الله[2] أنه كان يقول: لي منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالىٰ والناس يظنون أني أكلمهم! فهذا فرع صغير من فروع أتباع الأنبياء مكث في حضرة الإحسان ثلاثين سنة لم يخرج منها، فكيف بمن هو أكبر منه؟! انتهىٰ.

---

(١) شيخ الديار المصرية وعالمها أبو الحارث الليث بن سعد الفهمي مولاهم الفقيه، كان إمامًا ثقة حجة رفيعًا واسع العلم سخيًا جوادًا محتشمًا. قال عنه الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به وكان أتبع للأثر من مالك ت ١٧٥هـ يوم الجمعة يوم نصف شعبان عن إحدىٰ وثمانين سنة. العبر في خبر من غبر (١/ ٢٦٦)، السير (٨/ ١٣٦).

(٢) معروف الكرخي: هو معروف بن الفيرزان، وقيل: ابن فيروز أبو محفوظ، وقيل: أبو الحسن، من أهل كرخ بغداد، كان إمام وقته وزاهد زمانه ت ٢٠٠هـ ببغداد، وقبره مشهورٌ بها يزار، رحمه الله. النجوم الزاهرة (٢/ ١٦٧)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٣١).

وكان الشيخ الكامل محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول: من أعظم دليل علىٰ عصمة الأنبياء من كلِّ ذنب كون الحقِّ تعالىٰ جعلهم مشرِّعين لأممهم بجميع أقوالهم وأفعالهم، فلو أنه كان يصح وقوع أحد منهم في معصية حقيقية، لصدق عليهم تشريع المعاصي لنا، لنقع فيها تأسيًا، ولا قائل بذلك، وقد قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأمرنا تعالىٰ بالتأسي به في جميع أحواله، والله لا يأمر بالفحشاء. انتهىٰ.

وكان يقول أيضًا: قد أجمع أهل الكشف علىٰ أن الأسباب المانعة من وقوع الخواص في المعاصي مع عدم التقدير ثلاثة لا رابع لها: **الأول**: الحياء من الله تعالىٰ، كأن يكون يشهد نظر الله إليه؛ **الثاني**: الخوف من عذاب الله تعالىٰ، ومؤاخذته له؛ **والثالث**: الرجاء في ثواب الله. وهذه الثلاثة مجتمعة في كلِّ نبي لله تعالىٰ بلا شك، فما منهم أحد إلا وهو معصوم من الوقوع فيما يكرهه الله تعالىٰ، مستحي من الله تعالىٰ، خائفٌ منه، راجٍ فضله وثوابه من باب المنة لا من باب الاستحقاق. انتهىٰ.

قلتُ: ومن هنا تعرف يا أخي معنىٰ حديث: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»[1]، وقيل: إنه أثر، فإن معناه أن صهيبًا لو لم يخف الله تعالىٰ، لبقي له مع عدم التقدير سببان مانعان من الوقوع في المعاصي، وهما: الحياء، والرجاء، وقس علىٰ ذلك، كما لو قيل: نعم العبد صهيب لو لم يستحي من الله، أو لو لم يرجُ ثواب الله، أو لم يقدِّر الله تعالىٰ عليه معصية، لم يعصه، والله أعلم.

وسمعتُ أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول: مما يؤيد قولنا إن معاصي الأنبياء كلَّها صورية لا حقيقية، وأنها تعقبهم الاجتباء والاصطفاء، وأن مقامهم لا ينقص بها حال

(١) قال الإمام السيوطي في التدريب (٢/ ٦٢٤) قال العراقي وغيره: لا أصل له. وقال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة (١٢٥٩): اشتهر في كلام الأصولين وأصحاب المعاني وأهل العربية من حديث عمر، وذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به في شيء من الكتب. وكذا قال جمع جم من أهل اللغة، ثم رأيت بخط شيخنا أنه ظفر به في مشكل الحديث لأبي محمد ابن قتيبة لكن لم يذكر له ابن قتيبة إسنادًا وقال: أراد أن صهيبا إنما يطيع الله حبًا لا لمخافة عقابه. انتهىٰ.

فعلهم لها قولُ الشيخ الكامل القطب الرباني أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لو عرف آدم عليه الصلاة والسلام أنه لما ينزل إلىٰ الأرض من الجنة التي كان فيها، يعود إليها وإلىٰ الجنة الكبرىٰ بمئة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي منهم محمد ﷺ، لأكل الشجرة كلَّها متأولًا للنهي؛ وكذلك يؤيده قول الشيخ الكامل أبي مدين التلمساني رضي الله عنه: لو كنتُ مكان آدم عليه الصلاة والسلام، وأطلعني الله تعالىٰ علىٰ ما أطلعه من الثمرة المترتبة علىٰ ذلك، لأكلت الشجرة كلَّها. انتهىٰ.

وكذلك يؤيده قول الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين من «الفتوحات المكية» بعد أن أثنىٰ علىٰ آدم عليه الصلاة والسلام بما هو أهله: كان هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ الأرض بعد أكله من الشجرة هو وحواء هبوط شرف وكرامة، لا هبوط عقوبة لهما كما وقع لإبليس، فإن آدم عليه الصلاة والسلام أُهبِطَ بحكم الوعد السابق من الله تعالىٰ أن يكون خليفةً في الأرض، وفي ذلك كماله. انتهىٰ.

ومعنىٰ كونه خليفة، أي يخلف الحِنَّ والبِنَّ[١] الذين كانوا قبل آدم في الأرض، وكانوا من الملائكة الأرضين لا السماوية، فإنهم هم الذين شهدوا وقوع الفساد وسفك الدماء في الأرض، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فكان منهم ذلك الاعتراض الصوري كالدعاء والابتهال إلىٰ الله تعالىٰ أن يحمي آدم عليه الصلاة والسلام من وقوعه هو وذريته في الفساد إن أُنزلوا إلىٰ الأرض، كما يشفق الواحد منا علىٰ أخيه إذا بلغه عنه أنه عزم علىٰ خدمة مِلك يستعمله في أمر يخاف منه. ولو أن هؤلاء الملائكة كانوا سماوية لم يقع منهم ذلك الأمر الذي فيه رائحة ظهور اعتراض علىٰ أفعال القدرة الإلهية، وتزكية لنفوسهم، وتجريح لغيرهم، لصفاء عنصرهم من الكدورات الطينية. فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: في قوله تعالىٰ عن الملائكة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ إلىٰ آخره: اعلم أن القائل ذلك إنما هم الملائكة الأرضيون

---

(١) الحِنّ والبن: مخلوقات كانت قبل آدم عليه الصلاة والسلام، انظر «البداية والنهاية» (١/ ١٢٨).

المخلوقون من الأرض المتراكمون بعضهم فوق بعض إلىٰ السماء، لذوقهم الفساد في الأرض في أنفسهم، لقربهم من الأرض، وكثافة حجابهم، ولو كانوا من ملائكة السماوات، لم يقع منهم اعتراض، لصفاء عنصرهم ورفع حجبهم الطينية، فإن كلَّ مخلوق تابعٌ لما خُلِقَ منه من لطيف وكثيف من الأرض السابعة إلىٰ العرش العظيم. وكان محمد ﷺ خلاصة الأرواح، وخلاصة الأجسام، فهو أكمل الخلق روحًا وجسمًا ﷺ. انتهىٰ.

وكان ؓ يقول: لم يبلغنا في كتاب ولا سنة أن المرادَ بهؤلاء الملائكة الذين اعترضوا الملائكةُ السماويةُ، كما أنه لم يبلغنا في كتاب ولا سنة أن أحدًا من ملائكة السماوات أفسد فيها وسفك دم أخيه، بل ليس فيهم دم أصلًا. ومن نازعنا في ذلك فعليه الدليل، ولعله لا يجد ذلك أبدًا، وكون ذلك هو الظاهر للأفهام لا ينهض دليلًا قطعًا. انتهىٰ.

وقد وقع بيني وبين بعضهم نزاع في أن معصية آدم ؑ لم تكن صورية، وإنما كانت حقيقية، فقلتُ له: يكفيك أنك تجرِّح أباك الأعظم بالفهم من غير دليل مقبول عند أولياء الله تعالىٰ العارفين بمقامات أنبيائه ورسله. وليت شعري ماذا يترتب علىٰ إثبات المعاصي الحقيقية في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الآن؟! ما ذاك إلا فضول! فإن لم تجب يا أخي عنهم الأجوبةَ الحسنةَ وإلا فكف عما يؤدي إلىٰ نقائصهم، ويجريء العوام علىٰ الوقوع في معاصي الله عزَّ وجلَّ.

فإن قلتَ يا أخي: إنما قصدتُ بتحقيق معاصيهم الإيمانَ بقضاء الله وقدَره، وأن أحدًا من الخلق لا يخرج عن تقدير الله فيه بما شاء الله؛ **قلنا لك:** لم يبلغنا أن أحدًا من المسلمين صرَّح بوجوب اعتقاد معاصي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علىٰ حد ما نتعقله من معاصينا، بل حرَّموا ذلك. ومن طالع كتاب «الشفاء» للقاضي عياض وغيره، عَرَف صدقي فيما أقول. وإذا كان العلماء أجمعوا علىٰ طلب الكف عما شجر بين الصحابة وعدم الطعن فيهم، فكيف بأنبياء الله تعالىٰ ورسله؟!

فقال: أنا ما اعتقدتُ ذلك إلا لظاهر قوله تعالىٰ في القرآن: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فقلتُ له: أتمم الآية ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فلا يجوز لك

يا أخي بعد أن اجتباه ربُّه وتاب عليه وهداه أنك تذكره بسوء، فإن «التائب من الذنب كمن لا ذنب»[1] كما ثبت في الصحيح، [فمعصيته عليه الصلاة والسلام لو لم تكن صورية][2] فقد ثبتت توبته وقبولها وحصل الاجتباء الظاهر كما هو الباطن، فإن الله تعالىٰ كان راضٍ عنه حال أكله من الشجرة كما مر. وإذا كان الإمام أبو بكر ﷺ ما زال بعين الرضا من الله قبل إسلامه، فكيف بأبي الأنبياء والمرسلين علىٰ نبينا وعليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

فقال لي: إن الإمام أبا بكر ﷺ لم يسبق له نهي عمَّا كان فيه بخلاف السيد آدم! فزجرتُه عن ذلك، فسكتَ قليلًا ثم قال: قد ورد أن الله تعالىٰ قال لآدم وحواء: «اهبطا إلىٰ الأرض، فإنه لا يجاورني من عصاني»، وهذا مؤذِنٌ بأن هبوطهما إلىٰ الأرض كان عقوبة لهما.

فقلتُ له: وعلىٰ تقدير ذلك فقد سمعتَ قولَ الله تعالىٰ إنه تاب عليه وهدىٰ، فلا يجوز بعد قبول الله تعالىٰ توبتَه أن يُذكَر بسوء كما قررتُه لك آنفًا؛ فتاب بحمد الله تعالىٰ وشكر فضلي علىٰ ذلك، فالحمد لله رب العالمين.

واعلم يا أخي أن في قول أبينا آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] تعليمًا لنا إذا وقعنا في معصية حقيقية أن نعترف بها ونندم ونستغفر الله منها، ولا نحتج بالقضاء والقدر، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج بذلك، بل قال مع علمه بأن ما وقع فيه كان بقضاء وقدر لا مرد له: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فعَلَّم ﷺ بذلك أولاده الآتين بعده أن يقولوا مثل ذلك إذا وقعوا في مخالفة قدَّرها الحقُّ تعالىٰ عليهم، فتحًا لباب التوبة من الله تعالىٰ عليهم ضدَّ ما فعل إبليس بعد الإباية عن السجود، فإنه قال للحق تعالىٰ لما قال له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]: كيف تؤاخذني علىٰ أمر قدَّرتَه عليَّ قبل أن أُخلَق؟! فلذلك سعِد آدم ومن تبعه، وشقِي إبليس ومن تبعه، فإن آدم اعترف بذنبه في الظاهر وأقام حجة ربه علىٰ نفسه، وإبليس لم يعترف بذنبه وجادل بغير حق، والله

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٢٠٥٦١) والطبراني في «الكبير» (١٠٢٨١).

(٢) ساقط من «ب».

تعالىٰ يقول في الكفار: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ كما تقدم ذلك في الباب الأول.

وقد مضىٰ الأنبياء والمرسلون وأتباعُهم من الأولياء من أذنب ومن لم يذنب علىٰ الاعتراف لله بالفضل والكرم. وقد بلغنا أن الحقَّ تعالىٰ أدحض حجة إبليس وقال له: متىٰ علمتَ أني قدَّرتُ عليك الإبايةَ عن السجود لآدم: قبل وقوعها منك أم بعدها؟ فقال: بعدها. فقال الحقُّ تعالىٰ له: بذلك آخذتُك. انتهىٰ. فإذا كان إبليس الذي يوقع الناس في المعاصي بحكم الإرادة الإلهية أُقيمَت عليه الحُجة، فغيره من أتباعه أولىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إنما أخبرنا الحقُّ تعالىٰ باجتباء آدم عليه الصلاة والسلام بعد اعترافه بالذنب، لنكف عن وصفه بذمٍّ من حيثُ أكلُه من الشجرة سدًّا لباب الغيبة في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولنفعل مثل صورة فعل أبينا ونعترف بذنوبنا ونتوب منها إذا وقعنا فيها فورًا من غير إصرار، كما أنه تعالىٰ ما أخبرنا بجدال إبليس إلا ليحذِّرَ من مثله إذا وقعنا في مخالفة أمر الله بإرادة الله. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول: أقبحُ من كلِّ قبيح قولُ العاصي لربه ولو في سره: كيف تؤاخذني علىٰ أمر قد قدَّرتَه عليَّ قبل أن أُخلَق؟ وأحسنُ من كلِّ مليح قولُ العبد: رب إني ظلمت نفسي واعترفتُ بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وكان رضي الله عنه يقول: من اعترف بذنبه هنا من المؤمنين وأضاف الذنب إلىٰ نفسه، جازاه الله تعالىٰ يوم القيامة بالتأنيس، والكلام الذي يغيب به عقل العبد من شدة لذته، فيقول له: يا عبدي، لا تخف مني اليوم، فإن ما وقع منك ما كان إلا بقضائي وقدري النافذَين فيك بإرادتي، فلا أجمع عليك خوفين. انتهىٰ.

وقد رأىٰ بعضُهم الباري جلَّ وعلا في المنام وقال له مثل هذا القول، فكاد يطير من الفرح حيث صار الحقُّ تعالىٰ يقيم له المعاذير، لكن لا يخفىٰ أن ذلك لا يكون إلا في مع معاصي أهل الإسلام، فإياك والغلط.

وانظر يا أخي ما أحسن جزاء العبد المتأدب مع سيده في الدنيا! ولو أن العبد قال مثل ذلك لربه في دار الدنيا، مقته وطرده عن حضرته لسوء أدبه.

واعلم يا أخي أن الله تعالىٰ لم يقص علينا في توبة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام سوىٰ الاعتراف والندم. وما زاده العلماء من الإقلاع وعزم أن لا يعود، فلا ينافي ما ذكرناه، بل هو من جملة ما تضمنه الندم، فإن من شأن من يندم علىٰ ذنبه الإقلاع وعزم أن لا يعود، ورد الظلامات. فلو أن شخصًا تاب من غير عمل بشروط التوبة، لقلنا له: توبتك غير صحيحة، وهي توبة الكذَّابين. ولو أن شخصًا اعترف بذنبه وندم عليه، لقلنا له: توبتك صحيحة، حملًا له علىٰ أنه أقلع وعزم علىٰ أن لا يعود.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا ينافي كون معصية آدم صورية لا حقيقية ما وقع علىٰ يديه من الندم والبكاء والحزن، لأنا نقول: إن ذلك أيضًا صوريٌّ حمل به عن بنيه ما يُخِلُّونَ [به] من كمال الشروط.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: من زعم أن معصية أبينا آدم عليه الصلاة والسلام وندمه وحزنه كان حقيقيًا، أو أن هبوطه من الجنة إلىٰ الأرض كان عقوبة، فقد أعظم الفرية علىٰ أبيه، وباء بإثم عظيم، والله ما كان ذلك عقوبة وإنما كان زيادة في الدرجات لما حصل من هبوطه من إخراج الذرية التي سبق بها العلمُ الإلهيُّ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وغير ذلك من مصالح الدارين. ولو لم يكن إلا أن مثل ثواب طاعات جميع أولاده المسلمين يكون في صحائفه، وأما أوزارهم فليس عليه منها شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الإسراء: ١٥].

وكان الشيخ أبو العباس بن العريف(١) يقول: لم يعص آدم حقيقة، وإنما كان ذلك منه بيانًا لصورة ما يقع من ذريته الذين كانوا في ظهره، فإنه كان كالسفينة الحاملة لجميع أولاده.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إنما قال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ دون ذكر أمنا حواء عليها السلام لأن آدم هو الأصل من حيثُ كونُها خُلِقَت منه، وكانت حواء كالجزء

---

(١) أبو العباس بن العريف أحمد بن محمد بن موسىٰ الصنهاجي الأندلسي الصوفي، كان ذا عناية بالقراءات وجمع الروايات والطرق وحملتها وكان متناهيًا في الفضل والدين منقطعًا إلىٰ الخير، وكان العُباد وأهل الزهد يقصدونه ويألفونه، توفي بمراكش ٥٣٦هـ. العبر في خبر من غبر (٤/ ٩٨)، السير (٢٠/ ١١١).

منه، وكان في عدم إضافة المعصية إليها سترًا لها لضعفها عن تحمل صولة الخطاب بالنداء عليها بالعصيان، فلذلك جُمِعَت مع آدم في الخروج والهبوط فقط دون سببهما. انتهىٰ.

فإن قلتَ: فهل كانت خطيئة داود وغيره صورية؟ قلنا: نعم، لا يبعد ذلك اقتداءً بأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام، فحمل عن العصاة من قومه صولةَ الخطاب، وكان كالمعلِّم لقومه كيفية ما يصنعون إذا وقعوا في الذنوب لا غير، إذ التعليم بالفعل ولو صوريًا أبلغ من التعليم بالقول.

فإياك يا أخي ونسبة المعاصي إلىٰ الأنبياء علىٰ حدٍّ ما تتعقله من نفسك، وأقرَّ بأن ذلك جهل بمقام الأنبياء، لما فيه من مساواتهم لأممهم في المقام. وإنما الواجب عليك التأويل كما في آيات الصفات وأخبارها، أو رُدَّ العلمَ في ذلك إلىٰ الله تعالىٰ العالم بأحوالهم ومقاماتهم.

ومما يدلك علىٰ أن معاصي الأنبياء صورية وتعليمٌ لقومهم كيف يفعلون إذا وقعوا في ذنب أن ذلك النبي الذي أُضيفَت إليه خطيئة لم يقع منه إلا مرة واحدة، ولم يبلغنا تكرار وقوع ذنب من نبي أبدًا، وذلك لأن محلَ الأنبياء ينفر منه الذنب، كما تنفر الظلمة من النور.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من الفرق بين معاصي الأنبياء الصورية ومعاصي غيرهم أن معاصي الأنبياء تقع من غير ميل إليها، بل نفوذ أقدار لا غير. وأما غير الأنبياء فلا يقعون في معصية إلا مع ميل لها، ومن هذا الميل أُخِذوا بالعقوبة، فلو قُدِّر أن العاصي قال: يا ربِّ، كيف تؤاخذني علىٰ أمر قدرته عليَّ؟ قال له الحقُّ تعالىٰ: فهل تعلَق علمي بك إلا علىٰ ما أنت عليه؟! فلا يسعه إلا الإذعان والاعتراف.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: كان ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كالحَتْم الواجب وقوعه في الوجود، أعني من حيثُ الحكمةُ الإلهيةُ لا من حيثُ التشريعُ في الظاهر، فلذلك فتح آدم لأولاده السَّعْد الصَّرفَ، ولأولاده الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا باب التوبة والاعتراف إذا وقعوا فيما جرىٰ به القضاء والقدَر.

قال: وفاتح القبضة كما قلنا لا إثم عليه، لأنه لم يفتحها لنفسه، وإنما فتحها لغيره بإرادة الله، كما قالوا: إن معرفة الله تعالىٰ واجبة، ومع ذلك فلا ثواب فيها لعدم دخولها في

أحكام العبيد الذين يطيعون ويعصون، فالمعرفة لهم كالباب الذي يدخلون منه لوجوب فعل التكاليف عليهم، فإن من لا يعرف الله تعالىٰ لا يصح إرساله ولا تقريبه، ولا يعتقد صحة ما جاءت به الرسل من عند الله تعالىٰ. ونظير ذلك أيضًا كوننا لا نطالب الكفار بفروع الشريعة حتىٰ يدخلوا في دين الإسلام، وماداموا لم يدخلوه فلا نطالبهم بها، وإن كان عليهم الإثم والمؤاخذة بها في الدار الآخرة، كما هو مقرر في كتب الكلام. فكان آدم عليه الصلاة والسلام بما وقع علىٰ يديه كالآلة التي ينفذ الله تعالىٰ بها قضاءه وقدره من غير أن ينقص له مقام بذلك.

وكان سيدي علي الخواص ﵀ يقول: إنما أُهبِطَ آدم من الجنة زيادة تشريف له، ليتخلق في الأرض بالذِّلة والمسكنة اللذين لا يليقان بالجنة التي كان فيها، لعلو عنصرها بخلاف الأرض، فإن الذِّلة والمسكنة من أعلىٰ أوصاف العبيد فيها. وقد رأىٰ أبو يزيد البَسْطَامي ربه في المنام، فقال: يا رب بم يتقرب إليك المتقربون؟ قال: بما ليس من صفتي. فقال: يا رب وما هو؟ فقال: الذلة والافتقار. انتهىٰ.

وذلك من أعجب الأمور أن يتقرب إلىٰ السيد بما ليس من صفته، ويبعد عنه إذا تخلق بصفته، يعني غير المأذون للعبد فيها، بخلاف نحو الكرم والعفو والصفح واحتمال الأذىٰ ونحو ذلك، فافهم.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر ﵀ يقول: إنما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية، وإن كان يعلم أن ذلك كان بقضاء وقدر لا مرد له، ليعلِّم بنيه الأدب مع الله عزَّ وجلَّ إذا وقعوا في المعاصي وتعدوا حدوده، فيضيفوا القبيح إلىٰ أنفسهم، والحسن إلىٰ الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وسمعته يقول أيضًا: إنما فعل آدم مثل ما فعل بعد الأكل من الشجرة، ليرقي أولاده الآتين بعده في مقامات الأدب والرضا عن ربهم عزَّ وجلَّ وتطلب الحكمة من الله فيما يقع علىٰ يدهم من التقديرات، ليحمدوا الله تارة، ويشكروه تارة، ويستغفروه تارة، ويوبخوا نفوسهم تارة.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي[1] رحمه الله يقول: قد يبتلي الله تعالىٰ عبده بالزَّلة ليرقيه بها في مقامات لم يكن يبلغها إلا بتلك الزَّلة، لما يقع له فيها من الذُّل والخجل، وقد كان قبلهما يرىٰ نفسه علىٰ أقرانه، ويُعجَب بأعماله، ويُدِل علىٰ الله تعالىٰ بها، ويستبعد أن مثله يعذبه الله عزَّ وجلَّ، وهذا من أقبح الذنوب التي تورث صاحبها المقت. ومن هنا قالوا: المعجب ينتظر من الله المقت، والمذنب ينتظر من الله المغفرة. فإذا قدَّر الله تعالىٰ علىٰ المعجب بنفسه ذنبًا واشتُهر به في بلده، صار يرىٰ نفسه أحقر الناس، ويستحيي أن يجلس بين اثنين، وذلك أقرب ما يكون من حضرة ربه عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: يجب جزمًا اعتقادُ أن هبوط آدم وحواء كان زيادة في شرفهما، ولا يجوز أن يُقال: إن ذلك كان عقوبةً لهما؛ إنما كان الهبوط عقوبة لإبليس فقط، لأن آدم أُهبِطَ يصدق الوعد له بأن يكون خليفةً في الأرض، وقد تاب الله تعالىٰ عليه واجتباه بعدما تلقىٰ الكلمات من ربه عزَّ وجلَّ بالاعتراف بذنبه الصوري، وكان هذا الاعتراف منه في مقابلة قول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فعرَّفنا الحقُّ تعالىٰ مقامَ الاعتراف عنده وما ينتجه من السعادة، لنتخذ ذلك طريقًا إذا خالفنا أوامر ربنا.

وأما إبليس فعرَّفنا اللهُ تعالىٰ بدعواه الخيرية أن في مثل ذلك الطرد عن حضرة الله عزَّ وجلَّ لنتجنب مثل هذه الدعوىٰ، فلا نقول: نحن خير من أحد من المسلمين. وكان هبوط إبليس إلىٰ الأرض إنما هو للإغواء واكتساب الأوزار، وقد كانت معصيته لا تقتضي تأبيد الشقاء، فإنه لم يشرك بالله شيئًا في هذه الحضرة، وإنما أخبر أنه خير من آدم علىٰ وجه الافتخار بما خلقه الله عليه، ولذلك أخبر الله تعالىٰ أنه يقول للإنسان: ﴿ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، فكان أول من سنَّ الكفر

(١) شيخ الإسلام، علم الأولياء محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي، الحنبلي، شيخ بغداد. مولده: بجيلان في سنة ٤٧١هـ. وقدم بغداد شابًا، فتفقه علىٰ أبي سعد المخرمي. له مصنفات منها: «الغنية لطالب طريق الحق» و«الفتح الرباني» و«فتوح الغيب» ت ٥٦١ هـ. السير (٢٠/ ٤٣٩)، الأعلام (٤/ ٤٧).

والشرك في الأرض، فرجع عليه وزر كل مشرك وكافر وعاصٍ علىٰ وجه الأرض»[١].

قال الشيخ محيي الدين: لما دخلت خزانة علم القرآن، رأيتُ فيها أن إبليس أطاع الله تعالىٰ في تلك الحضرة في كل شيء إلا في السجود لآدم عليه الصلاة والسلام. قال: وعلمت منها الحكمة في قوله تعالىٰ في آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ وفي إبليس: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾. انتهىٰ.

وكان يقول: كان فيما قصَّ الله تعالىٰ علينا من قصة آدم عليه الصلاة والسلام تأنيس لأهل الله عزَّ وجلَّ إذا وقعوا في زلَّةٍ وحطَّ مقامهم العليُّ بذلك عند الناس، فيعلمون أن ذلك الانحطاط لا يقضي بشقائهم ولابد، فيكون هبوطهم كهبوط آدم عليه الصلاة والسلام، فإنه للتكريم عندنا بلا شك، إذ الحقُّ تعالىٰ لا يتحيز ولا يختلف حكم قربه بعلو ولا سفل، فليست السماء التي أُهبِطَ منها أقرب إليه من الأرض، وإذا كان الأمر علىٰ هذا الحدِّ، فعين هبوط الوليِّ في عيون الناس عند الزلَّة وما قام به من الخجل والذل والحياء والانكسار بسبب تلك الزلَّة هو عين الترقي إلىٰ أعلىٰ مما كان فيه؛ لأن علو مقام الوليِّ إنما يكون بزيادة العلم والحال، وقد زاد هذا بالذلة والانكسار من العلم بالله ما لم يكن عنده قبل ذلك، فافهم[٢].

فعُلِمَ بما قررناه أن زلَّات أهل الله تخالف زلات غيرهم، لعدم ذلهم وقلة حيائهم وعدم اعترافهم، فلا يزدادون بالزلة إلا طردًا ومقتًا كإبليس، ونحن إنما نتكلم علىٰ زلات أهل الله تعالىٰ التي هي نفوذ أقدار جارية عليهم في حال غفلة أو سهو لا يقصدون بها انتهاك حرمات الله، إذ الإيمان المكتوب في قلوبهم يمنعهم من ذلك.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي ﷺ يقول: لولا وقوع المعاصي في الأرض، لأهلك العجب غالب الناس، لا سيما العباد الذين توالت عليهم الطاعات طول عمرهم، فإن أحدهم يصير يستبعد أن الله تعالىٰ يُعذِب مثله أو يؤاخذه، وربما رأىٰ أنه إنما يدخل الجنة بعمله لا بفضل ربه، كما ورد في العابد الذي يقول له الحقُّ: «ادخل الجنة برحمتي. فيقول:

---

(١) «الفتوحات» الباب (٣٩).

(٢) نفس المصدر والباب.

يا رب، بل بعملي»(١). فلو تأمل هذا العابدُ، لوجد نفسه من أبعد الأبعدين عن الله عزَّ وجلَّ.

قال: فعُلِمَ أن أهل حضرة الله تعالىٰ لا يزدادون بكثرة العبادة إلا ذلًّا وتواضعًا لله عزَّ وجلَّ، كالأنبياء ومن طاب عنصرهم من الصحابة والتابعين، فإن الله ما شرعها إلا ليذل بها النفوس الأبية، ولا يرىٰ العبد بها شفوف نفسه علىٰ أحد من خلق الله. انتهىٰ.

فإن قيل: فهل نقص آدم بالجحد الذي وقع منه لما وهب ابنه داود من العمر ما وهب؟

فالجواب: لم ينقص آدم بذلك، وإنما زاد مقامه، فإنه طلب أن يرد الله تعالىٰ عليه تلك المدة التي وهبها لداود ليعبد الله تعالىٰ فيها بعبادة أعظم من عبادة داود، لنقص داود عنه في مرتبة المعرفة، لما أعطيه من علم الأسماء التي جهلتها الملائكة. ثم إن آدم بعد ذلك كان عزمه أن يجعل ثواب تلك العبادة التي يفعلها في المدة لو رجعت إليه في صحائف ولده داود، لما هو عليه من المحبة له، كما أشار إليه هبته له مدةً من عمره دون غيره من سائر بنيه، فاعلم ذلك.

[الحكمة في كون الإيمان يخرج عن العبد حال العصيان]

فإن قلتَ: قد ورد أن العبد منا إذا عصىٰ خرج منه الإيمان، وإذا خرج منه الإيمان فلا يخفىٰ حكمه، فما الحكمة في ذلك؟ **فالجواب**: قد ذكر الشيخ في الباب الثامن والستين من «الفتوحات»: أن الحكمة في كون الإيمان يخرج عن صاحبه حال الزنا والسرقة مثلًا هو أن يخرج عن صاحبه ليحميه من نزول العذاب عليه بوقوعه في تلك المعصية، فإن الإيمان لا يقاومه شيء، فهذا هو المراد بقوله ﷺ: «إذا زنىٰ العبد خرج عنه الإيمان حتىٰ يصير عليه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان»(٢)، وما بعد بيان رسول الله ﷺ من بيان. ومنه يُعلَم أن خروج الإيمان هنا ليس هو بخروج حقيقيٍّ عن صاحبه، إنما هو وقاية علىٰ صاحبه لا غير، فهو مؤمن ولو خرج إيمانه كما ذكر. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: لا يخلص لمؤمن قط معصية لا تكون غير

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم (٧٦٣٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٦).

مشوبة بطاعة أبدًا، بل لابد من شوبها بطاعة، وهي إيمانه بأنها معصية تسخط ربه تعالىٰ عليه، فهو من الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسىٰ الله أن يتوب عليهم، أي يرجع عليهم بالرحمة، وعسىٰ من الله تعالىٰ واجبة الوقوع. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: من النكت الخفية أن المؤمن لا يأتي معصية توعد الله تعالىٰ عليها بالعقوبة إلا ويجد في نفسه الندم عند الفراغ منها، وفي الحديث: «الندم توبة»[1]، وقد قام به الندم فهو تائب، أي من جهة حقِّ الله تعالىٰ لا من جهة حقِّ الخلق، فسقط حكم الوعيد بهذا الندم بكراهته للمعصية حال الفعل، وعدم رضائه بها، فهو من حيثُ كونُه كارهًا لها ويؤمن بأنها معصية ذو عمل صالح، وهو من حيثُ كونُه فاعلًا لها ذو عمل سيء، فهو من الذين ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فيرجىٰ له التوبة والرحمة، لكن لا يخفىٰ أن من آمن بكونها معصية وكره فعلها وندم عليه بعد الفراغ ذو عمل صالح من ثلاثة وجوه، وهو ذو عمل سيء من وجه واحد وهو ارتكابه إياها.

واعلم أن الله تعالىٰ ما دام يخلق المعصية للعبد فلا يمكن العبد أن يتوب، فإذا ترك الحقُّ تعالىٰ خلقَ المعصية، تاب العبد لا محالة، ولو أراد أن يعصي ربه لما وجد ما يعصي به، فتأمل.

ومما يؤيد عدم تحتم العقوبة علىٰ العاصي قوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨]، فلم يتعرض سبحانه وتعالىٰ للمؤاخذة بذلك الشرِّ، وإنما ذكر أنه يراه، فلابد أن يراه، ثم لا يكون من الكريم إلا الكرم، وإذا كان الكريم من عباده إذا توعد تجاوز وعفا، فكيف بأرحم الراحمين؟! وإن وقع أنه آخذ أحدًا من العصاة فإنما ذلك إظهار لفضله ومنته علىٰ الذين لم يؤاخذهم، كما يؤدب السلطان بعض خدَّامه ليعرف غيره فضله عليهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (٤٠١٢) وابن حبان (٦١٢).

[التوبة لا تكون إلا في الدنيا]

فإن قلتَ: فهل التوبة من المقامات المستصحَبة إلىٰ قيام الساعة أم تكون في الآخرة أيضًا؟ **فالجواب**: حكم التوبة إنما هو في الدنيا لكونها دار تكليف. أما الآخرة فلا حكم للتوبة فيها إلا أن يكون الاسم «التوَّاب» حاكمًا فيها بالقوة لا بالفعل، فلا يستغني مؤمن عن التوبة مادام في دار الدنيا.

فإن قلتَ: فما تقول في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] فإنه يشعر بأن حكم التوبة ينقطع في الدنيا قبل قيام الساعة؟ **فالجواب**: وهو كذلك، فإن الشمس إذا طلعت من مغربها، أُغلِقَ باب التوبة، فلا ينفع نفسًا إيمانُها، ولا ما تكتسبه من خير بذلك الإيمان، وعلىٰ ذلك حملوا حديث: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق حتىٰ يأتي أمر الله»[1] أي حتىٰ تطلع الشمس من مغربها، فهي علامة علىٰ عدم قبول الإيمان. وإيضاح ذلك أن المؤمن لا يُغلَق له باب، فإنه جازه وتركه وراء ظهره، فكان غلقه من سعادته حتىٰ لا يخرج بعد ما دخل، فلا يرتد مؤمن بعد ذلك، لأنه ليس للإيمان باب يخرج منه، فكان غلق باب التوبة رحمة بالمؤمن، ونقمة علىٰ الكافر.

فإن قلتَ: فما حكم من لم يصح له توبة من المصرِّين علىٰ الذنوب؟ **فالجواب**: يجب علىٰ أحدهم التوبة من الإصرار، فإن لم يصح لهم توبة من الإصرار، وجب عليهم التوبة من الإصرار علىٰ الإصرار وهكذا أبدًا ما عاش، فإن مات أحد مصرًّا علىٰ ذنب، فلله تعالىٰ رحمةٌ خاصةٌ بالمصرِّين من أهل الإسلام. ومن فهم ما قلناه علم أنه ما ثم لنا ذنب لا دواء له أبدًا.

[الأفضل ترك الدعاة معاهدة قومهم على أن لا يعصوا الله]

فإن قال قائل: فهل الأولىٰ معاهدة الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ قومهم أن لا يعصوا ربهم في المستقبل، أم ترك ذلك وكلُّ ذنب وقع منهم وجب عليهم التوبة منه؟ **فالجواب**: ترك المعاهدة علىٰ ذلك أولىٰ، لأنه لا يخلو من أن يكون الذنب الذي عاهد العبد ربه علىٰ تركه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠).

مقدَّرًا عليه في الأزل أم لا، فإن كان غير مقدَّر فلا فائدة للعهد، وإن كان مقدَّرًا اتصف عند نقضه بمعصية أخرىٰ وهي نقض العهد، ولو أنه لم يعاهد ربه، لكان عليه معصية واحدة.

ومن هنا يُعلَم حكمةُ قوله تعالىٰ في المؤمنات المبايعات: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢] فإنه لولا أن في طلبهن المبايعة علىٰ ذلك رائحةَ ذنبٍ ما أمره تعالىٰ بالاستغفار لهنَّ، وذلك لأن خلقَ الأفعال لما بايعن رسول الله ﷺ عليه راجعٌ إلىٰ الله تعالىٰ لا إليهنَّ، مع أن شهودهن أن لهنَّ قدرةً علىٰ الوفاء بما عاهدنه عليه شرك بالله، وقد بايعنه علىٰ تركه، فلذلك احتيج إلىٰ استغفار الرسول لهن، فتأمل.

[من كمال الملك إظهار الطائع والعاصي]

واعلم يا أخي أن من كرم الله تعالىٰ وكمال ملكه إظهارَ الطائع والعاصي معًا، ليظهر كرمه وفضله علىٰ عباده، وليروا نفوسهم أحقر الخلق، فمن رأىٰ نفسه بعبادته وإخلاصه، كان جميع معارفه أحسن حالًا منه. وكان سهل بن عبد الله التَستُري يقول: من رأىٰ نفسه خيرًا من الكلب، فالكلب خيرٌ منه. وكان الإمام مالك يقول: أهلُ الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلَهم، فإذا رأوا فضلهم فلا فضل. انتهىٰ.

ويؤيد ما ذكرناه قولُ الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري[١] في كتاب «الحكم»: معصية[٢] أورثت ذلاً وانكسارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا. انتهىٰ، أي خير من حيثُ الأثر لا بحكم الأصالة، فإنه يُشترَط في الطاعات حتىٰ تُسمَّىٰ طاعة أن لا يحصل بها لصاحبها عجب ولا كبر ولا زهو، ومتىٰ حصل فيها شيء من ذلك، فقد خرجت عن كونها طاعة في الباطن، لاسيما العلم، فإنه لا يكون نورًا يهدي صاحبه إلىٰ الخير إلا إذا

(١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، تاج الدين أبو الفضل الإسكندراني الشاذلي. صحب الشيخ أبا العباس المرسي صاحب الشاذلي وصنف مناقبه ومناقب شيخه، من مؤلفاته: «الحكم العطائية» و«تاج العروس» و«لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن» توفي: ٧٠٩هـ. الدرر الكامنة (١/ ٣٢٤)، الوافي بالوفيات (٨/ ٣٨).

(٢) هكذا بالأصلين، والمشهور من «الحكم»: رُبَّ معصية... إلخ.

كان مخلصًا فيه، وإلا فهو ظلمة على صاحبه في الدنيا والآخرة، وإن كان في أصله نورًا.

وقد كان سفيان الثوري[1] ﷺ يقول: المذنب المعترف أفضل من الطائع المعجب بعمله، لأن المذنب ينتظر المغفرة من الله، والمعجب ينتظر المقت. انتهى. فلا تُلَبِس على نفسك يا أخي، فإن الناقد بصير.

وسمعت عليًا الخواص ؒ يقول: ما تحقق عبد بمقام العبودية إلا وصار يكره مشاركةَ الحقِّ جلَّ وعلا في المدح، فهو يحب كل شيء ينكس رأسه بين الناس، حتى يتميز الحقُّ تعالى بمقام العزِّ، ويتميز هو بمقام الذلِّ. فقلتُ له: ولو كان الذي ينكس رأسه معصية؟ فقال: لا، إذ الكامل من يفر من مواطن سخط الله عزَّ وجلَّ وإن وقع أن كاملًا أحبَّ المعصيةَ، فإنما ذلك من حيثُ تقديرُ الحقِّ تعالى عليه ذلك، لا من حيثُ كسبُه لها، فإياك والغلط. انتهى.

وسمعته مرةً أخرى يقول: من تحقق بمقام العبودية الكامل، صار يشكر الحقَّ جلَّ وعلا، كلما حجبه عن مشاهدته، وإن كان الحجاب على العارفين من أشدِّ العذاب عليهم، ويقول في نفسه: لو لا أن حجابي عنه فيه مصلحة لي ما حجبني إحسانًا للظن بربه، ثم لا بد للعبد من الاستغفار من حيثُ كسبُه لذلك الحجاب، لاسيما إن كان بالمعصية، فافهم.

وكان ؓ يقول: ما شرع الله التكاليف بالأصالة إلا ليذل بها النفوس الشامخة المتكبرة، ويزيد بها المتقربين تقريبًا وإجلالًا، وشكرًا له وتواضعًا لعباده، فلم يقع لأحد منهم تكبر بعمله على أحد من الخلق، وكيف يصح منهم تكبر بعملهم وقد رأوا ما وقع من إبليس حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، بل حاشاهم ﷺ من الوقوع في مثل ذلك ولو ذهلوا عن قصة إبليس لطيب عنصرهم ﷺ، وكثرة تخلقهم بأخلاق الله عزَّ وجلَّ في نحو حديث: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة»[2] الحديث، وما أخبرنا بذلك إلا ليعلمنا التواضع مع الخلق إذا قرَّبنا ورفع رتبتنا.

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي، أحد الأئمة الأعلام، قال شعبة وغير واحد: سفيان أمير المؤمنين في الحديث، من مؤلفاته: «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» كلاهما في الحديث. ولد: سنة٩٧هـ ومات بالبصرة سنة ١٦١هـ. طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٩٥)، الأعلام (٣/ ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨).

إن الملوك وإن جلت مراتبها لها مع السُّوقة الأسـرار والسمر

انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ يقول: من شأن أهل الله عزَّ وجلَّ إذا وقع أحدهم في زلَّة أن يشكر الله تعالىٰ عليها من حيثُ التقديرُ، كما يشكر الولد البار لوالديه علىٰ ما يفعل والده معه مما تكرهه النفوس ويقول: لولا أن والدي رأىٰ لي في ذلك مصلحة ما فعل ذلك معي، فلا يحمله إلا علىٰ أحسن المحامل، وكذلك إذا رآه عند بحر أو بئر وعرك أذنه أو صفعه مثلًا خوفًا عليه أن يقع في البحر أو البئر، تقضي عقول الناس أن ذلك الفعل إنما هو لمحبته فيه لا بغضًا له.

قال: وبالجملة فلو لم يكن في وقوع العبد في الزلة إلا كونها مزيلة للعجب والكبر اللذين يقعان من غالب المؤمنين عادةً، لكان ذلك كفاية في شدة اعتناء الحقِّ تعالىٰ بذلك العبد الذي يخلص عنصره من الكدورة، فإن الكبر والعجب هما الذنبان اللذان أُخرج بسببهما إبليس من الجنة. انتهىٰ.

فالكامل يشكر الله في مثل ذلك من حيثُ التقديرُ، ويستغفره ويتوب إليه من حيثُ كسبُه ومخالفتُه لأمر ربه.

وفي الباب التاسع والثلاثين من «الفتوحات المكية»: اعلم أن الله تعالىٰ ما قصَّ علينا ما قصَّ من خطيئة أبينا آدم -يعني الصورية- وما يترتب علىٰ ذلك من التوبة والاجتباء إلا لنظنَّ بالله تعالىٰ خيرًا إذا زلَّ أحدُنا زلةً ونزل عن مكانه العليِّ الذي كان يشهده من نفسه من استشعاره القرب من حضرة الله تعالىٰ والأنس به، وإن تلك الزلة لا تقتضي بشقائنا الأبدي ما دمنا موحدين ولابد، بل يجب علينا أن نظن بربنا خيرًا وأن هبوطنا عن مقامنا العليِّ الذي شهدناه بسبب تلك الزلة كهبوط أبينا آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة في الصورة من حيثُ ترقينا بها في مقامات الذلِّ والانكسار [اللذين هما أفضل أوصاف العبودية، فإنه ما ثم طريق إلىٰ القرب من حضرة الله عز وجل إلا بكثرة الذل والانكسار][1].

(١) ساقط من «ب».

ومن طلب القرب من الحضرة بغير هذين الوصفين فقد رام المحال، فإن حضرة الله تعالىٰ محرَّمٌ دخولها من كان فيه عزة نفس أو صفة غنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فمن لم يكن فقيرًا ولا مسكينًا، فربما حرم من وصول صدقات الحقِّ تعالىٰ إليه، فكأنه في البحر وهو عطشان. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أن القرب إلىٰ الله تعالىٰ إنما هو بالقلوب وبالصفات المأذون للعبد في التخلق بها دون غيرها، فإن لله تعالىٰ أسماء حرمًا لا يجوز لأحد التخلق بها، كالكبر والعظمة والقهر إلا بتأويل أو إذن من الشارع، كالتبختر في الحرب، وإظهار العظمة علىٰ الكفار ونحو ذلك. وثم أسماء أذن الشارع لنا في التخلق بها علىٰ الدوام من غير تحجير، كما هو مبسوط في شرح أسماء الله تعالىٰ. وأطال في ذلك.

ثم قال: ومن أعجب الأشياء أن يكون القرب من المحبوب بالتخلق بضد صفاته، كالذلَّة والافتقار دون العزِّ والكبرياء. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أن عين هبوط الوليِّ منَّا عند الزلَّة وما يقوم به من شدَّة الذلَّة والحياء والخجل هو عين ترقيه إلىٰ مقام هو أعلىٰ مما كان فيه؛ لأنه استفاد بتلك الزلَّة علمًا بالله تعالىٰ لم يكن عنده قبل وقوعه في الزلَّة، وعرف بالقطيعة مقدار الوصل الذي كان فيه، ومقدار الأنس الذي كان يجده في الطاعات. وقد قالوا: من سبقت له العناية، لم تضره الجناية. انتهىٰ.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: ما سلَّط الله تعالىٰ إبليس علىٰ عباده الموحدين إلا ليردهم إليه بالأصالة، فيتذكروا بتلك القطيعة ومرارتها حلاوةَ الوصل. وربما قرَّب الحقُّ تعالىٰ أحبابه إلىٰ حضرته بعين ما طَرَدَ به أهلَ شقاوته، وإذا حقت كلمة الشقاء علىٰ عبد، فما حسناته إلا ذنوب. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: من سبقت له السعادة، كان كالزرع الذي تميله الرياح يمينًا وشمالًا، وأصله ثابت في الأرض، ولا يخلَّد في النار موحِدٌ لله تعالىٰ ولو ارتكب معاصي الثقلين من الموحدين. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول: من وقع في زلَّة من الزلات، فحصل له بذلك خجل وذلٌّ وانكسار فهو علىٰ علامة سعادته، ومن لم يحصل له ذلٌّ وانكسار وخجل بزلَّته وأصرَّ علىٰ الذنب، فذلك دليل علىٰ شقاوته كما وقع لإبليس.

وكذلك كان الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه يقول: لا ينبغي الاعتراضُ علينا إذا قلنا: إن العبد ربما ترقىٰ بزلَّته إلىٰ أعلىٰ مما كان فيه، لأننا إنما نتكلم علىٰ زلَّات أهل الله تعالىٰ الذين تخلَّفت عنهم العنايةُ الربانيةُ في وقت من الأوقات. أما من أحاطت به خطيئته وأصرَّ علىٰ المعاصي بذلك [فهو][1] من إخوان الشياطين. وهو من أدل دليل علىٰ شقاوته؛ لأن المعاصي بريد الكفر، أي مقدمته. وأطال في ذلك.

ثم قال: واعلم أنه ربما ظنَّ بعضُ الأولياء أنه نزل عن مقامه العليّ بالزلَّة التي وقع فيها، لما حصل له من الخجل والذلِّ بسببها. والحال أنه ترقىٰ بسببها إلىٰ مقام أعلىٰ مما كان فيه، لأن زيادة مقام الوليّ إنما تكون بزيادة الذلِّ والمسكنة لله تعالىٰ. وقد كان قبلَ الزلَّة بضد ذلك، بل ربما استبعد دخولَ مثلِه النار، وذلك أبعد ما يكون من حضرة الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

فإن قيل: فما حكمة إخفاء الله تعالىٰ علىٰ بعض الأولياء وجه ترقيه بالمعصية، أي بسببها حتىٰ يحصل له الذلُّ والانكسار؟ **فالجواب**: الحكمة في ذلك عدم تجري أحدهم علىٰ المعاصي بعد ذلك، فلا يصير يندم علىٰ وقوعه فيها، فيهلك مع الهالكين. ولو أنه كان أطلعه علىٰ عاقبتها، لربما كان يبادر إلىٰ فعلها ويبطل سرَّ القضاء والقدر، فكان من حكمة الله تعالىٰ أن يحبس وليَّه في مقام الندم والقطيعة، حتىٰ يكاد جسمه يذوب وقلبه ينفطر، كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام صورة من بكائه وندمه، وتطاير الحُلل عن بدنه، والتاج من رأسه، والنداء عليه بأنه لا يجاورني من عصاني، كلُّ ذلك كان منه عليه الصلاة والسلام صوريًّا لا حقيقيًّا، وكان ذلك كله من باب التحمُّل عن أولاده العاصين من المسلمين كما مر تقريره. وكانت تلك الدموع التي جرت من عينيه حتىٰ صارت بركة ماء يشرب منها البهائم والسباع ثمانين سنة هي دموع جميع العصاة من بنيه المسلمين

---

(١) زيادة من عندنا لاستكمال السياق.

إلىٰ يوم القيامة. ومن عرف مقام الأنبياء لم يتوقف في مثل ذلك، وعرف أن جميع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام من البكاء وإظهار الندم كان صوريًّا لا[1] حقيقيًّا، ولكنه عن زلَّات بنيه العاصين لا عن زلَّته هو، كما قلنا في معنىٰ حديث: «إنه ليغان علىٰ قلبي، فاستغفر الله تعالىٰ في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»[2]: إن ذلك الغين ليس هو من وقوع نبينا ﷺ في معصية، وإنما ذلك من وقوع أمته الذين يقعون في المعاصي بعده، فكانت الرحمة تطرقه عليهم، فيستغفر الله لهم بسبب ذنوبهم لا بسبب ذنبه هو، فافهم.

ولم تزل الأنبياء وجميع الدعاة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ يشفقون علىٰ قومهم ويتحملون عنهم أثقال البلايا والمحن، لا يغفلون عن مصالحهم ولا عن تعليمهم الأدب مع الله تعالىٰ ساعة في الليل أو نهار.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي ﵀ يقول: ما وقع للسيد آدم وداود وغيرهما من الأكابر من شدَّة البكاء والندم والنوح إنما هو أمور صورية، ليعظموا الذنب في عيون قومهم. وبالغوا في البكاء والنحيب مبالغةً في نصح قومهم، حتىٰ لا يبقىٰ عليهم حُجة في عدم نصحهم، وفي ذلك تعظيم حرمات الله عزَّ وجلَّ أيضًا.

[توجيه اسوداد جسده ﵇ بعد الأكل من الشجرة]

فإن قيل: قد ورد في الأثر أنه عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة اسوَّد وجهه [وجسده][3] كلُّه، فأُمر بصيام الثلاثة أيام البيض فصامها، فابيض بكل يوم ثلث جسده، ولو أنها كانت صورية، لم يسوَّد جسده؛ **فالجواب**: أن تسويد وجهه وبقية جسده كان أيضًا صوريًّا، ليري بنيه قبحَ المعصية لينزجروا عن معاصي ربهم. انتهىٰ.

قلتُ: ومعنىٰ قوله: «ليري بنيه» أي بطريق الإخبار لهم إذا وُجدوا، فإنهم لم يكونوا

---

(١) بالأصلين: و، والصواب ما أثبتناه بدليل السياق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) وأبو داود (١٥١٥) بلفظ: «مائة مرة»، ورواية «سبعين مرة» أخرجها البخاري (٦٣٠٧) بلفظ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

(٣) بالأصلين: وجهه، والصواب ما أثبتنا بدلالة السياق.

موجودين في الدنيا حالَ أكله من الشجرة واسوداد جسده. وكذا القول في جميع ما تقدم من قولنا إن ندمه واستغفاره وبكاءه وغير ذلك كان صوريًا، فافهم.

ويحتمل أن يكون اسوداد جسده عليه الصلاة والسلام حقيقيًا، ويكون ذلك علامةً علىٰ سيادته إذا رجع إلىٰ الجنة التي أُخرِجَ منها، وتكون سيادته حاصلة له بأكله من الشجرة من حيثُ إنها كانت صورية يعلِّم بها بنيه كيف يفعلون مع ربهم إذا وقعوا في معصية. فكان كمن يعلِّم قومه شرائع ربهم، ولا شك في حصول السيادة له بذلك، فإن الجنة التي أُخرِج منها لم تكن محل سيادته، وإنما سيادته في الأرض فكأنه بأكله من الشجرة وهبوطه إلىٰ الأرض، حصلت له السيادة، أي ظهرت عليه، ولم يكن لون يدل علىٰ السيادة إلا لون السواد كما فهمه الخلفاء من بني العباس، فكانوا يخطبون للناس بالعمامة السوداء، والله أعلم.

ويؤيد ذلك ما قالوا في الحجر الأسود، فإنه خرج من الجنة وهو أشدُّ بياضًا من اللبن، فسوَّدته خطايا بني آدم[1]، أي جعلته سيدًا بالتقبيل له. وكان أدلُّ شيء علىٰ سيادته إذا رجع إلىٰ الجنة لونَ السواد، فكساه الله تعالىٰ اللون الأسود، ليعلم أهل الجنة أنه سوِّد بهذا اللون، وبذلك الخروج، فكما زاد مقامه بالسواد عما كان عليه في الجنة، فكذلك القول في سواد جسد آدم عليه الصلاة والسلام.

وكان بياض جسده بصيام الثلاثة أيام البيض بمثابة نزع من خَلَعَ عليه الملكُ خلعةَ السيادةِ بعد أن كان طاف بها شوارع المدينة كلها حتىٰ علم بها جميع الناس، فليس نزعه لها مؤذِن برفع السيادة عنه كما فهمه بعضهم، وإنما هو لكون غالب بنيه لا يفهمون أن السيادة تكون بالسواد، إذ معرفة ذلك خاص بخواص بنيه. وأما عوامهم فلا يعرفون السيادة إلا ببياض الجسم، فافهم.

[الخلاف بين جمهور العلماء وأهل الكشف في الجنة التي أُهبط منها آدم]

فإن قيل: فهل الجنة التي كان فيها آدم عليه الصلاة والسلام وأكل من شجرتها هي

---

(١) أخرج الترمذي (٨٧٧) واللفظ له، وأحمد (٢٧٩٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «نزل الحجرُ الأسودُ من الجَنَّةِ، وهو أشدُّ بَيَاضًا من اللَّبَن، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بني آدَمَ».

الجنة التي يدخلها المسلمون بعد البعث والحساب والصراط، أم جنة أخرىٰ في علم الله تعالىٰ؟ **فالجواب**: أن الذي عليه جمهور العلماء أن الجنة التي كان فيها آدم هي الجنة الكبرىٰ التي يدخلها الناس بعد البعث والصراط، والذي عليه أهل الكشف قاطبة أنها جنة فوق رأس جبل الياقوت، وبذلك صرح الشيخ الكامل صفي الدين بن أبي المنصور[1] في رسالته والمجريطي[2] في كتابه «إخوان الصفا»[3] قالوا: وهي التي ينتقل إليها جميع أرواح الموحدين بعد الموت، ويراها الناس في منامهم ومكاشفاتهم في الدنيا. وأما الجنةُ الكبرىٰ فلا يدخلها الناسُ إلا بعد البعث والحساب والصراط، وكذلك القول في النار حيثُ رؤيت في الدنيا في المنام إنما هي نار البرزخ التي يُعذَّب بها الميت في قبره، أو يُفتَح له طاقة في قبره ينظر إليها كما ورد.

وعبارة الشيخ صفي الدين في رسالته: اعلم يا أخي أن عهد الأرواح متقدم علىٰ عهد النفوس بألفي عام، فإن عهد النفوس لم يقع إلا في الجنة البرزخية التي كان فيها آدم عليه الصلاة والسلام حين استخرج الحقُّ تعالىٰ من ظهره ذريته، وهي محل عالم الأرواح، فلما استُخرِجت الذريةُ من ظهره، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف: ١٧٢] ردهم إلىٰ ظهره. ولهذه الجنة وجه إلىٰ الدنيا، ووجه إلىٰ الآخرة، فهي فوق الدنيا في المقام، وتحت الجنة الكبرىٰ في المقام، فمن حيثُ إن الحقَّ تعالىٰ أباح له فيها ما أباح، كان له وجه إلىٰ الجنة الكبرىٰ، ومن حيث إنه حجر عليه فيها ما حجر، ومنع فيها ما منع، كان له وجه إلىٰ الدنيا التي هي دار التكليف والتحجير، بخلاف الجنة الكبرىٰ المدخَرة في علم

---

(١) الشيخ صفي الدين الحسين بن علىٰ، المعروف بابن أبىٰ منصور الصوفي المالكي، من مصنفاته: «كتاب الرسالة». ولد سنة ٥٩٥هـ وتوفى: ٦٨٢ هـ. هدية العارفين (١/ ٣١٣) ومعجم المؤلفين (٤/ ٣٧).

(٢) مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي أبو القاسم: فيلسوف رياضي فلكي، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم. مولده ووفاته بمجريط (مدريد) ذهب بعض المؤرخين إلىٰ أنه مؤلف «رسائل إخوان الصفاء» ولم يثبت ذلك. من كتبه: «اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني» و«رتبة الحكيم» و«غاية الحكيم» توفي: ٣٩٨ هـ. الأعلام (٧/ ٢٢٤) وهدية العارفين (٢/ ٤٣٢).

(٣) لا يُعرف علىٰ التحديد مؤلف «رسائل إخوان الصفا» والبعض نسبها للمجريطي.

الله، فإنه لا يحجر فيها، بل يتبوأ أهلها منها ما شاؤوا، ولا يصح لأهلها فيها حجاب عن ربهم حتىٰ يصح لهم وقوع في مخالفة، بخلاف جنة البرزخ فيها الحجاب. ولذلك ظهرت فيها المخالفة علىٰ يد آدم عليه الصلاة والسلام، وصحت وسوسة إبليس لآدم وحواء فيها، فلو كانت الجنة الكبرىٰ لما ظهرت المخالفة من أحد من أهلها، ولا الإخراج منها، ولا وجود إبليس فيها ولا عصيانه وغير ذلك مما ينافي حكم الجنة الكبرىٰ المدَّخَرة في علم الله تعالىٰ إلىٰ أن تُنزَل الكتب، ويُرسل الرسل، وتُعمل الأعمال المناسبة لها وللدار الأخرىٰ التي يدخلها الناس بعد البعث والحساب والصراط.

قال أهل الكشف: ولو كانت الجنة التي تنتقل إليها الأرواح بعد الموت هي الكبرىٰ التي هي دار النعيم، لم يحتج الناس إلىٰ خروجهم منها للبعث والحساب والصراط، ثم يدخلونها بعد ذلك، بل كانت هذه الأمور تقع لهم في قبورهم مثلًا. وأطال في ذلك.

ثم قالوا: وهذه الجنة البرزخية هي التي رآها رسول الله ﷺ في صلاته للكسوف، وأراد يتناول منها العنقود العنب، كما أن ما رآه من لهب النار حين تأخر في صلاته هي نار البرزخ، فإنه ﷺ ذكر أنه رأىٰ عمرو بن لُحَي الذي سيب السوائب فيها، ورأىٰ فيها المرأة التي حبست الهرة حتىٰ ماتت جوعًا، فلو كانت هذه هي النار الكبرىٰ، لما كانوا يخرجون منها بعد ذلك.

ثم إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أُخرِج من جنة البرزخ، نزل إلىٰ الدنيا لقربها منها في المرتبة والاتحاد، كما أنه إذا أُخرِج من الدنيا بالموت، يرجع إليها كما نزل منها إلىٰ الدنيا، فلا يزال فيها وكل من انتقل وينتقل من ذريته إلىٰ أن يتكامل العدد وتنتهي المُدَد، فينتقل حكم الدنيا وحكم البرزخ للدار الآخرة بعد المحشر بنفخة الفزع.

قال الشيخ صفي الدين: ومن نازعنا في أن الجنة التي وقع لآدم فيها ما وقع هي الجنة الكبرىٰ. فعليه الدليل. انتهىٰ كلامه، فليتأمل.

وبلغنا أن الشيخ محيي الدين بن العربي ﵀ سُئل عن الجنة والنار: هل خلقتا الآن أم لا؟ فقال ﵁: هما مخلوقتان لا مخلوقتان! فقيل له: كيف؟ فقال: لأن جنة كلِّ مؤمن إنما تُبنىٰ من أعماله بعد وجوده في دار التكليف، ولا ينافي ذلك ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّت

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أي أُعدَّت لهم قبل دخولهم إليها بعد أن بُنيت من أعمالهم.
قال: وقوله في الحديث: «إن الله تعالىٰ خلق جنة عدن وغرس فيها أشجارها ودلىٰ فيها ثمارها»[١] لا ينافي في ذلك، لأنا نقول: المراد بـ«خلق» قدَّر وقضىٰ، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. وأيضًا فإن **حضرة الحقِّ تعالىٰ لا ماضي فيها ولا آت**، فله تعالىٰ أن يخبر عن المستقبل المحقق الوقوع بالماضي. فقيل له رحمه الله: فما معنىٰ قولكم في الجنة والنار في الشقِّ الثاني أنها غير مخلوقتين؟ فقال: لأن الله تعالىٰ كان قد خلق السور المحيط بالجنة، والدرك المحيط بالنار، وعيَّن لكل واحد من أهل الدارين مكانًا من دَرَج أو دَرَك بحسب أعماله، بمثابة البنَّاء إذا خطَّ بالجصِّ مواضعَ البناء من بيت وقصر وغرفة، أو درك بعد درك.

قال: ويؤيد كشفنا هذا حديث: من فعل كذا بنىٰ الله له بيتًا في الجنة[٢]، ومن قال كذا وكذا غرس له كذا في الجنة[٣]. انتهىٰ[٤].

ثم إن الناس في بنائهم علىٰ أقسام: فقسم ليس له بناء إلا في الجنة وهم الأنبياء لعصمتهم، ويلحق بهم من لم يعمل معصية من الأولياء لحفظهم. وقسم يبني في الجنة تارة ويبني في النار أخرىٰ بحسب طاعاتهم ومعاصيهم، وهم المؤمنون غير المحفوظين من التخليط. وقسم ليس له بناء إلا في النار وهم الكفار علىٰ اختلاف طبقاتهم، فعُلِمَ أن بناء كلِّ إنسان ينتهي بانتهاء عمله في آخر نفس يكون له في الدنيا، إلا أن يكون ممن جعله

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٧٢٣)، وفي «الأوسط» (٥٥١٨)، دون قوله «وغرس فيها أشجارها» وقال الهيثمي: وأحد إسنادَي الطبراني في «الأوسط» جيد. مجمع الزوائد (١٨٦٣٩) (١٠/ ٣٩٧).

(٢) من هذه الأحاديث: «من بنىٰ لله مسجدًا بنىٰ الله له بيتًا في الجنة». أخرجه مسلم (٥٣٣)، والبخاري (٤٥٠)، وحديث: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا، غير فريضة، إلا بنىٰ الله له بيتا في الجنة».

(٣) منها: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة» أخرجه الترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٦١).

الله تعالىٰ في البرزخ، كثابت البناني وأضرابه، فكأنه يُقال لكل من انتهىٰ بناؤه في دار: اخرج إلىٰ دارك التي بنيتَها بأعمالك فاسكنها؛ فلهو أعرف بها من داره في الدنيا. لكن لا يخفىٰ أن بناء العبد في جنة البرزخ لا حقيقي، بخلاف الجنة الكبرىٰ. انتهىٰ، فليُتأمل.

[لا يجوز رد علوم الكشف إلا بنص صريح قاطع لا بالفهم]

قلتُ: والذي أقول به أن صاحب الكشف مع كشفه، وصاحب النقل مع ظاهر نقله. **ولا ينبغي لأحد رد علوم الكشف إلا بالنصوص الصريحة القاطعة لا بالفهم**، علىٰ أن الكشف الصحيح لا يأتي إلا موافقًا للشريعة ومؤيِّدًا لها، لأن حقيقته هو الإخبار بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها، كما هو الأمر في الشريعة، فالواجب علىٰ كل محجوب اتباع ما عليه جمهور العلماء من طريق النقل، لعصمة النقل بخلاف الكشف، فقد يكون ذلك تلبيسًا من إبليس، والله أعلم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تسارعوا إلىٰ العمل بكشف وليّ إلا بعد عرضه علىٰ الكتاب والسنة وموافقته لهما، فلو كُشِفَ لوليّ عن تقدير شيء من المعاصي علىٰ تلميذه، لا يجوز للتلميذ المبادرة إلىٰ فعل ذلك، ويقول: أقع فيها وأستريح من شهود قبح صورتها بيني وبين ربي حيث كان لابد من وقوعي فيها، كما يقع من بعض التلامذة السَّاذجين الجاهلين بقواعد الشريعة، بل الواجب علىٰ التلميذ الصبر أو التصبر، وسؤال الإقالة من ذلك الذنب، ومحوه من ألواح المحو والإثبات إن كان ذلك مطمح بصر شيخه. وإن كان مطمح بصر شيخه اللوح المحفوظ -أعني عن المحو- توقف المريد كذلك، لاحتمال أن يكون ذلك اللوح ليس هو اللوح المحفوظ، وإنما هو لوح يخيل مثله له إبليس، فإن الله تعالىٰ قد أعطىٰ إبليس قوة يخيِّل بها إلىٰ الولي ما شاء من سماء وأرض وكرسيّ وعرش ولوح وقلم وعماء، بحسب ما يرىٰ قلب ذلك الولي يستمد منه ويأخذ العلم عنه.

فإن أيد الله تعالىٰ ذلك الوليّ بالتأييد الإلٰهيّ، أعطاه الفرق والتمييز بين السماء المتخيَّلة والسماء الحقيقية، أو الكرسي الحقيقي والكرسي المتخيَّل، وهكذا القول في العرش والعماء واللوح والقلم الأعلىٰ أو الثلاثمئة وستين قلمًا التي تكتب في ألواح

المحو والإثبات، كما قاله في «الفتوحات المكية» فيرجع إبليس خاسئًا.

وإن لم يؤيد الله تعالىٰ ذلك الولي بإعطائه الفرق والتمييز بين السماء الحقيقية مثلًا والمتخيَّلة، أخذ ما جاء به إليه إبليس فضلَّ وأضل، لكن نقل الإمام الغزالي أن من أولياء الله تعالىٰ من يأخذ ما جاء به إبليس ويقلبه بالنية الصالحة إلىٰ خير، فيسعد بذلك علىٰ رغم أنف إبليس، حتىٰ إن إبليس لو علم أنه من أهل ذلك المقام لما كان يأتيه بشيء من ذلك، لأنه ليس له إلىٰ بني آدم خير البتة. انتهىٰ.

[جواز أن يطلع الوليّ على اللوح المحفوظ]

فإن قيل: وبهذا يجوز تصديق الوليِّ أنه يرىٰ ما في اللوح المحفوظ؟ قلنا: يجوز ذلك عقلًا، لكنا لا يجب علينا العمل بما أخبرنا به عن اللوح إلا إن وافق الشريعة.

فإن قيل: فهل ذلك من الغيب المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية؟ فالجواب: لا، بل هو من قسم الشهادة في حقِّ ذلك الوليِّ، وليس هو غيب إلا في حقِّ المحجوب، هكذا سمعتُه من سيدي عبد القادر الدشطوطي ﵀، فعُلِمَ أن كل من ادعىٰ الولاية وعمل بكشفه الذي يخالف ظاهر الشريعة المطهرة أو أمر تلميذه بفعله، فهو شخص ملبَّس عليه، أو هو شيطان في صورة إنسان، وليس له نصيب في اتباع الشرائع، فليحذر الإخوان من الاجتماع بمثل هذا المدَّعي كلَّ الحذر، فإن إضلال الخلق لا يجوز إجماعًا فعله لأحد من الخلق؛ لأنه نعت أخص لله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وقد أَذِن للأنبياء وأتباعهم في الثاني، ولم يأذن لهم في الأول.

وقد نازعني في ذلك شخص من مشايخ العجم، وقال: للعارف بالله أن يتخلق بجميع الأسماء. فقلتُ له: هذا زندقة! فطال الكلام بيني وبينه من بكرة النهار إلىٰ قريب الزوال، وقطعتُه بحمد الله بالحُجَّة.

فإياك يا أخي ومعاشرة مثل هذا ثم إياك، فقد قال الإمام مالك ﵁: من تصوف من غير شرع تزندق. انتهىٰ. وإذا كان الحق تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:

٢٨] فكيف يأمر بهذا الدعاة إلىٰ شرعه وشرعه يكذبهم؟!

[خلاصة]

فعُلِمَ من جميع ما قررناه لك يا أخي صريحًا وإيماءً أنه لا يصح رفع المعاصي من الأرض جملة، إذ لو رُفِعَت لتعطل كثير من حضرات الأسماء الإلهية، ولو أن الحقَّ تعالىٰ كان شاء رفعها لما خلق إبليس، وكأن من سأل رفع المعاصي من الأرض، سأل الله تعالىٰ أن يغير ما سبق في علمه الأزلي، وذلك محال. وإيضاح ما قلناه من أنه لو رُفِعَت المعاصي من الأرض لتعطل كثير من حضرات الأسماء أنه تعالىٰ سمَّىٰ نفسه «المعز» و«المذل» و«الكريم» و«المانع» و«الغفار» و«شديد العقاب» ولا ذل إلا بالمعصية، ولا انتقام إلا ممن فعلها.

وأن زلات أهل الله تعالىٰ لا ينقص بها مقامهم تبعًا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام في معاصيهم الصورية، وذلك لأن أهل الله تعالىٰ لا يأتون المخالفات إلا بحكم نفوذ القضاء والقدر السابق فيهم من غير ظهور ميل ولا شهوة طبع، فكأنها صورية، بخلاف معاصي غير أهل الله من العوام، فإنهم لا يزدادون بها إلا طردًا ومقتًا؛ لأنهم يأتونها بحكم الشهوة والطبع والغفلة الشديدة والاستغراق في لذتها، وليس من يأتي المعاصي وهو يبكي، كمن يأتيها وهو يضحك. وقد بلغنا عن بعض الأولياء أنه كُشِفَ له وقوعه في معصية، فكاد أن يذوب عظمه ولحمه. انتهىٰ.

وعُلِمَ أيضًا أنه لا يجوز استسلام العبد للأقدار الإلهية الجارية عليه بمعصية إلا بعد شدة مجاهدة ومدافعة في ردِّها تعظيمًا لحرمات الله تعالىٰ، وفرارًا من مواطن سخطه.

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: غالب الرجال إذا ذُكِر القَدَر أمسكوا إلا الكُمَّل، فإنهم لا يمسكون عن ذلك. قال: وقد فُتِح لي فيه روْزَنَةٌ[1]، فنزلتُ منها ونازعتُ أقدار الحقِّ بالحقِّ للحقِّ، فالرجل هو المنازع للقَدَر لا الموافق له. وقد حكىٰ الله تعالىٰ عن الكفار: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥] إلىٰ آخر النسق، ومع ذلك لم يقبل الحقُّ تعالىٰ اعتذارهم. انتهىٰ. فالعبد يجب عليه مدافعة الذنب إذا

---

(١) الرَّوْزَنَةُ: الفتحة في الجدار.

رأىٰ عنده ميلًا إليه، ويعصي إن لم يدافع، أقلُّ ما في ذلك أن يخفف عنه العذاب بالمدافعة.

وقد رأىٰ بعض الأولياء في كشفه أنه لا بد من زناه بجارية سيدي ياقوت العرشي[1]، فصارت تلك الزنية نقطة سوداء في سجادته، فكان يقول: متىٰ أراكِ يا نقطة قد مُحيتِ؟! فنام عند سيدي ياقوت ليلة، فوقع بجاريته، وفتش علىٰ النقطة فلم يجدها، فاغتسل وصلىٰ ركعتين، ثم فرش سجادته علىٰ البحر وسار، فقال له سيدي ياقوت: ما هذا وذاك؟! فقال: ذاك قضاؤه، وهذا فضله. انتهىٰ.

وعُلِمَ أيضًا أنه يجب علىٰ العبد ولو شهد أنه لا يتحرك إلا إن حركته القدرة الإلهية، ولا يفعل إلا ما قدَّره الله تعالىٰ عليه في سابق علمه أن يبادر إلىٰ التوبة عن كل مخالفة، ويقوم بما كلَّفه الله تعالىٰ به، ولا يجوز له الاحتجاج بالإرادة، فإنها حُجَّة إبليس ولم تنفعه، إذ لا ينفع الاحتجاج بالإرادة إلا إذا وافقت الأمر الإلهيَّ كالطاعات، فيجب علىٰ كلِّ مكلَّف التوبةُ من جميع المخالفات، ومن لم يتب طبع الله علىٰ قلبه، فلا يزداد بالمعاصي إلا منعًا وطردًا، لأنها رجس لا يمكِّن صاحبه من دخول حضرة الله عزَّ وجلَّ في صلاة ولا غيرها، فإن المصر علىٰ المعصية تصير المعاصي كالوصف اللازم له، بخلاف التائب عقب كل زلَّة، فإنه كالمتطهر بالماء للحدث أو الخبث. ومثل هذا المصر يكون تطهيره بالنار يوم القيامة إن لم يتداركه العفو والشفاعة، فتكون النار له هناك كالماء هنا، فاعلم ذلك.

وعُلِم أيضًا مما قررناه أن هبوط آدم من تلك الجنة كان هبوط تقريب وشرف، لا هبوط بُعْد وقطيعة عكس هبوط إبليس، فإن هبوطه كان هبوط بُعدٍ وطرد ومقت بحكم الوعد السابق له من الله عزَّ وجلَّ، فكما كانت حسنات ذرية آدم كلِّهم في صحيفته عليه الصلاة والسلام، كذلك أوزار جميع العصاة في صحائف إبليس لعنه الله، من كفر وشرك، ونفاق وظلم وغير ذلك، فكان خروجه من الجنة إنما هو لاكتساب الأوزار. ومعلوم أن

(١) سيدي ياقوت العرشي: كان إماماً في المعارف عابداً زاهداً وهو من أجل من أخذ عن الشيخ أبي العباس المرسي ﷺ، وأخبر به سيدي أبو العباس ﷺ يوم ولد ببلاد الحبشة، ومناقبه رضي الله تعالىٰ عنه كثيرة مشهورة بين الطائفة الشاذلية بمصر، وغيرها. توفي: ٧٠٧هـ بالإسكندرية ﷺ. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ١٨).

الجنة التي كان فيها مع آدم عليه الصلاة والسلام ليست بدار كفر ولا شرك ولا نفاق ولا ظلم، وكانت معصيته حقيقية لا صورية ضد آدم، ولذلك لم يقع منه توبة ولا استغفار ولا اعتراف بإقامة الحُجَّة عليه، فلذلك شقي شقاء الأبد.

[هل يصح أن يسلم إبليس؟]

وقد اختلف العلماء في إبليس هل يصح أن يسلم أو لا؟ علىٰ قولين. والجمهور من أهل النقل والكشف: لا يصح منه إسلام، لأنه هو الذي سنَّ الكفر والشرك في العالم، بخلاف جنوده من كفار الجنِّ والإنس يصح منهم الإسلام، كما هو مشاهد في الإنس لكلِّ الناس، وفي الجنِّ لأهل الكشف، إذ لو صح إسلام إبليس الأكبر في دار التكليف، لتعطلت قبضة أهل الشقاء، ولم يبقَ لهم من يوسوس لهم بالمعاصي. ومعلوم أن أحدًا من الجنِّ والإنس لا يعصي إلا بواسطة وسوسته، فهو الذي يسنُّ الكفر والشرك في جميع العالم، ولو أنه يصح منه إسلام، ما كان دخل النار أبدًا. وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله النار، وأنه يخطب في النار لأتباعه، ويتبرأ منهم ويقيم الحُجَّة عليهم في محل يصدق فيه الكذوب، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] لكن لا ينفعه ذلك التبرؤ، لأنه لم يكن في دار التكليف، كما لا ينفعه قوله للإنسان إذا وسوس له بالكفر وكفر: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] لأنه خوف نفاق، وما وسوس له بالكفر أو الشرك حتىٰ يصوره في نفسه ذوقًا علىٰ صورة إذا حصلت في نفس المشرِك أو الكافر، كان بها مشرِكًا أو كافرًا، وزالت عنه صورة التوحيد، فإذا تصورها في نفسه علىٰ هذه الصورة، فقد خرج من التوحيد ضرورة، وحصل له بذلك الشقاء الأبدي، فإنه كان عزمه أن يشقىٰ العباد ما عاش، فعاد وبال نيته عليه. وقد قال الشيخ أبو مدين ﷺ: دخول الخلق في الجنة أو النار إنما هو بأعمالهم. وأما خلودهم في الدارين فإنما هو بنياتهم. انتهىٰ، وهو كلام نفيس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لو صح توحيد إبليس بقوله: ﴿إِنِّي

بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦] لذهب صفة الشرك من العالم، ولم يجد المشرِك من يوسوس له بذلك في قلبه، لفقد من يمد المشرك بصفة الشرك. ولا يخفىٰ عليك أن إبليس مشرِك بلا شك ولا ريب، وهو أول من أشرك بالله، وأول من سنَّ الشرك في الأرض، فهو أشقىٰ العالمين، وليس كونه في النار في الطبقة الرابعة منها تخفيفًا عليه، وإنما هو لكون مدار الشرك والكفر وسائر المعاصي التي دخل أهلها بسببها النار عليه، فهو كالقطب، فوقه ثلاث طبقات، وتحته ثلاث طبقات. فقلتُ له: إن ظاهر قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ الا ان دعوتكم فاستجبتم لي﴾ يوهم أن ما دعاهم إليه كان موجودًا عندهم، كامنًا فيهم، ليوافق قوله تعالىٰ: (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). فقال ﷺ: وهو كذلك، فإنه مظهِر بوسوسته ما كان كامنًا فيهم فقط، لا موجد ذلك فيهم، فإنه لا يأتي أحدًا بالوسوسة إلا بعد وجود الميل من ذلك الأحد، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ ﴾ أي قبل أن تميلوا، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ حيث ملتم، لأني واقف دائمًا تجاه قلوبكم، وأنتم ككفتي الميزان وقبتها، وقلبكم كلسانها، فما دام قلبكم لا يميل فيه، فاللسان في قبة الميزان لم يخرج، وذلك إما لعصمة أو لحفظ، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] أي عبادي المخلصين من الأنبياء، والمحفوظين من الأولياء. ثم بتقدير أن العصاة عليهم الحُجَّة بتقدير ميلهم، فإبليس مؤاخذٌ بذلك من حيثُ كونُه هو الداعي لهم إلىٰ ذلك. والأحكام الشرعية جارية علىٰ الخلق من حيثُ تظاهرُهم بالمعاصي غالبًا، لا من حيثُ كونُها كامنة فيها. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول مرةً أخرىٰ: إياكم أن تقروا أحدًا من أهل الشطح علىٰ جوابه عن إبليس نظير ما أجبنا به عن آدم عليه الصلاة والسلام، فإنه لعنه الله قد أصر علىٰ ذنبه ولم يستغفر منه، ثم بتقدير أنه يندم ويبكي فذلك نفاق لا يُقبَل منه، كما قررناه مرارًا.

قال: ولا يقع في الجواب عن إبليس إلا من لم يشم من الشريعة رائحة ممن يتمشيخ بنفسه من غير إذن، ويترك التقيد بالكتاب والسنة، فإياكم ثم إياكم من صحبة مثل هذا. انتهىٰ.

قلتُ: وقد جادلني شخص وَرَدَ مصرَ من مشايخ العجم في سنة ثلاث وأربعين وتسعمئة في شأن إبليس، وقال: إن إبليس يتوب عند كلِّ معصية عقب وسوسته بها للناس. واستدل علىٰ ذلك بحديث: «إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلي، أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلي النار»[1]. فقلتُ له: لو صح له الندم والبكاء حقيقةً لكان سعيدًا من جملة المؤمنين ولم يُخلَّد في النار. وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله مع القبضة التي فتح هو بابها النار خالدين مخلدين، وقد ضبط جمهور المحدثين قوله ﷺ: «ولكن أعانني الله عليه فأَسْلَمُ»[2] بضم الميم، أي سلمني الله من العمل بوسوسته مع بقائه هو علىٰ الكفر. ثم بتقدير أن شيطانه ﷺ يصح أن يُسلِم، فذلك خصوصية له ﷺ، لأن كلامنا إنما هو في القرين، ليس هو في الشيطان الأكبر صاحب المرتبة بإجماع. فسكت العجميُّ ساعةً ولم يدر ما يقول. ثم قال: إن قوله تعالىٰ في إبليس أنه قال: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يقتضي توحيد إبليس، لأن قوله هذا فيه جمع بين الشرك والتوحيد، فهو يوسوس بالشرك للناس، لينفذ قضاء الله تعالىٰ في عباده، وهو يعلم في نفسه ويتحقق أن الله تعالىٰ واحد لا شريك له. فقلتُ له: هذا باطل؛ لأنه ممد لجميع المشركين بالشرك، ولولا ذلك ما أشركوا، لفقد من يوسوس لهم به. ولو أنا سلمنا عدم إشراك إبليس من وجه، وتوحيده من وجه آخر، لكان فيه جمع بين الضدين، وهو محال، فإنه إذا وُجِد الشرك، ذهب التوحيد، فلا يجتمع توحيد وشرك في قلب أبدًا، وكذلك كان الكفار لا يوزن لهم أعمال يوم القيامة ولو قالوا: لا إله إلا الله في دار الدنيا؛ لأنهم لم يقولوها عن إيمان بها، فكذلك القول في إبليس، فهو مشرك بالله ظاهرًا وباطنًا قطعًا. انتهىٰ.

[محاورة إبليس وسهل بن عبد الله التَستُري]

وقد بلغنا أن إبليس اجتمع بسهل بن عبد الله التَستُري رضي الله عنه فقال له سهل: كيف أقسمتَ بالله تعالىٰ لآدم وحواء كاذبًا وقلتَ لهما: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]؟

---

(١) أخرجه مسلم (٨١) وابن ماجه (١٠٥٢) بلفظ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد...»

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤) والترمذي (١١٧٢) والنسائي (٣٩٦٠).

فقال: معاذ الله أن أقسم كاذبًا، وإنما أقسمتُ بالإله الذي يخطر ببال العبد، وكل ما خطر بالبال فالله تعالىٰ بخلافه، فما وقع إقسامي إلا بإلهٍ نحتُّه بفكري، وتعالىٰ الله عن ذلك.

ثم قال له: يا سهل، كيف تحكمون بخلودي في النار وأنا فديتُ جناب الحقِّ جلَّ وعلا بروحي، وحملتُ عن جنابه جميع أوساخ النِّسب -بكسر النون- عن العاصي، وتخلَّف عن ذلك جميعُ الأنبياء والمرسلين حين عرض ذلك عليهم؟! وذلك أن الحقَّ تعالىٰ قال بعد أن وقف الأولين والآخرين بين يديه: إني أريد أن أحدث في ملكي أمرًا، وأجعل العالم قبضتين: قبضة سعادة، وقبضة شقاء، فأخلق المعاصي والفواحش، وأتبرأ من إضافتها إليَّ في الظاهر، ويصير الوجود العلوي والسفلي كله يلعن من تُضاف الفواحشُ إليه، فسكت القوم أجمعون، ولم يتجرأ منهم أحدٌ يتقدم لها غيري، فلولا أنا لكانت الفحشاء تُضاف إلىٰ ربكم، وخرجتُم عن أدب العبودية والمحبة لربكم، فإن من شأن المحب أن يتحمل عن سيِّدِه ومحبوبه كلَّ مذموم، ويحب أن يُضَاف إليه من كلِّ عيب ونقص في العالم.

فقال له سهل ﷺ: لو كان ذلك منك علىٰ وجه المحبة والتعظيم للحقِّ جلَّ وعلا ما طردك ولا أشقاك بذلك، إذ الحكمة تأبىٰ ذلك.

فقال إبليس: ما معنىٰ اللعن والطرد في لسانكم؟

فقال سهل ﷺ: معناه الطرد عن حضرته الخاصة.

فقال: من كان في قبضة الحق جلَّ وعلا لا يتحرك إلا إن حركته قدرته تعالىٰ، فكيف طرده؟

فقال سهل: مطرود عن حضرة الأمر إلىٰ حضرة الإرادة المطلقة المجردة عن امتثال الأمر، وتلك حضرة لا تقتضي السعادة، وإنما تقتضي الشقاء لأهلها، إذ هي حضرة النهي.

فقال إبليس لسهل ﷺ: يا سهل، أما قال تعالىٰ لي: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤]؟

فقال: نعم.

فقال إبليس: فما وسعني إلا امتثال أمره، فكما كان أنبياؤكم تحت أمره، فكذلك أنا تحت أمره.

فقال له سهل: إنما يكون تحت أمره تعالىٰ لو كان ذلك ابتداءً منه تعالىٰ، فإنه ما قال لك: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ إلىٰ آخره إلا جوابًا لك حين أقسمتَ بعزته تعالىٰ لتغوينهم أجمعين، فشقيتَ أنت بذلك، وهذا جزاء من طلب السوء لأحد من العباد، بخلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فما منهم أحد إلا وهو يطلب الهدايةَ والخيرَ لقومه، فافترقت يا لعينُ عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم يصلح ما قلت أن يكون حُجَّةً لك.

فقال: يا سهل، إن الله تعالىٰ يقول في كتابكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. وقد عرض تعالىٰ علىٰ جميع أنبيائكم أن ينوبوا عنه في وسوسته الناس بالفواحش، ليظهر حكم القبضتين، فما رضي أحد منهم بذلك، ولابد في الوجود من قائم يقوم عن الحقِّ بذلك، فإنه تعالىٰ قال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]. ومعلوم أن الوسوسة بالفحشاء إضلال، وقد نفىٰ تعالىٰ عن نفسه الأمر بها، فأيهما أكثر محبة للحق تعالىٰ: من قد فدىٰ جنابه بنفسه وتقدم لتنفيذ قضائه وقدره في عباده، وجعل نفسه منديلًا للقاذورات، أم الذي تنزه عن ذلك، وأضاف الوسوسة بالفحشاء إلىٰ ربه؟

فقال سهل: قد تقدم الجواب أنك لم تفعل ذلك لإيثار جناب الحقِّ تعالىٰ علىٰ جناب نفسك، وإنما ذلك لخبث باطنك ومحبتك السوء للناس.

فقال: يا سهل، فكيف يزعم أحدكم أنه أكثر إخلاصًا لله تعالىٰ مني ومراقبة له، ولو أن أحدكم أنكر عليه أهل بلده وقاموا عليه ورموه بالزندقة والبهتان والرمي بالعظائم، لتغير من فَرْقه[1] إلىٰ قدمه، وأنا جميع الوجود يلعنني ويسبني ليلاً ونهارًا ويضيف إليَّ كلَّ سوء، فلا يتغير مني شعرة واحدة علىٰ أحد منهم، اكتفاء بعلم الله تعالىٰ فيَّ. فقال سهل: ليس تغير الداعي منا إلىٰ الله تعالىٰ من مثل ذلك لحظِّ نفس، وإنما ذلك مسارعة لمرضاة الله تعالىٰ وخوفًا علىٰ أتباعنا أن تنفر منا، فيفوتهم الاهتداء بهدي الرسل الذي ندعوهم إليه، فرجع تغيرنا وتأثيرنا إلىٰ مرضاة الله ومحبة الخير للأمة، وذلك لا يقدح في كمال الداعي

---

(١) الفَرْقُ من الرأس: الفاصلُ بين صفين من الشَّعْر.

إلى الله تعالى، بل هو علامة على كماله، وفرق بين من يريد وقوع ما يرضي الله، ومن يريد وقوع ما يغضب الله.

فقال إبليس: يا سهل، كيف يصح غضب الحقِّ تعالى من شيء يفعله؟! فإنه الفاعل الحقيقيُّ لكلِّ ما في الوجود، والغضبُ لا يكون إلا لمن تقع الأمور قهرًا عليه، وتعالى الله عن ذلك.

فقال سهل: غضب الله تعالى مباين لغضب خلقه، فليس غضبه من حيثُ وقوعُ شيء في الوجود عن غير إرادته، وإنما غضبه كناية عن كون ذلك الأمر سبق في علم الله مؤاخذةُ كلِّ من ظهر على يديه، فكأنه يحذِّر عباده من الوقوع فيه، ويأمرهم بالتوبة منه فورًا، لعدم قدرة الخلقِ على تحمل سخط الله ومقته، وقطع مادة الرضا عنهم.

فسكت إبليس، ثم قال: يا سهلُ، كيف تزعم خطباؤكم ووعاظُكم وجميعُ علمائكم أنهم أنصار دين الله وأنصار شريعة محمد ﷺ، وأحدهم ليلًا ونهارًا يسعى في تكذيب الشارع ﷺ فيما أخبر به من علامات الساعة؟

فقال له سهل: كيف ذلك؟!

فقال: إن نبيكم أخبر أنه لابد أن يكثر الزنا وشرب الخمر[1] وترك الصلاة[2] ومنع الزكاة[3] وتطفيف المكيال والميزان وغير ذلك مما يقع بين يدي الساعة، فأنا أقول لمن سبقت له الشقاوة: افعل ما قدَّره الله عليك، لتصدِّق نبيَّك فيما أخبر به، وجميعُ وعاظكم وخطبائكم

---

(١) أخرج البخاري (٥٢٣١) من حديث أنس ﷺ قال: «لأحدثنكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر...».

(٢) أخرج ابن حبان (٦٧١٥) من حديث أبي أمامة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: لتنتقضن عرى الإسلام عروةً عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضًا: الحكم وآخرهن الصلاة» والحاكم (٧٠٢٢).

(٣) أخرج مسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم». وأبو داود (٣٠٣٥) وأحمد (٧٥٦٥).

وعلمائكم يقولون: لا أحد من الخلق يقع في ذلك. ومعلوم أن من لازم ذلك تكذيبُ الشارع فيما أخبر، فأيُّنا أكثر نصرة للشارع: من سعىٰ في تصديقه أو من سعىٰ في تكذيبه؟

فقال سهل: إن نصرة الشارع لا تكون إلا في إرشاد الناس إلىٰ ما يرضي ربهم لا فيما يسخطه، فإن ذلك سعي في خذلان الشارع، ومن خذل الشارع، فأين نصرته له؟

فقال إبليس: أفتقومون عني بالوسوسة للخلق بالمعاصي وأنا أترك ذلك؟

فقال سهل: لا.

فقال: فكيف العمل؟! تمنعوني من الوسوسة للناس بالوقوع فيما قدَّره الله تعالىٰ عليهم في سابق علمه، وأنتم لا ترضون توسوسون لهم بذلك! ومعلوم أن من لازم ذلك خُلْفُ الوعد من الشارع، فإن أحدكم لا يزال يقول للخلق: لا أحد منكم يعصي ربه أبدًا ولو بقي في الدنيا ساعة واحدة، ولا بد من شخص يهجم ويوسوس للناس بما جعله الشارع من مقدِّمات الساعة، ويسعىٰ في تنفيذ قضاء الله وقدره في عباده.

فقال له سهل: قد تعبدنا الله تعالىٰ بنهي الناس عن معصية الله إلىٰ قيام الساعة، فما أخرجنا عن أمره، وأنت شقِيٌّ، ولو لزم من وسوستك تصديق رسول الله ﷺ، فذلك غير مقصود لك. ومعلوم أن الأجر والثواب والفضل لا يكون إلا بالقصد، ولازم المذهب ليس بمذهب عند جمهور علماء الأصول. ومن هنا لم يقل أحد من العلماء بإشقاء أحد من الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ من حيثُ كونُهم كانوا سببًا لمؤاخذات الله تعالىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فأخبر تعالىٰ أنه لولا إرسال الرسل ما عذَّب أحدًا من عباده، فكما لا يؤاخذ الله الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ بلازم رسالتهم، فكذلك لا يرضيه منك لازم إغوائك ووسوستك بالمعاصي للعباد من تصديق رسله تعالىٰ فيما أخبروا به من علامات الساعة.

فسكت إبليس ثم قال: يا سهل، إن الله تعالىٰ قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأنا شيء بلا شكٍّ، فكيف تقولون إن رحمة الله لا تنالني، وما دليلكم في ذلك؟

فقال سهل: دليلنا قوله تعالىٰ عقب ذكر هذه الرحمة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلىٰ آخر النسق، فأخرجك من دخولك في كتابة هذه الرحمة، لأنه ليس فيك خصلة من هذه الخصال التي ذكرها الله تعالىٰ فيمن كتب هذه الرحمة لهم.

فنظر إبليس إلىٰ سهل مبتسمًا وقال: يا سهل، التقييد صفتك لا صفة الحقِّ تعالىٰ؛ لأنه لا يدخل تحت التحجير، ولو حجر علىٰ نفسه بالكتابة المذكورة، ولا يدخل تحت الإلزام، فله أن يخلف ذلك إذا شاء.

قال سهل: فغصصتُ بريقي، ولم أجد له جوابًا! ثم قال لي: يا سهل، ليتك سكتَّ عن هذا الجواب المؤذِن بالجهل بالله تعالىٰ![1] والله ما كنتُ أظنُّ بك هذا الجهل العظيم مع شهرتك بالعلم والولاية! انتهىٰ كلام سهل رضي الله عنه.

وقد وقع لي مع إبليس نظير ذلك بساحل بيلاق تحت المدرسة الجيعانية، فبحث معي في الأمور الواقعة من افتتاح الله تعالىٰ الوجود الظاهر إلىٰ استقرار الخلق في الجنة والنار، وأعانني الله تعالىٰ عليه، فأدحضنا جميع حججه.

فإياك يا أخي أن تصغىٰ لما يقوله إبليس من المجادلة، فإن كلامه كلَّه غرور ومكر واستدراج للعبد، وربما استدرج بعض الموحدين لله تعالىٰ من غير مراعاة قواعد الشريعة، حتىٰ صار يقيم لإبليس العذر ويقول: وأيش هو إبليس؟! إنما هو عبد تحت أمر ربه لا يتحرك إلا إن حرَّكه تعالىٰ. وربما وقع من يجيب عنه في الكفر واستوجب الخلود في النار، وهو يعتقد بنفسه أنه موحِدٌ لله تعالىٰ.

هذا ما فتح الله تعالىٰ به عليَّ من الجواب في حقِّ أبينا آدم عليه الصلاة والسلام. فرحم الله من تتبع هذا الجواب وأصلح ما يراه غير لائق، وفاءً بحق أبيه عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣) ومما أجبتُ به عن السيد نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ

---

(١) في «أ»: بأحكام الله تعالىٰ.

عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]: اعلم يا أخي أن نوحًا عليه الصلاة والسلام ما دعا علىٰ قومه بالغرق إلا من باب الشفقة عليهم أن يكثر عصيانهم لربهم إذا طال عمرهم علىٰ وجه الأرض، من باب قوله ﷺ: «وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[1]، فطلب عليه الصلاة والسلام بغرقهم تخفيف العقاب عليهم، فإنه قد ورد تفاوت أهل النار في العذاب بحسب تفاوتهم في المعاصي قلة وكثرة. ويحتمَل أن يكون ذلك منه ﷺ غيرةً لله عزَّ وجلَّ أن يرىٰ أحدًا يكفر به مع حجابه في ذلك الوقت عن شهود القبضتين.

[سبب اعتذار سيدنا نوح عن الشفاعة يوم القيامة]

وإنما كان يعتذر يوم القيامة إذا سألوه في الشفاعة بأنه دعا علىٰ قومه إظهارًا لمقام محمد ﷺ عليه في ذلك اليوم، وكذلك الأمر في اعتذار الخليل وعيسىٰ، نظير قول موسىٰ: «يا رب، نبي يأتي من بعدي يكون أكثر أتباعًا مني» إنما قال ذلك ليتلذذ بسماع كلام الله تعالىٰ له في حقِّ محمد، وبيان فضله، لا علىٰ وجه الحسد له لعصمته، نحو قوله تعالىٰ: «تأدب يا موسىٰ، فإنه لولا محمدٌ ما خلقتُك ولا خلقتُ سماءً ولا أرضًا ولا شمسًا ولا قمرًا» إلىٰ آخر ما ورد في الآثار.

[الدليل على أن دعاءه على قومه كان شفقة]

ويؤيد ما قلناه من أن دعاءه عليهم كان شفقة عليهم قوله: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ [نوح: ٢٧]، فكان ذلك كمن خاف فتنة في دينه بضلاله، فسأل الله تعالىٰ أن يقبض روحه لئلا يضر نفسه وغيره بالإضلال.

وأما قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧]، فكان من طريق كشفه الصحيح. قال وهب بن مُنبِّه: وقد صحَّ قولُه في أولاد من سلموا من الغرق، فولدوا أولادًا فجَّارًا كفَّارًا، فسقط قول من قال: إن الدعوة التي يعتذر عنها هو قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ ﴾ لأنه حجر علىٰ الحقِّ تعالىٰ في المستقبل. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠).

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزَّهون عن الوقوع في مثل ذلك. وكان وهب بن مُنبِّه يقول: لم يكن نوح عليه الصلاة والسلام من أهل الذنب، وإنما سُمِّي نوحًا لكثرة نوحه علىٰ قوله لما مرَّ علىٰ جيفة كلب: ما أشد نتن هذا! فأوحىٰ الله إليه: أخلق أنت أحسن منه. انتهىٰ. فكان ينوح علىٰ قوله هذه الكلمة، وقيل: إن ذلك خطر بباله ولم يتلفظ به، والله أعلم.

(٣٤) ومما أجبتُ به عن السيد موسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله لربه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي اختيارك: بأن ذلك منه عليه الصلاة والسلام من باب المناجاة والخضوع لربه عزَّ وجلَّ والتبري من الحول والقوة، كما يقول العبد: يا رب، [اغفر لي][1] ذنوبي فيما قدَّرته عليَّ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين. فإياك يا أخي أن تظن أن قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] كلمة غضب ورعونة نفس في حضرة ربه، فإن ذلك وقوعٌ في حقِّ الأنبياء، لعصمتهم من سوء الأدب.

وأما ما ورد من أنه عليه الصلاة والسلام لطم ملك الموت حين طلب قبض روحه[2] فلا يُذكَر في كتاب، وإنما يُذكَر مشافهةً لأهل الأسرار الإلهية المؤتمنين عليها.

(٣٥) ونحو ما ذكرناه من قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] قوله عليه الصلاة والسلام حين ضيق الله عليه الرزق: «أَنفذَتْ خزائنُك، أو ضاقت عن موسىٰ بن عمران؟!» فإنه إنما قال ذلك مناجاةً لربِّه عزَّ وجلَّ أي لم تنفذ خزائنُك يا ربِّ، حاشاها من ذلك! ولكن جودك فائض علىٰ جميع الوجود، وأنت تفعل ما تشاء من زيادة الرزق ونقصه بحسب الأوقات التي سبق بها العلمُ الإلهيُّ أن يكون الرزق فيها كاملًا وناقصًا، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجهلون أن الرزق المقسوم أزلًا ليس فيه زيادة ولا نقص، وإنما يسألون الرزق من ربهم إظهارًا للعبودية والفاقة والحاجة إليه تعالىٰ، فافهم.

وفي بعض الآثار أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين ضيَّق

---

(١) زيادة ضرورية يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

عليه الرزقَ، وأحوجه إلىٰ الوقوف علىٰ أبواب بني إسرائيل، وشقَّ عليه وسأل الغنىٰ عن طعامهم: «يا موسىٰ، إذا كان هذا الخُلُق والحِدَّة منك علىٰ بني إسرائيل وأنت محتاج إلىٰ طعامهم، فكيف خُلُقُك معهم إذا أغنيتُك عنهم؟ فقال موسىٰ: يا رب، فلك الحمد علىٰ تضييق رزقك عليَّ». انتهىٰ.

(٣٦) ومما أجبتُ به عنه أيضًا لما دعا علىٰ ألف نبي فماتوا في ساعة، كيف صح عنه عليه الصلاة والسلام الدعاء علىٰ الأنبياء مع أنه معصوم من الغيرة والحسد؟

والجواب: أنه عليه الصلاة والسلام كان شكا إلىٰ ربه كثرةَ سؤال بني إسرائيل له حتىٰ أبرموه، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ ألف نبي ليساعدوه، فلما بلغ الأمر حدَّه في المساعدة، سأل الله تعالىٰ موتَهم عند انتهاء آجالهم لا قبله.

وأما قول وهب بن مُنبِّه: إنه دعا عليهم لما وجد في نفسه غيرة، فلم يصح ذلك عنه، والله أعلم.

(٣٧) وأما قول موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] **يعني فرعون، وقول بعضهم: إن الخوف من المخلوقين لا ينبغي وقوعه من ولي، فضلًا عن رسول، فالجواب**: أن موسىٰ وهارون كانا كاملين، ومن شروط الكامل أن يرىٰ ضعفه وعجزه، ولا يرىٰ له قوة يدفع بها عن نفسه إلا إن أمدَّه الله تعالىٰ بقوة، وأذن له في دفع عدوه بها. ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لم يأذن لهما في الإغلاظ علىٰ فرعون، وإنما قال تعالىٰ لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فكان قولهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ كالشكوىٰ إلىٰ الله تعالىٰ أن يدفع شرَّه حتىٰ يؤديا رسالة ربهما. وأما قول موسىٰ في سورة «الشعراء»: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] أي خفت من الحقِّ تعالىٰ أن يسلطكم عليَّ، فرجع خوفه من الخلق إلىٰ الخوف من الله تعالىٰ، لأن الكامل لا يخاف من المخلوقين مع قطع النظر عن خالقهم أبدًا؛ لأن مخلوقًا لا يؤثر في مخلوق إلا بإذن الله، فافهم، والله أعلم.

(٣٨) ومما أجبتُ به عنه حين لطم عين ملك الموت ففقأها[1]: أن ذلك كان بإذن من ربه، لعصمته عن مثل ذلك، ولذلك لم يعاتبه الله عليه، فافهم.

(٣٩) ومما أجبتُ به عن السيد يونس عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]: فظن بنا خيرًا وأننا لا نضيق عليه، بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، فإن المراد بقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ أي ضُيِّق عليه رزقه، فليس المراد ما يتبادر إلىٰ الأذهان؛ لأن الأنبياء معصومون عن الجهل بشيء من أسماء الله تعالىٰ وصفاته وحضراتها.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] إلىٰ آخر النسق؛ فالجواب: أن ذلك من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، فنهىٰ الحقُّ تعالىٰ محمَّدًا ﷺ أن يقف في مقام من هو دونه من الأنبياء، وأمره أن يترقىٰ عن ذلك إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، وهو الصبر علىٰ من خالف من قومه، وعدم السؤال بمعاجلتهم بالعذاب شفقةً عليهم ورحمةً بهم، وإيضاح الكلام في ذلك لا يذكر إلا مشافهة لمن يكتم الأسرار، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠) ومما أجبتُ به عن السيد يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]: أن المراد همَّت به لتنال غرضها منه لعدم عصمتها، وهمَّ بها ليدفعها عنه بشدة وعنف، فالهَمُّ منها ومنه مشترك، والقصد مختلِف، وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] البرهانُ هو الوحي، وذلك أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه أن ادفعها عنك بلطف وخفة، فإنها امرأة ناقصة علىٰ كلِّ حال عن درجة الرجال في القوة

---

(١) أخرج البخاري (١٣٣٩) عن أبي هريرة ﷺ قال: «أرسل ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليهما السلام، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلىٰ ربه فقال: أرسلتني إلىٰ عبد لا يريد الموت، قال: فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إليه فقل له يضع يده علىٰ متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن؛ فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلىٰ جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر».

علىٰ ردِّ نفسها عما تريده، وعن دفع الرجال كما يدفعونها لو وقع بينها وبينهم مضاربة مثلًا.

وقد ذكر في «الفتوحات المكية» نحو ذلك، فقال: ﴿هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ لتقهره علىٰ ما تريده منه، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ليقهرها بالدفع عنه بشدة وغلظة، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: ادفعها بلطف ورفق، فإنها امرأة ضعيفة الحال علىٰ كلِّ حالٍ لا تحتمل شدَّةَ عزمك، وقوة بطشك، وأنت نبي مرسل، فهناك عَذَرَها عليه الصلاة والسلام في عجزها عن ردِّها نفسها عما أرادته من يوسف، وفي شغفها بذلك الجمال العظيم، فالهَمُّ منها ومنه لفظ مشترك، والقصد منهما مختلف. انتهىٰ[1].

فعُلِمَ أنه لا يجوز أن يُقال: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من المعاصي دون الميل إليها كما فهمه بعضهم، فجوَّز في حقِّهم الهَمَّ بالمعاصي. والذي عليه كُمَّلُ العارفين أجمعين أن الأنبياء معصومون من شهوة الميل، فضلًا عن الميل، وإذا كان سليمان الدنبلي أحد أولياء الله تعالىٰ بمكة يقول لي: منذ خمسين سنة ما خطر علىٰ بالي مكروه فضلًا عن مخالفة الله عزَّ وجلَّ بالصغائر؛ فكيف بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام؟! وكذلك بلغنا عن الإمام الليث بن سعد ﵁ أنه كان يقول: من منذ وعيتُ علىٰ نفسي ما أظنُّ أنه خطر علىٰ بالي قط معصية. وكذلك بلغنا عن أبي سليمان الداراني[2] ﵁ أنه كان يقول: ما أتذكر أني فعلتُ شيئًا يُستحيا منه بيني وبين الله عزَّ وجلَّ سوىٰ قربي من عيالي. فاعلم ذلك، وإياك والخوض في أعراض أنبياء الله عزَّ وجلَّ والحمد لله رب العالمين.

(٤١) ومما أجبتُ به عن السيد داود عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]: المراد بالحقِّ الذي يحكم به

---

(١) انظر: «الفتوحات» الباب (٣٦٧).

(٢) أبو سليمان الداراني، اسمه عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل: عبد الرحمن بن عسكر العبسي الداراني، كان من واسط وتحول إلىٰ الشام ونزل داريا (قرية غربي دمشق)، وكان إمامًا حافظًا كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أثنىٰ عليه الأئمة، وكان له الرياضات والسياحات، وله كرامات وأحوال ت ٢٠٥هـ. النجوم الزاهرة (٢/ ١٧٩) ووفيات الأعيان (٣/ ١٣١).

عليه الصلاة والسلام هو الوحي، والمراد بالهوى الاجتهاد لا الهوى المذموم في الشرائع، نهاه عنه[1] وأمره أن ينتظر الوحي من الله تعالىٰ في كلِّ حادثة، وذلك ليكون تابعًا لربه لا مشرِّعًا من عند نفسه. وثم مقام رفيع ومقام أرفع، مع أن الاجتهاد لا يُؤذَن فيه إلا عند فَقْدِ الوحي. وأما النبي فهو مستغنٍ عنه بالوحي، فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ نظير قوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] فنبهه علىٰ أن التقيد بالوحي أكمل من اجتهاده.

وقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي تنقص به عن مقام الرسل السابقين علىٰ زمانك، فأراد منه تعالىٰ الرقي إلىٰ مقام إخوانه من الأنبياء والمرسلين، كقوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ونحوهما من الآيات، فليس المراد بالضلال ضد الهدىٰ، لأن الأنبياء معصومون عن مثل ذلك، وقد أنشد الشيخ محيي الدين بن العربي في ذلك:

عجبت لمعصوم يقال لـه اتبع ... ولا تبتدع واحكم بما أنـزل الله

وكيف يرىٰ المعصوم يحكم بالهوىٰ

إلىٰ آخر ما قال[2]. ويحتمل أن الله تعالىٰ خاطبه بذلك والمراد به غيره علىٰ جاري عوائده تعالىٰ مع أصفيائه، بجعلهم يتحملون صولة الخطاب والشدائد عن قومهم في الدنيا والآخرة.

(٤٢) ومما أجبتُ به عنه في نحو حديث: «كانت خطيئة أخي داود عليه الصلاة والسلام النظر»[3]: بأن المراد بالنظر هنا أنه عليه الصلاة والسلام رفع رأسه إلىٰ السماء

---

(١) أي عن الاجتهاد.

(٢) «الفتوحات» الباب (٣٤٦).

(٣) عزاه السيوطي في الجامع الكبير للديلمي (١٦٥٧٤)، وقال ابن عراق الكتاني في تنزيه الشريعة المرفوعة (٢/ ٢١٦): قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط لا أصل له وقال الزركشي في تخريج أحاديث الرافعي هذا حديث منكر فيه ضعفاء ومجاهيل وانقطاع.

مرةً وهو غافل عن الاعتبار بذلك، لا أنه نظر إلىٰ امرأة أو رآها كما أشاعه اليهود لعنهم الله تعالىٰ، لأن الأولياء إذا كان أحدهم يُؤاخَذ بكلِّ حركة أو سكون لا حضور له مع الله تعالىٰ فيهما، فكيف بكُمَّل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؟! وقد كان أحمد بن رُزَيْن ﷺ يقول: من رفع بصرَه إلىٰ شيء بغير قصد الاعتبار، كُتِبَت له خطيئة. انتهىٰ. ورفع الإمام عمر بن عبد العزيز[1] ليلة بصره إلىٰ السماء، فحصل عنده قساوة في قلبه، فذكر ذلك لوالدته، فقالت: لعلك يا ولدي نظرتَ إلىٰ السماء علىٰ غير وجه الاعتبار وأنت غافل عن الحضور مع خالقها عزَّ وجلَّ. فقال لها: نعم. فقالت: يا ولدي، إن الله تعالىٰ إذا اعتنىٰ بعبده المؤمن، أخذه بكلِّ حركة أو سكون لم يقعا عن حضور مع الله واعتبار. انتهىٰ.

وكان سيدي علي الخواص ؓ يقول: قد أطلق رسول الله ﷺ في الحديث خطيئة النظر، فيجب حملُها علىٰ ما يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يجوز حملُها علىٰ ما يليق بمقام غيرهم. وإننا لما رأينا الحقَّ جلَّ وعلا يُؤاخِذ أولياءه برفع بصرهم إلىٰ شيء علىٰ غير وجه الاعتبار والحضور معه، حملنا من باب أولىٰ الأنبياء علىٰ نحو ذلك.

ويؤيده ما ورد أن داود عليه الصلاة والسلام لم يرفع طَرْفه إلىٰ السماء بعد أن عوتب علىٰ النظر حتىٰ خرج من الدنيا، وكان إذا رفع رأسه إلىٰ السماء في دعاء يصير في غاية الحياء من حيثُ هي قبلة الدعاء. ومعلوم أن غض الطرْف من العبيد بين يدي ربهم مطلوب، وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يتحيز، لكن الشرع قد تبع العرف في كثير من الأحكام، فمنع العبد من الصلاة عاريًا في الظلام أو في خلوة، وجوَّز له الصلاة في ثوب وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يحجبه شيء، فلما كان الثوب[2] يحجب بصر الخلق عن رؤية العورة، اكتفىٰ الحقُّ تعالىٰ من عباده بذلك بين يديه، فافهم. انتهىٰ.

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان، أمير المؤمنين أبو حفص الأموي ؓ، الخليفة الصالح، والملك العادل، ولد بالمدينة سنة ٦٠هـ، بعثه أبوه من مصر إلىٰ المدينة ليتأدب بها، فكان يختلف إلىٰ عبد الله بن عبيد الله يسمع منه. توفي: ١٠١هـ. فوات الوفيات (٣/ ١٣٣) والأعلام (٥/ ٥٠).

(٢) بالأصلين: القرب، خطأ من الناسخ، والصواب ما أثبتناه.

وكان الشيخ محيي الدين ابن العربي رحمه الله يقول: لم يبلغنا في حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف تعيين الخطيئة، ولا أنها نظره عليه الصلاة والسلام إلىٰ امرأة أو رآها حين اغتسلت فوق سطح لها، وأنها لما شعرت بظلِّه وهو في سطح له، هزت رأسها فتجللت بشعرها، كله من تحريف اليهود بعض نسخ الزبور؛ فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من النظر إلىٰ ما لا يحل لهم، فكان قصد اليهود بذلك استحلال أعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وكانوا قد عادوا داود عليه الصلاة والسلام لما أخبرهم بصفة محمد ﷺ في ثلاثة مواضع من الزبور، وأنه ينسخ بكتابه جميع الكتب التي قبله. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أنه لا يجوز لواعظ أن يتكلم بخطيئة آدم ولا داود ولا قصة يوسف بحسب ما يتبادر إلىٰ الأذهان علىٰ رؤوس الأشهاد، فإن ذلك يفتح باب انتهاك حرمة الأنبياء، والاستهانة بحقوقهم، وتجرؤ العوام علىٰ الوقوع في المعاصي، والنظر إلىٰ ما لا يحل، ويقولون ولو في نفوسهم: إذا كان الأنبياء وقعوا قبلنا، فأيش قدْرُنا نحن حتىٰ نقدر علىٰ منع نفوسنا عن النظر إلىٰ الأجانب؟!

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لو كانت خطيئة داود عليه الصلاة والسلام النظر إلىٰ امرأة أو رياء، لبلغنا ذلك عن علماء السلف رضي الله عنهم، فلم يبلغنا ذلك عن أحد من الصحابة والتابعين وتابع التابعين والأئمة المجتهدين، وإنما حدث ذلك بعدهم.

قال: والعجب كلُّ العجب ممن ذكر مثل ذلك في تفسير القرآن، وصار من بعده يقولون: هكذا رأيناه في التفسير لفلان، وقد قالوا: لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه، ولا نقل زلات العلماء التي خرجوا بها عن الصراط المستقيم. انتهىٰ.

فإن قال قائل: فإذا كانت خطيئة داود عليه الصلاة والسلام إنما هي رفع بصره إلىٰ السماء غافلًا، فكيف بكىٰ حتىٰ نبت العشب من دموعه؟! فإن مثل ذلك لا يقتضي هذا البكاء العظيم؛ **فالجواب:** أن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجل عن استهانة شيء من الذنوب ولو صغُرت عند غيرهم، وربما تكون الطاعات التي يتقرب بها غيرهم إلىٰ الله تعالىٰ يستغفرون هم منها من حيثُ نقصُها وخطورُ الخواطر فيها، كما قالوا: حسنات

الأبرار سيئات المقربين، فكما يبكي الوليُّ علىٰ وقوعه في الزنا مثلًا السنة وأكثر، كذلك يبكي النبي علىٰ رفع بصره إلىٰ السماء غافلًا.

ثم يا ليت شعري أي ثمرة لمن يخوض في أعراض الأنبياء ويطلب تحقيق الذنوب والخطيئات في حقِّهم إثباتًا للنقائص في جهتهم؟! وأيش يضره إذا ترك الخوض في مثل ذلك؟! فإن الله تعالىٰ لا يسأله عنه يوم القيامة أبدًا، ولا كلَّفه بتحقيق النقائص في حقِّهم في دار الدنيا، وكيف يفتح للعامة باب الخوض في أعراض أكابر حضرته المطهَّرين من سائر الأدناس؟! وإذا كان الله تعالىٰ قد طهَّر أهل بيت النبوة من الأدناس بسابق العناية لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه، إكرامًا لرسول الله ﷺ، مع كونهم غير معصومين، فكيف بإخوانه من الأنبياء والمرسلين المعصومين؟! وإذا كان العلماء أجمعوا علىٰ وجوب الكف عما شجر بين الصحابة وتحريم الخوض فيه، فكيف بالأنبياء والمرسلين؟!

أما يخشىٰ هذا الخائض في أعراض الأنبياء من غضب الله تعالىٰ ومقته، أو أن تمسخ صورته صورة خنزير بسوء أدبه مع خاصته وصدور أهل حضرته؟! بل نقل الثقات أن شخصًا في زمن السلطان محمد بن قلاوون[1] كان يصلي خلف إمام، فلما طأطأ الإمام، مسح علىٰ عَجِيزَته من ورائه وسخر به، فمسخ الله صورته خنزيرًا، وخرج هاربًا إلىٰ البراري حتىٰ لحق بالخنازير. انتهىٰ. فإياك يا أخي ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣) ومما أجبتُ به عن السيد هارون عليه الصلاة والسلام في قوله لأخيه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فإن بعضهم قال: مقام الأنبياء يجل عن أن يراعي أحدهم شماتة عدويه، فإن بعض الأولياء الذين هم أنقص مقامًا من الأنبياء بما لا يقارب يصل إلىٰ مقام لا يشهد فيه إلا الله، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟!

والجواب: أن من يراعي شماتة الأعداء أكمل في المقام ممن لا يراعي الخلق، فإن

---

(١) محمد بن قلاون بن عبد الله الصالحي الملك الناصر ابن المنصور. ولد في صفر سنة ٦٨٤هـ، وحج بعد استقراره في السلطنة ثلاث حجات وكان عظيم المكر طويل الصبر علىٰ ما يكره إذا حاول أمرًا لا يسرع فيه بل يحتاط غاية الاحتياط. توفي: ٧٤١هـ. انظر: البدر الطالع (٢/ ٢٣٦).

من كمال مقام العبد أن يشهد الحقَّ تعالىٰ والخلقَ معًا في آن واحد. وربما كان الجزء البشري الذي يتأثر من شماتة الأعداء يَدِق في الكُمَّل ولا ينقطع بالكلية، كما قاله بعض أهل الكشف، خلافًا لما عليه المحققون، وليس عند غيرهم من ذلك علم، غاية أمر الوليِّ الذي غاب عن شهود الخلق أنه لحقته دهشة من عظمة الحقِّ جلَّ وعلا، فاستولت عليه وأخذت مجامع قلبه، فلم يقدر علىٰ شهود غير الله مع الله، مع أن الغير ثابت موجود في حضرته، ولكن حُجِب هذا العبد عنه، كصاحب المصيبة بموت ولده العزيز يصير يدخل البيت ويخرج وهو آخذ في جهازه، ثم يقول: أين صاحبنا فلان؟! اليوم ما رأيناه! فيقول الناس له: إنه جالس علىٰ بابكم من بكرة النهار. فيقول: والله من شدة الهم ما رأيناه! مع أن حاسة بصره صحيحة وهو يراه، لكن لم يشتغل به، فكأنه مفقود، فتأمل ذلك.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في «الفتوحات المكية» أنه اجتمع في بعض الوقائع بالسيد هارون عليه الصلاة والسلام، قال: فقلتُ له: يا نبي الله، إنك قلتَ لأخيك: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾[الأعراف: ١٥٠]، ومن الأعداء في حضرتكم حتىٰ تشهدوها؟! والواحد منا يصل إلىٰ مقام لا يرىٰ إلا الله، ونحن لا نصلح تلامذة لكم! فقال: صحيح ما قلتَ، ولكن هل زال العالم في نفس الأمر كما هو في شهودكم أم العالم ثابت وحُجِبتُم أنتم عن شهوده؟! فقال: هو ثابت وحُجِبنا نحن عن شهوده، فقال: فقد نقص أحدُكم من العلم بالله تعالىٰ عند شهوده بقدر ما حُجِب عنكم من شهود العالم، فإن العالم كله آيات الله ودلائله. انتهىٰ. قال الشيخ محيي الدين: فقبلتُ رجلَه، وشكرتُ فضلَه علىٰ كونه أطلعني علىٰ ما لم يخطر علىٰ بال، وعلمنا أن مقامات الأنبياء لا ينالها غيرهم[1]. فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٤٤) ومما أجبتُ به عن السيد أيوب عليه الصلاة والسلام في قوله لربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، كيف سأل الإقالة من المرض ولم يصبر وهو نبي مرسل؟! وبعض أولياء هذه الأمة يقول في مرضه: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني؛ فإذا كان هذا عزم وليٍّ، فالأنبياء أولىٰ بقوة العزم.

(١) «الفتوحات» الباب (٣٦٧).

والجواب: أن يقال: إن قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] أكمل من مقام تجلده وتصبره السابق له، لأن العبد كلما ترقىٰ في مراتب الكمال والتقريب من حضرة الله عزَّ وجلَّ كلما ضعفت نفسُه وجسدُه من شدَّة هيبة الله تعالىٰ، حتىٰ يصير يتألم من قرصة برغوث، وربما عجز عن حمل قميصه، كما يعرف ذلك أهل الله عزَّ وجلَّ، بخلاف من بعُد من حضرة الله تعالىٰ من العيَّاق والمجرمين، فإنه يكون كالفراعنة، وربما ضُرِب المقارع والكسَّارات، وقُطِّع لحمُه وسُلِخ جلده ولم يقل آه! وتأمل يا أخي إذا ضُرِب أحد في بيت الوالي ولم يتأوه كيف يقولون الحاضرون له: ويلك! قل: أنا في حسب الله، أو في حسب النبي! فلا يقول ذلك، فيقولون له: أنت حديد! بخلاف العالم أو الصالح إذا ضربوه يصيح من أول ضربة.

فكان من جملة اعتناء الحقِّ تعالىٰ بأيوب عليه الصلاة والسلام أنه حبسه في مقام التجلد والتصبر، حتىٰ كانت الدودة تقع منه فيردها إلىٰ مكانها، لينيله بذلك أجر الصابرين.

ثم إنه نقله من ذلك المقام [إلىٰ](1) الرضا حتىٰ صار يتلذذ بالبلاء ويكره مفارقته، لينيله بذلك أجر الراضين. ثم إنه تعالىٰ ردَّه بعد ذلك إلىٰ مقام التألم بالمرض، لكن مع الصبر والرضا دون التلذذ من غير مقاومة للقهر الإلهيِّ، لينيله الأجر من وجوه عديدة، فإن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فعين يحِس بها التألم، وعين يحِس بها التلذذ، وعين يدفع بها عن نفسه ما يؤذيها، كالتضرع والدعاء وسؤال الإقالة، وعين يسأل بها ربَّه في دوام البلاء، وأنه لا يختار خلاف ما اختار له سيِّدُه، كما هو مقرر بين الصادقين من القوم.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من ابتلاه الله تعالىٰ بمرض ولم يسأل الإقالة منه، فهو ممن يطلب مقاومة القهر الإلهيِّ، [وليس ذلك من أوصاف كمَّل العبيد، ولو رق حجابه لكان سأل الإقالة من أول ما نزل به المرض. وقد أجمع العارفون علىٰ أن شدة الصبر علىٰ الألم من شدة قوة النفس وكِبْرها، فهي تظهر القوة وتقاوم بها القهر الإلهي](2)

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

فلا تسأل الإقالة إلا إذا نزل عليها البلاء فوق طاقتها، فترجع ذليلةً صاغرةً قهرًا عليها، وتلقي سلاحها وإن مَنَّ الله تعالىٰ عليها برقة الحجاب، رجعت ذليلة خاضعة مختارة. وقد سُئل العارف بالله تعالىٰ محمد بن علي الحكيم الترمذي ﷺ عن صفة الخلق، فقال: ضعف ظاهر ودعوىٰ عريضة. انتهىٰ.

فعُلم أن تصبُّر العبد وصبره علىٰ البلاء أكملُ من مقام العوام الذين لا صبر عندهم، وأنقصُ من مقام الراضين بالبلاء المتلذذين به، كما أن مقام الراضين المتألمين بالبلاء أكمل من مقام المتلذذين به، لإعطائهم كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فإن الله تعالىٰ ما ابتلىٰ عبده إلا ليتألم بالبلاء، ويصبر مع الرضا به. فإن رضي به من غير إحساسه بالألم، فقد خرج عن كونه بلاء وصار نعمة، والواجب علىٰ صاحب النعمة الشكر لا الصبر، فكان من كمال أيوب عليه الصلاة والسلام أن قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] كهيئة الشافع عند ربه في ذلك الجزء الذي لا يقدر علىٰ الصبر علىٰ الألم، فضلًا عن الرضا به، فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٤٥) ومما أجبتُ به عنه أيضًا عليه الصلاة والسلام في حثوه الذهب في حجره لما أمطرت السماء جرادًا من ذهب، قال بعضهم: كيف يقع من نبي مرسل أنه يحثو الذهب في حجره الذي هو دنيا، ومعلوم أن ذلك ينافي الزهد فيها، والأنبياء معصومون عن الرغبة في الدنيا، كما أن الأولياء محفوظون من ذلك، بل من شرط الوليِّ إذا رأىٰ الذهب انقبض خاطره منه، فكيف بالنبي؟!

والجواب: أن من كمال العبودية إظهارَ الفاقة والحاجة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ بقرينة قوله في الحديث: «إن الحقَّ تعالىٰ قال له لما حثا الذهب في حجره: يا أيوب، ألم أكن أغنيتُك عن مثل هذا؟! قال: بلىٰ يا رب، ولكن لا غنىٰ لي عن بركتك»[1]. انتهىٰ. فأقرَّه الحقُّ تعالىٰ علىٰ أخذه ذلك الذهب، مع كونه لم يكن شديد الحاجة إليه بحكم العادة، لكونه كان من أوسع الناس مالًا، ولو أنه كان فقيرًا لما توجه إليه عتب من الحقِّ تعالىٰ في ذلك، فكان حثو

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩١) والنسائي (٤٠٩).

السيد أيوب عليه الصلاة والسلام الذهب في ثوبه إظهارًا للحاجة والفاقة إلىٰ فضل ربِّه عزَّ وجلَّ أكمل ممن قنع باليسير من الدنيا، فإن هذا يظهِر قلة الحاجة إلىٰ فضل ربِّه.

وما رد الأكابر الدنيا حين عُرِضَتْ عليهم إلا خوفًا علىٰ قومهم لا علىٰ أنفسهم، فربما اقتدىٰ بهم قومهم في أخذ الدنيا مع حجابهم عن مذهبهم، فيهلكون ولا يعرف أحدهم يتخلص عن محبتها. وقد عرض جبريل بإذن الله عزَّ وجلَّ علىٰ محمد ﷺ أن يجعل له جبال مكة ذهبًا تسير معه حيث سار[1]، فردها ﷺ احتياطًا لأمته وشفقة عليهم، وإلا فاعتقادنا الجازم في حقِّه ﷺ أنه لا يشغله عن الله تعالىٰ شاغل من الكونين.

ويحتمل أن يكون حثو أيوب عليه الصلاة والسلام من الذهب إنما كان علىٰ وجه التبرك به، من حيثُ إنه حديث عهد بتكوين ربه عزَّ وجلَّ كما قال ﷺ في المطر إذا نزل[2].

فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل أيوب عليه الصلاة والسلام علىٰ أنه إنما حثا من الذهب محبةً في الدنيا، فإن ذلك محال في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم. وإذا كان المريد لا يثبت له قدم في طريق القوم إلا حتىٰ يتنزه عن الميل إلىٰ الدنيا وشهواتها، ويتساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حد سواء، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟!

وكان سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: للمريد في محبة الدنيا ثلاثة أحوال: أن يحبها ويحب جمعها عنده بحكم الطبع، ولا ينفقها في مرضات الله تعالىٰ، وهذا مذموم شرعًا. **الثاني**: أن يخرج حبها من قلبه، ولا يصير له ميل إليها، ويتساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حدٍّ سواء، وهذا أكمل من الحال الذي قبله. **الثالث**: أن يحب الدنيا بتحبيب الله عزَّ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا. قلت: لا يا رب ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا - أو قال ثلاثًا أو نحو هذا - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» وأحمد (٢٢١٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩٨) من حديث أنس قال: قال أنس: «أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر. قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه، حتىٰ أصابه من المطر. فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: لأنه حديث عهد بربه تعالىٰ» وأبو داود (٥١٠٠).

وجلَّ لا بحكم الطبع، فيجمعها ويكُف بها نفسه وعياله عن السؤال للناس، وينفق ما زاد عن حاجته في سبيل الله تعالىٰ أولًا فأولًا، بحيث لا يبيت علىٰ دينار ولا درهم إلا لغرضٍ شرعيٍّ، كأن يوفي به دينه، أو ينتظر محتاجًا يدفعه إليه ونحو ذلك، وهذا أكمل من الحالين قبله، لما فيه من الأدب مع الله تعالىٰ من حيثُ إنه جعل حوائج الناس لا تُقضَىٰ في هذه الدار إلا بالذهب والفضة، وغيرهما إنما هو بحكم التبع لهما، فمن لم يرفع قدْر الذهب والفضة علىٰ التراب في الميل إليهما، فقد أخطأ الحكمة الإلهية.

وإيضاح ذلك كما قاله الشيخ محيي الدين في «الفتوحات»: إن الأكابر ما تاجروا أو باعوا واشتروا في الدنيا إلا لغرض صحيح شرعيٍّ، وذلك أنه تعالىٰ ما خاطب بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] إلا أصحاب الأموال، فمن لا مال له من الزهَّاد، فقد حُرِم لذَّة هذا الخطاب، فلذلك سارع الأكابر من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلىٰ التجارة بعد كمالهم، ليفوزوا بلذَّة ذلك الخطاب، وبمجالسة الله عزَّ وجلَّ في أمره لهم بالصدقة والإنفاق في سبيل الله عزَّ وجلَّ[1]. وتأدية الأمور بالأصالة إلا إذا كانت تحجب القلب عن مشاهدة ربه عزَّ وجلَّ . وأما إذا لم تحجب القلب فهي كمال في ا لعبد، كالتزويج فإنه أفضل من العزوبة. ومن قال من العارفين: إن فراغ يد العبد من الدنيا أفضل من أخذها وإنفاقها؛ فإنما ذلك خوفًا علىٰ الأتباع كما مرت الإشارة إليه في ردِّ نبينا محمد ﷺ جبال الذهب والفضة، فإنه إنما ردَّ ذلك خوفًا علىٰ أمته أن يتبعوه في جمع الدنيا، فتتشرب قلوبُهم حبَّها، فلا يقدرون علىٰ الخروج منها، فافهم، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن تعاطي شيء يحجبهم عن مشاهدة ربهم، فلو علم أيوب عليه الصلاة والسلام أن ما حثاه في ثوبه من الذهب يحجبه عن ربه عزَّ وجلَّ ما أخذه، كما سيأتي بسطه في مبحث الجواب عن سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥].

---

(١) «الفتوحات» الباب (٥٦٠).

[توجيه حثو العباس المال في حجره ونظر النبي إليه شزرًا]

ونظير ما وقع من حثو أيوب عليه الصلاة والسلام الذهب في حجره ما ورد «أن رسول الله ﷺ قسَّم مرةً ذهبًا، فقال لعمه العباس: يا عم خذ لك من هذا الذهب ما شئت. فحثا في ردائه شيئًا لا يستطيع حمله، فصار يعالج نفسه في حمله فلا يقدر على ذلك، فصار النبي ﷺ ينظر إلى العباس شزرًا»[1] الحديث، فإن الواجب حمل العبَّاس رضي الله عنه على أنه إنما فعل ذلك إظهارًا لكثرة الفاقة والحاجة إلى فضل الله تعالى، لا محبة في الدنيا من حيثُ هي، ولا يجوز حمل العبَّاس على الوجه المذموم، لأنه من كبار الصحابة الذين هم أعلى مقامًا من سائر الأولياء. فافهم.

فإن قال قائل: فما تقولون في قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؟ فالجواب كما قاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي: إن معنى الآية ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي للآخرة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ، فالكامل يحب الدنيا لينفقها في مرضات الله عزَّ وجلَّ، ويحب الآخرة لكونها دارًا يشاهدون ربهم فيها. هذا مطلوب الأكابر، وأما الأكل والشرب والجماع وغيرها، فليس ذلك مطلوبهم. انتهى.

وأما نظره ﷺ للعباس رضي الله عنه شزرًا، فإنما ذلك تقبيح للدنيا في أعين المحجوبين من الأعراب الحاضرين، أو ليُنقَل ذلك عنه ﷺ لمن بعده من أمته حتى لا يأخذوا من الدنيا إلا قدْر حاجتهم، ويدَعوا الباقي للفقراء والمساكين مثلًا، فافهم، فهو ﷺ راضٍ عن العباس في أخذه ذلك الذهب الكثير، لأن ذلك لا يشغل مثلَ العباس رضي الله عنه عن ربه عزَّ وجلَّ، حتى لو قُدِّر أنه لم يكن هناك إلا أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لكان يُظهِر للعباس السرورَ بفعله لمعرفتهما بمشاهدة الأكابر، بخلاف الأعراب. انتهى.

[وجوب استثناء الأنبياء عليهم السلام مما ورد بنقصان بني آدم]

قلت: ومما يجب استثناءُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قوله تعالى فيما نُسِخَت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢١)، والبيهقي في «السنن» (١٣٠٢٨).

تلاوتُه: «لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغىٰ ثالثًا، ولو أن له ثالثًا لابتغىٰ رابعًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله علىٰ من تاب»[1]، فإنه يجب حمل ابن آدم فيه علىٰ غير الأنبياء، وعلىٰ غير من حفظه الله من الأولياء، فإنه لا يصح في حقِّهم طلبُ الزيادة من الدنيا إلا بتأويل كما مر بيانه قريبًا، بأن يريدها للإنفاق في سبيل الله مثلًا، فإن الإجماع قد انعقد علىٰ زهد الأنبياء في الدنيا، فكيف يبتغي أحدهم الزيادة من الدنيا لغير مرضاة الله عزَّ وجلَّ؟! وإيضاح ذلك أن الأَدَم في اللغة المشتق منه اسم «آدم» عليه الصلاة والسلام هو ظاهر الجلد، ومن لازمه غالبًا السمرة، فكأنه تعالىٰ يقول: لو أن لبني آدم الراغبين في الدنيا، القاصرين نظرهم علىٰ شهود زهرتها ونعيمها دون الآخرة واديين من ذهب، لابتغوا ثالثًا إلىٰ آخره. أما من خرق ظاهر الجلد ودخل إلىٰ الباطن من أبناء الآخرة، فلا يبتغي زيادة من الدنيا إلا إن رأىٰ مرضاة الحقِّ فيها لرفع حجابه.

وقد خرج السيد إبراهيم بن أدهم وأضرابه من الدنيا اختيارًا، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟! فكلام الله تعالىٰ في غاية البلاغة والتحقيق، وما من عام إلا وهو يقبل التخصيص، إلا إن أجمع العلماء علىٰ عدم تخصيصه وعدم إخراجه عن عمومه، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والله أعلم.

(٤٦) ومما أجبتُ به عن السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، **قال بعضهم: كيف صح من نبي مرسل طلبُ ملك لا ينبغي لأحد من بعده؟! ومعلوم أن العبد لا يملك مع سيِّده شيئًا، فهو يأكل ويشرب ويلبس من مال سيِّده، وليس له ملك لشيء من ذلك في الدارين، وكيف يصح له طلب التحجير علىٰ الحقِّ جلَّ وعلا بأنه لا يعطي ذلك المُلْك لأحد من بعده؟! ومن لازم مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الزهدُ في الدنيا، وهذا السؤال ما هو لسان الزاهدين، فكيف الحال؟**

والجواب: أنه لا يلزم من طلبه المذكور شيء مما ذكره المعترض لا ملك ولا تحجير

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٨).

ولا محبة للدنيا؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من مثل ذلك. وسداهم ولحمتهم أدب مع الله تعالىٰ، ومعرفة أسمائه وصفاته، فلا يقعون في شيء يناقض العصمة.

وإيضاح ذلك أنه ثم مقام في النبوة يقتضي طلب هذا المُلك، كما أنه ثم مقام في النبوة يطلب من العبد أن يطلب رؤية الباري جلَّ وعلَّا في هذه الدار، ليرتِّب الله تعالىٰ بسبب ذلك الأسباب علىٰ مسبَّباتها، فمنهم من يُمنَع ويدخر الله تعالىٰ له أفضل مما طلب.

وربما أطلع الله تعالىٰ سليمان عليه الصلاة والسلام من طريق كشفه علىٰ أن جميع ما طلبه قد قسمه الله تعالىٰ له، فلا يصح أن يكون لأحد بعده، فطلب ذلك من باب إظهار الفاقة والحاجة إلىٰ فضل الله تعالىٰ الذي تفضل به عليه، وعيَّنه له، ولم يجعله لأحد بعده.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إنما طلب السيد سليمان عليه الصلاة والسلام الملك إظهارًا لكثرة الحاجة والفاقة، كأنه عليه الصلاة والسلام يقول: أنا محتاج إليك يا رب بحيث تَعُمُّ حاجتي كلَّ ما طلبتُ من الملك. ومعلوم أنه كلما عظُمت حاجة العبد وفاقته إلىٰ الله تعالىٰ، كلما كثُر شكره. وإذا كثر شكره، ازداد مقامه عند الله رفعة وتقريبًا من حضرته تعالىٰ، فما ازداد عليه الصلاة والسلام بسؤاله المُلْك إلا فقرًا إلىٰ ربِّه، وذلك مطلوب الأكابر، إذ من المحال أن يسأل نبي مرسلٌ من ربه عزَّ وجلَّ ما يزداد به حجابًا عنه، وينقص به مقامه، فإنه سَفَهٌ يجب تنزيهُ الأنبياء عنه.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر ﵁ يقول: إنما طلب سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾[ص:٣٥] ليصح له الزهد فيه علىٰ الكشف والمعاينة من حيث إن ذلك أفضل ممن يزهد في الدنيا بحكم الفرض والتقدير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: ما طلب أحد من الأكابر من ربه كثرة الرزق إلا إظهارًا للفاقة والحاجة، أو لينفق منه علىٰ الفقراء والمساكين ويزداد به شكرًا، وكأنه يقول: يا ربِّ، أوسع عليَّ الرزق، لازداد لك به شكرًا، فإني محتاج إلىٰ جميع ما في الوجود، ولك الشكر علىٰ كلِّ ذرة في الوجود. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﵀ يقول: كلام السيِّد سليمان عليه الصلاة والسلام في

غاية الأدب والصدق، لأنه نكَّر قولَه ﴿مُلْكًا﴾ فلم يخص شيئًا في طلبه، وقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] أي لأن ما تعطيه يا رب لعبد ما هو عين ما تعطيه لعبد آخر، أي لأنه لابد في ذلك من زيادة أو نقص، ولو في كبر الجِرْم وصغره، وطول عمره وقصره، حتىٰ لو سقطت ورقة من شجرة أو شعرة من جسد مملوك له، خرج عن المثلية، إذ المثلية في الوجود منقولة غير معقولة، ولو كانت المثلية معقولة ما تميز شيء في الوجود عن شيء، ولكان عين عمر عين زيد. انتهىٰ.

وكان سيدي علي المرصفي ﵀ يقول: ما قال سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥] إلا بعد أن كُشِفَ له أن تسخير الريح والشياطين لا يقع لأحد من الأنبياء بعده، فما سأله إلا عن أمر محقق يكون له دون غيره من باب الفضل والمنة، إذ الأنبياء لا تجهل أن أحدًا لا يملك مع الله شيئًا في الدارين. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي ﵀ يقول: لا فرق بين قول سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥]، وبين قوله: يا ربِّ، أعطني رغيفًا؛ فإن الدنيا كلَّها لا تزن عند الله جناح بعوضة، وإن وقع أن أحدًا من الأولياء عظَّمها، فإنما ذلك من حيثُ كونُها نعمة عليه من الله عزَّ وجلَّ، وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام: يا موسىٰ، إذا جاءتك باقلاية مسوَّسة، فخذها بالتعظيم واشكرني عليها، فإني أنا مهديها إليك. انتهىٰ.

وبلغنا أن النملة التي كلمت سليمان قالت له: وما ذلك الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك؟! فقال: الخاتم. فقالت: أفٍ لملك يحويه خاتم. انتهىٰ.

فعُلِمَ من جميع ما قررناه أنه لا يجوز نسبة السيد سليمان إلىٰ حبِّ الدنيا والملك لذاتهما، لأن الأنبياء معصومون عن محبة ما يحجبهم عن ربهم عزَّ وجلَّ. ومن شأن الكُمَّل أن أحدهم كلما ازداد رزقًا، كلما ازداد فاقة وفقرًا إلىٰ ربه عزَّ وجلَّ، ومثل ذلك محمود شرعًا.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧] فلا ينافي ما ذكرناه،

لأن الكامل لم يرَ نفسه استغنىٰ إذا وسَّع الله عليه الدنيا، بل يزداد فقرًا وحاجة إليه، وفي ذلك كماله، والله أعلم.

(٤٧) ومما أجبتُ به عنه أيضًا في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص: ٣٢ - ٣٣] فَهِمَ بعضُهم أنه عليه الصلاة والسلام اشتغل بالخيل حين عُرِضَت عليه عن صلاة العصر حتىٰ توارت الشمس بالحجاب -أي غربت- فقال: ردُّوا الخيل عليَّ. فلما ردوها عليه، قطع أعناقها وسوقها، لكونها شغلته عن صلاته، فقال من لا يعرف مقام السيد سليمان: كيف شغلته الخيل عن صلاته مع أنه نبي مرسل، والوليُّ من هذه الأمة لو كان الوجود كلُّه في يده ما شغله عن ربه؟! وكيف ساغ له إتلاف الخيل، مع أنها لا قصد لها في اشتغاله بها عن ربه؟! وكيف وقع في إتلاف المال وذلك معدود من السَّفَه؟! ومعلوم أن الأنبياء منزهون عن مثل ذلك.

والجواب: أن السيد سليمان عما فهمه هذا الشخص بمعزل، فإن المراد بقوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾[ص: ٣٢] أي أحببت الخيل حين ذكرتني بربي، فإنها من نعمه الجديدة التي وردت عليَّ، فأحببتها من حيثُ كونُها مذكِّرةً لفضل ربي عليَّ لا لذاتها، فلما توارت عن سليمان بالجدار، قال: ردُّوها عليَّ ثانيًا، لازداد بها ذكرًا لنعمة الله، وشكرًا له علىٰ المشاهدة العينية -بالعين المهملة- دون الغيبية -بالمعجمة- فلما ردُّوها عليه، طفق يتمسح بأعناقها وسوقها، أي يمسحها بيده ويمسح بها جسده علىٰ وجه التبرك بها، فافهم. وهذا نظير اغتسال نبينا محمد ﷺ من ماء المطر حين نزل، وقال: «إنه حديث عهد بربه»[1] أي بتكوينه وإنزاله. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من عادة العبيد مع سيِّدهم إذا أنعم عليهم بنعمة أن يتمسحوا بها تبركًا وإجلالًا لنعمة ربهم، فسقط بذلك قول من قال: إن إتلاف الخيل سفه لا يليق بالعقلاء، فكيف وقع فيه نبي مرسل؟!

ولم يحتج من حمل سليمان علىٰ أنه مسحها تبركًا إلىٰ قوله: إن ذلك من باب تعارض

---

(١) تقدم تخريجه.

مفسدتين، وأن سليمان ارتكب أخفهما وهو إتلاف الدنيا لمصلحة الآخرة، فإن حمل السيد سليمان علىٰ مثل ذلك لا يليق بمقامه، لأنه مقام دنيٌّ بالنسبة لمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإذا كان الوليُّ لا يشغله شيء من الكونين عن الله تعالىٰ، فكيف يشغل الأنبياء؟! هذا أبعد البعيد!

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الجواب عن أحد من الأنبياء وأنت غير وارث لمقامهم، فإن خطأك أكثر من إصابتك. وإن كنت ولابدَّ مجيبًا عنهم، فاسلك طريق القوم علىٰ يد شيخ صادق، لتصير تشم روائح مقامات الأنبياء بحكم الإرث للأولياء، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨) ومما أجبتُ به عن السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] **كيف ساغ له أن يعبر بالنفس في جناب الحقِّ مع أنه نبي مرسل، ويصف الله تعالىٰ بما لم يطلقه علىٰ نفسه؟**

والجواب: أنه يُحتمَل أنه ورد عليه من الله وحي بذلك، أو يكون مراده إضافة خلق نفسه إلىٰ الله تعالىٰ في الشقين، وإلىٰ نفسه من حيثُ النسبةُ فقط، أي تعلم ما في نفسي التي هي لك بحكم الخلق والملك، ولا أعلم ما في نفسك التي هي ملكك ونفختها في جسدي، فافهم.

(٤٩) ومما أجبتُ به عن سيِّدنا ومولانا محمد سيِّد الأولين والآخرين في قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] **فَهِم قوم من ذلك أنه عتاب له ﷺ، وقالوا: العفو لا يكون إلا عن ذنب.**

والجواب: أن هذه الآية بشرىٰ خاصة ليس فيها عتاب، وإنما ذلك استفهام لمن أنصف وأعطىٰ نبي الله حقَّه.

وقد سُئل عن ذلك الشيخ محيي الدين، فقال: هو سؤال استفهام عن العلة لا سؤال توبيخ، لأن العفو قد تقدَّمه. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾ [التوبة: ٤٣] مثل قوله تعالىٰ لعيسىٰ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، كأنه تعالىٰ يقول لمحمد ﷺ: أفعلت ذلك ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣]؟! فإما أن

يقول عند ذلك: نعم أو لا، فإن العفو والتوبيخ لا يجتمعان، لاسيما وقد تقدم العفو في الذكر، فإن من وبَّخ فما عفا، لأن التوبيخ مؤاخذة بلا شك، وهو تعالىٰ قد عفا عنه. ثم لما كان هذا اللفظ يفهم منه في اللسان التوبيخ، جاء لأجل ذلك بالعفو ابتداءً، لينبه العارف بمواقع الخطاب أنه تعالىٰ ما أراد التوبيخ الذي ظنه من لا علم له بالحقائق[1]. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠) ومما أجبتُ به عنه ﷺ أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢] إلىٰ آخر النسق: اعلم يا أخي أن الله تعالىٰ يغار لعبده المنكسر القلب أكثر مما يغار لجنابه الإلهيّ، فإذا حضر عندك مِلك مطاع نافذ الأمر زائرًا، ثم جاءك فقير ذليل زائرًا، فأقبل علىٰ الفقير أكثر من الملك، إلا إن كنت ممن تخاف سطوته، فإنك حينئذ لم تصل لذلك المقام، ولا تُعرِض عن الفقير حتىٰ يفرغ من حاجته التي جاءك لأجلها، وذلك لأن تجلي الحقِّ تعالىٰ في الحضور مع ذلك الفقير أعظمُ من تجليه في الحضور مع ذلك السلطان الذي صورته صورة المنازع لله تعالىٰ في الكبرياء والعظمة، «ومن نازع الحقَّ تعالىٰ فيهما قصمه»[2] كما قال تعالىٰ في الحديث القدسي، فإن تجلي الحقِّ تعالىٰ عند المِلك المطاع في هذه الدار خفيٌّ جدًّا، لأنه تجلٍّ في غير موطنه اللائق به، لما فيه من التقييد الذي لا يليق بجناب الله تعالىٰ، وما عاتب الله تعالىٰ نبيه ﷺ بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] إلىٰ آخره إلا لكون ذلك الأعمىٰ فقيرًا منكسر القلب، فغار تعالىٰ لمقام العبودية والفقر أن ينهضم لأجل صفة عزٍّ أو قهرٍ وُجِدَت في غير محلها، فانظر غيرةَ الله تعالىٰ لعبده الفقير المنكسر! وفي ذلك شرف لرسول الله ﷺ، لاعتناء الحقِّ تعالىٰ بتربيته، وإن كان مشهده ﷺ تعظيم صفات الله تعالىٰ حيث ظهرت، إذ الكُمَّل من أهل الله تعالىٰ من أدبهم أن يقوموا بواجب الأدب من الإجلال والتعظيم لنعوت الله عزَّ وجلَّ

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٥٥٨) «حضرة البصر».

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة قالا: «قال رسول الله ﷺ: العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته» وأبو داود (٤٠٩٠).

حيث ظهرت، وإن وقع أن أحدًا منهم عُوتِب في ذلك، فإنما ذلك العتاب خاص بحال دون حال، فلا يطرد.

ثم إن عوتب ثانيًا في ذلك الحال كان كالأول. وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ ما عاتب نبيه ﷺ في إقباله علىٰ الأغنياء إلا في حال حضور الفقراء معهم، ولو أن الغني جاء وحده، لكان من الأدب معه الإقبال عليه، كما أشار إليه حديث: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[1].

[دقيقة: الكامل يرى فقر الملوك أكثر من فقر الفقراء]

وهنا دقيقة، وهو أن الكامل ينظر فقر الملوك إلىٰ الله وإلىٰ الدنيا أكثرَ من فقر عموم الفقراء من حيثُ احتياجُ الملِك إلىٰ كثرة الثياب والخدم والطعام والنفقة علىٰ الجند، فإذا نظر الكامل إلىٰ الملِك، وجده أشدَّ فقرًا، فكان أولىٰ بالإقبال عليه. وأيضًا فإن الملك ما زار الفقير حتىٰ خلع كبرياءه وعظمته قبل أن يدخل، فما لقي الفقيرَ إلا وهو فقير، ولو أنه وقف مع رؤية كبريائه وعظمته ما زار الفقير، بل كان يرسل إليه إن احتاج إليه، فأنزل يا أخي الملك منزلته، تكن حكيم الزمان. فعُلِمَ أن باجتماع الأغنياء والفقراء حصل العتب لا بالانفراد.

[سبب تصديه ﷺ لأغنياء قريش]

وقد سُئل الشيخ محيي الدين عن قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥ - ٦]، فقال: اعلم أن الغنىٰ صفة ذاتية للحقِّ جلَّ وعلا، فإنه هو الغني الحميد، أي المستحق لأن يُثنَىٰ عليه بهذه الصفة. وكان مشهد رسول الله ﷺ حين عاتبه ربه إنما هو الصفة الإلهية التي هي الغنىٰ علىٰ الإطلاق، فلهذا تصدَّىٰ رسول الله ﷺ لأكابر قريش، لظهور هذه الصفة فيهم دون الفقراء، فإنها تعطي بذاتها الشرف والرفعة في ذلك الوقت الذي تصدَّىٰ فيه لهم، فكان قصده ﷺ بإقباله علىٰ الأغنياء إنما هو تعليم أمته أن يتصدوا لمن اتصف بصفة الغنىٰ من الخلق، لكونها من صفات الحقِّ تعالىٰ لا لعلة أخرىٰ. ثم إذا رسخوا في هذه المقام أُمِروا بالترقي إلىٰ عدم التخصيص من حيثُ إن صفات الحقِّ كلِّها

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢) والبيهقي في «السنن» (١٦٦٨٦) والطبراني في «الصغير» (٧٩٣).

من جملة شعائر الله تعالىٰ، ويصير أحدهم يغار علىٰ هضم جناب المنكسرة قلوبهم أيضًا من حيث إن الله تعالىٰ أخبرنا أنه عندهم[١].

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إنما تصدَّىٰ رسول الله ﷺ لأغنياء قريش لأنه داعٍ إلىٰ الهدىٰ، فرأىٰ أن الناس كلَّها تبع للأغنياء والرؤساء، فإذا أسلم الغني أو الرئيس، أسلم بإسلامه خلق كثير. وكان له ﷺ علىٰ مثل هذا حرص عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكان في عتاب رسول الله ﷺ مع هذا المشهد تعليم لنا وتأديب، فإن الإنسان محل الغفلات، وهو فقير بالذات، وغناه عرضي، لأنه ما استغنىٰ إلا بغيره، كما يشهد لذلك التعبير بـ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾ بسين الطلب، فلم يقل: «أما من هو غني» لأن العبد فقير علىٰ الحقيقة لما استغنىٰ به، فكان من مكارم أخلاق رسول الله ﷺ إقباله علىٰ الفقراء وإعراضه عن الأغنياء علىٰ ما قررناه آنفًا.

ولا يجوز حمل أحد من الأكابر فضلًا عن سيد المرسلين أنه يقبل علىٰ غني لأجل غناه، لأن الأنبياء لا يجوز في حقِّهم الطمع في مخلوق، وإنما يطلبون حاجتهم من الله، ويرون الأغنياء والأمراء أبوابًا من أبواب الله التي جعلها يخرج منها حوائج الخلق عادة. وفي القرآن العظيم: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال العلماء: والحكمة هي غنىٰ الداعي عن مال[٢] المدعوين، والموعظة الحسنة هي تمهيد بساط للمدعوين يريهم الداعي فيه ما لهم في ذلك الفعل من الحظ والمصلحة في الدنيا والآخرة، حتىٰ يكون أحدهم هو المبادر لفعل ما يأمره به الداعي. وأما دعاء الناس بغير تمهيد بساط، فلا يكاد أحد منهم يجيب الداعي، لحجابهم عن نفع ما يُدْعَون إليه. انتهىٰ، فاعلم ذلك فإنه نفيس.

(٥١) ومما أجبتُ به عنه ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]،

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (١٦٣).

(٢) بالأصلين: حال، والمثبت من «الدرر واللمع» للمؤلف، وهو الصواب.

قال قائل: إن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس عقلًا ومعرفةً بأمور الدنيا والآخرة، فكيف يحتاج إلىٰ مشورة من هو دونه؟!

والجواب: أنه لا إشكال في ذلك، لأن المشاورة ما شُرعَت لكونهم أعقل منه ﷺ، وإنما ذلك لكون الحقِّ تعالىٰ له في كلِّ موجود وجه خاص لا يكون لغيره، فقد يلقي الله تعالىٰ إلىٰ ذلك الشخص من الوجه الخاص ما لم يلقِه إلىٰ أحد من خواص عباده، بدليل قصة الخضر مع موسىٰ عليه الصلاة والسلام، فإن الله تعالىٰ زكَّاه عند موسىٰ بأنه أعلم. ومعلوم أنه ما[1] هو أعلم من موسىٰ إلا من جهة الوجه الخاص الذي بينه وبين ربه عزَّ وجلَّ. أما من جهة علم التشريع فما ثم أعلم به من الرسول الذي جاء به، فما عتبه الله تعالىٰ إلا من جهة إطلاقه في محل التفصيل، فإن الأنبياء ما تعودوا أخذ العلم المتعلِّق بالتشريع من الله إلا بواسطة ملَك يأتيهم به عن الله، غير ذلك لا يعرفون، فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٥٩) ومما أجبتُ به من يتوهم من قوله: «كما صليت علىٰ إبراهيم»[2] أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أعلىٰ في مقام الصلاة عليه من محمد ﷺ.

والجواب: أن للناس في ذلك كلامًا كثيرًا، وأحسن ما اطَّلعنا عليه من الأجوبة أن ذلك لا يقتضي تفضيل إبراهيم عليه، لأنه ﷺ كان معلِّمًا للصحابة كيف يصلون عليه حين سألوه ذلك، فما وسعه إلا التواضع مع أبيه الخليل، فهو أفضل خلق الله علىٰ الإطلاق، كما صرَّح به ﷺ في قوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[3] انتهىٰ.

وإنما خص السيادة بيوم القيامة مبالغةً في السيادة، لكون الخلق كلِّهم يكونون حاضرين في ذلك الموقف علىٰ وجه الأرض، بخلاف [غير][4] يوم القيامة. وإنما خص

---

(١) بالأصلين: إنما.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٥).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (٢٢٧٨).

(٤) زيادة ضرورية من عندنا، لاستقامة المعنىٰ.

أولاد آدم في الحديث لكون النوع البشري أعلىٰ الأنواع، فتكون سيادته علىٰ غيرهم من باب أولىٰ. وإيضاح ما ذكرناه من الجواب أن من شأن العبد إذا قالوا له: مرادنا أن تعلِّمنا ألفاظًا مُفَخَمَةً نفخمُك بها، فلا يسعه إلا التواضع أو السكوت. وقد ورد في بعض طرق حديث التشهد أنهم لما قالوا: «يا رسول الله، قد عرفنا السلام عليك، فكيف نصلي عليك؟ تمعر وجهه ﷺ حتىٰ تمنىٰ السائل أنه لم يكن يسأله عن ذلك»[1]. وهذا جواب حسن فتح الله تعالىٰ به عليَّ لا أعلم أحدًا نبَّه عليه قبلي.

وقد انعقد إجماع المسلمين كما نقله شيخ الإسلام الصفدي[2] رحمه الله علىٰ أنه ليس بعد الله تعالىٰ أعلىٰ مقامًا من محمد ﷺ علىٰ الإطلاق، لا روحًا ولا جسمًا.

[استعداد الابن أقوى من استعداد أبيه]

فإن قلتَ: فعلىٰ هذا يكون استعداد الابن أقوىٰ من استعداد أبيه؟ **فالجواب:** والأمر كذلك، صرَّح به الشيخ محيي الدين في الباب الثاني والسبعين من «الفتوحات» وعبارته: اعلم أن استعداد الابن دائمًا أقوىٰ من استعداد أبويه، لأنه خُلِقَ من امتزاج الأبوين لا من واحد منهما، بل من المجموع حسًّا ووهمًا، فجمع استعداد الاثنين. ومن هنا كان كمال الابن الكامل أعظم من كمال أبيه، كما قالوا ذلك في حقِّ محمد ﷺ، فإنه أكمل من أبيه آدم ومن أبيه إبراهيم بإجماع، فعُلِمَ أنه ليس لكلِّ ابن هذا الكمال إلا إن كان مستقيمًا علىٰ شرع ربه.

وقال في الباب السادس والأربعين وثلاثمئة: اعلم أن محمدًا ﷺ هو روح العالم كلِّه، فروحه هي نفس العالم الناطق السعيد كلِّه، وحال العالم قبل ظهوره حال الجسد المسوَّىٰ، وحاله -أعني العالم- بعد موته ﷺ بمنزلة الجسد النائم، وحال العالم حين يُبعَث يوم القيامة بمنزلة الانتباه من النوم، فالعالم كله نائم من حين مات رسول الله ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) خليل بن أيبك بن عبد الله، الأديب صلاح الدين الصفدي، أبو الصفاء. ولد في صفد (بفلسطين) وإليها نسبته. وتعلم في دمشق وتعانىٰ صناعة الرسم فمهر فيها، ثم حبب إليه الأدب فولع به، من مؤلفاته: «الوافي بالوفيات»، و«نكت الهميان» ترجم به فضلاء العميان. توفي: ٧٦٤ هـ. الدرر الكامنة (٢/ ٢٠٧) والأعلام (٢/ ٣١٥).

وقال في الباب الخامس من «الفتوحات»: إنما كان محمد ﷺ أفضل من أبيه آدم وأبيه إبراهيم، لأنه كان حاملًا لمعاني الأسماء التي كانت مع آدم، ولم يكن مع آدم إلا ألفاظها. وأما الخِلَّة فكانت مع إبراهيم بحكم النيابة لمحمد ﷺ.

فإن قيل: قد ورد في الحديث: «لا تفضلوني»[1]؛ **فالجواب**: نحن ما فضلناه من ذوات نفوسنا، وإنما الله تعالىٰ هو الذي فضَّله، وجعل جميع الأنبياء نوَّابًا له من آدم إلىٰ عيسىٰ، كما أبان عن ذلك حديث: «لو كان موسىٰ وعيسىٰ حيين ما وسعهما إلا اتباعي»[2]. ومما يدل علىٰ أن عيسىٰ كان نائبًا لمحمد ﷺ فيما بيده من الشريعة كونُه لا يحكم إذا نزل إلا بشريعة محمد. ولو أنه كان له حقيقة لحكم به إذا نزل، فجميع الأنبياء كأمراء العساكر، ومحمد ﷺ هو الملك. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين»[3]، ومعلوم أن النبوة لا تكون إلا بمعرفة الشرع المقرر عليه من عند الله. انتهىٰ.

وقال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين وثلاثمئة من «الفتوحات»: قد أنزل الله تعالىٰ محمدًا أربع منازل لم ينزلها غيره من الأنبياء:

الأول: أنه اختصه بالعروج وأعطاه ضروب الوحي كلها، وإنزاله علىٰ القلب والأذن.

الثاني: أعطاه علم الأحوال كلِّها، وذلك لعموم رسالته إلىٰ جميع الناس، فلا بد أن يكون علم رسالته يعم أحوالَهم كلَّها.

الثالث: أنه أعطاه علم إحياء الأموات معنىٰ وحسًّا، فأحيا أمته حسًّا بما قصَّ عليهم من أخبار الرسل، وأحياهم معنًىٰ بالعلوم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم (٤٢٠٩) من حديث ميسرة الفخر قال: «قلت لرسول الله ﷺ: متىٰ كنت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد»، وأحمد (٢٠٥٩٦) والطبراني في «الكبير» (٨٣٣) وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٨٣٧) وأما الذي علىٰ الألسنة بلفظ: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين» فلم نقف عليه بهذا اللفظ، فضلًا عن زيادة: «وكنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين» وقد قال شيخنا في بعض الأجوبة عن الزيادة: إنها ضعيفة والذي قبلها قوي. المقاصد الحسنة (ص: ٥٢١).

الرابع: أنه أعطاه علم الشرائع المتقدمة كلِّها وزيادة، نحو حديث: «أُعطيت أشياء لم يعطهن أحدٌ قبلي»[1]. ولما كان شرع الأنبياء قبله هو شرعه، قال الله تعالىٰ له: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي لا بهم، وهداهم هو هداك بالأصالة. وسيأتي الجواب عن هذا السؤال أيضًا في هذا المبحث مع زيادة علىٰ ما هنا، والله أعلم.

(٥٣) ومما أجبتُ به عن سيدنا محمد أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]: قد تقدم في الأجوبة عن الأنبياء عمومًا أن أحوال الأنبياء لا ذوق لنا فيها، سواء الطاعات وغيرها، فلا يجوز لنا الخوض فيها إلا بحسب ما ورد لا غير علىٰ علم الله تعالىٰ فيه، ولا يجوز لنا قياس حالهم علىٰ حالنا. وكلُّ من ذاق شيئًا من آداب الأولياء فضلًا عن الأنبياء، خاف علىٰ هضم شيء من مقامات الأنبياء. وإن لم يتعقلها في حقِّهم، وجب عليه تأويلها، كما يجب تأويل آيات الصفات في مذهب الخلف ﷺ، فكما لا يجوز لنا حمل آيات الصفات علىٰ المعاني التي يتبادر إليها الأذهان علىٰ حدِّ ما نتعقله نحن، كذلك لا يجوز حمل ذنوب الأنبياء علىٰ حد ما نتعقله نحن من الذنوب، أين مقام الغارق في الخطايا والذنوب ليلًا ونهارًا من المعصومين؟!

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﵀ يقول: ذنوب الأنبياء كلُّها صورية، بيَّنوا بها صورة ذنوب قومهم، وكيفية الخروج عنها بالتوبة، فهم مثابون عليها ثواب الواجبات، لوجوب البيان عنهم. وقد صرَّح العلماء بذلك في المكروه إذا فعله الشارع بيانًا للجواز. انتهىٰ. هذا بحسب الإجمال.

وأما بحسب الإيضاح والتفصيل، فاعلم يا أخي أن أحسن ما رأيتُ في كلام العلماء من الأجوبة عن رسول الله ﷺ عما توهمه بعضهم من معنىٰ الذنب أن المراد ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك قبل النبوة، وما تأخر أي بعدها، أو أن المراد ما وقع وما لم يقع علىٰ طريق الوعد بأنه مغفور له، أو أن المراد بما تأخر ما لم يعلمه، وبه قال سفيان الثوري، أو أن المراد بالمتقدِم والمتأخِر معًا ما كان قبل النبوة، أو أن ذلك جاء علىٰ وجه التأكيد

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري بلفظ «خمسًا» (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

للمبالغة، كما تقول: أحسن لمن عرفك ولمن لم يعرفك، أو أن المراد بـ ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ ذنب أبيك آدم ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ من ذنوب أمتك، أو أن المراد لو كان لك ذنب قديم أو حديث، لغفرته لك علىٰ سبيل الفرض والتقدير. انتهىٰ ما رأيته من كلام المفسرين.

[جواب الإمام الشعرانيِّ عن هذه المسألة على حسب إرثه منه ﷺ]

وأما جوابي أنا عن نبيي بحسب فهمي، وما عندي من رائحة الإرث من مقامه ﷺ فهو أن المراد بذنبه ﷺ ما لزم من رسالته ﷺ من تعريض من خالف ما جاء به من الهدىٰ نفسَه للعذاب من الكفار وعصاة المسلمين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] فأضيف إليه ذنوب عصاة أمته من حيثُ تشريعُه ﷺ لأحكامها، فإنه لولا تبيينه ﷺ للحرام والمكروه لأمته، ما عُذِّب أحد بفعل حرام، لجهله بأن الله تعالىٰ حَرمه فكان كالمباح، والمباح لا يُعذَّب فاعلُه بإجماع. ولما كان من مرتبة الأكابر وكثرة شفقتهم علىٰ قومهم أن يؤاخذوا نفوسهم بما كانوا سببًا فيه لعذاب قومهم وإن لم يقصدوا ذلك، طمأن الله عزَّ وجلَّ قلب نبيه ﷺ، وأخبره بأنه تعالىٰ لا يؤاخذه من حيثُ كونُه كان سببًا في تعذيب من خالفه من أمته بلازم رسالته، وأن غاية ما وقع منه ﷺ أنه مبيِّنٌ ومظهِرٌ لمن شقي في علم الله تعالىٰ لا غير، وليس في يده ﷺ من إشقائهم شيء، فلما تأمل ﷺ فيما لزم من رسالته من تعذيب من خالفها ممن حَقَّ عليه التعذيب من أمته، صار يستغفر من ذلك، ويخاف من المؤاخذة به. ولعلَّ هذا الذنب هو المراد أيضًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] أي ذنبك من حيثُ لازمُ رسالتك، وذنوبُ المؤمنين والمؤمنات مطلقًا، أو المراد به الداعون إلىٰ الله، أي استغفر لهم من حيثُ لازمُ دعائهم الناس إلىٰ شرعك بحكم النيابة بعدك. ومعلوم عند كلِّ عاقل أن الله لا يؤاخذهم بلازم دعائهم إلىٰ الخير، كما لا يؤاخذك بذلك.

وفي ذلك سرٌّ خفيٌّ يعرفه من فهم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، فإنه شمل الأكابر من الناس والأصاغر، غيرةً إلهيةً أن يخرج أحد عن الفقر إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ الغنىٰ المطلق. وانظر كيف أوقف سبحانه وتعالىٰ إعطاء الوسيلة

لسيد الأولين والآخرين على سؤال أمته له ذلك يتضح لك المعنى.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الغفر على نوعين: الحيلولة بين العبد والذنب، والمسامحة به بعد الوقوع، فاللائق بالأنبياء الأول، وبغيرهم الثاني.

وسمعتُه مرارًا يقول: من مقام كُمَّل الأولياء فضلًا عن الأنبياء أن يستغفر أحدُهم من توهم ما لعلَّه سيقع في المستقبل من الغفلة عن الله عزَّ وجلَّ، أو من لازم نصحهم للخلق وتبينهم لهم الحلال والحرام، وفي الحديث: «إن من البيان لسحرًا»[1]. قال سفيان الثوري: ولا نرى السحر إلا حرامًا. انتهى.

ومن هنا قال الأشياخ: ينبغي للواعظ والخطيب أن لا يكشف القناع عن الأمور للسامعين بحيثُ لا يبقي لهم عذرًا يعتذرون به، بل ينزل لهم شيئًا مما يراه فوق مقامهم رحمة بهم. انتهى.

وإيضاح ما قلناه من جواز المؤاخذة باللازم في حقِّ الأكابر إلا إن شاء الله تعالى هو أن تعلم يا أخي أن كلَّ داعٍ إلى الله تعالى مأجورٌ بالأصالة، سواءٌ أطاعه قومُه أم خالفوه، وليس قصد أحد من الدعاة إشقاء أحد من المدعوين أبدًا، بل ولا يخطر ذلك لهم على بال، فهو وإن لزم من وعظه وإرشاده مؤاخذةُ أحد ممن خالفه، فهو غير مؤاخذ به لعدم القصد، ولا يؤاخذ أحد بما لم يقصده كما هو مقرر في كتب الفقه. ومما يؤيد رسول الله ﷺ في عدم طلب إشقاء أحد من أمته قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فتأمل. وقد قال جمهور الأصوليين: إن لازم المذهب ليس بمذهب، فكل نبي مأجور من حيثُ قصدُه. وإن وقع أن أحدًا خالفه، فهو مأجور أيضًا كأجر من أصيب في ولده وأصحابه.

فمعنى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ أي ليغفر لك الله ما تقدم من مؤاخذة قومك بسبب رسالتك في حال حياتك وبعد مماتك، فطمئن يا محمد قلبَك، فإنك غير مؤاخذ بما وقع فيه عصاة أمتك من مخالفتهم شرعك، ولك من حيثُ قصدُك الخيرَ لهم أجرَ كلِّ من أطاعك، وكلِّ من عصاك لو كان أطاعك وكأنه أطاعك، لأنك تؤدي الخير لهم، وليس

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥١٤٦)، وأبو داود (٥٠٠٧).

عليك من أوزارهم شيء بسبب رسالتك.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول مرارًا: جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حضرة الإحسان على الدوام، مشاهدون للحقِّ تعالىٰ ليلًا ونهارًا، فلا يصح في حقِّهم مخالفة حقيقية، بل المخالفة تنفر من أبدانهم، كما ينفر النور من الظلمة أو عكسه، ولذلك قال المحققون: لم يكن لرسول الله ﷺ ذنب حقيقة يُغفَر، وإنما ذلك من باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، فالخطاب له، والمراد به غيره.

[معنى حديث: «إنه ليغان على قلبي»]

ثم تقول: فإن قال قائل: فما معنىٰ حديث: «إنه ليُغَان علىٰ قلبي، فأستغفر الله تعالىٰ في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»[1] انتهىٰ؟ **فالجواب:** معناه «إنه ليغان علىٰ قلبي» حين يخطر علىٰ قلبي ما أطلعني الله تعالىٰ عليه مما يقع لأمتي من بعدي من الحروب والفتن، وتضييع الواجبات، والوقوع في المنهيات، فأستغفر الله تعالىٰ لهم أكثر من سبعين مرة بحسب ما يخطر علىٰ قلبي ذكرُ ذلك. وليس في الحديث ما يُستدَل به علىٰ أن الغين الذي يستغفر الله منه من ذنب يقع هو فيه ﷺ، حاشاه ﷺ من ذلك! حاشاه! فإن أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنفر منها الذنوب أن تقرب منها، كما تنفر الظلمة من النور. انتهىٰ.

فإن قال قائل: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»[2] الحديث، فهو الذي أخبر ﷺ بأن له خطايا، ولو علم ﷺ أنه معصوم من الذنب مطلقًا، لم يسأل المباعدة بينه وبين الذنب؛ **فالجواب:** أنه لا يلزم من سؤال العبد المباعدةَ من شيء صحة وقوعه فيه، لاسيما وهو ﷺ أعلم الخلق أجمعين بأحكام الله تعالىٰ في خلقه من حضرة الإطلاق والتقييد التي يغفر الله تعالىٰ منها لمن يشاء، ويعذب منها من يشاء، فيجب علينا حمل مثل ذلك علىٰ مناجاة رسول الله ﷺ بذلك ربَّه من باب الذل والعبودية بين يدي ربه عزَّ وجلَّ، وهضم النفس.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

ويُحتمَل أن يكون مراده ﷺ خطاياه من حيثُ تشريعُه النهي عنها لأمته، علىٰ ما مرَّ تقريرُه في لازم رسالته ﷺ، وأن الأكابر من شأنهم أن يؤاخذوا نفوسَهم باللازم وإن لم يؤاخذهم الحقُّ جلَّ وعلا علىٰ ذلك.

ومن قال المراد بالخطايا في هذا الحديث خطايا وقع فيها رسول الله ﷺ أو سيقع، فعليه الخروج منها بين يدي رسول الله ﷺ، ويا فضيحته بين يديه! فإنه لا يجد علىٰ ذلك دليلًا واضحًا من كتاب ولا سنة ولا إجماع.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: المراد بمعاصي الأنبياء وخطاياهم أمور يؤاخذهم الله تعالىٰ عليهم، ليرقيهم في مقام الأدب، تدق عن عقولنا لا نتعقلها، بل ربما كان أحدنا يتقرب بتلك الخطايا إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، ويرىٰ لنفسه المقام العالي بها عند الله تعالىٰ. ثم يجب علينا قطعًا اعتقاد أنها مؤاخذة عقاب بلطف، لا مؤاخذة توبيخ وعنف. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ؒ يقول: لو قال قائل: إنه لا ينبغي لمثلنا أن يجيب عن نبيِّنا مطلقًا، وإنما ذلك خاص بالأولياء الأكابر أو الأنبياء بتقدير وجودهم بعده في الأرض، لإشرافهم علىٰ مقامه، لكان ذلك حقًّا، وإلا فأين مقام آحاد الناس من مقام الأنبياء حتىٰ يجيب عنهم؟!

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: لا ينبغي جواب أحد عن أحد علىٰ وجه التحقيق إلا إن أشرف علىٰ مقامه. وقد كان الإمام السهروردي[1] يقول: استعلاء مقامات الخلق علىٰ قدر استعلاء نورهم الذي رشه الحقُّ تعالىٰ عليهم حين خلقهم في الظلمة كما ورد[2]، لا علىٰ قدر سعيهم واجتهادهم واختيارهم. ومن هنا ارتقىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ

---

(١) السهروردي: يحيىٰ بن حَبَش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، فيلسوف، اختلف المؤرخون في اسمه. ولد في سهرورد (من قرىٰ زنجان في العراق العجمي) ونشأ بمراغة، وسافر إلىٰ حلب، فنسب إلىٰ انحلال العقيدة. وكان علمه أكثر من عقله (كما يقول ابن خلكان) فأفتىٰ العلماء بإباحة دمه، فسجنه الملك الظاهر غازي، وخنقه في سجنه بقلعة حلب. له مصنفات منها: «هياكل النور» و«حكمة الإشراق» و«رسالة في اعتقاد الحكماء». توفي: ٥٨٧هـ. الأعلام (٨/ ١٤٠) و هدية العارفين (٢/ ٥٢١).

(٢) أخرج الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال: هذا حديث حسن (٢٦٤٢) يقول: «سمعت رسول الله

اخترق السبع الطباق[1]، وصار إلىٰ حضرة قاب قوسين أو أدنىٰ من حضرة التكليم، وذلك لاستعلاء نوره علىٰ سائر أنوار الأنبياء والمرسلين صلىٰ الله عليه وعليهم أجمعين، كما دل علىٰ ذلك تعيين سماواتهم التي هم فيها، فأعلاهم مقامًا بعد محمد ﷺ إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم هارون، ثم إدريس، ثم يوسف، ثم يحيىٰ، ثم عيسىٰ، ثم آدم عليهم الصلاة والسلام، وأجمع علىٰ ذلك أهل الكشف، كما قاله سيدي علي الخواص رحمه الله.

قالوا: ولما كان الوجودُ السفليُّ كلُّه محفوظًا من نزول البلاء الذي يستأصله كلَّه ببركة محمد ﷺ، جعل الله تعالىٰ قبره في الأرض، مع مشاركة روحه الشريف لأرواح جميع الأنبياء في مواطنهم في السماوات، وجميع مواطن القرب من الحضرة الإلهية، لأن روحه الشريف منتشر نورها في جميع الوجود العلويِّ والسفليِّ، فلا يوجد في الوجود مكان إلا وفيه من نور محمد ﷺ، وكذلك في سائر الجنان.

قالوا: ومن هنا يسمي الله تعالىٰ محمدًا ﷺ نورًا، لأنه كلَّه نور، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، فالنور هو محمد، والكتاب هو القرآن.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما رقىٰ رسول الله ﷺ ليلة الإسراء إلىٰ أعلىٰ مكان لا يصل إليه بشر ولا ملَك، لأنه لم يبقَ من بشريته بقيةٌ تثبطه عن الرقي إلىٰ حضرة قاب قوسين، وكانت روحه الشريف أصفىٰ من سائر أرواح الملائكة، فلذلك ترقىٰ إلىٰ مكان لم يصل أحد منهم إليه، كما قال جبريل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] يعني بحسب صفاء روحه، و زجَّ رسول الله ﷺ بالرفرف في النور.

قال: وكان مقامه في الأرض معدودًا من عظيم فتوته، ليدفع الله تعالىٰ به العذاب عن جميع عصاة الموحدين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[الأنفال:

ﷺ يقول: إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، فألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم علىٰ علم الله»، وابن حبان (٦١٦٩) وأحمد (٦٨٥٤).

(١) إشارة إلىٰ حديث الإسراء والمعراج الذي أخرجه البخاري (٧٥١٧) ومسلم (١٦٢).

٣٣]، فشملت الآية حياته وموته، فما دام جسمه ﷺ في الأرض، فالعصاة من الموحدين آمنون من نزول العذاب الذي يستأصلهم.

وكان ﷺ يفسر الغين الوارد في حديث «إنه ليغان علىٰ قلبي»[1]، بأن ذلك الغين الذي حصل لقلبه الشريف إنما هو من حيثُ ما أطلعه الله تعالىٰ عليه مما يقع لأمته من بعده، لا من وقوعه ﷺ هو في ذنب، ويقول: لا يزيغ عن هذا الجواب إلا كلُّ زائغ عن طريق الهدىٰ، لم يشم من محبة رسول الله ﷺ رائحة. وإذا رأىٰ المؤمن الصادق جوابًا لا إشكال فيه سالـمًا من الشبه، وجب عليه الوقوف عنده، وقد ورد في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين»[2]، فشرط ﷺ في كمال الإيمان أن يزيد العبد في محبة نبيه ﷺ علىٰ محبة أهله وولده، فمن لم يكن نبيه أحب إليه من نفسه لم يوفه حقه، وكيف يدعىٰ شخص أنه يحب رسول الله ﷺ وهو يضيف إليه النقص والعيب بارتكابه الذنب الذي يتعقله هو بعقله؟!

وتأمل الوالدة لما أحبَّت ولدها كيف لا تكاد تنسب إليه عيبًا أبدًا، بل تقول في كل ذنب وقع فيه: خزاك الله يا إبليس! أوقع ولدي في الشيء الفلاني، فإذا كان هذا قول الوالدة في حقِّ ولدها مع أن حبَّها لولدها بحكم الطبع وحظ النفس، لا بحكم الإيمان، فكيف بمن محبته إيمان، بل هي عين الإيمان؟! وإذا كان من يتشرب قلبه حب إنسان من الخلق لا يكاد يرىٰ فيه عيبًا، بل يراه كلَّه محاسن صرفًا، فكيف بسيد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين الذي فرض محبته علىٰ الخلق أجمعين، وأحوجهم إلىٰ شفاعته يوم يقوم الناس لرب العالمين؟! فعُلِمَ أن كلَّ من نسب إلىٰ نبيِّه ذنبًا من الذنوب علىٰ حدٍّ ما يتعقله هو، فذلك دليلٌ علىٰ عدم كمال محبته له، ولا يخفىٰ حاله، نسأل الله العافية.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول مرارًا: لا ينبغي لأحد أن يتكلم علىٰ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

مقامات الأنبياء إلا نحو القطب الغوث ﷺ ممن أطلعه الله علىٰ رائحة مقامهم، فإن جميع ما كان الأنبياء يذكرونه عن أنفسهم مما يشبه أحوالنا فإنما ذلك من باب التنزل لعقولنا. وأما حالهم في أنفسهم فلا يعلمه إلا الله، ثم هم عليهم الصلاة والسلام، ألا ترون إلىٰ قوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[1] أي سليم الصدر من جهة بعضكم بعضًا لا من جهة ما لعلَّ أحدًا يقوله في حقي، فإن سمتي العفو والصفح عن كلِّ من جنىٰ عليَّ. وكيف آمر أمتي بالصفح وأحقد أنا عليهم؟! ولا يجوز حمله ﷺ علىٰ تكدره عليهم لحظ نفسه، لعصمته ﷺ من مثل ذلك.

وكذلك القول في قوله ﷺ: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، وأرضىٰ كما يرضىٰ البشر»[2] أي صورة غضبي ورضائي صورة غضب البشر ورضاهم، والقصد مختلف، فأغضب لله إذا انتُهِكَت حرماته لا لنفسي، وأرضىٰ لله تعالىٰ إذا عُمِلَ بطاعة الله كذلك، لا لحظ نفسي.

فإن قيل: إن ذكره ﷺ بالنقص في غيبته مما يسخط الله تعالىٰ، فينبغي الغضب له، لأن ذلك من جملة انتهاكهم حرمة الله عزَّ وجلَّ؛ **فالجواب**: أن لمثل ذلك وجهان: وجه من حيثُ الحقُّ تعالىٰ من تعديهم حدوده، فيغضب لأجله؛ ووجه يتعلق بحقِّه هو ﷺ، فمن شأنه العفو والصفح عنه وعدم التكدير، فيُحمَل حاله ﷺ إن غضب أو رضي علىٰ هذين الحالين، فرجع غضبه لله ورضاه لله؛ لأنه يرىٰ نفسه ملكًا له تعالىٰ ليس له منها شيء. فقوله: «كما يرضىٰ البشر» أي خيارهم الذين يغضبون لله ويرضون لله، ولا يجوز حمله علىٰ أراذل البشر من أصحاب الرعونات، فإن ذلك جهل بمنصب النبوة، لا سيما مقام سيد الأولين والآخرين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (٣٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٣) وابن حبان (٦٥١٤).

[الردُّ على من قال: الأنبياء فيهم جزء بشري يدق ولا ينقطع]

ومن قال من المتصوفة: إن الأنبياء فيهم جزء بشري يدق ولا ينقطع؛ قلنا: ذلك في حقِّ غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أما الأنبياء فقد طهَّر الله تعالىٰ طينتَهم بسابق العناية من كل دنس، لا بعمل عملوه، ولا بخير قدموه. ويؤيد ذلك ما ورد في الصحيح من شق جبريل صدر النبي ﷺ وهو طفل، وإخراجه منه علقة سوداء وقال: «هذا حظ الشيطان منك»[1] فافهم.

وهذا الجواب أولىٰ ممن أجاب من المتصوفة بأنه يجوز له ﷺ أن يغضب لحظِّ نفسه حال كونه متجردًا عنها، من حيثُ كونُها أمة الله تعالىٰ كالوديعة عنده، يجب عليه أن يذب عنها من ينتقص من مقامها، لأن مقصودنا بالأجوبة عن الأنبياء وغيرهم سد الذرائع، وإثباتُ الغضب لحظِّ نفسه يجر إلىٰ جعله كآحاد البشر.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما كان يغضب ﷺ علىٰ بعض الناس رحمةً بذلك البعض، فإنه كان أرحم بالأمة من والديهم، فكان يخاف عليهم إذا انتقصوا جنابه أن يهلكهم الله تعالىٰ ولو عفا هو، لعلمه بأن الله تعالىٰ ينتقم لأصفيائه ولو تركوا حقَّهم. وقد عُلِمَ بالضرورة معنىٰ قوله ﷺ: «إنما أنا بشر أرضىٰ كما يرضىٰ البشر، وأغضب كما يغضب البشر»[2]، وأن اللائق بمقامه ﷺ أنه يرضىٰ لله ويغضب لله دون حظِّ نفسه، وإن أظهر الغضب لأحد جنىٰ علىٰ أحد، فإن ذلك تأديب ورحمة، لأن أمته ﷺ كالأولاد في حجره يؤذيه ﷺ ما يؤذيهم، ويرضيه ما يرضيهم، كما قال في فاطمة ﷺ: «يؤذيني ما يؤذيها»[3].

وإيضاح ذلك أنه ﷺ لا يتأذىٰ من كلام يُقال في حقِّه، وإنما يتأذىٰ بذلك محبوه، فكأن تأذيه إن وقع إنما هو لتأذي خواص أصحابه بذلك، لا أنه يتأذىٰ مما يُقال فيه ابتداء، فكأن ما يتأذىٰ به أصحابه من سماع ما يكرهون في حقه ﷺ بلاء نزل بهم ولم يحملوه،

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٦٢) وابن حبان (٦٣٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٣) وابن حبان (٦٥١٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

فتأذىٰ لتأذيهم بذلك، فقام بالقيام بحقوقهم. انتهىٰ، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤) ومما أجبتُ به عن عرضه ﷺ نفسه علىٰ القبائل وإظهار الضجر وعدم الصبر، قال قائل: كيف وقع مثل ذلك لرسول الله ﷺ مع أن مقامه في القرب من الله والمعرفة به لا يشم رائحته أحد من الأمة؟!

والجواب: أن إظهاره ﷺ الضجر وسؤال الإقالة ليس هو لعجزه عن تحمل مثل ذلك، وإنما ذلك رحمة بأمته ﷺ، ليقتدوا به إذا وقع لهم ضيق لا يطيقونه، فإنه لو لم يتنزل لعقولهم، لما قدر أحد منهم يتبعه، بل لو تبعه ذاب روحه وجسمه.

وإذا كان الجنيد[1] يقول: لو جلس شخص من أبغض الناس إليَّ يقطِّع لحمي بمقاريض من نار، وجلس عن يميني أحب الناس إليَّ يكلمني بأطيب الكلام، ويشمني الندَّ والعنبر ما نقص هذا، ولا زاد هذا؛ فكيف بسيد الأولين والآخرين؟!

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي يقول: ما تجلىٰ تعالىٰ لي في مظهر قهر قط، وما عرفتُ القهر إلا من غيري. وكذلك كان سيدي علي بن وفا[2] يقول: فما عرفنا ولا ألفنا سوىٰ الموافاة والوصال. فافهم ذلك، واعرف قدر الأنبياء، وإياك أن تقيس أحوالهم علىٰ أحوال غيرهم، فتخطيء طريق الصواب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي البغدادي، شيخ الصوفية. ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتفقه علىٰ أبي ثور، وشاهد الصالحين وأهل المعرفة، ورزق الذكاء وصواب الجواب. لم يُر في زمانه مثله في عفة وعزوف عن الدنيا. له عدة رسائل منها: «دواء الأرواح» ورسائل منها ما كتبه إلىٰ بعض إخوانه، ومسائل أخرىٰ. توفي: ٢٩٧هـ. السير (١٤/ ٦٦)، «الوافي بالوفيات» (١١/ ١٥٥).

(٢) علي بن محمد بن محمد بن وفا، أبو الحسن القرشي الأنصاري الشاذلي المالكي الصوفي، إسكندري الأصل. ولد سنة ٧٥٩هـ بالقاهرة ومات أبوه وهو صغير فنشأ هو وأخوه في كفالة وصيهما الشيخ محمد الزلعي فأدبهما وفقههما. له مصنفات منها: «الوصايا» و«المسامع الربانية» في التصوف. توفي:٨٠٧هـ. الضوء اللامع (٦/ ٢١)، الأعلام (٥/ ٧).

(٥٥) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ من جهة الصاعقة التي نزلت على حرمه الشريف فأحرت غالبه[١]، فإن بعض الناس قال: الوجود كلُّه في كرامته ﷺ، وآمن من نزول البلاء عليه كرامة له ﷺ، فكيف تنزل الصواعق على مكانه المخصوص به؟!

والجواب: أن مثل ذلك من باب تحمله ﷺ البلاء عن أمته، لما هو عليه من وفور الشفقة والحنو عليهم، كما هو مقرَّر في تعليق الأسباب على مسبَّباتها، بحسب ما سبق به العلمُ الإلهيُّ، ولا يجوز أن يظنَّ أحد من المسلمين بنبيه الذي هو سيِّد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين أن ذلك من هوانه ﷺ على ربه، بل ذلك كفر يستحق صاحبه التأبيد في النار. وإياك والجهل، فإن رسول الله ﷺ لم يزل يتحمل الشدائد عن أمته في الدنيا والبرزخ وما بعده[٢]، تارةً بدعائه لهم، وتارةً ابتداءً كرامةً من الله تعالى له من غير دعاء، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] وهو الآن فينا حيٌّ طريٌّ في قبره ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦) ومما أجبتُ به عن قوله في حديث التشهد: «كما صليت على إبراهيم»[٣] إلى آخره، فإن بعضهم فهم من قاعدة أن «المشبَّه به أعلى من المشبَّه» أن إبراهيم أفضل من محمد ﷺ، وألَّف الفاكهاني[٤] وغيره في ذلك مؤلفات.

---

(١) وذلك في ليلة الثالث عشر من رمضان، سنة (٨٨٦هـ)، فأحرقت غالب الحرم الشريف، والقبة الخارجية، ونزل الشرر على القبة الداخلية ولم تحترق. انظر: «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى».

(٢) ويؤيد ذلك ما ذكره صاحب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» النور السمهوري، وهو من أعيان أهل المدينة المعاصرين للحادثة المذكورة: «وأخبر أمير المدينة الشريفة السيد الشريف زين الدين قسطيل الجمازي أن شخصًا من العرب صادق الكلام رأى في المنام ليلة ثاني عشر رمضان [وهي الليلة السابقة لليلة الحريق] أن السماء فيها جرادٌ منتشر، ثم عقبته نار عظيمة، فأخذ النبيُّ ﷺ النار وقال: أمسكها عن أمتي؛ فجزاه الله عن أمته -خصوصًا جيرانه- أفضل ما جزى نبيًا عن أمته.

وحُكي أيضًا عن بواب رباط السبيل أنه ذكر مثل هذه الرؤيا عن غيره».

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٥٧) ومسلم (٤٠٥).

(٤) عمر بن علي بن سالم بن صدقة، تاج الدين أبو حفص اللخمي الإسكندري المالكي الفاكهاني، زار

والجواب: أنه ﷺ أفضل خلق الله على الإطلاق، ونقل الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1] وغيره الإجماع على ذلك. ولا ينافي ذلك قول بعضهم: إن مرتبة كل نبي في السماء تعرف من سمائه التي هو فيها على حسب ما رآهم ﷺ ليلة الإسراء، لأن المراد في حقِّ إبراهيم مع موسى ويوسف وعيسى مثلًا، لا في حقِّ محمد ﷺ، لأن مقامه حضرة قاب قوسين أو أدنى.

[الحكمة من وجود القبر الشريف في الأرض]

وإنما كان قبره في الأرض إعلامًا بأنه الفلك الذي يدور عليه حكمُ العالم العلويِّ والسفليِّ، فكان فوقه سبع طباق سماوية، وتحته سبع طباق أرضية، ويحصل للوجود كلِّه بركته ﷺ، فافهم.

[المراد من الصلاة الإبراهيمية إلحاق آله ﷺ بالنبيين من آل إبراهيم]

فعُلِمَ أن قوله ﷺ: «كما صليتَ على إبراهيم» لا يلزم منه تفضيل إبراهيم عليه، ولكن لما أمرنا الله تعالى بالصلاة على رسول الله ﷺ في القرآن، [و] لم يأمرنا بالصلاة على آله فيه، فجاء الإعلام الرباني في تعليم رسول الله ﷺ إيانا الصلاة عليه بزيادة الصلاة على الآل، فما طلب ﷺ الصلاة عليه مثل صلاة الله تعالى على إبراهيم وعلى آل إبراهيم من حيثُ أعيانُهما، وإنما المرادُ إلحاقُ آل محمد بآل إبراهيم الذين هم النبيون، كإسحاق ويعقوب ويوسف، ومن كان رسولًا أو نبيًّا من نسلهم. وما علَّمنا نبيُّنا ﷺ هذه الصلاة

دمشق سنة ٧٣١هـ بعد زيارته القدس، وحج ثلاث مرات. واجتمع به ابن كثير وقال: سمعنا عليه ومعه، له مصنفات منها: «المنهج المبين في شرح الأربعين النووية»، و«التحرير والتحبير» و« رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام ». توفي: ٧٣٤هـ. أعيان العصر (٣/ ٦٤٤)، الأعلام (٥/ ٥٦).

(١) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم أبو محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي، حدث ودرس في عدة مدارس بالشام والديار المصرية، برع في الفقه والأصول، وصنف وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب. له مصنفات منها: « قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» و«بداية السول في تفضيل الرسول » توفي: ٦٦٠هـ. العبر في خبر من غبر (٥/ ٢٦٠) وذيل مرآة الزمان (٢/ ١٧٢).

إلا بوحي من ربِّه عزَّ وجلَّ، فقصد ﷺ بالصلاة علىٰ آله العلماء الصالحين إلحاقَهم بآلِ إبراهيم في مرتبة النبوة عند الله تعالىٰ وإن لم يشرِّعوا شيئًا، لأنه لا نبي بعده، بدليل أنه ﷺ شرَّع لأمته الاجتهادَ في الأحكام، وقرر حكم ما أدَّىٰ اجتهادُهم إليه وتعبدُهم به، كما تعبَّد به من قلَّدهم، فكان في ذلك إلحاقُ المجتهدين من أمته بأهل التشريع من الأنبياء، إذ الاجتهاد تشريع لمن عقل واستبصر.

ولم يقع هذا الأمر لأمة نبي غير محمد ﷺ، فجعل الله تعالىٰ وحي آله في اجتهادهم، فإن المجتهد لم يحكم إلا بما أراه الله تعالىٰ في اجتهاده، فهي نفحة من نفحات التشريع، ما هي عين التشريع. فعُلِمَ أن لآل محمد العلماءِ مرتبة النبوة عند الله تعالىٰ، ولكن لا يظهر حكمها إلا في الدار الآخرة. وأما في الدنيا فلم يظهر من حكمها إلا نفحة الاجتهاد الذي شرعه لهم، فكان اجتهادهم في أحكام الدين بأمر مشروع من عند الله تعالىٰ.

وملخص القول في ذلك أن معنىٰ قول المصلي: «اللهم صلِّ علىٰ محمد...» أي اجعل آله المؤمنين العلماء في الصلاة عليهم «كما صليت علىٰ إبراهيم...» فيجعل آل محمد أنبياء ورسلًا في الفضل والمرتبة عندك، كما كان الأنبياء والمرسلون من آل إبراهيم، وتلحق آل محمد بما أعطيتهم من التشريع بالاجتهاد بآل إبراهيم [أصحاب][1] التشريع الحقيقي.

وقال بعضهم: وقد أعطىٰ الله تعالىٰ آل محمد التحديث، فمنهم محدَّثون- بفتح الدال المشددة- ومجتهدون، فأشبه آل محمد في ذلك آل إبراهيم من الأنبياء أصحاب التشريع. هذا ما أجاب به الشيخ محيي الدين في باب الصلاة علىٰ الميت من كتاب «الفتوحات». وقال: فحقق يا أخي ما نبهتُك عليه في هذه المسألة، تَرَ الحقَّ حقًّا، والحمد لله رب العالمين[2].

ولنا في ذلك جواب آخر أطلعني الله عليه، وهو أن السبب في قول النبي ﷺ: «كما صليتَ علىٰ إبراهيم» حين علَّمنا الصلاة عليه إنما هو من حيثُ إنه كان هو المعلِّم لنا،

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر «الفتوحات» الباب (٦٩).

بدليل ما جاء في بعض طرق الحديث أنهم لما قالوا له: «يا رسول الله، قد عرفنا السلام عليك، فكيف نصلي عليك؟ تمعر وجهه ﷺ حتىٰ قالوا: ليتنا لم نسأله عن ذلك»[١] وما ذلك إلا لما رأوه[٢] من شدة حيائه ﷺ أن يعلمهم ألفاظًا فيها تفخيم له ﷺ، فما وسعه إلا التواضع مع أبيه الخليل المحبوب لسائر الملل.

ومن شك في قولي هذا، فليتأمل نفسه إذا قال له أصحابه: يا سيدي، علِّمنا ألفاظًا مُفخَمة نصير نعظِّمك بها بين الناس؛ فإنه لا يسعه إلا ألفاظ التواضع، ولو أراد أن ينطق بلفظة فيها تفخيم له، لحصل له بذلك الخجل، وهي نكتة خفية لعلها لم تخطر علىٰ بالك يا أخي، فلا يلزم من ذلك تفضيل إبراهيم علىٰ محمد ﷺ، بقرينة قوله ﷺ بأمر من ربه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٣]، وقوله: «آدم ومن دونه تحت لوائي»[٤]، فاعلم ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص يقول: الصلاة من الله رحمة، والرحمة تقتضي وجود ذنب، والأنبياء لا ذنوب عليهم، فما سأل ﷺ كثرة صلاتنا عليه إلا أدبًا مع ربه عزَّ وجلَّ وتواضعًا له.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول مرارًا: من اعتقد أن ذات أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تقبل شيئًا من المخالفات، فهو جاهل بمقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧) ومما أجبتُ به من توهم من تمعر وجه رسول الله ﷺ حين قيل له: «هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله»[٥] أن ذلك التمعر كان مخلوطًا بحظِّ [نفس][٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٥)، وأبو داود (٩٨٠).

(٢) بالأصلين: رواه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨)، والترمذي وقال: حديث حسن (٣١٤٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦١٥) وأحمد (١٠٩٨٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦١٠٠)، ومسلم (١٠٦٢).

(٦) زيادة من «أ».

والجواب: أنه يجب جزمًا اعتقاد عصمته عن مثل ذلك، وأنه إنما تمعر وجهه ﷺ تقبيحًا لصنيع من نسبه إلىٰ الجور، خوفًا عليه من مقت الله عزَّ وجلَّ، لما جبله الله تعالىٰ عليه من الرحمة والشفقة علىٰ أمته، وفي الحديث: «أنه ﷺ كان لا يغضب لشيء من أمر الدنيا، وإنما يغضب إذا انتُهكت حرمات الله»[1]. انتهىٰ.

فإياكم أيها الإخوان أن تفهموا من قوله ﷺ: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر»[2] أنه يصح في حقِّه الغضب المخلوط بحظِّ نفس، فإن ذلك خطأ عظيم، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الأخير من كتبنا المسمَّىٰ بـ«المنهج المبين في بيان أخلاق العلماء العاملين» فراجعه يا أخي إن شئتَ، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨) ومما أجبتُ به عنه أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]: اعلم أن رسول الله ﷺ معصوم من الشرك بإجماع، وكذلك جميع الأنبياء، ولكن لابد لكلام الله تعالىٰ من محمل يُحمَل عليه إن كان ﷺ هو المراد بهذا الخطاب، وأما إن كان المراد به غيره، فالأمر واضح.

وقد نظرنا في مصارف اللغة، فوجدنا الشرك يُطلَق علىٰ ما هو المعهود في العُرف، وعلىٰ شركة العبد نفسه في الفعل مع الله تعالىٰ ولو إسنادًا فقط، فيحمل الشرك علىٰ كلِّ ذاتٍ بما يقبله. وإذا كان ذوات الأنبياء لا تقبل شيئًا من المكروهات فضلًا عن الصغائر والكبائر، فكيف يقبل الشرك الذي هو أعظم الذنوب؟! فتأمل.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص يقول: المراد بالشرك في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أن يشرك النبي ﷺ نفسه مع ربه في الوجود الحقيقيِّ، ليعطي التوحيد حقَّه، فكأنه تعالىٰ يقول له: لا تشرك نفسك معي من حيثُ التوحيدُ الحقُّ، فإنه لي وحدي، وأشرك نفسك معي في الوجود من حيثُ العبوديةُ، لتقوم بما كُلِفت به فيها من حيثُ كسبُك، فكلَّفه تعالىٰ أن يشهد ﷺ نفسه معدومًا موجودًا في آن واحد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٠٣)، وأبو داود (٤٦٥٩).

ويؤيد ما قلناه قول الجنيد ﷺ: «إذا قُرِن الحادث بالقديم، لم يبق له أثر» أي ولا من حيثُ الكسبُ، «وإذا لم يبق للحادث أثر ولا وجود، حبط عمله» أي لم يوجد له عين، بل هو لله تعالىٰ وحده من غير شركة كسب للعبد. وذلك حال ناقص لا يليق بالأنبياء، إذ الكمال أن يشهد العبد نسبة العمل إليه مع كونه خلقًا لله وحده، وهناك لا يحبط من حيثُ كسبُه، بل يجازيه الله تعالىٰ عليه في الآخرة بحسب مقام ذلك العبد في العلو والانخفاض.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: كما يجب على العبد أن يشهد نفسه معدومًا موجودًا في آن واحد، كذلك يجب عليه أن يشهد عمله لله وحده في حال نسبته إليه هو، فهو من حيثُ كونُه لله تعالىٰ وحده هو باق، ومن حيثُ إنه كسب للعبد هو حابط إن لم يضف الكسب إلىٰ الله تعالىٰ بالاستمداد من القدرة الإلهية، وكأنه تعالىٰ خلق العمل وحده، ثم خلقه علىٰ عبد ظاهرًا، ليثيبه عليه فضلًا منه في فضل، فإن الذات إذا كانت مخلوقة، فصفاتها مخلوقة من باب أولىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﷺ يقول في معنىٰ الآية: إن الله تعالىٰ كلَّف نبيه أن لا يشرك نفسه مع الله تعالىٰ في حركة أو سكون، لا عمدًا ولا سهوًا، بل يكون مشاهدًا لفعل ربه فيه علىٰ الدوام. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩) ومما أجبتُ عنه ﷺ أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، قال قائل: إن الله تعالىٰ قد نفىٰ عنه ﷺ أنه يعلم المنافقين، وذلك نقص في العلم، وقد قال ﷺ عن نفسه إنه أوتىٰ علم الأولين والآخرين[1]، وكيف ينفي سبحانه وتعالىٰ عن نبيه

---

(١) وكأنه يشير إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أتاني ربي في أحسن صورة. فقال: يا محمد، قلت: لبيك ربي وسعديك. قال: فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟ قلت: رب لا أدري، فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما بين المشرق والمغرب...» وأحمد (٢٣٢١٠) والدارمي (٢١٩٥).

علم المنافقين، مع أن حذيفة بن اليمان[1] كان يعلمهم بشهادة عمر بن الخطاب ﷺ؟ وما كان واسطة حذيفة في علمهم مع كونه ليس من أهل الوحي؟

والجواب: أن نفي علم رسول الله ﷺ ونفي [علم] عمر بن الخطاب بالمنافقين فيه منقبة عظيمة لعمر، وبيان عصمة رسول الله ﷺ من دخوله هو وعمر حضرة النفاق، فإنهما لو دخلاها لعرفا المنافقين بالمخالطة. وأما معرفة حذيفة بالمنافقين فكانت من طريق الإلهام. وقد كان عمر بن الخطاب يأتي إلىٰ حذيفة فيقول له: «هل فيَّ شيء من النفاق؟ فإنك كنت تعرف عدد المنافقين علىٰ عهد رسول الله ﷺ» أي من طريق الإلهام لا من طريق الذوق للنفاق.

فعُلِمَ مما قررناه أن نفي علم رسول الله ﷺ بالمنافقين فيه تنزيه له عن صفات النفاق لعصمته، إذ لا يعرف صفات المنافقين إلا من كان له ذوق في النفاق، أو أُوحِيَ إليه بصفاتهم من طريق جبريل، أو من طريق وحي ملك الإلهام، وهو ﷺ لم يوح إليه بذلك ولا أُلهم به عمر ﷺ كذلك تنزيهًا لمحله ﷺ، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «الأخلاق المتبولية»، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ أيضًا في قوله ﷺ: «لو يؤاخذني الله تعالىٰ وعيسىٰ بن مريم بما جنت هاتان الإصبعان- يعني السبابة والتي تليها- لعذبنا ثم لم يظلمنا شيئًا»[2]، قال قائل: كيف صحت مؤاخذة الله تعالىٰ لمحمد وعيسىٰ مع عصمتهما، مع أن هذا اللفظ يشعر بوقوع الجناية منهما؟!

والجواب: أن وقوع هذا اللفظ من رسول الله ﷺ إنما هو علىٰ سبيل التواضع لربِّه عزَّ وجلَّ، وإظهار فضله عليه وعلىٰ عيسىٰ، مع كونه لُقِّب بأنه «روح الله» أي نفخ الحقِّ

---

(١) حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي من نجباء أصحاب رسول ﷺ وهو صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، شهد مع النبي ﷺ أحدًا وقتل أبوه بها. وهو الذي ندبه رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ليجس له خبر العدو، ت ٣٦ هـ. السير (٢/ ٣٦١)، أسد الغابة (١/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٥٧) والبزار (٩١٩٧).

تعالىٰ فيه الروح بلا واسطة ملك، فافهم. وهذا من باب حضرة الإطلاق التي للحقِّ تعالىٰ يفعل منها ما يشاء، وإلا فهو ﷺ يعرف من حضرة التقييد من طريق الوحي أن الله تعالىٰ لا يعذبه أبدًا.

وعلىٰ ذلك يُحمَل قول بعضهم: «إن رسول الله ﷺ لا يأمن مكر الله به أبدًا» أي لا يأمنه من حيثُ حضرةُ الإطلاق التي للحقِّ جلَّ وعلا يغفر منها لمن يشاء، ويعذب منها من يشاء، ثم لا يلزم من خوفهم وقوعُ المكر بهم، ويأمنه من حيثُ حضرةُ التقييد، أو يُحمَل المكر الخاص به ﷺ علىٰ المكر الذي لا ينقص مقامه بارتكاب ما مُكِرَ به فيه كالمباح، فيقع منه المباح في بعض الأوقات وهو غافل عن الكون بمشاهدة الحقِّ جلَّ وعلا، أو ذلك من باب: «إنما أنسىٰ ليُستن بي»[1].

وكذلك القول في جبريل وميكائيل حين قال لهما الحقُّ جلَّ وعلا: «هكذا كونا لا تأمنا مكري» إنما يتمشىٰ علىٰ عدم الأمن بالنظر إلىٰ حضرة الإطلاق، وإلا فهما معصومان من وقوعهما في الفعل الذي ينقص مقامهما حين مكر بهما. وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] فهو في حقِّ غير المعصوم ممن يصح [في حقِّه][2] الخسران، فاعلم ذلك، وإياك والغلط، والحمد لله رب العالمين.

(٦١) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]، **قال قائل: إن رسول الله ﷺ مُستقيم قبل الأمر له بالاستقامة لعصمته، وكذلك القول في الطغيان والركون المذكورين، ولا يحتاج إلىٰ الأمر بالاستقامة إلا من يصح في حقِّه العوج، ولا يُنهَىٰ عن الطغيان والركون إلىٰ الذين ظلموا إلا غير المعصوم، وهو ﷺ معصوم من العوج والطغيان والركون المذكورات، فكيف الحال؟**

والجواب والله أعلم: أنه تعالىٰ إنما أمره بالاستقامة ونهاه عن الطغيان والركون

---

(١) أخرجه مالك بلاغًا (٢٦٤).

(٢) ساقط من «ب».

تأنيسًا لأمته الذين تابوا معه، فكأنه المخاطَب بذلك والمراد به غيره، نظير قوله تعالىٰ له: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، ومعلوم بإجماع أنه ﷺ معصوم من الرياء وعدم الإخلاص في دينه، فكان من رحمة الله بعباده المؤمنين أن يجمعهم مع رسولهم ﷺ في ضمير ﴿تَطۡغَوۡاْ﴾ و﴿تَرۡكَنُوٓاْ﴾ تأنيسًا، لا لكون الطغيان والركون قد يقع منه ﷺ لعصمته، فافهم.

ومن قال من العلماء: إن في النوع البشري ولو ارتفعت رتبته جزءًا يميل إلىٰ الطغيان والركون؛ قلنا له: ذلك في غير المعصوم؛ لأن الله تعالىٰ قد طهر طينة الأنبياء من سائر الرذائل، وجعل ذاتهم تنفر من المعاصي، كما تنفر الظلمة من النور، وذلك بسابق العناية من الله، لا بعمل عملوه، ولا بخير قدموه، إذ النبوة موهبة من الله لا تُنال بكسب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول في معنىٰ حديث: «شيبتني هود وأخواتها»(١): المراد بـ«أخواتها» كلُّ سورة فيها ذكر الأمر له بالاستقامة، لأنه ﷺ من شدة هضمه لنفسه، وتواضعه لربه ربما استشعر في نفسه أنه لم يوفِ بمقام الاستقامة التي أمره الله بها، وهناك يقوم في قلبه خوف الإجلال والتعظيم الذي ربما شيَّب شعره، فعُلِمَ أن هذا الخوف العظيم الذي شيَّبه لا ينافي ما هو عليه من العصمة، لأنه خوف إجلال لا خوف وقوع في ذنب ومؤاخذة عليه. ولم يزل العارفون بالله يخافون من الله عزَّ وجلَّ أن يعذبهم علىٰ أفضل عباداتهم، خوفًا من شهود النقص الحاصل فيها بالنظر لما يستحقه جلال الله، لأنهم لا يعرفون هل وفُّوا بحال مقام عبوديتهم أم لا؟ انتهىٰ، فاعلم ذلك وتأمله، وأعطِ النبوة حقَّها من التعظيم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن أحدًا من الأنبياء في علم الله عزَّ وجلَّ أفضل من محمد ﷺ، ويقول: إن فضل محمد علىٰ سائر خلق الله تعالىٰ لم يرد لنا فيه حديث صحيح، وإنما نحن رجحناه عليهم أخذًا من عمومات الآيات والأخبار الواردة في

(١) أخرجه البزار (٩٢) وأبو يعلىٰ (٨٨٠) والطبراني في الكبير (٣١٨).

فضله، وبعضهم أخذ هذا التوهم من حديث: «كما صليتَ علىٰ إبراهيم»[١] من حيث إن المشبَّه به أفضل من المشبَّه عند علماء البيان.

والجواب: أن هذا توهم باطل مخالف للإجماع الذي قدَّمنا ذكره في هذا المبحث من أنه ليس بعد مقام الله تعالىٰ مقام للخلق أفضل من مقام محمد ﷺ. وقد ورد في الصحيح: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[٢]، وورد «آدم ومن دونه تحت لوائي»[٣]. وفي قوله في الحديث «يوم القيامة» أقوىٰ دليل لأفضليته ﷺ علىٰ سائر خلق الله عزَّ وجلَّ، فإنه لا يكون في ذلك اليوم أحد غائبًا، وقد عمَّهم بالسياق كلهم، وكفىٰ بذلك تصريحًا بأفضليته علىٰ جميع خواص البشر، حتىٰ إن من فضَّل الملائكة علىٰ خواص البشر يقول: لا بد من استثناء محمد ﷺ من ذلك. وقد روىٰ الحاكم مرفوعًا، وقال: صحيح الإسناد، أن الله تعالىٰ قال لآدم عليه الصلاة والسلام لما وقع في الخطيئة: «لولا محمد ما خلقتك»[٤]، وفي رواية «أن آدم قال: يا رب أسألك بحقِّ محمد إلا ما غفرت لي. فقال الله له: يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه. فقال: يا رب، إنك لما خلقتني ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي، فرأيت في قوائم العرش مكتوبًا: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فعرفت أنك لم تضف لنفسك إلا أحبَّ الخلق إليك، فقال الله تعالىٰ: صدقتَ يا آدم، إن محمدًا لأحب الخلق كلِّهم إليَّ»[٥]. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣) ومما أجبتُ به من يتوهم في جنابه ﷺ أنه يقع في شيء من الأمور التي يتوجه عليه بها لوم، نحو قلة ذكر الله عزَّ وجلَّ، أو قلة تكبيره، أو رضاه بعدم تطهير ثيابه، أو عدم هجره للرجز، أو مَنِّه بما أعطىٰ استكبارًا، أو عدم الصبر علىٰ ما قدَّره الله تعالىٰ عليه، ونحو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الحاكم (٣١٦)، وأبو بكر الخلال في السنة (٣١٦).

(٥) أخرجه الحاكم (٤٢٢٨) والطبراني في الأسط (٦٥٠٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٨٩).

ذلك، فهمًا من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ومن قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٣ - ٧].

والجواب: أن ذلك فَهْمٌ سَقيمٌ، لأنه ﷺ لم يكن قبل أمره بما ذكر أو نهيه عنه علىٰ أضداد هذه الأمور، لإجماع الأمة علىٰ كماله من بدايته إلىٰ نهايته، وما ثم له إلا مقام رفيع، أو مقام أرفع، فليس عليه ﷺ لوم في الحالة التي كان عليها قبل أن يُوحىٰ إليه بأضدادها أمرًا كانت أو نهيًا، لكونه لم يزل ذاكرًا لربه، مطهرًا لثيابه، هاجرًا للرجز، غير مانٍّ بما أعطىٰ، غير مستكثر بذلك، صابرًا علىٰ ما قدَّره الله تعالىٰ عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: سبب نزول نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف: ٢٨] ما كان ﷺ يجده في نفسه من شدة الحياء من طول مجالسته لربه عزَّ وجلَّ، فإنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، فأذن الله تعالىٰ له بطول مجالسته في ذكره، كما أشار إليه حديث: «أنا جليس من ذكرني»[1]، فإن في ضمن وجود الذكر الكثير لله عزَّ وجلَّ بأنواع الذكر طولَ مجالسة الحقِّ جلَّ وعلا، فكأنه تعالىٰ يقول له: جالسني كثيرًا، ولا تستحي من طول مجالستك لي هيبةً وتعظيمًا، فإني أحب منك ذلك، فلا تغفل عن ذكري، لتكون جليسي علىٰ الدوام كشفًا وشهودًا. انتهىٰ.

وأما قول بعض العارفين: «إن مراقبة الله تعالىٰ مع الأنفاس ليست من مقدور البشر» فإنما هو في حقِّ الأمة لا في حقِّه ﷺ. وإذا كان الشيخ أبو العباس المرسي يقول: لو احتجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددتُ نفسي من جملة المسلمين، مع كونه من آحاد الأمة، ومراقبته كانت لرسول الله ﷺ لا لله، فكيف بمراقبة سيد المرسلين لربه عزَّ وجلَّ؟! هذا اعتقادنا فيه ﷺ، فافهم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[المدثر: ٣] إلىٰ آخر النسق، فقد تقدم أنه لم يكن

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٢٨٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٥).

علىٰ ضد ذلك، وإنما أمره الحقُّ ونهاه بما ذكر لينعمه بحضرة خطابه في هذه الدار لا غير، نظير ما أجبنا به من قال: كيف احتاج ﷺ إلىٰ تشجيع الحقِّ تعالىٰ له في قوله: قل كذا، قل كذا، مع أن معه الإذن بذلك من حيثُ عمومُ رسالته، وإذنُه تعالىٰ له بتبليغ كلِّ ما أوحىٰ به إلىٰ الأمة، بل أمره له بذلك بنحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]؟ فإن الجواب عن ذلك هو ما كان ﷺ عليه من شدة الاشتياق إلىٰ سماع خطاب الحقِّ تعالىٰ له بغير واسطة جبريل أو غيره من حيثُ الجزءُ البشريُّ الذي فيه يدق ولا ينقطع[1]، لا من حيثُ جملتُه كلُّه؛ لأنه كان في رتبة الملائكة من حيثُ عدمُ حجابه عن سماع كلام ربه علىٰ الدوام، فلم يكن الاشتياق إلا لذلك الجزء الذي دق فيه، فطمأن الله تعالىٰ قلبه وأسمعه خطابه بقوله تعالىٰ له: ﴿قُلْ﴾ وسكن ذلك الجزء من حرقة الاشتياق، فهو ولو جاء علىٰ لسان جبريل، فكأنه بغير واسطة لصفاء ذات جبريل، وكونه من جملة أمر الله، إذ هو روح، وما كان من أمر الله فلا يحجب عن الله، كما تقدم بسطه في التقرير مرارًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: أخفىٰ المعاني التي لحظها رسول الله ﷺ ولم يتجرأ ينطق بها مما فيه ضخامة له ورفعة لمقامه قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] إلىٰ آخر السورتين. وأما نحو قوله تعالي له: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فوجهه ناظر لما فيه من تزكية النفس علىٰ جميع الناس، لولا تشجيع الحقِّ تعالىٰ له بقوله له: ﴿قُلْ﴾ ما قدر علىٰ النطق بمثل ذلك، لما هو عليه من شدة التواضع مع ربه ومع عباده،

(١) يأتي في كلام الإمام الشعراني الإجماع علىٰ أن الجزء البشري في الأنبياء ينقطع بالكلية، وهو الصحيح. ويمكن الجمع بينهما بأن المراد بالجزء البشري الذي ينقطع هو المتعلِّق بالشهوات والزلات والصفات البشرية النفسانية المذمومة. أما صفات الجبلة البشرية الأخرىٰ من نحو الأكل والشرب وطروء المرض الغير المنفِّر والألم والحزن والشوق فهو مما يدق ولا ينقطع.

كما أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت: ٦] فساوىٰ بينه وبين قومه، ثم ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾، فميز مقامه الشريف عنهم بالوحي، وجعله واسطة بينهم وبين ربهم. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤) ومما أجبتُ به من يتوهم أن رسول الله ﷺ ادعىٰ أنه القاتل والرامي للمشركين حيثُ قتلهم ورماهم بالحصىٰ، فأعمىٰ أبصارهم، وأن الله تعالىٰ ما أنزل ذلك إلا تأديبًا له لدعوىٰ أنه القاتل والرامي.

والجواب: أن اللائق بمقامه ﷺ أن يُقال: إن الله تعالىٰ ما أنزل هذه الآية إلا نصرةً له وتطمينًا، فإن الله تعالىٰ قال له: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فلما غلبت الرحمةُ عليه ﷺ لحقته الرحمةُ علىٰ من قُتل ومن عمي حين رمىٰ ، فقال الله تعالىٰ له: إنك لم تقتلهم ولم ترمِهم، وإنما أنا قتلتُهم ورميتُهم وأعميتُهم، وبتقدير مشاركتك لي في ذلك فهو بإذني، فلا لوم عليك في ذلك. هذا ما ظهر لي من الجواب في هذا الوقت عن رسول الله ﷺ، فمن وجد جوابًا فوق ذلك، فهو أولىٰ بمقامه ﷺ.

(٦٥) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ حين خفتُ أن يتوهم متوهِم من قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، **ومن قوله تعالىٰ:** ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، **ومن قوله تعالىٰ:** ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨] **الآية، أنه ﷺ لولا قل صبره ما قال له تعالىٰ** ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾، [الأحقاف: ٣٥] **وكذلك القول في الآيتين بعدها.**

والجواب: أن هذه الآيات عما فهمه هذا المتوهم بمعزل، فليس المراد أن صبره ﷺ نقص حتىٰ احتاج إلىٰ تشجيع الحقِّ تعالىٰ له بالأمر، وإنما المراد أنه ﷺ كان قد بالغ في شدَّة الصبر إلىٰ الغاية التي لم يصل [إليها][1] أحد من أولي العزم، فضلاً عن غيرهم، فكاد أن لا يصح لأحد أن يقتدي به في ذلك الصبر، فأمره الله تعالىٰ أن يتنزل من

---

(١) ساقط من «أ».

مقام الصبر الخاص به إلىٰ صبر من هو دونه في مرتبة الصبر، وهم أولو العزم من الرسل، فهو أمرٌ في باطنه مدحٌ له ﷺ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إنما قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] رحمةً به ولطفًا منه تعالىٰ له لما بالغ في شدة الصبر، وتحمل الألم إلىٰ الغاية، فأخبره الحقُّ تعالىٰ بأن ذلك بعينه عزَّ وجلَّ، أي إنه يرىٰ ما يصنع ﷺ بنفسه من تحمل ذلك الألم طلبًا للمبالغة في مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فإن العبد إذا شهد أن ذلك البلاء من تقديرات الحقِّ تعالىٰ علىٰ عبده، وأنه تعالىٰ يرىٰ ما يصنع عبده بنفسه طلبًا لمرضاة ربه، خفف عنه الألم ضرورةً، وبقي له الأجر العظيم مع ذلك، لأنه لم يطلب من الله تعالىٰ تخفيف ذلك، وإنما الحقُّ تعالىٰ هو الذي أرشده إلىٰ أن يشهده تعالىٰ حال تألمه، فيخفف عليه شهوده لربه عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول: إنما قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨] إرشادًا له ﷺ أن يدوم علىٰ مقامه الشريف في الصبر، بحيث يقدر غيره علىٰ أن يقتدي به فيه من غير سخط ولا ضجر، فيكون صبره ﷺ بين الإفراط والتفريط. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول مرارًا: ليس الأمر بالصبر خاصًا به ﷺ كما قررناه، وإنما ذلك عام في كلِّ داعٍ من أمته إلىٰ الصبر، فيتنزل أحدهم عن مقامه الخاص به إلىٰ مقام من هو دونه من الخواص والعوام، كما يتنزل ﷺ من مقامه الخاص به لمقام أولي العزم من الرسل، وكما كان أولو العزم من الرسل ينزلون إلىٰ مقام من هو دونهم من عامة الأنبياء الذين ليسوا من أولي العزم، وكما يتنزل آحاد الأنبياء إلىٰ مقام من هو دونهم من أكابر الأولياء، كالأقطاب والأوتاد وغيرهم إلىٰ آخر الدوائر. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب السابع والخمسين من كتاب «الفلك المشحون في بيان أن التصوف هو ما تخلق به العلماء العاملون»[1]. وبينا فيه أن الإجماع من أهل الكشف قد انعقد علىٰ عصمته ﷺ من كلِّ شيء يتوجه به لوم عليه، فراجعه والله يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين،

---

(١) من أوسع كتب الإمام الشعراني، وما زال مخطوطًا.

والحمد لله رب العالمين.

(٦٦) ومما أجبتُ به عنه ﷺ في قوله: «واسألوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة »[1] الحديث، ظن بعض أهل الشطح أن ذلك من جملة غيرة الحقِّ جلَّ وعلا أن يوصف أحد بالغنىٰ عن غيره دونه تعالىٰ، وفي هذا القول ما لا يخفىٰ من سوء الأدب معه ﷺ.

والجواب: أنه يجب حمل ذلك علىٰ أنه ﷺ قصد به تعليم أمته التواضع وإظهار الحاجة لبعضهم بعضًا، حتىٰ لا يزهو بعضهم علىٰ بعض، كما أنه ﷺ أخبرنا أن ربنا سبحانه ينزل إلىٰ سماء الدنيا[2]، أي ليُعلِّم الملوكَ التواضعَ مع رعاياهم، فافهم، والله أعلم.

(٦٧) ومما أجبتُ به عنه ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]**، قال قائل: كيف ذلك وهو أكثر الأنبياء عصمة؟!**

والجواب: أن ذلك علىٰ سبيل الفرض والتقدير. ويُحتمَل أن يكون المراد: يضلوك عن سبيل الله الخاص بك من طريق معاملته تعالىٰ، لعدم إشراف أكثر الناس علىٰ مقامك الخاص بك، فما ثم إلا من هو دونك في المقام لا ذوق له في المقام الذي تترقىٰ أنت إليه مع الأنفاس، حتىٰ يرشدك إلىٰ فضله والوصول إليه، وليس المرادُ بالضلال المذكور الضلالَ عن طريق الهدىٰ؛ لأن ذلك محال في حقِّه ﷺ، فالمعنىٰ: لا تطع أكثر الناس لو أرشدوك إلىٰ ما يرقيك عندهم لجهلهم به، وأطعنا فيما نرقيك به علىٰ لسان جبريل، نرقيك ونبلغك إلىٰ ما تريد.

فإن قال قائل: فما المراد بغير الأكثر الذين لم ينهه عن طاعتهم؟ **فالجواب:** المراد بهم أكابر الرسل كإبراهيم وموسىٰ وكُمَّل الصحابة كأبي بكر وعمر ﭭ، فإن لهؤلاء الأنبياء والصحابة الإشراف علىٰ مقامه ﷺ في عالم الأروح وفي عالم الأجسام، لكن علمًا لا ذوقًا.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨).

فإن قال قائل: إنه ﷺ أعلم منهم بالمقامات التي أمامه، ومثله لا يحتاج إلىٰ إرشاد غيرٍ له في الترقي إلىٰ تلك المقامات؛ **فالجواب**: أن ذلك من غيره من باب الخدمة والشفقة، كما يقول الخادم لسيده إذا كان يمشي خلفه: يا سيدي، أدر بالك لما أمامك من الوهدة[1] أو الربوة. وقد يدهش الكبير من عظمة ما تجلىٰ لقلبه، فلا يصير له التفات إلىٰ غيره، بخلاف خادم ليس عنده تلك الدهشة، فافهم. وهنا أسرار يذوقها العارفون لا تسطر في كتاب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨) ومما أجبتُ به عن قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» إلىٰ أن قال: «وآدم ومن دونه تحت لوائي»[2]، قال قائل: ما وجه ذلك مع أنه ﷺ أكثر الأنبياء تواضعًا؟

والجواب: أنه لم يقل ذلك إلا بإذن من الله تعالىٰ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ويشهد لذلك قولُه في الحديث: «ولا فخر» أي ولو فضلني الله تعالىٰ علىٰ غيري، فلا أفتخر بذلك عليه، بل أرىٰ نفسي دونه. وإنما كان آدم ومن دونه تحت لوائه يعني يوم القيامة، لأن آدم ما ظهر بعلم الأسماء إلا بحكم النيابة عن محمد ﷺ في عالم الملائكة، فتقدم محمد بالنبوة وآدم بين الماء والطين، فلما ظهر جسم محمد كان هو صاحب اللواء، فيأخذ اللواء من آدم يوم القيامة بحكم الأصالة، ويكون آدم ومن دونه تحت لوائه، وقد كانت الملائكة تحت ذلك اللواء في زمن آدم، وهم في الآخرة كذلك تحته، لكن من ظاهرية محمد ﷺ، فيظهر يوم القيامة لجميع الخلق خلافةُ رسول الله ﷺ علىٰ الجميع.

فإن قيل: قد ورد أن اللواء مشتمل علىٰ المحامد كلِّها، فما عددها؟ **فالجواب**: قد ذكر الشيخ محيي الدين أنه سأل الله أن يطلعه علىٰ عدد الأسماء المرقومة في اللواء التي يحمد اللهَ بها جميعُ الخلق، قال: فأطلعني علىٰ أن عددها ألف اسم وستمئة اسم وأربعة وستون اسمًا، مرقوم في كلِّ لواء منها تسعة وتسعون اسمًا، من أحصاها في موطن

---

(١) الوهدة: الأرض المنخفضة.

(٢) تقدم تخريجه.

القيامة دخل الجنة- يعني قبل الناس- وليس ذلك إلا للرجل الكامل من نبي ووليّ ووارث. ومعلوم أن المراد بالحمد هو الثناء، ولا يُثنىٰ علىٰ الله تعالىٰ إلا بأسمائه علىٰ حسب ما يقتضيه ذلك الموطن، فتُعطَىٰ الألوية السبعة التي احتوىٰ عليها اللواء الأعظم لرسول الله ﷺ ولورثته المحمديين يوم القيامة بعده. وحقيقة اللواء هو ما يجتمع الناس تحته، لأنه علامة علىٰ مرتبة الملك، ووجود الملك. وسُمِّي لواءً لأنه يلتوي علىٰ جميع المحامد، فلا يخرج عنه حمد. انتهىٰ[1]، فاعلم ذلك، واحفظ الأدب مع سيِّد الأولين والآخرين، وصدِّقه فيما يقول، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩) ومما أجبتُ به عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، قال قائل: كيف قدَّم خشيتَه من الناس علىٰ خشيتِه من الله تعالىٰ حين استحيا من نكاح زينب؟

والجواب: أن من كمال الكامل وقوفَه مع ما يمسك عليه المروءة العرفية، حتىٰ يأتي له أمر من الله تعالىٰ حتم، فإنه حينئذٍ يكون بحسب ما يُؤمَر، فإن كان عَرْضًا، نظر إلىٰ قرائن الأحوال، فإن كانت قرينة الحال تعطيه حكم الأمر الحتم، بادر إلىٰ القبول مبادرته إلىٰ الأمر الحتم الذي لا يسعه خلافه. وإن كانت قرينة الحال تخيره، بقي علىٰ الأمر العرفيِّ الذي يشهد له مكارم الأخلاق، ولذلك قال تعالىٰ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فهو واقف مع حكم الله تعالىٰ.

ويؤيد ما ذكرناه ثناؤه علىٰ يوسف بقوله: «لو كنتُ مكانَه لأجبتُ الداعي»[2] يعني داعي الملِك لما دعاه إلىٰ الخروج من السجن، فلم يخرج يوسف حتىٰ قال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] يعني العزيز الذي حبسه ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] ليثبت عنده براءته، فلا يصح له المنَّة عليه في إخراجه من السجن، بل طلب منَّة الله تعالىٰ بلا واسطة العزيز، إذ لو بقي الاحتمال لقدح ذلك في عدالته وهو

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١).

رسول من الله، فلا بد من عدالته أن تثبت في قلوبهم. وكذلك الخشية التي وقعت من رسول الله ﷺ إنما كانت منه حرصًا علىٰ أن لا يردَّ دعوتَه جهالُ قريش بتزوجه زوجة من تبناه. وكان ابتلاؤه ﷺ بذلك ليُذيقه بلاء التهمة، ويتخلق بالرحمة الكاملة علىٰ كلِّ من اتُّهم ذوقًا زيادةً علىٰ تخلقه بها علمًا[1].

وكان نكاح زينب بعد من تبناه مما يقدح في مقامه عند العرب وهو رسول، فلما ذاق جرح المقام داواه الحقُّ تعالىٰ بإبانته عن العلَّة في ذلك، ورفع الحرج عن المؤمنين كلِّهم في مثل ذلك الفعل، ثم فصل بينه وبينهم بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فكان من الله تعالىٰ في حقِّ محمَّدٍ ما كان من يوسف حين لم يجب الداعي، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. هكذا ذكره الشيخ محيي الدين في الباب السابع وثلاثين وخمسمئة من «الفتوحات»، والله أعلم.

هذا ما ظهر لي من الأجوبة عن رسول الله ﷺ، وأنا في خجل وحياء منه ﷺ في إقدامي علىٰ التكلم علىٰ مقامه الشريف، لعلمي بأن إجابة البعيد عن مقامه عنه بمثابة الهجو له ﷺ. وما حملنا علىٰ ذلك إلا قصدنا بجوابنا عن الأنبياء سد الذرائع التي لعلَّها تطرق عامة الناس من قياس أحوال الأنبياء علىٰ أحوالهم لا غير.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يصلح أن يجيب عن الأنبياء إلا من عمل علىٰ تطهير باطنه من سائر الرذائل حتىٰ لم يبق فيه شيء يفتضح بكشفه بين الناس في الدنيا والآخرة. فمن حصل له ذلك جاز له الجواب عن الرسل والأنبياء، لأنه حينئذٍ يكون له إلمام بمقاماتهم من حيثُ الصفاءُ الذي صار عنده.

---

(١) أثناء اطلاع بعض الأفاضل علىٰ هذا الموضوع استنكر ذلك جدًّا، إذ فهم أن النبي لم يكن متخلقًا بالرحمة قبل هذه الواقعة. والحق أن هذا الفهم بعيد عن مراد الإمام الشعراني، إذ كلام الإمام الشعراني في نوع مخصوص من الرحمة، وهي الرحمة علىٰ المتهم ظلمًا، ثم إن الإمام قد أثبت أن النبي ﷺ متخلق بها علمًا، وكان بلاؤه ﷺ ليذوق بلاء التهمة وإن كان سيدنا ﷺ لا يحتاج لذلك لتحصل منه الرحمة ابتداءً علىٰ المتهم ظلمًا، ولكن إكرامًا له ﷺ ليجمع الله له بين كمال المقامين، وليكون بلاؤه ﷺ تسلية للمتهمين ظلمًا من أمته.

وقد أنشد سيدي علي ابن وفا في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

عبادك يا مولىٰ الموالي الذين هم ... عبادك محفوظون حفظ الحبايب

من الـذر لم يظهر بصافي ذواتهم ... سوىٰ نورك الماحي لجنح الغياهب

مياه صفت ذاتًـا ومجرىٰ ومنبعًا ... وصينت عن الأكدار في كلِّ جانب

انتهىٰ. وليكن ذلك آخر ما فتح الله تعالىٰ به من الأجوبة عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحسب استعدادي حالَ الكتابة. ومن أراد زيادة علىٰ ذلك، فليطالع كتاب «الشفا» للقاضي عياض ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠) وقد حُبِبَ لي أن أجيب عن أبوي رسول الله ﷺ لما عساه أن يخوض فيه بعض أهل الفضول من حيثُ إن ذلك يؤذي رسول الله ﷺ، فأقول وبالله التوفيق:

قد صنَّف الشيخ جلال الدين السيوطيُّ ﷺ في ذلك ستَّ مؤلفات وقد طالعتُها كلَّها، وحاصلُها ترجع إلىٰ ما أذكره لك في هذا المحلِّ، وهو أن الأدب مع رسول الله ﷺ واجب، ومن ذكر والديه بسوء فقد آذاه ﷺ، ومن آذاه فقد آذىٰ الله عزَّ وجلَّ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي القرآن العظيم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن طالع فيما ذكره أهل السير من كلام عبد المطلب لما أراد نحر والد رسول الله ﷺ أو غيره من أولاده في قصة حفر بئر زمزم، شهد له بالتوحيد الخالص، وصاحب التوحيد سعيد بأي وجه كان توحيده، كما سيأتي في أقسام أهل الفترات؛ لأن مدار السعادة علىٰ حصول التوحيد لا علىٰ الإيمان، لأن وجوده مشروط بوجود رسول بين أظهرهم أو شريعة، وما ثم شريعة كانت في حياة أبوي رسول الله ﷺ ولا رسول.

وإيضاح ذلك أن متعلَّق الإيمان إنما هو الخبر الذي يأتي به الأنبياء عن الله عزَّ وجلَّ، ولم يكن بين أهل الفترات رسول ولا كتاب حتىٰ يؤمنوا به. وقد جعلوا ذلك لغزًا، فقالوا لنا: شخص يموت علىٰ غير الإيمان، ويدخل الجنة بغير حساب، وهو من وحَّد الله تعالىٰ

بنورٍ وجده في قلبه، ومات على ذلك، إذ الموحد سعيد بأي وجه كان توحيده كما مرَّ.

وقد قسَّم الشيخ محيي الدين أهلَ الفترات إلىٰ أقسام، وحكم لبعضهم بالسعادة ولبعضهم بالشقاء، وجعل بعضهم تحت المشيئة، فأما السعداء، فستة أقسام[١]:

الأول: من وحَّد الله تعالىٰ بنور وجده في قلبه، كقِسِّ بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل[٢] وأضرابهما، فإن قسًّا كان يقول إذا سُئل: هل لهذا العالم خالق؟: البعرةُ تدل علىٰ البعير، وأثر الأقدام علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وأبحر ذات أمواج، ألا تدل علىٰ العليم الخبير؟! انتهىٰ.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فكان يقول وهو ساجد: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم» كما ورد في البخاري[٣]. وكان يقول أيضًا: إني لأنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا مؤمن به مصدِّق له، وأشهد أنه نبي، فمن طال عمره منكم ورآه، فليقرئه مني السلام.

ويُسمَّىٰ من وحَّد مثل توحيد قِس «صاحب دليل ممتزج بفكر» لأنه ذكر المخلوقات واعتباره فيها، وذلك هو الفكر. ومن هنا ورد أنه: «يُبعث أمة وحده»[٤]، لأنه ليس بتابع في أمره رسولًا ولا هو متبوع.

القسم الثاني: من وحَّد الله تعالىٰ بما تجلىٰ لقلبه من النور الذي لا يقدر علىٰ دفعه من غير فكر ولا رؤية، ولا نظر ولا استدلال، فهذا علىٰ نور من ربه خالصٍ غيرِ ممتزج

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (١٠).

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، والد سعيد بن زيد، أحد الحكماء، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها. ورحل إلىٰ الشام باحثًا عن عبادات أهلها، فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية، فعاد إلىٰ مكة يعبد الله علىٰ دين إبراهيم. وجاهر بعداء الأوثان، توفي قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين. الإصابة (٢/ ٥٠٨)، الأعلام (٣/ ٦٠).

(٣) لم أجده عند البخاري، وإنما هو جزء من حديث أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد (٧٧١)، النسائي في الكبرىٰ (٨١٣١)، والحاكم (٥٨٥٩)، وكلهم قال: زيد بن عمرو بن نفيل.

(٤) جزء من حديث أخرجه البزار (١٣٣١)، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (٤٩٥٦).

بفكرٍ في كون من الأكوان، فهذا يُحشر يوم القيامة مع الأصفياء الأبرياء.

القسم الثالث: من أُلقي في نفسه، واطلع من كشفه لشدة نوره وصفاء سرِّه وخلوص نفسه علىٰ منزلة محمد ﷺ وسيادته، وعموم رسالته باطنًا من زمن آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ زمن هذا المكاشَف، فآمن به في عالم الغيب علىٰ شهادة منه وبينة من ربِّه عزَّ وجلَّ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧] يشهد له في قلبه بصدق ما كُوشف به، فهذا يُحشر يوم القيامة في ضنائن من خلقه، وفي باطنية محمد ﷺ.

القسم الرابع: من اتبع ملة حقٍّ ممن تقدمه، كمن تهوَّد أو تنصَّر أو اتَّبع ملة إبراهيم، أو من كان من الأنبياء حين عَلِم وأُعلِم أنهم رسل الله عزَّ وجلَّ يدعون طائفةً مخصوصةً إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، فتبعهم وآمن بهم وسلك سبيلهم، وحرَّم علىٰ نفسه ما حرَّم ذلك الرسول، وتعبَّد نفسه بشريعته وإن كان ذلك ليس هو بواجب عليه، إذ لم يكن ذلك الرسول مبعوثًا إليه، فهذا يُحشر مع من تبع ذلك النبي يوم القيامة، ويتميز في زمرته في ظاهريته، إذ كان شرع ذلك النبي قد تقرر في الظاهر.

القسم الخامس: من طالع في كتب الأنبياء، فعرف شرف محمد ﷺ وشرف دينه، وثواب من اتبعه، فآمن به وصدَّقه علىٰ علم وإن لم يكن دخل في شرع نبي قط ممن تقدَّم، لاسيما إن كان قد أتىٰ بمكارم الأخلاق، كحكيم بن حزام[1] وأضرابه، فهذا يُحشر يوم القيامة مع المؤمنين بمحمد ﷺ لا في العاملين بشريعته، ولكن في ظاهرية محمد ﷺ.

القسم السادس: من آمن بنبيه الذي أُرسِل إليه، وأدرك رسالة محمد ﷺ وآمن به، فهذا له أجران.

فهؤلاء ستة أقسام كلُّهم سعداء عند الله يوم القيامة لتوحيدهم، وإن لم يتصف غير القسم الأخير بالإيمان كما مرَّ.

---

(١) حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي، أبو خالد القرشي. أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه. وغزا حنينًا والطائف. وكان من أشراف قريش، وعقلائها، ونبلائها. وكانت خديجة عمته، كان إذا اجتهد في يمينه، قال: لا والذي نجاني يوم بدر من القتل. توفي: ٥٤هـ. الاستيعاب (١/ ٣٦٢)، السير (٣/ ٤٤).

وأما غير السعداء فهم علىٰ أقسام: فمنهم من عطَّل، فلم يقر بوجود عن نظر قاصر، كلُّ ذلك القصور بالنظر إليه [غاية قوته][1] لضعف مزاجه عن قوة غيره، فهو تحت المشيئة. ومنهم من عطَّل لا عن نظر بل تقليد، فذلك شقيٌّ مطلق. ومنهم من أشرك عن نظر أخطأ فيه طريق الحقِّ، مع بذل المجهود الذي يعطيه قوته، فذلك تحت المشيئة. ومنهم من أشرك لا عن استقصاء نظر، فذلك شقيٌّ. ومنهم من عطَّل بعد ما أثبت عن نظر بلغ فيه أقصىٰ القوة التي هو عليها، مع ضعفها بالنسبة لمن فوقه، فهذا تحت المشيئة. ومنهم من عطَّل بعد ما أثبت لا عن استقصاء نظر ولا عن تقليد، فذلك شقي. ومنهم من أشرك عن تقليد محض، فذلك شقي.

فهذه أقسام أهل الفترتين بين نوح وإدريس، وبين محمد وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام: ستة أقسام سعداء، واثنان تحت المشيئة، وأربعة أشقياء كما ترىٰ، فإياك أن تحكم علىٰ أهل الفترات كلِّهم بحكم واحد من غير تفصيل، فتخطيء طريق الاستقامة، فاجعل يا أخي أبوي نبيِّك محمد ﷺ من سعداء أهل الفترات إن لم تؤمن بأن الله تعالىٰ أحياهما وآمنا برسوله ﷺ كما عليه الجهلة بمقدار رسول الله ﷺ.

وقد ذكر الحافظ الجلال السيوطيُّ رحمه الله أن الله تعالىٰ أحيا أبوي النبي ﷺ حتىٰ آمنا به. قال: وعلىٰ ذلك جماعة من الحفاظ، منهم: الخطيب البغدادي[2]، وأبو القاسم بن عساكر[3]،

(١) ساقط من «أ»، «ب» مستكمل من «الفتوحات».

(٢) الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، صاحب التصانيف، وخاتمة الحفاظ. ولد: سنة ٣٩٢. سمع وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة، وارتحل إلىٰ البصرة وهو ابن عشرين سنة، وإلىٰ نيسابور وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وغير ذلك. له مصنفات منها: «الجامع، لأخلاق الراويّ وآداب السامع» «الكفاية في علم الرواية» «اقتضاء العلم والعمل». توفي: ٤٦٣هـ. السير (١٨/ ٢٧٠)، الأعلام (١/ ١٧٢).

(٣) الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر. ولد في المحرم، في أول الشهر، سنة ٤٩٩هـ، له مصنفات منها: «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الأشعري» و«تاريخ دمشق». توفي:٥٧١هـ. السير (٢٠/ ٥٥٤)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٠٩).

وأبو حفص بن شاهين[١]، والسهيلي[٢]، والقرطبي[٣]، ومحب الدين الطبري[٤]، وابن المنير[٥]، وابن سيد الناس[٦]، والصفدي، وابن ناصر الدمشقي[٧]، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) ابن شاهين أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي الواعظ. مولده ٢٩٧هـ، له مصنفات منها: «معجم الشيوخ» و«التفسير» في نحو ثلاثين مجلدًا و«معجم الشيوخ» توفي: ٣٨٥هـ. السير (١٦/ ٤٣١)، شذرات الذهب (٤/ ٤٥٤)

(٢) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ابن أصبغ الأندلسي المالقي الضرير. ولد سنة:٥٠٨هـ. وسمع من ابن العربي، وطائفة، عمي وعمره ١٧ سنه. وكان إمامًا في لسان العرب، واسع المعرفة. له مصنفات منها: «الروض الأنف» و«التعريف والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام » توفي: ٥٨١ هـ. «طبقات الحفاظ للسيوطي» (ص: ٤٨١) وشذرات الذهب (١/ ٤٦).

(٣) محمد بن أحمد بن أبي فرح الأنصاري الخزرجي المالكي، أبو عبد الله القرطبي. مصنف التفسير المشهور، الذي سارت به الركبان، و«التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة». توفي: ٦٧١هـ. طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٩٢) وشذرات الذهب (٧/ ٥٨٤).

(٤) أحمد بن عبد الله بن محمد، شيخ الحرم محب الدين أبو العباس الطبري المكي الشافعي. ولد سنة ٦١٥هـ من مؤلفاته: «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» و«الرياض النضرة في مناقب العشرة» و«ذخائر العقبىٰ في مناقب ذوي القربىٰ» توفي ٦٩٤هـ. الوافي بالوفيات (٧/ ٩٠) والأعلام (١/ ١٥٩).

(٥) أحمد بن محمد بن منصور بن القاسم القاضي، ناصر الدين ابن المنير الجذامي الجروي الإسكندراني قاضي الاسكندرية وعالمها. ولد سنة ٦٢٠هـ كان مع علومه له اليد الطولىٰ في الأدب وفنونه، له مصنفات منها: «التيسير العجيب في تفسير الغريب» «المتواري علىٰ تراجم أبواب البخاري» توفي: ٦٨٣هـ.انظر: فوات الوفيات (١/ ١٤٩) والوافي بالوفيات (٨/ ٨٤).

(٦) أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد الحافظ اليعمري الأندلسيّ الإشبيليّ المصري الشافعي المعروف بابن سيد الناس. محدث، حافظ، مؤرخ، فقيه. ولد ٦٧١هـ بالقاهرة، وتفقه علىٰ مذهب الشافعي، وأخذ الحديث علىٰ والده وابن دقيق العيد ولازمه سنين كثيرة. له مصنفات منها: «عيون الأثر» و« بشرىٰ اللبيب بذكر الحبيب » توفي ٧٣٤هـ ودفن بالقرافة. النجوم الزاهرة (٩/ ٣٠٣) معجم المؤلفين (١١/ ٢٦٩)

(٧) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي المعروف بابن ناصر الدين. ولد في محرم سنة ٧٧٧هـ بدمشق ونشأ بها فحفظ القرآن وتفقه واعتنىٰ بهذا الشأن وأفاد ودرس وتصدىٰ لنشر الحديث فانتفع به الناس. له مصنفات منها: «جامع الآثار في مولد المختار» و«مورد الصادي في مولد الهادي» و«إطفاء حرقة الحوبة بالباس خرقة التوبة ». توفي ٨٤٢هـ. الضوء اللامع (٨/ ١٠٣) والنجوم الزاهرة (١٥/ ٤٦٥).

ولفظ السهيلي بعد إيراد حديث رواه الحاكم وصححه عن ابن مسعود ﷺ قال: «سُئل رسول الله ﷺ عن أبويه، فقال: ما سألتهما ربي فيعطيني فيهما، وإني لقائم يومئذ المقام المحمود»[1]. قال: ففي هذا الحديث تلويح بأنه ﷺ يشفع فيهما في ذلك المقام، ليوفَّقا للطاعة عند الامتحان الذي يقع يوم القيامة، كما ورد في عدة أحاديث.

قال المحب الطبري: والله تعالىٰ قادر علىٰ أن يحيي له أبويه ﷺ حتىٰ يؤمنا به ثم يموتا، ويكون ذلك من إكرام الله تعالىٰ لسيِّد الأولين والآخرين. وقال القرطبيُّ: ليس إحياؤهما وإيمانهما به ممتنعًا لا عقلًا ولا شرعًا، فقد ورد في القرآن إحياء قتيل بني إسرائيل حتىٰ أخبر بقاتله. انتهىٰ.

قلتُ: وعلىٰ القول بصحة إحيائهما بعد موتهما، فيكون ذلك الإحياء مثل إحياء من قال: ﴿لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي إلىٰ تكملة آجالهم. وعلىٰ ذلك فما آمن أبوا النبي ﷺ إلا في زمن تكليفهما، فكأنهما آمنا به قبل أن يموتا، كما قال العلماء في سجدة أهل الأعراف أن ميزانهم ترجح بتلك السجدة، ثم يدخلون بها الجنة، فلولا أن هذه السجدة تنفعهم لما سعدوا بها ودخلوا بها الجنة. وفي التحقيق أن يوم القيامة برزخ له وجه إلىٰ الدنيا ووجه إلىٰ الآخرة، من حيثُ رجحانُ ميزان أهل الأعراف، ومن حيثُ إنه يوم جزاء.

وكان القاضي أبو بكر بن العربي المالكي يقول: ليس عندي أحد آذىٰ النبي ﷺ بأشد من أذىٰ من يقول: إن أبوي النبي ﷺ في النار، وفي حديث مسلم: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات»[2]، فيحرم جزمًا أن يُقال: إن أبوي النبي ﷺ في النار.

قال الجلال السيوطي: وقد صرَّح جماعات كثيرة بأن أبوي النبي ﷺ لم تبلغهما الدعوة، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجيًا من العذاب، ويدخل الجنة.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٣٨٥) وأحمد (٣٧٨٧).

(٢) لم أقف عليه عند مسلم، والحديث أخرجه الترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢).

قال: وهذا هو مذهبنا لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية في الفقه، والأشاعرة في الأصول. ونصَّ علىٰ ذلك الإمامُ الشافعيُّ، وتبعه المحققون من أئمتنا الأصحاب.

ومما يوضح لك أنهما ماتا ولم تبلغهما الدعوةُ كونهما ماتا في حداثة سنِّ رسول الله ﷺ. وصحح العلائيُّ وغيرُه أن والد رسول الله ﷺ عاش من العمر ثمان عشرة سنة، ووالدته ماتت في حدود العشرين. ومثل هذا العمر لا يسع الفحص عن المطلوب في التوحيد، علىٰ القول بأن الله تعالىٰ لم يحيهما حتىٰ آمنا به، مع أن ذلك الزمان الذي كانا فيه كان زمان قد عمَّ فيه الجهل والفترة. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الباب الثالث

فيما أجبتُ به عن الصحابة والتابعين وتابع التابعين رضي الله عنهم أجمعين

(٧١) فمما أجبتُ به عن قول أبي بكر الصديق ﵁ لمن قال له: ألا ندعو لك طبيبًا: «إن الطبيب أمرضني» قال قائل: لمَ [لم] يقل كما قال إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ويضيف المرض إلىٰ نفسه، أو كان يسكت عن ذلك؟

والجواب: أنه ربما قال ذلك بحضرة من كان قريب العهد بإسلام، وإلا فهو يعلم أن الله أمره بالتداوي ولو شهد أن الله هو الممرِض له، فلولا من كان في محله من ضعفاء الحال الذين يضيفون الأمور للأسباب ممن يقول: مطرنا بنوء كذا، لما قال: الطبيب أمرضني، فافهم والله أعلم.

(٧٢) ومما أجبتُ به عن قول الإمام عليٍّ ﵁ للصحابة: «سلوني عن طرق السماوات، فأنا أعرف بها من طرق الأرض».

والجواب: أن المراد بطرق السماوات المقاماتُ والأحوالُ، كالتوبة والزهد والتوكل ونحو كذلك، فإن السالك بهذه الطرق يصير قلبه سماويًّا طوَّافًا بالملكوت، فالمراد طرق السماوات في الأرض، لا أنه صعد بجسمه إلىٰ السماوات في اليقظة، فإن ذلك ممنوع لمثله. ويُحتمَل أن يكون مراده أنه يعرف طرق السماوات من ارتسامها في لوح قلبه، كما يقع للأولياء، لأن قلوبهم لصفائها صارت مرآةً للعالم العلويِّ والسفليِّ. ويؤيد ذلك قوله ﵁: «أنا اللوح، أنا الكرسيُّ، أنا النقطة التي تحت الباء، أنا القرآن والسبع المثاني» ونحو ذلك مما نُقل عنه، والله أعلم.

(٧٣) ومما أجبتُ به عن الصحابة في قوله تعالىٰ في حقِّهم: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]: أي منكم من يريد الدنيا لآخرته ينفق ويتصدق منها، ومنكم من يريد الآخرة- أي أعمالها- لله تعالىٰ ولمشاهدته فيها،

وذلك لأن الله تعالىٰ لم يذكر إرادتهم للدنيا والآخرة لماذا، فيُحمَل علىٰ ما هو أرقىٰ في الدرجة منها، فما فوق الدنيا إلا الآخرة، وما فوق نعيم الآخرة الطبيعيِّ إلا نعيم الأرواح، وهو مشاهدة ربِّهم عزَّ وجلَّ.

[توجيه قتال سيِّدنا معاوية لسيدنا عليٍّ ﵁]

وأما قول سفيان الثوري عن معاوية[1]: «إنه كان رجلاً عالـمًا، ولكنه غلب عليه حبُّ الدنيا» فمراده أن معاوية يحبُّ الدنيا للآخرة، بقرينة قوله في وقت آخر: ما أحب أحدٌ من الصحابة الدنيا إلا ليفعل بها خيرًا.

وأما قتال معاوية علىٰ الخلافة فإنما كان مزاحمةً علىٰ الخير بحسب اجتهاده، ولا يجوز حملُه علىٰ أنه قَاتَل محبةً في الدنيا، فإن أقلَّ المريدين في الطريق يخرج عن الدنيا اختيارًا، فكيف بالصحابة ﵃؟! فكان قتال معاوية علىٰ الخلافة ليفعل فيها خيرًا، من باب قوله تعالىٰ: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]. هذا اعتقادنا فيهم رضي الله عنهم أجمعين.

[توجيه موافاة الصحابة لرسول الله ﷺ حين جاءه المال]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: يجب حمل الصحابة الذين وافوا صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ يوم ورد أبو عبيدة[2] بمال من البحرين[3]، ولم يكن لهم عادة

---

(١) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي، أبو عبد الرحمن القرشي المكي. أمه هند بنت عتبة بن ربيعة، ولد قبل البعثة بخمس سنين، قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاء، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه، وما ظهر إسلامه إلا يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حنينًا، وأعطاه من غنائم هوازن مائة بعير ت ٦٠هـ. أسد الغابة (٥/ ٢٠١)، الإصابة (٦/ ١٢٠).

(٢) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي المكي، أحد السابقين الأولين، شهد بدرًا مع النبي ﷺ وما بعدها من المشاهد كلها. وشهد له النبي ﷺ بالجنة، وسماه: أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمة. توفي: ﵁ وهو ابن ٥٨ سنة في طاعون عمواس سنة ١٨هـ بالأردن. الاستيعاب (٤/ ١٧١٠)، السير (١/ ٥).

(٣) أخرج البخاري (٦٤٢٥) «أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلىٰ البحرين يأتي بجزيتها، وكان

بالمواظبة على صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ على أنهم ما حضروا ذلك اليوم إلا مسارعةً لمرضاة الله عزَّ وجلَّ، لينالوا من ذلك المال شيئًا، فينفقوه في المصالح الأخروية. ولا يجوز حملهم على محبة أخذ ذلك المال لشيء من الحظوظ الدنيوية. وهو قريب من واقعة السيد أيوب لما حثا الذهب في ثوبه حين أمطرت السماء ذهبًا، وقال له الحقُّ جلَّ وعلا: «ألم أكن أغنيتُك عن مثل هذا؟ فقال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»(١). انتهى، فإن الحقَّ جلَّ وعلا قد أقرَّه على أخذ ذلك الذهب بهذه النية، مع أنه كان من أغنى الناس وأكثرهم مالًا. انتهى، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤) ومما أجبتُ به عن الصحابة أيضًا في قوله تعالى في حقِّهم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فإن بعض الناس قال: إن في ذلك توبيخًا لهم، كيف يفارقون من هداهم الله به إلى دين الإسلام لأجل كلمة يسمعونها من رسول ﷺ؟! وهذا لا يقع فيه مريد صادق للأشياخ، فكيف بالصحابة ﭫ؟!

والجواب: أن ذلك القول إنما هو على سبيل الفرض والتقدير، مثل قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] مع أنه تعالى سبَّح نفسه عن اتخاذ الولد بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وبقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وبقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فكما فرض الله تعالى المحال في اتخاذه الصاحبة والولد، فكذلك القول في وصف حبيبه نبيِّنا محمد ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب هو كفرض محال، وكذلك وصفه

رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء. قالوا: أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم» ومسلم (٢٩٦١).

(١) تقدم تخريج الحديث، والجواب عن الواقعة في الفصل الثاني، الجواب رقم (٤٥).

أصحابه ﷺ بأنهم كانوا ينفضون من حوله إن لم يُلِنْ لهم الكلام ويرق لهم بقلبه، فإنه من المعلوم أنه ﷺ كان أحب إليهم من أنفسهم، حتىٰ كان سعد بن معاذ[١] ينظر السهم سائرًا إلىٰ ناحية النبي ﷺ، فيتلقاه عنه بصدره، فمن يتلقىٰ السهم الصائب عنه كيف ينفض من كلام يسمعه منه لو وقع؟! فافهم.

[توجيه قول أبي هريرة ﷺ: كنتُ أجالس رسول الله ﷺ لملء بطني]

وأما قول أبي هريرة ﷺ: «كنتُ أجالسُ رسول الله ﷺ لملء بطني»[٢] فالمراد به أنني كنتُ لا أفارقه إلا إن لم أجد عنده ما يدفع عني ضرورةَ الجوع المضرِّ لعقلي وبدني، ومتىٰ وجدتُ عنده شيئًا يدفع عني كلب الجوع، لم أفارقه، مع أنه ﷺ كان عنده مداعبة، بدليل ما رواه مالك ﷺ بلاغًا[٣] أن أبا هريرة أراد أن يدخل إلىٰ وليمة، فمنعوه لرثاثة ثيابه، فاستعار له ثوبًا حسنًا فأدخلوه، فلما وضعوا بين يديه الطعام، وضع كمَّه في الطعام وقال: كُلْ! فإنهم ما عزموا إلا عليك لا علىٰ أبي هريرة[٤]. انتهىٰ. فمعنىٰ قوله: «لملء بطني» أي حيث وجدتُ عنده قوتي لم أفارقه حرصًا علىٰ حفظ الحديث، فاعلم ذلك.

(٧٥) ومما أجبتُ به عن أبي يزيد البسطامي ﷺ في اتخاذه ثوبًا لدخوله الخلاء خلاف الثوب الذي يقف به في الصلاة، ولاث به بعض الجهلة وقالوا: «هذا تنطع في الدين»: بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ أبي يزيد في ذلك، لأنه من أهل الاجتهاد في الأدب مع الله تعالىٰ، فأراد أن لا يكون ثوب خلائه الذي يحضره الشياطين ثوب صلاته الذي يدخل

---

(١) سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري الأشهلي البدري، الذي اهتز العرش لموته، شهد بدرًا، ورمي بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهرًا، حتىٰ حكم في بني قريظة، وأجيبت دعوته في ذلك، ثم انتقض جرحه، فمات منه سنة ٥هـ. الإصابة (٣/ ٧٢)، أسد الغابة (٢/ ٤٦١).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٧٠٨)، ومسلم (٢٤٩٢) بنحوه.

(٣) أي بقوله: بلغني.

(٤) أورده ابن رشد الجد في «البيان والتحصيل» (١٧/ ٥٥٠)، وهو شرح لكتاب «المستخرجة» المعروف بالـ«عتبية» لمحمد بن أحمد العتبي القرطبي، وهي مسائل تلقاها من تلامذة الإمام مالك ومن تلامذتهم.

به حضرة الله تعالىٰ مع الأنبياء والملائكة والمقربين، أدبًا مع حضرة الله عزَّ وجلَّ، نظير ما ورد في تحريم استقبال القبلة في الصحراء واستدبارها حال الغائط أو البول، فكما طلب الشارع أن لا تكون جهة قضاء الحاجة جهة الوقوف في الصلاة، فكذلك طلب أبو يزيد أن لا يكون ثوب خلائه هو ثوب صلاته من باب الأدب.

وقد بلغنا عن الإمام زين العابدين[1] أنه قال لولده: اتخذ لي ثوبًا لخلائي عن ثوب صلاتي، فإني رأيت الذباب يقع علىٰ العَذِرة، ثم ينزل علىٰ ثوبي في الخلاء. فقال له ولده: إن رسول الله ﷺ لم يكن له إلا ثوب واحد لخلائه ولصلاته. فرجع الإمام عن ذلك. وربما يُجاب عنه ﷺ تسهيلًا لأمته، لكونه كان يحب التخفيف عنهم، فترك فعلَ مثلَ ذلك توسعةً لهم، مع أن الأكابر لو فعل أحدُهم ذلك من ذات نفسه، لكان يقرُّه علىٰ ذلك. وأيضًا فإن الذباب كان لا ينزل علىٰ بدن رسول الله ﷺ ولا علىٰ ثيابه، كما هو مذكور في «الخصائص». فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الأكابر من العلماء والصالحين، فإنهم مجتهدون في العلم والطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوري ﵁ في قوله: «إياكم من الرياء والعجب والتزين في الأعمال والأقوال. وإن خلصتم من ذلك، فاحذروا من تركه» فلاث به بعضهم وقال: كيف يصح التحذير من ترك الرياء والعجب والتزين؟!

والجواب: أن مراده واحذروا من حصول العجب بترك ذلك، فإن من شأن النفس أن يحصل لها العجب إذا خلصت من الشوائب، فحذَّر أصحابه من مثل ذلك، لكونه يخفىٰ علىٰ كثير من الناس. وربما كان رياؤه وإعجابه بترك الرياء والإعجاب أقبح، فتأمل.

وكان الأنطاكيُّ[2] يقول: المتزينون ثلاثة: متزين بالعلم، ومتزين بالعمل، ومتزين

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين، يكنىٰ: أبا الحسين، ولد سنة ٣٨ هـ، وحدث عن: أبيه وكان معه يوم كربلاء، وله ثلاث وعشرون سنة، وكان يومئذ موعوكًا، فلم يقاتل. كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلىٰ أن مات، وكان يلقب زين العابدين لعبادته. ت ٩٤هـ. السير (٤/ ٣٨٦) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٦).

(٢) أحمد بن عاصم الزاهد الرباني الولي أبو عبد الله الأنطاكي، صاحب مواعظ وسلوك.وكان يقول: غنيمة

بترك التزين، وهو أغمضها وأحبُّها إلىٰ الشيطان. انتهىٰ، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ من هو أعلم منك بطريق الظاهر والباطن، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧) ومما أجبتُ به عن قولهم عن إبراهيم التيمي[١] ﵀ إنه ما ذُكِر أحد من إخوانه بحضرته وأثنىٰ عليه خيرًا قط، ففهم من ذلك بعض المتأخرين أنه كان يذكر إخوانه بالسوء.

والجواب: أنه ليس في كلامه ما يُفهَم منه أنه كان يذكر الناس بسوء، وإنما يُفهَم منه الوقوفُ عن الثناء فقط، والوقوف عن الثناء يحتمل أن يكون قصد به أن لا يَنقُص أجرُ أخيه في الآخرة بالثناء عليه في الدنيا، فإن السلفَ الصالحَ كانوا يعدُّون الثناء علىٰ الإنسان من جملة جزاء أعماله الصالحة، فلذلك تركه إبراهيم التيمي، وكان تركه أولىٰ في حقِّ إخوانه، فاعلم ذلك، واعمل به مع إخوانك الصادقين الذين يحبُّون منك ترك الثناء عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري[٢] ﵀ في قوله: «من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها» واستشكله بعضهم وقال: قد ذم الصحابة نفوسهم.

والجواب: أن كلام الحسن محمول علىٰ رعاع الناس الذين يطلبون المقام عند الناس بطرق خفية بقرينة أعمالهم وأحوالهم. أما من شهدت له أعماله وأحواله بشهود النقص في أعمال نفسه خالصًا كأبي بكر وعمر ﵄، فلا يكون ذمُّه لنفسه في الملأ مدحًا لها، فقد كان أبو بكر ﵁ يقول: ليتني كنتُ تبنةً، فأكلني بعير وأخرجني عَذِرة! وكان

باردة؛ أصلح فيما بقي، يغفر لك ما مضىٰ. وقال: إذا صارت المعاملة إلىٰ القلب، استراحت الجوارح. له مصنفات منها: «دواء داء القلوب» توفي: ٢١٥هـ. السير (١٠/ ٤٨٧) والرسالة القشيرية (١/ ٧٣).

(١) إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي،الإمام، القدوة، الفقيه، عابد الكوفة، أبو أسماء. كان شابًا صالحًا قانتا لله عالمًا فقيهًا كبير القدر واعظًا. ت ٩٢هـ. السير (٥/ ٦٠) والوافي بالوفيات (٦/ ١٠٧).

(٢) الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد مولىٰ زيد بن ثابت، حضر الجمعة مع عثمان، وسمعه يخطب، وشهد يوم الدار، وله يومئذ أربع عشرة سنة. دعا له عمر وقال: اللهم فقهه في الدين، وحببه إلىٰ الناس. توفي: ١١٠هـ.السير (٤/ ٥٦٣) وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٣٥)

عمر ﷺ يقول: ليت أمي لم تلدني! فاعلم ذلك، ونزِّه الأكابر إذا مدحوا نفوسهم بحضرة الناس عن قصدهم الأغراض الفاسدة بذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩) ومما أجبتُ به عن الإمام أبي حنيفة ﷺ في قوله بعدم وجوب النية في الوضوء، فإن بعضهم أنكر عليه وقال: قد قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوىٰ»[١] وهذا لم ينو، فكيف يصح وضوؤه؟! فإذا صلىٰ بهذا الوضوء كأنه صلىٰ مع الحدث.

والجواب: أنه لا يجوز الاعتراض علىٰ المجتهدين، وقد قال الإمام ذلك باجتهاد. والحديث يُحتَمل أن يكون المراد به: إنما كمالُ الأعمال بالنيات، نظير: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[٢].

وقد كان عبد الله بن عباس[٣] ﷺ يقول: لا يحتاج شيء من فروع الإسلام إلىٰ نية بعد أن اختار صاحبه الدخول في دين الإسلام، وكذلك كان أبو سليمان الدارانيُّ يقول: كلُّ ما عمل المؤمن من أعمال الإسلام مما لم تحضره فيه نية، فنية الإسلام تجزيه. انتهىٰ. لكن ينبغي حمل كلام ابن عباس والداراني علىٰ من يَقْدِرُ يُشَخِصُ في ذهنه أعمالَ الإسلام كلَّها حين دخل في الإسلام، أو حين ميَّز وفهم حقيقة الإسلام، نظير ما قال الغزاليُّ وغيره: «يجب عليه أن يستحضر جميع أفعال الصلاة حال التكبير» فإنه محمول بلا شك عند العارفين علىٰ من يَقْدِرُ علىٰ ذلك ممن غلبت روحانيتُه علىٰ جثمانيتِه، إذ الأرواح للطافتها تقدِر علىٰ إدراك مئة ألف شيء دفعة واحدة، بخلاف الأجسام لا

---

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٨٩٨) والدارقطني (١٥٥٣) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٤٩٤٥). قال ابن حجر: فائدة حديث «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» مشهور بين الناس وهو ضعيف ليس له إسناد ثابت أخرجه الدارقطني عن جابر وأبي هريرة وفي الباب عن علي وهو ضعيف أيضًا.التلخيص الحبير (٢/ ٣١).

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حبر الأمة وترجان القرآن، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، رأىٰ جبريل عليه السلام مرتين، دعا له النبي ﷺ أن يؤتيه الله الحكمة، وأن يفقهه في الدين، شهد مع علي الجمل وصفين، وكف بصره في آخر عمر، فسكن الطائف ومات بها سنة ٦٨هـ. «الإصابة» (٤/ ١٢١).

تكاد تتعقل الأمور إلا على التدريج شيئًا بعد شيء، فافهم، وإياك والاعتراض على المجتهدين، فإن حكمك حكم قريب العهد بالإسلام بالنسبة إلى من له مئة ألف سنة يطالع في كتب الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوريِّ وإبراهيم التيميِّ في كونهما كانا يلبسان لبس الصبيان تارةً، ولبس الملاحين تارةً، حتى لا يتميز أحد منهما عن العامة، فقال بعض الفقهاء: هذه اللبسة تخل بالمروءة، فكيف فعلها هذان الإمامان؟!

والجواب: أنهما كانا يفعلان ذلك ذبًّا عن أنفسهما أيام الحجاج بن يوسف[1] حتى لا يتعرض لهما بسوء، بقرينة أنه حبس إبراهيم التيمي، وهرب سفيان إلى اليمن، فلبس له ثوبًا معصفرًا، وخرج فلم يعرفه أحد. ولما قال: أخرجوا إبراهيم التيمي من السجن واقتلوه؛ غلطوا فأخرجوا إبراهيم النخعي[2] فقتلوه، فالمعترض على هذين الإمامين في وادٍ، وهما في وادٍ.

ويُحتمَل أن تكون لبسة العلماء في ذلك الزمان تشبه عمائم العامة في الغالب، ولم يكن يتميز عنهم من العلماء إلا بعض أفراد، بخلاف هذا العصر الذي نحن فيه، فإننا تبعنا فيه أحوال من تقدَّمنا من الخلف، فصار تميزنا اصطلاحًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أمير العراق ولد سنة ٤٠-٤١ هـ. قال عون: كنت إذا سمعت الحجاج يقرأ عرفت أنه طالما درس القرآن. وقيل: إنه كان يقرؤه كل ليلة وقال عتبة بن عمرو: ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض؛ إلا الحجاج وإياس ابن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس. أحصي ما قتل صبراً فبلغ ذلك مئة وعشرين ألفا وعرضت بعد موته السجون فوجد فيها ثلاثة وثلاثون ألفا لم يجب على أحدهم قطع ولا صلب. توفي ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ٩٥هـ. انظر:الوافي بالوفيات (١١/ ٢٣٧) وفيات الأعيان (٢/ ٢٩).

(٢) أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي اليماني ثم الكوفي، أحد الأعلام، كان بصيرا بعلم ابن مسعود، واسع الرواية، فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما، وكان رجلًا صالحًا، فقيها. توفي: ٩٦هـ. السير (٤/ ٥٢٠)، حلية الأولياء (٤/ ٢١٩).

(٨١) ومما أجبتُ به عن قول حاتم الأصم[١] ﷺ: «لا يجلس لتعليم العلم في المساجد إلا جامع للدنيا أو جاهل بما عليه من الواجبات» فقد استشكله بعضهم وقال: لم تزل الناس قديمًا وحديثًا يجلسون لتعلم العلم في المساجد، ولا يجوز أن يقال: إنهم كلُّهم جامعون للدنيا وجاهلون.

والجواب: أن كلام الشيخ جرىٰ علىٰ الغالب، وما من عام إلا ويمكن أن يدخله التخصيص إلا إن منع منه الدليل. وقد كان سفيان وطاووس[٢] وبشر الحافي[٣] وغيرهم يقولون: لا يصح لأمثالنا أن يجلس في المساجد علىٰ الحديث؛ خوفًا أن يطرقه عجب بذلك. وكان سفيان الثوري يقول: لو أدركني عمر بن الخطاب وأنا أملي الحديث، لضربني بالدِّرَّة وأقامني، وقال: مثلك لا يصلح أن يملي حديث رسول الله ﷺ، وهؤلاء لا يصلحون لسماعه. وكان عبد الله بن عباس إذا فرغ من تفسير القرآن للناس في المسجد يقول: اختموا مجلسنا بالاستغفار، كأنه يَعُدُّ جلوس مثله في المسجد ذنبًا، إذ الجالس فيه كالجالس بين يدي الله تعالىٰ بلا حجاب، وهو يسمع كلامه ويطلع علىٰ ما يخطر في نفسه، ومن يطيق القيام بمثل ذلك، أو يقدر علىٰ حفظ نفسه من الخواطر الردية التي تمر

---

(١) أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي، الواعظ الناطق بالحكمة، الأصم ولم يكن أصم وإنما أتته امرأة تسأله عن مسألة فخرج منها ريح لها صوت، فتصامم لئلا تستحي وقال لها: أسمعيني صوتك فإني لا أسمع ففرحت لذلك. ت ٢٣٧هـ.السير (١١/ ٤٨٤) اللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٧١).

(٢) أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني اليماني، من أبناء الفرس؛ أحد الأعلام التابعين، وكان فقيهًا جليل القدر نبيه الذكر. قال ابن عيينة: قلت لعبيد الله بن يزيد: مع من تدخل علىٰ ابن عباس قال: مع عطاء وأصحابه. قلت: وطاوس قال: أيهات، كان ذلك يدخل مع الخواص. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحدًا قط مثل طاوس. توفي:١٠٦هـ. وفيات الأعيان (٢/ ٥٠٩) وحلية الأولياء (٤/ ٣).

(٣) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي، كان من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين. ومولده بمرو. قال أحمد بن حنبل: لو كان بشر بن الحارث تزوّج لتمّ أمره. وقال إبراهيم الحربيّ: ما أخرجت بغداد أتمّ عقلًا من بشر ولا أحفظ للسانه، كأن فى كلّ شعرة منه عقلًا ت ٢٢٧هـ. تهذيب الكمال (٤/ ٩٩)، وفيات الأعيان (١/ ٢٧٤).

علىٰ باله؟! فصح قول حاتم: إنه لا يجلس في المسجد إلا جاهل بما عليه من الواجبات، أي واجبات الأدب مع الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢) ومما أجبتُ به عن قول ثابت البناني[١] ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله» فاستشكله بعضهم وقال: كيف تكون النية من غير عمل أفضل من مباشرة العمل؟!

والجواب: أن مراده أن ثمرة النية الصالحة ترجح علىٰ ذلك العمل التي هي فيه، فالتفاضل بين النية وبين العمل الذي باشره المكلف، فما كلُّ عمل يكون فيه الثواب، بخلاف النية الصالحة يترتب عليها الثواب دائمًا تفضلٌ من الله تعالىٰ، وقد يريد ثابت ﷺ بأنها خير من حيث إن الرياء لا يدخلها كما قاله عكرمة[٢] ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣) ومما أجبتُ به عن الإمام الأوزاعي ﷺ في قوله: «إذا جاء الإعراب، ذهب الخشوع من القاريء والسامعين» فقال بعضهم: فماذا يصنع والحديث لا يجوز اللحن فيه؟!

والجواب: أن مراده بالإعراب زيادة التفصح في لغة العرب عن عادة العلماء بالنطق، كالذي يتشدق بالكلام لا مطلق الإعراب، فكأن الشيخ ﷺ يحث السامع للعلم علىٰ ملاحظة تلك المعاني التي في الألفاظ ليعتبر بها، لا علىٰ مراعاة الألفاظ كما هو مشاهَد في كتب الرقائق إذا حضرها نحويٌّ، فيكون الناس يبكون، فبمجرد ما يسأل عن إعراب كلمة يذهب البكاء لوقته. وكان إبراهيم بن أدهم ﷺ يقول: لقد أعربنا في الكلام فلم نلحن، ولحنا في الأعمال، فلم نعرب، ولو عكسنا ذلك لكان أولىٰ! فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ثابت بن أسلم الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو محمد البناني مولاهم البصري، صحب أنس بن مالك أربعين سنة وكان من أعبد أهل البصرة وأكثرهم صبرًا علىٰ كثرة الصلاة ليلًا ونهارًا مع الورع الشديد ت ١٢٧هـ. مشاهير علماء الأمصار ص١٤٥، السير (٥/ ٢٢٠).

(٢) عكرمة أبو عبد الله مولىٰ ابن عباس بربري الأصل من كبار التابعين. كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. طاف البلدان، وروىٰ عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيًا. توفي سنة ١٠٤هـ. تهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٣)، الأعلام (٤/ ٢٤٤).

(٨٤) ومما أجبتُ به عن عمر بن الخطاب ﷺ في ضربه بالدِّرَّة[1] من رآه يصلي ورقبته منخفضة، وقال له: ويحك! إنما الخشوع في القلب. انتهىٰ. قال بعضهم: كيف ساغ له ضربه بالدِّرَّة في الصلاة ولم يكرمه، لكونه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ولم يحسن به الظن وأنه طأطأ رقبته قهرًا عليه لا متفعلًا؟!

والجواب: أن الإمام عمر كان مجتهدًا، فرأىٰ أن ضربه بالدِّرَّة تأديبًا له، لكونه لم يترقَ إلىٰ مقام الأكابر، مع قدرته علىٰ الترقي، فيصير يخشع في صلاته أشدَّ الخشوع ولا يطأطيء رقبته، فيراه الناس فيمدحونه علىٰ ذلك. وليس في الكلام ما يشهد لكون عمر ضربه في الصلاة، فيُحتمَل أنه ضربه حين فرغ منها لما عاتبه. ولا يلزم من ضربه بالدِّرَّة أنه ظنَّ به أنه متفعِّلٌ في الخشوع، أو هو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلا اعتراض، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض[2] في قوله: إذا رأيتم العالم ينشرح لذكره بالعلم والصلاح عند الأمراء وأبناء الدنيا، فاعلموا أنه مراءٍ. انتهىٰ.

والجواب: أن ذلك محمول علىٰ من ينشرح لذلك بغير نية صالحة. أما من رأىٰ أن ذلك من فضل الله عليه، فلا يقدح في إخلاصه، لأن التحدث بنعمة الله واجب، فكذلك الانشراح بها، وقد قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، أي فرحهم بفضل الله هو خير لهم من جميع العلم والعمل به، نظير ما تقدم في تأويل أن نية المؤمن خير من عمله[3]، فاعلم ذلك، واحمل الأكابر علىٰ

---

(١) الدِّرَّة: السوط.

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود الزاهد. كان أولاً شاطرًا يقطع الطريق، ثم تاب وجاور الحرم. وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها سمع رجلا يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: يا رب قد آن. فتاب ورجع وجاور الحرم. قال ابن عيينة والعجلي وغيره: ثقة. ت ١٨٧هـ.السير (٨/ ٤٢١)، تهذيب التهذيب (٨/ ٢٩٤).

(٣) الجواب رقم (٨٢).

حسن الظن بإخوانهم، فإنهم أكثر أدبًا منك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوري والفضيل بن عياض وغيرهم في إغلاظهم علىٰ الخلفاء إذا اجتمعوا بهم، وعدم فتحهم الباب لهم إذا استأذنوا عليهم، ومعلوم أن العلماء والصالحين أكثر الناس أدبًا مع الناس علىٰ اختلاف طبقاتهم، وأحلاهم منطقًا، وكيف صح لهؤلاء الأكابر الهرب من الخلفاء؟ ولمَ لمْ يجتمعوا بهم وينصحوهم إذا علموا منهم العوج في أحكامهم، والظلم لرعيتهم؟

والجواب: أن هؤلاء العلماء كان مذهبهم تقديم السلامة علىٰ الغنيمة، وتقديم النفرة من الولاة حسب الطاقة، لئلا يقتدي بهم من بعدهم من الضعفاء، فيهلكوا بموافقتهم علىٰ أغراضهم الفاسدة والميل إلىٰ دنياهم، والجواب عنهم وعن أفعالهم الخبيثة. ولا يلزم من ذلك رؤيةُ هؤلاء العلماء الصالحين نفوسَهم أفضل من ولاة زمانهم، بل هم يرون نفوسهم أشرَّ من سائر الظلمة، بقرينة ما سيأتي عن الشعبي وغيره أنهم كانوا يتواضعون مع أعوان الولاة ويسألونهم الدعاء، فلولا رؤيتهم أن أعوان الولاة خير منهم ما سألوهم الدعاء. وقد لام بعضهم شعبة[١] علىٰ تقبيل يد بعض الولاة، وسؤاله الدعاء، فقال: قد يكون له أعمال صالحة تكفر عنه كلَّ ذنب فعله كلَّ يوم أو ليلة، وقد لا يكون لي أنا فعل واحد يكفر سيئاتي. انتهىٰ.

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من السلف، فإنهم كانوا أعلم منك وأعرف بمراتب الناس، وأكثر منك تواضعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧) ومما أجبتُ به عن قول عمر بن عبد العزيز والفضيل بن عياض وغيرهما: «من لم تتساوَ سريرته وعلانيته في الخير فهو منافق» كيف يكون منافقًا؟ ومعلوم أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولابد للعبد من سريرة سيئة يستحيي أن يعلم بها الناس.

---

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد الإمام أبو بسطام العتكي الأزدي، مولاهم الواسطي شيخ البصرة وأمير المؤمنين في الحديث. قال الشافعي: لولا شعبة ما عُرف الحديث بالعراق. وقال ابن المديني: له نحو ألفي حديث. توفي: ١٦٠هـ. تهذيب الكمال (١٢/ ٤٧٩)، السير (٧/ ٢٠٢).

والجواب: أن مرادَ هؤلاء بالنفاقِ النفاقُ الأصغرُ الذي لا يخرج به العبد عن الإيمان، كما قال به ابن عباس في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فقال: هو كفر لا يخرج به صاحبه عن دين الإسلام.

وفي وصية الخضر لعمر بن عبد العزيز حين اجتمع به في المدينة المشرَّفة: إياك يا عمر أن تكون وليًا لله تعالىٰ في العلانية، وعدوًّا له في السرِّ، أي إياك أن تُظهِر للناس الأعمال الصالحة وتخفي الأعمال السيئة، بل كن وليًا لله تعالىٰ في السرِّ والعلانية.

وقد كان عقبة بن عبد الغافر[1] يقول: من وافقت سريرته علانيته، قال الله تعالىٰ لملائكته: هذا عبدي حقًّا، ومن خالفت سريرته في السوء علانيته، قال الله تعالىٰ لملائكته: هذا عبد يستهزيء بي لأذيقنه نار جهنم. وكان مالك بن دينار يقول: من أمر الناس بشيء لم يبلغه حاله فهو منافق، إلا إن سأله أحد عن مسألة. وكان يقول: إياك أن تكون في النهار أبا عبد الله الصالح، وفي الليل شيطانًا طالحًا. وكان أبو مسلم الخولاني[2] يقول: لي منذ ثلاثين سنة أجاهد نفسي حتىٰ خلصت من النفاق، ولم يصر لي عمل أستحيي منه إلا قربي من عيالي.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل كلام الأكابر علىٰ ما يوافق قواعد الشريعة، فإن مثلهم لا يجهل حقيقة النفاق الأكبر والنفاق الأصغر، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار ﷺ في قوله: «لو تعلمون ما أفعله إذا أغلقتُ بابي دونكم، ما جلس أحد منكم إليَّ. ولو كنتم تجدون للذنوب رائحة، ما استطاع أحد منكم أن يجلس قريبًا مني لنتن ريحي». انتهىٰ. فظنَّ بعض الناس أن ذلك من سوء ما يتعاطاه من الكبائر.

---

(١) عقبة بن عبد الغافر، تابعي جليل، كان شاكرًا صابرًا ذاكرًا، له رواية، استُشهد سنة (٨٣هـ). «حلية الأولياء» (٢/ ٢٦١) «تاريخ البخاري الكبير» (٣/ ٣١).

(٢) أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب الداراني، سيد التابعين، وزاهد العصر. قدم من اليمن، وقد أسلم في أيام النبي ﷺ ولم يره، ودخل المدينة في خلافة الصديق. كان فاضلًا ناسكًا عابدًا ذا كرامات وفضائل. توفي: ٦٢هـ وقبره بداريا بدمشق. السير (٤/ ٧) وأسد الغابة (٥/ ٢٨٨).

والجواب: أن ذلك من باب هضم النفس، واستعظام معاصي الله بالنظر لمقامهم، فربما خافوا الخسف بهم إذا فعلوا مكروهًا أو خلاف الأولىٰ. واعتقادنا في سلفنا الطاهر أنهم كانوا مطهَّرين من الذنوب التي نقع نحن فيها، وأن لهم ذنوبًا ربما لا نعدها الآن ذنبًا. وقد كان معروف الكرخي ﷺ يقول: لي منذ ثلاثين سنة وأنا أرىٰ أن الله تعالىٰ ينظر إليَّ نظر السخط، لسوء ما أتعاطاه من اشتغالي بغيره عنه. وكان تلميذه السري السَّقطِي[1] إذا قام من النوم يمسح وجهه بيده ويقول: أخاف أن يمسخني الله خنزيرًا وأنا نائم عن خدمته. وكان يقول: إني أحبُّ أن أُدفَن بمكان غير بغداد خوفًا أن لا يقبلني قبري، فأفتضح ويُسيء الناس ظنهم بأمثالي. وكان كثيرًا ما ينظر وجهه في المرآة خوفًا من المسخ، فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل أحدًا من الأكابر علىٰ ارتكابه شيئًا من الكبائر أو الصغائر، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوري ﷺ: «لا تدعوا علىٰ حكامكم إذا ظلموكم، فإنهم ما ظلموكم وإنما جازوكم بذنوبكم». انتهىٰ. قال بعضهم: في هذا إحالة لوقوع اللوم علىٰ الظلمة جملة؛ لأن الحاكم إذا أقام حدَّ شرب الخمر مثلًا علىٰ الشارب، فلا إثم عليه[2].

والجواب: أن ذلك من باب ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، لكن لما كانت ذنوب الخلق في الدنيا غالبها خفيٌّ لا يظهر للناس، نسبوا الظلم إلىٰ الولاة سدًّا لباب الظلم، وإن كان الظالم ما تعدىٰ في نفس الأمر ما يستحقُّه الرعية، فافهم.

وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: إذا لم تتساوَ سريرةُ الناس وعلانيتُهم، فلا

---

(١) السري بن المغلس السقطي، الإمام القدوة شيخ الإسلام، أبو الحسن البغدادي، ولد: في حدود ١٦٠هـ. قال الجنيد: ما رأيت أعبد لله من السري، أتت عليه ٩٨ سنة ما رُئي مضطجعًا إلا في علة الموت. توفي: في شهر رمضان، سنة ٢٥٣هـ. السير (١٢/ ١٨٥)، الرسالة القشيرية (١/ ٤٥).

(٢) أي فلا إثم علىٰ الشارب ليظلمه الحاكم بمظلمة أخرىٰ وقد تطهر بالحد.

يستغربوا ما يحِلُّ بهم من أنواع البلايا والعقوبات. وكان يقول: كان الحجاج الثقفي بلاء من الله تعالىٰ وافق خطيئة. وكان يقول: ليس لمن ابتُلي بجور الحكام دواء أنفع من كثرة الاستغفار.

فعُلِم أنه ليس في كلام سفيان ما يدفع اللوم علىٰ الظالم، بل هو آثم بظلمه للعباد، لأن ذنوبهم التي وقع لهم العقوبة لأجلها لم تظهر في الدنيا بخلاف إقامة الحدود الشرعية، وإنما قصد تنبيه الناس للتوبة من الذنوب، ليسدوا عنهم باب مجازاة الحكام لهم لا غير، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوري أيضًا: «إذا تبسم العالم في وجه الظالم، أو وسَّع له المجلس، أو قبل هدية منه، فقد نقض عرىٰ الإسلام عروةً عروةً». انتهىٰ. كيف صحَّ نقض عرىٰ الإسلام بما ذكر، والعلماء مأمورون بحسن السياسة للملوك ولين القول لهم؟

والجواب: أن مراد سفيان بذلك الزجر والتنفير لا تحقيق المناط، علىٰ قاعدة مذهبه من أن الواجب علىٰ العالم إبقاء أحاديث الزجر والتنفير كما وردت من غير تأويل، من حيثُ إنها أبلغ في الزجر، فإنها إذا أُوِّلت ذهبت حكمتها، فإذا أوَّل العالم حديث: «من غشنا فليس منا»[١] بأن المراد: ليس منا في تلك الخصلة فقط، وهو مِنا في جميع الصفات، استهان ضرورةً بذلك الغِشِّ، وذهب قبحه من عينه، وقلَّ ندمه واستغفاره، بخلاف ما إذا قال: «فليس منا» أي جميع خصال الإسلام، فإن الزجر والتنفير منه يستمر. ويؤيد ذلك ما قاله العلماء من أن من آمن برسل الله كلِّهم إلا واحدًا لم يصح إيمانه، لأن الإيمان لا يتبعض، فكذلك القول في تبري الشارع من إنسان لا يصح تبعيضه، والله تعالىٰ أعلم.

(٩١) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري في قوله: «مصارمة[٢] الفاسق قربة إلىٰ الله عزَّ

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١)، وأحمد (٩٣٩٦).

(٢) صارم فلانٌ فلانًا: قاطَعَه.

وجلَّ» كيف يكون ذلك قربة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ والمؤمن مأمور بتقويم عوج أخيه؟! وإذا صارمه لا يصير يأمره ولا ينهاه، فكيف الحال؟

والجواب: أن مراد الحسن إن شاء الله تعالىٰ أن يصارمه بالقلب فقط. وأما الكلام بالنصح فلا ينبغي تركه، لأنه بذلك يبطل أمره ونهيه له. وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: العصاة والفسقة ضالة كلِّ داعٍ إلىٰ الله تعالىٰ. ولما أنف داود عليه الصلاة والسلام من مجالسة عصاة بني إسرائيل غيرةً لله عزَّ وجلَّ، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج قد أنفتَ عن تقويم عوجه ومجالسته، فلماذا أُرسلت؟ انتهىٰ. فكان داود بعد ذلك يصنع الطعام ويدعو عصاة بني إسرائيل ويتألفهم بالكلام الحلو حتىٰ يقوموا. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل كلام الحسن علىٰ مصارمة الفاسق بوجه شرعيٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢) ومما أجبتُ به عنه قول الفضيل بن عياض رحمه الله كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من أكابر العلماء، ولكنه ابتلي بحب الدنيا[1]. انتهىٰ، كيف وصف معاوية بأنه يحب الدنيا، مع أنه صحابي، والمريد في طريق القوم لا يصح دخوله في طريق القوم إلا إن زهد في الدنيا وكرهها وصار ينقبض خاطره لرؤيتها.

والجواب: أن مراد الفضيل بذلك أن معاوية يحب الدنيا للآخرة لا للدنيا، استنادًا إلىٰ قوله تعالىٰ للصحابة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أي يريد الدنيا للآخرة، ويريد الآخرة لله تعالىٰ، فسمىٰ الفضيل محبة الآخرة دنيا بالنسبة للمقام الذي فوقه، وثم مقام رفيع ومقام أرفع. ولا يقدح في مقام الصحابي إلا محبة الدنيا للدنيا. وأيضًا فإن قتال معاوية لعليٍّ كان باجتهاد، والمجتهد مأجور وإن أخطأ. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأكابر وأحوالهم علىٰ أحسن الأحوال، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) قد مرَّ نسبة الشيخ هذا الكلام لسفيان الثوري، انظر الجواب رقم (٧٣).

(٩٣) ومما أجبتُ به عن قول السيِّد محمد بن الحنفية ﷺ: «من أحبَّ رجلًا من أهل النار لخير ظهر منه، أَجَرَهُ الله علىٰ ذلك» كيف صحت محبة الكافر مع وجوب كراهتنا له، ووجوب عداوته.

والجواب: أن المؤمن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فعين يعادي الكافر بها من حيثُ صفاتُ الكفر، وعينٌ يرحمه بها من حيثُ كونُه تحت جريان الأقدار، وعينٌ يحبُّه بها من حيثُ وصفُه بالإحسان إلىٰ الناس، فالمؤمن مأجور، وإن كان الكافر غير مأجور.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: عداوتنا للكفار عداوة صفات لا عداوة ذات، لأنها لو كانت عداوة ذات ما وجب علينا حبُّ ذاته إذا أسلم، بل كانت العداوة تدوم بدوام ذاته، فما كره الذات من كرهها إلا بحكم التبعية للصفات، وهم الجم الغفير من الناس، فإذا كرهوا أحدًا، كرهوه ذاتًا وصفة، فاعلم ذلك.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: قتالنا للكفار حتىٰ يسلموا إنما هو محبة لهم، فما أهلكناهم إلا طلبًا لسعادتهم، كلُّ ذلك قيامًا بما علينا من النصح، فإنه كما يجب علينا نصح المسلم، كذلك يجب علينا نصح الكافر، صرح به المحققون، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤) ومما أجبتُ به عن الإمام الأوزاعي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]: «الصغيرة هي التبسم، والكبيرة هي القهقهة» ووافقه علىٰ ذلك الشعبي[١]، فكان يقول: «التبسم في هذه الدار من الصغائر، والقهقهة فيها من الكبائر» ثم يتلو قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] انتهىٰ، كيف صح لهما تسمية التبسم صغيرة مع ما ثبت أنه ﷺ كان «ضحكه التبسم»[٢]؟

(١) الشعبي عامر بن شراحيل بن عبد، ولد في إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها. قال عن نفسه: أدركت خمس مائة من أصحاب النبي ﷺ. وقال أبو بكر الهذلي: قال لي ابن سيرين: الزم الشعبي، فلقد رأيته يُستفتىٰ وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون. توفي: ١٠٣هـ. السير (٤/ ٢٩٤) وحلية الأولياء (٤/ ٣١٠).

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٢٦) والبيهقي في «الشعب»(١٣٦٢)والطبراني في الكبير (٤١٤).

والجواب: أن الإمام ﷺ ربما أراد بالتبسم الضحك الذي له صوت، لا التبسم الذي لا صوت فيه، والشيء قد يُطلَق علىٰ الشيء بضرب من التشبيه، ولا يشترط مساواته من كلِّ وجه، أو يكون خطاب الإمامين بذلك للعامة لا الخاصة، فإن الخاصةَ ربما تبسم بعضُهم وقلبه يبكي، فأراد من العوام سدَّ الباب بمنعهم من التبسم، لأنهم لا ينضبطون عليه، بل ينتقلون منه إلىٰ الضحك، ثم إلىٰ القهقهة.

وذكر العلماء أن حدَّ الضحك أن يكون بصوت يسمعه من قرب، فإن سمعه من بعد فهو قهقهة. وبالجملة فلكلٍّ مقام رجال، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥) ومما أجبتُ به عن قول يحيىٰ بن الحسين[1] ﷺ: «إذا سألتم الله العافية، فقولوا بعدها: إن كان لنا في ذلك خير، فإن العافية ربما كانت أشدَّ ضررًا علىٰ العبد من المرض. ولو أن فرعون أصابه مرض ما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] أبدًا» انتهىٰ. فقال بعضهم: إن الشارع أطلق الأمر بسؤال العافية ولم يقيده، فالأولىٰ عدم التقييد.

والجواب: أن ذلك التقييد من باب التفويض إلىٰ الله تعالىٰ، وهو مشروع للأكابر احتياطًا لأنفسهم، بخلاف العامة تطلب من الله العافية ولا تنظر ما عليها من حصول العافية من العتوِّ والتجبر. وقد قال المحققون: إن غالب الشريعة إنما جاءت علىٰ قدْر مرتبة ضعفاء المؤمنين، ولم يجيء منها علىٰ قدْر مرتبة العارفين إلا بعض أحكام، كلُّ ذلك توسعةً للأمة، لسبق الرحمة الغضب[2]. فعُلِمَ أن قول الشيخ في غاية الأدب مع الله تعالىٰ والتفويض إليه، فلا اعتراض، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يحيىٰ بن الحسين بن القاسم الحسني العلوي الرسي إمام زيدي. ولد بالمدينة. وكان يسكن «الفرع» من أرض الحجاز، مع أبيه وأعمامه. له مصنفات منها: «الإحكام في الحلال والحرام والسنن والأحكام» «المسالك في ذكر الناجي من الفرق والهالك». في أيامه ظهر القرامطة في اليمن وقصدوا الكعبة سنة ٢٩٨هـ لهدمها فقاتلهم ت ٢٩٨هـ. الأعلام (٨/ ١٤١)، ومعجم المؤلفين (١٣/ ١٩١).

(٢) إشارة للحديث القدسي الذي أخرجه البخاري (٧٤٢٢) من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما قضىٰ الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي».

(٩٦) ومما أجبتُ به عن قول بشر الحافي: «إذا رأيتم علىٰ وجه الرجل نورًا، فاستعيذوا بالله منه» فقال بعضهم: كيف نستعيذ بالله من مؤمن طفح نور قلبه علىٰ ظاهره؟

والجواب: أن مراد الشيخ إنما هو الاستعاذة ممن ظهر نورُه علىٰ وجهه وخلا قلبه من النور، وصار لا يفرق بين الحقِّ والباطل. وصاحب هذا الحال ينبغي الاستعاذة من حاله؛ لأنه يقع حينئذٍ في كلِّ رذيلة، ولا يهتدي للتوبة منها. وليس مراده من كان نوره في قلبه مع وجهه، فإن ذلك من علامة الولاية، فافهم. **ولم تزل الأكابر كلهم يخفون أعمالهم ويؤخرون ثمرتها للدار الآخرة، فإن من عُجِّلت له ثمرة أعماله، ذهب إلىٰ الآخرة صِفْر اليدين.**

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: من نعمة الله علىٰ العبد أن يجعل نوره في قلبه، ويجعل ظاهره كآحاد المؤمنين لا يتميز عنهم بنور وجه ولا غيره، ومثل هذا الذي يذهب إلىٰ الآخرة فأجره موفر لم ينقص منه شيء، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧) ومما أجبتُ به عن قول ابن السَّمَّاك[1] رضي الله عنه: «إذا ذُكِرَ بين يديكم أحدٌ من العصاة فالعنوه» قال قائلٌ: كيف ذلك؟! وقد صرح العلماء بأنه لا يجوز اللعن لمعيَّن إلا بوحي من الله، كلعن إبليس، أو يكون اللعن لجملة من الطوائف غير معينين، كقولنا: لعن الله اليهود.

والجواب: أنه ربما يكون مراد الشيخ باللعن هو السب للعاصي وتقبيح فعله، حتىٰ لا يتبعه أحدٌ علىٰ ذلك، فإن حقيقة اللعن هو الإخبار عن الله عزَّ وجلَّ بأنه طرده من حضرة قربه في الدنيا والآخرة، وهذا لا يتوصل أحدٌ إليه الآن لانقطاع الوحي، فاعلم ذلك.

ويُحتمَل أن يكون مراده بالعصاة من وقع في المكروه أو خلاف الأولىٰ، فضلًا عن الحرام، لأن لكلِّ منهيٍّ لعنًا يشاكله، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإلا

(١) أبو العباس محمد بن صبيح العجلي مولاهم، الكوفي، ابن السماك، كوفي قدم بغداد زمن هارون الرشيد فمكث بها مدة، وعظ الرشيد مرة، فقال: يا أمير المؤمنين! إن لك بين يدي الله مقامًا، وإنه لك من مقامك منصرفًا، فانظر إلىٰ أين تكون؟! فبكىٰ الرشيد كثيرًا. توفي: ١٨٣هـ. السير (٨/ ٣٢٨)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٤٧).

فأين لعن الكافر من لعن المسلم إذا عصىٰ؟! والحمد لله رب العالمين.

(٩٨) ومما أجبتُ به عن سفيان بن عيينة رحمه الله لما سأله أبو نُوَاس الشاعر[١]: كيف يكتب الملكان ما همَّ به العبد ولم يعمل به؟ فقال: «إن الملكين لا يعلمان الغيب، ولكن العبد إذا همَّ بحسنة، يفوح منه رائحة المسك، فيعلمان أنه قد همَّ بالحسنة؛ وإذا همَّ بالسيئة تفوح منه رائحة النتن، فيعلمان أنه همَّ بالسيئة، فيكتبان حينئذٍ ما همَّ به العبد». قال قائل: إن الملكين لا يكتبان الهم كما صرح به الحديث[٢]، وإنما يكتبان ذلك إذا تكلم به، قال تعالىٰ في الملكين: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢] ما قال: يكتبون ما تفعلون.

والجواب: أنه يُحتمَل أنه أراد بالهمِّ العزمَ المصمِّمَ، بحسب ما أدَّىٰ إليه اجتهادُه لا مطلق الهمِّ، بقرينة ما جاء في الشريعة من الأحاديث، نحو حديث: «إن الله تعالىٰ تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[٣].

وقد صرح الشيخ محيىٰ الدين بن العربي بأن الملكين لا يكتبان أفعال العبد إلا إذا تكلم بها، وقال: فعلت كذا وكذا، وما لم يتكلم به من الأفعال يحاسبه الحقُّ تعالىٰ عليه فيما بينه وبينه من غير كتابة الملائكة. انتهىٰ[٤]. ولعل سؤال أبي نواس إنما هو كيف يعلم الملكان ما هم به العبد؟ لا كيف يكتب الملكان؟ وذكر الكتابة تحريف، والله أعلم.

(٩٩) ومما أجبتُ به عن قول مالك بن دينار: دخلتُ علىٰ جار لي في مرض موته، وكان مُسرفًا علىٰ نفسه، فقلت له: يا فلان، تب إلىٰ الله ، فلعلك تموت تائبًا! فإذا بهاتف يقول لي من جانب البيت: إن كان توبته مثل توبتك التي تتوبها ثم تنقضها، فلا فائدة

---

(١) أبو نواس الحسن بن هانيء الحَكَمي الأديب شاعر العراق. ولد: بالأهواز، ونشأ بالبصرة. شعره في الذروة ولكن فسقه ظاهر، وتهتكه واضح، وكان من أعلم الناس باللغة. وتاب أواخر عمره. توفي ١٩٦هـ. السير (٩/ ٢٧٩)، والعبر في خبر من غبر (١/ ٣٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، والنسائي (٥٥٩٧).

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٤١٧).

فيها. انتهىٰ. قال قائل: كيف جعل هذا الهاتف الوقوع في ذنب بعد التوبة ثم يتوب العبد منه لا فائدة فيه، ومذهب أهل السنة والجماعة أن التوبة فيها الفائدة، وأنها تُقبل بعد نقضها، ولو عاد في اليوم الواحد سبعين مرة للأحاديث الصحيحة في ذلك[1].

والجواب: أن كلام الهاتف إنما هو من باب الاعتبار والتوبيخ، فلا ينافي قبول التوبة بعد نقضها، وقد تقدم بسط ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أي المكثرين للتوبة، ولا يكون الإكثار للتوبة إلا إن تكرر الذنب، سواءٌ أكان من نوع واحد أو أنواع. وليست التوبة النصوح بيد العبد، إنما ذلك بيد الله، فإنه تعالىٰ ما دام يخلق للعبد الذنب فلا يمكنه التوبة، فإذا ترك الحقُّ تعالىٰ خلقَ الذنب، تاب العبد لا محالة، حتىٰ لو أراد أن يذنب لما وجد ذنبًا يقع فيه.

وربما كان مالك رضي الله عنه حين أمر ذلك المريض المسرِف علىٰ نفسه بالتوبة ناسيًا نفسه وعنده أن مثله تائب، فنبهه الهاتف علىٰ أن يلقي باله لنفسه، فربما كانت توبته لم تُقبَل وهو يعتقد أنها قُبِلَت. **ولم يزل الحقُّ تعالىٰ من فضله يربي الأكابر بالأصاغر، ويحذرهم مما لعله يقع منهم في المستقبل**، فكلام الهاتف صحيح، ومعنىٰ «لا فائدة فيها» أي كاملة، والله تعالىٰ أعلم.

(١٠٠) ومما أجبتُ به عن وُهَيب بن الورد[2] رضي الله عنه في كونه كان لا يخبر الطبيب عن الألم[3] إذا سأله ويقول: أشكو ربي إلىٰ خلقه؟! قال قائل: ليس في مثل ذلك شكوىٰ

---

(١) أخرج أبو داود (١٥١٤) من حديث أبي بكر الصديق، رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة» والترمذي (٣٥٥٩).

(٢) وهيب بن الورد بن أبي الورد القرشي المخزومي أبو أمية. ويقال: أبو عثمان المكي، من المتجردين للعبادة والمتقشفين في الزهادة والمواظبة علىٰ الجهد الجهيد والصابرين علىٰ الفقر الشديد. قال ابن المبارك: قيل لوهيب: يجد طعم العبادة من يعصي؟ قال: ولا من يهم بالمعصية ت ١٥٣هـ. مشاهير علماء الأمصار ص٢٣٤، السير (٧/ ١٩٨).

(٣) بالأصلين: الهم.

الرب جلَّ وعلا، إنما ذلك سعي في أسباب التداوي وهو سنة، فكيف الحال؟!

والجواب: أن وهيبًا ﷺ كان مشهده إذ ذاك طلب الشفاء من الله تعالىٰ، وأنه أعلم بسريرته ومرضه من الطبيب، وأرحم به منه، فلذلك لم يخبر الطبيب بحاله، وإن كان الإخبار أكمل عند الجمهور، لأن فيه استعمال الوسائط والعقاقير، وعدم تعطيلها عن استعمالها فيما خُلِقَت له، وهو معنىٰ قوله ﷺ: «اللهم اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك»[1] أي أنت الشافي لا العقاقير والطبيب، سواء استُعمِلا أو تعطلا، فإن الله تعالىٰ يخلق الشفاء عندها لا بها.

ومرض وهيب مرةً أخرىٰ، فأتوه بطبيب نصرانيٍّ، فقال له: ما تجد؟ فقال: معاذ الله أن أخبرك بما بي! فقال له القوم: أخبرنا ونحن نخبره. فقال: سبحان الله! أين عقولكم؟! أتأمروني أن أشكو ربي إلىٰ عدو من أعدائه؟! انتهىٰ.

ويُحتمَل أن يكون امتناع وهيب من إخبار الطبيب إنما هو لمحبته لدوام المرض، بقرينة أن شداد بن حكيم[2] كان كلما حُمَّ بالمرض يتصدق بمئة درهم شكرًا لله علىٰ المرض. وهو مقام عمر بن الخطاب ﷺ، كان لا يتداوىٰ بإشارة طبيب ويقول: والله لو علمتُ أن شفائي في مس أذني ما مسستُها، نِعْمَ ما يفعله ربي بي. فلكل حال رجال، ولكن التحقيق أن العبد إن خاف من الوقوع في اشمئزاز نفسه من البلاء وكثرة الضجر، فالأفضل له التداوي. وإن علم من نفسه الرضا بالمرض، فالأفضل له عدم التداوي. وكذلك من تعطَّل بالمرض عن السعي علىٰ والديه مثلًا الأفضلُ له التداوي، ليقوم بما هو أفضل من المرض- أي من أجره- والحمد لله رب العالمين.

(١٠١) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوريِّ ﷺ: «قل أن ينفك مريض عن هذه

---

(١)جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) شداد بن حكيم البلخي، أبو عثمان. من أصحاب زفر. قال ابن حبان: أحب مجانبة حديثه لتعصبه في الإرجاء وبغضه من انتحل السنن أو طلبها، وكان مرجئًا مستقيم الحديث إذا روىٰ عن الثقات. توفي ٢١٠هـ. لسان الميزان (٤/ ٢٣٧).

الأربع خصال: الطمع، والكذب، والشكوىٰ، والرياء» فقال قائل: ولمَ لمْ يحمل سفيانُ المريضَ علىٰ أنه يفعل هذه الأربع لغرض محمود؟

والجواب: أن كلامه في حقِّ آحاد الناس من العوام، فإنه ربما يطمع في إحسان كلِّ من يدخل عليه يعوده، ويكذب في دعوىٰ شدَّة المرض، ويشكو إلىٰ عُوَّاده مع غفلته عن الله، ويرائي بدعواه أنه علىٰ طريقة حسنة في دينه، بخلاف الأكابر لا يقعون في مثل ذلك، وإن طمعوا فإنما ذلك في رحمة الله أو في الخلق من غير وقوف معهم، بل يرونهم أبوابًا يخرج منها عطاءُ الحقِّ تعالىٰ. وإن كذبوا فإن ذلك بكتمهم المرض أو شدَّته عن الخلق، وإن شكوا فإنما ذلك حقيقة إلىٰ الحقِّ لا إلىٰ الخلق، وإن رآوا فإنما ذلك للحقِّ من باب «أروا الله من أنفسكم خيرًا»[1] وذلك لا يقدح في كمالهم.

وقد كان محمد بن سيرين ﷺ قليل الشكوىٰ، فمرض مرضًا شديدًا، فشكا ذلك إلىٰ إخوانه، ليدعوا له باللطف حيث لم يطق حمله، فكانوا إذا قالوا له: كيف نجدك؟ يقول: أجدني في بلاء شديد، أجوع فلا أستطيع أن أشبع، وأعطش فلا أستطيع أن أروىٰ، وأرقد فلا أذوق الكَرَىٰ[2]. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأكابر إذا اشتكوا في مرضهم علىٰ أن تلك الشكوىٰ حقيقة إنما هي إلىٰ الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢) ومما أجبتُ به عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ حين قال في مرض موته: «اللهم اغفر للشيخ العاصي ذي القلب القاسي» فقال قائل: هذا تصريح منه بأنه كان ظالمًا علىٰ علي بن أبي طالب ﷺ.

والجواب: أن الذي عليه جمهور العلماء أن ما وقع بينه وبين عليٍّ كان باجتهاد من كلٍّ منهما. ولا يلزم من وصفه نفسه بالعاصي أن يكون مراده أنه عاصٍ في قتاله لعليٍّ، فقد يكون قال ذلك هضمًا لنفسه بين يدي ربه، أو أدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ أن النقص في

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢٣٨)، والشاشي في المسند (١٣٢٤).

(٢) الكَرَىٰ: النوم.

الطاعات من حيثُ تركُ الحضورُ فيها مع الله معصية، كما هي عليه الأكابر من أهل الله، فقد كان الفضيل بن عياض يقول: إني لأنصرف من صلاتي وبي من الخجل والحياء من الله ما هو أعظم من انصرافي عن الزنا. وقد طلب أكابر الأنبياء من الله المغفرة لذنوبهم وخطاياهم، مع أنهم لا ذنوب لهم ولا خطيئات حقيقة. فاعلم ذلك، والزم الأدب مع الأكابر، ولا تدخل بينهم وبين ربهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣) ومما أجبتُ به عن أبي ذر رضي الله عنه[1] في تشديد طلوع روحه عليه، مع كونه زاهدًا في الدنيا لا علاقة له فيها تطلب روحه الإقامة في الدنيا لأجلها.

والجواب: أن تشديد طلوع الروح لا يلزم أن يكون سببه محبة الدنيا، فقد يكون ذلك رفعةً لمقام ذلك الميت، ليعظِّم الله له الأجر. ويُحتمَل أن يكون ذلك أيضًا لمحبة العبد في طاعة الله تعالىٰ، وإقامة شعار دينه، ونصرة شريعة نبيه. وقد شدَّد الله تعالىٰ علىٰ الأنبياء طلوعَ روحهم تعظيمًا لأجورهم، لأن ذلك هو الذي صاروا يقدرون عليه من أعمالهم الصالحة.

وقد سمع عطاء السُّلَمِيُّ[2] أصحابه وهم يدعون له بالتهوين لما حضرته الوفاة، فقال لهم: لا تدعوا لي بالتهوين، بل ادعوا لي بالتشديد، لأنه آخر أعمالي. ثم قال: والله إني لأودُّ أن روحي تردد بين لَثَاتي[3] وحنجرتي إلىٰ يوم القيامة، خوفًا مما أهجم عليه بعد الموت. فعُلِمَ أن دعاء السلف لبعضهم بأن الله يهوِّن عليهم سكرات الموت محمولٌ علىٰ من يُخاف عليه الوقوع في السخط، فيختم عمره بالسيئة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أبو ذر الغفاري مختلف في اسمه والمشهور أنه جُندب ـ بتثليث الدال ـ بن جنادة، كان من السابقين إلىٰ الإسلام، أسلم بمكة ثم رجع إلىٰ قومه، ثم هاجر إلىٰ مكة، قيل: أسلم بعد أربعة، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، توفي بالربذة سنة ٣٢ هـ. الإصابة (٧/ ١٠٥).

(٢) عطاء السلمي الزاهد، عابد أهل البصرة، من صغار التابعين، أدرك زمان أنس بن مالك، وسمع من الحسن البصري، أرعبه فرط الخوف من الله، مات بعد ١٤٠ هـ. السير (٦/ ٨٦).

(٣) اللثاة: لحمة مُشْرفة علىٰ الحلق في أقصىٰ سقف الفم.

(١٠٤) ومما أجبتُ به عن قول وهب بن مُنَبِّه ﷺ: «لا يبلغ أحد مقام الرضا من الله تعالىٰ عليه إلا إن علم أن الله يراه علىٰ الدوام» قال قائل: هذا لا يصح لإجماع المحققين علىٰ أن مراقبة الله تعالىٰ علىٰ الدوام ليست من مقدور البشر، فكيف الحال؟!

والجواب: أن كلام وهب ﷺ محمول علىٰ الغالب من حال الأولياء، وكلُّ ما غُلِبَ عليه العبد فهو مغفور له. وقد يريد وهب مقام رضا الله عن الأكابر، كالأنبياء وكُمَّل الأولياء، لا رضاه عن آحاد المؤمنين، إذ الرضا يتفاوت بتفاوت درجات الناس، فالأنبياء وكُمَّل الأولياء في مقام المراقبة كالملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] لخلوص طينتهم من الكدورات البشرية، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار ﷺ في كونه كان لا يخرج مع الناس إذا دُعي[١] للاستسقاء، ويقول: «أخاف أن تمطر السماء عليكم حجارة بخروجي معكم» قال قائل: هذا قريب من القنوط من رحمة الله، وذلك لا يليق بمقام مالك بن دينار، إذ الكمال أن لا يرىٰ العبد عذاب الله أرجح من حلمه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ [فاطر: ٤٥] ومالك معدود من الكُمَّل بلا شك.

والجواب: أن الكاملَ يكنىٰ «أبا العيون» فربما كان مالك يرىٰ استحقاقه أن الله يمطر عليه الحجارة بعين، ويرىٰ فضلَه سابغًا عليه لا يعاجله بالعقوبة بالعين الأخرىٰ، ولكن فعل ذلك لينبِّه من كان في غمرة عن شهود نقائص نفسه من عموم الناس، ليأخذوا في التوبة والاستغفار قبل الخروج، حتىٰ يجابوا بنزول المطر عليهم، وليس ذلك من القنوط من رحمة الله في شيء، إنما السلف الصالح كلُّهم كانوا كذلك علىٰ قدم الخوف، ليقتدي بهم العامة في ذلك، إذ لو سلكوا طريق الرجاء، لهلك أتباعهم ووقعوا في كلِّ معصية.

وقد كان سفيان الثوري ﷺ يقول: بلغنا أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتىٰ أكلوا الميتة والأطفال، فكانوا يخرجون إلىٰ الجبال ويتضرعون فلا يُجابون، فأوحىٰ الله

---

(١) بالأصلين: ادعىٰ.

إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام: «قل لهم: لو عبدتموني حتىٰ صرتم كالسوط البالي ما قبلتُ لكم دعاءً حتىٰ تردوا المظالم إلىٰ أهلها» فلم يردُّوا المظالم، فماتوا كلهم عطشىٰ. انتهىٰ. ولربما كان امتناع مالك من الخروج لعلمه بأن أهل البصرة كلَّهم لا يسلمون من المظالم، فرأىٰ أن خروجه بهم لا يفيد، وكان نزول الحجارة عليهم بسببهم لا بسببه هو، وليس عنده رائحة قنوط أصلًا. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا الأكابر علىٰ المحامل التي تليق بهم، أو سلِّموا لهم أحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦) ومما أجبتُ به عن عبد الله بن الزبير[١] حين أدخلوا عليه رجلاً قد أحدث، فدعا بالسياط ليضربه، فقال له الرجل: أسألك بمن تكون يوم القيامة بين يديه أذلَّ مني بين يديك هنا إلا عفوتَ عني. فنزل بن الزبير عن سريره وألصق خده بالأرض و قال: قد عفوتُ. قال قائل: كيف ترك ابن الزبير إقامة الحدِّ علىٰ من استحقَّ الحد بسؤاله، مع وجوب إقامة الحدود علىٰ الحاكم إذا بلغ الأمر إليه؟!

والجواب: أنه قد يكون ذلك حد قذف يتعلق بابن الزبير أو بغيره وعفا عنه، أو علم منه الرضا بما يحكم به عليه وله بقرائن الأحوال، أو عَلِمَ أنه يحصل بإقامة الحدِّ علىٰ ذلك الرجل مفسدةٌ هي أعظم من مفسدة ترك إقامة الحد، أو يكون مرادهم بقولهم في الرجل: «إنه أحدث» أي وقع فيما يوجب التعزير، فأطلقوا عليه أنه أحدث توسُّعًا، إذ المراد بالحدث في عرف السلف الزنا أو القتل ونحو ذلك.

وقد يكون ترك إقامة الحد المذكور لغلبة عظمة الله تعالىٰ علىٰ قلب ابن الزبير حين سأله الرجل به، فمنعته تلك العظمة أن يؤاخذه، ولولا سؤاله له بالله لأقامه عليه. وقد يكون ترك ذلك باجتهاد لا لمجرد السؤال وحده، والله أعلم.

(١٠٧) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوري ﵀: «من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته،

---

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام، أول مولود في الإسلام بالمدينة من المهاجرين، بويع بالخلافة في سنة أربع وستين، وحكم علىٰ الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان وأكثر الشام، ت سنة ٧٣ هـ. تاريخ الإسلام (٢/ ٨٢٩)، الإصابة (٤/ ٧٨).

ومن أدخل الدنيا بيته، كثر تردد إبليس إليه؛ لأن الدنيا ابنته، ومن كثر تردد إبليس إليه أوقعه في العظائم، فاحذروا من التزويج» قال قائل: إن التزويج من سنن المرسلين، ولم يأت لنا في حديث واحد النهي عن التزويج، وإنما ورد التحذير منه.

والجواب: أن سفيان رضي الله عنه لم ينه عن التزويج كما ترىٰ، وإنما حذَّر منه ليأخذ الإنسان حذره منه، وينوي به السنة وامتثال أمر الله تعالىٰ، لا محض قضاء الأوطار الفانية، فإن الحديث: «من تزوج لله كفي ووقي»[1]. انتهىٰ.

وإن صح عن سفيان أنه نهىٰ عن التزويج، فمراده من تزوج بغير نية صالحة، كما حملوا عليه قول: «إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإن وُلِدَ له أولاد فقد كُسِرَت به المركب» فليس كلُّ من وُلِدَ له أولاد يُكْسَر به المركب كما هو مشاهد، فاعلم ذلك، واحمل الأكابر علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨) ومما أجبتُ به عن أحمد بن حرب[2] التابعي الجليل في قوله: «ينبغي للرجل إذا بلغ الأربعين سنة أن يترك المعاصي جملة، وكذلك إذا طلع الشيب في رأسه، أو حج إلىٰ بيت الله الحرام، كما ينبغي له ترك الزنا إذا تزوج» قال قائل: هذه الأمور ليست سبب تحريم المعاصي، لأنها محرمة قبلها ومعها وبعدها.

والجواب: أن مراده رضي الله عنه أن المعاصي بعد هذه الأمور أشدُّ قبحًا من فعلها قبل ذلك، كما قال العلماء: إنه يُستحَبُ للصائم تركُ الغيبة وغيرُها من المعاصي، مع أن الغيبة وسائر المحرمات يجب تركها في حال الإفطار كذلك، وإنما قصدوا أنها في الصوم أشدُّ قبحًا. ومن هنا قال كعب الأحبار[3] رضي الله عنه: الشاب المتعبد أحب إلىٰ الله من الشيخ المتعبد. انتهىٰ،

---

(١) لم أقف عليه، وقد ذكره المؤلف في تنبيه المغترين ص٧٧.

(٢) أحمد بن حرب بن فيروز أبو عبد الله النيسابوري، الإمام القدوة شيخ نيسابور الزاهد كان من كبار الفقهاء والعباد، له مصنفات منها: «الأربعين» «عيال الله» و«الزهد». وقيل: إنه استسقىٰ لهم ببخارىٰ، فما انصرفوا إلا يخوضون في المطر، ت ٢٣٤هـ. السير (١١/ ٣٢)، العبر في خبر من غبر (١/ ٤١٦).

(٣) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع الحِمْيَرِي اليماني، كان يهوديًا فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ وقدم المدينة في

لأن الشاب أطاع الله تعالىٰ مع هيجان نار شهوته عليه، والشيخ أطاع الله بعد خمودها، والأجر يعظم بحسب وجود المشقة فيه، وفي الحديث: «يعجب ربك من شاب ليست له صبوة»[١]. انتهىٰ، فما قال: يعجب ربك من شيخ. وفي الحديث: «من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيرُه شرَّه، فليتجهز إلىٰ النار»[٢]. انتهىٰ، فما طلب الشارع من العبد شدةَ غلبة خيره شره إلا بعد الأربعين، ونظائر ذلك كثيرة في الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩) ومما أجبتُ به عن سعيد بن عامر[٣] ﷺ أنه قيل له مرة: يا أصلع؛ فتكدر لذلك غاية التكدر، فقال قائل: هذا من أكابر التابعين[٤]، فكيف تكدر من مثل هذه الكلمة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي حمله علىٰ أن تكدره لحظ نفسه، وإنما ذلك لما ورد في الآثار أن الملائكة تلعن من وصف إنسانًا بما ليس فيه[٥]، فكان تكدُّرُه إنما هو رحمة بذلك الشخص، وخوفًا عليه من اللعن المذكور، بدليل قوله لشخص آخر قال له:

أيام عمر ﷺ فجالس الصحابة وكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويأخذ السنن عنهم ت ٣٢هـ بحمص، وكان ذاهبًا للغزو في أواخر خلافة عثمان ﷺ. السير (٣/ ٤٨٩)، الأعلام (٥/ ٢٢٨).

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧١)، وأبو يعلىٰ الموصلي (١٧٤٩).

(٢) ذكره الديلمي في مسند الفردوس(٥٥٤٤) وقال العجلوني في: « كشف الخفاء» (٢/ ٢٥٩) أخرجه الأزدي في ترجمة بارح عن عبد الله بن مالك الهروي بسنده إلىٰ ابن عباس رفعه. قال القاري: وأشار إليه الخطيب حيث قال: عجب من المؤلف، يقرره وعلامة الوضع لائحة عليه!! وقال القاري: قلت: وإن كان العلامة علىٰ إسناده فمسلم؛ وإلا فليس في معناه ما يدل علىٰ بطلان مبناه. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٧٩).

(٣) سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي القرشيمن كبار الصحابة وفضلائهم، أسلم قبل خيبر،وهاجر فشهدها وما بعدها، وولّاه عمر حمص، وكان مشهورا بالخير والزهد، ولاه عمر علىٰ بعض الشام، ت ٢٠هـ. الإصابة (٢/ ٩٢)، حلية الأولياء (١/ ٢٤٤).

(٤)الصحيح أنه صحابي، وقصة هذا الرجل القائل لسعيد بن عامر: يا أصلع، ذكرها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ١٦٥).

(٥) من كلام سعيد بن عامر. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ١٦٥).

يا أصلع، وكان لا يعرفه، فتبسم له وقال: يا أخي، ألم تكن غنيًّا عن لعن الملائكة؟! إني لستُ بأصلع. فعُلِمَ أن الأكابر محفوظون من الرعونات والغضب لحظِّ نفوسهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠) ومما أجبتُ به عن شقيق البَلْخيِّ[١] ﷺ في قوله: «من انشرح قلبه لدخول الدنيا عليه فهو منافق» قال قائل: هذا إطلاق في محل التفصيل وذلك خطأ، فإن من انشرح لدخول الدنيا عليه، لينفقها في مرضات الله تعالىٰ، فهو محمود شرعًا، فكيف يكون منافقًا؟!

والجواب: أن كلام شقيق محمول علىٰ من يحب الدنيا لغرض فاسد، وإلا فمثله لا يجهل أن انشراح القلب لكلِّ شيء فيه مرضات الله تعالىٰ محمود شرعًا، لأنه من فضل الله ورحمته، وقد قال تعالىٰ فيهما: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، فليفتش الإنسان نفسه يعرف مقامه هل هو سالم من النفاق أم واقع فيه. ويصح حمل كلام شقيق علىٰ مرتبة الإطلاق، وأن قلب كلِّ إنسان ينشرح لدخول الدنيا عليه ولو ارتفعت درجته، ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من حيثُ إن النفاق يدق في غير المعصومين ولا ينقطع، كما قاله المحققون، والحمد لله ربِّ العالمين.

(١١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: «أنا بحمد الله ممن تساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حد سواء» فلاث به الناس وقالوا: فلان يدعي دعاوىٰ عريضة، وهو أكذب من مُسيلَمة الكذَّاب[٢].

---

(١) الإمام الزاهد شيخ خراسان أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي، من شاهير مشايخ خراسانكان أستاذ حاتم الأصم، صحب إبراهيم بن أدهم، وكان من كبار المجاهدين، استشهد في غزاة كولان سنة ١٩٤هـ. طبقات الصوفية ص٦٣، السير (٩/ ٣١٣).

(٢) مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي الوائلي أبو ثمامة: متنبيء من المعمرين. ولد ونشأ باليمامة. وتلقب في الجاهلية بالرحمن. وادعىٰ النبوة في زمن النبي ﷺ، وتوفي النبي ﷺ قبل القضاء علىٰ فتنته، فلما انتظم الأمر لأبي بكر، انتدب له خالد بن الوليد فقضىٰ عليه وعلىٰ فتنته. وقتل ١٢هـ. الأعلام (٧/ ٢٢٦)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٦/ ٣٨٧).

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيبه، فإنه مقام يصله المريد أول قدم يصفه في طريق القوم. وقد أجمعوا علىٰ أنه لا يصح لمريد أن يدخل طريق القوم وهو يرجِّح الذهب علىٰ التراب. فإياك يا أخي إذا لم تدخل طريق القوم أن تنكر عليهم ما ادعوه من مقاماتها. وقد أعطاني الله تعالىٰ هذا المقام، فلا فرق عندي بين الذهب والبَعْر، ويحصل لي ضيق إذا دخلت عليَّ الدنيا، وأنشرح إذا خرجت! فلله الحمد علىٰ ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢) ومما أجبتُ به عن كعب الأحبار في قوله: «لأن يخرج من عيني قطرة من خشية الله أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بجبل من ذهب» قال قائل: القطرة من الدمع أمر خاص بالعبد لا يتعدىٰ نفعه إلىٰ غيره، فكيف يكون أرجحَ من التصدق بجبل من الذهب علىٰ الفقراء والمساكين؟!

والجواب: أن مراده بذلك أن النفس من شأنها أن تعجب بصدقتها وترىٰ بها نفسها علىٰ غيرها، بخلاف البكاء من خشية الله تعالىٰ، فإن النفس لا يدخلها عجب بذلك، بل يلحقها به الذلة والانكسار، وذلك أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ من التصدق بجبل ذهب، فإنه في التصدق كالوكيل الذي يؤدي أمانةً إلىٰ أهلها لا غير، وليس له فعل في ذلك، وإنما الفعل لله رب العالمين. فعُلِمَ أنه لو قُدِّر أن نفس العبد المتصدق بجبل من ذهب لا تُعجَب بذلك، فالتصدق بجبل الذهب أفضل بلا شك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣) ومما أجبتُ به عن حبيب العجميِّ[١] ﷺ في كونه كان إذا قرأ آية فيها أن الله تعالىٰ غضب علىٰ قوم يبكي ويقول: يا رب، قد أدخلت قلبي الرحمة علىٰ هؤلاء، فإن شئتَ فاغفر لهم، وإن شئتَ عذبني عنهم. انتهىٰ. فقال قائل: كيف دخلت الرحمة للعصاة قلب حبيب مع شهرته بالولاية الكاملة؟ ولمَ لمْ يغضب عليهم تقليدًا للحقِّ تعالىٰ وابتغاء مرضاته؟

---

(١) حبيب العجمي أبو محمد البصري، زاهد أهل البصرة وعابدهم. وكان مجاب الدعوة، تؤثر عنه كرامات وأحوال. قال ضمرة بن ربيعة: حدثنا السري بن يحيىٰ، قال: كان حبيب يُرىٰ بالبصرة يوم التروية، ويرىٰ بعرفة من الغد ت ١٤٠هـ. السير (٦/ ١٤٤) الوافي بالوفيات (١١/ ٢٣٠).

والجواب: أن حبيبًا كان يرىٰ الرحمة التي دخلت قلبه من جملة رحمة الله تعالىٰ بالعصاة، ليفتح الحقُّ تعالىٰ لهم بها باب الشفاعة فيهم والدعاء لهم، مع غضبه ﷺ عليهم تبعًا للحقِّ جلَّ وعلا، فهو يرحمهم بعين، ويغضب عليهم بعين أخرىٰ، ويسلِّم لله تعالىٰ في أمرهم بعين أخرىٰ. ولا يجوز حمل حبيب ﷺ علىٰ أنه يدعي مقامًا في الرحمة بالعصاة فوق رحمة الحقِّ جلَّ وعلا، كما قد يتبادر إلىٰ الأذهان، فإن ذلك بعيد أن يقع من عارف.

وقد كان حبيب العجمي هذا من أجلِّ أشياخ داود الطائي[1]، وأجلِّ أصحاب الحسن البصريِّ ﷺ. وقد كان يقول: أدركنا الناس وهم يرون الرحمة علىٰ العصاة أفضل من الدعاء لهم. وكان مُطرِّف بن عبد الله يقول: من لم يجد عنده رحمة للعصاة، فليدع لهم بالمغفرة. وكان زهير بن نعيم يقول: وددت أن جلدي يقرض بالمقاريض ولا يعصي أحد ربه. وكان شقيق البلخي يقول: من لم يرحم الرجلَ السوءَ، فهو أسوأ حالًا منه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل أصحاب الرحمة للعصاة علىٰ أنهم يحبون رفع المعاصي من الأرض جملة؛ فإن ذلك جهل بأحكام الله في عباده لا ينبغي حمل أهل الله عليه. وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لولا أن الله تعالىٰ أراد أن يُعصىٰ في الأرض ما خلق إبليس. انتهىٰ. **فالعبد يؤيد ما أراد الله من حيثُ الإيمانُ بالقدر، وينكر ما أنكر الله من حيثُ الكسبُ**، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤) ومما أجبتُ به عن سفيان بن عُيينَة ﷺ في قوله: «الزهد في الدنيا ضالة لا توجد، لأن الزهد إنما يكون في الحلال، وأنىٰ لنا وجوده حتىٰ نزهد فيه!» قال قائل: الحلال لم يزل موجودًا إلىٰ كلِّ عصر من هذه الأمة، لأن الله تعالىٰ قد أمر المؤمنين بالأكل منه، ولولا وجوده لما أمرهم بطلبه، فكيف الحال؟

والجواب: أن مرادَ سفيان بالحلال الحلالُ الصرفُ اللائق بمقام السلف الصالحين

---

(١) داود الطائي أبو سليمان بن نصير الإمام الفقيه القدوة الزاهد الكوفي، أحد الأولياء. ولد: بعد المائة بسنوات. كان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل علىٰ شأنه، ولزم الصمت، وآثر الخمول، وفر بدينه، قال ابن المبارك: هل الأمر إلا ما كان عليه داود. توفي: ١٦٥هـ. السير (٧/ ٤٢٢)، وفيات الأعيان (٢/ ٢٥٩).

قبله، كما هو شأن الخلف في اعتقادهم في السلف، فيرون أحوالهم دون أحوال من قبلهم، كما قال الحسن البصري ﷺ: والله لقد أدركنا أقوامًا كنا في جنبهم لصوصًا، ولو رأوكم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون[١] بيوم الحساب. انتهىٰ. فمثل سفيان ﷺ لا يجهل أن الحلال اللائق بأهل كلِّ زمان موجود علىٰ اختلاف طبقاتهم من أقطاب إلىٰ آحاد العوام، لكن حلال كلِّ إنسان علىٰ قدْر حظِّه ونصيبه من مراتب الإسلام والإيمان والإحسان، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري في قوله: «من لم يجعل حبَّ الدنيا من الكبائر، فقد أخطأ الطريق» قال قائل: إن من جملة حبِّ الدنيا الشهواتِ المباحةِ، كأكل الطعام اللذيذ، ولبس الثياب الناعمة، والنوم علىٰ الفرش الوطيئة، ونحو ذلك مما أباحته الشريعة، فكيف يعد ذلك من الكبائر؟

والجواب: أن مراد الحسن ﷺ الدنيا المحرَّمةُ بإجماع، أو أن مباحَها يجرُّ إلىٰ مكروهها، ومكروهَها يجرُّ إلىٰ صغائر الذنوب، وصغائرَها تجرُّ إلىٰ كبارها، فأراد بذلك سدَّ باب الاسترسال في الشهوات، وقد ورد في الحديث مرفوعًا: «المعاصي بريد الكفر»[٢] أي تجرُّ إلىٰ الكفر، وفي الحديث: «حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»[٣]، وقيل: إنه

---

(١) بالأصلين: لا يؤمنوا، وما أثبتناه الأصوب نحويًا.

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٣١٧) وقال: لم أر من ذكره غير أن ابن حجر المكي في شرح الأربعين قال: أظنه من قول السلف، وقيل: إنه حديث وهو معنىٰ ما قيل: الصغيرة تجر لكبيرة وهي تجر للكفر، وهو معنىٰ بريد الكفر فافهم.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٤٧٤) من كلام نبي الله عيسىٰ ﷺ، والبيهقي في الزهد الكبير (٢٤٧)، وقال السخاوي في «المقاصد» (٣٨٤) أخرجه البيهقي في الحادي والسبعين من الشعب، بإسناد حسن إلىٰ الحسن البصري، رفعه مرسلًا، وأورده الديلمي في «الفردوس» وتبعه ولده بلا إسناد، عن علي رفعه به، وهو عند البيهقي أيضًا في «الزهد» وأبي نعيم في ترجمة الثوري من الحلية من قول عيسىٰ بن مريم ﷺ، وعند ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» له، من قول مالك بن دينار، وعند ابن يونس في ترجمة سعد بن مسعود التجيبي من تاريخ مصر له، من قول سعد هذا.

من كلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، والأنبياء من حيثُ هم لا يخبرون إلا بالصدق، والرأسُ ما يتولد منه الفرع.

وكان أبو سليمان الدَّارانيُّ يقول: سببُ الكفر بالله تعالىٰ عصيانُ ما جاءت به الرسل حسدًا وكبرًا، وكلاهما من الدنيا. وكان[1] ابن المنكَدِر[2] يقول: تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها، فتقول: يا ربِّ، اجعلني لأحسن عبادك قدْرًا. فيقول الله تعالىٰ: لا أرضاك له، اذهبي إلىٰ النار يا لا شيء. فتقول: يا ربِّ، ومن يحبني؟ فيقول تعالىٰ: ومن يحبُّك؛ فتلتقطهم جميعًا إلىٰ النار. انتهىٰ. وكان أبو حازم[3] يقول: يوقف من يعظِّم الدنيا بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فيُقال له: هذا الذي عظَّم ما حقَّر الله تعالىٰ، فيسقط لحمُ وجهه من شدَّة الخجل. انتهىٰ. ومثل هذه الأمور لا تكون إلا فيما هو كبيرة، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦) ومما أجبتُ به عن عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي نعم[4] وغيرهما من الصحابة والتابعين في وصالهم في الصوم الثلاثة أيام وأكثر، مع كونه ﷺ قد نهىٰ عن الوصال[5]، فإنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من واصل من الأمة، فيُحتمَل أنه كان من الوارثين

---

(١) بالأصلين: وكلام. والصواب ما أثبتناه.

(٢) محمد بن المنكدر بن عبد الله القرشي التيمي المدني الإمام الحافظ القدوة شيخ الإسلام، أبو عبد الله القرشي. ويقال: أبو بكر أخو أبي بكر وعمر. كان من سادات قريش وعباد أهل المدينة، وقراء التابعين ت ١٣٠هـ. مشاهير علماء الأنصار ص١٠٧، السير (٥/ ٣٥٣).

(٣) أبو حازم سلمة بن دينار المديني المخزومي الإمام القدوة الواعظ، شيخ المدينة النبوية. ولد: في أيام ابن الزبير، وابن عمر، وثقه: ابن معين، وأحمد، وأبو حاتم، وقال ابن خزيمة: ثقة، لم يكن في زمانه مثله. توفي: ١٤٠هـ. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢/ ١٩١)، الرسالة (٦/ ٩٦).

(٤) عبد الرحمن بن أبي نعم البجلي الإمام الحجة القدوة الرباني، أبو الحكم البجلي الكوفي. قال بكير بن عامر: كان لو قيل له: قد توجه إليك ملك الموت، ما كان عنده زيادة عمل، وكان يمكث جمعتين لا يأكل. توفي: في حدود ١١٠هـ. السير (٥/ ٦٢) والوافي بالوفيات (١٨/ ١٧٦).

(٥) أخرجه البخاري (٧٢٤٢)، ومسلم (١١٠٢).

لرسول الله ﷺ في مقام الوصال من غير مشقة، وما نهىٰ رسول الله ﷺ عن الوصال إلا إبقاءً علىٰ أمته وشفقةً عليهم، فمن أقدره الله تعالىٰ علىٰ مواصلة الأيام الكثيرة من غير مشقة، فلا حرج عليه. ويُسمَّىٰ هذا تحريمُ شفقة علىٰ الأمة، كتحريم الصوم في السفر لمن يحصل له به مشقة.

وبعضهم واصل الصوم وصار يأكل عند الإفطار زبيبةً أو لوزةً، أو يشرب قطرةً ونحوها مما يخرج به عن الوصال. وبعضهم كان الباعث له علىٰ ترك الأكل الحياء من الله تعالىٰ في تردده إلىٰ الخلاء، كمالك بن أنس، ومالك بن دينار، والبخاريِّ[١]، والأوزاعيِّ، وأبي عِقال المغربيِّ،[٢] وغيرهم ممن مَنَّ الله تعالىٰ عليهم بدوام المراقبة وشهود أنهم بين يديه علىٰ الدوام.

وقد ذكرنا في كتاب «منهج الصدق والتحقيق»[٣] أن عبد الرحمن بن أبي نعم كان لا يأكل الأكل خمسة عشر يومًا، وحبسه الحجاج في بيت وأغلقه عليه خمسة عشر يومًا، ثم فتح الباب عليه، فإذا هو قائم يصلي، وأن عبد الله بن الزبير كان يطوي سبعة أيام، فكان لا يأكل إلا يوم السبت ويفطر علىٰ سمن وعسل، وكان أبو عِقال المغربيُّ لا يأكل إلا كل ستة أشهر، ومكث عيسىٰ بن نجم[٤] بالبرلس[٥] سبعة عشر سنة بوضوء واحد لا

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ولد في شوال ١٩٤هـ.، سمع من ألف شيخ، وكان من أوعية العلم، يتوقد ذكاءً. له مصنفات منها: «الصحيح» و«الأدب المفرد» و«أسامي الصحابة» وغيرها، ت في شوال ٢٥٦هـ.السير (١٢/ ٣٩١) وشذرات الذهب (٣/ ٢٥٢).

(٢) أبو عقال المغربي غلبون بن الحسن بن غلبون، متصوف عالم بالحديث والأدب، له شعر، من أهل القيروان، نشأ ماجنًا خليعًا، ثم تصوف وأقبل علىٰ العلم، ورحل إلىٰ المشرق واستقر بمكة، ولازم الحرم إلىٰ أن مات ٢٩١ هـ. الأعلام (٥/ ١٢١).

(٣) ما زال مخطوطًا حتىٰ صدور هذا الكتاب.

(٤) عيسىٰ بن نجم خفير بحر البرلس. كان ﷺ من أكابر الأولياء، وله المجاهدات العالية في الطريق. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ٩٤).

(٥) البرلس: إحدىٰ مراكز محافظة كفرالشيخ بمصر.

يأكل ولا يشرب، كما أخبرني بذلك سيدي عليٌّ المرصفيُّ رحمه الله. وكان الإمام الأوزاعي لا يدخل الخلاء إلا كل ثلاثين يومًا، فَرَقَّ بطنُه، فكان يدخل في الشهر مرتين، فكانت أمه تقول لأصحابه: ادعوا لعبد الرحمن فإنه به علة البطن! وكان سهل بن عبد الله التستري لا يأكل إلا كل ستة عشر يومًا، وكان أبو عثمان الحِيْرِي[1] لا يأكل غالب أوقاته إلا كل سنة أكلة، وكان الإمام مالك لا يأكل إلا كل ثلاثة أيام، وكذلك البخاري. انتهىٰ.

وكذلك ذكرنا في كتاب «منهج الصدق والتحقيق» أن من السلف من كان يواصل الصوم إذا لم يجد شيئًا حلالًا يأكله، وأن بعضهم كان إذا لم يجد الحلال، يستفُّ الرمل والتراب العشرين يومًا وأكثر، منهم: سفيان الثوريُّ وإبراهيم بن أدهم. وكان سفيان الثوريُّ يقول: بتُّ عند الحجاج بن فرافصة[2] خمسة عشر يومًا وهو صائم، فما رأيتُه ذاق طعامًا ولا شرابًا، ولا دخل خلاءً، ولا قام من مجلسه إلا للصلاة.

قلتُ: ويُجاب عمَّن رأىٰ تحريم الوصال في حقِّ كلِّ الناس بأنه مشىٰ علىٰ قواعد النهي الشرعيِّ، حتىٰ يأتي ما يخرِج بعض أفراده، وهذا أحوط للدين.

(١١٧) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري رضي الله عنه في قوله: «إن المقبل علىٰ العبادة المتجرد عن الدنيا أفضل من المكتسب المتصدق بما زاد عن حاجته» قال قائل: كيف كان صاحب الخير القاصر أفضل من صاحب الخير المتعدي؟

والجواب: أن مراد الحسن بذلك من يُخاف عليه من الدخول في الدنيا فتنة، فسدَّ

---

(١) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيدالحيري، الشيخ الإمام، المحدث الواعظ، مولده بالرِّي سنة (٢٣٠هـ). صحب قديمًا يحيىٰ بن معاذ الرازي، وشاه بن شجاع الكرماني، ثم رحل إلىٰ نيسابور قاصدًا أبا حفص الحداد، فزوجه ابنته وأخذ عنه طريقته. وكان أوحد أهل زمانه في سيرته، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنَيسَابُور. توفي (٢٩٨هـ). «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٦٢).

(٢) حجاج بن فرافصة الباهلي البصري العابد، روىٰ عن: أيوب السختياني، وعطاء، وابن سيرين، وروىٰ عنه الثوري، ومحمد بن مطرف، ومعتمر بن سليمان، قال أبو حاتم: شيخ صالح متعبد، توفي سنة نيف وأربعين ومئة. السير (٧/ ٧٨)، تهذيب الكمال (٥/ ٤٤٧).

عليه الباب، وإلا فالحسن يعلم أن الخير المتعدي من غير فتنة أفضل. وقد قالوا: يا جامع الدنيا ليبرَّ بها الفقراء والمساكين تركك لها أبرُّ وأبرأ. انتهىٰ.

فمن لم يخف عليه من الاشتغال بالكسب فتنة، فهو[١] أفضل، كما كان عليه أكابر الصحابة. وقد مدح الله تعالىٰ أهل هذا المقام بقوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

وكان الجنيد ﷺ يقول كثيرًا: تجريد العبد من الدنيا أفضل من جمعها وإنفاقها. وهذا من قاعدة السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة، وفي الحديث الصحيح: «لو أن رجلًا في حجره دراهم يتصدق بها، وآخر يذكر الله، لكان الذاكر لله أفضل»[٢]. انتهىٰ.

وما ورد في فضل الكسب محمول علىٰ من لا يشتغل به عن مراقبة ربه، أو علىٰ من لا يصلح لعبادة ربه، فرغَّبه الشارع في الكسب، خوفًا أن تفضي به البطالة إلىٰ سؤال الناس من غير ضرورة. ومن شأن الشارع أن يرغِّب كلَّ إنسان في الاشتغال بما خُلِقَ له، بدليل ترغيب أهل الصفة في العبادة وعدم الكسب، وفي الحديث: أنه ﷺ قال لأهل الصفة يومًا: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلىٰ بطحان، فيأتي بناقتين كَوْمَاوَيْنِ؟ قالوا: كلُّنا نحبُّ ذلك يا رسول الله. فقال: لأن يترك أحدكم ذلك، ثم يذهب إلىٰ المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خيرٌ له من اثنين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع من أعدادهن من الإبل»[٣]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، ورغِّبْ من يصلح للعبادة في العبادة، ومن يصلح للكسب في الكسب، ومن يصلح لهما فيه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أي الاشتغال بالكسب.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٩٦٩)، وذكره الهيثمي في جمع الزوائد (١٠/ ٧٤) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله وثقوا.

(٣) أخرجه مسلم (٨٠٣)، وأبو داود (١٤٥٦).

(١١٨) ومما أجبتُ به عن السيد أويس القرني[١] ﷺ في قوله: «لا يقبل الله تعالىٰ من عبد عملًا وهو يهتم بأمر رزقه» قال قائل: كيف ذلك والله تعالىٰ قد أمر العبد بالاكتساب والاهتمام بتحصيل ما يكف به العبد نفسه وعياله عن سؤال الناس؟

والجواب: أن مراد أويس من يؤديه اهتمامُه بأمر رزقه إلىٰ اتهام الحقِّ تعالىٰ والشكِّ في أنه يضيعه، لا مطلق الاهتمام. وقد صلَّىٰ أبو يزيد البسطامي مرةً خلف إمام، فلما سلَّم، قال له الإمام: من أين تأكل؟! فإني لا أراك تكتسب شيئًا! فقال له أبو يزيد: دعني حتىٰ أعيد الصلاة وأجبك. فلما سلَّم قال: إنما أعدتُ الصلاة التي صليتُها خلفك لأنك لا تعرف الله! والصلاة خلف من لا يعرف الله لا تصح. ثم قال: ترىٰ أن الله تعالىٰ يرزق الكفَّار والمشركين والكلب والخنزير ولا يرزق أبا يزيد!

وقد خزَّن ﷺ قوته عامًا رفقًا بأمته الضعفاء لا شكًّا في أن الله تعالىٰ يضيعه. وقد يكون إنما خزَّن ذلك لأن الله تعالىٰ قد أطلعه علىٰ أن ذلك القوت الذي خزنه ليس لغيره ولا لغير عياله فيه نصيب، فأحرزه لهم، ولو أنه لم يخزنه لهم لكان ذلك، لأن أحدًا لا يقدر يتناول منه ذرة، فاحمل يا أخي الأكابر علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩) ومما أجبتُ به عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله لما دخل مسجد الكوفة ورأىٰ فيه قاصًا يقص علىٰ الناس: من هذا؟ فقالوا: شخص يحدث. فقال: إن هذا رجل يقول: اعرفوني أنا فلان أنا فلان. قال قائل: هلا حمله السيد عليٌّ ﷺ علىٰ الإخلاص، لأن ذلك هو اللائق بمقام علي، دون سوء الظن بذلك الواعظ.

والجواب: أن مراد عليٍّ ﷺ أن لسان حال ذلك الرجل يقول ذلك وإن لم يقصده، فخاف عليٌّ ﷺ علىٰ ذلك الواعظ أن تدخله النفس، فكأنه يحذِّره بهذا القول في المستقبل،

(١) أويس القرني بن عامر بن جزء بن مالك المرادي اليماني القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه. وفد علىٰ عمر، وروىٰ قليلًا عنه، أسلم علىٰ عهد رسول الله ﷺ ومنعه من القدوم عليه بره بأمه، وأخبر رسول الله ﷺ وأمر من أدركه من الصحابة أن يطلبوا منه الاستغفار لهم، قتل يوم صفين مع علي بن أبي طالب ﷺ سنة: ٣٧هـ. السير (٤/ ١٩)، الوافي بالوفيات (٩/ ٢٥٧).

مع اعتقاده فيه الإخلاص في ذلك الوقت وفيما مضىٰ. وقد طلب الناس من سفيان بن عُيينة أن يجلس للحديث، فقال: ما أنا بأهل لتحديثكم، ولا أنتم بأهل أن تسمعوا. ومرَّ إبراهيم بن أدهم علىٰ حلقة الأوزاعيِّ، فقال: لو كان هذا الزحام علىٰ أبي هريرة لدخلته النفس! فبلغ ذلك الأوزاعيَّ، فترك التحديث من ذلك اليوم. فعُلِمَ أنه لا يلزم من إنكار هؤلاء علىٰ بعض الوعاظ أن يكون أحدهم سيء الظن به، فإن السيد عليًا وسفيان وإبراهيم كانوا أطهر قلبًا منك بيقين، فلا تقس حالهم علىٰ حالك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض في قوله: «أشتهي أن تكون داري بعيدة عن القرَّاء». قال قائل: كيف يشتهي أن يكون بعيدًا عن العلماء؟ وإنما اللائق بالناس محبة مجاورة العلماء، لينصحوهم ويعلموهم ما جهلوا من أحكام دينهم.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراضُ علىٰ الفضيل في ذلك، لاحتمال أن يكون الباعث له علىٰ ذلك القول إنما هو خشية أن يسمع منهم أمورًا لا يقدِرُ علىٰ العمل بها، فاحتاط لنفسه واشتهىٰ البعد عنهم. ويُحتمَل أنه أراد بذلك عدم وقوع العلماء في عرضه حسدًا كما هو الغالب إذا رأوا مثل أمير المؤمنين يأتي إليه ولا يأتي إليهم، فأراد ببعده عن دارهم عدم وقوعهم في الحسد رحمة بهم لا ازدراءً لهم، بقرينة قول مالك بن دينار [ومالك] بن أنس ﷺ: لا تُقبَل شهادة القراء علىٰ بعضهم بعضًا؛ لأنا وجدناهم حُسَّدًا. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: احذروا من القرب من القرَّاء واحذروني معهم، فإني لو خالفتُ أكثرَهم محبةً لي في أمر أراده، لخفتُ أن يسعىٰ في قتلي عند سلطان جائر. وكان بشر الحافي يقول: ما لي وللقراء والقرب منهم، فإنهم قوم إن رأوني في نعمة حسدوني، وإن رأوني علىٰ زلة هتكوني. وكان ذو النون المصري[1] يقول: إياك والقرب من القراء، فإنهم ربما رموك بالعظائم وقبل الناس ذلك منهم وقالوا: القراء لا يكذبون.

فاعلم ذلك، واحمل كلام السلف الصالح في حقِّ بعضهم علىٰ الأغراض الصحيحة

(١) ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم الزاهد، شيخ الديار المصرية. ولد في أواخر أيام المنصور، قال ابن يونس: كان عالمًا فصيحًا حكيمًا. توفي: في ذي القعدة سنة ٢٤٥هـ. السير (١١/ ٥٣٢)، حلية الأولياء (٩/ ٣٣١).

والمقاصد الحسنة، فإنهم كانوا أخوف علىٰ دينهم منك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١) ومما أجبتُ به عن حبيب العجميِّ ﷺ في قوله: «لا أعلم أحدًا من أهل عصرنا هذا سجد لله تعالىٰ سجدةً واحدةً خالصًا» فقال بعض الناس: هذا سوء ظن بالمسلمين، ولا يليق بمثل حبيب أن يقول ذلك، بل في عباد الله من يؤدي الصلاة علىٰ وجه الكمال بحكم الإرث لرسول الله ﷺ.

والجواب: أنه لا اعتراض علىٰ حبيب بذلك، لأنه ما نفىٰ إلا علمه بمن أخلص في سجوده بحكم التعيين لا بحكم العموم. وقد كان عبد العزيز بن أبي رواد[1] ﷺ يقول: لقد حججتُ ستين حجة، وعملتُ أعمالًا كثيرة من القربات، ومع ذلك فما حاسبتُ نفسي قط إلا ووجدتُ نصيبَ الشيطان من ذلك أقوىٰ من نصيب ربي عزَّ وجلَّ، فليتني خرجتُ من الدنيا كفافًا لا عليَّ ولا لي! وكان حبيب نفسه يقول: لو أوقفني الله تعالىٰ بين يديه وقال لي: ائتني بسجدة واحدة لا حظَّ للنفس والشيطان فيها لأدخلك بها الجنة؛ لقلتُ له: يا رب لا أجد ذلك، فتغمدني برحمتك إن شئت. انتهىٰ. فاعلم ذلك واحمل الأكابر علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢) ومما أجبتُ به عن قول عبد الله بن عباس ﷺ: «ركعتان مع تدبر وتفكر خير من قيام ليلة كاملة والقلب غافل عن الله تعالىٰ» قال قائل: التفكر في معاني القرآن والذكر يشغل عن الله تعالىٰ، فيرجع الأمر إلىٰ الغفلة عن الله، فكيف الحال؟ فإن خطاب الحقِّ تعالىٰ مع شهود شيء آخر لا يصح، فإنه يذهب بقلبه إلىٰ النار وما أعد الله تعالىٰ فيها للعصاة، وإنه يذهب به إلىٰ الجنة، وما أعد الله تعالىٰ فيها للمطيعين، وإنه يذهب به إلىٰ المواريث، وما يخص كلَّ واحد، وهكذا، فأين الحضور مع الله تعالىٰ؟

والجواب: أن كلام ابن عباس ﷺ في حقِّ الكُمَّلِ من المؤمنين الذين لكلِّ شيء

---

(١) أبو عبد الرحمن عبد العزيز بن أبي رواد، شيخ الحرم. كان للعبادة مغتنما، وللمصائب والمحن متكتما. قال ابن المبارك: كان من أعبد الناس، ذهب بصره عشرين سنة ولم يعلم به أهله ولا ولده، توفي: بمكّة ١٥٩هـ. السير (٧/ ١٨٤)، حلية الأولياء (٨/ ١٩١).

عندهم عين ينظرون بها، فلا يشغلهم أمر عن أمر، لا مع الذين يشغلهم أمر عن أمر، فيُحمَل كلامه ﷺ على التفكر في الآداب المتعلقة بحضرة الله تعالى، ليعمل بها في صلاته، لا التفكر في استنباط الأحكام مثلًا، إذ الصلاة ليست بمحلٍّ لذلك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وبشر الحافي رضي الله عنهم في قولهم ببطلان صلاة من في جوفه لقمة من حرام، قال قائل: هذا أمر لم يتعرض له الشارع، فكيف يحكم هؤلاء ببطلان صلاة من ذُكر؟ وقد يكون الشارع إنما ترك التنبيه على ذلك توسعةً على أمته، فكيف يضيِّق هؤلاء ما وسعه رسول الله ﷺ؟

والجواب: أن مثل هؤلاء الأولياء أهلٌ للاجتهاد، فقد يكون قالوا ذلك باجتهاد، أو يكون كلامهم في حقِّ الأكابر لا في حقِّ عامة الناس، من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين». وفي الإنجيل ما يؤيد كلام هؤلاء السادات، فذكر وهب بن مُنَبِه أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: قل لبني إسرائيل لا يدخلوا بيتًا من بيوتي إلا وقلوبهم طاهرة، ونفوسهم[1] وجلة، وأبصارهم خاشعة، وجوارحهم مُطَهَّرة، وبطونهم خالية عن الحرام، وأعلمْهم أني لا أجيب لأحد منهم دعوة ولأحد من الخلق عليه مظلمة، أو في بطنه لقمة من حرام. انتهى. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار ﷺ في قوله: لو أوقفني الحقُّ تعالى بين الجنة والنار وخيرني بين أن أصير رمادًا أو ترابًا [أو أُخَيَّرَ إلى أي الدارين أصير، لاخترتُ أن أكون رمادًا][2] أو ترابًا. انتهى. قال قائل: صيرورته رمادًا أو ترابًا لا يخرجه عن أن

---

(١) «أ»، «ب»: قلوبهم، والمثبت من «تنبيه المغترين».

(٢) ساقط من «ب»، وفي «أ»: وبين أصبر حتى أعرف مصيري إلى الجنة أو النار. والمثبت من «المتمنين» لابن أبي الدنيا، غير أنه نقله عن عثمان بن عفان.

يكون معذَّبًا، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن العبد ولو حُرق وذرِّي في الريح يحس بالعذاب ويضغطه القبر.

والجواب: أن مالكًا ﷺ لا يجهل مثل ذلك، وإنما أراد بكونه رمادًا أو ترابًا زوال التكليف من باب التمني، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا ليت أمي لم تلدني! وكما قالت عائشة ﷺ: ليتني كنتُ نسيًا منسيًا! ونحو ذلك، فكأنه تمنىٰ حالة يكون فيها أخف همًّا وحزنًا مما قبلها، فهو من باب فرض المحال، لأن الحقَّ تعالىٰ لم يقع منه التخيير لأحد بين أن يصير رمادًا ولا ترابًا. **ولم يزل الخلق لهم كلام في حال الشدائد خلاف كلامهم في أوقات الرضا**. وقد نقل العلماء عن عمر بن الخطاب ﷺ مثل مقالة مالك بن دينار السابقة. فاحمل يا أخي كلام مالك ﷺ علىٰ أنه قاله في حال تجلي الحقِّ تعالىٰ علىٰ قلبه بالعظمة والهيبة والمناقشة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥) ومما أجبتُ به عن حذيفة بن قتادة[1] ﷺ في قوله: «والله لو حلف حالف أن أعمال حذيفة أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت له: صدقتَ، لا تكفر عن يمينك» ونُقل ذلك عن الحسن البصري ومالك بن دينار أيضًا. قال قائل: لا ينبغي لمؤمن أن يقول مثل هذا القول، فإنه قريب من قول العبد: أنا غير مؤمن بيوم الحساب، ولا شك في كفر من قال ذلك، فكيف الحال في قول هؤلاء الأئمة؟

والجواب: أن مراد حذيفة ومن قال بقوله أن أعماله كلَّها لا تنضبط علىٰ الاستقامة التي تستحق أن يرضىٰ الحقُّ تعالىٰ عن فاعلها، من باب هضم النفس واتهامها ومقتها في ذات الله عزَّ وجلَّ، وإلا فاعتقادنا في هؤلاء أنهم من أكمل المؤمنين إيمانًا بيوم الحساب، ولولا إيمانهم بيوم الحساب ما جاهدوا في نفوسهم كلَّ هذه المجاهدة التي نُقِلت عنهم، حتىٰ كان أحدهم يصرخ كالثور إذا ذُكِر يوم القيامة.

وقد كان حذيفة المَرْعَشيُّ يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله علىٰ أحسن طاعاتك

---

(١) حذيفة بن قتادة المَرْعَشيُّ أحد الأولياء. صحب سفيان الثوري، وروىٰ عنه. وقال ابن خبيق: قال حذيفة: إن لم تخش أن يعذبك الله علىٰ أفضل عملك، فأنت هالك. توفي: ٢٠٧هـ. السير (٩/ ٢٨٣)، حلية الأولياء (٨/ ٢٦٧).

عندك، فأنت هالك. وكان سعيد بن جُبَير[1] يقول: لسنا بخائفين من الله، وإنما نحن من المغترين بحلمه علينا، فإن الخائف من الله تعالىٰ هو من بذل استطاعته في طاعة الله تعالىٰ، ثم أحسن به الظن بعد ذلك، ضد المغتر، فإن المغتر هو من تمادىٰ في المخالفات وتمنىٰ علىٰ الله المغفرة. وكان الحسن البصريُّ يقول: قد أكثر الناس من المعاصي وادعوا حسن ظنهم بربهم وهم كاذبون، ولو أحسن أحدُهم ظنَّه بربه، لأحسن العمل فيما بينه وبين الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣]. [وكان يقول: والله ما أحدنا آمن من عدم مغفرة الله تعالىٰ له، فيصير أحدنا يعمل في غير معمل][2]. وكان يقول: أرجىٰ الناس للنجاة أكثرهم خوفًا علىٰ نفسه. انتهىٰ.

وقد قدمنا أن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فعين ينظر بها إلىٰ نقص عمله، وعين ينظر بها إلىٰ كماله ليشكر الله تعالىٰ عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦) ومما أجبتُ به عن عم الأحنف بن قيس لما شكا له الأحنفُ[3] وجع ضرسه، وأنه لم ينم منه ليلة كاملة، فقال له عمه: إن لي بهذا الألم ثلاثين سنة ما أظنُّ أن أحدًا علم به إلا أنت في هذا الوقت. انتهىٰ. قال قائل: فلمَ أطلع عم الأحنف غيره علىٰ ذلك، وأخرجه من عمل السرِّ الذي يضاعف إلىٰ الجهر؟ وكان الأولىٰ له عدم إطلاع ولد أخيه عليه.

والجواب: أنه لا يقدح في عمل السرِّ إظهارُه علىٰ وجه الاعتبار وتنهيض الهمة، كما أن الشيخَ يطلع المريدَ علىٰ أعماله السرِّيَّة ليقتدي به فيها ويؤجر علىٰ ذلك، وليس اللوم

---

(١) سعيد بن جبير بن هشام الوالبي مولاهم، الكوفي المقرىء، المفسر، الشهيد، أبو محمد الأسدي، تابعي أحد الأعلام، كان ابن عباس رضي الله عنه إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني: سعيد بن جبير، قتله الحجاج في شعبان سنة ٩٥ هـ. السير (٤/ ٣٢١)، حلية الأولياء (٤/ ٢٧٢).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي. اسمه: ضحاك، وقيل: صخر. وشهر بالأحنف؛ لحنف رجليه، وهو العوج والميل. كان سيد تميم. أسلم في حياة النبي ﷺ ووفد علىٰ عمر، كان صديقًا لمصعب بن الزبير، فوفد عليه إلىٰ الكوفة، فمات عنده بالكوفة ٧٢هـ. السير (٤/ ٨٦) وفيات الأعيان (٢/ ٤٩٩).

إلا علىٰ من يظهر أعماله علىٰ سبيل الفخر والرياء، كما هو مقرر في رسائل القوم.

وقد بلغنا أن عابدًا من بني إسرائيل كان مبتلىٰ بعدة أمراض، كلٌّ مرض منها لو كان في الفيل لهدَّ قوته، وكان يكتم ذلك، فلم يزل به إبليس حتىٰ أوقعه في إظهاره، وذلك أنه أتاه في صورة عابد وقال: ادعُ لي، فإن بي صداعًا؛ فدعا له، ثم غاب عنه يسيرًا فجاءه وقال: ادع لي؛ فدعا له، فلم يزل يغيب ساعة ويرجع ويقول: ادعُ الله لي حتىٰ اشتد غضب ذلك العابد، فقال بشدة خلق: أنا لي كذا كذا سنة وبي من الأمراض ما لا يجيء مرضك عشر معشاره، وأنا كاتم ذلك! فولىٰ إبليس وهو يصفق ويقول: قد حبط أجر صبرك، أنا إبليس. انتهىٰ.

وقد ذكر العلماء أن شكوىٰ المريض مرضه لأخيه لا بأس به، ليدعوَ له بالصبر أو الشفاء أو بدوام مقام الرضا والتلذذ بذلك المرض، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧) ومما أجبتُ به عن حاتم الأصم في قوله: «إذا أظهر صاحب المصيبة بموت ولده مثلًا الجزع، فلا تعزوه» قال قائل: كيف ذلك والتعزية إنما شُرعَت تسكينًا للجزع؟

والجواب: أنه ربما كان مرادُ حاتم الزجر والتوبيخ لصاحب تلك المصيبة في إظهاره الجزع من تقدير الله تعالىٰ، مع قدرته علىٰ عدم إظهاره، ليتنبه علىٰ ما وقع فيه من سوء الأدب بترك تعزية الناس له، فيندم ويستغفر من الإثم الذي وقع فيه. وكان يقول: من عزَّىٰ صاحب مصيبة قد أظهر السخط وعدم الرضا بموت ولده أو قريبه، فقد شاركه في الإثم. وقد كان أبو سعيد البلخيُّ[1] يقول: من أُصيب بمصيبة، فمزَّق ثوبًا أو ضرب خدًّا، فكأنما أخذ رمحًا يقاتل به ربَّه عزَّ وجلَّ. وكان مورق العجليُّ[2] ﷺ يقول: ما أعلم أحدًا

(١) أبو سعيد البلخي خلف بن أيوب العامريّ الإمام الفقيه الحنفيّ مفتي أهل بلخ وخراسان، كان إمامًا زاهدا ورعًا. أخذ الفقه عن القاضىٰ أبىٰ يوسف، والزهد عن إبراهيم بن أدهم، انتهت اليه رياسة المذهب فى زمانه، رحمه الله تعالىٰ. توفي: ٢٢٠هـ. السير (٩/ ٥٤١)، تهذيب الكمال (٨/ ٢٧٣).

(٢) مورق بن مشمرج بن عبد الله العجلىٰ أبو المعتمر البصرىٰ، من أحلم أهل البصرة علىٰ الحقيقة وأكثرهم تعبدًا وفضلًا، قال: تعلمت الصمت في عشر سنين، وما قلت شيئًا قط إذا غضبت أندم عليه إذا زال غضبي،

أُوجَر علىٰ موته إلا أحببتُ موته. فعُلِمَ أن كلام حاتم مراده به إظهار الغضب لجناب الحقِّ جلَّ وعلا، فإن كلَّ من لم يرض بقضاء الله، كرهه الله، ومن كرهه الله فقد استحق الهجر وعدم تسليته في موت ولده أو قريبه.

وكان وهب بن مُنبِّه يقول: شكا نبي من الأنبياء ما ناله من المكروه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، فأوحىٰ الله إليه: كم تشكوني ولست بأهل ذم، هكذا كان بدو شأنك في علم الغيب، فلم تسخط علىٰ حسن قضائي عليك؟ أفتريد أن أعيد الدنيا من أجلك، وأبدل ما في اللوح المحفوظ بسببك، وأقضي لك بما تريد دون ما أريد، ويكون ما تحب دون ما أحب أنا؟ فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرةً أخرىٰ، لأسلبنك ثوب النبوة، ولأوردنك النار ولا أبالي. انتهىٰ.

قلتُ: وقوله: «لأسلبنك... إلىٰ آخره» هو علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فقد أجمع العلماء علىٰ أن المعصوم لا يصح سلبُه لعصمته. وإيضاح ذلك أن كلَّ ما جاء العبدَ من طريق الوهب الإلهيِّ من غير سؤال لا يصح سلبه، وما جاءه من طريق الكسب والسؤال يصح سلبه، والنبوة وهب لا كسب بإجماع، وربما سبق في علم الله تعالىٰ أن ذلك الكلام لا يتلجلج في صدره ثانيًا، فينتفي المشروط بانتفاء الشرط، وما كلُّ ما توعَّد الله به عباده يكون واقعًا إلا إن ورد به نص، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨) ومما أجبتُ به عن قول أبي سليمان الدارانيِّ: «الرحمة للعصاة من أخلاق المرسلين» قال قائل: كيف ذلك وقد قاتلوا المشركين بالسيف؟ ولو أنهم رحموهم ما قتلوهم.

والجواب: أن قتال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمن خالف أمر الله تعالىٰ من جملة الرحمة له، فكأنه يرده إلىٰ طاعة الله تعالىٰ ليرضىٰ عنه بالسيف، كما يردُّ الوالدُ ولدَه عن مواضع الهلاك بالعصا، فمن قوة شفقة الرسل علىٰ من خالف ومحبتهم فيه أن

توفي بعد سنة ١٣٠ هـ. مشاهير علماء الأمصار ص١٤٦، تاريخ الإسلام (٣/ ١٧١).

ردوه إلىٰ طاعة ربه بالسيف، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩) ومما أجبتُ به عن قول الفضيل بن عياض: «إن رد دانق[1] من الحرام أفضل عند الله من خمسمئة حجة» فقال قائل: كيف يكون رد الدانق أفضل من خمسمئة حجة؟ مع أن مثل الدانق أمر يتهاون به غالب الناس.

والجواب: أن كلام الفضيل صحيح؛ لأن من قواعد الشريعة أن «السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة» انتهىٰ. وذلك لأن صاحب ذلك الدانق الحرام قد لا يرضيه يوم القيامة تلك الخمسمئة حجة في دانقه. وقد كان الفضيل ﷺ يقول: إياك وطريق الضلالة، ولا يغرك كثرة الهالكين، وعليك بطريق الهدىٰ، ولا يضرك قلة السالكين.

وقد سئل سفيان الثوريُّ ﷺ عن كثرة الثواب في العمل اليسير كحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[2]، فقال: مقادير الثواب لا تُدرَك بالقياس. انتهىٰ. علىٰ أن في رواية عن الفضيل: «أفضل من خمسمئة حجة في زادها شبهة». انتهىٰ.

ومما وقع للفضيل أنه كان لا يأكل من خبز السوق الذي [لا][3] يذكر عليه صاحبه اسم الله كقوله: تبارك الله. وقالوا له مرة: مثل هذا سهل! فقال: إن سهلكم هذا أخاف أن يوردني النار. انتهىٰ. وكان الشعبي يقول: من طلب من الفقهاء الرخصة عند الشبهات، فعلمه زاده إلىٰ النار.

وبالجملة، فالفضيل وأضرابه كانوا من المجتهدين في الأعمال التي يترقَّون بها والتي ينزلون بها، فلا اعتراض عليهم في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠) ومما أجبتُ به عن السيد عمر بن عبد العزيز ﷺ في قوله: «إن ولدي ليأخذ تفاحة من الفيء، فأنتزعها من فيه وكأنما أنتزعها من قلبي». انتهىٰ. قال قائل: كيف قال:

---

(١) الدَّانِقُ: سُدسُ الدرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٣) ومسلم (١٠١٦).

(٣) زيادة من عندنا اقتضاها السياق.

«وكأنما أنتزعها من قلبي»؟ وكيف غلب عليه مرضاة نفسه علىٰ مرضاة ربه مع علو مقامه حتىٰ شقَّ عليه نزعها من فم ولده؟ ولمَ لمْ يكن إخراجها من فم ولده سهلًا عليه تغليبًا لرضا الله تعالىٰ؟

والجواب: أنه ليس مراده بشدة نزعها عليه تغليب حظِّ نفسه، وإنما مراده تغليب جانب رضا الحقِّ جلَّ وعلا علىٰ جانب حظِّ نفسه، فكأنه قال: إنه لم يمنعني ما عندي من الشفقة والحنو علىٰ ولدي من نزع تلك التفاحة من فم ولدي، لكونه أخذها قبل القسمة. علىٰ أنه في بعض الروايات قال: إني لأنتزعها خوفًا من الله تعالىٰ، وكأنما أنتزعها من قلبي، مع أنه ﷺ كان يعلم بالقرائن مسامحة أهل الغنيمة لولده بمثل التفاحة، وقد قال علماء الشريعة: إن تارك المعصية مع شدة شهوته إليها أعظم أجرًا ممن تركها وليس عنده ميل إليها. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الأكابر، فإن مشاهدهم فوق مشهدك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١) ومما أجبتُ به عن العائذ بالله المزني[١] ﷺ في كونه كان إذا حقَنَ[٢] ببول أو غائط وهو في الطريق، يبول أو يتغوط في ثوبه، ولا يفعل ذلك في طريق الناس ولا في أفنية دورهم. قال قائل: إن في ذلك تضمخا[٣] بالنجاسة، وإتلافًا للثياب من غير ضرورة، ولو أنه قضىٰ حاجته في أفنية دور الناس، لربما طاب خاطرهم بذلك.

والجواب: أن الإمام العائذ بالله تعالىٰ كان من أهل الاجتهاد في مثل ذلك، فأدَّىٰ اجتهادُه وخوفُه من السؤال عن بوله وتغوُّطه في الطريق يوم القيامة أن يفعل ذلك في ثياب نفسه، لكونه أخفَّ حالًا من السؤال عن حقوق الناس بتقدير السؤال عنه يوم القيامة.

---

(١) لعل المقصود عائذ بن عمرو بن هلال المزني، أبو هبيرة البصري. له صحبة، شهد بيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ. وروىٰ عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر الصديق ﷺ. تهذيب الكمال (١٤/ ٩٨).

(٢) حقن البول: حبسه.

(٣) التضمخ: التلطخ.

وقد وقع للإمام النووي أنه كان يكتب حال التأليف في خلوة الكتب بجامع الأشرفية[١]، وكان الباب يرتد عليه بعنف، فلم يجد ما يرده به إلا السكين، فوضع قعرها من جهة الباب، وذُبابتها[٢] من جهة ركبته حتىٰ خرج الدم، فقيل له في ذلك، فقال: خروج دمي أخف من حرِّ[٣] السؤال عن باب الوقف يوم القيامة. فاعلم ذلك، واسلك طريق الورع تعرف أن إتلاف مالك كلِّه أهون عليك من إتلاف دانق للغير، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢) ومما أجبتُ به عن قول الإمام الشافعيِّ كأبي أمامة الباهليِّ[٤] ﷺ: «من لم يُنِلْك الخير في حياته، فلا ينبغي البكاء علىٰ مماته» قال قائل: لِمَ لمْ يأمر بالبكاء علىٰ الأخ إذا مات لله تعالىٰ إذا لم يحسن إلىٰ إخوانه، لأنه أعتقهم من تحمل منته في الدنيا والآخرة؟

والجواب: بأن كلام أبي أمامة كالإمام الشافعي جرىٰ علىٰ الغالب في الناس، وإلا فمثل الإمام الشافعيِّ لا يجهل مثل ذلك، بقرينة قوله: أعزُّ إخوانِك من لا فضل له عليك، لأنه أعتقك من رقِّه، وقوله: الإحسان يَرِق الإنسان. انتهىٰ.

وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ أكابر العلماء، فإنك ما وصل إليك العلم الذي تجادل به إلا منهم، وهم أعلم منك بأمور الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣) ومما أجبتُ به عن قول عبد الله بن مسعود: «اللهم وسع عليَّ الدنيا وزهدني فيها، ولا تضيقها عليَّ وترغبني فيها» قال قائل: كيف صح من ابن مسعود ﷺ طلب التوسعة في الدنيا، مع علمه بأنها فتنة؟ ولا فرق بينه وبين من يقول: اللهم اسقني سمًّا

---

(١) دار الحديث الأشرفية إحدىٰ دور تعليم الحديث الشريف تقع في مدينة دمشق في منطقة سوق العصرونية بجوار الباب الشرقي لقلعة صلاح الدين.

(٢) ذُبابة السكين: حَدُّ طرفيها.

(٣) بالأصلين: حث، والصواب ما أثبتناه.

(٤) أبو أمامة الباهلي صُدَيُّ بْنُ عَجْلانَ بن وهب، غلبت عليه كنيته، توفي النبي ﷺ وله ثلاثون سنة، كان يسكن حمص، قال سفيان بن عيينة: كان أبو أمامة الباهلي آخر من بقي بالشام من أصحاب رسول الله ﷺ توفي٨٦هـ عن ٩١ سنة. الاستيعاب (٢/ ٧٣٦)، السير (٣/ ٣٥٩).

واحفظني من الموت، أو ارزقني حرامًا واحمني من أكله، ولا يخفىٰ ما فيه.

والجواب: أن مراد عبد الله بن مسعود ﷺ أن الله يوسع عليه الدنيا بشرط الزهد فيها لا مطلقًا، فكأنه يقول: إن لم تزهدني فيها، فلا توسعها عليَّ، فهو سؤال صحيح لا اعتراض فيه شرعًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوريِّ ﷺ: «إني لأترك لبس الثياب الحسنة في الجمعة والعيدين خوفًا أن أدخل علىٰ عدوي الغم والحزن إذا رأىٰ أثر نعمة الله عليَّ» قال قائل: كيف تُترَك السنة مراعاةً لخاطر الحسدة مع فسقهم بحسدهم؟

والجواب: أن مثل سفيان ﷺ كان مجتهدًا، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن تركَ لبس ثياب الزينة والبياض مداراةً للأعداء أرجحُ في ميزان حسناته من فعل تلك السنة وغيظ الأعداء. وربما هيج لبسُه الثيابَ الحسنةَ الحسدَة ووقعوا في غيبته، فارتكبوا حرامًا بسبب تلك السنة. وقد كان ميمون بن مهران[1] ﷺ يقول: إن أردت أن تسلم من شرِّ عدوك، فعمِّ عليه أمرك. انتهىٰ. وبالجملة فلا اعتراض علىٰ المجتهدين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥) ومما أجبتُ به عن قول عمر بن الخطاب ﷺ: «مروا القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا» قال قائل: كيف ذلك والقرب معدود من جملة صلة الرحم لما فيه من حصول السرور؟

والجواب: أنه ربما كان مراد عمر ﷺ أن مجاورة القرابات تحرك عندهم الحسد علىٰ من كان منهم في نعمة. وقد قالوا في المثل السائر: «العداوة في الأهل، والحسد في الجيران» فإن كان القريب جارًا فهو أشد حسدًا، وذلك [لأنه][2] يرىٰ أن أصله وأصل

---

(١) أبو أيوب ميمون بن مهران، إمام أهل الجزيرة ومفتيها. قيل: مولده عام ٤٠هـ. أعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة، فنشأ بها، ثم سكن الرقة، قال سليمان بن موسىٰ: هؤلاء الأربعة علماء الناس في زمن هشام بن عبد الملك: مكحول، والحسن، والزهري، وميمون بن مهران. ت ١١٧هـ. حلية الأولياء (٤/ ٨٢)، السير (٥/ ٧١).

(٢) ساقط من «ب».

صاحب تلك النعمة واحد، ولا يرىٰ الأسباب التي رفع الله بها ذلك القريب. وبتقدير أن صاحب النعمة يشرك قريبه في نعمة، فهو لا يرىٰ فضلًا بذلك، ولذلك ورد: «أفضل الصدقة علىٰ ذي الرحم الكاشح»[١] أي المضمر عداوته في كشحه[٢]، لأنه لا ينشر لقريبه فضلًا إذا أحسن إليه، بخلاف الأجانب.

فعُلِمَ أن كلام عمر ﷺ في حقِّ العامة. أما أصحاب العلم والدين، فمجاورتهم لقراباتهم أفضل. ومن هنا استحب العلماء جمع الأقارب في مكان واحد من المقبرة، لانتفاء المانع الذي كان يُخاف منه حال حياتهم، **فإن من كمُلَت رياضة نفسه كان حكمه حكم الميت في عدم الحسد**، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوري في شبعه في بعض الأوقات، ثم يقول: قالوا: «أَشْبِعْ الزنجيَّ وكِدَّه[٣] في العمل». قال قائل: الشبع مذموم لكونه يكسل عن العبادة.

والجواب: أن مثل سفيان ﷺ كان حاكمًا علىٰ نفسه لا يضرُّه الشبع، بخلاف من كانت نفسه حاكمة عليه، بدليل قوله في وقت آخر: من أدخل في بطنه فضول الطعام، أخرج من لسانه فضول الكلام. انتهىٰ. فلو علم سفيان أن ذلك الشبع يضرُّه ما فعله، فيحمل شبعه ﷺ علىٰ الشبع الذي لا يضرُّ ولا يكسل عن الطاعات دون الشبع المنهيِّ عنه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧) ومما أجبتُ به عن محمد بن كعب القُرَظيِّ[٤] التابعيِّ الجليل في قوله: «لا ينبغي لعبد أن يعاهد الله تعالىٰ علىٰ أنه لا يفعل الشيء الفلاني في المستقبل، فإن من أعظم المسلمين

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣٠) وابن خزيمة (٢٣٨٦) والطبراني في «الكبير» (٣٩٢٣).

(٢) كَشْحُ الإِنْسَانِ: الجزء الجانبي من جسمه ما بين الضلوع والخاصرة.

(٣) كَدَّ فلانًا: ألحَّ عليه فيما يكلِّفه من العمل إلحاحًا يُرْهِقُه.

(٤) محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي أبو حمزة المدني، من حلفاء الأوس، وكان أبوه من سبي قريظة سكن الكوفة ثم المدينة، وكان من أفاضل أهل المدينة علمًا وفقهًا وعبادة، وكان مجاب الدعوة كبير القدر، ت ١٢٠ هـ. السير (٥/ ٦٥)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٢٠).

في المسلمين جرمًا من طلب معارضة أقدار الله تعالىٰ التي ينفِذها فيه في المستقبل، ويطلب أن لا ينفذ قضاءه السابق فيه». انتهىٰ. قال قائل: كيف يأثم من عاهد الله تعالىٰ أن لا يعصيه في المستقبل، وقد بايع رسول الله ﷺ الرجال والنساء من الصحابة علىٰ مثل ذلك؟

والجواب: أن مراد محمد بن كعب ﵁ من العبد أن يكون ساكنًا تحت جريان الأقدار التي لا مرد لها، ولا تخلو المقدَّرات من أن تكون محمودة أو مذمومة، فالمحمود يقول فيه: الحمد لله، والمذموم يقول فيه: أستغفر الله، لأن ميزان الشرع مع كل مؤمن يزن بها كلَّ ما يبرز علىٰ يديه من الأعمال والأقوال، هذا الذي يلزم العبد. وأما معاهدته أن لا يفعل كذا في المستقبل، فليس ذلك له، لأن خلق الأفعال كلِّها إلىٰ الله لا إلىٰ العبد. ثم إن كان سبق في علم الله تعالىٰ الوقوع في ذلك الأمر الذي عاهد الله علىٰ تركه ثم فعله، صار عليه الإثم من جهتين: من جهة المعصية الأصلية، ومن جهة نقض العهد. ولو أنه لم يعاهد ربه علىٰ ذلك، لكان عليه الإثم من جهة واحدة. وأما مبايعته ﷺ أصحابه علىٰ ترك أمور في المستقبل فذلك كان بوحي من الله عزَّ وجلَّ. ومقصود الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ كلِّهم أن يخففوا عن الخلق الإثمَ لا أن يزيدوهم إثمًا.

وأما عزم العبد علىٰ أن لا يعصي ربه في المستقبل من غير معاهدة، فذلك من شروط التوبة كما هو معلوم، وهو يتولد من الإقلاع عن الذنب. ومن فهم ما قلناه علم حكمة قوله تعالىٰ: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[الممتحنة: ١٢] فإن ذكر الاستغفار عقب المبايعة لا يكون إلا عن ذنب. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ أفعال الأكابر وأقوالهم إلا بنص صريح، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨) ومما أجبتُ به عن قول مالك بن دينار وشقيق البلخيِّ وأبي عبد الله الأنطاكيِّ[1]

---

(١) أحمد بن عاصم الولي أبو عبد الله الأنطاكي، صاحب مواعظ وسلوك. كان يقول: غنيمة باردة؛ أصلح فيما بقي، يغفر لك ما مضىٰ. وقال: إذا صارت المعاملة إلىٰ القلب، استراحت الجوارح. وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته. من تصانيفه: «دواء داء القلوب» توفي: ٢١٥هـ. الرسالة القشيرية (١/ ٧٣)، حلية الأولياء (٩/ ٢٨٠).

ﷺ في الغيبة المحرمة التي لا يشعر بها أكثر الناس الغيبة بالقلب، وذلك أن يثبت العبد عيب أخيه في قلبه، ثم يصير يخاف أن يتكلم به خوفًا من إظهار عداوته له. قال قائل: الغيبة لا تكون إلا بلفظ أو إشارة كما ثبت في السنة. وأما ما لا يتكلم به العبد فهو مغفور لحديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[١].

والجواب: أن مثل هؤلاء الأئمة لا يجهلون ما قاله هذا القائل، وإنما أرادوا بهذا القول سدَّ باب الغيبة مطلقًا بترك الأمر الذي تتولد الغيبة منه، وهو إثبات ذلك في القلب، فإن اللسان إنما هو ترجمان للقلب. وقد كان الأنطاكيُّ ﷺ [يقول][٢]: من تجرَّأ علىٰ سوء الظن بأحد، تجرأ علىٰ التصريح بغيبته، ومن تجرأ علىٰ التصريح جرَّه ذلك إلىٰ أن يقول في الناس الزور والبهتان. انتهىٰ.

ولم يزل الأكابر من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين يحذرون أصحابهم من الوقوع في الغيبة، لشدَّة حلاوتها في نفوس غالب الناس، حتىٰ لا يكاد أحدهم يستطيع رد نفسه عنها. وكان حاتم الأصم يقول: ثلاث إذا كُنَّ في مجلس فإن الرحمة عن أهله مصروفة: ذكر الدنيا، والضحك، والوقيعة في الناس. وقد كان مالك بن دينار يقول: الغيبة فاكهة القرَّاء- يعني علماء زمانه- فكيف بعامة زماننا هذا؟! وكان محمد بن سيرين يقول: ربما استغاب[٣] أحدهم مَن عَلِمَه وقع في ذنب، ويزعم أن غيبته نصرة للدين، ويقع هو في أمثالها، فلا ينكر علىٰ نفسه، ولا ينصر الدين.

وكان عوف ﷺ يقول: نلتُ من عرض الحجاج بن يوسف يومًا عند محمد بن سِيْرين[٤]،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) بالأصلين: تستغيب. والمثبت الصواب.

(٤) محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري البصري، مولىٰ أنس بن مالك ﷺ. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ﷺ، قال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أحد أعلم بالقضاء من ابن سيرين. وقال أبو عوانة: رأيت محمد بن سيرين في السوق، فما رآه أحد إلا ذكر الله. ت ١١٠هـ. السير(٤/ ٦٠٦)،حلية الأولياء (٢/ ٢٦٣).

فقال لي: يا عوف، إن الله تعالىٰ حكم عدل، فكما ينتقم من الحجاج، كذلك ينتقم للحجاج، وربما كان أصغر ذنب فعلتَه أنت أشدَّ عليك يوم القيامة من أعظم ذنب فعله الحجاج. انتهىٰ.

وكان شقيق البلخيُّ إذا بلغه أن أحدًا وقع في عرضه يذهب إليه في داره ويقول له: يا أخي، ما لك ولشقيق تحمل عنه ذنوبه؟! يكفيك ما ارتكبتَه من الذنوب. ونام شقيق مرةً عن ورده في الليل، فعاتبته امرأته، فقال لها: لا تعتبيني إذا نمتُ عن وردي، فإن غالب علماء بلخ وزهَّادها يصلون لي ويصومون ويتصدقون ويفعلون الخير. فقالت له: كيف؟! فقال: يبيتون يصلون طول الليل ويصبحون صائمين، ثم ينالون من عِرْضِ شقيق ويأكلون من لحمه، فتكون جميع عباداتهم في ميزاني يوم القيامة. انتهىٰ.

فإن قلت: إن قوله هذا فيه سوء ظنٍّ بعلماء بلخ، ولا ينبغي أن يحملهم علىٰ ذلك؛ فالجواب: أنه يُحتمَل أن ذلك ثبت عنده بطريق شرعي، فأجاب امرأته بذلك سدًّا لباب اعتراضها عليه بغير علم، وردعًا لها عن الوقوع في أعراض الناس.

وكان مالك بن دينار يقول: كفىٰ بالمرء إثمًا أن لا يكون صالحًا، ثم يقع في أعراض الصالحين. وكان وكيع بن الجراح[1] يقول: سدُّوا أبواب الغيبة عنكم، فإنه لم يسلم منها إلا القليل، وهي من أقبح الأعمال والأقوال، وإياكم وسوء الظن بأحد، فإنه مقدِّمة الغيبة.

وكان أبو إمامة يقول: إن العبد ليُعطَىٰ يوم القيامة كتابه، فيرىٰ فيه حسنات لم يعملها، فيقول: يا رب أنىٰ لي هذا؟! فيقول: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر. وإن العبد ليعمل الحسنات العظيمة فلا يراها في صحيفته يوم القيامة، فيقول: يا ربِّ، أين حسناتي؟! فيُقال له: ذهبت باغتيابك للناس[2]. انتهىٰ.

---

(١) وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، أبو سفيان، الكوفي، أحد الأعلام. ولد: سنة ١٢٩هـ. من مصنفاته: «تفسير القرآن» و«السنن» و«والمعرفة والتاريخ» و«الزهد» قال أحمد بن حنبل: ما رأيت أحدا أوعىٰ للعلم ولا أحفظ من وكيع. توفي: ١٩٧هـ. تاريخ بغداد (١٣/ ٤٧١)، السير (٩/ ١٤٠).

(٢) أخرجه الخرائطي في «مساويء الأخلاق» (١٩١) وابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٢)، فيه الحسن بن دينار

وكان عبد الله بن مبارك يقول: لا تذكروا أهل البدع بغيبة إلا بحضرة من يُبلغهم إلا من يسب أبا بكر وعمر ﵄. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك ما استطعت، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩) ومما أجبتُ به عن خالد بن صفوان التابعي[1] ﵁ في قوله: «قبول النميمة شرٌّ من النميمة» قال قائل: كيف ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها»[2]، فكيف جعل خالد وزر الفرع أعظم من وزر الأصل؟

والجواب: أنه ربما قصد بذلك سدَّ باب النميمة، فإن النمَّام إذا لم يُصدقه الناس وكذبوه في وجهه ومن ورائه، تفتر همته عن نقل النميمة، ولا ينشطه إليها إلا قبولها منه. وقد سُئل معروف الكرخي عن مقالة خالد هذه، فقال: إنما كان قال: «قبول النميمة شرٌّ من النميمة» لأن النميمة رواية، وقبولها إجازة. انتهىٰ. وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول: امتحنتُ الداخلين عليَّ، فلم أر أحدًا منهم يسلم من إدخال الكدر عليَّ، إما أن يبغض إليَّ أصدقائي، أو يبلغني كلام أعدائي. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠) ومما أجبتُ به عن الصحابة والتابعين الذين حضروا عند الإمام عليٍّ ﵁ مع رجل وقع في حدٍّ، فقال لهم السيدُ عليٌّ: أنشدكم بالله أن كلَّ من أتىٰ هذا الحدَّ منكم أن ينصرف؛ فانصرفوا كلهم. قال قائل: هذا يوهم أن كلَّ من كان حاضرًا هناك من الصحابة والتابعين وقع في ذلك الحدِّ، وذلك تجريح للصحابة والتابعين، إذ الحدُّ لا يخلو أن يكون قتلًا أو زنًا أو شرب خمر ونحو ذلك من الكبائر.

عن خصيب بن جحدر، فالحسن قال النسائي متروك والخصيب كذبه شعبة والقطان. انظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣٨٣٠) (٦/ ٢٣٩٩).

(١) خالد بن صفوان بن الأهتم أبو صفوان المنقري الأهتمي البصري. وفد علىٰ عمر بن عبد العزيز. قيل له: أي إخوانك أحب إليك؟ فقال: الذي يغفر زللي ويقبل عللي ويسد خللي. عاش إلىٰ أن أدرك خلافة السفاح العباسي وحظي عنده. وكان يرمىٰ بالبخل توفي: نحو ١٣٣هـ. السير (٦/ ٢٢٦) الأعلام (٢/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥).

والجواب: أنه قد يريد بالحدِّ هنا ما يوجب التعزير، فأطلق عليه الحد توسعًا، كإيذاء الناس بعضهم بعضًا بغيبة أو سوء ظن ونحو ذلك، وإلا فوقوع هذا الجم الغفير كلّه في الزنا مثلًا من أبعد البعيد. هذا ما حضر في الجواب والقصة رواها البيهقي في «السنن الكبرىٰ» في باب حدِّ الخمر، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١) و مما أجبتُ به عن مَعْمَر[1] ﷺ **في قوله: «إن أردت السلام من شرِّ الناس، فاترك الإحسان إليهم» وفي قوله: «قد صار المعروف والإحسان اليوم سُلَّمًا للسوء حتىٰ قالوا: اتق شرَّ من تحسن إليه» وفي قوله: «أصل كلِّ عداوة اصطناع المعروف إلىٰ اللئام» ونقل ذلك أيضًا عن الإمام الشافعي. قال قائل: كيف هذا القول مع قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ومع حديث: «تهادوا تحابوا»**[2]**، وحديث: «القلوب جبلت علىٰ حبِّ من أحسن إليها»**[3]**. انتهىٰ.**

والجواب: أن مرادَ مَعْمَر ﷺ ومن قال بقوله التحرزُ مما يتولد من الإحسان إلىٰ اللئام، لا النهي عن نفس الإحسان، وذلك أن الإنسان إذا أحسن إلىٰ شخص أكثر ذلك الشخص من القرب منه، فربما صار يحصي عليه زلاته، ثم إذا وقع بينه وبينه عداوةٌ صار يهجوه بتلك الزلات في المجالس، فكان سبب حصول الشرِّ منه ذلك الإحسان. ولو أنه لم يحسن إليه لكان منه بعيدًا، بل ربما كان يرىٰ البعد عنك أولىٰ. وقد قالوا: من طلب محبة الإنسان بلا إحسان، فقد أخطأ الطريق. وقالوا: من لا ينفعك فلا عليك منه. فاعلم ذلك، وأحسن إلىٰ كل برٍّ وفاجر بطريقه الشرعي، لاسيما من يكفر إحسانك ولا يشكره،

---

(١) معمر بن راشد أبو عروة الأزدي البصري، نزيل اليمن. ولد سنة ٩٦هـ. طلب العلم وهو حدث، وكان من أوعية العلم، مع الصدق، والتحري، والورع، والجلالة، وحُسن التصنيف. من مصنفاته: «الجامع» في السيرة. توفي: ١٥٣هـ. السير (٧/ ٥)، تهذيب الكمال (٢٨/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه مالك (١٦) والبيهقي (١١٩٤٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٧٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١) والشهاب القضاعي في «مسنده» (٥٩٩).

فإنه أثقل في الميزان يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٢) ومما أجبتُ به عن إبراهيم بن أدهم في قوله: «بئس الأخ الذي لا تتجرأ أن تفتح كيسه في غيبته وتأخذ حاجتك منه» قال قائل: قد يكون عدم تجرئه علىٰ فتح كيس أخيه هو قياسه علىٰ نفسه هو، فلا ينبغي ذم صاحب الكيس.

والجواب: أن كلام إبراهيم جرىٰ علىٰ الغالب في الناس من العوام. وما قاله هذا المعترض يحمل علىٰ ما إذا كان المال لأحد من الأولياء الذين أجمع الناس علىٰ زهدهم في الدنيا، فربما قاسه فاتح الكيس علىٰ نفسه، فربط الكيس ولم يأخذ منه شيئًا، فكان عدم تجرئه علىٰ فتح ذلك الكيس إنما هو قياس أخيه علىٰ نفسه لا بخل صاحب الكيس. وقد جاء جماعة إلىٰ بيت سفيان الثوريِّ في غيبته، فاخرجوا جميع ما فيه من المتاع والطعام وتصدقوا به، ثم جاء سفيان فبكىٰ وقال: لقد ذكرتموني بأحوال السلف الماضين وعاملتموني بأخلاقهم ولست منهم. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٣) ومما أجبتُ به عن أبي ذرٍّ ﷺ حين أرسل له عثمان بن عفان مالًا مع عبد له، وقال: إن قبله منك فأنت حر. فرده وقال: إن كان فيه عتقك فإن فيه رقي. قال قائل: كان الأولىٰ قبوله لأجل عتق ذلك العبد، لاسيما والمال من مثل عثمان بن عفان تبعد فيه الشبهة.

والجواب: أن أبا ذرٍّ كان من أهل الاجتهاد في ترجيح الأعمال وتقديم بعضها علىٰ بعض، فرأىٰ ردَّ ذلك المال وعدمَ عتق ذلك العبد أرجح في ميزانه من أخذ المال وعتق العبد، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٤) ومما أجبتُ به عن محمد بن الفضل[1] في قوله: «من لم يدارِ الناس لم يجد حلاوة الإيمان» قال قائل: ما وجه تعلق مداراة الناس بالإيمان بالله وملائكته وكتبه

---

(١) أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس البلخي الواعظ. قال: ما خطوت أربعين سنة لغير الله وما نظرت أربعين سنة في شيء فاستحسنته حياء من الله وما أمليت علىٰ ملكي منذ ثلاثين سنة خطيئة ولو فعلت ذلك لاستحييت منهما. توفي: ٣١٩هـ. السير (١٤/ ٥٢٣)، صفة الصفوة (٢/ ٣٤٢).

ورسله وبالقدر خيره وشره؟

والجواب: أن وجه تعلق ذلك بالإيمان أنه من حسن الخلق الذي أمر الله تعالىٰ به. وقد كان محمد بن الفضل هذا يكثر من مجالسة أعدائه ويلاطفهم بالكلام الحلو، ويعزم عليهم أن يأكلوا في داره، ويقول: إن ذلك يخمد عداوتهم. وانقطع آخر عمره في داره، فكان لا يخرج إلا للجمعة والجماعة، وكتب علىٰ باب داره: رحم الله من لا يعرفنا ولا نعرفه، فإنه لم يأت لنا أذىٰ إلا ممن يعرفنا. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٥) ومما أجبتُ به عن جعفر بن حميد[1] ﷺ في قوله: «من لم ينقص من أصدقائه كل يوم واحدًا فهو قليل العقل» كيف ذلك وكثرة الأصدقاء مطلوبة حتىٰ كان الإمام الشافعيﷺ يقول:

وليس كثير ألـف خل وصاحب وإن عـــدوًا واحـــدًا لكثير

وكان يقول: لولا مجالسة الأصدقاء في هذه الدار ما أحببت البقاء فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض في ذلك، لأن مراده أن الإنسان كل يوم ينقص قيراطٌ من مروءته ومن عقله، ومن كرمه ومن سخائه، ومن قوته ومن عمره. ومن كثرت أصدقاؤه كثرت عليه الحقوق، واشتغل بهم عن التهيؤ لآخرته. علىٰ أن الأصدقاء قد قلُّوا جدًّا، حتىٰ لا يكاد الإنسان يظفر بصديق به نفع، بل فتَّش أهلُ العصور الماضية علىٰ صدِيق فلم يجدوه، حتىٰ كان وهيب بن الورد ﷺ يقول: خالطتُ الناس الذين كنتُ أعدُّهم أصدقاء خمسين سنة، فما وجدتُ أحدًا منهم غفر لي زلة، ولا ستر لي عورة، ولا أقال لي عثرة، ولا أمنته علىٰ نفسي إذا خالفته في هواه المذموم. انتهىٰ. فعُلِمَ أن مراد جعفر ﷺ أن كلَّ من لم يشتغل بأمر آخرته عن الاشتغال بالناس فهو قليل العقل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جعفر بن حميد القرشي، وقيل: العبسي. ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال ابن منجويه مات بعد الثلاثين ومائتين وبلغ تسعين سنة وقال مطين مات يوم الجمعة لاحدىٰ عشر بقيت من جمادىٰ الآخرة سنة (٢٤٠هـ). «تهذيب التهذيب» ابن حجر (٢/ ٧٠).

(١٤٦) ومما أجبتُ به عن قول إبراهيم بن أدهم ﷺ: «لا يحبُّ اللهَ من أحبَّ الدنيا» قال قائل: كيف صح هذا القول ولابد للعبد من محبة الدنيا من مال وزوجة وولد ورئاسة وطعام ومنام وكلام؟ وكيف صح لإبراهيم نفي محبة الله تعالىٰ عن محب الدنيا أصلًا ورأسًا إذا أحب الدنيا والحقُّ تعالىٰ محبوب بالطبع لإحسانه لنا بالخلق والرزق والمعافاة من البلايا وغير ذلك؟

والجواب: أن مراد إبراهيم بذلك نفي المحبة الكاملة، وإلا فلا يصح لعبد عدم محبة ربِّه من كل وجه، وقد قال ﷺ: «جبلت القلوب علىٰ حبِّ من أحسن إليها»[1]. انتهىٰ. ومعلوم أن الله تعالىٰ هو المحسن الحقيقيُّ لنا، فلا يصح من أحد عدم محبته بالكلية. ولما علم العارفون حاجتهم إلىٰ الدنيا، قلبوا محبتهم لها لأغراض صحيحة، فأحبوا المال للإنفاق في مرضات الله تعالىٰ، وليفوزوا بخطاب الله تعالىٰ لهم بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، فإنه تعالىٰ ما خاطب بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلا أصحاب الجدة والمال دون الفقراء والمساكين، وأحبوا الولد والزوجة لكونهما جزءًا منهم، فإذا أحبوهما فكأنهما أحبوا أنفسهم وذواتهم، وذلك لا يقدح إلا مع الغفلة عن الله تعالىٰ، وأصحاب هذا المقام لا يغفلون بمحبة أنفسهم عن الله تعالىٰ، لأنهم يرون أولادهم وزوجاتهم تحت يدهم كالأمانة عندهم لله تعالىٰ، وليس لهم منها شيء.

وأما حبهم للرئاسة فهم يحبونها من جهة كونها من صفات الحقِّ جلَّ وعلا، إذ هو المالك للعالم كلِّه، لا من جهة شفوف نفوسهم بها علىٰ إخوانهم. وكذلك القول في الطعام والكلام والمنام، فيطعمون ذاتهم من جهة كونها أمة من إماء الله، وينامون ليزيلوا الملل والتعب الحاصل من الأعمال، ويتكلمون باللغو ترويحًا للنفس من التحجير الحاصل من ضبط أقوالهم علىٰ قانون الشرع والمراقبة، ويصير أحدهم يثاب علىٰ هذه الأمور كلِّها بالنية الصالحة، فافهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد كان أبو بكر الوراق[1] ﷺ يقول: لا تطمع في حب الله وأنت تحب الدنيا، ولا تطمع في الأنس بالله وأنت تخالط الخلق، ولا تطمع في رضا الله وأنت تخالط الظلمة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: كلُّ سالك في الطريق لابد أن ينتهي في سلوكه إلىٰ صورة بدايته، لكن يكون القصد مختلفًا، فيمسك الدنيا في نهايته ويزاحم عليها لأغراض صحيحة، كما كان يفعل في حال بدايته بأغراض فاسدة، ويحبُّ القرب من الناس تبركًا بهم كما كان يفعل ذلك بهم في حال بدايته طمعًا فيهم وهكذا، **فمن رآه حال نهايته لم يفرق بينه وبين أبناء الدنيا.** انتهىٰ. فاعلم ذلك، واسلك طريق القوم حتىٰ تصير تقلب أعمال الدنيا إلىٰ ما فيه رضا الله، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار في قوله: «لأن يجالس الرجل كلبًا خيرًا له من جليس السوء» قال قائل: كيف جعل مالك الكلب خيرًا من الإنسان مع ما شرفه الله تعالىٰ به من الصفات؟

والجواب: أن مراده أن الكلب لا يستغيب أحدًا من الخلق عنده، ولا ينقل إليه نميمة، بخلاف بني آدم، فالخيرية راجعة للأثر والصفات التي تقع من الكلب والإنسان، وإلا فمالك يعرف بيقين أن النوع البشري أشرف من الكلب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨) ومما أجبتُ به عن الربيع بن خثيم[2] في قوله: «لا يقل أحدكم: أستغفر الله وأتوب إليه، فيكون ذلك ذنبًا وكذبًا إن لم يفعل، ولكن يقول: اللهم اغفر لي وتب عليَّ»

(١) أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي المستملي الوراق. ولد سنة ٢٩٣هـ. قال الخطيب: سألت البرقاني عن محمد بن إسماعيل. فقال: ثقة ثقة. توفي: في ربيع الآخر ٣٧٨هـ. السير (١٦/ ٣٨٨)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٥).

(٢) الربيع بن خثيم بن عائذ، أبو يزيد الثوري، الكوفي، أحد الأعلام. أدرك زمان النبي ﷺ وأرسل عنه. قال له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين. توفي: ٦٥هـ. السير (٤/ ٢٥٨)، تهذيب الكمال (٩/ ٧٠).

فلاث به بعض طلبة العلم وقال: إن قول «استغفر الله» ورد في السنة، وقال الإمام النووي: إن معناه اللهم اغفر لي، فكيف ينهىٰ عنه؟

والجواب: أن كلام الربيع في قوله: «اللهم اغفر لي» محمول علىٰ حال أهل البداية، لبقاء رعونات نفوسهم، ويحمل قوله: «أستغفر الله» علىٰ توبة العارفين، علىٰ أن المعنىٰ في «أستغفر الله» للطلب، فكأنه يقول: اللهم اغفر لي، ثم إن رأىٰ الاستغفار من عند نفسه فهو يراه بإلهام الله تعالىٰ، فرجع الأمر إلىٰ الله تعالىٰ. وعلىٰ ما قررناه يُحمل قول الفضيل بن عياض ورابعة العدوية[1]: استغفارُنا يحتاج إلىٰ استغفار، أي لعدم خلوص توبتنا، فإنهما إن قالا ذلك في حال بدايتهما فظاهر، وإن قالاه في حال كمالهما فهو هضم لنفسهما، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٩) ومما أجبتُ به عن ابن عباس ﷺ في قوله بعدم صحة توبة القاتل عمدًا بأنه ربما قال ذلك زجرًا وتنفيرًا عن القتل وعن الإعانة عليه، فرارًا من مواطن سخط الله عزَّ وجلَّ، وإلا فمثل ابن عباس لا يخفىٰ عليه قبول توبة القاتل، ولا حديث: «الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا»[2] كما رواه البخاري وغيره. وقد سُئل عكرمة ومجاهد[3] ومسروق[4] عن ذلك، فقالوا: لا نغلق بابًا فتحه الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رابعة العدوية أم عمرو بنت إسماعيل العتكية البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة. قال خالد بن خداش: سمعت رابعة صالحًا المري يذكر الدنيا في قصصه، فنادته: يا صالح، من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

توفيت:١٣٥هـ وقيل: ١٨٠هـ. السير (٨/ ٢٤١)، الوافي بالوفيات (١٤/ ٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٣) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي الأسود الإمام شيخ القراء والمفسرين، مولىٰ السائب بن أبي السائب المخزومي. قال ابن جريج: لأن أكون سمعت من مجاهد، فأقول: سمعت مجاهدًا، أحب إلي من أهلي ومالي. توفي: ١٠٤هـ.السير(٤/ ٤٤٩)، حلية الأولياء (٣/ ٢٧٩)

(٤) مسروق بن الأجدع بن مالك الوادعي الهمداني.عداده في كبار التابعين، وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ. قال يحيىٰ بن معين: مسروق ثقة، لا يسأل عن مثله. ويقال: شهد صفين، فوعظ، وخوف، ولم يقاتل. توفي: ٦٣هـ.السير(٤/ ٦٣)، الأعلام (٧/ ٢١٥).

(١٥٠) ومما أجبتُ به عن يحيىٰ بن معاذ ﷺ في قوله: «من تاب ثم نقض، ثم تاب ثم نقض، فهو متلاعب بالدين» قال قائل: كيف يكون متلاعبًا والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؟ ومعلوم أن التوَّاب هو من يكثر التوبة عُقَيب كلِّ ذنب.

والجواب: أن مراد يحيىٰ بن معاذ [١] ﷺ سدَّ باب النقض للتوبة حسب الطاقة من حيثُ إن صورته صورة المتلاعب، وإن كان غير متلاعب في نفس الأمر. وقد كان مجاهد ﷺ يقول: من لم يتب كلَّ صباح ومساء فهو من الظالمين. وسُئل الحسن البصريُّ عمَّن يتوب ثم ينقض، ثم يتوب ثم ينقض وهكذا، فقال: ما أراه إلا مؤمنًا فَعَلَ أفعالَ المؤمنين.

وكان عبد الله بن حبيب يقول: إنكم لن تطيقوا غضب الله عليكم كلما عصيتم، فأصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وكان سعيد بن الُمسَيَّبِ [٢] يقول في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]: إنها نزلت فيمن يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب. وكان عبد الله بن عمر [٣] يقول: من وقع في خطيئة ثم تذكرها بعد مدة، فوجل منها قلبه، محيت من صحيفته. وكان حبيب بن أبي تمام [٤] يقول: من وقع في ذنب فخاف من

---

(١) يحيىٰ بن معاذ الرازي الواعظ، من كبار المشايخ، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة. من أقواله: لست أبكي علىٰ نفسي إن ماتت، إنما أبكي علىٰ حاجتي إن فاتت. خرج إلىٰ بلخ وأقام بها مدة ورجع إلىٰ نيسابور، ومات بها سنة ٢٥٨هـ. السير (١٣/ ١٥)، الرسالة القشيرية (١/ ٦٥).

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن الإمام العلم أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة. وسيد التابعين في زمانه. ولد: لسنتين مضتا من خلافة عمر ﷺ. وكان يقولﷺ: ما أحدٌ أعلم بقضاءٍ قضاه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، ولا عمر مني. توفي:٩٤هـ.السير (٤/ ٢١٧)، حلية الأولياء (٢/ ١٦١).

(٣)عبد الله بن عمر بن الخطاب، وُلِدَ سنة ثلاث من البعثة، أسلم وهاجر مع أبيه، استُصغر يوم بدر وأحد، أول مشاهده الخندق، من فقهاء الصحابة ومفتيهم وزهادهم، أحد المكثرين من رواية الحديث، وأحد العبادلة الأربعة، وآخر من مات بمكة من الصحابة، توفي سنة ٧٣هـ. «الإصابة» (٤/ ١٥٥).

(٤) أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي، كان نصرانيًا فأسلم، مدح الخلفاء والكبراء. ولد: في أيام الرشيد. جالس الأدباء، وأخذ عنهم، وكان يتوقد ذكاء. وسَحَّت قريحته بالنظم البديع، فسمع به المعتصم، فطلبه، وقدمه علىٰ الشعراء، وله فيه قصائد. من مصنفاته: «الحماسة» و«فحول الشعراء»

الله أن يعذبه عليه، غفر الله له.

وكان عبد الرحمن بن قاسم[1] يقول: إذا كان الكافر يُغفَر له كلُّ ذنب إذا أسلم، فنرجوا من الله تعالىٰ أن يكون المسلم أولىٰ بذلك إذا تاب، فإن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام، أي كتكرار الشهادتين مرة بعد أخرىٰ. وكان وهب بن مُنَبِه يقول: من قدَّم الاستغفار علىٰ الندم فهو كالمستهزيء بالله تعالىٰ وهي توبة الكذابين. انتهىٰ.

قلتُ: ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾ [المائدة: ٧٤] فأخَّر الاستغفار عن التوبة التي منها الندم بجعل الواو للترتيب، والله أعلم.

وسُئل يحيىٰ بن معاذ عن المسلم إذا وقع في ذنب يكره إطلاع الناس عليه أكثر من إطلاع ربه عليه، هل ذلك من هوان منه بربه؟ فقال: لا، وإنما ذلك من شدة معرفته بكرم ربه وجوده وظنه أنه تعالىٰ لا يفضحه، بخلاف الناس. وكان ﷺ إذا قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤] يقول: إلهي ما أكرمك! إذا كان هذا قولك فيمن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] فكيف يكون رفقك بمن يقول: أشهد أن لا إله إلا أنت؟ وكان يقول: ذنب واحد بعد توبة أقبح من سبعين ذنبًا قبلها. وكان إبراهيم بن أدهم يقول: ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يُعذبه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وعمدة هذا الباب حديث: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم أكثر من سبعين مرة»[2]. وأجمع أهل السنة علىٰ ذلك، ولا يغترُّ بقول مالك بن دينار: دخلت علىٰ جار لي وهو محتضر وكان مسرفًا علىٰ نفسه، فقلت له: يا أخي، تب إلىٰ الله تعالىٰ، فلعلك

و«كتاب اختيارات من شعر الشعراء» توفي :٢٣١هـ. السير (١١/ ٦٣) ومرآة الجنان (٢/ ٧٧).

(١) عبد الرحمن بن قاسم الشعبي أبو المطرف: قاضي مالقة (بالأندلس) كانت تدور عليه الفتيا بقطره أيام حياته. وكان يذهب إلىٰ الاجتهاد، له «مجموع» في الأحكام. توفي: ٤٩٩هـ. الأعلام (٣/ ٣٢٣) ومعجم المؤلفين (٥/ ١٦٥).

(٢) تقدم تخريجه.

تموت علىٰ ذلك، فإذا بهاتف يقول لي: إن كانت توبته كتوبتك، فلا فائدة فيها. انتهىٰ[1]. فذلك من باب التدقيق علىٰ الأكابر من الأفراد، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥١) ومما أجبتُ به عن عمر بن الخطاب ﷺ في قوله: «ما تركت لي كلمة الحقِّ من صديق، وسيأتي علىٰ الناس زمان يكون صالحهم فيه هو من لا يأمر بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر، فيقول الناس: ما رأينا منه إلا خيرًا؛ لكونه لم يغضب لله حين انتُهكت حرماته». قال قائل: كيف سمَّىٰ من لا يأمر بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر صالحًا؟

والجواب: أنه صالح أي عند الناس لا عند الله تعالىٰ، إذ الصالح عند الله تعالىٰ هو من عادىٰ الفاسقين لله، ولم يغش أحدًا من المسلمين، ومن سلك هذا المسلك فمن لازمه غالبًا عدم مدح جيرانه ومعارفه له. وكان علي بن أبي طالب يقول: من غضب لله غضب الله له. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوريُّ يقول: لا يلزم أحدًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا فيما أجمعت عليه الأمة، أما ما اختلفوا فيه فلا يلزم إلا إن كان فاعل المنكر يعتقد تحريمه. وكان حذيفة بن اليمان يقول: سيأتي علىٰ الناس زمان تكون مجالستهم لجيفة حمار أحب إليهم من مجالسة من ينصحهم. وكان عبد الله بن مسعود يقول: إذا مات الرجل ولم يذمه أحد من جيرانه، فاعلموا أنه مداهن في دينه. وكان مالك بن دينار يقول: أوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ الملائكة أن صبُّوا العذاب صبًّا علىٰ قرية كذا وكذا، فقالت الملائكة: يا رب إن فيهم عبدك فلانًا العابد. فقال تعالىٰ: اسمعوني ضجيجه من العذاب، فإن وجهه لم يتمعر قط إذا انتُهكت محارمي.

ولما دخل أبو إسحاق الفزاري[2] علىٰ هارون الرشيد قال له يوسف بن

---

(١) وقد تقدَّم الجواب عن هذه الواقعة في الجواب رقم (٩٩).

(٢) أبو إسحاق الفزاري إبراهيم بن محمد بن الحارث الشامي، كان مولده بواسط سكن الشام مات سنة ست وثمانين ومائة كان من الفقهاء والعباد والحفاظ والزهاد ممن عنىٰ بالعلم ولزم الورع والحلم ورابط بالثغر إلىٰ أن مات، قال أبو حاتم: اتفق العلماء علىٰ أن أبا إسحاق الفزاري إمام يقتدىٰ به، بلا مدافعة. توفي:

أسباط[1]: كيف تدخل علىٰ هذا الرجل وعنده فُرُش حرير؟ فقال: ما بلغك إلا الحرير؟! أين الدماء والفروج والأموال؟! ولكنا إنما دخلنا عليه لضرورة. وقد أدركنا السلف الصالح وهم يقولون: إن العالم إذا دخل علىٰ ظالم ولم يُسأَل فهو في سعة، وأني لم أسال عن شيء من مظالم هذا الرجل وأنا جالس عنده، ولو قيل لي: هل هذا الفرش مثلًا حرام؟ لقلت: هو حرام. انتهىٰ.

فإن قال قائل: في جواب أبي إسحاق هذا نظر، فقد صرحوا بأنه يحرم علىٰ الشخص أن يحضر مكانًا فيه منكر إلا إن كان يقدر علىٰ إزالته؛ فالجواب: أن أبا إسحاق كان مجتهدًا في ذلك، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه لا لوم عليه في الحضور. وقد قالوا لسفيان الثوري مرة: أيأمر الرجل من يعلم أنه لا يقبل منه؟ فقال: نعم، ليكون معذرة عند الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٢) ومما أجبتُ به عن الإمام مالك حين أرمىٰ كتابه «الموطأ» في الماء وقال: «إن ابتل فما حاجة لي بتأليفه». قال قائل: قد يكون خالصًا لله ولو ابتل، فكان الأولىٰ عدم رميه في الماء من حيثُ إن فيه إتلافًا للأحاديث وللورق.

والجواب: أن الإمام ﷺ كان مجتهدًا مطلقًا، فلا اعتراض عليه فيما أدَّىٰ اجتهادُه إليه. وقد يكون بينه وبين الله تعالىٰ علامة يعرف بها إخلاصه من عدمه، وهي الابتلال وعدمه، كما كان لسهل بن عبد الله علامة في الطعام الذي يأكله، فيضرب في يده عرق، فيعلم أنه حرام. وأصحاب العلامات لا اعتراض عليهم إذا عملوا بها في أنفسهم، وإنما اللوم عليهم لو أمروا الناس بالعمل بها.

١٨٥هـ. مشاهير علماء الأمصار ص٢٨٩، السير (٨/ ٥٣٩).

(١) يوسف بن أسباط الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم. روىٰ عن: محل بن خليفة، والثوري، وزائدة بن قدامة. وعنه: المسيب بن واضح، وعبد الله بن خبيق، وغيرهما. توفي: في حدود ٢٠٠هـ. السير (٩/ ١٦٩) والوافي بالوفيات (٢٩/ ٤٥).

وقد بلغنا عن الحكيم الترمذي أنه أوصىٰ برمي جميع مؤلفاته في الدجلة[1]. وقال: إن الخضر وعدني أن ملوك البحر يحفظونها لي في البحر إلىٰ قرب قيام الساعة، فيخرجونها ليحيوا بها الشريعة، وأنهم لما روموها خرجت يدان من البحر، فالتقطت الكتب ونزلت بها إلىٰ قعر الدجلة. وكذلك بلغنا عن الإمام النووي أنه أوصىٰ أصحابه بغسل «الروضة»، وقال: في قلبي منها شيء. انتهىٰ.

ولم يزل الصالحون يخافون من وقوع العجب في أعمالهم، حتىٰ كان عمر بن عبد العزيز إذا كان يخطب وخاف العجب علىٰ نفسه، يقطع ذلك الكلام، وإذا كتب كتابًا فيخاف العجب فيه مزقه، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شرِّ نفسي. وكان حذيفة المَرْعَشيُّ ﵁ يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله علىٰ أفضل أعمالك، فأنت هالك. ومن بات قائمًا فأصبح يرىٰ نفسه علىٰ النائمين، فقد حبط عمله. وكان الحسن البصري يقول: لو أن عمل ابن آدم يكون كله حسنًا لهلك من العجب، ولكن الله ابتلاه بشهود النقص فيه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٣) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوريِّ ﵁ في قوله: «أكثر ما أكون راجيًا للخير حين تقل أعمالي الصالحة». قال قائل: كيف ذلك؟! وإنما ينبغي أن يكون الأمر بالعكس.

والجواب: أن مراد سفيان أنه معتمد علىٰ فضل الله تعالىٰ لا علىٰ الأعمال. ولو أنه كان معتمدًا علىٰ أعماله، لخاف من وقوع العذاب به إذا قلت أعماله الصالحة. وقد كان حسان بن سنان ﵁[2] يطلب الدعاء من أعوان الولاة ويقول: لعلَّ أحدَهم يكون فيه خصلة يحبها الله، وفيَّ خصلة يبغضها الله تعالىٰ، وربما رأيت نفسي خيرًا منه، فكان خيرًا

---

(١) الدجلة: أحد نهري العراق، والنهر الآخر الفرات.

(٢) حسان بن سنان بن أوفىٰ بن عوف التنوخي الأنباري، ولد سنة ٦٠هـ. ورأىٰ أنس بن مالك ﵁ ودعا له، فجاء من نسله قضاة ووزراء وصلحاء. وكان نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية، وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح الأنبار. توفي ١٨٠هـ. «الجواهر المضية» (١/ ١٨٥) و«وفيات الأعيان»(٢/ ١٩٤).

مني. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٤) ومما أجبتُ به عن أحمد بن حرب التابعيِّ ﷺ في قوله: «من نظر إلىٰ بستان أو بنيان بشهوة، سلبه الله تعالىٰ حلاوة العبادة أربعين يومًا». قال قائل: قد صرح العلماء بإباحة النظر إلىٰ بساتين الناس وبيوتهم ودوابهم، فضلًا عن بستان الإنسان وبيته ودابته، والعقوبة لا تكون إلا في الحرام كما هو مقرر في أصول الفقه، فكيف الحال؟

والجواب: أن هذا من باب ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] أي سؤال تقرير للنعمة، لا سؤال عقاب وعذاب. ولم يزل الحقُّ تعالىٰ يؤاخذ المقربين بحسنات الأبرار، لشدة اعتنائه بعبادة المقربين. وقد تقدم في الجواب عن السيد داود عليه الصلاة والسلام[1] أن الأكابر يؤاخذون بالنظر إلىٰ السماء ونحوها من المخلوقات إذا كان ذلك النظر علىٰ غير وجه الاعتبار والتحميد لله عزَّ وجلَّ، فيُحْمَل كلام أحمد بن حرب ﷺ علىٰ من نظر إلىٰ بستانه أو بيته علىٰ وجه التعجب والفخر، بقرينة قول أبي سليمان الداراني: من نظر إلىٰ بستانه أو داره فأعجب به، فكفارته أن يتصدق به. والحمد لله رب العالمين.

(١٥٥) ومما أجبتُ به عن يحيىٰ بن معاذ ﷺ في قوله: «من أراد أن ينظر إلىٰ أهل جهنم، فلينظر إليَّ». قال قائل: هذا القول من علامة القنوط من رحمة الله، وهو من الكبائر، فكيف الحال؟

والجواب: أن هذا من باب هضم النفس وشهودها عظمة الله عزَّ وجلَّ، فهو يرىٰ أنه استحق العقوبة في جهنم، ولكنه يرجو فضل الله وعفوه ومغفرته. ومعلوم أن القانط لا يرجو رحمة الله تعالىٰ ومغفرته أبدًا، بقرينة قول سفيان الثوريِّ ﷺ: من لم ير أنه هالك فهو هالك. وكان الحسن البصري يقول: من أعجب العجاب نجاة أمثالنا من النار، وكيف يرجو النجاة من النار من جميع أعماله تجرُّه إلىٰ النار؟ وكان يقول: رب داخل جهنم بالثناء عليه. وكان مالك بن دينار يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ أول من تُسعَر

(١) انظر الجواب رقم (٤٢).

به النار فلينظر إليَّ. وأقوال السلف في مثل ذلك كثيرة، ولا يلزم منها القنوط من رحمة الله، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٦) ومما أجبتُ به عن إبراهيم بن أدهم في قوله: «من زعم أن أكل الشهوات لا تضرُّه، فقد أعظم الفرية على الله عزَّ وجلَّ». قال قائل: إن الله تعالىٰ أذِن لنا في أكل الشهوات المباحة، ولو أنه تعالىٰ علم أنها تضرنا[1] لم يبحها لنا، لأنه تعالىٰ بعباده رؤوف رحيم.

والجواب: أنه ينبغي حمل كلامه ﷺ علىٰ الشهوات المحرَّمة أو المكروهة، ويكون ضررها استحقاق العذاب في الأولىٰ، ونقص الأجر في الثانية، كما حملوا علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠] الآية، فإنه تعالىٰ ما جازاهم بعذاب الهُوْن إلا باستكبارهم في الأرض بغير الحقِّ، وبفسقهم الحاصل من ارتكابهم المحرَّمات. وأما الشهوات المباحة فقواعد الشريعة تشهد بإباحتها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٧) ومما أجبتُ به عن قول أبي بكر الصديق ﷺ: «من استطاع أن يبكي فليبك، ومن لم يستطع فليتباك» وقول عمرو بن العاص: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا». قال قائل: كيف أمر هذان الصحابيان من لم يجد عنده داعية للبكاء أن يتفعل فيه، مع أن ذلك من الرياء؟

والجواب: أنه ليس في ذلك أمر بالرياء، إنما ذلك من باب قولهم: لا تتركوا العمل إذا خفتم الرياء أو العجب، بل اعملوا واستغفروا. ولم يزل الأشياخ يعلمون من المريدين الرياء والعجب والتفعل في المقامات، ثم يسارقونهم بالأمر بترك ذلك شيئًا فشيئًا. ولو أنهم أمروهم بالإخلاص الكامل أولًا لما استطاعوا، ومن هنا قالوا: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٨) ومما أجبتُ به عن ثابت البناني ﷺ حين قال له أنس بن مالك ﷺ: ما أشبه عينيك بعينيْ رسول الله ﷺ! فبكىٰ وتفاعل في البكاء حتىٰ عمشت عيناه غيرةً علىٰ عيني

---

(١) بالأصلين: لم، خطأ ظاهر.

رسول الله ﷺ أن يشبه بهما غيرهما. انتهىٰ. فقال قائل: كان الأولىٰ لثابت عدم التسبب في تعميش عينيه واستجلاب الضرر لنفسه، وكان يكفيه أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك الشبه، لأن القرائن تعطي أن رسول الله ﷺ لا يتكدر من كون عيني ثابت تشبه عينيه ﷺ.

والجواب: أن ذلك وقع من ثابت بطريق الاجتهاد وغيرةً علىٰ رسول الله ﷺ، وإن لم يتأثر هو بذلك. كما قال الإمام الشافعي ﷺ: لا تقصر في حقِّ أخيك اعتمادًا علىٰ مروءته وحسن خلقه. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٩) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض في قوله: «حملة القرآن يُسألون يوم القيامة عما يُسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام». قال قائل: الأنبياء معصومون من الإخلال بالعمل بشيء من القرآن، ومن عمل بالقرآن كاملًا كان كالأنبياء، فما بقي عليه لوم حتىٰ يُسأل عنه.

والجواب: أن مراده أن حامل القرآن مطالبٌ بالعمل بجميع أحكام القرآن، ولا سبيل له إلىٰ ذلك، فهو يُسأَل عن كلِّ شيء أخلَّ به من أحكامه سؤالَ توبيخ وتقريع لا سؤالَ تكريم كالأنبياء، أين المعصوم من كلِّ ذنب ممن هو غارق في الذنوب؟! ولما علم رسول الله ﷺ من العلماء العجز عن العمل بأحكام القرآن كلِّها قال رسول الله ﷺ: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»[1].

وكان أبو سليمان الداراني يقول: الزبانية إلىٰ حملة القرآن أسرع منهم إلىٰ عبدة الأوثان، لكونهم خالفوا ما حملوه. وكان يوسف بن أسباط كلما ختم القرآن يستغفر الله تعالىٰ سبعمئة مرة، ثم يقول: اللهم لا تمقتني بتلاوة كلامك من غير عمل به سبعمئة مرة. وكان الفضيل بن عياض يقول: مقام حامل القرآن يجل أن يعصي ربه، وكيف يصح له يعصي ربه وكلُّ حرف منه يناديه لا تعصِ ربك؟! وكذلك تناديه كلُّ جارحة منه. وكان مالك بن دينار يقول للقراء: القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض،

(١) أخرجه أحمد (٦٦٣٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٦٠) والطبراني في «الكبير» (٢٥).

فقولوا لي: ماذا زرع القرآن في قلوبكم من الخوف والورع والزهد وغير ذلك؟! انتهىٰ.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: من فرح كلما ختم القرآن ولم يطالب نفسه بالعمل فهو من المغرورين، إنما ينبغي البكاء والنحيب عند ختمه، لأن القرآن ما أنزل إلا للعمل به لا للتلاوة فقط. فاعلم ذلك، وكن من الخائفين من ربك كلما تلوت كتابه، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٠) ومما أجبتُ به عن الفضيل أيضًا في قوله: «من لم يحبس جميع جوارحه عن المعاصي والشهوات فهو مفطر وإن جاع، ومن حبس جوارحه عن المعاصي فهو صائم». قال قائل: كيف ذلك ولم يبلغنا في ذلك شيء عن الشارع؟

والجواب: أن الفضيل كان مجتهدًا في مثل ذلك، فأدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ إفطار من عصىٰ الله تعالىٰ ولو بالنظر واللمس، ويؤيده ما ورد في الغيبة من كونها تفطر الصائم. ويُحتمَل أن يريد أن العاصي في الصوم كالمفطر من حيثُ نقصانُ الأجر في أحكام الآخرة حين[1] يوفىٰ العامل أجره، والله أعلم.

(١٦١) ومما أجبتُ به عن قول عبد الواحد بن زيد[2]: «من ذاق طعم محبة الله لم يجد للنار ولا للبرد ألمًا في الدنيا والآخرة» كيف ذلك ونحن نرىٰ أكبر العلماء لا يستطيع أن يضع أصبعه في النار؟ ولا شك أنه محب لله عزَّ وجلَّ.

والجواب: أن مراده المحبة الخالصة من العلل التي سرت في جسمه كله وهي السرُّ القائم بالعبد. ومعلوم أن سرَّ الله لا سلطان للنار عليه، وأكثر من ذلك لا يُقال. ومن الدليل علىٰ أن الله لا يعذِّب محبوبه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ

---

(١) بالأصلين: حتىٰ.

(٢) شيخ الصوفية وواعظهم، عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري. قال معاذ بن زياد: سمعت عبد الواحد بن زيد غير مرة يقول: ما يسرني أن لي جميع ما حوته البصرة بفلسين. قال ابن حبان: كان ممن غلب عليه العبادة حتىٰ غفل عن الإتقان، فكثرت المناكير في حديثه. توفي: بعد ١٥٠هـ. السير (٧/ ١٧٨) «شذرات الذهب» (٢/ ٣٤٦).

فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨] أي لو كنتم أحباءه ما عذَّبكم، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٢) ومما أجبتُ به عن قول أبي سليمان الداراني: «كلُّ ما أشغلك عن الله فهو مشؤوم عليك، حتىٰ العلم والعمل». انتهىٰ. قال قائل: كيف يشغل العلم والعمل عن الله تعالىٰ مع أنهما مأمور بهما؟

والجواب: أن مراده ما إذا دخل الرياء والإعجاب فيهما، فإنهما حينئذ يشغلان عن الله، أما إذا أخلص فيهما فلا، بل يجمعان قلب العبد علىٰ ربه، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٣) ومما أجبتُ به عن قول ذي النون المصريِّ: «أقرب الناس إلىٰ الوقوع في الكفر فقير ذو عيال ولا صبر له». انتهىٰ. قال قائل: ما رأينا فقيرًا قط وقع في الكفر بسبب ذلك واختاره علىٰ الإسلام بعد أن ذاقه، فكيف الحال؟

والجواب: أن مراده أنه يقع في ألفاظ السخط علىٰ مقدور الله عزَّ وجلَّ بسبب الفاقة والعيال وعدم الصبر، لا أنه يختار الكفر دينًا لأجل ذلك، فافهم. ولعل هذا الحال هو الفقر الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٤) ومما أجبتُ به عن وهب بن مُنبِه ومالك بن دينار والفضيل بن عياض ونحوهم في استشهادهم بالتوراة والإنجيل والزبور ونحو ذلك. قال قائل: كيف يستشهد هؤلاء بغير القرآن والحديث وفيهما غنية عن سائر الكتب القديمة، وقد قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال ﷺ: «ما تركت شيئًا يقربكم إلىٰ الله إلا وقد أمرتُكم به، ولا شيئًا يبعدكم عن الله إلا وقد نهيتكم عنه»[1]، ورأىٰ رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ يطالع في كتب دانيال ﷺ، فزجره وقال: «أمتهوكون فيها يا عمر، والله لقد جئتكم بشريعة بيضاء نقية»[2].

---

(١) أخرجه البيهقي (١٣٤٤٣) وفي «شعب الإيمان» (١١٤١) والشافعي في «المسند» (٦٧٣) والبغوي في «شرح السنة» (٤١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) والدارمي (٤٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٤).

والجواب عن هؤلاء: أن مثلهم لا يجهل أن شريعتنا جامعة لسائر أحكام الشرائع كلِّها، وأن صاحبها لا يحتاج إلىٰ الاستشهاد بغيرها من الكتب، وإنما مرادهم أن الأمر بالتقوىٰ والورع والزهد وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن المعاصي، لم يزل في كلِّ عصر من أعصار الأنبياء، لكن هنا دقيقة ينبغي التفطن لها، وهو أن الله تعالىٰ ربما خاطب داود بأمور لا تليق بمقام الأنبياء ظاهرًا، فيُحمَل علىٰ أن المراد بها غير داود، كما قالوا في نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] و﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، **فإن الأمم لا تحتمل صولة الخطاب الإلهيِّ، فخاطب بذلك الأنبياء لقوتهم والمراد به أممهم،** فاعلم ذلك، وإياك والغلط والمبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٥) ومما أجبتُ به عن الإمام الأعظم أبي حنيفة ﷺ في قول بعضهم: إنه يقول في دين الله بالرأي، وإنه يقدم القياس علىٰ النص، وغير ذلك مما لا يصح لعاقل نسبته إليه، فإن هذا كلام متعصب قليل الأدب، لم يشم لمقام المجتهدين رائحة، ولم تزل الأشراف تبتلىٰ بالأطراف، وما ثَمَّ أعزُّ من الورع في المنطق في كلِّ زمان.

وقد أدرك الإمام أبو حنيفة ﷺ بعض الصحابة، وأخذ العلم عن كبار التابعين، كعطاء[1] وعكرمة والأسود[2] وعلقمة[3] وغيرهم من نحو ثلاثمئة عالم. ولو لم يكن من معرفة مقامه في العلم إلا قول الإمام مالك ﷺ لما سُئل عنه: ماذا أقول في رجل لو ناظرني في أن نصف هذه الأسطوانة ذهب ونصفها فضة لقام بحجته؟! وكذلك قول

---

(١) عطاء بن أبي رباح أسلم أبو محمد القرشي مولاهم. كان من أوعية العلم. قال بشر بن السري عن عمر بن سعيد عن أمه: أنها رأت النبي ﷺ في منامها، فقال لها سيد المسلمين: «عطاء بن أبي رباح» توفي: ١١٤هـ. السير (٥/ ٧٨)، حلية الأولياء (٣/ ٣١٠).

(٢) الأسود بن يزيد بن قيس أبو عمرو النخعي، الكوفي. وكان الأسود مخضرمًا، أدرك الجاهلية والإسلام. قال ابن عون: سئل الشعبي، عن الأسود بن يزيد، فقال: كان صوامًا، قوامًا، حجاجًا. توفي: ٧٥هـ.السير (٤/ ٥٠)، حلية الأولياء (٢/ ١٠٢).

(٣) الإمام الفقيه الحجة علقمة بن مرثد أبو الحارث الحضرمي الكوفي، قال الإمام أحمد: هو ثبت في الحديث. توفي: ١٢٠هـ.السير (٥/ ٢٠٦)، الوافي بالوفيات» (٢٠/ ٤٧).

الإمام الشافعيِّ ﷺ: الناس كلُّهم عيال في الفقه علىٰ الإمام أبي حنيفة، أي الناس الذين عاصروه ﷺ. وقد بسطنا الكلام علىٰ مناقبه في «الميزان الخضرية» فراجعها.

وأما قول من قال: إنه ﷺ يقدِم القياس علىٰ النص، فكلام صدر من متعصب بغير حقٍّ. وقد اجتمع به الإمام جعفر الصادق[1] وسفيان الثوريُّ وجماعة من كبار التابعين حين بلغهم عنه ذلك، وقالوا له: بلغنا أنك تقدم القياس علىٰ النص. فقال: معاذ الله أن أقع في مثل ذلك! إنما أنظر الحكم في القرآن، فإن لم أجده نظرتُ في السنة، فإن لم أجده نظرتُ في أقضية الصحابة، فإن لم أجده فيها، فحينئذٍ أقيس مسكوتًا عنه علىٰ منطوق به بجامع العلة. فقام سفيان وقبَّل رأسه. فهذا ما رواه الإمام أبو جعفر السيرامادي بسنده الصحيح.

وأما ما نُقِل عن سفيان الثوريِّ بتقدير صحته عنه من أنه قال: إن أبا حنيفة قد حلَّ عرىٰ الإسلام عروة عروة، فالمراد بذلك أنه حلَّ مشكلات المسائل المنعقدة المرتبطة في بعضها كارتباط الزر في العروة، فحلها وسهلها علىٰ الأفهام، فهو مدح لأبي حنيفة ﷺ لا ذم له، بقرينة قول أبي مطيع البَلْخيِّ[2]: سمعتُ سفيان الثوريَّ ﷺ يقول: ما رأيت أعلم ولا أعبد ولا أورع ولا أزهد من الإمام أبي حنيفة ﷺ. ونحو ذلك أيضًا ما نقله أبو مطيع البلخي عن الإمام مالك بتقدير صحته عنه من أن الإمام مالكًا قال له: من عالم بلدكم اليوم؟ قال: الإمام أبو حنيفة. فقال مالك: فإذن لا يحل لعالم أن يسكن بلادكم. انتهىٰ. فإن مالكًا أراد بذلك والله أعلم مدح الإمام أبي حنيفة بالعلم والزهد والورع، وأنه يكفي أهل البلد التي هو فيها علمًا، فإذا سكنها عالم آخر، فقد عطَّل نفسه، لعدم

---

(١) الإمام الصادق جعفر بن محمد بن علي القرشي الهاشمي، ولد: سنة ٨٠هـ. وكان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. توفي: ١٤٨هـ. السير (٦/ ٢٥٥)، الأعلام (٢/ ١٢٦).

(٢) الحكم بن عبد الله أبو مطيع البلخي الفقيه صاحب كتاب «الفقه الأكبر» تفقه بأبي حنيفة وولي قضاء بلخ، وكان بصيرًا بالرأي وكان ابن المبارك يعظمه. وقيل: كان من رؤوس المرجئة. قال ابن معين: هو ضعيف. وقال أبو داود: تركوا حديثة لأنه كان جهميًا. توفي:١٩٩هـ. انظر: «الوافي بالوفيات» (١٣/ ٧٠) و«تاج التراجم» لابن قطلوبغا (ص: ٣٣١).

حاجتهم إلىٰ علمه مع وجود الإمام أبي حنيفة عندهم. والعالم من شأنه طلب نشر العلم في بلد يحتاج الناس إليه فيه، فلا يحل له تضييعه بمكثه بمكان لا يُحتاج إليه فيه، بل يجب عليه الرحيل إلىٰ محل يُحتاج إليه فيه ينشر علمه فيه، ويحيي به الشريعة.

فقد علمت أن الإمام ﷺ ما كان يقيس إلا بعد أن لم يجد ذلك الحكم في كتاب ولا سنة ولا في أقضية الصحابة، وهذا أمر لا يختص بالإمام، بل جميع الأئمة ومقلدوهم يقيسون كذلك إذا لم يجدوا نصًّا. وأما مع وجود النص الصحيح فهم لا يحتاجون إلىٰ قياس، ويجب عليهم العمل بالنص. ثم بتقدير أنه عمل بالقياس عند فقده النص فهو معذور، لأن الأحاديث كانت متفرقة في زمنه مع علماء التابعين في المدائن والثغور، بخلاف بقية الأئمة، فإن الحفاظ رحلوا في طلب الحديث، وجمعوا أحاديث الشريعة، فأجابت الشريعة بعضها بعضًا، فلذلك قلَّ القياس في مذاهبهم بالنسبة لمذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ، فاعلم ذلك واحفظ لسانك في حقِّ الإمام أبي حنيفة وغيره، وإلا خيف عليك المقت والعياذ بالله تعالىٰ. وإذا كان من ينكر علىٰ بعض الأولياء قد مات علىٰ غير الإسلام، كما وقع لمن أنكر علىٰ سيدي أحمد البدوي[1]، فكيف بالإمام الأعظم سيِّد الأئمة في السبق؟! والحمد لله رب العالمين.

(١٦٦) ومما أجبتُ به عن تجريح الحفاظ لبعض رواة الحديث، ولم لا أحسنوا الظن بالناس وتركوا التجسس علىٰ جرحهم، بأن الحفاظ إنما فعلوا ذلك نصرة لشريعة رسول الله ﷺ، خوفًا أن يدخل فيها ما ليس منها، لعدم عصمة الرواة، فيكلفون الأمة بما ليس من شريعة محمد ﷺ. وقد كان الإمام عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي هريرة: لئن

(١) سيدي أحمد البدوي أبو الفتيان أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر القدسي الأصل الملثم. ولد سنة ٥٩٦هـ. أقام بمكة إلىٰ أن مات أبوه سنة سبع وعشرين، وعرف بالبدوي لملازمته اللثام. ولبس لثامين لا يفارقهما، وعرض عليه التزويج فأبىٰ لإقباله علىٰ العبادة. حفظ القرآن، وقرأ شيئًا من الفقه علىٰ مذهب الشافعي، ثم صار إلىٰ مصر سنة ٦٣٤هـ فأقام بطندتا من الغربية علىٰ سطح دار لا يفارقه. توفي يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول ٦٧٥هـ. انظر: «حسن المحاضرة» (١/ ٥٢١) «شذرات الذهب» (٧/ ٦٠٢).

لم تترك كثرة الحديث لألحقنَّك بأرض دَوس.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: جميع الحفاظ مأجورون في تجريحهم لبعض الرواة، كما أن المجروحين مأجورون، فإن أحدهم قد يكون عدلًا ثقة مأمونًا في نفس الأمر، وتكون الإشاعة عنه بما يفسِّقُه مثلًا من كلام الحسدة والأعداء. قال: لكن لا يخفىٰ أن في ضمن ذلك التجريح رحمة خفية، وهي التخفيف عن الأمة بترك العمل بتلك الأحاديث التي ضُعِّف رواتها، وذلك مما يحبُّه الشارع ﷺ لأمته، فإنه كان يكره كثرة سؤالهم له خوفًا من تنزل الأحكام التي يشق عليهم العمل بها لكثرتها، ويقول لهم: «اتركوني ما تركتكم»[1]، وقال للسائل عن فريضة الحج: «أكل عام يا رسول الله؟ قال: لا، ولو قلت نعم، لوجبت ولما استطعتم»[2]. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لو لم يقع من الحفَّاظ تضعيف للرواة، لكانت الأحاديث الضعيفة كلُّها يجب علىٰ الناس العمل بها، لأنها إما حسنة حينئذٍ أو صحيحة. وأيضًا فإن أحاديث الشريعة التي سبق في علم الله أن تعمل الأمة بها علىٰ سبيل الوجوب هي ما وقع العمل به الآن من الأحاديث الصحيحة والحسنة، وما زاد علىٰ ذلك فالعمل به غير واجب، فالشريعة محفوظة من النقص فيها أو الزيادة، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: للحفاظ من الأجر والثواب في نظير تجريحهم للرواة بحسب اجتهادهم، مثل ما لو سبَّح أحدهم الله تعالىٰ أو حمده، ولا يجوز حمل الحفَّاظ علىٰ حظ النفس في التجريح، حاشاهم من ذلك.

وقد كان الإمام البخاريُّ ﷺ مع كثرة تجريحه للرواة ورده روايتهم يقول: أرجو من فضل الله تعالىٰ أنه لا يطالبني يوم القيامة بوقوعي في غيبة أحد من المسلمين. فقيل له يومًا: فماذا تصنع في تجريحك للرواة؟ فقال: ذاك من الدين يُثاب أحدنا عليه ثواب الواجب، وما حرِّمت الغيبة إلا إذا كانت للتفكه في أعراض الناس والتشفي منهم لا لغرض صحيح.

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٦٧٩) والنسائي (٢٦١٩)، وابن ماجه (٢).

(٢) تقدم تخريجه.

وسمعتُ شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف[1] رحمه الله يقول: لو أن الحفَّاظ صححوا الأحاديث التي قيل بضعفها أو حسَّنوها، يشق على الأمة العمل بها، ولم يكن لهم عذر في تركها، بخلاف ما ضُعِّف، فإن للناس فيه فسحة، لكون العمل بها راجعًا إلى اختيارهم، من باب ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤]، مع أن الحقَّ تعالى قد قيَّض للأحاديث الضعيفة جماعةً من أهل الورع والاحتياط، فعملوا بها على وجه الاستحباب، حتى لا يفوت الأمة العمل بشيء من السنة. وكان ذلك من جملة ما حُفِظَت به الشريعة عن النقص. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كما أن إحسان الظن بجميع رواة الشريعة واجب، فكذلك مناقشتهم واجبة، ولا يقال: إحسان الظن بهم أولى مطلقًا، ولا مناقشتهم أولى مطلقًا، بل كلٌّ في محله واجب بحسب ظهور الريبة وعدمها، وكما يحرم على الراوي التظاهر بالعدالة وهو في الباطن بخلافها، لتصحح الحفاظ حديثه أو يحسنوه، فكذلك يحرم عليه التظاهر بالريبة، ليردُّوا حديثه بقصد التخفيف عن الأمة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٧) ومما أجبتُ به عن وهب بن مُنبِه في قوله: «إن لنا جنة برزخية وردت في القرآن ولا يشعر بها كلُّ أحد» فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه جنة ما رأينا أحدًا نبه عليها!

والجواب: أنه قد نبه عليها ابن أبي المنصور وجماعة منهم أبو القاسم بن قسي[2] والمجريطي والشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنهم.

وعبارة ابن أبي المنصور: واعلم يا أخي أن لنا جنة برزخية أشار إليها القرآن العظيم

---

(١) إبراهيم بن محمد بن أبي بكر المري القدسي الشافعي، قاضي القضاة، برهان الدين، بن أبي شريف. ولد في ذي القعدة سنة ٨٣٦هـ. دأب في العلم، وبرع في الفنون، وتصدى للإقراء والإفتاء. وصنف كتبا منها: «شرح قواعد الإعراب» لابن هشام و«منظومة في القراءات» و«نظم النخبة» وولي قضاء الديار المصرية في ذي القعدة سنة ٨٣٩هـ. توفي: ٩٢٣هـ ودفن بالقرب من ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه. انظر: «طبقات المفسرين» للداوودي (١/ ١٨) «الضوء اللامع» (١/ ١٣٤).

(٢) أحمد بن قسي الأندلسي أبو القاسم ت ٥٤٥ هـ من تصانيفه: خلع النعلين. معجم المؤلفين (٢/ ٥١).

ولم يصرح بها في نحو قوله تعالىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]، قال: وإنما كانت برزخية لأنها لا هي محسوسة، كقوله تعالىٰ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ [الطور: ٢٠]، ولا هي روحانية، كقوله تعالىٰ: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٥]، فوصف الله تعالىٰ الجنان علىٰ حسب تفاوت عقول الناس.

قال: وقد صرح المسيح عليه الصلاة والسلام بما أومأنا إليه من النعيم الروحاني، فقال للحواريين حين أوصاهم وفرغ من وصيته: فإذا فعلتم ما أمرتكم به كنتم غدًا معي في ملكوت السماء عند ربي وربكم، وترون الملائكة حول عرشه تعالىٰ يسبحون بحمده ويقدسونه، وأنتم هناك متلذذون بجميع اللذات من غير أكل ولا شرب. انتهىٰ.

وإنما صرح المسيح عليه الصلاة والسلام بذلك ولم يرمزه لأن خطابه كان مع قوم قد هذبتهم التوراة وكتب الأنبياء، وكانوا متهيئين لتصورها وقبولها، بخلاف أمر نبيِّنا محمد ﷺ، فإنه اتفق مبعثه في قوم أُميين أهل براري غير مرتاضين بعلوم ولا مقرين ببعث ولا نشور، بل ولا عارفين بنعيم ملوك الدنيا فضلًا عن معرفتهم بنعيم ملوك الآخرة، فلذلك جاء أكثر أوصاف الجنان في كتابهم جثمانية، تقريبًا لفهم القوم وترغيبًا لنفوسهم. انتهىٰ.

[الحكمة في كون أنهار الجنة أربعة من غير نقصان ولا زيادة]

فإن قيل: فلم كانت أنهار الجنة أربعة من غير زيادة: ماء ولبنًا وخمرًا وعسلًا؟

فالجواب: إنما كانت أربعة لأن التجلي العلمي لا يقع إلا في هذه الأمور الأربعة، ولكل قسم منها أهل، فأهل أنهار الماء هم أصحاب العلوم التي يدخلها الرأي، وأهل اللبن الحليب الذي لم يتغير طعمه إما لعقده أو مخضه أو تريبه لأصحاب علوم أسرار الشريعة من الأئمة المجتهدين، وأهل أنهار الخمر الأمناء أصحاب العلوم الذوقية كعلم الخضر ﷺ، وأهل أنهار العسل المصفَّىٰ هم أهل العلم بطرق الوحي والإيمان وصفاء

الإلهام. انتهى[1]. ذكره بعض أهل الكشف ولم نر ما يخالفه.

(١٦٨) ومما أجبتُ به عن قول وهب بن مُنبِه أيضًا: «إن أجسام أهل الجنة تنطوي في أرواحهم، فتكون الأرواح ظروفًا للأجسام، عكس ما كانت في دار الدنيا». قال قائل: إن هذا لم يرد لنا فيه خبر، فمن أين وصل وهب إلى معرفة ذلك؟

والجواب: أنه لا ينبغي التوقف في مثل ذلك، ويُحمَل وهب على أنه رأى في ذلك شيئًا عن النبي ﷺ، لأن مثل ذلك لا يُقال من قبل الرأي، وقد وافقه أهل الكشف على ذلك، وعبارة الشيخ محيي الدين: الذي أعطاه الكشف الصحيح أن أجسام أهل الجنة تنطوي في أرواحهم، فتكون الأرواح ظروفًا للأجسام، فيكون الظهور والحكم في الدار الآخرة للروح لا للجسم، ولهذا يتحولون في أي صورة شاؤوا كما هم اليوم عندنا الملائكة وعالم الأرواح. قال: وتتجوهر أبدان أهل الجنة بحسب صفاء أعمالهم الصالحة في دار الدنيا من الشوائب، فكلُّ من كان أكثر إخلاصًا في علمه وعمله وتوحيده كان أشف وأنور. انتهى[2].

فإن قلت: فهل يباح دبر النساء والحور العين في الجنة من حيثُ إنها دار إطلاق لا تحجير فيها، أم الدبر محرَّمٌ في الدنيا والآخرة؟ فالجواب: الذي أعطاه الكشف أنه ليس لأهل الجنة أدبار مطلقًا لا ذكورًا ولا إناثًا، لأن الدبر إنما جعله الله مخرجًا للغائط، ولا غائط هناك ولا بول كما صرحت به الأحاديث، وجميع ما يأكلونه ويشربونه يخرج رشحًا كرشح المسك. ولولا أن الذكر وفَرْج المرأة بهما كمال النعيم بالجماع، لما كان للرجل ذكر ولا للمرأة فرج تُجامع فيه، أو تلد منه إن وقع هناك ولادة، كما قيل من أنه يولد لأهل الجنة أولاد روحانيون لا من جنس البشر ولا من جنس الحور، فإذا ولدوا ذهبوا في علم الله تعالى لا يعودون إلى والديهم، والله أعلم.

(١٦٩) ومما أجبتُ به عن قول أبي يزيد البسطامي: «إن رسول الله ﷺ متنعم في

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٤٢٩).

(٢) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٩٣).

الجنة بجميع ما فيها من النعيم، وإنه مشارك لجميع أهل الجنة علىٰ اختلاف طبقاتهم من أعلىٰ وأدنىٰ، فلا أحد يتنعم بنعيم أكل أو شرب أو جماع أو غيرها إلا وهو ﷺ مشارك له في نعيمه». قال قائل: كيف يصح ذلك وكلُّ ذات منفردة عن الأخرىٰ؟ وكيف يستلذ شخص بطعام أو شراب يدخل في جوف غيره، أو بذكر غيره إذا دخل في فَرْج؟

والجواب: أن العقل معزول هنا عن ذوق أحوال الآخرة، وما له في هذه الدار إلا الإيمان فقط.

فإن قلت: فأوضحوا لنا ذلك؛ فالجواب: نعم، وذلك أن الله تعالىٰ لما جعل آدم وذريته خلائف في الأرض وعمَّارها، ورشحهم للخلافة فيها، آتاهم كلَّ آلة يدبرون بها أمور دنياهم وأسباب معاشهم، وقد خلقهم في الدنيا للآخرة، فاحتاجوا للعقل والنطق آلتين لهم يتوصلون بهما إلىٰ تدبير معاشهم في الدنيا، وتهيئة أسباب معادهم حسب ما جاءتهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فأما ما يتعلق بأمور الآخرة وأسرار الشرائع من معرفة كيفية الثواب والعقاب، وأوصاف الجنة والنار بحقائقها دون وقائعها، وكيفية سؤال الملكين وجوابهما، وكيفية الحشر والنشر، والصراط والميزان وقراءة الكتب، وكيفية الحوض والشفاعة، ورؤية الله عزَّ وجلَّ في غير جهة، وسماع كلامه بغير صوت ولا حرف، وغير ذلك من تفاصيل لذات الثواب وآلام العقاب التي تستغرق فيها النفوس لذة كانت أو ألـمًا، سيما لذة النظر إلىٰ وجه الله الكريم، وألم الفزع الأكبر، فإن العقل بمجرده لا يستقل بدركه، اللهم إلا أن يمد الله تعالىٰ بعض خواصه في هذه الدار بنور الكشف، فلا منع من ذلك، فإن العقل إنما جعله الله تعالىٰ آلة للعبد في هذه الدار يدرك به تفاصيل الأوامر والنواهي، ويعرف به مصالح المعاش ومفاسده. ولقد صدق بعض العارفين حيث قال: الألسنة عن درك حقائق الأمور الأخروية محتبسة، والعقول عن إدراك حقائقها مختلسة، وإنما أخبرنا الكتاب والسنة عن أمور الآخرة علىٰ سبيل الإجمال والإرسال بما يقرِّب من الأفهام معانيها، فغاية النطق أن يخبر بها علىٰ الجملة إيجابًا للإيمان بها، وغاية العقل [البحث

عن تجويزها أو استحالتها، فإذا أخبر بها الصادق مجملة، واستجازها العقل مرسلة، وجب الإيمان بها صدقًا، والاعتقاد لها حقًا، ثم يجب كف الفكر عن][1] البحث عن كيفياتها، وردعه عن أن يشرئب للطمع في درك حقائقها، فإن الفكر عن ذلك مصدود، كما أن البصر عن سماع الصوت مردود، اللهم إلا أن يُكاشَف بعض الأولياء من أحوال الآخرة بشيء في حال غيبته عن الخلق وشهوده للحقِّ، فإنه في ذلك الوقت يكون مسلوب النطق، مغلوب العقل، لأنه حينئذ يشاهد أمورًا لا تسع لها ظروف الحروف، ولا تنتهي إليها العقول، كما قالوا:

وإن قميصًا خيط من نسج تسعة ... وعشرين حرفًا عن معانيه قاصر

ومن تأمل هذا المعنىٰ، انكشف له كثيرٌ من الغوامض التي درج عليها المتقدمون مكلفين عقولهم ما ليس في وسعها، طمعًا في أن ينالوا ما لا يُنال، فكانت عاقبتهم الحيرة والضلال. وإن من هذا القبيل قراءة أهل العَرَصَات الكتب المكتوبة بخط الملائكة الكرام الكاتبين، ولا شك أنها بخلاف كتابة أهل الدنيا، ولهذا يُقال لكتابة لا يُقدَّر علىٰ قراءتها: كأنها خط الملائكة! ومن ذلك أيضًا ما يخلق الله تعالىٰ من إدراك لذات كثيرة من نعيم الجنة مطعومها ومشروبها، وملبوسها ومشمومها ومنكوحها علىٰ حالة لا تُوجَد في الدنيا، كما وردت به الأخبار الصحيحة في ثواب الأعمال. وتلك الإدراكات بلذاتها لا تضاهي شيئًا من الإدراكات التي تُدرَك بها اللذات الدنيوية، فإنها وإن كانت تشاكلها في الجنسية والتسمية، فلها اختصاصات عجيبة تكِلُّ العقول عن إدراكها. وقول ابن عباس ﷺ: «ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا بأسمائه» أصل كبير في هذا الباب. انتهىٰ.

قلتُ: ولعدم تلك الإدراكات في الدنيا لا نجد في أنفسنا لذة النظر إلىٰ وجه الله الكريم، ولا غير ذلك من اللذات التي وعدها الله تعالىٰ لأهل الجنة، كما لا يجد الصبي في صباه لذةَ الجاه، لأنه لم يُخلَق له إدراك ذلك. والدليلُ علىٰ ذلك قولُه ﷺ عن رب

---

(١) ساقط من «ب».

العزة جلَّ وعلا: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، بَلْهَ ما أطلعتُهم عليه ثم قرأ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]»[١]. وهذه خطة ضلَّت فيها الفلاسفة، فأنكروا أمور الآخرة.

وإذا قد صح لك أن العقل لا يطلع علىٰ كنه حقائق الأشياء الغيبية، ولا يبلغ إلىٰ منتهىٰ أسرارها، علمنا أن غايته أن يقيس ما لم يره علىٰ ما رآه، بأدنىٰ شبه يكون بينهما. وقد جاءت الشرائع بأشياء يعجز العقل عن معرفة عللها وكيفياتها، ولكنه إذا حكم بإجازتها، وجب الإيمان بها، كالحشر والنشر في الآخرة، وكالوجه والقدم والنزول في صفات الله تعالىٰ، وكذلك القول في معرفة مقادير الشرائع والعبادات.

وقد درج السلف الصالح من الصحابة والتابعين علىٰ التصديق بها جزمًا، ومنعوا أصحابهم من البحث عنها، وردُّوها إلىٰ علم الله بسرِّ القدَر المنهي عن الخوض فيه، وقالوا: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، ولم تجد الشُّبه إلىٰ عقائدهم سبيلًا لقوتها وصلابتها، وذلك لحداثة[٢] الإسلام وقرب العهد من زمان الوحي، ومشاهدة التنزيل ومهبط جبريل، فلما أن دَرَج القرن الأول ثم الذين يلونهم وهم خير القرون، نبعت الأهواء من كل صقع، وباض الشيطان بكلِّ قطر، ونفث في عُقد عَقد القلوب، وجال في الخواطر بخطواته، حتىٰ تزلزلت القواعد والعقائد، واضطربت الآراء، وكثرت مقالات أهل الأهواء، كالقرامطة والزنادقة والمعتزلة والرافضة خذلهم الله أجمعين، إذ ألَّفوا الكتب في الضلالات وبثوها في الأمصار، ودعوا إليها الأغبياء من الناس، فشاعت البدع، وفشا البهتان، وانحلت عقد العقائد، وذلك لبعد الخلق عن زمان المبعث، قال تعالىٰ: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد كان الصديق الأكبر ﷺ يقول: طوبىٰ لمن مات في أوائل الإسلام. وكان الشيخ أبو [محمد] طاهر القزويني يقول: اعلم أن المعتقدين اليوم وإن صحت عقودهم وراجت نقودهم، فكثيرًا ما يتخالج في ضمائرهم خواطر الشكوك، من كثرة ما يقرع مسامعهم من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) بالأصلين: لفضاضة. والفُضَاضَة: ما تفرَّق من الشيء عند كسره. وهو غير مناسب للسياق.

غشية أهل الأضاليل، ولعدم إمام محقق يبين لهم مصادر الأمور ومواردها. وربما يموت أحدهم علىٰ وخز بين ضلوعه من تجسيم وشبه منكرة لا يتجرأ أن يسأل عنها، ولا يجد أحدًا يشفي الغليل بجوابه، فلا يزال يخفي ذلك عن نفسه، فكيف بغيره؟! فهذا الذي دعاني إلىٰ أمثلة كثيرة في مضايق مشكلات التوحيد وغيره مما سبق في الباب الأول.

إذا علمت ذلك فلنرجع إلىٰ الجواب عن السؤال، فنقول وبالله التوفيق: من الدليل علىٰ كون محمد ﷺ يشارك أهل الجنة كلَّهم في نعيمهم قوله ﷺ: «من سنَّ سنةً حسنةً، فله أجرُها وأجرُ من عمل بها»[1] فله ﷺ أجر جميع العاملين بشريعته، سواء المتقدمين علىٰ زمانه من الأنبياء وأتباعهم أو المتأخرين عنه ﷺ والمقارنين له حال حياته. وإذا كان له أجرهم كلهم، فهو مشارك لهم في جميع نعيمهم وإن لم يصح لغالب الناس تعقل مثل ذلك في هذه الدار.

وفي عقيدة الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور ﷺ: واعلم يا أخي أن محمدًا ﷺ ملأ الجنة، فلا مؤمن يتنعم بجنة إلا ومحمد ﷺ متنعم معه بنعمته، مشارك له فيها، لأن الوليَّ وغيرَه من أهل الجنة ما وصل إلىٰ ذلك النعيم إلا باتباع شريعته ﷺ، فلهذا كان سرُّ النبوة قائمًا به في تنعيمه، كما أشار إليه الحديث المتقدم.

فإن قيل: ففي أين مكان يكون ﷺ يوم القيامة قبل دخول الجنة؟ **فالجواب**: تكون منزلته في هذا اليوم بين يدي «الحكم العدل» من حضرات الأسماء الإلهية، لينفذ الأوامر الإلهية في ذلك اليوم العظيم، فكلُّ أهل الموقف يأخذون عنه في ذلك الموطن، لأنه وجه كلُّه يُرىٰ من جميع جهاته، وله من كلِّ جانب إعلام من الله تعالىٰ يفهم عنه ما يريد علىٰ لسان ملك بصوت وحرف لكمال النعيم والأنس.

[محلُّ شجرة طوبى]

فإن قلت: فأين محل شجرة طوبىٰ؟ هل هي في دار رسول الله ﷺ تبعًا لشريعته من حيثُ عمومُها، فإنه ما من بيت ولا مكان في الجنة إلا وفيه فرع من شجرة طوبىٰ كما

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥).

ورد(١)، أو هي في دار غيره من خواص الأنبياء أو الصحابة؟

فالجواب: الذي أعطاه الكشف أن شجرة طوبىٰ في منزل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وهي حجاب مظهر نور فاطمة الزهراء ﷺ. وأما كون جميع أماكن الجنة لا يخلو عن أن يكون فيها فرع من فروع شجرة طوبىٰ، فالسر فيه إظهار مقام السيدة فاطمة ﷺ، ليكون سرُّ كلِّ نعيم في كلِّ جنة ودرجة، وبيت ومخدع، ونصيبُ كلِّ مؤمن في الجنة من نورانية فاطمة الزهراء في حجاب ذلك الفرع. وذكر مثل ذلك في الباب الحادي والسبعين وثلاثمئة من «الفتوحات المكية» والحمد لله رب العالمين.

(١٧٠) ومما أجبتُ به عن قول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: «من جمع شعب الإيمان كلها، فهو الذي يتبوأ من الجنة حيث يشاء». قال قائل: فما الحكمة في ذلك؟ وما المراد بهذه الجنة؟ هل هي الفردوس أو دار السلام أو غير ذلك من الجنان الثمانية؟

والجواب: المرادُ بهذه الجنة جنةُ الأعمال، إذ الجنان ثلاثة في الأصل، وهي: جنة الأعمال، وجنة الميراث، وجنة المنن. وجنة الأعمال مشتملة علىٰ بضع وسبعين جنة علىٰ عدد شعب الإيمان لا تزيد ولا تنقص كما أعطاه الكشف، والبضع من الواحد إلىٰ التسع، فصح قول الإمام: إن من جمع شعب الإيمان كلَّها، فهو الذي يتبوأ من الجنة حيث يشاء.

[صورة مجاورة الجنان لبعضها البعض]

فإن قلت: فما صورة مجاورة الجنان الثمانية لبعضها بعضًا؟ **فالجواب**: صورتها صورة دوائر ثمانية جنة في قلب جنة، أعلاها جنة عدن بمنزلة دار الملك يدور عليها ثمانية أسوار، بين كل سورين جنة، ويلي جنة عدن في الفضل، جنة الفردوس، ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، ثم جنة المأوىٰ، ثم دار السلام، ثم دار المقامة. وكلُّ جنة من هؤلاء يصدق عليها اسم أخواتها، فجنة النعيم مثلًا جنة خلد وجنة عدن وجنة فردوس

(١) لم أقف عليه فيما اطلعت عليه من مصادر، وقد ذكره الشعراني في الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٨١٣) من كلام الشيخ أبي الفضل الأحمدي.

وجنة مأوىٰ وجنة مقامة ودار السلام، وهكذا.

فإن قلت: فأي جنة تتصل بمقام الوسيلة الخاص برسول الله ﷺ؟ فالجواب: الذي أعطاه الكشف أن جميع الجنان متصلة بمقام الوسيلة الخاصة به ﷺ، وذلك ليتنعموا بشهود طلعته ﷺ، فسائر الجنان تتفرع من الوسيلة، لأن لها شعبة [في كل جنة، ومن تلك الشعبة يظهر وجه محمد ﷺ لأهل تلك الجنة]، فهي في كل جنة أعظم منزلة يكون فيها.

فإن قلت: فما الحكمة في كون درجات الجنة موازية لدركات أهل النار كما أعطاه الكشف؟ فالجواب: أن الحكمة في ذلك أن الدارين هما مظهر الأمر والنهي، ولا يخلو العبد أن يعمل بالأمر ويجتنب النهي أم لا، فإن عمل بالأمر كانت له درجة في الجنة معيَّنة لذلك العمل خاصة، وفي موازنة هذه الدرجة المخصوصة لهذا العمل الخاص إذا تركه المكلف درك من النار لو سقطت حصاة من تلك الدرجة في الجنة، لوقعت علىٰ خط الاستواء في ذلك الدرك من النار. وإذا ترك الإنسان العمل بما أُمِرَ كان ذلك الترك هو عين سقوطه إلىٰ ذلك الدرك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٧١) ومما أجبتُ به عن قول سعيد بن جبير: «إن أهل الجنة أكلهم دائم لا ينقطع، لقوله تعالىٰ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]» هل المراد أنهم دائمًا يأكلون، أم المراد بالدوام أنهم يأكلون متىٰ يشتهون الأكل فقط؟

والجواب: أن المراد أن الأكل لا ينقطع عنهم متىٰ اشتهوه، لا أنهم يأكلون دائمًا.

فإن قيل: فإذن التنعم ليس هو بدوام الأكل، وإنما هو بما يكون به الغذاء للجسم؛ **فالجواب**: والأمر كذلك.

فإن قيل: فما المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] مع أنه لا شمس هناك ولا قمر؟ **فالجواب**: المراد بالبكرة والعشي الحركة التي كانت تسير بالشمس، ويظهر من أجلها طلوعها وغروبها، فإن هذه الحركة موجودة في الفلك الأطلس الذي هو سقف الجنة كما أعطاه الكشف، وجميع الكواكب السيارة في النار كلها سابحة

فيها كسباحتها الآن في أفلاكها علىٰ حد سواء، ولولا ذلك ما عرف أهل التقويم متىٰ يكون الكسوف، ولا كم يذهب من ضوء الشمس عن أعيننا، فلولا المقادير الموضوعة والموازين المحكمة التي علمها الله تعالىٰ للمقوِّمين، ما علم أحد منهم ذلك. انتهىٰ.

وذكر الشيخ الكامل محيي الدين ﷺ في الباب الثامن والتسعين وثلاثمئة من «الفتوحات» في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] ما نصه: اعلم أن لأهل الجنة مقادير يعرفون بها انتهاء مدة الشمس في الدنيا في طلوعها وغروبها، فيعلمون بتلك المقادير حدَّ ما كان في الدنيا بكرة وعشيًّا، وعند ذلك يتذكرون أنه كان لهم في ذلك الزمان حالة تُسمَّىٰ الغداء والعشاء، فيأتيهم الله تعالىٰ عند هذا التذكر برزق بكرةً وعشيًّا، فهو رزق خاص في وقت خاص معلوم عندهم، وما عدا ذلك فأكلها دائم لا ينقطع، إذ المراد بدوام الأكل إنما هو النعيم بما يكون به الغذاء للجسم، فإن الإنسان إذا أكل حتىٰ شبع، فليس ذلك بغذاء ولا يأكل علىٰ الحقيقة، وإنما هو كالجابي الجامع للمال في خزانته، وخزانةُ كلِّ إنسان هي معدته، فإنها خزانة لكلِّ ما جمعه من الأطعمة والأشربة، ثم إذا رفع يده من الطعام والشراب، فحينئذ تتولاها الطبيعة بالتدبير، وينتقل ذلك الطعام والشراب من حال إلىٰ حال، ويتغذىٰ بذلك في كلِّ نَفَس يخرج منه علىٰ الدوام، فهذا هو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [مريم: ٦٢]، ولولا ذلك لبطلت الحكمة في ترتيب نشأة كلِّ متغذٍ.

ثم إذا خلت الخزانة من الطعام والشراب، حرَّك الطبع ذلك الجابي إلىٰ تحصيل ما يملؤوها به، فلا يزال الأمر هكذا في الجنة دائمًا أبدًا، فعُلِمَ أن الجسم محتاج إلىٰ التغذي في كلِّ نفس دنيا وآخرة. انتهىٰ.

فإن قلت: قد سبق الجواب الخامس قبله[1] أن بعضهم قال: إنه يولد لأهل الجنة أولاد روحانيون لا من جنس البشر ولا من جنس الحور، فما الصحيح من ذلك؟ فالجواب: قد ذكر الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والستين وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه:

(١) الجواب رقم (١٦٨).

قد اختلف أصحابنا في هذا النوع الإنساني هل تنقطع أشخاصه بانقضاء مدة الدنيا أم لا؟ فمن لم يُكْشَف له قال بانتهائه، ومن كُشِفَ له قال بعدم انتهائه، وهو الصحيح، إذ التوالد في النوع الإنساني باقٍ، لكن في المثل لا في العين، وذلك لأن الله تعالىٰ لم يوجد شيئًا في العالم الذي لا أكمل منه إلا وله مثال في خزائن الوجود من كرسيه سبحانه وتعالىٰ. والأمثال التي تحوي عليها هذه الخزائن لا تتناهىٰ أشخاصها، فلا تزال الأمثال توجد في كلِّ نوع في كلِّ زمان فرد في الدنيا والآخرة لبقاء كلِّ نوع، فكما ينكح الرجل منا المرأة الآدمية الإنسانية، كذلك ينكح بنو آدم السعداء الحوراء في الزمن الفرد.

[صورة خلق الحور العين]

فإن قيل: فهل الحور العين علىٰ صورة خلق الآدميين أم لا؟ **فالجواب:** هم علىٰ صورة الآدميين، ولكن لسن بآدميين. **فإن قلت:** فهل يقدر الرجل أن يجامع جماعةً من زوجاته في آن واحد من غير تقدم ولا تأخر أم لا؟ **فالجواب:** نعم، كما أعطاه الكشف، فينكح الرجل جميع من عنده من النساء والحور العين من غير تقدم ولا تأخر، مثل فاكهة الجنة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣]، فهي تُقْطَف دائمًا من غير فقد، مع وجود أكل وطيب طعم، فإذا أفضىٰ الرجل إلىٰ الحوراء أو الأنسية، كان له في كلِّ دفعة شهوة ولذة لا يقدر قدْرُها، لو وجدها أحد من أهل الدنيا لغُشِي عليه من شدَّة حلاوتها، فيكون منه في كلِّ دفعة ريح مثيرة تخرج من ذكره، فيتلقاها رحم المرأة، فيكون من حينه فيها ولد في كلِّ دفعة، وتكمل نشأته ما بين الدفعتين، فيخرج مولودًا مصوَّرًا مع النفس الخارج من المرأة روحًا مجردًا طبيعيًّا، فهذه صورة التوالد الروحاني من البشر مع الجنس المختلف والمتماثل، ولا يزال الأمر كذلك دائمًا أبدًا. ويشاهد الآباء ما يولد منهما من ذلك النكاح، ثم تغيب الأولاد عنهما، كالملائكة الذين يدخلون البيت المعمور كل يوم ثم لا يعودون[١].

فإن قلتَ: فهل لهؤلاء الأولاد نعيم؟ **فالجواب:** أنه لا نعيم لهم في الأمور المحسوسة،

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٣٦٩).

ولا حظَّ لهم أيضًا في النعيم المعنوي، إنما نعيمهم برزخيٌّ كنعيم صاحب الرؤيا بما يراه في حال نومه، فإذا استيقظ لم يجد شيئًا، وذلك لما يقتضيه النشأ الطبيعي، فلا يزال النوع الإنساني يتوالد أبد الآبدين، ولكن علىٰ حكم ما ذكرنا(١).

فإن قلتَ: فهل تتوالد الأرواح البشرية في الآخرة؟ **فالجواب**: نعم، صرَّح به الشيخ محيي الدين في «الفتوحات» وغيرها، وذلك لأن للأرواح في الآخرة اجتماعات برزخيات مثل ما لها في الدنيا، فيرىٰ أحدهم أنه ينكح زوجته ويُولَد له منها أولاد علىٰ حدٍّ سواء، فمن أُقيم في هذا المقام من الأولياء، فلا فرق بين الدنيا والآخرة في حقِّه، فإذا نكح من حيث روحُه زوجته من حيثُ روحُها، تولَّد له أولاد من ذلك النكاح الذي وقع بينهما روحانيون يخالفون حكم المولود من النكاح الحسي، فلا يشبهونه في الجسم ولا في الصورة المحسوسين، إنما هم ملائكة كرام، وأرواح مطهرة. فهذه صورة توالد الأرواح، لكن لابد أن يكون ذلك عن تجلٍّ برزخيٍّ، كتجلي الحقِّ تعالىٰ للنائم في نومه في صورة مقيَّدة، إذ البرزخ أوسع الحضرات، فإنه يقبل وجود المحالات العقلية فيه.

وكان أبو القاسم بن قسي رحمه الله يقول: صورة توالد أهل الجنة صورة نشإ الملائكة أو الصور من أنفاس الذاكرين لله تعالىٰ، وما يخلقه الله تعالىٰ من صور الأعمال، كما ورد بذلك الأحاديث(٢). انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر: نفس المصدر السابق، ونفس الباب.

(٢) منها ما أخرجه أحمد (١٨٦١٤) واللفظ له، والحاكم (١٠٧) وغيرهما عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ جنازة، فجلس رسول الله ﷺ علىٰ القبر، وجلسنا حوله كأن علىٰ رؤوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر» ثلاث مرار، ثم قال: إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، تنزلت إليه الملائكة كأن علىٰ وجوههم الشمس، مع كل واحد منهم كفن وحنوط، فجلسوا منه مد البصر، حتىٰ إذا خرج روحه، صلىٰ عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفُتِحَت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم، فإذا عرج بروحه قالوا: رب عبدك فلان، فيقول: أرجعوه، فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ. قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه، فيأتيه آت فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟

(١٧٢) ومما أجبتُ به عن قول ذي النون المصري ﷺ: «ليس يُعطىٰ أحد في الجنة كلَّ ما يريد». فقال قائل: كيف ذلك والله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]؟

والجواب: أن ذلك لا ينافي الآية، لأنه ليس كلُّ مراد مشتهًىٰ، ولذلك لم يقل: «ولكم فيها ما تريد نفوسكم» إذ الإرادة تتعلق تارةً بما يُلْتَذ به، وتارة بما لا يُلتَذ به، والشهوة لا تتعلق إلا بما يُلتَذ به، فلذلك علَّق تعالىٰ الحكم بها في نعيم أهل الجنة. وإيضاح ذلك أن السعداء أخذوا الأعمال الصالحة بالإرادة والقصد، وأخذوا النتائج بالشهوة، فمن رُزِقَ الشهوة في حال العمل، فالتذ بالعمل التذاذه بنتيجته، فقد عُجِّل له

فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض علىٰ المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل:﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فيقول له: صدقت. ثم يأتيه آت حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول: أبشر بكرامة من الله ونعيم مقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، كنتَ والله سريعًا في طاعة الله، بطيئًا عن معصية الله، فجزاك الله خيرًا. ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا كان منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأىٰ ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلىٰ أهلي ومالي، فيقال له: اسكن. وإن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت عليه ملائكة غلاظ شداد، فانتزعوا روحه، كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، وتنزع نفسه مع العروق، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن لا تعرج روحه من قبلهم، فإذا عرج بروحه، قالوا: رب فلان بن فلان عبدك، قال: أرجعوه، فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم،وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ، قال: فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه، قال: فيأتيه آت فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، فيقول: لا دريت ولا تلوت. ويأتيه آت قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بهوان من الله، وعذاب مقيم. فيقول: وأنت، فبشرك الله بالشر من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، كنت بطيئًا عن طاعة الله، سريعًا في معصية الله، فجزاك الله شرًّا، ثم يقيض له أعمىٰ أصم أبكم في يده مرزبة، لو ضرب بها جبل كان ترابًا، فيضربه ضربة حتىٰ يصير ترابًا، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرىٰ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين». قال البراء بن عازب: «ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار».

نعيمه. ومن رُزِقَ الإرادة في حال العمل من غير شهوة، فهو صاحب مجاهدة، وينال النتيجة بشهوة، ولكنها فوق الأولىٰ.

فإن قلت: لِمَ لم تكن شهوات الدار الآخرة تحجب أهل الجنة عن ربهم كما هو في الدنيا؟ **فالجواب:** إنما كانت الشهوات في الجنة لا تمنع شهود تجليات الحقِّ جلَّ وعلا مع أنها أعظم لذة من لذة شهوات الدنيا، لأن التجلي هناك علىٰ الأبصار دون البصائر، وليست الأبصار بمحل الشهوات، بخلاف التجلي في هذه الدار، فإنه علىٰ البصائر والبواطن دون الأبصار والظواهر. ومعلوم أن البواطن التي هي محل الشهوات لا يصح فيها جمع الشهوة والتجلي في آن واحد. ومن هنا جنح العارفون والزهاد إلىٰ التقلل من الدنيا وشهواتها في هذه الدار حين رأوها حاجبة لهم عن شهود الأمر علىٰ ما هو عليه، **فإن المانع عن إدراك العلوم والأنوار والتجليات إنما هو كدورات الشهوات والشبهات الشرعية الهادمة لركن الورع في الجوارح**، مع أن كدورات الشهوات تؤثر في الاستعداد وتورث الحجاب وإن كان المطعم والمشرب والمنكح مثلًا حلالًا، ذكره الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والعشرين وثلاثمئة من «الفتوحات»، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٣) ومما أجبتُ به عن قول وهب بن مُنبِّه: «إن أهل الجنة يزورون ربهم في الجنة علىٰ قدْر مجالستهم له في دار الدنيا». قال قائل: إن الآخرة دار تُخرَق فيها العوائد، فمن أين جاء التقييد بالقدْر المذكور؟

فالجواب: أن مجالستهم لربهم بقدر مجالستهم له في دار الدنيا بحكم الأصل، ثم إن العادة قد تُخرَق، فيمد الله تعالىٰ لهم في كلِّ مجالسة ما شاء. وقد صرح الشيخ محيي الدين بنحو ذلك في الباب الثامن وتسعين ومئة من «الفتوحات» فقال: اعلم أن زيارة العبد لربِّه في الجنة علىٰ قدْر صلاته، وأما رؤيته له فهي علىٰ قدر حضوره معه في صلاته، ومجالسته تعالىٰ معه تكون علىٰ قدْر العبادات من الواجبات والمندوبات، وترك الحرام والمكروهات. وأما المباح فمجالسته تكون بحسب النية فيه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٤) ومما أجبتُ به عن قول سعيد بن جُبَير ﷺ: «إن في الجنة سوقًا لحِسَان الصور إذا دخله المؤمن وأعجبته صورة، دخل فيها من غير أن تنتقل تلك الصورة من صاحبها إليه». قال قائل: هذا يشبه المحالات.

والجواب: قد قدمنا قريبًا أن أحوال الآخرة لا تبلغ العقول كنهها، بل العقول معزولة عن دركها. وقد صرح الشيخ محيي الدين بذلك في الباب التاسع والتسعين في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٣]، فقال: قد تأول بعضهم ذلك علىٰ فصول السنة، وأن الفاكهة تنقضي بانقضاء زمانها، ثم تعود في السنة الأخرىٰ، فهي دائمة التكوين في الفصول لا تنقطع، وهذا مبلغ علم الناس، والذي عندنا من طريق الكشف في قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٣] أن الله تعالىٰ يجعل لنا فيها رزقًا يُسمَّىٰ قطفًا[١] وتناولاً، كما يجعل الله تعالىٰ لعالم الجن في العظام رزقًا وما ترىٰ ينقص من العظام شيء، ونحن بلا شك نأكل من ثمر الجنة قطعًا مع كون الثمرة في موضعها من الشجرة ما زالت عينها، إذ الجنة دار بقاء[٢] تتكون الأمور فيها، وليست دار انعدام.

قال: وكذلك الحكم في سوق الجنة يدخل العبد في أي صورة شاء من صور السوق، مع كوننا علىٰ صورتنا لا ينكرنا أحد من أهلنا، ونحن نعلم يقينًا أننا لبسنا صورة جديدة تكوينية مع بقائنا علىٰ صورتنا، فأين العقول والمعقول هنا؟! انتهىٰ.

فإن قلتَ: فإذن حكم الصورة التي يدخل فيها الإنسان حكم الحاجة التي يشتريها العبد من السوق ثم يدخل بها داره؛ **فالجواب**: وهو كذلك، لأن هذه الصور كلَّها برازخ تتقلب فيها أعيان أهل الجنة، فيدخل أحدُهم في كلِّ صورة أراد وينصرف بها إلىٰ أهله. وقد يرىٰ جماعةٌ صورةً واحدة، فيشتهيها كلُّ واحد منهم، فيدخلون كلُّهم فيها ويلبسونها، ويحوزها كلُّ واحد من تلك الجماعة، والناس الذين لا يشتهونها واقفون ينظرون إلىٰ كلِّ واحد وهو يدخل في تلك الصورة وينصرف بها إلىٰ أهله، والصورة

(١) بالأصلين: قطعًا. خطأ من الناسخ، والمثبت من نص «الفتوحات».

(٢) بالأصلين: بها. خطأ من الناسخ، والمثبت من نص «الفتوحات».

كما هي في السوق ما برحت منه، ولا يعرف ما قلناه إلا من كشف الله تعالىٰ عن قلبه الحجاب، فأدرك أحوال الآخرة مشاهدة عين من هذه الدار، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٥) ومما أجبتُ به عن سيدنا ومولانا عبد الله[1] الملقب بـ«جحا»[2] فيما يضيف الناس إليه من الحكايات المضحكة، حتىٰ ربما أن بعض الناس يسخر به ولا يقيم له وزنًا.

والجواب: أن جحا هذا من التابعين ﷺ، كما رأيتُه بخط الشيخ جلال الدين الأسيوطي ﷺ، قال: وكانت أمه خادمة لأم أنس بن مالك ﷺ. وكان الغالب عليه السذاجة وصفاء السريرة، فلا ينبغي لأحد أن يسخر به إذا سمع بذكره في حكاية، بل يسأل الله تعالىٰ أن ينفعه ببركاته.

قال الشيخ جلال الدين: وغالب ما يُنقَل عنه من الحكايات المضحكة لا أصل له، كما بينَّاه في كتاب «الحكايات المسندة» فرضي الله عنه وأرضاه، والحمد لله رب العالمين.



---

(١) كذا بالأصلين، وليس اسمه «عبد الله» فلعله ثناء من الإمام الشعراني عليه بالعبودية.

(٢) جحا أبو الغصن دجين بن ثابت اليربوعي، صاحب النوادر رأىٰ أنسًا ﷺ، وروىٰ عنه ابن المبارك وغيره، قال عباد بن صهيب: حدثنا أبو الغصن جحا وما رأيت أعقل منه ـ قال كاتبه: لعله كان يمزح أيام الشبيبة، فلما شاخ أقبل علىٰ شأنه، وأخذ عنه المحدثون. السير (٨/ ١٧٢).

الباب الرابع

فيما أجبتُ به عن غير الصحابة والتابعين من الخواص والعوام فتحًا لباب حسن الظن بالمسلمين

(١٧٦) فمما أجبتُ به عن أشعب الطمّاع[1] عفا الله عنه في كونه كان يفتُّ الخبز علىٰ دخان الجيران، وينسبه الناس إلىٰ الطمع المذموم.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث به من حيثُ الطمعُ المذكور، وإنما يجب حمله علىٰ حسن الظنِّ بجيرانه واعتقاده فيهم الكرم، وأنهم لا ينسونه من افتقاده بالطعام، فلغلبة ظنِّه فيهم الخير وطيب النفس، فتَّ خبزه علىٰ دخانهم. وهذا يقع كثيرًا للفقراء إذا كان جارهم كريمًا لا ينساهم من طعامه، وإذا نسوا إرسال الطعام عاتبهم عليه. فإياك يا أخي واللوث بمثل أشعب هذا، واحمله علىٰ المحامل الحسنة، تسلم من الإثم وسوء الظن، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٧) ومما أجبتُ به عن قول القاضي عياض في كتاب «الشفا»: «وشذ الشافعيُّ فقال بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في الصلاة» اعلم يا أخي أن بعض الناس شنَّع علىٰ القاضي عياض بسبب هذه العبارة، وقال: إن كتاب «الشفا» موضوع لتعظيم رسول الله ﷺ، والقول بوجوب الصلاة علىٰ النبي ﷺ مناسب لما قصده في كتابه، فكيف يجعل القول بوجوب الصلاة عليه شاذًّا؟!

والجواب: أن مرادَ القاضي عياض بالشذوذ هنا انفرادُ الإمام الشافعيِّ ومن قال بقوله بزيادة التعظيم لرسول الله ﷺ، وأن اللائق بمقامه ﷺ وجوب الصلاة عليه في الصلاة وفاءً بحقِّه ﷺ، لكونه واسطة لنا في جميع الخيرات، وليس مراد القاضي الشذوذ

---

(١) أشعب الطماع، هو أشعب بن جبير، يقال: إن اسمه شعيب، وكنيته أبو العلاء، وهو أشعب ابن أم حَميدة، وقيل أم حُميدة، وأم حميدة كانت مولاة لأسماء بنت الصديق، عمر دهرًا طويلًا، وأدرك زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه. وله نوادر مأثورة، وأخبار مستظرفة ت ١٥٤ هـ. تاريخ الإسلام (٤/ ٢٥).

الذي هو الضعف كما توهم.

وإيضاح ذلك أن الناس في الصلاة علىٰ مقامين: فمقام الأكابر اللائق به وجوب الصلاة علىٰ النبي ﷺ، لعدم حجابهم بها عن شهود الحقِّ في الصلاة، وهذا مراد الشافعي ومن تبعه، بخلاف قول من قال بعدم الوجوب، فإنه راعىٰ مقام الأصاغر الذين يحصل لهم الغيبة والحجاب بكلِّ ما سوىٰ الله في صلاتهم، فإن اللائق بهؤلاء استحباب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ لا وجوبها، لاسيما وموضوع الصلاة بالأصالة للاشتغال بالله ذكرًا ومشاهدة دون غيره ولو ارتفعت رتبة ذلك الغير، وقد قال الجنيد رحمه الله: من شهد الخلق حُجِب عن الحقِّ، ومن شهد الحقَّ حُجِب عن الخلق. انتهىٰ.

قلتُ: ومراده بمن شهد ذلك حال نقصه، إذ الكمال شهود الحقِّ مع الخلق وعكسه، ويعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، مع الفرقان الدائم بين الله وبين خلقه. وهذا المقام هو الذي أشار الشافعيُّ إلىٰ أهله بالوجوب، لقدرتهم علىٰ شهود النبي ﷺ في تلك الحضرة العظيمة التي تذهل فيها العقول من غير حجاب باشتغالٍ بالصلاة عليه. ومن فهم ما قلناه لم يقل بضعف أحد القولين، بل يرىٰ كلَّ قول له أهل، وهو جمع حسن ومحمل صحيح كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالىٰ في مواضع من هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكتب للولاة خطه بقدر مدة ولاية أحدهم وعزله، ويرمز ذلك بخطٍّ لا يعرفه إلا هو، ولاث الناس به وقالوا: إن كان صادقًا في معرفته بذلك، فليكتبه لنا بالخط الذي يُقرأ، أو يخبرنا بما في جيب أحدنا من الدراهم أو غيرها، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «من حدثكم بعد رسول الله ﷺ بما يكون في غد فكذِّبوه»[1] أي لأن الوحي قد انقطع، ولا تُعلم الحوادث المستقبلة إلا بالوحي.

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيب هذا الشيخ عملًا بقول عائشة رضي الله عنها، لأن مرادها علم الأمور المستقبلة علىٰ وجه القطع بها، لا علىٰ نوع من الترجيح، فإن الإلهام للأولياء باقٍ لهذه الأمة، وحقيقته أنه وحي من الله لخواص عباده علىٰ لسان ملك مغيَّب عن

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

ذلك الملهم، فيسمع كلام الملك بأذن قلبه أو بأذن رأسه، ويخبره بما يقع في المستقبل، لكن لا يجب عليه العمل به إلا بعد عرضه علىٰ الكتاب والسنة وموافقته لهما في قواعد الوجوب، وإلا فهو مخيَّر بين القول بالوجوب والاستحباب.

وقد أجمعوا علىٰ أن سماع كلام الملَك ورؤية شخصه حال كلامه من خصائص الأنبياء[1]. وأما غيرهم فإن رأىٰ شخص الملَك لا يسمع له كلامًا، وإن سمع كلامه لا يرىٰ له شخصًا، لقصوره عن مقام الأنبياء. وأيضًا فإن الوليَّ يدعو إلىٰ الله بشرع مقرَّر ثابت لا شك فيه، فلا يحتاج إلىٰ مزيد تثبت، بخلاف النبي يحتاج إلىٰ مثل ذلك، لأنه يريد إحداث شرع مستقل ربما ينسخ بعض شريعة من قبله.

وقد يكون مطمح بصر الوليِّ ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا أو اللوح المحفوظ، فيخبر بما يراه فيهما من طريق الكشف، لكن ما يراه في اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يُمحَىٰ، بخلاف ما يراه في ألواح [المحو][2] والإثبات، كما هو مقرَّر في كلام العارفين.

وأما رمز الشيخ مدة الولاية والعزل بقلم لا يعرفه إلا هو، فلا ينبغي اللوث به وتجهيله بسبب ذلك، لأن ما أخبر به من جملة أسرار الله التي جعلها في قلوب خواص عباده، فكان الرمز لها أليق. وقد رمز الله تعالىٰ في القرآن مثل ذلك كثيرًا، مع أنه العالم الخبير بما كان وما يكون، نحو قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿حمٓ﴾ ﴿طسٓمٓ﴾ ونحو ذلك، كقوله تعالىٰ ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] وقوله تعالىٰ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠] وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] فانظر

---

(١) نقل الإمام هنا الإجماع علىٰ عدم اجتماع رؤية الملَك وسماعه للأولياء، ويفهم منه أن لا مخالف لذلك، لكنه في الجواب رقم (٨٠٠) ذكر أن رأي الجمهور عدم اجتماع رؤية الملك وسماعه، وذكر أن هناك قولًا يخالف الجمهور.

(٢) ساقط من الأصلين.

كيف أجمل سبحانه وتعالىٰ تمتيعه لقوم يونس بقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإلىٰ إجماله ﴿قَلِيلًا﴾ في الآيتين الأخرتين، ولم يبين مقدار ذلك، فهذا الشيخ الذي رمز هذا السرَّ قد مشىٰ علىٰ سَنَن الأخلاق الإلهية، فلا ينبغي الاعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يفتي تبعًا للإمام مالك وغيره بعدم قبول شهادة الفقهاء علىٰ بعضهم بعضًا لما يظهر منهم من الحسد لبعضهم، فلاث به بعض المتصوفة وقال: كان ينبغي له حسن الظن بالمسلمين، ولكن قد قاس هذا أحوال الناس علىٰ ما عنده من الحسد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أن يكون قصد بذلك الزجر والتنفير، لا تحقيق وجود العداوة بين الفقهاء، فكأنه يرشدهم إلىٰ [عدم][1] معاملة بعضهم بعضًا كمعاملة الأعداء من باب الاحتياط للأموال والأعراض.

وقد أجرىٰ بعضهم هذا الحكم في حقِّ كلِّ طائفة بينهم مزاحمة علىٰ شيء من الأغراض الدنيوية، وهو ظاهر، فإن معارضة كلِّ واحد لأخيه في الوصول إلىٰ ما طلبه من الأغراض، يورثه الغضب والحقد والحنق، فيحمله ذلك غالبًا علىٰ أن يقول في حقِّ من عارضه ما لا يليق كما هو مشاهد بين الناس.

وعبارة الإمام مالك، وكذلك مالك بن دينار: لا أقبل شهادة القراء علىٰ بعضهم بعضًا، لأني رأيتهم حسدًا. انتهىٰ[2]. وإيضاح هذا الكلام أن الحاسد معدود من الأعداء، ولا يُقبَل شهادة العدو في عدوه شرعًا.

فإن قال قائل: فمن أي دليل اطلع الإمام مالك علىٰ ما في قلوب الناس من الحسد، ومعلوم أن مثله مطهَر من الحسد، فليس عنده شيء يقيس عليه غيره؛ **فالجواب:** أن له الوصول إلىٰ العلم بما في قلوب الناس من حيثُ الإلهامُ الصحيحُ، فلا يلزم من رؤيته

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٢) انظر الجواب رقم (١٢٠).

الحسد في الناس أن يكون ذلك قياسًا علىٰ حاله هو. وحَمَلَه علىٰ ذلك الأخذُ بالاحتياط للشاهد والمشهود له أو عليه.

فلا ينبغي لمن يعلم من نفسه الحسد أن يشهد علىٰ أحد[1]، لأنه ربما حمله الحسد علىٰ أن يشهد بغير علم، كما قالوا في القاضي إنه لا ينبغي له الحكم بين الناس في حال غضب أو جوع شديد، لأنه مشغول الفكر بذلك عن تحقيق الحكم، بل قال الإمام الشافعيُّ: لا تشاور من ليس في بيته دقيق. فاحمل يا أخي العلماء وغيرهم علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٠) ومما أجبتُ به عن أبي القاسم الجنيد ﷺ فيما نقله بعض الصوفية عنه أنه كان يقول: «لا يبلغ العبد درجة الحقيقة والولاية حتىٰ يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق». وقد شنع العلماء عليه ذلك كلَّ التشنيع وقالوا: كيف يشهد في إنسان ألف صديق بأنه زنديق، ويكون ذلك الإنسان من أولياء الله عزَّ وجلَّ، هذا خروج عن الشريعة بإجماع كلِّ مسلم.

والجواب: أن مثل هذا القول يجب علىٰ كلِّ مسلم تنزيه الجنيد عنه، لإجماع العلماء علىٰ أنه شيخ الطائفة الصوفية كلِّهم. وقد نقل ابن السبكي[2] في «الطبقات»[3] عنه أنه كان يقول: لو رأيتم رجلًا متربعًا في الهواء، فلا تعبأوا به حتىٰ تنظروه عند الأمر والنهي، فقد يكون راكبًا أحدًا من مردة الشياطين الذين يوافقهم فيما يريدون منه، فوقف به في الهواء، ليفتن ضعفاء العقول في دينهم. وأنه كان يقول: طريقنا هذا مشيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ويفهم معانيهما المسطورة في كتب العلماء، لا يُقتدىٰ به

---

(١) بالأصلين: لأحد. والمثبت يستقيم به السياق.

(٢) عبد الوهاب بن علي العالم الفقيه المحدث النحوي الناظم تاج الدين أبو نصر ابن العلامة قاضي القضاة السبكي. ولد بالقاهرة سنة: ٧٢٨ قرأ علىٰ الذهبي كثيرًا من مصنفاته وغيرها، وأفتىٰ ودرس، وصنف كتبًا منها: «طبقات الشافعية الكبرىٰ» و«معيد النعم ومبيد النقم» و«الأشباه والنظائر» ت ٧٧١هـ. «الوافي بالوفيات» (١٩/ ٢١٠)، «شذرات الذهب» (٨/ ٣٧٨).

(٣) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» مطبوع.

في هذا الشأن. وكان يقول: الطرق كلها مسدودة[١] إلا علىٰ المقتفين آثار رسول الله ﷺ. وأنه كان يقول: إذا رأيتم من يدعي التصوف يشاور أصحابه بكلام لا يتجرأ أن يصرح به علىٰ رؤوس الأشهاد، فاعلموا أنه زنديق. انتهىٰ.

فانظر يا أخي إلىٰ كلامه هذا، تجزم يقينًا بأن من ينقل عليه شيئًا يخالف ظاهر الكتاب والسنة فنقله باطل، كيف يصح ممن جعله الله تعالىٰ قدوة للخلق، وداعيًا إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة أن يتكلم بشيء يخدش ظاهر الشريعة بعد أن أمنه الشارع ﷺ عليها؟!

وقد بلغنا عنه أنه كان من أشد القائمين علىٰ الحلاج[٢] لما صدر عنه بعض كلمات توهم مخالفة الشريعة، وقال له: قد فتحتَ في الإسلام ثلمة لا يسدُّها إلا رأسك. ومما يؤثر عن الجنيد أنه كان يقول: لو كنت ذا سلطان لضربتُ عنقَ كلِّ من يقول: ما ثم إلا الله، لأن إطلاق هذا الكلام ينفي الأحكام والشرائع، والعباد وسائر المخلوقات، ويعطِّل حضرات جميع الأسماء الإلهية. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تنقل عن الجنيد المقالة السابقة، فإنها مدسوسة عليه بيقين، دسَّها عليه بعض الزنادقة، ليروج بها أمره إذا أُسندِت إلىٰ الجنيد حين علم إطباق الناس علىٰ جلالته وعلمه، وشهدوا أن طريقه طريق مقوَّم علىٰ الكتاب والسنة، كما دسُّوا علىٰ الإمام أحمد بعضَ العقائد الفاسدة، وكتبوها ووضعوها تحت وسادته في مرض الموت حين علموا أنه إمام في السنة مقدَّم، لتروج بذلك عقيدتَهم الفاسدة، منها أن الله تعالىٰ جسم محصور علىٰ صورة آدم، ومنها أن القرآن مخلوق، وغير ذلك مما ينافي حاله الذي كان عليه.

وإياك أن تعتقد أن الله تعالىٰ يوحي إلىٰ قلوب الأولياء بما يخالف ما جاء به محمد

---

(١) بالأصلين: مشدودة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الحسين بن منصور أبو عبد الله – ويقال: أبو مغيث – الفارسي، البيضاوي، الصوفي. صحب سهل بن عبد الله التستري والجنيد وأبا الحسين النوري. قال ابن خلكان: والناس في أمره مختلفون: فمنهم من يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يكفر. ورأيت في كتاب «مشكاة الأنوار» للغزالي فصلًا طويلًا في حاله، وقد اعتذر عن الألفاظ التي كانت تصدر عنه. ت ٣٠٩هـ. السير (١٤/ ٣١٣) «الأعلام» (٢/ ٢٦٠).

ﷺ ويقول: إن علماء الشريعة محجوبون عن مثل ذلك، كما يقع فيه بعض المتسلقين علىٰ طريق الصوفية مع جهلهم بقواعد الشريعة، فإن ذلك كفر صريح. **ويجب عليك اعتقاد أن جميع الأولياء إلىٰ يوم القيامة محبوسون في دائرة شريعة محمد ﷺ لا يصل إليهم علم من غيرها أبدًا؛ لأنه ﷺ ممد لجميع الأكوان العلوية والسفلية.**

وقد وقع في سنة سبع وخمسين وتسعمئة أن شخصًا نقل المقالة المتقدمة عن الجنيد ﷺ، فبلغ أمره إلىٰ مولانا السلطان سليمان[1] نصره الله، فجمع له المفتين وقضاة العساكر بالروم، وقالوا له: كيف يشهد ألف صدِّيق في شخص أنه زنديق وتقول بولايته؟! فما درىٰ ما يقول، وطالبوه بالنقل الصحيح عن الجنيد، فلم يجد، وقالوا له: إن لم ترجع عن اعتقاد ذلك، ضربنا عنقك؛ فرجع. فإياك يا أخي والدخول في بحر الظلمات، والحمد لله رب العالمين.

(١٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكامل الذي يصلي علىٰ النبي ﷺ أو يسبح ربه بقوله: «سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» أو «اللهم صلِّ علىٰ محمد ﷺ عدد خلقك، ورضا نفسك... إلىٰ آخره» فلاث به بعض المتصوفة وقال: هذا التسبيح والصلاة بالعدد لا يليق بمقام الكمال، وإنما يليق بالمحجوبين عن كمال تنزيه الحقِّ جلَّ وعلا، وذلك لأن صلاة الحقِّ تعالىٰ علىٰ نبيِّه لا افتتاح لها ولا انتهاء، فلا تقبل عددًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل ذلك، لورود العدد في الكتاب والسنة في كيفيات التسبيح والتحميد[2]. وأيضًا فإن الشيخ لا يجهل ما قاله هذا المتصوف، وإنما

---

(١) السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان الحادي عشر من ملوك بني عثمان، ولد سنة ٩٠٠هـ، وكان سلطانًا سعيدًا ملكًا، أيده الله لنصر الإسلام تأييدًا. ولي السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان، واستمر في السلطنة ٤٩ سنة، وهو سلطان غاز في سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله. توفي: ٩٧٤هـ. «النور السافر» (ص: ٢٦٣) «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٤٩).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٥٠٠) من حديث سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ علىٰ امرأة وبين يديها نوىٰ - أو حصىٰ - تسبح به، فقال: «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا - أو أفضل - فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما

مراده بالعدد وقوعه في سؤال العبد كلما تكرر سؤاله للحقِّ تعالىٰ أن يصلي علىٰ رسول الله ﷺ، أو يجعل العدد في جانب الحقِّ تعالىٰ من باب الفرض والتقدير، فهو عبارة عن كثرة صلاة العبد علىٰ نبيه مقابلة كون محصور بكون محصور.

وقد سمعتُ مرة هاتفًا يقول لي: ما صدر منك إلىٰ الحقِّ تعالىٰ من الأقوال والأفعال مقيَّدٌ محصور مكيَّف، وما صدر من الحقِّ تعالىٰ إليك لا يصح وصفه بتقييد ولا حصر ولا تكييف. انتهىٰ. فيحتاج العبد إلىٰ عينين: عين يشهد بها التقييد من جهته، وعين عدم التقييد والتكييف من جهة الحقِّ تعالىٰ، ليحوز مقام الكمال في المعرفة بالله تعالىٰ وبنفسه هو، فإذن حقيقة العدد راجعة إلىٰ العبد لا إلىٰ الله، فقوله في الحديث: «من صلىٰ عليَّ واحدة صلىٰ الله عليه بها عشرًا»[1] من باب المشاكلة والتنزل للعقول، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي مات له ولد عزيز فقال: «يا ربِّ، أشهدك أني قد سامحته بحقِّي الذي كان لي عليه، فسامحه بحقِّك الذي عليه» فلاث به بعض الناس وقال: في هذا الكلام رائحة من سوء الأدب مع الله تعالىٰ حيث جعل مسامحته أصلًا، ومسامحة ربه فرعًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا القائل، لاحتمال أن يكون مراده بذلك مناجاة الحقِّ جلَّ وعلا، نظير قوله تعالىٰ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] مع أن الحقَّ تعالىٰ لا يحكم إلا بالحقِّ، فأمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يناجي ربَّه بذلك، أي إنك يا رب قد وعدتنا في دار الدنيا أن تحكم بين رسلك وأعدائك بالحقِّ، فكأنه يطالب ربه بما وعده لا غير. إذا علمت ذلك، فمعنىٰ كلام الشيخ المذكور: اللهم إنك قد أخبرتنا علىٰ لسان رسولك أنك لا ترضىٰ عن الولد حتىٰ يرضىٰ عنه والده، وها أنا يا رب قد رضيتُ عنه، فارض يا رب عنه؛ فهو كناية عن قوة إيمان هذا الشيخ بما أخبر الشارع عن ربه من رضاه وسخطه.

خلق بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك» والترمذي (٣٥٦٨)

(١) أخرجه مسلم (٤٠٨) وأبو داود (١٥٣٠).

وهذا من باب قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإنه جعل ذكره فرعًا عن ذكر عبده، والحمد لله ربِّ العالمين.

(١٨٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي ربَّاه شخص من حين كان طفلًا، وأنفق عليه مالًا كثيرًا حتىٰ صار رجلًا، ثم وقع بينه وبينه عداوة، فأنكر فضله وإحسانه عليه طول عمره، فلاث الناس به وقالوا: ما بقي أحد يستحق أن يُفعَل معه خير في هذا الزمان، وأطالوا لسانهم فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم لأجل إنكاره فضل من رباه، وأنفق عليه المال المذكور، لاحتمال أنه أراد بعدم شكره لمن أحسن إليه توفير الأجر له في الآخرة، إذ الشكر للمحسن معدود عند القوم من جزاء الأعمال، وربما أكثر الإنسان من شكر من أحسن إليه في الدنيا حتىٰ أوفاه جميع أجره في الدنيا، وذهب إلىٰ الآخرة صِفْر اليدين من الأجر المذكور.

ويُحتمَل أيضًا أن يكون هذا ممن غلب عليه شهود ذلك الإحسان الذي حصل له علىٰ يد من رباه من الحقِّ جلَّ وعلا ببادئ الرأي، فلم ير لذلك المحسن جميلَه عليه إلا من حيثُ كونُه رسولًا في حمل تلك الأرزاق إليه، فهو كالقناة التي يجري إليه منها الماء، فالحقيق بالشكر من حفر البئر وأجرىٰ الماء في القناة لا القناة. وكان هذا من مقام عائشة ﵂ في حال قصة الإفك، ثم رقاها الله تعالىٰ إلىٰ شهود شكر الوسائط مع شكر الحقِّ تبارك وتعالىٰ كما عليه الكُمَّل، عملًا بحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1]، سواء كانت الهاء عن الجلالة مضمومة أو مفتوحة، فإنهم قالوا لها حين نزلت براءتها من السماء: «قومي إلىٰ رسول الله ﷺ فقبلي رأسه، فقالت: لا أقوم إلىٰ أحد ولا أشكر إلا الله»[2]. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واسلكوا الطريق، تعرفوا الأجوبة الحسنة عن الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) وأحمد (٧٥٠٤).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاي (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(١٨٤) ومما أجبتُ به عن محمد الغزالي ﷺ في قوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان». انتهىٰ. وقد خبط الناس في ذلك عشواء، وألَّفوا فيه مؤلفات، منهم الشيخ برهان الدين البقاعي[1]، ومنهم شيخ الإسلام صلاح الدين الصفدي، فمنهم من كفَّر حجة الإسلام، ومنهم من جهَّله.

والجواب: أن كلامه ﷺ في غاية التحقيق والعلم، لأنه ما ثم في الوجود إلا رتبتان: رتبة قِدَم، ورتبة حدوث، فالحقُّ تعالىٰ له مرتبة القدم، والعالمُ كلُّه له رتبة الحدوث، فلو خلق الله تعالىٰ مهما خلق دنيا وأخرىٰ، فلا يصح أن يرقىٰ عن مرتبة الحدوث، فـ«ليس في الإمكان أبدع مما كان» فلا يُقال: هل الحقُّ تعالىٰ يقدِر علىٰ أن يخلق قديمًا؟ فإنه سؤال مهمَل مؤذِن بالجهل المحض من صاحبه.

وإن أراد الإمام الغزاليُّ أن كلَّ ما كان في الوجود لا يصح أن يرقىٰ عن مرتبة نقصه أو كماله الذي جعله الحقُّ تعالىٰ له، صح أيضًا، فإن العلم الإلهيَّ إذا تعلق بأمر لا يصح فيه زيادة ولا نقص. وإيضاح ذلك أن العالَم هو معلوم علم الله عزَّ وجلَّ، فلا يمكن أن يخرج عن صورة ما تعلَّق به العلمُ، فلا زيادة ولا نقصان، بل كلُّ شيء كاملٌ في ذاته، فـ«ليس في الإمكان أبدع مما كان». هذا ما فتح الحقُّ تعالىٰ به عليَّ في الجواب[2].

وقد سئل الشيخ العارف بالله تعالىٰ الشيخ محمد المغربي الشاذلي[3] شيخ الجلال

---

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط برهان الدين البقاعي، الشافعي المحدّث المفسّر الإمام العلاّمة المؤرّخ، ولد سنة ٨٠٩ هـ، من مصنفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، عنوان العنوان، سر الروح وغيرها، ت ٨٨٥ هـ. شذرات الذهب (٩/ ٥٠٩)، الأعلام (١/ ٥٦).

(٢)ومن الأجوبة أيضًا ما ذكره الشيخ الصاوي في حاشيته علىٰ «شرح الخريدة»: «أن المراد بالإمكان إمكان الخلائق، فالمعنىٰ ليس في إمكان الخلائق تغيير ما أراده الله وأبدعه، فالمنفي تعلق قدرة الخلق». وقال الشيخ العلامة بصيلة في «تقريراته علىٰ الصاوي»: «ولك أن تقول: ليس في الإمكان أبدع بحسب ما يسع العقول تفصيلًا وإن حكمت إجمالًا بجواز أبدع، أو أنه خرج مخرج المبالغة ولم يرد حقيقته». انظر: «مجموع حواشي الخريدة» (١/ ٤١٩) دار الإحسان.

(٣) كان ﷺ من الراسخين في العلم. أخذ الطريق عن سيدي الشيخ أبي العباس السرسي تلميذ سيدي محمد

السيوطي عن ذلك، فقال: قول الغزالي صحيح، لأن الله تعالىٰ امتنَّ علينا بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ – ٤٨]، ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لا يقع منه امتداح إلا لما هو غاية ونهاية، وإلا فكيف يُمتدَح الحقُّ تعالىٰ بمفضول؟! انتهىٰ.

وقد سألتُ مرةً سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله عن قول الغزالي هذا، فقال: هو كلام صحيح، فإن الوجود خلق الله تعالىٰ، ولا يصدر عن الكامل إلا كامل من حيثُ الحكمةُ الإلهيةُ، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فاعلم ذلك يا أخي، فإنه يُكتب بنور الأحداق، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٥) ومما أجبتُ به عن البيَّاعين الذين يطوفون في الأسواق حال صلاة الجمعة، والذين يمرون علىٰ الناس وهم يصلون بأنه لا ينبغي المبادرة بالإنكار عليهم ممن هو داخلٌ لصلاة الجمعة، أو ممن سلَّم من صلاة الجمعة، بل يبحث المنكِر عن حالهم، فإن رأىٰ لهم عذرًا، سكت وإلا أنكر عليهم، وإن وجد أحدهم جاهلًا علَّمه ثم بعد ذلك ينكر عليه، فربما كان ترك الجمعةَ لجهله بوجوب الجماعة فيها. ومن العذر للطوَّافين حال صلاة الجمعة أن يكون علىٰ أحدهم دين وحلف صاحبه أنه إن لم يوفه اليوم حبسه مثلًا، أو اشتكاه لحاكم لا بصيرة عنده ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا امتنع من الإفتاء فيما يتعلق بالسلطان أو ولاة بلده، لاسيما إن تعلق ذلك بالفلاحين، وعصىٰ أحدهم بسبب تلك الفتوىٰ عن وزن مال السلطان، ولاث العامة بذلك العالم بسبب ذلك، فإنه يجب حمله علىٰ عذر شرعي لو عرضه علىٰ أصحاب العقول لعذروه في مثل ذلك. وليس كلُّ عذر يقدر العالم أن يبديه، فإياك يا أخي من المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من امتنع من الفتيا، فإن لحوم العلماء سمٌّ

الحنفي رضي الله عنه، وكان من أولاد الأتراك، وإنما اشتهر بالمغربي لكون أمه تزوجت مغربيًا، وكان الغالب عليه الاستغراق رضي الله عنه، وكان بخيلًا بالكلام في الطريق عزيز النطق بما يتعلق بها، توفي: في شهر ربيع الأول ٩٢٢هـ. «الطبقات الكبرىٰ للشعراني» (٢/ ١٠١).

قاتل، وهم أعلم منك بأحكام الشريعة، والله أعلم.

(١٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا حجَّ في محفة[1] ولاث به الناس وقالوا: إن ذلك مخالف لحديث: «المحرم أشعث أغبر» بأنه ربما كان له عذر في ركوبها، وأن المَحَارَة[2] لا تكفيه في مد رجليه، أو لا يقدر علىٰ الصلاة فيها قائمًا مثلاً لو خاف خروج الوقت إن نزل في مضيق كالعقبة، أو لم يجد ما يعادله في المحارة، أو خاف من وقوع حمله، أو ضياع حوائجه إن نزل، ونحو ذلك من الأغراض الشرعية. ولا يجوز حمله علىٰ طلب الرفاهية أو التكبر. ومن شك في العذر، فله أن يسأل صاحب تلك المحفة ويأخذ منه الجواب، ويبني عليه مقتضاه ظاهرًا، وليس له أن ينازعه في نيته، مع أن ركوب المحفة بلا عذر جائز شرعًا، فالأمر سهل. فاحمل يا أخي العلماء والأولياء علىٰ المحامل الصحيحة حسب الطاقة، فإن ثوابَ حجتك كلّه لا يرضىٰ به من أساءت الظن به يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٨) ومما أجبتُ به عن فقيه يقرأ القرآن أو فقير يذكر الله في الليل جهرًا إذا كان جاره أميرًا أو غنيًّا، ولاث به جيرانه الفقراء من الدنيا وقالوا: إنه لا يجهر بالقراءة أو الذكر إلا ليستمطرَ بذلك البرَّ والإحسانَ من جاره: بأنه قد يكون غافلًا عن مراعاة جاره مطلقًا، وإنما جهر ليُسْمِعَ الجنَّ أو الملائكةَ الكرامَ الكاتبين، فإنه ما ثم شيء أحب إلىٰ الجن والملائكة من سماع القرآن والذكر أبدًا. وهذا يقع لي في الليل كثيرًا، فأجهر بالقرآن، فأحسُّ بالجنِّ يدخلون من طيقان البيت وشبابيكه، فإذا فرغت من الذكر أو القراءة، أحسُّ بخروجهم

---

(١) المِحفة: قال في «لسان العرب»: المحفة مركب كالهودج إلا أن الهودج يقبب والمحفة لا تقبب. قال ابن دريد: سميت بها لأن الخشب يحف بالقاعد فيها أي يحيط به من جميع جوانبه». والذي يظهر لي من خلال قراءة نص الإمام الشعراني هذا. وبعد مراجعتي لبعض اللوحات التي رسمها بعض المستشرقين أن «المحارة» هي المحمل الذي يكون علىٰ بعير واحد، أما المحفة فتكون محمولة علىٰ جملين أحدهما أمام الآخر، بحيث تكون محمولة بينها، ولذلك تكون أرحب وأوسع.

(٢) المحارة: محمل الحاج، كالهودج.

بتزييق الأبواب. وكذلك الحكم فيمن يقرأ القرآن في حانوته أو ماشيًا أو راكبًا أو يذكر الله تعالىٰ جهرًا طول نهاره، يجب حمله علىٰ أنه إنما يفعل ذلك لينبه الغافلين عن الله، ولتنزل الرحمة علىٰ أهل السوق أو الناس الذي يمرُّ عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم إذا صلىٰ في الصف [الأخير][1] وترك الأول وما بعده لغيره، ولاث الناس به وقالوا: الإيثار في القرب الشرعية مكروه: بأنه ربما كان لذلك العالم أو الفقير عذر صحيح يمنعه من الوقوف في الصف الأول مثلًا، ولا ينبغي لأحد حمله علىٰ أنه ترك الصف الأول مثلًا تهاونًا بالسنة أو بالثواب.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد شيخ الطريق، وكذلك سيدي محمد الغمري[2]، وسيدي مدين، وسيدي علي الخواص وغيرهم يصلُّون دائمًا في آخر صف ويقولون: إن الرحمة تستقر علىٰ [أهل][3] الصف الأخير، فإن الرجل إذا غُفِر له، غُفِر لمن خلفه.

وقالوا يومًا لسيدي أحمد الزاهد: قد قال رسول الله ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها»[4]. فقال: هذا لا ينافي ما نحن فيه، فإن مراد الشارع بالرجال هنا الكُمَّلُ من الأولياء، فمن شهد في نفسه الكمال في مراتب الإيمان والإحسان، فليتقدم. وأما أنا فلم أشهد في نفسي إلا النقص، وقد قال ﷺ أيضًا: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[5]، وقال ﷺ: «صفوا كما تصف الملائكة

---

(١) زيادة من عندنا اقتضاها السياق.

(٢) شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن عمر بن أحمد الواسطي ثم الغمري الشافعي. ولد سنة ٧٨٦هـ بمينة غمر، ونشأ بها فحفظ القرآن، و«التنبيه» ثم قدم القاهرة فأقام بالجامع الأزهر للاشتغال مدة، من مصنفاته: «النّصرة في أحكام الفطرة» و«محاسن الخصال في بيان وجوه الحلال» و«الانتصار لطريق الأخيار» ت ٨٤٩هـ. «شذرات الذهب» (٩/ ٣٨٦)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٨).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه مسلم (٤٤٠) وأبو داود (٦٧٨) والترمذي (٢٢٤).

(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٣٢) وأبو داود (٦٧٤) وابن ماجه (٩٧٦).

بين يدي ربها»[١]. انتهىٰ. فما أمر ﷺ بالصلاة خلفه في الصف الأول إلا أولي الأحلام -يعني البالغين- وأولي العقول -يعني الزهاد في الدنيا- فإن في حديث الترمذي: «الدنيا دار من لا دار له، يجمعها من لا عقل له»[٢] فنفىٰ ﷺ العقل عمَّن يجمع الدنيا ولا ينفقها في سبيل الله تعالىٰ شحًّا وبخلًا، وأحدُنا لا يخلو عن جمع شيء من الدنيا عنده، ولا عن منع المحتاج إليه، فلسنا من أهل الصفوف الأُوَل. وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: لو أوصىٰ رجل بمال لأعقل الناس، لصرفته إلىٰ الزهاد في الدنيا.

وقوله في الحديث: «صفوا كما تصف الملائكة عند ربها»[٣] أي في التقدم والتأخر، أي فكما لا يتقدم آحاد الملائكة كملائكة التسخير علىٰ أكابرهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، فكذلك لا ينبغي لمن يعلم من نفسه رقة الدين أن يتقدم علىٰ غيره من المسلمين الذين لم يظهر عليهم شيء من صفات النقص، وكلُّ مؤمن يجب عليه أن يرىٰ غيره من المسلمين أفضل منه، كما درج عليه السلف الصالح والعلماء العاملون.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷫ يقول: لا ينبغي أن يصلي بالوليِّ إلا الولي، فقد بلغنا أن شخصًا من أئمة بني إسرائيل تقدَّم للصلاة، فإذا بقائل يقول له: لا تتقدم علىٰ من هو أفضل منك، فتأخر ذلك الشخص. انتهىٰ.

وقد قالوا: ما اجتمع ثلاثة إلا وكان منهم ولي لله عزَّ وجلَّ، لأنه تعالىٰ قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ومعلوم أنه لا يجالس إلا أولياءه دون أعدائه. انتهىٰ.

فقد علمت أنه لا يتقدم بين يدي الملوك عادة إلا أكابر أهل حضرتهم من العلماء العاملين، فمن علم من نفسه أنه منهم فليتقدم، هذا ما عليه أشياخ الطريق. وأما طائفة الفقهاء فوقفوا علىٰ ظاهر الحديث، وأمروا بالمسابقة إلىٰ الوقوف في الصف الأول

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٣٠) بنحوه، وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤١٩) وابن أبي شيبة (٣٥٧٠٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٥٣).

(٣) تقدم تخريجه.

مطلقًا ولو للعامة، فلكل رجال مشهد.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إنما قال ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ»[1] ليحفظوا أقواله وأفعاله، وينقلوها إلىٰ من بعدهم[2] من الأعراب وغيرهم ممن لا يحسن أن ينقل أفعاله ﷺ وأقواله علىٰ وجهها إلىٰ الناس، وكان ذلك الزمان زمان تنزل الأحكام، فلما استقرت الأحكام، كان الحكم بحسب الأفهام، فمن الناس من جعل للأئمة بعده ما كان له ﷺ من طلب القرب منه في الصلاة، ومن الناس من قال: زال ذلك الحكم الذي كان لرسول الله ﷺ، وصار بعض المأمومين أعلم بالشريعة من الإمام. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من رأيتموه من العلماء أو الفقراء يصلي في الصف الأخير، فربما كان الحامل له علىٰ ذلك الحياء والخجل من الله عزَّ وجلَّ، أو من رسول الله ﷺ، خوفًا أن يخالف قوله ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ»[3] فإنه لم يأمر ذلك إلا كُمَّلَ الرجال والعقلاء الزاهدين في الدنيا، ومن لم يكن زاهدًا فيها، فهو يرىٰ نفسه بعين النقص، فلا حرج عليه في صلاته في غير الأول.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي أن يتقدم للصلاة في الصف الأول أو الثاني أو الثالث مثلًا إلا من علم من نفسه يقينًا أنه أقلُّ ذنوبًا ممن يصلي أمامه، فإن علم من نفسه أنه أكثرهم ذنوبًا أو شكَّ في ذلك، فليتأخر إلىٰ الصف الذي يليهم أدبًا.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: حكم أكابر الرجال إذا وقفوا في الصلاة بين يدي الله عزَّ وجلَّ حكم المجرم إذا فسق وأتوا به إلىٰ الوالي، فهو يتمنىٰ أن الأرض تبتلعه ولا يقف بين يديه حياءً منه وخجلًا من الناس، فلا يزال يرعد من هيبة الوالي حتىٰ يحصل منه العفو والمسامحة، وكذلك حكم الكُمَّل من أولياء الله تعالىٰ، ولله المثل الأعلىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٣٢)، وأبو داود (٦٧٤).

(٢) بالأصلين: بعده. والصواب ما أثبتناه.

(٣) تقدم تخريجه.

ففتش نفسك يا أخي وقت كلِّ صلاة، فإن وجدت نفسك لم تقع في ذنب طولَ عمرك، فتقدم للصف الأول، وإلا فظل في الصف الثاني وما بعده، بحسب مشهدك في نفسك الوقوع في المعاصي قلة وكثرة، ولا تلبس علىٰ نفسك، فإن الناقد بصير، ومن ظنَّ بنفسه أن ذنبه غُفِر له حين تقادم عهدُه، فهو كالمتهور في دينه، فقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام في حقِّ عاصٍ من عصاة بني إسرائيل كان تاب إلىٰ ربه، ومكث سبعين سنة لا يأكل دسمًا ولا ينام مضطجعًا: «يا داود، قل لفلان العابد: ما لي لا أراك تبكي مع الباكين، ولا تنوح مع النائحين علىٰ ذنوبك الماضية؟ أتظن أنني قد غفرت لك؟ بأي دليل وصل ذلك إليك؟» وفي رواية: «أتظن بتقادم عهدك بالذنوب، وحلمي عليك، وعدم معاجلتك بالعقوبة عليها أني قد غفرت لك؟ فأي ملَك أخبرك عني بذلك؟ وما يدريك أني [غير][1] ساخط عليك إلىٰ يوم تلقاني؟! انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: كثيرًا ما يذنب العبد الذنب العظيم أيام صباه، فيظنُّ بنفسه أيام شيخوخته أن ذلك الذنب قد غفره الله له، والحال أن الحقَّ تعالىٰ لم يزل ساخطًا عليه إلىٰ ذلك الوقت. وربما يصير هذا الشيخ يزاحم علىٰ الوقوف في الصف الأول، نظرًا لكونه طعن في السن وينسىٰ ذنبه، وما هكذا درج السلف الصالح، فكان أحدُهم إذا وقع في ذنب لا يزال ذا حياء وخجل من ربِّه حتىٰ يموت ويجاوز الصراط.

وبالجملة، فالأدب من أمثالنا مطلوب مع العلماء والصالحين الذين يصلون في غير الصف الأول وما يليه إلىٰ الأخير، مع قدرتهم علىٰ التقدم إلىٰ ما أمامه. ولا يجوز حملهم علىٰ أنهم يفعلون ذلك رغبةً عن السنة، أو تهاونًا بأمر الشارع، فقد رأيتُ غالب أهل العلم في الجامع الأزهر يصلون في أماكنهم في الأروقة وغيرها من غير نكير فيما بينهم، وإنما ذلك لحملهم بعضهم بعضًا علىٰ أعذار مقبولة في الشرع إن شاء الله تعالىٰ.

(١٩٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح إذا أكثر من التردد إلىٰ الأمراء والعمَّال[2]

---

(١) زيادة ضرورية اقتضاها السياق.

(٢) أي الولاة ونحوهم.

وقضاة العساكر[١] مثلاً، ولاث الناس بعرضه بسبب ذلك: بأن ذلك مبني علىٰ النية والقصد، أو التصريح لنا بقصده ولم يُعرف قصده هذا هل هو لقصد الدنيا أو لقصد الآخرة، ولا صرح لنا بقصده فما بقي إلا سوء الظن به[٢]، وذلك لا يجوز شرعًا. ولأي شيء لا يحمل العبد أخاه علىٰ وجوه الخير؟! كأن دخل لذلك الأمير أو جالس ذلك العامل وألان له القول ليميل إليه بالمحبة، فيصير يقبل شفاعاته في المظلومين، أو دخل عليه ليحوِّطه في جميع أحكامه بآيات الله تعالىٰ [وكلماته التامة حتىٰ لا يزيغ عن الشريعة في أحكامه، وحتىٰ لا يعاجله الله تعالىٰ][٣] بالعقوبة إذا زاغ، ونحو ذلك من المحامل الحسنة.

وقد رأيت سيدي عليًّا الخواص مع تمكنه في مقام الولاية كثيرًا ما يهدي إلىٰ الظلمة قدور العسل النحل والغنم والأوز دون الفقراء من جيرانه، ويقول: إنما نعطي الظلمة، ليصير أحدهم يقبل شفاعتنا في المظلومين، وإنما نمنع الفقراء رحمةً بهم وشفقةً عليهم أن ينقص مقامهم في الفقر بأكل لحم الضأن والعسل النحل مثلًا. وربما كان ذلك من شبهة ، فنشفق علىٰ أجسامهم من النار. انتهىٰ.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي ينام في بيوت الظلمة وحاشيتهم، وإذا سلَّم علىٰ أحد منهم، ضمَّه إلىٰ صدره وقبَّله، ولا يفعل ذلك مع الفقراء، فقيل له في ذلك، فقال: الفقير لا يظلم أحدًا ولا يشوش عليه، بخلاف الأمراء وحاشيتهم، فإننا نستميل خاطرهم إلينا، ليقبلوا شفاعتنا، والأعمال بالنيات. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٩١) ومما أجبتُ به عن العلماء والفقراء إذا دخل أحدهم مواضع المكوس والخمور والحشيش وبنات الخطا، وجالس أهل هذه المعاصي، ولاث الناس بعرضه: أنه يجب

---

(١) عرف هذا اللقب الوظيفي في مصر في العصر العثماني حين ألغىٰ سليمان القانوني مناصب القضاة الأربعة، وأحل محلهم منصب قاضي العسكر يعاونه نوَّاب من كل مذهب. انظر «الألقاب والوظائف العثمانية» د. مصطفىٰ بركات، (ص١٣٤).

(٢) هكذا الموضع في الأصل.

(٣) ساقط من «ب».

علىٰ كلِّ مسلم يخاف علىٰ دينه أن يحمله علىٰ أنه ما دخل هذه المواضع وجالس أهلها إلا ليميل خاطرهم إليه، حتىٰ يقبلوا منه النصح ويأتمروا بمعروفه، فإن أهل هذه المعاصي لم يزل بينهم وبين العلماء النفرة وعدم المحبة، لأنهم في حجاب عن طريق الهدىٰ، وقلوبهم في أكنة لا يصغون إلىٰ كلام ناصح، لينفذ الله تعالىٰ فيهم قضاءه وقدره، فيجب حمل كلِّ من دخل علىٰ هؤلاء من العلماء والصلحاء أنه إنما دخل أماكنهم ليعظهم ويخوفهم من عذاب الله، أو ليحوِّطهم من نزول البلاء وحلول العقوبات بهم، لاسيما ومن شأن العالم أو الصالح تبرئته من المعاصي، ويبعد وقوعه في الزنا أو شرب الخمر أو بلع الحشيش، أو تقريره العصاة علىٰ فعل ذلك، ووقوعه في هذه المعاصي أبعد من البعيد، فما بقي إلا وجوب حمله علىٰ المحامل الحسنة، ولأي شيء يلوث الناس بعرضه، ويحملونه علىٰ الوقوع في الأمور البعيدة من حاله، ويتركون الأمور الظاهرة منه؟!

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا رأينا امرأة من بنات الخطا تدخل وتخرج بيت أحد من إخواننا من العلماء والفقراء والأمراء والمباشرين[1] والتجار وغيرهم، فلا يجوز لنا اللوث بعرض أحد منهم وحمله علىٰ أمر مذموم، بل يجب علينا حمله علىٰ أن بنت الخطا إنما دخلت لعياله لحاجة لها عندها، أو دخلت لها تسألها أن تقول لزوجها يشفع فيها عند الوالي، أو ليدعو لها بالتوبة ونحو ذلك، كما سيأتي بسطه في مواضع، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يضطرب قلبه إذا قلل الله تعالىٰ عنه الرزق، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا أمر يقدح في الإيمان والتوكل، وهو نقص كبير في العلماء.

والجواب: أن اضطراب قلب المؤمن في أمر رزقه لا يقدح في إيمانه، وإنما يقدح في كماله فقط الكمال النسبي بالنظر إلىٰ كلِّ ذات، وذلك لأن اضطراب القلب لا يقدح في الإيمان إلا إن كان صاحبه متهِمًا للحقِّ جلَّ وعلا أنه يضيعه. أما إذا كان الاضطراب ليس

---

(١) المباشر: الموظف الإداري في الدولة المملوكية.

معه تهمة، فذلك لا يكاد يخلص منه إلا الكُمَّل علىٰ خلافٍ في ذلك، إذ الجزء البشري يدق في الكامل ولا ينقطع، وما خرج عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد صرح الشيخ محيي الدين في باب الجنائز من «الفتوحات» بأن اضطراب قلب المؤمن في أمر رزقه لا يقدح في إيمانه، لأن هذا الاضطراب ليس هو عن تهمة للحقِّ تعالىٰ بأنه لا يرزقه، وإنما هو لاضطراب البشرية، لعدم الصبر وللإحساس بألم الفقد، فهو يعلم بالإيمان أن الله تعالىٰ يرزقه [ولا بد من حيثُ كونُه حيوانًا، وأنه لا يموت حتىٰ يستكمل رزقه، ولكن الله تعالىٰ لم يعلمه متىٰ يأتيه رزقه][1]، ولم يطلعه عند فقد السبب الجالب للرزق هل فرغ وجاء أجله، فيكون فزعه من الموت، فإن للموت فزعًا، أم رزقه لم يفرغ في علم الله، فيكون اضطراب قلبه لجهله بوقت حصول الرزق بانقطاع السبب، فيخاف منه المرء الجوع المتوقع، أو من دوامه إن كان وقع، فهذا سبب الاضطراب. انتهىٰ[2].

وقال في الباب الثامن والسبعين وأربعمئة من «الفتوحات» في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]: اعلم أن الحقَّ تعالىٰ لابد أن يوصل إلىٰ كلِّ مخلوق رزقه الذي قسمه، وليس ذلك من إهانة العبد عليه تعالىٰ ولا كرامته كما قيل، فإن الله تعالىٰ يرزق البر والفاجر، والمكلَّف وغير المكلَّف. وغاية اعتنائه تعالىٰ بالعبد أن يرزقه حلالًا لا شبهة فيه، ويستخلص له الحلال كما يستخلص اللبن من بين فرث ودم، قال تعالىٰ :﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، والبقية هو كلُّ ما حل لكم تناوله من جميع الأشياء التي تقوون بها علىٰ طاعة ربكم. وليس رزق العبد إلا ما تقوم به نشأته، وتدوم به قوته وحياته، لا ما جمعه وادخره، فإن هذا قد يكون لغيره، وحسابه علىٰ جامعه. انتهىٰ.

وقال في الباب الثامن والثمانين وأربعمئة في قوله تعالىٰ: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] : اعلم أن رزق ربك هو ما أعطاه لك مما أنت عليه في وقتك. وأما ما لم يعطه

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٦٩).

لك ففيه تفصيل: فإن كان لك فلابد من وصوله إليك؛ وما ليس لك فلا يصل إليك قط، فلا تتعب نفسك في غيرمطمع.

قال: ومرادنا بقولنا: «إن كان لك» أن تأخذه على الحد المشروع، فإن ما أُخِذ من حرام لا ينبغي إضافته إلى الله تعالى أدبًا، وإنما يُضاف إلى الطبع. انتهى.

[تأويل لمذهب المعتزلة في الرزق الحرام]

قلتُ: ولعل هذا مراد المعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق، أي يضاف إلى الله تعالى، فإن غالب خطأ الفرق الإسلامية إنما هو خطأ إضافيٌّ لا مطلق، فما منع أكابر المعتزلة من إضافة الزرق الحرام إلى الله تعالى إلا من باب ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، ومن باب حديث: «والخير كله في يديك، والشر ليس إليك»[1] أي لا يُضَاف إليك على وجه التشريف، ويُضَاف إليك بحكم الخلق والقسمة. والذي نعتقده في المعتزلة أنهم يعتقدون أن الله تعالى خالق رزق العباد وقاسمه لهم من حلال وحرام، بل اليهود والمجوس كلهم يعتقدون ذلك، فكيف تظنُّ بمثل الإمام الزمخشريِّ أن يعتقد أن الله تعالى ليس برازق للعبد الذي تغذى بالحرام وهو يشاهد عجز نفسه عن تحصيل ذرة من رزقه إلا إن قسمها الله له؟! ولم يزل المتأخرون من العلماء ينصبون الخلاف بينهم وبين أخصامهم بلازم المذهب والقول، ولازم المذهب ليس بمذهب على الراجح.

وقد سمع سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله فقيهًا يقول في دعائه: اللهم أغنني بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك؛ فنهاه عن ذلك، وقال: قل: بالحلال عن الحرام، وبالطاعة عن المعصية، من غير إضافة. فقال له الفقيه: إن هذا هو لفظ الحديث! فقال: صحيح، ولكنه لبيان الجواز، بقرينة قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»[2]، وقول الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه من حيثُ إن

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) أبو داود (٧٦٠).

(٢) تقدم تخريجه.

بروحه على الاسم «الكريم» كان كريمًا، أو على «الحليم» كان حليمًا، أو على الاسم «الغفور» كان غفورًا، أو على الاسم «الرحيم» كان رحيمًا وهكذا، فلا ترجع روح الولي من ذلك الإسراء إلا وقد تخلقت بما قُسِمَ لها من الأخلاق الحسنة، فيتعجب الناس من مثل ذلك، لسرعة رقيه إلى المراتب العالية في ليلة، كأن يكون عهدهم به بخيلًا، فيصبح من أكرم الناس، أو راغبًا في الدنيا [فيصبح][1] من أزهد الناس، أو جاهلاً فيصبح من أعلم الناس وهكذا. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٤) ومما أجبتُ به عن الأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين في اختلافهم في الأحكام التي فهموها من الكتاب والسنة، وذلك بتوجيه كلام كلِّ واحد منهم، ورد كلامه إلى الكتاب والسنة، وبيان أنهم لم يخرجوا عن الشريعة في شيء، وأن الشريعة تشملهم وتعمهم، والكلام على ذلك يستدعي مجلدات، ولكن ندلك يا أخي [على][2] نبذة صالحة في الطهارة وآلاتها، والصلاة ومتعلقاتها، غير مستوعبين لمسائل الخلاف كلِّها، لتقيس على ذلك غيره، فأقول وبالله التوفيق:

وجه من قال: «**إن الطهارة لا تصح بالماء المستعمل في فرض الطهارة**»: أن الخطايا خرت فيه كما وردت به الأحاديث[3]، وما خرت فيه الخطايا فهو مستقذر حسًّا وشرعًا، فلا ينبغي لمؤمن أن يتطهر به، لأن من شأن مقام الطهارة أنها تزيد الجسد نظافة وتقديسًا، والطهارةُ من غسالة الخطايا تزيد الجسد تقذيرًا، فلو كُشف للعبد، لرأى الماء المستعمل في الميضأة التي يردُّها الناس كالذي وقع فيه جملة من الحيوانات الميتة

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٣) منها ما أخرجه مسلم (٢٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء -، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء -، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقيا من الذنوب» والترمذي (٢).

كالكلاب والحمير وسائر الحيوانات علىٰ اختلاف طبقاتها، إذ هي مثال للمعاصي التي خرت في الماء من زنا ولواط وشرب خمر، وغيبة ونميمة ومواقعة في الناس، ونحو ذلك من كبائر وصغائر ومكروهات.

فرحم الله الإمام أبا حنيفة ﷺ حيثُ جعل غسالة الطهارة فيها ثلاثة أقوال، كلُّ قول منها مثال لذنب، **فأحد الأقوال** أنها كالنجاسة المغلظة، وهو مثال لغسالة الكبائر؛ **ثانيها:** أنه كالنجاسة المتوسطة، وهو مثال للصغائر؛ **ثالثها:** أنه كالنجاسة المخففة، وهو مثال للمكروهات. ومعلوم أن خطايا المكلَّف لا تخرج عن هذه الثلاثة، **فوجه كونها كالنجاسة المغلظة** الأخذ بالاحتياط، فيجعل غسالة ذلك المتوضيء كأنها كبائر. [**ووجه كونها كالنجاسة المتوسطة** كون الغالب علىٰ الناس الوقوع في الصغائر دون الكبائر][1]. **ووجه كونها كالنجاسة المخففة** حمل ذلك المتطهر علىٰ أنه ارتكب المكروه إحسانًا للظن به دون الكبائر والصغائر. **ووجه كونها طاهرة في نفسها غير مطهِرة لغيرها** -كما قال به الإمام الشافعي- حمل ذلك المتطهر علىٰ أنه ارتكب خلاف الأولىٰ فقط، ومثل ذلك لا تكون غسالته نجاسة مخففة فضلًا عن المتوسطة والمغلظة.

فعُلِمَ أن الأئمة ما بين مبالغ في الاحتياط، وما بين متوسط، وما بين مخفف. ويؤيد هذا التقسيم المذكور في الغسالة قولُه ﷺ لعائشة لما قالت لرسول الله ﷺ: «حسبك من صفية -يعني قصيرة- فقال: لقد قلتِ كلمة لو مزجت بماء البحر لَمَزَجَتْهُ»[2] أي لو قُدِّرَت جسمًا وطُرِحت في البحر، لغيرته كلَّه وانتنته، فإذا كان مثل هذه الكلمة تغير ماء البحر هذا التغير العظيم، فكيف بالذنوب العظيمة إذا خرجت في ميضأة صغيرة أو كبيرة عرفًا؟!

فرحم الله مقلدي الإمام أبي حنيفة حيثُ لم يتطهروا من الفساقي التي تردُّها الناس في المساجد، وجعلوا الطهارة بما لم يُستعمل كماء الآبار، أو ما يصبُّ في الحوض المغطَّىٰ ويخرج الماء منه من خرق صغير، فإن ذلك في غاية النظافة والحياة

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) والترمذي (٢٥٠٢) وأحمد (٢٥٥٦٠).

لأعضاء الطهارة، لاسيما أعضاء أمثالنا الذين أشرفت أعضاؤهم علىٰ الموت من كثرة المخالفات، فهيهات أن ينعشها الماء الذي لم يُستعمَل! وبالجملة فما فعلوه أولىٰ بكل حال، فإنه إن كان هناك ضعف للجسد، قوي وانتعش، وإن لم يكن ضعف، ازداد حسنًا ووضاءة.

وقد كان سيدي علي الخواص لا يتوضأ من فساقي المساجد أبدًا، مع كونه كان شافعيًّا، ويقول: إنها قد تقذرت من الخطايا. وسمعتُه يقول: كان الإمام أبو حنيفة من أهل الكشف، فكان يرىٰ غسالة الخطايا ويميز بعضها عن بعض، ويميز غسالة المكروه عن خلاف الأولىٰ، وغسالة خلاف الأولىٰ عن الأولىٰ. انتهىٰ. هكذا فلتعرف منازع أقوال الأئمة الذين جعلهم الله تعالىٰ قدوة للعباد. انتهىٰ. فقلتُ له: فما الحكم في الماء الذي توضأ منه صبي أو من أسلم قبل الوضوء ولم يذنب؟ فقال: هو مستعمل، وحكمه أنه طاهر في نفسه غير مطهر لغيره، وإن رأىٰ صاحب الكشف فيه تقذيرًا فهو من حيثُ ذنوبُ الأرواح، فإنها مكلَّفة من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] بتكليف خاص لا يعرفه إلا أهل الكشف.

[وجه من جوَّز الطهارة بالماء المستعمل]

فقلتُ له يومًا: فما وجه من جوَّز الطهارة بالماء المستعمل؟ فقال: وجهه أن تقذير الماء بالخطايا المعنوية أمر غير مشهود لعامة المؤمنين، ولا يعرف ذلك إلا أهل الكشف، فمن كُشِف له عن تقذير الماء بالخطايا، امتنع من الطهارة به، ومن لم يُكشَف له فهو عنده نظيف، فله التطهر به، ويؤيد ذلك حديث: «خلق الله الماء طهورًا»[1] أي يُتَطَهر به المرة بعد المرة عند من يرىٰ جواز الطهارة به. وكان سيدي عليًّا الخواص يقول: مادام الماء ينبت الزرع، فالطهارة به صحيحة. انتهىٰ، ويصح تنزيله علىٰ كلام أهل الظاهر.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وأشار إلىٰ حديث أبي سعيد الخدري الذي أخرجه أبو داود (٦٦) «الماء طهور لا ينجسه شيء» والترمذي (٦٦) وابن ماجه (٥٢٠).

[وجه من جوَّز إزالة النجاسة بالمائعات من غير الماء]

وأما وجه من جوَّز إزالة النجاسة بالمائعات[1] فهو بالقياس علىٰ طهارة النعل المتنجس بانسحاق النجاسة بالتراب أو الرمل أو الحجر ونحو ذلك، كما ورد أن النعل المتنجس يطهره ما بعده من التراب الذي يمشي عليه[2].

[وجه من منع الوضوء والغسل من الماء المعتصَر من الأشجار ونحوها]

وأما وجه من منع الوضوء والغسل وإزالة النجاسة بالماء المعتصَر من الأشجار والنبات وإن كان أصله مستفادًا من الماء الطهور فهو لكون الطهارة ما شُرِعت إلا لإنعاش[3] الأعضاء مما حصل لها من المعاصي والغفلات من الموت أو الضعف أو الفتور، ليقوم العبد إلىٰ مناجاة ربه ببدن حي، ومعلوم أن الماء المعتصَر من الأشجار والنبات ضعيف الروحانية، فإن الروحانية التي كانت فيه قد انتقلت إلىٰ الحَبِّ والنواة والأغصان والورق، حتىٰ امتدت وكبرت واخضرت، فلذلك ضعفت روحانية ذلك الماء المعتصَر، وصار لا ينعش بدنًا. ومن شك في قولي، فليجرب من غير أن يصلي به شيئًا.

وكذلك القول في الماء المستعمل كماء الفساقي مع ماء النهر أو البئر ونحوهما، فإن المتطهر يحس بانتعاش بدنه بالماء الذي لم يُستعمَل أكثر من انتعاشه بغيره، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

[وجه من منع صحة الطهارة بالماء الذي لم يُذكَر اسم الله عليه]

وأما وجه من منع صحة الطهارة بالماء الذي لم يُذكَر اسم الله عليه فهو لأن كلَّ ما لا يُذكَر اسم الله عليه، فهو كالميتة وليس فيه بركة. وأما من حمل قوله ﷺ: «لا وضوء لمن

---

(١) هو مذهب أبي حنيفة في رواية عنه، وإليه ذهب أحمد بن حنبل.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٨٥) من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وطيء أحدكم بنعله الأذىٰ، فإن التراب له طهور» وابن حبان (١٤٠٤)، والحاكم (٥٩١).

(٣) بالأصلين: لإنعكاس. والصواب ما أثبتناه.

لم يذكر اسم الله عليه»[1] علىٰ الكمال فوجهه واضح، كحديث: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[2]، وحديث: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[3] فأصل الترتيب سنة ثابتة، ونهض به إلىٰ الوجوب الاجتهاد، فالأئمة بين مخفِّف ومشدِّد في ذلك.

وأما وجه من أوجب الترتيب والمضمضة والاستنشاق في الوضوء أو الغسل لا بحدث الأكبر فهو أن الوضوء الذي لم يُرتَّب لم يُنقَل إلينا فعله عن رسول الله ﷺ، وقد قال في الحديث الصحيح: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[4].

وأما وجه من لم يوجب الترتيب فهو أن المقصود كون المصلي لا يقوم للصلاة مثلًا إلا بعد كمال طهارة تلك الأعضاء، سواء أتقدم هذا أم تأخر، [وكان عليٌّ رضي الله عنه يقول: لا أبالي بأي أعضاء الوضوء بدأت][5].

وأما وجه وجوب المضمضة والاستنشاق فلأن معاصي الفم واللسان أكثر من معاصي غيرهما، لحديث معاذ: «وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» والآيات والأخبار في إثم أكل الحرام كثيرة في الكتاب والسنة. وأما معاصي الأنف فأظهرها شم ما لا يجوز للعبد شمه، وكونه محلًا يظهر منه الأنفة والكبر، فالترتيب ثابت بالسنة أولًا، ثم نهض به إلىٰ الوجوب الاجتهاد، وكذلك المضمضة والاستنشاق.

وأما وجه من أوجب غسل الأذنين، فلكونهما طريقًا إلىٰ وصول سوء الظن بالناس، من حيثُ ما يسمعانه من نقائص الناس، فكانت معصيتهما ذلك. ولما نظر الشارع إلىٰ طريق كونهما طريقًا لما ذكرنا، فقد خفف عن أمته بمسحهما.

وأما وجه من أوجب الموالاة من حيثُ الاعتبارُ والحكمةُ فهو أن الطهارة إنما شُرِعت

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (١٠١) والترمذي (٢٥) والنسائي (١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٥) ساقط من «أ».

لإنعاش البدن الذي مات أو ضعُف أو فتر -كما ذكرنا آنفًا- من المعاصي أو الشهوات أو الغفلات، فلو لم تجب الموالاة، لأدّىٰ ذلك إلىٰ زيادة البطء في زمن الطهارة، كأن يغسل المكلَّف وجهه بعد الصبح، ثم يغسل يديه قبل الزوال، أو قبيل خروج وقت الظهر، مع وقوعه في الغيبة والنميمة والاستهزاء بالناس والسخرية بهم، وكثرة الضحك وكثرة أكل الشهوات، وطول زمن الغفلات، فمثل هذا الوضوء وإن كان صحيحًا في ظاهر الشرع من حيثُ إنه صدق عليه أنه وضوء كامل، فكأن صاحبه لم يتوضأ، لموت الأعضاء أو ضعفها أو فتورها بما وقع فيه من المحرمات والمكروهات فيما بين غسل تلك الأعضاء من ابتداء الوضوء إلىٰ انتهائه، فذهب بذلك حكمة الوضوء من إنعاشه البدن قبل الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فالمولاة من أصلها سنة، ونهض بها إلىٰ الوجوب الاجتهاد.

وأما وجه من قال: «إن النية لا تجب في الوضوء والغسل عن الجنابة والحدث، وتجب في التيمم» فهو لكون الماء له قوة، فيحيي بطبعه الجسد، وإن لم يكن بنية، بخلاف التراب، فإنه ضعيف الروحانية، فاحتاج إلىٰ نية تقوية للهمة، [والهمة][1] من شأنها أن تؤثر فيما قابلها.

وعمدة من لم يوجب النية في الوضوء والغسل قول ابن عباس ﷺ: «لا يحتاج شيء من فروع الإسلام إلىٰ نية بعد أن اختار صاحبه الدخول في الإسلام» ذكره الجلال السيوطي في جامعه الكبير. وقد علل ذلك الحنفية بأنه وسيلة، والنية لا تجب في الوسائل، وإنما تجب في المقاصد، ومن أوجب ذلك جعل الوضوء من المقاصد.

وأما وجه من قال: «ينقض النوم ولو كان صاحبه متمكنًا» فهو لأن النوم أمر برزخي، فكأنه كالحياة من وجه، وكالموت من وجه، كالجنس المشترك، فلا هو هو في محل التكليف الخالص، ولا في حضرة الله الخالصة، فكان نقض الوضوء به من باب الاحتياط.

وأما وجه من قال: «لا ينقض نوم الممكن مقعده [من مقره][2]» فهو لكون الجالس

(١) ساقط من «أ».

(٢) زيادة من «أ».

يكاد [يكون][١] مستيقظًا، لتعلق روحه بالملأ الأعلىٰ، فهو رخصة، بخلاف المضطجع أو من كان هزيلًا، فربما خرج منه شيء لا يحس به، بدليل ما ورد أن الصحابة كانوا ينامون جلوسًا ويصلون ولا يجددون طهارة[٢].

وأما وجه من قال: «لا ينقض مس الفرج قبلًا كان أو دبرًا» فهو لأن الناقض حقيقة ليس هو الفرْج، وإنما الذي يخرج من الفرْج، وذلك لأن من لازم الأكل والشرب الغفلة بلذته عن الله تعالىٰ، فلذلك لو قُدِّر أن ذلك المتوضيء لم يعص ولم يغفل عن الله، فالبدن تضعف رُوْحَانيته بعدم الموالاة، فيصير كالأرض العطشىٰ، فأمرنا الله تعالىٰ بالتنزه عما يخرج من فضلاته بالغسل للمحل والأعضاء التي يغلب عليها الوقوع في المعاصي الناشئة من الأكل والشرب، ولو أننا لم نأكل لكنا كالملائكة لا نبول ولا نتغوط ولا نشتهي النساء لا بمس ولا جماع، ولا كان لنا دم يجري، ولا قهقهنا، ولا كان لنا صُنَان[٣]، ولا حصل في بدننا جذام ولا برص، ولا استغبنا أحدًا ولا كفرنا، ولا غير ذلك من جميع ما ورد النقض به في الأخبار والآثار، فإنه ليس لنا ناقض إلا وهو متولد من الأكل، فعلم أن حديث: «من مس فرْجه فليتوضأ»[٤] خاص بالأكابر الذين يتنزهون من مس [مجاور الفضلات، وكذلك نضح السراويل خاص بأكابر الأكابر الذين يتنزهون من مجاور المجاور]، وأن حديث: «هل هو إلا بضعة منك»[٥] عند من لا يقول بنسخه خاص برعاع الناس من الفلاحين والترابيين ونحوهم، إذ النقض بالذكَر والفرْج إنما هو لكونه مجاورًا للخارج لا لذاته، كما بسطنا الكلام عليه في كتاب «الميزان».

---

(١) زيادة ضرورية لاستقامة السياق.

(٢) أخرج أبو داود (٢٠٠) عن أنس ﷺ قال: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْتَظِرُونَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ حَتَّىٰ تَخْفِقَ رُءُوسُهُمْ، ثُمَّ يُصَلُّونَ وَلَا يَتَوَضَّئُونَ»، وأصل الحديث عند مسلم (٣٧٦).

(٣) الصُّنان: رائحة الإبط الكريهة.

(٤) أخرجه أبو داود (١٨١) وابن ماجه (٤٨٢) والنسائي (٤٤٤).

(٥) جزء من حديث أخرجه أبو داود (١٨٢) والترمذي (٨٥) وابن ماجه (٤٨٣).

وأما وجه من نقض الوضوء بمس الذكر باليدين إلىٰ المرفقين ظهرًا وبطنًا، فلأن اليد في حديث: «إذا أفضىٰ أحدكم بيده إلىٰ فرجه»[1] يشمل ذلك كله، فهو أحوط ممن يخص النقض ببطن الكف فقط، عملًا بتخصيص الإفضاء بذلك في اللغة.

وأما وجه من قال: «لا ينقض لمس المرأة الأجنبية» فهو لكون اللمس والمس وردا في القرآن كنايةً عن الجماع، فجعل الباب واحدًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي تجامعوهن. وهذا خاص برعاع الناس. وأما الأكابر المتنزهون عن القرب مما نهاهم الله عنه، فينقضون بلمس المرأة بالبشرة وما أُلحِق بها.

وأما وجه من لم ينقض بلمس المحارم، فهو لكون علة النقض عنده إنما هو الالتذاذ والشهوة، وذلك بعيد وقوعه في المحارم مع بعضهم بعضًا.

وأما وجه من نقض بالمحارم فضلًا عن الأجانب، وبالصغيرة التي لا تُشتهىٰ عادة، فهو لكون النساء يُطلَقن علىٰ ذلك كلِّه، قال تعالىٰ في فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤] أي أطفالهم من الإناث حين يولدن، فكما أطلق الشرع عليهم النساء في هذه الآية، فكذلك القول في لمسهن، فالباب واحد حتىٰ يأتي نص يخرجه عن ذلك.

وأما وجه من قال: لا ينقض أكل لحم الجزور، فهو لأن النقض به ليس لذاته، وإنما هو لكون الشياطين يركبون الإبل، فهو خاص بالأصاغر. وأما غيرهم فأُمِرُوا بالتنزه عن كلِّ ما قرب من الشيطان، فهو خاص بالأكابر.

وأما وجه من جوَّز الاستمتاع بما بين السرة والركبة في الحائض ونحوها، فهو لأن الله ما حرَّم ذلك، وإنما حرَّم الوطء في الفرْج فقط، لما فيه من الأذىٰ الذي هو الدم المتولد منه الجذام عادة، بدليل قول الإمام أبي حنيفة بجواز وطء الحائض إذا انقطع دمها وغسلت فرْجها فقط، فإن وجوب تعميم البدن إنما هو زيادة تنزيه لمجاورته للفرْج وانتشار الدم بالعَرَق عادةً، أو الشك فيه، أو سريان الضعف في سائر الجسم كلِّه إذا خرج منه دم الحيض، نظير قوله: «فإنه لا يدري أين باتت يده». فعُلِمَ أن تحريم الاستمتاع بما

(١) أخرجه النسائي (٤٤٥)، وأبو داود (١٨١) والترمذي (٨٢).

زاد علىٰ الفرج تحريم حريم، ومن حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه، فيُحمَل تحريم الحريم علىٰ الشاب، وتحريم المقاصد علىٰ الشاب وغيره.

وأما وجه من قال: «**يصح التيمم بالحجر مع وجود التراب**» فهو لأن جميع ما علىٰ الأرض أصله من الماء، والطين، [فالطين] ما رست منه، والحجر ما تموج منه، ولذلك يقطر الحجر ماء إذا أُوقد عليه النار، فهو خاص بالأصاغر.

وأما وجه من قال: «**لا يصح بالحجر**» فلبعده عن طبع الماء وضعف روحانيته، فهو خاص بالأكابر.

وأما وجه من قال: «**يصلىٰ بتيممه ما شاء من الفرائض**» فلكونه بدلًا عن الماء عند بعضهم، والبدل له حكم المبدَل، وإن لم يكن هذا الحكم له من كلِّ وجه، لنقص أعضاء التيمم عن أعضاء الوضوء، وضعف روحانيته عن روحانية الماء.

وأما وجه من قال: «**لا يصلىٰ فيه إلا فريضة واحدة، وما شاء من النوافل**» فهو لكونه طهارة غريبة، وليس بدلًا عن الوضوء كما قاله بعضهم، إنما هو عبادة مستقلة أُمرنا به عند فقد الماء، أو المرض مثلًا، ولم يرد لنا أن أحدًا من الصحابة جمع به بين فريضتين، والأصل وجوب الطهارة لكلِّ فريضة. انتهىٰ توجيه بعض أقوال الأئمة في الطهارة.

[توجيه أقوال الأئمة في الصلاة]

وأما توجيه أقوال الأئمة في الصلاة فأقول، وبالله التوفيق:

وأما وجه من قال: «**يجب علىٰ المصلي استحضار جميع أفعال الصلاة وأقوالها وتشخيصها في ذهنه حال التكبير للإحرام**» فهو لكونه ماهية النية، فلا تصح النية إلا مع استحضار منويها، وهو خاص بالأكابر الذين انطوت أجسامهم في أرواحهم، فكان الحكم لأرواحهم، إذ الأجسام لكثافتها لا تقدر علىٰ تعقل شيء إلا بعد شيء، بخلاف الأرواح تدرك الأشياء دفعة واحدة، فلذلك كان من لم يوجب ذلك يخصه بالأصاغر الذين غلبت أجسامهم علىٰ أرواحهم، فهذا في حقِّ قوم، وذاك في حقِّ قوم، ولكن من دخل حضرة الله بالروح فهو المصلي حقيقة، وغيره إنما هو متشبه بالمصلين.

وأما وجه من أمر المصلي بالاستعاذة من الشيطان في قراءة كلِّ ركعة، فهو لكون غالب الناس عزمه ضعيف، فلا يقدِر علىٰ أن يدفع الشيطان عن القرب منه بالاستعاذة الأولىٰ، فلذلك أمر بالاستعاذة عند كلِّ قراءة، لمعاودة الشيطان له المرة بعد المرة، فهو خاص بالأصاغر.

وأما وجه من قال: «يستعيذ مرة واحدة» فهو لأن الشيطان إذا سمع الاستعاذة فرَّ من ذلك المصلي، فهو خاص بالأكابر.

فإن قال قائل: قد قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٨] ولا شك أن قراءة كلِّ ركعة قراءة جديدة، لتخلل الركوع والسجود والجلوس والقيام بين كلِّ قراءة؛ **فالجواب**: ذلك تشريع في حقِّ الضعفاء من الأمة، بخلاف الأقوياء الذين يطردون إبليس عنهم بالاستعاذة في الركعة الأولىٰ، فلا يحتاجون الاستعاذة بعد ذلك إلىٰ فراغ الصلاة.

وأما وجه من أوجب البسملة في قراءة الفاتحة كلَّ ركعة، فهو الاتباع لرسول الله ﷺ، فإنه ﷺ كان يجهر بالبسملة تارةً، ويسر بها أخرىٰ، فمن سمعه قال بها. ومن لم يسمعه وقف عند ما سمع من البداءة بـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

وأما وجه ذلك من حيثُ الاعتبارُ والحكمةُ، فهو لأن اسم المخاطب لا ينبغي ذكره إلا في الغيبة عن مشاهدته، والصلاة كلها مشاهدة، فلا يحسن أن يُذكَر فيها اسم الله إلا إن صرح الشارع بالأمر بذلك، فمن شاهد الحقَّ تعالىٰ بقلبه، كفاه مناجاته له من غير ذكر اسمه، فلكلٍّ واحد من المجتهدين مشهد. وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: «يا عبدي، إذا لم ترني فالزم اسمي، فأنا ثَمَّ». انتهىٰ، فأمر الله تعالىٰ العبد إذا لم ير ربه أن يلزم ذكر اسمه. ومن هنا لغز بعض العارفين هذه المسألة في شعره:

بذكر الله تزداد الذنوب ... وتنطمس البصائر والقلوب

وأشار إلىٰ ذلك الشبليُّ أيضًا بقوله لمن قال له: متىٰ تستريح؟ فقال: إذا لم أر لله تعالىٰ ذاكرًا! فإن معنىٰ ذلك أني لا أستريح إلا في حضرة الشهود، فإن الذكر تارةً يتركه الفقير لما يجده من الشهود، وتارةً يتركه لما يجده من الحجاب، فيُحْمَل كلام الشِّبليِّ

علىٰ الحال الأول، لأنه هو اللائق بحاله، فكأنه قال: لا أستريح إلا إن دخلتُ حضرة الله تعالىٰ وشهدتُه تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول مرارًا: حضرة الله حضرة خرس وبهت لا كلام فيها إلا بما أُمر به العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وأما وجه من قال: «يرخي يديه بجنبه حال القيام» فهو لأن النفس من شأنها أنها لا تقدر علىٰ مراعاة شيئين معًا في آن واحد، فإن العبد إن راعىٰ يديه وحفظهما عن أن ينزلا عن مكانهما تحت الصدر، غفل عن مشاهدة ربه في مناجاته. وإن راعىٰ مشاهدة الحقِّ تعالىٰ، غفل عن مراعاة يديه، فيُحْمَل قول من قال: «إنه يضعهما تحت صدره» علىٰ حال الأكابر، ومن قال: «يرخيهما بجنبيه» علىٰ حال الأصاغر. وإذا تعارض عندنا أمران راعينا الأفضل منهما، ولا شك أن اشتغال المصلي بمراعاة شهود الحقِّ لا ينفك عنه أفضل من مراعاة محل وضع اليدين، لأن مشاهدة الحقِّ تعالىٰ هي روح الصلاة. وأما الأقوال والأفعال فهي كالجسم لها، فمن حصل الروح فقد حصل علىٰ الحقيقة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يؤمر بوضع اليدين تحت الصدر ومراعاتهما من غير انفكاك اليدين عن إحديهما إلا الأكابر من الأولياء، أما غيرهم فلا يقدِر علىٰ مراعاة ذلك، بل دخلت عليه مراعاة الإقبال علىٰ الله وعدم الالتفات إلىٰ غيره. وربما وضع المصلي يديه تحت الصدر، وغفل عنهما بمناجاة ربه، فتكون[1] تحت السرة، كما وقع ذلك لكثير من الصحابة والتابعين، فمن شهد الحال الأول قال به، ومن شهد الحال الثاني قال به، واتباع ما صح في الحديث أولىٰ.

وبهذا حصل الجمع بين قولي الإمام مالك وتلميذه الإمام الشافعي رضي الله عنهما، فكلام الإمام مالك في حقِّ الأصاغر، وكلام الإمام الشافعي في حقِّ الأكابر. وقد أمَّن الشارع ﷺ الأئمة علىٰ شريعته وعلىٰ أمته، فلا يخالفها مجتهد إلا بدليل آخر أقوىٰ من الأول

(١) بالأصلين: فهو لا.

أو أظهر، فما خرج أحد من الأئمة عن الشريعة أبدًا، وكلٌّ قول له منزع، فافهم.

وأما وجه من قال: «لا تصح الصلاة إلا بفاتحة الكتاب»[١] دون غيرها من القرآن والأذكار فوجهه ظاهر في السنة. وأظهر دليل في وجوب الفاتحة حديث مسلم وغيره: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، يقول العبد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فأقول: ذكرني عبدي، فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأقول: حمدني عبدي، فيقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فأقول: أثنىٰ عليَّ عبدي، فيقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فأقول: مجدني عبدي... إلىٰ آخره»[٢] فإنه فسَّر فيه الصلاة بقراءة الفاتحة، وجعلها جزءًا من الصلاة.

وأما وجه [من يجيز][٣] **للمصلي أن يقرأ ما تيسر من القرآن**، فهو أن القرآن صفة من صفات الحقِّ جلَّ وعلا، وصفاته كلُّها متساوية لا تقبل التفاضل. فإن أوردوا عليه حديث: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[٤]، قال: المراد لا صلاة كاملة، نظير «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[٥].

فإن قال قائل: إن نفي الكمال مبني علىٰ التفاضل، وأنتم قلتم: إن القرآن من حيثُ هو قرآنٌ لا يقبل التفاضل؛ **فالجواب**: وهو كذلك، والتفاضل إنما هو من حيثُ القاريءُ والقراءةُ لا المقروء.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة خاص بالكُمَّل الذين يشهدون معاني القرآن كلَّها في الفاتحة، فإن الله كلَّفهم كلَّما صلُّوا أن يحيطوا بمعاني القرآن كلِّه في صلاتهم. وعدم وجوب الفاتحة خاص بالأصاغر الذين لا يقدرون علىٰ استخراج جميع القرآن من الفاتحة، لأن القرآن جمع للقلب علىٰ الله

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥) وأبو داود (٨٢١).

(٣) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

تعالىٰ، فكلُّ آية قرأها العبد، جمعت قلبه علىٰ الله تعالىٰ من حيثُ إن القرآن صفة من صفات الله تعالىٰ، والصفة لا تفارق الموصوف، وبجمعه علىٰ الله تعالىٰ يحصل مقصود الصلاة الذي هو الحضور مع الله تعالىٰ، وكذلك القول فيمن أجاز الصلاة بذكر اسم الله تعالىٰ هو في حقِّ من جمعه الاسم علىٰ الله تعالىٰ، هذا كلُّه من حيثُ الاعتبارُ لا من حيثُ الأدلةُ الشرعيةُ، فافهم.

وأما وجه من أمر المصلي بمراعاة الإدغام والإقلاب والإخفاء وغير ذلك من الأداءات المعروفة بين العلماء، فهو من باب: «حسِّنوا القرآن بأصواتكم»[1] أي حسنوا ألفاظه بأصواتكم، إذ المراد بالقرآن هنا القراءة لا المقروء؛ لأن المقروء من صفات الله، وصفات الله تعالىٰ في غاية الحسن، فلا تقبل التحسين. ثم إن ذلك خاص بالأكابر الذين لا يشغلهم مراعاة الأنغام والإظهار والإدغام مثلًا عن مشاهدة الحقِّ جلَّ وعلا في الصلاة، كما أن الأمر بالقراءة ساذجًا في حقِّ الأصاغر الذين يشغلهم مراعاة الأنغام عن كمال الإقبال علىٰ الله في الصلاة. وهو حال أكثر الناس سلفًا وخلفًا.

وأما وجه من قال: «إن طول القيام في القراءة أفضل من طول الركوع والسجود» فهو في حقِّ الأصاغر الذين لا يقدرون علىٰ طول المكث بين يدي الله تعالىٰ في محل القرب الذي هو حال الركوع والسجود، بخلاف الأكابر الذين يقدرون علىٰ طول المكث بين يدي الله تعالىٰ، فإن قصر القيام وطول الركوع والسجود بطريقه الشرعيِّ أفضل، ليصير له وقت يدعو فيه لنفسه ولإخوانه، ويشفع فيهم عند ربه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: من رحمة الله تعالىٰ بعبده المؤمن خطور الأكوان علىٰ قلبه وهو بين يدي ربِّه في ركوع أو سجود، وذلك لأن اشتغاله بالأكوان فيه رائحة حجاب عن شهود تلك العظمة التي تجلَّت له، ولو لا ذلك لذاب عظمه أو تفصلت مفاصله، كما يشهد لذلك ما جاء في بعض طرق حديث الإسراء من أنه ﷺ [لما] دخل حضرة «قاب قوسين» استوحش وارتعد، لعدم مشاهدة جنسه هناك، فسمع صوتًا يشبه

(١) جزء من حديث أخرجه الدارمي (٣٥٤٤) وأبو داود (٦٦٤) والنسائي (١٠١٥).

صوت أبي بكر يقول: «يا محمد، قف إن ربك يصلي» الحديث[1]، فكان في ذلك رحمة به ﷺ، مع أنه أشد الناس تحملًا للشدائد، وأقواهم علىٰ شهود عظمة الله عزَّ وجلَّ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إذا سمعتَ عن أحد من الأكابر أنه طوَّل القيام، فذلك إنما هو تشريع لأصحابه، لما في القيام من رائحة البعد عن حضرة الله بالنسبة للركوع والسجود، وإلا فاعتقادنا في أكابر الصحابة والتابعين أن مقام أحدهم فوق مقام كلِّ عارف من الأولياء، فلا يُقال طول القيام دائمًا أفضل، ولا طول الركوع والسجود دائمًا أفضل، إنما الحق ما ذكرناه من التفصيل.

وأما وجه من أبطل الصلاة بتطويل الاعتدال عن الركوع والسجود الأول أو بترك الطمأنينة في الركوع والسجود، ووجه من لم يبطلها بذلك، فهو أن الاعتدال ما شرع إلا تنفيسًا للمصلىٰ من مشقة ثقل الركوع والسجود، فمن الأئمة من بالغ في الرحمة بالأكابر[2]، فأمرهم بعدم تطويل الاعتدال لما فيه من الحجاب، ومنهم من أمر الأمة بتطويله ليستريحوا بذلك من ثقل العظمة التي تجلت لهم في ركوعهم وسجودهم، ولولا ذلك التطويل لما استطاع أحدهم أن ينزل للسجود لشدَّة توالي العظمة عليه، فرجع الأمر إلىٰ حالين للأصاغر والأكابر، فمن قال: لا يطول الاعتدال، أراد حال الأكابر، ومن قال: يطوله، أراد حال الأصاغر. فالأكابر يقدرون علىٰ توالي العظمة علىٰ قلوبهم، والأصاغر لا يقدرون، فإن نظر الأكابر إلىٰ الحجاب إذا رفعوا من الركوع والسجدة الأولىٰ، صاحوا. وإن نظر الأصاغر إلىٰ توالي عظمة الركوع والسجود علىٰ قلوبهم، صاحوا، فكان في الاعتدال رحمة للأصاغر من حيثُ ميلُهم للحجاب، وكان فيه عذاب علىٰ الأكابر من حيثُ ردُّهم للحجاب، وكان في السجود رحمة بالأكابر من حيثُ ميلُهم لرفع الحجاب، وكان في السجود عذاب علىٰ الأصاغر من حيثُ عجزُهم عن تحمل توالي العظمة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: طول الاعتدال، وطول الطمأنينة في

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١١٩)، والسيوطي في اللآليء المصنوعة (١/ ٢٦).

(٢) بالأصلين: الأمة. والمثبت من «الميزان» وهو الأنسب للسياق.

الركوع، وطول الجلسة بين السجدتين خاص بالأصاغر، فإن أحدهم لما كان قائمًا يقرأ فتجلت له عظمة الله تعالىٰ، خضع له فركع، فرحمه الله بطول الطمأنينة، ليستريح بها إن كان غافلًا عن كمال التعظيم، ويمتعه بها إن كان حاضرًا، ليحصل له الإدمان علىٰ تحمل عظمة السجود الذي هو أقرب ما يكون العبد فيه من ربه، كما ورد[1]. وربما لم يقدر العبد علىٰ كمال الطمأنينة في الركوع، لعظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة ربه، فرجع إلىٰ الاعتدال بسرعة من غير تطويل.

وكذلك القول في السجود، بل هو أولىٰ بعدم قدرة العبد علىٰ تطويله أو تطويل الجلوس بين السجدتين، فتراه يقصر الطمأنينة في السجود، ويطيل الجلوس بين السجدتين ليستريح، فيطلب الرفع من السجدة الأولىٰ إلىٰ الجلوس بسرعة، فربما طوَّل السجود أو قصَّر الجلوس، فكاد يهلك؛ لأن السجود أقرب حضرة يدخلها المصلي في صلاته. وربما حكمت عليه الهيبة من الله تعالىٰ، فارتعد وكاد لحمه وعظمه يذوب، فكان إسراعه بالرفع من السجود إلىٰ الجلوس بين السجدتين وإلىٰ جلسة الاستراحة من جملة رحمة الله تعالىٰ وتنفيسه عن العبد. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﷀ يقول: وجه من قال بالمبالغة في تطويل الاعتدال عن الركوع والسجود الرحمةُ بالضعفاء الذين لا يقدرون علىٰ طول الخضوع في الركوع والسجود، لما يتجلىٰ لهم من العظمة والهيبة، وقصره خاص بالأقوياء، فيكفيهم أدنىٰ اعتدال يتنفسون به من مشقة ما تجلَّىٰ لقلوبهم من عظمة ربهم. فما نُقِل عن الإمام أبي حنيفة من تخفيف الاعتدال خاص بالأكابر، وما نُقِلَ عن الإمام الشافعي من تطويله بقدر الذكر الوارد فيه خاص بالمتوسطين، وما نُقِلَ من تطويله كغيره من الأركان خاص بالضعفاء العاجزين.

وقد كان ﷺ يطول الاعتدال تارةً بقدر الذكر الوارد فيه، وتارة يخففه جدًّا، وتارة

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥).

يطوِّله حتىٰ يقول الصحابة: «لعله نسي»[١] كلُّ ذلك ليقتدي به الأقوياء والضعفاء والمتوسطون. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس بين السجدتين كأنه جالس علىٰ الرَّضْف[٢] -يعني الحجارة المحماة- وذلك لطلب رجوعه إلىٰ السجود بسرعة، إما لمحبته للسجود لما فيه من القرب، وإما لثقل الجلوس عليه من جهة الحجاب حقيقةً، أو تشريعًا لأمته الأقوياء وهو الظاهر، لأنه ﷺ أقوىٰ الخلق عزمًا، وأكثرهم حضورًا مع الله عزَّ وجلَّ، فإنه أبو الحضرة، وابن الحضرة، وأخو الحضرة، فلا أحد من البشر أكثر جلوسًا فيها منه، وإنما كان يخفف الصلاة رحمة بأمته، كما ورد أنه ﷺ كان يطوِّل الأولىٰ علىٰ الثانية، وكانت صلاته بعد إلىٰ التخفيف أقرب. انتهىٰ. وذلك لأن غالب الناس لا يقدر علىٰ طول الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ مع الهيبة والتعظيم، بل تزهق روحه ويخرج من الحضرة قهرًا عليه. وإن وقف غافلًا عن مشاهدة الحقِّ تعالىٰ، فصلاته إلىٰ الإثم أقرب، فكان التخفيف أولىٰ بكلِّ حال، ولذلك ورد الأمر بالتخفيف، وقال ﷺ للإمام: «فإذا صلَّىٰ أحدكم لنفسه، فليطول ما شاء»[٣] -يعني بقدر طاقته- بخلاف جماعة المأمومين، فإنهم لا ينضبطون[٤] علىٰ حال واحد.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما اشترط بعض الأئمة كمال الاعتدال عن الركوع والسجود رحمةً بالضعفاء من الأمة الذين لا يقدرون علىٰ توالي شهود عظمة الله عزَّ وجلَّ في حال ركوعهم وسجودهم، فلو أراد أحدهم أن ينزل إلىٰ السجود من غير اعتدال، أو يعود إلىٰ السجود ثانيًا بعد رفع قليل، لربما زهقت روحه وخرجت عن حضرة الله الخاصة قهرًا عليها، فلذلك شرع لنا الشارع ﷺ الاعتدال لنستريح فيه من ثقل تلك

---

(١) أخرجه البخاري (٨٢١) ومسلم (٤٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٩٩٥)، والترمذي (٣٦٦) والنسائي (١١٧٦).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري(٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

(٤) بالأصلين: لا ينضبطوا. والمثبت الأصوب نحويًا.

العظمة التي لا تطيقها مفاصلنا[1]، وبالغ في الأمر بالاعتدال رحمة بأمته، حتىٰ قال: «لا صلاة لمن لم يقم فيها صلبه»[2]، وفي رواية: «لا ينظر الله تعالىٰ إلىٰ صلاة من لم يقم صلبه في الصلاة»[3] أي لا صلاة كاملة أو لا صلاة أصلاً. أما وجه لا صلاة كاملة، فهو لأن عجزه عن تحمل تلك العظمة يشغله عن كمال مقام إقباله علىٰ الله تعالىٰ، لما يجده من الألم حتىٰ يكاد يخرج من حضرة الله تعالىٰ، ففات هذا كمال الصلاة. وأما وجه لا صلاة أصلًا، فهو لكون روحه خرجت من حضرة الشهود بالكلية من شدة عجزه وضعفه. انتهىٰ.

فعُلِمَ من جميع ما قررناه أن أصل الاعتدال مأمور به جزمًا لابد منه لكلِّ مصل من الأكابر والأصاغر، وإنما الخلاف في تخفيفه وتطويله، فالقوي يقدر علىٰ النزول إلىٰ السجود والرجوع إليه مع أدنىٰ رفع، والضعيف لا يقدر علىٰ ذلك، بل لابد من التطويل ليستريح كما مرَّ تقريرُه، فإن العبد كلما ضعف خُوطِب بتطويل الاعتدال، وكلما قوي طُولِب بتطويل السجود والركوع. وإيضاح ذلك أن من وصل إلىٰ محل القرب من الركوع والسجود الذين هما محل القرب الأعظم من الحقِّ جلَّ وعلا، فلا يؤمر بالرجوع إلىٰ محلِّ الحجاب إلا لحكمة. ومن هنا ضعف العبد عن تحمل طول شهود عظمة الله عزَّ وجلَّ، فافهم.

فإن قيل: فلم ثنىٰ السجود دون الركوع؟ **فالجواب:** إنما ثنىٰ لأن السجدة الأولىٰ امتثال للأمر عكس ما وقع لإبليس، والثانية كالشكر لله علىٰ حصول امتثال الأمر؛ فتأمل ذلك فإنه نفيس لا تكاد تجده في كتاب.

وأما وجه مشروعية جلسة الاستراحة[4]، فهو رحمة بالضعفاء من الأمة، كلٌّ واحد علىٰ

---

(١) بالأصلين: تفصل مفاصلهن. والصواب ما أثبتناه وهو موافق لمعنىٰ ما في «الميزان» للمؤلف.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٨٧١) والبيهقي في السنن (٥٢١٣) وأحمد (١٦٢٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٨٢٦١) بنحوه.

(٤) هي جلسة خفيفة بين كل ركعتين ليس بينهما تشهد، كالركعة الأولىٰ والثانية، والثالثة والرابعة، فيجلس المصلي جلسة خفيفية بعد الرفع من السجود الثاني للركعة الأولىٰ، وكذا بعد الرفع من السجود الثاني للركعة

قدْر حظِّه ونصيبه من القوة والضعف، وذلك لأن العظمة التي تجلت للمصلي في حال سجوده لا عظمة فوقها، لأنها حضرة تقرب من حضرة قاب قوسين أو أدنىٰ، كما أشار إلىٰ ذلك حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1]، فلو أن المصلي المستحضِر لعظمة الله عزَّ وجلَّ، طلب النهوض من السجود إلىٰ القيام من غير جلسة الاستراحة لما قدِرَ، وكان كالتكليف بما لا يطاق، فلذلك شُرعَت جلسة الاستراحة رحمة بالعباد.

ومن شك في قولي هذا ممن صلاته صورية لا حقيقية، فليلزم نفسه في حال سجوده ويجمع حواسه كلَّها بين يدي ربه، بحيث لا يصير في ذهنه شهود لشيء من الكون إلا الله وحده وذلك الأمر الذي يدعو ربه لأجله لا غير، فإنه لو أراد أن يقوم من السجود إلىٰ القيام لا يقدِر.

وتقدم أن خطور الأكوان علىٰ قلوب الضعفاء حال سجودهم من جملة رحمة الله بهم، ولولا ذلك لتقطعت مفاصلهم وماتوا عن آخرهم، فإن كلَّ من تجلىٰ له من عظمة الله تعالىٰ ما فوق طاقته صُعِق، كما وقع للسيد موسىٰ عليه الصلاة والسلام، فإذا كان من تجلَّىٰ له الحقُّ تعالىٰ بما فوق طاقته من أولي العزم يُصْعَق، فكيف بأمثالنا؟! وقد بسطنا الكلام علىٰ أسرار الصلاة في كتاب مستقل فراجعه.

وأما وجه من لم يوجب الصلاة علىٰ النبي ﷺ في التشهد الأول وأوجبها في الأخير، فهو لأن التشهد الأول ليس هو بآخر صلاة، وإنما يشبه آخر الصلاة الثنائية فقط، فلذلك سُنَّت فيه الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ ولم تجب، لأن سلطان الحضرة بالأصالة إنما هو للحضور مع الله تعالىٰ ومناجاته دون غيره، ولكن لما رأىٰ الأئمة أنه لا يصح لأحد من الأمة أن يسلك طريق الدخول إلىٰ حضرة الله تعالىٰ من غير أن يكون قدم نبيه ﷺ أمامه، استحب بعضهم الصلاة عليه وبعضهم أوجبها، فالاستحباب للأصاغر والوجوب للأكابر الذين يقدرون علىٰ مشاهد الحقِّ تعالىٰ من الخلق، كما مر إيضاحه في الجواب

الثالثة. وهي مستحبة عند الشافعية.

(١) سبق تخريجه.

عن قول القاضي عياض «وشذ الإمام الشافعي فقال: بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ»[1] في الباب الرابع، فراجعه.

[**وأما وجه من قال بوجوب تقديم التحيات والشهادتين علىٰ الصلاة علىٰ النبي** ﷺ فهو من حيثُ إن خطاب الملك فيما يخصُّه مقدَّم علىٰ ما يخص غيره. وأما تقديم الشهادتين، فلكونهما من الإيمان، فلذلك قُدِّما علىٰ الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ وإن كان هو الواسطة العظمىٰ لنا، وأعظم المخلوقين مقامًا. ومن حقق النظر وجد رسول الله ﷺ يحب ذلك لكونه من جملة الأدب مع ربه عزَّ وجلَّ][2].

وأما وجه من قال: «تجب نية الخروج من الصلاة» فهو لأن المصلي كان في حضرة الله الخاصة، ومن الأدب إذا أراد الإنسان فراق كبير أو أحدًا من إخوانه أن يستأذن في المفارقة إلىٰ موضع آخر دون تلك الحضرة، تعظيمًا لذلك الكبير، واستمالة لقلب إخوانه، فالله تعالىٰ أحقُّ بذلك. وتأمل يا أخي إذا قام جليسك من مجلسك من غير استئذان كيف تجد في نفسك منه وحشة، لإخلاله بالتعظيم والأدب، عكس ما تجد من الأنس إذا استأذنك قبل المفارقة.

وأما وجه من لم يوجب نية الخروج من الصلاة، فهو لنظر المصلي إلىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ، وكثرة مسامحته لعباده في إخلالهم بالأدب معه، أو لكون مشهده أنه بين يدي الله تعالىٰ لا يصح انصرافه عنها، كما عليه أصحاب الأحوال. وأيضًا فلو أن ذلك كان يحبه الشارع لأمرنا به ولو في حديث واحد.

وأما وجه من قال: «ينصرف من مكان الصلاة عن يمينه مقدِّمًا رجله اليسرىٰ» فهو لشرف جهة اليمين. وأما تقديم الرجل اليسرىٰ فهو لكون البقعة التي ينتقل إليها بعد الصلاة دون حضرة الصلاة، كما مر تقريره في نظيره من نية الخروج من الصلاة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الانصراف من الصلاة من أي جهة شاء

---

(١) الجواب رقم (١٧٧)، (١٠٧٥).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

خاص بالأكابر، وتخصيص الانصراف عن جهة اليمين خاص بأكابر الأكابر الدائرين مع الأمر لا مع العلل، فيرجح ما رجَّح الحقُّ تعالىٰ، ويميز بين شرف اليمين علىٰ اليسار، ومن شهد التساوي في الأمور، فهو تحصيل الحاصل، وما جعل الله الترقي إلا في امتثال أمره واجتناب نهيه، لا بفعلهما بحكم الاتفاق من غير علم بالأمر.

وأما وجه من قال: «**ينبغي للمصلي أن ينتقل للنفل من موضع فرضه**» فهو ليميز بين حضرة مناجاة الله تعالىٰ في الفرائض، وبين مناجاته في النوافل، أو حضرة الفرائض أكمل من حضرة النوافل، بدليل قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضتُ عليهم، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه»[1]، فجعل حضرة النفل بعيدة عن حضرة الفرائض في المقام، فكذلك يكون الحكم في المكان.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: من توالت عليه عظمة الله فشهدها في كلِّ جهة، فالمستحب له الانصراف عن أي جهة شاء، لشرف سائر الجهات عنده وتقديسها. ومن شهد عظمة الله في جهة دون أخرىٰ، كان الأولىٰ به اليمين في الأولىٰ دون الثانية، نظير ما ورد في دخول المسجد والخروج منه. انتهىٰ.

وفي هذا القدر من الجواب عن الأئمة كفاية لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، فرحم الله تعالىٰ الأئمة الأربعة وغيرهم، ما كان أنور قلوبهم! وأشد شفقتهم علىٰ الأمة تخفيفًا وتشديدًا! فأمروا الضعيف بالرخصة، وأمروا القوي بالعزيمة دون الرخصة، ليعامل كلُّ واحد ربَّه بحسب مقامه.

وإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ تضعيف أقوال الأئمة إذا خالفت الراجح في مذهبك، فإنهم كلَّهم علىٰ هدىٰ من ربهم كشفًا ويقينًا، لا ظنًّا وتخمينًا. وسيأتي زيادة علىٰ ذلك آخر الباب الثاني عشر فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٥) ومما أجبتُ به عن المدرِّس الذي نقل إليه شخص ترجيحًا في مسألة عن أحد من أقرانه في الدرس، فتكدر وعبس وجهه، وقال: ما مع أحد إذن بأن ينقل إليَّ شيئًا من

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، وابن حبان (٣٤٧).

ترجيحات أهل هذا الزمان، فإني لا أعتمده. فلاث به الناس وقالوا: كان ينبغي له أن يصغي لما رجحه غيره من أقرانه، ليُستفاد ويشكر صاحبه بالعلم والدين، ولكن «عدو المرء من يعمل بعمله».

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا المدرس، فقد يكون بمعزل عما فهمه هذا المعترض، وهو محب لذلك العالم، ومعتقد فيه العلم والصلاح، وإنما تكدَّر وعبس وجهه لئلا يعود ذلك الناقل يرجع إلىٰ نقل عن أحد ثاني مرة، لعدم الثقة بترجيح أهل العصر مادام أحدهم في قيد الحياة، فإنه قد يرجع عما أفتىٰ به أو رجحه، فيصير ذلك المدرس ينقل ذلك عنه، والحال أنه رجع عنه. ومن هنا نهىٰ الإمام الشافعيُّ ابنَ عبد الحكم[1] أن يروي شيئًا عن الحيِّ مادام حيًّا، لاحتمال الرجوع عنه أو النسيان.

[توجيه رفض الرمليِّ إصلاح المواضع التي أرسلها إليه الخطيب الشربينيُّ]

وقد وقع أن بعضهم نقل لسيدي الشيخ محمد الرمليِّ[2] عن الشيخ شمس الدين الخطيب الشربينيِّ[3] أنه حكىٰ ترجيحًا عن الشيخ شهاب الدين الرمليِّ[4] والد سيدي

---

(١) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم المصري، الإمام الفقيه مفتي الديار المصرية، المالكي، صاحب مالك. ولد: سنة: ٥٥هـ. قال ابن حبان: كان ممن عقل مذهب مالك، وفرع علىٰ أصوله. وله مصنفات منها: «سيرة عمر بن عبد العزيز» و«القضاء في البنيان» و«المناسك». توفي: في شهر رمضان٢١٤هـ وله نحو ٦٠ رحمه الله. السير (١٠/ ٢٢٠)، «وفيات الأعيان» (٤/ ١٩٣).

(٢) محمد بن أحمد بن حمزة شمس الدين الرملي، فقيه الديار الصرية في عصره، ومرجعها في الفتوىٰ، يقال له الشافعي الصغير، ولي إفتاء الشافعية، وجمع فتاوىٰ أبيه، وصنف شروحًا وحواشي كثيرة، من مؤلفاته: عمدة الرابح، غاية المرام، نهاية المحتاج إلىٰ شرح المنهاج، ت ١٠٠٤هـ بمصر. الأعلام (٦/ ٧)، «البدر الطالع» (٢/ ١٠٢).

(٣) محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين، فقيه شافعي مفسر من أهل القاهرة، درَّس وأفتىٰ في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق لا يحصون، من مصنفاته: السراج المنير، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، مغني المحتاج، ت ٩٧٧ هـ. الكواكب السائرة (٣/ ٧٩)، شذرات الذهب (١٠/ ٥٦١).

(٤) أحمد بن أحمد بن حمزة شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الرملي الأنصاري الشافعي. تلميذ القاضي زكريا. من مؤلفاته: «شرح الزبد» لابن أرسلان و«شرح منظومة البيضاوي في النكاح» و«رسالة في شروط

محمد، فقال: لا أحد ينقل إليّ شيئًا مما ينقله بعض الناس عن والدي، فإن والدي قد رجع عن كثير من ترجيحاته قبل موته؛ فبلغ ذلك الخطيب، فأرسل إليه بعض مواضع ليصلحها، فقال: كلُّ إنسان يتحمل نقل ما رآه من الشيخ. فلاث بعضُ مجاوري جامع الأزهر بسيدي الشيخ محمد وبالخطيب وقالوا: إنما امتنع سيدي محمد من الإصلاح بغضًا في الخطيب، لكونه طرز كتابه شرح المنهاج بإفتاء والد سيدي محمد وترجيحاته، فكان يحبُّ أن ينفرد هو بها في شرحه الذي شرحه دون الخطيب.

والجواب: أنه لا يجوز حمل سيدي محمد علىٰ مثل ذلك، لأن في ذلك نشر علم والده، فكيف يكره من ينشر علمه ويزيده ثوابًا وأجرًا؟! فصار كلٌّ منهما كالأقوال التي اختلف الأصحاب في نقلها عن الإمام الشافعي، فلكلٍّ من الأصحاب العمل بما سمعه أو بلغه من طريق نقله هو، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الأشياخ علىٰ أحوالك الناقصة، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: لا يجتمع الفقراء النصّابون بشيخ إلا وهو علىٰ شاكلتهم من النصب؛ لأن الشيخ أو الأمير مثلًا كالسوق يُساق إليه ما يعرف الناس نفاقه[1] فيه؛ فلاث بهذا العالم جماعة الشيخ وقالوا له: هذا طعن في الأشياخ، ولا يلزم من كون جماعة الشيخ نصابين كذّابين أن يكون الشيخ كذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لأن كلامه جرىٰ علىٰ الغالب، أو تأديب وتنبيه للشيخ أن يلقي باله إلىٰ جماعته ويعرِّفهم الأدب وطريق الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. ولم يزل السلف الصالح يحذِّرون إخوانهم وينبهونهم علىٰ نقائصهم ونقائص أصحابهم محبةً ونصحًا، لا بغضًا وتعنيفًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

الإمامة». و توفي:٩٧١هـ. «الكواكب السائرة» (٣/ ١٠١) و«شذرات الذهب» (١٠/ ٥٢٥).

(١) أَنْفَقَ تُجّار السُّوقِ السِّلْعَة: رَوَّجُوها.

(١٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكذِّب من ادعىٰ القطبية من أهل عصره، ولاث به عصبة ذلك القطب وكادوا يخرجونه عن دائرة الإسلام، وقالوا: من شأن القطب الخفاء، فلا يعرفه الأفراد من الأولياء، فكيف قدمت علىٰ التكذيب بغير علم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بمن أنكر قطبية أحد من مشايخ هذا الزمان، لما هم عليه من التظاهر بمحبة الدنيا، وعدم الورع والزهد والخشية، وقلة العلم واحتياج أحدهم إلىٰ علم آحاد الطلبة، فإن من شرط القطب أن يكون غنيًا عن علم العلماء كما كان الخضر ﷺ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: حكم من يدعي القطبية من هؤلاء المشايخ حكم خلبوص المغاني إذا خرج في صورة أمير أو قاض، ولولا علم أصحاب النوبة بجهله بمقام القطبية لقتلوه بالحال في ساعته.

[صفات القطب]

وقد حُبب لي أن أذكر لك يا أخي صفةَ القطب التي ذكرها من اجتمع به من الأولياء الصادقين، كالشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ أبي الحسن الشاذلي وغيرهما، فأقول وبالله التوفيق:

قال الشيخ محيي الدين في الباب السبعين[١] ومئتين من «الفتوحات»: اعلم أن اسم القطب في كلِّ زمان «عبد الله» و«عبد الجامع» المنعوت بجميع الأسماء الإلهية تخلقًا، وهو مرآة الحقِّ تعالىٰ، ومجلىٰ النعوت المقدَّسة، ومحل المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وصاحب علم سرِّ القدَر بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، وله علم دهر الدهور، والغالب عليه الخفاء، محفوظ في خزائن الغيرة، ملتحف بأردية الصون، لا يعتريه قط شبهة في دينه، ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، كثير للنكاح راغب فيه، محب للنساء، يوفي الطبيعة حقَّها علىٰ الحدِّ المشروع، ويوفي الروحانية حقَّها علىٰ الحدِّ

---

(١) في «أ»: التسعين. والموضع في الطبعات التي بين أيدينا من «الفتوحات» في الباب (٢٦٠).

الإلهيِّ، يضع الموازين ويتصرف على المقدَار المعيَّن المؤقت له، لا يحكم عليه وقت، وإنما هو لله تعالىٰ وحده، حاله دائمًا العبودية والافتقار، يقبِّح القبيح، ويحسِّن الحسن، يحب الجمال المقيَّد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصور، يغار لله، ويغضب لله، ويذوب عشقًا، له الإطلاق من حيثُ المظاهرُ، لا يُظِهر روحانيته إلا من خلف حجاب الغيب أو الشهادة كآحاد العبيد، لا يرىٰ من كل شيء إلا محل نظر الحقِّ تعالىٰ منه، يضع الأسباب ويقيمها، ويدل عليها ويجري بحكمها، ينزل إليها حتىٰ تحكم عليه وتؤثر فيه، لا يكون له ربانية علىٰ أحد بوجه من الوجوه، مصاحب لهذا الحال دائمًا، إن كان صاحب دنيا وثروة تصرف فيها تصرف عبد في مال سيِّد كريم، وإن لم يكن بيده دنيا وكان علىٰ ما يفتح الله به عليه، لم يستشرف له نفس إلىٰ ما في يد الناس، بل يقصد بنفسه عند الحاجة بيت صديق ممن يعرفه، يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته كالشافع لها عنده، فيتناول لها منه قدَر ما يحتاج إليه وينصرف، لا يجلس عن حاجته إلا لضرورة[1]، فإن لم يجد حاجته، لجأ إلىٰ الله تعالىٰ في حاجة طبيعته، لأنه مسؤول عنها ووالِيًا عليها، ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأل، فإن شاء أعطاه ما سأل في الحال أو بعد مدة، فإن لم يعطه شيئًا ألح في الدعاء والشفاعة في حقِّ طبيعته، لأن من مرتبته الإلحاح دائمًا، بخلاف أصحاب الأحوال، فإن الأشياء تتكون عن هممهم لما عندهم من الربانية علىٰ الخلق، والقطب منزه عن مثل ذلك، لا تُطْوىٰ له أرض، ولا يمشي في هواء ولا علىٰ ماء، ولا يأكل أو يشرب من غير سبب، ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا في النادر لأمر يراه الحقُّ تعالىٰ له، فيفعله من غير أن يكون ذلك مطلوبًا له، يجوع اضطرارًا لا اختيارًا، و يصبر عن النكاح كذلك لعدم الطول، يعلم من تجلي النكاح ما يبعثه علىٰ طلبه والتعشق به، لا يتحقق له مقام العبودية في شيء مثل ما يتحقق له في النكاح، لا يرغب في النكاح للنسل، بل لمجرد الشهوة، فنكاحه كنكاح أهل الجنة.

وإنما كان يتحقق له مقام العبودية في النكاح أكثر من غيره لما فيه من شهود الضعف

---

(١) هذه الجملة مضطربة بالأصلين، وقد أثبتناها من «الفتوحات» ومختصرها للمؤلِّف.

حال الوقاع، وقهر اللذة المفنية له عن إحساسه، لكنه قهر لذيذ، وذلك من علوم الأسرار، فلذلك جهله أكثر الأولياء وجعلوه من الشهوة الحيوانية تزهو أنفسهم عن الإكثار منها.

ومن شأن القطب أن أنفاسه عزيزة، لا يدخل له نفس إلا تلقاه بأحسن أدب، ولا يخرج له نفس إلا شيَّعه كذلك بأحسن أدب من غير تكلف لذلك، مقامه جامع لأحوال الرسل والأنبياء والأولياء وكُمّل المؤمنين، فهو الرجل الكامل الذي حصل له الدنانير الأربعة التي توزن بها أحوال الرجال. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب الأحد وخمسين وثلاثمئة: من شأن القطب الوقوف دائمًا خلف الحجاب، فلا يعلم الحقَّ تعالىٰ إلا من خلف هذا الحجاب حتىٰ يموت، فإذا مات لقي الله تعالىٰ بلا حجاب إلا حجاب العظمة، فهو كالحاجب الذي ينفذ أوامر الملك، وليس له من الله تعالىٰ إلا صفة الخطاب لا الشهود، لشدة أدبه ﷺ مع الله وحيائه. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب السادس والثلاثين وثلاثمئة: اعلم أن الله تعالىٰ لا يولي عبدًا مرتبة القطابة حتىٰ ينصب له سريرًا في حضرة المثال يقعد عليه، تنبيء صورة ذلك المكان عن صورة المكانة، كما تنبيء صورة الاستواء علىٰ العرش عن صورة إحاطة الحقِّ تعالىٰ علمًا بكل شيء. فإذا نُصب له ذلك السرير، خلع عليه التخلق بأسماء الله تعالىٰ التي يطلبها العالم وتطلبه، فيظهر بها حللًا وزينة متوَّجًا مسوَّرًا مُدَمْلِجًا(1)، وذلك لتعمه الزينة علوًا وسفلًا ووسطًا، وظاهرًا وباطنًا، فإذا قعد علىٰ ذلك السرير، قعد بصورة الخلافة، وأمر الله تعالىٰ جميع العالم بمبايعته علىٰ السمع والطاعة في المنشط والمكره، فيدخل في بيعته كلُّ مأمور من أدنىٰ وأعلىٰ إلا الملائكة العالون المهيَّمون في جلال الله تعالىٰ، فإن هؤلاء عابدون الله بالذات لا بالأمر، فأول من يدخل عليه للمبايعة الملأ الأعلىٰ علىٰ اختلاف مراتبهم الأول فالأول، فيأخذون بيده علىٰ السمع والطاعة، ولا يتقيدون بمنشط ولا مكره، لأنهم لا يعرفون هاتين الصفتين فيهم، ومعلوم أن الشيء لا يُعرَف إلا بضده، فهم دائمًا في منشط لا يعرفون له طعمًا، لعدم ذوقهم للمكره.

---

(1) دملجَ الشَّيَ: ضَمَّه وسَوَّاه وأحسن صنعته.

واعلم يا أخي أن ما من روح يدخل عليه للمبايعة إلا ويسأله عن مسألة في العلم الإلهي، فيقول له: يا هذا أنت القائل كذا؟ فيقول: نعم. فيقول له في المسألة وجهان يتعلقان بالعلم بالله تعالىٰ، أحدهما أعلىٰ من الذي كان عند ذلك الروح، فيستفيد منه كلُّ من بايعه، وحينئذٍ يخرج عنه.

فإن قلت: فهل هذه المسائل التي يسأل عنها كلُّ قطب مسائل معينة تتكرر لكلِّ قطب، أم هي مسائل تتجدد بتجدد القطب؟ **فالجواب:** ليست هي مسائل معينة يتكرر السؤال بها لكلِّ قطب، وإنما هي بحسب ما يخطر الله تعالىٰ ذلك الوقت لكلِّ سائل مما جرىٰ له فيه كلام قبل ذلك.

[أول المبايعين للقطب الغوث]

فإن قلتَ: فما أول مبايع له؟ **فالجواب:** قال الشيخ محيي الدين: أولُ مبايع له العقلُ الأولُ، ثم النفسُ، ثم المقدَّمون من عمَّار الأرض والسماوات من الملائكة المسخَّرة، ثم الأرواحُ المدبِرةُ للهياكل التي فارقت أجسادها بالموت، ثم الجنُّ، ثم المولَّدات، ثم سائر ما سبح الله تعالىٰ من مكان ومتمكن، ومحل وحال فيه، إلا العالون من الملائكة كما مرَّ، وكذلك الأفراد الذين لا يدخلون تحت دائرة القطب وما له فيهم تصرف، فإنهم لا يدخلون لأنهم كُمَّل مثله مؤهلون لما ناله هذا الشخص من القطبية، لكن لما كان الأمر يقتضي أن لا يكون في الزمان إلا قطب واحد يقوم بهذا الأمر، تعين ذلك الواحد، ولكن [لا][1] بأَولَوية، وإنما يسبق العلم فيه بأن يكون هو القطب وفي الأفراد من يكون أكبر منه مقامًا في باب العلم بالله تعالىٰ، نظير ما قالوا في نصب الإمام الأعظم، فإنه يجب أن لا يكون أكثر من واحد، لئلا يقع التنازع والفساد، فإن حكم الإمام الأعظم في الوجود حكم القطب[2].

فإن قلتَ: فهل يكون من ظهر بالإمامة بالسيف قطبًا في نفس الأمر؟ **فالجواب:** نعم، قد يكون قطبًا كما وقع لأبي بكر وعمر ومن بعدهما، وقد لا يكون قطبًا، فتكون الخلافة

---

(١) ساقط من الأصلين، مستكمل من «الفتوحات».

(٢) انظر: «الفتوحات» الباب (٣٣٦).

لقطب الوقت الذي لا يكون إلا بصفة العدل، ويكون هذا الخليفة الظاهر من جملة نوَّاب القطب في الباطن من حيثُ لا يشعر، إذ الجور والظلم يقع من الأئمة الظاهرين، وأما القطب فلا يكون إلا عادلًا. ومن هنا كان لا يُعزل إلا بالموت[1].

فإن قلت: فهل القطبُ محلُّ نظر الله تعالىٰ من العالم كما قيل؟ **فالجواب**: نعم، ومنه يتفرع جميع الأمداد الإلهية علىٰ جميع العالم العلويِّ والسفليِّ. قال الشيخ محيىٰ الدين: وأركان الدين الحنيفيِّ أربعة: الأنبياء، والمرسلون، والأولياء، والمؤمنون. والركن الأعظم هو الرسالة، فهي كالحجر الأسود من أركان الكعبة، وقد أبقىٰ الله تعالىٰ من الرسل ثلاثة: إدريس، وإلياس، وعيسىٰ، والرابع الخضر، لكنهم من باطنية محمد ﷺ، فالواحد من هؤلاء الأربعة هو القطب المقصود، والثلاثة الباقية كبقية أركان البيت، فالاثنان منهم هما الإمامان والأربعة هم الأوتاد، فبالواحد من هؤلاء الأربعة يحفظ الله الإيمان، وبالثاني يحفظ الله تعالىٰ الولاية، وبالثالث يحفظ الله النبوة، وبالرابع يحفظ الله الرسالة[2]، وبالمجموع يحفظ الله الدين الحنيفي، فحقيقة مقام القطبية إنما هو لواحد من هؤلاء الأربعة، والقطب الظاهر دائمًا نائب عنه، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ وصف أحد بالقطبية بالجهل[3]. وسيأتي في الباب الثالث عشر[4] نبذة صالحة في أحوال القطب[5]، فراجعها والحمد لله رب العالمين.

(١٩٨) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير أو غيرهما إذا كثر تردد امرأة من بنات الخطا إلىٰ بيته ليلًا ونهارًا، وصار ذلك العالم أو الفقير[6] مثلاً يخرج معها إلىٰ خارج

---

(١) انظر: «الفتوحات» نفس الباب السابق.

(٢) بالأصلين: الولاية. والمثبت من نص «الفتوحات».

(٣) انظر: «الفتوحات» الباب (٧٣).

(٤) قد أشرنا في المقدمة إلىٰ سبق قلم المؤلف في عد الأبواب، فالصحيح هنا الباب الثاني عشر.

(٥) الجواب رقم (١٢٧٧). وكذلك انظر الجواب (٩٥٧).

(٦) بالأصلين: الأمير. وما أثبتناه الأنسب للسياق.

الباب يباسطها[1] ويضحك معها ويمزح، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا ينبغي وقوعه من عاقل، لأنه فعل الأراذل.

والجواب: أنه تقدم في هذا الباب أنه لا يجوز اللوث بالعالم بمثل ذلك[2]، فقد يكون تردد بنت الخطا إلىٰ بيته إنما هو ليعلمها أمور دينها ويتوِّبها ويعلمها شرائط التوبة. ويُحتمَل أن بنت الخطا إنما دخلت لعياله لتبيع عليها منديلًا مثلًا، أو تشتريه منها وتدفع إليها ثمنه من وجه حلال دون مهر البغي. أو تحملها علىٰ أنها إنما دخلت علىٰ ذلك العالم أو الصالح أو المباشر ليشفع لها عند الوالي في تهمة وقعت فيها. ولا يجوز حمل صاحب البيت علىٰ أمر مذموم من وقوع في الفاحشة أو مقدماتها. وإن رأينا العالم أو الصالح أو غيرهما يُهْدِي إلىٰ بنت الخطا هدية، أو يدخل هو عليها كلَّ قليل، حملناه علىٰ أنه دخل عليها وعندها من يمنع الخلوة بها من محارمها أو غيرهم، وأنه قصد بذلك تمييل خاطرها إليه، ليتوِّبها من المعاصي ويخوفها من عذاب الله تعالىٰ ونحو ذلك.

فاعلم ذلك، واحمِ سمعَك وبصرَك من أعراض الناس وتحمل أوزارهم يوم القيامة، فإن جميع أعمالك التي أخلصت فيها ربما لا تفي بحقِّ شخص واحد من كذا كذا ألف وقعت في عرضهم بسوء ظنك، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٩) ومما أجبتُ به عن الذين يتغالون في شراء المماليك الحسان الوجوه من الأمراء والمباشرين والتجار وغيرهم، ولاث الناس بعِرضهم وظنوا بهم السوء بأنه يجب حملهم علىٰ محامل صحيحة، ويحرم علىٰ كلِّ مسلم أن يلوث بهم إلا إن احتفت بذلك قرائن تدلُّ علىٰ ذلك، فإن القرائن إحدىٰ الأدلة في الشريعة، وليس كل من يتغالىٰ في ثمن المماليك والعبيد يكون قصده الفاحشة، وإنما الأكابر من شأنهم إذا وسَّع الله تعالىٰ عليهم أن يحبوا الجمال في ثيابهم ومراكبهم، ودورهم وعيالهم وعبيدهم مشاكلة لحالهم، فلا يكاد أحدهم يحب ملبسًا حقيرًا، أو زوجة شوهاء، أو عبدًا صورته غير

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصلين، وما أثبتناه الأقرب للرسم والسياق.

(٢) الجواب (١٩١).

جميلة عادة، فلا يحب أن يستخدم من المماليك والعبيد إلا صِبَاح الوجوه، ويحصل عنده هم وكرب برؤية من كان غير صبيح الوجه، لا سيما الوزراء ومن والاهم من جماعة السلطان الأعظم نصره الله.

وقد بلغنا أن من آداب الوزير مع السلطان أن لا يوقف بين يديه أحدًا من أصحاب العاهات، بل يقضي حاجته من غير أن يجمعه علىٰ السلطان، وأنه إن حصل لأحد من الوزراء عاهة من جذام أو برص ولم يعزله السلطان، استنابوا عنه شخصًا سليمًا جميل الصورة، غيرةً علىٰ بصر مولانا السلطان أن يقع علىٰ من فيه نقص في بدنه. والذي نقول به: إن الوزراء وجميع من يتغالىٰ في ثمن المماليك والعبيد سالمون مما يفسقهم، وأنهم غائبون عما يظنه الفسقة فيهم قياسًا علىٰ نفوسهم الغوية.

وقد دخل القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي[1] الذي أفتىٰ بقتل الحلاج رحمه الله علىٰ أمير المؤمنين المعتضد[2] فرأىٰ واقفًا علىٰ رأسه جماعة من المماليك الصِّبَاح الوجوه، فوقع في نفس القاضي شيء، فلما أراد الانصراف، قال له المعتضد: والله يا قاض، ما خلعت سراويلي قط علىٰ فاحشة منذ وعيتُ علىٰ نفسي. فخجل القاضي واستغفر من سوء ظنه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك وإياك وسوء الظن، **وإن رأيتَ شيئًا بعينك، فاستر تخلقًا بأخلاق الله عزَّ وجلَّ**، فإنه تعالىٰ يرىٰ العيب ويستر صاحبه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل البصري المالكي قاضي بغداد، ولد سنة ١٩٩هـ واعتنىٰ بالعلم من الصغر. كان عالما متقنًا فقيهًا. له مصنفات منها: تآليفه «الموطأ» و«أحكام القرآن» و«المبسوط» في الفقه. توفي في شهر ذي الحجة سنة ٢٨٢هـ. السير (١٣/ ٣٣٩)، الأعلام (١/ ٣١٠).

(٢) المعتضد بالله الخليفة أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبي أحمد طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد الهاشمي العباسي. ولد في أيام جده: سنة ٢٤٢هـ. كان ملكًا مهيبًا، شجاعًا، جبارًا، شديد الوطأة،قال المسعودي: كان قليل الرحمة، إذا غضب علىٰ أمير حفر له حفيرة، وألقاه حيًا، وطم عليه. توفي: ٢٨٩هـ. السير(١٣/ ٤٦٣)، «شذرات الذهب» (٣/ ٣٧١)

(٤٠٠) ومما أجبتُ به عمَّن كان يتردد إلىٰ إخوانه ويعودهم إذا مرضوا، ثم ترك التردد والعيادة وتأثر إخوانه منه بأنه ربما كان له عذر يمنعه من لقاء الناس ومجالستهم، لكون الحقِّ تعالىٰ كشف له عيوبه ونقائصه، فصار يستحيي من مجالسة الناس، كما يقع لي ذلك كثيرًا. ومن هنا تركتُ حضور الولائم، لكثرة من أظن به أنه رأىٰ عيوبي. وقد وقع لي ذلك في وليمة، فسألتُ الله أن يجعل لي من ذلك فرجًا، فقيل لي في سرِّي: أنوِ الشفاء من عيوبك برؤيتهم لك علىٰ وجه التبرك بهم، فنويتُ ذلك، فزال عني الخجل.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يقول: ربما جالستُ أحدًا من الإخوان، فأرىٰ نفسي كالفاسق الذي جلس مختفيًا بجانب شيخ الإسلام، فهو يخاف أن أحدًا يشعر به. وكان يقول: إياك أن تتكدر من أخيك إذا قطع زيارتك وعيادتك مدةً طويلةً علىٰ خلاف عادته، فربما لم يجد له نية صالحة يزورك أو يعودك بها. وإياك أن تحمله علىٰ الكبر والعداوة لك، فإن ذلك يأكل حسناتك كما تأكل النار الحطب، وربما كان سبب انقطاع أخيك عنك وقوعك في ذنب، فإن في حديث الطبراني مرفوعًا: «ما توادَّ اثنان في الله فَيُفَرَّق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما»[1] انتهىٰ. ففتش يا أخي نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠١) ومما أجبتُ به عن بعض التجار أو العوام إذا عمل وليمة ودعا الأكابر من الولاة وأبناء الدنيا والعلماء والصلحاء، ثم أجلس الولاة وأبناء الدنيا في صدر المجلس، وأجلس العلماء والصالحين قريبًا من مواضع النعال، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: هذا إزراء بالعلماء والصالحين، بأنه ربما كان الحامل له علىٰ فعله ظنه في العلماء والصالحين أنهم لا يتغيرون بذلك، لموت نفوسهم بالرياضة والمجاهدة كما هو الغالب، بخلاف أبناء الدنيا، فلذلك راعىٰ خاطرهم دون العلماء والصلحاء.

فإن قال قائل: كان ينبغي تعظيمهم من حيثُ العلمُ، وتقديمُ ذلك علىٰ حسن ظنِّه بهم؛

فالجواب: أن ظنه المذكور لا يلزم منه احتقارهم، بل هو عين تعظيمهم، عملًا بحديث:

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٣٨٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٠١).

«من تواضع لله رفعه الله»[١]، إذ العالم أو الصالح هو صدر المجلس حيث جلس، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: إذا دعاك أحدٌ إلىٰ وليمة، فأجلسك موضع النعال، ثم قدَّم إليك ما فضل من الخدام والغلمان وغيرهم، فافرح بذلك، وإياك والتكدر من ذلك، فإنه دليل علىٰ كونك متكبرًا، والله لا يحب المتكبرين، فلو كنتَ عاقلًا لأشغلك كراهة الحقِّ تعالىٰ لك عن طلب تعظيم صاحب الوليمة لك، وفي القرآن العظيم: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج: ١٨]، وبان لك بذلك نور قلب صاحب الوليمة، وأنه ما أجلسك عند النعال إلا لاستحقاقك ذلك بتكبرك علىٰ إخوانك، وفي الحديث: «الكبر بطر الحقِّ وغمط الناس»[٢]. انتهىٰ. وبطر الحقِّ دفعه ورده، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم، فقد علمت أن في تكدرك من جلوسك عند النعال دفع الحقِّ، واحتقار غيرك برؤيتك أنهم لا يستحقون التقدُّم عليك في المجلس والطعام، ولو كنت متواضعًا لا كبر عندك، لكان من شأنك إذا أجلسوك في صدر المجلس وقدَّموا لك أطايب الطعام أن تقوم وتدع ذلك لإخوانك. انتهىٰ.

وكان سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني، وسيدي عبد الله المنوفي[٣] ﷺ إذا دعي أحدُهما إلىٰ وليمة وأجلسوه هو وأصحابه عند النعال وقدَّموا لهم فضلة الناس، يقول: اشكروا الله الذي ستر عن الناس عيوبكم ونقائصكم، وجعلهم يعتقدون فيكم الصلاح والتواضع، فإنهم لولا ظنُّوا بكم موت نفوسكم وكثرة التواضع، لكانوا حسبوا حسابكم، وخافوا من ألسنتكم، وأجلسوكم في صدر المجالس كما يفعلون بأصحاب الرعونات النفسانية.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٩٤) وابن أبي شيبة (٣٤٦٦٣) وابن ماجه (٤١٧٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩١) وابن حبان (٥٤٦٦) والطبراني في «الكبير» (١٠٥٣٣).

(٣) أبو محمد عبد الله المنوفي. كان مالكي المذهب، عالمًا صالحًا زاهدًا، صاحب كرامات وأحوال، نشأ بالقاهرة، وحفظ القرآن، وتفقه واشتغل علىٰ علماء عصره، وبرع في مذهبه، وجمع بين علمي الطريقة والحقيقة، وكان للناس فيه اعتقاد حسن ومحبة وانقياد إليه إلىٰ الغاية، توفي: ٧٤٩هـ. «المنهل الصافي» (٧/ ٩٠)، «الوافي بالوفيات» (١٧/ ٣٧٣).

وكان سيدي عبد الله المنوفي يقول لأصحاب الوليمة: لا تأتوا لنا إلا بالفضلة التي في الأواني، ليحصل لنا بركات الآكلين، فإن البركة تستقر في آخر طعام يكون في الإناء. وكان كثيرًا ما يبادر قبل أصحابه إلىٰ لعق الصحون، ويقول لهم: اغتنموا التبرك بفضلة جميع من أكل من العلماء والصالحين من غير تعب، ثم يقول لهم: تعلموا حسن الظن بالناس، فإن أصحاب الطعام لولا ظنُّوا بنا الخير وموت النفوس ما أطعمونا فضلة الناس. انتهىٰ.

وقد وقع أن زوجة سيدي مجاهد النبراوي[1] دعت امرأة سيدي عبد العزيز الديريني إلىٰ حضور ختان أولادها، وفرشت لها البيت بالبسط والمُضَرَّبات[2]، فلما دخلت عليها، ووجدتها عجوزًا خلقة الثياب، طوت البسط وقالت: اجلسوها في المطبخ علىٰ نخ حلفا[3]، فلما جاء سيدي عبد العزيز فأخذها، قال لها: كيف وجدتِ عرس أولاد أختك؟ فقالت: لم تلتفت أختي إليَّ، وأمرت الجواري بجلوسي في المطبخ! فقال لها: فهل فعلت ذلك بأحد من النساء غيرك؟ فقالت: لا! فقال: هذا دليل علىٰ شدَّة محبتها لك دون غيرك، لتصيري تنظري الطبيخ، وكلَّ شيء استوىٰ أطعموك منه من غير تعب. انتهىٰ.

فانظر يا أخي إلىٰ هذه المحامل الحسنة، واقتدِ بعباد الله الصالحين. ولعلَّ هذه الأمور التي حمل هذان الشيخان أصحاب الوليمة عليها لم تخطر لك علىٰ بال، لكثرة الرعونات والخبائث التي في باطنك، وتنبه لنفسك ولا تكن من الغافلين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا دخل عليه أحد من طلبة

---

(١) سيدي مجاهد النبراوي هو جد السيد مجاهد الأحمدي صاحب الضريح المعروف بالجامع الأحمدي. وبين السيدين عدة وسائط في النسب. وضريح السيد مجاهد بنَبَرُوه التابعة لمحافظ الدقهلية بمصر. انظر «السيد مجاهد الأحمدي الشاذلي» لأبي حامد المالكي، دار الإحسان، (ص١٥). وهو يعد الكتاب الوحيد الذي جمع أخبار السيد مجاهد الأحمدي وترجم له.

(٢) المُضَرَّبَةُ :كساءٌ أو غطاءٌ كاللحافِ ذو طاقيْن مخيطيْنِ خياطةً كثيرةً وبينهما قطنٌ ونحوُه.

(٣)النَّخ :البساط الطويل. والحلفا: نبات عُشبِي مُعَمَّر من الفصيلة النَّجيليَّة، أوراقه مستطيلة خيطيَّة أو أَسَلِيَّة النَّصل يلتفُّ بعضُها علىٰ بعضٍ وتُصنع منها الحُصُرُ والقُفَفُ والحِبالُ .

أقرانه أو تلامذتهم ولم يبش في وجهه، ولا قدَّم له طعامًا، بل عبس في وجهه، ولاث ذلك الطالب وشيخه به، وصار يحكي ذلك لكلٍّ من دخل عليه ويقول: كما تحققنا عداوته لنا ولجماعتنا، بأنه لا يجوز حمله علىٰ سوء الظن به، وإنما الواجب علىٰ ذلك الطالب وشيخه أن يقول: إنه لم يفعل ذلك إلا وفاء بحقِّنا ومصلحةً لمريدنا في غيبتنا، لا بغضًا لنا وبخلًا بالطعام، وإنما خاف علىٰ طالبنا من تزلزل عقديته فينا إذا أكرمه وبش في وجهه، فلا يصير ينتفع علىٰ يده ولا يدنا .

ثم إن الواجب علىٰ الشيخ وتلميذه أن يرجعا علىٰ أنفسهما باللوم الذي لم يحملا ذلك العالم أو الشيخ علىٰ محمل حسن، ويقولا لأنفسهما: ما الشيخ إلا للمريد! والله لا أنا شيخ ولا أنت مريد!

فاعلم ذلك، واعمل عليه فإنه نفيس، ونظف باطنك من السوء لتصير تحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا سمعناه يمدح نفسه بالعلوم والأخلاق، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا عاملًا بعلمه أو زاهدًا في الدنيا لما مدح نفسه، بأنه ربما كان الحامل له علىٰ ذلك عدم اعتناء طلبته بما يقرره من دقائق العلوم المحرَّرة، وعدم الاعتماد علىٰ الترجيحات التي يذكرها لهم، فقصد بمدحه نفسه بحضرتهم أن يفتح أحدهم مسامعه ظاهرًا وباطنًا لسماع كلامه وفهمه، من باب ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]. ولو أنه علم من طلبته أنهم يعرفون نفاسة علمه، لما كان مدحه لهم، فافهم.

وقد أجمعوا علىٰ أن للعالم أن يذكر نفسه بالصفات الحميدة التي خلقه الله بها، ليبادر الناس إلىٰ أخذ علمه بالقبول، بخلافه لو كان مجهولًا. ويُحتمَل أن الشيخ مدح نفسه بالعلم والعمل من باب التحدث بالنعمة، ومن مدح نفسه صادقًا فلا حرج عليه. والظاهر من حال الأشياخ الصدق، ولا يجوز حملهم علىٰ الكذب.

(٤٠٢) وكذلك مما أجبتُ به عن الشيخ الذي رماه الحسدة والأعداء بالعظائم، وصار يكذِّبهم ويجيب عن نفسه ولاث الناس به وقالوا: لو كان شيخًا صالحًا لرضي بعلم الله فيه، بأنه لا يلزم من جوابه عن نفسه كونه ممن لا يكتفي بعلم الله فيه، وإنما [أجاب] لغرض صحيح، كأن خاف من تزلزل عقيدة أصحابه فيه إذا لم يجب عن نفسه ويقولون: لولا أنه وقع فيما رُمِي به لأجاب عن نفسه؛ فيفقدون النفع به، ولو أنه علم من طلبته صحة اعتقادهم فيه لما كان أجاب عن نفسه، بل كان يسكت عن ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: للعلماء والأشياخ في الجواب عن نفوسهم وفي مدح نفوسهم وعلومهم مشاهد صحيحة: **فمنها أن يكون مشهد أحدهم أن** أفعاله وأقواله وعلومه ومعارفه كلَّها لله تعالىٰ بحكم الأصل، ثم خلع آثارها عليه، فهو يغار لله تعالىٰ أن ينقص أحد ما يجريه علىٰ جوارحه من الأقوال والأفعال، فهو يجيب عن أفعال الحقِّ من حيثُ كمالُها وحكمتُها؛ **ومنها أن يكون مشهده** أن ذاته كلها خلق لله تعالىٰ، فهو يتكدر ممن يقول له: يا أعور، يا أعرج، يا أجذم، يا أبرص، ونحو ذلك من حيثُ إنه يعيب خلق الله، ويعترض علىٰ مقدوراته في خلقه؛ **ومنها أن يشهد** أن نفسه من جملة إماء الله تعالىٰ، وأنها وديعة عنده قد أمنه الله تعالىٰ عليها، وأمره بالذب عنها وكف الأذىٰ عنها، ودفع كل ما يحصل لها به تكدير وتشويش؛ **ومنها أن يكون مشهده** كثرة الشفقة علىٰ أعدائه، فيخاف إن سكت علىٰ ما يقولون فيه أن ينقص دينهم، فهو يرد عن نفسه ليكذِّبهم الناس فيما أضافوه إليه، ليخف عنهم الإثم؛ **ومنها أن يكون مشهد** أحدهم أنه حامل كتاب الله وشرع رسول الله ﷺ، فهو يغار لله ولرسوله أن أحدًا ينقص حامل القرآن والعلم إكرامًا لله ولرسوله، وهو غائب عن حظِّ نفسه جملة، بل ربما لم يخطر له حظُّ نفسه علىٰ بال؛ **ومنها أن يكون مشهد** أحدهم وجوب الانتصار لنفسه من حيثُ كونه عبدًا لله ليس له من نفسه شيء؛ **ومنها أن يكون مشهد أحدهم** في الجواب عن نفسه طلب الخير للمسلمين حتىٰ يأخذوا منه علومه ونصحه بالقبول، فهو يغار علىٰ كلِّ شيء يفوتهم الخير، سواء أكان ذلك الخير علىٰ يديه أو يد غيره من أقرانه. **ومحكُّ**

الصدق في ذلك أن يتكدر إذا سمع أحدًا ينقص العلماء كما يتكدر إذا نقصوه هو علىٰ حد سواء، ومتىٰ لم يتساو عنده ذلك، فهو دليل علىٰ أنه لم يتخلص في تكديره من حظٍّ نفسه، فليعمل علىٰ تخليصها من ذلك. وبقي مشاهد كثيرة يعرفها أهل الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: جواب الأشياخ عن نفوسهم أو سكوتهم عن ذلك إنما هو دائر مع المصالح، فلا يُقال: الجواب أولىٰ مطلقًا ولا السكوت أولىٰ مطلقًا. انتهىٰ.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ إذا بلغه عن أحد أنه نقصه في الحال يذهب إليه ويقول له: جزاك الله تعالىٰ يا أخي عني خيرًا، فإنك ذكَّرتني بعيوبي ونقائصي التي كنتُ عنها غافلًا، لأتوب منها أو آخذ حذري من الوقوع فيها في المستقبل، وحميتني أيضًا من الوقوع في العجب أو من دوامي عليه، فإن أقبح الذنوب عند الله عجب المؤمن بأحواله. انتهىٰ. ولعل ذلك المنقِص لأخي المذكور لم يخطر علىٰ باله شيء مما حمله أخي المذكور عليه من المقاصد الحسنة، وإنما كان قصده محض تنقيصه بين الناس إزدراءً له وبغضًا له، وعداوة وحسدًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول مرارًا: من أراد أن يحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، فلينظف باطنه من سائر الراذائل، وما دام باطنه لم يتطهر من ذلك، فمن لازمه سوء الظن بالناس قياسًا علىٰ نفسه هو.

[كيفية معرفة الشيخ عيب مريده]

ثم يقول: **فإن قال قائل:** فمن أين يعرف الشيخ عيب مريده؟ ومن مقام الشيخ طهارة الباطن من سائر الأدناس. **فالجواب:** أن للشيخ طرقًا يطلع بها علىٰ عيب المريد، ليدله علىٰ دوائه: منها الكشف، ومنها الإلهام، ومنها مقابلة باطن المريد لمرآة قلب الشيخ، فيرتسم في قلب الشيخ جميع نقائص المريد، لصفاء مرآة قلب الشيخ، لكن لا يحصل ذلك إلا من مريد صادق وشيخ صادق وقع بينهما اتحاد بالباطن. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٥) ومما أجبتُ به عن الصاحب والجار إذا مات لجاره ولد أو أخ عزيز، وجامع زوجته في تلك الليلة وطبخ ملوخية، ثم احتج بأن جماعه تلك الليلة إنما هو إظهار للرضا بقضاء الله تعالىٰ بموت ولد أخيه، وكذلك طبيخه الملوخية، ولا يجوز حمله علىٰ الشماتة بجاره وفراغ قلبه من مشاركته في الهم كما قد يُتوهَم. وأما توجعه له فإنه من باب التعزية، فإنه سنة مؤكدة، ولا يجوز حمله علىٰ الرياء بذلك.

وسمعتُ شخصًا يقول لسيدي عليًا الخواص ﷺ: يا سيدي إن جاري فلانًا دخل الحمام اليوم، مع كون ولدي الكبير مات الليلة، وما هكذا حق الجار! فقال الشيخ له: ولأي شيء لا تحمله هو وزوجته علىٰ أنهما قصدا بذلك الجماع إظهار الرضا عن الله تعالىٰ بما قدَّره عليك دون غلبة الشهوة الطبيعية عليهما؟! فتب يا أخي عن سوء الظن بالمسلمين. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل علىٰ أمير، فرأىٰ تحته فرشًا فيه صور حيوانات، فقال: لا أدخل حتىٰ يرفع هذا الفرش. فرفعوه ثم جلس فقضىٰ حاجته من الأمير، ثم إن الأمير أرسل له خمسين دينارًا [نقشوا عليها][1] شخصين وشخصًا إلىٰ داره، فنظر إلىٰ الشخوص التي عليها وقبَّلها ووضعها في كيس في رأسه، فأخبر الأمير بذلك، فقال: يالله العجب! لم يدخل إلينا لأجل صور تُدَاس! ثم إنه أخذ الدنانير التي فيها الصور ووضعها علىٰ رأسه! أين صلاحه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل ذلك، لاحتمال أنه أخذها ليسبكها ويذهب صورة الأشخاص التي عليها، ثم يتصدق بها عن الأمير ولا يأخذ منها شيئًا لنفسه، كما وقع ذلك لبعض الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٧) ومما أجبتُ به عمن وقع في معصية كبيرة واشتُهرت عنه في بلده، وصار الناس يزدرونه بسببها، لظنهم إصراره عليها، بأنه لا يجوز ازدراؤه ولا حمله علىٰ الإصرار عليها،

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

بل الواجب حمله علىٰ التوبة من تلك المعصية علىٰ الفور[1]، «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2] كما صرح به الحديث الصحيح. ثم إن تكررت تلك المعصية منه، حملناه علىٰ أنه يتوب عقب كلِّ مرة، وإن عاد في اليوم والليلة سبعين مرة وأكثر كما ورد في الأحاديث[3] والأحكام إلىٰ الشارع يضعها كيف يشاء حيث شاء، فليس لأحد منا أن يجد في نفسه حصرًا وضيقًا من تكرر أخيه في الوقوع في المعصية، فإنه تابع لتقدير الحقِّ تعالىٰ عليه كثرةً وقلةً، ولم يعلم منه الإصرار علىٰ ذلك، فكيف يحتقره؟! ثم لو قُدِّر أنه أصر علىٰ الذنب، حملناه علىٰ أنه غير مُصرٍّ علىٰ الإصرار، وأنه يتوب فورًا كلما يقع منه إصرار، وهكذا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا يجوز لمسلم أن يزدري أخاه بذنب وقع فيه، لاسيما إن تقادم عهده، بل الواجب عليه أن يحمل أخاه علىٰ أنه تاب عقب تلك المعصية كما هو الغالب في المؤمنين، فإن[4] من شأن كلِّ مؤمن أن يحصل له هذا الندم عقب الزلة، وهو الركن الأعظم للتوبة، لاستلزامه الإقلاع وعزمه أن لا يعود، ورَدَّ ظلامات ما يمكن ردُّه للآدميين، وكيف يجمع التائب بين ندمه وعدم الإقلاع وعزم أن لا يعود يقع في مثلها، وعدم تحرك نفسه إلىٰ رد المظالم؟! هذا أبعد من البعيد، بل ورد في الحديث: أن إبليس يعتزل ويبكي كلما رأىٰ ابن آدم سجد، ويقول: «يا ويلي أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار»[5]، فقوله: «يا ويلي» فيه إشعار بالندم، فلولا أنه سبق في علم الله تعالىٰ عدم قبول توبته، لكان قبل الله توبته

(١) بالأصلين: الأثر.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) من حديث أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب، كمن لا ذنب له» والبيهقي في «الكبرىٰ» (٢٠٥٦١) والطبراني في الكبير (١٠٢٨١).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٥١٤) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة» والترمذي (٣٥٥٩) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٢٠٧٦٥).

(٤) بالأصلين: أو.

(٥) تقدم تخريجه.

عند الندم، وترجع القبضتان إلىٰ واحدة، وهي قبضة السعادة، وذلك محال، فقبول توبته محال، فإذا كان إبليس يقع له الندم عند المخالفة، فالمؤمن الموحِد لله أولىٰ بذلك.

وكان سيدي عبد القادر الدشطوطي ﵀ يقول: لولا أن سبق في علم الله الحكم علىٰ من عصاه أو حصول التوبة عقب الذنب لكلِّ من وقع في معصية من الموحِدين، لمحق الله تعالىٰ العصاة عن آخرهم. قال: وثم من العصاة من لا يمسي كلَّ ليلة أو يصبح إلا وهو مغفور له إما إكرامًا لمحمد ﷺ، أو بسبب أعمال صالحة عملها ولم يكترث بها. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن أهلَ الإصرار الذين يموتون من غير توبة أندرُ من النادر، وهم أهل رحمة الامتنان التي ليست في مقابلة عمل، فاعلم ذلك، وانظر لظلم نفسك بالذنوب طول الليل والنهار، تجده أكثر من ظلم من ترىٰ نفسك عليه من الظلمة بيقين، فارجُ له من المغفرة ما ترجوه لنفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٨) ومما أجبتُ به عن القاضي الذي يتولىٰ القضاء ببذل مال، ولولا المال ما ولوه، بأنه لا يجوز لنا المبادرة إلىٰ الإنكار عليه وحمله علىٰ أنه قصد بتلك التولية الدنيا وأخذ الرِّشَا علىٰ الأحكام، بل تصبر حتىٰ تخالطه وتنظر بقرائن الأحوال ما هو الباعث له علىٰ ذلك، فربما كانت نيته بالتولية أن يُكْتَب في جملة حكَّام الشريعة الحاكمين بالعدل حسب الطاقة، ولم يخطر له الدنيا علىٰ بال، فإن الإنكار لا يسوغ في مثل ذلك إلا بعد الاطلاع علىٰ النية، ونحن لم نطلع عليها، فإنكارنا عليه من باب الفضول، وهو إلىٰ الإثم أقرب من الأجر. فاعلم ذلك، فإن أصحاب المناصب لو توقفت ولايتهم في كلِّ زمان علىٰ تقديم الأصلح، لربما ضاعت بعض مصالح العباد، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٩) ومما أجبتُ به عن قول بعض الفقراء: دخلتُ حضرة الله تعالىٰ، أو خرجت من حضرة الله تعالىٰ، أو رأيتُ فلانًا في حضرة الله تعالىٰ ونحو ذلك، وأنكر عليه الناس لتوهمهم أن حضرة الله تعالىٰ هي التي كان رسول الله ﷺ فيها ليلة الإسراء في السماوات، والحقُّ أنه لا يسوغ الإنكار علىٰ الفقراء إذا قالوا مثل ذلك، فإن مرادهم بحضرة الله

تعالىٰ هو شهود العبد بأنه بين يدي ربه، فمادام هذا الشهود يصحبه، فهو في حضرة الله، فإذا حُجِب عن ذلك فقد خرج من الحضرة، فليس المرادُ بالحضرة مكانًا مخصوصًا[١] في السماء أو في الأرض، إنما الحضرة عامة في كلِّ مكان، وربما حصلت للفقير في بيت الخلاء أو حال الجماع، فيكاد يذوب من الخجل، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أهل الطريق وأنت لم تدخل طريقهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٠) ومما أجبتُ به عمَّن ترك قيام الليل وأنكر عليه إخوانه ذلك وقالوا: فلان قد نكث عهد الفقراء وأعرض عن طريقهم، بأنه ربما كان الباعثُ له علىٰ ترك قيامه في الليل استحكامَ هيبة الله عزَّ وجلَّ حين رأىٰ الحجب مرفوعة في الثلث الآخر من الليل، فصار كلما استحضر أنه بين يدي الله، تكاد مفاصله تتقطع، وصار يسأل الله إسدال الحجاب عن ذلك الشهود، وربما كان وقع في فاحشة ولم تصح له توبة، فصار يستحيي [من دخول حضرة الله تعالىٰ حين يرىٰ نفسه كأنه ملطَخ بعذرة من فوقه إلىٰ قدمه، فصار يستحيي][٢] أن يقف بين أهل الحضرة علىٰ ذلك الحال، لأن أهل الحضرة أنبياء وملائكة وأولياء، وكلُّهم مطهَرون من سائر الأدناس، غير متلطخين بشيء من قاذورات المعاصي، فلما رأىٰ نجاسة ذاته وثيابه بتلك الفاحشة مثلًا، خاف أن يقذِّر تلك الحضرة الشريفة الطاهرة بوقوف مثله فيها، فترك قيام الليل واستحيا من أهلها كما يستحيي العريان الذي لم يجد ما يستر عورته، أو كما يستحيي أن يجلس في مجلس الناس الذين رأوه علىٰ فاحشة وجرَّسوه في شوارع البلد بكرش[٣] علىٰ رأسه، وكثيرًا ما يستحضر الإنسان في وقت أن جميع ذنوبه التي فعلها طول عمره لم تُغفَر، ويرىٰ نفسه كمن تلطخ بعذرة كلب أو خنزير وعذرة جميع الحيوانات علىٰ اختلاف طبقات تلك المعاصي التي وقع فيها، فيكاد يتمنىٰ أن الأرض تبتلعه ولا يراه أحد علىٰ تلك الحالة.

---

(١) بالأصلين: مكان مخصوص. وما أثبتناه هو الصواب نحويًا.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) الكِرش: معدة الحيوان.

وقد وقع لي مثل ذلك لما حججتُ في سنة ثلاث وستين وتسعمئة، فكدتُ أهلك، وصرتُ أقول في دعائي في الصلاة وفي الطواف: اللهم إن حضوري في هذا الموقف قد نجَّس أهل حضرتك، فلا تؤاخذني بذلك يا أرحم الراحمين. فكنتُ أشهد وقوفي بين أهل الموسم يقذِّر حضرتهم، هذا أمر شهدتُه في نفسي.

وحكىٰ لي سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي ﷺ قال: استجلت فيَّ هيبة الله عزَّ وجلَّ مرة، فكنتُ إذا مثلتُ نفسي بين يديه عزَّ وجلَّ، أكاد أذوب كما يذوب الملح في الماء، فكنتُ لا أصلي سوىٰ الفرائض، لكونها لا رخصة فيها. وأما النوافل فتركتُها جملة. قال: ودخلتُ مرة في صلاة الضحىٰ، فلم أقدِر علىٰ إتمامها وخرجتُ منها، وألقىٰ الله تعالىٰ في سري أنه عذرني في ذلك الانصراف. قال: ولا يعذر صاحب هذا المقام إلا من ذاقه في نفسه. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي من ترك قيام الليل من إخوانك علىٰ استحكام هيبة الله عزَّ وجلَّ في قلبه، أو علىٰ عدم القسمة الإلهية، وأن الحقَّ تعالىٰ يسامحه في ترك حضور ذلك الموكب، كما يعذر السلطان من علم عذره من جنده في عدم حضوره الموكب مع محبته له، ولله المثل الأعلىٰ، فاسلك يا أخي الطريق تعرف أحوال أهلها، والحمد لله رب العالمين.

(٢١١) ومما أجبتُ به عن العلماء إذا أنكروا علىٰ أهل التصوف شيئًا من أحوالهم التي يتقربون بها إلىٰ الله تعالىٰ، وصار المتشبهون بالصوفية ينكرون علىٰ العلماء كذلك ويقولون عنهم: إن هؤلاء محجوبون عما نحن فيه، بأنه يجب حمل العلماء علىٰ أنهم ما أنكروا علىٰ الفقراء لحظِّ نفس، وإنما ذلك نصرة لجانب الشريعة التي توهموا مخالفة الصوفية لها، فإن العلماء حماة الشريعة المطهَرة، ويجب عليهم الإنكار علىٰ كلِّ من خالف ظاهرها، **لاسيما وغالب طلبة العلم في كل زمان ليس لهم ذوق في علم الحقيقة ولا يتطلبون علمها، ولا يجتمعون بمن يوصلهم إليها،** وقد أمر رسول الله ﷺ علماء أمته أن يذبوا عن شريعته بعد موته حسب طاقتهم، وقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء

المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»[1]، انتهىٰ. إذ ظاهر الشريعة هو الذي عليه مدار الدين في هذه الدار. وأما علوم الحقيقة فمحلها الدار الآخرة.

ثم إنه لو تأمل الصوفي في نفسه لوجد اللوم عليه هو الذي خالف ظاهر الشريعة حتىٰ أنكر طالب العلم عليه. وقد أجمع المشايخ علىٰ أنه لا يكون الصوفيُّ صوفيًّا حتىٰ يحبس نفسه في قمقم الشريعة، ويختم عليها بخاتم الحقيقة. انتهىٰ. فكان من نعم الله تعالىٰ علىٰ ذلك الصوفيِّ إنكار ذلك العالم عليه، لأنه لو تركه وما خالف فيه ظاهر الشريعة، لربما كان يُكتَب من الأئمة المضلين عن سواء السبيل.

فيا سعادة من كان مقيمًا في مثل جامع الأزهر، فإن أهله لا يكاد أحدهم يقره علىٰ ما يخالف ظاهر الشريعة، بخلاف من كان في حارة أو قرية بعيدًا عنهم، فإنه ربما كان من الهالكين، وهو يظن نفسه ممن يحسن صنعًا، وقد قالوا: يُحرَم علىٰ الصوفي أن يتظاهر بكلِّ أمر لا يشهد له ظاهر الكتاب والسنة، وإن كل من تظاهر بمثل ذلك فهو جاهل بطريق القوم، فإنها محررة علىٰ الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٣) ومما أجبتُ به عن العوام الذين رأينا أحدهم يتعاطىٰ عبادة فاسدة بنقص ركن أو شرط، بأن أحدهم ربما كان يجهل وجوب تعلم أحكام العبادات عليه، فلا ينبغي المبادرة للإنكار عليه إلا إن علمنا منه العلم بأحكام الشريعة ثم خالفها بعد ذلك ذاكرًا لها غير ناسٍ، ولا ينبغي أن نأمره بإعادة ما مضىٰ إلا بطريق شرعي، لأنه ربما كان لا يعتقد وجوب تعلمها عليه علىٰ الوجه الذي عليه العلماء، فنعلمه أحكام الشريعة، ونعرِّفه بأنه كان الواجب عليه تعلم أحكام الصلاة عند بلوغه، ليأتي بالعبادة علىٰ الوجه المشروع، ونعلمه بأن بعض العلماء أوجب عليه قضاء جميع العبادات الواجبة ولم يعذره في جهله بها، لكونه نشأ ببلاد الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجة (٤٢) وأحمد (١٧١٤٥) والحاكم (٣٢٩).

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: إذا رأيتَ شخصًا علىٰ فعل لا يوافق الشريعة، فانظر إلىٰ من ناصيته بيده سبحانه وتعالىٰ أولًا، ثم أنكر عليه ما يخالف الشريعة ثانيًا، أو علِّمه الشرع إن كان جاهلًا ثم أنكر عليه، وفي ذلك أدب مع الله تعالىٰ ومع الشريعة. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٣) ومما أجبتُ به عن أرباب الأحوال الذين يخالفون ظاهر الشريعة، وإذا أنكر عليهم أحد من العلماء عطبوه أو سلبوه من علمه، كيف صحَّ لهم القدرة علىٰ عطب من أنكر عليهم أو سلبه مع أنه مخالف للشريعة؟ ومخالفها لا كرامة له، ولا يقدِرُ عادةً علىٰ التأثير في غيره، لأنه لا يؤثر في غيره إلا بإمداد الله تعالىٰ بالقوة، والله لا يمد المبطل علىٰ وجه الكرامة له.

والجواب: أن أرباب الأحوال نوع من المجاذيب، والمجاذيب لا تكليف عليهم، ومن لا تكليف عليه فلا يسوغ لنا الإنكار عليه، فربما حارب الحقُّ تعالىٰ من أنكر عليه من حيث إن عقله مخبوء في حضرته تعالىٰ، فلا يسلمه تعالىٰ لمن يؤذيه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لو أن الفقيه أنكر علىٰ من خالف الشريعة خالصًا مخلصًا، لم يقدر أحد علىٰ سلبه، لاستناده إلىٰ الشارع، ولكنه أنكر مخلوطًا بحظِّ نفسه، فلذلك عطبه الفقراء وسلبوه. فأخلِص يا أخي في إنكارك وأنا أضمن لك أن أحدًا لا يقدر علىٰ أن يعطبك أبدًا.

وقد قلتُ مرةً لسيدي الشيخ محمد الشناوي[1]: إني رأيتُ بعض فقراء سيدي أحمد البدوي يفعلون أمورًا تخالف ظاهر الشريعة، وإذا أنكر عليهم أحد عطبوه، كيف ذلك؟ فقال: يا ولدي إنهم لا يعتقدون مخالفة ذلك للشريعة، ولو أنهم علموا مخالفته لها ما

(١) العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الشناوي الشيخ الصالح العالم المربي السالك، شيخ الفقراء بالشرقية، كان من أهل الإنصاف والأدب، وكان يلقن الرجال والنساء والأطفال كلمة التوحيد في أي بلد دخل إليه، وكان ﷺ يقول: أشعلنا نار التوحيد في هذه الأقطار، فلا تنطفيء إلىٰ يوم القيامة، ٩٣٢ هـ. الكواكب السائرة (١/ ١٩٧)، الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٧١٠).

قدروا علىٰ التأثير في أحد. انتهىٰ، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٤) ومما أجبتُ به عن من قال من الصوفية: إن العلم حجاب عن الله عزَّ وجلَّ؛ ولاث به العلماء بسبب ذلك وقالوا: كيف تجعل العلم الذي هو نور حجابًا عن الله عزَّ وجلَّ، وأنه كلما ازداد علمًا ازداد حجابًا، وقد قال الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فكيف يُؤمَر رسول الله ﷺ بطلب ما يكون به الحجاب؟

والجواب: أن المسألة عما فهمه هذا المنكِر بمعزل، فإن مراد القوم إنما هو إثبات أن العبد دائمًا خلف علمه، وأن علمه دائمًا بينه وبين الله عزَّ وجلَّ لا يمكن أن العبد يتقدم في معاملة ربه علىٰ علمه أبدًا، فهو كلام في غاية التحقيق. فإذن يا أخي ما عرف الحقَّ تعالىٰ إلا علمك لا أنت، وليس مشهودك من معرفة الحقِّ تعالىٰ إلا ما علَّمك. ولا ينبغي أن يفهم أحد عن القوم أنهم قالوا ذلك ذمًّا للعلم، فإن من ذم العلم فقد مدح الجهل، وذلك لا يقوله عاقل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: العلم دائمًا حجاب علىٰ صاحبه وهو خلفه، ضاق علمه بالله تعالىٰ وأحكامه أو اتسع، لا يمكنه أن يتقدم علىٰ علمه أبدًا. فلا ينبغي لأحد أن يظن بالقوم أن أحدهم يذم العلم الذي بأيدي العلماء أبدًا، وكيف يظن بهم ذلك وهم يشهدون أن الشريعة هي أساس طريقهم سداها ولحمتها منها؟! وأن أحدهم يحتاج إلىٰ ميزان الشريعة في كلِّ حركة وسكون، وما ثم لهم ميزان يزنون بها أحوالهم غيرها، هذا أبعد من البعيد. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ القوم وأنت جاهل باصطلاحهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٥) ومما أجبتُ به عن العالم العظيم أو الشيخ في الطريق إذا تولىٰ نظرًا علىٰ وقف أو يتيم، وزاحم الناس علىٰ ذلك، وبذل مالًا في أخذه النظر عليه، ولاث الناس به وقالوا: قد فسدت الدنيا إذا كان العلماء والمشايخ صاروا يزاحمون علىٰ الدنيا، فكيف بغيرهم؟!

والجواب: أنه يجب شرعًا حملهم علىٰ أن أحدهم ربما زاحم علىٰ ذلك حيثُ وثق

بدين نفسه، لتمكنه في مقام الزهد في الدنيا دون غيره، ولم يجد أحدًا من أقرانه يمكن في هذا المقام مثله، فخاف علىٰ دين إخوانه من باب الاحتياط لهم إذا تولوا النظر علىٰ ذلك الوقف أن يطمع أحد في شيء من مال الوقف بغير حقٍّ، أو لا يقدر علىٰ العدل بين المستحقين، أو لا يقدر علىٰ تخليص خراجه ونحو ذلك، فحمل ذلك عن إخوانه شفقةً علىٰ دينهم، ومحبةً فيهم، لا حبًّا في الدنيا، فلا إنكار إلا علىٰ من وجد أصلح منه للنظر علىٰ ذلك الوقف، ثم زاحم عليه لأجل حظٍّ نفسه.

فإياك أن تظن بالعلماء والصالحين أنهم مثلك في محبة الدنيا، فإن بين مقامك ومقامهم كما بين السماء والأرض، وتأمل قتال بعض الصحابة علىٰ الخلافة، فإنه يحرم جزمًا أن تظن بهم أن ذلك محبة في الدنيا، وإنما ذلك ليقوموا بالعدل فيها، ويمنعوا القوي أن يأخذ ما ليس له بحقٍّ من أموال بيت المال، فكان كلُّ صحابي يطلب أن يحمل عن أخيه تلك الكلفة والمشقة، ويفرِّغ أخاه للعبادة ﷺ. فإياك يا أخي ولحوم العلماء والصالحين، فإنها سم ساعة لدينك، واحملهم علىٰ ما حملت به الصحابة، فإنهم ورثتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٦) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين إذا صلىٰ أحدهم إمامًا وسها كثيرًا في صلاته، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا حاضرًا بقلبه مع الله في صلاته، ما سها فيها هذا السهو، ولكن قلبه مشتت في أودية الدنيا ونحو ذلك، بأنه قد يكون سهوه مما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله عزَّ وجلَّ، لا بسبب أمور الدنيا، فمن عظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله تعالىٰ، ذهل عن عدد ما صلَّىٰ وما قال مثلًا.

وأيضًا فإنه ليس لنا اطلاع علىٰ ما في نفس الإمام، ولا نعلم ما في نفسه إلا بإخباره لنا عن ذلك، فإذا قال: إنه خطر لي في صلاتي أن أتزوج امرأةً جميلةً مثلًا، أو أبني دارًا، أو أغرس بستانًا ونحو ذلك، فتسلسلت فيَّ الخواطر حتىٰ لم أدر ما صليت؛ فحينئذٍ لنا الاعتراض عليه الذي لم يرض نفسه بالسلوك حتىٰ ماتت خواطره المذمومة، أو لكونه لم يفرِّغ نفسه من أمور الدنيا قبل دخوله في الصلاة، ولم يعرف آداب مناجاة الحقِّ سبحانه وتعالىٰ، فإن من

آداب العبد إذا ناجىٰ ربه أن لا يلتفت بقلبه لشيء من زخارف الكونين، وليس له مقصد إلا مولاه، فكيف يشغله عنه [شيء][1] هو أقل عند العارفين من جناح بعوضة؟!

ثم اعلم يا أخي أن مقام الذهول عما صلىٰ العبد مقام شريف بالنسبة لمن كان حاضرًا مع الأكوان، أو مع ما يفعله من الأركان والسنن، لكن ثم مقام أعلىٰ منه وهو حضور العبد مع الله تعالىٰ، وشهود تجلي عظمته في قلبه، ثم لا يحجبه ذلك عن معرفته بعدد ما صلىٰ مثلًا، وهذا مقام الكمال الموروث عن رسول الله ﷺ، ولذلك قال: «إنما أنسىٰ ليُسْتنَّ بي» أي ولو لم أنسَ لم يقع مني سهو لما أنا عليه من التمكن، مع أن تجلىٰ الحقِّ عزَّ وجلَّ لقلبه بالعظمة أمر لا يتحمله أحد من خلق الله تعالىٰ إلا بتأييد منه، ولولا أن رسول الله ﷺ كان أقوىٰ من الجبل كما نبه الحقُّ تعالىٰ علىٰ ذلك بقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١] الآية لما قدر علىٰ مشاهدة الخلق مع الحقِّ، فعُلِمَ أن كلَّ من كمل في المقام، صار يشاهد عظمة الحقِّ تعالىٰ في قلبه، ويشاهد جميع أفعاله التي كُلِّف بها في صلاته، لا يشغله أحد الأمرين عن الآخر. فاحمل يا أخي شيخك في العلم والطريق علىٰ أحسن الأحوال، ولا تحمله علىٰ حال نفسك الناقص، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٧) ومما أجبتُ به عن العالم العظيم أو الصالح في الناس إذا رأىٰ أحد من العوام له رؤيا تؤذن بإزدرائه ونقص مقامه ولاث الجاهلون به وقالوا: هؤلاء كلهم نصابون علىٰ الخلق، كذابون علىٰ الله، بأنه قد تكون تلك الصورة القبيحة التي رآها العامي في منامه مثلًا إنما هي صورة الرائي لا صورة ذلك العالم، «فإن المؤمن مرآة المؤمن»[2] ولا يرىٰ الإنسان في المؤمن إلا صورة نفسه لا صورة المرآة.

ومما وقع أن شخصًا جاء إلىٰ الشيخ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه وقال: يا سيدي، رأيتُ الليلة صورتك صورة خنزير! فقال: صدقت يا أخي، فإني مرآة الوجود، فرأيتَ نفسك فيَّ، فحسبتَ أنك أنا. انتهىٰ.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبيهقي في الكبرىٰ (١٦٦٨١) والبخاري في« الأدب المفرد» (٢٣٨)، بنحوه.

فإياك يا أخي من النفرة من العالم أو الصالح إذا رأىٰ أحد لهما رؤيا قبيحة، فربما كان من إراءة الشيطان، لينفر الناس عن ذلك العالم الذي يهديهم إلىٰ طرق الهدىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٨) ومما أجبتُ به عن الفقير أو العالم إذا رأيناه يأخذ من الولاة مالًا أو ثيابًا أو طعامًا ونحو ذلك وبادر الناس إلىٰ الإنكار عليه بسبب ذلك، بأنه لا يلزم من أخذ ذلك المال أن العالم أو الفقير أخذه لغير ضرورة، فقد يكون محتاجًا إلىٰ مثله، أو أخذه علىٰ اسم أصحاب الضرورات من المديونين أو العرايا الذي مرضوا بالحب الفرنجي، فيتمهل من يريد الإنكار حتىٰ يعلم من يأخذ ذلك المال، أو يأكل ذلك الطعام، أو يلبس ذلك الثوب، ثم بعد ذلك ينظر إن أخذه ذلك العالم لنفسه أو لغيره من غير ضرورة، أنكر عليه وإلا وجب عليه التسليم.

ثم لا يخفىٰ أنه لا يلزم أن يكون كلُّ شيء في يد الولاة يُفتَىٰ بتحريم الانتفاع به، فقد يكون ذلك حلالًا أحل من المال الذي في يد شيخ الزاوية، فإن كان المنكَر عليه من أهل الكشف وكُشِف له أن ذلك المال الذي في يد ذلك الأمير حلالًا، فهو مع كشفه؛ وإن لم يكن عنده كشف، كفاه فتوىٰ أئمة الشرع، فقد أفتوا أن الظالم لو غصب مالًا ووضعه في كمه مثلًا، ثم توارىٰ عنَّا بجدار وأعطانا مالًا من كمه، جاز لنا أخذه والانتفاع به، لاحتمال أنه أبدله لما توارىٰ عنا. فحقق يا أخي كون ذلك المال مثلًا حرامًا، ثم أنكر علىٰ من انتفع به من غير ضرورة، وما لم تتحقق تحريمه، فلك الإنكار علىٰ صاحبه ندبًا وتورعًا لا وجوبًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أوصىٰ أصحابه أن يكثروا من دعاء الناس إلىٰ المشي في جنازته، أو أن يصلوا عليه في مثل جامع الأزهر، وعن الشيخ الذي أوصىٰ أصحابه وقال: لا تعلموا بي أحدًا إذا متُّ، أو سكت عن ذلك؛ ولاث الناس بهما، فقالوا في الأول: إنه مُراءٍ حتىٰ بعد موته، وقالوا في الثاني: إنه رجل مخنفس معجب بعلمه، يرىٰ نفسه غنيًّا عن دعاء إخوانه له، ونحو ذلك، بأنه لا يجوز اللوث في واحد منهما، لأن

الأول قد تكون نيته بكثرة جمع الناس للمشي في جنازته شهوده كثرة ذنوبه، فرأىٰ أنها علىٰ كثرتها لا يكفي فيها شفاعة ناس قليل عادةً.

وأما الثاني فربما قصد عدم منَّة الناس عليه في الشفاعة فيه، وعوَّل علىٰ فضل ربه، لاسيما وهو يعلم أنه قد أيس من مكافأتهم بعد موته علىٰ مشيهم معه. وقد يكون من أهل التفويض إلىٰ الله تعالىٰ، فاكتفىٰ بإعلام أصحابه بموته بعضهم بعضًا للصلاة عليه، فلم يوص بذلك أصلًا أو سكت عنه. وربما كان قوله: «لا تعلموا بموتي أحدًا» كثرة الحياء من الله عز وجلَّ، وخوف الفضيحة منهم يوم القيامة إذا كُشف لهم عن معاصيه التي عملها طول عمره. وقد كان الفضيل بن عياض يقول: إياك وكثرة المعارف، فإن الرجل إذا وقعت له فضيحة يوم القيامة، كان من يعرفه قليلًا، فهو أحسن ممن يكون معارفه كثيرة.

ويُقاس علىٰ ما ذكرناه من حفر لنفسه قبرًا، أو أوصىٰ بأن يجعلوا عليه قبةً أو مقصورةً، فيُحمَل علىٰ أنه قصد بفعل ذلك التشبه بالصالحين قياسًا علىٰ حاله أيام حياته. وقد أباح القوم ذلك علىٰ وجه التبرك بزيهم، فاعلم ذلك، واحم سمعك وبصرك وقلبك، وفوض أمر مقاصد الخلق إلىٰ ربهم.

وقد مدح الله ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل من أوصىٰ بكثرة الناس في جنازته علىٰ الرياء وحبِّ الشهرة والمفاخرة بجنازته، ولا حمل من أوصىٰ بأن لا يتبع جنازته أحد علىٰ العجب بنفسه وسوء ظنه بالناس، وأن الله لا يقبل شفاعتهم فيه ونحو ذلك، فإنه غيبة، وهي أقبح من غيبته حال حياته، لأنه ربما أمكنه براءة ذمته ومسامحته، بخلافه بعد موته، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٠) ومما أجبتُ به عن الفقير المجهول الحال الذي يكثر من حضور الولائم حتىٰ لا تفوته وليمة في بلده ولا في مقبرة، وصار الناس يسمونه ضبعًا، بأن الواجب علىٰ كلِّ مسلم إحسان الظنِّ به، فربما كان من رجال الله الذين يحضرون الولائم بقصد سترة أهلها بين الناس، لاسيما ولائم الأعراس، فكلُّ طعام حضروه أو نظروا إليه أو أكلوا منه أو حملوا منه صحنًا، أنزل الله فيه البركة أضعافًا مضاعفة. وربما طلب ذلك الفقير أن يعطوه من

سائر أنواع الطعام، فيدفعوه ويخرجوه ويقولوا له: أنت طماع! فيرفع الله تعالىٰ البركة من ذلك الطعام الذي منعوه منه، وينكشف حال صاحب الوليمة. ولو أنهم كانوا أعطوه ما طلب، لربما كفىٰ أهل البلد وفاض عليهم. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وأكرموا الفقراء المجهولين الذين يدخلون في أعراسكم وولائمكم رجاءَ بركتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢١) ومما أجبتُ به عن الفقراء المجهولين الذين يحضرون آلات اللهو، وينامون في خانات بنات الخطا دون المساجد، ويصير الناس يقعون في أعراضهم ولا يحتفلون بأمرهم ويزدرونهم، بأنه لا يجوز الإنكار عليهم ببادئ الرأي، لاحتمال أن يكونوا من رجال الله الذين يشفعون في العصاة كلما عصوا، ويسألون الله تعالىٰ عدم نزول البلاء عليهم حالَ معاصيهم، ويُسَمَّون «رجال الرحمة» يوجدون كثيرًا في بيت الوالي، وفي بيت كلِّ من يجور في حكمه، ولولا وجودهم لربما محق الله تعالىٰ العصاة عن آخرهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] بسلطانهم فيها.

وقد أدركتُ من رجال هذا المقام جماعة، منهم الشيخ وحيش[١] الذي كان بمدينة النحرارية، والشيخ تميم الذي كان بناحية شبين الكوم، كانا لا يفارقان بنات الخطا ولا مواضع ضرب العود والغناء. فابحث يا أخي عن أحوال مثل هؤلاء، ثم أنكر بعد ذلك أو اسكت، فربما صدمك أحد من هؤلاء فأتلف بدنك أو دينك.

واعلم يا أخي [أن][٢] الإنكار لا يسوغ التشديد فيه إلا علىٰ من يُتبَع علىٰ أفعاله عادةً من الفقراء وطلبة العلم ووجوه الناس. أما أرباب الأحوال فما نرىٰ أحدًا يتبعهم علىٰ أفعالهم، لأنهم عند الناس كالمجاذيب.

وقد أخبرني السيد الشريف العالم الصالح الشيخ شرف الدين بزاوية الخطيب بمصر

---

(١) علي وحيش كان ﷺ من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، وكان يأتي مصر، والمحلة، وغيرهما من البلاد، وله كرامات، وخوارق. مات رحمه الله تعالىٰ بالنجارية سنة ٩٧١هـ ﷺ. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٩).

(٢) زيادة ضرورية لاستقامة السياق.

أن شخصًا من أصحابه كان ناظر الخاص[1] قام عليه عدو، فعزله وأخذ وظيفته وسلب نعمته، فخرج إلىٰ القرافة يحمل الأولياء حملته، فرأىٰ شخصًا مكشوف الرأس يبول علىٰ أوراكه واقفًا، والهواء يرد رشاس بوله علىٰ وجهه، فقال له ناظر الخواص المعزول: يا سيدي، اجعل ظهرك للهواء وبُل. فقال: يا مسكين، لو كنتَ في دركي لقضيتُ حاجتك. فقال له: يا سيدي، وأين دركك؟! فقال له: العريش[2] وأنت رايح للشام. فقال[3] له: يا سيدي، ومن صاحب درك مصر؟ فقال: حسن الخلبوص الذي في خان بنات الخطا بناحية زفتىٰ، فرح إليه يقضي حاجتك. فذهب إليه، فوجد واحدة من بنات الخطا راكبة علىٰ ظهره وهي تصفعه في عنقه، فلما رآه قال لها: انزلي، فإنهم أرسلوا لنا خرية من مصر! فنزلت وقال له: قد قُضِيت حاجتُك ارجع. فرجع إلىٰ مصر، فوجد خصمه جالسًا في داره وهو أخرس مكسح، وذلك أنه خرج له سبع عظيم من حائط البيت وقال له: ارجع عن فلان وإلا أكلتك! وفتح له فمه، فانزعج منه، فخرس وتكسح، وكتب له في ورقة: قد رجعت عنك، فخذ وظيفتك. ثم حكىٰ للسلطان ما جرىٰ له. انتهىٰ.

فإياك يا أخي ثم إياك من الإنكار علىٰ من لا تعرف حاله، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٢) ومما أجبتُ به عن الذين ينامون في محاريب الأئمة ولا يراهم أحد يصلون مع وجود عقل التكليف، ويصير الإمام والناس ينكرون عليهم، بأن أحدهم ربما كان من رجال الله الذين يخرِّبون ما بينهم وبين الناس، لخبث الزمان حتىٰ لا يكاد أحدهم يعتقدهم.

وقد حكىٰ لي الشيخ محمد الإمام بجامع سمانود البحري قال: كان شخص عليه بِشْت[4] وقحف ينام في محراب الجامع، فكلما أردت الصلاة في المحراب أجده نائمًا فيه، فوكزته برجلي في ضلعه يومًا، وقلتُ له: قم! فقام ودفعني في حائط المحراب،

---

(١)ناظر الخاص هو الذي ينظر في خاصّ أموال السلطان.

(٢) العريش: إحدىٰ مدن محافظة شمال سيناء بمصر.

(٣) بالأصلين: فقلتُ.

(٤) البِشْتُ : كِسَاءٌ من صَوف غليظ النَّسج، لا كُمَّيْن لَهُ، يرتديه أهْلُ الريف في الشتاء.

فوجدتُ نفسي في أرض قفراء وعرة، ليس فيها أنيس، فصرتُ أمشي في الوعر حتىٰ جُرِحَت أقدامي وخرت الدم، فلففتُ علىٰ رجلي قطعةً بعد قطعةٍ من عمامتي حتىٰ تقطعت كلُّها. ثم تراءت لي شجرة فقصدتُها، فوجدتُ عندها عين ماء، فشربتُ منها وغسلتُ وجهي، ورأيت موضع أقدام في الأرض مبلولة فتبعتها، فإذا بجماعة عليهم ثياب نظيفة في ذروة جبل، وإذ بذلك الشخص الذي كان في المحراب هو إمام الجماعة، فلما سلَّم من صلاة العصر، التفت إلىٰ الجماعة وقال: من فيكم يشهد فيَّ بأني لا أصلي؟ فقالوا بأجمعهم: حاشاكم من ذلك! قال: فبرئوني عند هذا الرجل! فتاب الإمام إلىٰ الله تعالىٰ وقال: لا أعود! فقال الشيخ: ليقم واحد منكم يردُّه إلىٰ سمانود، فإن المصلين ينتظرونه، لكن بشرط الكتمان. فقام واحدٌ وقال له: هل تعرف كم بينك وبين سمانود؟ فقال: لا! فقال: سفر سنة كاملة! ثم دفعه فخرج من حائط المحراب وعمامته مشرمطة[1]، وانقطع الشيخ عن محراب سمانود من ذلك اليوم. وقد بسطنا الكلام علىٰ أحوال هؤلاء الرجال في «العهود المحمدية» والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٣) ومما أجبتُ به عن المدرسين إذا تزاحموا علىٰ التدريس ومكانه في مثل جامع الأزهر، وقال الناس: إن ذلك كله من علامات الرياء وحب الشهرة، بأن الواجب علىٰ كلِّ مسلم أن يحمل كلًّا من العالِـمَين علىٰ أنه قصد أن يكون مجلسه بارزًا للناس يعرفه الناس بمكانه، ليستفتوه ويسألوه عن العلم، كما قالوا ذلك في مجلس القاضي. ولا يجوز حمل العلماء علىٰ الرياء وحبِّ الشهرة، لاسيما إن أظهر أحدهما الفرح والسرور إذا كبرت حلقة درسه وعظَّمه الناس، فإن بركة علمه تمنعه من مثل هذا القصد، أو من إصراره عليه إذا وقع له، فيجب حمله علىٰ عدم الرياء، والتوبة من ذلك فورًا كلما خطر له ذلك. وليس لأحد الدخول بين الخلق ونياتهم، أو بينهم وبين ربهم، كما أشار إليه حديث: «أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني

(١) أي مكونة من شراميط، وهي قطع القماش الصغيرة.

دماءهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلام وحسابهم علىٰ الله»[1]. انتهىٰ. فانظر كيف قال: «وحسابهم علىٰ الله» أي من أجل تحقيق نياتهم.

فإياك يا أخي ثم إياك من ظنِّ السوء بالعلماء وحملهم علىٰ حال نفسك الناقص، لاسيما إن ترافع العالمان إلىٰ الحكَّام، وطلب كلُّ واحد أن يجلس في صدر جامع الأزهر أو صحنه مثلًا، فإن النية إذا صلُحت، كان طلب الاستعانة بالحكام مطلوبًا، لأنه غرض شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا وسَّع الله تعالىٰ عليه الدنيا، فتوسع فيها في مأكله وملابسه ومناكحه وداره، ولم يطعم فقيرًا منها شيئًا، وصار الناس يقولون: هذا الشيخ لم يشم لطريق القوم رائحة، ويخرجونه من مقام الزهد في الدنيا، بأن هذا الشيخ ربما كُشِفَ له أن الفقراء ليس لهم فيما بيده من الدنيا، فعمل بكشفه. ومصداق ذلك عدم دخولهم إلىٰ شيء من الدنيا علىٰ يديه، فإنه لو كان لهم فيه نصيب، لوصل إليهم ولو بالنصب والغصب، فافهم.

وربما كان هذا الشيخ يحبُّ صدقة السرِّ، لكونها تضاعف علىٰ صدقة العلانية بسبعين ضعفًا، فهو يخاف من إظهارها، فيظنُّ الناس أنه بخيل، والحال أنه أكرم من جميع من في البلد.

أو ربما كان ذلك الشيخ من رجال الله المتمكنين في مقام العبودية الذين يسألون الله تعالىٰ أن لا يجعل لأحد علىٰ يديهم رزقًا، خوفًا من أن يخطر علىٰ بالهم أن لهم منَّة علىٰ أحد من عباد الله في الدنيا والآخرة. وإنما لم يسألوا الله تعالىٰ أن يجعل أرزاق معارفهم علىٰ يدهم ويحفظهم في ذلك من رؤية المنة، احتياطًا لأنفسهم من الوقوع في مُسمَّىٰ المنة، وجعلوا المنَّة لله وحده علىٰ عباده كما هو في نفس الأمر.

فإن قال قائل: قد يكون لهذا الشيخ أتباع، فيتبعونه علىٰ التوسع في الدنيا، ويمنعون

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١).

الفقراء بخلًا، ولا يذوقون مشهده فيهلكون، وذلك غش منه لأصحابه؛ قلنا: قد يكون هذا الشيخ لا أتباع له، أو له أتباع وسأل الله تعالىٰ أن يحفظهم من أن يتبعوه في ذلك، وأجاب الله تعالىٰ دعاءه.

وربما قصد ذلك الشيخ بإظهار توسعته في مآكله وملابسه وغير ذلك إظهارَ نعمة الله تعالىٰ عليه، وسدَّ باب افتقاد الأغنياء له بالهدايا، كما هو شأن أكابر العلماء والصالحين. ومعلوم أن إظهار العبد نعمة الله عليه مطلوب شرعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ: ١١]. وقد رأىٰ رسول الله ﷺ رجلًا رث الثياب، فقال له: «أما لك مال؟ فقال: لي من كل المال يا رسول الله. فقال له: أفلا يُرىٰ أثر نعمة الله عليك»[1] رواه الطبراني وغيره.

فإن قال قائل: إن من يتوسع في الدنيا في مثل هذا الزمان لا يجد ذلك من حلال، وإنما هو من الحرام والشبهات، ومعلوم أن ترك ذلك أولىٰ من أخذه والتوسع فيه وإظهار النعمة عليه به، ومعلوم أن إظهار العبد للنعمة لا يكون مطلوبًا منه إلا إن وجد ذلك من حلال؛ **فالجواب**: أنه قد يكون هذا الشيخ ممن اعتنىٰ الله تعالىٰ به، واستخلص الحلال الكثير من بين فرث الحرام ودم الشبهات، كما عليه الأكابر من الأولياء، كسيدي عبد القادر الجيلي، والشيخ محمد الحنفي[2]، والشيخ مدين، والشيخ أبي الحسن البكري[3] وولده سيدي محمد البكري[4] وأضرابهم، بقرينة وصول ذلك إليهم بغير سؤال منهم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٦) والنسائي (٥٢٢٣) والطبراني في «الكبير» (٦٠٨).

(٢) محمد بن حسن بن علي التيمي البكري الشاذلي، أبو عبد الله شمس الدين الحنفي صوفي مصري من أهل القاهرة. اشتهر بأخبار حكيت عنه مع السلطان فرج بن برقوق وغيره.من مصنفاته: «الروض النسيق في علم الطريق» شرح به كلام شيخه محمد العجان ت ٨٤٧هـ. الأعلام (٦/ ٨٨) و«الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٩).

(٣) محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الحسن البكري الصديقي مفسر متصوف مصري، من علماء الشافعية. ولد وتوفي بالقاهرة، شاع ذكره في أقطار الأرض مع صغر سنه. له مصنفات منها: «تسهيل السبيل» في تفسير القرآن، ويسمىٰ «تفسير البكري» و«شرح العباب» و«عقد الجواهر البهية في الصلاة علىٰ خير البرية». ت ٩٥٢هـ. «الأعلام» (٧/ ٥٧)، «شذرات الذهب» (١٠/ ٤١٩).

(٤) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي الأشعري المصري، أبو المكارم

وبلا واسطة حال أو قال، وربما صار المُهدِي إليهم يقبِّل رجلهم ليقبلوا منه هديته، فلا اعتراض إلا علىٰ من يطلب الدنيا من الناس من غير ضرورة أو علىٰ اسم الفقراء، ويختص بها دونهم، أو من يتوسع في الدنيا لحظِّ نفسه غافلًا عن الشكر وعن إظهار النعم عليه، أو يتبعه الناس علىٰ مثل ذلك من غير ذوق لمقامه.

واعلم يا أخي أن المذموم من الدنيا إنما هو **الميل بالقلب إليها لغير غرض شرعي، وأما كونها في اليد دون القلب، فذلك مطلوب شرعًا**، ولو كان المراد تركها من اليد لما أقرَّ النبي ﷺ أحدًا من الصحابة علىٰ التجارة.

ثم إننا إذا رأينا وليًّا بخيلًا، فمن الواجب حمله علىٰ أن ذلك ليس ببخل حقيقة، وإنما هو منه لحكمة، تخلقًا بأخلاق الله تعالىٰ، فإن من أسمائه «المانع» فهو تعالىٰ يمنع من شاء من عباده لحكمة دون بخل تعالىٰ الله عن ذلك. فإياك والاعتراض علىٰ الأشياخ ثم إياك، فإنك دونهم في العلم بالله تعالىٰ وبأحكامه بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٥) ومما أجبتُ به عن المقريء إذا قرأ القرآن في وليمة والي أو أمير مثلًا ودعا لمن حضر من الباشاه أو قاضي العسكر أو الدفتردار مثلًا بدوام ولايته، وأن يفسح في أجله، وأكثر من الابتهال في الدعاء، وحمله الناس علىٰ الرياء والسمعة للأمير، ليحسن إليه ويميل إليه، بأن ذلك سوء ظن به، وذلك حرام، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه دعا لذلك الأمير أو القاضي لغرض شرعي، من حيثُ إن بوجود وليِّ الأمر مثلًا يحفظ الله تعالىٰ نظام العالم والشريعة عن الاختلال، فلو كان هناك أحد من أهل الكشف وقال للناس: إن هذا إنما دعا للأمير رياءً وسمعة؛ قلنا لهم: هذا كشف شيطانيٌّ، وقد حرَّم الله تعالىٰ العمل به، وحرَّموا علىٰ صاحبه إخبارَ الناس به، وأوجبوا عليه التوبة منه فورًا.

وكان سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إذا رأيتُم عالمًا أو شيخًا في الطريق يمدح أميرًا

شمس الدين. ولد ٩٣٠ هـ، أخذ علوم الشرع والتصوف عن أبيه شيخ الإسلام أبي الحسن، وتفقه علىٰ جماعة غيره، كان عظيم الحلم، واسع الصدر، حسن الخلق جدًا، لا يقابل من يؤذيه، ولا ينتقم ممن يعاديه، توفي سنة ٩٩٤ هـ. النور السافر ص٣٦٩، الكواكب الدرية (٣/ ٤٥٩)، معجم المؤلفين (١١/ ٢٨١).

ويبالغ في مدحه، فاحذروا أن تحملوه علىٰ أنه محبة لغرض دنيوي، وإنما الواجب أن تحملوه علىٰ أنه إنما أحبه لله عزَّ وجلَّ من حيثُ إن الله تعالىٰ أمَّره علىٰ المسلمين، وأعطاه التصرف فيهم، فمن كرهه فكأنه يرجِّح نظره علىٰ مراد الله تعالىٰ، فإياكم أن تكرهوا من ولَّاه الله تعالىٰ [عليكم لظلمه لكم مثلًا، فإنه ما ظلمكم في زعمكم إلا بأعمالكم، فتوبوا من كل ذنب يعلمه الله تعالىٰ] منكم، وأنا أضمن لكم أنه يصير بإذن الله تعالىٰ يحسن إليكم.

وإن كان أحدكم ولابد كارهًا لذلك القاضي أو الأمير مثلًا، فليتعرف ذلك من توجهه إلىٰ الله تعالىٰ، كأن يتوضأ ويصلي ركعتين لا يحدِث فيهما نفسه، ثم يسأل الله تعالىٰ أن يطلعه علىٰ حال ذلك الشخص عنده، نظير ما ورد في الاستخارة[1]. وإن دعا بدعائها كان أولىٰ، ثم بعد ذلك يعمل بما ينشرح به صدره أو ينقبض، فإن ألقىٰ الحقُّ تعالىٰ محبته في قلبه فذاك، ووجب عليه محبته زيادةً علىٰ محبته الأولىٰ، وإن ألقىٰ في قلبه الحقُّ تعالىٰ كراهته، توقف عن الكراهة، فربما يكون ذلك تلبيسًا من إبليس، وقد نهانا الشارع عن الدعاء علىٰ السلطان وعلىٰ ولاة الأمور أدبًا مع من ولاهم سبحانه وتعالىٰ، فالعاقل من أتىٰ البيوت من أبوابها. والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٦) ومما أجبتُ به عن من كان يترددُ إلينا ليلًا ونهارًا، ثم تركنا أيامًا وشهورًا أو سنين كأنه لم يعرفنا بأنه ربما كان سبب تركه التردد إلينا اشتغاله بأمور مهمة في دينه أو دنياه مقدَّمة شرعًا علىٰ زيارتنا أو عيادتنا، أو[2] أنه لا يجد نية صالحة يأتي إلينا بها، أو ربما

---

(١) حديث الاستخارة أخرجه البخاري (٧٣٩٠) من حديث جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن. يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم تسميه بعينه - خيرًا لي في عاجل أمري وآجله - قال: أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» وأبو داود (١٥٣٨).

(٢) بالأصلين: إذ.

قصد بذلك إدخال الراحة علينا بعدم تعبنا في مكافأته بالتردد إليه بحكم العدل، أو ربما رأىٰ منا ما يكره، ففارقنا بحقٍّ، وقد كان رسول الله ﷺ يتفقد من ينقطع عن مجلسه من أصحابه، وكثيرًا ما يذهب إلىٰ من انقطع عن مجالسته ويقول له: «لعلك وجدت منا أو من أصحابنا شيئًا تكرهه»[1]. انتهىٰ. قلتُ: وهذا من باب التشريع لأمته ﷺ.

ثم إن هذا الأمر خاص بمن صحبنا من آحاد الناس. أما الأكابر كالعلماء والصالحين والأمراء، فمن الواجب عدم العتب عليهم، بل نرىٰ الفضل لهم في عدم التردد، فإن جميع ما معنا من المدد لا يساوي خطوة واحدة يخطوها أحدهم إلينا، لاسيما قاضي العسكر أو الدفتردار[2]، فإن مجيء أحد منهما إلينا يدخلنا في غاية التعب من جهة الشفاعة عنده في عمال السلطان وأرباب الوظائف، فلا يسعه أن يجيبنا إلىٰ الشفاعة فيهم، لأن الدفتردار معد لجمع مال السلطان في خزانته لا أن يسامح فيه العمال، والقاضي مجتهد في تقديم الأصلح علىٰ غيره، فهو أعلم منا بأحوال الناس.

وقد كان الأمير إبراهيم الدفتردار يتردد إليَّ قبل أن يتولىٰ وظيفة الدفتردارية، فلما تولىٰ أرسل يقول لي: إنما تركتُ التردد إليك رحمةً بك وشفقةً عليك من التعب في شفاعات العمال، وأنا والله باقٍ علىٰ محبتي واعتقادي؛ فقبلتُ منه ذلك، وشكرتُ فضله عليه.

وقد كان لي صاحب يجالسني ليلًا ونهارًا ثم انقطع عني، فأرسلتُ أقول له: إنك أوحشتنا كثيرًا! فقال: والله ما تركتُ التردد إلا لكوني أرىٰ نفسي لا أصلح لصحبتكم، فإني علمتُ من نفسي كثرة وقوعي في غيبة أعدائي بحضرتكم، وخفتُ أن يغلب عليكم الحياء مني، فلا تردُّوا عمن اغتبتُه، فيحصل لكم الإثم، فاحتطتُ لنفسي ولكم؛ فصدقتُه وقبلتُ منه ذلك العذر، وشكرتُ فضله علىٰ ذلك.

---

(١) لم أقف عليه، لكن تفقده ﷺ لأصحابه ورد في وصف أبي هالة له عليه الصلاة والسلام أخرجه الترمذي في الشمائل (٣١٩)، والطبراني (٤١٤).

(٢) الدفتردار: المسؤول عن سجلات الحسابات وقيود سجلات الخزينة. وكان دفتردار العاصمة إستانبول بمثابة وزير المالية حاليًا، يتبعه دفتردار لكل ولاية أدنىٰ مرتبة منه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: من أدب الفقير الدال علىٰ صدقه في طلب الطريق أن يشكر فضل كلِّ من لم يتردد إليه، فإنه ربما دخل عليه وهو في ذكر أو علم أو مراقبة، فشغله عن ذلك أو عن كمال الإقبال فيه، وكدَّر عليه وقته. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل من ترك التردد إليك علىٰ الكبر أو غيره من المحامل السيئة، فإن ذلك حرام عليك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أصغىٰ إلىٰ من مدحه في مجلس، ولم يقل مثلًا: نحن من أقل الناس؛ فلاث الناس به وقالوا عنه: إنه يحب مدحه في المجالس، ولو كان يكره ذلك، لزجر المادح له، عملًا بحديث: «احثوا في وجوه المادحين التراب»[1] ونحو ذلك، بأنه لا يلزم من سكوت الشيخ علىٰ مدحه رضاه به، فقد يكون سكوته إنما هو من الخجل الذي حصل له من ذلك المدح، كما هو شأن غالب الناس، ولذلك ورد فيمن مدح أخاه بحضرة الناس: «قطعت ظهر أخيك»[2]. انتهىٰ.

ويُحتمَل أيضًا أن يكون في ذلك الوقت في مقام الرياضة لنفسه، فرأىٰ أن إيهام الناس أنه راضٍ بالمدح أقوىٰ في رياضتها، وأبعد عن حظوظها، من حيثُ إن الناس لا يعظمونه بذلك، وإنما يعظمونه بكثرة التواضع.

ثم بتقدير أن الشيخ فرح بالمدح، فيُحمَل علىٰ فرحه بذلك من حيثُ شهودُه أن الله تعالىٰ هو المجري له علىٰ لسان ذلك المادح، مع حفظ الشيخ من رؤية نفسه بذلك علىٰ الناس، فيصير المادح يمدح والشيخ ذائب من شدة الخجل من الله تعالىٰ ومن الناس.

وتأمل إذا اطلع إنسان علىٰ فاحشة، وخاف منه العاصي أن يذكرها للناس، ثم إن العالم بتلك المعصية صار يمدح ذلك العاصي في المجالس بعد ذلك كيف يصير يخجل منه كلما مدحه، وكذلك الشيخ إذا مدحه إنسان بين يدي ربه العالم بسريرته، وأخذ ذلك

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢)، وأبو داود (٤٨٠٤) وابن حبان (٥٧٦٩).

(٢) ذكره بهذا اللفظ المتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٥٢) وعزاه للطبراني في الكبير ولم أجده فيه، والحديث عند البخاري (٢٦٦٣) بلفظ: «قطعت عنق صاحبك»، ومسلم (٣٠٠٠).

المدح علىٰ لسان الحقِّ تعالىٰ يكاد يذوب من الخجل.

وفي كلام ابن عطاء الله في كتاب «الحكم»: «العارفون إذا مُدِحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحقِّ، والعبَّاد إذا مُدِحوا انقبضوا لشهودهم ذلك من الخلق». انتهىٰ.

وقد قالوا: من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها. وقالوا: إذا مدحك أحد في الملأ فاسكت، فإنه أقوىٰ في رياضة النفس. ولكن بلغنا عن الإمام أبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين أنهم كانوا يقولون إذا مُدِحوا: «اللهم اجعلنا خيرًا مما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون». ومدح عدو مرة الإمام عليًا[1] في مجلس، فقال له الإمام: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٨) ومما أجبتُ به عن فقراء الأحمدية أو البرهانية أو الرفاعية مثلًا إذا لبس أحدهم لباس الصالحين، ثم فعل أفعالًا لا تليق بالفقراء الصادقين، بأن أحدهم ربما كان جاهلًا بقواعد الطريق، فظن أنه لبس الذي يكفيه، فهو معذور من هذا الوجه، وإن كان غير معذور من جهة عدم تعلمه قواعد طريق سلفه في الماضي، فعلِّمه يا أخي قواعد طريق سلفه، ثم أنكر عليه بعد ذلك إذا خالفها. وإن رأيته لا يهتدي للتعلم كغالب السمران من فقراء الأحمدية، فأعرض عنه ولا تتعب نفسك فيه، وربما تكون سريرته عند الله أطهر من سريرتك، فإياك واحتقاره، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الحيِّ أو المدفون إذا سرق اللصوص أمتعته أو ستره أو شمعه أو قناديله، وقال الناس: لو كان هذا وليًّا لله عزَّ وجلَّ، لقيد السارق حتىٰ مسكه الناس وأسلموه للوالي، بأن ذلك لا يقدح في كمال ولاية الوليِّ، بل من كماله أن الدنيا كلَّها لو كانت بيده ثم أخذها لص منه، لا يطالبه بذلك لا دنيا ولا أخرىٰ، فإن الدنيا لا تزن في عيون الأولياء جناح بعوضة، فماذا يخص ذلك الولي من جناح البعوضة إذا قُسِّم علىٰ أهل الأرض جميعًا حتىٰ يقيد مسلمًا موحدًا يحب الله ورسوله، ليسلمه الناس إلىٰ

(١) بالأصلين: عليٌّ، والمثبت الصواب نحويًا.

الوالي، فيعاقبه أو يقتله ويصير ذلك في ذمته؟!

فعُلِمَ أنه لا يجوز احتقار ذلك الشيخ الذي سرقوا ستره مثلًا، بل ذلك دليل علىٰ كماله في الطريق وكرم نفسه، فإنه ﷺ يعلم أن الستر والشمع المعلَّق لم يأمر الشرع به، إنما ذلك معدود من البدع[1]. وأيضًا فإنه قد ورد مرفوعًا: «ما جُبِل وليٌّ لله تعالىٰ إلا علىٰ السخاء وحسن الخلق»[2] والسخي لا يتأثر علىٰ شيء أُخذَ منه، ولا يؤذي مسلمًا بسببه.

وربما كان ذلك اللص الذي أخذ ذلك الستر ما أخذه حتىٰ شاور الشيخ بقلبه وقال له: دستور يا سيدي آخذ هذا الستر، لأجعله غطاء علىٰ أولادي في الشتاء! كما وقع لسيدي أحمد الزاهد، فسمع شخص قائلًا يقول في الليل وهو خارج القبة: دستور يا سيدي أحمد آخذ هذا الستر. فقال له الشيخ من ضريحه: خذه وأرحني منه! انتهىٰ. هكذا أخبرني به بوَّاب جامعه بخط المقسم. فإياك يا أخي ثم إياك أن تقع في حقِّ أولياء الله إذا سرق أحد متاعهم ولم يؤذوا الذي سرقه.

وإياكم إذا عرفتم ما قررناه أن تحكموا علىٰ الوليِّ الذي قيَّد السارق بالنقص وتقولوا: لو كان كاملًا لسامح السارق؛ فإن ذلك قد لا يكون بواسطته، بل بغير خاطره، وإنما القدرة غارت علىٰ السارق في إخلاله بحرمة أولياء الله تعالىٰ عادة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٠) ومما أجبتُ به عن الإمام الغزالي في قوله بوجوب الخشوع في الصلاة والحضور مع الله تعالىٰ فيها من أولها إلىٰ آخرها، وقال الفقيه في حقِّه: هذا منزع صوفيٌّ لا يجب العمل به علىٰ الأمة، بأن مراد الإمام ﷺ أن ذلك واجب علىٰ الأكابر كأهل العلم والصلاح، لا علىٰ العوام، فإن مثل الإمام الغزالي لا يجهل مثل ذلك، فلكل مقام رجال.

ومن هذا الباب قوله ﷺ بوجوب تشخيص أفعال الصلاة كلِّها حال النية والتكبير، فإن الشيخ ما ذكر ذلك إلا في حقِّ الأولياء الذي غلبت روحانيتهم علىٰ جثمانيتهم، إذ

---

(١) أي معدود من البدع الحسنة، فهو مباح وليس بواجب حتىٰ يطالب به.

(٢) أخرجه الديلمي (٦٢١٤)، وذكره السيوطي في اللآليء المصنوعة (٢٧٧)، وقال: قال الدارقطني: الحديث لا يثبت.

من شأن الأرواح أن تقدر علىٰ تشخيص أفعال الصلاة كلِّها في لمحة، بخلاف أصحاب الجثمانيات، فإن أحدهم لا يتعقل شيئًا إلا بعد شيء علىٰ التدريج، وذلك يستدعي أن الإمام يفرغ من صلاة الرباعية، ولا يستحضر الناوي جميع أفعال الصلاة وأقوالها، فافهم.

وإياك أن تقول عن كلام أهل الطريق في مثل ذلك: «هذا منزع صوفي» وتسكت، بل عقِّبه بقولك: لا يقدر أمثالنا علىٰ المشي عليه، أدبًا مع أصحاب ذلك المقام من النبي ﷺ ومن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين، فإن اعتقادنا فيهم كلهم أن روحانيتهم كانت قد غلبت علىٰ جثمانيتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣١) ومما أجبتُ به عمن اعتزل الناس في بيته، ولاث الناس به وحملوه علىٰ التكبر، بأن حمله علىٰ مثل ذلك لا يجوز، فإن العزلة من السنن المشهورة في السنة، ولكن قد قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ تصير السنة بدعة»[1]، فإذا ترك البدعة يقول الناس: تركت السنة، انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا انقطع صاحبكم في بيته واعتزل الناس، فإياكم أن تحملوه علىٰ التكبر أو غيره من المحامل السيئة، فربما كان الباعث له علىٰ العزلة شهوده في نفسه كثرة نقائصه، فاستحيا أن يجلس لأجلها مع الناس. وربما شهد من نفسه قلة ضبط لسانه عن الوقيعة في الناس، فخاف أن يتبعه الناس علىٰ ذلك أو يسيئوا الظن بمن وقع هو في عرضه، فلا يقدرون بعد ذلك علىٰ شهود الكمال فيه،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٢٥٩) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: سيجيء في آخر الزمان أقوام، تكون وجوههم وجوه الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، أمثال الذئاب الضواري، ليس في قلوبهم شيء من الرحمة، سفاكون للدماء، لا يزعون قبيحًا، إن تابعتهم واربوك، وإن تواريت عنهم اغتابوك، وإن حدثوك كذبوك، وإن أمنتهم خانوك، صبيهم عارم، وشابهم شاطر، وشيخهم لا يأمر بمعروف، ولا ينهىٰ عن منكر، الاعتزاز بهم ذل، وطلب ما في أيديهم فقر، الحليم فيهم غاو، والآمر بالمعروف فيهم متهم، المؤمن فيهم مستضعف، والفاسق فيهم مشرف، السنة فيهم بدعة، والبدعة فيهم سنة، فعند ذلك يسلط الله عليهم شرارهم، ويدعو أخيارهم فلا يستجاب لهم» والطبرني في «الصغير» (٨٦٩).

لاسيما إن خاف من السامعين أن يبلِّغوا ذلك لمن وقع في عرضه، فيؤذونه أشدَّ الأذىٰ، فهو صاحب مصيبة في دينه، وذلك عذر مقبول في عدم خروجه إلىٰ الناس. ولم يزل خواص الناس في كلِّ عصر يحتاطون لأنفسهم، ولا يخالطون إلا من علموا منه الصداقة والود، وقليل ما هم.

فاحمل يا أخي أخاك إذا انقطع في بيته علىٰ المحامل الحسنة، وإياك أن تتكدر ممن لا يجالسك، وأقلل أنت الآخر من مجالسته احتياطًا لدينه ولدينك، فإنه قلَّ مجلس لغو مباح إلا وتقع فيه الغيبة، فهو إلىٰ الإثم أقرب، ومن شك فليجرب، وقد كان الناس في الزمن الماضي إذا اجتمعوا يستفيد بعضهم من بعض، فصاروا اليوم يسخر بعضهم من بعض. وقد تمنىٰ الإمام الشافعي صديقًا يوافقه فلم ييسر له وأنشد:

أحب من الإخوان كل مواتي	وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أرومه	ويحفظني حيًّا وبعد مماتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته	فقاسمته ما لي مع الحسنات

وأنشد أيضًا:

صديق ليس ينفع يوم بؤس	قريب من عدو في القياس
وما يبقىٰ الصديق بكل عصر	ولا الإخوان إلا للتأسي
خبرت الدهر ملتمسًا بجهدي	أخا ثقة فأكداني التماسي
تنكرت البلاد عليَّ حتىٰ	كان أناسها ليسوا بناسِ

وأنشدني والدي رحمه الله:

الناس داء دفين لا دواء لهم	العقل قد حار فيهم فهو منذهل
إن جئتَ منبسطًا سمُّوك مسخرة	أو كنت منقبضًا قالوا به ثقل
وإن تخالطهم قالوا به طمع	وإن تجانبهم قالوا به ملل
وإن تزندقت قالوا فيك منقصة	وإن تزهدت قالوا زهده حيل

إلىٰ آخر ما قال.

وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: لا غم يعدل فراق الإخوان، ولا سرور يعدل اجتماعهم، ولكن أين الإخوان؟! وكان يقول: لولا مجالسة الإخوان في هذه الدار، والتهجد في الأسحار، ما أحببتُ البقاء فيها. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٢) ومما أجبتُ به عن قول بعض الصوفية: أنا أعرف بعض أخبار السماوات التي تقع فيها كلَّ يوم؛ ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه قد يصدق في ذلك إذا وقع بينه وبين الملَكين الكاتبين الحافظين اتحاد ومحادثة، فصارا يخبرانه عما يقع في السماوات، كقولهم فلان رُدَّ عمله، فلان عمله مقبول، فلان يحبُّه الله، فلان يبغضه الله، ونحو ذلك.

وقد يكون ذلك الفقير ممن غلبت روحانيته علىٰ جثمانيته، فصارت روحه طوَّافة بالملكوت الأعلىٰ، يسمع ما يُقال هناك كلما نام، إذ الممنوع إنما هو الطواف في السماوات بالجسم، وأما الروح فلا منع منه، كما أن الممنوع من رؤية الملائكة إنما هو حال تكليمهم للعبد، أما سماع كلامهم من غير رؤية أشخاصهم، أو رؤية أشخاصهم حال عدم كلامهم، فلا منع، فلا يجمع بين رؤية الملك وسماع كلامه معًا إلا رسول، وذلك لأنه يريد أن ينشيء شرعًا جديدًا، أو ينسخ شرع من قبله ويثبت شرعًا آخر، فاحتاج إلىٰ زيادة تقوِّي قلبَه، بخلاف الوليِّ، فإنه إنما يدعو بشرع ثابت مقرَّر قبل وجوده هو، ولو أنه أتىٰ بشرع يخالف شرعه نبيه لا نقبله منه، فافهم.

وقد كان ثابت البناني ﷺ يقول بعد صلاة المغرب وبعد صلاة الصبح كلَّ يوم: السلام علىٰ الملَكين الكريمين الكاتبين الحافظين، اكتبا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص] أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأشهد أن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. فما مات حتىٰ كلَّمه الملكان، وكانا يخبرانه بأعماله وأعمال أصحابه المقبولة والمردودة، ليشكر الله تعالىٰ علىٰ المقبولة، ويستغفر الله تعالىٰ من

المردودة. هكذا ذكره ابن نجاح[1] في كتابه «سبل الخيرات».

وقد أجاب الشيخُ عبد الغفار القوصيُّ[2] رحمه الله بنحو ما ذكرناه في قول الشيخ أبي الحجاج الأقصريِّ[3] رحمه الله لمن سأله عن حاجة: «اصبر حتىٰ ينزل عليَّ عزرائيل، أو حتىٰ أسأل عنها جبريل» ونحو ذلك، فقال: إن قلوب العارفين لها تطواف بالملكوت الأعلىٰ، فربما أشرفت علىٰ ما يقع في السماوات مما يتعلق بأعمال أهل الأرض الصاعدة كلَّ يوم. قال: ولا منع من ذلك إلا إن ادعىٰ الوليُّ أن الملَك يأتيه بشرع جديد. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تبادر إلىٰ القول بتكفير من قال: صافحتُ جبريل هذه الليلة مثلًا، فإنه ورد في الحديث: «أنه يصافح قوَّام ليلة القدر»[4]. وقد يخرق الله العادة لبعض أوليائه فيصافحه في غير ليلة القدر، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٣) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا بالغ في التواضع حتىٰ صار يقوم للفسقة ويقول:

---

(١) يحيىٰ بن نجاح بن القلاس، أبو الحسين القرطبي: متفقه. من أهل قرطبة. حج واستوطن مصر، ومات بها. له كتاب «سبل الخيرات في المواعظ والوصايا والزهد والرقائق». توفي:٤٢٢ هـ. الأعلام» (٨/ ١٧٤).

(٢) عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد الأنصاري القوصي، المعروف بابن نوح: فاضل متصوف، أصله من الأقصر -بصعيد مصر- اشتهر بقوص. يتصل نسبه بسعد بن عبادة. من مصنفاته: «الوحيد في سلوك أهل التوحيد». توفي: ٧٠٨ هـ بالقاهرة. «الأعلام» (٤/ ٣١).

(٣) يوسف بن عبد الرحيم بن عربي القرشي المهدوي الأقصري، أبو الحجاج: من كبار الصوفية في عصره. نزل بالأقصر -بصعيد مصر- وقبره فيها معروف إلىٰ الآن. وكان في شبابه مشارفًا للديوان. وتجرد وكثر أتباعه. وهو من أهل الرواية والعلم.من مصنفاته: «منظومة في التوحيد» توفي: ٦٤٢هـ. «الطبقات الكبرىٰ للشعراني» (١/ ١٣١)، «الأعلام»(٨/ ٢٣٨).

(٤) أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٤٤) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام في كبكبة من الملائكة يصلون علىٰ كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل، فإذا كان يوم عيدهم، يعني يوم فطرهم، باهىٰ بهم ملائكته، فقال: يا ملائكتي ما جزاء أجير وفىٰ عمله؟ قالوا: ربنا جزاؤه أن يوفىٰ أجره. قال: ملائكتي عبيدي وإمائي قضوا فريضتي عليهم، ثم خرجوا يعجون إليَّ بالدعاء، وعزتي وجلالي وكرمي وعلوي وارتفاع مكاني لأجيبنهم، فيقول: ارجعوا فقد غفرت لكم وبدلت سيئاتكم حسنات، قال: فيرجعون مغفورا لهم».

هم أحسن حالًا مني، ولاث الناس في عرضه وقالوا: يُكره القيام للفسقة أو يحرم، بأنه ربما كان مشهده صحيحًا في أن ذلك الفاسق أحسن حالًا منه عند نفسه، فهو عنده من أهل الفضل، والقيامُ لأهل الفضل سنةٌ، فلا عتب على الفقير ما دام له عين واحدة، فإذا صار له عدة عيون، كان مأمورًا بترك القيام للفاسق إيثارًا لجناب الله عزَّ وجلَّ، فإن من ينتهك حرمات الله تعالىٰ فهو ممن أهانه الله تعالىٰ، فلا ينبغي تعظيمه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فعُلِمَ أن الكامل هو من يرىٰ كمال غيره من الفسقة عليه بعين، ويرىٰ كمال نفسه عليهم بعين أخرىٰ.

[نوع دقيقٌ خفي من سوء الظنّ]

واعلم يا أخي أن مما يخفىٰ من سوء الظن قول بعضهم: لو لا أخشىٰ أن يسيء فلان فيَّ الظنَّ لفعلتُ كذا وكذا، فإن خوفه منه أنه يسيء به الظن هو سوء ظن به. وكذلك قولك: لو لا أخشىٰ أن تكبر نفس فلان إذا تواضعتُ له، لكنت أتواضع له، لأنك جعلته ممن يتكبر بالتواضع له، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٤) ومما أجبتُ به عمن تقدم للصلاة علىٰ جنازة بحضرة أقرانه وأخروه فلم يتأخر، ولاث الناس به وقالوا: إنه يحب الرئاسة، بأنه ربما كان الحامل له علىٰ التقدم خوفه علىٰ أقرانه وقوعهم في العجب بأنفسهم إذا صلوا أئمة في الجنازة العظيمة في مثل جامع الأزهر، فاحتاط لإخوانه وتحمل عنهم وزر العجب الذي لعله يقع من أحد منهم، لاسيما وهو مستحضِر أمر الموت وما يلقاه الميت، فإن حبه للرئاسة في ذلك الوقت بعيد جدًّا.

فإن قال قائل: إن خوفه العجب علىٰ أصحابه سوء ظن بهم وإحسانًا للظن بنفسه؛ **قلنا:** هذا من باب تحمل الأذىٰ عن الإخوان بحكم الفرض والتقدير، فلا يُمنَع منه. فإياك يا أخي وسوء الظن بمن تقدم للصلاة في المحافل، فإن أجر صلاتك علىٰ الجنازة ومشيك معها وحضورك دفنها لا يعادل سوء ظنك بذلك الإمام، فقد خسرت وما ربحت. وإن خطر ذلك في نفسك، فتب علىٰ الفور واستغفر الله، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي يمكن الناس من تقبيل يده أو رجله ولا يضمها عنهم، ويقول الناس عنه: إن هذا من التكبر المنهي عنه، لاسيما إن استدعىٰ هو منهم ذلك، بأنه ربما كان محجوبًا بشهود النعمة عن شهود نفسه، فيرىٰ أن الخلق إنما يتبركون بنعمة الله تعالىٰ عليه لا به هو، وربما لم يخطر علىٰ باله أن التعظيم له.

وقد كان أبو يزيد البسطامي ﷺ إذا خرج علىٰ الناس يصيرون يتمسحون بمرقعته ويتبركون بها، فلامه بعض أصحابه في ذلك، فقال: إنهم لم يتبركوا بأبي يزيد، وإنما يتبركون بخلعة الله تعالىٰ التي ألبسها له وزينها في عيون الناس. انتهىٰ. فكل من مكَّن الناس من تقبيل يده أو رجله أو طلب هو منهم ذلك، حملناه علىٰ أنه إنما مكنهم من ذلك أو أمرهم به من حيثُ تبركُهم بنعمة الله تعالىٰ الجديدة لا به هو، فهو يرىٰ نفسه كأنها أجنبية عن صفات التعظيم. ورأيتُ بعضَهم يقبل رجل نفسه ويقول: إنما أقبل خلعة الإسلام التي ألبسها لي الحقُّ جلَّ وعلا.

وكان سيدي علي ابن وفا ﷺ يقول: من قدر علىٰ كتم أسرار العباد وصبر علىٰ تعظيمهم له بغير صدق واستهزاءً به ولم يخبر بذلك أحدًا، فله أن يمكِّن الناس من تقبيل يده، نظير ما ورد في الحجر الأسود من أنه يعرف من استلمه بحقٍّ ومن استلمه بغير حقٍّ، ولا يعلم بذلك المستلم. انتهىٰ. فلعل من رأيناه يمكِّن الناس من تقبيل رجله يكون من أهل هذا المقام.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إياك أن تحمل من رأيت الناس يقبلون رجله من العلماء علىٰ أنه يحب ذلك، فربما يكون يكره ذلك أشد الكراهة، والناس من شدة اعتقادهم فيه يقبلون رجله كرهًا عليه، أو ربما كان ممن يرىٰ إظهار فضل الله عليه واجبًا فضلًا عن كونه مستحبًا.

وكان يقول: لو كان المعترض علىٰ تقبيل رجل العالم متواضعًا، لأمر الناس بذلك، لأن المتواضع يرىٰ الناس كلَّهم أهل فضل، بل كان هو أولهم تقبيلًا، فاللوم علىٰ المعترض الذي تكبر حتىٰ لم ير غيره أهلًا لأن تقبل الناس رجله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٦) ومما أجبتُ به عن من لا يمكِّن الناس من تقبيل رجله ويزجر من يفعل معه ذلك، وقال الناس فيه: إنما يفعل ذلك رياء [وسمعة، ليزداد الناس فيه فيه اعتقادًا، ويصفوه بكثرة التواضع، وإلا فهل يحب مثل ذلك في الباطن][١]، بأنه لا يجوز حمله علىٰ ذلك، فقد يكون ممن تجلىٰ الحقُّ تعالىٰ علىٰ قلبه بالعظمة الإلهية، فصار يرىٰ نفسه من أذلِّ خلق الله، فهو يود أن تبتلعه الأرض إذا قبَّل أحد يده أو رجله، حياءً من الله تعالىٰ وخجلًا منه [أن][٢] يعظِّمه المحجوبون في حضرة ربه، ويجعلوه ممن شارك ربه في صورة صفات التعظيم. وهذا أشدُّ علىٰ أهل هذا المقام من ضرب السيف.

وربما كان مشهده أن ذلك من باب الاستدراج له، فإنه يعلم بنقص نفسه وما وقع فيه من الزلات التي لو اطلع الخلق عليها ما سلَّموا عليه، فضلًا عن تقبيلهم رجله، فهو يرىٰ نفسه لا يستحق أن أحدًا يقبل رجله، ويكاد يذوب من الخجل. وفوق هذا ما هو أعلىٰ منه، وهو أن يدفع عنه الناس بقلبه، فلا يهتدي أحد لتقبيل يده ولا رجله، ولا أن ينزل له من دابته أو حانوته من شدة نفرة قلبه من ذلك، وهو مقام الكُمَّل ﷺ أجمعين.

فعُلِمَ أن الناس في تقبيل يدهم أو رجلهم علىٰ أقسام، منهم من يحبُّ أن يُفعَل به ذلك لحظِّ نفس، فذلك مذموم، ومنهم من يحب ذلك إظهارًا لفضل الله تعالىٰ عليهم، ومنهم من يكره ذلك أدبًا مع ربه عزَّ وجلَّ، ومنهم من يدفع الناس عن ذلك بقلبه من غير لفظ. فاحمل يا أخي العلماء والفقراء علىٰ أحد المحامل الثلاثة، وإياك أن تحملهم علىٰ المحمل الأول، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح الذي يسأل الناس الدنيا ويقول: أعطوني فإني فقير، ويصير يظهر الكراهة لكلِّ من لم يعطه شيئًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر ينافي أحوال الصالحين والعلماء العاملين، بأنه يجب حمله علىٰ أنه محتاج إلىٰ ما طلب لنفسه أو لعياله أو لأحد من إخوانه، ولا يجوز لأحد أن يسيء به الظن فيأثم، وفي

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

حديث الطبراني مرفوعًا: «ليس المعطي بأفضل من السائل إذا كان محتاجًا»[1] فشهد ﷺ لصاحبه أنه مأجور فيه لا يسوغ لأحد الإنكار عليه. وأما كراهته لمن لم يعطه ما طلب فيجب حمله علىٰ أنه إنما كرهه تقبيحًا لصنيعه، وخوفًا عليه من فوات الأجر الحاصل له بالعطية، لا لحظٍّ نفسه هو، فحكمه كمن عبس في وجه ولده إذا فعل ما لا يليق، فإن كلَّ عاقل لا يحمله علىٰ كراهة ولده، وإنما يحمله علىٰ الشفقة عليه.

فعُلِمَ أن من حمل العالم أو الصالح الذي يلح علىٰ الناس في السؤال، ويظهر لهم الكراهة إن لم يعطوه علىٰ محمل سيء، فقد باء بإثم من الله عزَّ وجلَّ، لاسيما إن كان يسأل أحدًا من الولاة أو الصالحين، فإن في حديث أبي داود مرفوعًا: «فإن كنت ولابد سائلًا، فاسأل الصالحين أو ذا سلطان»[2] أي لأن الصالحين والسلطان لا يمنون بما أعطوا. وكذلك من حمل السائل الملح علىٰ غير مصلحة المسؤول، فقد أساء به الظن، فإنه ما ألح إلا ليحصل لذلك المسؤول الأجر، فاعلم ذلك.

(٢٣٨) ومما أجبتُ به عن الذي يرد ما جاءه بغير سؤال، ولاث به الناس وقالوا: إن رسول الله ﷺ قال: «ما جاءك من هذا المال بغير سؤال فخذه فتموله، فإنما هو رزق ساقه الله تعالىٰ إليك»[3] الحديث أو كما قال، بأنه ربما كان مشهده العجز عن تحمل منة المتصدقين عليه مثلًا، فردَّ ذلك وصبر علىٰ الجوع أو العري مثلًا، أو ربما كان المتصدق أو المهدي مثلًا ممن لا يتورع في مكسبه، فردَّه عليه تورعًا، فقوله ﷺ: «ما جاءك من هذا المال» يشير به إلىٰ الحلال، بقرينة قواعد الشريعة المطهرة، نحو حديث: «دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك»[4]، وقوله ﷺ: «فمن ترك الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه»[5].

---

(١) أخرجه الطبراني «الكبير» (١٣٥٦٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٤٦)، والنسائي (٢٥٨٧)، وأحمد (١٨٩٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٩٣٦)، و الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٣٦٣) وابن حبان (٣٤٠٤) و والطبراني (٤١٢٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٣٩٧) وابن حبان (٧٢٢).

(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: لا ينبغي لفقير أن يقبل شيئًا ممن يأكل بدينه من الفقراء الذين لا حرفة لهم، وإنما يحسن إليهم الناس لاعتقادهم فيهم الصلاح، فمثل هؤلاء يجب علينا رد كل ما يأتوننا به من الدراهم والطعام والثياب ونحو ذلك.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي ﷺ يقول: يجب علىٰ أهل الطريق رد مال كلِّ من لا يتورع في مكسبه خوفًا أن يتبعه أصحابه علىٰ ذلك، كما لا ينبغي لهم أخذ هدية كل من لا يتحد بهم من مريديهم، خوفًا أن يورث ذلك عندهم الإدلال علىٰ الشيخ، ويرون لهم الفضل عليه، فلا ينتفعون به، بخلاف هدية من اتحد بهم، فإنه يرىٰ جميع ما يعطيه لشيخه هو من فضل شيخه عليه، ويرىٰ نفسه هو الذي يأكل من صدقة شيخه. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والفقراء إذا ردُّوا ما جاءهم بغير سؤال، فإنهم أعلم منك بالشريعة، ولولا أنهم رأوا الرد أفضل من الأخذ لما ردوا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح الذي يشاحح في البيع أو الشراء علىٰ جديد نقرة[(١)]، ويقول الناس عنه: حاشا أن يكون هذا عالمًا أو صالحًا وهو مشاحح علىٰ جديد! بأنه ربما كان مشهده أن يفتح في عين ذلك المشاحَح- اسم مفعول- [عدم][(٢)] التساهل في حقوق الناس في الدنيا، أو ممن يكره أن يكون له يوم القيامة فضل علىٰ أحد من خلق الله تعالىٰ إكرامًا لمن هم عبيده سبحانه وتعالىٰ، أو لمن هم من أمته ﷺ، كما عليه أكابر الأولياء.

فإن قال قائل: فلأي شيء لم يسامح ويسقط حقَّه؟ **قلنا:** إسقاط الحقِّ منَّة فوق منَّة، فصار يُرِه بذلك فضله أكثر ممن أعطىٰ ولم يسامح. ثم لا يخفىٰ أن كلَّ عارف بالله تعالىٰ يكره أن يشارك ربه في صفة من صفات المدح ولو بالاسم، فهو يحب التخلق بها دون الحمد عليها من الناس، ويحب أن يكون الفضل والمدح لله وحده كما هو في نفس الأمر.

---

(١) جديد نقرة: من أقل العملات قيمة في ذلك العصر.

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

ومن هنا تعلم يا أخي أن الفقير الذي لا يطعم الناس شيئًا يجب حمله علىٰ أنه ترك ذلك إيثارًا لجناب الله تعالىٰ، لا بخلاً ولا شحًّا في الطبيعة، فهو يودُّ أن يكون الحقُّ تعالىٰ لم يجعل لأحد علىٰ يديه رزقًا احتياطًا لنفسه، وخوفًا أن يخطر في باله أن له منة علىٰ أحد من خلق الله عزَّ وجلَّ، ولو أنه لم يخف علىٰ نفسه من ذلك، لسأل الله تعالىٰ أن يجعل رزق أهل بلده أو إقليمه مثلًا كلَّه علىٰ يديه. وربما أعطاه الله تعالىٰ ثواب من أطعم جميع أهل بلده أو إقليمه بنيته الصالحة من [غير][1] تعب ولا مناقشة، قياسًا علىٰ ما ورد فيمن نوىٰ قيام ليلة، فأخذ الله بروحه إلىٰ الصباح[2].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: إياكم والبخل، فإنه مذموم عند الله وعند الخلق. وإياكم أن تروا أن الفقير الذي يطعم الناس الطعام أفضل ممن لا يطعم الناس شيئًا، فقد يكون صاحب ذلك السماط يأخذ الحرام والشبهات ويطعم الطعام رياء وسمعة، وعليه حسابه يوم القيامة، أو يكون ذلك الذي لا يطعم الناس شيئًا ممن اصطفاه الله تعالىٰ وحماه من أن يطعم أحدًا شيئًا شفقةً عليه أن يخطر في باله منة علىٰ أحد، فإنه قل محسن يسلم من خطور ذلك علىٰ قلبه، ولو بشكر الله تعالىٰ عليه. فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار وأنت جاهل بمقامات الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الزاوية إذا انتصر لولده أو خادمه أو صاحبه وخاصم من ظلمه، وقال الناس: حاشا لله أن يكون هذا من العلماء العاملين أو الصالحين! فلو كان عاملًا بعلمه أو صالحًا، لأمر ولده وخادمه وصاحبه بالصبر علىٰ الأذىٰ كما جرىٰ عليه العلماء والصالحون في الزمن الماضي، بأنه يجب حمله علىٰ أنه ما انتصر لولده وخادمه وصاحبه حمية جاهلية أو لغرض نفساني، وإنما انتصر لهم وفاء

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه النسائي (١٧٨٧) عن أبي الدرداء ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَىٰ فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَىٰ وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وابن ماجه (١٣٤٤)، وابن حبان (٢٥٨٨).

بحقِّ صحبتهم له، فإنه وليهم، ويجب علىٰ الوليِّ أن يكشف عن من هو تحت تربيته كلَّ شيء يؤذيه، وفي الحديث: «كلكم راع ومسوؤل عن رعيته»[١]، مع أن الولد والخادم وغالب الأصحاب عادة ليسوا بأهل أن يأمرهم الشيخ بالتحمل، لعجزهم عن مثل ذلك، فإياك يا أخي ولحوم العلماء والصالحين، فإنهم سم ساعة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤١) ومما أجبتُ به عن أكابر العلماء والصالحين إذا قابلوا المسيء عليهم أو علىٰ أصحابهم بالإساءة، ولاث الناس بهم بسبب ذلك وقالوا: لو كان هؤلاء علماء أو صالحين لاحتملوا الأذىٰ ولم يقابلوا أحدًا بسوء، بأنه ربما كان ذلك من العلماء والصالحين زجرًا لذلك المسيء وتنفيرًا له من الوقوع في مثل ذلك مع أحد من المسلمين، لا بقصد التشفي للنفس. وربما كان ذلك من العالم أو الصالح بقصد تطهير ذلك المسيء من الإثم بوقوعه في الأذىٰ، فطلبوا بمقابلته أن يأتي يوم القيامة وليس لأحد عليه حقٌّ يعوقه عن دخول الجنة.

وربما كانت المقابلة من العالم أو الصالح بقصد حصول العدل بين ذاته وذات أخيه. وربما كانت المقابلة المذكورة بقصد أن لا يرىٰ العالم أو الشيخ له فضلًا علىٰ أحد من المسلمين في الدنيا، ولا في الآخرة أدبًا مع الله ومع رسوله ﷺ كما مر تقريره مرارًا. وربما ترك العالم أو الصالح مسامحة من جنىٰ عليه في دار الدنيا وأخَّر الصفح عنه إلىٰ الدار الآخرة احتياطًا لنفسه، لينظر هل يحتاج إلىٰ ذلك الحقِّ أم هو مستغنٍ عنه؟ فإنه ورد في الصحيح أن العبد يوم القيامة يودُّ أن لو كان له حقٌّ علىٰ والديه وادعىٰ به عليهما[٢]. وكثيرًا ما يعطي العبد غيره المال الكثير ثم يفتقر، فيندم علىٰ ذلك ويقول: ليتني تركتُ لنفسي منه شيئًا، فربما وقع له في الآخرة نظير ذلك إذا سامح بحقِّه في الدنيا.

فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من العلماء والصالحين إلا بنصٍّ

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) لم أقف عليه.

أو إجماع. وأما بالفهم فهم أعلم منك بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٢) ومما أجبتُ به عمَّن عمل وليمة ودعا أكابر العلماء والفقراء والأمراء دون غيرهم، ولاث الناس الذين لم يدعوهم به وقالوا: هذه الوليمة كلها رياء وسمعة، بأنه قد يكون ممن غلب عليه عدم الفرقان بين مراتب الناس، أو ممن أعطاه الله الفرقان، ولكن قصد بدعوة المشايخ والعلماء التبرك بآثارهم في داره، وليستره الله تعالىٰ بين أهل بلده في تلك الوليمة، فيكفيهم ذلك الطعام ولا يعقبها شرٌّ ولا نكد كما هو الغالب في هذا الزمان، فلا يعمل الإنسان فيه فرحًا أو مهمًا إلا ويعقبه شرٌّ ونكدٌ!

وأما دعاء الأمراء والأكابر فهو أقرب إلىٰ الإجابة عند القوم في الأمور الدنيوية إما تكبيرًا لهم بين العباد، وإما استدراجًا، وذلك لأن الله تعالىٰ ما أشهر اسمهم في دار الدنيا ويريد أن يخذلهم برد دعائهم، بقرينة استجابته تعالىٰ دعاء فرعون لما توقف النيل وقال: يا رب، استرني بين عبادك؛ فأطلع له النيل تلك الليلة، ولم يشمت القبط فيه.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا احتمل فعل أخيك أمرين حسنًا وقبيحًا، فاحمله علىٰ الحسن، ولا تحمله علىٰ السوء تكن من أهل السوء، واستر كلَّ من اطلعت علىٰ عيبه، يستر الله عيبك. والحمد لله رب العالمين.



الباب الخامس[1]

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٤٤٣) فمما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم إذا دُعِي إلىٰ وليمة ولم يحضر، ولاث الناس به وقالوا: إنما يفعل مثل ذلك تكبرًا، بأنه قد يكون له عذر شرعي، فقدَّمه علىٰ حضوره تلك الوليمة، أو اختل شرط من شروط وجوب الحضور[2]. وربما كان له عذر يستحيي أن يذكره لصاحب الوليمة من ارتكابه ذنبًا عظيمًا أورث عنده الخجل من اجتماعه بالناس، كما هو الغالب من حال من اشتُهر في حارته بإفساد جارية مثلًا، فإنه يمكث زمانًا يستحيي أن يجالس الناس، لاسيما جلوسه في الوليمة بين غالب أهل البلد.

وقد يكون ذلك الشيخ أو العالم ممن كشف الله تعالىٰ له عيوبه ذلك اليوم، فصار يرىٰ نفسه كأن عورته مكشوفة، وقد عذر العلماء العريان في عدم حضوره صلاة الجمعة والجماعة. وممن أدركته علىٰ هذا القدم الشيخ أبا الحسن الغمري[3]، والشيخ عليًّا

(١) في الأصلين: السابع. والصحيح ما أثبتناه، وقد ذكرنا سبب ذلك في المقدمة..

(٢) يجب عند السادة الشافعية إجابة دعوة الوليمة بشروط منها:

١- إسلام الداعي والمدعو.

٢- عموم الدعوة، بألا يقصد التخصيص، كأن يقصد تخصيص الدعوة للفقراء دون الأغنياء مثلا، وليس المراد أن يعم جميع الناس بالدعوة.

٣- أن يدعوه في اليوم الأول، فلو كانت الوليمة ثلاثة أيام -كما كان يحدث قديمًا - لم تجب الدعوة إلا في اليوم الأول.

٤- عدم العذر المانع من الحضور.

(٣) أبو الحسن محمد بن أبي العباس أحمد الغمري المصري الشافعي الصوفي، الصالح الورع، قال الشعراني: جاورت عنده ثلاثين سنة ما رأيت أحداً من أهل العصر علىٰ طريقته في التواضع والزهد وخفض الجناح، ت ٩٨٩ هـ. الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٧٤٨)، الكواكب السائرة (٢/ ٢٣).

الخواص، وأخي أفضل الدين، كان أحدهم يستحيي أن يجلس مع أحد من الناس. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الوقيعة في أعراض العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٤) ومما أجبتُ به عن الإمام الغزالي رحمه الله في كنسه العذرة من ملاقي بيت الخلاء بلحيته حين قامت نفسه من رؤيتها، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: قيام نفسه من رؤية العذرة لا تبيح تضمخه بالنجاسة، بأن ذلك من الغزاليِّ من باب ارتكاب أخف المفسدتين، وقد تعارض عنده كبر النفس والتضمخ بالنجاسة، ولا شك أن النجاسة أخف، لأن التضمخ بها صغيرة، والكبر من الكبائر بإجماع، فلو لم يكنس العذرة بلحيته، لدام كبره، فعليه في كلِّ لمحة إثم الوقوع في كبيرة ما دام الكبر مصاحبًا له، ولا هكذا التضمخ بالعذرة، فإن الغزالي أزالها في الحال، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[1]، وفي الحديث: «إن الله لا يحب المتكبرين»[2]، وثبت في السنة «أن رسول الله ﷺ مرَّ علىٰ شاة ميتة، فأخذ ﷺ بأذنها وقال: أترون هذه الشاة قد ألقاها أهلها لهوانها عليهم؟ قالوا: نعم. قال: والله للدنيا أهون علىٰ الله من هذه علىٰ أهلها»[3]. انتهىٰ. فكما جاز مس الشاة النجسة للاعتبار بها، فكذلك يجوز التضمخ بالنجاسة لغرض شرعي. وقياسًا علىٰ الاستنجاء أيضًا، بجامع وجوب إزالة النجاسة المحسوسة والمعنوية ولو علىٰ التراخي، لأنه لا يجب إزالتها فورًا إلا إن عصىٰ بالتنجيس، وذلك لا يكون إلا في غير وجه الاعتبار، وفي غير ارتكاب أخف المفسدتين. وقد بلغنا أن الإمام الغزالي أزالها فورًا.

وبالجملة فمن نوَّر الله تعالىٰ قلبه لا يتوقف في مثل ذلك، فإن علاج الكبر ومخالفة

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٩).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعل الإمام يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٥٧)، وأبو داود (١٨٦)، وأحمد (١٤٩٣٠).

النفوس مطلوب شرعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٥) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي لا حرفة له ويتوسع في المآكل والملابس من هدايا الناس، وصار الناس يقولون فيه: إن هذا يأكل بدينه وعلمه، وإنه أقبح حالًا ممن يأكل الدنيا بالطبل والمزمار، بأنه لا يلزم من كون العبد لا حرفة له أن يصير يأكل بدينه، فقد يسخر الله تعالىٰ له عباده، فيعطونه كلَّ ما يحتاج إليه من غير منَّة عليه ولا نظر إلىٰ أعماله الصالحة، بل ربما لا يخطر لهم المنَّة علىٰ بالهم.

وأيضًا فإن العبد لا يكون ممن يأكل بدينه إلا إذا قصد بعبادته الدنيا، ولا اطلاع لنا علىٰ نية ذلك العالم أو الشيخ، وإذا احتمل فعل العالم أمرين، حملناه علىٰ أحسنهما، بل حمله علىٰ الوجه القبيح أبعد من البعيد، لأنه لم يزل يحذِّر الناس من الأكل بدينهم، فكيف يقع هو فيه؟! وقد أقر رسول الله ﷺ أهل الصُّفَّة علىٰ أكلِّهم من صدقات الناس وهداياهم من غير حرفة، وكفىٰ بذلك دليلًا.

وكان جماعة من مشايخ الطريق علىٰ قدم أهل الصُّفَّة، منهم شيخ الجنيد ابن التكريتي، ومنهم عتبة الغلام[1]، وأحمد بن أبي الحَوَاري[2]، وبشر الحافي، كان أحدهم يتعبد، فإذا جاع خرج فسأل الناس علىٰ الأبواب قدر حاجته، ويقول: كسبناهم الأجر باللقيمات التي أعطوها الناس من غير حصول كبير منه؛ رضي الله عنهم. وربما اجتمع عند العالم أو الفقير مالٌ كبيرٌ يشكُّ في حله، فعمل به طعامًا وعزم الناس فأكلوه، فلا حرج عليه كالمال الضائع.

---

(١) عتبة بن أبان البصري. كان يشبه في حزنه بالحسن البصري. وذكر مخلد بن الحسين عتبة الغلام، وصاحبه يحيىٰ الواسطي، فقال: كأنما ربتهم الأنبياء. من كلامه قال: من عرف الله، أحبه، ومن أحبه، أطاعه. توفي: في حدود ١٧٠هـ. السير (٧/ ٦٢)، «الوافي بالوفيات» (١٩/ ٢٩٠).

(٢) أحمد بن أبي الحواري عبد الله بن ميمون أبو الحسن الثعلبي الغطفاني الدمشقي الزاهد، أحد الأعلام، أصله من الكوفة. ولد: ١٦٤هـ. قال يحيىٰ بن معين: أظن أهل الشام يسقيهم الله به الغيث. توفي:٢٤٦هـ. السير (١٢/ ٨٥)، «شذرات الذهب» (٣/ ٢١١).

وبالجملة فللكسب أقوام، وللعبادة أقوام، وللجمع بينهما أقوام وهو الأكمل، فالناس بين فاضل ومفضول في كلِّ عصر بحسب القسمة الأزلية، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٦) ومما أجبتُ به عن العوام إذا لم نرهم يرتكبون كبيرة ولا يصرون علىٰ صغيرة، وازدراهم بعضُ طلبةِ العلم، ونسبوهم إلىٰ الفسق بعدم اشتغالهم بالعلم علىٰ مصطلح العلماء، بأن العوام لا يكلَّفون بمثل ذلك، فلا يفسقون بتركه. ولم يزل العلماء في كلِّ عصر يقرون العامة علىٰ عباداتهم إذا لم يروا أحدًا منهم أخلَّ بواجب، ويكتفون منهم بما يشهدونه ويسمعونه من أفواه الفقهاء وأفعالهم، بل غالبهم يعرف محرمات الشريعة وواجباتها لا يكاد يخفىٰ عليه شيء منها، وبعضهم صار يعرف المنهيات والمأمورات، فيُكْتفَىٰ منه بذلك، وإن لم يميز بين الحرام والمكروه، ولا بين الواجب والمندوب، ويكفينا فعله لذلك المأمور، واجتنابه لذلك المنهي، ويُحمَد علىٰ أنه فعل المأمور علىٰ وجه اعتقاد وجوبه، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في «كتاب المنن الكبرىٰ».

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: ما من أحد من أصناف البشر إلا وهو فاضل من وجه، مفضول من وجه آخر ما عدا رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالعوام وإن نقصوا من حيثُ عدمُ تحقيقهم مراتب العلم، فقد أكرمهم الله تعالىٰ بأمور تكمِّلُهم، منها صحة اعتقادهم في الله ورسوله، وكثرة اعتقادهم في العلماء والصالحين. ومنها سلامة عقائدهم من الشُّبَه الكلامية والاعتقادات الفلسفية التي تطرق غالب المتكلمين. ومنها أن أحدهم يأكل من عمل يده ويتصدق بفاضل ذلك علىٰ المحتاجين طول النهار. ومنها عدم ادعاء أحدهم العلم والتكبر به علىٰ الناس. ومنها عدم تطلعهم إلىٰ ما في أيدي الناس استغناء بحرفتهم. ومنها إذا وقعوا في ذنب لا يزال أحدهم في خجل وحياء من الله عزَّ وجلَّ حتىٰ يلقاه، لا يرىٰ أن ذلك الذنب مُحي عنه بطاعة من الطاعات، بخلاف الفقيه مثلًا، فربما عمل طاعة وظنَّ أن ذنبه قد مُحي بها. انتهىٰ.

فإياك يا أخي وازدراء من لم يظهر له فضيلة بين الناس، فإن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه في عباده كما ورد[١]، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٧) ومما أجبتُ به عن العالم الذي وقف عن الاشتغال بالعلم واشتغل بالعمل بما علم، ولاث به أقرانه وقالوا: هذا مقت، لأنه يترك العلم ويعطل، بل بلغني أن بعضهم سماه مرتدًا! بأنه مثل هذا العالم قد مشىٰ علىٰ قواعد السلف الصالح، كالإمام أبي حنيفة، وداود الطائي، والإمام مالك، وسفيان الثوري وغيرهم، كانوا يقولون للناس: تفقهوا ثم اعتزلوا. وكان الإمام مالك يقول: أدركنا الناس وأحدُهم يتفقه إلىٰ سن الأربعين، [فإذا بلغ الأربعين][٢] لزم داره وأغلق بابه. انتهىٰ. لاسيما إذا كان ذلك العالم الذي انقطع للعبادة لا يحتاج الناس إلىٰ علمه اكتفاءً بغيره في البلد، فإنه لا لوم عليه بوجه من الوجوه، اللهم إلا أن يكون هذا العالم قد انفرد بفهم العلم ولا أحد يقوم مقامه، فمثل هذا يُعتَرض عليه في تركه العلم واشتغاله بالتعبد، لأن اشتغاله بالعلم حينئذٍ فرض عين أو كفاية، وهو أفضل من النوافل.

وقد يكون من ترك الاشتغال بالعلم إنما تركه لعدم الإخلاص فيه، كما وقع لبشر الحافي، فإنه كان يملي الحديث ثم تركه، فقالوا له: ماذا تقول لربك إذا قال لك: لم تركت إملاء الناس شريعة نبيي ﷺ؟ قال: أقول له: يا رب، قد أمرتني في ذلك بالإخلاص، ولم أجد عندي إخلاصًا. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واشهد فضل من انقطع للعبادة من أقرانك عليك، واسأله الدعاء، فإن الله تعالىٰ قد نوَّر قلبه، واسأل الله تعالىٰ أن يجعلك مثله، فإن العلم لا قرار له يقف العبد عليه، ثم يرجع للعمل به. وإياك واحتقارك لمن اعتزل الناس، واقبلوا علىٰ الاعتقاد فيه بسبب ذلك، فإن ذلك حسد منك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) ساقط من «ب».

(٢٤٨) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الزاوية إذا اتخذ له سفيهًا يسافه عنه السفهاء، ولاث الناس به بسبب ذلك وصاروا يقولون: لو كان هذا عاملًا بعلمه، لكان يحتمل الأذىٰ من جميع الناس، ولا يمكن أحدًا يجيب عنه، بأنه قد مشىٰ علىٰ قواعد السلف، فقد كان حسان بن ثابت[1] مرصدًا للمناضلة عن رسول الله ﷺ، والعالم أو الشيخ حامل شريعة رسول الله ﷺ، فمن طعن فيه فقد طعن فيما فعله من الشريعة، ولا تخلو الدنيا من السفهاء في كلِّ عصر، والعالم وشيخ الزاوية منصب أحدهم يجل عن مسافهة السفهاء، فإنه إذا سافهه صار مثله في السفه، وإن كان الشارع قد أباح مقابلة السيئة بالسيئة لا لمن لا يقدر علىٰ احتمالها. وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: ينبغي للعالم أن يكون عنده سفيه يسافه عنه. انتهىٰ. فالأعمال في مثل ذلك بالنيات.

وقد يكون العالم قصد باتخاذ السفيه عنده نصرة ما معه من الشريعة والدين، كما كان حسان بن ثابت، لاسيما في هذا الزمان الذي ارتفع فيه الحياء من غالب الناس، وربما قالوا في العالم كلامًا زورًا وبهتانًا لا يقدر هو علىٰ النطق بمثله يخرج به عن سياج العلماء والصالحين إلىٰ سياج الفسقة والمنافقين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: من شأن العلماء والصالحين رقة الطبع، فلا يصبر أحدهم يقدم علىٰ سماع كلام أحد من الثقلاء، فإذا كان عند أحدهم شخص بذيء اللسان يقابل الثقيل بمثل كلامه نفعهم نفعًا عظيمًا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: قد اكتفىٰ الناس في زماننا هذا عن الأعمال بالأقوال، وتبدلت الأمور وفسدت الأحوال، وظهر الناس بأخلاق السباع تارة، والكلاب تارة، والثعالب تارة، والبهائم والحشرات تارة، وأخلاق الجنِّ والشياطين

---

(١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري، يكنىٰ أبا الوليد. سيد الشعراء المؤمنين، المؤيد بروح القدس. قال ابن سعد: عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام. توفي: ٥٢هـ ﷺ. السير (٢/ ٥١٢) و«الاستيعاب» (١/ ٣٤١).

تارة، ثم مع ذلك يدعي أحدهم الزهد والورع، ويطلب منك أن تترك ما شهدته منه من سوء الأخلاق وتصدقه في دعواه، فإن شاكله العالم وقابله بنظير أخلاقه، قامت عليه القيامة، وإن صدَّقه وقع في النفاق، فالعالم من عذر العالم في اتخاذه عنده من له لسان يتقي [به][1]، وأنشد في ذلك:

إذا لم يكن للكرم شـوك مكلب رعته المواشي من جميع الجوانب

انتهىٰ. فإياك يا أخي ثم إياك من إنكارك علىٰ العالم أو الشيخ ما ذكرناه، فإن اتخاذه السفيه من باب ارتكاب أخف المفسدتين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٩) ومما أجبتُ به عن الوليِّ إذا سُلِبَ الكرامات والمكاشفات التي كانت تظهر منه وعليه، وصار الناس يقولون عنه: إن فلانا مُقِت، بأنه لم يُسلب ولم يُمقَت، وإنما خلع الحقُّ تعالىٰ عليه ما هو أكمل مما كان فيه. وقد أجمع الأشياخ علىٰ أن الكرامات يدخلها المكر والاستدراج، والكشف يُطلِع صاحبه علىٰ عورات الخلائق التي يفعلونها في بيوتهم، فمن زالت كرامته وكشفه، فقد أراد الحقُّ تعالىٰ به خيرًا. وإيضاح ذلك أن كمال الولي إنما هو بلزوم أوصاف العبودية، وبكونه عبدًا مملوكًا لا يقدر علىٰ شيء، كما هو في نفس الأمر.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا سُلِبَ أحدُكم الكرامات والأحوال التي كانت تقع علىٰ يديه، فليكثر من شكر الله علىٰ ذلك، فإن الصادق من شأنه أن يزداد بالسلب تمكينًا، لأنه مع الله بما أحب، لا مع نفسه بما تحب.

وكان يقول: كثرة كرامات الولي دليل علىٰ ضعيف إيمان قومه به، ولو كان إيمانهم قويًّا لما احتاجوا إلىٰ ظهور كرامة ممن يدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ. قال: ومن هنا قلَّت الكرامة في الصحابة، وكثرت فيمن بعدهم.

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

قال: وما احتاج الأنبياء إلىٰ ظهور المعجزات إلا لكون أحدهم يدعو الناس إلىٰ شرع جديد، والولي لا يدعو إلا إلىٰ شرع ثابت مقرر عند قومه، فلذلك لم يحتج إلىٰ كرامة تؤيده وإن قدر أنه وقع علىٰ يديه كرامة فإنما ذلك ببركة اتباعه شرع نبيه ﷺ.

فإياك يا أخي أن تزدري وليًا سُلِبَ الكرامة ما دام علىٰ قدم الاستقامة في الأعمال، فإن ذلك جهلٌ منك بأحوال القوم، إذ هي ثمرة أعمالهم ومجاهداتهم، وهم لا يرضون بأخذ ثواب أعمالهم في هذه الدار، ويذهبون إلىٰ دار البقاء وأحدهم صفر اليدين من الثواب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٠) ومما أجبتُ به عن الصوفيِّ إذا امتنع من الصلاة خلف بعض أئمة المساجد، وصلَّىٰ منفردًا أو مع زوجته أو ولده مثلًا، ولاث جماعة الشيخ بذلك الإمام وقالوا: لولا أنه كُشِفَ للشيخ عن سوء حال هذا الإمام أو ارتكابه أمرًا مبطلًا للصلاة، ما ترك الصلاة خلفه، بأنه ربما كان الباعث علىٰ ترك الشيخ الصلاة خلفه شهود الشيخ نقص صلاة نفسه، فهرب من تحمل منَّة ذلك الإمام إذا حمل عنه ذلك النقص، أو ترك الصلاة خلفه شفقةً عليه من وقوعه في تحمله نقص صلاة ذلك الشيخ زيادة علىٰ تحمل نقص صلاة نفسه.

وربما كان ذلك الشيخ ممن يرىٰ كراهة الصلاة خلف محب الدنيا أو خلف الموسوس الذي يشك في أفعال نفسه. وكان الشيخ إبراهيم المقيم بجامع آل ملك[1] رَحِمَهُ اللَّهُ لا يصلي قط خلف إمام يحب الدنيا، ويقول: إن في الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2] فمن أحبها فقد جمع جميع خطايا بني آدم عليه، وذلك لا يصلح أن يكون

(١) أنشأه الأمير المملوكي البحري آل ملك الجوكندار الناصري، ما بين عامي ٧١٩هـ/ ١٣١٩م و٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، ويقع في شارع أم الغلام المتفرع من شارع الأزهر بحي وسط القاهرة.

(٢) تقدم تخريجه.

إمامًا، لأن حكمه حكم من تلطخ بعذرة أو بول من فرقه إلىٰ قدمه في بدنه وثيابه، ولا شك في بطلان صلاته. قال: وقد صليتُ مرةً خلف إمام يحب الدنيا، فشهدت تلطخ ثيابه بسائر النجاسات بعين بصري لا بعين إيماني، فما قدرتُ أحرم خلفه، فقال لي شخص: أتبعك في ذلك؟ فقلتُ له: لا، أنت لا تشهد ما أشهد، وما ترىٰ إلا ثيابًا طاهرة، وبدنًا نظيفًا. انتهىٰ.

فلكل مقام رجال، فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ فقير ترك الصلاة خلف أحد من الأئمة، ولا اعتقاد السوء في ذلك الإمام بقول ذلك الفقير، أو بامتناعه من الصلاة خلفه، بل نسلم لكلٍّ منهما حاله.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵁ يقول: ينبغي لصاحب الكشف إذا كُشِفَ له عن نقص صلاة إمامه أن يصلي خلفه، ويستغفر لنفسه ولذلك الإمام بينه وبين الله تعالىٰ، ولا يفشي ذلك النقص للناس، فيحصل من ذلك عدة مفاسد. انتهىٰ.

وكان أخي أفضل الدين إذا اطلع علىٰ نقص صلاة إمامه، يجعل ذلك النقص لنفسه دون إمامه، ويقول: المؤمن مرآة المؤمن، ولا يرىٰ الإنسان في المرآة إلا صورة أعمال نفسه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥١) ومما أجبتُ به عن الوليِّ الذي ليس له تصريف في الكون، وعفَّ عليه الذباب وصار يطرده عن نفسه فلا يطيعه، ولاث الفقراء الجاهلون به وقالوا: كيف يدعي الولاية أو يعتقدها أصحابه فيه وهو لا يقدر علىٰ رد ذبابة عن نفسه؟! ثم ينقلون عن الفرغل بن أحمد[١] أنه طلع للسلطان الأشرف برسباي[٢]، فرأىٰ الذباب يقع علىٰ وجهه، ومملوك

(١) محمد بن أحمد السميعي، يعرف بالفرغل، مدفون في أبي تيج بالصعيد كان ﵁ من الرجال المتمكنين أصحاب التصريف، توفي: سنة نيف وخمسين وثمانمائة رضي الله تعالىٰ عنه آمين. الضوء اللامع (٧/ ١٣٠)، «الطبقات الكبرىٰ للشعراني» (٢/ ٩٢).

(٢) الملك الأشرف برسباي بن عبد الله أبو النصر الدّقماقي الظّاهر الجاركسي، سلطان الدّيار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية، الثاني والثلاثون من ملوك التّرك، والثامن من ملوك الجراكسة. توفي:

علىٰ رأسه ينشه عنه، فقال له الفرغل: كيف ترىٰ نفسك سلطانًا وأنت لا تقدر تردُّ عن نفسك الذباب؟! ثم قال له: رح يا ذباب عن السلطان برسباي؛ فطار الذباب كله من حضرته. وكذلك ينقلون عن سيدي عبد القادر الجيلي أن الذباب كان لا يجلس علىٰ بدنه ولا ثيابه، فقالوا له في ذلك، فقال: الذباب لا يجلس إلا علىٰ قذر الدنيا أو عسل الآخرة، وأنا حر من رق الدارين. انتهىٰ.

والجواب: أن الكامل من شأنه أن الوجود كله يصير يؤثر فيه، ولا يؤثر هو في شيء من الوجود إلا بأمر شرعي، والحقُّ تعالىٰ لم يأمره بنش الذباب بخصوصه عن وجهه، ولو أمره بذلك لكان ينشه امتثالًا للأمر لا لحظِّ النفس.

وقد يكون ذلك الولي الذي يقع عليه الذباب قد تحقق بعدم تلطخه بشيء من دنس الدنيا وعسل الآخرة، أي العمل لأجل ثوابها، ثم ترقىٰ عن ذلك المقام إلىٰ الإحسان إلىٰ الذباب بمص دمه الفاسد من بدنه، أو شربه دموعه السائلة من عينيه، ليؤجره الله تعالىٰ علىٰ ذلك وإن لم يقصد هو ذلك، لعلمه بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، إذ العارف يعرف أن الله تعالىٰ أخفىٰ رضاه في طاعته، فقد يكون رضاه تعالىٰ أو عفوه ومغفرته لذلك الوليِّ متوقفًا علىٰ صبره علىٰ [مص] الذباب لدمه أو شربه من دموعه.

وقد رؤي الإمام الغزالي بعد مماته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي ورحمني. فقيل له: بماذا؟ فقال: كنتُ أكتب، فنزلت ذبابة علىٰ الحبر الذي علىٰ القلم، فصبرتُ لها حتىٰ شربت من ذلك الحبر، فغفر الله لي ذنوبي بذلك. انتهىٰ.

ورأىٰ بعض الأولياء أن القيامة قد قامت، وأُمر الناس بالمشي علىٰ الصراط، فمرَّ العارفون بالله تعالىٰ، فأكلت النار جوانبهم، فلما مرَّ أرباب الأحوال، انزوت النار منهم وقالت: جوزوا يا مؤمنون، فقد أطفأ نوركم لهبي. انتهىٰ. فحكىٰ ذلك لشيخه، فقال: يا

٨٤١هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٣٤٧) «المنهل الصافي» (٣/ ٢٥٥).

ولدي، الكاملون ماتوا تحت جريان الأقدار، فما بقي لهم حركة تدفع عنهم ما يؤذيهم رضًا بما يفعله الله بهم، والناقصون بقيت فيهم بقية يدفعون بها الأقدار عن أنفسهم، فبين أرباب الأحوال وبين الكُمَّل في مقام الأدب كما بين السماء والأرض. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الخوض في أعراض الأولياء بالجهل، فإن جميع ما معك من الأعمال الصالحة لا يفي بكلمة تقولها في حقِّهم يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٢) ومما أجبتُ به عن العالم إذا منع تعليم الناس، ولاث الناس به وقالوا: قد ورد «من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» بأنه ربما تفرَّس في الطلبة أنهم يتعلمونه لغير الله تعالىٰ، فيمنعهم حتىٰ يصلح الله تعالىٰ نيتهم، أو لم ير عنده في تعليمهم إخلاصًا لله تعالىٰ، كما مر في امتناع بشر الحافي من إملاء الحديث، أو رأىٰ في نفسه أمراضًا من الكبائر يجب عليه علاجها فورًا، فاشتغل بعلاجها وإزالتها، كالكبر والحقد والحسد والغل ونحو ذلك.

وكان الإمام الشعبي لا يعلِّم أحدًا العلم إلا إذا رآه عازمًا علىٰ العمل به، وإلا قال له: كيف أعلمك ما يكون زادك إلىٰ النار؟ وسأله مرة إنسان عن مسألة وهو يضحك، فهجره ثلاثة أشهر وقال: زيادة العلم إنما هي زيادة التكاليف، ومن شأن من يطلب زيادة التكاليف أن يتعلمها وهو يبكي، مخافة أن لا يوفي بالعمل بها، فكيف يطلبها وهو يضحك، ويتخذ العلم لهوًا ولعبًا؟! انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل من سألته عن مسألة ولم يجبك عنها علىٰ محمل حسن، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٣) ومما أجبتُ به عن من يؤذي الناس بلسانه ويقول الناس: إنه من الأشرار بشهادة رسول الله ﷺ في حديث: «شرُّ الناس من تركه الناس اتقاء فحشه» بأنه لا ينبغي

المبادرة إلىٰ الإنكار عليه من كلِّ وجه، فربما كان الحقُّ تعالىٰ جعله آلة يخلِّص بها حقوق عباده من بعضهم بعضًا، عقوبةً لهم بميزان العدل بينهم، ثم يؤاخذه بذلك في الآخرة، وربما لم يجعل عليه تبعة في الآخرة فضلًا منه ورحمة، فينبغي لمن شكا من لسانه أن يفتش نفسه، ثم يشكو منه بعد ذلك، فربما كان آذىٰ شخصًا بلسانه، فلم يقابله بنظير ذلك لضعف حاله، فسلَّط الله تعالىٰ عليه شخصًا لا حقَّ له عنده، فآذاه بلسانه في نظير ما كان آذىٰ ذلك الضعيف. فعُلِمَ أنه لا ينبغي لمن آذىٰ الناس أن يشكو ممن آذاه، بل يسأل الله أن يكون ذلك كفارة لما وقع هو فيه من أذىٰ الناس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٤)ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا أظهر النفرة من مريده حين اجتمع بشيخ آخر، وصار الناس يقولون: إنما تشوش هذا حبًّا للرئاسة علىٰ المريدين، أو لبغضه في ذلك الشيخ، وكلاهما مذموم شرعًا، بأنه لا يجوز حمل الأشياخ علىٰ شيء من هذين المحملين، وإنما الواجب حملهم علىٰ المبالغة في النصح، وسدِّ الأبواب التي تفوِّت [علىٰ] المريد الفوائد. وقد أجمعوا علىٰ أنه لا يجوز لشيخ أن يقرَّ مريده علىٰ أن يشرك معه في المحبة والانقياد شيخًا آخر، ومتىٰ سامحه في ذلك فهو من الغاشين لرعيتهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، والأولياء علىٰ الأخلاق الإلهية، فكما أن الله تعالىٰ لا يغفر أن يُشرَك به، فكذلك الأشياخ لا يسامحون مريديهم بذلك، وقالوا: كما أنه لا يكون للعالم إلهان، ولا للمرأة زوجان، كذلك لا يكون للمريد شيخان.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأشياخ بالجهل، فإنهم خرجوا بحمد الله عن حظوظ أنفسهم، فيجب حملهم علىٰ ذلك كشفًا ويقينًا، أو إيمانًا وتسليمًا، ولا يجوز حملهم علىٰ الأغراض الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٥) **ومما أجبتُ به عمَّن يتورع في هذا الزمان عما في أيدي الناس، وجاور في جامع الأزهر مثلًا فلم يأكل من خبزه الموقوف على المجاورين، ولا من مائه الموقوف عليهم، وصار فقهاء الجامع ينكرون عليه ذلك، كأنه وقع في خطيئة، وربما كان إنكارهم عليه إنما هو لتميزه عنهم بالورع عند الأكابر الواردين على الجامع**، بأنه ربما كان الشخص من رجال الورع الذين أقامهم الله تعالىٰ فيه من صغرهم علىٰ يد شيخ من مشايخ عصرهم، فإن جميع المقامات المحمدية لها قوم يقومون بها إلىٰ يوم القيامة، فليفتش المنكر علىٰ المتورع نفسه، فإن رآها تكرهه لأجل تميزه عليها، وجب عليه التوبة من الاعتراض عليه، وإن رآها تظهر الكراهة منه خوفًا عليه من فتنة التميز في ذلك الزمان، فله ذلك حيث سلم قلبه من الكراهة.

ويُسمَّىٰ هؤلاء المتورعون أقطاب الورع الذين يدور عليهم المقام. وقد أدركتُ منهم جماعة، منهم الشيخ نور الدين الخضري، وجدي الشيخ علي الشعراني[١]، والشيخ شمس الدين الدهشوري[٢]، وجماعة أحياء في الجامع اليوم لا ينبغي تعيينهم خوفًا عليهم من التميز، لا يأكلون للجامع طعامًا، ولا يشربون له ماء مدة إقامتهم فيه، ولم يعلم بهم إلا قليل من الناس. وقد شكا لي شخص منهم مرةً من قيام أقرانه عليه، وكثرة إيذائهم له، فأمرته بالصبر.

وقد كان جدي أيام مجاورته يملأ سقاءه من بحر النيل، ويشرب منه الأسبوع، وكانت والدته ترسل له من الريف مع الثقات القراقيش، فيأكل منهما، ولم يأكل من فراخ الأبراج الحَمَام حتىٰ مات. وقال له شخص مرة: إن نحل بلدكم يأكل زهر فواكهنا؛

---

(١) علي بن أحمد شهاب الدين بن محمد بن موسىٰ الشعراني، كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك يستدل بالآيات القرآنية، والحديث علىٰ الوقائع، كان من المدققين في الورع، ويقول: الأصل في الطريق إلىٰ الله تعالىٰ طيب المطعم، ت ٨٩١ هـ. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ٦٦٤)، الكواكب الدرية للمناوي (٤/ ٣٤٥).

(٢) شمس الدين محمد الدهشوري ذكر نجم الدين الغزي في الكواكب السائرة (٣/ ٤) أن والده البدر أخذ علىٰ يده القرآن بقراءاته. ولم أقف له علىٰ ترجمة.

فلم يأكل من عسل النحل في بلده إلىٰ أن مات، وكان لا يأكل طعام شيخ بلد ولا مباشر ولا قاضٍ ولا تاجر يبيع علىٰ من لا يتورع في ماله رضي الله عنه.

فيجب محبة كلِّ من كان بهذه الصفة لله تعالىٰ، من حيثُ إنه قائم بإحياء مقام النبوة في التورع، ويُخاف علىٰ من يكرهه بغير طريق شرعي سوءُ الخاتمة، نسأل الله العافية، فاعلم ذلك.

(٢٥٦) ومما أجبتُ به عن الذين يسألون الناس بالحال والقال تصريحًا وتعريضًا، ومن لم يعطهم شيئًا يصير أحدهم يوبخه في المجالس بين أقرانه، مع أنه يدعي أنه من الصالحين، بأنه ربما كان الحاث له علىٰ السؤال بالإلحاح والتصريح قصده النفع لذلك المسؤول، أو لذلك المحتاج، أو قصده النفع لهما معًا، مع منع نفسه، من باب قوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي ادع لهم بأن يسمحوا بذلك ولا يبخلوا به مصلحة لهم وللمساكين. قال الشيخ [...] رضي الله عنه: [...][1]. وكان ابن التكريتي شيخ الجنيد لا يأكل إلا مما يسأله علىٰ الأبواب[2].

فإن قال قائل: فلأي شيء لم يدع لهم هذا الذي يسألهم الصدقات؟ ولمَ لمْ يترك توبيخهم في المجالس كما كان رسول الله ﷺ يفعل؟ **قلنا:** لو علم منهم الإجابة إلىٰ دفع صدقاتهم بطيبة نفس وانشراح لم يوبخهم، فما وبخهم إلا حيث عرف منهم ولو بالقرائن أنهم يتكدرون من ذلك، فكان التوبيخ من باب وجوب مقاتلة الإمامِ مانعَ الزكاة، فافهم.

وممن أدركته من رجال هذا المقام الشيخ أبو بكر الحديدي[3]، والشيخ شهاب

---

(١) هكذا بالأصلين سقط اسم الشيخ وقوله.

(٢) لم أقف علىٰ من يسمَّىٰ ابن التكريتي من مشايخ الجنيد. والمشهور أن حمَّادًا الدباس شيخ سيدي عبد القادر هو الذي كان يأكل بالمنامات، فيأتيه المنام أن يسأل فلانًا، فيذهب إلىٰ بابه ويسأله قوت يومه.

(٣) أبو بكر الحديدي: أبو بكر، الشيخ الصالح، العابد الزاهد، الحديدي. أخذ الطريق عن سيدي أحمد بن مصلح المنزلاوي. وكان يغلب عليه البسط والانشراح، ومع ذلك شديد الحرص علىٰ السنة لا يسامح أحدًا في شيء من أدائها. توفي بالمدينة المنورة سنة:٩٢٥هـ. انظر: «الكواكب السائرة» (١/ ١٢٠).

الدين المسيري[١]. وفي عصرنا هذا الشيخ الطهراني فيسألون الناس بالإلحاح، ويفرقون ذلك على المساكين والمحتاجين بقصد نفع الناس لبعضهم بعضًا، وقلبهم غافلٌ عن محبة الدنيا للأغراض النفسانية، فإياك والاعتراض على أمثال هؤلاء، وتحملهم على حال نفسك، فتخطيء الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٧) ومما أجبتُ به عن الذين تجردُّوا من ملابس الدنيا حتى تعرى أحدهم، وصار في وسطه مئزر[٢] فقط، وترك لبس العمامة والقميص جملة، وصار يطلب من الناس المال والطعام، ومن لم يعطه سلقه بلسانه الحديد، فلاث الناس به وقالوا له المثل السائر: حتى يشاكل بعضك بعضًا! كيف تظهر الزهد في الدنيا، ثم تأخذها من الناس بالإلحاح بغير طيبة نفوسهم؟! بأنه ربما كان من رجال الله المتجردين عن الدنيا ظاهرًا وباطنًا، وإنما يفعل ذلك تسترًا على مقامه، خوفًا من إحداق الناس عيونهم به[٣]، فيعتقدونه اعتقادًا كليًّا، فيشغلونه بالتردد إليه عن عبادة ربِّه. وربما كان يقصد بذلك تنفيرهم منه جملة.

وربما كان سبب تجرد ذلك الفقير شدة ضعف بدنه من ثقل تجليات الحقِّ تعالى على قلبه وبدنه، حتى صار يعجز عن حمل قميصه، حتى إنه لولا وقوفه في الصلاة أو رؤية الناس لعورته، ما جعل في وسطه مئزرًا، بل كان عريانًا صرفًا. وكان من رجال هذا المقام سيدي إبراهيم الدسوقي[٤] وسيدي علي وفا، كانا يقولان: لقد بلغ بنا العجز عن

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد شهاب الدين المسيري، ثم القاهري، الشافعي، ويعرف بابن حذيفة. قدم القاهرة فاشتغل بالفقه والعربية يسيرًا وتردد لبعض الشيوخ وأدمن مطالعة «شرح المنهاج» للتقي الحصني وكان قد كتبه أو جله بخطه. مات في أحد الربيعين سنة: ٨٧٥هـ. انظر: «الضوء اللامع» (٢/ ٩٢).

(٢) المئزر: الإزار، وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) بالأصلين: له.

(٤) سيدي إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد الدسوقي الهاشمي الشافعي، شيخ الخرقة البرهامية، وصاحب المحاضرات القدسية، والعلوم اللدنية، والأسرار العرفانية، من كلامه رضي الله عنه: عليك بالعمل بالشرع، وإياك وشقشقة اللسان بالكلام في الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها. ت ٦٧٦ هـ. شذرات الذهب (٧/ ٦١١)، الكواكب الدرية (٢/ ٣٢٠).

تحمل القميص وحمل ليمونة.

وممن أدركته من رجال هذا المقام الشيخ عبد العال المدفون بمدينة قليوب[1]، وجماعة ذكرناهم في الطبقات.

ولعل جميع العراة الآن من المجاذيب أصل تجردهم من الثياب عجزهم عن حمل ثيابهم. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار ثم إياك، واحمل كلَّ من رأيته عريانًا علىٰ أن باطنه متجرد من محبة الدنيا كذلك، ليشاكل بعضه في اعتقادك بعضًا، وتسلم من تبعته. وكذلك ينبغي أن تحمل كل من رأيته يصلي جالسًا من الفقراء علىٰ أنه إنما صلَّىٰ جالسًا، لعجزه عن القيام، ولو لم تعرف له مرضًا متقدمًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٨) ومما أجبتُ به عن من يلبس الملابس الفاخرة من العلماء والصالحين، وصار الناس يلوثون به ويقولون: لو كان هذا من الصالحين، لزهد في ملابس الدنيا! ومثل ذلك من يتعنت في لبس الثياب النقية البياض من الجبب والبعلبكي، وصار أقرانه يقولون: كلُّ ذلك من الرعونات النفسية، والصادق في الطريق لا يبالي ما لبس [كما كان السلف الصالح، بأنه][2] ربما بلغ مقام التجرد في الدنيا، وخرج عن الرعونات النفسية، وصار لا يبالي ما لبس، وإنما يفعل مثل ذلك تحدثًا بنعمة الله عزَّ وجلَّ، وسدًّا لباب توجه الناس إليه بالصدقات والهدايا، كما عليه الطائفة الشاذلية يلبس أحدهم الثياب الفاخرة النقية ولا يملك عشاء ليلة!

وقد يكون لبس ذلك الفقير الثياب النقية البياض إنما هو قيامًا بالعدل بين الباطن والظاهر، فإن باطنه لما من الله تعالىٰ عليه بالخلوص من سائر الأدناس، كان من العدل

---

(١) قال الشعراني: الشيخ عبد العال المجذوب، كان ﵁ يمدح النبي ﷺ فيحصل للناس من إنشاده عبرة ويبكون، وكان سواكه مربوطًا في إزاره، وكفنه لم يزل مربوطًا علىٰ بطنه إلىٰ أن توفي. ولما دنت وفاته دخل لنا الزاوية، وقال: الفقراء يدفنون في أي بلد. فقلت: الله أعلم فقال: في (قليوب) فكان الأمر كما قال بعد ثلاثة أيام، ودفن قريبًا من القنطرة التي في وسط قليوب وبنوا عليه في سنة:٩٠٣هـ. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٦٠).

(٢) ساقط من «ب».



وسمعتُ سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: ممن ثبت عندنا أنه يربي المريدين في قبره سيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنهما، فإن الله تعالىٰ قد أعطاهما التصريف وتأديب أولادهما وهما في القبر.

قال: ونحن ممن جرَّب ذلك، لكن لا بد من عرض كل شيء يقولونه لمريدهما علىٰ الكتاب والسنة، لعدم عصمة المريد. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر تلامذته بحلق لحاهم أو بلبسهم الطراطير أو غير ذلك مما لم تأمر به الشريعة أو مما نهت عنه، بأنه ربما كان ذلك من باب ارتكاب أخف المفسدتين، كما تقدم في الجواب عن الإمام الغزالي في كسح النجاسة بلحيته[1]، فأراد الشيخ بأمر مريده بحلق لحيته ولبسه الطرطور مثلًا كسر قفص طبع مريده، وإزالة رعونات نفسه من الكبر والنفاق المانعين من وصول الخير إلىٰ باطنه، إذ النفس المتكبرة ممنوعة من المواهب مادامت تطلب المقام عند الخلق، فإذا مزَّقت مقامها عندهم وراعت ربها فقط، فهناك يُرجَىٰ لها الخير.

ثم إن هذه الطريق إنما هي لأفراد من أهل الطريق الذي غلبت عليهم الأحوال. وأما جمهورهم فلا يفعلون بمريديهم[2] شيئًا يخالف ظاهر الشريعة أبدًا، وقالوا: مخالفة آداب الشريعة في الظاهر عنوان علىٰ مخالفتها في الباطن.

وممن أدركته ممن كانت الأحوال تغلب عليه سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي[3]، وقد سرىٰ في أصحابه حلق اللحىٰ إلىٰ وقتنا هذا، بخلاف من غلب علىٰ حاله من

---

(١) انظر الجواب (٢٤٤).

(٢) بالأصلين: فلا يفعلون ممن يريدهم.

(٣) أبو السعود محمد بن دغيم الجارحي القاهري، الفقيه الصّوفي، المتعبد المتنسك. كان والده من أعيان كوم الجارح والمتسببين به في أنواع المتاجر، فنشأ الشيخ أبو السعود علىٰ خير، وحفظ القرآن العظيم، واشتغل في الفقه والنحو. من مصنفاته: «حزب الشكوىٰ» و«دفع الهم والبلوىٰ» توفي: ٩٢٩هـ . «شذرات الذهب» (١٠/ ٢٣١)، «هدية العارفين» (٢/ ٢٣٢).

المتمكنين، كسيدي علي المرصفي ﷺ، فلم يقع من أصحابه شيء من ذلك، فالناس بين متمكن وأمكن، ورفيع وأرفع، والسلامة في اتباع ظاهر الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي مكث زمانًا يربي المريدين، ثم بعد ذلك تَلْمَذ لبعض فقراء العصر، فلاث الناس به وقالوا: هذا دليل علىٰ أنه كان كاذبًا في دعوىٰ معرفة الطريق أيام مشيخته السابقة، ولولا ذلك ما احتاج إلىٰ أن يتلمذ لغيره بعد ذلك، بأنه لا يلزم من ذلك أنه كان متفعلًا في الطريق، فقد يكون وقع في سوء أدب فكُسِفَت[١] شمس ولايته، واحتاج إلىٰ من يربيه ثانيًا. وقد يكون كاملًا في طريق الولاية، ولكنه تلمذ لذلك الشيخ حين رأىٰ حاله أكمل من حاله، أو تَلْمَذ له حين رأىٰ كبرًا في نفس ذلك الشيخ يمنعه أن يستفيد الأدب من غيره، فتلقن هذا الشيخ عليه، وصار يعلمه الأدب شيئًا بعد شيء في حجة أنه تلميذ له بحيث لا يشعر بواحد[٢]. وكان علىٰ هذا القدم الشيخ عبد الحليم بن مصلح[٣] وأخي أفضل الدين، كان إذا ظهر لأحدهما من أحد كبر منعه من قبول النصح من أقرانه، يتلمذ له ويصير يسارقه بتعليم الآداب في حجة أنه متعلم منه، والحال أنه هو الشيخ لذلك الشيخ.

ووقع لسيدي محمد الشناوي أنه ربىٰ جماعة من المريدين وكمل حالهم، ثم أذن لهم بتسليك المريدين، ثم تلقن علىٰ سيدي الشيخ علي المرصفي وقال: لا أحب إلا أن أكون تابعًا.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي لأحد حمل الشيخ الذي ربىٰ المريدين زمانًا، ثم إنه تَلْمَذ لشيخ أن يكون متفعلًا في أيام مشيخته الأولىٰ، فربما طلب تقوية حاله بإذن الشيخ الآخر له،

---

(١) بالأصلين: فكُشفت. والصواب ما أثبتناه.

(٢) كذا بالأصلين، أي بحيث لا يشعر بواحد من الآداب أنه يتعلمها من الشيخ التلميذ.

(٣) عبد الحليم بن مصلح المنزلاوي الصّوفي. كان من الأخلاق النبوية علىٰ جانب عظيم، وكان متواضعًا، كثير الإزراء بنفسه والحطّ عليها، وجاءه مرة رجل، فقال له: يا سيدي خذ عليّ العهد بالتوبة، فقال: والله يا أخي أنا إلىٰ الآن ما تبت، والنجاسة لا تطهّر غيرها. توفي: نحو ٩٣١هـ ببلده. «شذرات الذهب» (١٠/ ٢٤٩)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١١٧).

والطريق لا قرار لها يقف العبد عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا رأيناه ضرب شخصًا في مجلسه بغير ذنب ظهر لنا، وبادر الناس إلىٰ الإنكار عليه وقالوا: ما رأيناه فعل ذنبًا يستحق به الضرب، بأنه ربما كان ذلك المضروب حكَّم ذلك الشيخ في نفسه، ورضي بمؤاخذته له علىٰ الخواطر، فقام وضربه مؤاخذةً له علىٰ خاطر قبيح خطر له.

فلا ينبغي أنَّ أحدًا يبادر إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ حتىٰ يتأمل ويتربص، فإن مثل الأشياخ لا يقع في ظلم أحد ابتداءً بغير سبب، اللهم إلا أن يكون ذلك الشيخ ممن يغلب عليه الحال، قلنا الإنكار عليه من حيث إن صاحب الحال ناقص مأمور بالترقي إلىٰ مقام الكمال. ومصداق جواز إنكارنا عليه أن الحق تعالىٰ يؤاخذه في الدنيا علىٰ ما فعله، فإن ضرب مسلمًا ثم حمىٰ نفسه بالحال من متولي الحدود مثلًا، فهو دليل علىٰ أن الحقَّ تعالىٰ لا يؤاخذه بذلك في الآخرة أيضًا إن شاء الله تعالىٰ.

وقد مر شخص من أصحابنا علىٰ الشيخ محيسن المجذوب[1]، فقام الشيخ محيسن وضرب الرجل وكسر ذراعه، فشكا لسيدي علي الخواص، فأعلم بذلك أصحاب النوبة، فأدبوا الشيخ محيسن علىٰ ذلك بأن رمح أحدهم فرسه علىٰ رجله، فقطعت مشط رجله، فلم تزل مدودة[2] إلىٰ أن مات؛ لأن جرح أصحاب النوبة لا يختم إلا بموت صاحبه قهرًا بذلك، علىٰ أن صاحب الحال ظالم يستحق التأديب، بخلاف الشيخ الكامل.

وقد حكىٰ الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله أن بعض أولياء عصره كان جالسًا علىٰ الكرسي يعظ الناس، فنزل وضرب شخصًا علىٰ رأسه، ثم رجع إلىٰ الكرسي، فقال له

---

(١) محيسن البرلسي الشيخ الصالح المجذوب بمصر، كان من أرباب الكشف أقام أولاً بسلاف، ثم انتقل إلىٰ الرميلة، وكان يوقد النار عنده كثيرًا ليعرف أصحاب الجذب من الأولياء أنه لا بد من وقوع فتنة وكان إذا صب ماءً عليها انقطعت الفتنة. توفي: ٩٤٩هـ ودفن في تربة الأمير جانم المجاورة لقبة الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه. انظر: «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٤٦)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٤).

(٢) أي يأكل فيها الدود.

شخص: هذا حرام عليك يا سيدي الشيخ! أيش فعل هذا حتىٰ ضربته؟! فقال المضروب: اسكت! فإني أستحق أكثر من ذلك. فقالوا له: وما ذاك؟ فقال: اغتبتُ في نفسي وليًا من أولياء الله تعالىٰ، وضربني تعزيرًا. فخجل ذلك المنكر علىٰ الشيخ بين الناس. انتهىٰ.

وكذلك بلغني عن شيخ آخر أنه كان جالسًا يقرر في العلم، فترك التقرير وضرب شخصًا من الطلبة خطر في نفسه أنه أفضل من بعض الحاضرين وصدَّقه علىٰ ما في نفسه، ثم استغفر وتاب، فقال له الشيخ: أما علمت أن الكبر من الكبائر. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء إذا جلست عندهم أو بلغك ذلك عنهم، حتىٰ تسألهم عن سبب ذلك، ولا تنس قصة موسىٰ مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا صار يستجلب الأمراء والأكابر من أبناء الدنيا إلىٰ التردد إليه ولا يغفل عن ذلك، ولا عن إرسال أصحابه لهم بنحو قوله: سيدي يحبكم ولا يغفل عن ذكركم؛ ولاث به الناس بسبب ذلك، وقالوا: هذا خلاف ما كان عليه المشايخ الذين مضوا، وما للفقير وصحبة الأمير؟! بأنه قد يكون بمعزل عما فهمه هؤلاء المعترضون، وإنما قصد بذلك ائتلاف قلب الأمير عليه ليصير يقبل شفاعاته في المظلومين، ولا يحوجه إلىٰ كبير توجه إلىٰ الله في قضاء الحوائج، وقد قالوا: تحويل الجبل من مكانه بتوجه الفقير أسهل عليه من تحويل قلب أمير.

وقد يكون لذلك الأمير أو الدفتردار مثلًا نصيب عند الشيخ في التربية والسلوك، كما وقع لسيدي يوسف العجمي[1] مع صاحب المدرسة الشيخونية[2]، فاستجلبه الشيخ إلىٰ

---

(١) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن عمر الكرديّ، الكوراني الأصل، المصري الدار والوفاة، المعروف بالشيخ يوسف العجميّ. هو أول من أحيا طريقة الشيخ الجنيد ﷺ بمصر بعد اندراسها، وكان لا يأخذه في الله لومة لائم، مع فضيلة غزيرة ومعرفة تامّة بالتصوّف. له رسالة سمّاها: «ريحان القلوب والتوصّل إلىٰ المحبوب». توفي: ٧٦٨هـ ودفن بزاويته بقرافة مصر الصّغرىٰ. انظر: «النجوم الزاهرة» (١١/ ٩٤) و«الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٥٩)

(٢) هو الأمير شيخون ت ٧٥٦هـ والمدرسة الشيخونية نسبة إليه، وهي مدرسة هائلة جعل فيها المذاهب

صحبته تارة بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، وتارة بطريق الظاهر، ليأخذ وديعته التي عند الشيخ، **فإن نفَّروا أحدًا عنهم كان بحقٍّ، وإن استجلبوه كان بحقٍّ.**

فاحمل يا أخي كلَّ ما تراه يقع من الأشياخ وأهل العلم علىٰ المحامل الحسنة، ولا تقسهم علىٰ نفسك، فإنهم أعلم منك بيقين وأعرف بطريق الظاهر وطريق الباطن، لأنهم خرجوا عن حظوظ نفوسهم أول دخولهم في الطريق، وما بقيت حظوظهم إلا في ابتغاء مرضات الله تعالىٰ في جميع حركاتهم وسكناتهم ﷺ، فتنبه لذلك يا من هو غارق في حظِّ نفسه ليلًا ونهارًا.

(٢٦٤) ومما أجبتُ به عن الوليِّ صاحب الحال، كثير العطب للناس، ولاث الفقراء به وقالوا: هذا قليل الأدب مع الله تعالىٰ ومع رسوله ﷺ، ولو كان عنده أدب لما آذىٰ أحدًا من الأمة إكرامًا لمن هم عبيده[1] تعالىٰ، أو لمن هم من أمته، إذ العمل بالحال كالعمل بالجوارح الظاهرة علىٰ حدٍّ سواء، فكما عليه اللوم شرعًا إذا ضرب أحدًا بغير حقٍّ، فكذلك عليه اللوم إذا أثر فيه بالحال بمرض أو عزل عن ولاية ونحو ذلك، بأنه قد يكون مغلوبًا بحاله، وربما سأل الله تعالىٰ بأن لا يجعله آلةً للسوء فلم يجبه إلىٰ ذلك، لسبق العلم الإلهي بأن يكون آلة لتنفيذ قضائه تعالىٰ في خلقه، كالجلاد عند الوالي، فكما لا بد للناس من جلَّاد في طريق الظاهر، فكذلك لا بد لهم في طريق الباطن من جلَّاد كذلك، وقد سَمَّىٰ الحقُّ تعالىٰ نفسه «الظاهر» و«الباطن»، وحكمه تعالىٰ نافذ في الدولتين.

فالزم يا أخي الأدب مع أصحاب الأحوال. وإن كانت حجة الله تعالىٰ متوجهة عليهم شرعًا، فذلك إلىٰ الله تعالىٰ لا إليك، والسلامة مقدمة علىٰ الغنيمة، وإنكارك عليهم باللسان لا يكفي، ولكن إن كان لك حال تغلب حالهم فأدِّبهم به، وإلا فلا تلتفت إلىٰ أحوالهم، فإنهم كالمجاذيب، والحمد لله رب العالمين.

الأربعة ودار للحديث وخانقاه للصوفية، ووقف عليها شيئًا كثيرًا. البداية والنهاية (١٤/ ٢٩٥).

(١) بالأصلين: عنده. والصواب ما أثبتناه.

(٢٦٥) ومما أجبتُ به عمَّن لا يراه أحد يزجر أصحابه عن قبيح ولا يأمرهم بأمر من المشايخ المسلِّكين في البلد، ولاث به الناس وقالوا: جميع ما يقع من أصحابه من الأذىٰ للناس فهو في عنقه، بأنه ربما كان من مقامه أن يربي أصحابه بالنظر إليهم بالقلب من غير لفظ، كما كان عليه الشيخ أبو العباس المرسي، وسيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي علي الخواص وأضرابهم، ويقولون: إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظر، وكلٌّ من توارىٰ عنها ضعف، فكيف بالواحد منا؟! انتهىٰ.

ولكلِّ شيخ جماعة يرثونه في المقام إلىٰ يوم القيامة، فيربون[1] جماعتهم بالنظر، ويقوم ذلك النظر إليهم مقام التربية باللفظ وأكثر. وكلامنا فيمن سبق في علم الله أنه ينتفع بتربيتهم، «فلا يقال: أين تربية فلان لجماعته وهم يؤذون الناس الآن؟! فإن الشيخ قد فعل ما كُلِّف به، وكونهم لا يمتثلون أمره، فذلك إلىٰ الله لا إليه».

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كانت طريقة سيدي إبراهيم المتبولي أنه يربي بالنظر، وكذلك سيدي أحمد البدوي، فكان أحدهم إذا نظر إلىٰ مريد، أغناه عن الرياضة والمجاهدة.

وكان بعضهم يضع في خبزه الأمداد لمن يستحق الإمداد، والأمراض لمن يستحق التأديب، فيأكل الأول فيزداد أدبًا ومعرفة بالطريق، ويأكل الثاني فيزداد مرضًا في بدنه وضيقًا في معيشته، حتىٰ يكون أصعب عليه من الضرب والهجر. فامسك يا أخي لسانك في حقِّ الأشياخ حتىٰ تخالطهم وتعرف مصطلحهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٦) ومما أجبت به عمَّن يقول من الأشياخ: ما بقي مع أحد من العلماء علم نستفيده، وإنما ننظر في كلامهم لنرىٰ ما أنعم الله تعالىٰ علينا دونهم، أو ليطابق ما كشف لنا من العلوم، فنزداد بذلك يقينًا، بأنه ربما يكون صادقًا فيما قال، وذلك أن العبد إذا مَنَّ الله تعالىٰ عليه بكشف الحجاب، أعطاه علمًا من لدنه كما وقع للخضر عليه الصلاة والسلام، فاستغنىٰ به عن علم العلماء. وقد زعم بعضهم أن الله تعالىٰ أعطاه من لدنه

---

(١) بالأصلين: فيرثون. والصواب ما أثبتناه.

[علمًا]، فأدرك به علوم الأولين والآخرين بحكم الإرث لرسول الله ﷺ. وقال بعضهم: وبتقدير صحة ذلك، فقهو مقام عزيز يكون لبعض الأولياء لا كلهم؛ فيحتمل أن يكون هذا الشيخ منهم، فإن كان صادقًا، فقد صدقناه، وإن كانت الأخرىٰ رجع الأمر عليه دوننا. وقد ثبت هذا القول عن سيدي الشيخ أبي العباس المرسي كان يقول: إذا انجلىٰ القلب صار مرآةً للوجود، فيخبر صاحبه بما مضىٰ وما هو آت. وكان يقول: إنما ننظر في كتب غيرنا لننظر ما أنعم الله به علينا لا لنستفيد منها علمًا لم يكن عندنا. وكذلك كان يقول الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر[1]. وكان كثيرًا ما يقول أيضًا: كتاب الفقير هو قلبه. انتهىٰ.

فسلِّم يا أخي للفقراء دعاويهم تسلم، والحمد لله رب العالمين

(٢٦٧) ومما أجبتُ عن الأشياخ إذا وعد أحدهم أحدًا بعطية صدقة أو هدية أو غير ذلك ثم أخلف، ولاث الناس به وقالوا: هذه من خصال المنافقين، فكيف يكون هذا شيخًا؟! بأنه ربما بدا له بعد الوعد مصلحة له أو للموعود ترجح علىٰ الوفاء بذلك الوعد، من باب قوله ﷺ: «إني لأحلف علىٰ يمين فأرىٰ غيرها خيرًا منها، فأكفر عن يميني وآتي الذي هو خير»[2] الحديث، فكما كفَّر ﷺ عن يمينه ورأىٰ الحنث خيرًا، فكذلك الوليُّ له خلف الوعد لما هو خير له أو للموعود، ولا يكون ذلك الفعل مذمومًا إلا إذا أخلفه تهاونًا بالأمور الشرعية، كما يشهد لذلك قواعد الشريعة فافهم، والله أعلم.

(٢٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعطي الناس العطايا الجزيلة، ثم إذا تكدَّر منهم صار يقول: هذا جزاء الخير الذي عملناه معك! فلاث الناس به بسبب هذا القول

---

(١) **الشيخ أبو السعود ابن أبي العشائر** رضي الله عنه هو شيخ الخرقة السعودية في مصر وقراها. وأصله من باذبين قرية بقرب واسط العراق. وكان الناس يسمعون عند خلع نعله أنينًا كأنين المريض، فسألوه عن ذلك، فقال: هي نفسي أخلعها عند النعال، فتئن عند زوال تكبرها ورئاستها. ومات بالقاهرة في يوم الأحد تاسع شوال سنة أربع وأربعين وستمئة، وقبره بالقرافة ظاهر يُزار كل يوم أربعاء وكل يوم سبت. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني ترجمة رقم (٢٨٤) طبعة دار الإحسان.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

وقالوا: لو كان هذا شيخًا ما منَّ على الناس، بأنه قد يكون قلبه غافلًا عن رؤية منته على الناس جملة وإنما يربيهم بذلك، لئلا يكفروا نعمة المحسن إليهم الذي هو المحسن الحقيقي، وعملًا بحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1]، فأراد الشيخ بصورة المنِّ عليهم أن لا يعودوا لمثل ذلك، فيفوتهم الأجر الذي جعله الله تعالى لهم في نظير شكر المحسن، لا ليشكروا فضله هو، فإن الشيخ من مقامه أن لا يرى له فضلًا على أحد من عباد الله، لأنه قد خرج عن شهود كونه يملك مع الله شيئًا من أول قدم وضعه في طريق التوحيد، فإن التوحيد على ثلاثة أقسام: **الأول**: توحيد الملك لله. **الثاني**: توحيد الفعل لله. **الثالث**: توحيد الوجود الحقِّ لله. فاعلم ذلك، واحمل شيخك إذا منَّ عليك على التربية لك بقطع النظر عن وقوعه في حظ نفسه.

(٢٦٩) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا خاط على ثوبه رقعة حمراء أو سوداء أو خضراء، ولاث به الفقيه وقال: هذا يشبه الغيار والزنار[2] الذي لليهود والنصارى، بأن الفقير ربما قصد بتلك الرقعة التشبه بأصحاب المرقعات من الفقراء، ليميلوا إلى مجالسته، ولا ينفروا من مجالسته إذا رأوا صورة ملابسه ملابس أهل الدنيا، أو وضع الرقع خوف الإعجاب إذا كانت قطعة نفيسة.

وقد يكون قصد بوضع الرقع التبرك بأصحابها من سيدي عبد القادر الجيلي، أو سيدي أحمد بن الرفاعي، أو سيدي أحمد البدوي ونحوهم حين بالغ في الاعتقاد فيهم. وربما أنه لم يخطر على باله قط فعل ذلك موافقة للكفار، ولا يكون اللوم إلا على من قصد ذلك. ولم تزل مرقعات الفقراء في كل عصر مشتملة على ألوان شتى، ويقرُّهم العلماء على ذلك من غير نكير فيما بينهم.

وقد كان سيدي علي الخواص يخيط في زيق[3] جبته شرموطًا أحمر تبركًا بسيدي

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) وقال: حديث صحيح، وأحمد (٧٩٣٩)، وابن حبان (٣٤٠٧).

(٢) الغيار والزنار: علامة أهل الذمة.

(٣) زِيقُ القميص: اليَاقَة، وهي مَا أحاط من القميص بالعنق.

أحمد البدوي، فقالوا له مرةً: لم لا تتعمموا بشملة حمراء؟ فقال: لا أقدِرُ علىٰ القيام بحقِّها إلا إن ساويت صاحبها في المقام، وهذا أمر يعجز مثلي عنه، وقد رأىٰ بعضهم رسول ﷺ في المنام، فسأله عن مقام سيدي أحمد البدوي، فشهد له رسول الله ﷺ بأنه ما ثم في عصره أكبر فتوة منه.

فعُلِمَ أن خياطة الرقعة المخالفة للونٰ ذلك القميص مباح بين الفقراء، ولا يقال: إن ذلك كالغيار والزنار، لأن ذلك الأمر قد تغير، واكتفىٰ المسلمون بتميز اليهود والنصارىٰ بالعمائم الصفر والزرق.

ومما وقع لسيدي عبد الرحيم القناوي[1] أنه مرَّ عليه كلب فقام له، فقال الناس له في ذلك، فقال: إنما قمتُ لزي الفقراء الذي في عنقه! فنظروا إليه فوجدوا في عنقه طوقًا من جبة فقير، **وتعظيم الأولياء مطلوب شرعًا**، حتىٰ إن بعضهم كان لا يمشي في حارة شيخه بنعل اقتداء بالإمام مالك حين ترك المشي في نعل مدة إقامته في المدينة المشرفة، خوفًا أن يقع نعله علىٰ مكان قدم رسول الله ﷺ. انتهىٰ. **ولا يخفىٰ أن للفرع من الأدب نظير ما للأصل وإن تفاوت المقام.**

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك في حارة سيدي عليٍّ الخواص، فنهاني عن ذلك وقال: نحن عبيد مذنبون لا نستحق مثل هذا الأدب. انتهىٰ. فامتثلت أمره لكونه أولىٰ من سلوك الأدب. فاعلم ذلك، وانتحل للأشياخ الأجوبة الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الكبير في الطريق إذا تكلم في حقِّ أمير أو فقير أو غيرهما بكلام فيه تنقيص له، ولاث الناس به وقالوا: كيف يكون هذا عالمًا أو شيخًا وهو يقع في غيبة الناس؟ بأنه ربما كان قصده بذلك الكلام أن الناس يبلغونه

---

(١) عبد الرحيم بن أحمد بن حجون الشريف الحسيب النسيب، إمام من الأئمة العارفين. أقام بمكة سبع سنين ثم قدم إلىٰ (قنا) من صعيد مصر وأقام بها، لا يكاد قبره (بقنا) يخلو من زائر وقاصد وعابر. ذكره المنذري في تاريخه فقال: كان أوحد زمانه، أحد الزهاد المشهورين، من أعيان الصالحين. ت ٥٩٢ هـ. «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٩٣)، الكواكب الدرية (٢/ ٢٦٣).

لذلك الأمير أو الفقير مثلًا، ليفتش نفسه وما فيها من النقائص، فيتوب منها ويستغفر، لا للتشفي في عرض أخيه كما هو الغالب، فإن الشيخ لا يصل إلىٰ مرتبة التصدر للتربية حتىٰ ينظر إلىٰ محاسن الوجود، ويعمىٰ عن مساويء الخلق أجمعين فلا يتنبه لها إلا إن نبهه الحقُّ لها من طريق الإلهام وحينئذٍ يداويه. وما من شيخ يوليه الله تعالىٰ علىٰ تربية عباده إلا ويخرجه عن رعونات النفوس جملة، ويصير يفرح بكلٍّ من قدَّمه الله عليه في دين أو دنيا، ويراه أفضل منه ظاهرًا وباطنًا، وأنه لا يصلح أن يكون تلميذًا له، فكيف يقصد بذلك الكلام الغيبة المحرمة؟! هذا أبعد من البعيد.

وقد حطَّ مرة سيدي عليٌّ الخواص علىٰ بعض أصحابه، فلاث الناس به، فقلتُ لهم: إنما قصد الشيخ بذلك زوال إعجاب ذلك الفقير بنفسه حين بلغه أن الأمير الدفتردار زاره البارحة. ثم إن ذلك الفقير ذكر فضل الشيخ علىٰ ذلك، وصار يقول: من بقي بعد موت هذا الشيخ يشفق علينا مثل هذه الشفقة أو يخاف علينا. انتهىٰ.

فاعرف يا أخي مقام الأشياخ ولا تحمل أحوالهم علىٰ مثل أحوالك، تخطيء الطريق وتحرم مددهم. وإذا كان أحدهم يقول: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة، لقلتُ: إن اليهودي الفلاني أعلم بالطب من اليهودي الفلاني، فكيف يقع في عرض مسلم موحد؟! والحمد لله رب العالمين.

(٢٧١) ومما أجبتُ به عمَّن لم يخدم زوجته أو خادمه أو صاحبه إذا مرض من المشايخ، وصار يقولون: ما بقي أحد من هؤلاء المشايخ خير، فكم خدمته زوجته لما مرض بالحب الفرنجي! وكذلك خادمه وصاحبه، فلم يعاملهم بشيء لا بنفسه ولا بوكيله ولا بثمن مستجلب، مع أنهم أنفقوا عليه جملة أموالهم! بأنه ربما قصد بذلك تطهير زوجته أو خادمه أو صاحبه بسرعة، فإنهم في حجر تربيته كاليتيم في حجر وليِّه، بل هو أعلىٰ شفقة عليهم من أبيهم الطينيِّ.

ورأيتُ هذا يقع كثيرًا من سيدي عليٍّ الخواص في حقِّ أصحابه ويقول: إنما أقصد بعدم افتقادهم بما يحتاجون إليه في المرض، ليتخلصوا إلىٰ مقام الالتجاء لربهم دون

الخلق، ليصطفيهم الله تعالىٰ، فإنه لا يصطفي عبدًا قط وهو يركن إلىٰ غيره إلا بإذنه.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأولياء، فإنهم [أعلىٰ منك][1] حكمًا وعلمًا، وربما كنت أنت بالضد من ذلك، واحمل المشايخ علىٰ أحسن المحامل ترضِ ربك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٢) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا وقع له أنه اختلىٰ بامرأة أجنبية، ولاث به الناس وقالوا: قد وقع في الحرام، بأنه ربما اختلىٰ بها سهوًا وغفلة، لضعف داعيته إلىٰ تناول شهوات النفوس، فلم يبق عنده ما يذكِّره بتحريم الخلوة بالأجنبية كما هو الغالب علىٰ الفقراء، بخلاف من قويت داعيته إلىٰ الجماع مثلًا، فإنه يتذكر بذلك الجماع أو مقدماته هل ذلك حرام أو حلال، فإن حكم غالب الفقراء الصادقين حكم العنين الذي لا يعرف للجماع لذة.

فإياك يا أخي والإنكار علىٰ الفقراء في خلوة أحدهم بالأجنبية حتىٰ تفتش هل هو ذاكر للتحريم أو ساه عنه؟ ثم أنكر بعد ذلك ما أنكره الشرع.

وأما إذا قال الفقير: أنا لا أتأثر بالخلوة بالأجانب؛ قلنا بالإنكار عليه، لأنه علامة علىٰ جهله بأحكام الشريعة. وقد سُئل الإمام أبو القاسم النصراباذي شيخ خراسان في عصره عمَّن يقول: أنا لا أميل للنساء، فلا عليَّ لوم في مجالستي للأجانب. فقال الشيخ: ما دامت الأشباح باقية، فإن الأمر والنهي باقٍ في حقِّ كلِّ مكلَّف، ولا يجترىء علىٰ الشبهات إلا من بعرض المخالفات. انتهىٰ.

ولكل شيء قرائن تدل عليه، فتشهد للعبد بالصدق أو بالكذب. ومن خرق سور الشريعة، فقد وقع في الخديعة. فاعلم ذلك وتحقق الأمور، ثم بعد ذلك أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٣) ومما أجبتُ به عمَّن لم يحمل همَّ إخوانه إذا نزلت بهم مصيبة، ولاث الناس

---

(١) زيادة يقتضيا السياق.

به حين تزوج أو بنىٰ دارًا أو غرس غرسًا أيام مصيبتهم، وقالوا: قد قال رسول الله ﷺ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[1]. انتهىٰ. فشخص نفاه النبي ﷺ من كمال الإيمان، فكيف يكون وليًا لله عزَّ وجلَّ؟! بأنه قد يكون معتقدًا كمال صاحب المصيبة وقوة تحمله للبلاء والمحن، فلا يحتاج لمثله. وقد يكون من أرباب المجاهدات والرياضات، فمتىٰ يُحمَل عنه شيء من البلاء، نقص استعداده، وضعف عن تحمل البلاء الآتي في المستقبل.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من تحمَّل عن إخوانه البلاء أيام رياضتهم وإدمانهم، أساء في حقِّهم من حيثُ يرجو الأجر والثواب؛ فإن كلَّ بلاء نزل علىٰ العبد، فهو إدمان للبلاء الآتي، ومعلوم أن البلاء إذا نزل علىٰ من لا إدمان عنده، هدم أركانه، بخلاف من كان له به عادة سابقة. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ هذا المحلِّ وعلىٰ ما يرد عليه من الأسئلة في كتاب «المنن الكبرىٰ» فراجعه[2].

فعُلِمَ أنه لا لوم علىٰ من لم يهتم بأمر المسلمين إلا إذا علم عجزهم عن تحمل ذلك البلاء. أما عند علمه بقدرتهم علىٰ تحمله، فلا لوم عليه عادة، فلا يقال التحمل دائمًا أفضل، ولا عدم التحمل تسليمًا لله أفضل، بل كلٌّ أفضل في محله، مع أن تحمل هموم الإخوان لا ينافي التسليم لله تعالىٰ في أمرهم، والله أعلم.

(٢٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يحمل حملات الولاة، وأن له مدخلًا في ولايتهم أو عزلهم، ويطلب منهم علىٰ ذلك مالًا، ولاث العلماء به وقالوا: لا يصح لأحد أن يحمل حملة أحد، إذ المقدَّر كائن لا محالة، وغير المقدَّر لا يحتاج إلىٰ تحمل، وما بقي إلا النصب وأكل أموال الناس بالباطل.

والجواب: أن الأشياخ لا يجهلون مثل ذلك، وإنما ذلك من باب تعليق الأسباب

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٧٣) وفي «الصغير» (٩٠٧).

(٢) «المنن الكبرىٰ» (١/ ٤٠٦).

علىٰ مسبباتها، فما أخذوا الأموال إلا بعمل يستحق أحدهم أخذ الأجرة عليه شرعًا، كالجعالة يستحق من رَدَّ الآبقَ ما جعلوه له وإن لم يكن له أثر في رده إلىٰ مالكه، لأن التأثير للقدرة الإلهية لا للراد، فافهم وتأمل لما يرمي عليك عدوك حجرًا يكسر رأسك، فجاء إنسان ورده عنك، كيف تصير تشكر فضله، مع أنه ما رده إلا لعدم تقدير وصوله إليك، فلو أراد الله وصوله إليك لم يقدر أحد علىٰ رده.

وبالجملة فالأولياء علىٰ قسمين: منهم من يتحمل بأجرة؛ ومنهم من يتحمل احتسابًا، لكن في الأمور المعلَّقات كما مرت الإشارة إليه، لا علىٰ الأمور المحتم وقوعها.

وكان سيدي عليٌّ الخواص إذا دخل علىٰ مريض فإذا رأىٰ مرضه يقبل النقل حمله، وقام المريض وضعف هو، وإن لم يقبل النقل، دعا له بالصبر وانصرف، والله أعلم.

(٢٧٥) ومما أجبتُ به عمَّن صار يعبس في وجوه أصحابه والواردين عليه بعد أن كان يتبسم في وجوههم وينشرح لرؤيتهم، ولاث الناس به وقالوا: إن فلانًا قد تغير حاله وازدرىٰ الناس وصار متكبرًا، ونحو ذلك من الألفاظ، بأن تعبيسه قد يكون سببه انكشاف أمور الآخرة له، لا سيما إن طعن في السن، فإن كلَّ من كُشِف حجابه ورأىٰ ما أمامه من الأهوال في القبر وما بعده، ضاق وقته عن اللهو واللعب مع الناس.

وقد كان الحسن البصري لا يراه [أحد][1] إلا ظنَّ أنه قريب عهد بمصيبة لما به من الحزن، وكذلك الفضيل بن عياض ﵁. وممن أدركته علىٰ هذا القدم سيدي محمد بن عنان وسيدي عليٌّ الخواص وسيدي عليٌّ النبتيتي[2] وشيخ الإسلام زكريا ﵁، كنتَ لا ترىٰ أحدهم متبسمًا إلا في النادر لأمر اقتضاه.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) علي النبتيتي الشافعي الشيخ الإمام العالم العلامة، المقيم ببلدته نبتيت من أعمال مصر. كان رفيقًا للقاضي زكريا في الطلب والاشتغال، كان الناس يقصدونه إلىٰ موضع إقامته بناحية نبتيت للعلم والإفتاء والإفادة، والتبرك، والزيارة من سائر الآفاق. توفي يوم عرفة: ٩١٧هـ ودفن ببلده. «الكواكب السائرة» (١/ ٢٨١)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٠٩).

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: إذا بلغ الرجل أربعين سنة، فلا ينبغي له أن يأكل شهوة، ولا أن يضحك ولا أن ينام الليل إلا غلبة، وكلُّ يوم لا يدخل عليه أحد ممن يشغله عن الله، يراه يوم عيد. وما من العارفين أحد إلا وتمنىٰ أواخر عمره أنه لم يكن عرف أحدًا ولا عرفه أحد.

فإياك يا أخي أن تظن سوءًا بمن كان يتبسم في وجهك إذا دخلت عليه، ويباسطك في الكلام، ويقدم إليك الطعام، ثم ترك ذلك كله، وأقم له العذر، لاسيما إن جاوز الأربعين سنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا رأيناه يقبل علينا بالإحسان ويدبر عنا بعدمه، وصار الناس يلوثون به ويقولون: إن محبة هذا لنا لغير وجه الله، بأنه ربما كان غائبًا عما ظنه الناس به، وإنما أقبل علينا تبعًا للحقِّ جلَّ وعلا من حيثُ إنه تعالىٰ يحب المحسنين، فأحبنا لمحبة الله عزَّ وجلَّ، ثم لما أدبرنا عن الإحسان أدبر عنا كذلك، إذ يبعد من العالم أن يحب أحدًا للدنيا بعد معرفته بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] أي يحب بعضهم بعضًا لله تعالىٰ لا لعلة دنيوية، فإن من احتاج في محبة أخيه إلىٰ إحسان، فكأنه لم يمتثل أمر ربه في محبة أخيه. وهذا الأمر يبعد أن يقع فيه العالم، فيجب حمله علىٰ المحامل الحسنة اللائقة بمقامه، ولا يجوز لمحب الدنيا حمله علىٰ المحامل السيئة قياسًا علىٰ نفسه هو، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٧) ومما أجبتُ به عمَّن يقول من المشايخ: إن الله تعالىٰ أطلعني علىٰ ملكوت السماوات، مع أن الواحد منا إذا قال له: فما في كفي؟ لا يعرفه، مع أن الواحد منا أقرب إليه من السماوات بيقين.

والجواب: أنه لا اعتراض علىٰ من يقول ذلك، فقد يكون صادقًا في أن الله تعالىٰ أطلعه علىٰ ملكوت السماوات دون ملكوت الأرض. وقد كان الشيخ محيي الدين ﷺ يقول: من أولياء الله من يكشف له علىٰ ملكوت السماوات والأرض علىٰ التفصيل،

ومع ذلك لا يعرف ما في جيبه، لأنه مع الحقِّ تعالىٰ بحسب ما يطلعه عليه لا مع نفسه، فلا تَعَشُّقَ له إلىٰ مقام ولا حال من ذات نفسه. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من معرفته الأمور الباطنة البعيدة أن يعرف الظاهرة القريبة، فقد يُطلعه الله تعالىٰ علىٰ الباطنة ولا يُطلعه علىٰ الظاهرة لحكمة بالغة، هذا مع أن الشيخ الذي قال: إن الله تعالىٰ أطلعني، لم ينسب لنفسه قدرةً ولا فعلًا، فلا اعتراض عليه، إلا لو لم يُضف الأمر إلىٰ الحقِّ جلَّ وعلا وأضافه إلىٰ نفسه، ثم عجز عن معرفة شيء في الكون، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اطلع من طريق كشفه علىٰ قرب مريده من الزنا بامرأة، فمد يده، فحال بين فرجها وبين ذكر مريده، ولاث الفقراء به وقالوا: هذا لا يجوز لما فيه من كشف سوءات الناس، وهو قريب من التجسس علىٰ عيوب الناس، وذلك منهي عنه شرعًا، بأنه لا يجوز الاعتراض علىٰ هذا الشيخ لأنه أزال منكرًا، وليس هو من باب التجسس، لأن الكشف أمر يقيني لا ظني، ولا فرق حينئذٍ بين من يزيل المنكر الظاهر، وبين من يزيله من طريق كشفه في الوجوب عليه، وفي الحديث: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده»[1]، وقد غير هذا الشيخ المنكر.

وقد وقع مثل ذلك لسيدي محمد الغمري مع مريد له، فقال بعض أقرانه: ما كان ينبغي للشيخ أن يفعل مثل ذلك، لأنه لا يخلو إما أن يكون ذلك الزنا مقدَّرًا مبرَمًا أم لا، فإن كان مقدَّرًا فلا يقدر علىٰ منعه بيده، وإن لم يكن مقدَّرًا فلا يحتاج إلىٰ مد اليد. وقد أجبتُ أنا عن سيدي محمد هذا بأن الذي فعله هو الصواب، لأن الله تعالىٰ أمرنا بإزالة المنكرات وكفِّ من شرع في فعلها عنها، وكلفنا ذلك، فلا يخرج عن العهدة إلا بذلك، فإن كانت مقدرة، فقد فعلنا ما كُلِّفنا به، وإن لم تكن مقدرة فقد فعلنا ما كلفنا به، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٩) وأبو داود (٤٣٤٠).

(٢٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: اجتمعتُ بالخضر عليه الصلاة والسلام مرارًا وقال لي كذا وكذا؛ ونازعه بعض الفقهاء في حياته، وصاروا يستدلون عليه بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية[١] وغيره، ويقولون: إن الخضر قد مات في آخر القرن الأول من الهجرة، لقوله ﷺ: «بعد مئة سنة من يومنا هذا لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض الآن أحد»[٢]، بأن هذا الشيخ صادق في اجتماعه بالخضر عليه الصلاة والسلام في مثل هذا الزمان، والحديث المذكور لا ينافي ذلك، لأنه ما من عام إلا ويقبل التخصيص.

وقد حكىٰ الإمام اليافعي[٣] التواتر بين الأولياء علىٰ حياة الخضر عليه الصلاة والسلام، وكثرة اجتماعهم به في السياحات وغيرها. وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: اجتمعتُ بالخضر عليه الصلاة والسلام ما لا أحصي، فلو جادلني الآن ألف فقيه علىٰ أنه مات لم أرجع إليهم. وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: «خصلتان أكرههما من الفقيه: قوله بموت الخضر، وقوله بكفر الحلاج». انتهىٰ.

قلتُ: وممن أدركته من مشايخنا الذين يصرحون باجتماعهم بالخضر الشيخ عليٌّ الضرير النبتيتي والشيخ عليٌّ الخواص والشيخ أفضل الدين رضي الله عنهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٠) ومما أجبتُ به عن العلماء والمشايخ الذين يأكلون من أطعمة الولاة ولا يراهم أحد يتورعون، ثم بعد ذلك يدعي أحدهم الصلاح، ولاث الناس بهم بسبب ذلك

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين ابن تيمية، ولد في حران وتحول به أبوه إلىٰ دمشق فنبغ واشتهر. له مصنفات منها: «الفتاوىٰ» و«السياسة الشرعية» و«منهاج السنة» وغيرها. ومات معتقلًا بقلعة دمشق ٧٢٨هـ فخرجت دمشق كلها في جنازته. «الوافي بالوفيات» (٧/ ١١)، «الأعلام» (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).

(٣) عفيف الدّين أبو محمد عبد الله بن أسعد شيخ الحجاز اليافعي اليمني ثم المكيّ الشافعي. ولد قبل ٧٠٠هـ بقليل، حببت إليه الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال، وصحب الشيخ علي الطواشي، وهو الذي سلّكه الطريق، له مصنفات منها: «مرآة الجنان، وعبرة اليقظان، في معرفة حوادث الزمان» ثم جاور بمكّة، وتزوج بها، وبها توفي: ٧٦٨هـ. «شذرات الذهب» (٨/ ٣٦٢)، «الأعلام» (٤/ ٧٢).

وصاروا يقولون: إن شخصًا من الأولياء كان يرىٰ النبي ﷺ في منامه كثيرًا، فدخل يومًا علىٰ أمير يشفع عنده في مظلوم، فجلس علىٰ بساطه، فانقطعت عنه رؤية رسول الله ﷺ من ذلك اليوم، ثم رآه بعد سنين من بعيد وقال: يجلس علىٰ بساط الظالمين ويطلب رؤيتي! لا سبيل إلىٰ ذلك. انتهىٰ. بأنه ربما كان يسأل الله تعالىٰ كلما يريد يأكل من طعام الولاة أن يميز له الحلال من الحرام حتىٰ يأكله، أو كان من أهل العلامات، كما كان الحارث المحاسبي، فكان له عرق يضرب في يده إذا مدَّها إلىٰ طعام فيه شبهة. وكان من رجال التمييز جماعة أدركناهم، منهم أخي الشيخ أفضل الدين، قدَّمتُ إليه يومًا رغيفًا، فصار يرمي منه شيئًا ويأكل الباقي، وقال: لي عادة مع الله تعالىٰ أن يميز لي الدقيق المختلط بحرام ويعزله لي وحده. فقلتُ له: الدقيق؟! فقال: الدقيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠]. انتهىٰ. فيُحتمَل أن يكون ذلك العالم أو الشيخ ممن يستجيب الله تعالىٰ دعاءه، ويميز له الحلال من الحرام، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: **إن جبريل يأتيني كلَّ قليل ويحادثني، وكذلك عزرائيل والمسيح عليه الصلاة والسلام، ويصير الناس يلوثون به،** بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، فإنه قد ورد نزوله ليلة القدر ومصافحته لمن أقامها إيمانًا واحتسابًا[١]، وكل ما جاز وقوعه لآحاد الناس مرةً في السنة مثلًا، يجوز أن يخرق الله تعالىٰ العادة فيه لبعض أوليائه بالتكرار ما شاء الله.

وقد نقل الشيخ عبد الغفار القوصي عن الشيخ تاج الدين بن شعبان[٢] أنه كان إذا سأله إنسان عن شيء لا يعرفه، قال له: اصبر حتىٰ يجيء جبريل وأسأله عنه؛ فأفتىٰ بعضهم بكفره. قال الشيخ عبد الغفار: ولا ينبغي تكفيره بذلك، لأنه ليس بمستحيل،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تاج الدين بن شعبان بن إبراهيم بن محمد، كان كبير الشأن، وهو شيخ الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي، وكانت له أحوال شريفة ومواجيد وأخبار عزيزة، كان من أقران الشيخ عبد الرحيم القناوي. جامع كرامات الأولياء (١٦١٩)، ذيل مناقب الأولياء ص١٩٦

فإن قلوب الأولياء ﷺ طوَّافة بالملكوت، ولها مخاطبات لملائكته ومحادثات. ثم لا تُسمَّىٰ تلك المحادثة نبوة ولا وحيًا ولا إرسالًا. انتهىٰ.

وأما عزرائيل فكان الشيخ محمد الشربيني[1] رحمه الله يقول: جاءني عزرائيل مرارًا، وأخبرني بما بقي من أجل فلان وفلان، وكان الأمر كما قال. انتهي. وأخبرني ولده الشيخ أحمد أنه مرض مرضًا شديدًا وأشرف علىٰ الموت، ونزل عزرائيل لقبض روحه، فقال الشيخ: ارجع إلىٰ ربك فراجعه، فإن ذلك الأمر نسخ، وبقي من عمره ثلاثون سنة[2]. قال الشيخ أحمد: وقد بقي منها سنة وأربعون يومًا، فكان الأمر كذلك.

وأما المسيح عليه الصلاة والسلام فذكر الطبري وغيره أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام نزل بعد ما رُفِعَ ثلاث مرات، وقالوا: إذا ثبت نزوله ثلاث مرات، فلا مَنْعَ من نزوله بعد ذلك، لكن لا يعرفه كلُّ أحد إلا في نزوله آخر الزمان. وذكر أيضًا أن جماعة من أصحاب الجذام والبرص والعاهات كانوا يقفون خارج أجمة[3] بوص ينتظرون المسيح [إذا] خرج منها، فراجعه. وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في «الفتوحات المكية» أنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة والسلام، وتاب علىٰ يديه في الطريق، وأمره بالسياحة. انتهىٰ[4].

---

(١) الشيخ محمد الشربيني رحمه الله تعالىٰ، شيخ طائفة الفقراء بالشرقية كان من أرباب الأحوال والمكاشفات، وكان ﷺ يتكلم علىٰ سائر أقطار الأرض كأنه تربىٰ فيها. وكراماته كثيرة. توفي: قبل ٩٢٠هـ ودفن بزاويته سربين، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١١٨).

(٢) نزول سيدنا عزرائيل ﷺ بحسب ما في صحيفته المكتوب فيها الأجل المعلَّق. وقول سيدي الشربيني هو بحسب إطِّلاع الله له علىٰ أن بقاء ابنه متوقف علىٰ شرط، وهو شفاعة الشيخ، فتشفع الشيخ ودعا ربه ببقاء ابنه، فتقبل الله دعاءه وعلم الشيخ ذلك بإلهام إلهي، فأخبر الملك بأن ما في صحيفته قد نُسخ، أي بظهور الحكم الأزلي ببقاء الابن. ولو نفذ الموت ولم تُقبل شفاعة الشيخ لكان هذا هو حكم الله الأزلي الذي لا يتغير.

أما عن الحكمة في نزول عزرائيل ﷺ وعودته فهي إظهار الله تعالىٰ كرامة وليِّه وعظم شأنه عنده، وظهور حكم القضاءين المعلَّق والمبرم.

(٣) الأَجَمَة: الشجر الكثير الملتَف.

(٤) انظر الجواب (١٤) من أجوبة الشيخ الأكبر علىٰ الحكيم الترمذي، الباب (٧٣)، «الفتوحات».

فاحمل يا أخي من ادعىٰ الاجتماع بملائكة السماوات علىٰ التصديق، إلا إن ترتب علىٰ ذلك مفسدة في الدين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الحق تعالىٰ يرضىٰ لرضاي، ويغضب لغضبي؛ وصار الناس يلوثون به بسبب ذلك وقالوا: من أين يعرف ذلك؟ وليس هو بنبي يُوحىٰ إليه، وإنه يجب تكذيب مثل هذا، بأنه قد يكون صادقًا، فقد ورد في الصحيح أن الله عزَّ وجلَّ يرضىٰ لرضا الوالدين، ويغضب لغضبهما[1]، فيُحتمَل أن يكون أخبر بذلك، لكون أولاده يرضونه تارة ويسخطونه تارة. ويُحتمَل أنه أخبر بذلك بعلامات يعلمه الله إياها، فهو من باب التجربة مع الحقِّ جلَّ وعلا لا من باب الوحي.

وقد ادعىٰ شخص في عصر سيدي إبراهيم المتبولي ذلك، وكان كلُّ من دعا عليه مات، وكلُّ من غضب عليه خربت دياره، فبلغ خبره إلىٰ سيدي إبراهيم، فسأل الله تعالىٰ في موته، فمات لوقته، وقال: لو بقي هذا لأمات خلقًا كثيرًا. ومما وقع له كما حكته زوجته أنه دعاها لفراشه ليلة، فقالت: اصبر حتىٰ ينام الأولاد. وكانوا سبعة، فقال: أماتهم الله؛ فماتوا كلُّهم تلك الليلة. انتهىٰ. فسلِّم يا أخي للأولياء كلَّ ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا من سائر الممكنات، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٣) ومما أجبتُ به عمَّن يقول: إن الله تعالىٰ أعطاني أنني أنادي من شئتُ من أصحابي في سرِّي فيأتي، وأنادي من شئتُ أن لا يأتي أو يرجع من الطريق، فيفعل، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: إن السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يقع له مثل ذلك، وإنما ناداهم بصوت جهوري، فأخذه الله تعالىٰ بأن سمعه من بعيد كمن سمعه من قريب. وقد وقع للسيد عمر بن الخطاب ﷺ وقال: يا سارية، الجبل الجبل، وكان عمر

(١) أخرج الترمذي (١٨٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «رضىٰ الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد» والحاكم (٧٢٤٩) وقال الذهبي: صحيح علىٰ شرط مسلم، وابن حبان (٤٢٩) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢).

بالمدينة، وسارية بنهاوند[1] بالعجم، فسمعه وبينهما نحو شهر. وكذلك وقع لسيدي أحمد بن الرفاعي[2] كان يعظ الناس على الكرسي، فيسمعه جميع البلاد التي حول بلده، فكانت الكرامة في ذلك زيادة امتداد الصوت لا غير، نظير وضع رسول الله ﷺ أصابعه في الإناء، فزاد الماء حتى أروى الجيش[3]، ولم يبلغنا أن أحدًا أظهر كرامة بلا مادة أبدًا.

والجواب: أن [نداء][4] الولي في سره حكمه عند الله تعالى كالصوت الجهوري، فلا بدع أن الله تعالى يوصله إلى سماع المريدين بواسطة الارتباط الذي يكون بين المريد وبين شيخه.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله له هذا المقام، فربما كان جالسًا عندي، فقال: مقصودي أنادي فلانًا بالقلب ليحضر، وفلانًا ليرجع إن كان في الطريق؛ فيأتي أحدهما ويرجع الآخر. انتهى.

ويقع لي ذلك كثيرًا، فيأتيني من يُجعَل لي على يديه خير، ويرجع من يحصل على يديه شرٌّ من وقوعه في غيبة أو نميمة ونحو ذلك، فالتسليم للعبد أسلم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٤) ومما أجبتُ به عمَّن يقول: أنا ممن أخبر رسول الله ﷺ عنه أنه يجدد شريعته[5]، ولاث الناس به بسبب ذلك، وأنكروا تجديده للدين، بأنه قد يصدق تجديده ولو بتعليم

(١) كذا بالأصلين، وفي «البداية والنهاية» أنها كانت مدينة دارابجرد. راجع: «البداية والنهاية» (١٠/ ١٧٥).

(٢) أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني أبو العباس، الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن (من أعمال واسط - بالعراق) وتفقه وتأدب في واسط، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير. وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها: ٥٧٨ هـ. «الطبقات الكبرى» للشعراني (١/ ١٢٠)، «الأعلام» (١/ ١٧٤).

(٣) كما حدث يوم الحديبية والحديث أخرجه البخاري (٤١٥٢)، وابن حبان (٦٥٤٢).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» والحاكم (٨٥٩٢) والطبراني في «الأوسط» (٦٥٢٧).

حتىٰ إن بعضهم يخفي كثيرًا من العلوم والعبادات المتعلِّقة بالقلوب والجوارح، لئلا يعلم بذلك الناس، فيتوجه عليهم اللوم شرعًا إذا علموا ذلك ولم يعملوا به.

وقد أرسل الله تعالىٰ محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، **وكذلك ينبغي للدعاة بعده أن يكونوا كذلك رحمةً لقومهم، فلا يظهروا لهم من العلوم والأعمال إلا بقدر ما يعلمون منهم الطاقة والدوام عليه**، ولم يزل الناس الداعون إلىٰ الله يتنازلون لأتباعهم، ولو أنهم طلبوا من أتباعهم أن يتبعوهم علىٰ وصف الكمال الذي هم عليه لما استطاعوا، فعُلِمَ أن كلَّ عالم أو شيخ اختفىٰ عن أهل عصره، فليس عليه لوم، بل هو ماشٍ علىٰ سنن من كان قبله.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله يقول: أسباب الظهور للعلماء وأشياخ الطريق شيئان: العلم بقوة همة الطالب، والقدرة علىٰ العمل[1] بما علم. وهذان الأمران قد تودع منهما ما بقيت الدنيا. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الداعي إلىٰ تظاهر أشياخ الطريق بأسباب الصلاح شيئان: وجود المعتقدين فيهم من الأمراء والأكابر ليقبلوا شفاعهم في المظلومين، وصدق المريدين في طلب الطريق. وهذان الأمران مفقودان الآن غالبًا، فالتظاهر بالعلم بالصلاح لماذا؟! وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من تظاهر بالعلم والصلاح بغير ضرورة، فهو بعيد عن الإخلاص، فإنهم قالوا الظهور يقطع الظهور. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ من يخفي نفسه في هذا الزمان إلا بعد معرفتك بشروطه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٦) ومما أجبتُ به عمَّن يقول من الفقراء: «لا موجود إلا الله» ولاث العلماء به وقالوا له: الإطلاق في محل التفصيل خطأ، بأنه قد يريد أنه لا موجود بذاته إلا الله، وأما عباده كلهم فهم موجودون بإيجاد ربهم لهم لا بذواتهم، وهذا هو الذي يجب حمل ذلك الفقير علىٰ إرادته.

ثم إن هذا القول لا يقع إلا ممن غلب عليه الوله والجذب، مع قلة بضاعته في علوم

---

(١) بالأصلين: العلم. والصواب ما أثبتناه.

الشريعة، فلو كان متضلعًا من علوم الشريعة، لم يقع في هذا الإطلاق الذي يلزم منه عدم وجود المكلفين، وعدم نزول الشرائع والتكاليف. وقد كان الإمام الجنيد ﵁ يقول: لو كنت ذا سلطان لضربتُ عنق كلِّ من يقول: لا موجود إلا الله؛ لما يترتب علىٰ هذا الإطلاق من المفاسد. انتهىٰ. فابحث يا أخي عن حال الناطق بهذه الكلمة ثم أنكر عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يزكي الناس في المحاضر، ثم يظهر أن ذلك المزكَّىٰ -اسم مفعول- كان فاسقًا حال تزكية الفقير له، فلاث الناس به وقالوا: يحرم علىٰ مثل هذا أن يزكي أحدًا، بأنه قد يكون ممن غلب عليهم رؤية محاسن الناس دون مساوئهم، فما زكَّىٰ إلا من هو عدل عنده، فلا ينبغي الاعتراض عليه، إلا لو كان يعلم فسقه ثم زكاه. ومن هنا قال المحققون: لا ينبغي للفقير أن يرجح ولا يجرح، لعدم نظره إلىٰ أحوال غيره، ولأن الله تعالىٰ يمحو ما يشاء ويثبت. ومن هنا ورد فيمن يزكي غيره أن من الأدب أن يقول: أحسبه كذا، أوأظنه كذا، ولا يزكي علىٰ الله أحدًا[1]. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ والعالم إذا اطلعا علىٰ جهل أحد بالعلم أو بتحقيقه، أو بطريق القوم، وجلس يدرِّس في العلم أو يربي في الطريق، ورأيناهما ساكتين[2] علىٰ ذلك لا ينكران عليه، ولاث بهما الناس بسبب ذلك وقالوا: هذه مداهنة في دين الله تعالىٰ وغش للناس، بأن يحملهما علىٰ أنهما ينصحانه بينه وبينهم، وإنما يسكتان بحضرة الناس سترةً لعورة طلبة العلم وأهل الطريق، تخلقًا بأخلاق الله تعالىٰ، فإنه يرىٰ العيب ويستره.

فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إذا رأيتَ أحدًا منهم ساكتًا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٦٦٢) من حديث أبي بكرة ﵁ قال: «أثنىٰ رجل علىٰ رجل عند النبي ﷺ فقال: ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك مرارا. ثم قال: من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي علىٰ الله أحدًا أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه» ومسلم (٣٠٠٠).

(٢) بالأصلين: ساكتان. والصواب ما أثبتناه.

علىٰ من يدرِّس أو يسلِّك الناس وهو لم يبلغ مقام الكمال، بل احمله علىٰ أنه ينصح ذلك الذي يدرِّس أو يسلِّك، أو يترك نصحه خوفًا من مفسدة أعظم من مفسدة النصح، لا سيما إن كان ذلك القاصر مستندًا إلىٰ الولاة وهم يعتقدون علمه وصلاحه، ولا يصغون لقول أحد فيه، فربما وقعت بسبب نصحه فتنة أخربت البلد، كما وقع للشيخ نصير الدين الطوسي[1] مع الشيخ نجم الدين الكبرىٰ[2]، فحملته النفس وراح إلىٰ التتار ودخل بهم بغداد، فكان خرابها علىٰ يديه، وأرموا كتب المجتهدين في الدجلة، حتىٰ صارت الخيل تمر علىٰ الكتب إلىٰ ذلك البر. فاعرف يا أخي زمانك، فإنه أخبث من زمان نصير الدين بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق أو العالم إذا فرَّ من أهل الجذام أو البرص، وأنفت نفوسهما عن مخالطتهما والأكل معهما وشرب فضلتهما مثلًا، ولاث الناس بهما بسبب ذلك وقالوا: هذا الأمر لا يليق إلا بالعوام، أما العلماء والأشياخ فهم أهل توكل علىٰ الله تعالىٰ، لا يليق بهما التطير من مثل ذلك، بأنهما ربما كسفت شمس علمهما حين تطيرا، فإن العالم والصالح قد يتوارىٰ علمهما وتوكلهما عنهما، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة في أن الإيمان يزيد وينقص. ويُحتمَل كونهما من أهل التوكل علىٰ الله تعالىٰ، وإنما نفرت نفوسهما من المجذوم مثلًا رحمةً بتلامذتهما الضعفاء اليقين، اقتداءً برسول الله ﷺ في نحو قوله: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[3] فإنه ما قال ذلك إلا

---

(١) محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسي: فيلسوف. كان رأسًا في العلوم العقلية، علامة بالأرصاد والمجسطي والرياضيات. ولد بطوس (قرب نيسابور) له مصنفات منها: «شكل القطاع» و«تحرير كتاب المناظر» توفي: ٦٧٢ هـ. «فوات الوفيات» (٣/ ٢٤٦)، «الأعلام» (٧/ ٣٠).

(٢) نجم الدين الكُبرىٰ أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي، الإمام العلامة القدوة المحدث شيخ خوارزم في عصره. من علماء الصوفية، طاف البلاد وسمع بها الحديث. كان ملجأ للغرباء، عظيم الجاه لا يخاف في الله لومة لائم، قتل شهيدًا علىٰ باب خوارزم. السير (٢٢/ ١١١)، الأعلام (١/ ١٨٥).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٧٠٧)، وأحمد (٩٧٢٢).

لضعيف الإيمان. وأما قوي الإيمان، فقال له ﷺ: «لا عدوىٰ ولا طيرة»[١].

فعُلِمَ أنه لا يلزم من نفرة العالم أو الصالح من المجذوم أن يكون لضعف يقينه جزمًا، فقد يكون تنزلًا للتلامذة، أو ميلًا للضعف وهضم النفس، فخاف أن يقع منه تطير، فيقع في النقص.

وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: إياكم ومعاشرة الأجذم والأبرص والأعرج والأفْحَج[٢] وكل من في بدنه عاهة أو نقص، فإن عنده التواء ومعاشرته عسرة. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٠) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا مرَّ علىٰ العالم الكبير راكبًا ولم ينزل له، ولاث الناس بالفقير وقالوا: هذا يرىٰ نفسه علىٰ العلماء، بأنه ربما ترك النزول سهوًا، أو كان يظن بذلك العالم أن نفسه قد تهذبت بالعلم، وأنه لا يتكدر ممن لم يعظمه، بل ربما لم يخطر له طلب تعظيمه علىٰ باله.

ومثل ذلك ما إذا مرَّ عليه العالم وهو جالس فلم يقم له، يجب حمل الفقير علىٰ أنه ما ترك القيام إلا لظنه فيه التواضع، إذ يبعد عن الفقير أن العالم يحب القيام له مع معرفته بقوله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[٣]. انتهىٰ. فما ترك القيام للعالم إلا لظنه فيه الدين والخير.

ثم إن مثل ذلك لا يقع إلا من الفقير الذي ينظر بعين واحدة. أما الكامل فإنه يكنىٰ «أبا العيون» فينظر إلىٰ العالم بأنه متواضع بعين، فلا ينزل له ولا يقوم، وينظر إليه بالتعظيم بعين أخرىٰ، إما لكونه متواضعًا في نفسه، أو لتظاهره بالعلم بقطع النظر عن ملاحظة تواضعه، فإنهم قالوا: أعظم الناس درجة عند الله أكثرهم تواضعًا له. وقالوا: أحق الناس بالتعظيم عالم تواضع للعامة. فينبغي للفقير أن يعظِّم العالم وينزل له ويقوم

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأفحج: من تدانَتْ صدورُ قدميه وتباعدَتْ عَقِباه.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) وأحمد (١٦٨٣٠)

له. وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: لا تقصِّر في حقِّ أخيك اعتمادًا علىٰ مروءته. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في الطريق المتمكن في مقام الزهد والورع إذا احتاج الناس إليه في الشفاعات عند الأمراء، فهرب من ذلك، وقال له أقرانه: إما أن تكون كاملًا في الطريق، فيجب عليك القرب من الأمراء والشفاعات عندهم في المظلومين؛ لعدم خوفك حينئذ من الآفات، وإما أن تكون ناقصًا، فيجب عليك إظهار النقص وترك التصدر لتربية المريدين، بأنه قد يكون له عذر آخر غير ما ذُكر، كأن يطلبوا منه المكاشفات بما يقع لهم ولأصحابهم في المستقبل، فلا يقبلون شفاعته ويحترمونه إلا إن كاشفهم علىٰ ما طلبوا. ومعلوم أن الكامل لا كشف عنده بأمور الدنيا، وليس من شأنه أن يتعشق إلىٰ حصول مقام، ولا أن يتوجه إلىٰ الله في تحصيله، لارتفاع مقامه عن مثل ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا يتم للفقير شفاعة عند أمير إلا إن كان من أهل الكشف، وإلا فلا فرق بينه وبين آحاد الناس، بل ربما كان الأمير يرىٰ نفسه أفضل من ذلك الفقير، لاسيما إن كان يحسن إليه، فإن حرمته تذهب من قلبه بالكلية، ويصير معدودًا من جملة عياله. وسمعتُه مرة أخرىٰ يقول: قد يهرب الفقير من الأمير تعظيمًا له من حيثُ إن الله تعالىٰ خلع عليه خلعة الإمارة، ورفع مقامه بالتصريف في الوجود.

وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول: قد يبعد الفقير عن الأمير تعظيمًا له، لجهله بالأدب معه، أو لعلم الفقير بأن ذلك الأمير من أهل الامتحان للفقراء يخاف أن يمتحنه فيكشف عورته بين الناس، فإنه ما كل فقير يقع له نصرة إذا امتُحن. وقد بلغنا أن سلطان المغرب سمع بخبر سيدي أبي العباس المرسي وكثرة اعتقاد الناس فيه، فأرسل خلفه وأحضره بين يديه، وعمل له دجاجًا ودسَّ فيها دجاجة مخنوقة، لينظر حفظ الله تعالىٰ له، فلما وضعوا الدجاج بين يديه، قال: ارموا هذه الدجاجة للكلاب. وأشار إلىٰ المخنوقة، فاعتقده السلطان اعتقادًا تامًا. انتهىٰ. فلولا عناية الله تعالىٰ لسيدي أبي العباس بهذا الكشف ما كان السلطان اعتقده.

فاحمل يا أخي كلَّ شيخ هرب من مخالطة الأمراء والشفاعة عندهم علىٰ عذر أوجب ذلك، لاسيما وقت غضبه علىٰ إنسان، فإن الأمير إذا غضب خرج من يد أصحابه الخواص، فضلًا عن غيرهم.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من لم يكن له حال يحميه من تصرف الولاة فيه، فبعده عنهم أولىٰ. وسمعتُه مرة أخرىٰ يقول: يجب علىٰ الشافع أن يكون من أهل الرحمة علىٰ الأمير إذا شفع عنده، وإلا أهلكه إذا خالف شفاعته بعد بيان الأدلة الشرعية التي يوردها عليه حال غضب ذلك الأمير، فينبغي له مراعاة الجهتين: المشفوع فيه، والمشفوع عنده. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا بادر إلىٰ الإنكار علىٰ من يراه يكلم أمَّه أو زوجته أو ابنته في شارع، أو يساررها في خلوة، فأنكر عليه لظنه أنها امرأة أجنبية، فلاث الناس به وقالوا: هذا من سوء الظن الذي لا يليق بالفقراء، ولِمَ لَمْ يحمله علىٰ أن تلك المرأة زوجته أو أخته مثلًا كشفًا أو حسن ظن به؟! بأنه لا يلزم من مبادرته إلىٰ الإنكار أن يكون لا كشف عنده أو سيء الظن، فقد يكون حسن الظن به، ولكن أنكر عليه احتياطًا له أن يقع أحد في عرضه بسبب ذلك، فإن الشيطان يجري من بني آدم المارين عليه وهو يكلم امرأة في الطريق مجرىٰ الدم، فخاف الشيخ عليه وعليهم وعلىٰ تلك المرأة، وقد قال ﷺ لاثنين رأياه وهو يكلم عمته صفية: «علىٰ رسلكما إنها صفية»[1] فخاف ﷺ عليهم أن يقذف الشيطان في قلبهما شيئًا، يعني من سوء الظن فيهلكا، فكما أنه ﷺ حذَّرهما من أن يطرقهما سوء ظن به وبعمته مع عصمته ﷺ من سوء الظن بمسلم، فكذلك ينبغي حمل الشيخ إذا حذَّر أحدًا من الوقوع في سوء الظن أنه عامله معاملة من يسيء الظن مع عدم سوء الظن، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٣) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ المشهور بالورع والدين إذا وقع أنه دخل

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٢٨١) ومسلم (٢١٧٥).

علىٰ أمير وأكل من طعامه، وبادر الناس إلىٰ الإنكار عليه، بأنه لا ينبغي لأحد المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، لأنه ربما رأىٰ المصلحة في الأكل من طعامه ذلك الوقت ترجح علىٰ ما يترتب من ترك الأكل، لاسيما وذلك العالم من المشهورين بالورع والدين كما أشرنا إليه أولًا، فكيف ننسخ ما نعرفه من ورعه طول عمره بأكلة واحدة من شبهة؟! هذا تهور في الدين، بل يتربص وينظر في حاله أو نسأله عن سبب ذلك الأكل، فإن رأينا له عذرًا سكتنا، وإلا فإن كان ناسيًا ذكَّرناه، أو جاهلًا بما يترتب علىٰ ذلك أعلمناه بجهله، وقلنا له: ما ذكرت لنا ليس هو بعذر يسوغ لك به الأكل من مال الولاة، لذهولك عما يترتب عليه، إلا أن يكون من أهل الاجتهاد في الترجيح، فنسلم له، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٤) **ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صار يعظِّم الأمراء ويحملهم علىٰ المحامل الحسنة، ويذب عن أعراضهم، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: لو أمكنه لسجد لهم،** بأنه ربما كان تعظيمه لذلك الأمير أدبًا مع الله تعالىٰ الذي ولَّاه تلك الولاية لا حبًّا[1] له لحظِّ نفس، فإن مثل العالم الكبير يبعد محبته للولاة لحظ نفسه وتعصبه لهم بالباطل، وقد نهىٰ ﷺ عن الطعن في الأئمة[2] وفيمن ولوه ولاية من حيث إنهم أتم نظرًا من آحاد رعيتهم الطاعنين فيهم.

وبلغنا أن الأصمعي[3] دخل علىٰ هارون الرشيد[4] فوعظه، فقال له هارون: يا أبا عبد

---

(١) بالأصلين: بغضًا، ولا يستقيم المعنىٰ إلا بما أثبتناه.

(٢) من ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه الترمذي (٢٢٢٤) « «من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله»، وقوله فيما أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠١٥): «لا تسبوا أمراءكم، ولا تغشوهم، ولا تبغضوهم، واتقوا الله واصبروا؛ فإن الأمر قريب».

(٣) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. مولده ووفاته في البصرة. وكان الرشيد يسميه «شيطان الشعر» له مصنفات منها: «الإبل» و«خلق الإنسان» «النبات والشجر» ت ٢١٦هـ «السير» (١٠/ ١٧٦)، «الأعلام» (٤/ ١٦٢).

(٤) هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر الهاشمي العباسي. كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي. ولد بالري سنة ١٨٤هـ. وقيل: إنه كان يصلي في خلافته في

الله إن كنت أعلم منا، فنحن أعقل منك وأتم نظرًا وتدبيرًا في حقِّ أنفسنا وفي حق رعيتنا، فلا تنصحنا في ملا، ولا تغشنا في خلا. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ينبغي للعالم أو الفقير أن يعوِّد لسانه التبجيل لولاة زمانه، حتىٰ يغلب علىٰ لسانه ذلك في غيبتهم وحضورهم علىٰ حدٍّ سواء، ليخرج من صفة النفاق، فربما تكلم في غيبتهم بما يستحيي أن يواجههم به. قال: وتأمل أدب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه لما منعه الخليفة الفتوىٰ كيف لم يفت ابنته في الليل حين سألته عن الدم الخارج من بين الأسنان: هل ينقض الوضوء؟ وقال لها: سلي عن ذلك عمك حمادًا، فإن إمامي منعني الفتيا ولم أكن ممن يخون إمامه بالغيب. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي كلَّ من رأيته من العلماء والفقراء يعظِّم الأمراء علىٰ المحامل الحسنة، لتخلص من تبعته في الآخرة. وقد ورد أن الزبانية تمسك من تكلم في عرض الناس بالظن وتقول له علىٰ الصراط: أثبت ما قلته في حق فلان. نسأل الله العافية، فإياك من مثل ذلك ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا دعاه أحد إلىٰ وليمة، فحضر ولم يأكل من طعامه دون الناس كلِّهم، ولاث الناس به، فإن كان الداعي فقيرًا قالوا: إنه كسر خاطره بترك الأكل؛ وإن كان من أقرانه كشف سوأته بين الناس وقالوا: لولا أنه عرف في طعامه حرامًا أو شبهة لما امتنع من أكله، وبعضهم صار يقول: كما تبين لنا أنه عدو له ونحو ذلك، بأنه قد يكون ذلك العالم أو الشيخ عما فهمه الناس بمعزل، ويكون المانع له من الأكل أمر لا ينبغي له تفسيره، وقد يكون ذلك الطعام عمل من كسب امرأة، فنذرت عمله إن شُفِي ولدها مثلًا، فترك الأكل منه تورعًا وتنزهًا عن الأكل من كسب النساء. وقد يكون صاحب ذلك الطعام ممن يبيع علىٰ الظلمة، أو يقبل هداياهم، أو ممن ساعد الولاة في عمل الطعام، أو كان صاحبها ممن يأكل بدينه ولو ظنًّا، بحيث توفرت القرائن بأنه لولا إظهاره الزهد والورع ما اعتقده أحد ولا أهدىٰ إليه

كل يوم مائة ركعة إلىٰ أن مات، ويتصدق بألف، ت ١٩٣هـ. «السير» (٩/ ٢٨٦) «شذرات الذهب» (٢/ ٤٣١).

شيئًا، فمثل هذا يسوغ للمتورع ترك الأكل من طعامه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﵀ يقول: كلوا من طعام المحبين، ولا تأكلوا من طعام المعتقدين، فإن من اعتقدكم لا يطعمكم إلا لظنه الصلاح فيكم، بخلاف من يحبكم، فإنه يطعمكم علىٰ كل حال، كالأم مع ولدها علىٰ حد سواء.

وكان يقول: إذا شك أحدكم في طعام أحد هل يأكل بدينه أم لا، فليقدر تجريد ذلك الأحد من جميع صفات الصالحين، ويلطخه بصفات الفاسقين، وينظر فكل من أهدىٰ له شيئًا بعد ذلك، فهو لله تعالىٰ فليأكل منه، وكل من امتنع من الهدية لو اطلع علىٰ نقائصه، فلا ينبغي له الأكل من طعامه الذي أهداه له.

وكان يقول: لا ينبغي لمتورع أن يأكل من طعام الصنايعي العاجز عن الكسب، ولا من طعام من عليه دين إلا أن يكافيء الصنايعي، ويدفع عن المديون قيمة ذلك الطعام للدائن.

وكان يقول: من علامة المتهور في مكسبه أن ينوع طعام تلك الوليمة علىٰ أنواع، فإنه لو تورع ما وجد لونًا واحدًا من حلال، فمثل هذا للمتورع عدم الأكل من طعامه، ولا التفات إلىٰ كسر خاطره، فإنه كالطفل، والأطفال لا يجابون إلىٰ كلِّ ما طلبوا.

وكان سفيان الثوري إذا دعي إلىٰ وليمة يأخذ معه رغيفًا، ويصير يأكل من رغيفه ويقول: كلُّ واحد يأكل ما يعتقد حله. وفعل ذلك الحسن البصري أيضًا، وكان يقول: دخلتُ علىٰ السيد عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، فقدَّم إليَّ نصف رغيف ونصف خيارة، وقال: كل يا حسن، فإن هذا زمان لا يحتمل الحلال فيه السرف. انتهىٰ.

وسأل رجل النووي عن فضل الصف الأول، فقال له: انظر رغيفك من أين هو، وصل في الصف الأخير ولا لوم عليك.

فاحمل يا أخي العلماء والأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعرف منك بطريق الظاهر والباطن، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في طريق القوم إذا دخل علىٰ أحد

من الولاة وصار يسأله شيئًا من الدنيا، ويلح عليه في ذلك، ويظهر له الغضب إن لم يعطه شيئًا، ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه قد يريد أن يرد ذلك الطعام الذي يأخذه مثلًا إلىٰ من غصبه منه ذلك الأمير مثلًا، فيخلِّص ذمة ذلك الأمير بالإلحاح وإظهار الأدب. وإن كان ذلك المغصوب مثليًّا، أخذ منه مثله أو قيمته وردها إليه. وإن كان من جملة الأموال الضائعة، أخذها منه وصرفها في مواضعها الشرعية، إذ الغالب علىٰ الولاة أن يصرفوا مال المصالح في شهوات نفوسهم المباحة أو المحرَّمة، فأراد ذلك العالم أو الشيخ أن لا يلحق ذلك الأمير تبعة يوم القيامة بسبب ذلك.

فإن قال قائل: إن سؤال العالم أو الشيخ المال من الأمير يفوِّت عليه قبول شفاعاته في المظلومين، لازدرائه وعدم اطلاعه علىٰ قصد ذلك العالم من طلب تخليص ذمته؛ **فالجواب:** أنه قد يكون ذلك العالم له حال يمنع به ذلك الأمير أن يزدريه بسبب سؤاله المذكور، بل يزداد فيه اعتقادًا كلما سأله في شيء، كما عليه أرباب الأحوال.

فاعرف يا أخي قصد ذلك العالم أو الشيخ، ثم أنكر عليه ما خالف الصراط المستقيم، ولا تبادر إلىٰ الإنكار إلا بعد العلم بحاله، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح إذا كان صاحب مال، وسأله فقير شيئًا يستعين به علىٰ عمل وليمة لختان أولاده مثلًا، فلم يعطه شيئًا، فلاث به وصار يذمه في المجالس وعند الأقران، بأنه قد يكون المانع له من الإعطاء عدم وجود نية صالحة، أو عدم اعتقاده الحل فيما بيده من ذلك المال، فلا يُطالَب بالتصدق به علىٰ أحد، فاحتاط لنفسه وللسائل، فمنعه لحكمة لا لبخل، فلا ينبغي للسائل ذمه إلا إن علم يقينًا أنه منعه بخلًا، ومن أين له ذلك؟! اللهم إلا أن يكون ذلك السائل من أولياء الله تعالىٰ، وخاف علىٰ ذلك الشيخ من أن يكون منعه بخلًا، فله أن يذمه تقبيحًا لصنعه، كما يفعل ذلك مع مريديه إذا خاف عليهم من تلبيس نفوسهم، بخلاف من يتكدر من عدم إعطائه لغير مصلحة تعود علىٰ المانع، فليس له ذلك. وقد يظهر الوليُّ التكدر من حيثُ يفوت ذلك الشيخ الأجر حين منعه لا لحظ نفسه، ولكلٍّ شخص علامات تدل علىٰ قصده لا تخفىٰ

علىٰ عاقل، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٨) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا صار يوافق نفسه في هواها بعد أن كان يخالفها، فصار يتزوج المنعمات، ويلبس المحررات، ويركب الخيول المسومات، ويسكن في القاعات المرخمات، ونحو ذلك، ولاث الناس به وقالوا: قد رجعت ثمرة عمله ومجاهداته طول عمره إلىٰ الدنيا، وما غفل إبليس عن أحد، بأنه قد يكون ممن بلغ درجة الكمال وأُمر بأن يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وقد كانت نفسه هي المطية التي كان يركب عليها الأهوال أيام المجاهدات، فلما أوصلته إلىٰ مقام الكمال، طلبت منه بعض أجرتها تقويةً ليقينها، ومبادرةً لإعطائها حقَّها، كما هو الأمر في الأجير إذا فرغ من العمل الذي استُؤجر عليه. وقد قالوا: إن النفس تقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صوَّعتك. انتهىٰ.

وفي تفسير بعض العارفين لقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر: ٣٢] أن المراد بهذا الظالم من حمل نفسه فوق طاقتها في العبادة طلبًا لمرضاتنا، وليس المراد من ظلم نفسه بارتكاب المعاصي، لأن هذا ليس مصطفىٰ من العباد، وإن كان مصطفىٰ بالنظر لمن هو أكثر معاصي منه، ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي لم يظلم نفسه ولم يكرمها، وهو متوسط في الطريق، ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي سبق بها لنفسه قبل أن يُطلَب ذلك منه وهو الكامل، فأعطاها أجرتها قبل أن تسأله أجرتها، فإن العمل يطلب الأجر بذاته، والله غني عن العالمين. وكأن الكامل وكيل عن الحقِّ تعالىٰ في إعطاء النفس حقَّها الذي جعله الله تعالىٰ لها فضلًا منه ومنَّةً، وهو نفسه خارج عن نفسه كالأجنبي، من باب التجريد في علم المعاني.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين ﷺ عن معروف الكرخي أن زوجته برَّدت له ماءً في كوز أيام الصيف، فنام فرأىٰ حورية جميلة فقال: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرَّد في الكيزان؛ فتناول معروف الكوز فضرب به الأرض، فقال تلميذه السري السقطي: فلقد رأيتُ شفقه في الأرض لم يُرفع حتىٰ علاه التراب. انتهىٰ. قال الشيخ

محيي الدين: ومثل معروف الكرخي لا يجهل أن تبريده الماء كان أولىٰ إعطاءً لنفسه حقَّها. ولعله فعل ذلك تنشيطًا لهمة تلامذته، وفتحًا لباب مجاهداتهم لنفوسهم حتىٰ يبلغوا مراتب الكمال. انتهىٰ.

وكان الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: قد يصل الولي إلىٰ حدٍّ يحرم عليه مخالفة نفسه، وذلك إذا أفنىٰ العبد مراده في مرضات الله، فصار رضاه هو رضا الله، وسخطه هو سخط الله. انتهىٰ.

قلتُ: وهذا فيه ما فيه، **فإن الأغراض النفسانية تدق مع صاحبها في المقامات ولا تنقطع بالكلية؛ فلابد من جزء يبقىٰ من البشرية يسخطه ما يرضىٰ الله، ويرضيه ما يسخط الله، وما خرج عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فاعلم ذلك، فإنه نفيس** ربما لا تجده في كتاب، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة وإن لم تذقها في نفسك، كما تنزه المعصومين عما لا يليق بمقامهم من الأنبياء علىٰ السماع دون ذوقك لمقامهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا فرح بكثرة المعتقدين والتلامذة، وحمله الجهلة علىٰ أنه إنما يحب ذلك فخرًا ورياء وحظ نفس، بأنه قد يكون ممن عافاه الله تعالىٰ من الفخر والرياء، وإنما يحب كثرة المعتقدين والتلامذة محبة لله عزَّ وجلَّ من حيثُ كثرةُ طاعاتهم لله تعالىٰ، وتوبتُهم من المعاصي إذا صحبوا الفقراء عادة. وقد يكون مشهد هذا الشيخ أنه مرتبة إدمان للمريدين، فهو يحب كثرة التلامذة، ليدمنوا فيه دون جناب مقدورات الحقِّ جلَّ وعلا، فيجري بهم معه في الصبر علىٰ مصاريف الأقدار المخالفة لهواه وهواهم، كشدة المرض وعدم وجود ما يصرفه علىٰ الدواء، وقساوة قلوب الناس عليه، فإن رضي المريد بذلك، يرقىٰ إلىٰ الرضا عن الله تعالىٰ بما قدَّره عليه. **وقد أجمعوا علىٰ أن كلَّ مريد لم يصبر علىٰ مقارع الأستاذ، لم يظفر بعروس الوداد، ولا يشم من الأدب مع الله تعالىٰ رائحة. انتهىٰ.**

وقد كان سيدي يوسف العجمي ﷫ يقول للتلامذة: تعالوا حتىٰ أعلمكم الأدب مع الله تعالىٰ، ثم يتنكر عليهم ويخالفهم في جميع ما يهوونه، فيقول لأحدهم: إني أحب

طلاق زوجتك، وأحب خروجك من وظائفك ودارك وتعطيها لفلان، ويذكر بعض الأعداء والحاسدين له، فإن انشرح بذلك، قال: هنيئًا لك، ها أنت وربك؛ وإن تكدر لذلك قال له: مالك وللطريق؟! اذهب إلىٰ الحرفة في السوق. انتهىٰ.

فإياك يا أخي، والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ من تراه يزاحم أقرانه علىٰ التلامذة والمشيخة، فربما يكون ذلك لأغراض صحيحة يرضاها الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا قال له أحد: ادع لي واقرأ الفاتحة، فزجر السائل عن ذلك، ولاث به الناس وقالوا: قد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحىٰ: ١٠] فأطلق السؤال ولم يعين، فشمل سؤال الدنيا والعلم والدعاء وكلَّ شيء يُسأل العبد فيه.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون ممن انكشفت له عيوبه وقبائحه التي عملها طول عمره ذلك الوقت، وصار ذا خجل حياءً من الله عزَّ وجلَّ، فلا يقدر أن يدعو لأحد، ولا أن يناجيه بالقرآن، فحكمه حكم من كبسوه بجارية من جواري الوالي، ثم أتوا به ليعاقبه الوالي، فقال له شخص: اشفع لي عند الوالي في جريمتي؛ فلا يردُّ له جوابًا اشتغالًا بخوفه علىٰ نفسه من العقوبة، وربما يقول الناس لذلك السائل: أما لك ذوق! الذي خائف علىٰ نفسه من الوالي كيف يشفع في غيره عنده؟!

وربما تفرس الشيخ في السائل عن العلم التعنت، أو السائل للدنيا التكثر، أو سبق منه السؤال مرارًا والشيخ يمنعه، فلم يرجع، فزجره الشيخ لأجل ذلك، وفي الحديث: «إذا رجعتم السائل المرة والمرتين، فلا عليكم أن تزجروه في الثالثة»[1]. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي من سألته الدعاء أو قراءة الفاتحة مثلًا فلم يفعل علىٰ محمل حسن، وإياك أن تحمله علىٰ التكبر، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٨٣٣) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رددت علىٰ السائل ثلاثًا فلا عليك أن تزبره» والخطيب في تاريخ بغداد (١٨/ ٢٧).

(٣٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: كنا قبل أن نجتمع بالقوم من أشرار الناس، أو يقول: هذا الأمر مما وقع لنا أيام البداية؛ فيلوث الناس به بسبب ذلك، فيقولون عنه في الأول: إنه الآن صار يعتقد في نفسه أنه من خيار الناس، فصار ذنبه ذنب إبليس. ويقولون عنه في الثاني: إنه خيار الآن يقول إنه قد انتهىٰ في مقامات الطريق.

والجواب: أنه ربما كان هذا الشيخ عما فهمه الناس عنه بمعزل، فيُحتمَل أنه قصد بذلك مدح أهل الطريق، بقطع النظر عن حاله هو، ليشوق الناس إلىٰ طريق الصالحين حين علموا أن كلَّ من صحبهم يصير من خيار الناس لا يؤذي أحدًا، ولا يقابله بأذىٰ مثلًا، بل هو يحسن إلىٰ البر والفاجر لله تعالىٰ لا لعلة دنيوية أو أخروية.

[فإن قيل: يلزم من قوله: «وقع لي كذا أيام بدايتي» أنه صار منتهيًا][(١)] قلنا: قوله: «وقع لي كذا أيام بدايتي» فليس المراد به أنه صار الآن منتهيًا، وإنما قصد بذلك التأريخ فقط، فكأنه قال: كنتُ قبل الشهر الفلاني كثير الشرِّ والخصام كلُّ من خاصمني خصمته، فمنَّ الله تعالىٰ عليَّ بحسن الخلق في الشهر الفلاني، فهو من باب التحدث بالنعم لا من باب التفاخر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا مرض أحد من إخوانه ولم يعده، ولم يرسل له شيئًا يستعين به، أو لم يأت به إليه، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا المريض غنيًّا، لكان ذهب إليه ولو لم يدعه إلىٰ عيادته، ولكنَّ الفقير ما أحد يلتفت إليه، بأنه قد يكون المريض هو المانع للناس من المجيء إليه، خوفًا من تحمل منتهم، كما هو الغالب علىٰ الفقراء الصادقين، فيصير ذلك المتخلف عن عيادته يعتذر له، والحال أن المريض هو الدافع له عن المجيء بهمته.

وقد يكون له عذر يمنعه من الحضور عنده لا يمكنه أن يذكره، كأن كانت زوجة ذلك المريض تعشقه من غير علم زوجها، أو لم يجد عنده نية صالحة يعوده بها، أو

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وجد نية صالحة يعوده بها، ولكن من عادته أن يحسن إلىٰ من يعوده بالسكر والدراهم وغير ذلك، فلم يجد ذلك، فاستحيا أن يقابله بيده فارغة، أو وجد عنده الدراهم وغيرها، ولكن من وجه فيه شبهة فاستحيا من الله تعالىٰ ومن ذلك المريض أن يطعمه ما فيه شبهة، وربما كانت الوفاة في تلك المرضة، فختم عمره بأكل الشبهات، وأساء ذلك المهدي علىٰ نفسه وعليه بذلك. والأجوبة عن الأصحاب كثيرة. ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٣) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يذكر الله تعالىٰ في السوق بصوت جهوري إما في حانوته طول النهار، وإما وهو ماش يتردد فيه، ولاث الناس به، وقالوا: لو أنه ذكر الله تعالىٰ في بيته أو في سره، لكان أفضل، بأنه ربما كان يجهر تنبيهًا للغافلين، إذ السوق محل اللغط، فلولا رفع صوته بالذكر ما سمعه أحد ولا ذكر الله تعالىٰ بذكره، وفي الحديث: «من قال لا إله إلا الله مادًّا بها صوته، محت عنه كلَّ ذنب كان عليه»[١]، وكذلك ورد الأمر بالجهر في السوق بـ«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو علىٰ كلِّ شيء قدير»[٢] ووعد الشارع قائلها بمغفرة ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر.

وقد يكون ذلك منه بقصد أن الناس يسمعون ذكره، فيذكرون الله تعالىٰ بذكره، فما جهر هذا بالذكر إلا محبة في الله عزَّ وجلَّ. وقد يقصد بذلك دفع البلاء عن أهل السوق الغافلين. ورأيتُ [بعضهم يذكر الله تعالىٰ في السوق إذا دخله، ويجعل ثواب ذلك في صحائف كل غافل، ورأيتُ][٣] بعضهم يشفع في أهل السوق إذا دخل، فلا يخرج منه حتىٰ ينظر أمارات قبول شفاعته فيهم عند الله عزَّ وجلَّ. فإياك يا أخي والإنكار علىٰ من يذكر ربك علىٰ كلِّ حال بطريقه الشرعي أدبًا مع ربك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٢٨)، وابن ماجه (٢٢٣٥)، والدارمي (٢٧٣٤) والحاكم (٢٧٣٤).

(٣) ساقط من «ب».

(٣٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في الطريق إذا وقع أحد من أصحابه في زلة أو تهمة، وصار الشيخ يسعىٰ في خلاص ذلك المتهوم بفلوس عند الولاة كما يفعل العوام، ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا شيخًا، لحمىٰ صاحبه بالحال عن تحكم الظلمة فيه، ولم يحتج إلىٰ غرامة فلوس، بأنه قد يكون سبب عدم حماية ذلك الصاحب إنما هو عدم صدقه في توجهه إلىٰ الشيخ، فلو صدق توجهه إليه لحماه. وقد يكون سبب غرامته الفلوس عدم استحقاقه الحماية لكثرة معاصيه أو قبحها. وقد يكون غرامة تلك الفلوس رحمة بذلك المتهوم، فربما كان يستحق الضرب الشديد والحبس، فشفع الشيخ فيه ورد ذلك إلىٰ غرامة الفلوس، كمن استحق النار فصالح بالرماد.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ إذا لاذ به أحد من أصحابه في دفع نازلة نزلت عليه يقول له: لو أن نازلتك نزلت علىٰ إبراهيم ماذا كان يصنع؟! أما كان يحملها؟! العبد أقل من أن يعاند القدرة. انتهىٰ. فاحفظ يا أخي لسانك في حق الأولياء، ولا تكلفهم معارضة الأقدار في الخلق، فإنهم أهل التسليم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا بالغ في الخوف من إبليس، ولاث به المريدون وقالوا: لو كان لهذا الشيخ وصلة بحضرة الله تعالىٰ ما خاف من إبليس كلَّ هذا الخوف، فإنه ليس له قدرة علىٰ أن يغوي أحدًا من أهل الحضرة، ومن شرط الشيخ الكامل دوام الإقامة في الحضرة.

والجواب: أن من كمال الشيخ كثرة خوفه من إبليس كلما ترقىٰ في المقامات، فإنه بالمرصاد للأكابر ينتظر غفلة تطرأ علىٰ قلوبهم، فيركب أحدهم كما يركب أحدنا حمارته، ويصرفه فيما يريد كما يصرف أحدنا حمارته، فهو واقف تجاه قلب العبد علىٰ الدوام، فإن غفل ركبه، وإن ذكر نزل عنه. والناس في ذلك علىٰ أقسام بين مقل ومكثر في الغفلة والركوب، فمن الناس من لا يركبهم إبليس أصلًا، وهم الأنبياء والمحفوظون من الأولياء ما داموا محفوظين، ومنهم من يركبهم علىٰ الدوام، وهم المصرون علىٰ المعاصي، ومنهم من هو طول النهار يركبهم وينزل عنهم، وهم المخلوطون في الأعمال والغفلات.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لو لم يكن من التحذير من شدَّة كيد إبليس إلا في قوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] فإذا كان سيد الأولين والآخرين لا يقدر علىٰ رد إبليس عنه إلا بالاستعاذة بالله، فكيف بغيره؟!

ومما يؤيد ما قلناه ذكر الاستعاذة بالاسم الجامع لحقائق جميع الأسماء الإلهية دون غيره من الأسماء التي هي كالفروع منه، ليسد عنه جميع الطرق التي يأتي للعبد منها، فإنه إذا رأىٰ العبد قد استعاذ بالاسم «الرحيم» مثلًا يأتيه من طريق الاسم «المنتقم» مثلًا، وهكذا في سائر الأسماء، فلو كان يقاوم إبليس خَلْقٌ، لأمرنا الحقُّ بالاستعاذة من إبليس بأكابر الملائكة أو أولي العزم من الرسل، فافهم، فلا يستهين بكيد إبليس إلا جاهل بكيده. وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] أي بالنسبة لكيد القدرة الإلهية.

وقد دخل الشِّبليُّ[1] مرة خربة، فرأىٰ فيها عجوزًا شوهاء، فصاح بأعلىٰ صوته: أدركوني! فاجتمع إليه أهل حارته، وقالوا له: مالك؟ فقال: خفت من إبليس أن يوقعني بهذه العجوز! فكلُّ عارف لا يستبعد وقوعه في أكبر الكبائر أبدًا، بخلاف الجاهل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إن إبليس لا يفارق الأعوج ولا المستقيم، فإن الأعوج من إخوانه، والمستقيم يتربص به ريب المنون، ليوقعه في مخالفة إذا غفل عن ربه، وما خرج عن تسليطه عليه إلا من دام عليه حضور قلبه بأن الله تعالىٰ يراه وهو بين يديه، وتُسمَّىٰ هذه «حضرة الله» التي يدخلها العارفون بقلوبهم.

فاعلم ذلك، وزد في تعظيم كلِّ من رأيته يخاف من إبليس، فإن ذلك من أكبر علامات العرفان، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس الشبلي أبو بكر البغدادي شيخ الطائفة، مولده بسامراء. وكان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، كان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، صحب الشيخ أبا القاسم الجنيد، ت ٣٣٤هـ ببغداد. «السير» (١٥/ ٣٦٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٢٧٣).

(٣٠٦) **ومما أجبتُ به عن الشيخ المشهور بالولاية إذا رأيناه يخاف من الناس أو من المؤذيات، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا وليًّا لله ما خاف من غير الله. ويستدلون عليه بما نُقِلَ عن الأولياء الذين كانوا يركبون السباع، ويصيحون علىٰ الثعبان فيموت، ونحو ذلك،** بأن الخوف مما ذُكِرَ من علامات الكمال. ثم إن خوف الولي من الحيوانات يرجع إلىٰ الخوف من الله عزَّ وجلَّ، فهو يخاف أن الله تعالىٰ يسلطهم عليه بذنوبه السابقة واللاحقة، فرجع خوفهم من الخلق إلىٰ الخوف من الله عزَّ وجلَّ، هذا مشهد الكُمَّل.

وأما أرباب الأحوال فلا يخافون من مخلوق لنقصهم، فإن الله تعالىٰ حجبهم عن شهود الخلق وأن لهم فعلًا مع الله تعالىٰ، والكامل يشهد الحق والخلق معًا، ويخاف من تسليطهم عليه، ولو لم يخف منهم، لعطلهم عن فعل ما استعملهم الحقُّ تعالىٰ فيه، وذلك لا يصح، **فالكامل كلما ارتفع مقامه خاف من أضعف الحيوانات، والناقص كلما نقص لم يخف ولا من الفيل.** وإيضاح ذلك أن العارف يعرف أن الله تعالىٰ أمنَّه علىٰ نفسه، وأمره بدفع الآفات التي تضرها في الدنيا والآخرة، فهو يخاف من كلِّ من يؤذيها، ليقوم بما كُلِّف به.

ومما وقع لي وأنا صغير أن الحال كان يغلب عليَّ، فأنام في مقبرة أحجرة الثعابين في الليالي المظلمة، فكانت الثعابين يدورون حولي وفوقي من العشاء إلىٰ الصباح وكأني في حجر أمي، وأستحضر ذلك يقينًا، وأنا الآن أخاف من ناموسة! وكذلك كنتُ أنام بالقصد في المواضع المعمورة بالجنِّ، وكان الجني إذا قبضت عليه يصيح مني ويخاف.

فاعلمْ ذلك وإياك أن ترجِّح صاحب الحال الذي يركب السباع علىٰ الكامل الذي يخاف منها، **فإن الصاحي مقدَّم علىٰ السكران، وصاحب الحال سكران بالحال،** والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٧) **ومما أجبتُ به عن أكابر العلماء والأولياء إذا رأىٰ أحدهم منكرًا ولم يظهر التشديد في إزالته، ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا له قدم في العلم أو الولاية، لغار لله تعالىٰ حين انتُهكت محارمه،** بأنه قد يكون ذلك العالم أو الوليُّ ممن أطلعه الله تعالىٰ

علىٰ أن ذلك المنكر من علامات الساعة التي صحت عن الشارع من طريق النقل أو من طريق الكشف، فهو ينهىٰ عن فعل ذلك برفق أدبًا مع الشريعة فقط، وإلا فإذا حق القول الإلهيُّ والتقدير الربانيُّ بوقوع شيء، فلابد من وقوعه، وتلاشىٰ الجزء الاختياري في ذلك عند صاحب هذا المشهد، ومن بالغ في المعارضة في عدم وقوعه، فهو كالمعارض للقدرة بنفسه، أو كالساعي في تكذيب الشارع فيما أخبر من وقوعه بين يدي الساعة.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: قال لي سيدي إبراهيم المتبولي: يا عليُّ، إذا أدركتَ النصف الثاني من القرن العاشر، فلا تتصدر لإزالة منكرات الولاة وغيرهم، إلا إن أعطاك الله تعالىٰ الكشف التام، لتعرف الأمور التي أخبر الشارع بوقوعها حتمًا مبرمًا والأمور المعلَّقة، لتشدد في الثاني وتخفف في الأول. ولولا أن الله تعبدنا بالنهي عن المنكر مطلقًا، لكان من الأدب التسليم لكلِّ ما حقَّ به القلم وعدم إنكاره. انتهىٰ.

فإياك يا أخي أن تقع في عرض العلماء والأولياء إذا لم ترهم يشددون في إزالة المنكرات وتقول: ما بقي أحد يغار للشريعة! فربما كان ذلك المنكر الذي لم يعتنوا بالتشديد في إزالته مما حق به القلم.

وإياك وازدراء الظلمة، واعذرهم بما تعذر به نفسك، فإنك تظلم نفسك ليلًا ونهارًا، وترجو عفو الله عنك وعدم مؤاخذتك، فكذلك ينبغي أن ترجو لهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا زاره أحد من الأمراء أو قضاة العساكر، فصار ذلك الشيخ أو العالم يقبل رجله ويقول: استغفر الله يا سيدي! نحن أحقُّ بالسعي إليكم! ومثلنا لا يستحق مشي مثلكم إليه، ونحو ذلك، وصار الناس يلوثون به ويقولون: هذا أزرىٰ بطريق الفقراء، إنما اللائق أن الأمير هو الذي يقبل رجل الفقير، بأن ما فعله هذا العالم أو الشيخ هو الكمال والأدب مع الله تعالىٰ ومع ذلك الأمير، وما نهىٰ الشارع إلا عن التواضع للأغنياء لأجل مالهم، وهذا الشيخ لم يتواضع للأمير إلا بقصد الأدب مع الله تعالىٰ الذي ولَّاه تلك الولاية لا غير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من أدب الفقير أن يقوم للأمير إذا ورد عليه، ويقبل يده، ويبش له في وجهه، ويقدم له الطعام والشراب، ويسأله الدعاء، وإذا خرج شيَّعه إلىٰ باب الزاوية أو الدار، مكافأةً للأمير علىٰ بعض فضله عليه وتواضعه له، ولو أنه وقف مع ولايته وكبريائه، ما طلع لزيارة ذلك الفقير، فشخص يخلع إمرته وكبرياءه لأجلك، ويراك أعلىٰ مقامًا منه، كيف يليق أن تتكبر عليه أو تمكنه من تقبيل يدك فضلًا عن رجلك؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن كل فقير تساهل في تمكين الأمير من تقبيل يده، فهو قليل الأدب، ويا فضيحته من ذلك الأمير يوم القيامة حين تظهر فضائحهم! وكان أخي أفضل الدين يقول: كلُّ فقير تساهل في تعظيم الأمير إذا رآه، فهو جاهل بطريق الأدب، وربما كانت أعمال ذلك الفقير التي عملها طول عمره لا تقابل مشي ذلك الأمير ولا طلوعه له. وقد كان أخي أفضل الدين يتأثر من كل من سحب أحدًا من الأمراء إلىٰ زيارته، ويقول: اللهم اغفر لفلان ولا تؤاخذه فيما فعل معي من السوء. انتهىٰ.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي إذا بلغه أن أميرًا قد عزم علىٰ زيارته، يذهب هو إليه ويقول: أنا فلان الذي بلغني أنك عزمتَ علىٰ زيارته، ثم يقول: كلُّ فقير تساهل بمشي الأمراء إليه، فقد تساهل في دينه. وكان إذا عرض عليه أحد من الأمراء مالًا ورده عليه، يقول له: والله يا سيدي إن خاطري بذلك طيب؛ يقول له الشيخ: أنا خاطري ما هو طيب بأخذه؛ فيزداد الشيخُ في قلب الأمير تعظيمًا. انتهىٰ. فعُلِمَ أن كلَّ فقير رأىٰ نفسه أحقَّ بسعي الأمير إليه، فهو ساذج أو خفيف العقل، لا سيما إن كان الأمير يحسن إليه.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: ما زار أمير فقيرًا إلا وذلك الأمير يرىٰ نفسه دون الفقير، فما لقيه إلا فقرًا، فوجب جزمًا إكرامه أكثر مما يكرم به الفقراء، لأن الفقير ليس له مقام يتنزل فيه الفقير بخلاف الأمير. انتهىٰ. وكان ﷺ يُقَبِّل رجل الأمير، ولا يَقْبَل منه هدية، ويقول: هذا أدبنا مع ولاتنا في هذه الدار، وسيعلمنا الله تعالىٰ الأدب مع أكابرنا في الآخرة إذا انتقلنا إليها. انتهىٰ. فاعلم ذلك فإنه نفيس، واحمل العالم أو

الشيخ إذا عظَّم الأمراء على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٩) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا انقطع في كهف جبل أو خرابة من خرائب بلده، وصار يرسل للناس السلام ويقول: فلان أوحشنا وفلان أوحشنا؛ فلاث الناس به وقالوا له: يعني يأكل بعضك بعضًا! كيف تعتزل عن الناس وتصير تسأل عنهم؟! لو كنتَ صادقًا لفرحتَ كلَّ يوم لا يأتيك فيه منهم أحد، بأنه ربما كان له عذر في انقطاعه عن الناس، كأن أجلسه أصحاب التصريف في ذلك المكان، وحجروا عليه أن لا يزور أحدًا ولا يدخل البلد، ووعدوه إن خرج بالعقوبات الباطنة التي لا يستطيعها، ولو أنهم مكنوه من زيارة إخوانه لما انقطع عنهم. وأما إرساله السلام لهم فلا حرج عليه فيه من أصحاب التصريف، فحكم هذا حكم من كان في الحبس ولا يمكنه السجَّان أن يخرج، فلا يُطالَب بزيارة أحد ولا عيادته، بل العتب على إخوانه حيث لم يزوروه ولم يعتقدوه مع قدرتهم على ذلك.

وقد أخبرني الشيخ حسن العراقي[١] المدفون فوق الكوم المطل على بركة الرطلي[٢] أنه لما رجع من السياحة إلى مصر، لم يمكنوه من دخول السور، فمكث في القرافة عشر سنين. وكذلك وقع للشيخ إبراهيم الذي كان جالسًا في جامع آل ملك بالحسينية[٣] أنهم أجلسوه في الجامع نحو خمسين سنة، فما كان يخرج منه إلا لضرورة.

فاحمل يا أخي كل من انقطع عن الناس على المحامل الحسنة، وإياك أن تحمله على التكبر، أو على شيء من أغراض النفوس المذمومة، تخسر دنيك والعياذ بالله

---

(١) الصالح العابد الزاهد ذو الكشف الصحيح والحال العظيم الشيخ حسن العراقي، كان ﷺ قد عمر نحو مئة سنة وثلاثين سنة، توفي ﷺ سنة نيف وعشرين وتسعمئة. «الطبقات الوسطى» للشعراني، دار الإحسان، الكواكب السائرة (١/ ١٨٦).

(٢) تعرف الآن ببركة الرطل، وهي إحدى مناطق حي باب الشعرية.

(٣) يقع الجامع في شارع أم الغلام بحي الجمالية التابع لمحافظة القاهرة. وقد بناه الأمير الكبير سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار، من أمراء الناصر محمد بن المنصور قلاوون.

تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٠) ومما أجبتُ به عن الواعظ الذي يزاحم علىٰ الوعظ، وله في مقابلة وعظه مرتب في بيت المال، أو هدايا من التجار وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: من شرط الواعظ الزهد في الدنيا، فكيف يزاحم هذا عليها؟ بأنه لا يجوز الاعتراض عليه، لأنه ربما كان الله تعالىٰ محا من قلبه محبة الدنيا من سنين عديدة، وأنزل في قلبه محبة الآخرة، ومحبة الخير والنصح للأمة، ويود أنه لو وجد أحدًا يعظ مكانه ويترك هو ذلك الوعظ، فلا يجد أحدًا يصلح إما في نفس الأمر وإما في ظنه.

وقد كان العلماء والوعاظ في الزمن الماضي يأخذون الأجر علىٰ الوعظ وتعليم العلم من غير نكير عليهم، وكانوا يحملون أحدهم علىٰ الفقر والحاجة، كما أنهم يحملون من ترك أخذ الأجرة علىٰ عدم الحاجة، إذ العمل يطلب الأجر بذاته، سواء أخذه في الدنيا أم في الآخرة، وأجره في الدارين علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ الخلق، فإن جميع ما تعطيه الناس له إنما هو من صدقات الحقِّ تعالىٰ بالأصالة، فهو يعظ لله، ويأخذ تلك الأجرة من الله تعالىٰ علىٰ يد عباده ابتداء فضلًا منه تعالىٰ لا في نظير ذلك الوعظ حقيقة.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: من استعمل جوارحه في شيء ولم يأخذ عليه أجرة، فقد ظلم جوارحه، ويُخاف عليه ما هو أشد من أخذ الأجرة، وهو قيام الجاه في قلوب الخلق، فالكامل من طلب علىٰ عمله أجرًا، فإن كان محتاجًا إليه استعمله، وإن كان غنيًّا عنه دفعه إلىٰ المحتاجين إليه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا كان عليه دين، وصار يماطل الناس مع قدرته علىٰ الوفاء، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا مؤمنًا بيوم الحساب، لبادر بوفاء دينه، ولم يحوج الناس إلىٰ مطالبته، بأنه قد يفعل ذلك سترة لمقامه في الطريق حيثُ اشتُهر بين الناس بالصلاح والكرم والجود، فجعل تلك المماطلة كالزبل الذي يعفنون به أصول الأشجار، ليزيد ثمرتها حلاوةً ونضجًا.

فإن قال قائل: إن المماطلة تفتح باب سوء ظنِّ الناس به، وتمنع المريدين من الاعتقاد فيه، فيفقدون النفع به؛ **فالجواب:** أن هذا من باب تعارض المفسدتين، فقدَّم هذا الأولىٰ منهما، وهو نجاة نفسه من الهلاك. وقد يكون هذا ممن أعطاه الله تعالىٰ التمكين، فيماطل الناس صورةً وهو يود الوفاء لهم بسرعة، كلُّ ذلك ليدفع عن نفسه الفتنة، ولا يورث ذلك قلة الاعتقاد فيه، كما عليه الأكابر من الأولياء، فيخرجون بأعمالهم من الدنيا كاملة موفرة الأجر للدار الآخرة لم يأخذوا من أجرهم شيئًا. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الطعن في أفعال الأكابر، فإن له حلاوة في النفوس الغوية، واحملهم علىٰ المحامل اللائقة بالصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لإخوانه: فلان شقي! فلان سعيد! ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يجوز، بأنه ربما كان مطمح نظره اللوح المحفوظ، فأخبر بالواقع، وربما كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، ويعرف من أصحابه التصديق له، فقصد بذلك الترغيب لقوم، والترهيب لقوم، ليزيد المطيع في الطاعة، ويتوب العاصي من المعصية، ويطلب محو شقاوته من ألواح المحو. وقد يكون ذلك من الشيخ امتحانًا لمريده، لينظر هل هو راض عن ربه فيما يقدره عليه أم لا؟ وقد كان معروف الكرخي ﷺ يقول: لي منذ ثلاثين سنة وأنا أرىٰ أن الله تعالىٰ ينظر إليَّ بعين الغضب.

وقد يكون الشيخ أراد بالشقاوة الشقاء في العمل الدنيوي والأخروي، من حيثُ كونُه متعبًا للجسد، لا الشقاء الأخروي الموجِب للعقوبات.

ووقع لسيدي أحمد الزاهد أنه مكث ثلاثين سنة يرىٰ اسمه في الأشقياء وهو صابر محتسب، وكان ذلك من الله تعالىٰ اختبارًا له، وهو الذي رضاه. وما امتحن الحقُّ تعالىٰ به أولياءه، يجوز لأوليائه أن يمتحنوا به تلامذتهم؛ لأنهم علىٰ الأخلاق الإلهية، كما أشار إليه حديث: «تخلقوا بأخلاق الله»[1].

---

(١) لم أقف عليه، وذكره ابن حجر الهيتمي في الفتاوىٰ الحديثية ص٢٠٨، والقسطلاني في إرشاد الساري (٥/ ٣٤١).

فصدِّق يا أخي الأولياء تغنم، وإلا فسلِّم لهم لتسلم، اللهم إلا أن يعارض قولهم أو فعلهم نصًّا أو إجماعًا، فلك حينئذ الإنكار عليهم نصرةً للشريعة. وقد قال سيدي عبد القادر الجيلي لشخص مرة: إني لأرىٰ نار الكفر تلتهب فيك! فقال له شخص: من أين علمتم ذلك؟! فقال: علمتُه من طريق الإلهام الصحيح، وقد قال ﷺ في شخص قاتل معه قتالًا شديدًا: «إنه من أهل النار»[1] فقتل ذلك الشخص نفسه استعجالاً لطلوع روحه لما جرح تصديقًا لرسول الله ﷺ، وما كان لرسول الله من طريق الوحي، يجوز أن يكون للأولياء من طريق الإلهام أو الكشف، إلا أن يقول ذلك النبي: هذه الخصلة لا تكون لأحد بعدي. فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٣) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين الذين يدخلون علىٰ الولاة ولا يراهم أحد ينكرون عليهم منكرًا مما يقعون فيه، بأنه ربما كان ذلك العالم أو الصالح لم ير حالة دخوله علىٰ ذلك الأمير منكرًا أصلًا، أو رآه ولكنه عجز عن إزالته بالقول أو الفعل أو التوجه إلىٰ الله تعالىٰ، فلا يجوز حمل العالم علىٰ أنه رأىٰ منكرًا يقدر علىٰ إزالته وتركه مداهنة لذلك الأمير رجاء بره وإحسانه له، كما يظنه أهل السوء بالعلماء. وقد تقدم أن من أولياء الله تعالىٰ جماعة يدخلون علىٰ الظلمة ليلًا ونهارًا، ليكفوهم عن الظلم تارة بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يمنعهم من الزيغ عن الشريعة، وتارة بتحويطهم بالآيات والأذكار، وكثيرًا ما يؤدبون أحدهم بالعزل والحبس والخزي. انتهىٰ.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: يحتاج من ينكر علىٰ الولاة إلىٰ سياسة عظيمة، أو حال تحميه من تصريفهم فيه، وربما دخل العالم علىٰ أمير في شفاعة، فلاث به الناس

---

(١) إشارة الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٢٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال، حتىٰ كثرت به الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوىٰ بيده إلىٰ كنانته فاستخرج منها أسهما فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: قم يا فلان، فأذن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر» ومسلم (١١١) وغيرهما.

لما ضرب شخصًا في حضرته بغير حقٍّ، فيجب حمله علىٰ أنه عرف من نفسه العجز عن تخليص ذلك المظلوم منه، أو خاف أن يشتط ذلك الظالم به لو نهاه عن ذلك، وفعل به ما لا يطيق الصبر عليه من الضرب والحبس مثلًا. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات له زوجة مثلًا، وأرسل يدعو الأكابر من مشايخ الزوايا وعلماء جامع الأزهر وغيره إلىٰ الصلاة علىٰ الجنازة، ولاث الناس به، وقالوا: إنما يفعل مثل هذا رياء وسمعة، أي انظروا إلىٰ جنازتي وكثرة حضور الناس إليها كزفة الحنان[1].

والجواب: أنه لا يجوز اللوث به، لاحتمال أن يكون دعا الأكابر من الناس يرجو بركة دعائهم لزوجته وفاء بحقها عليه، وهو غائب عما ظنه الناس فيه وبمعزل. ولو أن كلًّ من دعا الناس إلىٰ خير، حملناه علىٰ الرياء والسمعة، لربما ترك الناس دعاء بعضهم بعضًا إلىٰ الخيرات، فاعلم ذلك، ولا تدخل بين قلوب العباد وربهم، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير أو العالم الكبير إذا رأىٰ الناس له المرائي الحسنة وفرح بها، وصار يحكيها لكلِّ داخل عليه، ولاث به الفقراء بسبب ذلك وصاروا يقولون: هذا من أهل الغرور، ومن رضي بالمنامات، بالمنىٰ مات! ويحكون أن مالك بن دينار رأوا له أنه دخل الجنة وهو يتبختر فيها، فقال للرائي: أما وجد إبليس أحدًا يسخر به غيري وغيرك؟! انتهىٰ.

والجواب: أنه ربما كان هذا العالم أو الشيخ ممن رزقه الله تعالىٰ حسن الظن به، والاتكال علىٰ عفوه تعالىٰ، لا علىٰ أعمال نفسه الصالحة، فيأخذ مثل ذلك من باب البشرىٰ من الله عزَّ وجلَّ، وهو مع ذلك شديد الخوف من الله تعالىٰ، لا يأمن نزول العذاب به لحظة واحدة، بل يرىٰ أنه قد استحق الخسف به، لو لا عفو الله تعالىٰ وحلمه عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: الرؤيا الصالحة من وحي الله تعالىٰ

---

(١) أي زفة حنَّة العروس.

لذلك العبد علىٰ لسان ملك الإلهام، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاة الصبح يقول لأصحابه: «هل رأىٰ أحد منكم رؤيا أعبرها له»(١)، فكان يحب ﷺ أن يرىٰ أثر الوحي في أمته. فعُلِمَ أنه لا يستهين بالرؤيا إلا جاهل بأحكام الشريعة.

ومن جملة نعم الله تعالىٰ علىٰ العبد أن يرىٰ الناس له الرؤيا الحسنة تارة، والرؤيا الردية تارة، ليزداد عملًا صالحًا في الأول، ويتنبه لنقصه في الثاني، فيتوب ويندم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا اعتنىٰ الحقُّ تعالىٰ بالعبد، أراه في المنام صورة تقصيره في الطاعات، أو غير ذلك من الأمور التي يجهلها في اليقظة، فيأتيه بها ملك الإلهام، فيخبره بها.

وبالجملة، فالناس علىٰ ثلاثة أقسام في ذلك: فمنهم من غلب عليه الرجاء؛ ومنهم من غلب عليه الخوف؛ ومنهم من اعتدل عنده الخوف والرجاء تفويضًا إلىٰ الله تعالىٰ، وتسليمًا لأمره. فمن غلب عليه الخوف، كان من شأنه رؤية المنامات الردية، أو يراها الناس له كصورة ظنه بنفسه حال اليقظة؛ ومن غلب عليه الرجاء، كان من شأنه رؤية المنامات الحسنة كصورة ظنه بنفسه كذلك، ومن اعتدل خوفه ورجاؤه لا يرىٰ ولا يرىٰ الناس له، لا حسنًا ولا قبيحًا، كما عليه الأكابر من الأولياء الذين لا يحتاجون إلىٰ ترغيب ولا ترهيب، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٦) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين إذا لبس أحدهم الطيلسان دائمًا وأرخاه علىٰ عينيه، ولاث به الأقران وغيرهم وقالوا: إنه لم يفعل ذلك إلا حبًّا في المشيخة والتميز، بأنه لا يجوز حمل العلماء والصالحين علىٰ ذلك، فربما كان أحدهم يفعل ذلك حياءً من الله تعالىٰ، أو من الخلق، أو ليكف بصره به عن فضول النظر، أو اقتداء برسول الله ﷺ، فقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يفعل ذلك، وألَّف فيه الجلال السيوطيُّ ﷺ مؤلَّفًا سماه «الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان» وقال: من أنكر علىٰ فاعله يُخشَىٰ عليه الكفر.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٥) والترمذي (٢٢٩٤).

ولو لم يفعله الشيخ إلا بقصد التأسي به ﷺ، لكفاه ذلك دليلًا. فإياك يا أخي أن تظنَّ بالعالم أنه فعل ذلك بقصد التمشيخ، فتخطيء طريق الهدىٰ، وليس لك الدخول في مقاصد الخلق بينهم وبين ربهم.

فإن قلتَ: إن الحقَّ تعالىٰ لا يحجبه شيء، فكيف يصح للعبد أن يفعل ذلك حياءً، والحكم واحد في حال وجوده وفي حال عدمه؟ **فالجواب**: أن الحقَّ تعالىٰ قد جعل الشرع يتبع العرف في كثير من الأحكام، وهذا منها، فحكم بإبطال صلاة العاري في الظلمة، فإذا لبس ثوبًا حكم بصحة صلاته. ومعلوم أن جبال الأرض كلَّها وجميع الكثائف لا تحجب الحق تعالىٰ عن رؤية العبد، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاويته علىٰ شارع، أو يَرِد عليها الأمراء والأكابر، فقال لإخوانه المجاورين: لا تذكروا مجلس الذكر إلا علىٰ الشارع، أو عند دخول الأمير الفلاني الزاوية؛ فسمعه بعض الناس فلاث بعرضه وقال: هذا من علامات الرياء بيقين، ولو كان خالصًا في ذكره، لأمر المجاورين بذكر الله في الإيوان البعيد عن الشارع، وفي أوقات لم يكن أحد من الأكابر يدخل في الزاوية، كما كان عليه السلف الصالح.

والجواب: أنه ربما كان قصده بذكر الله تعالىٰ في الإيوان الذي علىٰ الشارع دون غيره محبته في ذكر الله عزَّ وجلَّ للمارين في الشارع، ليحصل بذلك الأجر والثواب للفقراء والذاكرين بذكرهم، ولا هكذا الإيوان البعيد.

وأما حثُّ الفقراءِ علىٰ الذكر بحضرة الأمير دون غيبته، فينبغي حمله علىٰ طلب حصول الرقة في قلب ذلك الأمير، لما رأىٰ الشيخ عنده من الغلظة وقساوة القلب، من حيث إن سماع ذكر الله تعالىٰ يورث رقة القلب. وربما قصد الشيخ بذلك أن يعرف الأمير مقامه في الطريق، ليصير يقبل شفاعته بسهولة، بخلاف الشيخ المجهول المقام.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد إذا طلب أحد منه شفاعة عند أمير لا يعرفه، يقول له: خذ أحدًا من وجوه الناس واسبقني إلىٰ بيت الأمير، وقل لمن في الباب من جماعته:

سيدي الشيخ جاكم[١]؟! فإذا قالوا: أي الأشياخ؟ فقولوا لهم: سيدي أحمد الزاهد. فإذا قالوا: أي زاهد هذا؟ فقولوا لهم: مثلكم يجهل هذا الرجل! واذكر ما شئت من تعظيمي عندهم، فإذا رأيتموني قد أقبلتُ، فاخرجوا من الباب وتلقوني بتقبيل اليد والأخذ بعضدي، فإذا رأىٰ ذلك جماعة الأمير فعلوا كذلك، فعظموني عند الأمير، فتقبل شفاعتي فيك، بخلاف ما إذا ذهبتُ إلىٰ الأمير وهو جاهل بحالي، فإن عظمت نفسي سقطت من أعينهم، وإن سترت نفسي لا يعرفوني. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وأنهم لا يعملون شيئًا إلا لأغراض صحيحة كما فعل سيدي أحمد الزاهد، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٨) ومما أجبتُ به عمَّن احتجب في بيته عن العلماء والصالحين، ولم يخرج للناس إلا في النادر، ولاث الناس به وقالوا: لا ينبغي الاحتجاب إلا للملوك، وأما العلماء والفقراء فلا يجوز لهم ذلك، فربما جاءهم أحد في حاجة، فلم يجدهم، ما ذاك إلا تكبر علىٰ الناس، بأنه قد يكون السبب الباعث له علىٰ الاحتجاب إنما هو الحياء من الناس، أو عدم معرفته بالأدب اللائق بكلِّ إنسان، أو خوفًا علىٰ إخوانه القاصرين أن يقل تعظيمهم له إذا خالطهم كثيرًا، ويهون في أعينهم، فيعدموا النفع به، وهذا غرض صحيح ثبت عن السلف فعله[٢]، فلا ينبغي [الإنكار][٣] علىٰ قاصده.

وتأمل يا أخي الكعبة لما كثر من أهل مكة رؤيتها كيف خفت حرمتها عندهم، فلا يكاد أحدهم يبكي إذا رآها، بخلاف الحجاج الذين أتوها من بعيد. وكذلك القول في جلوس الخطيب في خلوة الخطابة إنما جعلوا ذلك احترامًا للخطيب، ليخرج بعد احتجابه مُهابًا في العيون بخلعة المراقبة التي كان فيها مع الله عزَّ وجلَّ في الخلوة، فيعظ الناس فيسمعوا وعظه ويؤثر فيهم عادة، ولا هكذا الحكم فيما إذا كان جالسًا عند المنبر

---

(١) أي جاءكم.

(٢) بالأصلين: قوله.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

يلغو ويمزح مثلًا، ثم طلع المنبر عقب ذلك، فإنهم لا يجدون له هيبة، ولا يؤثر كلامه في قلوبهم. فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سأله شريف أن يتزوج بابنته الفقيرة، فردها ثم تزوج بنت ظالم من رعاع الناس لا يُعرَف له أب، فلاث الناس به وقالوا: إذا كان العلماء صاروا يردون الشريفة لفقرها، ويتزوجون بنات الظلمة لسحت الدنيا، فالموت الآن خيرٌ لكلِّ مسلم، بأنه ربما كان رد العالم للشريفة ليس هو لفقرها، وإنما ذلك لعلمه بعجزه عن الوفاء بحقِّها، بخلاف بنت الظالم، فإن من حقِّ الشريفة أن يقوم لها زوجها كلما مرت عليه، ويقدم لها نعلها، ولا يتزوج عليها ولا يتسرىٰ، ولا يجلس علىٰ مكان أو فراش أعلىٰ من مكانها أو فرشها، لأنها بضعة من رسول الله ﷺ.

فاحمل يا أخي هذا العالم الذي لم يتزوج الشريفة الفقيرة علىٰ المحامل الحسنة، فإنه أكثر منك تعظيمًا للشريفة، وأعرف بما يجب لها من الأدب، ولا يجوز لك حمله علىٰ الأغراض الفاسدة في تزوجه بنت الظالم، فربما كان قصده بتزوجها خفة حقِّها عليه، وعدم مراعاتها بما يراعي الشريفة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٠) ومما أجبتُ به عن طلبة العلم إذا رأيناهم يسعون علىٰ وظائف أحد قد مات من الأحياء، ولاث الناس بهم وقالوا: هذا مما يفسق به الإنسان عرفًا، أو مما يخل بمروءته، بأنه ربما يكون ذلك الساعي أحقَّ من غيره، كأن شرط الواقف تقديم الأحوج علىٰ غيره، وكان لأحدهم كلَّ يوم ثلاثة أنصاف مع قلة عياله، وله هو كل يوم نصف مع كثرة عياله، فما زاحم هذا إخوانه إلا لعلة إنصافهم، ومثل ذلك لا يفسق به ولا يخل بمروءته عرفًا.

وبأنه ربما كانت تلك الوظيفة التي يسعىٰ عليها في يد من لا يستحقها شرعًا أو بشرط الواقف[1]، كمن بيده قراءة جزء ولا يعرف الخط. وكثيرًا ما يكون بيد إنسان وظيفة لأبيه

---

(١) أي بأن شرط الواقف شروطًا معينة فيمن يستحق الوظيفة من الوقف.

الفقيه، فلما مات والده عمل له عمامة كبيرة، فاعتقد الناظر أنه فقيه، فقرره من غير بحث عن حاله ونحو ذلك.

فاحمل يا أخي طلبة العلم على المحامل الحسنة، وإياك والخوض في أعراضهم بالظنّ الفاسد، فإنه هلاك لدينك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢١) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا قال لمريده: إذا ناداك شخص وأنت تقرأ القرآن أو الحديث أو كتب العلم، فلا تجبه حتىٰ تقول بقلبك: دستور يا الله، أو دستور يا رسول الله، أو دستور يا إمام مذهبي مثلًا أن أكلم فلانًا، ثم بعد ذلك كلمه علىٰ حاجته؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا بدعة في الدين، ولم يبلغنا ذلك في كتاب ولا سنة، بأن مثل ذلك من جملة الأدب الذي لا تأباه الشرائع، ولا يتوقف في فعل مثل ذلك إلا شخص جافي الطبع لم يشم من الأدب مع الأكابر رائحة.

(٣٢٢) وكذلك مما أجبت به عن قول بعض الأشياخ لمريده: إياك أن تمد رجلك في ليل أو نهار من غير ضرورة إلا بعد قولك: دستور يا الله، أو دستور يا رسول الله، أو دستور يا شيخي، فلاث به بعض المجادلين وقال له: إن هذا من جملة التنطع في الدين، ولم يرد لنا الأمر بمثل ذلك في كتاب ولا سنة، بأنه أدب لا تأباه الشريعة، نظير ما قدمناه آنفًا من قول الإنسان: دستور يا الله إذا كان يقرأ القرآن. وتأمل يا أخي لو مددت رجلك في الدرس في وجه شيخك كيف يقوم الناس كلُّهم عليك، فهل رأيت في ذلك دليلًا بخصوصه؟!

وقد بلغنا عن السيد إبراهيم بن أدهم أنه مد رجله في ليلة، فسمع هاتفًا يقول له: يا إبراهيم، ما هكذا ينبغي مجالسة الملوك، قالوا: فلم يمد إبراهيم رجله حتىٰ مات. وهذا الأمر وإن كان مباحًا في الشرع، ففعله من الأدب.

وقد بلغنا عن الإمام النووي أنه كان يكتب داخل خلوته، فكان الباب يرتد عليه، فيضع ذبابة السكين علىٰ وركه، وقعر السكين إلىٰ الباب، ويقول: جرح جسدي بذبابة السكين أهون عندي من جرح خشب الوقف. **فلكل مقام رجال**، وإياك والإنكار علىٰ

من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا نهىٰ تلامذته عن النوم علىٰ ذنب باطن، كالحسد والحقد، والمكر والكبر، والغشّ والغلّ ومحبة الدنيا، قياسًا علىٰ ما قاله العلماء في كراهة النوم للجنب، فلاث به بعض المجادلين وقالوا له: هذا بدعة! ولم يأت لنا في الشريعة التصريح بالنهي عن ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لأنه أمر بمعروف، وهذه الأمور التي نهىٰ تلامذته عنها أشد قبحًا من النوم علىٰ جنابة، خصوصًا محبة الدنيا، فإنها رأس كلِّ خطيئة، كما ورد في الحديث: «أن رسول الله ﷺ قال لأنس ﷺ: يا بني، إن استطعت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غل ولا حقد ولا حسد فافعل»[1]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷫ يقول: إياكم أن تناموا علىٰ محبة الدنيا، فربما أخذ الله روحكم علىٰ تلك الحالة، فيحشر أحدكم مع مبغوض لله تعالىٰ لم ينظر إليه نظر رعاية وإجلال منذ[2] خلقه، قال: ولعل غالب الناس لا يعدون محبة الدنيا خطيئة!

وقد كان الفضيل بن عياض يجمع أصحابه ويقول: تعالوا بنا نتوب من الذنب الذي لا يهتدي إليه كلُّ أحد وهو حب الدنيا. انتهىٰ. وكان ﷺ إذا لم تغتسل زوجته لا ينام تلك الليلة في البيت التي هي فيه ويقول: إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه خبث، وإذا امتنعت الملائكة من دخوله، حضرت الشياطين، فلم أكن أنام مع الشياطين.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ كلِّ شيء فيه أدب مع الله تعالىٰ أو مع خلقه، وإن لم يرد ذلك صريحًا في الشرع، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نهىٰ إخوانه عن قراءة حزب الشاذلي، أو سيدي أبي العباس المرسي، أو سيدي محمد وفا ونحوهم مما فيه تصريح من المريد

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٨)، والطبراني في الأوسط (٥٩٩١)، وأبو يعلىٰ الموصلي (٣٦٢٤).

(٢) بالأصلين: مثل. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

بسؤال الله تعالىٰ أن يجعله من أكابر أهل حضرته، ولاث به أتباع هؤلاء المشايخ وقالوا له: المشايخ الذين وضعوا هذه الأحزاب كانوا أعلم منك بآداب السؤال، بأن هذا الشيخ ما منعهم من مثل ذلك إلا لما رأىٰ عندهم من الكسل والانكباب علىٰ محبة الدنيا ونحو ذلك، فكان حكم أحدهم حكم زبال يقول في دعائه: اللهم أعطني هذه الساعة ولاية السلطنة موضع السلطان، أو زوجني ابنته هذا الوقت بغير سؤال مني ونحو ذلك، فإنه كالمستحيل، بخلاف من تدرَّج في مقامات الوزارة حتىٰ صار وزيرًا أعظم[1] مثلاً، فلهذا أن يسأل الأمور العالية. ولعل سيدي أبو الحسن وغيره ما وضعوا هذه الأحزاب إلا للمترشحين لدرجات الولاية الكبرىٰ، لا لآحاد الناس من الظلمة والسوقة والفلاحين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال لبعض المجادلين: البعيد لا يحب الله تعالىٰ؛ فاستفتي فيه العلماء، فأفتىٰ بعضهم بكذبه وتعزيره، وقالوا له: من أين عرفت ذلك؟! وما ثم وحي في هذا الزمان! بأن هذا الشيخ لا ينبغي الاعتراض عليه ولا تعزيره، فربما قصد أنه لا يحب الله تعالىٰ المحبة الكاملة، أو رآه ينام الليل وقت التهجد المشروع، فنفىٰ محبته للحقِّ تعالىٰ عملًا بحديث الترمذي وغيره مرفوعًا: «إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، كذب من ادعىٰ محبتي فإذا جنه الليل نام عني»[2]. انتهىٰ.

فلو تأمل من ينام الليل نفسه بعين الإنصاف، لحكم علىٰ نفسه بكذبه في دعواه المحبة لله عزَّ وجلَّ، فضلًا عن أن يزكي نفسه ويستفتي العلماء، فيا فضيحة أمثالنا يوم

(١) صدر أعظم أو وزير أعظم -بالتركية العثمانية- هو أعلىٰ منصب تحت السلطان، وهو الذي يحمل ختم السلطنة، وسلطة تعيينه وعزله حق للسلطان فقط.

(٢) لم أقف عليه عند الترمذي، وقد ذكره القشيري في الرسالة القشيرية (٢/ ٥٦٠)، وابن رجب في لطائف المعارف ٤٤، وأخرجه من كلام أبي سليمان الداراني أبو طاهر السلفي في الطيوريات، (٩٦٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٣٨).

القيامة حين تظهر الأسرار، وتهتك الأستار[١]! نسأل الله العافية.

(٣٢٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا دخل علىٰ أمير لا يعرفه، فوجد عنده عالمًا آخر من أصحاب الأمير، فلم يعرِّف الأميرَ بمقام ذلك العالم[٢] ولم يربه عنده ، ولم يثن عليه بكلمة واحدة، فلاث به العالم الداخل وقال: هذا علامة علىٰ كراهته لي. وصدَّقه بعض الناس علىٰ ذلك، بأن ذلك العالم الذي هو صاحب الأمير ربما خاف علىٰ صاحبه الداخل من الفتنة بتعظيمه عند الأمير الذي لا يسلم من الجور والظلم غالبًا، والميل ركون إليه بلا شك. ويحتمل أنه إنما ترك تعظيمه عند ذلك الأمير خوفًا من نقص أجره بثنائه عليه ونحو ذلك، فهو بمعزل عما قاله الناس فيه بالظن.

وقد كان السلف الصالح متحابين لا يرىٰ أحدهم أنه أحق بما له من أخيه، ومع ذلك كان أحدهم لا يذكر شيئًا من محاسن أخيه بين الناس، ويقول: أخاف أن ينقص أجره بالثناء عليه. وكان أخوه يشكره علىٰ عدم شكره له، رضي الله عنهم أجمعين. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ حمل الناس علىٰ المحامل السيئة، فيصيرون أعداءً لك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سأله فقير شيئًا، فلم يعطه له، ثم جاءه شخص من الظلمة أو حاشيتهم، فأعطاه ذلك الشيء بغير سؤال، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يخاف إلا من الظلمة، وأما الفقير المستنِد إلىٰ الله تعالىٰ فما عليه منه، ونحو ذلك، بأنه قصد بإعطائه ذلك للظالم تمييل خاطره إليه، ليقبل شفاعته في المظلومين. وأما الفقير فلا يظلم أحدًا، ولا يحتاج إلىٰ أن يشفع أحد عنده، لاسيما إن علم الشيخ من طريق كشفه أن ذلك الشيء لم يُقسَم للفقير، وإنما قُسِم لذلك الظالم، فما أهداه الشيخ هذه الهدية إلا بنية صالحة، وهو بمعزل عما فهمتَه عنه يا أخي.

---

(١) بالأصلين: الفجار.

(٢) بالأصلين: الحال. والصواب ما أثبتناه.

ولو[1] قدِّر أنه أعطاه ذلك إتقاء شره، فليس ذلك لخوفه علىٰ عرضه منه، وإنما ذلك شفقة منه علىٰ دين صاحب اللسان المنقي[2]، فإياك يا أخي والمحامل السيئة، فتهلك نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا قال: أنا أعلم خلق الله الآن قلمًا وفمًا؛ ولاث به الناس لا سيما الأقران، وقالوا: هذا كذب صريح، بأنه قد يريد: أنا أعلم خلق الله بذنوبي التي عملتُها طولَ عمري، أو أعلم منهم بأمتعة داري، أو بما تحت ثيابي أو نحو ذلك، أو يريد تخصيص ذلك بأهل حارته فقط، وما من عام إلا ويمكن أن يدخله التخصيص. ويبعد من العالم الكبير أن يريد الإطلاق، فإنه يعلم أن في علماء زمانه المتفرقين في سائر أقطار الأرض، بل وفي أتباعهم من هو أعلم منه بيقين.

وقد حُكي عن الشيخ جلال الدين السيوطيِّ ﵀ أنه قال مرة: أنا أعلم خلق الله تعالىٰ الآن قلمًا وفمًا؛ فأنكر عليه علماء عصره ذلك، فقال لهم: فكيف يقول أحدكم عن شيخ الإسلام: إنه أقضىٰ القضاة؟! فلولا أن المراد به عدم الإطلاق، لكان ذلك القول حرامًا، فإنه يشمل أنه أقضىٰ من جميع الأنبياء والمرسلين، بل ومن رب العالمين علىٰ وزان أحكم الحاكمين. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا رد هدايا التجار المتورعين جملة، ولاث الناس به وقالوا: إن رسول الله ﷺ قبل الهدية، فرده لهدية فلان المتورع دليل علىٰ كراهته له أو تكبره عليه، ونحو ذلك.

والجواب: أن هذا العالم قد يكون عما فهمه هؤلاء بمعزل، وأنه يحب صاحب الهدية، ويراه أفضل منه، وإنما رَدَّ هديته لكونه علم حاجة ذلك المهدي إليها أكبر منه،

---

(١) بالأصلين: لقد. والصواب ما أثبتناه.

(٢) يعني اللسان البذيء، وفي المثل العامي المصري: «أسمعني من المنقي يا خِيارُ» أي انتقىٰ أقبح الألفاظ وأوجع العبارت يا خيار، جمع خَيِّر.

فأراد مواساته بها مقابلة إيثار بإيثار، أو علم عنده حصول ندم عليها بعد أن أرسلها، فأحب أن يردَّها له، ليهديها لغيره، أو له بنية صالحة غير هذه، أو علم منه طلبه المكافأة عليها، ويُحتمَل أنه ردَّها حين علم من نفسه عجزه عن مكافأته عليها، أو حين علم بالقرائن أن لها عنده قدرًا عظيمًا، فكانت كطعام البخيل من حيثُ إن نفسه تتبعها.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله لا يأكل من هدية قال صاحبها لغلامه: لا تسلمها إلا للشيخ، ويقول: لولا أن لها عنده قدرًا ما قال ذلك. وكان إذا شدد أحد عليه في الأكل من شيء وقال: اجبر بخاطري، لا يأكله ويقول: لولا عظمة ذلك عنده ما شدد عليَّ في أكله.

فإن قال قائل: هذا منه سوء ظنٍّ بذلك الشخص، وهلا حمله على محمل حسن، كأن عزم عليه محبة فيه لا لعظمة ذلك الطعام مثلًا عنده؟ **فالجواب**: أن ما فعله الشيخ من جملة الاحتياط، فإن الأمر يحتمل ويحتمل، فعامله بترك الأكل من طعامه، كما كان يعامل البخيل من باب الفرض والتقدير، لا من باب التحقيق كما قررناه في معنى حديث: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[1]، أي عاملوهم كمعاملة من يسيء به الظن، لا أنكم تسيؤون بهم الظن، والله أعلم.

(٣٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يؤثر نفسه على إخوانه في مأكل أو ملبس أو مجلس ونحو ذلك، ولاث الفقراء به وقالوا: إن الله تعالى مدح المؤثرين على أنفسهم في القرآن، ولو كان هذا وليًّا لله تعالى، ما قدَّم نفسه على الناس.

والجواب: أن الإيثار ما هو مطلوب إلا من أهل البدايات، ليخرج أحدهم عن محبة نفسه الطبيعية والبخل الذي فتح عينه عليه في الدنيا، فإذا خرج عن البخل وشح الطبيعة، كان من المعروف تقديم نفسه، عملًا بحديث: «الأقربون أولى بالمعروف»[2]،

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٨) والبيهقي في «السنن» (٢٠٤١٦) وابن أبي الدنيا في «مدارة الناس» (١١٣).

(٢) قال السخاوي حديث: «الأقربون أولى بالمعروف» ما علمته بهذا اللفظ، ولكن قال النبي ﷺ لأبي طلحة: «أرى أن تجعلها في الأقربين» رواه البخاري (٢٧٥٢). انظر: «المقاصد الحسنة» (١٤١) (صـ: ١٣٤).

وحديث: «ابدأ بنفسك»[١]، ولا أقرب إلىٰ الإنسان من نفسه، فقد يكون هذا الشيخ ممن خرج عن شح الطبيعة، وبلغ مرتبة الكمال، فبدأ بنفسه امتثالًا لأمر الشارع له بذلك. **ومن شأن الكامل أن لا يظلم نفسه ولو بتقديم غيرها عليها إلا بأمر شرعي**، فاعلم ذلك وتأمله، فإن فيه الجمع بين الآثار والأحاديث الواردة في فضل الإيثار، وفي تقديم العبد نفسه علىٰ غيره، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا صدَّق من قال: أنا من الأنبياء، وقال له: صدقتَ! ولاث الناس به بسبب ذلك، وقالوا: لا يخلو إما أن يكون هذا جاهلًا، فلا يصلح أن يجلس لتربية المريدين، وإما أن يكون عالمًا، فقد خالف قوله تعالىٰ في محمد ﷺ إنه خاتم النبيين، بأنه ربما كان عما فهموه عنه بمعزل، وإنما صدَّقه[٢] لظنه أنه يدعي أنه من أنبياء الأولياء أصحاب التعريف الإلهي بالأحكام الذين يخبرون عن الله علىٰ لسان ملك مغيَّب عن عيونهم من طريق الإلهام[٣]، وذلك معدود من قسم الولاية، فكأنه قال له: أنا ولي لله، فقال له: صدقت؛ إحسانًا للظن به من حيث إنه أعرف بنفسه، فليس الممتنع إلا لو قال: أنا من أنبياء الله الذين يوحي الله تعالىٰ إليهم شرعًا علىٰ لسان جبريل عليه الصلاة والسلام. لكن الذي ينبغي عدم إطلاق لفظ النبوة علىٰ وليٍّ، لأن ذلك تحجر علىٰ الأولياء ولو كانوا من أهل وحي الإلهام، فاعلم واعرف مصطلح القوم قبل إنكارك عليهم.

[توجيه لقول الجيلاني: خضتُ بحرًا وقف الأنبياء بساحله]

وقد حملوا علىٰ مثل ذلك قول سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي ؓ: «خضت بحرًا وقف الأنبياء بساحله»[٤] وقالوا: مراده بذلك أنبياء الأولياء أصحاب الإلهام لا أنبياء الوحي علىٰ لسان جبريل.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٩٧) وأبو داود (٣٩٥٧).

(٢) بالأصلين: قدمه. والصواب ما أثبتناه.

(٣) وقد تقدم أنه لا تجتمع رؤية الملك وسماعه لغير الأنبياء، في الجواب (٢٣٢).

(٤) وينقل أيضًا عن أبي يزيد البسطامي، وهو الأشهر، ولا إشكال في وروده عن كل منهما.

[الفرق بين تعريف الوليّ، ووحي النبي]

والفرق بين التعريف والوحي أن الوحي يأتي بشرع مستقل من عند الله تعالىٰ، والتعريف نهايته تفهيم ذلك الوليّ مشكلات الوحي، بمثابة من يشرح كلام النبوة من العلماء لا غير، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ترك زيارة إخوانه ولم يتردد لأحد منهم جملة في عزاهم ولا في عرسهم، ولاث الناس به وقالوا: هذه عداوة لا تليق بالفقراء، وكيف يدعي هذا الصلاح وهو يكره إخوانه لحظ نفس؟! ونحو ذلك، بأنه قد يكون المانع له من زيارة أخيه خوفه من التزين له بأعماله وأقواله، كما هو الغالب من الشيخين إذا اجتمعا، فيذكر كلٌّ منهما لأخيه محاسن أعماله وأحواله، فخاف هذا العالم من وقوعه في ذلك، أو وقوع أخيه كذلك، فاحتاط لنفسه ولأخيه، ولو أنه كان غلب عليه معرفته بضبط لسانه ولسان أخيه، لما ترك زيارته.

وقد اجتمع الفضيل بن عياض بأخ له في الله تعالىٰ [فقال][1]: يا فضيل، لعل هذا المجلس مما يرضي ربنا. فقال الفضيل له: أو لعله يسخط ربنا! [فقال له: كيف؟][2] فقال: أليس قد عمد كلُّ واحد منا إلىٰ محاسن أحواله فذكرها لأخيه، فكان كلُّ واحد منا بمثابة إبليس حيثُ قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦] فقيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٦] إلىٰ آخره. فاعلم ذلك، واحمل أخاك علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا قال له عالم آخر: أريد مؤاخاتك؛ فأبىٰ ولم يجب إلىٰ ذلك، فلاث به وحمله علىٰ أنه إنما ترك مؤاخاته ازدراءً له، بأنه ربما كان عمَّا ظنه أخوه بمعزل، وإنما ترك ذلك احتياطًا لنفسه، لرؤيته عجزه عن القيام بشروط الصحبة من إعطائه له كلَّ ما طلبه منه بطيبة نفس، حتىٰ لو قال له أخوه: طلق لي زوجتك، أو أعطني رِزْقَتك مثلًا، فتلعثم كان لا يصلح للصحبة.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ساقط من «ب».

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﵀ يقول: لا ينبغي للعبد أن يجيب أحدًا إلىٰ مؤاخاته في الله تعالىٰ إلا إن كانت نفسه طيبة بتحمل أوزاره كلِّها يوم القيامة عنه، وإن استحق دخول النار، دخلها عنه وأعتقه من دخولها. انتهىٰ.

وقد جاء رجل لإبراهيم بن أدهم، فقال: أريد أن أصحبك. فقال له إبراهيم: إن طابت نفسك وانشرحت بمقاسمتي لك في جميع أموالك أجبتك. فقال الرجل: إن نفسي لا تطيب بذلك. فقال: اذهب بسلام. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي من لم يجبك إلىٰ الصحبة علىٰ أن سبب ذلك حصول شيء يضرك أو يضره في الدين، فكما لا تسمح نفسه بأن يحمل عنك أوزارك وتبعات الخلائق التي عملتها طول عمرك من مال وعرض، فكذلك أنت الآخر ربما لا تسمح نفسك بذلك، فأراد بترك الصحبة سلامتك وسلامته من النفاق، فنعم ما فعل، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سأله الأمير الذي يعتقده عن حال أحد من إخوانه ليصحبه، فقال: هذا شيطان نصَّاب لا ينبغي لمثلكم صحبته؛ فلاث به الناس وذلك الشيخ المسؤول عن حاله، وصاروا يقولون: هذا دليل علىٰ عداوته لنا وخوفه منا أن نزاحمه في سحت الدنيا الذي يعطيه له الأمير ونحو ذلك، بأن اللائق حمل ذلك العالم أو الشيخ علىٰ أنه ما قال ذلك للأمير إلا محبةً في ذلك الشيخ خوفًا أن يصحب ذلك الأمير، فيحسن إليه فيركن إليه، فيقع في مخالفة قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

ويحمل قوله «شيطان» علىٰ مطلق البعد عن ذلك الأمير أو غيره، فلا كذب فيه إن شاء الله تعالىٰ، فإنه يقال: «بئر شَطُون» أي قعرها بعيد عن فمها. وقوله: «نصاب» أي ينصب علىٰ تحصيل الخيرات، كما ينصب الإنسان علىٰ تحصيل الدنيا بالحيل.

وكان هذا الأمر من شأن سيدي عليٍّ الخواص، فكان إذا خاف علىٰ دين أحد من إخوانه إذا صحب أميرًا، يقطع في عرضه عند ذلك الأمير وينفره من صحبته، ويقول: بتقدير أنه يتشوش منا في الدنيا، فسوف يشكرنا علىٰ ذلك في الآخرة. انتهىٰ.

وهذا أمر لا يقدر على التخلص منه كل أحد، بل يختلط ذلك بحظ النفس، وهو من باب تعارض المفسدتين للإنسان في حق أخيه. فربما أدى اجتهاد الفقير إلى أن تجريحه لفظًا لا معنى عند ذلك الأمير أنفع لأخيه من تزكيته عنده، ففعل معه الأخف منهما، وهو سلامته من الركون إلى ذلك الأمير. فإن ترك صحبته أخف من أن تمسه النار يوم القيامة.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله إذا جرحه إنسان عند أمير كان عازمًا على صحبته وشدة الاعتقاد فيه، يشكر فضله ويقول: جزاك الله عني خيرًا، أرحته من التدنس بصحبتي ورؤية وجهي الذي يقسي النظر إليه القلب. انتهى.

(٣٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا كان أحد من الأمراء يعتقده، ثم ظلم شخصًا، فسألوه الشفاعة فيه عنده، فأبى وقال: صدري ما هو منشرح لذلك؛ فلاثوا به وقالوا: إنما فعل ذلك خوفًا أن ينفر منه، فيقطع عنه إحسانه، فقدَّم هذا دنياه على آخرته، فإن الشفاعة مطلوبة شرعًا، سواء أقبل الظالم ذلك أو لم يقبل، لكن قد ذهب العلماء الزاهدون أهل المروءات، ونحو ذلك من الألفاظ، بأنه ربما ترك الشفاعة في ذلك المظلوم في ذلك الوقت أنفع له. وربما كان ذلك لعذر لا ينبغي ذكره، كأن جرح فيه أحد عند ذلك الأمير، وذكر فيه العُجَر والبُجَر[1]، حتى إن ذلك الأمير بعد ذلك الاعتقاد التام فيه، ما بقي يقدر يسمع له ذكرًا، كما وقع لبعض إخواننا حين كان يشفع عند الأمير محمد الدفتردار وعند الوزير، فتربص هذا الشيخ في الشفاعة حتى يجد من يميل خاطر الأمير، ثم بعد ذلك يشفع. وقد قالوا: إن أردت أن تطاع، فقل ما يستطاع. وقد كثر الآن تجريح الناس بعضهم لبعض عند الأمراء، فقل اعتقادهم في العلماء والصالحين، ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله إذا شفع عند أمير لا يعرفه، يرسل من يربيه عنده أولًا، ثم إذا دخل عليه يقول له: يا أمير، قد جئنا نشفع في فلان عندكم، فإن كان التأديب فيه بلغ حدَّه عندكم، فشفعونا فيه، وإلا فنحن معكم عليه حتى يتأدب، فإننا نعرف من

---

(١) ذكَرَ عُجَرَه وبُجَرَه: عيوبَه وأمرَه كلَّه ما أخفى منه وما أبْدَى.

الأمير الرحمة للخلق، ولا يشدد علىٰ أحد إلا بقدر تأديبه لا غير. انتهىٰ. وهي سياسة نافعة، فينبغي لكلِّ شافع أن يقولها للأمير، ولا يلزمه بالإفراج عنه كرهًا بالكلام اليابس، فربما قسَّىٰ قلبه علىٰ ذلك المظلوم نكايةً في ذلك الشافع لقلة سياسته.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا كل من سألتموه في الشفاعة في مظلوم من العلماء والصالحين ولم يجبكم إلىٰ ذلك علىٰ أنه له عذر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا حضر في عقد مجلس بين العلماء عند الملوك والأمراء في حادثة، وبدأ هو بالكلام قبل الناس، وقال لكلِّ من أراد أن يتكلم: اسكت يا فلان، أنا أولىٰ بالكلام في هذا المجلس؛ ولاث به الناس والحاضرون وقالوا: إنه لا يحب أن يكون الأمر إلا له وحده، بأنه ربما قصد بذلك سترة الحاضرين في ذلك المحفل العظيم، فخاف أن أحدهم يتعلثم في تلك المسألة، أو يرتج عليه الكلام، فحمل ذلك عنه.

وقوله: «أنا أولىٰ بالكلام منكم» محمول علىٰ أن مراده: أنا أولىٰ بتحمل ذلك التعلثم والارتجاج عنكم، ففديتكم شفقةً عليكم بين العوام، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد الفخر بالعلم علىٰ إخوانه الحاضرين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي لا يعرف أحد من أصحابه لطعامه طعمًا لا في المواسم ولا في غيرها، مع أن له كلَّ يوم من معاليم وظائفه وغيرها ما يزيد علىٰ نفقته أضعافًا مضاعفة، ولاث به الناس وطلبته بسبب ذلك، بأنه ربما كان لا يعتقد حلَّ ما بيده من المال، ويكره إطعام أحد من إخوانه منه، فيصير لهم المهنأة بأكله وعليه هو حسابه يوم القيامة. أقل ما يكون في دخول الشبهة فيه أخذه معاليم الوظائف التي لا يحضرها لا بنفسه ولا بنائبه، وهو يعلم أن العبد لا يُكلَّف بإطعام أحد إلا إن وجد ذلك من حلال لا تبعة فيه، ويفتي الناس بذلك. وأما هو نفسه فله الباع الطويل في دخوله إلىٰ حلِّ أكله من ذلك، كما هو مقرر في كتب الفقه، فلا اعتراض لنا عليه.

فاحمل يا أخي شيخك الذي تقرأ عليه علىٰ أحسن المحامل، ليقع لك النفع علىٰ

وهذا أمر لا يقدر علىٰ التخلص منه كلُّ أحد، بل يخلط ذلك بحظ النفس، وهو من باب تعارض المفسدتين للإنسان في حقِّ أخيه، فربما أدىٰ اجتهاد الفقير إلىٰ أن تجريحه لفظًا لا معنىٰ عند ذلك الأمير أنفع لأخيه من تزكيته عنده، ففعل معه الأخف منهما، وهو سلامته من الركون إلىٰ ذلك الأمير، فإن ترك صحبته أخف من أن تمسه النار يوم القيامة.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله إذا جرحه إنسان عند أمير كان عازمًا علىٰ صحبته وشدة الاعتقاد فيه، يشكر فضله ويقول: جزاك الله عني خيرًا، أرحته من التدنس بصحبتي ورؤية وجهي الذي يقسي النظر إليه القلب. انتهىٰ.

(٣٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا كان أحد من الأمراء يعتقده، ثم ظلم شخصًا، فسألوه الشفاعة فيه عنده، فأبىٰ وقال: صدري ما هو منشرح لذلك؛ فلاثوا به وقالوا: إنما فعل ذلك خوفًا أن ينفر منه، فيقطع عنه إحسانه، فقدَّم هذا دنياه علىٰ آخرته، فإن الشفاعة مطلوبة شرعًا، سواء أقبل الظالم ذلك أو لم يقبل، لكن قد ذهب العلماء الزاهدون أهل المروءات، ونحو ذلك من الألفاظ، بأنه ربما ترك الشفاعة في ذلك المظلوم في ذلك الوقت أنفع له. وربما كان ذلك لعذر لا ينبغي ذكره، كأن جرح فيه أحد عند ذلك الأمير، وذكر فيه العُجَر والبُجَر[1]، حتىٰ إن ذلك الأمير بعد ذلك الاعتقاد التام فيه، ما بقي يقدر يسمع له ذكرًا، كما وقع لبعض إخواننا حين كان يشفع عند الأمير محمد الدفتردار وعند الوزير، فتربص هذا الشيخ في الشفاعة حتىٰ يجد من يميل خاطر الأمير، ثم بعد ذلك يشفع. وقد قالوا: إن أردت أن تطاع، فقل ما يستطاع. وقد كثر الآن تجريح الناس بعضهم لبعض عند الأمراء، فقل اعتقادهم في العلماء والصالحين، ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله إذا شفع عند أمير لا يعرفه، يرسل من يربيه عنده أولًا، ثم إذا دخل عليه يقول له: يا أمير، قد جئنا نشفع في فلان عندكم، فإن كان التأديب فيه بلغ حدَّه عندكم، فشفعونا فيه، وإلا فنحن معكم عليه حتىٰ يتأدب، فإننا نعرف من

---

(١) ذكَرَ عُجَرَه وبُجَرَه: عيوبَه وأمرَه كلَّه ما أخفىٰ منه وما أبْدَىٰ.

الأمير الرحمة للخلق، ولا يشدد علىٰ أحد إلا بقدر تأديبه لا غير. انتهىٰ. وهي سياسة نافعة، فينبغي لكلِّ شافع أن يقولها للأمير، ولا يلزمه بالإفراج عنه كرهًا بالكلام اليابس، فربما قسَّىٰ قلبه علىٰ ذلك المظلوم نكايةً في ذلك الشافع لقلة سياسته.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا كل من سألتموه في الشفاعة في مظلوم من العلماء والصالحين ولم يجبكم إلىٰ ذلك علىٰ أنه له عذر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا حضر في عقد مجلس بين العلماء عند الملوك والأمراء في حادثة، وبدأ هو بالكلام قبل الناس، وقال لكلِّ من أراد أن يتكلم: اسكت يا فلان، أنا أولىٰ بالكلام في هذا المجلس؛ ولاث به الناس والحاضرون وقالوا: إنه لا يحب أن يكون الأمر إلا له وحده، بأنه ربما قصد بذلك سترة الحاضرين في ذلك المحفل العظيم، فخاف أن أحدهم يتعلثم في تلك المسألة، أو يرتج عليه الكلام، فحمل ذلك عنه.

وقوله: «أنا أولىٰ بالكلام منكم» محمول علىٰ أن مراده: أنا أولىٰ بتحمل ذلك التعلثم والارتجاج عنكم، ففديتكم شفقةً عليكم بين العوام، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد الفخر بالعلم علىٰ إخوانه الحاضرين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي لا يعرف أحد من أصحابه لطعامه طعمًا لا في المواسم ولا في غيرها، مع أن له كلَّ يوم من معاليم وظائفه وغيرها ما يزيد علىٰ نفقته أضعافًا مضاعفة، ولاث به الناس وطلبته بسبب ذلك، بأنه ربما كان لا يعتقد حلَّ ما بيده من المال، ويكره إطعام أحد من إخوانه منه، فيصير لهم المهنأة بأكله وعليه هو حسابه يوم القيامة. أقل ما يكون في دخول الشبهة فيه أخذه معاليم الوظائف التي لا يحضرها لا بنفسه ولا بنائبه، وهو يعلم أن العبد لا يُكلَّف بإطعام أحد إلا إن وجد ذلك من حلال لا تبعة فيه، ويفتي الناس بذلك. وأما هو نفسه فله الباع الطويل في دخوله إلىٰ حلِّ أكله من ذلك، كما هو مقرر في كتب الفقه، فلا اعتراض لنا عليه.

فاحمل يا أخي شيخك الذي تقرأ عليه علىٰ أحسن المحامل، ليقع لك النفع علىٰ

يديه، وتقوم بواجب حقه في الأدب. وإياك أن يكون لك بين إخوانك كلام في حقه وبين يديه كلام آخر، فإن ذلك أقبح من كلِّ قبيح، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أراد سفر الحجاز، وصار يسأل الأمراء ومشايخ العرب وغيرهم في المال والزاد والجمال وغير ذلك، ولاث الناس به وقالوا: إن هذا الحج وزره أكثر من ثوابه، ونحو ذلك، بأنه ربما كان ينفق ذلك المال الذي فيه الشبهة علىٰ المحتاجين إلىٰ مثله في طريق الحجاز، كمن هرب جمله بعد أن أخذ كراه، أو من مات جمله وصارت أمتعته وعياله علىٰ الأرض لا يجدون من يحملهم ونحو ذلك، ولا يأكل هو منه ولا يركب.

وبتقدير أنه يأكل من ذلك ويركب، فيجب حمله علىٰ أنه ما أكل من ذلك ولا ركب إلا عند الضرورة، كأن وقعت[1] منه نفقته التي كان أعدها لمؤن الطريق، أو ماتت جماله ونحو ذلك. ولا يجوز حمله علىٰ أنه أخذ الشبهات بالأصالة ليأكل منها أو يركب، فإن ذلك يبعد وقوعه من العالم أو شيخ الطريق. فاشتغل يا أخي بنفسك ولا تنظر في عيوب الناس تقع في الهلاك. وفي كلام السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام للحواريين: «لا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في عيوبكم كأنكم عبيد لهم». انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا رأيناه يمدح نفسه المدح المفرط بين جماعة، ولاث الحاضرون به وقالوا: لولا خوفنا من لسانه، لكذبناه فيما ادَّعاه في المجلس، بأنه قد يكون غرضه بذلك المدح أمرًا مباحًا، ليميز به صديقه من عدوه حين قاسىٰ من الناس الذين قرَّبهم الشدائد والمحن، ولو أنه كان امتحنهم قبل التقريب، لأخذ حذره منهم، أو أمن منهم وأخرج من أقواله وأفعاله علىٰ كلِّ أحد منهم ما يناسبه.

وقد كان أخي أفضل الدين ﷺ يقول: من أراد أن يعرف عدوه من صديقه، فليمدح

---

(١) بالأصلين: وجب. والمثبت الأنسب للسياق.

نفسه بين جماعة وينظر وجوههم، فمن رآه قد انشرح بذلك، فليعلم أنه صديق ليس عنده حسد؛ ومن رآه قد عبس وجهه وظهر عليه كرب، فليعلم أنه عدو حسود في صورة صديق، وربما كان قصده من صحبة ذلك الشيخ أن يحصي عليه عيوبه ليهجوه بها وقت غضبه عليه، أو كان جاسوسًا من عند أحد من أعداء ذلك الشيخ الذي زاحمه علىٰ صحبة أمير مثلًا، بقصد معرفة عيوبه ونقائصه علىٰ لسان ذلك الجاسوس، حيثُ كان لا يجتمع معه في مجلس، كما وقع ذلك لبعض إخواننا حين زاحمه شخص علىٰ صحبة الأمير محمد الدفتردار. انتهىٰ.

وقد ذكرنا في كتاب «المنن والأخلاق» أن من علامة عماء قلوب المريدين أن يحوجوا شيخهم إلىٰ تزكية نفسه عندهم، ولو كانت قلوبهم تنظر لعرفوا مقام شيخهم ونفاسة كلامه بالرؤية والمخالطة، ولم يحوجوه إلىٰ مدح نفسه كلما أراد أن يوصل إليهم فائدة. انتهىٰ.

فعُلم أن مدح العبد نفسه بين الناس لغرض صحيح لا يضره، بل قد يجب لما يترتب عليه من الفائدة أو ترك الإثم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا زاره الباشاه[1] مثلاً، وصار يحكي لكلِّ داخل ذلك ويقول: زارني الباشاه أمس؛ ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا فقيرًا ما أظهر الفرح بمثل ذلك، بأنه قد يكون سبب ذكره للناس ذلك ما سمعه من قول بعض المعتقدين: إن فلانًا زاره الباشاه أمس، فلم نر في قلبه فرحًا ولا سرورًا لذلك، ولو أنه زار غيره من المشايخ مثل فلان وفلان، لكان طار من الفرح، فأراد هذا الشيخ الثبات والرسوخ، ليدفع عن نفسه فتنة ذلك التميز، فإن كلَّ صادق مع الله تعالىٰ يكره كلَّ ما فيه تميز عن أقرانه من حظوظ النفس.

وقد وقفتُ مرةً مع والدي الذي كلفني يتيمًا رحمه الله[2] علىٰ ركن حائط، فقال لي: انظر

---

(١) الباشا أو الباشاه المقصود به والي مصر.

(٢) وهو سيدي خضر، جرىٰ ذكره في «الطبقات» ولم يترجم له.

هذا الركن. فنظرته فإذا هو مشخة[1] للكلاب، فقال لي: لم كان الكلاب تشخ على الركن دون غيره؟ فقلت له: لا أدري! فقال: لأنه خرج عن سمت إخوانه من الحجارة وتميز عنهم، فكان جزاؤه بول الكلاب عليه. انتهى، فاعتبرتُ بذلك.

فاعلم يا أخي ذلك، وانتحل لإخوانك الأجوبة الحسنة ولو إقناعية إذا لم تصل إلى الأجوابة التحقيقية، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤١) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا سمع كلامًا باطلًا أو نميمة، فنقله إلى الناس وحصل من ذلك فتنة كبيرة، ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه ربما كان من شدة صفائه يعتقد أن أحدًا لا يكذب، فنقل ذلك غافلًا عما يترتب عليه من المفاسد، فلا ينبغي المبادرة إلى الإنكار عليه حتى يتبين أنه عرف حرمة نقل الكلام وما يترتب عليه، فإن كان لم يعرف ذلك عرفناه ذلك، ثم أنكرنا عليه إن تعمد ذلك، ونقول له: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكلِّ ما سمع»[2]، وقال ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟»[3] ونحو ذلك من الأحاديث.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: أكذب الناس الصالحين! فقلتُ له: كيف؟! فقال: لأن قلوبهم صافية ساذجة، يعتقد أن أحدًا لا يكذب ولا يحلف بالله باطلًا، فينقل كلام الكاذب على اعتقاد أنه صدق. وإنما سميناهم صالحين اتباعًا للعرف عند الناس، وإلا فالصالح حقيقة هو المحفوظ من الآثام ظاهرًا وباطنًا، المميز بين ما أباح الله وبين ما حرَّم الله، وبين ما يسخط الله وبين ما يرضي الله.

فليتنبه شيخ الزاوية لمثل ذلك وإلا أوقع العداوة[4] بين الناس، وصار معدودًا من

---

(١) أي محل يتغوط فيه الكلاب ويتبولون.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٩٢) واللفظ له، ومسلم (٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣)، والحاكم (٣٥٤٨).

(٤) بالأصلين: العين.

جنود إبليس، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا انتصب لمعاداة الصالحين في العرف وخدَّام المساجد، ولم يحترمهم لله عزَّ وجلَّ من حيثُ اشتهارُهم بخدمته، ولاث الناس بذلك العالم وقالوا: لو كان هذا له قدم في معرفة الله تعالىٰ، لم يؤذِ خدَّام نبيه ولا أولياءه، بأنه لم يعترض عليهم إلا بوجه شرعيٍّ كما هو الغالب علىٰ العلماء، فلا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه حتىٰ يجتمع به وينظر ما يقول.

وبأنه قد لا يعتقد صلاح من سماه الناس صالحًا، ولو أنه اعتقد ولاية الله تعالىٰ له، ما آذاه أبدًا، لأن منصب العلماء يجل عن مثل هذا الجهل العظيم الذي يوعد الله تعالىٰ من وقع فيه بالمحاربة له.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من رحمة الله عزَّ وجلَّ بالعلماء الذين يؤذون الأولياء أنه تعالىٰ لم يجعل أحدًا منهم يعتقد ولاية ذلك الفقير الذي يؤذيه، فإنهم لو عرفوا ولايته ثم آذوه، لتعرضوا لعذاب الله تعالىٰ ومقته لهم في الدنيا والآخرة.

وسمعته يقول مرارًا: الأذىٰ حرام بغير حقٍّ لجميع المسلمين، ولكنه للأولياء أشد. قال: وليس للولي تعريف أعظم من قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ٦٣] فمن آمن واتقىٰ فهو ولي الله حقًّا، ومن قال: إن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] استئناف كلام جوابه ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] فهو خلاف الظاهر. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي للشيخ أن يغير خاطر شيخ آخر إلا إن كان أكثر قيامًا لليل منه، وذلك أن الله تعالىٰ يراعي خاطر من كان أكثر قيامًا له في الليل ممن كان نائمًا، فربما شكا القائم ذلك النائم لله عزَّ وجلَّ، فقبل منه شكواه، ومقت ذلك الشيخ النائم، نظير من كان في خدمة ملك يقدمه عليه ضرورة بكثرة الخدمة، ولله المثل الأعلىٰ.

فمن عادىٰ أحدًا من خدَّام المساجد أو قوَّامي[1] الليل، فليستعد للسهر الدائم ليلاً ونهارًا، وإلا أخذوه وهو نائم. فاعرف يا أخي حال العالم الذي يؤذي خدام المساجد والصالحين عرفًا، ثم أنكر عليه أو اترك ذلك والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا قال لأصحابه: سلموا لي أحوالي ولا تنكروا عليَّ أبدًا؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما بلغنا عن الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين، وكيف ينبغي لغير معصوم أن يقول مثل ذلك لأصحابه، ويسد عن نفسه باب النصح؟ بأنه ربما عرف من أصحابه بعدهم عن ذوق مقاماته، وخاف عليهم من حبِّ الرئاسة، ومن الإخلال بواجب حقِّه، ولم يمنعهم من النصح، فما حمله علىٰ مثل ذلك إلا الخوف علىٰ أصحابه مما يقطعهم عن الترقي.

ثم إن ذلك العالم أو الشيخ لا يخلو إما أن يكون ذاكرًا لما وقع فيه من المخالفات والرذائل مثلًا، فهو يندم ويتوب ويستغفر، ويبعد منه الإصرار وعدم التوبة. وإن كان وقع في ذلك غفلةً أو سهوًا، فذلك محمول عنه من حيثُ الإثمُ، فعُلِمَ أنه لا ينبغي لأحد الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إلا بعد الاجتماع بهم أو الاستفهام منهم علىٰ يد ثقة في النقل ماذا قصدوا بذلك الفعل والقول مثلًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا كان في حارته منكر دائم، كقبض المكوس أو بيع الخمر ونحو ذلك مما يفعله الناس اختيارًا من غير إكراه، وصار ذلك العالم أو الشيخ يمرُّ عليه في النهار كذا كذا مرة وهو ساكت، فلاث به بعض المجادلين وقال: يجب عليك أن تأمرهم بمعروف كلما مررت ولو ألف مرة في النهار، وإلا فسقت بذلك، ووجبت عليك التوبة، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه إلا بعد اجتماعنا به، فقد يكون ممن يقول بعدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا ظن أن ذلك

---

(١) بالأصلين: قوَّامين. والأصول نحويًا ما أثبتناه.

لا يؤثر في فاعل المنكر امتثالًا للأمر ولا اجتنابًا للنهي[1]، لا سيما إن كان ذلك المنكر يتعلق بجماعة مولانا السلطان، فإن الأدب من أمثالنا رد الأمر في ذلك إلىٰ السلطان، لكونه أقوىٰ علىٰ إزالته منا بيقين. وإن كان ولابد من إزالتنا له، فليسافر أحدنا إلىٰ السلطان ويخبره به، ويسأله في إزالته، فإن جماعته يمتثلون أمره في ذلك دوننا.

ومن شك في قولنا هذا من طلبة العلم، فليجمع له عشرة أنفس مثلًا من طلبة العلم ويذهب بهم إلىٰ محاكم القضاة، فضلًا عن المكس، ويمنعوا الناس من إعطاء فلوس الدعوىٰ والقانون، وينظروا ما يقع لهم، وهناك يصير أحدهم يقيم العذر لذلك العالم أو شيخ الزاوية إذا مرَّ علىٰ ذلك المنكر وهو ساكت. فعُلِمَ أنه لا يفسق بعدم إنكار المنكر إلا من كان له قدرة علىٰ إزالته من غير ضرر يلحقه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٥) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا دعا لكافر بدخول الجنة، فلاث به بعض المجادلين وقال: كيف يطلب لكافر دخول الجنة؟! بأنه يجب حمله علىٰ أنه قصد بذلك أن الله يمنُّ عليه بالإسلام ثم يدخله الجنة، وإلا فأدنىٰ المسلمين درجة يعلم أن الكافر لا يدخل الجنة، ولا يجوز الدعاء له بدخولها مع كفره، ففي الكلام إضمار لا بد منه.

---

(١) للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط:

١- أن يكون الفعل منكرًا في مذهب الفاعل، أي يكون المنكر المنهي عنه منكرًا بالإجماع، فـ«لا يأمر المخالفين له في المذهب بما لا يجوزونه، ولا ينهاهم عما يرونه فرضًا عليهم».

٢- أن يكون الناصح عالمًا بما يأمر به أو ينهىٰ عنه.

٣- ألا يؤدي نصحه إلىٰ منكر أكبر منه.

٤- أن يعلم أو يغلب علىٰ ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له وأن أمره بالمعروف مؤثر فيه ونافع.

فإذا فقد الشرط الأول، فلا وجه للأمر أو الإنكار لكونه أمرًا مختلفًا فيه، والقاعدة «إنما ينكر المتفق عليه لا المختلف فيه». وأما فقد الشرطين الثاني والثالث فيسلب الجوازَ، فلا يجوز حينئذٍ الإقدام علىٰ الأمر أو النهي. وأما فقد الشرط الرابع فإنما يسقط الوجوب فقط ويبقي الجواز والندب. ينظر: «متن الرسالة» ابن ناجي (٢/ ٤٤٨)، «شرح الرسالة» زروق (٢/ ٤١٦)، «عقد الجواهر الثمينة» جلال الدين السعدي (٣/ ١٣٠٢)، «فتاوىٰ الخليلي» محمد الخليلي (١/ ٥٦).

وقد وقع لمعروف الكرخي أن جماعة كانوا في مركب في الدجلة وبين يديهم الخمر وآلات اللهو، فقالوا له: يا سيدي، ألا تنظر إلىٰ هؤلاء وما تجاهروا به؟! فادع الله تعالىٰ عليهم. فقال: اللهمَّ كما فرحتهم في الدنيا، ففرحهم في الآخرة. فقالوا له: كيف ذلك؟! فقال: إنه تعالىٰ لا يفرحهم في الآخرة إلا إن تاب عليهم في الدنيا. انتهىٰ.

قال شيخ الإسلام زكريا في شرحه لرسالة القشيري: وهذا من حسن سياسة معروف ﷺ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال له شخص: ادع لي بدخول الجنة؛ فأبىٰ وقال له: مالك وللجنة! فلاث الناس به وقالوا: قد ورد في الشريعة الأمر للعبد بأن يسأل ربه أن يدخله الجنة برحمته، فكيف يمتنع هذا من سؤال الجنة لمسلم؟! ولكن هذا دليل علىٰ جهله، بأنه قد يكون المانع له من سؤاله لذلك الشخص دخول الجنة الخوف من نزول البلاء به، وعدم صبره عليه، فاحتاط له بترك الدعاء ذلك الوقت، كما في حديث: «حفت الجنة بالمكاره»[١]، وكما في قول سيدي عمر بن الفارض[٢]:

ولقد أقـول لمن تحرش بالهوىٰ عرضتَ نفسك للبلاء فاستهدف

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما كان السلف الصالح يسألون الله العفو ولا يتجرؤون أن يسألوه الرضا ودخول الجنة هضمًا لنفوسهم، وفي الحديث: «أهل الجنة كل ضعيف متضعف»[٣]. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: إنما خاف الأكابر من البلاء لما فيه لا لذاته، ثم

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٨٢٢) والترمذي (٢٥٥٩) وابن حبان (٧١٨)وغيرهما.

(٢) أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، يلقب بسلطان العاشقين. قال صاحب «وفيات الأعيان»: سمعت أنه كان رجلًا صالحًا كثير الخير، علىٰ قدم التجرد، جاور بمكة زمانًا. توفي: ٦٣٢ هـ. «الأعلام» (٥/ ٥٥)، «وفيات الأعيان» (٣/ ٤٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، (٢٨٥٣).

يقول: والله ما أدري ماذا يقع مني إذا ابتليت، فلعلي أقع في الكفر ولا أشعر. انتهىٰ.

فما تركوا سؤال الجنة إلا لما يقع لهم من الابتلاء في طريقها لا لذاتها، وفي الحديث: «أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام دخل علىٰ مبتلىٰ، فقال: يا ربِّ، عافه من هذا البلاء، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا موسىٰ، تسألني له العافية وقد سبق في علمي أنه من أهل الجنة، والجنة لا تُنال إلا بالبلاء»[1].

فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ شيخ في الطريق إذا ظهر منه ما يتبادر إلىٰ أفهام العوام، وإنما الأدب أن يسأل عن ذلك أهل العلم ثم ينكر عليه بما أنكروه عليه، فإن العوام تصغر عن مثل ذلك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في حال حلول البلاء به: اللهم إن كان ذلك برضاك فزدني؛ فأنكر عليه الفقراء ذلك وقالوا له: لست من رجال البلاء، هذا من الأدلة علىٰ جهلك، بأنه قد يكون ذلك الوقت في مقام الرضا، ومعلوم أن الراضي بالبلاء يصير ينشرح لزيادته وينقبض لفراقه، فما تكلم هذا الشيخ إلا بلسان ذلك المقام، فلا يلزم منه الجهل.

ولو أنه نزل عن مقام الرضا لم يقل ذلك، بل كان يسأل الله العافية، كما وقع لسمنون المحب[2] أحد رجال «رسالة القشيري» أنه كان به أسر البول، فقال يومًا: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني؛ فشدد الله تعالىٰ عليه، فصار يدور علىٰ مكاتيب الأطفال ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يكون العبد راضيًا عن الله تعالىٰ بالبلاء يكره فراقه من وجه، وصار يحب العافية من وجه آخر، كما هو شأن الأولياء من

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سمنون بن حمزة وكنيته أبو الحسن ويقال: أبو القاسم، صحب السري وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصار وغيرهم، كان ظريف الخلق، أكثر كلامه في المحبة وكان كبير الشأن. وكان من الشعراء، له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها: ٢٩٠هـ. «الرسالة القشيرية» (١/ ٩١)، «الأعلام» (٣/ ١٤٠).

الكُمَّل بحكم الإرث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد ورد أن الله تعالىٰ لما ابتلىٰ عبده زكريا عليه الصلاة والسلام بالنشران تحت المنشار، فلما وصل إلىٰ دماغه قال: آه، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: «أما تقدم منك طلب القرب مني؟ أما علمت أن أهل حضرتي أكثر الناس بلاء؟ أما علمت أن من أسمائي الصبور؟ لئن قلت: آه مرة ثانية، لأمحون اسمك من ديوان النبوة»[1]. انتهىٰ. فكلَّفه الله تعالىٰ بالصبر تحت المناشر من وجه مقام الصبر، مع أنه عليه الصلاة والسلام كان يتلذذ بذلك من وجه مقام الرضا، لأن من **شأن المحب أنه لا يحس بالألم مادام يشاهد محبوبه**. وقد أنشد الشبلي في ذلك:

والهجر لو سكن الجنان تحولت   نعم الجنان علىٰ العبيد جحيمًا

والوصل لو سكن الجحيم تحولت   نار الجحيم علىٰ العبيد نعيمًا

قلتُ: وقوله تعالىٰ في الحديث السابق: «لأمحون اسمك من ديوان النبوة» هو من حضرة الإطلاق التي يفعل الحقُّ تعالىٰ منها ما يشاء، أو ذلك علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فإن النبي معصوم، فلا يصح سلبه من النبوة لعصمته. هذا بتقدير ثبوت هذا الحديث عن الله عزَّ وجلَّ، والله أعلم.

فعُلِمَ أن ذلك الشيخ ما قال: اللهم إن كان في هذا البلاء رضاك فزدني إلا بلسان السكر من لذة الرضا، فلا اعتراض عليه إلا إذا صحا من سكره.

وقد بلغنا أن عصفورًا راود عصفورة في قبة سليمان عن نفسها فأبت، فقال لها: تمتنعين مني وأنا لو شئتُ لقلبتُ القبة علىٰ سليمان! فحملت الريح كلامه إلىٰ سليمان، فأرسل إليه فأحضره بين يديه، وقال له: ما حملك علىٰ ما قلت وأنت تعجز عن مثل ذلك؟! فقال: مهلًا يا نبي الله! فإني عاشق لها، والعشاق لا حرج عليهم في مثل ذلك، لأنهم يتكلمون بلسان العشق والسكر، لا بلسان العلم والصحو والتحقيق. فخلىٰ سليمان سبيله. انتهىٰ.

ومما يدل علىٰ مسامحة القوم بما يقولونه في سكر الحال أن الحسين الحلاج لما صُلِبَ وقُطِّعت أطرافه، بلغ ذلك الشبلي فقال: لا إله إلا الله! سكرتُ أنا والحلاج من شراب

---

(١) لم أقف عليه.

واحد، فدام سكره وصحوتُ أنا من سكري، فلم يحل بي ما حلَّ به. فبلغ الحلاج ذلك وهو علىٰ الخشب، فقال: هكذا يزعم الشبليُّ، لو شرب من شرابي، لفُعِل به كما فُعِل بي. انتهىٰ.

فقدَّم الأشياخ قول الشبليِّ لصحوه علىٰ قول الحلاج لسكره. وإنما لم يسامحوه بما وقع منه حال سكره لاختلاف الناس في صحوه لاسيما العلماء، فلو تحققوا سكره ما آخذوه. وقد عرضوا أمره علىٰ الشيخ أبي القاسم الجنيد، فأرسل يقول له: قد فتحتَ في الشريعة طاقةً لا يسدُّها إلا رأسك. انتهىٰ.

وفي قصة العصفور السابقة عذر عظيم للعشاق من القوم إذا شطحوا بمثل قول سيدي عمر بن الفارض:

وطوفان نوح عند نوحي كأدمعي	وإيقاد نيران الخليل كلوعتي
ولولا زفيري أغرقتني أدمعي	ولولا دموعي أحرقتني زفرتي
وحزني ما يعقوب بث أقله	وكل بلاء أيوب بعض بليتي

ونحو ذلك من الألفاظ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعو علىٰ عدوه أو يدعو لصديقه، فلا يُستجَاب له، مع تكرر ذلك منه، فلاث الناس به وقالوا: لو كان هذا من أولياء الله تعالىٰ، لاستجاب الله تعالىٰ دعاءه، بأنه قد يكون من الرجال الكُمَّل الذين يسألون الله تعالىٰ أن لا يستجيب لهم دعاء في حقِّ عدو حال غضبهم عليه، أو لا يستجيب لهم دعاء لأحد في تحصيل شيء من أمور الدنيا الزائدة عن الضرورة، وأجاب الله تعالىٰ سؤالهم. وما رَدَّ الله تعالىٰ هذا الوليَّ لهوانه عليه، وإنما ذلك إجابة لسؤاله رحمةً بعدوه، وشفقةً علىٰ إخوانه من الغفلة عن الله تعالىٰ إذا وسَّع عليهم من الدنيا.

وقد مكث شخص علىٰ باب سيدي أحمد بن الرفاعي ثلاثة أيام يطلب منه أن يدعو له دعوة واحدة، فلم يجبه سيدي أحمد إلىٰ ذلك وقال: الرجل المتمكن في الطريق إذا قُضِيت له بسؤاله حاجة في الدنيا، نقص تمكنه درجة، ولا أحب أن أنقص درجة وأبعد عن حضرة ربي لأجل تحصيل شهوة لشخص تحجبه عن حضرة ربّه عزَّ وجلَّ.

وقد كان لداود عليه الصلاة والسلام جبار يؤذيه، فكان داود عليه الصلاة والسلام كلما دعا عليه لا يجد[١] إجابة، فقال: «يا رب، كم أدعوك فلا تستجيب لي؟! فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: إنما أبطيء عليك بإجابة دعائك في حقِّ هذا الجبار، لأعاملك بمثل ذلك إذا ظلمت أحدًا ودعا عليك، فإن طلبت سرعة الإجابة لدعائك في حق عدوك، فلا تستغرب سرعة إجابة دعاء عدوك في حقِّك»[٢]. انتهىٰ.

وفي رواية أخرىٰ: أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود: «إنما لم أجب دعاءك علىٰ خصمك بسرعة لأعلمك الحلم، ولتتخلق بأخلاقي، فإني أحلم علىٰ من عصاني ولا أعاجله بالعقوبة، مع أنه يأكل رزقي ويعبد غيري». انتهىٰ.

ويؤيد ذلك ما ورد أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام شكا إلىٰ ربه من جفاء بني إسرائيل، [فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا موسىٰ فقال له: اصبر علىٰ جفاء بني إسرائيل][٣] كما صبرتُ أنا علىٰ من يأكل رزقي، ويعبد غيري»[٤]. ولما دعا موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ قارون، وأخذته الأرض إلىٰ عنقه، وصار يقول: يا موسىٰ يا موسىٰ، يستغيث به فلم يغثه، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا موسىٰ، كيف استغاث بك قارون فلم تغثه؟ وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته[٥]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وعظِّم الشيخ الذي لا يستجيب الله تعالىٰ دعاءه علىٰ الشيخ الذي أجاب الله تعالىٰ دعاءه بطريقه الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا أخرج كتب العلم التي شرط واقفها أن لا تخرج من مكانها إلا لترميم أو غيره من الضرورات، ولاث به بعض المجادلين

---

(١) بالأصلين: يرجو.

(٢) لم أقف عليه

(٣) ساقط من الأصل، مستكمل من «الأخلاق المتبولية» للمصنف.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٥٤٥). وانظر: «تفسير الطبري» ط هجر (١٨/ ٣٣٥).

وقالوا: شرط الواقف كنص الشارع لا يجوز لأحد مخالفته. وقد اختصر الإمام النووي «الروضة» كلَّها من نسخة الرافعي في خلوة كتب الوقف ولم يخرجها، ولكن ذهب العلماء العاملون في هذا الزمان، بأن هذا العالم قد يكون له عذر في إخراجها من مكانها، كأن لم يجدها في غيرها من المدارس، وشق عليه الرواح والمجيء حال مطالعتها، لاسيما من كان يؤلف ويشرح كتب الحديث والفقه ويفسر القرآن.

وقد استفتي الشيخ جلال الدين السيوطي خاتمة الحفاظ بمصر ﷺ عن جواز نقل الكتب التي شرط واقفها أنها لا تخرج من مكانها، فأجاب: الذي أقول به الجواز. وقد رأيتُ شيخاي شيخ الإسلام يحيىٰ المناوي[1] وشيخ الإسلام علم الدين البُلقيني[2] يستعيران الكتب من المدرسة المحمودية[3]، ويمكث الكتاب عندهما سنين عديدة، وهما الإمامان المقتدىٰ بهما، فإنهما كان من الفقه بالمحل الأعلىٰ، حتىٰ بلغا رتبة الاجتهاد في ترجيح المذهب. وكان المناوي من الصوفية، وله أحوال وكرامات، فلولا أنهما كانا يريان ذلك جائزًا [ما فعلاه][4].

قال: وفي قواعد الشريعة أنه يجوز أن يستنبط من النص معنىٰ يخصصه، فإذا كان هذا في نص الشارع، ففي نص الواقف أولىٰ، فيُقال هنا: إن مقصود الواقف بشرطه إنما هو تمام النفع وتمام الحفظ، فإذا وُجِدَ من يحتاج إلىٰ الانتفاع بكتاب منها حال تأليفه

---

(١) شرف الدين يحيىٰ بن محمد بن محمد بن محمد، ولد سنة: ٧٩٨هـ ولازم الشيخ ولي الدين العراقي، وتخرج به في الفقه والأصول وتصدىٰ للإقراء والإفتاء، وولي تدريس الشافعي وقضاء الديار المصري، وله تصانيف، منها: «شرح مختصر المزني». توفي: ٨٧١هـ. وهو آخر علماء الشافعية ومحققيهم. «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٣٥٣)، «الأعلام» (٨/ ١٦٧).

(٢) البُلقيني علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدين، حامل لواء مذهب الشافعي في عصره، ولد سنة ٧٩١هـ وأخذ الفقه عن والده وأخيه، والنحو عن الشطنوفي، والأصول عن العز ابن جماعة. وحضر عند الحافظ أبي الفضل العراقي في الإملاء. ت ٨٦٨هـ. «حسن المحاضرة» (١/ ٤٤٤)، «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٣٣٣).

(٣) تعرف الآن بمسجد الكردي بمنطقة الدرب الأحمر بالقاهرة.

(٤) ساقط من «ب».

لكتب العلم ولا يمكنه الانقطاع لأجل ذلك في مكان الوقف، ووثقنا بدوام حفظه له وصونه، جاز الإخراج له، وكان ذلك مستثنىٰ من المنع، وتخصيص لعموم لفظ الواقف بهذا المعنىٰ المستنبط، كما خصصوا قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] بغير المحارم، واستثنوها بالمعنىٰ المستنبط وهو الشهوة، مع أنه لا دليل علىٰ استثناء المحارم من آية أو حديث سوىٰ هذا الاستنباط، فكذلك القول هنا.

قال: وقد ذكر الحافظ عماد الدين ابن كثير[1] في تاريخه أن علماء بغداد منعوا الفقهاء في بعض السنين من إقراء الأطفال في المساجد إلا شخصًا واحدًا كان موصوفًا بالصلاح والخير، فاستثنوه من المنع، وأنهم استفتوا الماوردي[2] من أئمة الشافعية، والقدروي[3] من أئمة الحنفية وغيرهما، فأفتوا باستثنائه، واستدلوا بأنه ﷺ أمر بسدِّ كلِّ خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر الصديق ﷺ، فقاسوا استثناء هذا الرجل علىٰ استثناء خوخة أبي بكر الصديق ﷺ. قال: وهو استنباط حسن دقيق لا يدركه إلا أكابر العلماء.

قال الجلال السيوطيُّ ؒ: وقد استندتُ إلىٰ قولهم حين استفتيتُ قديمًا عن أبنية القرافة، فأفتيتُ بهدمها كلِّها كما هو المنقول إلا مشاهد الصالحين، قياسًا علىٰ ما أفتىٰ به الماوردي والقدوري. لكن في مسألة إخراج الكتب أمران ينبغي التفطن لهما: أحدهما:

(١) عماد الدِّين إسماعيل بن عمر بن كثير، الفقيه الشافعي. ولد سنة: ٧٠٠هـ وقدم دمشق وله سبع سنين. وحفظ «التّنبيه» و «مختصر ابن الحاجب» وتفقه بالبرهان الفزاري، والكمال بن قاضي شهبة، ثم صاهر المزّي.من مؤلفاته: «البداية والنهاية» و«التفسير» و«جامع المسانيد العشرة» ت ٧٧٤هـ. «شذرات الذهب» (٨/ ٣٩٧)، «هدية العارفين» (١/ ٢١٥).

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، الإمام العلامة له مصنفات منها: «الحاوي» و«الإقناع» و«أدب الدين والدنيا» مات في ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ وقد بلغ ستًا وثمانين سنة. «السير» (١٨/ ٦٤) و«الوافي بالوفيات» (٢١/ ٢٩٧).

(٣) أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان البغدادي القدوري. قال الخطيب: كتبت عنه، وكان صدوقًا، انتهت إليه بالعراق رئاسة الحنفية. من مصنفاته: «مختصر القدوري» و«التجريد» توفي: في رجب ٤٢٨هـ وله ٦٦ سنة. «السير» (١٧/ ٥٧٤)، «الأعلام» (١/ ٢١٢).

أنه لا يُستعار من هذه الخزانة إلا ما لا يتيسر وجوده في غيرها مما ليس فيه شرط يمنع الخروج. الثاني: أن لا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر الحاجة فقط. ومدرك هذين الأمرين أن ما جاز للضرورة يتقدر بقدرها. انتهىٰ. فإياك والإنكار علىٰ العلماء بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا قال للمجاورين: اخرجوا من عندي، فقد أتعبتموني بكلفتكم؛ فلاث به الفقراء وقالوا: إن رزقنا علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ هذا الشيخ، وكيف يدعي هذا الشيخ مقام الإيمان بأن الله تعالىٰ هو الرازق، ويكره هو إقامة الفقراء في بيت الله عزَّ وجلَّ؟! ومثل هذا ما كان يصلح أن يعمل شيخًا! ونحو ذلك من الكلام الذي لا ينبغي في حقِّ الشيخ، بأنه ربما قصد بقوله: «اخرجوا عنىٰ» تنشيط همتهم والاشتغال بالقرآن والعلم دون الكسل والنوم، لا لأجل رؤية نفسه أن بيده رزقهم، فإن أدنىٰ المسلم درجة لا يدعي ذلك، والذي يعتقدونه في مشايخ الطريق الآن في مصر أنه لو كان أهل مصر كلهم عائلة أحدهم لم يحمل همًّا، لأن أحدهم يعلم أن الله تعالىٰ ما قيَّد عبدًا في مكان إلا ويسوق إليه رزقه فيه، أو يخرجه هو إليه ليأتي، فإن رزق العبد علىٰ قسمين: قسم قسمه الله تعالىٰ له بلا سعي، فهذا لا يحتاج إلىٰ سعي؛ وقسم أوقف الله تعالىٰ الوصول إليه علىٰ السعي، فلابد فيه من السعي، فلا يُقال: السعي أفضل مطلقًا، ولا التوكل أفضل مطلقًا من غير سعي، فافهم.

علىٰ أن التوكل عند المحققين لا ينافي السعي أيضًا، فيسعىٰ وهو متوكل علىٰ الله لا علىٰ المخلوقين. وفي كلام سيدي عليٍّ الخواص رضي الله عنه: المرزوق في طلب رزقه حائر، والرزق في طلب صاحبه دائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥١) ومما أجبتُ به عن الثقلاء الذي يحصل لمن جلسوا عنده ثقل منهم، ويقع الناس في غيبتهم إذا قاموا وولوا ظهورهم، بأن الثقيل لا يحس بنفسه أنه ثقيل، ولا يُؤاخَذ العبد إلا بما شعر به، فلا يجوز غيبتهم بذلك، ولا ينفع فيهم وعظ ولا تربية في الغالب. وقد قال العلماء: إذا ضربتم أولادكم وحصل لهم إدمان علىٰ ضربكم، وصار لا يؤثر

فيهم تأديبًا، فكلوا أمرهم إلىٰ الله تعالىٰ وادعوا لهم.

وقد يكون حصول الثقل من مجالسة ذلك الثقيل إنما هو لعدم مداهنته في الدين لجليسه، فليتنبه الفقير لمثل ذلك ويناقش نفسه. ومن لم يظهر له من نفسه شيء من الأعذار، فليصبر علىٰ الثقيل حتىٰ يقوم، فإن الله تعالىٰ مع الصابرين.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يباسط الثقيل ويقول له: إنا نحبكم كثيرًا، فلا تقطعونا من المجالسة. فقيل له في ذلك، فقال: إنما أفعل ذلك بقصد التحمل عن أصحابي، فإنه لا بد له من جليس، فأنا أحمل عنهم ثقل تلك المجالسة. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول إذا جلس إليه ثقيل سوء: اللهم اغفر لنا وله، وأرحنا منه[1]. رواه الجلال السيوطي رحمه الله.

وكان حماد بن سليمان يقول: من رأىٰ نفسه ثقيلًا كان خفيفًا، ومن رأىٰ نفسه خفيفًا كان ثقيلًا. وكان حماد بن سلمة إذا رأىٰ ثقيلًا قال: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]. وكان الزهري يقول: إذا طال جلوس الثقيل عندكم فاصبروا، فإن ذلك كالرباط في سبيل الله. ومزح الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه [مع الأعمش مرة، فقال له][2]: مم عمشت عيناك؟ فقال: من النظر إلىٰ الثقلاء وأنت منهم! فضحك الإمام أبو حنيفة من ذلك. ودخل الإمام عليه مرةً، فأطال الجلوس، فقال: لعلي أثقلتُ عليكم. فقال: أنا أحس بثقلك وأنت في بيتك بعيدًا عني، فكيف لا أحس بثقلك وأنت في بيتي؟!

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والغيبة في الثقيل إذا قاربك، فإنها غيبة بغير حقٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٢) ومما أجبتُ به عن بعض المتورعين الذين يتورع أحدهم إذا ركب دابة بأجرة أو عارية أن يأكل أو يشرب زيادة علىٰ ما كان في بطنه قبل الركوب، ولاث به بعض المجادلين وقال: هذا من التنطع في الدين، بأنه لا يكون من التنطع في الدين إلا إذا أمر

---

(١) أخرجه الدولابي في الكنىٰ (١١٠٠) وابن الأعرابي في المعجم(١٧٨٦).

(٢) ساقط من «ب».

الناس به، أو شقَّ ذلك عليه. وأما إذا سهل عليه فلا حرج، كما كان عليه السلف الصالح، فقد كان أحدهم إذا وقع سوطه من يده خارجًا عن الطريق، يبرك الدابة ويمشي يأخذ سوطه، ويقول: إني استأجرتها لتذهب بي هكذا لا هكذا.

وكان سيدي عبد العزيز الديريني يضرب الدابة بكمه إذا حَرَنت[1] مثلاً، ويقول: إن عبد العزيز لا يحتمل أكثر من الضرب بالكمِّ إذا وقع القصاص لهذه الحمارة مني يوم القيامة. فاعلم ذلك ولا تنكر إلا ما لا تقبله الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٣) ومما أجبتُ به عمَّن كان مشهورًا في بلده بالصلاح وإرشاد المريدين، فاختفىٰ أمره وترك إرشاد الناس، فلاث الناس به وقالوا: إن الذي كان فيه أكمل بلا شك، ولكنه سُلِبَ الصلاح بيقين، بأنه قد يكون ما هو فيه الآن أكمل من حيثُ اشتغالُه بمراقبة الله تعالىٰ وحده، وثم مقام كامل ومقام أكمل، فإرشاد الناس وإن كان خيرًا، فالاشتغال بالله وحده أكمل، لما يطرق الداعي إلىٰ خير من الغفلة عن الله تعالىٰ في بعض الأوقات، ونصب المكائد للخلق، ولا يكاد صاحب هذا الحال يشهد أنه بين يدي الله تعالىٰ إلا في النادر، وفي الحديث: «لي وقت لا يسعني فيه [غير] ربي»[2]. انتهىٰ.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم أن تزدروا فقيرًا اختفىٰ بعد الشهرة، ونفر منه الناس والتلامذة، فإنه قد مشىٰ علىٰ قواعد الصادقين من أهل الطريق، فإنهم قالوا: علامة الفقير الصادق أن يخفىٰ بعد الشهرة، ويذل بعد العز. ومن أدركناه علىٰ هذا القدم الشيخ

(١) حَرَنَتِ الدابة: امتنعت عن السير.

(٢) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٩٢٦): حديث: «لي مع الله وقت لا يسع فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»، يذكره المتصوفة كثيرًا، وهو في رسالة القشيري لكن بلفظ: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» ، ويشبه أن يكون معنىٰ ما للترمذي في «الشمائل» ولابن راهويه في «مسنده» عن علي في حديث طويل: «كان ﷺ إذا أتىٰ منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله تعالىٰ، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس».

محمد السروي[١]، والشيخ شهاب الدين الوفائي، والسيد العجلوني[٢] بناحية برصا من الروم، رضي الله عنهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسافر من نحو مصر إلىٰ الروم[٣] في طلب مرتب أو مسموح أو نحو ذلك، ويلوث الناس به ويقولون: حاشا أن يكون مثل هذا من أولياء الله عزَّ وجلَّ، بأنه قد يكون ممن كُشِفَ له عن ذلك الرزق في الروم، وأنه متوقف علىٰ سفره إليه، فسافر إليه، والكشف من أقل درجات المريدين الصادقين، فكيف بالأشياخ؟! ومن قال: إن الأشياخ الكبار لا كشف لهم، فإنما مراده أنه لا كشف لهم في الاطلاع علىٰ عورات الناس. وأما الكشف الذي يطلعهم علىٰ محاسن الخلق وعلىٰ ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم، فلا منع منه، فافهم.

وبأنه قد يقصد بسفره في طلب الرزق موافقة إخوانه الذين يسافرون في طلب الرزق، حتىٰ لا يتميز عنهم، حين خاف علىٰ نفسه من فتنة التميز، ومن إقبال الأكابر والأمراء عليه، واشتغاله بهم دون الله تعالىٰ، وقول الناس: فلان زاهد في الدنيا لا يسعىٰ عليها كغيره، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يفضح الناس ويوبخهم بين الناس، ولاث به الناس وقالوا: هذه قلة سياسة منه، وكان الأولىٰ أن يذكر ذلك لإخوانه فيما بينه وبينهم،

---

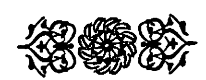
(١) الشيخ محمد السروي المشهور بأبي الحمائل أحد الرجال المشهورة في الهمة والعبادة، وكان يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانيه، والسريانية، والعجمية، وكان إذا قال قولا ينفذه الله له. ووقائعه مشهورة بين أصحابه ﷺ ومات ٩٣٢هـ رحمة الله عليه بمصر وصلىٰ عليه بالجامع الأزهر ﷺ. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١١٠)، الكواكب السائرة (١/ ٢٩).

(٢) محمد بن إسماعيل بن محمدشمس الدين العجلوني الشافعي قاضي عجلون. كان من الفضلاء المتمكنين، ذو يد طولىٰ في القراءات والفقه، ومشاركة حسنة في الحديث، والأصول والنحو. ت ٩٥٥هـ ودفن بباب الصغير بمقبرة أهله. «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٤١) «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٧).

(٣) المقصود بها بلاد تركيا الآن، وإستانبول تحديدًا.

لأن من نصح أخاه جهرًا، فقد فضحه وشانه، ونحو ذلك، بأنه قد يكون هذا الشيخ علم ثبات قلب ذلك المنصوح وعدم مراعاته الخلق، ورآهم عنده كالجماد، أو يكون يعلم أن النصح لا يؤثر فيه إذا نصحه سرًّا، فنصحه في الملأ، ليقبح في عينه ذلك الأمر الذي نُصح من أجله، إذ الغالب علىٰ الناس مراعاة الناس عادةً دون الله تعالىٰ، فيمتنع أحدهم من المعصية بحضرة الناس، ويجاهر ربَّه بها، فإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا نزل به ضيف، فلم يأته بفرش ولا غطاء ولا أكل ولا شرب، ولاث الناس به، بأنه قد يكون إنما ترك إكرامه لعدم وجود ذلك من وجه حلال، أو وجد ذلك، ولكن خاف عليه من ترك قيامه تلك الليلة للتهجد لو أطعمه وسقاه، وغطاه وفرش له طَرَّاحة، ففعل معه ما هو الأصلح بحسب اجتهاده. اللهم إلا أن يحصل للضيف بترك الأكل والدفا مرض مثلًا، فلنا اللوث بذلك الشيخ. وأما مع عدم حصول ذلك، فلا ينبغي اللوث به، والحمد لله رب العالمين.



الباب السادس

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٣٥٧) ومما أجبتُ [به] عن العالم الكبير إذا كبَّر عمامته جدًا، وجعل عليها طيلسانًا، وركب الخيول المسوَّمة، والثياب الفاخرة ونحو ذلك، ولاث الناس به وقالوا: أيش خلَّىٰ هذا لأبناء الدنيا والظلمة من الدنيا؟! بأنه قد يكون له نية صالحة في ذلك كأن يتميز عن العامة ليصير الناس يسألونه عن أمر دينهم، كما جلس النبي ﷺ فوق مصطبة عالية دون أصحابه ليسأله الناس عن أمور دينهم[1]، وكذلك ثبت عنه أنه طاف علىٰ الناقة ليراه الناس، فيسألوه عن أمور دينهم ومناسكهم[2].

وقد لبس الإمام الشافعي حلة بألف دينار، وكذلك كان محمد بن الحسن يلبس ويقول: هذا شيء يسر الصديق ويكمد العدو.

وأما تقشف بعض العلماء الماضين كالقاضي بكار[3]، والشيخ عز الدين بن عبد السلام[4]،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٦٩٨) عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهري أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتىٰ يسأل، فطلبنا إلىٰ رسول الله ﷺ أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه، قال: فبنينا له دكانا من طين، فجلس عليه، وكنا نجلس بجنبتيه. قلت: والدكان: الدكة البنية للجلوس عليها. النهاية (٢/ ١٢٨).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٧٣) من حديث جابر بن عبد الله يقول: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع علىٰ راحلته بالبيت، وبالصفا والمروة، ليراه الناس، وليشرف وليسألوه، فإن الناس غشوه» وأبو داود (١٢٧٣) والنسائي (٣٩٥٥) وغيرهما.

(٣) القاضي بكار بن قتيبة بن أسد بن عبيد الله الثقفي، العلامة المحدث الفقيه الحنفي، كان من القضاة العادلين ولد سنة ١٨٢ هـ، كان بكّار بكّاءً تاليًا للقرآن، صالحًا ديِّنًا، وقبره مشهور، وقد عُرِف باستجابة الدّعاء عنده، ت ٢٧٠هـ. «وفيات الأعيان» (١/ ٢٧٩)، «تاريخ الإسلام» (٦/ ٣٠٣).

(٤) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم أبو محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي، حدث

فذلك لأنهم كانوا مشهورين بالصلاح، ويعرفهم الخاص والعام، فاستغنوا بتعظيمهم بالزهد والصلاح عن حسن الملابس، فكان القاضي بكار له رداء علىٰ بدنه ولبدة علىٰ رأسه، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام له فروة يلبسها في الشتاء من جهة الصوف، ويلبسها في الصيف من جهة موضع السلخ. ولما غضب من السلطان صلاح الدين بن قلاوون حمل أمتعة بيته كلَّها علىٰ حمارته، وأركب زوجته فوق ذلك، فأدركه السلطان بناحية قطية[1]، فصالحه ورده، وقالوا للسلطان: إن خرج هذا الشيخ من بلادك خربت، رضي الله عنه.

وبالجملة فللجمال أقوام، وللجلال أقوام، فإياك والاعتراض علىٰ أهل فريق منهم، وتأمره أن يلبس خلاف لبسته، فإن ذلك من الجهل، فإن كلاهما مباح، بل ربما تكون الملابس الحسنة مستحبة من باب شكر النعمة أو واجبة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٨) ومما أجبتُ به عن الواعظ إذا بالغ في الحطِّ علىٰ الناس من علماء وفقراء وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: هذا من شدَّة سوء ظنه بالناس ونسيان نفسه، ولو أنه نظر إلىٰ عيوب نفسه لاشتغل بها عن الناس، بأنه لا يلزم من توبيخه لعموم الناس اعتقاده أنهم متلطخون بما ينهاهم عنه، فقد يكون ذلك علىٰ سبيل الفرض والتقدير، كأنه يحذرهم من الشيء قبل وقوعه.

كما لا يلزم من تصدره للوعظ أن ينسىٰ نفسه وعيوبه، بل رأيتُ بعضهم يجعل الوعظ كلَّه لنفسه، ويخاطب بقوله: «يا هذا» نفسه دون غيره، فلا يلزم من وعظ الناس رؤية الواعظ نفسه عليهم، ولا غناه عمَّا يعظ الناس به. وقد كان الحسن البصري ﷺ يقول: لولا حديث بلغني عن رسول الله ﷺ من قوله: «سيأتي علىٰ الناس زمان يكون

ودرس في عدة مدارس بالشام والديار المصرية، وتفقه علىٰ فخر الدين ابن عساكر وبرع في الفقه والأصول، وصنف وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب. له مصنفات منها: «قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» و«بداية السول في تفضيل الرسول» توفي: ٦٦٠هـ. «العبر في خبر من غبر» (٥/ ٢٦٠) و«ذيل مرآة الزمان» (٢/ ١٧٢).

(١) قطية: قرية كانت تقع في شبه جزيرة سيناء في الطريق بين مصر والشام. وقد اندثرت الآن.

واعظ القوم فيه أرذلهم»[١] ما وعظتكم.

فحسِّن يا أخي ظنَّك بالعلماء والخطباء، وخذ كلامهم في حقِّ نفسك، ولا تنظر في عيوب واعظك، كما درج عليه السلف الصالح، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا أمر مريده بإعادة صلاة صلاها وفي باطنه غلٌّ أو حقد، أو مكر أو حسد، أو عجب أو كبر، أو محبة للدنيا بحيثُ يرجِّح الذهب علىٰ التراب، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا أمر لم يتعرض له رسول الله ﷺ، ولم يأمر أصحابه بإعادة صلاة من أجله أبدًا، فهو من التنطع في الدين.

والجواب: أنه يُحتَمل أن يكون هذا الشيخ ممن غلب عليه شهود تلك الذنوب الكبائر، وصار يشهدها كما يشهد النجاسة الظاهرة علىٰ حدٍّ سواء، فأمر مريده بإعادة تلك الصلاة من باب الندب لا من باب الوجوب، أو أدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ إعادتها وجوبًا، فإن في القوم مجتهدين في أمور الباطن، كما هو الأمر في أمور الظاهر، ولكلٍّ مقام رجال، فإن الكُمَّل يرون باطنهم بين يدي ربهم كظاهرهم علىٰ حد سواء، عملًا بحديث مسلم وغيره: «إن الله تعالىٰ لا ينظر إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم»[٢]. انتهىٰ. فكانت القلوب أولىٰ بالتطهير، لكون الحقِّ تعالىٰ جعلها محل نظره، وإن كان نظره تعالىٰ لا يتحيز.

وأيضًا فإنهم يقولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]: إنها محكَّمة في حقِّ الأكابر لا منسوخة. فإياك والإنكار علىٰ الأشياخ من غير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال لتلامذته: من فعل كذا وكذا، حفظ الله عليه الإيمان؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه، وقد رُفعَت الأقلام وجفت الصحف، وقال: إنه لم يثبت

---

(١) لم أقف عليه.أوقد ذكره الشعراني في لطائف المنن ص٦٩٢.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤١٤٣) وابن حبان (٣٩٤).

عن النبي ﷺ شيء من ذلك.

والجواب: أن هذا ربما يكون من الأمور المعلَّقة علىٰ فعل شيء، فيفعلها العبد تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ، ليدفع عنه السوء، فإن الله عزَّ وجلَّ يحب العبد المتملق بين يديه بصدق.

وقد حكىٰ الشيخ عبد الغفار القوصي عن بعض الأولياء أنه اجتمع بالخضر عليه الصلاة والسلام، فقال: يا نبي الله، أنا خائف من سلبي الإيمان قبل الموت. فقال له الخضر عليه الصلاة السلام: قد سألتُ محمدًا ﷺ عمَّا يحفظ الله تعالىٰ به علىٰ العبد الإيمان، فقال: يقرأ بعد صلاة الصبح كلَّ يوم آية الكرسي و﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلىٰ آخر السورة، وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] إلىٰ قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]، فمن واظب علىٰ ذلك، أمنه الله من سلب الإيمان حتىٰ يلقي ربه. انتهىٰ. وفي هذه القصة صحة اجتماع الخضر بمحمد ﷺ، خلاف ما عليه بعضهم.

وذكر صاحب «بستان العارفين» بسنده إلىٰ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «قلتُ: يا رسول الله، علمني شيئًا يحفظ الله به عليَّ الإيمان حتىٰ ألقىٰ ربي عزَّ وجلَّ، فقال: صلِّ كلَّ ليلة ركعتين بعد المغرب، تقرأ في كلِّ ركعة منها سورة «القدر» مرة وسورة «الإخلاص» ست مرات و«المعوذتين» كل واحدة مرة، فإن الله تعالىٰ يحفظ عليك الإيمان حتىٰ توافي القيامة»[1]. انتهىٰ.

فكما أن للإنسان العمل بمثل هذين الأمرين الواردين عن الخضر عليه الصلاة والسلام وعن ابن عمر، فكذلك للتلامذة العمل بما يقوله لهم شيخهم وإن لم يعرفوا مستنده، حملًا علىٰ أنه رأىٰ في ذلك شيئًا عن رسول الله ﷺ. ومن كان عنده توقف في قول أحد من مشايخ الزمان في ذلك، فليعمل بما رُوي عن الخضر وابن عمر.

وقد جوَّز المحدثون العمل بالحديث الضعيف بثلاثة شروط: أن لا يكون ضعيفًا بمرة؛ وأن يكون له أصل يرجع إليه؛ وأن لا يعتقد الفاعل وجوب العمل به عليه أو علىٰ

(١) لم أقف عليه. وكذلك لم أجده في «بستان العارفين» للإمام النووي.

الأمة. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا عمل مولدًا أو عرسًا واسع الطعام، وساعده في ذلك بعض الولاة والعمال، فلاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: ما حصل من الإثم في عمل هذا الطعام يرجح علىٰ ما حصل فيه من الأجر من جهة أكل الناس الحرام والشبهات، وتضييع الطباخين وخدام هذا الشيخ في تلك الليلة الصلاة مطلقًا أو في جماعة أو خروجها عن وقتها كما هو الغالب، فلو أن هذا الشيخ ترك عمل ذلك لكان أولىٰ، لأنه لو وزن أجر ذلك الطعام وثواب المنشدين والمدَّاحين لا يجيء لإثم خروج الصلاة عن وقتها تلك الليلة، بأن الشيخ قد يكون ممن غلَّب التسليم، فلم يعارض ما جاء به الولاة من مواد ذلك الطبيخ، أو يكون ممن لا يعتقد في أموالهم الحرمة، ووكل ذلك إلىٰ الآكلين من ذلك الطعام، وبأننا لم نره يأمر أحدًا بالأكل من ذلك الطعام، فكان كالأجنبي في عمله، وكأن جماعة اجتمعوا وتساعدوا في عمله لأجل أصحابهم وأهل حارتهم أو بلدهم، فلم يكن للشيخ مدخل فيه سوىٰ الاسم، وكأنهم قالوا له: دستور نجتمع ونعمل طعامًا للناس، ونشيع أن ذلك من عندك. فقال لهم: افعلوا؛ فليس عليه إثم في ذلك. وأما من أخرج الصلاة عن وقتها، فليس علىٰ الشيخ من ذلك اعتراض، إنما الاعتراض علىٰ تارك الصلاة.

ومما يقع لي بحمد الله أني ما عُمِلَ عندي عرس أو ختان أو عقيقة وحضرتهم في شيء من ذلك، ولا دعوتُ أحدًا إلىٰ الحضور، فيُحتمَل أن غيري من الفقراء كذلك. وليس اللوم إلا علىٰ من يطلب عمل ذلك، ويسأل الولاة في المساعدة في طعامه بنفسه أو بوكيله بالحال أو بالقال.

فاحفظ لسانك أن تقفو ما ليس لك به علم، فتدخل إلىٰ بيوت العلماء فتأكل طعامهم وتقرض في أعراضهم وفي نظامهم في ذلك العرس والطعام، فيخسره منك، بل الواجب عليك إذا أكلت من طعام عمله شخص أو عمل في بيته أن تمدحه وتشكر فضله، وترد عنه غيبة من يستغيبه إن كنتَ ولدَ حلال، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا قال: يا شقاوة من حُرِم دخول الجنة؛ فلاث به بعض المتمشيخين وقال: هذا دليل من هذا الشيخ أنه لم يبلغ مقام الرجال، ولو بلغه لكان راضيًا عن الله تعالىٰ، ولو أدخله النار وأحبط جميع أعماله الصالحة، بأنه يجب حمله علىٰ أنه ما قال مثل ذلك لشهوات مطاعم الجنة ومناكحها مثلًا، وإنما أراد به شقاوة عدم مجالسة الله عزَّ وجلَّ في الجنة لا غير، فإن من لا يدخلها لا يرىٰ ربَّه ولا يجالسه.

وقد أجمع أهل الله عزَّ وجلَّ قاطبة أن حزن الوليِّ علىٰ فوات حظِّه من رؤية الحقِّ تعالىٰ لا ينقص مقامه، بل يعلو مقامه بذلك، فلو كان لهذا المعترض ذوق لأحوال القوم، لكان حمل كلام هذا الشيخ علىٰ محمل حسن، فإن الناس في العبودية المصطلح عليها بين القوم ثلاثة أقسام: عبودية للدنيا وذلك للعوام؛ وعبودية للجنة وذلك للمريدين؛ وعبودية لله وذلك للعارفين، فيقال: عبد الدنيا، عبد الجنة، عبد الله. **وكلٌّ عبد يحمل حال غيره علىٰ حاله لا يتعداه إلا تفعلًا لا ذوقًا**، فاحمل يا أخي غيرك علىٰ ما فوق حالك ولو تفعلًا، فإنه خير لك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا حزن علىٰ فراق جماعته له، ولاث بعض الفقراء به بسبب ذلك، وقالوا: لو كان كاملًا لم يحزن علىٰ فراق صاحب، لأنه مع الله لا مع الخلق، وكلٌّ من جاء يجيء، وكل من راح يروح، بأنه لا ينبغي المباردة إلىٰ الاعتراض عليه إلا بعد معرفة الباعث علىٰ ذلك الحزن، فقد يكون حزنه علىٰ من فارقه إنما هو من جملة تعطيله عن فعل الخير الذي كان يحصل له علىٰ يديه، دون فوات مشيخته عليه.

وقد يكون لذلك المريد الذي فارق الشيخ حقٌّ علىٰ الشيخ من جهة الدنيا، فكان الشيخ يكافئه عليه بإرشاده له في طريق الآخرة، فإنه بمثابة الدين الظاهر علىٰ حدٍّ سواء، فحزن ذلك الشيخ الذي لم يوفيه حقَّه المذكور في الدنيا، وخاف من مطالبته به في الآخرة في يوم لا يتحصل من أعمال العبد التي هي في عينه كالجبال مقدار أوقية من أجر، لكثرة

دخول الآفات فيها. وقد استعاذ رسول الله ﷺ من همِّ الدين[1]، فعُلِمَ أنه لا يجوز لأحد حمل الشيخ الذي أظهر الحزن علىٰ فراق إخوانه له علىٰ الأغراض النفسانية أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا مكَّن إخوانه من تقبيل يده أو رجله، ومن مشيهم بين يديه مثلًا إذا ركب في شوارع بلده، ولاث الناس به وقالوا: هذا يحبُّ المشيخة علىٰ إخوانه، ولولا ذلك لم يمكن أحدًا منهم يقبِّل يدَه ولا يمشي بين يديه، لأن في ذلك إذلالًا لإخوانه وعزَّة نفس له، بأنه قد يكون ممن غلبت عليه السذاجة والحضور مع الله تعالىٰ إذا ركب، فلم يخطر علىٰ باله ما يفعله إخوانه به، وما كلُّ فقير يبلغ مرتبة الكمال، فيراعي شيئين معًا في آن واحد.

وقد قلتُ مرةً للشيخ أبي الحسن البكري: إن جماعتك أنزلوا شخصًا مسلمًا عن دابته لما لقيك تجاه الورَّاقين، وقالوا له: انزل أدبًا مع الشيخ. فقال: والله إنه ليس لي علم بذلك، فإني آخذ في الجمعية أول ما أركب، فلا يصير بي ذهن لأحد من الخلق. فصدَّقتُه علىٰ ذلك.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، ولا تنازعهم في نياتهم ومقاصدهم، فإنك لم تكلف بمثل ذلك، وهو من باب التجسس الذي نهىٰ الله تعالىٰ عنه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه يقوم لبعض العصاة ويعظِّمهم، ولا يقوم لبعض طلبة العلم والفقراء، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: هذا لم يشم لطريق الشرع رائحة، فإن الفقراء وحملة القرآن أحق بالتعظيم، بأنه قد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف علىٰ مقامات الناس في حضرة الله عزَّ وجلَّ، فعظَّمهم كما هناك، فلم ينظر إلىٰ ثيابهم ولا إلىٰ مقامهم بين الناس المحجوبين.

---

(١) في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٦٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل، والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال» ومسلم (٢٧٠٦).

وقد وقع لسيدي ياقوت العرشي أنه قام لعاصٍ مرةً، وأجلسه بجانبه، ثم إنه دخل عليه شخص من علماء إسكندرية، فلم يلتفت إليه، فلاث به بعض الحاضرين، فقال: نحن لا نعظِّم الناس بحسب مقامهم عند العامة، وإنما نعظِّمهم بحسب مقامهم عند الله عزَّ وجلَّ، وإن هذا العاصي أَذَلُّ نفسًا بين يدي الله عزَّ وجلَّ من ذلك العالم لتكبره ورؤية نفسه علىٰ المسلمين، والله لا يحب المتكبرين. وفي كلام العارفين: المتكبر ينتظر من الله المقت، والمذنب ينتظر من الله العفو. انتهىٰ.

ويُحتمَل أن الشيخ إنما قام للعاصي تمييلًا لخاطره، ليكون ذلك وسيلة إلىٰ قبول نصحه بخلاف العالم، فإنه لا يحتاج إلىٰ مثل ذلك لاستقامته. ويُحتَمل أنه إنما يترك القيام للعلماء لظنِّه فيهم كراهة القيام لهم، فلم يدخل عليهم ما يكدِّر خاطرهم.

وكان سيدي عليٌّ الخواص وسيدي عليٌّ المرصفي رحمهما الله يقولان: إن هذه الدار ليست بمحل[١] الشهرة بالصلاح، وإنما محل ذلك في الدار الآخرة يوم تظهر السرائر. وكانا يعظمان الفقير الخامل الذكر أكثر من الفقير المشهور بالصلاح والكرامات، ويقولان: إن هذا الخامل يخرج من الدنيا ورأس ماله كامل لم ينقص من أجره شيء، وصاحب الشهرة قد بدد أجر أعماله وعلومه شرقًا وغربًا، وخرج من الدنيا مفلسًا من الأجور. انتهىٰ. فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دعا أحدًا إلىٰ خير، فلم يسمع له، فتشوش منه، ولاث الناس به وقالوا: إن فلانًا يموت علىٰ المشيخة، وما عليه إلا البلاغ، لأنه نائب النبي ﷺ، فلا ينبغي له التكدُّر ممن لم يسمع له لحظ نفسه ونحو ذلك، بأنه يجب حمله علىٰ أنه إنما تكدَّر مصلحة لذلك الشخص الذي لم يسمع له في الخير، ولم يتكدَّر لحظِّ نفسه.

وأنه لو علم منه أنه يجيب إلىٰ ما دعاه إليه بسهولة، لكان دعاه برفق ورحمة، فما أظهر له التكدُّر إلا ليردَّه إلىٰ امتثال أمره في الخير بذلك. ولا يخفىٰ أن كلَّ داعٍ إلىٰ الله

---

(١) بالأصلين: لمحل. والصواب ما أثبتناه.

تعالىٰ لا بد أن يتخلق بالرحمة علىٰ العباد، ويودُّ لهم كلَّ خير في الدنيا والآخرة، حتىٰ إنه من شدة المحبة يودُّ أنهم لو كانوا كلُّهم من أهل الجنة، ولم يدخل النار أحد منهم.

وأصل هذا المقام كان لرسول الله ﷺ، فكان من شدَّة محبته الخير لأمته يودُّ أنهم لو كانوا كلُّهم مؤمنين، فأنزل الله تعالىٰ عليه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فعلم من ذلك أن حكم القبضتين لا بد منه. ومن هنا قال بعض العارفين: من أدب الكامل أن لا يطلب رفع المعاصي من الأرض جملة أدبًا مع الله تعالىٰ، حيثُ سبق أن يكون الخلق علىٰ هذا الحكم شقي وسعيد. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخين في العلم أو الطريق إذا تنازعا في مريد، وطلب كلُّ واحد منهما أن يجعله مريدًا له دون غيره، فلاث الناس بهما وقالوا: كلُّ هذا حظ نفس، وإلا فالمريد لمن يريد، بأنه قد يكون لذلك المريد نصيب في الإرشاد عند كلِّ واحد منهما، فصار كلُّ واحدٍ يبادر لإيصال ذلك الخير إليه؛ لأنهما لم يعلما وقت حصول ذلك له علىٰ يديهما في الترجيح.

ولا يجوز حملهما أو أحدهما علىٰ حظِّ النفس، بل الواجب أن يظنَّ بكل منهما خلوصه من حظ نفسه، والمناقشةُ في النية والقصد ليس هي لنا، وإنما هي للشخص نفسه، فعليه تفتيش نفسه في كلِّ عمل عمله، فإن رآها تحبُّ الخير لذلك المريد بكل حال، ولا تفرق بين كون[1] ذلك الخير الذي حصل له علىٰ يدها أو يد غيرها، حكم لها بالإخلاص. وإن رآها ترجح أن يكون ذلك الخير علىٰ يدها دون غيرها، فليحكم عليها بالرياء، إلا أن يحب ذلك لنفسه من حيث كونه معروفًا و«الأقربون أولىٰ بالمعروف»[2]، فما رجح كون الخير علىٰ يديها إلا لكونها أقرب، نظير من بدأ بجاره في الهدية، أو أجاب دعوته، أو قدمه إذا كان بعيدًا عن حارة الأقرب لقرابة ونحوها، فليس المذموم

---

(١) بالأصلين: كل. والصواب ما أثبتناه.

(٢) تقدم تخريجه.

في تنازع الشيخين إلا تنازعهما عليه[1] لحظ نفس، وذلك راجع إلىٰ قصدهما إلا إلينا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: علامةُ صدق الداعي إلىٰ الله خالصًا بلا محبة رئاسة أن يكون ذلك العاصي لو تاب إلىٰ الله من ذات نفسه من غير دعاء أحد له، لكان أحبَّ إليه من توبته بدعائه. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا رأيناه يحبُّ كثرة المجاورين عنده، ولاث به الأقران الذين لا مجاورين عندهم، وقالوا: إنما يفرح بكثرة المجاورين لأنه اتخذهم شبكة يصطاد بها الدنيا، وليتميز بهم علىٰ الأقران، بأنه يجب حمله علىٰ اتباع السنة المحمدية، فإنه ﷺ اتخذ أهل الصفة عنده ولم يأمرهم بالكسب، وكانوا أربعمئة رجل، وكان إذا بعث إليه أحد بصدقة، أرسلها لهم ولم يتناول منها شيئًا. وإذا بعث إليه أحد بهدية، يتناول منها شيئًا جبرًا لخاطر صاحبها، ثم يرسلها لهم.

ثم إن رأينا ذلك الشيخ يشارك الفقراء المقيمين عنده في الصدقة، حملناه علىٰ الفقر والحاجة دون حظ[2] النفس. ويُحتمَل أنه قصد بمجاورة الفقراء عنده أنهم يذكِّرونه بفقرهم وحاجتهم إليه فقره إلىٰ الله تعالىٰ، فكلما نسي افتقاره إلىٰ الله تعالىٰ، ذكَّره هؤلاء، فكانوا نعمة من الله تعالىٰ عليه. ولا يجوز حمله علىٰ أنه جعلهم شبكة يصطاد بها الدنيا كما يقوله الأعداء والحسدة، فاعلم ذلك، وسلِّم للخلق مقاصدهم ونياتهم، ولا تنازعهم فيها، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق الذي يسأل الولاة والأغنياء القمح والدراهم والثياب وغيرها للفقراء المقيمين عنده، ولاث الناس به وقالوا: مذهب جمهور السلف الصالح عدم السؤال، وإنما يأخذون ما أتاهم بغير سؤال، مع أن غالب هؤلاء المجاورين المقيمين عنده قادرون علىٰ الكسب، ولا يشتغلون بعلم، فلو أخرجهم لعمل الحرف لكان

---

(١) بالأصلين: عليهما. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: شرط. والصواب ما أثبتناه.

أفضل، وما حبس ﷺ أهل الصفة في المسجد إلا لكونهم كانوا حملة علمه كأبي هريرة وأبي ذر وأبي الدرداء وصهيب[1] وأضرابهم، فحبسهم عنده ليرووا عنه الأحاديث للأمة بعده، لفراغ بالهم إلىٰ ذلك، بخلاف هؤلاء المقيمين عند فلان. ونحو ذلك من الاعتراضات.

والجواب: أنه يجب حمل هذا الشيخ الذي يسأل الدنيا لجماعته علىٰ أنه ما سأل لهم إلا لفقرهم، وعدم وجود حرفة بأيديهم، أو عجزهم عن الكسب، وكما أن أهل الصفة كانوا يروون عن رسول الله ﷺ الأحاديث، فكذلك جماعة هذا الشيخ يروون عنه علمه في الفقه والتصوف، وإن لم يكونوا أهلًا لذلك فهم يقرؤون القرآن ويشتغلون بحفظه. وقد صرح العلماء بأن من اشتغل بحفظ القرآن يُعطىٰ من الزكاة كالمشتغل بالعلم، صرح به الأردبيلي[2] صاحب كتاب «الأنوار» وغيره.

وكان علىٰ قدم السؤال سيدي الشيخ عثمان الحطاب[3] أحد أولياء مصر المشهورين، فكان عنده نحو مئة يقرؤون القرآن ويذكرون الله تعالىٰ، وكان يسأل لهم الأمراء في أيام السلطان قايتباي[4]. وطلع للسلطان يومًا فقال: أعطنا شيئًا من القمح والأرز والعدس. فقال له: يا شيخ عثمان، أيش لك حاجة بهؤلاء الفقراء؟! أخرجهم يروحوا بلادهم!

---

(١) صهيب بن سنان أبو يحيىٰ النمري، ويعرف بالرومي؛ لأنه أقام في الروم مدة. وهو من أهل الجزيرة، سبي من قرية نينوىٰ، من أعمال الموصل. كان من كبار السابقين البدريين. توفي: بالمدينة، في شوال سنة ٣٨هـ وكان ممن اعتزل الفتنة، وأقبل علىٰ شأنه ﷺ. «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٧)، «الأعلام» (٣/ ٢١٠).

(٢) يوسف بن إبراهيم الأردبيلي الشافعي، جمال الدين: فقيه. من أهل (أردبيل) من بلاد (أذربيجان) قال ابن قاضي شهبة: ذكره العثماني في من هو باق إلىٰ سنة ٧٧٥هـ وقال: كبير القدر، غزير العلم، أناف علىٰ السبعين، وهو باق بأردبيل. له كتاب «الأنوار لأعمال الأبرار» في الفقه. «الدرر الكامنة» (٦/ ٢٥٨) «الأعلام» للزركلي (٨/ ٢١٢).

(٣) عثمان بن محمد بن أحمد بن محمد السراجي المحلي، ويعرف بالحطاب ولد سنة ٨٢٠ هـ، حفظ القرآن وجوده واختص بالشيخ سليم فأقام معه. جلس لإقراء الأبناء احتسابًا بالمدرسة السيفية، ت سنة ٩٠٢ هـ. «الضوء اللامع» (٥/ ١٣٧).

(٤) الملك الأشرف قايتباي المحمودي. السلطان الحادي والأربعون من سلاطين الترك، والخامس عشر من ملوك الجراكسة. كان صالحًا محبًّا للصوفية، معتقدًا ومعظمًا لأولياء عصره. توفي سنة ٩٠١هـ. «سلم الوصول إلىٰ طبقات الفحول»، «الأعلام» (٥/ ١٨٧).

فقال له: وأنت الآخر أيش لك حاجة بهؤلاء المماليك؟ فقال: هؤلاء عسكر الإسلام! فقال: وهؤلاء الفقراء عسكر القرآن. فتبسم السلطان ورسم له بما طلب، وخلفه علىٰ هذا القدم الشيخ إبراهيم الرحبي[1] بباب جامع الأزهر ﷺ كان يسأل للفقراء المقيمين عنده جميع ما يحتاجون إليه.

وكذلك كان سيدي أبو الحسن الشاذلي وسيدي يوسف العجمي، لكن الأول كان يسأل لأصحابه بالحال، والثاني بالقال، ويقول كلٌّ منهما: لا أربي أصحابي علىٰ الاعتماد علىٰ رزقه ولا مرتب. وعرض الملوك علىٰ هذين الشيخين الهدايا والرِّزَق[2] فردوهما. فاعلم ذلك، واحمل أشياخ الطريق علىٰ الأحوال اللائقة بالصالحين من حسن المقاصد، ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا نسب أحدًا من المسلمين إلىٰ الفسق تعريضًا أو تصريحًا، فلاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: هذا لا يليق به! ولا ينبغي أن يكون الشيخ يقذف أعراض المسلمين، بل لو رأىٰ أحدًا علىٰ معصية، وجب عليه ستره، إلا إن دعاه حاكم إلىٰ الشهادة في حدٍّ من حدود الله تعالىٰ ونحو ذلك، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، فقد يريد بقوله لمسلم: يا فاسق مثلًا الفسقَ اللغوي، وهو مطلق الخروج عن السنة المحمدية، إذ الفسقُ في اللغة: الخروج، يُقال: فسقت النواةُ، إذا خرجت من قشرها، ومن خرج عن السنة المحمدية قيد شبر في مأكله أو ملبسه أو نومه أو في معاملته لله تعالىٰ أو لخلقه، فقد انسحب عليه اسم الفسق، فأي شخص يدعي الآن سلامته من مثل هذا الفسق؟! هذا أمر قد صار متعذرًا جدًا علىٰ الأكابر، فضلًا عن غيرهم.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل من سمَّاك فاسقًا علىٰ الفسق اللغوي، وأنه وصفك

---

(١) إبراهيم الرحبي الشيخ الصالح، كان مقيمًا في زوايته علىٰ باب جامع الأزهر، وكان له في بدايته سياحات كثيرة، كان يخدم كل من مرض في الجامع بنفسه، وينحي القذر من تحته، مات في آخر شوال سنة ٩٥٤هـ. «الكواكب السائرة» (٢/ ٨٧).

(٢) جمع رِزْقة، وهي أرض أو غيرها مما يُغلُّ يُصرف رَيعُها علىٰ المسجد وخدمه ونحو ذلك.

بذلك حقًّا، وإياك أن تشتكيه لحاكم إلا إن سألته وصرح لك بمراده، وإن صفحتَ عنه كان أفضل، قال ﷺ: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»(١).

وقد كان مالك بن دينار ﷺ يقول: لو نادىٰ منادٍ علىٰ باب المسجد: ليخرج أفسق الناس، لسبقتُ إلىٰ الباب. وكان الفضيل بن عياض يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ مراءٍ؛ فلينظر إليّ. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من قيل له في هذا الزمان: يا فاسق، أو يا منافق، أو يا نصاب، أو يا كذَّاب علىٰ الله، فلا ينبغي له التكدر، بل يرىٰ ذلك من أصدق وصف وُصِفَ به، فإن السلامة من ذلك أعزُّ من الكبريت الأحمر. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا قال لأحد: يا جاهل، لا سيما إن قال ذلك لعالم آخر، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: ربما يكون هذا الذي سماه جاهلًا أعلم منه بالشريعة، ولا ينبغي أن يُسمَّىٰ إنسان جاهلًا إلا إن كان جاهلًا بأحكام الشريعة الخمسة(٢)، وهذا عارف بها، فكيف يليق بالشيخ الكذب؟!

والجواب: بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فإنه لا يخرج أحد عن الجهل إلا إن علم الأمور كما يعلمها الله تعالىٰ أو رسوله ﷺ، وكلُّ من كان يجهل حكمًا واحدًا من أحكام الشريعة الصريحة(٣) أو المستنبطة في سائر المذاهب المستعملة والمندرسة، انسحب عليه اسم الجهل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لا ينبغي لأمثالنا أن يشهد في نفسه أنه عالم أو عارف، إلا إن كان يقدر علىٰ استنباط جميع أحكام الشريعة من الكتاب والسنة. وكذلك سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا يكون الشيخ أستاذًا في الطريق إلا إن كان علىٰ قدم أبي القاسم الجنيد الذي كان يقول: ما نزل من السماء علم، وجعل الحقُّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٧٥) والنسائي (٧٢٥٣) والبيهقي (١٧٦٢٧).

(٢) وهي: الإيجاب، الندب، التحريم، الكراهة، الإباحة.

(٣) بالأصلين: الصحيحة. والصواب ما أثبتناه.

تعالىٰ للخلق إليه سبيلًا إلا وجعل لي فيه حظًّا ونصيبًا. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ الصدق في كل ما يشتمونك به، فإن مقامهم الصدق، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينزل إلىٰ بلاد الريف، ويدور علىٰ بلاد الفلاحين يأخذ عليهم العهد بالوضوء والصلاة وعدم السرقة ونحو ذلك، وحمله أقرانه علىٰ حب الشهرة بالمشيخة، وجمع حطام الدنيا، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه قائم بفرض كفاية، ولولا نزوله لكان الإثم علىٰ أقرانه كلِّهم. ولا ينبغي الإنكار علىٰ من قام بفرض الكفاية، بل ربما يكفر المنكر بذلك، وفي القرآن العظيم: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية.

فاحفظ لسانك يا أخي، فإن من قال في إنسان ما ليس فيه تمسكه الزبانية علىٰ الصراط، ويقولون له: أثبت ما قلت في حقِّ فلان؛ فإن لم يقدر رموه في النار، نسأل الله العافية، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ المكشوف الرأس الذي يدخل علىٰ الولاة ويأكل من طعامهم ويدعي مقام الكشف، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: من يأكل الحرام والشبهات من لازمه ظلمة القلب، فلا يكون له كشف صحيح، إنما ذلك كذب ونصب، وقالوا له: لأي شيء تكشف رأسك من الطاقية والقلنسوة والعمامة، وتلبس علىٰ جسمك الثياب الفاخرة؟! والعمامة سنة، ولا يليق بمن كشف رأسه إلا المرقعات، ونحو ذلك من الاعتراضات.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من فعل ما ذُكر، فقد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف الصحيح، مع أكله من طعام الولاة، لكونه تعالىٰ يستخلص له الحلال الذي في طعامهم بحوله وقوته، كما يستخلص اللبن من بين فرث ودم.

وأما كشف الرأس فقد يكون من شدة حرارة الأمداد النازلة عليه من الوجود. ومصداق ذلك عدم وجع عينيه إلا في النادر، فله عذر في كشفه. وأما بدنه فلما في لبسه الثياب الفاخرة من إظهار نعم الله تعالىٰ عليه أسوة إخوانه المسلمين، فلا يُمنَع من ذلك،

ولا يؤمر بمشاكلة رأسه في العري، أو لبسه المرقعات التي تنادي علىٰ صاحبها بالفقر وإن لم يقصد ذلك. فسلِّم يا أخي للفقراء أحوالهم ما لم يعارضوا نصوص الشريعة أو الإجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان جالسًا يمزح بين الناس، وليس في يده سبحة، ورأسه مرفوعة ينظر إلىٰ الناس والحيطان والسماء، فدخل عليه جماعة من الأكابر، فترك المزح وأخذ في يده سبحة، وأطرق رأسه، فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا من علامات النفاق، فكيف يدعي هذا العلم والصلاح؟! وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: لو قيل لي: إن أمير المؤمنين داخل عليك الآن، فسويتُ لحيتي بيدي لدخوله، لخفت أن أُكتَب في جريدة المنافقين. انتهىٰ. فكان الواجب علىٰ هذا دوام المزح وعدم الإطراق وأخذ السبحة، ليخرج عن صفة النفاق.

والجواب: أنه ربما فعل ما فعل بنية صالحة، وذلك أنه كان غافلًا عن الله تعالىٰ حال مزحه، فلما دخل عليه من يستحيي منه عادةً، تذكر أنه بين يدي الله تعالىٰ، فترك المزح وأخذ السبحة وأطرق أدبًا مع الله تعالىٰ، ولم يزل العبد يغفل ويتذكر. ولا يجوز حمل هذا الشيخ في ذلك علىٰ الرياء لمن دخل عليه، لأنه سوء ظن به، وهو حرام بإجماع المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٥) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي ينشر رداءه خلف ظهره إذا ركب أو مشىٰ في السوق، ولا يضمه حول عنقه كآحاد الناس، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: إنما يفعل ذلك للتمشيخ، لأن ذلك صار علمًا علىٰ ذلك، بأنه يجب حمله علىٰ أنه إنما فعل ذلك بنية صالحة، كالتبرك بالصالحين، أو أنه اتخذ ذلك عادةً أسوة الناس الذي يفعلون ذلك مع غيبته عن مقاصدهم. وبأنه قد صار شعارًا علىٰ أهل الطريق الذين يربون المريدين، فللشيخ أن يفعله ليتميز بذلك عن العامة، ويعرفه المريدون فيسألوه عن آداب الطريق، نظير العَذَبَة والطيلسان، وليس لأحد الإنكار إلا مع تبين الحال.

وقد استفتي شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر[1] عن إرخاء العَذَبَة ونشر الرداء على الظهر، فقال: إن فعل ذلك بنية صالحة فلا بأس. وإن فعله بقصد التمشيخ حرم، مع أن العذبة في أصلها سنة ثابتة، ومن فعل السنة وجب حمله على الإخلاص حتى يتبين لنا خلافه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٦) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم إذا شاوره شخص في أخذ الطريق أو العلم عن أحد من الأقران، فلم يرِّغبه في الأخذ ولا في القراءة عليه، فلما قال له: أريد أن أقرأ عليكم، وآخذ عنكم الطريق؛ رغَّبه في ذلك كلَّ الترغيب، فلاث به الناس وقالوا: هذا من أكثر علامات الرياء وحب المشيخة، ولو كان صادقًا لمدح له العلم وكلَّ طريق القوم حين شاوره على الأخذ عن غيره، كما مدح ذلك حين قال له: أريد أن آخذ عنك أو أقرأ عليك على حد سواء، بأنه لا يجوز لأحد حمله على الرياء بمجرد ذلك، فربما يكون له قصد صحيح في ذلك، أو ربما رأى عند ذلك المريد أو الطالب عدم الإخلاص وفساد القصد حين مشاورته في الاجتماع على غيره، ثم حصل له الإخلاص وصلحت نيته عند مشاورته أن يقرأ عليه، فذلك رغَّبه في العلم والاشتغال بالطريق. ولو أنه كان الأمر بالعكس، لنفَّره من القراءة عليه والأخذ عنه، ومدح له العلم والطريق حين شاوره أن يأخذهما عن غيره، **فالفقراء دائرون مع الحقِّ لا مع حظوظ النفوس، كما يعرف ذلك من خالطهم مع صحة الاعتقاد، فاعلم ذلك،** والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صلَّى بجانبه أمير أو كبير، ورأيناه زاد في صورة الخشوع والإطراق زيادة أكثر من عادته في الصلاة بحضرة أصحابه

---

(١) ابن حجر، إمام الحفاظ في زمانه، قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ثم المصري. ولد سنة ٧٧٣هـ وعانى أولًا الأدب وتعلم الشعر فبلغ فيه الغاية، ثم طلب الحديث، فسمع الكثير، ورحل وتخرج بالحافظ أبي الفضل العراقي، وانتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث في الدنيا بأسرها، وله تصانيف منها: «شرح البخاري» و«تغليق التعليق» و«تهذيب التهذيب». توفي:٨٥٢هـ. «حسن المحاضرة» (١/ ٣٦٣)، «ذيل طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص: ٢٥١).

المعتادين، فلاث به الناس وقالوا: هذا من علامة ريائه لذلك الأمير، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه ولا نسبته للرياء، لاحتمال أنه يذكر بتعظيمه لذلك الأمير والأدب معه الأدب مع الله تعالىٰ والخشوع بين يديه، فزاد في ذلك علىٰ وجه الإخلاص لا الرياء، **فإن الأمراء والأكابر في هذه الدار من آيات الله، أو علامة علىٰ آياته،** وهو أحد الأوجه التي أجاب بها بعض العارفين عن رسول الله ﷺ حين كان يقبل علىٰ صناديد قريش دون فقرائهم، لأن الصناديد ظهروا بمظهر الكبرياء والعظمة اللذين لا يليقان إلا بالله عزَّ وجلَّ، فكان يقبل عليهم إكرامًا للمظهر الذي ظهروا به، بخلاف الفقراء، فافهم.

فعُلِمَ أنه يجب علينا إذا رأينا عالـمًا أو شيخ زاوية صلَّىٰ عنده الباشاه يومًا، فزاد في الإطراق وضم الأكتاف والرعدة أن نحمله علىٰ الإخلاص في ذلك، وأن عظمة الباشاه ذكرته بعظمة الله تعالىٰ، فزاد في الأدب والخشوع مع الله تعالىٰ لا مع ذلك الأمير. ومن حمل الناس علىٰ المحامل السيئة بسوء ظنِّه، فلا يلومنَّ إلا نفسه، بخلاف الأمور المحققة التي لا تقبل التأويل، كاجتماع الفساق[1] العالمين بالتحريم علىٰ شرب الخمر مثلًا، فله الإنكار عليهم قطعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعي إلىٰ وليمة، فأخذ معه جماعة كثيرة، فأكلوا طعام الوليمة كلَّه، ولم يتركوا لغيرهم شيئًا، فلاث بهم الناس وقالوا: هذا لا يحل له فعله، فإن الطعام لم يعمل له وليمة وحده، بأنه قد يكون صاحب الوليمة أمره بأن يأتي بأصحابه كلِّهم، وبأنه قد يكون من شأنه المكافأة بالدعاء لصاحب الطعام بالبركة الخفية في رزقه، فيعوضه الله تعالىٰ بكلِّ لقمة أكلها الشيخ وجماعته أضعافها طولَ تلك السنة، بخلاف ما يأكله آحاد الناس.

وقد يكون ذلك الشيخ من أصحاب الكشف بأن ذلك الطعام قسمه الله تعالىٰ له ولجماعته دون غيرهم، فأكلوه علىٰ علم وبيان، كما وقع مثل ذلك لسيدي ياقوت

---

(١) في «أ»: العيَّاق.

العرشي. ومصداق صحة كشفهم أنهم أكلوا الطعام كلَّه ونزل جوفهم. وأما كونه حلالًا أو حرامًا فذلك أمر آخر لا يخفىٰ ميزانه في الشريعة.

وأيضًا فإن الشيخ وجماعته قد أكلوا ذلك الطعام بحضرة صاحبه أو خدَّامه، ولم يمنعوهم ولم يقولوا لهم: افضلوا لغيركم شيئًا، فليس علىٰ الشيخ اللوم إلا إن قال صاحب الطعام مثلًا: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ أني أدعو هذا الشيخ وجماعته مرةً ثانيةً، فإنهم فضحونا مع الناس ونحو ذلك، وما لم يقل صاحب الطعام مثل ذلك، فحسن الظن واجب، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٩) ومما أجبتُ به عمَّن يقول عن نفسه: أنا من الصالحين؛ فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا من الصالحين ما زكَّىٰ نفسه بذلك، بأنه قد يكون من الصالحين حقيقة أو علىٰ قدْر حاله، أو أراد: أنا صالح للجنة أو للنار، أو صالح لأن أكون إمامًا في المسجد أو غير ذلك من الحرف والصنائع، وقد يكون أراد أنه من الصالحين حقيقة عند نفسه لا في نفس الأمر.

وسمعتُ أخي أفضل الدين يقول: كلُّ من ادَّعىٰ مقام الولاية أو الصلاح، فانظروا في أعماله، فإن وجدتموها موافقةً للكتاب والسنة، فقولوا: صدقت، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار عليه دون النظر في أفعاله وأقواله وأحواله وعقائده، فإنه تهور في الدين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه تساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حدٍّ سواء، ثم رأيناه يعالج في فتح المطالب وعمل الكيمياء، فلاث الناس به وقالوا: هذا نصَّاب، شيطان في صورة إنسان، ولو أنه كان صادقًا في تساوي الذهب والتراب في قلبه، لما كان أتعب نفسه في عمل الكيمياء وحفر الكيمان ونحو ذلك، بأنه قد يكون صادقًا في تساوي الذهب والتراب عنده من حيثُ الميلُ إليه، كما يقع للمريد في ابتداء دخوله في الطريق، ثم طلب بعد ذلك الدنيا لينفق منها علىٰ نفسه وعياله وإخوانه، كما يفعل أولياء

الله الذين يتاجرون في الدنيا، فتكون الدنيا في يدهم لا في قلبهم. فلا يلزم من تساوي الذهب والتراب في قلب فقير أن يترك الدنيا بالكلية ويصير يسأل الناس.

وربما كان صادقًا في معرفة عمل الكيمياء وفتح المطالب، فبأي دليل نكذِّبه ونسميه نصَّابًا أو شيطانًا؟! وقد أخبرني الشيخ الصالح شمس الدين البوصيري[1] أحد جماعة سيدي الشيخ أبي السعود الجارحي أن سيدي أبا السعود فتح المطلب الذي بين كيمان مصر العتيق، وأخرج منه مقدار ثلاث ويبات[2] من الذهب، وصاغه سبائك وأوفى منها عدة ديون للناس بالمشاهدة، وتصدق بالباقي.

وقد عمل أخي أفضل الدين رحمه الله بحضرة من أثق به نحو ألف مثقال ذهبًا من شيء اشتراه من العطار بدرهم، فسألتُه عن ذلك، فقال: هو صحيح، وإن شئتَ علمتُك إياه. فقلتُ له: لا. فألح عليَّ، فقلتُ له: لا. ثم حكى ذلك لبعض إخواني وقال: ما كنتُ لأعلمه ذلك، ولكن امتحنتُه في محبته للدنيا. وكان ذلك أول صحبتي له.

وقال لي مرة: عمل الكيمياء من جملة علم الحكمة، والحكمة لا تدخل قلبًا يرجِّح الذهب على التراب. فامتحن يا أخي كلَّ من يدعي صحة عمل الكيمياء على يديه، فإن كان يرجِّح الذهب على التراب، فاعلم أنه نصاب.

وقال لي مرة أخرى: لا يصح عمل الكيمياء إلا من أهل الكشف على أسرار المعادن والنبات وعلى معرفة الأوزان. وأما من طلب عملها من بطون الكتب، فهو يشغل نفسه بالتعب من غير فائدة، فإن أصحاب هذا العلم مأخوذ عليهم العهد من عهد الإمام جابر[3] صاحب العلم رضي الله عنه أن لا يذكر أحدهم قط في كتابه تدبيرًا كاملاً، بل يحذفون منه

(١) شمس الدين البوصيري كان عالمًا بنقول ذهب الشافعي، محدثًا أصوليًا مفسرًا مقرئًا، وله النظم البديع الشائع، والصبر العظيم على تفريعات الشيخ أبي السعود، وكان يفتي على الأربع مذاهب. «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ٧٠٧).

(٢) الوَيْبَة: اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مُدًّا ، وهو مكيال يختلف بحسب البُلدان.

(٣) بدر الدين النوزي، وفي «الكواكب السائرة» محمد التوزي الشيخ الفاضل الصالح الورع، كان من أكابر

كثيرًا من الأركان والشروط، ويكلوا ذلك إلىٰ العالم بالصنعة من طريق الكشف [غيرةً علىٰ الحكمة أن يعطاها من ليس من أهلها. انتهىٰ.

وقد أدركتُ أنا من كان يعملها من طريق الكشف][1] ويتصدق منها ليلاً ونهارًا ولا يأكل منها شيئًا، وهو الشيخ بدر الدين النوزي[2] بجامع الحاكم رحمه الله، كان يخرج كل يوم بنحو ثلاثة أقداح فضة، فلا يرجع منها بشيء، وأعطاني منها مرات فضة حجرًا لا يخالطها[3] شيءٌ من النحاس رحمه الله.

فاحمل يا أخي كلَّ من يدعي معرفة عمل الكيمياء وفتح المطالب علىٰ الصدق في نفس الأمر. وإياك أن تجيبه إلىٰ أن يأخذ منك مالًا ليطبخ لك به، فإنه نصاب، إذ العارف بالصنعة لا يحتاج إلىٰ فلوسك ولا يعلمك شيئًا.

وقد طلب ولد الشيخ بدر الدين النوزي من والده أن يعلمه ذلك في مرض موته، فأبىٰ وقال: هذا الأمر يحتاج إلىٰ عقل وافر، ودماغ يقبل، فإنك إن صحت معك قتلوك، وإن لم تصح معك قتلوك[4]. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨١) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي تورع عن الأكل من وقف خانقاه سعيد السعداء[5]،

الأولياء المستورين، وذا قدم راسخ في العبادة مع إخفائها، كان مع الفقهاء فقيهًا، ومع الفقراء فقيرًا، ومع العارفين عارفًا، وكان يعتقده أكابر الدولة ويكرمونه، ويهدون إليه الهدايا، وكان يفرقها علىٰ المحتاجين، ت سنة ٩٣٠هـ. «الكواكب السائرة» (١٩٤)، «الكواكب الدرية» (٣/ ٣٥٣).

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط في «ب».

(٣) بالأصلين: يحملها. والصواب ما أثبتناه.

(٤) في «الطبقات الوسطىٰ» أن الذي طلب ذلك هو الأمير تغري بردي قال: «وخدمه الأمير تغري بردي الأستادار خدمة طويلة، فقال له: يا تغري بردي، لا يخلو الأمر: إما أن يأذن الله لك في العمل، فتصح معك فيقتلك السلطان؛ وإما أن لا تصح معك فتكون زَغَلي، فيقتلك السلطان كذلك ويسلب نعمتك. فاستغفر عن ذلك الخاطر وتاب إلىٰ الله تعالىٰ». الطبقات الوسطىٰ (٢٧٩/ ٢).

(٥) خانقاه سعيد السعداء: كانت هذه الخانقاه في الأصل دارًا سكنها عدة أشخاص في العصر الفاطمي. ثم أمر صلاح

ولاث به الفقهاء وقالوا: إن واقفها كان سلطانًا عادلًا وعمَّرها بإذن من رسول الله ﷺ كما أُشيع ذلك عنه، ولكن قد قال بعضهم: خالفوا تعرفوا.

والجواب: أن المتورع من الأكل من وقف الخانقاه المذكورة وغيرها مما وقفها خاص بالصوفية قد أتىٰ معروفًا، فلا يسوغ الإنكار عليه.

وقد أراد ناظرها أن يسكن الشيخ عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل المالكي[1] صاحب «المختصر» بها، ويرتب له خبزًا منها، فأبىٰ وقال: هذه موقوفة علىٰ الصوفية، وأنا لستُ بصوفيٍّ، إنما الصوفيُّ من كان علىٰ قدم الشيخ الجنيد وأضرابه المذكورين في «حلية أبي نعيم» وفي «رسالة القشيري» ونحوهما، وقد قالوا: الصوفيُّ من عمل بعلمه كلِّه علىٰ وجه الإخلاص الكامل، ومن أين أصل إلىٰ ذلك؟! انتهىٰ، فاعلم ذلك، **فإن لكلِّ مقام رجالًا.** وقد كان الجلال السيوطي رحمه الله لا يأكل من خبزها، وكان شيخ الإسلام زكريا يأكل منه -وكنتُ أطالع له- نحو عشر سنين، وكنتُ أتغدىٰ معه كلَّ يوم من خبزها ويقول: إنما نأكل من هذا الخبز تبركًا بصاحبه، فإنه كان ملكًا عادلًا، وهو أطيب عندي مما في أيدي الناس اليوم. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يشارك المسلمين في همومهم حتىٰ إنه يشارك المعاقبين في بيوت الولاة في سائر أقطار الأرض في سائر الجرم والتهم إذا بلغه ذلك، حتىٰ إنه يحس بضرب المقارع والكسَّارات وحرارة الخوذة المحماة علىٰ رأسه، ولاث الناس به وقالوا: هذا كله كذب ونصب! بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، كما عليه أرباب الأحوال الذين لهم ارتباط بالعالم. وقد أخبرني الشيخ الصالح سيدي عبد القادر

الدين الأيوبي بتحويلها إلىٰ دار للصوفية حيث أوقفت علىٰ فقراء الصوفية من مختلف بلاد العالم الإسلامي. وتقع هذه الخانقاه بحي الجمالية بجوار مدرسة الجمالية الابتدائية بالقاهرة.

(١) ضياء الدين أبو المودة خليل بن إسحاق الجندي، الإمام الهمام أحد شيوخ الإسلام والأئمة الأعلام، من كبار فقهاء المالكية المجمع علىٰ جلالته. وكتابه «مختصر خليل» من أشهر الكتب المعتمدة في فقه المالكية، توفي سنة ٧٧٦هـ.

الدشطوطي أنه شارك مرة شخصًا وضعوا الخوذة المحماة علىٰ رأسه في بيت الوالي، فصار الشيخ يحس بأن دهن رأسه سال ونزل علىٰ وجهه، فصار يمسحه لظنه أنه من خارج الجلد، والحال أنه من داخله.

فصدق يا أخي من ادعىٰ مثل ذلك ما دمتَ لم تذق ذلك، فإنه أولىٰ من تكذيبك له، اللهم إلا إن ترتب علىٰ ذلك أمر يخالف الشرع، فتكذيبه أولىٰ نصرةً للشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه لا يحب شيئًا في الوجود إلا إن علم أن الحقَّ تعالىٰ يحبه وإلا كرهه حتىٰ العفو عنه، ولولا أن الحق تعالىٰ أخبر أنه يحب العفو عن عباده ما أحبَّ العفو عنه، بل كان يحب العقوبة إذا أحبها الله، ولاث به العاجزون من الفقراء وقالوا: هذا أمر يعجز عنه البشر.

والجواب: أن ذلك ممكن من جملة الممكنات، فتصديقه أولىٰ، فإنه مقام بينه وبين الله تعالىٰ. وإن كان غير صادق فيه، فحسابه إلىٰ الله لا إلينا، والتكذيب لا يشرع لنا إلا في الأمور الممتنعة شرعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صلىٰ في المسجد علىٰ سجادة وطَرَّاحة دون الحصير، حتىٰ إنهم أبطؤوا عليه يومًا بالسجادة، فصار واقفًا بلا صلاة حتىٰ فرشوها له، فلاث به الناس وقالوا: هذا كله تكبر علىٰ الله ونحو ذلك، بأنه قد يكون من رجال الجمال بين يدي ربهم دون رجال الذلِّ والانكسار، فكلما تذكروا أنهم عبيده، ازدادوا عزًّا وتجملًا، خوفًا أن يزدريهم الناس المحجوبون عن معرفة أحوالهم، **فإن للذل أقوامًا، وللعز أقوامًا، وكلٌّ كامل في مقامه.**

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي يبخر سجادته بالند والعنبر، ويلطخها بالمسك والكافور، تعظيمًا لحضرة الصلاة، كما أشار إليه حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1] وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا تحويه الجهات، فافهم، وإياك والمبادرة

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) والنسائي (١١٣٧).

إلىٰ الإنكار علىٰ أفعال العلماء والصالحين، فإنهم أعرف منك بالأدب مع الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أحضر مع الله تعالىٰ في حال جماعي، كما أحضر في حال صلاتي، فأنكر عليه المجادلون ذلك، بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، فإن جميع الأكابر تحضر مع الله تعالىٰ في سائر شهوات النفوس من جماع وغيره، كما يحضرون معه في الصلاة بجامع مشروعية ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: جميع المأمورات والمباحات ما شرعها الله تعالىٰ لعباده إلا ليحضروا معه فيها لا غير، فمن حضر فيها ازداد بها حياة؛ ومن غاب فيها ازداد بها موتًا لقلبه، وعلىٰ ذلك يُحمل ما ورد في ذم حل الشهوات وأنها تحجب عن الله تعالىٰ، فصدِّق يا أخي العارفين فيما يدعونه من وجداناتهم، فإن كلَّ مقام أنكره المريد، حرم الوصول إليه عقوبة له، فإياك ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إذا عرض لك الشيطان، فاصرخ عليه باسمي، فإنه يهرب عنك؛ فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: هذا ما بلغنا عن أحد من الأنبياء أنه قاله لأحد من أصحابه، فكيف بمن ولايته غير محققة؟! وقد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، فلم يأمره بالاستعاذة منه بغير الله، لعجز ذلك الغير عن دفعه ونحو ذلك من الاعتراض.

والجواب: أن الشيخ لا يجهل ما اعترض به عليه، ولكنه لـمَّا علم عجز مريده عن دفع إبليس عنه بالاستعاذة بالله تعالىٰ لجهل ذلك المريد بالله عزَّ وجلَّ، قال له: اصرخ عليه باسمي لأسمعك، فأستعيذ بالله لك نيابة عنك. وإيضاح ذلك أن المريد ربما كان يعتقد في الله تعالىٰ صفات التشبيه، وأنه تعالىٰ في جهة العلو مثلًا دون السفل، وذلك ليس هو الله الذي أُمر العبد بالاستعاذة به من الشيطان، بل هو من تخيلات النفس الجاهلة بالله، ومثل ذلك لا يدفع الشيطان، فافهم وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وقع في غيبة أحد في مجلسه، ولاث به الناس وقالوا: كيف يكون هذا وليًّا لله تعالىٰ وهو يقع في أعراض الناس؟ بأنه ربما قصد بذلك التحذير منه أو التعريف بحاله ونحو ذلك مما يباح ذكره شرعًا، ويحرم حمله علىٰ أنه قصد بتلك الغيبة التشفي في عرض أخيه. وربما كان يستحيي أن يواجه ذلك الشخص بما تكلم به في غيبته، فتكلم به بحضرة من يعرف أنه يبلغه له مبادرةً لنصحه ومحبةً في أن يأخذ في اكتساب الفضائل ويترك الرذائل.

ثم لا يخفىٰ أن الخلق في حجر تربية العارف كالأطفال في حجر وليِّهم يقبح في أعينهم كلُّ صفة مذمومة، ولا يراعي كونهم يتكدرون من ذلك. فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دعي إلىٰ وليمة، فلما جاء إلىٰ باب الدار قال: من هنا من العلماء؟ قالوا: فلان، فرجع وقال: لا أدخل مكانًا فيه فلان؛ فلاث الناس به وقالوا: كيف يدعي هؤلاء العلم وهم في حظوظ نفوسهم لا يخرجون منها؟! بأنه قد يريد بقوله: لا أدخل مكانًا فيه فلان الأدب مع ذلك العالم أو الشيخ، وجعل المجلس له وحده، أي لا ينبغي لمثلي النصَّاب الكذَّاب أن يجعل نفسه مثل هذا الشيخ الصادق، فيصير الناس يقولون: من حضر عند فلان من الأشياخ؟ فيقولون: فلان وفلان، فيجعلون رأسه برأسه، **وكلُّ صادق يحب إضعاف نور نفسه وتقوية نور أخيه.**

وقد وقع لسيدي محمد بن عنان أنه دعي إلىٰ وليمة، فلما وقف علىٰ الباب قال: من هنا من الأشياخ؟ فقالوا: سيدي علي المرصفي، فرجع فلاث به الناس، فلما بلغه ذلك قال: إنما قصدتُ انفراده في ذلك المحفل أدبًا معه، فإنه شيخ مصر الآن. انتهىٰ[1].

---

(١) وجاء في «الطبقات الوسطىٰ» للمصنف في ترجمة سيدي محمد بن عنان: «وكان ﷺ يحفظ ود أخيه حيًّا وميتًا. ودُعي مرةً إلىٰ وليمة، فلما جاء باب الدار، قال: من حضرها هنا من الفقراء؟ فقالوا له: سيدي علي المرصفي؛ فرجع، فقيل له: هل بينكم وبينه وقفة؟ فقال: لا، وإنما كان بينه وبين أخي الشيخ نور الدين الحسني وقفة، وصحبته متقدمة عليه، فأحببت الوفاء بحق أخي في عدم موادة من بينه وبينه وقفة، وإلا فأنا

فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل العلماء والأشياخ علىٰ شيء من رعونات النفوس، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا رأيناه لا يبكي عند سماع القرآن، ولا يخشع كغيره من الفقراء، وقال الناس: لو كان هذا من الصالحين، لكان أرق قلبًا من جميع هؤلاء الباكين، بأنه ربما بلغ مقام الكمال، أو وصل إلىٰ مقام الاعتماد علىٰ عفو الله عزَّ وجلَّ دون شيء من أعماله، فنظر إلىٰ السوابق، فرآها لا تتغير بالبكاء ولا بالتملق، فلم يظهر منه شيء من ذلك.

وربما كان بكاؤه بقلبه أكثر من بكاء البكَّائين بعيونهم كما قاله الحسن البصري، فكان يقول: ليس البكاء بالعيون وإنما البكاء بالقلوب. وربما دخل العارف إلىٰ مقام يكون البكاء عنده مفقودًا أصلًا، كما أشار إليه عمر بن الخطاب ﷺ بقوله حين رأىٰ الناس يبكون: هكذا كنَّا حتىٰ قست قلوبنا، أي قويت وصلبت في تحمل الشدائد في الدنيا والآخرة. فافهم وسلِّم للأكابر أحوالهم ومواجيدهم التي لا يعارضها نص ولا إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الزاوية إذا قرأ أحدهما القرآن بمعلوم دنيوي، ولاث بهما بعض الناس وقالوا: هذا أمر يخالف أحوال العلماء والمشايخ الذين يزعم هؤلاء أنهم علىٰ قدمهم، كالشيخ الجنيد والشيخ محيي الدين النووي وأضرابهما.

والجواب: أن ذلك لا يقدح في كمال الشيخ، فإنه معه الإذن من الشارع في أخذ الأجرة علىٰ قراءة القرآن في حديث الرقية[1]، وفي حديث: «أحق ما أخذتم عليه أجرًا

بحمد الله لا أكره أحدًا إلا لغرض شرعي». ولا تعارض بين الحكايتين، فيحتمل أنه راعىٰ ود أخيه سيدي نور الدين الحسني، وأيضًا قصد الأدب مع العارف المرصفي.

(١) إشارة إلىٰ حديث أخرجه البخاري (٥٧٣٧) من حديث ابن عباس: «أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء، فيهم لديغ أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راق، إن في الماء رجلًا لديغًا

كتاب الله»[1]، فذكر الأجر، فشمل الأجر الدنيوي والأخروي، لاسيما إن كان ذلك العالم أو الشيخ [فقراء من الدنيا. وقد يكون هذا العالم أو الشيخ][2] يقرأ أحدهما القرآن لله عزَّ وجلَّ، ثم يأخذ ذلك المعلوم ابتداءً عطاءً من الله عزَّ وجلَّ، لا في مقابلة قراءته [القرآن]، كما عليه طائفة من الأولياء كسيدي محمد السروي وشيخ الإسلام زكريا ونحوهما، فلا اعتراض علىٰ الشيوخ إلا في فعل ما نهىٰ الله عنه، لا ما أمر به أو سكت عنه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الزاوية إذا سامح زوجته في الخروج إلىٰ مواضع الوعاظ، ولاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه تعليم زوجته أمور دينها، ولا يمكنها من الخروج صيانة لها، ومثل ذلك أيضًا الأعراس.

والجواب: قد يكون هذا الشيخ رأىٰ أن تعليمه لزوجته أمور دينها لا يكفيها فيما تريده من العلم، وليس عنده أحد من جنسها تستأنس به في العمل بما تسمعه منه، بخلاف الواعظ، فما أذن لها في الخروج للواعظ إلا لمصلحة ترجح علىٰ مصلحة تعليمه هو. وقد يكون سبب إذنه لها في حضور الواعظ علمه بعدم سماعها لكلامه لما لها عليه من الإدلال، فلا تصغي لما تسمعه منه، كما قالوا: ولد العالم وزوجته لا ينتفعان به عادة.

وأما حضور الأعراس فذلك مباح، وربما كان علىٰ زوجته مكافأة لصاحبة العرس، بأن حضرت عرسها لما زوجت ولدها مثلًا، فكافأتها بذلك الحضور، ولم يزل العلماء والصالحون يرسلون عيالهم إلىٰ بيوت أصحابهم في كلِّ أمر مهم من عرس أو عزاء أو غيرهما، فتهنيء أو تعزي كما يهنيء الرجال بعضهم بعضًا أو يعزون، ولم يبلغنا إنكار

أو سليمًا، فانطلق رجل منهم، فقرأ بفاتحة الكتاب علىٰ شاء، فبرأ، فجاء بالشاء إلىٰ أصحابه، فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت علىٰ كتاب الله أجرًا، حتىٰ قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله، أخذ علىٰ كتاب الله أجرًا. فقال رسول الله ﷺ: إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله» وابن ماجه (٥١٤٦) بنحوه، والبيهقي في «السنن» (١١٦٧٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ساقط من «ب».

أحد علىٰ حضور مثل ذلك إلا بعذر شرعي.

فاحمل يا أخي ذلك الشيخ الذي أرسل زوجته إلىٰ الواعظ أو العرس علىٰ أنه لولا وثق بدينها ما أرسلها، ولا تدخل بين الظفر واللحم فضولًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الطريق إذا تركا عندهما شيئًا من الدنيا دائمًا زائدًا عن حاجتهما، وسألهما فقير شيئًا منه، فلم يعطياه شيئًا، فلاث بهما الفقراء وقالوا: قد كان ﷺ لا يبيت علىٰ دينار ولا درهم، وإذا لم يجد من يقبل ذلك منه، لم يأوِ تلك الليلة إلىٰ منزله، بأن ما فعله هذا الشيخ أكمل في المقام، فإن في بني آدم جزءًا دائمًا يضطرب من هَمِّ الرزق لا يسكن إلا مع وجود شيء عنده في الدار، وتسكين ذلك الجزء الذي يضطرب أولىٰ من التصدق علىٰ الفقراء مع ذلك الاضطراب الذي ربما يؤدي إلىٰ تهمة الحقِّ تعالىٰ في رزقه وأنه تعالىٰ يضيعه.

وأما كونه ﷺ كان من شأنه أن لا يبيت عنده دينار ولا درهم، فإن ذلك تنهيضًا لهمة أمته، وكثرة فتوتهم وسخاوتهم علىٰ الفقراء والمساكين، وليس ذلك لخوفه ﷺ من فتنة الدنيا لعصمته وعدم اضطراب شيء من أجزاء يقينه اهتمامًا بأمر الرزق، بخلاف غيره، فلا يلزم أن يكون ذلك دليلًا. وقد خزَّن ﷺ لأهل بيته قوت سنتهم ليسكن ما عندهم من الجزء المضطرب، فاعلم ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إنما قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»[1] مع أن في ضمن ذلك خوف الاضطراب إيثارًا لإظهار الحاجة إلىٰ الله تعالىٰ صباحًا ومساءً الذي هو[2] أعظم أوصاف العبودية، فإن الغالب علىٰ الناس نسيان ربهم إذا وسَّع عليهم الدنيا، فدعا ﷺ لآله بما هو الأهم والأفضل. فتأمل ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥).

(٢) بالأصلين: اللذين هما.

(٣٩٣) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يلبس من شراميط[1] الكيمان[2] علىٰ بدنه وعلىٰ رأسه، ويرد ما جاءه من الثياب، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: لو لبس هذا قميصًا أو جبة مثل أبناء الفقراء، لكان أولىٰ من لباس الشهرة، بأنه ربما شاهد أهوال يوم القيامة وشدة الحساب، فخاف من تبعات الخلائق، فاختار خلاصه من ذلك بشراميط الكيمان التي رماها أهلها زهدًا فيها، فقدم هذا خلاص نفسه.

وأما كون لبس القميص ونحوه يكف عنه ألسنة الناس، فليس ذلك بعذر عنده، لأنهم مأمورون شرعًا أن يحملوا كلَّ مسلم علىٰ المحامل الحسنة، فاللوم عليهم لا علىٰ ذلك الفقير، ولم يزل الكلام الفضول يقع ممن لا يتورع في منطقه، حتىٰ إن لابس الشراميط لو أطاعهم ولبس الجبة مثلًا، فلابد أن الناس يعترضون عليه من وجه آخر وهكذا. فاحفظ يا أخي نفسك من الاعتراض إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا مات أحدهما ووجدوا بعده أموالًا كثيرة من ذهب وفضة وثياب وغير ذلك، مع أنه كان يقبل الزكاة، فلاث الناس به بسبب ذلك، بأنه قد تكون تلك الأموال والثياب جاءته من وجه فيه شبهة وردها علىٰ أهلها، فحلفوا أن لا يقبلوها، فوضعها عنده حتىٰ يموت وفوَّض أمرها إلىٰ الله تعالىٰ بعده يفعل فيها ما يشاء، فلا اعتراض علىٰ هذا الشيخ بسبب ذلك شرعًا. وأما كونه كان يقبل الزكاة، فيُحمَل علىٰ أنه من أحد الأصناف الثمانية، وما كان عنده من المال لا يراه دخل في ملكه حتىٰ ينفق علىٰ نفسه منه. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، فربما كان ذلك العالم أورع منك فرجًا ولسانًا ورجلًا، وأذنًا وعينًا وقلبًا، وإياك والدخول بين الظفر واللحم ظلمًا وعدوانًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا هجر أحدهما تلميذه

---

(١)شراميط: جمع «شرموطة»، وهي كلمة عامية تعني الثوب البالي الممزق.

(٢)الكيمان: جمع كوم، وهو كلُّ ما اجتمع وارتفع له رأسٌ من تراب أو رمل أو حجارة أو قمح أو نحو ذلك.

لكونه تركه واشتغل مع شيخ آخر، وتكدر لذلك ولاث الناس به، بأنه يجب حمله علىٰ محمل حسن، كأن رأىٰ عند نفسه من العلم ما ليس عند ذلك الشيخ الآخر، أو عرف من تلميذه سوء الخلق، فخاف من فتنة تقع بينه وبين ذلك الشيخ، فيمقته فلا يفلح، فقال: أنا أتحمل سوء خلق ذلك المريد عن أخي فلان ولا أمقته، بخلاف غيري. وهذا غرض صحيح لا يُمنَع الشيخ منه، فإياك أن تحمله علىٰ شيء من الأغراض النفسانية، فتقع في الإثم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينفخ بطون الولاة، أو يحبس بولهم بالحال أو الهمة أو باستخدام، ولاث العلماء به وقالوا: هذا شيء لم يفعله رسول الله ﷺ [ولا أحد من أصحابه والتابعين، وما لم يفعله رسول الله ﷺ][1] ولا كُمَّل أتباعه، ففعله مذموم، مع قاعدة تحريم أذىٰ الناس إلا بطريق شرعي، والنفخ وحبس البول ما هو طريق شرعي.

والجواب: أنه قد يكون هذا الشيخ ممن أعطاه الله تعالىٰ التصريف في الولاة بالتأديب والعزل، فيكون في ذلك عبدًا أذِن له سيدُه في تأديب عبدٍ آخر أساء الأدب علىٰ رعيته وظلمهم. وكان علىٰ هذا القدم سيدي إبراهيم الجعبري[2]، والشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي، وسيدي إبراهيم المتبولي، والشيخ محمد الشربيني، وليس هو لكلِّ وليٍّ إنما هو لأفراد منهم. وعلامة كونه مأذونًا له في ذلك أن يحمي نفسه بالحال من الولاة، فيتصرف فيهم ولا يقدر أحد منهم أن يتصرف فيه، إذ الحكّام عند الأولياء كالأطفال تحت حجر وليِّهم، مع أن من أرباب الأحوال من يقتل الظالم أصلًا فضلًا عن تأديبه بالنفخ ونحوه ثم يطلقه، ولكن ذلك حرام عند أهل الطريق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) إبراهيم بن عمر بن إبراهيم برهان الدين الرَّبَعي الجعبري الشافعي شيخ القراء. مولده في حدود: ٦٤٠هـ. ولي مشيخة حرم الخليل ﷺ، فأقام به بضعاً وأربعين سنة. له مصنفات منها: «نزهة البررة في القراءات العشرة» و«رسم التحديث في علم الحديث» وغيرها، توفي في شهر رمضان المعظم سنة: ٧٣٢هـ. «أعيان العصر وأعوان النصر» (١/ ١٠٣) و«شذرات الذهب» (٨/ ١٧١).

(٣٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يعرف اسم الله الأعظم [أو يسمع حديث الموتىٰ، فقالوا له: علِّمنا الاسم الأعظم][1] أو أسمعنا حديث الموتىٰ، فلم يجبهم إلىٰ ذلك، فلاث الناس به وقالوا: هو كذاب، بأنه ربما كان صادقًا فيما ادعاه، فإنه لا بد لكل وليٍّ من معرفة اسم الله الأعظم وسماع عذاب القبر ورؤية نعيمه، لأنه نوع من كرامات الأولياء، ولا يلزم من عدم تعليمهم الاسم الأعظم للناس جهلهم به، ولا من عدم إسماعهم عذاب القبر عدم صدقهم، لأن ذلك خاص تعليمه بأهل الأسرار المتمكنين، وما كلُّ أحدٍ يحتمل حمل السرِّ، ولذلك بخل العارفون بتعليم اسم الله الأعظم خوفًا أن يتصرفوا به في غير المحل المستحق له، كما وقع لبلعام بن باعوراء[2]. وقد سأل بعض العلماء ربه أن يعلمه اسمه الأعظم، فرأىٰ الباري جلَّ وعلا في منامه، فقال: إنك طلبتَ أن أعلمك اسمي الأعظم، وأنت لا تطيق القيام بحقِّ ذلك، فإني حليم علىٰ من عصاني، صبور علىٰ من آذاني، وأنت لو أعطيتك ذلك لم تحلم ولم تصبر. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك من حقِّ العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٨) ومما أجبتُ به عن الواعظ الذي جلس للوعظ بغير سؤال من الناس، فلاث به بعض المجادلين وقال: إن هذا الوعظ من أصله بدعة إلا في الخطب الواردة في الشريعة، فلو أن الناس سمعوا وعظ الخطيب كلَّ جمعة وعملوا به لكفاهم، ولكنهم لم يعولوا علىٰ العمل بما سمعوا، فإذا كان أحدهم لا ينتفع بالأمور المشروعة، فكيف ينتفع بالأمور التي لم تُشرَع؟

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الواعظ لأنه قائم بفرض كفاية، وليس هو بدعة، بل هو سنة كما جرىٰ عليه السلف والخلف. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يعظ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بلعم ويقال بلعام بن باعوراء بن شتوم بن قرشيم بن ماب بن لوط بن حران بن آزر. وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه. له ذكر في القرآن. قال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] قيل: بلعم، وقيل أمية بن أبي الصلت. انظر: «مختصر تاريخ دمشق» (٥/ ٢٤٦).

أصحابه ويخوفهم، ويأمر بعضهم أن يقرأ عليه القرآن، ويبكي في مجلسه ويدعو لهم. ولعل مراد من قال من السلف: إن القصص بدعة، أراد بذلك التسمية، فيقول: إنها ذكرىٰ ولا يقول: إنها قصصًا، لأن تسمية الوعظ ذكرىٰ هو الذي كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ.

وقد ورد أنه كان لعبد الله بن رواحة[١] مجلس علىٰ عهد رسول الله ﷺ يذكر الناس فيه إذا انصرف النبي كالمعيد لهم ما قاله رسول الله ﷺ، ولم يزل الأمر علىٰ ذلك من الخلفاء الراشدين إلىٰ وقتنا هذا. وثبت أن عمر بن الخطاب ﷺ أذن لتميم الداري[٢] أن يذكر الناس، وكان عمر بن الخطاب يجلس إليه في مجلسه ذلك. وكذلك ثبت أن عثمان بن عفان ﷺ أذن لكعب أن يذكر الناس. وثبت أن عمر بن الخطاب ﷺ بعث عبد الله بن مسعود إلىٰ أهل الكوفة ليذكرهم ويعلمهم أحكام دينهم، وبعث كذلك أبا هريرة إلىٰ البحرين والأمصار في جماعة يكثر تعدادهم، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق» فراجعه.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: كثرة الوعاظ مطلوبة الآن، لأن أوعية القلوب تخرقت، وصار كلُّ شيء سمعه العبد بأذن يخرج من الأذن الأخرىٰ، وصارت خطب الجمع والأعياد لا تكفيهم، فإياكم والإنكار علىٰ أحد من الوعاظ، بل اشكروه وقووا عزمه علىٰ ما هو فيه، فإنه ينفع المؤمنين.

وسمعتُه يقول: كلما أظلم الزمان بموت العلماء، طُولب الباقون بكثرة السرج العلمية، ليضيئوا علىٰ الناس بها، وما علىٰ الواعظ من نسيانهم وعظه إذا قاموا من مجلسه من شيء[٣].

---

(١) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البدري. شهد بدرًا، والعقبة. كان من كتاب الأنصار. قال أنس: كان ابن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه يقول: تعال نؤمن ساعة. استشهد في موقعة مؤتة (بأدنىٰ البلقاء من أرض الشام) سنة: ٨هـ. «السير» (١/ ٢٣٠)، «حلية الأولياء» (١/ ١١٨).

(٢) تميم الداري أبو رقية بن أوس بن خارجة اللخمي الفلسطيني. صاحب رسول الله ﷺ. وفد تميم الداري سنة ٩هـ فأسلم. كان عابدًا، تلاءً لكتاب الله. وهو أول من أسرج السراج بالمسجد. وكان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين. توفي: ٤٠هـ. «أسد الغابة» (١/ ٤٢٨)، «الإصابة» (١/ ٤٨٧).

(٣) بالأصلين: بشيء.

انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا درَّس أحدهما العلم طولَ عمره، وسلَّك المريدين طولَ عمره، فلم يحصل لأحد منهم علىٰ يديه نتاج، ولاث به الأقران وقالوا: هذا من فساد نيته، بأنه لا يلزم من عدم انتفاع أحد به فساد نيته وقصده، بل أجره موفَّر، فيعطيه الله تعالىٰ يوم القيامة مثل ثواب من انتفع به الناس، لأنه كان يودُّ الخير لجميعهم، ولكن لم يقسم الله تعالىٰ لهم علىٰ يديه انتفاعًا.

وقد يطَّلِع الشيخ من طريق كشفه علىٰ عدم عمل الطالب بما يسمعه منه، فيتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في محو ذلك من قلبه كلما علمه، شفقةً عليه من العذاب يوم القيامة. وقد ورد أن النبي يأتي يوم القيامة ومعه السواد الأعظم، ويأتي النبي ومعه العصابة، ويأتي النبي ومعه العشيرة، ويأتي النبي ومعه الثلاثة، ويأتي النبي وليس معه أحد[1]. انتهىٰ. ولا يجوز أن يُقال في حقِّ النبي الذي لم يتبعه أحد أن ذلك من فساد نيته، وكذلك القول في العلماء والصالحين.

وفي القرآن العظيم عن نوح عليه الصلاة والسلام قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ ٦] إلىٰ آخر النسق، فهذا نبي من أولي العزم لم تنفذ همته في هداية قومه، فسقط قول من يقول: لو كان الواعظ صادقًا لأثر وعظه في القلوب، فإنه لا أصدق من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد علمت تخلف غالب قومهم أو كلِّهم عن الإيمان بهم وبما جاؤوا به، فعُلِمَ أنه لا يجوز ازدراء العالم والمسلِّك إذا لم يُفتَح علىٰ أحد علىٰ يديهما، بل ذلك راجع إلىٰ القسمة الإلهية، فاحفظ لسانك يا أخي، فإن لحوم الأولياء سُمٌّ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٤١) من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلىٰ الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير. قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب...» ومسلم (٢٢٠).

(٤٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أنكر عليه جماعته وتفرقوا عنه، وصاروا يحطون [عليه](١)، ولاث الناس به وقالوا: **لو وجد أصحابه عنده خيرًا وصدقًا ما تفرقوا عنه،** بأن تفرقهم عنه دليل علىٰ عدم مداهنته لهم وأمرهم بما يخالف أهوائهم النفسانية التي تشغلهم عن الله تعالىٰ من تطليق نسائهم التي كلُّ واحدة منهن لا تستحق سف(٢) النُّخَالة(٣) حافًّا، وترك الوظائف التي لا يستحقون معلومها لعدم مباشرتهم لها بأنفسهم أو نائبهم ونحو ذلك، لأن طريق القوم **كلَّها جِدٌّ وجهادٌ لا صلح فيه**. وقد قال السيد عمر بن الخطاب ﷺ: ما تركت لي كلمة الحق من صديق.

وربما كان الشيخ الذي جماعته كثيرة أنقص مقامًا ممن فرت عنه جماعته، لكونه يداهنهم في دينهم ويوافقهم علىٰ أغراضهم، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك من الكلام والظن الفاسد، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا جاءهما زائر من إخوانهما، فلم يأذنا له في الدخول، فلاث بهما وتبعه الناس علىٰ ذلك وقالوا: ما كان ينبغي لهما ذلك، وحملوهما علىٰ التكبر، بأنه قد يكون أحدهما في أمرٍ أهم من مقابلة هذا الزائر، كأن يكون العالم في تحرير مسائل في العلم يحتاج الناس إليها، أو يكون الشيخ في حال جمعيته ومراقبته للحقِّ تعالىٰ، فإذا دخل ذلك الزائر، تبددت تلك المسائل من ذهن العالم، وتشتت قلب الشيخ من تلك الحضرة.

ومن علامة أن له عذرًا كونه لم يخرج لصلاة الجماعة ذلك الوقت، وفي القرآن العظيم: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[النور: ٢٨] فشيء شهد الحق تعالىٰ أنه أزكىٰ للعبد، فكيف يتكدر منه؟! والله ما هذا إلا قصور!

وقد أصاب العالم أو الشيخ الذي لم يأذن في الدخول لمثل هذا، فإن الزائر لله تعالىٰ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سَفَّ الشيء سَفًّا: تناوله يابسًا غير معجون.

(٣) النُّخَالَة: ما بقي من الشيء بعد نَخْلِه.

لا يدخل على المزور إلا السرور، وهذا ربما أدخل على زائره الغم وحمل الهم من تقطيع عرضه في المجالس الذي لم يأذن له، فكان عدم زيارة مثل هذا أفضل، فاعلم ذلك وإياك وسوء الظن، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أفطر عند ظالم في رمضان، فلاث به الناس، بأنه قد يكون ممن كُشِفَ له عن حِلِّ ذلك الطعام أو عن حرمته، ولكن قسمه الله تعالىٰ له تلك الليلة، وسأل الله تعالىٰ في دفعه عنه، فلم يجبه إلىٰ ذلك، فأكله ثم تاب، أو تقيأه بعد ذلك. وإن قال لنا: إن الحرام لا يؤثر فيَّ؛ كذبناه.

[أثر اللقمة الحرام فيمن يتناولها]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من شرط كلِّ ولي أن يكون أبعد الناس عن الحرام والشبهات، ولكن قد يقسم الله تعالىٰ له الحرام لحكمة يطلعه عليها، فيسلم لله ويأكل ثم يتقيأه ويستغفر، وكلُّ من قال: إن الحرام لا يؤثر فيَّ؛ كذبناه، لأنه خَرَقَ إجماعَ القوم، فقد أجمعوا علىٰ أن **للقمة الحرام أثرًا في كلِّ شخص بما يناسب مقامه،** فأثرها في العوام وقوعهم في أعمال مذمومة لم يكن لهم فعلها عادة، وأثرها في طلبة العلم والمريدين قساوة في القلب وثقل في الطبيعة، وأثرها في المتوسطين في الطريق غفلتهم عما يعود عليهم نفعه من أعمال الدارين، وأثرها في الكاملين كثرة الخواطر التي لا منفعة فيها، وأثرها في الأكملين منعهم من دخول قلوبهم حضرة الله عزَّ وجلَّ في صلاة أو غيرها، وأثرها فيمن هو أعلىٰ من ذلك أمور يذوقونها[1]. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن الأشياخ منهم المعافىٰ ومنهم المبتلىٰ، ولكن جرت سنة الله تعالىٰ في حفظ أوليائه عن أكل الحرام والشبهات من طريق الكشف أو العلامات، فمنهم من تتعب[2] نفسه

(١) بالأصلين: يدومونها. والمثبت من «الأخلاق المتبولية» للمصنف. والقول فيها منسوب لسيدي إبراهيم المتبولي، من أول قوله: «إن للقمة الحرام أثرًا في كلِّ شخص بما يناسب مقامه... إلخ».

(٢) بالأصلين: تلعب. والمثبت من «الأخلاق المتبولية» للمصنف.

إذا أكل شيئًا فيه حرام، فيلقيه لوقته؛ ومنهم من تحصل له ظلمة في باطنه، فيلقيه في الحال؛ ومنهم من يحصل له أوجاع، فيلقيه لوقته. ويقع لي ذلك كثيرًا في ضيافة الفلاحين، وفي طعام المباشرين، وفي لبن الجاموس، لكونه لا ينضبط في العادة علىٰ الرعي من زرع صاحبه.

وكان سيدي علي الخواص ﷺ يقول: ينبغي لكلِّ فقير من هذا الزمان إذا حضر بين يديه طعام أن يقول بتوجه تام: اللهم إن كان فيه شبهة، فاحمني من أكله، فإن لم تحمني منه، فلا تجعله يقيم في بطني لحظة، وإن جعلته يقيم في بطني، فاحمني من الوقوع في المعاصي التي تنشأ منه عادة، فإن لم تحمني من المعاصي، فتب عليَّ، فإن لم تتب عليَّ فاعف عني، فإن لم تعف عني، فصبرني علىٰ العذاب يا أرحم الراحمين. والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بات عنده ضيف في رمضان، فأخرج له كسرة يابسة فقط، مع قدرته علىٰ التوسعة علىٰ الضيف، فأصبح الضيف يلوث به بين الناس، بأنه قد يكون فعل ذلك محبةً في حصول الأجر له، واعتقادًا فيه أنه يحب من يفعل معه ذلك أيام الصوم، كما عليه طائفة الفقراء، فيكرهون من يخرج له طعامًا كثيرًا في رمضان، فظنَّ هذا أن ذلك من الفقراء، فخاب ظنه فيه، فهو معذور، لأنه لم يفعل ذلك بخلًا، بل بنية صالحة، فلا حرج عليه في ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأكل من طعام الولاة، ولا يأكل من طعام العُبَّاد والزهاد، فلاث الناس به وقالوا: لو عكس الأمر لكان أولىٰ له، ولكن غالب الناس قد صار اليوم أعمىٰ القلب، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار حتىٰ يُسأل ذلك الشيخ عن حكمة ذلك، فربما كان طعام ذلك الأمير أتاه من وجه حلٍّ علىٰ يد ذلك الشيخ، كأن أهدىٰ شخص من أصحاب الشيخ لذلك الأمير خروفًا ولبنًا وأرزًا، فطبخه الأمير ذلك اليوم ودعا الشيخ إلىٰ الأكل منه.

وقد يكون طعام ذلك الزاهد أو العابد أتاه من وجه حرام، فقبله من صاحبه من غير تفتيش. وقد يكون ذلك إنما أهداه الناس له لاعتقادهم فيه الصلاح، فهو أخبث من مال

الأمير، لأن الأمير يأكل بجعالته[1] مثلاً، والعابد يأكل بدينه. فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، ولا تبادر للاعتراض وتقول: قد كسر الشيخ بخاطر ذلك العابد، فإن جبر الخاطر لا يكون إلا إذا كان الطعام لا شبهة ولا منَّة ولا مكافأة ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا دخل علىٰ عالم يعوده في مرضه، وقالوا له: ادع له بالشفاء، فأبىٰ فلاث الناس به، وقالوا له: إذا لم تدع له، فلأي شيء جئت؟! بأن هذا الشيخ ربما امتنع من الدعاء بحقٍّ، وذلك أن المرض يكون علىٰ ثلاثة أقسام لا رابع لها: إما عقوبة، وإما كفارة، وإما رفع درجات، فإن كان عقوبة، فلا ينبغي الدعاء إلا إذا بلغت العقوبة حدَّها وأشرفت علىٰ الختام، كما سبق به العلم الإلهيُّ، وكما يشفع ﷺ يوم القيامة فيمن حقَّ عليه دخول النار من عصاة الموحدين، فإنه لا يشفع فيهم إلا إن علم أن العقوبة قد أشرفت علىٰ الفراغ؛ وإن كان المرض كفارة لذنوب ذلك المريض، فلا ينبغي سؤال الشفاء منه قطعًا، فيحتاج العائد للمريض إلىٰ كشف أو فراسة، ليعلم ذلك المرض أي الأقسام. قالوا: ومن علامة العقوبة أن يكون المريض كثير الضجر والقلق والسخط لا صبر عنده. ومن علامة الكفارة أن يصحبه الصبر، وهو عدم الضجر. ومن علامة رفع الدرجات التلذذ به، وانشراح الصدر لدوامه، وكراهة الشفاء منه.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي امتنع من الدعاء للمريض علىٰ أنه رآه في أحد هذه الأقسام، [كأن] لم تشرف العقوبة علىٰ الفراغ. وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يدعو للمريض بالشفاء من باب المنة والفضل وينصرف، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يتحمل عن المريض مرضه، ويلوث به طلبة العلم ويقولون: لا يخلو إما أن يكون ذلك المريض قدَّر الله تعالىٰ له مدةً، فلا يصح لأحد أن ينقص منها لحظة، ولا أن ينتقل عنه إلىٰ غيره؛ وإن كان لم يقدره علىٰ

---

(١) الجَعَالَةُ : ما يُجْعلُ علىٰ العمل من أجرٍ.

ذلك المريض، فما حمل هذا الشيخ عنه شيئًا، إنما هي أوهام.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه قد يريد بالتحمل عن المريض ما لم يقدره الله تعالىٰ عليه حقيقةً، من باب النية الصالحة وتعليق الأسباب علىٰ مسبباتها، كمن رأىٰ حجرًا نازلًا علىٰ شخص رماه به أعداؤه، فتلقاه عنه، فصار ذلك الشخص يشكر فضل من تلقاه عنه، ويحبه أشدَّ المحبة، ولو أنك قلت له: إن فلانًا لم يحمل عنك الحجر، لا يلتفت إليك.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: لا يصح لأحد أن يتحمل عن أحد ما قدَّره الله تعالىٰ عليه أبدًا، وما تحمله العابد عن المريض ليس هو عين مرض المريض، وإنما ذلك نظيره إن وقع أنه مرض حين ادعىٰ تحمله، وإن لم يمرض أُجِر علىٰ ذلك بالنية الصالحة، كما يؤجر من عزم علىٰ فعل خير فلم يقسم له، فيعطيه الله أجر نيته، قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوىٰ»[1] لم يقل: وإنما لكل امريء ما عمل، فافهم، والله أعلم.

(٤٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال له شخص: ادع الله لي أن يقسم لي الطاعات التي تستغرق عمري ليلًا ونهارًا، فأبىٰ ولم يدع له، فلاث به بعض الناس بسبب ذلك وقالوا: هذا سؤال مطلوب شرعًا، فكيف يتركه هذا الشيخ؟! ما هذا إلا لجهله بالشريعة! بأنه قد يكون ترك دعاءه له بذلك خوفًا عليه من رؤية نفسه بذلك علىٰ الناس، فاحتاط له، وقد سأل ثعلبة رسول الله ﷺ أن الله تعالىٰ يكثر ماله فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأعاد السؤال ثانيًا وثالثًا ورسول الله ﷺ يعرض عنه، ثم قال له: «يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيق القيام بشكره» فأبىٰ إلا أن رسول الله ﷺ يدعو له بكثرة المال، فقال ﷺ: «اللهم أكثر ماله» فلما كثر ماله، ترك صلاة الجماعة، ثم ترك صلاة الجمعة، ثم منع الزكاة، وقال لرسل رسول الله ﷺ: ما هذه إلا أخت الجزية! فأنزل الله تعالىٰ في شأنه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَـئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]، فلما أخبره بما أنزله الله في شأنه، أتىٰ بصدقته فلم يقبلها منه رسول الله ﷺ، فلما توفي ﷺ جاء بها إلىٰ أبي بكر فلم يقبلها، فلما توفي جاء بها إلىٰ عمر، فلم يقبلها، وتوفي في خلافة عثمان[1]. نسأل الله العافية، فكما خاف ﷺ علىٰ ثعلبة من الدعاء له بما طلب من حيثُ عاقبتُه، كذلك خاف هذا الشيخ علىٰ من سأله الدعاء له بكثرة الطاعات، فقل من تتوالىٰ عليه الطاعات ليلًا ونهارًا إلا ويرىٰ نفسه علىٰ إخوانه.

وقد كان سيدي علي الخواص إذا سأله إنسان أنه يدعو له بكثرة الصيام والقيام وتوالي الطاعات يقول: اللهم إن كان في ذلك خيرًا له، فأعطه ذلك، وإلا فاصرفه عنه. ويقول: إن الطاعات لها طغيان كطغيان المال.

[تعديل المؤلف بعض عهود «البحر المورود» بطلب من الشيخ شهاب الدين الحنفيّ]

ومما وقع أنني قلتُ في «العهود»: «أُخذ علينا العهود أن لا نطلب من الله تعالىٰ كثرة الطاعات» فرأىٰ ذلك الشيخ العالم الصالح الشيخ شهاب الدين ابن الجلبي الحنفي،فأتىٰ وقال: مقصودي ترفعون هذا العهد من الكتاب، فإن كثرة الطاعات مطلوبة شرعًا؛ فأطلعته علىٰ مرادي، فقال: قيِّد ذلك. فقلتُ: «إلا بشرط السلامة من الآفات التي تطرق المطيعين من الإعجاب ونحوه» فارتضىٰ مني ذلك رحمه الله.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: يجب علىٰ العبد الرضا باليسير من الرزق، ومن لم يقدر علىٰ القيام بشكر قليل النعمة، فهو بكثيرها أعجز. انتهىٰ، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والمشايخ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال: الحمد لله الذي نمتُ عن وردي في هذه الليلة؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يحمد الله علىٰ عدم وقوفه بين يدي الله تعالىٰ في الموكب

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٤٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٧٣).

الإلهيّ في وقت يقول الله فيه: «هل من سائل فأعطيه سؤله؟ هل من [مبتلىٰ][١] فأعافيه؟ هل من مستغفر فاغفر له» ما هذا إلا من الجهل المبين، بأنه قد يريد الحمد علىٰ ذلك من حيث العافيةُ بقطع النظر عن وقوفه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فإنه لولا العافية ما نام تلك الليلة.

وقد يكون الباعث له علىٰ الحمد المذكور شهوده قذارة نفسه ذاتًا وصفات، فغار علىٰ أهل ذلك الموكب أن يقف مثله في صفوفهم، حياءً منهم وتعظيمًا لحضرة الله تعالىٰ أن يقف فيها بين يديه وهو متلطخ بالمعاصي والرذائل، كما مر إيضاحُه أول الباب.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يقول: إذا فاتك قيام الليل، فاشكر الله علىٰ العافية حتىٰ لا يفوتك الأجر من جميع الوجوه. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا زار من اشتُهر بالسحر مثلًا وسأله الدعاء، ولاث به الناس وقالوا: مثل هذا لا ينبغي للعلماء والصالحين زيارته، لأن فيه إضلالًا للعوام، ويقولون: لولا أنه رجل عظيم ما زاره العلماء وأهل الصلاح، بأن ذلك العالم أو الشيخ قد يكون ممن غلب عليه حسن الظن بالمسلمين ورؤية محاسنهم دون مساوئهم، أو لم يبلغه سوء عن ذلك الشخص أبدًا، وإنما بلغه أنه من الصالحين، فزاره بتلك النية، فلا ينبغي الإنكار علىٰ مثل هذين الشيخين إلا بعد إعلامهما بما يترتب علىٰ زيارتهما من إضلال العامة. وكان من ذلك جوابي عن سيدي الشيخ ناصر الدين الطبلاوي[٢]، والشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني[٣] حين زارا شخصًا مشهورًا

---

(١) ساقط من الأصل، مستكمل من «الجواهر والدرر» للمصنف.

(٢) محمد بن سالم بن علي الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام، بقية السلف الكرام الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي، أحد العلماء الأفراد بمصر. كان ﷺ مشهورًا في مصر برؤية رسول الله ﷺ وأقبل عليه الخلائق إقبالًا كثيرًا بسبب ذلك، فأشار عليه بعض الأولياء بإخفاء ذلك، فأخفاه. له مصنفات منها: «بداية القاري في ختم صحيح البخاري» توفي: عاشر جمادىٰ الآخرة ٩٦٦هـ ودفن في حوش الإمام الشافعي ﷺ. «الكواكب السائرة» (٢/ ٣٣)، «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٠٦).

(٣) محمد الخطيب شمس الدين الشربيني القاهري الشافعي. انتفع به خلائق لا يحصون، وأجمع أهل

بالنصب، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا كان عليه ثياب بيض مبخرة يوم الجمعة، فنزعها وخرج للجمعة في ثياب دنسة سود، فلاث الناس به وقالوا: هذا مخالف لما ثبت في السنة، بأنه قد يكون له عذر في ذلك، كأن كان مديونًا ولا يجد له وفاء، أو علم أن عدوه يحضر ذلك الجامع وخاف منه أن يتحرك عنده الحسد والعداوة زيادة علىٰ ما كان عليه، فإن أصعب ما علىٰ العدو رؤيته لعدوه وهو لابس ثيابًا نفيسة مبخرة، ولا يخفىٰ أن السنة إذا كان في طريقها أمر محرم يكون تركها أولىٰ ولو كان المحرم مظنونًا وقوعه. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إلا بعد أن تستفهم عن ذلك الفعل.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: تخلقوا بالرحمة علىٰ عدوكم، واطلبوا من الله تعالىٰ أن يمنَّ عليه بتخفيف العداوة والشحناء من حيثُ ارتكابُه الإثم بسببكم، فلا تطلبوا الزيادة عليه من العداوة بلبسكم الثياب المبخرة، وصحبتكم مع الناس إذا مررتم عليه، فتهلكوه أو تدخلوا عليه الغم والكمد. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٤١١) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا دُعي إلىٰ حضور في ختم درس أو عقد مجلس، فلم يحضر، فلاث به الناس وقالوا: لو حضره لازداد به علمًا، ولكنه شخص متكبر يحب الرياسة، وما وجد له رياسة في مثل مجالس العلماء، لكونهم أكثر علمًا منه ونحو ذلك، بأنه قد يكون يعلم من نفسه عدم القدرة علىٰ كتمانه ما يقع من الحاضرين من الغلط مثلًا في ذلك المجلس، وإذا كان في طريق السنة وقوع في محرم كان الأولىٰ تركه فضلًا عن البدعة. وغالب من يحضر مثل هذه المجالس يصير حكويًّا لما وقع فيه فيقول: فلان غلط، وفلان أراد الجلوس في صدر الحلقة فأخروه لأنه ما هو مقامه، وفلان رد علىٰ الشيخ بحق، وفلان لم يتكلم كلمةً لخبث باطنه، وفلان زجره فلان،

مصر صلاحه ووصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكثرة النسك والعبادة، له مصنفات منها: «السراج المنير» في التفسير و«الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع» توفي: ٩٧٧هـ. «الكواكب السائرة» (٣/ ٧٢) و«شذرات الذهب» (١٠/ ٥٦١).

ونحو ذلك، فليس ترك ذلك الشيخ الحضور محبة في الرياسة، ولا لتكبره، ولا لدعواه الغنىٰ عن علم العلماء، ولا التنقيص لمن دعاه لحضور الختم، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا كان له عدو يؤذيه ويبالغ في إيذائه، ويشرب الخمر ويفسق، فمات فحزن الشيخ عليه وقال: مات من كان يحصل لنا الأجر والثواب بصبرنا عليه؛ فلاث به فقير وقال: لأجل حصول الثواب لك بالصبر تحب أن عدوك يعصي الله تعالىٰ! فقال: كيف؟! فقال: حزنك علىٰ موته من لازمه محبتك لعصيانه، بأن هذا الشيخ لم يقصد ذلك ولم يخطر له علىٰ بال، وإنما خطر في قلبه حصول الثواب بسبب حياته لا غير، بقطع النظر عن سبب حصول الأجر، ولا يؤاخذ الشخص إلا بما فعل، فكان في حزنه عليه إعلامنا بما أنعم الله تعالىٰ به عليه من جهة تحمله الأذىٰ من عدوه، لا إعلامنا بمحبته لإقامته بالمعصية، فافهم والله أعلم.

(٤١٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا قال لنقيبه: لا ترد شيئًا قط يعطيه الوزير فلان، أو المحتسب للفقراء أبدًا؛ فسمعه شخص من طلبة العلم، فلاث به وهتكه في المجالس وصار يقول: هؤلاء كلهم نصَّابون يأكلون الحرام، وقد سمعته بأذني يقول: كذا وكذا، لا حدثنا ولا أخبرنا[1]، بأنه قد يكون خاف من عداوة ذلك الأمير أو المحتسب إذا ردَّ هديته ويصير يعارضه في الشفاعات، ولا يقبل له شفاعة في مظلوم، لما هو عليه من شدة البأس، وكبر النفس، وضعف الاعتقاد.

ثم إنه لا يلزم من قول الشيخ للنقيب: «لا ترد من فلان شيئًا» أنه يأكل منه أو يطعمه لجماعته، فقد يرسله لمن هو محتاج إليه من الفقراء والمساكين. وقد فعلتُ مثل ذلك في ضحية أرسلها لي بعض الكشَّاف، فذبحتها وفرقتها علىٰ الكلاب، فاحمل يا أخي الفقراء علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يريد بقوله: «لا حدثنا ولا أخبرنا» التأكيد علىٰ كونه سمع بأذنه دون واسطة.

(٤١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا طلب أحد من طلبة العلم صحبته، فقال له: اترك العلم وأنا أصحبك؛ فلاث به وصار يقول: كيف يأمرني فلان بترك الاشتغال بالعلم الذي يقرب إلىٰ الله بإجماع، ويحفظ الشريعة عن الضياع؟! بأنه قد يكون اطلع من طريق كشفه علىٰ عدم إخلاص ذلك الطالب في علمه، فأراد له الوقوف عن زيادة العلم حتىٰ يداويه من ذلك الرياء، وإلا فكلٌّ من شمَّ رائحة طريق القوم يعلم أن سداها ولحمتها شريعة، فكيف يأمر الطالب بتركها؟!

وقد قال لي السيد الشريف يوسف بجامع الأزهر ﷺ: دخلتُ يومًا علىٰ سيدي عليٍّ المرصفي ﷺ، فسألته الصحبة، فقال لي: اترك دروسك كلَّها في العلم وتعال؛ فنفرت نفسي منه، فقال لي: يا ولدي، إنما طلبتُ بذلك مداواتَك بكثرة ذكر الله تعالىٰ حتىٰ ينجلي باطنك، وتشهد أن العلم كلَّه لله لا لك، وكذلك جميع أعمالك الصالحة، فتصير تضيف ذلك إلىٰ الله تعالىٰ، وتستحيي منه أن تضيف منه شيئًا لنفسك، فتخرج عن الشرك في علمك وعملك، وعن الرياء جملة؛ فيا ليتني أطعتُ الشيخ! انتهىٰ. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أشياخ الطريق إلا بعد أن تستفهمهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناهما يباسطان شربة الخمر، وأصحاب المكوس ونحوهما من أرباب المعاصي، ولاث الناس بهما بسبب ذلك وقالوا: الواجب علىٰ هؤلاء العلماء والأشياخ هجر مثل هؤلاء تقبيحًا لأفعالهم، لا إيناسهم بالكلام الحلو ومباسطتهم، بأن ذلك العالم أو الشيخ قد يريدان بذلك تأليفهم علىٰ الميل إليهما، لينصحاهم، فيقبلوا نصحهما.

وقد يكون ذلك العالم يرىٰ ذلك المكَّاس أخف ظلمًا من غيره، وطلب منه الولاة أن يزيد في الجباية[1]، فصار ذلك العالم يباسطه ويأمره بعدم الوقوع في الزيادة. وقد يكون ذلك العالم أيضًا يرىٰ هجر ذلك الظالم ليس هو لله، وإنما ذلك لحظ نفس، وكان علىٰ ذلك الشيخ عبد العزيز الديريني فكان يقول: كلامنا للعصاة وتقويم عوجهم أولىٰ

(١) بالأصلين: جهة.

من هجرهم، وإنما يليق الهجر بالعلماء الأكابر الغوَّاصين على دقائق النفوس. انتهىٰ.

وأيضًا فربما كان أحدهم يرىٰ أخاه علىٰ بعض الرذائل ليلًا ونهارًا فلا يهجره، فلما وقع بينه وبينه أظهر فيه العُجَر والبُجَر[1]، وهجره وزعم أن هجرته لله، والحال أنها لحظ نفس. فحرر يا أخي سبب إنكارك، ثم أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا صاحب صاحبه أحدًا من المشهورين بالفساد، فلم ينهه عن مثل ذلك، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا غش للصاحب، والنصح من الإيمان، بأنه ربما كان ذلك العالم أو الشيخ يعرف من صاحبه الصدق والصلاح، ولولا أن ذلك الشخص المشهور بالفساد صالح ما صحبه، أو يكون ذلك الشخص من أهل الفساد حقيقةً وصحبه صاحبه ليبغضه في طريق الفساد. ومن كان يعتقد مثل ذلك، فليس له هجر صاحبه، لعدم السبب الموجب للهجرة.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: إذا صاحب صاحبك الذي هو صالح عندك أحدًا من الأشرار، فلا تتكدر منه، بل احمل ذلك الشرير علىٰ الصلاح، واجعل إشاعة الشر عنه لا حقيقة لها، بل هي من إشاعة الحسدة والأعداء، كما هو الغالب من الناس. انتهىٰ. فاعلم ذلك، ولا تنكر إلا ما تحققتَه بطريقه الشرعيِّ، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي دخل علىٰ عالم يزوره وقال: لولا أخاف أن نفسه تزداد كبرًا، لقبلتُ رجله بحضرة تلامذته، لأزيدهم اعتقادًا فيه، ولكن لي العذر في ذلك؛ فلاث به الفقراء وقالوا: ولأي شيء تسيء الظن بالعلماء وتجعلهم يتكبرون بتقبيل الناس أيديهم أو أرجلهم، ولم لا فعلت أنت الأدب معه وأحسنت به الظن؟!

والجواب: أنه يُحتمَل أن الفقير ترك تقبيل رجل العالم احتياطًا له، لا تحقيقًا لسوء الظن به، فرأىٰ تخليصه من شهود رؤية نفسه أولىٰ من طلب زيادة اعتقاد الطلبة. وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقبل رجل العالم، ويسأل الله تعالىٰ له

(١) بالأصلين: العجز والضجر.

أن يحفظه من رؤية نفسه بسبب ذلك.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من ترك الفقير تقبيل رجل العالم سوء الظن به، وإنما عامله معاملة من يسيء به الظن من غير سوء ظن، وذلك لا يقدح في الفقير، وعليه يحمل حديث: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[1] أي عاملوهم معاملة من يسيء بهم الظن من غير أن يسيء بهم الظن، لأن سوء الظن لم يأمرنا به الشرع، والله أعلم.

(٤١٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سأله أحد عن مسألة في الدين، فلم يجبه عنها مع معرفته بها، فلاث به السائل وقال: «من كتم علمًا أُلجِم بلجام من نار يوم القيامة»[2]، بأنه قد يكون ذلك الإنسان سأل الشيخ عن تلك المسألة وقلبه غافل عن الله وعن العمل بها وعن الشيخ، **والأشياخ لا يجيبون من يطلب العلم مع الغفلة**، فأراد الشيخ بذلك تعليم ذلك السائل الأدب، وإلا فهو يعلم أن العبد ربما خاطب ربَّه في الصلاة وهو غائب عن شهوده تعالىٰ ويحلم تعالىٰ عليه، فما قال الشيخ للمريد: «لا تسألني إلا وأنت مستحضر لي» حبًا للتبختر والرياسة، وإنما ذلك ليدمنه علىٰ الحضور مع الله تعالىٰ إذا خاطبه، فافهم واعرف مصطلح القوم، ثم بعد ذلك أنكر ما خالف الشرع، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا سأله فقير شيئًا، وألح عليه فازداد عليه قساوة[3]، فلاث الناس به وقالوا: من شأن الفقراء أن يعطوا المحتاجين بلا سؤال، فكيف يمنعهم هذا بعد السؤال؟! ما هذا إلا خروج عن آداب أهل الطريق! بأنه لا يلزم من منعه أن يكون ذلك بخلًا، فقد يكون الشيخ إنما منعه لحكمة، إما ليخلصه من الاعتماد علىٰ الناس دون الله، أو لكون الشيخ كُشِفَ له أن ذلك الذي سأله فيه ليس هو من رزقه، أو رأىٰ عنده تكبرًا عنده السؤال لحظِّ نفس، فأراد أن يذل نفسه ونحو ذلك، ولا يخفىٰ أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦٦).

(٣) بالأصلين: فساده. والمثبت هو الأليق بالسياق.

قلوب الفقراء أرقُّ من قلوب غيرهم، فلا يقسون علىٰ أحد إلا لحكمة. وقد سُئل الحسن البصري: إذا كثُر السائلون لنا فبمن نبدأ؟ فقال: بمن يرق قلبكم عليه أكثر. انتهىٰ، فإياك والاعتراض وحمل الفقراء علىٰ البخل، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا تردد إلىٰ أماكن الروافض وجالسهم وباسطهم، فلاث الناس به وقالوا: فلان يميل إلىٰ مذهب الروافض، بأنه ربما تردد إليهم ليسارقهم بفضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعلمهم أن لمحبة أهل البيت حدًّا لا يتعدونه إلىٰ عداوة أحد من الصحابة، وأن من تعدَّىٰ إلىٰ ذلك فهو مخطيء، سواء كان أولئك الروافض يصرحون بالسب أو يخفونه عن غيرهم. ولا يلزم من إظهار العالم المحبة لخدَّام أهل البيت أن يكون رافضيًا، ولكن الورع في المنطق لم يزل في كلِّ عصر أعزَّ من الكبريت الأحمر. وكان الإمام الشافعي يعظِّم أهل البيت كثيرًا، فلاث به بعض الناس، فأنشد:

إن كان رفضًا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وكذلك أُخرِجَ الإمام البخاري من مدينة بخارىٰ بسبب ما قصَّه في حب أهل البيت[1].

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يحب أهل البيت وخدَّامهم، بل الواجب عليك أن تشهد له بصدق المحبة لرسول الله ﷺ، إلا أن يظهر منه ما يخالف ظاهر الشريعة. وقد تردد إليَّ بعضُ الروافض الذين كانوا يسبُّون معاوية وعمرو بن العاص، فلا زلتُ بهم حتىٰ ترضوا عنهما، فالحمد لله رب العالمين.

(١) المعروف أن خروج الإمام البخاري من نيسابور بسبب محمد بن يحيىٰ الذهلي، وذلك لما رأىٰ «إقبال الناس إليه، واجتماعهم عليه فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق، فامتحنوه في المجلس. فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أم غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه، فقال الرجل: يا أبا عبد الله فأعاد عليه القول، فأعرض عنه ثم قال في الثالثة، فالتفت إليه البخاري وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة. فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله». سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١١).

(٤٢١) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا أوصىٰ زوجته أن لا تتزوج أحدًا بعده، فلاث به الناس وقالوا: لا يخلو إما أن يكون كُشِفَ له أنها تتزوج بعده، فلا فائدة لوصيته لها، وإما أن يكون كُشِفَ له أنها لا تتزوج بعده، فلا فائدة لوصيتها، مع سوء أدبه مع الشارع ﷺ في مزاحمته له فيما خصَّه الله تعالىٰ به من النهي عن نكاح زوجاته من بعده، ولو أن ذلك ينبغي لغيره ﷺ، لمنع الصحابة من تزويج نساء أبي بكر وعمر وبقية العشرة المشهود لهم بالجنة.

والجواب: أن ذلك لا يقع إلا من أرباب الأحوال دون الكاملين. ومعلوم أن **أرباب الأحوال حكمهم حكم المجاذيب الذين لا تكليف عليهم**، وهم كجلبان السلطان الذين يُكرَمون لأجل حرمة السلطان لا لفضيلتهم.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: إياكم أن تتزوجوا زوجة مجذوب مات عنها أو جُذِبَ وهي في عصمته، فربما قتلوا الزوجة أو الزوج أو هما معًا، كما وقع لسيدي محمد الشويمي[1] وسيدي بهاء الدين[2]، فالعمدة في ذلك علىٰ التجربة لا علىٰ دليل ورد عن الشارع. وقد قالوا لسيدي محمد المغربي شيخ الجلال السيوطي: هل تمنع من يتزوج عيالك من بعدك؟ فقال: لا، ذلك خصيص برسول الله ﷺ. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والإنكار إلا بطريق شرعيٍّ، لتكون في حماية الشارع، **فإن أرباب الأحوال لا يعطبون إلا من أنكر عليهم تعصبًا لا نصرةً للشريعة. أما المستندون للشريعة فليس لأحد من أرباب الأحوال قدرة علىٰ التأثير في أحد منهم، أدبًا مع الشارع ﷺ**، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) محمد الشويمي ﷺ، كان من أرباب الأحوال العظيمة، وهو أحد المجاذيب المقيمين عند الشيخ مدين، قال السخاوي: كان من قدماء أصحابه ممن زرته ودعا لي بالمغفرة عقب رجوعه من الحج، مات في ذي القعدة سنة ٨٦٧هـ. «الضوء اللامع» (١٠/ ١٢٣)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٩١).

(٢) بهاء الدين المجذوب، كان من أكابر العارفين، وكان كشفه لا يخطيء، ومكاشفاته مشهورة بين الأكابر بمصر وعامة الناس، مات رحمه الله سنة نيف وعشرين وتسعمائة، وهو مدفون بالقرب من باب الشعرية بزاويته. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٢٥).

(٤٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال له مريد: يا سيدي، خذ عليَّ العهد أنني ما عدتُ أعصي الله تعالىٰ في المستقبل أبدًا؛ [فأبىٰ][1]، فلاث الناس به وقالوا: كيف يطلب منه شخص أن يعزم أنه ما عاد يعصي الله عزَّ وجلَّ، فيأبىٰ؟! هذا خروج عن الطريق، بأن ما فعله الشيخ أولىٰ مع هذا الطريق، فقد يكون كُشِفَ للشيخ أن ذلك المريد نقض عهد شيخه، ثم جاء يريد نقض عهد الشيخ الثاني، وأنه لا يخلو إما أن يكون الله تعالىٰ قدَّر علىٰ المريد المعصية بعد أخذ العهد عليه أم لا، فإن كان قدَّرها عليه ثم وقع فيها، كان عليه إثمان: إثم من جهة وقوعه في المعصية، وإثم من حيثُ نقضُه العهد. ولو أنه لم يأخذ عليه العهد بترك تلك المعصية، لكان عليه إثم واحد، وهو فعل المعصية. وأما إن كان الحقُّ تعالىٰ لم يقدِّر عليه معصية، فلا فائدة للعهد، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي تَلْمَذ لشخص لا يصلح أن يكون تلميذًا له، ولاث به الناس وقالوا: إنما فعل الشيخ ذلك استهزءًا بهذا الفقير، والاستهزاء لا يليق بأهل الطريق.

والجواب: أن ذلك قد لا يكون استهزاءً به، وإنما علم الشيخ بالقرائن كبر نفس ذلك الفقير وحبه للمشيخة، وعدم انكباس نفسه أنه يتلمذ لأحد من أقرانه، وما وجد هذا الشيخ طريقًا إلىٰ إرشاده إلا بأن يتلمذ له ظاهرًا، أو يصير يسأله سؤال جاهل بالطريق، ثم يقول له: الذي فهمتُه كذا وكذا، فهل ذلك صحيح أم لا؟ فيستفيد ذلك المتمشيخ الحكم، ولا يشعر به أحد. وهذه طريق دقيقة لا يعرفها كلُّ أحد، وهي من أعظم طرق السياسة. وكان أخي أفضل الدين يفعلها كثيرًا مع المتمشيخين. فعُلِمَ أن تلمذ الشيخ لهذا المريد لم يكن استهزاءً، وإنما هو رحمة به، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أذن لمريده بلبس الصوف قبل خمود بشريته،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فلاث الناس به وقالوا: هذا خلاف ما درج عليه الأشياخ المتقدمون، بأنه قد يكون ألبسه الصوف حين كُوشِف بحاله، وأنه سيصير من الفقراء الصادقين وراثة محمدية، فقد ورد أنه ﷺ كان نبيًّا قبل أن يُخلق آدم عليه الصلاة والسلام[1]. انتهىٰ. فقد يكون هذا الشيخ لما تحقق أنه لا بد أن يبلغ مقام الكمال، قدَّم الخلعة علىٰ الولاية، من باب التعبير بالماضي عن المستقبل المحقَّق الحصول، فلا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ في مثل ذلك.

كما أنه قد يأذن للمريد في تربية المريدين قبل موته، ليكون معه الإذن في التربية إذا بلغ بعد موت أستاذه مقام الكمال، لئلا يكون دعيًّا في الطريق لا أب له، فيلوث الناس به ويقولون: من أجلسك؟ من أذن لك؟

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يلقن الشيخ المريد، فلا يظهر له شأن إلا بعد موته، فربما وقع له إذن من شيخ بعد موت شيخه، فيظن الناس أنه خليفة الثاني، والحال أن مدده إنما هو من شيخه الأول. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الصغير إذا لقَّن شيخًا أكبر منه سنًّا، ولاث الناس به وقالوا: كان من الأدب أن لا يجيبه أدبًا معه، ولكن ما بقيٰ أحد معه أدب! بأنه ربما كان مأذونًا للشيخ الحديث السن في تربية من هو أكبر منه سنًّا، لأن كبر سنِّ أهل الطريق إنما هو بكثرة العلم والسبق بالدخول فيها، وقد تلمذ للإمام الشافعي جماعة من العلماء كانوا في سن الإمام مالك، وتلمذ للإمام النووي جماعة كانوا في سن جدوده، وتلمذ لسيدي يوسف العجمي جماعة أسن منه، وهكذا، فلا اعتراض إلا علىٰ من لا قدم له في الطريق، أو كان دون ذلك التلميذ في العلم والمعرفة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعرض للناس بأن يأخذوا عنه الطريق، ويلوث به الناس ويقولون: لو كان هذا شيخًا لما أذل الطريق، فإن من شأنها العزة بأن يكون صاحبها مطلوبًا لا طالبًا.

---

(١) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا اعتراض علىٰ هذا الشيخ، لأن كلَّ داعٍ إلىٰ الله إنما يدعو الناس إلىٰ الله لا إلىٰ نفسه، وربما أعطاه الله تعالىٰ قوةً صار يدعو الناس إلىٰ الله، ولا يزداد في عيون المدعوين إلا عزًّا وهيبة، مع أنه يرىٰ نفسه دون المريدين، فهو يربيهم ويعلمهم الأدب في حال رؤيته أنهم أحسن حالًا، فلا يظن أن أحدًا من الأشياخ يظن أنه أكمل مقامًا من مريده أبدًا، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ أهل الطريق، واعتقد صدقهم إذا قالوا لك: تعال ندلك علىٰ الله، أي علىٰ أدب دخولك حضرته، فربما كان صادقًا في ذلك فلا تجيبه، فتندم حين لا ينفعك الندم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكثر من أكل الشهوات ومن الجماع والنوم، ولاث به الفقراء بسبب ذلك وقالوا: هذه الأمور التي يفعلها فلان معدودة من فسق العارفين، وقد ذم الله تعالىٰ الكفار بقوله في معرض التوبيخ لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، **وما ذم الله عليه الكفار، فالمؤمنون أولىٰ بالذم عليه.**

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ الأشياخ بذلك من حيثُ ذاتُهم، فإن من مرتبة الأشياخ أن يصير أحدهم يحضر مع الله في كلِّ شيء، ومع كلِّ شيء، فلا يضره تناول الشهوات إلا لأمر خارجيّ، كأن يقتدي به أتباعه في مثل ذلك فيهلكون.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: عادات الأشياخ تنقلب لهم عبادات، بخلاف التلامذة، فمن أكل من الأشياخ الشهوات، أثيب [علىٰ] ذلك بالنية؛ ومن أكلها من المريدين حُجِبَ عن الله وتأخر في المقام. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الأشياخ بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي انطفىٰ نور الاعتقاد فيه بين الناس بعد أن كان الأمراء والأكابر يترددون إليه ويعتقدونه، فلاث به الناس وقالوا: فلان سُلِبَ الصلاح الذي كان معه، بأنه لا يلزم من الخفاء بعد الشهرة نقص مقامه، بل ذلك أعلىٰ، فإن الله تعالىٰ يحبُّ من عباده الأخفياء الأبرياء الذين إن غابوا لم يُفتقَدوا، وإن حضروا لم يؤبه لهم[1].

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) من حديث عمر بن الخطاب «أنه خرج يومًا إلىٰ

وقد يكون ذلك الشيخ الذي اختفىٰ هو الذي سأل ربه في الخفاء، وأن يجعل ذلك الظهور الذي كان هو فيه لأقرانه، بشرط أن يحفظهم الله من الآفات، فإن الكامل لا يسعه غير الاشتغال بربه وحده.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعبد خيرًا، جعل نوره في قلبه، ليعرف ما يأتي وما يذر، ويكون مجهولًا بين الناس. وإذا أراد الله بعبد شرًّا، جعل نوره علىٰ وجه، فاعتقده الخاص والعام، وحجبه بالناس عن ربه. وكان إذا رأىٰ فقيرًا نوره علىٰ وجهه يقول: اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت، إنك علىٰ كلِّ شيء قدير.

وكان يقول: أكمل الناس في الفقراء من كان كالحمارة المحمَّلة، فإنك تراها منكسة الرأس صابرة علىٰ ثقل حملها، لا تعلم هو لمن، ولا تعلم بنفاسته ولا بخسته، ولا تطلب علىٰ ذلك عوضًا في الدارين، ولا تدري أين ينتهي بها حملها، فمثل هذا يخرج من الدنيا بثمرات أعماله كاملة موفرة لم ينقص منها شيء، بخلاف من كان بالضد من ذلك، فربما ذهب إلىٰ الآخرة صفر اليدين من الخير، لتبدد ثمرات أعماله في أودية المعتقدين له. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واعتقد في الفقير الخامل الذكر أكثر من المشهور إن أردت الانتفاع به، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا توسوس في الوضوء أو مخارج الحروف في القراءة في الصلاة، ولاث الناس به وقالوا: كيف يدعي هذا الولاية وإبليس يلعب به؟ بأنه قد يكون إذا توضأ أو قرأ يحصل له حضور مع الله تعالىٰ، فيذهل عن نفسه، فكلما أفاق من تلك الدهشة، استقبلته دهشة أخرىٰ وهكذا، كما يعرف ذلك

مسجد رسول الله ﷺ فوجد معاذ بن جبل قاعدًا عند قبر النبي ﷺ يبكي؟ فقال: ما يبكيك؟ قال: يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إن يسير الرياء شرك، وإن من عادىٰ لله وليًا، فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يُدْعَوا، ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدىٰ، يخرجون من كل غبراء مظلمة» والحاكم (٧٩٣٣) وقال الذهبي: صحيح، والطبراني في «الكبير» (٣٢١).

من له ذوق في مقامات المشاهدة للحقِّ تعالىٰ. وإيضاح ذلك أن السهو في الوضوء والصلاة له طريقان: طريق حجاب عن الله تعالىٰ، وطريق حجاب [عما سوىٰ الله][1]، واللائق بالأنبياء والأولياء حملهم علىٰ الثاني.

فإذن حمل هذا الشيخ علىٰ الذهول لأجل اشتغاله بمشاهدة جمال الحقِّ تعالىٰ أو مشاهدة جلاله أولىٰ من حمله علىٰ أن ذلك من الشيطان، فالكاملون دائمًا دهشىٰ بين جلاله وجماله، ولولا أن الله تعالىٰ يمنُّ علىٰ أحدهم بالحجاب أو بإمداده بالقوة، لما عرف عدد ما يصلي، ولا معنىٰ ما يقرأ. وإن شككتَ في قولي هذا، فادخل الخلوة علىٰ يد شيخ، ورض نفسك بالجوع وترك الشهوات، فهناك تعرف صدقي. والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقرر لجماعته أن كل عوج يكون في زوجة الرجل أو خادمه أو دابته أصله منه، ثم نرىٰ زوجته تخالفه، وعبده يأبق، وحماره يشمص[2]، وهو مع ذلك يدعي الاستقامة والصلاح، فكيف الحال؟

والجواب: أن القواعد أكثرها أغلبي لا كلي، فقد يكون هذا الشيخ مستقيمًا في نفسه ظاهرًا وباطنًا، ولكنه يحمل الأذىٰ عن الناس بصبره علىٰ نشوز المرأة، وإباق العبد، وشموص الحمار مثلًا بقصد الأجر والثواب. وقد ورد أن سارة ﵍ كان خلقها في غاية الحدة والشدة، حتىٰ شكا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام منها إلىٰ ربه، والحال أنه عليه الصلاة والسلام من أكرم المرسلين خلقًا، فافهم.

وممن أدركتهم من الأولياء المكملين يصبرون علىٰ عوج عيالهم وأصحابهم ودوابهم الشيخ محمد السروي، والشيخ علي الخواص، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، كانوا في غاية الرياضة وحسن الخلق، ومع ذلك فكانت زوجة أحدهم تضربه وتهجره وتخرجه من البيت في البرد، فينام خارج الدار بلا غطاء ولا وطاء. وكان من أشدهم حدة وخلقًا زوجة سيدي علي الخواص ﵀، ثم بعد ذلك لما ماتت تبع نعشها براية بيضاء علىٰ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) يشمص: تسرع بالكلام. ولعل المراد بها هنا أن حماره يهرب أو لا يطاوعه.

جريدة، فقالوا له في ذلك، فقال: كان لها فضل عليَّ، وما بقي أحد يحصل لي على يديه الخير مثلها.

فعُلِمَ أن قول الفضيل بن عياض: «إني لأعصي الله تعالىٰ فأعرف ذلك في خلق حماري وزوجتي وخادمي» جري على الغالب من أن المرأة صورة نفس زوجها، وكذلك الحمار والخادم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣١) ومما أجبتُ به عن شيخ مجلس الذكر إذا أسكت الجماعة عن الذكر وهم في وسط المجلس أقرب للهمة، فلاث به الفقراء وقالوا: كان ينبغي لهذا الشيخ الصبر على الفقراء حتىٰ يظهر منهم فتور عن الذكر، بأنه قد يكون ممن له حال مع الله تعالىٰ وأمارة يعرف بها وقت السكون ووقت الذكر، من حصول انشراح في قلبه أو قبض، فحمل الشيخ علىٰ أنه إنما أسكتهم عن الذكر عملًا بتلك العلامة دون الغفلة والهوىٰ أولىٰ.

وكان سيدي عليٌّ المرصفيُّ ﷺ لا يسكت الفقراء في مجلس الذكر إلا بعد قوله بقلبه: دستور يا رب اسكت عبادك عن الذكر، ليخرجوا إلىٰ ما كُلِفوا به من أمر معاشهم، أو دستور يا رسول الله اسكت هؤلاء الذاكرين. ثم ينتظر ما يحصل في قلبه من إسكاتهم أو استمرارهم في الذكر، ويقول: إن رسول الله ﷺ هو الشيخ الحقيقي لنا كلنا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ أصحاب المراتب، فإن الله حكَّم كلَّ صاحب مرتبة في مرتبته، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ترك تلقين المريدين وتربيتهم بعد أن كان متصدرًا لذلك، ولاث به الناس وقالوا: إن حقيقة المشيخة هي النصح للأمة، ومن ترك المشيخة فقد ترك النصح، بأنه لا اعتراض علىٰ هذا الشيخ لأن حكم الوليِّ حكم أهل الولايات الظاهرة، فترىٰ أحدهم قائمًا بأحكام ولايته مادام متوليًا فيها، فإن عزله من له الولاية عليه وأمره بالاشتغال بأمر آخر فعله، فيُحمَل هذا الشيخ علىٰ أنه إنما ترك المشيخة بإذن كما كان دخلها بإذن.

وقد كان الشيخ نور الدين الحسني[١] متصدرًا لإرشاد المريدين وتربيتهم، فبينما هو يلقن جماعة من المريدين في مدرسة السلطان حسن بالرُّميلة[٢]، إذ سمع قائلاً يقول: يا قفة شيوخ[٣] بعثماني. فترك التلقين إلىٰ أن مات وقال: قد ألقىٰ الحقُّ تعالىٰ في قلبي [من] كلام هذا الشخص أن الطريق وأهلها قد رخصوا. وكان مع ذلك القائل قفة شيوخ خشب من التي يسرح النساء بها الكتان. وكذلك وقع لسيدي محمد الشناوي وسيدي أبي العباس الحريثي[٤] رحمهما الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵁ يقول: حكم من يتصدر لتربية المريدين في زماننا هذا حكم فقيه فتح المكتب يوم الخميس العصر، وطلب أن الأطفال الذين انصرفوا من الظهر إلىٰ دور أهلهم يأتونه فيقرؤون عليه، فبتقدير أن أهلهم يرسلونهم له قهرًا عليهم، فليس معه منهم إلا أجسامهم لا قلوبهم، فماذا تفعل الأجسام بلا قلوب؟! انتهىٰ.

وكان يقول: حكم الخلق الآن حكم الحجاج إذا رجعوا من الحج وأشرفوا علىٰ رؤية أوطانهم، وتفرق كلُّ واحد لداره، فأراد إنسان أن يقطرهم[٥] كما كانوا في ابتداء سفرهم، فلا يجيبه أحد، فهكذا حال الناس اليوم. وسمعته يقول: الناس اليوم في الدنيا

---

(١) نور الدين الحسني: كان مقيمًا في مدرسة السلطان حسن، وهو رفيق سيدي علي بن خليل المرصفي في الطريق. أخذ عنه خلائق لا يحصون. وكان جميل الأخلاق، إذا جلس عنده أحد لا يكاد يحب مفارقته. «الطبقات الوسطىٰ» (٢/ ١٧٩).

(٢) الرُّميلة: منطقة قريبة من قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين بالقاهرة. وفيها الآن جامع ومدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي.

(٣) قفة شيوخ: خشب من التي يسرح النساء بها الكتان. والعثماني: عملة قليلة القيمة.

(٤) الشيخ يوسف الحريثي -رضي الله تعالىٰ عنه- كان ﵁ علىٰ قدم عظيم في اتباع السنة، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وكان يميل إلىٰ إخفاء العبادات جهده. كان﵁ يكره لولده أبي العباس ﵁ تلقينه للناس الذكر ويقول: يا ولدي أيش بلانا بهذه الطريق، وكان علىٰ هضم النفس دائمًا. توفي ﵁: ٩٢٤هـ ودفن بجامع البشير ﵁. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٧)، «الكواكب الدرية» (٣/ ٤٧٠).

(٥) أي أن يرتبهم في تنسيق واحد كالقطار.

كأنهم في سفينة مشحونة بهم، وقد أشرفت بهم على ساحل الآخرة، وما بقي إلا نزولهم منها إلى بر الآخرة، وما بقيت لهم داعية إلى الرجوع إلى الدنيا.

فاعلم ذلك، وسَلِّم للأشياخ أفعالهم، فإنك لم تُكلَّف بالإنكار على من هو أعلى مقامًا منك لجهلك به، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٣) ومما أجبتُ به عن العلماء والمشايخ إذا دعاهم العامة إلى السلطان أو نائبه إذا وقع بهم نازلة من ظلم ونفي، وضرب وحبس مثلًا وقالوا لهم: اشفعوا فينا عند ذلك السلطان أو نائبه، فأبوا وقالوا: ها أنتم وولاتكم. فلاث العامة بهم وقالوا: ما بقي على وجه الأرض الآن من يقوم في الدين ولا من يتحمل هموم المسلمين، بأن الاعتراض على هؤلاء العلماء والمشايخ جهل، ولا يلزم العلماء والأشياخ الشفاعة إلا فيمن أخذت[1] العقوبة فيه حدَّها، وأشرف على الفراغ منها. وأما من هو مُصِرٌّ على معصية ذلك السلطان أو الأمراء وليس على باله توبة منها، فالشفاعة فيه مردودة، لعدم استحقاقه الشفاعة فيه.

وحكم الخلق الآن مع تصاريف الأقدار حكم قوم خالفوا هدي رسلهم وحلَّ بهم الدمار، ولكن إن أراد العلماء والصالحون الشفاعة في عامة المسلمين، فلينادوا في جميع الرعية الذين ظُلِمُوا: معاشرَ المسلمين، توبوا إلى الله تعالى عن جميع الأمور التي تخالف شرع نبيكم، ونحن نشفع فيكم عند السلطان أو نائبه. فإن أجابوهم ولم يبق منهم واحد مخالف، فليشفعوا حينئذٍ، فإنهم يُجابون، وتكون الشفاعة حينئذٍ فكَّ مجلس، واستعمال المسبَّبات في أسبابها لا غير. انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول[2]: الظلم أمر مركب من الرعية والولاة، فيقدِّر الله تعالى على الرعية الوقوع فيما سبق به العلم أنه يقع بين يدي الساعة، ويقدِّر على الولاة مؤاخذتهم بذنوبهم، أو ببعضها على حسب ما سبق في علمه، فكما لا سبيل للرعية إلى ترك ما قدَّره الله عليهم مما سبق في علمه، فكذلك لا سبيل للولاة أن يتركوا عقوبتهم

---

(١) بالأصلين: أثبت. وما أثبتناه الأنسب للسياق.

(٢) كذا بالأصلين، ولعله يعني سيدي الخواص، ولعل الكلام السابق من كلامه، أو سقط قوله الأول عند النسخ.

التي جعلها الله علىٰ يديهم بحسب ما سبق في علمه. فإن قال الرعية للولاة: إن الله تعالىٰ نهاكم عن الظلم والجور فارجعوا عنا؛ قالوا لهم: استقيموا في أحوالكم واتركوا المعاصي سرًّا وجهرًا، ونحن نرجع عنكم. فإن قالوا: ذلك ليس في أيدينا؛ قال لهم الولاة: وكذلك ليس رجوعنا عنكم في أيدينا، إنما نحن مسلَّطون عليكم بذنوبكم، فكم زنىٰ أحدكم؟! وكم شرب الخمر؟! وكم ضرب المسلمين حتىٰ أدمىٰ جلودهم بغير حق؟! وكم حبسوا مظلومًا؟! وكم تعاونوا في بعضهم بعضًا، وأخرجوا بعضهم من أوطانهم؟! وكم؟! وكم؟! وكم؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن طلب استقامة الخلق في هذه الدار ما بقي يمكن، لتحكم الوعد السابق من الشارع، فكذلك الحكم في الولاة. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين حين لم يجيبوك للشفاعة عند الولاة، فإنهم لهم أعذار لا تعرفها أنت، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا طلب أحد منه ورقة إلىٰ أمير مثلًا، فقال له: ما أنا فارغ لك، وليس لي قلب لذلك. فولَّىٰ وهو يسبُّ ذلك الشيخ ويقول: ما بقي أحد فيه خير، بأن ذلك الشيخ قد يكون في أمر أهم من تلك الحاجة، أو يكون من شرطه أنه إذا أرسل كتابه أو قاصده في حاجة، يصير ملاحظًا له كذا كذا يوم حتىٰ يصل إلىٰ ذلك الأمير، وربما كان عليه عدة حوائج مثل هذه الحاجة أو أهم منها، فيعجز عن ملاحظة الكلِّ جملة واحدة، وكلُّ من عمي عن ملاحظته، لم يقض ذلك الأمير له حاجة.

ومن هنا كنتُ أقول لمن طلب مني كتابًا ليسافر به للأمير الفلاني بعد عدة أيام: اصبر إلىٰ ليلة السفر، فإني لا أطيق ملاحظتك من هذا الوقت إلىٰ أن تقضىٰ حاجتك. انتهىٰ. وهذا سرٌّ قلَّ من يعرفه من الفقراء، فالحمد لله رب العالمين.

(٤٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دق أحد بابه، فغضب وتكدر غاية التكدير، وفعل بالداق ما لا خير فيه، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر سهل لا يحتاج إلىٰ كلِّ هذا التكدير والغضب! بأنه قد يكون في بيته في جمعية قلب مع الحقِّ جلَّ وعلا في حضرة

خشعت فيها الأصوات لا يعادلها شيء من مملكة الدنيا، فأراد ذلك الداق أن يخرجه من تلك الحضرة، فاستحق من ذلك الشيخ أن يقابله كما يقابل السلطان من يريد أن يأخذ مملكته منه. وورد في الحديث: «إذا كان أحدكم يصلي، فأراد إنسان أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبي فليقاتله فإنه شيطان»[1]. انتهىٰ. وذلك لأنه أراد أن يشغله عن مناجاة ربه، فكذلك من دق الباب.

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الفقير إذا غضب وخرجت أخلاقه علىٰ من دَقَّ عليه الباب، فإنه كمن ضربه بسيف، كما يعرف ذلك من سلك الطريق. وهو أولىٰ بالغضب ممن دخل عليه وهو يجامع زوجته بيقين، إذ التشويش والتكدير تابع لعظمة ذلك الأمر المحبوب الذي يذهب بذلك الدق، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لمريده إذا وجدت في حال مناجاتك أُنسًا ملأ قلبك، وخشوعًا هدَّ أركانك، فطلبت الزيادة منه، فاقطع تلك العبادة، فإنها تحجبك عن الله؛ فسمعه بعض المجادلين فلاث به وقال: كيف تأمره بقطع عبادة لأجل ما حصل له فيها من الإنس والخشوع؟! هذا أمر مخالف للشريعة، وقد مدح الله تعالىٰ المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢].

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه أمر مريده بمعروف، وذلك أنه خاف عليه من وجود الأنس والخشوع أن يكون هو الباعث له علىٰ التهجد مثلًا، فيكون ذلك حظه من الله تعالىٰ، ومثل هذا لنفسه قام لا لله عزَّ وجلَّ.

وقد أجمع العارفون بالله عزَّ وجلَّ علىٰ أن الحقَّ جلَّ وعلا لا يصح لمخلوق الأنس به، لانتفاء المجانسة بينه تعالىٰ وبين عبده بوجه من الوجوه، فما أنس من أنس إلا بما من الله لا بالله، فافهم، فإن هذا أمر غلط فيه خلق كثير، وغاب عنهم أن حضرة ذات الحقِّ تعالىٰ حضرة هيبة وبهت، ورعدة وخوف، وذلك ينافي الأنس عند المحققين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥).

فعُلم أن هذا التلميذ ما أنس إلا بما هو مشاكل له من تقريبات الحقِّ تعالىٰ وخلعته التي خلعها عليه، لا بالله عزَّ وجلَّ، فلما خاف هذا الشيخ علىٰ مريده أن يقف علىٰ ما تجلىٰ لقلبه من المظهر [الذي خشع له، ومن الأنس بما تخيل أنه الحق. خاف عليه أن يكون يعبد ذلك المظهر][1] الذي أقامه من مخيلته، فيكون كالعابد للوثن، وتعالىٰ الله في علياء ذاته عما تخيله هذا المريد. ومن هنا قال العارفون: إن عبادة الله تعالىٰ مع الغيبة عن التخيل أقوىٰ في التنزيه من عبادة العبد بين يدي ربه كأنه يراه. فأراد هذا الشيخ لهذا المريد أن يقطع تلك العبادة حتىٰ يرقيه بالتدريج إلىٰ مقام يعبد الله تعالىٰ علىٰ الغيب من غير شهود له كما هي عبادة الأكابر، فيعبد أحدهم الله تعالىٰ وهو يعتقد أن الله تعالىٰ يراه ولا يراه هو.

وقد أجمعوا أيضًا علىٰ أنه ما عبده عينًا إلا الأنبياء وكُمَّل ورثتهم. وأما غيرهم فهم يعبدونه في المظاهر التي تجلت لقلوبهم، وبينهم وبينه سبعون ألف حجاب، فللحقِّ تعالىٰ أن يقول لهؤلاء: ما أحد منكم عرفني حتىٰ تكون عبادته لي، بخلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكُمَّل ورثتهم، فإنهم عبدوه حقًّا، فافهم.

وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: قل لفلان العابد: ما قبلتُ من عبادتك شيئًا، لأنك إنما تحب القيام في الظلام بين يدي لما تجده من اللذة والأنس، فلحظ نفسك قمت لا لي. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العارفين إلا بدليل صحيح شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال: قرأتُ الليلة في التهجد ألف ختم؛ فلاث به الناس لاسيما طلبة العلم وقالوا: هذا أمر تحيله العقل، وبعضهم يصير يسخر به ويضحك عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه ما ادَّعىٰ إلا ممكنًا بين الفقراء عادة، وأين إيمان هذا المنكر بكرامات الأولياء التي هي فرع المعجزات؟! وإذا كانت الكرامة ليست من فعل العبد وإنما هي من فعل الله علىٰ يد ذلك العبد، فما

---

(١) ساقط من «ب».

وجه التوقف؟! فإن الله علىٰ كلِّ شيء قدير. وقد قالوا: من شكَّ في الكرامات شكَّ في المعجزات، ومن شكَّ في المعجزات شكَّ في القدرة، ومن شكَّ في القدرة كفر، فإنكار الكرامات سُلَّمٌ للكفر، نسأل الله العافية.

ولعل سبب إنكار الكرامات وقوف المنكر بعقله علىٰ أنها فعل العبد استقلالًا، وذلك جهل، ولو أنه أضافها لله تعالىٰ لما كان يجوز له التوقف، فوجه الكرامة حقيقة إنما هو إجابة الحقِّ تعالىٰ لذلك العبد المخصوص عنده فيما سأله فيه، كما يجيب النبي إلىٰ ظهور المعجزة التي طلبها قومه منه وقت التحدي به لا غير، فتكون إجابته إلىٰ ما طلب هو الكرامة، كما أن إجابة النبي ﷺ إلىٰ انشقاق القمر حين طلبه قومه هو المعجزة، وإلا فليس لعبد قدرة علىٰ أن يشق القمر نصفين، فافهم.

وقد آمنتُ بكرامات الأولياء أحياءً وأمواتًا. وقد وقع أن أخي الشيخ أبا العباس الحريثي رحمه الله جلس عندي مرةً في رمضان، فصليت المغرب والسنة بعده، وتعشينا طعامًا، ثم شرع يقرأ القرآن، فختمه قبل مغيب الشفق خمس مرات، فحكيت ذلك لسيدي الشيخ عليٍّ المرصفي رحمه الله فقال: بداية صالحة، وإن شاء الله تعالىٰ يصير يقرأ أكثر من ذلك. قال: وقد وقع لي أيام السلوك أنني قرأتُ القرآن في اليوم والليلة ثلاثمئة ألف ختمًا وستين ألف ختمًا، كلَّ مقدار درجة ألف ختم! فقلتُ له: يا سيدي بالحروف والأصوات؟! قال: نعم، ولكن هذا لا يكون إلا حين تغلب الروحانية علىٰ البشرية، فإن الروحانية في قدرتها أن تنطق [بمئة ألف حرف مثلًا معًا، بخلاف البشرية لا تقدر علىٰ النطق بحرف إلا بعد النطق][1] بما قبله من تلك الكلمة. انتهىٰ.

ومما وقع لي أني صليتُ خلف إمام الزاوية الصبح، فقرأ الإمام في الركعة الأولىٰ سورة «المزمل» فشرعت في قراءة «الفاتحة» فقرأتُ من أول «البقرة» إلىٰ محل قراءة الإمام في سورة «المزمل» قبل أن يركع، هذا أمر وقع لي وآمنتُ به، فإنه يجب علىٰ من وقعت علىٰ يديه الكرامة أن يؤمن بها كما يؤمن بها إذا وقعت علىٰ يد غيره، فاعلم

(١) ساقط من «ب».

ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق الذي يقوم للزبال أو القنواتي إذا مر عليه، ولاث به بعض المجادلين وقال: ليس هؤلاء من أهل الفضل الذين يُندَب القيام لهم عادة.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار على مثل ذلك، لأن المراد بأهل الفضل كلُّ من كان له فضل عليك في علم أو عمل دنيوي أو أخروي، كالحدَّاد والحرَّاث والطبَّاخ وغيرهم ممن لا يرتكب كبيرة، ولا يصر على صغيرة، ويصلي الصلوات في أوقاتها، ويقوم الليل، فإن هؤلاء وافقوا الناس في العبادة، وزادوا عليهم بالحِرَف التي تنفعهم، فكم يتغدى أو يتعشى من طعام الطباخ إنسان، وكم يغتسل من الحمام الذي سخنوا ماءه بقمامة الزبال خلائق في الشتاء وغيره، ولولا ذلك الماء المسخَّن لربما أخرج خلق كثير صلاة الصبح عن وقتها.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقوم للقنواتي[1] كلما مر عليه، ويقول: هذا قائم عنا بفرض كفاية، ونجَّس بدنه وثيابه لأجلنا. فقال له يومًا فقيه: إن كسب هذا مكروه، وكذلك الحجام. فقال الشيخ: هذا لا يقدح في كونهم أهل فضل علينا، لأن أهل الفضل عندنا هم كلُّ من شهدنا نفوسنا دونه. انتهى.

وبالجملة فلا يتوقف في مثل القيام للزبال والقنواتي إلا أصحاب الأنفس الأبية، فإن هؤلاء أولى بالقيام لهم من بعض حاشية الولاة الذين يقوم لهم هذا الفقيه. على أنه لا ينبغي المنازعة إلا في استحباب القيام لا في جوازه، وفاعل الجائز لا ينبغي الاعتراض عليه، فاعلم ذلك واهضم نفسك، فربما يكون ذلك الزبال أو القنواتي أفضل عند الله منك وأطهر قلبًا.

وقد قال لي مرة زبَّال كان في حمام الحردوتي: ما أتذكر أنني عصيتُ الله تعالى قط منذ وعيتُ على نفسي. وكذلك قال لي جلبي من بيت الوالي، وكان قد طعن في السن، وكان ينام عندنا مدة سنين، ثم أنه استأجر له دكانًا وصار ينام فيه، فقلتُ له: لم تركت النوم عندنا؟! فقال: رأيتُ أعمى عندكم تحرك بالليل وهو نائم، فخرج منه ريح في

---

(١) القنواتي: ما نسميه الآن بعامل المجاري.

المسجد، فخفتُ أن يخرج مني كذلك وأنا نائم. فانظر يا أخي إلىٰ حال جلبي الوالي الذي ربما كان أنك ترىٰ نفسك، عليه، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا حصل له مرض، فصار يصيح حتىٰ أقلق الجيران، فقال الناس: كيف يكون هذا شيخًا وهو يصيح من المرض كالأطفال؟! بأن ذلك لا يقدح في كماله، بل هو دليل علىٰ كماله كما مر تقريره في الجواب عن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام، فإن الكُمَّل قد رقت أرواحهم وأبدانهم، وزالت كثافتهم، وما بقي عندهم قوة في نفوسهم يقاومون بها القهر الإلهيَّ، فكان من فضل الله تعالىٰ أن حبسهم حال بدايتهم في مقام الصبر والتجلد وتجرع المرارات، ليعطيهم أجر الصابرين، ثم إنه الله تعالىٰ ينقلهم أواخر أعمارهم إلىٰ مقام الرضا، ليعطيهم أجر الراضين، ثم يردهم إلىٰ مقام الصبر بعد الرضا، لكون **أجر الصبر أعلىٰ من مقام الرضا** علىٰ خلاف ما يتبادر إلىٰ الأذهان، فرضا العبد عن ربه هو الأصل في مقام العبودية، والترقي إنما هو في وجود الألم والإحساس به. ومن هنا قال المحققون: الواجب علىٰ الراضي بالبلاء المتلذذ به الشكر لا التصبر ولا الصبر. وهنا أسرار يذوقها العارفون لو أظهرناها لرأيت عجبًا، فعُلِمَ أن الكامل هو من يتأثر من قرصة برغوث، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي قال: لا أحبُّ زيارة أحد من هؤلاء الفقهاء[1] لي، وكل يوم يزورني فيه فقيه يكون عندي معصية، فلاث الناس به وقالوا: هذا يزدري العلماء، ومن ازدرىٰ عالمًا كفر، بأنه قد لا يريد ما يتبادر إليه الأذهان، وإنما مراده إجلال العلماء عن أن يزوروا مثله من حيثُ حقارتُه عند نفسه. ومصداق ذلك أن هذا الفقير كثير الزيارة للعلماء والتبرك بهم، فلو أنه كان مقصوده بهذا الكلام ازدراءهم ما مشىٰ إليهم وزارهم في بيوتهم، فافهم. وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يمكِّن أحدًا من العلماء أن يزوره أبدًا، بل الذي ينبغي أن يذهب هو إليهم. انتهىٰ.

---

(١) بالأصلين: الفقراء. والصواب ما أثبتناه بدليل السياق.

وأنا بحمد الله تعالىٰ ممن يكره زيارة العلماء له إجلالًا لهم. وكثيرًا ما أجعل ثواب عملي بتقدير قبوله ذلك اليوم في صحائف أخي الشيخ الصالح شمس الدين الخطيب الشربيني، وفي صحائف أخي الشيخ الصالح سراج الدين الحانوتي، وأخي الشيخ الصالح الشيخ بدر الدين الشهاوي[١]، وأخي الشيخ الصالح عبد الرحمن الأجهوري[٢]، وأخي الشيخ الصالح شمس الدين البرهمتوشي[٣]، والشيخ شمس الدين الطَّنِّيخي[٤] ﷺ. ثم لا أرىٰ أن ذلك يكافئهم علىٰ مشيهم إليَّ، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الفقراء علىٰ المحامل السيئة والتكبر، فإن ذلك جهل منك بأحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤١) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال للأمير الذي يتردد إليه: إن كنت تجتمع بي فلا تجتمع بفلان، شخص من أقرانه، فلاث به الناس وقالوا: هذا دليل علىٰ محبة فلان لأبناء الدنيا وللرياسة، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ تعرف قصده بذلك، فقد يكون أراد نفع ذلك الأمير، حيثُ طلب منه أن يأخذ بيده في الشدائد،

---

(١) لم أقف له علىٰ ترجمة، لكن الشيخ كان من كبار العلماء حتىٰ إن المحبي في «خلاصة الأثر» (٤/ ٤٦٢) قال في ترجمة يحيىٰ بن أبي السعود بن يحيىٰ ابن الشيخ العلامة بدر الدين الشهاوي المصري. وللشيخ كتاب مطبوع بعنوان «الطراز المذهب في معرفة الصحيح من المذهب»، وقال محققه: كان حيًا سنة ٩٦١هـ.

(٢) زين الدّين عبد الرحمن الأجهوري المالكي الشيخ الإمام العلاّمة، الزاهد الخاشع، مفتي المسلمين. له مصنفات منها: «شرح مختصر الشيخ خليل» و«القول المصان عن البهتان» وكان الشيخ ناصر الدّين اللقاني إذا جاءته الفتيا يرسلها إليه من شدة إتقانه وحفظه للنقول. توفي: ٩٦١هـ في ربيع الأول، ودفن في زاويته المرتفعة داخل باب الشعرية. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٧٦) و«الكواكب السائرة» (٢/ ١٥٨).

(٣) الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الحنفي من مشايخ عصر الشعراني بمصر، تليذ الشيخ المغوسي الذي قام بالجامع الأزهر بالوعظ والتدريس مدة مديدة. سلم الوصول إلىٰ طبقات الفحول (٤/ ٢٤٨).

(٤) محمد بن محمود، الشيخ الصالح المجمع علىٰ جلالته ونفعه للعباد، الشيخ شمس الدين الطنيخي المصري، الشافعي إمام الجامع العمري. كان كريم النّفس، حافظًا للسانه، مقبلًا علىٰ شأنه، زاهدًا، خاشعًا، سريع الدمعة، لم يزاحم قطّ علىٰ شيء من وظائف الدنيا، رحمه الله تعالىٰ. توفي: ٩٦٣هـ. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٩١) و«الكواكب السائرة» (٢/ ٥٧).

ويدفع عنه كيد الأعداء والحاسدين، فقال له: إن كنت تطلب مني ذلك، فاترك التردد لكلِّ أحد، وهناك يصح لي أن أدخل في حملتك بتوجه كامل. وهذا سر لا يعرفه كلُّ أحد، بل يظنون أن كثرة صحبة الأشياخ أقوىٰ من صحبة واحد، وذلك خلاف ما بنىٰ الله عليه الوجود في التوحيد، **فمن طلب النصرة من شيخين، فكمن طلبها من ربين،** فلا يصح له نصرة، فإياك وحمل الشيخ إذا نهىٰ الأمير عن الاجتماع بغيره علىٰ حب الانفراد بالمشيخة والصيت في بلده، فإن ذلك افتراء علىٰ الأشياخ، واحمله علىٰ النية الصالحة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل عليه أحد من أبناء الدنيا أو طلبة العلم، فلم يتبسم له ولم يحتفل بأمره، فخرج من عنده وهو يقطع في عرضه ويقول: أنا ظالم الذي أمشي إلىٰ واحد متكبر ونحو ذلك، بأنه ربما كان من رجال الله الذين يجب عليهم توديع الأنفاس الأربعة وعشرين ألف نفس في اليوم والليلة، فلا يترك نفسًا يفارقه إلا شاكرًا منه في ذلك بحضوره مع الله تعالىٰ، ومن حضر مع الله تعالىٰ لا يصير له التفات إلىٰ الخلق، فأكبر الملوك عنده في ذلك كآحاد العوام علىٰ حد سواء، فافهم.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: من أخلاق القوم الاشتغال بتوديع الدقائق والدرج والساعات، وخروج أوقات الصلوات، وتوديع الأيام والليالي والجمع، والشهور والسنين بالأعمال الصالحة، فلا يصير لأحدهم وجهة إلىٰ الخلق، وكيف حال من تشهد عليه هذه الأوقات كلها بما عمل فيها من القبائح والمعاصي؟! فإن حكم من كشف الله تعالىٰ عنه الحجاب من الصالحين حكم مجرم كثُرت جرائمه، واجتمعت عليه شهود عدول لا يرد لهم شهادة، فقبل الحاكم شهادتهم وهيأ لهم آلات العقوبة، وهو يرىٰ ذلك فلا يصير له وجهة للتبسم في وجه أحد، ولا أن يشتغل بالقيام له ومحادثته.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ لا يكاد أحد يراه ضاحكًا، فقالوا له في ذلك، فقال: كيف أضحك وثلاثمئة وستون شاهدًا يشهدون عليَّ بين يدي الله عزَّ وجلَّ؟! فقالوا له: وما ذاك؟! فقال: ما أفعل حركة مذمومة إلا وثلاثمئة وستون مفصلًا في جسدي يشهدون عليَّ، أو كيف

أضحك وقد كتبت الملائكة أعمالي كلَّها في دواوين السماء؟! ما أعرف ماذا يفعل الله بي.

وقد بسطنا الكلام علىٰ عدد الدقائق والدرج والساعات والأيام والليالي والملائكة الكرام الكاتبين عند انسلاخ الجمعة والشهر والسنة في كتاب «المنن الكبرىٰ» فراجعها.

وإيضاح ما قلناه: أنه كلما زاد عدد الشهود كان الوليُّ أضيق صدرًا وأكثر حزنًا. فاعلم ذلك واحمل الفقراء علىٰ أحوالهم لا علىٰ أحوالك، واعذرهم في اشتغالهم بتوديع هذه الأمور عنك، وعن الإقبال عليك، لتسلم من سوء الظن، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا دخل عليه شيخ الإسلام وهو يقرر في شيء من رسائل القوم، فمضىٰ في تقريره ولم يعزم عليه أن يقرر، فلاث به جماعة شيخ الإسلام وقالوا: كان اللائق به أن يعزم علىٰ شيخ الإسلام أن يقرر من حيثُ كونُه أعلم منه، بأنه ربما قصد بعدم عزومته عليه في التقرير سترته بين الحاضرين من المريدين، فربما كان جاهلًا بمصطلح القوم، فقرر خلاف مرادهم، فافتضح بذلك، فكان عدم عزومة الشيخ عليه بالتقرير أولىٰ به، وأكثر أدبًا معه.

وقد وقع لي أنني كنتُ أقرر مرة في شيء من العقائد، فدخل علينا شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الفتوحي الحنبلي[1] رحمه الله، فاشتدتُ عليه بالتقرير، فأبىٰ وقال: لا أعرف هذا الاصطلاح! فأعجب الحاضرون أدبه وإنصافه.

وحكىٰ الشيخ تاج الدين في كتاب «لطائف المنن» أن مشايخ الإسلام اجتمعوا في خيمة في وقعة المنصورة، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ مكين الدين الأسمر[2] وأضرابهم، فبينما هم يقررون في «رسالة القشيري»

---

(١) أحمد بن عبد العزيز بن علي، شهاب الدين الفتوحي الحنبلي، المعروف بابن النجار قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية. مولده :٨٦٢هـ. ومشايخه تزيد علىٰ مائةٍ وثلاثين شيخًا وشيخة، وكان عالمًا عاملًا متواضعًا، طارحًا للتكلف. توفي: ٩٤٩هـ وصلي عليه غائبةً بدمشق يوم الجمعة يوم عيد الأضحىٰ منها. انظر: «الكواكب السائرة» (٢/ ١١٣) و«شذرات الذهب» (١٠/ ٣٩٦).

(٢) مكين الدين الأسمر عبد الله بن منصور بن علي المقريء، قرأ القرآن علىٰ أبي القاسم الصفراوي وأقرأ

إذ دخل عليهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ، فقالوا بأجمعهم: لا يقرر هذا الكلام إلا أنتم. فقال: أنتم بحمد الله مشايخ الإسلام وكبراء الوقت، وقد تكلمتم وما بقىٰ لكلام مثلي محل. فقال له الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لابد. وأطرقوا كلُّهم رؤوسهم، فحمد الله الشيخ أبو الحسن وصلَّىٰ علىٰ نبيه ﷺ، وشرع يتكلم، فصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام وخرج من الخيمة، ونادىٰ بأعلىٰ صوته: هلموا إلىٰ هذا الكلام القريب العهد من الله تعالىٰ فاسمعوه! انتهىٰ.

فإياك يا أخي أن تعزم علىٰ أحد من أهل العلم أن يقرر في شيء من علوم القوم إلا إن كنت تعلم أنه يعرف مصطلح القوم ويقرر كلامهم علىٰ مرادهم وإلا فضحته، وإن طلبت سترته بين الجماعة، فقرر أنت ثم اعرض عليه كالمستشير له قيامًا بواجب حقِّه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان له جار مكَّاس أو مشاعلي يوسط الناس ويخوزقهم، ويضرب رقابهم بأمر الوالي، فمات فقدموه للصلاة عليه فلم يفعل، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يصلي علىٰ جاره وفاءً بحقه، بأنه ربما كان المانع لذلك العالم أو الشيخ شهود كثرة ذنوب نفسه وذنوب ذلك المشاعلي، فلم ير له وجهًا عند الله تعالىٰ يشفع به في جاره. ومن القواعد عند القوم أنه **لا ينبغي لأحد التقدُّم لمرتبة إلا إن كان من أهلها.** ومعلوم أن الصلاة علىٰ الميت شفاعة فيه، ولا ينبغي أن يتصدر للشفاعة إلا من ليس عليه ذنب، فالعالم أو الشيخ لما رأىٰ نفسه من أهل الذنوب، عرف ضعف عزمه عن إجابة دعائه في أن يرضي الله تعالىٰ عن ذلك المشاعلي جميعَ أخصامه، فترك ذلك لمن يكون أهلًا لذلك من العلماء والصالحين ممن ليس عليهم ذنب: إما لعدم وقوعهم فيه، وإما كونهم تابوا منه وقبل الله توبتهم.

ثم إن قدِّر أن الحاضرين كلَّهم شهدوا في أنفسهم هذا المشهد، وجب علىٰ واحد

جماعة، كان فقيهًا صوفيًا عارفًا كبيرًا، ذا مقامات ومنازلات ومكاشفات، وهو من أجل أتباع سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ ت ٦٩٢هـ. «الوافي بالوفيات» (١٧/ ٣٤٤)، الكواكب الدرية» (٤/ ٦٠٣).

منهم أن يتقدم ويصلي بالناس قيامًا بفرض الكفاية وإلا أثموا كلُّهم. فاعلم ذلك، وأقم العذر للناس حسب الطاقة، وإياك والمبادرة بالإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال: لا أحب أن يعفو الله عني في هذا اليوم؛ فلاث به السامعون وقالوا: هذا لفظ لا يجوز، بأنه ربما كان بينه وبين الله علامة يعرف بها الذنوب التي يعفو الله تعالىٰ عنه فيها والتي يؤاخذه فيها، وكان من مقامه أنه لا يحب شيئًا إلا إن رأىٰ أن الحقَّ تعالىٰ يحب ذلك الشيء، فقال: لا أحب أن يعفو عني في هذا اليوم، فأحببتُ المؤاخذة، لكون الحق تعالىٰ أحبها لي، فافهم.

وكان بعضهم يقول: وعزتك وجلالك لولا ما ورد في الحديث أنك تحب العفو والعافية[1] ما أحببتُها. وهذا مقام عزيز قلَّ من يتخلق به، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلىٰ مقامًا منك في العلم والمعرفة، فمن بادر إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، ربما استدرجه الشيطان إلىٰ الإنكار علىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد كان الإمام الشافعي يقول: الإنكار فرع من النفاق. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا طلب منه أمير أو محتسب المؤاخاة فأبىٰ، ولاث به الناس وقالوا: كان ينبغي له أن يجيبه إلىٰ الأخوة، ليصير يشفع عنده في المظلومين، ويطالبه بحقوق الصحبة، بأنه ربما كان ذلك العالم أو الشيخ رأىٰ من نفسه العجز عن القيام بشروط صحبة ذلك الأمير مثلًا، فقدَّم خلاص نفسه علىٰ الشفاعة في الناس مثلًا، فإن من شروط الأخوة عند القوم أن يطلب نفس الأخ بأن يشرك ذلك الظالم في جميع أعماله الصالحة، فيعطيه نصف ثواب أعماله، ويتحمل عنه نصف أوزاره، ومن لم يؤاخِ أخاه علىٰ مثل ذلك، فعزل صحبته أولىٰ.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٥١٢) من حديث أنس بن مالك، أن رجلاً جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله أي الدعاء أفضل؟ قال: سل ربك العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة. ثم أتاه في اليوم الثاني فقال: يا رسول الله أي الدعاء أفضل؟ فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث فقال له مثل ذلك. قال: فإذا أعطيت العافية في الدنيا وأعطيتها في الآخرة فقد أفلح» وابن ماجة (٣٨٤٨) وأحمد (١٢٢٩١).

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: من لم تطب نفسه على أن يتحمل عن الظالم جميع تبعاته يوم القيامة، فترك صحبته له أولى، فاعلم ذلك، وأقم المعاذير لكل من طلبت مؤاخاته فأبى، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا عمل طعامًا واسعًا، وأوصى جماعته إذا استوى الطعام، فلا يعطوا أحدًا منه في وعاء، حتى يتعشى الناس الذين دعوناهم؛ فصار الجماعة يمنعون الناس، فلاث به الناس وقالوا: هذا شر الطعام بنص الشارع، ولو كان هذا الشيخ أو العالم يعمل بعلمه وقصد بطعامه وجه الله، ما منع أحدًا، بأن هذا الشيخ أو العالم لم يمنع أحدًا إلا لعلة أرادها في نفسه، واللائق بنا حمله على علة حسنة، كخوفه على الطعام أن يفرغ، فقدَّم من دعاهم إلى طعامه دون من لم يدعهم.

وليس هذا من باب دعوة الأغنياء دون الفقراء، إنما هو من باب تقديم جماعة في الأكل على جماعة، ولا منع من ذلك، لأنه لم يخص الفقراء بالتحجير، بل حجر على الفقراء والأغنياء معًا، ولا يكون طعامه شرَّ الطعام إلا إذا خص الأغنياء بالدعوة كما صرح به الحديث[1]، فتأمل، وإياك وحمل الناس على المحامل السيئة وتحجيرك عليهم في أموالهم وليسوا تحت حجرك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٨) ومما أجبتُ به عن العالم إذا نسب أحدًا من مشايخ عصره إلى البخل، كأن رأى دخله كثيرًا وليس عليه وارد، ومن علامة الولي السخاء وحسن الخلق، وفي الحديث: «ما جبل ولي لله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق»[2]، بأن هذا العالم معذور فيما نسبه إليه، فإن الإنسان ما له إلا الظاهر. ثم إن تكدَّر ذلك الشيخ من العالم إذا نسبه إلى البخل، فهو تكدير في غير محل، واللوم عليه لا على العالم حيثُ لم يطعم أحدًا شيئًا، فلو أطعم الناس لكان ذلك العالم هو أول من يشهد له بالكرم.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٥١٧٧) من حديث أبي هريرة ﵁ أنه كان يقول: «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ﷺ» ومسلم (١٤٣٢).

(٢) تقدم تخريجه.

[لكن لا يخفىٰ علىٰ العالم أن من أولياء الله تعالىٰ من يقبض الله يده عن العطاء، ويبسط قلبه بالكرم][1] فيود أن لو كان جميع من علىٰ وجه الأرض يأخذ رزقه علىٰ يديه، فيعطيه الله تعالىٰ أجر من عال العالم كله بالنية الصالحة من غير أن يرىٰ له منة علىٰ أحد من خلق الله تعالىٰ، كما مر بيانه مرارًا في هذا الكتاب، فيكون هذا الولي من أكرم الخلق في دولة الباطن، ولا يشعر به كلُّ أحد.

فاعلم ذلك أيها العالم، وإياك والمبادرة إلىٰ نسبة أحد من مشايخ عصرك إلىٰ البخل حيث تراه لا يطعم أحدًا شيئًا، لاحتمال أن يكون من رجال الخفاء الذين حجبهم الله تعالىٰ عن أعين الخلق، وإن أنكرت عليه البخل، فأنكر وقلبك معظِّم له، فإن كل من تظاهر لنا بشيء من المحاسن كالصلاح، فالأدب منا قبوله، فإن كان صادقًا فقد قمنا بما علينا، وإن كان كاذبًا رجع إثم ذلك عليه لا علينا، فننكر عليه ما تظاهر به قيامًا بواجب الشرع، ونسلم له في الباطن ما يدعيه مما لا دليل عليه ظاهرًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: إذا أراد الله بعبد خيرًا وأن يخرج من الدنيا برأس ماله كاملًا موفرًا، خلع عليه خلعة الكرم في باطنه، وقبض الدنيا عن يده، وذلك لأنه قلَّ من يتكرم علىٰ الناس في الظاهر إلا ويخطر علىٰ باله أن له فضلًا علىٰ الناس، ولو في حجة التحدث بالنعمة، فيرىٰ له فضلًا علىٰ الخلق مع الله تعالىٰ، لأن الجزء البشري الذي يدعي ذلك في الإنسان يدق ولا ينقطع، فلذلك حمىٰ الله وليَّه المخصوص من ذلك، وأعطاه الأجر التام بالنية من غير مباشرة للعمل الظاهر. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صار يسمع آلات اللهو، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: كيف يكون ذلك عالمًا أو شيخًا وهو يقع في المحرمات، بأنه ربما يكون مذهبه أن الحكم دائر مع العلة في جميع الأمور لا في بعضها فقط، فرأىٰ أن سماع آلات الملاهي لا تلهيه عن ذكر الله ولا عن الصلاة، فقال بإباحته،

---

(١) سقط بالأصلين.

وإن كان عليه اللوم من حيثُ مخالفتُه لجمهور العلماء من أئمة المذاهب في قولهم بالتحريم، فاستفهم يا أخي من ذلك العالم أو ذلك الشيخ الأمر، ثم أنكر عليه الإنكار اللائق بالمختلف فيه أو المجتمع عليه.

ولم يزل أفراد من العلماء والفقراء في كلِّ عصر يحضرون سماع العود والطنبور، ويزعمون أن ذلك لا يورث عندهم غفلة، وبعض الناس يسلِّم لهم حالهم، وبعضهم ينكر عليهم. وممن بلغنا أنه كان يسمع العود من الصحابة معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، ومن تابع التابعين مسلم بن خالد الزنجي[1] شيخ الإمام الشافعي وشيخ الإمام البخاري، كان لا يملي الحديث حتىٰ يُضْرب العود بين يديه، ويُطلَق البخور بالنِّدِ والعنبر، ويجتمع خواص الحاضرين. ومن المتأخرين جماعة منهم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وسيدي علي بن وفا، وجماعة كثيرون ذكرهم الشيخ أبو المواهب الشاذلي في كتابه الذي ألفه في حكم السماع، وقال: لو كان ذلك مفسِقًا عند الإمام الشافعي والإمام البخاري ما أخذا الحديث عن مسلم بن خالد الزنجي[2]، ثم بعد أن نقل تحريمه عن قوم وإباحته عن قوم، قال: وبالجملة فظاهر المذاهب الأربعة التحريم. انتهىٰ.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: من ادَّعىٰ أن سماع آلات اللهو لا تؤثر فيه، فأغضبوه علىٰ غفلة، فإن ملك نفسه ولم يغضب فهو صادق في أن سماع آلات اللهو لا تضره، وإن لم يصح لكم امتحانه، فاحملوه علىٰ أن ذلك لا يضره، وإن كان عليه اللوم شرعًا من جهة أنه حامٍ حول حمىٰ الله تعالىٰ، فإن تحريم الشرع علىٰ قسمين: قسم مقاصد، وقسم وسائل، ويسمىٰ الأول: التحريم الأصلي، ويسمىٰ الثاني: تحريم

---

(١) أبو خالد مسلم بن خالد المخزومي، الزنجي. المكي، مولىٰ بني مخزوم. ولد: ١٠٠هـ أو قبلها بيسير، تابعي من كبار الفقهاء. كان إمام أهل مكة. أصله من الشام. لقب بالزنجي لحمرته، أو علىٰ الضد، لبياضه. وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلقىٰ مالكًا. وهو الذي أذن للشافعي بالإفتاء، ت ١٩٧هـ وقيل: ١٨٠هـ. انظر: «السير» (٨/ ١٧٦)، «الأعلام» (٧/ ٢٢٢).

(٢) المنسوب إليه ضرب العود قبل التحديث من شيوخ الإمام الشافعي والبخاري هو إبراهيم بن سعد. انظر: «فرح الأسماع برخص السماع» أبو المواهب الشاذلي، (ص٦٥).

الحريم، وذلك كالاستمتاع بالحائض في الفرج حرام بالنص، وفيما بين السرة والركبة حرام تحريم الحريم، وكذلك تحريم نحو السمسمة أو قطرة الماء على الصائم هو من باب تحريم الحريم، فإنه لا يؤثر في البدن الشهوة المنافية لحكمة الصوم، بخلاف نحو اللقمة والتمرة، كما أوضحتُ ذلك في كتاب «المنن والأخلاق».

فأنكر يا أخي على الفقير الذي يسمع العود كإنكارك عليه الأمر المختلف فيه دون المجمع عليه قيامًا بظاهر الشريعة، وأنت مُسلِّم له في الباطن أن ذلك لا يؤثر فيه غفلة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصوفي إذا تكدر من تلميذه إذا فارقه وتبع طريقة شيخ آخر، ولاث الناس بهما، فقال الفقراء: لا ينبغي للعالم أن ينهى أحدًا عن طريقنا، فإنها حقيقة الشريعة. وقال الفقهاء: لا ينبغي لصوفي أن ينكر على طريقنا لأنها أساس الحقيقة، بأن كلًّا من هذين الشيخين جاهل بحقيقة طريق صاحبه، ولو كانا يعلمان حسبة الشريعة والحقيقة ما أنكر أحدهما على من يجتمع بالآخر، بل كان كلٌّ منهما يؤيد الآخر. وقد قال القوم: شريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة. انتهى.

وإيضاح ذلك أن الشريعة هي المشي على الظاهر من غير مطالبة بالحقائق، كما أشار إليه خبر: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلام وحسابهم على الله»[1]. انتهى. فما قال: «وحسابهم على الله» إلا إشارة إلى أن هذه الدار يكفي الداعي إلى الله تعالى فيها من الدعوى أن يطيعوه في الأمور الظاهرة فقط، ولم يؤمر أن يشق قلوبهم وينظر ما فيها، فإن ذلك إنما هو إلى الله تعالى يجازيهم به في الآخرة.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٥) من حديث ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» ومسلم (٢١).

وقد مكث المنافقون علىٰ عهد رسول الله ﷺ زمانًا طويلًا، ولولا ما أنزل الله تعالىٰ فيهم من الآيات ما نهاهم من حيثُ أمراضُ باطنهم، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦٢].

وبالجملة فمن كان مؤمنًا بما يفعل ويقول، فقد خرج عن النفاق، وكان حنيفيًّا شرعيًّا، ومن لم يؤمن كذلك حكمنا بإسلامه في هذه الدار، وأمره إلىٰ الله في الآخرة كما هو مقرر في كتب الأصول، فاعلم ذلك، ولا تنكر علىٰ الفقيه أو الفقير عرفًا إلا بعد علمك بأنه يعلم معه طريق الآخر وإلا أعلِمه بذلك، ثم أنكر عليه إذا خالف.

ولو كان العالم أو الصوفي كاملًا لما أنكر علىٰ الآخر ما هو سدىٰ طريقه ولحمها، إذ الشريعة والحقيقة لا يصح افتراقهما في نفس الأمر، وإنما يفترقان في مثل مسألة شهادة الزور إذا حكم بها الحاكم وهو لا يشعر بأنها زور، ولم يتبين له الأمر في الدنيا، بخلاف ما إذا حكم ببينة عادلة، فإن الحكم صحيح ظاهرًا وباطنًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا عانىٰ علم الرُّوحاني، ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا عالمًا أو شيخًا في الطريق، لعلم أن كلَّ ما لم يرد صريحًا في الكتاب والسنة لا ينبغي فعله، بل قال بعضهم: إن علم الرُّوحاني الذي فيه الطلسمات والتهاطيل حرام، لأن تلك الطلسمات أو التهاطيل ربما كانت كلمات كفر، فكيف يليق بالعالم أو الشيخ في الطريق فعلها وتعاطي أسباب المقت وسوء الظن به؟! فإنه لا يسمىٰ عند غالب الناس إلا بالساحر.

والجواب: أن العالم إذا كَمُلَ في مقام العلم أو المعرفة، أعطاه الله تعالىٰ أسرار العلوم والمعارف في اللغة السريانية والعبرانية زيادةً علىٰ اللغة العربية، فلا يكتب من الطلسمات والتهاطيل مثلًا إلا ما يعلم أنه من أسماء الله عزَّ وجلَّ المنزهة عن السب والنقائص، ولا يجوز لأحد حمل العلماء والأشياخ علىٰ أنهم جاهلون بمعاني تلك الأسماء والطلسمات والتهاطيل، فإن مقامهم يجل عن مثل ذلك، كما علموا معنىٰ

﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓر﴾ و﴿الٓمٓر﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾، فللعلماء والعارفين الاطلاع علىٰ سائر الطرق الموصلة لقضاء حوائج الخلق في هذه الدار مما رتَّب الله تعالىٰ عليه أمرًا من الأمور، سواء أورد ذلك في الكتاب والسنة، أو استخرجه العلماء منهما. وربما علم ذلك العالم أو العارف أن ذلك التأثير الذي طلبه لا يكون إلا من طريق ما استخرجه العلماء من الكتاب والسنة، دون ما جاء صريحًا فيهما، فيأتي البيوت من أبوابها. وقد يكون ذكره الأسماء العبرانية أو السريانية أو الطلسمات دون أسماء الله العربية غيرةً علىٰ أسرار الله تعالىٰ أن تذاع بين من ليس من أهلها، كما أخفىٰ الله تعالىٰ اسمه الأعظم ولم يطلع عليه إلا الخواص، لئلا يفعلوا به الأفاعيل التي لا يليق فعلها مما لم يأذن فيه الشرع.

وقد وضع الأكابر من العلماء والصالحين الدوائر والخواتم بالأسماء العبرانية، كالإمام جابر بن حيان، وذيٰ النون المصري، والإمام الغزالي، والسهروردي، والإمام البوني[1]، وشيخ الإسلام ابن جماعة، والشيخ إبراهيم بن زُقاعة[2]، والشيخ عبد العزيز الديريني، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وجماعة لا يحصون، وتصرفوا بها في الكون، وحبسوا بها بول الأمراء والأكابر، ونفخوا بها بطونهم، وقطعوا بها رؤوسهم بإذن الله. ولولا علمهم بجواز مثل ذلك من قواعد الشريعة ما فعلوه، فهم وأسماؤهم وخواتمهم كالآلة لذلك التأثير، والله تعالىٰ هو الفاعل. وقد يكون ذلك الاسم السرياني أو العبراني مثلًا هو الاسم الأعظم وعمَّاه ذلك العالم أو العارف عن العوام.

---

(١) أحمد بن علي بن يوسف البوني، نسبة إلىٰ بونة بإفريقية، وهي اليوم عنابة في الجزائر. كان مجاب الدعوة، أخذ عن خلق، وانتمىٰ إليه جمع غفير. له عدة مؤلفات منها: «تنزيل الأرواح في قوالب الأشباح»، وغيرها.

(٢) برهان الدين إبراهيم بن محمد بن بهادر بن أحمد القرشيّ الغزي النّوفليّ الشّافعي، المعروف بابن زُقّاعة. ولد: ٧٤٥هـ. وتحول للقاهرة بعد الكائنة العظمىٰ بدمشق فقطنها وسكن مصر علىٰ شاطيء النيل له مصنفات منها: «دوحة الورد في معرفة النرد» و«لوامع الأنوار في سيرة الأبرار» توفي: ٨١٦هـ ودفن خارج باب النصر. انظر: «النجوم الزاهرة» (١٤/ ١٢٥) و«الضوء اللامع» (١/ ١٣٠).

وكان الشيخ إبراهيم الحصري[1] والشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي[2] والشيخ إبراهيم المتبولي ﷺ يتصرفون بالاسم الأعظم كثيرًا في الولاة بقدر تأديبهم ورجوعهم عن ظلم رعيتهم بحبس البول والضرب في الرأس والرمد، فإذا علموا أنهم تأدبوا ورجعوا، رفعوا ذلك عنهم، ويقولون: الفقير لا يد له ولا لسان ظاهرًا يرد به الولاة عن ظلمهم، وإنما يتصرف بسرِّه، ولا يُنسب إلىٰ ساكت قول، وبتقدير أن ذلك الأمير عرف أن ذلك من تصريف الشيخ فيه، فلا يمكنه الاطلاع علىٰ ذلك العلم الذي تصرف به فيه.

وقد كان السلطان الملك الأشرف[3] في أيام سيدي إبراهيم الجعبري يرمي الرمايا علىٰ الناس، فأرسل الشيخ يشفع عنده، فقال: الشيخ في زاويته يعبد الله، أيش له في أمور السلطنة؟! فحبس سيدي إبراهيم بوله، فعجز جميع الحكماء عن إطلاقه بكلِّ حيلة، فقالوا له: هذا من بركة الشيخ! فأرسل يستغيث به، فقال للرسول: قل له: تب إلىٰ الله عن ظلم الرعية وأنا اسأل الله تعالىٰ إطلاق بولك في هذا اليوم. فقال: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن ذلك. فأرسل له الشيخ إبريقًا فيه ماء، وقال: قولوا له: يستنجي بهذا الماء يفرج الله عنه. فكان بعد ذلك يحترم الشيخ إلىٰ أن مات ولا يرد له شفاعة.

---

(١) إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحصري، أديب من أهل القيروان. نسبته إلىٰ عمل الحصر. له مصنفات منها: «زهر الآداب وثمر الألباب» ومختصره «نور الطرف ونور الظرف» و«المصون في سر الهوىٰ المكنون» وله شعر فيه رقة، توفي ٤٥٣ هـ. «السير» (١٨/ ١٣٩)، «الأعلام» (١/ ٥٠).

(٢) محمد بن حسن بن علي التيمي البكري الشاذلي، أبو عبد الله شمس الدين الحنفي: صوفي مصري، من أهل القاهرة. كان ﷺ من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه. توفي: ٨٤٧هـ.انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٩)، «الأعلام» (٦/ ٨٨).

(٣) الملك الأشرف خليل بن قلاوون المنصور. تولىٰ السلطنة بعد وفاة والده المنصور قلاوون سنة (٦٨٩هـ) إلىٰ أن قتل سنة (٦٩٣هـ). كان شهمًا شجاعًا عالي الهمة، حسن النظر، كان قد عزم علىٰ غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار، واستعد لذلك، ونادىٰ به في بلاده. وقد فتح في مدة ملكه - وكانت ثلاث سنين - عكا وسائر السواحل، ولم يترك للفرنج فيها معلمًا ولا حجرًا، وفتح قلعة الروم وبهسنا وغيرها. والراجح أن واقعته مع سيدي إبراهيم الجعبري كانت أيام ولايته عهد أبيه قبل أن يتولىٰ السلطنة، فقد انتقل سيدي إبراهيم سنة (٦٨٧هـ).

وكذلك وقع أن شخصًا استفتىٰ القضاة الأربعة في منع سيدي إبراهيم من الجلوس علىٰ الكرسي وقال: إنه يلحن في الحديث. فامتنع ثلاثة من الإفتاء، وأفتىٰ واحد بمنعه، فبينما القضاة الأربعة نازلون من القلعة، إذ قال الشيخ لأهل مجلسه: قولوا معي: شقع بقع، يالله يقع. فوقع ذلك المفتي من فرسه[1]، فقصفت رقبته، فقال الثلاثة: الحمد لله الذي لم نفتِ بمنعه.

وكذلك وقع له مع نصراني بندر الطور حين رمىٰ الصابون علىٰ جماعته، وقال له: يا نصرانيُّ، إن رجعتَ ترمي علىٰ جماعتي شيئًا من الصابون، قطيت هذا القلم. فقال في نفسه: وما لك لا تقطه؟! فقطه فوقعت رأس النصراني.

وكذلك وقع لسيدي محمد الحنفي مع السلطان شعبان[2] حبس بوله، فلما تاب أرسل له رغيفًا مبسوسًا بزيت، وقال له: كُلْه يفرج عنك. فكان الأمر كذلك، فلم يزل يقبل شفاعته حتىٰ مات.

والأعمال بالنيات في مثل ذلك، والفاعل هو الله، ولا فرق في ذلك أن يكون حبس البول أو النفخ مثلًا بآلات يفعلها، أو بتوجه القلب إلىٰ الله تعالىٰ، فحكمه حكم دعوة الولي إذا صادفت قدْرًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: العلماء والأولياء أعرف بأسماء الله تعالىٰ السريانية والعبرانية من غيرهم، وأكثر تعظيمًا لها، ولكن لما رأوا الأسماء العربية كثيرة التداول فيما بين الناس ولم يعطوها حقَّها في التعظيم، لم يتصرفوا بها غيرةً عليها، وتصرفوا

---

(١) في «الطبقات الوسطىٰ» للمصنف: «ووعظ الناس يومًا فبكوا كلهم، فقال لهم: قولوا معي: شقع بقع، يالله يقع. فجاء الخبر أن بعض القضاة من المنكرين علىٰ الشيخ طلع للسلطان وشاوره أنه يمنع الشيخ من الجلوس للوعظ، فبينما القاضي نازل من الباب المدرج وإذا به وقع فانكسرت عنقه، وكان قاضي القضاة المالكية». الطبقات الوسطىٰ، (٢/ ٤٢)

(٢) الملك الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر بن المنصور قلاوون. بُويع وله من العمر قريب من العشر، وذلك سنة (٧٦٤هـ) بعد زوال مملكة الملك المنصور بن المظفر حاجي بن الملك الناصر محمد بن قلاوون. قُتل سنة (٧٧٨هـ).

بالأسماء المجهولة عند غالب الناس، كما حُكِي أن ذا النون المصري كان يلصق اليد المقطوعة والإصبع المقطوع بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» فلصق مرة يد سارق، فقال: سألتك بالله أن تعلمني هذا الاسم الذي تهمهم به علىٰ اليد فتلصق! فقال: أقول «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: بس...؛ فوقعت يده، ولم يقدر ذو النون علىٰ إلصاقها بعد ذلك.

وسمعته مرة أخرىٰ يقول: يُشترَط في العالم أو الشيخ إذا تصرف أحدهما في الناس بما يكتبه أو يقوله أن يكون ذلك بقصد الإصلاح لا لحظِّ نفس، وأن لا يتصرف في أحد بما يسوؤه إلا بعد أن لم يسمع منه بالكلام الطيب.

قال: ومحكُّ الصدق في ذلك أن يتساوىٰ عنده ظلم نفسه وظلم غيره، ومتىٰ رجَّح ظلم نفسه بكثرة التوجه إلىٰ الله تعالىٰ مثلًا علىٰ ظلم غيره، خرج عن الأدب، إلا أن يكون مشهده أن نفسه أولىٰ بدفع الأذىٰ عنها من غيره، عملًا بحديث: «الأقربون أولىٰ بالمعروف»[1]، ولا أقرب إلىٰ الإنسان من نفسه.

فعُلِمَ أن العالم أو الشيخ ما عدل عن الآيات والأذكار الواردة في الكتاب والسنة وتصرف بغيرها إلا لحكمة. وقد يقوىٰ عزم الولي وتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ بالأسماء العبرانية والطلسمات مثلًا، ويضعف في توجهه بالأسماء العربية وعكسه، فيكون مع ما قوىٰ به عزمه، فلا اعتراض عليه في كتابة الطلسمات، لأنه لم يعدل عن الآيات لاستهانته بها، وإنما هو لعدم وجود الصدق في توجهه بها من حيثُ الداعيةُ بها، فافهم، فالعلماء والأشياخ محفوظون إن شاء الله تعالىٰ من الجهل بأسمائه ومعاني تلك الطلسمات والتهاطيل. ولو كانوا يجهلون معانيها ما قدموا علىٰ التصرف بها في منافع العباد، لعلمهم بأن الله تعالىٰ رتَّب الأسباب علىٰ المسبَّبات، سواء أكانت كونية أو ربانية.

وقد بلغنا أن أهل مدينة سهرورد أنكروا علىٰ الشيخ شهاب الدين السهروردي، ورموه بالعظائم وقالوا: إن كان هذا وليًّا لله تعالىٰ، فليظهر لنا كرامة! فتوجَّه إلىٰ الله تعالىٰ في إطفاء جميع النار التي في المدينة، وصاروا كلما قدحوا الزناد طفي شرره،

---

(١) تقدم تخريجه.

فجاؤوا إلىٰ الشيخ يطلبون تطييب خاطره، فقال القاضي: هذا سحر لا كرامة! فازدادوا إنكارًا، ورجعوا عن تطييب خاطره، فمكثوا سبعة أيام ولا ينضج عندهم طعام، فأتوا إليه، فقال: ما بقيت النار تخرج لكم إلا من دبر الكلب الميت الذي في حارة بني فلان بنفخ القاضي في دبره. فمسكوا القاضي وأكرهوه علىٰ ذلك، فلما نفخ في دبر الكلب خرجت جمرة من فمه، فأخذها الناس وتابوا إلىٰ الله تعالىٰ عن الإنكار. انتهىٰ. فاعلم ذلك والزم الأدب مع العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا كان له إخوان تربي هو وإياهم من الصغر في حارة واحدة علىٰ يد شيخ واحد، ثم رفع الله تعالىٰ رتبته عليهم بولاية دنيوية أو أخروية، كإمارة أوكمشيخة الإسلام والولاية الكبرىٰ، فالتهىٰ بأحوال تلك الولاية عن إخوانه، وصاروا لا يرون منه ذلك التبسم ولا ذلك الانبساط الذي كان يفعله معهم قبل تلك الولاية، فلاثوا به وتكدروا منه وقالوا: هذا من علامة وجود المكر والخبث في باطنه، وقد قال الإمام الشافعي: «شر الناس اللئيم. قالوا له: وما ذاك؟ فقال: لأنه إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه» وأكثروا من الاستدلال علىٰ أنه متكبر ونحو ذلك، بأنه لا يلزم من عدم إقباله علىٰ إخوانه وعدم مباسطته لهم الخبث واللوم والتكبر، لاحتمال أن يكون إنما فعل لاشتغاله بواجبات حقوق رعيته وتدبير مصالحهم الدنيوية أو الأخروية في طريق الظاهر أو الباطن، وكلام الإمام الشافعي إنما هو فيمن جفا أقاربه وأنكر معارفه احتقارًا لهم، بقرينة قوله ﷺ: إذا ولي أخوك ولاية، فارض منه بعشر الودّ الذي كان منه قبلها، لأنه إنما كان يباسطك ويمازحك حين كان فارغًا من تلك الولاية، وقد أتاه ما يشغله عنك وجوبًا عليه، وغاية مباسطتك أن تكون من السنة، وثواب الواجب أعلىٰ من ثواب المستحب. انتهىٰ.

وقد كان الإمام عمر بن عبد العزيز كثير التبسم لأصحابه وخدمه وعياله، فلما ولي الخلافة لم يره أحد متبسمًا وقال: قد أتاني ما شغلني عن مثل ذلك، وضاق عمري عن المزح والمداعبة. فعذره الناس في ذلك، فأقم يا أخي العذر لمن صار عالمًا أو شيخًا في الطريق دونك.

(٤٥٣) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا أتاه مظلوم وقال له: يا سيدي، اقضِ حاجتي إما بسؤالك لله تعالىٰ بلا واسطة، وإما بواسطة كرسول الله ﷺ، أو غيره كالأمراء وحاشيتهم، فزجر السائل أو سكت، فلم يرد له جوابًا، فلاث به ذلك المظلوم وقال: النفس التي رأيتها مع فلان أعظم من نفس أمير المؤمنين، فيا رِيته[1] رد لي جوابًا! بأنه قد يكون في ذلك الوقت ممن غلب عليه التفويض والتسليم لله تعالىٰ وشهوده أنه أشفق علىٰ ذلك المظلوم من أمه، أو يكون ممن كُشِفَ له أن تلك الحاجة لا تُقضَىٰ علىٰ يديه، أو يكون سكوته لكونه يقضيها له بالقلب ولا يحب أن أحدًا يطلب عليه، كما هو الغالب من حال الأشياخ، وربما قضىٰ أحدهم الحاجة عند الله، ثم أرسل صاحبها إلىٰ شيخ آخر في حارته ليكبِّره في عينه حين رآه لا يعتقد فيه.

فالزم يا أخي الأدب، ولا تبادر بالإنكار علىٰ الشيخ إذا لم يرد لك جوابًا لاحتمال أن يكون أخذ في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ وقضاء حاجتك بمجرد سماع كلامك، فلم يبق له وجهة إلىٰ خطاب أحد من الخلق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي لا نراه يصوم شيئًا من النوافِل، ولاث الناس به وقالوا: فلان ما هو فقير إلا بالاسم والزي، ولو كان فقيرًا لما أفطر يوم الاثنين والخميس والأيام البيض مثلًا. وقد رأينا كثيرًا من العوام الذين ليس لهم اسم في الفقر مواظبين علىٰ صيام الاثنين والخميس والأيام البيض والأشهر الحرم، وما تميز الفقراء إلا بكثرة العبادة ونحو ذلك من الألفاظ، بأن الشارع ﷺ ما سنَّ صيام هذه الأيام إلا للقادرين علىٰ الصوم كما هو معلوم من قواعد الشريعة، وربما يكون هذا الفقير ممن مزاجه حار لا يقبل الجوع، ويحصل له ضرر في جسمه أو في عقله، كما هو الغالب علىٰ الفقراء، فترىٰ أحدهم يتنفس فيخرج من فمه هواء حار كوهج النار.

وأنا بحمد الله ممن يضره الصوم لضعف بدني، وغالب أوقاتي أجرُّ رجلي جرًّا من الجوع تارة لعدم موافقة ما أجده من الطعام لمزاجي، وتارة لوجود شبهة فيه. وقد

(١) كذا بالأصلين، و«رِيته»- بكسر الراء- كلمة عامية مصرية تعني «ليته».

عرضتُ حالي مرةً علىٰ سيدي الشيخ عليّ المرصفي ، فقال: مزاجك محدود، فلا تصم إلا ما تجد لك قدرة عليه. وسألتُه الخلوة. فقال: مزاجك لا يقبلها، ولكن افعلها ولو يومًا وليلة عملًا بالسنة. انتهىٰ.

فالزم يا أخي الأدب مع الفقراء، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير دليل، فإنما الصوم لإضعاف الجوارح التي يُخاف من وقوعها في المعاصي إذا شبع العبد، والفقير من شرطه أن لا يأكل إلا عند الحاجة بقدر الضرورة. فلا تشتهي جوارحه المعصية، وقد كفاه الله المؤنة. ومصداق ذلك أن نراه قليل الكلام. ضعيف الصوت، قليل الضحك، قليل الغفلة، فلو أن الفقير المحتاط لنفسه رأىٰ عنده ميلًا للمعاصي، لكان صام وجاع وجاهد نفسه في ذلك، لكن ينبغي لمن مزاجه حار أن يخبر أصحابه بذلك، لئلا يلوثوا به، أو يقتدوا به في عدم الصوم، والله عليم حكيم، فاعلم ذلك. والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٥) ومما أجبتُ به عن بعض فقراء الزاوية وبعض الجيران الذي لا يحضرون مجالس الذكر التي فيها، أو لا يواظبون عليها، وصار فقراء الزاوية المواظبون علىٰ العبادة يلوثون بهم ويقولون: ما هذه إلا قساوة عظيمة لهذا المجلس الذي في الزاوية نحو ثلاثين سنة، ولا أحد من الجيران يحضره، وهم يسمعونه صباحًا ومساءً، بأن ذلك لم يُقسَم لهم أولًا. وقد يكون أحدهم ذاكرًا لله تعالىٰ بقلبه وهو في بيته من افتتاح المجلس إلىٰ انتهائه. وقد يكون له عذر شرعي في نفس الأمر يستحيي أن يذكره لفقراء الزاوية.

وقد يكون الفقير المنكِر عليه ممن يعجبه عمله، ويرىٰ به نفسه علىٰ إخوانه، حتىٰ ربما ظنَّ بنفسه أن الله تعالىٰ يدخله الجنة بغير حساب دون ذلك الفقير الذي لم يحضر مجلس الذكر، والحال بالعكس.

فإياك يا أخي أن تزدري أحدًا من فقراء الزاوية الذين لا يتعبدون بالذكر والقرآن الآن مثلًا، فربما كانوا أحسن حالًا منك مع الله تعالىٰ من حيثُ طهارةُ سرائرهم. وربما كانوا يعتقدون فيك الصلاح، ويعوِّلون علىٰ أخذك بيدهم يوم القيامة وأنت بالعكس، فتعتقد فيهم النقص وأنهم ليسوا بأهل أن يأخذوا بيد مثلك يوم القيامة، لما عندك من الكبر والإعجاب.

وهذا الأمر يقع فيه فقراء الزاوية كثيرًا في حقِّ إخوانهم، فترىٰ الذي يشتغل بالعلم أو الذكر أو تلاوة القرآن ويتهجد في الليل يزدري من لم يكن عنده اشتغال، فليحذروا من ذلك. فلم يزل جماعة من العلماء والأشياخ منهم من يطلع فقيهًا، ومنهم من يطلع خادمًا، ومنهم من يطلع حليسًا عشيرًا[1]، ومنهم من يطلع زغلاً بعد طول العشرة للفقراء، فالأشياخ كعمل الدجاج[2] ربما يطلع ثلثه فاسدًا قذرًا متتنًا.

لكن لا بأس يا أخي بالعتاب اللطيف للفقير والجار اللذين لا يحضران المجلس من غير احتقار له، ويقول له: والله إني أودُّ لك يا أخي أن لا يفوتك مجلس من مجالس الخير محبةً فيك، مع رؤيتك أن ذلك الجار أو الفقير حال تركه للذكر معك أحسن حالًا منك وأحب إلىٰ الله تعالىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٦) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا دعا الناس إلىٰ أخذه العهد عليهم من مشايخ الأسواق والدلالين والطباخين وغيرهم ممن لا يتفرغ عادة للتقيد بآداب الطريق، ولاث الناس به وقالوا: كيف يدعو هذا الشيخ فلانًا وفلانًا إلىٰ أن يتلمذوا له، مع عدم داعيتهم للطريق؟! ما ذلك إلا خفة عقل وطلب رياسة، بأنه لا يجوز حمله علىٰ مثل ذلك، فربما قصد بذلك إدخالهم في سلسلة القوم من حيثُ سندُهم بالتلقين، ليصيروا محفوظين ببركة أولياء الله الذين هم في السلسلة، ولم يقصد بذلك تسليكهم الطريق، أو قصد ذلك إحسانًا للظن بالله تعالىٰ أن يلهمهم بعد دخولهم في السلسلة طلب طريق القوم، محبةً في تكثير سواد أهل الله تعالىٰ وأتباعهم.

فإياك يا أخي والدخول بين قلوب الخلق وبين ربهم، فإنك لم تكلف بمثل ذلك، واحمل الخلق علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا طلب تجديد التلقين علىٰ جماعته كلَّ صباح

---

(١) حَلِسَ الرَّجُل بالمَكان وفِيه: لَزِمَهُ؛ والعشير: الصديق.

(٢) ربما يقصد بعمل الدجاج: بيض الدجاج، فقد يخرج من الدجاج فاسدًا.

ومساء، ولاث مشايخ العصر به وقالوا: هذا لم يُعهَد لأحد من الأشياخ الذين مضوا، إنما بلغنا أنهم يلقنونهم أولا ليدخلوهم في السلسلة، وثانيًا ليسلكوهم في المقامات لا غير، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ، ولا الاحتجاج عليه بأحوال السلف الماضين، لأن الزمان قد أخذ في القهقرى، وضعفت همم المريدين كلَّ الضعف، بخلاف الأشياخ الماضين ومريديهم كانوا في غاية شدة العزم والهمة. فكان أحدهم ربما يتلقن على شيخه مرةً واحدةً، فيصير عزمه متوقدًا إلى أن يموت. فما لقن هذا الشيخ جماعته كلَّ يوم أو كلَّ قليل إلا لشهوده منهم خمود نار عزمهم وفتور همتهم، فقصد بذلك تحريك عزمهم إلى أفعال الطريق. ولو أنه علم منهم قوة العزم ما جدد عليهم التلقين.

وربما رآهم في غاية الهمة، ولكن قصد بذلك زيادة الحياة لقلوبهم، من باب: «الوضوء على الوضوء نور على نور». فإياك والمبادرة إلى الإنكار على الأشياخ، فإن مثلهم لا يجهل أحوال الطريق و[لا][1] يقع فيما لا ثمرة له، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا صار أحدهما يستجلب كلَّ من يدخل عليه ويقول: أي شيء بلغك اليوم من أخبار الناس؟! فلاث الفقراء به وقالوا: هذا أمر لا ينبغي لفقير أن يفعله، لاحتمال أن ذلك يجرُّ إلى ذكر نقائص الناس، بأنه ربما كان قصده من سماع أخبار الناس الدعاء لمن أصابه همٌّ أو غمٌّ، أو التأسي به في ذلك، وبأنه لا يقر الداخل عليه على الغيبة في أحد، بل ينكر عليه أشد الإنكار.

وقد كان السلف الصالحون يسألون عن إخوانهم وعن أحوالهم، فإن كان أحدهم محتاجًا إلى شيء واسوه به، أو مريضًا عادوه، أو صاحب مصيبة عزوه، أو محتاجًا إلى مساعدتهم في حاجة ساعدوه، ولا يرون بذلك بأسًا. فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي يسأل عن أخبار الناس على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا استعان بالولاة على خصمه، واشتكاه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

من بيوتهم وغرَّمه فلوسًا وانتصر عليه، ولاث الناس به وقالوا: هذا ليس من صفات الأشياخ، ولو كان هذا شيخًا، لاحتمل أذىٰ خصمه، أو ردَّه عنه بتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ، أو قلل شرَّه ونحو ذلك، بأن ذلك لا ينافي صفات الأشياخ من كلِّ وجه، فإن العارف مخيَّر بين احتمال الأذىٰ، وبين تأديب خصمه بشرِّه، وبين الاستعانة عليه بالحكام، ثم يرىٰ الحكام من جملة جند الله تعالىٰ له، وذلك الاستناد إليهم من جملة الاستعانة بالله تعالىٰ، لأن للحق تعالىٰ الفعل بآلة، والفعل بلا آلة، قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ﴾ [الأنفال: ١٧]، كلُّ ذلك من العارف يكون بحسب المصالح الشرعية لنفسه ولخصمه لا لحظِّ نفس. وقد قال المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي مع الله، فلم يخرجه ذلك عن الاستناد إلىٰ الله تعالىٰ، لأنه يرىٰ الناصرين له من قومه من جملة نصرة الله تعالىٰ له، فافهم.

فعُلِمَ أن الشيخ لا يخرج عن طريق القوم بالشكوىٰ إلىٰ الحكام، إلا إذا كان ذلك لحظ نفس محض، كما يقع فيه العوام، فيشتكي بعضهم بعضًا، ولا يرون أن الحكَّام من جملة نصرة الله لهم، بل يقصرون نصرهم عليهم، وهم غافلون عن الله تعالىٰ جملة، بخلاف العارف، فإنه حاضر بقلبه مع الله تعالىٰ حال خصامه وشكواه للحكام، كما يحضره في العبادة، بجامع أن كلًّا منهما طاعةً لله عزَّ وجلَّ، فيأخذ لنفسه حظَّها من الخصم إعطاءً لحقها الواجب لها عليه، وعملًا بالعدل بين ذاته وذات خصمه لا تشفيًا للنفس. فافهم وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العارفين لعلو مقامهم ومشاهدهم، كما لا ينبغي لآحاد العوام الإنكار علىٰ شيخ الإسلام في الأمور التي طريقها دقة الفهم ولم ترد صريحة عن الشارع، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٠) ومما أجبتُ به عن العالمين أو الشيخين في الطريق إذا صار كلٌّ واحد منهما يحط علىٰ الآخر ويرسل له الكلام الجافي، ولاث الناس بهما وقالوا: كيف يقع هؤلاء العلماء والصالحون في المشاحنة لبعضهم بعضًا وهما يعلمان أنه لا يُرفَع للمشاحن

عمل؟! ونحو ذلك من الألفاظ، بأنه يجب حمل كلٍّ من العالم أو الشيخ علىٰ أنه ما حطَّ علىٰ أخيه إلا بحقٍّ: إما تقبيحًا للأمور المذمومة في عينه، لئلا يقع فيها في المستقبل؛ وإما أن يكون وقع فيها فيما مضىٰ، كلُّ ذلك نصيحةً له ومصلحةً لا لغرض نفساني، فإن مقام العلماء والصالحين يجلُّ عن مثل ذلك، ولهم ذنوب فيما بينهم يهجرون بعضهم عليها لا يعدها غالب الناس ذنوبًا، فإذا رأىٰ أحدهم أن صاحبه لا يرجع إلىٰ ذلك الحقِّ الذي دعاه إليه إلا بالحط عليه حط عليه مصلحة له، وقيامًا بواجب نصحه مع أنه يود أن أخاه يرجع إلىٰ الحق بدون ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: لا يجوز للعوام نسبة العلماء والصالحين إلىٰ المشاحنة إذا رأوهم يحط بعضهم علىٰ بعض، لأن ذلك إنما يقع منهم مبالغة في النصح، فهم في حال حطِّ بعضهم علىٰ بعض يحبُّون بعضهم أشدَّ المحبة، بل بعضهم يحبُّ من حطَّ عليه أكثر ممن يجيب عنه وعن أحواله بالأجوبة الحسنة، ويقولون لنفوسهم عن ذلك الذي يحطُّ عليهم: هذا هو يحبُّك حقًّا. انتهىٰ.

وكان سيدي علي الخواص ﵀ يقول: من لم يقَظ[1] أخاه مرات في نصحه له، لم يوف بحق نصحه، ولذلك قال السيد عمر بن الخطاب ﵁: ما تركت لي كلمة الحق من صديق. انتهىٰ، أي صديق في عرف الناس من الأعراب الذين كانوا يردون المدينة لبيع أو شراء، ويحتسب عليهم ويضربهم بالدِّرَّة ممن كان الناس يعدونهم من عوام الصحابة، وإلا فأكابر الصحابة لا يعدون صديقهم إلا من ينصحهم ويكلمهم بالحق من غير مداهنة، فافهم، وإياك والغلط. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وارفع مقامهم عن حظوظ الأنفس، وإلا خسرت بركتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا خاصمه أحد بغير حقٍّ، وصار يحط عليه في المجالس، فأرشده إخوانه إلىٰ الصلح فأبىٰ، فلاثوا به وقالوا: من شرط

---

(١) يقَّظَه: نبهه وحذره.

العلماء العاملين والأشياخ من العارفين أن يسامحوا من آذاهم بغير حقٍّ، ثم يعتذروا بعد ذلك إليه، ويلوموا نفوسهم ويقولوا لها: أنت ظالمة علىٰ فلان، ولو أنك وافقتيه علىٰ أغراضه ما تكدَّر منكِ، ونحو ذلك من الألفاظ، بأن هذا العالم أو الشيخ ربما كان قصده بعدم البداءة بالصلح مصلحةً تعود عليه أو علىٰ خصمه، كأن كان في مقام الرياضة لنفسه وخاف إن بدأ ذلك الخصم بالصلح، تمادىٰ في غيِّه مع غيره من العلماء أو الفقراء، فكان عدم البداءة بالصلح أولىٰ له، وزجرًا لخصمه. وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: لا تبدأ بالصلح لمن خاصمك بغير حقٍّ، فتذل نفسك في غير محلٍّ، وتكبر نفسه بغير حقٍّ. انتهىٰ. وقال ﷺ: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان، فهو محمول علىٰ غير ما ذكرناه من المصالح.

وقد يُسأل العالم في براءة ذمة عدوه مما قاله فيه، فيأبىٰ لذكره الناس بسوء، كما وقع لشيخنا الشيخ جلال الدين السيوطي ﷺ، فإنه قال لخواص أصحابه عند الموت: اشهدوا عليَّ أنني أبرأتُ ذمة جميع من أذاني من الناس حال إيذائهم لي، وإنما أخفيتُ ذلك عنهم وضيَّقتُ في الرد عليهم تقبيحًا لذكرهم الناس بالنقائص، ورميهم بالظنون الكاذبة، ومصلحةً لتلامذتي لئلا تغير همتهم عن أخذ العلم عني إذا قبلوا تجريح الحسدة فيَّ. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واحمل أحوال العلماء والصالحين علىٰ أحسن المحامل ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا قام أحدهما في المحافل لأحد من حاشية الظلمة أو غيرهم ممن لا يستحب القيام له، ولاث الحاضرون به وقالوا: هذا لا يليق بالعلماء والصالحين، ولكن ما بقي أحد إلا وهو يراعي أبناء الدنيا، ولو كان هذا فقيرًا ما قام أحد له ونحو ذلك، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ ذلك العالم أو الشيخ إذا قام لمن ذُكِرَ، لأنه ربما كان له عذر شرعي في ذلك، كأن يخاف مفسدةً من عدم القيام له ترجح ضررها عليه وعلىٰ جماعته علىٰ مفسدة القيام، كما قالوا فيمن يحب القيام له من الولاة: إننا نقوم له وندعوا الله تعالىٰ أنه لا يؤاخذه بذلك، وأن يكشف

له الحجاب حتىٰ يرىٰ نفسه من أحقر خلق الله، ويصير يتأذىٰ بالقيام له أكثر مما يتأذىٰ الأمراء وأصحاب الأنفس من عدم القيام لهم.

وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا وشيخ الإسلام الكمال القادري[1] يقومان لذي اللسان المتقي كالشعراء ونحوهم ممن لا يضبط لسانه في العلماء وغيرهم، ثم يستغفران الله تعالىٰ من مثل ذلك.

وثم جماعة من العلماء والفقراء غلب عليهم شهود نقائصهم وكمالات الناس، فيرون جميع المسلمين فوقهم في الفضل والكمال. فمثل هؤلاء غافلون عن ميزان من يستحق القيام ومن لا يستحقه، فتسلم لهم حالهم إن لم يقبلوا التعليم. والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٣) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين إذا وضعوا خطوطهم مثلًا بتزكية أحد من الولاة في المحاضر، ولاث الناس بهم وقالوا: ما بقىٰ أحد يعمل بعلمه! كيف يزكي هؤلاء الأمير فلانًا أو القاضي فلانًا مع وقوعه في كذا وكذا؟! ويذكرون أمورًا تفسقه عندهم، بأنهم ربما كان لهم أعذار في ذلك لا يطلعون عليها كلُّ أحد، أو أدَّىٰ اجتهادهم إلىٰ أن ذلك القاضي أو المحتسب مثلًا أصلح من في البلد.

ثم إن وصفوا أحدًا من الولاة بزهد أو ورع أو خوف من الله تعالىٰ أو صلاح، حملناهم علىٰ أنهم وصفوهم بذلك بحسب اجتهادهم، أو متأولين ذلك بأنه زاهد بقدْر ما أعطاه الله تعالىٰ، ورع بقدْر ما رزقه الله، خائف بقدْر ما جعل الله في قلبه من الخوف، صالح بقدْر ما أعطاه الله تعالىٰ من صفات الصالحين، وأنه ليس مراده أهل هذه المقامات المعروفين بين العلماء والصوفية، فافهم، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين، فإنهم أعلم منك بأحكام الشريعة، واحمِ سمعك وبصرك وقلبك

---

(١) محمد بن علي الشيخ الإمام العلامة، قاضي القضاة شيخ الإسلام، كمال الدين الطويل القاهري الشافعي، قاضي الشافعية بالديار المصرية. ولد: ٨٤٦هـ. قال الشعراوي: كان إمامًا في العلوم والمعارف، متواضعًا عفيفًا ظريفًا، لا يكاد جليسه يمل من مجالسه انتهت إليه الرئاسة في العلم، ووقف الناس عند فتاويه، وكانت كتب مذهب الشافعي كأنها نصب عينيه ت بالقاهرة ٩٣٦هـ. «الكواكب السائرة» (٢/ ٤٥).

من الظنون الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا عمل وليمة عرس أو ختان، وكتب بعض أسماء الناس الذين يحضرون من العلماء والفقراء دون بعض، فلاث به الذين لم يكتب أسماءهم وقالوا عنه: إنه لا يحبنا من قبل اليوم، ووقعوا في عرضه، بأنه ربما قصد بذلك إجلال الذين لم يحضروا عن الحضور، أو عدم إتعابهم نفوسهم في المشي إلىٰ مثله، لاسيما إن كان أحدهم ممن أكب الناس عليه في الاشتغال بالعلم أو الاستفتاء، أو كان مشغولًا بالتأليف أو مصالح زوجته الشديدة البأس عليه، أو ممن غلبت عليه مراقبة الله تعالىٰ في مكان دون مكان، فخاف أن يتفرق قلبه بالذهاب إلىٰ تلك الوليمة، ونحو ذلك من الأعذار التي لا تخفىٰ علىٰ من في قلبه نور.

ويحرم علىٰ من لم يُدعَ أن يحمله علىٰ التكبر أو العداوة، أو أنه ترك كتابة اسمه لغير غرض صحيح، أو أن يقع هو وجماعته في عرضه، فاعلم ذلك يا أخي، واحمِ سمعك وبصرك وقلبك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي ينهىٰ الناس عن مطالعة كتب التوحيد التي وضعها الصوفية، ويحطُّ علىٰ كلِّ من بلغه أنه يطالع فيها، لاسيما كتب الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ، ولاث به جماعة المريدين لأشياخ الطريق، وصاروا يقولون عن ذلك العالم: إن هذا منكِر علىٰ الأولياء، فيُخاف عليه سوء الخاتمة، بأنه لا يلزم من نهيه الناس عن مطالعة كتب الصوفية أن يكون منكِرًا لأصل طريق الأولياء، وإنما أنكر علىٰ من يطالع كتبهم خوفًا عليه من فهم شيء من أحوالهم علىٰ غير مرادهم، فيضل في نفسه ويضل غيره، ولا يلزم من ذلك أيضًا أن يكون يعتقد أن كلام الصوفية مخالف لظاهر الشريعة، فربما كان يعتقد أنه لبُّ الشريعة، ويتدين به في نفسه.

وقد أخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري[1] ﷺ أن الشيخ كمال الدين

---

(١) الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري، كان ﷺ من الراسخين في العلم، وانتهت إليه الرئاسة في علو السند

ابن أبي شريف ﷺ[1] سمع شخصًا ينشد كلام سيدي عمر بن الفارض ، فقال له: اسكت قطع الله لسان البعيد! ثم لما انصرف السامعون، أرسل وراء المنشد في بيته وقال له: اسمعني شيئًا من كلام هذا الأستاذ! فأنشده، فصار يتواجد حتىٰ وقعت عمامته، وقال له: إنما قلتُ لك اسكت خوفًا علىٰ السامعين من فهم شيء علىٰ غير وجهه عند القوم فيهلك، ولم يمكنني في ذلك المجلس إلا ذلك. انتهىٰ.

وكذلك بلغنا عن الشيخ عز الدين ابن جماعة أنه كان ينكر علىٰ جماعته مطالعة كتب الصوفية ويطالعها هو في بيته، حتىٰ إنه شرح كتاب «الفصوص» للشيخ محيىٰ الدين شرحًا عظيمًا[2].

وكذلك بلغنا عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه كان يُقِرُّ الفقهاء المنكرين علىٰ الشيخ محيي الدين علىٰ إنكارهم، ويقول لخواص أصحابه: إن كان في هذا الزمان وليٌّ كامل لله عزَّ وجلَّ فهو الشيخ محيي الدين! فإذا قيل له في ذلك، يقول: إنما سكتُّ علىٰ كلام المنكرين علىٰ الشيخ لأنهم ما تعدوا فهمهم، ويجب عليهم إنكار كلِّ ما لم يفهموه من الكلام إذا كان ظاهره الفساد، وإن كان التسليم لهم أولىٰ في مذهب أهل الورع. انتهىٰ.

فاعلم ذلك أيها المريد، واحمل أنت وشيخك ذلك العالم الذي نهاك عن مطالعة كتب الصوفية علىٰ المحامل الحسنة، ولا يجوز لك ولا لشيخك نسبته إلىٰ كراهة أحد

بالكتب الستة وغيرها، وكان يقرأ السبع وله صوت بالمحراب لم يسمع السامعون في عصره مثله. وكان ﷺ يتفقد الأرامل، والمساكين، والعميان، ويتعب لهم في حوائجهم ت ٩٢٩هـ ودفن بتربته خارج باب النصر. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٦).

(١) محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي المري القدسي، الشيخ كمال الدين أبو المعالي ابن أبي شريف الشافعي. ولد في ذي الحجة سنة: ٨٢٢هـ. بالقدس الشريف، ونشأ بها، وحفظ القرآن العظيم. ولازم خدمة العلم، فبرع في الفقه والأصلين والعربية، وغيرها. من تصانيفه: «حاشية علىٰ شرح العقائد» للتفتازاني و«حاشية علىٰ شرح جمع الجوامع» للجلال المحلي و«شرح الإرشاد في الفقه» لابن المقريء. ت ٩٠٦هـ بمصر. «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٤)، «الأعلام» (٧/ ٥٣).

(٢) لم أقف عليه، فربما كان مقصد الشيخ أنه شرحه في بعض المجالس الخاصة، أو يكون المخطوط مفقودًا.

من أولياء الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٦) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا قال: أنا أحب من يؤذيني وينقصني في المجالس أكثر ممن يحسن إليَّ ويمدحنىٰ فيها؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا له سرًّا: يكذب البعيد! فإن هذا [بعيد][1] عن طبع البشر، بأنه لا ينبغي لأحد تكذيبه في ذلك لا سرًّا ولا جهرًا، فإن الفقير إذا كُشِفَ حجابه ورأىٰ أهوال يوم القيامة وما يقع فيها من المؤاخذات، صار يرىٰ من أساء عليه أحب ممن أحسن إليه، بل يرىٰ جميع من في الوجود من المسلمين محسنًا إليه، إذ الناس ثلاثة أقسام لا رابع لها: محسن إلىٰ الناس بإعطائهم المال والطعام وغيرهما من منافع الدنيا؛ ومحسن إليهم بحسناته في الآخرة قهرًا عليه أو بطيبة خاطره، كما يقع لبعض الناس في دار الدنيا؛ ومحسن إليهم بعدم الإحسان بشيء من أمور الدنيا والآخرة من حيثُ إنه أعتقهم من تحملهم منته في الدنيا والآخرة، ولاشك أن المحسن إليهم بحسناته في الآخرة أعلىٰ الأقسام في الإحسان، لأنه إنما يعطي الناس أعماله الصالحة التي تعب فيها في دار الدنيا، وإنما يتحمل عنهم من أوزارهم، فقول هذا الشيخ: أنا أحب من يسيء عليَّ أكثر ممن يحسن إليَّ حقٌّ وصدق، فإياك والمبادرة إلىٰ إنكار مشاهدة الفقراء بالجهل، وسلِّم لهم كل ما لم يرد النهي عنه في كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا خاف من السفر ليلًا أو نهارًا أيام قطع العرب الطريق، ولاث به بعض الناس وقالوا: لو كان هذا شيخًا صادقًا، ما خاف من قطَّاع الطريق، وكان لا يخشىٰ إلا الله تعالىٰ، كما جرىٰ عليه المشايخ الذين أدركناهم كفلان وفلان، بأنه لا ينبغي لأحد الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان لا يخاف إلا الله، ولكنه خاف علىٰ اللصوص من حصول الإثم بسببه أو بسبب جماعته. ولو أنه عرف من اللصوص أنهم يأخذون ثيابه مثلًا بغير ضرب أو جرح لما خاف من السفر المذكور، وكان يعطيهم ما طلبوا بطيبة نفس منه.

---

(١) زيادة يقتيضها السياق.

فإن قال قائل: كان ينبغي له أن يسافر ولو ضربوه أو جرحوه، ويبرئ ذمتهم في الدنيا والآخرة رجاء ثواب الله؛ **فالجواب**: أنه لا يجوز لمؤمن أن يعرض نفسه لمن يؤذيها من حيثُ إن الله تعالىٰ أمَّنه عليها وقال: ﴿ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولكن إن وقع له ضرب أو جرح من غير تعاطيه أسبابه، فلا حرج عليه، ثم إن العفو خير له، سواء تعاطىٰ السبب أم لا، فاعلم ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يخاف الولي من السفر في الليل وحده أو مع جماعة لا يكفون في رد قطَّاع الطريق، حياءً من الله عزَّ وجلَّ من حيثُ إنه الصاحب في السفر لأمور لا يمكن إفشاؤها بين العامة. قال: وقد وقع لي أنني قمتُ ليلةً أتهجد قبل أن تصف صفوف المتهجدين في سائر أقطار الأرض، فما كنتُ إلا هلكتُ، فإن المؤمن كثير بأخيه. قال: ومن هنا شَرَع الله تعالىٰ الجماعة في الصلوات رحمةً بعباده الذين يعرفون ما هي الصلاة، فلولا أن الحقَّ تعالىٰ آنسهم برؤية بعضهم بعضًا بين يديه، لربما تقطعت مفاصلهم! ويؤيد ذلك ما جاء في بعض طريق حديث الإسراء برسول الله ﷺ أنه سمع صوتًا يشبه صوت أبي بكر يقول له: «يا محمد، قف إن ربك يصلي»[1]، فآنسه في تلك الحضرة بسماع صوت أبي بكر. قال: وربما كان ذلك إنما جاء تشريعًا لأمته ﷺ. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٨) ومما أجبتُ به عن شيخ العلم أو الطريق إذا أرخىٰ علىٰ عينيه الطيلسان لما ركب في شوارع بلده مثلًا، ولم يقل لأحد السلام عليكم، أو سلموا عليه فلم يرد علىٰ أحد منهم السلام جهرًا، فلاث الناس به وقالوا: هذا تكبر ما رأينا مثله في الأمراء، بل رأينا الباشاه إذا ركب يصير يسلم علىٰ الناس يمينًا وشمالًا، بأن هذا الشيخ ربما كان سبب إرخائه الطيلسان مثلًا علىٰ عينيه الحياء من الله تعالىٰ، ثم أخذ في الجمعية بقلبه مع الله تعالىٰ، فلم يصر له

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٦٧٣) وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ١٤٣) وليس فيه ذكر لأبي بكر رضي الله عنه، وذكره القسطلاني في «المواهب اللدنية» (٢/ ٤٨٢) وفيه ذكر أبي بكر.

وجهة إلىٰ الخلق، كما مر تقريره في هذا الكتاب[1]، فهو عما فهمه المعترضون بمعزل.

فإن قال قائل: كيف يرخي الطيلسان حياءً من الله عزَّ وجلَّ، ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لا يحجبه شيء؟ **فالجواب:** أن الشرع قد تبع العرف في كثير من المسائل، كوجوب السترة علىٰ المصلي في خلوة أو في ظلمة حيثُ لا يراه أحد من الخلق، فما عللتَ به ذلك، فعلل به إرخاء الطيلسان، فاعلم ذلك، واحمِ سمعك وبصرك.

وكان الإمام مالك رحمه الله يقول: أول من[2] ضرب الخيمة في طريق الحج من الخلفاء السيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال لأصحابه: احجبوني عن الناس، فإني أستحيي من نظرهم إليَّ. انتهىٰ. وكلُّ مقام وقع لصحابي لا بد له ممن يقوم به إلىٰ يوم القيامة، فقد يكون صاحب هذا الطيلسان عثماني المقام، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا كان يسلِّك الناس ويرشدهم إلىٰ الخيرات، وأقبل الناس عليه إقبالًا كثيرًا وانتفعوا بعلمه وآدابه، ثم ترك ذلك كله وجلس في بيته لا يسأله أحد عن مسألة، فلاث به طلبة العلم وقالوا: لو دام علىٰ ما كان فيه أولًا، لكان أفضل له، بأنه قد يكون ممن كشف الله تعالىٰ له عن أمور الآخرة وأحوالها، فشرع في التأهب لها بتصفية الأعمال من الشوائب التي ما كان يلقي إليها باله حال اشتغاله بتعليم العلم، ولا شك أن كلَّ عمل دخل [فيه][3] الرياء والعجب مثلاً فتركه أولىٰ.

وقد كان الإمام الغزالي رحمه الله يقول لما دخل في طريق القوم: لقد ضيَّعنا عمرنا في البطالة. فقيل له: إنك قد صرتَ بذلك العلم حجة الإسلام! فقال: وما ينفعني التلقيب بحجة الإسلام إذا قال الله تعالىٰ لملائكته يوم القيامة: هاتوا حجة الإسلام أناقشه علىٰ كلِّ فعل فعله أو قول قاله، هل أراد به وجهي ونصرة شريعة نبيي، أو أراد بذلك الجاه في قلوب الناس ونشر الصيت بالعلم والصلاح؟ انتهىٰ.

---

(١) الجواب (٣١٦).

(٢) بالأصلين: ما. والصواب ما أثبتناه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وقال: كان السلف الصالح كلُّهم يتفقهون في دينهم أولًا، ثم يعتزلون الناس ويتأهبون لمعادهم بعد ذلك، فلا يكمل حالهم إلا بالعلم والتأهب، ولو أنهم تأهبوا بلا علم، أو علموا بلا تأهب، لفاتهم خير كثير.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله يرغِّب طلبة العلم حال شبابهم في الاشتغال به، ثم إذا بلغ أحدهم ما قُسِمَ له يقول: تأهب يا أخي لمعادك، فقد صرتَ تعرف الحلال والحرام، والمحمود والمذموم، وما بقي إلا محاسبة النفس عما فعلت. وقال: ولا تكمل حالك إلا بذلك. ومن هنا قالوا: أعز شيء يكون في زماننا فقيه صوفي، أي لأن غالب الفقهاء ربما يموت وهو مقبل على الاشتغال بالعلم من غير إخلاص، لا يناقش نفسه في عمل من الأعمال.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من الأدب تسليم الصوفي للفقيه وعكسه، لأنه لا بد من قائم بكلٍّ من الطريقين في كلِّ عصر. ولو أن الفقيه طالب نفسه بالإخلاص في أول أمره، لألهاه ذلك عن التبحر في العلم، ولم يصل أحد إلى درجة الإفتاء والتدريس، فكان من رحمة الله بالأمة أن حجب عن العلماء أمر معادهم حتى يتبحروا في علم الشريعة، ويفتوا للناس ويدرسونهم، ولذلك كان علماء السلف يؤخرون شرح كتاب الجنائز إلى آخر أبواب الفقه، خوفًا أن تفتر همتهم عن الاشتغال بالعلم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يرزق الله تعالى بعض عباده الإخلاص في علمه وعمله من بداية أمره، فلا يشغله العلم عن التأهب لمعاده، ولا التأهب لمعاده عن الاشتغال بالعلم، كما وقع للإمام البغوي[1] والشيخ أبي إسحاق الشيرازي[2] والإمام

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، المحدث المقرئ، صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان، كان سيدًا زاهدًا قانعًا. من مصنفاته: «شرح السنّة» و«معالم التنزيل» و«المصابيح» ت ٥١٦هـ بمَرْوُروذ، ودفن عند شيخه القاضي حسين. «مرآة الجنان» (٣/ ١٦٢) و«النجوم الزاهرة» (٥/ ٢٢٤).

(٢) إبراهيم بن علي بن يوسف أبو إسحاق الشيرازي الفيروزابادي، شيخ الشافعية في زمانه، لقبه جمال الدين. ومولده بفيروزاباد سنة: ٣٩٣هـ تفقه بشيراز على أبي عبد الله البيضاوي. من مصنفاته: «التنبيه» و«المهذب» و«التبصرة» توفي: ٤٧٦هـ. «الوافي بالوفيات» (٦/ ٤٢) «النجوم الزاهرة» (٥/ ١١٧).

الرافعي[١] والإمام النووي وأضرابهم، ولكن هذا النوع في العلماء قليل، فإن النفس إذا تعشَّقت العلم وحصل لها به رياسة، عسر عليها مفارقته.

وقد جاء الشيخ فخر الدين الرازي[٢] إلىٰ الشيخ نجم الدين الكبرىٰ ببغداد يطلب الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، فقال له الشيخ نجم الدين: أنت لا تصلح للطريق. فقال: يا سيدي إن شاء الله ببركتكم نقدر بإذن[٣] الله تعالىٰ عليها. فقال له ثانيًا وثالثًا: لا تقدر، والشيخ فخر الدين لا يرجع، فقال له الشيخ نجم الدين: قم فادخل هذه الخلوة. ففعل، ثم توجه الشيخ نجم الدين إلىٰ الله في محو جميع ما كان في صدر الشيخ فخر الدين من العلوم، فصار جاهلًا في الحال كأنه لم يسمع بمسألة واحدة من تلك العلوم، فصاح بأعلىٰ صوته في الخلوة: لا أطيق! فقال له: اخرج. فلما خرج قال: أعجبني صدقك! إذا كنت لا تقدر علىٰ مفارقة حظك لحظة، فكيف تطلب الطريق إلىٰ الله تعالىٰ؟! أما علمتَ أن طريق القوم كلَّها مبنية علىٰ مخالفة النفس، وترك كلِّ ما دخلته النفس من علم وعمل. فقال: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن طلبها، حتىٰ تحصل لي عناية من الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: ليس الشأن أن يسلِّك الشيخ كلَّ يوم ألفًا من العوام، وإنما الشأن أن يسلِّك فقيهًا في مئة عام. انتهىٰ.

وقد عدوا من كرامات سيدي الشيخ أبي العباس المرسي أنه سلَّك ثلاثين قاضيًا. فاعلم يا أخي ذلك، وإياك والإنكار علىٰ من ترك تدريس العلم أواخر عمره، واشتغل

---

(١) أبو القاسم عبد الكريم ابن العلامة أبي الفضل محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسين الرافعي، القزويني. مولده: ٥٥٥هـ. فقيه، من كبار الشافعية، كان له مجلس بقزوين للتفسير والحديث، وتوفي فيها. من مصنفاته: «التدوين في ذكره أخبار قزوين» و«الإيجاز في أخطار الحجاز» و«المحرر» ت ٦٢٣هـ. «شذرات الذهب» (٧/ ١٨٩) «الأعلام» (٤/ ٥٥).

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري، الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي. له مصنفات منها: «تفسير القرآن الكريم». توفي: ٦٠٦هـ. «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٤٨) و«تاريخ الإسلام» (١٣/ ١٣٧).

(٣) بالأصلين: في.

ذلك، فيحس بضربه المقارع والكسَّارات وحرارة الخوذة الموضوعة على الرأس وغير ذلك، وإن كان بينه وبين المعاقَب بعد المشرقين، لما بينه وبين أخيه المسلم من شدة الارتباط، وفي الحديث مرفوعًا: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له جميع البدن بالحمىٰ والسهر»(١). انتهىٰ.

ويقع لي ذلك كثيرًا بحمد الله تعالىٰ، لكن في حقِّ من بيني وبينه صحبة دون من لم أعرفه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من شك في حصول تألم فقير بما يتألم به أخوه المسلم، فلينظر إلىٰ أم الميت وأبيه بعد موته، وما يحصل في جسمهما من الحرارة والغم والحزن والكرب، حتىٰ ربما يحس أحدهم أن جسمه محشوًا جمرًا من شدة حزنه عليه، يعرف صدق من يدعي ذلك، فإن أقل ما يكون من محبة الفقراء الصادقين لبعضهم بعضًا أن يكون كمحبة الوالدة لولدها.

وقد كان بجوار الإمام أبي القاسم الجنيد شخص زَمِن جالس في خرابة محبةً في مجاورة الجنيد لا غير، فلما مات الجنيد أنشد ذلك المزمن تجاه نعشه وهو يبكي:

وآسفي من فراق قوم ... هم المصابيح والحصون
والأمن والخير والأماني ... والسحب والمزن والسكون
لم تتنكر لنا الليالي حتىٰ ... توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب ... وكل ماء لنا عيون

ثم فُقِدَ ذلك الزَّمِن، فلم يُرَ بعد ذلك! فإياك يا أخي والإنكار علىٰ الأولياء فيما يدعونه من مواجيدهم مما لا يعارض نصًا ولا إجماعًا، والحمد لله رب العالمين(٢).

(٤٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: طفت الليلة هذه مشارق الأرض ومغاربها من بحار وجبال، ومدائن وقفار، ورجعتُ في مقدار ثلاث درج مثلًا، فلاث به الناس وقالوا:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) وقد تقدم جواب آخر لمثل هذا الاعتراض، انظر (٣٨٢).

هذا كذب صريح، بأنه قد يريد الطواف بقلبه، وذلك صحيح، لأن القلب إذا انجلىٰ صار كالمرآة الكرة، إذا قوبل بالوجود العلوي والسفلي ارتسم كلُّه فيه، فمعنىٰ طفتُ: اطلعتُ.

ويقع لي أنني أمر ببصري القلبي علىٰ جميع المدائن والبحار والبراري التي وصل إليها علمي، وأرجع في مقدار درجة. وهذا أمر لا يصدِّق به إلا من ذاقه، فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ من يدعي مثل ذلك، فإنه مقام أصحاب النوبة، فيطوف أحدهم مشارق الأرض ومغاربها وهو جالس في مكانه.

وكان من شأن سيدي عبد القادر الدشطوطي أنه يقف ويلتف ثلاث مرات، فكان أولياء عصره يقولون: إنه يطوف في كلِّ مرة جميع الدنيا. وكان الشيخ محمد بن عنان يُسمَّىٰ بين الأولياء «أبو الجُنُوب» فقلت لسيدي علي الخواص: ما معنىٰ ذلك؟ فقال: كلما يقلِّب جنبه علىٰ الأرض يدور المشرق والمغرب. انتهىٰ.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: لو ناداني مريدي من مسيرة ألف عام لأتيته قبل تمام النداء. وكذلك كان يقول سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ، ويشهد لصحة وقوع هذه الأمور قصة آصف بن برخيا وإتيانه بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان إليه.

وممن أدركته في مصر يدير بلاد الهند والسند والروم والعراق والمغرب وبلاد السودان: الشيخ محيسن، والشيخ علي أبو خوذة[1]، والشيخ محمد الشربيني رضي الله عنهم أجمعين، فاعلم ذلك، وصدِّق من يدعي ذلك، فإنه لا يعارض شيئًا من أحكام الكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا أنكر وجود أصحاب النوبة[2] من الأولياء وقال: إنه لم يأت فيهم بخصوصهم حديث، بأن هذا العالم معذور في مثل ذلك، فإن من شأن أصحاب النوبة الخفاء في كلِّ عصر، وكثير من الصالحين لا يعرفهم فضلًا

(١) الشيخ علي أبو خوذة، كان أسمر قصيرًا، وعلىٰ رأسه خوذة من حديد، مات بطريق المحلة، وحمل إلىٰ مصر، ودفن بقرب جامع شرف الدين سنة نيف وعشرين وتسعمائة. الكواكب الدرية (٣/ ٤٢٤).

(٢) أصحاب النوبة: الأولياء رجال دولة القطب.

عن غيرهم، وما رأيت أعرف بأصحاب النوبة في جميع أقطار الأرض من سيدي عليٍّ الخواص رحمه الله، كان يعرف صاحب درك كلِّ قطر ويقول: تولىٰ درك القطر الفلاني في هذه الليلة فلان بعد موت فلان.

وكان إذا سُئل في حاجة عند أمير يقرأ الفاتحة ويهديها في صحائف رسول الله ﷺ، ثم في صحائف صاحب النوبة في ذلك الخط، ويسأله في قضائها ويقول: إن من الأدب مع أصحاب النوبة أن لا ينفرد أحد عنهم بقضاء حاجة، فإن قلوب الحكام بيد تصريفهم بإذن الله، فيقلبون قلوب الحكام كما يريدون، فربما تعداهم فقير وسأل الأمير في قضاء الحاجة دونهم فيعارضونه، فلا تُقضَىٰ له حاجة، وهم في بيوت الحكَّام علىٰ اختلاف طبقاتهم لا يتميزون في ملبس ولا غيره، وربما كان أحدهم ترجمانًا عند القاضي أو رسولًا. ومن شأنهم الاطلاع علىٰ ما يخطر في قلوب الخلق وعلىٰ ما يفعلونه في قعور بيوتهم، ولهم تأديب الخلق علىٰ مثل ذلك.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: من أدب الفقير إذا خرج من بيته أو زاويته لحاجة أن يقول بقلبه: دستور يا أصحاب النوبة أخرج في قضاء هذه الحاجة، ثم إذا رجع استأذنهم في الرجوع كذلك. ومن الأدب معهم أيضًا أن لا يمشي أحد في درك من أدراكهم وهو محدِث ولا غافل القلب عن ذكر الله عزَّ وجلَّ، فإنهم يحبون من يراعي معهم الأدب. انتهىٰ.

ومما وقع لي أنني أخرجتُ مرة ريحًا تجاه شون السلطان بمصر العتيق، فناداني شخص منهم كان حيَّاكًا من نحو عشرين ذراعًا، وقال لي: ما هكذا الأدب! تخرج في دركنا الريح! فمن ذلك اليوم ما مشيتُ في شارع من شوارع مصر إلا وأنا علىٰ طهارة.

وكذلك وقع لي تجاه سوق الصاغة بمصر أنني كنتُ أمشي غافلًا، فأحسستُ بنفسي أن ورائي تمساحًا يريد أن يبتلعني، فقامت كلُّ شعرة في بدني فالتفتُّ، فإذا شخص مكشوف الرأس، أحمر العينين، شَعِث الشعر، واضع لحيته خلف أذني، فقال لي: استيقظ لنفسك ولا تعد تمشي في دركي غافلًا! فمن ذلك اليوم ما أتذكر أنني مشيتُ في ذلك المكان غافلًا أبدًا. فاعلم ذلك يا أخي، والزم الأدب مع أولياء الله تعالىٰ، وصدِّقهم فيما يدعونه

ما لم يدعوا باطلًا في الشريعة، كالنبوة بعد رسول الله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا أوصىٰ جابي الوقف الذي تحت نظره أنه يجنزر[1] الفلاح الذي امتنع من وزن الخراج، أو يحبسه ويمشيه حافيًا من بلد إلىٰ بلد، ولاث الناس به وقالوا: أيش خلىٰ هذا للظلمة؟! ولكن ذهب العلماء العاملون، والأولياء والصالحون، وما بقي إلا الجماعة الذين يتشبهون بالظلمة، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ إلا بعد الفحص والتفتيش، فقد يكون ذلك المال مما ألزم به المستحقون ذلك الناظر، واشتكوه من بيوت الحكام والمفتشين، ورأىٰ أن جابيه أرفق بالفلاحين من جماعة الكاشف أو شيخ العرب، فهو من باب ظلم دون ظلم إن كان الفلاحون مفلسين[2]، وإن كانوا قادرين فلا حرج علىٰ العالم والشيخ في ذلك.

والجنزير كالحبل الذي يضعه رسول الحاكم إذا خاف هروب الخصم منه وعجز عن لحوقه. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، لأنهم أشفق منك علىٰ المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا فتح باب السؤال للجماعة المقيمين عنده، وصار يسأل التجار والمباشرين والولاة والمحترفين، ولاث الناس به وقالوا: ما لهذا وللمشيخة، فإن الله تعالىٰ لم يكلِّفه أن يكسر وجهه للناس لأجل نظام مشيخته، بل كان الأولىٰ له أن يقول للجماعة المقيمين عنده: اعملوا لكم حرفة، أو اخرجوا فاسألوا أنتم الناس، بأن سؤال هذا الشيخ للفقراء أولىٰ من سؤالهم لأنفسهم، لأن الشيخ كالأمير إذا لم ينفق علىٰ جنده وخدَّامه، عصوا أمره وذهبت رئاسته عليهم وطاعتهم له. ولو أنه أمر جماعته بالحرفة أو سؤال الناس، لتعوقوا عن السير في الطريق، وربما عادوا كلَّ من لم يعطهم شيئًا أو استغابوه، لقصورهم بصرهم عليه، بخلاف الشيخ لا يعادي من لم يعطه شيئًا ولا يستغيبه، لأنه إنما يسأل الله تعالىٰ من أبواب خلقه قيامًا بالأسباب، ولا يرىٰ

---

(١) فعل من الجنزيز، وسيبين الشيخ معناه آخر الجواب.

(٢) بالأصلين: مفسدين.

المنع والعطاء إلا من الله تعالىٰ، فإن أعطاه أحد من الخلق شيئًا، شهده من الله، وشكر الواسطة أدبًا؛ ومن منعه رأىٰ أن الله تعالىٰ لم يقسم له شيئًا علىٰ يديه، فرضي بالقسمة، أو صبر علىٰ تلك الضرورة إلىٰ أن يفرجها الله تعالىٰ.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن من الفقراء من يُكشَف له عن رزق في الروم، فيسافر إليه، فيقول الناس: هذا أمر لا يليق بالفقراء! وهو جهل منهم، فإن الرزق علىٰ قسمين: رزق سبق في علم الله أنه يُساق إلىٰ العبد، فهذا لا يحتاج فيه إلىٰ سعي؛ ورزق سبق في علم الله تعليق وصول العبد إليه علىٰ السعي، فلابد له من السعي، والعبد بين هذين الأمرين تارةً يذهب إلىٰ رزقه، وتارة يأتي رزقه إليه، فلا يُقال: السعي أفضل مطلقًا، ولا التوكل من غير سعي أفضل مطلقًا.

علىٰ أن السعي لا ينافي التوكل، فهو يسعىٰ إلىٰ رزقه وهو متوكل علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ سعيه وحذقه. وتقدم أيضًا قول رسول الله ﷺ: «فإن كنت ولابد سائلًا، فاسأل الصالحين أو ذا سلطان»[1] أي لأن الصالحين والسلطان لا يمنون بما أعطوه لحقارة الدنيا عندهم. فافهم، واحمِ سمعك وبصرك ولسانك في حق الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا رأيناه يزاحم أقرانه علىٰ صحبة الأمراء، أو يتوصل إلىٰ مصاحبتهم بالحيل، ولاث الناس به وقالوا: هذا دليل علىٰ قيام الساعة، إذا كان مشايخ العلم والطريق صاروا يزاحمون علىٰ الدنيا، فالموت خير للمؤمن في هذا الزمان، بأنه يجب حمل ذلك العالم أو الشيخ علىٰ أنه ما زاحم أقرانه علىٰ صحبة ذلك الأمير إلا بنية صالحة، كأن رآهم لا يلتفتون إلىٰ الشفاعة عنده في أحد من المظلومين، أو لا ينصحونه في أحواله، أو يفعلون ولكنه أحبَّ مشاركتهم في الخير، أو رآهم عاجزين عن أمر ذلك الأمير بالمعروف، وعرف هو من نفسه القدرة علىٰ ذلك. ويحرم حمله علىٰ أنه إنما يزاحم محبةً في الدنيا، لأن ذلك من سوء الظن، ودخول فيما بين العباد وبين ربهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٤٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يرىٰ رسول الله ﷺ في هذا الزمان يقظةً لا نومًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه لأحد من أكابر الصحابة فضلًا عن غيرهم، ولا يصح لأحد يرث مقامًا إلا من باطنية الصحابة، ولكن قد كثر الكذّابون في هذا الزمان على الله تعالىٰ، فضلًا عن نفسه ﷺ، بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، ولا يلزم من كونه لم يبلغنا ذلك عن الصحابة أن يكون ذلك لم يقع لهم، فقد يكون وقع لأحدهم ولم يبلغنا ذلك. وقد رأيتُ ورقةً بخط الشيخ جلال الدين السيوطي عند شخص من تلامذته فيها: إنني رأيتُ رسول الله ﷺ في اليقظة خمسًا وسبعين مرة. انتهىٰ. وناهيك بصدق هذا الرجل. وأخبرني الشيخ عبد القادر الشاذلي[1] أحد أصحابه أنه سمع الشيخ يقول حين دُعي إلىٰ شفاعة عند السلطان الغوري وأبىٰ: لولا أخشىٰ أن رؤية رسول الله ﷺ يقظةً تنقطع عني بدخولي على الأمراء أو جلوسي علىٰ فرشهم، لطلعتُ للسلطان وشفعت.

وقد كان سيدي محمد بن زَيْن[2] بمدينة النحرارية[3] يرىٰ النبي ﷺ كثيرًا، فأخذوه في شفاعة إلىٰ حاكم البلد، فجلس علىٰ بساطه، فانقطعت عنه الرؤيا، فسأل بعض من كان يرىٰ النبي في عصره عن سبب ذلك، فسأل[4] رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال له:

---

(١) عبد القادر بن محمد بن أحمد الشافعي الشاذلي، فاضل شافعي مؤذن مصري من تلاميذ الجلال السيوطي. له بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين، رد العقول الطائشة إلىٰ معرفة ما اختصت به خديجة وعائشة. توفي في حدود سنة ٩٣٥ هـ. «هدية العارفين» (١/ ٥٩٨)، «الأعلام» (٤/ ٤٣).

(٢) بالأصلين: رزين، والصواب ما أثبتناه، وهو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن زين بن محمد بن زين الطنتدائي الأصل النحراري الشافعي. ولد قبل (٧٦٠هـ) بالنحرارية من الغربية، ونشأ فحفظ القرآن بأبيار، وارتحل إلىٰ القاهرة فتلقىٰ العلم علىٰ بعض علمائها. وله نظم كثير في العلم والمديح النبوي. وهو مطبوع في غالب شعره علىٰ صناعة المعاني والبيان في المقابلات ونحوها، ولكلامه وقع في القلوب وفيه حكم ومعان، كل ذلك مع الصلاح والزهد، وكونه خيرًا منورًا مهابًا، ذا أحوال وكرامات. مات في مستهل ربيع الأول سنة (٨٤٥هـ) بعد رجوعه من الحج. «الضوء اللامع» (٧/ ٢٤٦)، «الأعلام» (٦/ ١٣٣).

(٣) النحرارية: تُعرف الآن بـ«النَّحَّارية»، وهي إحدىٰ قرىٰ مركز الزيات التابع لمحافظة الغربية بمصر.

(٤) بالأصلين: فقال له. والصواب ما أثبتناه.

تجلس على بساط الظالمين وتطلب رؤيتي! لا سبيل إلى ذلك. انتهى.

وممن سمعتُه من أهل عصرنا هذا يصرِّح برؤية رسول الله ﷺ الشيخ محمد الصوفي[1] المقيم بمدينة الفيوم، والشيخ عمر المغربي التواتي وجماعة ذكرناهم في «طبقات الصوفية». وكان الشيخ محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي رحمه الله يقول: المراد برؤية النبي ﷺ يقظة رؤيته في الصورة التي تنشأ من همة الرائي بواسطة صدق محبته للنبي ﷺ، لأن ذاته الشريفة المدفونة في المدينة منزهة عن كلفة المجيء والرواح، هذا هو الحق الصراح. انتهى. فاعلم ذلك، واحمِ سمعك ولسانك في حقِّ العلماء والصالحين إذا ادَّعوا شيئًا من الممكنات، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نهى جماعته أن يجلسوا عنده أو عند غيره من العلماء والصالحين إلا على طهارة ظاهرة وباطنة [من القاذورات][2] كالحدث والخبث، والكبر والحسد، والمكر والخديعة وحب الدنيا، ونحو ذلك، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا أمر لم يبلغنا أن رسول الله ﷺ أمر به أحدًا من أصحابه، مع أن مقامه أفضل من سائر الأولياء بما لا يتقارب، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ بسبب ذلك، لأنه أدب في الجملة. وقد قررنا مرارًا أن الأشياخ فيهم مجتهدون في الطريق كالمجتهدين في مذاهب الشريعة، فكما أن الأئمة أوجبوا أو حرَّموا وندبوا وكرهوا أشياء باجتهادهم وسلَّم المقلدون لهم في ذلك، فكذلك أشياخ الطريق.

---

(١) لعله أبو النجا الفيومي محمد بن خلف بن محمد، صحبه المصنف سبعة أيام، وكان جبلاً راسخًا في علم القراءات وفي الحديث والتفسير. كان يعظ الناس في جامع الأزهر وغيره. وفي ليلة موته شاع في بلاده أنه قُطِّب تلك الليلة، فمكث في القطبية دون الليلة، فلذلك كان هجير أصحابه في طريق جنازته:

هـذي جـنـازة عـاشـق ... لـيـلـة وصـالـو مـات

ولم يزالوا على ذلك حتى دُفن، رضي الله عنه. وكانت وفاته سنة (٩١٦هـ). انظر ترجمته في «الطبقات الوسطى» دار الإحسان، ترجمة رقم (٥٣٥) (٢/ ٤٤٨).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وقد ورد الأمر بالوضوء لعيادة المريض[1] ، لكونه كثير التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في إزالة مرضه، فكذلك ينبغي الطهارة لمجالسة الشيخ، لكثرة توجهه إلىٰ الله تعالىٰ، فكأن المريض والشيخ يشاهدان ربهما، فلأجل تخيُّلهما أنهما بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ندب الأشياخ الطهارة لمن جالس الشيخ تعظيمًا لذلك التخييل، وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يتحيز بمكان، فافهم.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: نفحات الحق تعالىٰ وجوده وكرمه لم تزل متوجهة إلىٰ عباده ليلًا ونهارًا، فكلُّ عبد ينبغي له الاستعداد بالطهارة، ليتلقىٰ ذلك المدد وهو متطهر تعظيمًا لله تعالىٰ. انتهىٰ. وقد رأيتُ سيدي عليًّا الضرير النبتيتي لم يزل مادًّا يده إن كان جالسًا أو مضطجعًا أو ماشيًا أو راكبًا، فقيل له في ذلك، فقال: نفحات جود الحقِّ تعالىٰ متوجهة إلىٰ عباده ليلًا ونهارًا، فأنا أتعرض لتلك النفحات. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وعظِّم الأشياخ، ولا تجلس عندهم إلا وأنت متطهر باطنًا وظاهرًا، ليعطوك من مدد الله الفائض عليهم، لا سيما شيخك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دق شخص علىٰ باب خلوته أو داره مثلًا، فقام ودفع الشخص، فوقع علىٰ ظهره أو وجهه، أو ضربه بعصا أو لكمه بيده ونحو ذلك، فلاث به الناس وقالوا: هذا فعل المجانين، بأنه ليس بمجنون، وإنما هو مجذوب في حضرة الحقِّ تعالىٰ، أي حضرة مراقبته، والجذب قريب من الجنون، فلما كان ذلك الشيخ في حضرة المناجاة مع الحقِّ تعالىٰ أو حضرة مراقبته، فأشبه من كان في الجنة وقاتل من يريد إخراجه منها مفاجأةً، غافلًا عن الميزان الشرعي في ذلك، فهو معذور لذهاب عقله عن ملاحظة أحوال الدنيا.

ويؤيد ذلك ما ورد فيمن اجتاز بين المصلي والسترة من الأمر بمقاتلته إذا لم

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٠٩٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من توضأ فأحسن الوضوء، وعاد أخاه المسلم محتسبا بوعد من جهنم، مسيرة سبعين خريفا»، والطبراني في الأوسط (٩٤٤١).

يندفع إلا بها[١]، فافهم.

ولا يذوق هذا إلا من دخل طريق الخلوة والرياضة. وهناك يعذر من ضرب الداق للباب. ومن هنا أوصىٰ الأشياخ فقراء الزاوية أن لا يفتح أحدهم خزانته أو يقفلها إلا بالهُوَيْنَىٰ من غير خبط وتزييق للباب، وكذلك لا يمشي أحدهم ويدك بقدمه علىٰ الأرض، ولا يرفع صوته إلا لعذر شرعي، كلُّ ذلك رحمة بالفقراء. وكان الشيخ تاج الدين الذاكر[٢] يفرش زاويته كلها لبابيد[٣] سودًا، فقلتُ له في ذلك، فقال: حتىٰ لا يسمع الفقير الذي في الخلوة وقع قدم المار عليه، فيشغل قلبه. انتهىٰ.

ويقع لي أنه إذا دق داق علىٰ الباب أني أحس بأن قلبي انفلق، وأمكث ساعة دهشًا، وربما أصيح بالداق فيهرب ويقول: عهدي بفلان عاقل! وما رأيته اليوم إلا مجنونًا! فليجتنب أصحاب الفقراء الدق علىٰ أبوابهم، خوفًا أن يصيح أحدهم علىٰ الداق فيخرس أو يتكسح، كما وقع ذلك لجارية سيدي الشيخ تاج الدين المتقدم ذكره حين دقت عليه باب الخلوة، ولم تزل خرساء مكسحة حتىٰ ماتت. وكان الشيخ هو الذي يتولىٰ غسل ثيابها ونقل القذر من تحتها ويقول: قد حصل ذلك لها بسبب صياحي عليها. انتهىٰ. فاعرف أحوال الفقراء يا أخي قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لمن أراد أن يأخذ عنه الطريق: رح معافىٰ، ولا تعرِّض نفسك للجذام والبرص والأمراض التي لا ينفع فيها طبيب، والفقر المدقع،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٦٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحدا يمر بين يديه وليدرأه ما استطاع، فإن أبىٰ فليقاتله فإنما هو شيطان» وابن ماجه (٩٥٤) والنسائي (٧٠٣٨).

(٢) تاج الدّين عبد الوهاب الذاكر المصري الشيخ الصّالح المسلك المربي المجد الدّاعي إلىٰ الله تعالىٰ. كان رضي الله عنه وجهه يضيء من نور قلبه ذا سمت حسن، وتجمل بالأخلاق الجميلة تكاد كل شعرة منه تنطق، وتقول: هذا ولي الله. مكث خمسا وعشرين سنة لم يضع جنبه علىٰ الأرض إنما ينام جالسا علىٰ حصير توفي ٩٢٢هـ ودفن بزاويته قريبًا من حمّام الدودحين. «شذرات الذهب» (١٠/ ١٥٦) و«الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٠١).

(٣) جمع لُبَّادَة، وهي ما يُلْبَسُ من اللُّبُود للوقاية من المطر والبرد.

وقساوة قلوب الخلق عليك مع ذلك؛ فلاث به بعض الناس وقال: هذا تنفير للناس عن طلب الطريق، وما هكذا كان الأشياخ الذين أدركناهم، إنما كانوا يُرغِّبون الناس فيها، ويعدونهم بكل خير إن دخلوها، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه أعلم ذلك المريد من باب النصح بما يقع له في الغالب إذا دخل الطريق من البلايا والمحن، فخاف عليه إن رغَّبه فيها أن يدخل في عهد الفقراء ثم لا يصبر علىٰ تلك البلايا والمحن، فينكث عهد الفقراء، فيعذبه الله عذابًا لم يعذب به أحدًا من العالمين، كما قاله الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله.

وقد قال سيدي عمر بن الفارض في قصيدته اليائية:

رح معافًىٰ واغتنم نصحي وإن ... شئتَ أن تهوىٰ فللبلوىٰ تَهَي

وقال في قصيدته الفائية:

ولقد أقول لمن تحرش بالهوىٰ ... عرضت نفسك للبلا فاستهدف

وأنشد الحلاج لما أخرجوه للقتل:

سقاني ثم حياني ... كفعل الضيف بالضيف

فلما همت في سكري ... أراد القتل بالسيف

هذا جزاء من يشرب ... مع التنين في الصيف

لكن لا يخفىٰ أن الأشياخ حكماء علماء، فلا يذكرون للمريد الآفات التي تستقبله في الطريق إلا إن علموا أنه غير محبوب لله عزَّ وجلَّ بالاختصاص الإلهيِّ؛ إذ المحبوب لا يُمتحَن، وإنما يُمتحَن من يدعي المحبة بغير صدق، فيبتليه الله تعالىٰ ليطلعه علىٰ صدقه أو كذبه.

فإن قال قائل: إن الأنبياء محبوبون بالإجماع وقد ابتلاهم الله تعالىٰ؛ **فالجواب:** أن كل نبي محب ومحبوب، فهو من حيثُ بشريتُه محب، ومن حيثُ روحانيته محبوب، فما ابتُلي أحدهم إلا من حيثُ الجزءُ البشري، فإنه يدق في الأكابر ولا ينقطع

بالكلية[1]، ومنه قال رسول الله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[2]، وفي رواية: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، وأرضىٰ كما يرضىٰ البشر»[3]. انتهىٰ، أي من حيث الجزءُ البشريُّ الذي فيَّ. ويحتمل أن يكون قال ذلك تشريعًا لأمته، ليقتدوا به في صبره علىٰ البلايا التي تصيبهم لا اختبارًا له ﷺ لأجل ما فيه من الجزء البشري، فإنه ذهب منه ﷺ بالكلية، فلم يحتج إلىٰ امتحان جملة. وهذا هو الذي نختاره ويثلج له الصدر. لكن قوله تعالىٰ في أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] فيه رائحة أن ذلك البلاء كان اختبارًا له. والله أعلم بحقيقة مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورة، فاعلم ذلك وإياك والاعتراض علىٰ أشياخ الطريق بغير علم في شيء من أحوالهم إلا بنص صريح، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يعبد الله تعالىٰ خالصًا مخلصًا لا خوفًا من ناره، ولا رجاء لثوابه، فلاث به الناس وقالوا: فلان يدعي الدعاوىٰ العريضة والمقامات التي لا توجد في هذا الزمان، بأنه لا ينبغي اللوث به، لأن هذا المقام يكون للمبتديء أول دخوله في الطريق، فإن الطريق مبنيَّة علىٰ التوحيد لله تعالىٰ في الفعل والملك والوجود، فمن لم يكن ذلك مشهده ببادئ الرأي ثم يضيف ذلك إلىٰ الخلق ثانيًا لأجل أحكام التكليف، فهو لم يدخل طريق القوم، فلا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ إذا ادَّعىٰ مقام المريدين، بل ذلك منه غاية التواضع.

وإيضاح ذلك أن المريد إذا أطلعه الله تعالىٰ كشفًا علىٰ أنه تعالىٰ هو خالق لأفعاله، خرج عن نسبة العمل لنفسه ما عدا نسبة التكليف، وعن طلب الثواب به، وعن رؤية نفسه به علىٰ إخوانه، لأن أحدًا لا يطلب ثوابًا بفعل غيره، ولا يرىٰ به نفسه علىٰ أحد،

---

(١) قد تقدم أن عدم انقطاع الجزء البشري خاص بالأولياء دون الأنبياء، انظر الجواب (١٩٢). وتقدم أيضًا التوفيق بين تعارض القولين في الحاشية في الجواب (٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (٣٧٥٩).

(٣) سبق تخريجه.

وهذا هو مقام الإخلاص الذي غلط فيه غالب الناس، فيرىٰ أحدهم العمل لنفسه شهودًا ولا يراه [لله تعالىٰ] إلا إيمانًا، ثم يريد أن يخلص فلا يقدر، وربما مات علىٰ ذلك.

ومن فهم قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] عرف ما قلناه، فإنه تعالىٰ نكَّر أحدًا، فشمل نفس العبد إذا أشركها مع ربه في العمل، فمن أشرك نفسه مع ربه، فقد خرج عن الإخلاص، إلا إن كان ذلك من حيثُ نسبةُ التكليف المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه تعالىٰ أثبت للعبد المشاركة من حيثُ كونُ العبد محلًا لظهور الأفعال، لأنها لا تظهر إلا في جسم. ولولا إضافة الحقِّ تعالىٰ العمل إلىٰ العبد ما كان يسوغ له أن يدَّعي العمل بوجه من الوجوه. ومن هنا قالوا: إن العارف إذا تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا يقولها إلا علىٰ سبيل التلاوة للقرآن تصديقًا للحقِّ جلَّ وعلا، وإلا فهو يستحيي في تلك الحضرة من الحق تعالىٰ أن يرىٰ له شركة حقيقية في الفعل، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: ما أمر الشارع العبد بأنه يعبد الله كأنه يراه إلا إرشادًا لطريق الإخلاص، فإن العبد في تلك الحضرة يرىٰ الفعل كله خلقًا لله تعالىٰ، لا يرىٰ لنفسه منه شيئًا كشفًا ويقينًا، فيخرج عن الشرك والرياء جملة واحدة. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لا اعتراض علىٰ الشيخ إذا قال: إني عبدتُ ربي خالصًا مخلصًا؛ لأنه مقام يصل إليه المريد أوائل دخوله في الطريق. وقد كانت رابعة العدوية تقول: الواجب علىٰ كل مسلم أن يعبد الله تعالىٰ، لا خوفًا من ناره ولا رجاء لجنته. وتقول: قد ورد في بعض الكتب الإلهية أن الله تعالىٰ يقول: «ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار، لو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلًا لأن أطاع؟». انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تصغىٰ لمن يقول إن هذا مقام الخواص، كما يقع فيه من لم يدخل الطريق، فيقول عن كلِّ شيء لم يذقه في نفسه: هذا مقام الخواص. والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سمعناه يقول لنفسه أو غيره: إذا رأيتَ جماعة القاضي أو الدفتردار مثلًا، فاشكرني بحضرتهم، وصرِّح بأني

من أولياء الله تعالىٰ، فلعلهم يحسنون إلينا بشيء؛ فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا من **علامة ريائه قطعًا، ولو كان مخلصًا ما تلفظ بمثل ذلك**، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بمجرد سماعنا ذلك، فربما كان ذلك لغرض شرعي، كأن يعرف ذلك القاضي أو الدفتردار مكانه في العلم والصلاح، فيصير يقبل شفاعته ولا يحوجه إلىٰ تزكية نفسه إذا قال له: من أنتم؟ وما اسمكم؟ وما صفتكم؟ فقصد الشيخ بوصفه بالولاية سرعة قضاء ذلك القاضي أو الأمير تلك الحاجة التي يشفع فيها عنده.

ومعنىٰ قول الشيخ: «صرِّح بولايتي له» أي لأني مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إلىٰ آخر أوصاف الإيمان، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، فأنا مؤمن بالله من الشرك.

ومعنىٰ قوله: «فلعله يحسن إلينا» أي يقبل شفاعتنا، فيكسبنا الأجر فيحسن إلينا، فاعلم ذلك.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد إذا دُعِي إلىٰ شفاعة عند أمير لا يعرفه، يقول لصاحب الحاجة: اذهب فخذ لك أحدًا من وجوه الناس، واذهب إلىٰ بوابة الأمير الفلاني، فقل لجماعته: سيدي الشيخ جاءكم، فإذا قالوا: من هذا الشيخ؟ فقل لهم: أحمد الزاهد. فإذا قالوا: من هذا الزاهد؟ فقل لهم: مثلكم يجهله! إنه رجل عظيم من أولياء الله تعالىٰ! ثم إذا رأيتني جئتُ، فاخرج من البوابة وقبِّل يدي واعضدني من تحت إبطي، فيرىٰ ذلك جماعة الأمير فيفعلون مثل فعلك، ثم يخبرون الأمير بمقامي، أو يرىٰ هو ذلك الفعل معي، فيعظمني الآخر علىٰ التقليد لجماعته، فيقضي حاجتك، بخلاف ما إذا ذهبتُ إليه وهو لا يعرفني وسألني من أنت؟ فإن زكيت نفسي استخف عقلي، وإن كتمتُ حالي لم يلتفت إليَّ. انتهىٰ. فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأشياخ قياسًا علىٰ ما تفهمه بفهمك القاصر أو الجائر، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في أيام الفصول: من أعطاني كذا وكذا حملت حملة ولده ولا يموت في هذا الفصل؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا كفر، بأنه ربما كان من أهل الكشف الذين أطلعهم الله تعالىٰ علىٰ بعض أعمار الخلائق، ورأىٰ في ألواح المحو والإثبات أن فلانًا إذا دفع لفلان كذا وكذا، زدنا له في عمر ولده، فقال الشيخ ذلك اعتمادًا علىٰ ما رآه من طريق كشفه. وأما أخذه المال علىٰ ذلك فهو حلال، لأنه كأخذ الأجرة علىٰ الرقية، وقد أقر رسول الله ﷺ أصحابه وقال: «اضربوا لي معكم فيها بسهم»[1]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: الأولياء في أخذ الجعالة علىٰ تحمل حملات الناس علىٰ قسمين: منهم من يأخذها؛ ومنهم من يتعفف عنها، وهم الأكثر من الأولياء. انتهىٰ.

وقد أرسل إليَّ الباشاه محمد نائب مصر دراهم أيام الفصل في جملة فقراء مصر، لأحمل حملة ولده فلا يموت في ذلك الفصل، فرددتها وقلتُ: لا يخلو إما أن يكون قد سبق في علم الله أن ولده يموت في هذا الفصل، فلا أقدر أنا ولا غيري أن نرد عنه الموت، فعلىٰ أي معنىٰ آخذ ماله؟! وإما أن يكون سبق في علم الله موته، فما فعلتُ شيئًا استحق به أخذ ذلك المال، وإن سبق في علم الله تعالىٰ توقف حياته علىٰ دعائي من باب توقف الأسباب علىٰ المسبَّبات، فأنا أفعل ذلك احتسابًا لوجه الله تعالىٰ. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي وإذا بلغك عن فقير شيء من الأفعال التي لا يقبلها عقلك، فسلِّم له، أو استفتِ عليه العلماء العاملين، ثم أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل بستانًا فيه تين وتفاح وغير ذلك، وقال لجماعته: كلوا واشبعوا قبل أن يجيء صاحب الغيط أو الحارس، فيمنعكم من الأكل. وكان معه فقيه فخرج ورجع إلىٰ البلد، وصار يحكي ذلك للناس، فيلوثون بالشيخ وبجماعته وينكرون عليه أشد الإنكار، بأن ذلك الشيخ ربما اطلع من طريق كشفه أن ذلك الفقيه ليس له نصيب في صحبته، ولا في الأكل من ثمر ذلك البستان، فطرده عنه

---

(١) تقدم تخريجه.

بذلك القول، فإن للأشياخ مكرًا خفيًا بمن يريد صحبتهم فيمتحنونه، ليظهر له صدق نفسه أو كذبها، فإن من شرط المريد أن يعتقد أن شيخه أعلم منه بالشريعة، بل لا يعرف من أسرار الله إلا ما أخبره به شيخه.

وقد وقع مثل هذه الحكاية لسيدي ياقوت العرشي، فخرج يومًا هو وجماعته [إلىٰ بستان فيه تين ورمان وموز خارج إسكندرية، وكان معه فقيه كثير الإنكار، فدخل الشيخ وجماعته ذلك البستان][1] فوجدوا صاحبه غائبًا، فقال الشيخ للفقيه ولأصحابه: كلوا واشبعوا من هذا التين قبل أن يجيء صاحبه فيخرجكم. فأكل جماعته إلا الفقيه، فقال: هذا يحرم عليكم. وفهم من قول الشيخ: كلوا واشبعوا، أي كلوا حرامًا واشبعوا منه قبل أن يجيء صاحب البستان، فيمنعكم من أكل هذا الحرام، وبالغ في الإنكار عليهم وقال: إن استحللتم ذلك كفرتم. فبينما هم كذلك، إذ دخل صاحب البستان وقال للشيخ: قد خرجتُ لكم عن هذه البطن التي في بستاني كلِّها من التين من أول أمس، فخجل الفقيه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من الصوفية، فإنهم أورع منك بيقين، واحملهم علىٰ المحامل الحسنة مادمت لم تدخل طريقهم، فربما كُشِفَ لأحدهم أن صاحب البستان قد خرج لهم عن ثمرته بطيب نفس، وصار ذلك عنده كالتصريح بالعزومة علىٰ حدٍّ سواء. وقول الشيخ: «كلوا واشبعوا قبل أن يجيء صاحب البستان، فيمنعكم من الأكل» لا يقتضي تحريم ذلك الأكل الواقع قبل المنع، كما لو قال لجماعة: أذنتُ لكم أن تأكلوا حتىٰ أمنعكم من الأكل، فهم يأكلون بإذنه ويتركون الأكل بإذنه، ولا حرج عليهم في ذلك. ولو كان هذا الفقيه حسن الظن بالفقراء لم يفهم عنهم غير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا عمل المخبظون ليلة تحت بيته في شارع أو خليج، فصار جالسًا في الشباك أو الطاق ينظر إليهم إلىٰ الصباح، فلاث الناس به وقالوا: هذا لا يليق بالعالم ولا بالشيخ، بأنه ربما كان ذلك العالم أو

---

(١) ساقط من «ب».

الشيخ إنما جلس يحوطهم من نزول البلاء عليهم حال لهوهم ولعبهم وغفلتهم بأسماء الله تعالىٰ، كما يفعله رجال الرحمة الذين يجلسون في مواضع الظلم والمكوس، فلا يزال أحدهم يتضرع ويبتهل إلىٰ الله تعالىٰ في الحلم عليهم، ثم المغفرة لهم.

وقد فعلتُ ذلك مرةً حين عمل بعض جيراني من الظلمة عرسًا، وأتىٰ بخيَّال الظل والمخبظين، فلم يأخذني نوم إلىٰ الصباح وأنا أحوطهم وأدعو لهم، ولو علمتُ بأن صاحب العرس لا يسلط جماعته عليَّ بالضرب ورميي في الخليج إذا منعتهم لمنعتهم، فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا حدَّثه أحد من إخوانه حديثًا لا ينبغي إشاعته، وقال: لا تتكلم به لأحد؛ فامتلأت الحارة بذلك أو البلد، فلاث به ذلك الشخص وقال: كيف يجوز لهذا العالم أو الشيخ أن يفشي سرَّ من استودعه سرَّه، وصار العالم أو الشيخ يحلف له فلا يصدقه، ويقول: إني لم أخبر بذلك أحدًا غيرك، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ ذلك العالم أو الشيخ، وحمله علىٰ أنه يقع في إفشاء السرِّ، لاحتمال أن تكون تلك الإشاعة إنما حصلت ممن كان حاضرًا عندهما من الجنِّ، كما يقع كثيرًا للناس.

وأنا ممن وقع لي ذلك، فاستحفظني أمير المؤمنين مرةً كلامًا، فلم أنطق به لأحد، فوجده عقب ذكره ذلك لي في جامع الأزهر، وحلف لي بالطلاق الثلاث أنه لم ينطق به لغيري، وكذلك أنا لم أذكره لأحد.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين أنه عمل قصيدة بمدينة بالقيروان في شاب صحبه من القيروان اسمه محمد بن المثنىٰ نحو أربعين بيتًا، فلما دخل تلمسان رأىٰ شخصًا ينشدها، فقال: من أين وصلت إليك هذه القصيدة؟! فقال: وصلت لي علىٰ يد شخص من منذ تسعين يومًا. فحسب الوقت الذي نظمها فيه، فوجده مطابقًا للتسعين يومًا، وبين القيروان وتلمسان ما لا يخفىٰ من طول المسافة، فتعجب الشيخ محيي الدين من ذلك، وقال: إني لم أخبر بها أحدًا، وإنما قلتها في نفسي. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رضي الله عنه يقول: إياك أن يراك أحد من العلماء والصالحين علىٰ فاحشة، فتظن به أنه يذكرها للناس، فإن ذلك منك سوء ظن به، بل الواجب عليك أن لا تحدث بذلك نفسك. وأما حديث: «استحي من الله كما تستحيي من رجلين صالحين من أهلك»[1]، فلا ينافي ما ذكرناه، لأن الحديث ورد في وقوع الحياء، ونحن إنما نتكلم في كشف العالم لعورات الناس. وكان يقول: من حق العالم أو الصالح أن لا يخاف من إفشائهما الأسرار، كما لا يخاف الإنسان من إفشاء الأرض التي عصىٰ فيها أن تخبر به الناس في الدنيا. فاعلم ذلك وصدِّق العالم والشيخ إذا أنكرا أنهما حدثا أحدًا ما حدثتهما به، واجعل ذلك من كلام الجنّ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي قال: أنا أحب كلَّ شيء ينكس رأسي بين الناس، ولو كان معصية! فلاث به الناس وقالوا: كيف يحبُّ هذا معصية الله عزَّ وجلَّ، وإنما الواجب علىٰ العبد كراهة المعاصي فرارًا من مواضع غضب الله تعالىٰ عليه، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقير بمجرد هذا القول، فربما كان مقصوده بذلك ذكر نقائصه [للإخوان ليدعوا له حتىٰ يصير يكره المعاصي، كما يذكر المريد لشيخه نقائصه][2] وعيوبه الباطنة، ليدله علىٰ الخلوص منها، أو أنه رأىٰ أن تلك المعصية التي تقع منه أخف مما يراه في نفسه من العجب والكبر والفخر، فأحب الوقوع في أخف المفسدتين من حيثُ الأثرُ الحاصلُ بارتكاب المعصية، ولا يجوز حمل الفقير علىٰ أنه يحب المعاصي لذاتها، فإن ذلك بعيد من مثله أن يقع فيه. وفي الحكم لابن عطاء الله: «معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا» أي من حيثُ الأثرُ المترتبُ عليهما.

فمراد الفقير بقوله لإخوانه: «أنا أحب المعاصي التي تنكس رأسي في الدنيا» التوبيخ لنفسه، أي إن نفسي الخبيثة تحب كلَّ ما ينكس رأسها في الدنيا والآخرة، فادعوا لها بإصلاح

---

(١) أخرجه ابن عبدي في «الكامل» (٥/ ١٤٢)، وهو عند أحمد في «الزهد» (٢٤٨) بلفظ: «أوصيك أن تستحي الله عز وجل، كما تستحي رجلا صالحا من قومك»، والطبراني في الأوسط (٥٥٣٩).

(٢) ساقط من «ب».

الحال. ويُحتمل أن يكون مراده: أنا أحب المعصية من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ، لا من حيثُ إني كاسب لها. فاعلم ذلك، واحمِ سمعك ولسانك عن سوء الظنِّ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان طول عمره معتزلًا في بيته عن الأمراء والأكابر وهم يأتون إليه، ثم إنه ترك العزلة وصار يدور عليهم في بيوتهم يزورهم ويسألهم الدنيا، فلاث الناس به وقالوا: هذه خاتمة سوء وقعت لفلان، ولو أنه كان عكس هذا الحال، وختم عمره بالاعتزال عن الناس لكان أفضل، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ، فقد يكون خاف علىٰ نفسه من فتنة الجاه بتردد الأكابر إليه، فترك العزلة لكونها كانت سببًا في ترددهم إليه، لأن من شأن الناس طلب القرب ممن هرب منهم، وهربهم ممن خالطهم، فأراد هذا الشيخ إزالة ذلك الجاه بترك العزلة وسؤالهم الدنيا: إما لينفقها علىٰ الفقراء والمساكين، أو علىٰ نفسه وعياله بطريقه الشرعي، بقصد نفع الأغنياء والفقراء. وهذا الحال أفضل من الحال الذي كان فيه أولًا.

فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من كان مخالطًا ثم اعتزل، أو كان معتزلًا ثم خالط، واحمل كلًّا منهما علىٰ أحسن حال، وأنه ما خالط أو اعتزل إلا بنية صالحة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله قبله أو معه أو بعده؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال: رؤية الله تعالىٰ ممتنعة للمؤمنين في الدنيا، فكيف يدعي هذا رؤية الله؟ بأنه لا ينبغي الإنكار، فقد يكون مراده برؤية الله رؤية كونه تعالىٰ خالقًا لذلك الشيء علىٰ حذف مضمر، وليس مراده الرؤية التي تكون للمؤمنين في الآخرة، ولا بد من هذا التأويل. وأصل هذا المقام كان لأبي بكر الصديق ﷺ، ثم لعمر، ثم لعثمان ﷺ، لكن مقامهم كان متفاوتًا، فكان أبو بكر يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله قبله. وكان عمر يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله معه. وكان عثمان يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله بعده. ومرادهم رأيتُ الله فاعلًا، فما وقعت الرؤية إلا علىٰ

شهود صفة الخلق لا علىٰ كنه الذات، وهذا أمر لا ينبغي إنكاره، فإن كل إنسان لا يتبادر لذهنه إلا ما هو الغالب عليه.

وقد وقع أن شخصًا ادعىٰ رؤية الله عزَّ وجلَّ، فأتوا به إلىٰ سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ، فقال: هذا شخص صادق في دعواه، لكنه ملبَّس عليه. وذلك أنه خرق من قلبه إلىٰ بصره خرق، فرأىٰ الحقَّ تعالىٰ بعين بصيرته، فظن أنها ببصره. انتهىٰ. أي فإن رؤية الله تعالىٰ بالبصيرة ليس بممنوع؛ لأنه إيمان.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: من ادعىٰ من الفقراء رؤية الله في هذه الدار فهو ملبَّس عليه، لأنه لا يرىٰ إلا ما قام في خياله. وتعالىٰ الله عما يخطر بالبال من الأشكال. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كلام السيد أبي بكر وعمر وعثمان ومن قال بقولهم علىٰ أن في الكلام إضمارًا، لا بد من ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دخل علىٰ السلطان أو الوزير مثلًا وحياه بالانحناء له دون قوله: السلام عليكم ورحمه الله وبركاته؛ فلاث به بعض العلماء وقال: هذه بدعة مكروهة أو حرام لا ينبغي فعلها، بأنه ربما فعل ذلك نسيانًا للسنة حين رأىٰ جماعة السلطان يخضعون له برقابهم، فوافقهم غافلًا عن السنة، أو أنه كان ذاكرًا لها، ولكنه خاف ضررًا من جماعة السلطان كأن يدفعوه ويخرجوه ويبهدلوه ونحو ذلك.

وإيضاح ذلك أن السلام أمان، فكأن من يسلِّم يعطي الأمان لمن سلَّم عليه، ويقول: أنت في أمان مني. ومعلوم أن السلطان أو الوزير لا يخاف من ذلك العالم أو الشيخ عادةً حتىٰ إنه يعطيه الأمان منه، فإذا قال أحد من الرعية للسلطان: السلام عليك، فليس معناه إعطاء الأمان للسلطان من جهة خوف السلطان من ذلك المسلِّم أن يبطش به مثلًا، وإنما معناه أنت في أمان مني يا مولانا السلطان أني أخرج عن طاعتك، فهو طاعة له، وتصريح بأنه تحت أمره لا يخرج عنه.

ومن هنا تعرف يا أخي الجواب عن قول المصلي في الصلاة: «السلام عليك أيها

النبي ورحمة الله وبركاته» أي أنت في أمان مني يا رسول الله أن أخرج عن شرعك، فيطمئن خاطر نبيه بذلك، ويدخل عليه السرور به، فإنه ﷺ أشد الناس حرصًا علىٰ حصول الخير لأمته.

وقد نقل الجلال السيوطي رحمه الله عن كتاب «التحيات» لأبي طالب الجمحي رحمه الله أن أشرف التحيات تحية العرب، وهي قول العبد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكانت تحية الأكاسرة السجود لهم وتقبيل الأرض بين يديهم، وتحية الفرس طرح اليدين علىٰ الأرض بين يدي الملك. وتحية الحبشة عقد اليدين علىٰ الصدر بين يدي الملك بسكون. وتحية الروم كشف غطاء الرأس من بُعْدٍ مع تنكيس الرأس. وتحية النوبة إيماء الداخل علىٰ الملك بالدعاء بالإصبع. وتحية البجا[1] وضع يد الداخل علىٰ كتف الملك، فإن بالغ في الخدمة، رفعها ووضعها مرارًا. انتهىٰ.

قال الجلال السيوطي: وهذا سرٌّ جمع الشارع لفظ التحيات في الصلاة، أي إن الله تعالىٰ هو المستحِق لجميع التحيات التي يتحيا بها الملوك في سائر أقطار الأرض، لأنه تعالىٰ ملك الملوك. انتهىٰ. فاعلم ذلك ونزِّه العلماء والصالحين عن الوقوع في مخالفة السنة إلا بطريق شرعي تجده مفتوحًا عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا دخل عليه جماعة من العلماء يزورونه، فلم يلتفت إلىٰ أحد منهم، ولم يوجه له خطابًا، فلاثوا به وقالوا: نحن الظالمون الذين نزور جاهلًا متكبرًا، ولو كان أحدنا حوله برٌّ كالأمراء والأغنياء، لأقبل عليه وكلَّمه وتبسم في وجهه ونحو ذلك، بأنه لا ينبغي لهؤلاء المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان في ذلك الوقت في تحرير وجه الشريعة وطريقها ليمشي عليه هنا، ليستقيم في المشي علىٰ الصراط في الآخرة، فإن حقيقة المشي علىٰ الصراط إنما هو هنا لا هناك، فإنه لا يمشي هناك إلا علىٰ صورة مشيه علىٰ صراط الشريعة هنا، فمن زاغ هنا زاغ

(١) البجة أو البجا أو البجاة اسم يطلق علىٰ الشعب الذي يسكن ما بين ساحل البحر الأحمر ونهر النيل في السودان وعلىٰ امتداد من الشمال مروراً بمنطقة مثلث حلايب.

هناك، إلا أن يأخذ الحق تعالىٰ بيده، ومن استقام هنا استقام هناك.

فمن دخل علىٰ فقير وهو مشغول بتحرير وجه الشريعة، وطلب منه كلامًا أو تبسمًا فهو كمن يطلب من الماشي علىٰ الصراط يوم القيامة وهو يرعد كالقصبة الفارسية خوفًا من الوقوع في النار أن يشتغل به، ويقدم له ما يأكل وما يشرب.

وكان سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: الخوف من النار في الحقيقة إنما هو هنا لا هناك، فإياك أن تدخل علىٰ فقير فلم يلتفت إليك فتتكدر منه، واعذره فربما يكون في تحرير أمر يستقيم به علىٰ الصراط، فإن من كان كذلك لا يصير له وجهة إلىٰ الخلق، ولو دخل عليه أكبر ملوك الدنيا لم يلتفت إليه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وصَفِّ نفسك من الرعونات قبل أن تدخل علىٰ أحد من الأشياخ، لتخرج سالـمًا من المقت. وفي كلام الشيخ أبي تراب النَّخْشَبِي رضي الله عنه: إذا ألف القلب الإعراض عن الله، صحبته الوقيعة في أولياء الله. انتهىٰ. فلو كنت يا أخي مقبلًا علىٰ الدار الآخرة فضلًا عن الإقبال علىٰ ربك، لالتهيتَ عن الخلق، ولما وجدتَ لك فراغًا إليهم.

[رد قول المعترض بأن تلك المحامل الحسنة ليس المحمول عليها من أهلها]

فإن قلتَ: هذه الدرجة التي حملت فلانًا عليها ليس هو من أهلها؛ **فالجواب**: أنه قد يمنُّ الله تعالىٰ عليه بها ذلك الوقت الذي دخلتَ عليه فيه. فاعلم ذلك، واحمِ سمعك وبصرك ولسانك وقلبك من استعمالها في غير مرضاة الله، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخذ جماعة الوالي أو رسل قاضي الشريعة غريمًا من زاويته وبهدلوا جماعته، فلاث الناس به وقالوا: لو كان هذا شيخًا صادقًا وله مروءة، ما مكَّن أحدًا يأخذ الغريم من زاويته، ولكن قد ذهب الفقراء الصادقون ونحو ذلك، بأنه لا يقدح في مقام الولي أخذ ولاة السياسة أو الشريعة غريمًا من زاويته، ولا يلزم من ذلك عدم صدقه في الطريق، وقد يعطيه الله تعالىٰ التصريف في الولاة بالعزل[1] والنفخ

---

(١) بالأصلين: بالعزم.

وحبس البول، حتىٰ يكاد أحدهم يهلك، ويترك ذلك أدبًا مع الله تعالىٰ ومع شريعته.

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة لولاة الأمور ما لم يأمرونا بمعصية الله عزَّ وجلَّ، وكلُّ فقير تكدَّر من كبس زاويته بأعوان الولاة وأخذ الغريم الذي احتمىٰ به منهم وقال: هذه بهدلة لخرقة الفقراء، فهو جاهل بطريق الأدب، فإن خرق ناموس الشريعة أقبح من خرق ناموس الفقراء، ولو كان الفقير صادقًا لساعد أعوان الولاة علىٰ إخراجه من زاويته، لكن محل ذلك ما إذا لم يكن مظلومًا، فافهم.

وقد كان الشيخ محمد بن عنان من أكابر الأولياء في عصره، وكبس السلطان الغوري[1] زاويته بالوالي، وأخذ منها شخصًا كان عليه مال للسلطان، فقالوا له: يا سيدي، في هذا خرق ناموس الفقراء! فقال: عدم خرق ناموس المملكة مقدَّم! مع أنه ﷺ لو سأل الله تعالىٰ أن يهلك جماعة الوالي كلَّهم، لربما أجابه الله تعالىٰ، لما كان عليه من الصدق مع الله تعالىٰ.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من عدم عطب الشيخ لجماعة الولاة الذين كبسوا زاويته أن يكون عاجزًا عن ذلك، وإنما يجب حمله علىٰ أنه تركه لما هو عليه من الرحمة والشفقة علىٰ المسلمين من الولاة وغيرهم. وإن وقع أن شيخًا عطب أحدًا من الأمراء ونحوهم، حملناه وجوبًا علىٰ أن ذلك بإذن من الله تعالىٰ له من طريق الإلهام، فتراه ينفخ ذلك الأمير ويرىٰ أن الله تعالىٰ هو الفاعل لا هو. وإن وقع أنه قُتِلَ بتوجهه، حملناه علىٰ أن عمر ذلك المقتول انتهىٰ حين توجه الشيخ فيه، لا أن الشيخ قتله قبل انتهاء أجله، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن»، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يخرج من مصر مثلًا يتلقىٰ النائب الذي ولَّاه السلطان بها من نحو مدينة غزة، فلاث الناس به وقالوا: إنما سار إليه ليتعرف به، ويستمطر منه دنيا أو وظيفة، ولو كان هذا شخصًا من العلماء أو الصالحين ما ذهب إلىٰ لقائه من هذه المسافة، بأنه ربما كان من أصحاب النوبة بمصر، فخرج إلىٰ ذلك النائب

---

(١) الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري، تولىٰ سلطنة مصر بعد الملك الأشرف جان بلاط سنة (٩٠٦هـ)، وقتل سنة (٩٢٢هـ) في حروبه مع الدولة العثمانية.

ليقع بصره عليه ويكسر سَوْرَته[1] وحدته التي هو داخل بها. وربما لم يكن من أصحاب النوبة، ولكن دعاه أصحاب النوبة إلىٰ الخروج معهم تكثيرًا لسوادهم.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يتولىٰ أمير ولا قاضٍ من بلاد الروم علىٰ مصر إلا خرج إليه أصحاب النوبة، فتلقوه من العريش الذي هو آخر درك أولياء مصر، فإن درك أولياء الشام يبتديء من الشام إلىٰ العريش. فإن جاء ذلك الأمير أو القاضي من البحر، تلقوه من مدينة إسكندرية، فلا يزال أحدهم يهضم نفس ذلك الأمير أو القاضي، ويميل قلبه بالرحمة علىٰ الرعية. حتىٰ لا يدخل مصر إلا وهو في غاية الأدب والرقة والعفة عن أموال الرعية، ولولا ذلك لدخل مصر بصولة وزفرة، فبطش في العمال وغيرهم، ولم يحتمله أحد. ثم لا بد من توجه أصحاب النوبة كذلك في الرعية، ليرجعوا عن ظلمهم ومعاصي ربهم، ويستقيموا حدَّ الاستقامة الممكنة لأمثالهم، وإلا فلا يقدِر أحد أن يرد عنهم ذلك الأمير أو القاضي أو الوالي، ولسان حاله يقول: أنا ظلُّكم، فإن كان أحدكم أعوج، فأنا أعوج تبعًا لكم قهرًا عليَّ، وإن كان أحدكم مستقيمًا، فأنا مستقيم تبعًا لكم، ولو أردتُ أن أتعوج لم أقدر.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا خرج الأمر الإلهيُّ السماويُّ من حضرة الأمر، خرج وله صولة عظيمة لا يحتمله إلا من أيده الله تعالىٰ بقوة زائدة علىٰ مقدور البشر، ولذلك يمكث نازلًا مدة ثلاث سنين، فلا يصل إلىٰ الأرض إلا بعدها كما يراه أهل الكشف، فيصل إلىٰ الأرض وقد انسحقت تلك الصولة في الأفلاك وما بينها، حتىٰ صار يحتمله أدنىٰ الخلق، ولولا ذلك لما أطاق حمله أحد. انتهىٰ.

وكذلك القول في الأمر الخارج من حضرة السلطان سليمان ابن عثمان[2] مثلاً يخرج من حضرته وله صولة عظيمة، من حيثُ إن الله تعالىٰ حكَّم السلطان في أهل الأرض،

---

(١) سَوْرَةُ الغضب: شدَّته.

(٢) سليمان ابن السلطان سليم العثماني. مولده سنة (٩٠٠هـ)، وتسلطن سنة (٩٢٩هـ). له فتوحات عظيمة وجهاد مشهور. ومات سنة (٩٧٤هـ). انظر: «الطبقات الوسطىٰ» (٢/ ٢٦٢).

وملّكه رقابهم. وقد قال أهل الكشف: إن دواوين ملوك الأرض علىٰ صورة دواوين أهل السماء، حتىٰ إن الملائكة الذين يكتبون السيئات يكونون علىٰ يسار الداخل إلىٰ الحضرة الإلهيّة، ككاتب السيئات في الأرض الجالس في سجن المجرمين والمديونين، فلولا خروج أولياء مصر إلىٰ ذلك النائب أو ذلك القاضي أو الدفتردار مثلًا وتعويقه في الطريق نحو الشهرين والثلاثة، لدخل بزفرة عظيمة، وتصير العامة يستبطئون دخوله، ويسحبونه بالقلب، ولا يعرفون أن ذلك رحمة بهم.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا لسانكم في أولياء زمانكم إذا تلقَّوا ولاتكم، فإن في ذلك مصلحتكم. وإن ظلمكم أحد من الولاة، فلوذوا بأوليائكم ولو من طريق الإيمان بوجودهم، فإما يعزلونه لكم، وإما يخففون عنكم الظلم، فإن قلوبهم بيد تصريف الأولياء بإذن الله، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للأمير أو غيره: إذا كان لك إلىٰ الله تعالىٰ حاجة، فتوجه إليَّ بقلبك، وإياك أن تشرك معي غيري من المشايخ، فإنها لا تُقضَىٰ. فسمعه بعض الناس، فلاث به وقال: هذه دعوىٰ عريضة! بأنه لا يلزم من ذلك القول أن يكون صاحبه يرىٰ نفسه أفضل من مشايخ عصره، وإنما ذلك إرشاد له، لتُقضىٰ حاجته بسرعة من غير بطء كما جُرِّب، إذ الوجود كله مبني علىٰ التوحيد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقد كان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله يقول لتلامذته: من كان منكم له إلىٰ الله حاجة، فليقسم عليه بي، وإياكم أن تشركوا معي أحدًا من الأحياء والأموات. انتهىٰ.

ووقع لسيدي محمد الحنفي الشاذلي رضي الله عنه أنه مشىٰ علىٰ بحر النيل من مصر إلىٰ الروضة، وتلميذه يمشي خلفه، وقال له: قل: يا حنفي، ولا تغفل عني. فوسوس له إبليس وقال له: قل «يا الله» أعظم من الحنفي، فقال: يا الله؛ فغرق، فالتفت إليه سيدي محمد الحنفي وقال له: إنك لا تعرف الله حتىٰ تسأله أن يمسك قدميك علىٰ الماء! قل: يا حنفي! فقالها، فطفا علىٰ الماء ومشىٰ عليه. انتهىٰ.

والسرُّ في ذلك صحة الارتباط وصدق التوجه لا غير. حتىٰ إن ذلك الشيخ لو لم يكن أهلًا لفعل ما سُئل فيه، جعله الله أهلًا لموضع صدق المريد.

وقد خبرتُ أنا هذا الباب أشدَّ الخبر مع الولاة الذين يترددون إليَّ من الكشّاف ومشايخ العرب، فلم أقدر آخذ بيد أحد منهم إذا نزلت به شدَّة وهو يشرك معي غيري، كما أن غيري من الفقراء لا يقدر أن يأخذ بيده وهو يشركني معه في الاعتقاد، ولو كان ذلك الغير من أكبر الأولياء.

فعُلِمَ أن قول الشيخ لمن طلب منه قضاء حاجة: «لا تتوجه إلىٰ أحد غيري وأنا أقضيها لك» ليس مراده بذلك الدعوىٰ للصلاح، ورؤية نفسه علىٰ مشايخ عصره، إنما مراده سرعة قضاء الحاجة بحسب ما عوَّده الله عزَّ وجلَّ، حتىٰ لو أن صاحب الحاجة توجه إلىٰ أحد في قضاء حاجته، ثم جاءه يأخذ خاطره يقول له: لا تشركني معه، تقف قضاء حاجتك، ويحسِّن اعتقاده في ذلك الآخذ. فاعلم ذلك، واحمِ نفسك ولسانك من سوءِ الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: فلان يُعزَل من ولايته، فلان يدوم في ولايته، ونحو ذلك من الأمور المستقبلة، فلاث الناس به وقالوا: لا ينبغي للفقير أن يخبر بمثل ذلك ويبيح بسره، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، فقد يكون له في ذلك غرض صحيح، كما إذا رأىٰ شيخ عرب أو كاشف يظلم في بلاده حين بلغه أن الولاة يعزلونه عن قريب، يقول له: إنك باقٍ في ولايتك، وما بلغك إنما هو من الكذب علىٰ أفواه الناس؛ وذلك لئلا يخرب البلاد ويزيد في البلص[1] ويقول: أبلص شيئًا لنفسي، وأضعف الفلاحين حتىٰ يعجزوا عن وزن الخراج قبل أن يجيء غيري. والكذب جائز في المصالح، وإن كان هذا الشيخ من أهل الكشف وأخبر عما رأىٰ، فكشفه يكذبه أو يصدقه، فلا اعتراض لنا عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ينبغي للفقير أن يبين للأمير إذا ظلم

---

(١) بَلَصَهُ من المال: لم يترك له منه شيئًا.

رعيته أن ذلك مؤذن بعزله وخراب دياره، ولا يحتاج ذلك إلىٰ كشف، بل التجارب تكفي في ذلك، فإن دار الظالم خراب ولو بعد حين، فحكم من يعدل في رعيته كمن يلطخ جدار داره كلَّ يوم بجبس أو طين، حتىٰ يصير جداره كسور المدينة. وحكم من يظلم رعيته كمن يهد كلَّ يوم من جداره طبقة، فلا يزال كذلك حتىٰ يقع جداره كلُّه، هذا مع ما يصيبه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. وسمعتُه يقول: من كان مطمح نظره اللوح المحفوظ، فله الإخبار عن الأمور المستقبلة ولا حرج، فإنه لا بد من وقوعها. ومن كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، فلا ينبغي له أن يخبر عن شيء من الأمور المستقبلة، لأنه ربما أخبر عن شيء وتغير الحكم بعد ذلك، فيسميه الناس كذَّابًا، ويسوء ظنُّهم بالفقراء، مع أنه صادق فيما أخبر، ثم لما تغير الحكم لم يسألوه عنه، ولو أنهم سألوه لأخبرهم بتغير الحكم. انتهىٰ. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وسلِّموا للمدعي ما يدعي من جميع الممكنات ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نهىٰ مريده عن الحج أو عن زيارة القرافتين، فلاث الناس به وقالوا: كيف يمنع مريده من الحج إلىٰ بيت الله الحرام أو زيارة نبيه عليه الصلاة والسلام أو الأولياء والصالحين؟! بأنه ربما رأىٰ ذلك المريد جاهلًا بالأدب المتعلِّق بالحج أو بالأدب مع الأولياء. وربما كان الباعث لذلك المريد علىٰ الحج أو زيارة القرافة هوىٰ نفس، كالتفرج علىٰ البراري والجبال وغيرها من الأماكن القريبة. وربما كان الباعث له علىٰ زيارة الوليِّ رؤية الناس المجتمعين في مولده مثلًا. ولو أن الشيخ كان مدفونًا في خزانة ولا قبة عليه ولا تابوت ولا أحد يجتمع عنده، لما وجد عنده داعية لزيارته، فأراد الشيخ أن يعلمه الأدب مع الله ورسوله وأوليائه، ثم يأذن له في الزيارة.

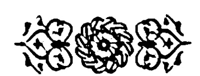
وقد رأيتُ شخصًا يزور القرافة كلَّ جمعة، ويركب بغلته ويمشيها علىٰ قبور الأولياء المهجورين، ليصل إلىٰ سور الأولياء المشهورين، فنهيتُه عن ذلك فأبىٰ، فقلتُ له: تعدم

بصرك ومالك وتدخل الحبس، فكان الأمر كذلك! وقال لي يومًا: قد زرنا اليوم سبعمئة شيخ، وخاطرك عليَّ، فإن عليَّ الدين. فقلتُ له: كيف تزور سبعمئة شيخ ولا يقضون لك حاجة؟! هذا دليل على أن زيارتك لهم هوى نفس.

فحرر يا أخي النية لزيارة الصالحين ثم زرهم، ولا تتخذها كمواضع النزهة، فتبول وتحدث على قبورهم، وتروث بغلتك عليها، فإن ترك زيارتك حينئذٍ أولى.

وأخبرني شخص أنه حصل له حصر بول وهو نائم عند السادات من بني وفا[1]، فاستعظم أن يبول قريبًا منهم، فابتعد عنهم جدًّا، ثم جلس يبول بالقرب من قبر مهجور، فإذا بصاحب القبر يقول له: أتدري أن صاحب هذا القبر أعظم مقامًا عند الله من بني وفا؟! قال: فتركتُ البول وقمتُ مرعوبًا. انتهى. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.





(١) جامع السادات الوفائية بالقرب من جامع سيدي ابن عطاء الله السكندري بجبل المقطم، وقد دفن فيه كلُّ مشايخ بني الوفا.

الباب السابع

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٤٩٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سافر الحجاز وصار يزاحم بجماله في المضايق، ليكونوا في الطريق السهلة، وإذا نزل زاحم لتكون جماله داخل الناس وجمال جاره خارجًا، فلاث به الناس وقالوا: من شرط المؤمن أن يؤثر أخاه علىٰ نفسه، ولكن أين المؤمن؟! فقال لهم قائل: إن هذا شيخ في الطريق! فقالوا: نعم! هو شيخ بالاسم! وإلا فأين الأشياخ؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بسبب ذلك، فربما شهد من نفسه ومن جماعته شدَّة الضعف والعجز عن حماية جماله من الوقوع في الوادي أو من اللصوص، ورأىٰ قوة جاره علىٰ ذلك، فزاحم علىٰ الداخل، وجعل جاره خارجًا لقوته إما بالحال مع الله، أو بالأمور الظاهرة. ولو أنه رأىٰ نفسه قويًّا وجاره ضعيفًا، لخرج وأدخله وجماله.

وكذلك القول في تقطير الجمال، فإذا زاحم العالم أو الشيخ أن تكون جماله أول القطر مثلًا، فلا ينبغي الإنكار عليه، لأنه ربما رأىٰ قوة جاره وضعف حاله، فخاف اللصوص علىٰ جماله وأمتعته إن تأخر لا سيما في الليل. وربما كان ذلك الشيخ من أهل الكشف، فرأىٰ الملائكة تحرس كلَّ من تأخر في القطر وقرب من الأماكن التي يُخاف منها وقوع الجمال في الوادي، فاكتفىٰ بحراسة الملائكة، ولولا الملائكة لكان الشيخ جعل نفسه مكانه، وأدخله إلىٰ المكان الأمين.

وقد وقع لي لما حججتُ في سنة ثلاث وستين وتسعمئة مع الأمير عيسىٰ شيخ البحيرة أنني نزلت في محطة الأزلم[1]، فجعلتُ جمال صديقي سيدي محمد

---

(١) الأزلم: قلعة تقع إلىٰ الجنوب من مدينة ضباء علىٰ بعد ٤٥ كم منها، وهي من محطات طريق الحج المصري خلال العصر المملوكي والعهد العثماني.

الحنفي[1] داخلاً وجمالي خارجًا، وكان قطره خارجًا، فرأيتُ تلك الليلة الملائكة وهي تحرس جمالي، وجاء بدويٌّ يسرق جملًا، فقطع جماعة الأمير رأسه تلك الليلة، فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا سافر الحجاز، وأخذ ما يركبه وما يأكله وما يشربه من أمير الحجِّ ذهابًا وإيابًا، فلاث الناس به وقالوا: إذا كان العلماء ومشايخ الطريق صاروا يحجون بالمال الحرام، فما بقي في الحياة خير! بأنه لا ينبغي الإنكار على ذلك العالم أو الشيخ بذلك، فربما كان ذلك الطعام أو الجمال جاءت الأمير من وجه حل أكثر مما بأيدي ذلك العالم أو الشيخ، وكان أمير الحج هو السائل في ذلك، ويرى المنة للشيخ في قبول ذلك منه، لاسيما والعالم أو الشيخ يكون من أورع الناس عادة، فلولا رأى حل ذلك الطعام والجمال مثلًا ما أكله ولا ركبها. وتأمل يا أخي تسميته عالمًا أو شيخًا دونك لولا أن الناس رأوا معه علمًا وصلاحًا زائدًا عليك ما لقبوه بذلك.

وقد كان في جوارنا شيخ، فكان لا يزال يطلب من عيسى[2] الطعام والماء والفلوس حتى سئم جماعة الأمير منه، وحلف لي أنه لم يذق منه شيئًا، إنما كان يطعمه للمحتاجين الذين غلب عليهم الحياء وليس لهم عادة بسؤال الناس، فاعلم ذلك يا أخي، واحم سمعك ولسانك، فربما كُشِف للشيخ أن طعامه في تلك الحالة ذاهبًا وراجعًا يكون من طعام أمير الحج، فترك حمل الزاد في تلك السنة على علم منه وهو معتمد على الله الذي قسمه لا على ذلك الأمير، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠١) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سافر الحجاز وساء خلقه في الطريق على

---

(١) لعله شمس الدين السبريسي، شيخ الإسلام، يقول المصنف: «صحبته نحو عشرين سنة، فما أظن أن كاتب الشمال كتب عليه فيها شيئًا. وكان كثير الصمت لا تكاد تسمع منه كلمة لغو أبدًا. وكان عالـمًا بالقراءات السبع. وولاه السلطان الغوري مشيخة الإسلام كرهًا عليه. شرح كتاب «المختار» شرحًا عظيمًا، وسافر إلى مكة المشرفة فمات بها ﷺ». «الطبقات الوسطى» ترجمة (٥٤١) بتصرف.

(٢) أمير الحج المتقدم ذكره قريبًا.

خلاف ما كان عليه في الحضر، وصار ليس له وجهة إلىٰ أحد، ولا يضحك ولا يباسط أحدًا من إخوانه، فلاثوا به وقالوا: كان الأولىٰ له العكس إن كان شيخًا، لأن السفر إنما سُمي بذلك لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، فكان ينبغي للشيخ المباسطة لإخوانه، وعدم[1] التعبيس في وجوههم، والتكرم بكلِّ ما زاد عن حاجته أولاً فأولاً، بأنه ربما كان من الذين كان عليهم دَرَك الحجِّ في تلك السنة، فلم يزل من حين خرج من بركة الحاج[2] يدور بقلبه وعينيه علىٰ الركب جملًا جملًا من حين يسير الركب إلىٰ أن ينزل، فإذا نزل لم يزل يحوطه كذلك من السارق ومن عجز الجمال والمشاة، ويسأل الله أن يمدهم بالقوة إلىٰ أن يصلوا الدار ومحل أوطانهم.

وصاحب هذا الحال لا يصير له وجهة إلىٰ مباسطة مع أحد، وربما كان يحس ببدنه أنه ذائب ليلًا ونهارًا من شدة التعب في تلك الحملة، كأنه شرب رطلًا من السم، كما جربتُ أنا ذلك، فإنىٰ كنتُ لم أزل متوجهًا إلىٰ الله مراقبًا له من حين أركب إلىٰ أن أنزل، ومن حين أنزل إلىٰ أن نسير، وأرىٰ كلَّ جمل عجز عن المشي أو كلَّ متاع سُرق إنما هو بتقصيري في تحويطه، وأني مسؤول عنه في الدنيا والآخرة. وهذا أمر لا يسلِّم لصاحبه إلا من ذاقه في نفسه، فاعلم ذلك يا أخي، واعذر الشيخ إذا عبس في وجهك في طريق الحج، أو بخل عليك بشيء طلبتَه منه، فربما كان يدخره لمن هو أحوج إليه منك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا حمَّل الجمال في طريق الحج فوق طاقتها عادة، وأخذ معه طرَّاحة ولحافًا وكثيرًا من الثياب والآلات التي تكون في الحضر من غير ضرورة ظاهرًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا الشيخ ليس في قلبه رحمة، بأنه ربما كان متوجهًا إلىٰ الله تعالىٰ أن يمد تلك الجمال بالقوة كلما سار، فيصير عندها الحمل الثقيل عادة كحمل الريش. وربما كان يرىٰ الملائكة يحملون الأثقال التي علىٰ جماله، فلا

---

(١) بالأصلين: لعدم.

(٢) بالأصلين: الحجاج. والصواب ما أثبتناه، وهي منطقة تابعة لحي المرج التابع لمحافظة القاهرة عاصمة مصر، كانت المحطة التي يتجمع فيها الحجاج المسافرون بطريق البر من مصر إلىٰ الحجاز وعند عودتهم منها.

يكاد الجمل يحس بشيء من الثقل.

وقد رأيتُ أنا ليلةً ملائكةً في الهواء معهم سلاسل بخطاطيف يضربون الخُطَّاف في أسفل المحارة[١] أو الزاملة[٢] ويرفعونها، فيصير الجمل يمشي فارغًا وحمله فوقه في الهواء كالظلة، هذا أمر شهدتُه في وادي العقيق بعيني. ومع ذلك كنتُ أرحم الجمل من أن أحمل عليه القلص الكبير، وكنتُ أشربه من قمقمة تَسَعُ رطلين من الماء، وكنتُ أطعم جملي السكر والكعك، وأقبِّل فمه كلما أردتُ ركوبه وإذا نزلتُ، وأقول له: اجعلني في حلٍّ، فإن البهائم تفهم ما يُقال لها، وإنما تعجز عن النطق.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ إذا تخاصم مع الجمَّال وقال له الجمَّال: قتلت جمالي، وهذا لا يجوز لك! ولم يكن مؤمنًا بصحة توجه الشيخ إلىٰ الله تعالىٰ في تخفيف أحمال الجمال، ولا بأن الملائكة تحمل عنهم أحمالهم، اللهم إلا أن يجمع الناس علىٰ كذب ذلك الشيخ، وضعف توجهه إلىٰ الله تعالىٰ، وأن مثله لا يقدر علىٰ ذلك، قلنا بالإنكار[٣] عليه بظاهر الشرع، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا جاءته ملاقاة الأزلم أو العقبة من دقيق وبقسماط وجبن وغير ذلك، فلم يعط جيرانه في الركب من ذلك شيئًا، فلائوا به وقالوا: هذا خروج عن صفات العلماء والأشياخ، لا سيما إن تعلق بذلك خاطر عيالهم وغلمانهم، بأن تلك الملاقاة ربما كانت من وجه شبهة أرسلها له بعض الولاة أو حاشيتهم كما هو الغالب، فلم ير إطعام ذلك الجار منها محبةً فيه، وصيانةً له عن أكل الشبهات في طريق الحج، فيدنسه بعد تلك المغفرة التي حصلت له بالحج. وربما ادخره لمن هو أشد حاجة من ذلك الجار. وربما كُشِفَ له أنه ليس لذلك الجار نصيب

---

(١) المحَّارة: شبه الهودج، غير أنها لا قبة لها، والله أعلم.

(٢) الزاملة: ما يُحمَل عليه من الإبل وغيرها. والجمع: زَوَامِلُ. «الوسيط». والظاهر أن المراد بها هنا شيء يوضع فيه الأمتعة ونحوها علىٰ ظهر البعير.

(٣) بالأصلين: الإنكار.

في الأكل من تلك الملاقاة، فمنعه منها لعدم القسمة لا بخلًا وشحًا في الطبيعة.

فرِض يا أخي نفسك حتىٰ تتخلص من الرعونات، وتصير تحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، وتسلم من الآثام بسوء ظنِّك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٤) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سافر إلىٰ الحجِّ وحفظ الله تعالىٰ الركب في تلك السنة من قطَّاع الطريق، ومن موت الجمال ومن الغلاء، وقال الناس كلُّهم: هذا ببركة وجود سيدي الشيخ في الركب في هذه السنة؛ فأصغىٰ إلىٰ ذلك وأظهر السرور هو وجماعته، أو عرَّض هو بذلك وقال: إنما حُفِظ ببركة الفقراء الذي حجُّوا في هذه السنة- يعني الذين أنا منهم- ولاث به الناس بسبب ذلك، بأنه ربما قصد بإصغائه إلىٰ ذلك أو ادعائه إزالة العجب الذي حصل في نفسه بكثرة شكر الناس له واعتقادهم فيه، فأراد بذلك تغيير ما حصل عندهم من كثرة الاعتقاد، من حيثُ إن التبري من الصلاح وعدم الدعوىٰ يزيدهم اعتقادًا فيه، أو عرف أن حماية الحج تلك السنة ليس هي من أجله، وإنما هي من أجل حج أحد من إخوانه، فأراد الشيخ أن يستر أخاه في تلك السنة، فادَّعىٰ هو أن الحفظ في تلك السنة من أجله، وآثر أخاه بالخفاء الذي هو أكمل من الظهور في هذا الزمان محبةً فيه واحتياطًا له، وليس في قلبه هو شيء من الدعوىٰ، بل يرىٰ أن وجوده في الموقف بعرفة ينجس ذلك الموقف. وهذا أمر يفعله الفقراء كثيرًا، فينفعون الناس كلَّ النفع، ويضيفون ذلك إلىٰ غيرهم من أقرانهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: من شأن الفقراء المتمكنين أن يكون أحدهم علىٰ قدم في العبادة والزهد، لا يقدر أحد من أهل عصرهم يمشي عليه، ومع ذلك لا يشعر بهم أحد، مع مشاهدة الناس لأعمالهم الزكية بعيونهم[1] ليلاً ونهارًا، فترىٰ أحدهم يدفع الناس عن شهود كمالاته بقوة عزمه، فلا يلحق أحد بشيء من كمالاته، من باب ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، قالوا: وهذا هو الذي

(١) بالأصلين: بعيوبهم. والصواب ما أثبتناه

يخرج من الدنيا بأعماله كاملة موفرة لا ينقص منها ذرة. بخلاف من لحظ الناس كمالاته واعتقدوه وشكروه، فربما ذهبت ثمرة أعماله في الدنيا، وقدم على الآخرة وهو صفر اليدين من الحسنات. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يدعي الدعاوىٰ العريضة، فربما كان يقصد بذلك تنفير الناس عنه. والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وقع أحد في عرضه ثم جاء يصالحه، فلم يقدر علىٰ رضا خاطره، وساق عليه السياقات فلم يقبل، فلاث الناس به وقالوا: الراية البيضاء علىٰ العوام الذين يقبلون السياقات، ويسامحون بعضهم بعضًا، وكيف يدعي هذا العالم العلم، أو الشيخ الصلاح، وهو يعلم أن الصفح خير من المؤاخذة ونحو ذلك؟! بأنه ربما كان ليس عنده له شحناء ولا بغضاء، وإنما قصد بذلك إظهار فضل أخيه علىٰ نفسه، حتىٰ يقول الناس: انظروا إلىٰ تواضع فلان مع هذا العالم أو الشيخ، وانظروا ما عند هذا من الرعونات والحقد والشحناء، والله إن هذا أحسن حالًا من الشيخ. وربما كان قصده بعدم قبول السياقات عليه تقبيح الوقوع في أعراض الناس في عينه، حتىٰ لا يعود يقع في عرض أحد كما مرَّ تقريره مرارًا.

ولا يجوز حمل هذا العالم أو الشيخ علىٰ المحامل السيئة، كما أنه لا ينبغي للشيخ أو العالم كذلك أن يحمل من وقع في عرضه [إلا] علىٰ المحامل الحسنة، وأنه ما نقصه في المجالس إلا خوفًا عليه من العجب بأعماله، كما كان عليه السلف الصالح لا التشفي منه.

وقد كان السلف الصالح لا يمدح أحدهم أخاه أبدًا، ويقول: أخاف أن ينقص أجر أخي بفتح باب المدح فيه من الناس إذا ذكرتُ لهم أحواله العالية، وأعماله الزاكية. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٦) ومما أجبتُ به عن العالم السمين أو الشيخ السمين حين لاث به الناس وقالوا: من شرط الوليِّ أن يكون الحقُّ تعالىٰ يحبه، وقد ورد أن الله تعالىٰ يكره الحبر السمين[1]-

(١) جزء من حديث أخرجه «البيهقي في الشعب» (٥٢٨٠) من كلام كعب، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح

أي العالم السمين- فكيف يُجمع بين ولاية هذا وكراهة الله تعالىٰ له؟! بأن هذا الحديث جرىٰ علىٰ الغالب، وما من عام إلا ويمكن أن يدخله التخصيص إلا إن أجمع العلماء علىٰ خلافه، ومراده ﷺ من كان سمنه من الأكل، وأما من كان سمن من المحبة لله تعالىٰ، فلا يقدح في ولايته السمن.

وقد كان الشِّبْلي رحمه الله من أسمن الناس، فقالوا له يومًا: لاشك في محبتك لله عزَّ وجلَّ، ولكن نراها تضني وأنت سمين! فقال صحيح، ولكنها إنما تضني إذا لم يصل صاحبها إلىٰ مقصوده، فأما إذا وصل إلىٰ مقصوده، فإنه يصير يسمن مع الأنفاس. وكان كثيرًا ما يقول: كلما أتذكر أني عبد أزداد سمنًا.

وقد أدركتُ من رجال هذا المقام جماعة منهم الشيخ إبراهيم الدقدوسي كان إذا صام سمن، وإذا أكل هزل، وذلك أنه إذا صام ارتفع حجابه، فأحب الله تعالىٰ، وإذا أكل حجب فنقصت محبته.

وأما معنىٰ الحديث علىٰ لسان الزهاد والعباد فهو ذم للعالم لقلة ورعه، إذ لو تورع عن الحرام والشبهات، لم يجد شيئًا يسمن به. فاحفظ لسانك وقلبك يا أخي عن سوء الظنِّ بالناس، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا نزل بأهل بلده بلاء، وسألوه أن يدعو الله تعالىٰ برفعه عنهم، فدعا ودعا ولم يجبه الحق إلىٰ ذلك، فلاثوا به وقالوا: كنا نعتقد فيه الصلاح، ولكن قد ظهر لنا حاله مليح[1]، بأنه لا يلزم من عدم إجابة دعائه عدم [صلاحه وولايته، وإنما سبب عدم إجابة دعائه عدم][2] استحقاق أهل بلده رفع البلاء عنهم لكثرة معاصيهم. وقد فعل هذا الشيخ ما سألوه فيه، ولم يبق عليه لوم، فليتوبوا إلىٰ الله تعالىٰ

المال» من كلام عمر رضي الله عنه (٣٥٢).

(١) كذا بالأصلين، وتركناها علىٰ حالها دون تصويبها نحويًّا لأنها محكية عن كلام العوام.

(٢) ساقط من «ب».

ليجيب الله تعالىٰ دعاءه برفع البلاء عنه. وأما مع إصرارهم علىٰ الذنوب، فلا يقدر القطب الغوث علىٰ رد العقوبة عنهم.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: من أراد رفع البلاء عن أهل زمانه، فلينادِ فيهم: معاشر الناس، توبوا كلُّكم إلىٰ الله تعالىٰ من كلِّ معصية ظاهرة أو باطنة، والبلاء يرفع عنكم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ليس لأهل النصف الثاني من أهل القرن العاشر أنفع من كثرة الاستغفار، وذلك لأن الذنوب تترادف عليهم، فلا يعرفون عدد ذنوبهم ليتوبوا منها، وهناك يمسك الله تعالىٰ ألسنة الأولياء عن الدعاء لهم، ويقبض قلوبهم عن رجاء الإجابة، فيصير الناس في وادٍ من نار لا يرجىٰ إطفاؤها، أو كسمك كان في بركة ماء ثم نشف الماء عن السمك، فصارت الكلاب والحدادي تفسخه في النهار، وصارت الذئاب والثعالب تفسخه بالليل، ولا بقي يرجىٰ عود الماء إليه إلىٰ قيام الساعة.

وسمعتُه أيضًا يقول: قد صار الناس اليوم كأنهم محبوسون في قفص، وتحكمت فيهم أعمالهم السيئة، فليس في قدرتهم رد المعاصي المقدَّرة عليهم، ولا رد الجزاء الذي سبق به الوعد من الله عليه، وما بقي إلا الصبر أو التصبر.

فإياك يا أخي أن تقول: إن الأولياء قد انقرضوا وما بقي أحد منهم، فإنهم والله موجودون، ولكن اختفوا لخبث الزمان، وعدم رجوع الخلق إلىٰ طاعة مولاهم، وحاشا الأولياء أن يأتوا البيوت من غير أبوابها، فيريدوا رفع البلايا مع تمادي الخلق في المعاصي، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية الذي يأكل من ضيافة الفلاحين الزارعين في وقف الزاوية التي لم يشرطها الواقف لهم، ولاث به الفقراء الصادقون وقالوا: هذه الضيافة حرام، لأنها من قسم هدايا العمال، فكما أن العامل إذا ترك العمالة أو عزل منها لم يهد أحد إليه هدية، فكذلك هذا الشيخ إذا عزل من النظر علىٰ هذا الوقف لا يأتيه أحد من فلاحيه بهدية، بل يتحول بها إلىٰ الناظر الجديد، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار

علىٰ هذا الشيخ لدقة مدرك هذا الأمر، بل غالب العلماء ربما لم يتورع عن ذلك ويقول: هذا أمر كان للنظَّار قبلي ولم أحدثه عليهم؛ فعلِّم يا أخي هذا الشيخ الورع، ثم اعترض عليه بعد ذلك إذا أكل من هذه الضيافة من غير أن يكافيء أصحابها بما يقابل ثمنها، هذا ما درج عليه العلماء العاملون، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يزور أحدًا من إخوانه، ولا يعوده إذا مرض، ولا يهنيه بنعمة، ولا يعزيه بمصيبة، ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه ربما لم يجد عنده إخلاصًا في الزيارة أو العيادة، فصار ينتظر نيةً صالحةً يأتيه بها فلم يجدها، أو ربما رأىٰ النعمة نقمة علىٰ صاحبها فلم يأت إليه، فإن أظهر له السرور بها، كان ذلك مساعدة له علىٰ الاستدراج، وإن أظهر له الحزن ربما ظن به العداوة، فترك الحضور جملة، هذا ما عليه غالب الناس من متصوفة الزمان.

وأما أهل الكمال فيحضرون ويظهرون الفرح موافقةً لما عنده، ويظهرون الحزن كذلك موافقة لما عنده، ولهم في نفسهم معاملة أخرىٰ مع الله تعالىٰ، فيسأل أحدهم ربَّه أن لا تكون تلك النعمة نقمة، ولا تلك المصيبة مصيبة، بل كفارةً وطهورًا أو رفع درجات، فالنعمة نقمة من حيثُ الحقوقُ المتوجهة علىٰ صاحبها، والمصيبة نعمة من حيثُ الأجورُ التي فيها لصاحبها صبر أم لم يصبر، فإن صبر كان له أجران: أجر المصيبة، وأجر صبره [١] عليها.

وقد يكون هذا الشيخ الذي لم يزر أخاه ولم يعده إذا مرض يكتفي بحضور القلب مع أخيه في العبادات كلما يقف هو وإياه في حضرة الله الخالصة في الصلاة ليلًا أو نهارًا، كما عليه طائفة من الأولياء الذين طهرهم الله تعالىٰ من الغل والحقد والشحناء، فلم يحتج أحد منهم إلىٰ مداراة ولا مجابرة خاطر، لكن ثم من هو أكمل من هؤلاء، وهم من حضر عند أخيه بجسمه مع قلبه، وذلك لأنه قام بالسنة، ولعلها هي الحالة التي كان السلف الصالح يزورون بعضهم بعضًا عليها، فإن من يكتفي بزيارة القلب من غير

(١) بالأصلين: صير أجره. والصواب ما أثبتناه

حضور بالبدن ناقص، فهو كمن يقول: أنا أخضع لله تعالىٰ بالقلب، ولا أحتاج إلىٰ الخضوع بالجوارح. ومعلوم أن ذلك لا يكفي في التكليف.

فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك إذا رأيت فقيرًا يمر من تحت زاوية فقير كلٍّ قليل ولا تراه يطلع له، فتقول: إن أحدهما يكره صاحبه، أو كل واحد يكره الآخر، فإن ذلك سوء ظنٍّ بالفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخل بواجب حق أحد من العلماء ولم يعتذر إليه، فلاك الناس به وقالوا: إنما ترك الاعتذار لفلان استهانةً بحقه، وذلك لا يجوز، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، لاحتمال أنه ربما ترك الاعتذار لذلك العالم اعتمادًا علىٰ مروءته ودينه وخيره، ولولا ذلك لكان اعتذر إليه. وربما ترك الاعتذار هروبًا من تزكية نفسه عند من اعتذر إليه، فقد قالوا: الاعتذار تزكية للنفس وتهمة للمعتذر إليه. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن المعتذر ظنَّ فيمن أخل هو بحقه أنه أخذ في نفسه[1] عليه، فأراد باعتذاره أن يزيل ما في نفسه، كأنه يقول: لم أخل بحقك، واتهامك لي باطل، فقد زكَّىٰ نفسه وجرح أخاه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا اعتذار بين عارفين، لأن كلًّا منهما يحمل أخاه علىٰ المحمل الحسن، ويجب علىٰ كلٍّ من المحجوبين الاعتذارُ للآخر، وإلا أدىٰ إلىٰ الحقد والشحناء. وكذلك يجب علىٰ العارف أن يعتذر للمحجوب تنزلًا لعقله إذا وقع في حقِّه، لأنه لا يحمل العارف إلا علىٰ حال نفسه، كما أن المحجوب كذلك يعتذر للعارف لظنه أنه يؤاخذه، مع أنه غير مؤاخذ له، ومن هنا قال الإمام الشافعي: لا تقصر في حقِّ أخيك اعتمادًا علىٰ مروءته. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل الشيخ إذا لم يعتذر لذلك العالم علىٰ أنه ظنَّ بذلك العالم خيرًا وأنه[2] مثله لا يؤاخذ بذلك، فترك الاعتذار له، ولو أنه ظن أنه يؤاخذه بذلك الخلل

---

(١) بالأصلين: تفتيشه. والصواب ما أثبتناه بدلالة السياق.

(٢) بالأصلين: زاره. والصواب ما أثبتناه

لاعتذر إليه، والحمد لله رب العالمين.

(٥١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان له مجلس ذكر يجتمع فيه خلائق، فتركه وجعل موضعه درسًا في النحو أو في المنطق، فلاث الفقراء به وقالوا: هذا الشيخ رجع إلىٰ وراء، بأنه لا يلزم من ذلك رجوعه إلىٰ وراء، فقد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ مقام الكمال، فصار يحضر مع الله تعالىٰ في كلِّ علم لا يجمع صاحبه علىٰ حضرة الله عادة، ويتساوىٰ عنده في الحضور مع الله تعالىٰ القرآن والنحو والمنطق، وصار كل علم في الوجود يجمعه علىٰ حضرة ربه، كما كان عليه الأكابر من القوم كسيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أبي السعود ابن الشبلي[1]، والشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ، فإن المنقول عنهم أن أحدهم لم يزل يدرس في العلوم الشرعية وآلاتها من بيع وشراء ورهن وضمان ونحو وأصول، ولا يرىٰ بذلك بأسًا، فلما تأخر الزمان ضاق حال الفقراء، وصاروا ينهون جماعتهم عن الاشتغال بهذه العلوم، وذلك من علامات نقصهم، فإنه ما دام الفقير يجمعه علىٰ الله شيء دون شيء فهو ناقص.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ علىٰ الكمال، وأنه حاضر بقلبه مع الله تعالىٰ في حال قراءته النحو، كما يحضر مع الله حال الذكر علىٰ حد سواء. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: جميع ما أمر الله تعالىٰ به ما شرعه بالأصالة إلا ليجمع العبد علىٰ ربه، فإن وقع أن أحدًا حُجِب به عن ربه فذلك لأمر عرض له في نيته أفسدها. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا عضل ورد كلَّ من جاء يخطب ابنته أو موليته، حتىٰ طلع الشيب في رأسها، ولاث الناس به حين رد العلماء والصالحين وقالوا: هذا مخالف للسنة، بأنه ربما كُشِف له أن بنته أو موليته لم تُقسَم لجميع من خطبها،

(١) أبو السعود بن الشبل العطار الزاهد، صحب الشيخ عبد القادر، وصار من كبار الفقراء، وله كرامات وأحوال وقبول عظيم، غلب عليه الفناء فكان لا يأكل ولا يلبس إلا أن يطعموه أو يلبسوه، ولا يكاد يتكلم إلا جوابًا، توفي سنة ٥٨٢ هـ. «تاريخ الإسلام» (١٢/ ٧٥٦).

فصار ينتظر من قُسِمت له.

وقد كان جدي جلاه لا يجيب أحدًا إلىٰ خطبة ابنته إلا ليلة العرس، فيجيبه ويكتب كتابه تلك الليلة ويقول: قد يجيب الإنسان إلىٰ خطبة ابنته من لم يكن له عندها نصيب، فيتعذر عليه الدخول بها، وكلما شرع في الدخول حصل دونه موانع، فيحصل له وللزوجة وأهلها الضرر، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا مات فوجدوا وراءه مالًا عظيمًا[١]، مع كونه كان يقبل الزكاة ويسأل من الناس، فلاث الناس به وقالوا: ياما[٢] تُفضَح القيامة من خلائق! انظروا هذا المال الذي وُجِد بعد فلان! مع كونه كان يظهر لنا الفقر، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، لاحتمال أن يكون وصل إليه من وجه فيه شبهة، فلم ينشرح قلبه للأكل منه، ولا للتصدق به، فتركه إلىٰ وقت موته، وفوَّض أمره إلىٰ الله تعالىٰ يفعل فيه ما يشاء. ولو أنه كان حلالًا لكان أنفقه وتصدق منه. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة في كلِّ ما وُجِد بعدهم من النقود والثياب والأمتعة، وإياك وحملهم علىٰ البخل والشح، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا رأىٰ سكران، فقال: دعوه، هذا من أولياء الله عزَّ وجلَّ؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف يكون هذا السكران من أولياء الله عزَّ وجلَّ، هذا خروج عن الشريعة، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد هذا القول حتىٰ يُستفهَم عن مراده، فربما كُشِفَ له أنه وليٌّ في علم الله، بأن يتوب الله عليه بعد ذلك ويصطفيه، فأخبر عما يؤول إليه أمره.

وقد تقرر عند علماء الشريعة أن العبد لا يخرج من الإيمان بوقوعه في معصية، فكذلك القول في الولاية لا يخرج عنها بالمعصية، لأن الولاية فرع من مقام الإيمان،

(١) مضىٰ قريبًا منه في الجواب (٣٩٤).

(٢) كلمة عامية مصرية معاها «كم».

ومرتبة من مراتبه. وأما حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[1] فالمراد به أنه ليس بمؤمن بأن الله تعالىٰ يراه حال تلك المعصية، لا أنه خرج من جملة الإيمان، إذ لو كان عالمًا بأن الله تعالىٰ يراه ما قدر علىٰ الوقوع في معصية. ويؤيده حديث الطبراني وغيره: «إذا أراد الله تعالىٰ إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم»[2] الحديث، أي سلبهم تعقل نظر الله تعالىٰ إليهم ذلك الوقت لا عقل التكليف جملة، فافهم، فإن ذلك خرق لإجماع المسلمين، ورد لنصوص الشريعة المصرِّحة بعذاب طائفة من عصاة المكلفين.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: قد يجتمع في الشخص الواحد الخير والشر في وقت واحد، فيكون وليًّا لله تعالىٰ من وجه، عدوًا له من وجه آخر. وأطال في أدلة ذلك، ثم قال: وبالجملة فشواهد ذلك في الكتاب والسنة لا تُحصَر خلاف ما عليه من يُكفِّر المؤمن بالكبيرة، أو يقول بإحباط العمل بها ولو تاب قبل موته منها. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأولياء علىٰ المحامل الحسنة إذا تكلموا بشيء من طريق كشفهم.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي لم يزل ينام عند نصراني في باب البحر، ويعزم عليه جماعة من قضاة الحارة أن ينام عندهم فلا يجيبهم، فكانوا يلوثون به ويقولون: يقدم النوم عند نصراني علىٰ النوم عند أهل العلم؛ فيقول: ليس هذا نصرانيًّا، إنما هو مسلم موحد! فبعد قليل أسلم النصراني وحسن إسلامه، وصح كلام الشيخ ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا كان قليل النوافل جدًا من صلاة وأذكار وصيام، ولاث الناس به وقالوا: ما بقي عالم عامل بعلمه في هذا الزمان، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ تتأمل في حاله، فإن رأيناه محفوظًا من الوقوع في أعراض الخلائق، عفيفًا عن أموالهم، حسن الظن بهم، سلمنا له ذلك، فإن من لا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٢) تقدم تخريجه.

تبعة عليه لأحد من الخلق يكفيه قليل النوافل. وإن رأيناه يقع في أعراض الناس، ويأكل أموالهم بالباطل، اعترضنا عليه وقلنا له: أكثر من النوافل لتعطي منها الأخصام يوم القيامة، وإلا حمَّلوك من أوزارهم يوم القيامة، ثم قذفوك في النار كما ورد[1].

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من تراه قليل الأوراد والنوافل، حتىٰ تنظر في أحواله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وإنما أمر الخلق بالإكثار من النوافل ليعطوا منها أخصامهم يوم القيامة، أو ليرفع بها درجاتهم في الجنة، من باب ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤] لا من باب الإلزام، وعليك بالنظر في عيوب نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صنَّف أحدهم كتابًا وحرره وتعب فيه، ثم أخذه بعض الأعداء فرموه في البحر أو حرَّقوه، فتغير الشيخ لذلك وتكدَّر، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا مخلصًا فيه ما تغيرت منه شعرة، ولكن أين الإخلاص اليوم؟! بأنه لا يجوز حمله علىٰ أنه تكدَّر لحظ نفسه، وإنما يجب حمله علىٰ أنه تكدَّر علىٰ ذلك من حيثُ كونُه شريعة لرسول الله ﷺ، كما يتكدَّر إذا فعلوا ذلك بكتاب غيره من الأقران علىٰ حد سواء. **فإن قال قائل:** هذا بعيد وقوعه من علماء هذا الزمان؛ **قلنا له:** هذا سوء ظن بالعلماء، وهو حرام عليك.

وكذلك القول في طَمِّ[2] البئر التي حفرها شخص وسبل ماءها، ثم جاء شخص فطمَّها، يجب حمل صاحبها إذا تكدر علىٰ أنه إنما تكدر لأجل حاجة الناس إليها، أو

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» والترمذي (٢٤١٨) وابن حبان (٤٤١١).

(٢) طَمَّ الحفرة بالتراب: رَدَمَهَا وسوَّاها بالأرض.

أنه تكدر حزنًا وشفقة علىٰ قلة دين من أتلف الكتاب أو طمَّ البئر، لا علىٰ نسبة ذلك إليه، إذ المؤلف أو فاعل الخير إذا صلحت نيته لا عليه بعد ذلك إن أبقاه الله في الوجود أو أذهبه. فإياك أن تحمل العالم أو الشيخ مثلًا علىٰ تكدره لحظ نفسه، فإن ذلك دخول بين العبد وبين ربه ونيته، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه فرحًا مسرورًا لما نزلت بعدوه مصيبة من عزل من وظيفة أو موت ولد عزيز وفقد مال ونحو ذلك، فلاث الناس به وقالوا: كيف يظهر فلان السرور والشماتة بأخيه المسلم، مع كونه يدعي العلم والصلاح؟! هذا أمر لا يجوز في الشريعة، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار، فربما كان سروره إنما هو بالثواب المرجو لذلك العدو عند الله تعالىٰ، عملًا بحديث: «اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئتُ به الحق من عندك، فأقلل ماله وولده، وحبب إليه لقاءك. ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ما جئتُ به الحق من عندك، فكثر ماله وولده، وأطل عمره، ولا تحبب إليه لقاءك»[1]. انتهىٰ. وهذا يقع فيه الساذج بحسب ما فهمه من هذا الحديث، ولو أنه كان حاذقًا لأظهر لعدوه الحزن كما يفعل غيره، وأخفىٰ سروره وفرحه كما يفعله الكُمَّل من الأولياء، ولكنْ الحذق قليل[2] في المباركين من العلماء والفقراء، كما أن إظهار الفرح والسرور بمصيبة عدوهم أبعد من البعيد، وإن وقعت فليس ذلك علىٰ وجه الشماتة والتشفي منه، فاعلم ذلك واحفظ لسانك في حق العلماء والصالحين وغيرهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٨) ومما أجبتُ به عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله في قوله: إن لله تعالىٰ عبادًا لو سألوه أن لا يدخل أحدًا من أمة محمد النار لأجابهم، ولكن لا يفعلون لأنهم لا يحبون إلا ما أحب سبحانه وتعالىٰ؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: لا بد [من دخول][3] طائفة

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٥٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٦١)، وابن أبي شيبة (٦٧٤).

(٢) بالأصلين: قليلاً. والصواب نحويًا ما أثبتناه.

(٣) ساقط من «أ».

من الموحدين النار، ثم يخرجون منها بالشفاعة. بأنه لا إنكار على سهل بذلك، لأنه كفرض المحال، ولم يزل العلماء يفرضونه. وإلا فكيف يقع من ولي أن يسأل الله تعالىٰ في تغيير ما سبق به علمه، ويعارض بذلك ما أخبر به الشارع ﷺ؟! هذا أبعد من البعيد.

وقد نسبوا إلىٰ الإمام الغزالي رحمه الله أنه نقل عن سهل بن عبد الله أنه قال: إن لله عبادًا لو سألوه أنه لا يقيم الساعة لم يقمها، أو أنه يقيمها الآن لأجابهم. وأن الإمام الغزالي نقل ذلك ساكتًا عليه، وأنا أقول: حاشا الإمام الغزالي من مثل ذلك لمعارضته النصوص القطعية.

وكان سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا بلغكم شيء يخالف الشريعة عن العلماء والصالحين، فلا تبادروا إلىٰ الإنكار عليهم اعتمادًا علىٰ الإشاعة. فربما كانت من إشاعة الأعداء، وقيسوا تلك المقالة علىٰ حال ذلك العالم أو الصالح، فإن كان مثله يجهل مثل ذلك، فعلِّموه الحكم ثم أنكروا بعد ذلك عليه، وإن كان مثله لا يجهله، فردوا عنه وقولوا: حاشا فلانًا أن يقع في مثل ذلك. وكان كثيرًا ما يقول: إذا رأىٰ أحدكم في كلام أحد من الأشياخ كلامًا يوهم خلاف الشرع، فلا ينكر أحدكم عليه إلا بعد قوله: دستور يا سيدي أنكر عليك خوفًا أن يتبعك أحد علىٰ التدين بذلك. وكان يقول: لا ينبغي أن ينكر علىٰ مثل الإمام الغزالي إلا من كان أعلم منه، فإن الجاهل ربما ينكر علىٰ العالم بفهمه السقيم ما لم يرده العالم. انتهىٰ.

وتقدم أوائل الباب الرابع الكلام علىٰ تأويل قول الإمام الغزالي: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[1] وأنه كلام صحيح، أي لأن الوجود علىٰ قسمين: قديم، وحادث، فالحق تعالىٰ له رتبة القدم، والعالم كله له رتبة الحدوث، فلو خلق تعالىٰ ما خلق، فلا يرقىٰ عن رتبة الحدوث. وأيضًا فإن الله تعالىٰ خلق الخلق في أحسن تقويم وأعطىٰ كل شيء خلقه، أي كماله بحسب ما سبق به علمه، فلا يصح أن يرقىٰ عن صورته التي سبق بها العلم أبدًا، لأنه يؤدي إلىٰ تقدم جهل به، وتعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وعبارته في «الإحياء»: اعلم يا أخي أن ما قسمه الله تعالىٰ في هذا الوجود من رزق وإيمان وكفر ليس

---

(١) الجواب رقم (١٨٤). وسيأتي جواب آخر عن نفس القول في الجواب (٧٦٨).

في الإمكان أحسن منه ولا أتم ولا أكمل[1]. انتهىٰ.

وقد أنكر ذلك عليه جماعة من أهل عصرنا وغيرهم، وقالوا: هذا يلزم منه أن كفر الكافر أحسن من إيمانه، والإمام الغزالي بالمحل الأسنىٰ من العلوم والمعارف، كما أوضحنا ذلك في الباب العاشر من كتابنا المسمىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا وقع في المعصية، فقال: الحمد لله الذي لم يقدِّر تعالىٰ عليَّ أكثر من هذه المعصية! وإذا وقع علىٰ يديه طاعة قال: الحمد لله الذي لم يقسم لي دونها من الطاعات؛ فلاث به بعض المجادلين وقالوا: لا ثمرة لهذا الحمد، فإن ما قسمه الله تعالىٰ لك في الأزل لا يزيد ولا ينقص من طاعة أو معصية، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأن ذلك بالنظر إلىٰ حضرة المحو والإثبات والتغيير والتبديل، وما قاله هذا المعترض إنما يكون بالنظر إلىٰ ما في علم الله تعالىٰ الذي هو أم الكتاب، ويصح للعبد أن يحمد ربه علىٰ أمر من باب الفرض والتقدير، فإنه كان قادرًا علىٰ أن يقدِّر عليه معصية أكثر من تلك المعصية ويكرر وقوعه فيها حتىٰ يموت، وكان قادرًا أن لا يقسم له [إلا يسيرًا من الطاعات، أو][2] لا يسيرًا ولا كثيرًا. ولو توقف حمد العبد علىٰ أن ما قسمه الله تعالىٰ للعبد وقدَّره عليه لا يزيد ولا ينقص لما كان يصح لأحد حمد ربه، ولا كان الشارع شرع لنا الحمد أبدًا، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: «أعرف تلامذتي من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢]، ولا أزال أربيهم في الأصلاب وأنا في صلب آبائي حتىٰ وصلوا إليَّ؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا معارض لقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا

---

(١) انظر «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٥٨).

(٢) ساقط من «ب».

تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد سبقه إلىٰ مثل ذلك الإمام علي ﷺ وسهل بن عبد الله التستري، حتىٰ كان سهل يقول: أعرف تلامذتي من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وأعرف من كان هناك عن يميني، ومن كان عن شمالي. *انتهىٰ*.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ لا ينافي ذلك، لأن المراد بالبطون ما يشمل بطون الذوات، أي لا تعلمون شيئًا من ذواتكم، إنما تعلمونه بتعليمنا لكم، وهذا محل وفاق لا يخرج عنه أحد من الخلق، فلولا تعليم الله تعالىٰ للعبد ما علم شيئًا، قال تعالىٰ لسيد الخلائق أجمعين: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ثم إن مقام معرفة التلامذة من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لا يكون إلا لمن صفت ذواتهم من الكدورات البشرية، فلم يحجبهم اختلاف الأطوار عن شهود تلامذتهم. أما من غلبت عليه الكدورات البشرية فربما [أنه][1] لا يعلم بتلامذته إلا بعد معاشرة طويلة.

وكان الشيخ أبو السعود ابن أبي العشائر يقول: قد أطلعني الله علىٰ تلامذتي وعلىٰ من يُفتَح له علىٰ يدي ومن لا يُفتَح له. وكان يقول لخادمه سيدي حاتم إذ قال له: يا سيدي، خذ عليَّ العهد. يقول له: يا ولدي، ما أنت من تلامذتي، وإنما أنت من تلامذة شيخ يأتي من بلاد المغرب اسمه أبو العباس البصير[2]. فلما كان بعد عشر سنين قال له: إن شيخك وصل إلىٰ بيلاق فاذهب إليه. فلما اجتمع به قال له مشافهة: جزىٰ الله عني أخي أبي السعود خيرًا. ثم أخذ عليه العهد.

ولما أراد سيدي أحمد بن الرفاعي أن يأخذ العهد علىٰ فقير نظر إلىٰ جبهته ثم

---

(١) زيادة من «أ».

(٢) **الشيخ أبو العباس البصير** ﷺ، أصله من المغرب، ثم قدم مصر فقطنها، وكان من أصحاب الكشف التام والقبول العام. وكان من معاصري الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر، وكان كل منهما يكاتب الآخر. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٣٨)، «الكواكب الدرية» (٢/ ٣٣٦).

امتنع، فقال له المريد: يا سيدي، أما تأخذ عليَّ العهد؟! فقال: يا ولدي، إني أرىٰ داعي أبي الوفا ابن عقيل[1] علىٰ جبهتك، فاذهب إليه. انتهىٰ.

فكانوا ﷺ يعرفون أصحابهم، فمن ادعىٰ ذلك المقام اليوم صدَّقناه، لأنه ادعىٰ ممكنًا سبقه الناس إلىٰ مثله، ولا اعتراض عليه إذا صار يستجلب المريدين إلىٰ صحبته، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دُعي إلىٰ جنازة ولد أحد من أقرانه أو والده أو زوجته فلم يحضر، فلاث الناس به وقالوا: الآن تحققنا عداوته له، بأنه يجب حمله علىٰ عذر شرعي ولا يجوز سوء الظن به. وإن طلب صاحب الجنازة مقابلته بما يسوؤه في وهمه، فلا يحضر الآخر جنازته إذا دُعِي إليها، وأما غيبته فلا تُباح بمثل ذلك.

وكان سيدي علي الخواص ﷺ لا يعتب علىٰ أحد لم يحضر له جنازة أو لم يعده وهو مريض، ويقول: هو خير، فإن فعله كان له أجر، وإن لم يفعله فهو الذي فوَّت ذلك الأجر علىٰ نفسه. وكان في أوقات يعتب علىٰ من لم يعده ولم يحضر جنازته ويوهمه التشويش، والحال أنه غير متشوش ويقول: إنما نفعل معه ذلك ليقبح في عينه الإخلال بحقوق الإخوان. وتارة يقول: إنما أظهرتُ لفلان التشويش لتفويته الأجر علىٰ نفسه، لا لفوات حقي أنا بقطع النظر عن تفويت الأجر في حق نفسه، فأوهمه أني متشوش منه لحظ نفسي حتىٰ لا يعود إلىٰ مثلها، فإنه أقطع عنده من إظهاري التشويش لأجل فوات الأجر الخاص به. وهذا أمر يقع كثيرًا من الأقران في حق بعضهم بعضًا ويتعادون بسببه، فليحذر المؤمن من ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقع في عرض شخص في زاوية، ثم ذهب إليه

---

(١) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي، شيخ الحنابلة، ومصنف التصانيف اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته. وكان يعظم الحلاج، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار بباب المراتب عدة سنين. ثم أظهر التوبة حتىٰ تمكن من الظهور له تصانيف أعظمها «كتاب الفنون» توفي سنة ٥١٣ هـ. «تاريخ الإسلام» (١١/ ٢٠٣)، «الأعلام» (٤/ ٣١٣).

وقال له: إني وقعت في عرضك وقلتُ في حقك كذا وكذا بحضرة فلان وفلان؛ فحصل بذلك فتنة أشد من وقوعه فيه بالغيبة من ورائه، فلاث العلماء بهذا الشيخ وقالوا: هذا من الجهل وقلة الاشتغال بالعلم، بأنه ربما كان الحامل له علىٰ إعلامه بما قاله في عرضه من ورائه قوة إيمانه بأحوال يوم القيامة، وأنه لا بد من وقوفه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فأراد بذلك تنصله منه في الدنيا قبل الآخرة ولو بتقبيل نعله غافلًا عما يترتب علىٰ إعلامه من شدَّة الفتنة. وهذا أمر يقع فيه كثير من الساذجين الذين لا يحسبون العواقب.

وقد وقع في مثل ذلك بعض الصحابة، وجاء رجل إلىٰ النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إني زنيت بفلانة، ولم يكن علم بذلك إلا الله تعالىٰ، فحصل بذلك فتنة بين أهل تلك المرأة عظيمة، ولامه بعض الصحابة وقالوا له: «هلا سترتَ نفسك»[1] فقصد ﷺ بإعلام رسول الله ﷺ أنه يطهره ويقيم عليه الحد حين أعطاه إيمانه بالحساب أن عذاب الدنيا أهون، فعُلِمَ أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ الذي أعلم من وقع في عرضه بما وقع.

[تفصيل حسن لمظالم العباد]

وقد حبب لي أن أوضح لك يا أخي هذا المحل علىٰ تفصيل حسن، فأقول وبالله التوفيق:

اعلم يا أخي أن لمظالم العباد ثلاثة دواوين: ديوانًا لا يغفره الله تعالىٰ وهو الشرك، ثم هو قد يرجع إلىٰ ظلم النفس التي هي من جملة العباد؛ وديوانًا لا يغفره الله تعالىٰ بالأصالة، وهو مظالم العباد من مال أو عرض؛ وديوانًا لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد لنفسه بارتكاب المعاصي دون الشرك، وهذا يغفره الله تعالىٰ بالتوبة الصادقة.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٦٣) من حديث عبد الله قال: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصىٰ المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض في ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترت نفسك. قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئا، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلا دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة؟ قال: بل للناس كافة» والبيهقي في «السنن» (١٧٠٨٥) وفي «شعب الإيمان» (٦٦٨٢).

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: مظالم العباد علىٰ ثلاثة أقسام: قسم يتعلق بالنفوس؛ وقسم يتعلق بالأموال؛ وقسم يتعلق بالأعراض. فأما النفوس فأحكامها معروفة في كتب الفقه، كقتل العمد والخطأ، ووجوب القَوَد[1] والدية والكفارة وغير ذلك. وأما الأموال فإنه لا بد من ردها إلىٰ المظلوم أو وارثه، فإن تعذر ذلك لم يبق غير التصدق بها عن صاحبها. فإن عجز عن رد المظالم في الدنيا، فليستكثر من الحسنات التي تُوفَىٰ منها الغرماء عند الميزان، فإن لم يفعل فليتأهب لتحمل أوزار المظلوم وأثقاله علىٰ ظهره يوم القيامة، كما ورد في الصحيح من أن العبد إن كانت له حسنات، أُخِذ من حسناته وأُعطِي المظلوم، وإن لم يكن له حسنات طُرِح عليه مِن سيئات المظلوم، وكُتِب له كتاب إلىٰ النار[2].

وأما الأعراض فقد ذكر بعض المحققين فيها تفصيلًا حسنًا، وهو أنه إن كانت المظلمة غيبة أو نميمة أو نحوهما، فلا يخلو من أحد حالين: إما أن تكون بلغت المظلوم أم لا، فإن بلغته تعين وجوب التحلل، وإن لم تبلغه كان تبليغها أذًىٰ جديدًا، وربما أورث ذلك الحقد وانقطاع المودة ونحو ذلك مما هو أصعب من تلك المظلمة، فالطريق في ذلك كثرة الاستغفار له دون تبليغه ودون طلب التحلل منه. انتهىٰ.

واعلم يا أخي أن من الذنوب ما يشتبه أمره علىٰ صاحبه، فله وجه إلىٰ مظالم النفس، وله وجه إلىٰ مظالم العباد، كالزنا والتلوط مثلًا، فإن الأمر في ذلك يحتاج إلىٰ تفصيل ليظهر بواسطته وجه الصواب، وهو أن يقال: إن كان المفعول به مختارًا، كانت تلك المعصية من مظالم النفس؛ وإن كان الفاعل قد راوده وعاوده واستتر له، كان ذلك من مظالم العباد الصعبة، لأنه آذىٰ تلك الصورة وقهرها وجرَّأها علىٰ المعصية، «ومن سن

---

(١) القود: القصاص بقتل القاتل.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: «قال رسول الله ﷺ: من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» والترمذي (٢٤١٩).

سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها»(١) مع أنه هتك عرضه وأذى أهله وحملهم العار، وأوجب لهم الحرص على قتله أو آذاه ولو بعد مدة طويلة، ثم يدخلون النار. وكذلك يكون بهذا الفعل مورثًا للحقد والضغائن بسبب ذلك ولو بالإشاعة، كما هو مشاهد في أولاد الفلاحين والعربان. وهو من أعظم المظالم المؤثرة في النفوس لقبح ذكره، فضلًا عن فعله، وكثيرًا ما يقتل الشخص من يراه يفسق بولده أو زوجته أو أخته ولا يملك نفسه عن ردها عن قتله.

وقد قلت مرة لسيدي علي الخواص رحمه الله: هل يغفر الحج مظالم العباد؟ فقال: لا، بل ولا يغفرها الجهاد الذي هو أعظم من الحج. وقد ثبت في الصحيح: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله مقبلًا غير مدبر هل يغفر الله لي؟ فقال رسول الله ﷺ: يغفر الله لك كل شيء إلا الدَّين»(٢). انتهى.

فإن قيل: فأي دليل على أن الجهاد أعظم من الحج؟ فالجواب: أن من الدليل على كون جنس الجهاد أفضل من جنس الحج قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ﴾ [التوبة: ١٩] إلى قوله ﴿الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠] ولم يثبت في ذلك عند الحفاظ شيء من الأحاديث. فاعلم ذلك وتأمله فإنه نفيس، واحفظ لسانك في حق الفقراء، فإن الغالب عليهم السذاجة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الولاية الكبرى، وتلوث الناس به ويقولون: أين علامات الولاية؟ أين كراماته؟ أين خوارقه؟ فإن الولي إذا لم يكن له

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه النسائي (٣١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر، فقال: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفر الله عني سيئاتي؟ قال: نعم ثم سكت ساعة، قال: أين السائل آنفا؟ فقال الرجل: ها أنا ذا، قال: ما قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفر الله عني سيئاتي؟ قال: نعم، إلا الدين، سارني به جبريل آنفا» والدارمي (٢٤٥٦) وابن حبان (٤٦٥٤).

كرامة، فلا فرق بينه وبين آحاد الناس، إذ الكرامة للولي كالمعجزة للنبي، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه، فربما كان صادقًا، إذ الولاية أمر يتعلق بالباطن، فغالب أعمالها قلبية لا يطلع عليها إلا الله تعالىٰ. ومن قال: لا بد للولي من أعمال تميزه عن العامة؛ قلنا له: ما كل عامل بالطاعات يكون مقبولًا، فإذن لا اعتماد علىٰ الطاعات.

فابحث يا أخي أولًا علىٰ معرفة باطن من ادعىٰ الولاية من طريق كشفك، ثم أنكر إذا رأيتَ قلبه خرابًا من الإيمان والتقوىٰ، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: أعمال الأولياء أكثرها قلبية، وما أظهروا منها إلا بقدر ما يحتمله أتباعهم فقط، ولولا الأتباع ما أظهروا منها شيئًا، فمن أعمالهم القلبية عدم محبة الدنيا، وعدم الإصرار علىٰ ذنب، وعدم الرياء والعجب، والكبر والحقد وسوء الظن بالمسلمين، وكثرة الالتجاء إلىٰ الله تعالىٰ دون أحد من خلقه، إلا مع شهود أن ذلك الأحد من جملة ما ينصر الله به عبده، فمن وجدتم فيه هذه الصفات فهو من أولياء الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا كان ليس كلُّ معترف بذنبه ينجو من العقوبة، ولا كلُّ عامل بالطاعة يكون مقبولًا، ولا كلُّ عاصٍ من المسلمين يكون معذَّبًا، ولا كلُّ متقرب إلىٰ الله يكون محبوبًا، فمن أين يعرف آحاد الناس الولي من غيره، فسلموا لكل من ادعىٰ الولاية تسلموا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر ﷺ يقول: من علامة الوليِّ أن يكون رافضًا للدنيا، ذا فهم في الكتاب والسنة، رحيمًا بالخلق، صابرًا علىٰ أذاهم، يدعوهم إلىٰ حضرة ربهم برحمة وشفقة وتعظيم، فمن جمع هذه الصفات فهو وليٌّ لله حقًّا. انتهىٰ.

وسمعتُه مرارًا يقول: من علامة الولي أن يحضر مع الله في حال أكله وشربه وجماعه، ويغيب عن شهود نفسه، حتىٰ لو أكل مقدار زبيبة غافلًا عن الله تعالىٰ، خرج من أدب الولاية، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٤) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا جاءه شخص من طلبة العلم يطلب الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، فهدَّ عمامته وعممها له كعمامة خلبوص المغاني. وأمره بأن يشد وسطه ويشمر لباسه إلىٰ الركبة، وأن ينطَّ[1] في الهواء إذا خرج بتلك الهيئة إلىٰ السوق. فلاث به الناس وقالوا: هذا خروج عن آداب أهل الطريق الذين أدركناهم. وإنما يكون سلوك الناس بالأعمال الصالحة، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه. لأنه ربما اطلع من طريق كشفه علىٰ أن هذا الطالب لا يُفتَح عليه في طريق القوم إلا إن خالف العوائد وخرق ناموس نفسه، وخرج عن مراعاة الخلق، فبادر إلىٰ فعل ذلك ليقرب عليه الطريق. فإنه ما كل عامل بالطاعة يكون ذليلًا في نفسه، بل الغالب علىٰ أهل الطاعات أن أحدهم يزداد بها كبرًا علىٰ أقرانه.

وقد دخل بعض العلماء علىٰ السيد عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، إني قد عملتُ بعلمي وزهدتُ في الدنيا حتىٰ تساوىٰ عندي ذهبها وترابها، وتركتُ جميع أهوية نفسي، ومع ذلك فلم يزدد قلبي إلا قساوة وحجابًا! فقال له عمر ...: لأنك فعلت ذلك بالهوىٰ، وتركت الهوىٰ للهوىٰ، ولم تخلص في ذلك. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين قد أُتيت من قِبَل نفسي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: لا حرج علىٰ الفقراء في أي هيئة لبسوا، لعدم مراعاتهم العوائد التي اصطلح الناس عليها، فلأحدهم أن يلبس كهيئة الجند، وإن اعترض معترض طالبناه بالدليل، ولعله لا يجد دليلًا ينهىٰ عن مثل ذلك نهي كراهة ولا تنزيه.

وسمعتُه ﵁ يقول: لا تعبؤوا بطالب العلم إذا جاءكم يطلب الطريق أو يقرأ عليكم شيئًا من رسائل القوم حتىٰ تمتحنوه بمخالفة هوىٰ نفسه، فقد يقرأ عليكم مثل «رسالة القشيري» كلها، ويفهمها وهو في حظ نفسه لا ينتفع منها بكلمة، وربما كان يرىٰ نفسه أنه أقوىٰ فيها منكم، وأنه صار صوفيًّا بذلك. وإن شككتُم في قولي، فامتحنوه بمخالفة هواه المباح شرعًا، كأن يخرج إلىٰ السوق في ثياب من ليس من حرفته كالسوقة والفلاحين والزُّعر، فإن امتثل أمركم وخرج بها إلىٰ السوق بانشراح صدر فهو صادق، وإن لم يفعل ذلك، أو فعله مع

---

(١) نطَّ الصبي: قفز.

خجل، فاعلموا أنه لم يؤهل للطريق، إذ الطريق كلها مبنية على مخالفة الهوى. انتهى.

فعُلِمَ أنه لا اعتراض على الشيخ الذي هدَّ عمامة العالم مثلًا، ومن اعترض عليه، فهو جاهل بأركان الطريق، وما لم يسلِّم العالم نفسه إلى الشيخ ويحكِّمه في نفسه يتصرف فيها بما يشاء من مخالفة الأهوية، فهو غير صادق، وغير الصادق رجوعه من أول الأمر أبعد له من المقت، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان له مجلس علم أو ذكر في مسجد، فجاء عالم أو شيخ آخر يعقد له مجلسًا في مكانه وأقامه منه، وفرَّق جماعته، وساعده الحكام على ذلك، فجلس الشيخ الأول أو العالم الأول عابسًا، ولاث به الناس وقالوا: هذا علامة على عدم إخلاصه، وأيش يضره لو كان الناس كلهم علماء وصالحين؟! لكنه يحب الانفراد بالصيت دون أقرانه، بأنه لا ينبغي حمله على الرياء وحب الصيت وأنه تكدَّر لفوات ذلك عليه، وأنه يجب حمله على أنه إنما عبس حزنًا على نفسه حين اتهمها بالرياء أو انكشف له حاله، فحزن لأجل ذلك وعبس، والحال أنه ازداد محبةً في ذلك العالم أو الشيخ الذي طرأ عليه، لكونه أنقذه من النار، أو حذَّره من شيء ربما كان يقع فيه في المستقبل. فاحفظ ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٦) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا صار يكتب في مراسلاته: «كتبه فلان خادم الشريعة، أو كتبه فلان الذاكر» فلاث الناس به وقالوا: انظروا إلى فلان يزكِّي نفسه بأنه عالم أو ذاكر، بأن مثل ذلك لا ينبغي الإنكار على الإنسان لأجله، فقد يكون ذلك ليعرف الناس بعلمه أو بكثرة ذكره من باب التحدث بالنعمة، وليأخذ الناس عنه العلم وآداب الطريق، لا سيما في بلد لا يعرفه أحد فيها. ولا يجوز حمله على الرياء وحب الشهرة، فإن ذلك أمرٌ راجع إلى النية، ومثلنا لا اطلاع له عليها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من كمال الرجل تخلقه بالاسم الظاهر

والباطن، فلا يبطن أمره كله، ولا يظهر أمره كله. وكان الإمام الشافعي يقول: ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل فيما بينه وبين الله تعالىٰ، فإن كل ما ظهر للخلق قليل الجدوىٰ في الآخرة. انتهىٰ.

وقد ذكرنا في مقدمة كتاب «المنن الكبرىٰ» عدة ممن ذكر مناقب نفسه في كتاب من العلماء، فراجعه، وإياك وحمل الناس علىٰ المحامل التي تسوؤهم لو بلغتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق الذي دخل هو وجماعته الوليمة، فأكلوا غالب طعامها، فلاث بهم الناس وقالوا: هؤلاء ما هم إلا عفاريت! أو هم معانون من الجنِّ! بأن هذا الشيخ وجماعته قد يكونون ممن جاؤوا يتحملون عن صاحب الوليمة البلاء النازل عليه طول سنته أو طول عمره بتلك الأكلة عنده، حتىٰ لو علم بذلك صاحب الوليمة، لكان هو السائل في أكلهم طعامه كله، ومنع غيرهم.

وقد وقع مثل ذلك للشيخ دمرداش[1] المدفون خارج الحسينية بمصر أن أميرًا عمل له طعامًا واسعًا، وأرسل وراءه ووراء جماعته، فحضر الشيخ فقط، [فقال][2]: يا سيدي، أرسل وراء الفقراء؟ فقال: أنا آكل موضعهم. فأكل سماط ذلك الأمير كلَّه وحده، هكذا أخبرني خليفته الشيخ كريم الدين[3].

وكذلك أخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمه الله أن سيدي محمد بن هارون[4] بسنهور

---

(١) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ دمرداش المحمدي رضي الله عنه أجل أصحاب سيدي الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي المدفون في حوش السلطان برقوق بصحراء مصر المحروسة مات رضي الله عنه سنة نيف وثلاثين وتسعمئة، ودفن بزاويته رحمه الله. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني ترجمة رقم (٤١١).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) محمد بن أحمد بن محمد الخلوتي كريم الدين الدمرداني الصوفي الشافعي ولد سنة ٨٩٦هـ. من مصنفاته: «رد المتوقف بلا محالة في الابتداء بالذكر بالجلالة» و«الطراز الذهبي علىٰ أبيات ابن العربي». توفي سنة ٩٨٦هـ. انظر: «هدية العارفين» (٢/ ٢٥٥).

(٤) قال عنه الإمام الشعراني: سيدي محمد بن هارون السنهوري. وكان عالـمًا صالحًا جامعًا بين الحقيقة

المدينة[1] كُشِفَ له عن بلاء ينزل على البلد، فذبح عشر بقرات قربانًا، وطبخها وجعلها في أوعية كبارًا، وقال: لا تمنعوا أحدًا. فجاء فقير فقال: أطعموني؛ فقدموا له ماجورًا[2] فأكله، ثم آخر فأكله، وهكذا حتى كاد يأتي على الطعام كلِّه، فدفعه النقيب وأخرجه، فنزلت على البلد صاعقة من السماء فأحرقتها، فكانت سبب خرابها إلى يومنا هذا. انتهى.

وكذلك بلغني عن سيدي عبد الله[3] المدفون على خد باب جامع الزاهد بمصر[4] أنه كان يأكل البقرة وحده بنحو ألف رغيف. وكذلك كان الشيخ تاج الدين الذاكر يأكل نحو الإردب من العيش ولا يخرج له فضلة، وإنما يحترق ذلك في بطنه. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والخوض في أعراض الفقراء وأنت لم تعرف مقاصدهم.

وكذلك وقع لسيدي يوسف أبو طاقية أحد أصحاب سيدي محمد الحنفي أنه أكل سماطًا وحده ولم يشبع، فقال له الشيخ: ما فعلت في ذلك الطعام كله؟ فقال: نقلتُه للأسرى ببلاد الفرنج. انتهى. والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سأله الناس عن أحد من

والشريعة، وكان إذا خرج من الجامع يوم الجمعة، يشيعه جميع من حضر الجامع إلى داره بقصد التبرك. ومناقبه كثيرة مشهورة في بلاده وغيرها. لم يتيسر معرفة تاريخ وفاته. وضريحه بسنهور المدينة.انظر: «الطبقات الوسطى» للشعراني الترجمة (٣٠٣) طبعة دار الإحسان.

(١) سنهور المدينة: إحدى قرى مركز دسوق التابع لمحافظة كفر الشيخ بمصر.

(٢) نوع من الأواني.

(٣) كذا بالأصلين، والصواب أن اسمه إبراهيم بن عبد ربه كما في «الطبقات الوسطى» للمصنف: قال: «المدفون على باب جامع سيدي أحمد الزاهد ﷺ. كان من أرباب الأحوال.دخل مرة بيت سيدي مدينفي مولده الكبير، فأكل طعام المولد كله وما عشوا الناس إلا من السوق. وكان يأكل في بعض السنين لحم بقرة كاملة ويطوي بعدها عن الأكل سنة. ولما مات طلب زين الدين الأستادار طلب أن يأخذ سيدي إبراهيم يدفنه في تربته، فعجز الناس أن يحركوا النعش، فلم يقدروا، فصلوا عليه قبالة الجامع ودفنوه في خد الجامع في المكان الذي هو فيه الآن». توفي سنة (٨٧٨هـ). انظر: «الطبقات الوسطى» (٢/ ٨٠٨)، «الكواكب الدرية» للمناوي (٣/ ١٣٧).

(٤) جامع سيدي أحمد الزاهد: يقع بشارع البحر القريب من ميدان الشعرية بمحافظة القاهرة عاصمة مصر.

أقرانه، فقال: بئس من ذكرتموه! وصار ينفِّر الناس عن صحبته أو صهارته[1]. فلاث به الناس وقالوا: هذا يقع في أعراض الناس، فكيف يدعي العلم والصلاح ويخالف ما هو حامله من العلم؟! بأنه لا يجوز حمل هذا العالم أو الشيخ على ما يتبادر إلى الأذهان، وإنما الواجب حمله على أنه خاف على أخيه الفتنة والاشتغال بصحبة الناس عن ربه عزَّ وجلَّ، فنفَّر الناس منه على طريقة السلف الصالح، فكان أحدهم يسأل أخاه أن ينفر عنه كلَّ من غلب على ظنِّه أنه يشغله عن ربه عزَّ وجلَّ، ويشكر فضله على ذلك، وإن عرَّف به أحدًا يشغله عن ربه يتكدر منه، فأراد هذا العالم أو الشيخ إحياء سنة السلف الصالح التي ماتت، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الناس على المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه يسعىٰ في تحصيل شهوات نفسه، ويذل نفسه في تحصيلها، ولاث الناس به وقالوا: كيف يدعي هذا الصلاح وهو يعشق النساء الجميلات، ويذل في طلبهن مثلًا؟! بأنه ربما كان يحب تلك الشهوات بتحبيب الله تعالىٰ له ذلك، لا بحكم الطبع النفساني، كما قال ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعِلَت قرة عيني في الصلاة»[2]، فانظر إلىٰ قوله: «حُبِّبَ» ولم يقل «أحببت». فاعلم ذلك، وإياك أن تحتقر عالمًا سعىٰ في تحصيل شهوة من الشهوات، وتحمله علىٰ شهوة الطبع، فإن ذلك سوء ظن به، وهو لا يجوز، بل احمله علىٰ أنه وارث في ذلك المقام لرسول الله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا أنكر أولياء الله في عصره، وصار كل من قالوا له: هذا ولي ينكره، ولاث الفقراء به بسبب ذلك، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه ما تعدَّىٰ علمه الذي جعله الله تعالىٰ عنده، ولم يكلف الله تعالىٰ عبدًا إلا بحسب ما أعطاه.

وقد كان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: معرفة الولي أدق من معرفة الله عزَّ

(١) كذا بالأصلين، بمعنىٰ مصاهرته.

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد (١٢٢٩٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٦٧٦).

وجلَّ؛ لأن الله تعالىٰ معروف لعباده بالقدرة الإلهية، وأما الولي فليس عنده ما يميزه، ومتىٰ يعرف الإنسان ولاية من يأكل ويشرب، وينام ويغفل، ويجوع ويمرض، ويبول ويتغوط مثله، وقد تقدم الجواب بذلك بأبسط مما هنا.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إنما يؤاخذ الله تعالىٰ الناس بإيذاء أوليائه لا بنفي ولايتهم، لجهلهم بهم وعدم دخول الناس المنكرين حضرة الله تعالىٰ، ولو أنهم دخلوها لعرفوا أولياء الله تعالىٰ بالعين لا بالسماع، فهم معذورون في نفيهم من الولاية بحسب علمهم.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من اغتاب وليًا من أولياء الله، عذَّبه الله بعذاب لم يعذِّب به أحدًا من العالمين. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإذا سُئلتُم عن ولي فقولوا: الله أعلم بحقيقة أمره حتىٰ يطلعكم الله علىٰ حاله. والحمد لله رب العالمين.

(٥٣١) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا كان يتمايل في صلاته إذا وقف فيها، ولاث به بعض الناس وقالوا: إن رسول الله ﷺ نهىٰ عن مثل ذلك وقال: «لا تمايلوا في الصلاة تمايل اليهود»[1]، بأن رسول الله ﷺ إنما نهىٰ عن التمايل من يتفعل فيه، أما من تمايل لما حصل له في قلبه من عظمة الله تعالىٰ، فلا حرج عليه، لأنه لا تفعُّل له فيه، فيجب حمل هذا العالم أو الشيخ علىٰ أنه ما تمايل إلا لما حصل له من عظمة الله تعالىٰ دون التفعل الذي هو من شأن اليهود.

وإيضاح ذلك أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام كان إذا ورد عليه الوارد من الله عزَّ وجلَّ في صلاته أو حال مناجاته يصير يتموج به باطنه كبحر ساكن هب عليه ريح شديد، فيموج وتتلاطم أمواجه، فكان تمايل موسىٰ عليه الصلاة والسلام بحق. وأما اليهود فلم

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو الشيخ الأصفهاني في «ذكر الأقران» (١٦٦) عن أم رومان قالت رآني أبو بكر أتميل في الصلاة فزجرني زجرة كدت أن أنصرف من صلاتي ثم قال: قال رسول الله ﷺ إذا قام أحدكم في صلاته فليسكن أطرافه ولا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف في الصلاة من تمامها، وذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٨٢٥).

يدركوا ذلك السر، فتشبَّهوا به في صورة الفعل ولم يعرفوا ما حركه في نبضهم. فلهذا نهانا رسول الله ﷺ عن تمايل اليهود، وهو أن يتمايل من غير وجد لا مصفق. فافهم واحمل العالم أو الشيخ إذا تمايل على أنه ما فعل ذلك إلا غلبة، لأنه أظهر من حالهم، وإياك والدخول بين العلماء والصالحين وبين نياتهم ومقاصدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه يطمئن في الصلاة على أقل مراتب الطمأنينة في الفرض والنفل إمامًا كان أو مأمومًا. لا سيما إن كان المأمومون يسألونه في التطويل بهم، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: الأفضل للعلماء والصالحين أن يأتوا بالطمأنينة والأذكار على أكمل مراتبهما، بأنه ربما كان ممن يتجلى له عظمة الله في صلاته ويضعف عن تحملها، فهو يسارع إلى التخفيف حسب طاقته عن نفسه وعن المقتدين به. وكان هذا مقام السيد عبد الله بن عمر، فقالوا له في ذلك، فقال: أبادر الوسواس، أي لأن العبد إذا طال وقوفه في حضرة الله تعالى مع الهيبة زهقت روحه وخرجت إلى محل الحجاب قهرًا عليه، وما كلُّ عبد يقسم له الحضور الدائم. ومعلوم أن تخفيف الصلاة مع الحضور خير من تطويلها مع الشتات في أودية الدنيا.

(٥٣٣) وكذلك يُجاب عن العالم أو الشيخ إذا طوَّل جدًّا، بأنه إنما طوَّل حياءً من الله عزَّ وجلَّ أن ينصرف من حضرته إلى شهوات نفسه، وما كلُّ إمام يقدر على مراعاة حال المأمومين والاشتغال بهم حال الوقوف لمناجاته لله عزَّ وجلَّ. فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين على المحامل الحسنة، وإن لم تجد شيئًا منها فاسكت إذا سُئِلَ عنها من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا أغلق بابه عند الأكل، ولم يمكِّن أحدًا من الناس يدخل عليه، مع أنه بحمد الله في غاية الوسع في الدنيا، فلاث الناس به وقالوا: هذا من شدة البخل، و«أقبح من كل قبيح صوفي شحيح»[1]، بأنه لا يلزم من إغلاقه الباب حال

---

(١) ينسب هذا القول لأحمد بن عطاء بن أخت أبي علي الرُّوذبَارِي رحمه الله المتوفي سنة (٣٦٩هـ). انظر

الأكل البخل، فقد يكون سبب غلقه الباب لخوفه من الداخلين أن يفرِّقوا قلبه عن الله تعالىٰ حال الأكل، من حيثُ إن من شروط الفقراء الأكل مع الحضور بقلوبهم مع الله تعالىٰ، فيعتقد أحدهم أنه في حضرة الله تعالىٰ، وأنه ينظر إليه من حين يأكل إلىٰ أن يفرغ، كما يعتقد ذلك حال صلاته علىٰ حدٍّ سواء، بجامع أن كلًّا منهما مشروع، وكما نُهي عن فعل كلِّ شيء يفرِّق قلبه في الصلاة، فكذلك الحكم في كلِّ ما يفرق قلبه عن الحضور في الأكل.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: إني لآكل وأنا أصلي، فقيل له: كيف؟! فقال: آكل وأنا حاضر القلب مع الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وكان جدي ﷺ يتقيأ كلَّ لقمة أكلها غافلًا، وإذا بذر حبًّا أيام الحرث وهو غافل لا يأكل منه، ويعلمه بعلامة ليجعله وحده أيام الحصاد ولا يأكل منه شيئًا. وجاءه مرةً شخص يزوره من الأكابر وهو يبذر، فقال له شخص: أعطني البذر واشتغل أنت بالسلام عليه؛ فأبىٰ وقال: حضور قلبك في حال البذر ما هو مثل حضوري. وكان يقول: كلُّ بذر لم يكن صاحبه حاضر القلب فيه هاف[1] وقلَّت البركة فيه.

فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك في حقِّ الفقراء الذين يغلقون أبوابهم حال الأكل، وإياك أن تحملهم علىٰ البخل وشحِّ النفس، فإنهم في وادٍ وأنت في وادٍ، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وصفه أعداؤه بفعل الرذائل وازدراه الناس بسبب ذلك، فبلغه ذلك، فصار يكثر من الأعمال ويعلِن بها لهم، فلاث الفقراء به وظنوا به أنه إنما زاد في الأعمال الصالحة وأعلن بها ليزيل ما في نفوس الناس من الازدراء له، ويكذِّب المنقصين له بالفعل لحظ النفس، بأنه لا ينبغي حمله علىٰ هذه النية الفاسدة، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه إنما أكثر من الأعمال الصالحة ليخف الإثم عن أعدائه ومن صدَّقهم [من حيثُ كونُهم كانوا سببًا لوقوع الناس في إزدرائه، فقصد

«الطبقات الوسطىٰ» للمصنف (١/ ٤١١) دار الإحسان.

(١) هَافَ ورقُ الشجر هَيْفًا: سقط.

بذلك تخفيف الإثم عن أعدائه، وعمّن صدَّقهم](١) إذا كذّبهم بفعله، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد بذلك حظ نفسه فقط دون مصلحة الأعداء ومن صدقهم. فإن ذلك معدود من دناءة الأخلاق التي لا تليق بالعلماء والصالحين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا لاث الناس بعرض الفقير، وجب عليه تفتيش نفسه من الصفات الرديئة، ليلوم نفسه دون من لاث به، ويتوب إلىٰ الله تعالىٰ فيرضىٰ عنه، فإذا رضي سرىٰ ذلك الرضا إلىٰ قلوب عباده المؤمنين، فيحبونه ويرونه بعين الكمال. وقد قال السلف الصالح: من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته. ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإذا رأيت أحدًا وقع في زلة واشتهر بها بين الناس، فصار يذكر الله ويكثر من العبادة، فاحمله علىٰ أنه يفعل ذلك خالصًا، لا ليزيل ما في نفوس الناس لحظ نفسه كما يتوهمه العوام، فإن ذلك سوء ظن به، بل احمله علىٰ أنه تنبه بتلك الزلة علىٰ الإخلاص لله تعالىٰ حين تاب ورجع إليه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أكل طعامًا في وليمة مثلًا، فلما فرغ قال لبعض العلماء: تعال فصب علىٰ يدي الماء؛ فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا سوء أدب! كيف تأمر من هو أعلىٰ مقامًا منك يا جاهل أن يصب عليك؟! بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لأنه ربما قصد بذلك العمل بحديث: «سيد القوم خادمهم»(٢)، فقصد بذلك السيادة له عليه ظاهرًا في ذلك الوقت، كما هو الأمر عليه باطنًا، وليس مقصوده بذلك ازدراء العالم، معاذ الله أن يقصد الفقراء ذلك! والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٧) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ينكر علىٰ من يجتمع بالصوفية من طلبته، ويقول: هؤلاء أَكَلَة بَطَلَة(٣) ولو اشتغل أحدهم بالعلم كان أفضل مما هو فيه، بأنه معذور

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) بَطَلَة: من البطالة.

في إنكاره؛ لأن طريق الصوفية غير مألوفة لمخالفتها للنفوس، فهي تنفر منها بالطبع، ولا يكاد يأتلف علىٰ أهلها إلا نادر من طلبة العلم، ولو أن المنكر دخلها لعرف أنها مشيَّدة بالكتاب والسنة وآداب الأئمة، ولم يجد شيئًا من آدابها يخالف الشريعة أبدًا، لأن حقيقة الصوفي عالم عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص لا غير.

وقد كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينكر طريق الصوفية ويقول: وهل ثم لنا طريق إلىٰ الله غير العلم الذي بأيدينا؟! فكان يتوهم أنها طريق خارجة عن الشرع، فلما اجتمع بسيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي اعتقد في الصوفية غاية الاعتقاد، وصار يقول: من أعظم دليل علىٰ أن القوم قعَّدوا علىٰ قواعد الشريعة وقعَّد غيرهم علىٰ الرسوم ما يقع علىٰ يد القوم من الكرامات والخوارق التي هي فرع المعجزات، ولا يقع شيء من ذلك علىٰ يد فقيه قط، ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا إن سلك طريقهم. انتهىٰ.

وكذلك وقع للإمام الغزالي ﷺ. ومما وقع للشيخ عبادة المالكي[1] أن جماعة من طلبته تركوا حضور درسه واجتمعوا بسيدي مدين ﷺ، فصار يقول: هؤلاء مُقِتُوا! كيف يتركون الاشتغال بالعلم الشريف الذي خيره متعدٍّ إلىٰ الأمة، ويشتغلون بأمر قاصر علىٰ أنفسهم؟! فبلغ ذلك القول إلىٰ سيدي مدين، فدعاه إلىٰ حضور مولده الكبير الذي يحضره مشايخ الإسلام الأربعة وأكابر الدولة، وقال للحاضرين: لا أحد يقوم للشيخ عبادة، ولا يفسح له إذا جاء. فلما حضر فعلوا ذلك، فجلس عند النعال مُغضَبًا، ثم رفع سيدي مدين رأسه وقام وقال: هاتوا الشيخ عندي. فلما جلس بجانب سيدي مدين قال له: حَضَر سؤالٌ. فقال: قولوا. فقال: هل يجوز القيام للمشرك إذا طلب من المسلمين ذلك مع أمنهم من شره؟ فقال: لا يجوز ذلك. فقال: لم؟ فقال: لتعظيمه المشرك لغير غرض شرعي. فقال له سيدي مدين: الله عليك! أما تكدَّرت من عدم قيام الناس لك في هذا المجلس؟! فقال: نعم. فقال: كأن لسان حالك يقول: قوموا لي كما تقوموا لربكم

---

(١) نور الدين عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم، فقيه مالكي، برع في الفقه والأصلين والعربية، وأفتىٰ ودرس. توفي سنة (٨٤٦هـ). «حسن المحاضرة» (١/ ٤٦٢)

في الصلاة! فدارت هذه الكلمة فيه، ثم انتصب الشيخ عبدة قائمًا وقال: اشهدوا أنني أسلمتُ علىٰ يدي سيدي مدين إسلامًا جديدًا. ثم طلب منه تلقين الذكر فلقنه، وترك الآخر درسه، وأقام يخدم الشيخ إلىٰ أن حضرته الوفاة، فأوصىٰ أن يدفن تحت عتبة تربة الفقراء في موضع خلع الفقراء نعالهم، فقبره تحت العتبة. وأراد بعضهم أن يحول باب التربة عنه، فجاءه في المنام فقال: لا تغير الباب. رضي الله عنه.

فاعلم ذلك، ولا تنكر علىٰ من ينكر علىٰ الصوفية، [...][1] ثم إذا خالطهم ورأىٰ أحدًا منهم علىٰ بدعة، فحينئذ ينكر عليه معه ويعذره بحق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بالغ في تطويل القيام في الصلاة، فقال له بعض الفقراء: لو أطلتَ الركوع والسجود كان أفضل، لما فيهما من القرب من حضرة شهود الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]؛ وعن الشيخ الذي خفف القيام وأطال الركوع والسجود، فقال له بعضهم: لو أطلت القيام لكان أفضل، لأنه وصف العبيد العاملين في خدمة ربهم، قال تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ واحد من هذين الشيخين، لثبوت فعلهما عن رسول الله ﷺ، فكان تارة يطيل القيام، وتارة يطيل الركوع والسجود تشريعًا لأمته، فمنهم المحجوب وغير المحجوب، والقوي والضعيف، فأدنىٰ الناس مقامًا من أطال الوقوف، وفوقه في المقام من أطال السجود، فلو أراد الأدنىٰ[2] أن يطيل الركوع لاحترق من القرب، ولو أراد من فوقه وهو الذي أطال الركوع أن يطيل السجود، لاحترق من شدة القرب، كما أشار إليه حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[3]، فكل من هذين الشيخين ينبغي حمله علىٰ حال، ولا يقال تطويل القيام أفضل مطلقًا، ولا

---

(١) سقط بالأصلين.

(٢) أي من يطيل القيام.

(٣) تقدم تخريجه.

تطويل الركوع والسجود أفضل مطلقًا. وكلٌّ مصلٍّ يعرف حال نفسه، فإن وجد الراحة في طول القيام دون ما بعده، كان القيام في حقِّه أفضل، وإن وجد الراحة في الركوع وما بعده كان ذلك في حقِّه أفضل.

وقد كان مالك بن دينار والفضيل بن عياض وإبراهيم ابن أدهم وأضرابهم يطيل أحدهم القيام من العشاء إلىٰ أن يتخوف طلوع الفجر فيركع. وكان عثمان بن عفان وسفيان الثوري وبشر الحافي يطيل أحدهم السجدة من العشاء إلىٰ الفجر، فيصير يطوف في غرف الجنة وقصورها، وفي النار وطبقاتها إلىٰ الصباح. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين، فإنهم أعلم منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لبس يوم الجمعة الثوب الأسود أو الأزرق مع أن عنده الثياب النقية البياض، أو لبس في العيدين الثياب الدنسة الخلقة مع وجود الثياب النفيسة، فلامه الناس في ذلك، فقال: هذا أفضل عندي؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا يرجِّح نظره علىٰ مأمورات الشرع، وهو من الجهل العظيم، بأنه لا ينبغي الاعتراض عليه، فربما رأىٰ عنده محبة البياض والثياب النفيسة إنما هو لهوىٰ النفس لا اتباعًا للسنة فترك ذلك، وهو أحد المذهبين. والمذهب الآخر يفعل السنة ويستغفر مما خالطها من الهوىٰ. وفي كلام السهروردي: «[اعمل][1] وإن خفت العجب مستغفرًا». انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يسلم العبد من هوىٰ كامن في أعماله، ولكن العارفون يقلبون ذلك الهوىٰ إلىٰ اتباع السنة، ولذلك قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من شح مطاع، وهوىٰ متبع»[2] فلم يستعذ من مطلق الشحِّ والهوىٰ، لأنه من طبع البشر، وإنما [استعاذ من طاعة النفس في الشحِّ واتباعها لهواها دون طلب مرضاة الشارع. قال:

(١) ساقط في الأصلين، مستكمل من «اليواقيت والجواهر».

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البزار (٣٣٦٦) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «المهلكات ثلاث: إعجاب المرء بنفسه، وشح مطاع، وهوىٰ متبع» والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٦٥).

ولا يخفىٰ أن][1] وقوع مثل هذه الاستعاذة من رسول الله ﷺ إنما هو من باب التشريع لأمته، وإلا فهو ﷺ معصوم من طاعة النفس في الشحّ واتباعها في الهوىٰ. انتهىٰ.

وقد رأيتُ سيدي عليًّا الخواص يصلي الجمعة والعيدين في عباءة ويقول: إن مثلنا لا يخلو عن هوىٰ نفسه في لبس الثياب النقية النفيسة في الأعياد والجمع. لا بد أن يكون لبسها ممزوجًا بهوىٰ نفس، فمن أقدَّره الله تعالىٰ علىٰ أن يلبسها طلبًا لمرضاة الله تعالىٰ من غير هوىٰ نفس فليفعل، وإلا فلا يُطالَب بلبسها، لأن الهوىٰ إذا خالط المأمورات الشرعية دنَّس قلوب أصحابها. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوري ومالك بن دينار والشعبي يصلون الأعياد والجمع في العباءة والثياب الدنسة، ويقولون: قلب نقي في ثوب دنس أحب إلىٰ الله من قلب دنس في ثوب نقي. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الصالحين.

(٥٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتكلم علىٰ أصحابه في الطريق ويقول: لا تحسبوا أنني أعلم ما أقول قبل أن أقول لكم، إنما أنا مستمع لكم كأحدكم؛ فلاث به العلماء وقالوا: من شرط المتكلم بشيء أن يكون علمه موقورًا في قلبه قبل أن ينطق به، فكيف يكون كالمستمع بعد سماعه؟! بأن هذا الشيخ ربما كان ممن مَنَّ الله تعالىٰ عليه بالإلهام الصحيح الموافق للشريعة الظاهرة، فصار لا يعرف شيئًا من أحكام الشريعة التي لم يطلع عليها إلا من طريق إلهامه، فصار ينتظر الجواب عن كلِّ مسألة سُئل عنها من باب إلهام الحقِّ تعالىٰ.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من شرط الشيخ في جميع ما يجري علىٰ لسانه أن يكون راقد النفس، شغله مطالعة نِعَم الحقِّ تعالىٰ عليه في ذلك، فهو فيما يجريه الله تعالىٰ علىٰ لسانه كآحاد المستمعين. انتهىٰ.

ومما وقع لي أن شخصًا سألني عن صلاة الجمعة متىٰ فُرِضت؟ ولم يكن عندي

---

(١) ساقط من «ب».

علم بذلك من طريق النقل، فتوجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ، فألهمني أنها فرضت ثاني عشر ربيع الأول[١]، فقلتُ ذلك للسائل، فكشف عنها من تفسير القرآن للخازن، فوجد ذلك منقولًا، فشكرتُ الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

ونظير ما نحن فيه من كون الشيخ فيما يقوله كالمستمع ما يقع للغوَّاص علىٰ الدُّرِّ في البحر، فإنه يجمع بين الصدف في مخلاته، ولا يرىٰ ما اشتمل عليه الصدف من الدر إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه في رؤية الدُّرِّ من كان علىٰ الساحل. وإيضاح ذلك أن البحر نظير حضرة الوحي، وإخراج الصدف من البحر نظير خروج الملك بالوحي[٢] من حضرة علم الله.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا كَمُلَ الرجل في مقام العرفان، صار ترجمانًا للحضرة الإلهية، فيكون دائمًا ناظرًا إلىٰ ما يبرز من حضرة الحقِّ[٣]، مصغيًا لما يرد علىٰ قلبه منه، فكأنه مؤدٍ أمانة للناس. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان الناس يتزاحمون علىٰ صحبته ويبالغون في الاعتقاد فيه، ثم فروا عنه بأجمعهم، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا صادقًا، لكان أتباعه يزدادون كثرةً علىٰ الدوام، بأنه قد يكون هو الذي تعاطىٰ أسباب الخفاء، وسأل الله تعالىٰ أن يفرقهم عنه، لظنِّه بنفسه الرياء مثلًا أو بهم، فسأل الله تعالىٰ تفرقتهم عنه حتىٰ تنصلح نيته ونيتهم، **فإن النفوس مجبولة علىٰ حبِّ الشهرة والتعظيم في قلوب الناس، ولا تترك ذلك إلا عجزًا،** ثم إذا كَمُلت في مقام الولاية، زهدت في ذلك إذا خافت أن يُشتغَل به عن الله تعالىٰ، ثم إذا كَمُلَت الكمالَ التامَ طلبت كثرة الاجتماع بها وكثرة المريدين، لتفيض عليهم من العلوم والأسرار حين أفاضها الله عليها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ليحذر الفقير كلَّ الحذر من تزاحم الناس

---

(١) انظر تفسير الخازن (٧/ ٩١).

(٢) المقصود بالوحي: ما يشمل وحي الإلهام الذي يكون للأولياء. وقد تقدم كلام الإمام عنه في (٣١).

(٣) بالأصلين: حضرة الحضرة. والصواب ما أثبتناه.

عليه يطلبون منه الإرشاد، فربما كان ذلك من الله تعالىٰ ابتلاءً واختبارًا، أو مكرًا واستدراجًا، إذ النفوس مجبولة علىٰ محبة قبول الخلق لها، ومحبة الشهرة بالعلم والصلاح.

وسمعتُه مرارًا يقول: من شرط الفقير ما دام ضعيف الحال أن لا يستجلب قلوب الناس لمحبته بالكلام الحلو وإطعام الطعام والبشاشة ونحو ذلك، ولكن إذا بلغ الكتاب أجله وتمكَّن في مقام الولاية والإرشاد، وعلم بتعريف الله تعالىٰ أنه مراد لتربية المريدين، فحينئذٍ له استجلاب الناس بكل حيلة، ويصير يكلمهم بشفقة ورحمة كما ينصح الوالدُ ولدَه البار به. انتهىٰ.

وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول: لا ينبغي لشيخ أن ينصح المريد إلا في حال صفائه من الكدورات والرعونات، ومن لم يكن الصفاء من شأنه، فليتربص للنصح وقتًا آخر، لأن الكلمة تقع في سمع المريد الصادق كالحبة التي بُذرَت في الأرض، فإن كانت مسوَّسة فاسدة، ازدادت فسادًا فلا تنبت ولو بالغ صاحبها في صبِّ الماء عليها ليلًا ونهارًا. قال: ومن أعظم الفساد مخالطة الهوىٰ لتلك الكلمة، وقد قالوا: قطرة من الهوىٰ تكدِّر بحارًا من العلم. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وعظِّم كلَّ شيخ أو عالم حالَ فرار الناس عنه، وإياك وازدراءه، فإن ذلك حرام، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سمعناه يقول: ما بقي في مصر مثلًا مسلِّك؛ فلاث الناس به وقالوا: إنه يعرِّض بتعظيم نفسه، أي ليس فيها مسلِّك غيري، بقرينة تلقينه الذكر للناس وأخذه العهد عليهم، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما يكون صادقًا فيما قال، وقصد بذلك نصح الناس، ونصح ذلك الشيخ الذي ورَّط نفسه في المشيخة.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يُسمَّىٰ مسلِّكًا إلا من سلَّك الناس في طرقهم التي عيَّنها لهم الحقُّ تعالىٰ في الأزل، فلا يأمر أحدًا بالمشي في غير طريقه التي حدَّها الحقُّ تعالىٰ، كلُّ ذلك بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، فإنه كان يسلِّك الناس

في طرقهم التي عيَّنها الحق تعالىٰ لهم، ويكلم الناس علىٰ قدْر عقولهم، وهذا أمر عزيز وجوده في هذا الزمان.

فيجب الفحص عن أحوال المشايخ الذين نفاهم هذا الشيخ، فربما كانوا جاهلين بطريق السلوك، ولا يجوز حمله علىٰ الأغراض الفاسدة، وأنه يحب أن لا يوصف بالمسلِّك إلا هو فقط. وقد قدمنا في هذا الكتاب عن سيدي عليٍّ المرصفي رحمه الله أن من شرط الشيخ أن يعرف تلامذته من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢][1]، وذلك ليكون علىٰ بصيرة في نفسه، ويدعو كلَّ واحد من طريقه التي جعلها الحقُّ تعالىٰ له، فإن لكلِّ مريد طريقًا تخصُّه، وإن كان الدعوة في أصلها واحدة تجمع سائر طرق[2] الهدىٰ.

وسمعتُه رحمه الله يقول: المسلِّك كالفلاح يعرف الأراضي والغروس، وما يصلح لكل أرض من حب القمح أو الباقلا أو الحمص أو القطن وغير ذلك، إن لم يكن ذلك كشفًا وفراسة كان تجربة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، أو سلِّم للشيخ المنكِر أدبًا معه، فربما كان صادقًا، وإياك وتجريح الأشياخ الذين أنكر عليهم، فربما كان محجوبًا عن معرفة مقامهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا أوصىٰ أصحابه بأن يبلغوه ما وقع من بعضهم بعضًا من ورائه في حقه، فلاث به الناس وقالوا: هذا مخالف لقوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[3]. انتهىٰ؛ بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان قصده بذلك مداواتهم من النفاق الواقع منهم في حقِّه، فيتوبون منه ويستغفرون الله تعالىٰ، وما حُرِّمت النميمة بالأصالة إلا لغير مصلحة شرعية.

ثم من أصدق دليل علىٰ صدق الشيخ أن لا تراه يتكدَّر إذا بلغه عن أصحابه أنهم

(١) جواب (٥٢٠).

(٢) بالأصلين: طريق.

(٣) تقدم تخريجه.

ذكروه بسوء، بل يبادر إلىٰ ذكر ذواتهم ببشاشة وانشراح لخروجه عن حظ نفسه. وأما قوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي... إلىٰ آخره» فهو تشريع للأمة. وإلا فهو ﷺ كان معصومًا من الغضب لنفسه، فافهم، وإياك والإنكار علىٰ الأشياخ من غير تأمل وتربص، فإن من شأنهم أن يدوروا مع الحقِّ حيث دار.

وقد رأيتُ بعض فقراء الزوايا يسمع أحدهم الكلمة في حقِّ الشيخ. فيستحيي أن يذكرها له، فما زالوا كذلك حتىٰ انفتحت علىٰ الشيخ أبواب خربت منها الزاوية. ولو أنهم كانوا أخبروه بكلِّ كلمة سمعوها في حقِّه أولًا فأولًا. لكان سدَّ تلك الأبواب كلَّها، فلم يحصل في الزاوية خلل، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٤) ومما أجبتُ به عن العابد الذي غشيته امرأة، فخاف علىٰ نفسه الفتنة، فقطع مذاكيره، فلاث به العلماء وقالوا: ما كان يجوز له ذلك، بل ولو وقع في الزنا لا يجوز له قطع ذكره الذي عصىٰ ربَّه به، بأن هذا العابد ربما فعل ذلك تقديمًا لدفع العار عن نفسه في الدنيا والآخرة باجتهاد منه، مع غفلته عن تحريم الشرع قطع شيء من أعضائه بغير طريق شرعي، ولو أنه استحضر أمر الشرع وتحريم ذلك عليه لما وقع في مخالفته.

وممن رأيتُه من أولياء عصرنا قطع ذكره حين خاف علىٰ نفسه الفتنة الشيخ عبد الرحمن المجذوب[1] المدفون قريبًا من جامع الملك الظاهر بيبرس ﷺ، وكان حاله عظيمًا حتىٰ سمعتُ سيدي عليًّا الخواص مع كماله ﷫ يقول: ما جلستُ عند الشيخ عبد الرحمن إلا ورأيتُ نفسي كالقط عند السبع. انتهىٰ.

ونقل وهب بن مُنبِّه ﷺ أن عابدًا من بني إسرائيل كان يُقال له «يونا» وكان من أجمل شباب زمانه، فوقع بصر بنت الملك طالوت عليه فعشقته، فلم تتوصل إليه إلا بإظهار الوله

(١) الشيخ عبد الرحمن المجذوب ﷺ كان من الأولياء الأكابر. وكان سيدي علي الخواص ﷫ يقول: ما رأيت قط أحدًا من أرباب الأحوال دخل مصر إلا ونقص حاله إلا الشيخ عبد الرحمن المجذوب. مكث مقعدًا نحو خمس وعشرين سنةً، أقعده الفقراء. وكان يخبر بوقائع الناس في سائر أقطار البلاد. مات ﷺ سنة ٩٤٤ هـ، ودُفن بزاويته قريبًا من جامع الملك الظاهر بالحسينية، وقبره ظاهر يُزار. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» ترجمة (٤٥٤).

والزهد في الدنيا، فسألت والدها أن يدعها تسيح في البراري تعبد الله تعالىٰ، فأجابها إلىٰ ذلك، فساحت في البرية التي فيها صومعة يونا، فاجتمعت به، فقال: أعوذ بالله منك! فقالت: إنما خرجتُ لأعبد الله معك. فأرسل أَعْلَم والدها بأن يرسل وراءها، فأشار عليه بعض أصحابه أن يرسل وراء يونا العابد ويوصيه بأن يدعها تعبد الله معه وتستأنس به فأبىٰ، فعزم عليه طالوت، فقال: أمهلني ساعة. ثم دخل خلوة وقطع مذاكيره ووضعها في علبة وختمها، ثم قال للملك: خذ لي هذه الوديعة حتىٰ نرجع من السياحة، فأخذها وختم عليها بخاتمه، ثم خرج، فاجتمع بابنته في البرية، فلم تزل تعبد الله معه سنة، ثم قالت له: إني ذبتُ عشقًا عليك، فارحمني بأن تقع عليَّ، ثم نتوب أنا وإياك، فإن باب التوبة مفتوح! فأبىٰ وأخرجها من حضرته بعنف ففارقته، فرأت شابًا يرعىٰ غنمًا، فراودته عن نفسه، فوقع عليها فحملت منه، ثم رجعت إلىٰ بيت والدها فوجدوها حبلىٰ، فقالوا لها: ما شأنك؟! فقالت: وقع عليَّ عابد اسمه يونا وأنا نائمة، [ما][1] استيقظتُ إلا وهو بين رجلَي! فأرسل الملك وراءه فأتوا به عباد بني إسرائيل، فقالوا: يا يونا، بعد تلك العبادة كلِّها تقع في مثل ذلك؟! فأمر الملك بقتله، فقال له يونا: أسألك بالله لا تقتلني حتىٰ ترد إليَّ وديعتي؛ فأجابه إلىٰ ذلك، فأخرج له العلبة، فوجد ختمه عليها ففتحها، فإذا فيها مذاكيره مقطوعة، ثم كشف ثيابه فوجده ممسوحًا، فاعتذر إليه وخلىٰ سبيله وقال: اجعلني في حلٍّ مما ظننتُه بك. انتهىٰ.

فانظر يا أخي كيف غلب علىٰ هذا العابد الخوف من الوقوع في الزنا، ورأىٰ غضب الله تعالىٰ فيه أشد من غضبه في قطع مذاكيره، فقدَّم الأخف علىٰ الأشد، ومثل هذا مأجور وإن أخطأ عند بعضهم، فنسلم له حاله إذا فعل ذلك بنفسه. وأما إذا فعل ذلك بغيره إذا خاف عليه، فهي مسألة قتل الخضر للغلام الذي خاف أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي خرج من خلوته، فغشي علىٰ الناس من هيبته،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فلاثوا به وقالوا: هذا من استخدام الجان لا من صفات الولاية. ونسبوه إلى النصب والسحر، بأنه لا يجوز المبادرة إلى حمله على المحامل السيئة. بل الواجب حمله على أن تلك الهيئة التي خرج على الناس بها إنما هي مكتسبة من مجالسة الحق جلّ وعلا، وقد وقع لرسول الله ﷺ مثل ذلك، فروى الترمذيُّ أن امرأة أتت النبي ﷺ. فلما وقع بصرها عليه، أرعدت من هيبته، فقال: «هوني عليكِ. فلستُ بملك ولا جبَّار. إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1]. انتهى.

وحكى القشيري عن أبي يزيد[2] أنه كان يقول لمريده: لأن تراني على ما أنا عليه في باطني خير لك من أن ترى ربك ألف مرة! فلاث العلماء به، فقال: إنه إذا رآني بعين التعظيم انتفع بي، وإذا رأى ربه لا يعرف أنه هو، فلا ينتفع برؤيته. فكابره فقيه في ذلك، فقال: امكث هنا حتى أخرج إليك. فخرج من الخلوة، فبمجرد ما وقع بصر الفقيه عليه مات لوقته، فقالوا له في ذلك، فقال: رآني من حيثُ حقيقتي، فلم يطق ذلك فمات. انتهى.

فاعلم [ذلك]، واحمل الصالحين إذا وقعت هيبتهم في قلوب الناس على أن تلك الهيبة إنما هي من هيبة الله أو من هيبة رسول الله حين كان مجالسًا لله تعالى أو لرسول الله في الخلوة. وممن أدركتُه من أهل هذا المقام سيدي الشيخ أبا العباس الغمري[3] وسيدي عليًا المرصفي رحمهما الله تعالى، كان الشخص إذا وقع بصره على أحدهما يصير يرعد ساعةً طويلةً.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي يقول: لو ظهر للناس مقام الولي لعبدوه، يعني

---

(١) لم أقف عليه عند الترمذي، وإنما أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) من حديث أبي مسعود قال: «أتى النبي ﷺ رجل، فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد» والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٣٦٦) ووافقه الذهبي، والطبراني في «الأوسط» (١٢٦٠).

(٢) أبي يزيد البسطامي.

(٣) أبو العباس الغمري أحمد بن محمد المشهور بالولاية والعلم، كان وافر الجلالة، ظاهر المهابة، قدره عظيم، نظيره في عصره عديم، وكان يكثر عمارة المساجد بالريف، يقال إنه عمر خمسين جامعًا، وكان له كرامات كثيرة يحفظها جماعته ت سنة ٩٠٥هـ. «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ٦٨٧)، «الكواكب الدرية» (٣/ ٣٤١).

لأطاعوه فيما يأمرهم به من الخير، ولم يتخلف منهم إلا من سبقت له الشقاوة. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من أدب الفقير إذا كان مجالسًا لله تعالىٰ في الخلوة ثم أراد الخروج أن يقول: اللهم أسدل عليَّ الحجاب حتىٰ لا يعرف بمقامي أحد، وذلك ليخرج من الدنيا وهو كامل الحال. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلامذته: صلاتكم هذه لا يقبلها الله تعالىٰ مع كونهم أتوا بها كاملة من حيثُ شروطُها وأركانُها وأبعاضُها، فلاث به بعض الفقراء وقال له: من أين عرفت أن الله تعالىٰ لا يقبلها؟! فقد تكون أكمل عند الله تعالىٰ من صلاتك. انتهىٰ؛ بأن هذا الشيخ ربما قال ذلك لتلامذته تنهيضًا لهم، ليترقوا من رخص الشريعة إلىٰ عزائمها، لا جهلًا بأحكام الشريعة الظاهرة، فكأنه يقول لتلامذته: لا تلتفتوا لظاهر العبادة دون باطنها الذي هو الحضور مع[1] الله تعالىٰ فيها، بقرينة ما ورد من الأحاديث في ذلك. وفي بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالىٰ لملائكته: «اكتبوا عمل عبدي فلان، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل». انتهىٰ. فليس مراد الشيخ القطع بأن الله تعالىٰ لا يقبل تلك الصلاة مثلًا، وإنما ذلك ترهيب لتلامذته.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمه الله كلما أراد الفقراء قراءة الورد يقول لهم: احضروا قلوبكم مع الله في وردكم. فقال له شخص يومًا: جماعتكم بحمد الله يحضرون لا يحتاجون إلىٰ من يذكِّرهم. فقال الشيخ: نعم، ولكن لا بأس بتذكيرهم بذلك احتياطًا للإخوان، وقد يكون منهم من قلبه شارد في أودية الدنيا، وقد كان ﷺ يأمر بتسوية الصفوف والاستقامة كلما قام إلىٰ الصلاة[2]، ولم يكتف بقول ذلك مرة أو مرتين مثلاً.

فافهم، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير تأمل، وتفكر في أحوال الأشياخ، فربما

---

(١) بالأصلين: إلىٰ. والأنسب ما أثبتناه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٢٣) من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سووا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة» ومسلم (٤٢٥).

تحملهم على محامل [لم][(١)] يريدوها، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لتلامذته: إن أردتم الترقي في الطريق، فقدموا محبتي على محبة غيري من الخلق. ولو كان أعلى مني مقامًا؛ فلاث به الناس وقالوا: انظروا إلى هذا الجهل الذي كاد أن يكون كفرًا. فإنه دخل في إطلاق هذا القول تأخيرُ محبة رسول الله ﷺ التي [هي] شرط في صحة الإيمان. وتقديم محبته التي هي مستحبة، بأنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار على هذا الشيخ. لأنه ربما قصد بتقديم محبته غرضًا صحيحًا، وذلك كأن يعلِّم ويبيِّن لذلك المريد حقيقة محبته ﷺ أو غيره من أكابر الأولياء، وأن من شرط كمالها أن لا يخالفه ﷺ في شيء من شرعه، وليس مراد الشيخ الاستهانة بجناب رسول الله ﷺ أو غيره من أكابر الأولياء، حاشا الأشياخ من ذلك!

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؓ يقول: محبة الشيخ سُلَّمٌ للترقي إلى كمال محبة رسول الله ﷺ، ومحبة رسول الله ﷺ سُلَّمٌ للترقي إلى محبة الله عزَّ وجلَّ؛ فكأن الشيخ يقول: أحبوني وبالغوا في محبتي لأعلمكم الأدب مع رسول الله ﷺ، فإن مثلكم جاهل بمقامه، فإذا بلغتم الغاية في محبته ﷺ وبالغتم في اتباع شريعته، ترقيتم إلى محبة الله تعالى، وصحت لكم محبته تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١] أي تريدون محبته أو الزيادة منها، ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] من باب تعليق الأسباب على مسبَّباتها، فمن لم يحصل له الأصل، لم يحصل له الفرع.

وسمعتُه مرة أخرى يقول: الشيخ مرتبة إدمان المريد، فمن لم يُحكِم الأدب مع شيخه، لم يَشُم من طريق الأدب مع رسول الله ﷺ رائحة، وهو فريق وشيخه فريق، وإذا كان المريد كذلك بطل ترقيه ضرورة. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلى الإنكار على الأشياخ، فإنهم أكثر تعظيمًا لرسول الله ﷺ منك، وإنما كلامهم رموز ولغوز، وما قالوا لمريدهم: «قدمنا في المحبة» إلا لعملهم بجهله بمقام النبوة، فكأنهم يقولون له: لا تتعدانا إلى النبي ﷺ إلا بعد أن

---

(١) زيادة ضرورية لاستقامة السياق.

نعلِّمَك الأدب معه، ونعرِّفك برعاية[1] مقامه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُلبِس الخرقة للمريدين من عَرَقية[2] أو رداء أو قميص، وعن المريد الذي حكَّم هذا الشيخ في نفسه يتصرف فيه كما يتصرف الوالد، فلاث بهما بعض الفقهاء وقال: هذا الفعل لم يثبت فيه شيء عن رسول الله ﷺ؛ لأن الصوفية يروون ذلك عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ، ومعلوم أن الحسن البصري لم يجتمع بعليٍّ فضلًا عن روايته عنه. وأما التحكيم المذكور فلم يرِد فيه شيء عن رسول الله ﷺ، فالأولىٰ ترك إلباس الخرقة المذكورة وترك التحكيم، ويكتفي بالنصح من كلِّ مسلم رآه علىٰ فعل مذموم، كما كان عليه الصحابة والتابعون، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ إنكار ما ذُكر بالإشاعة من آحاد الناس، وإنما ينبغي الإنكار لمثل ذلك ممن يكون أعلم الناس بطريق الظاهر والباطن، ونظر في كلام أهل الطريقين، فلم يجد لهم مستندًا، فحينئذٍ له الإنكار.

وقد أثبت الحفَّاظ اجتماع الحسن البصري بعلي بن أبي طالب وإلباسه الخرقة، فروىٰ الضياء المقدسي[3] بسند صحيح كما قاله الجلال السيوطي وغيره أن الحسن البصري كان يقول: سمعتُ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول حين قتلوا عثمان: اللهم اشهد أني لم أحضر ولم آمر بذلك؛ فهذا صريح بأن الحسن اجتمع بعليٍّ.

وروىٰ سيدي يوسف العجمي بسنده المتصل إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه أنه ألبس الحسن البصري الخرقة التي يتداولها الصوفية فيما بينهم. وروىٰ أيضًا بسنده عن أويس القرني رضي الله عنه أنه لبسها من يد علي بن أبي طالب، ومن يد الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين اجتمعا به،

(١) بالأصلين: براعة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) العَرَقية: طاقية قطنية صغيرة تلبس تحت الطواقي الصوف، لامتصاص العرق.

(٣) الضياء المقدسي محمد بن عبد الواحد بن أحمد ضياء الدين، أبو عبد الله السعدي المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي، صاحب التصانيف والرحلة الواسعة. ولد: ٥٦٩هـ له مصنفات منها: «فضائل الأعمال» و«الأحكام» و«الأحاديث المختارة» و«الموافقات» توفي: ٦٤٣هـ. انظر: «السير» (٢٣/ ١٢٦) و«الأعلام» (٦/ ٢٥٥).

عملًا بوصية رسول الله ﷺ، فللبس الخرقة طريقان: عن الحسن عن عليّ، وعن أويس عن عمر بن الخطاب وعليّ رضي الله عنهما.

وإنما كان الشيخ محيي الدين بن العربي وغيره يلبسون الخرقة للمريدين ويقولون: «هذا علىٰ سبيل التبرك بأفعال السلف» لعدم ثبوت حديثها في عصرهم. قال الشيخ محيي الدين: ولما لم أجد فيها حديثًا لبستُها من يد الخضر عليه الصلاة والسلام عند الحجر الأسود، وأخذ عليّ العهد بالتسليم لمقالات الشيوخ. انتهىٰ[1].

وكان الإمام السهروردي رحمه الله يقول: إنما ألبس الشيخ الخرقة للمريد بيانًا لصحة ارتباط المريد بشيخه ومربيه، وإظهارًا لرضاه بتحكيم الشيخ فيه، فلا ينبغي لأحد إنكار مثل ذلك، فإن التحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية، فالأخروية أولىٰ بذلك، وكيف ينبغي لفقيه أن ينكر علىٰ مريد تحكيمه شيخًا من أهل الطريق في نفسه لمصالح دينه، ليرشده ويهديه ويعرِّفه طرق المواجيد، ويبصِّره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل الشيطان، مع حسن ظنه فيه وكثرة اعتقاده. وهذا أمر لا يجوز لمسلم إنكاره.

[دليل لبس الخرقة للصوفية][2]

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إلباس الخرقة للمريد إنما هي إشارة إلىٰ تفويضه أمره إلىٰ الشيخ، ودخوله في حكمه الذي هو حقيقة شرع الله وشرع رسول الله ﷺ. وفي الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في المنشط والمكره»[3]. انتهىٰ.

وفي إلباس الخرقة معنىٰ المبايعة، إذ هي عتبة الدخول في الصحبة التي هي المقصود الأصليُّ الكليُّ، فبواسطتها -يعني الصحبة- يسري من باطن الشيخ إلىٰ المريد حال عظيم كسراج يقتبس من سراج.

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٥).

(٢) العنوان علىٰ هامش الأصلين.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧١٩٩) ومسلم (١٧٠٩).

قال: وفي القرآن العظيم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] فذكر تعالىٰ تحكيم الأمة لرسول الله ﷺ، ولا شك أن في تحكيم المريد شيخه إحياء لسنة التحكيم المذكور بعد موت الصحابة ﷺ. وفي الآية أيضًا تعليم الصحابة الأدب مع رسول الله ﷺ، فإن تعالىٰ شرط عليهم التسليم لرسوله ﷺ فيما يحكم به عليهم، ونفىٰ عنهم الإيمان إن لم يسلموا له تسليمًا، أو كان عندهم حرج من حكمه عليهم، **وما ثبت لرسول الله ﷺ من الأدب فهو ثابت للشيخ الداعي إلىٰ شرعه وإن تفاوت المقام. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، فربما كان لهم مستند في ذلك لو عرضوه عليك لم تنكره.**

وقد كانت عَذَبة شيخنا شيخ الإسلام زكريا نحو ذراع، فقلتُ له يومًا: إن الثابت في الأحاديث أن عَذَبته ﷺ كان طولها أربع أصابع، فقال: صحيح ذلك، ولكن هكذا أخذناها عن أشياخ الطريق، ولا بد لهم فيها من دليل. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا طعن في السن ولزم بيته ولم يخرج إلا لفريضة أو عيد أو غيرهما من الأمور المؤكَّدة في الشريعة، وترك زيارة إخوانه وعيادتهم والمشي في جنائزهم ونحو ذلك، فلاث به الناس وقالوا: لو خرج للناس لكان أفضل، وقد قال ﷺ: «حق المسلم علىٰ المسلم سبع» فذكر منها: «وعيادة المريض وتشييع الجنائز»[1] بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ إلا بعد الفحص عن الأمر الذي انقطع في بيته لأجله، فربما كان في تحرير كتبه التي ألَّفها خوفًا أن تخترمه المنية قبل تحريرها.

وربما كان جلوسه في بيته ليتفكر في ذنوبه التي فعلها طولَ عمره، ليتوب منها توبة جديدة، ويتنصل منها ويكثر من الاستغفار، وربما صارت وجهته إلىٰ مشاهدة الحقِّ

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما الذي وقفت عليه عن البراء بن عازب ﷺ قال: «أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس...» أخرجه البخاري (١٢٣٩) ومسلم (٢٠٦٦).

تعالىٰ بحكم المراقبة له، فلم يبقَ له فراغ إلىٰ غيره، وربما كان قد أخذ في التأهب للدار الآخرة، ورأىٰ ذلك واجبًا عليه، فاشتغل به عن بعض السنن والنفضلن.

وتأمل يا أخي من مات له ولد عزيز كيف لا يطالبه أحد بزيارة ولا عيادة لمريض ذلك اليوم، لكونه مشغولًا بالحزن وبشراء الكفن وحفر القبر وتغسيل الميت. فكذلك حكم من تأهب للانتقال للدار الآخرة، وقد قالوا لبشر الحافي: ألا تتزوج وتفعل السنة؟ فقال: إني قد شغلتُ بالفرض عن السنة. قيل له: فما هو؟! قال: علاج نفسي ومخالفتها في كلِّ شيء كان فيه حظها ولو عبادة. انتهىٰ.

وممن أدركتُه علىٰ هذا القدم من العلماء وأشياخ الطريق الشيخ زكريا، وتلميذه الجلال السيوطي، والشيخ برهان الدين بن أبي الشريف، والشيخ ناصر الدين اللقاني[1]، والشيخ برهان الدين القلقشندي[2]، وشيخ الإسلام الششيني الحنبلي[3]، وسيدي علي المرصفي، والشيخ محمد السروي، والشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ

(١) الشيخ الإمام الورع الزاهد المجمع علىٰ جلالته الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رحمه الله. انتهت إليه الرئاسة بعد أخيه الشيخ شمس الدين في العلم والعمل والتحقيق والوقوف عند قوله، وجاءته الأسئلة من بلاد المغرب والتكرور واليمن والحجاز والشام والروم. وتخرج به جماعةٌ مذهبه الموجودون الآن، فلا يوجد مالكي إلا وهو من طلبته أوطلبة طلبته. مات رحمه الله سنة ثمان وخمسين وتسعمئة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» الترجمة (٥٥٦) طبعة دار الإحسان.

(٢) قال عنه الإمام الشعراني: شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين القَلْقَشَندي الشافعي رحمه الله كان عالـمًا صالحًا زاهدًا، قليل اللغو والمزح، مقبلًا علىٰ أعمال الآخرة، حتىٰ ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل. انتهت إليه الرياسة في علوم السنة في الكتب الستة والمسانيد والأجزاء. توفي سنة (٩٢٢هـ) قبل دخول السلطان سليم مصر، وكأن الشمس كانت في مصر فغربت، رضي الله عنه، وكانت جنازته خاصة بالأمراء والعلماء والصالحين. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني، الترجمة رقم (٥١٠).

(٣) قال عنه الإمام الشعراني: شيخنا وقدوتنا إلىٰ الله تعالىٰ شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الششيني الحنبلي رضي الله عنه كان عالـمًا زاهدًا، نقيًا تقيًا، عفيفًا متواضعًا، طالما رأيته يدرس العلم علىٰ نخ خلقٍ ليس فوقه شي. وكان إمامًا في التفسير والمذهب. توفي سنة: ٩١٩هـ. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني، الترجمة رقم (٥١١).

حسن العراقي المدفون فوق الكوم المطل علىٰ بركة الرطلي[1]، وجماعةٌ ذكرناهم في «الطبقات» جلسوا كلُّهم في بيوتهم أواخر أعمارهم، تاركين للزيارة والعيادة ونحو ذلك إلىٰ أن ماتوا. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك بأحكام الكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال لمريده: لا تدخل المسجد لصلاة الجمعة أو غيرها إلا إن كان باطنك سالمًا من محبة الدنيا ومن الكبر والحقد والحسد، وغير ذلك من الذنوب، أو تائبًا من ذلك توبةً نصوحًا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا شرط لم يقل به أحد، وكيف يترك العبد صلاة الجماعة بشرط لم يصرِّح به الشارع؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما قصد بهذا الشرط الكمال، فقال: لا تدخل المسجد وفيك شيء من كبائر الباطن علىٰ وجه الأدب مع الله تعالىٰ فقط، وهو قائل بوجوب الحضور لصلاة الجمعة والجماعة، فكأنه يقول لمريده: إن المسجد بيت الله الخاص، فلا ينبغي لك مجالسته إلا وأنت سالم من الذنوب الظاهرة والباطنة، غير متلطخ بشيء منها. وهذا الأمر لا ترده السنة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لا ينبغي للمجاورين في المساجد أن يكون في باطن أحدهم غلٌّ أو حقد، أو مكر أو كبر أو عجب، فإنهم علىٰ أقدام أهل الفقه من الصحابة ﷺ، وإنما الواجب عليهم أن يكونوا كما قال الله تعالىٰ في حقِّ أهل الجنة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وكلُّ فقير كان في قلبه غلٌّ أو حقد لأخيه الصالح فليس هو مقابلًا له، لأن من شرط المقابلة استواء السريرة والعلانية، ومن كان مضمرًا لأخيه سوءًا، فليس هو بمقابل له،

(١) كانت بركة الرطلي من أحسن متنزهات مصر في العصرين المملوكي والعثماني، وكانت تشغل الجزء الشمالي الشرقي من أرض الطبالة التي كانت متنزهًا منذ زمن الدول الفاطمية. وقد زالت البركة وردمت في مدة حكم الخديوي اسماعيل. والبركة كانت تشغل المنطقة المحصورة الآن بين شارع الظاهر شمالًا وغربًا وشارع غالي وما في امتداده جنوبًا، وشارع موازٍ لشارع البكرية شرقًا.

ولا مسرور بصحبته ورؤيته كما أشار إليه. وخصَّهم بجلوسهم على السرير المشتق من السرور، فهكذا كان أهل الفقه كأبي هريرة وأبي الدرداء وصهيب وبلال الذين يتشبه بهم المجاورون، ويستدلون على من أنكر عليهم جلوسهم في المسجد للغو والأكل وغير ذلك، ويقولون: كان أصحاب الصفة يأكلون وينامون ويتوضؤون في المسجد، فيُقال لهؤلاء: فهل كانوا يحبُّون الدنيا ويجمعونها، ويلغون في المسجد ويخاصمون بعضهم بعضًا، ويستغيبون بعضهم بعضًا فيه، ويفعلون ما يفعلون؟! وإيضاح ذلك أن مثار الحقد والغل والحسد والكبر منشؤها حب الدنيا، وأهل الصُّفَّة لا يلوون على زرع ولا أهل ولا مال ولا جذع، كما وصفهم رسول الله ﷺ(١).

فإياك والاعتراض على هذا الشيخ بغير علم ولا أدب، فيُخاف عليك المقت ودخول النار، فإن الكبر الذي يدخل صاحبه النار هو ردُّ الحق واحتقار الناس، فإنك لولا احتقرتَ هذا الشيخ ما أنكرتَ عليه، ولو كنتَ تعتقد أنه أعلم منك لسلمتَ له نهيه مريدَه أن يجلس في المسجد وهو متلطخ بشيء من المعاصي، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥١) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذين يطالبون من كان وقع في ذنب وهجروه بعمل طعام لإخوانه، وضيَّقوا عليه حتى باع ثيابه وعمل بثمنها طعامًا لهم، فلاث بهم الناس وقالوا: هذا أمر خارج عن الشريعة، فإن الشريعة إنما أباحت الأكل مما عمله صاحبه بطيب نفس من غير تضييق، بأنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار، فربما كان ذلك المهجور قد بايع الفقراء على أنهم يتحكمون فيه كيف شاؤوا، وأن يكرهوه على كلِّ شيء يعود به عليه نفعه في الدنيا والآخرة ما دامت نفسه تنفر من الخير وتشُح بالإنفاق على الإخوان، فكانت تلك المبايعة كالعهد أو الوعد، فطالبوه بالوفاء به وجوبًا أو ندبًا، بقرينة رضاه بما يفعله معه إخوانه، وتوبيخه لنفسه مساعدةً لإخوانه عليها كما هو معروف بين القوم.

وعبارة الإمام السهروردي في كتابه «عوارف المعارف»: ويستحب للمهجور إذا استغفر وقبل الشيخ والإخوان استغفاره أن يقدِم إليهم طعامًا، وإن لم يفعل فلإخوانه مطالبته بذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٢)، والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٤٧٧).

مبادرةً إلىٰ كمال حصول ائتلاف قلوب إخوانه عليه، وذلك لتشاكل قلوبهم عند الاجتماع ظواهرهم. قال: وهذا أمر قد انفرد القوم بمراعاته دون سائر طوائف أهل الإسلام. انتهىٰ. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أشياخ الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٢) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لجماعته: إذا ذكرتم الله تعالىٰ قيامًا، فدوروا حال الذكر بنقل أقدامكم يمينًا أو شمالًا حتىٰ يرجع كلٌّ واحد إلىٰ محل وقوفه الأول، وقال لهم: هذا أمر مستحب؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: من أين جاء الاستحباب ولم يبلغنا ذلك في حديث؟!** بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليهم، فربما قصد بذلك استحباب أشياخ الطريق أخذًا من الشريعة، فإنها أمرت بالعدل في كل شيء، فيحصل لكل بقعة بذلك الدوران نصيب من ذكر كلٍّ واحد من الجماعة، وقد ورد في الحديث: «إن البقاع تتفاخر علىٰ بعضها بعضًا وتقول: هل مر بك اليوم ذاكر؟»[1] الحديث، وأمر الشارع أن من انقطع شسع نعله من رجل أن ينعَلهما جميعًا أو يمشي حافيًا عدلًا بين الرجلين[2]، ونهىٰ ﷺ عن إيطان المكان الواحد في المسجد للصلاة كإيطان البعير[3]، وأمر إذا ذهبنا إلىٰ صلاة العيد أن نذهب في طريق ونرجع في آخر[4]. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٦٢) من حديث أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ: ما من صباح، ولا رواح إلا وبقاع الأرض تنادي بعضها بعضا: يا جارة هل مر بك اليوم عبد صالح صلىٰ عليك أو ذكر الله؟ فإن قالت: نعم، رأت لها بذلك عليها فضلًا»، وأبو يعلىٰ (٤١١٠)، وابن أبي شيبة (٣٤٧٥٧).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٥٦) من حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة، ليحفهما جميعا، أو لينعلهما جميعا»، ومسلم (٢٠٩٧).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال: «نهىٰ رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب، وافتراش السبع، وأن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير» وابن ماجه (١٤٢٩) والنسائي (١١١٢).

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٨٦) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان النبي ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق»، والترمذي (٥٤١).

(٥٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي منع بعض الناس من شكوىٰ جاره الذي يضرب العود ويغني ويجلس مع بنات الخطا وغير ذلك من بيت الوالي. ولاث به الممنوع وقال: لو مكنني من شكواهم. لجاء الوالي ومسكهم ومنعهم من الاجتماع علىٰ هذه المنكرات طوعًا أو كرهًا. ولكن قد صار الناس كلُّهم اليوم مداهنين في دينهم، ويبيعون دينهم ودنياهم، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ. لأنه إنما منع من يشتكيهم من بيت الوالي عملًا بوصية الله تعالىٰ بالجار. ويكفيه أن يقول لهم: هذا الأمر ما هو مليح، فتوبوا إلىٰ الله تعالىٰ منه. وقد أراد بعض التابعين أن يشتكي جارًا له من شربه الخمر من الشُّرَط، فمنعه عبد الله بن عمر وقال: لا تفعل. انتهىٰ.

وكان للإمام أبي حنيفة جار يغني ويضرب العود. فكبس عليه الوالي، فصار يغني في بيت الوالي ويقول:

أضاعـوني وأي فتًـىٰ أضاعـوا

فبلغ ذلك الإمام أبا حنيفة، فدخل علىٰ الوالي وشفع فيه وقال: ما أضعناك يا أبا فلان. انتهىٰ.

فكن يا أخي ساترًا لعيوب إخوانك وجيرانك ما أمكن، ما داموا يخفون معاصيهم ليستر الله تعالىٰ عورتك في الدنيا والآخرة. وقد رأىٰ سيدي عبد القادر الجيلي سكران يتمايل في السوق، فأراد أن يرفعه إلىٰ القاضي، فقال: يا عبد القادر، الله قادر أن يجعلك مثلي، ويجعلني مثلك! فكف عنه سيدي عبد القادر، وسأل الله تعالىٰ له التوبة.

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تكن عونًا للشيطان علىٰ إخوانك العصاة، فتشمته بهم بشكواهم إلىٰ الوالي، إذ الوالي لا ينضبط عادة علىٰ فعل الأمور الشرعية بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٤) ذومما أجبتُ به عن الفقراء المقيمين في زوايا الأشياخ إذا صاروا يسعون علىٰ وظائف الناس، ويكتب أحدهم في قضية: فلان الغمري، أو المديني، أو الأحمدي، أو الرفاعي، أو البرهاني؛ فلاث بهم الناس وقالوا: يا ليتهم لا يُنسَبُون إلىٰ هؤلاء الأشياخ!

فإن أحدًا من هؤلاء الأشياخ لم يكن يحب الدنيا ولا يسعىٰ علىٰ وظائف أحد، ولا تصح النسبة إلىٰ وليٍّ إلا بعد المشي علىٰ قدمه، بأن هؤلاء الفقراء وربما قصدوا بقولهم: الرفاعي أو الغمري مثلًا مجرد المحبة لهم دون دعوىٰ المشي علىٰ قدمهم، وقد ورد في الصحيح أن شيخًا قال: «يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. فقال: المرء مع من أحب»[1]. انتهىٰ. فأثبت ﷺ لهم المحبة وإن لم يلحقوا بالقوم، **ولم يزل المحبُّون في كلِّ عصر يدعون المحبة، ولا يصدق منهم إلا القليل.** وربما قصد أحد هؤلاء الفقراء التبرك بذكر شيخه والحماية به وسرعة قضاء الحكَّام لحاجته.

وأما سعي الفقراء علىٰ وظائف الناس، فينبغي حملهم علىٰ المحامل الحسنة والأعذار الشرعية، وربما قصد أحدهم بالسعي علىٰ وظيفة أخيه منعه من أكل الحرام، كأن يأخذ معلومها ولا يحضر لا بنفسه ولا بنائبه. وربما كان الذي كانت الوظيفة بيده عاميًّا لا يصلح لها. ففتش يا أخي أولًا علىٰ استحقاق من سعوا عليه لتلك الوظيفة، ثم أنكر، ولا ينبغي الحكم علىٰ جميع الناس بحكم أفراد منهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قدم علىٰ بلده أمير أو قاض، فبدأ الشيخ بزيارته قبل الناس، فلاث الناس به، وعن الشيخ الذي لم يزر ذلك الأمير أو القاضي وصبر حتىٰ أتاه ذلك القادم في بيته وقبَّل يده، ولاث به الناس كذلك وقالوا عن الأول: إنه مع كل خيل مُغِيرَة، وله عادة أن ينحشر في الولاة، وعن الثاني: إنه يحب الناموس والمشيخة، ولو أنه ذهب إلىٰ الأمير مثلًا وسلَّم عليه، لكان أولىٰ من مجيء الأمير إليه، ولكن رأىٰ أن مجيء الأمير إليه أقوىٰ في الصحابة[2]، بأنه لا ينبغي المبادرةُ إلىٰ الإنكار علىٰ الأول ولا الثاني، أما الأول فربما قصد ببداءته بالسلام علىٰ ذلك القادم العمل بالسنة في ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) كذا بالأصلين، وهي بمعنىٰ الصحبة. وقد تكون الصخابة، من الصخب، أي أن صحبة الأمير تحدث صخبًا حول الشيخ، فليتفت الناس إليه.

وقد ورد: «للقادم دهشة، فتلقوه بالترحيب». وأما الذي فربما كان تأخيره حتى وجد نية صالحة يأتي ذلك الأمير بها.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول في حق الولاة القادمين على بلد الفقير أن يبدأهم بالسلام، ولا ينبغي أن يحوجهم إلى المجيء إليه إلا لعذر شرعي، لأنه من أهل البلد، والقادم يحتاج إلىٰ من يؤنسه، لأنه غريب على كل حال. وكلامنا في حق الشيخ الذي له عادة بمخالطة الولاة لمصالح العباد. أما من يحب الخمول، فلا يُطالَب بالملاقاة لأحد من الولاة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحم سمعك وبصرك ولسانك عن الاعتراض على العلماء والصالحين، فربما كانت أعمالك الصالحة عندك جميعها لا يرضى بها ذلك العالم في غيبة واحدة اغتبتَه بها، فتذهب إلىٰ الآخرة صِفْر اليدين من الحسنات. وربما ظننتَ حال غيبتك لأحد أنك أحسن حالًا منه وأكثر طاعةً لله، والحال أنك قد أفلستَ من جميع حسناتك بغيبتك فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو الأمير الذي يأمر غلامه أو عبده أن يلمسه ويغمز ظهره وأوراكه وأكتافه بحائل بحضرة الناس كثيرًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا ينبغي فعله، لأنه يفتح باب اللوث بعرضه، لا سيما الفقير المتقشف، فإن الغمز ترفه لا يليق بالمتعبد، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ واحد من الشيخ والأمير، أما الشيخ فلأنه يستعين به علىٰ العبادة، فإنه يقوم مقام النوم في الراحة من حيثُ تخفيفُ التعب من العبادة، وقد ثبت في السنة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «دخلت علىٰ رسول الله ﷺ وإذا غلام له حبشي يغمز ظهره، فقلتُ: يا رسول الله، ما شأنك؟ فقال: إن الناقة اقتحمت بي»[1] فيُقَاس بذلك من حصل له شدة تعب من العبادة أو الركوب أو المشي، وما كره السلف ذلك إلا لمن يستجلب به النوم المفوِّت للخيرات، فإنهم يفرون من الراحات والرخص إلا لغرض شرعي.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٢٦)، وفي «الأوسط» (٨٠٧٧) والبزار (٢٨٢).

وقد رأيتُ سيدي محمد بن عنان لم يزل الفقراء يغمزون له بطون رجليه كلَّ قليل، لكونه كان من فرسان الليل رحمه الله. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والأكابر إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مرَّ ولم يسلِّم علىٰ إخوانه الجالسين أو القائمين وتكرر ذلك منه، فلاث الناس به وحملوه علىٰ الكبر، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، فربما كان ترك السلام نسيانًا له حين كان قلبه منتشرًا في أودية الدنيا، أو كان هؤلاء الجماعة في جمعية قلب مع الله تعالىٰ، [فخاف أن يسلِّم عليهم، فيفرق قلوبهم. وربما كان تركه السلام لجمعية قلبه مع الله تعالىٰ. وربما كان] من غم حصل له من كلام الأعداء فيه، أو كان يفكر في استنباط مسألة في الشريعة من آية أو حديث، أو كان علىٰ حدث، فإن الأكابر يغلب عليهم التعظيم لأسماء الله تعالىٰ، فيجلونها عن أن يتلفظوا بها علىٰ حدث، و«السلام» اسم من أسماء الله تعالىٰ. وقد ورد: «أن رجلًا مرَّ علىٰ النبي ﷺ وهو يبول، فلم يرد ﷺ عليه السلام حتىٰ كاد الرجل أن يتوارىٰ، فضرب ﷺ بيده علىٰ الحائط ضربتين، ومسح بإحديهما وجهه، وبالأخرىٰ ذراعيه، ثم رد علىٰ الرجل السلام، وقال: إنه لم يمنعني أن أردَّ عليك السلام إلا أني لم أكن علىٰ طهر»[1]. وفي رواية أخرىٰ أنه ﷺ توضأ ثم اعتذر إليه، وقال: «إني كرهت أن أذكر الله إلا علىٰ طهر»[2]. انتهىٰ. ويُقاس برد السلام من باب أولىٰ البداءة به، لأنه إذا كان الواجب الذي هو رد السلام يُترَك لأجل الحدث، فالبداءة به من باب أولىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ [الإنكار][3] علىٰ من ترك البداءة بالسلام، أو لم يرده فورًا وتقول: هذا مخالفة للسنة، واحمله علىٰ المحامل الحسنة كما تقدم. اللهم إلا أن يكون بينه وبين من ترك السلام عليه عداوة وشحناء، فالواجب البداءة والرد علىٰ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٠) واللفظ له، ومسلم (٣٧٠)، والترمذي (٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود (١٧)، وابن حبان (٨٠٣) والطبراني في «الكبير» (٧٨١).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

الفور، ولو كان محدِثًا مسارعة لزوال العداوة وطلبًا لرضا الله عز وجل. وفي الحديث في المتشاحنَين: «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[1]. والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٨) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يسافر إلىٰ الحجاز من البلاد البعيدة بلا زاد، ويعتمد علىٰ سؤال الناس، فلاث العلماء به وقالوا له: إن الله تعالىٰ أمرك بالزاد، وسفرك هذا مخالف للسنة، بأنه ربما كان من الذين راضوا نفوسهم حتىٰ صارت تصبر عن الأكل الشهر والشهرين وأكثر من غير أن يضعُف له بدن، ومثل هذا لا يحتاج إلىٰ الزاد عادة، وإن كان عليه اللوم من جهة تحجيره علىٰ الحقِّ تعالىٰ بقلبه أن لا يغير عليه ما عوَّده به من الاستغناء عن الأكل مدة السفر مثلًا، ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لا يدخل تحت تحجير عباده عليه، ولا لوم عليه في عدم الوفاء بما وعد لسعة الإطلاق، ولذلك لم يسافر العارفون إلا بالزاد ولو علموا من أنفسهم القوة علىٰ الصبر علىٰ ترك الأكل مدة السفر، احتياطًا لأنفسهم وأدبًا مع الله تعالىٰ أن يحجروا عليه في أمر أراده، حتىٰ إن بعضهم منع من التحجير علىٰ الله من طريق الرجاء لما فيه من ترجيح المغفرة مثلًا علىٰ المؤاخذة، وقالوا: ارجُ فضل الله تعالىٰ من [غير][2] تحجير عليه، فإنه تعالىٰ ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: من عباد الله من يسكت عن السؤال حياءً من الله تعالىٰ، وقوة يقين بأنه تعالىٰ لا يضيعه، ولا يسأل إلا إذا رأىٰ الحق تعالىٰ يحب منه السؤال، فيسأل حينئذ إظهارًا للفاقة والحاجة عبودية لا ترجيح فيها للعطاء علىٰ المنع.

ونقل السهروردي في الباب السادس عشر من كتابه «عوارف المعارف» أن أبا جعفر الحداد[3] شيخ الجنيد رضي الله عنه كان يسأل الناس علىٰ الأبواب إذا جاع، ولم يكن له كسب إلا السؤال، فكان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين علىٰ قدْر الحاجة، فيكون

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٠٧٧) ومسلم (٢٥٦٠).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) أبو جعفر الحداد، صحب أبا تراب وأكابر العُبَّاد، كان شديد الاجتهاد معروفًا بالإيثار، مكث عشرين سنة يعمل في كل يوم بدينار، وينفقه علىٰ الفقراء ويصوم. تاريخ بغداد (١٤/ ٤١٣).

ذلك معلومه، فيأكله في يومين. وكان إبراهيم بن أدهم لما دخل البصرة يطوي الأيام ويخرج ليلة فطره، فيسأل على الأبواب قدْر إفطاره ثم يرجع. وسافر سفيان الثوري من الحجاز إلىٰ بلاد اليمن بلا زاد معتمدًا علىٰ السؤال في الطريق. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ فقير خرج بلا زاد من مصر مثلًا إلىٰ الحجاز، حتىٰ تنظر حاله في الطريق، فإن رأيتَه احتاج إلىٰ زاد، فأنكر حينئذٍ، وإن رأيتَ القدرةَ ساعدته إلىٰ مكة من غير حاجة إلىٰ زاد، فقل له يدعو لك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير إذا حضر في جنازة وقدَّموه للصلاة فتقدم، وهناك من هو أعلم منه وأصلح، فلاث الناس به وقالوا: كان ينبغي له رد الأمر إلىٰ من هو أعلم منه وأكثر صلاحًا، بأنه ربما حصلت له دهشةٌ من كثرة الحاضرين واشتغالٌ بأحوال الموتىٰ، فذهل عن ملاحظة من هناك من العلماء والصالحين، فلما قدموه صلَّىٰ وهو غائب عن معرفة مراتب الناس في ذلك الوقت، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والفقراء وأنت لم تعرف مقاصدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي حضر جنازة عظيمة في مثل جامع الأزهر، وظنَّ بنفسه أنهم يقدمونه علىٰ العلماء الذين هناك، فتأخر في غمار الناس، أو نزع عمامته لئلا يعرفه الناس فيقدموه، فلاث به الحاذقون من الفقراء وقالوا: هذا الذي فعله فلان فرع عن شهوده الكبر في نفسه، ولأي شيء لم يبالغ في التواضع حتىٰ يصير لا يخطر علىٰ باله أن أحدًا يقدمه للصلاة علىٰ تلك الجنازة، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الفقير، لاحتمال أن يكون من أولياء الله الكُمَّل الذين بلغوا في التواضع غايته، ثم تنازلوا في المقام احتياطًا لأنفسهم، واتهامًا بأنها تحب الكبر. وربما كانت تحب التقديم علىٰ الحاضرين لغرض صحيح، فأجابها الحقُّ تعالىٰ إلىٰ ما طلبت مصلحةً لها وللميت، وربما كان ذلك استدراجًا ومكر إلهيًا به، والكامل يُكنَىٰ بـ«أبي العيون» فعين ينظر بها إلىٰ نفسه في الحقارة، فلا يخطر في باله أن أحدًا يُقدِمه للصلاة أبدًا، وعين ينظر بها إلىٰ خوف عتب العلماء الحاضرين عليه إذا تقدم عليهم، فيترك التقدم، وعين ينظر بها إلىٰ ما

في قلوب الناس من التعظيم له. فاختفى خوفَ أن يقدموه، وعين يكون مشهدًا به لحق تعالىٰ غائبًا عن التعظيم والتحقير. فاعرف يا أخي قصد الفقير إذا تقدم على الجنازة، ثم أنكر أو سلَّم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦١) ومما أجبتُ به عمَّن وُلِدَ له ولد أو تزوج امرأةً جميلةً من العلماء الأكابر أو الفقراء الصادقين، فلم يعمل لإخوانه وليمة ولا عقيقة. وأظهر الحزن والغم، ولاث به أصحابه وقالوا: إنما فعل ذلك هروبًا من كلفة الطعام وبخلًا وشحًّا. بقرينة أنه كان يضحك معنا وينبسط قبل حصول المولود أو التزويج، وهي حيلة لا يتخلص عندنا بها من العتب عليه، بأنه لا ينبغي اللوث به، فربما كان من الذين ينظرون الأمور بفرد عين[1]، وغلب عليه خوف الفتنة بذلك الولد أو تلك المرأة الجميلة، عملاً بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقوله: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وحديث: «ما تركت علىٰ أمتي فتنة هي أشد عليهم من النساء»[2]، وحديث: «الولد مبخلة مجبنة»[3] أي يورث البخل ويجبن عن الخروج للجهاد، فربما نظر ذلك العالم أو الفقير إلىٰ وجه الفتنة دون كون ذلك نعمة، فحزن ودخل عليه الغم والهم، ولو أنه كان كاملًا لنظر إلىٰ الفتنة بوجه، وإلىٰ النعمة بوجه، وأعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأظهر السرور والفرح، وعمل الطعام ودعا إخوانه إليه، وأخفىٰ الحزن إلا بحضرة من يقتدي به في ذلك.

ومن فتنة المرأة أنها تشغل عن عبادة الله عزَّ وجلَّ إن كانت جميلة أو شوهاء، لأنها إن كانت جميلة أصابته في قلبه، فكلما دخل حبُّها قلبه، لحقه الفرح بها فنسي ربه، وإن كانت شوهاء أصابته في ظاهره، فكلما نظر إليها لحقه الغم واشتغل بذلك عن ربه أيضًا، لكن ضرر الشوهاء وفتنتها أخف من الجميلة، لأن الحق تعالىٰ غيور لا يحب أن يرىٰ في قلب

---

(١) أي ينظر الأمور من جهة واحدة، بخلاف الكامل فهو يرىٰ الأمر بعدة عيون (وجوه) كما مر تقريره.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).

(٣) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٦) والطبراني في «الكبير» (٧٠٣) وابن أبي شيبة (٣٢١٨٠).

عبده المؤمن محبةً لمخلوق إلا بأمره، وهو لم يأمرنا بمحبة الزوجة وإنما حذَّرنا منها، فافهم. وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: المرأة تنجِس وتغلِس[1] وتفلس. انتهىٰ.

ومن فتنة المرأة مطلقًا أنها تحوج زوجها إلىٰ جميع علائق الدنيا، وتمنعه من كمال الزهد والورع. وقد كان سفيان الثوري يقول: إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإن وُلد له منها أولاد فقد كُسِرت به المركب. وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: من تعود أفخاذ النساء لم يفلح. قال النووي: أي اشتغل بمؤنتهن. وكان الشافعي ﷺ يقول أيضًا: لي منذ ثلاثين سنة أسأل أصحابي المتزوجين وأقول: هل رأيتم من التزويج خيرًا؟ فما منهم أحد إلا وقال: ما رأيتُ منه خيرًا قط. فاعلم ذلك، واحفظ قلبك ولسانك من سوء الظن، وذكر الناس بالسوء، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل له أحد من الولاة مالًا، فردَّه بحضرة الناس، ثم إنهم جاؤوا له به وهو وحده فأخذه، فلاث به الولاة وقالوا: إنه لم يرد مالنا في المرة الأولىٰ تورعًا، وإنما ذلك رياء وسمعة خوفًا علىٰ ناموسه، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد ذلك، فربما رده في المرة الأولىٰ لاستغنائه عنه، أو لما رأىٰ في نفسه من الاستشراف لذلك المال، فرده عملًا بحديث: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف له، فخذه فتموله، وما لا فلا تتبعه نفسك»[2]، ثم إن ذلك الاستشراف مثلاً زال من نفسه في المرة الثانية، فلذلك أخذه. وفرض المسألة في المال الحلال. أما الحرام والشبهات فيرده أبدًا ما عاش بطريقه الشرعي.

فإياك يا أخي أن تسيء الظن بفقير أعطاه الناس شيئًا فرده مرات، ثم بعد ذلك أخذه وشكر فضل صاحبه وتقول: إنه لم يرده أولًا إلا تعززًا ورياء بين الناس، فإن ذلك لا يجوز ظنه بمسلم، إذ الفقراء من شأنهم أن يأخذوا المال بحقٍّ، ويردوه بحق لا لحظ نفس، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: يُشترَط فيمن يأخذ المال الذي جاءه

---

(١) الغلس: شدة ظلمة آخر الليل.

(٢) تقدم تخريجه.

من غير استشراف نفس أن لا يأخذ ذلك المال إلا بعد أن تستوي يد الملائكة ويد الآدميين، وبعد تلاشي الأسباب في عين الأسباب اعتمادًا على الله تعالى. فربما كان من رد المال أولًا وثانيًا، ثم أخذه بعد ذلك لم يبلغ هذا المقام في الأولى والثانية، ثم بلغه في الثالثة؛ فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا لا أُحاسب على ما آكله من الطعام أبدًا، مع أننا نراه يأكل مما في أيدي الناس الآن، ومعلوم قلة ورعهم في هذا الزمان. فكيف الحال؟

بأنه ربما كان من الأولياء الذي فنى اختيارهم في اختيار الله، وتدبيرهم في تدبيره، فصار الحقُّ تعالى يستخلص لهم بقدرته الحلال من بين فرث ودم، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون.

وقد كان الشيخ حمَّاد الدبَّاس[1] رحمه الله يقول: أنا لا آكل إلا من طعام الفضل المشار إليه بقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦]، لأن بقية الله هو الحلال الخالص. وكان يقول: كل جسم[2] تربى من طعام الفضل لا يسلط الله عليه البلاء في القبر ولا النار. وكان أكثر أكله من فتوح الغيب، وذلك أنه كلما جاع يري الحقُّ تعالى أحدًا من أصحابه قائلًا يقول له: احمل إلى حمَّاد الدبَّاس كذا وكذا، فيصبح ذلك الرائي فيأتيه بما أُمر به. وكثيرًا ما يرى الشيخُ حمَّادٌ قائلًا يقول له: اطلب رزقك من فلان، فإنا قد أحلناه عليك بكذا وكذا؛ فيرسل له النقيب، فيأخذ منه ما أحيل به عليه في المنام. انتهى. وهو مقام عزيز.

وقد كان أبو الحسين النوري يطوف على الأبواب ويمد يده ويقول: شيء لله! فأخبروا بذلك الجنيد، فقال: لا بأس بذلك للنوري، فإنه لم يسأل الناس إلا ليعطيهم الله تعالى الأجر في الآخرة. فكان بذلك ساعيًا في مصلحة الغير غائبًا عن حظِّ نفسه،

---

(١) **الشيخ حمَّاد بن مسلم الدَّبَّاس** رحمه الله كان أحد العلماء الراسخين في علوم الحقائق. انتهت إليه الرئاسة في التربية، وانعقد عليه إجماع الشيوخ، وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد. وكان يقول: أقرب الطرق إلى الله تعالى حبه، ولا يصفو حبه حتى يبقى المحب روحًا بلا نفس، فإن من له نفس لا يصح أن يذوق من محبة الله شيئًا أبدًا. انظر: «الطبقات الوسطى» للشعراني الترجمة (٢٥٦).

(٢) ف «ب»: طعام. والصواب ما أثبتناه.

وكانت يده بذلك هي اليد العليا، فإنه أعطىٰ المعطي الثواب في الآخرة الذي هو خير من ذلك الرغيف مثلًا «واليد العليا خير من اليد السفلىٰ»(١).

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يفتح الله تعالىٰ باب الرزق الحلال علىٰ عبد إلا بعد كمال شغله بالله تعالىٰ، فحينئذٍ يَمُنُّ الله تعالىٰ عليه برزق حلال لا تعب فيه ولا نصب. وكان يقول: إذا تحقق الفقير بمقام الكمال، كان أخذه العطاءَ من أيدي الخلائق أكمل في المقام، لاستعماله الخلائق فيما خُلِقوا له. وسمعتُه أيضًا يقول: إتيان الرزق للفقير علىٰ أيدي الخلائق أحب إلىٰ الله تعالىٰ من إتيانه له علىٰ يد القدرة الإلهية كما كان يأتي مريم عليها السلام.

ويُحتمَل أن يكون مراد الشيخ بقوله: «أنا لا أحاسب علىٰ ما آكله» أن يكون مقامه أنه لا يأكل دائمًا إلا إن اضطر إلىٰ الأكل، وذلك بأن يخاف علىٰ عقله أو قواه من الجوع أن يذهب. وكان ذلك من مقام سهل بن عبد الله التستري، كان يقسم عقله وقواه ومعرفته إلىٰ سبعة أجزاء، فلا يأكل حتىٰ يذهب منها ستة أجزاء. انتهىٰ. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأولياء واستبعاد ما يدعونه من المقامات قياسًا علىٰ نفسك. وكان جدي رحمه الله يقول: من أكل الحلال الخالص لا يبلىٰ له جسم في الأرض. فدفنوا والدي عليه بعد عشرين سنة، فوجدوه طريًّا كأنه دُفِنَ ذلك اليوم، وكان قد أحكم الحلال رضي الله عنه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر مريده الشاب التائق إلىٰ النكاح الواجد لأهبته بطلاق زوجته الجميلة ثالث يوم من دخوله بها، لكونه تزوج بغير إذنه، فأطاعه وقلبه معلَّق بها، ولاث به الناس وقالوا: هذا خلاف السنة، وخلاف المنقول عن السلف الصالح، فلم يبلغنا أن رسول الله ﷺ أمر أحدًا من أصحابه حين دخل في الإسلام بطلاق زوجته، وكذلك جميع الأشياخ، حتىٰ قالوا: من أدب الشيخ إذا صحب أحدًا من المريدين أن لا يؤاخذه بما مضىٰ، وإنما يؤاخذه بما يقع منه في المستقبل، وكان من شأنه

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٤٢٧) ومسلم (١٠٣٤).

ﷺ أن لا يقول لشيء وقع لم وقع ولا لشيء تُرِك لم تُرِك أدبًا مع الله تعالىٰ. فكان الأدب من هذا الشيخ أن لا يأمر هذا المريد بطلاق زوجته، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ إلا بعد تربص وتأمل في حاله وما يريده من ذلك المريد من الخيرات. فإن رأيناه يريد من المريد أن يصير قدوةً للناس في الطريق، فلا اعتراض عليه. [و] لو كانت الدنيا كلها في يد المريد وقال له: اتركها، بل من الواجب عليه في حكم أهل الطريق طاعة الشيخ في ذلك، لأنها كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة.

وإن رأيناه يطلب من المريد أن يكون شيخ خرقة كما عليه القادرية والرفاعية مثلًا، فهذا لنا الاعتراض عليه في أمره المريد بطلاق زوجته. لأن مراسم طريق أهل هذه الخرق أمر سهل ربما يكون التزويج أفضل منه.

وفي مختصر الشيخ خليل المالكي أنه ليس لصائم النفل الخروج منه إلا بأمر والد أو شيخ، فكما جاز الخروج من الصوم بأمر الشيخ، كذلك يجوز الخروج من النكاح بأمره، بجامع أن كلًّا منهما مأمور به، بل النكاح أخف، لأنه يجوز لصاحبه الخروج منه مطلقًا، بخلاف الصوم بعد التلبس به لا يجوز إلا بأمر والد أو شيخ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ؒ يقول: الجماع من أعظم لذة تكون للنفس، فلا ينبغي لفقير أن يقدم عليه إلا لضرورة شرعية لا لمطلق شهوة النفس، بل ينبغي تحرير نيته لله تعالىٰ، ثم يقصد به غرضًا صحيحًا ثم يتزوج. قال: والحاذق يعرف أوان التجرد وأوان التأهل للتزويج، فإن رأىٰ نفسه صلحت وانسلخت من الرعونات، فقد استحقت إدخال الرفق عليها، لأنها حينئذٍ صارت مطواعة منقادة تحب كل ما يُراد منها شرعًا. وإن رأىٰ رعونات نفسه باقية، فالتزويج له مشؤوم قاطع عن الطريق. انتهىٰ.

وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول: إذا صبر المريد عن التزويج حتىٰ بلغ مقام الرجال، انتخب الله تعالىٰ له الزوجة الصالحة التي تعينه علىٰ دينه انتخابًا، وهيأ الله تعالىٰ له أعوانًا وأسبابًا ونعمة برفق يدخل عليه، ورزق يُساق إليه. وإذا استعجل بالتزويج قبل أن يبلغ مقام الرجال، كان تزويجه من النقصان والخسران، لاستفزاز الطبع له، ومخامرة

الجهل بثوران دخان الشهوة المغطِّية لشعاع نور العلم، وانحطاطه من أوج العزيمة إلىٰ حضيض الرخصة. وقد سمَّىٰ الأشياخ هذا الاستعجال حيض الرجال، لأنه يقطع عن العبادة كما يقطع الحيض الصلاة والصوم. وسمعتُه ﷺ يقول: أوان التزويج للفقير إذا بلغ إلىٰ حدٍّ لا يشغله عن الله شاغل. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ حكم الأشياخ علىٰ مريديهم، فإنهم حكَّموا الشيخ في أنفسهم، وأمَّنوه علىٰ كلِّ شيء يرقيهم إلىٰ دخول حضرة ربهم، وعلىٰ كلِّ شيء يعوقهم عنها، إذ الشيخ كالمجتهد، والمريد كالمقلِّد له علىٰ حد سواء. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الثالث عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل المريدين الخلوَة، ولاث به بعض المجادلين وقالوا له: أي فائدة في الخلوة وقد سبق من الله تقسيم الخلق إلىٰ نبي وولي وعدوٍّ مطرود؟! فالولي ولي، والعدو عدو، وشجر الشوك لا يصير بالعلاج تفاحًا، وشجر التفاح لا يصير بترك العلاج شوكًا، بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ الشيخ في إدخاله المريد الخلوة، لأن الخلوة لا يصير بها غير الوليِّ وليًّا، وإنما ذلك من باب رياضة النفوس وكشف الأخلاق، ليستريح الناس من شرِّ ذلك الفقير، ويصير يعرف الحقَّ والباطل بالنور الحاصل له من تلك الوحدة والعزلة. وأما الولاية فذلك أمر آخر لا يتوقف علىٰ خلوة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: للخلوة تأثير عظيم في القلب تنتج لصاحبها تنوير القلب، والزهد في الدنيا، وحلاوة الذكر، وصدق المعاملة مع الله تعالىٰ في جميع العبادات، لكن بشرط المشي علىٰ قواعد الشريعة، فمن لم يمشِ في خلوته عليها، أنتجت له شرًّا من أنواع الطغيان وامتلاء النفس بالغرور والخيال[1]، بل بلغنا أن بعض النصارىٰ اختلىٰ باسم من أسماء الله تعالىٰ، فطار به في الهواء وصار يكاشف الناس بما في ضمائرهم، حتىٰ افتتن به خلق كثير، فللخلوة تأثير في صفاء الباطن مطلقًا،

(١) بالأصلين: المحال.

لكنها تنتج لأهل الخير خيرًا، ولأهل الشر شرًّا.

فاعلم ذلك، وسلِّم للأشياخ ما يفعلونه لا سيما الخلوة. فإنه ﷺ اختلىٰ في غار حراء تشريعًا لأمته، وإن كان ذلك قبل رسالته. فإنه كان نبيًّا وآدم بين الماء والطين(١). والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: تخلقتُ بأخلاق الله، أو تخلقتُ بأخلاق رسول الله؛ فلاث به فقيه وقال: لا يقدر أحد علىٰ التخلق بأخلاق الله، ولا بأخلاق رسول الله علىٰ الكمال، فكيف يصح لهذا الشيخ إطلاق التخلق بها؟! بأنه ينبغي حمله علىٰ أنه أراد أنه تخلق بها بقدْر حظِّه ونصيبه، كما قالوا في معنىٰ حديث: «تخلقوا بأخلاق الله»(٢) أي خذوا حظَّكم من التخلق بها في الاسم دون الحقيقة والكنه. فلا اعتراض علىٰ الشيخ بما قال، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الكبير إذا جلس يأكل مع النصارىٰ أو اليهود في جمعية، ويضحك معهم وينشرح، فلاث به الناس وقالوا: ليس للعالم أو الشيخ أن يفعل ما يزري به، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ في مثل ذلك، لأنه من جملة التواضع المشروع، وإنما يزري به فعله شيئًا يخالف الشريعة. وقد عزم شخص من أمراء الشام علىٰ الشيخ أبي النجيب السهروردي رحمه الله أن يأكل عنده، فلما دخل وجد الأسارىٰ من الفرنج عنده مقيدين، فمد السماط وجلس الشيخ معهم كأحدهم يأكل معهم، وظهر لجميع الحاضرين أن ذلك من الشيخ تواضع وانكسار وانسلاخ من الكبر علىٰ الفرنج بإيمانه وعلمه وعمله.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما نُهِي العبد عن الضَّعَة لا التواضع، إذ الضعة أن يضع الإنسان نفسه في مكان يزري به، ويفضي إلىٰ تضييع حقِّه، بخلاف

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه، وذكره القسطلاني في إرشاد الساري (٥/ ٣٤١).

التواضع، فإن أهل المجلس كلَّهم يعظمونه ويحمدونه لأجله.

وكان الإمام السهروردي يقول: الضَّعَةُ هي النزول من الإفراط إلىٰ حضيض التفريط، وفي رواية عنه: التواضع هو رعاية الاعتدال بين الكبر والضَّعَة. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: حد الاعتدال في التواضع أن يرضىٰ العبد بمنزلة دون ما يستحقه عادة، ولو أن الشخص كان يأمن جموح نفسه، لأوقفها علىٰ حد ما تستحقه من غير زيادة ولا نقصان، ولكن لما كان الجموح من جِبِلة النفس، احتاجت إلىٰ التداوي بالتواضع، لتقف دون ما تستحقه، لئلا يتطرق إليها الكبر. انتهىٰ.

وسمعتُه أيضًا يقول: الفرق بين الكبر والتكبر هو أن الكبر رؤية العبد في نفسه أنه أكبر من غيره، والتكبر إظهاره ذلك. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن جلوس هذا العالم أو الشيخ علىٰ الأكل مع النصارىٰ واليهود من التواضع لا من الضَّعَة، كما تشهد له القرائن، فلا اعتراض إلا علىٰ من شهدت القرائن بوقوعه في الضَّعَة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٨) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول: الإيثار مكروه في الأمور الدنيوية والأخروية مطلقًا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: لا يكره الإيثار إلا في القرب الشرعية فقط، وأما في غيرها فهو محمود. فقال الفقير: بل هو مكروه مطلقًا. فقالوا له: أنت جاهل، بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الفقير، لأنه ربما أراد أنه مكروه في حقِّ الكُمَّل من الأولياء، لأنهم يشهدون أن نفوسهم أولىٰ من غيرها، عملًا بقوله ﷺ: «الأقربون أولىٰ بالمعروف»[١]، وقيل: إليه أشار بقوله ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[٢]، وإنما مدح الله تعالىٰ المؤثرين علىٰ أنفسهم ليخرجوا من شحِّ الطبيعة التي فتحوا أعينهم عليه في الدنيا، فإذا خرجوا عنه أمروا بعد ذلك بالبداءة بأنفسهم، لأنها أقرب الأقربين إليهم، فإذا تعدوها إلىٰ الأبعد من غير طريق شرعي، فقد ظلموها.

---

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) تقدم تخريجه.

أو يكون مراد هذا الفقير بكراهة الإيثار مطلقًا أن المؤثر لا يسلم من شهود منته على أخيه إذا آثره على نفسه ولو خطورًا على باله، اللهم إلا أن يكون ممن يشهد المنة لله تعالىٰ في جميع الأمور ببادئ الرأي، ولا يرىٰ له ملكًا مع الله تعالىٰ، فهذا لا يشهد له منّةً علىٰ أحد، وهو الإيثار المشروع الذي كان عليه السلف الصالح، كانوا يرون لمن آثروه المنَّة عليهم من حيثُ إنه كان سببًا لهم في إيصال صدقة الحقّ تعالىٰ علىٰ عبده إليهم، كما أوضحنا ذلك في كتاب «المنن الكبرىٰ»، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا أكثر من المزح والضحك، ولاث الناس به وقالوا: هذا لا يليق بالأشياخ، إنما شأن الأشياخ عدم ذلك، فإن من مزح استُخِف به، وإذا استخف الناس بالعالم أو الشيخ قلَّ نفعُه، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد المزح والضحك، وإنما يسوغ الإنكار عليه إذا وقع الاستخفاف به، وقد كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ولم يزل الناس في كلِّ عصر فيهم المنبسِط والمنقبِض، والمازح والمعبِس، ومن عقل العاقل العبوسة تارة والمزح أخرىٰ بحسب الوقت، وسلوك حالة واحدة انحراف عن الاعتدال. وتقدم في هذا الكتاب قول الإمام الشافعي ﵀: الانبساط إلىٰ الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط. انتهىٰ. وفي كلام الإمام علي ﵁: لا بأس بالفكاهة يخرج الرجل بها عن حد العبوس. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ أتىٰ من خلف زاهر بن حرام[1] واحتضنه من ورائه بكفيه، فالتفت فأبصر النبي ﷺ فقبل كفيه، فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري العبد؟ فقال: إذن تجدني كاسدًا يا رسول الله. فقال: ولكنك عند الله ربيح. ثم قال رسول الله ﷺ: لكل حاضر بادية، وبادية آل محمد زاهر بن حرام»[2]. انتهىٰ. وإنما كان بادية

---

(١) زاهر بن حرام الأشجعي، كان حجازيًا، يسكن البادية في حياة رسول الله ﷺ «الاستيعاب» (٢/ ٥٠٩)، «الإصابة» (٢/ ٤٥٢).

(٢) أخرجه ابن حبان من حديث أنس بن مالك (٥٧٩٠)، وأبو يعلىٰ (٣٤٥٦) والبيهقي في «السنن» (٢١١٧٢) وأحمد (١٢٦٤٨).

لأنه كان لا يأتي إلىٰ النبي ﷺ إلا ومعه طرفة يهديها للنبي ﷺ، يعني من فواكه البادية.

وقد ذكرنا في الباب الثالث عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» الفرق بين المزح والمداعبة، وأن المداعبة هي ما لا يغضب جِدُّها، وأن المزح ما يغضب جِدُّه، وكذلك ذكرنا جملة صالحة من مزحه ﷺ مع أصحابه ومزحهم معه، ومزح الصحابة والتابعين بعضهم مع بعض، فراجعه تعرف ما يقبل الإنكار من المزح وما لا يقبله، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صاحب أميرًا وصار يكثر من الثناء عليه في المجالس، ويظهر له المحبة ويقول: أحبُّه أكثر من ولدي العزيز أو الوالد العزيز؛ فلاث الناس به وحملوه علىٰ أن ذلك كله لإحسانه إليه لا لعلة أخرىٰ، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بمجرد ذلك، وإنما يسوغ الإنكار بعد تأمل وتبصر في مراده بذلك، فربما يكون قصده بإظهار المحبة لذلك الأمير تمييل قلبه إليه، ليصير يقبل شفاعته في مظلوم، لا لشيء يأخذه علىٰ ذلك من الأمير أو من المشفوع له. وقد كان زيد بن أسلم[1] رضي الله عنه يقول: بلغنا أن نبيًّا من الأنبياء كان يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس. وكان عطاء رضي الله عنه يقول: لأن يرائي الرجل سنين ليكتسب بذلك جاهًا يعيش به مؤمن خير له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه. انتهىٰ.

فإن قلت: إن هذا مقام لا يصح إلا لمن اطلع الله تعالىٰ علىٰ باطنه، فلم يجد فيه شيئًا من محبة المال والجاه، حتىٰ لو أن ملوك الأرض كلَّهم وقفوا في خدمته، ما رأىٰ نفسه بذلك علىٰ أحد من إخوانه، ولا استطال به عليهم؛ **قلنا:** ويُحتمَل أن هذا الشيخ أو العالم يكون له هذا المقام، فلا اعتراض عليه بشكره للأمير في المجالس. ثم إننا لو رأيناه

---

(١) زيد بن أسلم الإمام، الحجة، القدوة، أبو عبد الله العدوي، العمري، المدني، الفقيه. كان له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ قال أبو حازم الأعرج: لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها، أدنىٰ خصلة فينا التواسي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه متماريين، ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا. توفي في ذي الحجة، سنة: ١٣٦هـ. انظر: «السير» (٥/ ٣١٦)، «الأعلام» (٣/ ٥٦).

يأخذ مالًا من الأمير لا ينبغي لنا اللوث به، بل تحمله على أنه أخذه لغيره من الفقراء والمساكين الذين لا حرج عليهم في أكل مثل ذلك المال، أو لحاجة نفسه الضرورية.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من الفقراء من يكون دائرًا مع رضا الله حيث أراه، فإن رأى الحقَّ تعالىٰ يحب منه الثناء علىٰ ذلك الأمير لتحصيل مصالح للناس، أثنىٰ عليه وإلا انقبض عليه. ومن الفقراء من يستحيي أن يذم أحدًا من المسلمين من حيثُ كونُهم عباد الله، فهو يثني عليهم أدبًا مع الله تعالىٰ. ولولا أن الله تعالىٰ أمره أن يذم بعض أفعالهم المخالفة للشريعة ما ذمها. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، فإن جميع أعمالك الصالحة لا تكفي أحدهم يوم القيامة في كلمة واحدة قلتَها فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يكره مجالسة الواحد، بخلاف مجالسة الاثنين فما فوقهما، فإنه مستحب؛ فطالبه فقيه بالدليل علىٰ ذلك فسكت، فلاث به وقال له: أنت جاهل، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه إلا بعد تربص وتأمل، فربما كان مشهده في ذلك صحيحًا، ولا يلزم من سكوته جهله بالدليل، فربما علمه ورأىٰ عند هذا المنكِر تعنتًا أو حجابًا عن فهمه، فكتمه عنه.

ومما لاح لي في ذلك أنه ربما أخذ كراهة مجالسة الواحد من قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] إلىٰ آخر النسق، فإنه تعالىٰ ما جعل مجالسته إلا للثلاثة دون الاثنين، وإن كانت معيته عامة سارية مع كلِّ واحد واثنين، بقرينة قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فما كره هذا الشيخ مجالسة الواحد إلا لكون الحقِّ تعالىٰ لا يكون جليسًا لهما، واستحب الثلاثة لكون الحقِّ تعالىٰ يكون جليسًا لهم فيها.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لا يجالس الحقُّ أحدًا من أعدائه أبدًا، وإنما يجالس أولياءه. ومن هنا قالوا: ما اجتمع ثلاثة من المسلمين إلا وكان فيهم وليٌّ لله عزَّ وجلَّ، استنباطًا من قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. فاعلم ذلك،

ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء إلا إن خالفوا نصًا أو إجماعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمنع من في قلبه غلٌّ أو حقد أو حسد من المريدين أن يحضر في أول الوقت في صلاة الجماعة، ويقول: جاهدوا نفوسكم في إزالة ذلك إلىٰ أن يضيق الوقت جدًا ثم صلوا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم يأمر به الشارع ﷺ، والصلاة أول الوقت مع شيء من أمراض الباطن أفضل، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأن ما أمر به أولىٰ من الصلاة أول الوقت مع مصاحبة شيء من الكبائر الباطنة، وعدم أمر الشارع بإزالة الأمراض الباطنة قبل الدخول في الصلاة ولو فاتت فضيلة أول الوقت لا ينافي ما قاله هذا الشيخ، فربما كان ذلك منه ﷺ توسعةً لعوام أمته، ولو أن أحدًا عرض عليه أمراضه الباطنة وقال: يا رسول الله، مقصودي أزيلها من باطني ثم أصلي في الوقت ولو آخره؛ لقال له: افعل، تعظيمًا لحضرة الله تعالىٰ أن يقف أحد بين يديه وقد لطَّخ قلبه الذي هو محلُّ نظر الله تعالىٰ من العبد بشيء نهاه عنه إجماعًا. وقد ورد في صحيح مسلم مرفوعًا: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وثيابكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم»[1] يعني بذلك اعتناء الحقِّ تعالىٰ بالقلوب أكثر من الظواهر.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: كان أصحاب رسول الله ﷺ يستقصون في طهارة الباطن من الرعونات والأدناس، ويتساهلون في طهارة الظاهر، عكس ما عليه الموسوِّسون اليوم. وربما كانت تلك الوسوسة من جملة هوىٰ النفوس، بقرينة أنه إذا اتسخ ثوب أحدهم يحصل له غم وضيق صدر إذا لبسه، ويتسخ باطنه بالحقد والمكر والغلِّ والحسد والكبر والرياء والنفاق والإعجاب وغير ذلك، ولا يضيق له صدر، ولا يحصل بذلك عنده غم. انتهىٰ.

وإذا كان في طريق الفضيلة أمر مذموم، فإزالة المذموم أولىٰ، كما قالوا في رائحة الخلوف بعد الزوال إذا تأذىٰ بها الناس فإزالتها أولىٰ، وكما رخصوا في عدم حضور الجمعة والجماعة إذا كان به رائحة كريهة عجز عن إزالتها، فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ

---

(١) تقدم تخريجه.

الإنكار إلا بنص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٣) ومما أجبتُ به عن سيدي محمد البكري وغيره ممن يتكلم في طريق القوم بكلام لا يفهمه أحد من الحاضرين، فلاث به الناس وقالوا: هذا كلام لا ثمرة له، ولو أنه قرر للناس شيئًا في الوضوء والصلاة لكان أفضل له. بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ، فربما كان في مجلسه من يفهم كلامه من الناس الذين لا يؤبه لهم أو من علماء الجن، فإنهم يحضرون مجالس علماء الإنس كثيرًا كما هو مشهور بين الأولياء، كالشيخ عثمان[1] إمام جامع الأزهر، وسيدي محمد الحنفي الشاذلي وأضرابهما.

ففتش يا أخي أهل المجلس أولًا، فإن لم تجد أحدًا يفهم كلامه من الإنس والجنّ، فهناك يسوغ لك الإنكار عليه، لأنه كالعبث. ومن هنا قال المحققون: إن حروف الهجاء أوائل السور لها أهلٌ يفهمون معناها، وكذلك الآيات المتشابهات، وكذلك الأحكام التي لا تَعقِلُ غالبُ الناس لها علةً، كالغسل من نجاسة الكلب بسبع إحداها بتراب عند من يقول بطهارته، ويقول: ذلك تعبديٌّ لا يُعقَل، ولولا ذلك لأدَّىٰ إلىٰ أن الشارع خاطب الناس بما لا يعقلون، وذلك عبث. انتهىٰ.

ويُحتمل أن الله تعالىٰ جعل هذه الأمور امتحانًا واختبارًا لإيمان عباده المؤمنين، لينظر تعالىٰ وهو العالم بسرائرهم إلىٰ قلوبهم هل يسلِّمون علم ذلك إلىٰ الله ويؤمنون به، أم يردونه بعقولهم ويؤولونه؟ والله أعلم.

وقد كان أحمد بن سريج[2] ينكر علىٰ الجنيد ما يتكلم به من الكلام الذي لا يفهمه

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الإمام المقريء الضرير فخر الدين إمام الجامع الأزهر، ولد سنة ٧٢٥ هـ، بمدينة بلبيس، وقرأ القرآن الكريم بالقراءات السبع والعشر علىٰ جماعة، أم بالجامع الأزهر زمانًا، وأخذ الناس عنه القراءات، ورحلوا إليه من الأقطار، وتخرج به خلائق، توفي سنة ٨٠٤ هـ. «المنهل الصافي» لابن تغري بردي (٧/ ٤١٨).

(٢) الشيخ الإمام الورع الزاهد أحمد بن سريج ﷺ، صحب الإمام أبا القاسم الجنيد، وكان يقول: ما عرفنا الإسلام إلا من حين صحبنا الجنيد . وكان لا يترك قيام الليل في سفر ولا حضر، ويقول: كيف ينبغي لمن

غالب الناس، فتنكر يومًا وحضر مجلس الجنيد، فلما رجع قال لأصحابه: لم أفهم من كلامه شيئًا، ولكني وجدتُ صولة الكلام ليست بصولة مبطِل! انتهىٰ. وكذلك القول في بعض كلام سيدي محمد البكري ونحوه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: ربما كان نطق الفقير بالكلام الذي لا يفهمه أحد من الحاضرين تنفيسًا له، ولولا إخراجه لفسد بدنه وطلع فيه الخراجات والدمامل، وإذا تعارض عند العاقل هلاك نفسه وهلاك غيره، قدَّم سلامة نفسه. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ يقول: العارف إن نطق بما عنده من الأسرار هلك الناس، وإن كتمها أهلك نفسه، فهو كجهنم لولا أذن الله تعالىٰ لها بنفسين في الشتاء والصيف لذابت وتفانت[1]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تبادر إلىٰ الإنكار إلا علىٰ من أنت أعلم منه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٤) ومما أجبتُ به عن العالم إذا تَلْمَذ لبعض من يدعي الطريق من أهل هذا الزمان بغير حق، ولاث الناس بذلك العالم وقالوا: كيف يتلمذ فلان مع كونه من أهل العلم إلىٰ شخص نصَّاب شيطان؟! بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ ذلك العالم، بل ذلك دليل علىٰ حسن ظنه بالمسلمين، لا سيما إن كان لذلك الشيخ عمامة صوف وعذبة وهو كثير الإطراق[2]، فإنه يزداد فيه اعتقادًا، وهو معذور في التتلمذ له، لأن العالم ليس له إلمام بالطريق ولا بمصطلح أهلها ولا بشروطهم، ولا يعرف المحقَّ من المبطِل، فلا ينبغي

يدعي محبة الله عز وجل أن ينام عن خدمته أوقات المواكب الإلهية؟! توفي سنة (٣٠٦هـ). انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٥٦٢).

(١) إشارة إلىٰ ما أخرجه البخاري (٣٢٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلىٰ ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»، ومسلم (٦١٧).

(٢) بالأصلين: الاطراد. والصواب ما أثبتناه.

الإنكار عليه إلا بعد طول صحبته لذلك الشيخ، ورؤيته منه أفعالًا تخالف ظاهر الشريعة يبعد وجه تأويلها عن أن يكون مرادًا.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي يقول: إذا رأيتم أحدًا من طلبة العلم تلمذ لمن ليس له قدم في طريق القوم، فإياكم أن تصرِّحوا بالنصح له وتأمروه بالتباعد عنه إلا بعد سياسة تامة، وهو أن تقولوا: إن من شرط الشيخ أن لا يخفىٰ عليه شيء من دقائق أحكام الكتاب والسنة، وكلُّ شيخ ادَّعىٰ الطريق وهو يجهل شيئًا من أحكامهما فهو نصَّاب. فإن كنتَ تشك في صدق شيخك، فاسأله عن شيء من دقائق أحكام الشريعة تعرف حاله، وتدخل في صحبته علىٰ يقين من أمره، وإلا فنحن نعرف من دينك أنك تفارقه إذا رأيته يجهل ذلك. انتهىٰ. وإياك أن تقول لطالب العلم: إنك أخطأت في تلمذك لفلان، فإنه جاهل بالكتاب والسنة؛ فربما قال ذلك له عنك، فحصلت فتنة كبيرة، لا سيما إن كان بعض الأمراء يعتقده.

فعُلِمَ أنه لا لوم علىٰ العالم إلا إن تلمذ لمن رآه جاهلًا من غير نية صالحة، فلو تلمذ له ليعلمه هو أحكام الشريعة، فذلك محمود حيث علم أنه لا ينقاد له إلا علىٰ هذه الصورة، لأنه لو أظهر له جهله وقال له: تعال اقرأ عليَّ شيئًا من كتب الشريعة، نفر منه ولم يجبه، كما هو الغالب فيمن غلب عليه حبُّ الرئاسة بغير حق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٥) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أرسل[1] وراء أكابر العلماء الذين لا يصلح أن يكون تلميذًا لهم في ظاهر الأمر في حاجة من الحوائج، ولاث الناس به وقالوا: هذا قليل الأدب، ولو كان معه أدب لذهب إلىٰ العالم وسأله حاجته، فإنه لا يرسل وراء الناس إلا من هو أكبر منهم عادةً، ولكنه قصد أن يقول الناس: لو لا أن فلانًا رجل عظيم ما امتثل فلان العالم أمره وحضره، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الفقير، لأنه ربما كان ذلك واردًا علىٰ سبب، كأن تنازع هو وجماعة في كون ذلك العالم متواضعًا أم متكبرًا، فقصد الفقير بذلك بيان تواضعه إذا أرسل وراءه وحضر، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ الفقير إلا

---

(١) بالأصلين: نزل. والصواب ما أثبتناه.

إذا أرسل وراء العالم استهانةً بحقِّه لا لفائدة. وأما إذا قصد بذلك بيان شدة تواضعه وفقد نفسه، ليزيد الناس في اعتقاده وينتفعوا بعلمه بعد أن كانوا ينسبونه إلىٰ التكبر فلا.

وقد وقع أن إبراهيم ابن أدهم استدعىٰ سفيان الثوري ليحضر عنده من الشام إلىٰ الرَّمْلة، فكبر ذلك علىٰ الناس وقالوا: سفيان أجلُّ من أن يُستدعَىٰ من هذا المكان البعيد! فقال إبراهيم: إنما دعوتُه لأريكم تواضعه وفقد نفسه. انتهىٰ. فانتحل يا أخي الأجوبة للعلماء والفقراء إلىٰ سبعين جوابًا قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن من عباد الله من يأخذ وسوسة إبليس المذمومة وخواطر نفسه المذمومة عن الله تعالىٰ، فيرد إبليس خاسئًا، فلاث به الناس وقالوا: كيف يصح أخذ الأمور المذمومة عن الله تعالىٰ وهو لا يأمر بالفحشاء؟! هذا يشبه كلام الزنادقة، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فإنه ادعىٰ أمرًا ممكنًا من حيثُ مرتبةُ الإلهام، وهو أن كلَّ شيء وسوس به إبليس وكلَّ شيء زينته له نفسه ينظر إليه من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ قبل وصوله إلىٰ النفس والشيطان، من باب قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٨]. ثم إنه لا يلزم من الإلهام بالمذموم العمل به، لأن معنىٰ قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ﴾ أي لتجتنبه، ﴿وَتَقْوَاهَا ﴾ أي لتعمل بها.

ثم إن الذي أُلهِمَ المذمومَ من العصاة لو حقق النظر وجد الحق تعالىٰ غير راضٍ عنه فيه، فكان يتركه ضرورة عملًا بالشريعة، إذ لا يصح لأحد أن يعصي ربه علىٰ الكشف بأنه تعالىٰ يراه أبدًا، لا بد من حجاب ولو غفلة أو سهوًا ونسيانًا، وتقدَّم مرارًا في هذا الكتاب أن معنىٰ حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[1] الحديث، أي وهو مؤمن بأني أراه، فلو استشعر نظري إليه ما وقع في معصية، وليس المراد به نفي الإيمان بجميع الأمور التي أمرنا الله تعالىٰ بالإيمان بها، كملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشرِّه، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٥٧٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي ذهب إلىٰ زيارة عالم أو صالح. فوجد عنده الأمير الذي يتردد إليه ويعتقده، فرجع من الباب ولم يدخل من غير أن يعلموا به، فلاث به الناس الذي رأوه قد رجع وقالوا: ما يحب فلان المشيخة إلا له وحده، وإنه ما رجع إلا لخوفه من ذلك الأمير أن ينقطع عن التردد إليه ويقول: لو لا أن فلانًا أعلىٰ مقامًا من فلان ما ذهب لزيارته، فأقتصر أنا عليه أولىٰ، ولو كان صادقًا لدخل لزيارة ذلك العالم أو الصالح وقبَّل رجله بحضرة ذلك الأمير وزاده اعتقادًا فيه، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ حمله علىٰ ما ذُكِر، وإنما الواجب علينا حمله علىٰ أنه قصد بعدم دخوله إيثار ذلك العالم أو الصالح علىٰ نفسه، بجعل المجلس مع الأمير كلّه له، ولو أنه دخل ربما عظَّمه الأمير، فخدش مقام ذلك العالم أو الصالح عنده بتعظيم غيره في مجلسه، وربما لم يعظِّمه فيحصل عند ذاك المزور إعجاب بنفسه ولو خطورًا، [فلذلك رجع. وربما كان ذلك الزائر الذي لم يعظِّمه الأمير أعلىٰ مقامًا من ذلك المزور كما هو الغالب، فتتحرك نفس الزائر كذلك، ويقول في نفسه ولو خطورًا](١): أنا الظالم الذي أزور مثل فلان بحضرة الأمير الذي يعتقدني وأشفع عنده.

وقد وقع لي أنا مثل ذلك مع شخص من أكابر العلماء لم يطلع زاويتي قط لا في هناء ولا في عزاء، فطلع لي يومًا فرأىٰ عندي أميرًا يعتقدني، فقال له ذلك الأمير: تردد إلىٰ هذه العتبة ولا تقطعها، يحصل لك خير؛ فتغير وجهه، فطأطأتُ علىٰ رجله فقبلتُها، لأجبر الخلل الذي حصل له من ذلك الأمير، فلم ينجبر. ومن ذلك اليوم ما طلع لي ولو بلغتُ من المرض ما بلغت. ولما لاث أصحابي [به](٢) قلتُ لهم: إنما فعل مثل ذلك خوفًا عليَّ من إعجابي بنفسي، فأهلك ولا أشعر، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وأمر أصحابك بذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٨) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي كان يشدد علىٰ الناس في الأمر

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

بالمعروف والنهي عن المنكر في ابتداء حاله، ثم صار يخفف في ذلك أو يسكت، فلاث به الناس وقالوا: لو كان عكس الأمر، لكان خيرًا له، ليموت علىٰ حالة كمال، فإن الأمر بالمعروف كلما تقاربت الساعة ينبغي التشديد فيه أكثر، لكثرة وقوع الناس في المعاصي، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ بمجرد ذلك، فربما أنه كان في ابتداء أمره لا يشهد أن رحمة الله تعالىٰ غلبت غضبه، ثم شهدها أواخر عمره، فخفف في الأمر والنهي، أو سكت عن ذلك بطريقه الشرعي، فلا اعتراض عليه إلا بوجه ما. ومعلوم أن رحمة الله تعالىٰ لا تغلب غضبه إلا إذا كان المخالفون لأمره أكثر من المطيعين له، فلما شهد العالم أو الشيخ ذلك، غلب عليه التسليم لله تعالىٰ، وإن كان الإنكار لا ينافي التسليم عند الكُمَّل، إنما ينافيه عند الناقص الذي ينظره بفرد عين.

وأيضًا فإن كمال الله تعالىٰ لا يقبل الزيادة، كما أنه لا يقبل النقصان، سواء عصىٰ الخلق أمره أو أطاعوه بإرادته، فهما عنده سواء، وإنما النفع بالطاعات والضرر بالمعاصي راجع إلىٰ الخلق، والله غني عن العالمين، اللهم إلا أن يَغِيَر علىٰ نقص الطاعات من حيثُ إن ثوابها يرجع مثله إلىٰ رسول الله ﷺ، لكونه هو المشرِّع لها فلا حرج، لأن كماله ﷺ يقبل الزيادة، بخلاف الحقِّ جلَّ وعلا.

وبالجملة فيحتاج الفقير أن يكون له عدة أعين، فعين ينظر بها إلىٰ انتهاك حرمة الحقِّ جلَّ وعلا في عيون المحجوبين بتعدي حدوده والإدبار والغفلة عن طاعته، فيجب عليه الإنكار؛ وعين ينظر بها إلىٰ كمال الحقِّ تعالىٰ علىٰ الدوام، سواء أطاعه عباده أم عصوه، فيخفف في الإنكار؛ وعين ينظر بها إلىٰ أن الله هو الخالق لأفعال العباد خيرها وشرِّها، وأنه لا مدخل لهم في إيجاد الفعل إلا نسبة التكليف والكسب إليهم فقط، فيسكت علىٰ ذلك، لأنه حينئذٍ جَبْرِيٌّ محض، فهو فوق من يرىٰ الفعل لنفسه ويقف مع ذلك، ودون من يرىٰ الفعل لله مع شركة العبد له في صورة الفعل في الظاهر، لأن للحقِّ تعالىٰ الفعل بلا آلة والفعل بآلة، وهو الفاعل حقيقةً في الصورتَين لمن كشف الله تعالىٰ عنه الحجاب، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن الكبرىٰ».

فاعلم ذلك، واتبع ما ورد، فقد ورد «أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقٍ إلىٰ يوم القيامة»[1] وورد: «إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوىً متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع عنك أمر العامة»[2]. وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر مريدَه لما ترك مجلس الذكر معه، وجلس يطالع في علم، فلاثوا به الفقهاء وقالوا: لا ينبغي الهجر إلا في ارتكاب شيء من المنهيات، وأما الاشتغال بالعلم فهو محمود شرعًا، فكيف يهجره عليه؟! بأن هذا الشيخ لم يهجره من حيثُ اشتغالُه بالعلم إلا لما يعلمه بالكشف أو بالقرائن من[3] فساد نية ذلك المريد في الاشتغال به، من حيثُ إنه أمين علىٰ الأعمال التي ترقيه والتي تردُّه إلىٰ أسفل، فما أمره بأمر مفضول ونهاه عن الأفضل إلا لما في ذلك الأفضل من الآفات، ولو أنه أتىٰ بالأفضل خالصًا مخلصًا لم يتغير عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي لمريد أن يترك مجلس الذكر مع الفقراء ويشتغل بصلاة النافلة، وإن كانت الصلاة خير موضوع كما ورد، لأن اشتغال المريد حال الذكر بغير ما فيه إخوانه، تشتت قلوب الضعفاء، وربما قالت لهم نفوسهم: قوموا فصلوا أفضل لكم؛ فيكسر قلب الذاكرين، وربما تراسلوا في الوضوء وصلاة النافلة، فأضعفوا قلوب الباقين في المجلس، وفاتهم جلاء القلب الذي أراده الشيخ لهم بالذكر. ثم لا يخفىٰ أن مجلس الذكر محاربة للشيطان وجهاد له، فكما حرَّم الشرع الانصراف من الصف علىٰ المجاهد إلا متحرِّفًا لقتال أو متحيزًا إلىٰ فئة يقاتل

---

(١) أخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٥١٣) عن عبد الرحمن بن العلاء الحضرمي، قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: «إنه سيكون في آخر هذه الأمة قوم لهم مثل أجر أولهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقاتلون أهل الفتن»، وأحمد مختصرًا (١٦٥٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) وابن حبان (٣٨٥).

(٣) بالأصلين: بين. والصواب ما أثبتناه.

معها، فكذلك حكم الانصراف من مجلس الذكر. انتهىٰ. فاحمل الأشياخ يا أخي علىٰ المحامل الموافقة للشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا أخرج من الزاوية من لاث الفقراء بعرضه وصدَّقوا فيه كلَّ فاحشة ببادئ الرأي، ولاث به طلبة العلم وقالوا له: هذا خلاف الشرع إنما يخرج من ثبت في حقِّه الفاحشة، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ في إخراجه من لاث الناس بعرضه، لأنه ربما كان إخراجه من جهة تساهله في حفظ ظاهره، حتىٰ صار الناس يصدِّقون فيه الفاحشة ويقولون: وجهه وجه شيطان! ولو أنه كان حفظ ظاهره لرد الناس عنه وتعصبوا علىٰ خصمه وقالوا: تكذب علىٰ فلان هذا! ما هو وجه شيء من هذا!

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ شيخ حتىٰ تجتمع به وتسأله عن مراده، وعن العلة في إخراجه، لا عن حقيقة الفعل[1]، فقد ورد: «لا تسأل الرجل فيمَ ضرب زوجته»[2]، انتهىٰ. والمريد حكمه في ذلك كالزوجة من حيثُ إنه ربما تعاطىٰ ذنبًا لا ينبغي إفشاؤه لآحاد العامة، لكونهم لا يعدونه ذنبًا أو لغير ذلك، فإن حال الفقراء لا ينبغي أن يطلع عليه إلا من هو منهم أو يعتقد فيهم، وقد قالوا: ذكر الكلام لغير أهله عورة يجب سترها. انتهىٰ.

فاعلم ذلك يا أخي، وسلِّم لشيخ الزاوية ما يفعله مع مريده، وربما كان ذنب أحدهم قبيحًا لا ينبغي النطق به، فجعل له الشيخ ذنبًا أخف منه وأظهر هجره وتأديبه عليه، صيانةً لخرقة الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُدخِل الناسَ الأجانب علىٰ عياله، ويجلس هو وإياهم عندها، أو ربما قام لحاجة وترك أحدهم عندها، فلاث به العقلاء وقالوا: هذا استحسال علىٰ العيال، بأنه ربما كان سالمًا من الآفات، فقاس عياله وأصحابه علىٰ نفسه،

---

(١) بالأصلين: الدين.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٤٧) من حديث عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته» وابن ماجة (١٩٨٦)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٧٣٤٢)، وأحمد (١٢٢).

فمثل هذا لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار والتشنيع عليه حتىٰ تستفهمه عن حاله، فإن رأيناه حسن الظن بالناس لا يعتقد فيهم سوءًا، قلنا له: قد ورد عن رسول ﷺ أو عن أصحابه: «الحزم سوء الظن»[1] وقوله أو قولهم أيضًا: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[2]، فامتثل أمر نبيك وأمر أصحابه ﷺ، فإنه أكمل في العاقبة من حسن ظنك في هذا الزمان. وقد تساهل في ذلك جماعة، فدخلوا علىٰ غفلة، فوجدوا صاحبهم مع عيالهم، فحصلت لهم فتنة عمياء، فإن سكتَ سكتَ علىٰ أمر عظيم، وإن تكلم وقع له حد القذف أو استحقه.

فاعلم ذلك يا أخي، وعامل إخوانك في هذا الزمان معاملة من يسيء بهم الظنَّ، مع عدم سوء الظن، ولا تقل: إن فلانًا قد صار شيخًا فلا يقع في فاحشة، فإن ذلك تهور، سواء كان شيخ طريق أو شيخًا من حيثُ شيبُه، فإن في الحديث: «إن الله يبغض الشيخ الزاني»[3]، فلولا أن له وجودًا في الناس لما قال ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٢) ومما أجبتُ به عن الفقير أو طالب العلم إذا أشاع عنه العامة أنه يولف[4] النساء والشباب، ولاث به من لا يعرفه، بأنه لا يلزم من تأليفهم أن يكون ذلك لغرض فاسد، فقد يكون تأليفه لهم إنما هو علىٰ الخير، إما ليقبح في عينهم الذنوب التي يخاف عليهم من الوقوع فيها في المستقبل، وإما ليرغبهم في التوبة، أو ليحفظهم من أخدان السوء، وكلُّ من ظنَّ به سوءًا فهو وصفه، كما مر تقريره في مقدمة الكتاب، فإن الكلام صفة المتكلم، إلا أن يكون ذلك لغرض شرعي من باب الاحتياط لا التحقق، فلا حرج علىٰ المتكلم ولا يكون من صفته، فافهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه. والمعنىٰ كما تقدَّم: عاملوهم معاملة من يسيء الظن من غير أن تسيئوا الظنَّ.

(٣) إشارة إلىٰ جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٥٦٨) من حديث أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «والثلاثة الذين يبغضهم الله، الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم...»، والنسائي (٢٥٧٠) وابن حبان (٣٣٤٩)، وأحمد (٢١٣٥٥).

(٤) ولَّف بين الشَّيئين: ألَّف بينهما، وجمعهما في تناسق وانسجام.

وإذا قامت عندك القرائن فيمن لاث الناس بعرضه بأنهم صادقون، فحذِّر الأطفال منه، أو أخبر بذلك أولياءهم احتياطًا للفريقين من غير أن يلحق بهم السوء، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا صار يجس المريدين إذا ناموا وينظر من بشرته منتشرة من غيره، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز، لأنه من باب التجسس الذي نهىٰ الشرع عنه، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما أنه ما فعل ذلك إلا خوفًا من مفسدة هي أشد من مفسدة جس أولئك النائمين الذين يغلب عليهم الخيانة لعهده، فدفع أشد المفسدتين بأخفهما، وصار يعرف من يخون عهده بكثرة الأكل الزائد علىٰ المشروع وينكر ذلك، فلو أن المريد قال للشيخ: أنا لا أشبع إذا أكلت؛ قال له الشيخ: لو كنتَ صادقًا ما انتشرت لك جارحة، بل كنت تمكث الشهر وأكثر لا تنتشر لك جارحة في ليل ولا نهار مما كان عليه المريدون الصادقون. وهناك يقيم الشيخ علىٰ هذا المريد الأدب، فرجع تجسس الشيخ إلىٰ مصلحة ترجع إلىٰ المريد، وما حرِّم التجسس إلا فيما فيه ضرر يرجع علىٰ العبد، **فحكم الشيخ حكم من يريد أن يداوي طفلًا ينكر مرضه،** وهذا لا منع منه، فافهم، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا جاءه مسكين له مركب أيام سخرة السلطان، وطلب منه أن يشفع فيه عند القبطان مثلًا، فلم يجبه إلىٰ ذلك وقالوا: مثل الشيخ لو يشفع في هذا المسكين لقبلوا شفاعته، ولكن الفقير ما أحد ينظر إليه! بأن هذا الشيخ ربما علم بالقرائن أنه متىٰ شفع في هذا مسكوا مركب من هو أحوج منه وأشدُّ فقرًا وعيالًا، فكأنه يقول: أطلقوا هذا وأمسكوا هذا، كما يفعله أعوانهم، فكان تركه الشفاعة أخلص لذمته، وأكثر أدبًا مع مولانا السلطان، فإن من أدب كلِّ فقير أن يقدم حاجة مولانا السلطان علىٰ حاجة نفسه، لكون السلطان لا يُسخِر إلا في المصالح العامة، كحمل زاد المجاهدين وأمتعتهم ودوابهم ونحو ذلك.

وقد قالوا: شرط وجوب الشفاعة أو استحبابها أن ترتفع الظلامة أصلًا. وأما إذا شفع في الإفراج عن واحد، فأفرجوا عنه ومسكوا آخر. فكأنه لم يشفع شيئًا. إذ المسلمون كلُّهم أخوة للفقير، ليس لأحد منهم ترجيح في مثل ذلك إلا بشدة الفقر والمسكنة. فيحتاج الشافع إلىٰ خبرة بأحوال الناس، وذلك في غاية العسر، ولا يكاد يقف أحد على أمر يُعتمَد عليه فيه. فاعلم ذلك، واحمل الفقراء على المحامل الحسنة. والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسلم علىٰ الملكين الكريمين الكاتبين عند الصبح وعند العصر، ويواظب علىٰ ذلك، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا شيء لم يُنقَل **عن رسول الله ﷺ وتركه أولىٰ**، بأنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الذي يسلم علىٰ الملكين، بل هو مطلوب، لأنه يجدد علىٰ العبد الإيمان بحضور الملكين عنده ليلًا ونهارًا، حتىٰ يتحفظ فلا يقع في معصية، وكذلك في عبادته، فيؤديها علىٰ وصف الكمال النسبي من حضور وخشوع وطمأنينة وغير ذلك، لئلا يستعجل الملكين في الأمور المهملات، فإنهم رسل الله تعالىٰ إليه.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يحصل له رعدة شديدة عند صلاة الصبح والعصر زيادةً علىٰ بقية الصلوات، ويقول: من أدب الفقير إذا جاءه رسول السلطان أن يعظمَه ويكرمَه ويرعدَ من هيبته، لا سيما ملك الشمال، فإن حكمه حكم جلبي الوالي الذي أرسله يأخذ المجرم إلىٰ العقوبة أو يحرر سببها، ومن له عقل خاف.

فعُلِمَ أن السلام علىٰ الملكين وإن لم يرد فالشريعة، تقبله ولا تأباه، وكم من بدعة حسنة أقرها العلماء، فاعلم ذلك والزم الأدب مع كلِّ من تأدب مع الله تعالىٰ أو مع رسله، وإن لم يرد في ذلك حكم بخصوصه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا جاءه شخص من أكابر العلماء وشكا له من قلة حياء تلميذ ذلك الشيخ أو ولده مثلًا، فلم يرد علىٰ العالم جوابًا، فخرج العالم وهو يلوث به ويقرض في عرضه ويقول: شكوتُ له تلميذه أو ولده، فلم يردَّ عليَّ جوابًا، كأنني ما أنا مسلم عنده! بأن ذلك الشيخ ربما تكدَّر من تلميذه أو ولده غيرةً علىٰ ذلك العالم أن

ينتهك أحدًا ممن يلوذ به حرمته، فسكت يتفكر فيما يفعله به من التأديب، ويخلِّص حظَّ الشرع من حظِّ العصبية حميةً جاهليةً، فإن دخيلة ذلك التلميذ أو الولد ما اشتدت إلا من شيء وقع له من ذلك العالم، إذ العقوبة تكون[1] على قدْر الذنب كبرًا وصغرًا، والعالم في العادة لا يُطاق في الخصام، لقوته على إقامة الحجج على خصمه، والاحتجاج على صحة فعل نفسه.

ثم لو تأمل هذا العالم في غضبه على الشيخ الذي لم يجبه لرآه حمقًا، فإن جواب الخصم لا يكون إلا بعد سماع دعوى خصمه الآخر، وخصم هذا العالم لم يكن حاضرًا، فكيف ينبغي للعالم اللوث بالشيخ لكونه لم يجبه في غيبة خصمه؟!

وقد كان سيدي عليٌّ المرصفيُّ رحمه الله إذا شكا أحد إليه من أحد يقول له: لا نسمع منك إلا إن رضيتَ بتصديقنا كلام خصمك في حقِّك كذلك؛ فإن قال: رضيتُ بذلك، قال له: قل، وإن لم يرض بذلك دفعه عنه.

فاعذر يا أخي الشيخ إذا سكتَ، فربما كان مشتغلًا بتخليص قلبه من العصبية مع ولده أو تلميذه، ليحكم لك بما تحب، فإن تخليص ذلك عسر عادة، واحمل العلماء والصالحين على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تكون رقبته مرفوعة إذا كان وحده، فإذا حضر عنده أحد أطرق رأسه وحنى، فلاث به بعض الحذَّاق وقال: هذا من علامة الرياء، ولو كان هذا من الصالحين لم يتغير عليه الحال بدخولٍ. وقد كان الفضيل بن العياض يقول: لو قيل لي: إن أمير المؤمنين داخل عليك الساعة؛ فسويتُ لحيتي بيدي لدخوله، لخفتُ أن أُكتَب في جريدة المنافقين. انتهى كلام المعترض.

والجواب عن هذا الشيخ: أنه ربما كان شأنه أن يتذكر بدخول الخلق عليه شيئًا من عظمة الله عزَّ وجلَّ، فيطرق لذلك، كما ورد في مسند البزار مرفوعًا: «استحِ من الله كما

(١) في «أ»: تغمر، وفي «ب»: تعظم.

تستحيي من رجلين من صالحي قومك»[1]، انتهىٰ. فقد جعل ﷺ هذين الرجلين مرتبةً يترقي الإنسان منها إلىٰ مقام الحياء من الله تعالىٰ، فالشيخ عما ظنه هذا المعترض بمعزل.

وقد سمعتُ سيدي عليًا البحيريَّ[2] المدفون بقبة الشيخ محمد المُنيِّر خارج الخانكاه ﷺ يقول: كلما قرب العبد من حضرة ربه، كانت رقبته أشد انحناء، كما أن من كان صدره قائمًا فهو علامة علىٰ شدة بعده عن حضرة ربِّه. فإذا رأيتَ يا أخي فقيرًا مكسور الرقبة، فاحمله علىٰ كونه قريبًا من حضرة الله عزَّ وجلَّ، وإياك وحمله علىٰ الرياء تحشر مع الخاسرين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالكسب الشرعي بالبيع والشراء وعمل الصنائع، ليوفوا منه دَينهم ويقول: ما أخذتموه من صدقات الناس التي أعطوها لكم لا يكفي مثلكم في وفاء دَينه؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم تأمر به الشريعة، وجميع ما أخذه الفقير من الصدقات والزكوات، وأوفىٰ به دَينه يحصل به الوفاء شرعًا، بأن هذا الشيخ لا يجهل مثل كلام هذا المعترض، ولكن أراد لمريده الكمال والأخذ بالعزائم، وإعلامًا له بثقل الدَّين، وأن من كمال الوفاء أن يكون المال الذي يوفي منه دينه علىٰ صورة كسب الدائن له، ليخرج من عهدته في الآخرة من جهة الحلِّ والتعب في تحصيله، فليس تعب البردادار[3] الذي يتكلم كلَّ كلمة بدينار عند الحكام، كتعب الصنايعي[4] الذي يعمل طول نهاره بثلاثة أنصاف مثلاً.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيدي علي البحيري ، كان علىٰ قدم السلف الصالح في العلم والزهد والورع والبكاء والخوف من مواقف القيامة، قال الشعراني: صحبته عشرين سنة، وكان جامعًا بين الحقيقة والشريعة، وكان أكثر أوقاته في الريف، يدور البلاد فيعلم الناس الدين، ويرشدهم إلىٰ طريق التقوىٰ، مات في شوال سنة ٩٥٣ هـ. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٩٣).

(٣) البردادار: هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة، متحدثًا علىٰ أعوانه والمتصرفين فيه.

(٤) أي صاحب الصنعة، كالنجَّار والخيَّاط ونحوهما.

وقد بلغنا أن زبيدة ابنة القاسم[١] رآها الفضيل بن عياض ﵀ بعد موتها وكانت كثيرة الصدقة، فقال لها: ما فعل الله تعالىٰ في تلك الصدقات التي كنت تتصدقين بها؟ فقالت: أخذ أجرها أربابها، وأعطوني ثواب النية الصالحة لا غير. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، لأنهم يأخذون دائمًا نفوسهم بالعزائم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تعدَّىٰ الحدودَ في مجازاة من أنكر عليه، وحدفه[٢] خلف جبل قاف[٣] مثلًا، ولاث الفقراء به ورموه بالفسق عند العارفين، وقالوا: من شرط الوليِّ التخلق بالرحمة علىٰ الجاهلين، وقد عاتب الله تعالىٰ نبِّيه ﷺ لما دعا علىٰ قومه وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فلما كسروا ثنيته وسال الدم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان تلك المجازاة بإذن من ربه عزَّ وجلَّ بأمارة تكون بينه وبين الله، تأديبًا لذلك الجاني علىٰ أولياء الله ومصلحةً له وللوجود.

وتأمل يا أخي ولد اللَّبُؤة[٤] في حجرها هل يستطيع أحد أن يأخذه من بين يديها ويؤذيه؟! فكذلك الأولياء هم في كفالة تربية الحقِّ جلَّ وعلا وفي حمايته، فمن آذاهم فقد آذىٰ الله، فربما كانت غيرة ذلك الوليِّ وتأديبه لذلك المنكِر إنما هو لله تعالىٰ لا لحظٍّ

---

(١) كذا بالأصلين. والصواب أنها زبيدةُ بنت جعفر بن المنصور، زوج أمير المؤمنين الرشيد. واسمها أمة العزيز. أما «زُبَيدة» فهو لقبها، لقبها به جدها أبو جعفر المنصور لبياضها. كانت كثيرة الصدقة، وخدمة اليت الحرام والحجيج. توفيت سنة (٢١٦هـ).

(٢) حدفه: أي رمىٰ به.

(٣) يرد ذكر جبل «قاف» كثيرًا في كلام الأولياء، ويصفونه بأنه جبل عظيم طوق الله به الأرض، وطوَّق هذا الجبل بحية عظيمة قد جمع الله رأسها إلىٰ ذنبها بعد استدارتها بهذا الجبل. ولا يصل إليه إلا الوليُّ المتمكن. ويرىٰ الأستاذ سعيد النورسي أن جبل «قاف» الذي يتكلم عنه الأولياء هو من عالم المثال، وصورته في عالم الشهادة «جبال الهيمالايا» ، فهي «بذرة «قاف» ذي عجائب موجود في عالم المثال». انظر: «الفتوحات المكية» (٣/ ١٣٠)، سعيد النورسي «صيقل الإسلام» (٩٦).

(٤) اللَّبُؤة: أنثىٰ الأسد.

نفسه، فإن من شرط الولي أن يرضىٰ بضرب السيف في وجهه ولا يرىٰ أحدًا تعرض بالسوء لمن هو في كفالة الله عزَّ وجلَّ. وقد كان الحجاج مع شدة ظلمه وسفكه الدماء لا يقتل أحدًا صلَّىٰ الصبح ذلك اليوم في جماعة، لما ورد: من أن «من صلَّىٰ الصبح في جماعة كان في ضمان الله عزَّ وجلَّ»[1].

وقد دخل جماعة من علماء مصر علىٰ سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه ممتحنين له، فقال للخادم: ادفعهم خلف جبل «ق» فدفعهم، فأقاموا هناك مدة سنة طعامهم الضفادع، ثم قال للنقيب: ردهم، فقد بلغت العقوبة حدَّها؛ فردهم حفاةً عراةً، قد ذابت ثيابهم وعمائمهم، فتابوا إلىٰ الله تعالىٰ، ثم أخذوا عنه الطريق. وكذلك وقع لسيدي إبراهيم الجعبري وسيدي إبراهيم المتبولي وغيرهم، وهو كلُّه محمول علىٰ أن ذلك غيرةً لله تعالىٰ لا لحظِّ نفوسهم، إذ لو كانوا في حظِّ نفوسهم ما قدَر أحدُهم علىٰ دفع أحد إلىٰ جبل «ق» ولا غيره، فاعلم ذلك والزم الأدب مع الأولياء، فهم أرحم منك بالخلق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعلم من جميع علماء مصر، ولا أعلم فيهم أحدًا يساويني في العلم، بل ولا في الشام والحجاز والروم والعجَم، والهند والسند، والغرب وغير ذلك، فلاث الناس به وقالوا: هذا مجنون أو كاذب! فإن الله تعالىٰ بث العلم في هياكل الخلق في سائر أقطار الأرض، فعند كلِّ إنسان من العلم ما ليس عند غيره، ومن هنا أُمِرَ ﷺ بالمشاورة لأصحابه قبل أن يعطيه الله تعالىٰ علم الأولين والآخرين. وقد ادعىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام أنه أعلم خلق الله تعالىٰ، فقال له الحقُّ جلَّ وعلا: بل عبدنا الخضر أعلم منك. وكذلك وقع للحسن البصري أنه ادَّعىٰ العلم، فعجَّزه الله تعالىٰ بأن سأله شاب عن البعوضة هل لها كرش أو مصران؟ فما درىٰ الحسن ما يقول، وأطالوا في الاستدلال.

والجواب عن هذا الشيخ: أنه لم يقل إنه أعلم خلق الله تعالىٰ في سائر العلوم، وإنما

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٦٥٧) من حديث جندب القسري يقول: «قال رسول الله ﷺ: «من صلىٰ صلاة الصبح فهو في ذمة الله...» والترمذي (٢٢٢) بنحوه.

أطلق اللفظ وقصده شيء معين في نفسه، ككونه أعلم بما تحت ثيابه من عورته، أو أعلم بأمتعة داره، أو بعدد ماله ونحو ذلك، فهو عما فهمه الناس عنه بمعزل. وقد مدح الله تعالىٰ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

وقد يريد أنه أعلم بنوع خاص من العلم، ككونه أعلم أهل مصر مثلًا بالجمع بين الآيات والأخبار ومذاهب المجتهدين وغيرهم، فإن مثل ذلك مرتبة من مراتب الولاية قلَّ أن يُعطاها من ليس له قدم في الولاية، فإن سمع آيات الصفات التي فيها التنزيه والتشبيه حملها علىٰ حالين، وردَّ التنزيه لمرتبة علم الله تعالىٰ بنفسه أو علم أنبيائه وأوليائه به، وردَّ التشبيه لمرتبة علم آحاد المؤمنين بربهم، ولذلك يجب عليهم صرفُ كلِّ ما خطر ببالهم علىٰ الفور.

وإن سمع أحاديث الشريعة وآثارها وأقوال المجتهدين ومقلديهم، ردَّها إلىٰ حالَيْن تخفيف وتشديد، ولكلٍّ منهما رجال في حال مباشرتهم للتكاليف، فمن قوي منهم خوطب بالعزيمة، ومن ضعف منهم خوطب بالرخصة، سواء أكان ذلك في مذهب واحد أو مذاهب مختلفة، فلا يخرج عن المرتبتين، فلا يؤمر الضعيف بالصعود لمرتبة العزيمة، ولا يؤمر القوي بالنزول لمرتبة الرخصة بغير شرطها، فكما أن القوي علىٰ هدًىٰ من ربه في مرتبته، كذلك الضعيف علىٰ هدًىٰ من ربه في رخصته، كما أوضحنا ذلك في كتاب «الميزان الخضرية» فراجعها.

وهذا علم لا تكاد تجده مع أحد من علماء الزمان، وإن شككتَ في قولي، فأسألهم تعرف صدقي يقينًا، فليس في الشريعة تناقض كما يظنه بعضهم، لأن مقام الشارع وأكابر العلماء يجلُّ عن التناقض، وقد قال تعالىٰ: ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].
وكان ﷺ يكلم كلَّ إنسان بما يناسب مقام ذلك الإنسان في العلو والانخفاض، لكونه رحمةً للعالمين، وربما سأله إنسان عن أفضل الأعمال، فأجابه بأمر، ثم سأله آخر عن ذلك، فأجابه بأمر آخر، فإن سأله من يتهاون بالصلاة أول وقتها عن أفضل الأعمال، قال

له: «الصلاة علىٰ أول وقتها»[1] أو من يتهاون بالجهاد، قال له: «الجهاد في سبيل الله»[2]، أو من لا يبر والديه، قال له: «بر الوالدين»[3] أو من لا يحتمل الأذىٰ؟ قال له: «احتمال الأذىٰ»[4] أو من لا يهتم بأمر المسلمين، قال له: «إغاثة اللهفان»[5] وهكذا فكان يكلم كلَّ إنسان بما يراه ناقصًا فيه.

وكذلك القول في المعاصي، فكان ﷺ يقبِّحها في عيون الناس بحسب علمه بتساهلهم فيها، فقال: «أكبر الكبائر بعد الشرك بالله قتلُ النفس» وقال لآخر: «عقوق الوالدين»، وقال لآخر: «اليمين الفاجرة» وقال لآخر: «قطيعة الرحم» وقال لآخر: «الزنا بحليلة جاره»، وقد جمعها كلَّها في حديث الشيخين لسائل واحد، فبين له مراتب المعاصي، ليعطيها مرتبتها في الندم تخفيفًا وتشديدًا[6]. وتأمل قوله ﷺ لمن قال له: «أوصني؟ فقال

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري(٥٢٧) عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: الصلاة علىٰ وقتها. قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين. قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني» ومسلم (٨٥) وغيرهما.

(٢) تقدم تخريجه وهو الحديث السابق.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) لم أقف علىٰ حديث بهذا اللفظ، لكن احتمال الأذىٰ وردت فيه أحاديث كثيرة، منها ما جاء في صحيح مسلم (٢٥٥٨) عن أبي هريرة، أن رجلا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علىٰ ذلك».

(٥) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو يعلىٰ الموصلي (٤٢٩٦) من حديث أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «الدال علىٰ الخير كفاعله، والله يحب إغاثة اللهفان» وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٢٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٥١).

(٦) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه (٥٩٧٦) من حديث أبي بكرة عن أبيه ؓ قال:«قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر. قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور. فما زال يقولها، حتىٰ قلت: لا يسكت» ومسلم (٨٧).

له: لا تغضب، فردد مرارًا فقال له: لا تغضب»[1] لكونه رآه كثير الغضب، كما أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «العهود المحمدية»، فاعلم ذلك، وسلِّم للأشياخ ما يدعونه من العلم تسلم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: العارفون لا يموتون وإنما ينقلون من دار إلىٰ دار، فلاث به بعض طلبة العلم وقال: إطلاق ذلك لا يجوز، فإن الله تعالىٰ قد كتب الموت علىٰ جميع بني آدم من المرسلين فمن دونهم، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأن مراده أن العارف يموت في الدنيا عن تصرفاته النفسانية دون الشرعية، فلا يصير له مراد فيها، فيكون حيًّا في مرضاة الله، ميتًا في مرضاة نفسه. وقد أشار إلىٰ ذلك قوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلىٰ ميت يمشي علىٰ وجه الأرض، فلينظر إلىٰ أبي بكر الصديق ﷺ»[2]. انتهىٰ. ولذلك أُعطِي مقام الخِلَّة لرسول الله ﷺ، كما أعطي إبراهيم الخِلَّة الكبرىٰ من حيثُ غلبةُ التسليم علىٰ قلبه، وصبرُه تحت مجاري الأقدار. وصاحبُ هذا الحال لا يكون له علاقة دنيوية يتغير لأجل مفارقتها أو يلتفت إليها، فكأنه ينتقل من دار إلىٰ دار، بخلاف من له علاقة في الدنيا من مساكن وبساتين وأموال ووظائف، فإنه يموت ويحصل له الشدَّة في طلوع روحه.

فإن قال قائل: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء يُشدَّد عليهم طلوع الروح كما ورد، مع أنهم لا علاقة لهم في الدنيا؛ **فالجواب:** أن شدَّة طلوع روح الأنبياء والأولياء إنما يكون من حيثُ شفقتُهم علىٰ قومهم الذين لم يبلغوا مقامات الكمال التي كانوا يطلبونها لهم، فكلُّ نبي ووليٍّ يود الحياة ليرقِّي قومه إلىٰ مقامات الكمال والأدب مع الله تعالىٰ مصلحةً لهم، وتعظيمًا لجناب الله عزَّ وجلَّ، فشابهوا أهل الدنيا في اسم العلاقة، وفارقوهم في المقصد، فافهم، وسلِّم للأولياء دعاويهم، فإن مثلهم يبعد عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦) والترمذي (٢٠٢٠).

(٢) لم أقف عليه، وقد ذكره ابن الملك في شرح المصابيح (٥٤٠١)، ولعل الشيخ يشير إلىٰ خروج سيدنا أبي بكر ﷺ من ماله لله ورسوله، وكذلك الميت حين موته يخرج عن ماله، ويذهب للورثة.

الكذب، لخروجهم عن أهوية النفوس الدنيوية. والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق الذي يقول: أعطاني الله تعالىٰ [من] العلوم والمعارف ما لم يعطه لأحد من أهل عصري؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة أو كذب، بأنه قد يريد بذلك أن ما أعطاه الله تعالىٰ له ليس هو عين ما أعطاه لعبد آخر، وإنما هو مثاله لا مِثْله- بكسر الميم وسكون المثلثة- لأنه لابد فيه من زيادة أو نقص ولو بحرف واحد. وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ يقول: والله لقد أتيتُ في هذه الطريق بما لم يأتِ به أحد من المتقدمين. انتهىٰ. فيُحمَل علىٰ أن ما أتىٰ به ليس هو عين ما أتىٰ به غيره، وإنما يشابهه في الاسم فقط دون الحقيقة والكنه.

فإياك يا أخي والمبادرة [إلىٰ الإنكار][1]، لا سيما علىٰ أقرانك الذين رفعهم الله تعالىٰ عليك، فإن مواهب الله تعالىٰ لا تختص بمن يطلبها باستعداد، بل قد تأتي بغتة. وقد كان أبو الحسن الشاذلي يأتي بالعلوم الغريبة ثم يضيفها لغيره، فيقبلها الناس ويكتبونها دون ما يضيفه إلىٰ نفسه، فيقول: إن هي إلا إسرائيلية! كذَّبوا بمحمد ﷺ حين رأوه حسدًا وعدوانًا، وصدَّقوا بموسىٰ حين لم يروه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وسلِّم للشيخ الذي يدعي، تسلم من تبعته، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يشفع عند الحكَّام إلا فيمن يحبُّه دون من يكرهه، أو من لا يحبه ولا يكرهه، فلاث به الفقهاء وقالوا: الشفاعة مطلوبة من كلِّ قادرٍ عليها في حقِّ من يكره الشافع ومن يحبه، بل هي فيمن يكرهه أفضل وأعظم أجرًا، بأن هذا الشيخ ربما جرَّب فوجد الشفاعة فيمن يكرهه لا تُقبَل، لعدم اعتقاده في الشافع، فكأنه يرده بقوله له: حسِّن اعتقادك فيَّ، لأشفع لك، وتُقبَل شفاعتي فيك، بخلاف المحب، فإنه من شدَّة اعتقاده يظن أن ذلك الأمير لا يردُّ لذلك الشيخ شفاعة، فيحقق الله ظنَّه، ويخيب ذلك العدو، كما يخيب من لا اعتقاد له ولا إنكار عقوبةً لهما.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: المدار في قبول الشفاعة وسرعة قضاء الحاجة على صحة اعتقاد صاحب الحاجة، وصدق توجهه إلى ذلك الشيخ الذي يشفع له، لا على الشيخ. قال: ومن علامة صحة اعتقاده فيه أن تصير كلُّ شعرة في بدن صاحب الحاجة تعتقد أن ذلك الأمير لا يرد شفاعة ذلك الشيخ أبدًا، ومتى تردد في كونه يقبله أو يرده، فليس هو بصادق، فلا يستحق قبول الشفاعة فيه، ولو بالغ ذلك الشيخ في التوجه في قضائها. ومن هنا قالوا: تحويل الجبل بتوجه الفقير أهونُ عليه من تحويل قلب أمير. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم أن تظنُّوا في فقير أنه يحب نسبة قبول الشفاعة إليه دون أحد من أقرانه، فإن ذلك ظنٌّ كاذب، إذ الفقير الصادق يحبُّ قضاء حوائج الناس وإدخال السرور عليهم مطلقًا، لأنه دائر مع حصول[1] الخير للمسلمين، سواء أكان ذلك على يده أو غير يده، ومتى أحب أن تكون قضاء الحاجة على يديه فقط، فقد خرج عن الصدق وهو في حظ نفسه. انتهى.

فاعلم ذلك، واحمل كلام الشيخ[2] الذي لم يشفع فيمن ينكر عليه على العجز عن تحويل قلب الأمير إلى قبول الشفاعة في ذلك المذنِب مثلًا، ولا يجوز حمله على أنه قدر على ذلك ثم تركه لحظٍّ نفس.

وقد اختبرتُ أنا هذا الباب أشدَّ اختبار، ووجدتُ المعوَّل على صدق المتوجِه إليَّ لا على[3] توجهي أنا، وربما أتاني أعزُّ المعتقدين فيَّ يريد مني أن أشفع فيه، ويريد الله تعالى عدم قضائها على يدي، فيفرغ الله تعالى اعتقادي من باطنه، فلا أقدِر على قضاء حاجته. وربما أتى الغريب الذي ليس بيني وبينه صداقة، فيرزقه الله تعالى صحة الاعتقاد، فيقضي حاجته في الحال. وربما كانت الحاجة صعبة جدًا، كغضب الأمير على من سرق متاعه ونقب داره، ويريد مني المجرم تطييب خاطر الأمير عليه، فأقول

(١) بالأصلين: حضور. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: المشايخ. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: إلى. والصواب ما أثبتناه.

له: لا أقدر أمشي لك في هذه الحاجة إلا إن وضعتني في كفة، وجميع أهل مصر في كفة، ورجحتني عليهم؛ فيدعي ترجيحي فلا أصدِّقه، فلا أزال أردد عليه القول حتىٰ يتبين لي صدقه فأمشي له، فيحوِّل الله تعالىٰ قلب ذلك الأمير إلىٰ العفو عنه.

واعلم يا أخي أنه لا فرق بيني وبين غيري في ذلك، بل كلُّ من حصل عنده ترجيح له، سهَّل الله تعالىٰ قضاء حاجته علىٰ يديه. ومما يخفىٰ علىٰ كثير من الناس أن أحدهم يأخذ مع كتاب الفقير كتابًا آخر من أكابر العلماء إلىٰ الأغنياء أو الأمراء، فلا تُقضَىٰ له حاجة للشركة في التوجه، فلذلك كنتُ أقول له: إن أردتَ قضاء حاجتك، فلا تأخذ مع كتابي كتاب أحد. فإن كان معتقدًا في أصحاب تلك الكتب كلِّهم قلتُ له: استخر ربَّك يرجِّح لك أحدًا منهم، واقتصر علىٰ كتابه، فإن الشركة في مثل ذلك توقف قضاء الحاجة، بخلاف الشركة في الأمور الظاهرة، فإنها تسرع بقضاء الحاجة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٤) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يرد شفاعة العلماء والصالحين ولا يقرأ لهم كتابًا ويقول: أما هؤلاء الذين يسمون نفوسهم علماء، فإنما هم عبيد الدنيا. وأما الذين يدعون المشيخة فكذَّابون نصَّابون، يريدون بقبولنا شفاعتهم رواج أمرهم عند العامة بأخذ الهدايا، أو الصيت بالصلاح، لا تفريج كرب المكروبين، إنما يطلبون أن يُقال: قد شفع الشيخ الفلاني عند الأمير الفلاني، فما جعلهم مشايخ عند الناس إلا قبولنا شفاعتهم! ولاث الناس بذلك الأمير وقالوا: إنه ظالمٌ كلبٌ لا يعتقد في الصالحين، بأنه ما قال ذلك في حقِّ العلماء والصالحين إلا لجهله بمقامهم، وعدم دخوله دائرتهم، وعدم معرفته بالأمور التي تميز الصادق من الكاذب، فمثل هذا لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه لا يعرف مقام العلماء ولا الصلحاء.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من أدب الأمير مع الفقير أن يقوم لكتابه إذا ورد عليه، ثم يقبله ويضعه علىٰ عينيه، كما يفعل بمكاتبات السلطان إذا وردت عليه.

وقد روىٰ وهب بن منبه أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما ورد عليه كتاب والده بمصر، قام له وقبَّله ووضعه علىٰ عينيه، ثم قال: أتدرون لم فعلتُ ذلك؟ قالوا: لا. قال:

لأنه من سنة الملوك مع الصالحين، وبذلك يدوم ملكهم. انتهىٰ.

فينبغي لنا إعلام الأمير الذي يزدري الفقراء بذلك، وكذلك ينبغي لنا أن نعلمه أن من مقام الفقراء أن الله تعالىٰ يسلِّم ذلك الأمير الذي سلَّموا عليه في كتابهم من سائر الآفات في الدنيا والآخرة، وإن كان ذلك الأمير مرتكبًا شيئًا من المعاصي، تاب الله تعالىٰ عليه وسامحه في جميع التبعات التي عليه في الآخرة، فمن ردَّ كتاب الفقير فكأنه يردُّ عليه ذلك، فلا يسلم من الآفات، ولا يسامحه الله بالتبعات.

وقد ذكر صاحب كتاب «الدلالة علىٰ الله»[1] أن من عباد الله من يقبل الله تعالىٰ شفاعته في كل عاصٍ من المسلمين، ومنهم إذا مرَّ علىٰ جماعة يشربون الخمر، فسلَّم عليهم، أو مروا عليه فسلَّموا، فرد عليهم السلام، غفر الله تعالىٰ لهم تلك المعصية وما قبلها، انتصارًا لأوليائه، لئلا يخذلهم عند أعدائه.

قال: فينبغي لمن يصحب الأمراء أن ينبههم علىٰ هذا السرِّ العظيم، ليصير أحدهم يعظِّم كتاب الفقير إذا ورد عليه، من حيثُ إن سلام الفقير علىٰ الأمير كالبشارة له علىٰ أن الله تعالىٰ يسلِّمه من جميع الآفات.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: ينبغي للفقير إذا كاتب أحدًا من الولاة أن لا يكتب له «سلام الله علىٰ فلان» حتىٰ يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في سلامته من سائر الآفات، ويرجو إجابة الحقِّ تعالىٰ له في ذلك، فإن لم يرجُ الإجابة، فهو كالكاذب علىٰ الله في أنه أعطاه الأمان من الآفات. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي صحب أميرًا وأكثر من مجالسته، وصار الأمير كلما أراد أن يتصدق بشيء علىٰ فقير يمنعه، وصار الناس يقولون: الشيخ الفلاني سيئة من السيئات عند الأمير. وربما أراد الفقير أن يدخل علىٰ الأمير يسأل شيئًا، فيقول له جماعة الأمير: اصبر حتىٰ يخرج فلان من عند الأمير لئلا يعارضك، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان ذلك الطعام أو الدراهم من الحرام أو الشبهات، فمنع

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد البكري، المتوفي سنة (٣٨٠هـ).

الأمير من التصدق بها، لعدم قبول الحقِّ تعالىٰ ذلك منه. كما ورد مرفوعًا: «لا يكتسب عبد مالًا من حرام فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبله الله منه، ولا يتركه خلفه إلا كان زاده إلىٰ النار»[1] الحديث.

وربما كان ذلك السائل لا يليق به الأكل من الشبهات إما لعلو مقامه، وإما لعدم شدَّة حاجته إلىٰ ذلك، لاستغنائه عنه بغيره. وربما رأىٰ الشيخ أن تلك الدراهم التي يأخذها ذلك الفقير من الأمير تتلف قلبه ويدخل إبليس فيه، فمنع الأمير من ذلك خلاصًا له ولذلك الفقير.

وقد أجمع القوم علىٰ أن الدنيا ابنة إبليس، فمن أدخل محبتها قلبه لغير غرض شرعي فكأنه مكَّن إبليس من دخول قلبه والسكن فيه، فما وفىٰ أجرُ سدِّ خلة الفقير بفساد قلبه، حيثُ كان ذلك الطعام أو المال سببًا لدخول إبليس فيه، فينبغي لكلِّ من أعطىٰ فقيرًا مالًا أن لا يعطيه له حتىٰ يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أنه لا يستعين به علىٰ معصية، ولا ينقص له به مقام، ولا يغفل به عن الله، ولا يدخل به إبليس قلبه، ويرجو الإجابة لدعائه، ثم بعد ذلك يعطيه. وكان هذا من شأن سيدي عليّ الخواص ﵁، ولا يقدر علىٰ المشي عليه إلا من صحت معاملته مع الله ومع خلقه، فاحتاط لهم كما يحتاط لنفسه، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك في حقِّ العلماء والصالحين، فإن لهم مدارك تدق علىٰ مثلك، وما يريدونه للفقير خيرٌ مما يريده الفقير لنفسه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٦) أجبتُ به عن الشيخ الذي سأله إنسان في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في تحصيل وظيفة أو تزويج امرأة جميلة أو دنيا عريضة ونحو ذلك، فقال للسائل: أنا دعائي لا يُقبَل، اذهب إلىٰ تلميذي فلان فاسأله، فإن دعاءه أقرب إلىٰ الإجابة من دعائي؛ فلاث به هذا السائل وقال: هذه طردة من الشيخ، ولو كنتُ من أبناء الدنيا لدعا لي وتوجه إلىٰ الله في قضاء

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الحاكم (٢١٣٧) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: لا يغبطن جامع المال من غير حله - أو قال: من غير حقه - فإنه إن تصدق لم يُقبل منه، وما بقي كان زاده إلىٰ النار» وأحمد (٣٦٧٢) بنحوه، والطبراني في «الكبير» (١٠١١١) بنحوه.

حاجتي، بأنه قد يكون صادقًا في أن دعاء تلميذه أقرب إلى الإجابة من دعائه من حيثُ إن المريد قد قصر بصره على الدنيا وقضاء أوطارها، فهو يتوجه بكليته في تحصيلها محبةً في ذلك السائل، أو يرى التقرب إلى الله تعالى بذلك، ولا هكذا العارف بالله تعالى، فإنه إذا رأى أن عدم تحصيل تلك الوظيفة أو تلك المرأة الجميلة مثلًا أفضل لذلك السائل، يتوجه إلى الله تعالى في تعسيرها عليه، محبةً في ذلك السائل، وتقربًا إلى الله تعالى محبةً للخير لأخيه المسلم، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠] ﴿لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وعملًا بقول عبد الله بن عمر ﷺ: ما أُعطي أحد من الدنيا شيئًا إلا نقص ذلك من مقامه في الآخرة، وإن كان عند الله كريمًا. انتهى.

فقد علمتَ أن قوةَ التوجه إلى الله تعالى في تحصيل أمور الدنيا خاصٌ بالمحجوبين عن الآخرة، وقوةَ التوجه إلى الله في تحصيل شيء من أمور الآخرة خاصٌ بالعارفين، فمن سأل عارفًا تحصيل شيء من الدنيا المذمومة، فكأنه يسأله في التوجه إلى الله تعالى في تعسير ذلك عليه، إذ الخلق كالأطفال في حِجْر تربية الأولياء، فلا يرون لهم إلا ما كان أصلح لهم مما يعلي مقامهم في الآخرة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: كلما بالغ العارف في التوجه إلى الله تعالى أن يعسِّر على ذلك المحبِّ أسبابَ دنياه، ويصبره على ذلك، [فهو][1] مقابلة الإحسان بالإحسان، ومتى توجه العارف لهذا المحبِّ في تحصيل الدنيا التي يخاف من اشتغاله بها عن ربه فقد أساء في حقِّه. وكثيرًا ما يزيد طالب الحاجة اعتقادًا في المريد ويقل اعتقاده في العارف، ويقول: جربناهما فوجدنا المريد أسرع في قضاء الحوائج من شيخه. فليحذر صاحب الحاجة من مثل هذا الظنِّ، فإنه جهل منه، وليصن وجوبًا [قلبه عن][2] ذلك، فإنه من الأشرار، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا نزل ببلده بلاء، فقال: لو كان في هذه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

البلد أحد من الصوفية الصادقين، لسألوا الله تعالىٰ في رفع هذا البلاء. ولكن ما بقي أحد من المشايخ ليُستجَاب له دعاء؛ فلاث الفقراء بهذا العالم وقالوا: هذا علامة علىٰ عدم اعتقاده في الصالحين، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم. ولا يلزم من قوله هذا عدم اعتقاده في الصالحين، فقد يريد أن العلة في عدم إجابة دعاء الأولياء عدمُ استحقاق العامة رفع البلاء عنهم، لا عدم صدق الأولياء، وكلُّ وليٍّ يعرف من يستحق رفع البلاء عنه ومن لا يستحق، ولكن ربما أقسم الناس علىٰ ذلك الوليّ أن يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في رفع البلاء عنهم، فيتوجه إلىٰ الله في رفعه إبرارًا لقسمهم عليه بالله، ويسأل الله تعالىٰ لهم رفع البلاء من باب المنة والفضل، لا من باب الاستحقاق، فإن الخلق قد استحق غالبُهم الخسف به لولا عفو الله تعالىٰ! فكم زنا! وكم لواط! وكم شرب خمر! وكم تعاون في الناس عند الحكَّام! وكم أذىٰ لبعضهم بعضًا حتىٰ عزل كثير من الناس بعضهم بعضًا من وظيفته التي بها معاشه! وأخرجوه من وطنه الذي نشأ فيه! وكم! وكم! وكم! ولما علم الأولياء استحقاق الناس نزول البلايا والمحن، وأنه لا يمكن العامة التوبة من سائر المعاصي، سكتوا عن الدعاء وأخروا ذلك للدار الآخرة، لعلمهم بعجز أمثالهم عن التصدر لمثل ذلك حتىٰ يجدوا محلًّا قابلًا لذلك.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: إذا دخل النصف الثاني من القرن العاشر، قبض الله [التصريف][1] من غالب الأولياء لموانع تقوم بهم وبالخلق ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن قول هذا العالم: «ما بقي أحدٌ من مشايخ هذا الزمان يُستجَاب له دعاء» صحيح علىٰ التأويل المذكور، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر تلميذَه أو غيرَه بالوضوء من الكلمة التي أُعجِبَ بها ولو كلمة خير، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا تنطع! وإنما ورد ذلك عن

---

(١) ساقط من «ب».

عائشة ﵂ في الغيبة والنميمة[1]،ولم يرد لنا عن الشارع في هذا الباب شيء من ذلك، بأنه لا ينبغي اللوث به، فإن العجب معدود من الكبائر، فهو أشد من الغيبة عند من يقول إنها من الصغائر. وقد يكون هذا الشيخ إنما أمر مريده بالوضوء علىٰ وجه الندب خروجًا من الخلاف، فلا اعتراض عليه بذلك. وكان أخي أفضل الدين ﵀ يتوضأ من الكلمة التي لا تَعْنيه ومن اللغو، ويقول: إن ذلك أولىٰ من تجديد الوضوء بلا سبب. انتهىٰ.

وما رأيتُ لهذا المقام بعده فاعلًا إلا أخي الشيخ عبد الرازق الإمام بزاوية شيخنا سيدي عليّ الخواص، فوقع له أنه تكلم عندي مرةً بكلمة لا تعنيه، فقام وتوضأ منها، فعلمتُ أنه تحقق بهذا المقام. وكان سيدي عليٌّ الخواص إذا تكلَّم بكلمة لغوًا غسل فمه فقط، فاعلم ذلك، ولا تنكر علىٰ من يأمر الناس بما لا تنقله الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلامذته: نزهوني عن كلِّ مقام يخطر ببالكم؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يكون إلا للباري جلَّ وعلا، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد هذا القول حتىٰ تستفهمه عنه، فربما أراد بهذا القول: لا تجعلوني كأحدكم في كلِّ مقام ذقتموه، فإني بخلافه، ومن جعل نفسه مساويًا لشيخه في المقام عُدِم الترقي، وربما وقف مع ذلك المقام وقال: قد ساويتُ شيخي، فيفارقه وهو ناقص. وقد أجمع القوم علىٰ أن كلَّ من لم يعتقد في شيخه أنه أعلم بالله تعالىٰ منه، فاته النفع علىٰ يديه.

وقد كان سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي ﵁ يقول لأصحابه: لا تقيسوني بأحد، ولا تقيسوا عليَّ أحدًا، يعني من مشايخ عصره. وكان يفتح لهم بذلك باب تعظيمه في عيونهم لينتفعوا به، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لم أقف عليه، وجاء في الصمت لابن أبي الدنيا (٦٥٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «يتوضأ أحدكم من الطعام الطيب، ولا يتوضأ من الكلمة الخبيثة يقولها»، وابن أبي شيبة (١٤٢٦).

الكتب النادرة التي تطبع لأول مرة

فهرس المحتويات



تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣هـ

تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار

الجزء الثاني









الكتب النادرة التي ترفع الهموم

المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد



هاتف محمول: ٠١١٢١٠٧٧١٧٤ ٠٠٢

Email: darelehsan@gmail.com

الكتاب: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد

تأليف: الإمام عبد الوهاب الشعراني

تحقيق: محمود مرسي حسن

الناشر: دار الإحسان

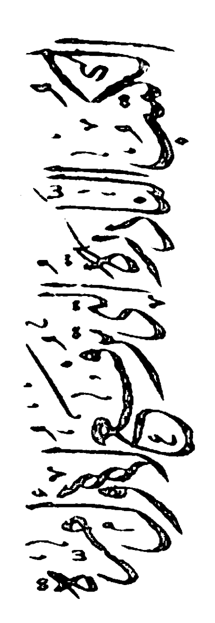
سنة الطباعة: ٢٠٢٣

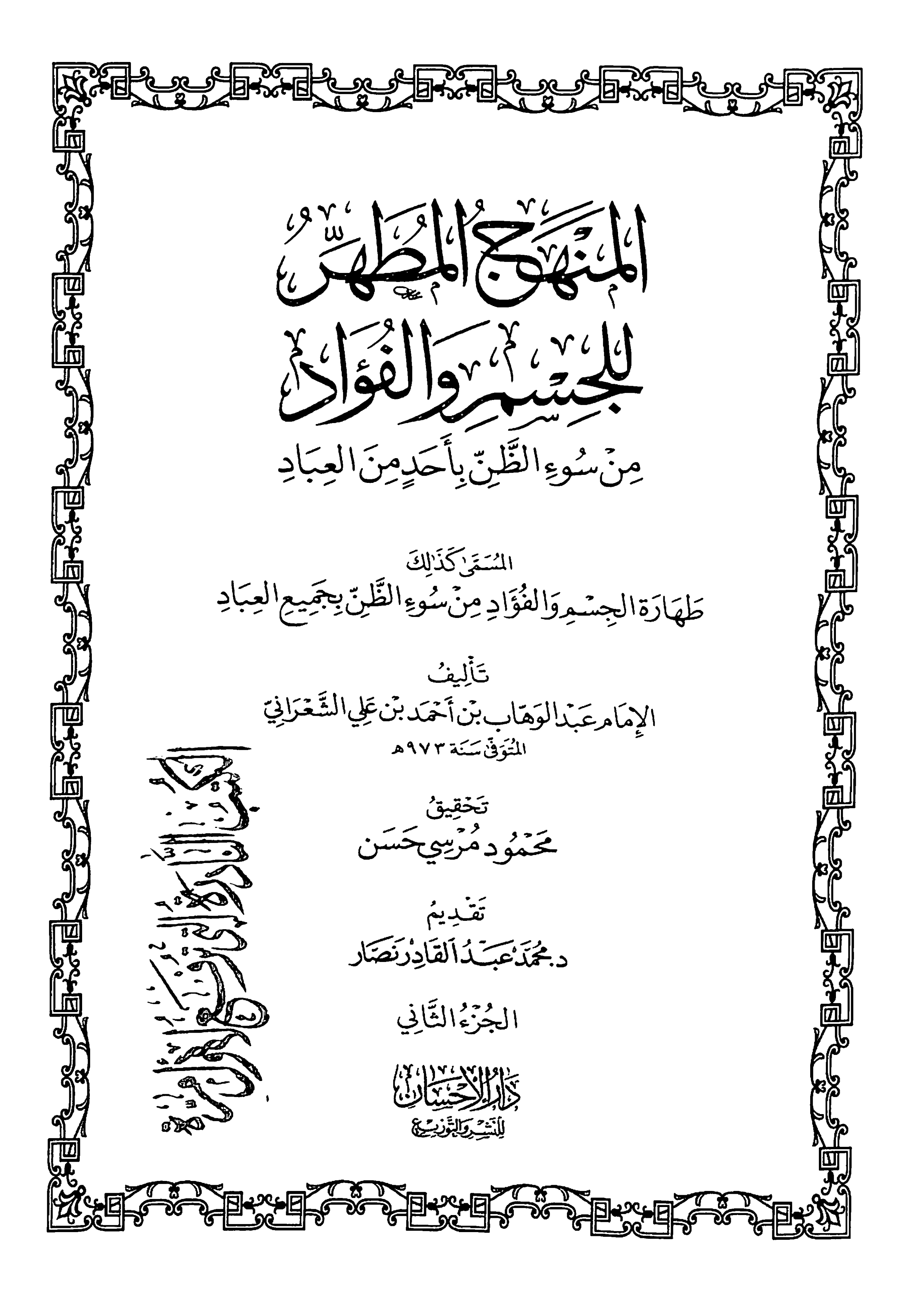
بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٧٥٨٢/ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: 978-977-6816-43-5





المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد

المسمى كذلك

طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد

تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣هـ

تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار

الجزء الثاني

دار الإحسان

للنشر والتوزيع

الباب الثامن

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٦٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكْثِر من إقامة العذر لمن خرج عن حدِّ الاستقامة من العوام، فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذا فيه فتح باب تجري العامة علىٰ الذنوب، بأنه ربما كان يشهد بنور الإيمان أن القابض علىٰ دينه في هذا الزمان كالقابض علىٰ الجمر، مع قطع النظر عن وجه الكسب، كما يقع فيه من لم يبلغ مقام الكمال.

وإنما كان القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمر، لضعف داعية غالب الخلق إلىٰ الطاعات، وعسير الصبر علىٰ دوام الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، ومخالفة النفس فيما تهواه، فكأن من يريد عدم مفارقة دينه قابضًا كفَّه علىٰ جمرة ترعىٰ في كفِّه لا يقدر علىٰ رميها في ساعة من ليل أو نهار، مع زيادة حرارتها كلما تقارب الزمان. فهذا سبب إقامة هذا الفقير المعاذير للخلق، ولو كمُل حاله لنظر إلىٰ الخلق بالعين الأخرىٰ، فوبَّخهم وزجرهم ظاهرًا، وأخفىٰ إقامة العذر عنهم أدبًا مع الشريعة، ورأىٰ أن ذلك أولىٰ من إقامة العذر، فإن إقامة العذر تحصيل الحاصل، إذ الخلق كلُّهم في سرِّ الإرادة لا يخرجون، فاعلم ذلك، وأعْلِم الفقير بمقام الكمال، ثم أنكر عليه ما يخالف ظاهر الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاد تلميذه عليه في العمل الظاهر، واعتقده الناس الاعتقاد التام، وقدَّموه علىٰ الشيخ، وصار الناس يقولون: الشهرة لهذا الشيخ، والمقام إنما هو للتلميذ، فإن الباطن لا نعرفه، وما نعرف إلا الظاهر، فكلُّ من زاد علىٰ غيره في الأعمال الصالحة، قدَّمناه علىٰ غيره، بأنه لا يلزم من كثرة أعمال المريد أن يكون أعلىٰ مقامًا من شيخه، فإن أعمال المريد كالجرين القمح قبل دياسه، وعمل الشيخ كالحبِّ الذي خرج من التبن وصفوه ونقوه من الغلة، فهو أزكىٰ من عمل المريد وإن قل جرمه.

وإيضاح ذلك أن الأعمال الظاهرة كلَّها إنما هي وسيلة إلىٰ حصول مقام مشاهدة

الحقِّ بالقلوب، فإذا حصل الشهود الدائم للعارف، فقد حصل علىٰ غاية المقصود، ولو لا أن في الإنسان جزءًا يحن إلىٰ الحجاب لما كان يحب الرجوع إلىٰ الأعمال، وكان يذهب في الذاهبين في الله عزَّ وجلَّ، فكلُّ ذرة من عمل الشيخ تعدل أمثال الجبال من عمل المريد.

فإياك يا أخي والخوض مع الخائضين في ترجيح المريدين علىٰ الأشياخ بغير علم، كما يقع فيه التجار والمباشرون، فإن ترجيح هؤلاء من باب الخرافات، لعدم ذوقهم أحوال أهل الطريق، ولا يعرف مقام الشيخ إلا من كان أعلىٰ مقامًا منه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرميه أقرانه بالعظائم وينقصونه في المجالس، ولاث الناس به وقلَّ اعتقادُهم فيه وقالوا: لولا أن هؤلاء الناس علموا من هذا خبث السريرة ما كرهوه ونقصوه بين الناس، لأن مثل هؤلاء لا يجتمعون علىٰ باطل، بأنه لا يلزم من حطِّ الأقران في فقير وتنقيصه في المجالس أن يكون كما يقولون، فقد يكون هؤلاء كلهم حسدة له ولو كانوا ألفًا، لأن العبد كلما علا مقامه وتميز عن أقرانه كثر حساده، فكثرة الحساد تغمز[1] علىٰ مقام الفقير ولو آثر هو الخفاء علىٰ الظهور.

وقد سمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول مرة: اللهم كثِّر حسَّادي! فقلت له: لم ذاك؟! فقال: لأنهم لا يحسدوني إلا إذا كثرت نعمة الله عليَّ. ثم قال لي: انظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] تفهم ما أقول، فإنه تعالىٰ ما أمرنا بالاستعاذة إلا من شرِّ الحاسد لا من وجوده، لأن وجوده مقرون بالنعمة متىٰ زال أهل الحسد زالت النعمة. انتهىٰ.

وكان عمر بن الخطاب يقول: ما ثم نعمة [إلا][2] وصاحبها محسود، فلا يسلم من حاسد أبدًا. وقد كان مالك بن دينار ومالك بن أنس رضي الله عنهما يقولان: لا تُقبَل شهادةُ القرَّاء علىٰ بعضهم بعضًا لأنهم قوم حسد. انتهىٰ.

---

(١) أي تشير.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

فاعتقد يا أخي الكمال والصلاح فيمن أَكْثَر أقرانُه فيه التجريح[1]، فإن ذلك علامة علىٰ شهودهم فيه الكمال الذي لا يقدرون علىٰ الوصول إليه، فطلبوا بتجريحهم له أن يصير بين الناس كأحدهم لا يلتفت أحد إليه ولا يعتقده. وإن أردت تحقيق الأمر في ذلك، فخالط ذلك الشيخ وانظر في أعماله، فإنك لا تكاد تجده يرتكب كبيرة ولا يصر علىٰ صغيرة، ولا يتهاون بشيء من السنة، فمن أي وجه يدخل عليه النقص؟! ولكن الحسدة لما رأوا هذا الباب مسدودًا عليه، رموه بالعظائم الباطنة كالرياء والنفاق والكبر والعجب ونحو ذلك، لعلمهم بأنه إذا رموه بالمعاصي الظاهرة يكذبهم الناس.

فاعلم ذلك، وإياك وقبول التجريح في عالم أو شيخ من أقرانه، وادع الله تعالىٰ لهم بالمغفرة إن كانوا كاذبين عليه، فإن الأصل براءة الساحة، والجرح عارض، وتكذيبنا لهم أخف إثمًا عليهم من تصديقنا لهم، فاقصد يا أخي بتكذيبك لهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا جلس الناس عنده وأكثروا من جر قوافي الناس وهو ساكت، فلاث به بعض الأقران وقالوا: إن مجلس فلان مجلس فسق، والواجب عليه أن يمنع هؤلاء من الدخول له، أو يصير يرد عن عرض إخوانه المسلمين، فإن الساكت شريك المستمع، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ، فربما كان له عذر شرعي أباح له السكوت علىٰ تلك الغيبة مثلًا. وربما كان من أهل الشفاعة فيهم عند الله تعالىٰ، فكل من جروا قافيته، سأل الله تعالىٰ له المغفرة فأجابه، وإذا طردهم عن مجلسه ربما لم يجدوا أحدًا يشفع فيهم.

فاحفظ يا أخي لسانك إذا جلستَ عند شيخ، وتوسل به إلىٰ الله إذا وقعتَ أن يشفع فيك، وإياك أن تقول: هذا الشيخ لا يرد في مجلسه غيبة أحد، ولا يزجر أحدًا عن ذلك، كما يقع فيه كثيرًا من [لم][2] يحفظ[3] لسانه في مجلس الشيخ، فربما يكون هذا العابد

(١) بالأصلين: التجريد.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: حفظ. والصواب ما أثبتناه.

أو الشيخ يزجر كلَّ واحد من هؤلاء الذين يقعون في أعراض الناس في مجلسه فيما بينه وبينهم، عملًا بقولهم: من نصح أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن نصحه جهرًا فقد فضحه وشانه. انتهىٰ. وليس ذلك ببعيد عن العلماء والصالحين.

وإن أبيتَ يا أخي إلا التجريح في هذا العالم أو الشيخ، فاحضر مجلسهما ورد عن عِرْضِ كل من ذكروه بسوء، وتنظر ما يقع لك من الأذىٰ، وهناك تعذر الشيخ في سكوته. فإنه ربما زجرهم فلاثوا بعرضه بين الأكابر، فهتكوا ستره وترتب علىٰ ذلك عدة مفاسد أشد من مفسدة السكوت، كما وقع ذلك لبعض الإخوان، فلا لوم عليه إلا إن علمنا أن له حالًا تحميه من الذين يلوثون به، وقليل ما هم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا اعتراض علىٰ رجال الرحمة من أرباب الأحوال في تمكينهم من يجر قوافي الناس عند الجلوس عندهم، لأنهم يدفعون بحضورهم معهم البلاء النازل عليهم بالدعاء والشفاعة.

ومما وقع لبعض الإخوان وكان كثير المزح أنه قال: لا أحد يشفع فيَّ إذا جريت قافية فلان بحضرة الشيخ. فرأىٰ تلك الليلة شخصًا قدَّم إليه جيفته وقال: كله في الدنيا كما تأكله في الآخرة، ولو أنك دخلتَ تحت صحبة فلان لشفع فيك في ذلك المجلس.

وذكر لي الشيخ محمد البتنوني أنه جلس هو وإنسان في مجلس، قال: فجرينا قوافي أهل مصر كلِّهم من علماء وصالحين وأمراء وتجار ومباشرين، فبينما أنا نائم تلك الليلة إذ رأيتُ مشانيق معلقين من باب زويلة[1] إلىٰ باب الفتوح[2] بمصر، وأنا وصاحبي ننهش في بطون هؤلاء المشانيق ولحومهم علىٰ ترتيب ما وقعتُ فيهم، فكان ذلك سبب توبتي عن الغيبة في الناس.

---

(١) باب زويلة: من أبواب القاهرة القديمة، وهو باق إلىٰ الآن في شارع المعز لدين الله الفاطمي الذي يضم عددًا من الأماكن الأثرية بالقرب من مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة عاصمة مصر.

(٢) باب الفتوح: أحد أشهر أبواب القاهرة القديمة. وموقعه الآن في مدخل شارع المعز الشهير بالقاهرة بالقرب من مسجد سيدنا الحسين بمصر.

(٦٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهي أصحابه عن تعاطي أسباب المحبة لبعضهم بعضًا، ويهجر كلَّ من أعطىٰ صاحبه ثيابًا أو مالًا، أو أطعمه طعامًا، أو أفشىٰ بينه وبينه سلامًا، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر مخالف للسنة بإجماع، فإن الشريعة قد أمرت بالتحابب ونهت عن أسباب التقاطع، وقد قال ﷺ: «اطعموا الطعام، وأفشوا السلام»[1]، وقد قال: «ألا أدلكم علىٰ ما يثبت لكم الود بينكم أفشوا السلام»[2]، وغير ذلك من الأحاديث، بأن هذا الشيخ لا يجهل مثل ذلك، ولعل أصحابه الذين نهاهم عن التوادد كانوا إذا توادوا مع بعضهم بعضًا، اشتغلوا بذلك عن الله عزَّ وجلَّ، إذ كان هذا الشيخ ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف، فرأىٰ أن الحق تعالىٰ يمقتهم إذا رأىٰ أحدًا من الخلق قد سكن حبُّه في قلوبهم ممن لم يأمرهم الله تعالىٰ بمحبته، ودخلت العلل النفسانية في محبتهم، فخاف عليهم من ذلك. وقد قالوا: كلُّ ما أشغلك عن الله من مال وأصحاب فهو عليك مشؤوم. فمن شرط المحبة التي أمرنا بها الشارع أن لا تشغلنا تلك المحبة عن ربنا، بقرينة قواعد الشريعة.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: ربما غار الحقُّ علىٰ قلب وليِّه أن يرىٰ فيه محبةً لغيره، فمقت ذلك الولي أو ذلك المحبوب. قال: وكثيرًا ما يغار الحقُّ تعالىٰ علىٰ وليِّه أن يُشغَل بقضاء حاجة أحد من الخلق، فيصير الحقُّ تعالىٰ يقضي حاجة كلِّ من توجه بقلبه إلىٰ ذلك الولي من غير أن يعلم الوليُّ بذلك، ثم يعطيه ثواب جميع تلك الحوائج التي قُضِيت بالتوجه إليه من غير علمه فضلًا منه ونعمة علىٰ وليِّه. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن ما فعله هذا الشيخ بجماعته لا ينافي الشريعة، لأنه ما نهىٰ بعضهم عن التحابب

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (١٨٥٥) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٣٣٤) وابن حبان (٥٠٧).

(٢) أخرج الترمذي (٢٥١٠) من حديث الزبير بن العوام ؓ أن النبي ﷺ قال: دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم» وأحمد (١٤٣٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٧٣).

وإطعام الطعام إلا لعلمه أن ذلك إذا تسلسل منهم يشغلهم عن الله، فكأنه يقول: تَوادُّوا وتحابوا وأفشوا السلام بينكم، وإياكم أن تشتغلوا بذلك عن ربكم، وهو نظير مدح الله تعالىٰ الرجال القائمين في التجارة والبيع والشراء في قوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، فلم يأمرهم بترك التجارة، وإنما أمرهم بالإقامة فيها من غير أن يشتغلوا بها عن الله تعالىٰ، فافهم، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الموافقة للشريعة، أو قف عن الإنكار وسلِّم أمرهم إلىٰ الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ يقول: إن لم يظهر موافقة أفعال المشايخ وأقوالهم للشريعة، فاسكتوا عن الإنكار، فربما يكون أحدهم موافقًا للشريعة فيما لم يصل إليه عقلكم، ثم ينشد:

ما حرمة الشيخ إلا طاعة[1] الله ... فقم بها أدبًا بالله لله
هم الأدلاء والقربىٰ تؤيدهم ... علىٰ الحقيقة إنعامًا[2] من الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم ... لا يطلبون من الله سوىٰ الله
وإن بدا منهم حال تولههم ... عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعنهم ولا تسلك لهم أثرًا ... فإنهم طلقاء الله في الله
لاتقتدِ بالذي زالت شريعته ... عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

انتهىٰ[3]. والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا قلَّت أصدقاؤه وكرهه غالب الناس، ولاث به أقرانه وقالوا: هذا من علامة كراهة الله تعالىٰ له، فإن «المؤمن إلْفٌ مألوف»[4]، بأنه

---

(١) في «الفتوحات»: حرمة.

(٢) في «الفتوحات»: علىٰ الدلالة تأييدا علىٰ الله.

(٣) «الفتوحات» الباب (١٨١).

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أحمد (٩١٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مألف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»، والحاكم (٩١٩٨).

لا يلزم من كراهة الناس له أن يكون ذلك من رِقَّة دينه، فقد يكون ذلك من كثرة ما ينصحهم ويأمرهم، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: ما تركت لي كلمةُ الحقِّ من صديق. وكان وهب بن مُنبِّه يقول: رأيتُ في التوراة أن من علامة العلماء العاملين زهدَ جيرانهم ومعارفهم في صحبتهم، لكثرة ما يأمرونهم بمخالفة أهوائهم. انتهىٰ. وكان كثيرًا ما يقول: ما أمر عالم جيرانه ونهاهم إلا رموه بالعظائم وكرهوه. انتهىٰ.

فإن قال قائل: فإذن صحبة الناس لعالم دليل علىٰ مداهنته لهم، فما تجيبون عنه؟ قلنا: نجيب عنه بأن ذلك دليل علىٰ حسن سياسته، فهو يأمرهم وينهاهم بسياسة ورحمة وعدم رؤية نفسه عليهم، بل ربما رآهم خيرًا منه. وصاحب هذا الحال لا يكلم أحدًا بفظاظة عكس ما عليه العالم الذي كرهه جيرانه ومعارفه. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة وإن تفاضلوا في المقام، فإنه ثم مقام رفيع، ومقام أرفع منه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صحب أميرًا وصار يقبل شفاعته في المظلومين، ويقدِّمه في الاعتقاد علىٰ جميع أقرانه، وهو مع ذلك متعفف عنه لا يأكل له طعامًا ولا يقبل له هدية، ثم ترك صحبته وتعطلت شفاعته لعدم من يقوم بمثلها في البلد، فلاث به إخوانه وقالوا: ما كان فيه أفضل مما هو فيه الآن بيقين، بأنه ربما كان العالم أو الشيخ من أهل الاجتهاد في ذلك، فصحبه باجتهاد وفارقه باجتهاد، وربما كان ذلك الأمير له تبعات كثيرة يعجز ذلك العالم عن تحملها عنه يوم القيامة إن كان من شرط صحبته ذلك، كما عليه الأكابر من الأولياء.

وكان سيدي علي المرصفي ﷺ لا يتحمل منَّة أحد جلب أميرًا إلىٰ صحبته، بل يظهر له العبوسة والغضب، ويقول للجالب: أما وجدت أحدًا تؤذيه غيري؟! فإني عاجز عن تحمل [تبعات الفقراء، فكيف أتحمل] تبعات الأمراء. انتهىٰ. وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لا تدخلوا علىٰ الأمراء ولو أمرتموهم ونهيتموهم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وسلِّم لمن هو فوقك في العلم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن علىٰ كلِّ عضو من أعضاء العبد الظاهرة ملكًا يحرسه؛ فلاث به العلماء وقالوا له: هذا أمر لم يبلغنا في كتاب ولا سنة، وما نعرف إلا الملائكة الكرام الكاتبين فقط، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار إلا بدليل صريح، فقد يكون ذلك الشيخ اطلع علىٰ دليل في ذلك، أو اطلع عليه من طريق كشفٍ فقال به، مع أنه لا يترتب علىٰ تصديقه في ذلك كبير أمر، ولا تصادم شيء من أدلة الشريعة، فالأولىٰ التسليم له.

وقد كُشِفَ لي مرةً عن ذلك في بعض الليالي، فرأيتُ علىٰ فَرْجِي ملكًا، وعلىٰ قلبي ملكًا، فعلمتُ شدة اعتناء الحقِّ تعالىٰ بي، وشكرتُه علىٰ ذلك باعترافي بفضله عليَّ. ثم إن هذا الأمر لا يكون إلا لمن أحبه الله تعالىٰ، سواء أكان ذلك من كثرة أعماله الصالحة، أو سبق له ذلك اختصاصًا من الله تعالىٰ من غير عمل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا أحب الله تعالىٰ عبدًا قيَّده في حضرته، فلا يخرجه منها في ساعة من ليل أو نهار أو برزخ، وإن وقع أنه خرج من حضرة الله تعالىٰ لحاجة لا يناسب فعلها في الحضرة، أرسل الله تعالىٰ علىٰ كلِّ جارحة من جوارحه الظاهرة والباطنة ملكًا يحرسه حتىٰ يرجع إلىٰ الحضرة، فلا يقع في شيء من المكروه إذا خرج أبدًا.

ثم لا يخفىٰ أن من شرط المحبوب أن لا يدخل جوفه حرام ولا شبهة. وإن وقع أنه أكل إذا خرج من الحضرة حرامًا أو شبهة ولو لقمة واحدة، مُنِع من دخول الحضرة ثلاثين يومًا مدة إمداد تلك اللقمة[1] له في القوىٰ، وهي ثلاثون يومًا كما أعطاه الكشف. فاعلم ذلك، وسلِّم للأولياء كلَّ ما يخبرون به، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نام عن ورده، فأصبح حزينًا يُرىٰ ذلك علىٰ وجهه، فلاث به الفقراء وقالوا: ما كنا نظن في فلان أنه يحزن علىٰ عمل فاته، وما كنا نظن به إلا الكمال، إذ الكامل معتمد علىٰ الله، فلا عليه من العمل قل أو كثر، بأنه لا يلزم من حزنه علىٰ فوات عمله أن يكون معتمدًا علىٰ عمله دون الله تعالىٰ، فربما كان حزنه علىٰ فوات

---

(١) بالأصلين: الحضرة.

مجالسته لله تعالىٰ ولأهل حضرته، أو يكون حزنه علىٰ فوات الأعمال من حيثُ ذراتُ الأعمال التي كان يعطيها لخصومه في الآخرة لو كانت عُمِلَت، فإن حكمها في الآخرة حكم الأموال هنا، واهتمام العبد بقضاء دينه لا يقدح في كماله، فما حزن هذا إلا علىٰ فوات ما كان يريد أن يوفي منه الأخصام الذين لهم عليه حق من مال أو عرض يوم القيامة.

وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: أكثروا من الأعمال الخالصة لتعطوا أخصامكم منها يوم القيامة، وفتشوها جهدكم، فربما كان فيها علة تحبطها ولا تشعرون، فيصير أحدكم يعمل في غير معمل بالنظر للعاقبة، كالذي فتح مطلبًا وملأ منه غِرَارَة[1] ذهبًا وحملها إلىٰ بيته، فلما فتحها إذا هي بعر وخنفس، فيا ندامته! ولعل أعمال أمثالنا حكمها كذلك يوم القيامة. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة أو اسكت، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يوقف أحدًا من محارمه قريبًا من باب المكان الذي يجامع زوجته فيه، ويقول: إني عازم علىٰ الجماع، فإن استبطأتم خروجي لكم فنادوني، فإن لم أجبكم فادخلوا وانظروا، فإن رأيتموني مت وأنا مجامع أنا وزوجتي فخلصونا، خوفًا أن يدخل علينا أحد من الأجانب، فنصير مثلًا بين الناس، واكتموا ذلك عن الناس؛ فلاث به جماعة من طلبة العلم وقالوا: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه عن رسول الله ﷺ، مع أنه كان أقصر الخلق أملًا، حتىٰ إنه قال: «ما لقمتُ لقمة وظننتُ أني أسيغها حتىٰ أُقبَض، ولا رفعتُ قدمًا وظننتُ أني أضعها حتىٰ أُقبَض»[2]، ومع ذلك لم يأمر أحدًا ينتظره إذا أراد الجماع، وكذلك لم يقع مثل ذلك لأحد من الصحابة أو التابعين مع شدَّة قصر أملهم، ولم يزل الأكابر يخفون الجماع والغسل منه عن غيرهم في كلِّ زمان.

والجواب: أن مثل ذلك من باب دفع أكبر المفسدتين بارتكاب أخفهما، ولا شك

---

(١) الغِرَارَةُ: وعاءٌ من الخيش ونحوه يوضع فيه القمحُ ونحوه.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٨٠).

أن إعلام بعض محارمه بأمر جماعه وتخليصه من زوجته إذا ماتا بإرادة الله تعالىٰ أخف من اطلاع الأجانب من المغسلين وغيرهم، لا سيما إذا كثر موت الفجأة.

وقد وقع لشخص من أصحابنا ذلك في سنة أحد وستين وتسعمئة، فوجدوهما ميتين وفرج أحدهما في الآخر، فحصل بذلك لوث بهما، ثم إن شخصًا رأىٰ ذلك المجامع وقال: أما كان في أصحابي من يكتم عليَّ؟! حتىٰ جرستموني في مصر! انتهىٰ. ومن تلك الواقعة صار بعضهم يقول كلما أراد الجماع: «اللهم أمسك عليَّ روحي حتىٰ أفرغ من الجماع صدقةً من صدقاتك عليَّ يا أرحم الراحمين». انتهىٰ.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ علىٰ غلبة الشهوة للجماع مع غلبة قصر الأمل، وإن كان اجتماع هذين الأمرين غير ممكن عادة، فقد يجمعهما الله تعالىٰ لبعض عباده، كما يجعله فرِحًا حزينًا في آن واحد من وجهين مختلفين، وكما يجعله يشهد نفسه موجودًا معدومًا في آن واحد، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر تلامذته بأن يعترفوا له بكلِّ ذنب فعلوه في كلِّ يوم أو ليلة عند المساء والصباح، فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر لم يفعله رسول الله ﷺ مع أصحابه، فأي دليل لهذا الشيخ علىٰ ذلك؟! بل كان الأولىٰ له لو ذكروا ذلك ابتداءً أن يزجرهم ويقول: هلَّا سترتم نفوسكم، بأنه لا اعتراض علىٰ الشيخ في ذلك، لأنه طبيب المريد، والمريض إذا كتم مرضه عن الطبيب، غش نفسه وفاته الدواء، ودامت عليه زمانًا طويلًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد أجمع القوم علىٰ وجوب ذكر المريد مرضه للشيخ، ولا ينتظر المريد مكاشفة الشيخ له بمرضه، لأنه ليس من شرط الشيخ الاطلاع من طريق كشفه علىٰ ذنوب المريدين، لأن ذلك كشف شيطاني يجب علىٰ الشيخ التوبة منه فورًا لو وقع، إذ مرتبة الشيخ منزهة في الأصل عن رؤية عورات الخلائق، كما هو شأن الأنبياء والملائكة.

وأما قول المعترض: إن ذكر المريد مرضه للشيخ لا دليل عليه من السنة، ولم يبلغنا

أن الصحابة كانوا يخبرون رسول الله ﷺ بجميع ما يقع لهم؛ **فالجواب**: أن الصحابة كانوا محفوظين من المعاصي، ولو قُدِّر أن أحدًا منهم وقع في معصية، لأخبر رسول الله ﷺ بها، كما وقع لماعز والغامدية، فإنهما سألا رسول الله ﷺ التطهير لما وقعا في الزنا، مع أن أحدًا من الخلق لم يرهما حال الذنب، بخلافنا نحن لكثرة وقوعنا في الذنوب، فلو لم نذكرها للشيخ ليداوينا منها لهلكنا، والله أعلم.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ينبغي لكلِّ مريد أن يعرض صحيفته على شيخه صباحًا ومساءً ليستغفر له، أو يشفع له فيها عند الله تعالى، أو يدله على فعل الأعمال والأقوال التي تكفِّر تلك الذنوب، ليخفف عليه طول الوقوف للحساب بين يدي الله عزَّ وجلَّ في يوم تشيب فيه الأطفال. وقد أجمعوا على أنه ليس بين المريد وبين شيخه عورة ينبغي كتمها عنه إلا ما أمره الشرع بكتمه ككيفية الجماع ومقدماته.

وقد حكى القشيري في باب «رؤيا القوم» من رسالته أن بعضهم رؤي بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي كلَّ ذنب أقررتُ له به إلا ذنبًا واحدًا، استحييتُ أن أتلفظ له به، فأوقعني في العرق حتى سقط لحم وجهي. فقيل له: وما ذلك؟ فقال: نظرتُ مرةً إلى أمرٍ بشهوة حال بدايتي.[1] انتهى. فلو أن هذا الشخص كان ذكر ذلك لشيخه في دار الدنيا، لربما كان استغفر له، فقبل الله استغفاره أو علَّمه فعل شيء يكفر ذلك.

قالوا: لكن ينبغي للمريد أن يذكر لشيخه مرضه بينه وبينه لا على رؤوس الأشهاد، فإنه لا فائدة لذلك إلا هتك السريرة، وقد أمر الله تعالى بالستر. هذا في مريد لم يقع له اتحاد بباطن شيخه، فإن وقع له اتحاد، كفاه شكوى ذلك المرض له بقلبه من غير لفظ، فيجيب الشيخ سؤاله ويدله على دوائه، أو يشفع فيه ولو كان بينه وبين الشيخ بعد المشرقين.

ولا ينبغي للمريد أن يخاف من شيخه أن يزدريه إذا ذكر له مرضه؛ فإن الشيوخ لا تزدري أحدًا من العصاة، لنظرهم إلى تقدير الحقِّ تعالى الذي لا مرد له. وإن زجروا مريضًا فإن ذلك قيامًا بواجب الشرع من حيثُ الكسبُ، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة

---

(١) الرسالة للقشيري (٢/ ٥٦٦).

إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٦١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا سأله أمير عن حال أحد من أقرانه، فنفَّره عنه، وذكر له بعض نقائصه، فلاث الناس به وقالوا له: هذا علامة علىٰ عداوته. بأنه قد يفعل ذلك محبةً في أخيه خوفًا عليه من الركون إلىٰ ذلك الأمير الذي لا يسلم من الظلم، فيدخل في الوعيد، وإن كان أخوه[1] صادقًا فهو يشكر فضله علىٰ تنفير ذلك الأمير عنه.

وقد وقع أنني خاصمتُ عبد الله بن بغداد بسبب ظلمه للعباد، فوقع بيني وبينه وقفة، فأرسل له أخي الشيخ أحمد القليتي المالكي يوبخه ويخوفه، وذكر له أمورًا يفتح له باب الاعتقاد في جانبي، فأرسلتُ للشيخ أحمد أقول: شكر الله تعالىٰ فضلك من حيثُ قصدُك، ولا تعد إلىٰ مثل ذلك، واحتط لأخيك في ذلك، فإنه أفضل. انتهىٰ.

وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: مذهبي تنفير جميع الولاة في هذا الزمان عن صحبة أمثالنا لأمور يطول شرحها، إذ السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة، بقرينة قول القوم: طالب الدنيا ليبر بها الفقراء والمساكين والأرامل تركك لها آثر وآثر.

فاعلم ذلك، ورغِّب الأمراء وغيرهم في صحبة أخيك بنية صالحة، ونفِّرهم عنه بنية صالحة، واحتط لأخيك وللأمير، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما ثم أحد من الأمة يعرف الله تعالىٰ أبدًا؛ فلاث به العلماء وقالوا: الإطلاق في محل التفصيل خطأ، لدخول الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وغيرهم في ذلك، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] **أي إلا ليعرفوني، كما قاله ابن عباس، فلولا معرفتهم به ما صحت لهم عبادة،** بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يكون مراده معرفة الكنه والحقيقة، ولذلك أجمعوا علىٰ أن كلَّ شيء خطر ببال العبد، فالله تعالىٰ بخلافه، وعلىٰ ذلك فما أحد عرفه ولا حضر معه ولا راقبه. وكان أبو سعيد الخراز رضي الله عنه

---

(١) بالأصلين: أخيه. والصواب نحويًا ما أثبتناه.

يقول: والله لا يعرف الله إلا الله. انتهىٰ.

وأما معرفة الله تعالىٰ بوجه من الوجوه، فلا منع من ذلك، كما أشار إليه التكبير أول الصلاة، فإن معناه: الله أكبر، أي من كلِّ ما يخطر ببالنا من وجوه المعارف، فالحقُّ تعالىٰ معروف غير معروف من باب «والعجز عن درك الإدراك إدراك». فاعلم ذلك، واحمل كلام الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حجَّ مريدُه أو مرض، فلم يسلِّم عليه حين رجع ولا حين مرض، ولا افتقده بشيء ينفقه علىٰ نفسه في مرضه، فلاث به الناس وقالوا: كان ينبغي للشيخ أن يجبر بخاطره ويرسل له ثمن الأدوية، لا سيما وهو يعرف فقره وضيق يده، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ بذلك، فربما قصد بعدم افتقاده في المرض تخليصه من الركون إلىٰ الخلق والاعتماد عليهم دون الله تعالىٰ، ليترقىٰ في مقام المحبة لله تعالىٰ، ويتوجه إليه في ضروراته وحده، فإن الحقَّ تعالىٰ لا يصطفي عبدًا وهو يركن إلىٰ غيره أبدًا.

وأما السلام علىٰ المريد إذا رجع من الحج فربما تركه الشيخ ليخلصه من العجب بمشي الشيخ إليه، فإن الواجب علىٰ المريد أنه هو الذي يذهب إلىٰ الشيخ إذا رجع من السفر، بخلاف غيره من أقرانه. ثم إذا وقع أن الشيخ أتىٰ للسلام علىٰ المريد فمن أدبه أن يذوب من شدة الحياء منه. ولما قدِمَ أبو حفص الحدَّاد[1] إلىٰ بغداد بدأ بالسلام علىٰ الإمام الجنيد قبل أن يدخل منزله الذي ينزل فيه، فلما انصرف تبعه الجنيد في الأثر، فقال له أبو حفص: يا أبا القاسم، إنما بدأت بالسلام عليك لئلا أتعبك! فقال: ذاك فضلك، وهذا حقُّك. انتهىٰ.

وزار سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله مرةً مريدًا له، فرأىٰ عنده عجبًا بذلك، فقال: يا

---

(١) الإمام القدوة الرباني، شيخ خراسان، أبو حفص عمرو بن سلم، وقيل: عمر، وقيل: عمرو بن سلمة، النيسابوري الزاهد، كان حدادًا، وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور. ذكر عند الجنيد فقال: كان رجلًا من أهل الحقائق. توفي: ٢٧١هـ. «السير» (١٢/ ٥١٠) و«النجوم الزاهرة» (٣/ ٦٦)

فلان، أنا ما خرجتُ بالقصد لزيارتك، وإنما جئتُ الحارة لحاجة، فقلتُ: أسلم على فلان. انتهىٰ. فخلص المريد بذلك من العجب.

فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أكرم منك نفسًا، وأكثر شفقةً علىٰ المسلمين، وإنما يتركون ذلك لمصلحة هي أولىٰ من الإحسان والشفقة التي تعرفها أنت، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ردَّ هدية الحاج من تمر وطيب وسواك وشاشات وغيرها، فلاث به الفقراء وقالوا: كان ينبغي له أن يقبل التمر والسواك والطيب، لأن رسول الله ﷺ كره رد هذه المذكورات[1]، بأنه ربما كان من المتورعين، فنظر إلىٰ اليد التي أهدت له ذلك، فرآها لا تتورع في شيء، وكراهة الرد إنما محلها في الحلال، أما الحرام والشبهات فلا كراهة، بقرينة قواعد الشريعة، فافهم.

وقد فعلتُ مثل ذلك في هدية حمزة الكاشف لما حج، فأخذتُ التمر والطيب والسواك علىٰ وجه التبرك، ثم رأيتُ في ذلك رؤيا، فما كنتُ إلا هلكتُ، فرددتُ ذلك عليه وقلتُ له: قد قبلناه ووهبناه لك، لتفرِّقه علىٰ الناس الذي يعتبون عليك. والحمد لله رب العالمين.

(٦١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذكر الله تعالىٰ بمجلس ذكر كلما ألقىٰ درسًا في المسجد أو غيره، ولاث به بعض المجادلين وقالوا: هذا أمر لم نر أحدًا فعله من المشايخ الذين مضوا الذين هم أعبد منك وأورع وأعلم، وأكثروا عليه من القول حتىٰ كأنه وقع في خطيئة، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه، بل الذي ينبغي الإنكار علىٰ من أنكر عليه، لأن بيوت الله تعالىٰ بالأصالة ما وُضِعَت إلا لذكر الله عزَّ وجلَّ، قال تعالىٰ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦].

---

(١) لم أقف إلا علىٰ حديث كراهة رد الطيب أخرج البخاري (٢٥٨٢) من حديث ثمامة بن عبد الله قال: «دخلت عليه فناولني طيبًا. قال: كان أنس ﷺ لا يرد الطيب قال: وزعم أنس: أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب» والترمذي (٢٧٨٩).

وقد سبق شيخ الإسلام الشيخ الصالح البلقيني [إلىٰ] قراءة سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ لما درَّس في المدرسة الخشَّابية والشخونية، وتبعه العلماء علىٰ ذلك، وفي الحديث: «لا يجلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا علىٰ النبي ﷺ إلا كأنما تفرقوا عن جيفة»[1].

وفي مرائي الشيخ أبي المواهب الشاذلي رحمه الله أنه قال: رأيتُ النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا محمد، إذا ألقيتَ درسًا في علم من العلوم، فلا تنصرف حتىٰ تذكر الله تعالىٰ ولو عشر مرات. فلم يزل أبو المواهب علىٰ ذلك حتىٰ مات.

ومن المعلوم بين القوم أن جميع المأمورات ما شُرِعت بالأصالة إلا ليناجي العبد فيها ربَّه ويشاهده فيها، فلو أن طلبة العلم قدروا علىٰ أن يحضروا في حال قراءتهم وجدالهم مع الله تعالىٰ، لكان ذلك ذكرًا لله تعالىٰ، ولم يحتج الشيخ إلىٰ مجلس ذكر عقب ذلك. فاعلم ذلك، ولا تجادل إلا في إبطال شيء تكرهه، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول كلما قُدِمَ إليه طعام: اللهم إنك تعلم عجزي عن رد أقدارِك النافذة فيَّ، فإن كنتَ تعلم أن في هذا الطعام شبهة، فاحمني من الأكل منه. وإن قدَّرتَ عليَّ الأكل منه، فلا تجعله يقيم في بطني، بل يخرج بالقيء. وإن جعلته مقيمًا في بطني، فاحمني من وقوع المعاصي الناشئة منه. وإن لم تحمني منها فمُنَّ عليَّ بالتوبة الخالصة علىٰ الفور. وإن لم تمُنَّ عليَّ بالتوبة، فمُنَّ عليَّ بحسن الظنِّ فيك. وإن لم تمُنَّ عليَّ بحسن الظن، فنجني من النار. وإن لم تنجني منها، فصبرني علىٰ العذاب صدقةً منك عليَّ يا أرحم الراحمين[2]؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا تعنت، ويكفي العبد المشي علىٰ ظاهر الشرع، فما حكمت الشريعة بحله أكل منه، وما حكمت

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٣٨٠) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا علىٰ نبيهم، إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم» وابن حبان (٥٩٠) والنسائي (٥٧٧٢).

(٢) وكان ذلك من دعاء الشيخ علي الخواص، كما مر في الجواب (٤٠٢).

بحرمته أو شبهته، امتنع منه وجوبًا في الحرام، وندبًا في الشبهات، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ في هذا الدعاء، لأنه من باب التفويض إلى الله تعالى والخروج عن الحيلة والتدبير، وهو من الاستبراء للدين المشار إليه بقوله ﷺ: «فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه»(1)، ولا يتوقف في مثل ذلك إلا جافي الطبع.

ولم أزل بحمد الله أفعل بذلك في طعام المباشرين(2)، وفي طعام كلِّ من لا يتورع في مكسبه عادةً، فتارةً يحميني الله تعالى من الأكل، وتارةً يطلع بالقيء، هذا كلُّه في طعام أتانا بشهوة وميل واستشراف نفس. أما ما أتانا من حيثُ لا نحتسب بغير تمنٍ وبغير سؤال ولا تعب، فلا ينبغي التوقف فيه، بل هو بقية الله الذي قال الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود:٨٦]، فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض على الفقراء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا قدَّم لضيفه الكسر اليابسة حافًّا أو مع الملح، وعنده العسل النحل والجبن والطعام المطبوخ باللحم، فلاث به بعض الفقهاء وقال: قد أمر الشارع بإكرام الضيف وتفكيهه بالطعام الزائد على حكم العادة، بأن هذا الشيخ ربما رأى أن الطعام اللذيذ ينقِص مقام ضيفه، فأخرج له ما لا ينقِص مقامه. وقد يكون من أهل الكشف، فرأى أن لا نصيب للضيف في ذلك العسل أو الطعام، وقد يكون ذلك قُسِم له، ولكن لا يجد نيةً صالحةً فيه، أو كان في شهر رمضان، فإن من أطعم ضيفه فيه الشهوات، فقد أساء إليه من حيثُ يظنُّ أنه أحسن إليه. فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين على المحامل الحسنة، فإن لهم معاملة مع الله تدق على مثلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جاءه ضيف في الشتاء، فلم يخرج له غطاءً مع قدرته عليه، ونوَّمه في البرد، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه إخراج الغطاء؛ لأنه من حقِّ الضيف كالطعام، بأنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار عليه، لأن الشيخ حكيم

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) المباشر: هو الموظف الإداري في الدولة المملوكية.

الزمان، فربما خاف عليه أن يترك قيام الليل إذا دفيء، فقصد من نومه في البرد أن يكون استيقاظه أكثر من نومه، ليصلي أو يذكر الله ويستغفره أو يراقبه ونحو ذلك. وإن غضب الضيف منه في الدنيا سوف يرضىٰ عنه في الآخرة ويشكر فضله.

وكان سيدي محمد بن عنان لا يخرج للضيف غطاءً ولا وطاءً إلا إن وثق بنشاطه، وكذلك كان لا يخرج له طعامًا كثيرًا إذا عرف أنه أكول إذا وجد الطعام، بل يخرج له رغيفًا أو رغيفين ويقول: من أخرج للأكول طعامًا كثيرًا، أساء في حقه.

وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: إذا خاف الإنسان من وقوع الضيف في عرضه إذا لم يخرج له غطاءً أو وطاءً أو طعامًا كثيرًا، فمن العقل إجابته لما طلب بالقرائن، ولا حرج علىٰ المضيف حينئذٍ عند الله إن شاء الله تعالىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي باع عبدًا أو بهيمةً أو ثوبًا أو غير ذلك وقال: لا أبيع ذلك إلا لشخص لا يعصي الله تعالىٰ فيه أو به؛ فلاث به الفقراء وقالوا: هذا فيه تزكية للنفس، كأنه يقول: لا أبيعه إلا لمن لا يعصي الله تعالىٰ مثلي، أو لا يعصي بسببه ولا فيه مثلي، بأنه لا يلزم من وصيته هذه أن يرىٰ نفسَه سالمةً من المعاصي، وإنما مراده الوفاء بحقِّ ذلك العبد أو الدابة أو الثوب مثلًا، بقطع النظر عن تزكية نفسه هو، فإن الحيوانات والثياب تفتخر بمن تقيم عنده كما تفتخر البقاع.

وقد بعتُ مرةً جبتي لإنسان من التجار، فتطورت وجاءتني في النوم وقالت: جزاك الله خيرًا عني في بيعي لهذا العبد الصالح الذي لا ينام من الليل إلا قليلًا. ووقع لأخي أفضل الدين ضد ذلك، فجاءته في المنام وقالت له: قد بعتني لشخص لا يغتسل من جنابة ولا يصلي في الليل ركعة! فاعلم ذلك، ولا تتوقف فيه، **فإن جميع الجمادات حيَّةٌ عند أهل الكشف**، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دُعِي إلىٰ وليمة، فاستعار له ثيابًا حسنة ولبسها، وسرَّح لحيته ولف عمامته لفًّا جيدًا، فلاث الناس به وقالوا: الفقير لا

يبالي بما لبس، وإذا دُعِي إلىٰ وليمة خرج بهيئته من غير تغيير هيئته، وإنما يعتنىٰ بتغيير الهيئة في مثل أبناء الدنيا والأطفال. وقد رأينا الأشياخ الذين أدركناهم يخرج أحدهم إلىٰ الوليمة بجبته المخرَّقة، ويكون فيها أفخم[1] من جميع من حضر، ولكن قد ذهب الصالحون وما بقي إلا الاسم. وقد كان الفضيل بن عياض يقول: لو قيل لي إن أمير المؤمنين داخل عليك، فسويتُ لحيتي بيدي لقدومه، لخفتُ أن أُكتَب في جريدة المنافقين. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ وحمله علىٰ الأغراض النفسانية، فقد يريد بلبسه الثياب الفاخرة التي استعارها إدخال سرور علىٰ صاحب الوليمة حين علم منه محبة الجمال في الملبس، والغم من رؤية الثياب الدنسة المخرَّقة، لا سيما والناس عادة يتجملون بأهل الثياب الجميلة في الولائم، ولذلك يردون من يرون ثيابه دنسة ويمنعونه من الدخول.

والأمر في مثل ذلك دائر مع النية الصالحة، وقد كان ﷺ إذا قدم عليه وفد يلبس أحسن ثيابه[2] ويتعمم وينظر عمامته في حُبِّ[3] الماء[4]، ويأمر أصحابه كلَّهم بحسن الهيئة، جبرًا لخاطر الوفد الذي قدم عليه وإيناسًا له، ولذلك كان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزل في صورة دِحْية[5]، وكان من أجمل الناس في عصره، كأن لسان الحقِّ جلَّ وعلا يقول: «ما بيني وبينك يا محمد إلا الجمال والملاطفة والأنس والمحبة».

---

(١) بالأصلين: أضخم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٥٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢/ ٥٨٤)، وفي البخاري (٨٨٦) أن عمر ﷺ رأىٰ حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه، فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك.

(٣) الحُبُّ: وعاءُ الماء.

(٤) تسويته ﷺ عمامته والنظر في حب الماء، عزاه العراقي في تخريج الإحياء لابن عدي في «الكامل». انظر «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٠٠).

(٥) جزء من حديث أخرجه النسائي (٤٩٩١) وأحمد (٥٨٥٧) والطبراني في «الكبير» (٧٥٨).

وقد كان أخي أفضل الدين إذا علم أن طعام الوليمة حلال يستعير له ثيابًا حسنة، ويخلع جبته ويذهب، فقالوا له في ذلك، فقال: طعام حلال، وخفتُ أن يردوني عنه إذا رأوا عليَّ جبة، فعملتُ الحيلة على الوصول إليه.

وقد روى مالك بن أنس رحمه الله بلاغًا أن أبا هريرة رضي الله عنه دُعي إلى وليمة وعليه ثياب دون[1]، فمُنِعَ ولم يُؤذَن له في الدخول، فذهب ولبس ثيابًا جيدة ثم جاء، فأذنوا له، فلما وضعوا بين يديه ثريدًا وضع كمَّه عليه، فقيل له: ما هذا يا أبا هريرة؟! فقال: هي التي أُدخِلَت، وأما أنا فلم أدخل فرَدُّوني إذ أنكروا عليَّ، وقال: قد ذهب حِبي رسول الله ﷺ ولم يقبل من هذا الطعام شيئًا، وبقيتم بعده تهديون- أي تقطفون- ثمرة أعمالكم في الدنيا[2] من باب «ومنهم من أينعت له ثمرته فهو يَهدِيها»[3]. نقله الشيخ شمس الدين التتائي المالكي[4] في شرحه للمختصر[5] في باب الوليمة. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة والمقاصد الجميلة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يخص الأغنياء بطعامه وثيابه وغير ذلك، ويكثر من الهدية لهم دون الفقراء، ولاث به جماعته وغيرهم وقالوا: إنه يفعل ذلك لغير وجه الله عزَّ وجلَّ، ولو أهدى ذلك لفقير أو مسكين أو يتيم أو أرملة، لكان أفضل، بأنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار حتى تستفهمه عن ذلك، فربما كان ذلك لحكمة، كأن رأى في ذلك مصلحة ترجح على إهدائه ذلك للفقراء والمساكين، أو قصد بعدم الإحسان

---

(١) أي دون مقامه أو دون القادمين للدعوة.

(٢) ذكر القصة الحطاب الرعيني في مواهب الجليل شرح مختصر خليل (٤/ ٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري لكن قال: ومنا من أينعت... (١٢٧٦).

(٤) قاضي القضاة أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم التتائي. أقام بمدرسة الشيخونية بمصر، تخلى عن القضاء وتصدر للتأليف والإقراء، شرح الرسالة شرحًا حافلًا. توفي: بعد ٩٤٢هـ رحمه الله تعالى. «شجرة النور الزكية» (١/ ٣٩٣) و«نيل الابتهاج بتطريز الديباج» (٥٨٨).

(٥) «مختصر خليل» في الفقه المالكي.

إلىٰ الفقير إدخار أجر مثل ذلك للآخرة، ولِيناله أجر الصبر علىٰ الجوع والعري، وذلك أفضل للفقير، اللهم إلا أن يجد عند الفقير ضجرًا وقلة صبر، فينبغي تقديمه علىٰ الغني. [وربما أدىٰ كشفه أن الله لم يكتب علىٰ][1] الفقير شيئًا هو محتاج إليه، فلا يعطيه شيئًا. والفقراء الكُمَّل علىٰ الأخلاق الإلهية، فربما أدَّىٰ كشف الشيخ إلىٰ أن جميع طعامه وثيابه ليس للفقراء فيها نصيب، فكيف يصح له أن يعطيهم ما لم يقسمه الله تعالىٰ لهم؟! وفي الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله. وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنىٰ، ولو أفقرتُه لفسد حاله»[2].

وأما حديث: «شر الطعام طعام الوليمة»[3] إلىٰ آخره، فالمراد به من يدعو الناس بغير كشف. أما من كُشِفَ له أن الفقراء ليس لهم في طعامه نصيب، فلا يدخل في ذلك. فافهم واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة دون الأغراض النفسانية، لتسلم من الإثم العظيم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سلَّم علىٰ الحجاج وبدأ بطلبة العلم دون أقرانه من أهل الطريق، فلاث به الناس وقالوا: كان الأولىٰ له البداءة بأهل الطريق، فإن طلبة العلم الذين بدأ بهم لا يصلح أحدهم أن يكون مريدًا لهؤلاء الأشياخ، ولكن عدو المرء من يعمل بعمله، ونحو ذلك من الاعتراضات، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ في تقديمه السلام علىٰ بعض طلبة العلم دون الأشياخ الذين حجُّوا في تلك السنة، فربما كان ذلك لمصلحة تعود علىٰ طالب العلم، كأن يخاف الشيخ عليه من الوقوع في غيبته وفي أهل الطريق، فبدأ به حفظًا له عن الوقوع في الغيبة. وأما أقرانه من أهل الطريق فهو منهم في أمان، فلذلك أخَّرهم.

وقد سمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي لشيخ الزاوية أن يقصِّر في

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) جزء من حديث أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات»(٢٣١).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥١٧٧) ومسلم (١٤٣٢).

حقِّ أحد من طلبة العلم، كأن يمرض فلا يعوده، أو يأتي من سفر الحجاج فلا يسلم عليه، لأن علم أحدهم ربما كان موضوعًا في نفسه، فلا يزداد بالعلم إلا كبرًا، بخلاف من كان علمه موضوعًا في روحه، فإنه لا يزداد بكثرة العلم إلا تواضعًا. انتهىٰ.

وقد وقع لي أنني أخرتُ السلام علىٰ بعض طلبة العلم حين جاء من سفر الحجاز، فمزَّق عِرْضِي في الآفاق، وصرتُ أعتذر إليه وهو لا يقبل عذري، وذلك في سنة اثنين وستين وتسعمئة، سنة حمزة الكاشف، مع أن حمزة هذا الذي هو أمير الحج أول ما دخل مصر، بدأ بالسلام عليَّ قبل دخوله إلىٰ داره، فتأمل يا أخي تجد أمير الحج أكثر تواضعًا من هذا الطالب، فإنه بدأني ولم يدخل بيته وينتظرني، ولو أنني تخلفتُ عن السلام عليه لم يعتب عليَّ. فاعذر يا أخي الشيخ إذا بدأ بزيارة أصحاب الأنفس الغوية، فإنه معذور من وجوه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرد ما يأتيه من مال الولاة وما يعرضونه عليه من الوظائف، وتميز بذلك عن جميع أقرانه، ولاث الفقراء به وقالوا: كان الأولىٰ له أن يقبل ذلك مثل إخوانه، ثم يعطيه للمحتاجين إلىٰ مثله ليدخل في غِمار الناس، وقد قالوا: من أدب الفقير أن يقوي نور إخوانه ويطفيء نور نفسه، بأنه ربما كانت نيته بذلك صالحة، فإن عدم الرد لا ينبغي إلا إذا كان في الناس بقية من الورع والزهد، وأما إذا تمادوا كلُّهم في الأخذ، فلا ينبغي للشيخ أن يوافقهم، فيميت سنة القوم كلَّها، ويهدم أركان الورع، فكأن في رده لذلك المال إحياء سنة السلف الصالح. ثم إن لزم من ذلك إطفاء نور غيره، فذلك لا يقدح في دينه، لأنه حصل باللازم لا بالقصد، ولازم المذهب ليس بمذهب علىٰ الراجح.

وأيضًا فربما كان يرد ويسأل الله تعالىٰ أن يستره بين أقرانه فلا يميزه عنهم بذلك، كما عليه أكابر الفقراء، فيعمل أحدهم الأعمال الصالحة التي لا يصل إليها أحد من أقرانه، ومع ذلك لا يكاد أحد يشعر بها، فيخرجون من الدنيا وأعمالهم كاملة موفرة لم ينقص منها شيء، فلا اعتراض علىٰ الشيخ الذي يرد المال ويتميز به عن الأقران، إلا إذا كان قصده بذلك التمييز علىٰ الأقران، لا الخوف من الله تعالىٰ، ومن أين لأحد الاطلاع

علىٰ هذه النية؟! فاعلم ذلك، وعظِّم كلَّ من رد الأموال والطعام والثياب من الفقراء، واحمله علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في خراب دار أحد من الولاة، ولاث الناس به وقالوا: ليس هذا من شأن الفقراء، إنما شانهم أن يدعوا للناس بالإصلاح، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الفقير، فربما رأىٰ من طريق كشفه أنه لا يطهر ذلك الظالم إلا الموت أو العزل من ولايته.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من أدب الفقير أن يدعو للأمير الذي يشفع عنده بالهداية والتوفيق والكف عن الظلم، وذلك ليكون رحمةً علىٰ الأمير لا عذابًا عليه. ثم إذا استوفىٰ ذلك الأمير جميع ما قدَّره الله علىٰ يديه من مظالم العباد، فليشفع فيه عند الله تعالىٰ، ليسامحه بتبعات الخلائق التي عليه، فإن لم تُقبَل شفاعته، فليدع عليه بالموت أو العزل، لكن بعد حصول التوبة أو العقوبة التي تكفِّر ذنوبه أو تخففها، ليلقي ربَّه ذلك الأمير وهو قليل الذنوب، فهذه فائدة صحبة الفقير للأمير.

وكان ﷺ إذا أراد خراب ديار أمير قد ظلم العباد والبلاد، يلبس مرقعة وعمامة من شراميط[1] الكتان، ويذهب لذلك الأمير الذي أراد الله تعالىٰ خراب دياره علىٰ يديه، ويُغلِظ عليه القول الذي لا يكلمه له إلا من هو أعلىٰ منه، فيبادر الأمير إلىٰ ضربه وإخراجه وازدرائه، فينفذ سهم الله فيه في ذلك اليوم، فيصير يصيح من وجع جنبه أو نفخ بطنه، أو يقع من فرسه، فتندق عنقه فيموت. ويحكي مثل ذلك عن سيدي إبراهيم المتبولي. انتهىٰ.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك مع صاحبي الأمير محمد بن بغداد ﷺ، كنتُ أشفع عنده في المظلومين، فزادت مظالم العباد عليه، ورأيتُ عجزه عن القدرة عليها، فسألتُ الله تعالىٰ أن يشنقه محبةً فيه وتطهيرًا له! فكان الأمر كذلك، فالله تعالىٰ يرحمه رحمة واسعة.

ومن تأمل وجد الولاة في هذا الزمان كالتماسيح الهائجة علىٰ أكل السمك، والفقير

---

(١) شراميط: حمع «شرموطة»، وهي كلمة عامية تعني الثوب البالي الممزق.

الذي يصحبهم يقول لأحدهم: لا تأكل هذه السمكة، ولا هذه السمكة، ولا هذه السمكة؛ فلا يرضي التمساح أن يطيعه ويترك أكل السمك جميعًا، فيموت جوعًا، ولا يمكن الفقير أن يرجع عن نصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر؛ لأن الشريعة لا تعذره في أكله أموال الناس بالباطل، وحينئذٍ يتوجه الفقير إلىٰ الله تعالىٰ في التخفيف عنه بالموت، كما يهوِّن القصَّاب[1] علىٰ البهيمة التي اشتد مرضها، فيذبحها إراحةً لها من الألم.

فعُلِمَ أنه ليس في توجه الفقير في موت ظالم جناح؛ لأنه لا يتوجه فيه إلا إذا علم من طريق كشفه انتهاء أجله، خلاف ما يتبادر إلىٰ أذهان العامة من أنه قطع علىٰ الظالم عمره، ولو أنه لم يتوجه فيه لعاش زمنًا آخر، **فليس في توجه الفقير إلا موافقة قدر**، وكذلك القول في كل من قتل، وما افترق الناس إلا من حيث إنه مأذون للقاتل في ذلك أو غير مأذون، لأجل إقامة الحدود، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: كيف يكون الرياء أفضل من الإخلاص؟! لأنه يرجع إلىٰ أن بعض المعاصي أفضل من [بعض][2] الطاعات[3]، وهو مخالف لقواعد الشريعة، فإن جنس الطاعات أفضل من جنس المعاصي بيقين.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن العارف بالله لا يصح له أن يرىٰ العمل له دون الله تعالىٰ، كما أنه لا يصح له أن يراعي الخلق في عبادته، وإنما هو يراعي معية الحقِّ تعالىٰ لهم بحكم الإيمان، فصورته صورة من يرائي الخلق، والحال أنه إنما يرائي الحقَّ تعالىٰ من باب حديث: «أروا الله من أنفسكم خيرًا»[4] ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة: ١٠٥].

---

(١) القصاب: الجزار.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: المعاصي. والصواب ما أثبتناه.

(٤) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢٣٨) والخلال في «المجالس العشرة» (٦٦) والشاشي في «المسند» (١٢٢٤)

وفي كلام أبي القاسم الجنيد ﵁: إذا قُرِنَ الحادث بالقديم، لم يبق للحادث أثر. انتهىٰ. وفوق هذا مقام آخر أرفع منه، وهو أن يقرن الحادث بالقديم، ويثبت كل واحد في مرتبته الوجوبية أو الإمكانية، ويرائي السرَّ القائم بالحادث لا الحادث، فترجع المراءاة[1] في شق الحادث إلىٰ الله تعالىٰ لا إلىٰ ذلك الحادث، وهذا الرياء بيقين أفضل من إخلاص المريدين، لأن المريد غاية أمره أن يخلص الفعل الواقع علىٰ يديه من الشوائب، ويرىٰ أن الفعل له، وأنه أهداه من عنده إلىٰ ربه، وأين هذا ممن يرىٰ الفعل لله وحده لا يرىٰ لنفسه شركة فيه؟! ولا يرىٰ أنه أهدىٰ لربه شيئًا، لأن العبد وما يملكه لسيده.

فكلام الشيخ عما فهمه المعترض عليه بمعزل. ويؤيد ذلك قول القوم: ذرة من عمل العارف أفضل من أمثال الجبال من عمل المريد. والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا تقدموا في الصلاة علىٰ جنائزكم إلا من كان سيء الظن بالميت دون من كان حسن الظن من الصالحين والعلماء العاملين؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا مخالف لما عليه السلف والخلف من تقديم من كان أعلم وأصلح وأشفق، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ تستفهمه عن مراده، فربما يكون قصده أن من كان سيء الظن بالميت يطلع علىٰ ذنوبه أكثر ممن كان حسن الظن به غافلًا عن التجسس علىٰ عيوب الناس، بل ربما أن حسن الظن لا يطلع له علىٰ ذنب مطلقًا، فيكون دعاؤه له بالمغفرة خِدَاجًا[2] كدعاء الشبعان الذي عنده ألف رغيف بأن الله تعالىٰ يرزقه رغيفًا زائدًا علىٰ الألف، بخلاف من اطلع علىٰ ذنوب الميت، وحمل همَّه، فإنه يدعو له بقلب وشدَّة عزم.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﵀ يقول: لا ينبغي أن يتقدم في صلاة الجنازة إلا من اطلع علىٰ ذنوب ذلك الميت إما من طريق كشفه، وإما من طريق مخالطته، وإما من طريق سوء الظن به، وذلك ليدعو للميت بمغفرة ذنوبه علىٰ التعيين لا علىٰ الإجمال،

(١) بالأصلين: زيادة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الخِداجُ: النقصان.

وإن كان الحقُّ تعالىٰ قد يجيب الصالح إلىٰ مغفرة جميع ذنوب ذلك الميت، وإن كان دعاؤه إجمالًا. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن المصلي علىٰ الجنازة شافع لها، وكلما عرف ذنوبها علىٰ التعيين، اشتد كربه عليها، وتوجه إلىٰ الله تعالىٰ بقوة وعزم كالمضطر، فيجيب الله تعالىٰ دعاءه. وأما سيء الظن فإنه يقيس الميت علىٰ نفسه، فيدعو للميت مع تخيل ذنوبه التي قاسه فيها علىٰ نفسه.

وهذا لا ينافي ما قاله العلماء من تقديم الصالح علىٰ غيره في صلاة الجنازة مطلقًا، لأن الصالح علىٰ قسمين: قسم يطلعه الله تعالىٰ علىٰ زلات الميت؛ وقسم لم يطلعه، ولا شك أن من أطلعه علىٰ زلات الميت أولىٰ من جهة صلاحه، ومن جهة معرفته بذنوبه من طريق كشفه، أو من طريق مخالطته، ليدعو له علىٰ التعيين.

وقد قدَّموا أخي أفضل الدين ﵀ ليصلي علىٰ جنازة، فقال: قدِّموا غيري لأني لا أعرف لهذا الميت ذنبًا أدعو له بمغفرته. فقالوا له: قد صلَّىٰ الصحابة علىٰ رسول الله ﷺ وليس له ذنب، وعلىٰ الطفل خلف رسول الله ﷺ ولم يذنب، فصلِّ وادع للميت برفع الدرجات. فقال: لا يصلي علىٰ الميت عادة إلا من كان طاهرًا قلبه وبدنه، لأنها شفاعة، وأنا [غير][1] طاهر القلب، فقدِّموا غيري يصلي. انتهىٰ.

فإن قيل: إن سيء الظن عاصٍ بذلك، فكيف يُقدَم؟! **فالجواب**: أن مرادنا أنه كان سيء الظن فيما مضىٰ. وأما وقت صلاته علىٰ الميت فإنما هو في اعتبار وحزن وبكاء، فكأن سوء الظن محي من قلبه، فما قلنا: إن سيء الظن تقدم إلا من حيثُ إنه كان يتجسس علىٰ أحوال الميت غالبًا، فصار يشفق عليه لما لعله يتخيله من ذنوبه، وإن كان تجسسه علىٰ ذنوبه في الأصل حرامًا.

فاعلم ذلك، واحمل الصالحين علىٰ المحامل الحسنة، وتأمل حال القوم وغيرهم، فأين من يقيم الأدلة علىٰ أنه أفضل ليقدموه ممن يقيم الأدلة علىٰ أنه مفضول ليؤخروه؟! والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٦٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حضر وليمة، فصار يقوم للعوام ولا يقوم للعلماء وأشياخ الطريق، فلاث الحاضرون به وقالوا: في هذا إزراء للعلماء وأشياخ الطريق في هذا المحفل العظيم، بأنه قد يكون ممن أطلعه الله تعالىٰ علىٰ مقامات العباد عند الله عزَّ وجلَّ، كما كان سيدي ياقوت العرشي ﷺ. وربما كان سبب عدم القيام للعلماء والأشياخ ظنه فيهم أنهم يتكدرون ممن يقوم لهم في المحافل تواضعًا لله عزَّ وجلَّ، كما هو الغالب علىٰ العلماء العاملين، وقياسًا علىٰ نفسه هو، إذ كان يتكدر ممن يقوم له، وإنما قام للعوام لما هو الغالب عليهم من محبة التعظيم، فأراد بقيامه لهم تمييل قلوبهم إليه، ليصير يسارقهم بالمواعظ ونحو ذلك.

وقد يكون ذلك العاصي الذي قام له أكثر أدبًا مع الله تعالىٰ من ذلك العالم الذي لم يقم له، بحسب ما شهد هذا الشيخ من كلٍّ منهما، فإن العالم لا يرفع درجته إلا العمل بما علِم، وأما إذا لم يعمل فالعامي الذي يعمل بما علم أعلىٰ مقامًا منه وإن كان علمه قليلًا. وقد روىٰ الغزالي في «الإحياء» مرفوعًا: «قليل من التوفيق خير من كثير العلم». وفي رواية: «من العقل»[١]. انتهىٰ.

واعلم يا أخي أنه لو كانت النجاة بمجرد حمل العلم من غير عمل به لما ورد الوعيد، ولا كان من لا يعمل بعلمه أول من تسعر به النار[٢].

وقد كان شخص من جبلية الوادي ينام عندنا في الزاوية، ثم انقطع وسكن في مخزن في الحارة، فقلتُ له: أوحشتنا يا فلان. فقال: ما فارقتكم إلا لعذر. قلتُ له: وما هو؟

---

(١) قال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء وقال العقل بدل العلم ولم يخرجه ولده في مسنده. انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (٤١). قلت: وهو عند ابن عساكر عن أبي الدرداء بمثل ما في الفردوس مع زيادة في آخره. انظر «تاريخ دمشق» (٦٠/ ٣٤٩).

(٢) أخرج مسلم (١٩٠٥) في حديث أول من يقضىٰ بينهم يوم القيامة عن أبي هريرة «ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار.....» والترمذي (٢٣٨٢).

فقال: سمعتُ شخصًا من العميان يخرج ريحًا في المسجد وهو نائم، فخفتُ أن يخرج مني كذلك ريح وأنا نائم في بيت الله تعالىٰ، فأخذتُ لي مكانًا خارج المسجد، خوفًا من خروج الريح في المسجد. انتهىٰ. وهذا الأمر قلَّ أن تجده في حملة القرآن والعلم، بل ربما يخرج أحدهم الريح مرارًا عامدًا في اليقظة، ولا يعد ذلك ذنبًا. ومعلوم أن علوَّ مقام العبد عند الله إنما هو بكثرة تعظيمه له، وفي الحديث: «من أراد أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد حيث أنزله من نفسه»[1]. انتهىٰ.

ومما وقع لي أيضًا مع الحاج علي المنوفي أنه دخل عليَّ يومًا، فرأىٰ سبحتي الكبيرة علىٰ الحصير، فقال: ارفعها عن موضع الأقدام أدبًا مع أسماء الله التي تذكرها عليها؛ فجعلتُ لها مسمارًا في الحائط وعلقتُها من ذلك اليوم، فعلمتُ بذلك مقامه في الأدب مع الله تعالىٰ وتعظيمه له، مع أنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وكم رأىٰ سبحتي هذه خلائق من العلماء الذين يدخلون عليَّ ولم يهتدوا لما قاله الحاج عليٌّ هذا ولا أنا كذلك، مع أني أراها علىٰ الحصير ليلًا ونهارًا، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينثر الدراهم أو الفاكهة في صحن زاويته للفقراء إذا أتته من أحد من الأغنياء مثلًا، فيتبادر الفقراء إلىٰ التقاطها ويزدحمون علىٰ ذلك، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا من قسم النُّهبة التي نهىٰ عنها رسول الله ﷺ[2]، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ جعل ذلك من قسم النهبة، فربما ازدحموا علىٰ ذلك ولم يؤذِ بعضهم بعضًا، بل هم منشرحون يتبسمون، فزالت علة النهي.

وربما كان قصد الشيخ بنثر الدراهم وغيرها بين الفقراء معرفة من عنده شراهة نفس، ومن عنده قناعة وشبع نفس، ليبني علىٰ كلٍّ مقتضاه، ويداوي صاحب الشراهة أو يؤدبه علىٰ ذلك بما يراه، وهذا غرض صحيح، لأن للشيخ امتحان المريدين ليظهر ما كان في

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم (١٨٢٠)، وأبو يعلىٰ الموصلي (١٨٦٥) والطبراني في «الأوسط» (٥٢٥).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٧) عن عمران بن الحصين «أن رسول الله ﷺ قال: من انتهب نهبةً، فليس منا» والنسائي (٣٣٣٥) وابن حبان (٣٢٦٧) والدراقطني (٤٨٣١).

سرائرهم من محبة الدنيا أو الزهد فيها، وقد قالوا: كلما خبث الزمان احتاج الشيخ إلىٰ شدة الامتحان لأصحابه، ليخرج أضغانهم ويبادر إلىٰ تطهيرهم من خبيث الأخلاق.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ في نثر الدراهم، لأنه لغرض صحيح، ولعدم وجود الازدحام الذي يؤذي به بعضهم بعضًا إما حياءً من الشيخ، وإما لغير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: نحن قوم لا تقليد عندنا إلا لله ثم لرسوله فقط؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا يدعي الاجتهاد المطلق، ووقعوا في عرضه، بأنه لا ينبغي لأحد الاعتراض عليه، لأنه قد يكون ممن حق له قدم الولاية المحمدية، فإن من لازمه انفكاك قلبه من تقليد المجتهدين، ويصير يأخذ الأحكام من حيثُ أخذها المجتهدون، ثم يترقىٰ فيما هو أعلىٰ من ذلك، وهو علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، كما هو مشهور بين القوم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: العارف ليس مقلِّدًا ولا صاحب دليل، بل مقامه الكشف الصحيح المطابق لما في نفس الأمر، فهو ملحق بالكتاب والسنة. وسمعتُه مرةً يقول: إذا بلغ المريد مقام الاجتهاد المطلق، فقد صار مستقلًا، واستغنىٰ عن الاستمداد من شيخه. ففي ذلك إثبات مقام الاجتهاد للمريد. ونقل الشيخ محيي الدين بن العربي في ذلك إجماع القوم.

فإن قال القائل: إن سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي كان حنبليًّا، وسيدي الشيخ محمد الحنفي كان حنفيًّا، وقد بلغا درجة القطبية فيما اشتهر؛ **قلنا:** إنما اشتُهرا بذلك قبل الكمال، [فلما بلغا مقام الكمال][1] استصحب الناس ذلك عليهما، ولا يتوقف في ذلك إلا من لا علم له بأهل الطريق. وإنما كان الشيخ عبد القادر يدرِّس الناس في مذهب الإمام أحمد، والشيخ محمد الحنفي في مذهب الإمام أبي حنيفة إجابةً لسؤال المقلِّدِين لهما، ولو أنهم طلبوا منهما مذهبهما لدرساهما فيه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(٦٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: عظِّموني كما تعظمون أكبر ملوك الدنيا؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا مخالف لطريق الصالحين، فإنهم كلَّهم متواضعون يرون نفوسهم من أحقر الناس، بأنه لا ينبغي اللوث به، لأنه ما أمر أصحابه بذلك إلا تعظيمًا للطريق لا لنفسه، فربما كان يرىٰ الشيخُ نفسَه دون الخلق أجمعين.

وإيضاح ذلك أن مبتدأ مقام الفقراء أعلىٰ من نهاية الملوك، فإن من شرط المريد الزهد في الدنيا التي رغب فيها الملوك، فهو أعلىٰ مقامًا عند الله من هذه الحيثية، وإن كان الملوك فَضَلوه من جهة كونهم سببًا لنظام العالم وتنفيذ أحكام الشريعة، فافهم. وقد كان الجنيد يقول لمن يريد صحبته: اذهب فاخدم الملوك وتعلم آدابهم ثم تعال، فإن غاية أدب الملوك هو مبتدأ الأدب مع القوم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: أقل ما يلزم المريد من احترام الشيخ أن يكون في عينه كأعظم ملوك الدنيا، فلا يلبس له ثوبًا ولا نعلًا، ولا يتوكأ له علىٰ عصا، ولا يسبِّح له علىٰ سبحة، ولا يجلس له علىٰ فرش، ولا يدخل عليه بغير إذن ونحو ذلك، فإن تعظيمه له سُلَّمٌ للترقي إلىٰ معرفة الأدب مع الله تعالىٰ، فمن لم يحكم الأدب مع الشيخ، لا يَشُم من الأدب مع الله تعالىٰ رائحة. وكان يقول: من علامة سوء أدب المريد وعدم انتفاعه بشيخه أن يتكدر من شيخه إذا منعه الدخول عليه، فمتىٰ تكدر منه شعرة علىٰ شيخه، فهو منافق معه لا يجيء منه شيء. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل شيئًا من ثيابه إلىٰ السوق ليبيعه، فاشتراه أصحابه المعتقدون فيه وردوه إليه ثانيًا، ففرح بذلك، فلاث الفقراء به وقالوا: لو كان هذا صادقًا في قطع العلائق عن قلبه، لما رجعت إليه ثيابه ثانيًا من السوق، بأنه لا يلزم من عودها إليه أن يكون لها علاقة في قلبه، إنما العلاقة من الثوب، فهو الذي يحب أن لا يفارق الشيخ، ولم يزل الأشياخ الأكابر كسيدي عبد القادر الجيلي وسيدي علي بن وفا وسيدي محمد الحنفي وسيدي مدين وأضرابهم يرسلون ثيابهم إلىٰ السوق

وترجع إليهم من طريق أخرىٰ إما لمحبة الثياب لهم، وإما زجرًا وتأديبًا لمن ينكر عليهم الملابس الفاخرة ويقول: لو لبسوا غيرها لكان أولىٰ! فيتبين له بردها أنه ليس لهم فيها تعمل، وإنما الحق تعالىٰ هو الذي اختارها لهم.

وما وقع لبعضهم من توبيخ نفسه حين ردت عليه ثيابه التي أرسلها إلىٰ السوق. وقوله لنفسه: لولا محبتك لمتاع الدنيا وشدَّة علاقة قلبك بها ما رجعت إليك. فهو هضم نفس، كما جرىٰ عليه الأكابر، حتىٰ كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه يقول: من لم يتهم خواطره ويحاسب نفسه في كلِّ نَفَس، لم يكتب في ديوان الرجال. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: اللهم كثِّر حسادي ومن يؤذيني، إظهارًا للصبر علىٰ الأذىٰ، فلاث به بعض العلماء وقالوا: من لازم هذا الدعاء محبة وجود المعصية في الوجود المضرة بإخوانه المسلمين، وذلك لا ينبغي، بأنه لا ينبغي اللوث علىٰ الشيخ بسبب ذلك، لأنه ربما قصد به دوام النعمة عليه، بقطع النظر عن كون الحسد أو الأذىٰ معصية، ولا يؤاخذ الله تعالىٰ أحدًا باللازم لعدم قصده.

وقد كان شخص يؤذي سيدي إبراهيم المتبولي أشدَّ الأذىٰ، فلما مات حزِن عليه وقال: مات من كان يحصل لنا الأجر والثواب بالصبر علىٰ أذاه. انتهىٰ. فيحتاج الفقير إلىٰ عدة أعين: عين ينظر بها إلىٰ الثواب، فيحب دوام سببه؛ وعين ينظر بها إلىٰ كون الأذىٰ معصية تؤذي صاحبها أو فيها انتهاك لمحارم الله، فيكره دوام ذلك؛ وعين ينظر بها إلىٰ أن ذلك الأذىٰ الذي حصل إنما هو بوجوده، ولولا وجوده ما وقع الناس في الإثم بسببه، فيستغفر الله تعالىٰ، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب علىٰ العبد الصبر علىٰ الوقوع في المعاصي، حتىٰ يكون الحقُّ تعالىٰ هو الذي ينقله عنها؛ فلاث به الناس وقالوا: الإقلاع واجب، فكيف تتركه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، لأنه ربما كان قصده وجوب الصبر علىٰ المعاصي من حيثُ التقديرُ، لأن الأشياخ لا تجهل مثل ذلك، فإنهم أول ما يأخذون علىٰ المريد العهد بالتوبة يذكرون له أركانها وشروطها التي من جملتها الإقلاع، أي من حيثُ الكسبُ، وهو معنىٰ قول الأصوليين: يجب الرضا بالقضاء لا بالمقضي، أي من حيثُ الكسبُ.

وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لو لا أراد الله تعالىٰ أن يُعصَىٰ في الأرض ما خلق إبليس. انتهىٰ. مع أنه تعالىٰ قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. وفي كلام الحارث المحاسبي ﵀: من أعظم الخِلال الصبر علىٰ الاختلال. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، واجتمع بهم، واستفهمهم عن مرادهم قبل الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر تلميذه لما بات عنده مال أو طعام وفي بلده أو جيرانه من هو محتاج إليه، فلاث به العلماء وقالوا: مثل هذا لا يجوز هجر المسلم عليه، إنما الهجر المباح في المعاصي، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يبيت عند أصحابه المال والطعام، ويعلم بذلك ويقرهم عليه، بأنه ما فعله هذا الشيخ من الهجر جائز بين القوم، لأخذهم بالعزائم. وقد كان من خلقه ﷺ أنه لا ينام علىٰ دينار ولا درهم وهو يعلم أن في المدينة أحدًا محتاجًا إليه، وفي رواية: «وكان إذا لم يجد أحدًا يقبل منه ذلك المال، لا يأوي إلىٰ منزله تلك الليلة»[1]، وكان أبو ذر وجماعة يرون تحريم الادخار. وما ثبت عن رسول الله ﷺ من الادخار إنما ذلك رخصة للضعفاء، وفي الحديث: «كل عمل ليس فيه أمرنا فهو رد»[2].

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء(٢/ ٣٦٠): أخرجه أبو داود من حديث بلال في حديث طويل ... وذكر الحديث، قال: ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد كان لا يقبل مالًا عنده ولا يبيته. قلت: والحديث الذي أشار إليه العراقي برقم (٣٠٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وقد مات ﷺ ولم يخلف في بيته دينارًا لا درهمًا[١]، وقال: «ما أحبُّ أن لي مثل أحد ذهبًا تمضي عليه ثالثة وعندي منه درهم واحد إلا درهمًا أرصده لدَين»[٢]. انتهىٰ. وإنما مثَّل ﷺ بالثلاث ليال توسعةً لزمان التفرقة، فإن الإنسان لا يقدر عادة أن يفرِّق مثل أحد ذهبًا في ليلتين مثلًا ولو قال للناس: أبحته لكم؛ لكثرته، ولولا ذلك لمثَّل بالليلة الواحدة، فافهم.

فمذهب أبي ذر يؤيد هذا الشيخ في هجر مريده، فإنه هجر علىٰ ارتكابه محرَّمًا عنده. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، فإن أحدهم ربما هجر مريده هجرًا جميلًا لا حقد فيه ولا ازدراء، لمصلحة تعود علىٰ المريد هي أفضل من مصلحة موادته وتقريبه.

وربما كان الشيخ في مقام الاجتهاد فيما يفعله بمريده. وبتقدير أن يكون هجر المريد لأجل الادخار لا يجوز، فهو من باب تعارض المفسدتين، فافهم، وأكثرُ من هذا التنزل لا يكون في حق الشيخ، فإن الشيخ أمين علىٰ كلِّ شيء يرقي المريد ويقربه إلىٰ الله تعالىٰ، فلا يهجره إلا لمصلحة تعود علىٰ المريد.

وبالجملة، فإن كان المريد راضيًا بهجر شيخه له علىٰ كلِّ ذنب، فأيش فضول الأجنبي؟! فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا لبس صوفًا جديدًا أو مُضَرَّبة[٣] جديدة مثلاً، وصار ينظر إليها وإلىٰ هندامها كلَّ قليل، ويسارق النظر إليها،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (١٦٣٥) من حديث عائشة ﵂ قالت: «ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا، ولا درهمًا، ولا شاةً، ولا بعيرًا، ولا أوصىٰ بشيء» وأبو داود (٢٨٦٣).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٣٨٩) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: « قال رسول الله ﷺ: لو كان لي مثل أحد ذهبًا ما يسرني أن لا يمر علي ثلاث، وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين» ومسلم (٩٩١).

(٣) المُضَرَّبة: نوع من الثياب ذو طاقَيْن مخيطَيْنِ خياطةً كثيرةً وبينهما قطنٌ.

فلاث به المريدون وقالوا: مثل الشيخ لا ينبغي له الإعجاب بملبوسه كالعوام، فإن ذلك يجر إلىٰ المقت، وقد رأىٰ رسول الله ﷺ فاطمة تنظر إلىٰ ثوب جديد لبسته، فأمرها بنزعه وقال: «إن الله يمقت ذلك»[1] ولما نظر إلىٰ كساء أبي جهم فأعجبته نزعها، وأرسلها إلىٰ أبي جهم وقال: «إنها أشغلتني عن صلاتي»[2]. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ في نظره إلىٰ ثوبه الجديد مثلًا، ولا حمله علىٰ العجب به، فربما كان ذلك منه لتكرر الشكر لله تعالىٰ عليه كلما رأىٰ حسنه وجماله، ويرىٰ أن مثله لا يستحق مثل ذلك الثوب.

وقول رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلىٰ المعجب بشيء من أحواله وثيابه»[3] وأمره فاطمة بنزع الثوب محمول علىٰ التشريع لضعفاء أمته. وكذلك نزعه كساء أبي جهم وقوله: «إنها شغلتني عن صلاتي» وإلا فاعتقادنا في رسول الله ﷺ أنه لا يشغله عن ربِّه شيء في الكونين، وكذلك الحكم في كُمَّل الأولياء من أمته، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: لا تجالسني إلا إن كنت تدري أن المندوبَ واجبٌ، والمباحَ مندوبٌ، والمكروهَ حرامٌ، وخلافَ الأولىٰ مكروهٌ، فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا عين نسخ أحكام الشريعة بغيرها، وذلك لا يجوز، فإن الشارع جعل لكل حكم من الأحكام الخمسة مرتبة لا تتعداها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من قال ما ذُكِرَ لمريده، لأنه ربما قصد بذلك تعظيم الأحكام الشرعية، أي لازم علىٰ المستحب كأنه واجب، واجتنب

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري(٣٧٣) من حديث عائشة: «أن النبي ﷺ صلىٰ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: اذهبوا بخميصتي هذه إلىٰ أبي جهم وأتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي» وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: «قال النبي ﷺ كنت أنظر إلىٰ عَلَمِها، وأنا في الصلاة فأخاف أن تفتنني» ومسلم (٥٥٦).

(٣) لم أقف عليه.

المكروه كأنه حرام، وافعل الأولىٰ كأنه مستحب، واجتنب خلاف الأولىٰ كأنه مكروه. واقلب المباح بالنية الصالحة إلىٰ خير، كما هو مقرر في كتب الفقه. وهذا مراد هذا الشيخ، [لا][1] أن مريده يصير يعتقد وجوب المندوب، ولا تحريم المكروه، ولا استحباب المباح، لأن في ذلك نسخ المندوب والمكروه والمباح، وجعل المباح مندوبًا في رتبة المندوب الذي شرعه الشارع، لأن ذلك لا يقع فيه عاقل، وكل ما كان فيه تعظيم لأمر الله تعالىٰ، فلا ينبغي لأحد الاعتراض علىٰ فاعله.

وقد أجمع أهل الكشف علىٰ أن الأحكام الخمسة نزلت من أماكن متفرقة، فلا يصح إلحاق أحدها بغيره في الرتبة، فنزل الواجب من القلم الأعلىٰ، والحرام من العرش، والمكروه من الكرسي، والمندوب من اللوح، والمباح من سدرة المنتهىٰ. انتهىٰ. وقد أوضحنا حكمة ذلك في كتاب «الجواهر والدرر». وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما شدد الأشياخ علىٰ مريديهم في ترك الأكل من غير ضرورة، ليُثاب مريدُهم ثوابَ الواجب في أفعاله كلِّها.

فاعلم ذلك يا أخي، واعرف اصطلاح القوم قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يكمل المريد في مقام الأدب مع الله تعالىٰ حتىٰ يرىٰ طاعاته كأنها معاصي، ومعاصيه كأنها كفر؛ فلاث به الفقهاء من أهل حارته، واستفتوا عليه العلماء، فأجابوا بأن هذا شطح لا يجوز في الشريعة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ يُستفهَم إن كان في قيد الحياة، فربما كان مراده أنه يرىٰ طاعاته من حيثُ النقصُ الذي هو فيها كأنها معصية، ويرىٰ المعصية من حيثُ كونُها تغضب الله عليه كأنها كفر، فيتوب منها فورًا، ويستقبح وقوعه فيها كأنه ارتد عن دين الإسلام تعظيمًا لأمر الله.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وفي كلام الشيخ إسماعيل ابن المقرئ[١] صاحب كتاب «الروض» في مذهب الإمام الشافعي ﷺ:

ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة إذا عددت تكفيك عن كل زلة

وقد كان الفضيل بن عياض وغيره يقولون: طاعاتنا إلىٰ الإثم أقرب منها إلىٰ الطاعة.

وكان معروف الكرخيُّ يقول: إني لأنصرف من صلاتي وكأني انصرفتُ عن الزنا.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر ﷺ يقول: من تأمل من أمثالنا نفسَه، وجد اسم الفسق منسحبًا عليه علىٰ الدوام، فإنه لا يخلو أن يكون في معصية أو طاعة أو مباح، فيرىٰ طاعاته ناقصةً خارجةً عن الكمال الذي أمره الله به، ويرىٰ فعله للمباح استدراجًا، وأما المعصية فلا يخفىٰ حكمها. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا هجر تلميذه لكونه ينبهه علىٰ[٢] نقائصه، ولاث به الناس وقالوا: كيف يدعي هذا أنه شيخ ويكره من ينبهه علىٰ عيوبه؟! وقد كان السيد عمر بن الخطاب وغيره يقولون: رحم الله من أهدىٰ إليَّ عيوبي لأتطهر منها. وكان السلف الصالح إذا أبطأ علىٰ أحدهم النصح من أصحابه، يذهبون إلىٰ داره ويقولون له: يا أخي، أوحشنا نصحك لنا، ولك زمان ما نصحتنا، فما ذنبنا؟ بأنه لا يلزم من هجر المريد المذكور أن ذلك الهجر بسبب النصح من حيثُ هو نصح، فإن ذلك لا يجوز حمل العلماء والأشياخ عليه، وإنما ذلك من حيثُ إطلاقُ المريد بصره في عيوب شيخه، فيعدم النفع به. وقد يكون ذلك العيب الذي رآه المريد في شيخه إنما هو عيبه هو،

---

(١) شرف الدّين أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله المقريء اليمني الشافعي عالم البلاد اليمنية وإمامها ومفنّنها المعروف بابن المقريء. وقيل: المقري. ولاه الأشرف صاحب اليمن تدريس المجاهدية بتعز والنّظامية بزبيد. له مصنفات منها: «مختصر الروضة» للنووي و«مختصر الحاوي الصغير» وشرحه، و«عنوان الشّرف الوافي». توفي: ٨٣٧هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٣٢١)، «الأعلام» (١/ ٣١٠).

(٢) بالأصلين: ينهيه عن. والمثبت هو الموافق للسياق.

من باب «المؤمن مرآة المؤمن»[1]، ولا ينظر أحد في المرآة إلا نفسَه لا جرم المرآة.

وكلام السيد عمر ﷺ وغيره محمول علىٰ الإخوان الذين هم أقران للإنسان ولهم إلمام بمقامه، بخلاف المريد مع شيخه. وقد كان الإمام النووي كلما خرج للقراءة علىٰ شيخه الشيخ سلار الإربلي[2]، يتصدق بشيء ويقول: اللهم استر عني عيب معلمي حتىٰ أنتفع به. فاعلم ذلك، واحمل هجر الأشياخ لمريدهم علىٰ الأغراض الصحيحة لا الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده إذا جاءه: اخرج من مجلسي يا منافق يا فاسق، ونحوهما من الألفاظ، فلاث الناس به وقالوا: هذا كلام سفه لا يليق بالشيخ الذي يرشد الناس، بأنه لا ينبغي اللوث به؛ لأن كلَّ مريد قد تابع شيخه علىٰ تصديق شيخه في كلِّ عيب أضافه إليه، ليرقيه إلىٰ مراتب الكمال. وربما سماه منافقًا أو فاسقًا بوقوعه في رياء أو مراعاة للخلق، أو بشبعه فوق العادة، أو بنومه كذلك، فإن حدَّ النفاق عند القوم أن يخالف باطنُه ظاهرَه في وصف من الأوصاف، ولو خلاف الأولىٰ، وليس مرادهم بالنفاق ما ذمه الله ورسوله في الكتاب والسنة، كما يتوهمه من لا يعرف مصطلح القوم، وكذلك القول في الفسق حده عند القوم أن يخرج عن السنة قيد شبر في مأكله أو ملبسه أو نومه ونحو ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا قال الشيخ للمريد: يا فاسق أو يا منافق، فليحذر من تكذيبه ولو في نفسه، بل يفتش علىٰ تلك الصفة في نفسه ويقول: الشيخ لا يكذب فيما أضافه إليَّ، وربما كان الناس لا يعدون ما قصده الشيخ نفاقًا ولا فسقًا. انتهىٰ.

وربما كان قصد الشيخ بقوله: يا منافق، أنه منافق مع الشيخ يظهر له في حضوره

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٩) والبيهقي في «السنن» (١٦٦٨١).

(٢) سلار بن الحسن بن عمر بن سعيد أبو الفضائل كمال الدين الإربلي، الفقيه الشافعي كان من الأئمة الفضلاء الخبيرين بمذهب الإمام الشافعي ﷺ وكان عليه مدار الفتوىٰ في وقته بدمشق. توفي: ٦٧٠هـ. بدمشق ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله. «ذيل مرآة الزمان» (٢/ ٤٧٩)، «مرآة الجنان» (٤/ ١٣٠).

خلاف ما يقوله فيه في غيبته مما يستحيي أن يواجهه به. وربما كان قصده بقوله: يا فاسق، أي يا خارج عن طاعتي فيما آمره به من الخير، فلينتحل المريد للشيخ الأجوبة الحسنة ما أمكن، ويطالب نفسه بالحقائق، فإن نفاق المريد وفسقه مع الشيخ لا ينقطع، وإنما يدق فقط ولا ينقطع، وما خرج عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن حفظه الله تعالىٰ من الأولياء. وأما شهود بعض الأولياء في نفسه النفاق والفسق، فإنما هو من باب هضم النفس، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وَجَدَ[1] علىٰ مريده، فجاء مريده مستغفرًا وقبَّل رجله، فرفسه برجله وقال: اخرجوا عني هذا الشيطان؛ فجروه برجله ووقعت عمامته وأخرجوه من الزاوية، مع أنه خطيب وإمام، فلاث الناس بالشيخ وقالوا: هذا خروج عن طريق السلف الصالح، ولم يبلغنا أن أحدًا جاءهم تائبًا مستغفرًا فردوه أبدًا، بأن هذا الشيخ أمين علىٰ دين المريد، فربما اطلع علىٰ أن باطنه لم يتب ولم يندم، وإنما هو خداع ونفاق، فأخرجه من حضرته ليتنبه ويخلص التوبة، وهذا الزجر والتوبيخ والتعزير واجب، لأنه وسيلة إلىٰ التوبة الخالصة، وما لا يتوصل إلىٰ الواجب إلا به فهو واجب، ولو أن الشيخ علم أنه يتنبه لنقصه بالإشارة والرمز، ما تلفظ له بالكلام الفاحش، كما أنه لو علم منه أن الكلام يكفيه في التنبيه، ما جروه برجله ولا أرموا عمامته عن رأسه.

فلا ينبغي لمن ليس من أهل الطريق أن ينكر عليهم مؤاخذة تلامذتهم بالبواطن، لأن ذلك أمر مشروع فيما بينهم، والتلامذة راضون بذلك، وقد بايعوا شيخهم عليه، اللهم إلا أن يتكدر مريد من ذلك، ويشكو شيخه للناس، فمثل هذا يحرم تعرض الشيخ له بالزجر والتعزير إلا بطريق شرعي. وأما ذلك العهد الذي كان عاهد شيخه عليه، فقد انتقض بالشكوىٰ للناس. ثم إنه لا ينبغي للشيخ أن يمكِّنه من الإقامة في الزاوية أبدًا، خوفًا أن يتلف البقية.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ذنوب الفقراء فيما بينهم لا فرق فيها بين

---

(١) بالأصلين: أوجب. والصواب ما أثبتناه، يُقال: وَجَدَ عليه: غضب.

فالعلم لا قرار له من حيثُ الفروعُ، ولا يضرنا إلا مخالفة الأصول فقط.

فافهم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم ما أخفوا الحقائق عن الناس إلا رحمةً بهم، كما يشهد لذلك قصة موسىٰ مع الخضر عليهم الصلاة والسلام. وحاشاهم من الزندقة رضي الله عنهم أجمعين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زجر طلبة العلم عن البحث في مسألة من العلم وهم ينتظرون جنازة يصلون عليها أو تدفن، وقال: الكلام في العلم في الجنازة مكروه؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: إنما يُكرَه اللغط في الجنازة بكلام اللغو. أما العلم فلا إذا كان[1] ذلك متعلِّقًا بأحكام صلاة الجنازة أو وقتها، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر. وأما القول بكراهة الكلام في العلم مطلقًا فليس عليه دليل.

والجواب عن هذا الشيخ: بأنه لا ينبغي الاعتراض عليه في قوله بكراهة الكلام في العلم في الوقت المذكور، لأنه ربما قصد أن ذلك مكروه من حيثُ ما يؤدي إليه من رفع الصوت والجدال وخروج النفس عن الحدِّ، لا من حيثُ التكلمُ بالعلم من حيثُ هو علمٌ، فإن مثل أشياخ الطريق لا يجهل مثل ذلك. وقد قال العلماء: السنة في المشي مع الجنازة السكوت والتفكر فيما إليه مصير العبد، حتىٰ كرهوا رفع الصوت [بالذكر معها، مع أن ذكر الله لا يُمنَع منه في وقت من الأوقات، فما كرهوا رفع الصوت][2] به إلا لكونه يشوش علىٰ المتفكِّر في أمر الموت، ولكلِّ وقت حال يناسبه.

وقد كنتُ أتكلم أنا والأخ الصالح الشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي[3] في أمر الموت والقبر والحاضرون يبكون، فدخل نحويٌّ، فسأل عن مسألة، فارتفع ذلك الخشوع لوقته.

---

(١) بالأصلين: إلا أن يكون.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) محمد بن عمر الملقب سراج الدين الحانوتي المصري الفقيه الحنفي، كان رأس المذهب في عصره بالقاهرة، يرجع إليه أمر الفتوىٰ والرياسة، له: إجابة السائلين، يعرف بفتاوىٰ الحانوتي ت ١٠١٠هـ. «خلاصة الأثر» (٤/ ٧٦)، «الأعلام» (٦/ ٣١٧).

وليتأمل المجادل في كراهة الكلام في العلم مع الجنازة في قوله ﷺ: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين»[1]، فلو أُخِذ بإطلاقه لم يكن ينبغي لنا أن نشتغل بغير العلم في حال من الأحوال، لكونه أفضل ما عبدنا اللهَ به، وكذلك ينبغي لهذا المجادل أن ينظر إلىٰ نفسه وهو محتضر كيف يثقل عليه سؤال أحد له ذلك الوقت في مسألة تتعلق بالصلاة أو الزكاة أو البيع أو الصوم ونحو ذلك، ويقول: اخرجوا هذا السائل عني لأتأهب للموت. فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينكر علىٰ فقراء المطاوعة ويرميهم بالجهل، ولاث الناس به وقالوا: الفقير ليس له نظر في عيوب الناس، فكيف يقع هذا الشيخ في الإنكار علىٰ قوم لم يخالطهم، ولم يعرف حقيقة مذهبهم ولا قواعده حتىٰ ينكر عليهم؟! والحكم في أفرادهم بحكم واحد تهور في الدين، فإن كلَّ أهل خرقة فيهم الصالح والطالح، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ بإنكاره علىٰ فقراء المطاوعة لما شاع عنهم وذاع أنهم يبغضون العلماء، ويقولون: هؤلاء أعداء الفقراء؛ فأغواهم إبليس بذلك، فلا هم يعرفون الشريعة، ولا هم يقلدون علماءها. وإن وقع أن أحدًا منهم قلَّد العلماء وأحبهم وامتثل أمرهم، فكلام هذا الشيخ محمول علىٰ غيره والحكم للأغلب.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد وسيدي محمد الحنفي وسيدي مدين وسيدي محمد الغمري ﭫ ينكرون علىٰ فقراء المطاوعة أشدَّ إنكار، وألَّفوا فيهم كتبًا، وبينوا فيها ما ابتدعوه في الدين، وفتاوىٰ المذاهب الأربع، وحرَّموا عليهم أمورًا كانوا يعتقدون حلَّها، وأمورًا يعتقدون وجوبها. وعندي في ذلك لسيدي محمد الغمري كتاب سماه «العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان» بخط والدي ؒ أقام فيه الأدلة علىٰ إبطال مذهبهم، وبيَّن فيه أنهم لم يوافقوا الشريعة إلا في أمور قليلة، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا ذم الأشياخ لطائفة علىٰ نصرة الدين لا علىٰ حظِّ النفس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الدراقطني (٣٠٨٥) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٨٤) والطبراني في «الأوسط» (٦١٦٦) وابن حجر في «المطالب العالية» (٣٠٨٧).

(٦٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالتقيؤ لكل لقمة أكلها العبد وهو غافل عن ربه عزَّ وجلَّ، ويأمرهم بالتسمية علىٰ كلِّ لقمة، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا بدعة في الشريعة، ولم يأمرنا الشارع بالتسمية إلا مرةً واحدةً أول الأكل، وإن نسي أحدنا التسمية أوله، فليقل إذا تذكر: «بسم الله أوله وآخره»، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ لأخذه بالعزائم، وقد جرَّبوا فوجدوا كلَّ لقمة نزلت في بطن العبد وهو غافل فهي ظلمة في قلبه، وما أظلم به القلب ينبغي للمتورع أن يتقيأه، كما قالوه في اللقمة الحرام أو الشبهة.

وأما التسمية علىٰ كلِّ لقمة فهو خير علىٰ خير، وقد قال الإمام النووي رحمه الله: لو سمَّىٰ العبد علىٰ كلِّ لقمة فحسن، وقولُ المعترض: «إن الشريعة لم تأمر بالتسمية إلا مرةً واحدةً» رخصةٌ، أو ذلك محمول علىٰ من سمَّىٰ الله تعالىٰ علىٰ أول طعامه، فيدوم عليه الحضور مع الله تعالىٰ حتىٰ يفرغ من الأكل، نظير ما قالوا في الاستعاذة في الصلاة في كلِّ ركعة أو في أول ركعة فقط، أي فإن من قال: «يستعيذ في أول قراءة الركعة الأولىٰ فقط» محمول علىٰ من إذا استعاذ في الركعة الأولىٰ، يبعد منه إبليس، فلا يقربه حتىٰ يسلِّم من صلاته. ومن قال: «يستعيذ عند كل قراءة» محمول علىٰ ضعيف العزم الذي يعاوده إبليس المرة بعد المرة، فلا يُقال: الاستعاذة في كلِّ قراءة أفضل مطلقًا، ولا الاستعاذة في الركعة الأولىٰ أفضل مطلقًا، وإنما ذلك محمول علىٰ حالين، وكذلك القول في التسمية في أول الأكل أو عند كلِّ لقمة. فافهم.

وكان الإمام السهروردي رحمه الله يسمِّي الله تعالىٰ علىٰ كلِّ لقمة، وكذلك شيخه أبو النجيب، وكان كثيرًا ما يقول: آكل هذه اللقمة لله تعالىٰ. وكذلك كان يقول إذا شرب، وإذا لبس ثوبًا أو رداء مثلًا، أو نام أو تطيب، ويقول: هذه الأمور كلُّها إرفاق للنفس، ولا يميزها عن العادة والحظِّ إلا النية الصالحة. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن كلَّ ما كان طاعة لله يسهِّل علىٰ النفس الطاعة، وما كان حظًّا للنفس يحصل به التعسير للطاعات علىٰ النفس، واستعصاؤها عن فعلها. فاعلم ذلك،

ولا تبادر بالإنكار علىٰ أهل الطريق، فإنهم في طريق العزائم، وأنت في طريق الرخص، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا بحمد الله قد عملتُ بجميع ما في الكتاب والسنة، فلم يفتني ثواب جعله الله تعالىٰ في فعل مأمور أو اجتناب منهي؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه دعوىٰ لا دليل عليها من حالك، بل لم يبلغنا أن أحدًا ادعاها من الصحابة والتابعين فضلًا عن غيرهم، بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ ببادئ الرأي، فربما كان ممن رزقه الله النية الصالحة في سائر أحواله، وأطلعه الله تعالىٰ علىٰ مأمورات الشريعة ومنهياتها كلها، فهو يود أن لا يفوته مأمور ولا يقع في منهي، فما باشره من المأمورات، فلا كلام فيه، وما فاته منها حصَّل ثوابه بالنية. وكذلك القول في نظيرها من المنهيات، فما اجتنبه لا كلام فيه، وما وقع فيه، فله الثواب فيه، لكن من حيثُ كونُه يودُّ أنه لم يقع فيه، لا من حيثُ الوقوع، فافهم.

وقد يكون هذا الشيخ ممن حماه الله تعالىٰ من الوقوع في المخالفات منذ وعىٰ علىٰ نفسه، كما كان عليه الإمام الليث ﷺ، وأبو سليمان الداراني، والدنبلي وأضرابهما، فإياك والاعتراض إلا بصحيح العلم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سُئل عن أولياء الله تعالىٰ في هذا الزمان من هم؟ فعد للسائل جماعة من التراسين و المُكَارِية[1] الذي يحملون بنات الخطا علىٰ حميرهم، وجماعة ممن يبيعون الحشيش، فلاث الناس به وقالوا: لا نعرف أولياء الله تعالىٰ إلا المحفوظون من المخالفات، المواظبون علىٰ الصواب، وأما هؤلاء الذين ذكرهم هذا، فليس علىٰ ظاهرهم دليل واحد علىٰ ولايتهم، بأنه ربما قصد بذلك ولاية الله العامة المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولا شك أن هؤلاء المذكورين مؤمنون، أو قصد بذكر مثل هؤلاء فتح باب حسن الظن بعباد الله،

---

(١) المُكَارِي: هو من يؤجر الدواب للركوب ونحوه. والظاهر أن الترَّاس من يؤجر دوابه لدرس القمح والحبوب وطحنها.

عملًا بحديث: «إن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه في عباده»(١)، فنظن في كل مسلم الولاية حتىٰ يأتينا ما يخالف ذلك، إذ الولاية في المسلمين هي الأصل والفسق طاريء عليهم. أو أن هذا الشيخ اطلع علىٰ ولاية هؤلاء في الباطن من طريق كشفه بالنظر إلىٰ خاتمة أمرهم. حيث كانوا مجهولين عند الناس، فعينهم للسائل ليمسك الأدب معهم.

وقد أخبرني الشيخ عبد القادر الدشطوطيُّ رحمه الله قال: رأيتُ شخصًا من أولياء الله تعالىٰ يأكل من جمل ميت، والناس يرجمونه ويقولون: هو مجنون! فطردتُهم عنه. فترك الأكل وطردني حتىٰ عييتُ من الجري، فوقعتُ وقلتُ: التوبة. فقال: أيش فضولك؟! تدخل بيني وبين الله! ثم قال لي: قد عشنا إلىٰ زمان صار أحدنا يقدم فيه أكل الميتة علىٰ ما في أيدي الخلائق. قال: فعرفتُ أنه في مقام الاجتهاد في الأحكام، فقبَّلْتُ يده وانصرفت.

وأخبرني الشيخ نور الدين الشوني(٢) أن مُكَاريًا كان الناس يصفونه بالتعريص في حارته، لكونه يركِّب بنات الخطا، وهو من عباد الله الصالحين، فكان لا يركِّب امرأةً من بنات الخطا مرةً إلا تابت في الطريق قبل أن تصل إلىٰ المكان الذي طُلِبت فيه، فتنزل وترجع تائبة إلىٰ منزلها، قال الشيخ: وقد اجتمعتُ به في قنطرة الموسكي مرات، قال: وأخبرني بعض الإخوان أنه اشترىٰ مرة سمكًا مقلًا من موضع بعيد، فتعب في الطريق، فوجد هذا المكاري فأعطاه ثلاثة دراهم، وقال: احملني وهذا السمك إلىٰ مقام الخلفاء. فقال: نعم، وأركبه ومشىٰ به يسيرًا، وإذا هو واقف علىٰ باب السلام من المدينة المشرفة، فقال: انزل هذا مقام الخلفاء. فاندهش الرجل، فقال: اكتم ما رأيت، فدخل فزار النبي ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم خرج فركب، فقال: إنما قصدتُ زاوية الخلفاء التي بدرب

---

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) قال الإمام الشعراني في ترجمته: ومنهم شيخنا وقدوتنا إلىٰ طريق الله تعالىٰ الشيخ الصالح المجمع علىٰ جلالته وصلاحه الشيخ نور الدين الشوني رضي الله عنه. شيخ مجالس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في جامع الأزهر وفي مكة والقدس والشام وقرىٰ مصر وغيرها، رضي الله عنه. خدمته خمسًا وثلاثين سنةً، ما أظن أنه بحمد الله تغير عليَّ يومًا واحدًا. نشأ رضي الله عنه في الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ. توفي: ٩٤٤هـ، ودُفن في زاويتنا بخط بين السورين، وقبره بها ظاهر يُزار رضي الله عنه. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٤٢٠).

الكافوري[1] بمصر! فقال المكاريُّ: قد سرىٰ في ذهني أنك أردتَ مسجد رسول الله ﷺ. فمشىٰ به خطوات وإذا به واقف علىٰ زاوية الخلفاء بدرب الكافوريِّ، فنزل وقبَّل يده وقال: يا سيدي، بم نلت هذا؟! قال: باحتمال الأذىٰ من الناس. انتهىٰ.

وأخبرني رأس الخدَّام بالحجرة المشرفة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام في سنة ثلاث وستين وتسعمئة أن شخصًا نزل من شراريف الحرم المدني بعد العشاء، فوقف علىٰ باب الحجرة وقال: افتح لي. فقلتُ له: ما معي إذن. فأشار إلىٰ القفل فانفتح، ثم دخل فصار يتكلم مع رسول الله ﷺ إلىٰ الفجر وأنا أنتظره، فلما خرج تعلقتُ به، فقلتُ له: الله عليك! بحق محمد ﷺ من أي البلاد أنت؟! فقال: أنا ترَّاس في مدينة منف[2]. انتهىٰ.

وأخبرني شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي[3] أنه زار مع سيدي الشيخ عثمان الحطاب شخصًا يبيع الحشيش في باب اللوق، فقال له الشيخ عثمان: قبِّل رجل الشيخ! قال: فقبلتُها وعندي توقف في أمره، فقال له: يا عليُّ، وعزة الله ما أخذها أحد من يده إلا وتاب عن بلعها إلىٰ أن يموت. انتهىٰ. وهذا الحشَّاش هو الذي سلب الشيخ سراج الدين البلقيني[4] علمه حين أنكر عليه، ووضعه في قلب الديك الذي عنده،

(١) تقع الزاوية خلف مسجد السيدة نفيسة، وتعرف بقبة الخلفاء، دفن فيها الخلفاء العباسيون بدولة المماليك.

(٢) تقع مدينة منف علىٰ بعد ٢٠ كم جنوب القاهرة، علىٰ الضفة الغربية لنهر النيل. ويدخل في حدودها التاريخية مدن وبلدات ميت رهينة الحديثة، دهشور، أبو صير، أبو غراب، زاوية العريان، جنوب القاهرة.

(٣) قال الإمام الشعراني: ومنهم شيخ الإسلام المجمع علىٰ جلالته وعلمه وزهده وصيامه وقيامه وضبط لسانه الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي. كان مفننًا في العلوم. وكتب لي علىٰ عدة مؤلفات، وزارني كثيرًا في بيتي لما أنقطع عنه لعذر، فكنت أكاد أذوب من الحياء منه لما يأتيني. وكان متواضعًا، حسن الظن بالمسلمين.

وكان يؤذن في شباك زاويته عند كل وقت من الخمس بصوت حسن بخشوع وتدبر أيام ولايته وبعدها إلىٰ أن مات. وكان لا يأكل قط من معلوم محكمته شيئًا، مع أنه وُلِّي كرهًا. وكان كثير الصدقة سرًّا وجهرًا. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٥٤٠).

(٤) عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب بن عبد الخالق بن عبد الحق السراج، أبو حفص الكناني البلقيني ثم القاهري الشافعي. ولد في ليلة الجمعة: ٧٢٤هـ ببلقينة من الغربية. وحفظ بها القرآن وصلىٰ به وهو

كما حكاه ولده شيخ الإسلام علم الدين.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ في تعيينه الولاية في مثل هؤلاء الطوائف، إلا إذا لم يُقِم علىٰ ذلك برهانًا، وأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يضيف الولاية والصلاح إلىٰ المجهولين الحال، إلا بعد مخالطة شديدة، وتسليم زائد، وإلا فمِن لازمِهم الاحتجاب عمَّن لا تسليم عنده، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدرِّس في علم النحو والأصول والمعاني وغير ذلك، فلاث به جهلة المتصوفة وقالوا: هذا جرح في أهل الطريق، ولو أن هذا الشيخ عرف الله تعالىٰ، ما اشتغل بعلوم المحجوبين، بل كان يجعل عمره كله ذكرًا لله ومراقبة له، بأن هذا الاعتراض من هؤلاء جهل بالشريعة والحقيقة، وأن تدريس هذا الشيخ في كتب الشريعة وآلاتها علامة علىٰ كماله، إذ الكامل هو من عرف الله تعالىٰ في سائر مراتب التنكرات، وحضر مع الله تعالىٰ في كلِّ علم قرأه أو درسه. وكان علىٰ ذلك سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي والإمام الطِّيبي[1] صاحب «حاشية الكشاف» للزمخشري، فكان صوفيًّا محدثًا، فقيهًا نحويًّا، أصوليًّا مقرئًا ﷺ، فما جعل هذه العلوم تحجب عن الله إلا كلُّ جاهل.

ومن تأمل الشريعة وآلاتها، وجد الشريعة كالمدينة العظيمة، وآلاتها كالمنجنيقات التي علىٰ سور المدينة ترمي كلَّ عدو أرادها بسوء، فلا تكمل الشريعة ويتم نظامها ويرد المبتدعة والملحدين عنها إلا بالنحو والأصول والمعاني وغير ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لم تزل جهلة الصوفية ينكرون علىٰ من يشتغل بالفقه والنحو وغير ذلك من كُمَّل الصوفية، كما أنه لم يزل جماعة من طلبة العلم

ابن سبع. له مصنفات منها: «ترجمان شعب الايمان» و«حاشية علىٰ الكشاف» للزمخشري توفي: ٨٠٥هـ. انظر: «الضوء اللامع» (٦/ ٨٥) و«طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص: ٥٤٣).

(١) الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي الإمام المشهور. كان شديد الرد علىٰ الفلاسفة والمبتدعة مظهرا فضائحهم. من مؤلفاته: «التبيان في المعاني والبيان» و«الخلاصة في معرفة الحديث» و«شرح الكشاف» و«شرح مشكاة المصابيح». توفي: ٧٤٣ هـ. انظر: «الدرر الكامنة» (٢/ ١٨٥)، «الأعلام» (٢/ ٢٥٦).

ينكرون علىٰ من يشتغل بطريق الصوفية، وذلك لقصورهم، إذ الفقه هو أساس التصوف، والتصوف ثمرة العمل بالشريعة، فلا يتم أحدهما إلا بالآخر، وقد قالوا: حقيقة الصوفي أنه عالم عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص، فمن أنكر ذلك فهو علامة علىٰ شدَّة جهله. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من تأمل في قوله ﷺ: «فعلمتُ علم الأولين والآخرين»(١) علم أن جميع آلات الشريعة من نحو وفقه وأصول وبيان ونحوها كله من جملة علوم رسول الله ﷺ، فكيف يُقدَح فيمن يُعلِّمها أو يدرِّس فيها؟! فإن أمهات علوم الشريعة ثلاث: التفسير والحديث والفقه، والعالمون بهذه الثلاثة هم علماء الإسلام حقيقة، لأنهم هم الذين استنبطوا الأحكام من الكتاب والسنة، وردوا الحوادث المتجددة إلىٰ أصولها من النصوص، فحمىٰ الله تعالىٰ بهم الدين.

وأعظم مقام في العلم علماء التفسير، لمعرفتهم بوجه التفسير وعلم التأويل، ومذاهب أهل اللغة من العرب، وغرائب النحو والتصريف، وأصول القصص، واختلاف وجوه القراءات، وتبحروا في لغة العرب حتىٰ عرفوا مجازاتها واستعاراتها، فاتسع بطريقهم علوم القرآن علىٰ الأمة.

وكذلك أهل الحديث ميزوا بنقدهم بين الحسن والصحيح والضعيف، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامي الرجال، وحكموا بالجرح والتعديل، ليتبين الصحيح من السقيم، والمعوج من المستقيم، وحفظ الله بطريقهم طريق الرواية والسند، وبذلك حُفظت السنة المحمدية.

وأما الفقهاء رضي الله عنهم فانتدبوا لاستنباط الأحكام، والتفريع في المسائل ومعرفة التعاليل، ورد الفروع إلىٰ الأصول بالعلل الجوامع، واستوعبوا الحوادث بذكر النصوص، وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه، مع تفريع شيء من أصول الدين. وكان من جملة علم الفقه علم الفرائض المشتمل علىٰ قسمة المواريث علىٰ أربابها، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة إلىٰ غير ذلك، فتمهدت بالعلماء الشريعة وآلاتها وقامت علىٰ

(١) تقدم تخريجه.

ساق، وما علينا بعد ذلك من دخول الآفات في علومها، ولا محبة علمائها للدنيا. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وتأمله فإنه نفيس، وإياك والمبادرة [بالإنكار] علىٰ الفقيه إذا أنكر علىٰ الصوفي وعكسه، فإن ذلك جهل بالشريعة والحقيقة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلامذته: اجعلوا الناس في أعينكم كالبهائم؛ فلاث به الناس وقالوا: في ضمن هذا إزراء بالعلماء والصالحين والأكابر، وذلك مذموم شرعًا.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه ربما قصد بذلك عدم مراعاة الخلق في العبادات، والوقوف مع نظرهم إليه حال فعلها، كما لا يراعي البهائم، ليخرج من الرياء ويخلص نيته في أعماله، ولم يقصد بذلك احتقار الناس ولا ازدراءهم، بقرينة قوله ﷺ: «لا يكمل إيمان عبد حتىٰ يكون الناس عنده كالأباعر»[1]. انتهىٰ.

وأجمع القوم علىٰ أن جميع الآفات التي تدخل علىٰ المريدين ترجع إلىٰ وقوفهم مع ملاحظة الخلق، وأن باب دخول الآفات لا يُغلَق عندهم إلا إن قطعوا النظر عن الخلق، وخرجوا عن التقييد بعوائدهم. وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: ما وقف أحد مع هؤلاء الخلق وراعاهم في أعماله وأحواله إلا سقط من عين رعاية الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا وقع أحد من أقرانه في مصيبة، وأخذوه إلىٰ بيت الوالي، فأرسل الشيخ أو العالم قاصده، أو ذهب هو إلىٰ بيت الوالي ليستفهم منهم الخبر الصحيح، وصاروا كلما يقولون له: إن الأمر الذي اتهموه به غير صحيح؛ فيقول: انظروا ما تقولون! أنا عندي أنه صحيح! فلاث به الناس وقالوا: هذا من

---

(١) قال الزبيدي قال العراقي: لم أجد لَهُ أصلا فِي حَدِيث مرفوع. قلت: وفي كلام أبي الدرداء ما يشبهه فإنه قال: إنك لا تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في جنب الله ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون لها أشد مقتًا للناس. رواه أحمد في الزهد. إتحاف السادة المتقين (١٣/ ١٥٦).

أدل دليل علىٰ أن هذا عدو، وبلغ ذلك إلىٰ المصاب، فصدَّق الناس في أنه عدو له، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ حمل الشيخ أو العالم علىٰ العداوة، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه إنما أرسل قاصده إلىٰ الوالي أو ذهب هو إليه ليستفهمه عن حقيقة الأمر، ليحمل همه ويدعو له بالصبر أو التصبر، ولمن رماه أو شمت فيه بالمغفرة.

وقد وقع مثل ذلك لبعض الإخوان، فخاف صاحب المصيبة وقال: أما بلغك ما فعله فلان الذي هو أعز أصحابي؟ فقلتُ له: وما ذاك؟ فقال: ذهب إلىٰ مقدَّم الوالي، وصار يستفهم منه خبري ليشمت بي. فقلتُ له: ولم لا تحمله علىٰ أنه إنما استفهم جماعة الوالي عن خبرك ليحمل همك؟! فقال: إنهم صاروا كلما أبرؤني يقول: انظروا الأمر مليحًا. فقلتُ له: يحمل علىٰ أنه فعل ذلك ليحمل همَّك بعزم وقوة. فقال: هذا أبعد من بعيد. فقلتُ له: إذا احتمل فعل أخيك أمرين أحدهما يسر، والآخر يغم، فلأي شيء تحمله علىٰ الذي يغم ويشوش علىٰ نفسك؟! فما درىٰ ما يقول. فقلتُ له: إياك وسوء الظن بأخيك، أو أن تنسخ ما تعلمه من محبته السابقة بأمور لاحقة الغالب علىٰ أهلها عدم تحقيقها. فاعلم ذلك، وكن حسن الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا كالباب لا أتحرك إلا إن حُرِّكت؛ فلاث به العلماء وقالوا: هذا زندقة، لأن فيه إحالة للأشياء علىٰ الله تعالىٰ وحده دون الخلق، وفي ذلك انخلاع عن الدين ورسمه بالكلية، لإبطال إقامة الحدود الشرعية كلِّها، بأنه ينبغي حمله علىٰ أنه قال ذلك مع مراعاته لأحكام الأصول، والتزام حدود العبودية، كأن يعتقد أن أصل الأشياء كلِّها من تقدير الله عزَّ وجلَّ، وأن علىٰ العبد اللوم في سائر المخالفات، وهذا قصد حسن.

ولا يجوز حمله علىٰ أنه يعتقد الجبر في أفعاله، ويرىٰ أنه لا فعل له مع الله بوجه من الوجوه، ويسترسل في المعاصي والشهوات، ويركن إلىٰ التظالم والغفلة، ويرفض أحكام الشريعة جملة، لأن حال الأشياخ في رتبة المريدين يخالف هذا كله، فاعلم ذلك أيها الأخ، وظن بالأشياخ خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: والله إن فلانًا قد أصبح في خير عظيم، ومن حين صحبناه وهو يسهر معنا الليالي في العبادة؛ فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: مثل هذا لا يليق بالفقير النطق به، لأن في ضمنه مدح نفسه بقوله: سهر معنا.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه إنما قصد مدح ذلك الصاحب، بقطع النظر عن مدح نفسه، كأن قال ذلك في غفلة كما يقع فيه كثير من الساذجين، فليتنبه الفقير لمثل ذلك، فيسقط قوله «معنا»، لئلا يلوث به الحذَّاق من الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا خاطب اليهودي أو النصراني مثلًا بالألفاظ المفخمة، كالمعلم والأسطىٰ ونحو ذلك، ولاث به الناس وقالوا: هذا لا يجوز، بل صرَّح بعض الحنفية بكفر من خاطب الكافر بقوله: يا معلم.

والجواب: أنه يُحمَل علىٰ أنه قال ذلك سهوًا أو جهلًا بكراهة ذلك أو تحريمه، وكثيرًا ما يقول الإنسان لليهودي: يا سيدي، سبق لسان، فلا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار في مثل ذلك، فإن العالم ربما قصد بتفخيمه المذكور إمالة قلبه للإسلام، كما فرش النبي ﷺ رداءه لبعض المشركين وأجلسه عليه[1]، فاعلم ذلك، وإياك وحمل العلماء والأشياخ علىٰ غير المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يفضل نفسه علىٰ بعض مشايخ الطريق، وعن الشيخ الذي يفضل نفسه علىٰ بعض العلماء، ولاث الناس به وقالوا: ما يمدح نفسه إلا إبليس، بأن العالم معذور في تفضيل نفسه، لظهور علمه المتعدي نفعه إلىٰ الخلق، وخفاء علم الصوفي، فلا يكاد العالم يرىٰ مع الفقير علمًا يتميز به، ومعلوم أن التفضيل في كل جنس إنما هو بحسب ما يظهر.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢٦٦) من حديث جرير قال: «لما بعث النبي ﷺ أتيته لأبايعه. فقال: لأي شيء جئت يا جرير؟ قلت: جئت لأسلم علىٰ يديك. قال: فدعاني إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: فألقىٰ إليَّ كساءه ثم أقبل علىٰ أصحابه فقال: إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه» والبيهقي في «السنن» (١٦٦٨٧).

وأما الصوفي إذا فضَّل نفسه فربما كان بحق، لأنه زاد علىٰ العالم عادة بمراعاة سرائر الأعمال، وحفظها عن الرياء والحظوظ النفسانية، فكلُّ صوفيٍّ فقيه ولا عكس. ولا تظن يا أخي أن القوم يريدون بالصوفيِّ من كان قليل العلم كثير العبادة، كما هو مشهور بين العوام، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي قدم من سفر، فبدأ بالسلام علىٰ أبناء الدنيا وأخَّر العالم الكبير أو الشيخ إلىٰ الآخر، فلاث بعض العوام به وقالوا: إن الذي كان ينبغي له تقديم زيارة أبناء الآخرة علىٰ أبناء الدنيا، بأنه ربما فعل ذلك تعظيمًا لذلك الشيخ، وإظهارًا لبيان مقامه في التواضع، وعدم تكدره من تقديم الناس [عليه](1) في الزيارة.

وقد فعل معي نحو ذلك الأخ الصالح القاضي درويش الرومي لما قدم مصر، فبدأ بزيارة الأكابر من أبناء الدنيا وأخرني إلىٰ آخرهم، وقال لي: والله ما أخرتُ السلامَ عليك استهانة بحقِّك، وإنما قصدتُ بتأخير السلام عليك غسل الدَّرَن الذي يحصل لقلبي وبدني من زيارة أبناء الدنيا. انتهىٰ. فينبغي حمل العلماء والأشياخ علىٰ مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر مريده في كلمة قالها في عرض يهودي أو نصراني، فلاث به بعض الجهلة وقال: كيف يهجر مسلمًا موحِدًا في غيبة شخص غضب الله عليه؟! بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا هجر مريده في غيبة يهودي مثلًا، لأن الغيبة حرام في حقِّ الكفار كالمسلمين، وقد قال ﷺ: «من ظلم ذميًّا كنتُ خصمه يوم القيامة»(2)، أو كما قال، ولا شك أن الغيبة للذميِّ ظلم له.

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٠٥٢) من حديث أبي صخر المديني «أن صفوان بن سليم، أخبره عن عدة، من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم دنية عن رسول الله ﷺ قال: ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة» والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٨٧٣١).

وبلغنا عن سفيان الثوري أنه دخل عليه طبيبان كافران، فقال: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة، لقلتُ: إن أحدهما أطبُّ من الآخر. وروىٰ الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعًا، فقال: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا ففجوره علىٰ نفسه»[1]. وفي رواية: «وإن كان كافرًا»[2] ذكرها الحافظ المنذري[3]. ووقع رجل مرة في عِرْض الحجاج بحضرة محمد بن سيرين، فقال للواقع: اعلم يا أخي أن الله تعالىٰ حكم عدل، فكما ينتقم من الحجاج، كذلك ينتقم للحجاج. انتهىٰ.

وكان ميمون بن مِهْرَان[4] ﵀ يقول: من وقع في ظلم لأحد وأراد أن يتحلل من مظلمته فلم يقدر، فليستغفر الله تعالىٰ له دبر كلِّ صلاة، فإنه يخرج من مظلمته إن شاء الله تعالىٰ.

وكان الشيخ أبو المواهب الشاذلي ﵁ يقول: رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا محمد، إذا وقعت في غيبة أحد ولم تبلغه، فاقرأ سورة «الفاتحة» و«الإخلاص» والمعوذتين، وصلِّ عليَّ، ثم اجعل ثواب ذلك في صحائف من اغتبته، فإن ذلك كفارة لتلك الغيبة. وفي رواية: «فإن الثواب والإثم يتجاذبان فيغلب الثواب».

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الشيخ إذا هجر من اغتاب ذميًّا، فإنما هجر من كان خصم رسول الله ﷺ يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يعتني بالبدعة المكروهة، ويشدد في إنكارها أكثر من الزنا وشرب الخمر، فلاث به الناس وقالوا: التشديد في إزالة المنكرات إنما يكون بحسب مراتبها تخفيفًا وتشديدًا، فلو عكس هذا الأمر لكان أفضل، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم، فربما كان قصده بالتشديد في إزالة البدعة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨٧٩٥)، وابن أبي شيبة (٢٩٣٧٤)، والطبراني في الدعاء (١٣١٨).

(٢) أخرجها الطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٢٧).

(٣) ذكرها المنذري «الترغيب والترهيب» (٣٣٧٢) بلفظ: «وإن كان فاجرًا ففجوره علىٰ نفسه».

(٤) بالأصلين: ميمون. والصواب ما أثبتناه.

المكروهة خوفه أن يتوهم أحد أنها من جملة الشريعة المأمور بها، فيثبتها في الدين، ويدوم عمل الناس بها، فشدد فيها، بخلاف المعاصي الظاهرة، فإنها معروفة للخاص والعام، فلا يخاف أن أحدًا يلحقها بالطاعات.

قالوا: ومن الفرق بين العاصي والمبتدع أن العاصي يعرف قبح معصيته، ويعلم صدق من أنكرها عليه، ويلتمس التوبة منها ويرجو العفو. وأما المبتدع فيعتقد أنه علىٰ حقٍّ، وأن الذي ينصحه علىٰ باطل، فلا تصح له توبة، ولا يُرجَىٰ له فلاح، كما عليه الروافض والمعتزلة.

وقد بسطتُ الكلام علىٰ البدع في الباب الثالث عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» وذكرنا أن البدع تنقسم إلىٰ خمسة أقسام: إلىٰ واجب، وإلىٰ مندوب، وإلىٰ حرام، وإلىٰ مكروه، وإلىٰ مباح، فالواجب كتعلم النحو، والحرام كاتباع مذهب القدرية، والمندوب كإحداث الربط والمدارس، والمكروه كزخرفة المساجد، والمباح كتوسيع الأكمام. قالوا: تعرف ميزان هذه الأقسام بما يوافق قواعد كلٍّ منها، فما وافق قواعد الوجوب فهو واجب، وما وافق قواعد الحرام فهو حرام، وهكذا.

فمن قواعد الواجبات تدوين القرآن والشريعة إذا خيف عليهما الضياع، فإن التبليغ لمن بعدنا واجب إجماعًا، وإهمال ذلك حرام إجماعًا. **ومن قواعد المحرَّمات** المكوس والمحدثات من النُّظم[1] المخالفة لقواعد الشريعة، كتقديم الجهال علىٰ العلماء في تولية المناصب الشرعية التي لا يصلحون لها.

[**ومن قواعد المندوبات**: مخالفة الولاة والقضاة لما عليه السلف الصالح من الورع والعفة][2]. **ومن قواعد المكروهات** أن تتناول تلك البدعة أدلة المكروهات، كأن يزيد في المندوبات المحدودات كالتسبيح عقب الصلوات علىٰ العدد المشروع، أو يزيد في صاع زكاة الفطر، لأن ذلك سوء أدب مع الشارع ﷺ. قالوا: والزيادة في الواجب أو عليه أشد

(١) بالأصلين: الظلم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) ساقط من «ب».

في المنع، لمخالفته لغرض الشارع في محبته التخفيف على أمته. ومن قواعد المباحات ما تتناوله أدلة الإباحة، كاتخاذ المناخل للدقيق، لأن لين العيش وإصلاحه من المباحات.

وأما حديث: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[1] محمول على البدع المحرَّمة، كما تشهد له قواعد الشريعة. فاعلم ذلك وتأمله واحفظه، فإنه نافع، وإياك والمبادرة إلى الإنكار على من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا ترك النصح لإخوانه، وسكت على ما يراهم يفعلونه من المنهيات، ولاث به الناس وقالوا: النصح واجب عليه، فكيف يتركه؟! بأنه ربما كان في نصحه لأصحابه أو نهيهم عما هم فيه مفسدة ترجح على مفسدة السكوت، كأن يقطعوا في عرضه ويرموه بالعظائم بين الأعداء، حتى يُشتَهر بذلك بين الخاص والعام إذا نصحهم.

وكان سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني ﷺ يقول: ما بقي من مراتب إنكار المنكر إلا الإنكار بالقلب، والهجران بسياسة إن غلب على ظنه أن الهجران يصلح ذلك العاصي، فإن غلب على ظنه أنه يورث الفتنة والشحناء تركه. وكذلك النصيحة إذا غلب على ظنه أنها تورث عداوة وبغضاء تركها، وكيف يقبل نصيحتك من يعتقد عداوتك؟!

فاعتبر يا أخي حالك مع من تنصحه، فإن رأيتَ المحبة لك تبقى إذا نصحته، فانصحه برفق. وإن رأيتَ العداوة تبدو منه إذا نصحتَه، فاطلب السلام، وافزع إلى العزلة، وادعُ له بالإصلاح، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجيب عن طلبة العلم المتظاهرين بمحبة الدنيا، والمزاحمة على صحبة الأمراء، ولاث به أقرانه وقالوا: هذا مداهن في دينه، وإنما اللائق به النصح لهؤلاء والتوبيخ والتقريع لهم، لينزجروا ويحموا خرقة العلماء

---

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي (١٥٧٨) بلفظه، ومسلم (٨٦٧)، وابن ماجه (٤٥)، مقتصرًا على «وكل بدعة ضلالة».

من وقوع الناس في أهلها، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا حمله على المداهنة، وإنما ينبغي حمله على أنه قصد بالجواب عن هؤلاء أن يميل خاطرهم إليه بالمحبة، ثم ينصحهم بعد ذلك.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين إذا أراد أن ينصح عالمًا قد وضع علمه في نفسه دون روحه، يطعمه الحلوى ويهدي إليه بعض فضة، ويقول: قد جاء على يدنا شيء من الزكاة فتذكرتُكم، فلا تؤاخذونا بقلته. وكان يقول: هذه من أعظم السياسات، فإن الفقيه لا يعتقد في طائفة الفقراء أنهم أعلم منه ولا أورع ولا أزهد أبدًا، فكيف ينقاد لنصحهم له؟! انتهى.

وكان إذا رأى فقيهًا لا يعمل بعلمه، يأتي إليه بكتاب «الترغيب والترهيب» ويقول: مقصودي أصحح عليكم هذه الأحاديث خوفًا من اللحن، ثم يقرأ عليه نحو حديث الشيخين مرفوعًا: «إنه ليُؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيمرُّ عليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، مالك؟! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بلى، كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه»[١]، ونحو حديث الطبراني بإسناد حسن مرفوعًا: «مثل الذي يعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[٢]، [ونحو حديث الطبراني وغيره مرفوعًا: «الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يُبدَأ بنا قبل عبدة الأوثان؟! فيُقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[٣]][٤] ونحو حديث الطبراني والبيهقي مرفوعًا: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالـمًا لم ينفعه الله بعلمه»[٥].

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٦٨٥)، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (٧٠) وأحمد في «الزهد» (١٠١٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٦).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٤٢) والطبراني في «الصغير» (٥٠٧).

ثم لا يزال يذكر ما ورد من الأحاديث لذلك الفقيه وهو يوهمه أنه يصححها عليه، وإنما قصده أن الفقيه يتعظ بكلام نبيه ﷺ لا غير. وكان يقول مرةً: من لم يتعظ بكلام نبيه ﷺ لا يتعظ بكلام أفضل الدين.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل أشياخ الطريق إذا أجابوا عن الفقهاء على المحامل الحسنة دون المداهنة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٥٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي لا يؤمن بولاية مشايخ زمانه كلِّهم، وإنما يؤمن ببعض، وينكر ولاية بعض، ولاث به المتصوفة وقالوا له: من أين لك معرفة الوليِّ من غيره وأنت لم تدخل [حضرة][1] أولياء الله تعالىٰ؟! بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، فإن الاعتقاد وعدمه إنما هو من باب الاجتهاد، فمن أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ ولاية أحد أو نفيها عنه، فهو مع اجتهاده، ولم يزل الأولياء أخفياء في كلِّ عصر بين العلماء، فتقول للعالم: أما تؤمن بأن لله تعالىٰ أولياء؟ فيقول: نعم، ذلك بنص القرآن. ثم إذا ذكرتَ له أحدًا من مشايخ العصر وذكرتَ له خصوصياتِه، يأخذ في معارضتها ويقول: ليس هذا منهم، حتىٰ لو عرضتَ عليه مشايخ الدنيا كلهم يزنهم بميزان عقله، ولا يلزمه غير ذلك، فمن أمره بالجزم بولاية أحد من مشايخ عصره، فقد كلَّفه شططًا. فأثبت يا أخي ولاية أحد عنده، ثم اعترض عليه إذا أنكر عليه، وما لم يثبت ذلك عنده، فلا يلزمه اعتقاد الولاية في أحدٍ علىٰ التعيين.

وقد جاءني مرة فقيه وقال لي: قد جعلتُ للوليِّ ثلاثين علامة، من لم تكن فيه، فلا أعتقد ولايته. فقلتُ له: لا يعرف علامة الوليِّ إلا الوليُّ، فمن أين علمت صفات الأولياء؟! إنما ذلك أمر جعلتَه بعقلك، وصدك به إبليس عن الانتفاع بأولياء عصرك، وقال لك: كلُّ من لا يكون فيه هذه الخصال، فلا تعتقده، فحُرِمتَ الإمداد.

وقد كان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: لا يعرف أولياء الله إلا من دخل حضرته، ولا يدخل أحد حضرته إلا إن كان مُطهَّرًا من سائر الذنوب، إما بعدم

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

الوقوع فيها أصلًا، وإما بقبول توبته إذا وقع، ومن أين للفقيه الوصول إلىٰ معرفة مثل ذلك حتىٰ يعرف أولياء الله في تلك الحضرة؟! ولذلك يقول: أنا مؤمن بأولياء الله، وإذا عينتَ له أحدًا منهم [ما](١) آمن به. ومعلوم أن أولياء الله علىٰ أقدام الرسل، فكما لا يصح إيمان من كفر ببعض الأنبياء وآمن ببعض، كذلك لا يصح كمال إيمان من كفر ببعض الأولياء وآمن بالبعض، فكيف بمن يكفر بكل من عينتَه له؟! حتىٰ لا يكاد يؤمن بواحد من أهل عصره. ثم يقول: إن هي إلا إسرائيلية! فإن بني إسرائيل آمنوا بموسىٰ حيث لم يروه، وكفروا بمحمد حيث رأوه حسدًا وعدوانًا. انتهىٰ.

فاعذر يا أخي العالم إذا نفىٰ ولاية أحد من مشايخ عصره، فإنه ما تعدَّىٰ دائرة نفسه، ولذلك كان محميًّا من التأثير فيه، لاستناده إلىٰ قواعد علمه. وهذا من جملة رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده، فما آذىٰ أحد منهم وليًّا وهو يعتقد ولايته أبدًا، إنما يقول: هذا نصَّاب، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا خاف من مخلوق، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا وليًّا لله عزَّ وجلَّ، لم يخف من مخلوق، فإن من شرط الوليِّ الخوف من الله تعالىٰ، ومن خاف من الله خافه كل شيء، ولم يخف هو من شيء، فكيف صح من هذا الشيخ الخوف من المخلوقات وهو يدعي الولاية والصلاح؟!

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، ولا يلزم من خوفه من مخلوق قلة خوفه من الله، فقد خاف الأكابر من الأنبياء من الجبابرة كالنمرود وفرعون، ولم يقدح ذلك في مقامهم، وذلك لعدم وقوفهم مع المخلوقات، فإنهم لا يرون في الوجود فاعلًا حقيقةً إلا الله. وإن وقع أنهم خافوا من جبَّار فإنما ذلك الخوف حقيقةً من الله أن يسلِّط ذلك الجبار عليهم، فرجع خوفهم إلىٰ الخوف من الله لا من المخلوق، فافهم. وكأن الحق تعالىٰ أجرىٰ عليهم صورة الخوف، ليقتدي بهم ضعفاء قومهم الذين قصروا بصرهم علىٰ الخلق دون الحق تعالىٰ، رحمةً بأولئك الضعفاء.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: الكامل هو من يخاف من كل شيء يؤذيه، وذلك لسلامته من حكم الحال عليه، بخلاف صاحب الحال لا يخاف من أحد، لقوة حاله وتلاشي الأسباب في عينه.

وقد قالوا: من خاف من شيء دون الله، كان جزاؤه أن يُسلَّط ذلك الشيء عليه، ولو كان ذلك الخائف من أكبر الأولياء، فإن الكامل يعرف أن في ذاته جزءًا يخاف من الخلق يدق ولا ينقطع، وما خرج عن ذلك إلا الأنبياء لعلو مقامهم. ومن قال في الأنبياء غير ذلك، فعليه الخروج من ذلك بين يدي الله عزَّ وجلَّ. وربما استدل بكونه ﷺ اتخذ له حرَّاسًا لما خاف إلىٰ أن أنزل الله تعالىٰ عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فترك اتخاذ الحرس(١)، وذلك لا يصلح دليلاً، لأنه يفعل ذلك تشريعًا لضعفاء أمته، وإذا تطرق الاحتمال سقط الاستدلال. وقد قالوا لعلي بن أبي طالب: ألا نتخذ لك حارسًا يحرسك من أعدائك؟! فقال: حارس كل إنسان أجله. فإذا كان هذا قول الإمام عليّ، مع كونه فرعًا من فروع رسول الله ﷺ، فكيف بسيد الأولين والآخرين؟! فاعلم ذلك، ولا تخض في مقامات الأكابر إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رماه بعض العلماء بالزندقة والعظائم، وصار يدعو عليه ذلك الشيخ فلا يُستجَاب له، فقال الناس: لولا أن ما قاله هذا العالم فيه صحيح، لكان أهلكه الله تعالىٰ، بأنه لا يلزم من عدم استجابة دعاء الشيخ علىٰ العالم أن يكون مبطِلًا في كونه مظلومًا، فقد يكون الشيخ مظلومًا، والعالم معذورًا.

وقد وقع أن بعض أشياخ الطريق بمدينة بغداد انتصب(٢) شخص من العلماء لمعاداته، وصار يرميه بالعظائم، وجماعة الشيخ يدعون علىٰ ذلك العالم فلا يُستجَاب لهم فيه، فبلغ ذلك الشيخ فقال: لو دعوتم عليه إلىٰ أن تقوم الساعة لا يُستجَاب لكم فيه؛ لأنه محروس بنيته، وذلك أنه يعتقد فيَّ أنني زنديق فاسد العقيدة، فهو يريد قتلي أو

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٤١٨)، وفي الأوسط (٣٥١٠).

(٢) بالأصلين: يندب. والصواب ما أثبتناه.

إخراجي من بغداد ليستريح الناس مني، ولو أنه كان يؤذيني بحظٍّ نفس، لأهلكه الله من أول ما دعوتم عليه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واعذر الفقيه إذا أنكر علىٰ فقير، ولا تزدري الفقير إذا دعا فلم يُستجَب له؛ لأنه لا يدعو علىٰ أحد إلا مع التفويض إلىٰ الله ورد العلم في ذلك إليه، فيقول: اللهم افعل كذا إن كان فيه مصلحة لي أو لغيري، فإذا وقع له بعد ذلك ردٌّ كان جبرًا له، ولا يقدح ذلك في مقام ولايته، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ترك القرب من زوجته مدة طويلة، وطلبت منه الطلاق، فلم يفعل، فلاث الناس به وقالوا له: إما تقضي وطرها، وإما تطلقها، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن الوطء بالأصالة حقه فله تركه، وربما اطلع من طريق كشفه أنه لا نصيب لها في التزوج بغيره، فلم يجبها إلىٰ الطلاق، وربما كان عدم إجابتها للطلاق إنما هو شفقة علىٰ دينها، عملًا بحديث: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة»[1]، وربما اطلع الشيخ من طريق كشفه أن طلبها منه القرب منها إنما هو بطر وشره نفس لغفلتها عن الله تعالىٰ، فأراد بذلك رياضة نفسها، لأنها مع الشيخ كالمريد في باب التربية، فإذا أجابها إلىٰ شهوة نفسها فقد غشها.

واعلم يا أخي أن بعض الفقراء ربما استحكمت فيه هيبة الله تعالىٰ لاستيلاء الغيرة الإلهية علىٰ قلبه، فصار كلما قرب من زوجته أخذه الحياء من الله والخشية والرعدة حتىٰ يكاد يذوب جسمه، كما يؤيد ذلك حديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش»[2].

ومما وقع لبعض الفقراء أنه قرب من زوجته غافلًا عن ربه عزَّ وجلَّ، فلما صار منها بمكان برز له ملك بدبوس وأراد يضرب رأسه وقال له: إلىٰ متىٰ أنت غارق في شهوات نفسك؟! فلم يقرب بعد ذلك من زوجته حتىٰ مات.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٢٥٨) بلفظه، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وأحمد (٢٢٣٧٩) بنحوه

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وأحمد (٢١٥١٦).

إليه ﷺ، وإنما ذكرها عن بعض العارفين من أهل الاجتهاد في الطريق، وما استحسنه المجتهد فهو حسن.

وصورة دعاء هذه الاستخارة أن يقول: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم لا أعلم، وأنت علّام الغيوب، اللهم إن كنتَ تعلم أن جميع ما أتحرك فيه أو أسكن في هذا اليوم من هذا الوقت إلىٰ مثله من الغد، ويتحرك فيه غيري أو يسكن كذلك، في حقِّ أنفسنا وفي حقِّ غيرنا خيرًا لنا في ديننا ومعاشنا، وعاقبة أمرنا وعاجله، فاقدره لنا ويسره لنا. وإن كنتَ تعلم أنه شرٌّ لنا ولغيرنا في ديننا ومعاشنا، وعاقبة أمرنا وعاجله، فاصرفه عنا واصرفنا عنه، واقدر لنا الخير حيثُ كان، ثم رضنا به يا أرحم الراحمين». انتهىٰ. وإن فعلها كلَّ جمعة قال في دعائه: من هذا الوقت إلىٰ مثله من الجمعة الآتية، ويُقاس علىٰ ذلك الشهر والسنة.

قالوا: فمن فعل ذلك كانت حركاته وسكناته في حقِّ نفسه وغيره كلُّها سعيدة. قالوا: وقد جربنا ذلك فوجدناه صحيحًا، فهو وإن لم يصح فيه شيء عن الشارع، فلنا العمل به من حيثُ التجربةُ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يجتمع عليه أصحاب الحقوق من التجار وغيرهم، فيعلمهم كيف الدعوىٰ بحقوقهم، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يجوز، فقد ورد في الحديث مرفوعًا: «من أعان ظالمًا علىٰ ظلمه، أو لقنه حجة يدحض بها حق امريء مسلم، فقد باء بغضب من الله تعالىٰ»[1]، بأنه لا ينبغي اللوث به إلا إن أدّىٰ ذلك إلىٰ تضييع الحقوق وإبطالها. ويحتاج من يريد معرفة ذلك إلىٰ علم وافر وخلطة شديدة، وإلا فمن كان دونه في العلم أو لم يخالطه، لا يجوز له الخوض في عرضه، والواجب حمله علىٰ المحامل الحسنة، وهي منع المبطِل أن يصل إلىٰ ما طلب، ومساعدة المحِقِّ

---

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي في تنبيه الغافلين من كلام سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ص٣٧٧، ويشهد له الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٩٤٤) من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من أعان ظالمًا بباطل ليدحض بباطله حقًا فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله....» والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٠).

أن يصل إلىٰ حقِّه بالطرق الشرعية، ولا يجوز حمله علىٰ غير ذلك، ومن خالفنا في ذلك، فالآخرة تجمعه هو وذلك العالم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وعد أحدًا بوعد وأخلف، من حضور عنده، أو إعطائه شيئًا مثلًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا من أخلاق المنافقين، وذلك لا يليق بالعلماء والصالحين، بأنه يجب حمله علىٰ أنه لم يخلف ذلك الوعد تهاونًا به، وإنما ذلك لعذر شرعيٍّ من نسيان، أو عدم وجود ما وعد به من وجه حلال، ونحو ذلك، فإنه لا يؤمر[1] أن يعطي أحدًا شيئًا من الحرام والشبهات، كما هو مقرر في علم الشريعة.

وقد اعتذرتُ مرةً لبعض الإخوان بنحو ذلك حين سألني أن أسأل له أحدًا من التجار في شيء ينفقه، ثم نسيتُ ذلك مدة، فلما تذكرتُ لم أجد محلًّا قابلًا للسؤال، فقطع في عِرْضِي ذلك الشخص في عدة مجالس، فاعتذرتُ إليه، فقبل عذري، لكن بعد تعب شديد. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعظم مروءة منك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٦٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان له صاحب من الولاة، فعُزِل وتولىٰ غيره، فأصبح عند المتولي يسلِّم عليه، فلاث الناس به وقالوا: فلان مع كلِّ خيل مغيرة، أيش للعلماء والصالحين مع الظلمة حتىٰ ينحشروا فيهم؟! بأنه يجب حمل ذلك العالم أو الشيخ علىٰ المحامل الحسنة، وأنه لا يصحب أحدًا من الأمراء إلا لله تعالىٰ أو للأغراض الصحيحة، كأن ينصحه ويكفه عن الظلم، أو عن بلص[2] أحد من رعيته، وعن المشي بينهم بالأغراض الفاسدة، أو عن أذىٰ المعزول وجماعته، فإن الغالب علىٰ من يتولىٰ وظيفة أحد أن يكون بينه وبينه عداوة، فإن كان بين هذا العالم وبين المتولي[3] صداقة، فربما قبل شفاعته في المعزول وجماعته، فلم يتعرض لهم بسوء، ولا يخفىٰ أن

---

(١) بالأصلين: لأمر. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بَلَصَهُ من المال: لم يترك له منه شيئًا.

(٣) بالأصلين: السائل. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

العالم لا يصحب الأمير غالبًا إلا لتفريج الكرب على يديه، فلما عُزِل ذلك الأمير، بطلت منفعة ذلك العالم أو الشيخ من صحبته[1]، فتردد للثاني ليفعل معه ما كان يفعله مع الأول من النصح والخير. ولا يجوز حمله على المحامل السيئة والأغراض الفاسدة، فإن ذلك أبعد ما يكون في حقِّ العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ذكر أحدًا بسوء في غيبته، ولاث به الناس وقالوا: كيف يدعي هذا العلم أو الصلاح وهو يستغيب الناس في المجالس؟! بأنه لا يجوز المبادرة إلى الإنكار على مثل هذا العالم أو الشيخ إلا بعد الاطلاع على نيته وقصده، فقد يريد بذكره بنقائصه في غيبته أن السامعين يبلغونها له، ليحصل له التنبيه للتوبة عنها، إذ من شأن البشر أن يأخذ في التطهر[2] عن كلِّ شيء نقصه الناس [به] في المجالس، ولا يحب أن يذكره الناس إلا بالكمالات، فقصد هذا العالم أو الشيخ بما ذكره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن بواسطة غيره، ولم يقصد بذلك محض تنقيصه على محض التشفي. ومن حمل العالم أو الصالح على ذلك، فإنما هو صورة ما في نفسه هو.

ثم إنه إن لم ينزجر من اغتابه العالم أو الشيخ بذلك، فله العود إلى غيبته ثانيًا وثالثًا، وهكذا مادام غرضه صحيحًا، ثم إن كان صالحًا فهو يشكر فضل العالم أو الشيخ، وإن كان فاسقًا فلا عليه منه، فإنه إن غضب منه في الدنيا، فسوف يشكر فضله في الآخرة.

فإياك يا أخي أن تحمل العالم على التشفي والتنقيص والتفكه في أعراض الناس إذا قال: فلان قليل العقل، أو ثوبه وسخ، أو نعله مقطع، أو داره ضيقة، أو حمارته عرجاء، أو واسع الكم، أو طويل الذيل، أو كثير الكلام، أو كبير العمامة، أو يغتاب الناس، أو يحب التعظيم، أو يزاحم على صحبة الأغنياء، أو يحب الدنيا ونحو ذلك، بل الواجب

---

(١) بالأصلين: بينه. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: التغفل.

حمله على الأغراض الصحيحة، فإن العلماء والأشياخ يجل مقامهم عن ازدراء أحد من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أن الله تعالىٰ أطلعه علىٰ عدد من كان في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام من السعداء، فأنكر عليه الناس ذلك وقالوا: هذا يدخل في مشاركة الحقِّ تعالىٰ في العلم الذي اختص به، بأنه قد يكون صادقًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي معلوماته إلا بما شاء، ومثل هذا قد يشاء الله تعالىٰ أن يطلع أولياءه عليه.

وممن أدركتُه من أهل هذا المقام أخي أفضل الدين ﷺ، فإني سألتُه عن عدد أهل الجنة من البشر الذين لا تمسهم النار، فقال: هو ما تحصَّل من ضرب سبعمئة ألف ألف ألف تسع مرات ونصف وسبعة عشر ألف وستمئة وستة وستين وسدسًا في ثلاثمئة وستين ألفًا، لا يزيدون علىٰ هذا واحدًا ولا ينقصون. انتهىٰ. فقلتُ له: فأهل النار؟ قال: لا يحصىٰ عددهم إلا الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي معرفة الطب علىٰ غير قواعد الأطباء المشهورين، [فلاثوا به][1] وقالوا: هذا لا يجوز لأحد أن يعتمد علىٰ كلامه، ويترك قواعد الأطباء الأقدمين الذين أخذ العلماء قديمًا وحديثًا بقولهم، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان طبه أصح من طب هؤلاء الأطباء، إذ مبنىٰ طب هذا علىٰ الكشف الصحيح، ومعلوم أن الكشف الصحيح شبيه بنصوص الشارع في الصدق، وإن كان لا يجب علىٰ أحدٍ العمل به إلا بعد عرضه علىٰ الشريعة المطهرة، فافهم. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: طب الأطباء يخطيء ويصيب، وطب أرباب الكشف لا يخطيء أبدًا. انتهىٰ.

وكان سيدي عليٌّ الخواص كثيرًا ما يصف للناس أمورًا تخالف قواعد طب الأطباء،

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ويكون في ذلك سرعة الشفاء. وكان ﷺ لا يتوقف في طبِّه علىٰ رؤية المريض، ولا مس نبضه[1]. ولما مرض ولدي عبد الرحمن الذي من حليمة القصبية وأشرف علىٰ الموت، وعجز الأطباء عن طبه، أرسل له عزقًا من شجرة نبق، وقال: علِّقوه عليه يبرأ؛ فكان الأمر كذلك في الحال، وكأنه لم يكن به مرض.

ولما أطعمتْ ابنةُ الشيخ الصالح محمد العجمي الذي كان ينشد كلام سيدي عمر بن الفارض والدَها المذكورَ السمَّ، عجز أطباء البيمارستان عن تشخيص مرضه، فأرسلتُه للشيخ عليّ، فأول ما رأىٰ وجهه عرف أن ابنته أطعمته السم، ولم يكن للشيخ محمد علم بذلك، فقال له: الله تعالىٰ يأخذ حقَّك منها. فقال: يا سيدي من هي؟! فقال: ابنتك أطعمتك سمًّا في قَطْر. فقال: صحيح! أكلتُ عندها زلابية أمس وغمستها بقَطْر[2]. فقال: اذهب إلىٰ غيط فلان، وأعطيه نصفًا وخذ به نارنجًا[3]، وكل منه ما تقدر عليه بشحمه، فكان شفاؤه بذلك.

ولما حصل الاستسقاء لزوجة صاحبنا الحاج محمد الملقب بـ«جزيرة» بناحية إبيار[4]، عجز عنها الأطباء، فأرسلتها إلىٰ الشيخ عليّ، فقال لها: كلي سبعة أيام ورق الفجل أول النهار وعند النوم، ومصي عليه عود السوس؛ فكان الشفاء في ذلك، فقال له أخي أفضل الدين: ألا تكتب هذا الطب؟ فقال: لا؛ لأن السرَّ في ذلك استعماله بالإشارة منا، وإلا فهذه الأمور لا تفعل هذه الأفاعيل بنفسها.

وسمعتُه ﷺ يقول: إذا مرض أحد من الفقراء، فانظروا في أمره، فإن وجدتُم في نفسه هيجانًا، وفي قلبه نيرانًا، وفي بدنه طيشانًا بسبب حال قاهر، فلا تتعبوا نفوسكم فيه، ولا

---

(١) بالأصلين: مسك بنصة.

(٢) القطر: شربات الحلوىٰ المعقود من الماء والسكر.

(٣) النارنج: شجر مثمر من الفصيلة البرتقاليّة دائم الخضرة، ثمرته لُبّيّة ذات عصارةٍ حمضيَّة مُرَّة، وأزهاره بيض ذوات رائحة طيِّبة تُستعمل في صُنع العطور، وقشرة الثّمرة تستعمل في عمل المرَبيّات وفي الطبّ دواء.

(٤) إبيار: إحدىٰ قرىٰ مركز كفر الزيات التابع لمحافظة الغربية بمصر.

تدعوا له طبيبًا، بل ادعوا له بتخفيف المرض وانصرفوا، فإن محله لا يقبل التطبب؛ وإن وجدتم حاله كحال الأموات لشدة الألم الذي في باطنه، والضعف الذي في بدنه، والانحطاط الذي في روحه، ومع ذلك كثير الغيبة والاستغراق، فذلك فتوح من الله تعالىٰ قَبِلَه محلُّه بقوة الاستعداد، وليس ضعفه من ضعف المزاج حتىٰ تعرفه الأطباء، فإنهم لا يعرفون من الأمراض إلا ما كان سببه المزاج المتولِّد من الطعام والشراب لا غير. فاعلم ذلك يا أخي، وسلِّم للأولياء ما يدعونه من الطب، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا رأيناه يعظِّم الأمير أعظم ما يقع منه للفقير، ولاث الناس به وقالوا: إنه لا يعظمه إلا للدنيا، بأنه لا يجوز حمله علىٰ ذلك، فربما كان تعظيمه له لكثرة نفعه للعباد والبلاد، أو لكونه كثير التواضع كما هو الغالب علىٰ الولاة، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه»[1]، ومن ر فعه الله استحق التعظيم. وربما كان الأمير الكبير أشد تواضعًا من الفقراء من بوَّاب داره، بل من كثير من المتصوفة الذين يدعون الصلاح.

وقد دخلتُ مرةً علىٰ الوزير علي باشاه لما كان نائبًا في مصر، فقام لي عن الكرسي الذي كان تحته، وجلس علىٰ كرسي دونه، وقبَّل يدي، وقدَّم لي نعلي، ووضعه بيده في رجلي، وهذا لا يفعله أحد من متصوفة زماني معي إلىٰ وقتي هذا.

وكذلك لما دخلت علىٰ الأمير عامر بن بغداد في مولد سيدي أحمد البدوي، وكان في دواره نحو العشرة آلاف نفس ما بين أمراء ومشايخ عرب وتجار وغيرهم، فقام عن الكرسي وأجلسني مكانه، ووقف بين يدي، وعجزتُ فيه أن يجلس فلم يرض، ولما ركبتُ حلف أني أضع رجلي[2] علىٰ وركه حتىٰ أركب، فخلعتُ نعلي لأجل يمينه، ووضعت رجلي من غير نعل، فمسك النعل وقبَّله بحضرة هؤلاء الخلائق، فاستحييتُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٣٥)، والبيهقي في الشعب (٧٧٩٠).

(٢) بالأصلين: نعلي. والصواب ما أثبتناه، بدلالة السياق.

من الله تعالىٰ أن ألبس ذلك النعل مع وضع الأمير فمه عليه، فقطعتُ موضع فمه، وأعطيتُه لبعض أصحابي، فوضعه عنده في علبة.

فانظر يا أخي وقس بعقلك هل يفعل أحد من أقرانك معك مثل ذلك، ثم يرىٰ لنفسه الشرف بذلك؟! تعرف أن هؤلاء الأمراء من أشد الناس تواضعًا لعلو مقامهم، بخلاف من كان منخفض المقام، فإن عنده من النفس ما لا يوصف. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والزموا الأدب مع العلماء والصالحين، فإنكم دونهم في العلم والعقل والخوف من الله تعالىٰ، والزهد في الدنيا بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحب أعداءه أكثر من أصدقائه، أو الشيخ الذي يذكر الناس بالسوء من أصدقائه وأعدائه، ولاث الناس به وقالوا: فلان لا يعرف الصديق من العدو، وهو قائم في حظ نفسه، يذم بغير حقٍّ، ويمدح بغير حقٍّ، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار بمجرد ما ذُكِر، لأنه ربما كان أصدقاؤه يداهنونه ولا ينصحونه، فرأىٰ الأعداء الذين يقعون في عرضه أكثر نفعًا من هؤلاء الأصدقاء بالنظر للثمرة، فإنهم يذكِّرونه بعيوبه ويقبِّحونها في عينه، ليأخذ حذرَه من الوقوع فيها.

وأما وقوعه في غيبة أعدائه، فينبغي حمله علىٰ تنبيههم علىٰ عيوبهم، مجازاةً لهم علىٰ ما فعلوه معه من الخير، لا علىٰ التشفي والتفكه في أعراضهم كما يقع فيه الجهلة، فإن الأشياخ يَجِلُّ مقامهم عن مثل ذلك.

وأما وقوعه في عرض أصدقائه من ورائهم، فربما قصد به فتح باب الوقوع في عرضه، ليتنبه لنقائصه حين رآهم مداهنين له، غاشين له، ويُقال في مثل هذه الأمور: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ»[1]، فإنها تحتاج إلىٰ علم وافر، وميزان دقيق، وخروج عن حظِّ النفس بالكلية، فإن من كان في حظِّ نفسه لا يقدر علىٰ فعل شيء مما ذكرناه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من علامة صدق من يدعي محبة عدوه

---

(١) تقدم تخريجه.

أكثر من صديقه المداهن له أن ينشرح صدره إذا دعاه العدو إلىٰ أن يتلمذ له، فإن أجاب إلىٰ ذلك بانشراح، فهو صادق خارج عن حظ نفسه، وإلا فهو مدعٍ كذاب. انتهىٰ. فاعلم ذلك أيها الأخ، وصدِّق الفقراء فيما يدعون ما لم يدعوا باطلًا كالنبوة، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إياكم أن تناجوا ربكم في صلاتكم مع الحضور، فإن ذلك جهل، وناجوه بحكم الغيبة، فإن ذلك علم؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: الحضور مع الله من كمال الصلاة، فكيف ينهىٰ هذا أصحابه عنه؟! بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ إلا بعد الاستفهام منه ماذا أراد بذلك، فربما أراد بعدم حضورهم مع الحقِّ تعالىٰ تنزيهه عما تخيلوا أنهم حاضرون معه من الأمثال التي تتمثل في خيالهم، ويصرفونها عن قلوبهم فورًا ويقولون: إن الله تعالىٰ بخلاف ذلك، فأراد لهم أن يعبدوه علىٰ الغيبة عن ما تخيل لهم، ويعتقدون أن الله تعالىٰ يراهم ولا يرونه. وهذا أكمل في التنزيه لجناب الحقِّ جلَّ وعلا، فلا اعتراض علىٰ الشيخ، إلا لو نهاهم عن الحضور مع الله مطلقًا، بأن يحضروا مع الأكوان دون الله تعالىٰ، وهذا بعيد أن يقع من آحاد المسلمين فضلًا عن أشياخ الطريق.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: كلُّ من حصل له لذة بمناجاة الحقِّ جلَّ وعلا فهو محجوب بذلك عن الله بسبعين ألف حجاب، لأن حضرة الله تعالىٰ حضرة هيبة وخوف، لبعد الأمر الجامع بين الله تعالىٰ وبين عبده، إذ لا مجانسة[1] بينه تعالىٰ وبين عبده بوجه من الوجوه. ومعلوم أن اللذة لا تكون إلا بالمجانس، ولذلك كان الإنسان يفزع من رؤية الجن والوحوش. قال: ومن هنا كان الأكابر يستغفرون من كلِّ صلاة حصل لهم فيها لذة حال ذكرًا أو قراءة، ويعدون ذلك من سوء الأدب مع الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول مرارًا: مما يَدُلُّك علىٰ أن عبادة الله تعالىٰ مع الغيبة من غير شيء يتمثل في الذهن أكمل كونُ القطب الغوث دائمًا بحجاب[2]، وكذلك جبريل، فقد أجمع

---

(١) بالأصلين: مجالسة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: من غير حجاب. والصواب ما أثبتناه بدلالة السياق.

أهل الكشف علىٰ أن حجابهما لا يُرفَع إلا في الدار الآخرة. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة حسب الطاقة، وإن لم تجدوا لهم محملًا فسلِّموا لهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا توسع في المآكل والملابس والمناكح، ولاث الناس به وقالوا: لو أن هذا تورَّع عن الحرام والشبهات، ما قَدِر علىٰ تحصيل الخبز الحاف، ولا الجبة الخشنة، ولا مهر جارية سوداء، ولا ثمن حمارة عرجاء، بأنه لا يجوز الاعتراض علىٰ هذا الشيخ إلا بعد مخالطة شديدة ومعرفة ما هو عليه، فإن الله تعالىٰ ربما وسَّع علىٰ العبد الدنيا وجرَّد قلبه عن الميل إليها، وقسم له المآكل الفاخرة والملابس الحسنة والمراكب النفيسة من غير تعب وحساب، حتىٰ لو أراد الخروج عن ذلك إلىٰ أضداده لا يقدر، وكيف يقدر علىٰ تغيير القسمة الإلهية؟! فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك في حقِّ العلماء والصالحين، ولا تدخل بينهم وبين مقاصدهم، والحمد لله رب العالمين[١].

(٦٧٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي شكا إليه شخص كثرة ما يقاسيه من ألم العشق لامرأة في الحرام، فأرسل خلف المرأة فأتت، فجمعهما عنده في تلك الليلة، فلاث الجيران به وقالوا: أيش خلىٰ هذا لصاحب جهة بنات الخطا؟! بأنه لا يجوز المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ بمجرد جمعهما عنده، فربما كان قصده بالجمع بينهما من غير تخويفهما وعظهما بحضرة بعضهما بعضًا، لتنفر نفوسهما من الحرام، فإن الجمعية لها تأثير في مثل ذلك، وربما قال لهما: قوما فافعلا ما بدا لكما بحضرتي؛ فإذا امتنعا من ذلك، يقول لهما: الله تعالىٰ أحقُّ بالاستحياء مني. وقد رأيتُ أخي أفضل الدين فعل مثل ذلك، فخرج الشاب والمرأة تائبين، ولم يزالا علىٰ التوبة إلىٰ وقتنا هذا.

وقد كان ﷺ من أحسن الناس كلامًا للعصاة، فإن العاصي كالمريض الذي يشكو مرضه إلىٰ الطبيب، فإذا زجره الطبيب ولم يسمع له شكواه، فاتته المداواة والأجر،

---

(١) راجع الجوابين: (٢٥٨)، (٣٥٧).

وقد ورد في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد أنه ﷺ نهىٰ الصحابة عن كلامهم له بالعنف وقال: «لا تزعجوه حتىٰ يفرغ من بوله، ثم دعاه ﷺ وقال: يا أخي، إن المساجد لم تُبنَ لمثل هذا، إنما بُنِيتْ للذكر والصلاة وقراءة القرآن، ثم دعا بدلو من ماء فصبه علىٰ موضع بوله[1]، وقال: إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[2].

وروىٰ الحافظ الدمياطي بإسناد حسن: «أن شابًا جاء إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به. فقال: أَقِرُّوهُ أَقِرُّوهُ. فدنا منه النبي ﷺ وقال له: أتحب ذلك لأمك؟ قال: لا يا رسول الله! جعلني الله فداك! فقال: كذلك لا يحبه الناس لأمهاتهم. ثم قال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا! قال: كذلك لا يحبه الناس لبناتهم، حتىٰ ذكر الأخت والخالة والعمة، ويقول: كذلك الناس لا يحبونه. ثم وضع رسول الله ﷺ يده علىٰ صدر الشاب وقال: اللهم طهِّر قلبه، واغفر ذنبه، وحصِّن فرجه، فلم يكن بعد ذلك شيء أحب إليه من ترك الزنا»[3]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إذا لاطفوا العصاة وألانوا لهم القول، واحملهم علىٰ أحسن المحامل، فإن حملك العالم الكبير أو شيخ الزاوية علىٰ أنه جمع بين العاشق والمعشوق ليعينهما علىٰ الحرام أبعد من البعيد، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا سمعناه يقول لأمير أو صاحب جهة: لا تخف يا أخي من هذا الظلم الذي وقع علىٰ أيامك، فإنك لم تنزله علىٰ العباد، وإنما الحق تعالىٰ هو الذي أنزله علىٰ الخلق بذنوبهم؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا القول لا يجوز، لأنه كالسعي في هدم قواعد الشريعة، ويجريء الناس علىٰ انتهاك حرمتها وتعدي حدودها، إنما الواجب علىٰ هذا العالم أو الشيخ أن يقبِّح المظالم التي وقعت في

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥) من حديث أنس بن مالك، والبخاري مختصرًا (٦٠٢٥).

(٢) أخرج هذه الرواية البخاري (٢٢٠) وأبو داود (٣٨٠) والترمذي (١٤٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٢١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٣٢) والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩).

أيامه في عينه ويخوِّفه ويزجره أشدَّ الزجر، بأن مثل هذا العالم أو الشيخ لا يجهل هذا الذي قاله الناس، وربما كان له عذر شرعي في ذلك، كأن رآه قد غلب عليه القنوط من رحمة الله عزَّ وجلَّ، حتىٰ كاد يقطع بأنه من أهل النار، فخفف هذا العالم عنه الأمر. ليذهب عنه القنوط، ثم بعد ذلك يعظه ويخوِّفه حتىٰ يبلغ حدَّ الاعتدال في الخوف، فإن وظيفة العلماء **هكذا: يخوِّفون من غلب عليه الرجاء، ويرجُّون من غلب عليه الخوف.**

ولا يجوز لأحد حملهم علىٰ أنهم قالوا ذلك القول للظالم بغير طريق شرعي. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك ولحوم العلماء فإنها سمٌّ قاتل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٧٨) ومما أجبتُ به عن الطبيب المسلم الحاذق إذا قصَّر في مداواة مريض، وطوَّل عليه المرض، فلاث الناس به وقالوا: ما بقي أحد من أطباء المسلمين عنده شفقة علىٰ مسلم، ولعله إنما طوَّل عليه المرض لأجل الفلوس التي يأخذها كلما يأتي إلىٰ المريض، بأنه لا ينبغي اللوث [به][1]، فلعله إنما لم يصف له الدواء الذي يسرع بشفائه لمصلحة تعود علىٰ ذلك المريض، كأن علم منه كثرة الذنوب والبخل، فإذا مرض تصدَّق علىٰ الفقراء وكُفِّرت عنه خطاياه ونحو ذلك. وربما جاء بعده يهوديٌّ فوصف له ما يسرع بشفائه، فيصير الناس يقولون: إن هذا اليهوديَّ أنصحُ من فلان للمسلمين؛ ويصير يمدح اليهودي ويذم المسلم، وغاب عنه أن اليهوديَّ لم يهتد لتلك الحكمة التي رآها الطبيب المسلم.

وقد كان حاتم الأصم ﷺ إذا رأىٰ بخيلًا يتصدق في مرض موته يقول: اللهم أدم مرضه، فإنه تكفير لخطاياه وأفضل للفقراء. انتهىٰ. وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ إذا رأىٰ أحدًا من الشرطة أو الذين يؤذون الناس في أعراضهم قد مرَّ من [أمامه مريضًا][2] يقول: اللهم أدم مرضه حتىٰ لا يؤذي نفسه بأذىٰ المؤمنين، فاعلم ذلك.

(٦٧٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح الذي يموت في حارته أو بلده عالم

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

كبير، فيثني عليه الناس خيرًا، فلا يوافقهم في ذلك ويقول: أنا لا أعتبر شكر هؤلاء الناس كلِّهم؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال: هذا مخالف لقول رسول الله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الارض، فمن أثنيتم عليه خيرًا فهو خير، ومن أثنيتم عليه شرًّا فهو شر»[١]. انتهىٰ.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا العالم الذي لا يوافق الناس في السير علىٰ أمر خاص أنه ينهِض همم أبناء جنسه، ليزيدوا عليه في الأعمال والزهد والورع، فإن الناس كلما تقارب الزمان كانت أعمالهم كبيرة الجرم، قليلة المعنىٰ والإخلاص.

وأيضًا فإن شكر العامة للعالم لا عبرة به، لجهلهم بمقامه الذي خلقه الله تعالىٰ به، ولا يكتفىٰ من العالم بالمشي علىٰ قانون العوام، لابد من تميز كثير عنهم، **فشكر العامة يُعتبَر في العامة، وشكر الخاصة يُعتبَر في الخاصة**. فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل العالم الذي لم يشكر ذلك العالم الميت علىٰ الحسد والبغضاء، كما قد يتبادر إلىٰ الأذهان، فإن ذلك لا يجوز في حق العلماء. وفي التوراة: «من أثنىٰ عليه جيرانه العوام خيرًا فهو من أهل الشر». انتهىٰ. لأنه كان لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولو أنه أمرهم ونهاهم لم يشكروه، بل ربما رموه بالعظائم.

وكان أبو حمزة البغدادي[٢] ﷺ يقول: لا تنظروا لشكر العامة في العلماء إذا ماتوا، ولكن انظروا إلىٰ شكر الزهَّاد والعبَّاد فيهم، فإن العامة قد ترىٰ الحرام فلا تنكره، وتنكر علىٰ الناس المباح، فترىٰ أحدهم يقع في الغيبة والنميمة، والغلِّ والحقد والحسد، والكبر والعجب وغير ذلك، ويرىٰ وقوعها من الناس، ولا ينكر علىٰ نفسه ولا علىٰ الناس، ثم يعتب علىٰ العلماء والصالحين لبس الثوب الذي فيه حرير مباح، أو أكلهم الحلاوة، أو شربهم المُسَكَّر. انتهىٰ.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩).

(٢) شيخ الشيوخ، أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي. جالس بشرا الحافي، والإمام أحمد. وصحب السري بن المغلس. وكان بصيرًا بالقراءات. وكان كثير الرباط والغزو. كان يقول: من المحال أن تحبه ثم لا تذكره، وأن تذكره ثم لا يوجدك طعم ذكره، ويشغلك بغيره. توفي: ٢٦٩هـ وقيل: ٢٨٩هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ١٦٥) و«طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي (٢٢٧)

وكان عيسىٰ عليه الصلاة والسلام يقول: «لا يسب النبي أو الصالح إلا أهل مدينته أو جيرانه»[١] وذلك لأنه ينصحهم، فيكرهونه ويسبونه وينكرون عليه [...][٢] وربما كان أكثر عذرًا في حضوره، وأقل لومًا منهم علىٰ لومهم له. وربما كان دخول العالم أو الصالح مواضع المعاصي ليسوس أهلها بالشريعة حتىٰ يتوبوا

فيُحمَل قول رسول الله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»[٣] إلىٰ آخره علىٰ العارفين لدسائس الأعمال والأحوال، كما كان عليه الصحابة الذين خاطبهم بذلك، ولا منافاة بين ما قلناه وبين الحديث، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٠) ومما أجبتُ به عن القاضي الذي يعتني بتخليص حقوق العلماء أكثر من اعتنائه بتخليص حقوق آحاد الناس. وإذا وقع أحد في حقِّهم، شدد في تأديبه أكثر مما يشدد في حقِّ آحاد الناس، فلاث به بعضهم وقالوا: الحق ليس فيه محاباة، بل كما تحكم علىٰ الوضيع، كذلك تحكم علىٰ الشريف، لا تراعي في الحقِّ أحدًا، بأنه قد يكون تشديده في تخليص حقِّ العالم وتأديب من وقع في عرضه باجتهاد، فلا اعتراض علىٰ الحاكم بذلك. ويؤيده في ذلك قول عكرمة ﷺ: إياكم أن تؤذوا واحدًا من العلماء، فإن من آذىٰ عالمًا فقد آذىٰ رسول الله ﷺ. انتهىٰ. ومعلوم أن من آذىٰ رسول الله ﷺ فللحاكم التشديد في عقوبته، وإن كان صغير المسلمين عند الله كبيرًا كما قاله أبو بكر الصدِّيق ﷺ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: قد قال عبد الله بن عباس: إن المؤمن أعظم حرمة عند الله تعالىٰ من الكعبة[٤]، وأنت لو رأيت إنسانًا يلطِّخ الكعبة بعذرة

---

(١) ذكره المؤلف في «تنبيه المغترين» ص٧٢.

(٢) الظاهر من سياق الكلام وجود سقط هنا في الأصلين.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرًا» أخرجه الطبراني «في مسند الشاميين» (١٥٦٨) والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٦٠).

لكدت أن تكفره، ولا ترىٰ أن الصفع والحبس يكفيه، فإيذاء العالم وإيذاء رسول الله ﷺ أشد من إيذاء الكعبة.

فاعلم ذلك، ولا تعترض علىٰ الحاكم إذا شدد في عقوبة من وقع في عرض عالم، وإياك أن تحمله علىٰ حظِّ النفس، والعصبية مع أهل حرفته، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا زوَّج ابنته أو موليته لعالم، وصار يسمع كلامها في حقِّ العالم، ولا يسمع للعالم، فلاث الناس بالشيخ وقالوا: هذا يقوم في حظِّ نفسه وينصرها، ولا ينبغي أن يكون مثله شيخًا علىٰ الفقراء.

والجواب عنه: بأن ذلك قد يكون لسذاجة لا لحظِّ نفسه، وما كل الرجال أُعطوا الفرقان بين حظِّ الله تعالىٰ وحظِّ نفوسهم، فلما كانت وصلة ابنته به مثلًا أكثر من وصلته بالعالم، سمع لابنته أكثر، ولو أنه بلغ مبلغ الرجال لقدَّم كلام العالم علىٰ كلام ابنته وغيرها، فعلِّمه يا أخي المراتب ثم أنكر عليه.

وقد كان حاتم الأصم ﷺ يقول: كن مع زوج ابنتك أو أختك عليها، تصلح عليهما دينهما، ولا تكن مع ابنتك أو أختك علىٰ زوجها، تفسد عليهما دينهما. انتهىٰ. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: كلام الرجل ولو بلغ الغاية في القبح لا يساوي قبح كلام المرأة. ولذلك قال خلف بن أيوب[1]: خصلتان لا رأي للرجل الكامل معهما: الحقن بالبول، ونقارة المرأة. وكان شقيق البلخي يقول لامرأته: لو كان أهل بلخ كلهم معي وأنت عليَّ لغلبتني.

وقد شكا نبي من الأنبياء سوء خلق امرأته، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إني جعلتُ ذلك حظَّك من سوء العتاب، وقد جعلتُ للرجال علىٰ النساء درجة، فمن لم يصبر علىٰ أذىٰ زوجته له، فكيف يطلب أن يكون له عليها درجة؟! انتهىٰ. فتعلم يا أخي السياسة، وكن

---

(١) بالأصلين: أيوب بن خلف، والصواب ما أثبتناه، وهو خلف بن أيوب أبو سعيد العامري الإمام، المحدث، الفقيه، مفتي المشرق، أبو سعيد العامري، البلخي، الحنفي، الزاهد، عالم أهل بلخ. توفي: ٢٠٥هـ. وقيل: ٢١٥هـ «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٥٤١) «تاج التراجم» لابن قطلوبغا (١٦٦).

مع زوج ابنتك علىٰ ابنتك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا رأيناه يزاحم علىٰ الرئاسة، وينشرح إذا قام من مجلس درسه مثلًا فأكب الناس علىٰ تقبيل رجليه، وصاروا يشيعونه إلىٰ داره، فلاث الناس به وقالوا: فلان يحب الرئاسة والمشيخة، ولو أنه كره ذلك ما قبَّل أحد رجله، ولا تبعه يمشي في ركابه إلىٰ داره، بأنه ربما كان يزاحم علىٰ الرئاسة في ذلك الأمر بحقٍّ، كأن يكون أعلم من أقرانه بعلم الشريعة، أو أقدر علىٰ إنصاف تلامذته من بعضهم بعضًا، أو أقدر علىٰ تخليص خراج الوقف إن عمل ناظرًا، أو أعلم بمداوة أمراض المريدين إن كان مسلِّكًا، وقس علىٰ ذلك كلَّ ما فيه رئاسة.

ولا يلزم من إكباب الناس علىٰ تقبيل رجليه والمشي في خدمته أنه يحب ذلك، فقد يكرهه، ولكن الخلق يفعلون معه ذلك من كثرة اعتقادهم فيه. وإنما كان السلف الصالح يذمون من يفعل الناس معه ذلك، لأنهم كانوا كلهم متواصين علىٰ سدِّ الأبواب التي فيها حظٌّ للنفس غالبًا، كما قالوا في الأشعث بن قيس[1] ﷺ لما مشىٰ معه الناس يشيعونه من المسجد إلىٰ بيته: قاتله الله من جبار! لكونه أول من فعل الناس معه ذلك، وقالوا: هذا فيه فتنة للمتبوع، وذِلَّة للتابع. وفي كلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام: «إذا جعلكم الناس رؤوسًا، فكونوا أذنابًا». انتهىٰ. وكان سفيان الثوري يقول: لا يطلب أحدكم الرئاسة علىٰ إخوانه إلا بعد مجاهدته نفسه في الرياضة سبعين سنة. انتهىٰ.

فإياك يا أخي أن ترىٰ شيخًا قد طعن السن يزاحم علىٰ الرئاسة بعد أن كان يزهد فيها، فتقول: هذا قد ختم عمره بسوء، بل احمله علىٰ أنه ما طلبها أواخر عمره وصار يرىٰ نفسه أحق بتلقين المريدين مثلًا من أقرانه إلا بحق، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٣) ومما أجبتُ به عن العوام إذا مدحوا عالمًا أو صالحًا بالصلاة في وقتها، أو

---

(١) الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، كان شريفًا مطاعًا جوادًا شجاعًا وله صحبة، ورواية. شهد اليرموك والقادسية وغيرها، وسكن الكوفة وشهد مع علي صفين، ت سنة ٤٠هـ بعد استشهاد علي بأربعين ليلة. «الإصابة» (١/ ٢٤٠)، «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٧).

بترك شربه للخمر مثلًا، فلاث بهم أصحاب ذلك الشيخ وقالوا: مدحكم هذا كالهجو! إنما يُمدَح الشيخ بما فوق ذلك من الأخلاق الحسنة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعامة بذلك، فإنهم مدحوا العالم بحسب درجتهم، فيُثابون علىٰ ذلك ثواب من ذكر الناس بخير، فينبغي لمن سمع أحدًا من العوام يمدح عالمًا أو صالحًا أن لا يزجره، بل يعلمه المدح اللائق بذلك العالم أو الصالح، لا بالعامة في غفلة عن أحوال الأكابر.

وقد مدحوا رجلًا عند الفضيل بن عياض مرةً وقالوا: إنه لا يأكل الخَبِيص[1]. فقال: وما ترك الخبيص؟! انظروا كيف صلته للرحم! انظروا كيف كظمه للغيظ! انظروا كيف عطفه علىٰ الجار والأرملة والمسكين! انظروا كيف خلقه مع إخوانه! انظروا كيف احتماله للأذىٰ! ثم إحسانه إلىٰ من آذاه! ونحو ذلك، فهذا هو الأمر الذي ينبغي مدح الرجال لأجله. انتهىٰ.

وكان وهب بن مُنبِّه يقول: بلغنا أن شخصًا كان يصنع البراذع[2] للحمير، فمر عليه المسيح عليه الصلاة والسلام، فوجده يقول في سجوده: يا رب، لو علمتُ أين حمارك الذي تركبه، لأصنعن له برذعة وأرصعها بالجواهر. فحرَّكه السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك أَوَلله تعالىٰ حمار؟! فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ: دعه فإنه مجدني بقدر وسعه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإذا دعا لك أحد من العوام بأن الله تعالىٰ يتوب عليك، فلا تتكدر وتقول في نفسك: إن مثلي تائب، فإن الله تعالىٰ لو أخذك بصغير ذنبك لأهلكك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٤) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا أظهر الغمَّ والحزن، وترك الأكل والشرب ليلة العيدين ويومهما، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا جاهل قد خالف السنة، فإن رسول

---

(١) الخَبِيصُ: المعمول من التمر والسمن.

(٢) البراذع: جمع برذعة، وهي ما ما يُوضع علىٰ ظهر الحِمار أو البغْل ليُرْكَبَ عليه.

الله ﷺ أقر أصحابه وأولادهم علىٰ إظهار الفرح والسرور، والأكل والشرب يوم العيد وقال في أيام منىٰ أنها أيام أكل وشرب وذكر لله[1]، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الفقير بمجرد ظهور هذه الصفات منه، وإنما يكون الإنكار بعد أن تستفهمه عن السبب الداعي له إلىٰ ذلك، فإن رأيناه قد ترك الفرح والسرور لغلبة خوفه من الله تعالىٰ، وشهوده أنه لم يوفِ شهر رمضان مثلًا حقَّه، سلمنا له ذلك. وإن رأيناه فعل ذلك بحكم الطبع اليابس فقط، علَّمناه أن المطلوب من المسلمين إظهار السرور والتبسط في المأكل والملبس والجماع ونحو ذلك، إعطاءً للنفس حقَّها الذي شرعه الحقُّ تعالىٰ لها.

وقد كان الإمام صالح بن عبد الجليل ﷺ يجمع عياله وأهله كلَّ يوم عيد ويجلسون يبكون، فقيل له في ذلك، فقال: إني عبد كُلِفتُ بأمور لا أدري هل وفيتُ بها أم لا؟! وإنما يليق الفرح والسرور في يوم العيد بمن كان آمنًا علىٰ نفسه من دخول النار.

وقد قالوا للحسن يومًا: هل الأولىٰ بنا الخوف أو الأمن؟ فقال: [الخوف][2] حتىٰ يجاوز أحدكم الصراط. وكان ﷺ يقول: كيف يرجو أحدنا النجاة من النار وجميع أعماله تجره إلىٰ النار؟! انتهىٰ. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وسلِّموا للفقراء مشاهدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا لم نره يبكي عند سماع القرآن والمواعظ، ويبكي العامةُ وغيرُهم وهو لا يخرج من عينه دمعة، فلاث به العوام وقالوا: ما رأينا أقسىٰ قلبًا من هذا العالم أو الشيخ، بأنه ربما تعدىٰ مقام البكاء بعينيه، وصار يبكي بقلبه الذي هو البكاء الحقيقي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، إنما الخائف الذي ترك الذنوب التي يبكي من أجلها. وإيضاح ذلك أن الرجل إذا كَمُلَ في مقام العرفان، غلب عليه النظر إلىٰ السوابق التي لا تبديل فيها ولا تغيير.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨١٣)، ومسلم أخرجه دون قوله: «وذكر لله» (١١٤١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وبلغنا أن عمر بن الخطاب ﷺ رأىٰ شخصًا يبكي عند سماع القرآن، فقال: هكذا كنا حتىٰ قست قلوبنا، يعني حتىٰ قويت وصلبت فصارت راضية بحكم الله تعالىٰ عليها، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: احمدوا الله تعالىٰ الذي حجبكم عن شهوده في هذه الدار؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: كيف يأمر الناس بالحمد علىٰ الحجاب الذي هو سبب لوقوع العبد في المعاصي.

والجواب: أن مرادَ هذا الشيخ بهذا الحجاب الرؤيةُ التي تقع للمؤمنين بعد الموت، فكأنه يقول لهم: من أحب منكم أن يرىٰ ربه، فكأنه يحب الموت، لحديث: «إنكم لن تروا ربكم حتىٰ تموتوا»[1]. وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لولا الغفلة عن الله، لمات الخلق كلُّهم من خشية الله تعالىٰ. انتهىٰ. فظاهر الغفلة نقمة، وباطنها نعمة، لأن العبد إذا كُشِف حجابه طالبه الله تعالىٰ بآداب [لا][2] يطالب بها المحجوب، وأخذه بأمور لم يؤاخذ بها المحجوب.

وبالجملة فينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه أمر إخوانه بأن يحمدوا الله علىٰ الحجاب من حيثُ التقديرُ، ويستغفروا الله منه من حيثُ الكسبُ، كما هو اللائق بمقام الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: يا كذاب بشهادة الله في محبته لله؛ فلاث به بعض الناس وقال: من أين يعلم هذا أن الله تعالىٰ قد شهد بكذب هذا المريد؟! وما ثم وحي بعد رسول الله ﷺ ينزل، بأنه قد يعلم بشهادة الله تعالىٰ من طريق الإيمان بما ورد في الأحاديث، نحو حديث: «يا داود، كذب من ادعىٰ محبتي فإذا جنه الليل نام عنىٰ»[3] رواه الطبراني وغيره، ونحو حديث: «يقول الله عزَّ وجلَّ حين يتجلىٰ

---

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (٧٧١٦) وأحمد (٢٢٧٦٤) والبزار (٢٦٨١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) سبق تخريجه.

في الثلث الأخير من الليل: أين المدَّعون لمحبتي في النهار؟ أليس كلُّ محبٍّ يحبُّ الخلوة بحبيبه، فها أنا مطَّلِع علىٰ أحبابي يكلمونني علىٰ الحضور، ويخاطبونني علىٰ المشاهدة، غدًا أقر أعينهم في جنتي»[١]. انتهىٰ.

وكل شيء صح الإيمان به من طريق الخبر، يصح للعبد أن يعبر عنه بنحو قوله: سمعتُ الله يقول كذا وكذا، كما هو معلوم بين العلماء، فلا اعتراض علىٰ هذا الشيخ في قوله المتقدِم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يتباله[٢] لمن يريد صحبته، ويظهر له أمورًا يعلم الناس منه خلافها، فلاثوا به وقالوا: فلان واسع الباطن وعنده مكر وخداع ما رأيناه في أحد من أقرانه، ويذكرون ذلك علىٰ سبيل الذم له.

والجواب: أن مثل ذلك معدود من كمال عقل الرجل، فإن العاقل يقدِم التجريب قبل التقريب. وقد أنشد سيدي علي بن وفا في ذلك:

تباله تـزن عقل الأنـام ويظهروا ... عليك خباياهم كـأنـك أهلها
ولا ترهم منك الحذاقة يكتموا ... عليك أمـورًا ربما ضـر جهلها

انتهىٰ.

والعلماء والأكابر وأشياخ الطريق أحقُّ بهذا الامتحان لتلامذتهم، لدقة[٣] علومهم وأسرارهم عن فهم فحول العلماء، فضلًا عن غيرهم، فربما ركنوا إلىٰ تلميذ وأخرجوا أسرار الطريق عليه، ثم غيَّر وبدَّل، وصار يذكر للمحجوبين ما ينكرونه من علوم العارفين، ليشنوا عليه الغارة بذلك، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، كما وقع ذلك للشيخ نجم الدين الكُبْرىٰ مع مريد له كان أطلعه علىٰ أسرار الطريق، ثم غيَّر وبَدَّل وخرج عن صحبة الشيخ، واجتمع علىٰ الشيخ نصير الدين الطوسي، فكان بذلك خراب بغداد في قصة طويلة.

(١) ذكره أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٩).

(٢) تبالَه الشَّخصُ: تَصنَّع وتظاهر بالبلاهة والغَفْلة عندما سُئِل عن فعلته.

(٣) بالأصلين: لقلة. والصواب ما أثبتناه.

فاحمل يا أخي العلماء والصالحين علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي أحد يتورع في هذا الزمان عن الشبهات؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذا لا نسلمه لك! بل الورع موجود في كلِّ عصر، لكن بحسب مقام كل إنسان، بأنه ينبغي التسليم لهذا الشيخ، لأنه ربما أراد بذلك أن ينهض همة إخوانه إلىٰ الترقي إلىٰ مقام ورع السلف الصالح دون أهل زمانهم، كما هو معلوم أن كل زمان **ينقص أهله عن أحوال أهل الزمان الذي قبله.**

وقد كان السلف الصالح أيام الإمام أحمد بن حنبل لا يعدون أحدًا من أهل زمانهم وَرِعًا إلا إن كان يفتش في الأيدي التي تداولت علىٰ ذلك الطعام مثلًا قبله، فإن رأىٰ أنه تداولت عليه عشرة أيدي في الحلِّ أكل منه وإلا تركه، ثم تنازل الزمان إلىٰ ثلاثة أيدي، ثم إلىٰ يدين، ثم إلىٰ واحدة، وعليها استقر غالب الناس اليوم، فيُحمَل كلام هذا الشيخ علىٰ الحالات التي مضت، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي في هذا الزمان إلا من هو قليل الدين؛ فلاث به بعض العلماء وقالوا له: هذا من سوء ظنك بالناس ونقصك، فقستَ الناس عليك، بل فيهم الكاملون الدين والإيمان إلىٰ أن تقوم الساعة أو مقدماتها، بأنه ربما أراد ما بقي أحد ممن أعرفهم أنا من الإخوان، لا الأولياء وأكابر العلماء الذين هم أرفع منه مقامًا.

وقد ذكر يحيىٰ بن معاذ صفات العبد التي يكون بها كامل الإيمان، فينبغي لمن ينكر علىٰ هذا الشيخ أن يعرفها قبل أن ينازعه، فإن رآها مجتمعةً في أهل زمانه، فلينكر عليه تعميمه الحكم وإلا فليصدِّقه، وهي: كثرة الحياء، وقلة الأذىٰ، وكثرة الإحسان إلىٰ البر والفاجر، وصدق اللسان، وقلة الكلام، وكثرة العمل، وقلة الزلل والفضول، وصلة الرحم وإن كان مقاطعًا[1] له، وكثرة الصبر علىٰ أذىٰ الناس له، وكثرة الرضا عن الله إذا أمرضه وضيَّق عليه الرزق وقسَّىٰ قلوب الناس عليه، وكثرة الشكر لله تعالىٰ علىٰ البلاء، وكثرة

(١) بالأصلين: عذرًا.

الحلم علىٰ من جنىٰ عليه، وكثرة العفة عن الشهوات، فيمكث الثلاثين سنة ونفسه تطالبه بشهوة مباحة فلا يجيبها إليها تورعًا، لا لعَّانًا ولا سبَّابًا، ولا غيَّابًا ولا نمامًا ولا مغتابًا، ولا عجولًا ولا حقودًا ولا حسودًا، ولا متكبرًا علىٰ أخيه، ولا معجبًا بنفسه، ولا راغبًا في شيء من أمتعة الدنيا ومناصبها وجاهها وحظوظها، ولا طويل الأمل، ولا كثير النوم، ولا مرآئيًا ولا منافقًا ولا بخيلًا، هشاشًا بشاشًا، لا حساسًا ولا جساسًا، يحب في الله ويبغض في الله لا لهوىٰ نفس ولا لإحسان، يرضىٰ في الله، ويغضب لله، زاده تقواه، وهمته عقباه، وجليسه الله، وحبيبه مولاه، وسعيه لأخراه، وأطال في ذلك نحو ثلاثمئة وصف لا يبلغ أحد مقام الكمال في دينه حتىٰ يتصف بها كلِّها. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، والعامة علىٰ محبة من ينبهها علىٰ نقصها، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده ولأقرانه: اشتغلوا بعلم التصوف، وإياكم والاشتغال بعلم الفقه والأصول مثلًا؛ ولاث به الفقهاء وقالوا: هذا من شدة جهله، وقد قال ﷺ: «ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من فقه في دين»[1].

والجواب: بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ[2]، لأنه لا يجهل أن الاشتغال بعلوم الشريعة محمود، لكون ذلك أساس طريق القوم، وإنما ينبغي حمله علىٰ أنه رأىٰ أن علوم الشريعة أهلها كثير لا يحتاج معهم إلىٰ من يدرس فيها، بخلاف طريق القوم[3]، فإنها قد اندرست حتىٰ لا يكاد الآن أحد يتطلبها، لغلبة اشتغال النفوس

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بالأصلين: الشيء. والصواب ما أثبتناه.

(٣) قال الإمام الشعراني في «الطبقات الكبرىٰ» في ترجمة سيدي أحمد الزاهد: «وما كان يأذن للفقراء القاطنين عنده إلا في تعلم فرائض الشرع وواجباته المتعلقة بالعبادات. وكان يمنعهم من تعلم الأمور المتعلقة بفصل الأحكام في البيوع والرهون والشركات، ونحو ذلك، ويقول: ابدؤوا بالأهم، ولا أهم من معرفة الله في هذه الدار، والفقهاء قد قاموا عنكم بفروع الشريعة فإن قتلوا والعياذ بالله، وتعطلت الأحكام، وجب عليكم تعلم هذه الفروع لئلا تندرس الشريعة».

بما فيه حظها، وعلم التصوف كله مبني علىٰ مخالفة الأهوية، فكما أن الناس محتاجون إلىٰ من يقوِّم عباداتهم في الظاهر، كذلك هم محتاجون من يقوِّم عباداتهم في دولة الباطن، ويخلصها لهم من الرياء والعجب والكبر والنفاق، فلا تكمل الشريعة إلا بمراعاة الباطن، ولا تكمل الحقيقة إلا بمراعاة الشريعة، فلا يجوز الطعن علىٰ هذا الشيخ في أمره إخوانه بالاشتغال بعلم الصوفية دون الفقه مادام أهل الفقه كثيرون.

ولو أن الناس كلَّهم اشتغلوا بالتصوف وتركوا الاشتغال بالفقه [لكان هذا الشيخ ينهىٰ أصحابه عن الاشتغال بالتصوف، ويأمرهم بالاشتغال بالفقه][1] لخلوص الأشياخ عن التعصب لنفوسهم، فهم دائرون مع الحقِّ حيث دار، ويحبون أن يكون الدين قائمًا في دولة الظاهر والباطن، فإن في حديث مسلم: «إن الله تعالىٰ لا ينظر إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم»[2]. انتهىٰ.

ويُحتمَل أنه ما نهاهم عن الاشتغال بغير التصوف إلا لما رأىٰ من عدم الإخلاص في العلم، فأراد أن يشغلهم بعلم التصوف ليمهد للإخلاص محلًا في قلوبهم، لما في التصوف من رياضة النفوس وزوال الرعونات، ثم بعد ذلك يأمرهم بالاشتغال بالفقه وغيره علىٰ وجه الإخلاص.

فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ أشياخ الطريق، وإياك أن تحملهم علىٰ التعصب لطريقهم التي اختُصوا بها قياسًا علىٰ غيرهم، فإن ذلك عمل باطل، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تصدق بماله كلِّه في مرض موته، ولم يترك منه شيئًا لذريته، فلاث به الناس وقالوا له: قد قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»[3]، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، فربما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٣٧٣) ومسلم (١٦٢٨).

كان الباعث ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وقد يكون هذا الشيخ ممن كُشِفَ له أن ذلك المال لم يقسمه الله تعالىٰ لهم، والإنكار لا يسوغ إلا علىٰ من حرم ورثته شحًّا عليهم من غير كشف. وقد تصدق محمد بن كعب القرظي التابعي الجليل ﷺ بماله كلِّه في مرض موته، فقيل له: هلا ادخرت شيئًا لذريتك! فقال: ادخاره لنفسي أولىٰ، وأما ذريتي فقد ادخرتُ لهم فضل ربي.

وكان أبو حازم يقول: أنفقوا مالكم قبل موتكم، ولا تخشوا الضيعة علىٰ أولادكم، فإنهم إن كانوا مؤمنين فإن الله تعالىٰ يرزقهم بغير حساب، وإن كانوا فاسقين فلا تساعدوهم علىٰ الفسق بأموالكم.

وتصدق سالم بن أبي الجعد[1] بماله كلِّه في مرض موته، فلامته امرأته، فقال: لأن أذهب بخير وأترككم بلا مال أحب إليَّ من أن أذهب بشرٍّ وأترككم بخير. انتهىٰ. فيُحمَل الحديث السابق علىٰ من لم يكن مشهده كمشهد هؤلاء القوم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بنىٰ له مدفنًا، وعمل عليه قبةً أو مقصورةً، وكتب علىٰ الباب: قف علىٰ الباب خاضعًا، وأحسن الظنَّ وارتجِ، فهو باب مجرَّبٌ لقضاء الحوائج؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من علامة الرياء حتىٰ بعد الموت، وكيف يقول: إن باب مقصورته باب مجرَّبٌ لقضاء الحوائج، ومن أين عرف ذلك؟! وقد يكون ترابه في غير بلده التي بنىٰ له المدفن فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه فعل ذلك كلَّه من طريق الكشف، ولا يلزم من ذلك الرياء، لا في حياته ولا بعد مماته، [فإن الله تعالىٰ قد يعطيه

---

(١) سالم بن أبي الجعد رافع الأشجعي الغطفاني مولاهم، الكوفي، الفقيه، أحد الثقات. روىٰ عن: ثوبان مولىٰ رسول الله، وجابر، وابن عباس، وغيرهم. وحديثه مخرج في الكتب الستة. توفي: ١٠٠هـ وقيل: ١٠١هـ. «السير»(٥/ ١٠٨)، «شذرات الذهب» (١/ ٤٠٤).

قضاء حاجة كل من توسل به إلىٰ الله في حال حياته وفي حال مماته]. وقد قال سيدي علي ابن وفا في قصيدته:

من توسل بك عندي يا علي فاز بأمني ... كلُّ من والاك حقًّا أنا منه وهو مني

وصدَّقه أتباعه علىٰ هذه الدعوىٰ. وما أعطاه الحقُّ لعبد يجوز أن يعطيه لعبد آخر وإن لم يصدِّقه الناس علىٰ ذلك.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي عمل له مدفنًا وكتب عليه ما تقدم علىٰ المحامل الحسنة، ولا تعترض عليه، فإنه قال: قف علىٰ الباب خاضعًا وأحسن الظن وارتجِ، فما وعد بقضاء الحاجة إلا من اجتمعت فيه هذه الخصال.

ويُحتَمل أن يكون مراده بالباب بابَ الله تعالىٰ، وبإحسان الظن والرجاء لله، سواء أضيف ذلك الباب إليه هو أم لا، فإن أبواب الخلق كلَّها أبواب لله تخرج منها منافع العباد. ثم إن هذا الأمر لا يختص به، بل **كل شيء توجه إليه العبد بصدق، وجد الحقَّ تعالىٰ عنده**، فقضىٰ حاجته، كما قال تعالىٰ في السراب إذا قصده الظمآن[1] غيرةً إلهيةً أن يرد العبد خائبًا.

فاعلم ذلك، وإياك أن تعترض علىٰ الشيخ الذي حفر له قبرًا وتقول: قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، فإن الله تعالىٰ صدق، وقد قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾، ولم يقل «روح» فما نفىٰ العلم إلا عن النفس التي هي بيت الحجاب، فإذا انحلت وصارت روحًا، كانت كالملائكة لها تطواف بالملكوت الأعلىٰ وعلم بأحوال الأقلام والألواح الإلهية. وقد أوضحنا الكلام علىٰ هذا المبحث وما يرد عليه من الإشكالات في كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يرقص في الذكر كلما ذكر، ولاث به الناس وقالوا له: هذا من سوء الأدب، لأنه إما أن يكون حاضرًا مع الله تعالىٰ، فذلك سوء أدب مع الله، وإما أن يكون غائبًا، فلم يحصل علىٰ طائل، فما وجه الرقص؟!

---

(١) في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

والجواب: أنه قد يطرب من السُّكْر الذي يحصل له من شهود أن الله تعالىٰ لولا ذكره ما ذكره، ومن يستطيع أن يلحظ ذكر الحقِّ تعالىٰ له ولا يطرب من أمثالنا؟! وقد دخل علىٰ الشِّبلي يومًا الجنيد وهو يتواجد ويرقص، فأعرض عنه الجنيد حتىٰ راق، وقال له: يا أبا بكر، هذا سوء أدب، سواء أكنتَ غائبًا أم حاضرًا. فقال: التوبة؛ فتاب من ذلك. وقد كان أبو المليح[1] ﷺ إذا ذكر الله تعالىٰ كثر طربه ويقول: إنما طربي بذكر الله لي، واعتنائه بشأني.

وبالجملة فالناس بين أقوياء وضعفاء، فالضعيف يُسامَح بالرقص والطرب، لأنه يتنفس به مما يجده عنده من الحصر، والقوي يؤاخذ به لعدم حاجته إليه. وقد قالوا للجنيد: نرىٰ الناس يتحركون عند السماع ولا نراك تتحرك. فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كل من اضطرب في الذكر علىٰ الضعف، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمر بيتًا ويزخرفه كبيوت أهل الدنيا، ويسأل من إخوانه المساعدة، فلاث به الفقراء الصادقون وقالوا: كان الأولىٰ به أن ينصح إخوانه ويقول: اصرفوا مالكم في شيء يخلفه الله تعالىٰ عليكم، فقد ورد أن كلَّ درهم ينفقه العبد، فإن الله تعالىٰ يخلفه عليه، إلا ما كان في بنيان أو معصية[2]. انتهىٰ. فمن مكَّن أصحابه من صرف أموالهم في الماء والطين فقد غشهم.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الفقير إلا إذا لم يرد بذلك البناء وجه الله تعالىٰ، فإن أراد به ذلك، كان نفقة علىٰ جهة قربة، فلا حرج عليه في ذلك، فينبغي للمنكر

---

(١) أبو المليح ابن أسامة بن عمير بن عامر بن أقيشر الهذلي، الكوفي، ثم البصري، أحد الأثبات. قيل: اسمه عامر. وقيل: زيد. أرخ وفاته: أبو بكر بن أبي عاصم، وابن سعد سنة: ١١٢هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٩) و«الوافي بالوفيات» (١٦/ ٣٣٩).

(٢) إشارة إلىٰ ما أخرجه الترمذي (٢٤٨٢) عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه».

التربص إلىٰ أن يموت، فإن وقفه فلا إنكار، وإلا أنكر، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي دعي إلىٰ حضور وليمة مثلًا فلم يجب، فتشوش منه الداعي، فظن أنه إذا لم يجبه إزراء به، بأنه ربما كان له عذر منعه. وفي كلام أبي عبد الله الأنطاكي ﵁: إذا علمتَ من الناس الوقوع في عرضك إذا رأوك، فلا ينبغي لك الاجتماع رحمةً بهم. انتهىٰ.

فينبغي حمل هذا الممتنع من الحضور علىٰ مثل ذلك، فربما كان في الجمع الذين حضروا في الوليمة جماعة من أعدائه، كما هو الغالب في الولائم، فخاف علىٰ عرضه أن يقعوا فيه، فترك الحضور رحمةً بهم، اللهم إلا أن يكون الحضور واجبًا كصلاة الجمعة مثلًا، فذلك محل نظر واجتهاد.

وقد كان أبو مسلم الخولاني التابعي ﵁ كثيرًا ما يمر علىٰ القوم فلا يسلم عليهم ويقول: أخاف أن يزدروني فلا يردوا عليَّ السلام، فأكون سبب حصول الإثم عليهم وتلعنهم الملائكة. انتهىٰ. والأعذار المبيحة لعدم حضور وليمة العرس كثيرة مذكورة في كتب الفقه، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٧) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ينكر وجود الأوتاد والأبدال والقطب والإمامين[1]، ويقول: لم يأتنا بذلك كتاب ولا سنة؛ فلاث الفقراء به وقالوا: نخاف علىٰ

---

(١) **الأوتاد**: أربعة رجال، منازلهم علىٰ منازل الأربعة الأركان من العالم، شرق، وغرب، وشمال، وجنوب.
الأبدال: سبعة رجال، من سافر من موضع ترك جسدًا علىٰ صورته حيًّا بحياته، ظاهرًا بأعمال أصله، بحيث لا يعرف أحدٌ أنه فقد، وذلك هو البدل لا غير، وهو في تلبسه بالأجساد والصور علىٰ صورته قلب إبراهيم ﵇.
الإمامان: شخصان اللذان أحدهما عن يمين الغوث، أي القطب، ونظره في الملكوت، وهو مرآة ما يتوجه من المركز القطبي إلىٰ العالم الروحاني من الإمدادات، التي هي مادة الوجود والبقاء، وهذا الإمام مرآته لا محالة، والآخر عن يساره، ونظره في الملك، وهو مرآة ما يتوجه منه إلىٰ المحسوسات من المادة الحيوانية، وهذا مرآته ومحله، وهو أعلىٰ من صاحبه، وهو الذي يخلف القطب إذا مات.

هذا المقت من الله تعالىٰ، بأنه لا ينبغي اللوث به، لجهله بدوائر الأولياء وعدم دخولها، وله أن ينكر كلَّ ما لم يعلم أنه من الشريعة، وهذا من ذلك، وفي القرآن العظيم: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، وفي ذلك رائحة العذر للمنكرين، وإن كان الأولىٰ بهم التسليم ما لم يعارض النصوص.

وقد جادلني مرةً فقيه وقال: إن هؤلاء المجاذيب عندكم إنما هم من قسم المجانين، لأن ما ثم لنا إلا عاقل أو مجنون، ولو كان المجذوب من صفات الأولياء، لكان الأولىٰ به الصحابة، ولم يُنقَل لنا أن أحدًا منهم كان كهؤلاء المجاذيب يبول علىٰ نفسه، ولا يتطهر من حدث ولا خبث، والناس مع ذلك يتبركون به، وطالبني بدليل. فقلتُ له: لا أعلم في ذلك دليلًا عن الشارع، وإنما اعتقد الناس فيهم لما يقع لهم من المكاشفات بالأمور التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، فقالوا: لولا أن الله تعالىٰ اتخذهم أولياء ما أعطاهم هذا الكشف، وما رأينا مجنونًا قط يُكاشَف بشيء من أحوال الدنيا والآخرة، فإن شئت يا أخي فاعتقد في المجاذيب، وإن شئت فأنكر، وإن شئت فاسكت؛ فرضي مني بذلك.

ومما قالوه في الفرق بين المجذوب والمجنون: أن المجذوب ذهب عقله من عظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله تعالىٰ، فعكف قلبه في حضرة الله، وغفل عن هذا الكون جملة، ولا يرىٰ إلا الله تعالىٰ. والمجنون ذهب عقله من استعمال مطعوم كونيٍّ لا يناسب مزاجه، أو من صياح أو فزع لا يستطيعه، فصار غائبًا عن الله تعالىٰ وعن الخلق[1]. قالوا: **وكل جذب لا يمنح صاحبه علمًا وأدبًا فهو إلىٰ الجنون أقرب.**

ومما يدل علىٰ وجود الأبدال قوله ﷺ: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثير صوم ولا صلاة، وإنما دخلوها بسخاوة النفوس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة»[2]. ومما يدل علىٰ وجود الأبدال والعصائب والنجباء قول الإمام عليٍّ ﷺ: «الأبدال بالشام،

انظر «التعريفات» للجرجاني (ص٣٣،٣٦،٣٩،٤٠).

(١) انظر الفتوحات «المكية» الباب (٤٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٩٣)، والديلمي (٨٨٤) وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٥٨).

والعصائب بالعراق، والنجباء بمصر». انتهىٰ. قال الشيخ محيي الدين وغيره: ويكون الأبدال من النساء، فلا يُشترط في طريقهم الذكورة.

وكان الحسن البصري ﷺ يقول: لولا الأبدال لخسفت الأرض بمن فيها، ولولا الصادقون لفسدت الأرض، ولولا العلماء لكانت الناس كالبهائم، ولولا السطان لأهلك الخلق بعضهم بعضًا، ولولا الحمقىٰ لخربت الدنيا، ولولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض. انتهىٰ.

واعذر يا أخي الفقيه إذا أنكر الأولياء في زمانه، فإنه لم يعرفهم، واعذر الأولياء إذا اختفوا، لأنهم لو ظهروا لأهلك الله كلَّ من أذاهم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩٨) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي انقطع في تربة[١] أو جبل أو في المواضع الخراب البعيدة عن الناس، ثم صار يعتب عليهم في عدم زيارته، ويعرِّض لهم بالاشتياق إليهم، فلاث به الناس وقالوا: ما لهذا وللناس يطلب ترددهم إليه؟! فإن كان لا يقدر علىٰ البعد عنهم، فليدخل وليسكن بينهم، لأنه أبعد عن النفاق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه قد يفعل مثل ذلك من باب حسن الخلق مع إخوانه، حتىٰ لا يوحش قلوبهم منه، أو قد يفعل مثل ذلك سترًا لمقامه حيث اعتقده الناس بسبب انقطاعه عنهم، **فإن من شأن البشر طلب القرب ممن يتباعد عنهم، والزهد فيمن يخالطهم.**

وممن أدركتُه من أهل هذا المقام الشيخ شاهين[٢] بالجبل المقطم، وخليفته الشيخ

---

(١) التُّربة: المدافن.

(٢) قال عنه الإمام الشعراني: ومنهم الشيخ العابد الزاهد المنفرد عن الناس بالجبل المقطم الشيخ شاهين ﷺ. أخذ الطريق عن الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي أحمد بن عقبة اليمني المدفون بحوش السلطان برقوق. وكان الشيخ شاهين من مماليك السلطان قايتباي، وكان مقربًا عنده، فسأل السلطان أن يعتقه ويخليه لعبادة ربه، ففعل، فساح إلىٰ بلاد العجم وغيرها، ثم رجع إلىٰ مصر فأقام بالمحل الذي دُفن فيه. ثم انقطع لا ينزل من الجبل سبعة وأربعين سنة. توفي: ٩٥٤هـ. ودُفن بزاويته بالجبل، وبنىٰ السلطان عليه قبةً وأوقف علىٰ مكانه

وقد سمع الحسن البصري رحمه الله شخصًا يقول: اللهم ارزقني الحلال الصافي. فقال: سل ربك رزقًا لا يعذبك عليه، فإن الحلال الصافي إنما هو رزق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. انتهىٰ. وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: كسب الحلال أمرُّ علىٰ العبد المؤمن من نقل جبل إلىٰ جبل. وكان يونس بن عبيد[1] رحمه الله يقول: من طلب من الله أن يرزقه حلالاً في هذا الزمان فقد سأل شططًا، إنما يسأل الحلالَ أحبابُ الله وأصفياؤه، فيستخلص لهم الحلال كما يستخلص اللبن من بين فرث ودم. وأما نحن فلو وجدنا صاعًا من حلال لاستشفينا به، فكلُّ مريض أكل منه شفي بإذن الله. وكان سفيان الثوري يقول: دين الرجل حيث رغيفه، وإن أهل بيت يوجد علىٰ مائدتهم رغيف من حلال في هذا الزمان لغرباء. انتهىٰ.

وتقدم أن الحلال موجود في كلِّ زمان بحسب مقامات الخلق، فيُحمَل كلام هؤلاء الأشياخ علىٰ الحلال اللائق بمن كان فوقهم في الدرجة. والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي قال له شخص: أوصني بوصية. فقال: أنا محتاج إلىٰ من يوصيني؛ ولم يوصه، فلاث به بعض الناس وقال: كان الواجب عليه أن يوصيه بما يراه قد أخل به من أمور الدين، فإن من يأتي بأحكام الدين علىٰ الكمال اليوم في الناس أعزُّ من الكبريت الأحمر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أنه قد يكون ممن غلب عليه حقارة نفسه، فازدرىٰ نفسه أن يكون آمرًا لغيره، أو أنه لم يرَ فيه نقصًا يوصيه بالتوبة منه، أو يكون ممن يعرف بالقرائن أنه متناطع في سؤاله، وليس قصده العمل بتلك الوصية، فخاف عليه من وقوعه في ترك العمل بما علم.

وقد يكون تركه الوصية لخوفه أن ذلك الرجل يعقبه بتلك الوصية ضررًا لا يطيقه

---

(١) يونس بن عبيد بن دينار العبدي مولاهم، البصري. رأىٰ: أنس بن مالك. قال علي بن المديني: له نحو مائتي حديث. وقال هشام بن حسان: ما رأيت أحدًا يطلب بالعلم وجه الله، إلا يونس بن عبيد. كان ثقةً حافظًا ثبتًا ورعًا، رأسًا في العلم والعمل، له مناقب كثيرة. توفي: ١٣٩هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٨٨) و«الوافي بالوفيات» (٢٩/ ١٨٥) و«حلية الأولياء» (٣/ ١٥).

ونحو ذلك، وقد دخل عابدٌ مرةً علىٰ عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أوصني. فقال له: لو علمتُ أنك ممن يخاف الله تعالىٰ ويخشاه لوصيتُك ووعظتُك؛ فغشي علىٰ عمر من كلامه، وصار يضطرب حتىٰ كادت مفاصله تتخلص من بعضها، فيُحتمَل أن هذا الشيخ إنما ترك الوصية خوفًا علىٰ ذلك الفقير أن يقع له مثل ما وقع لعمر بن عبد العزيز ﷺ، فترك وصيته شفقةً عليه.

ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ إنما ترك الوصية لمن سأله لعذر لا ينبغي إفشاؤه، أو ترك الوصية لمعرفته بالقرائن أنها لا تؤثر فيه، كما هو مذهب بعضهم، وإن كان مرجوحًا.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن السلف الصالح كانوا إذا سألهم إنسان في وصية نظروا، فكلُّ وصف رأوه أخلَّ به من الأمور المحمودة أوصوه به، كما كان ﷺ يفعل مع أصحابه، فكان يأمر كلَّ واحد بما فيه كماله إذا سأله عن أفضل الأعمال. فقال لرجل: «أفضل الأعمال الصلاة لأول وقتها»[1] لكونه كان يتساهل في الصلاة في أول الوقت. وقال لآخر: «أفضل الأعمال أن تجاهد بنفسك ومالك في سبيل الله»[2] لكونه كان جبانًا بخيلًا. وقال لآخر: «بر الوالدين»[3] لكونه كان غير بارٍّ بوالديه. وقال لآخر: «احفظ عليك لسانك»[4] لكونه كان لا يحفظ لسانه في أعراض الناس، وقس علىٰ ذلك.

فليس في كلام الشارع تناقض كما فهمه بعضهم، لأنه كان يخاطب كلَّ إنسان بما يناسبه، وتبعه علىٰ ذلك العلماء، فقال رجل لأبي ذر: عظني. فقال: عسكر الموت ينتظرونك؛ لكونه كان طويل الأمل. وقال رجل للحسن البصري: أوصني. فقال: أَعِزَّ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٢٧) من حديث أبي عمرو الشيباني يقول: حدثنا صاحب هذه الدار، وأشار إلىٰ دار عبد الله قال: «سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: الصلاة علىٰ وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين قلت: ثم أي؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن ولو استزدته لزادني» ومسلم (٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) من حديث عقبة بن عامر قال: « قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك علىٰ خطيئتك» وأحمد (١٧٤٥٢).

أمرَ الله حيث ما كنتَ، يعزك الله حيث ما كنتَ؛ لكونه كان يتساهل بنظر الله إليه. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أوصني. فقال: احذر أن تكون ممن يخالط الصالحين ولا ينتفع بهم، أو يلوم المذنبين ويقع في الذنوب، أو يلعن الشيطان في العلانية ويطيعه في السر؛ لكونه كان يخِل بهذه الأمور.

وقال رجل لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام: عظني. فقال: إلىٰ كم يوعظ أحدكم ولا يتعظ؟! لقد كلفتم الواعظين شططًا! وسمع الحسن البصري شخصًا يقول: المرء مع من أحب. فقال له الحسن: لا يغرك يا أخي مثل ذلك، فإنه مشروط بمن يقع في الذنوب بغير ميل، ولن يحلق أحد بالأبرار إلا إن عمل بعملهم، وإن اليهود والنصارىٰ وأهل البدع يحبون الأنبياء وليسوا معهم في الجنة. انتهىٰ. فقوله ﷺ: «المرء مع من أحب»[1] جري علىٰ الغالب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سمع شخصًا يقول: النظر إلىٰ وجه العالم عبادة. فقال: ذلك في حق علماء السلف، وأما علماء هذا الزمان، فالنظر إليهم يقسي القلب؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: إن لحوم العلماء سمٌّ، فكيف يقع هذا في الغيبة المحرَّمة وهو يدعي الصلاح؟!

والجواب: أن مراده أن رؤية بعض علماء الزمان يقسي القلب لا رؤية جميعهم. ولم يزل في العلماء في كلِّ عصر العامل بعلمه، والمخل بالعمل، فيُحمَل كلام الشيخ علىٰ من كان مخلًّا بالعمل. وقد كان كعب الأحبار يقول: يكون في آخر الزمان علماء يتغايرون علىٰ القرب من الأمراء، كما يتغاير الرجال علىٰ النساء، أولئك شرار خلق الله. انتهىٰ. ومعلوم أن رؤية الشرار تورث القساوة في القلب.

وقد وقفت امرأة يومًا تنظر إلىٰ وجه إبراهيم بن يوسف[2] رحمه الله، فقال لها: ألك حاجة؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) إبراهيم بن يوسف بن ميمون بن قدامة البلخي. وقيل: رزين بدل قدامة، عالم بلخ، أبو إسحاق الباهلي، البلخي، الفقيه، المعروف: بالماكياني. وماكيان: قرية من قرىٰ بلخ. وثقه: النسائي، وابن حبان. توفي: ٢٣٩هـ.

فقالت: لا، غير أني سمعت أن النظر إلىٰ وجه العالم عبادة، فأنا أنظر إليك لأجل ذلك. فبكىٰ إبراهيم حتىٰ تغرغرت[1] عيناه بالدموع، ثم قال: يا هذه! قد غلطت فيَّ! إن الذين كان النظر إلىٰ وجوههم عبادة قد صاروا في المقابر بين أطباق الثرىٰ منذ أربعين سنة، مثل أحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وخلف بن أيوب، وشقيق البلخي، وبشر الحافي، والفضيل بن عياض وأضرابهم، فاذهبي إلىٰ قبورهم، فانظري ألواحها وتأملي فيها نيابة عن وجوههم.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: إذا ناظرت عالمًا فغضب، فلا تخف منه، لأنه ذهب دينه. وكان عبد الله بن عمر يقول: لستُ بعالم، وإنما أحدثكم اتقاء ألسنتكم، ولو أن عمر بن الخطاب رآني وأنا أحدِّث، لأوجعني وإياكم ضربًا! وكان الأعمش[2] يقول: لي منذ ثلاثين سنة ما رأيتُ عالمًا مخلصًا في علمه، إنما صار العلم حرفةً للمفاليس. وقيل للشعبي مرة: أفتنا أيها العالم. فقال: لا تقولوا لي عالمًا، فإن العالم هو من تقطعت أوصالُه من خشية الله عزَّ وجلَّ. وقال رجل لإبراهيم التيمي: ما تقول في هذه المسألة يا فقيه؟ فبكىٰ إبراهيم وقال: إن زمانًا يُقال فيه لمثلي فقيه لزمان سوء.

وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «تنبيه المغترين». فيُحمَل كلام هذا الشيخ الذي قاله عن علماء زمانه: إن النظر في وجه أحدهم يقسي القلب علىٰ تنهيض همتهم إلىٰ الاجتهاد والعمل كما كان عليه سلفهم، لا ازدراؤهم والغيبة فيهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: كلما ازداد العالم علمًا، كلما ازداد فسقًا؛ ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: هذا قريب من الكفر، بأنه ربما قصد أن العبد

«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٦٢) و«الوافي بالوفيات» (٦/ ١١٠).

(١) تغرغرت عيناه: تردَّد فيهما الدّمعُ.

(٢) الأعمش سليمان بن مهران، الإمام أبو محمد الأسدي، الكاهلي مولاهم، الكوفي. أصله: من نواحي الري. قيل: ولد بقرية أمه من أعمال طبرستان، في سنة: ٦١هـ وقدموا به إلىٰ الكوفة طفلًا. وقيل: حملًا. قد رأىٰ أنس بن مالك، وحكىٰ عنه. وقال أحمد بن عبد الله العجلي: الأعمش: ثقة، ثبت، كان محدث الكوفة في زمانه. توفي: ١٤٦هـ وقيل: ١٤٨هـ. انظر: «السير» (٦/ ٢٢٦) و«حلية الأولياء» (٥/ ٤٦).

كلما زاد علمه، عجز عن العمل به إما كسلًا، أو لعدم القسمة، فانسحب عليه اسم الفسق، وليس مراده أن العبد يفسق بالعلم من حيثُ هو، فإن ذلك لا يقوله عاقل، وفي الحديث مرفوعًا: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»[1].

وكان وهب بن مُنبِّه ﷺ يقول: كان في بني إسرائيل علماء فسقة، وسيكون في هذه الأمة علماء فسقة. وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: استعيذوا بالله من أمور تحدث في العلماء بعد مئتي سنة. وكان ابن أبي رَوَّاد[2] يقول: كان زناة أهل الجاهلية أكثر حياءً من فقهائنا اليوم. وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: والله إني أخشىٰ إذا نادىٰ المنادي يوم القيامة أين القراء الفسقة؟ أن يُقال: وسفيان منهم فخذوه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٥) ومما أجبتُ به عن العالم إذا نهىٰ الناس عن رفع أصواتهم بالذكر في الجنازة، فلاث به العوام وقالوا: كيف يمنعنا من قول: لا إله إلا الله؟! بأن هذا العالم مشىٰ في نهيه الناس عن رفع أصواتهم بالذكر علىٰ السنة، فلا ينبغي اللوث به، فينبغي لطالب العلم أن يعرِّف العوام بالسنة في ذلك، ويقول لهم: إن هذا الوقت إنما هو وقت تفكر وتأمل فيما إليه مصير ذلك الميت. وقد كان السلف الصالح إذا مات لهم ميت يعمهم الحزن والصمت، حتىٰ لا يكاد أحد منهم ينطق. وكانوا إذا رجعوا من الجنازة يمكث أحدهم الأيام المتوالية لا يأكل ولا يشرب، ولا يبتسم، ولا يتجرأ أحد يكلمه من شدة ما يرونه من حزنه، وكان يحيىٰ بن أبي كثير إذا شيَّع جنازة يرجعون به في النعش من شدة انحلال مفاصله.

وكان وهب بن مُنبِّه يقول: كان العصر الأول يستحبون خفض الصوت عند الجنائز،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤١٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٦١) والطبراني في «الكبير» (٨٤١) بنحوه.

(٢) عبد العزيز بن أبي رَوَّاد الأزدي. شيخ الحرم. قال ابن المبارك: كان من أعبد الناس، وقال أحمد بن حنبل: كان مرجئًا، رجلًا صالحًا، وليس هو في التثبيت كغيره. توفي: ١٥٩هـ. ولم يصل عليه سفيان الثوري؛ لكونه يرىٰ الإرجاء. فقيل للثوري فقال: والله إني لأرىٰ الصلاة علىٰ من هو دونه، ولكن أردت أن أُري الناس أنه مات علىٰ بدعة. «السير» (٧/ ١٨٤) و«الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٩٧) طبعة دار الإحسان.

ويقولون لمن يرفع صوته: ما أنت إلا جبار! أما في رؤيتك لهذا الميت موعظة؟! ورأىٰ عبد الله بن مسعود رجلًا يضحك في جنازة، فزجره ثم هجره أيامًا. ورأىٰ الحسن البصري رجلًا يأكل في المقابر، فقال له: إنك لمنافق! لو كنت مؤمنًا لما وجدتَ عندك داعية للأكل!

[سبب سكوت علماء الإسلام على رفع الناس صوتهم بالذكر في الجنائز]

فإن قال قائل: فكيف سكت علماء الإسلام علىٰ رفع الناس صوتهم بالذكر في هذا الزمان؟ **فالجواب**: أنهم إنما سكتوا عن الإنكار حين رأوا كثرة لغط الناس في الجنازة وذكرهم أمور الدنيا، فرأوا ذكر الله تعالىٰ أولىٰ من اللغط. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي أحد في هذا الزمان يسلم من النفاق؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا يخرج العلماء والصالحين كلَّهم.

والجواب: أنه ربما يكون مراده وجود النفاق في غالب الناس لا كلِّهم، كما هو الغالب من الإنسان إذا خرج خلقه واشتد غضبه، ثم إذا راق من ذلك رجع عن تعميم الحكم.

وقد كان سفيان الثوري يقول: لو نبت للمنافقين أذناب لضاقت الأرض بهم. وكان مالك بن دينار يقول: من علامة المنافق أن يخبيء رزق غدٍ، ويحصل عنده غم إذا رفعوا أقرانه عليه في الفضل والعلم. وكان سفيان الثوري يقول: إذا ذُكِرَ الصالحون كنَّا عنهم بمعزل، وإذا ذُكر المنافقون كنا في جوف المنزل. وكان يونس بن عُبَيد يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ منافق فلينظر إليَّ. فقيل له: كيف ذلك؟! فقال: لأني أعدُّ المئة خصلة من الخير، فلا أجد فيَّ واحدة منها، وأعدُّ خصال السوء فأجدها كلَّها فيَّ. انتهىٰ.

والأحاديث في علامات المنافقين مشهورة في كتب الحديث[1]، فاحمل يا أخي قول هذا الشيخ: ما بقي أحد يسلم من النفاق، أي فيمن علمهم من أهل الشر، لا كل الناس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) كالحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» ومسلم (٥٩).

(٧٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن الصلاة خلف إمام يحب الدنيا، فلاث الفقهاء به وقالوا: هذا أمر لم يتعرض له الشارع ولا الصحابة، فلا يقدح ذلك في كمال الصلاة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فإنه لم يمنع أصحابه وجوبًا، وإنما ذلك علىٰ سبيل التورع، لاسيما إن كانوا لا يحبُّون الدنيا. وبلغنا عن الحسن البصري ﷺ أنه كان يقول: لا تصلوا خلف محبٍّ الدنيا إلا لضرورة. وكان يقول: [ينبغي][1] للإمام أن يكون أزهد الناس، وأورع الناس، وأعلم الناس. وصلَّىٰ مرةً خلف إمام، فلحَن، فلما سلَّم زجره، وقال: والله لولا فضل الجماعة ما صليتُ خلفك! لم لا تقرأ العربية علىٰ العلماء؟! وكان يقول: من كان إمامًا في الصلوات فهو أحق بالإمامة في صلاة الجنائز ما لم يحب الدنيا. وكان يقول: أدركنا الناس وهم يرون الأحقَّ بالصلاة علىٰ جنائزهم من رضوه لفرائضهم. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا رأىٰ أحدًا يرفع صوته في المسجد أو يلغو فيه، فضربه بسوط، فلاث به أقرانه وقالوا: مثل هذا لا ينبغي ضرب المسلم لأجله بالسوط.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا العالم بسبب ذلك، فقد ضرب عمر بن الخطاب بالدِّرَّة من رآه يرفع صوته في المسجد، وقال له: أتدري أين أنت؟! وبلغنا أن عيسىٰ ابن مريم رأىٰ قومًا يلغون في المسجد، فلف رداءه وضربهم به، وأخرجهم من المسجد. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠٩) ومما أجبتُ به عن طالب العلم إذا كان جالسًا في المسجد ثم دعي لجنازة، فلم يخرج، سواء أكان جالسًا لقراءة قرآن أو علم أو ساكتًا، فلاث به أهل الجنازة وقالوا: إنما ترك ذلك احتقارًا لنا، وتكبرًا علينا، بأنه ربما كان في مقام الترجيح في الأعمال التي لم يرد عن الشارع فيها ترجيح [بعضها] علىٰ بعض، فأدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ أن الجلوس في المسجد

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

أفضل من حضور تلك الجنازة، كما عليه جماعة من كبار التابعين رضي الله عنهم أجمعين.

وقد سُئل سعيد بن المسيِّب ﷺ مرةً: أيما أحب إليك: حضور الصلاة علىٰ الجنازة، أو الجلوس في المسجد؟ فقال: الجلوس في المسجد أحبُّ إليَّ، لأن الملائكة تستغفر لي ما دمتُ فيه، وذلك أفضل من حصول القيراط أو القيراطين أو القراريط التي تحصل لي بالصلاة علىٰ الجنازة والمشي معها، وحضور دفنها كما ورد في أجرها[1]، لأن استغفار الملائكة لا يُرَدُّ لعصمتهم، بخلاف صلاتي علىٰ الجنازة، فقد لا تكون خالصة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل طلبة العلم علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعلم منك بالأعمال الراجحة والمرجوحة، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اجتمع به شخص من التجار فقال: إن كنتَ تصحبني، فاترك التجارة واشتغل بالعبادة؛ فافتقر وصار يسأل الناس، فلاث به الأقران وقالوا: كيف يأمر هذا الرجل بالعبادة ويترك الكسب الذي يكف به نفسه وعياله عن سؤال الناس؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه ربما رآه لا يعرف شروط الكسب وآدابه فيها [فنهاه عنها][2] وعن التجارة حتىٰ يعلِّمه الشروط والآداب، ثم بعد ذلك يأمره بالتجارة، لأن مثل الشيخ لا يجهل كون الكسب الحلال مقدَّمًا علىٰ الاشتغال بالعبادة مع الحاجة لسؤال الناس، ويعلم أن سؤال الناس أفضل من الكسب الذي يدخله الغش والحلف الكاذب ونحو ذلك.

وقد كان الإمام مالك ﷺ يأمر أمراء الأسواق بجمع التجار والسوقة كلَّ جمعة ويعرضونهم عليه، فإذا وجد منهم أحدًا لا يفقه الشراء والبيع، ولا يعرف الحلال والحرام، أقامه من السوق وقال له: تعلَّم أحكام البيع والشراء، ثم اجلس في السوق،

---

(١) أخرج البخاري (١٣٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتىٰ يُصَلّي، فله قيراط، ومن شهد حتىٰ تدفن كان له قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين» ومسلم (٩٤٥).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.



فإنَّ من لم يكن فقيهًا في باب البيع أكل الربا، شاء أم أبىٰ. انتهىٰ.

وكان قتادة ﷺ يقول: عجبًا للتاجر! كيف يسلم له دينه وهو بالنهار يحلف، وبالليل يحسب ويضرب الحيلة في تحصيل الدنيا؟! وكان الحسن البصريُّ يقول: لا يخلص التاجر إلا إن كانت الدنيا عليه ساخطة، والآخرة عنه راضية. وكان سفيان الثوري يقول: لا تنظروا إلىٰ ثياب التجار والسوقة، فإن تحتها ذئاب كاسرة. وكان مالك بن دينار يقول: السوق مكثِرة للمال، مفسِدة للدين. وكان ابن السمَّاك إذا دخل السوق يقول: يا أهل السوق، سوقكم كاسد، وجاركم[1] حاسد، وبيعكم فاسد. وكان حماد بن زيد[2] يقول: الجلوس في السوق يغني ويفقر، فمن تورَّع في بيعه استغنىٰ، ومن غش فيه افتقر. وكان كثيرًا ما يقول: ما افتقر تاجر قط إلا بوقوعه في خصلة من هذه الخصال، وهي: اللغو والكذب، والحلف والغش، والغل والخيانة والحسد، وترك صلاة الجماعة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء وأشياخ الطريق، فإنهم أعرف منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٧١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأىٰ الناس له المرائي التي تسوؤه وتزري به، ولاث الناس به وقالوا: هذا يدل علىٰ خبث باطنه، وأن الذي يظهره لنا من الزهد والورع إنما هو زور وبهتان، بأنه لا يلزم من رؤيا السوء ما ذُكِرَ، فقد تكون الرؤيا السوء للرائي لا للمرئي له، كما وقع أن رجلًا قال لأبي يزيد البسطامي: رأيتُ وجهك في المنام وجه خنزير. فقال: صدقتَ، لأني مرآةُ الوجود، فرأيتَ نفسَك فيَّ، فحسبتَ أنك أنا.

---

(١) بالأصلين: خياركم. والمثبت من «محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء».

(٢) حماد بن زيد بن دِرْهَم الأزدي، العلامة، الحافظ، الثبت، محدث الوقت، أبو إسماعيل، مولىٰ آل جرير بن حازم البصري، الأزرق، الضرير. أصله من سجستان، سبي جده دِرْهَم منها. قال أحمد بن حنبل: حماد بن زيد من أئمة المسلمين، من أهل الدين، هو أحب إليَّ من حماد بن سلمة. توفي: ١٧٩هـ. في شهر رمضان. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٥٦) و«الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٢٨٦).

وقد قال عبد الله بن المبارك: قد يرىٰ بعضهم الرؤيا السوء[1] للرجل الصالح، ليزداد بها نشاطًا. وقد يرىٰ بعضهم الرؤيا الصالحة للرجل السوء، ليزداد بها استدراجًا، كما رأىٰ بعضهم أن الربيع بن خيثم[2] ﷺ دخل النار، فكان الربيع بعد ذلك لا ينام الليل ويقول: خوف النار طيَّر نومي.

وكان سفيان بن عُيينة يقول: رأيتُ قائلًا يقول علىٰ جبل أبي قبيس: أمان الله علىٰ أهل الأرض إلا علىٰ سفيان الثوري وفلان الزنديق، فكان سفيان الثوري بعد ذلك لا يقر له قرار من الرعب. وقال رجل للعلاء بن زياد[3]: رأيتُك البارحة وأنت تتبختر في الجنة، فقال: أما وجد إبليس أحدًا ليسخر به غيري، ولا أحد يحمله هذه الرسالة غيرك؟! انتهىٰ. فاعلم في ذلك يا أخي، واحمل من رأيتَ له رؤيا قبيحة أنها لك لا للمرئي له، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سمع شخصًا يدعو لشخص بأن الله يكثِّر في المسلمين من أمثاله، فنهاه عن ذلك، فلاث الناس به وقالوا: كيف ينهىٰ شخصًا يدعو لأخيه بأن الله تعالىٰ يكثِّر في المسلمين من أمثاله في العلم والعمل؟! بأنه قد يكون نهيه له عن الدعاء إنما هو لجهله بمقام ذلك الشخص عند الله تعالىٰ في الأعمال الصالحة، فنهاه أن لا يدعو بمثل ذلك إلا لمن علم صلاحه، لئلا يدعو بالهوىٰ بأن الله يكثِّر في عباده من ليس بصالح. وقد قال رجل لزياد بن طيبان: أكْثَرَ اللهُ تعالىٰ في المسلمين من أمثالك. فقال: لقد سألتَ الله تعالىٰ شططًا، وسألتَ للناس أن يصيروا من أهل السوء

---

(١) بالأصلين: الصالحة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الربيع بن خثيم بن عائذ أبو يزيد الثوري، الكوفي، أحد الأعلام. أدرك زمان النبي ﷺ وأرسل عنه. وروىٰ عن: عبد الله بن مسعود، وأبي أيوب الأنصاري، وعمرو بن ميمون. وهو قليل الرواية، إلا أنه كبير الشأن. وقال له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين. توفي: ٦٥هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٥٨) و«حلية الأولياء» (٢/ ١٠٥).

(٣) العلاء بن زياد بن مطر العدوىٰ أبو نصر من أفاضل أهل البصرة وعبادهم ممن يصبر علىٰ السهر الطويل والتهجد الكثير مات في آخر ولاية الحجاج سنة ٩٤هـ. «مشاهير علماء الأمصار» ص١٤٦.



مثلي. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك من العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: محل العقل القلب؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا قول ضعيف، وإنما محل العقل الرأس. واستدل بقول بعضهم: العقل في الرأس قاضيـها وواليـها.

بأن الحقَّ مع من قال: إن العقل في القلب وعليه أهل الكشف قاطبة. وقد سُئل عن ذلك الإمام عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: في القلب. فقيل له: فأين مسكن الرحمة؟ فقال: في الكبد. فقيل له: فأين مسكن الرأفة؟ فقال: في الطحال. فقيل له: فأين مسكن النفس؟ فقال: في الرئة. انتهىٰ.

ومما وقع أن الشيخ نجم الدين[1] كان يقول: العقل في القلب، فنازعه في ذلك نصير الدين الطوسي، فلما دخل التتار بغداد، قال الشيخ نجم الدين لأصحابه: إذا قطعوا رأسي فانظروا، فإن طأطأتُ وأخذتُها بيدي ومشيتُ بها، فاعلموا أن العقل في القلب، فلما قطعوا رأسه، طأطأ وأخذها ومشىٰ بها حتىٰ وصل بها إلىٰ محل قبره الآن!

وقد سألتُ مرةً سيدي عليًّا الخواص رحمه الله عن العقل: هل هو في القلب أو الرأس؟ فقال: لا تسأل عن محلِّه، ولكن اسأل أولًا عن وجوده. ثم قال: هشام الدستوائي[2] رحمه الله يقول في أول المئة الثانية: من أراد أن ينظر إلىٰ قوم بلا عقول فلينظر إلينا. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا ينبغي لأحد أن يقول لمن ظلمه

---

(١) نجم الدين الكبرىٰ، وقد تقدمت ترجمته.

(٢) أبو بكر هشام بن أبي عبد الله سَنْبَر البصري، الربعي مولاهم. صاحب الثياب الدَّسْتُوائية، كان يتجر في القماش الذي يجلب من دَسْتُوا. ولذا قيل له: صاحب الدَّسْتُوائي، ودَسْتُوا: بُلَيْدة من أعمال الأهواز. قال شعبة: ما من الناس أحد أقول إنه طلب الحديث يريد به الله، إلا هشامًا صاحب الدَّسْتُوائي، توفي: ١٥٢هـ. وقيل: ١٥٣هـ. «السير» (٧/ ١٤٩) و«حلية الأولياء» (٦/ ٢٧٨) و«الوافي بالوفيات» (٢٧/ ٢٠٥).

بغير حق: حسبي الله ونعم الوكيل؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: إن الله تعالىٰ قد مدح من يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل» فكيف ينهىٰ هذا الشيخ عن ذلك؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بمجرد هذا القول، لأنه ربما أراد من المظلوم العفو عن من ظلمه، فإن العبد إذا احتسب بالله علىٰ عبد أهلكه الله، وكان احتسابه أشد من بغي الباغي عليه. وقد قال مجاهد ﷺ: لو بغىٰ جبل علىٰ جبل، لهُدَّ الباغي ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، فالعبد يحتسب بالله تعالىٰ ولا يقابل أحدًا بنظير بغيه، ثم يسأل الله تعالىٰ للباغي أن يغفر له ولا يؤاخذه، نظير ما قالوه في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، فقال العارفون: قد رضينا بأن يكون أجرنا علىٰ الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا حضر زفة ختان أو عريس كما جرت به عادة الناس في مصر، فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذا لا يليق فعله بعالم ولا صالح، لأنه بدعة يجتمع فيها عادة الطبل والمزمار اللذان هما حرامان، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار بمجرد الحضور، فربما كان له عذر باطن لا يقدر علىٰ إفشائه ولا علىٰ امتناعه إذا دعي إلىٰ حضور تلك الزفة، وربما كان حضوره ليسامرهم بترك الطبل والزمر، وما في تلك الزفة من التشبه بالنساء في الملبس والتكسير ونحو ذلك، ففتش يا أخي علىٰ القضية أولًا ثم أنكر.

وقد سُئل الإمام عليٌّ ﷺ عن الخُلُق الحسن: ما هو؟ فقال: هو موافقة الناس في كلِّ شيء ماعدا المعاصي. انتهىٰ. وكان ابن عباس ﷺ يقول: من أدخل علىٰ إخوانه سرورًا فهو من الآمنين من عذاب الله يوم القيامة. انتهىٰ. فربما كان قصد ذلك العالم إدخال السرور علىٰ صاحب الزفة بأمر مباح لم يرد فيه نهي. وكان الحسن البصري يقول في حديث: «وخالق الناس بخلق حسن»[1]: الخلق الحسن هو السخاء والعفو واحتمال الأذىٰ. انتهىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (١٩٨٧) والحاكم (١٧٨) وأحمد (٢١٤٠٣).



فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الأكابر، فإنهم أعلم منك بأحكام الشريعة، فلا يفعلون مكروهًا مثلًا إلا لدفع حرام، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جمع في زاويته جماعة لا حرفة لهم ولا وقف عليهم، وقال: تعبدوا وأنا أقوم بما تحتاجون إليه؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: كلُّ هذا محبة في المشيخة، وكان الأولىٰ به الصبر حتىٰ يقف الناس عليه وعلىٰ جماعته شيئًا، ثم يجمعهم عنده.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بمثل هذا الشيخ، فإنه فعل بالفقراء معروفًا، ولا يجوز حمله علىٰ محبة المشيخة أو غيرها من الأغراض الفاسدة. وقد قال الضحَّاك[1] في قوله تعالىٰ في قصة يوسف: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] كان يوسف يخدم كلَّ من مرض في السجن أو لم يتفقده أحد من أهله. وكان إذا لم يجد عنده شيئًا يدور يسأل علىٰ الأبواب ويدفعه لهم. انتهىٰ. وكان إبراهيم التيميُّ ﷺ يجمع له جماعة في المسجد ويقول لهم: تعبدوا وأنا أقوم بما تحتاجون إليه من الطعام والشراب وغيرهما.

وكانت معيشة الربيع بن خيثم وإبراهيم النخعي وعطاء السلمي وأبي حفص الحداد من صلة الإخوان، ولم يكن لأحدهم زرع ولا ضرع. وكان أحدهم إذا لم يصله أحد بشيء، يدور علىٰ الأبواب والحوانيت يسأل الناس. وقيل للجنيد: لم جعلت هؤلاء الفقراء عندك؟ فقال: لأتذكر بحاجتهم إليَّ فقري إلىٰ ربي، لأن العبد ربما نسي ربَّه إذا وسَّع عليه الدنيا. انتهىٰ.

وممن أدركتُه علىٰ هذا القدم الشيخ إبراهيم الرحبي الذي كان مقيمًا بباب جامع الأزهر الكبير ﵀، وسبقه إلىٰ ذلك الشيخ عثمان الحطَّاب بمصر، كان إذا احتاج

---

(١) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد، وقيل: أبو القاسم، صاحب التفسير. كان من أوعية العلم، وثقه: أحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين، وغيرهما. وحديثه في السنن. وقد ضعفه: يحيىٰ بن سعيد. قال سفيان الثوري: كان الضحاك يُعلم ولا يأخذ أجرًا. توفي: ١٠٢هـ. وقيل ١٠٥هـ. «السير» (٤/ ٥٩٨)، «الطبقات الكبرىٰ» (٦/ ٣٠٠).

الفقراء المقيمون عنده شيئًا سأل لهم السلطان قايتباي[1] أو غيره من الأمراء والأكابر ﷺ، فاعلم ذلك واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كاتب الولاة في قضاء حاجة وألان القول لهم، فلاث به صاحب الحاجة وقال: لم لا يغلظ له في القول ويلزمه بقضائها؟! فإنه أسرع لقضاء حاجتي، ولكن قد صار الناس كلُّهم يداهنون أبناء الدنيا لينالوا من دنياهم، وأما أنا فليس معي شيء يأخذونه، بأنه لا ينبغي اللوث علىٰ ذلك العالم، لأنه مشىٰ علىٰ ما أمر الله تعالىٰ به الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤]، وذلك لأن الحكام والجبابرة لهم السلطان والحكم في هذه الدار، لأنهم آلة لتنفيذ قضاء الله تعالىٰ وقدره في عباده في هذه الدار، والإغلاظ عليهم لا يزيدهم إلا قساوة، لأنهم ليسوا تحت أمر ذلك العالم أو الشيخ، بل لو شاء الله تعالىٰ لحبسوا ذلك العالم أو الشيخ وضربوه أو قتلوه، فمن طلب من أصحاب الحوائج أن الشيخ يغلظ علىٰ ذلك الظالم، فقد جهل طريق السياسة. ولا يجوز له حمل العالم علىٰ المداهنة، بل من حمله علىٰ ذلك فقد أخطأ ولم يستحق أن يشفع[2] ذلك العالم فيه.

واعلم يا أخي أن من أعظم السياسة في قضاء الحاجة [إرسال هدية للمشفوع عنده، فقد كانت عائشة ﵂ تقول: مفتاح قضاء الحاجة][3] الهدية بين يديها. وكان ميمون بن مهران يقول: إذا كان لك عند أحد من الأمراء حاجة، فاجعل رسولك الهدية. وكان الزهريُّ[4] يقول: إذا كان لك إلىٰ أحد من الأمراء حاجة، فأته في بيته فإنه أقضىٰ للحاجة.

---

(١) الملك الأشرف قايتباي المحمودي. السلطان الحادي والأربعون من سلاطين المماليك. كان صالحًا محبًّا للصوفية، معتقدًا ومعظمًا لأولياء عصره. توفي سنة (٩٠١هـ).

(٢) بالأصلين: يشنع. والصواب ما أثبتناه.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء.



وكان عبد الله بن عباس يقول: لا تطلبوا من أحد حاجة في الليل، فإن الحياء في العينين.

وكان محمد بن واسع[1] إذا شفع عند أمير يقول له: قد رفعنا أمر هذه الحاجة إلىٰ الله تعالىٰ، فإن أذن لك في قضائها حمدناك، وإن لم يأذن لك في قضائها عذرناك. انتهىٰ.

وفي الأثر: «لا تنزلوا حوائجكم بمن لا يشتهي قضاءها». انتهىٰ. فينبغي للعالم أو الشيخ أن لا يراسل أميرًا أو يشفع عنده إلا إذا انشرح قلبه لذلك، وعلم بالقرائن أن ذلك الأمير مثلًا ينشرح لقضائها، فإن علم انقباضه من قضائها عنده، تربص لقضائها وقتًا آخر، ولا ينبغي أن يلتفت إلىٰ غضب صاحب الحاجة إن لم يكاتب ذلك الأمير، فإنه أعمىٰ لا يطلب إلا قضاء حاجته ولا عليه مما يترتب علىٰ ذلك من الإخلال بحرمة العالم أو غيره، فعُلِمَ أن السياسة أسرع في قضاء الحاجة من العنف، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الذي يقول: ليس عندي محبة لأحد من علماء هذا الزمان وصالحيه فضلًا عن العامة؛ فلاث به الناس وقالوا: بغض العلماء والصالحين من علامة مقت الله تعالىٰ للعبد، وكيف ينبغي للعبد أن يبغض أولياء الله وحملة شريعته؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، فقد يكون بمعزل عما فهمه الذين لاثوا به، ويكون مراده بذلك القول الاعتراف بعجزه عن القيام بحقوق المحبة لهم فقط، وليس في كلامه ما يشعر بأنه يبغضهم، إنما قال: «ليس عندي محبة لهم» علىٰ سبيل الذم لنفسه العليمة بحقوق المحبة، فخاف أن يقول: «أنا أحبُّهم» فيقع في الكذب كما عليه أكثر الناس اليوم.

تابعي، من أهل المدينة. وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه. توفي: ١٢٤هـ. «الأعلام» (٧/ ٩٧) و«حلية الأولياء» (٣/ ٣٦٠).

(١) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدي الإمام، الرباني، القدوة، أبو بكر. ويقال: أبو عبد الله الأزدي، البصري، أحد الأعلام. قال ابن عيينة: قال ابن واسع: لو كان للذنوب ريح، ما جلس إليَّ أحد. وقال أيضًا: إذا أقبل العبد بقلبه علىٰ الله، أقبل الله بقلوب العباد عليه. توفي: ١٢٣هـ. «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١١٩) و«الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٢٤١) و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٥)

وقد كان السلف الصالح لا يتجرأ أحد منهم أن يقول لأخيه: «أنا أحبُّك» إلا بعد أن يعرض علىٰ نفسه أنه لو أمره بطلاق زوجته التي يحبها ليأخذها هو، لطلقها له بانشراح صدرٍ، ولو طلب منه جميع ما بيده من المال، لأعطاه له بطيب نفس. وفي الحديث: «سيأتي آخر الزمان قوم إخوان العلانية، أعداء السريرة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يتواخون رغبة ورهبة»[1].

وكان حبيب بن ثابت[2] يقول: إياك أن تقول لأحد: أنا أحبُّك وأنت تكتم عنه شيئًا من سرِّك. وسُئل سفيان الثوريُّ عن المحبة في الله للإخوان، فقال: تلك طريق نبت الشوك فيها، فلا أحد يسلكها اليوم. وكان علي بن بكار[3] يقول: ما رأيتُ أحدًا قام بحق الصحبة مثل إبراهيم بن أدهم، كان يقسم الثمرة بينه وبين أخيه، وإن كان غائبًا حفظها له حتىٰ يحضر. وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: من ادعيتَ محبتَه وأنت تحوجه إلىٰ أن يعتذرَ لك أو يداريك فدعواك باطلة، فإن من شرط المحب أن لا يحوج أخاه إلىٰ المداراة له ولا إلىٰ الاعتذار، إذ الاعتذار تهمة للمعتذر إليه وتزكية للنفس.

وقال رجل لبشر بن صالح[4]: إني أحبك في الله. فقال: انظر ما تقول! فربما كانت

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٥٥) من حديث معاذ أن النبي ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان أقوام إخوان العلانية أعداء السريرة. فقيل: يا رسول الله، وكيف يكون ذلك؟ قال: ذلك برغبة بعضهم من بعض، ورهبة بعضهم من بعض» والطبراني في «الأوسط» (٤٣٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٢٨) بنحوه.

(٢) حبيب بن أبي ثابت أبو يحيىٰ القرشي الأسدي مولاهم، فقيه الكوفة. قال أحمد بن يونس: عن أبي بكر بن عياش: كان بالكوفة ثلاثة، ليس لهم رابع: حبيب بن أبي ثابت، والحكم، وحماد، كانوا من أصحاب الفتيا، ولم يكن أحد بالكوفة إلا يَذِلُّ لحبيب. توفي: ١٢٢هـ «السير» (٥/ ٢٨٨)، «حلية الأولياء» (٥/ ٦٠).

(٣) علي بن بكار أبو الحسن البصري الإمام الرباني، قال موسىٰ بن طريف: كانت الجارية تفرش لعلي بن بكار، فيلمسه بيده، ويقول: والله إنك لطيب، والله إنك لبارد، والله لا علوتك الليلة. وكان يصلي الفجر بوضوء العتمة. توفي: ٢٠٧هـ. وقيل: ٢٠٩هـ. «السير» (٩/ ٥٨٤)، «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٧).

(٤) لعله بشر بن موسىٰ بن صالح، محدث حافظ ثقة، سمع من الحميدي شيخ البخاري وجماعة. وروىٰ عنه الطبرانيُّ وجماعة. كان من بيت حشمة وأدب. توفي سنة (٢٨٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٥٣).



بردعة حمارك أغلىٰ قيمة من ثيابي وعمامتي، وربما كنت تهتم بعلفه صباحًا ومساءً أكثر من اهتمامك بي. وكان مالك بن دينار يقول: قد صارت أخوة الناس اليوم لبعضهم كمرقة الطباخ طيبة الريح ولا طعم لها.

وقد كان السلف الصالح ربما أن أحدهم لا يلقىٰ أخاه إلا كلَّ شهر مرة، ولو أنه سأل أخاه شطر ماله، لأعطاه له، ونراهم اليوم يتلاقون في النهار كذا كذا مرة، وفي كلِّ مرة يقول لأخيه: أيش حالك؟ ولو سأله دجاجة لم تسمح نفسه بها. وكان عبد الله بن عباس يقول: كيف يدعي أحدكم محبة أخيه ولا يتحفه بتحفة كلما زاره؟! انتهىٰ.

فقد علمتَ يا أخي من جميع ما قررناه أن قول هذا العالم ليس عندي محبة لأحد من العلماء والصالحين محمولٌ علىٰ الصدق والحقِّ، لعجزه عن القيام بحقوقهم، لا بغضًا لهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعِيَ إلىٰ وليمة فلم يجب وقال: إن كان يريد أكلي من طعامه، فليرسله إلىٰ بيتي؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: قد قال رسول الله ﷺ: «من دُعِي إلىٰ وليمة فليجب»[1]، وما قال: من عمل وليمة فليرسل الطعام إلىٰ الناس، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له عذر يمنعه من الحضور لا يقدر علىٰ إفشائه، وربما كان لا يعتقد حلَّ مال الداعي، فخاف إن حضر ولم يأكل أن يُدخِل عليه غمًّا، وإن أكل ارتكب إثمًا، فأراد بإرساله الطعام مباسطته وإظهار محبته، ثم يترك ذلك الطعام إلىٰ المحتاج إليه من أصحاب الضرورات.

وقد كان عبد الله بن عمر لا يجيب إلىٰ وليمة إلا إن وثق بورع صاحبها ويقول: لا ينبغي لأحد أن يأكل إلا من طعام التقي النقي. وكان سفيان الثوري لا يجيب إلىٰ وليمة من تفاخر بالطعام ويقول: نهانا رسول الله ﷺ أن نأكل من طعام المتفاخرين[2]. وكان

(١) أخرجه البخاري (٥١٧٣)، ومسلم (١٤٢٩).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٧٥٤) من حديث ابن عباس يقول: «إن النبي ﷺ نهىٰ عن طعام المتباريين أن يؤكل» والحاكم (٧١٧٠) وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في «الكبير» (١١٩٤٢).

محمد البيكندي(١) يقول: أدركنا الناس وهم لا يكلفون الناس إلىٰ الحضور في البيوت إذا أولموا، وإنما كانوا يملون الجفان من الطعام، ثم يعدون بها إلىٰ المسجد، فيأكل منها من كان حاضرًا من غني وفقير وشريف ووضيع، وفي رواية: مضت السنة في الولائم أن الجفان كانت تملأ من الطعام ثم يُغدَىٰ بها إلىٰ المسجد.

وكان ميمون بن مهران لا يحضر وليمة فيها عدو له ويقول: مؤاكلة العدو تخمة، ومؤاكلة المحب تهضم الطعام، فأخاف أن يلحقني تخمة بمؤاكلتي معه. وكان شقيق ﷺ يقول: ما بقي في هذا الزمان وليمة علىٰ موافقة السنة، ولقد ندمتُ علىٰ إجابتي للولائم في الزمن الماضي. وقال: وبلغنا أن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﷺ كانا لا يجيبان إلىٰ حضور الولائم ويقولان: نخاف أن يكون الطعام مباهاة وتفاخر. وكان حاتم الأصم لا يجيب إلىٰ وليمة من لا يتورَّع، وإن قالوا له: إنه يذمك بذلك؛ قال: إن مذمة هؤلاء مدحة لنا. وكان يجيب إلىٰ طعام أصدقائه.

وأرسل شخص بطعام إلىٰ عثمان بن عفان ﷺ مع عبد له، وقال: إن قبله منه فأنت حر. فقال: إن كان فيه عتقك ففيه رقي ولم يقبله. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعلم منك بالسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي أرسل لبعض العلماء الكبار أو المشايخ الكبار طبقًا فيه ثمرة واحدة أو لقمة، فلاث به أصحاب ذلك العالم أو الشيخ، وقال بعضهم: هذا استهزاء بالشيخ! وقال بعضهم: هذا هوس في العقل! وقال بعضهم: هذا امتحان للشيخ وغير ذلك، بأنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون له غرض صحيح في ذلك خارج عن جميع ما قاله هؤلاء. وقد كان الحسن البصريُّ وغيرُه

---

(١) محمد بن سلام بن الفرج السُلمي مولاهم، أبو عبد الله، الإمام، الحافظ، الناقد، البخاري، البيكندي. نسبته إلىٰ (بيكند) بقرب بخاري. رأىٰ: مالك بن أنس. وكان من أوعية العلم، وأئمة الأثر. قال أحمد بن الهيثم الشاشي: قال لي يحيىٰ بن يحيىٰ: بخراسان كنزان: كنز عند محمد بن سلام البيكندي، وكنز عند إسحاق بن راهويه. توفي في سابع صفر، سنة: ٢٢٥هـ. «السير» (١٠/ ٦٢٨) و«الوافي بالوفيات» (٣/ ٩٦).

يرسلون إلىٰ أخيهم الرغيف أو التمرة أو النعل مثلًا ويقولون له: إنا نعلم غناك عن مثل ذلك، وإنما أردنا أن نُعْلِمَك بأنك علىٰ بال منا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأكابر علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتصدق بالكِسَر اليابسة دون اللينة، وبالخليقات البالية دون الجديدة، فلاث به بعض الناس وقال: هذا يدل علىٰ جهله بالأدب مع الله تعالىٰ.

وقد قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، حتىٰ كان ابن عمر يتصدق بالسكر ويقول: إني أحبه، بأنه قد يكون مشهده أن المُلْك لله تعالىٰ في جميع الوجود، فإذا أعطىٰ المعيب فكأنه نقل ملك الحق من موضع من خرابته إلىٰ مكان آخر فقط.

[مذهب النخعي في إخراج المعيب في الزكاة والأضحية]

وقد كان النخعي يقول: من كان يرىٰ أنه لا يملك مع الله تعالىٰ شيئًا، فلا عليه أن يتصدق بالمعيب في زكاة الفطر، ولا عليه لوم في ذبح المعيب في الأضحية، إلا ما صرَّح الشرع بمنعه، لكن هذا مذهب مرجوح، والجمهور علىٰ الأمر بالتصدق بالسليم، حتىٰ كان السلف الصالح منهم محمد بن سيرين يخرج زكاة فطره مغربَلة مطيَّبة. وكان عروة ابن الزبير[1] يقول: تخيروا للصدقة، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

فينبغي لمن ينكر علىٰ من يتصدق بالمعيب أن يعلمه بما عليه الجمهور، ثم ينكر عليه بعد ذلك ولا يبادر إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير يقول لأصحابه: من أعطىٰ فقيرًا شيئًا ورأىٰ له فضلًا عليه، فهو ممن أبطل صدقته بالمنِّ والأذىٰ؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: كيف يبطل الصدقة بذلك؟! وهو أمر لا يكاد الإنسان ينفك عنه، ولا يكون المن إلا بذكره للناس.

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله: أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالمًا بالدين، صالحًا كريمًا، لم يدخل في شيء من الفتن. وانتقل إلىٰ البصرة، ثم إلىٰ مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين. وعاد إلىٰ المدينة فتوفي فيها. وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. و(بئر عروة) (بالمدينة) منسوبة إليه. توفي: ٩٣هـ. انظر: «الأعلام» (٤/ ٢٢٦) و«الطبقات الكبرىٰ» (٥/ ١٧٨).

والجواب: بأن هذا الشيخ قد يكون مجتهدًا مطلقًا، ولا ينبغي الاعتراض على المجتهدين ولا من تبعهم، لأنه يجب على المجتهد العمل باجتهاده، ويحرم عليه العدول عنه، [وكان الليث بن سعد دائم التصدق والإهداء][1] وكثيرًا ما كان يقول: من أخذ مني صدقة وهدية، فحقُّه عليَّ أعظم من حقي عليه، لأنه قبِل مني قرباني إلى الله تعالى، وحمله لي إلى الآخرة من غير أجرة. انتهى. ويؤيد ذلك قول معاذ النسفي[2] ﷺ: من لم يرَ نفسه أحوج إلى ثواب صدقته من الفقير إلى صدقته هو، فهو ممن أبطل صدقته بالمن والأذى، وضرب بها وجهه. انتهى.

وكان الأعمش يقول: حكم من أخذ صدقتك حكم من غسل ثوبك، أو فصدك وأخرج منك الدم الفاسد الذي يؤذيك، فمن الأدب أن ترى له الفضل عليك. انتهى. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي تكرر منه أنه كلما رأى سائلًا يسأل الناس على الأبواب، يمسكه ويقيده بالحديد إلى الصباح، فلاث به الفقهاء وقالوا: كيف يجوز له أن يقيد من ليس له عليه ولاية؟!

والجواب: أن ذلك قد يكون باجتهاد، كما وقع لأبي الأسود الدؤلي[3] أنه قيَّد سائلاً

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، وقد استكملناها من «تنبيه المغترين» للمصنف.

(٢) أبو عبد الرحمن معاذ بن يعقوب النسفي، كان زاهدا عالما، وكان من خيار المسلمين ومن عباد الله الصالحين، الّذي أسس الجامع العتيق في زمانه، وذلك في سنة تسع عشرة ومائتين، وهو الّذي بنى المسجد والرباط في سكة الزهاد. الأنساب للسمعاني (١١/ ٢٠).

(٣) أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو، ويقال: الديلي. العلامة، الفاضل، قاضي البصرة. ولد: في أيام النبوة. قال أحمد العجلي: ثقة، كان أول من تكلم في النحو. وقد أمره علي ﷺ بوضع شيء في النحو لما سمع اللحن. قال: فأراه أبو الأسود ما وضع. فقال علي: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت! فمن ثمَّ سُمِّي النَّحو نحوًا. وهو أول من نقط المصاحف. توفي في طاعون الجارف، سنة:٦٩هـ. «السير» (٤/ ٨١)، «الطبقات الكبرى» (٧/ ٩٩)، «هدية العارفين» (١/ ٤٣٤).

بعد أن رآه خرج يسأل بعد أن كان عشاه وأشبعه إلىٰ الصباح، وقال: أمنعك عن الصياح بالمسلمين بالباطل.

فإن قال قائل: كيف ساغ لأبي الأسود تقييده بالحديد؟! مع أنه لم يقع في معصية توجب ذلك، ولم يكن لأبي الأسود ولاية عليه حتىٰ يقيده؛ **والجواب**: أنه يُحتمَل أن يكون له ولاية علىٰ ذلك السائل من طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قال قائل: قد يحتاج إلىٰ دخول الخلاء، أو يكون وراءه عيال تضيع مصالحهم في تلك الليلة؛ **قلنا**: يُحتمَل أنه لم يكن يحتاج إلىٰ الخلاء، وأن لا يكون له عيال. ويُحتمَل أنهم كانوا يحلونه من القيد إذا احتاج إليه، ولم يمنعوه سوىٰ من الطواف علىٰ الناس، والمحامل كثيرة، **فلا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ كبار التابعين إلا بعلم صحيح**، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي اعتزل عن جميع أهل حارته، وصار كالغريب بينهم، فلاثوا به وقالوا: إنما ترك مجالستنا احتقارًا بنا، أو لظنه فسقنا، أو جهلًا بالشريعة، فإنها أمرت بالتوادد والتواصل.

والجواب: بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الفقير، ولا حمله علىٰ المحامل السيئة، فقد يكون ممن اكتفىٰ بالله تعالىٰ في المجالسة والأنس بعباداته له، فإنه تعالىٰ كافٍ من توكل عليه.

وقد كان يحيىٰ بن معاذ يقول: من أقبل علىٰ الله تعالىٰ آنسه بلا عشيرة، وأغناه بلا مال. وأوحىٰ الله إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، أقبل عليَّ دون الناس، أنكِّس لك رؤوس الجبَّارين، وأجعلهم تحت طاعتك كالكبش تحت السكين. يا داود، أنا أولىٰ بك من الناس، لأني أستر عليك زلاتك، ولا أفضحك بها إذا غضبتُ عليك، وأما الناس فلا يسترون عليك، ويفضحونك بها إذا غضبوا عليك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٥) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذين يميلون في الذكر يمينًا وشمالًا، فلاث بهم بعض الفقهاء وقال: إن ميلكم هذا بدعة حتىٰ تأتوا لنا بدليل.

والجواب: قد ثبت عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تعالىٰ يميدون كما تميد الشجرة في يوم الريح، وتهمل أعينهم بالدموع حتىٰ تبتل ثيابهم. انتهىٰ[1].

[سبب استحباب مشايخ الصوفية للتمايل]

وقد استحبت ذلك أشياخُ الطريق من أبي القاسم الجنيد إلىٰ عصرنا هذا وقالوا: يبدأ بـ«لا إله» من الجانب الأيمن، ويختم بالأيسر فيقول: «إلا الله» بعزم وشدَّة، لأن النَّفْسَ في الجانب الأيسر. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا أنكر علىٰ الناس تقبيلهم أضرحة المشايخ وأعتابهم، ولاث العوام به وقالوا: هذا قليل الاعتقاد في الصالحين، وكيف يعيب علىٰ أحدنا تقبيل ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه مثلًا نيابة عن يده أو رجله لو كان حيًّا أو عتبة ضريحه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا العالم، لأنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ تقبيل شيء من قبور إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا أقرَّ أحدًا من أصحابه علىٰ تقبيله قبر أخيه المسلم، فترك تقبيل أضرحة المشايخ إذن أولىٰ من تقبيلها، ويجعل الإنسان المعتقِد فيهم بدل ذلك الاقتداء بأقوالهم وأفعالهم، وكثرة محبتهم والخضوع لهم بالقلب، فإن ذلك هو التعظيم الحقيقي والمحبة الصحيحة، فيحصل لنا ولهم الخير والبركة بالاقتداء بأفعالهم وأخلاقهم[2].

وربما بالغ الناس في تعظيم قبور الأولياء حتىٰ عبدوهم من دون الله، كما قال ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع. قالوا: يا رسول الله، اليهود

(١) لم أقف عليه في «الشفا» ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٨٨).

(٢) يرىٰ الإمام هنا

والنصارىٰ؟ قال: فمن؟!»[1]، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر بن الخطاب ﵁ لما قبَّل الحجر الأسود: لولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتُك[2]. انتهىٰ[3]. فاعلم ذلك، وتقيد بالسنة المحمدية قولًا وفعلًا واعتقادًا، فإن النجاة في ذلك. والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلميذه: أخرج إلىٰ الكنيسة وعاشر القسيسين والرهبان خير لك من معاشرة الفقراء؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: كيف تكون مخالطة الكفار والجلوس في الكنيسة خيرًا من الجلوس في المسجد ومعاشرة المسلمين؟!

والجواب: أنه ربما كان قصده أن ذلك المريد صار من الداعين إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، لحسن علمه وعمله وسياسته، كأنه يقول له: اذهب إلىٰ الكنيسة وعاشر الرهبان وغيرهم، فلعلَّهم يهتدون إلىٰ الإسلام، ويحصل لك ولهم بذلك الخير.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

(٣) يجيب الإمام هنا عن العذر الذي قام برأس هذا العالم، فجعله ينكر تقبيل الأضرحة إنكارًا شديدًا، وإلا فإن الأمة المحمدية معصومة من الشرك دائمًا وأبدًا، بدليل قوله ﷺ فيما أخرجه البخاري (١٣٤٤): «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلىٰ حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض - أو مفاتيح الأرض - وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

أما تقبيل الأضرحة، فقد اختلفت فيها مشارب المشايخ الأولياء وفتاوىٰ العلماء العالمين بين مانع ومجيز، ولكلٍّ مشهده. وجملة من مشايخ مصر يقبلون الأضرحة والأعتاب الشريفة، ويرون فيها الترقي والاستمداد من صاحب الضريح الشريف، ويعتقدون أنها تقوم مقام تقبيل يده. وكما قال سيدنا الشعراني في هذا الكتاب: «إن الأدب لا تأباه الشرائع» فكل ما كان طريقًا إلىٰ زيادة الأدب والتعظيم يجوز الأخذ به وإن لم يرد ما دام لا يقع في دائرة المنهي عنه كالسجود مثلًا الذي لا يرتفع إن فعله بعض العوام إلىٰ مرتبة الشرك، بل لا يزيد عن مرتبة الحرام. وقد نقل الإمام الشمس الرمليُّ في «تحفة المحتاج» وهو ممن يجلهم سيدنا الإمام الشعراني ويثني عليه وعلىٰ والده الشهاب خيرًا: «إن قصد بتقبيل أضرحتهم التبرك لم يكره كما أفتىٰ به الوالد» (٣/ ٢٤). وغير الإمام الرملي كثير كالشرقاوي في تحريره (١/ ٣٤٥) والباجوري في حاشيته (١/ ٢٥٥) وغيرهما. هذا غير أئمة بقية المذاهب الثلاثة، غير أن الموضع لا يتسع لفتح هذا البحث بالتفصيل هنا، فنكتفي بذلك.

ويُحتمَل أن يكون مراده بذلك أن سكنىٰ التلميذ للكنيسة ومخالطة الرهبان خير له، لما هو عليه من الصفات النجسة، فإذا سكن الكنيسة سَلِم من مقت قلوب المؤمنين له كلما رأوه، بخلاف ما لو سكن في المسجد، إذ الرهبان لا يمقتونه علىٰ تلك الصفات، ولو مقتوه لم يؤثروا فيه، فافهم.

(٧٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل علىٰ الولاة ويقول: مرادنا تكاتبون مولانا السلطان علىٰ لساني أنه يبني بيمارستان[1] بمكة أو بمصر أو بالقدس؛ فلاث به الأقران وقالوا: مثل هذا لا يكاتب الولاةُ السلطانَ علىٰ لسانه عادة، وإنما يكاتبون علىٰ لسان الشيخ الكبير الذي أجمع الناس علىٰ جلالته حتىٰ وصل خبره للسلطان، ولكن مقصود هذا أن يشتهر عند الولاة والسلطان بأنه يسعىٰ في الخير، وأنه من الصالحين، وإذا وقعت له الشهرة بذلك، فلا عليه بعد ذلك بنوا البيمارستان أم لم يبنوه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ سوء الظن بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون الباعث له علىٰ بناء البيمارستان الرحمة بالضعفاء لا الشهرة بدليل [...][2]. ويجب أن يُظَنَّ به أنه لو سأل في ذلك غيرُه وأجابه الولاة، لفرح بذلك أشد مما يكون علىٰ يديه، ومن ظن خلاف ذلك، فعليه الخروج من عهدته بين يدي الله عزَّ وجلَّ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٢٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يشرب ما يقطر من أطراف المجذوم أو ما يتقيؤه، ويزعم أنه يحصل له بذلك المدد العظيم، فلاث به الناس وقالوا: المدد لا يكون إلا بفعل الطاعات أو الأمور التي أذن الشرع فيها، وأما ما يخالف الشريعة فلا مدد في فعله، بل هو إلىٰ الإثم أقرب.

والجواب: أن هذا الفقير ربما يكون ممن كشف الله تعالىٰ عن بصيرته، فرأىٰ أن ذلك المجذوم لا يمد إلا من اعتقد فيه الصلاح، وعلم أنه متىٰ شرب صديده أوقيأه

---

(١) البيمارستان: كلمة فارسية معناها المستشفىٰ.

(٢) سقط بالأصلين.

حصلت له خلافة ذلك الولي، كما وقع لسيدي قمر الدولة[1] مع سيدي أحمد البدوي ، فإن سيدي قمر الدولة كان من جند محمد بن قلاوون[2]، فمر بطندتا[3] وهو مسافر في وقت الحر، فسمع الناس يقولون: إن سيدي أحمد البدوي على موت، فدخل زائرًا له ولم يكن رآه قبل ذلك، فلما شرب سيدي أحمد ماء البطيخة تقيأه في إناء، فأخذه سيدي قمر وشربه فكانت الولاية.

وكذلك وقع لزوجة سيدي أبي عبد الله القرشي[4] كانت تضع الكوز تحت أصابع يديه ورجليه، فإذا امتلأ من الصديد شربته، فحصلت لها الولاية وجلست بعده للمشيخة، وكمَّلت جماعة من الفقراء. وهذا من باب شرب أم أيمن بول رسول الله[5] ﷺ، وشرب الحجام دم رسول الله[6] ﷺ، فهو للأولياء بحكم الإرث المحمدي. وكان شيخ الإسلام

---

(١) انظر ترجمته في: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني، الترجمة (٣١٧) طبعة دار الإحسان.

(٢) نقل العلامة نور الدين الحلبي هذا الموضع في «النصيحة العلوية»، وعلق عليه محقق الكتاب أ. أحمد عز الدين خلف الله قائلًا: إن هذا سبق قول، لأن الناصر بن قلاوون لم يكن معاصرًا لسيدي أحمد البدوي. اهـ. وذلك لأن مولده متأخر عن وفاة سيدي أحمد البدوي، فقد توفي سيدي البدوي سنة (٦٧٥هـ)، وولد ابن قلاوون سنة (٦٨٤هـ).

(٣) وتعرف الآن باسم «طنطا» إحدىٰ مراكز محافظة الغربية بمصر.

(٤) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ أبو عبد الله القرشي ، واسمه محمد بن أحمد بن إبراهيم. تلميذ الشيخ أبي الربيع المالقي. كان جليل المقدار. وكان يجتمع كثيرًا بالخضر ويبيت الخضر عنده. لم يتيسر معرفة تاريخ وفاته. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٢٨٠).

(٥) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الحاكم (٦٩١٢) من حديث أم أيمن ، قالت: «قام النبي ﷺ من الليل إلي فخارةٍ من جانب البيت فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشىٰ فشربت من في الفخارة وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي ﷺ قال: يا أم أيمن قومي إلىٰ تلك الفخارة فأهريقي ما فيها. قلت: قد والله شربت ما فيها. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، ثم قال: أما إنك لا يفجع بطنك بعده أبدا» والطبراني في «الكبير» (٢٣٠) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٦٥) وابن حجر في «المطالب العالية» (٣٨٢٤).

(٦) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٤٤٣) من حديث سالم قال: «حجمت رسول الله ﷺ وشربت الدم من المحجمة. وقلت: يا رسول الله، شربته. فقال: ويحك يا سالم أما علمت أن الدم حرام؟ لا تعد».

البلقيني يقول بطهارة بول النبي ﷺ وطبيعته. وكان يقول: لو وجدت طبيعتَه لأكلتُها ورأيتُ لنفسي بذلك الشرف. انتهىٰ.

وسألت سيدي عليًا الخواص مرة عن شرب بعض المريدين بول شيخه علىٰ وجه التبرك به، فقال: هذا لا يتمشىٰ إلا علىٰ قول من يقول: «جلب المصالح مقدم علىٰ درء المفاسد» وهو خلاف ما عليه الجمهور[1]، فمن أراد أن ينكر علىٰ من فعل مثل ذلك، فليعلمه بمذهب الجمهور أولًا ثم ينكر عليه بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يضحك في المقابر ويأكل ويشرب، فلاث به بعض الناس وقالوا: لو أن هذا من الصالحين لشغله رؤية القبور وما هم فيه عن الأكل والشرب. وقد رأىٰ الحسن البصري شخصًا يأكل في المقابر، فزجره وقال: أما في رؤيتك لهذه الأموات ما يلهيك عن تذكر الأكل؟! وفي رواية أنه قال له: والله إنك لمنافق! كيف تأكل بين المقابر؟! انتهىٰ.

والجواب: أن مثل هذه الأمور تخفىٰ علىٰ كثير من الناس، فينبغي إعلامه بكلام الحسن البصري، ثم بعد ذلك ينكر عليه علىٰ وجه التنزيه. وقد يكون هذا الفقير ممن لا يأكل إلا إن سمع الهاتف يقول له: سألتُك بالله تأكل، كما كان عليه سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، فهو لا يأكل إلا إبرارًا لسؤال الهاتف له بالله، فرجح بذلك جانب القسم علىٰ جانب الاعتبار، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

وقد ورد أن عبد الله بن الزبير شرب دم النبي ﷺ وذلك فيما رواه الحاكم (٦٣٤٣) من حديث الهند بن القاسم بن عبد الرحمن بن ماعز قال: «سمعت أن عامر بن عبد الله بن الزبير كان يحدث، أن أباه حدثه، أنه أتىٰ النبي ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: يا عبد الله، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد، فلما برزتُ عن رسول الله ﷺ عمدت إلىٰ الدم فحسوته، فلما رجعت إلىٰ النبي ﷺ قال: ما صنعت يا عبد الله؟ قال: جعلته في مكان ظننت أنه خاف علىٰ الناس. قال: فلعلك شربته؟ قلت: نعم. قال: ومن أمرك أن تشرب الدم؟ ويل لك من الناس، وويل للناس منك» والبزار (٢٢١٠) بنحوه، وابن حجر في «المطالب العالية» (٣٨٢١).

(١) إذ الجمهور علىٰ أن درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح.

(٧٣١) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يلح في طلب طعام أو ثياب أو دراهم، ويقول الناس: ما رأينا أملح[1] رقبة من هذا السائل! بأنه قد يكون من أولياء الله الذين كُشِفَ لهم عن رزقهم الذي جعله الله تعالىٰ عند ذلك الشخص، فهو يلح عليه ليعطيه بسرعة، لئلا يشغله عن العبادة بغير فائدة، فإنه لا يقدر أحد غيره أن يأكله.

وقد أخبرني سيدي الشيخ حسن الريحاني[2] ﷺ أن جماعة من سكان الجبل المقطم كانوا علىٰ هذا الجبل، وربما كان رزق أحدهم في أقصىٰ المشرق أو المغرب، فيذهب إليه ويأتي به. قال الشيخ حسن: ولقد أرسلوا مرةً النقيب ليفتش لهم علىٰ الحلال من الرزق، فلم يجد ذلك إلا في مدينة مراكش عند امرأة عجوز، فأتىٰ به إليهم، وكان نخالة شعير، فلما وضعه بين أيديهم فأكلتُ منه فإذا هو سكر. فإياك يا أخي وسوء الظن بالفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٢) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي يخالط أهل البدع كالقَلَنْدريَّة والحيدرية[3] والروافض، ولاث به الناس وقالوا: [لولا][4] أنه علىٰ مذهبهم ما خالطهم.

والجواب: أنه قد يخالطهم ليسارقهم بالتنفير عن بدعتهم شيئًا فشيئًا، أو ليدفع عنهم البلاء بدعائه لهم ونحو ذلك. وقد قال سيدي ياقوت العرشيُّ ﷺ: مررتُ علىٰ مكان القَلَنْدريَّة في إسكندرية، فرأيتُ منهم أمورًا تخالف الشرع، فأنكرتُ عليهم كلِّهم، وإذا بقائل يقول لي وهو جالس في الهواء: أتنكر علىٰ القَلَنْدريَّة وأنا منهم؟! قال سيدي ياقوت: فتبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن المبادرة إلىٰ الإنكار. انتهىٰ.

قلتُ: وقد يكون ذلك الجالس في الهواء شيطانًا، فكان من الحزم البقاء علىٰ الإنكار

(١) كذا بالأصلين.

(٢) حسن الريحاني كان عابدًا زاهدًا صالحًا مجاهدًا، مات في القرن العاشر. «الكواكب الدرية» (٤/ ٢٦٠).

(٣) القلندرية والحيدرية: طريقتان صوفيتان منحرفتان. وقد تميز القلندرية بلحق رؤوسهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

علىٰ من رآه يفعل المنكر فقط لا علىٰ العموم، فإنه تهور في الدين، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر مريده علىٰ كثرة نومه المباح، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: الهجر لا يشرع إلا في فعل المعاصي، والنوم مباح، فكيف يهجر مريده عليه؟! وما ثم شريعة نزلت علىٰ الشيخ وحده!

والجواب: أن مثل ذلك إنما يفعله الشيخ لمصلحة تعود علىٰ ذلك المهجور، وذلك أن من أكثر من النوم جرَّه ذلك إلىٰ موت القلب، كالقمار والميسر والشطرنج، فلما رأىٰ الشيخ ما يؤول إليه كثرة النوم من موت القلب، هجر ذلك المريد عليه هجرَ رحمةٍ وشفقة، لا هجر حقد ومكر وبغضاء. وربما كان ذلك المريد هو السائل في تأديبه علىٰ ذلك حين دخل في عهده، ولا اعتراض إلا علىٰ من يتحكم في الأجانب عن العهد.

وقد أجمع القوم علىٰ أن النوم نقص، فمن أحبه فقد أحب النقص واللحوق بالأموات، إذ النوم أخو الموت، ولذلك كان الملائكة لا ينامون، وكذلك الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم[1]، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ جماعته ويذهب بهم إلىٰ البساتين التي فيها الفواكه كالتين والمشمش والتوت وغير ذلك، ويلوث الناس به ويقولون: هذا أمر لا يجوز، لأنه حصل بسيف الحياء، وإلا فغالب الناس لا يحتمل مثل هؤلاء الخلائق أنهم يدخلون بستانه، فيقطعون فواكهه بلا عيار.

والجواب: أن مثل هذا يُحمَل علىٰ ظَنِّه طيبة نفس صاحب البستان بذلك، لقرينة أنه لم يمنعهم من الدخول، ولو أنه علم كراهيته لذلك، ما دخل بجماعته بستانه. فأعلِّم يا أخي هذا الشيخ الساذج بأن مثل ذلك لا تطيب به النفوس غالبًا، وأن الورع تركه، ثم بعد ذلك اعترض عليه.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠١٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: يا عائشة، «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» ومسلم (٧٣٨).

وتقدم في هذه الأجوبة أن من الأولياء من يُكشَف له بأن صاحب البستان قد أذن لهم في ذلك بطيبة نفس، فهو علىٰ بصيرة من أمره، فلا لوم عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينزل بلاد الريف للسياحة[1] كالمطاوعة وأضرابهم، ويبيت عند مريد شيخ آخر، وصار ذلك المريد متحيرًا بين ضيافة هذا الشيخ وبين تغير خاطر شيخه، ولاث الناس به وقالوا: كان ينبغي له أن لا يبيت عند مريد غيره، لئلا يكدر عليه قلبه، بأنه ربما كان ساذجًا لا يدرك مثل ذلك، أو يدركه ويظنُّ أن مثل شيخ هذا المريد يفرح بنزوله هو وجماعته علىٰ مريده، فينبغي لمن يريد الإنكار علىٰ مثل هذا الشيخ أن يعلمه بأحوال الخلق في هذا الزمان، ثم إن خالف فله الاعتراض عليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ علىٰ الوظائف الدينية معلومًا[2] كالخطابة والإمامة وتدريس العلم وقراءة القرآن، ولاث الفقراء به وقالوا: هذا أمر ما رأيناه وقع من أحد من المشايخ الذي أدركناهم.

والجواب: أن أخذ المعلوم المذكور لا يقدح في مقام الشيخ، فقد يكون الباعث له علىٰ فعل تلك الوظيفة الدينية القيام بشعائر الدين فقط، ثم إنه يأخذ ذلك المعلوم ابتداءً إعطاءً من الله عزَّ وجلَّ لا في مقابلة تلك العبادة، ولكن محكُّ الصدق في ذلك أن لا يطالب بقلبه ولا بلسانه ولا بوكيله جابيًا ولا ناظرًا إذا صار الوقف رقبة إلا بنية صالحة، كأن عرف بالقرائن أن الجابي أو الناظر يأكل ذلك المتوفر بغير طريق شرعي، ولا يعطيه لأحد من المحتاجين إليه، أو لا يصرفه في عمارة الوقف ونحو ذلك، فللشيخ المذكور أن يطالبه بذلك المعلوم صيانةً له عن الوقوع في الإثم، فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ

---

(١) بالأصلين: للسيارة.

(٢) المعلوم: الراتب المقرر لمن يقوم بالوظيفة.

الإنكار علىٰ الأشياخ إذا رأيت صورة فعلهم صورة محبِّ الدنيا، فإن القصد مختلف[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطلب التميز عن إخوانه من المستحقين ويتكدر من الجابي أو الناظر إن لم يميزه، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا من الصالحين ما تميز عن إخوانه ودخل إلىٰ كراهة الحق تعالىٰ له، فإنه يكره العبد المتميز عن أخيه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما أنه كان يعلم أن في الوقف فائضًا، وشرط واقفه أنه يصرف للفقراء والمساكين أينما كانوا، أو يصرف للمستحقين، ولكن الناظر يأكله بغير طريق شرعي، وعلم ذلك الشيخ أنه يستحق الأخذ من ذلك لفقره وحاجته. فابحث يا أخي أولًا علىٰ القضية، فإن رأيتَه يأكل ذلك بغير طريق شرعي، فأنكر عليه، وإلا فكف عن الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطالب الناس بالحق الذي له عليهم بعنف وشدة، فلاث به الناس وقالوا: حاشا أن يكون هذا من الصالحين! فإن من شأن الصالحين أنهم إذا أعطوا أحدًا شيئًا من الدنيا يتاجر لهم فيه مثلًا أن لا يطالبوه بذلك لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولكن إن أتاهم منه بشيء قبلوه من الله تعالىٰ علىٰ يد ذلك العبد، وأن لم يأتهم به لا يطالبونه به.

والجواب: أنه لا يلزم من شدَّة المطالبة أن يكون ذلك لكونه يحبُّ الدنيا، فقد يكون قصده بذلك تعظيم حقوق الناس في عينه، لئلا يتساهل فيها.

وكان علىٰ هذا القدم سيدي عليٌّ الخواص، كان يطالب الإنسان بالجديد النقرة إذا أخذ منه اليوم بعد اليوم، ويظهر له الغضب ويقول: إنما أفعل ذلك لأقبِّح في عينه التساهل بحقوق الناس في هذه الدار؛ فإن عبادته كلَّها قد لا ترضي شخصًا واحدًا عليه [له][2] حق في الآخرة.

---

(١) وسيأتي نظائر لمشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد في الجواب (٨٣٢).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ شيخ رأيتَه يشاحح بياع الفجل أو الليمون أو المقيلي[1]، أو حبس من له عليه دين وتقول: كيف يدعي هذا أنه شيخ ويشاحح من رأس ماله نصفان فضة أو نصف واحد؟! والحمد لله رب العالمين.

(٧٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا سرقوا له قِدْرة ذهب كان جمعها بنية صالحة، فتغير وتكدَّر، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا شيخًا ما تغيرت منه شعرة علىٰ زوالها من يده، بأنه قد يكون في الباطن عكس[2] ذلك، وربما أظهر التغير سترةً لمقامه في الزهد في الدنيا، فربما قالوا فيه إذا لم يتغير: شيء لله! المدد! سرقوا له قدرة ذهب فلم يتغير! فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إذا صار قلب الوليِّ سماويًا أو طوَّافًا بالسماء، حفظ من إبليس، ولا يحتاج إلىٰ الاستعاذة بالله منه؛ فلاث به الناس وقالوا: إن قلب محمد ﷺ كان طوَّافًا بالسماء ولا بد، ومع ذلك فأمره الله بالاستعاذة من الشيطان الرجيم.

والجواب: بأن هذا الشيخ صادق في قوله، ملبَّس عليه، وذلك أنه ظن نسخ حكم الجسم إذا صار القلب طوَّافًا بالملكوت الأعلىٰ، والحقُّ أن حكم الجسم باقٍ، فالتسليط واقع من إبليس عليه، وإنما يُحفَظ الوليُّ من إبليس إذا صعد بالجسم إلىٰ السماء، وذلك ممنوع قطعًا، إذ ليس لبني آدم[3] قدم محسوس في السماء أبدًا.

[استعاذته ﷺ تشريع لأمته لا لخوف الوسوسة]

وأما استعاذته ﷺ فإنما هي تشريعٌ لأمته، لأنه معصوم من العمل بوسوسته، [وكذلك كلُّ نبي فهو يوسوس لهم وهم لا يعملون بوسوسته، وإذا كانوا معصومون عن

---

(١) المقيلي: نوع من الفول مطبوخ بطريقة خاصة.

(٢) بالأصلين: علىٰ. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: لغير.

العمل بوسوسته][1] فكأنه معدوم، لانتفاء العمل بأثر وسوسته.

[سبب كون الاستعاذة باسم «الله» دون غيره من الأسماء الإلهية]

وإنما جاء تعالىٰ في الاستعاذة باسم «الله» تعالىٰ، لأنه الاسم الجامع لسائر حقائق الأسماء الإلهية، وإبليس ربما أتىٰ العبد من طريق اسم دون آخر لو كانت الاستعاذة بغير الاسم «الله»، بخلاف الاسم «الله» يسد جميع طرقه التي يأتي منها للعبد، فكل طريق طلب أن يدخل للعبد منه، وجد الاسم الجامع مانعًا له من الوصول إليه.

[رد المحققين على الإمام الغزالي في هذه المسألة]

وقد وقع للإمام الغزالي أنه قال: إذا صار الوليُّ سماويًّا، حفِظ من الشيطان. فقال له المحققون: إنما يُحفَظ لو كان في السماء بجسمه؛ فذوق الغزالي صحيح وحكمه غير صحيح لفقد الشرط المذكور.

فاعلم ذلك، فإنه نفيس، وإياك أن تظن أن إبليس يخفي عداوته ووسوسته للوليِّ كلما ترقىٰ في المقام، فإنه ظن غير صحيح، بل كلما قرب من حضرة الله تعالىٰ، ازداد فيه عداوة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يجالس أعداءه ويؤاكلهم ويضحك معهم، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا نفاق ورياء، كيف يصح له ذلك مع تحقق عداوتهم له؟!

والجواب: أن ذلك ليس بنفاق ولا رياء، بل هو سياسة وزيادة عقل ومداراة، وهي مطلوبة. وقد كان مالك بن دينار والفضيل بن عياض وسفيان وغيرهم يجالسون أعداءهم ويعزمون عليهم في الأكل معهم ويقولون: تخمد بذلك نار عداوتهم.

وخرج بالعداوة من يكره أخاه حسدًا لما أتاه الله من فضله، فمثل هذا لا يزيده الإحسان عليه إلا بغضًا وحسدًا. وقالوا: من الفرق بين العدو والحاسد: أن الحاسد لا

---

(١) ساقط من «ب».

يقدر علىٰ تصوير دعوىٰ صحيحة علىٰ الإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة، إنما يكره لغير ذنب ظاهر. ومن هنا قالوا:

كُلُّ العداوةِ قَدْ تُرجَىٰ مودتُها إلا عداوة من عاداك من حسد

فدار أعداءك دون حسَّادك، فإنه أكثر راحة من ضده، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتغير من كلام الأعداء فيه، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا يدل علىٰ عدم كماله، فإن الكامل لو قام عليه الوجود كاملًا يلعنه ويسبه لا يتغير منه شعرة، لأنه ناظر إلىٰ خالق الأفعال[1] وهو الله دون المخلوق، ففعلهم[2] من الخالق، ولا يمكن إرسال غضبه علىٰ فعل ربه.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون تغيرُه من ذهاب نفع الناس به إذا قبلوا تجريح الأعداء فيه، فيتغير لذلك لا لحظِّ نفسه، كما مر تقريره مرارًا، فإن حكم الأعداء مع العارف حكم ناموسة نفخت علىٰ جبل تريد أن تزيله من مكانه. فاعلم ذلك، وإياك وحمل الأشياخ علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن العبد لا يملك مع الله شيئًا في الوجود، والعبيد عبيده، والرزق رزقه؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذه كلمة حقٍّ أُريد بها باطل، فلا يجوز التلفظ بها لما يترتب عليها من عدم إثم السارق والغاصب، لكونه أخذ رزق الله وهو عبده.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن المُلك لله تعالىٰ في جميع الأمور بالأصالة، ولعبده بحكم الاستخلاف، ومثل الشيخ لا يجهلون تحريم الغصب والسرقة، وإنما مرادهم بقولهم «العبد لا يملك مع سيده شيئًا» فتح باب الأدب مع الله تعالىٰ، وعدم تأسفهم علىٰ فوات شيء من أمور الدنيا.

---

(١) بالأصلين: الكمال. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: فيهم. والصواب ما أثبتناه.

وأما إثم الغاصب والسارق فليس هو من حيث إن العبد يملك ذلك، فإن العين الواحدة لا يتوارد عليها مِلْكان حقيقيان، وإنما ذلك من حيثُ تعدي الغاصب والسارق حدود الله تعالىٰ، فكأنه تعالىٰ يقول: من أخذ شيئًا مما ملكه عبدي بطريق شرعي بغير طيب نفس منه، عذَّبته. وفي عبارة الثوري رحمه الله: ولا يملك العبد بتمليك[1] سيده في الأظهر. انتهىٰ.

وقد قالوا: اختلاف العلماء في العلة لا يقدح فيهم، فهم متفقون علىٰ إثم الغاصب والسارق، ولكن الفقيه يقول: الإثم من جهة كونه أخذ ملك غيره بغير إذنه، والصوفي يقول: العلة في التحريم تعدي الغاصب والسارق حدود الله، فافهم، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة الموافقة للشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا قام للظلمة والعصاة كالمكَّاسين والحشَّاشين، ولاث الناس به وقالوا: هذا خروج عن الشريعة، وإنما الواجب علىٰ العالم تحقير العصاة وزجرهم وتوبيخهم.

والجواب: أن الذي ينبغي حمل هذا العالم أو الشيخ علىٰ أنه إنما قام للظالم أو العاصي من شَرِبَة الخمر وأَكَلَة الحشيش تليينًا لقلوبهم، ليميلوا إليه بالمحبة، فيسمعوا نصحه وإرشاده، ويقبلوا شفاعته ووعظه. ولا يجوز حمل العالم علىٰ أنه قام لغير غرض صحيح، فإن ذلك من أبعد ما يكون وقوع العالم فيه، كما تقدم ذلك في الجواب عن العالم الذي يخالط الظلمة ويتردد إلىٰ بيوتهم[2]، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقل ندمه إذا ارتكب المعاصي، فلاث به المريدون وقالوا: لو كان هذا كاملًا لكان أشد ندمًا منا إذا وقع في معصية، ولكن أين الكمال؟!

والجواب: أنه لا يلزم من قلة ندمه أن يكون ناقصًا، فقد يغلب عليه شهود التقدير الإلهي في حضرة الإحسان، فلا يجد له ذلك الأثر العظيم في إيجاد الفعل، وإنما يندم بقدر

---

(١) أي لا يملك العبد شيئًا وإن ملَّكه سيدُه هذا الشيءَ.

(٢) انظر الجواب (٣١٣).

شهوده نسبة التكليف والكسب، فالمريد يشتد ندمه بقدر شهود نسبة الفعل إليه كثرةً وقلةً، فكلما شهد العبد الفعل له وغاب عن شهود كونه فعل الحق، كثر ندمه، وكلما شهد الفعل للحق وغاب عن شهود الفعل لنفسه، قل ندمه، فما ربحه هذا من جهة، خسره من جهة أخرىٰ، وإنما الكامل من كثر ندمه من حيث نسبةُ التكليف تعظيمًا لجناب الله، وهروبًا من مواطن سخطه، ولم يحجبه عن ذلك شهود الفعل لله، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشكر ربه علىٰ كلِّ ليلة نام فيها عن قيام الليل، فلاث به بعض الناس وقال: لا ينبغي لعبد أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ترك العبادة، وإنما اللائق أن يشكره علىٰ تركه المعاصي.

والجواب: أنه قد يكون شكر هذا الشيخ لربه إنما هو من حيثُ التقديرُ لا من حيثُ كسبُه هو، فهو يحمد الله من حيثُ التقديرُ، ويستغفره من حيثُ الكسبُ. ويُحتمَل أن يكون شكره من حيثُ العافيةُ التي هو فيها حتىٰ نام، فإنه لو كان به مرض لما نام من شدَّة الوجع. ويُحتمَل أن يكون شكره من حيثُ إن الحقَّ تعالىٰ ستره بعدم وقوفه في حضرته بين الأنبياء والملائكة والأولياء الذين هم أهل الحضرة الإلهية حقيقة، فإنهم مطهَّرون من سائر الأدناس، فلما رأىٰ هذا الشيخ تلطخه بالقاذورات في كلِّ جارحة، استحيا أن يقف بين هؤلاء الأصفياء، فكان حكمه حكم من وقع في معصية والناس ينظرونه من حيث لا يشعر، ثم ستروه ولم يفشوا ذلك لأحد، فهو يشكر فضل من ستره، بخلاف من هتكه، فإنه يحصل له الخزي به.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: كيف يزاحم أحدُنا علىٰ دخول الحضرة الإلهية بين الأنبياء والأولياء، وما من جارحة من جوارحه إلا وقد تلطخت بمعصية من يده ورجله، وعينه وأذنه، ولسانه وفرجه وغير ذلك؟! فكان حكم من أنامه الله عن قيام الليل منا حكم من وقع في كبيرة وستره الله تعالىٰ، فهو يشكر الله علىٰ ذلك، فاعلم ذلك، واستغفر ربك من حيث كسبُك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال في حزبه: «أستغفر الله مما سوىٰ الله» فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا لفظ لا يجوز، لأنه كالتبري من الأنبياء والأولياء والشريعة، لأن هذه الأمور كلها سوىٰ الله تعالىٰ، وذلك مجانب للإيمان بها.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه أراد بذلك: أستغفر الله من أن أميل إلىٰ شيء بالمحبة إلا بإذنه تعالىٰ، فخرج بذلك محبة كلِّ شيء أمره الحقُّ تعالىٰ بمحبته، كالأنبياء والشريعة وصالحي المؤمنين، فإن مثل ذلك لا يجهله الشيخ، ولا ينبغي إدخاله في عموم الأمور التي استغفر الله تعالىٰ منها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: كلُّ من حصل له لذة بمناجاة ربه، حبط عمله؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا مخالف لما عليه العلماء العاملون والعباد المجتهدون.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب هذا القول، فربما خاطب بذلك مريدًا صادقًا، ليترقىٰ من حفظ نفسه إلىٰ ما فيه رضا الله عنه، وذلك أن تلذذ العبد بمناجاة ربه يرجع إلىٰ حظ النفس، وربما استحكمت فيه اللذة، فصارت هي الباعث له علىٰ قيام الليل، وذلك من الرياء عند العارفين.

وقد قررنا مرارًا أنه لا يصح الأنس بالله تعالىٰ لأحد، لعدم مجانسة الحقِّ تعالىٰ لأحد من الخلق[1]. ومعلوم أن **الأنس لا يكون إلا بالمناسب والمشاكل**، ولكن لما كان غالب الناس يعسر عليه تخليص حظ نفسه من نصيب ربه، أطلق الأنس بما من الحق إليه، وجعل ذلك أنسًا بالحق تعالىٰ، وليس كذلك كما عليه المحققون، فمن حقق النظر وجد أنسه بما أسداه الحق تعالىٰ إليه من التقريبات والأنس بالأعمال لا غير، وعرف أن الأنس بالله تعالىٰ حقيقة لا يصح بوجه من الوجوه، وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، قل لفلان العابد يقوم الليل امتثالًا لأمري، فإني اطلعتُ علىٰ قلبه فوجدتُه إنما يقوم لما يجده من اللذة لعبادته لا لي، فلنفسه قام لا لي، فإني آليتُ علىٰ نفسي أن لا أقبل عملًا أشرك فيه غيري معي، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر الجواب (٤٣٦).

(٧٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي للصائم أن ينوي مع نية الصوم أن يترك سائر الشهوات التي لا يفطر بها إجماعًا أو بخلاف، وكذلك لا ينبغي له أن يجرِّد نيته في الجماع عن طلب قضاء وطره هو، فينوي قضاء وطر زوجته فقط دونه؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا شيء ما سمعنا أحدًا من العلماء قال به.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه كمال على كلِّ حال. وإيضاح ذلك أن العبد إذا نوى ترك شيء لله عزَّ وجلَّ، كان محفوظًا بنيته من الآفات، ومن الإخلال بما يرى، بخلاف ما وقع له اتفاقًا من غير قصد، فإنه لا يُثاب عليه. وأما تجرد النية في الجماع عن طلب قضاء وطر نفسه، فيحتاج إلى قوة زائدة، وغالب الناس لا يقدر على ذلك. وقد وقع لبعضهم أنه قال لزوجته: إني أنوي بجماعي قضاء وطرك دون وطري، فأنوِ أنت الأخرى. فقالت: يكفي واحد منا يكذب؛ لاستبعادها وقوع ذلك، فذوقها صحيح، لأنها لم يبعد مقامها، وحكمها باطل ، فإن الله تعالى أقدر على ذلك بعض عباده.

[القطب لا يخرج عن تقليدِ لأحد المجتهدين ولو بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق]

فكلام هذا الشيخ في غاية الأدب، لأن القوم قد أجمعوا على أنه ينبغي للعبد أن يخرج من خلاف العلماء إلى وفاقهم ما أمكن لتصح عبادته على سائر المذاهب، ولو كان القطب الغوث، فإنه ولو بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق لا يخرج عن تقليد أحد من الأئمة المجتهدين أدبًا مع الله تعالى، حيثُ جعلهم قدوةً للناس، وأشهرهم بالعلم في الوجود، بخلافه هو، فإن من شأنه الخفاء في هذه الدار، فهو يتنزل أدبًا مع الأئمة ومع السلطان الظاهر من حيثُ إنه داخل تحت حكمه، ومعدود من رعيته، فإن كان السلطان حنفيًّا فالقطب حنفي، لو شافعيًّا فالقطب شافعي وهكذا، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يستحب زيارة الإخوان في رمضان، لكن في أواخر النهار دون أوله، فنازعه بعض الفقهاء في الاستحباب وقال: هذا أمر لم يبلغنا عن أحد من العلماء أنه قال به.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار عليه، لاحتمال أن يريد بذلك أنه مستحب عنده، وذلك أنه إذا زار أخاه أول النهار رجع بلا أكل عنده، وذلك نقص في ملاقاة الإخوان، إذ من كمال اللقاء الأكل والشرب عند الأخ، فقصد هذا الشيخ باستحباب الزيارة أواخر النهار أن يدخل علىٰ أخيه السرور بفطره عنده.

وإيضاح ذلك أن الإنسان مركَّب من روح وجسم، فالروح لا تطلب الطعام، والجسم يطلبه، ومن لم يأكل عند أخيه، فكأنه زار قبرًا، وكأنه زاره بروحه فقط دون جسمه. ومعلوم أنه لا يحصل كمال السرور إلا بإعطاء الروح حقَّها والجسم حقَّه، ولذلك ورد: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»[1] فلا يتم له كمال السرور إلا باللقاء والأكل، فالروح تفرح بلقاء الله، والجسم يفرح بلقاء الطعام، وتأمل كيف عادل بين الطعام وسر لقاء الله تعالىٰ، تطلع علىٰ سرٍّ غامض، وأنشدوا:

إذا عاينتَ ذا سير حثيث ... فذاك السير في طلب الرغيف

لأن الله صيره حجابًا ... علىٰ اسميه المهيمن واللطيف

فمن شرف الرغيف يمين ربي ... عليه للوضيع وللشريف

يضج الخلق إن عدموه وقتا ... عن إذن الواحد البر الرؤوف

هو المعنىٰ ونحن إذا نظرنا ... به عند التفكر كالحروف

هو الجود الذي ما فيه شك ... فيا شوقي لذا الجود الظريف

فديتك من رغيف فيه سر ... جلي[2] بالتليد وبالطريف

فقل للمنكرين: صحيح قولي ... لقد غبتم عن المعنىٰ الظريف

أليس الرب صيره عديلًا ... لرؤيته علىٰ رغم الأنوف

ذكره في أثناء كتاب الصلاة من «الفتوحات المكية» في فصل قيام رمضان، فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العارفين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١).

(٢) في الأصلين: خفي.

(٧٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال:

توضأ بماء الغيب إن كنتَ ذا سر ... وإلا توضأ بالصعيد وبالصخرِ

وقــدِّم إمـامًـا كنت أنــت إمامه ... وصل صلاة الفجر في أول العصرِ

فـهـذي صــلاة العارفين بربهم ... فإن كنت منهم فانضح البر بالبحرِ

انتهىٰ، وقد عزي هذا الشعر للشيخ محيي الدين بن العربي، وقد لاث به بعض الفقهاء وقال: هذا كلام لا يُفهَم!

والجواب: أنه مفهوم للعارف، ومعناه «توضأ» أيها العارف ولا تغفل عن تطهير أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية. وقوله: «بماء الغيب» أي غيب التوحيد الذي ليس علىٰ تطهيره مزيد، وهو توحيد العيان، فإن لم تذقه فتطهر بصعيد البرهان. وقوله: «وقدِّم إمامًا كنتَ أنت إمامه» أي قدم إمامًا كان [إمامك][1] في يوم الخطاب، ثم صرت أنت إمامه بعد إسدال الحجاب. وقوله: «وصل صلاة الفجر» أي صلاة نهار كشف شهودك بعد حجاب ظلمة وجودك. وقوله «في أول العصر» أي في أول زمان انفجار فجرك، ولا تتأخر لآخر دورك، لأن الحكم للوقت، والتفويت له مقت. وقوله: «فهذي صلاة العارفين بربهم» أي الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية في جميع مشاهد شهود الربوبية، فإن كنتَ منهم وقمتَ بآدابهم «فانضح البر بالبحر» أي اغسل بماء بحر الحقيقة ما يدنس برك في بر الشريعة[2]، والله أعلم، وذكر الشيخ أبو المواهب[3] نحو هذا الجواب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي لكل من صلىٰ إمامًا أن يقول بتوجه قلب: اللهم إن كان في هؤلاء الذين أصلىٰ بهم أحدًا من أوليائك، فاحفظني من الخواطر المذمومة التي تبطل الصلاة عنده، أو احمني من الإمامة به وبكل من فضل عليَّ في مقام من

(١) ساقط من الأصلين، مستكمل من «الطبقات الكبرىٰ».

(٢) بـ«الطبقات الوسطىٰ» للمصنف: اغسل بماء بحر الحقيقة ما تدنس بالغفلة من بر الشريعة.

(٣) أبو المواهب الشاذلي، وانظر ترجمته رقم (٣٦١) في «الطبقات الوسطىٰ» دار الإحسان.

المقامات، أو طهرني من سائر الأدناس في هذا الوقت، لأصلح بالصلاة بأوليائك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذه بدعة لم يبلغنا أن أحدًا من أئمة السلف راعاها.

والجواب: أن هذه الأمور تقبلها الشريعة ولا تأباها، بدليل قوله ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ ثم الذين يلونهم»[1]، فأشار ﷺ إلىٰ مراعاة عدم تقدم المفضول علىٰ الفاضل.

وكان وهب بن مُنبِّه رضي الله عنه يقول: بلغنا أن رجلًا تقدم فصلَّىٰ بوليِّ لله تعالىٰ في بني إسرائيل، فناداه منادٍ من السماء: لا تتقدم علىٰ وليِّ الله الذي في هؤلاء القوم. فتأخر ذلك الرجل ونظر في وجوه القوم، فعرف الوليَّ فقال: ما علمك الذي فضَّلك الله به عليَّ؟! فقال: هو خصلة واحدة، وهي أني إذا قمتُ إلىٰ الصلاة رأيتُ الله تعالىٰ في القرب مني كأنه علىٰ منكبي. فقال له الرجل: بهذا فضلتني، لستُ أنا كذلك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مشايخ الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن لله تعالىٰ عبادًا يثيبهم علىٰ أعمالهم الصالحة التي رأوا أنهم فعلوها في منامهم كذلك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا خرق لإجماع المسلمين.

والجواب: أن ذلك قد يقع للعارفين من حضرة الإطلاق التي يفعل الحقُّ منها ما يشاء، وأما حضرة التقييد فلا يتمشىٰ مثل ذلك عليها، لحديث: «رُفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن الصبي حتىٰ يبلغ، وعن المجنون حتىٰ يفيق»[2].

وفي كتاب «الدلالة علىٰ الله تعالىٰ»: اعلم أن للأولياء أحوالًا تخالف الناس، فربما كان أحدهم تنام عينه ولا ينام قلبه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، فإذا قرأ أحدهم القرآن في المنام ثم استيقظ، بنىٰ علىٰ قراءته التي قرأها في المنام، وربما وسوس الشيطان لأحدهم بمعصية في المنام، فنفر من تلك الوسوسة وحفظه الله من العمل بها كما في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤٢)، وأبو داود (٤٣٩٨) والنسائي (٣٤٣٢) وابن ماجه (٢٠٤١).

اليقظة، وربما عمل أحدُهم بها فيؤاخذه الله تعالىٰ بها، ويوجب عليه التوبة منها كما في اليقظة. انتهىٰ. ولا يخلو ذلك من نظر، فلو أنكر ذلك أحد، فلا لوم عليه وإن كان وقوع ذلك ممكنًا، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن لله تعالىٰ عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، لا يُبْلىٰ لهم جسم إذا ماتوا ودُفنوا في الأرض إلىٰ يوم البعث، كرامةً من الله لهم. قال: ولله تعالىٰ عبادًا يُرفَعون من قبورهم ولا يقيمون في التراب إجلالًا لهم ورفعةً لقدرهم؛ فلاث به بعض الفقراء[1] وقال: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه إلا للأنبياء والشهداء فقط، أما الأولياء فيبلون، كما هو مشاهد في الأولياء الذين ينقلون من قبورهم لضرورة.

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيب هذا الشيخ، لأنه أمر ممكن لم يرد لنا في الشريعة ما يرده.

وقد وقع أن جدي الأدنىٰ الشيخ عليًّا الشعرانيَّ ﵀ كان من المتورعين الصادقين، فلامه يومًا فقيه علىٰ مبالغته في الورع، فقال له: يا أخي، قد بلغنا أن كل من أحكم أكل الحلال لا يبلىٰ له جسم في الأرض. فلما مات والدي بعد إحدىٰ وعشرين سنة من موت أبيه، حفروا قبره فإذا هو طريٌّ كما وضعوه، هكذا أخبرني الحاج عليٌّ التَّرَّاس، وهو الذي ألحد والدي وجدي.

وكذلك وقع للشيخ نور الدين الشوني شيخ الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ أنه كان يقول: من صحت له محبة رسول الله ﷺ لا يبلىٰ له جسد. ففتحنا لحده لندفن عنده طفلًا، فوجدناه طريًّا كما وضعناه، وذلك بعد سنة، هذا أمر شهدته أنا، فسلِّم يا أخي للأولياء ما يقولونه ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٥) ومما أجبتُ به عن سيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﵁ في قوله: «من لم يتغلغل في علوم القوم مات وهو مُصِرٌّ علىٰ الكبائر» مع أن الشريعة هي السيف القاطع بحدِّه لكل بدعة وضلالة.

---

(١) هكذا بالأصلين، والغالب أن صوابها «الفقهاء».

والجواب: أن مراد الشيخ أنه قد يموت مُصِرًّا علىٰ كبائر الباطن من كبر وحسد، وعجب ورياء وحقد وغير ذلك. وأما كبائر الظاهر فهي كلُّها معلومة من الشريعة. وإيضاح ذلك أن طريق الوصول إلىٰ مقام التحلي بالمقامات خاص بالقوم، وأما غيرهم فلا يعرف إلا محض أن ذلك الفعل منهيٌّ عنه لا غير، فإن قلتَ له: دلني علىٰ طريق كراهة نفسي للزنا أو الزهد في الدنيا مثلًا، لا يهتدي لذلك، وإنما يقول: قد نهاك الله عن ذلك، أو أمرك به، بخلاف مشايخ القوم، فإنهم يدلون المريد علىٰ الطريق الموصلة إلىٰ المقامات إذا مشىٰ علىٰ هديهم، ويصير يكره الزنىٰ بالطبع، ويزهد في الدنيا بالطبع، كما يعرف ذلك من سلك الطريق علىٰ يد القوم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد اختص القوم عن غيرهم بأمور، منها الاطلاع علىٰ حقائق الإخلاص في التوحيد والأعمال، [ومنها معرفة آداب الحضرة الإلهية، وآداب مجالسة الحقِّ جلَّ وعلا، ومنها تخليص دواعي الحقِّ من دواعي الهوىٰ والعقل][1] ومنها معرفة ثمرات الأعمال في هذه الدار. انتهىٰ، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إذا رأيتُم من يكرهنا فاكرهوه ولو لم تعلموا له ذنبًا غير ذلك، وإذا رأيتُم من يحبنا من العلماء فحبوه[2] ولو لم تعلموا له طاعة غير ذلك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: قد يكون ذلك العالم يكره ذلك الشيخ بحق، وقد بلغنا أن بعض المريدين كان يرىٰ النبي ﷺ في المنام كثيرًا، فرأىٰ شخصًا يتكلم في عِرْضِ شيخه فهجره، فانقطعت عنه رؤية النبي ﷺ، ثم إنه رآه بعد سنة فقال: يا رسول الله ما ذنبي؟ فقال: أما علمت أن فلانًا يحبني؟ لم لا أفنيت[3] بغضه لشيخك في محبته لي؟! انتهىٰ[4].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) كذا بالأصلين، أي أحبوه.

(٣) كلمة غير واضحة بالأصلين، وقد أثبتناها اجتهادًا.

(٤) وقد حصلت مثل هذه الواقعة مع الشيخ الأكبر، قال في «الفتوحات»: «رأيت رسول الله ﷺ سنة تسعين

والجواب: أنه لا ينبغي اللوم علىٰ هذا الشيخ، لأنه ربما خاف علىٰ تلامذته أن يصغوا لما يقوله عدوه في شيخهم، فيعدموا النفع به، ولا يلزم من ذلك أن الشيخ يبغض ذلك العالم الذي كرهه، فقد يكون محبًّا له في الباطن، أو يقيم له العذر في إنكاره.

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي ﵀ يقول: إذا رأيتم من يعادي الأولياء والعلماء فعادوه ولو لم تعرفوا له ذنبًا غير ذلك، وإذا رأيتم من يوالي العلماء والأولياء فوالوه ولو لم تعلموا له طاعة غير ذلك، وإذا أحب الله تعالىٰ عبدًا عرَّف بينه وبين أوليائه، وعادىٰ بينه وبين أعدائه، وإذا أبغض عبدًا عادىٰ بينه وبين أوليائه وحبب بينه وبين أعدائه. انتهىٰ.

فكل وليّ لله تعالىٰ يكره من يكره الأولياء بغير حق. أما بحق فهو يحبهم، لكونهم حملة الشريعة المطهرة، ويجعل اللوم علىٰ نفسه الذي تكلم بما لا يتعقله العلماء، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن بعض النساء قد يكون أفضل من الرجال؛ فلاث به فقيه وقال له: فأين قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؟!

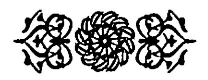
والجواب: أن مراد هذا الشيخ أنهن أفضل من الرجال في بعض الصفات لا في كلِّها، وقد خلق الله تعالىٰ النساء علىٰ حكم النقص، كما أشار إليه حديث: «كمُل من الرجال

وخمسمئة في المنام بتلمسان، وكان قد بلغني عن رجل أنه يبغض الشيخ أبا مدين، وكان أبو مدين من أكابر العارفين، وكنتُ أعتقد فيه علىٰ بصيرة، فكرهتُ ذلك الشخص لبغضه في أبي مدين، فقال لي (أي النبي): أليس يحب الله ويحبني؟ فقلت له: بلىٰ يا رسول الله، إنه يحب الله ويحبك. فقال لي: فلم بغضته لبغضه أبا مدين وما أحببته لحبه الله ورسوله؟! فقلتُ: يا رسول الله من الآن! إني والله زللتُ وغفلتُ، والآن فأنا تائب، وهو من أحب الناس إليَّ، فلقد نبهتَ ونصحتَ صلىٰ الله عليك. فلما استيقظتُ أخذتُ معي ثوبًا له ثمن كثير أو نفقة لا أدري، وركبتُ وجئتُ إلىٰ منزله، فأخبرتُه بما جرىٰ فبكىٰ وقبَّل الهدية، وأخذ الرؤيا تنبيهًا من الله، فزال عن نفسه كراهته في أبي مدين وأحبه، فأردتُ أن أعرف سبب كراهته في أبي مدين مع قوله بأن أبا مدين رجل صالح، فسألتُه فقال: كنتُ معه ببجاية فجاءته ضحايا في عيد الأضحىٰ، فقسمها علىٰ أصحابه وما أعطاني منها شيئًا فهذا سبب كراهتي فيه ووقوعي، والآن قد تبتُ». انظر «الفتوحات» الباب (٥٦٠).

كثير، ولم يكمُل من النساء إلا مريم وآسية امرأة فرعون»(١).

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: مِنْ نقص النساء الذي نزلن به عن درجة الرجل أن الحقَّ تعالىٰ لم يجعل منهن داعيةً إلىٰ الله تعالىٰ بعد أمهات المؤمنين، وإن دعت واحدة إلىٰ الله تعالىٰ، فليست علىٰ يقين ولا كشف، وذلك لما هي عليه من الحمل ومن الشهوة اللتين غلبا علىٰ النساء، ولا يُنكَر فضل الصالحة منهن، غير أن الله تعالىٰ قد جعل المرأة من متاع الدنيا وزينتها، وحبب إليها الدنيا، فلا توجد امرأة ناسكة ولا زاهدة إلا وهي تميل إلىٰ الدنيا للضعف الذي جعله الله فيهن، والنقص الذي خلقه عليهن. ومعلوم أن من شرط الداعي إلىٰ الله تعالىٰ أن يكون زاهدًا في الدنيا، فإن الراغب لا يدعو الناس إلا إلىٰ ما هو راغب فيه، ولو قدر أنه زهَّد الناس في الدنيا، فهو بلسانه دون قلبه، فلا يؤثر ذلك في أحد.

قال: ولا تجد فيهن واحدة تكاشف بعلم الأحوال، ولو بلغت في الاجتهاد ما بلغت، غايتها إذا تعبدت أن لا تجاوز طلب الثواب علىٰ عملها، ولو كان ذلك طلب القرب من الله تعالىٰ، بخلاف الذكور من الأولياء يصل أحدهم إلىٰ حقائق اليقين، ولا يطلب علىٰ عبادته ثوابًا ولا قربًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين(٢).



(١) أخرجه البخاري (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١).

(٢) قال الشيخ الأكبر ابن عربي: «وقد تبلغ المرأة في الكمال درجة الرجال، وقد ينـزل الرجل في النقص إلىٰ أسفل من درجة نفس المرأة، وقد يجتمعان في أحكام العبادات ويفترقان، غير أن الغالب فضل عقل الرجل علىٰ عقل المرأة؛ لأنها خُلقت منفعلةً عنه، فَعَقِلَ عن الله قبل عقلِ المرأة لتقدمه عليها في الوجود، وهذه هي الدرجة التي يزيد بها الرجل علىٰ المرأة». انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

الباب التاسع

في جملة من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٧٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمقت أصحابه تارةً بالكلام الجافي، وتارةً بالنظر إليهم شزرًا، لا يكاد الإنسان يسمع منه إلا الشتم والتنقيص، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا معدود من قطَّاع الطريق إلىٰ الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ الأشياخ في ذلك، فربما كان أصحابهم غلَّاظ الحجب، جافين الطبع، فصار يكلمهم بالكلام الجافي الذي يشبه الجمر تنهيضًا لهمتهم، فإن كلَّ من لا همة له فهو معدود من النساء وإن كان له لحية، ولو أنه رأىٰ من تلامذته رقة الطبع والهمة لما كلمهم كلمةً جافية.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: كلُّ مريد لا يفهم بالإشارة، فلا يجيء منه شيء في الطريق، وذلك علامة علىٰ أن الله تعالىٰ لم يرده للطريق ولا أن يكون من أهل حضرته. انتهىٰ.

وقد بلغنا أن فقيرًا خطب ابنة ملك من الملوك، فقال له الملك: إنك لا تقدر علىٰ مهرها. فقال: وما هو؟ فقال: عشرة آلاف دينار وثلاثون جوهرة. فقال له: وأين موضع الجواهر؟ فقال: في بحر الظلمات. فأخذ قصعته ومضىٰ إليه، وصار ينضح ماء البحر بقصعته، وعزم أنه لا يرجع حتىٰ يجد الجواهر، ولو نضح ماء البحر كلَّه، فعلم بذلك الملك، فأرسل وراءه وزوَّجه ابنته، وجعله وزيرًا لمكان همته.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: رجال الزينة نساء، ونساء المئزر رجال. فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأشياخ في تربية المريدين علىٰ الجفاء هذا الزمان، فإن الكلام الحلو يفسدهم، لعدم الصدق وضعف الهمة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: حصل من بعض الملائكة هفوة، فسقط إلىٰ الأرض وطلب مني أن أشفع فيه عند الله، فشفعت فيه؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا كلام يشبه الهذيانات، وأين ذلك الملك الذي شفع هذا فيه؟! وأين الوليُّ الذي مقامه أرفع من مقام الملائكة حتىٰ يشفع فيهم؟!

والجواب: أنه قد يصدق في ذلك، لكن في حقِّ ملائكة التسخير الذين هم من عوام الملائكة دون خواصهم، كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونحوهم، فإن بعض الأولياء قد يكون أرقىٰ مقامًا من ملائكة المطر وملائكة الحفظ ونحوهم.

وقد بلغنا أنه وقع في مجلس الشيخ عبد الرحيم القنائي مرةً شبح، فاختلج[1] ثم ارتفع، فقالوا له: ما هذا؟ فقال: ملك وقعت منه هفوة، فسقط من السماء، فلاذ بنا فشفعنا فيه، فرده الله إلىٰ حاله الأول. فاعلم ذلك يا أخي، وصدِّق الأولياء فيما يخبرون من مواجيدهم ما لم يعارضها نص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف العمل المقبول مني والمردود؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يكون إلا لمن يُوحَىٰ إليه، وأما بغير وحي فهو حدس بالظن.

والجواب: أن الشيخ قد يعرف العمل المقبول والمردود من أعماله، كما أنه قد يعرف ما قدَّره الله تعالىٰ عليه من المعصية قبل وقوعها، وذلك أن العبد إذا قسم الله تعالىٰ له عمل طاعة، سبق نور إلىٰ قلبه، فيعلم أنه عمل صالح؛ وإذا قسم له معصية خالصة أو عبادة فيها رياء وإعجاب مثلًا، سبق لقلبه ظلمة، فبهذين العلامتين يعرف العبد العمل المقبول والمردود.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: خصلتان يُرَدُّ بهما العمل: وهي أن يعمل بعلمه خوفًا أن تذهب رئاسته، أو يتزين للمخلوقين به خوف السقوط من أعينهم.

وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول: احذروا من هاتين السكرتين: وهما سكرة العلم للثناء[2]

---

(١) خَلَجَ الشيءُ: تحرّك واضطرب.

(٢) بالأصلين: للسناء. والصواب ما أثبتناه.

والرئاسة، وسكرة العمل بالعجب وحب المحمدة. وقليل من طلبة العلم من يفيق من هاتين السكرتين، وغالب طلبة العلم يموتون سكارىٰ إلا أن يحدث الله تعالىٰ لأحدهم شوقًا مقلقًا، أو خوفًا مزعجًا. ومن لم يحصل عنده شوق أو خوف كما ذكرنا، فلا يقدر علىٰ التحول عن هاتين السكرتين قبل موته.

وسمعته أيضًا يقول: بالعلم ينجو العبد من غضب الله، وبالعمل ينحو من عذابه، كما أنه بالعلم صحَّ لأهل الإيمان دينهم، وبالعمل اقتسموا الدرجات في آخرتهم، كما أنه بالجمع بينهما يترقىٰ العبد إلىٰ مقام الخشية من الله والمعرفة به. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخوَّاص رحمه الله يقول: من لم يعرف المقبول من أعماله والمردود منها فهو قريب من البهائم. وكان يقول: من كان فيه خصلة واحدة من هذه الخمس فعمله مردود عليه: الشك في الإيمان، والعمل علىٰ البدعة في الدين، والإصرار علىٰ الاغترار بالعمل، والعمل بغير نية صالحة، والعمل مع قطع صاحبه بأنه مقبول. انتهىٰ.

فقد بان لك صحة قول الشيخ أنه يعرف المقبول من أعماله والمردود منها، لاسيما إن حصل فيها عجب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف عاقبة أمري الآن من موتي علىٰ الإيمان أو غيره؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا غيب لا يعلمه إلا الله.

والجواب: أن العبد قد يعرف ذلك من طريق الكشف. وقد سمعتُ سيدي عليًا المرصفيّ رحمه الله يقول: إذا أطلع الله تعالىٰ العبد علىٰ أنه كتب في قلبه الإيمان، فهو موهبة من الله تعالىٰ، وحينئذٍ يأمن من السلب، فإن رسول الله ﷺ قد نهىٰ المؤمن أن يرجع في هبته[1]، والله تعالىٰ أكرم المتفضلين، فيبعد من كرمه وفضله أن ينزعه من صاحبه، فإذا رأيتم أحدًا سُلِبَ الإيمان عند الموت، فاعلموا أن إيمانه لم يكن مكتوبًا ولا موهوبًا، ولكنه عاد إلىٰ ما بدأ منه ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾[الأعراف: ٣٠]. انتهىٰ.

---

(١) قال ﷺ: «العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه» أخرجه البخاري (٦٩٧٥)، ومسلم (١٦٢٢).

فعُلِمَ أن من لم يعرف كون إيمانه موهوبًا، فالواجب عليه الخوف، وعدم الأمن من مكر الله.

[أمانه ﷺ من مكر الله تعالى به]

وقد وقع في اليوم الماضي من وقت كتابتي لهذا الموضع جدالٌ في أن رسول الله ﷺ يصح أن يأمن مكر الله أم هو غير آمن. وأفتىٰ علماء مصر بكفر من قال: إنه ﷺ آمن مكر الله، لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وأفتىٰ بعضهم بكفر من قال: إنه غير آمن. **والصواب** أنه ﷺ كان آمنًا من مكر الله تعالىٰ به لعصمته، والآية وردت في غير المعصوم. وقد ورد أن العشرة من الصحابة مقطوع لهم بالجنة، فكيف بسيد الأولين والآخرين؟!

وأيضًا فإن المكر والاستدراج لا يكون إلا لمن عمل علىٰ غير سنة. أما من يعمل علىٰ وفق السنة فلا يلحقه مكر ولا استدراج، لأن الأعمال المشروعة لا تُتخَذ حبالة للمكر الإلهي. وما وقع من خوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما هو خوف إجلال لا خوف مؤاخذة، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وأما ما رُوي عن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أنه قال يومًا للحواريين: «أنتم تخافون من الذنوب، ونحن معاشر الأنبياء نخاف من الكفر»[1]. انتهىٰ. فمحمول بتقدير صحته علىٰ كفران نعمة من النعم غفلوا عن الشكر عليها، أو محمول علىٰ أمور لم تبلغها عقولنا، أو أنه قال ذلك إظهارًا لفضل الله عليه، كما قال نبينا ﷺ: «لو يؤاخذني الله وعيسىٰ بن مريم بما جنت هاتان -يعني الإصبعان- لعذبنا ثم لم يظلمنا شيئًا»[2].

وقد صرح المحققون بأن خوف الأنبياء في الدنيا والآخرة إنما هو علىٰ أممهم لا

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ٣٧٩)، والغزالي في الإحياء (٤/ ١٧٢).

(٢) تقدم تخريجه.

علىٰ أنفسهم، لأنهم هم الآمنون يوم القيامة. وما ورد أن جبريل وميكائيل طفقا يبكيان لما خلق الله النار، وأوحىٰ الله إليهما: «هكذا كونا لا تأمنا مكري»[1] فالمراد: لا تأمنا مكري بأحد من غير الأنبياء. فاعلم ذلك، وإذا تعارض عندك دليلان أحدهما يميل إلىٰ تعظيم الأنبياء، فخذ به دون الآخر، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: الولاية غير مكتسبة؛ فلاث به طلبة العلم وقالوا: الحقُّ أن الولاية مكتسبة، وليس موهوبًا إلا النبوة.

والجواب: أن كلام هذا الشيخ محمول علىٰ أصل الولاية لا علىٰ فروعها، وذلك أن أصل ولاية الله تعالىٰ للعبد موهوبة، وفروعها مكتسبة كما قالوا في الإيمان، وذلك أن محبة الحق تعالىٰ قد سبقت لأوليائه قبل وجودهم في الدنيا، بل قبل خلق السماوات والأرض، **وما تفاوت الناس في الولاية إلا من حيثُ الأمورُ المكتسبةُ لا من حيثُ الأمورُ الموهوبةُ الاختصاصيةُ؛ لأنه لا تَعمُّل لهم في الموهوبة.**

فإن قلت: فما مثال الأمور المكتسبة؟ **فالجواب**: أن مثالها مثال تزايد البصيرة في العلم والعمل، ومزيد الهداية في العمل، وقوة المعرفة، وتمييز الأحوال، ووجود الخشية، والفقه في الدين ونحو ذلك، فهذا كله اكتساب. ومن هنا كانت درجة من علم أعلىٰ من درجة من لم يعلم، ودرجة من علم وعمل أعلىٰ من درجة من علم ولم يعمل، ودرجة من علم وعمل وتورَّع أعلىٰ من درجة من علم وعمل ولم يتورَّع، ودرجة من علم وتورَّع وزهد أفضل من درجة من علم وعمل وتورَّع ولم يزهد، وهكذا القول في زيادة اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ومنها تترقىٰ إلىٰ مقام الإمامة، فتكون إمامًا في الدين يُقتدَىٰ به بحكم النيابة لرسول الله ﷺ، وكلُّ هذه الأمور معدودة من فروع الولاية المكتسبة علىٰ حكم الاصطلاح، وإلا فالتحقيق أنه ليس لنا أمر مكتسب من غير وهب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ذكره القشيري في الرسالة القشيرية ص٢٥٧.

(٧٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الوليَّ يصح له التطور[1] في ألف مكان في آن واحد، وهو واحد في نفسه يجيب كلَّ من ناداه، وليس جسم أولىٰ به من جسم؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من المحال.

والجواب: أن القدرة الإلهية صالحة لمثل ذلك، ولم يرد لنا في السنة ما يرده، بل ورد ما يؤيده، وذلك فيما رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما في حديث اليد والقبضة أن آدم عليه الصلاة والسلام كان في قبضة الحق جلَّ وعلا كما يليق بجلاله في حال كونه خارج القبضة[2]، ففيه كون آدم في مكانين في آن واحد، فما تقول يا أخي في هذا الحديث؟! وفي حديث الشيخين وغيرهما في قصة الإسراء أنه ﷺ وجد موسىٰ وغيره من الأنبياء في السماوات، وصلَّىٰ بهم إمامًا، وراجع موسىٰ في شأن الصلوات الخمس[3]، مع أن أجسامهم في قبورهم في الأرض ما عدا إدريس وعيسىٰ، فإنه ﷺ قال: «رأيت موسىٰ» «رأيت إبراهيم» قولًا واحدًا ما قال: رأيت روح آدم، ولا روح موسىٰ مثلًا، ولا جسده.

وقد صنف الجلال السيوطي مؤلَّفًا في صحة تطور الولي[4]، واستدل علىٰ ذلك بدلائل كثيرة. ووقع لصاحبنا الشيخ أبي الحسن البكري أنه قال يومًا في درسه في جامع الأزهر: ربما أتطوَّر في ألف مكان في آن واحد، ومن شك في قولي هذا، فليسافر إلىٰ الحجاز والهند والسند والعراق والغرب يجدني! فلاث به جماعة من الجامع وقالوا: هذا كله هذيانات! ولو أن هؤلاء كانوا سلكوا طريق القوم، لم يستبعدوا ذلك، لأن الله علىٰ كلِّ شيء قدير.

وهذه المسألة من مسائل ذي النون المصري الستة التي تحيلها العقول، كإدخال

---

(١) التطور: أي الوجود في أكثر من طور (صورة) أو جسم في آن واحد.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٥) عن أبي موسىٰ الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالىٰ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب» وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن حبان (٦١٦٠).

(٣) حديث الإسراء والمعراج أخرجه البخاري (٣٨٨٧) ومسلم (٢٣٧٥).

(٤) وهي «المنجلي في تطور الولي» منشورة ضمن «الحاوي للفتاوي» للسيوطي.

الواسع في الضيق من غير أن يتسع الضيق، والجمع بين الضدين، وطي الزمان بالنسبة لشخص دون آخر، كالذي غطس في الدجلة، فرأىٰ أنه بنيل مصر، وتزوج وأتىٰ بعدة أولاد في مدة سبع سنين، وهو خادم شيخ الشيوخ ابن مسكين، ثم طلع فوجد ثيابه، فلبسها وأدرك صلاة الجمعة، ثم إن أولاده الذين وُلدوا له في تلك الغطسة أتوه، وعرفهم وعرفوه، وأقره علىٰ ذلك علماء عصره كالشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد. كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الحادي عشر من كتاب «المنن والأخلاق».

وأخبرني سيدي عليٌّ المرصفي ﷺ قال: قرأتُ حال سلوكي في يوم وليلة ثلاثمئة وستين ألف ختمًا، كل درجة ألف ختم! فقلتُ له: بالحروف والألفاظ؟! قال: نعم. انتهىٰ.

وذكر الشيخ محيي الدين أوائل «الفتوحات المكية» أنه دخل أرضًا، فرأىٰ فيها كلَّ تفاحة لو وُضعت بين السماء والأرض، لحجبت أهل الأرض عن رؤية السماء، فيأخذها الواحد منا بيده المعهودة، فتحيط بها وتسترها كلها[1].

وبالجملة فالعقل معزول عن مثل هذه الأمور، والعاقل من سلَّم للقدرة الإلهية، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٤) ومما أجبتُ به عن الفقيه إذا انتقل من مذهب إلىٰ مذهب آخر، ولاث به الناس وقالوا له: هذا تلاعب بالدين وطعن في إمامك، وذلك لا يجوز.

والجواب: بأن ذلك جائز صرَّح به الإمام الرافعيُّ وتبعه علىٰ ذلك في «الروضة»[2]، وعبارة «الروضة»: إذا دُونت المذاهبُ فهل يجوز للمقلِّد أن ينتقل من مذهب إلىٰ مذهب آخر؟ إن قلنا يلزمه الاجتهاد في طلب الأعلم، وغلب علىٰ ظنه أن الثاني أعلم، فينبغي أن يجوز، بل يجب. وإن خيَّرناه فينبغي أن يجوز أيضًا، كما لو قلَّد في القبلة هذا أيامًا، وهذا أيامًا. انتهىٰ كلام «الروضة»[3].

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٨).

(٢) أي الإمام النووي في كتابه «روضة الطالبين وعمدة المفتين» في الفقه الشافعي.

(٣) انظر «روضة الطالبين» (كتاب القضاء) (١١/ ١٠٩)

وذكر القرافي[١] في كتاب «التنقيح» عن الزناتي[٢] أنه يجوز تقليد المذاهب في النوازل، والانتقال من مذهب إلىٰ مذهب، لكن بثلاثة شروط:

الأول: أن لا يجمع بينهما علىٰ وجه يخالف الإجماع، كمن تزوج بغير صداق ولا ولي[٣] ولا شهود، فإن هذه الصورة لم يقل بها أحد.

الثاني: أن يعتقد فيمن يقلده الفضل بوصول أخباره إليه.

الثالث: أن لا يقلِّد من هو في عماية من دينه، كأن يقلِّد في الرخص من غير شرطها.

قال: ويحرم عليه أن يفضِّل مذهبه حتىٰ يصل إلىٰ حدٍّ يُفهَم منه التنقيص لغير إمامه. قال: وأجمع الصحابة علىٰ أن من استفتىٰ أبا بكر وعمر وقلَّدهما، فله بعد ذلك أن يستفتي غيرهما من الصحابة، ويعمل بقوله من غير نكير.

وانعقد الإجماع أيضًا علىٰ أن من أسلم فله أن يقلِّد من شاء من العلماء بغير حجة. ومن نازع في هذين الإجماعين فعليه الدليل. وأطال القرافي رحمه الله في ذلك، ثم قال: فعُلِمَ أن المذاهب كلَّها طريقٌ إلىٰ السعادة ودخول الجنة، فكلُّ من سلك طريقًا منها أدخلته الجنة[٤].

وقد سُئل الجلالُ السيوطيُّ رحمه الله عن الانتقال من مذهب إلىٰ مذهب هل يجوز؟ فأجاب: أن للمتنقل ثلاثة أحوال:

الأول: أن يكون الحامل له علىٰ الانتقال أمر دنيويٌّ لحصول وظيفة أو مرتب، فهذا

---

(١) محمد بن يحيىٰ بن عمر بن يونس، بدر الدين القرافي المصري المالكي القاضي بالباب المصري، رئيس العلماء في عصره وشيخ المالكية كان صدرًا من صدور العلم، له همة عالية وطلاقة وجه مع خلق وضي وخلق رضي، ولي قضاء المالكية وألف كتبًا منها: «شرح ابن الحاجب» و«شرح الموطأ». توفي:١٠٠٨هـ. انظر: «خلاصة الأثر» (٤/ ٢٥٨)، «الأعلام» (٧/ ١٤١).

(٢) قال الطاهر بن عاشور: يحيىٰ الزناتي نسبة إلىٰ زناة ـ بوزن قَطَاة ـ بسرقسطة من الأندلس، وظني أنه يحيىٰ بن محمد بن عجلان من تلامذة سحنون، كان مشهورًا بالعلم والفضل. «حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح» (٢/ ٢٠٣).

(٣) بالأصلين: هو. والصواب ما أثبتناه.

(٤) انظر «شرح تنقيح الفصول» للقرافي (١/ ٤٣٢).

حكمه حكم مهاجر أم قيس[1]، لأنه الأعزُّ من مقاصده.

الحال الثاني: أن يكون الانتقال لغرض ديني لا دنيوي، فإن كان فقيهًا في مذهبه وترجَّح عنده المذهب الآخر، لما رآه من وضوح أدلته وقوة مداركه، فهذا إما يجب عليه الانتقال أو يجوز كما قاله الرافعي. ولهذا لما قدم الإمام الشافعيُّ مصرَ، تحول أكثر أهلها شافعيةً بعد أن كانوا مالكية.

وإن كان من انتقل للغرض الديني عاريًا من الفقه، كأن اشتغل بمذهبه فلم يتحصل منه علىٰ طائل، ووجد مذهب غيره أسهل عليه، فهذا يجب عليه الانتقال قطعًا، ويحرم عليه التخلف، لأن التفقه في مذهب إمام من الأئمة خير من الإقامة علىٰ الجهل، فتصح عبادته.

الحال الثالث: أن يكون انتقاله عن مذهبه مجردًا عن قصد الدنيا والدين، فهذا يجوز فعله للعامي، ويكره أو يُمنَع منه الفقيه، لأنه قد حصَّل فقه ذلك المذهب، ويحتاج إلىٰ عمر آخر يحصِّل فيه فقه المذهب الآخر، فيشغله ذلك عن الأمر الأهم وهو عمله بما علم. وربما انقضىٰ عمره قبل حصول غرضه من المذهب الآخر، فالأولىٰ ترك ذلك.

قال: وإذا كان المنتقل من مذهبه لغرض دنيوي عاميًّا، فهذا أمره خفيف، بخلاف ما إذا كان فقيهًا، فإن أمره أشد. قال: وعندي أنه يصل إلىٰ حد التحريم، لأنه متلاعب بالدين لمجرد غرض الدنيا. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي من انتقل من مذهبه علىٰ أحسن المحامل حتىٰ تعرف حاله يقينًا، ثم أنكر عليه. وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب التاسع من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٥) ومما أجبتُ به عن العالم إذا امتنع من الفتوىٰ علىٰ الأمور التي لم تقع بعد، فلاث

---

(١) مهاجر أم قيس، وهو الذي هاجر لأجل زواجه بها، وهو سبب ورود حديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امريء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو إلىٰ امرأة ينحكها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»، وقد تقدم تخريجه.

به الناس وقالوا: هذا لا يجوز لقوله ﷺ: «من كتم علمًا أُلجم بلجام من نار يوم القيامة»[١].

والجواب: أن مثل ذلك يجوز للعالم ترك الإفتاء فيه، لعدم الحاجة إليه في ذلك الوقت، وبه صرَّح جماعة من السلف الصالح ﷺ، منهم عبد الله بن مسعود ﷺ كان يقول: من سألكم عما لا يعنيه فلا تفتوه. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يلعن من سأل عما لم يكن. وكان زيد بن ثابت إذا سُئل عن أمر يقول: هل وقع هذا؟ فإن قالوا: نعم، أفتاهم، وإن قالوا: لم يقع؛ قال: ذروه حتىٰ يقع. وكذلك كان عمار بن ياسر يقول، وكذلك طاووس وعكرمة ومجاهد ومالك بن أنس وربيعة[٢] ومعاذ بن جبل، فاعلم ذلك يا أخي ولا تعترض علىٰ العلماء إلا بنص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا سأل الناس عن دقائق العلوم حتىٰ أعجزهم وصفَّر وجوههم، فلاث به الناس وقالوا: قد نهىٰ رسول الله ﷺ عن الأغلوطات[٣]. قال الخطابي: معناه أن العالم يعترض العلماء بصغار المسائل التي يكثر فيها الغلط، ليسترسل الناس بها، ويسقط بها رؤوسهم. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا العالم علىٰ ذلك، فقد يكون قصده تنهيض همم إخوانه، لتحقيق العلم وتحرير الأحكام، لا تصفير وجوههم، ومعلوم أن الاحكام تتبع المقاصد. وربما قصد بذلك إعلامهم بأن عنده من العلم ما ليس عندهم، ليبادروا إلىٰ طلب ذلك حين كانوا جاهلين به، ثم إن أبقىٰ عليهم المسائل الصعاب ولم يجبهم

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١)، وأحمد (٨٥٣٣).

(٢) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي مولاهم، مفتي المدينة، وعالم الوقت، أبو عثمان - ويقال: أبو عبد الرحمن - القرشي، المشهور بربيعة الرأي، من موالي آل المنكدر. قال مطرف: سمعت مالكًا يقول: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة. وثقه: أحمد بن حنبل، وأبو حاتم، وجماعة. توفي: ١٣٦هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٩) و«وفيات الأعيان» (٢/ ٢٨٨).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٦٥٦) من حديث معاوية: «أن النبي ﷺ نهىٰ عن الغلوطات» وأحمد (٢٣٦٨٨) والطبراني في «الكبير» (٨٢٠٤).

عليها، حملناه علىٰ أنه لم يرَ عندهم أهلية لذلك. وقد كان الإمام شهاب الدين الأودني من أصحابنا يناظر العلماء، ثم يقوم من المجلس مغلوبًا وهو يعرف الجواب وإفحام الخصوم، ويقول: نعرِّفهم مقدار العلم. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إياكم أن تدعوا أن الله تعالىٰ يحفظ سائر المسلمين من المعاصي؛ فلاث به بعض الناس وقال: هذا دعاء للناس بخير، فكيف يحذِّر أصحابه منه؟!

والجواب: أن الصواب مع هذا الشيخ، لأنه دعاء لا يُجاب صاحبه، فهو ملحق بالعبث، مثل من يقول: يا ربِّ اجعل البحر نارًا، والنار بحرًا، إذ لا بد في الناس من طائع وعاصٍ. وقد قال عمر بن عبد العزيز: لولا أن الله تعالىٰ أراد وجود المعصية في الأرض ما خلق إبليس.

ومن هنا كان بعضهم يقول في دعائه: اللهم اغفر لنا ولمن شئتَ من المسلمين، ولا يقول: «ولجميع المسلمين» لما ورد في الصحيح من أنه لا بد من طائفة يدخلون النار من الموحدين[1].

وقد وقع لإبراهيم[2] أنه قال: خلا المطافُ ليلةً، فطفتُ وصرتُ أقول: يا رب أسألك

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث سليمان بن يسار قال: «تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له ناتل أهل الشام: أيها الشيخ، حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتِيَ به فَعَرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار» والترمذي (٢٣٨٢) والنسائي (٣١٣٧).

(٢) كذا بالأصلين، ولعله إبراهيم بن أدهم، تقدمت ترجمته.

الحفظ من الوقوع في المعاصي أنا وجميع إخواني. فهتف بي هاتف: يا إبراهيم، أنت تسألني الحفظ، وكلُّ عبادي يسألوني الحفظ، فإذا حفظتُهم من المعاصي، فعلىٰ من أتفضل وأظهر فضلي عليه؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن من كمال الوجود أن يكون فيه الطائع والعاصي، لتحكم حضرات الأسماء في أهلها. ويؤيد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، وحديث: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»[١].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: كلُّ من كشف الله حجابه رأىٰ كمال الوجود بالطائع والعاصي، وعلم أن جميع الأحكام التي جرىٰ بها القدر عدْلٌ وحكمة، لأنها من تقدير العالم العادل الحكيم، ورأىٰ ارتباط أهل الدارين بأعمالهما ارتباطًا لا يزول، فلم يطلب قط تغيير ما وقع ولا إبداله بغيره، عكس من لم يُكشَف حجابه، فربما قال: لو جعل الله تعالىٰ كذا علىٰ هيئة كذا، لكان أهون علىٰ الناس! كما قال بعضهم: أيُّ فائدة لخلق الله تعالىٰ جبل قاسيون[٢]، مع أنه حجب الريح الطيب عن الشام؟! أو أيُّ فائدة لجعل الله تعالىٰ الخلق سعداء وأشقياء، ثم يدفع إلىٰ كلِّ مسلم يوم القيامة يهوديًّا أو نصرانيًّا ويُقال له: هذا فداؤك من النار[٣]، فإذا كانوا سعداء كلهم لم يحتج أحد إلىٰ فداء، وكان ذلك أكثر إحسانًا علىٰ العباد. وهذا كله جهل بأحكام الله تعالىٰ.

وقد سأل شخصٌ الإمام الغزالي: أيُّ فائدة في خلق الله تعالىٰ جبل قاسيون الذي هو غمة من غمم الدهر في وجه دمشق ليس فيه نبات، وهو مانع من وصول الهواء الشمالي

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٧٤٩) وأحمد (٨٠٨٢) والحاكم (٧٦٢٢) وغيرهم.

(٢) جبل قاسيون: جبل يشرف علىٰ مدينة دمشق عاصمة سوريا.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي موسىٰ قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة، دفع الله عز وجل إلىٰ كل مسلم، يهوديًا، أو نصرانيًا، فيقول: هذا فكاكك من النار» وأحمد (١٩٦٧٠).

إليها، وذلك يورثهم المرض؟! فقال له: تب يا أخي من الاعتراض على أفعال الله، فإن في ذلك بشارة لأهل دمشق بأنهم أهل الجنة، لقول أبي هريرة ﷺ: «إن ريح الجنوب من ريح الجنة وهي اللواقح، وريح الشمال من النار»[1] فهو يحجب عن أهل دمشق النار في الدنيا وفي يوم القيامة. وأما إخلاؤه من الأشجار فلما سبق في علم الله أنه يكون محلًا لدفن أمواتهم، فأمواتهم الآن كلُّهم في سفحه، فلو أنه كان فيه أشجار، لكانت عروقها في الأرض تمنعهم من الدفن إلا بمشقة شديدة. انتهى جواب الغزالي.

وقد ورد «أن الله تعالى ابتلى نبيًّا من الأنبياء بالفقر والجوع والقمل عشر سنين، وهو يسأل رفع ذلك فلا يُجاب، ثم أوحى الله تعالى إليه: كم تشكو إليَّ حالك؟ هكذا كان بدو شأنك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أغير خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن تبدل ما قدَّرتُه عليك؟ فيكون ما تحب دون ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد»[2]. الحديث.

فإن قال قائل: إذا كانت السعادة والشقاوة إنما هي بحسب ما سبق به العلم الإلهي، فلا أول للسعادة ولا للشقاء، وإذا كان لا أول لهما، فما معنى حديث: «الشقيُّ من شقي في بطن أمه»[3]؟ **فالجواب**: أن معناه أول ما يظهر للخلق السعادة أو الإشقاء من بطن أمه، فيطلع الله على ذلك الملائكة، أو من شاء الله من أصفيائه على سعادة ذلك الشخص أو شقاوته، أو رزقه أو أجله، مع أن ذلك قد كان سبقت كتابته في اللوح المحفوظ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من لم يطلعه الله تعالى على سرِّ القدرة، فلا يعرف شيئًا مما سبق به العلم الإلهيُّ، ألا ترى كيف تستخرج [الملائكة][4] ما عند

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرعد والبرق» (١٣٧) وأبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» (٤/ ١٣٠٦).

(٢) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٦٨) والغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٤٦).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٤٥) والبخاري، بنحوه (٧٤٥٤).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

الله تعالىٰ من العلم حال خلق النطفة، فيقول: يا رب، ما الرزق؟ وما الأجل؟[١].

وقد كان أبو المظفر السمعاني[٢] رحمه الله يقول: لا مدخل للعقول والقياسات في هذه الأمور، وإنما طريق معرفتها ما ورد في الكتاب والسنة، فمن ترك ما ورد فيهما، ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يصل إلىٰ ما يطمئن به القلب، فإنه من علم سرِّ القدَر الذي ضُرِبَت دونه الأستار، فلا تصل إليه عقول الخلق ولا تعرفه معارفهم.

فإن قال قائل: فما معنىٰ قول آدم لموسىٰ لما تحاج هو وإياه: يا موسىٰ، أتلومني علىٰ أمر قدَّره الله تعالىٰ عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة[٣]؟! كيف يصح له أن يعبر عن تقدير الله القديم بأربعين سنة؟ **فالجواب:** أن مراد آدم بالأربعين سنة مدة ظهور التقدير له، لا ابتداء التقدير، فإنه لا أول له.

فإن قال قائل: فما معنىٰ «فحج آدمُ موسىٰ» برفع آدم عليه السلام وهو الصحيح علىٰ أنه فاعل؟ مع أن أحدنا لو عصىٰ ربه وقال: هذا أمر قدَّره الله عليَّ لا يخرج بذلك عن اللوم، وإن كان صادقًا في هذا القول، ولذلك قال آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] مع علمه بأن ما وقع فيه كان بقضاء وقدر؛ **والجواب:** أن محاجة آدم وموسىٰ لم تكن في دار التكليف، وإنما كان ذلك بعد الموت، ولم يكن آدم يحتاج هناك إلىٰ زجر وتوبيخ، وإنما غايته التخجيل، بخلاف المعاصي هنا، فإنه في دار التكليف، وتجري عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ، هذا علىٰ كون معصية آدم كانت حقيقية. وأما علىٰ كونها صورية، فلا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٣١٨) من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكًا، يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثىٰ، شقي أم سعيد، فما الرزق والأجل، فيكتب في بطن أمه» ومسلم (٢٦٤٦).

(٢) أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي السمعاني الحنفي ثم الشافعي. ولد: سنة ٤٢٦هـ. مفسر، من العلماء بالحديث. له مصنفات منها: «تفسير السمعاني»، «الانتصار لأصحاب الحديث». توفي: ٤٨٩هـ. انظر: «السير» (١٩/ ١١٤)، «الأعلام» (٧/ ٣٠٣).

(٣) تقدم تخريجه.

لوم عليه حقيقة، كما مر بسطه في الباب الأول.

ومن هنا تعلم يا أخي أنه لا يجوز لأحد الاعتراض على الأقدار الإلهية، وإنما الواجب التسليم والتفويض، بدليل أن آدم لما احتج على موسى بالقدَر، سلَّم له ولم يعترض، ولذلك قال ﷺ في الحديث: «فحج آدمُ موسى»(١) أي غلبه في الحُجَّة. وكان مراد آدم بإقامة الحُجَّة على ولده موسى أن يفتح له كمال الأدب والتسليم للأقدار الإلهية باطنًا، وإقامة العذر لقومه كذلك، فيشهد أولًا من ناصية العباد بيد قدرته، ثم بعد ذلك يأمرهم وينهاهم من حيثُ كسبُهم، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٨) ومما أجبتُ به عن الإمام الغزالي في قوله في كتاب «الإحياء»: اعلم أن كلَّ ما قسمه الله تعالى في هذا الوجود من رزق وإيمان وكفر، ليس في الإمكان أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، فإن بعض الناس أنكر عليه وقال: يلزم من ذلك أن كفر الكافر أحسن من إيمانه.

والجواب: أن مراده من سبق له في علم الله تعالى أن يكون كافرًا ويموت على كفره، فهو لا يوصف بكون كفره أحسن من إيمانه، لأنه لا يُتصوَّر منه إيمان حتى يكون كفره أحسن، فبطل الإلزام. وقد تقدم في أوائل الباب الثالث الجواب عن قول الغزالي: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»(٢) فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦٩) ومما أجبتُ به عن قول الإمام سهل ابن عبد الله التستري ﷺ: إن لله عبادًا لو سألوه أن لا يقيم القيامة لأجابهم ولم يقمها، ولكن لا يفعلون. انتهى. قال قائل: كيف يصح وقوع هذا القول وهو معارض للنصوص القطعية المصرِّحة بأن لا بد من قيام الساعة.

والجواب: أن ذلك كفرض المحال، مثل قوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الزمر: ٤] بقرينة قول سهل: «ولكن لا يفعلون» أي لأنهم لا يريدون إلا ما أراد، ولا يسألونه فعل شيء لم تتقدمه مشيئتُه وإرادتُه، لاسيما والنصوص

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٥١٥) ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) الجواب (١٨٤).

القطيعة تعارض سؤالهم، وقد تصدر قوم للرد علىٰ سهل وعلىٰ الغزالي حين نقله عنه ولم ينكره ولم يتأملوا في قوله: «ولكن لا يفعلون».

وهي من المسائل التي كان الحسدة دسوها عليَّ في كتاب «العهود» مع أني ما سمعت بهذه المسألة إلا منهم، وما كنتُ أعلم أن سهلًا قالها، فالله يغفر لنا ولهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول لأصحابه: إياكم أن تجيبوا عن الصوفية بالكلية، فيحصل بذلك ضرر شديد، ولكن أجيبوا عن بعض دون بعض؛ فقال قائل: كيف ذلك؟! بل الحق أن يجيب عن كلِّهم ما أمكن، فإنهم كلَّهم أئمة أخيار.

والجواب: أن الحقَّ والأولىٰ الجواب عن بعضهم لا عن كلهم ممن كان قليل الذوق لأحوالهم، لئلا يكلف نفسه شططًا، كما أن الحق والأولىٰ الجواب عن جميعهم لمن أعطاه الله تعالىٰ الذوق لأحوالهم، والملكة في الجواب عنهم، كما فعلتُ أنا في هذا الكتاب بالنسبة إلىٰ من هو دوني في الذوق، اللهم إلا أن يترتب علىٰ الجواب ضررٌ في الشريعة، فإن الإنكار حينئذٍ علىٰ ذلك الوليِّ أولىٰ نصرةً للشريعة، ويجعل اللوم علىٰ ذلك الوليِّ الذي يتكلم بما يخالف ظاهر الشريعة، ولكن ينبغي للمنكر أن يقول بقلبه ولسانه: دستور يا سيدي الشيخ أنكر عليك في قولك كذا وكذا - سواء أكان حيًّا أم ميتًا- خوفًا أن يضل بقولك أحد من الخلق، فتصير في حكم الأئمة المضلين، ثم ينكر عليه بعد ذلك.

ثم إن كان ذلك الرجل وليًّا في نفس الأمر، فهو يفرح بذلك الإنكار، ويشكر فضل المنكر عليه، وإن كان غير وليٍّ فلا حرج علينا في الإنكار عليه.

وتأمل يا أخي ابن الحرازم[1] شيخ أبي الحسن الشاذلي لما أنكر علىٰ الإمام الغزاليِّ كيف ضُرِبَ بين يدي النبي ﷺ بالسياط حتىٰ صار أثره علىٰ جسمه إلىٰ أن مات، ولو أنه كان قال: دستور يا إمام أنكر عليك من كلامك ما يخفىٰ علىٰ الناس فهمُه لما ضُرِبَ بالسياط.

(١) بالأصلين: ابن أبي الخوارزم. وكذلك في كل المواضع في هذه الفقرة، والصواب ما أثبتناه.

وقد ذكر اليافعيُّ القصة في ذلك فقال: أخبرني الشيخ أبو العباس ابن الميلق الشاذلي[١] قال: أخبرني الشيخ ياقوت العرشي، أخبرني الشيخ أبو الحسن الشاذلي، قال: خرج علينا شيخنا ابن الحرازم يومًا، فقال ومعه كتاب «إحياء علوم الدين» وكان من أشد المنكرين علىٰ الإمام الغزالي، فكشف لنا عن جسمه، فإذا هو مضروب بالسياط، وقال لنا: أتاني رجل في المنام من صفته كذا وكذا يصف الإمام الغزالي، وقال لي: أنا أدعوك إلىٰ رسول الله ﷺ؛ فمشيتُ معه، فلما وقفنا بين يدي النبي ﷺ قال: يا رسول الله، هذا يزعم أني أقول عنك ما لم تقل! قال: فأمر النبي ﷺ بضربي، فضربتُ، ثم تاب ابن الحرازم من حينه، وحسنت توبته واعتقاده في الإمام الغزالي، وصار من أهل الطريق، وأخذ الناس عنه. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: قد مات وأثر السياط ظاهر علىٰ جسمه. انتهىٰ.

قال شيخ الإسلام شمس الدين الصفدي رحمه الله: وفي ضمن رؤيا ابن أبي الخوارزم إجازةٌ من النبي ﷺ للإمام الغزالي بجميع أحاديث «الإحياء» وما أعلاها وأشرفها من إجازة برزخية! إذ هي من النبي ﷺ بلا واسطة، وقد أكدَّها بهذه الأمارة العظيمة، وهي ظهور أثر السياط علىٰ جسمه في اليقظة إلىٰ أن مات.

فاعلم ذلك، وأجب عن القوم تارة، واترك الجواب عنهم تارة بحسب المصالح.

وقد بسطنا الكلام علىٰ مناقب الإمام الغزالي في الباب العاشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف الملائكة البوَّابين في كلِّ سماء علىٰ اختلاف طبقاتهم بنور أعطاه الله تعالىٰ لي؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يُعلَم إلا بالوحي، إذ ليس للوليِّ قدم محسوس في السماء حتىٰ يعرف أهلها.

والجواب: بأن معرفة مثل ذلك لا يتوقف علىٰ وحي، بل يُعرَف ذلك بطريق الكشف، فيكشف الله تعالىٰ عن قلب وليِّه الحجاب، فيدرك أحوال أهل السماء، كما يعرف ذلك أهل الخلوات من الصوفية.

---

(١) شيخ سيدي السلطان الحنفي في الطريق.

وقد يعرف ذلك بتكرر رؤيته لأهل السماء في منامه، حتىٰ يصير ذلك كأنه يقظة، مثل ما يقع لمن تكرر له رؤية نبيه ﷺ أو شيخه في المنام وصار يأمره وينهاه، كما وقع لسيدي عبد الرحيم القنائي والشيخ أبي مدين والشيخ أبي السعود ابن أبي العشائر وسيدي إبراهيم المتبولي وأضرابهم، حتىٰ كان سيدي إبراهيم يقول: نحن أربعة في الدنيا ليس لنا شيخ إلا رسول الله ﷺ. ويذكر هؤلاء الثلاثة.

وقد كان سمنون المحب ينشد:

فأجسادهم في الأرض قتلىٰ بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطيّ ؓ يقول: الشيخ محمد بن عنان يعرف أزقة السماء وأبوابها وطبقاتها، ومواضع سكن أكابر الملائكة التي فيها.

ومن وصية شيخنا شيخ الإسلام[1] رحمه الله: كن في الدنيا بجسمك، وفي الآخرة بقلبك؛ وهو قريب مما نحن فيه، فإن من كان في الآخرة بقلبه لا يخفىٰ عليه أحوال الناس فيها، فكذلك من كان في السماء بقلبه.

وتقدَّم في هذا الكتاب الجواب عن قول من يقول لمن سأله في حاجة: اصبر حتىٰ أسأل لك جبريل[2]، وبيان أن سؤال جبريل في حاجته ليس بممتنع، لأنه ليس بوحي ولا إرسال. وقد ورد أن جبريل يصافح من قام ليلة القدر، ومن صافحه جبريل لا يبعد أن يكلمه في حاجة حين كشف حجابه من باب خرق العوائد.

وقد جاء فقيه مرة لسيدي محمد الشربيني ؒ وقال: أريد أسألك عن مسألة في الطريق. فقال: وأنا الآخر أريد. فقال: قل. فقال: ما اسم بوَّابي[3] السماوات السبع، والأرضين السبع؟ فأعجز الفقيه ومضىٰ. ولعل الفقيه كان سؤاله الشيخ امتحانًا أو تعنتًا، فاعلم ذلك، وسلِّم للأولياء ما يجدونه من مواجيدهم ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا،

---

(١) أي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

(٢) الجواب (٢٨١).

(٣) بالأصلين: بوَّابين. والصواب نحويًّا ما أثبتناه.

والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول إذا قُدِّر له طاعة كبيرة: الحمد لله الذي لم يكن أقل من ذلك؛ وإذا قُدِّر عليه معصية صغيرة يقول: الحمد لله الذي لم يكن أكثر من ذلك؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: كلُّ شيء قد سبق به العلم الإلهيُّ في الأزل، فلا يصح فيه زيادة ولا نقص، والشكر لا يكون إلا علىٰ شيء يقبل الزيادة والنقص.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ إنكار ذلك، وإلا لبطل حكم الشكر لله عزَّ وجلَّ. ومعلوم أن العبد يُثاب من حيثُ الكسبُ والقصدُ، وإن كان أصلهما مقدَّرًا في الأزل لا يقبل زيادة ولا نقصًا.

وهذه المسألة من المسائل التي أنكروها علىٰ الغزالي ونقضوا بها قوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[1]. وقالوا: إذا كان كلُّ بلاء وقع، أو نعمة وقعت يحمد العبد ربَّه عليها الذي لم يكن أكثر من ذلك أو لم يكن أقل، ففي الإمكان أبدع مما كان. وعبارة الغزالي في كتاب الشكر من «الإحياء»: اعلم أن في كلِّ مصيبة من فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور: منها أن كلَّ مصيبة يُتصوَّر أن يكون أكثر من ذلك، فإن مقدورات الله تعالىٰ لا تتناهىٰ، ولو أنه تعالىٰ كان ضعَّفها وزادها ماذا كان يرده ويحجزه؟! فليشكر العبد ربه الذي لم يكن أكثر من ذلك وأعظم. انتهىٰ.

وقد سألتُ عن ذلك شيخ الإسلام زكريا رحمه الله فقال: قول الإمام الغزالي حقٌّ وصدق، لأن القدرة الإلهية واسعة لا نهاية لها، إذ هي صفة ذاتية له تعالىٰ، وصفاته لا حد لها، فكذلك مقدوراته، لكن القدرة لا تتعلق إلا بما تعلقت به المشيئة، والمشيئة تابعة لما سبق به العلم، وسطَّره في اللوح المحفوظ، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. انتهىٰ.

ومعنىٰ قول الإمام الغزالي: «فلو أنه تعالىٰ كان ضعَّفها وزادها ماذا كان يرده ويحجزه»

---

(١) تقدم الجواب عن هذه العبارة في الجواب (١٨٤) والجواب (٧٦٨).

أي لو قدَّر عليه أكثر من ذلك في الأزل، ولعلَّ هذا مراده ﷺ، فلا ينبغي الاعتراض عليه، لأن الحقَّ تعالىٰ [فعَّال][1] لما يريد أزلاً وأبدًا، وما بينهما بالقوة وبالفعل. وفي كلام أبي حنيفة في كتاب «الفقه الأكبر»: قد كان الحق تعالىٰ خالقًا قبل أن يخلق، ورازقًا قبل أن يرزق، وراحمًا قبل أن يرحم، ومنتقمًا قبل أن ينتقم.

فعُلِمَ أنه يجب علىٰ العبد الشكرُ لله من حيثُ تقديرُه المعصية عليه، والاستغفارُ من حيثُ كسبُه لها وتعديه حدود الله، وكلُّ ذلك بإرادة الله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما خان موكل فيما وُكِّل فيه إلا من خيانة الموكِّل، ولا أبق عبد إلا من إباق السيد عن طاعة الله، ولا نشزت امرأة إلا من نشوز زوجها كذلك عن طاعة ربه؛ فلاث به بعض الفقهاء، وقال: هذا غير صحيح، فقد خان بعض سعاة الزكاة في عهد رسول الله ﷺ وغلُّوا في الغنيمة[2]، ومعلوم أن من ولاَّهم أو كان أميرهم معصوم من كلِّ ذنب أو خيانة.

والجواب: أن القواعد أكثرية لا كلية، فلا يقدح في القاعدة خروج بعض أفرادها عنها. وأما ما دخل في حكم القاعدة، فلا اعتراض علىٰ مقابله، لأنه من باب تعليق المسبَّب علىٰ السبب. وقد كان الفضيل بن عياض ﷺ يقول: إني لأتعوج عن طريق الاستقامة، فاعرف ذلك في خلق حماري وخادمي وزوجتي. وكأن لسان الحقِّ جلَّ وعلا يقول لعباده: من أطاعني فأطيعوه، ومن عصىٰ أمري فاعصوه، فيأبق عبده، وتنشز زوجته، ويشمص حماره،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٢٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ يقول: «افتتحنا خيبر، ولم نغنم ذهبا ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ وادي القُرَىٰ، ومعه عبدٌ له يقال له مِدْعمٌ، أهداه له أحد بني الضِّبابِ، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائرٌ، حتىٰ أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة. فقال رسول الله ﷺ: بل، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تُصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً، فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراكٍ أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته. فقال رسول الله ﷺ: شراك - أو شراكان - من نار» ومسلم (١١٥).

وفي ذلك رحمةً بالعبد، ليتنبه على شؤم فعله، فيستغفر الله تعالى ويتوب إليه، فإذا قبل الحق تعالى توبته، رجع الخلق إلى طاعته ضرورةً من عبد وامرأة وغيرهما.

وفي زبور داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، أعلِم بني إسرائيل أنهم إذا أطاعوني آمر الوجود كلَّه بطاعتهم، وأُذِل لهم الحكَّام حتى يصيروا تحت حكمهم كالكبش تحت السكين. وإن عصوني أمرتُ الوجود كلَّه بعصيانهم، فلا يأتونهم إلا بما يكرهون، جزاءً على إتيانهم ما أكرهه لهم. انتهى.

ولما فتح عمر بن الخطاب الفتوح، أتوه بمال كثير حتى صار كومًا كبيرًا في المسجد، فحرَّكه عمر بعصا كانت في يده، ثم قال: والله إن الذي أتانا بهذا لأمين! فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، وهم يردون إليك ما أديتَ إلى الله، فإذا وقعتَ وقعوا. فقال عمر: صدقت. رواه البيهقي وغيره[1].

وكان مالك بن دينار إذا عصى غلامه أمرَه يقول: ما أشبه معاملتك معي بمعاملتي مع ربي. انتهى.

لكن هذه القاعدة أكثرية لا كلية كما تقدم، فإياك أن تظن بأحد من مشايخ الطريق إذا كان ناظرًا على مسجد وخان الجابي في وقفه أن الشيخ لولا خان في الوقف ما خان الجابي، فإن ذلك ظن فاسد لا يجوز، بقرينة ما صح عن بعض عمال النبي ﷺ من الغلول في الغنيمة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب على الخلق أن يشكروا ربهم على إخراجهم من العدم إلى الوجود، سواء أكانوا طائعين أم عاصين؛ فلاث به بعض الناس وقال: أما طائعين فهو مُسلَّم. وأما عاصين فلا! لأن مكثهم في العدم أولى من خروجهم إلى الدنيا وعصيانهم لربهم، ولذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا ليت أمي لم تلدني! وقال مالك بن دينار: لا أغبط نبيًّا مرسلًا، ولا وليًّا مقربًا! وإنما أغبط من لم يُخلق.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (١٣٠٣٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٧٦٨)، وابن زنجويه في «الأموال» (٧٩٩).

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ كما يقع فيه كثير من الناس، فيقول أحدهم: لو أن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لم يأكل من الشجرة، لكان لم يخرج من الجنة وأراحنا من هذا الشقاء والتعب، فيُقال لهذا: ألم تعلم أن الله حكيم عليم؟! فلا يسعه إلا أن يقول: نعم. فيُقال له: فمن حكمته البالغة تقديره علىٰ أبينا آدم وغيره ما قدَّره، وإنزاله إلىٰ الأرض، ليظهِر تعالىٰ ما سبق في علمه من إخراج ذريته من ظهره من أنبياء وأولياء، ومؤمنين وفاسقين، وكافرين ومشركين، ويميز تعالىٰ بذلك الخبيث من الطيب، والطائع من العاصي بأعماله وأقواله. فتب يا أخي عن مثل هذا، فإنه اعتراض علىٰ ربك الحكيم العليم [الذي لا معقب لحكمه، وكأنك تريد أن تعقب حكمه بجهلك وتقول: كان الأولىٰ خلاف ما فعله تعالىٰ][1]، وفي ذلك من سوء الأدب ما لا يخفىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ترك الحضور مع الله تعالىٰ في الصلاة أفضل من الحضور معه فيها؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا شيء مخالف لإجماع الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يريد أن من لازم حضور العامة مع الله تعالىٰ تخيله شكلًا في قلوبهم، وإذا غاب عنهم الشكل، لا يصح الحضور لهم، وتعالىٰ الله عن الشكل والصورة، فكلامه مع العوام لا مع الأكابر من العلماء الذين يحضرون معه من غير تشكل صورة في ذهنهم، فعدم حضور العوام أفضل من حضورهم، لأن عبادتهم حينئذٍ تكون مع الغيبة عن الشكل، كما هي عبادة العارفين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٦) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين الذين حضروا جنازة شيخ كبير من أهل الطريق، فلم يبكِ أحد منهم عليه، فلاث بهم العامة وقالوا: من شرط العلماء العاملين والفقراء الصادقين رقة القلب وكثرة البكاء، كما هو منقول عن السلف الصالح، ولكن هؤلاء ما حازوا من أحوالهم سوىٰ لبس الزي والدعاوىٰ الكاذبة.

---

(١) ساقط من «ب».

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهؤلاء العلماء والصالحين بسبب عدم بكائهم، ولا نسبتهم إلىٰ النقص، بل ذلك من علامة كمالهم، إذ الناس علىٰ ثلاثة أقسام: منهم من تبكي عينه و[لا][1] يبكي قلبه، وهم غالب الناس؛ ومنهم من يبكي قلبه دون عينه، وهم المتوسطون في المقام، المخفون أعمالهم عن الخلق؛ ومنهم من يبكي عينه وقلبه، وهم خواص الخواص، فيرضي أحدهم ربه ويرضي خلقه ببكائه بقلبه وعينه.

وبهذا الجواب أجبتُ عن علماء مصر وصوفيتها لما حضروا جنازة سيدي يحيىٰ الرفاعيّ شيخ الخرقة الرفاعية في مصر وقراها ﷺ، فقال لي شخص: أين صلاح هؤلاء؟! وما نرىٰ أحدًا منهم يبكي علىٰ هذا الرجل العظيم! فقلتُ: إنهم بحمد الله كلهم يبكون بقلوبهم. والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٧) ومما أجبتُ به عن العلماء والفقراء الذين وقع أخوهم في كشف وأخطأ فيه [ففرحوا][2]، فلاث بهم بقية الناس وقالوا: كيف يدعي هؤلاء أنهم علماء أو صالحون وهم يفرحون بتنقيص الناس لأخيهم ويشمتون به؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء العلماء والفقراء، لاحتمال أن يكونوا إنما فرحوا بحصول الأجر والثواب لأخيهم بسبب وقوع الناس في عرضه، فإنه ورد أن حسناتهم تنتقل في صحائف من استغابوه ووقعوا في عرضه، فكان فرحهم إنما هو بما حصل لأخيهم من الحسنات والأجور، كما أن الناس إذا لاثوا كذلك بالفقراء أو العلماء الذين لاثوا بأخيهم يفرح لهم من حيثُ حصولُ الأجر لهم كذلك، فيحتاج صاحب هذا المقام إلىٰ عينين: عين يفرح بها من حيثُ حصولُ الحسنات لإخوانه، وعين يحزن بها عليهم من حيثُ تعديهم حدود الله، ليعطوا الشريعة والحقيقة حقَّها، فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل العلماء والفقراء الذين أظهروا الفرح بوقوع الناس في عرض أخيهم علىٰ الحظوظ النفسانية، إنما يجب حملهم علىٰ شيء من المصارف الشرعية كما ذكرنا، ويبعد عن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

العلماء وأشياخ الطريق أن يقع أحدهم في الشماتة بأخيه المسلم.

وقد أجبتُ بنحو ذلك عن العلماء والفقراء الذين لاثوا بعرضي في مصر لما أشاع بعض الحسدة عني أنني قلتُ: إن عبد الله بن بغداد يشنق، وحسن بن حماد يتولىٰ في الوقت الفلاني: فإنه لم يسلم من الوقوع في عرضي إلا القليل من العلماء والفقراء، فحملتُهم علىٰ أنهم لم يفرحوا إلا لما حصل لي من الأجر والثواب بكلام الناس فيَّ من غير علم، لكوني لم أنطق بشيء من ذلك، فإن اعتقادنا في علماء عصرنا وصوفيته أنهم لا يجهلون ما ورد من نقل حسنات من يقع في أعراض الناس إلىٰ صحائف من وقعوا في عرضه.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن الله تعالىٰ إذا أراد أن يرقي عبدًا من عبيده إلىٰ درجات لم يبلغها بعمله، قيض له جماعات من العلماء العاملين، والفقراء الصادقين، فوقعوا في عرضه، فنقل الله تلك الأعمال الصالحة التي عملوها طول عمرهم في صحائف ذلك العبد، فأصبح من أعلىٰ الناس مقامًا، وأكثرهم عملًا في ليلة واحدة، والناس مع ذلك يقعون في عرضه، ويرون نفوسهم أحسن حالًا منه، لحجابهم عما وقع له. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يدعي أنه تساوىٰ عندي الذهب والتراب علىٰ حد سواء، ولاث به الناس وكذبوه في ذلك، بأنه لا ينبغي اللوث به، لأن هذا مقام يحصل للسالك في أوائل دخوله في الطريق، فيُحتمَل أن هذا العالم عمل علىٰ تحصيل مقام تساوي الذهب والتراب في الميل إليه علىٰ حد سواء بأحكام الرياضة وترك الشهوات جملة، حتىٰ لم يصر له ميل إلىٰ شهوة واحدة، لأنه مادام له ميل إلىٰ شهوة واحدة، فمن لازمه محبة الدنيا وذهبها وفضتها، لأن شهوته لا يصل إليها إلا بالذهب والفضة، فإذا أحكم ترك الشهوات جملة، تساوىٰ عنده الذهب والتراب، لخروجه عن رق الشهوات وعن محبة ما يجلبها إليه.

فاعلم ذلك يا أخي، وأتِ إلىٰ كلِّ مقام من بابه، فإن كثيرًا غلطوا فيما قلناه، وطلبوا أن

يتساوىٰ عندهم الذهب والتراب، مع محبتهم للشهوات، فلم يصح له ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول: قد تساوىٰ عندي الناس كلهم مطيعهم وفاسقهم علىٰ حد سواء؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يكون مقام المطيع لله الراضي ربه عنه، كالعاصي لأمر الله الساخط ربه عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من قال ذلك، لاحتمال أن يكون مشهده من الخلق السر القائم بهم من أمر الله، ومن شهد هذا المشهد، تساوىٰ عنده الخلق كلهم، فهو يخاطب من الناس السر القائم بهم معهم، أو مع حجابه عن شهودهم، كما يعرف ذلك أهل الكشف، وهو مقام سهل بن عبد الله التستري وجماعة، فكان سهل ﷺ يقول لي: منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالىٰ والناس يظنون أنني أكلمهم. **وإذا احتمل فعل الإنسان أو قوله وجهًا صحيحًا ولو فوق مقامه عادةً، فلا ينبغي الإنكار عليه إلا بطريق شرعي واضح لا تلبيس فيه**، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يسمع منشدًا ينشد شيئًا من كلام القوم، فيقوم ويتواجد وتقع عمامته، ثم يجلس ويقوم يصلي بالناس ولا يجدد وضوءه، فلاث به الحاضرون وقالوا له: إن كنت غائب العقل وجب عليك الوضوء مثلًا، وإن كنت حاضر العقل فلم رميت عمامتك عن رأسك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، فقد صرَّح الشيخ شمس الدين التتائي المالكي في شرح «الرسالة» و«المختصر» بأن من غاب عقله من الهيام وشدة المحبة لله تعالىٰ لا تنتقض له طهارة، فإن حكم أهل حضرة الله تعالىٰ يخالف حكم من كان خارجًا عنها، بقرينة عدم تكليف المجاذيب، فإن الله تعالىٰ لما أخذ عقولهم وخبأها في حضرته، صاروا بلا عقول، ثم إنه إذا ردهم إلىٰ إحساسهم في حضرته، استمر منهم ذلك الإحساس من غير تخلل غفلة حتىٰ يخرجوا من الحضرة، فلم يزل عقلهم حقيقة، وإنما

تنوعت عليهم أحوال، مع دوام الإدراك والشعور. وبذلك فرَّقوا بين زوال عقل المجانين وزوال عقل المجاذيب، فإن المجنون إذا خرج عقله ينتقل إلىٰ حضرة برزخية لها وجه لأحكام الدنيا، ووجه لأحكام الآخرة، فلم تتخلص عقولهم لحضرة الله بالكلية، فلذلك غلَّب العلماء زوال عقلهم، وحكموا بنقص طهارتهم احتياطًا لهم، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين[1].

(٧٨١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يظهر الغرض لأمير علىٰ خصمه ويقول: أنا مع[2] غرضك، ولا أقدر أسمع لخصمك ذكرًا! فلاث به الناس وقالوا: قد صارت العلماء أصحاب أغراض فاسدة كالعوام، لأجل سحت الدنيا، وطاب الموت لكلِّ عاقل!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بالعالم إذا قال لأمير مثل ذلك، لاحتمال أن يكون قصد بذلك تمييل خاطر الأمير له، ليصير يسمع له النصح والتدبير بينه وبين خصمه، ليختصر بينهما الفتنة، لاسيما إن كان الولاة نصَّبوه ولو سرًّا ليزيد علىٰ المتولي مالًا في وظيفته لجهة مولانا السلطان، فإنه ربما يحب إظهار الغرض معه خوفًا أن لا يسمع منه إذا أظهر الغرض لعدوه، ويصير يزيد في البلاء أو في تلك الوظيفة، ثم يأخذونها من الرعية بالضرب والحبس والنهب، كما هو مشاهد في مشايخ العرب والكشاف الذين لهم أضداد، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يقبل الله صلاة من صلَّىٰ علىٰ محمد ﷺ إلا إن كان علىٰ طهارة؛ فلاث به بعضُ طلبة العلم وقالوا: هذه من قسم الأذكار،

---

(١) قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات المكية» الباب (٤٤) ما معناه: «الفرق بين المجانين والمجاذيب: أن المجانين كان سبب جنونهم فساد المزاج عن أثر كوني من غذاء أو جوع أو غير ذلك، فأمَّا المجاذيب فكان جذبهم عن تجلٍ إلهي لقلوبهم جاءهم علىٰ فجأة فذهب بعقولهم، فعقولهم مخبؤة عنده، منعمة بشهوده، عاكفة في حضرته، متنزهة في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول، وهؤلاء الذين عُرفوا في الظاهر بـ«عقلاء المجانين» أي المستورين عن تدبير عقولهم».

(٢) بالأصلين: من.

والأذكار لا يُشترَط في صاحبها الطهارة، فهي مقبولة ولا ترد، إلا لو كانت الطهارة شرط فيها، كالصلاة والركوع والسجود.

والجواب: بأن الإجماع قد انعقد علىٰ أنه ما بعد كمال الله عزَّ وجلَّ وتعظيمه إلا كمال محمد ﷺ وتعظيمه، فلا يبعد أن تُرَد صلاة من صلىٰ عليه محدثًا، كما قال ﷺ في الصلاة ذات الركوع والسجود: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضأ»[1] بجامع أنها مناجاة لله عزَّ وجلَّ، كالصلاة ذات الركوع. ويؤيد ذلك حديث البيهقي -وقال: إنه ضعيف الإسناد- «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث، والصلاة عليَّ»[2].

وأخبرني الشيخ الصالح عمير المغربي الذي يرىٰ النبي ﷺ كثيرًا أنه قال: يا رسول الله، الصلاة عليك مقبولة دائمًا غير مردودة كما هو في أفواه الناس؟ فقال ﷺ: نعم، إذا كان صاحبها علىٰ طهارة. انتهىٰ، فاعلم ذلك، ولا تنكر إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا سمعتُ تسبيح الجماد والنبات والحيوان الذي ليس بناطق؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يكون إلا للصحابة والتابعين، وكذَّبوه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به ولا تكذيبه، بل الأولىٰ تصديقه لأنه أمر ممكن. وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلا ينافي ذلك، لأن كلامنا في السمع، والآية في الفهم، فما نفىٰ تعالىٰ عنا إلا الفهم لا السماع، اللهم إلا أن يكون أحدنا أعطاه الله تعالىٰ منطق الطير بحكم الإرث لسليمان عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا نسلِّم له معرفة تسبيح الطير.

وأما الجماد فقد يعرفه من طريق الكشف، كما وقع لي ذلك من غروب الشمس إلىٰ طلوع الفجر، ثم حُجِبَ ذلك عني رحمةً بي، فسمعتُ تسبيح كلِّ شيء حتىٰ السمك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٤)، ومسلم (٢٢٥).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

الذي في البحر المحيط، فسمعتُ تسبيحه وهو يقول: سبحان الحنان المنان، خالق الخلق والنباتات والحيوانات. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن أهل الكشف يفهمون تسبيح كلِّ شيء من طريق كشفهم بحكم خرق العادة، ولا منع من ذلك. وفي كلام الإمام الغزالي: اعلم يا أخي أن أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالىٰ في حقِّهم كلَّ ذرة في الأرض والسماوات بقدرته التي أنطق بها كلَّ شيء، حتىٰ سمعوا تقديسها وتسبيحها، وشهادتها علىٰ أنفسها بالعجز بلسان ذلق[1] يتكلم بلا صوت ولا حرف، ولا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون.

قال -أعني الغزالي-: ولستُ أعني به السمع الظاهر الذي يُخلَق من الأصوات، فإن الحمار يشاركهم في ذلك، ولا قدْر لما يشاركنا فيه البهائم، وإنما أعني به السمع الذي يدرك الكلام بغير صوت ولا حرف، ولا هو عربي ولا هو عجمي.

فإن قيل: إن هذه أعجوبة لا يقبلها العقل، فبين لنا كيفية نطقها، وكيف نطقت؟ وبماذا نطقت؟ وكيف سبَّحت وقدست؟ وكيف شهدت علىٰ نفسها بالعجز؟ **فالجواب**: أن هذا أمر لا يُدرَك إلا بالكشف، فمن كُشِفَ له عَلِمَ أن لكلِّ ذرة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر، وذلك مما لا يُحصىٰ ولا يتناهىٰ، فإنه كلام يستمد من بحر كلام الله تعالىٰ الذي لا نهاية له، فيناجيهم بأسرار الملك والملكوت، ولكنهم لا يفشون أسرار الحقِّ جلَّ وعلا ولو قتلوا، وتأمل قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[2] فإن فيه تعريضًا بتحريم إفشاء أسرار الحق، وكذلك تأمل في قول أبي هريرة في جراب العلم الذي أعطاه له رسول الله ﷺ فإنه قال: «لو بثثتُه لقُطِع مني هذا البلعوم»[3]. وكذلك في قول الإمام زين العابدين:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي: أنت ممن يعبد الوثنا

(١) ذَلَقَ اللّسانُ :كانَ ذَلَقًا، ذَليقًا، أَيْ فصيحًا، طَلْقًا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٢٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٩١٠).

ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

يتضح لك ما عليه أهل الله، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: العارفون لا يموتون وإنما يُنقلون من دار إلىٰ دار؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: قد قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن العارفين من كثرة مجاهداتهم قد حيت قلوبهم، وطلبت الانتقال من هذه الدار إلىٰ الدار الآخرة، لما فيها من مجالسة الله عزَّ وجلَّ والنعيم المقيم، بحكم الإرث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم أحياء في قبورهم، وكذلك الأولياء، لكن حياتهم أضعف من حياة الأنبياء، لعدم عصمتهم، فربما تعاطىٰ أحدهم أفعالًا أماتت قلبه، ولا هكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الموت أمر متردد بين الوجود والعدم، كما عليه الجمهور، فليس هو بعدم محض ولا فناء محض، وإنما هو انقطاع تعلق الروح ببدنها ومفارقته، وحيلولة بينهما وتبدل حال، وانتقال حال من دار إلىٰ دار. انتهىٰ. وكذلك نقله الجلال السيوطي عن العلماء، وكذلك رُوي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان يقول: إنما خلقتُم للأبد، ولكنكم تنقلون من دار إلىٰ دار. وكان بلال بن سعد[1] يقول في خطبته: إنكم أهل خلود وأهل بقاء، وإنكم لم تُخلقوا للفضاء، وإنما خُلقتم للخلود والأبد، ولكنكم تُنقلون من دار إلىٰ دار. انتهىٰ.

ثم إن هذا المقام لا يكون إلا لمن بالغ في المجاهدة في نفسه، حتىٰ فنيت جميعُ أغراضه النفسانية، وصار مراده هو مراد الله. وأما من بقيت عليه بقية، فهو يقاسي

---

(١) بلال بن سعد بن تميم السَّكوني الإمام الرباني الواعظ، أبو عمرو الدمشقي، شيخ أهل دمشق. كان لأبيه سعد صحبة. قال الأوزاعي: كان من العبادة علىٰ شيء لم نسمع أحدًا قوي عليه، كان له كل يوم وليلة ألف ركعة. وثقه: أحمد العجلي. قال أبو زرعة: كان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق. توفي: سنة نيف وعشرة ومائة. «السير» (٥/ ٩٠)، «حلية الأولياء» (٥/ ٢٢١).

الشدائد في طلوع روحه بسببها، فكلما تريد الروح تخرج من الجسد إلىٰ البرزخ، تجذبه تلك الأغراض إلىٰ الإقامة في دار الدنيا، فيحصل من ذلك تعسير طلوع الروح علىٰ بعض الناس، ويقع هذا كثيرًا للتجار والأمراء، وكلِّ من له دور وبساتين وأولاد ومال وحشم وجاه، بخلاف من كان بالضد من ذلك.

فإن قال قائل: إننا نرىٰ بعض الأولياء يقاسي الشدائد عند طلوع روحه، ويطلب البقاء في هذه الدار، مع كثرة مجاهداته وزهده وقلة علائقه الدنيوية؛ **فالجواب**: أن شدة طلوع روح الوليِّ ليست لأغراض دنيوية، وإنما هي لأغراض صحيحة، كأن يطيع أحدهم ربه ويزيد في العبادة، ليزداد في الثواب، ويقوم بشعائر دين الله في هذه الدار، وليكمِّل تلامذته في المقامات ونحو ذلك.

ومصداق ذلك ما يقع للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من تشديد طلوع روحهم، مع أن أحدهم لا علاقة له في الدنيا بإجماعٍ إلا طلب الزيادة من الطاعات، وكمال هداية الخلق إلىٰ طريق الله عزَّ وجلَّ، وفي الحديث: «إني أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلان منكم»[1]. وقالت عائشة: «ما رأيت أحدًا اشتد عليه الكرب مثل ما اشتد علىٰ رسول الله ﷺ، فكان يُغمَىٰ عليه من شدته، ثم يقول: إن للموت لسكرات»[2]. انتهىٰ.

وقد دخلتُ علىٰ شيخنا الشيخ محمد الشناوي وهو يعالج في سكرات الموت، فقلتُ له: أنتم بخير؟ قال: نعم، ولكن أحبُّ البقاء في هذه الدار حتىٰ أكمِّل سلوك أصحابي، ويعرفوا كمال الأدب مع الله عزَّ وجلَّ.

فقد بان لك أن العارفين لا يموتون كموت غيرهم، وإنما ينتقلون من دار إلىٰ دار،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٦٦٠) ومسلم (٢٥٧١).

(٢) قولها: «ما رأيت أحدًا .... لسكرات» حديثان جمع بينهما المصنف ـ رحمه الله ـ الأول أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما رأيت أحدًا أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ». والثاني جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٤٤٩) أنه ﷺ جعل يدخل يديه في الماء فيسح بهما وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات».

لعدم العلاقة التي لهم في الدنيا. ومعلوم أنه لا يتحارب الجسم والروح إلا إذا كان للنفس علاقة، لكن تارةً تكون العلاقة محمودة، وتارةً تكون مذمومة، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ قال للروح حين دخلت في الجسد: ادخلي كَرهًا، واخرجي كَرهًا»[١] أي ادخلي كَرهًا عليك، واخرجي كرهًا علىٰ الجسد، لأنه لولا الروح لكان عدمًا، **والوجود له لذة عظيمة بخلاف العدم**. ومن هنا خاف كلُّ عاقل من كلِّ شيء يؤذي بدنه من جرح أو ضرب مؤلم، لأنه قد يلحقه بالعدم، وأنشد أبو علي[٢] ابن سينا[٣] في مثل ذلك:

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقـــاء ذات تـــعـــزز[٤] وتمنع
محجوبة عـن كـل مقلة ناظر	وهـي التي سفرت ولـم تتبرقع
وصلت علىٰ كـره إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات توجع
أنفت وما رضيت فلما واصلت	ألفت مـجـاورة الـخـراب البلقع
حتىٰ إذا قرب المسير من الحما	وبـدا الرحيل إلىٰ المحل الأرفع
هجعت وقد كشف الغطا فأبصرت	مـا ليس يـدرك بالعيون الهجع
فـكـأنهـا بــرق تـألـق بالحمىٰ	ثـم انـطـوىٰ فـكـأنـه لـم يلمع

فاعلم ذلك، وأوِّل كلام الأكابر حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقتل الخلق بحاله أو يعزلهم أو يُمْرِضهم أو يحوِّل عنهم النعمة، فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: إن كنتَ فقيرًا صالـحًا، فانفع الخلق واحتمل

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) بالأصلين: محمد. والصواب ما أثبتناه.

(٣) الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب، والمنطق والطبيعيات والإلهيات. أصله من بلخ، ومولده في إحدىٰ قرىٰ بخارىٰ. ونشأ وتعلم في بخارىٰ. تقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتوارىٰ. ثم صار إلىٰ أصفهان، وصنف بها أكثر كتبه. له مصنفات منها: «الشفاء» و«المنطق» و«أسرار الحكمة المشرقية» وغيرها. وعاد في أواخر أيامه إلىٰ همذان، فمرض في الطريق، ومات بها سنة: ٤٢٨هـ. «الأعلام» (٢/ ٢٤١) و«هدية العارفين» (١/ ٣٠٨).

(٤) بالأصلين: تقنع. والمثبت من «العينية» لابن سينا.

أذاهم، فإن الرجل هو من ينفع الخلق لا من يضرهم، فيكون عليه الإثم في الدنيا والآخرة.

والجواب: أن العبد ولو ارتفعت درجته فهو في أسر التقدير الإلهي، فإن شاء الحقُّ تعالىٰ جعله قاضيًا، وإن شاء جعله جلَّادًا، لكن لا يجلد إلا من استحق، ولا يقتل إلا من استحق بالطريق الشرعيِّ، وإن خفي ذلك علىٰ المتشرِّع من طريق البينة، فهو يثاب علىٰ ذلك من طريق الباطن دون الظاهر، ولا ينقص له بذلك رأس مال.

قالوا: ومن علامته أنه يقتل الناس ويؤذيهم بحاله، ثم يحمي نفسه من متولي الحدود في الدنيا، فتيبس يد الجلاد مثلًا، أو يحصل للحاكم تأثير في جسده حتىٰ يصير يصيح ويطلب الموت من الضيق ونحو ذلك، فإن وقع له ذلك في الدنيا فهو دليل علىٰ عدم مؤاخذته علىٰ ذلك في الآخرة. انتهىٰ.

ورأيتُ في «الفتوحات المكية» في الباب التاسع والعشرين ومئة أن بأفريقية جماعة يقتلون بالهمة من شاؤوا، وذلك أن الهمة إذا اجتمعت أثَّرت في أجرام العالم وأحواله، ولا يصعب عليها شيء، لكن لا يقع ذلك إلا من صاحب حال، **وأصحاب الأحوال ناقصون عند القوم**، لأنهم ينظرون إلىٰ الخلق بعين الازدراء، والعارف لا يقدر علىٰ ذلك. انتهىٰ.

وقد أخبرني الشيخ أفضل الدين ﷺ عن شيخه الشيخ بركات[1] الخياط[2] الذي دفن سيدي عليًّا الخواص في زوايته أنه مر عليه تاجر وهو جالس في باب زويلة بمصر، فقام وقبض علىٰ طوق التاجر وقال: يا مالي يا رحلي! سرقه هذا! فدخل به بيت الوالي، فقال للوالي: اضرب هذا مقارع وكسَّارات، وإن مات فأنا عوضه! فضرب الوالي التاجر مقارع حتىٰ كاد أن يهلكه، ثم نظر الشيخ محمد في وجه التاجر وقال للوالي: يا أمير، قد غلطتُ فيه!

(١) بالأصلين: محمد، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الشيخ بركات الخياط كان مقيمًا بالدرب الأحمر، خارج باب زويلة، كان شيخًا صالحًا، له أبهة في الصدور، وعلىٰ وجهه مسحة من نور البدور، يرتزق من الخياطة ومما يفتح عليه ممن يأتي دكانه أو رباطه، ت ٩٢٣هـ، ودفن بزاويته، ودفن معه جماعة من الصلحاء منهم سيدي علي الخواص رحمه الله. الطبقات الكبرىٰ (٢/)، الكواكب السائرة (١/ ١٦٩).

ما هو هذا! فضربه الوالي بالخيزرانة، فخرج واضطجع وتوسد عتبة الوالي وقال: لا بد من عزله، فنزل [منشور][١] الباشاه[٢] بعزله بعد عشر دُرْج، فقام الشيخ، فقلتُ له: ما هذا الحال؟ فقال: إن التاجر ادعىٰ علىٰ شخص بالباطل، وضربه الوالي مقارع، فأخذتُ له تارَه[٣]. وأما عزل الوالي فإني رأيتُه يسكر، ومن كان يسكر فلا يصلح أن يكون حاكمًا. انتهىٰ.

[القتل بالهمة وقصة الحجر في بيت المؤلف لتأديب الناس، ولمقابلة الظالمين بالأذى][٤]

ولما كثر تخاصم الناس عندي واستحق بعضهم التأديب بالضرب أو الحبس أو الموت وأنا رجل متشرع، أرسل لي الشيخ العارف بالله تعالىٰ شعبان المجذوب[٥] المدفون قريبًا من سويقة اللبن حجرًا نحو ربع قنطار، وقال لي: علِّقه عندك في حائط، وكلُّ من كان مظلومًا فقل له: دقه علىٰ قلب من ظلمك، فإنه يمرض أو يموت، وإن رفقتَ بالظالم حين لم يرجع عن ظلمه، فقل: يا بَيْضَه اطول واكبر، فإن ذلك يقع له؛ فجربتُ ذلك فصح، فتركتُه وهو إلىٰ الآن عندي لا أعلِّقه إلا لمن أجمع الناس علىٰ ظلمه وآذاه للناس. وقد ضربه الفقراء مرة علىٰ قلب أمير، فمات من ليلته، وضربوه علىٰ قلب رجل آخر، فطلع في وجهه شيئًا يشبه الحبَّ الفرنجيَّ لكنه أسود، فمكث لا يخرج من بيته حياءً من الناس مدة شهر، ثم تاب فشفي من ذلك. وعندي في استعماله توقف، لعدم تحرير أمر ظلم من يستحق ذلك، وإنما عملتُ به لكثرة اعتقادي في الشيخ المذكور، فإن الحجر يصيب قلب الظالم ولو كان بيننا وبينه مسيرة ثلاثة أيام، فلولا أن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: الباباه.

(٣) كلمة عامية تعني الثأر.

(٤) عنوان علىٰ هامش المخطوط.

(٥) الشيخ الصالح المجذوب الصاحي شعبان، كان صاحب تصريف عظيم بمصر المحروسة إلىٰ أن مات، كان سيدي علي الخواص إذا شك في أمر يحدث في السنة أرسل إليه يستفهم منه، صحبه الشيخ الشعراني نحو خس وثلاثين سنة، ت سنة ٩٥٧هـ. الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٨٢٧)، الكواكب الدرية (٣/ ٣٨٠).

الشيخ يعلم من الله عدم مؤاخذته علىٰ هذه الإشارة لما كان أشار بها، ولا كان مشَّىٰ له ما أراد، فإن الدق وقع عندي في حائط القاعة.

ومما وقع بحضرتي من الشيخ زين العابدين البلقيني أنني خرجت أنا وإياه لزيارة فقراء مصر، فمررنا علىٰ الشيخ محيي الدين[1] بجامع ابن طولون، فوقفنا علىٰ باب خلوته التي هي بجانب محراب الجامع، فناديناه فلم يخرج، فقلنا له: من عندك؟ فقال: نصرانيٌ من جهة أمير. فقال الشيخ زين: يقدم مجالسة نصرانيٍ علينا وقد جئناه من موضع بعيد! ثم ضرب بالحربة التي في عكازه في دعامة الجامع التي هي تجاه باب خلوة الشيخ محيي الدين، فقال: وعزة ربي دخلت في وركه الأيسر. ثم فارقناه، فما وصلنا إلىٰ مكاننا إلا ونقيبه جاء وأخبرنا أنه حصل له في وركه شيء ما كان إلا مات. فقلتُ له: أي الأوراك؟ فقال: الأيسر. وقد أرسل وراء الحكيم فوصف له حقنة، فمكثت رجله في صندوق خشب خمسين يومًا، فقلتُ للشيخ زين العابدين: الفقراء يجرحوا ويداووا![2] فقال: وعزة ربي ما فيها دواء! وبقي من أجله ثلاثة أيام! فكان الأمر كذلك، فقلتُ له: هو في ذمتك. فقال: أنا عبد مأمور. ثم قال لي وهو مبتسم: أنا ما طعنتُ إلا في دعامة الجامع.

فاعلم ذلك، وإياك وإقامة ميزان الشرع علىٰ أرباب الأحوال، فإنهم من قسم المجاذيب الذين لا تكليف عليهم، ولهم موازين بينهم وبين الله، فيؤثرون فينا ولا نقدر نؤثر فيهم، وإن شككتَ فجرِّب، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب علىٰ العبد الاستغفار من كلِّ ذنب فعله ما دام يتذكره، فإذا نسيه لم يجب عليه استغفار، لأن الله تعالىٰ حينئذٍ قد قبِل توبته؛ فلاث به بعض العلماء وقال: قد تكون التوبة مقبولة من الذنب، ولو لم يُمْحَ ذكره من قلب العبد.

---

(١) الشيخ الصالح يحيىٰ محيي الدين الذاكر بجامع ابن طولون بمصر، أحد أصحاب الشيخ تاج الدين الذاكر، كان معتزلًا عن الناس ذاكرًا خاشعًا عابدًا صائمًا ت سنة ٩٦٠هـ. «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٥٧).

(٢) كذا بالأصلين، وقد تركناها علىٰ ما هي عليه، وكذلك بعض الألفاظ الواردة في هذه الحكاية؛ لأن الغالب أنها محكية بالعامية قصدًا.

والجواب: بأن قبول التوبة يُعرَف بطريقين:

أحدهما أن يمحو الحقُّ تعالىٰ معرفة ذلك الذنب من قلب المذنب ومن الصحف السماوية، فلا يكون له وجود في ذهن العبد.

الطريق الثاني: أن يقبل توبة العبد ويبدل سيئاته في المعنىٰ لا في الكتابة، فيبقيها الله تعالىٰ في الصحف وفي الذهن، ليستغفر العبدُ ربَّه كلما تذكر ذنبه، ويحصل له ثواب من أُصيب في ماله أو ولده أو بدنه، بل مصيبة الدين أعظم، لكن لا يخفىٰ أن الثواب في الذنب إنما هو من جهة الرضا بالقدَر، لا من جهة اكتسابه للذنب، فإياك والغلط. فيحمل كلام هذا الشيخ علىٰ الطريق الأولىٰ. وقد ورد أن الله تعالىٰ يبعث بعض الأكابر من الأصفياء وخطيئته مكتوبة في كفه يسأل الله اللطف، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم إذا رُمي بفاحشة مثلًا وقال: ما أنا بأول من رُمي بالبهتان والزور؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كان يجب عليه السكوتُ ولا يجيب عن نفسه بشيء، حتىٰ يكون الحقُّ تعالىٰ هو الذي يبرئه عند الناس، وذلك لأن في هذا الكلام انتصارًا للنفس، وذلك مذموم.

والجواب: أن جواب العالم عن نفسه واجب، ولا يلزم منه طلب براءته عند الناس، بل ربما ازداد الناس فيه تهمةً بجوابه عن نفسه، امتحانًا من الله تعالىٰ له، ليشهد به علىٰ كذبه في دعواه الصبر أو الرضا عن الله تعالىٰ مثلًا، لاسيما إن كان خطيبًا أو واعظًا لا يرىٰ عيوب نفسه، فيبتليه الله تعالىٰ بتهمة، فيظهر له كذب نفسه أو صدقها. وتأمل يا أخي القاضي إذا اتُّهم بفساد جارية كيف يصير الناس كلُّهم يصدقونها ويكذبون القاضي، وأين عقل الجارية ومقامها من مقام القاضي وعقله؟!

وقد سُئل بعضُ العارفين عن سبب اكتتاب دم الحلاج حين قتلوه «الله الله» ولم يقع ذلك في دم الحسين بن علي[1] حين قُتل، مع أنه أفضل من الحلاج، فقال: المتهم يحتاج

---

(١) أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، الإمام، الشهيد، الشريف، الكامل، سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا، ومحبوبه. ولد في خامس شعبان، سنة: ٤هـ. واستشهد في يوم عاشوراء:

إلىٰ تزكية، أي لأن الحسين بن علي قُتِل من جهة الملك، والحلاج قُتِل من جهة الاتهام بالكفر، فكان دمه يشهد له بالبراءة من الشرك. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: لولا قول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ [يوسف: ٥٣] ما قال الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]. ثم لا يخفىٰ أن محل السكوت ما إذا لم يترتب علىٰ الجواب مصلحةٌ ترجح علىٰ مصلحة السكوت، وإلا فالجواب عن نفسه أفضل، بل ربما كان واجبًا، كما إذا ترتب علىٰ ذلك حدٌّ أو تعزير. وأما حديث: «لو كنتُ مكان يوسف لأجبت الداعي»[1] فهو محمول علىٰ أن نبينا محمدًا ﷺ قاله تواضعًا مع أخيه يوسف عليه الصلاة والسلام، أي لو أني كنتُ مكان يوسف لسارعتُ إلىٰ براءة نفسي، ولم أتخلف عن السعي في براءتها، فهو من باب قوله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم»[2]. وإيضاح ذلك أن كلَّ داعٍ إلىٰ الله تعالىٰ يجب عليه السعي في براءة ساحته عند المرسَل إليهم حتىٰ يسمعوا له، فقصد السيد يوسف بتخلفه عن الحضور البراءة الكاملة، لأنه إذا حضر ربما كان الناس يراعونه ويبرئون ساحته مما رُمِي به، فكانت تبرئتهم له في غيبته أقوىٰ من قوله، وهو كلام نفيس.

وسمعنا سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله يقول: الحقُّ أن سكوت الإنسان إذا رُمي ببهتان وجوابه عن نفسه علىٰ حالين: فتارةً يكون الجواب أفضل إذا ترتب علىٰ السكوت مفسدة، وتارةً يكون السكوت أفضل، كما إذا لم يترتب عليه مفسدة، لاسيما إن كان في مقام الرياضة للنفس. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي مرَّ عليه أحد وهو يكلم امرأة في عطفة[3]، فقال للمارِّ: إنها ابنتي أو أختي أو أم زوجتي ونحوها من المحارم؛ فلاث

٦١هـ. «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٨٠) و«شذرات الذهب» (١/ ٢٧٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) العطفة: منعطف الطريق.

عيون الفقراء الصادقين وحضراتهم صباغة تُشقِي وتُسعِد بإذن الله تعالىٰ.

وقد خرج سيدي يوسف العجمي يومًا من الخلوة، فوقع بصره علىٰ كلب، فانقادت إليه كلاب مصر كلُّها حتىٰ إن مشىٰ مشوا، وإن وقف وقفوا، فضاقت عنهم أزقة مصر، فخرجوا إلىٰ الكيمان[1]، وصار الناس يعتقدون في ذلك الكلب، وبعضهم يقول: هذا من صالحي الجن! وصاروا يصنعون لهم الطعام، ويذبحون لهم البقر، فبلغ ذلك سيدي يوسف، فأرسل وراءه فحضر، فقال له: إخسأ؛ فأكلته الكلاب من ساعته، فقال: آه! لو أن تلك النظرة وقعت علىٰ آدمي، لكان صار إمامًا يُقتدَىٰ به! انتهىٰ.

ولُقِّب رسول الله ﷺ بـ«صبَّاغ» كما سمعتُ ذلك من الشيخ محمد الشربيني؛ لأنه يصبغ الأمة بنظرة [كما] في الخبر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩١) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير الذي يسافر أخوه الحجاز، ولا يلاقيه من نحو بركة الحجاج مثلًا، ولا يخرج معه للتوديع إلىٰ خارج البلد، فلاث به أخوه وجماعته وقالوا: ما هكذا الإخوان! بأنه ربما قصد بذلك عدم تكليف أخيه بمثل ذلك إذا سافر الآخر الحجاز شفقةً عليه، ومحبةً له، لا إخلالًا بحقِّه، وإن كان ذلك ليس بعذر ظاهر.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يودِّع المسافر من باب داره ويقول: لا يُطلَب الخروج للتوديع، لأنه لا بد من مفارقته والرجوع عنه، بخلاف الخروج للقاء. وكان يلاقي من قدم من الحجاز بالحلو والخبز اللين من عرف ومن لم يعرف، ويتلثم بحيثُ لا يعرفه أحد حتىٰ يكافئه علىٰ ذلك.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله لا يخرج لملاقاة المريد من سفره إن علم منه أنه يصير يتفاخر بذلك علىٰ المريدين ويقول: عدم ملاقاتنا له أنفع له وأكثر رياضة لنفسه. فاعلم ذلك يا أخي، واشكر الله تعالىٰ علىٰ عدم ملاقاة أحد لك أكثر من شكرك عند ملاقاتهم لك بالطعام والثياب وغير ذلك، فإنهم حملوا عنك المنة.

---

(١) الكيمان: جمع كوم، وهو كلُّ ما اجتمع وارتفع له رأسٌ من تراب أو رمل أو حجارة أو قمح أو نحو ذلك.

فإن قال قائل: فإذا لاقوه وأسقطوا المنة عنه في الدنيا والآخرة؟ قلنا: ذلك أعظم من المنة في حق من له مروءة، فتأمل، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٢) ومما أجبتُ به عن الفقير أو طالب العلم إذا أذن له شيخه في أخذ العهد أو التدريس في العلم، وصار يسابق إلىٰ أخذ العهد أو التدريس من هو أقدم منه هجرة؛ فلاث الناس به وقالوا: إن فلانًا يبادر للرئاسة، وما هكذا كان الفقراء وطلبة العلم إذا أذن لهم أشياخهم، بل كان بعضهم يجيزه شيخه بالفتوىٰ والتدريس وأخذ العهد، فلا يفعل ذلك حتىٰ يموت شيخه وجميع أقران شيخه، حتىٰ إن الرُّوياني[١] مكث نحو عشرين سنة من حين إجازة شيخه لم يفتِ حتىٰ مات شيخه، فسأله إنسان في مسألة وهم في الجنازة، فقال: اصبر حتىٰ نواري شيخنا التراب.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من يزاحم علىٰ التدريس وأخذ العهد علىٰ المريدين إذا كان أهلًا لذلك، فإن الله تعالىٰ مدح الذين يسارعون في الخيرات، والعلماءُ والمشايخُ كالتجار في السوق، فلهم مناغشة من يشتغل عليهم، كما يناغش التجار من يشتري منهم بطريقة الشرعي. ولأي شيء لا تحمل أنت العالم أو الشيخ علىٰ محبة الخير له ولطلبته بتلك المزاحمة والمسابقة دون حظ النفس؟! وتخلص أنت من الإثم، فإن الله لم يكلفنا أن نناقش الناس في سرائرهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا زوج ابنته مثلًا، واستعار لها ثيابًا مذهبة أو محررة[٢] بأجرة، فلاث الناس به وقالوا: بذل[٣] [المال][٤] في مثل هذا من

---

(١) القاضي العلامة فخر الإسلام شيخ الشافعية أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الروياني الطبري الشافعي. مولده: ٤١٥هـ. وتفقه ببخارىٰ مدة. وكان يقول: لو احترقت كتب الشافعي، لأمليتها من حفظي، وله مصنفات منها: «البحر» في المذهب، «حلية المؤمن»، «الكافي». قتله الإسماعيلية سنة: ٥٠١هـ. «السير» (١٩/ ٢٦٠)، «شذرات الذهب» (٦/ ٨).

(٢) أي مصنوعة من الحرير، أو تحتوي علىٰ خيوط الحرير.

(٣) بالأصلين: وزن. والصواب ما أثبتناه.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

باب السفه، لأنه إعانة على هوى النفس، وقد قال ﷺ: «المتشبع بما لم ينل كلابس ثوبي زور»(١)، فكيف يساعد ابنته مثلاً على ما تأثم به، ويبذل على ذلك مالاً؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب ذلك، لأنه من باب تنزل الرجل الكامل لعقول الأطفال، وبذل المال في الشخشاخة(٢) والزمارة التي يلتهون بها عن النكد على أمهم، وإن كان ترك الاستعارة أولى. ولم يزل السلف الصالح يستعيرون الحلي في الأعراس من غير نكير فيما بينهم، فالأدب التسليم للعالم والشيخ في مثل ذلك، لأنه في مقام الاجتهاد، وربما كانت له ضرورة في ذلك إن لم يفعله من غضب أم العروس عليه ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يستعمل بعض المريدين في العمل المرجوح، ويأمره بترك الأرجح، فلاث به الناس وقالوا: الشيخ من مرتبته أنه أمين على المريد، وليس له أن يستعمله إلا فيما كان أرقى له.

والجواب: أن هذا الاعتراض جواب عن الشيخ! فربما رأى أن ذلك الفعل المرجوح أرقى له لما رأى في الأرجح من الآفات، وذلك كمن رآه يزداد بالعلم كبرًا ونفسًا على الإخوان، فاستعمله في خدمة مطبخ الفقراء، أو كنس بيوت الخلاء ونحو ذلك. ولا يجوز حمل الشيخ على أنه ينهى أحدًا عن الأفضل بغير ضرورة، لأن ذلك غش، والأشياخ بعيدون عن أن يقعوا في غش أحد، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ العالم الكبير الذي يعلِّم العلم لمن لا يعمل به، ولاث به بعض الصوفية وقالوا له: كيف تضع العلم عند من لا يعمل به، فيكون زاده إلى النار؟ بأنه لا ينبغي الإنكار ولا اللوث بهذا العالم، فإن العلم نافعٌ على كلِّ حال، ولو لم ينفع صاحبه نفع غيره، وربما كان اللوث به دسيسة من إبليس قصد بها اضمحلال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الشخشاخة: الشخشيخة، وهي آلة موسيقية يلعب بها الأطفال.

الشريعة، فلما عجز عن العالم أن يطيعه في ترك التعليم، وسوس لبعض المتصوفة بذلك في حجة النصح، فاحذر يا أخي من ذلك، وعلِّم العلم لكل من طلبه من المسلمين، إحسانًا للظن بالطالب.

وقد كان سفيان بن عُيينَة يقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبىٰ أن يكون إلا لله، أي لأنه كله يدعو صاحبه إلىٰ الإخلاص، فيغلب عسكر الإخلاص علىٰ عسكر الرياء، ولو لم يكن من نفع العلم إلا أن يهدي صاحبه إلىٰ التوبة إذا وقع في ذنب، ويأمره بعدم الإصرار، لكان فيه كفاية في الحث علىٰ تعليمه وتعلمه. وقد تقدم عن سيدي عليٍّ الخواص أنه كان يقول: لا يُشترَط في تسمية العالم عاملًا بعلمه أن لا يقع في معصية أصلًا كما قد يتبادر إلىٰ الأذهان، وإنما المراد بكونه عاملًا بعلمه كونه لا يصر علىٰ ذنب إذا وقع فيه، فإذا تاب ولم يصر فهو عامل بعلمه معدود من العلماء العاملين. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يأكل في بيته الطعام الدسم من اللحم الضاني والدجاج السمان والماوردية بقطر النبات، ويعمل لطلبته أو تلامذته الطعام العدس القليل الدسم الذي لا يسمن صاحبه ولا يعطيه قوة، فلاث به بعض طلبة العلم والتلامذة وقالوا: هذا نقص في مقام العالم والشيخ، لأنه مأمور أن يطعم أهله مما يأكل من الطعام اللذيذ الدسم، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]**، حتىٰ كان عبد الله بن عمر يتصدق كثيرًا بالسكر ويقول: إني أحبه.**

والجواب: أن العالم أو الشيخ لا يجهل ما قلتَه أيها المعترض، ولكن ربما فعل ذلك رحمةً بطلبته وتلامذته، لعلمه بعجزهم عن القيام بشكره، لما هم عليه من الكسل، فقال في نفسه: أنا أحملُ عن طلبتي حساب ذلك الطعام اللذيذ يوم القيامة؛ فأكل اللذيذ بذلك القصد لا شحًّا في النفس، فإن ذلك بعيد عن العلماء والأشياخ، وربما كُشِفَ للشيخ أن ذلك الطعام اللذيذ هو الذي قسمه الله له، وذلك العدس القليل الدسم مثلًا هو الذي قسمه الله لتلامذته، فلم يعزم عليهم بشيء، لعلمه بأنهم لا رزق لهم فيه. ويقاس بذلك من يلبس الثياب الفاخرة، ويلبس إخوانه الثياب الخَلِقة، فمثل هذا لبس الثياب الفاخرة

علىٰ بصيرة [وألبس غيره الثياب الخَلِقة علىٰ بصيرة، وأطعم غيره رزقه علىٰ بصيرة][1]، فلا ينبغي الاعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا وقع الأعداء في عرضه وصار يقول: ردوا فلانًا عني، فإنه آذاني وشغلني عن الله عزَّ وجلَّ؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كيف يزعم هذا أنه من العارفين وهو لا يكتفي بعلم الله تعالىٰ فيه؟!

والجواب: أنه ربما كان لا يتأثر بكلام الناس فيه، ويقدر علىٰ تحمل أضعاف ذلك، ولكنه خاف من فتنة التحمل، وهي كثرة ثناء الناس عليه بكثرة تحمله الأذىٰ، وقولهم: شيء لله المدد! وهؤلاء هم الصالحون! فقصد بإظهاره الضجر سترته بين العباد وعدم تميزه عنهم.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: حكم الخلق إذا قاموا علىٰ العارف بالأذىٰ والتنقيص طلبًا لتأثره بذلك حكم ناموسة نفخت علىٰ جبل تريد إزالته عن مكانه بنفختها. فاعلم ذلك، واحمل أشياخ الطريق علىٰ أحسن المحامل، ولا تقس حالهم علىٰ حالك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يثني علىٰ أعدائه إذا آذوه، ولاث الناس به وقالوا: النفس تكره من يؤذيها بالطبع ولا تثني عليه إلا لعلة، وهذا الشيخ يعرف طرق الأذىٰ مليح[2]، والذي عندنا أنه إنما يثني علىٰ أعدائه طلبًا لنسبته للصلاح وقيام الجاه في قلوب الناس.

والجواب: أنه ربما كان بمعزل عما ظنه هؤلاء فيه، وإنما قصده بذلك كف الأعداء عن وقوعهم في الإثم رحمةً بهم، فإنهم إذا بلغهم كثرة ثنائه عليهم، استحيوا منه ضرورةً، وندموا علىٰ ما كانوا فعلوا به من الأذىٰ. ولا يجوز حمله علىٰ أنه يثني عليهم لحظ

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) كذا بالأصلين، وتركناها علىٰ ما هي عليه لاحتمال أنها محكية عن العامية.

نفس، فإن ذلك لا يجوز ظنه في الأشياخ، كما لا يجوز حمل عدوه على أنه قصد بتنقيصه احتقار الناس له بذلك، وإنما الواجب حمله على أنه قصد بذلك تحذيره مما لعله يقع فيه في المستقبل، ليفتح له باب الحذر منه، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩٩) ومما أجبتُ به عن العارف إذا جادله فقيه متصوف بغير علم، فسكت ولم يجبه، فلاث الفقراء به وقالوا: كان الواجب على العارف رد هذا المتصوف للصواب، بأنه ربما تفرَّس فيه عدم الرجوع، وأنه ليس بأهل للترقي، فاختصر الكلام معه رحمةً بنفسه وبذلك المتصوف.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم ومجادلة الفقيه الذي يدعي التصوف بمطالعته كتب الصوفية من غير شيخ، فإنه يتعبكم من غير فائدة، فإنكم إن بحثتُم معه في الشريعة عدل إلى الحقيقة وبالعكس، بخلاف الفقيه الجامد على ظاهر الشريعة ولا دعوى عنده. انتهى.

وقد كان أخي أفضل الدين إذا جادله فقيه في مسألة يقول له: قد رأيتُ كلامًا لبعض أهل الطريق وهو كذا وكذا مما فيه جوابه، فأيش تقولون فيه؟ فإن قال: كلام مليح، نقله له، وإن قال: هذا خارج عن الشريعة، كفَّ عن ذكره له، وشكره على قوله: هذا خارج عن الشريعة، أي عند ذلك الفقيه، ثم يقول له: الشريعة نور، ولولا علماؤها لكان الناس كالبهائم، فالحمد لله الذي مَنَّ على المسلمين بمثلكم في هذا الزمان. ويقول: يحتاج من يبحث مع المتصوف بالدعوى إلى سياسة تامة. انتهى، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: الحقيقة لا تخالف الشريعة؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال له: قد تخالفها، كما إذا حكم الحاكم ببينة زور، فإن في هذه الحالة يخالف الشريعة ما في نفس الأمر.

والجواب: أنه يُحمل كلام هذا الشيخ على الشريعة التي حكم الحاكم فيها ببينة عادلة لا بينة زور، لكن لا يخفى أن محل هذا الكلام ما إذا لم يتبين الزور، فإن تبين فما

ذلك الحكم بشريعة حتىٰ يقرن بها الحقيقة.

وأما قول الإمام أبي حنيفة ﷺ: «إن حكم الحاكم ينفذ ظاهرًا وباطنًا» يعني في الدنيا والآخرة، أي ولو كان بينة زور في نفس الأمر، فإنما قال ذلك إجلالًا لمنصب الشريعة وحكَّامها، وقد يمشِّي الله تعالىٰ ذلك للحاكم في الآخرة، كما يمشِّي شهادة الزور هناك لبعض الصالحين إذا شهدوا بالخير فيمن كان فاسقًا، كما ورد في الحديث أن رجلًا مات، فشهد الناس كلهم فيه بالسوء إلا أبا بكر، فإنه شهد فيه بالخير، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ: «[إن] الذين شهدوا فيه بالسوء لصادقون، ولكن الله أجاز شهادة أبي بكر تكرمة له»[1]، فمثل هذه الشهادة في معنىٰ الزور، لكن صاحبها غير آثم، لأنه ما شهد بالخير في أهل السوء إلا لحسن ظنه بهم، فما هو زور حقيقة، **وإذا صح كلام العالم علىٰ محمل حسن وجب المصير إليه.**

وأيضًا فإن الإمام أبا حنيفة من أعظم المجتهدين، فيعلم من أسرار الشريعة ما لا نعلم، فقولهم: «حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة» علىٰ قول هذا الإمام كفرض المحال، لعدم انفكاك الشريعة عن الحقيقة وعكسه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أسمع كلام ملك الإلهام، أو أرىٰ شخصه إذا جاء؛ فلاث به الناس وقالوا: سماع كلام الملَك إنما يكون للأنبياء، وكذلك رؤية شخصه.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لأن الممنوع إنما هي رؤية الولي للملَك حال إلقائه عليه أمرًا من الأمور، لأن ذلك من خصائص الرسالة والنبوة. وأما الولي فإن رأىٰ شخص الملَك لا يكلمه، وإن كلَّمه لا يرىٰ شخصه، **فلا يجمع بين رؤية شخص الملَك وسماع كلامه إلا نبي**، وذلك لأن الولي يدعو الناس إلىٰ شرع مقرر ثابت، فلا يحتاج إلىٰ مزيد تأييد؛ لأنه لو أتىٰ بشيء من طريق الإلهام يخالف ظاهر الشريعة، رددناه عليه، بخلاف النبي الذي أُرسِل، فإنه يحتاج إلىٰ مزيد تأييد، لكونه يريد ينسخ

---

(١) ذكره الإمام الشعراني في «لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية» وعزاه للإمام سُنيد في التفسير (٢/ ٢٢٦).

برسالته شرعًا مقررًا لمن قبله. وقد يخرق الله تعالىٰ العادة للولي، فيجمع بين رؤية الملك وسماع كلامه، وبه قال بعضهم، ولكن الجمهور علىٰ خلافه[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أسمع تسبيح الريح بصوت جهوري، وكذلك سائر الجمادات؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر ما سمعنا به.

والجواب: أن الله تعالىٰ قد يكشف لبعض أوليائه عن ذلك، وليس الممنوع إلا فهم كلام الجمادات، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فما بقي إلا الفهم لا السماع. وقد قدمنا عن الغزالي أن كلام الجماد أمر غريب[2]، لأنه ليس بعربي ولا عجمي، فراجعه قبل هذا المحل بنحو ثلاثة أوراق، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: لا يجامع أحدكم زوجته إلا بعد أن يستأذن الحقَّ جلَّ وعلا في ذلك، فيقول: دستور يا الله أجامع زوجتي؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: هذه بدعة! ولم يبلغنا عن أحد من السلف أنه فعل ذلك، بل اكتفوا في مثل ذلك بالإذن العام من الشارع ﷺ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في أمره أصحابه بهذا الأمر، وإن كان ذلك بدعة، فكم من بدعة حسنة. وقد قال العلماء: إن للمتوضيء أن ينوي عند كل عضو الوضوءَ وإن شملتها النيةُ الأولىٰ عند غسل الوجه. وهذا الأمر لا ينبغي التوقف فيه، لأنه مما تقبله الشريعة ولا تأباه.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: يتأكد علىٰ العبد إذا كان في عبادة غير واجبة وأراد الجماع بنية صالحة كإعفاف نفسه أو إعفاف زوجته أو طلب ولد صالح أن يقول: دستور يا الله أترك ما أنا فيه لأفعل كذا وكذا، بخلاف ما إذا ترك العبادة للجماع

(١) نقل الإمام في الجواب (١٧٨) الإجماع علىٰ عدم جواز الجمع بين رؤية الملك وسماع كلامه لغير نبي. وما قاله مشعر بالمخالفة لما نقله هناك.

(٢) انظر الجواب (٧٨٣).

بلا نية صالحة، بل لمجرد اللذة، فإنه لا ينبغي الاستئذان فيه، لأن ذلك مما فيه رائحة الذم والنهي من حيثُ إنه داخل في اتباع الشهوات.

وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: «يا داود، حذِّر وأنذر قومك أكل الشهوات، فإن قلوب أهل الشهوات عني محجوبة، وإن أهون ما أنا صانع بالعبد إذا آثر شهوته علىٰ طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي». انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا ينبغي استئذان الحق تعالىٰ إلا في فعل الأمور المحمودة. أما المذمومة فلا ينبغي استئذانه فيها، لأن الحق تعالىٰ لا ينهىٰ عن شيء علىٰ لسان رسول الله ﷺ، ولا قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[1] [إلا وقد منع الإذن فيها][2]. انتهىٰ.

وقد وقع لي أنني كنتُ في صلاة التهجد، فخطر في بالي الجماع، فقلتُ في نفسي: اقضي وطركِ منه، ليفرغ قلبك للصلاة من غير التفات بقلبك إلىٰ أمر آخر؛ فقطعتُ النافلة، أعني سلمتُ من ركعتين، وتركتُ بقية التهجد، وأتيتُ عيالي، فعوقبتُ بحرمان لذة المناجاة في جميع العبادات مدة أربعين يومًا. فاعلم ذلك يا أخي، **ولا تعترض علىٰ شيء فيه أدب مع الله تعالىٰ أبدًا وإن لم يرد، فإن الأدب تقبله الشرائع كلُّها ولا ترده.**

وقد تقدم نظير ما قلناه هنا من استئذان الحق تعالىٰ في مد الرجل بغير ضرورة، واستئذانه في كلام اللغو وإن كان ذلك مباحًا بنص الشرع، ومعاتبة إبراهيم بن أدهم حين مد رجله، وقول الهاتف له: يا إبراهيم ما هكذا مجالسة الملوك[3]. وقد بلغنا أنه كان يستأذن الحق تعالىٰ كلما أراد النوم ويقول: يا رب، دستور أنام بين يديك، فإن جسمي قد تعب، وأنت غني عن عبادتي، ولم أترك العبادة استهانةً بها، ثم ينام ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٤٢) وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر الجواب (٣٢٢).

(٨٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل في النظر علىٰ الأوقاف أو العالم الكبير، ولاث الناس به وقالوا: هذا لا ينبغي للعلماء وأهل الطريق أن يدخلوا فيه، لتحكيم الولاة في كل من يدخل في أمور الدنيا، والإرسال وراءه لعمل الحساب والتفتيش عليه، ومنصب العلماء والصالحين ينبغي صيانته عن مثل ذلك، بأنه قد يكون ممن أقدره الله تعالىٰ علىٰ تخليص دفع الوقف وصرفه إلىٰ أربابه من غير أن يأخذ لنفسه منه الدرهم الفرد، أو ممن أقدره الله تعالىٰ علىٰ إرشاد تلامذته وتسليكهم مع مطالبته بحقوقهم.

ويحمل قول من قال: «لا ينبغي للشيخ أن يجعل نفسه ناظرًا» علىٰ وقف زاويته، لأن المريدين يصيرون يطلبون الدنيا والآخرة من محل واحد، وذلك متعذر علىٰ الشيخ الذي ليس له حال ولا تصريف.

وقد أخبرني سيدي علي المرصفي رحمه الله بأنه لم يسكن في زاويته التي دُفِنَ فيها إلا بعد أن فتش فلم يجد لها وقفًا، وقال: كلُّ موضع كان فيه وقف علىٰ الفقراء لا ينبغي لشيخهم أن يسكن بهم فيه، لكونهم يقل نفعهم به من حيثُ طلبُهم منه الدنيا، والشيخ من شأنه منعهم منها ومن جميع شهواتهم، فربما رأىٰ أن ترك الفقير معلومه[1] أولىٰ، ورأىٰ الفقير أن أخذه أولىٰ، فيصير الفقير يحارب شيخه بباطنه أو بلسانه، ولذلك لم يقبل سيدي يوسف العجمي رضي الله عنه من الولاة ولا غيرهم وقفًا علىٰ زاويته، وأمرهم بسؤال الناس كلما جاعوا وقال: إنه أخف ضررًا من الاعتماد علىٰ المعلوم.

ومكث الشيخ شهاب الدين المرحومي[2] عند سيدي الشيخ مدين سبعة عشر سنة لم يأكل للشيخ طعامًا ولا شرب عنده ماء، وقال: لا أشرك في قصدي للشيخ غرضًا آخر

---

(١) المعلوم: الراتب المقرر صرفه من الوقف.

(٢) الشيخ شهاب الدين المرحومي رضي الله عنه أحد أصحاب سيدي مدين رضي الله عنه. وكان من أكابر الورعين. مكث رضي الله عنه عند سيدي مدين إلىٰ أن توفي سيدي مدين. لم يذق لزاويته طعامًا ولا شرب منها ماءً، وكان يقول: لا أشرك في محبة شيخي أمرًا آخر، فأقيم عنده لعلة من العلل. وكان يأكل ويشرب من السوق. لم يتيسر لنا الوقوف علىٰ وفاته انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٣٧٠).

من أغراض النفس. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ إذا دخل في نظر مسجد، وصار يحاسب الجباة وغيرهم، فإن الدنيا لا تضرُّ الأشياخ، وإنما تضر التلامذة، لميلهم إليها بالطبع، بخلاف الأشياخ، فإنهم خرجوا عن محبتها بالطبع إلىٰ محبتها بتحبيب الله تعالىٰ الدنيا لهم، لمصالح تعود عليهم وعلىٰ الناس في الدنيا والآخرة.

وكان الشيخ سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [طه: ١٧- ١٨] الآية كذلك يقال للولي من باب الإشارة لا التفسير: وما تلك بيمينك أيها الولي؟ فيقول: هي دنياي أنفق منها علىٰ نفسي وعيالي وإخواني، فيُقال له: ألقها، فيلقها فيراها حية تسعىٰ، فيُقال له حينئذٍ: خذها ولا تخف حيث علمت أنها حية، فكما ألقاها الولي أولًا بإذن، كذلك أخذها ثانيًا بإذن، وكلُّ شيء كان بإذن من الحق، فلا لوم علىٰ فاعله. فتأمل ذلك، واحمل العالم أو الشيخ إذ دخلا في أمور الدنيا علىٰ أن ذلك بالإذن، وأن للشيخ القدرة علىٰ أن يعطي الدنيا والآخرة لمريده من باب واحد، ولا يؤثر ذلك نقصًا في محبة المريد لشيخه، ولا يقطعه عن السلوك، ولا تدخل بين الناس ومقاصدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يعترف بأنه من أهل الطريق، وربما حلف أنه ليس من أهلها، ثم إنه يأخذ العهد علىٰ المريدين ويلقنهم الذكر ويربيهم، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا علامة علىٰ دعواه أنه من أهل الطريق، وإذا كان من أهل الطريق، فكيف ينكر ذلك ويحلف بالله عليه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار عليه، لاحتمال أن يريد أنه ليس من الصادقين المحققين فيها، وإنما هو من المتشبهين بأهلها. ولم يزل السلف الصالح علىٰ ذلك حتىٰ كان الفضيل بن عياض يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ منافق مُراءٍ فلينظر إليَّ. وكان مالك بن دينار يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ من أفعاله أفعال أهل النار فلينظر إليَّ. انتهىٰ.

وقد جاء شخص إلىٰ سيدي عبد الحليم بن مصلح وأنا جالس عنده، فقال: يا سيدي، أريد منك أن تتوبني عن الذنوب، فقال: يا أخي النجاسة لا تطهِّر غيرها. انتهىٰ.

وكان شيخنا الشيخ محمد الشناوي إذا لقَّن أحدًا يقول له: يا ولدي، لسنا من أهل الطريق، وإنما نحن متشبهون بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمشبهين، ست مرات، يعني من عهد الجنيد إلىٰ وقته، فاعلم ذلك يا أخي، وخذ عن الأشياخ ولو نفوا نفوسهم من الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من أحب الخير للناس كلهم فهو جاهل؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يكون طالب الخير للناس جاهلًا؟ وقد قال ﷺ: «لا يكمل إيمان عبد حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] يعني من الخير كما في رواية أخرىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فلعله يريد أن من طلب جعل الناس كلهم سعداء فهو جاهل، لأنه طلب تغيير القسمة الإلهية، فإنه تعالىٰ ما سبق في علمه إلا أن يكون الناس قسمين: شقي وسعيد، فالكامل من يطلب من الله تعالىٰ الحكمة في ذلك، وقد قال تعالىٰ لنبينا محمد ﷺ حين طلب أن يكون الناس كلهم مؤمنين: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما طلب رسول الله ﷺ أن يكون الناس كلهم مؤمنين من باب حضرة الإطلاق التي يفعل الحقُّ منها ما يشاء، وإلا فهو ﷺ يعلم أن الله تعالىٰ قد قسم العباد إلىٰ شقي وسعيد، أو أنه المخاطب والمراد به غيره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: للرحمة حدٌّ لا تتعداه، ولكن إذا غمر الله تعالىٰ عبدًا في الرحمة، صار يود للناس كلِّهم الجنة، ويتوارىٰ عنه أهل النار. فثم مقام رفيع ومقام أرفع، فالكامل من عثر علىٰ حكمة قسمة العباد إلىٰ شقي وسعيد، ورأىٰ

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

ذلك أكمل من جعلهم كلهم سعداء، فإن الله تعالىٰ أرحم بهم من والديهم كما ورد في الصحيح[1]، ومع ذلك فهو الذي يدخلهم النار. وهنا أسرار يذوقها أهل الله سوف تنكشف للناس في الآخرة لا تسطر في كتاب، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ يقول: ترك الدعوىٰ أقبح من الدعوىٰ، وترك الكبر أقبح من الكبر، والتوبة أقبح من ترك التوبة، والزهد في الدنيا أقبح من الرغبة فيها، وذكر أشياء كثيرة من نحو ذلك؛ فلاث به الناس وقالوا: في هذا مخالفة للشريعة، لأنه جعل ما مدحته الشريعة مذمومًا.

والجواب: أن مثل الأشياخ لا يجهل ما ذكر، وإنما أراد أن ذلك أقبح من حيثُ الأثرُ المرتِبُ علىٰ ذلك، فإن الناس يعظِّمون العالم أو الشيخ إذا ترك الدعوىٰ أكثرَ مما يعظِّمون المدعي، ويعظِّمون من ترك الكبر أكثر مما يعظِّمون المتكبر، ويعظِّمون من يقول: إنه مذنب كثير الخطأ لم تصح له توبة أكثر ممن يقول: أنا تائب من سائر الذنوب لا أعلم لي ذنبًا واحدًا، ويعظِّمون الزاهد في الدنيا أكثر مما يعظِّمون من أظهر الرغبة فيها وهكذا، فمراد الشيخ أن هذه الأمور وأشباهها أعظم آفات من أضدادها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: من شأن الكُمَّل أن يخافوا من ترك الدعوىٰ أكثر من الدعوىٰ، ومن الزهد في الدنيا أكثر من الرغبة فيها، ومن الطاعات أكثر من المعاصي، وذلك لأن آفات هذه الأمور خفية لا يكاد يدركها كلُّ أحد، وربما استلذت بها النفس، فلا يكاد صاحبها يقدر علىٰ إخراجها منها. مثال ذلك ما إذا سمع الشيخ الناس يقولون: فلان من أعظم مشايخ مصر الآن، ومع لك فلا نسمعه قط يدعي مشيخةً كما يقع من غيره، والناس غافلون عنه، فإنه ربما استلذ بذلك أكثر مما يستلذ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٩٩٩) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: «قدم علىٰ النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي قد تحلب ثديها تَسقِي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحةً ولدها في النار. قلنا: لا، وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها» ومسلم (٢٧٥٤).

بقولهم فلان يحب المشيخة. انتهىٰ.

ومن هنا كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: الهالك من القوم أكثر من الناجي، أي لدقة أسباب الهلاك التي في عباداتهم. وكان يقول: إن لم يخف العبد أن الله يعذبه علىٰ أحسن طاعاته فهو هالك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير في قوله: **علامة غش هؤلاء الصوفية كثرة أتباعهم؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كيف ذلك ورسول الله ﷺ أكثر الأنبياء تبعًا، وكذلك أكابر أمته، فقد بلغنا أنه كان في رواق أبي القاسم الجنيد ثمانون ألفًا، وفي رواق سيدي أحمد ابن الرفاعي خمسة عشر ألفًا من المريدين، وكان عند سيدي عبد القادر الجيلي ثلاثون ألفًا، وكان عند سيدي عمر[1] شيخ الشيخ دمرداش ثلاثون ألفًا.**

والجواب: أن مراد الشيخ والله أعلم بما قال إنما هو في حق من لا قدم له في الطريق من الفقراء المتمشيخين بأنفسهم ممن جلسوا للمشيخة من غير إذن من أشياخهم، فإن مثل هؤلاء لا يعرفون طرق السياسة التي يدخلون بها إلىٰ هداية الناس من طريق مخالفة نفوسهم، فيصير أحدهم يطيع المريد في هوىٰ نفسه، ويكتفي أحدهم بلبس الصوف وإرخاء العذبة ونحو ذلك من المراسم الظاهرة، فإن مثل هذا لو أمر الفقراء الذين حوله بما يخالف أهويتهم لفروا منه، ولم يبق معه إلا القليل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: أجمع أهل الطريق علىٰ أن من لم يكن عنده سياسة الملوك وحكمة الحكماء وعلم العلماء لا يصلح للطريق، وما يفسده أكثر مما يصلحه. وسمعتُه مرة يقول: كلُّ شيخ لم تضمحل جميع رعونات نفسه فهو لا يصلح للطريق، لأن مثل هذا إنما يطلب هداية الناس علىٰ يديه، ليصير له الرئاسة

---

(١) عمر الروشني، شيخ طريق العصابة الخلوتية علىٰ الإطلاق، قصد للأخذ عنه من جميع الآفاق. وأصله من توريز العجم، وبها نشأ واشتهر ذكره، وبعد صيته، ورحل إليه من مصر للأخذ عنه الشيخ دمرداش وغيره، وعمت بركته، وعظمت منزلته، وكثرت أتباعه جدًا، وكراماته كثيرة، ومناقبه شهيرة، مات في القرن التاسع. «الكواكب الدرية» (٣/ ٢١٨).

عليهم. قال: ومحك الصدق في ذلك أن لا يكون ميله إلىٰ من يتلمذ له أكثر من ميله إلىٰ تلامذة غيره، فمتىٰ رجح ميله إلىٰ تلميذه أكثر من تلميذ أحد من أقرانه فهو قائم في حظ نفسه لا في نصرة دين الله، وليس عنده من الصدق رائحة. وسمعتُه أيضًا يقول: متىٰ شهد الشيخ أنه أحسن حالًا من تلميذه، فقد خرج عن طريق القوم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي الشيخ أبا السعود الجارحي رحمه الله يقول: كلُّ أصحابي أحسن حالًا مني. فقالوا له: كيف؟ فقال: لأنهم يروني أعلىٰ مقامًا منهم، ويقبّلون يدي وأنا لا أفعل معهم ذلك. وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ربما يغش الفقير إخوانه ولا ينصحهم خوفًا أن يفروا عنه، وتقول له نفسه: إنما تفعل معهم ذلك جريًا علىٰ هدىٰ السلف الصالح من الرفق بالمريدين وعدم مطالبتهم بالمشي علىٰ قدم التلامذة الذين سبقوا، وذلك تلبيس من النفس والشيطان. فانصح يا أخي إخوانك وشدد، وهيهات أن يصل أحدهم إلىٰ مقام الكسالىٰ من التلامذة! وفي الحديث: «ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ»[1]، فإذا صح مع الشيخ واحد صادق كان أولىٰ من ألف لا قدم لهم في الطريق. وسمعته يقول: قد صارت القلوب متخرقة في هذا الزمان، وقل مدد الأشياخ حتىٰ لا يكاد يفيض عن[2] أحدهم مدد يأخذه غيره، ثم بتقدير أنه يفيض فلا يجد وعاء يضعه فيه من قلوب المريدين، وربما أعطىٰ الشيخ المريد مددًا، ثم خرج من عند شيخه، فسقط كله في الطريق، فلم يصل معه شيء منه إلىٰ بيته.

ورأيتُ شخصًا أتىٰ إليه وقال: يا سيدي، قد أذن لي شيخي أني أجلس لإرشاد الناس وجمع نظامهم علىٰ الخير. فقال له: يا ولدي، إن كنت تقدر تقطر جمال الحجاج[3] إذا رجعوا من مكة وأشرفوا علىٰ رؤية أوطانهم، فأنت تقدر علىٰ جمع نظام الناس اليوم

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢١٧٢١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٨٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٦٦٢)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٩١).

(٢) بالأصلين: علىٰ.

(٣) أي جعلهم يسيرون علىٰ هيئة قطار.

علىٰ الخير. وسمعتُه مرة أخرىٰ يقول: حكم من يريد جمع الناس اليوم علىٰ خير حكم الفقيه إذا فتح المكتب بعد آذان الظهر يوم الخميس ليقريء الأطفال، فإن أهلهم لو أكرهوهم علىٰ الجلوس في المكتب فما مع الفقيه إلا أجسامهم، وأما قلوبهم فلا يقدر علىٰ جمعها أبدًا، بل تنفلت من يده إلىٰ اللعب والبطالة. انتهىٰ.

وقد كان الشيخ نور الدين الحسني يلقن المريدين ويأخذ عليهم العهد، فسمع يومًا قائلًا يقول: يا قفة شيوخ بعثماني؛ فأخذته غيرة وترك التلقين من ذلك اليوم، وكان معه خشب الشيوخ التي يسرح النساء بها الكتان. فعُلِمَ مما قررناه صحة كلام هذا العالم الذي قال: من علامة غش الشيخ كثرة أتباعه، وأن الشيخ الصادق عزيز في كل زمان، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي نصحه إنسان أو دعا له بالتوبة، فصار يقول: ما دريتم ما جرىٰ لنا اليوم مع فلان؟! جاء لنا فنصحنا، فشكرنا فعله وأوهمناه أننا كنا محتاجين إلىٰ نصحه، خوفًا أن يخجل إذا قلنا له: إن مثلنا لا يحتاج إلىٰ نصحك ونحو ذلك من الألفاظ؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ من هذا الشيخ، بل هو محتاج إلىٰ من ينصحه ويدعو له بالتوبة، قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، فلم يجعل مؤمنًا يستغنىٰ عن التوبة.

والجواب: أنه قد يكون هذا الشيخ كُشِفَ له عن ذلك الأمر الذي نصحه ذلك الشخص لأجله أنه لم يقدره الله تعالىٰ عليه، بأن كان ممن ينظر في اللوح المحفوظ الذي هو الإمام المبين، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقد أدركتُ أنا من رجال هذا المقام سيدي عليًّا الخواص والشيخ عليًّا أبا خوذة والشيخ محمد الشربيني وجماعة، كان أحدهم إذا أخبر عن شيء من الأمور المستقبلة لا بد أن يقع الأمر كما قال.

وقد وقع لي أنني دخلتُ أنا وأخي أفضل الدين علىٰ شيخ، فدعا له أخي المذكور بأن الله تعالىٰ يتوب عليه ولا يخسف به الأرض، فتمعر وجهه ووجه أصحابه، وصار يقول:

قد جاءنا فلان ودعا لنا بالتوبة كأنه رآنا علىٰ ذنب. انتهىٰ. فأقسم عليَّ أخي المذكور بالله أنني لا أعود أزور مثل هذا، وقال: أين هذا من قول الحسن البصري: لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت له: صدقت لا تكفِّر عن يمينك؟! أو من قوله: كيف يرجو أحدنا النجاة من النار وجميع أعماله تجره إلىٰ النار؟! انتهىٰ، فاعلم ذلك، وعظِّم الصادقين، واستغفر للكذَّابين، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا كان جالسًا علىٰ سجادة أو مُضَرَّبة، فدخل عليه شخص من تلامذة أحد من أقرانه، وزاحمه علىٰ الجلوس علىٰ السجادة بحضرة الملأ من الناس، حتىٰ رماه علىٰ جنبه ولكمه وهدَّ عمامته، فتغير الشيخ لأجل ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا من علامات بقاء رعونات نفسه، ومن كان كذلك فلا يصلح أن يكون شيخًا، وقد كان الإمام عليٌّ بن أبي طالب ﷺ يقول: إن أردتَ أن تعرف كمال عقل شخص، فزاحمه علىٰ الجلوس علىٰ تكرمته وزحزحه عنها، واجلس أنت عليها، فإن تغير منه شعرة فهو ناقص العقل. انتهىٰ، أي وناقص العقل لا يصلح أن يكون داعيًا إلىٰ الله.

والجواب: بأنه لا يلزم من تغيره أن يكون ذلك من الكبر، فقد يكون إنما تكدَّر بسبب ذلك الذي زاحمه خوفًا عليه من مقت الحق تعالىٰ له بسوء أدبه، لا من جهة قلة أدبه معه، بقطع النظر عن الخوف عليه من المقت، فإن منصب الأشياخ يجل عن التكدر لحظوظ نفوسهم المذمومة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال للواعظ: إياك أن تبين للناس جميع أمور دينهم، فتخطيء طريق الشريعة؛ فلاث به بعض طلبة العلم فقال: كأن هذا الشيخ يأمر الواعظ بأن يغش الناس، وذلك جهل، فإن الشرع قد أمر العلماء بأن يبينوا للناس ما أُنزَل إليهم، ولا يعموا عليهم في شيء.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن الواعظ لا ينبغي له أن يكشف القناع في وعظه، حتىٰ يكاد أحدهم أن يقنط من رحمة الله، ولا يبقىٰ له رائحة عذر يعتذر به عند الله تعالىٰ، وفي

الحديث: «إن من البيان لسحرًا»[1]، قال الحسن البصري: ولا نرىٰ السحر إلا حرامًا. انتهىٰ.

ثم إن ذلك في آداب الشريعة لا في الواجبات والمحرَّمات، فإن هذه الأمور يجب عليه بيانها لكلِّ الناس، لعموم التكليف بها، بخلاف نحو الورع والزهد وقيام الليل ونحو ذلك. وعند أهل الطريق أن من التلبيس علىٰ المريدين ما هو محمود، وذلك أن يكتم عنه الأمور التي ليست من مقامه ولا يقدر علىٰ العمل بها إلىٰ أن يقدر علىٰ العمل بها، ويؤيده قوله ﷺ: «أُمرتُ أن أخاطب الناس علىٰ قدْر عقولهم»[2]. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا مدحه إنسان، فقال: نحن أقل من ذلك؛ فلاث به الفقراء وقالوا: كان سكوته عن قوله: «نحن أقل من ذلك» أولىٰ، لأنه من حظوظ النفس، فربما يفعل ذلك ليستجلب به التعظيم [لنفسه][3] لأن من شأنها الخيانة والكذب، فإن رأت غيرها في التواضع تواضعت، أو الكبر تكبرت.

والجواب: أن مثل العالم الكبير لا يجهل مثل ذلك، وإنما ينبغي حمله علىٰ أنه قال ذلك تواضعًا لربِّه عزَّ وجلَّ وحياءً منه، حيث قيَّض له من يمدحه، مع كونه ليس أهلًا لأن يمدحه الناس، وهو مع ذلك غافل عما الناس فيه من طلب الجاه بتواضعه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ؓ يقول: إذا مدحك الناس بأمر فانظر، فإن رأيتَ نفسك متلبسًا به فاحمد الله، وإلا فاستغفره، فربما يكون ذلك استدراجًا ومكرًا بك. وقد

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) وأبو داود (٥٠٠٧) وابن حبان (٥٧٩٥) والترمذي (٢٠٢٨).

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١٦١١) بنحوه، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤/ ٤٢٥)، قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: له شاهد من حديث مالك عن سعيد بن المسيب رفعه مرسلا: إنا معاشر الأنبياء أمرنا وذكره، بل عند البخاري في صحيحه عن علي موقوفا: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله، ونحوه ما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود، قال: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

كان الإمام أبو بكر والإمام عمر ﷺ إذا مدحهما أحد من الملأ يقولان: «اللهم اجعلنا خيرًا مما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون» وهذا أحسن من قول الإنسان: «نحن أقل من ذلك» لعدم لوث الإنسان بقائله، لأنه من فعل هذين الإمامين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: إن من طبع النفس التكبر، ولا تقول إذا مُدِحت: «نحن من أقل الناس» إلا إذا استشعرت أن الناس ينسبونها إلىٰ الفرح بالمدح، وذلك نقص لها، فتريد بقولها: «نحن من أقل الناس» أن تدفع عن نفسها ما ظنه الناس فيها من محبتها المدح.

ومن كلام الجنيد ﷺ: لا تصلح هذه الطريق إلا لأقوام كنسوا بأرواحهم المزابل، أي لما هم عليه من الذل ورؤية النقص، حتىٰ لو أراد الأعداء أن ينزلوه[1] عما يشهده في نفسه من الذل لا يقدرون. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، وارْفَعْ مقامهم عن مقام العامة، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: لا تأمر بمعروف ولا تنه عن منكر حتىٰ آذن لك؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، والواجبات لا تتوقف علىٰ إذن من الشيخ.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يريد بذلك: أنك لا تأمر بمعروف ولا تنهَ عن منكر حتىٰ أعلِّمك طريق السياسة، ثم آذن لك، خوفًا علىٰ ذلك المريد أن يأمر وينهىٰ بقلة سياسة مع حظِّ نفس، فيحصل له ضرر لا يطيقه، ويصير يقول: أنا الظالم الذي أمرتُ أو نهيتُ؛ فيجعل الواجب مكروهًا من قلة سياسته. وقد قالوا: من شرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُعطَىٰ العبدُ كمالَ السياسة، بحيث يمهِّد للعاصي بساطًا يشهده فيه ما أعدَّه الله تعالىٰ له من الخير في الدنيا والآخرة إن فعل ذلك المأمور، وما أعد الله له من الخزي والعذاب إن فعل ذلك المنهي، حتىٰ يصير ذلك العاصي هو المبادر لفعل الخير وترك الشرِّ، لما رأىٰ لنفسه في ذلك من الحظِّ والمصلحة.

---

(١) في «ب»: يتركوه.

وكان سيدي عليٌّ المرصفيُّ يقول: ينبغي لمن يأمر بمعروف أو ينهىٰ عن منكر أن يشهد أولًا من ناصية ذلك العبد بيده، ليصير يأمره وينهاه برحمة، فيكون له عينان: عين ينظر بها إلىٰ تقدير الله الذي لا مردَّ له، وعين ينظر بها إلىٰ كسب العبد ومخالفته الشريعة. وقد رأىٰ سيدي عبد القادر الجيلي سكرانًا يتمايل، فنظر إليه نظرة غضب، فقال: يا عبد القادر! قادر أن يجعلك مثلي! فطأطأ رأسه واستغفر من مبادرته إلىٰ الإنكار قبل شهود من ناصيته بيده.

وقد كان سيدي الشيخ إبراهيمُ المتبوليُّ ﷺ يقول: تغيير المنكر باللسان للعلماء العاملين، وتغييره باليد للولاة ومن والاهم ممن يقدر علىٰ إزالة ذلك المنكر، ولا يقدر علىٰ مقابلته بالأذىٰ أحدٌ، وتغييره بالقلب لأرباب الأحوال من الأولياء، فيتوجه أحدهم بقلبه إلىٰ الله تعالىٰ، فيمتنع الظالم عن ظلمه، والعاصي عن عصيانه، وتنفلق جرَّة الخمر بنفسها، فيذهب ما فيها من الخمر علىٰ الأرض. فقيل له: قد قال رسول الله ﷺ في هذا القسم «وذلك أضعف الإيمان»[1] وظاهره الذم للذي يغيِّر المنكر بقلبه، لإيثاره نفسه علىٰ مرضاة الله، فكان الأولىٰ أن يغير المنكر بيده أو لسانه ولو ضُرِبَ. فقال ﷺ: لضعف الإيمان معنيان: أحدهما مذموم، والآخر محمود، فأما المذموم فهو من يقول بقلبه: اللهم هذا منكر لا أرضاه، مع استشعاره من نفسه القدرة علىٰ إزالته باليد أو اللسان. وقوله: «فإن لم يستطع» أي عند نفسه بحسب ما يتخيله منها. وأما المحمود وهو أن يرق حجاب إيمانه، ويقوىٰ شهوده، لكونه في حضرة الحق التي هي مقام الإحسان، فارتقىٰ إلىٰ ما هو أعلىٰ من مقام الإيمان، ولذلك صح توجهه في إزالة المنكر، وانفعلت عن همته الأمور بإذن الله. قال: فهذا هو مراد الشارع بتغيير المنكر بالقلب. وأما قولهم: إن تغييره بالقلب هو قول العبد: «اللهم هذا منكر لا أرضاه» فليس فيه تغيير، بل المنكر باقٍ علىٰ حاله لم يزل. انتهىٰ، وهو كلام ما سمعتُه من غيره، فليُتأمَل، والله أعلم.

(٨١٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يفرح وينشرح إذا انتفع الناس علىٰ يديه، ويحزن إذا انتفعوا علىٰ يد غيره، حتىٰ يظهر الحزن علىٰ وجهه، فلاث به بعضُ الحذَّاق وقالوا:

---

(١) تقدم تخريجه.

هذا من علامة الرياء وحب الرئاسة، ولو كان هذا مخلصًا لفرح برجوع الناس إلىٰ ربهم من غير واسطة أو بواسطة غيره أكثر، لأن مقصوده محض الهداية للناس بأي طريق كانت.

والجواب: أنه لا يلزم من حزنه بهداية الناس علىٰ يد أحد من أقرانه الرياء وحب الرئاسة، فقد يكون حزنه علىٰ فوات ذلك الأجر الحاصل بهداية ذلك الرجل، لا علىٰ فوات الرئاسة.

فإن قال قائل: فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يكمل إيمان عبد حتىٰ يحبَّ لأخيه المؤمن ما يحبُّ لنفسه من الخير»[1]، فكان الأولىٰ بهذا أن يفرح بهداية الناس علىٰ يد أخيه، كما يفرح إذا وقعت الهداية علىٰ يديه هو؛ **فالجواب**: أنه لا يلزم من إظهار الحزن أن يكون ذلك من حيثُ كونُ ذلك الرجل فاز بالثواب، فقد يكون من الفرحِين لأخيه بذلك، وإنما يحزن علىٰ فوات حظِّه من الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: علامة المخلص في إرشاد الناس أن لا يتجسس علىٰ زلَّات الناس لينصحهم، بل يتكدر من اطلاعه علىٰ زلاتهم، ويودُّ أنهم لو رجعوا من ذات نفوسهم إلىٰ ربهم ولم يطَّلِع لهم علىٰ زلة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نصحه إنسان بين المعتقدين له ووبخه، فتكدَّر لذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: كيف يدعي هذا أنه من الصالحين وهو يتكدر ممن ينصحه؟! وكان الواجب عليه أن يشكره إيثارًا لجناب الحق علىٰ جناب نفسه وناموسها، فإن من يدعي محبة الله يغار علىٰ انتهاك محارمه ولو من نفسه، ويحب توبيخها بين الناس، ولكن أين الصادقون؟!

والجواب: أنه لا يلزم من تكديره عند النصح أن يكون من النصح، فقد يكون من تذكر أمر آخر ورد عليه من عدو أو حاسد، أو من وقوعه في تلك الزلة التي نصحه لأجلها، فربما كان نسيها، فذكره هذا الناصح بها، فندم عليها وتكدَّر من وقوعه فيها. هذا اعتقادنا في أشياخنا.

---

(١) تقدم تخريجه.

وأما اعتقادهم في نفوسهم الصلاح والإخلاص، فلا ينبغي لهم تسليم ذلك للنفس، بل لهم امتحانها، فإن رأوها تحب من ينصحها ويوبخها أكثر ممن يجيب عنها، وجب عليهم الشكر لله. وإن رأوها تكره من ينصحها ويوبخها، وجب عليهم التوبة وتكذيب نفوسهم في ادعائها الصلاح، فاعلم ذلك أيها الأخ، واحمل العلماء على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا تصدَّر لإزالة المنكرات في زمانه، وأكرمه الناس وعظَّموه لقيامه بالعدل والمعروف، فلاث به بعض المتصوفة وحملوه على الرياء ومحبة الشهرة بالخير، وقالوا له: مالك ولهذه الأمور في هذا الزمان؟! سلِّم الأمر إلى الله فهو أولى، بأنه لا ينبغي للمتصوفين مناقشة العالم، لأن ذلك يكسر قلبه، وإنما الواجب عليهم شكرانه ومدحه وشدُّ عضده، ولا يجوز حمله على الرياء ومحبته الصيت. وقولهم له: «سلِّم الأمر إلى الله فهو أولى» جهل عظيم بالشرع، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينافي التسليم لله، فالعبد يسلِّم الأمر إلى الله من حيثُ التقديرُ، وينازع من فعل المنكر من حيثُ كسبُه للسيئات.

وقد تقدَّم عن سيدي عبد القادر الجيليِّ أنه كان يقول: ليس الرجل من إذا ذُكر عنده القدَر سلَّم، وإنما الرجل من ينازع أقدار الحقِّ بالحقِّ للحقِّ، فالرجل هو المنازع للقدَر لا المسلِّم له. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: علم العبد بأن ما وقع فيه العاصي كان بقضاء وقدَر سابق لا يسقط وجوب النهي عن المنكر، فقد جاهدت الأنبياء في الكفار وضربوهم بالسيوف، وهي أكثر الخلق تسليمًا لله بإجماع. انتهى. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ليس غير الله شيء أبدًا؛ فلاث به العلماء وقالوا: هذا الإطلاق حرام، فأين العالم العلوي والسفلي؟

والجواب: أن ذلك من باب قوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خـلا الله باطل»(١)

أي الحق هو من كان وجوده بنفسه، وأما القائم بقدرة غيره فهو كالباطل، وإن كان موجودًا من حيثُ قيامُه بغيره وفناؤه، وليس مراده أنه باطل من كل وجه، لأجل قيامه بما كُلِفَ به، وتوجه الأحكام عليه وله وبه، وتُسمَّىٰ هذه الحضرة «حضرة بدو الحقيقة وتلاشي غيرها» ولكن الكامل من يشهد الخلق مع الحقِّ معًا في آن واحد لا علىٰ التتالي والتتابع [بل علىٰ](٢) البدلية ،لا يحجبه الخلق عن الحق وعكسه. وقول الإمام الجنيد: «من شهد الخلق لم ير الحق، ومن شهد الحق لم ير الخلق» فهو في حقِّ أهل البدايات.

وتقدم في الجواب عن السيد هارون في الباب الثاني(٣) من هذا الكتاب أن مراد القوم بقولهم: «نستغفر الله من شهودنا غير الله» أي من شهودنا له حال حجابنا عن خالقه، وليس مرادهم نفي الغير في نفس الأمر، لأن الحس يكذِّبهم، وإنما المراد أن العبد إذا غلب عليه شهود الحقِّ تعالىٰ، حُجِبَ عن شهود الخلق مادام مبتدئًا في الطريق، كصاحب المصيبة الذي مات له ولد، وصار الناس يعزونه وصاحبه الأكيد جالس عنده لا يراه. ثم إنه يقول: فلان ما رأيناه اليوم! فيقول له الناس: إنه جالس هنا من بكرة النهار! فيقول: والله من الهم ما رأيتُه! فعُلِمَ أنه لا يلزم من قول العبد: «أستغفر الله مما سوىٰ الله» أنه يقول بنفي السوىٰ مطلقًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إذا رجوتم الله تعالىٰ فارجوه من غير ترجيح للمغفرة أو العطاء مثلًا علىٰ المؤاخذة والمنع؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: من

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٧) ومسلم (٢٢٥٦) وغيرهما.

(٢) بالأصلين: إذ. وما أثبتناه الأنسب للسياق.

(٣) بالأصلين: الثالث. والجواب عن السيد هارون ﷺ برقم (٤٣) وليس فيه جواب عن قول السادة: «نستغفر الله من شهودنا غير الله» بل الجواب عن ملاحظة السيد هارون ﷺ شماتة الأعداء. أما الجواب عن قولهم: «أستغفر الله مما سوىٰ الله» فهو الجواب رقم (٧٤٧).

شرط الراجي ترجيح ظنه المغفرة علىٰ المؤاخذة، والعطاء علىٰ المنع، فكيف الخلاص؟

والجواب: أن الخلاص أن يسأل العبد ربه ويرجوه عبودية لا ترجيح فيها للعطاء علىٰ المنع، لأن هذا هو رجاء العارفين، لأنهم يهربون من التحجير علىٰ الحقِّ جلَّ وعلا أن يفعل بهم كذا دون كذا، بخلاف العامة، فإنه لا لوم عليهم في ذلك، لعدم ذوقهم لمقام الأدب الكامل مع الله تعالىٰ، حتىٰ إن بعضهم كان يقول: لولا أن الله تعالىٰ يحبُّ العفو عن عباده ما أحببته عني، بل كان تعذيبه لي أولىٰ عندي. انتهىٰ، وهو كلام غوره بعيد.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: لما قربتُ من مقام الأدب مع الله تعالىٰ، مكثتُ ستة أشهر لا أتجرأ أن أسأل الله تعالىٰ حاجةً، فنوديتُ في سرِّي: يا عليُّ، اسأل ربَّك عبودية لا ترجيح فيها للعطاء علىٰ المنع، ولا للرجاء علىٰ المؤاخذة. قالوا: وليس من الترجيح المذموم ترجيح الطاعات علىٰ المعاصي، ولا ترجيح الفعل الذي كُلِفَ به علىٰ الترك، فإن ذلك من شأن المكلَّف، ولولا الترجيح والاختيار لتفسخت عزائمه، ولم يقع منه ما كُلِّف به، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أهون مقام يطلبه العبد من ربه محبته تعالىٰ له؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يكون ذلك أهون مقام وهو موقوف علىٰ اتباع النبي ﷺ في سائر أقواله وأفعاله وأخلاقه؟ وذلك أعزُّ من الكبريت الأحمر.

والجواب: أنه قد يريد بأنه أهون من حيثُ كونُه معلَّقًا في حديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله»[1] علىٰ الزهد في الدنيا، وهيٰ لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فمراده أهون من حيثُ ما جعله الحقُّ تعالىٰ ثمنًا لمحبته تعالىٰ، فإن محبته لا تُقابَل بالأعراض الدنيوية والأخروية، وقد علَّق الشارع محبته في هذا الحديث علىٰ ترك العبد ما هو أقلُّ من جناح بعوضة، وذلك غاية الكرم واللطف والجود.

وتقدَّم في هذا الكتاب في هذا الجواب عن السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٧٨٧٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٤٣).

الباب الثاني[1] أن المراد بالزهد في الدنيا حيثُ أُطلِقَ هو الزهد في الميل للمال الذي يشغل العبد عن ربه، لا الزهد في إمساكه كما قد يتوهمه بعضهم، ولو كان ذلك هو مراد الشارع ما أذن في التجارة لأحد، وأن الزاهد لا يصح زهده فيما قسمه الله تعالىٰ له أبدًا، فلابد من تناوله، وما زهد الزاهدين وتورَّع المتورعون إلا فيما لم يُقسَم لهم مما كانوا يتوهمون أنه لهم، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب علىٰ العبد الإيمان بأن أفعال العباد خلق لله تعالىٰ في حال إضافتها إليهم معًا في آن واحد؛ فنازعه بعضهم وقال: هذا إيمان بطريقين متناقضتين، وذلك من أصعب الأمور!

والجواب: أنه لا تناقض، لأن المؤمن الكامل يُكنىٰ «أبا العيون» فعين ينظر بها إلىٰ كون الفعل لله وحده، وعين ينظر بها إلىٰ كون الفعل للعبد، لتُقام عليه الحدود أو له، ويخرج عما كُلِّف. وقد ذكرنا في كتاب «العقائد» أن مسألة خلق الأفعال مما لم يخلِّص العقل ولا الكشف ولا الشرع إشكالها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان ممن مقته الله تعالىٰ، فلان ممن أحبه الله؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا لا يُعلَم إلا بوحي، والوحي قد انقطع، والفراسة لا تكفي في الإخبار عن الله تعالىٰ، فقد يخطئ.

والجواب: أن الفقراء يعرفون المقت بعلامات:

منها أن يكون الإنسان يحب الدنيا أكثر من الآخرة، فيفوته صلاة الجماعة، أو مجلس العلم أو الذكر، فلا يتأثر علىٰ ذلك، بل يضحك ويأكل ويشرب ويجامع، ويفوته دينار فيحزن عليه أكثر، وإذا عُزِلَ من وظيفة دنيوية لا يأكل ذلك النهار ولا يشرب ولا يجامع. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص والشيخ محمد بن عنان يقولان: يعرف المقت في الفقراء بإدبارهم عن الله، وإقبالهم علىٰ الدنيا، فيخف عليه سهر ليلة كاملة في تحصيل

(١) بالأصلين: الثالث. والصواب ما أثبتناه. والجواب المشار إليه رقم (٤٦).

الدنيا، ويثقل عليه سهرها في تحصيل الآخرة، ويأتيه النعاس من سائر الجوانب. انتهىٰ. وقد مقت سبعة من جماعتي، فصاروا أبدانًا بلا أرواح بمحبتهم للدنيا، نسأل الله العافية.

ومنها أن يكون الإنسان معجبًا بنفسه يستحسن عبادته علىٰ عبادة غيره، وعمامته علىٰ عمامة غيره، فلو أن إنسانًا ألبسه عمامته لا يرضىٰ بها، بل ينقضها ويلفها ثانيًا علىٰ مصطلحه هو.

ومنها أن يكون يقع في أعراض الناس من أقرانه وغيرهم. وقد كان مالك بن دينار والفضيل بن عياض وسفيان الثوري وغيرهم يقولون: ثلاثة أشياء أهلها ممقوتون لا تنزل عليهم الرحمة: محب الدنيا، والمعجب بأحواله، والواقع في أعراض الناس. انتهىٰ. فاعلم ذلك واحمل كلام هذا الشيخ علىٰ أنه عرف المقت للناس بوقوع أحدهم في خصلة من هذه الخصال.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: المقت يعظم ويصغر بحسب الذنب الذي مقت العبد بسببه، فأعلىٰ الخلق مقتًا الكافر، ثم صاحب الكبيرة، ثم صاحب الصغيرة، ثم صاحب المكروه، فلكلِّ ذنب مقت يخصه ويناسبه. انتهىٰ. فاعلم ذلك فإنه نفيس.

فمن أراد يعرف من نفسه المقت فلينظر فيها، فإن وجد فيها خصلة من هذه الخصال الثلاث، فليحكم بأنه ممقوت، ومن لم يكشف له مقته في الدنيا، فسوف يمقت نفسه بين يدي الله حيثُ ينكشف له الحجاب، قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] أي إذا كُشف الحجاب يمقت العبد نفسه ويوبخها [بين يدي الله عز وجل، لا أن الله تعالىٰ هو الذي يوبِّخه] كما قد يتبادر إلىٰ الذهن، ولا فرق في كشف الحجاب بين وقوعه في الدنيا والآخرة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: ما بقي الآن يجب علىٰ أحد نهي عن منكر، لأن النبي ﷺ قال لبعض أصحابه: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر، حتىٰ إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوىٰ متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة

نفسك، ودع عنك أمر العامة»[1]، وقد وُجِدَت هذه العلامات؛ فلاث به عالم آخر وقال له: قد قال رسول الله ﷺ: «الجهاد ماضٍ في أمتي إلىٰ يوم القيامة لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل»[2] وهو يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه من فروع الجهاد الأكبر.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ العالم الأول، ويُحمل قوله: «وقد وُجِدَت هذه العلامات» أي شرعت في ظهورها في الناس، ويُحمَل كلام النبوة علىٰ حصول كمال الشح، وكمال الهوىٰ المتبع، وكمال الإعجاب، وكمال الإقبال علىٰ الدنيا، وذلك لم يحصل إلىٰ الآن، بل غالب الناس يحب الآخرة، ويعرف نقصه إذا اتبع هواه أو أعجب بنفسه، فلا تنافي بين كلام العارفين.

وقول العالم الأول: «ما بقي الآن يجب علىٰ أحد نهي عن منكر» أي علىٰ وجه التشديد، كما كان في زمن الصحابة والتابعين، لكثرة وقوع علامات الساعة من أهل هذا الزمان من الظلم والجور وترك الصلاة ومنع الزكاة وغير ذلك. وقد كان سفيان الثوريُّ يخرج يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ثم ترك ذلك، فقيل له في ذلك، فقال: كلما رأينا قناة انفتحت في الإسلام، فأردنا سدها، فانفتح لنا أبحر فعجزنا؛ مع أن أهل ذلك العصر كانوا يحملون التشديد من الآمر والناهي لكثرة إيمانهم بخلاف أهل هذا الزمان، فلا تكاد تأمر أحدًا بمعروف بلسانك إلا وآذاك بالفعل في مقابلة ذلك، وربما سعىٰ في قتلك، أو إخراجك من وطنك، وعزلك من وظيفتك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رأىٰ شخصًا يدعو لمريض أو لمكروب مات له ميت، أو عُزِل من وظيفة، فنهاه عن ذلك، فلاث به فقيه وقال: الدعاء للمريض والمكروب مشروع من نفسه وغيره.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان من أهل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) وابن حبان (٣٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٣٢) ولفظه: «والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلىٰ أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار» والبيهقي (١٨٤٨٠) وعبد الرزاق (٩٦١١) وأبو يعلىٰ (٤٣١٢).

الكشف، فكُشِفَ له عن سبب ذلك المرض، أو ذلك العزل من تلك الوظيفة، فإنه إما عقوبة له، أو كفارة، أو رفع درجات، وكلٌّ [من][1] هذه الثلاثة يحتاج الداعي إلىٰ معرفته، فإن كان عقوبةً فلا ينبغي سؤال رفعه إلا إذا أشرفت العقوبة علىٰ الفراغ، وأما قبله فلا فائدة للدعاء، وإن كان كفارةً أو رفعَ درجات، فلا ينبغي سؤال رفعه كذلك.

فإن قال قائل: إنه يُستحَب الدعاء مطلقًا كما ورد؛ **فالجواب**: أن ما قلناه لا ينافي ما ورد، لأن ما ورد إنما هو في حقِّ من لا يعرف سبب المرض هل هو عقوبة أو كفارة أو رفع درجات، وما قلناه في حقِّ من أطلعه الله تعالىٰ علىٰ سبب المرض، **وفرقٌ بين عبادة آحاد الناس وبين عبادة أهل الكشف من العارفين.**

وأما الدعاء بعود الوظيفة والنعمة لمن عُزِلَ وافتقر من الولاة وأعوانهم، فكذلك لا يكون إلا بعد معرفة سببه في حقِّ العارف، فإن كان عقوبةً صبر حتىٰ تبلغ العقوبةُ حدَّها فيه، ثم يدعو له بعد ذلك بعود النعمة عليه علىٰ حسب طول العقوبة وقصرها، فإن من كان مدمن خمر أو زنا أو تعاون في الناس تطول مدته، بخلاف غير المدمن، وإن لطف به الحقُّ تعالىٰ، أدام عليه زوال النعمة بقدْر المدة التي كان يعصي ربه فيها من سنين أو سنة، فلينتبه الفقير الساذج لما ذكرناه، ولا يتوجه في ردِّ نعمة أحد ممن أزال الله تعالىٰ عنه النعمة من الظلمة والعصاة إلا بعد أمره بالتوبة النصوح، وبعد إشرافه علىٰ انتهاء العقوبة فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان يُعزَل، فلان يموت، فلان يأتي في الوقت الفلانيِّ؛ فلا يقع شيء من ذلك في الوقت الذي عيَّنه، فلاث به الناس وقالوا: هذا كذَّاب! وأيش قام عليه بالمكاشفة؟!

والجواب: أنه لا يلزمُ من عدم وقوع ما ذكر في الوقت الذي عيَّنه كذبُه، فقد يكون مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، وهي ألواح المحو والإثبات، فهو ينظر فيها ويتكلم، ثم يمحو الله تعالىٰ ما رآه ويثبت غيره، ولم يتفق لهم أن يسألوه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

بعد أن مُحِي ذلك الأمر وأُثبِت غيره، فظنوا أنه كاذب وليس كذلك، فلو أنهم سألوه بعد أن أخبرهم ثانيًا وعيَّن ذلك الوقت الذي كان عيَّنه، لقال لهم: إن الأمر قد مُحِي وأُثبت غيره من الولاية أو الحياة أو عدم الإتيان لذلك الغائب، لكنهم لم يسألوه.

وكان مطمح بصر سيدي عليّ الخواص اللوح المحفوظ -أعني عن المحوّ- فكان إذا أخبر عن شيء لا بد من وقوعه كما ذكر، وكان يقول: من لم يكن مطمح بصره اللوح المحفوظ، فلا ينبغي له الإخبار بشيء، لئلا يبادر الناس إلىٰ الإنكار عليه. وسمعتُه يقول كثيرًا: من لم يكن له كشف ولا كرامة، فلا ينبغي له أن يصحب أحدًا من الولاة، لأنهم ربما سألوه عن مدة ولايتهم أو عزلهم مثلًا، فلم يعرف، فسقط من أعينهم، إذ الكرامة للولي كالمعجزة للنبي. انتهىٰ.

وقد صحبني جماعة من الأمراء، فكان أحدهم يسألني عن أحوال السلطان في اصطنبول[1]، وعن حوائجهم التي أرسلوا يسألون الوزراء عنها هل تُقضَىٰ أم لا؟ وعن القصَّاد هل يصلون سالمين أم لا؟ فكنتُ أسكتُ ولا أردُّ لهم جوابًا، فانقطعوا عن التردد إليَّ، وصرتُ إذا رأوني كأنهم لم يعرفوني، بعد أن كان أحدهم يقبِّل رجلي علىٰ ظنٍّ أني من الأولياء، فيا فضيحتنا يوم القيامة حين تبدو السرائر! والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول عن المكَّاسين: إنهم أزهد في الدنيا من هؤلاء المشايخ الذين ظهروا في هذا الزمان؛ فلاث به بعض الحاضرين وقالوا: هذا شطح عظيم! وفيه إزراء بالأولياء.

والجواب: أنه ربما كان صادقًا، فكثيرًا ما رأينا بعض المشايخ يفطر عند المكَّاسين والظلمة في رمضان، ويقبل هداياهم، فيأخذها لنفسه ويأكل منها ويلبس. ومعلوم أن الظالم لم يعطِ فقيرًا شيئًا إلا بعد زهده فيه، ولو أنه كان راغبًا فيه لما أعطىٰ الفقير شيئًا، فعُلِمَ أن من أخذ من الظالم ما زهد فيه الظالم فهو أقلُّ زهدًا وورعًا منه بيقين، وصدق هذا العالم، وكيف يليق بسيدي الشيخ أن يرغب فيما يزهد فيه الظلمة، مع عمامته الصوف

(١) إستانبول، وقد تركناها علىٰ نفس رسمها في الأصلين.

وإرخائه العذبة وتصدره لأخذ العهد على المريدين؟! هذا من أعجب العجاب! وقد صحَّ قولُ من قال: لا ينبغي لأحد أن ينكر [على][1] من رآه يتمنى الموت في هذا الزمان. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إذا عزم أحد على معصية، فليغلق بابه عليه؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال له: هلا قال له: إياك أن تغلق بابك، لتخرج عن النفاق، أو لا تعصِ ربَّك مطلقًا، فإنه كان أولى.

والجواب: أن ذلك من باب ظلم دون ظلم، فإن ستر العاصي نفسه عن الناس حال معصيته أولى من تعاطيه أسباب الهتيكة، وفي الحديث: «إذا بليتم- يعني بمعصية- فاستتروا»[2]. انتهى، فإن المجاهرة بالمعاصي معصية زائدة على نفس المعصية التي فعلها.

فإن قال قائل: إن غلقه الباب عليه معصية كبرى من حيثُ إنه خاف من رؤية الخلق، واستهان برؤية الله تعالى له، وذلك أشدُّ من نفس المعصية؛ فالجواب: أنه لا يلزم من غلقه بابه عليه استهانة برؤية الله تعالى له، لأنه لا يقع في معصية وهو يرى أن الحق تعالى يراه أبدًا، لا بد من غفلة أو سهو أو نسيان، والاستهانة لا تكون إلا مع علمه بأن الله يراه، وذلك غير واقع.

وقد سُئل سفيان الثوري عمن يغلق بابه ويعصي ربه: هل ذلك لاستهانة بالحق تعالى؟ فقال: لا، إنما أغلق بابه خوفًا من اطلاع الخلق عليه، فيهتكوا سريرته. وأما الحقُّ تعالى فالعاصي يعلم أن من شأنه تعالى أنه لا يهتك عباده غالبًا، وإن وقع أنه تعالى

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) قال: العجلوني في «كشف الخفاء» (٢١١) «إذا بُليتمْ بالمعاصي فاستَتِروا» قال السخاوي: يأتي فيمن أتى من هذه القاذورات شيئًا، فينبغي للعبد أن يتوب منها، ولا يظهرها للناس حيث سترها الله عليه، وهذا الحديث رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر وقال إنه على شرطهما، بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألم منها بشيء فليستتر بستر الله وليتب إلى الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله، قاله ﷺ بعد رجم ماعز ﷺ.

أهتك عبدًا فذلك لحكمة ترجح على ستره، لأنه ربما تمادى في المعاصي إذا ستره حتى يستوجب النار، فهتكه تعالى ليرتدع، وليأخذ في التوبة[1] من الذنوب الماضية، ويأخذ حذره من الذنوب المستقبلة، وذلك أرجح في حقه من الستر.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ هتك سريرة عبد، جاءه إبليس، فقال له: اعص الله تعالى، وازنِ بفلانة، وأغلق بابك حتى لا أحد يراك، ثم إذا أغلق بابه، ذهب إبليس إلى أهل الحارة أو جماعة الوالي وقال لهم: تعالوا انظروا إلى فلان مع فلانة في البيت الفلاني، فربما تسلقوا عليه من سطوح البيت أو طاقة[2] من طيقانه، أو خلعوا باب داره، فرأوها وهو فوقها يزني بها. انتهى.

وسألتُ مرةً سيدي عليًا المرصفي رحمه الله: لم حجب الله تعالى العاصي عن شهود ربِّه تعالى حال المعصية؟ فقال: دفعًا لخجل عبده منه، فلذلك أسدل عليه الغفلة والحجاب رحمةً به، فإنه تعالى حيي ستير. انتهى، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا ينبغي للفقير إذا عرف بالصلاح أن يبيع أو يشتري؛ فلاث به بعض المجادلين وقال له: النبي ﷺ والصحابة والتابعون كانوا أجلَّ من جميع هؤلاء المشايخ، ومع ذلك فباع ﷺ واشترى، وكذلك من بعده من الأئمة.

والجواب: أنه ليس مراد الشيخ كراهة البيع من حيثُ هو بيع، وإنما ذلك لما يترتب عليه من محاباة الناس لمن اعتقدوا فيه الصلاح، فربما أرجحوا له الميزان، وربما أخذوا منه متاعه حين باعه برخص، فاستحيا أن يقول: لا أبيعه إلا بزيادة؛ فأضرَّ بحاله.

وقد وقع لي ذلك كلُّه، فكنتُ إذا اشتريتُ رجحوا لي الميزان، وإذا بعتُ شيئًا يأخذونه مني برخص، وبعضهم يقول لي: ادعُ لي يا سيدي دعوة نهار مبارك، شيء لله المدد، انظروا هذا النور الذي على وجهه! ثم يعطيني التين أو العنب الحامض أو اللحم الذي كله عظام

(١) بالأصلين: التفصيل. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الطاقة: هي فتحة في جدار يدخل منها الهواء والضوء.

وشَغْت[1]! فعُلِمَ أنه إذا لم يترتب علىٰ بيع الشيخ وشرائه محظور فلا بأس بذلك.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من أرذل الأمور أن يدور الفقير أو العالم مع الدلَّال إذا باع شيئًا في السوق وهو وراءه يقول: ما أبيع بذلك، فإنه يقدح في المروءة. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٨) ومما أجبتُ به عن المجاورين في الزوايا والمساجد إذا خرجوا إلىٰ مواضع التنزهات والأنهار من البساتين، وصحبوا معهم بعض المخنثين والفسقة، فلاث الناس بهم وظنوا بهم السوء، بأنه لا يجوز المبادرة إلىٰ سوء الظن بهم، فربما قصدوا بإخراج أصحاب الريبة معهم تأليفهم علىٰ الخير والتوبة، فهم في وادٍ، وأنت يا أخي في واد، ولولا أنك من أهل الريبة لما ظننتَ بهم السوء، كما قدمناه في خطبة الكتاب.

وسمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: لا يظنُّ بالناس السوء إلا أهل السوء، فإن كلَّ إناءٍ بالذي فيه ينضح. فنظِّف باطنَك يا أخي من الرذائل، وإلا فمن لازمك غالبًا سوء الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول: أنا أعلم رضا ربي عني، وأعلم رضا رسول الله عني، وأعلم رضا شيخي في قبره عني، وأعلم غضبه كذلك، فلاث به الناس وقالوا: من أين لك هذا وما ثم وحي؟!

والجواب: قد يعلم العبد ذلك إذا نظر في أفعال نفسه وأقواله وعقائده، فإن رآها موافقةً للكتاب والسنة، عَلِمَ أن الله أو رسوله أو أولياءه عنه راضٍ وإلا فهو ساخط، وكذلك الأنبياء والأولياء. وقد قال شخص للسري السقطي: هل يعلم العبد أن الله تعالىٰ راض عنه؟ فلم يدرِ له جوابًا، وكان هناك تلميذه الجنيد وهو شاب أمرد، فقال: نعم، قد يعلم العبد أن الله تعالىٰ راضٍ عنه. فقال له السري: من أين تعرف ذلك؟! فقال:

---

(١) الشغت: تُطلق علىٰ مجموعة من أجزاء البهيمة، كاللسان والكرشة (معدة البهيمة) والأمعاء والقراقيش (وهي عظام لينة سهلة الأكل)، والفشة (الرئة)، وغير ذلك. ويُطلق عليها المصريون «فواكه اللحوم»، وتُعتبر من الأكلات الشعبية.

إذا كنتُ راضيًا عنه فهو راضٍ عني. فأعجب السري ذلك وقال: يا محمد، أخاف أن يكون حظُّك من الله لسانك. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٠) ومما أجبتُ به عن طالب العلم إذا دعاه أحد من أعدائه إلىٰ وليمة فلم يحضر، فلاث الناس به وقالوا: لا ينبغي أن يكون بين العلماء شحناء ولا بغضاء.

والجواب: أنه ربما يكون عما ظنوه فيه بمعزل، كأنه استحيا من جلوسه مع الناس في ذلك المحفل، أو كان ممن محق نفسه التواضع حتىٰ صار يرىٰ أنه ينجس المكان الذي يجلس فيه، كما وقع ذلك لصاحبنا الشيخ العالم العلامة الشيخ إبراهيم العجمي شيخ قبة السلطان الغوري[1] تجاه مدرسته، فإني أعلم منه المحبة الشديدة لي. ودعوتُه مرةً إلىٰ وليمة، فاعتذر لي وقال: أخاف أن أنجِّس حضرتَه والله! فصدقناه، فلا تستبعد يا أخي مثل ذلك علىٰ طالب علم، فربما كان وليًّا لله تعالىٰ، وكان يتستر بطلب العلم، كما قالوا في الإمام الشافعي ﷺ إنه كان من الأوتاد، وكان الاشتغال بالعلم حجابًا عليه. ورأيتُ أنا من يذهب إلىٰ دروس الفقهاء يقرأ عليهم، مع أنه وليٌّ كبير وفي قدرته أن يدرسهم في العلم، ولكن يقصد بذلك التستر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا فائدة في التحويط علىٰ النفس والمال، فإن كل ما سبق به العلم واقع لا محالة، وإذا كان الله تعالىٰ علىٰ كلِّ شيء حفيظًا ولا فاعل في الوجود إلا هو، فممن يحفظ تعالىٰ الأشياءَ منه؟! ولاث به العلماء وقالوا: هذا كلام جاهل بالشريعة لم يشم منها رائحة.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار عليه، فقد يكون مشهده مشهد من قال: «وأعوذ بك منك» فممن استعاذ؟ وبمن لاذ؟ ولابد لكلام الله تعالىٰ وحديث رسول ﷺ من محمل يُحمَل عليه، والذي ظهر لي في هذا الوقت أن ذلك من باب تعليق الأسباب علىٰ ظهور مسبَّباتها، فالفاعل في المسبَّب والسبب هو الله تعالىٰ كما سبق به العلم، فسبق في العلم

---

(١) وما زالت قائمة إلىٰ الآن علىٰ مدخل الغورية، منطقة معروفة بوسط البلد بمحافظة القاهرة بمصر.

أن الإنسان إذا حوَّط نفسه أو غيره من الآفات بأسماء الله تعالىٰ وآياته مثلًا، حُفِظَ ذلك الشيء من الآفات، وإن [لم][1] يحوِّط لحقته الآفات، وفي علم الله أنه يحوِّط أو لا يحوِّط.

وقد سألتُ سيدي عليًا المرصفي عن حديث: «وأعوذ بك منك»[2]، فقال: هذا يتمشىٰ علىٰ مذهب من يقول: إن صفات الحقِّ تعالىٰ عينية، فكأنه ﷺ قال: وأعوذ بك أن تقوم بي صفة من صفات الكبرياء والعظمة التي لم تأذن لي في التخلق بها، وذلك أن شرف العبد إنما هو بالذل والانكسار، لا بالعظمة والاستكبار.

[هل ينسحب الحفظ على الأعيان الثابتة؟]

فإن قال قائل: فهل ينسحب الحفظ علىٰ الأعيان الثابتة[3] في العلم التي لا يصح ذهاب عينها، أم هو خاص بما برز إلىٰ عالم الشهادة، لأنه هو الذي يلحقه التغيير والتبديل؟ **فالجواب:** أنه ينسحب حفظه تعالىٰ عليها، ولكن حتىٰ لا يختلط بعضها ببعض، حتىٰ لو قُدِّر أن الأعيان أُحرقت وذريت في الريح، لحفظ تعالىٰ عليها جميع ذراتها أن تختلط بذرة من ذرات ذات أخرىٰ. وأما من وجودها الذاتي في العلم، فلا ينسحب عليها الحفظ، لأنه لا يصح انعدامها، لأنها معلوم علم الله تعالىٰ، وإنما العدم لها نسبيٌّ مجازيٌّ من حيثُ انتقالُها من حال إلىٰ حال، لأن الله تعالىٰ خلقها للبقاء، فهي باقية بإبقاء الله تعالىٰ، كالأوليات التي خلقها الله للبقاء لا تقدر علىٰ حفظ نفسها عن الفناء.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: لم تزل الأعيان الثابتة في العلم الإلهي تنظر إلىٰ موجدِها بعين الافتقار، ليخلع عليها اسم الوجود، فلم تزل ممكنة في حال

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) والترمذي (٣٤٩٣).

(٣) الأعيان الثابتة: هي حقائق الممكنات في علم الحق تعالىٰ، وهي صور حقائق الأسماء الإلهية في الحضرة العلمية لا تأخر لها عن الحق إلا بالذات لا بالزمان، فهي أزلية وأبدية، والمعنىٰ بالإضافة التأخر بحسب الذات لا غير. «التعريفات» للجرجاني (ص٢٨).

عدمها وحال وجودها، والإمكان لها كالوجوب له تعالىٰ. انتهىٰ[١]. فاعلم ذلك فإنه نفيس، ولعله ما طرق سمعك عن غير الشيخ أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: توكل علىٰ الله، وإياك أن تجعل لدارك بابًا، أو أحدًا يحرسك ليلًا في السفر؛ فلاث به فقيه وقال: هذا جهل من الشيخ بحقيقة التوكل، فقد قال ﷺ للذي ترك ناقته بلا عِقَال علىٰ باب المسجد توكلًا علىٰ الله [ودخل للنبي ﷺ][٢]: «اعقل وتوكل»[٣].

والجواب: ليس ذلك بجهل من الشيخ بحقيقة التوكل؛ **لأن صحة التوكل لا يكون إلا بعد الخلوص من الاعتماد علىٰ الأسباب**، وذلك أن النفس ربما زينت لصاحبها أنه يتوكل علىٰ الله، والحال أنه يتوكل علىٰ الأسباب، فليمتحن الحاذق نفسه بسكنىٰ الخرائب التي لا باب لها في أطراف بلده، فإن رآها مطمئنة غير خائفة من اللصوص والسباع والآفات، فهي معتمدة حينئذٍ علىٰ الله دون غيره، فإذا تحقق بذلك صح توكله، ووجب عليه أن يسكن في الدور الحصينة دون الخربة، وأن يتخذ له حرَّاسًا في السفر؛ لأنه حينئذٍ معتمد علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ الحيطان والأبواب والحرَّاس. وهذا هو موضع إشارة النبي ﷺ بقوله: «اعقل وتوكل» فرجع صورة الكامل إلىٰ صورة حاله في البداية حين كان معتمدًا علىٰ الحيطان والأبواب، فكلٌّ من رآه اعتقد أنه معتمد علىٰ غير الله، والحال بخلافه، فيُحمَل كلام هذا الشيخ علىٰ [غير][٤] الحال الذي أشار إليها رسول الله ﷺ فافهم.

ولو أن الشيخ أمر هذا المريد بسكني الدار الحصينة في ابتداء أمره لم يخلص له توكل، لأن تلك هي الحالة التي فتح عينه عليها، **فلابد من خروجه عن حكم الطبع إلىٰ حكم الشرع.**

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٩٣).

(٢) زيادة من «أ».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وابن حبان (٧٣١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٥٩).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

[نظائر مشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد]

ونظير ذلك أيضًا تقليد العبدِ المجتهدَ، ثم خروجه عن التقليد إذا توسط الطريق، ثم رجوعه إلىٰ التقليد أدبًا مع الله تعالىٰ، فيجعل نفسه كعبد العبد، فصورته في نهايته صورة المقلِّد حال البداية، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أيضًا مدح المؤثرين علىٰ أنفسهم، ليخرجوا عن حكم الشح المركوز في جبلتهم، فإذا تحققوا بذلك وعرفوا أن جميع ما آثروا به غيرهم لم يكن لهم، وإنما هو لذلك الغير، أُمروا بعدم الإيثار علىٰ أنفسهم، لأن الأقربين أولىٰ بالمعروف، ولا أقرب إليه من نفسه. وعليه يُحمَل حديث: «ابدأ بنفسك»[1]، فرجعت صورة العبد إلىٰ صورة من لا يؤثر، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أن العبد في بدايته أمره يحب الدنيا ويشاحح الناس علىٰ جديد [نقرة][2]، فإذا توسط الطريق تكرَّم وأعطىٰ الناس المال وسامحهم، فإذا بلغ مقام الكمال رجع إلىٰ صورة حاله الأول وشاحح الناس علىٰ جديد ولم يسامح به، خوفًا أن يرىٰ له منة علىٰ أحد من عباد الله في الدنيا والآخرة، ولو خطورًا علىٰ البال، فصورته صورة محب الدنيا، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أيضًا محبة العبد لمخالطة الناس في ابتداء أمره، ثم هروبه منهم حال دخوله في الطريق، ثم مخالطته لهم حال توسطه من حيثُ مصاحبةُ الحقِّ تعالىٰ لهم، ثم هروبه منهم إذا كمل حاله ولم يتصدر لتربية المريدين، إيثارًا لجناب الحق علىٰ الخلق، كما في حديث: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[3] أي غير الاشتغال بعبادته، فصورته حال كماله صورته حال ابتداء دخوله في الطريق، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أيضًا محبة الإنسان لتقبيل الناس يده مثلًا، ثم كراهته لذلك إذا توسط

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) تقدم تخريجه.

الطريق من حيثُ إن ذلك كالعبث؛ لأنهم جزء منه، فكأنه يقبل يد نفسه بنفسه، ثم محبة تقبيل الناس ليده من حيثُ إن تلك الخلعة التي يعظِّمه الناس لأجلها لله تعالىٰ لا له هو، فصورته صورة محب التعظيم لنفسه، والقصد مختلف.

ونظير ذلك **أيضًا** محبة العبد للجماع من حيثُ اللذةُ الطبيعيةُ فيه، ثم كراهته من حيثُ إنه يحجب عن كمال شهود الحقِّ تعالىٰ، ثم محبته بتحبيب الله تعالىٰ له فيه من حيثُ إن فيه الإنتاج المطلوب شرعًا لعمَّار الدارين، فيودُّ أنه لا يفارق الجماع ليلًا ولا نهارًا، فصورة هذا صورة محب الجماع للذة النفس، والقصد مختلف.

ونظير ذلك **أيضًا** شهود العبد أنه يملك مع الله تعالىٰ شيئًا، ثم خروجه عن ذلك وشهود المُلْك في جميع الأمور لله تعالىٰ وحده، ثم شهوده أنه يملك مع الله بتمليك الله تعالىٰ له الأمور، مع غناه تعالىٰ عن ذلك كله، فصورته صورة من يشهد الملك مع الله وهو غافل عن الله تعالىٰ، وعن كونه هو المالك الحقيقي، فالصورة واحدة، والقصد مختلف.

ونظير ذلك **أيضًا** دخول العبد في طاعة ولاة الأمور، ثم خروجه عن طاعتهم لعدم خوفه منهم، ثم رجوعه لطاعتهم أدبًا مع الله الذي ولَّاهم علينا، وأعطاهم التصريف فينا، فصورة هذا صورة المبتدىء، والقصد مختلف.

وقس علىٰ ذلك سائر المقامات، لأنها كلها صعود وهبوط، **ولابد أن يرجع العبد إذا كمُل حالُه إلىٰ صورة البداية، ولكن القصد مختلف.**

فاعلم ذلك يا أخي، فإنه نفيس لا يعرفه إلا من سلك الطريق بحقٍّ وصدق، فإذا بلغك عن شيخ أنه قال لمريده شيئًا، فهو بلسان ذلك المقام الذي فيه مريده من عالٍ أو نازل، والحاذق في الطريق يعرف مقام المريد من كلام[1] شيخه له، **فلا يلزم من كلام شيخ في مقام البداية أن يكون الشيخ مبتدئًا**، إنما ذلك بلسان مقام المبتدىء تنزلًا منه إليه، والشيخ في مقامه العلي علىٰ ما هو عليه، ولو لم يتنزل لمريده ما عرف المريد يمشي وراءه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: كمال. والصواب ما أثبتناه.

(٨٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: إياكم أن تبتدعوا في الشريعة شيئًا ولو حسنًا، أو تقيسوا شيئًا؛ فلاث به فقيه وقال: الابتداع الحسن ملحق بالشريعة، والقياس أحد الأدلة الشرعية. وقال عمر ﷺ في التواريخ[1]: نعمت البدعة هي؛ فليس المذموم إلا بدعة لا يستحسنها العلماء.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ، فلعله كان يرى أن الوقوف على حدِّ ما ورد أفضل من الابتداع ولو استُحسن. وبه قال الإمام مالك وجماعة، لأنه في حال الوقوف على حد ما ورد متبع، وفي حال ابتداعه مبتدع ولو استحسن. وفي كلام الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله: من أراد أن لا يضل، فلا يضع ميزان الشريعة من يده، ويقف عند ما حدث له، وإن وقع تناقض عند بعضهم في الأدلة، فذلك إلى الشارع لا إلينا. وأطال في ذلك.

ثم قال: وعندنا أن التناقض في كلام الشارع ممتنع، لأنه كان يخاطب كلَّ جليس بما يناسب مقامه، فقال لبعضهم: «أنفق ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا»[2] وقال لآخر: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»[3] وقال لبعضهم: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[4]. وقال لآخر: «لا عدوى ولا طيرة»[5] وقال لبعضهم: «من مس ذكره فليتوضأ»[6] وقال لآخر: «هل هو إلا بضعة منك»[7] عند من لا يقول بنسخه، فكل هذا وأمثاله له محمل صحيح عندنا لا نرى فيه تناقضًا.

وقد سبرتُ بحمد الله أدلة الشريعة، فلم أجد فيها تناقضًا أبدًا، بل كل حديث محمول

---

(١) أي في اعتماد سيدنا عمر سنة الهجرة النبوية بداية التقويم الهجري.

(٢) جزء من حديث أخرجه الطبراني (٩٤١)، والبزار (١٩٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٨٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٢٧٦٩) بنحوه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه.

علىٰ حال، وكل من قال بالتناقض فهو قاصر النظر عن مقام العلماء العاملين، والحمد لله رب العالمين.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: لا تبتدع من عند نفسك شيئًا بالقياس إلا إن أُجمع عليه، فقد يكون الحقُّ تعالىٰ لا يرضىٰ منك ذلك، وترك ذلك المقيس توسعةً علىٰ الأمة، لأنه تعالىٰ لا يضل ولا ينسىٰ، وكذلك نبيه ﷺ، وقد قال ﷺ: «وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها»[١]، وتأمل يا ولدي قوله ﷺ: «إذا تراءىٰ الشيطان لأحدكم، فليقل: ألعنك بلعنة الله»[٢] أي ولا يلعنه العبد بلعنة ينشؤها من عند نفسه.

[سؤال عبد الرحمن الشعرانيّ والده الإمام عن سبب تخصيص الشارع لعن الشيطان بلفظ: «ألعنك بلعنة الله»]

وقد سألني الولد عبد الرحمن حفظه الله حال كونه ابن سبع سنين عن ذلك، وقال: هذا الأدب وجهه ظاهر فيمن لم يرد فيه نص بالشقاء كآحاد الكفار من اليهود والنصارىٰ ونحوهم، لاحتمال أن يختم الله لهم بالإسلام، فإن اللعن إخبار عن كون ذلك العبد من أهل الطرد عن حضرة الله في الدنيا والآخرة، وأنه مخلَّدٌ في النار، فليس للعبد أن يلعن من لم يرد فيه لعن بخصوصه إلا بلعنة الله تعالىٰ، كما في حديث: «لعن الله من عَمِل عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من غيَّر حدود الأرض، لعن الله من انتسب إلىٰ غير أبيه»[٣] ونحو

---

(١) أخرجه الحاكم (٧١١٤)، والدارقطني (٤٣٩٦) ، والطبراني في«الأوسط» (٨٩٣٨).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء قال: «قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك. ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: إن عدو الله إبليس، جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة». وابن حبان (١٩٧٩) والنسائي في «الصغرىٰ» (١٢١٥) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٣٤٢٦).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن حبان (٤٤١٧) من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه الأعمىٰ عن السبيل، ولعن الله من سب

ذلك. وأما إبليس فقد ثبت شقاؤه وخلوده في النار بالنصوص القاطعة، فأي حاجة لقول أحدنا: «ألعنك بلعنة الله»؟ وما وجه عدم الإذن لنا بإنشاء اللعنة عليه كلما تراءىٰ لنا من حيثُ مرتبةُ إيماننا بأن الله لعنه؟! فقلتُ له: يا ولدي، هكذا أدب الأكابر مع الله تعالىٰ أن يكونوا دائمًا تبعًا لما ورد، ولا ينشئون من عند أنفسهم شرعًا ولو حسنًا، فإن من استحسن فقد شرَّع. ومن هنا نهىٰ الشارع عن النذر من حيثُ إن فيه مزاحمة لتشريع الله تعالىٰ، فإنه جعل المباح مباحًا، والمندوب مندوبًا، فكيف يجعله العبد بالنذر واجبًا؟! فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلميذه: اذهب إلىٰ الموضع الفلاني، فأتني بالشيء ألفلاني منه. فقال له: إن هناك سبعًا، أو دونه بحر مغرق، أو نار محرقة. فقال: يجب عليك امتثال أمر شيخك ولو أكلك السبع أو غرقت أو حرقت في النار؛ فلاث به فقيه وقال: هذا حرام عليك يا شيخ! وقد قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»[1] بعد أن حكىٰ رسول الله ﷺ عن ملك من الملوك أنه لما أخذ علىٰ رعيته بالسمع والطاعة له وأجابوه، أوقد لهم نارًا وقال: إن كنتم في طاعتي فادخلوا في هذه النار. قال النبي ﷺ: «لو دخلوها لم يخرجوا منها إلىٰ الأبد»[2]. وأطال في الاستدلال علىٰ الشيخ.

والجواب: أنه ربما كان هذا الشيخ مما أعطاه الله تعالىٰ التصريف والقدرة علىٰ أن يحمي مريده من السبع والغرق والنار، أو ممن كُشِفَ له أن السبع والماء والنار ليس لها

والديه، ولعن الله من تولىٰ غير مواليه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط -قالها ثلاثًا في عمل قوم لوط-» والحاكم (٨٠٥٢) والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٧٠١٧) وأحمد (٢٩١٥).

(١) أخرجه أحمد بلفظه (١٠٩٥)، والبخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) بلفظ مقارب.

(٢) لم أقف عليه، وقد أخرج البخاري (٣٤٤٠) عن علي ﷺ، قال: «بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلىٰ، قال: فاجمعوا لي حطبًا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارًا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضًا، ويقولون: فررنا إلىٰ النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتىٰ خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلىٰ يوم القيامة، الطاعة في المعروف» ومسلم (١٨٤٠).

علىٰ مريده سبيل، لعدم تقدير ذلك عليه ونحو ذلك.

وفي كلام سيدي عمر ابن الفارض:

لو قال تيها قف علىٰ جمر الغَضَا   لـوقـفـتُ ممتثلًا ولـم أتـوقـفِ

انتهىٰ. فلا يجوز حمل الشيخ علىٰ أنه أمر تلميذه بما فيه هلاكه، مع عجزه عن إنقاذه من الهلاك.

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن المريد لا يطيع شيخه قط في شيء مهْلِك إلا بعد تجربته شيخه أنه يأخذ بيده في الشدائد والمهالك، ولو كان بينه وبينه مسيرة ألف سنة، كما أن أحدًا من الفقراء لم يسلك البراري والقفار البعيدة بلا زاد إلا بعد أن أعطاه الله تعالىٰ القدرة علىٰ عدم الأكل الأيام أو الجمع أو الشهور، فلا ينبغي لفقيه أن يعترض علىٰ فقير خرج للحج بلا زاد ولا راحلة إلا بعد معرفته حاله يقينًا، بل يقول: «لولا قوة عزم الفقير واعتماده علىٰ الله تعالىٰ بحكم التجربة مرارًا، ما سافر بلا زاد» بل كان يسفه عقل كل من أمره بذلك، فإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ.

وقد حكىٰ الشيخ [...][1] ورُوي عن إبراهيم بن شيبان[2] قال: أرسلني شيخي أبو عبد الله المغربي أيام بدايتي استسقي له ماء من عين هناك، فذهبتُ إليها، فوجدتُ علىٰ العين سبعًا عظيمًا، وكان الموضع ضيقًا، فصرتُ أزاحم السبع مرةً، ويزاحمني أخرىٰ، حتىٰ ملأتُ السقاء لشيخي، لما أعلم من ملاحظة شيخي لي. وكان يقول: لا يكافِيء مريدٌ شيخه أبدًا علىٰ تعليمه أدبًا من الآداب ولو خدمه الدهر. وكان يقول: عقوق الوالدين يُمحَىٰ بالتوبة، وعقوق الأستاذين لا يمحوه شيء ألبتة. انتهىٰ. فاعلم

---

(١) سقط بالأصلين.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني، كان شيخ الجبل في وقته. له المقامات والتقوىٰ يعجز عنها أكثر الخلق، صحب أبا عبد الله المغربي، وإبراهيم الخواص، وكان شديدًا علىٰ المدعين متمسكًا بالكتاب والسنة ملازمًا لطريقة المشايخ والأئمة، حتىٰ قال فيه عبد الله بن منازل: إبراهيم بن شيبان حجة الله علىٰ الفقراء، وأهل الأدب والمعاملات. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (١/ ٢٤٥).

ذلك، وأطع شيخك فيما أمرك به إن وثقت بحفظه لك من الآفات، وإلا فأنت ونفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: أنا لا أحتاج إلىٰ شيخ يرشدني إلىٰ الطريق، لأني أعرف الحلال والحرام، وما بقي إلا العمل؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: الإمام الغزالي كان حجة الإسلام، والشيخ عز الدين بن عبد السلام كان سلطان العلماء، ومع ذلك فقد اتخذ كلٌّ منهما له شيخًا.

والجواب: لا ينبغي اللوث بمن يقول ذلك، لأنه لم يخالط القوم ولم يدخل طريقهم، ولو خالطهم لعلم أنه يجب علىٰ كلِّ فقيه علاج نفسه، وإخراجها عن رعوناتها، ولا يتم له ذلك إلا بشيخ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وسمعتُ الشيخ محمد الشناوي ﷺ يقول: لا ينبغي للعبد إذا مات شيخه أن يمكث ساعة بلا شيخ، بل يتخذ له شيخًا يعيش في حسِّه[1]. انتهىٰ. ولما مات شيخه الشيخ ابن أبي الحمائل اجتمع بسيدي علي المرصفي، وأخذ عنه، لكونه كان من أقران شيخه، وقال: لا أقدر أمكث ساعة بلا أستاذ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: إذا مات شيخ أحدكم، فخذوا الطريق عن أحد من أقرانه، وإن لم يكن أهلًا لذلك، فالله تعالىٰ يجعله لكم أهلًا علىٰ حسب صدقكم في طلب الطريق، وكأن شيخكم لم يمت.

وكان سيدي أحمد الزاهد ﷺ يقول: من قال من العلماء: «أنا لا أحتاج إلىٰ شيخ ويكفيني العمل بالكتاب والسنة وأقوال الأئمة» فلا يخلو حاله من أمرين: إما أن يكون عارفًا بما يلزمه من آداب الطريق ومنازلها أم غير عارف، فإن كان عارفًا بما يلزمه فيها، فقد قصَّر عن طلب الترقي، وصار وقته ضائعًا، لأنه ربما كانت كلُّ ذرة من أعمال العارفين أفضل من أمثال الجبال من أعمال غيرهم، وإن كان غير عارف بمنازل الطريق

---

(١) الحس: صوت الحركة البسيطة. ويعني به المصريون في اللهجة العامية: مطلق الصوت. ويقول أحدهم للآخر: أنا عايش بحسك، أي في ظلك أو بركتك.

وآدابها فهو جاهل، والجاهل لا يصلح أن يكون قدوةً للناس. انتهىٰ.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: لا بد للعالم من الشيخ في الطريق، ولا يكفيه معرفة النقول، لأن طريق القوم طريق غيب، أو غيب الغيب، فما هي محسوسة حتىٰ يسلك فيها الإنسان بنفسه. قال: وهذا الأمر يقع فيه كثير من الفقهاء الذين لم يجتمعوا علىٰ الفقراء، فيقول أحدهم: وهل ثم طريق غير ما نحن فيه من العمل بالكتاب والسنة؟! ثم إذا دخل أحدهم طريق القوم، يعترف للقوم بالعلم والقرب من الله تعالىٰ، ويقول: ضيَّعنا عمرنا في البطالة، كما وقع ذلك مع الإمام الغزالي، والشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يقول: وهل ثم طريق يُتقرَب بها إلىٰ الله تعالىٰ أعلىٰ مما بيدنا من العمل بالكتاب والسنة؟! فلما اجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ صار يقول: من أعظم دليل علىٰ كون القوم قعَّدوا علىٰ قواعد الكتاب والسنة، وقعَّد غيرهم علىٰ الرسوم ما يقع علىٰ يدهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك علىٰ يد فقيه ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا إن سلك طريقهم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: من مكائد إبليس بالفقيه أن يقول له: أنت تعرف أحكام الكتاب والسنة، فلا حاجة لك بشيخ؛ فيبعده بذلك عن طريق الترقي في مقامات الطريق، وعن معرفة طريق الوصول إلىٰ العمل بما علم. وبتقدير أنه يعمل بما علم فلا يخلو من العلل القادحة في الإخلاص غالبًا. ولو أنه اجتمع بأحد من أهل الطريق، لرقاه في المقامات، وأوصله إلىٰ طريق العمل بالكتاب والسنة، وسلامته من العلل القادحة في الإخلاص.

وقد حدُّوا الطريق بأنها المشي علىٰ رائحة ما كان عليه الصحابة والتابعون دون الرخص والتأويلات، وقالوا: إن حقيقة الصوفي عالم عمل بالكتاب والسنة علىٰ وجه الإخلاص لا غير. فعُلِمَ أن من اكتفىٰ بما عنده من نقول الشريعة، فإنه علىٰ[1] [خطر][2] كبير.

---

(١) بالأصلين: علم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي يقول: صحبة الفقهاء للصوفية تزيدهم علمًا إلىٰ علمهم، وما ثَمّ دليل يردّ طريق الصوفية أبدًا، وكيف تُرَدُّ طريق مشيدة بالكتاب والسنة قولًا وفعلًا واعتقادًا، وفي الحديث: «من قال إني عالم فهو جاهل»[1]. انتهىٰ، وقد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يكفي فقراء الأحمدية والرفاعية والبرهانية والقادرية الاكتفاء بنسبتهم إلىٰ هؤلاء الأشياخ، إلا إن وصلوا إلىٰ حدٍّ يسمعون فيه كلام الأموات -علىٰ نزاع في ذلك- فيصير يكلم الشيخ من ضريحه ويسأله عن أحواله، ويسمع جوابه وهذا أمر عزيز. انتهىٰ.

وقد سمعتُ سيدي محمدًا الشناوي رضي الله عنه يكلِّم سيدي أحمد البدوي في حاجة، فقال له: افعل وتوكل علىٰ الله. وليس هناك سوىٰ أنا والشيخ محمد.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ليس شيخ الإنسان إلا من اجتمع به، وأخذ عنه يقظةً ومشافهةً، ورباه بلطيف تربيته. وأما أشياخ الخرق، فيقول أحدهم: شيخي سيدي أحمد بن الرفاعي مثلًا، فإنما ذلك أدب معه، كما يقول المقلد لمذهب الشافعي مثلًا: شيخي الشافعي رضي الله عنه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تجرد من ثيابه، وجعل علىٰ رأسه لُبْدَة[2]، وفي وسطه مِئْزَرًا[3]، وترك لباس الزينة، فلاث به بعض الناس وقال: هذا خروج عن الشريعة، فقد أمر الله تعالىٰ بلبس الثياب والعمائم، لاسيما في المساجد ويوم الجمعة.

والجواب: أنه ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ أنه لم يجد ثيابًا ولا عمامة من وجه

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٤٦) وفي «الصغير» (١٧٦) وأبو بكر الخلال في «السنة» (١٢٨٢)، وقال السخاوي: وسنده ضعيف، وهو عند الديلمي في «مسنده» عن جابر بسند ضعيف جدًا، ورواه الحارث بن أبي أسامة من جهة قتادة عن عمر بن الخطاب موقوفًا عليه، وهو منقطع. انظر: «المقاصد الحسنة» (١١٦٠).

(٢) اللُّبْدَة: غطاء من أغطية الرَّأس يُشبه الطاقيّة، يُتّخذ من الصُّوف المتلبِّد.

(٣) المِئْزَر: إزارٌ؛ ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

حلال، ولو أنه وجدها للبسها، ولا يؤمر أحد أن يلبس من الحرام والشبهات لأجل الناس، وقد قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] ولا يتزين الإنسان إلا بشيء يرضاه الله تعالىٰ.

وقد يكون ذلك الشيخ الذي ترك لباس الزينة له عذر آخر، وهو عجزه عن حمل القميص والعمامة لشدة ما عنده من الحرارة في جسده.

وقد أنشد الشِّبْلي رحمه الله:

حملتني ما لا أطيق وإنني عن حمل أثواب أكِلُّ وأضعف

ووقع مثل ذلك لسيدي علي بن وفا، فكان يقول: بلغتُ من الضعف عن حمل ليمونة أو بندقة من شدة الحال الذي ينزل عليَّ، وحج متجردًا بلا ثوب ولا عمامة، مع أنه كان من أعظم المترفين رضي الله عنه. وقد أقر رسول الله ﷺ أصحابه علىٰ التجريد، فروىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «أنه رأىٰ سبعين رجلًا من أهل الصُّفَّة ما من رجل عليه قميص ولا رداء»[(١)].

وكان مصعب بن عمير يلبس إهاب كبش ليس عليه غيره، وكان أرفه غلام بمكة، وقال النبي ﷺ: «انظروا إلىٰ مصعب دعاه حب الله ورسوله إلىٰ ما ترون»[(٢)]. وفي الحديث: «أحب الخلق إلىٰ الله كلُّ أشعث أغبر ذي طمرين»[(٣)] الحديث، وثبت في الصحيح أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خرج من ماله كله[(٤)]، وتخلل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢)، وابن حبان (٦٨٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وقد أخرجه مسلم (٢٦٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبره».

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٦٧٨) من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يقول: «أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. قال: وأتىٰ أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلىٰ شيء أبدا». والترمذي (٣٦٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٧٧٧٤) والدارمي (١٧٠١).

بالعباءة[1]، وتجرَّد وتقشف، وكذلك عمر تجرد حتىٰ صار يلبس الثوب المرقع بالأُدُم[2]، وخرج رسول الله ﷺ يعود مريضًا في المدينة هو وأصحابه حافيًا راجلًا ليس عليه قميص ولا قلنسوة ولا عمامة، ومات ولم يترك دينارًا ولا درهمًا ولا شيئًا، وتبعه علىٰ ذلك زهَّاد الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلىٰ وقتنا هذا، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يتعبد ويترك الحرف والصنائع، ويخرج عن ماله كلِّه، فلاث به بعض الناس وقالوا: الاشتغال بالأسباب من التجارة وغيرها والأكل منها مع يسير العبادة خير من كثيرها مع الحاجة للناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن ترك الأسباب واشتغل بالعبادة، لأن رسول الله ﷺ أقرَّ أصحابه علىٰ مثل ذلك، منهم أهل الصُّفَّة، وكانوا أربعمئة رجل علىٰ عهد رسول الله ﷺ، قاله الجلال السيوطي ﷺ. وفي القرآن العظيم: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، ولم يكن رسول الله ﷺ تاجرًا ولا صانعًا ولا زارعًا، وكذلك أبو بكر وعمر وغالب الصحابة، ولم يكن يتاجر منهم إلا أفراد، وبقيتهم كان يقنع باللقمة وساتر العورة. وفي البخاري ومسلم: «إن أهل الصُّفَّة لم يكونوا يلوون علىٰ أهل ولا مال»[3]، وفي رواية: «لغيرهما»، ولم يكونوا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن شاهين في «اللطيف لشرح مذاهب أهل السنة» (١٢٥) من حديث ابن عمر قال: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد مالي أرىٰ أبا بكر عليه عباءة فدخلها في صدره بخلال...» وابن المقرىء في «معجمه» (١٦٦) وأبو نعيم في «فضائل الصحابة» (٦٣) وقال العراقي: أخرجه ابن حبان والعقيلي في «الضعفاء» قال الذهبي في الميزان: هو كذب. «إحياء علوم الدين» (٢/ ١٦٦).

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٥٢)، والترمذي (٢٤٧٧).

يتسببون ولا يخرجون إلىٰ جهاد، وإنما شغلهم عبادة الله وذكره والتفكر في أمر معادهم، والجلوس في المساجد، وكان النبي ﷺ يطعمهم ويموِّنهم هو وأصحابه، ويثبتهم علىٰ طرائقهم، ويقول لهم: «ابشروا أهل الصُّفة»[١]. وطريقة أقر رسول الله ﷺ خواص أصحابه عليها لا يجوز لأحد إنكارها، وفي الحديث: «أن أبا بكر خرج عن ماله كله، ولم يبق لنفسه منه شيئًا، وأرسل له الحقُّ جلَّ وعلا السلامَ وقال: هل أنت عني راض في فقرك هذا؟ فقال: أنا عن ربي راض، قالها ثلاث مرات»[٢].

وفي موطأ الإمام مالك: إذا كان الرجل صحيحًا فهو أحق بجميع ماله يصنع فيه ما شاء، إن شاء يخرج من جميعه، خرج فتصدق به، أو أعطاه لمن شاء[٣]، والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]. انتهىٰ.

فإن قيل: إن الخير المتعدي أفضل من القاصر، وقال العلماء: لو اشتغل الإنسان بعلم والكسب يمنعه [فهو][٤] فقير [يُعطَىٰ من الزكاة][٥]، ولو اشتغل بالنوافل، فلا يُعطَىٰ من الزكاة، وهؤلاء نفعهم قاصر؛ **فالجواب**: أن هذا ينتقض علىٰ هذا القائل بحال أويس القرني، فإنه كان متجرِّدًا جدًّا، ومع ذلك فقد أمر رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر أن يزوراه ويسألاه الدعاء[٦]، مع أن الخير الذي كان فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما متعديًا إلىٰ الأمة كلِّها، فلولا مزيد خصوصية باطنة في أويس، ما أمرهما رسول الله ﷺ بالسفر إليه. وذلك نظير

---

(١) أخرجه السلمي في «الأربعون في التصوف» (١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «الموطأ» (٣٠٠٨).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) الذي وقفت عليه أن النبي ﷺ قال لسيدنا عمر رضي الله عنه «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم علىٰ الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» أخرجه مسلم (٢٥٤٢)، وأحمد (٢٦٦).

قصة موسىٰ مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، وقد شهد الحقُّ تعالىٰ بأن الخضر أعلم من موسىٰ، مع أن موسىٰ نبي مرسل من أولي العزم.

فإن قال قائل: إن أهل الصُّفَّة وغيرهم من الصحابة كانوا علىٰ قدم في العبادة لم يصل إليه فقراء هذا الزمان؛ **فالجواب**: نعم، وهو كذلك، **فلم يزل الناس ينقصون**، حتىٰ كان الحسن البصريُّ يقول: ما أنتم إلا كاللاعبين بالنسبة إلىٰ أصحاب رسول الله ﷺ. وكان يقول: والله لقد أدركنا أقوامًا كنا في جنبهم لصوصًا، ولو رأوكم وما أنتم عليه لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب!

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﵀ يقول: للصوفية حظٌّ عظيمٌ من الاقتداء بالصحابة لم يكن لغيرهم، كالزهد في الدنيا، وعدم مزاحمة الناس عليها، واحتمالهم الأذىٰ، مع غربتهم في الزمان وغربة الإسلام، ودوام طهارتهم، وقيام الليل، وكفِّهم جوارحهم الظاهرة والباطنة عن كلِّ معصية. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: لم يبلغنا أن النبي ﷺ أمر بالكسب مشافهةً سوىٰ رجل واحد رآه يسأل الناس إلحافًا، فباع رسول الله ﷺ حِلْسًا[1] للسائل كان يفرشه تحته، واشترىٰ له من ثمنه قَدُّومًا[2] وقال: اذهب فاحتطب، ولا أرينك حتىٰ تجمع لك من ثمنه شيئًا يكفك عن سؤال الناس أو كما قال[3].

---

(١) الحِلْس: ما يُبسَط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع.

(٢) القدُّوم: آلة للنّجر والنحت.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٦٤١) من حديث أنس بن مالك أن رجلًا من الأنصار أتىٰ النبي ﷺ يسأله فقال: «أما في بيتك شيء؟ قال: بلىٰ. حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: ائتني بهما. قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده. وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا، آخذهما بدرهم. قال: من يزيد علىٰ درهم مرتين، أو ثلاثًا. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري. وقال: اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلىٰ أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترىٰ ببعضها

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ ﷺ يقول: كان ﷺ ناصحًا لأصحابه يَدُل كلَّ إنسان علىٰ ما هو خير له، فأمر قومًا بالتوكل ورفض الأسباب، وأمر قومًا بالتوكل مع القيام في الأسباب وعدم الاعتماد عليها، وأمر قومًا بالعبادة، فلا يُقال: السبب أفضل مطلقًا، ولا تركه أفضل مطلقًا. انتهىٰ، فاعلم يا أخي ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣٨) ومما أجبتُ به عن العلماء والفقراء الذين لا يغفلون عن نظافة ثيابهم، ويضيق صدر أحدهم إذا اتسخ ثوبه، فلاث بهم بعض المتصوفة وقال: هذه رعونات للنفس! ولم يكن السلف الصالح يسعون إلا في نظافة قلوبهم، حتىٰ كان مالك بن دينار يتسخ ثوبه حتىٰ يكون كالأرض، فيقولون له: ألا تغسل ثوبك؟ فيقول: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب.

والجواب: أن هذا الاعتراض مردود بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والثوب النظيف مما يُتزَين به، بخلاف الوسخ، وأمر رسول الله ﷺ بالنظافة، وهي تنقية البدن والثياب من الفضلات والأوساخ، كوسخ الأذن والرأس والأنف والأسنان ومعاطف البدن، وتسريح اللحية، وتنظيف عقد الأصابع، وما تحت الأظفار، وشعور الإبطين، وحلق العانة، وقص الشارب، وغسل البدن كلّه، وما أشبه ذلك، فلعل المنكِر علىٰ الفقراء النظافةَ المذكورةَ إنما أنكر لظنّه فيهم أنهم يفعلون ذلك لحظِّ النفس من غير قصدهم بذلك اتباع السنة، وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتىٰ تصير السنة بدعة، والبدعة سنة، حتىٰ إذا تُركَت البدعة، قالوا: تركت السنة»(١). انتهىٰ. وقد وُجِدَ ذلك في طائفة الفلاحين وغيرهم، فيعيب أحدهم علىٰ الرجل الكحل، وإرداف الزوجة علىٰ الدابة خلف زوجها ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ثوبًا، وببعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقعٍ، أو لذي غُرْمٍ مُفظعٍ، أو لذي دم مُوجِعٍ» وابن ماجه (٢١٨٩) والبيهقي في «السنن» (١٣٢١٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٨٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يلبس المرقعة والصوف والفَرَجيَّة[1] والجبة السوداء، ويربي الشعرة، ويتميز عن غالب الناس بالهيئة، ولاث به بعض الفقراء وقالوا له: هذا من لباس الشهرة الذي نهىٰ عنه رسول الله ﷺ بقوله: «من لبس ثوب شهرة ألتهب نارًا يوم القيامة»[2].

والجواب: أن ذلك ليس من ثياب الشهرة التي نُهي عنها، لثبوت هذه الأمور من فعل النبي ﷺ وأصحابه، أو تحمل ذلك علىٰ من قصد بذلك الشهرة والتميز، حتىٰ صار الناس يشيرون إليه بالأصابع، فقد رُوِي أن أول من لبس المرقعة أبونا آدم عليه الصلاة والسلام وأمنا حواء، وذلك أنه لما أكل من الشجرة تطاير عنه الحلل، فرقع له ثوبًا من ورق الشجر، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولم يكن أحد من الخلق يستحييان منه، لأنه لم يكن لهما ولد، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، أي لا لغيرهما، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة وعائشة: «لا تستخلفا ثوبًا حتىٰ ترقعاه»[3]، وأنه ﷺ كان يخصف النعل ويرقع الثوب[4]، وكان بين كتفي عمر بن الخطاب ﷺ ثلاث رقاع لُبَد[5] بعضها فوق بعض، وذلك أيام خلافته. وكذلك رقَّع أبو بكر وعليٌّ، وكان يقول: لقد رقَّعتُ مَدْرعتي[6] هذه

---

(١) الفرجية: ثوبٌ واسع طويل الأكمام يتزيًّا به علماءُ الدين.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الذي وقفت عليه أنه قال للسيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «إذا أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي ثوبًا حتىٰ ترقعيه» أخرجه الترمذي (١٧٨٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٠١٠)، والحاكم (٧٨٦٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧٧٠).

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن حبان (٥٦٧٦) من حديث عروة قال: «قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، أي شيء كان يصنع رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: ما يفعل أحدكم في مهنة أهله، يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويرقع دلوه» والبخاري في «الأدب المفرد» وأحمد (٢٤٧٤٩).

(٥) اللبد: جمع اللِّبْدَةُ، وهي كلُّ شعر أو صوف مُتَلَبِّد.

(٦) المدرعة : جبة من صوف مشقوقة المقدم.

حتىٰ استحييتُ من ترقيعها! وكان إزار عمر ﵁ موصولًا.

وقد ربىٰ رسول الله ﷺ شعر رأسه حتىٰ كان يضرب منكبيه، ولبس الفَرَجيَّة والكم الضيق، وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال: «ألبسني رسول الله ﷺ فضل عباءة كانت عليه»[1]، وقسَّم النبي ﷺ أقبية بين أصحابه[2]، والأقبية كالفرجية[3]، ولبس ﷺ مِرْطًا[4] أسود، أي منسوجًا من الشعر الأسود[5].

فإياك يا أخي أن تنكر علىٰ الفقراء لبس الجبة السوداء وتقول: هذا لبس الرهبان، وفي الحديث أيضًا: «أن رسول الله ﷺ لبس جبة شامية ضيقة الكمين، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يخرج يده من كمها ليتوضأ ضافت عليه، فأخرج يديه من ذيلها وغسلهما»[6]، ولبس ﷺ الصوف، وكذلك موسىٰ وعيسىٰ وهود وصالح وشعيب. وكان موسىٰ عليه الصلاة والسلام يوم كلَّمه ربُّه عليه جبة صوف وكساء صوف، وكذلك عيسىٰ يوم رُفِع. وكان الصحابة يلبسون الصوف حتىٰ يصير ريحهم يوم الجمعة في الحر كريح الضأن، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ فعل السنة بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٠) ومما أجبتُ به عن الفقراء المجاورين في المساجد إذا مرضوا في المسجد، وعجزوا عن الخروج والدخول لصلاة الجماعة وغيرها، فلاث بهم الناس وقالوا: قد

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٧٨٨) وابن حبان (٧١٢٥) والحاكم (٤٣٢٥).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٥٩٩) من حديث المسور بن مخرمة ﵄، قال: «قسم رسول الله ﷺ أقبية، ولم يعط مخرمة منها شيئًا، فقال مخرمة: يا بني، انطلق بنا إلىٰ رسول الله ﷺ، فانطلقت معه، فقال: ادخل، فادعه لي، قال: فدعوته له، فخرج إليه وعليه قباء منها، فقال: خبأنا هذا لك. قال: فنظر إليه، فقال: رضي مخرمة» ومسلم (١٠٥٨).

(٣) بالأصلين: عن الفرجية.

(٤) المِرْط: كساءٌ من خزٍّ أو صوف أو كتَّان يُؤتَزر به.

(٥) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٠٨١) عن عائشة، قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غداةٍ وعليه مرط مرحل من شعر أسود» وأبو داود (٤٠٣٢) والترمذي (٢٨١٣)، وغيرهم.

(٦) تقدم تخريجه.

قال رسول الله ﷺ: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم»[1]، وليس ذلك إلا للخوف من نجاسة المسجد، وهذا الأمر موجود فيمن مرض بالبطن مثلًا.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ مثل ذلك، فقد ثبت في الحديث «أن سعدًا أصيب يوم الخندق، وضربوا عليه خيمة في المسجد، وصار الناس يعودونه من بعيد ومن قريب والدم يسيل منه في المسجد[2]، ولما قدم وفد ثقيف أنزلهم النبي ﷺ في المسجد، وقال: «هو أرق لقلوبهم»[3]، وفي الحديث أن الصحابة كانوا يأكلون مع رسول الله ﷺ ويشربون في المسجد[4]. ولم يبلغنا أن أحدًا من أهل الصفة كان يخرج من المسجد حتىٰ يأكل خارجه. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤١) ومما أجبتُ به عن كثرة شم بعض الفقراء الرياحين، فلاث بهم بعض الناس وقالوا: هذا ترفُّه لا يليق بالفقراء، وإنما يليق بهم التقشف.

والجواب: قد رُوي في الحديث أن الصحابة ﷺ كانوا ينثرون زهر الفاكهة والرياحين في العقيقة، وفي الحديث: «من عُرِضَ عليه طيب أو ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الريح»[5]. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٢) ومما أجبتُ به عن حمل الفقراء الحربة والجوكان[6] والقنديل، حتىٰ لاث

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٧٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٣٦) وقال ابن حجر: قال البيهقي: وروي عن مكحول عن يحيىٰ بن العلاء عن معاذ وليس بصحيح. وقال ابن الجوزي إنه حديث لا يصح. انظر: «التلخيص الحبير» (٤/ ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣)، ومسلم (١٧٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٢٦)، والبيهقي في «السنن» (٤٣٣٤) وأحمد (١٧٩١٣) والطبراني في «الكبير» (٨٣٧٢).

(٤) أخرج ابن ماجه (٣٣٠٠) من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي يقول: «كنا نأكل علىٰ عهد رسول الله ﷺ في المسجد الخبز واللحم» وابن حبان (١٦٥٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٥٣)، وأبو داود (٤١٧٢).

(٦) الجوكان: عصىٰ مدهونة طولها نحو أربعة أذرع برأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع، تستخدم في لعب الكرة.

بهم بعض الناس وقال: هذه هيئة لم تبلغنا عن أحد من السلف الصالح.

والجواب: أنه ثبت في الحديث: أنه ﷺ كان له حربة في قطعة رمح يتوكأ عليها، ويركزها أمامه يصلي إليها(١)، وفي أوقات كانت تُحمَل بين يديه إلىٰ مصلىٰ العيد، فيصلي إليها(٢)، وهي المسماة بالعَنَزَة، ومثل الحربة في ذلك الجوكان -بلغة العجم- وهو المِحْجن(٣).

ولما حجَّ أبو بكر وأفاض من جمع، صار يحوش بعيره بمِحْجنه ثم يجذبه إليه، يريد بذلك تحريكه، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ استلم أركان البيت بمِحْجنه لما حج»(٤)، وفي الحديث: «أن بعض الصحابة كان يمشي إلىٰ المسجد في الليلة المظلمة بالنور»، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٣) ومما أجبتُ به عن الفقراء الأحمدية أو البرهانية وغيرهم في ندائهم بالجمع لمناقشة كلٍّ من أساء الأدب معهم، وهجرانهم له إذا ترك موافقتهم علىٰ الإرث، وطلبهم الصلح بين الفقراء من غير أن يطلبوا ذلك، وأنكر عليهم الفقهاء وقالوا: هذا الأمر لا يكون إلا لمن ولَّاه وليُّ الأمر من قاضٍ وحاكم سياسي.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ مثل ذلك، فقد ثبت في الأخبار الأمر بالصلح بين المسلمين، وقد أخر ﷺ الصلاة وذهب يصلح بين قوم وقال: «إن أبطأتُ فقدِّموا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٩٨) من حديث عبد الله بن عمر: «أن النبي ﷺ كان يركز له الحربة فيصلي إليها» ومسلم (٥٠١).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث أخرجه البخاري (٩٥٧) من حديث عبد الله بن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يصلي في الأضحىٰ والفطر، ثم يخطب بعد الصلاة» ومسلم (٥٠١).

(٣) المِحْجَن: كلُّ معوج الرأس كالصَّولجان.

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٧٣) من حديث جابر قال: «طاف رسول الله ﷺ بالبيت في حجة الوداع علىٰ راحلته يستلم الحجر بمحجنه، لأن يراه الناس وليشرف وليسألوه، فإن الناس غشوه» وأبو داود (١٨٧٩).

أبا بكر يصلي بالناس». ويُسَمِّي ما ذُكِرَ القومُ بالمنافرة والمطالبة والمناقشة، وقالوا: لا يزال الفقراء بخير ما تنافروا، وبذلك ترتفع المداهنة بينهم، ثم إن رجع الفقير الذي جمعوا عليه الجمع وأطاع فذاك، وإلا قالوا: تعزير كل من خرج عن الحقِّ بالضرب وغيره، ويؤيد ذلك حديث مسلم مرفوعًا: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم أنه يخلف من بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1]. انتهىٰ. «ومن جاهدهم بيده» شمل ضربهم علىٰ وجه التعزير.

وإذا كان المريد صادقًا، فهو يتقدم للضرب والتعزير بنفسه، وإن وقع أنه رجع عن تحكيم الشيخ في نفسه، فقد نقض العهد، وما بقي للشيخ ولاية عليه.

واعلم يا أخي أن من أجاب عن نفسه وخاصم من نصحه، استحق الهجران. وقد مضت سنة الأشياخ أن يهجروا من أجاب عن نفسه واتبع هواه. وقد هجر رسول الله ﷺ بعض نسائه شهرًا في غيبة وقعت منها [في حق ضرتها][2]، وهجر رسول الله ﷺ من كذب عليه مرة واحدة ثلاثة أشهر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي وعد الفقراء بأن يصنع لهم طعامًا، ثم أبطأ عليهم، فصفعوه وآذوه بالكلام، فلاث بهم بعض الفقهاء وقال: للمحسن أن يحسن أو لا يحسن.

والجواب: أن خلف الوعد من صفات المنافقين كما هو معلوم، وفي مطالبة هذا الفقير بالوفاء بالوعد مصلحةٌ له، وتأديةٌ لحقوق الإخوان الذين وعدهم، ونهي عن منكر، وربما ظن بعض من لا خلطة له بالقوم أنهم إنما يصفعونه لحظ نفوسهم، وهو ظن فاسد،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠)، وابن حبان (٦١٩٣).

(٢) ساقط من «ب». أخرج أبو داود (٤٦٠٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنه اعتل بعير لصفية بنت حيي، وعند زينب فضل ظهر فقال رسول الله ﷺ: لزينب: «أعطيها بعيرا» فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية؟ «فغضب رسول الله ﷺ فهجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر».

إنما يصفعونه ليخرج عن صفة النفاق التي تضره في دينه. وليس بين القوم بحمد الله ضغائن ولا شحناء، وكيف يصح من أحدهم ارتكاب ما يمنع أعمالهم عن الرفع إلىٰ السماء؟! وفي الحديث مرفوعًا: «أولم ولو بشاة»[١] لمن تزوج . وفي هذا دليل علىٰ مُطالبة الإخوان بالحقوق من حيثُ إن الوليمة علىٰ العرس سنة، ومنفعتها ترجع علىٰ الإخوان من حيثُ إطعامُ الطعام، فاعلم ذلك، وظنَّ بالفقراء خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر المريد إذا طلب التنصيل من ذنبه أن يستغفر قائمًا مكشوف الرأس، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم يأت به كتاب ولا سنة، ويكفيه الاستغفار علىٰ أي حالة كان من قيام أو قعود وعمامته علىٰ رأسه.

والجواب: أنه لا إنكار علىٰ هذا الشيخ، لأن مقصوده حصول الصفاء والمسارعة إلىٰ براءة الذمة بكلِّ حيلة، ولا شك أن كشف المستغفِر رأسه أبلغ في الذل، وفي سرعة رقة قلب المظلوم عليه ورحمته له، وما لا يُتوصَل إلىٰ المستحَب إلا به فهو مستحَب، ورُوِي أن آدم وحواء لما تاب الله عليهما، استغفرا الله تعالىٰ قائمين، و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فكان استغفارهما قائمين إنما هو إظهار لشدة اعتنائهما بالتوبة، وإلا فمن المعلوم صحة الاستغفار قاعدًا ومضطجعًا. ويؤيد ذلك أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فقدَّم القيام اهتمامًا به، والاستغفار ذكر الله تعالىٰ بيقين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ المريدين عن الأكل من طعام النساء، [فلاث به الناس وقالوا: كان النبي ﷺ يأكل من طعام النساء][٢] فكانت أم حرام بنت مِلْحان[٣]

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥١٦٧) ومسلم (١٤٢٧).

(٢) سقط بالأصلين، وقد استكملناه اجتهادًا بما يناسب السياق.

(٣) أم حرام بنت ملحان بن خالد الأنصارية، خالة أنس بن مالك، كانت تخرج مع الغزاة وتشهد الوقائع. حضرت فتح قبرص فسقطت عن بغلتها فاندق عنقها، فماتت ودفنت في الجزيرة ت ٢٧هـ. الإصابة (٨/ ٣٧٥)، الأعلام (٢/ ١٧٢).

تدعو النبي ﷺ وبعض أصحابه إلىٰ طعام تصنعه وهي بقباء[١]، فكان ﷺ يذهب إليها هو وأصحابه[٢]. ومعلوم أن رسول الله ﷺ أكبر الناس مروءة، فلو كان في ذلك قدح في المروءة لما فعله رسول الله ﷺ.

والجواب: أن الشيخ لا يخفىٰ عليه مثل ذلك، وإنما نهىٰ المريد عن الأكل من طعام النساء رفعًا لهمته أن تكون امرأة تقوم عليه في ذلك النهار، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

وأيضًا فإن المريد ربما مال بالقلب إلىٰ تلك المرأة بسبب إحسانها، ولاسيما إن كانت شابة جميلة، فإنها ربما أتلفت باطن ذلك المريد بالكلية، بخلاف من كان يملك إربه من الأشياخ.

وأرسلت بعض النساء له ﷺ لبنًا وهو واقف يخطب بعرفة فشربه[٣]، وأرسلت أم عطية كتف شاة مطبوخة إلىٰ بيت النبي ﷺ، فأكل منها وقال: قد بلغت محلها[٤]، أي لكون أم عطية كانت تأخذ الصدقة[٥]، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٧) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يتواجد عند سماع القرآن وتقع عمامته، فقال له فقير: هذا حرام عليك؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف يكون التواجد عند كلام الله تعالىٰ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢٨٢) من حديث عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه سمعه يقول: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلىٰ قباء، يدخل علىٰ أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت تحت عبادة بن الصامت، فدخل يوما فأطعمته...» ومسلم (٢٠٤٠).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٧٨) عن أنس قال: «قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلىٰ رسول الله ﷺ ...» ومسلم (٢٠٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٨٨)، ومسلم (١١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٤٦)، ومسلم (١٠٧٣).

(٥) أي فالشاة لها صدقة، ثم حينما أعطتها للنبي ﷺ كانت هدية له ﷺ لكونه ﷺ لا يأكل الصدقة.

حرامًا؟! وقد قال تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨]، فمدحهم علىٰ ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لأن مثل هؤلاء الفقراء لا يجهلون إباحة التواجد، وإنما مراده أن ذلك حرام من حيثُ القصدُ والذوقُ حيثُ تفرَّس فيه أنه متفعل. وقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي في الباب الرابع والثمانين ومئة من «الفتوحات المكية»: من كان لا يجد قلبه مع الله تعالىٰ إلا في السماع، فالواجب عليه تركه، لما في ذلك من المكر الإلهيِّ الذي لا يشعر به إلا الأكابر. ومن كان يجد قلبه فيه وفي غيره، ولكنه يجده في النغمات أكثر، فحضوره السماع حرام، سواء كانت النغمات بشعر أو غيره، حتىٰ في القرآن. ثم إن من وُجِدَ عليه عند سماع القرآن، فإن كان ذلك لحسن صوت القاريء، فذلك معلول، وتلك الرقة التي وجدها في قلبه من الطبيعة النفسية.

[توجيه المؤلف لما يقع للشيخ عبد الرحمن الأجهوري عند تواجده]

وقد كان أخي العالم الصالح الشيخ عبد الرحمن الأجهوري المالكي يحضر وقت سيدي عمر بن الفارض في القرافة ويتواجد، فتقع عمامته، فقالوا له: إما أن تكون غائبًا، فقد انتقض وضوؤك، وما رأيناك جددت طهارة؛ وإن كنتَ حاضرًا، فلأي شيء ترمي عمامتك؟! فأجبتُ عنه بأن رميها قد يكون من ثقلها وهو حاضر العقل، فلا تعارض. فاعلم ذلك، واحمل كلام هذا الفقير علىٰ ما يطرأ في السماع من التغفل، لا علىٰ أصل السماع، فإنه محمود، [نظير الرياء في العلم والعمل، فالأصل[1] محمود][2]، والفرع[3] مذموم[4]، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزجر تلامذته عن السؤال عن حكم من الأحكام

---

(١) أي العلم أو العمل.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) أي الرياء.

(٤) بالأصلين: محمود. والصواب ما أثبتناه.

حال تدريسه، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا درس لا فائدة فيه، إذ الفائدة إنما هي في سؤال الإنسان عما لا يعلم.

والجواب: أن الأشياخ لا تجهل مثل ذلك، و[لكن تدريسهم إنما هو تشويق لأحوال الرجال لا غير. ومراد الشيخ أن المريد يعمل علىٰ][1] جلاء قلبه حتىٰ يصير يفهم أحكام الكتاب والسنة، ويأخذ الأحكام من حيثُ أخذها المجتهدون، فلا يقنعون من المريد ببلغتَ وصدقتَ، وإنما يقنعون منه بذقتُ ورأيتُ.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: ليس في طريق القوم مجادلة ولا مماراة، ولا ممالقة[2] ولا منازعة، لحديث: «عند نبي لا ينبغي التنازع»[3]، وحضرة الأولياء كذلك لا ينبغي فيها التنازع، لأن أحدهم يتكلم بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها من طريق كشفه، فهو كالنصوص الشرعية، فعُلِمَ أنه لا يكفي المريد عندهم العلم من غير ذوق كغيرهم، فربما علم المريد الحكم تقليدًا، فصار يدعيه ذوقًا، فانقطع عن الترقي، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٤٩) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي مرَّ علىٰ بابه جماعة من الفقهاء، فوجدوه يضرب شخصًا وهو يصيح: أنا مظلوم، والباب مغلق بينه وبين الناس، فصاح به الفقهاء: ما يحل لكم من الله تعالىٰ أن تضربوا مسلمًا ظلمًا، بأنه ربما كان ذلك الشخص المظلوم عند المارين قد استحق مثل ذلك، وهو كاذب في قوله: «أنا مظلوم» كمن أفسد حريم الأمير، أو سرق له نصابًا فأكثر واستحق قطع اليد لو رُفِعَ إلىٰ الوالي، فرفق به الأمير، وأبدل قطع اليد بضربه بالسوط، وربما شكر فعله ذلك المضروب الذي لم يقطع يده إذا برد ألم الضرب عليه، فتكون هذه المسألة من باب ظلم دون ظلم. فابحث يا أخي أولًا عن سبب ضربه، ثم أنكر علىٰ الأمير بطريقه الشرعي. وأما صياحك علىٰ الأمير بأن هذا

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

(٢) الْمُمَالَقَةُ: الْمُنَافَقَةُ.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧).

أمر لا يحل لك، فتهور منك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل عليه عالم كبير فلم يحتفل بأمره ولا قام له ولا تبسم في وجهه، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يعطي العالم حقَّه من التبجيل، ولكن هذا إزراء بالعلماء[1].

والجواب: أن ذلك الشيخ ربما كان قلبه مشغولًا بأهوال يوم القيامة، قد أخذت بمجامع قلبه عن أحوال أهل الدنيا وهو باهت يشاهد بعين قلبه من ترجح ميزانه ومن يخسر، ومن يمشي علىٰ الصراط سالمًا حتىٰ يخلص إلىٰ الجنة، ومن يقع من علىٰ الصراط ونحو ذلك. وهذا الأمر هو الغالب علىٰ كلِّ من حَقَّ له قدم الولاية من الله تعالىٰ له.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ مثل ذلك، فإن وقوع أحدهم في إزدراء أحد من العلماء أبعد من البعيد، وكيف يزدري أحدهم حملة شريعة رسول الله ﷺ وهم يشهدون عظمة صاحبها ﷺ؟! فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥١) ومما أجبتُ به عن العارف الذي يقول عن الفقير المتجرِّد من الدنيا عند الناس كلِّهم: فلان غارق في محبة الدنيا؛ فلاث به الناس وحملوه علىٰ الحسد والعداوة له، وقالوا: إذا كان المشايخ يكرهون بعضهم هذه الكراهة، فما بقي أحد منا يُلَام علىٰ عداوة أحد!

والجواب: أنه قد يكون مراد هذا العارف بأن هذا الفقير غارق في محبة الجاه والصيت بالزهد والصلاح، كما هو الغالب علىٰ كلِّ من يتجرَّد من الدنيا في ظاهره، فأراد العارف أن ينبِّه ذلك الفقير علىٰ تفتيشه باطنه، فربما كانت حالته إذا لم يتجرَّد من الدنيا أحسن من حالته إذا تجرَّد، لما حصل له من الآفات بسبب تجرده. ولا يجوز حمل ذلك العارف علىٰ العداوة والحسد، إذ من شرط العارف عدم العداوة والحسد لأحد من عبيد الله عزَّ وجلَّ، فلا يليق بمقامه ذلك، فإنه جهل بأحكام الله، وعدم رضا بقسمة الله، وحاشا العارف من ذلك! حاشاه!

---

(١) انظر أيضًا الجواب (٢٩٠).

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ليس التجرد من الدنيا إلا التجرد من الميل إليها [إلا][1] لغرض صحيح، وأما التجرد منها ظاهرًا مع المحبة لها باطنًا فهو نفاق. وقد كان مالك بن دينار ﷺ يقول: يلبس أحدهم العباءة بدرهم، وشهوته في قلبه بخمسة دراهم، فأين الزهد؟! وسُئل الإمام الجنيد عمَّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة، فقال: المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن العبد لو نظر إلىٰ حاله بعين البصيرة، لوجد نفسه غارقًا في شهوات الدنيا ليلًا ونهارًا من كلِّ يوم وشرب وجماع وجاه وعافية وغير ذلك، وما سلِم إلا من أخذ من الدنيا ما يسدُّ به الضرورة فقط. فاعلم ذلك، وسلِّم للعارفين مناقشتهم للعبَّاد والمريدين، فإنهم أعرف منهم بأحوالهم، كالبيطار يعرف مرض الدواب أكثر من أصحابها، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: تقوىٰ الله حق تقاته أسهل من تقوىٰ العبد حد الاستطاعة؛ فلاث به بعض العلماء وقالوا: هذا خلاف ما عليه جمهور العلماء.

والجواب: أن الحق مع هذا الشيخ، لأن تقوىٰ الله حقَّ تقاته أن يعلم العبد من طريق إيمانه أن الله تعالىٰ لولا وقاه المعاصي ما قدر علىٰ تلك التقوىٰ، وهذا أمر سهل، بخلاف الأمر بتقوىٰ الله حد الاستطاعة، فإنها لا تصح للعبد إلا بعد بذله الوسع في التقوىٰ، حتىٰ لا يبقىٰ فيه سعة لأعلىٰ من ذلك، وهذا أصعب علىٰ النفس، لأن من شأنها الكسل والميل إلىٰ الراحات.

وهذا نظير ما أوحىٰ الله تعالىٰ به إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام في حق الشكر، فإن اعتراف العبد لله تعالىٰ بأن جميع ما هو فيه من نعمه تعالىٰ عليه أسهل من بذله وسعه في استعمال جميع جوارحه الظاهرة والباطنة في مرضات الله عزَّ وجلَّ دون استعمالها فيما يكره. وهذا الشكر أصعب من الشكر بالاعتراف باللسان، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، ولم يكتفِ منهم بالشكر باللسان. وهذه الأمة المحمدية أحقُّ بقيامها بهذا الشكر.

ومن تأمل في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، عرف أن الأولياء مكلَّفون بترك الخواطر الردية، بخلاف غيرهم، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٤] عند من لا يرىٰ نسخها، وكتب القوم مشحونة بمؤاخذتهم بالخواطر، وما عُصِمَ عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين لا تخطر الفحشاء علىٰ قلوبهم، ولا تقام عليهم حجة يوم القيامة. وأما حديث: «لو عرفتم الله حق معرفته، وخفتم من الله حق خوفه، لعلمتم العلم الذي ليس معه جهل، ولن يبلغ ذلك أحد من خلق الله تعالىٰ. قيل: ولا النبيون يا رسول الله؟ قال: ولا النبيون، الله أعزُّ وأعظم من أن يبلغ أحد أمره كله»[1]. ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] أي ما عبدوه حقَّ عبادته، ولا أتوا بواجب الحق الذي له عليهم، فالمراد به هضم نفوسهم والاعتراف بفضل الله تعالىٰ عليهم، وإلا فالواجب اعتقادنا في جميع الأنبياء والمرسلين أنهم قدروا الله حق قدره القدرة التي تمكن البشر علىٰ اختلاف مقاماتهم، ولم يبقَ عليهم حجة تقام عليهم يوم القيامة، وتكون الآية في حق غيرهم من الأمة لعدم عصمتهم.

وإيضاح ذلك أن الأمر بتقوىٰ الله حق تقاته لا بد له من محل يقبله، ولو لم يكن له محل يقبله، لكان الأمر بالتقوىٰ يرد علىٰ غير محل قابل له، وذلك تأباه الحكمة الإلهية نظير ما قلنا مرارًا في قدرة العبد، فإنه لولا جعل الله له قدرةً ما خاطبه بقوله: «افعل كذا وكذا» لأنه ليس من الحكمة أن يقول: افعل يا من لا يفعل، وامش يا مقعد ونحو ذلك،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الديلمي (٥١٢٣) من حديث معاذ بن جبل: «لو عرفتم الله عز وجل حق معرفته لمشيتم علىٰ البحور، ولزالت بدعائكم الجبال، ولو خفتم الله حق خوفه لعلمتم العلم الذي ليس معه جهل، وما بلغ ذلك أحد ولا أتىٰ، الله عز وجل أعظم من أن يبلغ أحد أمره كله» ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٨٠٢).

فللشيء تقوىٰ بحسب مقامه، وللمؤمن تقوىٰ تناسب مقامه، فإذا اتقىٰ النبي التقوىٰ التي أُمر بها كان متقيًا لله حق تقاته، وكذلك المؤمن.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: للتقوىٰ مراتب، وأهل الله لا يقنعون إلا بأعلىٰ مراتبها وأكملها:

فأولها: أن يتقي المؤمن ما حرَّم الله عليه، وليس عليه بعد ذلك جناح فيما أُبيح له.

ثانيها: أن يتقوا الرياء في الأعمال بالإخلاص، والشك فيها بالصدق، والشبهات بالورع.

ثالثها: أن يتقوا ويحسنوا، أي يتقوا السعة في الدنيا، ويتنزهوا عنها، كما عليه الأنبياء والأولياء، ويحسنوا بالمراقبة لله تعالىٰ والحياء منه، كما أشار إلىٰ هذه المراتب قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة: ٩٣]، فكان آخر تقواهم منوطًا بالإحسان، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «منهج الصدق والتحقيق» في الباب الحادي عشر منه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي جاع وأحضروا بين يديه طعامًا من مكَّاس، وطعامًا من قاضٍ، فأكل من طعام المكَّاس دون طعام القاضي، فقال له بعض الناس: طعام القاضي أخف من التحريم من طعام المكَّاس. فقال: بل المَكْس[1] أخف.

والجواب: أن الحق مع هذا العالم، لأن الرِّشوة كالمكس في التحريم، وتزيد عليه في الإثم من حيثُ كونُها تتعلق ببيع الدِّين، هكذا قال جماعة. وقالوا: مما يؤيد ذلك أن النمل لا يأكل من طعام القاضي ويأكل من طعام المكَّاس، ومن شك فليمتحن. ثم إن مثل هذا الأمر يدخله الاجتهاد، فمن ترجَّح عنده أن المَكْس أقوىٰ في التحريم أو طعام القاضي، وجب عليه العمل بمقتضاه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يجب عليَّ التورع عن الشبهات لأجل

---

(١) المَكْس: الضَّريبة.

الناس، لا لأجل نفسي؛ فأشكل ذلك علىٰ بعض العلماء وقال: كيف ذلك؟!

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون ممن أحكم ترك الأكل من الشبهات، وظن في الله تعالىٰ حمايته منه حتىٰ يموت، وإنما يتورع الآن لئلا يُرَد دعاؤه لمصالح العباد، فكان الباعث له علىٰ ترك الشبهات إنما هو خوفه أن يُرَد دعاؤه إذا سأله الناس في حاجة، وهذا الأمر يتعين فعله علىٰ كلٍّ من تصدر لقضاء حوائج الناس عند الله عزَّ وجلَّ.

وقد استحميت مرةً عن الأكل من طعام كلِّ من لا يتورع في مكسبه، فغلبتني النفس يومًا، وأردت أن آكل من طعام شخص من المباشرين، فرأيتُ زوجتي أم عبد الرحمن لها ثلاثة أشهر مستحمية عن الزفر والجبن والبطيخ والعنب وغير ذلك لأجل ولدها المرضع، فقلتُ في نفسي: إذا كان هذا فعل امرأة لأجل مصلحة ولدها الذي لم يظهر منه نفع للناس، فاستحمائي أنا لأجل من ظهر نفعه للناس[1] أولىٰ! فكانت لي جندًا من جنود الله إلىٰ وقتي هذا، ونسأله الدوام علىٰ ذلك إلىٰ الممات.

فمعنىٰ كلام الشيخ أني فرغتُ من حكم التورِّع لأجل مصلحة نفسي، وأنا الآن إنما الباعث لي علىٰ الورع مصلحة الناس، وإن كان ذلك يرجع أيضًا إلىٰ مصلحة نفسه، فتأمل، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: لا أحد منكم يؤذيني، فإني مجاب الدعوة؛ فلاث به الناس وقالوا: من أين يعرف هذا أنه مجاب الدعوة؟!

والجواب: أنه يعرف ذلك بإحكامه الأكل من الحلال، فإن من أحكم أكل الحلال لا يصير له عضو ظاهر ولا باطن يتحرك فيما يكرهه الله أبدًا. ومن وصل إلىٰ هذا المقام أجيب دعاؤه في كلِّ أمر علَّقه الله تعالىٰ علىٰ الدعاء، فعدم إجابة الدعاء إنما هو لارتكاب المعاصي، ومن لا معصية له أصلًا، أو له معصية وتاب منها توبة مقبولة، فدعاؤه كدعاء الملائكة لا يُرَد. فعُلِمَ أن من يأكل الشبهات ويطلب إجابة دعائه في حقِّ نفسه أو غيره، فقد رام المحال، وقد يجيبه الحقُّ تعالىٰ استدراجًا ومكرًا به.

---

(١) بالأصلين: من الناس.

(٨٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزعم أن الله تعالىٰ يحدِّثه بلا واسطة، ولاث به الناس وقالوا: هذا زندقة.

والجواب: أنه قد يكون عُمَرِيَّ المقام، كما أشار إليه قوله ﷺ: «إن يكن من أمتي محدَثون فعمر بن الخطاب»[1] أي إن يكن من أمتي من يحدثه الله تعالىٰ في سرِّه، فعمر منهم. وهذه هي الحالة التي كانت للعبد عند أخذ الميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فإن الله تعالىٰ خاطبه هناك بلا واسطة، ولذلك سمىٰ الروح «عالم الأمر».

وقد أجمع العارفون علىٰ أن غاية ما يصل إليه العبد بالسلوك هو أن الله تعالىٰ يكلِّمه في سره بلا واسطة، ويعرف العبد أن ذلك هو الحقُّ تعالىٰ، [فإن غالب الناس يحدثهم الحق تعالىٰ في سرائرهم، ولا يعرفون أنه الحق تعالىٰ][2] بل يقول بعضهم: قالت لي نفسي كذا، فقلت لها: لا أو نعم، فمن عرف الحق تعالىٰ إذا حدثه، فهو العارف بالله تعالىٰ.

فإن قلت: كيف صفة هذه المعرفة؟ **فالجواب:** أنها أمر يلقيه الله تعالىٰ في قلب العبد، ويخلق له علمًا ضروريًا أن هذا هو الحق، ولا يلزم من ذلك معرفة الذات، فإن بين المقرَّبين وبين حضرة الذات سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وثلج، كما صرح به جبريل حين قال: «هل رأيت ربك؟»[3].

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ ؒ يقول: من ادعىٰ أن الحقَّ تعالىٰ يحدِّثه في سره فصدقوه، أو أنه يكلمه فلا تصدقوه، لأن الكلام خاص بالأنبياء المكلَّمين دون غيرهم. فإياك أن تنكر علىٰ من قال: حدثني قلبي عن ربي، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، وأحمد (٨٤٦٨).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٠٧) من حديث أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «سألت جبريل ؑ هل ترىٰ ربك؟ قال: إن بيني وبينه سبعين حجابًا من نور، لو رأيت أدناها لاحترقت» والديلمي في «الفردوس» (٣٤١١) والدلابي في «الكنىٰ والأسماء» (١٧٦٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥١) وفيه قائد الأعمش. قال أبو داود: عنده أحاديث موضوعة، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: يهم.

(٨٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أرىٰ الآن ما يُكتَب في الألواح السماوية الثلاثمئة وستين لوحًا، وأعرف ما تكتبه الملائكة في شأني؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا مجنون أو كذَّاب.

والجواب: أن هذا المقام يحصل للعبد إذا ترقَّىٰ إلىٰ مقام حقِّ اليقين بعد عين اليقين، ثم إنه يترقىٰ من ذلك إلىٰ مشاهدة ما يُكتَب في اللوح المحفوظ، أي عن المحوِّ. وصاحب هذا المقام إذا أخبر عن شيء من الأمور المستقبلَة لا يخطئ، بخلاف من كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات، كما مرَّ تقريرُه مرارًا.

وقد كان الإمام عليُّ بن أبي طالب ﷺ يقول: قد وصلتُ إلىٰ شهود اللوح المحفوظ، وشاركتُ الملائكة المقربين في مشاهدة تلك الرقوم الغيبية من الكائنات العلوية والسفلية المسطورة في اللوح، ولولا آيةٌ في كتاب الله لأخبرتُكم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة. قيل: وما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] التي هي مفاتح الغيب المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، قاله الإمام سعيد بن سليمان الكوفي[1] ﷺ. وقول الشيخ محيىٰ الدين: إن ﴿أُمَّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو اللوح المحفوظ المعبَّر عنه بـ«الإمام المبين» الذي أحصىٰ الله تعالىٰ فيه كلَّ شيء، وقال: قد أطلعني الله تعالىٰ علىٰ ما فيه، فعلمتُ عدد الكوائن إلىٰ يوم القيامة، وعدد أمهات هذه الكوائن هو ما يحصل من ضرب ثلاثمئة ألف وستين ألفًا في مثلها. انتهىٰ.

فقد علمت تصريح الإمام عليٍّ والشيخ محيي الدين باطلاعهما علىٰ اللوح المحفوظ، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ. وإنما منع العلماء من دعوىٰ ذلك سدًّا لباب ما يعارض الشريعة، فإننا إذا صدقنا من يقول: رأيت كذا في اللوح المحفوظ، فربما عارض

---

(١) أبو الغنائم سعيد بن سليمان الكوفي الكندي الحنفي. له مصنفات منها: «شمس المعارف وأنس العارف» و«معارف القلوب بذكر كشف الغيوب في نهاية المطلوب». توفي: ٦١٦هـ. «هدية العارفين» (١/ ٣٩١)، «كشف الظنون» (٢/ ١٧٢٤).

القرآن العظيم، ولا يجوز لنا العمل بقوله، لعدم عصمته، بخلاف القرآن، فإنه متواتر قطعي، فأي فائدة لتصديقنا لهذا الشيخ؟! ومن هنا لم يصرِّح الإمام عليٌّ ﷺ بما يراه في اللوح المحفوظ من الأمور الكائنة، خوفًا أن يُنكَر ذلك عليه، ولذلك لم يعبر بالأمر الحازم والثبوت اللازم. وكان الإمام عليٌّ كثيرًا ما يقول: تعلمتُ ألف علم، ففُتِحَ لي في كلِّ علم ألفُ علم، ولو أُذِنَ لي لشرعتُ في معنىٰ أَلِفِ «الحمد لله» سبعين وقرًا، ولو شئت لحكمتُ لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، وبينتُ لهم ما بُدِّل وما نُسِخَ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ليس في اللوح المحفوظ ما يقبل التعقب، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١] أي في اللوح المحفوظ. وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقوله: مقام حقِّ اليقين لا يكون إلا لمن بلغ الغاية في الترقي، لأنه هو نور الله الأعظم المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، وبقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فانظر في قوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ و﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ لم يقل فيهما بنوره ولا بالإسلام، إشارةً إلىٰ مبادئ السلوك دون غايته، كما يُقال: توضأتُ للصلاة، وتأهبتُ للقتال. وإيضاح ذلك أنه لا يُقال: هدىٰ الله فلانًا بنوره، وشرح صدره بالإسلام، إلا إذا كان مبتدئًا في السلوك، بخلاف الكامل، فإن الله تعالىٰ هداه لنوره وللإسلام -باللام- والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: صديق الإنسان هو من يعمل بعمله. فقال له شخص: هذا غلط! وإنما هو عدو الإنسان من يعمل به.

والجواب: أن كلا هذين الشخصين صادق، لكن الأول محمول علىٰ حال من خرج عن الرعونات النفسية، وطهَّر باطنه من الرذائل، والثاني محمول علىٰ أهل الرعونات، فإن كل واحد منهما يطلب الرئاسة والانفراد بها، فهو يعادي كلَّ من زاحمه عليها بالأعمال.

[سؤال المؤلف شيخه المرصفيَّ عن سبب عداوة إبليس]

وقد قلتُ لسيدي عليٍّ المرصفي رحمه الله: ما سبب عداوة إبليس لنا، مع أنه ليس من جنس البشر؟ فقال: سبب عداوته لنا ما فينا من الجزء الناريِّ، ولولا ذلك الجزء ما كان

بيننا وبينه عداوة، ولا كان الحقُّ تعالىٰ سلَّطه علينا. قال: ومن هنا كان الإنسان لا يقدر علىٰ أن يمنع إبليس من الوسوسة له، وإنما يقدره الله علىٰ عدم العمل بما يوسوس به له فقط، فإن كان نبيًّا فبالعصمة، وإن كان وليًّا فبالحفظ. وفي المثل السائر: «قالوا للشجرة: بلغنا أن الحديد يريد أن يقطعك. فقالت: ما بيني وبين الحديد عداوة! لأنه جنس وأنا جنس. فقالوا لها: لا بد من مجيئه لك. فقالت: انظروا فلعله يكون معه شيء من جنسي. فقالوا: نعم، يد الفأس. فقالت: هي التي جرته إليَّ». انتهىٰ. فقلتُ له: إن بعض الناس يزعم أنه يجتمع بإبليس ويراه ويحدِّثه، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فقال: إن إبليس أُعطِي قوة التطور، فربما رآه هذا الشخص حال تطوره، ويُحتَمل أن يخرق الله له العادة، كما يخرق العادة برؤية الملَك أو سماع كلامه لبعض الأولياء.

وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يفسر الهاتف بأنه ملك، أو وليٌّ، أو الخضر، أو جنيٌّ من صالحي الجن، ويقول: لا يجمع بين رؤية الملك والجني وسماع كلامه في آن واحد إلا نبي. وأما غيره فيسمع كلامه من غير رؤية شخصه، أو يرىٰ شخصه من غير كلام. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي كلام من يزعم أنه يرىٰ إبليس في صورته الأصلية [علىٰ ذلك][1] وكتب القوم مشحونة باجتماعهم به.

وذكر الشيخ مجد الدين بن سعيد الكوفي رحمه الله [أن إبليس][2] لقي موسىٰ عليه الصلاة والسلام أواخر عمره علىٰ جبل الطور، فقال له موسىٰ: بئس ما صنعت بنفسك في امتناعك من السجود لآدم، فلم فعلت ذلك؟ فقال: لأني كنتُ قد ادعيتُ محبة الله تعالىٰ، فلما توجه السجود لغيره، امتنعتُ ورأيتُ العقوبة في الدنيا والآخرة علىٰ زعمكم أخفُّ عليَّ من كوني [كاذبًا][3] في دعواي المحبة، وكيف أسجد وأخضع لغير من ادعيتُ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

محبته؟! وكذلك أنت يا موسىٰ لما ادعيتَ محبته امتحنك وقال: انظر إلىٰ الجبل مكيدةً بك، ثم لما نظرتَ إليه ناقشك في دعواك المحبة له، وكأنه يقول لك: لو كنتَ محبًّا ما التفت إلىٰ غيري. وأطال في ذلك، ثم قال: فلو كنتَ غمضتَ عينيك عن النظر إلىٰ الجبل، وعلمتَ أن ذلك مكيدة، لكنتَ رأيتَ ربك كما رآه الجبل، بل أنت أولىٰ بالرؤية، ولكن حق أن لا يراه إلا من عمي عن سواه. انتهىٰ.

فسلِّم يا أخي للشيخ الذي يقول: اجتمعتُ بإبليس، أو يقول: إني أجري في عروق مريدي مجرىٰ الدم، فإن غايته أنه ادعىٰ مقامًا أعطاه الله لإبليس، لكن ذاك ليضل به العبد، وهذا ليهديه به، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحطُّ علىٰ العالم إذا اعتزل عن الناس في هذه الأيام، فلاث به بعضُ المتصوفة وقالوا: قد حثَّ الشارعُ علىٰ العزلة في آخر الزمان[1]، وما مات الصحابة حتىٰ قالوا: قد حلَّت العزلةُ في هذا الزمان، أي وجبت، فكيف يأمر هذا الشيخُ العالمَ بالخلطة للناس في أواخر القرن العاشر؟!

والجواب: أن كلام الشارع ﷺ محمول علىٰ العالم الذي لا يحتاج الناس إلىٰ علمه [إما لعلمهم كلِّهم، أو لاستغنائهم عنه بغيره. أما من يحتاج الناس إلىٰ علمه][2]، فلا ينبغي له أن يعتزل عن العامة، ويدع الشيطان يركض بينهم، ويأمرهم بارتكاب البدع حتىٰ يهلكهم. وقد كان سفيان الثوريُّ رضي الله عنه يقول: لولا العلماء لكان الناس كالبهائم. فيُحمَل كلام هذا الشيخ علىٰ أنه رأىٰ الناس محتاجين إلىٰ علم هذا العالم، فخاف من إضلال إبليس للعامة باعتزاله، أو خاف عليه من فتنة العزلة، كما إذا سمع الناس يقولون: ما في مصر الآن من هو علىٰ خير من العلماء إلا فلانًا، قد لزم بيته واستراح من

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» وأبو داود (٤٢٦٧).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

الناس. فربما مالت نفسه إلىٰ ذلك، وزاد في العزلة، فحكمه حكم من استرعاه الشارع علىٰ غنمه، فتركها في البرية للذئب، ولزم بيته حتىٰ أكلها الذئب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من مكائد إبليس بالعلماء أن يزِّين إلىٰ أحدهم الوحدة والعزلة، ويوسوس للأمراء والأغنياء وغيرهم بمدحه والثناء عليه، فيزيد في العزلة، وفي ضمن ذلك كتمان العلم، وعدم تعليمه للناس، حتىٰ يصير غالب الناس جهَّالًا بأحكام الشريعة، وهناك يغويهم إبليس، ولا يجد أحدًا يمنعه، لجهل الناس بمعرفة قواعد الشريعة، بل الذي نقول به: إنه **كلما قربت الساعة تعين علىٰ العلماء المخالطة للناس ونشر علمهم، والنداء به علىٰ رؤوس الأشهاد**. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: إذا رأيتُم عالـمًا يعتزل عن الناس، فأمروه بالخروج للناس، لئلا يتربىٰ له بذلك الجاه والرئاسة فيهلك، وليس له شيخ يأخذ بيده، وإن أبىٰ ولم يخرج للناس، فقولوا له: فتش يا أخي في نفسك، فربما تكون عزلتك لغير مرضاة الله تعالىٰ. فإن قال: لا أعلم إلا أني في مرضاة الله إن شاء الله؛ فقولوا له: اعرض علىٰ نفسك ما لو نسبك الناس إلىٰ عمل الزَّغَل[1] في عزلتك، أو الفجور بامرأة أو غلام، وامتلأت البلد بذلك، فإن اطمأنت ولم تقلق من سماع ذلك في حقِّها، فهي معتزلة لله، وإن تقلقت أو وجدت وحشة في نفسها بسبب ذلك فهو لغير الله. انتهىٰ.

وقد ذكرنا أقسام المعتزلين في الباب الحادي عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن حضور مجالس العلم ويقول: كلُّ من حضر أحدًا من هؤلاء العلماء مُقِتَ؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف يمنع فلان أصحابه من حضور مجالس العلم التي تنزل فيها الرحمة؟!

والجواب: أن مثل الشيخ في الطريق لا يجهل مثل ذلك، ولعل مراده أن هذه المجالس

---

(١) الزَّغَل: الغِش.

لا تسلم من المراء أو الجدال، أو الوقيعة في الناس، أو العجب ونحو ذلك، وقد قال سفيان الثوريُّ والفضيل بن عياض رحمهما الله: لا يحضر الملائكة مجلس علم فيه شيء من هذه الخصال، بل ربما مقت الله جميع أهل ذلك المجلس، وهي: الجدال، والمراء، والخصومة في السنة، والضحك، وذكر الدنيا، واحتقار أحد من الحاضرين. انتهىٰ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﵀ يقول: إياكم والاجتماع بعالم يدعوكم إلىٰ فضول الدنيا بمأكله وملبسه ومسكنه ومركبه، واستعيذوا بالله من القرب منه، واقربوا من كل من يزيده العلم عملًا، والعمل تواضعًا. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي نهىٰ أصحابه عن مجالس العلم علىٰ المجالس التي يقع فيها شيء من الإثم، بأن لا يستطيع أحدٌ منهم أن يأمر أحدًا من أهلها بمعروف إلا ويقابله بالأذىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦١) ومما أجبتُ به عن المشايخ الذين دار عليهم مكروب، فلم يفرِّج أحد منهم كربته بدعائه، فلاث بهم وقال: ما بقي أحد من هؤلاء المشايخ به نفع في الأرض!

والجواب: أنه قد يكون المانع لهم من تفريج كربه من جهته هو لا المشايخ، فقد قال أنس بن مالك ﵁: سيأتي علىٰ الناس زمان يدعو الصالح لغيره فلا يُستجَاب له، تقول الملائكة: ادعُ لنفسك يستجب الله لك، فأما غيرك فلا، إنهم قد أغضبوني باستهزائهم بالزاهدين والورعين، واتخاذهم مجلس العلم معدنًا للخوض في أعراض المؤمنين، والمسجد موطنًا لذكر الدنيا، ولم يبالوا بما نقص من دينهم، وحزنوا علىٰ ما فاتهم من دنياهم. انتهىٰ. فانظر يا أخي في نفسك هل وقعتَ في شيء من هذه الأمور؟ فإن رأيت نفسك سالمةً من ذلك، فاللوم علىٰ المشايخ، وإلا فاللوم عليك.

[محاورة بين المصنف وشيخه زكريا الأنصاري حول الأولياء]

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﵀ يقول: من أنكر وجود الأولياء، وقع في الكذب، واستحق المقت من الله، وحُرِم مددهم عقوبةً له، فإنه لولا الأولياء في كلِّ عصر وشفاعتهم في الناس، لهلك الناس.

فقلتُ له: قد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: قد غلب التسليم علىٰ الأولياء في هذا الزمان، فلا يكاد أحدهم يشفع في أحد، لعدم استحقاقه الشفاعة فيه حتىٰ ينقضي زمن المؤاخذة.

فقال: الأولياء في ذلك علىٰ قسمين: قسم غلب عليهم التسليم والرضا بمجاري الأقدار علىٰ الخلق علىٰ الكشف واليقين، فهو يختار للناس ما اختاره الحقُّ تعالىٰ لهم، ويراه خيرًا لهم، فلا يسأل الله في رفعه، بل يشكر الله الذي لم يجعل ذلك البلاء أعظم من ذلك من حضرته التي يزيد منها الأعمار والأرزاق، ويفعل منها ما يشاء؛ وقسم غلب عليهم الشفقة والرحمة علىٰ العباد، فيستأذن أحدُهم النبي ﷺ، ثم يشفع في الناس بحكم النيابة، ولولاهم[1] لهلك الناس، علىٰ أن التسليم لله تعالىٰ هو الأصل، والشفاعة فرع، فالكامل يسلِّم لله من وجه التقدير والحكمة، ويشفع عنده بالأمر.

فقلتُ له: فهل إذا شفع الوليُّ في أحد في هذه الدار، وقَبِلَ الله شفاعته، يحتاج إلىٰ إعادة الشفاعة فيه في الدار الآخرة أم لا؟

فقال: هو نظير حكم الحاكم، تارةً ينفذ باطنًا وظاهرًا، أي في الدنيا والآخرة، وتارة ينفذ في الدنيا فقط. انتهىٰ.

[محاورة بين المصنف وشيخه الخوَّاص حول دفع الأولياء للبلاء]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله **يقول:** إذا دخلت سنة خمسين وتسعمئة كثرت المعاصي في الأرض، حتىٰ لا يكاد الإنسان يرىٰ أحدًا تائبًا من ذنبه توبةً خالصةً، فهناك يقيض الله تعالىٰ طائفةً من أوليائه للتوجه إليه في دفع البلاء النازل علىٰ أهل ذلك الزمان من عدم طلوع النيل، ونزول المطر، وقلة البركة في الرزق والعمر، وربما زرع الفلاح وحرث وحصد ودرس ووزن المغارم كلَّها، فلم يجد الحب يفي بذلك، فهرب بأولاده إلىٰ بلاد أخر.

---

(١) بالأصلين: للناس. والصواب ما أثبتناه.

فقلتُ له: فما يرد ذلك البلاء؟

فقال: يرده التوبة النصوح من الولاة ورعيتهم.

فقلتُ له: هذا أمر ما بقي يصح وقوعه.

فقال: فليصبروا على البلاء حتى يموتوا، ولولا سؤال أولياء ذلك الزمان الذين كلُّ واحد منهم مقوَّمًا بسبعين رجلًا من أولياء العصر الماضي، لكان البلاء أعظم. انتهى، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان يموت في الوقت الفلاني، أو يُعزَل أو يتولى، أو يسافر ونحو ذلك؛ فلاث به بعض العلماء وقال: قد ثبت عن عائشة ﵂ أنها كانت تقول: «من حدثكم بما يكون غدًا فلا تصدقوه». انتهى.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يطلعه الله تعالى على ما يخبر به عن مستقبل الزمان. ويحمل كلام عائشة ﵂ على أنه لا يجب علينا تصديقه على القطع، وقد قال عبد الله بن عباس في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] العالم يرى الغيب، ولكن من وراء ستر رقيق. انتهى. على أن **الغيب الذي يطلع الله عليه الأولياء ليس هو غيبًا عندهم، وإنما هو غيب عند المحجوبين، فيري الله تعالى وليَّه** الأمرَ، فيتكلم به، فهو من قسم الشهادة عنده.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلا ينافي ما ذكرناه، لأنه لم يقل: [إن] هذا العلم الذي يحيط به وليه [من] الغيب، فيشمل ما أوتيناه من العلم الذي كان غيبًا عنا قبل أن يؤتيه لنا، فإن كلَّ علم بأيدي الخلائق هو من علم الله أي معلوماته، وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الحادي عشر من كتابنا «منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٣) ومما أجبتُ به عن العالم إذا دُعِيَ إلى وليمة أو محفل، فلما وصل إلى الباب قال: من هنا؟ فقالوا: العالم الفلاني؛ فرجع، وعجزوا فيه فلم يدخل، فلاث الناس به

وقالوا: إنما لم يدخل لأنه علم أنه لا يطلع له طالعة مع وجود ذلك العالم الكبير، ولو أنه علم أنهم يكبرونه ويعظمونه ما رجع.

والجواب: أن ذلك سوء ظن به، فيُحتمَل أنه ظنَّ بالحاضرين أنهم يرفعونه فوق ذلك العالم بالجهل، فيسيء الأدب مع ذلك العالم.

فإن قال قائل: إنه كان يقدر علىٰ عدم إساءة الأدب، وذلك بأن يقبِّل رجل ذلك العالم إذا دخل، ويجلس بين يديه، فيعلم الحاضرون بالقرينة أنه أعظم؛ **فالجواب**: أنه ربما تركه خوفًا علىٰ ذلك العالم من أن يرىٰ نفسه علىٰ إخوانه إذا قبَّل ذلك العالم الداخل رجله، فلأجل ذلك لم يقبل رجله.

فإن قال قائل: فنفس خوفه عليه من ثوران نفسه سوء ظن به، فلم لا قبَّل رجله وظن به التواضع وعدم رؤية النفس؟ **فالجواب**: أن ما فعله ذلك الداخل من ترك ذلك أحوط لدين أخيه، فهو يعامله معاملة من يخاف عليه العجب، مع عدم اعتقاده فيه أنه يقع في العجب.

فاعلم ذلك يا أخي، وادخل كلَّ وليمة فيها عالم كبير أو شيخ، وقبِّل رجل أحدهم قيامًا بواجب حقِّه في العلم والصلاح، وإياك أن تفعل معه ذلك وتقول: إنما فعلتُ ذلك خوفًا علىٰ خاطره من التشويش لو تركتُه، فإن ذلك سوء ظن به. وإياك أن تظن بالممتنع من الدخول أنه إنما امتنع خوفًا أن لا يقوم له ناموس مع وجود ذلك العالم، وخلِّص نفسك أولًا، وأخاك ثانيًا، والحاضرين في ذلك المجلس ثالثًا حسب طاقتك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اتُّهِمَ بتهمة، وأخذوه إلىٰ بيت الوالي، فصار يرعد خوفًا من الوالي، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا شيخًا صادقًا ما خاف من الخلق. وقد قال القوم: من استأنس بربه لم يخف من مخلوق. وقالوا: إذا رأيتُم من يدَّعي الولاية يخاف من ظالم، فاعلموا أنه غير صادق في دعواه. وقالوا: حكم الوليِّ دائمًا حكم المحفوف بألف مقاتل من الشجعان فأكثر، وعدوه كالأعمىٰ المقعَد الضعيف، فإن قلوب الأولياء مرتبطة بعضها ببعض، فلا يسلِّمون أحدًا منهم إلىٰ من يؤذيه، فإذا

رأيتم وليًّا استوحش من الخلق، فاعلموا أنه قد قُطِعَ به عن طريق الولاية. وأيضًا فإن من شأن الوليِّ العكوفَ في حضرة ربه، والعاكفُ في حضرة ربه ليس لأحد من شياطين الإنس والجنِّ عليه سبيل. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا يلزم من حصول الرعدة أن يكون خائفًا من المخلوق من حيثُ هو مخلوق، فقد يكون خوفه إنما هو من الله تعالىٰ أن يسلِّط ذلك المخلوق عليه، فرجع صورة خوفه إلىٰ الخوف من ربه، وعليه يُحمَل خوفُ موسىٰ عليه الصلاة والسلام وغيرُه من الأكابر في نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وخوفه من الحية، فإن مثل الأنبياء لا يخاف من مخلوق إذا رآه إلا من حيثُ علمُه أنه مسلَّطٌ عليه بإذن الله عزَّ وجلَّ، فهو ناظر إلىٰ الحقِّ الذي سلَّطه عليه، لا إلىٰ ذلك الحيوان مثلًا، فهم يخافون من كلِّ شيء يؤذي جسدهم من حيثُ كونُ الحقِّ تعالىٰ أمرهم بحفظه، ونهاهم أن يلقوا بأيديهم إلىٰ التهلكة حسب الطاقة.

وقد أجمع العلماء علىٰ أن الخوف من الله تعالىٰ لا يقدح في كمال مقام الأكابر، بل هو من شأنهم علىٰ الدوام، لكنه خوف إجلال لا خوف عقاب بدخول النار، كما تقدم تقريره مرارًا[1].

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من شأن الأولياء أن لا يخافوا أحدًا غير الله إلا عن إذن الله، ولا يرجوا أحدًا غير الله إلا عن إذنه، ولا يعتصموا بمخلوق دونه إلا عن إذنه، ولا يزدروا أحدًا من خلقه إلا عن إذنه.

قال: وقد أجمع القوم علىٰ أن كل وليٍّ ارتكب بدعة، قُطِعَ به عن طريق الولاية، وحُجِب عن التوبة النصوح، وكلُّ وليٍّ ادعىٰ دعوىٰ [بغير][2] إذن حُرِم الطاعات، وكلُّ من لم يستغن بالله حرم التوفيق في سائر أعماله الصالحة، وكلُّ من لم يعمل بآداب السنة، منع حقائق التوبة، وكلُّ من آثر هواه علىٰ مرضاة الله، منع إجابة الدعاء، وكلُّ من

(١) انظر الأجوبة: (٣٠٦)، (٤٦٧)، (٦٦٠).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

أحب الدنيا منع الخشية، وكلُّ من وقع في صغير ما نهاه الله عنه، عُدم التوفيق للطاعة، وكلُّ من كره أحدًا من أولياء الله أو أحب أحدًا من أعداء الله، حُرِمَ الحفظ من الآفات في الدنيا والآخرة، وكلُّ من أُشرِبَ قلبُه حب الدنيا مُنِع الحكمة. فقلتُ: وما علامةُ تشرُّب قلبه لمحبة الدنيا؟ فقال: علامته أن يكون لا يجد إيمانه إلا معها، ولا يعادي أحدًا إلا من أجلها، ولا يوالي أحدًا إلا عليها، ولا يفرح إلا بها، ولا يحزن إلا علىٰ فقدها. قال: وهناك يستحكم فيه المقت، فلا تنفعه المواعظ. انتهىٰ، فاعلم ذلك، واحمل الأولياء علىٰ مراتب الكمال، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: حقيقة التوبة [التوبة] من التوبة؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: التوبة من التوبة إصرار وذلك حرام.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ التوبة من رؤية كونه صادقًا في توبته، خوفًا من تزكية نفسه، وهو معنىٰ قول رابعة العدوية وغيرها: استغفارنا يحتاج إلىٰ استغفار. وكان رُوَيم(١) ﵀ يقول: التوبة الصادقة هي توبته من كلِّ خاطر يخطر له في غير مرضاة الله وهو غافل. وسُئل ﵁ عن شخص يتوب من الشيء ويتركه، ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به، فيجد حلاوة في نفسه: هل يقدح ذلك في كمال التوبة؟ فقال: وجود الحلاوة لازم لطبع البشرية، ولابد من الطبع، وليس للعبد حيلة إلا بالتضرع إلىٰ مولاه، وإلزام نفسه الذكر لله عزَّ وجلَّ ليلًا ونهارًا، فهناك يُرجَىٰ له أن الله تعالىٰ ينسيه تلك الحلاوة، وإلا خيف عليه العطب. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: إذا تمكن(٢) العارف في مقام العرفان، لم يسكن في قلبه حلاوة شيء يكرهه الله أبدًا، فإن العارف من المحبين لله بلا شك،

---

(١) أبو محمد رُوَيم بن أحمد ﵁ هو بغدادي الأصل من جلة مشايخ بغداد. وكان فقيهًا علىٰ مذهب داود الأصفهاني ﵁. مات رحمه الله تعالىٰ سنة ثلاث وثلاثمئة، ودُفن قريبًا من أبي القاسم الجنيد. تاريخ بغداد (٨/ ٤٢٩)، تاريخ الإسلام (٧/ ٦٧).

(٢) بالأصلين: لم يكمن. والصواب ما أثبتناه.

والمحب لا يدخل قلبه شيء يكرهه ربه، ولا يجري علىٰ جوارحه الظاهرة والباطنة شيء يكرهه ربه. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن أولياء الله ولو بلغوا الكمال لا بد من اتهامهم لنفوسهم في سائر الأحوال، أدبًا مع الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ شيء من ألفاظ القوم إلا بعد معرفتك بأحوالهم، وحينئذٍ تصير لا تنكر علىٰ أحد منهم إلا نادرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: حقيقةُ الزهد هي الزهد في الزهد؛ ولاث به بعض الناس وقال: الزهد في الزهد هو الرغبة في الدنيا، وهو مذموم، فكيف الحال؟

والجواب: أن معناه أن العبد يزهد، ولا يرىٰ نفسه بالزهد علىٰ أحد من المسلمين. وقد كان الشِّبلي رحمه الله يقول: لا زهد في الحقيقة؛ لأن العبد إما أن يزهد فيما ليس هو له، فليس ذلك بزهد، وإما أن يزهد فيما هو له، فذلك لا يصح.

قلتُ: وفي هذا نظر، لأن ذلك لو اطرد لهدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولعل الشبلي أراد بذلك تقليل الزهد في عين الزاهد، لئلا يغتر بالزهد، ويؤيده قوله: الزهد غفلة، لأن الدنيا لا شئ، والزهد في لا شيء غفلة، ولما رأىٰ الزاهدون حقارة الدنيا، زهدوا في زهدهم في الدنيا، لهوانها عندهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: ثم مقام في الزهد أعلىٰ منه، وهو أن يأخذ العبد الدنيا بإذن من الله كما تركها بإذن، فيستوي عنده الأخذ والترك، لفناء اختياره في اختيار الله له، ثم يترقىٰ من ذلك إلىٰ ما هو أعلىٰ أيضًا، وهو أن الخيار أن لا يكون له اختيار، ويرد الحق تعالىٰ عليه اختياره لطهارة نفسه، وسعة علمه، فتزهد هذا زهدًا ثالثًا، ويترك الدنيا بعد أن تمكَّن من أخذها، وأعادها الحقُّ تعالىٰ له موهبة من الله تعالىٰ، فيكون ترك هذا للدنيا في هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحقِّ تعالىٰ، فقد يختار تركها حسًّا تأسيًا بالأنبياء والأولياء، ويرىٰ أخذها في هذا المقام الذي هو مقام الزهد في الزهد رفقًا أُدخِل عليه من الله تعالىٰ، لموضع ضعفه عن درك مقام الأكابر من الأنبياء والصديقين. فيترك الرفق من الحق بالحق للحق، وقد يتناوله باختياره رفقًا

بنفسه علىٰ وجه تدبير يسوسه فيه صريح العلم، ولا يمكث فيه إلا أقوياء العارفين. انتهىٰ. وهو كلام نفيس صدر عن ذوق، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ القوم وأنت لا تعرف إشاراتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يثني علىٰ كلٍّ من أحسن إليه، ويكثر من مدحه في المجالس، فلاث به الفقراء الصادقون وقالوا: هذا نقص في أجر من أحسن إليك، وكان الواجب عليك أن تحفظ ثوابه عن النقص، كما كان عليه السلف الصالح، فقد كان أحدهم يحرص علىٰ أن لا يذكر أخاه بخير مع صحبته له، خوفًا أن ينقص أجره بذلك.

والجواب: قد يكون هذا الشيخ غافلًا عن كون ذلك الثناء ينقص أجر المحسن إليه، أو ذاكرًا لذلك ولكن أعطاه الله تعالىٰ القوة علىٰ حماية أخيه من أن يعظِّمَه الناس بسبب ذلك، لعدم شعورهم بإحسانه، أو حماية أخيه من أن يحب مدحه في مجلس من المجالس، فلا ينقص له بذلك أجر. ومعلوم أن الأجر لا ينقص إلا إذا رضي المحسِن بشكره في المجالس، نظير ما قال العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآية، أنه يجب استثناء من عُبِدَ من دون الله ولم يرضَ بذلك، كعيسىٰ والعزير عليهما الصلاة والسلام، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بلغه أن شخصًا من أقرانه يتكرَّم بكلِّ شيء دخل في يده من نقد وطعام وثياب وغير ذلك، فصار الناس يعتقدونه ويمدحونه علىٰ ذلك، فقال: هذا كلُّه إنما يفعله فلان ليُقال، لا لله تعالىٰ؛ فلاث به بعض الناس وقالوا له: هذا حسد منك لهذا الرجل، ومرادنا أن تفعل أنت مثله.

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا الشيخ الذي اعترض علىٰ هذا الكريم علىٰ الحسد والعداوة، فقد يريد بذلك القول أن ذلك يبلغه، فيصير يتكرم سرًّا بحيثُ لا يشعر به أحد، ليحصل له ثواب مضاعفة صدقة السرِّ الزائدة علىٰ صدقة الجهر بسبعين ضعفًا.

ولا يلزم من قول المعترض: «إن ذلك ليقال» أنه يعتقد من الكريم أنه قصد ذلك،

وإنما مراده أنه إذا جهر بالعطية يشعر به الناس، فيمدحونه علىٰ ذلك، فصار كرمه ومدحه يُقال بين الناس، وإن لم يقصد هو ذلك في الأول، فقد يصغىٰ إليه آخرًا، فأراد هذا المعترض سدَّ الباب علىٰ هذا الكريم محبةً له وشفقةً عليه.

وكان علىٰ هذا القدم ممن أدركتُهم من الأولياء: سيدي أبو العباس الغمري، والشيخ محمد بن عنان، والشيخ محمد المُنيِّر، والشيخ أبو بكر الحديدي(١)، والشيخ محمد بن داود، والشيخ عبد الحليم، كان أحدهم يشفق علىٰ ظهور شيء من كمالات إخوانه، كما يشفق الناس علىٰ عدم ظهور نقائصهم، رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا من شدة صدقهم لا يحملهم أحد علىٰ بغض من نقصوه وأنكروا عليه من إخوانهم، عكس ما عليه بعض فقراء هذا الزمان، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن مجالسة العلماء الكبار، فلاث به العلماء وقالوا: قد أجمع المسلمون علىٰ استحباب طلب القرب من العلماء ومزاحمتهم بالركب، فكيف ينهىٰ هذا الشيخ جماعته عن القرب من العلماء؟

والجواب: أن الشيخ في الطريق لا يجهل مطلوبية القرب من العلماء، ولعلَّه إنما نهىٰ أصحابه عن القرب من العلماء لجهلهم بالأدب معهم، فكأنه يقول: اصبروا عن مجالسة العلماء حتىٰ أعلمكم الأدب معهم، ليفيدوكم العلم، ويمكث في قلوبكم، أو اصبروا عن مجالسة العلماء حتىٰ تكملوا في طريق السلوك، وتخرجوا عن الشطح عن ظاهر الشريعة، فإن أحدكم ربما غلب عليه الحال، فشطح عن ظاهر الشريعة، فشنَّ العلماء عليه الغارة، ووقعوا في أهل الطريق وقالوا: كلهم مخالفون لظاهر الشريعة. ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ أنه يبغض أحدًا من العلماء أو يزدريه، أو يكره العلم.

---

(١) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ الصالح العابد الزاهد الشيخ أبو بكر الحديدي ﷺ كان رفيق الشيخ محمد المُنيِّر في الحج كل سنة مدة أربعين سنة. وكان من أكرم الناس وأحسنهم خلقًا وأشدهم ملازمةً للسنة. وكان في رأسه مقصًا يحمله دائمًا لمن يرىٰ شاربه طويلًا، فيقصه. توفي ﷺ بالمدينة النبوية سنة نيف وعشرين وتسعمئة، ودُفن بالبقيع، وقبره ظاهر مشهور ﷺ. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٣٩٥).

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي لأحد من الفقراء أن يخالط العلماء إلا بالأدب، وطلب العمل بما يتعلمه منهم، وعدم كراهته لهم إذا أنكروا عليه، إذ لا بد للمتشرِّعين من الإنكار علىٰ بعض القوم الذين غلبت عليهم الحقيقة، فيجب علىٰ الفقير أن يشكر فضلهم إذا أنكروا عليه، لأنهم قوَّموا عوجه، فإن السلطان في هذه الدار للشريعة، وأما علوم الحقيقة فإنما محلها الدار الآخرة، فمن تكلم بعلوم الحقيقة في هذه الدار، فربما حُبِسَ أو قُتِلَ، وتخلفت الحقيقة عن نصرته، كما وقع للحلاج. وإن وقع أن وليًا خرق سور الشرع ولم يؤدب، فذلك نادر.

وقد روىٰ ابن حبان والبيهقيُّ مرفوعًا: «النظر إلىٰ وجه العالم عبادة»[1]. فاعلم ذلك، واقرب من العلماء، وتحمل إنكارهم، فإنهم لا ينكرون عليك إلا ما خرجتَ به عن ظاهر الشريعة عندهم، فيا سعادة من كان مقيمًا في مثل جامع الأزهر! فإن أهله لا يكادون يقرونه علىٰ بدعة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصلي منفردًا كلما دخل وقت الصلاة ولا ينتظر الجماعة الذين يحضرون، فلاث به بعض الناس وقال: انتظار الجماعة أفضل حيثُ لا ضرورة. فقال: إنما شرعتُ الجماعة لمن لا يقدر علىٰ الوقوف بين يدي الله تعالىٰ وحده، أما من قوي علىٰ ذلك، فمبادرته للوقوف بين يديه أفضل.

والجواب: أن هذا الشيخ ربما قال ذلك حين كُسِفَت شمسُ معرفته، ثم يرجع عن ذلك إذا زال الكسوف، فهو معذور من وجه، غير معذور من وجوه أخر، فإن الجماعة شُرِعت لإقامة شعار الدين، فإن شعار الدين لا يقوم إلا مع اجتماع القلوب والأجسام صورةً ومعنىٰ، ولا يقوم بالمنفرد شعار.

وأيضًا فإن الله تعالىٰ لا يجالس إلا أولياءه، وأجمع أهل الكشف أنه لا يجتمع ثلاثة فأكثر إلا وفيهم وليٌّ لله تعالىٰ، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣٤٤)، وذكره الديلمي في «الفردوس» (٦٨٦٧) وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٢٥١) : أورده الديلمي بلا سند عن أنس مرفوعًا ولا يصح.

رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فلم يجعل تعالىٰ نفسه ثالث ثلاثة، بل حكم بكفر من قال: إن الله ثالث ثلاثة بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[المائدة: ٧٣]. ومن هنا قال بعضهم: أقل الجماعة ثلاثة لا اثنان، لأنه تعالىٰ لم يجعل نفسه مع الاثنين في معية الاختصاص التي ينفرد بها أولياؤه، وإنما جعلها في معية العموم، كما أشار إلىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وهذه المعية ليست هي مطلوب القوم، لأنه لا خصوصية فيها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: ما اجتمع ثلاثة في الصلاة إلا وكان فيهم وليٌّ لله تعالىٰ يجالسه الحقُّ تعالىٰ، ويشفِّعه في صاحبه أو أصحابه إن كانوا أكثر من ثلاثة. ويؤيد كلام الشيخ حديث: «الواحد شيطان، والاثنان شيطان، والثلاثة ركب»[1]، والشطن هو البعد عن حضرة الله تعالىٰ، فهو يجالس الثلاثة ولا يجالس الاثنين.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما قال القوم: إذا رأيتُم المريد يتهاون في فوات تكبيرة الإحرام مع الإمام، فاعلموا أنه لا يجيء منه شيء في الطريق، أي لأن العبد إذا لم ينهضه مجالسة الله تعالىٰ التي أعز ما يعطاه العبد في الدارين، فما بقي شيء ينهضه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي كان يشكر في شخص يحسن إليه ويعطيه زكاته كلَّ سنة، ثم حوَّل زكاته عنه إلىٰ شخص آخر من أقرانه، فتكدَّر ذلك العالم، فلاث به الناس وقالوا: هذا ما يحب الصدقة والإحسان إلا له وحده، وإلا فلأي شيء يتكدر من الإحسان إلىٰ غيره؟!

والجواب: أن تكدير هذا العالم ربما كان لنقص أجر ذلك المحسن بإعطائه الزكاة إلىٰ من هو أغنىٰ عنها منه، ولم يكن تكديره من حيثُ حظِّ نفسه، فإن مرتبة العلماء أن يدوروا مع الفضل حيث دار، ويبعد عنهم أن يتكدروا لحظوظ نفوسهم، وينقصوا أجر

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧) بلفظ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب» والترمذي (١٦٧٤) والنسائي (٨٧٩٨).

ذلك الشخص الذي كان يحسن إليهم سابقًا، بل يود أحدهم له خير الدنيا والآخرة، ويزداد فيه محبة إذا حوَّل زكاته وإحسانه إلىٰ من هو أحوج إلىٰ ذلك منه، **فإن العبد كلما ازداد خيرًا، وجب علينا الزيادة في محبته**، وقد ازداد خيرًا بتحويله صدقته وزكاته إلىٰ من هو أحوج إليها منا.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: ينبغي للفقير أن لا يقبل من أخيه هدية أو صدقة إلا بعد أن يفتش في حارته أو بلده، فلا يجد أحدًا أحوج إليها منه، وذلك لأنه كما أحسن إليك فمن الواجب أن تطلب له زيادة الدرجة بإعطائه صدقته لمن هو أحوج إليها منك، ومتىٰ علمتَ أن هناك أحدًا أحوج إليها منك، فقد غشيته وأسأت الأدب معه، لكون قبولك لتلك الصدقة نقص أجره، فإن أجرَّ المتصدق يعظم بحسب حاجة الفقير. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٢) ومما أجبتُ به عن التاجر الصاحب إذا اشترىٰ منه صاحبه جوخة[١] أو عمامة مثلًا، وفضل عليه من حقِّها بعض دراهم، فعوَّق ذلك القماش علىٰ بقية الثمن، فلاث به المشتري والناس وقالوا: هذا يقدح في المروءة والصحبة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ العتب عليه، فربما كان المال الذي في دكانه[٢] لأجنبي وكلَّه في البيع، وقال: لا تبع لأحد[٣] إلىٰ أجل، ولا تصبر علىٰ أحد بشيء من الثمن، وبع حاضرًا بحاضر. وبتقدير أن يكون ذلك المال للصاحب، فله مطالبة صاحبه بالإلحاح والشدة، مسارعةً لبراءة ذمة صاحبه، وتقبيحًا للدَّين في عينه، وقطعًا للطمع في الأصحاب، فإن غالب الفقراء إذا اشتروا من صاحبهم التاجر شيئًا يخطر لهم أنه يسامحهم ببعض الثمن، فقصد بالمشاححة له سدَّ باب الطمع في الناس، والبعد عن[٤]

---

(١) الجوخة: ثوب قصير الكمين والبدن بغير بطانة من تحته ولا غشاء من فوقه، يتخذ من الصوف الثخين.

(٢) بالأصلين: زكاته. ولعل الصواب ما أثبتناه أو تجارته أو وكالته.

(٣) بالأصلين: أحدًا.

(٤) بالأصلين: من.

تحمل منتهم، فما فعله مع المشتري من المشاححة أفضل من مسامحته بسيف الحياء، بل كان اللائق بالمشتري أن يشكر فضل من شاححه، لا أن يعتب عليه ولو في نفسه، مع ما في ذلك من حصول ازدراء التاجر له إذا طرق قلبه أنه ما قصد بالشراء من عنده بخصوصه إلا لأجل مسامحته بشيء. هذا كله في الأصحاب الذين لم يتمكن لهم قدم في الصحبة الحقيقية. أما من تمكَّن منهم في الصحبة فلهم ميزان آخر أدق من هذا.

وقد كان لي تلميذ ربيتُه اسمه محمد السندبصطي ولد عم الشيخ إبراهيم النقيب، كان دائمًا يشتري لي القماش والطعام ويحمل أولادي، ومهما احتاج أحد منهم إلىٰ حلاوة أو غيرها يشتري ذلك ولا يعلم أحدًا، ويرىٰ للأولاد الفضل بما يطلبونه منه. وإن لم يجد معه شيئًا رهن عمامته، ثم بعد ذلك يخلصها. ومن بعده ما رأيتُ لهذا الأمر فاعلًا معي ولا مع أولادي إلىٰ وقتي هذا، فأسأل الله أن يدخله الجنة بغير حساب ولا عتاب، آمين آمين آمين. فاعلم ذلك، واحمل كلفتك عن الناس جَهْدك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٣) ومما أجبتُ به عن جابي وقف زاوية الفقراء إذا قلَّ رزقُ الفقراء، وأمره الشيخ أن يدروز لهم فلم يفعل، ولاث فقراء الزاوية به وقالوا: كان الأدب معه إجابة الشيخ إلىٰ ذلك، بأنه قد لا يكون وجد نية صالحة في ذلك، أو كان قليل السياسة لا يعرف استخلاص شيء من البخلاء، لاسيما عند كساد السوق وقلة البيع والشراء. وقد يكون سبب امتناعه كونه وجد في نفسه الفرح بما يدروزه من حيثُ كونُه يوفر عليه شيئًا مما بيده من مال الوقف ليأخذ لنفسه، لا من حيثُ حصولُ الأجر للمحسنين ونحو ذلك.

وقد قالوا: من شرط النقيب أن يكون عنده سياسة يحل بها عقد البخل من قلوب البخلاء، فيمهد للغني بساطًا يريه فيه ماله من الخير والثواب إذا تصدَّق علىٰ الفقراء، ويكون هو المبادر إلىٰ ذلك. وقد كان لي نقيب اسمه الشيخ إبراهيم السندبصطي كان علىٰ هذا القدم، كان يدروز للفقراء المقيمين عندي ولا يلحس مما يدروزه لحسة. وكان إن وجد الأمير متعززًا بالباشاه وليس للشيخ عنده قدْرًا قال: إن الباشاه أرسل لسيدي يطلب الإذن في زيارته، فلم يرض! وإن رآه مستندًا إلىٰ شيخ آخر لا يعتقد إلا

هو، قال: إن شيخكم يعتقد في سيدي ويقول: يا فوز من كان مجاورًا عنده ينظره صباحًا ومساء! فيعتبر بعظمه ويقول: إذا كان شيخي يحبُّ هذا الشيخ فأنا أولىٰ. وكان يأخذ من الأغنياء الشيء للشيخ والفقراء بطريق لا يلحق الشيخ المنَّة عليه ولا علىٰ الفقراء بذلك، بل يرىٰ الأغنياء الفضل للشيخ والفقراء الذين قبلوا منهم ذلك، فرحمه الله رحمة واسعة. وقد قالوا: النقيب ثاني مرتبة للشيخ، فاعلم ذلك أيها الأخ، ولا تقم الميزان الماضي علىٰ نقباء هذا الزمان، فإن أهل الزمان قد تغيروا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ العالم الكبير الذي يعيب علىٰ مشايخ الصوفية عدم ترددهم إلىٰ زيارة ولاتهم، حتىٰ إنهم ربما أتوهم في زواياهم؛ فلاث المتصوفة به وقالوا: ناموس الفقراء أكبر من ناموس هؤلاء الولاة، فإتيانهم للفقراء أولىٰ.

والجواب: بأن ما قاله هذا العالم وعابه علىٰ الصوفية أولىٰ مما مالوا إليه، لاسيما ضعيف الحال في الإخلاص، فإن زيارة الباشاه أو قاضي العسكر أو الدفتردار هلاكٌ له، وقل أن يخلص مثله من التزين لهم إذا دخلوا عليه. ومن شك في قولي هذا، فليعرض علىٰ نفسه ما إذا دخل عليه أحد من الزوالق وأحد من الولاة عنده ونقصه وسبه بحضرته، ونسبه إلىٰ محبة الدنيا وإلىٰ الرياء والنفاق، فإن تكدَّر منه شعرة فليس له في الإخلاص نصيب، وكذلك إذا تهلل وجهه وانشرح صدره، وحصل عنده سرور بمدحه بالصلاح والولاية، فهو مراءٍ خالص ذلك الوقت، فكان ذهاب هذا الشيخ إلىٰ الولاة أخف مفسدةً في حقه، لكن بشرط التعفف عن أموالهم، فاعلم ذلك، وإياك وحمل العالم علىٰ أنه قال ذلك للشيخ حسدًا علىٰ تردد الولاة إليه، فإن ذلك سوء ظن به، والحمد لله رب العالمين][1].

(٨٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي لكلِّ من تلطخ بمعصية أن يترك صلاة النافلة من صلاة الليل والنهار؛ فلاث به بعض [طلبة][2] العلم وقالوا له: هذا يخالف ظاهر الشريعة، وإنما يؤمر بالنوافل تكفيرًا لخطاياه.

---

(١) سقط هذا الجواب من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

والجواب: أن هذا الشيخ ربما أراد بذلك أن وقوف العاصي بين يدي الله تعالىٰ في النوافل مع الإصرار علىٰ الذنب [يضرُّه][1]، فأمره بترك النوافل حتىٰ يتوب ويتطهر، ثم يدخل حضرة الله عزَّ وجلَّ، ولولا أن الفرائض أوجبها الله تعالىٰ جزمًا علىٰ أي حالة كان العبد فيها بلا مانع شرعي، لكان تركها كذلك أولىٰ، حتىٰ يتطهر العبد ويصلح للوقوف بين يدي ربِّه عزَّ وجلَّ.

وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، قل لبني إسرائيل لا تقفوا بين يدي في بيت من بيوتي إلا بقلوب نقية، وأبدان من المعاصي طاهرة، فإن وقف أحدهم بين يدي وجارحة من جوارحه متلطخة بمعصية، لعنته من فوق سماواتي[2]. انتهىٰ.

وكان الشيخ أفضل الدين يقول: إذا وقع أحدُكم في غيبة أو نميمة أو قذف، فليتب علىٰ الفور، فإن لم يتب فلا ينبغي له الوقوف بين [يدي][3] الله تعالىٰ، ويقذِّر حضرة الأنبياء والملائكة والأولياء.

وكان ﷺ إذا خطر في باطنه شيء من الغلِّ والحقد والحسد أو الكبر ونحوها من الأمراض الباطنة، يترك قيام الليل ويقول: أستحيي أن أقف بذاتي القذرة في حضرة الله عزَّ وجلَّ. وربما تلصصتُ فدخلتُ فيخرجني خدَّام الحضرة ويقولون لي: أيش دخلك بين أصفياء الله؟ أما تخشىٰ من المقت؟! ولكل مقام رجال. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد إلا إن كنتَ أعلم منه بدقائق الأدب مع الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٦) ومما أجبتُ به عن البزدار[4] الذي يكون عند الأمير الذي يشفع عنده العلماء والصلحاء، وكلما رأىٰ قاصد ذلك العالم أو الصالح يشفع في أحد، يعارضه ويقول للأمير: هذا نصَّاب ليس بشيخ! وإنما الشيخ فلان وفلان الذين أجمع الناس علىٰ جلالتهم؛ ليحوِّل

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: مشيئة سماواتي.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) بزدار أو بازدار: من يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد علىٰ يده.

باطن الأمير عن الاعتقاد، فلاث به طلبة العلم والفقراء وقالوا: فلان سيئة من السيئات في بيت الأمير! فنسأل الله أن يقطع أثره، بأنه ربما قصد بمعارضة ذلك العالم أو الصالح تنفير قلبه من الأمير، وتنفير قلب الأمير منه، خوفًا من ركونه إلىٰ الأمير، أو اعتقاد الأمير فيه، فيحبُّه فتمسه النار، أو قصد بذلك رحمة العالم أو الشيخ، خوفًا أن يصير الأمير يحملهما حملته كلما أصابته مصيبة. وقد يكون ذلك البزدار من أولياء الله أصحاب الكشف، فنفَّر الأمير من ذلك العالم أو الشيخ ونفَّرهما من الأمير مصلحةً لكلٍّ منهم.

وقد يكون ذلك المشفوع فيه لا يستحق الشفاعة فيه، لعدم بلوغ العقوبة حدَّها فيه، ولم يزل الأولياء في أبواب الحكَّام يتصرفون بإذن الله في قلوب الولاة علىٰ بصيرة من ربهم، وكشف ويقين، متسترين في صورة بزدار أو بوَّاب أو غلام أو مشاعلي أو مباشر، كما يعرف ذلك من نوَّر الله بصيرته، فمثل هذا ربما يكون ذلك العالم أو الصالح حكمه عندهم حكم الأطفال الذين لا يعرفون حقائق الأحوال.

وقد كان شيخُ سيدي محمد وفا جالسًا عند والي إسكندرية بمثابة مقدَّم الوالي، وكان يجلس علىٰ كرسي تجاه الوالي، وكان بينه وبين الوالي أمارة، فالبريء علامة براءته أن يمسك الشيخ لحية نفسه ويدفعها إلىٰ خارج، وغير البريء يدفعها إلىٰ داخل، فيعرف الوالي أنه سرق أو قتل مثلًا، فيشدد علىٰ الغريم أو يخلي سبيله، وكان اسمه داود بن باخلا، وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب[1]، وأملىٰ كتابًا سمَّاه «عيون

(١) تعرض شيخنا ومربينا سيدي محمد نصار في ترجمته لسيدي داواد بن باخلا في مقدمة تحقيق فضيلته لكتابه «عيون الحقائق» لمسألة كونه أميًّا، فقال ﷺ تحت عنوان: هل كان المصنف أميًّا؟: «قد يبدو السؤال عن مؤلِّفٍ أميّ غريبًا، ولكن هذا الوصف في نفسه غير مستبعد إن كان تلقاه منه شفاهةً أحدُ تلاميذه وكتبه عنه، كما وقع لسيدي علي الخواص مع سيدي الشعراني، وللقطب الدباغ مع العلامة أحمد بن المبارك، وللشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي مع خليفته الشيخ زروق. وقد وقع في تحليته بالطبقات الكبرىٰ والوسطىٰ وصفُه بالأميّ، وكلمة الأمي قد تحتمل معانيَ عند الصوفية، ولكنه قيد المعنىٰ بقوله «لا يقرأ ولا يكتب» فامتنع التأويل. ولكن الإشكال يرجع إلىٰ أن عبارة الكتاب كذلك عبارة عالم أديب يعرف جيدًا كيف يتصرف في الكلام وكيف يأتي بوجوه البلاغة، فضلًا عما استشهد به من أبيات الشعر وهي كثيرة في الكتاب،

الحقائق»[1] يعجز عن فهمه فحول الرجال. وقد لخصتُ عيونه في كتاب «الطبقات» في ترجمته.

بل في كثير من هذه الأبيات تصرف وتضمين لأبيات أخرىٰ، وهذا ليس بحال رجل أمي، ناهيك بأن الشعر الوارد في الكتاب ليس من نوع الأشكال الشعرية التي يشيع فيها عدم الالتزام بقواعد اللغة والعروض، بل هو شعر منضبط عروضيًّا، سليم نحويًّا. فيبعد أن يكون كاتبه أميًّا.

ثم إنه نسب له ﷺ كتب في الفقه بل في النحو والبلاغة، حتىٰ ضمنه الإمام السيوطي في «بغية الوعاة في طبقات النحاة»، فقال: «داود بن عمر بن إبراهيم الشاذلي الإسكندري. قرأت بخط الشيخ كمال الدين والد شيخنا الشُّمُنِّي: من الأئمة الراسخين، تفقه علىٰ مذهب مالك، له فنونٌ عديدة، وتصانيف مفيدة. صحب الشيخ تاج الدين بن عطاء الله، وأخذ عنه طريق التصوف، وكان يتكلم علىٰ طريق القوم. صنف: مختصر التلقين للقاضي عبد الوهاب في الفقه، مختصر الجمل للزجاجي، بديع. وله كتاب في المعاني والبيان، وغير ذلك. مات بالإسكندرية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة».

فهو عند الإمام السيوطي - وهو الحجة - متفقه علىٰ مذهب الإمام مالك، مشارك في علوم وفنون «عديدة»، صاحب «تصانيف مفيدة». والتصانيف إن جاز أن تكون إملاءً عن القلب في التصوف، فهذا لا يقع في غيره من الفنون. وكل هذا في جانب، ووصف الإمام السيوطي لشرحه علىٰ جمل الزجاجي بـ«البديع» في جانب آخر. وهذا الوصف لا يكون إلا بعد اطلاع الإمام السيوطي علىٰ الكتاب.

فكل هذه البراهين تقطع بعدم أميته، وتثبت بتضلعه في العلوم ورسوخ قدمه فيها. فماذا يقال فيما قاله الإمام الشعراني وتابعه عليه تلميذه العلامة عبد الرؤوف المناوي في «الكواكب الدرية»؟ الحال أن الإمام الشعراني في أخباره إنما ينقل عمن لقاه من مشايخ عصره ممن يكون له اطلاع علىٰ حال هذا أو ذاك من الأولياء. والإمام الشعراني كان همه الأول تربويًّا وعظيًّا، لذا كان لا يتوقف ﷺ في الأخبار التي لا تخالف هدفه من الكتاب، وهو هدف نرىٰ ويرىٰ أهلُ الإنصاف أنه تحقق بالفعل، فطبقات الإمام الشعراني - رغم ما فيها مما يستشكله البعض - أعظم ما كتب في ترجمة رجال التصوف، والنقل عنها مستفيض في كتب السادة الصوفية بما لا مزيد عليه. ويكفيه في هذا الصدد أن كل من نقل كلام سيدي ابن ماخلا سواه فقد اعتمد عليه كما أسلفنا.

وختام القول أننا نقطع بأن العارف ابن ماخلا كان من العلماء الكبار ولم يكن أميًّا، اللهم إلا أن تكون أميته بمعنىٰ أنه إذا تكلم في التصوف لم ينقل إلا عن مشهده هو. وهذا هو الغالب في كتابنا اللهم إلا في موضع أو اثنين».

(١) أصدرته دار الإحسان بتحقيق د. محمد نصار، وفي مقدمته ترجمة وافية لسيدي داود بن باخلا.

ومممن أدركتُه علىٰ هذا القدم الشيخ محمد البوَّاب ببيت شمس الدين ابن عوض مباشر السلطان الغوري، وكان أعمىٰ، وكان سيدي عليًا الخواص يزوره كلَّ قليل ويسأله الدعاء. وأخبرني الشيخ نور الدين الشونيُّ أن فقيرًا مرَّ بباب القنطرة، فرأىٰ شخصًا جالسًا عند دكان الشواء يتمنىٰ رطل شواء، ويسأل الناس بالنبي ﷺ، فلا يشتري له أحد ما طلب، فقال: ما في هذا البلد أحد في قلبه رحمة! ثم اشترىٰ له حاجته، وأخرج له(١) نصفًا، فوجده زَغَلًا(٢)، فقال: هات غيره. فأخرج له آخر، فوجده زغلاً وهكذا! فشكوه وأتوا به للوالي، فأول ما رآه المقدَّم قال له: ما بقي في البلد أحد في قلبه رحمة إلا أنت يا مهبول! ثم قال له في أذنه سرًّا: تب إلىٰ الله عن مثل ذلك. فقال: من أعلمك بذلك وأنت بعيد عني؟ فقال: سمعتُها منك حين تكلمتَ بها. ثم أخذ تلك الدراهم وفركها بيده وقال: هذه خيار الفضة وأطلقه. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الوقيعة في بزدار الأمير إذا عارضك في الشفاعة، إلا إن كنتَ تعلم أن ذلك لحظِّ نفس، وأنه لا قدم له في الولاية، واحمله علىٰ أنه فعل ذلك مصلحةً لك أو لذلك المشفوع فيه، أو كان لم يجيء وقت تفريج كربه الذي جعله الحقُّ تعالىٰ له.

وقد ابتلاني الله بسوء حظي بشخص يعارضني في بيوت الولاة كلما أشفع عندهم، لكونه صاحبًا لهم، فألهمني الحقُّ تعالىٰ أنني أرسلتُ أقول له: بلغني يا أخي أنك تتعب نفسك في المساعدة لقاصدي كلما أرسله يشفع في أحد عند فلان أو فلان، فمن فضلك لا تشوش علىٰ نفسك لأجلي، فربما كنتُ أشفع فيمن لا يستحق الشفاعة، فتحمل ذمتك الإثم من أجلي. فاستحيا وترك معارضتي من ذلك اليوم، ثم صرتُ أمدحه في المجالس حتىٰ زال ما كان عنده بالكلية، ولو أنني كنتُ أرسلتُ أقول له: إنك سيئة من السيئات، لربما دام علىٰ المعارضة لي وزاد فيها، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: إذا كان لأحدكم حاجة إلىٰ

---

(١) أي لصاحب دكان الشواء، ثمنًا لما اشتراه للفقير الجائع.

(٢) الزَّغَلُ: الغِشُّ.

الله، فليقسم عليه بي، فإنها تُقضَىٰ، وليحذر من أن يقسم عليه بأحد غيري ولو ارتفعت درجته؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة! فإن في أولياء الله من هو أعلىٰ منه درجة، فضلًا عن أنبيائه وأصفيائه، فسؤال الله تعالىٰ بهم أسرع في قضاء الحاجة.

والجواب: أن الشيخ لا يجهل مثل ذلك، وإنما أراد أن الأولياء الأكابر مقامهم غير مشهود لذلك المريد، لكونه محبوسًا في دائرة شيخه، فأراد تقريب الطريق عليه، وما كلُّ مريد يقدر علىٰ معرفة مقام الأكابر. وقد كان سهل بن عبد الله التستري ﷺ يقول لتلامذته: «إذا كان لأحدكم حاجة عند الله، فليقسم عليه بي» وما قال لهم ذلك إلا حين رآهم يجهلون مقام غيره.

ووقع للشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي أنه مشىٰ علىٰ بحر النيل من مصر العتيق إلىٰ الروضة وخلفه تلميذه يمشي علىٰ الماء تبعًا له، فقال له: قل يا حنفي، وإياك أن تقول غيره. فقال في نفسه: الله عزَّ وجلَّ أعظم. فقال: يا الله! فغرق، فالتفت إليه الشيخ وقال: إنك لا تعرف الله ولا عظمته! قل: يا حنفي؛ فقالها فطفا علىٰ الماء، فعُلِمَ أن العمدة في قضاء الحوائج وسرعتها صحةُ الاعتقاد في الشيخ، لا علىٰ كون الشيخ صادقًا.

وقد جهدتُ كلَّ الجهد أن أقضي لأحد ممن هو مستند إلىٰ غيري حاجة، فلم أقدر، بخلاف من هو مستند إليَّ، فربما توجه فقضىٰ الله تعالىٰ حاجته من غير علمي، وربما توجه إلىٰ بلاد بعيدة، فظهرت له صورتي فكلَّمها وكلَّمتُه، ولم أعلم بذلك إلا منه لموضع صدقه في الاعتقاد. وكثيرًا ما يسبق في علم الله تعالىٰ عدم قضاء حاجة أحد من خواص أصحابي علىٰ يدي، فينزع الله تعالىٰ منه قوةَ الاعتقاد في جانبي، ويشككه في حالي، فلا أقدِر أقضي له حاجة. فاعلم ذلك يا أخي، ولُمْ نفسَك إذا لم يقضِ شيخك لك حاجة، ولا تلم الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان واسطة في وصول أرزاق أصحابه علىٰ يديه في زاوية أو غيرها، فقال لهم يومًا: أكثروا من شكر الله علىٰ هذه النعمة التي أنتم فيها، وإلا سألتُ الله تعالىٰ تحويلها عنكم؛ فلاث به بعضُ الجهلة منهم وقالوا: رزقنا

لا يزيد ولا ينقص، وليس بيد الشيخ زيادة ولا نقص، بأنه ربما كان الحقُّ تعالىٰ أعطاه القدرة علىٰ تحويل ذلك الرزق الذي وصل علىٰ يديه لجماعته، فكما أعطاه القدرة علىٰ وصوله إليهم، كذلك يعطيه القدرة علىٰ تحويله عنهم. وفي الحقيقة ليس ذلك الرزق الذي يحوَّل عنهم برزق لهم، وكأن الحقَّ تعالىٰ أذن لهم في الأكل من طعام الزاوية والشرب من مائها إلىٰ ذلك الوقت الذي تحوَّل الرزق عنهم ورزقهم غيره، ولكن **الحق تعالىٰ أمرنا بشكر الوسائط لنا في الخير**، فامتثلنا أمره في ذلك، مع علمنا بأنه هو الرزَّاق. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك أن تظنَّ بالشيخ أنه يمنُّ علىٰ الفقراء بذلك الذي كان واسطةً فيه، فإن ذلك بعيدٌ علىٰ الشيخ أن يقع فيه، ولو لم يكن في ذلك إلا امتثال الأمر في شكر الوسائط، لكان فيه كفاية، فإن من **شكر شيخه أثابه الله، ومن ذمه مقته الله**، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧٩) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ الناس عن التطوع بالحج، وعن تزويج أكثر من واحدة، ويكاد يقول بكراهة ذلك أو تحريمه، فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا: التطوع بالحج سُنَّة، فكيف ينهىٰ هذا عن السُّنة؟! ولو لم يكن في الحج إلا معرفة المناسك بالفعل دون السماع ومغفرة الذنوب، لكان في ذلك كفاية في الحثِّ علىٰ سفر الحج. وأما التزويج فهو مطلوب، لأن مطلوب رسول الله ﷺ يباهي يوم القيامة بكثرة أمته**[1].

والجواب: أن هذا الشيخ لا يجهل مثل ذلك، وإنما خاف علىٰ الناس من عدم الوفاء بما يلزمهم شرعًا أو عرفًا في طريق الحج أو مدة التزويج. وكان ذلك من دأب سيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي عليّ الخواص ﭬ. وكانا إذا شاورهما أحدٌ في الحجِّ بعد الفرض، أو التزويج بعد فراق زوجته لموت أو غيره يقول: شاور غيري، فإنك يا أخي قد قمتَ بالأمر مرةً، وهي كفاية في هذا الزمان. انتهىٰ.

---

(١) وفي ذلك ورد «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم» أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧) وابن حبان (٤٠٥٧).

[آداب الصوفي إذا سافر إلى الحج]

إذا علمتَ ذلك، فمن أدب الفقير إذا سافر إلىٰ الحج زيادة الإيثار علىٰ ما كان عليه في الحضر، وعدم حجه في محفَّة[1] ونحوها بغير ضرورة، ويصير يأكل من الطعام اللذيذ والماء المخلوط بالسكر، ويرىٰ الفقراء والمساكين جياعًا عطاشًا مشاةً عرجًا حفاةً أو مرضىٰ، فلا يطعم أحدهم لقمة، ولا يسقيه جرعة، ولا ينزل يمشي ويركبه خطوة.

ومن أدبه أن لا يجلس في المحطة يأكل الخبز واللحم، والطيب والعسل النحل، والقطر النبات، والسمن الطري، ويقف عليه السائل فلا يعطيه لقمة، ولا يأذن له في الجلوس معه للأكل.

ومن أدبه أن لا يرىٰ نفسه أحقَّ بماله وزاده وجماله من غيره، إلا إن كان أحوج منه. وهذا وإن كان مطلوبًا في الحضر فيتأكد في السفر.

ومن أدبه إذا وقع عطش أو غلاء أن لا يخص نفسه عن إخوانه بزيادة أكل ولا شرب، ومتىٰ زاد علىٰ إخوانه فقد خانهم في الصحبة. ووقع للسيد محمد المُنيِّر رحمه الله أنه لما حصل موت الجمال في الطريق، بقي معه جمل واحد، فكان إذا رأىٰ فقيرًا عاجزًا يُنزِل عياله وأولاده يمشون ويُرْكِبُه، فعجز عياله وأولاده، فقال له فقير: قد بلغت الفتوة حدَّها، فأركب أولادك وعيالك. انتهىٰ.

ومن أدبه أن يؤثر إخوانه المسلمين في المناهل والمضايق، فلا يزاحم بجمله علىٰ الماء، ولا يطلب الموضع الواسع ويلجيء جمال أخيه إلىٰ العطش والمضايق، ويعرِّضهم للموت أو الوقوع في الوادي، أو يلجئها إلىٰ الزحمة حتىٰ ينكسر محمله، ويتعصر أضلاع جماله.

ومن أدبه مشاركة جميع من في الركب في همومهم من أمير الحاج إلىٰ آحاد الناس، ويديم التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في حفظ الجمال والدواب وما عليها من الأمتعة، وفي أن الله تعالىٰ يمد الجمال والمشاة كلَّهم بالقوة إلىٰ المحطة، وإذا نزلوا يصير متوجهًا إلىٰ الله تعالىٰ

---

(١) المحفَّة: هودج مسقوف أو بقبة محمول بين جملين أحدهما أمام الآخر.

في حفظ أمتعة الناس من اللصوص حتىٰ يرحلوا، لاسيما في الليلة المظلمة والطريق الوعرة.

ولما حججتُ مع عيسىٰ شيخ عرب البحيرة سنة ثلاث وستين وتسعمئة، كنتُ أحوط الركب بالآيات والأذكار، وأن يمد أهل الركب كلهم بالقوة، حتىٰ يرجعوا إلىٰ أوطانهم من حين يرحل إلىٰ حين ينزل، ومن حين ينزل إلىٰ حين يرحل. وما كنتُ أفرغ من التوجه إلىٰ الله في ذلك حتىٰ يذوب بدني وكأنني شربتُ رطلًا من السم، وكنتُ أرىٰ أنني مؤاخذٌ بكلِّ جمل بطل، أو فقير عجز، أو متاع ضاع، فما وصلتُ إلىٰ مصر وفي عيني قطرة من الهم والكرب علىٰ الحجاج.

ومن أدبه إذا دخل مكة أن يدخل وهو يرىٰ نفسه أحقر من جميع من في الركب وأعصاهم لربه عزَّ وجلَّ، وإذا دخل الحرم يكاد يذوب من الحياء والخجل من الله عزَّ وجلَّ، ويرىٰ أنه قذَّر الحرم والطائفين بالبيت، ولولا أن الله تعالىٰ أوجب عليه الطواف ما فعله. وإذا خرج إلىٰ منىٰ وعرفات، فلا يأكل ولا يشرب حتىٰ يُلْقِي الله تعالىٰ في قلبه أن الله تعالىٰ غفر لجميع أهل الموقف. وإذا رجع إلىٰ مكة فليجعل الدعاء كلَّه لإخوانه دون نفسه فتوةً منه، ويؤخر نفسه إلىٰ يوم الرحيل، وإذا شرب ماء زمزم فليشربه كذلك علىٰ نية إزالة أمراض[1] جميع إخوانه الظاهرة والباطنة، ويؤخر نفسه ويشرب لها علىٰ نية الري من العطش يوم القيامة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: يخلع الله تعالىٰ علىٰ الحاج خلعتين: **إحداهما** عند الحجر الأسود عند الفراغ من طواف الوداع؛ **والثانية** عند وجه رسول الله ﷺ إذا زاره ووقف قبالة وجهه الشريف، لتقر بذلك عينه ﷺ ويدخل عليه السرور. قال: وعلامة صحة الخلعة الأولىٰ أن يزداد العبد إيمانًا بأحوال يوم القيامة، حتىٰ كأنها رأي عين، وعلامة الخلعة الثانية أن يتخلق العبد بالأخلاق المحمدية، حتىٰ لا يخل بشيء منها إلا لعدم القسمة. انتهىٰ.

وكان يقول: ما احتاج فقير إلىٰ شيخ يسلِّكه بعد أن حج إلا لإخلاله بآداب الحج، فإنه

---

(١) بالأصلين: أمرًا من. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

لا يرد علىٰ حضرة الحقِّ تعالىٰ أحد إلا أعطاه من العلم ما يستغني به عن علم العلماء.

وما رأت عيني أكثر قيامًا بآداب الحج من أخي العبد الصالح شمس الدين الخطيب الشربيني الشافعي، والشيخ أحمد الهنيدي بناحية منبوبة[1] ﷺ.

[آداب الصوفي المتزوج أكثر من واحدة]

وأما آداب المتزوج فوق واحدة:

فمن أدبه أن لا يحمل همَّ الرزق، ولا يتعاطىٰ في طريق كسبه ما لا يليق، وأن لا يشتغل بذلك عن الله تعالىٰ، ولا يتناول من الدنيا إلا الحلال دون الشبهات، وأن لا يذم أحدًا من الخلق علَّق أمله به ليعطيه شيئًا، فلم يعطه.

وقد شاور شخص سيدي عليًّا الخواص علىٰ تزويج امرأة فقال له: تزوجت؟ فقال: نعم. فقال له: قد حصلت السُّنة، فاشتغل بعبادة ربك. فقال له فقيه: كيف تنهاه عن فعل السنة؟ فقال له الشيخ: أما تنظر إلىٰ الآفات التي تتبعها، فمن يقول لمن لا حاجة له بالنكاح: تزوج، فكأنه يعلمه خطف العمائم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة دون مخالفتهم للسنة، فإنهم أعلم بالسنة منك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يمدح أخاه في الحضر، فلما سافر للحج صار يقطع في عِرْضه عند أمير الحاج وغيره، ولاث الناس به وقالوا: ما يحب هذا أحدًا يزاحمه في المشيخة.

والجواب: أن الشيخ ربما خاف علىٰ أخيه من كثرة اعتقاد الناس فيه وتعظيمهم له، حتىٰ إذا وقعوا في عطش أو خرج عليهم عدوٌّ أو حصل لهم غلاء أو موت، ألزموه برفع ذلك وقالوا: الحملة عليكم يا سيدي الشيخ؛ فأتعبوا قلبه، وربما لم يجب الله دعاءه في إنزال المطر، فتحوَّل اعتقادهم عنه واحتقروه، فقصد الشيخ بذمِّه وتنقيصه راحته من مثل هذه الحملات.

---

(١) وهي المنطقة المعروفة بـ«إنبابة»، قُلبت النون ميمًا في لغة العامة، وهي تابعة لمحافظة الجيزة بمصر.

وقد وقع لسيدي أفضل الدين مثل ذلك، فظنَّ الناس به أنه يكرهه، وأنه يحب الانفراد بالمشيخة، فلما لم يرجعوا عن اعتقادهم فيه، صار يدعو له بالتدبير، ثم لما وقع للناس العطش وسألوا ذلك الشخص أن يدعو الله ينزل لهم المطر، توجه أخي أفضل الدين إلىٰ الله، فأنزل المطر، ثم إنه أظهر للناس أن ذلك ببركة ذلك الشيخ، ثم ذهب إليه وقبّل يده وقال: الله يكثر في المسلمين من مثل سيدي الشيخ! والحال أنه إنما نزل بدعائه هو، ولكن قصد بذلك ستر أخيه بين الناس، فرضي الله عن الصادقين.

ولما حج سيدي عليٌّ ابن وفا علىٰ التجريد علىٰ جمل لا محمل عليه بقلنسوة بلا عمامة، عطش الحجاج، فجاؤوا إليه، فأنشد موشحه الذي أوله:

اســـقِ الـــعـــطـــاش تـــكـــرمـــا فـــالـــعـــقـــل طـــاش مـــن الـــظـــمـــا

فنزل المطر كأفواه القرب حتىٰ خاض الناس في الماء. انتهىٰ. فإن كنتَ يا أخي من أهل هذا المقام، فأظهر نفسك في الركب، وإلا فاشكر فضل من نقَّصك، فإنه حماك من الهتيكة إذا طلبوا منك المطر فلم تقدر، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عزم علىٰ شيخ ورد علىٰ بلاده أن يضيفه هو وجماعته، وعمل لهم طعامًا، فلما وصلوا إلىٰ باب الدار هرب وتركهم، أو دخل وأغلق بابه دونهم، أو أدخلهم الدار وأطعم الطعام لغيرهم، أو قال لهم: اخرجوا فقد تغيرت نيتي! ونحو ذلك؛ فلاث به الشيخ وجماعته وكلٌّ من علم بذلك من الناس وقالوا: هذا استهزاءٌ بالشيخ أو جنون.

والجواب: أن الضيافة إنما تُشرَع بنية صالحة، فإذا دعا الشخص أحدًا ليطعمه ثم تغيرت نيته، فلا يؤمر بالضيافة. وقد يكون ذلك الطعام من وجه شبهة وعمله لهم سهوًا أو عمدًا، كأن أهداه له شيخ عرب مثلًا مع اعتقاد حلِّه، فقبله وعمله لهم، ثم علم بعد ذلك ببينة أنه بَلَصه[1] من الناس ونحو ذلك، فمنع من أكلِه الشيخَ وجماعتَه شفقةً عليهم،

---

(١) بَلَصَهُ من المال: لم يترك له منه شيئًا.

وضاق الوقت عن عمل طعام آخر في تلك الليلة، ولم يجد معه دراهم يشتري بها شيئًا من السوق يضيفهم به تلك الليلة.

ويُحتمَل أنه قصد بما فعله بيان حسن خلق ذلك الشيخ وجماعته حين كان يعتقد فيهم الصلاح، كما وقع لإبراهيم بن أدهم لما دعا سفيان الثوريَّ من البصرة إلىٰ الرَّملة ليضيفه ويزوره، فأتاه وقال للناس: إنما دعوتُه من هذا المكان البعيد لأعرفكم بحسن خلقه القديم. انتهىٰ.

ووقع لأبي سليمان الداراني أن شخصًا دعاه إلىٰ وليمة، فلما وصل إلىٰ باب الدار قال: ارجع! فأني دعوتُك سهوًا! فتبسم ورجع، ثم دعاه ثانيًا وقال له: ارجع! فإني لم أردك! فرجع ثانيًا، ثم دعاه ثالثًا فقال: ارجع! إني لم أردك! فأخذ الرجل يمدح خلقه، فقال: يا أخي الأمر أقل من ذلك، فإنه خلق الكلاب، فإن الكلب إذا دُعِيَ أجاب، وإذا زُجِرَ انزجر، ولا ينبغي مدح فقير علىٰ خلق يجد مثله في الكلب. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة التي تليق بمقامهم.

(٨٨٢) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أرسل له السلطان الأعظم في الأرض كالسلطان سليمان ابن عثمان هدية من بلاد الروم، كمطعوم أو ملبوس أو شيء من فراشه، وصار هذا الفقير يطلع عليه كلَّ من دخل عليه من العلماء والفقراء، وهو فَرِحٌ بذلك ويقول: انظروا ما أرسله لي السلطان دون غيري في البلد! ونحو ذلك، فلاث به الأقران وغيرهم، وصاروا ينقصونه في المجالس، وينسبونه إلىٰ خفَّة العقل ويقول: كان الأولىٰ رد ذلك، كما كان عليه السلف الصالح، كسفيان الثوري، والفضيل بن عياض ونحوهما، فإنه أخلص لدينه[1].

والجواب: أن أخذ ذلك أولىٰ من وجوه عديدة، منها الأدب مع مولانا السلطان الذي هو ظلُّ الله في الأرض كما ورد[2]، ومن يرد عليه ما يهديه له، فكأنه يدعي أنه أعلىٰ مقامًا من السلطان وأورع وأتم نظرًا منه، وذلك جنون، فإن عقل مولانا السلطان يرجح

---

(١) بالأصلين: لكونه.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن» (١٦٦٥٠)، وفي «شعب الإيمان» (٦٩٩١) والبزار (٥٣٨٣).

علىٰ عقل جميع رعيته لو وُزِنَ بعقولهم، ولولا رجحان عقله ما ولَّاه الله تعالىٰ عليهم.

وقد دخل أبو عبد الله الأصمعيُّ علىٰ هارون الرشيد فوعظه، فلما فرغ من وعظه، قال له: يا أبا عبد الله، إن كنتَ أعلم منا، فنحن أعقل منك، لا ترىٰ نفسك علينا، ولا تنصحنا في ملا، ولا تغشنا في خلا. انتهىٰ.

ومنها أن اللائق بالفقير أن يعتقد في جميع تصرفات مولانا السلطان أنها صحيحة مخلَّصة لذمته، وأنه لا يفعل شيئًا من السفه، وأنه أجلُّ عند الله من أن يطعمه أو يلبسه شيئًا من الحرام الذي يسأله عنه يوم القيامة، حيث ارتضاه إمامًا لجميع المسلمين، مجاهدًا مرابطًا حاميًا لبيضة الإسلام، فما يأكله ويلبسه ويهديه فكأنه من المال الذي يخصُّه من الغنائم، بل يستحق أكثر مما يأخذه.

ومنها أن فتنة ردِّ مال السلطان أعظم من فتنة الأخذ، فإنه إذا رد عظم جاهه عند السلطان وجماعته أكثر كما هو مشاهد، فكان الأخذ أستر للعبد بين الإخوان، ولكن يحتاج الفقير إلىٰ عدة عيون: فعين ينظر بها إلىٰ فضل الله تعالىٰ عليه، وتمييزه بالهدايا عن أقرانه، ومن أين لأمثالنا أن يذكر اسمَه مولانا السلطانُ أو يعتقد صلاحه؟! وعين ينظر بها إلىٰ تفريطه وتظاهره بالأعمال الصالحة حتىٰ اشتُهر بالصلاح وبلغ ذلك السلطان، وكان الأولىٰ له كتمان أعماله الصالحة، كما كتم غيره من العلماء والصالحين الذي لا يصلح هو أن يكون خادمًا لأحدهم، وعين ينظر بها إلىٰ إذن الشارع ﷺ بالأخذ من السلطان في حديث أبي داود بقوله: «فإن كان ولا بد أن يكون أحدكم سائلًا، فليسأل الصالحين أو ذا سلطان»[1]، فقوله: «أو ذا سلطان» فيه الأمر بالأخذ منه، لاسيما إن كان الفقير مسؤولًا في ذلك، ولم يسأل هو السلطان لا بالحال ولا بالقال.

وبالجملة فللعارفين مشاهد في معاملتهم الله تعالىٰ ومعاملة خلقه لا يكون لغيرهم من العلماء والعباد؛ لأنهم علىٰ بصيرة من أمرهم من طريق كشفهم، فربما ردَّ أحدُهم ما

---

(١) تقدم تخريجه.

أعطاه له شيخ من الصالحين، وقبل ما أعطاه له أحد من الولاة وأعوانهم، ولذلك قالوا: لكلٍّ مقام رجال.

[إرسال السلطان العثماني سليمان القانوني بساطه للمؤلف]

وقد أرسل لي مولانا السلطان سليمان ابن عثمان نصره الله في سنة أربع وستين وتسعمئة بساطًا كان يصلي عليه صحبة جاويش من جماعته، فتلقيتُه بالقبول، ووضعتُه عندي علىٰ مخدة، وصرتُ أصلي عليه وأنا في غاية الحياء والخجل أن أضع رجلي عليه مكان رجل السلطان، أو وجهي موضع وجهه، وكأني قبلتُه من القطب الغوث الذي هو محلُّ نظر الحق تعالىٰ لعباده، ونظرتُ إليه بالعيون السابقة، وحصل بذلك بعضُ غمٍّ لأقراني الحاسدين، فالله تعالىٰ يغفر لنا ولهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات له والد مجهول الحال أو ولد، وصار يمدح ذلك الميت ويذكر عنه[1] الأوصاف الشريفة التي لا يقدر علىٰ المشي عليها إلا العلماء العاملون، والأولياء الصالحون، ولم يكن لأحدهما سلف مشهور بالعلم والصلاح، فلاث به الأقران، وصاروا يقولون: إنما يمدح فلان والده بالعلم والصلاح رياءً وسمعةً، كأنه يقول: نحن كلنا أهل بيت علم وصلاح، ما نحن بحمد الله متجددون في ذلك.

والجواب: أنه قد يكون بمعزل عما ظنَّه الناس فيه، وإنما يحكي للناس أوصافه الصالحة استجلابًا للترحم عليه، ووفاءً بحقِّه، وليقتدي به الناس في تلك الصفات التي كان عليها ويكتمها عن الناس، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن والأخلاق الكبرىٰ» من وجوب حمل كلِّ [من][2] مدح نفسه أو أحدًا من أصوله أو فروعه علىٰ التحدث بالنعمة، وأن كل من حمله علىٰ الرياء والسمعة فإنما ذلك وصفه هو، فإن كلَّ إناء بالذي فيه ينضح. وقال الإمام عليٌّ ﷺ: «المرء مخبوء تحت طي لسانه» أي يظهر مقامه بما ينطق به من

---

(١) بالأصلين: عنده. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

شرف وخسة، وإخلاص ورياء، وورع ورغبة وغير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عمل لأبيه تابوتًا وسترًا لما مات، وكان جده فلاحًا أو من فقراء المطاوعة، وأبوه مجهول الحال في العلم والصلاح، فلاث به الحسدة والأقران وقالوا: إنما فعل ذلك لأبيه، ليعرف الناس أنه من بيت صلاح وخير، وليعملوا له الآخر كذلك ضريحًا إذا مات، أو يدفنوه عند والده تحت ذلك التابوت والستر.

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ ما ظنَّه الحسدةُ فيه، فقد يكون غافلًا عن ذلك كلِّه، وإنما فعل ذلك إكرامًا لوالده، بمثابة تعليم قبره بعلامة، أو ليزوره الناس علىٰ مرور السنين، ويقرؤوا الفاتحة، ويدعوا له، لاسيما إن كان يحفظ «البقرة» و«آل عمران»، فإن في الحديث: «من قرأ البقرة وآل عمران ولم يُدْعَ بالشيخ فقد ظُلِمَ»[1] رواه الديلمي وغيره.

وقد أجبتُ بهذا الجواب عن أخي الشيخ الصالح أبي العباس الحريثي لما عمل لوالده تابوتًا مسنَّمًا كتابوت الإمام الشافعي وسترًا، ولم يكن والده مشهورًا إلا بقراءة الأعمال[2] دون إرشاد المريدين، ولاث به الحسدة وقالوا: هذا ما كان يستحق ذلك! بل الذي أقول به: إن الشيخ يوسف الحريثي هذا كان من أولياء الله عزَّ وجلَّ، ووقع له عدة كرامات، وانتفع به خلائق في حفظ القرآن في بلاد الشرقية[3]، وكان قائمًا بالسنة، قطبًا تدور عليها رحاها، مع أنها أكثر بلاد مصر مبتدعة، رضي الله عنه.

فاعلم ذلك، واعتقد أن المشيخة والولاية ليست بالآباء والجدود، وربما كان والد الإنسان عاميًّا وأعطاه الله الولاية الكبرىٰ. وقد كان والد سيدي الشيخ إبراهيم الدسوقي مصموديًا يحرس جرين القمح في بلاد الفلاحين، وكان والد سيدي إبراهيم المتبولي عاميًّا يبيع الحمص المسلوق، وكان والد سيدي محمد بن عنان رجلًا أميًّا، وكان والد سيدي أحمد الزاهد فلاحًا بالصعيد وهكذا، فإياك وازدراء الفقراء والعلماء

---

(١) لم أقف عليه، وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١١٦١) لا أصل له.

(٢) أي الأوراد والوظائف.

(٣) الشرقية: إحدىٰ محافظات مصر.

بالنظر إلىٰ أصولهم، فإن ذلك من الجهل، وعظِّم كلَّ ذات بحسب ما أعطاها الله، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا زاره الباشاه أو قاضي العسكر أو الدفتردار أو أحد من سناجق السلطان وصار يحكي ذلك للداخلين عليه، مع إظهار الفرح بذلك، فلاث به الناس وقالوا: هذا من خفة العقل! ولو كان عاقلًا لحزن علىٰ زيارة أحد من هؤلاء له، خوفًا من فضيحته يوم القيامة إذا أظهر الله تعالىٰ السرائر، وتبين للناس أنه لم يكن صالـحًا.

والجواب: أنه قد يكون ساذجًا غافلًا عما ظنَّه الناس فيه، أو أعلم الناس بذلك من باب خبث الزمان الذي صار الأكابر مثله فيه. وقد قال شخص لإبراهيم التيمي ﷺ: يا فقيه. فقال: والله إن هذا زمان سوء الذي صار مثلي يُنادَىٰ فيه بالفقيه. انتهىٰ.

وأما إظهاره الفرح بزيارة الأكابر، فينبغي حمله علىٰ أنه قصد بذلك السترة بين الأقران، قياسًا علىٰ حالهم لو أن أحدًا من الأكابر زارهم، حتىٰ لا يتميز عنهم بعدم التفاته إلىٰ مثل ذلك، فإن من أقوىٰ أبواب الستر في هذا الزمان الدعاوىٰ العريضة، فربما رأىٰ العارف شدَّة اعتقاد الناس فيه كلما تواضع حتىٰ أشغلوه عن الله تعالىٰ بالتردد إليه، فقصد تنفيرهم عنه بالدعاوىٰ العريضة، حتىٰ صار الواحد من الناس لا يزوره ولا يعتقد فيه صلاحًا، ويقول: كنا اعتقادناه لظننا فيه التواضع واحتقار الناس، فرأينا عنده دعاوىٰ عريضة! فتركناه.

وكان علىٰ هذا القدم الشيخ أبو الحسن البكريُّ، وربما كان ولده سيدي محمد علىٰ هذا القدم بحكم الإرث لوالده، فإن جميع الأولياء تحنُّ أواخر أعمارها للوحدة وعدم تردد أحد إليها، عكس ما كانت عليه في الابتداء، وذلك لأن كلَّ داع إلىٰ خير يود أن لو عرفه الناس ليأخذوا عنه تلك العلوم والآداب، فإذا عرف أنه بلغ ما أفاضه الحقُّ تعالىٰ عليه، حنَّ إلىٰ الانتقال للدار الآخرة، وأخذ في الطي بعد الانتشار.

[توجيه آخر مناسب لمقام الجواب عن أمر الله رسوله بالاستغفار]

ولما أنزل الله عزَّ وجلَّ سورة «النصر» عرف أبو بكر وخواص الصحابة أن الحقَّ تعالىٰ نعىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ أجله، فأخذ في التسبيح لله تعالىٰ عند الزوال، والاستغفار من رائحة الاشتغال بالخلق أيام الرسالة بالنظر لمقام اشتغاله بالله وحده، فثم مقام رفيع ومقام أرفع، ولابد لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] من مركز يحتاج إلىٰ استغفار بالنظر لمقامه الشريف. ويحتمل أن يكون الأمر بالاستغفار إنما هو من لازم رسالته، كما تقدم تقريره في الجواب عنه ﷺ في الباب الثاني[1]، وذلك أنه لولا رسالته ما عُذِّب أحد من أمته، فإن الحجة ما أُقيمت عليهم إلا برسالته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فهو ذنب تشريع لا ذنب وقوع، فافهم.

ولما حضرت وفاة سيدي الشيخ أحمد ابن الرفاعي قال لخادمه يعقوب: والله ما كان لحُمَيد -يعني نفسه- خيرة إلا في الوحدة، فيا ليت حُميدًا لم يعرف أحدًا، ولم يعرفه أحد. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وإن لم يحضرك جواب حسن فاسكت، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا تورَّع عن الأكل من طعام الناس كلهم من تاجر ومباشر، وأمير وفقير، ومن يمسك الميزان أو القباني، أو شيخ البلد، وبالغ في الورع حتىٰ ترك أكل عسل النحل حين قالوا له: إنه يرعىٰ من زهر فواكه الناس، وترك أكل فراخ الحمام التي ترعىٰ من فول الناس أو قمحهم في الغيط أو الجرين، ولاث به الأقران وقالوا: هذا تنطع في الشريعة، فإنها أباحت الأكل من كلِّ طعام لم يعلم العبد أنه حرام، أو يغلب فيه الحرام، ولكن قالوا في المثل السائر: «خالفوا تعرفوا» ولم يبلغنا أن أحدًا من زهَّاد الصحابة والتابعين ترك أكل فراخ الحمام أو غيرها من الطيور إذا رعت من زرع الناس، ولا ترك أكل عسل النحل كذلك.

والجواب: أنه بلغ من ورع السلف ما هو أبلغ من ذلك، حتىٰ كان بعضهم لا يأكل

---

(١) بالأصلين: الأول. والصواب ما أثبتناه. والجواب المشار إليه (٥٣). وللمزيد انظر الجوابين (٢٩)، (٦٣).

من زرع أرضه التي ورثها عن آبائه واحدًا عن واحد إلىٰ إقطاع النبي ﷺ لأجداده إذا خرجت بقرته إلىٰ أرض جاره في مطر ونحوه، ورجعت وفي قوائمها بعض طين اختلط بطينه. وبلغ من ورعهم أن أحدهم امتنع من الأكل من سمك الدجلة من حين نفض جنديٌّ سفرتَه فيها، وأكل السمك من ذلك الفتات. وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل من طعام إلا إن تداولت عليه عشرة أيدي في الحلِّ، فإن لم يبلغ العدد المذكور لم يأكل. وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل من ثمن شيء باعه غلامه وذكر اسم الله عليه أو صلَّىٰ علىٰ النبي ﷺ ويقول: إنك أطريت عليه بذكر الله ورسوله حتىٰ ظنَّ الناس أنه لولا هو سالم من العيب ما قال عليه: تبارك الله، ونحو ذلك مما ذكرناه في[1] كتابنا المسمَّىٰ «تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر علىٰ ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر» وهو كتاب ما أظنُّ أنه صُنِّف في الإسلام مثله، وكلُّ من طالع فيه من المدعين للصلاح يجد نفسه قد انسلخت من صفات الصالحين كما تنسلخ الحية من ثوبها.

وكان جدي الشيخ عليٌّ ﵀ لا يأكل فراخ الحمام، ولا عسل النحل الذي يرعىٰ في زرع الناس أو زهر فواكههم من حين شكا ذلك إليه أهل الفواكه إلىٰ أن مات. واستفتىٰ له والدي شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، والشيخ يحيىٰ المناوي، والشيخ سعد الدين الديري[2] والشيخ شمس الدين البساطي[3]، والشيخ جلال الدين المحلي[4]،

---

(١) بالأصلين: من. والصواب ما أثبتناه.

(٢) سعد الدين سعد بن محمد بن عبد الله أبو السعادات الحنفي، المعروف بابن الديري، جد الأسرة الخالدية بفلسطين، ولد في القدس وانتقل إلىٰ مصر، من مصنفاته: الحبس في التهمة، والسها م المارقة في كبد الزنادقة، وشرح العقائد للنسفي ت سنة ٨٦٧هـ. الضوء اللامع (٣/ ٢٤٩)، الأعلام (٢/ ٨٧).

(٣) محمد بن أحمد بن عثمان الطائي البِسَاطي أبو عبد الله شمس الدين: فقيه مالكي من القضاة. ولد في بِسَاط (من الغربية، بمصر) وانتقل إلىٰ القاهرة، فتفقه واشتهر ودرس. له مصنفات منها: «المغني»، و «شفاء الغليل في مختصر الشيخ خليل» و«مقدمة في أصول الدين» ثم تولىٰ القضاء بالديار المصرية سنة: ٨٢٣هـ واستمر ٢٠ سنة لم يعزل إلىٰ أن توفي ٨٤٢هـ بالقاهرة. «الأعلام» (٥/ ٣٣٢) و«هدية العارفين» (٢/ ١٩٢).

(٤) الشيخ جلال الدين المحلي محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد. ولد بمصر: ٧٩١هـ. واشتغل

فأفتوا بالإباحة في ذلك بغير شبهة، وقالوا: قد أذن الله تعالىٰ للنحل أن تأكل من كلِّ الثمرات، وهو المالك[1] الحقيقي. فقال جدي: هل مراد الحق تعالىٰ الثمرات المباحة والَّا[2] المملوكة؟! وقد حرَّم الله تعالىٰ كل ما أُخِذَ من عبيده بغير طيبة نفوسهم، مع كونه هو المالك الحقيقي، وقد شكا إليَّ أهل الفواكه من نحل بلدي حين أكل زهر فواكههم، فلا آكل إلا من عسل نحل بلد ليس بقربها زهر فواكه. انتهىٰ.

ثم لا يخفىٰ أنه يتعين الورع المذكور علىٰ من عُرِفَ بقضاء حوائج الناس عند الله أو عند خلقه، ويجب عليه الاستحماء عن كلِّ الشبهات، لئلا يقف دعاؤه أو شفاعته عند الأمراء وغيرهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، ومن يأكل الشبهات قد أهانه الله بلا شك.

وقد رأيتُ زوجتي أم عبد الرحمن احتمت عن أكل اللحم والعنب والبطيخ والجبن وغير ذلك مدة خمسة أشهر لأجل ولدها الرضيع، وتحملت المشقة لأجله، فكيف لا يتحمل الشيخ الحمية لأجل مصالح آلاف من الناس؟!

فاعمل يا أخي بالورع في نفسك ولو اعترض عليك الناس، ولا لوم إلا علىٰ من يأمر الناس بذلك ويضيق عليهم، ولذلك قالوا: من حكمة العالم أن يضيِّق علىٰ نفسه ويوسع علىٰ الناس، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وامدح من بالغ في الورع في هذا الزمان ولو لم تصرح الشريعة بمثل ذلك، وقد كانوا يتركون تسعة أعشار الحلال مخافةَ أن يقعوا في الحرام، ويحرم عليك أن تذم من بالغ في الورع وكأنك تقول

وبرع في الفنون. وكان متقشفًا في ملبوسه ومركوبه، ويتكسب بالتجارة، وألف كتبًا تشد إليها الرّحال؛ في غاية الاختصار والتحرير والتنقيح منها: كتابًا في التفسير أتمه الجلال السيوطي. فسمي «تفسير الجلالين» و«كنز الراغبين» في شرح المنهاج في فقه الشافعية و«شرح الورقات». توفي: ٨٦٤هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٤٤٧)، «الأعلام» (٥/ ٣٣٣).

(١) بالأصلين: المأكل. والصواب ما أثبتناه.

(٢) والَّا: لغة عامية مصرية تعني «أم» بالفصحىٰ.

له: لا تخف من الله ولا تخشه! والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر إخوانه بحضور مجالس الذكر والمواظبة عليها ولا يواظب هو، فلاث به بعض المجادلين وقالوا له: قد قال أشياخ الطريق: ينبغي للشيخ أن يحضر الأوراد مع المريدين، لينهض همتهم، فإنهم كلَّهم ناظرون إليه، فإن قام قاموا، وإن نام ناموا، وإن غفل غفلوا.

والجواب: أنه ربما ترك الحضور مع المريدين في بعض الأوقات رفقًا بهم وشفقةً علىٰ دينهم، خوفًا أن يحضر أحدهم لأجل حضوره، لا امتثالًا لأمر الله تعالىٰ، فلا يكون له ذلك الأجر العظيم الذي يحصل لمن يحضر مجالس الخير احتسابًا لوجه الله، وقد ترك رسول الله ﷺ الخروج مع أصحابه في بعض الغزوات شفقةً عليهم، وخوفًا أن يتكلف أحد منهم الخروج لأجله دون امتثال أمر الله عزَّ وجلَّ، وأرسل موضعه أسامة بن زيد، كما رواه البيهقي وغيره[1]. فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل الشيخ علىٰ أنه ترك حضور مجالس الذكر رغبةً عن الذكر أو استهانةً به، وإنما ذلك لحكمة، فإن مقام الأشياخ قد ارتقىٰ عن مثل ذلك، بخلاف المريدين، فربما ترك أحدهم حضور مجلس الذكر كسلًا وآثر النوم أو اللغو علىٰ الحضور. علىٰ أن ثواب جميع المجالس التي في الزاوية في صحائف الشيخ، لأنه لولا مدده ما اجتمع أحد علىٰ خير في الزاوية، لعدم انقياد بعضهم لبعض.

وقد يكون الشيخ دائم الحضور مع الله تعالىٰ، فلا يحتاج إلىٰ من يذكِّره بالله، وإنما يحضر في بعض الأوقات تنهيضًا لهمم أصحابه، فكان من الحكمة ترك الحضور إذا رأىٰ منهم قوة العزم، والحضور إذا رأىٰ فيهم ضعف العزم، وعليه يُحمَل قوله تعالىٰ لمحمد

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه سعيد بن منصور في «السنن» من حديث عمرو بن الحارث أن بكيرًا، حدثه: «أنه بلغه أن رسول الله ﷺ لما أمَّرَ أسامة بن زيد أكثر الناس في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: إنكم تقولون في أسامة أن أسامة حدث السن، وإن تقولوا فقد قلتم لأبيه من قبله، وأيم الله إنه لخليق للإمرة. قال بكير: فبلغني أن عبيدة بن سفيان قال: فإني لأرجو أن تكون هذه إلىٰ اليوم...» وعبد الرزاق (٧٧٧٩) بلفظ آخر، والبيهقي في «السنن» (٤٥٥٢١) بلفظ آخر.

ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، فأمره بالجلوس معهم في مجلس الذكر بالغداة والعشي، وإن كان هو حاضر القلب مع ربِّه عزَّ وجلَّ علىٰ الدوام. وإنما قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ ردًا إلىٰ الحجاب بعد كشفه، فإن الذكر لا يكون لا إلا لغائب عن العيان بالبصر أو البصيرة، وأما حضرة المشاهدة فلا ذكر فيها باللفظ، وإنما هو ذكر بمعنىٰ شهوده أنه بين يدي ربه لا غير، وأصعب ما علىٰ العارف بالله إسدال الحجاب بعد رفعه، فعُلِمَ أنه لولا تنزل رسول الله ﷺ إلىٰ مقام آحاد الأمة لفاتهم الأدب والعلم. وإذا كان العبد المقرَّب في حضرة ربه، ثم أمره تعالىٰ بأمر فيه حجاب عنه، فسلوك ذلك الحجاب أولىٰ امتثالًا لأمر ربه، وليس له أن يقول لربه: لا أفارقك من مجلس الشهود إلىٰ مجلس الحجاب؛ فإن ذلك عصيان لأمر ربه وطاعة للهوىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ خلاف حالك، ووجِّه لهم أفعالهم وأقوالهم حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي يحسِّن اعتقاد كلِّ أمير أراد صحبتَه في اعتقاد غيره من مشايخ العصر، ويقول له: أنا ما أصلح خادمًا له؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: هذه خطيئة عليك يا سيدي الشيخ! فوَّتَ علىٰ نفسك الخير، وأدخلتَ غيرك في الورطة، فقد لا يقدر ذلك الفقير علىٰ حفظ نفسه من الميل لذلك الأمير مع ظلمه وشؤمه، وربما قبل منه هدية فتلف بالكلية.

والجواب: أنه إذا تعارض عند الإنسان هلاك نفسه وهلاك غيره، فهلاك غيره أولىٰ إذا أدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ ذلك، ولم يزل العارفون يمتحنون من يريد صحبتهم من الولاة قبل أن يدخلوا في صحبتهم، فإن الفقير الصادق لا يدخل مع الأمير إلا قاتلًا مقتولًا، وإذا وقع للأمير مصيبة لا يهدأ ولا ينام، ولا يأكل شهوة من الشهوات ولا يجامع، ولا يضع جنبه الأرض ولا يضحك، ولا يغفل عن الله تعالىٰ وهو متوجه في إزالة الهم عن ذلك الأمير، فلا يزال كذلك حتىٰ يفرج الله عنه، وكلُّ صادق لا يمتحن من يريد صحبته، فهو يتعب مع من لا يستحق التعب.

ثم إذا زين في عين ذلك الأمير الاعتقاد في ذلك الفقير ومال إليه الأمير، فقد كفاه المؤنة والتعب، وإن لم يلتفت لغيره، فهناك [لا][1] يتعب معه وقلبه مطمئن بمساعدة الحقِّ تعالىٰ له في أمره، فإن من يلتفت إلىٰ غيرك لا يستحق أن تتعب معه، ولو تعبتَ لا تساعدك القدرة.

وقد ادعىٰ عابد من العباد أنه يحب شيخًا، فقال له: فلو رأيتَ ذلك الشيخ -وأشار إلىٰ شخص- فالتفتَ إليه بنظره، فقال: أنت لا تصلح مريدًا! ولو كنتَ مريدًا ما التفتَ إلىٰ غير شيخك ولو كان هو القطب أو الخضر، لأن القطب والخضر ليس لك عندهما نصيب في التربية، بخلاف شيخك. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل أفعال الأشياخ علىٰ المحامل الصحيحة.

(٨٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسأل الناس من الأكابر وغيرهم ولا يمل من السؤال، فلاث به الفقراء وقالوا: إنما أُبيحَ السؤال للفقير عند الحاجة فقط، أما إذا جمع ومنع فلا إباحة.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الفقير، لأنه ربما كان كثير الدنيا في عينه قليلًا، وكلما ازداد منها ازداد إلىٰ الله تعالىٰ فقرًا كما عليه الصادقون، فإنهم كلما اتسعت عليهم دنيا، ازدادوا في الله تعالىٰ محبةً وإليه فقرًا وحاجة، ويرون أن من قنع من الدنيا باليسير كان قليل المروءة، فإنها كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة، فإذا أعطىٰ الفقير ألف دينار، فكأنه أعطي حبة شعير علىٰ حدٍّ سواء.

ثم إن رأينا ذلك الفقير يسأل ويجمع، حملناه علىٰ أنه رأىٰ ذلك حرامًا أو شبهة، فحبسه علىٰ اسم أصحاب الضرورات؛ وإن رأيناه ينفق ما يأخذه أولًا فأولًا، شكرناه علىٰ ذلك، ولا يجوز لنا ذمه في الحالين. وقد أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الحادي عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٨٩٠) ومما أجبتُ به عن العلماء والصلحاء الذين ظهروا[١] في النصف الثاني من القرن العاشر وسمنوا وكبرت بطونهم، فلاث بهم الناس وقالوا: هذا من أكل الحرام والشبهات، وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ يكره الحبر السمين»[٢]، والحبر هو العالم.

والجواب: أنه لا يلزم أن يكون سمن هؤلاء من أكل الحرام والشبهات، بل ولا من الحلال، وإنما ذلك من برد المزاج، وقلة الهم، وقلة الاعتراض علىٰ الله تعالىٰ، وغلبة التسليم له فيما قدَّر عليهم وعلىٰ غيرهم، عكس من كان حديد المزاج. وقد تقدم في هذا الكتاب أن الشِّبْلي كان سمينًا جدًّا، وكذلك محمد بن الحسن من أجل أصحاب الإمام أبي حنيفة، وكانوا إذا قالوا للشِّبْلي: ما هذا السِّمَنِ؟! يقول: كلما أتذكر أني عبده أزداد سِمَنًا! ومصداق ما قلناه نزول الطفل سمينًا من بطن أمه إلىٰ أن يراهق البلوغ، مع أنه لا تكليف عليه ولا مؤاخذة، وثم لبن يسمن الطفل، ولبن يهزله.

وقد رأيتُ من يأكل اللحم والدجاج صباحًا ومساءً، ولا يظهر عليه سِمَن ولا يربو له بدن، ورأيتُ من يأكل الخبز الحاف وهو كالدب. فاحفظ لسانك يا أخي في حقِّ العلماء والصالحين إذا سمنوا، فقد يكون ذلك من كثرة محبة الله عزَّ وجلَّ، فإنها [تضني قومًا][٣]، وتسمن قومًا. وقد اجتمعتُ بشخص من الفقراء من جماعة سيدي محمد بن عراق كان يطوي الخمسين يومًا فيسمن فيها، فإذا أكل هزل! هذا أمر شاهدتُه.

ويُحمَل الحديث السابق من أن الله يكره الحبر السمين علىٰ الغالب من أن العالم الكبير لا يعجبه كل طعام حتىٰ يأكل منه، لما هو عليه من التورع، فيهزل ضرورة، فما سَمِن هذا إلا من قلة ورعه، ولو أنه تورَّع لم يجد حلالًا يسمن بدنه. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين والمسلمين أجمعين علىٰ المحامل الحسنة حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: صدقوا.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث كعب قال: «إن الله يبغض أهل البيت اللحميين والحبر السمين» وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٦٦) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٥٩٧).

(٣) ساقط من «ب».

(٨٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وصل إليه مال عظيم من وصية أو سلطان مثلًا، وفرَّقه علىٰ الأجانب، وحرم جماعته مع شدة فاقتهم وجوعهم وعريهم، فلاثوا به وقالوا: نحن كنا أحق بذلك، لأننا منقطعون عنده وقائمون بقراءة أوراده وخدمته، ولكن النفس لا تحب أن تعطي برَّها إلا لمن يشكرها بين الناس.

والجواب: أنه لا تجوز المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، فربما كان ذلك المال شبهة، والغالب فيه الحرام، فحمىٰ جماعته منه مع شدة فاقتهم، طلبًا لرفع درجاتهم لا بغضًا فيهم، ولا طلب شكران من غيرهم، فينبغي للفقراء أن يستفهموا الأمر من شيخهم قبل أن يعترضوا عليه ولو بقلوبهم، فإن قال لهم: إنما حرمتُكم من ذلك لعدم قسمته لكم، أو شفقةً علىٰ دينكم لشدة محبتي لكم؛ وجب تصديقه، فإن كان هذا أخذ لنفسه منه شيئًا، وجب حمله علىٰ أنه رأىٰ لنفسه الخلاص في ذلك دون جماعته، ولا يجوز حمله علىٰ أنه أخذ ذلك بغير طريق شرعي، فإن الشيخ يرىٰ ما لا يراه غيره.

وقد كان سيدي عمر الكردي[1] المقيم في بركة فيدان خارج الحسينية[2] إذا أتته هدية يفرقها علىٰ الحشاشين الذين ينامون تحت شجر الجميز، ويقول لهم: يا إخواني، مالي أرىٰ عيونكم حمراء؟! وكان حوله سبعة من النقباء لقضاء حوائج الناس، وكان لا يطعمهم شيئًا من الحلاوات التي تأتيه، ولا من الأطعمة الفاخرة، فلاثوا به يومًا، فقال لهم: خذوا من هذه الحلاوة طبقًا بيدكم وغطوه بالمكبة. ففعلوا، فقال: تعالوا ورائي. فجلس هو وإياهم في الجزيرة الخضراء التي في وسط البركة، وقال لهم: أطعمونا من حلاوتكم. فرفعوا المكبة فوجدوا الحلاوة قد صارت خُنْفُسًا! فتعجبوا من ذلك، فقال: إنما أمنعكم

---

(١) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ الصالح سيدي عمر الكردي، [واسمه عمر بن إبراهيم بن أبي بكر] ﷺ كان مقيمًا بزاويته علىٰ ساحل بركة الخازندار خارج جامع الملك الظاهر بيبرس. وكان يغتسل لكل فريضة صيفًا وشتاءً. وكان عنده جماعة من النقباء لقضاء حوائج الناس عند الأمراء وغيرهم. مات ﷺ سنة نيف وثمانين وثمانمئة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٣٦٢).

(٢) الحسينية: حي من الأحياء القديمة، يجاوره حي الظاهر، وهو تابع لمحافظة القاهرة عاصمة مصر.

من الأكل من أطعمة الناس خوفًا عليكم أن يستحيل في قلوبكم خُنْفُسًا تأكل قلوبكم. فتابوا من ذلك اليوم، وصاروا يفرحون بحرمانهم من تلك الأطعمة والحلاوات.

وقد جاءني مرة وصية من قاضي إسكندرية، وكانت أربعة آلاف دينار، فحرمتُ جماعتي منها ورددتُها علىٰ ورثته، فتكدر مني جماعة في الباطن، وفرح بذلك جماعة، منهم الولد شهاب الدين المنشاوي، والشيخ محمد السبكي، زادهما الله تعالىٰ من فضله عفةً وورعًا، آمين آمين آمين.

(٨٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: فلان العالم من تلامذتنا، وما رأينا أحد انقاد لنا فيما نأمره به وننهاه عنه مثله؛ فلاث به العقلاء وقالوا: في ضمن هذا الشكر للعالم تعظيم الشيخ لمقام نفسه، ولا ينبغي للشيخ النطق بمثل ذلك.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون غائبًا عمَّا يترتب علىٰ كلامه، وإنما ذكر ذلك إخبارًا بالواقع، ولا ينبغي لأحد من أمثالنا مناقشة الأشياخ في أحوالهم، إنما تكون المناقشة منهم لأنفسهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لا ينبغي لشيخ هذا الزمان أن يرىٰ نفسه بالمشيخة علىٰ أحد بعد قوله ﷺ «إذا وُسِّد الأمر لغير أهله، فانتظروا الساعة»[1]. ومن لم ير نفسه أنه لا يصلح خادمًا لطالب العلم الذي يجتمع عليه، وأنه ليس بأهل للمشيخة فهو مغرور. وسمعتُه يقول: كل فقير لا تزكيه أعماله الصالحة فلا يفيده شكر الناس له، لاسيما من لا ذوق له في طريق القوم. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا تثاءب في الصلاة، ولاث به بعض الفقراء وقالوا: إذا كان إبليس ينفخ في وجه هذا وهو يناجي ربه، فكيف به حال الغفلة عن ربه عزَّ وجلَّ؟!

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٩) بلفظ «فانتظر»، وأحمد (٨٧٢٩)، وابن حبان (١٠٤).

والجواب: أن ذلك لا يقدح في كمال العبد، وإنما يقدح فيه الغفلة عن الله تعالىٰ في حال صلاته، وكما أن المصلي لا يقدح فيه وسوسة إبليس له وإنما يقدح فيه العمل بها، فكذلك نفس التثاؤب إذا لم يغفل به عن الله عزَّ وجلَّ لا يقدح في كمال العبد، وإنما يقدح فيه لو غفل عن ربه بالتثاؤب، وفي الحديث: «إذا تثاءب أحدكم فليضع يده علىٰ فيه»[1].

وقوله بعضهم: «لا يتثاءب العبد إلا إن كان غافلًا عن ربه» محمول علىٰ حال غير الأكابر الذين حفظهم الله من الغفلة في أغلب أحوالهم، عكس حال من كان الغالب عليه الغفلة، وفي القرآن العظيم مدح الذين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١] فأثبت لهم مس الشيطان مع مدحه لهم، لكونهم تذكروا به ربهم.

وفي كلام الحكم لابن عطاء الله: «إنما سلَّط الحقُّ عليك الشيطان ليحوشك إليه» فاعلم ذلك، واعذر الناس بما تعذر به نفسك، فهل سلمت أنت من التثاؤب في صلاتك؟! فكما لم تسلم من التثاؤب كذلك غيرك، وعليك بالاستغفار كلما تثاءبت، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي حضر وليمة، فضاع نعله أو اختلسوا جوخته فصاح وقال: أخذوا نعلي وجوختي. وأدخل بذلك علىٰ صاحب الوليمة الغم والهمَّ، فلاث به الحاضرون وقالوا: كان من مقام هذا العالم السكوت وعدم إعلام صاحب الوليمة، لأنه ما حضر إلا جبرًا لخاطره، فالذي حصَّله من جبر الخاطر أذهبه هذا بالصياح عليه بضياع جوخته ونعله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن أخبر الناس بضياع متاعه، ولو حصل بذلك غم وهم علىٰ صاحب الوليمة، لأنه لم يقصد ذلك، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصده، وقد يكون ذلك النعل أو تلك الجوخة من وجه حل لا يكاد يجد بدلهما حلالًا، وليس اللوم إلا لو طلب بدلهما من صاحب الوليمة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٧٤٦) وقال: حديث حسن، والبخاري (٢٧٤٦).

(٨٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي عزم علىٰ سفر الحج، فصار يسأل الولاة وحاشيتهم في أن يساعدوه في الزاد والجمال وغيرهما من آلات السفر، فلاث به الناس وقالوا: هذه حجة ثلاثة أرباعها شحاتة كحج المغاربة.

والجواب: أن مثل ذلك لا يقدح في العالم أو الشيخ، فقد يقصدان بذلك صرفه علىٰ محاويج الرَّكْب، لعلمهما أن الفقراء يقصدونهما في المأكل والمشرب والركوب، لشهرة اسمهما في الركب، وما كل زاد يناسب العالم أو الشيخ الأكل منه، ولا يجدان من الحلال ما يفضل عن صاحبه[1]، فاعلم ذلك، وإياك ولحوم العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا كان أقرانه يكرهونه ويذكرونه بسوء، فلاث به الناس وقالوا: لولا علم أهل خرقته أنه مرتكب أمورًا توجب كراهته ما كرهوه، وقد قال ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض، فمن أثنيتُم عليه خيرًا فهو خير، ومن أثنيتُم عليه شرًّا فهو شر»[2].

والجواب: أنه لا يلزم من كراهة الأقران للعالم أو الشيخ أن يكون مرتكبًا شيئًا من المحظورات، فقد يكون ذلك حسدًا علىٰ ما هو عليه من الجاه والاعتقاد فيه دونهم. ومصداق ذلك أنك تقول له: ما وجه كراهتك لفلان؟ فلا يقدر يثبت في حقِّه معصية ظاهرة من شرب خمر أو تضييع صلاة أو نظر إلىٰ أجنبية ونحو ذلك، وإنما يرميه بالرياء والنفاق والكبر ونحو ذلك من الأمراض الباطنة التي لا يعلمها حقيقة إلا الله، فاعلم ذلك، وعظِّم كلَّ عالم أو صالح رأيتَه متعففًا زاهدًا ورعًا، ولا تلتفت إلىٰ قول الأقران فيه، فإنهم يتمنون له زَلَقة كأعداء البهلوان إذا مشىٰ بالقَبْقَاب[3] علىٰ الحبل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: صاحبهما.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) القَبْقَابُ: النَّعْلُ تُتَخَذُ من خشب، وشِرَاكُها من جلد أو نحوه.

(٨٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من لم يسلك علىٰ قواعد الصوفية من العلماء، فعلمه زاده إلىٰ النار؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: كيف يكون علم العالم زاده إلىٰ النار إذا لم يتصوف؟! مع أن علم التصوف لم يأت به كتاب ولا سنة، إنما هو طريقة اصطلح عليها الصوفية في الهيئة والملبس والمنطق، وإلا فإن صلوا فغيرهم يصلي، وإن صاموا فغيرهم يصوم، وإن حجُّوا فغيرهم يحج وهكذا، فقول هذا الشيخ: «إن من لم يتصوف، فعلمه زاده إلىٰ النار» دعوىٰ لا برهان عليها.

والجواب: أن كلام هذا المعترض كلام من لم يعرف حقيقة الصوفي، ولو أنه عرفها لصدَّق هذا الشيخ، فإن حقيقة الصوفي التي اصطلح عليها القوم هو عالم عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص لا غير، فكيف يجوز الإنكار علىٰ صاحب هذا الحال؟!

واعلم يا أخي أن قواعد الصوفية في تحصيل العلم أن يحفظوا نقول الناس في العلم أولًا، ثم استخراج الأحكام من الكتاب والسنة وأقوال المجتهدين ثانيًا، ثم رياضة النفس وتطهيرها من سائر النجاسات والرذائل ثالثًا، ثم ورود المواهب علىٰ الصوفي من الحضرات الإلهية رابعًا، وهو علم التعريف الإلهي، فيصير يفهم العلوم التي في الكتاب والسنة من غير معلِّم، فلا يكاد يتعسر عليه فهمُ علمٍ جعل الحقُّ تعالىٰ للخلق إليه سبيلًا، كما كان عليه الجنيد وأضرابه، فيصير مثل هذا من أعلم أهل الأرض [ولكن لا يعلم به أهل العلم الظاهر لكتمانه علمه، وعدم مشي أحد ومن العلماء معه][1]، وعدم صلاحية أحد منهم لحمل أسرار الشريعة. ووالله إني لأعرف من عباد الله الآن من لا يصلح أكابر العلماء أن يكونوا من طلبته، ولو أبدىٰ لهم علمًا من علومه ما فهموه، ومعلوم أن من شرط الطالب أن يفهم كلام شيخه، وإلا فليس له من اسم الطالب إلا الاسم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﵀ يقول: غاية علم التصوف أنه يطيِّب القلب حتىٰ يصلح لنزول الواردات الإلهية عليه، كما يطيِّب الفلاح الأرض للزراعة.

---

(١) ساقط من «ب».

[مثال من يطلب العلم وحب الشهرة][1]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: مثال من يطلب العلم مع رعونة النفس والرياء وحب السمعة ونشر الصيت والفرح بتقدمه علىٰ الأقران عند الناس مثال الفلاح الذي يبذر الحب علىٰ الأرض الفلتة اليابسة من غير حرث ولا سقي ولا طراوة في الأرض، فلا تنبت له من بذره حبة. وإن وقع أنه نبت له من ذلك شيء، فهو كالشوك الذي نبت في زبل ودخان، أو كالنبات الذي نبت في أرض مسها الماء وذهب عنها بسرعة، فصارت كالأرض الندية التي لا يكفي نداوتها الحب شربًا ولا نموًا، فهو ينبت نباتًا ضعيفًا لا ثمرة له، أو له ثمرة ممصوصة لا تسمن ولا تغني من جوع، فإياك أن تقول: إن علوم الصوفية لا يحتاج الفقيه إليها في طريق تحصيل ثمرة العلم، كما يقوله بعض المجادلين الذين يتعلمون العلم من غير إخلاص، فإن الحس يكذبك يا أخي من عدم اعتقاد الناس فيمن لم يعمل بعلمه، فإنه يكون يابس الطبع كأنه خشبة يابسة لا يكاد ينتفع هو بعلمه، ولا ينتفع به أحد، ولو بدره في الدرس علىٰ الطلبة لا يثبت منه شيء في قلوبهم، وربما يصير أحدهم يقرأ علىٰ غيره حتىٰ تشيب لحيته ولم يؤهل لإفادة غيره شيئًا، بخلاف من كان عاملًا بعلمه، فإن طلبته يكونون علىٰ أخلاقه من اعتقاد الناس فيه الصلاح وانتفاعهم بعلمه، ويقول الناس عن أحدهم: هذا حل عليه نظر سيدي الشيخ نفعنا الله ببركاته.

واعلم يا أخي أن من جملة العلوم التي اختص بها الصوفية عن غيرهم: علم الجمع والتفرقة، وعلم الهدادة والهجوم، وعلم التجلي والاستتار، وعلم التجريد والتفريد، وعلم السكر والصحو، وعلم المحو والإثبات، وعلم الفناء والبقاء، ونحو ذلك مما ذكره الإمام القشيري أوائل رسالته.

وقد ألفتُ بحمد الله تعالىٰ كتابًا في علوم القوم ذكرتُ فيه نحو ثلاثة آلاف علم لا يعرف غالب العلماء أسرارها، فضلًا عن الخوض فيها، وكتب عليه مشايخ الإسلام بمصر علىٰ وجه التسليم للقوم، وقد جردتُه من نحو مئتي ألف علم وسبعة وأربعين ألف

---

(١) عنوان علىٰ هامش الأصلين.

علم وتسعمئة وتسعة وتسعين علمًا ذكرها أخي الشيخ الكامل أفضل الدين واستخرجها كلَّها من سورة «الفاتحة» وقال: إن ذلك سبب تسميتها «أم الكتاب» أي الحاوية لمعاني القرآن كله، وقال: إن هذه العلوم التي استخرجتُها من «الفاتحة» هي أمهات علوم القرآن، وأما فروعها فلا يعلم عددها إلا الله تعالىٰ.

وقد بسطنا الكلام علىٰ علوم القوم وكيفية الوصول إليها في أواخر الباب الأخير من كتابنا المسمَّىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق في بيان تفليس غالب المدعين للطريق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ العهد في الطريق علىٰ من كان عاقًّا لوالديه أو أحدهما، ولاث به المتشرِّعون وقالوا: العاقُّ لوالديه الحقُّ تعالىٰ غضبان عليه، ومن غضب عليه الحقُّ تعالىٰ، فلا يقدر أحد يدخله حضرة الله تعالىٰ إلا بعد أن يرضي والديه أو والده، ليرضىٰ الله عنه، ثم بعد ذلك يسلكه الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد اجتماعنا عليه واستفهامنا الأمر منه، فإن رأينا له قدرة علىٰ إرضاء الحق تعالىٰ عنه فذاك، وإلا أنكرنا عليه بعد ذلك. وأما المبادرة إلىٰ الإنكار عليه فلا ينبغي.

وقد أخبرني سيدي عليٌّ الخواص ﵁ أن مريدًا كان عند سيدي إبراهيم المتبوليِّ علىٰ عبادة عظيمة، فقال له سيدي إبراهيم يومًا: ما لي أراك يا ولدي كثير الأعمال ناقص الدرجات؟! فقال: لا أعلم! فقال: لعل والديك أو أحدهما مات وهو غضبان عليك. فقال: نعم! مات والدي وهو غضبان عليَّ. فقال الشيخ: أرني قبره؛ فأراه قبرَه خارج الحسينية بمصر، فلما وقف سيدي إبراهيم علىٰ القبر، قال له: يا حاج أحمد اخرج بإذن الله؛ فشق القبر وخرج رأسه، فقال له: ارضَ عن ولدك هذا، فإنه في كرب بسبب غضبك عليه. فقال: يا سيدي قد رضيتُ عنه. فقال له سيدي إبراهيم: ارجع مكانك؛ فرجع. وأخبرني الشيخ يوسف الكردي[1] أنه كان حاضرًا هذه الواقعة.

---

(١) ذكر الشيخ الشعراني في «البحر المورود» ص٣٨٣ أنه أخص أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي أخذ العهد علىٰ العاقِّ لوالديه علىٰ أن له قوة علىٰ إرضاء والده عليه، ولو استبعد عقلك ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجلِس ولدَ الشيخ الذي مات علىٰ سجادة المشيخة، ويأمر جماعة والده بطاعته والانقياد له كما كان والده، مع أنه لم يظهر من ذلك الولد أمارات المشيخة، فلاث به الناس وقالوا: المشيخة ليست بالإرث كالإرث الظاهر، وإنما هي بالأعمال الصالحة، فمن سلك مسلك والده في طريق الصدق والزهد والورع، وقيام الليل وحفظ جوارحه الظاهرة والباطنة، فهو شيخ وإلا فلا.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ الذي أجلس ولد الشيخ مكان أبيه، فقد يكون فعل ذلك جمعًا لنظام الزاوية عن تشتت أهلها بموت الشيخ، ثم بعد ذلك يسلِّكه في طريق القوم، هذا إن كان طريق والده سلوك طريق الإمام الجنيد ﵁. أما مشايخ الخرق كالقادرية والأحمدية، فالأمر في ذلك سهل، لأنها طريق تزيي بزي الفقراء في الملبس والسجادة والعذبة، والغالب علىٰ جماعة والد هذا الولد الأدب معه، فلا يتجرأ أحد منهم علىٰ الخروج عن خرقته.

وقد أجلسوا الشيخ محمد خليفة سيدي أحمد البدوي للمشيخة وهو ابن سبع سنين وخدموه حتىٰ صار رجلًا، وكما وقع لسيدي الشيخ سليمان الخضيري[1] مع ولد الشيخ محيي الدين الذاكر بجامع ابن طولون، وكما وقع لسيدي الشيخ أحمد بن النحال مع سيدي أبي العباس الغمري، فإن الشيخ سليمان أجلس ولد الشيخ محيي الدين قبل ظهور علامات المشيخة، والشيخ أحمد النحال أجلس سيدي محمد الغمري كذلك،

---

(١) سليمان الخضيريّ المصري الشافعي. الشيخ الصالح الفاضل العارف بالله تعالىٰ. أخذ العلم عن الجلال السيوطي، والقطب الأوجاقي، وأخذ الطريق عن الشّهاب المرحومي، وأذن له أن يربّي المريدين ويلقّنهم الذّكر، فتلمذ له خلائق لا يحصون. وكان زاهدًا، ديّنًا، لا ينتقص أحدًا من أقرانه، ويقول: لا يتعرض لنقائص الناس إلّا كل ناقص. توفي: ٩٦١هـ ودفن في زاويته المرتفعة داخل باب الشعرية. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٧٦).

ثم جاء آيةً من آيات الله في العلم والصلاح. وقد قال الأشياخ: **ربما زرع الشيخ في المريد مقامات الطريق ولم تظهر إلا بعد زمان بحكم الإرث لرسول ﷺ**، [فإنه كان نبيًّا من عالم الذر، ولم يزل نبيًّا في الأصلاب إلىٰ وقت ظهوره الرسالة ﷺ] والطريق تعرف أهلها، فمن لم يسلك كما سلكوا رفضته الطريق قهرًا عليه، وإن رقعها من ناحية تمزقت من نواحٍ، كما هو شأن المغفلين من أمثالنا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فعُلِمَ أنه يتعين علىٰ ولد الشيخ إذا أجلسوه علىٰ سجادة والده ألا يقتنع بذلك، بل يأخذ في طريق الجد والاجتهاد إن طلب أن يكون شيخًا علىٰ جماعة والده، وكذلك ينبغي أن ينقاد لكبراء جماعة والده، ليعلِّموه ما كان والده علَّمه لهم، ويقولون له: كان والدك يفعل كذا، أو يقول كذا، ولا يظهرون التمشيخ عليه، فتنفر نفسه منهم، لكونه لم يخرج من رعونات النفوس، فيفوته ويفوتهم الأجر، وإنما يقولون له: إنما نطلب منك الاقتداء بأحوال والدك، ومن يشابه أباه فما ظلم. ويجب عليه بعد والده أن يكون إمام الفقراء كلِّهم في الزهد والورع والعفة وقراءة الأوراد وسائر العبادات، وليحذر أن يتأخر عن ذلك، فإنه يتأخر عن الرئاسة علىٰ الفقراء، وكيف يطلب أن يكون شيخًا علىٰ قوم يزهدون في الدنيا وهو راغب فيها؟! ويقومون الليل وهو نائم؟! ويشتغلون بالآخرة ويشتغل هو بالدنيا وملابسها ومآكلها ومناكحها؟! هذا أمر لا يصح له به رئاسة علىٰ أحد، فلينتبه ولد الشيخ لمثل ذلك، ويخدم الحقَّ جلَّ وعلا كما خدمه والده إن طلب أن يكون شيخًا بعده علىٰ فقراء الزاوية، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يردُّ مال الولاة إذا أعطوه له من غير سؤال، مع أن له عيالًا وأصحابًا في غاية الفاقة والحاجة والعري، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: لو أنه أخذ المال وفرَّقه علىٰ المحتاجين، ولم يتناول هو منه شيئًا، لكان أرجح له عند الله وعند خلقه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن القاعدة عند المحققين أن السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة، وإذا تعارض عند العاقل هلاكه وهلاك غيره، كان من العقل دفع

الهلاك عن نفسه أولًا، ودفعه عن غيره ثانيًا، وقالوا: من كمال المؤمن أن لا يطعِم أخاه إلا بما يحب أن يطعِمه هو. ومن قال: أعطني الحرام والشبهات واتركه أنت، فهو سفيه، فلا يجاب لما طلب، فكان من المعروف ردُّ هذا الشيخ المال وحرمان نفسه وإخوانه منه، مع أنه لم يُقسَم لهم في الأصل، إذ لو قُسِمَ لهم أو له، ما قدر علىٰ رده أحد من أهل السماوات وأهل الأرض.

وقد أرسل السيد عثمان بن عفان مالًا جزيلًا لأبي ذر ﵄ وقال لفتاه: إن قبله منك فأنت حر. فرده أبو ذر، فقال: يا سيدي، إن في أخذه فك عنقي! فقال: إن كان فك عنقك، ففيه رقي. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﵀ يقول: لا يخرج أحد من الولاة عن مال للفقراء إلا بعد زهده فيه، ولولا زهده فيه ما أعطاه لهم، فشيء زهد فيه الولاة، فكيف يرغب فيه الفقراء؟! وأيضًا قال: الولاة لا يخرجون عن مالهم المحبوب لقلوبهم إلا لمن اعتقدوا فيه الصلاح، ولولا اعتقادهم فيه الصلاح ما سمحوا له به، فمن أخذ ذلك منهم فقد باع دينه بدنياه. انتهىٰ.

فليحذر الفقير الساذج من قبول شيء من المال الذي أرسله السلطان أو أحد من نوّابه إلىٰ الزهّاد والصلحاء، فإنه لا يجوز له اعتقاد الصلاح في نفسه، وظنُّ الناس فيه الصلاح لا يكفي. ومن شك في ذلك من المتمشيخين، فليعرض علىٰ السلطان أو نائبه جميع الزلات التىٰ[1] فعلها طول عمره وينظر كيف يحكم بفسقه ويخرجه عن الزهد والصلاح، ولا يسمح له بدرهم.

وقد أرسل لي نواب مصر كثيرًا المال فرددتُه بحمد الله. وكذلك أرسل لي أمس تاريخه الباشاه إسكندر مالًا جزيلًا مع الشيخ أبي اللطف[2] سبط شيخنا ﵁، وكان قال له: فرّقه علىٰ الصلحاء والزهاد بمصر. فلما أتاني بشيء منه، قلتُ له: قد خرجتُ أنا بشرط الباشاه،

(١) بالأصلين: حتىٰ. والصواب ما أثبتناه.

(٢) أبو اللطف هو ابن بنت الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري بالقاهرة في عهد المصنف.

فإني لستُ بصالح ولا زاهد. فبلغ ذلك بعض إخواني من طلبة العلم، فلاموني وقالوا: لو أخذه وفرَّقه كان أفضل! فقلتُ لهم: إنما أنا تابع في ذلك سلفي الطاهر. وأما جماعة الزاوية فمدحوني علىٰ ذلك، وعلىٰ حرماني لهم من ذلك، فأسأل الله تعالىٰ من فضله أن يسبغ عليهم نعمة العافية، ويغنيهم بالقناعة حتىٰ يلقوا الله تعالىٰ، آمين اللهم آمين.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ أشياخ الطريق، فإنهم أعلم منك بأمور الدنيا والآخرة، ولا يعترض علىٰ الأشياخ إلا من هو أعلىٰ مقامًا منهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا كثرت المرائي الردية له من الناس، حتىٰ كاد الخلق أن يجعلوه من أهل النار، بأنه ربما كان سبب تلك المرائي له ليجِدَّ في الطاعات ويترك التواني والكسل، وهو في علم الله تعالىٰ من أكابر الأولياء. وقد تكون المرائي كلُّها للرائين لا للمرئي له كما تقدم في هذا الكتاب مرارًا، فلا يلزم من ذلك نقص درجة ذلك العالم أو الشيخ.

ومما وقع لي أنني اشتهيتُ فاكهةً مرةً فأكلتُها ثم نمت، فرأيتُ الذباب عافًا علىٰ بدني وثيابي، فعرفتُ أن حكمي حكم الذباب علىٰ العسل، ثم توالت عليَّ الطاعات حتىٰ ظننتُ النجاة، فنمتُ تلك الليلة، فرأيتُ أنني متُّ ونزلتُ القبر فرأيتُ فيه طَرَّاحة من الخيش محشوةً من شوك أم غيلان[1] وأنا نائم عليها عريان أنقلب علىٰ ذلك الشوك. وكثيرًا ما أنام عن قيام الليل، فأجد نفسي تارةً مع اللاعبين لخيال الظل، أو مع النساء، أو مع الأطفال، أو مع العميان، أو مع البهائم، فأعرف أني لا قدم لي في الصلاح! وأني أعمي أو بهيم!

وكثيرًا ما أنام في ليلة الجمعة وأنا جالس في مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، فأرىٰ بستاني أو رِزَقي[2] التي كنتُ زرعتُها فواكه استحالت إلىٰ الأثل والحور[3] والصفصاف

(١) أمُّ غيلانَ: شَجرُ السَّمُرِ، وهو نوع من جنس السَّنْط من الفصيلة القرنية

(٢) جمع رِزقة، وقد تقدم معناها.

(٣) أنواع من الشجر.

والصنت وشوك الجمال[١]، فأستيقظ وأجدد الوضوء، وأسجد لله شكرًا الذي ينبهني علىٰ مثل ذلك، وأعرف اعتناءه تعالىٰ بي، فله الحمد والشكر عدد كل ذرة في الوجود العلوي والسفلي، مضروبة في أمثالها أضعافًا مضاعفة أبد الآبدين، ودهر الداهرين، آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من المحال أن يتقبل الله من العبد عملًا يرىٰ لنفسه شركة فيه؛ فلاث به بعض العلماء وقال: شركة العبد لله في الفعل لا بد منها كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، **وقوله تعالىٰ:** ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، **وقال: تفعلون، تعملون.**

والجواب: أنه يجب حمل كلام هذا الشيخ علىٰ الشركة الحقيقية، كمن يرىٰ نفسه فاعلًا مع الحقِّ جلَّ وعلا كالمعتزلة، كما يجب حمل الآيات والأخبار علىٰ الشركة المجازية، لأجل إقامة الحدود وغيرها، فهي شركة إسناد لا شركة إيجاد، قال تعالىٰ: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النساء: ٧٩] إسنادًا وإيجادًا ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي إسنادًا لا إيجادًا ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]: أي المتقين شركة أنفسهم في الفعل مع الله علىٰ وجه الإيجاد لا الإسناد، وذلك أن الله تعالىٰ لا يتقبل من العبد إلا ما كان باقيًا ببقاء فاعله أبد الأبدين. وأما عمل العبد فهو فانٍ بفنائه، فهو كالعدم الذي لا وجود له. انتهىٰ.

وقد سُئل الجنيد عن العبد وعمله: هل هو موجود أو معدوم؟ فقال: هو موجود، ولكن وجوده متردد بين وجود وعدم لا يخلص لأحد الطرفين. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من أراد الإخلاص في أعماله، فليُرِض

---

(١) عشبة شوك الجمل لها العديد من الأسماء، مثل: خرشوف الجبل، والأرضي الشوكي البري، والعكوب، وهي نبتة تنمو في أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا، وتنتمي إلىٰ العائلة النجمية.

نفسه حتىٰ[1] يشهد أن العمل لله تعالىٰ وحده كشفًا ويقينًا، وليس له منه إلا نسبة التكليف فقط، وهناك يحفظ العمل من الرياء وسائر الآفات. وأما من يرىٰ العمل لنفسه ويغفل عن كونه لله تعالىٰ فمن لازمه الرياء والإعجاب وسائر الآفات. قال: وهذا هو الإخلاص الذي أمرنا الله به. قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] يعني ولا نفسه إلا بقدر نسبة التكليف فافهم، فإن من عرَّىٰ نفسه من العمل مطلقًا، أخطأ الشرائع كلَّها، لأنها كلها جاءت بإضافة العمل إلىٰ الخلق، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي دخل إلىٰ وليمة اجتمع فيها خلائق من العلماء وغيرهم، فقال أول ما دخل من الباب: والله ما يقوم لي أحد منكم؛ ولم يكن في عزم أحد القيام له، فلاث به الناس وقالوا: إنما حلف تكبيرًا لنفسه وكسرًا لخجلها لما خاف أن لا يقوم أحد له، فيزدريه الحاضرون، فحلف حتىٰ يُقال: إنهم كانوا عازمين علىٰ القيام له، ولكنهم لم يقوموا إبرارًا ليمينه، ولأي شيء لا يعمل هذا علىٰ حصول مقام التواضع حتىٰ لا يكاد يخطر في باله أن أحدًا يقوم له لحقارته عند نفسه؟! فإن كثيرًا من الناس يظهر الكراهية لقيام الناس له، وتقوم القرائن علىٰ محبته لذلك حين تظهر العبوسية علىٰ وجهه والخجل إذا لم يقوموا له. والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون غائبًا عن تعظيم الناس له جملةً، ويعتقد في نفسه الحقارة، وإنما حلف علىٰ الناس أنهم لا يقومون له، لظنه أنهم يقومون له، مع أنه لا يستحق القيام له، فحلف عليهم حياءً من الله تعالىٰ. ولا يجوز حمله علىٰ محبة القيام له، ولا أنه قصد بحِلْفِه تكسير الخجل، فإن ذلك بعيد من العالم أن يقع فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي خزَّن قوت سنته ثم غلا السعر حتىٰ أكل الناس الشعير غير منخول وهو يأكل القمح الخالص المنخول، فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: لو كان هذا من الصالحين، لأخرج القمح الذي في حاصل الفقراء

---

(١) بالأصلين: قد. والصواب ما أثبتناه.

وباعه للمحتاجين، ثم صار يشتري كآحاد المسلمين بقدْر الغداء أو العشاء فقط، حتىٰ لا يتميز عن إخوانه المسلمين.

والجواب: أن ذلك لا يؤمر به إلا الفقراء الصابرون الراضون عن الله إذا جاعوا، كما وقع للإمام عمر بن الخطاب وأصحابه عامَ الرمادة. وأما من يقع في السخط وعدم الرضا عن ربه إذا جاع، فلا يؤمر بإخراج ما عنده للناس، ثم يصير يشتري ذلك من الناس.

وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: لا يتم لعبد العبادة إلا إذا أحرز قوته. وأما إذا لم يكن عنده في داره قوت، فذهنه مشتت لا يقدر علىٰ جمعه في عبادة ولا غيرها. وكان يقول: لا تشاور من ليس في بيته دقيق، أي لأن تدبيره ناقص. انتهىٰ.

لكن ينبغي للشيخ أن لا يبالغ الترفه أيام الغلاء كأن يشبع من اللحم الضاني والدجاج والحلو وجاره لا يجد كسرة يابسة. ومن فعل ذلك فقد خرج عن طريق الاستقامة. ومما يتأكد عليه تصغير الرغيف توسعةً علىٰ الفقراء، فإن من كبَّر رغيفه لم يفضل عنه شيء يعطيه للسائل، فتصغير الرغيف أول يوم لقيمة ثم لقيمة حتىٰ يتعود الجوع من غير ضرر. قالوا: ولا ينبغي للشيخ أن يأمر أحدًا من المجاورين بالخروج من الزاوية أيام الغلاء، بل يضع كلَّ شيء تيسر بين أيديهم، لاسيما إن كان سماط الزاوية وقفًا علىٰ غير معين. فاعلم ذلك، وإياك أن تنكر علىٰ العلماء والصالحين إلا بنص صريح، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي إذا زار رسول الله ﷺ أو أحدًا من الأولياء يمشي حافيًا من حين يرىٰ مقامه، وربما كانت الأرض وعرة أو فيها شوك، فتمتلىء رجلاه شوكًا، ويصيران يخران دمًا، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه من البدع، والنبي ﷺ أرحم بأمته من أن يؤذي أحدٌ منهم نفسَه لأجله.

والجواب: أن ذلك قليل في جانب محبة رسول الله ﷺ أو محبة أوليائه. وقد نزل سيدي الشيخ أبو العباس الغمري والشيخ محمد بن عنان والشيخ أبو بكر الحديدي والشيخ محمد المُنيِّر والشيخ عبد القادر الدشطوطي وغيرهم، فنزلوا كلهم لما دخلوا

مكة من مساجد عائشة، ولما زاروا رسول الله ﷺ نزلوا من آبار السيد علي ﷺ مشاة حفاة وخرَّ من أرجلهم الدم.

ولما دخل سيدي عبد القادر الدشطوطي باب الحرم المدني، وضع خده علىٰ عتبته ثلاث أيام ولياليها، حتىٰ رحل الركب ولم يدخل، فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: هو أقرب عندنا ممن دخل إلينا وهو متلطخ بذنب. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: يرسل رسول الله ﷺ رسلًا يتلقون الزوار بالخلع من آبار عليّ علىٰ اختلاف مراتبهم، ويسر بذلك رسول الله ﷺ غاية السرور، فإذا وقفوا تجاه وجهه الشريف، أمدهم رسول الله ﷺ بالأمداد الإلهية اللائقة بهم، ومن استحيا من رسول الله ﷺ أن يقرب منه أرسل له المدد. انتهىٰ.

ولما زار السلطان قايتباي سيدي أحمد البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ نزل ومشىٰ من حين رأىٰ مقامهما حافيًا، وقلعوا من رجله كذا كذا شوكة. ولما زار سيدي الشيخ عمر النبتيتي[1] سيدي أحمد البدويَّ نزل من ناحية نفيا[2]، فلما زار ركب من عتبة سيدي أحمد، فقالوا له في ذلك، فقال: إن سيدي أحمد تلقاني ماشيًا من ناحية نفيا، فلم أكن لأركب وهو ماش. ولما زرته خرج معي إلىٰ باب المقام، وحلف عليَّ أن أركب، فأبررتُ قسمه. فاعلم ذلك يا أخي، ولا تستكثر ما بينا لك في محبة نبيك وأولياء الله، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي للمريد أن لا يتمنىٰ قط مقامًا فوق مقام شيخه؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا تحجير علىٰ الناس، والحقُّ أن له أن

---

(١) بالأصلين: تكثيرًا لنفسه.

(٢) عمر بن علي بن غنيم الشافعي النبتيتي الأصل، الخانكي المولد والمنشأ، حفظ القرآن وربع العبادات من التنبيه، كان مداومًا علىٰ التهجد والصوم وإكرام الوافدين وملازمة الصمت، وقد صحبه جماعة كإمام الكاملية والزين زكريا وغيرهم، أقام بنبتيت نحو خمسين سنة، ويؤثر عنه أحوال صالحة وكرامات كثيرة ت سنة ٨٦٧هـ. «الضوء اللامع» (٦/ ١٠٨)، الكواكب الدرية» (٣/ ٢١٩).

يتمنىٰ ماعدا النبوة فهذا هو الممنوع.

والجواب: أن قول هذا الشيخ لا ينافي ما ذكره المعترض، فله أن يسأل من المراتب العالية ما شاء، لكن يكون ذلك من باطنية شيخه، فيسأل الله تعالىٰ الترقي لشيخه حتىٰ يترقىٰ الآخر تبعًا له، إلىٰ أن لا يبقىٰ إلا مقام القربة الذي بين الصديقية والنبوة، فهناك يقف، وليس له أن يسأل ما انتهىٰ إليه شيخه مما لا رقي بعده من مقام القربة. وهذا هو أحد الأقوال في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] أي لا تحدثوا نفوسكم بطلب منزلة في الأدب فوق منزلة رسول الله ﷺ، بل كونوا تبعًا له.

قال السهروردي: وهذا من محاسن الآداب التي أدَّب الله تعالىٰ بها أصحاب رسول الله ﷺ معه قبل ظهور خصوصياته لهم، فينبغي للمريد أن يتأدب مع شيخه كذلك، فلا يتمنىٰ منزلة فوق منزلة شيخه، بل يطلب لشيخه الرقي إلىٰ أعلىٰ المقامات ليسلك إليها خلفه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: يجب علىٰ المريد أن يحب لشيخه كلَّ مقام يعطاه الأولياء، ولا يجوز له طلب مقام يجاوز به مقام شيخه أدبًا معه. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل كلام الأشياخ علىٰ محامل العلم دون الجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي إذا جاءه فقير ووقف علىٰ الباب يطلب الإذن في الزيارة لا يفتح له الباب، بل يكلمه من وراء الباب، أو يفتح له بعض الباب بقدْر ما يمد يده يصافحه ثم يرجع، وإذا جاءه أحد من أبناء الدنيا، يفتح له الباب ويظهر له السرور ويخرج إليه ويتلقاه ويجلسه علىٰ فرشه، فلاث به الناس وقالوا: كان الأولىٰ به أن يعكس، فيفتح للفقراء ويغلق الباب علىٰ أبناء الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ أفعال الأشياخ، فقد يكون لهم أعذار تخفىٰ علىٰ كثير من الناس. وقد وقع ذلك من سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، فلما لاموه علىٰ ذلك قال: إنما لم أجلس مع الفقير لأن رابطته معنا قلبية، فيكتفي منا بموافقة القلب، ويقنع بملاقاتنا وخطابنا له ولو من وراء حجاب، بخلاف أبناء الدنيا، فإنهم واقفون مع العادات ورؤية الظواهر، وليس بيننا وبينهم رابطة قلبية، ومتىٰ لم نوفِ

لأحدهم حقه من الظاهر استوحش منا. انتهىٰ. فلو كان المريدون المعترضون علىٰ الأشياخ صادقين، لكانوا أجابوا عن الشيخ بمثل هذا الجواب، وسلموا من المقت، فكم مقت مريد من الاعتراض بغير علم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ينبغي لكل مريد أُشكِلَ عليه شيء من حال شيخه أن يتذكر قصة موسىٰ مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، وينظر ويتأمل. ومن هنا قالوا: كل شيء أنكره المريد من حال شيخه، فإنما هو لجهله بحقيقة ما الشيخ فيه، فإن للشيخ في كل شيء عذرًا بلسان العلم والحكمة.

وقد كان الجنيد رحمه الله إذا ألقىٰ علىٰ أصحابه علمًا وأنكروه يقول: فإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون. وكان الإمام القشيري رحمه الله يقول: من تأمل الأدب مع الوسائط وجده أدبًا مع الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير إذا صار يزور المتمشيخين بغير حقٍّ، ولا يمشي أحد منهم إليه، فلاث به الصادقون وقالوا: في زيارة الشيخ لهؤلاء ازدراء الأشياخ الصادقين، وهلاك ذلك المتمشيخ الذي لا يصلح تلميذًا له، فالأولىٰ له تركه.

والجواب: أن زيارة الأشياخ الصادقين للمتمشيخين واجبة، ليرشدوهم إلىٰ طريق الاستقامة بحسن سياستهم وإلا هلكوا. وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: يجب علىٰ عارف الوقت إذا تمشيخ أحد في عصره وأبىٰ أن يتلمذ للأشياخ أن يذهب هو إليه، ويرشده ويقوِّم عوجه ولو بأن يتلمذ له، فإن كلَّ ما لا يُتوصَل إلىٰ الواجب إلا به فهو واجب، ومتىٰ أخلَّ العارف بذلك كان حكمه حكم من قدر علىٰ إزالة منكر ولم يزله. انتهىٰ.

وأما قول المعترض: «إن في زيارة العارف للمتمشيخين هلاك لهم» فالجواب: أن ذلك لا يكون هلاكًا مع وجود العارف وإرشاده، وإنما ذلك مع [عدم][1] اجتماع العارف به، فلا يزال العارف يكشف للمتمشيخ عن عيوبه ونقائصه شيئًا فشيئًا، حتىٰ يرىٰ نفسه كالتراب،

(١) ساقط من «ب».

وأنه لا يستحق مشي أحد من العصاة إليه خطوةً فضلًا عن أهل الخير إن شاء الله تعالىٰ.

وقد قدَّمنا مرارًا أن سيدي عليًّا الخواص ﷺ زار شيخًا من أصحابه، وكان الشيخ عزيز الزيارة، فلما رآه يحصل له رؤية نفس بذلك قال له: يا فلان، إني لم أقصدك بالزيارة، وإنما خرجتُ لحاجة في حارتك، فمررتُ علىٰ بابك، فقلتُ أنظر حاله هل هو باقٍ علىٰ قلة أدبه وغفلته عن الله أم تاب من ذلك؟ انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة.

فعُلِمَ أن تلمذ الشيخ الكبير للمتمشيخ حتىٰ يربيه واجب. ثم إنه يحفظه من رؤية النفس بذلك، وكان علىٰ هذا القدم أخي أفضل الدين كان يزورني يربيني حين علم من نفسي الكبر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرىٰ أحدًا من إخوانه مرتكبًا فاحشة، فلا يقطع عنه البشاشة ولا الكلام الحلو، ولا يوبخه لجناب الحقِّ تعالىٰ، فلاث به بعض المريدين وقال: قد أمرنا الله تعالىٰ بإظهار الغضب إذا انتُهِكَت حرمات الله، وبالنصح لكلِّ مسلم، وأن لا يأخذنا في الله لومة لائم، وكان الواجب علىٰ الشيخ أن لا يبش في وجهه، ويريه الجفاء والكلام المر، خوفًا من لعنة الله تعالىٰ له، كما وقع لبني إسرائيل كان أحدهم إذا رأىٰ أحدًا علىٰ معصية آكله وشاربه وخالطه من غير نكير، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩] **الآية.**

والجواب: أن مقام الناصح والواعظ أن لا ينص علىٰ أحد معين بحضرة الناس، من حيثُ إن ذلك يخجله ويفضحه ويصفر وجهه بين الناس، وينفره من ذلك الناصح، وفي الحديث أنه ﷺ كان لا ينص في وعظه علىٰ أحد معين إنما كان يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»[1]. انتهىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٧٨٨) بلفظ: «يقولون»، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٤٥).

ووقع أن شخصًا خرج منه ريح في مجلس عمر بن الخطاب، فقال: عزمتُ على صاحب هذا الريح إلا ما قام وتطهر ثم جاء. فقال له جرير بن عبد الله البجلي(١): أو نقوم كلنا نتطهر يا أمير المؤمنين. فقال: أو كلكم! فأعجبه ذلك من جرير. انتهىٰ، فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأكابر من غير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أهل السكر والزنا والمعاصي الظاهرة أخف حالًا من صحبة متصوفة زماننا هذا؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف تكون صحبة العصاة أولىٰ من صحبة أهل الله تعالىٰ؟!

والجواب: أنه ينبغي حمل كلام هذا الشيخ علىٰ وجوه:

منها أن يكون مراده بترجيح صحبة أهل الفساد أنه يحصل لمن يصاحبهم من الفقراء الأجر بتقويم عوجهم، بخلاف المتصوفة، فإنهم لا يقع منهم المعصية إلا قليلًا، فيقل أجر من نصحهم.

ومنها أن يكون مراده بالمتصوفة من اغتر بنفسه، وقنع بالزي والمنطق، ووقع في الرغبة في الدنيا والرياء والإعجاب وغير ذلك من الكبائر، ولم يقبل نصح ناصح، فيسرق طبع من خالطهم من حيثُ لا يشعر، لرؤيته لظاهرهم دون باطنهم.

ومنها أنه قد يكون مراده أن النفس تميل إلىٰ من نُسِبَ إلىٰ الصلاح لعلة الجنسية في الطريق والأعمال، فيشتغلون بالمحادثة في أمور الدنيا عن الله تعالىٰ، ولا هكذا العصاة، فإن نفس الفقير تنفر منهم بالطبع.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ربما ظن كلٌّ من المتصاحبين أن صحبتهما لله تعالىٰ، والحال أن صحبتهما إنما هي لعلة الجنسية، ولا يفرِّق بين هاتين

---

(١) جرير بن عبد الله البجلي أبو عمرو، كان ممن هاجر إلىٰ رسول الله ﷺ ما حجبه رسول الله ﷺ منذ أسلم ولا رآه إلا تبسم في وجهه سكن الكوفة فلما وقعت الفتن خرج هو وعدىٰ بن حاتم وحنظلة الكاتب وقالوا لا نقيم ببلدة يشتم فيها عثمان فخرجوا إلىٰ قرقيسياء وسكنوها ومات جرير سنة ٥١هـ. مشاهير علماء الأمصار ص٧٦، الإصابة (١/ ٥٨١).

الصحبتين إلا العلماء الغوَّاصون علىٰ دقائق النفوس، فقد ينفسد الإنسان بصحبة المدَّعين للصلاح أكثر مما ينفسد بصحبة أهل الفساد. قال: ووجه ذلك أن الإنسان يعرف فساد أهل الفساد، فيأخذ حذره منهم، وأهل الصلاح يغتر بصلاحهم، فيميل إليهم لجنسية الصلاحية، ثم يحصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية تحول بينهم وبين حقيقة الصحبة لله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي نفر منه طلبته وجميع معارفه، ولم يبق حوله أحد، وصار الناس يقولون: إن فلانًا مقت، فإن الله تعالىٰ ما نفَّر الناس عنه بعد ذلك الإقبال والاعتقاد إلا بذنب وقع فيه. وقد قال بشر بن الحارث: إذا عصىٰ العبد ربَّه سلبه من يؤنسه، فينفر منه الأشياخ إن كان مريدًا، وينفر منه المريدون إن كان شيخًا. وقال علي بن سهل أيضًا: من عصىٰ الله نفر منه جميع الوجود، ومن أطاعه أحبه سائر الوجود، لأنهم كلهم تبعًا للحقِّ جلَّ وعلا.

والجواب: أنه لا يلزم من نفرة الطلبة والإخوان عن العالم وقوعه في زلَّة، فقد يكون ذلك من محبة الحقِّ تعالىٰ له، فأراد أن يفرده بالاشتغال به صرفًا دون خلقه. ومن الفرق بين الرجلين أن من نفر عنه الخلق لمعصية وقعت منه، تكون نفرتهم منه مع وجود الازدراء له، بخلاف من نفر عنه الخلق اعتناءً من الله تعالىٰ به، فإنهم ينفرون عنه مع التوقير والتعظيم وعدم ظن السوء به. فاعلم ذلك، واحمل العلماء علىٰ المحامل الحسنة، فإن الله تعالىٰ لم يؤهل العلماء لحمل شريعته ثم يمقتهم أبدًا، هذا اعتقادنا في الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ورد عليه شخص من أكابر العلماء ضيفًا هو وجماعته، فلم يتبسط لهم في الطعام مع أنه قادر علىٰ ذلك، وأخرج لهم خبزًا حافًا وملحًا، فلاث به بعض العلماء وقالوا: التبسط في طعام الضيف مطلوب شرعًا للقادر عليه.

والجواب: أن الشيخ قد يفعل ذلك خوفًا علىٰ نفس الضيف وأصحابه، خوفًا من

الفتنة، كأن يزدري أحدهم مأكله في بيته حين ينظر ألوان الطعام عند غيره، ولا يجوز حمله علىٰ أنه فعل ذلك بخلًا ولا ازدراء لذلك العالم وجماعته[1].

وقد ورد أبو حفص وجماعته علىٰ الشيخ أبي القاسم الجنيد ببغداد، فصنع له الجنيد ألوانًا كثيرة، فأنكر عليه أبو حفص ذلك وقال: صيرتَ أصحابي كالمخانيث! تقدم إليهم ألوان الطعام! فقال الجنيد: إنما فعلتُ ذلك من باب الإكرام للضيف! فقال: شرط الإكرام أن لا يتولد منه مفسدة. انتهىٰ. وقد تقدم أن عمر بن عبد العزيز قدَّم للحسن البصري كسرة يابسة ونصف خيارة لما قدم عليه أيام خلافته[2]، وقال: كل يا حسن، فإن هذا زمان لا يحتمل الحلال السرف. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٣) ومما أجبتُ به عن طالب العلم أو المريد الذي يخالط المردان[3] وينام معهم في فراش واحد ويقول: هذا لا يضرني بحمد الله لأني أحبهم لله تعالىٰ؛ فلاث به الناس وقالوا: فلأي شيء لا تحب الرجال الذين هم أكثر طاعة وعبادة لله تعالىٰ منهم؟! ما ذاك إلا تلبيس من نفسك الخبيثة.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من يقول ذلك، فقد يكون صادقًا، بخلاف من يخالط النساء ويزعم ذلك، لورود الأحاديث الصحيحة بالنهي عنه[4].

ولكن هنا نكتة ينبغي لمن يدعي أن صحبته للأحداث لله أن يتفطن لها، وهو أنه لا يشتهي قط تقبيل ذلك الأمرد ولا مس جلده لو وجد إلىٰ ذلك سبيلًا، كما لا يشتهي تقبيل الحمار أو الحائط أو الشيخ الذي قد طعن في السن، فليعلم أنه صادق، ومتىٰ وجد

---

(١) وانظر جوابًا آخر علىٰ اعتراض شبيه بهذا الاعتراض في (٦١٧).

(٢) انظر الجواب (٢٩٥).

(٣) المردان: جمع أمرد، وهو الشاب الذي لم تنبت لحيته.

(٤) منها ما أخرجه أبو داود (٥٢٧٢) عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق» فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتىٰ إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به.

ترجيحًا للأمرد علىٰ ما ذُكِرَ، فليعلم أنه كاذب، وهي ميزان تطيش علىٰ الذر. هذا ميزانه في نفسه، وأما نحن فليس لنا تكذيبه إذا ادعىٰ عدم الترجيح، لأن ذلك أمر لا يعلمه إلا الله وهو، وإحسان الظن به واجب علينا.

وسمعتُ الشيخ عبد الحليم بن مصلح يقول: كل من نظرت إليه من المردان ولم تشبع عينك من النظر إليه في أول مرة، فهو جميل الصورة فلا تنظر إليه، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: وصلتُ إلىٰ مقام متىٰ خالفتُ نفسي عصيتُ ربي، ومتىٰ وافقتُها أطعتُ ربي؛ فلاث به العلماء وقالوا: إن الشريعة قد جاءت بالنهي عن موافقة النفس في كلِّ ما تهواه، فمن أي[1] مقام صار هذا كما قال؟!

والجواب: أن أشياخ الطريق قد صرَّحوا بأن القلب إذا استقام صار يكره ما كره الله، ويحب ما أحب الله، وصار أجره من الله، ذكر ذلك السهروردي في «عوارف المعارف» قال: وهذا هو المقام الذي يُحفَظ الأولياء منه من قبول وسوسة إبليس، ولا يصير له عليهم سلطان.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رضي الله عنه يقول: لا يكمل العبد في الطريق حتىٰ يصير يرىٰ خواطره المحمودة كلَّها رسلًا من الله إليه، ومن عصىٰ رسل الله فقد عصىٰ الله. انتهىٰ. ويؤيده قول سيدي أحمد بن الرفاعي: وصلتُ إلىٰ مقام إن عصيتُ قلبي عصيتُ ربي. انتهىٰ.

فيُحتمَل أن هذا الشيخ أراد ما ذكرناه، لكن ذلك لا ينبغي أن يُسلَّم لكلِّ من ادعاه، لعزة مقام استقامة القلب علىٰ مرضاة الله تعالىٰ، حتىٰ يصير يكره المعاصي طبعًا، ويحب الطاعات طبعًا، وذلك إذا اطمأنت النفس، وتمكنت من رد وسوسة الشيطان، ووافقت القلب والسر، وحينئذ تصير خواطرها ربانية يجب علىٰ العبد العمل بها لموافقتها للشريعة. وإن كانت من النفس اللوامة أو القلب أو الروح قبل التمكن، وجب علىٰ العبد أن يزنها بميزان الشريعة قبل الإقدام علىٰ العمل بها، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

(١) بالأصلين: أين. والصواب ما أثبتناه.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ﴾ [الحجرات: ٦] أي كاذب بنبأ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وهذا من باب الإشارة لا التفسير. ومن هنا قالوا: الكذب من صفات النفس إذا لم تطمئن، فتملي علىٰ صاحبها الأمور علىٰ غير حقائقها، ولذلك تعين التثبت عند خواطرها وإلقائها.

[محلُّ مرتبة السِّر]

فإن قيل: فهل السِّرُ الذي يشير إليه القوم مرتبة بعد القلب أو بين الروح والقلب؟ **فالجواب**: أن من القوم من جعله بعد القلب وقبل الروح، فقال: نفْس، ثم قلب، ثم سر، ثم روح؛ ومنهم من جعله بعد الروح، فقال: نفْس، ثم قلب، ثم روح، ثم سر، وقالوا: إن السرَّ أعلىٰ من الروح وألطف، لأنه محل المشاهدة، وأما الروح فهو محلُّ المحبة، كما أن القلب محلُّ المعرفة، ولاشكَّ أن محلَّ المشاهدة أعلىٰ من الكلِّ، وأطال السهروردي في ذلك في الباب السابع والخمسين من كتابه «عوارف المعارف» فراجعه، وسلِّم يا أخي للأشياخ ما يدعونه من مواجيدهم التي لا تعارض النص ولا الإجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٥) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا صنف كتابًا في العلم الشرعي أو رسالة في علم القوم، وأرسله إلىٰ علماء الأكوان لينظروه، فلاث به بعض الأقران وقالوا: قد عرف الناس أنك طالب علم أو شيخ في الطريق، ولكن ربما يقول: إن أحدًا لا يعرف مقامي، فأطلعه علىٰ مؤلفاتي ليعرف مرتبتي في العلم.

والجواب: أنه لا يجوز أن يُظنَّ في العلماء والصالحين ذلك، وإنما الواجب حملهم علىٰ أنهم إنما أطلعوا العلماء عليها ليصلحوا ما فيها من الخطأ الذي لعله يقع منهم في نقل أو فهم، لأنهم يحبون أن لا ينفرد أحدهم في دين الله بفهم، ويظنون في نفوسهم الوقوع في الخطأ، فإذا كتب علىٰ ذلك علماء الإسلام وأجازوه، فكأنهم وافقوا المؤلف علىٰ ما فهمه، فيقوىٰ بذلك قولهم، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من رأىٰ نفسه خيرًا من الكافر، فقد

أظهر الكبر؛ ولاث به بعض العلماء وقال: لا شك أن المسلم أكبر من الكافر عند الله وعند خلقه وخيرًا منه.

والجواب: أن مراد هذا الشيخ أن الخاتمة مغيَّبة، وليس هو علىٰ يقين من موته علىٰ الإيمان، فلا ينبغي له أن يرىٰ نفسه خيرًا من الكافر إلا بعد مجاوزة الصراط. وأما حاله في الدنيا فليس معه إلا الظن لا غير. وقد كان حمدون القصَّار[1] أحد رجال رسالة القشيري يقول: من رأىٰ نفسه خيرًا من فرعون فقد أظهر الكبر. وكان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول: لا يخرج أحد عن الكبر ويدخل مقام التواضع حتىٰ يرىٰ أنه ليس بأهل أن تناله رحمة الله عزَّ وجلَّ، أي وإنما له رحمة الله تعالىٰ من باب المنة والفضل، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2]. انتهىٰ. ومن أعظم آفات الكبر أن صاحبه كما لا يدخل الجنة في الآخرة، فكذلك لا يدخل حضرة الله تعالىٰ في الدنيا لا في صلاة ولا غيرها.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين إجماع أهل الكشف علىٰ أن من كان فيه خصلة من هاتين الخصلتين لا يصح له دخول الحضرة الإلهية أبدًا، ولو أنه استحضر أنه بين يدي الله لا يقدر، بل ينزل عليه الحجاب في أسرع من لمح البصر، وهما: الكبر والغنىٰ، فأما الكبر فهو شهود العز في نفسه، وأما الغنىٰ فهو غفلته عن شهود حاجته إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وكان الشيخ أبو المواهب[3] يقول: حكم الملك القدوس أن لا يدخِل حضرته أحدًا من أهل النفوس. انتهىٰ. فعُلِمَ أن كلَّ من لم يدخل حضرة الله فصلاته وجميع عباداته جسم بلا روح، كالخشب اليابس.

---

(١) حمدون بن أحمد بن عمارة أبو صالح القصار النيسابوري، شيخ أهل الملامة بنيسابور، كان عالمًا فقيهًا، صحب أبا تراب، وأبا حفص النيسابوري، وكان من الأبدال، يذهب مذهب الثوري، توفي سنة ٢٧١هـ بنيسابور. طبقات الصوفية للسلمي ص١٠٩، السير (١٣/ ٥٠)

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١).

(٣) أبو المواهب الشاذلي، تقدمت ترجمته.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: حقيقة التواضع الذي يخرج به العبد عن الكبر أن يشهد نفسه دون الخلق أجمعين من ناطق وصامت، حتىٰ لو أراد الخلق أن يضعوه فوق ما يشهده في نفسه لا يقدرون. قال: فليس المتواضع من يثبت لنفسه مقامًا عاليًا في نفسه، ثم يتنازل للناس منه كما هو تواضع العوام، ولذلك يقول أحدهم: كلما أتواضع لفلان تكبر نفسه. فافهم، واحمل كلام أهل الطريق علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم محققون، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إنما يبتلي الله تعالىٰ عباده من حيثُ دعواهم محبته تعالىٰ، فابتلاهم ليظهر لهم صدقهم أو كذبهم، ليشكروا أو يستغفروا؛ فجادله إنسان وقال: هذا مسلَّم في غير الأنبياء. أما الأنبياء فهم صادقون في محبتهم، فلا يحتاجون إلىٰ امتحان. فقال الشيخ للمجادِل: يمكن أن يكون الله تعالىٰ ابتلاهم بالبلايا والمحن ليردهم إليه حين شردوا عن حضرته لأهوية نفوسهم. فقال له المجادل أيضًا: هذا مسلَّم في غير الأنبياء. أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم معصومون عن شرودهم عن حضرة ربهم؛ لأن مقامهم العكوف في حضرة الإحسان علىٰ الدوام لا يبرحون منها.

والجواب: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم جزء يحب، وجزء محبوب، فيمكن أن يكون الحقُّ تعالىٰ ابتلاهم من حيثُ ذلك الجزء المحب، كما يُفهَم من حديث كونهم محبوبين بالاختصاص الإلهيِّ، فلا اعتراض.

ويُحتمَل أن يكون الحقُّ تعالىٰ ابتلىٰ الأنبياء ليرفع بذلك درجاتهم، أو ابتلاهم ليقتدي بهم قومهم في الصبر والرضا، فإن البلاء علىٰ ثلاثة أقسام: عقوبة، وكفارة، ورفع درجات، فاللائق بالأنبياء الثالث؛ لأن العقوبة والكفارة لا يليقان بالأنبياء، لأن الله تعالىٰ طهَّر طينتهم بسابق العناية من جميع الذنوب، لا بعمل عملوه ولا بخير قدَّموه، وما وقع علىٰ يدهم من مسمَّىٰ الذنوب والخطايا صوريٌّ لا حقيقي، كما قدمنا بيانه في الباب الأول من هذا الكتاب، فراجعه.

[البلاء على قدر محبة النبي ﷺ]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من طلب محبة النبي المحبةَ المشهورةَ بين القوم، فليستعد للبلاء في بدنه وماله وعرضه، فإنه لابدَّ له من ذلك شاء أم أبىٰ، فكأن من يدعي المحبة قطب تدور عليه رحا البلاء كما تدور الرحا علىٰ قطبها، فلا ينفك من بلاء حتىٰ يستقبله بلاء آخر، وهكذا حتىٰ يلقىٰ الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُه أيضًا يقول: من أهل الله من يطلب البلاء مسارعةً لمعرفة مقامه في المحبة، إما ليشكر، أو ليأخذ في تحصيل ذلك المقام. ومن هنا تلذذوا بالبلاء، وقدروا علىٰ احتمال الأذىٰ، وسماع البهتان والزور في حقِّهم، وقالوا: لا يخلو من يؤذينا وينقصنا في المجالس من أمرين: إما أن يكون محقًّا [أو مبطلًا، فإن كان محقًّا][1] فالغيظ منه حمق وسخافة عقل، لأنه قد كُتِبَ في ديوان السماء قبل أن يظهر في الأرض غالبًا؛ وإن كان كذبًا فالغيظ كذلك منه حمق، لأنه لم يُكتَب في ديوان السماء، ولا يُخاف من عاقبته، لأن الله تعالىٰ لا يؤاخذ العبد إلا بما فعله أو قاله، فالعاقل لا يتكدَّر من كلام قيل فيه بكل حال إلا إن كان محجوبًا عما ذكرناه، وقد قالوا: شهود الله تعالىٰ مع الأنفاس ليس من مقدور البشر. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل ابتلاء الأنبياء علىٰ رفع الدرجات، والأولياء علىٰ التكفير، والعوام علىٰ العقوبة. وقد يشارك الأولياءُ الأنبياءَ في رفع الدرجات، والعوامُ الأولياءَ في التكفير، والأولياءُ العوامَ في العقوبة، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: أنا لا أعتقد في أحد من مشايخ هذا الزمان لعدم كرامتهم، فإن الكرامة للأولياء كالمعجزة للأنبياء، فلولا المعجزات ما تميزوا عنا، وكذلك يُقال في الأولياء: لولا الكرامة ما تميزوا عن العامة.

والجواب: أن المعجزة للأنبياء ليست بشرط في صحة اعتقادنا فيهم النبوة، لأنه لم يتوقف في تصديقهم إلا من كان عنده شكٌّ في دينه، وأما من لم يكن عنده شكٌّ،

---

(١) ساقط من «ب».

فقد أجاب إلىٰ الإيمان بأول وهلة، ولم يتوقف علىٰ حصول المعجزة، كأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ وبقية العشرة ومن أُلحق بهم، بل نقول: إن من توقف إيمانه علىٰ المعجزة كان إيمانه متوفرًا عنده، لكنه لم يتجرأ علىٰ إظهاره، خوفًا من أذىٰ قومه، فلما وقعت المعجزة، صار له عذر في الإيمان عند قومه، ولو أنه لم يكن عنده إيمان متوفر، لبقي علىٰ شركه وكفره، ولم يستجب إلىٰ الإيمان بالمعجزات ولا بغيرها، كأبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي معيط وأضرابهم.

وقد أجمع القوم علىٰ أن من أعظم كرامة للولي استقامته في أفعاله وأقواله وعقائده علىٰ الكتاب والسنة، فما ثم كرامة أعظم منها. وأما نحو الكشف والطيران في الهواء فليس هو بكرامة يُثاب عليها من حيثُ ذاتُها، لأن إبليس يجري في ابن آدم مجرىٰ الدم، والغراب والحدأة والناموسة يطيرون في الهواء، ولا عبرة بكرامة يشارك الولي فيها إبليس والغراب.

وقد أنشد سيدي عليٌّ بن وفا رحمه الله:

ثم نفيسات تفرح بالمنىٰ تفريح ... تطير وتقصر وتمشي في الهوا كالريح
لو التفت من يخلصها من التبريح ... كانت بنات روح ليست من بنات الروح

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: كثرة كرامات الولي دليل علىٰ قلة إيمان أصحابه بطريقه، ولو كانوا أقوياء لما أحوجوا شيخهم إلىٰ ظهور كرامة، ولذلك قلَّت الكرامات في الصحابة جدًّا، وكثرت فيمن بعدهم، لنقص إيمانهم عن إيمان الصحابة، فلا تزال كرامات الأولياء تكثر إلىٰ دخول النصف الثاني من القرن العاشر، فهناك يجب علىٰ الوليِّ عدم إظهار الكرامة، خوفًا أن يهلكه الناس، أو يقيله أصحاب النوبة، كما وقع للشيخ أحمد بن السروي[1] لما دعا جسر شوبر[2] فغار، وكان لهم فيه خمسة شهور يجرفون فيه، وكان سبب ذلك أنهم سخروا غلامه في الجرافة ولم يطلقوه.

ثم من أعظم ما يقع للوليِّ إذا اعتقدوه أنهم يطالبونه بإزالة منكرات لا يقدر علىٰ إزالتها،

---

(١) لم أقف له علىٰ ترجمة، وقد ذكره المؤلف في المنن الكبرىٰ (١/ ٤٣٦).

(٢) شوبر: إحدىٰ قرىٰ مركز طنطا التابع لمحافظة الغربية بمصر.

ويقولون له: السلطان أو الباشاه في يدك، لكثرة اعتقاده فيك، فلا يسعه إلا أن يشفع، ولا يسع السلطان أن يجيبه إلىٰ كلِّ ما سأل، وربما كان للسلطان في ذلك عذر لا يمكن إفشاؤه للرعية، حتىٰ إني سمعته يقول: إذا دخلت سنة خمسين وتسعمئة وكان مع الفقير كشف يكشف به الأمور الآتية في المستقبل، وجب عليه التظاهر بالغلط فيها، سترًا لحاله، ولعدم اعتقاد أهل ذلك الزمان في الأولياء، وربما أظهر أحدهم كرامة فقالوا: هذا ساحر. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل كلام هذا العالم الذي لا يعتقد إلا فيمن ظهرت له كرامة علىٰ ما تعارف عليه أهل الزمان، لجهله بما قال المحققون من أنه لا يُشترَط في الاعتقاد إلا استقامة العبد علىٰ الكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٩١٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي جعل عنده شاعرًا يهجو[١] كلَّ من تعرَّض له بسوء من الأقران وغيرهم، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق بعالم.

والجواب: أن العالم قد يكون جعل ذلك باجتهاد، فأدىٰ اجتهاده إلىٰ أن رد ذلك الشاعر عن عِرْضِه وعن أصحابه أولىٰ من سكوته علىٰ الأذىٰ، ودوام ذلك علىٰ أصحابه، كما هو الغالب في الأصحاب من تقلقهم[٢] ممن يؤذيهم ورحيلهم من أوطانهم، فيكون لسان ذلك الشاعر أقطع فيهم من السيف أو النبل، وعلىٰ ذلك يُحمَل أمره ﷺ حسانًا أن يجيب عنه الكفار نصرةً للدين وللمسلمين[٣]، وما كان للأصل فهو للفرع، والعلماء نوَّابه ﷺ، فنصرتهم من نصرته، وإخذال طريقتهم من إخذال دينه. وقد تقدَّم قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: ينبغي للعالم وكلِّ كبير أن يكون له سفيه يسافه عنه السفهاء الذين يقصدونه بالأذىٰ. انتهىٰ، فاعلم ذلك، واحمِ لسانك وسمعك وبصرك في حقِّ العلماء، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: يهجو.

(٢) بالأصلين: تعلقهم. والصواب ما أثبتناه.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٥٣) من حديث عبد الرحمن بن عوف: «أنه سمع حسان ابن ثابت الأنصاري، يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله، هل سمعت النبي ﷺ يقول: يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس. قال أبو هريرة: نعم» ومسلم (٢٤٨٥).

(٩٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يمكِّن أحدًا يجيب عنه من آذاه، فتمادىٰ الناس في إيذائه، وحصل لهم غاية الإثم، فلاث به أصحابه وقالوا: دعنا نجب عنك، ونكف هؤلاء عن وقوعهم في عِرْضك بغير حقٍّ؛ فأبىٰ.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون في مقام الرياضة لنفسه، فهو يحبُّ كلَّ من آذاه، لأنه يحصل له به التمرين علىٰ تحمل البلايا التي هي أشد من ذلك، فإن كل بلاء كالسُّلَّم للبلاء الآتي بعده.

وقد يكون تحمله الأذىٰ بالتجريح في عِرْضه إنما هو غيرة علىٰ جناب الحقِّ تعالىٰ أن يشاركه أحد في مسمَّىٰ المدح والشكر، ليتميز الحقُّ تعالىٰ بالكمال المطلق، ويتميز العبد بالنقص المطلق، ولا يخفىٰ أن سعي الإنسان في خلاص نفسه من الآفات مقدَّم علىٰ تخليص نفس غيره، فلا يلحقه إثم بسكوته علىٰ ما يُقال فيه من الزور والبهتان، لأنه لم يقصد وقوعهم في الإثم، ولا قال لهم: سبوني، ولازم المذهب ليس بمذهب علىٰ الراجح، فكذلك القول هنا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵁ يقول: يجب علىٰ العبد الرضا بما يُقال فيه من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ، ويجب عليه الإنكار علىٰ من قطع في عِرْضه من حيثُ تعديه حدود الله، كما يجب عليه أن يرد عن عِرْض أخيه المسلم علىٰ حدٍّ سواء، فإن الحكم في ذلك واحد لا يختلف بالنسبة إليه.

وكان أخي أفضل الدين ﵁ لا يمكِّن أحدًا يجيب عنه الذين يؤذونه، ويقول: إن هؤلاء كالفلاحين لي الذين يزنون لي الخراج، فإنهم كلما اغتابوني حكَّمني الله تعالىٰ في أعمالهم الصالحة يوم القيامة آخذ منها بقدر مظلمتي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﵁ يقول: ما أحب أحد أن يكون من أهل الله إلا أحب من يقطع في عِرْضه وينقصه في المجالس، من حيثُ إن ذلك يبين مقامه في دعواه محبة الله، فهو يحبُّ كلَّ من نقصه، ليأخذ في كمال المقام، خوفًا أن يُكْتَب عند الله من الكذَّابين في محبته، فيخسر في الدارين.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷀ يقول: لابد لكلِّ من يطلب أن يكون من أهل الله من وجود عدو وحاسد ومبغض يؤذونه ويبالغون في إيذائه، فإن صبر نال مقام الإمامة في الوجود؛ وإن لم يصبر خرج نحاسًا وتأخر، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷀ يقول: لا يصطفي الحقُّ جلَّ وعلا قط عبدًا من عبيده ويدخله إلىٰ حضرته وهو يطلب له مقامًا عند أحد من الخلق، فلذلك كان الحقُّ تعالىٰ يحسن عنايته وتدبيره، ويسلِّط علىٰ العبد الخلق بالأذىٰ، حتىٰ لا يصير يركن إلىٰ أحد من الخلق لما قاساه منهم، فإذا تحقق بذلك، ركن بقلبه إلىٰ الحقِّ تعالىٰ وحده، فاصطفاه وأدخله حضرته، ومادام يركن إلىٰ الخلق ويراعيهم في الحمد والذم له، فهو بعيد عن مقام الاصطفاء.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷀ يقول: جرت سنة الله تعالىٰ في أنبيائه وأصفيائه أنه يسلِّط علىٰ أحدهم الأذىٰ في مبتدأ أمره، ثم تكون له الدولة آخرًا إن صبر.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي ﷀ يقول: لما علم الله تعالىٰ في الأزل ما سيُقال في أنبيائه وأصفيائه وأوليائه، قضىٰ علىٰ قوم بالشقاء، فجعلوا لله تعالىٰ زوجةً وولدًا، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، حتىٰ إذا ضاق ذَرْع النبي أو الولي من كلامٍ قيل فيه، نادته هواتف الحقِّ جلَّ وعلا: أما لك أسوة بي؟ فقد قالوا: إن لي زوجة وولدًا، وقالوا فيَّ ما لا يليق بجلالي، مع أني خالقهم ورازقهم، وأنت لستَ خالقًا ولا رازقًا، فلا يسع النبي أو الولي إلا التأسي بربه عزَّ وجلَّ، فكأن ذلك الهاتف جندًا من جنود الله عزَّ وجلَّ لهم، ليتحملوا من أممهم الأشقياء ما يقولونه فيهم من السحر والجنون وغيرهما.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة إن أجابوا عن أنفسهم أو سكتوا، فإن لهم مشهدًا في كلِّ فعل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا ظلمه أحد وصار يدعو عليه فلا يُستجاب له، فازدراه خصمه والناس وقالوا: لو كان هذا له قدْر عند الله تعالىٰ، لأجاب دعاءه فيمن ظلمه.

والجواب: أن عدم إجابة دعائه يدل علىٰ علو مقامه عند الله تعالىٰ، وشدة اعتنائه وتكثير الأجر له. وقد كان جبَّار يؤذي نبي الله داود أشدَّ الأذىٰ، وداود يدعو عليه فلا يُجاب، فقال: يا رب، كم أدعوك علىٰ هذا الظالم ولا تجيب دعائي! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، أما لك فيَّ أسوة؟! فإن من أسمائي «الحليم» فلا أعاجل أحدًا بالعقوبة. فسكتَ داودُ، فزاد الجبار في إيذائه، فقال: يا رب، نَفِّس عني بإجابة دعائي في هذا الجبار الذي لا ينقص ملكك. فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إنما أبطيء بإجابة دعائك علىٰ من ظلمك، لأعاملك بنظير ذلك، فإنك إذا ظلمتَ أحدًا ودعا عليك فإن طلبتَ سرعة إجابة دعائك في حقِّ عدوك، فلا تستغرب سرعة إجابة دعاء غيرك عليك. فسكتَ داود، والله أعلم.

وقد كان سيدي أحمد ابن الرفاعي يقول: إذا قُضيت للكامل حاجةٌ في الدنيا نقص مقامه في الآخرة درجة، حتىٰ إن العبد يودُّ يوم القيامة أن الحقَّ تعالىٰ ما كان أجاب له دعاء. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين[1].

(٩٢٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا استعان بأحد من الخلق علىٰ من ظلمه، واشتكاه من بيت الوالي والقاضي، ولاث به الناس وقالوا: هذا يدلُّ علىٰ أن هذا ما له قدْر عند الله تعالىٰ، ولو أنه كان من العلماء بالله، لم يستعن بغيره من الخلق.

والجواب: أن ذلك لا يقدح في العالم أو الشيخ، لأنه يرىٰ الاستعانة بالخلق من جملة الاستعانة بالله تعالىٰ، فإن لله الفعل بلا آلة، والفعل بالآلة. وقد استغاث الأنبياء بالخلق، فقال السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] أي مع

(١) انظر أيضًا الجواب (٣٤٨).

الله، فالكامل يستعمل الوسائط حتىٰ لا يعطِّلها عن الاستعمال وهو معتمد علىٰ الله تعالىٰ لا عليها، ولم يرد لنا أن الله تعالىٰ فعل شيئًا بلا آلة إلا المخلوق الأول الذي لم يتقدمه مادة، وخلقه جنة عدن بيده، وكتابته التوراة بيده ونحو ذلك، وأما الباقي فيخلقه بآلة[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا قابل من أساء عليه بالإساءة، ولاث به الناس وقالوا: كان اللائق بهذا العالم أو الشيخ العفو والصفح، فإن الله تعالىٰ ما جعل للعبد أن يجازي بالسيئة السيئة إلا رحمةً به، لعجزه عن تحمل السيئة، فنفَّس له بالانتصار لنفسه، والعالم الكبير أو الشيخ له قدرة علىٰ تحمل مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بالعالم المذكور أو الشيخ، لأنه ربما قصد بالمقابلة تخفيف العقوبة عليه في الآخرة مثلًا، فإنه إذا لم يقابله كان خصمه الله، لحديث الطبراني مرفوعًا: «يقول الله تعالىٰ: أنا وليُّ من سكتَ، ومن كان الله خصمه قصمه»[2]، فما قصد هذا العالم إلا خيرًا بالظالم، ولا لوم إلا علىٰ من يقابل المسيء بالإساءة من باب الانتصار للنفس والتشفي لها. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ العلماء والصالحين إذا انتقموا ممن آذاهم، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحكمة، ولا يجهلون أن العفو والصفح خير، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٤) ومما أجبتُ به عن الذين يتقلقون من مجالس الذكر، ولا يقدرون علىٰ إطالة الجلوس فيها، وإذا قرؤوا القرآن بعرض من الدنيا، يجلس أحدهم للقرآن طول الليل من غير ملل، ولاث الفقراء بهم وقالوا: هؤلاء يبيعون الدين بالدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهم، أما في الذكر فلما فيه من رفع الحجاب، وما كلُّ أحد يقدر علىٰ إطالة الجلوس بين يدي الله علىٰ الكشف والشهود، إنما ذلك خاص

(١) بالأصلين: بلا آلة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) لم أقف عليه.

بالأنبياء ومن دونهم من الأولياء، وذلك لأنه من تجلي الجمال الممزوج بالجلال. وأما من يقرأ القرآن بعَرَض من الدنيا فهو في حجاب عن هذا المشهد، وليس مشهوده إلا الدنيا، فحكمه حكم الحارس الذي يحرس أمتعة الناس ودُورَهم في الليل بأجرة، فهو يطرد النوم عن نفسه كلما طرقه، خوفًا من نقص أجرته وتضمينه ما سُرِقَ واختُلِسَ، فلذلك كان سهر الليل عنده أخف من سهره في الذكر.

[التخلق بمقام الحضور لا يكون إلا على يد شيخ]

ويحتاج من يتخلق بمقام الحضور مع الله والمراقبة إلىٰ شيخ يسلِّكه، حتىٰ يقلب تلك الداعية التي عنده للدنيا للآخرة، ويصير ينام في تحصيل الدنيا، ولا يأخذه نوم في تحصيل الأجر في الآخرة.

فاعلم ذلك، وإياك وازدراء الفقهاء الذين يقرؤون القرآن بعرَض من الدنيا، فإنهم في حجاب عما أهل الله فيه، ولو اجتمعوا علىٰ أحد من العارفين لأدخلهم من طريق لا تضرهم فيه الدنيا، فيقرؤون القرآن فيه، ويأخذون الفلوس ابتداءً عطاءً من الله، فإن الفلوس حاصلة باللازم، وما دعوهم[1] إلىٰ القراءة إلا ليعطوهم الدنيا، والاشتغال بتحصيل الحاصل تضييع للوقت، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أحضر مع الله تعالىٰ في قراءة النحو والفقه وغيرهما من العلوم كما أحضر في مجلس الذكر أو في الصلاة علىٰ حدٍّ سواء؛ فلاث به بعض المجادلين وقالوا: هذا أمر قد عجز عنه مشايخ الإسلام فضلًا عن مثلك.

والجواب: أن هذا أمر ممكن لمن سلك في طريق القوم، عَسِرٌ علىٰ غير السالكين، فذوق المعترض صحيح، وحكمه بأن أحدًا لا يذوق مثل ذلك غير صحيح.

وقد سلَّك بعض العارفين مريديه بقراءة كتاب «الآجرومية» وبلغوا مبلغ الرجال

---

(١) بالأصلين: وعدهم. والصواب ما أثبتناه.

بالعمل بما فيها من القواعد، وشرح ابن غانم المقدسي[١] «الآجرومية» بالتصوف[٢]، مثال ذلك: «الفاعل مرفوع» وهو الله، أي مرفوع الرتبة على جميع العالم، لأنه ربهم وسيدهم، فلا يجوز لأحد منهم الاستخفاف بحقِّه، ولا أن يتناول شيئًا يحجبه عن مشاهدته، ولا شيئًا يبعده عن حضرته، لا في الظاهر ولا في الباطن، ومن أخلَّ بواجب من الواجبات أو وقع في شيء من المخالفات، فما أعطىٰ رفعة مقام سيده حقها.

وأما المفعول فإنما كان منصوبًا غير مرفوع لأنه مفعول للحقِّ، والصنعة دون صانعها بيقين، ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]، ومن شأن المنصوب الدوام[٣] في العبادة والخدمة ليلاً ونهارًا بإمداد الله تعالىٰ له وإرادته، لا بحوله ولا بقوته.

وإنما كان المضاف إليه مخفوضًا، لأن الخفض بيت التواضع، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبَّر قصمه الله، ولا يجري فيه مدد. ولا تجوز إضافته إلىٰ الحقِّ تعالىٰ علىٰ وجه التشريف والتقريب، وإنما يُضاف إليه علىٰ وجه التقدير والخلق، وذلك أمر يشاركه فيه البهائم والكفار.

وسمعتُ سيدي عليًّا البحيريَّ ﷺ يقول: من علامة أصفياء الله خفض رؤوسهم فلا يكاد أحد منهم يرفع رأسه حياء من الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ، فعُلِمَ أن كل شيء في الوجود **يصح الدخول بواسطته إلىٰ حضرة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه دليل علىٰ موجِده.**

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: الكامل هو من يسلِّك الناس وهم في حرفهم وصنائعهم من طريق حرفهم وصنائعهم، ولا يحوجهم إلىٰ ما يحتاج إليه تلامذة

---

(١) عبد السّلام بن أحمد بن الشيخ القدوة غانم بن علي المقدسي الواعظ. أحد المبرَّزين في الوعظ، والنّظم، والنّثر. له مصنفات منها: «تفليس إبليس» مناظرات له مع الشيطان! و«حل الرموز» تصوف، و«الروض الأنيق» مواعظ، و«كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» توفي: ٦٧٨ هـ بالقاهرة في شوال. انظر: «شذرات الذهب» (٧/ ٦٣٢) و«الأعلام» (٣/ ٣٥٥).

(٢) وممن شرح «الأجرومية» بالتصوف العارف ابن عجيبة صاحب شرح «إيقاظ الهمم في شرح الحكم».

(٣) بالأصلين: الدوب. والصواب ما أثبتناه.

المتصوفة من كثرة الذكر والصمت والعزلة والسهر. انتهىٰ.

وكان شيخ الإسلام زكريا يقول: الذاكر جليس الله تعالىٰ، والمشتغلُ بالعلم مجالسٌ لأصحاب ذلك الكلام من العلماء، وأين المقام من المقام؟! لكن من كشف الله تعالىٰ عنه الحجاب، جالس الله تعالىٰ في العلم كما يجالسه في الذكر، من حيثُ كونُه تعالىٰ هو المشرِّع له بأصل الوحي علىٰ ألسنة رسله. انتهىٰ. فسلِّم يا أخي للأشياخ ما يدعونه من الأمور التي لا ذوق لك يا أخي فيها، والحمد لله رب العالمين[1].

(٩٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقيم العذر لمن ظلمه ويقول: إنما آذاني وحبسني أو عزلني من وظيفتي بذنوبي؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: في هذا إحالة لحصول الإثم لمن يظلم الناس من الولاة.

والجواب: أنه ليس في ذلك إحالة، لأن لذلك وجهان: وجه إلىٰ العبد، ووجه إلىٰ الظالم، فالعبد يهضم نفسه تواضعًا للأقدار الإلهية، وعملًا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]. ووقع لسليمان بن مهران أنه لبس ثيابه وخرج لصلاة الجمعة، فصبَّت عليه جارية من سطح رمادًا، فعمته من رأسه إلىٰ ذيله، فقال: الحمد لله! فقيل له في ذلك، فقال: من استحق النار فصولح بالرماد الواجبُ عليه الشكر لا السخط. انتهىٰ.

وأما وجه الظالم فهو معلوم للمظلوم، ويجب عليه الإنكار عليه به من حيثُ تعديه حدود الله تعالىٰ، كما يجب عليه الإنكار عليه إذا ظلم أحدًا غيره علىٰ حدٍّ سواء. وقد تقدم أن صورة الظلمة في هذه الدار صورة الزبانية يوم القيامة[2]، فكما أنهم هناك لا يأخذون الناس إلا بذنوبهم، فكذلك الظلمة هنا، لكنهم يأثمون بظلمهم، لكونهم في دار التكليف، بخلاف الزبانية، فالسبب متحد، والتكليف مختلف. وهذا المشهد هو

---

(١) انظر أيضًا الجواب (٦٤٧).

(٢) انظر الجواب (٤٣٣).

الذي أعان أهل الله علىٰ عدم التكدير ممن آذاهم في هذا الدار، لأنهم يرونه كالسوط في يد الضارب، فافهم، وإياك أن تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ فقير سمعتَه يقيم العذر لأحد من الظلمة بقوله: إنهم لم يظلمونا إلا بذنوبنا، لأنه عذر لا يرفع عنهم الإثم كما تقدم.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إياكم أن ترموا ميزان الشريعة من يدكم، فيقول أحدكم إذا وقع في ذنب: أيش أعمل أنا؟! هذا أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن أُخلَق، فإن في ذلك رائحة إقامة الحجة علىٰ الله، وذلك خروج عن سياج الأدب، فإن الله أضاف إلىٰ العبد العمل، وفي عدم إضافته إلىٰ العبد ما لا يخفىٰ علىٰ عبد. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يسلم أحدنا من وقوعه في حسد ولو صار من الأقطاب؛ فلاث به الفقراء وقالوا: الحسد كبيرة، فكيف يحكم هذا بارتكابها علىٰ جميع الأولياء؟! هذا اعتقاد فاسد، ولعل هذا لا يؤمن بكرامات الأولياء.

والجواب: أن كلام هذا الشيخ صحيح؛ لأن الحسد كامن في ذات كلِّ مؤمن ماعدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن يوقف الولي [عن][1] العمل به مادامت المعونة من الله تحفه، فإذا تخلفت عنه العناية، ظهر منه الحسد وسائر الكبائر الباطنة، كما بسطنا الكلام عليه في كتاب «بيان ما اشتملت عليه الطينة الآدمية».

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، تعرف أن الفلاح إنما هو في توقيه الشحَّ أن يعمل به، لا أنه يزول منه بالكلية، وكذلك الحسد والكبر والعجب وسائر المهلكات الباطنة، فقول الشيخ: «لا يسلم أحد من حسد» محمول علىٰ غير الأنبياء، كما أشار إليه جعلُ الغاية القطبية، وأن الوليَّ يسلم من العمل بالحسد وإظهاره، لا من وجوده فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يلقب أصحابه بالألقاب التي تحتاج إلىٰ تأويل بعيد، نحو سراج الدين أو نور الدين أو شمس الدين ونحو ذلك، ولاث به بعض

(١) زيادة يقتضيها السياق.

المجادلين وقال: الأولىٰ ترك الألقاب، لأنه الصدق المحض الذي كان عليه الصحابة والتابعون، فكان أحدهم ينادي أخاه باسمه المجرَّد عن اللقب والكنية.

والجواب: أن التلقيب من سنة رسول الله ﷺ، وهو من هدي الأنبياء قبله، فكان لقب إبراهيم «الخليل»، ولقب عيسىٰ «المسيح». ولقَّب رسولُ الله ﷺ أبا بكر بـ«الصديق»، وعمر بـ«الفاروق»، وعثمان بـ«ذي النورين»، وخالد بن الوليد بـ«سيف الله»، وحمزة بـ«أسد الله»، وجعفر بـ«ذي الجناحين»، ولقب الأوس [والخزرج][1] بـ«الأنصار» فغلب عليهم هذا اللقب، ذكره الحافظ ابن حجر.

وقد لقَّب الحسن البصري محمد بن واسع بـ«زَين القراء»، وكذلك لقَّب سفيانُ الثوري المُعَافىٰ بن عمران[2] بـ«ياقوتة العلماء»، ومحمد بن يوسف بـ«عروس الزهاد»[3]، ولقبوا الإمام الشافعي بـ«ناصر الحديث»، ولقبوا ابن سريج «الباز الأشهب»[4].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) المُعَافىٰ بن عمران بن نفيل بن جابر بن جَبَلَةَ، أبو مسعود الأزدي، الموصلي، الحافظ. ولد: سنة نيفٍ وعشرين ومائة. قال أحمد بن يونس: كان سفيان الثوري يقول: المُعَافىٰ بن عمران ياقوتة العلماء. ويُروىٰ عن الأوزاعيِّ أنه قال: لا أُقدِّمُ علىٰ المُعَافىٰ الموصلي أحدًا. توفي: ١٨٥هـ وقيل: ١٨٦هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٨٠) و«شذرات الذهب» (٢/ ٣٨٥).

(٣) محمد بن يوسف بن معدان الأصبهاني الزاهد، العابد، القدوة، أبو عبد الله الأصبهاني، عروس الزهاد. قال يحيىٰ القطان: ما رأيت خيرًا منه، فذُكر له الثوري، فقال: هذا شيء، وهذا شيء. وكان لا يضع جنبه، وقد رابط وزار قبر أبي إسحاق الفزاري، وكان يأتيه في العام من أصبهان سبعون دينارًا، فيحج، ويرجع إلىٰ الثغر ﷺ. توفي: ١٨٤هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٢٥) و«الوافي بالوفيات» (٥/ ١٥٩).

(٤) أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج، الفقيه الشافعي؛ قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في حقه في كتاب «الطبقات»: كان من عظماء الشافعيين، وأئمة المسلمين، وكان يقال له: «الباز الأشهب» ولي القضاء بشيراز، وكان يُفضل علىٰ جميع أصحاب الإمام الشافعي، حتىٰ علىٰ المزني. توفي ٣٠٦هـ ببغداد ودفن في حجرته (بسويقة غالب) بالجانب الغربي بالقرب من محلة الكرخ، وعمره سبع وخمسون سنة وستة أشهر، رحمه الله تعالىٰ. وقبره ظاهر في موضعه يُزار. انظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٦٦) و«طبقات الفقهاء» لأبي إسحاق الشيرازي (١٠٩). وممن لقِّب بـ«الباز الأشهب» سيدي عبد القادر الجيلاني.

وكان الجلال السيوطي رحمه الله يقول: أول تلقيب وقع في الإسلام تلقيب رسول الله ﷺ لأصحابه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ العلماء إلا إن كنتَ أعلم بالشريعة منهم، ولم تجد نقلًا يؤيدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا عاشر المخنثين وأكثر من مجالستهم، ولاث به الناس وقالوا: عشرة الأراذل لا تليق بالعلماء والصالحين.

[**والجواب**: أن عِشرة العلماء والصالحين][١] للمخنثين لا يقدح في كمالهم، فإن كان المخنثون من جملة قوم لوط، فهم يجالسونهم ليتوبوهم[٢] عن ذلك بذكر ما ورد في عقوبة صاحب هذا الذنب من الآيات والأخبار. وإن كان المراد بهم من به مرض الأُبْنة[٣] فذلك ليس بمذموم كذلك شرعًا، فإن حكمه حكم من به وجع رأس أو وجع عين ونحو ذلك. وقد كان عطاء السُّلَمِيُّ رضي الله عنه يعاشر المخنثين ويخدمونه في البيت، وإذا لاموه في ذلك يقول: والله لهم أطهر عندي من نفسي.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إذا عاشروا من فيه ريبة حتىٰ تعرف مقاصدهم، فإن كانوا يتوبونهم بعشرتهم لهم شيئًا فشيئًا، أو يداوونهم من الأُبْنة، فلا إنكار. وإن كان عشرتهم لغير ذلك، فلا يخفىٰ حكمه. ومن الأدوية المجرَّبة للشفاء من مرض الأُبْنة أن يغلي جلود السمك القديد حتىٰ يخرج خاصيته، ثم يحقنونه بذلك ثلاث مرات، فإنه يزول بإذن الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشكو دائمًا، وإذا قيل له: أيش حالكم؟ يقول: أسوأ الأحوال؛ مع أنه في غاية النعمة من التوسعة في دنياه ودوره، وبساتينه وخدَّامه،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: ليتوبونهم، والمثبت الصواب نحويًا.

(٣) الأُبْنة: مرض و علّة يصاب بها الإنسان يشتهي صاحبها أن يؤتىٰ في دبره. ويجب عليه الصبر والمجاهدة والسعي في العلاج، وإن وقع في المحظور أقيم عليه الحد.

ومراكبه وملابسه، واعتقاد الناس فيه الخير ونحو ذلك، ولاث به العلماء وقالوا له: قد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ: ١١]، فقوله: «في أسوأ الأحوال» لا يجوز، لأنه يذم ربه مع كثرة إنعامه عليه.

والجواب: أنه قد يكون شاكرًا ناشرًا من فضل الله عليه، وإنما يريد بقوله: «أنا في أسوأ الأحوال» عدم إدخال الغمِّ والهمِّ علىٰ أعدائه، لما جبله الله تعالىٰ عليه من الرحمة. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يستغفر الله تعالىٰ من وجوده، ووجود نعمة الله عليه ويقول: لولا وجودي ووجود النعمة، ما وقع حاسدي في الحسد! ثم يستغفر للحاسد أيضًا، ويقيم[1] العذر له ويقول: إنه مسكين لم يقنعه الله تعالىٰ بما رزقه وضيَّق صدَره، ولو أنه تعالىٰ وسَّع صدره وقنعه بما رزقه، لما وقع في حسد أحد. وكان يشكر الله تعالىٰ كلما حسده أحد ويقول: لولا أني في نعمة ما حسدوني، لأن النعمة لا يحسد أحد أخاه عليها من حيثُ هي نعمة، وقد قال العقلاء: نعمة مع الحاسد خير من نقمة مع عدم الحاسد.

وقد كان أخي أفضل الدين يقول لإخوانه: إياكم أن تذكروني بخير عند من يكرهني، فإنكم تدخلون عليه الغمَّ، ولا أحب أن أدخل علىٰ عدوي غمًّا زيادة علىٰ الغمِّ الحاصل عنده من وجودي ووجود نعمتي.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: لا ينبغي لفقير أن يلبس الثياب النظيفة المبخرة ويمر علىٰ عدوه، فإن من شرط الفقير أن لا يدخل علىٰ عدوه غمًّا ولا همًّا، رحمةً به وشفقةً عليه، وكذلك لا ينبغي له أن يطبخ طعامًا ويدعو الناس إليه في مواضع التنزهات وغيرها، وكذلك لا يبني دارًا ولا يغرس بستانًا. وكان يقول: حق العدو آكد من حق الصديق، وحفظ حرمته ومراعاة عِرْضه أولىٰ، بدليل أنه لا يكاد يبريء ذمتك إذا استغبتَه، بخلاف الصديق.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يقول: أدركنا أشياخنا وهم يكرهون كلَّ شيء يدخل الهمَّ والغمَّ علىٰ عدوهم، ولا يحبون ذلك إلا من حيثُ كونُ ذلك تطهيرًا له، أو رفع درجات يحبونه لعدوهم، ومتىٰ دخل ذلك تشفِ للنفس، كان ذلك مذمومًا لهم يُؤاخَذون به.

---

(١) بالأصلين: يقوم. والصواب ما أثبتناه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص يقول: من تأمل نفسه من أصحاب النعم الدنيوية أو الأخروية، وجد نفسه في الدنيا كالماشي علىٰ حبل البهلوان علىٰ قبقاب، وجميع الأعداء والحاسدين واقفين ينتظرون وقوعه ليشمتوا به! نسأل الله اللطف بنا وبأعدائنا، آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا قام علىٰ من أشاع أمرًا عنه فاحشة، ووبَّخه كل التوبيخ، ثم لما طلب القائمون علىٰ ذلك الشخص إقامة الحد أو التعزير عليه، رجع عما كان فيه، وصار يساعده ويكذب الناس، فلاثوا به وقالوا له: كان الأولىٰ لهذا أن يثبت علىٰ حالة واحدة، فإن كان قيامه علىٰ هذا الشخص بحقٍّ، فلأي شيء يرجع عنه؟! وإن كان بباطل، فكيف يقوم مع الناس في الباطل؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لأنه ربما قصد بالقيام عليه في أول الأمر الزجر والتنفير عما أشاعوه عنه دون إقامة الحد أو التعزير، فلما تحققت الحقائق وطلبوا إقامة الحد عليه، احتاط لنفسه حين لم يجد عنده أمرًا واضحًا يشهد عليه به. وكثيرًا ما يتعصب الناس علىٰ إنسان بالباطل، ويشيعون عنه الفاحشة حتىٰ تمتلىء البلد، والحال أن الإشاعة أصلها من واحد من أعدائه.

[نصرة الإسنوي للتاج السبكي على ما كان بينهما]

وقد أشاع الأعداء علىٰ الشيخ تاج الدين صاحب «جمع الجوامع»[1] [ابن] السبكي في الشام أنه يَسكَر ويلوط ويلبس الزنار حتىٰ امتلأت الشام، فأرسل سلطان مصر، فأحضره مقيدًا مغلولًا، وكان الشيخ جمال الدين الأسنوي يكرهه ويكره والده، وكان السلطان قد طلب أن يوليه القضاء فأبىٰ، فلما بلغه أن ابن السبكي قد أتوا به علىٰ تلك الصورة، طلع للسلطان وطلب أن يوليه القضاء فأجابه، ثم خرج إلىٰ ناحية قطية[2] واجتمع بابن السبكي،

(١) من أشهر متون أصول الفقه، وهو مؤلف علىٰ طريقة الجمع بين طريقة الفقهاء وطريقة المتكلمين، وهما طريقا التأليف في أصول الفقه، ثم ظهرت طريقة الجمع طريقًا ثالثًا.

(٢) قطية: قرية كانت تقع في شبه جزيرة سيناء في الطريق بين مصر والشام. وقد اندثرت الآن.

ونصب له مُدعيًا، وحقن دمه، ثم عزل نفسه وقال: يا تاج الدين، إنما فعلتُ ذلك معك صيانةً للخرقة عن أن يُرمَىٰ أهلها بالسوء، والذي في قلبي منك ومن والدك باقٍ. انتهىٰ.

وفي الحديث: «اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»[1] قال العلماء: والمراد بـ«ذوي الهيئات» هو كل من لم يُشتَهر عنه الوقوع في معصية، وفي الحديث أيضًا: «تجافوا عن ذنب السخي، فإن الله آخذ بيده كلما عثر»[2]. انتهىٰ. فربما كان ذلك الشخص الذي قام الناس عليه من ذوي الهيئات أو سخيًّا، فلا اعتراض علىٰ العالم أو الشيخ الذي قام عليه أولًا ثم رجع وساعده.

فاعلم ذلك، وإياك أن تمشي في تنقيص أحد من أقرانك إذا قام عليه قائم ليعلو أمرك عليه، فإن ربك بالمرصاد، وما تعدىٰ أحدٌ حدوده إلا أهانه الله، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٢) ومما أجبتُ به عن قاضي العسكر أو غيره إذا تورَّع عن شيء من متحصل نوَّابه، وقال للنائب: إن هذا المال كالرجم بالحجارة، كلُّ شيء فاتنا منه كان أفضل؛ فلاث به المجادلون وقالوا: هذا من مثله رياءٌ وسمعةٌ، ولو أنه كان صادقًا في الورع، لحكم هو ونوَّابه احتسابًا لله عزَّ وجلَّ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا القاضي، بل يجب مدحه علىٰ هذه الكلمة، وحمله علىٰ أنه قالها بحقٍّ وصدق، خوفًا من الله، لا طلبًا للصيت في مصر وباب السلطان[3] ونحو ذلك.

وقد تكررت هذه الكلمة من مولانا قاضي العسكر الملقب ببرويز[4] في سنة أربع

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧١٠) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٢٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٧١).

(٣) باب السلطان: أي قصر الحكم الأعلىٰ في إستانبول، مما يعرف في التاريخ باسم «الباب العالي».

(٤) برويز بن عبد الله مظفر الدين، أحد الموالي الرومية، اشتغل بالعلم، وتولىٰ قضاء حلب، وفي يوم دخوله إليها بشر بقضاء الشام، ثم تولىٰ قضاء مصر، ثم المدينة، ثم القسطنطينية، ثم قضاء العسكر الأناضولي،

وستين وتسعمئة، كما أخبرني بذلك القاضي وجيه الدين الشافعي المقيم بمحكمة باب زويلة وقال: جئتُه يومًا بالمتحصل وأنا مستحٍ منه لقلته، فقال: يا وجيه الدين، هذا مثل رجم الحجارة! كل ما فاتنا منه كان أفضل في الدنيا والآخرة؛ وما سمعتُ بمثلها من قاضٍ قبله، بل سمعتُ من غيره أنه يقول: كلُّ من كان أكثر متحصلًا فهو أولىٰ بالقضاء وإن كان أقلَّ علمًا. وشفعتُ عنده مرة في تولية قاضٍ من أهل العلم كان ولَّىٰ مكانه جاهلًا، وقلتُ له: هذا أتقن علم الشريعة علىٰ مشايخ الإسلام، وهو مبريء لذمتكم في الدنيا والآخرة، فقال: ماذا أصنع بعلمه إذا كان أقل متحصلًا؟! فجزىٰ الله تعالىٰ مولانا هذا خيرًا وكلَّ من تبعه علىٰ هذه المقالة بحق وصدق، آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لشيخ الإسلام: تلمذ لي حتىٰ أربيك؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا غلط عظيم! فلان طلب من شيخ الإسلام أن يتلمذ له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ حتىٰ يستفهمه وينظر مراده، فلعله رأىٰ شيخ الإسلام يخلُّ بشيء من أخلاق أولياء الله، فأراد أن يرقيه إلىٰ التخلق بها، كما إذا رآه يتأثر من كلام الأعداء في عِرْضه، أو يرجِّح الذهب علىٰ التراب، أو يتأثر من طلبته إذا تركوه واجتمعوا بأحد من أقرانه وصاروا يقولون: إنه بالنسبة لشيخنا الآن كالعاميِّ، فإننا اجتمعنا بهذا وهذا، أو رآه يتأثر من عزله من تدريسه وإعطائه لأحد من طلبة العلم الذين هم أفقر منه، ونحو ذلك.

وقد فعل مثل ذلك سيدي عليٌّ المرصفيُّ مع بعض المدرسين، فراض نفسه علىٰ يديه، حتىٰ صار إذا نقصه أحد يقول: والله إن قلب هذا نيِّر الذي عرف خبث باطني وما أنا عليه من الأمور التي أخادع بها ربي عزَّ وجلَّ، وصار يرىٰ أن كلَّ من نقصه غير آثم، لأنه إنما نقصه بحقٍّ وصدق، خوفًا من تزكية نفسه وتبرئتها من العيوب، وصار يناقش نفسه إذا كرهت أحدًا من المسلمين ويقول لها: إن كراهتك لأخيك إنما هو حظُّ نفس!

مات في سنة ٩٨٦هـ. «الكواكب السائرة» (٣/ ١٢٣).

فكان رحمه الله على نفسه حتى مات.

وقد بلغنا عن مالك بن دينار أنه قال: مكثتُ سنةً ونفسي تنازعني في دعوى الإخلاص وأنا أقول لها: بل أنت مرائية، حتى مررتُ بامرأة في طاقٍ لها بالبصرة، فقالت لجارتها: من أرادت أن تنظر إلى مراءٍ، فلتنظر إلى هذا -تعني مالكًا- فقلتُ لنفسي: اسمعي لقبك من هذه المرأة الصالحة، فهبي أني أكذب لكونك قريبة مني، فما تقولين في هذه المرأة الغريبة عنك؟!

وكان الفضل بن عياض يقول: لأن أحلف أني مُرَاءٍ أصدق من أن أحلف أني لستُ مرائيًا.

فقد علمتَ أن قول هذا الشيخ لشيخ الإسلام في هذا الزمان: «تعالَ أعلِّمك الإخلاص، وأسلك بك طريق القوم» لا اعتراض عليه في ذلك، لأنه حق وصدق، فإن هذه الأمور عزيزة الوجود في غالب طلبة العلم، لا يتخلص منها إلا بالسلوك على يد الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الله تعالى أطلعني على ما يقع مني ومن غيري في المستقبل من ألواح المحو والإثبات؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا أمر لا يعرفه إلا نبي بوحي من الله تعالى لا من ذاته هو.

والجواب: أنه يمكن اطلاعه على ذلك من طريق الكشف، فإن قلب الوليِّ إذا انجلى الجلاء التام، ارتسم فيه سائر الوجود العلويِّ والسفليِّ، فيصير يقرأ ما في الألواح السماوية من قلبه، هكذا قاله السيد أحمد ابن الرفاعي وغيره.

ومن كلام سيدي عليٍّ الخواص رحمه الله: إذا أطلعك الله تعالى من طريق الكشف على ما قدَّره الله تعالى عليك من المعاصي، فإياك والمبادرة إلى فعلها وتقول: إنه لابد لي من الوقوع فيها، فأنا أبادر إلى فعلها، لأستريح من مشاهدتها، فإن المعاصي تتشكل بين العبد وربه صورة قبيحة. وكان يقول: ينبغي للفقير إذا كُشِفَ له عما قدَّره الله عليه في المستقبل أن يقول بتوجه تام: اللهم إنك تعلم عجزي عن ردِّ أقدارك النافذة فيَّ، ولكن إن كان هذا المقدَّر أمرًا لا محو فيه، فاسترني فيه بين عبادك في الدنيا والآخرة، فإن عبادك

يفضحوني وأنت تسترني يا أرحم الراحمين. فاعلم ذلك، ولا تنكر علىٰ الأولياء إلا ما ورد الشرع بردِّه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم إذا ألَّف كتابًا وبالغ في تحريره، فلاث به بعض أقرانه وقالوا: أليس ولو بالغ في تحرير كلامه لا يسلم من الخطأ والتحريف؟! ولكن من شأن النفس محبة الشفوف علىٰ أقرانها وأن يُقال: إن شرح فلان أكثر تحريرًا من شرح فلان، وذلك كلُّه رياءٌ وسمعةٌ.

والجواب: أنه يجب إحسان الظن بالعلماء وأنه لا يجوز أن يُظنَّ بهم أن أحدهم قصد بتحرير كتابه ما ذُكِرَ، ويجب حمله علىٰ أنه إنما قصد بكثرة تحرير كتابه تقريب الطريق علىٰ الطلبة، وكثرة اعتمادهم عليه، بخلاف الكتاب الذي لم يحرره صاحبه. وكان سيدي أحمد الزاهد ﵀ يقول: ليس لأحد أن يتعب سرَّه في تنميق الألفاظ في كتابه إلا بنية صالحة، لا ليمدحه الناس علىٰ ذلك، كأن يقولوا: والله ما قصَّر فلان في هذا التأليف. انتهىٰ.

[سبب وجود الخطأ والتحريف والتناقض في كلام البشر]

واعلم يا أخي أن سببَ وجود الخطأ والتحريف والتناقض في كلام البشر عدمُ اليقظة الدائمة، فلذلك كان يقع في كلامهم الغلط والسهو، أو نسيان شرط للمسألة في بعض الأوقات، وإطلاق في محل التفصيل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﵀ يقول: لي سبع وخمسون سنة وأنا أحرِّر في شرح «البهجة» وكل قليل يبدو لي فيه تغيير، مع هروبي من مضاهاة كلام الشارع ما أمكن. ثم يقول: قال شيخنا الحافظ ابن حجر ﵀: لا سبيل للعبد إلىٰ التخلص في كتابه من الاعتراض أبدًا، وذلك لعدم قدرة العبد علىٰ استحضار ما يرد علىٰ ذلك الكلام في منطوقه ومفهومه، ولو قدر العبد علىٰ ذلك، لما وجد أحدٌ من الشرَّاح مطعنًا في صاحب المتن،

ولما احتاج الشرح إلىٰ حواشٍ. وإيضاح ذلك أن كلَّ كلام كالمجمل لمن يأتي بعده، فيبين الشارح ما أُجمِلَ في المتن، ويبين صاحب الحاشية ما أُجمِلَ في الشرح وهكذا، فلم يزل الإجمال ساريًا من القرآن إلىٰ السنة، ومن السنة لكلام العلماء إلىٰ يوم القيامة. انتهىٰ.

فليحذر المؤلِّف من العجب والزهو بمؤلَّفه إذا بالغ في تحريره، **لأن كل الأعمال الصالحة تحتف بها الآفات**. وقد كان عمر بن عبد العزيز إذا كتب كتابًا وأعجبه لفظه، مزقه ويكتب غيره، فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي غلب عليه الخوف من الله تعالىٰ حتىٰ صار يخاف الخسف به إذا جلس أو مشىٰ أو نام، ويمسح وجهه كل قليل، مخافة أن يكون الله تعالىٰ مسخ صورته، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا سوء ظن بالله لا يجوز.

والجواب: أنه لا يلزم من خوفه الخسف به والمسخ لصورته أن يكون ذلك من سوء الظن بربِّه عزَّ وجلَّ، فقد يكون ممن أشهده الله تعالىٰ سرَّ كلمته في الأمور، وجعل له عدة عيون، فعين يخاف ربَّه منها لسوء ما يتعاطاه من المخالفات، وعين يرجو فضل ربه منها من حيثُ إن رحمته سبقت غضبه، وأنه أرحم به من والدته، وعين لا يخاف ولا يرجو لانطراحه بين يدي ربه كالميت بين يدي الغاسل، فإن رحمه رأىٰ ذلك حسنًا، وإن عذَّبه رأىٰ ذلك حسنًا، لا يرىٰ في فعل ربه خللًا، بل هو تعالىٰ أحكم الحاكمين.

[سبب كون السلف كلهم على قدم الخوف]

وإنما كان السلف الصالح كلُّهم علىٰ قدم الخوف لشدة معرفتهم بالله عزَّ وجلَّ، وأنه تعالىٰ لا يحكم عليه خلق، يفعل ما يشاء ويختار، ومنهم من كان يخاف من ربه خوف إجلال، كالأنبياء والأصفياء والصحابة والتابعين ونحوهم من الأولياء المحفوظين من الزَّلات، حتىٰ كان أبو بكر الصدِّيق يقول: ليتني كنت تِبْنة! وكان عمر يقول: ليتني لم أخرج إلىٰ هذه الدار! وفي رواية: ليت أمي لم تلدني! وكان الحسن البصري دائم الخوف

والحزن حتىٰ يبُس جلده علىٰ عظمه، وكذلك معروف الكرخي، وكان يقول: أحبُّ أن لا أدفن ببغداد. فقيل له: لماذا؟! فقال: أخاف أن لا يقبلني قبري فافتضح. وكان السري السقطي ينتبه مرعوبًا، فيمسح وجهه ويقول: أخاف أن يكون الله قد مسخ صورتي صورة خنزير وأنا نائم عن خدمته[١].

[سبب فتح سيدي عبد القادر الجيلاني للناس باب الرجاء]

ولم يزل الناس كذلك إلىٰ زمن سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ، ففتح للناس باب الرجاء، رحمةً بهم لنقص أعمالهم، ووقوعهم في المخالفات. ولولا الرجاء لانفطرت مرائرهم، وذابت أكبادهم. والأمر في زيادة، حتىٰ صار أمثالنا لا يظنون أن الله تعالىٰ يدخلهم النار أبدًا، مع تمادينا في المعاصي ليلًا ونهارًا، ولو أنه تعالىٰ آخذنا بأحسن أعمالنا عندنا لأهلكنا. فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين علىٰ أحسن المحامل، واعتقد أنهم أعلم بأمور الدنيا والآخرة منك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية أو شيخ السوق أو شيخ البلد أو شيخ الإقليم الذي تولىٰ، ففر غالب المحبين لمن كان قبله من الأشياخ، وخرجوا من بلاده، ولاث به الناس وقالوا: إنما فرَّ هؤلاء من ظلمه وغشمه.

والجواب: أن العلة في الفرار قد تكون من أمر آخر عن الظلم والغشم، أو تكون العلة مركبة من الجهتين، كأن يكون ذلك الشيخ قليل السياسة غليظ القلب، وكذلك رعيته معه يكونون قليلي[٢] السياسة جافي الطبع، فلا ينبغي الإنكار علىٰ كلٍّ منهما، حتىٰ يعلم كلُّ واحد ما يجب عليه من الأدب في حقِّ الآخر، ثم ينكر عليه بعد ذلك.

ويقع هذا كثيرًا في أولاد مشايخ العرب وأولاد مشايخ الزوايا، فيخرب الإقليم أو الزاوية، فينبغي لولد شيخ العرب أو ولد شيخ الزاوية أن لا يتعدَّىٰ ما كان عليه والده

---

(١) انظر الجواب (١٢٤).

(٢) بالأصلين: قليلين. والأصوب نحويًا ما أثبتناه.

من السياسة والإحسان إلىٰ الناس، ويحبُّ جميع أصحاب والده، حتىٰ إنهم يركنون إليه ويعضدونه ويقوون ساعده، وإلا كانوا عليه مع أعدائه، فيضعف حاله، وتزول رئاسته.

وقد لعب إبليس بشخص من أولاد المشايخ، فقال: قد رأيتُ والدي بعد موته وقال لي: كلُّ من كنتُ أحبه، فأبغضه وأخرجه من الزاوية! ففعل ذلك، فأخرب الزاوية في جمعة، فاجتمعتُ به وقلتُ له: إن الذي أتاك في المنام ليس هو والدك، وإنما هو إبليس، ولو أن ذلك كان صحيحًا لتعدَّىٰ الأمر إلىٰ محبة أبي بكر وعمر وبقية الصحابة، فكيف تنسخ محبتهم الحقيقية الواجبة بمنام صادر عن إبليس؟! هذا من الضلال المبين! انتهىٰ. ولم تزل زاوية والده خرابًا[1] إلىٰ وقتنا هذا بعد أن كان فيها نحو مئة فقير، فالله يحفظ أولاد الفقراء من مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: غالب الناس اليوم صلاتهم صورية لا حقيقية؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف ومن غالب الناس العلماء والمدرِّسون في علم الشريعة؟! وإذا لم يعرف هؤلاء آداب الصلاة، فمن يعرفها؟!

والجواب: أن كلام هذا الشيخ في غاية الصدق، لجهل غالب الناس اليوم بآداب الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فإن أمهات آداب الصلاة ألف أدب، تحت كلِّ أدب ألف أدب كما قاله الإمام علي ﷺ، فاسأل يا أخي غالب الناس عن عشرة آداب منها، تعلم صدق هذا الشيخ.

[ذكر بعض آداب الصلاة]

وقد ذكرنا جزءًا وافرًا في أسرار الصلاة والزكاة والصيام والحج في «رسالة الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» فراجعها، ولكن لا نخلي الإخوان من فائدة في هذا المحل، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) بالأصلين: خراب. والصواب ما أثبتناه.

صفة صلاة العارفين(١)

من آداب المصلي أن يتوضأ وضوءًا كاملًا، حاضرًا بقبله مع الله تعالىٰ، متذكرًا جنايةَ كلِّ عضو غسله، تائبًا من ذلك توبةً خالصةً يقبل مثلها الله تعالىٰ، وذلك ليقف في حضرة الله تعالىٰ متطهرًا من جناية أعضاء الوضوء، متطهرًا من كبائر الباطن كلِّها، كالغلِّ والحسد والكبر، والعجب والرياء، والنفاق والحقد ومحبة الدنيا، ليناجي الله تعالىٰ بقلب طاهر وجسد طاهر، ويستشعر عند القيام صورة وقوفه بين يدي الله رب العالمين في يوم تقلب فيه القلوب والأبصار، ويشيب فيه الأطفال، وتذوب فيه الجبال، و تذهل كل مرضعة عما أرضعت.

ثم ينوي ويكبر الله تعالىٰ عن كلِّ شيء يخطر بالبال من صفات التعظيم، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم حتىٰ لا يحضره في صلاته، ثم يسمي الله عزَّ وجلَّ، ليحضر مع الاسم قبل المسمَّىٰ، ثم يترقىٰ من ذلك إلىٰ شهود المسمَّىٰ علىٰ سبيل التخيل بحسب مقام ذلك المصلي، ثم يحمده علىٰ إذنه له في الوقوف بين يديه، ثم يستشعر رحمته به، ثم يمجده بكونه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] الذي هو أعظم المواكب الإلهية، لكون الأولين والآخرين حاضرين في ذلك الموقف كلهم لم يغب منهم واحد، ثم يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ علىٰ وجه الإخلاص لله تعالىٰ في عبادته، فيتلفظ بما هو كامن في قلبه، إظهارًا للعبودية، ثم يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ أي فيما نتحرك أو نسكن في تلك العبادة أو غيرها، قال شيخنا: ونقول ذلك علىٰ سبيل التلاوة فقط، لا علىٰ وجه الاستعانة التي هي شركة العبد في إيجاد الفعل، فإن الشركة لا تصح في الإيجاد، وإنما تصح في الإسناد فقط، كلُّ ذلك ليخلص للعبد توحيد الفعل لله تعالىٰ كشفًا ويقينًا، لا ظنًا وتخمينًا، ثم يسأل الهداية من ربه لصراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والأصفياء وكمَّل المؤمنين، وذلك حتىٰ تكون صلاته أهلًا لأن تقبل عادة.

ثم يقرأ السورة بعد «الفاتحة» كالجبر لما أخلَّ به من حضور قلبه مع الله تعالىٰ في «الفاتحة» حين ذهل من تجلي عظمته تعالىٰ، فربما غاب عن حسه، فلم يستحضر قراءة

---

(١) عنوان علىٰ هامش الأصلين.

بعض كلمات «الفاتحة» فجبر ذلك بقراءة السورة، إذ هي قرآن أيضًا، وربما أرجع بعض العارفين جميع معاني «الفاتحة» التي هي «أم القرآن» إلىٰ معاني تلك السورة، كما أرجع معاني جميع القرآن إلىٰ «فاتحة الكتاب»، وكما أرجع معاني جميع «فاتحة الكتاب» إلىٰ أي حرف شاء من حروف الهجاء.

ثم إنه إذا استحضر عظمة الله كما ذُكِر وهو واقف، ثقلت عليه العظمة، فخضع لله تعالىٰ بالركوع، رحمةً من الله به. ولو أنه وقف بلا خضوع، لذاب من الحجاب، إذ الوقوف حجاب بالنسبة للركوع، والركوع حجاب بالنسبة للسجود، وليس بعد السجود مرتبة قرب أبدًا، لأنها حضرة «قاب قوسين». وقد أشار إلىٰ ذلك حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1]، أي أقرب في شهود العبد لا في وجود الحقِّ، فإن قرب الحقِّ تعالىٰ ليس كقرب الأجسام من الأجسام، تعالىٰ الله عن ذلك.

ثم لما خضع العبد لله في الركوع، ثقلت عليه العظمة، فنفَّس الله تعالىٰ عليه بمشروعية الرفع من الركوع إلىٰ الاعتدال، رحمةً بالعبد حتىٰ يستريح من ثقل تجلي عظمة الله له في الركوع، فينزل إلىٰ السجود بعد قيام ومناجاة لله بالحمد والثناء عليه بما هو أهله.

ثم إن كان ذلك المصلي من الأقوياء علىٰ تحمل ثقل ذلك التجلي، رفع من الركوع يسيرًا؛ وإن كان من الضعفاء رفع كثيرًا واطمأن، ليأخذ له راحةً طويلةً قبل أن ينزل لتحمل التجلي الأعظم في السجود.

ثم من رحمة الله تعالىٰ أنه نفَّس عن الساجد أن يرفع رأسه ويعتدل بين السجدتين طويلًا أو قصيرًا، كما قدَّمنا في الركوع بالنسبة لقوة المصلي وضعفه، فيُحمَل قول من قال [بعدم وجوب الطمأنينة في الاعتدال بين الركوع والسجود وبين السجدتين علىٰ حال الأقوياء من الأنبياء والأولياء][2]، ويحمل قول من قال بوجوب الطمأنينة علىٰ حال الضعفاء الذين لا يستطيعون تحمل توالي العظمة في الركوع والسجود، فلا يُقال: الطمأنينة

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

مطلقًا أفضل، ولا عدمها مطلقًا أفضل، كما لا يُقال: إن تطويل القراءة في القيام أفضل من إطالة الركوع والسجود ولا عكسه، لأن ذلك محمول علىٰ حال رجلين، فإذن وجوب الطمأنينة في الركوع والاعتدالين وجوب رحمة وشفقة بالعبد، لئلا يكلِّف نفسه ما لا تطيق من تحمل توالي العظمة، فيذوب لحمه وعظمه، ويحس أنه احترق، كما مرت الإشارةُ إليه في الجواب عن اختلاف مشاهد الأئمة الأربعة في الصلاة في الباب الثالث[١].

[احتواء الصلاة على جميع عبادات العالم العلويّ والسفليّ]

واعلم يا أخي أنه ليس في العبادات أكمل من الصلاة أبدًا، لأنها حاوية لعبادة العالم العلويِّ والسفليِّ، لا تخرج عنها عبادة أحد من أهل السماوات وأهل الأرض من حيوان وإنسان وملك وجنيٍّ، فللمصلي أسوةٌ بالمتطهرين حال طهارته، وأسوةٌ بالملائكة القائمين حال قيامه، وأسوةٌ بالمكبِّرين حال تكبيره، وأسوةٌ بالحامدين حال حمده، وأسوةٌ بالممجدين حال تمجيده، وأسوةٌ بالداعين حال دعائه، وأسوةٌ بالتالين حال تلاوته، وأسوةٌ بالراكعين حال ركوعه، وأسوةٌ بالمسبِّحين حال تسبيحه وتنزيهه، وأسوةٌ بالمعظمين لله حال تعظيمه، وأسوةٌ بالخاشعين لله حال خشوعهم بجميع جوارحهم الظاهرة والباطنة، الساجدين له بأجسامهم وجلودهم وشعورهم، وأسماعهم وأبصارهم وما حملته أقدامهم، وله أسوةٌ بالرافعين رؤوسهم للوقوف بين الركوع والسجود، المفوِّضين له، الموحِدين له في العطاء والمنع، المؤمنين بأنه لا ينفع عنده سبحانه وتعالىٰ ذا الغنىٰ غناه، وإنما ينفع العبد عند ربه العمل الصالح والتواضع والذل والافتقار. وهكذا القول في جميع التأسي بالملائكة في أفعال الصلاة إلىٰ السلام.

واعلم يا أخي أن من خصائص إطالة الوقوف أو الجلوس بين يدي الحقِّ جلَّ وعلا أن العبد يزداد بذلك هيبة، وذلك لتوالي التجليات المتجددة غير المتكررة، بخلاف إطالة القيام أو الجلوس بين يدي الملوك من الخلق يزداد بها العبد قلة هيبة واحترام، فلكل تجل من تجليات الحق تعالىٰ هيبة جديدة في قلب عبده.

---

(١) انظر الجواب (١٩٤).

وأشد ما يكون على العبد التجلي الآخر، ولذلك رحم الله تعالى هذه الأمة المحمدية [بالإسرار][١] بعد أمرهم بالجهر بالقراءة والأذكار في بعض الصلوات وفي بعض الركعات فرضًا ونفلًا، فإنه لو أمرهم بالقراءة جهرًا مع تلك الهيبة التي تجلت لقلوبهم لكان ذلك كالتكليف بما لا يطاق، لاسيما في حق الكُمَّل من الأولياء العارفين بجلال الله وعظمته. وإنما أمرنا الله تعالى بالجهر في الصبح والجمعة وأولتي المغرب والعشاء والعيدين والتراويح وغير ذلك لحكمة لا تُذكَر إلا مشافهة لمن هو من أهلها! وأيضًا لما يحصل لغالب الناس من الاستئناس ببعضهم بعضًا عند كثرة الجماعة، فلذلك لم تنكشف لهم عظمة الله تعالى كل ذلك الانكشاف الذي يقع للعارفين، ولذلك قدروا على الجهر في صلاة النهار الذي تجليه أثقل التجليات دون غيرهم من العامة.

وإنما خالفنا ذلك في صلاة كسوف الشمس وأمر الأكابر بالإسرار فيها لأنها من الآيات التي يخوِّف الله بها عباده، فكانت في حقِّهم كالركعة الثالثة أو الرابعة من المغرب والعشاء، فلم يكلِّفهم الحق جلَّ وعلا بالجهر فيما ذكر، لشدة ما تجلى لقلوبهم من عظمة الله عزَّ وجلَّ، وإنما أُمروا بالجهر في خسوف[٢] القمر وإن كان الآخر مما يخوِّف الله به عباده ككسوف الشمس لخفة ما يتجلى فيه من شهود عظمة الله تعالى لقلوبهم، أو لضعف آيته عن آية الشمس، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس دون العكس، كما لم يؤمروا أيضًا بالجهر في صلاة الاستسقاء والجنازة لما في الاستسقاء من طلب التذلل والخضوع والخوف من الله تعالى، ولما في الجنازة من شدة الحزن وذكر الموت وفتنة القبر، وما بعد ذلك.

فقد بان لك يا أخي أن قول هذا الشيخ: «إن غالب صلاة الناس اليوم صورية لا حقيقية» حق وصدق ولا ينبغي اللوث به، وإنما ينبغي لنا أن نشكر فضله، لكونه نبهنا على نقص صلاتنا، لنأخذ في التلبس بآداب الصلاة بالسلوك على يد شيخ مرشد، فإن معرفة أسرار الصلاة بغير شيخ قد لا يحصل للعلماء، فضلًا عن غيرهم. وإن شككت

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: كسوف.

في قولي فاسأل من شئتَ منهم عن بعض هذه الأسرار التي ذكرتُها لك، واطلب منه الجواب تعرف صدقي، والحمد لله رب العالمين.

(٩٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي لم يقرِ الضيف وعنده المال والطعام، ولاث الناس به وقالوا: مثل هذا الفعل نقص كبير في العلماء والصالحين، بأنه ربما كان لا يعتقد خلوص ذلك المال والطعام من الشبهة، ومعلوم من قواعد الشريعة أن «السلامة مقدمة علىٰ الغنيمة» وإذا كان في طريق السنة ارتكاب مكروه، فاجتناب المكروه أولىٰ من فعل السنة مع ارتكاب المكروه. وقد ورد الأمر بالسحور في رمضان وغيره[1]، وقيَّده الشارع بالحلال، فقسنا عليه قِرَىٰ الضيف، بجامع سنيَّة كلٍّ من قِرَىٰ الضيف والسحور. ومن قال من العلماء: «إن العبد يقري الضيف من الشبهة، من حيثُ جوازُ أكلها في الجملة» فله وجه كذلك، وهو أن يطعم الإنسان كلَّ شخص مما يناسب مقامه، فمن رآه متورِّعًا عن الشبهات، ترك إطعامه منها، [ومن رآه يأكل من الشبهات، أطعمه منها][2] تبعًا لما يفعله هو بنفسه. والأول مبني علىٰ أن الإنسان مأمور بأن يكون أولىٰ بأخيه المؤمن من نفسه، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الناس إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا جفا الدَّيِّن من الفقراء، وقرب الأشرار وجعلهم أصدقاءه، ولاث به فقراء الزاوية وقالوا له: كنتَ قربتَ فلانًا وفلانًا أحسن، بأنه لا ينبغي اللوث به، فربما قصد بتقريب الأشرار مداواتهم ومسارقتهم في تهذيب أخلاقهم شيئًا فشيئًا، ليكفي الناس شرهم، ويصير إخوانهم منهم في راحة، بخلاف الدَّيِّنين الخيرين، فإن الناس منهم في أمان.

وربما كان الجماعة الدَّيِّنين عندهم حدَّة ونزاقة، فلا يصلحون لأن يقيمهم الشيخ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩٢٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «قال النبي ﷺ: تسحروا فإن في السحور بركة» ومسلم (١٠٩٥).

(٢) ساقط من «ب».

في خدمة الفقراء، فأبعدهم الشيخ رحمةً بهم وبالفقراء، لاسيما إن كان في أمل الدَّيِّن الخيِّر أن الشيخ يقيمه في حياته [ناظر][1] وقف الفقراء مثلاً، ويصير يقبض ويصرف، فإن المستحقين ربما لاثوا بعرضه وقالوا له: أكلتَ وقفنا! فإنه يقع له ما لا خير فيه، بخلاف تخين الجلد[2] من الجماعة. ولا يخفىٰ يا أخي أن الحدَّة تعتري خيار الأمة كما ورد[3]، فليست الحدة طعنًا في دينه، وفي الغالب أنه لا يكون عنده حقد ولا مكر ولا خيانة، ولذلك كان أشق ما عليه من ينسبه إلىٰ الخيانة، فربما شنق نفسه من القهر كما وقع لبعضهم، فعُلِمَ أن الشيخ لا يقرِّب ولا يُبعِد أحدًا إلا لحكمة، فلا ينبغي للفقراء الاعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤١) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية أو العالم الكبير إذا صار يمدح الفسقة ويذم الناس المِلَاح، فلاث به بعض أصحابه وقالوا له: إنما يليق بك أن تمدح الناس المِلَاح وتذم الفسقة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه ربما قصد بمدح الفسقة من ورائهم في المجالس تنبيههم علىٰ التوبة من صفاتهم الخبيثة، فيقول أحدُهم لنفسه: انظري كيف يمدحك الناس بما ليس فيكِ! فيأخذ في التوبة، ويطلب تحقيق ظنهم فيه الخير حتىٰ لا يخيب ظنُّهم فيه.

وقد كان أخي أفضل الدين يفعل بالأشرار ذلك، فيلجم أحدهم عن الشرِّ. وخاصمه فقيه مرةً، وأتىٰ معه بجماعة شريرين، فأول ما رآهم أخي المذكور قال: الحمد لله الذي ما جئتَ معك إلا بناس دَيِّنين خيرين يخافون علىٰ دينهم؛ فالتجموا، وصار الخصم يغمزهم لأن يسفِّهوا علىٰ أخي، فلا يتحرك أحد منهم، فقال لهم الخصم: لو عرفتُ ما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أي ثخين الجلد، وعامة مصر تقلب الثاء تاءً، أي سميك الجلد، وهي تقال علىٰ الشخص الجريء الذي لا يستحيي أن يواجه من أمامه بالكلام الغليظ.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٤٧١) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: الحِدَّةُ تعتري خيارَ أمتي» وابن أبي شيبة في «مسنده» (٦١٦) وأبو يعلىٰ الموصلي (٢٤٥٠).

جئتُ بكم معي! انتهىٰ، وهي سياسة حسنة ينبغي العمل بها.

ومما وقع للإمام أبي حنيفة أنه كان يقوم ثلث الليل الآخر، فمرَّ يومًا علىٰ جماعة، فقالوا: هذا الرجل لا ينام الليل؛ فصار يقوم الليل كلَّه، وقال: لا أحب أن يصفني الناس بما لم أفعل. فكان قول الناس ذلك كله جندًا من جنود الله عزَّ وجلَّ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الباب العاشر

في جملة أخرى من الأجوبة

فأقول وبالله التوفيق:

(٩٤٢) ومما أجبتُ به عن العالم[1] الكبير أو شيخ الطريق إذا قيل له عن أحد من أقرانه: إنه كثير التردد إلىٰ الأمير الفلانيِّ. فقال: هو أسقط نفسًا من ذلك، وهو دائر علىٰ شيء يلفه من الأمير. ولاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يحمل أخاه علىٰ محمل حسن، ولا يحمله علىٰ سقاطة النفس والطمع، وينقصه بين الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا العالم أو الشيخ، فقد يريد بسقاطة النفس تواضعه وعدم تكبره وشهامة نفسه علىٰ الأمراء، كما هو الغالب علىٰ أهل الرعونات النفسية، فيحتقر أحدهم الأمير ولا يتردد إليه خوفًا أن ينقصه الناس بذلك. ومعلوم أن التنقيص لا يحصل إلا لمن طمع فيما بأيديهم، أما من زهد في ذلك فهو عندهم في غاية التعظيم.

وأما قوله: «إنه دائر علىٰ شيء يلفه» فيُحمَل علىٰ شيء من أمور الآخرة لا الدنيا، وذلك محمود شرعًا وعقلًا، ولا يجوز حمله علىٰ شيء يلفُّه من أمور الدنيا إلا لو صرَّح بذلك، ثم إنه يجب حمله بعد ذلك علىٰ شيء يحصله من أمور الدنيا بطريقه الشرعي، لا بغير طريق شرعي كالنصب والحيل. ولم يزل العلماء والصالحون يترددون إلىٰ أمراء بلدهم، وبعضهم يأخذ منهم الهدايا، ويأكل عندهم الطعام، ومع ذلك فالواجب حملهم علىٰ المحامل الحسنة الموافقة للشريعة، فاعلم ذلك، وإياك وحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل التي لا تليق بمقامهم، فتخسر دينك بقدْر ما وقعتَ في حقِّهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل عليه مكروب قبيل غروب الشمس

---

(١) بالأصلين: الأمير. والصواب ما أثبتناه.

بحيث لا يسع الوقت فعل صلاة العصر، وقال له: يا سيدي، لي عندك حاجة. فقال له: اصبر، فإن عليَّ صلاة العصر؛ فلاث به في باطنه وقال: كيف يكون هذا شيخًا وهو يؤخر العصر إلىٰ وقت لا يسعها؟!

والجواب: أنه لا يجوز حمله علىٰ أنه أخر العصر بغير طريق شرعي، فيُحتمَل أنه رأىٰ في ثوبه نجاسةً قبيل المغرب كان قد صلَّىٰ العصر بها ولم يشعر، أو صلَّىٰ بغير طهارة ناسيًا، أو أخره ذهولًا عنه بما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله تعالىٰ كما وقع للشِّبلي، ثم أنشد:

نسيتُ اليوم من عشقي صلاتي

لكن ذلك لا يقع إلا لأهل البدايات في الطريق. أما الأشياخ الكُمَّل فيردون إلىٰ عقولهم وقت فرائضهم. ولذلك لما ذكروا للجنيد ما يقع للشِّبلي من طول الاستغراق، فقال: هل يصحو وقت الصلاة؟ فقالوا له: نعم. فقال: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب. انتهىٰ. فتأمل يا أخي قوله: «لسان ذنب» أي في الشريعة، وإلا فالحقيقة قد تعطي العذر لمن استغرق في مشاهدة جلال الله عزَّ وجلَّ، فإنه حينئذ كالمجذوب الغارق، لكونه أُخِذَ بمجامع قلبه عن جميع ما كان كُلِّف به. وقد كان الشبلي قبل كماله يعيد كلَّ صلاة فاتته في الاستغراق، فإياك والإنكار علىٰ القوم إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٤) ومما أجبتُ به عن المدرِّسين الذين يدرِّسون العلم في مسجد واحد، فيتغير أحدهم علىٰ طالبه إذا تركه وحضر درس غيره وهو ينظر، فلاث الناس به وقالوا: هذا من علامة الرياء! فقد يكون تكدُّره إنما هو علىٰ فوات الأجر والثواب الذي كان يحصل له علىٰ يدي ذلك الطالب، وهو راضٍ عنه -أي عن ذلك الطالب- وعن شيخه الذي انتقل إليه. وكلام الإمام النووي[1] محمول علىٰ من ثبتت كراهته لذلك الطالب وشيخه، ومن أين لنا ثبوت ذلك؟! فاعلم ذلك، واحمل العلماء وطلبتهم علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لعل في بداية الجواب سقط فيه استدلال المعترض بكلام للإمام النووريِّ حول هذه الصورة.

(٩٤٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا زاد في بيوت الخليج الأجرة وسكن بها أيام النيل[1]، وصارت المراكب تمرُّ عليه وفيها الخمر وآلات الملاهي وما يلائم ذلك، فلاث به طلبة العلم وقالوا: هذا لا يليق بأهل العلم ولا بمشايخ الطريق! ولم نرَ أحدًا من العلماء الذين أدركناهم يزيد في الأجرة علىٰ الناس في بيوت الخليج أبدًا.

والجواب: أن العالم أو الشيخ قد تكون نيته بذلك خيرًا، كأن يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ أن يتوب علىٰ كلِّ جماعة مروا عليه في الخليج، ويقصد بزيادة الأجرة الوصول إلىٰ العلم بالذين يمرُّون عليه، حتىٰ يشفع فيهم عند الله تعالىٰ حين لم يجد أحدًا يشفع فيهم، ولو أنه علم أن أحدًا يشفع فيهم عند الله تعالىٰ، ما زاد في أجرة ذلك البيت ولا سكن فيه. علىٰ أن جماعة من العلماء كرهوا السكنىٰ علىٰ الخلجان وبحر النيل مطلقًا، منهم شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله لم يسكن علىٰ الخليج أبدًا. وأما تلميذه الجلال السيوطي فسكن في الروضة علىٰ بحر النيل أواخر عمره عشر سنين، فذكروا أنه لم ينظر البحر[2] من البيت مدة إقامته فيه إلىٰ أن مات، فاحمل يا أخي العلماء علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان مجاب الدعوة في الظالمين، فكلُّ من دعا عليه أهلكه الله تعالىٰ، ثم إن الحكم تغير، فصار يدعو علىٰ الظلمة ليلًا ونهارًا فلا يُستجَاب له، فلاث الناس به وقالوا: إن فلانًا سُلِبَ الولاية، أو صار يأكل من الحرام، فبطلت إجابة دعائه.

والجواب: أن عدم دعاء الفقير علىٰ الناس هو الكمال، وكذلك عدم إجابته لو دعا علىٰ أحد، وذلك لرؤيته الخلق بعين الكمال. ومعلوم أن إجابة الدعاء في أحد إنما يكون علىٰ وجه احتقاره في عين الداعي، ورؤيته فيه أنه ظلم الناس بغير حقٍّ، والكامل ينظر إلىٰ أن أحدًا لا يظلم أحد إلا بذنب سلف، فهو يرىٰ أن المظلوم قد استحق ما فعله معه الظالم، فلا يصير له همة في هلاك الظالم.

(١) أي أيام فيضان النيل.

(٢) أي نهر النيل.

وقد يكون منع الولي من الإجابة إنما هو لحكمة إلهية، لا لهوان بذلك الولي ولا لعزته وشرفه، كما بلغنا أن جبَّارًا في زمن داود عليه الصلاة والسلام كان يؤذيه ويؤذي أصحابه، فكان داود يدعو عليه آناء الليل وأطراف النهار فلا يُستجَاب له، فقال يومًا: يا ربِّ كم أدعوك علىٰ هذا الظالم ولم تستجب لي مع علمك بظلمه! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، إنما أفعل معك ذلك لأعلِّمك الحلم علىٰ العباد، فإن عبادي يأكلون رزقي ويعصون أمري وأنا أرزقهم وأحلم عليهم. فسكت داود، ثم إن ذلك الجبار زاد في الظلم والجور علىٰ أصحاب داود، فدعا عليه فلم ير إجابة، فشكا إلىٰ الله تعالىٰ ثانيًا، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إنما أبطيء بإجابة دعائك علىٰ من ظلمك، لأعاملك بنظير ذلك إذا ظلمتَ أنت أحدًا ودعا عليك. فسكت داود، ثم إن ذلك الجبار زاد في الظلم، فدعا عليه داود، فلم ير أثر الإجابة، فشكا إلىٰ الله تعالىٰ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، إني قدَّرتُ علىٰ هذا الجبَّار في سابق علمي أنه يقع علىٰ يديه أمور تخالف شريعتي في سنين عديدة، لا يقع كلُّ أمر إلا في الوقت الذي سبق به علمي، أفتريد أن أغير ما سبق به علمي لأجلك؟ فسكت داود، وعلم أن لله تعالىٰ حِكَمًا وأسرارًا تدق عن علم الخلق، والجاهلون عنها بمعزل.

وفي كلام سيدي أحمد ابن الرفاعي: لا يكمل الرجل عندنا في مقام العرفان حتىٰ يصير يوجِّه لكل ما وقع في الكون وجوهًا عديدة، ويرىٰ كل شيء وقع هو عين الحكمة والكمال، فلا يطلب تعجيل ما أُخِرَ ولا تأخير ما قُدِّم. وكان يقول: كلُّ وليٍّ قُضيَت له حاجة في هذه الدار، نقص تمكنه درجة. ولكن يحتاج صاحب هذا المشهد إلىٰ عينين: عين ينظر بها إلىٰ الحكمة الإلهية، وعين ينظر بها إلىٰ كسب العبد وفعله لما لم يأذن به الله، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٧) ومما أجبتُ به عن العلماء والأشياخ إذا خرجوا في الاستسقاء عند توقف النيل عن الزيادة، أو عدم نزول المطر، فدعوا وبالغوا في الدعاء، فلم يُستجَب لهم، فلاث بهم العوام وقالوا: ما بقي أحد من العلماء والمشايخ يُستجَاب له دعاء.

والجواب: أنه لا يلزم من عدم إجابة دعاء العلماء والأشياخ هوانهم عند الحقِّ جلَّ

وعلا، وإنما ذلك لحكمة بالغة، كأن يعلمهم الحقُّ تعالىٰ بأنه لا يدخل تحت حكم أحد من عبيده، أو يكون في الناس الذين حضروا قاطع رحم أو مُصِرٌّ علىٰ معصية، أو قاتل نفس، أو نمام. وقد خرج السيد موسىٰ ببني إسرائيل مرةً للاستسقاء عشرين يومًا، فلم يسقوا، أفترىٰ ذلك كان لهوان موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ ربه؟! لا والله! ثم إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ: «قل: لبني إسرائيل لو دعوتموني حتىٰ صار أحدكم كالسوط لا أجيب لكم دعاء حتىٰ تردوا المظالم إلىٰ أهلها» ففعلوا فسقاهم الله تعالىٰ.

وقد يكون الحقُّ تعالىٰ إنما منع إجابة دعاء العلماء والصالحين الذين خرجوا للاستسقاء لكون كلِّ واحد منهم يظنُّ بنفسه الخير، وأن النيل لم يتوقف من جهة ذنوبه، وذلك يؤدي إلىٰ العجب والكبر والزهو، فلا يستحق أحد منهم إجابة دعائه، فينبغي للعارفين أن ينبهوا العلماء والفقراء علىٰ أن كلَّ واحد منهم يرىٰ أن توقف النيل إنما هو لأجل ذنوبه هو لا غير، فإذا رأىٰ كلُّ واحد في نفسه ذلك، أجابهم الله تعالىٰ، لما عندهم حينئذٍ من الذلِّ والانكسار.

وكذلك ينبغي للخطيب أن يأمر الذين يخرجون للاستسقاء أن يخرجوا ما عندهم من الطعام والثياب والدراهم للمحتاجين إليها، ثم بعد ذلك يخرجون، فإن دعاء العطشان[1] الغني خِدَاج[2] لا يُجاب لعدم ضرورته، كمن عنده في داره من القمح ما يجيء ألف رغيف ذلك اليوم وهو يقول: يالله رغيف، فليس هو كمن هو جيعان وليس عنده رغيف يأكله أو عياله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقد دُعِيَ مالك بن دينار إلىٰ الخروج للاستسقاء، فامتنع من ذلك وقال: أخاف أن تمطر السماء علىٰ الناس حجارةً بخروجي معهم. فخرج الناس فسقوا وقالوا: قد سقانا الله تعالىٰ ولم يحوجنا لدعاء مالك. فسمع أهل البصرة هاتفًا يقول بين السماء والأرض تلك الليلة بصوت سمعه الناس الذين خرجوا كلُّهم: إن الله تعالىٰ قد أسقاكم لأجل احتقار مالك بن دينار نفسه. انتهىٰ.

---

(١) بالأصلين: الشيطان. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الخِداجُ: النقصان.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ينبغي للعلماء وأشياخ الطريق أن يلبسوا ثياب غلمانهم، ويخرجوا حفاة حاسرين عن رؤوسهم، مع إطراق وخجل من الله تعالىٰ، ويتذكر أحدهم ذنوبه التي عملها طول عمره، ويستغفر الله منها، ولا يتهاون في ذلك لأجل تقادم زمانها، فقد يكون الحقُّ تعالىٰ لم يغفرها. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٨) ومما أجبتُ به عن سيدي محمد البكريِّ لما خطب في جامع عمرو[1] للاستسقاء، لما توقف النيل عن الزيادة في سنة أربع وستين وتسعمئة، ولم يتعرض لكف الباشاه والولاة الحاضرين عن ظلم الرعية، ولاث به المتفقهون وقالوا: كان الواجب عليه أن يذكر في الخطبة بعض أحاديث في الظلم، لينبه نائب مصر والقاضي والدفتردار علىٰ ما فيه الرعية من الظلم والغلاء، فأجبتُ عنه بأنه ما ترك ذلك إلا خوفًا أن يفتح باب الصياح من الرعية علىٰ الباشاه والقاضي، وربما كبَّروا عليهما، فحصل بذلك فتنة عظيمة، فكان ترك الحط عليهما من حسن سياسته ﷺ.

ثم إنه بلغني من طريق صحيحة أنه كتب الأحاديث الواردة في الظلم والجور، وأرسلها للباشاه، فحصل بذلك المقصود من غير فتنة ولا هجو للولاة بحضرة رعاع الناس، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق العلماء، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤٩) ومما أجبتُ به عن المجاورين الذين مات شيخهم أو ولده فلم يُظهِر أحد منهم الحزن عليه، فلاث بهم الناس وقالوا: ما بقي في أحد اليوم خير! كيف يموت شيخهم الذي رباهم أو ولده العزيز ولم يحزن أحد منهم عليه، ولا اهتم بحفر قبره، ولا تحصيل كفنه، ولا غسله، ولا ذكر علىٰ قبره، ولا مشىٰ في جنازته، ولا عمل له وَحشَة؟! ونحو ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء المجاورين بعدم إظهار حزنهم، فقد يكون حزنهم بقلبهم، لما هم عليه من التمكين، إذ الحزن علىٰ من مات ليس بمشكور من

---

(١) جامع سيدنا عمرو بن العاص، أقدم مساجد مصر، بني في مدينة الفسطاط، وهي أول المدن المستحدثة بعد الفتح سنة ٢١ هـ.

أصله، وإنما ذلك رخصة للضعفاء الذين يجدون بالبكاء والحزن تفريجًا عنهم. وأما الأقوياء فلا، فإن البكاء لا يرد فائتًا، مع ما فيه من تضييع الوقت.

وأما تجهيز الميت فهو فرض كفاية، وقد قام به جماعة المحبِّين من غير المجاورين، فسقط الحرج بهم، لاسيما وغالب المجاورين كالبهاليل أو المجاذيب، ولا يملكون شيئًا من الدنيا، بل هم من جملة عيال الشيخ، فلا يُطالَبون بثمن كفن ولا مؤنة تجهيز.

وكان هذا جوابي عن مجاوري[1] بعض زوايا الأشياخ بحارتنا لما مات ولد الشيخ الكبير، فلم يرَ الناس عند غالبهم حزنًا، فلاثوا بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٠) ومما أجبتُ به عن الجيران الذين يسمعون في بيت جارهم ضرب آلات اللهو مع الغناء، ويضجون بأعلىٰ صوتهم: أحيه! زيدونا من ذلك! فلاث بهم بعض الحنفية وقالوا: قولكم «أحيه» علىٰ المحرمات كفر، بأن الجيران ربما كانوا جاهلين بتحريم مثل ذلك، فلا ينبغي الإنكار عليهم إلا بعد العلم بأنهم يعرفون تحريم ذلك.

وأما من سمع من الجيران ذلك ولم ينكره، فينبغي حمله علىٰ عذر يبيح ترك الإنكار، كما إذا كان الجار قريب عهد بتُهمَة وأدخلوه بيت الوالي، وصار يستحيي أن يتكلم مع الناس، فخاف إن أنكر عليهم أن يتكلموا في عرضه بالباع والذراع. وربما لم يكن من أرباب التهم، ولكن عرف من الذين يضربون آلات اللهو أنهم ذوالق يرمونه بالبهتان، ويتكلمون في عِرْضه بأمور لا يقدر غالب الناس علىٰ سماعها في حقِّه، لاسيما إن كان السامع من الجيران قاضيًا أو خطيبًا أو مدرسًا أو شيخًا في الطريق، فإنه يحصل من ذلك مفاسد أشد من ضرب العود وسماع الغناء، أقل ما هناك شماتة الأعداء في ذلك العالم أو الخطيب بتجريحه عندهم بالباطل. وربما كان ذلك الجار الذي سكت عن الإنكار من رجال الله الذين يتحملون البلايا والمحن عن الناس بتوجههم إلىٰ الله تعالىٰ، فيصير ينكر عليهم بقلبه لأجل الشريعة، ويدعو لهم بالهداية بلسانه، ويسأل الله أن لا يُطْلِع

---

(١) بالأصلين: مجاورين. والصواب ما أثبتناه.

عليهم أحدًا من جماعة الوالي ولا غيرهم، فاعذر يا أخي جيران الضاربين للعود بما تعذر به نفسك، فإنك لولا سمعتَ ضرب العود كما سمعوا ما كنتَ عرفتَ أنهم سكتوا عن الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينظر أولاده علىٰ تعاطي ما لا يليق بشيخ، ولا ينهاهم عن ذلك، فلاث به الناس وقالوا: إذا كان هذا الشيخ لا يقدر علىٰ هداية ولده، فكيف يهدي غيره؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بسبب ذلك، فربما كان سكوته ذلك الوقت إنما هو لعلمه بأن كلامه لا يؤثر فيهم، فخاف أن يشتغل بذلك عن ذكر الله عزَّ وجلَّ ومراقبته، فقدَّم نفسه علىٰ هداية أولاده، وهو أحد المذهبَين، فإن الجمهور علىٰ أن الأمر بالمعروف واجب مطلقًا ولو لم يؤثر ما لم يخف ضررًا يحصل له يعجز عن احتماله. وفي القرآن العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] فربما فهم هذا الشيخ من هذه الآية أنه إذا اشتغل بماله والإنكار علىٰ ولده، وألهاه ذلك عن ذكر الله، لا يطالب بنصح ولده، وأن ذلك خاص بمن لم يشغله نصح ولده عن الله تعالىٰ، فيحتاج من يبيِّن له وجه الحق في المسألة، ثم ينكر عليه بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل داره فقير وعنده جماعة من الضيوف، فيقول: أخرجوه وأغلقوا عليه الباب لئلا يأكل طعام الضيف ويهتكنا؛ فلاث به الفقراء وقالوا: لا يخلو إما أن يكون قد كُشِفَ للشيخ أن لذلك الداخل رزق في ذلك الطعام أم لا، فإن كان كُشِفَ له عن كونه له رزق فيه، فلا فائدة لغلق الباب عليه، وكذلك إن لم يقسم له، ويستفيد الشيخ بالعزومة عليه بياض الوجه وعدم كسر الخاطر.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ بذلك، لأنه قد مشىٰ علىٰ ظاهر الشرع، فما لم تطب نفسه علىٰ دخوله وأكله من الطعام، لا ينبغي له تمكينه من الدخول،

بل يمنعه تعليمًا للأدب، ومنعًا له عن أكل ما [لا][1] ينبغي له أكله.

وقد كان عمر بن عبد العزيز لا يأكل طعامه منفردًا، بل يطلب من يأكل معه كلما أكل، فقال يومًا لنافع: انظر لنا من يأكل معنا. فخرج وأتاه بشخص، فأكل الطعام كله بلقمتين، فقال: يا نافع لا تعد تأتنا بمثل هذا. فقال: يا سيدي، لم أكن أعرف حاله. فقال: لتكن عندك فراسة تعرف بها من يأكل كثيرًا، ومن يأكل مثل العادة برؤية أنفه، فإن كلَّ ما في ضمير الإنسان يظهر في أنفه عند أهل الفراسة، فعُلِمَ أن استعمال الأسباب أكمل من تركه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لو كان أهل مصر مثلًا كلهم عيالي وصار كل حبة بدينار، ما حملتُ لهم همًّا. ثم إن قمحه الذي في الدار فرغ، فظهر الهم والكرب علىٰ وجهه، فلاث به الناس الذين كانوا يسمعون قوله في عدم حمل الهم وقالوا: لو كان هذا صادقًا ما تغيرت منه شعرة حين فرغ قمحه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث به، فقد يكون مراده أنه لا يحمل همًّا من جهة قسمة أرزاقهم، فهو يعلم أن الله تعالىٰ لابد أن يوصل إليهم أرزاقهم في الوقت الذي عيَّنه لهم في سابق علمه، لا أنه لا يحمل من جهة طلبهم رزقهم منه، فإن ذلك لا ينفك صاحبه عن الهم حين يتوجهون إليه ويطلبون منه أن يسوق إليهم أرزاقهم قبل وقتها الذي عيَّنه الحقُّ تعالىٰ لهم، فإن مثال ذلك مثال مفلس أُحيلَ علىٰ مفلس، فاعلم [ذلك][2] يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل اللائقة بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتردد إليه أمير، فقال الأمير له يومًا: مرادي أزور فلانًا اليوم. فقال له: لا تزره، ولكن أنا أرسله لك تجتمع به. فقال له الأمير: ناموس الفقراء أكبر من ناموسي، ورواحي له أولىٰ! فقال الشيخ: ذهابك إليه أكبر إثمًا من ذهابه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

إليك. فسمع بذلك الفقراء، فلاثوا بهذا الشيخ وقالوا له: كان إرسالك الأمير إلىٰ أخيك أفضل في حق أخيك، وأكثر تواضعًا من ذلك الأمير، ولكن ما كل أحد يطلب الرئاسة إلا لنفسه دون أخيه، ولأي شيء لا ينه الأمير عن المجيء إليه هو؟

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي منع الأمير من زيارة أخيه، وقال: «أنا أرسل لك أخي» لاحتمال أن يكون الباعث له علىٰ ذلك الخوف علىٰ أخيه من الميل لذلك الأمير بالمحبة إذا جاء الأمير إليه، والأمان عليه إذا ذهب هو للأمير، وكأن لسان حاله يقول: يكفي واحد يُحشَر إلىٰ النار مع الظالمين بركونه إليهم، يعني نفسه، فلا ينبغي لي أن أكون سببًا في تعريض غيري لدخول النار. ولو أنه كان علم من أخيه قوة التمكين وعدم الركون بالمحبة إلىٰ ذلك الظالم لو زاره، ما كان منع الأمير من زيارته.

فإن قال قائل: فلأي شيء لم يمنع هذا الشيخ الأمير من المجيء إليه خوفًا علىٰ نفسه هو من الركون إليه كما خاف علىٰ أخيه؟ فإن ذلك يؤذن بتزكية نفسه وازدراء أخيه؛ **فالجواب:** يُحتمَل أنه علم من نفسه التمكين والتحرز من الميل إلىٰ الأمير مع تردده إليه، ولولا ذلك لمنعه. وأما أخوه فأخذ له بالاحتياط، مع اعتقاده فيه التمكين أيضًا، وطلب أن يكون أخوه هو الذي يمنع الأمير من زيارته لا غيره، خوفًا أن يظن الأمير أو غيره أن ذلك ليس هو احتياطًا لأخيه، وإنما ذلك حسد، فاعلم ذلك، واحمل إخوانك علىٰ المحامل الحسنة حتىٰ المعترِض عليهم كما فعلتُ أنا في هذا الجواب، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سافر إلىٰ بلاد الروم من مصر في طلب جوالي[١] ومرتب من بيت مال المسلمين، فاجتمع بالسلطان أو الوزير، فعظَّمه وبجلَّه وأعطاه ما سأل بالحال أو بالقال، فقال له السلطان أو الوزير: انظر هل في مصر أحد من أقرانك محتاج نرتب له شيئًا، أو نعطيه حصةً من هذه الألف التي خرجتُ عنها للفقراء مثلًا؟ فقال: لا أعلم أحدًا من أقراني محتاجًا إلىٰ شيء من ذلك. فعلم بذلك أقرانه وجماعتهم،

---

(١) الجوالي: جمع جالية، وهو المال (الجزية) الذي كان يُؤخذ من أهل الذمة. وهي من أحل الأموال، ولذلك جُعلت للعلماء والصالحين.

فلاثوا به وقالوا: عهدنا بصنَّاع الولائم أنهم يعلمون بعضهم بعضًا إذا علموا بوليمة في حارة، ويشفعون لبعضهم، ليعطيهم من الطعام كما أعطاه، وكان الأولىٰ بهذا الشيخ أن يعلم السلطان أو الوزير بالمحتاجين من إخوانه، ليرتب لهم مرتبًا كذلك، لاسيما والسلطان أو الوزير هو السائل له في ذلك، ولكن قد ذهبت المروءة في فقراء هذا الزمان!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان عدم ذكر اسم غيره من إخوانه للباشاه أو الوزير، أو عدم مساعدته في تحصيل جوالي أو مرتب إنما هو للخوف عليه من الفتنة عليه في دينه، ومنعه من أكل الشبهات. ولا يجوز حمله علىٰ أنه ترك تعريف السلطان والوزير بحالهم بغضًا فيهم وعداوة لهم، فإن ذلك بعيد من الأشياخ أن يقعوا فيه. وقد فعلتُ أنا ذلك مرارًا مع بعض الإخوان لما صحبتُ محمد بن بغداد وعيسىٰ شيخ البحيرة، ولكن لم يبلغ ذلك الإخوان، فالحمد لله رب العالمين.

(٩٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يستر علىٰ زلات المريدين أو زلات أولاده، ويجيب عنهم دائمًا، فلاث به بعض الناس وقالوا: قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[الكهف: ٢٩]، **وقال تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[النساء: ١٣٥]، **فكان الأولىٰ بفلان أن يوبِّخ تلامذته وأولاده بين الناس ويَشهَد عليهم.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ما أجاب عنهم إلا لعدم ثبوت ذلك عن أولاده ومريديه، ولو أنه رأىٰ منهم سوءًا أو دعاه الحاكم إلىٰ الشهادة، لشهد عليهم، فكان جوابه عنهم أولىٰ لما فيه من الستر علىٰ المسلمين، واستمالة خواطرهم، وعدم شماتة الأعداء، فإن من نصح أخاه جهرًا، فقد فضحه وشانه. وربما كان يوبِّخهم سرًّا فيما بينه وبينهم، ويؤثر ذلك فيهم أكثر من الجهر. وكان هذا من خلق سيدي عليٍّ الخواص، فكان يجيب عن أصحابه بحضرة الناس ويوبِّخهم فيما بينه وبينهم، وذلك معدود من حسن السياسة، فالعاقل في هذا الزمان من تبعه علىٰ مثال ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: القطب والأوتاد نوَّاب عن هؤلاء الأربعة، وهم إدريس وعيسىٰ وإلياس والخضر، وليسوا مستقلين بالمقام؛ فلاث به أشياخ العصر كلُّهم وقالوا: هذا أمر ما سمعناه من أحد من أشياخنا، وما نعرف القطب والأوتاد إلا أصحاب مراتب مستقلين لا نوَّابًا.

والجواب: أن الحق مع هذا الشيخ، فقد صرَّح بذلك الشيخ محيي الدين، وابن أبي المنصور وغيرهما، وقالوا: إنه من علوم الأسرار، وأكثر الناس لا يعرفون القطب والأوتاد إلا أصحاب مراتب مستقلين، ولذلك يتطاول كلٌّ واحد إلىٰ نيل هذه المراتب، فإذا منَّ الله تعالىٰ عليه بها، عرف حينئذٍ أنه نائب من نوَّاب الأربعة السابقين لا مستقل، فإن لكلِّ نبي وليًّا نائبًا عنه[1].

فإن قلت: فقد صرح القوم بأن الأقطاب كثير، فكل من دار عليه مقام في بلده أو إقليمه فهو قطبه، وأنتم جعلتم القطب واحدًا؛ **فالجواب**: مرادنا بالواحد هو القطب الغوث الفرد الجامع، وهذا هو المشهور بين الناس. وأما كلام القوم فلا ينافي ما ذكرناه، لأن ذلك من باب التوسع، كما يُسمَّي القاضي النائب قاضيًا، ويجعلونه في الاسم كقاضي العسكر علىٰ حدٍّ سواء في اسم القاضي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: كل من دار عليه مقام ما من المقامات وانفرد به في زمانه عن أبناء جنسه، فهو قطب في ذلك البلد أو الإقليم، كما أن شيخ الجماعة قطب تلك الجماعة، فللورع قطب، وللزهد قطب، ولتحمل البلايا قطب، وللعلم قطب، وللعمل قطب وهكذا، والقطب الغوث جامع لحقائقهم كلهم. انتهىٰ.

[محاورة بين المؤلِّف وشيخه الخوَّاص حول القطب الغوث]

وقد ذكر الشيخ عبد القادر الجيلي أن للقطابة ستة عشر عَالَـمًا إحاطيًّا، الدنيا والآخرة عالم من هذه العوالم، فقلتُ لسيدي عليٍّ الخواص: قد ذكر سيدي أحمد ابن

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٧٣).

الرفاعي أن الرجل لا يكمل حتىٰ يعرف سبعين ألف أمة بأسمائهم وأنسابهم، ولا شك أن القطب أكمل أصحاب الدوائر.

فقال: لا تنافي بين الشيخ عبد القادر والشيخ أحمد، لأن كلام الشيخ عبد القادر في أمهات العوالم، وكلام الشيخ أحمد في فروعها.

فقلتُ له: قد قالوا إن مقام القطابة لا يحيط به صاحبه فضلًا عن غيره، فكيف أحاط الشيخ عبد القادر بعوالمه؟

فقال: ليس معرفته بالعوالم المذكورة إحاطة به، لأن رعاية القطب لهذه العوالم من بعض وظائف المقام، إذ مقام القطب مقابل لعالم الأمر[1] علىٰ حد سواء، فإنه الخليفة الأعظم في العالم.

فقلتُ له: فهل كان أولياء السلسلة أقطابًا، كسيدي يوسف العجمي وسيدي أحمد الزاهد وأضرابهما؟

فقال: ليس مثل هؤلاء أقطاب، إنما هم كالحجَّاب علىٰ الملك الذين يعلِّمون كل من دخل حضرة الملك الآداب المتعلِّقة بالله تعالىٰ. وأما ما ظهر علىٰ يديهم من الكرامات فإنما هو لشدة صفاء نفوسهم، وكثرة إخلاصهم لله تعالىٰ، ومراقبتهم له تعالىٰ، ومجاهداتهم فيه[2]، وأما القطبية فجل أن يلمح مقامها الأحوط غيرُ من اتصف بها.

وسمعتُه مرارًا يقول: العلماء العالمون[3] بوَّابو حضرة الأسماء والصفات، والأولياء المكملون بوَّابو حضرة الذات. انتهىٰ.

---

(١) عالم الأمر أو عالم الملكوت أو عالم الغيب: عالم الأرواح والروحانيات؛ لأنها وجدت من الحق بلا توسط مادة أو مدة. ويقابلها عالم الخلق أو عالم الملك أو عالم الشهادة: وهو ما يوجد بعد الأمر بمادة ومدة. معجم القاشاني (ص١٢٤).

(٢) بالأصلين: له. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: الحاضرون.

[محل إقامة القطب]

فقلتُ له: فهل محل إقامة القطب دائمًا بمكة كما يُقال؟ فقال: لا، هو بجمسه حيث شاء الله لا يتقيد بمكان يمكث فيه، فتارة يكون نوَّالًا[1]، وتارة يكون أمشاطيًا[2]، وتارة يكون حدادًا، وتارة غير ذلك، ولكن قالوا: إن مكة نظير جسده، والكعبة نظير روحه.

[اجتماع المؤلِّف بقطب عصره مع أخيه أفضل الدين، ومحاورة حول القطب]

قلت: وقد جمعني الأخ أفضل الدين بقطب الزمان بمصر بسوق الأمشاطيين وهو يبيع الفول الحار والله أعلم.

فقلتُ له: هل يقيم القطب في مقام القطبية إذا وليها حتىٰ يموت أم يصح عزله بغيره كالولاية الظاهرة؟

فقال: لا ينعزل إلا بالموت، لأنه عَدْل بإجماع، فلا ينعزل إلا بموته، نظير الخلفاء الأربعة ﭫ.

فقلتُ له: قد قال بعضهم: إن مقام القطبية ثقيل لا يقيم أكثر الناس فيه إلا يومًا أو يومين أو ثلاثة أو جمعة.

فقال: هذا ينتقض علىٰ هذا البعض بولاية الخلفاء الأربعة، لكن ربما تولىٰ شخص القطابة أواخر عمره، فمات علىٰ أثر توليته، فظن بعضهم أنه ما مات إلا من ثقل المرتبة، والحال أنه انتهىٰ أجله حين مات.

فقلت له: فهل للقطب خصيصة في علم من العلوم لا يشاركه فيه أحد كما قيل؟

فقال: نعم، ومن ذلك العلم معرفته بمعاني الحروف المقطعة أوائل السور، فلا يمكن للقطب أن يلي القطبية إلا بعد أن يعرف معاني هذه الحروف، فإذا أطلعه الله تعالىٰ علىٰ حقائقها ومعانيها، سبقت إليه الخلافة وكان أهلًا لها، صرَّح بذلك الشيخ محيي الدين

---

(١) أي الذي يعمل علىٰ النَّول، وهي مكنة لغزل الخيوط لها عجلة تُدار باليد أو القدم ومغزل واحد.

(٢) لعلها نسبة إلىٰ صنع الأمشاط.

في الباب الخامس وخمسين ومئة من «الفتوحات». انتهىٰ.

[مما اختُص به القطب عن سائر الأولياء]

ومما اختُص به القطب أيضًا عن سائر الأولياء خلوته بالحقِّ جلَّ وعلا وانفراده[١] به، ثم إذا مات القطب انفرد الحقُّ تعالىٰ بشخص آخر، فلا ينفرد قط لشخصين في زمان واحد. وهذه الخلوة من علوم الأسرار. وأما ما ورد من خلوة الحق تعالىٰ بعبده في الآخرة، فلا ينافي ما ذكرناه، لأن ذلك من باب انفراد العبد بالحقِّ تعالىٰ لا من باب انفراد الحق بالعبد، فافهم واكتم.

[القطبية في الأمم السالفة]

فإن قلت: فهل القطبية خاصة بهذه الأمة المحمدية أم كانت الأقطاب في الأمم السالفة أيضًا؟ **فالجواب:** أن الأقطاب كانوا في الأمم السالفة، لكن إذا نظرتَ إلىٰ كون الأنبياء السابقين نوَّابًا لمحمد ﷺ مدة غيبة جسمه، رجع الأمر إلىٰ هذه الأمة، **فإن الأمم السابقة واللاحقة كلُّهم من أمة محمد ﷺ علىٰ حدٍّ سواء.**

فإن قلت: فكم تولىٰ قطب في الكون قبل ظهور محمد ﷺ؟ **فالجواب:** قد ذكر الشيخ في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» أن عدد الأقطاب الذين تولوا مقام القطبية من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ ظهور محمد ﷺ خمسة وعشرون قطبًا، أشهدنيهم[٢] الحق جلَّ وعلا في مشهد أقدس بمدينة قرطبة، وهم: المفرق، ومداوي الكلوم، والبكَّاء، والمرتفع، والشفاء، والماحق، والعاقب، والمنحور، وشجر الماء، وعنصر الحياة، والشريد، والراجع، والصانع، والطيار، والسالم[٣]، والخليفة، والمقسوم، والحي، والرامي، والواسع، والبحر، والملصق، والهادي، والمصلح[٤]، والباقي،

---

(١) أي انفراد الحق بالعبد، كما سيأتي.

(٢) الكلام هنا للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي.

(٣) بالأصلين: الصابغ. والمثبت من «الفتوحات».

(٤) بالأصلين: الأصلح. والمثبت من «الفتوحات».

فهؤلاء الأقطاب الذين سُمُّوا لنا من آدم إلىٰ محمد عليهما الصلاة والسلام.

وأما القطب الواحد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب من حيث النشأ الإنساني إلىٰ يوم القيامة، فهو روح محمد ﷺ. انتهىٰ.

قلتُ: ولعل هذا مراد من قال: «القطب لا يموت أبدًا» والله تعالىٰ أعلم، وتقدم نبذة صالحة في أحوال القطب في الباب السادس فراجعه[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يدرس في بلد خارج مصر[2] كإسكندرية أو المحلة الكبرىٰ أو دمياط، أو كان شيخًا في زاوية كذلك، ثم ورد مصر ولم يعرف مقامه أحد، فصار يقول لكل عالم أو شيخ اجتمع عليه: ادع لي يعينني الله تعالىٰ علىٰ الفتوىٰ أو التدريس، أو علىٰ القيام بكلفة المجاورين؛ فلاث به أهل مصر وقالوا: إنما يذكر ما يذكر رياءً وسمعةً، معناه: اعرفوا مقامي.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، فقد يكون غافلًا عما يظنُّه الناس به، وإنما يذكر ذلك بصدق نية، مثل من يكون في كرب ويسأل إخوانه الدعاء له بالفرج، فلا يجوز[3] حمل هذا العالم ولا شيخ الزاوية علىٰ المحامل السيئة، لأن النية لا اطلاع لأمثالنا عليها، والأصل في العلماء والأشياخ الإخلاص في جميع أقوالهم وأفعالهم، والرياء أمر عارض يعرض للمبتدئين في الطريق دون المتوسطين فيها والمنتهين، فإن التوحيد الذي ذاقوه يمنعهم من أن يروا لهم شركة مع الله تعالىٰ في الفعل، وإذا لم يشهد العبد له عملًا، ذهب الرياء جملةً، لعدم ما يجده من العمل عنده حتىٰ يرائي به، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يتوقف في عطائه علىٰ من يستحق، بل يعطي

---

(١) ذكر أحوال القطب في الباب الرابع، وليس في الباب السادس. انظر الجواب (٧٩١). وكذلك انظر (٧٧٢).

(٢) يطلق المصريون علىٰ القاهرة اسم «مصر».

(٣) بالأصلين: يكون. والصواب ما أثبتناه.

من يستحق ومن لا يستحق، فلاث به أصحابه وقالوا: ينبغي للإنسان أن يتخير لصدقته وهبته وهديته، فلا يعطيها إلا للمحل الذي يكون فيه أرجح في ميزانه يوم القيامة، بحسب ما تقتضيه قواعد الشريعة.

والجواب: أن هذا الشيخ قد مشىٰ علىٰ مدرجة الأخلاق الإلهية، فإن الله تعالىٰ يعطي من يستحق ومن لا يستحق شرعًا، وفي الحقيقة ما أعطىٰ أحدًا إلا ما يستحقه بحسب القسمة الأزلية.

وكان الشيخ عبد الحليم بن مصلح ﷺ يعطي العطية لمن يشرب المُسكِر، ومن يتعاون في الناس عند الولاة، ويقول: دليلي في ذلك حديث البخاري وقوله فيه: «تصدق الليلة علىٰ زانية، تصدق الليلة علىٰ سارق، تصدق الليلة علىٰ غني، فأما الزانية فلعلها تَسْتَعِف بذلك عن الزنا، وأما السارق فلعله يتوب ويعتبر، وأما الغني فلعله يتصدق ويتنبه لبخله»[1] الحديث بالمعنىٰ لعدم استحضاري له هذا الوقت.

وسمعتُ الشيخ عبد الحليم المذكور يقول: من أعطىٰ من يستحق ومن لم يستحق، أعطاه الله ما يستحق وما لا يستحق؛ ومن أعطىٰ من يستحق فقط، أعطاه الله ما يستحق فقط. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٠) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذي يكونون في حارة بزاوية فقير، وفيها مجلس ذكر يجتمع فيه خلائق لا يحصون، وينزل فيه مدد عظيم، وهم لا يحضرون ذلك المجلس،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (١٤٢١) من حديث أبي هريرة ﷺ: «أن رسول الله ﷺ قال: قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق علىٰ سارق. فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقنَّ بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانيةٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة علىٰ زانيةٍ. فقال: اللهم لك الحمد، علىٰ زانيةٍ، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غنيٍ، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق علىٰ غنيٍ. فقال: اللهم لك الحمد، علىٰ سارقٍ، وعلىٰ زانيةٍ، وعلىٰ غنيٍ، فأُتِيَ فقيل له: أما صدقتك علىٰ سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله» ومسلم (١٠٢٢).

فلاث بهم الفقراء الذين يذكرون في ذلك المجلس وقالوا: ما هذا إلا حرمان عظيم! يكون بجوار هؤلاء المجلس ولا يلين قلب هؤلاء للجلوس فيه يومًا واحدًا!

والجواب: أنه ربما يكون المانع لهم من الحضور عدم القسمة، وأحدُهم يود أنه لا يفوته حضور ذلك المجلس يومًا واحدًا، وربما كان لأحدهم وردٌ في بيته أعظم من ذلك الورد الذي في الزاوية يفعله بحيثُ لا يراه أحد، ولا يلحقه به شيء من الآفات التي تطرق الذي يحضر مجالس الخير في الملأ، فربما رأىٰ أحد الحاضرين نفسه بالمواظبة علىٰ مجالس الخير، فأعجب بنفسه فهلك. فالزم يا أخي الأدب مع كلٍّ من لم يحضر مجلسك، وإياك أن ترىٰ نفسك عليه، فتطرد من حضرة الله تعالىٰ كما طُرِدَ إبليس. وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ ينبغي للعاقل أن يكون له شيء خفي من الأعمال لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ، فإن كلَّ عمل ظهر للناس، دخلته الآفات، وكان قليل الجدوىٰ في الآخرة. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦١) ومما أجبتُ به عن الوليِّ الذي يمدُّ علماء إقليمه وغيرهم بالعلوم اللَّدُنية والقواعد السنية، قيامًا بإحياء الشريعة المطهرة، ولا يكاد يراه أحد في تدريس علم ولا مطالعته، فلاث به الفقراء وقالوا له: إظهار العلم ومباشرة تدريسه أفضل من كتمه عن السائلين وإمدادهم به باطنًا، كما درج عليه الأئمة من السلف والخلف.

والجواب: أنه قد يكون هذا الولي ممن بلغ في الخوف علىٰ نفسه غايته، فصار لا يأمن نفسه في إظهار شيء من عباداته ومعاملاته، كما عليه أكابر الطريق من المَلامتية. وقد كان الإمام الشافعي ﷺ يقول: أود أن لو عمل الناس بعلمي الذي ألقيه عليهم، ولا يُنسَب إليَّ منه حرف. فإن كان مثل الإمام الشافعي يخاف من نسبة العلم إليه، فكيف بغيره من أمثالنا؟! وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: الكامل من عمل أعمال الثقلين، ثم خرج من الدنيا لم ينقص من أجر أعماله ذرة.

ويُسمَّىٰ هذا الشيخ الذي يمد العلماء في كلِّ زمان «قطب العلم» كما أن الشيخ الذي

يمد أهل الورع أو الزهد أو الخشية أو التوكل أو اليقين قطب ذلك الأمر. وهذا من جملة علوم الأسرار لا يكاد غالب الفقراء يتفطن له، بل يظن أن مدده من الله في ذلك المقام بلا واسطة، فرضي الله تعالىٰ عن أوليائه المكمِّلين.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص يمدُّ جميع علماء مصر في سائر العلوم المتعلقة بالشريعة، ويقول: نحن من خدَّام الشريعة، فلا نحب أن نرىٰ علم أهلها ينقص، وفاءً بحق صاحبها ﷺ حيث أمننا عليها من بعده.

[إمداد سيدي الخوَّاص للمؤلِّف بعلم النحو والأصول]

ومدني مرةً بالنحو، ومرةً بالأصول، فصرتُ أقرر فيه تقريرًا لم أُسبَق إليه، ففتشتُ نفسي، فوجدته منفصلًا من سيدي عليٍّ الخواص، فشكرتُه علىٰ ذلك، فقال: عرفتَ فاكتم! وإياك أن تفشي ذلك عني في حياتي. ومثل هذا يكون [أعلم أهل عصره ولا يشعر به أحد، وربما فضَّل الناس بعض طلبة العلم عليه، والحال أن][1] علم [جميع][2] أهل عصره مكتسب من نور علمه، كما يكتسب القمر نوره من الشمس. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ تفضيل بعض العلماء علىٰ بعض فقراء زمانك الخاملين الذكر، فتخطيء طريق الصواب.

وقد وقع لي أنني تكرمتُ في الشتاء بثيابي علىٰ الفقراء والمساكين، ففضلني الناس علىٰ قطب الكرم في ذلك العصر، فملتُ إلىٰ ذلك من حيثُ شكرُ النعمة، فلقيني صاحب الوقت وقال لي: اشكر من مدَّك بالكرم! فنظرتُ فإذا رقيقة الكرم ممتدة منه إليَّ! فقبلتُ رجله، فقال لي: وهكذا القول في كلِّ مقام لا تدعه حتىٰ تفتش نفسك، فربما يكون ذلك المقام مفاضًا من غيرك، فتظنه لنفسك، فيفوتك شكر الوسائط الذي[3] أمرك الله به. فأسأل الله أن يفسح في أجله للمسلمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) بالأصلين: التي. والصواب ما أثبتناه.

فقد علمتَ أن العلماء لا يخلون عن ممد لهم في كلِّ علم علموه، لكن منهم من يعلم ذلك كالشيخ زكريا، والشيخ شهاب الدين الرملي، ومنهم من لم يعلم ذلك كالشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني، فإني اجتمعتُ بمن أمده في «شرح التنبيه» و«شرح المنهاج» وغيره وأخبرني بذلك، فقلت له: أعلم الشيخ الخطيب بذلك؟! فقال: ما يعلم الله كفىٰ!

[إخبار الشيخ زكريا عن الممد له بالعلوم]

وأما شيخنا الشيخ زكريا، فأخبرني أن الممد له بالعلم شخص كان يغربل القمح، وينخل الدقيق بالأجرة، كان يأتيه ليلًا في جامع الأزهر، ولم يزل كذلك إلىٰ أن شرح «البهجة» و«المنهج» وغيرهما، وشاع علمه بين الخاص والعام. قال: وكان آخر عهدي به أنه أتاني فقال: احمل معي هذا السلم -يعني الطويل الخاص بالوقَّادين[1] في الجامع- فنصبه لي في وسط صحن الجامع وقال لي: اصعد؛ فصعدت، فقال: اصعد؛ فلا زلتُ كذلك إلىٰ آخر درجة، فقال: انزل؛ فنزلتُ، ثم قال لي: ستعيش إن شاء الله تعالىٰ إلىٰ أن يموت جميع أقرانك، ويُنشَر علمُك في أقطار الأرض. فودعني وانصرف، فلم اجتمع به بعد ذلك.

[إمداد سيدي محمد الرويجل[2] للشهاب الرملي بزيادة العلم]

وأما شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي فذكر لي أنه أصبح يومًا ضيِّق اليد من الدنيا، فأتاه شخص من أرباب الأحوال كان يُلقَّب بـ«الرويجل» في مصر، فدق عليه الباب، قال: فخرجتُ له، فلما وقع بصري عليه قال: أسأل الله أن يفتح عليك، ثم انصرف.

---

(١) الوقَّادين: هم المسؤلون عن إشعال قناديل الجامع، وكانوا يستعينون علىٰ ذلك بسلم خاص.

(٢) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الصالح المجذوب سيدي محمد الرويجل العريان ﷺ كان من أرباب الكشف التام.

وفي الطبقات الوسطىٰ ذكر تفاصيل القصة كالآتي: أخبرني شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي ﷀ قال: أصل ما حصل لي من الخير والفتوىٰ بمصر من دعوة الشيخ محمد الرويجل، فإنه دخل عليَّ في بيتي وقت القائلة إلىٰ أن وقف علىٰ رأسي، وقال: الله يفتح عليك. ثم خرج. مات ﷺ في سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٤٥٥) طبعة دار الإحسان.

قال: فأتاني شخص بمئة نصف؛ فقلتُ: لعل هذا بدعوة فلان، لظنِّي أن الدعوة إنما هي بأن يوسِّع الله عليَّ في الدنيا، والحال أنها إنما كانت بأن يوسِّع الله عليَّ في العلم، فأدركتُ الزيادة في العلم من ذلك الوقت إلىٰ وقتي هذا.

[إمداد مشايخ آخرين لمريديهم بالعلم]

وممن بلغنا أنه أمد تلميذه بعلمه واختفىٰ هو الإمام نافع شيخ الإمام مالك، وسيدي عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل صاحب «المختصر» وسلار الإربلي شيخ الإمام النووي رضي الله عنهم أجمعين، فاطلب يا أخي الإمداد من أقطاب المقامات في كلِّ مقام تطلبه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٢) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذين يصحبون الأشياخ، ثم يخافون من لص أو حية أو عقرب أو سبع، ولاث بهم الفقراء وقالوا: لو صحت صحبتكم لهؤلاء الأشياخ، ما خاف أحدٌ منكم من غير الله تعالىٰ أبدًا، فإن أصحاب الشيخ في حجر تربيته كولد اللبوة في حجرها لا يستطيع أحد أن يؤذيه منها.

والجواب: أنه لا أصدق من أصحاب رسول الله ﷺ في صحبته وصحة الارتباط به، وقد وقع لهم الخوف من الخلق كالجن والغول والشيطان والكفار وغير ذلك، وما ذاك إلا لأن الحقَّ جلَّ وعلا لا تقييد عليه فيما يفعل مما سبق به قضاؤه وقدره، **فلا يلزم من صحة استناد الفقراء إلىٰ شيخ أنه يحميهم من الأقدار النافذة فيهم مطلقًا، وإنما يكون ذلك في الأمور المعلَّقة علىٰ صحة استنادهم إليه، فإذا أراد الله تعالىٰ إنفاذ أمره، قطع الوصلة بين ذلك** المريد وبين الشيخ حتىٰ يقع ذلك المقدَّر. وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول لمن جاءه يحمِّله حملته: يا ولدي، لو نزل علىٰ إبراهيم ما نزل عليك ماذا كان يصنع؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن للشيخ أن يحمي مريده من الوقوع في الأقدار المعلَّقة دون المبرمة، إذ الوليُّ إذا نزل عليه شيء من الأقدار يكون أول من يستسلم لذلك، وأول من يلوي رأسه تحت طي جناحه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: في كلِّ مريد جزء لا يمكنه معه الاعتقاد في شيخ اعتمادًا علىٰ الله تعالىٰ، فيرفع حكم الوسائط كلِّها من هذا الجزء، ومن هنا تدخل عليه الآفات، كما أن فيه جزءًا يعتقد في سائر الأشياخ علىٰ الدوام، ولكنه يضعف في بعض الأوقات، فلذلك يُحفَظ العبد في أوقات، ويعطب في أوقات.

وسمعتُه يقول: يجب علىٰ العبد أن لا ينام في دار لا باب لها، ولو كان حسن التوكل، لأن فيه جزءًا لا يركن إلىٰ السوابق، ويجد عند نفسه الأمان إذا أغلق عليه بابًا أكثر مما يجده إذا لم يكن عليه باب، والكامل يعطي كلَّ جزء فيه حقَّه. انتهىٰ.

ولما وقعت المناسر[1] تضرب في بيوت مصر أيام الباشاه إسكندر سنة أربع وستين وتسعمئة، تحوَّل أكثر أصحاب الفقراء من أطراف مصر إلىٰ داخلها، فلاث بهم بعض الجهلة، فكان جوابي عنهم أنهم ما تحولوا لقلة اعتقادهم في أشياخهم، وإنما ذلك لعلمهم بسعة القدرة الإلهية، وأنه ليس للأشياخ مدافعة الأقدار المبرمة، لا عن أنفسهم ولا عن أصحابهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تصدَّر لإلقاء العلوم والأسرار في بلده، وصار الناس يأخذون عنه العلوم ولا يلتفتون إليه، ولا يرون له عليهم منة، فصار يقول: اعرفوا للناس فضلهم، ويعرِّض للناس بأن يعرفوا له فضله، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا مخلصًا في علم، ما التفت إلىٰ شكر الناس له بوجه من الوجوه، بل كان يفرح بكفران نعمته أكثر من شكرها.

والجواب: أن الأشياخ لا يجهلون ما اعترضه هذا المعترض، فإنهم قطعوا النظر إلىٰ الخلق جملةً في ابتداء توحيدهم، وإنما الواجب حملهم علىٰ إرادة الخير للناس بأن لا يكفروا نعمة أحد ممن كان واسطة لهم في خير، فالباعث له علىٰ قوله: «اعرفوا للناس فضلهم» طلبه حصول الثواب لهم، لا مجرد اعترافهم بفضله هو فقط، فإن ذلك بعيد

(١) المناسر: عصابات اللصوص.

وقوعه من أحد ممن باشر صريح الإيمان قلبه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقبل إحسان الناس إليه، ثم يذمهم بعد ذلك في المجالس، أو يسكت عن ذلك، ولاث به العلماء وقالوا له: قد ورد: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1].

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون من المتمكنين في طريق الإيمان بأحوال يوم القيامة، وصار ينظر إلىٰ كلِّ شيء ينقص به رأس مال أخيه فيجتنبه، فربما رأىٰ أن الشكر لأخيه علىٰ إحسانه ينقص أجره في الآخرة بميله إلىٰ ذلك ولو علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فترك شكره جملةً وفاءً بحقِّ أخيه، ومحبةً لحصول الأجر الكامل له في الآخرة.

وربما كان ذلك المحسِن من جملة المريدين الذي يعجبهم أحوالهم، فيذمه الشيخ بين الناس، حتىٰ لا يركن إلىٰ الإعجاب بحال نفسه. ثم إن هذا الأمر لا يقدر علىٰ المشي عليه إلا الأكابر الذين لا يراعون إلا مرضاة الله، ويرون الخلق كالأطفال في حجر تربيتهم. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يأكل طعامك ويذمك في المجالس، فإنه من المحسنين إليك بتوفير أجرك، وتنفيرك من الوقوع في الإعجاب بحالك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسأل الولاة في حوائجه، ويذل لهم في طريق قضائها، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا لا يليق فعله بالأشياخ، إنما طريقهم أن يتوجهوا إلىٰ الله تعالىٰ في أن يحرِّك قلب ذلك الأمير لقضاء تلك الحاجة، ثم يكلمه عليها بلا ذلٍّ ولا انكسار.

والجواب: أن ما فعله الشيخ أولىٰ، لما فيه من إظهار الذلِّ والمسكنة لمن جعله الله تعالىٰ بابًا من أبوابه يقضي منه حوائج الناس، فإن من شرط الشيخ أنه إذا سأل الأمير في حاجة أن يراه بابًا من أبواب الله يخرج إليه تعالىٰ له منه ما طلبه من الحوائج، فهو كالوكيل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وابن حبان (٣٤٠٧).

للسيد، وفي ذلك عملٌ بالأدب مع الله تعالىٰ ومع ذلك الأمير. وفي الحديث: «من كان له حاجة فأنزلها بالله بعد خلقه يوشك أن يقضي الله تعالىٰ حاجته»(١) أو كما قال، فليس اللوم إلا علىٰ من يسأل الله ويسقط الوسائط جملة، أو من يقف مع الوسائط وينسىٰ ربه عزَّ وجلَّ.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي وسيدي علي الخواص وغيرهما يقدرون علىٰ قضاء الحوائج بالقلب، ومع ذلك كانوا يمشون إلىٰ الحكَّام ويقولون: قد ورد في الحديث: «من مشىٰ في حاجة أخيه، ثبَّت الله قدميه علىٰ الصراط»(٢) فربما [لا](٣) يحصل ذلك لمن لا يمشي. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك من العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٦) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذين قسَّم عليهم شيخهم ذهبًا أو فضة، أو حلوىٰ أو لحمًا، أو غير ذلك من الهدايا، ورجَّح بعضهم علىٰ بعض بالنور الذي أعطاه الله تعالىٰ له، فقال له بعضهم: هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله! فتمعر بذلك وجه الشيخ، فلاث به بعض الأشياخ وقالوا له: قد قال الصحابة مثل ذلك لرسول الله ﷺ وصبر(٤)، فوجب عليك التأسي في ذلك به ﷺ، وإذا كان مثل الصحابة يقولون مثل ذلك لرسول الله ﷺ، فكيف بأهل النصف الثاني من القرن العاشر؟!

والجواب عن الشيخ وعن الفقراء الذين لاثوا به وعن الصحابة أن تعلم أنه لا ينبغي

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو دواد (١٦٤٥) من حديث ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: من أصابته فاقة، فأنزلها بالناس، لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله، أوشك الله له بالغنىٰ، إما بموت عاجلٍ، أو غنىً عاجلٍ» والبيهقي في «الكبرىٰ» (٧٨٦٩) وأحمد (٣٦٩٦) وغيرهم.

(٢) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٦٤٦) من حديث ابن عمر ولفظه: «ومن مشىٰ مع أخيه في حاجةٍ حتىٰ يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام» وفي «الصغير»(٦٠٢٦) والحاكم (٧٧٠٦).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٢٩١) من حديث عبد الله قال: «قسم النبي ﷺ يومًا قسمةً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه لقسمةٌ ما أريد بها وجه الله. قلت: أَمَا والله لآتينَّ النبي ﷺ، فأتيته وهو في ملإٍ فساررته، فغضب حتىٰ احمرَّ وجهُهُ ثم قال: رحمةُ الله علىٰ موسىٰ، أُوذِي بأكثر من هذا فصبر» ومسلم (١٠٦٢).

اللوث علىٰ الشيخ بذلك ولا علىٰ مريديه، فقد يكون ذلك وقع باتفاق بين الشيخ وخواص أصحابه، وقال لهم: قولوا لي: كذا وكذا؛ ليتأسىٰ بهم أهل عصرهم، كما كان يقع ذلك من الصحابة، ليتأسىٰ بهم من بعدهم، وإلا فاعتقادنا في كلٍّ من وقع عليه بصر رسول الله ﷺ من المسلمين أنه يصير أرق الناس قلبًا، ويصير رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه.

وقول القائل: «هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله» صحيح في نفس الأمر؛ لأن وجه الله تعالىٰ لا يُقابل بالأعراض الدنيوية ولا الأخروية، وهو غني عن العالمين، وإنما يُرَاد بتلك القسمة وجوه الخلق حقيقة، لاعتقادهم إلىٰ ذلك المقسوم، وشدة حاجتهم إليه، وهم الذين قبلوا ذلك من رسول الله ﷺ حقيقة.

فإن قال قائل: إن الله تعالىٰ حكىٰ عن الأبرار أنهم يقولون للمسكين واليتيم والأسير: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] وظاهره مدح لهم؛ **فالجواب:** أن حكاية الله تعالىٰ قول عباده لا يلزم منه أن يكون المحمود مطلقًا، فقد يكون لبيان الواقع. وربما يكون ما يتقرب به قوم في الأدب مع الله يستغفر منه آخرون، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. ويُحتمَل أن يريد الأبرار بقولهم ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ امتثال أمره، فإن لكل عمل وجهًا للكون، ووجهًا لله تعالىٰ، فالمحمود منه وجه الله، أي الذي وافق شرعه دون ما وافق هوىٰ النفس.

وأما تمعر وجه الشيخ فلا يلزم منه نقص في مقامه، بل هو من كماله، ليظهر للناس الذين يقتدون به التغيرَ والتأثرَ وعدمَ مقابلته لمن قال له ذلك بسوء، اقتداءً برسول الله ﷺ. وقد يكون ذلك التمعر من رسول الله ﷺ صوريًّا لا حقيقيًّا، ليظهر لقومه شدة تحمله الأذىٰ. ثم لو قُدِّر أنه لم يتمعر وجهه، كان ذلك من كماله أيضًا، ليتأسىٰ به أصحابه في التحمل[1] وعدم إظهار التغير والتأثر.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بمن اعترض علىٰ الشيخ، ولا علىٰ الشيخ، ولا

(١) بالأصلين: القوم.

علىٰ من أنكر علىٰ من اعترض علىٰ الشيخ، فإن لكل وجهًا، وكثيرًا ما يتفق الملك مع خواص أهل حضرته علىٰ فعل أمر، ليتأدب بذلك الجفاة الطبع، ويؤاخذ خواصه علىٰ ذلك، ليقول غيرهم: إذا كان هذا فعل الملك مع خواص أهل حضرته، فكيف بأمثالنا؟! ويؤيد ذلك ما ورد من قوله ﷺ: «إنما أنسىٰ ليستن بي»[1]. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي انقطع عن الخروج من زاويته إلا لضرورة علىٰ ممر الأزمان، حتىٰ عُرِفَ بذلك، ولا يتردد لزيارة أحد من أقرانه، ويقول: أنا ممنوع من أن أدخل أسواق البلد. ثم إنه ربما دُعِيَ إلىٰ وليمة سفر يوم وأكثر، فيخرج إليها، فلاث به الناس وقالوا: انقطاع فلان عن أقرانه في زاويته إنما هو تكبر عليهم، ولو أنهم كانوا يتبركون به إذا زارهم، ويطبخون له الطعام الكثير كما يفعل له أهل الأرياف، لكان ذهب إليهم، ولكن أين أهل العزلة الذين كانوا يزهدون في لقاء الناس خوفًا علىٰ الناس أن يشتغلوا بهم عن الله تعالىٰ دون الأغراض النفسانية؟! هذا أمر قد ذهب من فقراء هذا الزمان! وأيش خلىٰ هذا الشيخ الذي يذهب إلىٰ الأرياف للمزمزمين[2]؟!

والجواب: أن اعتقاد هذا الذي ذكره المعترضون لا يجوز في حقِّ الأشياخ، فإنهم أهل اجتهاد في أحوالهم، فربما لم يزوروا جارهم إذا مرض أو جاء من سفر الحج مثلًا، وربما زاروا أحدًا من الولاة في طرف البلد، لما يترتب علىٰ ذلك من المصالح لهم أو

---

(١) أخرجه مالك (٢) قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٣٣٨): أما هذا الحديث بهذا اللفظ فلا أعلمه يُروىٰ عن النبي ﷺ بوجه من الوجوه مسندًا ولا مقطوعًا من غير هذا الوجه والله أعلم. وهو أحد الأحاديث الأربعة في الموطأ التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة والله أعلم. ومعناه صحيح في الأصول وقد مضت آثار في باب نومه عن الصلاة، تدل علىٰ هذا المعنىٰ.

(٢) زمزم المغني: ترنم ودندن. وهل المراد بهم هنا تلك الفرق الموسيقية التي تجوب الأرياف، فتتعاقد مع من تجد لديه مناسبة لإحيائها بالغناء، وما زالت بعض تلك الفرق تجوب اليوم بعض المناطق الشعبية وإن ندرت الظاهرة هذه الأيام، أم المراد بهم طائفة يسافرون في البلاد للأكل من ولائم الموالد والمناسبات؟ وأهل الصعيد يطلقون لقب «المزمزمين» علىٰ المشاركين بالإطعام والخدمة في عمل مولد سيدي أبي الحجاج الأقصري من غير نسل الأسرة الحجاجية ممن كان لأجدادهم صلة بالشيخ أبي الحجاج.

للمزور أو للناس، فالواجب حمل هذا الشيخ علىٰ أنه لا يترك الزيارة لجاره إلا لحكمة، ولا يزور أحدًا من الولاة إلا لحكمة ونية صالحة. وقد خرج الإمام أحمد من بغداد إلىٰ الرملة ليزور فاطمة الرملية، مع أنه كان لا يزور أكثر أقرانه من علماء بغداد، وخرج إبراهيم بن أدهم من الشام إلىٰ مكة ليعزي الفضيل بن عياض في ولده عليٍّ لما مات، ولم يخرج لحج ولا عمرة. وكان إبراهيم بن أدهم كثيرًا ما يرسل وراء سفيان الثوري، فيأتيه ولا يذهب هو إليه، ويقول: إنما أفعل به ذلك لأعلم الناس بما هو عليه من التواضع، مع أن إبراهيم كان لا يرىٰ نفسه أنها تعد من تلامذة سفيان ﷺ. فاعلم ذلك، وإياك وتحمل أوزار الناس بسوء ظنك بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي نُقِلت عنه زلة عقيدته مثلًا كالزمخشري[١] وابن تيمية والذهبي[٢] والبقاعي[٣] ونحوهم، فصار الناس لا يعتقدون فيهم، مع انتفاعهم بمطالعتهم في كتبهم في التفسير والحديث وغير ذلك، بأنه ربما كانت تلك الزَّلة التي نُقلَت

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان. أخذ النحو عن أبي مضر منصور. له مصنفات منها: «الكشاف» في تفسير القرآن العزيز، لم يصنف قبله مثله و«المحاجاة بالمسائل النحوية» و«المفرد والمركب» في العربي. وكان قد سافر إلىٰ مكة، حرسها الله تعالىٰ، وجاور بها زمانًا، فصار يقال له: «جار الله» لذلك، وكان هذا الاسم علمًا عليه. توفي:٥٣٨هـ. انظر: و «فيات الأعيان» (٥/ ١٦٨) و«إرشاد الأريب» (٦/ ٢٦٨٧).

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، حافظٌ لا يجارىٰ، ولافظٌ لا يبارىٰ، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأبان الإبهام في تواريخهم والإلباس، جمع الكثير، ونفع الجم الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف. له مصنفات منها: «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء» و«الدول الإسلامية» مولده في ربيع الأول سنة:٦٧٣هـ وتوفي:٧٤٨هـ. «فوات الوفيات» (٣/ ٣١٥) و«البدر الطالع» (٢/ ١١٠).

(٣) برهان الدّين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي الشافعي المحدّث المفسّر الإمام العلاّمة المؤرّخ. ولد: ٨٠٩هـ. له مصنفات من أجلها: «المناسبات القرآنية» و«عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران» و«تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض وابن عربي» توفي:٨٨٥هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٥٠٩)، «الأعلام» (١/ ٥٦).

عنهم بمثابة وضع الجماجم علىٰ رؤوس المزارع، فتدفع عنهم شرَّ العين، ويحصل لهم كمال الأجر في الآخرة، بخلاف من كثر اعتقاد الناس فيهم من العلماء، فربما مالت نفس العالم إلىٰ حب الثناء الحسن عليه، فنقص أجره بذلك، أو ذهب بالكلية.

وربما تاب الله تعالىٰ علىٰ ذلك العالم قبل موته بتقدير ثبوت تلك الزَّلة عنه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ويصير الناس يقعون في عرضه بعد ذلك في حياته وبعد مماته، فينقل الله حسناتهم في صحائفه، كما كان الأعمش يقول لامرأته إذا لامته علىٰ نومه بالليل ويقول: لست بنائم، فإن أهل الكوفة كلهم يعملون لي. فتقول: كيف ذلك؟ قال: يقعون في عِرْضي، وينسبون إليَّ أمورًا أنا منها بريء، فينقل الله حسناتهم إلىٰ صحيفتي، فكأنهم يعملون لي بالأجرة.

فإياك يا أخي ولحوم العلماء، فإنها سم ساعة، وإذا وقعت من أحدهم زلَّة فلا تستصحبها وتحمله علىٰ غير التوبة، تخطيء طريق الصواب. ثم بتقدير وقوعه فيها فما حصل من النقص قد جُبِرَ بكلام الناس فيه، فما خسره من وجه، ربحه من وجه آخر، كما أن ما ربحه العالم من حيثُ انتفاعُ الناس بعلمه، قد خسره من جهة جلبه[1] لثناء الناس عليه، ولا يسلم من ذلك إلا القليل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه من القوم، ولا يراه الناس يجلس في مجالس الذكر أبدًا، فلاثوا به وقالوا: من علامة أولياء الله كثرة ذكر الله عزَّ وجلَّ. وصاروا يفضلون بعض مشايخ الزوايا الذين لهم مجلس ذكر عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مثل هذا الشيخ، فربما منَّ الله تعالىٰ عليه بجمعية القلب في حضرته علىٰ الدوام، فاستغنىٰ عن ذكر اللسان الذي لا يقع عادة إلا من المحجوبين عن شهود الحقِّ جلَّ وعلا. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص وأخي أفضل الدين يجتمعان للذكر في السنة مرةً واحدةً، عملًا بحديث: «من ذكرني في

---

(١) بالأصلين: نقله.

ملأ، ذكرته في ملأ خير منه»[1]، وكانا يقولان: من أكثر من ذكر الله بلسانه، فهو علامة على حجابه عن شهود ربِّه، إلا أن يكون ممن يقتدي به المريدون في ذلك.

وسمعتُ أخي أفضل الدين مرارًا يقول: ذكر اللسان إنما جعله الأشياخ وسيلةً إلىٰ حضور القلب، فإذا حضر صار دائم الذكر تارةً يشهد الحقَّ تعالىٰ، وتارةً يشهد أنه بين يديه وهو تعالىٰ يراه، فإذا حصل للعبد هذا المقام كان هو الذاكر حقيقة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تفضل الشيخ الذي يذكر الله في جماعة صباحًا ومساءً مثلًا علىٰ الدوام علىٰ الشيخ الذي لا يحضر مجلس ذكر أبدًا، فربما كان ذلك الشيخ المواظب علىٰ الذكر لا يصلح تلميذًا لذلك الذي لا يحضر مجلس الذكر، اللهم إلا أن يكون التفضيل من حيثُ تعدي النفع إلىٰ الذاكرين والمستمعين، فهذا ربما رجح من هذه الجهة. فاعلم ذلك، واشتغل بنفسك عن المفاضلة بين الناس، فإن ذلك من الفضول، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٠) ومما أجبتُ به عن الذي يقول لصاحبه: قم بنا نسمع ما يقع في مجلس الشيخ الفلاني من الهذيانات؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا له: إن كان ما يقوله هذا الشيخ من الهذيانات مذمومًا وليس في قدرتك رده عنه، فيحرم عليك حضوره؛ وإن لم يكن مذمومًا حقيقة وإنما ظَنَّ ذلك مزحًا فهو يلاعب بالدين.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة بالإنكار علىٰ هذا القائل، لاحتمال أن يريد أن ذلك الكلام مذموم عند من لا يعرف اصطلاح القوم، لا أنه مذموم عند هذا القائل، ولكن لا يخفىٰ توجه اللوم علىٰ هذا الشيخ الذي يتكلم بأسرار طريق القوم علىٰ رؤوس الخلائق، لمخالفته لما نُقِلَ عن أشياخ الطريق.

وقد كان الإمام أبو القاسم الجنيد لا يتكلم في أسرار الطريق حتىٰ يقول للخادم: أغلق الباب، وهات المفتاح؛ فيضعه تحت وركه، ثم يتكلم ويقول: أتحبون أن يُرمَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

أولياء الله بالزندقة؟! انتهىٰ. فانظر يا أخي إلىٰ هذه الرحمة من الجنيد، وخوفه عن ذهاب دين المنكرين بوقوعهم في أعراض الأولياء بغير علم واتبع طريقه.

[سبب إظهار العارف أبي الحسن البكري وولده محمد لبعض أسرار الطريق]

فإن قال قائل: فكيف خالف ذلك من يدعي الكمال كالشيخ أبي الحسن البكري وولده سيدي محمد؟ **فالجواب**: ليس كلام هذين الشيخين مما نحن فيه؛ لأنه كلام لا يكاد يفهم منه السامع شيئًا يخالف ظاهر الشريعة أبدًا، إنما هو كلام مجمل، والباعث لهما علىٰ إظهار خوف الضرر علىٰ أبدانهما، فلولا أخرجاه عن أبدانهما، لحصل بحبسه خراريج في أبدانهما، وإذا تعارض عند العارف خوف الأذىٰ علىٰ نفسه، وخوف الأذىٰ علىٰ الناس قدَّم إزالة ما يضر نفسه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧١) ومما أجبتُ به عن المريد الذي ينقل لشيخه ما يسمعه في حق شيخه من الأعداء الحاسدين، فلاث به المتشرعون وقالوا: هذا من جملة النميمة التي نهىٰ الشارع عنها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا المريد، لاحتمال أن يريد بتبليغ ذلك لشيخه طلب العفو والصفح عن ذلك العدو أو الحاسد في الدنيا قبل الآخرة، لما يعلمه من أخلاق شيخه الحسنة، وكثرة مسامحته للناس، والحكم تابعٌ للقصد، وإذا احتمل فعل عبد أمرين محمودًا ومذمومًا، وجب حمله علىٰ الأمر المحمود. ولاشك أن حكاية ذلك الأمر لشيخه ليصفح عن ذلك الجاني في الدنيا معدود من جملة المصالح لا المفاسد، فمن كتم عن شيخه ما يسمعه في حقِّه فربما أساء علىٰ نفسه وفي حق شيخه وفي حق عدوه، ولو أنه ذكر ذلك له ولشيخه ولعدوه لأُجِر من باب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

فعُلِمَ أن من لم يعتقد في شيخه المسامحة كما ذكرنا، فلا يجوز له نقل كلام الأعداء والحاسدين له، وهو محل ما ورد من النهي. وأما قوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا»(١)

---

(١) تقدم تخريجه.

الحديث، فهو تشريع للأمة[1]، وإلا فهو ﷺ أكثر الخلق عفوًا وصفحًا على الجاني عليه، فأراد ﷺ سدَّ باب النميمة على أمته، إلا أن يترتب على ذلك مصلحة، فاعلم ذلك، وامش على الشرع في جميع حركاتك وسكناتك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٢) ومما أجبتُ به عن من كتم عن شيخه ما يسمعه من أعداء الشيخ في حقِّه، ولاث به أصحاب شيخه وقالوا: هذا منك غش لشيخك وقلة اعتقاد به، وظنُّك فيه عدم مسامحة من جنى عليه، وذلك نقص في الشيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة بالإنكار على هذا المريد، ولا على من لاث به، لاحتمال أنه قصد بذلك الاحتياط لشيخه، فخاف أن شيخه تقوم عليه البشرية، فلا يسامح بذلك، فرأى أن كتمان ذلك عن الشيخ أولى، ثم إنه يدعو لذلك الواقع في عِرْض شيخه بالمغفرة.

وأما من لاث به من أصحاب الشيخ في كتمانه، وطلب منه أن يخبر بذلك شيخه، فلا ينبغي الإنكار عليه كذلك، لأن الحامل له على ذلك ظنه في الشيخ الكمال، وأنه لا يتغير على من وقع في عِرْضه، بل يسارع إلى إزالة الأمر الذي وقع [العدو][2] في الشيخ لأجله، رحمةً به، فيريحه من الوقوف للحساب لأجله يوم القيامة، وبالجملة فكتمان المريد عن شيخه ما يسمعه في حق شيخه أولى من وجوه، أقلها أنه يدخل عليه الغمَّ بذلك، كما هو الغالب من طبع البشر، ويكفي الواقع كثرة الاستغفار فيما بينه وبين الله تعالى كما قال به بعض العلماء.

وكان سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إذا لم يتحقق المريد من شيخه العفو والصفح، وجب عليه الكتمان عنه، لأنه ينقص بذلك أجر شيخه بعدم صفحه الذي أمره الله تعالى به. انتهى، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٣) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذين لا يحضرون أوراد الشيخ الذي في حارتهم،

---

(١) انظر الجواب (٥٣).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

ولاث بهم جماعة وقالوا: إن قلوبكم أقسىٰ من الحجارة! كيف تسمعون مجلسًا[١] صباحًا ومساءً طول عمركم وأنتم جيرانه، فلا يحضر منكم أحدٌ يومًا واحدًا؟! هذا خسران مبين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء الجيران، لاحتمال أن يكون لأحدهم عذر لا ينبغي إفشاؤه، أو يخاف من اللصوص أن يسرقوا متاعه في وقت حضوره في مجلس الذكر صباحًا ومساءً، مع كونهم يذكرون الله تعالىٰ في بيوتهم من أول المجلس إلىٰ آخره.

وربما كان أحدهم يحس من نفسه بعدم الإخلاص إذا حضر مجالس الخير، فيخاف علىٰ نفسه أن يصغىٰ إلىٰ قول الناس: فلان علىٰ خير عظيم في هذه الأيام؛ فأراد بعدم حضوره الخلاص من دخول الرياء عليه، ووفر بذلك أجره.

وبالجملة فقل عمل يظهر من أمثالنا ويسلم من ثناء الناس علينا به، والميل منا إلىٰ ذلك، كما أن كل فقير حضر مجلس ذكر ورأىٰ نفسه علىٰ من لم يحضر، فقد أعجب بنفسه، وحبط أجره، إلا أن يرىٰ نفسه من حيثُ فضلُ الله عليه من غير ازدراء لمن لم يحضر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون ظاهرًا في العصر وله كرامات وخوارق، ولا يجتمع به أحد من الناس إلا قليلًا، فلاث بهم جماعة الشيخ والمعتقدون فيه وقالوا: مثل هذا الرجل العظيم يكون في عصركم ولا تصحبونه! هذا خسران عظيم!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن لم يجتمع بهذا الرجل، فقد يكون الباعث للناس علىٰ عدم الاجتماع به خوفهم منه أن يطلع علىٰ سرائرهم الخبيثة، ورأوا أن عدم اجتماعهم به من باب قوله ﷺ: «من ابتُلي بشيء من هذه القاذورات -يعني المعاصي- فليستتر بستر الله»[٢] الحديث، ومن يجتمع من العصاة بمثل هذا الشيخ كأنه يظهر معاصيه ولا يستتر فيها، لعلمه بأن الشيخ يرىٰ ما في باطنه من الخواطر الردية، فضلًا عما

---

(١) هامش «ب»: لعلها مجلس الذكر أو الشيخ.

(٢) تقدم تخريجه.

فعله. وقد كان سيدي عليًّا الخواص إذا رأىٰ أنف إنسان، يعرف جميع ما أضمره وما وقع فيه، فكان أصحابه لا يجالسونه إلا أن علموا من أنفسهم الطهارة.

فإن قال قائل: إن من شرط الكامل أن لا يكشف عورات الناس، بل يحجبه الله تعالىٰ عن ذلك؛ **فالجواب:** أن الكامل يُمَلأ ويفرغ ليلًا ونهارًا، فربما نقص في وقت، فأدرك عيوب الناس ونقائصهم، ويُسمَّىٰ هذا بـ«الكشف الشيطاني» الذي يجب عليه التوبة منه فورًا[1]. فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، وكل من كان الباعث له علىٰ عدم اجتماعه بالشيخ عظم هيبته، أو خوف الاطلاع علىٰ عورته، فلا اعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال: اللهم لا تستجب لي دعاءً حال غضبي في حق أحد من الخلق. فقال له شيخ آخر: هذا لا ينبغي لما فيه من التحجير علىٰ الحقِّ جلَّ وعلا، ولأي شيء لا تترك الدعاء علىٰ الناس جملة وتدعو لهم؟! كما أدَّب الله تعالىٰ به رسوله ﷺ حين دعا علىٰ قوم وأنزل الله عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فإن ذلك أولىٰ من أن تدعو ثم تقول: اللهم لا تستجب لي.

والجواب: أن الشيخ الأول قد مشىٰ علىٰ قواعد القوم من إظهار الضعف، وعدم القدرة علىٰ منع نفسه من التأثر ممن جنىٰ عليه، وقد قال ﷺ: «اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر، اللهم من سببتُه أو شتمتُه، فاجعل ذلك كفارة له وطهورًا»[2]. انتهىٰ.

---

(١) لا تعني بالكشف الشيطاني أن للشيطان فيه مدخلاً، بل للتنفير منه. وليس مثل هذا الكشف مذمومًا بإطلاق، بل بحسب الحال والمقصد، فكم تاب معاندون علىٰ يد المشايخ بمثل هذه المكاشفة كما هو واقع في سير الأولياء. وإنما المذموم منه ما كان بلا سبب كقصد هداية أو إلجام معترض لا يلتجم عن إيذاء أولياء الله إلا بمثل هذا، أو يكون المذموم الكشف بغير إذن.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٠٣) من حديث أنس بن مالك قال: «كانت عند أم سليم يتيمة، وهي أم أنس، فرأىٰ رسول الله ﷺ اليتيمة، فقال: آنت هيه؟ لقد كبرت، لا كبر سنُّك. فرجعت اليتيمة إلىٰ أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لك؟ يا بنية قالت الجارية: دعا علي نبي الله ﷺ أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدًا، أو قالت قرني فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها، حتىٰ لقيت رسول الله ﷺ فقال لها

وأما الشيخ الثاني فقد ظنَّ بنفسه القوة في تحمل الأذىٰ، فحمل غيره علىٰ مثل ذلك، فلا اعتراض علىٰ الشيخين، لأن لكل واحد محملًا، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٦) ومما أجبتُ به عن الذين يضيفون الجور والظلم إلىٰ الخلق ببادئ الرأي، ولاث بهم بعض المتصوفة وقالوا: أيش كان الخلق في ذلك؟! الكلُّ من الله.

والجواب: أن الذين أضافوا الظلم والجور إلىٰ الخلق أكثر أدبًا مع الله تعالىٰ ممن أضاف ذلك إلىٰ الله بحكم التقدير، فلا ينبغي اللوث بهم، فإن نسبةَ الأمور كلِّها إلىٰ الله تعالىٰ بحكم الخلق والتقدير معلومٌ بين المسلمين لا يكاد يجهلها أحد، بخلاف ظلم الولاة، فإننا إذا أجبنا عنهم، فقد مهدنا لهم بساط الظلم، وضعَّفنا إقامة الحجة عليهم. وقد نفىٰ الحقُّ جلَّ وعلا الظلم عن نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨].

فاعلم ذلك، وأضف الظلم إلىٰ الخلق ببادئ الرأي، كما يضف المتصوف ذلك الأمر إلىٰ الله من حيثُ التقديرُ ببادئ الرأي، إلىٰ أن يبلغ كلٌّ منكما مقام الكمال، وينظر بالعينين، فيرىٰ الأمور لله بعين، ويرىٰ نسبتها إلىٰ الخلق بالعين الأخرىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي سافر إلىٰ السلطان في طلب مسموح[1] أو مرتب أو جوالىٰ بعد أن طعن في السن، فلاث به الناس بسبب ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لاحتمال أن يكون

رسول الله ﷺ: ما لك يا أم سليم. فقالت: يا نبي الله أدعوت علىٰ يتيمتي. قال: وما ذاك؟ يا أم سليم. قالت: زعمت أنك دعوت أن لا يكبر سنها، ولا يكبر قرنها. قال فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي علىٰ ربي، أني اشترطت علىٰ ربي فقلت: إنما أنا بشر، أرضىٰ كما يرضىٰ البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحدٍ دعوت عليه، من أمتي، بدعوةٍ ليس لها بأهل، أن يجعلها له طهورًا وزكاةً، وقربةً يقربه بها منه يوم القيامة» وأبو داود (٤٦٥٩)، وابن حبان (٦٥١٤).

(١) مسموح: مبلغ من المال يعينه السلطان لبعض الناس.

كُشِفَ لأحدهما عن رزقه الذي قسمه الله تعالىٰ له [في الروم، وأوقف تعالىٰ الوصول إليه علىٰ السفر إليه، فسافر هذا العالم أو الشيخ لرزقه الذي قسمه الله تعالىٰ له][1] علىٰ كشف وبصيرة، إظهارًا للذلِّ والفقر والفاقة، فلا فرق بين ذلك الرزق وبين الرزق الموضوع علىٰ باب داره علىٰ حدٍّ سواء، وإذا حمل الله تعالىٰ إلىٰ العبد رزقه، فمن الأدب قبوله.

فعُلِمَ أن لا حرج علىٰ الفقير المذكور في السفر إذا أداه كشفه إلىٰ ما ذكرناه من الرزق، وسافر إلىٰ باب السلطان، فلم يعطه شيئًا، ولا يقدح ذلك في صحة كشفه، بل كشفه صحيح، ولكن تغير الحال في الألواح السماوية لما سافر إلىٰ الروم ووقف في الديوان، ولو أن الحال تغير عند شروعه في السفر، لكان يرجع ولم يسافر، **لأن الفقراء صادقون في كشفهم إثباتًا ومحوًا**، فمن سأل السلطان أو الوزراء في مرتب مثلًا، فلم يعطه شيئًا، حملناه علىٰ أن الكتابة تغيرت في الألواح السماوية بعد سؤال السلطان أو الوزراء، وعلامة صدقه في كشفه أن لا يأخذ في نفسه علىٰ السلطان ولا علىٰ الوزراء إلا أنهم عبيد تحت أمر الحقِّ جلَّ وعلا، لا يعطون للناس إلا ما أذن لهم في إعطائهم، ومتىٰ تكدَّر مدعي هذا الكشف من أحد من الوسائط، فدعواه الكشف غير صحيحة. هذا حكم من كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا.

أما الذي مطمح نظره اللوح المحفوظ، فلا يتغير عليه حال، ولا يستطيع أحد أن يعارضه في رزقه الذي كتبه الله تعالىٰ فيه، لأنه لوح محفوظ من المحو، فحكم من ينظر في ألواح المحو والإثبات حكم الشخص إذا خرج من بيته يطلب رزقه ولا يدري أين هو حقيقة، أو كالذي دخل زُقَاقًا[2] لا يدري هل ينفذ أم لا، فإن رآه ينفذ خرج منه وإلا رجع، وحكم من نظر في اللوح المحفوظ حكم من يرىٰ رزقه ليس دونه مانع، فاعلم ذلك، وإياك واللوث بالفقراء إذا سافروا في طلب أرزاقهم، فإنهم ليسوا كأبناء الدنيا إذا سافروا في طلبها محبةً في التكاثر والتفاخر.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

(٢) الزُّقَاقُ: الطريقُ الضيِّقُ نافذًا أو غير نافذٍ.

وقد بلغنا عن سيدي علي المحلي[1] المدفون برشيد أنه قال: كُشِفَ لي عن قطعة لحم في دمياط أنها من رزقي؛ فسار من رشيد لأجلها، فأول ما طلع من الساحل وجد شخصًا يأكل لحمًا، فزور[2] بقطعة لحم، فلم يقدر علىٰ بلعها، فألقاها علىٰ الأرض، فأخذها سيدي علي المذكور وأكلها، ورجع من فوره وقال: هذه الحاجة التي سافرتُ إليها. والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٨) ومما أجبتُ به عن الولاة والوزراء الذين عارضوا الشيخ الذي سافر إلىٰ باب السلطان ولم يعطوه مرتبًا ولا غيره، وعن ولاة مصر مثلًا الذين عارضوه فيما أعطاه السلطان أو الوزراء، ولاث بهم أصحاب ذلك الشيخ وقالوا عن هؤلاء الولاة: إنهم آلة سوء، وما فيهم شربة ولا صدقة لله تعالىٰ.

والجواب: عن وزراء الروم[3] أنهم ربما كان الباعث لهم علىٰ منعه الصيانة لخرقة الفقراء عن الطعن فيها بقول الناس: إذا كان المشايخ صاروا يسافرون في طلب الدنيا فما بقي أحد ينبغي الاعتقاد فيه؛ فخاف الوزراء علىٰ بقية الفقراء إذا أعطوا هذا الشيخ ما طلبه منهم أن يحدقوا أبصارهم كذلك إلىٰ السفر في طلب الدنيا، ويتركوا الاشتغال بعبادة الله، ويلتحقوا بأبناء الدنيا، فكان منع هذا الشيخ أحسن من إعطائهم له ولبقية الفقراء، أما له فلئلا يصير معدودًا من الأئمة المضلِّين عن طريق أهل الله تعالىٰ، وأما لبقية الفقراء فلأنهم إذا رأوا ما قاساه هذا الشيخ من التعب والسفر في البرد والثلج، وطول إقامته في الروم، وكثرة طلوعه الديوان، وذله للكبير والصغير، ثم بعد ذلك لم

(١) ترجم له الإمام الشعراني فقال: سيدي علي المحلي المقيم بثغر رشيد ﷺ كان من عباد الله الصالحين. سافر إلىٰ زيارته الفقراء من أقطار الأرض، منهم: الشيخ حسين أبو علي، والشيخ محمد بن عنان والشيخ علي المحلاوي وغيرهم. مات ﷺ سنة إحدىٰ وتسعمئة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٣٧٢) طبعة دار الإحسان.

(٢) أي حصلت له غُصَّة.

(٣) أي وزراء السلطان العثماني ببلاد الأناضول (تركيا).

يعطوه شيئًا، تحركت همتهم إلىٰ ترك السفر في طلب الدنيا، ونفروا من ذلك.

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن الولاة والوزراء أتم نظرًا من غيرهم بيقين للنور الذي جعله الله تعالىٰ في قلوبهم يسوسون به الخلق، أو لكثرة ما جرَّبوه من الفقراء الذين يَرِدون عليهم يطلبون الدنيا، فيظهرون النُّسك والعبادة، وإطعام الطعام للواردين عليهم، ثم إذا أعطاهم السلطان مرتبًا يطعمون منه الفقراء مُدَيدة قصيرة، ثم يحولونه إلىٰ اسمهم واسم أولادهم، ويتخصصون به دون الفقراء، فإن قُدِّر أن الفقراء طلبوا ما يخصهم من ذلك المرتب، آذوهم وأخرجوهم من الزاوية بالحكَّام، فمن تكدر من الوزراء الذين منعوه فهو جاهل، فإنهم أهل اجتهاد، فربما تفرسوا في ذلك الشيخ الذي يطلب المرتب مثلًا عدم نفعه في الإسلام، ورأوا أن إعطاء تلك الدراهم للجند الذين يسافرون في الجهاد والتجاريد[1] أفضل وأشفق علىٰ بيت المال، وأحسن لدين ذلك الفقير الذي يأخذ مال بيت المال من غير استحقاق.

ولو تأمل الإنسان بعين الإنصاف لكان من الواجب عليه رد ما أُعطيه من بيت المال المُعد لمصالح الذين يجاهدون في سبيل الله، ويحمون بيضة الإسلام دونه، مع أن من شأن كل من يطلب الدنيا أن يكون مَهينًا في ملكوت السماء والأرض، إلا أن يكون يطلبها بالطرق الشرعية، فحكم الشيخ الذي يطلب الدنيا بعبادته وعلمه عند الوزراء كالطفل الذي لا يعرف ما يضره ولا ما ينفعه، ومعلوم أن الولي إذا أجاب الطفل إلىٰ كل ما يطلب أضر به. ومن فهم ذلك علم أنه لا اعتراض علىٰ الوزراء الذين منعوا هذا الشيخ مما طلب في الروم، كما لا اعتراض علىٰ ولاة مصر أيضًا إذا عارضوه فيما أتىٰ به من الروم، لأنه كالطفل عندهم، لاسيما إن كان قد طعن في السن، وقل نفعه في الوجود، ولا معه علم يدرِّسه، ولا طريق يرشد الناس إليها، فإن أضعف الجند أنفع من مثل هذا.

[توبيخ إياس باشا لبعض مشايخ المتصوفة]

وقد سافر شخص من متصوفة مصر إلىٰ الروم في أيام الوزير إياس باشاه[2] يطلب له

---

(١) جمع تجريدة، وهي الحملة العسكرية.

(٢) إياس باشا الوزير الأعظم للسلطان سليمان خان بن عثمان، كان له سيرة حسنة، وسياسة مستحسنة،

جوالي أو مسموحًا، فلما اجتمع بالوزير قال: أيش حرفتك في مصر؟ فقال: شيخ من أشياخ الطريق. فقال له: فما حاجتك في بلادنا هذه؟ فقال: جئتُ أطلب شيئًا من رزق السلطان. فقال له الوزير: هل تعلم أحدًا في مصر أعلىٰ منك درجة في علم الطريق؟ فقال: لا. فقال: أمرك يا شيخ غريب! لأن الحقَّ يطعمك ويسقيك من حيثُ كنت في بطن أمك لم ينسك يومًا واحدًا، حتىٰ صارت لحيتك بيضاء، ومع ذلك لا تثق بضمان الحقِّ تعالىٰ لرزقك، وإذا كان المريد في ابتداء أمره لابد أن يرمي ما بيده من الدنيا حتىٰ يصح له أن يضع قدمه في الطريق، فكيف تطلب أنت الدنيا في حال شيخوختك، وإدعائك أنه ليس فوقك أحد من مشايخ مصر؟ وكيف توصل الخلق إلىٰ حضرة الله تعالىٰ مع محبتك للدنيا؟ ومعلوم أن المريد لا يرضع من الشيخ إلا ما هو متلطخ به، بل لو قُدِّر أن شخصًا من المريدين زهد في الدنيا، ثم إنه اجتمع بك ورضع منك، لتلف حاله، فما درىٰ هذا الشيخ ما يقول.

ثم إن إياس باشاه قال له: إن شون[1] مولانا السلطان في مصر لا يعجز عن رغيفين لك، بل لو لقطتَ من الحب الذي يقع كلَّ يوم من الترَّاسين علىٰ باب الشون، لكفاك ذلك. ولو قُدِّر أن بوَّاب الشون منعك من لقط الحب المذكور أما كنت تنزل إلىٰ قرىٰ مصر أيام الجرين[2]؟ فإنك لو طلبتَ من كل بلد وَيبَة[3] قمح لأعطوها لك بسهولة، واستحوا أن يردوك، فكان يحصل لك من ذلك قمح كثير يكفي عيالك ولو كثروا، وتستريح من هذا النَّصَب والتعب الذي أنت فيه، ولم توقع أحدًا من أقرانك في حسدك والقرض في عِرْضك، فإن من المعلوم أن أقرانك لا يزالون يقعون في عِرْضك، وينسبونك إلىٰ محبة الدنيا وعدم العفة والقناعة من حين تسافر من بلادهم إلىٰ أن ترجع إليهم.

خالط فيها العلماء، وتودد إلىٰ الصلحاء، وكان من أكبر المحبين للشيخ رضي الدين الغزي، وكانت وفاته بالقسطنطينية سنة ٩٤٦هـ. الكواكب السائرة (٢/ ١٢٥)

(١) الشون: مخزن الغلة.

(٢) الجرين: الجُرْنُ، وهو الموضع الذي يُداس فيه البُرّ ونحوه.

(٣) الوَيْبَة: اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مُدًّا، وهو مكيال يختلف بحسب البُلدان.

وقد بلغني أن بعض الطلبة قال للوزير إياس: اجبروا بخاطر هذا الشيخ في هذه المرة. فقال: حرمانه أولىٰ، ليترك السعي في الدنيا بعد ذلك، ويمنع الناس من الطعن في أهل الطريق، ومن قياسهم جميع أهل الطريق في عصره عليه، فلا يصير أحدهم يعتقد أحدًا منهم. فاعلم ذلك، وتأمل ما فيه من توبيخ هذا الأمير لهذا الشيخ.

وكذلك بلغني عن الوزير هذا أنه قال: أمر هؤلاء العلماء والمشايخ عجيب! لأنهم يفتون بتحريم الأموال التي بأيدينا، ثم يسافرون إلينا ويأخذونها من بين أيدينا بسيف الحياء غصبًا علينا، فبأي دليل يحرمونها مادامت في أيدينا، ثم يحلونها إذا وصلت إليهم؟! انتهىٰ.

ولما سافر بعض إخواننا من مصر إلىٰ الروم في سنة أربع وستين وتسعمئة، فلا تسأل يا أخي ما وقع من الناس في حقه، ثم لما رجع من بلاد الروم وتوقف ولاة مصر في إعطائه ما رسم السلطان به له، فلا تسأل ما وقع فيه الناس بسببه، فصار بعضهم يقول: كان الشيخ فلان علىٰ بساط الرحمن، فصار علىٰ بساط الشيطان! وصار بعضهم يقول: أيش خلىٰ هذا لآخرته وهو يطلب الدنيا بعد أن بلغ الستين سنة؟! وبعضهم يقول: كنا نعتقده قبل أن يسافر الروم، فلما سافر ذهب اعتقادنا واعتقاد أصحابه فيه؛ فكان الجواب عنه وعن ولاة مصر الذين عارضوه بمثل ما تقدم في مثل هذا الجواب والذي قبله، فلا ينبغي اللوث به من جهة سفره، ولا بمن عارضه في الروم أو في مصر، فيُحمَل علىٰ أنه ما سافر إلا بعد أن كُشِفَ له عن الطعام الذي أكله مدة إقامته في الروم، وأنه رأىٰ ذلك في ألواح المحو والإثبات، وأن ذلك وما رُسِمَ له به من المرتب لم يزل مكتوبًا حتىٰ رجع إلىٰ بلاد مصر ووقف في الديوان، فلا يجوز لأحد اللوث به ولا الوقوع في عرضه بسبب سفره المذكور.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: ربما رأىٰ الحقُّ جلَّ وعلا من عبده المقرَّب عجبًا بأحواله من ورع وزهد، وعفة وكرم، فسلَّط عليه من ينقصه في المجالس ويذكره بالسوء إلىٰ أن يزول منه ذلك العجب، فيكون ذلك له بمثابة الجماجم التي توضع في الزرع لترد عنه شرَّ العين.

ويُحتمَل أن الشيخ المذكور فعل ما ذكر بقصد واختيار، ليدفع عنه بالتظاهر بمحبة

الدنيا ما يظنه الناس فيه من العفة والقناعة، وترجيحه علىٰ المشايخ الذين لهم مرتبات ورِزَق[١] وغيرها، وقد وقع له بحمد الله ما قصد من قَلْب[٢] اعتقاد الناس فيه، ويوفر أجره في ورعه وزهده وسائر عباداته إلىٰ الدار الآخرة، وشارك بذلك أكابر الأولياء في المقام، فإن الأكابر لا يكاد أحد منهم يظهر للناس من أعماله ما تميزه عنهم، ليذهب إلىٰ الآخرة موفر الأجر لم ينقص منه شيء في الدنيا. وربما رأىٰ الحقُّ جلَّ وعلا من العبد تقصيرًا في العبادة، فيسلِّط عليه طوائف ممن أشقاهم الله تعالىٰ، فيلوثون به ويقطعون في عِرْضه، فيحكِّمه الله تعالىٰ يوم القيامة في حسناتهم، فيأخذ منها ما يجبر خلل ذلك النقص الحاصل بالكسل مثلًا، وكأن هؤلاء الذين يقعون في عِرْضه يعملون له جميع أعمالهم ويعطونه ثوابها.

فاعلم ذلك، وإياك يا أخي والوقوع في عِرْض من تراه يتظاهر بحب الدنيا من الفقراء، فربما سلَّ منك جميع حسناتك، ونقلها في صحيفته وأنت لا تشعر، فصار رأس ماله بها كالجبال، وصار رأس مالك بما وقعتَ فيه كالهباء المنثور، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجيب عن ولده كلما وقع في شيء من الرذائل، ويزجر عن ذلك غير ولده ويهجوه إذا وقع فيما ذُكِرَ، ولاث به الناس وقالوا فيه المثل السائر: «فإن كانت بقرة القاضي، فقال: الصغار يلعبون، والبقر تأدي».

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما كان عدم زجر ولده عن الرذائل إنما هو لشدة لصوقه بقلبه وشفقته عليه، من حيثُ كونه جزءًا منه، فلا يدعه ذلك اللصوق والشفقة يتمادىٰ فيما يقع فيه من الرذائل، وذلك أبلغ من الزجر باللسان والهجر بعدم الكلام، بخلاف الأجنبي الذي ليس بينه وبينه ذلك اللصوق، ولا هذه الشفقة، ولا هذا الحنو، فإنه يحتاج إلىٰ الزجر والتنفير عن الرذائل التي لعله يقع فيها في المستقبل، مما هو معلَّق علىٰ تلك المدافعة، حين كان اللصوق والشفقة من الشيخ ضعيفان لا يردعان ذلك الأجنبي عن تلك الرذائل، فلذلك احتاج إلىٰ الزجر والتوبيخ والتقريع.

---

(١) تقدم بيان معناها في الحاشية.

(٢) بالأصلين: قبل. والصواب ما أثبتناه.

ثم هذا الأمر الذي ذكرناه إنما هو من شأن الفقراء الصادقين، والعلماء العاملين [مع أولادهم. أما عوام الناس فربما كان سبب عدم الزجر لأولادهم العصبية][1] والحمية الجاهلية، إذ ليس لهم قلب صادق مع الله تعالىٰ عادةً يكون علىٰ أولادهم كالمِجَن[2] تحميهم من الوقوع في الرذائل.

وربما كان سبب عدم زجر الشيخ ولده أو صاحبه مثلًا ما كُشِفَ له من سبق السعادة لولده، أو لذلك الصاحب، وأنه يموت علىٰ أكمل حال وأتم ولاية، فأجاب عن ولده وصاحبه، لعلمه بأن تلك الجناية مثلًا لا تضره. ثم إن انعكس الحكم علىٰ الشيخ، فأجاب عن الأجنبي دون ولده، حملناه كذلك علىٰ أنه كُشِفَ له عن ولاية ذلك الأجنبي دون ولده، فأجاب عنه تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ بذلك، من حيثُ إنه ولي لله عزَّ وجلَّ، لا من حيثُ الطبعُ أو الجنسيةُ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: ولد العالم والصالح والجلَّاد وبواب الدرب لا يُرجَىٰ له فلاحٌ غالبًا. أما ولد العالم والصالح فيكتفي بتعظيم الناس له لأجل والده، وقضاء حوائجه، فيعيش في جاه والده إلىٰ أن يموت، فلا يتعب نفسه في اكتساب الفضائل. وأما الجلَّاد فهو من أصحاب الحرف الدنية التي لا يحصل فيها خلاص للذمة، فلا يحصل له رقي. وأما بوَّاب الدرب فلا يكاد يحدث نفسه بالانتقال من البوابة، فلا يترقي كذلك. وسمعتُه مرة أخرىٰ يقول: إنما كان الغالب علىٰ مشايخ الإسلام أن يكونوا من أولاد الفلاحين دون الأكابر من الأمراء والتجار وأركان الدولة، لأن أحدهم يتربىٰ في ضيق المعيشة ووزن الخراج والمغارم، والحبس والضرب والعري، فلا يزال كذلك يسأل الله تعالىٰ أن ينقله من الهم والضيق والهوان، فيستجيب له دعاءه، ويلهمه تعلم القرآن والعلم، فلا يزال كلما رأىٰ العزلة من الخلق يجد في الاشتغال، حتىٰ يصير مدرسًا مفتيًا إلىٰ أن ينفرد في بلده، فلا يكون هناك أعلم منه، فيولوه شيخ الإسلام

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

(٢) المِجَن: الساتر كالسيف ونحوه.

أو شيخ الطريق. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٠) ومما أجبتُ به عن الأمير أو شيخ العرب الذي عاند علماء زمانه ومشايخه، ولم يسمع منهم ما ينصحونه به، ولم يعتقد فيهم صلاحًا ولا خيرًا، ولاث به الناس وقالوا: فلان لا يعتقد في العلماء ولا في الصالحين، ولا يسمع لهم نصحًا، وهذا دليل علىٰ شقائه وسوء خاتمته.

والجواب: أنه لا لوم علىٰ الأمير أو شيخ العرب في خروجه عن يد العلماء والصالحين، إلا بعد تمهيد بساط له يعرف منه أن العلماء والصالحين لا يدعونه لحظٍّ نفوسهم، ولا لبر يحصل لهم منه، وإنما يدعونه محبةً له وشفقةً عليه، ويبين له في ذلك البساط أن الفقراء قد خرجوا عن حب الدنيا، وصار أحدهم ينقبض خاطره إذا دخلت عليه، وينشرح إذا أدبرت عنه، ويحب كلَّ من صدَّها عنه أشد المحبة، فإذا مهد العالم أو الشيخ لذلك الأمير أو شيخ العرب هذا البساط، واعتقد صدقه فيما قال، فهناك يكون اللوم علىٰ ذلك الأمير أو شيخ العرب.

وأما طلب انقياده للعلماء والصالحين من غير تمهيد بساط، فذلك كالمحال، لأن الولاة في دائرة الحجاب عن طريق أهل الله عزَّ وجلَّ، ولا يشهدون مقامهم الذي هم فيه، ولذلك قال الله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤] تمهيدًا لعذر فرعون من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ الآخذ بناصيته إلىٰ الكفر والعناد، ليقيم من يدعوه إلىٰ الله العذر له باطنًا، وينهاه ويزجره ظاهرًا، قيامًا بواجب الشريعة، وما علىٰ الرسول إلا البلاغ.

وإيضاح ذلك أن الله قدَّر علىٰ الملوك والأمراء وسائر الحكَّام أمورًا تخالف ظاهر الشريعة، أو ظاهرها وباطنها من ظلم العباد، وارتكاب الفساد، وكلَّف العلماء والصالحين وجميع الرعية بالصبر تحت جورهم وظلمهم، **فكما أن الدار الآخرة محلُّ سلطان العلماء والصالحين، ومحلُّ تصريفهم بقولهم للشيء ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]، فكذلك الدنيا محل سلطان تصريف ولاتها، ومحل تنفيذ كلامهم**، فكلُّ فقير عارض أحدًا من حكَّام الدنيا بغير إذن ولا تصريف له من الله، قُهِرَ وغُلِبَ، فكان في قول الله

تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤] فتح باب حسن السياسة منهما لكل من يدعونه من الجبَّابرين إلىٰ شرع ربهما، وفي الحديث: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[١]، وفي رواية: «إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا منفرين»[٢]. ولما أنف داود عليه الصلاة والسلام من مجالسة عصاة بني إسرائيل غيرةً لجناب الحقِّ تعالىٰ في انتهاكهم محارمه، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: «يا داود، المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج قد أنفتَ عن تقويم عوجه، فلماذا أُرسلت؟» فتنبه داود من غفلته عن ذلك، وصار يطبخ لهم الطعام، ويدعو العصاة إليه، ويعرض لهم بالنصح حتىٰ انقادوا له، وصلح حالهم.

وسمعتُ الأخ الصالح الأمير هندم كِيخْيا[٣] الأمير إبراهيم الدفتردار يقول: أعظم الأولياء إذا عانده أمير، أتعب سرَّه بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، ولو أنه كان مهَّد لذلك الأمير بساطًا أراه فيه ما لنفس الأمير في ذلك الأمر الذي دعاه إليه من الحظِّ والمصلحة في الدنيا والآخرة، لربما انقاد له ولم يعانده، وأراحه من قوله كلما يسجد لله سجدة: «يا الله يا الله يا الله أهلك الأمير فلانًا» ومن تعب البشر. انتهىٰ.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن جبَّارًا كان يظلم أصحاب نبي الله داود ويؤذيهم، فكان داود يدعو عليه فلا يُجاب، فقال داود: يا رب، كم أدعوك علىٰ هذا الجبَّار ولا أرىٰ إجابة، وأنت تعلم ظلمه جوره، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إنما أبطيء بإجابة دعائك عليه، لأعلمك الحلم علىٰ من عصاك، فإني حليم علىٰ من عصاني لا أعاجله بالعقوبة. فسكت داود، ثم إن ذلك الجبَّار زاد في الظلم والجور، فدعا عليه داود، فلم ير إجابة، فقال: [يا ربِّ، كم أدعوك علىٰ هذا الجبَّار! فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إنما أبطيء بإجابة دعائك عليه لأعاملك بمثل ذلك إذا ظَلَمتَ، فلا تستبعد سرعة إجابة دعاء من ظلمته؛ فسكت

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦١٢٨) وأبو داود (٣٨٠) والترمذي (١٤٧).

(٢) ذكره القاضي عياض في الشفا بلفظ: إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا منفرين (٢/ ٤٩٧).

(٣) الكيخيا: كلمة تركية تعني المشرف أو المراقب.

داود، ثم إن ذلك الجبَّار زاد في الظلم والجور، فدعا عليه داود فلم ير إجابة][1] فقال: يا رب، كم أدعوك فلا تجيب دعائي، فأوحىٰ الله إليه: يا داود، إني قضيتُ عليه في سابق علمي بأمور تقع علىٰ يديه في سنين عديدة أؤاخذه بها، فاصبر حتىٰ تمضي عليه تلك السنون، أفتريد أن أغير لأجلك ما سبق في علمي؟ انتهىٰ.

وقد خبرتُ أنا الولاة في هذا العصر أشدَّ الخبر، لاسيما بني بغداد، فلا أرىٰ نفسي إلا كالحاوي مع الأفاعي، فأنا أكره لهم الظلم والجور، وهم يكرهون معارضتي لهم، فتارة يرضون عني، وتارة يسخطون عليَّ، وتارة يبعث[2] الله تعالىٰ من يواظبهم [علىٰ] الاعتقاد في صدقي، وتارة ينزل في مواظبتهم رائحة الاعتقاد في حال كربهم وشدتهم. وقد عُرِفُوا بي وعُرِفتُ بهم، فلا أقدر علىٰ عدم الشفاعة في المظلومين، ولا هم يقبلون شفاعتي في كلِّ ما أشفع، لاسيما في رد الخيول والبقر والغنم التي ينهبونها من المتهومين ونحوهم. فأسأل الله تعالىٰ أن يدبرنا وإياهم بحسن التدبير. وقد ماتوا كلهم بالسيف، وبقي منهم عبد الله بن حجازي، وأنا وإياه علىٰ الحرب في أكثر الأيام، وما قاسيتُ من أحد ما قاسيتُ منه! فالله تعالىٰ يغفر له، ويريحنا منه بإصلاح الحال! آمين اللهم آمين.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من طلب انقياد الناس له بغير هذه الثلاث خصال، فقد رام المحال، وهي: الصلاح، والإحسان، والسيف. وكان يقول: إياكم أن تدعوا علىٰ ولاتكم، إنما الأدب مع الله أن تدعو لهم بالتدبير، ولرعيتهم بالصبر علىٰ جورهم. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨١) ومما أجبتُ به عن الأمير أو شيخ العرب إذا قال: أنا لا أعتقد في عالم أو صالح إلا إن أظهر لي كرامة، أو كاشفني عما يقع لي أو لغيري في المستقبل، أو عرف عدد مالي، أو أخذ بيدي في شدة ونحو ذلك؛ فلاث به الفقراء وقالوا: إنه قليل الاعتقاد في

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط في «ب».

(٢) بالأصلين: يبرح.

العلماء والصالحين [ولم يشترطوا في الصلاح][1] شيئًا من ذلك، وإنما شرطوا الاستقامة علىٰ الشريعة فقط، فحيث وجدنا العالم أو الصالح مستقيمًا علىٰ الشرع، وجب علينا اعتقاده، والعمل بما يرشدنا إليه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأمير الذي قال مثل ذلك، لأن وجود هذه الشروط التي شرطها هي الأمر الفارق بين الأولياء والعوام، فما لم يأتِ بها الوليُّ لا تمييز له عنا، فإن الكرامة للوليِّ كالمعجزة للنبي، هذا حكم السياج الذي فيه غالب الناس في هذا الزمان وفيما قبله، وإن كان ذلك ليس شرطًا في الاعتقاد عند أهل البصائر، إذ الوليُّ كلما ارتفع مقامه، خفي بين الناس وقلَّت كراماته بين أصحابه، فإن كثرة كرامات الولي إنما هي لقلة يقين أصحابه، وضعف إيمانهم بطريقه.

وأما الكشف للكامل فيرتفع جملةً، لما فيه الاطلاع علىٰ عورات الناس، وهذا أمر لا يلحظه العوام، بل يقولون: كلُّ شيخ لا يكاشفنا بما يقع لنا في مستقبل الزمان فهو نصَّاب لا فرق بيننا وبينه؛ ولا شك أن غالب الولاة اليوم عوام، فإذا قال أحد منهم: أنا لا أعتقد في الشيخ الفلاني إلا إن أظهر لي كرامة، فلا حرج عليه فيه، والأمر في ذلك راجع إلىٰ الشيخ، فإن رأىٰ في إظهار الكرامة لذلك الأمير فائدةً ترجح علىٰ إخفائها، فله أن يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في إظهارها، وإلا ترك التوجه إلىٰ الله في ذلك، إذ لا فائدة حينئذٍ في إظهارها.

ولذلك كان من شأني دائمًا إذا طلب أمير مني الصحبة لا أجيبه حتىٰ أتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في ذلك، فأقول: «اللهم إن كان في صحبة فلان خيرًا لي وله وللمسلمين، فسهِّل علينا أسباب ذلك، وإلا فاصرفه عنا واصرفنا عنه من فضلك وإحسانك» فإن سهَّل الله الأسباب كانت الخيرة في ذلك، وإن دفعه عنا كانت الخيرة في ذلك.

وكثيرًا ما يعتقد الأمير في الفقير إذا أخذ بيد الأمير في شدة وكاشفه بما يحصل له، ثم بعد مدة ينسىٰ الأمير ذلك، ويترك اعتقاده في ذلك الوليِّ، فلا ينبغي للوليِّ أن يأخذ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

عليه في ذلك، ويطلب منه الاعتقاد فيه[1] كما كان في وقت الشدة، فإن ذلك أمر لم يجعله الحقُّ تعالىٰ لنفسه، بل ذكر عن بعض عباده ضد ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] الآية، فشيء لم يجعله الحقُّ تعالىٰ لنفسه، مع ظهور قدرته، ومع خلقه لهم ورزقه لهم وإيجادهم من العدم، كيف يطلبه عند ضعيف من أبناء جنسه؟!

وتأمل قول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، كيف رد الله تعالىٰ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وما كانوا كاذبين إلا من حيثُ ظنُّهم أنهم إذا عادوا إلىٰ الدنيا يستمر معهم الذوق الذي كان معهم في النار، ولو أنهم علموا أنهم إذا عادوا يتغير عليهم ذلك الذوق بحكم القبضتين، ما قالوا ذلك. فقول الشيخ سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله: «إنه لا ينبغي لفقير أن يطلب من أمير صحة الاعتقاد فيه إلا بعد أن يأخذ ذلك الفقير بيد الأمير في الشدائد بعد أن انقطعت منه الحيل» مراده الاعتقاد عقب الأخذ بيده لا دائمًا، لما قررناه آنفًا من عدم وقوع ذلك في حقِّ الباريء جلَّ وعلا، وفي حقِّ أهل النار.

وقد قال لي شخص من أولاد ابن بغداد: أنا لا أعتقد فيك وأقبل شفاعتك وأخاف منك إلا إن رأيتُك تمشي علىٰ الماء أو في الهواء. فقلتُ: هذا أمر لا تجده في هذا الزمان في أحد من فقرائه حتىٰ تموت، وهي من مكائد إبليس بك حتىٰ يخرجك من الدنيا، أو من ولايتك من غير أجر ولا تفريج شيء من الكرب، ولو كنتَ من أهل الدين والخير لم تقل مثل ذلك، بل كنتَ تنظر في كلِّ شيء شفع فيه الفقير عندك، فإن وجدتَه موافقًا للشريعة وفيه خلاص لذمتك في الدنيا والآخرة، ألزمتَ نفسك به، وشكرتَ فضله علىٰ تنبيهك عليه، فإنه قل فقير أو عالم ينصحك أو ينهاك إلا علىٰ هذا الشرط.

---

(١) بالأصلين: منه. والصواب ما أثبتناه.

فكأن الفقير الذي يصحب أحدًا من ولاة الزمان يطلب يحرس التماسيح الهائجة علىٰ السمك أن [لا][1] تأكل منها سمكة وتموت التماسيح جوعًا، أو كأنه الحاوي مع الأفاعي وإن كان ذلك الفقير سببًا في ولاية ذلك الأمير بتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ في ولايته [كان ضرر ذلك الأمير علىٰ الفقير أشد، لكونه صار شريكه في كلِّ ظلم وقع فيه بتوجهه إلىٰ الله في ولايته][2]، كما وقع لي ذلك في تولية واحد من أولاد بغداد، فإني توجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ في توليته فولاه، فظلم العباد والبلاد ولم يشكر الواسطة، وقال: ما ولَّاني إلا الله تعالىٰ أو فلوسي الذي بذلتُها للحكَّام. فتوجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ في عزله وقتله، لأخرج أنا وإياه من الإثم، وأطهره من ذنوب تلك الولاية، ولم أزل أتوسل إلىٰ الله بأنبيائه وأوليائه حتىٰ شنقوه في باب زويلة، وكان ذلك مني بحمد الله من شدة محبتي فيه لا بغضًا له، وذلك ليوافي القيامة مطهَّرًا من الذنوب كلها أو بعضها علىٰ ما سبق في علم الله عزَّ وجلَّ، فاعلم ذلك، وتأمل فيه أيها الفقير الذي برز للمشيخة في النصف الثاني من القرن العاشر، فإنه ينفعك إن عملتَ به، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سافر الحجاز، وقال الناس لأمير الحاج: إن هذا الشيخ هو غفير الدرب، فإياك أن تخل بواجب حقه. ثم إن ذلك الفقير حصل له مرض أو وقع من فوق جمله، فانكسر ظهره، أو عظم وركه، فلم يزل مريضًا في الذهاب والإياب، ولا تهنىٰ بحج ولا عمرة في رأي الناس، ولاث به بعض المجادلين وقالوا: أيش قام علىٰ فلان يعمل غفير الدرب مع عجزه عن مثل ذلك؟

والجواب: أن مرضه أو كسر عظمه المذكور من أعظم الأدلة علىٰ تحمله البلاء عن الركب بفدي جمالهم وأموالهم بنفسه، فاللائق بالناس مدحه، وأن يشكروا فضله لا اللوث به.

وقد وقع لسيدي عليِّ بن المُنيِّر مثل ذلك في حجه مع الأمير خضر في ستة أربع

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ساقط من «ب».

وستين وتسعمئة، فإن الأمير المذكور كشف رأسه وقبَّل رجلي، وطلب مني الحج معه في تلك السنة، فقلتُ له: لعل الحج لم يكتبه الله لي في هذه السنة، ولكن بحمد الله تعالىٰ يرسل الله لك سيدي عليًّا المُنيِّر يحج معك، وتكون سفرتك مباركة، فإن والده كان غفير الدرب نيفًا وستين سنة، فانشرح الأمير لذلك وأخذه معه، فوقع سيدي عليٌّ في منزلة [...][1] في الطلعة من فوق ظهر جمله، فانكسر عظم وركه، وما طاف إلا في بردة بين اثنين يحملانه، ولم يزل كذلك حتىٰ رجع إلىٰ بلاده، فعلمتُ أنه تحمل بلاء الركب في هذه السنة، وفداهم بنفسه ﷺ. وذكر بعض الناس أن تلك الوقعة إنما هي معارضة من أصحاب النوبة من أولياء الركب، والله أعلم بحقيقة الحال، فاعلم ذلك، وإياك والفضول وحمل الفقراء علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٣) ومما أجبتُ به عن الذي سمع عن زوجته ريبة، فصبر ولم يطلقها، فلاث به بعض الأصحاب وقالوا له: كان من المروءة طلاقها، والنساء سواها كثيرًا، وقد روىٰ البيهقي: «أن رسول الله ﷺ قال: إن من الغيرة التي يحب الله الغيرة في الريبة»[2].

والجواب: أن ما فعله هذا الرجل من عدم الطلاق هو المروءة، لاسيما إن كان له منها أولاد، لأن فيه سترة له ولها ولأهلها من العار، إذ الطلاق عقيب الريبة تحقق المناط عند الناس، ويقولون: لولا رأىٰ الريبة بعينه ما طلَّق.

وأما الجواب عن قوله ﷺ: «إن من الغيرة التي يحب الله الغيرة في الريبة» فلا ينافي ذلك، لأن المراد أنه لا يرضىٰ بذلك في نفسه، وليس المراد به إشاعة ذلك، فافهم، فيحتاج من استُشير في عياله هل يفارقها أو لا إلىٰ نفوذ بصر وبصيرة في أن الفراق أولىٰ أو الإقامة أولىٰ. وأما من ليس عنده بصيرة كغالب الناس ممن عنده نخوة العرب من

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصلين. والظاهر أنها «إكرا».

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٦٥٩) من حديث جابر بن عتيك: «أن نبي الله ﷺ كان يقول: من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة...» وابن ماجه (١٩٩٦) والنسائي (٢٥٥٨)، والبيهقي في السنن (١٤٨٠١).

الجهل بعواقب الأمور في الدنيا والآخرة، فلا ينبغي أن يُستشَار، لأنه ربما أشار بقتل الزوجة ظلمًا وعدوانًا، كما وقع لبعض أصحابنا من الفلاحين، قال له بعض الناس: سمعنا أن ابنتك رأوها مع الراعي لبهائمك. فقال لها والدها: قومي املي الجرة من البحر. وتبعها بدبوس، فأول ما طأطأت رأسها لتملأ الجرة ضربها، فانكبت علىٰ وجهها في البحر فماتت، ثم أتوا بالغطاس وأطلعوها، وجاءت القوابل فأخبرت أنها بكر، وكان والدها هذا صاحب ثروة وأموال كثيرة من نقود وجمال، وبقر وخيل وغنم، فماتت كلُّها، وحوَّل الله عنه النعمة، ثم عمي بعد أشهر.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك أن تشير علىٰ أحد بفراق زوجته، لاسيما إن كان ذلك فضولًا منك، ولم يستشرك فيه صاحب القضية. وإن وقع أنه استشارك، فقل له: شاور غيري في ذلك، وإياك والتعريض بذكرحكاية من وقع له مثل تلك القضية بحضرة من وقع له نظيرها، وتقول: قد أعجبني فلان في طلاق زوجته أول ما سمع عن زوجته الريبة، فإنك تصفر وجهه وتكلحه بين الناس، وذلك حرام.

وقد هجرت السيدة عائشة ﵂ عليًّا ﵁ زمانًا طويلًا، لقوله في قصة الإفك: «يا رسول الله، لن يضيق الله عليك والنساء سواها كثير»[(١)] وقالت: «كيف يشير علىٰ رسول الله ﷺ بفراقي؟» مع أن عليًّا ﵁ لم يقل ذلك إلا ليخفض ما عند رسول الله ﷺ من الكرب بسبب مفارقتها، ولم يقصد بذلك المفارقة الحقيقية، فإنه يعلم شدَّة محبته لها ومحبتها له، وشدَّة كراهة أبي بكر للفراق، فكيف يشير بما فيه كدر [علىٰ] رسول الله ﷺ وعلىٰ عائشة وعلىٰ أبيها وأخوتها؟

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﵀ يقول: إنما قدَّر الله تعالىٰ مثل تلك الإشاعة التي لا حقيقة لها بنص القرآن علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ عياله وألهمه الصبر ووقع ما وقع، ليتأسىٰ به أمته من بعده، وربما حمل عن أمته بتلك الواقعة ما لعلَّه كان يهلكهم حزنًا وغمًّا إذا وقع لهم ريبة في عيالهم الدَّيِّنة الخيرة أمِّ الأولاد التي علقت محبتها في قلوبهم،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠).

كما حمل آدم عن بنيه بأكله من الشجرة، وما وقع له بسببها من الحزن والبكاء ما لعله كان يهلكهم حزنًا وغمًّا، ولم يزل الأكابر في كلِّ عصر يتحملون عن قومهم الشدائد، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك إلا بطريق شرعيٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٤) ومما أجبتُ به عن الشخصين اللذين ذهبا إلىٰ شخص بينه وبين شخص معاداة ليصلحا بينهما، فانقلب أحد الشخصين مع العدو الذي ذهبا إليه، فلاث به الناس وقالوا: أنت ذهبت لتساعد صاحبك والّا تساعد عليه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من انقلب مع العدو المذكور، لأنه ربما أظهر للعدو ما يفهمه منه المحبة له، ليميل إليه ويصغىٰ إلىٰ قوله، كما هو شأن أهل السياسة المؤلِّفين بين الناس، وذلك أن أحد العدوين[1] متىٰ ظهر له من الواسطة تقديم خصمه عليه، صار خصمًا، واحتاجا إلىٰ شخص ثالث ليؤلِّف بينها، فنعم ما فعل هذا الذي أظهر المحبة لمن ذهب إليه ليؤلِّف بينه وبين عدوه! ولو أن رفيقه الآخر كان كامل السياسة، لأظهر الآخر لذلك العدو المحبة، وتقديمه علىٰ من جاء يسعىٰ في التأليف بينه وبينه.

وقد وقع مثل هذا الأمر لصاحبي سيدي محمد بن الأمير[2] حين ذهب هو وأخوه سيدي شرف الدين[3]، ليؤلِّفا بيني وبين عبد الله بن بغداد، فإن سيدي شرف الدين جاء علىٰ عبد الله بالكلية، ومحمد أظهر له أنه يحبه أكثر مني، فمال إلىٰ سيدي محمد أكثر، وجاءني جماعة عبد الله وقالوا: ما رأينا أحدًا يحبُّك مثل سيدي شرف الدين، وأما أخوه

---

(١) بالأصلين: العدو.

(٢) قال سيدي الشعراني: محمد بن الأمير شيخ سوق أمير الجيوش، أشرف علىٰ الموت وهو بمكة، وأوصىٰ فرآني خرجت له من الحائط، وأخذت بيده، وقلت له: قم أنت طيب، فاستقل من ذلك المرض، وذكر أن رؤيته لي كانت يقظة، فإن صح ذلك فهو في غاية الاعتقاد؛ لأن من كان اعتقاده ضعيفًا لا ينهض به أن يراني في اليقظة. «المنن الكبرىٰ» (١/ ٤٣٣).

(٣) قال سيدي الشعراني: وأما شرف الدين فمرض وأنا مسافر بمكة حتىٰ أشرف علىٰ الموت، فرأىٰ نفسه عائمة في الخليج تحت قنطرة باب القوس، وهو يعالج التيار ليخرج من القنطرة، فذكر أني أخذت بيده، فأخرجته من تحت القنطرة، وخلص من ذلك المرض. «المنن الكبرىٰ» (١/ ٤٣٣).

فصار يداري عبد الله، والحال أن كلًّا منهما محب لي، ولكن كان محمد في ذلك الوقت أتم سياسة من أخيه، فاعلم ذلك يا أخي، واشكر فضل من ذهب إلىٰ عدوك يسعىٰ في الصلح بينك وبينه، فصار يوافقه فيما يقول في حقِّك، ولا يجيب عنك بكلمة واحدة، فإنه إنما فعل ذلك ليصطاده إلىٰ طريق التأليف.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا ذهبت إلىٰ خصم صاحبك لتؤلِّف بينهما، فإياك أن تجيء مع صاحبك، فإنه ينفر منك، ولا يسمع لك كلامًا، لأنه يفهم بأنك مع صاحبك بلا ظهور شيء يفهم عنك به ذلك، فكان من العقل أن تجيء علىٰ صاحبك، وتقيم الحجة لخصمه عليه، حتىٰ يظهر له أن الناس علموا أنه مظلوم مع صاحبك، فإن بذلك يحصل سرعة التأليف بينهما، بخلاف ما إذا أجبتَ عن صاحبك، وأقمتَ الحجة علىٰ خصمه، فإنه يطول زمن التنافر بين صاحبك وبينه كما جُرِّب.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يقول: من أراد طول النزاع والعداوة بينه وبين خصمه، فليقم الحجة عليه، ويجعل نفسه مظلومًا وخصمه ظالمًا، فإن الآخر يرىٰ نفسه كذلك مظلومًا وخصمه ظالمًا، فلا يحصل بينهما ائتلاف ما داما كذلك. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سمع قارئًا يقرأ القرآن أو ينشد شعرًا في رسول الله ﷺ أو في الطريق، فقام وتواجد وبكىٰ، ثم ضم ذلك المنشد وقبَّله في فمه وخدِّه، والحال أن القارىء أو المنشد حسن الوجه، فلاث به الحاضرون وحملوه علىٰ أن ذلك بشهوة وأنه منفعل.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مثل هذا الشيخ إلا إذا امتحناه بمنشد آخر مشوَّه الوجه، أو طاعن في السن، فإن سمعه وقام وتواجد وبكىٰ وقبَّله كما قبَّل الأمرد، سلمنا له حاله، وإلا فلنا حينئذٍ الإنكار عليه، عملًا بالاحتياط. ولنا أيضًا حمله علىٰ المحامل الحسنة كما هو اللائق بأحوال الفقراء.

ثم إن هذا المنكر لو تأمل في نفسه، لوجد اللوم علىٰ نفسه هو قبل ذلك الشيخ، فإنه لو جاهد نفسه وصفَّاها من الرذائل، لكان حمل ذلك الشيخ ببادئ الرأي علىٰ أنه ما قبَّله إلا بحقٍّ، تعظيمًا لذلك الكلام الذي طلع من فمه من قرآن أو مدح لرسول الله ﷺ ونحو ذلك، كما هو شأن غالب الفقراء.

فإن قلت: فما الجواب عن هذا المنكِر، لأنه ربما قصد بإنكاره الاحتياط للشيخ، خوفًا أن يتشبه به أحد من غير صدق فيهلك؟ **فالجواب:** تحمله أيضًا علىٰ المحامل الحسنة، هكذا الأمر الذي ذكر في السؤال ونحوه، كأن يفتح لهذا الشيخ ما هو أولىٰ مما صنع فيخفي تواجده، ويترك تقبيل ذلك القارىء مثلًا بفمه ويقبله بقلبه، فعُلِمَ أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من أنكر، ولا علىٰ من سكت إلا بطريق شرعي واضح، والقرائن إحدىٰ الأدلة، لاسيما إن أجمع الحاضرون كلُّهم علىٰ أنه متفعل أو علىٰ أنه صادق، فلا ينبغي مخالفتهم، و«يد الله مع الجماعة»[1] فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أعطىٰ أخاه شيئًا يخيطه له حال مجلس ذكر أو صلاة علىٰ رسول الله ﷺ، فلاث به الحاضرون وقالوا للمعطي: قد أشغلتَه بذلك عن الذكر، وأسأتَ في حقه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الفقير، بل الواجب حمله علىٰ أنه ظنَّ بذلك الخياط أنه لا يشتغل بذلك عن الله عزَّ وجلَّ لكماله وتمكنه، كما أنه لا ينبغي أيضًا المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من أنكر، لأخذه بالاحتياط للخياط ولمن أعطاه ذلك المخيط، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٧) ومما أجبتُ به عن الأمير أو شيخ العرب الذي كان يقول لأصحابه قبل ولايته وأيام عزله: إن توليتُ أحسنتُ إليكم وقضيتُ حوائجكم، ورأيتُم مني خيرًا عظيمًا، فكونوا معي بالقلب في الدعاء إلىٰ الله تعالىٰ أن يوليني الولاية الفلانية. ثم لما ولَّاه الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٦)، وابن حبان (٤٥٧٧)، والحاكم (٣٩٨).

تعالىٰ تلك الولاية، لم ير منه أصحابه خيرًا ولا قضىٰ لهم حاجة، فلاث الناس به وقالوا: هذا من علامة النفاق، وهو من أهل قوله تعالىٰ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] إلىٰ آخر الآيات.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ حمله علىٰ النفاق، لاحتمال أن أصحابه ما شكوا منه إلا لحكمه بالحقِّ عليهم، وعدم مداهنتهم فيه، لاسيما أهله وأقاربه. وأما عدم إحسانه فيجب حمله علىٰ أنه لم يجد في ولايته شيئًا حلالًا يعطيه لهم، فنزههم عن أن يلطِّخ قلوبهم وأبدانهم بشيء من الحرام والشبهات، وقد أنزل الله تعالىٰ في التوراة ما نصُّه: «إذا رأيتُم العالم أو الصالح يذمُّه أهله وجيرانه، فاعلموا أنه أقام العدل فيهم؛ وإذا رأيتُموه يمدحه أهله وجيرانه، فاعلموا أنه داهنهم في الدين». انتهىٰ. وهذا جري علىٰ الغالب، فقد يقيم الأمير أو الداعي إلىٰ الله تعالىٰ العدل في الرعية، ومع ذلك يمدحونه لحسن سياسته وحسن خلقه، وكان عمر بن الخطاب يقول: ما تركت لي كلمة الحق من صديق، أي في العامة، وإلا **فالصديق الحقيقيُّ أعظم أصدقائه من ينصحه في دينه، وينكر عليه إذا خالف طريق الصواب.**

وقد أجبت بذلك عن الولاة الذين صحبناهم من بني بغداد وبني عمر وغيرهم من الكشَّاف[1]، فما منهم أحد إلا وعد الفقراء بشدة الانقياد لهم إذا تولَّىٰ، وقبول شفاعتهم في المظلومين من جماعتهم، ثم إذا تولَّىٰ نسىٰ ذلك كله. وقد تقدم في هذا الباب أن الله تعالىٰ لم يجعل لنفسه أن تكون عبيده معه حال الرخاء مثل ما يكونون معه حال الشدَّة، وإن شيئًا لم يجعله الله تعالىٰ لنفسه، فلا ينبغي لعبد طلبه من الناس، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حكىٰ له بعض تلامذته شيئًا من أخلاق أحد من أقرانه من ورع وزهد وتوكل وغير ذلك مما لا يقدر هو علىٰ المشي عليه، فقال: هذه

---

(١) جمع كاشف، والكاشف: هو من يقوم بالتفتيش علىٰ الأراضي الزراعية.

أمور من جملة التنطعات في الدين، وقد أدركنا من الأشياخ جماعةً لا يصلح أن يكون هذا تلميذًا لهم، ولم يكن أحد منهم يفعل شيئًا من مثل ذلك؛ فلاث به جماعة الشيخ الأول وقالوا: هذا أقلّ من فلان! ولأي شيء لم يكن يقول: هذا ورع لم تبلغه أحوالنا ولا أحوال أمثالنا! ويبجِل به بين أصحابه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ الثاني، ولا علىٰ جماعة الشيخ الأول. أما الشيخ الثاني فلأنه ربما خاف من مدح الشيخ الأول تقوية قلوب الفقراء، فيميلوا إليه بالاعتقاد، ويشركوه مع شيخهم، فلا يصح لهم نفع علىٰ يده ولا يد شيخهم. وربما كان في غاية الاعتقاد في ذلك الشيخ الذي نقلوا عنه الورع والزهد.

وأما الجواب عن جماعة الشيخ الأول، فلأنهم ما تكلموا إلا بحسب مقامهم واعتقادهم في شيخهم، وحجابهم عن مقام الشيخ الثاني.

وقد دخلتُ مرةً علىٰ جماعة من الإخوان، فرأيتُ عندهم شيخًا صحبوه من غير علمي، فقبلتُ رجله بحضرتهم، بقصد تقوية اعتقادهم فيه، فمالوا إليه، فتبدد حالهم بيني وبينه، فاستغفرتُ الله تعالىٰ وتنكرتُ عليهم، وصرتُ أمدح ذلك الشخص، وأتظاهر لهم بأمور يقع فيها العوام، حتىٰ تحولوا إلىٰ ذلك الشيخ بالكلية، لكن بعد تعب شديد، فاعلم ذلك، وإياك والمزاحمة علىٰ كلِّ ما فيه رئاسة علىٰ إخوانك إلا بحقٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أصلي الصلوات الخمس دائمًا تحت الميزاب في الحِجْر، أو خلف المقام، أو في مسجد المدينة المشرفة، أو علىٰ جبل «ق» أو علىٰ سد إسكندر ذي القرنين، أو في الجامع الأبيض برملة لُدّ[1]، أو في بيت المقدس، مع أن جماعة في الزاوية يصلون معه كلَّ صلاة من الخمس في زاويته لا يفارقهم وقتًا واحدًا، فلاث به الناس فـ[بعضهم] قالوا: ربما يكون هذا من الأبدال! وبعضهم يقول: هذا نصَّاب كذَّاب من عادته الكذب والدعاوىٰ التي لا يشهد له بها دليل ولا شيء من أحواله.

---

(١) رملة لد: إحدىٰ مناطق فلسطين، تقع علىٰ الطريق القديمة بين يافا والقدس. والجامع الأبيض -الآتي ذكره- يعود بناؤه للعصر الأموي، وقد تدمر في حرب (١٩٤٨م)، ولم يبق منه الآن غير مأذنة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أصحاب الخطوة، فيصلي في الأمكنة المذكورة بعد صلاته في زاويته أو قبلها. ويُحتمَل أن يكون ممن استحكم فيه الحضور مع الله تعالىٰ في هذه الأماكن لشرفها، أو لعلة موافقة لمزاجه، فبمجرد ما يحرِم يرىٰ روحه في مكان من هذه الأماكن، أو في كلِّها في وقت واحد. ومعلوم أن المدارَ علىٰ حضور الروح، فإذا حضرت في مكان تبعها الجسم ضرورةً. ويقع لي هذا الأمر كثيرًا، حتىٰ إني أضع يدي علىٰ الحجر الأسود، أو علىٰ قبر رسول الله ﷺ حال الصلاة، وتنطوي المسافة بيني وبين ذلك المكان، مع أني واقف مع المصلين في بيتي أو في الزاوية من غير تكلُّف في ذلك.

وسمعتُ سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي وكان من أرباب الأحوال يقول: من أولياء الله تعالىٰ من يطوف المشرق والمغرب وهو نائم علىٰ فراشه أو جالس، ومنهم من يدور المشرق والمغرب بانقلابه من جنب إلىٰ جنب. قال: ومن أهل هذا المقام في زماننا هذا: الشيخ محمد بن عنان والشيخ علي الخواص، وكانا من أصحاب الخطوة في بدايتهما، فكان الشيخ محمد هذا يطوف المشرق والمغرب كلَّ ليلة، ويغزو بلاد الفرنج مع الفقراء كلَّ ليلة طول السنة. وكان الشيخ عليٌّ هذا يصلي الصلاة الخمس في أماكن متعددة كلَّ يوم، فتارة يصلي في الجامع الأبيض برملة لد، وتارة ببيت المقدس، وتارة بمكة، وتارة بالمدينة، وتارة بجبل «ق» أو سد إسكندر، ثم يرجع. ثم لما كمُل حالهما صارا يصليان في هذه الأماكن من غير مشي ولا انقلاب من جنب إلىٰ جنب. انتهىٰ.

وقد أعطاني الله تعالىٰ هذا المقام ليلة السبت، تاسع عشر صفر الخير، سنة خمس وستين وتسعمئة وأنا في التهجد، فكنتُ أجهد أن أشهد نفسي في زاويتي فلا أقدر أخرج من زاويتي بالحِجْر أو من الروضة النبوية، وكنتُ قبل ذلك لم أزل أرىٰ نفسي أصلي تحت النخيل بالعقبة علىٰ ساحل البحر، فلم أزل أقرب كل قليل إلىٰ بدر إلىٰ رابغ[1] إلىٰ الشجرة التي تجاه النازل من باب المصلىٰ حتىٰ دخلت مكة، فله الحمد علىٰ نعمه التي لا تُحصىٰ،

---

(١) رابغ: إحدىٰ محافظات منطقة مكة المكرمة.

وله الحمد علىٰ كل حال. فاعلم ذلك، وسلِّم للفقراء ما يدعونه من المقامات التي تكون للأولياء، وإياك والإنكار، فإن العبد ربما عوقب بحرمان كلِّ مقام أنكره عقوبةً له.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ما ثم إلا كشف حجاب، فربما انكشف حجاب العبد، فرأىٰ نفسه في السماوات مع أهلها، أو مع أهل العرش أو الكرسي، وهو جالس في مكانه لم يبرح، ولولا ذلك ما كانوا يعرفون أسماء الملائكة التي لم يأتِ بها وحي، ولا عرفوا أسماء بوَّابي[1] السماوات. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزعم أن الجن يقرؤون عليه القرآن، ويرد عليهم الغلط واللحن، أو يزعم أنه يسمع الريح أو الرحا أو الطاحون أو الشجر وهم يقرؤون كذلك القرآن بلفظه المعروف عندنا، ولاث به الناس وقالوا: هذا أمر ما سمعنا به إلا في حقِّ الجن فقط. وأما في الريح وما ذكر معه، فلم يبلغنا ذلك عن أحد، ولكن قد كثر الكذب والدعاوىٰ الباطلة في هذا الزمان.

والجواب: أن سماع نطق الجمادات وقع للصحابة ومن بعدهم بالقرآن والذكر[2]، وكذلك الشجرة التي سجدت للتلاوة، كما ورد في الصحيح[3]، ولكن لم يزل

---

(١) بالأصلين: بوابين. والصواب ما أثبتناه.

(٢) كسماع ابن مسعود ﷺ لتسبيح الطعام، أخرج البخاري (٣٥٧٩) من حديث عبد الله قال: «كنا نعدُّ الآيات بركةً، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقل الماء. فقال: اطلبوا فضلة من ماء. فجاءوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حي علىٰ الطهور المبارك، والبركة من الله. فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» وأحمد (٤٣٩٣) وغيرهما.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٤٢٤) من حديث ابن عباس قال: «جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيتني الليلة وأنا نائم كأني كنت أصلي خلف شجرةٍ، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود -قال ابن جريج: قال لي جدك: قال ابن عباس- فقرأ النبي ﷺ سجدةً ثم سجد. قال ابن عباس: فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة» وابن ماجه (١٠٥٣) وابن حبان (٢٧٦٨) والحاكم (٧٩٩) وقال الذهبي: صحيح.

المحجوبون ينكرون علىٰ من رُفِعَ حجابهم في كلِّ عصر. وكان الغزالي يقول: كلام الجمادات والوحوش والطيور وغيرها لا يشبه شيئًا من كلام البشر، ولا يُدْرَكُ إلا بالكشف، لأن حروفه لا تشبه حروفنا، وكذلك كلام الجن يخالفوننا في كلِّ حرف لم تنطبق عليه الشفتان، لأنهم لا يقدرون علىٰ النطق به، كما مر في باب الأجوبة عن الجن[1].

فإن قلتَ: فهل يثاب من سمع قراءة القرآن من الريح والرحا ونحوهما، كما يُثاب إذا سمع القرآن من الإنس؟ **فالجواب:** نعم، إذ لم يرد لنا دليل يمنع من ذلك، وقد قال بعض العارفين: إن كلام الحقِّ تعالىٰ إذا وقع يدخل في أسماع كلِّ شيء خلقه الله من العلويات والسفليات من جميع المكلَّفين، فلا يجهله أحد، وذلك لعدم تحيز كلام الحق تعالىٰ في جهة، حتىٰ الكفار، ولكن ينزل عليهم الحجاب بعد ذلك، كما أنهم أجابوا يوم «ألست بربكم» بالربوبية، ثم كفروا بالله بعد ذلك. انتهىٰ، هكذا قال هذا العارف، ولا يخلو من نظر، فليُتأمَل، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩١) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي يقول: ليس لوليٍّ بعد موته تصريف في الدنيا ولا حَلٌّ ولا ربط، بل هم مشغولون في البرزخ بما هم فيه من نعيم أو غيره، ووجوههم للآخرة، وظهورهم للدنيا، فلا يعرفون من يزورهم، ولا من يهدم قبورهم، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا دليل علىٰ عدم اعتقاد هذا في طائفة الأولياء.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ مثل هذا الفقيه، لأنه فقيه اسمًا لا جسمًا، ولو أنه كان له إلمام بكتب الشريعة، لعرف أن جميع الأموات يدرون من يزورهم ومن يؤذيهم، ولكن لا ينطقون، أو ينطقون ولكن حُجِب أهل الدنيا عن سماع كلامهم رحمةً بالخلق، كما ورد: «لولا أن تدافنوا -أي تموتوا- لسألتُ الله تعالىٰ أن يسمعكم عذاب القبر»[2]. انتهىٰ. ولكن ربما كشف الله تعالىٰ الحجاب عن بعض الأولياء، فسمع كلام الميت

---

(١) لا يوجد في الكتاب باب في الأجوبة عن «الجن» بل ذكر ﷺ في المقدمة أنه أفرد كتابًا خاصًا في الأجوبة عن الجن والملائكة. وهذا يدعم ما ذكرناه في تحقيق اسم الكتاب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧)، وأحمد (١٣٠٨٠).

كما تسمعه البهائم، وذلك إذا أُعطي مقام كتمان الأسرار الذي فيه البهائم، فإن سماعها كلام الميت وعذابه[١] دون الآدميين ليس هو لشرفها عليهم، وإنما ذلك لكونها ليست من عالم التعبير، فكل ولي قدر علىٰ كتم الأسرار، سمع كلام الموتىٰ وعرف أحوالهم.

وقد يعطي الله تعالىٰ وليَّه الكبير كالإمام الشافعي، والإمام الليث، والسيدة نفيسة[٢]، والسيد أحمد البدوي، وأضرابهم مَلَكًا عند قبره يقضي حوائج المتوجهين إليه علىٰ صورته، ويكون بينه وبينه ارتباط يعرف به الزائر وحاجته، وما يفعله معه من الأدب أو سوء الأدب.

ومما وقع لي مع الإمام الشافعي أنني دعيتُ إلىٰ وليمة في الروضة، فرأيتُ قبة الإمام الشافعي وأنا ذاهب، ولم أعطف علىٰ زيارته، فجاءني تلك الليلة في الروضة وقال: أنا عاتب عليك وعلىٰ الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي شيخ الإسلام، وعلىٰ الشيخ نور الدين الشوني في قلة زيارتي، ولو كنتُ أقدر لزرتُكم! ولكن أمر البرزخ أشغلنا عنكم. فقلتُ له: قد زرتمونا هذا الوقت. فقال: هذه زيارة أرواح لا أجساد. انتهىٰ. فلولا أنه عرف مروري علىٰ قبره من بعيد ما عتب عليَّ.

وكذلك مما وقع لي مع السيدة نفيسة أنني زرتُها من عتبة باب ضريحها المكتوب عليه التاريخ، ولم أدخل حرمةً لها من حيثُ إنها حريم علىٰ كلِّ حال، فجاءتني تلك الليلة في المنام وقالت لي: إذا جئتَ لزيارتنا، فادخل واجلس تجاه وجهي، فقد أذنتُ لك. فمن ذلك اليوم وأنا أدخل وأجلس حيثُ أمرتني رضي الله عنها، فلولا علمها بوقوفي علىٰ بابها إما بنفسها، أو علىٰ لسان مَلَك أخبرها، ما جاءتني وأذنت لي.

---

(١) بالأصلين: عذابهم.

(٢) السيدة، المكرمة، الصالحة، ابنة أمير المؤمنين الحسن بن زيد ابن السيد سبط النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنه العلوية، الحسنية، صاحبة المشهد الكبير المعمول بين مصر والقاهرة. تحولت هي من المدينة إلىٰ مصر مع زوجها الشريف إسحاق بن جعفر بن محمد الصادق - فيما قيل - ثم توفيت بمصر، في شهر رمضان، سنة: ٢٠٨هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٠٦).

وكذلك وقع لي مع سيدي عمر بن الفارض أنني وقفتُ علىٰ بابه في وقت الظهيرة، فاستحييتُ أن أدقَّ الباب علىٰ الخادم، فزرتُه من عتبه الباب ورجعتُ، فجاءني إلىٰ الزاوية تلك الليلة وقال لي: اعذرني يا أخي، فإنني ما كنتُ حاضرًا ذلك الوقت، ولكن واحدة بواحدة جزاءً.

وكذلك وقع لي مع سيدي أحمد البدوي أن خليفته الشيخ عبد الكريم ﷫ ورد إلىٰ مصر ولم أعلم به، فأتاني سيدي أحمد البدوي وقال لي: زر خليفتي فقد دخل مصر من البارحة. فقلتُ له: فماذا آخذ له معي من الهدية؟ فقال: تملأ له جرة من الماء تحملها علىٰ ظهرك إليه من ساحل بيلاق. فقلتُ له: سمعًا وطاعة! فأصبحتُ من الفجر، فاشتريتُ له جرةً وملأتُها، وحملتُها علىٰ ظهري إلىٰ زاويته بخط درب الكافوري، فلما أخبرتُه بالواقعة قال: إنني بتُّ الليلة عطشان حين رأيتُ الماء مزبَّلًا. ثم قال: الحمد لله الذي نحن علىٰ بال سيدي أحمد! فانظر ملاحظته لخليفته من طندتا وهو في مصر، فلولا إشرافه علىٰ ما فيه خليفته في مصر ما جاءني وأمرني بزيارته، وأن أهدي إليه جرة من ماء بيلاق.

فعُلِمَ أن حياة الأولياء في قبورهم كحياة الشهداء، بل أولىٰ، لأنهم شهداء المحبة، ومعلوم أنهم أعلىٰ مقامًا عند أهل الكشف من شهداء السيوف، فاعلم ذلك، وسلِّم للأولياء أحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي برز في النصف الثاني من القرن العاشر يأخذ العهد علىٰ المريدين، ويسلِّكهم ويدخلهم الخلوة، ثم يكتب لهم إجازة بالمشيخة قبل زوال رعونات نفوسهم، ثم يقع بينه وبينهم وقفة، فيطلب استعادة إجازته منهم، فيأتي أحدهم بها والشيخ في محفله، ويناديه باسم المجرَّد عن الكنية واللقب والشياخة، ويقول: هذه إجازتك! ويقطعها علىٰ رؤوس الأشهاد، فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: هذا يدل علىٰ جهله بالطريق، ولو كان عنده كشف، لكان عرف من ينكث عهده من مريديه في حياته أو بعد موته، فكان يمتنع من إجازته بالمشيخة، ويحمي أهل الخرقة عن الكلام في عِرْضهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا بمن قطَّع إجازته من المأذون لهم بالمشيخة، لأن الشيخ ربما كان مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا التي يدخلها المحو والإثبات، فنظر الشيخ إليها، فرأىٰ فيها استحقاق هذا التلميذ أن شيخه يجيزه بالمشيخة، فأذن له، ثم تغير ذلك الحال، وأثبت نقصه، ولم يُكشَف للشيخ حال مريده بعد ذلك، فاسترجع منه إجازته رحمةً به، لئلا يكون هو ومريده المذكور من جملة الأئمة المضلِّين عن طريق القوم.

ولا لوم علىٰ المريد في تقطيع إجازة شيخه علىٰ رؤوس الأشهاد، بل ذلك مستحب، ليعلم الناس برجوع شيخه عن إجازته له، خوفًا علىٰ نفسه اللوَّامة أن تلبِّس علىٰ نفسها وتكتم تلك الإجازة إلىٰ موت شيخها، ثم يخرجها للناس طلبًا لانقيادهم له، فنعم ما فعل هذا الشيخ وهذا المريد! **فإن الطريق كلها مبنية علىٰ الجِدِّ والصدق ضد صفات النفس الخبيثة**، فإن من شأنها الكسل والكذب والدعاوىٰ الباطلة. فاعلم ذلك، وإياك أن تتصدر للمشيخة في هذا الزمان، أو تأذن لأحد من المريدين بها إلا إن كان مطمح بصرك اللوح المحفوظ الذي لا محو فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لإخوانه: ادعوا الله تعالىٰ أن يجعل لي أتباعًا ينتسبون إليَّ إلىٰ يوم القيامة، كسيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد ابن الرفاعي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي ونحوهم، فلاث الناس به وقالوا: هذا من علامات الرياء، ولو أن هذا كان مخلصًا في أحواله، لتمنىٰ أنه لا يُنسَب إليه أحد من الفقراء، ولا شيء من أحوال الطريق، كما نُقِلَ عن الإمام الشافعي وغيره، فكانوا يودون أن الناس ينتفعون بعلومهم وآدابهم، ولا يُنسَب شيء من ذلك إليهم، ولكن أين المخلصون اليوم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ في طلب الدعاء أن الله تعالىٰ يجعل له طريقةً وأتباعًا إلىٰ يوم القيامة؛ لأن غايته أن يكون تمنىٰ دوام الخير والتقوىٰ عليه وعلىٰ أتباعه، ليفوز برضا الله تعالىٰ عنه وعن أتباعه، ويبعد عن

مواطن سخطه. ومثل هذا مستحب طلبه بإجماع المسلمين، ولا يجوز حمله على أنه طلب مثل ذلك لحظ النفس، فإن ذلك بعيد عن الأشياخ أن يطلبوه. وقد طلب الأنبياء الذرية الطيبة الشاملة لأولاد الأرواح وأولاد الأصلاب، **والأشياخ على أقدام الرسل في الأخلاق والمقامات وإن تفاوت المقام.**

وقول الإمام مالك: «لو أحب القوم أن يُعرفَوا ما عرفوا» محمول على من يطلب معرفة الناس بمقامه لغرض فاسد.

وقد سألني الأخ الصالح الشيخ بدر الدين العادلي نزيل المدينة المشرَّفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام في سنة أربع وستين وتسعمئة أن أسأل الله له أن يجعل له أتباعًا كأتباع مشايخ اليمن الذين يردون كل سنة في الموسم، فقلتُ له: إذا علم الله تعالى نفع الفقير للفقراء، وقبل ذلك منه، فلا عليه أن ينتسبوا إليه أو لا. فقال: صحيح، ولكن نعمة الظهور قدْر زائد على نعمة الخفاء، فإن الله عالم بالسرائر بلا شك، والشكر على النعمة لا يكمل إلا إذا علم الناس بها، فأتباع الفقير نعمة ظاهرة عليه، بخلاف من لا أتباع له، فإن نعمته باطنه، فلا يظهر لها كمال شكر، لعدم ما يدل على وجودها. انتهى. فسلمتُ له حاله، وقد بنى رباطًا عظيمًا في المدينة للرجال والنساء، ومرادُه أن يكون له فيه سماط للمقيمين، فالله تعالى يعطيه ما يؤمله من خيري الدنيا والآخرة، آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٤) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي أرسل وراءه الفقير، فوعده بالمجيء في وقت معين، فصار الفقير ينتظره، فلم يحضره وقدَّم الذهاب إلى الباشاه مثلًا، فلاث به أصحاب الفقير وقالوا: كان الأولى إجابة دعاء الفقير، قيامًا بناموس أهل الله تعالى، ولأنه دعاه أولًا قبل الباشاه، فكان أحق بالإجابة، نظير ما قالوه في إجابة الوليمة، بجامع وجوب الحضور فيها، ولكن أين الذي يعرف مقدار الفقراء في هذا الزمان؟! وقد قال أشياخ الطريق: أقلُّ ما يكون من حرمة الفقير أن تجعل بدايته نهاية الأمير في التعظيم له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الأمير في تقديمه الذهاب إلىٰ الباشاه علىٰ الذهاب إلىٰ الفقير، فقد تكون حرمة الفقير عنده أعظم من حرمة الأمير، ولكن قدَّم إجابة دعوة الأمير الذي هو أعلىٰ منه، لما يخشىٰ من ضرره له، بخلاف الفقير، فإن المعهود منه حسن الخلق، وعدم الرعونات، وعدم السعي في ضرر أحد بوجه من الوجوه.

وأيضًا فإن سلطان الولاة وتصريفهم إنما هو في هذه الدار، بخلاف الفقراء، فإن محلَّ تصريفهم وظهور مقامهم إنما هو الدار الآخرة. فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ من قدَّم عليك أميرًا في التعظيم، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرد من أتاه من المريدين يطلب أخذه العهد عليه بأن يتوب من كلِّ ذنب يعلمه الله تعالىٰ، فلاث به المتشرِّعون وقالوا: كيف يرد من جاء تائبًا؟! هذا خلاف الشرع! وصاحبه من جملة قطَّاع الطريق عن الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بمجرد رده المريد عن أن يأخذ عليه العهد، لاحتمال أن يكون المانع له من ذلك رؤية الحقارة في نفسه، وشهود عصيانه، وكثرة مخالفاته من غير توبة صحيحة، فاستحيا من الله تعالىٰ أن يتصدر لأخذ العهد علىٰ غيره بالتوبة، لكونه ليس بأهل لذلك عادة، ولم يبلغ إلىٰ حد يشهد به وجوب الأمر بالمعروف عليه، ولو كان هو مرتكب ذلك المنكر، كما هو مقتضىٰ الشريعة.

ويُحتمَل أيضًا أنه ترك أخذ العهد علىٰ ذلك المريد شفقةً عليه، خوفًا أن يكون سبق في علم الله نقضه ذلك العهد، فيصير عليه -أي علىٰ المريد- بأخذه العهد معصيتان: المعصية التي وقع فيها، ومعصية نقضه عهد الله تعالىٰ، ولو أنه لم يأخذ عليه عهدًا، لكان عليه إثم معصية واحدة.

وقد دخل عطاء السُّلَمِي علىٰ جار له محتضر، وكان ذلك الجار مسرفًا علىٰ نفسه، فقال له عطاء: تب إلىٰ الله عزَّ وجلَّ قبل موتك، لتموت تائبًا؛ فإذا بالهاتف من ركن البيت يقول: إن كانت توبته مثل توبتك تنقضها كل يوم وليلة، فهذه توبة محلولة لا

تصلح للقبول. فغشي علىٰ عطاء من ذلك. انتهىٰ[١].

وقد تقدم في هذا الكتاب أن حكمة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢] عقب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلىٰ آخر الآية هو كون النساء طلبن المعاهدة علىٰ شيء ليس في يدهنَّ، فإن خلق الأعمال في المستقبل إلىٰ الله تعالىٰ لا إلىٰ العبد، وليس علىٰ العبد إلا أن يتوب كلما وقع في الذنب، مع العزم في نفسه أنه لا يعود إلىٰ مثله. انتهىٰ[٢].

وكل من سلك الطريق عرف أنه لا أتعب من قلب الشيخ الذي له مريدون، فإنه مُطالَب بأن يستخرجهم من أفواه الشياطين ليلًا ونهارًا، فما ثم حفظ لغالب المريدين، بل أحدهم يقع في المخالفات ليلًا ونهارًا، فجهاد الشيخ في الشياطين دائم ليلًا ونهارًا تارةً من جهة نفسه، وتارةً من جهة مريديه.

وقد خبرتُ أنا هذا الباب أشدَّ خبر عن المريدين الذين دخلوا في عهد تربيتي، وخفتُ عليهم من إبليس، فإني قاسيتُ منهم تعبًا لا يعادله تعب! فلم أسكنهم علىٰ باب داري لتفضيلهم علىٰ الذين في الزاوية، وإنما ذلك رحمة بهم، رجاء أن الله تعالىٰ ينظر إلىٰ من كان علىٰ باب داري [بالرحمة علىٰ جاري عوائد فضله، وأنا إلىٰ الآن لم أمر عليهم وإن كانوا علىٰ باب داري] لكون الشيطان علىٰ باب داري لم يزل يتحرش بهم لا يغفل عنهم ساعة، ولما يبلغ[٣] أحدهم في الذكر المقام الذي يُحفَظ به العبد من الشيطان، ثم الداهية العظمىٰ أن يُرمَىٰ أحدُهم بفاحشة، فإني أذوب أسفًا عليه، وأشاركه في التأثير الذي حصل له من كلام الناس [في عِرْضه، وازدرائهم له، فأنا ولو قُدِّر أني صديق إبليس فيما أطيعه][٤] فيه من المخالفات، فأنا أعدىٰ عدو له من جهة تخويفي لأولئك المريدين

(١) تقدمت مثل هذه الحكاية عن مالك بن دينار، انظر الجواب (٩٩).

(٢) انظر الجواب (١٣٧).

(٣) بالأصلين: بلغ.

(٤) ساقط من «ب».



بالآيات والآثار ليلًا ونهارًا، فيقول: مادام هذا حيًا، فأنا لا أقدر على الوصول إلىٰ أحد منهم.وقد قال شخص مرة: أنا لا حاجة لي بحفظ فلان لي؛ فوقع تلك الليلة في تهمة بفاحشة، وخرج من الزاوية، **فيا شقاوة من خرج من تحت جناح مربيه!**

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الشيخ الذي يرد من يطلب منه أن يأخذ عليه العهد إلا بطريق شرعي، فإنه لا لوم علىٰ من يحتاط لنفسه قبل أن يحتاط لغيره، وإنما ورد اللوم فيمن يأمر غيره بالخير وينسىٰ نفسه، وإن كان كلٌّ منهما واجبًا علىٰ العبد، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: قيام الليل واجب علىٰ سبيل فرض الكفاية أو العين، قيامًا بشعار الموكب الإلهيِّ كلَّ ليلة حين يبقىٰ من الليل الثلث، ويقول الله تعالىٰ: «هل من سائل؟ هل من مبتلىٰ؟»[1] إلىٰ آخر ما ورد، فلاث به المتشرِّعون وقالوا: هذا مذهب لم يبلغنا عن أحد من السلف أو الخلف أنه قال به. إنما قالوا: قيام الليل مستحب في حق الأمة، وواجب في حق رسول الله ﷺ علىٰ الأرجح.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قال ذلك باجتهاد، قياسًا علىٰ ما قالوه في صلاة الجماعة من أنها فرض عين أو فرض كفاية، عملًا بمرتبتي الشريعة من تخفيف وتشديد، وكما أن شعار الدين يذهب بترك الناس كلِّهم حضور صلاة الجماعة والجمعة، فكذلك يذهب شعار الدين في دولة الباطن حين يقول الله تعالىٰ: هل من سائل فأبلغه سؤاله؟ هل من مبتلي فأعافيه؟ فلا يجيبه أحد، لعدم حضورهم كلهم حضرته فتأمل. وإذا تعارض مع المكلف نقلان فمن الحزم أن يأخذ بأحوطهما وأكثرهما تعظيمًا لله تعالىٰ، ولاشك أن الذي يرىٰ وجوب حضور الموكب الإلهيِّ كلَّ ليلة أكثر تعظيمًا لله تعالىٰ ممن يرىٰ ذلك تطوعًا إن شاء حضر، وإن شاء لم يحضر. والمسألة مبسوطة في كتب أئمة المذاهب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة،وابن حبان (٩٢١).

(٩٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يكشف له عن نقائص أصحابه التي يفعلونها في قعر بيوتهم، ويحجبه عن أعمالهم الصالحة التي يفعلونها في قعر بيوتهم، فلاث به بعض الفقراء وقالوا: لو أن هذا عكس الأمر لكان أولىٰ، فإن الاطلاع علىٰ نقائص الناس منهي عنه، لاسيما إذا كان وصل إليه بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، فإنه كشف شيطاني أجمع القوم علىٰ وجوب التوبة منه إذا وقع من غير سؤال، فكيف إذا كان بسؤال؟! وأيضًا فإن من لازمه غالبًا احتقار كل من اطلع هذا علىٰ نقائصه، فيريد أن يجعله في المقام كالذي لم يطلع له علىٰ نقيصة، فلا يقدر، فلو أنه طلب الاطلاع علىٰ كمالات الناس لأفلح، وكان كشفًا مَلَكيًّا يرضاه الله تعالىٰ ورسوله، لكونه يفتح للعبد تعظيم حرمات المؤمنين، فيريد أن يحتقر صاحبه من اطلع علىٰ كماله فلا يقدر.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أنه ما طلب الاطلاع علىٰ نقائص أصحابه إلا ليرشدهم إلىٰ التوبة منها، ويذكر لهم عظمة من خالفوه سبحانه وتعالىٰ، ليأخذوا في العزم علىٰ أنهم لا يعودون إلىٰ مثل ذلك.

وأما قول المعترض: «إن من لازم الاطلاع علىٰ نقائص إنسان احتقاره» فهذا لا يكون في الأشياخ، إنما هو من شأن العوام، **فإن نظر الأشياخ دائمًا إنما هو إلىٰ التقدير الإلهيِّ الذي لا يقدر أحدٌ علىٰ ردِّه**، فهم عاذرون الخلق باطنًا تسليمًا للأقدار، معترضون عليهم ظاهرًا، قيامًا بواجب حقِّ الشريعة من غير احتقار لأحد من العصاة. وإن وقع منهم احتقار فهو من حيثُ أعمالُهم لا من حيثُ ذواتُهم.

وأما قول المعترض: «إن هذا الشيخ لو عكس الأمر، فسأل الله الاطلاع علىٰ كمالات الخلق لكان أولىٰ، لأن ذلك يطلعه علىٰ كمالات المؤمنين فيعظمهم ويعطيهم حقهم» فهو اعتراض غير سديد، لاحتمال أنه قصد بحجابه عن معرفة أعمال إخوانه الصالحة عدم إخراجها من ديوان السر إلىٰ ديوان العلانية، فيفوت إخوانه تضعيف الأجر الوارد في عمل السرِّ، وذلك من السوء في حقِّهم وإن كان الإخوان لم يقصدوا إظهار العمل، إذ لو اعتنىٰ أحدهم بإرشاد الشارع له إلىٰ ترجيح عمل السرِّ، لسأل الله تعالىٰ أن لا

يطلع أحدًا علىٰ عملهم، لا من طريق الظاهر ولا من طريق الكشف، فكان يفعل معهم ذلك، ولا يطلع أحدًا علىٰ عملهم من الجهتين المذكورتين، فضاعف له الأجر سبعين ضعفًا وأكثر كما ورد(١)، فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ من يسعىٰ في تطهير أصحابه بإرشادهم إلىٰ طريق الخلاص من الذنوب، ولا علىٰ من سعىٰ في عدم إخراج أعمالهم الصالحة من ديوان السرِّ إلىٰ ديوان العلانية، بل ذلك مطلوب من الأشياخ، لكمال شفقتهم علىٰ الأمة، ومن اعترض عليهم فهو جاهل بما قلناه، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يشفع عند أمير وقع بينه وبينه وقفة، فانقطع الأمير عن التردد إليه، وترك الشيخ الشفاعة عنده، لعدم المحل القابل لذلك، فلاث به الناس وقالوا للشيخ: اذهب أنت إليه وصالحه، فإن الفقراء قد خرجوا عن رعونات النفوس، بخلاف الأمراء وأبناء الدنيا؛ فأبىٰ، فقالوا له: هذا إنما هو لمصالح الناس لا لأجلكم أنتم.

والجواب: أن عدم بداءة الشيخ لذلك الأمير أولىٰ، لأن أبناء الدنيا في دائرة، والفقراء في دائرة، فلا يحملون الشيخ إلا علىٰ المحامل الناقصة والعلل الفاسدة، لعدم دخولهم إلىٰ مقام الشيخ وكمال زهده في الدنيا وجاهها، ومطاعمها وملابسها، ومعلوم أن من لازم حملهم له علىٰ الأغراض الفاسدة سقوطَ حرمته من قلوبهم، وإذا سقطت حرمته، كذلك يبطل انقيادهم له، وقبول شفاعاته، فكما أن للملوك حرمة، كذلك للفقراء حرمة.

وقد مشيتُ مرة إلىٰ الأمير لأطيب خاطره من كلام بلغه عني، فطلع في رجلي خرَّاج كبير، فقاسيتُ منه شدة، كلُّ ذلك لعدم استحقاق ذلك الأمير المشي إليه، والعادة أن

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣٩٤) من حديث أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الإبقاء علىٰ العمل أشد من العمل، إن الرجل ليعمل العمل فَيكتبُ له عملٌ صالحٌ معمولٌ به في السر يُضعَّفُ أجره سبعين ضعفًا، فلا يزال به الشيطان حتىٰ يَذكُرُه للناس ويعلنه فتكتب علانيته، ويُمحىٰ بضعيف أجره كله، ثم لا يزال به الشيطان حتىٰ يذكره للناس الثانية، ويُحبُ أن يُذكرَ ويُحمدَ عليه فَيُمحىٰ من العلانية ويُكتبَ رياء، فاتقىٰ الله امرؤٌ صان دينه، وإن الرياء شرك» قال البيهقي: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين والله أعلم.

الأمراء هم الذين يلجؤون إلىٰ الفقراء في الشدائد لا العكس، وقالوا في مثلهم السائر: «الفقراء كبيت الراحة لا يأتيهم إلا محزوق[1]».

ثم إن قُدِّرَ أن أحدًا من الفقراء ذهب إلىٰ بيت أمير، فذلك من باب أدب الفقير مع الله الذي ولَّاه، لا لعلة أخرىٰ نفسانية، فافهم، وإذا تعارض عندك أمر فيه تعظيم للفقير فقدِّمه علىٰ ما فيه تعظيم الأمير، والحمد لله رب العالمين.

(٩٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ يدعو لأصحابه في أوقات الإجابة، وكلما دعا لأحدهم ازدادت عليهم المصائب، فلاث الناس به وقالوا: لو ترك هذا الدعاء لأصحابه لكان أولىٰ.

والجواب: أن مثل هذا القول جهل من قائله، بل الدعاء مطلوب شرعًا، فإن كان ذلك الأمر النازل علىٰ أصحاب الفقير معلَّقًا علىٰ الدعاء، حفظه الله منه أو خففه عليه؛ وإن كان مبرمًا، فقد فعل العبد ما كُلِّفَ وأظهر مقام العبودية والذل والافتقار لله عزَّ وجلَّ.

وقد سألتُ الله تعالىٰ مرة أن يلهمني الدعاء لأصحابي كلما قرب نزول البلاء بهم، فأجابني بحمد الله، فما ألهمتُ الدعاء لأحد منهم في ليلة إلا ونزل عليه البلاء ثاني ليلة أو ثالثها، ليخفف عنه البلاء بذلك الدعاء، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]. وإن وقع أن البلاء لم يخفف، فقد فعل العبد ما كُلِّف به من الأدب مع الله تعالىٰ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريدي شيخ آخر: تعالوا خذوا عني الطريق، فإن شيخكم متكبر ولا يصلح للطريق! فلاث به الناس وقالوا: هذا من الحسد الظاهر! وقد قالوا: المريد لمن يريد، فلو أن أصحابه أرادوك لكانوا قدَّموك عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه لا يخلو إما أن يقول ما قال كشفًا أو ظنًّا، وكلاهما يجوز له النصح به وإن كان ذلك الشيخ الذي قال لتلامذته[2]: خذوا

(١) حزَقه البولُ: ضايقه حتَّىٰ احتاج أن يبول.

(٢) أي وإن كان الشيخ الثاني الذي قال الشيخ الأول لتلامذته: خذوا عني؛ أعلم من الشيخ الأول.

عني فإني أعلم منه بالطريق في نفس الأمر، كما أن الشيخ الثاني قد يكون صادقًا فيما قال في حق الشيخ الأول، وقد قال الأشياخ: من علامة الشيخ الذي يصلح لتربية المريدين أن يكون متواضعًا بحيث تطيب نفسه أن يأخذ عن أحد من أقرانه. فإن أردتَ يا أخي أن تعلم استحقاق شيخ للطريق، فامتحنه بهذه الميزان، كأن تقول له: فلان قال عنكم أنك لم تذق من الطريق شيئًا، ولو أنك أخذتَ عنه لعرَّفك طعم الطريق، فإن ذهب إليه وأخذ عنه بانشراح صدر، فهو صادق في المشيخة، وإن أبىٰ أو عبس وجهه فهو كاذب. انتهىٰ.

وقد يكون قول الشيخ الثاني في حق الأول ليس هو احتقارًا له، وإنما هو ليجد في العمل زيادةً علىٰ ما هو عليه، ويكون قوله لأصحابه: «تعالوا خذوا عني» إنما هو لئلا يشتغل بهم عن ربِّه، فأراد أن يحمل تربيتهم عنه، ويخلصه لربِّه عزَّ وجلَّ وحده. وإن قُدِّر أنهم يشغلون الشيخ الثاني أيضًا عن ربِّه، جعلنا ذلك من باب إيثاره أخاه علىٰ نفسه في تحمل ما يشغله عن ربه، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقر مشايخ الأحمدية والبرهانية والرفاعية وغيرهم علىٰ أخذ العهد، وعلىٰ إذنهم لتلامذتهم بالمشيخة والجلوس علىٰ السجادة، مع أنهم في غاية الجهل بقواعد الطريق، ولاث به الفقراء وقالوا له: هذا غش منك لهؤلاء الفقراء، فإن شيخهم نفسه لا يصلح تلميذًا، بدليل خصامه لأهل حرفته كلَّ قليل من جهة المشيخة، وترافعه هو وإياهم إلىٰ الحكَّام وغرامة الفلوس، وليس ذلك من شأن من شم رائحة طريق القوم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي أقرَّ مشايخ الخرق علىٰ دعواهم المشيخة، مع عدم مشيهم علىٰ قواعد الصوفية، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن شيخ تلك الخرقة الأصلي أنه يربي أولاده بعد موته إلىٰ يوم القيامة، فيكون العمل في مشيخة المريدين عليه، والمشايخ الظاهرون بأخذ العهد بعد موته ليس المعوَّل عليهم، وإنما لهم من المشيخة الاسم فقط. وقد ثبت عن سيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي أن أحدهم كان يقول: أعطاني الله تعالىٰ الأخذ بيد مريدي إذا زاغ

عن الطريق، وإنقاذه من أسباب الهلاك ولو كان بيني وبينه مسيرة ألف عام.

وقد رأيتُ مرةً فقيرًا يمدح في الشارع ومعه دف يضرب به، فمدح سيدي إبراهيم الدسوقي، ثم قال: احضر يا سيدي إبراهيم! فما فرغ من كلامه إلا وسيدي إبراهيم واقف علىٰ يمينه جهارًا، وعلىٰ سيدي إبراهيم حلة خضراء، ورأيتُه بعيني. ومثل هؤلاء الفقراء يُسلَّم لهم حالهم إذا ادَّعوا المشيخة، ثم إذا رأينا أحدًا منهم خالف الشريعة، أنكرنا عليه وجوبًا، ولا نكتفي بأخذ شيخه الأصلي بيده، فقد لا يسقِط أخذُه بيده أو نهيُه مريده عن المنكرِ الحرجَ عنا، كما قالوا في الميت الذي غسلته الملائكة أو الحقُّ.

فعليك يا أخي بالتسليم للفقراء، مع مراعاة ميزان الشريعة وتقديمها علىٰ التسليم، **إذ التسليم لا يكون إلا فيما لم يظهر لنا مخالفته للشريعة**. أما ما ظهر لنا مخالفته لها، فالواجب علينا إنكاره، ولو لخليفة ذلك الشيخ الأكبر، كخليفة سيدي أحمد البدوي، وخليفة سيدي أحمد ابن الرفاعي وأضرابهما، وكلُّ من ادعىٰ أن له حالة بينه وبين الله خلاف ما جاءت به الشريعة فهو زنديق يجب علىٰ كلِّ مسلم تكذيبه، وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: من لم يحبس نفسه في قمقم الشريعة ويختم عليها بخاتم الحقيقة، فليس هو منا، ولا من أولادنا، ونحن بريئون منه في الدنيا والآخرة. انتهىٰ.

فسلِّم يا أخي لمشايخ الأحمدية والبرهانية مشيختهم علىٰ نظامهم، وكلما رأيتَ منهم مخالفة للشريعة، فنبههم عليها، ولا تعارضهم في مشيختهم، يطول علاجك معهم ولا يرجعون لك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية أو الحرفة إذا وقع علىٰ يديه قسمة دراهم أو طعام مثلًا، وفاضل بين الفقراء، ورجَّح بعضهم علىٰ بعض، فلاث به بعضهم وقالوا: الشيخ ما يرجح إلا الذي يخاف منه.

والجواب: أنه يجب حمل الشيخ علىٰ أنه ما رجَّح من رجَّح إلا بحق، أو دفع صائل، كأن يكون أفقر الجماعة وأكثرهم عيالًا، أو يرافع في عمال الوقف ويفتح عليهم باب

الأكل والبلص[1] من الحكّام، ويعملون حساب وقف تلك الزاوية مثلاً بالمقلوب، فلا يسع الجابي والناظر إلا أن يحسبوا ذلك من جوامك[2] الفقراء وعوائدهم، لأنه دفع صائل عنهم، فهو وإن نقص من معلومهم هو أخف من الذي يأخذه المفتش وأعوانه.

فاعلم ذلك، وإياك ونسبة أشياخ الطريق إلىٰ أنهم ما أعطوا ذلك المرافع إلا خوفًا منه أن يرافع فيهم، لأن الأشياخ منزهون عن أخذ ما لا يحل لهم حتىٰ يبرطلوا[3] عليه من يخافون منه أن يرافع فيهم، وإنما خوفهم علىٰ[4] أصحابهم أن يفتح ذلك المرافع للحكام بابًا ينصلهم منه، فرجع خوف الشيخ وترجيحه ذلك المرافع إلىٰ الخوف علىٰ غيره لا علىٰ نفسه، إذ هو كالسلطان في مال بيت المال لا يتصرف فيه إلا بالمعروف. ومعلوم أن ترجيح المرافع وإعطاءه زائدًا علىٰ إخوانه أصلح لهم لما قررناه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسارر إخوانه بذكر زلّات أكابر العلماء والصالحين ويتحاشىٰ من ذكرها في الملأ، فلاث به بعض المتشرعين وقالوا: هذا من الغيبة المحرمة، وذلك لا يليق بأشياخ الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما حكىٰ مثل ذلك لإخوانه ليحذرهم من الوقوع في مثل ما وقع فيه ذلك العالم أو الصالح، وكأن لسان حاله يقول: إذا كان أكابرنا صار أحدُهم يقع فيما لا ينبغي، فكيف بأمثالنا من الأصاغر؟! فالواجب علىٰ أحدنا أن يأخذ حذره، ويبكي علىٰ نفسه. ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ أنه قصد بذكر زلات العلماء التشفي للنفس وإظهار نقائصهم لغرض نفساني، فإن ذلك بعيد وقوعه من الأشياخ. وقد كان سيدي الشيخ عليٌّ الخوّاص يقول كثيرًا: إذا

---

(١) تقدم بيان معناه في الحاشية.

(٢) الجوامك: جمع جامكية، وهي الراتب المقرر لمن تنطبق عليه شروط الوقف.

(٣) برطل فلانٌ القاضي: رَشاهُ.

(٤) بالأصلين: عن.

كان الحلو ضرب مقارع في هذا الزمان، فكيف بالحامض؟! يعني إذا كان البلاء والنقص دخل علىٰ أكابرنا، فكيف بآحاد الناس؟!

فاعلم ذلك، وإياك وحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل السيئة وشره النفس وعدم الورع إذا رأيتَ أحدهم سافر إلىٰ كاشف أو شيخ عرب مثلًا، وأظهر أنه إنما سافر إلىٰ زيارة ذلك الوليِّ الذي في بلاده، كسيدي أحمد البدويِّ، أو سيدي إبراهيم الدسوقيِّ ﷺ ويقول: ما سافر هذا لسيدي أحمد أو سيدي إبراهيم إلا ليعلم به ابن بغداد أو شيخ البحيرة، فيدعوه إلىٰ الاجتماع به، وأنه جعل زيارة الأولياء شبكة يصطاد بها الدنيا بحسن عبارة، فإنك تتحمل بذلك أوزارهم، فقد يكون أحدهم حرَّر نيته لزيارة ذلك الولي، وأراد الاجتماع بذلك الشيخ العرب ليعظه ويوصيه بالرعية، ولا يتكلم في حق أحد بسوء إلا علىٰ وجه التحذير، والناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل بعض الولاة إلىٰ زاويته مالًا ليفرقه علىٰ جماعة الزاوية فرده، فلاث به الفقراء وقالوا: لو أخذه وفرَّقه علىٰ أصحاب الحوائج والضرورات ولم يتناول هو منه شيئًا، كان أكمل وأسلم من الآفات التي تطرق من تميَّز عن أقرانه، وبالغ الناس في تعظيمه لأجل رده تلك الفلوس.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ الأشياخ فيما يفعلون لأنهم في مقام الاجتهاد أو الاحتياط لدينهم، فلو أن أحدهم ترجَّح عنده الأخذ، لكان أخذ، ولكن ترجح عنده الرد فرد، عملًا بالاحتياط لدينه ودين إخوانه، والسلامة مقدمة علىٰ الغنيمة، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك من الاعتراض علىٰ الأشياخ إلا بدليل واضح لا خفاء فيه ولا يحتمل التأويل، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ أموال الولاة ويفرِّقها علىٰ إخوانه، ويأخذ منها لنفسه وأولاده، ولاث به الفقراء الذين ردوا ولم يأخذوا وقالوا: كان الأولىٰ لهذا رد هذه الفلوس، حفظًا لدينه ودين أصحابه.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا الشيخ، بل يجب حمله علىٰ أنه ما أخذ ذلك المال وفرَّقه وأخذ لنفسه منه إلا لاعتقاده حله، أو لعلمه بحاجته وحاجة أصحابه إلىٰ مثله، فإن الأموال التي بأيدي الخلائق الآن تكاد أن تكون علىٰ حد سواء! لعدم تورع التجار والمحترفين عن أخذ مال من يشتري منهم من الظلمة وأعوانهم، فحكم ما يأخذه الإنسان من الباشاه مثلًا حكم ما يأخذه من شيخ الزاوية عند من حقق النظر!

وربما يعرف الشيخ من جماعته تكدرهم إذا رد عنهم تلك الفلوس، أو ترك أورادهم في الزاوية غضبًا علىٰ الشيخ، وقالوا له بلسان الحال أو بلسان المقال: اكفنا وأولادنا وعيالنا ونحن نواظب علىٰ الأوراد، ونعطيك فيما تطلب منا. وقد كان ﷺ هينًا لينًا مع أصحابه، وكان إذا تكلَّموا في أمور الدنيا تكلَّم معهم، وإن تكلموا في أمر الآخرة تكلم معهم، وكان لا يزجرهم عن مباح، وكلُّ ما لم يثبت تحريمه من المال فالأصل فيه الإباحة. وكان ﷺ كثيرًا ما يقول لأصحابه إذا رأىٰ عندهم مزاحمة علىٰ المال المباح: «ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»[1] فيرد الأمر إلىٰ عزمهم ومروءتهم.

فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، يحمك الله من الأعمال السيئة، ولا تحملهم علىٰ السوء، يقيض الله من يحملك علىٰ السوء، وربما يحصل إثم ذلك عليك، لتعاطيك الأسباب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: من وقع في ذنب لم يتقدم له فعله، خَدَش دينه ولم يعد إلىٰ حالته الأولىٰ في الطهارة، ولو عبد الله تعالىٰ عبادة الثقلين؛ فلاث به بعض المتشرعين وقالوا له: قد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ومعلوم أن «التوَّاب» [هو كثير التوبة علىٰ العباد، ولا يكون كثير التوبة إلا لكثرة وقوعهم في الذنوب، وقد وعدهم بالمحبة علىٰ][2] التوبة والطهارة

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) ساقط من «ب».

من الذنوب، وقال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]، وأجمع أهل السنة والجماعة علىٰ قبول التوبة بعد النقض ولو عاد في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة، فكيف لا يعود إلىٰ حاله الأول؟!

والجواب: أن محبة الله تعالىٰ لمن لم يقع في معصيته أعظم ممن وقع وتاب، بدليل عصمة الأنبياء، وحفظ الأولياء من الذنوب، وقبول التوبة لا ينافي نقص العاصي، فيقبل توبته مع نقصه في المقام عمن لم يذنب أصلًا. وأيضًا فإن قاعدة التشبيه أن لا يكون المشبَّه مثل المشبَّه به من كل وجه، فإنه قال في الحديث: «كمن لا ذنب له» أي في عدم المؤاخذة، ولكن زاد عليه الذي لا ذنب له برفع الدرجات.

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن تلك الزلة التي وقع فيها الفقير بعد أن لم يكن تقدَّم له وقوعٌ فيها، صارت له كالخميرة للعجين، أو كالمادة للمعاصي، أو كالباب الذي تنحدر منه المعاصي عليه ولا يستطيع ردها عنه، بخلافه قبل ذلك حين كان الباب مغلقًا مدربسًا بدرباس[2] لا يمكن أن يخرج له منه ذنب.

فليحذر المريد من وقوعه في الذنب الواحد إلىٰ أن يموت، فقد علَّموا عليه في ديوان السماء وصار به من أهل الذنوب بيقين، ثم إن من أعظم ما يقع ممن تكرر منه الذنب الاستهانة به كلما وقع فيه، فيريد أن يستقبحه إذا وقع فيه مثل ما استقبحه أول وقوعه، فلا يصح له ذلك.

[التحذير من الركون إلى عدم مؤاخذة المشايخ للمريد بالذنب]

وليحذر من شيخه إذا لم يعاقبه علىٰ ذلك الذنب علىٰ الفور، وأظهر له التبسم وعدم المبالاة به، فإنه استدراج له. وليعلم أن الأشياخ يحرم عليهم التجاوز عن زلَّات المريدين، وإنما يؤخرون عقوبة المريد بغضًا فيه، تبعًا لبغض الحق تعالىٰ لذلك المريد،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الدرباس: الترباس، وهو مزلاج من حديد يُغلق به الباب من الداخل.

ولو أنهم علموا من الحقِّ رضاه عن ذلك المريد، لآخذوه بالذنب علىٰ الفور، وردوه إلىٰ حضرة ربه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحذروا من تأخير العقوبة من الله إذا أذنبتم، فإن ذلك غرور واستدراج، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صنف شخص من أقرانه أو معاصريه رسالة ذكر فيها شيئًا من آداب القوم، فقالوا له: لم لا تطالع في كتاب فلان الذي صنفه في آداب القوم؟ فقال: نحن لا نتقيد بمثل ذلك! فلاث به أصحاب المؤلِّف وقالوا له: إن هذا الكتاب كله أخلاق نبوية، فكيف يقول: نحن لا نتقيد به؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يقول ما ذكر هضمًا لنفسه، أو اعترافًا بالعجز عن التقيد به لنقصه وقلة ورعه، لا احتقارًا لذلك [الذي] صنَّف تلك الرسالة، كما قد يتبادر إلىٰ أذهان الناس، اعتمادًا علىٰ القرائن، وعملًا بما عليه غالب الأقران من عدم إذعانهم لمعاصريهم، وعدم إظهارهم الحاجة إلىٰ مطالعة كلامهم.

وقد وقع مثل ذلك لأخي الشيخ يوسف الطهواي حين ذكروا له رسالة الأخلاق التي ألفتُها في آداب القوم، فقال مثل ما قال هذا الشيخ الثاني، وأجبتُ عنه بمثل هذا الجواب، وإن كان الأولىٰ له ولنا عدم التلفظ بكلام يظهر به للناس رائحة حسد أو كبر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون سهره في مجلس الذكر أو القرآن أو الأوراد دون سهر تلامذته إما بنعاس في المجلس، وإما بانصراف إلىٰ بيته أو خلوته، ولاث به بعض ضعفاء المريدين ولو في أنفسهم، ورأوا نفوسهم أصبر علىٰ العبادة من شيخهم.

والجواب: أنه لا ينبغي للمريدين المذكورين اللوث بشيخهم لأجل نعاسه أو تناعسه أو انصرافه عنهم، لأنه ربما كان الباعث له علىٰ الانصراف الرحمة للمريدين والشفقة عليهم، خوفًا عليهم أن يسأموا من العبادة، ويصير أحدهم يود الانصراف، ولكن يراعي في ذلك خاطر الشيخ، فتكون عبادته خِدَاجًا لا إخلاص فيها، لاسيما في

ليالي الشتاء الباردة. وقد كان الشيخ نور الدين الشوني ﷺ كثيرًا ما يقوم من المجلس إذا طال الليل، ويدخل الخلوة التي وراء ظهره في مجلس جامع الأزهر، فيجلس فيها لحظة يصلي علىٰ النبي ﷺ بقصد الراحة للحاضرين، فكل من وجد في نفسه سآمة ينصرف، ولا يمكث إلا بعض أفراد من الناس. وكذلك رأيت سيدي عليًّا المرصفي يفعل. ويقع لي هذا كثيرًا في مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ ليلة الجمعة، فأدخل البيت وأمكث لحظة طويلة، ثم أخرج فربما أجد بعضهم انصرف، وربما أجدهم زادوا وزادت همتهم وقوتهم وأصواتهم، وربما أطالوا مجلس الذكر من ذات نفوسهم إلىٰ بعد الفجر، فأفرح بذلك أكثر مما أكون معهم، لخروجهم عن العلل في ذلك العمل.

فاعلم ذلك، وإياك أن ترىٰ نفسك أكثر عبادة وأقوىٰ همة من شيخك، فتحرم مدده، **فإن أعمال الأشياخ أواخر أعمارهم تصير غالبها قلبية، وربما كانت الذرة من أعمال أحدهم أعظم من الجبال من أعمال المريد**، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٠٩) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ذهب إلىٰ فقير ليزوره، فدق الباب فلم يجبه الفقير، فقال: ما هذا التحجب؟! ولاث به بسبب ذلك، فقام له جماعة الفقير وقالوا: ترك مثل هذه الزيارة أولىٰ، لأن الأخ إذا حمل أخاه علىٰ المحامل السيئة إذا زاره، ارتكب الإثم، فكان ترك زيارته أولىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمثل هذا الفقيه، لأنه ما تكلَّم إلا علىٰ قدْر ما عنده، فينبغي تعليمه أولًا أحوال الفقراء وأدبهم، فإذا قبل ذلك، أقمنا عليه الميزان بعد ذلك، بدليل عدم تمكين النبي ﷺ الصحابة أن يزعجوا الأعرابي لما بال في المسجد، وقال: «صبُّوا عليه ذَنُوبًا من ماء، ثم قال له: يا أخي، إن المساجد لم تبنَ لمثل هذا، وإنما بُنِيَت للصلاة والذكر وقراءة القرآن»[1]. فاعلم ذلك، وطوِّل روحك علىٰ كلِّ فقيه رأيتَ علمه موضوعًا في نفسه، فإنه لا يرجع إليك إلا بعسر، لحجابه عما أنت فيه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(١٠١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا أرسل أحدًا من جماعته في حاجة إلىٰ السوق مثلًا، فأبطأ عليه، أو استعمله في حاجة، فعكس مراده منها، فصاح به وأخرج خُلقه عليه، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي من مثل الشيخ أن يقع فيه لأنه من الجهل، فإن الحاجة ما أبطأ بها إلا الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ لها لا الرسول.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بالشيخ أو العالم، فإن الأكابر أواخر أعمارهم لا يطلبون شيئًا من الدنيا إلا علىٰ وجه التداوي، لا علىٰ وجه التبسط في الدنيا، والتمتع بشهواتها، فإن طلبوا طعامًا لا يطلبونه إلا وقت الاضطرار، وكذلك القول في المأكل والمشرب والمنكح ونحو ذلك، فحكم أحدهم إذا صاح برسوله حكم المستغيث إذا أشرف علىٰ الهلاك، فهو يصيح بقوة وشدة، لينبه لإنقاذه من الهلاك كلَّ من قدر علىٰ إنقاذه، ولو أنه علم من الحاضرين أن قلب أحدهم معه في المشاركة فيما هو فيه، ما صاح علىٰ أحد.

وقد حدث لي مرة قَولِنج[1] وريح مقلوب، فأشرفتُ منه علىٰ الهلاك، فطلبتُ وعاءً لأتقيأ فيه علىٰ سبيل التداوي من القَولِنْج، فأبطأ عليَّ الشيخ ناصر الدين السندبصطي، فضربتُه علىٰ رأسه، لشدة ما أنا فيه، فقال: ما هنا إلا جَفْنة فيها رماد[2]، وأخاف أن أصبَّها علىٰ بلاط القاعة يتوسخ البلاط! فقدَّم هذا وسخ بلاط القاعة علىٰ طلوع روحي! فمثل هذا يستحق الصياح والإزعاج عند كلِّ عاقل!

فاعلم ذلك، وإياك إذا خدمتَ فقيرًا وخالفتَه وضربك أو صاح بك أن تتكدر منه، بل أقم له العذر، فإنه ما ضربك مثلًا إلا لتأخذ بيده، فيحصل لك الأجر، كما كان السيد عمر يضرب بالدِّرَّة من رآه يقصر في فعل خير، ولا يجوز حمله علىٰ سوء الخلق ولا حظ النفس. وأيضًا ما أرسلك لتشتري له طعامًا حتىٰ رعت أمعاؤه في بعضها بعضًا، أو لتشتري له فروة إلا بعد أن اشتد عليه البرد وخاف المرض، أو لتخطب له زوجة إلا بعد

---

(١) القَولِنْجُ: مرضٌ مِعَوِيّ مؤلم يصعب معه خروج البراز والرِّيح، وسببه التهاب القُولُون.

(٢) في الأصلين: من.

أن اشتدت عليه الغُلْمَة[1]، وضاق الوقت عن كسر شهوته بالصوم، وقس علىٰ ذلك.

(١٠١١) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يكثر من زيارة آحاد الناس من أبناء الدنيا وغيرهم، ولا يزور أحدًا من أقرانه في العلم والعمل، ولاث به بعض الناس وقالوا: إنما يزور فلان الناس لأغراض دنيوية، ولو أنه كان يريد الآخرة لزار العلماء والصالحين، ولكن عدو المرء من يعمل بعمله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، فربما كُشِفَ له أنه ليس لذلك العالم أو الصالح عنده مدد يمد به، وليس هو كذلك عنده مدد يمد به غيره، بخلاف أبناء الدنيا ربما كان لهم عنده مدد يمدهم به إذا وقع بصره عليهم، أو كان يتألفهم بالزيارة ليميلوا إليه، فيسمعوا نصحه، ولا هكذا العلماء والصلحاء الذين لا يزورهم.

وقد كان سيدي أحمد بن عقبة[2] ﷺ لا يزور أحدًا في مصر إلا إن كان معه مدد يمده به، أو مع ذلك المزور مدد كذلك يمد به الزائر، وربما كان يقف علىٰ باب زاوية شيخ ويقول بأعلىٰ صوته: هل عندكم لنا وديعة ندخل نأخذها منكم؟ فإن قالوا: نعم، دخل وإلا انصرف عنهم. فاعلم يا أخي ذلك، واحمل الفقراء علىٰ المحامل الحسنة، ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إذا خرجت لزيارة شيخ فلا تشرك معه أحدًا ولا حاجة أخرىٰ تقع في الإثم؛ فلاث به بعض المتشرعين وقالوا: هذا تحجير علىٰ الناس بما لم يحجره الشارع عليهم فهو إلىٰ الإثم أقرب، فكيف يأثم مخالفه؟

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان قصده

---

(١) الغُلْمَةُ: شدَّةُ الشهوة للجماع.

(٢) أحمد بن عقبة اليماني الحضرمي ثم المكي، نزيل القاهرة، من كبار الأولياء، وهو شيخ سيدي زروق، وقد ترجم له سيدي زروق ترجمةً وافيةً في «مناقب الحضرمي» وقد قام شيخنا ومربينا د. محمد نصار بتحقيقها ونشرها بفضل الله. أقام بالقاهرة مدة حتىٰ مات في شوال سنة (٨٩٥هـ).

بعض الشرائع المتقدمة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: بادروا إلىٰ الوقوف تجاه وجهي إذا كنا نذكر قائمين، أو إلىٰ الجلوس تجاه وجهي إذا كنا نذكر جالسين، فمن فعل ذلك فقد تعرض لنزول الرحمة عليَّ وعليه، بخلاف من جلس خلف ظهري؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: هذا تحكم لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، فإن نزول الرحمة علىٰ الذاكرين قد ورد الأمر فيه عامًّا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما أراد رحمةً خاصةً تنزل علىٰ ذلك المواجه له من حيثُ نظرُه إليه، فإن الله تعالىٰ ينظر إلىٰ كل جماعة بنظر كبيرهم من سلطان أو أمير أو شيخ، وربما نزل علىٰ الشيخ مدد حال الذكر، فصار بصره صِبَاغًا كلُّ من نظر إليه سعد.

وقد خرج سيدي يوسف العجمي من الخلوة مرةً، فتلفت علىٰ أحد من إخوانه، ليفيض عليه مدده، فلم ير أحدًا، فنظر إلىٰ كلب كان هناك، فانقادت له كلاب مصر، وصاروا إن مشىٰ مشوا معه، وإن وقف وقفوا معه، حتىٰ صار الناس ينذرون لهم الذبائح، فبلغ ذلك سيدي يوسف، فأرسل خلف الكلب، فلما وقف بين يديه قال: إخسأ؛ فأكلتُه الكلاب من وقته، فقال سيدي يوسف: آه لو وقعت تلك النظرة علىٰ إنسان، لصار يُقتدَىٰ به في مصر! انتهىٰ.

ومن هنا قال الأشياخ: ينبغي للمريد إن كان مستقيمًا أن يجعل جلوسه تجاه خلوة الشيخ أو بيته، فكلما خرج وقع بصره عليه. وأما إذا كان غير مستقيم فهو علىٰ نيته، فإن نوىٰ بذلك أن ينظر إليه الشيخ ويدعو له بالإصلاح فلا بأس، وإن علم منه شدة الغيرة لجناب الله تعالىٰ، ومقت كل من خالف أمره، فالأولىٰ له البعد عن الشيخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ألَّف كتابًا في الفقه أو علم

الحقيقة، ثم بدا له أن يغسله أو يمزقه مثلًا، فلاث به الأعداء وقالوا: لو لا أنه كان فيه قلة الإخلاص ما أتلفه.

والجواب: أن الشيخ قد يكون بمعزل عن هذا كلِّه، وأنه كان بينه وبين الله تعالىٰ أنه قبل ذلك الكتاب منه، لما فيه من الإخلاص ونفع المسلمين، وإذا قبل الله من العبد شيئًا، حفظه من الإتلاف، فأراد بغسله تحقيق ما وعده الله به، فقال: إن انغسل بالماء فقد تبين أن الحق تعالىٰ لم يقبله، وإن نزل في الماء ولم يبتل فقد قبله. وقد سبقه إلىٰ ذلك الإمام مالك، والحكيم الترمذي، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي في أمر كتابه «التنبيه» والشيخ محيي الدين النووي في «الروضة»، ويُحتمَل أنهم قصدوا بذلك اقتداء أصحابهم بهم في الامتحان لأنفسهم في الإخلاص والقبول.

وقد بلغنا أن الإمام مالكًا لما رمىٰ كتاب «الموطأ» في الماء طفا ولم يبتل، وكذلك كتاب «التنبيه»[1]. وأما الحكيم الترمذي فإنه جمع مؤلفاته في صندوق وقال لأصحابه: ارموها في الدجلة، واحكوا لي ما يقع فيها؛ فرموها فخرجت لهم يدان من الماء، فأخذت الصندوق، فلما حكوا ذلك له، قال: صدقتم! إن أملاك[2] الماء وعدوني أن يحفظوا مؤلفاتي عندهم في الدجلة إلىٰ أن يخرجوها بين يدي الساعة، ليحيي الله تعالىٰ بها الدين بعد اندراس كتب الشريعة وموت علمائها. وأما النووي فمنعه أصحابه من غسل «الروضة»، واعتقادنا فيه أنه من أكثر العلماء إخلاصًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: من تكدَّر ممن رمىٰ مؤلَّفه في بحر أو أحرقه، فهو دليل علىٰ عدم إخلاصه، لأن النية إذا صلحت في شيء، فلا علىٰ العبد بعد ذلك أن يدوم ذلك الشيء أو يتلف، اللهم إلا أن يتكدَّر لأجل فوات العمل بما فيه للمسلمين، فلا حرج عليه في ذلك، لأن محبة الخير لله محمود شرعًا، فالتأسف والحزن عليه مطلوب. فقلتُ له: فإن تكدَّر لفوات حظ نفسه؟ فقال: هو مذموم، إلا أن يرىٰ

---

(١) «التنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي، أي وكذلك رمىٰ الشيرازي كتابه «التنبيه» والله أعلم.

(٢) كذا بالأصلين، ولعل صوابها «ملوك» أي ملوك الجن الصالحين في البحر.

تجرده عن نفسه، وأنها عنده وديعة وأمانة لله عزَّ وجلَّ، فيحب أن لا يفوتها شيء من الخير وفاءً بحقِّها، فهذا لا بأس به.

وقد وقع لصاحبنا الشيخ شهاب الدين ابن جحر[1] مفتي مكة رحمه الله أنهم رموا كتابه «شرح الروض» في البحر بعد أن تعب في تحريره نحو خمس عشرة سنة، فلم يتغير من ذلك، فعلمتُ مرتبته في الإخلاص، فالله تعالىٰ يكثر في المسلمين مثله!

ويُحتمَل أن يكون الشيخ الذي أظهر لنا التغير علىٰ غسل الأعداء مؤلَّفه إنما فعل ذلك صوريًّا لا حقيقيًّا، كما يقع من بعض الأكابر إذا خاف علىٰ نفسه العجب بمدح الناس له بالإخلاص، وقولهم: فلان مخلص في عمله بلا شك، فإنهم لو غسلوا مؤلَّف أحد من أقرانه، لمات أسفًا وحزنًا علىٰ عدم حصول حظ نفسه الذي قصده بتأليفه، فكان إظهار الشيخ التأثر كالجماجم التي أمر الشارع أن توضع علىٰ رؤوس حصص الفلاحين، لترد العين عن الزرع أن يصيبه آفة[2].

ويُحتمَل أن الشيخ الذي أراد غسل كتبه أنه إنما يفعل ذلك ليمتحن عادته مع الله تعالىٰ،

(١) شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، أبو العباس. مولده في محلة أبي الهيتم (من إقليم الغربية بمصر) وإليها نسبته. مات أبوه وهو صغير، فكفله الإمامان الكاملان شمس الدّين بن أبي الحمائل، وشمس الدّين الشناوي، ثم إن الشمس الشناوي نقله من محلّة أبي الهيتم إلىٰ مقام سيدي أحمد البدوي، فقرأ هناك في مبادئ العلوم، ثم نقله في سنة ٩٢٤هـ إلىٰ جامع الأزهر، فأخذ عن علماء مصر. له مصنفات منها: «شرح المشكاة» و«شرح المنهاج» و«شرح الهمزية البوصيرية» و«شرح الأربعين النواوية». توفي: ٩٧٤هـ بمكّة في رجب، ودُفن بالمعلاة في تربة الطّبريين. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٤١-٥٤٢) «الأعلام» (١/ ٢٣٤).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البيهقي في «الكبرىٰ» (١١٧٥٣) من حديث عمر بن علي بن حسين: «أن رسول الله ﷺ أمر بتلك الجماجم تُجعلُ في الزرع من أجل العين» وقال: هذا منقطع. ورواه علي بن عمر بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة فقال: يا معشر قريش، إنكم تحبون الماشية فأقلوا منها؛ فإنكم بأقل الأرض مطرًا، واحترثوا، فإن الحرث مبارك، وأكثروا فيه من الجماجم» وقال: وهذا أيضًا مرسل. والبزار (٦٦٧) وأبو داود في «المراسيل» (٥٤١).

وعلامته التي جعلها علامة علىٰ صحة إخلاصه، لا شكًّا في الإيمان بدوام تلك العادة، وعدم حسن الظن بربه، بل لعلمه بسعة الإطلاق، وأن الحقَّ تعالىٰ لا تقييد عليه يفعل ما يشاء، فهو حسن الظن بالله، متهم نفسه، كما تقدم بسطه مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي فصَّل له جبة مثلًا، فنقص قماشها عن الكمال وعنده قماش من غير لونها، فقالوا له: كمِّل الجبة من هذا القماش؛ فأبىٰ، فلاث به بعض الفقراء وقال له: هذا من جملة رعونات النفس، ولا ينبغي لمثلكم أن يكون عنده رعونة. وقد كانت مرقعات السلف مجتمعة من ألوان شتىٰ، ورقع السيد عمر بن الخطاب ثوبه بقطعة جلد من جراب.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يكون سالمًا من الرعونة، وإنما قصد بعدم تكميل الجبة البيضاء من القماش الأسود مثلًا العدل بين أجزاء الجبة، نظير ما ورد في النعل إذا انقطع من إحدىٰ الرجلين، وأنه يُستحَب للشخص أن ينعلهما جميعًا، أو يحفهما جميعًا[1]، وكذلك نظير ما ورد من النهي عن أن ينام الإنسان نصفه في الظل، ونصفه في الشمس[2]، عملاً بالعدل بين الجسم، وأهل الله تعالىٰ يعاملون الثياب وغيرها من الجمادات معاملة الحي، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ فيمن يؤذيه أن يكف عنه آذاه، أو يحسن إليه بهدية ليستحيي منه ويترك إيذاءه، فلاث به بعض الفقراء فقال: لا ينبغي للشيخ التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في دفع شيء يؤذيه، ولا إرسال هدية لمن يؤذيه، بل يتحمل الأذىٰ من جميع الأنام، ثم يبريء ذمة كلِّ من آذاه، وإنما شرَّع الشارع الهدية

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٥٦) من حديث أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ قال: لا يمشي أحدكم في نعلٍ واحدة، ليحفهما جميعًا، أو لينعلهما جميعًا» ومسلم (٢٠٩٧).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٨٢١) من حديث أبي هريرة يقول: «قال أبو القاسم ﷺ: إذا كان أحدكم في الشمس، وقال مخلد: في الفيء فقلص عنه الظل، وصار بعضه في الشمس، وبعضه في الظل فليقم» وأحمد (٨٩٧٦) بنحوه، والبيهقي في «السنن» (٥٩٢١).

للمتشاحنين مثلًا إذا كانا لا يقدران علىٰ تحمل الأذىٰ من بعضهم بعضًا، ولا يقدران علىٰ كفِّ لسانهما عن عدوهما، وأما الشيخ فقد ترقىٰ عن مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في توجهه إلىٰ الله وفي إرساله الهدية، فقد يكون إنما يفعل ذلك خوفًا علىٰ دين ذلك الظالم أن ينقص بزيادة الأذىٰ، فقصد بذلك التوجه أو الهدية تخفيف الإثم عنه، أي عن ذلك الظالم، وهو في نفسه قادر علىٰ أن يتحمل أضعاف ذلك الأذىٰ من الأعداء وغيرهم، «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1] هكذا معاملة الأكابر من العلماء العاملين لعامة المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٠١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا إمام كل من يحب الله، ولا شرب العشاق إلا بقية من مشروبي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة، وقد سبق العشَّاق والمحبون لله عزَّ وجلَّ علىٰ هذا المدعي، وعشقوا وأحبوا، وشربوا من شراب الحب قبل أن يُخلَق هذا.

والجواب: قد يكون هذا الشيخ بمعزل عما ظنَّه الناس فيه، ويكون مراده: أنا إمام كل من يحب الله تعالىٰ من مريدي وأهل دائرتي، وأنهم ما شربوا كلُّهم إلا من فضلة شرابي، لإمدادي لهم دون غيري، وليس مراده أنه إمام لمن قبله من المحبين ومدير الكأس له، فإن ذلك لا يقوله عاقل.

ويُحتمَل أن يكون مراده بقوله: «أنا إمام كل من يحب الله» أي أنا أول من يجيب إلىٰ المحبة إذا دعي إليها، كما قال سيدي عمر بن الفارض:

وكـل فتـىٰ يهوىٰ فإني إمامـه

وكما يقول العبد لسيده: أنا أول عبد يطيع أمر سيده، فافهم ذلك، واحفظ لسانك في حق الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٤٢٥).

(١٠٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: يحرم مال الكاهن الذي جمعه من الكهانة مُطلقًا ولو أحسن الكهانة؛ فلاث به فقيه فقال: مذهب أبي بكر الصديق أنه لا يحرم إلا إن كان لا يحسن الكهانة، بدليل قصة الطعام الذي أطعمه له غلامه وقال: كنتُ تكهنتُ لإنسان في الجاهلية ولا أحسن الكهانة، فأعطانيه، فقاءه أبو بكر من بطنه». قال: فلولا قوله «ولا أحسن الكهانة» ما كان أبو بكره قاءه.

والجواب: أن هذا الاستدلال ساقط بمرة، والصواب مع هذا العالم القائل بالتحريم مطلقًا، كما تشهد له قواعد الشريعة، وقد جاء النهي الصريح عن الشارع في تحريم حُلْوان الكاهن مطلقًا[1]، فعُلِمَ أنه ليس الباعث لأبي بكر علىٰ القيء كون الغلام لا يحسن الكهانة، وإنما الباعث له عليه كونه حُلْوانًا للكاهن فقط، فافهم ذلك، وإياك والغلط والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أقوال العلماء، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: إذا صح الإكراه لعبد في فعل محظور، ارتفع الإثم عنه جملة، إلا من أُكره علىٰ قتل مسلم أو غيره بغير حقٍّ؛ فلاث به صوفيٌّ وقال: قد يؤاخذ الله تعالىٰ المكرَه لبقايا بقيت عليه عادة، كأن كان يقدر علىٰ تحمل الضرب أو الحبس مثلًا من ذلك المكرِه له، قال: ويدل لذلك قول السحرة: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

والجواب: أن هذا الاستدلال ضعيف، لأنه كان شرع لموسىٰ ولم تقره شريعتنا، كما قال ﷺ: «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان، والأمر يُستَكرهون عليه»[2]. انتهىٰ. والأصل عدم قدرة المكرَه -بفتح الراء- علىٰ تحمل الضرب والحبس مثلًا، وأنه لم يبق عليه بقية من الضرر يقدر علىٰ تحملها.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٣٧) من حديث أبي مسعودٍ الأنصاري ﵁: «أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن ثمن الكلب، ومهرِ البغي، وحُلْوانِ الكاهن» ومسلم (١٥٦٧).

(٢) تقدم تخريجه.

[دفع توهم بعض الصوفية مؤاخذتهم بالخطأ والنسيان]

فإن قيل: إن الصوفية يؤاخذهم الله تعالىٰ بالخطأ والنسيان كثيرًا كما هو مذكور في كتبهم؛ **فالجواب:** الشارع أصدق من غيره، وقد لا يكون ذلك البلاء الذي نزل علىٰ العبد عقب خطئه ونسيانه نزل عليه من حيثُ الخطأُ والنسيانُ، بل نزل عقوبةً لأمر محقق وقع فيه العبد أحصاه الله تعالىٰ عليه ونسيه هو. فاعلم ذلك فإنه دقيق لم أرَ من نبَّه عليه، بل غالبُ الصوفية يعتقد أن كل ما وقع له من العقوبة عقب الخاطر المذموم أو الخطأ أو النسيان إنما هو بسبب ما ذكر، فيصادم كلام الشارع بغير علم ما فيه من رائحة التكذيب للشارع ودفع خصوصيته التي أعطاها الحق تعالىٰ له، وخفف بها عن أمته، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ترتيل القرآن أو الذكر أفضل من الاستعجال والهَذْرمة[١] فيهما، وعن الشيخ الذي يقول: الاستعجال والهَذْرمة أولىٰ؛ فلاث بكل منهما أصحاب الآخر وقال أصحاب الشيخ الأول: قد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. وقال جماعة الشيخ الثاني: إن الاستعجال أفضل، مبادرةً لدفع الوسواس والخواطر التي ترد علىٰ القلب من أمور الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بكل من الشيخين، ويُحمَل كلامها علىٰ حالين: أما الشيخ الأول، فلأن الترتيل فيه امتثال أمر الله تعالىٰ، ولما فيه من البيان واتساع الوقت لمن يتدبر في معاني القرآن ممن غلبت جثمانيتهم علىٰ روحانيتهم، فإن الجسم كثيف ثقيل لا يقدر صاحبه علىٰ سُرعة فهم المعاني إذا استعجل القارئ. وأما الشيخ الثاني فكلامه محمول علىٰ من غلبت روحانيته علىٰ جثمانيته، فصار يفهم المعنىٰ مع سرعة النطق بحروف الكلمة.

ويؤخذ من ذلك أن رسول الله ﷺ ما أُمر بترتيل القرآن في الصلاة وخارجها ليلًا ونهارًا إلا بحضرة أحد من أمته الضعفاء. أما مع غيبة الضعفاء وحضور الأقوياء الذين

---

(١) هَذْرَمَ القرآنَ: أسرع في قراءته لا يتدبَّرُ معانيه.

غلبت روحانيتهم علىٰ جثمانيتهم، أو إذا كان وحده، فالأمر علىٰ التخير. وقد كان ﷺ مأمورًا بالبيان للأقوياء تارةً، وللضعفاء تارة.

ومما يدل علىٰ أن رسول الله ﷺ لم يكن مأمورًا بالترتيل للقرآن إذا كان وحده ما وقع لخواص أمته من قراءة القرآن ثلاثمئة وستين ألف مرة في اليوم والليل، إذ هم ورثته ﷺ في جميع المقامات التي يصح لهم إرثها، فلولا أنه ﷺ كان قد سبقهم إليها ما قدر أحد منهم علىٰ فعلها.

وقد كان سيدي الشيخ أبو مدين شعيب إذا هم أن يركب بغلته لا تستقر رجله في الركاب حتىٰ يقرأ القرآن ثمانين مرة، كما أخبر بذلك عن نفسه. وأما قراءة القرآن ألف مرة في كلِّ درجة، فأخبر شيخنا سيدي الشيخ علي المرصفي أن ذلك وقع له حال سلوكه حين[1] تجردت روحانيته عن جسمه. انتهىٰ.

ومن هنا كانت الأشياخ تعرف من غلبت روحانيته علىٰ جثمانيته من تلامذتهم وعكسه، فإن دعاهم الشيخ إلىٰ الاستعجال وسرعة النطق في الذكر ووافقوه، عرف غلبة روحانيتهم، وإلا عرف غلبة جثمانيتهم، فيأمرهم بزيادة الجلاء للقلب والجوارح، بزيادة الأعمال الصالحة والإخلاص فيها، فاعلم ذلك، فإنه نفيس لا تجده في كتاب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ وجماعته إذا كانوا يقرؤون القرآن أو يصلون علىٰ النبي ﷺ، فسها الشيخ، فانتقل من آية إلىٰ آية، أو من كيفية صلاة إلىٰ أخرىٰ، أو غلط في ذلك، فتبعه أصحابه، فلاث بهم بعض الناس وقالوا: لو كان قلب هذا الشيخ وجماعته حاضرًا لما سهَوا ولا غلِطوا، ولكن قد ذهب الحضور والارتباط من القلوب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا بجماعته. أما الشيخ فقد يكون سبب سهوه أو غلطه عظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله عزَّ وجلَّ، فسرت تلك العظمة منه إلىٰ

(١) بالأصلين: حتىٰ. والصواب ما أثبتناه.

قلوب مريديه، فسهوا كذلك أو غلطوا، فسقط قول من قال بعدم ارتباط هؤلاء بشيخهم، لأنه لولا ارتباطهم به ما تبعوه في السهو والغلط. وهذا مقام في الكمال، وفوقه ما هو أكمل منه، وهو تجلي عظمة الله تعالىٰ للقلب، ولا يذهل عما هو فيه من القرآن، ولا عن عدد ما يقوله من الأذكار ذوات العدد. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «إنما أنسىٰ ليستن بي»[1]، أي وإلا فقد أعطاه الله تحمل أعظم تجلٍّ يكون من الحق تعالىٰ للخلق، ولذلك كان أشد قوة من جميع الرسل، كما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١] الآية، سواء فسرنا الجبل بالجبل المعهود، أو بأكابر الرسل والأولياء من الخلق، ومحال أن يذهل ﷺ في قراءته أو صلاته لشيء من أمور الدنيا أو الآخرة، فافهم والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يهجر من أساء الأدب معه أو مع غيره أكثر من ثلاثة أيام، ولاث به بعض الفقهاء وقالوا: لا يجوز شرعًا الهجر فوق ثلاث، كما صرَّح به في الحديث[2]. وأيضًا فإن من شأن الفقراء العفو والصفح عمَّن جنىٰ عليهم، والهجر ينافي طريق الفقراء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في هجره بعض أصحابه أكثر من ثلاثة أيام إذا أساؤوا الأدب أو ارتكبوا معصية ما لم يتوبوا عنها، فقد صرَّح أشياخ الطريق بأن **كلَّ شيخ أمين علىٰ دين جماعته، ويحرم عليه الصفح والعفو عنهم**، لأن ذلك رخصة، والرخص تنافي حال السالكين لعدم الترقي فيها، والسالك من شأنه دوام الترقي، وقالوا: من صفح عن مريده أو عفا عنه فقد غشَّه وارتكب إثمًا، وقد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. وقال العلماء: الهجر الجميل هو الذي لا يكون معه حقد ولا تشفٍ للنفس، وإنما هو مصلحة وتأديب للمهجور، فيُحمَل حال الأشياخ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٠٦٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ: «أن رسول الله ﷺ قال: لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» ومسلم (٢٥٥٨).

علىٰ مثل ذلك، ولا يجوز حملهم علىٰ حظ النفس.

(١٠٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للكشَّاف ومشايخ العرب ونحوهم: إن بيدي تولية الولاة وعزلهم، وكلُّ من أعطاني كذا وكذا وليتُه، فيعطيه الولاة ما طلب، ثم لا يقع له ولاية، وإنما يدخله نائب السلطان الحبس، فلاث به الناس وقالوا: هذه طريقة النصَّابين! وقد أدركنا مشايخ مصر وغيرهم وما كان أحدهم يزيد علىٰ الدعاء لكل من طلب منهم حاجة، ولكن قد ذهب الصدق من الدنيا في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون بيده الولاية والعزل حين ذلك القول، ثم إن القطب عزله من تلك الولاية، فما قال: «بيدي الولاية والعزل» إلا قبل العزل، فهو صادق في قوله.

وأيضًا فإنه لا ينبغي اللوث به في أخذه الفلوس من ذلك الكاشف، فقد يكون إنما أخذها ليفرقها علىٰ الفقراء والمساكين، ليدعوا لذلك الكاشف مثلًا بقضاء الحاجة، ولا يأخذ هو منها شيئًا، فيحتاج من ينكر علىٰ هذا الشيخ إلىٰ شدة مخالطته ليلًا ونهارًا، حتىٰ يراه وهو يأكل من تلك الفلوس أو يلبس مثلًا، وإلا فلا ينبغي له الإنكار.

ولم يزل يأتيني مشايخ العرب والكشَّاف ويحكون لي عن بعض فقراء العصر أنهم أخذوا فلوسهم ولم يولوهم ما طلبوا، فأقول لهم: ارجعوا إليهم، فإن الأشياخ لا تكذب، وأُحسِّن اعتقادهم فيهم، فقال لي بعض الفقراء: هذا حرام عليك وغش للناس! فقلتُ له: فماذا أصنع؟! إن جرَحتُهم عندهم، فقد جرَحتُ أهل خرقة الفقراء، فإحساني الظن بهم أولىٰ. وقد حدث هذا الأمر كثيرًا في فقراء هذا الزمان، فأساء الولاة الظن بهم وسموهم «نصَّابين كذَّابين».

وقد أدركتُ سيدي عليًّا الخواص وهو يقبل من الأمير الرغيف فقط ويعده بقضاء حاجته ثم يرمي الرغيف للكلب ولا يأكل شيئًا منه، وكان مطمح بصره اللوح المحفوظ كما قيل، فكان إذا قال قولًا لابد أن يقع كما قال.

[كلُّ شيخٍ قطبٌ غوثٌ لجماعته]

فإن قلتَ: إن القطب لا يصح أن يُعزَل إلا بالموت لعدالته، ونرىٰ بعض الفقراء يدعي أنه القطب الغوث، ويأخذ من الأمير المئة دينار وأكثر، ويقول: بيدي الولاية والعزل، ثم لا يولي ذلك الأمير تلك الولاية، فما الجواب عنه؟ **فالجواب**: قد يكون مراده أنه قطب غوث لجماعته فقط، ومثل هذا يجوز في حقِّه[1] العزل، وربما وقع في الفسق فيستحق العزل. وبالجملة فكل فقير لا يعلم من نفسه يقينًا القدرة علىٰ ما يعد به الأمير، فليس له أخذ الجُعَالة[2] عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يهدي لأحد من أكابر الأولياء جبة أو قلنسوة أو نعلًا، فيلوث به الفقراء الصادقون ويقولون له: من شرط الفقير الذي يهدي شيئًا يُلبَس لمن هو أعلىٰ مقامًا منه أن لا يكون عصىٰ الله تعالىٰ في ذلك الملبوس، أو لم يغفل عن الله تعالىٰ حال لبسه، وإلا ففي الإهداء المذكور إساءة أدب مع ذلك الشيخ، وإن لزم منه الإحسان إلىٰ ذلك الملبوس إن قبله ذلك الشيخ.

والجواب: أن مثل هذه[3] الأمور تخفىٰ علىٰ كثير من الفقراء، فلا ينبغي اللوث بفقير أهدىٰ شيئًا إلىٰ من هو أكبر منه إلا بعد تعريفه بمقام الأدب في ذلك، فإذا علم طريق الأدب وخالف بعد ذلك، قلنا باللوث به.

وإيضاح ذلك أن الثوب الذي عصىٰ صاحبه ربه فيه مثلًا يُكَدِر جسد ذلك الشيخ الكبير إذا وضعه عليه، فلا ينبغي للمريد أن يرسل شيئًا من الملبوس لأحد من الأكابر إلا بعد استئذانه في ذلك.

وأيضًا فإن مقام الأكابر في التورع في ملابسهم فوق مقام المريدين بيقين، فربما أن

---

(١) أي الضمير في «حقه» يعود للفقير المدعي.

(٢) الجعالة: بضم الجيم أو فتحها أو كسرها، ما يُجْعلُ علىٰ العمل من أجرٍ.

(٣) بالأصلين: هؤلاء.

أحدهم لا يصلي في ثوب بالغ المريد في التورع فيه من حيثُ القماشُ أو الثمنُ، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، هذا في حق المريد مع غير شيخه. أما شيخه فلا ينبغي أن يهدي إليه شيئًا مطلقًا، إلا إن كان يرىٰ نفسه وما يدخل يده ملكًا لشيخه أو من فضله أو إحسانه عليه، كما هو مبسوط في رسائل القوم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: لا أحد منكم يجتمع بشيخ غيري في هذا الزمان أبدًا؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا تحجير لم يأذن به الشارع، وقد نقل القشيريُّ وغيره عن جماعة كثيرين أن أحدهم كان يقول: صحبتُ نحو ثلاثمئة شيخ وكلهم أوصوني بكذا وكذا، فلم يكن عند أحد من السلف هذا التحجير.

والجواب: أن السلف الصالح إنما كانوا لا يحجرون علىٰ أحد يجتمع بهم من أصحابهم، لأن كلًّا من الأشياخ الذين كانوا موجودين في عصرهم كانوا مملوئين من الأمداد الربانية، وكان كلُّ واحد أهلًا لأن يهدي الأمة كلَّها، فلم يكن للتحجير علىٰ المريدين معنىٰ، فلما ذهب أولئك المشايخ إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، وخلف بعدهم خلف لم يسلكوا طريق الاستقامة التي كان عليها الأشياخ، وصارت الطريق في أفراد من الناس، حجروا علىٰ المريد أن لا يجتمع إلا بشيخ واحد ممن له عنده مدد يمده به، ثم إن رأوا شيخًا منهم قد عجز عن إمداد الجماعة الذين اجتمعوا كلهم قالوا لبعض جماعته: تعالَ اجتمع بنا لنربيك؛ يعني مساعدة لأخينا في الأخير، لا حبًّا للرئاسة علىٰ الناس، فهكذا كان الشيوخ ومن أدركناهم ممن خلفهم، **فإن الطريق في كل عصر لواحد، وباقي الدعاة إلىٰ الله إنما هم نوَّاب لذلك الواحد**، فكما كانت الطريق في بدايتها لواحد وهو رسول الله ﷺ، كذلك ينتهي أمر الناس في كلِّ عصر إلىٰ واحد وهو القطب، وسائر الدعاة أعوانه إلىٰ أن ينتهي الأمر إلىٰ الإمام المهدي.

فعُلِمَ أن كلَّ شيخ عَلِمَ عنده مدد المريد، ثم أرسله إلىٰ غيره فقد غشه، وكان عليه إثم قاطع الطريق علىٰ عباد الله تعالىٰ! فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق أشياخ عصرك

إذا تنازعوا في مريد، وطلب كلٌ واحد أن يكون ذلك المريد له دون غيره، فإن كلًا منهما مسارع للخير بإظهاره عزة الطريق والمزاحمة عليها، لا لغرض من الأغراض النفسانية.

فإن قال قائل: إن المريد لا يخلو من أن يكون له وديعة من المدد عند الشيخ أو لا يكون، فإن كان له وديعة، فليصبر ولا يستعجل عليه حتىٰ يأتي وقتها، وإن لم يكن له وديعة عنده، فلا فائدة في المنازعة في شأن ذلك المريد؛ **فالجواب**: أنه لا اعتراض علىٰ الأشياخ في مثل ذلك لانتفاء حب الرئاسة، فلابد أن يكون لهم غرض صحيح، فابحث عليه. وقد مدح الله تعالىٰ الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الزاهد في الدنيا إذا اجتمع هو وبعض العلماء في جنازة، وعزموا علىٰ الشيخ أن يصلي إمامًا دون ذلك العالم، فقدَّم الشيخ العالم وصلىٰ الشيخ مأمومًا، فلاث به بعض الحاضرين وقالوا له: إنما قدَّمك أهل الميت مصلحةً للميت من حيثُ إن دعاء الشيخ الزاهد في الدنيا أقرب إلىٰ الإجابة من دعاء العالم المحب في الدنيا.

والجواب: أن من مقام الشيخ أن لا يرىٰ نفسه أفضل من أحد من العوام، فضلًا عن العلماء، فربما كان الشيخ يرىٰ دعاء ذلك العالم أقرب إلىٰ الإجابة من دعائه هو، فقدَّمه مصلحةً للميت.

وأيضًا فإن المدار علىٰ الدعاء، وهو حاصل بصلاة الشيخ مأمومًا، وربما لحَظ الشيخ من ذلك العالم أنه لا يخلِص الدعاء للميت ويدعو بقلب إلا إن صلىٰ إمامًا. وأما إذا صلىٰ مأمومًا، فربما تحركت نفسه، واشتغل بكون ذلك ازدراءً له، فلا يقدر علىٰ إخلاص نيته، فقصد الشيخ بتقديمه إخلاصه الدعاء للميت. وأما الشيخ فإنه مخلص في الدعاء علىٰ كل حال، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه عن زيارة قبور الأولياء كالقرافة ونحوها، ويقول لهم: لازموني أفضل لكم؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: كيف تكون

ملازمة مثل هذا أفضل من زيارة الإمام الشافعي أو الإمام الليث أو ذي النون المصري مثلًا؟! هذه دعوىٰ لا برهان عليها!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ يُعلَم مراده، فقد يكون مراده أن الأولياء إذا ماتوا صارت ظهورهم في البرزخ إلىٰ الدنيا، فلا عليهم من أهلها إن ماتوا أو عاشوا، أو عصوا أو أطاعوا، لذهاب التكليف عنهم بالموت، وليس مراده أنه يرىٰ نفسه أفضل من هؤلاء الأولياء.

وأيضًا فإن المريدين ليس معهم مدد يمدون به من يزورونه من الأحياء والأموات إلا القراءة عند قبر كلٍّ واحد. ومعلوم أن الزائر لا يصل إلىٰ ذلك بغير المشي علىٰ قبور بعض الأولياء، لاسيما بنعل أو دابة، فما يحصل لهذا من الإثم بدوس الأولياء بالنعال وروث الدواب عليهم أرجح في الإثم من ترك زيارتهم بيقين.

وأيضًا إذا لم يكن شيخهم يكفيهم مددًا مع مشاهدتهم له ولأعماله، فالأموات لا يكفونهم من باب أولىٰ. وقد دخل عليَّ شخص وقال لي: ركبتُ اليوم بغلتي وزرتُ نحو سبعمئة شيخ، ولكن خاطركم عليَّ في الدَّين الذي عليَّ. فقلتُ له: إذا كنتَ لا تعتقد في سبعمئة شيخ أنهم يأخذون بيدك، فكيف يأخذ بيدك عبد الوهاب؟! فسكتَ وعلم من نفسه أن زيارته للأولياء إنما هو لحظ نفس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من شرط مشروعية الزيارة من الأكابر للأموات أن يكون أحدهم ممن أعطاه الله تعالىٰ معرفة المنعَم والمعذَّب في قبره، ليقف يشفع في المعذَّب، ولا يفارقه حتىٰ يقبل الله شفاعته فيه، ويزول عنه العذاب. وأما زيارته للمنعَّمين في قبورهم، فلا يفارقهم حتىٰ يسجد لله تعالىٰ شكرًا نيابةً عنهم، ويسأل الله تعالىٰ لهم زيادة النعيم.

واعلم يا أخي أنه لا فرق فيمن يمد الأموات بين أن يكون من الأكابر كالعلماء والصالحين، أو من الأصاغر كالعوام والمذنبين، فلا يُقال: كيف يمد مثل فلان الإمام

الشافعي مثلًا؟! لأنا نقول: كلُّ من كان فوقه مقام أعلىٰ من مقامه، فهو يقبل الزيادة بالإمداد، فافهم(١)، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشتكي أحد من المظلومين حاله مع من ظلمه، فيجمع الفقراء ويدعو علىٰ الظالمين، ويصير لهم ضجة عظيمة في المسجد، فلاث بهم بعض الفقهاء وقال: قد يكون ذلك الذي اشتكىٰ ظالـمًا علىٰ من ادعىٰ أنه ظلمه، كما يقع فيه غالب الناس، فيُهلِك الحرث والنسل إذا تولىٰ كاشفًا أو عاملًا في بلاد. فإذا عزلوه من كثرة ظلمه وسلبوا نعمته، يصير يحكي للناس أنه مظلوم، وينسىٰ السبب الذي استحق به ما وقع له، أو يذكره ولكن يكتمه عن الناس فجورًا ونفاقًا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ وجماعته الذين يدعون علىٰ الظالمين، فقد يكون ثبت عندهم ظلم ذلك الشخص الذي دعوا عليه، فطلبوا من الله تعالىٰ أن يكفه عن ذلك الظلم، أو مقابلته بنظير ذلك كفارةً له. وقد يكون دعاؤهم علىٰ الظالم إنما هو دعاء له بالعفو والصفح، أو أن يرزقه الله التوبة وردَّ المظالم إلىٰ أهلها، فإن **الأشياخ من عالم الرحمة لا من عالم العذاب**، فإذا بلغهم ظلم ظالم دعوا له بالتوبة، وللمظلومِ(٢) بأن يعفو عن ذلك الظالم، أو يصبر تحت جوره وظلمه إذا لم يظهر له سببه.

ويقع لي كثيرًا إذا اشتكىٰ لي أحد من العمال أو الكشَّاف من أحد ظلمه [أني] أجمع الفقراء وأصير أدعو للظالم والمظلوم، فيظن بعض الجهال أنني أدعو علىٰ ذلك الظالم بمجرد شكوىٰ ذلك المظلوم منه، والحال أنني إنما أدعو للظالم والمظلوم من باب

---

(١) إذًا فالفارق بين إمداد الأولياء للزائرين وإمداد الزائرين للأولياء: أن الزائر إنما يمد الوليَّ بثواب ما يقرأ ويهب له، فحقيقة الإمداد راجعة لثواب الزيارة الموهوب للوليِّ أو الدعاء، فيزداد الوليُّ رفعة بثواب القراءة نفسها أو الدعاء. أما إمداد الوليِّ للزائر فهو ببركته وهمته وتوجهه ومكانته عند الله تعالىٰ، وتصبغ روحانيته المريد المستمد منه بصباغ السلوك والترقي. ومن هنا كانت زيارة الأولياء لاسيما آل البيت وكبار مشايخ الطريق كسيدي أحمد البدوي ضرورة للسالك، لما يحصل له فيها من ترقيات وقطع عقبات الطريق.

(٢) أي ودعوا للمظلوم أيضًا.

حديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[1]. وكثيرًا ما أدعو بذلك سرًّا، وآمر الفقراء أن يؤمنوا من غير إعلامهم بما أدعو، رحمةً بهم وبالمدعو عليه، وإن كان ذلك لا يرضي المظلوم من الفقراء لو علم به.

وقد قالوا: إياك أن تشكو للعارف من أمر حدث عليك، لأنه ينظر الدنيا والآخرة، ويرىٰ ما ينفع العبد في الآخرة وما لا ينفعه، فربما رأىٰ ذلك الفقر أو العزل أو المرض يحصل لصاحبه الأجر في الآخرة، فيسأل الله تعالىٰ له دوامه، وأن يرزقه الصبر عليه، وهذا لو عُرِضَ علىٰ صاحب الحاجة ربما لا يرضيه، بل يطلب المال والولاية والعافية، وإن كان في ذلك نقص الأجر في الآخرة. هذا شان العارف، فإنه كالأب الشفيق علىٰ أديان أولاده وأبدانهم، فيمنعهم عن كل شيء يضرهم في أبدانهم وأديانهم، بخلاف الفقراء المتعبدين الذين لم يخرق بصرهم إلىٰ مشاهدة الدار الآخرة، فإنهم يدعون للسائل بحصول ما طلب، وإن كان فيه نقص درجته في الآخرة.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ فقير شكا إليه أحد من الكشَّاف مثلًا ممن ظلم ووعد فقراء الزاوية بقمح أو عدس أو غيرهما، ويصير يقول: كيف يدعي هؤلاء الصلاح وهم يدعون علىٰ الناس لأجل غرض من وعدهم بشيء من سحت الدنيا؟! فقد يكونون إنما يدعون له، ثم لا يقبلون منه تلك الهدية إذا أرسلها، كما يقع لي ذلك كثيرًا، فإن مذهبي تحريم قبول هدية علىٰ الشفاعات، سواء أكانت باللسان أو بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، وقلَّ من الفقراء من يراعي ذلك الآن في الظاهر، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يتردد إليه الأكابر من الكشَّاف ومشايخ العرب، وله عدو من أقرانه ينقصه في المجالس، فصار ينفِّر الأكابر عن ذلك العدو ويقول: الذي يجتمع بي لا يجتمع بفلان؛ فلاث الناس به وقالوا: إذا كان [هذا][2]

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

فعل العلماء والصالحين مع بعضهم بعضًا، فما بقي أمثالنا يلام علىٰ مثل ذلك! ولكن صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر عن العلماء آخر الزمان من كونهم يصيرون يتغايرون علىٰ القرب من الملوك والأمراء، كتغاير الرجال علىٰ النساء[1].

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ إذا صار ينفر الأمراء ومشايخ العرب مثلًا من أحد من أقرانه، فربما قصد بذلك الشفقة عليه من قربهم منه، خوفًا عليه من الركون إليهم، فيُحشَر معهم، أو خوفًا عليه أن يدخل في حملة أحدهم إذا عُزِلَ من ولايته مثلًا، فلا يقدر علىٰ توليته، فيخجل منه، فأراد بتنفير ذلك الأمير عن ذلك العدو أن يصير يحمل عنه حملة ذلك الأمير، ويتحمل عنه الخجل الذي كان يحصل له منه إذا لم يقدر علىٰ عوده إلىٰ ولايته مثلًا.

فإن قال قائل: فإذا كان هذا قصده، فيكون ذلك بحسن عبارة من غير مبالغة في تقطيع عِرْضه؛ **فالجواب**: يُحمَل علىٰ أنه عرف من ذلك الأمير أنه لو لم يبالغ في تنفيره عنه، لاعتقده وأضرَّ بحاله، فلذلك بالغ في تنقيصه عنده مبالغةً في الاحتياط له والشفقة عليه.

فإن قال قائل: فكيف صحت عداوة الشيخ لشيخ آخر وكلاهما من أهل التقوىٰ ومن أهل الزهد في الدنيا، ومن كان كذلك فلا يصير له عدو؟! **والجواب**: أننا لم نثبت وجود عداوة بينهما في نفس الأمر، وإنما هي عداوة عند الناس، أو هي عداوة صورية أظهرها الشيخان لغرض صحيح شرعي. وقد صحبتُ أنا من رجال هذا المقام جماعةً، منهم أخي الشيخ الصالح سيدي أفضل الدين، ومنهم الشيخ عمر البوصيري[2]، فكان أحدهما إذا

---

(١) لم أقف عليه، وقد ذكره المؤلف من كلام كعب الأحبار في «تنبيه المغترين» ص١٥٧.

(٢) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ عمر البوصيري صحبته نحو عشرين سنة، ورأيت منه كشوفات وكرامات، ولم يأذن لي في إفشاء شيءٍ منها لأنه من الرجال الملامتية، ﷺ. وجمعني علىٰ الأولياء الذين يشفعون في أهل الموقف بعرفة كل سنة في سنة سبع وأربعين وتسعمئة في مسجد منىٰ، وكانوا كلهم من اليمن، أحدهم أمرد، ألوانهم كالزعفران من الصفرة رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم، آمين. لم يتيسر معرفة تاريخ وفاته. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٤٩٤) طبعة دار الإحسان.

تردد إليه أمير وبالغ في اعتقاده، يقول لأصحابه: نقصوني عنده، ونفِّروه عني، فإني عجزتُ وأنا أنفره عني، فلا ينفر، بل يزداد فيَّ اعتقادًا، ويظن أن ذلك مني هضم نفس ﷺ.

فإن قال قائل: الذي عندي أن هذين العالمين أو الشيخين ليسا بعلماء ولا بصلحاء، وإنما هما نصَّابَان[1]؛ **فالجواب:** أن ما مشينا عليه أولىٰ وأخلص للذمة، وقد يكونا شيخين صادقين في نفس الأمر كما ظنناه بهما، فما وقع جوابنا عنهم إلا علىٰ صدق وحق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نزل بشيخ آخر من أقرانه بلاء أو مصيبة، فصار يقول للناس: هل تعرفون ما سبب المصيبة التي نزلت بفلان؟ هذا أنكر علىٰ الفقير فلان، فصدمه هذه الصدمة، وهذا يدل علىٰ عدم رسوخ قدمه في الصدق مع الله تعالىٰ، ولو أنه كان صادقًا مع الله تعالىٰ، ما قدر أحد مع الفقراء علىٰ سلبه مثلًا؛ فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: إن مقصوده بهذا القول تحقير هذا الشيخ المصاب في عيون الناس لكونه عدوه.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ الذي أخبر الناس أن ما أصاب فلانًا صدمة من فلان، لأنه قد يكون صادقًا في ذلك، **ثم لا يلزم من تأثير الأدنىٰ في الأعلىٰ حقارةُ مقام الأعلىٰ**، فقد يبتليه الله تعالىٰ ببلاء علىٰ يد أضعف الناس، كما ابتلىٰ النمرود[2] وبختنصر[3] مع شدة تجبرهما بالبعوضة، فأهلكهما بها، وكما أن الذبابة تلدغ الأسد في عينه، فيخر الدم منها، فلا يقدر الأسد علىٰ ردها عنه.

وقد يعطي الله تعالىٰ بعض عباده قوةً لم يعطها لمن هو فوقه في المقام، فتصير الأمور

---

(١) بالأصلين: نصابًا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) النمرود، وهو الجبار الذي جادل سيدنا إبراهيم، وهو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(٣) بختنصر أحد الملوك الكلدان الذين حكموا بابل، وقد سلطه الله علىٰ بني إسرائيل.

تنفعل عن همته، فبمجرد ما تتوجه همته إلىٰ شيء، يلهم الله تعالىٰ بعض الولاة، فتفعله من غير سؤال باللفظ، كما وقع لي ذلك في سنة خمس وستين وتسعمئة، وذلك أن بعض الناس صاروا يسافرون إلىٰ السلطان ببلاد الروم، فيطلب أحدهم النظر علىٰ بعض الأوقاف التي في أيدي الناس حسبةً من غير معلوم، فيعطيهم السلطان ذلك، ظنًّا منه أن ذلك الناظر يريد خيرًا، وبعضهم صار يسأل السلطان في أي وظيفة شاء في يد أقرانه وأن يعزله له فيعطيه وظيفته، فحصل من ذلك لأهل مصر غاية الضرر، فهممتُ أني أكاتب الوزراء في ذلك، وأنهم يتوقفون في تقرير هؤلاء حتىٰ يأتي بعَرْض[1] من قاضي مصر بأنهم أهل لتلك الوظيفة، وأنهم أحق ممن هي في يده، فكتبتُ كتابًا، ووضعتُه عندي حتىٰ أرىٰ أحدًا يسافر به إلىٰ الروم، فجاء الخبر أن السلطان نادىٰ في ذلك اليوم الذي كتبتُ الكتاب فيه أن لا يُعطىٰ أحد وظيفة ولا نظر حسبة علىٰ وقف إلا إن أتىٰ بعرض من قاضي مصر، وأنهم راجعوا السلطان في ذلك، وقالوا: هذا ما هو القانون! فقال السلطان: أنا أجعله قانونًا. انتهىٰ.

فانظر يا أخي كيف أثرت همة مثلي في الولاة بالروم حتىٰ نادىٰ به السلطان في ديوانه؟! وحصل بذلك خير كبير إن دام. فاعلم ذلك، ولا تحتقر كيد العدو، فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب، وإياك أن تقول في نفسك: إن مثلي لا يقدر مثلُ فلان علىٰ تأثير فيه، فإن الله قد يقدره علىٰ ذلك، وإذا كان الله تعالىٰ هو الفاعل حقيقة في كل فعل، فلا توقف في مثل ذلك، فإن الله يفعل ما يشاء، والحمد لله رب العالمين.



(١) أي عرض حال، وهو طلبٌ مكتوبٌ يُقدَّم إلىٰ صاحب الأمر إمّا تظلُّمًا وإمّا لاستجلاب نعمة.

الباب الحادي عشر

جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(١٠٣٣) ومما أجبتُ به عن العالم إذا توقف في بعض المسائل الظاهرة لآحاد الطلبة، فلاث بعض الأقران به وقالوا: فلان سُلِبَ العلم، ولم يبق معه سوىٰ الاسم.

والجواب: أنه لا ينبغي نسبته إلىٰ ما ذُكِرَ، فقد يكون يعرف وجه تلك المسألة، ولكن لم ير أحدًا تكلم عليها، فخاف أن يتكلم بها، فيصير عليه وزرها إن كان فيها وزرًا، وإصرها إن كان فيها مشقة، فترك الكلام عليها تورعًا. وقد قال ابن النقيب[1] في «نكته على المنهاج» في قوله[2] في الكلام علىٰ أكمل الركوع: (ويفرِّق أصابعه للقبلة): لم أعرف حكمة ذلك. انتهىٰ. فقال الشيخ وليُّ الدين[3]: أي لا ينشرها يمينًا ولا شمالاً. وقال غيره: الحكمة في ذلك أن تسجد معه الأصابع للقبلة. وقال غيره: الحكمة في ذلك كون القبلة أشرف الجهات. فعُلِمَ أنه ينبغي حمل العالم إذا توقف في مسألة علىٰ التورع لا علىٰ الجهل بها، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أحمد بن لؤلؤ بن عبد الله الرومي، أبو العباس، شهاب الدين ابن النقيب: فقيه شافعي مصري مولده ووفاته بالقاهرة. كان أبوه روميًا من نصارىٰ أنطاكية. رباه أحدُ الأمراء وأعتقه وجعله نقيبًا فتصوف في البيبرسية بالقاهرة. ثم حفظ القرآن وتفقه وتأدب وجاور بمكة والمدينة مرات. له مصنفات منها: «تسهيل الهداية وتحصيل الكفاية» و«السراج في نكت المنهاج» و«الترشيح المذهب في تصحيح المهذب للشيرازي» و«عمدة السالك وعدة الناسك» توفي: ٧٦٩هـ. انظر: «الأعلام» (١/ ٢٠٠).

(٢) أي قول النووي صاحب «منهاج الطالبين» في الفقه الشافعي

(٣) ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ولد سنة ٧٦٢ هـ بالقاهرة، ولي القضاء بعد الجلال البلقيني، وحمدت سيرته، ولم يدار أهل الدولة فعزل قبل تمام العام علىٰ ولايته، من مصنفاته: «فضل الخيل»، «أخبار المدلسين»، «المستفاد في مبهمات المتن والإسناد» وغيرها، ت سنة ٨٢٦هـ. «الضوء اللامع» (١/ ٣٣٦)، «الأعلام» (١/ ١٤٨).

(١٠٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إياك إن رأيتَ ربك في واقعة وقال: «غفرتُ لك مثلًا، أو ضمنتُ لك تسهيل رزقك» أن تثق بضمانه؛ فلاث به فقيه وقال: حسن الظن بالله تعالىٰ أولىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما قصد بذلك القول عدم الركون إلىٰ سماع الهواتف الربانية، خوفًا عليه من أن يكون ذلك تلبيسًا من إبليس، فإن الله تعالىٰ أقدره علىٰ أن يمثل للعبد عرشًا وكرسيًا وغيرهما ويخاطبه منه، فإن أعطىٰ الله تعالىٰ ذلك العبد القوة والتأييد، عرف الفرقان بين العرش أو الكرسي الحقيقي وبين العرش أو الكرسي المتخيَّل، فأخذ عن الحقيقي، ورد ما جاءه من المتخيَّل.

ويُحتمَل أن يكون الشيخ قصد بذلك القول للمريد فتحَ باب المعرفة بالله تعالىٰ، ومعرفة إطلاقه، وأنه إذا قيَّد أمرًا فله الرجوع عنه، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، فدخل في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعذيب الطائع وتنعيم العاصي إلا ما أخرجه النص، نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، فيحتاج السالك إلىٰ عينين: عين ينظر بها إلىٰ مقام الإيمان، فيقطع بالتصديق بما وعد الله تعالىٰ وتوعد، وأنه لا يخلف الميعاد؛ وعين ينظر بها إلىٰ مقام المعرفة بالله، وأن له أن يخلف ما وعد به أو توعد من خير أو شر.

وتأمل يا أخي إلىٰ ما في البخاري من حديث الرجل الذي تسلف ألف دينار من بني إسرائيل، وطلب منه المسلِف شهيدًا، فقال له المستسلف: كفىٰ بالله شهيدًا! وطلب منه وكيلًا يدفع عنه الألف إذا عجز عنها، فقال: كفىٰ بالله وكيلًا! كيف لم يكتفِ بإرسال الألف دينار التي جعلها في الخشبة وأرماها في البحر، ليرسلها الله إلىٰ صاحب الدين، بل أخذ ألفًا أخرىٰ وسافر، فوجد الألف التي في الخشبة قد وصلت إليه، فإنه لما جاء وقت الأجل الذي كان جعله، صار يترقب مجيء مركب يكون فيها المديون، فوجد الخشبة علىٰ جانب الساحل، فأخذها حطبًا لأهله ولا يعرف ما فيها، فلما نشرها وجد الألف والصحيفة، فلما

دخل المديون عليه بالألف، قال: إن الله تعالىٰ قد أدَّىٰ عنك![1] فكانت مسافرة المديون بالألف الأخرىٰ من سعة علمه بالحقِّ تعالىٰ، وأنه تعالىٰ لا يتقيد عليه، فلا يقدح ذلك في مقام إيمانه بأن الله تعالىٰ يؤدي عنه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزجر كلَّ من اجتمع عليه من جماعة أحد من أقرانه؛ فلاث به الناس وقالوا: وظيفة الشيخ أن يؤلِّف قلوب الذين يجتمعون عليه لا تنفيرهم.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، لأنهم لا يفعلون شيئًا إلا لحكمة، فربما كان سبب زجره لجماعة غيره تخليص بواطنهم من التعلُّق به مع شيخهم، فيقعون في الخيانة له، لاسيما من يترك مجلس شيخه ويجيء يذكر في مجلس غيره، فإن ذلك خروج عن طريق المريدين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من شرط الأشياخ تأليف قلوب الناس علىٰ كلمة التوحيد، لاسيما من لا يتيسر له أن يذكر في بيته ولا حانوته، فمن نفَّر مثل هذا،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم. فقال: كفىٰ بالله شهيدًا. قال: فأتني بالكفيل. قال: كفىٰ بالله كفيلًا. قال: صدقت، فدفعها إليه إلىٰ أجلٍ مسمًّىٰ، فخرج في البحر فقضىٰ حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلىٰ صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتىٰ بها إلىٰ البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفىٰ بالله كفيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفىٰ بالله شهيدًا، فرضي بك، وأني جَهَدتُ أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمىٰ بها في البحر حتىٰ ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلىٰ بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتىٰ بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدىٰ عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألفِ الدينار راشدًا» وابن حبان (٦٤٨٧) وأحمد (٨٥٨٧).

فقد تسبب في قطعه عن طريق الله تعالىٰ. وهذا الأمر يقع لنا كثيرًا في مجلس الذكر مع أصحاب الأنفس الردية، كالذي يتمشيخ أو يجلسه أحد للمشيخة علىٰ طريق الأحمدية أو السهروردية أو غيرهم ممن لا يعرف قواعد الطريق علىٰ التحقيق، لاسيما إن طعن في السن، فإن مثل هذا لا يكاد يسمع لأحد ينصحه في دينه أو يأمره بموافقة الذاكرين في رفع الصوت أو خفضه، وربما قال: أنا لي في المشيخة من قبل أن تلدكم أمكم! وقد أنشدوا في مثل ذلك:

إن الغصون إذا لاينتها اعتدلت ... ولــن يلين إذا لاينته الخشب

أي بل ينكسر كخشب الجميزة اليابسة، بخلاف أغصان البان أو الآس أو الرمان، فينبغي للفقراء أن لا يشتغلوا بتقويم من طعن في السن إنما ذلك من وظيفة الشيخ. انتهىٰ.

ويقع لي كثيرًا أنني أزجر المريدين وأنصر المتمشيخ عليهم رحمةً به، لا سيما إن علمتُ أنه إن انقطع عن مجلسنا لا يذكر الله تعالىٰ وحده، وربما أجعله يفتتح بالجماعة تأليفًا له، وإن كره الفقراء ذلك، لئلا يترك ذكر الله تعالىٰ، **ومقصود الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ كلهم جمع الخلق علىٰ كلمة «لا إله إلا الله» محبةً في الله تعالىٰ، لا طلبًا للرئاسة عليهم في** المجلس، ومعاذ الله أن يقع صادق في مثل ذلك! فاعلموا ذلك أيها الإخوان وداووا كل من ورد عليكم أو كلوا أمره إلىٰ الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشكو إليه مريده كثرة الغفلة عن الله عزَّ وجلَّ في صلاته وعباداته وغير ذلك، فيقول له: اشكر الله تعالىٰ الذي أكثر عليك الغفلة عنه؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: الغفلة عن الله تعالىٰ وعن عبادته مذمومة بإجماع المسلمين، فكيف يقول له: اشكر الله الذي أكثر عليك الغفلة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ في مثل هذا القول، لاحتمال أنه تفرَّس فيه عدم قيامه بالأدب مع الله تعالىٰ إذا أكثر عليه الحضور معه في عباداته وغيرها، فإنه لا يقوم بواجب الأدب مع الله تعالىٰ إذا حضر معه إلا الأنبياء وكُمَّل

الأولياء. وأما غيرهم فربما مقت وطرد من سوء أدبه، فطلب الشيخ لمريده أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ كثرة غفلته عنه، حتىٰ يعلمه الأدب اللائق بأمثاله مع الله تعالىٰ لا مطلقًا، لأن ذلك لا يقوله عاقل، ولا شك أن الغفلة عن الله تعالىٰ هي من جملة السهو، وذلك محمول عن الأمة، فكان أولىٰ لهذا المريد من الحضور مع الله بلا أدب.

ومن شأن أشياخ الطريق أن يعلِّموا الناس الأدب مع الله تعالىٰ، لأنهم بوابو حضرات الأسماء والصفات، فكل من رأوه عازمًا علىٰ دخول الحضرة يعوِّقونه عن الدخول ويقولون له: «قف حتىٰ نعلمك الأدب اللائق بالحضرة ثم ادخل» كما أن أكابر العارفين بوابو حضرة الذات، فكل شيخ رأوه داخلًا حضرة الذات يقولون له: «قف حتىٰ نعلمك الأدب الخاص بحضرة الذات ثم ادخل».

[الفرق بين حضرة الأسماء والصفات وحضرة الذات]

والفرق بين الحضرتين أن حضرة الأسماء والصفات تتعلق بأمر العبادات والأدب معها الإخلاص في الأعمال من الشوائب، بخلاف حضرة الذات لا تتعلق إلا بالذات المقدس، وأدبها لا يقدر عليه كل شيخ كما هو مقرر بين أهل الكشف.

ويُحتمَل أن هذا الشيخ ما قاله له: اشكر الله علىٰ الغفلة عنه إلا من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ عليه لا من حيثُ الكسبُ والاستهانةُ بالحضور مع الله تعالىٰ، وإذا كان كل شيء خطر بال العبد من التجليات الإلهية علىٰ قلبه لا يجوز له الوقوف معه، فأين الحضور؟! ومن هنا قال المحققون: كل شيء خطر ببالك فالله تعالىٰ بخلاف ذلك، فإذن ما تم لأحد من الأمة حضور مع الله تعالىٰ حقيقة، وإنما ذلك خاص بالأنبياء والمرسلين كما بيناه في كتاب «ميزان العقائد».

وقد سألت سيدي عليًّا الخواص ﵀ مرةً عن سيدي يوسف العجمي وغيره من أشياخ السلسلة هل كانوا أقطابًا؟ فقال: لا، إنما شأنهم تعليم الناس أدب الدخول للحضرة الإلهية لا غير. وأما القطبية فجلت أن يلمح سناها الأقدس غير من اتصف بها علىٰ نزاع في ذلك أيضًا. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشاوره أمير أو شيخ عرب في الاجتماع بأحد من أقرانه المشهورين بالمشيخة مثله، فقال: لا تجتمع بأحد غيري إن أردتَ صحبتي. فقال له الأمير: إني أريد ولاية وقد وعدني بها إن اعتقدتُه. فقال: ولو اعتقدتَ فيه القطبية الكبرىٰ لا يقدر علىٰ توليتك؛ فلاث به أصحاب الشيخ الآخر، وقالوا له: ما هكذا كان الأشياخ ينفِّرون الناس من الاعتقاد في أقرانهم!

والجواب: أنه لا ينبغي لأصحاب ذلك الشيخ اللوث بهذا الشيخ وحمله علىٰ أن يكره شيخهم، بل يجب حمله علىٰ أنه ما نفىٰ عنه القدرة علىٰ تولية الأمير تلك الوظيفة إلا لقلة اعتقاد الأمير في ذلك الشيخ، لا لنقص الشيخ عند الشيخ الآخر وكراهته، فإن منصب الأشياخ يجل عن مثل ذلك، فإن شرطَ المعتقِد أن يشرف علىٰ مقام الشيخ الذي اعتقده؛ لأنه حينئذٍ عرف مقامه. وأما من كان بعيدًا عن مقام الشيخ، فبعيد عليه أن يُقضَىٰ له علىٰ يديه حاجة، إلا إن كان علة قضاء الحاجة أمرًا آخر غير الاعتقاد من دنيا[1] أو حسن سياسة، فأراد الشيخ الأول من الأمير أن لا يجتمع علىٰ الشيخ الثاني لأجل توليته تلك الوظيفة حتىٰ يعلِّمه الأدب معه، وكمال الاعتقاد في صلاحه وولايته، لا بغضًا في ذلك الشيخ.

وقد قال الأشياخ: من علامة صحة اعتقاد الأمير في فقير أن لا يحتاج في تولية وظيفة حصلت له بواسطة توجه الفقير إلىٰ غرامة شيء من الفلوس للسلطان الذي يوليه أو نائبه، ومتىٰ أحتاج طالب الوظيفة المدعي كمال الاعتقاد في الفقير إلىٰ غرامة فلوس، فهو دليل علىٰ عدم صحة اعتقاده فيه، لا علىٰ نقص مقام الشيخ. انتهىٰ.

وهذا الأمر يقع علىٰ يدي كثيرًا، فإذا طلب مني أمير أو شيخ عرب توليته وظيفة، وعلمتُ منه قلة اعتقاد فيَّ، أُحسِّن اعتقاده في غيري وأرسله إليه، لعلمي بأنه لا يُقضَىٰ له علىٰ يدي حاجة إلا إذا رجحني علىٰ غيري، ولو أني علمتُ منه صحة الاعتقاد الكامل في جانبي ما أرسلتُه إلىٰ غيري، بل كنتُ أقضي حاجته وأكسب أجرها إن كانت ولاية صالحة. وأما الولاية التي فيها ظلم، فلا ينبغي لي قضاؤها، ولا إرساله إلىٰ أحد آخر يقضيها له.

---

(١) بالأصلين: ديني.

وكذلك من شأني إذا أراد مني أمير الصحبة لقضاء حاجة له علىٰ يدي، أقول له: أنا ليس بيدي حلٌّ ولا ربطٌ، فاذهب إلىٰ فلان وفلان -وأُعيِّن له مشايخ البلد- فخذ خاطرهم عليك، كلُّ ذلك خوفًا أن لا يقع له علىٰ يدي قضاء حاجة إذا تقيَّد عليَّ وحدي، فيقول ولو في نفسه: لو كنتُ اجتمعتُ بشيخ آخر غير هذا، لربما كان ولَّاني الوظيفة الفلانية، أو قضىٰ حاجتي، كما هو واقع كثيرًا في هذا الزمان، فيحتاج الفقير الذي يطلب من الأمير أن يتقيد عليه إلىٰ شيئين:

الأول: قسمة تلك الوظيفة لذلك الأمير.

الثاني: علم الشيخ بأنها تُقضىٰ علىٰ يديه، **وإلا فكل ما لا يقسم لا يصح لأحد أن يوصله لأحد، ولو كان القطب الغوث، فعُلِمَ أن الأشياخ دائرون مع مصالح العباد لا علىٰ حظوظ نفوسهم**، وأنهم ما حسَّنوا اعتقاد أحد في أحد أو نفَّروه إلا لغرض شرعي.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص ﵀ يقول: إذا علمتُم أن الله تعالىٰ قسم لأحد علىٰ يديكم قضاء حاجة، فلا تتعبوه بإرساله إلىٰ غيركم، ونفِّروه عن غيركم ما استطعتُم، طلبًا لسرعة قضاء حاجته وإراحته من التعب، كما أشار إلىٰ ذلك قوله ﷺ: «أنا أول شافع وأول مشفَّع يوم القيامة»[1]، فإنه ﷺ أكثر الخلق تواضعًا، وما قال مثل هذا القول إلا ليُعلِم بذلك أمته، فلا يذهبون إلىٰ نبي بعد نبي يوم القيامة، كما ورد في حديث الشفاعة، وإنما يصبرون حتىٰ تأتي النوبة لرسول الله ﷺ ويقول: «أنا لها أنا لها»[2]، فقصد ﷺ بذلك إراحة أمته من التعب في ذلك اليوم العظيم، لا الفخر علىٰ إخوانه من الأنبياء، معاذ الله أن يقع ذلك من معصوم! ويؤيد ذلك قوله في آخر الحديث: «ولا فخر» أي ليس مرادي بهذا القول الفخر علىٰ غيري، وإنما قصدتُ به بيان الواقع في ذلك اليوم رحمةً

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٣٦١٦) والدارمي (٤٨) وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٩٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) بغير تكرار لفظ «أنا لها» وأبو داود الطيالسي (٢٨٣٤) واللفظ له.

بأمتي، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الأشياخ علىٰ شيء من رعونات النفوس، فتخطيء طريق الأدب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتصدر لإرشاد المريدين وينام الليل، ويلبس الثياب النفيسة، ويأكل الأطعمة اللذيذة، وينكح النساء المنعمَّات، وله نظام كالملوك، فلاث به بعض الأقران وقالوا له: هذا نظام غريب عن طريق الفقراء! وربما كان حرامًا من حيثُ إنه يقطع الطريق علىٰ غالب المريدين، فإنهم ينكرون علىٰ صاحب هذا الحال أشد الإنكار، ولو كان من أكبر الأولياء في نفس الأمر.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن الله تعالىٰ يخرق له العادة، كما خرق له ذلك في الملابس والمناكح وغيرها، فلم ينقص له مقام بذلك صدقةً من الله تعالىٰ عليه. وقد يكون له حال يحمي مريديه من أن يتبعوه في مثل هذه الأفعال، كما وقع لسيدي الشيخ عبد القادر الجيلي، فقد بلغنا أنه كان يلبس الحُلَّة بألف دينار، وكذلك من تبعه علىٰ ذلك كسيدي علي بن وفا، وسيدي محمد الحنفي الشاذلي، وسيدي مدين، وسيدي الشيخ أبي الحسن البكري، وولده العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد رضي الله عنهم.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: طريق التقشف هي التي عليها جمهور المقرَّبين من الأنبياء والأولياء، ولله تعالىٰ طريق أخرىٰ أعطاها لبعض أفراد، وهو تجليه تعالىٰ لهم بصفة الجمال والأنس والبسط حتىٰ كأنهم في الجنة، فينبغي أن يُسلَّم لمثل هؤلاء أحوالهم. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لمريده حين قام من مجلس الذكر أواخر المجلس: قد فاتك في هذا الوقت أجر أفضل من الأجر الذي حصل لك طول عمرك؛ فلاث به فقيه وقال: من أين لك يا سيدي الشيخ ذلك؟! ومثل ذلك لا يكون إلا بوحي من الله عزَّ وجلَّ، وقد انقطع.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد سبقه إلىٰ ذلك الإمام أبو القاسم الجنيد ﷺ في قوله: لو أقبل عارف علىٰ الله تعالىٰ ألف سنة ثم أدبر عنه لحظة، كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما ناله. انتهىٰ. وذلك لأن كل لحظة متضمنة لجميع الأمداد السابقة، ويزيد علىٰ ذلك بحكم مدد الوقت، فإن جود الحق تعالىٰ فَيَّاضٌ علىٰ الدوام، كما يعرف ذلك أهل الكشف[1]، فسلِّم لهم حتىٰ ينكشف حجابك، أو تصير إلىٰ الدار الآخرة، فإنه ما ثم نص عن الشارع يعارض في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرىٰ أصحابه علىٰ حال ناقص، فلا يأمرهم ولا ينهاهم، فلاث به بعض الناس وقالوا: كان يجب علىٰ هذا نصح أصحابه لحديث: «الدين النصحية»[2].

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ إلا بعد الاجتماع عليه ومعرفة أحواله، فقد يكون قلبه مشغولًا بالله في حال وقوع أصحابه في النقص، أو ممن غلب عليه شهود محاسن الخلق دون مساوئهم، أو ممن كان محجوبًا بشهود الفاعل عن المفعول، فدهِش بين جمال الحقِّ تعالىٰ وجلاله، كما يقع ذلك غالبًا للأشياخ، ومعلوم أن العبد لا يُطالَب بالأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر إلا إذا كان مشاهدًا لأفعال الخلق، اللهم إلا أن يمن الله تعالىٰ علىٰ عبده بمقام الكمال، فيصير يشهد الفعل للحق من وجه، وللخلق من وجه آخر، فمثل هذا يصح عليه اللوم لو تصور.

ويقع لي كثيرًا أنني أحضر بقلبي مع الله تعالىٰ، فأغيب عن الخلق، فأقول قبل أن يستغرقني الحضور: «اللهم أنت وليي وولي أصحابي في حال غيبتي عنهم، فتولَ يا رب

---

(١) قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات» الباب (٦٩): «قال أصحابنا: إذا فاتتك نظرة واحدة من الحق وقد كنت تشهد قبل ذلك مستصحِبًا عمرك كله، لكان ما فاتك في تلك النظرة خيرًا مما نلته فيما تقدم. والسبب في ذلك أن كل نظرة تكون للعبد من الحق تتضمن لذة كل نظرة تقدمتها، وتزيد علىٰ ذلك بما تعطيه حقيقتها، فقد فاته خير كثير، فعليه بقضاء ما فاته ليحصل له هذا العلم كما يقضي الصلاة إذا فاتت».

(٢) تقدم تخريجه.

أمرهم، وأدِّب من يستحق التأديب، وأسبغ النعم علىٰ من يستحق إسباغها، علىٰ حسب ما سبق به علمك، إنك علىٰ كلِّ شيء قدير» ثم لا عليَّ بعد ذلك استقاموا أو انعوجوا، لأن الله تعالىٰ هو وليُّهم في ذلك الزمان لا أنا كما هو في نفس الأمر، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعلم الحال التي يكون الحق تعالىٰ فيها راضيًا عني، والحال التي يكون فيها ساخطًا عليَّ، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا غيب لا يعلمه إلا الله تعالىٰ!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ذلك من الغيب الذي يُعلَم. وقد سأل رجل السَّرِّي السَّقَطِيَّ فقال: هل يعلم العبد أن الله تعالىٰ راضٍ عنه أو ساخط؟ فسكت السري، وكان الجنيد حاضرًا وهو دون البلوغ، فقال: أنا أعلم ذلك. فقال له السري: كيف ذلك؟! فقال: إذا كنتُ راضيًا عنه علمتُ أنه راضٍ عني؛ وإذا كنتُ ساخطًا علىٰ شيء من مقدوراته، علمتُ أنه ساخط عليَّ. فقال له السري: أخاف عليك يا محمد أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد: فلم أزل خائفًا منذ قال السري لي ذلك. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن كل عبد يحس برضا الله تعالىٰ عنه حال طاعته، وبسخطه عليه حال معاصيه، ويدرك في نفسه التفرقة بين الحالين، كما يدرك المؤمن التفرقة بين الإسلام والكفر، فلا اعتراض علىٰ الشيخ فيما قال. وقد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف عن اللوح المحفوظ، ورأىٰ فيه نفسه من السعداء أو من الأشقياء، كما وقع لبعض الأولياء، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في طريق القوم إذا أنكر عليه علماء العصر ولاثوا به، وقالوا: هذا يفعل أفعالًا لم يأتِ بها كتاب ولا سنة؛ فلاث الناس به وقالوا: لو كان هذا شيخًا في الحقيقة ما أنكر عليه العلماء.

والجواب: أنه لا يقدح في أهل الطريق إنكار غيرهم عليهم، من حيثُ دقةُ مداركهم

في أسرار الشريعة، كما يشهد لذلك قصة موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع الخضر، اللهم إلا أن يخالف ذلك الشيخُ صريحَ الكتاب والسنة، أو يخالف الإجماع، فهذا يجب الاعتراض عليه والإنكار.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لا ينبغي التسليم للقوم إلا فيما كان طريقه الفهم، فإن الأفهام تختلف في كل عصر، ولا لوم إلا علىٰ من خالف صريح السنة. ثم قال لي: فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الطائفة، بل تربص في أمرهم، وانظر في أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم بنور الله، فإنه لابد لك من ظهور ثلاثة أمور: إما موافقتها للكتاب والسنة، وإما مخالفتها لهما، وإما أن لا يظهر لك موافقة ولا مخالفة، فالأول لا يجوز الإنكار عليهم فيه، والثاني يجب إنكاره، والثالث أحسن الأحوال فيه الوقف. انتهىٰ. وهو كلام نفيس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يقع فيما يُنكَر عليه إلا الناقصون من الصوفية. أما الكامل فلا يقع في شيء يخالف ظاهر الشريعة، لحفظه وغيرته علىٰ الشريعة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطعن في شيخ آخر قد أجمع الناس علىٰ علمه وعمله وجلالته وورعه، وقدَّموه عليه وعلىٰ غيره من أشياخ بلده، فلاث الناس بالطاعن وقالوا: هذا كله حَسَدٌ وعداوة، وهو حرام علىٰ كلِّ مسلم، ومن فعل ذلك كان عليه إثم قاطع الطريق.

والجواب: أنه لا يجوز حمل الشيخ الذي طعن في الشيخ المذكور علىٰ أنه يكون سبب ذلك الحسد والعداوة، فقد يكون من أحب الناس إليه، وإنما طعن فيه ليرد عنه ضرر العين، أو خوفًا عليه من الوقوع في العجب بحاله، فإن الإنسان قلَّ أن يعتقده الناس ويجمعوا علىٰ جلالته وتقديمه علىٰ أقرانه ويسلم من خطور العجب بحاله، فقصد هذا الطاعن بما قاله من التجريح فيه الحفظَ لصاحبه من الوقوع في الإعجاب. وقد أدركتُ

من رجال هذا المقام جماعة كانوا يفرحون بمن يجرحهم وينقصهم بين الناس أكثر ممن يمدحهم، منهم أخي أفضل الدين ﵀.

فاعلم ذلك أيها الأخ، وإياك أن تطعن في أحد من أقرانك حسدًا له وعداوة، وتدعي أنك قصدت بذلك الخير له، فإن الناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٤) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يعتب علىٰ الشيخ أو العالم الكبير إذا لم يتردد إليه ويقول: إن مثلي ينبغي التردد إليه من مثلكما! فلاث الفقراء بذلك الأمير وقالوا: هذا سوء أدب من الأمير، وإخلال بمقام الأشياخ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الأمير، لاسيما إن كان من حذَّاق الناس، لاحتمال أن يكون قصده بذلك بيان مقام تواضعهما لمن كان يجهله، لا إزراء بمقامهم. ولا يجوز حمل هذا الأمير علىٰ التكبر كما قد يتبادر إلىٰ الأذهان.

وأما الشيخ فإن تكدر من مثل ذلك، فلا يجوز اللوث به كذلك، لأنه ربما قصد ستر مقام نفسه في التواضع بين الناس، وهو في نفسه في غاية الانشراح لرؤيته أن حكمه حكم سيد دعا عبده إلىٰ حضرته، فحقه أن يفرح بالقرب من سيده لا أنه يتكدر، فالشيخ هو العبد والأمير هو السيد، فعُلِمَ أنه لا ينبغي [مناقشة الشيخ في التكدر، وإنما الذي ينبغي][1] مناقشته هو لنفسه إذا ادعت مقام التواضع ويقول لها: أنت كاذبة في دعواك! ولو كنت متواضعة حقيقة، لم تتكدري ممن طلب منك الخدمة له والتردد إليه. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي فرغ من مجلس ذكر أو قربت الصلاة، فكلَّمه إنسان فلطمه لطمة شديدة، فلاث به الحاضرون وقالوا: إن هذا الشخص لم يفعل شيئًا يقتضي جواز ضربه.

والجواب: أنه ينبغي حمله علىٰ أنه كان ذاهل العقل إما من سكر الحال الذي حصل له من الذكر، وإما من شدَّة عظمة الله التي تجلَّت له من حضرة الصلاة التي

---

(١) ساقط من «ب».

تكاد مفاصل الأنبياء والملائكة تنفصل منها، فضلًا عن غيرهم، ومع ذلك فلابد لهذا الشيخ من تمكين ذلك الملطوم من الاقتصاص منه في دار الدنيا، عملًا بظاهر الشريعة والحقيقة، فإن الحقيقة تطالبه بالسلوك إلىٰ مقام التمكين، بحيثُ لا يشغله من يكلمه عما هو متوجه إليه من خطاب الحق تعالىٰ أو ذكره.

وإن كان ذلك الشيخ يدعي مقام الكمال، حملناه علىٰ أنه فعل ذلك زجرًا لذلك الشخص أن يكلِّم فقيرًا عقب الذكر، أو حين قربت الصلاة، فيصيح عليه فيخرسه أو يكسحه، كما وقع لسيدي الشيخ تاج الدين الذاكر حين كلمته جاريته، وصارت مقعدة سبع سنين والشيخ يخدمها، ويزيل القذر من تحتها، ويغسل ثيابها، ولا يمكِّن غيره يفعل ذلك ويقول: أنا أحق بذلك لكوني سببه.

وقد وقع لي يومًا ذلك مع الشيخ إسماعيل النقيب ومع الشيخ عبد الله الجبرتي حين كلمني أحدهما لما قربت الصلاة، والآخر لما سلمتُ من الصلاة، فذكرا أني لطمتُ كلَّ واحد منهما لطمةً شديدةً لا تُحتمَل في الغالب، فلما صحوتُ مكنتُهما من الاقتصاص مني فسامحاني، فجزاهما الله عني خيرًا. وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه، فينبغي تسليمه لأهل الله حال الفعل لا حال الاقتصاص منهم إذا امتنعوا منه بالحال، كأن يبست يد الذي أراد الاقتصاص، فيُنكَر عليه حينئذٍ، لأنه منكر بعد منكر.

فإن قال قائل: فهل يسقط عن صاحب هذا الحال القصاص في الآخرة؟ **فالجواب**: قد قال الشيخ محيي الدين في «لواقح الأنوار»: إن منعه من الاقتصاص منه، ونصرة الحق تعالىٰ له هنا، وحمايته من اقتصاص المظلوم منه دليل علىٰ أنه تعالىٰ يريد مسامحته هناك، وإرضاء خصمه عنه في الآخرة.

فإن قال قائل: إن من شرط الكامل أن يكون مجموع القلب مع الله تعالىٰ لا يلهيه أحد من الخلق عن خطابه ولا مناجاته، فكيف أشغل قلبه عن ربه كلام هذا الشخص له عقب الذكر أو قرب قيام الصلاة؟ **فالجواب عنه كما تقدم أول الكلام**: إما أن هذا الشيخ لم يكن بلغ مرتبة الكمال، أو بلغها ولكن فعل ذلك زجرًا لذلك الشخص الذي

كلّمه، لئلا يفعله مع صاحب حال فيؤذيه. وقد أجمع القوم على أن مراقبة الله تعالى مع الأنفاس ليست من مقدور البشر، ولو صار لا يشهد بقلبه إلا الله، فلابد من حجاب ما يقع عليه في بعض الأوقات، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: إذا ضحك الفقير في وجه أحدكم[(١)]، فاحذروه ولا تخالطوه إلا بالأدب، فإن الفقراء قلوبهم في التقلب بين يدي الله تعالى، فيسامحون بأكبر الذنوب، ويمقتون على أصغرها. انتهى.

فاعلم ذلك، وسلّم يا أخي للفقراء أحوالهم باطنًا، وأنكر عليهم ما خالف الشرع ظاهرًا، نصرةً للشرع لا اتباعًا لهوى النفس، خوفًا أن يعطبوك، بخلاف ما إذا قصدتَ نصرة الشرع، فإنك تكون في حماية الله تعالى لا يقدر أحد أن يعطبك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه من أهل الكشف، فرأى إناء مدخنًا يشبه إناء السمك، فقال للحاضرين: كان في خاطرنا سمك، فالحمد لله أتانا به من غير سؤال! ثم كشفوا الإناء فإذا هو لبن، فلاث به الحاضرون وقالوا: كيف يدعي هذا الكشف؟! ما هذا إلا نصب على الخلق!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالأشياخ في مثل ذلك، فقد يكون يعرف أنه لبن، ولكن أراد أن يستر نفسه في الكشف، وقصد بذلك الكلام واقعة حال سبقت له قبل ذلك، وأنه اشتهى سمكًا، فأتاه الله به من غير سؤال.

وقد يكون ممن يقلب الله له الأعيان، وكان على هذا القدم الشيخ بركات[(٢)] الذي

(١) بالأصلين: أحدهم. والصواب ما أثبتناه.

(٢) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الكامل ذو الأحوال العظيمة والمكاشفات الغريبة مع الحال المستور، الشيخ بركات الخياط الذي كان مقيمًا بالدرب الأحمر خارج باب زويلة. كان أستاذًا في تفصيل الثياب للأكابر يقصدونه من سائر الحارات. وكان عليه جبة كأنها جبة سمَّاك، وكان يقول لمن طلب أن يخيط له: هات لي فوطة على ركبتي حتى أخيط لك. خوفًا أن تتسخ ثياب الناس منه. مات ثالث شهر من دخول ابن عثمان مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة. انظر: «الطبقات الوسطى» للإمام الشعراني الترجمة

دفن سيدي علي الخواص في زاويته، كان يقدم لضيفه لبنًا فيجده سمكًا، أو دجاجًا فيجده أوزًا، وبالعكس. وقد قدَّم لي مرة لحم خروف، فوجدتُه لحم طفل صغير، وأخذتُ مشط رجله بالخمس أصابع، ثم وضعتُها، فقال لي: كل منه، لحم ضاني[1]! وما ظهر لك فهو وهم! فلم أقدر أتناول منه شيئًا، فأخذه من يدي وأكله. وربما أخذ الحشيشة من بائعها، فيجدوها في يده حلاوة، فمثل هؤلاء كل من لم يرزقه الله تعالىٰ التسليم لهم، فبعده عنهم أولىٰ، لئلا يعطبوه بإنكاره عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أشهد الحق تعالىٰ عيانًا، وأشهد المخلوقات إيمانًا؛ فلاث به الناس وقالوا: إن الأصل شهود العبد المخلوقات عيانًا، والحق تعالىٰ إيمانًا، وإنما يصل العبد إلىٰ شهود ربه عيانًا بعد طول مجاهدة ورياضة علىٰ يد شيخ أو جذب إلهيٍّ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد أنه وصل إلىٰ ذلك بالسلوك لا ابتداءً، كما هو الغالب علىٰ الفقراء. ويُحتَمل أن يكون شهد ذلك في ابتداء أمره من حيثُ القوةُ الإلهيةُ التي نفخت فيه الروح، فغاب بشهودها عن رؤية عبوديته وعجزه وضعفه، ومثل هذا لا يرجع إلىٰ شهود الخلق إلا بعد رياضة ومجاهدة.

وهذان المقامان وإن كانا كاملين بالنظر لمقابلهما، فشهود العبد نفسه وربه معًا ابتداءً وانتهاءً هو الكمال الذي ليس فوقه كمال؛ لأنه مقام الأنبياء وكمَّل الأولياء. وهذا أمر لا يُدرَك إلا ذوقًا. وقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] يشهد للمقامات الثلاثة، فمن شهد وجه ربوبيته فقط، أُمر بشهود عبوديته وبالعكس، وكل واحد في حال شهوده المقام الذي هو فيه لا يشهد مقابله إلا إيمانًا، ومن نفىٰ أحدهما أشرك أو عطَّل.

---

(٤٦٧) طبعة دار الإحسان.

(١) الأصوب لغة: لحم ضأن، ولكن لما كان الأقرب أن يقولها الشيخ بركات بالتسهيل والياء كعموم المصريين، تركناها علىٰ حالها.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إنما أمر العبد أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ليتنبه أهل الوحدة المطلقة لوجه عبوديتهم، ويتنبه أهل العبودية لنفي استقلالهم بالفعل. وأما الكاملون الذين يشهدون الأمر علىٰ ما هو عليه في نفسه، فهم يرون الفعل لله خلقًا ولهم إسنادًا. انتهىٰ. وقد بسطنا علىٰ ذلك في كتاب «الأخلاق الكبرىٰ»، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اجتمع به مريد لشيخ آخر، فقال له: من شيخك في الطريق؟ فقال: فلان. فقال له: وهل لشيخك طريق يؤخذ عنه؟! فأخبر المريد شيخه بذلك، فغضب وقال: كيف يخرجنا عن الطريق، ونحن علىٰ طريق أعظم من طريقه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في قوله: «وهل لفلان طريق» لاحتمال أن يريد طريقه التي هو عليها إنما هي الشريعة المطهرة، فهي طريق رسول الله ﷺ حقيقة لا طريقة ذلك الشيخ، فهو شهادة من هذا الشيخ لشيخ ذلك المريد بأنه علىٰ شريعة رسول الله ﷺ. ولا يجوز حمله علىٰ أنه نفاه من طريق القوم جملةً، لأن ذلك غيبة محرَّمة بإجماع المسلمين، ومنصب الأشياخ يجل عن مثل ذلك. ويؤيد ما ذكرناه من التأويل ما حكي أن بعض الناس رأىٰ رسول الله ﷺ في المنام، فسأله عن مذاهب الأئمة المجتهدين، فما نفىٰ رسول ﷺ عنهم خيرًا، فلما سأله عن مذهب الشافعي، قال ﷺ: أوللشافعي مذهب؟! إنما هو سني.

فإياك يا أخي أن تحمل أحدًا من أقرانك علىٰ المحامل السيئة إذا احتمل لفظه في حقِّك محملًا حسنًا، فإن حملتَه علىٰ المحامل السيئة، فذلك دليل علىٰ صورة باطنك أنت، وقد يكون هو علىٰ خلاف ذلك.

فإن قلت: فما تقولون في غضب الشيخ حين قال له مريده: إن فلانًا نفاك من الطريق؟ ومعلوم أن الغضب في مثل ذلك من جملة رعونات النفوس التي قلتُم إن مقام الأشياخ يجل عن الوقوع في مثله؛ **فالجواب**: أنه يجب حمله علىٰ أنه ما أظهر الغضب لنفسه،

وإنما أظهره خوفًا علىٰ المريدين أن يتزلزل اعتقادهم فيه، وظنهم فيه أنه ليس علىٰ طريق القوم، فيحرمون النفع به، فأظهر الغضب كهيئة المكذِّب لذلك الشيخ فيما قاله في حقه، وهو في باطنه في غاية هضم النفس، وأن الشيخ صادق في نفيه له عن الطريق، فإن الأشياخ لا يقع منها تزكية لنفوسهم قط فيما بينهم وبين الله تعالىٰ أبدًا، فهم يرون نفوسهم قد استحقوا الخسف بهم، وإنما الناس هم الذين يعظمونهم. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك وحمل الناس علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في صحبته أمير يحسن إلىٰ الفقراء، ثم تركه واجتمع بشيخ آخر، وصار ذلك الأمير يمدح الشيخ الثاني دون الأول، فقال الشيخ الأول للأمير: لا تعد تأتنا أبدًا، فإني لا أحب الشركة؛ فلاث به جماعة الشيخ الثاني وقالوا: فلان ما يحب أن تكون المشيخة في البلد إلا له وحده.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد لا أحب لك يا أمير أن تشركني مع صحبة سيدي الشيخ فلان، فإن مثلي لا يصلح أن يكون خادمًا له، فهو من باب الغيرة علىٰ أخيه العبد الصالح أن يشرك معه أحد، لا من باب الغيرة علىٰ نفسه هو أن يشرك الأمير معها أحدًا، هذا هو اللائق بمنصب العلماء العاملين، والأولياء والصالحين، فلا يجوز حملهم علىٰ غير ذلك من الرعونات. وكلامنا في أشياخ الطريق الصادقين. أما النصَّابون الذين برزوا في هذا العصر، وانكشف حالهم عند الخاص والعام، فلا ينبغي الإجابة عن أحوالهم، لأن ذلك يديم عليهم النصب والتمادي في الغي، فيهلكون في نفوسهم، ويهلكون غيرهم، وكيف ينبغي الجواب عن قوم أفعالهم تكذِّب المجيب عنهم؟!

ولما ورد الأمير عيسىٰ شيخ البحيرة وأخوه عامر علىٰ مصر، وأقاما فيها مدةً لضرورة وقعت لهما، كانا يقولان لي: إن الشيخ الفلاني أرسل خطه لنا يطلب منا شيئًا من الدنيا! وكيف يليق ذلك بالأشياخ؟! فكنتُ أقول لهما: إن ذلك امتحان لكما لا غير. فقال لي الأمير عامر: إن فلانًا قد أرسل خطه لي: فإنك إن أعطيتني كذا وكذا، توجهتُ إلىٰ الله

تعالىٰ في أعدائك، فقتلتُهم كلَّهم بالحال. فقلتُ له: قد يصدق الشيخ في ذلك، ولكن لا يقلبه إلا بطريق شرعي. فكان يقول: إن الله تعالىٰ ألقىٰ في قلبي كذب هؤلاء، فإن أحدهم يفتي بحرمة ما بأيدينا من المال، ثم ينصب علينا ويستخلصه من أيدينا لنفسه بطريق الحياء منا، فيجعله حرامًا في يدنا وحلالًا في يده من غير دليل له علىٰ ذلك، ولو أن هذا حقق النظر، لوجدنا أزهد منه في الدنيا، لأنه رغب فيما بأيدينا، ولم نرغب نحن فيما بيده. وأيضًا فإننا ما أعطيناه شيئًا إلا بعد أن زهدنا فيه، ولولا زهدنا فيما أخذه منا، لم يقدر علىٰ استخلاصه منا.

وقال لي مرة: قد عرفنا بإقامتنا في مصر[1] الناس، وعرفنا الصادق من المشايخ والكاذب. وذكر لي عن شيخ منهم أنه يبلع التمساح والفيل وينزلان من زوره! فقلتُ له: كيف؟! فقال: نحن تماسيح وأفيال في ظلمنا للبلاد والعباد، وقد بلعنا وأخذ مالنا بالنصب والحيل! انتهىٰ. فمثل هؤلاء الإجابة عنهم تنطع لخروجهم عن طريق القوم بالكلية.

وعُلِمَ من جميع ما قررناه أنه لا ينبغي لأمير الشرك بين الشيخين في الصحبة، لقلة فائدة ذلك، وضعف توجه كل شيخ منهما في قضاء حوائجه من عزل أو ولاية أو مرض، فليختر الأمير له شيخًا واحدًا يترجح عنده، فإنه أنفع له من كل وجه.

وقد جربتُ أنا هذا الباب أشدَّ تجريب، ولم أقدر أقضي لأحد أشرك معي غيري حاجة. وكذلك الحال في جماعة من أقراني. وربما ظن بعضهم بالفقير إذا قال: لا تشرك معي أحدًا في الصحبة أن الفقراء يكرهون بعضهم، وذلك ظن كاذب، إنما مرادهم تعجيل قضاء حاجة ذلك الأمير بالاستناد إلىٰ شيخ واحد، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إذا جالست رسول الله ﷺ فإياك أن تشتغل به عن الله عزَّ وجلَّ، فإن الله تعالىٰ غيور؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: إن الله تعالىٰ لا يغار ممن يقف مع رسوله ﷺ.

---

(١) أي القاهرة، والمصريون يطلقون علىٰ القاهرة «مصر».

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل هذا القول، فربما عرف علوَّ همة المريد وشدة عزمه، فقصد بذلك ترقيه إلىٰ مشاهدة الحق تعالىٰ مع مشاهدة رسوله ﷺ معًا في آن واحد، فخوَّفه بقوله: «إن الله غيور» وإلا فالواجب علىٰ المريد شهود كلِّ واسطة بينه وبين الله تعالىٰ من غير وقوف معها، ليعرفه الطريق إلىٰ حضرة ربه، ومتىٰ رفع الواسطة ضلَّ وحار وتاه.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رضي الله عنه يقول: إياك أن تقف مع رسول الله ﷺ وتحجب به عن الله تعالىٰ، فإنك تؤذي رسول الله ﷺ بذلك، فإنه يغار علىٰ ربه عزَّ وجلَّ أن يشتغل أحد عنه بغيره من الخلق، فإن الله تعالىٰ كما يغار ممن يقف مع أحد دونه، فكذلك كل كامل يغار علىٰ ربه أن يقف معه مريده وينسىٰ ربه. انتهىٰ. ولا يخرج عبد علىٰ ذلك الأمر إلا إن صار يشهد السرَّ القائم بالوجود، وصار يكلم السرَّ القائم بالوجود[1] أولاً ثم الوجود ثانيًا.

وسمعتُ سيدي عليا المرصفي رضي الله عنه يقول: إذا بلغ الرجل مقام الكمال صار يرائي الله عزَّ وجلَّ، والناس يظنون به أنه يرائي الخلق، فإياكم أن تروا عارفًا بالله صلَّىٰ بجنبه أمير، فضم أكتافه وخشع، فتقولون: إنه يرائي الأمير، فإن ذلك سوء ظن بالعارف، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه خاشع من عظمة الله التي تجلَّت له في حجاب ذلك الأمير، فهو من باب «أروا الله من أنفسكم خيرًا»[2] فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه أن يجتمعوا بشيخ آخر ليأخذوا عنه الطريق ويقول: إن ذلك لا يجوز؛ فلاث به بعض العلماء وقالوا: هذا تحجير لم يأت

---

(١) بالأصلين: العبد.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢٣٨) من حديث عبادة بن الصامت: «أن رسول الله ﷺ قال يومًا وحضر رمضان: أتاكم رمضان شهر بركة، فيه خير يُغشيكُم الله فيه، فتنزل الرحمة، وتُحطُّ الخطايا، ويستجاب فيه الدعاء، فينظُرُ الله إلىٰ تنافسكم، ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل» والحسن الخلال في «أماليه» (٦٦) والشجري في «الأمالي» (١٢٣٤).

به كتاب ولا سنة، وقد كان كلُّ واحد من السلف الصالح يصحب المئة شيخ وأكثر في وقت واحد، كما هو مذكور في «رسالة القشيري» وغيرها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ إن كان في قيد الحياة إلا بعد الاجتماع به وسؤاله عن ذلك وعن مراده به، فربما [قصد بتحجيره علىٰ المريد الرحمة به وتقريب الطريق عليه، فإن لكلِّ شيخ مشربًا وذوقًا، فربما](1) قال كلُّ واحد لذلك المريد قولًا يخالف قول الآخر، أو يخالف هوىٰ نفس المريد، فينفر منه ويجتمع بمن يأمره بما تهواه نفسه فتهلك.

[السلوك عند السلف، والتقيد بشيخ عند الخلف]

وكان السلف الصالح ﷺ مطهَّرين من غالب هذه الأمراض التي حدثت فيمن بعدهم أو كلها، فكان أحدهم إذا اجتمع بأخيه يتذاكران في الطريق ومقاماتها، ويذكر كلُّ واحد منهما للآخر ما عنده من الذوق، فكانوا يلقحون بواطن بعضهم بعضًا بالاجتماع، ولا يظهر لأحد علىٰ أحد مشيخة، إنما هم إخوان متناصحون، فلما ذهب السلف الصالح وحدث في الناس الأمراض الكثيرة، حجروا علىٰ المريدين الاجتماع بشيخين فأكثر، وأمروهم بالتقيد علىٰ شيخ واحد، وذلك في أيام الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ وقالوا: «كما لم يكن للعالَم إلهان، ولا للمرأة زوجان، كذلك لا يكون للمريد شيخان» وربما ظن بعض من لا علم له بأحوال أهل الطريق أن تحجير الأشياخ علىٰ مريديهم أن لا يجتمعوا بغيرهم إنما هم لحبهم في الرئاسة، أو لعداوتهم لبعضهم بعضًا، وذلك ظن فاسد، وحاشا أشياخ الطريق من مثل ذلك! وتأمل يا أخي أشياخ الطريق كيف يجتمعون ببعضهم بعضًا، ولا يتقيد أحدهم علىٰ صاحب واحد، لاستغنائهم عن المداوة بعدم الأمراض.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: إنما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم

---

(1) ساقط من «ب».

القيامة ولا فخر»[1] رحمةً بأمته، فأخبرهم أنه أول شافع يوم القيامة، وأول مشفَّع، ليمكثوا في مكانهم ولا يذهبون إلىٰ نبي بعد نبي يسألونه الشفاعة كما ورد، فكأنه أمرهم أن يصبروا مكانهم حتىٰ تأتي نوبة نبيهم ﷺ ويقول: «أنا لها أنا لها»[2]. انتهىٰ. وفي ذلك دليل لتحجير الأشياخ علىٰ مريديهم أن لا يذهبوا لغيرهم، ويقتصروا علىٰ شيخهم الذي لهم وديعة عنده، والله تعالىٰ أعلم.

(١٠٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما دام للعبد عدو فهو عدو لله، والله يكرهه؛ فلاث بعض الفقهاء وقالوا له: هذا القول خطأ بالإجماع، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] من المجرمين، ومعلوم بالإجماع أن النبي يحبُّ الله والله يحبه، فكيف هذا القول؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد يريد بذلك العدو غير المجرمين، فإن عداوة المؤمنين الكاملين لا تكون إلا بحق، كأن يخرج ذلك العبد عن الشريعة المطهَّرة ويصر علىٰ ذلك ولا يرجع، فيعادونه ويكرهونه لله تعالىٰ لا لحظ نفس، ومعلوم أن الله تعالىٰ يكره من خرج عن شرعه، ولكن نحن لا نعلم ما عند الحق من ذلك إلا بعداوة المؤمنين لنا.

وقد يكون مشهد هذا الشيخ السرَّ القائم بذلك العبد من أسمائه تعالىٰ «المنتقم» أو «الضار» مثلًا، ومعلوم أن الاسم «المنتقم» أو «الضار» لا يحكم إلا فيمن يكرهه الله تعالىٰ بالأصالة، وربما كان النبي ﷺ أو الولي مأمورًا برد أهل الضلال إلىٰ طريق الهدىٰ فيعادونه، فلا يقدح ذلك في مقامه. وربما عصىٰ ذلك الشيخ أمر ربه فصار مكروهًا لبعض الناس تبعًا لكراهة الحق تعالىٰ له. ومن أراد أن يعرف ما قلناه فلينظر إلىٰ مادة الأرواح والسر القائم بها وإلىٰ مادة ذلك من الأسماء الإلهية، فيجد صدره لم يكرهه إلا لكراهة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الحق تعالىٰ له، هذا شأن العدو من المسلمين. أما المجرمون فلا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إن الله تعالىٰ قد تفضل علىٰ العارفين بسماع الهواتف الربانية حين انقطع الوحي علىٰ لسان نبيهم، فصار أحدهم يعرف مقامه عند الحق تعالىٰ. انتهىٰ. وقد سمعتُه مرةً يقول لي: إذا مللتَ من مجالسة ربك في ذكر أو صلاة أو غيرهما، فاحكم علىٰ نفسك بعدم كمال محبتك للحقِّ جلَّ وعلا، واحكم علىٰ الحقِّ تعالىٰ بعدم محبته لك، فإنه لا يمل حتىٰ يمل عبده، ولو كان عبده محبًّا له ما مل من مجالسته. انتهىٰ.

وهذا قريب مما وقع لبعض العارفين حين رأىٰ الحقَّ جلَّ وعلا في منامه، وقال له: أنا أكرهك، وأنت تكرهني. فقال: يا رب كيف ذلك؟! فقال: لو كنتَ تحبني ما لحقك ملل من عبادتي، وأنا تبع لك في ذلك، كما أخبركم بذلك عني نبيكم في حديث: «إن الله تعالىٰ لا يمل حتىٰ تَمَلُّوا»[1] **فلو كنتم صادقين في محبتي ما مللتم، إذ المحب لا يمل من مجالسة محبوبه أبدًا**، والألف سنة عندي كاللمحة. انتهىٰ. فمن وجد عنده مللًا، فليحكم علىٰ نفسه بعدم الصدق في محبة الله تعالىٰ.

وقد رأىٰ أخي أفضل الدين أنه عند الميزان الأخروية، فجاؤوا بذنوبه فوضعوها في كفة، ووضعوا ملله في العبادة في كفة، فرجحت كفة الملل علىٰ جميع الذنوب. انتهىٰ.

وسمعتُ مرةً هاتفًا يقول لي: إياك أن تشتغل بمقابلة من عاداك وكرهك، وانظر في مادة ذلك العدو، فربما انتهت عداوته إلىٰ حضرات الأسماء، فتصير تعادي ربك ولا تشعر، فإذا وجدت أحدًا يكرهك، فخذ في التوبة والاستغفار، فإنه يغمز علىٰ كراهة ربك لك. انتهىٰ. ويؤيد ذلك حديث: «أنتم شهداء الله في الأرض، فمن أثنيتم عليه -أي أيها المسلمون- خيرًا فهو خير؛ ومن أثنيتم عليه شرًّا فهو شر»[2]. انتهىٰ. فجعل الشارع ثناء المسلمين بالخير أو الشرِّ علامةً علىٰ ما عند الحق تعالىٰ من ذلك العبد.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

[حكمة وجود العدو للنبي أو للولي]

فإن قلت: ما حكمة وجود العدو للنبي أو للولي؟ **فالجواب:** حكمة ذلك أن النبي أو الولي إذا نظر أحدهما في أفعال المجرم وأقواله، شكر الله الذي عافاه من ذلك. ويزيد الولي على النبي إن لم يحفظه الله من المعاصي أن يتنبه بكلام العدو في حقّه على نقائصه، فيأخذ في التوبة والاستغفار. والمِحَن نافعة للنبي والولي. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ على المحامل الحسنة ما استطعتَ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما عرف الله تعالىٰ حقيقةً أحد؛ فلاث به بعض المتصوفة وقال: قد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال ابن عباس: إلا ليعرفون؛ فحكم الحق تعالىٰ بالمعرفة لجميع الإنس والجن.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، بل كلامه في غاية التنزيه لله تعالىٰ، أي ما عرفه أحد علىٰ وجه الإحاطة لا مطلقًا، إذ كل مخلوق يعرف خالقه بالفطرة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٥].

[معنى قول سيدنا علي: من عرف نفسه فقد عرف ربه]

وقال عليٌّ بن أبي طالب: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» أي ونفسه لا يحيط بها فلا يحيط بربه فلا يعرفه، لأنا لو أثبتنا للعبد معرفة نفسه، لسلمنا له الإحاطة بالحق تعالىٰ، ولا قائل بذلك. وإيضاح ذلك أن الحق تعالىٰ جعل النفس مع كونها مخلوقة مرتبة تعجيز للعبد، فكأنه تعالىٰ يقول: إن عرفتُم نفوسكم وأحطتُم بها، فقد صح لكم الترقي إلىٰ معرفتي والإحاطة بي.

ومرادُنا بالإحاطة بالنفس علمُ العبد بنفسه قبل أن يُخلق، وذلك لا يصح، فمن قال: إني عرفتُ نفسي وأحطتُ بها علمًا، فكأنه يقول: كنتُ موجودًا قبل روحي، وذلك محال، فافهم، فما بقي من معرفة الله تعالىٰ إلا الاستدلال بالآثار علىٰ وجود خالقها لا غير، فافهم، والله أعلم.

(١٠٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخذ مؤلَّفًا لبعض المعاصرين أو غيرهم، فزاد فيه ونقص، وأضافه إلىٰ نفسه، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز، فإنه من باب «لعن الله من انتسب إلىٰ غير مواليه»[1] وذلك لما فيه من الكذب والمخادعة لله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون إنما أضافه إلىٰ نفسه ليقبل الناس علىٰ كتابته والعمل به، لما يعلم من شدة اعتقادهم فيه والعمل بقوله، بخلاف صاحب ذلك الكتاب، فقصد بإضافته إلىٰ نفسه انتفاع الناس به، ويسطر ثواب ذلك في صحائف صاحب ذلك التأليف لا صحائفه هو.

وقد رأيتُ من فعل مثل ذلك من العلماء والصوفية من مشايخنا، فأخذ الأول شرحًا علىٰ بعض كتبه من تركة بعض المعاصرين، فوجده شرحًا عظيمًا، ولكن كان صاحبه خامل الذكر، فأمر الناس بكتابته، فلم يسمع أحد له وقالوا: وهل كان فلان يعرف يشرح مثل أبي شجاع فضلًا عن غيره؟! فاستخار الله تعالىٰ وزاد فيه ونقص ونسبه إلىٰ نفسه، فسارع الناس إلىٰ كتابته، فقال المؤلِّف الثاني: اللهم إني أشهدك أنه ليس لي من هذا الشرح إلا الاسم فقط، فاجعل نفعك الناس به في صحائف فلان. هذا أمر شهدتُه من شيخنا المذكور.

وأخذ الشيخ الثاني رسالةً لبعض الفقراء الخاملين، فوجدها كلها فوائد، ولكن صاحبها خامل الذكر لا يعده الناس من أهل الطريق، فزاد فيها ونقص وأضافها لنفسه، فتسارع الناس إلىٰ كتابتها، فعلم بذلك مؤلفها الأصليُّ، ففرح وقال: جزىٰ الله فلانًا عنا خيرًا في إضافة تلك الرسالة إليه، لينتفع الناس بها، فإنه مشهور بالعلم والصلاح دوني. وقال المؤلف الثاني: اللهم إني أشهدك أنه ليس لي من هذه الرسالة إلا الرقم بالأنامل، فاجعلها في صحائف أخي فلان. هذا أمر شهدتُه من الشيخ الآخر، فإياك يا أخي، وحمل الأشياخ علىٰ الرياء ومحبة الصيت إذا فعل أحدهم مثل ذلك، فإن الأشياخ بعيد عليهم أن يخادعوا الله تعالىٰ ورسوله والمسلمين ولا يؤمنوا بيوم الحساب ﷺ، وإنما هم دائرون مع المصالح للمسلمين ولأنفسهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(١٠٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: نوم المريد أقوىٰ في استعداده من يقظته؛ فلاث به بعض الأقران وقال: هذا خلاف ما أجمع عليه أشياخ الطريق، فإنهم جعلوا النوم أخا الموت وقالوا: لو أنه نَقْصٌ ما نزَّه الحق تعالىٰ نفسه عنه، وكذلك أجمع الأشياخ علىٰ أن السهر أحد أركان الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أمرًا خاصًا، إذ الإنسان في حال نومه يكون أرق حجابًا من يقظته، بدليل أنه يقع له رؤية الباري جلَّ وعلا في النوم، ولا يقع له ذلك في اليقظة، وتصعد روحه إلىٰ السماوات العلا في النوم، ولا يصعد في اليقظة. ويصح أن يكون مراد هذا الشيخ أن النوم أقوىٰ في استعداد ذلك المريد من يقظته إذا كان يقع في المعاصي كثيرًا، إذ النائم لا يُكتب عليه ذنب، ويصح أيضًا أن يكون مراده غير ذلك، والله أعلم.

(١٠٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمر علىٰ شيخ آخر [كلَّ][1] قليل، ولا يرسل له السلام، مع كونه يزور أقرانه في بيوتهم، ويتردد إليهم كثيرًا، فلاث به أصحاب ذلك الشيخ وقالوا: إنه يكره شيخنا بيقين، وكل شيءٍ[2] له قرائن، وانظروا إليه لما كان يحب فلانًا وفلانًا كيف يزورهم في بيوتهم، ويمر علىٰ شيخنا كل يوم، فلا يرسل له السلام في وقت من الأوقات.

والجواب: أنه لا يلزم من زيارته لبعض الناس أن يكون يحبُّهم أكثر، لاحتمال أن يكون إنما يزورهم مداواةً لقلوبهم، وتأليفًا لهم، لضعف رابطة المحبة بينه وبينهم، بخلاف هذا الشيخ الذي يمرُّ كلَّ قليل عليه ولا يرسل له السلام مثلًا، فإنما كان ربما بينه وبينه شدة المحبة والاتحاد في الباطن، فلم يحتج إلىٰ اجتماعه به بالجسم، كما عليه أهل الله تعالىٰ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: شيخ. والصواب ما أثبتناه.

وقد تقدم في هذه الأجوبة أن بعض الصالحين يكتفي في تردده لأخيه بالاجتماع القلبي بين يدي الله عزَّ وجلَّ في الصلوات الخمس وغيرها من العبادات، ويرتفع شوق كل منهما إلىٰ أخيه، إذ الاشتياق لا يكون إلا لغائب، وأهل الله قلوبهم مشاهدة لبعضهم بعضًا، فافهم هذا، مع أن الاجتماع بالجسم مع القلب أكمل كما لا يخفىٰ، من حيثُ إن لكل شيء حقًّا، فلا يغني الاجتماع الروحيُّ عن الجسميّ ولا عكسه، وهو السنة التي لا أكمل منها، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعرِّض لأصحابه أنه محتاج إلىٰ قمح أو فلوس أو ثياب أو غير ذلك، فيذهب أحدهم ويأتي بما طلب بتكلف، والحال أن الشيخ المذكور غني عن مثل ذلك، وهو أوسع دائرة من جميع أصحابه، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر مخالف لما كان عليه السلف الصالح، وقد قالوا في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] أن المراد بالحكمة هي غنىٰ الداعي عن مال المدعوين، وذلك أنهم إذا رأوه محتاجًا لهم، هان في أعينهم، وحصل عندهم الإدلال عليه، وعُدِمُوا النفع به.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد بالتعريض لهم بما ذكر تحريضهم علىٰ الكرم والخروج عن البخل، ومواساتهم للإخوان، وجعل نفسه سلمًا لذلك، فإنه لو أمرهم بإعطاء إخوانهم الثياب والنقود مثلًا لربما شق عليهم ذلك، وربما نفروا منه، فأراد بتعريضه لهم أن يعطوه ما ذكر تمرينهم لهم علىٰ العطاء من غير مشقة عظيمة، ثم بانشراح صدر بعد ذلك، طلبًا للثواب الأخروي، ثم [بعد][1] انشراح[2] صدرهم[3] بذلك الثواب، يعطونه امتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ، ثم بعد ذلك يرون الفضل لله تعالىٰ الذي جعلهم أهلًا للاستحقاق في ماله لينفقوا منه علىٰ عبيده.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: بانشراح. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: صدره. والصواب ما أثبتناه.

ويقع لي ذلك كثيرًا مع أصحابي، فأعرض لهم بمواساة بعضهم بعضًا فلا يفعلون، فأطلب منهم ثوبًا واحدًا، فيأتوني بعدة ثياب، أو بدينار فيأتوا بعدة دنانير، فآخذها منهم، وأخرجها علىٰ إخوانهم من غير علمهم، ثم أبين لهم ما في عطائهم لي من العلل القادحة في الإخلاص، مع أني في غنية بحمد الله عن كلِّ ما يأتون به.

فاعلم يا أخي ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ اللوث بشيخ طلب من أصحابه الدنيا ولو شكوا لك منه، فإن الشيخ ليس هو تحت حكمك، وربما كان المريدون حكَّموا الشيخ قبل ذلك في جميع أمورهم، وقالوا له: خذ منا كل ما طلبت ولو بغير طيبة نفوسنا، تمرينًا لنا علىٰ الإنفاق، ثم نسوا ذلك، فإذا ذُكِّروا به، رضوا بأخذه أموالهم.

وقد فعل مثل ذلك سيدي الشيخ أبو المواهب الشاذلي بمكة حين صاروا يجلسون عنده في الحرم كل ليلة يتحدثون في أمور الدنيا، فقال لنقيبه: إن هؤلاء قد أشغلونا عن العبادة! ونحن ما جئنا هاهنا إلا للانقطاع للعبادة. فقال النقيب: فماذا نفعل؟ فقال: قل لهم: إن الشيخ قد احتاج مئة دينار، فاجمعوها له، فإن كانوا محبين فإنهم يجمعونها وإلا هربوا. فذكر النقيب لهم ذلك، فهربوا من تلك الليلة، وما حضر بعد تلك الليلة منهم أحد. وكان هناك شخص من أقران هذا الشيخ، فمزَّق عِرْضَه وصار يقول: إن فلانًا صار شحَّاذًا في مكة من أصحابه حتىٰ نفروا عنه! وأيش قام عليه بالمجاورة؟! وما خلىٰ له ولا بقىٰ والشيخ بمعزل عن جميع ما ظنه هذا الشخص.

ورأيت مثل ذلك أيضًا من بعض الفقراء لما حج في سنة ثلاث وستين مع عيسىٰ أمير الحج كان يرسل خادمه[1] كل يوم إلىٰ مطبخه، فيأخذ له طَبْلِيَّة[2] في الغداء، وطَبْلِيَّة في العشاء، وكذلك الحكم في الماء، ثم يفرقه علىٰ محاويج الحجاج، ولا يأكل منه شيئًا، فلا تسأل يا أخي عما ظنه به الأقران والشيخ بريء من جميع ما ظنوه به، فإني كنتُ جاره في الركب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: فأخذه. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الطَّبْلِيَّةُ: منضدة مستديرة منخفضة يُرَقُّ عليها الخبز أو يؤكل عليها.

(١٠٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يفرح ويتفرج في البساتين ويبني الدور أيام نكد السلطان، فلاث به الفقراء وقالوا: من شرط الفقير الصادق شدة ارتباطه بإمامه في الباطن، وموافقته في الأمور المتعلقة بالقلب كالأفعال الظاهرة علىٰ حد سواء، فيحزن إذا حزن السلطان، ويفرح له إذا فرح بالميزان الشرعي. وأما فعل الفقير ضد ذلك فهو دليل علىٰ عدم ارتباطه بإمامه، ولا يخفىٰ ما في ذلك من نقص.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ المذكور إذا تفرج في البساتين مثلًا أيام نكد ولي الأمر، لأنه من الأمور التي تخفىٰ علىٰ غالب الناس، فينبغي تعليمه الحكم أولًا، ثم الاعتراض عليه بعد ذلك إن لم يكن له عذر آخر. وهذا الخلق لم أرَ له فاعلًا بعد سيدي عليٍّ الخواص وأخي أفضل الدين سواي وسوىٰ سيدي الشيخ عمر البوصيري ﷺ، وغالب الناس لا يعرف لذلك طعمًا.

وقد شددتُ النكير علىٰ إخواني الذين عملوا الأفراح وفرحوا أيام موت مصطفىٰ ولد السلطان سليمان[١]، وأيام ماتت الخاصكية[٢] وموت خدَّامها في أواخر رجب، سنة خمس وستين وتسعمئة، وقلت لهم: أما في نكد ولي أمركم وحزنه عبرة لكم؟! ويقع لي بحمد الله تعالىٰ حزن القلب إذا حصل للسلطان نكد وأمرض لأجله قهرًا، ولا يصير لي وجهة إلىٰ المباسطة لأحد من أصحابي، حتىٰ أعلم أن ذلك النكد زال عن السلطان، فالحمد لله علىٰ ذلك.

(١٠٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدرِّس في علوم الشريعة والحقيقة، ويبدي في درسه كلَّ عجيبة وغريبة في دقائق العلوم والأسرار، ثم لا يقوم [أحد][٣] من أهل مجلسه بشيء من ذلك، بل يذهب جميع ما أفاده لهم من قلوبهم، فلاث به بعض الأقران والحسدة

---

(١) السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني، ولد سنة ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٥م وهو عاشر ملوك آل عثمان، توفي سنة ٩٧٤ هـ. «تاريخ الدولة العلية» ص١٩٨.

(٢) زوجة السلطان. وكانت زوج السلطان تلقب بـ«خاصكي السلطان».

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وقالوا: هذا يدل علىٰ عدم إخلاصه أو سخافة عقله، ولو أنه كان مخلصًا أو كامل العقل، لنبت علمه في القلوب، أو كلَّم الناس بما يفهمونه، وأخفىٰ عنهم ما لا يفهمون.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ وحمله علىٰ عدم الإخلاص أو خفة العقل، لاحتمال أن يكون من رجال الرحمة، أو من الذين يحضره الجان، فهو يدرس في العلم، ثم يخاف من الحاضرين أن [لا][1] يعملوا به، فيسأل الله تعالىٰ أن يذهب علمه من قلوبهم، حتىٰ يصير أحدهم كأنه لم يسمع بذلك العلم قط، فلا يسأله الله تعالىٰ عن العمل به يوم القيامة.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا ينبغي للعالم أن يلقي علىٰ الحاضرين العلم علىٰ مقدارهم فقط، بل يرسل الكلام بحسب ما يفتح الله تعالىٰ به علىٰ قلبه، فإنه قلَّ مجلس علم إلا ويحضره من يستحقه من الجن والإنس، كما يعرف ذلك أهل الكشف. فإياك يا أخي وبسط اللسان في أهل هذا المقام، فتقع في الإثم من غير علم.

وقد قال لي مرة شخص من علماء جامع الأزهر: أي فائدة لهذا الكلام الذي يتكلم به سيدي محمد البكري، مع أنه لا يقوم أحد من أهل مجلسه منه بشيء؟! فكان الجواب له ما تقدم.

وقد يكون كتمان ذلك الكلام يضرُّ بدن العارف، ويحصل له به خراريج، فهو يخرجه من جسده ليستريح منه، ثم إن كان سبق في علم الله تعالىٰ أن أحدًا ينتفع فذاك، وإلا كان له أجر نيته، فالحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لولا أنا في مصر لسرق اللصوص أمتعة الناس من دورهم، ولولا وجودي لكان غالب السوقة[2] لا يزن أحد منهم حقًّا، بل يأخذون شيئًا من كل شيء يزنونه للناس؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه دعوىٰ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أي البائعين في السوق.

كاذبة! ولم يبلغنا ذلك عن أحد من الأولياء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من رجال المقامات في الوجود، فتكون المرتبة له والناس أعوانه، فتُحفَظ أموال الناس من أخذها بغير حق إما لحاله وتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ، وإما لتحويطهم بالآيات والآثار. وهذا نظير ما قررناه في مقام عزرائيل وإبليس، فإن كلًّ واحد له أعوان، ويضاف فعل سائر أعوانه إليه، لكن تارة يظهر صاحب هذه المرتبة للناس من أهل الكشف، وتارة لا يعرفه أحد، وإن وقع جور من الأعوان فذلك إليهم لا إلىٰ صاحب تلك المرتبة، وإن وقع عدل فهو يُضاف إليه بالأصالة.

كما وقع أن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد تولىٰ الحسبة والولاية بمصر، فكان اللص إذا دخل بيتًا بقصد السرقة، يصير تائهًا في البيت لا يجد بابًا يخرج منه وهو حامل تلك الأمتعة التي سرقها إلىٰ أن يطلع النهار ويراه أهل الدار، فيطلقوه من غير ضرر له. وكان أهل الحوانيت يُعلِّق أحدهم الميزان، ويعلق القدَح علىٰ صبرة القمح مثلًا، ويضع الذراع علىٰ القماش، فيأتي المشتري فيقول له البائع[1]: زن لنفسك، وقس لنفسك؛ من بركة الشيخ تقي الدين ﵁. فاعلم ذلك، وسلم للفقراء دعاويهم، فإن كان أحدهم صادقًا فقد وفيتَ بحقِّه، وإن كان كاذبًا فذلك إلىٰ الله لا إليك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اعتقده أمير الحج اعتقادًا زائدًا، وأراد ينفق عليه وعلىٰ جماعته من مصر إلىٰ مكة ذهابًا وإيابًا، فمشىٰ إليه شخص من أقرانه وقال لأمير الحج: هذا ليس بشيخ، ولا هو من أولياء الله تعالىٰ عزَّ وجلَّ، ولقد تعجب الناس من عقلك في اعتقادك في هذا، وثم في مصر من لا يصلح هذا خادمه؛ فيغير اعتقاده علىٰ ذلك الشيخ، فلاث به أصحابه وما خلوا ولا بقوا في عرض هذا الشيخ الذي غيَّر اعتقاد الأمير في شيخهم وقالوا: كلُّ هذا حسد منه الذي لم يعتقده أمير الحج.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا الشيخ الذي غيَّر اعتقاد الأمير علىٰ هذا الشيخ،

---

(١) بالأصلين: المشتري. والصواب ما أثبتناه.

لاحتمال أنه أراد بذلك الشفقة علىٰ دين أخيه أن يحج من مال أحد من الولاة، فيقول الحق تعالىٰ له إذا لبَّىٰ: «لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ومركبك حرام»[1]. ولا يجوز حمله علىٰ الحسد، فإن ذلك بعيد علىٰ الفقراء أن يقع أحدهم فيه، وإذا كان أحدهم لا يحسد علىٰ الحلال، فكيف يحسد علىٰ الحرام أو الشبهات؟!

وقد وقع لي مع ثلاثة من أمراء الحج، وهم حمزة والشيخ عيسىٰ بالبحيرة والأمير خير الدين خضر أنهم خرجوا لي عن الجمال وعَلِيقِها[2] وركوب جماعتي والقيام بهم ذهابًا وإيابًا، فنصح كل واحد منهم جماعة من الأقران وقالوا لهم: لو أخذتم معكم الشيخ فلان كان أكثر أجرًا لكم. فلما بلغني ذلك أحببتُ أولئك الجماعة الذين نفروهم، وازددتُ فيهم محبةً، لكونهم خافوا علىٰ نقص ديني بإجابتي لهم إلىٰ السفر علىٰ ذلك الحال، وإن كان من عادتي عدم الإجابة لأني غير معصوم. وإيضاح ذلك أنه نصحني بقدر ما عنده من الورع، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا. وهذا الأمر قد عز في غالب الناس، يعني رد ما يأتيهم من الولاة، بل ربما دعت الحاجة إلىٰ أن أحدهم يسأل المساعدة في الحج من الولاة، ومن لم يعطه غضب عليه وقال: فلان ليس فيه خير!

وبحمد الله لم يتغير اعتقاد هؤلاء الأمراء فيَّ، بل ازداد أحدهم فيَّ حسن ظن بالرد. وقد ظن بعضهم من كثرة كلام من نفره عني أنني إنما أرد جهرًا قيامًا لناموسي لا غير، ولو أن ذلك أتاني ولم يعلم به أحد من الناس ما رددتُه، فأرسل يقول لي: اقبلوا هذه الجمل، وهذا المال، ووالله لا نعلم أحدًا بذلك. فقلتُ: إنما يلبِّس الإنسان في معاملة الخلق، وأما

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٢٢٨) من حديث أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا خرج الرجل حاجًا بنفقةٍ طيبةٍ، ووضع رجله في الغرز، فنادىٰ: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لبيك وسعديك، زادُك حلالٌ، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غيرُ مأزورٍ، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادىٰ: لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرامٌ ونفقتك حرامٌ، وحجك غير مبرور» والبزار (٨٦٣٨).

(٢) العَلِيقُ: ما يُقدَّم للدابة من طعام.

الحق تعالىٰ فلا تجوز معاملته بمثل ذلك، لأنه يعلم السر وأخفىٰ. فاعلم ذلك، واشكر من نصحك عن شيء ولو كنت من أبعد الناس أن تقع فيه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: إذا كان لكم حاجة إلىٰ الله تعالىٰ، أو إلىٰ أحد من عباده، فتوجهوا إلىٰ الله تعالىٰ، وتوسلوا إليه بي، يقضها لكم بسرعة، ولا تتوجهوا بأحد من الأولياء غيري، وإن مت فأتوا إلىٰ قبري، واسألوا الله بي في قضائها، يقضها لكم أسرع وأسرع؛ فلاث به جماعة من مريدي مشايخ العصر وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة ما سمعناها من أحد من أشياخه، فضلًا عن مثله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أنه عرف منهم الصدق في الاعتقاد فيه دون غيره، فلم يرشدهم إلىٰ أحد من أقرانه ولا غيرهم، وإن كانوا أعظم منه في العلم والعمل والتقوىٰ، تقريبًا لطريق قضاء حاجتهم، فإن **سرعة قضائها تابع لقوة الاعتقاد في الواسطة**، وليس في قوله هذا ترجيح لنفسه لغرض غير صحيح كما قد يتبادر إلىٰ الذهن، فإن ذلك بعيد وقوعه من الفقراء، ولا يجوز حملهم عليه، فإن **الفقراء الصادقين دائرون مع المصالح للعباد حيث دارت**، فإن رأوا عقيدتهم فيهم صحيحة قالوا لهم: توجهوا إلىٰ الله بنا؛ وإن رأوا عقيدتهم صحيحة في غيرهم، رغبوهم في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ بهم[1].

وقد كان سهل بن عبد الله التستري ﷺ يقول: إذا كان لكم إلىٰ الله تعالىٰ حاجة، فأقسموا عليه بي يقضها لكم. وكذلك كان معروف الكرخي يقول لأصحابه، مع أنه كان يحتقر نفسه غاية الاحتقار، حتىٰ إنه قال: أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد. فقالوا له: لم ذاك؟ قال: أخاف ألا يقبلني قبري، فأفتضح. فما قال لهم: «اسألوا الله بي» إلا لعلمه من أصحابه شدة اعتقادهم فيه كما مر إيضاحه في هذا الكتاب مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه بعض الأمراء إلىٰ وليمته فأبىٰ، فأكَّد عليه في ذلك وقال: لابد من حضورك عندي. فقال له: بشرط أن لا يحضر غيري من

---

(١) بالأصلين: فيه.

مشايخ البلد الذين كان عازمًا علىٰ دعوتهم لوليمته. فقال: لابد من حضورهم. فقال: وأنا الآخر لا أحضر؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي وقوعه من المشايخ الذين هم قدوة للناس في البلد، وكان ينبغي له أن يبجل إخوانه، ويظهر الفرح والسرور بحضوره معهم، ولا يظهر عداوتهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله علىٰ العداوة، وإنما يجب حمله علىٰ أنه قصد حفظهم من الأكل من طعام ذلك الأمير، محبةً في تطهيرهم من أكل الحرام والشبهات، وكأن لسان حاله يقول: يكفي واحد من الفقراء يتلطخ بأكل الحرام والشبهات وهو أنا.

وأيضًا فربما علم من أقرانه وقوع الميل والركون إلىٰ ذلك الأمير إذا دخلوا بيته وعظَّمهم وبجَّلهم، فاحتاط لإخوانه علىٰ جاري عوائد الفقراء الصادقين، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ سوء الظن بأحد من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يلح علىٰ الولاة والظلمة في سؤالهم الفلوس والطعام والثياب وغير ذلك حتىٰ صار معروفًا عندهم بذلك ويقولون إذا رأوه داخلًا دارهم: جاءكم الثقيل الدم؛ ولاث به الفقراء وقالوا: هذا لا ينبغي وقوعه من فقير، لما يترتب عليه من الآفات وإزدرائه عند الولاة، وعدم قبول شفاعته عندهم، وقالوا: لو أنه كان لم يسألهم أو أعطوه شيئًا، فرده عليهم، لقبلوا شفاعته ولم يردها أحد منهم كما هو مشاهد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لاحتمال أن يكون كشفه أدىٰ إلىٰ أن ذلك الأمر الذي يسأل فيه الولاة ليس من رزقهم، وإنما هو رزق جماعة يعرفهم هو، فقصد بذلك السؤال الأجر والثواب بإيصاله الرزق إلىٰ أصحابه، فلم يسألهم رغبةً في الدنيا ولا لعلة نفسانية. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من كان بهذه الصفة وتقول: قد أبطل هذا منافع الناس علىٰ يديه بسؤال الظلمة ما بيدهم من السحت، وصاروا لا يقبلون له شفاعة؛ فإنه قد يكون من رجال الله الذي يأخذون من الولاة المال ويحمون نفوسهم من

وقوع الظلمة في احتقارهم بسبب ذلك ورد شفاعتهم، إما بأن ينسيهم الله تعالىٰ ذلك الأمر، وإما بحالهم القاهر لهم، فلا يمكن أحد منهم رد شفاعته مع كثرة سؤاله لهم. ويحمل عدم قبول الشفاعة بالسؤال علىٰ من ليس له حال يحميه من الإنكار والازدراء، أو علىٰ من لم ينسِ الله الظلمة [سؤالَه][1]، أو ثقل الحاجة في السؤال كما تقدم بسطه مرارًا.

(١٠٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهي بعض أصحابه عن محبة بعض المباشرين والتجار والأمراء من أصحابه ويقول: إياكم أن تحبوا أحدًا من أصحابي الذين يحسنون إليكم؛ فلاث به بعض الناس وقال: هذا خلاف ما أمرت به الشريعة المطهرة، فإنها إنما أمرت بالتحابب والهدايا وإطعام الطعام، وذلك لتأتلف قلوب المسلمين علىٰ بعضهم بعضًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد أن يُستفهَم عن ذلك، فإن مثل الشيخ لا يجهل ما أمرت به الشريعة، وموضوع مشيخته إنما هو جمع الناس علىٰ الخير، ولا يستقيم لهم ذلك إلا مع وجود التحابب والتوادد، لا التناغص والتقاطع، فإذا استفهمناه عن ذلك ورأيناه نهىٰ أصحابه عن التحابب لأصحابه لغير غرض شرعي، فهناك يسوغ لنا اللوث به، وأما إذا رأيناه نهاهم عما ذُكِر لغرض شرعي، فلا لوم عليه.

ومن الأغراض الصحيحة أن يرىٰ مريده قد قصَر نظره علىٰ ذلك الشخص الذي يحسن إليه، ونسىٰ ربه عزَّ وجلَّ في ذلك، مع أنه تعالىٰ هو المنعم الحقيقي، وكثيرًا ما يدخل قلب ضعفاء المريدين محبة من أحسن إليهم، فلا يبقىٰ لمحبة الله ورسوله في قلبه محل، فيخاف عليه المقت، لأن الحق تعالىٰ غيور لا يحب أن يرىٰ في قلب عبده محبةً لأحد سواه إلا بإذنه، كمحبة الأنبياء والأولياء، وجميع من لا يحصل بمحبتهم نقص في دين العبد، كأن يحصل بصحبة أحدهم الغفلة به عن الله عزَّ وجلَّ، أو يصير يجلس هو وإياه فيجران[2] قوافي الناس، ويقعان في أعراضهم كما هو الغالب علىٰ أصحاب هذا الزمان.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: يجرون.

وربما أعطىٰ الله تعالىٰ بعض الأشياخ نفوذ الهمة والمقت في كل مريد مال بقلبه إلىٰ سواه، لأن في ضمن ذلك الإعراض عن الله عزَّ وجلَّ، فيستحكم في ذلك المريد المقت، ويحوِّل الله تعالىٰ النعمة عن ذلك التاجر أو المباشر أو الأمير بسبب إتلافه بإحسانه قلب ذلك المريد، كما وقع لكثير من أهل عصرنا هذا، فالعاقل من أخذ حذره من الإحسان إلىٰ مريدي أحد من المشايخ إلا بإذنهم.

وقد رأيتُ شخصًا من أصحاب سيدي عليٍّ الخواص تعرَّف بشخص من أصحاب الشيخ، وصار يجالسه ليلًا ونهارًا كأنه لم يعرف الشيخ، فقال الشيخ: عن قريب يُعاقَب كلٌّ منهما؛ فسافرا إلىٰ مكة في البحر، فغرقا جميعًا.

وحكىٰ لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي أنه مكث مدة صحبته لشيخه الشيخ محمد السروي لا يقدر يميل إلىٰ أحد سواه من الأولياء، فضلًا عن أبناء الدنيا، خوفًا من غيرة شيخه المذكور، قال: ومكر بي مرةً وأنا لا أشعر، فما كنتُ إلا هلكتُ، وذلك أنه أذن لي في تربية المريدين وتلقينهم الذكر في بلاد الغربية، فلما نزلتُ إلىٰ البلاد، انقلب الفلاحون والفقهاء إليَّ وكأنهم لم يعرفوا شيخي، مع أنه كان لقنهم الذكر، فورد علىٰ الشيخ رجل من أصحابه الذين لم يجتمعوا بي، فقال له الشيخ: أيش حال أصحابنا اليوم؟ فقال: إنه لم يبقَ لك أصحاب، وإنما صاروا كلهم أصحاب الشناويِّ لا يحلفون إلا بحياته، وكأنهم لم يعرفوك! فقال الشيخ: أنا آخذ وديعتي التي كانت سببًا لاجتماعهم عليه وصحبتهم له، ثم مد بيده من مصر إلىٰ ناحية الغربية، فسلب ما كان معي من المدد، فرأيتُ نفسي قاعًا صفصفًا، فسافرتُ إلىٰ الشيخ في مصر، وأقمتُ في رحبة الزاوية الحمراء خارج مصر[1] نحو أربعين يومًا حتىٰ رضي عني، ثم قال لي: يا محمد، إنما أذنتُ لك في تربية المريدين لأنظر أدبك معي، هل تمسك الأدب أم تعمل شيخًا حال حياتي؟ فإنك إذا أخذتَ مريدي شيخك، فيكون شيخك شيخًا علىٰ من؟! ثم إنه لقنني

(١) أي خارج القاهرة، كما سبق الإشارة إليه. والزاوية الحمراء سميت بذلك لأنها كانت قرية وخربت، ثم جددها قايتباي ودهن بيوتها بالأحمر. وهي الآن تتبع محافظة القاهرة بمصر.

الذكر ثانيًا وقال: هذا أول الصحبة الحقيقية، ولكن لا يفلح أحد ممن صحبك قبل هذا اليوم؛ فتمزقوا كلهم بعد أن كان أحدهم يرىٰ أزقة السماوات، وينظر الإنسان إذا خرج من داره لزيارته وبينه وبينه مسيرة يوم وأكثر. فاعلم ذلك، وإياك واللوث بالأشياخ إلا إن كنتَ أعلم منهم بطريق الشريعة والحقيقة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نزلت به مصيبة أو بلاء في نفسه أو ولده مثلًا، فصار يقول: اللهم لا تشمت بي الأعداء ولا فلان ولا فلان، ويسمي علماء عصره ومشايخه، فلاث به الناس وقالوا: هذا دليل علىٰ خبث باطن هذا الشيخ، وسوء ظنه بالعلماء والصالحين، فإن مثل هؤلاء العلماء والمشايخ الذين ذكرهم لا يقعون في الشماتة بأحد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قوله: «اللهم لا تشمت بي العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني» ولا يلزم من ذلك سوء ظنه بهم، لاحتمال أن يكون مراده أن الله تعالىٰ يحفظهم من الشماتة، لعلمه بعدم عصمتهم، فلما علم جواز وقوع ذلك منهم، سأل الله تعالىٰ أن يحفظهم من الوقوع في الشماتة، وليس فيه إثبات أنهم يشمتون به، فكان هذا الدعاء منه من باب الاحتياط لإخوانه من العلماء والصالحين من شدَّة محبته لهم، فأراد أن لا يقع أحد منهم في الشماتة كما يقع فيه الأعداء غالبًا، والأقران المزاحمون علىٰ انفرادهم بالرئاسة دون إخوانهم.

وقد قدَّمنا مرارًا أن الفقير يحتاج إلىٰ عدة عيون: **فعين** ينظر بها في مثل هذه المسألة إلىٰ عدم عصمة إخوانه من الشماتة، فيسأل الله لهم أن يحفظهم من الوقوع فيها، **وعين** ينظر بها إلىٰ كمالهم وحفظهم من مثل ذلك، فلا يحتاج أن يسأل الله تعالىٰ أن يحفظهم من الشماتة، **وعين** لا ينظر بها إلىٰ أي شيء من ذلك، بل يكون غافلًا عنه، كما عليه الفقراء الساذجون، **وعين** ينظر بها إلىٰ محبة الشماتة فيه، رياضةً لنفسه علىٰ تحمل ضرر الشماتة، فيكون مع الأعداء علىٰ نفسه، **وعين** يكره بها الشماتة بنفسه قيامًا بواجب حق نفسه من حيثُ إنها أَمَةُ الله جعلها عنده وديعة، وأمره بأن يذب عنها ويحفظها من كل شيء يدخل به عليها هم أو غم.

فعُلِمَ أنه ليس في قول هذا الشيخ: «ولا تشمت بي الأعداء» جزم بسوء الظن بهم، وإنما ذلك دعاء لهم بعدم وقوعهم في الشماتة. وعلىٰ ذلك يُحمَل ما جاء عن السيد هاورن عليه الصلاة والسلام[1]، فإن الأنبياء معصومون عن سوء الظن بأعدائهم جزمًا، وإنما ذلك من باب الاحتياط للأعداء، فإنهم يشمتون بعدوهم في العادة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ وعن جماعته الذين ضربوا من مدح شخصًا من أقران شيخهم في حضرتهم، وشمتوه وآذوه أشد الأذىٰ، ولم ينكر عليهم شيخهم ذلك، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز فعله بإجماع المسلمين، إنما بلغنا مثل ذلك عن الروافض إذا سمعوا أحدًا يذكر أبا بكر الصديق ﷺ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ وجماعته حتىٰ يفحص عما يترتب علىٰ ذلك، فقد يكون مدح ذلك الشيخ مما يزلزل اعتقاد جماعة ذلك الشيخ الذي مُدِح غيره في حضرته، ويبطل نفعهم منه، فأدىٰ اجتهاد هذا الشيخ وجماعته إلىٰ ردع ذلك المادح، ورأوا جواز ضربه إن لم يترك ذلك المدح، ولا ينبغي لأحد الإنكار علىٰ من يفعل شيئًا باجتهاد إذا رأىٰ المصلحة فيه أعظم من تركه، كما كان عمر ﷺ يضرب بالدِّرَّة كلَّ من رآه خرج عن حد الاستقامة باجتهاده إذا لم يرد في ذلك شيء، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ جماعة الشيخ في ضربهم من يزلزل اعتقادهم في شيخهم، ولا علىٰ الشيخ في تقريرهم علىٰ ضرب ذلك المادح.

ثم إنه ما كان ينبغي لذلك المادح أن يمدح شيخًا في مجلس شيخ آخر إلا بعد الامتحان، فاللوم عليه هو الذي ذكر شيخًا بحضرة من يكرهه ويسبُّه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وقال العلماء: لا يجوز ذكر أبي بكر الصديق بخير بحضرة الروافض لئلا يسبوا الصديق ﷺ، ويكون إثم ذلك علىٰ من ذكر، كما سيأتي بسطه في باب ذكر من آذاني وضرب من مدحني

---

(١) وقد تقدم الجواب عن ذلك في الجواب رقم (٤٣).

بمكة فراجعه[١]، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي اعتزل عن أهل عصره حتىٰ ترك ابتداء السلام عليهم إذا قدموا من سفر مثلًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا غاية الكبر، ولا يخفىٰ ما فيه من مخالفة السنة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أن يكون من أهل الاجتهاد، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن ترك السلام علىٰ هؤلاء هو أحسن لدينه، لما يتطرق إليه السلام والموادة لأهل الشر من السوء وذكر الناس بالغيبة والنميمة كما هو مشاهد. ومن شك في قولي هذا فليجالس من شاء من الأقران ويضبط عليه المجلس، فإنه لا يكاد يسلم من ذكر أحد من أقرانه بسوء أبدًا، وإن سلم من ذلك، فلا يسلم من تزكية نفسه [بغير][٢] غرض صحيح، فيكون جليسه شريكه في الإثم.

فإن قال قائل: إن الأولىٰ بهذا المعتزل أن ينظر في الناس، فكل من رآه يتطرق إليه من السلام عليه شرٌّ، ترك السلام عليه، وكل من رآه لا يحصل له منه إلا الخير، سلَّم عليه؛ **قلنا**: هذا أمر لا يكاد يتخلص للعبد معرفته، فربما أخطأ ظنُّ العبد فيه، فسدَّ هذا المعتزل الباب باجتهاده، ورأىٰ أنه أولىٰ به وبالناس، ثم يسامحهم في كلِّ ما يقعون فيه في حقه. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقع شخص من أقرانه في زلة أو شطح عن ظاهر الشريعة إلىٰ جانب الحقيقة، فلم يستر عليه، بل صار يجتمع بالفقهاء المتعصبين علىٰ أهل الطريق، ويسبُّه ويرميه بالزندقة، فلاث به الفقهاء وقالوا: هذه ليست من صفة القوم، إنما صفتهم العفو والصفح والستر، ولكن قد صار الفقراء في حكم العوام في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الذي لم يستر ذلك الشاطح، لأنه ربما أدىٰ

---

(١) جواب (١٤٢٠).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

اجتهاده إلىٰ أن عدم ستره وكثرة الإنكار عليه أولىٰ من مسامحته، خوفًا أن يثبت عنه ذلك الشطح، ويتبعه المريدون عليه، فرأىٰ أن تجريح شخص واحد وتوبيخه بين الناس أخف مفسدة من انتشار تلك البدعة في الطريق، مع شدة محبته لذلك الشاطح، وعدم كراهته له، علىٰ خلاف ما يتوهمه غالب الناس، كما تقدم بسطه في الباب الخامس فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقطع في عرض أقرانه في غيبتهم، وإذا اجتمع بأحد منهم قام له وعظَّمه ومدحه غاية المدح، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا من جملة النفاق، ولو أنه قصد بذلك الخير، لكان نصحه ووبخه فيما بينه وبينه، ومدحه بين الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ممن غلب عليه الحياء الطبيعيُّ، أو غلب عليه شهود حقارة نفسه ونقصها وكثرة مخالفاتها عند الاجتماع بأقرانه، وخف ذلك الأمر عنه إذا غابوا، فأراد أن الناس يبلغونهم ذلك الطعن الذي سمعوه من هذا الشيخ، حتىٰ لا يخليهم من النصح. ثم إن كلامنا إنما هو فيمن كان متحققًا وقوع ذلك الشخص فيما نصحه لأجله، أما من لم يتحقق ذلك فلا يؤمر بنصحٍ بحكم الإشاعة، كما تقدم بيانه في هذا الكتاب مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا حضر في زَفة[١] ختان، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا لا ينبغي لعالم ولا شيخ فقراء لما فيه من الازدراء للعلماء والصالحين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعالم أو شيخ الزاوية إذا دُعي إلىٰ زفة ختان وحضر، لاحتمال أن يكون في مقام هضم النفس والتواضع بحيثُ لا يرىٰ نفسه متميزة عن آحاد العوام الذين حضروا تلك [الزفة][٢].

ويُحتمَل أيضًا أن يكون غائبًا عن الخلق جملةً، وإنما هو حاضر بقلبه مع الله تعالىٰ لا

---

(١) الزَّفة: الموكب.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

علم له بتلك الزفة، كما عليه طائفة من العلماء والفقراء، كالشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي والشيخ عبد العال الجعفري.

ويُحتمَل أن يكون حاضرًا مع الخلق من أهل الزفة وغيرهم، ولكن أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن مراعاة خاطر أهل الزفة أرجح عند الله تعالىٰ من مراعاة ناموس العلم والمشيخة، وربما اتهم نفسه في مراعاة ناموس العلم والمشيخة، أو فتشها فرآها مراعية حظَّ نفسها لا حظ ناموس العلم، بقطع النظر عن مراعاة ازدراء الناس لها حين تحضر الزفة، فحضر الزفة مخالفةً لهوىٰ نفسه، فليفتش العالم أو الفقير نفسه إذا دُعِي إلىٰ زفة وقال في نفسه: هذا دعاني إلىٰ ما يزري بالفقير، فلا أجيبه حمايةً للخرقة، لاحتمال أن يكون امتناعه من ذلك لحظ نفسه لا حمايةً للخرقة.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ إذا دعاه أحد إلىٰ حضور زفة، يأتىٰ إلىٰ صاحب الزفة ويكشف رأسه له ويقول: أنا أقل يا أخي من أن أُدعَىٰ إلىٰ مثل ذلك، لدناءة أخلاقي، ورثاثة ثيابي. فيحقر نفسه عند الحضور، فلكل فقير مشهد، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم إذا دعي إلىٰ وليمة فأجاب، فقالوا له: إن عدوك فلان هناك، وربما رآك فقام وخرج وقال بحضرة الناس: والله لا أحضر مع هذا في مجلس! فقال: هذا لا يصدني عنه، وإن حضرتُ إن شاء الله قبَّلتُ رجله بحضرة الناس، وجعلتُها منقبةً له. فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: لولا بقية رعونة عندك من رعونات نفسك، ما جعلتَ تقبيل رجل عدوك منقبةً له وتعظيمًا، وإنما كنتَ تجعل ذلك من جملة حقِّه عليك، كما يقبِّل المريد رجل شيخه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قوله: إن تقبيله رجل عدوه منقبة لعدوه، لاحتمال أن يريد أن ذلك منقبة عند الناس لا عنده هو، فهو غافل عن شهود مقام نفسه جملةً، فلا يرىٰ مثل ذلك تعزيزًا لنفسه ولا منقبةً لعدوه عند نفسه، وإنما ذلك عند الناس، ومعلوم أن الله تعالىٰ لا يؤاخذ النفس إلا بما قصدت مما تضمنه اللفظ،

فالفقير إذا قبَّل رجل عدوه بحضرة الناس في المحافل، يرىٰ ذلك وقع من أهله في محله، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ إلا إن كنتُم أعلم منهم بالشريعة والحقيقة ودسائس النفوس، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعي إلىٰ وليمة، فقالوا له: إن عدوك فلان هناك؛ فرجع عن الحضور، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يحضر إجابةً للدعوة، عملًا بامتثال أمر الشارع. وأما كون ذلك الجاهل يتكدر أو يخرج فلا عليه منه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله علىٰ أنه ترك الحضور خوفًا علىٰ ناموسه إذا رآه ذلك العدو وخرج مثلًا، بل ينبغي حمله علىٰ أنه مجتهد في ذلك، وأن اجتهاده أداه إلىٰ أن عدم حضوره أولىٰ، خوفًا علىٰ دين عدوه أن ينقص بوقوعه فيما يؤذي أخاه المسلم، حتىٰ إن الشيخ لو رجع وقال: «أخاف أن يقوم عدوي ويخرج عند دخولي، فيكون ذلك تعزيزًا لي» حملناه علىٰ أنه تعزيز له عند الناس لا عنده هو، كما مرت الإشارة إليه في الجواب قبله، فكان تركه للحضور إنما هو خوف علىٰ نقص دين عدوه من حيثُ قصدُه هو، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صحب شخصًا من العلماء [فعُزِل العالم من وظائفه][1] فصار الناس يسلمون عليه ويعزونه كالمصاب بولد يعز عليه، فلم يذهب إليه هذا الشيخ ولا سلَّم عليه، فأخذ في نفسه علىٰ ذلك، ولاث به أصحاب العالم وقالوا: ما بقيٰ في هذا الزمان أحد تنفع صحبته!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال [أنه][2] ما ترك السلام علىٰ العالم إلا لاعتقاده فيه الكمال، وأن مثله يفرح لإخراج وظائفه عنه، ويحب التجرد من الدنيا وعلائقها، كما هو الغالب علىٰ العلماء، فيقول أحدهم: يا فرح الفقير الفلاني يأكل

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.



كما يأكل، ويلبس كما يلبس، ولا يُطالَب بحضور في وظيفة، ولا يحتاج إلىٰ تردد أحد من الولاة ولا غيرهم.

فإن قلتَ: فما الجواب عن تأثر هذا العالم ممن لم يسلِّم عليه ولا سلَّاه؟ **فالجواب:** أن العالم في مقام الاجتهاد في حقِّ أعمال نفسه وأقواله، فربما كان إخراج وظيفته التي يَكْفِه معلومُها عن سؤال الناس أرجح عنده من موت ولده، فتأثر خوفًا من حاجته إلىٰ الناس وإلىٰ من يسأله فلا يعطيه، ومن يشمت به، ومن يضحك عليه، فلا اعتراض علىٰ مثل هذا في تأثره بإخراج وظيفته مثلًا، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين مع جهلك بمشاهدهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٥) ومما أجبتُ به عن قول القاضي عياض: «وشذ الشافعي ﷺ فقال بوجوب الصلاة علىٰ النبي ﷺ في التشهد الأخير من الصلاة» وقد أنكر بعضهم علىٰ القاضي عياض هذه اللفظة وقالوا: إن في هذا الكلام قلة احترام لرسول الله ﷺ، وللإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي، وإنكارًا علىٰ المجتهد، وذلك لا يليق، إذ اللائق بمقامه ﷺ وما جاء به إلينا من الهدىٰ والبيان أن تكون صلاتنا عليه ﷺ واجبة في عموم الحالات، فضلًا عن تخصيصها بالصلاة فقط؛ فالجواب: أنه يجب حمل قول القاضي عياض علىٰ أنه قصد بذلك تعظيم رسول الله ﷺ وتعظيم الإمام الشافعي قطعًا، أي إن العلماء كلَّهم قالوا بالاستحباب فقط، وذلك ترخيص وتخفيف، ولا يخفىٰ ما في ذلك من قلة التعظيم اللائق بجنابه ﷺ، بخلاف الإمام الشافعي، فإنه خالف العلماء وقال بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، وفاءً ببعض حقِّه علىٰ الأمة، وذلك أن من قال بالاستحباب راعىٰ حال ضعفاء الأمة، ومن قال بالوجوب راعىٰ حال أقوياء الأمة، فمن الأئمة المخفف عن ضعفاء الأمة ومنهم المشدِد.

وليس مراد القاضي عياض بقوله: «وشذ الإمام الشافعي» الشذوذ الذي هو ضد الصحيح في اصطلاح العلماء من الضعف، فيكون فيه قلة احترام لجناب رسول الله

ﷺ وتضعيف لكلام الشافعي، حاشا القاضي عياض من ذلك حاشاه! وكيف تظن بالقاضي عياض مثل ذلك وكتابه «الشفا» كله موضوع لتعظيم رسول الله ﷺ وبيان وجوب الوفاء بحقه؟!

وإيضاح ما قلناه أن الصلاة ذات الركوع والسجود في الأصل موضوعةٌ لمناجاة الله عزَّ وجلَّ والخضوع له وحده دون ذكر غيره من العباد، ولكن لما كان رسول الله ﷺ هو الحبيب الأعظم للحقِّ جلَّ وعلا، وأمرنا بذكره معه تعالىٰ كلما ذُكِر، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، ساغ للعلماء أن يأمروا الأمة بالصلاة عليه ﷺ في تلك الحضرة الشريفة، إما علىٰ سبيل الوجوب لمن يقدر علىٰ الجمع بين الاشتغال بالله تعالىٰ وبغيره في آن واحد، وإما علىٰ سبيل الاستحباب لمن لم يقدر علىٰ مثل ذلك، لأنه ﷺ هو الواسطة العظمىٰ بين الله تعالىٰ وبين عباده، فكانت الصلاة عليه وفاءً ببعض ما وجب له علينا من الحقوق.

ويؤيد ذلك ما ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ نادىٰ أُبي بن كعب[1] في الصلاة، فلم يجبه، فقال له النبي ﷺ: «أما سمعتَ قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»[2]، فلو أن إجابة رسول الله ﷺ كانت تقدح في كمال الصلاة ما عتب رسول الله ﷺ كعب بن مالك علىٰ ذلك، بل كان يحمده علىٰ ذلك، إيثارًا لجناب الحقِّ جلَّ وعلا علىٰ جنابه.

ثم إن كل من تأمل وجد الناس في هذه المسألة قسمين: **قسم عظمت هيبة الله تعالىٰ**

(١) الحديث في الصحيح عن أبي سعيد بن المعلىٰ، وليس أُبي بن كعب.

(٢) الحديث عند البخاري (٤٧٠٣) عن أبي سعيد بن المعلىٰ قال: «مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتىٰ صليت ثم أتيت. فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته. فقال: الحمد لله رب العالمين. هيٰ السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» وأبو داود (١٤٥٨).

في قلبه، فذهل عن ذكر ما سواه؛ وقسم أعطاه الله تعالىٰ مع تلك الهيبة القوة مع الإقبال علىٰ مناجاته ومناجاة غيره، من غير أن يشتغل بأحد المشهدين عن الآخر، ولم يذهل عن شهود ربه بإقباله علىٰ الصلاة علىٰ نبيه ﷺ، بل أقبل عليه وفاءً بحقِّه، لكونه كان سببًا في هدايته وتعليمه أحكام الصلاة وغيرها، فلولا وجوده ﷺ وتعليمه للأمة شروط الصلاة وآدابها، ما اهتدىٰ أحد لها، ولا صحَّت له صلاة، ولا كان الحق تعالىٰ أذن له في الوقوف بين يديه أبدًا.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ما دام المريد لم يبلغ مقام الكمال، فأشق ما عليه الاشتغال بمن أمره الله تعالىٰ بالإقبال عليه حال صلاته وذكره مثلًا، ثم إذا حصل له مقام الكمال، ذهبت تلك المشقة، وصار يجد الروح والراحة في الاشتغال بكل من أمره الحق تعالىٰ بمراعاته من الخلق.

وقد وقع للشبلي أنه أذَّن في حال بدايته فلما وصل إلىٰ قوله: «وأشهد أن محمدًا رسول الله» وقف وقال: وعزتك وجلالك لولا أمرتني بذكر غيرك ما ذكرتُه ولا تجرأتُ علىٰ ذكره. ثم لما بلغ مقام الكمال النسبي اللائق به، كان يقول: لا ينبغي لأحد أن يذكر الله تعالىٰ إلا ويذكر معه حبيبه ﷺ بأبي هو وأمي، لأنه لا يصح لأحد معرفة بالله تعالىٰ إلا وهو ﷺ واسطة له في ذلك، حتىٰ القطب الغوث لا يصح له أن يطأ في وجوه المعارف أمرًا لم ير قدم نبيه ﷺ أمامه فيه أبدًا، ولا يصح لأحد أن يعرف من صفات الحق تعالىٰ إلا ما عرَّفه له محمد ﷺ، ومن كان كذلك وجب علىٰ كلِّ مسلم أن يسأل الله تعالىٰ أن يصلي عليه ﷺ، مكافأةً له علىٰ بعض حقِّه عليه.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من قال باستحباب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ فهو في حق أهل البدايات في مقامات الطريق؛ ومن قال بوجوبها فهو في حق النهايات، فلا تناقض. وعلىٰ ذلك حملوا قول أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: «من شهد الحق تعالىٰ لم يرَ الخلق، ومن شهد الخلق لم يرَ الحق» وقوله: «من شهد الحق تعالىٰ أُمِرَ بشهود الخلق. ومن شهد الخلق أُمِرَ بشهود الحق» فإن الأول في حق أهل البدايات،

والثاني في حق أهل النهايات، إذ من الواجب على الكمَّل شهود الخلق مع الحق تعالىٰ وراثةً محمديةً، فإنه ﷺ كان مكلَّفًا بإقباله على الخلق حال إقباله على الحق، لا يحجبه أحد المشهدين عن الآخر، كما ذكره الجلال السيوطي ﵀ أواخر كتابه «الخصائص».

ويصح أيضًا حمل القول بوجوب الصلاة على رسول الله ﷺ [على](1) حال الضعفاء، وحمل الاستحباب على حال الأقوياء، لأن الضعيف لولا شدد عليه بوجوب الصلاة على رسول الله، ما قدر على ذكره مع الله تعالى حال مناجاته، لعظيم ما تجلى لقلبه من عظمة الله التي لا يقدر على تحملها.

واعلم يا أخي أن الصلاة على رسول الله ﷺ جاءت مطلقة في الكتاب والسنة غير مقيدة بحال دون آخر، فاختار الإمام الشافعي أن يكون في تشهد الصلاة، لكن في الأول على وجه الاستحباب، وفي الثاني على سبيل الوجوب، ولعل العلة في ذلك كون العبد يكون في التشهد الآخر في غاية الهيبة والتعظيم، بخلافه في الأول، فإن من خصائص تجليات الحق تعالى أنها كلما طال وقتها، ازدادت الهيبة في القلوب، عكس الحال في ملوك الدنيا، فلو أن الشافعيَّ أوجب الصلاة في التشهد الأول، لكلَّف العامة شططًا، فكان في إيجابها في التشهد الآخر رحمةً بالضعفاء، وكانت صلاتنا على رسول الله في حضرة الله تعالى كالشكر له ﷺ من حيثُ إنه لولا تعليمه لنا الأدب، ما كان الحقُّ تعالى أهلنا للوقوف بين يديه.

ومما يؤيد مشروعية ذكر رسول الله ﷺ في الصلاة قول سيدي عليٍّ الخواص ﵀: من جملة رحمة الله تعالى بالضعفاء من أمثالنا خطور الأكوان على قلوبهم في الصلاة، ولولا ذلك لماتوا من شدة هيبة الله عزَّ وجلَّ. أما الأنبياء وكُمَّل ورثتهم فإنما قدروا على الإقبال على الله وحده من غير خطور شيء من الأكوان على قلوبهم، لما أعطاه لهم من القوة والعصمة. ومن هنا تعلم يا أخي أن شهود رسول الله ﷺ في الصلاة من جملة رحمة الله تعالى بالأمة، لما في ذلك من الاستئناس به ﷺ في حضرة الله الخاصة. انتهى.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وكان سيدي علي المرصفي ﵀ يقول: وجوب الصلاة على رسول الله ﷺ خاص بمن لا يشتغل عن الله بذكر غيره، وعدم وجوبها خاص بمن يشتغل بها عن الله عزَّ وجلَّ. ويصح أن يكون الأمر بالعكس أيضًا كما مرت الإشارة إليه آنفًا، فاعلم ذلك، واحمل الأئمة على المحامل الحسنة، ولا تبادر إلى الإنكار على أحد منهم، فإنهم بنوا قواعد مذاهبهم على أصول صحيحة، والحمد لله رب العالمين[1].

(١٠٧٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكثر من مجالسة الولاة كالوالي والكاشف وشيخ العرب ونحوهم ويرى أحدهم يأخذ البلص ويضرب الناس بغير حق وهو ساكت، فلاث الناس به وقالوا: هذا الشيخ قليل الدين لم يشم من طريق القوم رائحة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أرباب الأحوال، فيصير يتوجه إلى الله تعالى أن يكف ذلك الظالم عن ظلمه، وأن يصبر ذلك المظلوم على ما نزل به، أو أن الله تعالى يحلم على هذا الظالم أو لا يعاجله بالعقوبة، أو يطلعه على البريء وعلى غير البريء، كما كان الشيخ داود بن باخلا شيخ سيدي محمد وفا يفعل، فكان يجلس تجاه نائب إسكندرية على كرسيٍّ، فإذا دخل الشخص المطلوب فإن رآه بريئًا مسك الشيخ لحية نفسه ورفعها إلى خارج؛ وإن رآه سرق مثلًا مسك لحيته ودفعها إلى داخل، فيعلم نائب إسكندرية البريء من غيره، فيفعل بكلٍّ مقتضاه.

وربما كان الشيخ الجالس عند الوالي مثلًا يقول للجلَّاد إذا ضرب أحدًا: اضرب قويّ؛ وهو قابض بالقلب على يده، سترًا لحاله بين الحاضرين، حتى لا يعرف أحد حاله. ويكون على علم الإخوان أنه ما ثم وليٌّ لله تعالى إلا وهو متخلق بالرحمة على جميع العالم أكثر من والدتهم، فكيف يصح حمل أحد منهم على أنه يحب الأذى لأحد بغير طريق شرعي؟! ولم يزل في بيت بني بغداد[2] وغيرهم شخص من أرباب الأحوال

---

(١) وتقدم جواب آخر عن قول عياض، فانظره (١٧٧).

(٢) بيت أمراء معروف في ذلك االعصر، وقد ذكرهم الإمام في هذا الكتاب مرارًا.

من أهل التستر لا يعرف غالب الناس حاله، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا قلوبكم وألسنتكم في حقِّ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٧) ومما أجبتُ به عن العلماء الذين فرَّق عليهم أحد من الولاة مالًا فقبلوه، فلاث بهم العامة وقالوا: هؤلاء يأكلون الحرام.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعلماء بسبب أخذهم المال من الولاة، ولا ينبغي الحكم علىٰ مالهم بأنه حرام إلا بعد الفحص الشديد، بشرط أن يكون الفاحص يعلم قواعد الشريعة. ثم إنه لا يلزم من أخذ العالم المال المذكور أن يكون يأكله أو يلبس منه من غير طريق شرعي، إنما يجب حمله علىٰ أنه لا يصرفه إلا فيما أذن الله له أن يصرفه فيه.

ثم إن وقع أن بعضهم تورَّع ولم يقبل المال، سألنا الله تعالىٰ له أن يحفظه من فتنة ذلك، فإنه لابد أن الناس يرجحونه علىٰ من أخذ، ولا يخفىٰ ما في ذلك من الفتنة والشهرة بالورع، فالأولىٰ موافقة الفقير للناس في الأخذ إن لم يكن له أتباع يقتدون به، كما هو شأن الأفراد من الأولياء، وإلا فإن كان له أتباع فالأدب له الرد كما رد ﷺ جبال تهامة حين عرضها عليه جبريل أن يجعلها الله له ذهبًا وفضة تسير معه حيث سار[1]، فإنه ﷺ إنما ردها رحمةً بالضعفاء من أمته، فيأخذ أحدهم الدنيا ولا يعرف يخرج من فتنتها، وإلا فاعتقادنا في رسول الله ﷺ أن مال الدنيا كلِّها والآخرة بما فيهما لو كان بيده

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٩٣٧) من حديث ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ ذات يوم، وجبريل ﷺ علىٰ الصفا، فقال له رسول الله ﷺ: يا جبريل، والذي بعثك بالحق ما أمسىٰ لآل محمدٍ سفةٍ من دقيقٍ، ولا كفٌّ من سويقٍ. فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدَّةً من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن أمر الله إسرافيل، فنزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل، فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن يعرضن عليك إن أحببت أن أُسَيِّرَ معك جبال تهامة زمردًا، وياقوتًا، وذهبًا، وفضةً فعلت، فإن شئت نبيًا ملكًا، وإن شئت نبيًا عبدًا؟ فأومأ إليه جبريل أن تواضع، فقال: بل نبيًا عبدًا، ثلاثًا» والبيهقي في «الزهد الكبير» (٤٤٧) وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨٢٥٢) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه سعدان بن الوليد، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

لم يشغله ذلك عن ربه طرفة عين لعصمته.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا ألسنتكم في حق العلماء والصالحين، فربما حضر أحدهم تفرقة صدقات الولاة وأخذها سترًا لحاله، حتىٰ لا يتميز عن إخوانه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه سامح الخلق كلهم من جهة وقوعهم في عرضه، ثم نراه يجيب عن نفسه ويزجر من نقصه في المجالس، وينظر إليه نظر الغضب، فلاث به الحذاق من الناس وقالوا له: هذا الحال ينافي دعواك مسامحة الخلق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه إنما يزجر من ذكره بسوء من حيثُ تعديه حدود الله، بقطع النظر عن كون الحق في ذلك للخلق، لأنه لا فرق في وجوب الزجر لمن تعدىٰ حدود الله بين أن يكون ذلك من حيثُ الزاجرُ أو غيرُه، لأنه منكر في الجهتين.

ويُحتمَل أنه إنما زجر المنقِص له من حيثُ إنه أي الزاجر عبد الله تعالىٰ من باب التجريد، فغار علىٰ عبد ربه أن ينتهك أحد حرمته، أدبًا مع الله، بقطع النظر عن تخصيص ذلك به، كما تقدم بسطه في هذه الأجوبة مرارًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٧٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سأله أحد من إخوانه أن يعرف بينه وبين الأمير الذي يعتقده، فأجابه وقال: اذهب معي إليه، لأمهد لك طريقًا عنده، حتىٰ تكون عنده معظَّمًا مكرَّمًا، لا يحجبك عنه إذا أتيت إليه في وقت من الأوقات. ثم إنه لما ذهب معه إلىٰ ذلك الأمير سأله الأمير عنه، فقال: أيش حرفة هذا؟ فسكت ولم يجبه بشيء، فخجل أخوه من ذلك، ولاث به جماعة ذلك الأخ وقالوا له: حيث كنتَ عازمًا علىٰ السكوت إذا سُئلتَ عنه، كنتَ عرفتَه بذلك حتىٰ لا يذهب معك، ويحصل هذا الخجل العظيم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه رأىٰ بُعْدَ أخيه عن ذلك

الأمير وعدم معرفته به أكمل له في دينه، فاحتاط له بالسكوت، وإنما [لم][1] يجب الأمير بشيء ولم يعرفه به رحمةً بأخيه، لأنه إن عظَّمه في عين الأمير، أقبل عليه الأمير وأكرمه، وربما أهدىٰ إليه شيئًا، فمال ذلك الأخ إليه فهلك، لأنه ربما كان يقع في الظلم والجور، فتمسه النار كما قال الله تعالىٰ[2]، وخاف إن حقَّر أخاه عنده ولم يبين له مقامه أن يتكدر أخوه، فكان السكوت أولىٰ له.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي لهذا الأخ ولا جماعته أن يقعوا في عرض هذا الشيخ بسبب عدم تعريف ذلك الأمير مقامه، بل الواجب عليهم أن يشكروا فضله، حيثُ احتاط له، وحماه من الركون إلىٰ الذين ظلموا.

فإن قيل: إن بعض العلماء كالشيخ ناصر الدين الطبلاوي رحمه الله كان كثيرًا ما يدخل علىٰ الأمراء وقضاة العساكر بأحد طلبته، فيكبر به عنده، حتىٰ يجعل نفسه كأنه هو التلميذ، وذلك الطالب هو الشيخ -ووقع لي معه ذلك لما طلعتُ معه للباشاه إسكندر بمصر- فهلا كان هذا الشيخ فعل مثل ذلك؟ وسأل الله تعالىٰ لصاحبه عدم الركون إلىٰ ذلك الأمير. قلنا: مثل الشيخ ناصر الدين رجلٌ متمكنٌ في العلم والعمل، فلا يُقاس عليه، لأن الله تعالىٰ أقدَّره علىٰ [حماية نفسه وحماية أخيه، فلو أن هذا الشيخ قدر علىٰ][3] مثل ذلك، وتركه لكان عليه اللوم، لكن لما عجز عنه تركنا لومه والعتب عليه.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واشكروا فضل من نفَّر الأمراء وأبناء الدنيا عن الميل إليكم، خوفًا أن يشغلوكم عن عبادة ربكم بالميل إليهم بغير طريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أي في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

(٣) ساقط من «ب».

(١٠٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي استأذن عليه فقير ليدخل فمنعه، وقال له أصحابه: إن الشيخ لا يخرج اليوم لأحد، لأنه في جمعية قلبه مع ربه؛ فذهب الفقير ولبس له ثياب شخص من جماعة الباشاه كالجاويش، وجاء يستأذن وراطن[1] لهم، فأخبروا بذلك الشيخ، فخرج يهرول حافيًا وقال: نحن أقل من أن يذكرنا مولانا الباشاه على باله! وأقبل على ذلك الفقير كلَّ الإقبال لأجل ثيابه، فلاث الناس به، وقال له الفقير: يا بطال! الذي أتاك ولم تأذن له هو أنا، ولكن عرفتُ أنك يا أخي نصَّاب لستَ بصادق في طريق الفقراء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لاحتمال أن يكون ظن في الفقير أنه صاحب خلق حسن لا يتأثر بعدم الإذن له، ولا يقع في عِرْض الشيخ بسبب ذلك، أو ألقى الله في سرِّ الشيخ أن ذلك الفقير ليس له حاجة، وإنما هو سلام فقط، أو أن نيته غير صالحة في الزيارة كما هو الغالب.

وأما جماعة الباشاة فلا يعرفون عذر الفقراء، ولا يحملونهم على المحامل الحسنة، وربما كان في الخروج لهم حافيًا مهرولًا يميل خاطرهم، ليصيروا يقبلون شفاعة الشيخ في مظلوم من رعيتهم، بخلاف ذلك الفقير. ولا يجوز حمل الشيخ على أنه عظَّم أهل الدنيا على الفقراء بغير طريق شرعيّ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل على بعض العلماء، فذكر بعض أقرانهم بسوء عندهم، فلاث به الحاضرون وقالوا: إذا كان العلماء صاروا يستغيبون بعضهم بعضًا، فما بقي أحدنا يلام كل ذلك اللوم إذا ذكر أخاه بسوء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ إذا دخل على أحد وذكر له أقرانه بسوء، بل يجب التربص وانتحال الأجوبة عنه، لاحتمال أن يكون إنما ذكر لذلك الشخص أقرانه بسوء صورةً فقط، من باب طرح العالم المسائل على إخوانه ليختبر أفهامهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: محل تحريم امتحان الناس إنما هو إذا كان

---

(١) راطن فلانًا: خاطبه بالأعجمية.

بغير غرض شرعي، أما من يمتحن أخاه ليخرجه من شبهة، أو لينظر حاله معه هل هو يكرهه ويحط فيه علىٰ عادة الأقران، ليأمره بالتوبة من ذلك، أم هو يحبه ليزيد في التأليف بينه وبينه في المحبة، كما هو شأن الأولياء الأكابر الذين يحتاطون لدين إخوانهم، فلا تحريم.

ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ الغيبة المحرَّمة لمن ذكره بسوء، لأن مقام الأشياخ يجل عن مثل ذلك، وكان علىٰ هذا القدم الشيخ ناصر الدين النحاس[1] نفعنا الله ببركاته. فاعلم ذلك يا أخي، واعمل به إن شئتَ بقصد تخليص أخيك من العداوة والبغضاء، لا بقصد التشفي من عرضه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٢) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يتاجر في الزيت الحار والجبن والسمن ونحو ذلك، ويشتري ذلك بالألف دينار وأكثر، ويحجر علىٰ الفلاحين أن لا يبيعوا جبنًا ولا سمنًا إلا له فقط دون الزياتين والجبَّانين عادةً، فلاث به العلماء وغيرهم وقالوا: تجارة الأمير خسارة، وتحجيره علىٰ الفلاحين أن لا يبيعوا إلا له تحجير علىٰ الناس، وذلك مخالف للشريعة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الأمير، لاحتمال أن يكون فعل ذلك باجتهاد، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن يأكل من كسبه لا من مال السلطان، وأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن تجارته وأخذه السمن والزيت والجبن وبيعه للناس أرخص من أخذ الزياتين وبيعهم علىٰ العامة، لأن العادة أن الزيات يحسب ما يأخذه منه المحتسب والرسل والقصاد من جملة الثمن، فيأخذ من الناس الفلوس الزائدة علىٰ الثمن عادة، فإن الخبَّاز شريك المحتسب، بخلاف ما يأخذه الباشاه ويبيعه، فإن المحتسب وجماعته لا يقدرون أن يأخذوا منه درهمًا.

فإن قيل: في ضمن تجارة الباشاه التضييق علىٰ الناس؛ **فالجواب:** أن التضييق لم

---

(١) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ ناصر الدين النحاس. كان صانعًا عند الشيخ أبي النجا النحاس، يأكل من عمل يده، ومهما فضل عن نفقته، تصدق به. صحبته نحو خمس عشرة سنة حتىٰ مات. ووقع لنا معه عدة كرامات، فتركنا ذكرها لكونه كان يكره الشهرة. توفي: ٩٤٥هـ ودُفن عند سيدي علي الخواص خارج باب الفتوح، والله أعلم. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٤٧٥) طبعة دار الإحسان.

يكن مقصودًا بالذات، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصد، ويؤيده أن لازم المذهب ليس بمذهب على الراجح، فاعلم ذلك، واعرف زمانك، واحفظ لسانك في حق ولاة الأمور، فإنه لا قدرة لك على تحمل أوزارهم إذا أطلقتَ لسانك في حقِّهم بلا طريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يحسن بكسوة أو طعام إلى أحد من فقراء الزاوية إلا إن كان ذلك الفقير جازمًا بالإقامة عنده بقصد العبادة والخير. وإن عرف أنه عازم على الخروج من زاويته إلى مكان آخر، أو كان على غير نعت الاستقامة، لم يطعمه ولم يَكْسُه، فلاث به الحذَّاق من أهل العلم وقالوا: من أطعم لله وكسا لله لا يحتاج إلى شرط. وقد بلغنا أن مجوسيًّا استضاف إبراهيم الخليل ليلة، فقال له إبراهيم: أسلم وأنا أطعمك. فأوحى الله له: «يا إبراهيم، أنا أطعمه وأكسوه من حين كان طفلًا إلى أن شابت لحيته، يستضيف عندك ليلة واحدة، فتشرط عليه الخروج عن دينه» كهيئة العتاب لإبراهيم، قال المنكر: فلو كان هذا الشيخ محسنًا، لأحسن إلى كل برٍّ وفاجر.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض على هذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بالشرط فتح باب محبة ملازمته، حتى يربيه ويعلمه الأدب وأحكام دينه، فتكون تلك الكسوة أو ذلك الإطعام كالمعين له على ما يطلبه من الخير، بخلاف من يكون عازمًا على مفارقة الشيخ للأمور الدنيوية، كقراءة القرآن بالفلوس في موضع آخر، أو على عمل خرقة، فإن للشيخ حرمانه[1] وإعطاء الكسوة والطعام لمن هو مقيم عنده قاطع للعلائق.

ويُحتمَل أن تلك الكسوة والطعام جاء على يد الشيخ من أصحابه، وعيَّنوا له صرفه إلى القاطنين عنده دون غيرهم. ويُحتمَل غير ذلك كما أوضحناه في كتاب «الأخلاق». فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض على شيخك إلا بطريق شرعيٍّ واضح كالشمس ليس دونها سحاب ولا حجاب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بالأصلين: جريانه. والصواب ما أثبتناه.

(١٠٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يجعل له مرقعة، ويضربها بالخياطة إلىٰ أن تصير زنتها نحو أربعين رطلًا، ومعلوم أن من شأن الفقير قصر الأمل، حتىٰ إنه يستبعد أنه يعيش حتىٰ يقطع الثوب الخَلِق السالم من التلبيد وطرح الرقاع بعضها فوق بعض، فضلًا عن الثوب الذي لا تلبيد فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ من عمل له مرقعة، ولا حمله علىٰ أنه طويل الأمل إلىٰ الحدِّ الذي نهاه الشارع عنه، وإنما يجب حمله علىٰ الأغراض الصحيحة، كأن كان عنده شراميط(١) من ثياب الصالحين الذين أدركهم أو لم يدركهم، فأحب التبرك بها، فلبَّد بعضها علىٰ بعض، فكان الغرض من تلبيدها حصول دوام التبرك بها، لا طول مكثها عليه لغير غرض صحيح.

ويُحتمَل أنه جمعها من ثيابه هو التي كانت من وجه حلٍّ حين بليت وما بقيت تصلح للبس إلا بالترقيع والتطبيق لتخرقها وتقطيعها، فأراد أن يجعلها مرقعة ليطول مكثها عليه كذلك، وقد كانت مرقعة السيد إبراهيم بن أدهم زنتها ستين رطلًا، وربما دعا نفسه إلىٰ التطهر من الماء البارد في ليالي الشتاء فأبت، فينزل الماء بتلك المرقعة ويحلف أنه لا ينزعها حتىٰ تجف علىٰ جسمه، فربما بقيت عليه نحو الشهر حتىٰ تجف، وكذلك كانت مرقعة الشيخ أبي يزيد البسطامي، ومعلوم أن هؤلاء الأشياخ من كبار العارفين الذين ليس عندهم طول أمل، حتىٰ إن أبا يزيد قدَّم مرةً شخصًا للإمامة فأبىٰ، فألح عليه، فقال: بشرط أن لا أصلي بكم صلاة أخرىٰ. فأخره الشيخ أبو يزيد وقال: لا يصلح إذن أن تكون إمامًا بالناس حيثُ كان أملك يمتد إلىٰ وقت صلاة أخرىٰ من [غير موت! فانظر يا أخي كيف لم يصلِ خلف من ظن أنه يعيش إلىٰ وقت صلاة أخرىٰ](٢)، فلولا أن مقام الشيخ أبي يزيد قصر الأمل ما أخَّر ذلك الإمام. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله [يدمن لبس المرقعة شتاءً وصيفًا، وكانت من آثار الأولياء من المجاذيب والصحاة،

---

(١) شراميط: حمع «شرموطة»، وهي تعني الثوب البالي الممزق.

(٢) سقط من «ب».

و](١) يقول: إن لبس المرقَّع من أخلاق الأنبياء والأولياء والملائكة. انتهىٰ.

ثم إن مرقعات الفقراء تارة تكون ملفقةً من لون واحد أبيض أو أسود، وتارةً من ألوان شتىٰ من أبيض وأسود وأخضر وأحمر، بحسب آثار الأولياء الذين كانوا يلبسونها حال حياتهم مثلًا، فكان تلوينها اتفاقًا للفقراء لا مقصودًا.

فاعلم ذلك، وإياك والإعراض عمَّن لبس مرقَّعة من الشراميط، مع أن عمامته من أرفع القماش وتقول: لا يليق بمن يلبس المرقعة إلا أن تكون عمامته شراميط، ليشاكل بعضه بعضًا؛ فقد تكون عمامته من وجه حلال، أو أراد الاقتداء بالسلف في الثياب دون العمامة أو عكسه، لاسيما في مثل يوم الجمعة، وعليك بحسن الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه شخص من إخوانه إلىٰ طعامه، فسمع بذلك أمير من المحبين للشيخ، فحضر عند ذلك الشخص بعد أن تكلف وعمل ألوانًا من الطعام، ثم أرسل الشخص وراء الشيخ قاصدًا بعد قاصد، فلم يحضر، فصار الأمير وجماعة الشيخ الذين سبقوه في غاية الحصر، فبلغ ذلك بعض الناس، فاعترض علىٰ الشيخ وقال: هذا لا ينبغي من الشيخ، لأن فيه خلف الوعد، وفيه إدخال غم علىٰ صاحب الطعام وعلىٰ ذلك الأمير وعلىٰ الفقراء الذين حضروا، وجبر الخواطر مطلوب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لعدم حضوره، فإن الفقراء أهل اجتهاد، فربما بدا لهم بعد الإجابة أمر يرجِّح عدم الحضور علىٰ الحضور مما فيه مصلحة لهم أو للأمير أو لصاحب الطعام.

وقد دعاني مرة أخي سيدي أبو الفضل مباشر وقف السلطان قايتباي مرةً إلىٰ طعام عمله وتكلَّف فيه، فسمع بذلك الأمير حسين بن بغداد، فحضر إلىٰ عنده محبةً فيَّ، وصار ينتظرني من الظهر إلىٰ قريب المغرب، فنظرتُ فإذا في حضوري أنا والأمير خطور العجب

---

(١) ساقط من «ب».

علىٰ صاحب الطعام، لعزة حضوري الولائم وحدي، فضلًا عن حضوري مع أمير.

وكذلك وقع لي مع شخص من الأكابر، فأجبتُه إلىٰ الحضور، ثم نظرتُ فإذا في حضوري عنده مفاسد، منها عملي علىٰ غرضه الفاسد عندي، **فإن من المعلوم أن غرض غالب الأصحاب التي هي عندهم صحيحة ربما تكون عند الفقراء غير صحيحة**، فيتعود أحدهم علىٰ طلب أن الفقير يعمل علىٰ غرضه هو لا يخالفه، فأردتُ بعدم الحضور أن يتعودوا علىٰ عدم التحجير عليَّ، لكوني محجورًا عليَّ في فتح باب العمل علىٰ أغراض أصحابي، لاسيما والأمير حسن كان في بداية الصحبة، فأردتُ برجوعي امتحانه قبل الدخول في صحبته لي وتمكنه فيها، ليدخل في صحبتي من غير مطالبتي بالعمل علىٰ أغراضه الدنيوية.

وقد تقدم في هذه الأجوبة[1] **أن أكل طعام المعتقدين مكروه، لربطهم عقيدتهم فيه علىٰ وصف الصلاح، بخلاف طعام المحبين فإنه لا يُكرَه.**

[الفرق بين المحبّ والمعتقد]

والفرق بين المحب والمعتقد أن المحب هو الذي يحبُّك كمحبة الوالدة لولدها، فلا تكاد تنفر بقلبها عنه إذا رأته علىٰ معصية، بل تقول: خزاك الله يا إبليس! لعب علىٰ عقل ابني وأوقعه في كذا وكذا. وأما المعتقد فما أطعم فقيرًا طعامًا وتكلَّف له إلا لاعتقاده أنه صالح، ولو رآه علىٰ معصية لفر منه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: إن لم يكن الفقير كما ظنَّ المعتقد، فليس للفقير أن يأكل له طعامًا، بل بعضهم كره أن يأكل من طعام المدعين للمحبة التي هي فوق مقام الاعتقاد، خوفًا أن لا يكون صحت لصاحبهم المحبة الصادقة، فإنها عزيزة الوجود، فربما لا يوجد في الألف شخص واحد من الصادقين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الجواب (٢٩٥).

(١٠٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الورع الزاهد المشهور في مثل مصر بالدين والخير والاعتقاد العظيم إذا أرسل له الولاة من الروم وظيفة تدريس كانت لأحد من أشياخه أو لأحد من أقرانه من غير سؤال منه في ذلك. ثم لما وصلت إليه تذكرتُها أو مرسومُها، مال إليها بباطنه، أو أظهر الميل إليها بظاهره، فلاث به القوم الذين كانوا يعتقدونه أو يعتقدون شيخه الذي مات وقالوا: انظروا إلىٰ هذا الذي كان يظهر الزهد في الدنيا والتورع! كيف فرح بالدنيا؟! لاسيما إن كان لذلك الشيخ الذي مات ولد يستحق أن يدرِّس في تلك الوظيفة، فإن الإنكار يشتد عليه، ويقول الناس: كان الواجب عليه أن يردها لولد شيخه، أو يقاسمه في معلومها، أو يعطي له معلومها كاملًا، ولكن قد نفضنا أيدينا من جميع الناس في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا العالم الذي أخذ وظيفة شيخه أو صاحبه وأحرم ولده منها أو من معلومها أو بعضه، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن انقضاء تلك المدة التي جعلها الله تعالىٰ لولد شيخه بعد موت والده، فقبلها علىٰ نور وبصيرة من الله تعالىٰ، غافلًا عن النظر إلىٰ ما فيها من المعلوم، كما يفعل ذلك أصحاب الكشف، فإن أحدهم إذا أعطاه الله تعالىٰ شيئًا يستحيي أن يرده علىٰ حضرته مطلقًا، أو لأحد من أقرانه، لما في ذلك من إظهار الغنىٰ عن فضل الله تعالىٰ، كأنه يقول: «يا رب أعطها لمن هو محتاج إلىٰ فضلك وصدقتك» ولا يخفىٰ ما في ذلك من سوء الأدب.

ويُحتمَل أنه إنما أخذ تلك الوظيفة بعد أن أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه أولىٰ بها من ولد شيخه، لاسيما إن كان وافقها شرطها لأعلم الحنفية أو الشافعية مثلًا، وأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه أعلم من ولد شيخه أو غيره، فقصد بأخذها حماية ولد شيخه من أخذ ذلك المعلوم مع كونه مفضولًا في العلم؛ لأنه شبهة علىٰ كلِّ حال. وكان في ذلك أيضًا زيادة الأجر في [صحيفة][1] صاحب ذلك الوقف بالعمل بشرطه، فلا ينبغي اللوث بالعالم الذي يُحتمَل أن يكون هذا قصده بأخذه الوظيفة، لأنه ربما كان غافلًا عن محبة معلوم تلك

(١) زيادة من عندنا لاستقامة السياق.

الوظيفة جملةً واحدة، واللوم لا يكون إلا علىٰ من عُلِمَ منه أنه أخذ تلك الوظيفة محبةً في معلومها لا إحياءً للشريعة، ولا حمايةً لولد شيخه عن الأكل مما غيره أحق به منه.

ويُحتمَل أنه قصد بأخذ تلك الوظيفة سترة نفسه بين أقرانه الذين يزاحمون علىٰ الدينار، فأراد بأخذها عدم تميزه عنهم بالورع والزهد والعفة، لا غير ذلك من الأغراض النفسانية، فلذلك أظهر الفرح والسرور بتلك الوظيفة، وقلبه فارغ من محبة معلومها، أو من الرئاسة فيها. ثم بتقدير محبته لتلك الوظيفة للأغراض النفسانية، فيُحتمَل أنه يتوب عقب كلِّ درس ويعزم علىٰ نزوله عنها إلىٰ ولد شيخه أو غيره، هذا لا يبعد وقوعه من عالم طول عمره علىٰ قدم الورع والزهد.

وقد وقع لبعض إخواننا مثل هذه القضية في وظيفة تدريس الخشابية بجامع عمرو[1]، وهو الشيخ الصالح الورع الزاهد الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني شارح «المنهاج» و«التنبيه» وتفسير القرآن العظيم، فأرسل له الولاة مرسومًا بهذه الوظيفة الشريفة من حيثُ رئاستُها ومعلومُها بغير سؤال منه، فقبلها طلبًا لعدم التميز من بين أقرانه، لعلمه بأنه إذا ردها علىٰ السلطان أو أعطاها لولد شيخه أو معلومها، يتميز عن أقرانه، ويقدمونه عليهم ضرورة، فالله تعالىٰ يرضىٰ عنه، ويديم عليه الزهد والورع إلىٰ الممات، آمين، آمين، آمين.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والوقوع في أعراض العلماء إذا أظهروا للناس محبة الدنيا، فربما يكون قصدهم بذلك السترة بين العباد، ولا يجوز حملهم علىٰ ما يتبادر إلىٰ الأذهان من محبة الدنيا، فإن ذلك حرام، وليس لأحد أن يفتش[2] عن قلوب الناس ومقاصدهم في معاملاتهم لربهم.

وإياك يا أخي أن تعيِّر من وقع في أخذ وظائف إخوانه بطريق تخالف مقام الورع، فإن الله تعالىٰ ربما ابتلاك بمثل ذلك، وقل لنفسك: إذا كان خيار الناس جرىٰ عليه المقدَّر

---

(١) جامع سيدنا عمرو بن العاص ﷺ أول مسجد في مصر، ويقع بحي مصر القديمة.

(٢) بالأصلين: ينعت.

في هذا الزمان بمثل هذه القضية، فكيف بمثلك من شرار الناس؟! وقد كان الحسن البصري ﷺ يقول: قد عيَّرنا أقوامًا بوقوعهم في شيء من الرذائل، فابتلينا بأقبح من ذلك بعد ثلاثين سنة. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ أصحابه أن يأخذوا هدية أو صدقة من أحد عليه دين ولو إلىٰ أجل، فلاث به بعض المجادلين وقالوا: هذا تنطع في الدين، ولم يبلغنا عن أحد من السلف الصالح أنه تورَّع عن مثل ذلك، بل المنقول عنهم الأخذ من غير تفتيش عن مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأن ما فعله هو الورع، إذ الأولىٰ أو الواجب صرف تلك الهدية أو الصدقة لمن له عليه دين، ومن قبل من صاحب هذا الحال هدية أو صدقة فهو كالمعين له علىٰ تأخير الحق الذي عليه، فهذا إن أحسن إليه ظاهرًا، فقد أساء عليه باطنًا.

ومن هنا كنتُ أردُّ هدايا العمال والكشَّاف والملتزمين، وآمر الفقراء بعدم قبولها مصلحةً لدينهم، لأن الولاة وحاشيتهم لا يسلمون من تبعات الخلائق، وربما كان جميع ما في أيديهم مستحَقًا لأصحاب التبعات، كما قالوا في مانع الزكاة إنه يصير ظالمًا علىٰ الفقراء والمساكين بأكله مالهم الذي جعله الله تعالىٰ لهم في ماله. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الباب الثاني عشر

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم المسلمين

فأقول وبالله التوفيق:

(١٠٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يُكرَه الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ وسؤال الله تعالىٰ حاجةً في أوقات النهي؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم يبلغنا فيه شيء عن النبي ﷺ، و لو كان مكروهًا لبينه لنا ولو في حديث واحد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قال ذلك باجتهاد، فأدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ قياس كراهة الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ علىٰ الصلاة ذات الركوع والسجود، بجامع أنها مناجاة لله تعالىٰ، وقد منع الشرع من مناجاة الله في أوقات النهي عن الصلاة المعروفة، فكذلك القول في مطلق المناجاة، كما إذا قال الملَك: لا أحد يسألني في حاجة في الوقت الفلاني؛ فمن الأدب اجتناب السؤال حتىٰ يمضي الوقت. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة للاعتراض إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكسي الناس الواردين عليه الجوخ والمُضَرَّبَات والأصواف النفيسة، ولا يفعل ذلك مع أصحابه القاطنين عنده في الزاوية، فلاثوا به وقالوا: نحن كنا أحق بما يعطيه الشيخ لهؤلاء الواردين، لمواظبتنا معه علىٰ قراءة الأوراد، وانقطاعنا عنده.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له غرض صحيح في ذلك، كأن يؤلِّف الناس الواردين عليه، ليمتثلوا أمره في النصح، ويخبروا من وراءهم بذلك، فتتحرك همتهم للاجتماع به وسماع نصحه كذلك، كما وقع لرسول الله ﷺ، حتىٰ أعطىٰ شخصًا مرةً قطيع غنم بين جبلين، فقال لأصحابه: «هلموا إلىٰ محمد، فإن

محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. فأتى الناس إلى رسول الله ﷺ أرسالًا أرسالًا[١].

وكذلك وقع من الأنصار أنهم قالوا: «يا رسول الله تعطي المهاجرين العطاء، وتدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: إنما أُعطِي أقوامًا لما جبلهم الله تعالى عليه من الهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعله الله عندهم من القناعة»[٢]. ومعلوم أن **الأشياخ على أقدام الرسل في التخلق بما قدروا عليه من أخلاقهم**. فلا[بد] في قومهم ممن يعترض عليهم إما لحجاب المعترض، وإما تشريعًا للإخوان، ولا بد أن طائفة من قومهم يقولون: سمعنا وأطعنا، وطائفة يقولون: سمعنا وعصينا، وطائفة يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] ولا بد من طائفة يقولون: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وهكذا في سائر ما نقل عن أتباع الرسل. فعُلِمَ أن الشيخ لولا علم من جماعته صحة الاعتقاد فيما يدعوهم إليه، ما تعداهم إلى الأباعد، ولكانوا أحق بالعطاء، لكنه كما علم قوة إيمانهم وَهَبَ[٣] لعداهم، لأنهم لا يحتاجون إلى تأليف إلى ذلك، بخلاف الأجانب الذين يَرِدُون عليه.

وأيضًا فإن جماعة الشيخ حكمهم حكم الضرائر في العادة، فإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا، تناظر البقية إلى أن يسوي بينهم في العطاء، وذلك يعسر على الشيخ، وقد يكونون نحو مئة نفس، فلا يقدر على كسوتهم، لقلة ما يدخل يده من الحلال المناسب لمقامه،

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٣١٢) من حديث أنس، عن أبيه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه. قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة»، وأحمد (١٣٧٣٠).

(٢)) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٢٣) من حديث عمرو بن تغلب: أن رسول الله ﷺ أتي بمال - أو سبي - فقسمه، فأعطى رجالًا وترك رجالًا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: أما بعد فوالله إني لأعطي الرجلَ، وأدع الرجلَ، والذي أدعُ أحبُ إلي من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب. فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم» وأحمد (٢٠٦٧٣).

(٣) بالأصلين: وهيبتهم. والصواب ما أثبتناه.

أو لتجرده عن الدنيا غالبًا، فإذا كان الإنسان يعجز عن العدل بين امرأتين ولو حرص كلَّ الحرص، فكيف بمئة نفس مثلًا؟! فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك وقلبك من الاعتراض على الأشياخ، وإلا خيف عليك المقت والعطب، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٠) ومما أجبتُ به عن الحكيم المسلم الذي يلاطف المرضى ويقول لأحدهم: أيش يوجعك؟ أو تشكي من أيش؟ ولا يصف للمريض شيئًا من ذات نفسه، فلاث به الناس وقالوا له: أنت طبيب ضعيف الحال، ولو كنتَ حاذقًا، لعرفت المريض بالرؤية أو بحبس العرق، كما يعرفه الطبيب اليهودي فلان.

والجواب عن هذا الطبيب: أنه لا يلزم من سؤاله المريض عن حاله أن يكون جاهلًا بالمرض، فقد يكون عالمًا به أكثر من اليهودي الذي ذكروه، وإنما يسأل المريض زيادةً في المعرفة بالمرض، ليقع الدواء على مرض يقينيٍّ، وذلك لأن المريض يخبر عن ذوق، والطبيب يخبر عن علم، ولا شك أن **الذوق أعلى من مجرد العلم**، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه إذا دخلوا على مريض يقولون له: «كيف تجدك؟»[1] **ولا شك أن رسول الله ﷺ كان أعظم الناس كشفًا بأحوال العالم كلِّه**، ومع ذلك كان يسأل المريض عن حاله، تشريعًا للأطباء من أمته ﷺ.

وقد ذكر المحققون أن سلام الله تعالى على عبد أعلى من سلام العبد على نفسه، وأن سلام العبد على نفسه أعلى من سلام أحد من الخلق عليه من سائر الأمة، لأنه زكى نفسه عن ذوق وجده في نفسه، بخلاف من زكاه غيره، فإنه إنما زكاه لحسن ظنه به، وفي

---

(١) من ذلك ما أخرجه الترمذي (٩٨٣) عن أنس بن مالك ﵁ أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟»، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف»،وابن ماجه (٤٢٦١). وما أخرجه البخاري (٣٩٢٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعك أبو بكر، وبلال، قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ ... الحديث.

الحديث: «ولا يزكي علىٰ الله أحدًا»[1]، فما فوق مقام الذوق إلا علم الله تعالىٰ ورسوله لعصمته، فافهم.

وفي سؤال الحكيم للمريض احتياطًا للمال الذي يُصرَف علىٰ العقاقير مثلًا، فربما كان المرض لا يحتاج في علم المريض إلىٰ جميع تلك العقاقير، فإذا أخبر المريض عن مرضه، فقد خرج الطبيب عن اللوم في شراء جميع تلك الأدوية.

فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق الناس، فإن الغيبة حرام. وقد وقع لسفيان الثوريِّ أنه دخل عليه طبيبان يهوديان في مرض موته، فوصف كلُّ واحد منهما له شيئًا، فقال سفيان: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة لقلتُ: إن أحدهما أطبُّ من الآخر. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مثلًا، ثم يمسح بيديه علىٰ وجهه ورأسه وصدره، وما وصلت يده إليه من بدنه، فلاث به بعض الناس وقال: إنما ورد مثل ذلك في الدعاء[2]، أو مع النفث في اليدين عند قراءة القرآن[3]، وأما المسح من قراءة القرآن بلا نفث، فلم نر في ذلك دليلًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه لا فرق بين ما يأتي من الله تعالىٰ محسوسًا، وبين ما يأتي معنويًا، فمن كان يرىٰ المدد أو الثواب ينزل في يده كان محسوسًا له، ومن كان محجوبًا عن ذلك كان مسحه يكفيه إيمانًا، فإن جود الحق تعالىٰ فياض، فلا يرد علىٰ حضرته سؤال سائل إلا أعطاه سؤله إما في الحال، وإما بعد مدة طويلة أو قصيرة.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٠٦١) ومسلم (٣٠٠٠).

(٢) إشارة إلىٰ ما أخرجه الترمذي (٣٣٨٦) عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء، لم يحطهما حتىٰ يمسح بهما وجهه» وقال: حديث غريب، والحاكم (١٩٦٧).

(٣) إشارة إلىٰ ما أخرجه البخاري (٥٠١٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما علىٰ رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»، وأبو داود (٥٠٥٦).

فإن قال قائل: كلام الله تعالىٰ [لا] يخرج من لسان هذا القاريء، فكيف ساغ له التمسح والتبرك به، وليس هو بجسم ولا منفصل عن الحق، بل هو صفة قائمة بالذات؟!

فالجواب: أن كلام الله تعالىٰ له وجهان: وجه إلىٰ الحق تعالىٰ، وذلك لا يصح لأحد تعقله، ووجه إلىٰ الخلق، وهذا هو الذي يصح تعقله، ثم بعد تعقله ليس هو مخلوق، وإنما هو قديم يظهره الله تعالىٰ بعد خفائه عند النطق لا بالنطق، نظير ما قالوه في الشبع والري، فإن الله تعالىٰ يخلق الشبع عند الأكل والري عند الشرب مجردًا عن وجود الأكل والشرب، فعُلِمَ أن تبرك العبد إنما هو من وجه كون ذلك النطق مخلوقًا.

فإن قال قائل: وأي مانع من التبرك بما هو مخلوق أيضًا كما ورد في الوضوء أو الغسل من أول نظر يكون في السنة؛ **قلنا:** لا مانع عند من كان هذا مشهده أيضًا، لاسيما وإطلاق القرآن علىٰ ما ينطق به العبد إطلاق حقيقي. فافهم، وإياك يا أخي والاعتراض علىٰ من يمسح وجهه وجسده عند تلاوة القرآن، سواء أشهد المدد الذي نزل في يديه، أو كان ذلك إيمانًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اشتُهر بين الناس بأنه من أصحاب الخطوة، وأنه إذا شاء وصل إلىٰ مكة في خطوة واحدة، والحال أنه إذا سافر يأخذ له جملًا وزادًا وراحلة، ويمشي في الطريق مع الناس، فلاث به بعض المنكرين وقالوا: لو كان هذا صاحب خطوة، ما احتاج إلىٰ جمل ولا مشي.

والجواب: أنه لا يلزم من اتخاذ الجمل والمشي في الطريق أن لا يكون من أصحاب الخطوة، فقد يقدره الله علىٰ أن يكون في المشرق والمغرب في مقدار لمحة، ولكنه اتخذ الجمل ليحمل عليه أحدًا من العاجزين في الطريق، أو اتخذه معه احتياطًا لنفسه، لاحتمال أنه يُسلَب ذلك المقام في الطريق، فإن الحق تعالىٰ لا يُقيَّد عليه. ويُحتمَل أنه اتخذه ليحمل عليه الزاد لمن يراه محتاجًا إليه، أو ليُكتَب له أجر اتباع السنة المحمدية، فإنه ﷺ حجَّ راكبًا[1]،

---

(١) أخرج البخاري (١٥١٧) عن أنس ﷺ «أن رسول الله ﷺ حج علىٰ رحل وكانت زاملته»، وابن ماجه (٢٨٩٠).

وهو صاحب المقام الأعظم، وما ثم مقام لأحد من الأولياء إلا وهو موروث عنه.

وقد اجتمعتُ بجماعة من أصحاب هذا المقام، منهم الشيخ عمر البوصيري له مدة طويلة يحج علىٰ هذا الحال، مع أنه من أصحاب الخطوة، وربما رأىٰ أحدًا من أهل الركب تعب، فمشىٰ بجنبه وقوّىٰ همته، وربما أعطاه الله النظر، فيمد أهل الركب ودوابهم بالقوة، ولو أنه حج بخطوة واحدة، لفاته جميع ما ذكرناه، والأولياء متبعون ما هم مبتدعون.

وقد استُفتِي بعضُ العلماء عن صاحب الخطوة إلىٰ مكة هل يلزمه الحج؟ فأجاب: لا يلزمه الحج إلا إن قدر علىٰ الزاد والراحلة، كما درج عليه السلف والخلف. انتهىٰ. والحقُّ أنه يجب عليه، ويُحمَل اشتراط وجود الزاد والراحلة علىٰ الغالب في الناس. والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا بلغه أن أحدًا من الأمراء أو مشايخ العرب قدم من سفر، فخرج يتلقاه من نحو مرحلة، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا من الفقراء ما خرج له ولا تلقاه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم إلا إذا علمنا نيته الفاسدة بالكشف، أو من طريق التواتر، وأنىٰ لأمثالنا ذلك؟! فما بقي إلا أننا أسأنا به الظن، وذلك حرام، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ المقلِّد للإمام الشافعي أو غيره [إذا][1] خالف مذهب إمامه احتياطًا لدينه حين رأىٰ مذهب غير إمامه أحوط، فلاث به أقرانه المقلِّدون لإمامه، وقالوا: في هذا الذي فعلتَه قدح في مقام ورع إمامك، فإنه كان من أورع الناس؛ وذلك كمخالفة المقلد للشافعي إمامه في التحرز عن رشاش ماء الوضوء أو الغسل لما ورد أن الخطايا تخر من الماء، أو مع آخر قطر الماء[2].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٤٤) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء - أو مع

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمثل هذا الشيخ، فإنه ما فعل إلا الورع، وذلك لا تختلف فيه المذاهب، ولا يقدح في الإمام الشافعي ﷺ، بل لو عرض ذلك عليه في حال حياته لسكت عنه، وإنما كان يسوغ له الإنكار إذا أمر هذا المتحرز الناس بذلك على سبيل الوجوب، لما في ذلك من المشقة.

وقد تورَّع الإمام أحمد حتىٰ كان لا يأكل من شيء إلا إن علم تداول عشرة من الأيدي عليه في الحلِّ، وإلا توقف عن أكله، ولم ينكر ذلك عليه أحد من أهل عصره، ولا قالوا له: هذا أمر ما بلغنا عن الشارع، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين، إنما كان أحدهم يدع تسعة أعشار الحلال خوفًا أن يقع في الحرام، وكان[1] أبا يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة يقول: لا ينبغي الوضوء بالماء الذي تخر فيه الخطايا ولو لم يظهر للعامة تقذره. انتهىٰ.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: لا ينبغي للمتطهر أن يتطهر بالماء الذي لم يكن مستبحِرًا إذا اختلفت فيه أيدي المتطهرين، لا سيما إن كان المتطهر وقع في كبيرة أو كبائر ذلك اليوم من رياء وشرب خمر وعقوق والدين ووقوع في نميمة، أو عدة صغائر، فإن الخطايا إذا خرجت من يده ووقعت في الماء في أول غسلة مثلًا، يعيدها إلىٰ بدنه في ثاني غسلة أو ثالث غسلة، أو يغسل بها ما بعد ذلك من الأعضاء، لاسيما ذنوب اللسان والفرج، فإن وقع أنه أسلم قريبًا، أو وقع في ذنب وتاب عقبه علىٰ الفور ولم يذنب بعد ذلك، كان التحرز عن رشاش طهارته أخفَّ من التحرز عن غُسَالة ما لم يتب منه. كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «هادي الحائرين إلىٰ رسوم أخلاق العارفين». فعُلِمَ أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ المقلِّد للشافعي إذا تحرز عن رشاش ماء الطهارة كما يتحرز عن الماء المتنجس، والحمد لله رب العالمين.

آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتىٰ يخرج نقيًا من الذنوب» والترمذي (٢).

(١) بالأصلين: لأن. والصواب ما أثبتناه.

(١٠٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: تعالوا خذوا عني الطريق، أدفع عنكم البلايا والمحن؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا كذب من الشيخ، كيف يصح منه دفع البلايا والمحن التي قدَّرها الله تعالىٰ علىٰ العبد باجتماعه علىٰ عبد لا يقدر علىٰ دفع البلايا عن نفسه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل هذا القول، لاحتمال أنه كُشِفَ له أن يكون كلُّ من اجتمع عليه وسمع إرشاده الذي يرشده إليه، دفع الله عنه الأمور المعلَّقة علىٰ ذلك الإرشاد. ولا يجوز حمله علىٰ أنه يريد أنه يدفع الأمور المبَرمة، فإن ذلك مما يُنزَّه مقام الشيخ عن الوقوع في مثله.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الأولياء علىٰ أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام في إرشاد الناس إلىٰ طرق سعادتهم التي قسمها الله تعالىٰ لهم، وليس بيدهم إسعاد أحد ولا إشقاؤه، ووظيفتهم تعليم الناس الأدب في البلاء النازل عليهم، أو النعم التي تفضل الله بها عليهم، وذلك لتندفع عنهم النقم، وتدوم عليهم النعم، وهذا لأن الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ أطباء القلوب والأبدان، وقد حدوا علم الطب بأن حقيقته إدخال الصحة علىٰ المرضىٰ، ودوام الصحة علىٰ الأصحاء. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي إضافة الغنىٰ أو الفقر إلىٰ فقير إذا صحبه شخص غني فافتقر، أو فقير فاستغنىٰ، بل ذلك معدود من الشرك بالله تعالىٰ؛ فينبغي للشيخ إذا علم من إنسان أنه ما صحبه إلا ليكثر ماله أو لينال ولاية أن يدفعه عنه كلَّ الدفع؛ لأنه يتعب قلبه، وإن أبىٰ حلف له بالله تعالىٰ أنه ليس بيده حَلٌّ ولا ربط مع الله تعالىٰ، لكن ربما اختار الفقير لأصحابه التقلل من الدنيا، فدعا لهم بذلك، فاستجاب الله تعالىٰ دعاءه، اقتداءً بالأنبياء والأصفياء، فظنَّ الناس أن ذلك بشؤم صحبة الشيخ، كما يقع فيه غالب المحجوبين، وهو ظن كاذب، **فإن أحدًا لا يقدر يجلب لأحد ذرة من الرزق زيادةً علىٰ ما قُسِمَ، ولا يدفع عنه ذرةً كذلك مما قسمه الله له وقدَّره عليه.**

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا طلب أمير من فقير أن يوليه ولاية لم

تقسم له، فلا ينبغي أن يوصله إلىٰ فقير آخر، خوفًا أن لا تُقسَم تلك الولاية له، فيقول: لو أني استندتُ إلىٰ فلان، لكان ولاني، فإن في ذلك إضافة النقص إلىٰ أخيه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان ووحدوا ربكم في الأفعال والأقوال، فإنه هو الخالق لها، والعبد محل لظهورها من جسده لا غير، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: الدنيا عنوان الآخرة، فمن أعطاه الله تعالىٰ الرزق الواسع في الدنيا، أعطاه كذلك في الآخرة، لظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]؛ فلاث به فقيه وقال: هذا خلاف ما عليه جماهير السلف والخلف من أن كل من وسع الله عليه في الدنيا، نقص مقامه الكريم في الآخرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد بالتوسع في الدنيا مقام القناعة من حيثُ إنها كنز لا ينفد كما ورد في الحديث[1]، وصاحب هذا المقام لا يستبعد أن يكون المراد به أيضًا أهل الدنيا الذين قاموا بالقسط في أموالهم، وأنفقوا منها وتصدقوا.

وسمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من أولياء الله تعالىٰ من اختار التقلل من الدنيا والآخرة، واكتفىٰ بمشاهدة الحق تعالىٰ في نفسه، فكان أكبر الناس نعيمًا من حيثُ المشاهدةُ، ولا يرىٰ له مُلْكًا مع ربه في الآخرة كما كان في الدنيا، فلا يقدح في كماله عدم نسبة شيء من قصور الجنة وبساتينها إليه، ولو قدر أنها نُسبَت إليه، لتبرأ منها إلىٰ ربه، ولم ينسبها إلىٰ نفسه إلا بقدر ما يتحقق بنسبة العطاء إليه لا غير، لأجل الشكر عليها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمن يريد صحبته: لا أصحبك إلا إن طلقتَ زوجتَك التي تحبُّها، أو أسقطتَ حقَّك من وظيفتك الفلانية، أو تصدقتَ بثيابك النفيسة، ثم ظهرت أمارات السرور بذلك علىٰ وجهك؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (١٠٤) من حديث جابر رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: القناعة كنز لا يفنىٰ» والطبراني في «الأوسط» (٦٩٢٢) بنحوه. قال العجلوني في «كشف الخفاء» (١٩٠٠): قال الذهبي: وإسناده واهٍ.

لم يفعله الشارع مع أصحابه، ولا أحد من السلف الصالح، وهو باب في قطع الطريق علىٰ الطالبين.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ بمجرد هذا القول، لاحتمال أنه يريد بذلك امتحانه في معرفة صدقه في طلب الطريق إلىٰ معرفة الله عزَّ وجلَّ، فالصادق يحصل له السرور بكل شيء يقرِّبه إلىٰ حضرة ربه، والكاذب تظهر أمارات الكذب علىٰ وجهه بالتعبيس والكآبة، فإذا امتحنه كذلك فإما أن يستبشر الشيخ بفلاح ذلك المريد، وإما أن ينفض يده من التعب فيه، فليس قصد الشيخ بذلك القول تحقيق القول من المريد، بل لو قصد ذلك فلا حرج عليه، كما خرج ابن أدهم من ماله وملكه اختيارًا من ذات نفسه حين أراد طريق أهل الله وعلم أن ذلك يعوِّقه عن الله عزَّ وجلَّ.

فإن قال قائل: إن رسول الله ﷺ لم يمتحن أصحابه بمثل ذلك؛ **فالجواب:** بل وقع منه الامتحان لهم مرارًا، فقال لأبي بكر يومًا: «ما أصبح عند آل محمد اليوم قوت، فذهب وأتىٰ بماله كله، فقال له: ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: الله ورسوله. وقال لعمر بن الخطاب مثل ما قال لأبي بكر، فذهب وأتىٰ بشطر ماله، فقال له: ما أبقيت لأهلك يا عمر؟ قال: شطر مالي يا رسول الله. قال: بينكما ما بين كلمتيكما. قال عمر: فما ظننتُ بعد ذلك أني ألحق بأبي بكر»[1]. وأما امتحانه ﷺ في العمل فكثير، **ولم يزل الامتحان للعلماء والصالحين مع تلامذتهم، ليعرفوا مقامهم في الترقي في العلم.** وبتقدير أنه ﷺ لم يأمرهم بالخروج من الدنيا باللفظ، فقد كان يسحبهم إلىٰ ذلك بالحال أو التعريض، **فإن كلَّ داعٍ إلىٰ الله تعالىٰ يحبُّ الكمال لجميع أصحابه.**

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرج أبو داود (١٦٧٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. قال: وأتىٰ أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلىٰ شيءٍ أبدا» والترمذي (٣٦٧٥) والحاكم (١٥١٠).

وقد كان سيدي أبو الحسن الشاذلي يقول: نحن لا نأمر المريد بالخروج من الدنيا مع شدة التفاته إليها، وإنما نشغله بالذكر والعبادة علىٰ وجه الإخلاص حتىٰ يستنير قلبه، فإذا استنار ورأىٰ ما عند الله عزَّ وجلَّ للزاهدين في الدنيا، كان هو الخارج بنفسه من ذلك الخسيس إلىٰ ذلك النفيس. ومثال ذلك مثال من قال لهم رئيس السفينة: غدًا تثور ريح شديدة، وكلُّ من لا يرمي متاعه غرق، فلا يجيبه أحد في الحال، فإذا جاء الوقت وشاهدوا الغرق، كانوا هم المبادرين إلىٰ رمي أمتعتهم لنجاة نفوسهم، ولو أن شخصًا قال لأحدهم: لا ترم متاعك، واغرق أنت؛ لا يجيبه، بل يستخف عقله، فكذلك المريد إذا هبت عليه رياح السعادة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ شيخك إذا امتحنك، فإنه إنما يريد أن يجعلك جليس الحقِّ جلَّ وعلا، وقد عجز الأشياخ أن يسيروا بمريد ومعه علائق كثيرة من الدنيا، فلم يقدروا، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ المشهور بين الناس بصحة الكشف، ثم إنه خرج لزيارة بعض إخوانه في داره فلم يجده، فلاث به بعض الناس وقالوا: لو كان هذا من أهل الكشف حقيقةً، لكان عرف هل صاحبه في الدار فيذهب إليه أم ليس فيها، فكان يريح نفسه من التعب.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قصد بذلك الستر بين الناس، ليسلم من آفات الكشف، فإن الولاة إذا سمعوا شخصًا صحيح الكشف ترددوا إليه، وسألوه عن الأمور المستقبلة، كطلوع النيل في هذه السنة مثل التي قبلها أو دونه، ومن يتولىٰ ومن يُعزَل في هذه السنة، وهل في بطن هذه المرأة ذكر أم أنثىٰ ونحو ذلك.

وربما كان مطمح بصره ألواح المحو والإثبات، فرأىٰ فيها أنه لا يخرج من بيته في هذه الساعة، ثم مُحيَ ذلك وكُتِبَ فيها أنه يخرج، فخرج علىٰ حكم الرؤية الأولىٰ، ثم غفل عن الرؤية في الألواح ثانيًا.

ويُحتمَل أن يكون مطمح بصره اللوح المحفوظ، وأن أخاه خرج من داره في ذلك الوقت، وأنه لا يرجع في ذلك الوقت، ولكنه قصد بخروجه إليه التودد إليه، وإزالة ما لعله يخطر له من عدم الاعتناء به، وانقطاعه عن زيارته استهانة بجنابه، فإذا جاء أخوه وأخبروه بأن فلانًا جاء لزيارتك ولم يجدك، خف عنه ما كان يجده من ظنه الجفاء له. وقد ذكرنا مرارًا أن **الكُمَّلَ لا كشف عندهم، بل هم كآحاد الناس في ذلك.**

وقد بلغني عن بعض فقراء العصر أنه طلع في سفره إلىٰ الريف إلىٰ بلد، فلم يلتفت أحد إليه، فقال له رفيقه: كاشف لنا عن اسم هذا الصبي. [فقال][1]: قل له: قل لأمك تغدينا يا أحمد. فقال: يا عم أنا اسمي عائشة! فخجل غاية الخجل، وكان هذا الشيخ معدودًا من كمَّل المشايخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أضرَّ به الفقر، فسافر إلىٰ الروم يطلب له جوالي أو مرتبًا من مال السلطان، فلاث به شيخ آخر له في مصر جوالي[2] ورِزَق وأوقاف، وقال: هذا لا يليق بالفقراء! إنما شأنهم الإقبال علىٰ عبادة ربهم حتىٰ تخدمهم الدنيا. فقال له المسافر: لو ذقتَ ضيق حالي لعذرتني في السفر وفي سؤال الناس في بلدي؛ فلاث به جماعة الشيخ القاطن وقالوا له: استحي! الشيخ إنما قال لك ذلك نصحًا لك. فقال: إن كان يحبني يشركني معه في الرِّزَق[3] التي معه وأنا أترك السفر.

والجواب عن الشيخ المسافر والقاطن: أنه ينبغي حمل كلٍّ واحد منهما علىٰ محمل حسن، فأما المسافر فلا لوم عليه في السعي فيما يستره بين الناس، ويكفه عن السؤال. وأما القاطن فيُحمَل علىٰ أنه قصد بذلك القول حمايةَ الخرقة عن اللوث بأحد من أهلها[4] إذا

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الجوالي: جمع جالية، وهو المال الذي كان يُؤخذ من أهل الذمة «الجزية». وهي من أحل الأموال، ولذلك جُعلت للعلماء والصالحين.

(٣) جمع رِزقة، وقد تقدم بيان معناها.

(٤) بالأصلين: خلقها.

رأوه يسافر في طلب الدنيا، وهو عاذره في الباطن، وحامل همه، ويود له كل خير. وأما عدم إشراكه معه في الرِّزَق التي في يده، فلا يلزم أن يكون ذلك بخلًا من الشيخ القاطن، فيُحتمَل أن يكون كُشِفَ له أنه لا رزق لذلك المسافر فيه. ويُحتمَل أنه قصد بعدم إجابته إلىٰ ما سأل اختباره في الصبر علىٰ ضيق المعيشة، ليعلِّمه طريق الوصول إلىٰ الصبر أو الرضا ونحو ذلك. فعُلِمَ أنه لا ينبغي أن يُقال للشيخ القاطن المثل السائر: «ما عند أهل الجنة خير من أهل النار». ومن قواعد الشريعة أن إنكار المنكر لا يتوقف علىٰ سلامة المنكِر من ذلك، بل يجب عليه الإنكار علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يترك حضور مجلس الذكر مع المريدين، ويقول: أنا بحمد الله قد انكشف حجابي، والذكر لا يكون إلا لمحجوب عن مقام الشهود، فإن المدلول إذا شهده العبد، استغنىٰ عن الدليل؛ فلاث به شيخ آخر وقال: الحجاب لا يصح رفعه عن العبد إلا إن أحاط علمًا بالحق، وذلك لا يصح لأحد، وما قاله بعضهم من أنه تعالىٰ إذا حيطهم به أحاطوا لا ينافي ما قلناه، لأن معنىٰ تحيطهم به تعالىٰ أن يعلمهم أنه لا يصح لأحد الإحاطة به من كل وجه، كما لا يصح الجهل به من كلِّ وجه؛ فلاث بكلِّ شيخ جماعة الآخر ونصروا قول شيخهم.

والجواب عن الشيخين: أن الشيخ الأول من قوة شهوده بقلبه للحقِّ تعالىٰ، ظنَّ أن الحجاب ارتفع بالكلية، فقال ما قال. وأما الشيخ الثاني فمعه التحقيق، فلذلك تكلم كلُّ شيخ بمقامه، فلكلِّ قول من قوليهما وجه، ولكن الأولىٰ من الكامل إذا كان له أتباع أن يحضر معهم في الذكر، كما درج عليه الكُمَّل من الأولياء السابقين، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يهابه جماعته أن يجلس أحدهم إلىٰ جانبه أو يمر قريبًا منه وهو جالس، فلاث به الحذَّاق من أقرانه وقالوا: لو كان في نفسه متواضعًا كسيدي عبد العزيز الديريني وسيدي عبد الله المنوفي مثلًا، ما هابه أحدٌ ولا عظَّمه كلَّ

هذا التعظيم، ولكن قد صار الفقراء في هذا الزمان أصحاب تكبر وناموس كالأمراء، لقلة من يناقشهم من الصادقين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لمجرد ذلك، فقد يكون في نفسه في غاية التواضع، ولكن عظَّمه أصحابه من جهة هيبة ما هو عليه من التقوىٰ والعمل الصالح وشدة الخوف من الله تعالىٰ.

فإن قال قائل: لو كان في نفسه متواضعًا كما قلتم، لأجابته قلوب أصحابه بعدم الهيبة والتعظيم له، بحسب ما هو عليه من الذلِّ والتواضع، وقد وقع للفضيل بن عياض أنه دخل داره يومًا، فهرب منه الكلب وصعد الحائط خوفًا منه، فقال لنفسه: لو كنتِ متواضعةً كما تزعمين، ما خاف منك الكلب؛ **فالجواب:** يُقال لهذا المعترض: لا أحد من الخلق أكثر تواضعًا من رسول الله ﷺ، وقد دخلت عليه مرةً امرأةٌ، فأرعدت من هيبته، فقال لها: هوني عليك يا أمة الله، فإني إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[1]. انتهىٰ. فما بقي إلا أن تلك الهيبة والعظمة من جهة التقوىٰ والدين، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون جالسًا، فينزل عليه شيء في بدنه، فيصير كأن له شهر مريضًا، ويريد أن يقوم فلا يقدر، ويأتونه بالحكيم فيقول: ليس به مرض! ثم بطبيب آخر فيقول كذلك، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا نفاق يوهم به الناس أنه من أهل التحمل للبلاء عن الناس. وربما صدقه بعض المعتقدين علىٰ ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا الشيخ لاحتمال صدقه، فإن الفقراء يقع لهم مثل ذلك كثيرًا، ويكون سببه إما تمهيدًا لعلوم تنزل علىٰ قلبه، أو لبلاء ينزل علىٰ الخلق يتحمله.

ويقع لي هذا الأمر كثيرًا، ثم إذا نزلت تلك العلوم علىٰ قلبي، أو زال البلاء الذي

---

(١)) تقدم تخريجه.

نزل على الناس، زال ذلك العارض عني لوقته. وكان على هذا القدم جماعة من السلف الصالح يمرضون لمرض الناس، وينكربون لكربهم، ويصير أحدهم يُعاد كما يُعاد المرضى، ثم في لمح البصر يذهب ذلك الأمر كأنه لم يكن بهم مرض. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي أنكر على من يزعم من الصوفية أن القرآن سقط منه كثير من الآيات حين جمعه الصحابة في المصحف الإمام، وقال: قد قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. فقال له الصوفي: صحيح ما قلتَ، ومن جملة حفظه عن الضياع اطلاعي على ما سقط منه، وتلاوتي له، وعملي به، فما حُفِظ إلا بي.

والجواب: أن كلام هذا الصوفي لا ينبغي سماعه، لمخالفته لما عليه جمهور السلف والخلف من الصحابة والتابعين[1]. كما لا ينبغي التسليم لمن يقول: أنا أنظر في اللوح المحفوظ [إذا خالف الشريعة][2]؛ لأننا لو سلمنا له ذلك، للزمنا التصديق له إذا قال: رأيتُ في اللوح المحفوظ كذا وكذا، مما يخالف ظاهر الكتاب والسنة. ثم بتقدير تسليم العلماء ذلك لمدعيه لأنه ممكن من باب خرق العوائد، لكن لا يجوز إشاعة تصديقه في الناس، لما يتطرق إلى الشريعة من الخلل بسبب ذلك، والحمد لله رب العالمين[3].

---

(١) وصف الجمهور هنا بمعنى إجماع العلماء، فقد وقع الإجماع على ذلك، ومنكره كافر. ولعل الإمام الشعراني ساق هذا الجواب للتنبيه على بعض الأقوال أو الأفعال لا يجوز تأويلها إذا خالفت القطعي مخالفة صحيحة، كقول هذا الصوفي، فهذا مما يجب تكذيبه ورده. وهذا ينبغي التنبه له جدًّا، فقد تلبَّس النفس على بعض الصوفية غير الكاملين، فيخالفون الشريعة، ويتأول لهم بعض السذج ويتابعونهم، فيخرجون من دائرة حسن الظن إلى الاعوجاج عن الصراط المستقيم. ومثل هذا الذي ينبغي أن يُنكَر إنكارًا بينًا تلفيق بعض المتمصوفة قراءةً جديدة للقرآن لفقها من العشر المتواترة، زاعمًا جواز ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ساق الإمام الشعراني هذا الجواب للتنبيه على بعض الأقوال أو الأفعال لا يجوز تأويلها إذا خالفت القطعي مخالفة صحيحة، كقول هذا الصوفي، فهذا مما يجب تكذيبه ورده. وهذا ينبغي التنبه له جدًّا، فقد تلبَّس النفس على بعض الصوفية غير الكاملين، فيخالفون الشريعة، ويتأول لهم بعض السذج ويتابعونهم، فيخرجون من

(١١٠٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي طلب من شيخ أشياء من العسل أو القمح، فقال له الشيخ: هات لك وعاءً، وتعالَ خذ ذلك فيه. فقال: إن كان لك غرض، فاحمله علىٰ مخِّك وائتني به إلىٰ داري، والخيرة لك في ذلك؛ فلاث به جماعة الشيخ وقالوا: السائل لا يكون إلا متأدبًا! وهذا خروج عن سياج الأدب، فإن الحاجة لك لا للشيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا السائل، لاحتمال أن يكون في غاية الأدب مع الشيخ، وإنما أراد بتغليظه القول علىٰ الشيخ بحضرة جماعته أن يريهم ما هو عليه من محاسن الأخلاق، والصبر علىٰ سماع الكلام من جفاة الطبع، ليزدادوا اعتقادًا في شيخهم، ويقتدوا به في مثل ذلك، فليس ذلك من الفقير السائل امتحانًا للشيخ ولا سوء أدب معه. وقد سأل فقير الإمام زين العابدين بن الحسين بن أبي طالب شيئًا ينفقه في ذلك اليوم، فأخرج له بَدْرة[1] مملوءة فضة لا يستطيع الرجل يحملها إلا بمشقة، فقال: يا ابن رسول الله أعطني أجرة من يحملها. فقال: لم أدع عندي[2] شيئًا مما أخرجتُه لك. فقال: لابد! فأعطاه طيلسانه أجرة للحمَّال، فقال السائل: أشهد أنك من أولاد رسول الله حقًّا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقيِّد اللص إذا سرق شيئًا حيًّا أو ميتًا حتىٰ يأخذه الوالي ويفتضح بين الناس، فلاث به بعض الفقراء الصادقين وقالوا له: إن كان حيًّا يا سيدي الشيخ [فـ]ـالمؤمن أعظم حرمة من الدنيا وما فيها، والدنيا أحقر من الزبل في عيون الفقراء، [وإن كان ميتًا][3] فكيف تقيِّد من سرق لك نجاسة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد تكون الدنيا كلُّها عنده لا تساوي

دائرة حسن الظن إلىٰ الاعوجاج عن الصراط المستقيم. ومثل هذا الذي ينبغي أن يُنكَر إنكارًا بيِّنًا تلفيق بعض المتمصوفة قراءةً جديدة للقرآن لفقها من العشر المتواترة، زاعمًا جواز ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) البَدْرة: كيس فيه مقدار من المال يُتعامل به، ويقدم في العطايا.

(٢) بالأصلين: عني. والصواب ما أثبتناه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

جناح بعوضة ، ولكنه غار للشرع الشريف أن ينتهك حرمتَه أحدٌ يتعدىٰ الحدود، أو كان قصد الشيخ بتقييده زجره في المستقبل عن سرقة مال الناس إذا مسكه الوالي وضربه وحبسه، من حيثُ إن ذلك أخف عليه من قطع يده.

وقد وقع لي أن شخصًا سرق من مقتاة البطيخ المتعلقة بي، فوجد البطيخ حيات، ومرة وجده محشوًّا دمًا موضع الماء، ومرة طلع له تمساح في البحر، فطرده حتىٰ رمىٰ البطيخ، ولم أعلم ذلك إلا بعد أن وقع وحكوه لي، فقد يكون هذا الشيخ ممن ينتصر الحقُّ تعالىٰ له في غيبته، لئلا تُنتهَك حرمتُه، وهو غافل عن جميع المقاصد، ومثل ذلك لا لوم عليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصلي قبل دخول الوقت في بلده، ويزعم أنه يسمع آذان العرش، وربما قال: أنا ما صليتُ إلا خلف إمام مكة؛ لكونه يسبق إمام مصر مثلًا بثلاث دَرَج مثلًا، فلاث به الفقهاء وقالوا ببطلان صلاته، وقالوا: الحكم للأرض الذي هو فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون ممن خرق الله له العوائد كما وقع لسيدي ياقوت العرشي وغيره. واجتمعتُ أنا بشخص خيَّاط من أهل هذا المقام، كان يجلس في شباك المدرسة الزمامية بخط البندقانيين بمصر، ونازعه بعض الناس يومًا، فأراه مؤذن العرش وإمام مكة، فمثل هذا يُسلَّم له حاله، ولكن ليس له أن يأمر أحدًا بالصلاة معه، ولو أنه أمر أحدًا بذلك لا يجوز له تصديقه، لأنه في دائرة، والخلق في دائرة، فكلٌّ واحد يعمل بحكم دائرته.

فإن قال قائل: هلا جعلتُم قول هذا الوليِّ كالمخبر عن عيان وقبلتُم قوله؟ **فالجواب:** قد قلنا إنه في دائرة، والخلق في دائرة، لكن لو وقع في قلب أحد تصديقه، فهو محل نظر للعلماء، وأكثر من ذلك لا يُقال، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أصلي خلف أئمة السماء من

الملائكة في الصلوات الخمس، وربما قال: صليتُ اليوم الصبح أو العصر خلف إمام البيت المعمور(١)؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا أمر ما سمعناه عن أحد من الأولياء أبدًا!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون خرق الله تعالىٰ له العادة، فرأىٰ ملائكة السماء في السماء وهم يصلون، فاقتدىٰ بهم في الأرض كما يقتدي من هو بالمغرب بمن يصلي في بيت المقدس أو مكة.

فإن قال قائل: لم يبلغنا أن ملائكة السماء يصلون بإمام ومأموم في الصلوات الخمس ولا غيرها مما شرعت لنا فيه الجماعة، إنما ورد أن أحدهم علىٰ حالة واحدة من منذ خلقه الله تعالىٰ إلىٰ يوم القيامة(٢)، فالساجد ساجد من منذ خلقه الله، والراكع راكع من منذ خلقه الله، والقائم قائم من منذ خلقه الله تعالىٰ وهكذا؛ **فالجواب: قد ثبت بين أهل الكشف والنقل أنه ﷺ أُرسِلَ إلىٰ الملائكة، لكن بالأمر فقط دون النهي؛** لأنهم لا يعرفون للمخالفة طعمًا، والرسول إنما يُرسَل بشيرًا ونذيرًا، فينذر من يقع في المخالفة بنزول العقاب عليه، ومن لا يعصي لا يحتاج إلىٰ نذير، فافهم. وثبت في الصحيح أنه ﷺ صلَّىٰ بالأنبياء ليلة المعراج في السماء إمامًا وصلت الملائكة خلفه(٣)، وإذا ثبت هذا الأصل، فيُقَاس الأمر في بقية الصلوات علىٰ الدوام. وهنا أسرار يعرفها أهل الله لا تُسطَر في كتاب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرج الطبراني (١٢١٨٥) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: البيت المعمور في السماء يقال له الصراحُ، وهو علىٰ مثل بيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لم يرونه قط، وإن له في السماء حرمة قدر حرمة مكة قال: ويدخل البيت كل يوم سبعون ألف ملك لا يدخلونه أبدًا».

(٢)) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧٥١) من حديث جابر بن عبد الله قال: «قال رسول الله ﷺ: ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئًا» وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٤٠٣) والمرزوي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٥٩).

(٣)) ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٤١)، قلت: الثابت كما في الصحيح أنه ﷺ أم الأنبياء في بيت المقدس ثم صعد إلىٰ السماوات. راجع صحيح مسلم (١٧٢).

(١١٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ربَّىٰ مريدًا وخرج عن طاعته، وعمل له جماعة مثل شيخه، وادعىٰ المشيخة وأنه فوق مقام شيخه، فصار الشيخ إذا دخل عليه جماعة من مريدي ذلك المريد يقول لهم: قولوا لسيدي الشيخ يدعو لنا؛ فلاث به بعض حذَّاق الفقراء وقالوا: هذا القول فيه هلاك لذلك المريد، ولا ينبغي لذلك الشيخ أن يكون سببًا في إهلاك مريده إذا خرج عن طاعته، لأنه يكون كمن ربىٰ غنمه حتىٰ صارت كبيرة، ثم تركها في البرية للذئب ورجع إلىٰ بلده، فذهب تعبه كلُّه في الباطل!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي صار يسأل الدعاء من ذلك المريد، لاحتمال أنه علم من طريق كشفه أنه يعود إلىٰ خدمته ويحصل له الفتح علىٰ يديه، فأراد تأليفه عليه بسؤاله الدعاء منه دون الكلام الجافي، لأنه ربما قابل الشيخ كذلك بالكلام الجافي، لأنه محجوب عن مقام الشيخ، فصار كالذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥] فقصد الشيخ بذلك الرحمة بالمريد، لئلا يقع في حق الشيخ إذا كلمه الكلام الجافي، ويخجل منه إذا عاد إلىٰ صحبته، فلا ينبغي حمل الشيخ في ذلك علىٰ أن ذلك غش منه للمريد، بل هو حسن سياسة منه.

وقد كان أخي أفضل الدين يتلمذ لكلِّ من رأىٰ عنده نفسًا خبيثة، ويصير يقرأ عليه بعض رسائل القوم، ويسارقه بتعليمه الأدب شيئًا بعد شيء، ويقول: لو قلتُ له: تعالَ اقرأ عليَّ، لنفرت نفسه مني، ولم يسمع مني نصحًا. انتهىٰ. وقد عمل معي ذلك أول صحبتي له حين كنت متمشيخًا بنفسي وعملتُ لي مجلس ذكر وتلامذة، وكنتُ أغيب عنهم يوم عرفة، فلا يراني منهم أحد، فيقولون: إنه واقف بعرفات! وكان نصبي يمشي عليهم، فأنقذني الله تعالىٰ من ذلك ببركة أخي المذكور، فعرَّفني عيوبي شيئًا بعد شيء، حتىٰ رأيتُ نفسي أنجس من خرَّارة المذبح، فالحمد لله رب العالمين.

(١١٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعي إلىٰ وليمة وفيها شخص من أعدائه يعلم بالقرائن أنه إذا رآه دخل دار الوليمة، انتهض قائمًا وقال: لا يجمع أنا وفلان موضع أبدًا؛ فترك ذلك الشيخ الحضور، فلاث به حذَّاق الفقراء وقالوا: مثلكم لا ينبغي له مراعاة هذا

الأمر، بل يحضر ولا عليه من عدوه، لاسيما إن عجز عن سياسته وتقبيل يده ورجله إذا دخل، فإن الذي ينبغي للشيخ أن يحطَّ علىٰ نفسه ويقول لها: هذا كلُّه من كثرة تحريكي له قبل ذلك، أو من قلة السياسة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون بمعزل عما ذكرناه كله، وإنما خاف علىٰ ذلك العدو أن يمقته الله تعالىٰ بتعزيره للشيخ في ذلك المحفل العظيم، وتشميت الأعداء والحاسدين فيه حين ينتهض قائمًا إذا رآه، ويصير الناس يعزمون علىٰ جلوسه فلا يجلس، فكان امتناعه -أي الشيخ- عن الحضور إنما هو رحمة بذلك العدو، فإن الأشياخ قد خرجوا عن الرعونات النفسية أوائل دخولهم الطريق، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأتيه المحبون بالجبَّة البيضاء النقية البياض مثلًا، فيردها ويطلب الجبَّة الرمادية أو العَبْشَا[1]، فقال له بعض الناس: إن النظافة من الإيمان، والجبة البيضاء أو الثوب الأبيض من جملة النظافة، بخلاف العبشا مثلًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون قصد بذلك عدم التميز بين الناس، وقد قالوا: إذا رأيتُم بريق الفقير ونوره في ثيابه، فانفضوا أيديكم من صلاحه. وهذا الأمر قد عم في غالب المتمشيخين في هذا الزمان بأنفسهم، فيطلب أحدهم الجبَّة البيضاء النقية البياض، ليشاكل أبناء الدنيا في الرفاهية، وإن نازعه أحد يقول: هذه جبة [صوف][2]، وربما استدل بحديث: «من لبس الصوف، فقد بريء من الكبر»[3] مع أن هذا المدعي أكبر نفسًا من الأمراء، لو ذكره إنسان بكلمة نقص، أحس بأن السماء انطبقت علىٰ الأرض. وقد رأىٰ بعض السلف علىٰ فقير عباءة، فقال: فتش نفسك يا أخي، فربما كانت نفسك أعظم كبرًا في تلك العباءة من الأغنياء. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) من العَبْش، وهو الغباوة. والمراد هنا أنها باهتة مهترئة أو متسخة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٧٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٢٩).

(١١١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينصح أقرانه دائمًا علىٰ لسان أحد من الأشياخ الذين مضوا، ويقول: كان الشيخ الفلاني يفعل كذا ويقول كذا؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا: نخشىٰ عليك يا سيدي الشيخ أن يُكتَب ذلك عليك من جملة الكذب.

والجواب: أنه لا يكون من الكذب إلا إذا اختلفت فيه الأفهام، وأما إذا كان من جملة الخير المشهور فهو كالإجماع، وفي ذلك من الفوائد: اختبار ذلك المنصوح أولًا علىٰ لسان شخص مجهول، فإن قبله وقال: هو كلام مليح، زاده منه؛ وإن أنكره وفرَّ من سماعه، اختصر المسألة معه، وعلم أنه لو كان أضاف ذلك النصح إلىٰ نفسه كان أشد إنكارًا. وكان أخي أفضل الدين يضيف دائمًا كلام النصح للغزالي إذا نصح به فقيهًا، ويقول: إنهم يقبلون كلام الغزالي، لكونه في الأصل منهم، والمقصود من النصح قبوله بأي وجه كان، ولو أني نقلتُ ذلك عن الصوفية، لربما ردُّوا ذلك أو قالوا: هذا منزع صوفي لا يلزمنا العمل به. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(١١١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لجماعته: لا أحد منكم يقرأ علىٰ غيري أبدًا إلا إذا عجزتُ عن جواب سؤالكم؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف ينهىٰ أصحابه عن القراءة علىٰ علماء الشريعة، مع كونهم أعلم منه بيقين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مراده أنه أعلم بمصالح جماعته من غيره، فلا يعطيهم من العلم إلا ما كُشِفَ له أنهم يعملون به، وما لم يُكشَف له أنهم يعملون به يصرفهم عنه، لئلا يعرضهم لدخول النار، كما صرحت به الأحاديث الصحيحة التي لا تحتمل التأويل، فقصد بقوله: «لا تقرؤوا علىٰ غيري» حفظهم من العلم الذي يدخله الرياء والعجب، وعن العمل الذي تدخله الآفات، بخلاف غيره، فإنه يبدر العلم علىٰ من حضره عمل به أو لم يعمل به، أخلص فيه أو راءىٰ فيه. وإيضاح ذلك أن الأشياخ قد خرقوا ببصرهم الإيماني إلىٰ الدار الآخرة، وعرفوا الأعمال المقبولة والأعمال المردودة، فعرفوا ما يأتون وما يذرون، فمن اتبعهم اهتدىٰ، ومن خالفهم ضلَّ.

وقد وقع لبعض أصحابي ذلك، فترك القراءة عليَّ لمطالبتي له بالإخلاص في العلم والعمل، وصار يقرأ على شخص من جامع الأزهر، ويسعى على وظائف الناس الأحياء والأموات عند النظَّار، ويأخذها منهم بغير طريق شرعيّ، فلاح على وجهه المقت. فإياكم أيها الإخوان ثم إياكم أن تقرؤوا العلم إلا على العلماء العاملين، ليمدوكم بأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في صحبته أمير ثم إنه تركه واجتمع بشيخ آخر، وصار يمر على زاويته فلا يطلع له ويقول: لو رأينا عنده مددًا ما فارقناه؛ فلاث جماعة الشيخ الأول بالأمير وبذلك الشيخ، وقالوا للشيخ: كان الأولى أنك ترد الأمير عن صحبتك، وتعرِّفه بمقام الشيخ. وقالوا له: قد كنت تقول: أنا لا أصلح خادمًا لسيدي الشيخ!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الثاني، لأنه ربما قصد بعدم رده الأمير عن صحبته الخوف على الشيخ الأول، وقال: أنا أحقُّ بتحمل أوزاره عن أخي. وربما خاف على أخيه العجب بنفسه إذا رأى الأمير يعظِّمه.

وأما الأمير فلا ينبغي اللوث به، لأنه ربما قصد بعدم طلوعه للشيخ الأول لما مرَّ عليه تعظيمه بذلك، لأنه كان خرج بنية زيارة الشيخ الثاني، فاستحيا من الشيخ الأول أن يُشرِكَ معه أحدًا في الخروج، وعزم على أنه يخرج له مرةً ثانيةً على نية زيارته فقط. ويُحتمَل أنه وجد الشيخ الثاني أعلى مقامًا وأنفع له من الشيخ الأول، فاستحيا من أن يُشرِكَ معه الشيخ الأول، ويُحتمَل غير ذلك، والله أعلم.

(١١١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يُعْطِبُ الظلمة إذا ظلموا أحدًا من أصحابه، ويقيِّد اللصوص إذا سرقوا شيئًا من حارته، ثم صار الظلمة يظلمون أصحابه، واللصوص تسرق من حارته، بل من بيته، فلا يقيد أحدًا منهم ولا يُعْطِبُه، فلاث به بعض الناس وقالوا: فلان سُلِبَ الولاية والبركة التي كانت معه، ولو مات قبل ذلك كان استراح.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لعدم عطبه الظلمة أو تقييده اللص، لأنه تبع

بذلك سلفه الطاهر الذين كانوا يتحملون الأذىٰ، ويتركون الأذىٰ، وذلك أكمل ممن يأخذ حقه بيده، سواء أكان ذلك من طريق الظاهر أو من طريق الباطن، فإن البَرَّ هو من لا يؤذي الذر. وقد ينتصر الحقُّ تعالىٰ لبعض أوليائه لئلا ينتهك الناس حرمتهم، فلا يقدح ذلك في كمالهم، بل يزدادون به رفعةً في المقام عند الخلق، كما أن جماعة السلطان إذا رأوه يحب رجلًا ويأخذ له حقَّه ممن ظلمه بغير سؤال منه للسلطان، يصيرون كلُّهم يعظمونه لأجل السلطان ولله المثل الأعلىٰ في السماوات ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٥) ومما أجبتُ به عن الطبيب الذي لا يعلم بالداء إلا بعد سؤاله من المريض عن حاله، فلاث به بعض الناس وقال: لو كان هذا يعرف الطب، لعرف الداء من غير سؤال من المريض، لاسيما إن كان المريض يعسر عليه الكلام لشدة الوجع.

والجواب: أنه لا يلزم من سؤال الحكيم المريض عن حاله أن يكون جاهلًا بالداء، فقد يكون عالمًا به من جس نبضه مثلًا، ولكنه اتهم علمه ونفسه، وخاف أن يكون غُطِي عليه من أمره شيء، فطلب من المريض إخباره عن ألمه، ليداويه بقوله علىٰ بينة ومعرف. وإيضاح ذلك أن المريض يخبر عن ذوق، والطبيب يخبر عن علم، ولا شك أن الذوق مقدَّم علىٰ العلم.

ثم إنه لا يقع في مثل ذلك إلا الطبيب المتورِّع المشفِق علىٰ عباد الله تعالىٰ، بخلاف الطبيب المتهور أو الكافر، فإنه ربما وصف للمريض شيئًا كان فيه تلفه كما هو الواقع في هذا الزمان لجماعة من اليهود، فيصف أحدهم الحقنة للمريض في غير استحقاق فيهلك، ثم يرىٰ بذلك التقرب إلىٰ الله تعالىٰ. وقد أخبرني من أسلم من اليهود أن أحدهم إذا قدر علىٰ شيء يضر المسلم ولم يفعله معه، كان كمن استحل السبت. انتهىٰ. فتداوِ يا أخي بالمسلمين، وإياك وطب اليهود، وقد نصحتُك، والحمد لله رب العالمين[1].

(١١١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه شخص من أقرانه إلىٰ وليمة مع جملة

(١) انظر أيضًا الجواب (١٠٩٠).

فقراء البلد وعلمائها وأمرائها وتجارها، فحضروا كلهم إلا هو، فلاث الناس به وقالوا: لا يخلو إما أن يكون متكبرًا، فالكبر لا يليق بالفقراء؛ وإما أن يكون عدوًا، فالفقراء لا ينبغي أن يكون بينهم عداوة، لأن بيت العداوة هو الدنيا، والفقراء قد ادعوا أنهم تركوها، فكيف تخلَّف هذا من دون الناس الذين دعوا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث والاعتراض علىٰ هذا الشيخ في تخلفه، فربما كان له عذر شرعي امتنع من الحضور لأجله، والأعذار كثيرة مسطورة في كتب الفقه. ولا يجوز حمله علىٰ التكبر ولا علىٰ العداوة، فقد يكون عذره العجز عن المشي أو عن أجرة المركوب، أو لا يقدر علىٰ تحمل منَّة من يعطيه حماره بغير أجرة من أصحابه.

وقد يكون المانع له من الحضور خوفه من وقوعه في تزكية نفسه في أفعاله وأقواله ومعارفه، كما هو الغالب علىٰ بعض الفقراء إذا اجتمع بأحد من أقرانه الذين ثقل اجتماعهم به، فربما شرع يزكي نفسه عندهم من حين يجلس إلىٰ أن ينصرف، كأنه يقول: اعرفوا مقامي الذي خفي عليكم.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه من أن يقوم أحد من أعدائه الذين حضروا ويخرج إذا رآه داخلًا، ويقول: والله لا اجتمع مع هذا في مجلس أبدًا، ولو علمتُ بأنه يحضر ما حضرتُ؛ فيحصل له بذلك غاية الخجل والتعزير وشماتة الأعداء، كما وقع ذلك لبعض إخواننا.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه علىٰ دين عدوه المذكور أن ينقص بوقوعه في عرضه تعريضًا أو تصريحًا، لا خجله هو وتعزيره بين الناس. وهذا يقع كثيرًا لأرباب المجاهدات لنفوسهم، ويقولون لها: ما عرفك وعرف دسائسك ونفاقك وقلة دينك إلا فلان.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه علىٰ صاحب الوليمة من وقوعه في العجب إذا دعا أهل مصر كلهم وأجابوه، ولم يتخلف أحد عن إجابته من أمراء وتجار ومباشرين وغيرهم، فقصد بعدم حضوره عدم مساعدته علىٰ حصول رؤية نفسه وعجبه، لكون

تخلف مثله يصير مقامه فيه نقص ما، فكأن حكم ذلك حكم القرون أو العظام التي تُعلَّق علىٰ باب قصر الملك تدفع عن القصر العين. وقد وقع ذلك من سيدي عليٍّ المرصفي في حقِّ بعض أقرانه، وقال: مراده أن يقول الناس: إنه لولا علو مقامه ما حضره مثل عليٍّ المرصفي. فقيل له: هلا حملتموه علىٰ محمل حسن؟ فقال: قد حملتُه علىٰ ذلك في الباطن، ولكن أخذتُ لأخي بالأحوط له في دينه مما لعله يخطر له في نفسه. انتهىٰ.

وربما كان المانع له من الحضور عدم وجوده نية صالحة في الحضور بحسب مقامه هو، كأن يحضر لا لعلة دنيوية ولا أخروية، كما كان عليه السلف الصالح، فإن أحدهم ربما كان يشتاق إلىٰ رؤية أخيه السنة كاملة وأكثر، فلا يجتمع به حتىٰ يجد النية الصالحة.

وربما كان المانع له من الحضور قصده أن يتخلف أحد من الفقراء بتخلفه، فلا يأكلون من ذلك الطعام الذي جباه صاحب الوليمة من الولاة والظلمة، كما هو الغالب في ولائم المتمشيخين في هذا الزمان، لاسيما إن عملوا طعامًا واسعًا كطعام الأمراء والأغنياء، فإن الفقير ما تميَّز عن أبناء الدنيا في العادة إلا بقلة المال، فإذا تبسط في طعامه فهو دليل علىٰ قلة تورعه وقلة تقواه، ولو أنه تورَّع لما وجد رغيفًا حافًا يأكله هو، فضلًا عن طبخ تلك الألوان والحلاوات المحشوة بالسكر والفستق وغير ذلك.

وربما كان المانع له من الحضور خوفه من إثارة الحسد في قلوب إخوانه الذين هناك إذا علم بالقرائن أنهم يرفعونه علىٰ أقرانه في القيام والتعظيم، والتصدير في المجلس، وكثرة الثناء عليه بالعفة والزهد، وكثرة العبادة وغير ذلك، فترك الحضور رحمةً بأعدائه.

وربما كان عليه ثياب دنسة وسخة تُزْرِي بلابسها، فخاف من حضوره في ذلك المحفل العظيم أن يقع أحد في ازدرائه، أو يشمت به أحد من أعدائه إذا رآه علىٰ تلك الحالة، أو إذا لم يقم له أحد ولم يحتفل به، فترك الحضور خوفًا علىٰ الناس من الوقوع في الإثم بسبب حضوره.

وربما كان المانع له من الحضور حسن ملبسه وكثرة البخور والروائح الطيبة التي

في بدنه وثيابه، فخاف إذا حضر أن يدخل غمًّا علىٰ أعدائه الذين هناك إذا رأوه علىٰ تلك الحالة، فرحمهم بعدم حضوره.

وربما كان له ذلك اليوم عذر من الأعذار المرخِّصة في ترك الجمعة والجماعة، كأن غسل ثوبه ذلك اليوم وهو مبلول لم يجف، واستحيا أن يستعير له ثوبًا يحضر به الوليمة.

وربما كان الباعث له علىٰ عدم حضوره خوف الشهرة إذا رأوه الناس في ذلك المحفل العظيم، أو خوف اعتقاد أحد من الولاة الحاضرين فيه إذا رأىٰ الناس يعظِّمونه ويثنون عليه خيرًا، ولا يخفىٰ ما في مثل ذلك من الآفات لأمثالنا، فكم هلك شخص في دينه من مثل ذلك! حتىٰ كان ثابت البناني وسفيان الثوري وغيرهما لا يمكنون أحدًا يمشي معهما في شارع، ويقولون: كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس وأذهبت من دين!

وربما كان الباعث له علىٰ عدم الحضور علمه من نفسه أنه يتكدر إذا أخروه من صدر المجلس مثلًا ليجلسوا أحدًا من أقرانه فيه، فيظهر بذلك رعونته بين الناس فيفتضح، وذلك لأن ظهور العورة الباطنة في التأذي، كظهور العورة الظاهرة علىٰ حد سواء.

وربما كان المانع له عن الحضور مراعاة خاطر عدوه الذي سبقه إلىٰ دار الوليمة حين كان يعرف منه أنه يتأذىٰ منه إذا دخل، أو يقوم ويخرج.

وربما كان المانع له من الحضور عدم تكليف صاحب الوليمة بمكافأته علىٰ الحضور إلىٰ وليمته إذا عمل الآخر وليمة، لما يعلم من شدة نفرة نفسه من تحمل منن الناس.

فإن قال قائل: كان من الواجب عليه الحضور ويسقط عن أخيه المنة ؟ [قلنا: قد زادت المنة بإسقاط المنة][1] عنه فكانت منة بعد منة. وكان الجنيد إذا علم من أحد من إخوانه المكافأة علىٰ الزيارة والعيادة، يرسل له السلام أو هدية، ويقول له: أنت في القلب ولو تباعدت الأجسام منا.

---

(١) ساقط من «ب».

وربما كان المانع له من الحضور ظهور معايبه وانكشافها له حتىٰ صار يرىٰ أن جميع الحاضرين يرونها كما يراها هو فاستحيا أن يحضر في ذلك المحفل كما يستحيي من كان عريانًا أو سوأته مكشوفة أن يحضر مع أحد. ويقع لي مثل ذلك كثيرًا، فأنصرف من تلك الوليمة.

وربما كان له عذر في عدم الحضور يليق بمقامه هو لم نصل نحن إليه، كأن يكون في الوليمة من يكثر منه الغفلة عن الله، أو يخطر في باله شيء من المعاصي الظاهرة أو الباطنة، كالكبر والحسد، وكونه خيرًا من أحد من الحاضرين، وأعطاه الله تعالىٰ أن يمقت كلَّ من كان علىٰ تلك الحالة، فخاف علىٰ المسلمين من المقت المذكور، لاسيما المحبون للدنيا، فإن المقت يؤثر فيهم أكثر، والنظر إليهم يقسي القلب.

وقد دُعِيَ أخي أفضل الدين مرةً إلىٰ وليمة، فلم يحضر وقال: بلغني أن صاحب الوليمة أخَّر ليلة المطبخ صلاة المغرب عن أول وقتها، فلا أحضر وليمة وقع بسببها تأخير الوقوف بين يدي الله عن الوقت الذي أمر به. والأجوبة عن مثل ذلك كثيرة.

فإن قال قائل: كان اللائق بهذا الشيخ الذي تخلَّف عن الحضور إلغاء هذه الاحتمالات كلها والحضور أسوة أمثاله، ويستريح من هذه الغلبة كلها؛ **فالجواب:** أن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فلكل حال عنده عين ينظره بها، فهو يعتقد أن صاحب الوليمة من أهل الكمالات، وأنه سالم من جميع الآفات، ولكنه احتاط لنفسه ولأخيه مما لعله يخطر في باله من الأغراض النفسانية، كما مر بيانه في هذه الأجوبة عن الذي تخلف عن حضور الوليمة[1]، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمل له وليمة، ويدعو الناس إلىٰ الحضور عنده، ولا يجيب هو أحدًا إلىٰ وليمة، فلاث به بعض أقرانه وامتنعوا من الحضور إلىٰ وليمته وقالوا: لأي شيء يطلب منا الإجابة إلىٰ دعوته ولا يجيب هو دعوتنا؟!

---

(١) الجواب (٢٤٣).

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ويجب حمله على حال من هذه الأحوال السابقة في الجواب قبله. وربما كان لزاويته معلوم من بيت المال مثلًا، وشرط السلطان أن يُعطَىٰ لشيخ هذه الزاوية مادام منقطعًا في زاويته لا يتردد لأحد، كما وقع لبعض إخواننا المقيمين في مواضع الانقطاع، كان يركب في مصر في الشفاعة عند الأمراء والأكابر كلَّ يوم، فكاتبوا عليه الولاة وقالوا له: إن كنتَ تلازم الزاوية، فنحن نصرف لك المعلوم، وإلا صرفناه لغيرك ممن يلازم زاويته؛ فلزم زاويته من ذلك اليوم، وصار يعتذر لإخوانه في عدم زيارتهم في مصر ويقول: لولا أن أصحاب الحديث حجروا عليَّ دخول المدينة لنزلتُ؛ فكان غالب الناس يظن أن مراده بأصحاب الحديث[1] الأولياء، والحال أن مراده بهم جماعة السلطان. وبالجملة فكان امتناع مثل هذا عن الدخول إلىٰ مصر أولىٰ من دخوله وقطع ذلك المعلوم الذي يُصرَف للفقراء والمساكين المقيمين عنده، والمترددين لزيارته، فإن في ذلك اكتساب الأجر لنفسه وللفقراء، ولجماعة السلطان وللسلطان، والأعمال بالنيات، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل المريدين الخلوة، ولا يحصل لأحد منهم ثمرة، فلاث به بعض الإخوان وقالوا: هذا من جملة المزاحمة علىٰ المشيخة، فإن من شرط الشيخ الذي يدخل المريد الخلوة أن يُكشَف له عن حصول ثمرة الخلوة لذلك المريد قبل أن يدخله الخلوة، فإن لم يُكشَف له عن ذلك، فخلوته عبث.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا إذا علمنا منه الدعوىٰ لمقام الأشياخ، فإن رأيناه متشبهًا بهم فقط، فلا اعتراض عليه، إذ لا منع من التشبه بالصالحين، فيُحمَل كلام المعترض علىٰ الشيخ علىٰ ما إذا كان الشيخ مدعيًا للكمال بغير حق. ويُحمَل هذا الشيخ علىٰ طلب التشبه دون دعوىٰ الكمال، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك آخر

---

(١) أي المحدثون من الأولياء، كما في الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم (٢٣٩٨) وغيره واللفظ له قال رسول الله ﷺ: «قد كان يكون في الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فعمر بن الخطاب»

الباب الثاني من رسالة «قواعد الصوفية» فراجعه تجد غالب المشايخ الظاهرين اليوم أنهم متشبهون فقط، والحمد لله رب العالمين.

(١١١٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أذن له شيخه بالتصدر للمشيخة علىٰ الفقراء بأخذ العهد علىٰ الناس بالتوبة، وتعريفهم آداب الطريق، ثم صار يقع بعد الإذن في رعونات النفوس، فلاث الناس بشيخه وقالوا: اللوم إنما هو علىٰ شيخه الذي أذن له قبل علمه من طريق كشفه بأن نار بشريته خمدت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بشيخ هذا الفقير لأنه لا يُشترَط في المأذون له العصمة بإجماع الشيوخ، وإنما الشرط فيه أن يكون أعلم بطريق الله تعالىٰ ممن يتلمذ له لا غير. وقد وقع بعض الأشياخ في معصية صورية بحضرة مريده، فلم يفارقه ولم يتغير اعتقاده فيه، فقال: يا ولدي، لم لا تفارقني حين رأيتني علىٰ المعصية؟! فقال له التلميذ: إني ما صحبتُك يا سيدي علىٰ أنك معصوم من جريان أقدار الحق تعالىٰ عليك، وإنما صحبتُك لكونك أعرف بالله تعالىٰ وبأحكامه مني. فقال له: زادك الله يا ولدي توفيقًا.

فاعلم ذلك، والزم الأدب مع أشياخ الطريق، فإن منهم من يكون مطمح بصره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، ومنهم من يكون مطمح بصره اللوح المحفوظ -أي من المحو- فالأول ربما تغير علىٰ مريده الحال، والثاني لا يصح منه تغيير، وعلىٰ الأول غالب أشياخ الطريق، وعلىٰ الثاني كُمَّل العارفين فقط، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عاهد الله تعالىٰ علىٰ أنه لا يؤاخذ أحدًا من الأمة بما جناه عليه ووقع فيه من غيبة أو أخذ مال أو ضرب أو حبس، ثم بعد ذلك نراه يشاحح الناس الذين آذوه، ويجيب عن نفسه ويكذِّبهم فيما أضافوه إليه من النقائص، فلاث الناس به وقالوا: قد نقض هذا عهده مع الله تعالىٰ، وما كان ينبغي له الوقوع في هذا العهد، فإن نقض العهد من صفات المنافقين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون غير مؤاخذ لذلك

الذي ظلمه في الباطن، وإنما يعاتبه ويكذبه تقبيحًا لصنيعه، حتىٰ لا يقع في أذىٰ أحد من الخلق بعد ذلك. وقد قالوا: يجب عليك إنكار المنكر المتعلِّق بمن آذاك وفاءً بحق الله تعالىٰ وحق الشريعة، وأنه كما يجب عليك الإنكار علىٰ من ظلم غيرك، كذلك يجب عليك الإنكار علىٰ من ظلمك علىٰ حد سواء، ومسامحتك للظالم لا يبيح له الظلم، كما لا يباح الربا بالإباحة وطيب النفس. واعلم يا أخي أن في كلِّ معصية حقَّان: حق الله وحق للخلق، فغاية مسامحة العبد أن يكون في حقه هو. وأما حق الله تعالىٰ من حيثُ تعديه حدوده فهو فيه تحت المشيئة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه شخص من إخوانه إلىٰ وليمته، فجمع له جميع من يتردد إليه من التجار والدلالين وأصحاب الحرف والصنائع، وذهب بهم إلىٰ الوليمة، فضاق عنهم الطعام والمكان، فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: ما خلىٰ هذا أحد من أهل حارته حتىٰ أتىٰ به! ولو كان هذا شيخًا لكان عنده ذوق وخفة، فإن من لا ذوق عنده فهو كالبهائم لا يصلح لأن يكون داعيًا إلىٰ طريق أهل الله تعالىٰ. وقال بعضهم: إنما فعل ذلك بقصد أن يعلم الناس بأنه شيخ عظيم له جماعة كثيرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون غافلًا عن جميع ما ظنه الناس فيه، وإنما قصد بكثرة دعائه الناس معه كثرة حصول الأجر لصاحب الوليمة، وجبر الخاطر له. وربما قال له صاحب الوليمة: ادعُ جميع أصحابكم معكم؛ فدعاهم بإذن.

وربما كان الله تعالىٰ أعطىٰ هذا الشيخ القدرةَ علىٰ أن يعوِّض علىٰ صاحب الوليمة أضعاف ما بذل بدعائه ودعاء أصحابه له، كما كان عليه سيدي إبراهيم المتبولي، والشيخ علي الخواص ﭬ. وكان سيدي إبراهيم يقول: وعزة ربي كلُّ فقير لا يمد صاحب الوليمة بالبركة الخفية في رزقه طول عامه، فليس له أن يمد يده لطعامه. وربما كان قصد هذا الشيخ بكثرة حضور الناس معه الوليمة نزول الرحمة علىٰ صاحب الوليمة وأهله إذا قرؤوا القرآن وذكروا ربهم، لا قصد الأكل وغيره، والله تعالىٰ أعلم.

(١١٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل له أخوه مكاتبة يترقق له فيها ويتواضع له بنحو قوله: العبد الذليل، المقصر المنكسر الخاطر يقبل مواطيء أقدام سيدي الشيخ فلان، ويسأله في النظر إليه بالرحمة، فلعل الله تعالىٰ يرحمه؛ فأجابه بكلام جاف يابس يستحيي الإنسان أن يكتبه لآحاد العوام، فلاث به الناس وقال: انظروا لطافة هذا ورقته ولطفه، وانظروا إلىٰ غلظة هذا وكثافة طبعه! ولكن هذا دليل علىٰ بقاء رعوناته، وعدم فطامه علىٰ يد شيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي أجاب أخاه بالغلظة والكلام الجافي، فقد يكون قصده بذلك إعلام أصحابه الذين لم يتقيدوا تحت حكمه بشدة تمكين أخيه في الطريق، وبيان كثرة رعوناته هو، ليرجحوا أخاه عليه في المحبة والاعتقاد، كما عليه المتمكنون من الفقراء.

وقد يكون قصده بالكلام الجافي علمه بالكشف أو بالقرائن أن أخاه إنما قصد بذلك التواضع المَلَق والسخرية به، وأنه في نفسه يرىٰ نفسه أفضل منه، فأراد بذلك الكلام الجافي بيان صدقه في التواضع، ليعرف مقامه حقيقةً، ويصير يعظمه ويحبه أكثر مما كان قبل ذلك.

وقد يكون قوله[1]: «أقبل مواطيء أقدام الأخ» إنما هو ليعلمه التواضع مع إخوانه حين ظهر له بالقرائن تكبره عليهم، كما كان سيدي محمد الشربيني يفعله مع أصحابه، فيقول في مراسلته: «من أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ أقلّ خدَّام نعال الفقراء». انتهىٰ. وقد فعلتُ أنا ذلك كثيرًا مع إخواني، والأعمال بالنيات، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يراسل الظلمة بقوله: من فلان إلىٰ الأخ الصالح فلان؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: كيف يقول في الظالم أنه صالح؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد بقوله «صالح» أنه صالح لإحدىٰ الدارين، لأن أحدًا لا يخرج عن أن يكون من أهل واحدة منهما، لا أنه صالح الصلاح المشهور بين الناس. ويُحتمَل أنه لقبه بالصلاح لما شهده فيه من بعض

---

(١) أي قول المترقق في كلامه.

المحاسن التي رآه يفعلها من تفريج الكرب عن المساكين، وصدقته على المحتاجين، فهو صالح بالنسبة إلىٰ أمثاله من الولاة. فإياك والإنكار علىٰ الفقراء في مثل ذلك، فإنهم لا يجهلون الأمر في ذلك، وإنما يقصدون بلين القول للظلمة ميل قلوبهم إلىٰ قبول شفاعاتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي استشاره شخص في أن يوقف علىٰ جماعته وقفًا، فقال له: إن جماعتي غير محتاجين إلىٰ مثل ذلك؛ والحال أنهم محتاجون، فلاثوا به وقالوا: قد قال رسول الله ﷺ: «الأقربون أولىٰ بالمعروف»[١].

والجواب: أنه لا ينبغي لهؤلاء اللوث بشيخهم، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن كونه ليس هو من رزقهم، أو رأىٰ فيه شبهة ونحو ذلك.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك مع الأخت العزيزة أمة الرحمن البصرية من ذرية الحسن البصري ، حين جاءت إلىٰ مصر واستشارتني في أن تقف علىٰ جماعتي وقفًا، فقلتُ لها: إن كنتي ولا بد واقفة شيئًا فقفيه علىٰ الزيالع والأغراب الذين يردون علىٰ مكة المشرفة وليس معهم مال ولا زاد، واجعلي ناظره الذي يكون معه مفتاح الكعبة من بني شيبة[٢]، وكذلك قفي وقفًا علىٰ فقراء المدينة ممن لا معلوم له، أو له معلوم لا يكفيه، واجعلي الناظر عليه كلَّ من كان معه مفتاح مقصورة رسول الله ﷺ. ففعلت، وذلك لأن المستشار مؤتمن. وقد رأيتُ الفقير من الزيالع يصير يصيح في المسعىٰ أو غيره من الجوع وهو مضطجع علىٰ التراب حتىٰ يموت لا يجد رغيفًا يأكله، فرأيتُهم أحوج من جماعتي. وأخرجت لي مرة نحو خمسمئة دينار ذهبًا، فرددتُها عليها لكونها امرأة فقط لا لعلة أخرىٰ، فإنه لا ينبغي لفقير أن يأكل من صدقة امرأة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بنو شيبة: هم سدنة الكعبة الذين جعل رسول الله ﷺ فيهم سدانة الكعبة وخدمتها، وهم خدمها وحملة مفتاحها إلىٰ الآن.

وكذلك فعلتُ في وظائف مدرسة أم خوند بخط بين السورين[1] لما نزلتُ بها، وأعطاني الناظر وظائفها، استنبتُ الفقراء في القيام بها بالمعلوم كاملًا، ولم أتناول منه شيئًا مدة العشر سنين التي أقمتُها فيها، ثم ترقيتُ بحمد الله تعالىٰ إلىٰ عدم قبول شيء من أوقاف الرجال أيضًا إلا عند الضرورة الشرعية، فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ اللوم علىٰ من يرد عنك الدنيا، فإنه أراد لك الخير، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٥) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يصلح بين الناس، فيكتم عن كلٍّ واحد ما قاله صاحبه فيه من السوء والنقائص، فلاث به بعض الفقراء وقالوا له: لو أنك ذكرتَ لكل واحد [ما][2] ذكره في الآخر من النقائص، لكان أحسن، ليبريء كل واحد منهما ذمة الآخر، ويقع الصلح علىٰ نقاء، فإن الصلح ربما وقع ثم أعلموا أحدهما بما قاله فيه الآخر من النقائص، فيتكدر من أخيه، ويزول[3] الصفاء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير الذي كتم عن كل من المتصارمين[4] ما قاله صاحبه فيه، لأنه مشىٰ علىٰ ظاهر قواعد الشريعة من أن **الكلام إذا لم يبلغ العبد كان أخف إثمًا مما بلغه**، ويفوِّض كلٌّ واحد أمره إلىٰ الله تعالىٰ. وأما ذكر الكلام الذي لم يكن بلغ الإنسان، فلا ينبغي ذكره إلا لمن علمنا منه الصفح والمسامحة وعدم المؤاخذة به. فيُحمَل حال من طلب من الفقير الذي يصلح بين الفقراء أن يذكر للآخر كلَّ ما سمعه من[5] صاحبه فيه علىٰ من يظن [في ذلك الفقير أنه يسامح، كما يحمل حال من

---

(١) مدرسة أم خوند: هي مدرسة أم السلطان شعبان بشارع باب الوزير بحي الدرب الأحمر التابع لمحافظة القاهرة عاصمة مصر.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: زال.

(٤) من الصَّرْم، وهو الهِجْران.

(٥) بالأصلين: عن.

كتم علىٰ حال من يظن][1] به أنه يشاحح، والأعمال بالنيات، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمل عرسًا أو عقيقة أو ختانًا لأولاده، فيهدي الأكابر إليه الهدايا إذا حضروا وليمته من نقود وثياب وفواكه وغير ذلك، فلاث به الأقران وقالوا: إنما دعا فلان الأكابر إلىٰ وليمته فتحًا لباب الشحاذة منهم بالحال؛ ووقعوا في عرضه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، وإنما يجب حمله علىٰ أحسن المحامل، كأن ينبههم علىٰ طلب افتقاد إخوانهم ومساعدتهم إذا عمل أحدهم عرسًا أو مهمًا، أو يكون قد كُشِفَ له عن تلك الهدايا التي يهدونها له أن الحقَّ تعالىٰ قسمها له، فسأل الحقَّ تعالىٰ في وصولها إليه بسرعة، وجعل الولاة بابًا من أبواب حضرة الحقِّ تعالىٰ التي تخرج منه العطايا للناس من غير وقوف معهم، كما يقع ذلك كثيرًا للأكابر كسيدي علي بن وفا وسيدي مدين وسيدي محمد البكري، وأضرابهم ممن خرج من حكم الطبيعة عليه، وكمُل مقام زهده فيما في أيدي الناس.

وقد يكون مرادُ هذا الشيخ بدعاء الأكابر إلىٰ وليمته فتحَ باب التواضع لهم مع الفقراء، كما كان النبي ﷺ والخلفاء الأربعة ومن تبعهم. وقد يكون الباعث له علىٰ إحضارهم إلىٰ وليمته ما تقدَّم لبعض الناس معه من حمله الولاة علىٰ أنهم متكبرون، وأجاب هو عنهم، فلم يصغِ ذلك المجادل إلىٰ قوله، فأراه تواضعهم بالفعل، فأرسل إليهم فحضروا، إقامةً للحجة علىٰ المجادل، ليرجع عن حمله الأكابر علىٰ المحامل السيئة ويظن بهم خيرًا، مع كون قلبه فارغًا من تلك الهدايا، بل ربما لم تخطر له علىٰ بال. وقد قدمنا في هذه الأجوبة أن إبراهيم بن أدهم دعا سفيان الثوري إلىٰ داره من البصرة، وكان إبراهيم بالرملة، وقال: إنما دعوتُه من هذا المكان البعيد، لأريكم كثرة تواضعه وعدم رعونات نفسه. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(١١٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طالع في رسالة أحد من أقرانه، فرأىٰ فيها مقامات وشروطًا في المشيخة لا يقدر هو علىٰ المشي عليها، فلاث بصاحب الرسالة وقال: هذه ينبغي غسلها؛ لأنها شروط ما رأينا أحدًا من أشياخنا تخلَّق بها؛ فلاث به أصحاب الشيخ الذي ألَّف الرسالة وقالوا: هذا القول منك جهل ورعونة نفس، فكان الأولىٰ بك إذا لم تقدر علىٰ المشي علىٰ تلك الشروط أن تطلب لك شيخًا يوصلك إليها، ولا تقول: ينبغي غسلها، وتجعل أشياخك جاهلين بها! ولم يزل العلماء يبينون لأهل زمانهم ما اندرس من مقامات سلفهم، ليتنبهوا لنقصهم، ويأخذوا في أسباب الترقي، كما فعل ابن الجوزي[1]، والإمام الغزالي في ربع المهلكات من كتاب «الإحياء».

والجواب عن هذين الشيخين: أنه لا ينبغي اللوث بأحدهما، بل يجب حمل الأول الذي ألَّف الرسالة علىٰ أنه قصد بذكر تلك الشروط والمقامات تحريك همة إخوانه لطلب الوصول إليها، لا هتك سريرة أحد من أهل زمانه المتمشيخين بغير حقٍّ، كما وقع لي ذلك في كتابي المسمَّىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق» فإني لما ألفتُه رأىٰ[2] فيه بعض الأقران، فرأىٰ فيه شروط تلقين الذكر، وشروط إلباس الخرقة، وشروط إرخاء العذبة، وشروط إدخال المريد الخلوة، فلم يرَ له قدرة علىٰ شروط شيء منها، فلا تسأل يا أخي عما وقع في عرضي، وقال: هذه الشروط التي ذكرها فلان لم يكن عليها أحد من أشياخ الطريق من الإمام أبي القاسم الجنيد إلىٰ عصرنا هذا، وإنما ذكرها فلان تعجيزًا لأمثالنا. فقالوا له: إن في هذا الكلام تجهيلًا لأهل الطريق؛ فلما بلغني ذلك أقمتُ له العذر في إنكاره، لكونه جردته تلك الشروط عن

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث. ولد ببغداد (٥٠٨هـ) ونسبته إلىٰ (مشرعة الجوز) إحدىٰ محال بغداد بالجانب الغربي. له نحو ثلاث مئة مصنف منها: «تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والأخبار» و«الأذكياء وأخبارهم» و«مناقب عمر بن عبد العزيز» و«تلبيس إبليس» توفي: ٥٩٧هـ. انظر: «الأعلام» (٣/ ٣١٦) «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٠٩) و«شذرات الذهب» (١/ ٤٧).

(٢) كذا بالأصلين، ولعلها: نظر.

صفات الفقراء، وأخرجته من طريقهم، وهتكت سريرته، وجعلته متفعلًا وإن لم يكن هو مقصودًا، وهذا أمر قلَّ أن يثبت له إلا من زالت منه جميع الرعونات البشرية.

وملخص شروط الأربعة أمور السابقة أن من شرط من يلقن الذكر للمريد علىٰ طريق المتحققين أن يُفرِغ عليه مع التلقين جميع ما قُسِمَ له من علوم الشريعة، فلا يحتاج بعد ذلك إلىٰ مطالعة في كتاب.

ومن شرط من يلبس الخرقة أن يَنزِع من المريد جميع الأخلاق الردية حال أمره بنزع ما عليه من قلنسوة أو رداء ونحوهما، ويُفرِغ عليه حال إلباسه له نظير تلك الخرقة جميع الأخلاق المحمدية التي قُسِمَت لذلك المريد، فلا يحتاج بعد ذلك إلىٰ علاج خلق من الأخلاق الردية.

ومن شرط من يرخي العذبة للمريد أن يعطيه سرَّ النمو والزيادة في كلِّ شيء نظر إليه أو مسه بيده، فلو أنه مدَّ العمود الحجر أو الخشب لامتد معه.

ومن شرط من يدخل المريد الخلوة أن لا يخرج منها وهو يرىٰ أحدًا دونه في المقام، ويمشي علىٰ الهواء والماء، ويحل معضلات مسائل الشريعة كلِّها، ويصير زاهدًا في الدنيا بأسرها، ليس له رغبة في شهوة من شهواتها، فيدخل الخلوة جاهلًا ويخرج منها عالمًا، حتىٰ إنه يعرف مستند كلِّ قول في العالم، ويعرف من أي حضرة استند ذلك القول من حضرات الأسماء والصفات، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لولا أني أمد علماء مصر والشام أو العراق مثلًا أو كلهم، ما وصل أحد منهم إلىٰ مقام التدريس والإفتاء؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة، وهي إلىٰ الكذب أقرب، وكيف يصح له إمداد هؤلاء العلماء وهو لم يجتمع بهم قط؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فإن الله تعالىٰ رجالًا يمدون سائر أهل المراتب من العلماء والصالحين وغيرهم، فقد يكون هذا الشيخ منهم. كما تقدم تقريره

في هذه الأجوبة مرارًا[1]، ولا يُشترَط في صحة إمداده للعلماء مثلاً أن يجتمع بأحدهم ظاهرًا، ولا أن يظهر علمه للناس، لأن صاحب هذا الحال إنما هو كالقناة التي يجري فيها الماء من البئر أو النهر إلىٰ البستان.

وقد سمعتُ سيدي محمد بن عنان ﷺ يقول عن سيدي محمد الكويس[2] المجذوب بالخانقاه السرياقوسية[3]: إنه كان قاضي العرافين، وكان يمد قضاتها وعلماءها بالعلم والتأييد في الأحكام، ولولا هو ما وقف أحد عند قول أحدهم ولا فتواه، ولا نفذ حكم أحد من القضاة.

وكذلك أخبرني بعض الأولياء عن الشيخ زين الدين كان علىٰ باب جامع الأزهر جالسًا نحو عشرين سنة وهو مكشوف الرأس أنه كان يمد جميع من يشتغل بالعلم في الجامع، مع أنه لم يظهر للناس قط منه علم، بل ولا جواب مطابق للسائل! انتهىٰ. وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل تحت دائرة الولاية، فسلِّم يا أخي للفقراء دعاويهم تسلم، ولا تكذبهم تعطَب وتندم، إلا أن يدعوا باطلًا كالنبوة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢٩) ومما أجبتُ به عن المجاذيب الذين ينهون خَدَّامهم عن الصلاة وعن حضور مجالس الذكر والعلم، ويقولون له: ما دمتَ تصلي أو تحضر مجلس الذكر، فأنا غضبان عليك. وربما يأتي أحدهم إلىٰ الصلاة فيخرِج خادمَه منها، فلاث به الناس وقالوا: هذا جنون ليس بجذب! لأن المجذوب في حضرة الله تعالىٰ ويعرف مقام تلك الحضرة، فكيف ينهىٰ الناس عن دخولها؟! وإنما ذلك جنون!

---

(١) انظر الجواب (٩٦١).

(٢) قال الإمام السخاوي: محمد الكويس أحد المعتقدين، مات في صفر سنة إحدىٰ وستين بخانقاه سرياقوس، وكان مقيمًا فيها، وبها دُفن، وكان يبالغ في اعتقاده الزين قاسم البلقيني. قال: وقد زرته في توجهي إلىٰ السفرة الشمالية فدعا لي. «الضوء اللامع» (١٠/ ١٢٤).

(٣) الخانقاه السرياقوسية: خانقاه أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ورتب فيها مئة صوفي. وكان موقعها في مدينة الخانكة الحالية، وهي تابعة لمحافظة القليوبية بمصر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالمجاذيب إذا نهوا أصحابهم عن الصلاة، فقد يريد أحدهم أن يدخل خادمه حضرة الشهود التي لا تكليف فيها بعبادة إلا بالشهود فقط، كما هو مقام المجاذيب، ورأىٰ من طريق كشفه أنه لا يقدر علىٰ إدخال مريده تلك الحضرة إلا إن كمل انقياده له بالباطن والظاهر، وليس مراد المجذوب أن يخرج مريده من حضرة العبادة ثم لا يعوضه مكانها شيئًا، فافهم.

وإيضاح ذلك أن التكاليف كلَّها إنما هي في حق الصحاة من سكر الحال والاصطلام[1] بالأصالة، فما دام السكر غالبًا علىٰ الإنسان، فلا يُطالَب غالبًا بالعبادات علىٰ وجهها المعروف، اللهم إلا أن يمن الله تعالىٰ علىٰ أحد من المجاذيب بالتمكين، فيصير يصلي ويصوم ويحج ويفعل جميع التكاليف مع الحضور كالصحاة، فهذا لا يمنع من الصلاة وغيرها، بل يجب عليه كغيره، لاسيما من كان له أتباع.

وقد كان أبو بكر الشِّبْلي من أهل هذا المقام، لكن كان يُرَدُّ إلىٰ عقله وقت الصلاة. وكان الجنيد ﷺ يقول: الحمد لله الذي لم يجرِ[2] عليه -يعني الشبلي- لسان ذنب -يعني في الظاهر- ففيه رائحة أن الجنيد سلَّم للشبلي حاله لو أنه لم يرد إليه عقله حال الصلاة إلىٰ أن فاتته. وقيل له مرة: هل علىٰ صاحب الحال قضاء ما فاته من الصلوات إذا صحا من الحال؟ فقال: لا بد من القضاء. فاحمل يا أخي من رأيتَه من أرباب الأحوال ينهىٰ خادمه عن الصلاة علىٰ الجذب. **وأما الخادم فيجب عليك الإنكار عليه، وإعلامه بأن طاعة ذلك المجذوب في ترك الواجب لا تجوز.**

وقد رأيتُ الشيخ شهاب الطويل[3] المدفون بمصر العتيق بجوار شون السلطان

---

(١) الاصطلام: الوله الغالب علىٰ القلب، وهو قريب من الهيمان. معجم القاشاني (ص٥٥).

(٢) بالأصلين: يحجر. والصواب ما أثبتناه.

(٣) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ شهاب الطويل المجذوب النشيلي ﷺ من أولاد الشيخ خليل النشيلي أحد أصحاب سيدي أبي العباس المرسي ﷺ. مات ﷺ سنة نيف وأربعين وتسعمئة، ودُفن بزاويته بمصر العتيقة قريبًا من شون السلطان، ﷺ. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» الترجمة (٤٥٣) طبعة دار الإحسان.

يخرج خادمه من صلاة الجمعة، ويقول له: كلما أنهاك عن هذه الصلاة ما تجعل لك شغلًا إلا هي! وكان الناس يسلِّمون له حاله. وأما الشيخ عصفور المدفون بخط بين السورين بالقاهرة، فسمعتُه يقول لخادمه: ما دمتَ تصلي الجمعة، فأنا غضبان عليك، ولا بد أن يسرقوا ما في حانوتك وأنت تصلي؛ فكان الخادم لا يعتني بقوله، فصلَّىٰ يومًا الجمعة وخرج، فوجد حانوته قد سرق اللصوص جميع ما فيه وكان تاجرًا، فبقي يسأل الناس حتىٰ مات، وكان الشيخ عصفور يقول له: قد نهيتُك عن الصلاة فلم تسمع.

فكن يا أخي صاحب عينين: عين تنظر بها إلىٰ أحكام الشريعة، فتأمر الناس بالتقيد بها؛ وعين تنظر بها إلىٰ أحوال المجاذيب، فتسلِّم لهم حالهم، لا حال من وافقهم من غير جذب، فإن ذلك المجذوب ليس هو بصاحب شرع يُتَبَع. والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُسأَل عن الأمير الذي يشفع عنده فلا يقبل له شفاعة، ثم يقبل شفاعة غيره ممن هو دونه في الطريق وكان من تلامذته قديمًا، ويقول: هذا لا يعتقد إلا المشايخ النصَّابين. وأما الصادقون فلا يعتقدهم، ولا يقبل لهم شفاعة؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق بهذا الشيخ أن ينطق به، لأنه يوهم أنه من الصادقين، وأن غيره من الكاذبين في دعوىٰ الفقر[1]، وكان الأولىٰ به أن يقول عن ذلك الأمير إنه من أكبر المعتقدين في الفقراء، وإنما يرد شفاعتي لأني لستُ بصادق ولا مخلص في تلك الشفاعة، بخلاف غيري ممن قبل شفاعتهم، كما جرىٰ عليه السلف الصالح من التكبير بأهل حرفتهم، وهضم نفوسهم عن اللحوق بهم في مقام من المقامات.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في ذمة الأمير الذي رد شفاعته وقبل شفاعة غيره، ولا حمله علىٰ الحسد لأقرانه، ولا علىٰ أنه يحب انفراده بالشفاعة عند الأمير دونهم، فقد يكون قصد بجعل أقرانه نصابين عدم انهماك الناس علىٰ الاعتقاد فيهم، فيشغلونهم عن الله عزَّ وجلَّ، كما هو الغالب علىٰ من يتصدر للشفاعات عند

(١) بالأصلين: الفقراء.

الأمراء قبل خمود نار بشريته وزوال رعوناتها.

وقد يريد بالنصَّابين نفسه، وبالصادقين أقرانه، لكنه خاف علىٰ إخوانه، فاحتاط لهم، ونظر لهم بعين أخرىٰ، وهذا يقع للصادقين كثيرًا، فيصير يرىٰ نفسه أنه لا يصلح خادمًا لأحد من أقرانه فيما بينه وبين الله تعالىٰ، ثم يصير ينقصهم عند الناس، لينفروا منهم، خوفًا عليهم من وقوع أحدهم في العجب، والأعمال في مثل ذلك بالنيات، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشفع عند أمير ويقبل منه الهدايا، وربما يكون هو الذي يسأل الأمير في ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا له: هذا خلاف الحالة التي كان عليها الأشياخ الذين أدركناهم، فكانوا ينهون بعضهم عن قبول هدايا الأمراء الذين يشفعون عندهم، ويقولون: من أراد أن شفاعته لا تُقبَل عند أمير، فليقبل منه هدية، أو يسأله في شيء من الدنيا.

والجواب: أن لله تعالىٰ رجالًا أعطاهم التمكين والتصريف، فيأخذون هدايا الأمراء، ولا يقدر أمير أن يرد لهم شفاعة، إلا إن كان سبق في علم الله تعالىٰ أنها لا تُقضَىٰ علىٰ يدهم.

وقد رأيتُ من رجال هذا المقام جماعةً، منهم الشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ عمر البوصيري، والشيخ محمد الشربيني، لاسيما إن كان أحدهم يقبل تلك الهدية، ويوسع بها علىٰ الفقراء والمساكين، ولا يلعق منها لعقة، أو لا يلبس منها خلقة، لكن لما كان أهل هذا المقام قليلين في كلِّ عصر، نهىٰ أشياخ الطريق بعضهم بعضًا عن قبول هدايا الأمراء مطلقًا سدًّا للباب، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تأتيه المرأة بمال جزيل، فيرده وعنده فقراء وأرامل وأيتام، وهو محتاج إلىٰ شيء يأكله وشيء يلبسه، فلاث الناس به وقالوا: لو كنتَ أخذتَه وصرفتَه علىٰ المحتاجين إليه بالطريق الشرعي، فنفعتَ صاحبة ذلك المال، ونفعتَ الناس لكان أولىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من مقامه أن لا يقبل هدية ولا صدقة من امرأة، لشرف همته وهمة أصحابه. وقد يكون في تلك الدراهم علة تقدح في إخلاص تلك المرأة، أو في دراهمها شبهة، أو علم منها رؤية نفسها عليه إذا قبل مالها، أو قصد بعدم تفرقتها علىٰ جماعته تعليمهم رفع الهمة عن أموال الناس وصدقاتهم، لاسيما النساء. وقد يكون لتلك المرأة قرابات ينتظرون منها البر في حياتها، أو الإرث لها بعد موتها، أو يكرهون من يزاحمهم في مال بوصية أو صدقة، فترك الشيخ ذلك رحمة بورثتها.

وقد وقع لي مثل ذلك لما وقفت عليَّ بنت الأمير خاص بك وعلىٰ ذريتي نصف القصر الكائن بخط بين القصرين، ومضىٰ عليه عشر سنين ولم أشعر بذلك، فلما علمتُ به مشيتُ إليها وقلتُ لها: قد بلغني أنك وقفتِ عليَّ نصفَ القصر الذي يخصُّكِ، وأنا لا أزاحم ولدك في ذلك؛ فرددتُه عليها غصبًا عليها، خوفًا علىٰ خاطر ولدها، فإني أعلم تكديره ممن يشاركه في سكنه بعد موت والدته، فلأجل هذه العلة تركتُ قبوله. وتقدم أن أمة الرحمن البصرية[1] أتتني بخمسمئة دينار ذهبًا، فرددتُها لكونها من امرأة، لا لعلة أخرىٰ من شبهة أو منة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تأتيه الأموال بلا سؤال فيردها، ثم إنه يدور يسأل الناس الدنيا في بقية النهار، فلاث به الناس وقالوا له: كيف ترد ما أتاك من غير سؤال وتصير تسأل؟! هذا جهل مبين!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون في ذلك المال الذي أتاه بلا سؤال علة من العلل، كأن رأىٰ فيه شبهة، أو علم من صاحبه رؤية نفسه عليه، أو عدم إخلاص فيه ونحو ذلك. وأيضًا فإن الفقير ابن وقته لا نظر له إلىٰ ماضٍ ولا آت، فكلُّ شيء دخل في يده، أنفقه علىٰ المحتاجين إليه من نفسه أو غيره.

فإن قلت: إن حملك للمعطي علىٰ أنه يرىٰ نفسه عليك بالعطاء فيه سوء ظن به، وأنت

---

(١) وهي من ذرية الحسن البصري.

وضعتَ كتابك هذا للأجوبة عن الناس، وحملهم عل المحامل الحسنة؛ **فالجواب**: أن الفقير يكنىٰ «أبا العيون» فعين ينظر بها إلىٰ احتمال المنة عليه ورؤية المعطي نفسه عليه بما أعطاه، فيرد ذلك عليه، وعين ينظر بها إلىٰ سلامته من شهود المنة عليه، لكنه يرد عليه العطاء من جهة أخرىٰ، فاعلم ذلك.

وقد تقدم في هذه الأجوبة أنني رددتُ خمسين ألف نصف أوصىٰ بها إليَّ القاضي شمس الدين ابن محاسن قاضي إسكندرية علىٰ ورثته(١)، لغنائي عنها حين أتتني، ولم أدخر منها شيئًا إلىٰ غد، لا لي ولا لغيري. وأتتني وصية من الخانكاه، فأعطيتُ الحامل لها نصفها، وفرقتُ الباقي في المجلس، ولم أبقِ لنفسي شيئًا منها. وفي ذلك عدة مصالح: منها حثي لمن حملها علىٰ أن يذكرني عند موصٍ آخر، فيوصي لي بمال آخر، فينتفع الموصي بتلك الوصية لوضعها في محلها باجتهادي له في الأصلح والأكثر ثوابًا، وينتفع بها حاملها بإعطائه نصف ما حمل، فقل من يعطيه مثل ذلك، بل ربما شح أن يعطيه العشر، وفي ذلك أيضًا إظهار مروءة وعدم تحمل منة أحد عليه، فربما أن ذلك الحامل رأىٰ له فضلًا علىٰ المحمول إليه بحملها إليه، وذكر اسمه عند المريض بالصلاح والخير حتىٰ أوصىٰ له. وبالجملة فلا يقدر علىٰ المشي علىٰ هذا الخلق إلا من كانت الدنيا لا تزن عنده جناح بعوضة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال له إنسان: مقصودي أن أرىٰ رسول الله ﷺ في المنام. فقال: أيش تعمل برؤيته ترك رؤيتك له في النوم أولىٰ؛ فلاث به الناس وقالوا: إن هذا جهل عظيم منك بالشريعة، وسوء أدب مع رسول الله ﷺ، فإنه ﷺ قال: «خير الرؤيا أن يرىٰ العبد ربه أو نبيه ﷺ»(٢). انتهىٰ، فكيف يجعل ترك رؤيا النبي ﷺ أولىٰ؟

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ نسبة هذا الشيخ إلىٰ الجهل وسوء الأدب،

---

(١) انظر الجواب (٨٩١).

(٢) لم أقف عليه، وقد ذكره المصنف في «القواعد الكشفية» ص١٢٣ وعزاه للطبراني.

فربما كان مراده أن رؤيته ﷺ في اليقظة أولىٰ من رؤيته في المنام، وربما كان مراد هذا الشيخ أيضًا بقوله للسائل: «ترك رؤيتك لرسول الله ﷺ أولىٰ» أي لئلا يكلف رسول الله ﷺ بالمجيء إليه في المنام، فهو من باب الإكرام والتعظيم لرسول الله ﷺ، لا من باب ترك التعظيم والحرمة، بل لو قدر أن رسول الله ﷺ طلب أن يجيء إلىٰ أحد من خواص أمته وعلم بذلك، لكان من الأدب أن يقبِّل رجل رسول الله ﷺ، ويسأله في عدم تكليف خاطره بالحضور إليه. هذا إن جعلنا المجيء لذات رسول الله ﷺ.

فإن جعلنا ذلك للمثال الذي تشكل من ذاته ﷺ للرائي، فذلك حكم آخر، فإن ذلك المثال الذي يقوم في ذهن الرائي ويأتي إليه ليس هو برسول الله ﷺ حقيقةً، وإن كان العرف يطلق علىٰ ذلك الرؤيا له ﷺ، ثم لا يفرق بين ذاته الحقيقية والمثال المذكور إلا كُمَّل أهل الكشف، فافهم.

فعلم أن من يقول: «أنا لا أشتهي رؤية رسول الله ﷺ في المنام» لا ينبغي اللوث به إلا بعد الاجتماع به، أو إرسال ورقة مثلًا باستفهامه عن مراده، فربما يكون مراده: أنا لا أشتهي رؤية رسول الله ﷺ في المنام لغناي عنها بالاجتماع في اليقظة، كما عليه أكابر الأولياء، أو لما فيه من كلفته ﷺ في المجيء إليَّ وعدم استحقاقي لذلك.

وقد قيل للشبلي مرةً: أتشتهي أن ترىٰ ربك؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فقال: أنزه ذلك الجمال البديع المقدَّس عن رؤية مثلي. انتهىٰ. وكذلك ينبغي الجواب عمَّن قال: «أنا لا أشتهي رؤية رسول الله ﷺ» فربما كان مراده تنزيه جماله عن رؤية مثله.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ اللوث بالأشياخ إلا بعد أن لا تجد لكلامهم محملًا صحيحًا، وإن كان من تكلم بذلك عليه اللوم من حيثُ إنه شطح عن مقام الأدب اللفظي. وقد قال الأشياخ: «إن الشطح في الألفاظ من بقايا رعونات النفس، فإن المحقق لا يصدر عنه شطح أبدًا» فالواجب علىٰ الفقير السلوك علىٰ يد شيخ صادق إلىٰ أن يصل إلىٰ مقام التحقيق، ويصير معانقًا للأدب مع الله تعالىٰ ومع رسوله وأوليائه وعباده المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأتيه شخص بهدية عظيمة، فلا يكافئه عليها، ونراه يُهدِي لأبناء الدنيا الذين هم في غنية عن هديته، ولا نراهم يهدون إليه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه مكافأة من أهدىٰ إليه، وترك الهدية لمن ليس له عليه يد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون إنما ترك المكافأة علىٰ تلك الهدية إيثارًا لأخيه علىٰ نفسه في الأجر الأخروي، كما يؤثره علىٰ نفسه في أمور الدنيا، كما عليه جماعة من السلف الصالح، حتىٰ كان بعضهم يبدأ بالسلام ليكون الرد علىٰ أخيه دونه من حيث إن ثواب الواجب أعظم من ثواب المندوب[١]، وكان علىٰ ذلك سفيان الثوري وجماعة، فيُحتمَل أن يكون مشهد الشيخ هذا المذهب، وإن كان الجمهور علىٰ خلافه، فيرون البداءة بالسلام من الأمور التي فَضَلَت فيها السنةُ علىٰ الواجب من حيثُ الأجرُ، وكان سيدي علىٰ الخواص رحمه الله يقول: البداءة بالسلام أفضل في حق المتشاحنين، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، ورد السلام أفضل في حق من ليس بينهما شحناء. انتهىٰ

ويُحتمَل أيضًا أن يكون هذا الشيخ إنما ترك المكافأة لأخيه عملًا بوصيته له أنه لا يكافئه قط علىٰ هدية يرسلها له، وأنه يعلم منه التكدر علىٰ مثل ذلك، فكان في ترك مكافأته عمل بوصيته وعدم إدخال تكدير عليه.

وكان في إعطاء أبناء الدنيا الذين ليس لهم عليه يد في الإحسان تعليمهم الكرم، وأن يكون لهم اليد الطولىٰ علىٰ الناس من غير أن يكون للناس عليهم يد. وعلىٰ ذلك حملتُ ما يقع من بعض مشايخ الزوايا من إرسال الهدايا لأبناء الدنيا، وحرمان الفقراء المقيمين عندهم منها، وأنه لا لوم علىٰ شيخ الزاوية في ذلك، لاحتمال أن يكون رأىٰ في تلك الهدية شبهة لا تليق بالفقراء المقيمين عنده أن يأكلوا منها، أو علم منهم صدق المحبة فيه لله تعالىٰ لا للدنيا، فلم يحتج أحد منهم إلىٰ تأليف قلبه بالإحسان، بخلاف أبناء الدنيا، فإنه ليس عندهم تلك المحبة، فيحتاجون إلىٰ التأليف، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) وذلك لأن الابتداء بالسلام مندوب، ورده واجب.

(١١٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعلِّق في عنق أصحابه النعال، ويأمرهم أن يطوفوا في الشوارع والطرقات وهم علىٰ ذلك الحال، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه من أحد من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين، ولكن قالوا في المثل: خالفوا تعرفوا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه قصد بذلك تقريب الطريق علىٰ أصحابه حين علم أن فتحهم متوقف علىٰ زوال الكبر من نفوسهم بذلك دون كثرة الطاعات. ولا يُعترَض علىٰ هذا الشيخ بأحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف الصالح، لصفاء سرائرهم، وعدم وجود الكبر عندهم، فكانت العبادات تكفيهم في علاج ما عندهم من الكبر، وتورثهم الذل والخضوع، لطيب عنصرهم وطهارته من الرعونات، بخلاف أهل هذا الزمان، فلا تزيدهم العبادة إلا كبرًا ورعونةً علىٰ ممر الأيام، فاجتهد الأشياخ واستنبطوا لهم علاجًا آخر مشاكلًا لأحوالهم يذوِّب نفوسهم حتىٰ تضمحل، ثم بعد ذلك ينشيء الله تعالىٰ لهم نفسًا أخرىٰ مطهرةً من الرعونات. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ربما يكون صفع المريد في عنقه، وهدم عمامته بين الناس أنفع له من صيام النهار وقيام الليل. انتهىٰ.

فإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ فيما يفعلونه مع مريديهم من أنواع الرياضات والمجاهدات لنفوسهم، فإن علاج الكبر ونحوه من الأمراض واجب، وما لا يتم الواجب إلا به هو واجب، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جاءته وصية مشتملة علىٰ مال جزيل أسوة مشايخ بلده، فمنهم من فرقها علىٰ جماعته ولم يأخذ لنفسه منها شيئًا، ومنهم من أخذ النصف، ومنهم من أخذها لنفسه، وكان هذا الشيخ ممن أخذها ولم يعط أحدًا منها شيئًا، فلاث الناس بمن أخذها لنفسه وقالوا: ليس لهذا في مقام الصلاح نصيب، وكان أقل ما يعمل أن يعطي النصف، ويأخذ النصف.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن أخذ الوصية كلَّها ولم يعطِ أحدًا منها شيئًا،

لاحتمال أنه يريد بذلك الستر علىٰ نفسه، وقصده أن يمسكها عنده حتىٰ يتقادم العهد ثم يعطيها لغيره، ولم يتناول منها لنفسه شيئًا. وكان علىٰ ذلك أخي أفضل الدين والشيخ محمد المُنيِّر وأضرابهما، فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ شيخك أو غيره إذا أخذ الوصية كلَّها ولم يفرِّق علىٰ جماعته منها شيئًا في أول يوم وثاني يوم وثالث يوم، لاحتمال أن يكون عزمه التفرقة بعد ذلك، فيحصل لك الخجل منه في تقطيعك في عرضه، كما وقع لي ذلك في وصية ابن القماح بناحية الخانكاه، فمقت عندي بسببها اثنان، مع أني فرقتُها كلها ولم آخذ منها شيئًا، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دق عالم عليه الباب ليدخل إليه لزيارة أو عيادة أو غير ذلك، فقال الشيخ للخادم: قل له يرجع، فإني لا أجتمع بأحد من أهل النفوس؛ فرد ذلك العالم وهو يسبه، ثم حكىٰ[1] ذلك لجماعته، فسبوه وبالغوا في اللوث به، وقالوا: نخشىٰ أن يكون مثل ذلك كفرًا! فإنه أزرىٰ بأهل العلم وحملة الشريعة!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ حتىٰ يجتمع به ويسأله عن مراده برد هذا العالم عن الدخول إليه، ثم يبني علىٰ ذلك مقتضاه، فربما يكون بمعزل عما ظنَّه ذلك العالم وجماعته فيه، وأنه في غاية التعظيم للعلماء ويرىٰ نفسه دونهم. وربما كان قصده بقوله لخادمه: «قل له: ارجع، الشيخ لا يجتمع بأحد من أهل النفوس» زيادة الأجر لذلك العالم، وترجيح عدم دخوله علىٰ دخوله، أخذًا من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٨]، فقال الشيخ: إن مثل هذا العالم لا يجهل أن رجوعه وعدم دخوله أكثر أجرًا؛ فاحتاط الشيخ لأخيه العالم، وطلب له الحظ الأوفر بشهادة الله في الآية السابقة، زيادةً في محبته لا بغضًا فيه ولا كراهة له. فافهم وتأمل فيما قلتُه لك، فإنه نفيس، واعمل به إذا أتيتَ أحدًا زائرًا ولم يفتح لك، أو سمعتَه يقول للخادم قل له: ما هو هون، أي يدق الناس فيه الثوم والبصل مثلًا.

---

(١) أي العالم.

وأما قوله: «أنا لا أجتمع بأحد من أهل النفوس» فليس فيه نسبة ذلك العالم إلىٰ رعونة النفس، وإنما أراد بالنفس الروح أو القلب أو السر، فإن معناهما واحد عند أهل الكشف، وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في مواضع من هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحمل حملات الناس، ويشاركهم في همومهم، ويصير يلهث كالثور، فقال له إنسان: إذا جاءتك حملة، فتوجه لشيخك في قبره ليساعدك. فقال: لو كان شيخي حيًّا لعجز ولم يستطع أن يحمل عن أحد حملة؛ فلاث به أصحاب شيخه وقالوا: هذا سوء أدب مع شيخك، وكان الأولىٰ أن تعتذر بعذر آخر غير هذا، فإنه يؤذن بأنك أعلىٰ مقامًا من شيخك، ولا يخفىٰ ما فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، ولا يلزم من قوله: «لو كان شيخي حيًّا لعجز» احتقار شيخه، لاحتمال أن يريد أن شيخي إنما عجز لزيادة رحمته التي في قلبه علىٰ رحمتي، فصار يشارك كلَّ الناس وتسرقه الرحمة لهم، مع زيادة بلاء هذا الزمان [علىٰ بلاء الزمان الذي كان فيه شيخي، فهو تصريح بعلو مقام شيخه عليه في الرحمة، فافهم. وبذلك أجبتُ من قال لي: إذا كنت في حملة فتوجه إلىٰ قبر سيدي علي المرصفي، أو سيدي محمد الشناوي، أو سيدي علي الخواص، فإني قلتُ: لو كان هؤلاء أحياء لما احتملوا بلاء هذا الزمان][1]، فقال بعض الإخوان: إن فلانًا يدعي مقامًا فوق أشياخه، والحال أني ما قصدتُ إلا كونهم أكثر رحمة للأمة مني، والعجز تابع لكثرة الرحمة، بخلاف قليل الرحمة، فإنه يحمل من هموم الناس ما يطيق ويترك الباقي.

وأيضًا فإن الأولياء قدموا علىٰ البرزخ واستراحوا من تعب الدنيا، وجعلوا ظهرهم لأهلها، وما بقي عليهم لوم في عدم تحملهم هموم الناس، فإذا دققنا قوانينهم لأجل شيء من أحوال الدنيا، أدخلنا عليهم غمًّا وهمًّا.

فعُلِمَ أن من عقل العاقل في هذا الزمان أن يرشد الناس إلىٰ سدِّ الأبواب التي يأتي

(١) ساقط من «ب».

إليهم منها الكرب، فيستغنون عمَّن يحمل حملتهم. وأما إذا كانت الأبواب عليهم مفتوحة بالمعاصي وسوء النيات، فالهمُّ من لازمهم. وكان من وصية سيدي الشيخ أبي النجا سالم الغنوي لأصحابه ﷺ وهو محتضر: «اعلموا أن الوجود يقابلكم بحسب ما برز منكم من الأعمال» ليتداركوا نفوسهم بالتوبة إن وقعوا، أو يمنعوا نفوسهم من الوقوع إن كان ذلك الأمر متعلِّقًا على مدافعتهم له، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رد من جاءه يطلب الطريق وأرشده إلى غيره، أو زجره وقال: أنت لا تصلح لها؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما درج عليه الأشياخ، فإنه يكسر قلبه ويبرد همته.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون رأى نفسه عاجزًا عن ملاحظة هذا الشخص في التربية، لكثرة مريديه، وعدم قدرته على الوفاء بنصحهم كلهم، فصار يرد كلَّ من جاءه ويرشده إلى غيره ممن له قدرة على ملاحظته أو كان جماعته قليلين، احتياطًا لنفسه ولذلك المريد، ولو أنه كان يجد من نفسه القدرة على تربيته وملاحظته، ما رده ولا أرشده لغيره. وقد كانت تلامذة الجنيد ثمانين ألفًا، وكان يلاحظ الكلَّ ويربيهم وراثة محمدية. وكانت تلامذة سيدي أحمد الرفاعي المقيمون عنده في الرباط خمسة عشر ألفًا، يكفيهم الطعام والإدام صباحًا ومساءً. وكانت تلامذة سيدي عمر التوريزي[1] شيخ الشيخ دمرداش ثلاثين ألفًا، فكان إذا تكلَّم عليهم يقف واحد بعد واحد يبلِّغهم كلام الشيخ. وكان سيدي أحمد بن الرفاعي لا يحتاج إلى مبلِّغ، بل يبلغ صوته الجماعة كلَّهم ويتعداهم إلى أصحابه المقيمين خارج أم عبيدة في القرى وراثة إبراهيمية[2]، فاعلم ذلك،

(١) شيخ طريق الخلوتية على الإطلاق. قُصد للأخذ عنه من جميع الآفاق، أصله من توريز العجم، وبها نشأ واشتهر ذكره وبعد صيته، ورحل إليه من مصر للأخذ عنه: الشيخ دمرداش، والشيخ شاهين، وغيرهما. توفي في القرن التاسع الهجري.

(٢) وراثة لمقام سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧] قال ابن كثير في تفسيرها: أي ناد في الناس داعيًا لهم إلى الحج إلى البيت الذي أمرناك ببنائه، فذُكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا

واعذر الأشياخ إذ ردوا من جاء يطلب الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول عن مشايخ عصره: إن أحدهم لم يبلغ إلىٰ مقام مريد. قال: لأن من شرط المريد الصادق أن يمشي علىٰ الماء والهواء، وهؤلاء لا يقدر أحدهم يفعل ذلك.

والجواب: أنه لا يقدح في كمال المشايخ عدم ظهور كرامة مما ذكر، فقد يكون أحدهم يقدر عليها، ولكن لا يفعلها، وإنما الكرامة عندهم المشي علىٰ الكتاب والسنة، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق كل من رأيته مستقيمًا علىٰ الكتاب والسنة، ولا تطالبه بغير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٢) ومما أجبتُ به عن الشخص الذي دعي إلىٰ صحبة شيخ أو عالم، فأبىٰ وقال: حال هؤلاء لا يعجبني! ولاث به أصحاب ذلك الشيخ أو ذلك العالم وقالوا: هذا فسق منك، فإنه لا يكره القرب ممن يرشده إلىٰ طريق الخير إلا من ليس فيه خيرًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب هذا القول، بل يجب حمله علىٰ أنه قصد بذلك المدح لذلك الشيخ أو لذلك العالم، أي أحوال هؤلاء الحميدة لا تعجب نفسي الخبيثة، فهو ذم لنفسه ومدح لأهل الخير، وإذا احتمل الشيء أمرين حسنًا وقبيحًا، فمن الأدب الحمل له علىٰ الوجه الحسن، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نصح شيخًا آخر وقال له: احذر أن يكون كثرة الاعتقاد فيك إنما هو جزاء أعمالك ومجاهداتك طول عمرك؛ فلاث به جماعة

ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام علىٰ مقامه، وقيل علىٰ الحجر، وقيل علىٰ الصفا، وقيل علىٰ أبي قبيس (جبل قريب من الكعبة) وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتىٰ بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلىٰ يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك. هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد وابن جبير وغير واحدٍ من السلف، والله أعلم. وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة.

الشيخ المنصوح وقالوا له: ليس هذا نصحًا منك وإنما هو حسد؛ حيث لم تحصل من إقبال الناس مثل ما حصل له.

والجواب عن كلا الشيخين: أما الناصح فلأنه أخذ لأخيه بالاحتياط، فإن الغالب أن يكون كثرة اعتقاد الناس وإقبالهم علىٰ العبد إنما هو لما رأوه من كثرة زهده وورعه وعفته عن أموال الولاة وغير ذلك، ولذلك يسعون له في الجوالي والمرتبات والرِّزَق ويقولون: يستحق سيدي الشيخ أكثر من ذلك، وما قالوا: «يستحق أكثر من ذلك» إلا لما رأوه من كثرة عبادته، فكأنهم أعطوه ذلك في نظير عبادته، فلا يجوز حمل هذا الناصح علىٰ الحسد، بل الواجب أن يُقال له: جزاك الله تعالىٰ خيرًا.

وأما الجواب عن المنصوح فقد يكون ذلك الإقبال الذي حصل له من الناس، وإعطائه الجوالي والمرتبات فضلًا من الله تعالىٰ له، لا في نظير أعماله الصالحة، فلا ينقص له بذلك رأس مال، حمايةً من الله تعالىٰ له، كما عليه بعض الأفراد من أهل الطريق، كسيدي محمد البكري وأضرابه، فإن القرائن تشهد بإخلاصهم وصدقهم مع الله تعالىٰ، وربما يكون الإقبال والعطايا لم تخطر لهم علىٰ بال قبل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُسأَل عن أحد[1] **من أقرانه، فيقول: ما بعدي في مصر إلا هو؛ فلاث به الفقراء وقالوا: هذه دعوىٰ لا تليق بالفقراء، فإنه جعل أخاه في الاعتقاد دونه.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، بل يجب حمله علىٰ الصدق، وأنه لولا رأىٰ مقامه أعلىٰ ما تلفظ بمثل ذلك، علىٰ أن في مثل ذلك بشارة لأخيه، وتحريضًا علىٰ الاجتماع به بعده.

فإن قال قائل: قد يكون ما رآه هذا الشيخ من علو مقامه إنما هو في ألواح المحو والإثبات، فكان الأولىٰ له ترك هذه الدعوىٰ خوفًا من المحو؛ **فالجواب:** وقد يكون

---

(١) بالأصلين: عمن أخذ. والصواب ما أثبتناه.

مطمح بصره اللوح المحفوظ أيضًا، فلا ينبغي الاعتراض عليه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول عن الليالي والأيام الفاضلة كليالي رمضان وأيام عشر ذي الحجة ونحوها: إن هذه الأوقات ثقيلة علىٰ قلبي، فلاث به بعض الناس وقال: هذا دليل علىٰ غلظ حجاب هذا الشيخ وسوء أدبه، وكيف يقول عن الليالي والأيام التي أخبر الشارع أن الله تعالىٰ يحبها أنها ثقيلة علىٰ قلبه؟! ولو أنه كان مؤمنًا كاملًا، لكانت هذه الأوقات أخف ما يكون علىٰ قلبه، وقد قال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلىٰ الله فيها من عشر ذي الحجة»[1].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أنها ثقيلة لغلسة ذنبه، فكأنه يشكو مرضه لإخوانه ليدعوا بجلاء قلبه من الصدأ حتىٰ يحبب عليه الطاعات. ويُحتمَل أنه يريد أنها ثقيلة من حيثُ التكاليفُ التي أمر الحقُّ تعالىٰ عباده بها في الأيام الفاضلة، لا من حيثُ كونُ الحقِّ تعالىٰ يحبُّ ذلك. ويدل علىٰ ذلك كون الشارع أرشد أمته إلىٰ كثرة الأعمال الصالحة في هذه الأيام، ليحضروا بقلوبهم فيها بين يدي ربهم، فيحجبوا عن شهود نزول البلاء النازل عليهم كالمطر، فكان في طلبه ﷺ من أمته تكثير العمل الصالح رحمةً بأمته، فإن من **خصائص كون العبد في الحضرة الإلهية أن يزول عنه كلُّ همٍّ وغمٍّ**. ومما يدل علىٰ ثقل أيام ذي الحجة أيضًا الأمر للأمة بالتضحية فيها، ليندفع عنهم البلاء النازل فيها أو ليخفف عنهم. ومن هنا ورد النهي عن ادخار لحوم الأضاحي -وإن كان ذلك قد نُسِخَ- لأن لسان حال من يدخرها يقول: دعوني يدوم عليَّ وعلىٰ أهل بيتي البلاء، ولا نعطي أحدًا منه شيئًا، وهذا وإن كان محمودًا من جهة إيثاره نفسه بتحمل البلاء، والهروب من منة من يتحمل ذلك عنه من إخوانه، فهو مذموم من جهة مخالفة أمر الشارع، فإنه رحم الأمة بتفرقة ذلك علىٰ أهل بلدهم من الأغنياء والفقراء

---

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

علىٰ وجه الصدقة أو الهدية، بحيثُ لا يكاد أحد يحس بذلك الجزء من البلاء الذي أصابه بأكل تلك القطعة اللحم مثلًا. فعُلِمَ أن الضرر لو كان يظهر في الناس ويتألمون به، ما أمر الشارع المضحي بتفرقة لحم أضحيته التي تضر بالناس، فافهم.

وعُلِمَ أن وجود العبد الثقل في نفسه من أوامر الله لا يقدح في كمال إيمانه، لأن الثقل ما أتاه إلا من خوف أنه لا يقوم بالعمل الذي كُلِّف به في هذه الأيام، من باب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] يعني من حيثُ العملُ به، لا من حيثُ إن سماع كلامنا عليك ثقيل، كما أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في أسرار الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لما حضرتُ أنا وفلان في الوليمة الفلانية صار فلان بحضرتي كالناموسة، وصرت أنا كالفيل أو كالجمل! فلاث به الناس وقالوا: إن فلانًا يزدري إخوانه ويقول عن شخص من أقرانه: إنه صار بحضرتي كالناموسة، مع أنه رفيقه في الاشتغال علىٰ مشايخه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد مدح صاحبه ووصفه بالتواضع، وأنه يرىٰ نفسه كالناموسة من كثرة تواضعه، بخلافي أنا، فإني صرتُ أرىٰ نفسي من شدة تكبري كالفيل أو كالجمل، وكان سيدي أفضل الدين ﵀ يقول مثل هذا القول كثيرًا، والأعمال والأقوال بالنيات.

(١١٤٧) ومما أجبتُ به عن الفقير المجهول الذي يحرر الزيارة لإنسان علىٰ وقت غدائه أو عشائه فقط، وفي غير هذين الوقتين لا يزوره، فلاث به أصحاب المزور وقالوا: هذه زيارة لغير الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي حمله علىٰ أنه يجيء بقصد الأكل فقط دون شيء آخر معه، فيُحتمَل أنه حرَّر نيته قبل أن يخرج من بيته بقصد حصول الأجر لذلك المزور بحكم الأصل، وجعل حظ نفسه هو بحكم التبع لا بالقصد الأول. ويُحتمَل أن يقصد بمجيئه وقت الأكل حصول الاستمداد من صاحب الطعام من طريق الظاهر بالأكل، ومن طريق

الباطن بالدعاء، ليعامل الله تعالىٰ صاحب الطعام بنظير ذلك. وربما كان ذلك الفقير كُشِفَ له عن رزقه علىٰ يد ذلك الشخص، فصار يأتي إلىٰ رزقه، لعلمه بأن أحدًا لا يقدر أن يأكل منه لقمة. فاعلم ذلك، وإياك أن تحمله علىٰ أنه أتىٰ لحظ نفسه بقطع النظر عن حصول الأجر والثواب لصاحب الطعام مثلًا، فإن ذلك سوء ظن به، وهو لا يجوز، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي حسن الخلق واحتمال الأذىٰ من جميع الأنام من غير أن يحقد علىٰ أحد، ثم إنه حصل بينه وبين واحد من أقرانه وقفة، فطال زمن الهجران بينهما، ولم يبدأ أخاه بالكلام وتطييب الخاطر، فلاث به حذَّاق الفقراء وقالوا له: هذا ينافي حسن الخلق الذي تدعيه!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون كُشِفَ له عن مدة الهجر التي سبق في علم الله انتهاء الهجر إليها، فصار يرقبها حتىٰ تنقضي ويبدأه بالكلام وتطيب الخاطر. ويُحتمَل أن يكون كُشِفَ له أيضًا عن كون أخيه هو الذي سبق في علم الله تعالىٰ أنه يبدأ بالسلام، فصار يترقب ذلك الوقت، ليقع ما سبق في الأزل، لا أنه ترك ذلك استهانةً بحقِّ أخيه وعملًا لحظ نفسه هو.

ويُحتمَل أنه من شدة محبته الخير لأخيه صار يحب له أن يكون هو البادئ بالكلام وتطييب الخاطر، وأنه لا فرق بين حصول الأجر في ذلك له وبين حصوله لأخيه علىٰ حدٍّ سواء، وهو المقام الأوسط، لأن العبد أولًا يحب نفسه، ويرجح مصالحها علىٰ مصالح أخيه، ثم يترقىٰ في مقام الإيمان، فيصير يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ثم يترقىٰ من ذلك إلىٰ ترجيح نفسه علىٰ غيره، عملًا بحديث: «ابدأ بنفسك»[1]، وبقولهم «الأقربون أولىٰ بالمعروف»، وقيل إنه حديث[2]، ولا أقرب إلىٰ الإنسان من نفسه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وليس فيما قررناه إيثار بالقرب حتىٰ يكون مكروهًا، لأن كراهة الإيثار بالقرب إنما هو في حقِّ من يتركها رغبةً عنها وتساهلًا فيها واستهانةً بها. وأما من يؤثر أخاه بها تحققًا لمحبة الخير لأخيه، فليس ذلك في حقِّه مكروهًا، لأنه طريق إلىٰ معرفة الإنسان كمال إيمانه أو نقصه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعِي إلىٰ جنازة أو وليمة، فتخلف فجاءه أصحاب الجنازة أو الوليمة، فصار يعتذر إليهم بأعذار ملفَّقة لا حقيقة لها كذبًا، فلاث به الناس وقالوا: ما أحوجك إلىٰ هذا الكذب؟! اعترف لهم بالذنب ثم استغفر الله عزَّ وجلَّ، فهو أولىٰ لك من الكذب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون في عبادة هي أولىٰ من الجنازة أو الوليمة، أو يكون اطلع من طريق كشفه أن الصلاة علىٰ تلك الجنازة أو حضور تلك الوليمة لم يُقسَم له، فصار مطمئن الخاطر ولم يضطرب لترك الحضور، واعتقد أن ذلك مما يدفع اللوم عنه، فعمل به، كما يقع في ذلك كثير ممن لم يسلك علىٰ يد شيخ، ولو أنه كان له شيخ لقال له: إن الاحتجاج بالقسمة الإلهية لا يدفع اللوم عنك، فإن للحق أن يكلِّف عباده بما لم يقسمه لهم من حيثُ الجزءُ الاختياريُّ. فاعرف يا أخي مقام من يتخلف عن الحضور، ثم اعترض عليه.

وأيضًا فإن الشيخ الذي تخلف عن الجنازة أو الوليمة مجتهد في أعماله، فيُحتمَل أنه رأىٰ الكذب في الاعتذار أهون من تركه، كأن يترتب علىٰ ذلك مفسدة هي أكبر من مفسدة ذلك الكذب، بل أقول: ينبغي لصاحب الجنازة أو الوليمة أن يرجع علىٰ نفسه باللوم، ويقول لها: أنت كنتِ السبب في وقوع الشيخ في الكذب في الاعتذار لكِ، ولو أنه علم منك حسن الخلق والظن الحسن، لما وقع في الكذب. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشرب القهوة هو وجماعته في المساجد بحضرة الناس وقت اجتماع الناس للصلاة، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: «إذا بليتم

فاستتروا»[1] وجعلوا ذلك ذنبًا كبلع الحشيش.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن القهوة حلال شربها كالماء، وإن أفتىٰ بعضهم بتحريمها فإنما ذلك لأمور عرضت لشاربيها لا لذاتها، كأن يتعاطوها علىٰ صورة شرب الخمر من عرض الكأس علىٰ بعضهم بعضًا، وإنشاد أشعار لائقة بذلك. وقد عم شرب القهوة في اليمن والحجاز ومصر والروم، ولا ينبغي الاعتراض علىٰ شاربها إلا بنص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يستوطن مكانًا في المسجد[2] لا يجلس في غيره، فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: قد نهىٰ النبي ﷺ عن إيطان مكان في المسجد كإيطان البعير[3]، والنهي وإن كان للتنزيه، فلا ينبغي المواظبة علىٰ ارتكابه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ذلك منه نسيانًا للنهي، أو يُحمَل علىٰ أن الناس يهابون الجلوس في مكان الشيخ بعد أن عرفوا مواظبته للجلوس فيه، فيصير موضعه معطَّلًا من العبادة.

وقد أمرتُ مرةً شخصًا من أصحابنا أن يجلس مكان جلوسي في الورد، فجلس وحصل له رعدة، وسأل الإقالة من ذلك، فاعتبر غيره بذلك، فصرتُ أجلس وأنوي تفرقة ما يحصل من الثواب بتقدير قبول ذلك العمل علىٰ جميع بقاع المسجد، حتىٰ لا يحصل ترجيح البقاع علىٰ بعض في الجلوس، فأخرج عن العدل بين البقاع.

علىٰ أن العالم إذا جلس لتدريس العلم لم يجلس إلا والمكان خالٍ من الناس، ومن سبق إلىٰ مباح فهو أحق به من غيره بشرطه المعروف بين العلماء، ولا لوم إلا علىٰ من يقيم أحدًا من مكانه ثم يجلس فيه، لأن المساجد لا يجوز التحجير فيها. ولذلك

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بالأصلين: المجلس. والصواب ما أثبتناه.

(٣) تقدم تخريجه.

لما علم الله تعالىٰ من بني شيبة أنهم لا يوجدون في كلِّ وقت ليفتحوا لمن يريد دخول الكعبة، ألهم الله تعالىٰ قريشًا حين بنوا البيت بواسطة قلة وجود النفقة، فتركوا في الحجر قطعة من البيت نحو سبعة أذرع، فكل من أراد دخول البيت ولم يجد صاحب المفتاح دخل القطعة التي في الحِجْر.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: لا لوم إلا علىٰ التحجير مع ضيق المسجد، وأما إذا كان المسجد واسعًا فلا حرج، بل لا يسمىٰ ذلك تحجيرًا حقيقة. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزعم أنه يحوِّط كلَّ ليلة حارته أو بلده من اللصوص بالآيات والأذكار الواردة في الشريعة، ثم أخذ اللصوص أمتعة جيرانه في تلك الليلة التي ذكر أنه حوطهم فيها، فلاث به الناس وقالوا: إما يكذب، وإما هو ناقص اليقين والإيمان، فلم ينفع تحويطه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون حوَّط مع قوة إيمانه، ولكن الله تعالىٰ غالب علىٰ أمره. ويُحتمَل أن تلك الأمتعة التي أُخِذَت تلك الليلة لم يقع بصر الشيخ عليها حتىٰ تُحفَظ، سواء بصره الظاهر أو الباطن، ومعلوم أنه لا بد في وجود الحفظ من تخيل ذلك المكان وما فيه في الذهن، بقرينة ما ورد أن الذي يحوط شيئًا بآية الكرسي أنه يحلق بأصبعه عليه.

ويُحتمَل أن الشيخ كامل الإيمان واليقين، ولكن الحق تعالىٰ أوقع اللصوص في ذلك من حضرة الإطلاق التي أخبر بأنه يغفر منها لمن يشاء، ويعذب منها من يشاء. وهذه الحضرة لا تتوقف ظهور أحكامها علىٰ قراءة شيء من آيات التحويط، بخلاف حضرة التقييد.

فإن قال قائل: لو كان هذا الشيخ كاملًا، لرأىٰ في اللوح المحفوظ أن اللصوص تأخذ تلك الأمتعة أو لا تأخذها، فكان في القسم الأول يستغني عن التحويط، لأنه حينئذٍ [لا][١]

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فائدة له؛ **فالجواب**: بل له فائدة، وهي حصول الثواب بطلبه بالتحويط عدم إدخال الغم علىٰ أخيه بسرقة متاعه. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في طريق الفقراء أو العالم الكبير إذا تعاطىٰ ولده أفعالًا مفسِّقة له، ولاث الناس به وقالوا: إن هذا الشيخ ليس له قدم في الصلاح، لأنه إذا كان يعجز عن رد الآفات عن ولده، فعن غيره أولىٰ، لأن الإنسان لا يتخذ له شيخًا إلا لكونه يحميه من الآفات في الدنيا والآخرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو شيخ الطريق لما ذكر، لأنه يرىٰ الخلق كلَّهم من نفسه وغيره بحسب جريان الأقدار، وأن الحق تعالىٰ أعلم بمصالح عباده منهم بأنفسهم. وربما كان مطمح بصر الشيخ اللوح المحفوظ، فرأىٰ أن ولده لا بد أن يفعل ما قدَّره الله تعالىٰ عليه، فسلَّم للحق تعالىٰ، ولم يسأله ردَّ تلك الأقدار عن ولده، لأن ذلك لا يصح إلا في الأمور المعلَّقة. وأما المبرمة فسؤال الحقِّ تعالىٰ أن يردها من الجهل المبين. فاعلم ذلك يا أخي، وسلِّم للأشياخ، فإنهم أعلم الناس بالأدب مع الله تعالىٰ، ولا تطعن فيهم بجريان المقدَّرات الإلهية علىٰ أنفسهم، فضلًا عن أولادهم إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي مرض أحد من أصحابه وطال مرضه فلم يعده، ولاث الناس به وقالوا: حاشا أن يكون مثل هذا من الأولياء وهو في هذا الجفاء العظيم لأخيه المسلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ذلك المريض في مقام الامتحان، فخاف أن يدخل عليه، فيخفف عنه المرض باستناد ذلك المريض إليه، فتفوته الرياضة. وقد يكون الشيخ اطلع علىٰ أن ذلك المرض رفع درجات أو كفارات أو عقوبات ولم تنته مدتها، فرأىٰ أن عيادته لا تخفف عن المريض المرض، أو أنها تخففه فيفوته رفع

الدرجات والكفارات والتأديب، فاجتهد في الحضور وعدمه، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن عدم الحضور أنفع لذلك المريض في دينه، فتخلف ولم يحضر.

فإن قال قائل: إن الشارع قد أمر بعيادة المريض مطلقًا من غير شرط؛ **فالجواب:** سلَّمنا ذلك، لكن الشرط ما أخذه العلماء والعارفون بالله إلا من ظواهر شريعته، كما قالوا: لا ينبغي عيادة المبتدع ولا الظالم ولا سؤال التخفيف عنه. وذلك ليتأدب ويكف عن الظلم. وأيضًا فإن مقام الأعمال الخارجة عن العلة ليس هو لكل الفقراء، وإنما هو للكُمَّل منهم خاصة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي شرط الواقف(١) له الإدخال والإخراج في كتاب وقفه، فسأله إنسان أن يرتب له شيئًا في ذلك الوقف فأبىٰ، وسأله ولده أو ابن عمه مثلًا أن يرتب له في ذلك الوقف فرتب له، فلاث الناس به وقالوا هذا أمر بالغرض! ولو أنه رتب لفلان شيئًا لكان أفضل من ترتيبه لولده أو ابن عمه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما فعل ذلك بالاجتهاد، فرأىٰ أن ترتيب ذلك المرتب لولده أو قريبه أفضل وأكثر أجرًا للواقف، لاسيما وقد أمنه الواقف علىٰ وقفه ليفعل فيه الخير، وينفعه بعد موته، وجعل له ما لنفسه من الإدخال والإخراج لما علم من تصريفه الحسن. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، ولا تعترضوا علىٰ الأشياخ إلا بنص صريح لا يحتمل التأويل، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي الإسراع إلىٰ النزول لسجود التلاوة أكثر من الإسراع لسجود الصلاة؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال: هذا شيء ما رأينا أحدًا من العلماء صرَّح به، ولعله من بدع الصوفية. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ظاهر القرآن يشهد له، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَخِرُّونَ

---

(١) بالأصلين: الناظر.

لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فإن الخرور في اللغة: انيساب الأعضاء جملة واحدة من غير بطء، ولا تقدم عضو على آخر، مبادرةً لحضرة السجود التي هي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وفي قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ سر لطيف ومدح للساجدين بكونهم عبدوا الله تعالىٰ محبةً في امتثال أمره لا خوفًا من سطوته، فإن الاسم «الرحمن» لا يعطي ظاهره إلا الرحمة واللطف وعدم المؤاخذة. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي حسن الخلق وكثرة احتماله الأذىٰ من الناس، ثم إنه وقع بينه وبين أحد من أقرانه وقفة، فهجره زمانًا طويلًا لا يصالحه ولا يبدؤه بالسلام، فلاث به الناس وقالوا: أين دعواك حسن الخلق وكثرة احتمال الأذىٰ وأنت تهجر أخاك هذه المدة الطويلة بسماعك عنه كلمة مثلًا في حقك؟! هذه والله دعوىٰ لا دليل عليها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون باطنه يحبه، وإنما لم يبدأه بالسلام، ليكون لأخيه الحظ الأوفر علىٰ مذهب من يرىٰ ذلك، أو لكونه يشهد وقوع الخير علىٰ يديه ويد أخيه علىٰ حدٍّ سواء، عملًا بحديث: «لا يكمل إيمان أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]. ولا ينبغي حمل الشيخ علىٰ أنه هجره لحظ نفس، فإنه سوء ظن به، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ليس علىٰ وجه الأرض الآن جماعة أحسن حالًا من جماعتي، ولا مجلس أحسن من مجلسي، ولا طريقة أحسن من طريقتي أو مثلها؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة لا تليق بأحد من الفقراء أن يتلفظ بها!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أن ذلك أحسن من حيثُ

(١) تقدم تخريجه.

الحكمةُ الإلهيةُ، أو من حيثُ النظرُ لكلِّ ذات، فإن الله تعالىٰ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠].

وأما قوله: «إنه ليس علىٰ وجه الأرض مثل جماعتي أو مثل مجلسي أو مثل طريقتي» فواضح أيضًا، لأن المثلية من كلِّ وجه ممتنعة الوجود، فلا بد من زيادة أو نقص في ذلك الكلام الذي يقع في مجلسه أو في الذوات وصفاتها. وقد قال العارفون: المثلية في هذا الوجود منقولة غير معقولة.

وقد يكون الشيخ قال ذلك من باب التحدث بالنعمة، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: لا يكمل شكر عبد حتىٰ يشهد نعمته فوق نعمة الملوك. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: يرىٰ الملوك من جملة ما سخَّره الله له، فإن بالملوك حفظ الله عليه ماله وحريمه ودينه. وكان ﷺ يقول: قيل لي، يا عليُّ ليس علىٰ وجه الأرض مجلس في علوم الحقائق أبهىٰ من [مجلسك، ولا مجلس في علم الحديث أبهىٰ من مجلس][1] الشيخ عبد العظيم المنذري[2]. انتهىٰ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا نفوسكم من الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في صحبة أمير، ثم إن ذلك الأمير صحب بعض المجاذيب واعتقده، وترك الاعتقاد والتردد لذلك الشيخ، فلاث به الناس وقالوا: قد غلب حال هذا المجذوب علىٰ الشيخ وأخذ منه الأمير.

والجواب: أنه لا ينبغي اعتقاد أن ذلك المجذوب أعلىٰ مقامًا من الشيخ، بل **كل مئة مجذوب لا يساوون مقام الشيخ الداعي إلىٰ الله تعالىٰ بحكم النيابة عن رسول الله ﷺ،**

---

(١) ساقط من الأصلين، مستكمل من «لطائف المنن» لابن عطاء الله السكندري.

(٢) عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري، أبو محمد، الإمام الحافظ المؤرّخ الكبير. ولد في شهر رمضان سنة ٥٨١هـ. في مصر. وقال: ابن قاضي شهبة: برع في العربية، والفقه، وسمع الحديث بمكة، ودمشق، وحرّان، والرّها، والإسكندرية، قال ابن ناصر الدّين: كان حافظًا كبيرًا، حجةً، ثقةً، عمدةً. له مصنفات منها: «التكملة لوفيات النقلة» و«الترغيب والترهيب» و«مختصر صحيح مسلم» توفي: ٦٥٦هـ. انظر: «شذرات الذهب» (١/ ٥٣) و«هدية العارفين» (١/ ٥٨٦).

بل سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: وعزة ربي، إن الفلاحين والمحترفين من المسلمين أعلىٰ مقامًا من هؤلاء المجاذيب السكارىٰ، لكثرة نفعهم وقيامهم بشعائر الدين وفروض الكفايات.

وبلغنا أن مجذوبًا كان طائرًا في الهواء، ثم نزل في زاوية سيدي الشيخ مدين، فجلس يكاشف الناس، فقال له سيدي مدين: كلُّ مئة عصفور لا يجوا حداية كالخروف. انتهىٰ.

ثم لا يخفىٰ أن الأشياخ تكره الركون إلىٰ الولاة المعتقدين فيهم الذين يقبلون شفاعاتهم، فكيف لا يكرهون من لا يعتقدهم ولا يميل إليهم؟! فيُحتمَل أن هذا الشيخ ترك الأمير اختيارًا لما رأىٰ اعتقاده تحول إلىٰ ذلك المجذوب، وعلم أن المجذوب لا تكليف عليه، ولا يُطالَب بأمر الأمير بمعروف ولا ينهيه عن منكر، فكأن ذلك المجذوب حجة للشيخ في ترك صحبة ذلك الأمير، لا أن المجذوب أقوىٰ حالًا ومقامًا من الشيخ، فاعلموا ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي العفة والزهد، ثم إنه بعد ذلك يرسل من مصر إلىٰ مدينة إسكندرية دينارًا واحدًا لبعض من عُرِفَ بالكرم هناك ليشتري له جوخة، فلاث به الناس وقالوا: هذا شحاذ لَبِق، لأن الدينار لا يكفي في ثمن الجوخة، ولكن قصده أن يأخذ منه جوخة بسيف الحياء، من غير أن يطالبه ببقية الثمن، وذلك ينافي دعواه العفة والزهد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون صاحبه الذي أرسل إليه الدينار بينه وبينه اتفاق قبل ذلك، كأن أوعده بأن يرسل له جوخة هدية من عنده وحلف علىٰ ذلك، فحلف الشيخ الآخر أنه لا يقبلها إلا إن وزن شيئًا من ثمنها، فأرسل له الدينار لأجل الحلف ولأجل هذا الاتفاق.

ويُحتمَل أن تكون الجوخة لشخص من العلماء والصالحين الزاهدين في الدنيا، وأنه رآه بردان، فقصد أن يشتري له جوخة تدفئه بعض ثمنها منه، وبعضه من ذلك الكريم

الذي في إسكندرية، لعلم الشيخ بطيبة نفس ذلك الكريم وحلِّ كسبه.

ويُحتمَل أن الشيخ قصد بمثل ذلك ستر نفسه بين الناس بإظهار الشره والطمع بإرسال الدنيار ويأخذ به جوخة حين اشتُهر بالعفة، ورفعه الناس بذلك على أقرانه، كما يفعله الفقير المتمكن من حاله. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل إخوانك على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦١) ومما أجبتُ به عن خطيب جامع الأزهر الذي حط على العلماء الذين يقبلون مال الولاة، ويجيبون عنهم الأجوبة الحسنة، ويصفونهم بالعدل وعدم الظلم، حتى أخرج العلماء عن دائرة أوصاف أهل الدين، ثم إنه أصبح يوم السبت، فدخل لبعض مشايخ العرب يشحذ منهم، ويطلب عادته من قمح وعسل وأرز ونقد، ووصف ذلك الشيخ عرب بالصفات التي ترجح على العلماء، فلاث به الناس وقالوا: أين خطبتك البارحة على المنبر وتوبيخك للعلماء الذين قبلوا مال الولاة؟! ولاشك أن مال الباشاه أحلُّ من مال مشايخ العرب الذين يلصون الناس ويأخذون أموالهم بالتهم، ويمسكون الجار عن جاره، والقريب عن قريبه، ويأخذون منه المال الذي على جاره أو قريبه أو غيرهما بغير طريق شرعي، كما يعرف ذلك من خالط الولاة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الخطيب حتى يُستفهَم عن سبب طلبه من شيخ العرب ما ذكر، فربما قصد بذلك زوال العجب بحاله لما مدحه الناس على حطِّه على العلماء، ونزهوه عن محبة الدنيا، فقصد بسؤاله لشيخ العرب أن يدخل في غُمار الناس، فلا يجوز لأحد الاعتراض على الخطيب قبل الاستفهام المذكور، وهل هو لنفسه، أو لغيره من أهل الضرورات، أو لأصحاب الحقوق الذين ظلمهم ذلك الشيخ العرب، وسألوا الخطيب أن يرد لهم ما أخذه ذلك الظالم وعرف أنه لو قال للظالم: رد إليهم حقهم، لا يجيبه، فطلب ذلك العسل أو الأرز أو القمح منه لنفسه حتى يسمح به، ثم بعد ذلك يوصله إلى أصحاب تلك الحقوق.

وكان هذا من شأن الشيخ كمال الدين المجذوب[١] في زمن يوسف[٢] ناظر الخواص، فكان يوسف هذا يعتقده ولا يخالفه في شيء يطلبه منه. وكان إذا جاءه مظلوم وقال له: إن يوسف أخذ مني ألف دينار مثلًا ظلمًا، يرسل الشيخ إليه أن يرسل له مع حامل الرسالة ألف دينار ولا يعوِّق عليه، فكان يوسف يرسلها للشيخ، فيعطيها الشيخ للمظلوم. وإن كان ليوسف علىٰ أحد من المفاليس دينار وعجز عنه وطلبه منه يوسف، يرسل الشيخ يقول: أرسل لي كذا وكذا بقدْر ذلك الدين، فإني محتاج إليه في هذا الوقت؛ فيرسله له، فيعطيه للمديون ويقول له: أعطه ليوسف في دينه، ثم يقول للحاضرين: «من خراهم[٣] في لحاهم يشعرون أو لا يشعرون» هذه عبارته. وكان يكتب له: «الذي يعلم به يوسف ابن اليهودية أن الحاجة داعية إلىٰ كذا وكذا» لا يستحيي منه، وكانت أمه يهودية حتىٰ ماتت، فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الخطباء علىٰ أحسن المحامل، لتنتفع بوعظهم، ويكونوا قدوة لك، وإياك وحملهم علىٰ المحامل السيئة، فتعدم النفع وتقع في الإثم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الزهد في الدنيا وعدم الالتفات بقلبه إليها وإلىٰ ما فاته منها، ثم إنه يقع منه نصف وهو مسافر إلىٰ بلاد الريف مثلًا ثم يتذكره، فيرجع إلىٰ ذلك بعد الميل[٤] والميلين وأكثر، فلاث به الفقراء وقالوا: تفتيشك علىٰ هذا النصف ورجوعك من نحو ميلين لأجله ينافي دعواك الزهد وعدم الالتفات إلىٰ الدنيا.

---

(١) كمال الدين المجذوب محمد بن صدقة بن عمر الدمياطي الشيخ، صاحب الكرامات والأحوال، وأحد الأولياء المشهورين، حفظ القرآن والتنبيه وألفية ابن مالك، وكان علىٰ طريقة حسنة كما سمعته من شيخنا ثم انجذب، مات في شوال ٨٥٤هـ. «الضوء اللامع» (٧/ ٢٧٠)، «نظم العقيان» ص١٥٠.

(٢) جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد البيري الحلبي نزيل القاهرة ولد سنة ٧٥٢ هـ كان أولاً بزي الفقهاء، وحفظ القرآن وكتبًا في الفقه والعربية، ثم قدم مصر بعد سنة سبعين وهو بزي الجند، ولا زال يترقىٰ، حتىٰ نفذ حكمه في الإقليمين مصر والشام، قتل سنة ٨١٢ هـ. «إنباء الغمر» (٢/ ٤٤٥)، «النجوم الزاهرة» (١٣/ ١٧٥).

(٣) الخرا: كلمة عامية تعني الغائط.

(٤) الميل: مِقياسٌ للطُّول ١٦٠٩ أمتار تقريبًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ذلك النصف كان معه وديعة، فخاف من صاحبه أن يقول: ما آخذ إلا عين نصفي إما في الدنيا، وإما في الآخرة؛ فبالغ في التفتيش عليه لأجل ذلك. ويُحتمَل أن النصف كان له هو، ولكنه كان من وجه حلال لا يجد في ذلك الزمان مثله في الحل، وقد كان السلف الصالح يسافر أحدهم الشهر لأجل أكلة واحدة من حلال، فاحمل يا أخي إخوانك على المحامل الحسنة جَهدَك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا سمعناه يحلف بالطلاق الثلاث دفعة واحدة، ولاث به المتشرعون وقالوا: قد نهى العلماء عن مثل ذلك لحصول الغرض بطلقة واحدة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الحالف، لاحتمال أن يكون ما جمع الطلقات الثلاث إلا احتياطًا لنفسه حين شك في وقوع الطلاق، واختلف المفتون في الوقوع وعدمه، فأراد بجمع الثلاث الأخذ بالاحتياط، وأن يستبريء لدينه وعرضه، كما أنه لا ينبغي اللوث على من شك في الحدث ثم أخرج ريحًا مثلًا ليتحقق الحدث، ويجدد طهارة صحيحة جازمة بالنية فيها.

فإن قال قائل: قد يكون في علم الله تعالى أن زوجته تستحل وترجع إليه ثانيًا، وقد لعن الله المحلل والمحلل له. **فالجواب**: أن هذا الشيخ قد يكون غافلًا عما يترتب على طلاقه الثلاث جملة واحدة، أو مستحضرًا ذلك وهو مفوِّض إلى الله تعالى أمره، ثم يستغفر الله ويتوب إليه مع ذلك، فلا ينبغي اللوث به، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٤) ومما أجبتُ به عن العلماء الذين يخطِّئون أقرانهم بمجرد إشاعة الناس عنهم غلطًا في الشريعة، أو عقيدة فاسدة، أو أكل طعام حرام مثلًا، ولاث الناس بهم وقالوا: هذا من قلة ورع هؤلاء العلماء، ولو كانوا متورِّعين ما وقعوا في الحطِّ على أحد بمجرد الإشاعة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهم، لاحتمال أن يريدوا بذلك زجره عن تعاطي

الرذائل [التي تزري][1] به، حتىٰ تصير النقائص لا تُقبَل في حقِّه، ولو أنه كان حفظ ظاهره كلَّه لما كان الناس قبلوا ذلك عنه، بل كانوا يردون عنه أشدَّ الرد. ويُحتمَل أن العلماء قبلوا ذلك من باب ثبوت الوقف بالإشاعة، لشدة غيرتهم علىٰ الشريعة وعلمائها. وقد يكون حطهم علىٰ هذا الشيخ من باب الاجتهاد، فأدَّىٰ اجتهادهم إلىٰ أن إنكارهم علىٰ هذا الشيخ أفضل من جوابهم عنه أو سكوتهم مع وجود تلك الإشاعة.

وقد قدمنا في هذا الكتاب أن للأشياخ مؤاخذة بعضهم بعضًا بقبول التهم في حقِّهم، وعدم التحفظ من سد الأبواب التي تخدش مقام الأشياخ، كما إذا رأينا شيخًا في الطريق يتردد إلىٰ بيوت الظلمة من غير ضرورة شرعية، وأن ذلك أرجح من جوابهم عنه، علىٰ قاعدة أن الدفع مقدَّم علىٰ الرفع، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول ولو بالحال: لا أحد يجتمع بغيري في مصر مثلًا؛ فلاث به الناس وقالوا: فلان لا يحبُّ أن يكون لأحد من أقرانه اسم ولا مقام في قلب أحد من الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ممن حبسه الله تعالىٰ في دائرة نفسه، ولم يرَ في بلده أحدًا أعلم منه بالشريعة ولا بالحقيقة، فأراد أن يجمع الناس علىٰ نفسه، ليقرِّب لهم الطريق، بقطع النظر عن ترجيح كونه شيخًا لهم، حتىٰ إنه لو برز في عصره من رآه أعرف منه بالشريعة والحقيقة، لدلَّ الناس عليه وجمع هو خاطره. فاحمل يا أخي إخوانك علىٰ المحامل الحسنة، وتصدَّر للمشيخة بسياسة وعدم ازدراء لأحد من إخوانك، واعمل علىٰ تحصيل مقام جمع الناس عليك بالحال دون القال، تسترح من عثرات اللسان، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حكىٰ عن نفسه أنه يقع له في الصلاة أنه يدعو المخبطين أو غيرهم من أهل السخرية إلىٰ بعض أماكن التنزهات مثلًا، ويصير ذهنه فيما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

يقوله المخبظون، ويمثل نفسه جالسًا عندهم، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا خروج عن آداب الأشياخ في الصلاة، إنما المنقول عنهم أن أحدهم كان إذا دخل في الصلاة لا يخطر في باله غير الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ممن تمكن في مقام شهود الحقِّ تعالىٰ مع كلِّ شيء بالوجود والخلق للأفعال، فإذا قُدِّر أنه رأىٰ غير الله، فهو يرىٰ الله معه، لابد من ذلك، وإذا رأىٰ الله معه سقط الكون وبقي الحق تعالىٰ وحده، لقول الجنيد ﵁: من شهد الخلق لم ير الحق، ومن شهد الحق لم ير الخلق. انتهىٰ. وفوق ذلك في التمكين ما هو أرقىٰ من ذلك، وهو شهود الخلق والحقِّ تعالىٰ معًا في آن واحد من غير أن يشغله شهود الخلق عن الحق. وقد بلغنا عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه كان يقول: إني لأدخل في الصلاة، فأرتب الجيش الذي أخرجه للجهاد فيها[1]. انتهىٰ. وحمله بعض العارفين علىٰ أن ذلك من جملة كماله ﵁، وأنه حكىٰ ذلك من باب التحدث بالنعم. وكذلك القول فيمن يخطر بباله شيء من الأكوان لا يقدح في كماله ولا في مقام توحيده الفعل لله تعالىٰ، فاعلم ذلك، واسلك طريق العارفين قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي تساوي الأمكنة كلِّها عنده من حيثُ حضورُه مع الله تعالىٰ، ثم تراه يرجِّح المساجد علىٰ غيرها، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا يكذِّب دعواه أنه بين يدي الله في سائر الأماكن علىٰ حدٍّ سواء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ترجيحه المسجد لا ينافي تساوي الأمكنة عنده بين يدي الله عزَّ وجلَّ، كما إذا كان أحدنا في حضرة مالك لمكان وأشار علينا بالجلوس في مكان مخصوص، لا يجوز لنا الجلوس في غيره، وإن كانت الأماكن

---

(١)) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٠٣٤) قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، قال: صلىٰ عمر المغرب فلم يقرأ فيها، فلما انصرف قالوا له: يا أمير المؤمنين، إنك لم تقرأ، فقال: إني حدثت نفسي وأنا في الصلاة بعير وجهتها من المدينة، فلم أزل أجهزها حتىٰ دخلت الشام، قال: ثم أعاد الصلاة والقراءة.

كلها حضرته تعالىٰ، فتأمل، فلو أن صاحب الشهود أراد الاعتكاف في غير المسجد، لم يصح اعتكافه[1]، لأنه بغير إذن الشارع، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالغسل كلما دخلوا الخلاء يوم شرب الدواء المسهل، ولو دخلوا في اليوم الواحد سبعين مرة ويقول: إن ذلك من السنة؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: بأي دليل يكون ذلك من السنة؟! ولم نر في مثل ذلك حديثًا واحدًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أنه من سنة السلف الصالح الذين كانوا يشددون علىٰ أنفسهم، كإبراهيم بن أدهم والسَّرِّي السَّقَطِي والشِّبْلي وأضرابهم. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ أخذ هذا الغسل من عموم الأمر بالطهارة في عموم الأوقات، أدبًا مع الله تعالىٰ، من حيثُ إن العبد بين يدي الله عزَّ وجلَّ ليلًا ونهارًا شعر أو لم يشعر. ويُحتمَل أن هذا الشيخ قاس هذا الغسل علىٰ ما ورد في الغسل من الحجامة، ومن دخول الحمام وحلق العانة ونتف الإبط، بجامع أن كلًّا من هذه الأمور يضعف البدن، والماء ينعش الجسد من ذلك الضعف، بل ربما يكون الإسهال أقوىٰ من الحجامة في إضعافه البدن. فاعلم ذلك، وواظب علىٰ الغسل من الإسهال ولو مرة واحدة، فإن لم تستطع فعليك بالوضوء، **ولا تعود نفسك الكسل وارتكاب الرخص، فإن الرخص إنما هي للعوام لا لأهل الله عزَّ وجلَّ.**

فإن قال قائل: لو كان الغسل من الإسهال مأمورًا [به]، لبلغنا ذلك عن النبي ﷺ ولو في حديث؛ **والجواب**: أن رسول الله ﷺ كان يحب التخفيف عن أمته جهده، ويكل الفعل بالعزائم والتشديدات إلىٰ من يجد في نفسه قوة علىٰ ذلك. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إذ من شرط الاعتكاف أن يكون في مسجد.

(١١٦٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دخل علىٰ أمير يسلم عليه عند قدومه إلىٰ بلده من سفر مثلًا، فأعطاه الأمير شيئًا من الدنيا، فقبله منه بحضرة الناس، فلاثوا به وقالوا: كان الأولىٰ له أن يرد ذلك صيانة للخِرقة عن اللوث بها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون أخذ ذلك من الأمير قيامًا بناموس[1] الأمير، ثم بعد ذلك يرد ذلك علىٰ الأمير سرًّا. وقد فعل مثل ذلك الشيخ ناصر الدين الطبلاوي لما دخل علىٰ قاضي العسكر حين قدم من الحج، وأعطاه شاشين وخمسة دنانير، فقبلها منه، ولاث الناس به في ذلك. انتهىٰ. وذلك أحسن من الرد بحضرة الناس علىٰ ذلك الكبير، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الكلام في عِرْضِ العلماء والصالحين من غير تثبت، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم إذا تكدر من طالبه حين ترك حضور درسه، وصار يحضر درس أحد من علماء شيخه، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا دليل علىٰ حب هذا العالم للرئاسة، وأنه يكره أن يكون في البلد عالم غيره، وما هكذا درج السلف الصالح، بل كانوا يحبون أن تكون أمة محمد ﷺ كلها علماء صلحاء.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل تكدره من طالبه إذا قرأ علىٰ غيره، لاحتمال أن يكون تكدره لغرض شرعي، كما إذا علم من نفسه أنه أعلم من ذلك العالم الذي انتقل تلميذه إليه، وأحسن صبرًا علىٰ تفهيمه للمشكلات، فكان تكديره لله تعالىٰ لا لحظ نفس. وقد جعل بعضهم ذلك من باب حديث: «لا يبع أحدكم علىٰ بيع أخيه، ولا يخطب علىٰ خطبته»[2].

فإن قيل: يجب علىٰ العالم أن يعالج نفسه بالرياضة حتىٰ يصير لا يتكدر ممن يقرأ عليه إذا قرأ علىٰ غيره؛ **قلنا:** ليس كل عالم يتيسر له ذلك، بل يُقال: ولو شرع في علاج نفسه،

---

(١) بالأصلين: لناموس.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٢).

حرم علىٰ غيره أن يفسد تلميذه عليه ما دام يتضرر بذلك، لحديث: «لا ضرر ولا ضرار»[1]، فالأولىٰ لمن أتاه طالب يريد القراءة عليه مكايدةً لشيخه حين طرده أن يقول له: اقرأ علىٰ غيري، فإن حفظ قلب شيخك عليَّ مقدم علىٰ قراءتك عليَّ وطيب خاطرك عليَّ.

وإن كان ذلك من باب إحياء الموات، فإن إحياء القلوب بالعلم كإحياء الأرض الميتة، وقد قال ﷺ: «من سبق إلىٰ مباح فهو له»[2]، فعُلِمَ أن كل من قال: «لا لوم علىٰ من يأخذ تلميذ غيره» فهو محمول علىٰ من لم يتأذَّ بذلك، كما هو حال المتمكنين في الطريق، وكل من قال: عليه اللوم بذلك فهو محمول علىٰ من يتأذىٰ بذلك من القاصرين، فالمدار في اللوم وعدمه علىٰ حصول الضرر وعدمه، ومع ذلك فالأولىٰ للعالم أن لا يقبل مريدًا ترك شيخه وأتىٰ إليه، ويقول له المثل السائر: «من لا له خير في قديمه ما له خير في حديثه»، لاسيما إن حصل بذلك غيبة وتنقيص للعالم الحديث وتحريك عداوة، فإنه يتعين طرده عنه جملة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه بلغ الغاية في مقام توحيد الأفعال لله تعالىٰ، ثم إنه نام يومًا عن التهجد مثلًا، فأصبح حزينًا علىٰ ذلك، فلاث به المريدون وقالوا له: أين دعواك التوحيد؟! فإن من شهد الفعل لله تعالىٰ دون نفسه لا يتأثر لفوات عمل من الأعمال، لاعتماده علىٰ عفو الله تعالىٰ لا علىٰ العمل، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] **يعني وهو عنه راضٍ** ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] **يعني ولا نفسه.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن تكديره من عدم قيام الليل لا ينافي توحيده؛ لأن شركة العبد نفسه في الفعل مع الله تعالىٰ لا يقدح في توحيده، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وغير ذلك من الآيات يفعلون يعملون يكسبون، فكان ندم هذا الشيخ كمالًا في مقامه، لمراعاته نسبة الأفعال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٣٠٧١)، والبيهقي في «السنن» (١١٧٧٩) والطبراني في «الكبير» (٨١٤).

إليه في الخير والشر كما أضافها الحق تعالىٰ إليه، ومن خرج عن ذلك فهو إما جبري وإما معتزلي، وكلاهما خروج عن الطريق المستقيم، فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل كتابًا من مكة مثلًا يسلِّم فيه علىٰ أصحابه من العلماء والصالحين، فبدأ بالأسافل قبل الأعالي، ثم قال: وبالجملة، فالسلام علىٰ جميع معارفنا حتىٰ العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني؛ فلاث أصحاب هؤلاء العلماء والصلحاء به وقالوا: هذا فيه ازدراء للعلماء والصالحين، وكان الأولىٰ تقديمهم علىٰ الظلمة والمباشرين الذين لا يصلحون أن يكونوا خدَّامًا لمن يُذكَر معهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنا نقول لهؤلاء: إن النطق بالسلام عليهم دفعة واحدة غير ممكن. ولو سلَّمنا أن ذلك ممكن، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ الشيخ في تقديمه الأراذل علىٰ العلماء والصالحين، لاحتمال أن يكون له مقصد صحيح في ذلك، كأن يريد استمالة خاطر الظلمة والمكَّاسين إليه، ليمهد له بساطًا عندهم إذا رجع إلىٰ مصر مثلًا، فيقبلوا شفاعته في المظلومين، ويصونهم عن الوقوع في عرضه، بخلاف العلماء والصالحين، فإنه منهم في أمان من مثل ذلك، لما هم عليه من حسن الخلق والتواضع.

ويُحتمَل أن رأىٰ عند من أخرهم كبرًا وتعاظمًا علىٰ الناس، فأخرهم عنهم مشيًا علىٰ القواعد الإلهية في حديث: «من تواضع لله رفعه الله»، فإذا تنبهوا لأنفسهم وتواضعوا أكثر من إخوانهم، قدَّمهم عليهم، لاسيما إن كان الذي [أرسل][1] الكتاب شيخًا للمذكورين فيه وهم تلامذة له، فإنه لا حرج علىٰ الشيخ في ذلك.

ويُحتمَل أيضًا أنه سلَّم عليهم ورتبهم علىٰ حسب أعمارهم، لأن السلام أمان، فأعطىٰ الأمان من الموت لكلٍّ واحد إلىٰ وقت انقضاء أجله. وكان ذلك من شأن سيدي إبراهيم المتبولي كما حكاه لي عنه شيخ الإسلام زكريا.

---

(١) تقدم تخريجه.

ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ سلَّم عليهم علىٰ حسب مراتبهم عند الله في التقديم والتأخير، كما كان عليه سيدي ياقوت العرشي وسيدي عليٌّ الخواص ﷺ، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الشيخ بوجه من الوجوه إن شاء الله تعالىٰ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحذروا من المبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرسل هدية لأمير أو فقير ويقول لحامل الهدية: قل له:

وللكلب في زاد الكرام نصيب[1]

فلاث به أصحاب ذلك الأمير أو أصحاب ذلك الفقير وقالوا: كيف يجعل المسلم كلبًا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أن الكرام الذين أنا متشبِّه بهم لا ينسون كلبهم، فكيف ينسون أخاهم الذي هو الأمير أو الفقير. ويُحتمَل أن يريد أن ذلك الأمير أو الفقير قد تكلَّب علىٰ شيء من شهوات الدنيا ولو في وقت من الأوقات كما هو الغالب، لأن الشيخ لا يتكلم بالكذب، وليس مراده بالكلب أن ذلك الأمير أو الفقير كلب كالكلاب المشهورة، والجامع بينهما التكلب. وفي كلام الشافعي ﷺ في ذم الدنيا:

وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلابٌ هَمُّهن اجتِذابها
فإن تجنبتها عشت سلمًا لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها[2]

وفي كلام الجنيد ﷺ: الدنيا جيفة، وكلابها محبوها، فمن طلب الجيفة فليصبر علىٰ مجالسة الكلاب. فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طلب منه بعض أقرانه [أن يدخله][3] علىٰ الأمير أو قاضي العسكر الذي تقدمت له به صحبة، وقال: اشكرني عنده وبالغ في ذلك،

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الأبيات للإمام الشافعي.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

فإن الكذب يجوز في بعض المواضع. فلما دخل ذلك الشيخ علىٰ الأمير قصَّر في وصفه كما أمره فيما يصفه، فلم يذكر إلا بعض أوصافه، فلاث به جماعة أخيه وقالوا له: لو لم تدخل أنت به لكان خيرًا له، والناس الذين يعرفون مقام الشيخ كثير.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في عدم الإطناب في مدحه كما طلبه أخوه، لأنه ربما خاف أن يبالغ[1] في وصفه بما ليس فيه، فيقيض الله تعالىٰ جماعة يذكرون لذلك الأمير ضد تلك الصفات التي وصفه بها كذبًا عقوبةً له ولواصفه علىٰ كذبهما، بخلاف من اقتصر في وصفه علىٰ الصدق، فإن الله تعالىٰ يقيض له من يؤيده ويذكره بالصفات الحسنة مجازاةً له علىٰ الصدق.

وسمعتُ سيدي الشيخ زكريا رحمه الله يقول: ينبغي لمن يكون واسطة عند الأكابر في التعريف بمقام عالم أو فقير أن يكون متحدًا بمن يعرِّف ذلك الكبير به، فإن رآه لا يعظم فقيرًا إلا إن كان غيره من الأمراء معظِمًا له مترددًا إليه [قال: إن الباشاه مثلًا طلب الإذن لسيدي الشيخ في الزيارة، فلم يأذن له][2] وقال: نحن أحق بالزيارة أو سكت علىٰ الإذن فقط؛ وإن رآه لا يعظم إلا من حق له قدم في علم الشريعة والحقيقة. قال له: إن سيدي الشيخ رجل جامع بين علم الشريعة والحقيقة وله مؤلفات مفردة في ذلك لم يشاركه فيها أحد من أقرانه؛ وإن رآه لا يعظم إلا من انقطع عن التردد لأبناء الدنيا، قال له: إن سيدي الشيخ قد طلب أن يزوركم وهذا أمر ما وقع له مع غيركم، فإن قاعدته أنه لا يبدأ أحدًا من أبناء الدنيا بزيارة، وإنما يزوره مكافأة إذا تردد ذلك الكبير إليه مرارًا، أو رآه قد عزم علىٰ زيارته جازمًا بها، وقال: أنا أخرم قاعدتي في الزيارة لهذا الرجل لما بلغني عنه من الدين والخير وصفاء السريرة؛ وإن رآه [يعظِّم من][3] لا يأخذ معلومًا علىٰ وقف يكون

---

(١) بالأصلين: يطالب. والصواب ما أثبتناه.

(٢) سقط بالأصل.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

تحت نظره، ولا يقبل جوالي ولا مسموحًا، ويرد كل ما يأتيه من الولاة ورأىٰ الأمير يعظمه بذلك، ويصفه به وهكذا.

[تحذير النقيب من طلب اجتماع الشيخ بالأمير أو القاضي لغرض فاسد لبعض الناس]

وليحذر النقيب أن يكون الباعث له علىٰ طلب اجتماع الشيخ بالأمير أو القاضي غرضًا فاسدًا لبعض الناس، كأن يريد تعظيم الشيخ عند ذلك الأمير ليصير يشفع له في حاجته التي تعسر قضاؤها عنده، فإن ذلك لا ينبغي. وكذلك ليحذر من أن ينهي للشيخ كلامًا عن الأمير فيه تعظيم للشيخ، ليلين الشيخ للذهاب إلىٰ الأمير من غير تحقيق، فيذهب الشيخ إلىٰ الأمير فيجد الأمر بخلاف ذلك، فيَكلَح[1] الشيخ ويخجل، كما وقع لبعض الأقران أنه جعل له واسطة في اجتماعه علىٰ أمير، وكان الواسطة ساذجًا يعتقد أن استئذان خازندار الأمير إذن من الأمير، بناءً علىٰ إعلام الخازندار بذلك الأمير، والحال أن الخازندار ينسىٰ أن يبلغ الأمير الاستئذان، فخرج الشيخ معه يومًا إلىٰ أن دخل معه، فلم يجد عنده خبرًا من ذلك، فليحقق الشيخ الإذن ثم يدخل.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يكون نقيب الشيخ لا يعرف شيئًا من مقاماته مع خلطته به طول عمره، لعدم صلاحية النقيب للاطلاع علىٰ الأسرار، فلا يزال الشيخ مُطَلْسَمًا عليه حتىٰ يموت، ومثل هذا لا يصلح أن يكون واسطة في التعرف بين الشيخ وأحد من الأكابر لجهله، وإن كان يخدمه ليلًا ونهارًا، وإنما يكون واسطة بين الشيخ والأمير مثلًا من سلك الطريق وأشرف علىٰ مقام الشيخ واتحد به، وصار يدخل قلب الشيخ، ويترجم للأمير بما يراه فيه من الصفات الحسنة التي لا توجد عند أحد من أقرانه، وإن لم يكن كذلك فلا يهتدي أن يذكر إلا صفات نفسه هو، ومعلوم أن صفات مثله لا تورث الشيخ تعظيمًا، لأنه يرىٰ تلك الصفات ليست بكبير أمر حتىٰ يعظم الشيخ لأجلها. انتهىٰ.

---

(١) كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن.

وقد ظفرتُ طول عمري بنقيب واحد كان اسمه إبراهيم السندبصطي رحمه الله، كان يدخل قلبي ويترجمني للأمير حتىٰ لا يبقىٰ عند الأمير وقفة في كوني أعظم من جميع أقراني، ثم بعد ذلك يقضي علىٰ لساني منه ما شاء من حوائج المسلمين، فأسأل الله من فضله أن يجعلني رفيقًا له في الدار الآخرة.

فاجعل يا أخي من يعرف حالك واسطةً في التعرف بينك وبين من تريد من الأكابر وإن لم يكن منسوبًا إليك بالتربية، فإنه أولىٰ ممن خدمك ليلًا ونهارًا وهو جاهل بحالك. وممن صحبته علىٰ هذا الوجه من الإخوان سيدي إبراهيم بن الأمير، فإنه كالذي يدخل قلبي ويتكلم إذا أرسلته إلىٰ كبير، مع أنه لم يتدنس بمقام تربيتي، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا مني، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحذِّر الأمير الذي صحبه من أن يسمع فيه كلام الأعداء والحاسدين، فلاث به الحذاق من المريدين وقالوا له: إن السلف قد حذروا بعضهم بعضًا من القرب من الأمير أو من الركون إليهم، فكان الأولىٰ بهذا الشيخ أن لا يتعاطىٰ أسباب اعتقاد الأمير فيه وتعظيمه خوفًا من الركون إليه، فتمسه النار.

والجواب: أنه لا ينبغي للمريدين الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أن يكون تحذيره من سماع كلام الأعداء فيه له فيه غرض صحيح، كأن يقضي حوائج المسلمين عنده ويكفه عن الظلم، فإن الأمير ربما استثقل من شفاعة الشيخ، فصار يتمنىٰ أحدًا يجرحه عنده، لتزول حرمته من قلبه بالكلية، ويصير يرد شفاعته التي لا يقوم غيره مقامه فيها، كما وقع لي ذلك مع عامر بن بغداد وغيره، فكان أول ولايته يقبل شفاعاتي لا يكاد يرد منها شيئًا، فاجتمع به بعض جماعة ممن ينسب إلىٰ العلم، فأفسدوا عقيدته في الاعتقاد في سائر الأولياء الأحياء والأموات، حتىٰ إنه قال لي مرةً: أنا لا أعتقد في أحد من الخلق أن أحدًا منهم ينفع أو يضر إلا بإذن، فإذا تركتُ الاعتقاد فيهم فلا حرج عليَّ، لأن الأصل إرادة الله تعالىٰ، فلا حاجة لي بأحد منهم. فقلتُ له في أذنه سرًّا: إن رسول

الله ﷺ من الخلق بيقين. فقال لي في أذني: لا حاجة لي بشفاعة محمد يوم القيامة! [ثم انتبه][1] فرجع إلىٰ إيمانه وقال: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن هذا الاعتقاد، ولكن الله يجازي من كان السبب في ذلك من فقهاء السوء. ولم يزل بحمد الله تعالىٰ يعتقد في الصالحين حتىٰ مات، فأسأل الله تعالىٰ أن يحمي الأخ الصالح محمد بن داود من فقهاء السوء إذا تولَّىٰ البلاد إن شاء الله تعالىٰ في شهر [illegible][2] وتسعمئة آمين آمين. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم أن تبادروا إلىٰ الإنكار علىٰ من طلب من الأشياخ أن يُعظَّم عند الأمراء، فإن ذلك لغرض صحيح، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول لبعض تلامذة مشايخ الطريق إذا صحب أميرًا: قل لشيخك: لا تركن إلىٰ هذا الأمير أنت ولا جماعتك، فتمسكم النار؛ فلاث به جماعة الشيخ وقالوا: سلمنا أننا نركن إلىٰ الأمير لأجل إحسانه إلينا، فكيف يقول ذلك في حق الشيخ ﵁ مع علو مقامه في الزهد في الدنيا وأهلها؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم من حيثُ نهيه الشيخ مع جماعته عن الركون إلىٰ أمراء الجور، لأنه قد يريد بجمعه مع تلامذته في النهي عن الركون المذكور التأنيس لهم، لا صحة وقوع الشيخ في الركون إلىٰ الذين ظلموا، قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٢ – ١١٣] فجمع تعالىٰ نبيه مع عصمته في ضمير «تركنوا» و«تطغوا» تأنيسًا لأصحابه الذين تابوا معه، ولاشك أن ذلك إنما هو تأنيس لهم، لانعقاد إجماع المسلمين أنه ﷺ معصوم من الطغيان والركون، فاعلم ذلك، فإنه معنىٰ لطيف ربما لم يخطر لك علىٰ بال، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الصادق الخارج عن رعونات النفس إذا مرض

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) مكتوب في حاشية الأصل: تاريخ ولاية محمد بن داود عمر رحم الله والده رحمة واسعة.

أخوه فلم يعده مع طول مرضه شهورًا عديدة، فلاث به أصحاب أخيه وقالوا: هذا إخلال بحق الأخوة الوارد في حديث: «حق المسلم علىٰ المسلم ست» فذكر منها «وإذا مرض عاده، وإذا عطس شمَّته»[١].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه رأىٰ ذلك المرض رفع درجات، أو كفارة لذنب وقع فيه، أو عقوبة علىٰ ذنب، فأدَّىٰ اجتهاد هذا الشيخ أن لا يعود هذا الأخ، لعدم قدرته علىٰ تخفيف المرض عن أخيه، وقال: لا فائدة للعيادة إلا تخفيف المرض بالدعاء له؛ وإن كان الأولىٰ للعبد أن يعود أخاه امتثالًا لأمر الشارع، فافهم. فلا ينبغي الاعتراض إلا علىٰ من ترك عيادة أخيه تهاونًا بحقِّه، لا غفلة ولا سهوًا ولا تأويلًا كهذا المجتهد، فإنه ربما قال عن المرض: إذا كان رفع درجات أو كفارة، فلا ينبغي لمؤمن سؤال رفعه، بل يدعو له بالتدبير والصبر. وأما إذا كان عقوبة فلا ينبغي الدعاء بترك العقوبة إلا إن أشرفت مدتها علىٰ الفراغ، فيشفع فيه إذا بقي درجة أو سوط ونحوهما، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاره قاضٍ، فلم يقم له الشيخ، فتحركت نفس القاضي، ولاث أصحابه بالشيخ وقالوا: كان الأولىٰ أن يقوم له تعظيمًا لمنزلة الشارع لو لم يكن إلا أنه من حملة العلم والقرآن.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون اطلع من طريق كشفه علىٰ ما في نفس هذا القاضي من الكبر، وأنه يحب من الناس القيام له فأشفق علىٰ دينه بعدم القيام له، خوفًا أن يزداد عذابًا بقيامه له، فإن في الحديث المتواتر مرفوعًا: «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[٢]، فحكم الشارع ﷺ بتبوء هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢) وتمامه: «حق المسلم علىٰ المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟، قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فسمته، وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه»، وأحمد (٨٢٧١).

(٢) تقدم تخريجه.

الشخص مقعده في النار بمجرد محبته للقيام، فكان من شفقة الشيخ عليه أن لا يوافقه في القيام، فتعظم محبته للقيام، فيشتد عذابه، فإن للمباشرة أثرًا زائدًا علىٰ حكم الفرض والتقدير، ثم إن هذا القاضي إذا تكدر منه في الدنيا سوف يشكر فضله عند كشف الغطاء.

فإن قال قائل: إنه لا ينبغي عمل الشيخ بكشفه إلا بعد عرضه علىٰ الكتاب والسنة وموافقته لهما، فأين الموافقة؟ **قلنا:** وجود تكدير القاضي قرينة علىٰ وجود محبته للقيام له، والقرائن إحدىٰ الأدلة كما هو مقرر في كتب الفقه. وبالجملة، فلا ينبغي لأصحاب الأنفس الردية زيارة أحد من الفقراء خوف المقت، إنما تكون الزيارة لمن اضمحلت رعونات نفسه، حتىٰ رأىٰ أن حضوره عند الفقير ينجِّس حضرته، ومثل هذا لا يخرج من حضرة الفقير إلا بفتوح.

وقد ظفرت طول عمري بثلاثة أنفس من قضاة مصر يكرهون القيام لهم، ويتكدرون ممن يقوم لهم، وهو نادر في ذوي المناصب. وقد قمتُ مرةً لواحد منهم، فتكدَّر وظهر لي صدقه، فلم أقم له بعد ذلك رحمةً به، فانظر يا أخي ما بين هذا وبين من يتكدَّر من عدم القيام له، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

(١١٧٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا ورد عليه كتاب السلطان الأعظم كسليمان ابن عثمان، فنهض له قائمًا تعظيمًا له من حيثُ إنه حامي بيضة الإسلام وجمع نظامه، فلاث به بعض المتنطعين وقالوا: لا ينبغي من هذا الشيخ أن يقوم لمثل ذلك فإنه بدعة، وغاية أمره أن يكون ككلام أحد من الأئمة المجتهدين، ولم يقل أحد باستحباب القيام له إذا ورد في كتاب من كتب العلم، بل لم يبلغنا استحباب القيام لشيء من كتب الأحاديث.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قيامه لكتاب السلطان، فإنه أدب لا تأباه الشريعة، وقد قالوا: يستحب القيام لأهل الفضل، ولا فرق في القيام لذواتهم أو صفاتهم، فإن كلامهم الذي أملوه في المرسوم أو كتب بإذنهم وتقريرهم كذواتهم، فهو

ملحق في الاستحباب بكلام العلماء تعظيمًا لهم. ومعلوم أن الأدب لا تأباه الشرائع، فلا ينبغي الإنكار علىٰ فاعله ولو لم يرد فيه شيء بخصوصه.

وربما كان قيام ذلك العالم أو الشيخ لكتاب السلطان ينبني عليه مصالح للرعية إذا بلغ السلطان أن ذلك العالم أو النائب مثلًا قام لكتابه وعظَّمه وقبَّله ووضعه علىٰ عينيه.

وبالجملة فتعظيم السلطان مطلوب وكذلك سائر نوابه، لأنهم حماة دين الإسلام، ولا ينبغي اللوم إلا علىٰ من بالغ في التعظيم حتىٰ رأىٰ رفعته عن مقام العبيد، كما أشار إليه حديث: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح، بل قولوا: عبد الله ورسوله»[1]. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: لا ينبغي تعظيم قانون السلطان حتىٰ يكون نظير شرع رسول الله ﷺ في وجوب العمل به، بل السلطان نفسه لا يرضىٰ بمثل ذلك أدبًا مع رسول الله ﷺ. وبالجملة، فأفعال العلماء والصالحين غالبها اجتهاد، ولا اعتراض علىٰ المجتهدين فيما يترجح عندهم من نحو ما نحن فيه، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي مرض مرضًا شديدًا وله صاحب من الصوفية فلم يَعُدْه ولم يرسل له سلامًا، فلاث به جماعة ذلك العالم وقالوا: والله إن صحبة هؤلاء المتصوفة خسارة! ووقعوا في عرض ذلك المتصوف.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون رأىٰ عند ذلك العالم ركونًا واستنادًا إلىٰ الخلق دون الله تعالىٰ، فطلب الشيخ تخليصه من ذلك بعدم عيادته، ليستعد بذلك للمواهب الإلهية، فإن الحقَّ تعالىٰ لا يعطها إلا لمن صح استناده إليه دون خلقه إلا بإذنه، فاعلموا ذلك والحمد لله رب العالمين.

(١١٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا أكل مع جماعة في وليمة أو غيرها من طعام الغير، وصار يلتقط اللحم من بين يدي إخوانه، ولاث به الحاضرون وقالوا: إذا كان هذا فعل العلماء والصالحين، فما بقي أحد يُلام علىٰ ترك الأدب.

---

(١) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ في الطريق، فإن مثلهما لا يجهل سوء الأدب في ذلك، وينبغي حمله علىٰ السذاجة، فصار ينقي اللحم وهو غافل عن حكم الأدب في ذلك، أو علىٰ أنه فعل مثل ذلك إحسانًا للظن بإخوانه، وأنهم لا يتكدرون من مثل ذلك، قياسًا علىٰ نفسه هو، أو علىٰ أنه استأذن صاحب الطعام في أن يأكل كلَّ ما وصلت إليه يده من مطايب الطعام، فما أكل إلا حلالًا صرفًا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في مجلسه جماعة لهم صوت جهوري، بحيث صار مجلسه يُضرَب به المثل في قوة عزم أهله، ثم إن الجماعة المذكورين فارقوه إلىٰ مجلس شخص من أقرانه، وانتقل ذلك العزم إلىٰ مجلسه، وضعف عزم أهل المجلس الأول، فتكدر شيخه من هؤلاء الجماعة، فلاث الفقراء به وقالوا: هذا يدل علىٰ عدم الإخلاص، فإن المخلص يحب الخير للناس من غير تخصيص بأن يكون ذلك علىٰ يديه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في تكدره من الجماعة المذكورين، حيث إن كشفه أدَّاه إلىٰ أن فتحهم لا يكون إلا علىٰ يديه، فرجع تكدره إلىٰ طلب حصول مصلحتهم، وإن كان في ضمن ذلك مصلحة [له][1] أيضًا من حيثُ الأجرُ والثوابُ الحاصلُ لهذا منهم علىٰ يديه. ولا يجوز حمل الشيخ علىٰ التكدر علىٰ الغرض النفساني، لأن الأشياخ منزَّهون عن ذلك في العادة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ورد عليه ضيوف من الفقراء من بلاد بعيدة، فلم يلتفت إليهم، ولم يقم بواجب حقِّهم من أكل وشرب وغير ذلك، مع سعة الدنيا التي في يديه، فلاث به الناس وقالوا: قد أمر رسول الله ﷺ بإكرام الضيف، لا سيما من جاء من بلاد بعيدة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له عذر في عدم

---

(١) ساقط من «ب».

الإقبال عليهم، كأن رأىٰ بينهم شحناء، وقد ورد في الحديث: «إن الله تعالىٰ لا يقبل عمل المتشاحنَين ويقول للملائكة: دعوا عمل هذين حتىٰ يصطلحا»[1]، فكان في عدم إقبال هذا الشيخ علىٰ أولئك الضيوف الذين بينهم مشاحنة مشي علىٰ الأخلاق الإلهية، فلم يطعمهم الشيخ ولم يسقهم الماء، ولا فرش لهم ولا دفاهم في الشتاء، زجرًا لهم وتنفيرًا، لا بخلًا عليهم وإخلالًا بحقهم من غير عذر، فاعلموا ذلك، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أفعال الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي مات له ولد، فقال في دعائه له: اللهم إني قد تجاوزتُ عن حقي الذي كان لي عليه، فتجاوز يا رب عن حقّك الذي لك عليه؛ فلاث به بعض الناس وقال: إن في هذا القول رائحة سوء أدب مع الله تعالىٰ، حيثُ جعل نفسه أصلًا في التجاوز، وجعل ربه فرعًا فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، وليس في كلامه ما يشعر برائحة سوء أدب، بل هو في غاية الأدب مع الله تعالىٰ، فإنه يعلم من أخبار الشريعة وقواعدها أن الله تعالىٰ جعل رضاه في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما، فلا يرضىٰ تعالىٰ عن الولد إلا إن رضي عنه والداه، فكأن الشيخ يقول: يا رب، إنك علَّقتَ التجاوزَ عن ولدي علىٰ تجاوزي عنه، وهأنا قد تجاوزتُ عنه، فتجاوز يا رب عنه، فهو من باب قوله تعالىٰ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي الذي وعدتني يا رب أنك تحكم به بيني وبين قومي في الآخرة، فليس لهذا الحق الذي يحكم به الله تعالىٰ مقابلٌ يخاف من وقوع الحكم به، فإن الله تعالىٰ لا يحكم إلا بالحق، فافهم، وإياك والمبادرة بالإنكار علىٰ الأكابر، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا؛ إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا» وأبو داود (٤٩١٦).

(١١٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في دعائه: اللهم استر محمدًا ﷺ بين أمته ولا تخذله بينهم يوم القيامة؛ فلاث به بعض المجادلين وقال له: هذه دعوىٰ عريضة لا تكون إلا من الأعلىٰ للأدنىٰ، مثل قول الشيخ لمن سأله الدعاء: اللهم تب علىٰ فلان.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بذلك خدمة رسول الله ﷺ، وفتح باب الرضا عنه بذلك، فإن الله تعالىٰ يحب كلَّ من كان يحب محمدًا ﷺ، فهو من باب سؤالنا ربنا أن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، ولكن ينبغي لهذا الداعي أن يشهد محمدًا ﷺ حاضرًا معه في تلك الحضرة، وأنه ﷺ أقرب إلىٰ الله تعالىٰ منه في جميع المقامات، فليحذر العبد بأن يقول مثل ذلك مع شهود نفسه [القرب][1] من حضرة الله تعالىٰ وبُعد محمد ﷺ منها كما يقع لبعضهم في حضرة خطابه للحقِّ جلَّ وعلا، فيمثل نفسه في حضرة الله في سجوده كقاب قوسين، ويمثل محمدًا ﷺ في قبره بالمدينة المشرفة بعيدًا عن تلك الحضرة، فإن فيه رائحة سوء الأدب، فإن الحق تعالىٰ لا يتحيز، وحضرة محمد ﷺ منه دائمًا أقرب الحضرات، فاعلم ذلك، واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١١٧٦) ومما أجبتُ به عن طالب العلم علىٰ مذهب الإمام مالك إذا صار يزور قبور أصحاب الإمام مالك[2] بالقرافة كل جمعة مثلاً، ولا يزور قبر الإمام الشافعي أبدًا، ولاث به أصحاب مذهب الإمام الشافعي وقالوا: إنه قليل الاعتقاد في الإمام الشافعي.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الطالب، ولا نسبته إلىٰ أنه غير معتقد للإمام الشافعي إذا لم يزره، لاحتمال أن تكون دائرة علمه ضيقة لا تسع اعتقاد شيخين معًا في آن واحد، فقال في نفسه: إن اعتقادي في الإمام مالك الذي هو شيخ الإمام الشافعي واعتقادي في الإمام أشهب[3] وابن القاسم يكفيني في طريق سيري في مذهبي. وأما الإمام

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) وتعرف بأسم مسجد السادات المالكية، قريبًا من جامع السيدة عائشة بنت جعفر الصادق.

(٣) أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم القيسي. يقال: اسمه مسكين، وأشهب: لقب له. فقيه الديار

الشافعي فربما خالف قواعد مذهبي في بعض المواضع، فإذا ملتُ إليه في الاعتقاد كأهل مذهبه، ربما تزلزلتُ عن اعتقادي في إمامي، فأنا معتقد في إمامي ومسلِّم لغيره من الأئمة، ولا أجهل فضلهم ولا علمهم.

ومثل هذا لا ينبغي اللوث به بحيث يُنسَب إلىٰ الضلال وبغض الإمام الشافعي، لما ذكرناه من حبسه في دائرة علم أئمة مذهبه، فهو كالمريد في طريق الصوفية لا يُطالَب أن يجتمع بغير شيخه، وإنما الواجب عليه ملازمة شيخه فقط حتىٰ يبلغ مراتب الكمال، وهناك يأخذ العلم من حيثُ أخذه الأئمة، فيصير يرىٰ أحدهم بعين الأخوة لا بعين الأستاذية، ولا يُطالَب بالتقيد علىٰ أحد، فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك من سوء الظن، ومن التعصب المؤدي إلىٰ تنقيص غير إمامك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم الذي اشتُهرت تلامذته بالعلم أكثر منه، وصار أحدهم له قول في مذهبه أو مرجع لأقواله دون شيخه، فظن بعض الناس أن ذلك التلميذ أعلم من شيخه.

والجواب: أنه لا ينبغي لمسلم يخاف علىٰ دينه أن يظن هذا الظن، فقد يكون هذا العالم الذي علَّم العلم لذلك التلميذ من أهل التمكين في الإخلاص ومعاملة الله عزَّ وجلَّ بالصدق، فنفخ علمه في تلميذه واستتر هو بين الناس، فلم يشر أحد إليه بالأصابع، فأعطاه الله تعالىٰ أجر جميع علوم تلامذته، لأنها له بالأصالة، ولم ينقص من أجورهم شيئًا. **ولم يزل العلماء العاملون يختارون الخفاء في هذه الدار، وينسبون ما فتح الله به عليهم إلىٰ غيرهم**، حتىٰ كان الإمام الشافعي يقول: وددتُ أن الخلق يعملون بهذا العلم الذي استنبطتُه من الكتاب والسنة ولا يُنسَب إليَّ منه شيء. انتهىٰ.

فإياك يا أخي أن ترجِّح تلامذة العلماء الذين اشتُهروا بالعلم أكثر من أشياخهم،

المصرية في عصره. ولد: ١٤٠هـ. كان صاحب الإمام مالك. قال فيه الشافعي: ما أخرجت مصر أفقه من أشهب، لولا طيش فيه. توفي: ٢٠٤هـ انظر: «السير» (٩/ ٥٠٠) و«شذرات الذهب» (٣/ ٢٤).

وصار لهم الباع دونهم، كنافع[1] شيخ مالك، وكمسلم بن خالد الزنجي[2] شيخ الشافعي، وكالشيخ سلار بن [الحسن] كمال [الدين] الإرْبلي شيخ النووي، وكالشيخ عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل المالكي وأضرابهم. وإياك وأن تقول لمن تراه يطالع في العلم ليلًا ونهارًا ولا يدرِّس ولا يكتب علىٰ الفتيا مثل أقرانه وتقول: لو أن هذا اشتغل بتلاوة القرآن والذكر مثلًا، لكان أفضل له؛ فقد يكون ذلك الرجل من أولياء الله الذين يمدون جميع علماء بلادهم بعلوم الشريعة تدريسًا وإفتاءً وشرحًا للكتب[3]، ومثل هذا أجره موفر في غير آفة تدخل عليه في علمه، وقد يقيض الله تعالىٰ له أقوامًا من المخلصين يسألونه عن أمور دينهم أفرادًا لا يشعر أحد بهم، ويرزقهم العمل بكل ما يعلموه منه، ويحرم ذلك المدرس من الأجر بتعليمه العلم لأصحابه، كما هو الغالب في جماعة العلماء، فلا يُرَىٰ من يشهد له الناس بالعمل بعلمه منهم إلا القليل، والعاقل من حاسب نفسه في هذه الدار، والحمد لله رب العالمين.

(١١٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي مرض أخوه فلم يعده ودُعِي إلىٰ عيادته مرات فلم يجب، فلاث به أصحاب المريض وقالوا: إنه يكره شيخنا! كيف يمرض أخوه مدة شهر ولم يعده؟! فأين المحبة والصدق في الإخوة في هذا الزمان؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم من حيثُ تركُه عيادة أخيه، فقد يكون اطلع علىٰ أن مرضه رفع درجات، أو تكفير خطيئات، أو عقوبة ولكن لم يأت وقت انقضائها،

(١) أبو عبد الله نافع مولىٰ عبد الله بن عمر ﷺ من كبار الصالحين التابعين. وهو من المشهورين بالحديث، ومن الثقات الذين يؤخذ عنهم ويجمع حديثهم ويعمل به، وأهل الحديث يقولون: رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحدٍ من هؤلاء الرواة. توفي: ١١٧هـ وقيل: ١٢٠هـ. انظر: «وفيات الأعيان» (٥/ ٣٦٧).

(٢) أبو خالد مسلم بن خالد المخزومي الزنجي المكي. مولىٰ بني مخزوم. ولد: ١٠٠هـ أو قبلها بيسير. روىٰ عنه: الإمام الشافعي، ولازمه، وتفقه به، حتىٰ أذن له في الفتيا. توفي: ١٨٠هـ. «السير» (٨/ ١٧٦) و«شذرات الذهب» (٢/ ٣٥٨).

(٣) انظر الجوابان: (٩٦١)، (١١٢٨).

سواء أكان ذلك العالم علم ذلك من طريق كشفه أو بالقرائن، فخاف على أجر أخيه أن ينقص إذا عاده بتخفيف المرض عنه بحضوره، فيفوته رفع الدرجات، أو تكفير الخطيئات، أو يحضر قبل انقضاء مدة العقوبة، فلا يحصل للمريض به فائدة. **فإياك يا أخي والمبادرة إلى الإنكار على كل من كان أعلم بالشرع منك، فإن له مشهدًا غير مشهدك.**

وهذا أمر محتاج إليه الطبيب أيضًا، فإنه ربما وصف للمريض الذي مرضه رفع درجات أو تكفير خطيئات ما يخفف عنه المرض، فيسيء في حقِّه باطنًا، وربما رجحت هذه الإساءة على أجر تخفيف المرض الذي طلبه المريض والطبيب. وربما وصف الطبيب دواءً يخفف مرض من كان مرضه عقوبةً له، فزادت القدرةُ الإلهيةُ العقوبةَ بشدة المرض على خلاف ما قصد الطبيب، فليكن الطبيب عارفًا بمراتب المرض، فلا يداوي مريضًا إلا في قسم العقوبة إذا أشرفت على انقضاء مدتها لا غير، ويجتنب مداواة من كان مرضه رفع درجات أو تكفير خطيئات أو لم تبلغ العقوبة فيه حدها.

وقد أرشدتُ أخي العبد الصالح العلامة الشيخ سري الدين ابن الصائغ[1] الطبيب بالبيمارستان بمصر إلى مثل ذلك، فصار لا يداوي إلا من أشرف على انقضاء عقوبته، وعرَّفتُه بأمارات مراتب المرض فعرفها، وهو أنه إن رأى المريض منشرحًا بالمرض ولا يطلب تحويل المرض عنه، فليعلم أنه رفع درجات، وإن رأى المريض يتألم بذلك المرض تألمًا شديدًا، ولكنه صار ليس عنده ضجر ولا سخط، فليعلم أنه كفارة لخطيئاته، وإن رآه متألمًا وعنده ضجر وسخط، فليعلم أن مرضه عقوبةٌ، فيصبر عن مداواته أدبًا مع الله تعالى حتى يرى السخط والضجر قد شرعا في النقص، فهناك يصف له الدواء، كما يصبر الشافع عن الشفاعة فيمن اشتد غضب الوالي عليه ومدَّه للضرب حتى يضربه ضربات، فإذا أخذ غضبه في الخفة، شفع فيه حينئذ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سري الدين بن أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ، انتفع بأبيه في الطب، وتولى قديمًا تدريس الحنفية بالمدرسة البرقوقية، ومات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري ورئاسة الأطباء، كانت ولادته سنة ٩٤٥ هـ وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ١٠٣٦ هـ. «خلاصة الأثر» (١/ ٢٠٤).

(١١٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكثر من حضور الولائم في بلده، فلا يكاد يفوته حضور وليمة، ولاث الناس به وقالوا: هذه سقاطة نفس لا تليق بأشياخ الطريق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بذلك دخوله في غُمار الذين لا يؤبه لهم من الضباع الذين يحضرون الولائم، أو يكون من رجال الرحمة الذين يحضرون كلَّ موضع فيه معصية، فيحوطون العصاة من أن ينزل عليهم بلاء، وإن كان ذلك الطعام الذي يؤكل في الوليمة حرامًا، سألوا الله أن يغفر لمن أكله، ويرضي عنه أصحابه يوم القيامة.

ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ أيضًا ممن يتداوىٰ بالأكل من فضلة أكل المسلمين، فيحضر ويصبر حتىٰ يفرغ الناس من الأكل، فيتقدم ويلحس الأواني يبتغي الشفاء بذلك من مرض كان به، كما كان عليه طائفة من الفقراء. فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك من سوء الظن بالناس، فربما أن جميع أعمالك الصالحة عندك لا يرضىٰ بها واحد في مقابلة سوء ظنك به، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جاور بمكة المشرَّفة، ثم أرسل إلىٰ أصحابه في مصر مثلًا يقول لهم: كاتبونا بما يقع من الناس في مصر من الفواحش والرذائل؛ ليحيط بذلك علمًا، فلاث به بعض الناس وقالوا: كان عدم مجاورة هذا في مكة أفضل له! كيف يقيم في حضرة الله تعالىٰ الخاصة ويصير متلفتًا إلىٰ الاطلاع علىٰ عيوب الناس من أعدائه وغيرهم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب ذلك، ولا حمله علىٰ محبته للاطلاع علىٰ نقائص الناس لغير غرض صحيح، بل يجب حمله علىٰ أنه ما طلب من أصحابه في مصر أن يطلعوه علىٰ أخبار الناس ونقائصهم إلا ليستغفر لهم، ويدعو لهم في تلك الأماكن المشرفة التي[1] يُرجَىٰ إجابة الدعاء فيها، أو ليأخذ الآخر حذره من أن يقع فيما وقعوا،

(١) بالأصلين: حتىٰ. والصواب ما أثبتناه.

أو ليشكر الله تعالىٰ الذي عافاه مما ابتلىٰ به كثيرًا من أقرانه وأعدائه. فاعلم [ذلك]، واحفظ لسانك في حق أهل العلم والصلاح وغيرهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يرمز للناس تاريخ الأمور التي يحدثها الله تعالىٰ في الزمان المستقبل من حصول موت، أو تولية إنسان أو عزله. فلاث الناس به وقالوا: إن كان صادقًا في كشفه، فليخبرنا بذلك صريحًا، أو يكتبه بخط يقرؤه الخاص والعام، لنبني علىٰ كلٍّ مقتضاه من اعتقاد فيه الصلاح أو تركه، ولكن هذا يشبه قول بطرك النصارىٰ لهم: «إن هذه السنة تكون عظيمة علىٰ الناس» كلامًا مجملًا، فإن جاءت سنة مليحة قال: أنا قلت لكم ذلك، أو سنة شديدة قال: أنا قلت[1] لكم ذلك.

والجواب: أن الفقراء يتبعون[2] في ذلك الرمز أخلاق الباريء جلَّ وعلا في رمزه أوائل السور من ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾و﴿الٓر﴾ و﴿الٓمٓر﴾و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ ونحو ذلك، ووكل ذلك إلىٰ معرفة العلماء به سبحانه وتعالىٰ. وقد استخرج الشيخ محيي الدين من ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:١-٢] في كتابه المسمىٰ بـ«عنقاء مَغْرب» يوم خروج المهدي، وولاية السلطان سليم ابن عثمان مصر وقتله ملكها وأمراءها، وأن ذلك يكون في سنة اثنين وعشرين، وأنه يدخل مصر أول يوم من سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة، فكان الأمر كما قال. وهذا هو سبب بناء السلطان المذكور علىٰ الشيخ محيي الدين بن العربي تكية في دمشق وشدة اعتقاده.

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﵀ يقول: إذا كُشِفَ لأحدكم عن ولاية أحد أو عزله، فلا ينبغي له أن يفشي ذلك بين الإخوان، لأنه لا يعلم أحد ما في مكنون علم الله عزَّ وجلَّ. وأما ما ظهر فقد يكون مما يدخله المحو، وفي قدرة الله تعالىٰ أن يرِي العبد ما لا حقيقة له في نفس الأمر، كالسراب يحسبه الظمآن ماء، وكالمشعوذ يريك حلاوةً

(١) بالأصلين: ما قلت؛ في الموضعين، والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: يتبعوا، والمثبت الصواب نحويًا.

وعسلًا، ونارًا تحرق عمامتك حتىٰ تصير رمادًا، ولا حقيقة لذلك، فالعاقل من كتم سرَّه الذي أطلعه الله تعالىٰ عليه حتىٰ يظهر الأمر للخاص والعام.

وكان ﷺ يقول: إذا كُشِفَ لكم عن وقت حدوث أمر في المستقبل، فاكتموا ذلك إلىٰ وقت ظهوره، فإن وافق ذلك وقت الكشف، فاحمدوا الله الذي أطلعكم علىٰ مثل ذلك، وإن خالف، فاعلموا أن محل الكشف من قلوبكم كان مستورًا عنكم بأكلكم شيئًا من الشهوات، أو وقوعكم في ذلك.

قال: وقد كُشِفَ لي عن مولود في بطن أمه أنه ذكر، ووضعتُ يدي علىٰ ذكره وأنثييه، ثم ولدت أمه أنثىٰ، فعلمتُ أن الله تعالىٰ أراد أن يعلمني بأن القدرة لها التغيير والتبديل لا تدخل تحت التحجير علىٰ قدْر ما يطلع عليه العباد. انتهىٰ.

وبالجملة، فمن فهم قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٤] عرف ما ذكرناه، فإنه إذا نهىٰ سيد المرسلين عن الجزم بشيء يقع في المستقبل فكيف بغيره؟! وذلك لأن خلق الفعل راجع إلىٰ الله لا إلىٰ العبد، ولا يعلم أحد ما في مكنون علم الله ولو ارتفعت درجته، لأن لله علمًا أخص لا يعرفه نبي مرسل، ولا ملَك مقرَّب. فاعلم يا أخي ذلك، وإياك أن تصرِّح بما أطلعك الله تعالىٰ عليه من الأسرار، فإنه تعالىٰ ربما حجبك بعد ذلك عن حضرة قربه، فلم يطلعك علىٰ شيء من أسراره، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٢) ومما أجبتُ به عن المريد الذي صحب شيخًا زمانًا طويلًا، ثم إن الشيخ أغلظ عليه يومًا شخص من أعدائه وما خلىٰ في عرضه ولا بقىٰ، والشيخ ساكت، فقال له هذا المريد: لولا أنك لك يا سيدي الشيخ زلة تحت يد هذه العدو لما سكتَّ له؛ فلاث به أصحاب الشيخ وقالوا: كيف تحمل شيخك علىٰ أنه ما سكت عن جواب عدوه إلا لوقوعه في زلَّة؟!

والجواب: أنه لا يقدح في محبة هذا المريد لشيخه حمله علىٰ أن له زلة، لأنه ما

حمله إلا علىٰ قدْر ما وصل إليه علمه من حال نفسه، ولو أنه كان مفتوح اليقين لحمله علىٰ حسن الخلق دون الزلة، فهو معذور لكونه حمله علىٰ[1] حال نفسه، وليس عليه اللوم إلا لو حمل الشيخ علىٰ دون حال نفسه هو. وقد وقع لي مثل ذلك مع بعض إخواني من التجار، فرأىٰ شخصًا يسبني وأنا ساكت، فقال للناس: لولا أن لفلان زلة عند فلان ما احتمل منه هذا السب العظيم! فأقمتُ له العذر في ذلك، لكونه حملني علىٰ حاله، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: قيل لي في هذه الليلة: ما علىٰ وجه الأرض مجلس في علم الحقائق مثل مجلسك؛ فبلغ ذلك بعض المجادلين، فقال: هذه دعوىٰ عريضة تشبه أن تكون علىٰ لسان إبليس، فإن علماء الحقيقة والشريعة لا يحيط بمراتبهم في العلم إلا الله، فالحكم علىٰ واحد منهم أنه فاق أهل الأرض كلِّهم إلىٰ الكذب أو الحدْس بالظن أقرب.

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيب هذا الشيخ فيما نقله عن الهاتف، لاحتمال أن يكون مراد الهاتف انتفاء المثلية من حيثُ الحروفُ والألفاظُ التي تقع في تقرير الشيخ، فإن غيرها من سائر الألفاظ والحروف التي يتلفظ بها غير هذا الشيخ في سائر أقطار الأرض غيرها لا عينها، والمثلية تنتفي بزيادة حرف أو نقصه عن تقرير هذا الشيخ.

ويُحتمَل أن يكون هذا الهاتف إنما تكلَّم عن علم ويقين، فطاف جميع أقطار الأرض، فما رأىٰ أحدًا من العلماء يقرر الكلام مثل هذا الشيخ في الفصاحة والتحقيق، **وما كلُّ الرجال أعطوا الفرقان مع زيادة العلم، فقد يكون تقرير من كان أقل علمًا أوضح وأتقن ممن زاد عليه في العلم.**

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول: قيل لي في المنام: ليس علىٰ وجه الأرض الآن مجلس في علم الحقائق مثل مجلسك، ولا في مجالس الفقهاء مجلس

---

(١) بالأصلين: سعد. والصواب ما أثبتناه.

أوسع علمًا وتحقيقًا من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ولا في مجالس المحدثين مجلس أبهىٰ من مجلس الشيخ عبد العظيم المنذري. انتهىٰ. وحاشا [أحد من](١) أولياء الله تعالىٰ أن يخبر بخلاف الواقع أو ينقل الكذب.

قلتُ: وقد دخل عليَّ مرةً في الليل ثلاثة أملاك: أحدهم طوله نحو سبعة أذرع، وألوانهم كالزعفران، ووجوههم تخفق نورًا، فسلموا وجلسوا، فقال أطولهم: قد طفتُم الليلة مشارق الأرض ومغاربها، فهل رأيتُم بقعةً أكثر ذكرًا لله تعالىٰ وتلاوةً للقرآن مثل هذه البقعة؟ فقالوا: لا. فقال أحدهم للطويل: [إلىٰ] أي حد ينتهي انتشار مدد مجلس الذكر والصلاة علىٰ رسول الله ﷺ؟ فقال: ينتهي من جهة الحد البحري إلىٰ باب البحر، ومن جهة الحد الشرقي إلىٰ حد باب الشعرية علىٰ يسار الخارج منه، ومن جهة الحد القبلي إلىٰ حد باب جامع الحاكم المجاور للمنبر، ومن جهة الحد الغربي إلىٰ جامع ابن طولون. انتهىٰ. وقد ذكرنا في كتاب «المنن والأخلاق» جملة من الصفات التي منَّ الله تعالىٰ بها عليَّ، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٤) ومما أجبتُ به عن جماعة المسجد(٢) الذين رتَّب لهم سلفهم شيئًا من الأوراد فيه عقيب الصلوات في المسجد، فتركوا تلك الأوراد من تسبيح وتهليل، وتحميد وتكبير، واستغفار وغير ذلك، فلاث بهم العقلاء من الناس وقالوا: مثل هذا إنما هو من جملة الأعمال الصالحة، وقد قال تعالىٰ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٦]، فإذا عمل به غير هؤلاء، فإن التارك [ما](٣) له الأجر والثواب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء الجماعة كلِّهم من المؤذنين والمجاورين والمترددين إلىٰ الصلاة في المسجد من أهل الحارة وغيرهم، لغلظ حجابهم، فلا ينبغي اللوث بهم إذا تركوا الورد المذكور إلا بعد تلطيف كثائف قلوبهم، وإرشادهم إلىٰ رفع

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) في «ب»: الشيخ.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.



حجبهم، حتىٰ يصير أحدهم يحب ربه ومجالسته في بيته ومناجاته، ويرىٰ الحظَّ الأوفر له في ذلك، ويشكر كل من ينبهه علىٰ قراءة ذلك الورد، ولا يرىٰ أنه يقدر علىٰ مكافأته بشيء من الدنيا، ولو أنه أعطاه ماله كله وثيابه، لا يرىٰ أنه كافأه علىٰ إرشاده إلىٰ النطق بكلمة واحدة من الورد مما يناجي به مولاه.

وقد وقع أن جماعة الزاوية والمؤذنين مكروا علىٰ قول «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» مئة مرة قبل صلاة الصبح في رمضان، فقال المجاورون: هذا علىٰ المؤذنين وليس هو علينا. وقال المؤذنون: هذا علىٰ المجاورين ليس هو علينا؛ وتركوا تمجيد ربهم ومناجاته، فعلمتُ أنهم في حجاب غليظ، فخرجتُ لهم ومهدتُ لهم بساطًا أعلمتُهم بما في ذلك من الفضل، وقلتُ لهم: قولوا: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» وأنا معكم؛ فزال بحمد الله ما كان عندهم من الكثائف والكسل، وصار لهم جولة وزجل بتسبيح ربهم وتحميده وتهليله وتكبيره، ورأوا الحظ الأوفر في ذلك لأنفسهم، فأزل يا أخي كثائف إخوانك، ثم أنكر عليهم إذا تركوا الخير، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أنشأ مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في مسجد من المساجد من غير معلوم دنيوي علىٰ ذلك إلىٰ أن مات، ثم خلفه واحد من جماعته، فاتفق أن الولاة أوقفوا علىٰ أهل ذلك المجلس وقفًا من ريع أو رِزْقة، فلاث الناس بهذا الخليفة وقالوا: ما كان علىٰ قدم الإخلاص إلا شيخه رحمه الله. وأما هذا فإنما يصلي علىٰ رسول الله ﷺ ويذكر الله لأجل الوقف الذي علىٰ ذلك.

والجواب: أن هذا سوء ظن بالخليفة، وذلك لا يجوز بإجماع المسلمين، فيُحتمَل أنه علىٰ قدم شيخه في الإخلاص لا التفات له إلىٰ ذلك المعلوم، أو جاوز مقام شيخه في الإخلاص، لكونه ورث مقامه وزاد عليه بما تفضل الله تعالىٰ به عليه من غير طريق شيخه، إذ الفقير ربما يرث عدة أشياخ كما مرَّ قريبًا. وإيضاح ذلك أن العبادة التي لها معلوم علم به الناس لا يطرق صاحبها رياؤها ولا حب سمعة ولا عجب، لكون الناس يحملونه علىٰ أنه لا يفعل تلك العبادة إلا لأجل الدنيا، فهي أبعد من الرياء والإعجاب،

بخلاف من عبد الله تعالىٰ بلا معلوم دنيوي، فإن الغالب أنه يطرقه الرياء والإعجاب، فكان الخليفة الذي جعلوا له معلومًا علىٰ ذلك المجلس أحسن حالًا وأبعد من الرياء ممن لا معلوم له، اللهم إلا أن يمنَّ الله تعالىٰ علىٰ الشيخ الأول بالإخلاص كسيدي الشيخ نور الدين الشوني [شيخ][1] مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في جامع الأزهر، فلا يلحق مقامه خليفة بعده، فهو فرد نادر في الخلق ﷺ، فقد أقام في مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ سبعين سنة في مقام سيدي أحمد البدوي، وجامع الأزهر قبل أن يقف خاير بك[2] نائب مصر ملك الأمراء[3] علىٰ مجلسه الرِّزْقة من غير سؤال حين صلىٰ الجمعة في جامع الأزهر في أواخر شهر رمضان، وأعجبه جماعة المجلس وهم يصلون علىٰ رسول الله ﷺ، فقال لي الشيخ: هذا يدل علىٰ أن همتنا فترت عن الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ وقف ملك الأمراء علينا رِزْقة. فقلتُ له: هذا لا يلزم، لاحتمال أن تكون هذه الرِّزْقة إنما جاءت علىٰ اسم الناس الذين يكونون بعدكم في المجلس من المحترفة والصنايعية وطلبة العلم، فتكون الرِّزْقة عونًا لهم علىٰ سهرهم في الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، لما فيهم من الجزء الذي يحبُّ الدنيا إذا لم يغلب عليهم عسكر الإخلاص. فقال الشيخ: قد فرجتَ عني بذلك. فقلتُ له: أنتم من أعظم المحبين لرسول الله ﷺ، والمحب إذا رأىٰ الناس فتروا عن خدمة محبوبه إلا بعوض دنيويٍّ، فلا حرج عليه في السعي عليهم في جعل وقف عليهم، حتىٰ يتقووا في مقام الإخلاص. ثم ببركة قصده الصالح وحسن نيته، خلفه سيدي الشيخ شهاب الدين البلقيني[4] في المجلس

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) خاير بك: من كبار أمراء الدولة المملوكية. ولما وقعت مرج دابق، انضم للسلطان سليم الأول. ولاه سليم الأول ولاية مصر. وكانت وفاته سنة (٩٢٨هـ).

(٣) ملك الأمراء: من الألقاب التي اصطُلح عليها لكفَّال الممالك من نوَّاب السلطنة، كأكابر النُّوَّاب بالممالك الشامية ومن في معناهم. وذلك أنه قام فيهم مقام الملك في التصرُّف والتنفيذ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان.

(٤) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الأخ الصالح العلامة الورع الزاهد المجمع علىٰ جلالته الشيخ شهاب

علىٰ قدم الإخلاص، لا التفات له إلىٰ معلوم هو وجماعة المجلس من أصحاب الشيخ إلىٰ أن ماتوا، ثم خلف الشيخ شهاب الدين المذكور ولده الشيخ صالح(١) كذلك علىٰ قدم والده لا التفات له إلىٰ معلوم. فالحمد لله رب العالمين.

(١١٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يلقي علىٰ جماعته ما لا يطيقونه من أسرار القوم، فيتمزق أحدهم ويحلق لحيته، ويتجرد من الثياب وساتر العورة، فيلوث الناس به ويقولون: هذا دليل علىٰ جهل الشيخ بالتربية وجنون أصحابه.

والجواب: أن هذا من سوء الظن بالأشياخ والجهل بمقامهم، لاحتمال أن يكون الشيخ رأىٰ من طريق كشفه أن ذلك التمزيق والتخريب مما يقرِّب الطريق عليهم، وذلك لأن أحدهم مادام يستحيي من الناس ويراعيهم في حركاته وسكناته فهو في حجاب عن مقام الفتح، فإذا صار يرىٰ الناس كالجماد، فهناك يقرب من الفتح. وهذا من باب ارتكاب أخف المفسدتين، وله نظائر في الشريعة، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ الأشياخ بسببه.

وكان هذا الحال من شأن سيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي أبي السعود الجارحي ﵀، وقد خلفه في هذا المقام أخونا الشيخ العارف بالله تعالىٰ الشيخ يوسف الطهواي نفعنا الله تعالىٰ ببركاته، فلم يزل كلَّ قليل يخرج من جماعته جماعة عن التقيد(٢) بالعوائد التي فيها فقراء العصر، فيلوث الناس به وبهم، وذلك لا يجوز. وقد

الدين البلقيني ﵁. كان غريبًا في أقرانه لكثرة زهده وورعه وحسن خلقه وحلاوة لسانه وضبطه. أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام، ومن أجلهم الشيخ شهاب الدين الرملي، لازمه ملازمة شديدة، حتىٰ أجازه بالفتيا والتدريس. توفي ﵁ سنة ستين وتسعمئة، ودُفن قريبًا من تربة السلطان قايتباي رحمه الله رحمة واسعة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» الترجمة (٥٦٠) طبعة دار الإحسان.

(١) صالح بن أحمد شهاب الدين البلقيني، كان من كبار العلماء والزهاد، وله القدم الراسخة في التصوف وفقه الشافعي والمعقولات بأسرها، ولم يزل في إفادة واجتهاد بالعبادة إلىٰ أن توفي سنة ١٠١٥ هـ عن نحو ثمانين سنة. «خلاصة الأثر» (٢/ ٢٣٧).

(٢) بالأصلين: النقبة.

سبقه إلىٰ ذلك جماعة من أهل الطريق كالشِّبْلي وسمنون وحمدون القصَّار من مشايخ رسالة القشيري الجامعين بين الشريعة والحقيقة، فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك في حق القوم، فإن جميع ما معك من الأعمال التي هي عندك صالحة لا يرضىٰ بها واحد منهم في كلمة غيبة، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ظهر وأقبل عليه المشايخ وأخذوا عنه، وصاروا يجرون الناس إلىٰ صحبته ويمدحونه، ثم في مدة يسيرة انطفىٰ اسمه، وتفرَّقت عنه أصحابه، فلاث به الناس وقالوا: هذا دليل علىٰ عدم الإخلاص.

والجواب: أن حمل هذا الشيخ علىٰ عدم الإخلاص لا يجوز، فيُحتمَل أنه وأصحابه مخلصون، وإنما أرادوا مقام الخفاء لهم ولشيخهم، من باب «عرفت فالزم» كما وقع لأخينا العبد الصالح كريم الدين خليفة الشيخ دمرداش في سنة خمس وستين وتسعمئة، فأخذ عنه جماعة من طلبة العلم وغيرهم، واشتُهر اسمه، فصار غالب أهل مصر في حديثه، ثم أعرضوا عن ذكر اسمه والحديث في شأنه، فظنَّ بعضُ الناس أن ذلك لعدم صدقه، والحال أنه إنما أظهر نفسه بإذن، وأخفىٰ نفسه بإذن، رضي الله عنه ونفعنا ببركاته.

فإياك يا أخي واللوث بأحد من مشايخ الطريق، فما كل مرة تسلم الجرة، فقد ينتصر الحق تعالىٰ لذلك الفقير، فيمقت من لاث به، فيموت علىٰ غير الإسلام، أو علىٰ غير نعت الاستقامة في طريق الإسلام، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في طريق القوم إذا كان إمامًا أو خطيبًا أو مدرِّسًا، وصار يطالب الناظر أو الجابي بالمعلوم المرصَد علىٰ ذلك بشدة وعنف، فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما كان عليه المشايخ الذين أدركناهم أوائل النصف الأول من القرن العاشر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد يكون يقصد بذلك التستير في المقام حين بالغ الناس في اعتقاده وأشغلوه بكثرة التردد إليه عن الاشتغال بعبادة ربه، فأظهر

لهم محبته للدنيا، لينفروا عنه أو يخففوا التردد إليه، كما كان عليه الشيخ أبو السعود الجارحي، وسيدي عليٌّ الخواص، وأخي أفضل الدين الأحمدي، والشيخ ناصر الدين النحاس، والشيخ بركات الخياط، والشيخ محمد السلامي بمدينة الخانقاه السرياقوسية، فكان أحدهم إذا طلب إقبال الناس عليه لغرض شرعي يُظهِر لهم شيئًا من الكشوفات والمعارف، فيصيرون يتقابلون على بابه، وإذا طلب تفرقتهم يُظهِر لهم شيئًا من أحوال أبناء الدنيا، فيتفرقون عنه، وتارة يجمعهم عليه بالقلب، ويفرقهم بالقلب.

فاعلم ذلك، وإياك أن تزدري شيخ الزاوية أو المدرِّس للعلم إذا رأيتَه يطالب الناظر أو الجابي بعنف، فإنه ربما كان مخلصًا في تلك العبادة قد حرر نيته في فعلها امتثالًا لأمر الله، وإقامةً لشعار الشريعة، وطلبًا لتخليص ذمة ذلك الناظر أو الجابي من أكل شيء من مال ذلك الوقف بغير طريق شرعيّ، وليعظِّم الأجر للواقف بصرف ريع وقفه فيما شرطه، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صحب أميرًا، فوجد شيخًا من أعداء ذلك الشيخ، فخاف أن يغير خاطر الأمير بالحط والتنقيص فيه عنده، فذهب إلى ذلك العدو وصالحه وقبَّل رجله وقال: بالله عليك لا تذكرني بسوء عند الأمير. فعلم بذلك أقران الشيخ، فلاثوا به وقالوا: الدنيا أقل من أن يذل الفقير نفسه لأجلها، ولو كان هذا الشيخ صادقًا في الطريق، لأحب من ينفر عنه الأمراء والولاة، لأن ضررهم على الفقير أكثر من نفعهم له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في مصالحته عدوه خوفًا أن ينفر الأمير منه، لاحتمال أن يكون صحب الأمير بنية صالحة في أمور الدنيا أو الآخرة، وصالح العدو كذلك بنية صالحة، ولا لوم إلا على من يذل نفسه لغير غرض شرعيّ.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك لما صحبتُ محمدًا الدفتردار بمصر وحسن بن بغداد، فصالحتُ ذلك العدو الذي كان عند كل واحد منهما، ليصير يساعد لي على قبول الأمير شفاعتي في المظلومين ولا يعارضني عنده، فيقع في الإثم، ويفوت الأجر لي ولذلك

الأمير. وأقل ما في تجريح العدو لذلك الفقير عند الأمير أن الأمير يصير يُشَخِص تلك الأمور التي جُرِحَ بها الفقير في دينه، ويريد أن يجعله كمن عِرْضُه سالم من التجريح فلا يقدر. «فاعمل يا أخي علىٰ ذلك، وإياك أن تقول: أنا ما عليَّ من كلام العدو، فإن ذلك منك نقص عقل وقلة سياسة، والعاقل من دار مع الزمان وأهله، ولحق بلاحق اللاحق، ولم يتشبه بالأولياء الذي مضوا، فإنهم كان لهم كرامات وخوارق تحميهم من سماع الأمير الذي صحبوه لمن جرحهم من أعدائهم، وأما نحن فما ثم لأحدنا كرامة تحميه»، فالحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يكون يقظان حال سماعه لكلام اللغو مثلًا، وإذا جلس في مجلس ذكر أو قرآن أو علم، نعس في الحال، فلاث به الناس وقالوا: هذا يدل علىٰ انطماس البصيرة وموت القلب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لاحتمال أن يكون سبب نومه حصول الأمان له إذا دخل حضرة الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]. وأيضًا فإن نوم العبد في حضرة الله تعالىٰ أخلص له، فربما كان هذا الفقير لا يقدر علىٰ القيام بالأدب [مع الله تعالىٰ حال اليقظة، فإذا نام صارت الأرواح تقدر علىٰ القيام بالأدب، لضعف تعلقها بالجسم][1] لضعف تعلقها بالجسد وقوة تعلقها بالملأ الأعلىٰ، فكأنها صارت من الملائكة، فعُلِمَ أن النوم في حق الضعفاء عند سماع الذكر والقرآن أولىٰ، بخلاف الأقوياء، كما أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «الأخلاق» والله أعلم.

(١٤٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصبح ذابلًا نعسان عقب الليالي الفاضلة كليالي القدر، فيلحق الناس به ويلوثون به ويقولون: لو كان هذا صادقًا لأصبح يقظًا[2] مكحولًا سترةً لحاله، كما كان عليه السلف الصالح.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) بالأصلين: دهشًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون إنما أظهر النعاس والذبول لعلمه بأن هناك من يسيء به الظن وينسبه إلىٰ النوم في تلك الليالي الفاضلة، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن إظهار التناعس أولىٰ من إظهار النشاط وأرجح، لما فيه من حفظ الناس عن الوقوع في سوء الظن ببعضهم بعضًا، وهو في نفسه مع الله تعالىٰ علىٰ قدم الإخلاص ليس عنده التفات إلىٰ مدح الخلق ولا ذمهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵁ يقول: الفقير الكامل لا تكون حركاته وسكناته إلا تبعًا لرضا الشارع، فإن لم يرد في ذلك نص من قبل الشارع، كان بحكم اجتهاده، فربما أدىٰ اجتهاده إلىٰ أن إخفاء عبادته أفضل، أو إظهارها أفضل، فعمل بذلك، فلا ينبغي الاعتراض عليه، كما أن له أن يظهر العز تارة والذل أخرىٰ بحسب المواطن اللائقة بذلك، كما ورد في تحريم التبختر إلا في الحرب. فاعلم ذلك، واعمل علىٰ جلاء مرآة قلبك لتدرك الأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها، وتخرج عن التلبيس، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أهدىٰ أحد إليه لحمًا أو حلوىٰ أو طعامًا وخبزًا، فوقف عليه شخص شريف أعمىٰ يسأله لقمةً من ذلك، فقال: يفتح الله عليك، ولم يعطه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: حاشا أن يكون أحد من أولياء الله تعالىٰ يفعل مثل ذلك! كيف يدعي هذا المشيخة وهو لا يسمح لفقير أعمىٰ شريف بِضْعة من رسول الله ﷺ؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون علم من طريق كشفه أن ذلك الشريف ليس له نصيب في ذلك، أو كان ذلك الطعام من وجه غير مرضي، فنزَّه مقام الشريف أن يطعمه منه، أو كان الذي أهداها إليه حلف بالله أو بالطلاق أن الشيخ يأكلها -أي تلك الهدية- وحده، ولا يطعم أحدًا منها شيئًا، فخاف عليه الحنث، فقدَّمه علىٰ غرض ذلك السائل لأجل شرطه عليه ونحو ذلك، ولم يمنعه منها بخلًا وشحًّا في النفس، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا استعمل أحدًا من المجاورين في قضاء

حاجة وعوَّقه عن قراءة لوحه أو قراءة ورده، فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا: هذا لا ينبغي للشيخ، فقد قال القوم: «من أشغل مشغولًا بالله عن الله، أدركه المقت في الوقت».

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون علم من ذلك الفقير أنه لا يشتغل بتلك الحاجة عن الله عزَّ وجلَّ، لما هو عليه من شدة اليقظة وحياة القلب، أو لاحتمال أن ذلك الشيخ لا يستعمل أحدًا في حاجة تشغله عن الله عزَّ وجلَّ إلا أن يجعل له من عمله نصيبًا بقدر تلك العبادة التي فاتته، ويسأل الله أن يجعل ذلك في صحائف الفقير.

فإن قيل: قد تكون عبادة ذلك الفقير التي فاتته بالحاجة أصفىٰ وأخلص من عبادة الشيخ؛ **فالجواب:** هذا خلاف الغالب، فإن الغالب أن عبادة الشيخ هي التي تكون أصفىٰ وأخلص من عبادة المريد، وإنما الشيخ يهضم مقام نفسه في بعض الأوقات ويقول لإخوانه: إن عبادة هؤلاء الفقراء القاطنين عندنا أولىٰ في الإخلاص من عبادتنا، لعدم ذوقهم الرئاسة مثل ما ذقناها.

وهذا يقع لي كثيرًا، فربما استعملتُ أحدًا من الفقراء حال مجلس الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في خياطة جبَّة أو نحوها، فأجعل له نصيبًا من عبادتي، خوفًا أن يكون اشتغل عن ربه بذلك. فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الشيخ إذا استعمل أحدًا من مجاوريه إلا بعد معرفته بأحوال الشيخ ومريده، فقد يكون خاطر المجاور بذلك طيبًا، ولا يشتغل بذلك عن ربه، وإن وقع أنه أظهر للناس أن الشيخ يستعمله كرهًا أو بسيف [الحياء][1] لم يُصغَ إلىٰ قوله، **لأن المريد في مقام التلبيس من النفس والشيطان،** وكلام الشيخ وحاله يقضي عليه دون العكس، فهو كطفل غير مميز شكا إلىٰ والده من معلمه الدَّين الخيِّر، فلا يُلتفَت إليه.

وأيضًا فقد يكون الفقير الذي شكا من الشيخ إنما شكا شكوىٰ صورية حين خاف علىٰ شيخه العجب بحاله إذا خدمه الفقراء وعدم خدمته هو لهم، فأراد هذا الفقير أن

---

(١) ساقط من «ب».

يفتح لشيخه الضعيف الحال في الطريق باب المكافأة لمن خدمه، ورؤيته عدم استحقاقه لتلك الخدمة، ليجد في العبادة ويأخذ في التخلق بأخلاق الصالحين من زهد وورع وإيثار، حتىٰ يصير الناس يرون خدمته شرفًا لهم، ويتقاتلون علىٰ خدمته. وهذا يقع كثيرًا من الفقراء الحاذقين الذين ربَّاهم الشيخ، فربما طلع ولده يتمشيخ علىٰ المجاورين وطلب أن يخدموه كما كانوا يخدمون والده، مع نقص حاله عن حال والده في الزهد والورع والعبادة، فيريد أحدهم أن يفتح لولد شيخه باب الترقي في الدرجات وخدمة نفسه مادام لم يلحق بمقام الأشياخ الصادقين.

فإن قال قائل: إن [في] جعل الشيخ لذلك المريد الذي استعمله في الحاجة نصيبًا من عمله نسبة الإيثار بالقُرَب، وقد كره العلماء ذلك؛ **فالجواب:** ليس ذلك من الإيثار بالقُرَب، وإنما يكون كذلك لو أن الشيخ ترك العمل وقال له: اعمله أنت؛ علىٰ أن قصد الأشياخ من عباداتهم إنما هي مجالسة الله تعالىٰ فيها، وذلك قد حصل. وأما الأجر والثواب فليس هو المقصود عندهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخين اللذين اشتُهِرا في بلدهما بالعلم والصلاح والورع وغير ذلك، ومع ذلك فلم يزل كلٌّ واحد منهما يحط علىٰ الآخر وينقصه في المجالس ليلًا ونهارًا، ولا يكاد أحد يراهما مجتمعين في مكان واحد، بل إن دخل أحدهما مكانًا ورأىٰ الآخر فيه لم يدخله، فلاث الناس بهما وقالوا: إذا كان هذا حال العلماء والصالحين فما بقي أحدنا يلام علىٰ العداوة والبغضاء والشحناء لأهل حرفته وأقرانه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذين الشيخين، لاحتمال أن يكون كلٌّ منهما يحب الآخر أشد المحبة، وإنما يحط عليه وينقصه في المجالس خوفًا عليه من وقوع العجب منه بأعماله وأحواله من زهد وورع وعفة عن المحارم وغير ذلك، كما هو الغالب علىٰ كلِّ من مدحه الناس وأثنوا عليه واعتقدوه وقدموه في المحبة والاعتقاد والهدايا علىٰ جميع أقرانه.

وقالوا: من صغىٰ إلىٰ مدح الناس وثنائهم عليه، هلك في دينه ولا يشعر، وتقول له

نفسه: لو لا أنك من الصالحين ما أطلق الله الألسنة في مدحك والقلوب في اعتقادك، فإن هؤلاء كلهم لا يكذبون؛ فيصير بكلامهم لا يرىٰ في نفسه إلا الكمال دون النقص. وإن وقع أن أحدًا نقصه في مجلس وبلغه ذلك، ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وهذا عين الرياء والنفاق، فكان تنقيص كل واحد من هذين الشيخين جندًا من جنود الله عزَّ وجلَّ، لئلا يُعجَبا بأنفسهما.

وأما عدم اجتماعهما في مجلس واحد، فلا يجوز حمل كل واحد منهما علىٰ العداوة والبغضاء، فقد يكونان في غاية المحبة لبعضهما بعضًا، وإنما لم يجتمعا مخافة أن كلَّ واحد يقع في التزين بحاله وأعماله لصاحبه إما تصريحًا وإما تعريضًا. ومن شك فليجرب، أقل ما في ذلك أن عمل كل منهما يخرج من ديوان السرِّ ويدخله الرياء، كما شاهدنا ذلك من أنفسنا ومن غيرنا، فإن إبليس بالمرصاد لخواص هذه الأمة فضلًا عن أمثالنا!

وقد شاهدتُ من أخي أفضل الدين الحطَّ علىٰ كلِّ من اشتُهر بصلاح أو زهد أو كثرة عبادة ويقول: إني والله أحبه وأعظِّمه، وأرجحه عليَّ في الفضل، ولكن أخاف عليه من رؤية نفسه فيعجب بحاله، ويرىٰ نفسه أفضل من غيره ولو خطورًا علىٰ البال، فيهلك في دينه. وكان يقول: من أكثر من مدح أخيه في المجالس فهو من أعدىٰ عدو له في دينه. وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: عدوك الظاهر يصيبك في ظاهرك، وصديقك الظاهر يصيبك في باطنك، ولعدو يبصرك بعيوبك خير من صديق يستر عليك عيوبك. انتهىٰ.

وسمعتُه مرارًا يقول: إياك والميل إلىٰ من لقولك يسمع، ولفضلك ينشر، فإنه عدو لك في صور صديق. انتهىٰ. ولم يزل الأكابر يخافون من مدح بعضهم ومن الاجتماع، فإياك أن تحمل أحدًا من العلماء والصالحين علىٰ المحامل السيئة إذا رأيتَ كلَّ واحد منهما حطَّ علىٰ أحد من أقرانه في هذا الزمان، أو يدخل وليمة فيرىٰ أخاه هناك فيرجع، أو يجلس بعيدًا عنه، فإنه أخذ بالاحتياط لنفسه ولأخيه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جعل له مجلس علم أو ذكر أو قراءة ورد،

وصار يجاهد في أصحابه ويأمرهم بالحضور إلىٰ ذلك المجلس، وكلُّ من تأخر عنه يظهر له العبوسة، وربما هجره، فلاث به الأقران وقالوا: هذه مشيخة معمولة! وأيش قام علىٰ مثل فلان أن يعمل له مجلسًا ويصير يكره المسلمين إذا لم يحضروه؟! وكان الواجب علىٰ هذا أن يصبر عن المشيخة حتىٰ يقع له الإذن من الله تعالىٰ في مثل ذلك، ويجعل الخلق يحضرون مجلسه من داعية نفوسهم، ويحبونه من غير بر ولا إحسان، كما عليه الأشياخ الماضون، ولكن حب الرئاسة قلَّ أن يتركه أحد في هذا الزمان.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ ولا حمله علىٰ الرئاسة، لاحتمال أن يكون الحقُّ جلَّ وعلا خلَّصه من رعونات النفوس، ومن حب الرئاسة، وإنما يحث أصحابه ويظهر لهم العبوسة إذا تخلفوا عن مجلسه محبةً في حصول الخير لهم، بقطع النظر عن كون ذلك علىٰ يديه هو، ومحبةً في رضا الله تعالىٰ ورسوله عنهم بإظهار تمجيده تعالىٰ وتحميده وتسبيحهم له وتهليلهم، ولو وقع أن أحدًا اطلع علىٰ باطن هذا الشيخ، وأنه إنما يحثهم علىٰ حضور مجلسه محبة في الرئاسة، فيجب علىٰ هذا المكاشف ستره في ذلك، كالعورة الظاهرة علىٰ حد سواء، ثم يجب عليه نصحه فيما بينه وبينه، لئلا يفوته النصح، ويقول له: إن الله تعالىٰ مطلع علىٰ السرائر والضمائر، فإذا رأىٰ في قلب عبد أنه إنما يحث عباده علىٰ ذكره محبةً فيه تعالىٰ، رفع درجته علىٰ أقرانه في الدنيا والآخرة واصطفاه؛ لعله يتنبه لنفسه. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا علىٰ تحصيل حسن الظن بأهل عصركم، لئلا تحرموا بركتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون يقرأ في القرآن ويذكر الله تعالىٰ أو يناجيه في دعاء خارج الصلاة، فيمر علىٰ قلبه حكمة، فيترك تلك القراءة أو المناجاة مثلًا، ويكتب تلك الحكمة، فلاث به بعض الناس وقال: تلاوة القرآن مثلًا أفضل من كتابة تلك الحكمة، لأن في كتب السنة ما يغني عنها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب ذلك، لأنه في محلِّ الاجتهاد في ترجيح الأعمال، فربما رأىٰ أن معرفة تلك الحكمة المأخوذة من القرآن أنفع للناس من

تلاوته هو القرآن أو مناجاته لربه من حيثُ تعدي نفعها إلىٰ الغير، فإن ذلك أنفع وأفضل من العمل القاصر.

وقد كان الإمام الشافعي إذا مرَّ علىٰ قلبه حُكْمٌ حال تلاوته للقرآن من طريق الاستنباط، يقطع القراءة ولو في قيام الليل، ويكتب ذلك الحكم. وقد وقع أن الإمام أحمد بن حنبل كان يمدح الإمام الشافعي كثيرًا بين أهله، فبات الإمام الشافعي عنده ليلة، فاستلقىٰ علىٰ ظهره إلىٰ الصباح والإمام أحمد يصلي طول الليل، فقالوا له: أين ما كنتَ تمدحه في هذا الرجل ونحن لم نره يتهجد من الليل شيئًا؟! فقال لهم الإمام أحمد: قد استنبط الليلة من القرآن سبعين حكمًا، كلُّ حكم أفضل من قيامي أنا طول ليلتي. انتهىٰ.

وقد يعطي الله تعالىٰ الشيخ القوة علىٰ كتابة تلك الحكمة حال تلاوته للقرآن أو الذكر، فلا تشغله الكتابة عن التلاوة، ولا التلاوة عن الكتابة، كما كان عليه الشيخ يوسف الحريثي، فقد رأيتُه يكتب في كتب العلم وهو يتلو القرآن، ويسمع للأطفال القرآن، ويرد عليهم اللحنة والغلطة، ولا يشغله شيء عن شيء بإقدار الله تعالىٰ له علىٰ ذلك من طريق خرق العادة، فاعلم ذلك، واعمل علىٰ تحصيله، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذهب إلىٰ بيت أمير ليعلمه العلم، فلاث به الأقران وقالوا: قد أهان هذا العلم، وكان الواجب عليه أن يأمر الأمير بالحضور إلىٰ بيته هو، فإن العلم يُسعَىٰ إليه، ولا يسعىٰ هو إلىٰ الطالب، وقد امتنع الإمام مالك من الذهاب إلىٰ تعليم ولد أمير المؤمنين وقال: لا أُذِل العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم بسبب ذهابه إلىٰ بيت ذلك الأمير، لاحتمال أن يكون اطلع علىٰ حسن نية الأمير في طلب العلم وتعظيمه له، وإنما منعه عن الذهاب إلىٰ بيت العالم اشتغاله بأمور المسلمين من قضاء حوائجهم عند السلطان وغيره. وقد كان سفيان الثوري ﵁ يقول: لو علمتُ من أحد حسن نيته في العلم، وعدم ازدرائه لي إذا ذهبتُ إليه، لذهبتُ إلىٰ بيته وعلمتُه له. انتهىٰ. وبالجملة فقد تغيرت المراسمُ في

هذا الزمان، وصار الناس لهم أعذار لا ينبغي شرحها، لاسيما من له عيال كثير وهو فقير، وذلك الأمير يحسن إليه بالطعام والكسوة، فاعلم ذلك، واعذر الناس بما تعذر به نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقدِم للأمير العسل النحل إذا جاءه زائرًا، ويقدِم للفقير المِلْح أو الصعتر، فلاث به بعض الناس وقالوا: لو عكس هذا كان أفضل، فإن إكرام الفقير إنما هو لله، وإكرام الأمير إنما هو للدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون علم من الفقير الزهد في مطاعم الدنيا التي لا ضرورة إليها، فخاف إن أخرج له عسل نحل أن يتكدر بسبب ذلك، لأنه إن أكله نقص مقامه؛ وإن رده وامتنع من أكله، أظهر مقام فقره الذي كان يكتمه، فلذلك أخرج له ما يحبه ويرضىٰ به عن ربه. وأما الأمير فإنه في مقام التأليف، ليميل إلىٰ الشيخ بالمحبة، ويصير يقضي حوائج الناس علىٰ يده، ولو أنه أخرج له مِلْحًا لربما نفرت نفسه منه، ولم يحصل بينه وبين الفقير ائتلاف، وعلىٰ ذلك درج أشياخنا ﭫ.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي إذا زاره واحد من الولاة وحاشيتهم يقبل عليهم بالبشاشة والترحيب، ويضمهم إلىٰ صدره، وإذا زاره فقير لم يلتفت إليه كل ذلك الالتفات، فقالوا له في ذلك، فقال: إن الولاة وحاشيتهم يظلمون الناس، ونحتاج إلىٰ الشفاعة في المظلومين عندهم، فهو يحتاجون إلىٰ التأليف، بخلاف الفقير، فإن محبته لنا ثابتة لا يحوجنا إلىٰ تأليفه. فاعلم ذلك يا أخي، وتعلم الأجوبة عن المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالاكتحال بالمِلْح، وضربهم نفوسهم الضرب المبرِّح كلما أخذهم النوم، فلاث به المتشرعون وقالوا له: هذا الفعل حرام! ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ أمر به أحدًا من أصحابه، بل روي أنه رأىٰ حبلًا في سقف لبعض زوجاته، فقالت: هذا حبل أتعلق به إذا أخذني النوم في صلاة الليل، فقال لها

ﷺ: «اكْلُفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتىٰ تملوا»(١).

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب ما يأمر به أصحابه، لأنه في مقام الاجتهاد فيما يقرِّب عليهم الفتح. وقد أجمعوا علىٰ أن الطريق لا تُنال إلا بشدَّة الجَهْد، ومن طلبها بالرخص فاتته، وقالوا: الطريق إلىٰ الله عزيزة لا تعطيك بعضها إلا إن أعطيتَها كلَّك.

فإن قيل: فما يشهد بذلك من القرآن؟ فالجواب: يشهد له قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فأوقف هدايتهم إلىٰ طريق معرفته علىٰ حصول المجاهدة، وكذلك يشهد له قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ [فاطر: ٣٢] أي بالعمل بما يشق عليه من الأحكام التي في القرآن مما هو فوق مقامه، ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ ﴾ أي يعمل بقدر طاقته، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ أي لا يجد للملل من الأعمال الصالحة طعمًا، كأكابر الأولياء الذين صاروا يتلذذون بالطاعات التي تشق علىٰ غيرهم، هكذا رأيتُه لبعض العارفين، وقال: ليس المراد بمن ظلم نفسه من يقع في المعاصي، فإن ذلك لا يسمَّىٰ مصطفىٰ. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ مجاهدات الفقراء لنفوسهم، فإنها قليل في حصول مرضاة الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي وصوله إلىٰ مقام الكمال في الإيمان، وأنه صار يحب لإخوانه المؤمنين مثل ما يحب لنفسه علىٰ حد سواء، ثم إنه حصل له مرتب في الجوالي مثلًا، فطلب واحد من إخوانه منه أن يشركه معه في تلك الجوالي فأبىٰ، فلاث به الناس وقالوا: هذا يكذِّب دعواه كمال الإيمان وأنه يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه كما سمعناه منه مرارًا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث به، فربما كُشِفَ له أن ذلك الأخ لم يقسم الله تعالىٰ له نصيبًا في تلك الجوالي، ومع ذلك فهو كان يود أن الله تعالىٰ كان يقسم له

(١) تقدم تخريجه.

منها شيئًا أو يعطيه نظيرها، وهذا لا يقدح في كمال الإيمان. وربما كان سبب كونه لم يعطه شيئًا من الجوالي ظنه فيه أنه لا يحب الأكل من معلوم، لكثرة محبته في التجرد عن الدنيا وإمساكها، فعامله بما يحب.

فإن قيل: هذا الجواب واضح إذا لم يطلب أخوه منه ذلك، وفرض المسألة أن أخاه طلب منه أن يشركه معه في تلك الجوالي؛ **فالجواب**: أنه يُحتمَل أنه يعرف من أخيه التنزه عن الدنيا ومحبة من يصده عنها، وربما طلب منه الشركة في الجوالي سترًا لمقامه بين المحجوبين، لا بينه وبين أخيه. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة للإنكار على الفقراء إلا بعد معرفتك بأحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي مقام كمال الزهد في الدنيا، ثم إنه وقع أن الولاة رتبوا له جوالي أو أعطوه رِزْقة مثلًا، ففرح بذلك وظهر السرور والانشراح عليه خلاف ما كان الناس يعرفونه منه قبل أن يحصل له ذلك، فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا: فرحك بالدنيا يناقض مقام الزاهدين فيها، فإن من شرط الزاهد في الدنيا الانقباض والعبوسة في وجهه إذا دخلت عليه الدنيا، لشدة نفرته منها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون إنما أظهر الفرح والسرور لشهوده أن ذلك العطاء من الحقِّ تعالىٰ لا من الخلق، فهو زاهد في الدنيا بقلبه، مظهر للسرور بجسده، اعترافًا بنعم الله تعالىٰ عليه. وفي كلام صاحب الحكم ﵀: «العبَّادُ إذا مُدِحُوا انقبضوا، لشهودهم ذلك المدح من الخلق، والعارفون إذا مُدِحُوا انبسطوا، لشهودهم ذلك من الملك الحق». انتهىٰ، وهو يؤيد ما ذكرناه من الجواب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إذا تمكن الزاهد في مقام الزهد، صارت الدنيا تنفر منه، ولا تحوجه إلىٰ نفرته هو منها، وذلك لأنها لا ترىٰ لها محلًا في قلبه حتىٰ تدخل عليه. وكان ﵀ يقول كثيرًا: اللهم اجعلنا ممن تزهد فيه الدنيا، ولا تجعلنا ممن يزهد هو فيها. فقلتُ له يومًا: كيف ذلك؟ فقال: إذا زهدنا نحن فيها، فلا بد لنا من بقية

ميل يكون عندنا لها، بخلاف ما إذا زهدت هي فينا، فإن زهدها فينا يدل علىٰ أنها لم تجد فينا بقية ميل إليها. انتهىٰ.

ويُحتمَل أن يكون إظهار الفرح والسرور من هذا الشيخ طلبًا لستر حاله بين الناس، لئلا يتميز عن أقرانه الذين يفرحون بالدنيا، مشيًا علىٰ قواعد السلف الصالح في سترهم أحوالهم عن الخلق، ثم إنهم يفرِّقون ما يدخل عليهم من الدنيا علىٰ المحاويج، ولا يأخذون لأنفسهم منه شيئًا سوىٰ غداء ذلك اليوم أو عشائه فقط.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله من أشد الناس كتمًا لأحواله، فقلتُ له يومًا: ألا تظهِر حالك للناس ليقتدوا بك فيه، فيحصل لك الأجر؟ فقال: ليتنا نخرج رأسًا برأس! وليس مثلنا أهلًا لأن يُقتدَىٰ به، لغلبة الحظوظ النفسانية علينا، ولا يُطالَب بالأخذ بيد أخيه من الغرق إلا من أَمِن من الغرق، وإلا غرقا إذا تعلقا ببعضهما بعضًا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي له عادة بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في تولية الأمراء ومشايخ العرب، ويجيبه الحق تعالىٰ إلىٰ ما طلب، فتوجه يومًا في تولية أمير أيامًا، فلم يجبه الحق تعالىٰ إلىٰ ما طلب، فلاث الناس به وقالوا: ما لهذا وللدخول بين الله تعالىٰ وبين عباده مع جهله وعدم كشفه بأن تلك الولاية معلَّقة علىٰ توجهه هو إلىٰ الله فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون المانع من عدم إجابة الشيخ إلىٰ ما طلب إشراك ذلك الأمير أحدًا مع الشيخ، لا عدم صدق الشيخ وعدم كشفه، فإن الشركة في مثل ذلك مجرَّبة في عدم قضاء الحاجة، كما قاله سيدي علي بن وفا رحمه الله قال: وسبب ذلك أن الفقراء علىٰ مدرجة المشي علىٰ الأخلاق الإلهية، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨] فأخبر تعالىٰ أنه لا يغفر أن يشرك به. فافهم، والله تعالىٰ أعلم.

(١٢١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أعطاه الولاة شيئًا من المرتبات والجوالي

بغير سؤال منه فأخذه، ولاث به الحذاق من الفقراء وقالوا: إنما أعطاه الولاة ذلك لطلبه ذلك بالباطن، ولو أنه كان صادقًا في ترك الدنيا لدفعها عنه بالقلب، ولكن إبليس لبَّس عليه حاله وأتلفه، وعجَّل له ثواب أعماله الصالحة التي عملها طول عمره في الدنيا، فإنه لولا أظهرها للناس حتىٰ اعتقدوه، ما رتبوا له مرتبًا أبدًا كغيره من العوام، فقد رجع ثواب عمله طول عمره إلىٰ الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون قلبه لا يميل إلىٰ الدنيا، ولكن الله تعالىٰ استخلفه في إنفاق ذلك المال، لما علم من حسن سياسته ومعرفته بالأماكن التي ينبغي الإنفاق فيها دون غيرها، بل ولو قُدِّر أنه سأل الولاة ذلك، فلا حرج عليه، لاحتمال أن يكون يعلم من نفسه أنه أعلم بمواضع إنفاقها من غيره، فقصد بذلك نفع نفسه ونفع صاحب المال بالأجر العظيم.

فعُلِمَ أن من القوم من يختار دفع الدنيا من يده كما هي مدفوعة من قلبه ولا يجبها[1]، ومنهم من يختار استجلابها بالنية الصالحة في القسمين[2]. فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل القوم علىٰ محامل سيئة قياسًا علىٰ حالك أنت، فإنك ربما دفعت الدنيا ليُقال، وأخذتها شرهًا ومحبةً فيها وادخرتها ولم تسمح بإنفاقها لا علىٰ نفسك ولا علىٰ غيرك، وكنتَ مذمومًا في الحالين عكس حال القوم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي رسم أمير له بفلوس ليفرقها علىٰ فقراء البلد، فعلم بذلك شخص من أقرانه، فذهب إلىٰ الأمير وقبَّل رجله وقال: ما يفرِّق هذا المال إلا أنا؛ فرسم له الأمير بذلك ومنع الأول، فلاث الفقراء بالشيخ الثاني وقالوا: ما كان ينبغي له أن يزاحم أخاه علىٰ مثل ذلك، ويخل بمقام أخيه عند الأمير وينسبه إلىٰ الجهل بالإنفاق أو خوف اختلاس شيء من ذلك المال لنفسه، وإلا فلو كان يعتقد في أخيه أنه أعرف منه وأدين وأزهد لما كان زاحمه.

---

(١) أي ولا يستجلبها، وهي من الكلمات التي تركناها علىٰ حالها لغلبة الظن أن الإمام يحكيها بالعامية المصرية.

(٢) أي قسم استجلابها باليد، أو قسم استجلابها بالقلب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون قد علم من نفسه أنه أعرف بالمستحقين لذلك المال ومن هو مقدَّم في العطاء لكثرة ما عليه من الدَّين، أو لما عنده من كثرة العيال، فكان في ذلك احتياط لدين أخيه، ثم إنه بعد ذلك يجعل ثواب فعله في صحائف أخيه الذي كان الأمير رسم له بأنه يفرِّق ذلك المال، حتىٰ لا يضيع لأخيه أجر، كما عليه الفقراء المتمكنون الذين هم عبيد الله لا عبيد الثواب.

وكثيرًا ما رأيتُ أخي أفضل الدين يزاحم علىٰ تفرقة صدقات الناس وهداياهم، ويطلب أن يكون هو الفاعل لذلك، فقلتُ له يومًا: لِمَ تزاحمون علىٰ مثل ذلك مع غناكم عن الدنيا؟ فقال: إني أعرف بالمواضع التي تكون أرجح في ميزان صاحب ذلك المال من غيري، فإنه إذا أعطاني أحد جوخة أو مُضَرَّبَة مثلًا لا ألبسها إلا إن كنتُ أحوج من سائر الفقراء الذين أعرفهم في البلد، فإن كان غيري أحوج دفعتُها إليه وجعلتُ ثواب ذلك في صحائف صاحب تلك الصدقة أو تلك الهدية وإن كان ملَّكني إياها، فكما قصد نفعي فكذلك ينبغي لي أن أقصد نفعه، فانظر يا أخي هل يهتدي غالب الناس إلىٰ مثل هذا الأمر؟ فقلتُ له: هذا أمر لا يهتدي غالب الناس له، فإذن لكم المزاحمة علىٰ تفرقة أموال الناس وقبولها منكم لأنفسكم[1]. انتهىٰ.

وقد فعلتُ أنا بذلك مرارًا مع أخي العبد الصالح سيدي جلال الدين التاجر بخان الخليلي[2]، فأعطاني عدة أثواب فأقبلها منه ثم أدفعها لمن يكون أحوج إليها مني، ثم أجعل ثواب ذلك له لا لي، لأني لا أرىٰ لي ملكًا مع الله تعالىٰ في الدارين، وجميع ما يمنحني من الثواب في الآخرة هو ملكه تعالىٰ، فأنا آكل وأشرب وألبس وأسكن في الدنيا والآخرة من مال ربي وفي داره. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، ولا تعترضوا علىٰ الفقراء إلا إن كنتُم أعلم منهم بأمور الدنيا والآخرة، وأعرف بدسائس النفوس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أي إن كنتم أحوج إليها من غيركم.

(٢) خان الخليلي: أحد أسواق القاهرة، وما زال قائمًا إلىٰ الآن بالقرب من مسجد سيدنا الإمام الحسين.

(١٢١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حكىٰ له شخص حكاية عن شخص من أقرانه، فقال: لو خرج منك ريح في مجلس لكان أطهر لمجلسنا من ذكر اسم فلان؛ فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا عين ازدرائه لهذا الشخص، ولا يخفىٰ تحريم ذلك، فإنه جعل الحدَث أفضل من ذكر اسم أخيه، وربما كان اسمه عبد الله أو محمد ونحو ذلك.

والجواب: أنه لا يخفىٰ بشاعة هذا اللفظ، ولكن لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد الفحص عن حاله، فربما كان هو وأصحابه في حال جمعية قلب في حضرة الله تعالىٰ، فلما سمعوا تلك الحكاية عن أخيهم، فرَّقت قلوبهم عن تلك الجمعية، ولا شك أنه لو كان أخرج ريحًا مثلًا، لكان أطهر[1]، لأن الريح لم يكن يحصل لهم منه تفرقة قلب، وفي الحديث: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[2] أي غير الاشتغال به فيه. ولا ينبغي حمل الشيخ علىٰ أنه قصد بذلك القول احتقار ذكر اسم أخيه وازدراءه، فإن ذلك بعيد عن مقام الأشياخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاره أمير وعند أطفال وأيتام ووجوه من الناس، وأجلس الأمير علىٰ السماط بين الأطفال بعد أن كان جلس مع الفقهاء والتجار مثلًا، فلاث به الحاضرون وقالوا: في إقامة الأمير من بين وجوه الناس وإجلاسه مع العميان والأطفال ازدراؤه وتنفير لقلبه، لاسيما إجلاسه بين أولاد الفلَّاحين، وكان الأولىٰ للشيخ أن لا يفعل مثل ذلك، لأن مثل هذا الأمير إنما يليق بالشيخ أن يؤلِّفه بالإكرام والتعظيم لأجل قضائه حوائج الناس عنده، وقبول شفاعاته فيهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له حال يحمي به ذلك الأمير من النفرة، أو من عدم قبوله شفاعته في المظلومين مع ذلك الفعل الذي فعله معه. ويُحتمَل أنه إنما فعل ذلك مع الأمير لما رآه عنده من الكبر والصلف، فأراد أن يكسر نفسه

---

(١) بالأصلين: آخر. والصواب ما أثبتناه.

(٢) تقدم تخريجه.

بذلك. وقد كان سيدي يوسف العجمي يرمي عمامة الأمير شيخون ويضع البردعة علىٰ ظهره ويركبه، لما يعلم من حسن خلقه، أو ليمرِّنه علىٰ خرق الناموس ونحو ذلك، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي حضر مجلس ورده أمير ساكن في حارة أحد من أقرانه الذين لهم مجلس ذكر في زاويتهم، ففرح بذلك وأظهر السرور، فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا: كان ينبغي لهذا الشيخ أن يحسِّن اعتقاده في ذلك الشيخ الذي في حارته، ويأمره بحضور مجلسه، قيامًا بواجب حق أخيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بإظهاره الفرح والسرور الذي صار ذلك الأمير يحضر مجلسه ويترك مجلس الشيخ الذي في حارته [لاحتمال أن يكون رأىٰ أنه لا نصيب له في حصول خير علىٰ يد الشيخ الذي في حارته][1] ففرح بحضوره عنده، ثم إنه يجعل ثواب ذلك المجلس في صحيفة أخيه الذي في حارة الأمير، وفاءً بحقِّه حيثُ كان هو سببًا لحضور ذلك الأمير مجلسه دون مجلس أخيه لئلا ينقص له أجر، فإن الأولىٰ لذلك الأمير أنه كان يحضر مجلس الشيخ الذي في حارته، قياسًا علىٰ حديث: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[2]، فكان فرح الشيخ بحضور الأمير مجلسه إنما هو بحصول الثواب للأمير ولذلك الشيخ، ولو أنه حضر مجلس غيره من الفقراء لربما كان لا يهتدي أن يجعل ثواب ذلك الورد الذي حصل للفقير بحضور الأمير في صحائف الشيخ الذي في حارته، أو كان يفوته حضور مجلس آخر أصلًا، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يرد علىٰ الناس ما يعطونه له من النقود والثياب وغيرهما طول عمره، ثم صار يأخذ من الناس كلَّ ما يعطونه له، وربما سألهم

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الدارقطني(١٥٥٣)، والحاكم (٩٠١)والبيهقي في «السنن» (٤٩٤٢).

الدنيا وتكدَّر إن لم يعطوه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: نعوذ بالله من سوء الخاتمة! ولو أن هذا الشيخ مات قبل أن يحصل له ذلك، لكان أفضل.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، بل يجب حمله علىٰ أنه يرقىٰ إلىٰ مراتب الكُمَّل من الأولياء، وصار يستر حاله عن الناس بقبوله هداياهم أو سؤاله لهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵁ يقول: ربما لاث الناس بالشيخ الذي كان الأمراء والأكابر يترددون إليه ويعرضون عليه الأموال فيردها، وكان كثيرًا ما يغلق بابه ولا يفتح لأحدهم، ثم صار يذهب إلىٰ بيوتهم ويسألهم الدنيا، فلا يأذنون له ولا يعطونه ما سأل، فيصير ملقًىٰ علىٰ أبوابهم كأراذل الناس، فظنَّ غالب الناس أنه سُلِبَ حاله، والحال أنه ترقىٰ إلىٰ مراتب الكمال في ستر حاله عن الناس، فصورته صورة محب الدنيا، والقصد مختلف[1]، ولاشك أن أخذه الدنيا سترًا لحاله أولىٰ من رده وتميزه علىٰ الأقران لما لا يخفىٰ. وأما عدم إذنهم له في الدخول وعدم إعطائه ما سأل فهو من أكبر علامات الزهد في الدنيا وصدقه فيه، فصار يدفع الناس والدنيا بقلبه، ويطلبهما بلسانه وظاهره.

وكان علىٰ هذا القدم سيدي يوسف العجمي ﵁، فكان يطوف شوارع مصر كل يوم يسأل للفقراء القاطنين عنده بزاويته بالقرافة، فلا يكاد أحد يعطيه شيئًا، ثم إذا خرج أحد غيره من الفقراء يسأل، يأتي بالحمار محمَّلًا خبزًا وجُبْنًا وبصلًا وغير ذلك، فقالوا له في ذلك، فقال: أنا شخص فنيت بشريتي، فما بقي بيني وبين الناس مناسبة، فنفروا مني بدنياهم، بخلاف المريدين فإن بشريتهم باقية. انتهىٰ. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء إلا بعد مجاوزة مقامهم في العلم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقبِّل يد الولاة ويسألهم الدعاء، فلاث به بعض الناس وقالوا: في هذا استهانة بالخِرْقَة وأهلها، فإن اللائق إنما هو أن يكون الأمر بالعكس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون في مقام المحو لشهود

(١) راجع الجواب (٨٣٢) ففيه تفصيل مفيد حول مشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد.

كمالاته كلِّها، فصار يرىٰ كمالات الناس ويعمىٰ عن مساوئهم، ومن كان كذلك فالناس كلهم عنده أفضل منه، فله تقبيل يدهم وسؤال الدعاء منهم. وقد كان سفيان الثوري إذا رأىٰ أحدًا من حاشية الولاة يسأله الدعاء، فقيل له في ذلك، فقال: ظننتُ أن الله تعالىٰ غفر له ذنوبه دوني. انتهىٰ.

وممن علمتُه علىٰ هذا القدم من العلماء الآن الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي والشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي وجماعة ذكرناهم في كتاب «الطبقات» فكل الناس عندهم مغفور لهم وأفضل منهم.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﷺ يقول: من الفقراء من حجبه الله تعالىٰ عن رؤية مساويء الخلق جملة، لدوام كونه في حضرة الله تعالىٰ مع الملائكة والأنبياء والأولياء، ومعلوم أنه **لا يرىٰ مساويء الناس إلا من خرج من حضرة الله إلىٰ حضرة الشياطين**، وصاحب هذا المقام هو الذي سَلِمَ من سوء الظن بالناس، وسَلِمَ من ازدرائهم واحتقارهم.

[دفع توهم التعارض بين العمى عن مساويء الخلق وبين نصحهم وإرشادهم]

فإن قيل: ما ربحه هذا من جهة عماه عن مساويء الخلق خسره من جهة عدم نصح الناس وإرشادهم، لأنه لا يرىٰ فيهم عيوبًا[1]؛ **فالجواب**: ما ثم خسران من جهة عدم رؤيته مساويء الناس؛ لأنه قد يكون له عينان: عين ينظر بها إلىٰ محاسن الخلق، فيراهم أفضل منه، وعين يرىٰ بها مساوئهم، فيأمرهم وينهاهم من غير ازدرائهم، كما عليه الأكابر من العلماء بالله تعالىٰ.

وكان أخي أفضل الدين يقبِّل أيدي المباشرين والمُعلِّمين كالطباخين والخياطين والمقدَّمين في بيت الولاة وطريق الحج، ويسألهم الدعاء ويقول: هؤلاء عليهم مدار الملك[2]، فكما لا يكمل الكون إلا بوجود العلماء والصالحين، كذلك لا يكمل

(١) بالأصلين: عبورًا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: الملوك.

[الملك][1] إلا بوجود أصحاب الحرف النافعة. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي له قدم في الطريق، وصار يزور المريدين الذي تمشيخوا بغير شيخ ويقبِّل أيديهم وأقدامهم، ولا يقول أحدهم: استغفر الله تعالىٰ يا سيدي، بل يدعه يقبل رجله وهو ساكت، فلاث الناس بهما وقالوا: أما الشيخ القديم الهجرة فإنما فعل ذلك استهزاء بذلك المتمشيخ وضحكًا علىٰ لحيته، أو أنه سُلِبَ حتىٰ صار يقبِّل رجل مثل ذلك المتمشيخ. وأما المتمشيخ فما كان ينبغي له أن يمكِّن الشيخ الذي هو مثل والده في الطريق يقبِّل رجله.

والجواب عن الأول: أنه لا ينبغي اللوث به بسبب تقبيله رجل المتمشيخ، ولا حمله علىٰ الاستهزاء به أو السلب لحاله هو، وإنما يجب حمله علىٰ أنه رأىٰ ذلك المتمشيخ عنده بعض كبر، فأراد أن يعلمه التواضع، أو أنه ظنه أحسن حالًا منه وأقل ذنوبًا، فقبل رجله [تبركًا][2] ببركاته.

وأما الجواب عن الثاني: فلا ينبغي اللوث به في تمكينه الشيخ من تقبيل رجله، لاحتمال أن يكون قد غلب عليه التبرك بإحساس الشيخ يديه بفمه، وغفل عن كون ذلك سوء أدب لدهشته منه، فحُجِبَ بقوة التعظيم للشيخ والتبرك بيديه عما في ضمن ذلك عن سوء الأدب، فخلط عملًا صالحًا، وآخر سيئًا ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] و«عسىٰ» من الله واقعة بلا شك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تلقن علىٰ من هو دون تلامذته من المتمشيخين في عصره من تلامذة أقرانه أو غيرهم، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق فعله من الأشياخ، لأنه كالاستهزاء بذلك المتمشيخ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون الشيخ رأىٰ مقام ذلك الفقير أعلىٰ من مقامه، أو أراد أن يرغِّب الناس في الأخذ عنه حين أدىٰ اجتهاده إلىٰ ذلك، وقد يكون سبب تلقينه عليه ما رآه عنده من الكبر، فأراد أن يتلمذ له ويسارقه بالرياضة والتربية شيئًا فشيئًا حتىٰ يخرجه عن ذلك الكبر. وقد فعلتُ أنا بذلك مع بعض من برز في عصرنا هذا، مع قلة بضاعته في الطريق، والأعمال بالنيات، فاعلموا ذلك، وإياكم والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكشف له علىٰ ما يقدره[1] الله تعالىٰ علىٰ بعض الأكابر من المعاصي أو التهم مما يقبل النقل من سائر المعلَّقات، فيتوجه إلىٰ الله تعالىٰ ويسأله أن يحوِّل ذلك إليه، ويرزقه القوة علىٰ تحمله، فلاث به بعض الناس وقالوا: مثل هذه الأمور لا تليق بمن جعله الله تعالىٰ قدوة، فإنها تنفر قلوب الخلق عنه، فما حصله من الأجر من جهة تحمله البلاء عن الناس، خسره من جهة قلة نفع الناس به.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له حال يحميه من نفرة الناس منه بسبب وقوعه في تلك المعصية أو في تلك التهمة، كما عليه الأكابر من المَلامتية[2]. ويُحتمَل أن يتحمل تلك المعصية أو تلك التهمة ولا يشعر به أحد مطلقًا.

فإن قيل: فهل يجب علىٰ هذا الشيخ التوبة من تلك المعصية التي حملها عن ذلك الشخص؟ **فالجواب**: نعم عليه التوبة كما كانت تجب علىٰ ذلك الشخص لو لم يسبق في علم الله أن أحدًا يتحملها عنه، والله أعلم، ويُسمَّىٰ هؤلاء المتحملون لتلك المقدرات

---

(١) بالأصلين: يذره.

(٢) الملامتية: هم الذين لم يظهروا مما في بواطنهم علىٰ ظواهرهم، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الإخلاص، ويضعون الأمور مواضعها حسبما تقرر في عرصة الغيب، فلا تخالف إرادتهم وعلمهم الحق تعالىٰ وعلمه، ولا ينفون الأسباب إلا في محل يقتضي نفيها، ولا يثبتونها إلا في محل يقتضي ثبوتها؛ فإن من رفع السبب من موضع أثبته وأضعه فيه، فقد سفه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه في موضع نفاه، فقد أشرك وألحد، وهؤلاء هم الذين جاء في حقهم: أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري. «التعريفات» للجرجاني (ص١٩٢).

المعلَّقة «رجال الرحمة». واجتمعتُ منهم بشخص كان يبيع الحشيشة في باب اللوق[1]، وكان كلٌّ من أخذها من يده يتوب من وقته ولا يعود يبلعها إلىٰ أن يموت، وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص يرسلني إليه في الحملات الثقيلة فيقوم بها.

ومما وقع له أنه قال لأصحابه يومًا: إن القاضي فلان يقع في تهمة بجارية، وأنا أخاف أن يسيء الناس ظنهم بأمثاله، ومقصودي أتحملها عنه لله تعالىٰ. فقالوا له: افعل. فقال: وينبغي أن تحضروا معي حين يدعوني أهل الحارة إلىٰ مجلس حكمه، وتسمعوا ما يقوله فيَّ من التوبيخ، ومن قوله: يا شيخ النحس! أيش خليت لآخرتك؟! ولا يعرف ما حملتُه عنه، فكان الأمر كما قال! فصار القاضي يوبِّخه ويقول: يا شيخ السوء! بعد أن شابت لحيتك بقي يليق بك أن تولِّف الجواري، والشيخ يبتسم ولا يعرف بذلك غير أصحابه. انتهىٰ.

وهذا الشيخ هو من تلامذة الشيخ الذي سلب الشيخ سراج الدين البلقيني لما أنكر عليه، ووضع علمه في قلب الديك الدجاج، ولما تاب البلقيني أمره بأن يذبحه ويأكل قلبه، فيرد عليه علمه ﷺ. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأولياء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بالغ في نصح جماعته، فلم يستمعوا إلىٰ نصحه، فقال لهم: ماذا أصنع؟! أنا أريد لكم الخير والله تعالىٰ يريد بكم الشر! فلاث به المحبون[2] لله تعالىٰ من الفقراء وقالوا له: هذا سوء أدب مع الله تعالىٰ منك، لما فيه من رائحة أنا أشفق عليهم من ربهم، وأرحم بهم منه، فجعلتَ نفسك وأصحابك حلفًا علىٰ ربك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله علىٰ أنه يدعي أنه أشفق علىٰ عباد الله من الله، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه أراد بهذا القول أن يحرِّكوا هممهم إلىٰ التوجه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، فيسألوه الهداية إلىٰ الطريق المستقيم، ويساعدوا شيخهم

---

(١) باب اللوق: أنشيء سنة (٦٣٩ هـ) (١٢٤١ م) في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب كبوابة لميدان ألعاب الكرة والفروسية والرماية في المنطقة التي يقع بها حي باب اللوق حاليًا بالقاهرة.

(٢) بالأصلين: المحبين. والصواب ما أثبتناه.

ويحملوه علىٰ أنه لولا محبته لهم ما نصحهم، وأنه ما أراد بنصحهم إلا ليرضىٰ عنهم ربهم دون أن يريد الرئاسة عليهم، كما قد يتبادر إلىٰ أذهان الغُلْف من المحجوبين. وقد سبق مثله من قوم نوح فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. وعلىٰ ما قررناه يُحمَل قول نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] فإنه خرج عن حونه وقوته، وأرشدهم إلىٰ أن يسألوا ربهم إصلاح الحال، وأعلمهم أنه هو وهم تحت تصريف أقدار الحقِّ جلَّ وعلا، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ شيخ يقول لأصحابه: والله إني أودُّ لكم الخير، ولكن لله الأمر؛ فربما أراد بذلك إظهار محبته لهم، ليميلوا إلىٰ سماع قوله ونصحه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يحط علىٰ شخص من أقرانه أشد الحط، ثم وقع أنه زاره، فلما دخل عليه قال له: والله إني لأحبك أشد المحبة، وما في إخواني أحد أحبه مثلك؛ فلاث به الجماعة الذين كانوا في صحبته وقالوا: هذا نفاق! من ساعة وهو يحط عليه، فلما اجتمع به حلف أنه يحبه! فكيف هذا الحال؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه كان يحط عليه لما يعلم من رضاه بذلك خوف العجب عليه، فلما اجتمع به رآه قد تغير عن ذلك الحال، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن يُظهِر له المحبة، ليصير يحمل حطه عليه علىٰ أغراض صحيحة، فإنهم قالوا: إن من يحط عليك حكمه حكم من يحوِّطك من إصابة العين، ومن يشكرك حكم من يصيبك بالعين. وإيضاح ذلك أن الفقير إذا اشتُهر بالصلاح والخير، طمحت العيون إلىٰ رؤيته، واشتغلت الألسن بمدحه، وقلَّ من يملك نفسه عند ذلك ويصونها عن العُجْب، وقالوا: كم طيرت طقطقة النعال خلف الرجال من رأس! وأذهبت من دِين! فاعلم ذلك، وزد في محبة من يحط عليك من جميع إخوانك، وقدِّمه في المحبة علىٰ من يمدحك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقوم للناس في المحافل ويعظِّمهم فوق ما يستحقون، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي فعله من العلماء، لأنه نفاق، وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: ما رفعتُ أحدًا فوق قدْره إلا حطَّ من مقداري بقدْر ما رفعتُ من قدْره.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أنه يريد بذلك تحصيل مصلحة أخرىٰ ترجح علىٰ رفعه الناس فوق مقدارهم، كما إذا أراد أن يصلح بين ذلك الشخص وبين من بينه وبينه عداوة سنين عديدة، فأراد بتعظيمه والقيام له أن يميل إليه بالمحبة، ليصير يسمع له في الصلح. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء، فإنهم لا يجهلون أحكام الشريعة، وهم أعلم بها منك، فربما أدَّىٰ اجتهادهم إلىٰ ترجيح أحد الأمرين بأدلة تخفىٰ علىٰ مثلك، ولا يحط من مقدارهم شيء بسبب ذلك. وكلام الإمام الشافعي محمول علىٰ ما إذا رفع من مقدار الناس لغير غرض صحيح، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذكر لإخوانه نقص أعماله بعد أن كانت كاملة في العدد أو في الحضور فيها مع الله تعالىٰ، فلاث به بعض الحذَّاق من الفقراء وقال له: إن في ضمن شكواك لإخوانك نقص أعمالك رائحة عدم الرضا بما قسمه الله لك من الأعمال في ذلك اليوم أو الليلة مثلًا، كما أن [في] ضمنه أيضًا إظهار عملك السر الذي كان يضاعف علىٰ عمل العلانية سبعين ضعفًا وأكثر. وقد تكون تلك الأعمال من الأمور المبرمة التي لا تقبل الزيادة دون المعلَّقة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا شكا[1] بعض أعماله إلىٰ إخوانه، لاحتمال أن تكون زيادتها من الأمور المعلَّقة علىٰ سؤال إخوانه الزيادة فيها، كما وقع لي ذلك من أخي الشيخ الصالح علي الحصصي، فشكوتُ إليه مرةً قلة[2] عملي، فزاد ثاني ليلة، حتىٰ إني صرتُ أختم القرآن في ركعة، فعرفتُ أن ذلك كان معلَّقًا علىٰ دعاء أخي

---

(١) بالأصلين: سكن. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: بعد.

المذكور. وقد يكون هذا الشيخ ممن أعطاه الله القوة، فصار يدفع الناس أن يلحقوا[1] بإظهاره أعماله التي شكا نقصها. وأما كون ذلك في ضمنه رائحة عدم الرضا بالقسمة فإن[2] ذلك بعيد وقوعه من العلماء والأشياخ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عمل له مجلس ذكر، فتسامع الناس به، فأتوا إليه من سائر الحارات، ثم صاروا ينقصون حتىٰ لم يبقَ في المجلس غير الشيخ وبعض جماعة، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا مخلصًا في أعماله، لكان الناس لم يزالوا في زيادة في مجلسه، ولكن أين الإخلاص اليوم؟! إنما صار فقراء هذا الزمان يتخذون المجالس مصيدةً للدنيا والرئاسة والجاه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا ينبغي حمله علىٰ عدم الإخلاص، بل يجب حمله علىٰ أنه توجه إلىٰ الله تعالىٰ في اجتماع الناس في مجلسه ليحصل لهم الخير والثواب كله، فله نيته الصالحة، ثم إنه اتهم نفسه في الإخلاص، فتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في تفرقة الناس عن مجلسه، تقديمًا لخلاص نفسه علىٰ حصول الثواب لغيره، فسأل الله تعالىٰ أن يفرِّقهم عن مجلسه، ويجمعهم علىٰ شخص لا يخاف علىٰ نفسه الرياء لجهله بذلك، أو ليمكِّنه في باب الإخلاص، ثم بعد ذلك يسأل الله أن يلهمهم فعل ذلك الذكر الذي كانوا يفعلونه في مجلسه حتىٰ لا ينقص لهم أجر، فإن أجابه الحقُّ تعالىٰ فذاك، وإلا حصل له أجر تمني الخير للمسلمين، فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والطعن في أشياخ الطريق بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يظهر المحبة العظيمة لأحد من أقرانه، ثم إنه إذا قدر أنه سمع أحدًا يذكر ذلك القول ويرجحه عليه وعلىٰ غيره، تكدَّر وظهر الغم علىٰ وجهه، فلاث به الناس وقالوا: هذا يكذِّب دعوىٰ فلان المحبة لفلان، فإن من شرط

---

(١) كذا بالأصلين: ولعلها يحدقوا.

(٢) بالأصلين: قبل. والصواب ما أثبتناه.

المحب أن يحصل عنده سرور إذا مدحوا محبوبه وعظَّموه ورجحوه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون تكدره إنما هو محبة فيه، لخوفه عليه من العجب بحاله حين يرجحه الناس علىٰ كلٍّ من في بلده من الأقران كما هو الغالب. وربما كان لهذا الشيخ عينان: عين يحزن علىٰ أخيه بها خوفًا من وقوعه في العجب؛ وعين يفرح لأخيه بها، ويحصل عنده بذلك السرور كما هو حال الأكابر. فإن أحدهم ربما كان له عدة أعين ينظر بها إلىٰ أمور متعددة. وفي كلام سيدي إبراهيم الدسوقي: لا يكمل الرجل عندنا في الطريق حتىٰ يكون له سبع عيون ينظر بها إلىٰ سبعة أقاليم الدنيا، وإلىٰ السموات السبع، والأرضين السبع. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في حارته أمير يعتقده اعتقادًا شديدًا، ثم حوَّل الله تعالىٰ اعتقاده ذلك إلىٰ أحد من أقران ذلك الشيخ، فظهر التأثير علىٰ وجهه، فلاث به الناس وقالوا: قد استراح الفقير من الأمير، فكان حقه أن يفرح ببعده عنه إلىٰ غيره، ثم يسأل الله تعالىٰ لذلك الغير أن يحميه من الفتنة بصحبة الأمير، ولكن قد صار الفقراء يتغايرون علىٰ الأمراء للحظوظ الدنيوية.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون تأثيره من شدة شفقته علىٰ دين أخيه، فكان [خوفه][1] عليه الفتنة هو الموجب لتكدره، **ولم يزل الصادقون يحبون أقرانهم ويحوِّطونهم خوفًا عليهم من حصول الآفات، ويحزنون عليهم إذا أقبل عليهم الناس بكثرة الاعتقاد، محبةً فيهم لا بغضًا لهم وحسدًا.**

ويُحتمَل أن يكون لهذا الشيخ عدة أعين: **فعين يحزن بها علىٰ أخيه، وعين يفرح بها** له إذا قام له ناموس، **وعين** يفرح بها لتحوُّل ذلك الأمير عنه خوفًا من الفتنة، **وعين يحزن** بها علىٰ ذلك الأمير لما كان يحصل علىٰ يديه من الخير والشفاعة في المظلومين، **وعين** لا يحزن بها ولا يفرح بشيء تفويضًا لله عزَّ وجلَّ، **وعين** يسأل الله تعالىٰ بها لأخيه أن

---

(١) ساقط من «ب».

تكون صحبة ذلك الأمير عليه مباركة، وأن يحوِّل الله تعالىٰ تلك الشفاعات التي كان يقبلها من الشيخ إلىٰ صحائف ذلك الأخ من غير أن ينقص للشيخ الأول أجر من حيثُ نيتُه الصالحة لأخيه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يبلغه وقوع أحد من إخوانه في ذنب، فيقول: الحمد لله الذي وقع فيه صاحبي دوني؛ فلاث به الحذَّاق من الفقراء وقالوا له: هذا جرح في كمال إيمان هذا الشيخ، لأن من كمال إيمانه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فكان الواجب عليه أن يحمد الله الذي عافاه دون التعرض للشكر علىٰ وقوع أخيه في الذنب دونه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون له عدة أعين: عين ينظر بها تقدير الله تعالىٰ ذلك الذنب علىٰ أخيه دونه، فيرضىٰ بذلك ويفرح أدبًا مع الله تعالىٰ العليم الحكيم الخبير؛ وعين ينظر بها إلىٰ غضب الله تعالىٰ علىٰ أخيه حين أوقعه في الذنب، فإنه تعالىٰ لو أحبَّه لحماه من الوقوع في الذنوب؛ وعين ينظر بها إلىٰ كون أخيه كان سببًا لفدائه من التعرض لدخوله النار بذلك الذنب، من حيثُ إن الحقَّ تعالىٰ لو شاء لجعل الأمر بالعكس، فأوقعه في الدنيا وحمىٰ أخاه من الوقوع فيه، **ولم يزل الأكابر يتمنون لإخوانهم الخير من حضرة الإطلاق التي لا تقييد فيها**، كما قال عطاء السُّلَمِي ﷺ: «اللهم إنك قد أدخلتَ قلبي الرحمة علىٰ العصاة، فأسألك أن لا تعذب أحدًا من عصاة الموحدين» مع علمه ﷺ أنه لا بد من دخول طائفة من عصاة الموحدين للنار.

وقد بلغنا عن أبي بكر الشبلي ﷺ أنه كان يقول: أتمنىٰ أن الله تعالىٰ يكبر جسمي حتىٰ يملأ به النار، ولا يُدْخِل أحدًا من أمة محمد فيها، لكونه تعالىٰ حقت منه الكلمة أن يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين. فقيل له: إن الكفار لا يصح عتقهم من النار. فقال: كلامي في عصاة الموحدين فقط، لكونهم أطاعوا الله وصدَّقوا المرسلين. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الزهد في الدنيا والكرم والسخاء، ثم

إنه يشتكي الناس الذين له عليهم دين من بيوت الحكام، وربما اشتكىٰ إنسانًا من بيت القاضي علىٰ نصف فضة، وغرم بسببه عدة أنصاف، فلاث الناس به وقالوا: هذا الفعل ينافي دعواه الزهد والكرم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون متمكنًا في مقام الزهد والكرم، ولكنه أراد أن يعرِّف ذلك الشخص ثقل الدين وعظمه، وما فيه من العقوبة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبالحبس والتغييب عن أصحاب الديون، وأما في الآخرة فقد ورد في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ رأىٰ ليلة الإسراء قومًا في توابيت من نار، فسأل جبريل عنهم فقال: إنهم ماتوا وفي عنقهم أموال الناس»[1].

وكان علىٰ هذا القدم سيدي عليٌّ المرصفي، وسيدي عليٌّ الخواص، والشيخ شهاب الدين الوفائي[2] رأيتُه ذهب إلىٰ بيت قاضي العسكر يدعي علىٰ إنسان بعثمانيٍّ أخذه منه. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء، فإن أحدهم ما دخل

---

(١) لم أقف عليه. وفي المعجم الكبير للطبراني (٧٢٢٦) عن شُفي بن ماتع الأشجعي أن رسول الله ﷺ قال: «أربعة يؤذون أهل النار علىٰ ما بهم من الأذىٰ، يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور، يقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء قد آذونا علىٰ ما بنا من الأذىٰ؟ قال: فرجل مغلق عليه تابوت من جمر، ورجل يجر أمعاءه، ورجل يسيل فوه قيحا ودما، ورجل يأكل لحمه، قال: فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا علىٰ ما بنا من الأذىٰ؟ قال: فيقول: إن الأبعد مات وفي عنقه أموال إلىٰ الناس ما نجد لها قضاء أو وفاء ... الحديث»، و«الصمت» لابن أبي الدنيا (١٨٦).

(٢) شهاب الدين أحمد بن عمر بن سليمان الجعفري الدمشقي الشافعي الصوفي الوفائي. له كتاب لطيف شرح فيه «الحكم العطائية» وضعه علىٰ أسلوب غريب، كلما تكلم علىٰ حكمة، اتبعها بشعر عقدها فيه فمن ذلك قوله:

أجل أوقات عارف زمن يشهد فيه وجود فاقته
متصفًا بالذي يقربه من ربه من وجود زلته

عقد فيه قول ابن عطاء الله: «خير أوقاتك وقت شهدت فيه وجود فاقتك، وترد إلىٰ وجود ذلتك». وفرغ من تأليف هذا الكتاب يوم الجمعة ثالث عشر ذي القعدة من السنة التي قبلها بمكة المشرفة تجاه البيت الحرام. توفي سنة (٩٢٠هـ). انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ١٣٨)

للطريق إلا بعد زهده في الدنيا، وإنما شاححوا الناس في الدنيا لقوة إيمانهم بيوم القيامة، وأن أحدًا لا يدخل الجنة وعليه حق لأحد، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ في العلم أو الطريق إذا كان يدعي الورع عن الحرام والشبهات، ثم إن قاضي العسكر أو الدفتردار أو الباشاه مثلًا عمل في بيته ختانًا أو عرسًا، وعمل وليمة ودعا العلماء إلىٰ الأكل منها، فحضر هذا الشيخ المتورِّع وأكل، فلاث الناس به وقالوا: لا يخلو عمل هذه الوليمة من أحد شيئين غالبًا: إما من فلوس القانون في المحاكم، وإما من هدايا الكشَّاف ومشايخ العرب والمحتسب وأضرابهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا حضر الوليمة، لاحتمال أن يكون له أحد من أعدائه يوقع بينه وبين قاضي العسكر العداوة، فحضر خوفًا من وقوع ما ذكر. وأما أكله ذلك الطعام، فيحتمل أن يكون أكل من رغيف أخذه معه في كمِّه، أو من طعام الوليمة حين أخبره صاحب الوليمة أو غيره بحل ذلك الطعام، وألقىٰ الله في قلبه صدقه، فإن القاضي ولو فسق فقوله لنا: «إن ذلك الطعام حلال» كافٍ في الجواز إذا صدقناه.

وقد أرسل لنا قاضي العسكر بمصر بقرة علىٰ يد قاضي المنوفية شيخ جلبي وقاضي الجيزة أحمد لما عمل ختان ولده، فرددتُها عليهما وقلتُ: ليس لي عادة بأكل طعام قاض ولو رأيتُه يمشي علىٰ الماء والهواء! فقالا: نحن نشهد عندك بحلها، وأنها من معلوم تدريسه بالروم، لا من فلوس القضاء ولا من هدايا العمال، فإن كنتَ تقبل شهادتنا، فقد شهدنا عندك بحلِّها، وإن كنت تردها فأنت مخيَّر. فاستحييتُ أن أردَّ شهادتهما، فقبلتُها علىٰ اسم المحتاجين، وقلتُ للمجاورين: إني لا أحب لأحد منكم الأكل منها؛ فمنهم من قُسِمَ له الأكل، ومنهم من لم يُقسَم له، فإن للعبد ترك الأكل من الحلال الصرف زهدًا في الدنيا ولا اعتراض عليه، فاعلم ذلك، واحذر من الأكل من طعام الولاة جَهْدك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ المال من أصحاب الكسب الخبيث.

ثم يصرفها مصرف المال الضائع، فلاث به المتورِّعون وقالوا: ترك مثل ذلك أولىٰ وأحوط للدين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون ذلك باجتهاد منه حيث رأىٰ نفسه أعرف بمصارف ذلك المال، وأن صرفه علىٰ المحاويج أولىٰ من بقائه في يد جامعه من خلق لا يحصون، وهو أحد المذهبين في أن «السلامة مقدمة علىٰ الغنيمة»، أو أن «الغنيمة مقدمة علىٰ السلامة». ثم لا فرق في الأكل من هذا المال بين الشيخ الذي أخذه وبين آحاد الناس إذا كان محتاجًا إلىٰ مثله، فاعلم ذلك.

(١٢٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يمتنع من حضور الولائم ويتعلل بشدة الحياء، فلاث به الناس وقالوا: عذرك في ذلك هو عذرك في صلاة الجماعة، فلم لا تتركها أيضًا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأن حضور الولائم يغلب فيها الاشتغال بالخلق، وحضور الجماعة في الصلاة يغلب فيها الاشتغال بالحق، فلا يكاد أحد يشتغل بأحد دخل أو خرج، بخلاف الولائم، فربما استحيا العبد من إحداق الناس أبصارهم إليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ القدوة بين الناس إذا كتب لأحد عقدًا منعه من الجماع، ولاث به الناس وقالوا: هذا من أنواع السحر، وذلك لا يجوز.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون قصد بذلك خيرًا للمعقود، كأن يمنعه من الزنا أو من اللواط دون الوطء الحلال، وكأن يمنع البدوي الذي يخطب بنات الفلاحين ويدخل بها من غير ولي ولا شهود ولا رضا والدها وأهلها، فمثل هذا لا ينبغي الإنكار علىٰ فاعله، لأنه من باب كف أهل المنكر عن الفعل الحرام باللسان أو باليد، إذ العقد المذكور ربما كان بالتلفظ بالكلمات أو بكتابتها في ورقة مثلًا. ثم إذا امتنع المعقود عن الحرام وزال ما عنده من شهوة تلك المعصية، فهناك نحله، فاعلم

ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين، فإنهم أعلم منك بالحلال والحرام، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: أقل ما يتأدب أحدكم معي مثل ما يتأدبون مع الباشاه، فإن مقامي فوق مقامه؛ فلاث به بعض الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عظيمة، وهي من جملة الكبر، وذلك لا يجوز لأبناء الدنيا، فكيف لمن يدعي الصلاح والولاية؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قوله المذكور، لأنه ربما يكون صادقًا فيما قال، وذلك لأن التعظيم للعبد حقيقةً إنما يكون بحسب مقامه عند الله تعالىٰ عادة، ولا شك أن الزاهد في الدنيا أعلىٰ من الراغب فيها، فغاية ما يصل إليه الملوك الجائرون حبُّ الدنيا دون الآخرة، وأول مقام الفقير الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وإن لم يزهد في الدنيا فلا يصح له أن يضع قدمه في طريق أهل الله عزَّ وجلَّ إلىٰ حضرة الله، ثم إذا دخل حضرة الله تعالىٰ واستقر فيها، فهناك يصح له السير في معرفة الله تعالىٰ وما يجب له وما يستحيل علىٰ جنابه عزَّ وجلَّ، وهو معنىٰ قول شيخنا سيدي محمد المغربي: أولُ الطريق زهدُ العبد في نعيم الدارين وشهواتهما. انتهىٰ.

وكان أبو القاسم الجنيد إذا سأله شخص الصحبة يقول له: هل خدمتَ الملوك؟ فإن قال له: نعم؛ صحبه، وإن قال له: لا؛ يقول له: اذهب فاخدمهم سنين ثم تعال، فإن بداية الأدب مع الفقراء فوق نهاية الأدب مع الملوك. انتهىٰ. وإيضاح ذلك أن نهاية غضب الملوك علىٰ من أساء معهم الأدب أن يضروه في جسمه وماله مثلًا دون أن يصلوا إلىٰ قلبه، وأول غضب الفقراء علىٰ من أساء معهم الأدب أن يصيبوه في قلبه، فيتلفوا عليه دينه، ولا شك أن تلف الدين أعظم من تلف الجسم والمال.

وربما كان ذلك الفقير أحكم مقام الأدب مع الله، وصار يغضب لله ويرضىٰ لله، فصار الحق تعالىٰ يغضب لغضبه، ويرضىٰ لرضاه جزاءً وفاقًا، فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء، وحملهم علىٰ التكبر في شيء من أحوالهم،

فإن مقامهم الذل والانكسار دائمًا، قد محق الحق تعالىٰ نفوسهم بما تجلىٰ لقلوبهم من العظمة. ومن حملهم علىٰ الكبر فقد رجمهم بحجارته.

وقد تقدم في كلام أبي عبد الله القرشي[1] أحد أشياخ مصر الأجلاء في المئة الخامسة أنه كان يقول: من غض من ولي لله عزَّ وجلَّ ضُرِبَ بسهم مسموم في قلبه، ولم يمت حتىٰ تفسد عقيدته في الله ورسوله وأوليائه، فلا يظن بالله ورسوله وأوليائه إلا سوءًا، فيجني ثمرة ذلك بالذل في الدنيا، والخزي في الآخرة. انتهىٰ. ومعنىٰ الغض منهم تنقيصهم واحتقارهم عن المقام الذي ظهروا به للناس من التعظيم والتفخيم، وكأن هذا الغاض يقول: إن هذا الشخص لا يستحق هذا الاعتقاد والتعظيم الذي يفعله الناس معه، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يغلق في رمضان عليه باب داره مدة صومه رمضان، ولا يكلِّم أحدًا بكلمة لغو، فلاث به الإخوان وقالوا: هذا من فعل اليهود في يوم السبت، ولم يبلغنا ذلك عن أحد من السلف الصالح، مع شدة تحرزهم في رمضان وغيره.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأخذه لنفسه ولإخوانه بالاحتياط، فقل مجلس إلا ويحصل فيه غيبة، ولو بأن يذكر العبد عن أخيه ما يستحيي أن يواجهه به في العادة. وقد صح عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان يضع حجرًا في فِيهِ الأيام المتعددة، خوفًا من الوقوع في التكلم بما لا يعنيه. انتهىٰ. فتُحمَل حالُ هذا الشيخ علىٰ ما إذا خاف من اجتماعه بالناس الوقوع في الغيبة أو في سماعها، وحالُ السلف الذين كانوا يجتمعون بالناس في رمضان علىٰ ما إذا لم يخافوا الوقوع في ذلك، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) محمد بن أحمد بن إبراهيم. أبو عبد الله القرشي الهاشمي: زاهد. أندلسي الأصل، من الجزيرة الخضراء. أقام بمصر مدة، وسكن القدس وتوفي بها (٥٩٩ هـ) ودفن بماملا (مقبرة القدس القديمة). انظر: «الأعلام» (٥/ ٣١٩) و«الطبقات الوسطىٰ» للشعراني، الترجمة (٢٨٠) طبعة دار الإحسان.

(١٤٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يزوره أمير أو يزور هو أميرًا، فيقول للأمير: لا تنسونا من برِّكم وإحسانكم، فإننا فقراء من الدنيا ليس لنا رِزْقَة ولا معلوم، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا ينبغي من هذا الشيخ، لأن الأمير يزدريه بذلك، وتذهب حرمته من قلبه، وذلك خلاف ما كان عليه السلف الصالح، فإنهم كانوا لا يقبلون من الأمراء شيئًا ولو أتاهم بغير سؤال.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بمجرد هذا الكلام، فربما كان يمتحن[1] الأمير بذلك القول، لينظر هل يمتثل أمره فيما يأمره به، فيدوم علىٰ صحبته، أو يغض منه ويزدريه بذلك فيفارقه، والحال أنه لو أجابه إلىٰ سؤاله ورسم له بشيء لا يأخذه. ويُحتمَل أنه اطلع علىٰ قلب ذلك الأمير حين اجتمع به، فعرف أنه لا خير فيه، فطرده عنه بذلك السؤال وإظهار الفاقة والفقر.

ويقع لي ذلك مع شيوخ العرب والكُشَّاف، فبعضهم يعرف حالي وزهدي في الدنيا، فلا يفارقني بذلك القول، ويحملني علىٰ أن ذلك مداعبة، وبعضهم يحملني علىٰ حبِّها، فيهرب مني، فلا يعود يزورني. وربما كنتُ أفعل مثل ذلك لئلا أتميز عن فقراء العصر، فإن غالبهم قد صار لا يصحب أميرًا إلا لغرض دنيوي، كما يُعرَف ذلك بالقرائن، ومثل هؤلاء يجب عليهم السلوك علىٰ يد الأشياخ الصادقين حتىٰ يخرجوهم من حب الناس. ويسبقني إلىٰ ذلك أخي الشيخ أفضل الدين، فكان إذا صحب أميرًا ويراه رفعه في الزهد والورع عن مقام غيره من الفقراء، يتظاهر له بترك الزهد والورع، ليصير عند ذلك الأمير مثل إخوانه في المرتبة، ويقول: **حبُّ التناهي غلط**. ثم إنه إذا قبل من ذلك الأمير شيئًا، يفرِّقه علىٰ المحتاجين إلىٰ مثل ذلك المال أو الطعام مثلًا، ولا يستعمل هو منه شيئًا، ثم يذهب إلىٰ أولئك الفقراء الذين يسألون الأمراء شيئًا من الدنيا ويعظهم فيما بينه وبينهم، ويقول لهم: أتريدون أن يلوث الناس بأهل الطريق ويهدمون ركن الورع الذي هو من أعظم أركان الطريق؟! وقد ورد في الصحيح مرفوعًا: «كل عبادي أناقشهم وأحاسبهم

---

(١) بالأصلين: يحتمل. والصواب ما أثبتناه.

يوم القيامة إلا الورِعون، فإني أستحييهم وأجِلُّهم عن أن أناقشهم»[١] أو كما قال.

فإياك يا أخي أن تظهر الغضب على أمير إذا رأيتَ منه ما لا يليق، بل ابعد عنه من غير إظهار غضب عليه، فقد وقع أن أميرًا قيل له: إن الشيخ الفلاني غضبان عليك. فقال: حيثما عادته واصلة إليه أيش يغضب؟! انتهى. فانظر كيف حمله ببادئ الرأي على أنه ما غضب عليه إلا من جهة الدنيا قياسًا على غيره من فقراء الزمان. فاعذر يا أخي الأمير في مثل ذلك، واحمل الفقراء على المحامل الحسنة، وإن لم تجد لهم محملًا حسنًا فاسكت. وإن سألتَ عن شيء من أفعالهم، فقل: الله أعلم بحالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون في أعمال الدنيا نشيطًا ذا قوة، ثم إذا عمل شيئًا من أعمال الآخرة، ذهب ذلك النشاط، وفترت أعضاؤه، حتى صار أكثر صلاته للنافلة جالسًا، فلاث به الفقراء وقالوا له: هذا لا يليق بالشيخ الذي يكون له أتباع، فإنهم ربما اقتدوا بك في الكسل، ولأي شيء لا نراك تفتر منك الأعضاء إذا كنت في بناء حائط أو عمل مهم من طبخ طعام ونحو ذلك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا صلَّى جالسًا مثلًا، لأنه ربما كان يحصل له خشوع في أعمال الآخرة لرفع الحجاب فيها غالبًا، بخلاف الأعمال الدنيوية، فإن من

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٥٠) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل: ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام، فلما سمع موسى ﷺ كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل، وكان فيما ناجاه به أن قال: يا موسى إنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرب إلي المتقربون المتصنعون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي. قال موسى: يا رب البرية كلها ويا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أعددت لهم؟ وماذا جزيتهم؟ قال: أما الزهاد في الدنيا فإني أبيحهم جنتي يتبوءون منها حيث شاءوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب ونقشته؛ إلا الورعين، فإني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم، وأدخلهم الجنة بغير حساب، وأما البكاءون من خشيتي فأولئك لهم الرفيع الأعلى لا يشاركون فيه» وفي «الأوسط» (٣٩٣٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٤٧) وابن أبي الدنيا في «الورع» (١٨١).

لازمها الحجاب عن شهود تجليات الحقِّ جلَّ وعلا، بل بينه وبين شهودها سبعون ألف حجاب، فلذلك كان لا تفتر له أعضاء في أعمال الدنيا ولو وقف فيها طول ليله ونهاره مثلًا، بخلاف الأعمال الأخروية، فربما حصل لقلبه التجلي أول دخوله فيها، فيهد أركانه.

ويقع لي مثل ذلك كثيرًا، فأكون أتحدث مع أصحابي وأنا جالس أو واقف لا أحس بتعب، ثم يقع لي شهود شيء من تجليات الحقِّ تعالىٰ لقلبي، فأسقط إلىٰ الأرض وأصلي النوافل جالسًا، فربما أساء بعضهم الظنَّ بي لجهله بحالي، فالله تعالىٰ يجعل جميع الإخوان ممن يقيم لإخوانه المعاذير، آمين، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي سبق الناس إلىٰ صحبة أمير، وصار يقف عند إشارته ويمتثل أمره، ويقبل شفاعاته، فزاحمه جماعة علىٰ صحبته لذلك الأمير، فصار ينفِّر الأمير من أولئك الإخوان، ويقول له: إياك أن تصغىٰ إلىٰ قول فلان أو فلان، فلاث به الناس وقالوا: هذا حرام عليك يا سيدي الشيخ، فإنه من جملة الغيبة.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الشيخ في ذمه أحدًا من فقراء الزمان الذين زاحموه علىٰ صحبة ذلك الأمير، لاحتمال أن يكون أولئك الفقراء من جملة النصَّابين علىٰ الأمراء في أخذ فلوسهم بغير حق، لاسيما في هذا الزمان، فإنه برز فيه جماعات يدَّعون الصلاح عند العوام، ولا يتوضؤون ولا يتطهرون من نجاسة، ولا يراهم أحد يصلون مع وجود عقل التكليف، وإذا لامهم أحد علىٰ ذلك قالوا: نحن من المَلامتية الذين يظهرون القبيح، ويخفون المليح، كما وقع من بعضهم مع شيخ العرب عامر أخي عيسىٰ ببلاد البحيرة لما وقع بينهما العداوة وعُزِل عامر، فبعضهم ادعىٰ أنه يتوجه في عيسىٰ فيقتله بعد ثلاثة أيام، وبعضهم بعد سبعة أيام، وبعضهم بعد عشرة أيام ونحو ذلك، وأخذوا منه نحو خمسمئة دينار مفرَّقة، ولم يصح لأحد منهم ما ادعاه، فاشتكاهم عامر من مجلس الشرع، وحبس بعضهم وضرب بعضهم، وأخذ منهم بعض ما كانوا أخذوه منه، وكانت لهم صيحة في مصر، فمثل هؤلاء يجب علىٰ كلِّ مسلم نصح كلِّ أمير وجده يميل إليهم، لاسيما إن كان ذلك الأمير محبوسًا في البرج أو مُرَسَّمًا

عليه[1]، فإن أحدهم يدخل عليه ويقول له: انذر شيئًا للفقراء بحسب ما عندك من السخاء والكرم، ليتوجهوا في خلاصك، فإن ذلك في يد الفقراء؛ ويوهمونه أنهم من الصالحين، ومعلوم أن المحبوس كالغريق يستند على القش، وبعضهم يقول له: إن كنتَ لا تصدقنا اجعل المال عند أحد ممن تثق به، فإن خلصناك أخذناه، وإلا خذ مالك منه، كما وقع للأمير محيي الدين بن أبي أصبع، ولشيخ العرب أبي النصر شيخ بلاد منفلوط، فأخذوا منهما مالًا جزيلًا، ولم يقع لأحد منهما خلاص.

وبالجملة فالتولية والعزل للولاة إنما هو خاص بأصحاب النوبة ببلاد ذلك الأمير، ليس لغيرهم في ذلك قدم، ولو بلغ في العبادة الغاية. وتقدم في هذا الكتاب وغيره من كتبنا أن من علامة من يكون [من أصحاب][2] النوبة القائمين في مصالح العباد أن يكون على سنة وهدى من ربه عزَّ وجلَّ، عالمًا بدسائس النفوس، لا يولي أحدًا ولا يعزله إلا بالحكمة دون شيء من الأغراض الدنيوية، ولا يقبل شيئًا من هدايا صالحي زمانه، فضلًا عن الأمراء والمباشرين والتجار الذين يبيعون على الظلمة وأعوانهم، وإذا توجه في ولاية أحد أو عزله، يصير لا يأكل ولا يشرب ولا يجامع، ولا ينام ولا يضع جنبه إلى الأرض، ولا يأكل شيئًا من شهوات الدنيا، ولا يضحك ولا يتنزه في بستان إلا لضرورة شديدة لا يحتملها الشيخ عادة، فأين مثل هذا الفقير يوجد الآن؟!

وقد قلتُ لواحد من هؤلاء النصَّابين: كيف تأخذ فلوس فلان وليس بيدك تصريف؟! فقال: إنما أكذب عليه لأدخل عليه السرور، كما يكذب الناس على أهل الحبوس، فإن حصل له ما طلب، قلنا له: إنا فعلنا لك ذلك؛ وإن لم يحصل له ما طلب، أخذنا ماله ولعنًا والديه. انتهى. فاعلم ذلك، وخذ حذرك ممن لا يتقيد بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لعن الله الروافض؛ فلاث به الناس

---

(١) أي ممنوع من التصرف في أمواله وأملاكه.

(٢) ساقط من «ب».

وقالوا: قد يكون الرافضيُّ شريفًا من أولاد رسول الله ﷺ، أو غير شريف، ولكن يحب الله ورسوله، فكيف يجوز لعنه؟! أي الإخبار عن كون الحقِّ تعالىٰ طرده عن حضرته كما طرد إبليس، ومعلوم أن مثل ذلك يحتاج إلىٰ دليل خاص.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من يلعن الروافض، بل يُحمَل علىٰ من يصح لعنه كمن ينكر صحبة أبي بكر وبراءة عائشة رضي الله عنها، **فإن الروافض علىٰ أقسام كثيرة: أقبحهم من يقول برسالة علي رضي الله عنه، وأخفهم حالًا من يفضل علي بن أبي طالب علىٰ أبي بكر وعمر فضلًا عن عثمان وغيره**، وغاية الرافضي الذي لا يكفر باعتقاده أن يُقال في حقِّه «مبتدع» وكل من لعنه يحتاج إلىٰ دليل خاص أو اجتهاد.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إنما قالوا: «من العجائب شريف سني» يعني يقدم الشيخين علىٰ جده عليٍّ أو جعفر أو عقيل أو العباس؛ لأن من كان من أولاد هؤلاء الأربعة محبوس في دائرة جده، لا يهتدي للخروج منها إلىٰ شهود فضل غيره عليه إلا بنور عظيم يطمس حكم العقل من الأنوار الربانية، وما كل شخص يصل إلىٰ هذا المقام، بل يموت وهو محبوس في دائرة جده، كما هو مشاهد في مشايخ الخرق، كالكيلانية والأحمدية والرفاعية والبرهانية والبسطامية والسهروردية، فلا تكاد ترىٰ واحدًا من أتباعهم يرىٰ فضل شيخ آخر عليهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: مسألة الأشراف الذين لا يرون فضل أحد علىٰ جدهم لا يحكم فيها إلا الله تعالىٰ ورسوله يوم القيامة. وأما نحن فخدَّامٌ للفريقين، فنعظم كلًّا منهما، ونكل علم الأفضلية إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن الله تعالىٰ أو رسوله هو العالم بسرائر الخلق ومقامهم عنده، فلا يليق بأحدنا أن ينتصر للصحابة علىٰ أولاد رسول الله ﷺ ولا عكسه، لقصور علمنا وعقلنا عن إدراك الحقِّ في ذلك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحذر من قولك: «فلان رافضي كلب» إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اختصر كتابًا، فقيل له: ما سبب اختصارك له؟

فقال له: ذكر صاحبه فيه لتلاتًا [1] كثيرًا؛ فلاث به الناس وقالوا: مثل هذا غيبة في صاحب ذلك الكتاب، لأنك ذكرتَه بما يكره سماعه منك لو كان حيًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون ذكر مثل ذلك غافلًا، أو علىٰ وجه التعريف بحال الكتاب، لئلا يتعب أحد نفسه في مطالعة ذلك الحشو مثلًا، فيضيع عليه وقته، فقصد باختصاره ووصفه بأن فيه لتلاتًا النصح للإخوان. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعِي إلىٰ وليمة فأجاب، ثم قالوا له: إن فلانًا هناك، لشخص من أقرانه، فرجع من الطريق ولم يدخل دار الوليمة، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يليق بالأشياخ مراعاته، إنما ذلك للعوام الذين لا يقدرون علىٰ مجالسة عدوهم لضيق حالهم، وأما الشيخ الذي عرف الله تعالىٰ، فلا يجد من يرسل غضبه وعداوته عليه، لشهوده المعية الإلهية مع كلِّ عدو له.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا الشيخ الذي رجع من الطريق لأجل حضور عدوه، لاحتمال أن يكون من الكمَّل السالمين من الرعونات النفسية الذين لا يتكدرون من رؤية عدوهم، وإنما رجع رحمةً بعدوه حين أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه يتضرر برؤيته هو، فخاف علىٰ تضرره، مع أنه هو يحبه ويعظمه ويعتقده.

ويُحتمَل أن شمس معرفته كُسِفَت بعد أن كان أجاب، وصار لا يقدر علىٰ مجالسة عدوه إلا بإظهار العبوسة والكدر، فخاف أن يلحق عدوه بذلك، فيتكدر بإظهاره العبوسة عند رؤيته، وقد راعىٰ الحق تعالىٰ أضعف الناس حالًا، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورىٰ: ٤٠] فنفَّس عن صاحب الضيق والحرج الذي لا يقدر علىٰ احتمال الأذىٰ من عدوه. وقد أباح العلماء الانصراف من وليمة العرس إذا كان هناك من يتأذىٰ الإنسان به، أو لا يليق به مجالسته، فغاية أمر هذا الشيخ الذي رجع أنه عمل بالرخصة في

---

(١) أي كلامًا لا فائدة فيه.

محلَّها، فلا ينبغي اللوث به لأجل ذلك، فإن عاد إلىٰ مقام الكمال، اعترضنا عليه، لكونه كان يقدر علىٰ مجالسة من يكرهه ولم يفعل، كما نعترض علىٰ من يقدر علىٰ العفو عمن آذاه ويترك ذلك، فإن الله تعالىٰ قد عرَّض بالعفو والإصلاح للكُمَّل بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: لما نظر الكمَّل في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فهموا إطلاق اسم السيئة علىٰ سيئة المجازاة كإطلاق اسم سيئة البداءة علىٰ حد سواء، فقالوا: لا يجب أن تكون من أهل السوء، لاسيما وقد أكد الحقُّ سيئة المجازاة، بقوله ﴿مِّثْلُهَا﴾، فشمل أن تكون مثلها في اسم السوء، أو في تأثير صاحبه الذي أساء عليه بقدر تأثيره من غير زيادة، وذلك أمر يتعسر، فإنه قلَّ من يقابل صاحبه بالإساءة إلا ويزيد في اللفظ والتأثير، ويختلف السامعون لتلك الإساءة، ولا تكون المثلية إلا إذا كان السامعون لسيئة المجازاة هم السامعون بأعيانهم لسيئة البداءة، فلذلك اختار الكُمَّل أن يكون أجرهم علىٰ الله، وخرجوا عن مقام الضيق والحرج وعدم إحراج(١) عباد الله لله.

وقد دُعِيَ سيدي عليٌّ الخواص ؒ إلىٰ وليمة، فلما وصل إلىٰ الباب، عرف أن الحاضرين يقومون له ويعظمونه ويرفعون مقامه علىٰ مقام فقير كان سبقه هناك، فرجع وقال: متىٰ وقع لي ذلك من الناس ربما تكدَّر أخي الذي هناك، وحصل له ضيق وحصر، وربما قام وخرج عند دخولي، فيصير الناس يستهزئون بأهل الخرقة، فكان عدم دخولي أولىٰ في حقِّي وحقِّه، وإن راعيتُ واحدًا أغضبتُ آخر، يعني صاحب الوليمة وعدوه الحاضر هناك.

فعُلِمَ أنه يجب حمل الشيخ الذي رجع أو الذي خرج عند دخول شيخ آخر علىٰ أحسن المحامل، كأن يحمله علىٰ أنه كان يود أنه يدخل الوليمة ويأكل هو وذلك الشيخ الحلو والحامض وينشرحا بذلك، لكنه لم يتفق له ذلك، وكذلك الحكم في الشيخ الذي

---

(١) بالأصلين: إكرام. والصواب ما أثبتناه.

خرج يجب حمله علىٰ إيثاره أخاه بذلك التعظيم الذي كان يحصل من الناس له لو كان لم يخرج، فأدىٰ اجتهاده إلىٰ أن إيثاره بذلك أرجح في الأجر، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في رسالة «الأنوار القدسية»، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في حديث «ستفترق أمتي علىٰ نيف وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهو ما أنا عليه وأصحابي»[(١)] أن المراد بقوله: «كلها في النار إلا واحدة» أي في النار مرورها لا مكثها، فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما فسره الجمهور.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، فقد جاء في رواية الإمام أحمد وغيره مرفوعًا: «إن المؤمنين كلهم يدخلون النار، فتكون عليهم بردًا وسلامًا، كما كانت علىٰ إبراهيم، حتىٰ إن النار لتشتكي من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا»[(٢)]، ويؤيد ذلك ما جاء في رواية ابن النجار: «كلها في الجنة إلا واحدة»[(٣)] قال بعضهم: وهم الزنادقة، إذ لا يُخلَّد في النار موحِّد، لعدم قبول النار له بأي طريق كان توحيده، لكن يؤيد الرواية الأولىٰ المشهورة قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) وقال: هذا حديث مفسر غريب، والطبراني في «الكبير» (٦٢)، والحاكم (٤٤٤)

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أحمد (١٤٥٢٠) عن أبي سمية قال: اختلفنا هاهنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا هاهنا في الورود، فقال يردونها جميعًا، وقال سليمان مرة: يدخلونها جميعًا فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا، فأهوىٰ بإصبعيه إلىٰ أذنيه، وقال: صمتًا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود: الدخول. لا يبقىٰ برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلها، فتكون علىٰ المؤمن بردًا وسلامًا، كما كانت علىٰ إبراهيم، حتىٰ إن للنار - أو قال: لجهنم - ضجيجًا من بردهم، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]». والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٤) وعبد بن حميد (١١٠٦).

(٣) أخرج هذه الرواية العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٠١)، قال العجلوني في «كشف الخفا» (١/ ١٦٩): ورواه الشعراني في الميزان من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب، وهو: ستفترق أمتي علىٰ نَيِّفٍ وسبعينَ فرقةً كلها في الجنة إلا واحدة، وفي رواية عند الديلمي: الهالك منها واحدة، قال العلماء: هي الزنادقة.

بذراع. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: فمن؟»[1] انتهىٰ. فيكون الناجي من النيف وسبعين فرقة واحدة فقط، وهي المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢] إن قلنا: المراد بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم الكافرون، وإن قلنا: المراد بهم من ظلم نفسه بفروع المحرمات، فيكون فيه تأييد للرواية الأخرىٰ، ويحمل علىٰ مرورهم علىٰ النار لا علىٰ الخلود فيها، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعو علىٰ أحد من الولاة بالهلاك أو الحبس والضرب، ويقول: إنما أقصد بذلك تطهيره من الذنوب. ثم إن الأمير تاب إلىٰ الله تعالىٰ وحسنت توبته، فاستدام الدعاء عليه، فقال له الناس: لو كان قصدك تطهيره بهلاكه، لكنتَ تركتَ الدعاء عليه، فإن التوبة كذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون اجتهاده أدَّىٰ إلىٰ أن تطهيره بالهلاك أكمل في حقه، وأخلص له من تبعات الخلائق، لكون التوبة لا ترضي أخصامه يوم القيامة، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة وإلا فاسكت، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات له ميت ومقبرته في داره أو ملاصقة لزاويته، فغسلوا ميته وكفَّنوه، ثم خرجوا به فداروا به الحارة من طريق بعيدة، ثم رجعوا به إلىٰ المقبرة التي في البيت مثلًا، فلاث به الناس وقالوا: سلَّمنا أن العوام لا يعرفون الأحكام الشرعية، فربما طافوا بميتهم الحارة وقالوا: نفعل ذلك ليودع الدنيا وينظرها قبل أن ينزل التراب، فكيف يليق بالعلماء أن يفعلوا مثل ذلك؟! ويفعلوا بميتهم كما يفعل الناس في زفة الختان، وما رغَّب الشارع في المشي مع الجنازة، ورغَّب في كثرة الخُطَىٰ للطاعات إلا ترغيبًا للعوام الذين يشق عليهم أن يعملوا عملًا إلا بأجرة دنيوية أو أخروية. وأما العلماء فمقام فوق ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن فعل ما ذكرناه من العلماء والصالحين، لأنه قد يكون اجتهاده أدَّىٰ إلىٰ مثل ذلك، فرأىٰ أن خروجه إلىٰ الحارة ثم رجوعه حيلةً حتىٰ يكثر الخُطَىٰ في الطاعات، وأن الله تعالىٰ يجازي أصحاب تلك الخطوات في الدوران بالميت، كما يجازي من كانت تربته بعيدة عن داره.

وقد يكون الباعث للعالم أو الصالح علىٰ الدوران بالميت إقسام أمِّ الميت مثلًا علىٰ ذلك العالم بالله عزَّ وجلَّ أن لا يدفن ذلك الميت إلا بعد أن يشقوا به قصبة البلد إلىٰ جامع الأزهر مثلًا، ليصلوا فيه ثم يرجعوا به إلىٰ قبره في داره، فما فعل العالم ذلك إلا إجابةً لأم الميت حين أقسمت عليه بالله تعالىٰ لتبرد نار حزنها مما هي فيه من الألم والبكاء والعويل. وربما كان الماشون مع الجنازة لا يشق عليهم المشي عملًا علىٰ رضا أم الميت مثلًا. وبالجملة فلا ينبغي لأمثالنا الاعتراض علىٰ العلماء والصالحين، فإننا دونهم في العلم بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا حضر في جنازة، فقدَّم أحدًا ممن هو دونه في العلم للصلاة وتأخر هو، ولاث به الناس وقالوا: كان الأولىٰ له الصلاة مصلحةً لذلك الميت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأن العالم وإن كان أعلم، فقد يخطر في نفسه أنهم ما قدَّموه إلا لكونه أعلم وأفضل، فصرف ذلك الخاطر عنه فلم ينصرف، فكان الأولىٰ تقديم من لم يخطر له ذلك من المفضولين. وإيضاح ذلك أن صلاة الجنازة إنما هي شفاعة، ومن يرىٰ نفسه أفضل فهو متكبر، والمتكبر لا ينبغي أن يكون شافعًا في غيره، لأنه عدوٌّ لله عزَّ وجلَّ، فكان اللائق بالشفاعة أكثر الحاضرين تواضعًا. وقد يكون العالم إنما قدَّم المفضول ليعلِّمه التواضع حيث أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن تعليم ذلك المفضول التواضع أولىٰ من صلاته هو علىٰ الجنازة إمامًا من غير تعليم، ورأىٰ أن دعاءه إمامًا ودعاءه مأمومًا واحد[1].

(١) بالأصلين: واحدًا. والصواب ما أثبتناه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إذا قدَّمكم العالم للصلاة علىٰ الجنازة فلا تطيعوه، فإن ذلك علامة منه علىٰ أنه رأىٰ نفسه دونكم، ومن رأىٰ نفسه كذلك فهو من المتواضعين، وهو أحق بالصلاة علىٰ الميت منكم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإذا قدَّمك العلماء علىٰ أنفسهم، فاحذر أن ترىٰ نفسك بذلك، فيلزمك التأخر، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يطنب في تزكية نفسه، ويصف نفسه بالأخلاق الحسنة بحضرة الناس، ولاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فقد ثبت عن العشرة المشهود لهم بالجنة أن أحدهم كان يقول: ليتني كنتُ كبشَ أهلي، فذبحوني وأكلوني ثم ألقوني عذرة. وكان عمر بن الخطاب يقول: ليتَ أمي لم تلدْني. وكان مالك بن دينار يقول من أراد أن ينظر إلىٰ قوم بلا عقول ولا إيمان بيوم الحساب فلينظر إلينا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ حين زكَّىٰ نفسه، لاحتمال أن يكون قصد بذلك إظهار نعم الله عليه، فإنه لا فرق بين قول العبد: إن الله خلقني ورزقني، وبين قوله: إني عالم صالح؛ لأن كلا الأمرين من نعم الله علىٰ العبد.

واعلم يا أخي أن **كلَّ من صح توحيده وإيمانه، رأىٰ جميع ما معه من الفضائل ملكًا لله عزَّ وجلَّ**، لا يدخل شيء منها في ملكه هو، ولا لوم عليه إلا لو كان يراها له، بقطع النظر عن مشاهدة كونها لله عزَّ وجلَّ.

فإن قال قائل: إن السلف الصالح كانوا يشهدون الأمور لله وحده، ومع ذلك سدُّوا باب الدعوىٰ جملة؛ **فالجواب**: أنهم راعوا الجزء الذي يدعي الملك في النوع البشري، فمالوا إلىٰ وجه العبودية وهو الذل والانكسار، لأنه هو معظم الأمور التي تعبدهم الله به في هذه الدار، وأما اعتراف العبد بفضل الله عليه فهو تحصيل للحاصل، والله أعلم.

فعُلِمَ أنه لا ينكر علىٰ هذا الشيخ إلا من لم يَكمُل في مقام الإيمان والتوحيد، أو من كمُل فيهما ولكن طلب من الشيخ أن يراعي الجزء البشري الذي يزاحم أوصاف

الربوبية. وإذا كانت الأغراض بذكر العبد محاسنه صحيحة، فلا اعتراض لذكره علمه وصلاحه وزهده وعفته، ليأخذ عنه المريدون ويقتدوا به في مثل ذلك، كما مشىٰ عليه العلماء الذين ذكروا مناقبهم في كتبهم، كالحافظ الذهبي والسيف الآمدي[1] والجلال السيوطي وأضرابهم، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك أوائل كتابنا المسمىٰ بـ«المنن والأخلاق» والحمد لله رب العالمين.

(١٤٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقف وقفًا، وشرط فيه شروطًا تشق علىٰ المستحقين، كشرط أن يباشر كلُّ واحد وظيفته بنفسه ولا يستنيب فيها، أو بشرط أن يقرأ بحضور قلب مع الله تعالىٰ، وإن لم يحضر قلبه كذلك فما يأخذه كله شبهة، فلاث به المتشرعون وقالوا: ما ربحه هذا الواقف من جهة وقفه، خسره من جهة تحجيره علىٰ المستحقين والمشقة عليهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مسامحًا للمستحقين بالقلب، وإنما شدد عليهم باللسان فقط، طلبًا لمباشرتهم القراءة وخدمتهم المسجد مثلًا، ليحصل لهم الأجر الكامل دون النائب، وفي قلبه أنهم لو لم يباشروا وظائفهم، لطاب علىٰ قلبهم أكل ذلك المعلوم، فاعلم ذلك، **فإن المشايخ أكثر الناس شفقةً، لكن الشفقة تارةً تكون من جهة تعب الجسم، وتارةً من جهة توفير الأجر،** وتوفير الأجر هو مقصود الأشياخ للمستحقين. وفي بعض الهواتف الربانية يقول الله عزَّ وجلَّ للملائكة: «اكتبوا عمل عبدي فلانًا، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل هل هو حاضر معي أو حاضر مع غيري». انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) العلامة المصنف سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد التغلبي الآمدي الحنبلي، ثم الشافعي. أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها، وتعلم في بغداد والشام. وانتقل إلىٰ القاهرة، فدرّس فيها واشتهر. وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلىٰ فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة، فخرج مستخفيًا إلىٰ (حماة) ومنها إلىٰ (دمشق). له مصنفات منها: «الإحكام في أصول الأحكام» و«منتهىٰ السول» و«أبكار الأفكار». توفي: ٦٣١هـ. انظر: «السير» (٢٢/ ٣٦٤) و«الأعلام» (٤/ ٣٣٢).

(١٢٥٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي وقع بينه وبين شخص من أقرانه عداوة، وعجز الناس في الصلح بينهما، فلم يقدروا علىٰ ذلك إلا بعد جَهْد، فلما أخذوه وخرجوا به للصلح، وقف بالطريق وقال: خاطري ما هو طيب بالصلح في هذا الوقت! ورجع، فلاث الناس به وقال: إذا كان العلماء يحقدون علىٰ بعضهم بعضًا كلَّ هذا الحقد، فما بقي أحد يُلام علىٰ مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، فقد يكون قلبه صافيًا لأخيه كلَّ الصفاء، وإنما كان يظهر الوقفة بينه وبين أخيه ليقبِّح في عينه أخلاقه الردية. وأما رجوعه فلا يلزم منه أن يكون ذلك لعدم صفاء قلبه له، فقد يكون ذلك لعدم وجود نية صالحة يقابل بها أخاه، أو حدوث ازدراء في قلبه لأخيه، فتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يطلعه علىٰ شيء من كمال أخيه، ليلقاه علىٰ وجه التعظيم له، لكونه أحسن حالًا من نفسه هو.

ويُحتمَل أنه عرف من أخيه هيجان نفسه إذ ذاك، وغلبة الرعونة عليه، فطلب التأخر عن لقائه، رجاء أن تخمد نفسه ثم يذهب إليه، خوفًا أن تظهر عليه رعونة أو شيء من الأخلاق الردية، فينقص مقامه في عيون الناس، فكان عدم لقائه إنما هو غيرة عليه وعلىٰ مقامه عند الناس.

ويُحتمَل أن يكون إنما يتوقف عن الاجتماع به حين خرج لمصالحته حين غلب علىٰ ظنه أنه يحمله علىٰ المحامل السيئة، كقوله في نفسه: إنما جاء فلان يصالحني خوفًا مني لا محبة فيَّ. انتهىٰ. فتأخر حتىٰ يزول ذلك الظن عنه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يتكرم علىٰ الناس قبل شهرته واتساع الدنيا عليه، ثم لما اشتُهر واتسعت عليه الدنيا، قبض يده عن الإحسان إلىٰ الناس، وصار الشريف يسأله خلقة أو فلسًا أو رغيفًا، فلا يعطيه شيئًا، فلاث به الناس وقالوا: هذا ما كان يتكرَّم ويطعم الناس ويكسوهم إلا جلبًا للدنيا، فلما حصلت له اطمأن خاطره وبخل.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون عما فهموه عنه بمعزل، وإنما

توقف في العطاء للسائل لعدم وجود نية صالحة يعطيه[1] بها، فتوقف حتىٰ يفتح الله عليه بالنية الصالحة، لاسيما الشريف فربما استحيا من الله عزَّ وجلَّ أن يعطيه شيئًا وهو يجد في نفسه عليه منَّة، لكونه بضعة من رسول الله ﷺ، فتوقف حتىٰ يبصر المنَّة للشريف عليه في قبوله منه شيئًا، فإن كلَّ من رأىٰ له منَّة علىٰ شريف، فهو كمن يرىٰ له منَّة علىٰ رسول الله ﷺ، ولا يخفىٰ ما في ذلك من سوء الأدب، إذ الواجب علىٰ كل مؤمن إعطاء الشريف كل ما طلبه منه من النقود والثياب والأمتعة، حتىٰ إنه لو سأله جميع ما بيده، لأعطاه له ورأىٰ المنَّة للشريف عليه.

وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين [إذا][2] سأله أخوه حاجة هي حاضرة عنده، فلا يعطيها له ويقول: يا أخي حتىٰ أجد لك نية صالحة. فكان أخوه يصبر عليه ويشكره علىٰ عدم إعطائها له حيثُ لم يجد له نية صالحة. وكذلك كانوا يفعلون في الزيارة، فربما كان أحدهم بالأشواق إلىٰ رؤية أخيه، فيمكث السنة وأكثر حتىٰ يجد له نية صالحة، فعُلِمَ أنه لا يجوز نسبة الفقراء إلىٰ البخل بعد الكرم، وإنما ينبغي حمله علىٰ المحامل الحسنة اللائقة بأهل الخير والصلاح، وكلُّ وعاء بالذي فيه ينضح، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تردد إليه أميران يتنازعان في ولاية مثلًا، وطلب منه كل واحد أن يكون معه علىٰ خصمه، فقال للمتولِّي: لا بد من عزلك وتولية فلان -يعني خصمه- فلم يعزل ذلك المتولِّي، ولم يتولَّ ذلك المعزول، فلاث الناس به وقالوا: هذا من النصب علىٰ الدنيا، والكذب علىٰ الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من الأولياء المتمكنين الزاهدين في الدنيا، فلما عجز عن الصلح بين هذين الأميرين، نفَّرهما عنه بما قال لهما، وورَّىٰ في قوله. وكان علىٰ هذا القدم سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله، وقال لي

---

(١) بالأصلين: يعظمه. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

مرة: إذا ابتليت بمثل ذلك، فافعل مثل ذلك، لتستريح من التعب بينهما. ومن التورية أن تريد بقولك للمتولي: «أنت باق في ولايتك» أي في هذا الوقت، وتريد بقولك للمعزول: «أنت تتولىٰ قريبًا» أي تتولىٰ بظهرك عنا إذا قمتَ من عندنا. انتهىٰ.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك مع عبد الله بن بغداد ومع حسن بن حماد لما طلب كلُّ واحد أن يكون شيخًا للإقليم، فتغير اعتقاد عبد الله لما بلغه أنني قلتُ لحسن: أنت تتولىٰ قريبًا، [ولم يظن أنني قصدتُ به توليته عنا بظهره إذا قام من المجلس، وتغير اعتقاد حسن حين لم تصح له ولاية في الوقت الذي ظنه بقولي: «قريبًا»][1] مع أن الدنيا كلها قريب! كما قاله بعض العارفين في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] فقال: الدنيا كلها قريب، أي يقبل فيها التوبة ما دامت الشمس لم تطلع من مغربها. وسبقه إلىٰ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

ثم لا يخفىٰ أنه لا يقع في إخبار الأميرين المذكورين بدوام الولاية أو التولية مثلًا من غير مطابقة لما يعلمه من طريق كشفه إلا المتمكنون من الأولياء الزاهدون في الدنيا التي في يد الأميرين، وإلا فالراغب في الدنيا لا يقدر علىٰ تعاطي أسباب التنفير لمن يرجو إحسانه وبرَّه أبدًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اشتُهِرَ بالصلاح وقضاء حوائج كلِّ من استند إليه عند الولاة بالقلب أو باللسان، وتميز بذلك عن جميع أقرانه، حتىٰ صار الناس يقولون: ما بقي باب معدٌّ لتفريج كرب الناس إلا باب فلان فقط في هذا البلد. ثم تغير عليه الحال، فصار لا يقضي حاجة لأحد استند إليه، فلاث الناس به وقالوا: قد سُلِبَ فلان مما كان فيه من الحال والقال، ورجع إلىٰ ما فيه الناس، وذاك دليل علىٰ أنه كان في ذلك متفعِّلًا، ولو أنه كان مخلصًا لله عزَّ وجلَّ، لدام عليه إلىٰ الممات.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ، ولا بأقرانه الذين لم يشتهروا بالصلاح

---

(١) ساقط من «ب».

ولم يقضوا لأحد حاجة، ولا نسبته إلىٰ السلب، ولا أقرانه إلىٰ النقص، فقد يكون أحدهم اختار الستر في حاله بين العباد ودخوله فيما فيه أقرانه حتىٰ لا يتميز عنهم بحال ولا قال، ولا زهد ولا ورع ولا صلاح، ولا كثرة اعتقاد كما عليه المتمكنون من الرجال.

وكان ذلك من شأن أخي أفضل الدين ﵀ كان إذا تميز عن إخوانه بخلق غريب محمود، يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يحجب إخوانه عن شهود ذلك الخلق منه، فلا يصير أحد يميزه بالصلاح عن أحد من أقرانه.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من عدم قضاء الفقير حوائج أصحابه بعد أن كان يقضيها أن يكون سُلِبَ أو نقص حاله، فقد يكون ذلك إنما حصل بتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ واختياره ذلك لنفسه، خوفًا من فتنة الشهرة والتميز، لاسيما في النصف الثاني من القرن العاشر، فقد أخبرني سيدي عليٌّ الخواص ﵀ أنه سمع سيدي الشيخ إبراهيم المتبوليَّ ﵁ يقول: إن عاش أحدكم حتىٰ أدرك النصف الثاني من القرن العاشر، فلا يطلب قضاء حوائج الناس عند الأمراء وغيرهم علىٰ يديه، فإن الله تعالىٰ يقبض قلوب أولياء ذلك الزمان عن التصريف، فلا يصير أحدهم يقدر علىٰ تفريج كربة لأحد إلا في النادر، ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. انتهىٰ.

وقد وقع لي مثل ذلك مع أصحابي فيما قبل النصف الثاني. وأما في هذا النصف فتعسرت عليَّ الحوائج، وربما أتوجه الليلة كاملةً في قضاء حاجة أحد من إخواني، فلا أجد للإجابة أثرًا، فيُحتمَل أن يكون ذلك لفساد نيتي، ويُحتمَل أن يكون لعدم استحقاق صاحب تلك الحاجة.

[علامة عدم وجود أثر الإجابة]

فإن قيل: فما علامة عدم وجود أثر الإجابة؟ فالجواب: علامة ذلك أن تصير كلُّ شعرة في المتوجه لا ترجو من الحق تعالىٰ إجابة سؤالها، عكس حال من أراد الله تعالىٰ قضاء حاجته، فإن كلَّ شعرة من المتوجه تصير تظن أن الله تعالىٰ لا يرد سؤالها. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أمر شخصًا بمعروف، فيوعده بالقتل كما وقع لعمر بن الخطاب ﷺ، وصار العالم أو الشيخ يخاف منه، فمشىٰ الناس بينهما في الصلح، فقال الشيخ: أنا لا أصلح معه حتىٰ يحلف لي بالله العظيم أنه لا يقتلني ولا يوالس[1] علىٰ قتلي؛ فلاث الناس به وقالوا: كيف يزعم هذا العالم أو الشيخ أنه كامل الإيمان لا يصيبه إلا ما كتب الله له مما لم يكن معلَّقًا علىٰ شرط، ثم يخاف من أحد من الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم بسبب تحليف عدوه بالله العظيم أنه لا يقتله، لاحتمال أن يكون ما طلب من عدوه اليمين إلا لينفره من الوقوع في الإثم بسبب قتله [لا لنقص إيمانه بالأقدار الإلهية، فكأنه خاف علىٰ عدوِّه من الوقوع في الإثم بسبب قتله]، ولم يطمئن علىٰ عدوه إلا إن حلف علىٰ عدوه بالله العظيم أنه لا يقتله، وإن كان في ضمن حلفه المذكور طمأنينةً أيضًا للشيخ، لكنها بحكم التبع لا بالقصد الأول، بل يقال: إن الشيخ لو قصد بالحلف طمأنينة نفسه هو، فلا حرج عليه، لأن روحه أمانة عنده من الله تعالىٰ، والواجب علىٰ الأمين أن يدفع جميع الآفات عن تلك الوديعة بحيثُ لا يُنسَب في ذلك إلىٰ تقصير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما خاف الأكابر من الأمة علىٰ أنفسهم لأنهم لا يرون نعمةً أنعمها الله عليهم أكبر من إخراجهم من العدم إلىٰ الوجود، فلذلك كانوا يخافون من كلِّ شيء يلحقهم بالعدم أو يقربهم إليه كالطعنة في البطن مثلًا. وسمعتُه يقول: لا لوم علىٰ الأكابر في خوفهم من الخلق؛ لأن مشهدهم أن الله تعالىٰ هو الفاعل في الخلق، وحركاتُهم كلُّها بتقديره، فرجع خوفهم من الخلق إلىٰ الخوف من الحقِّ جلَّ وعلا، لأنه هو الذي يسلِّطهم عليهم.

ويُحتمَل أن يكون ذلك العالم أو الشيخ من أقوىٰ الناس يقينًا وتحملًا للبلايا

---

(١) المُوَالَسَة: الخِداع. يقال: قد تَوالَسُوا عليه، أي تناصروا عليه في خِبٍّ وخَديعة.

والمحن، ولكن قصد بإظهاره الخوف أن يستره الله في عباده الصالحين، فلا يتميز عن أقرانه بشجاعة قلب ولا يقين.

فإن قال قائل: فهل الأولىٰ للشيخ إذا توعده أحد من الفسقة بالقتل أن يتوعده الآخر بالقتل أو يسكت عن ذلك؟ **فالجواب**: قد ذكر بعض فيمن خرج عليه قاطع طريق يريد قتله ليأخذ ماله أو يفسق في حريمه وجهين: **أحدهما**: وجوب الدفع ولو أدىٰ إلىٰ القتل؛ والثاني: ترك الدفع والاستسلام له، ليبوء بإثم القتل وحده. انتهىٰ.

والذي نقول به: إن ذلك راجع إلىٰ ما يؤدي إليه اجتهاد هذا العالم أو الشيخ، فإن أدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ وجوب الدفع عن نفسه ولو بقتل الصائل، وجب عليه ذلك، من حيثُ ما ورد أن قتل الإنسان نفسه أعظم عقوبة من عقوبته إذا قتل غيره[1]، فعُلِمَ مما قررناه أن حقَّ نفسه أعظم من حقِّ الأجنبي، لاسيما وهو باغٍ علىٰ الشيخ.

وإن أدىٰ اجتهاده إلىٰ ترك الدفع ومسامحة الصائل بدمه، وسؤال الله له المغفرة، فله ذلك، لاسيما ومشهد الشيخ أن الفاعل حقيقة هو الله، والصائل إنما هو آلة للقتل، فإن لله تعالىٰ الفعل بالآلة، والفعل بلا آلة، كما قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وكما قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وكما أشار إلىٰ المعنيين قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي أرسل له أحد من الولاة مالًا بحضرة جماعته، فرده وأظهر الورع وقال: أما علم الأمير أننا لا نقبل مالًا فيه شبهة؟! ثم لما أرسل له الأمير مالًا وقال لرسوله: أعطه له إن وجدتَه وحده؛ فوجده كذلك فأعطاه له،

---

(١) فمن قتل غيره معه فسحة للتوبة، فلو تاب تاب الله عليه، أما قاتل نفسه فخالد مخلد في نار جهنم، أخرج البخاري (٥٧٧٨) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من تردىٰ من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردىٰ فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسىٰ سمًا فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»، ومسلم (١٠٩).

فقبله وحمد الله علىٰ ذلك، فأخبر الرسول الناس بذلك، فلاثوا بالشيخ وقالوا: كلُّ هؤلاء إنما هم مراؤون بأعمالهم، لأنه إنما رد المال بحضرة جماعته خوفًا علىٰ ناموسه ونسبته إلىٰ أكل الشبهات، ولو أنه كان راعىٰ الله تعالىٰ لرده حين أتاه ولا أحد عنده.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ونسبته إلىٰ الرياء وأكل الشبهات، فقد يكون عما ظنَّه الناس فيه بمعزل، لاحتمال أن يكون سبب رده في المرة الأولىٰ كونه كان غير محتاج إلىٰ مثل ذلك المال، وعرف بالقرائن أن ذلك الأمير ما أرسله له إلا لظنه الحاجة إليه أسوة الفقراء المحتاجين، وقد صرح العلماء بأن القرائن إحدىٰ الأدلة، كما إذا رأىٰ أحد عمامة أخيه خَلِقَة، فأعطاه دراهم وقال له: اشترِ لك بها عمامة، لا يجوز له أن يصرفها في غير العمامة.

ويُحتمَل أن يكون إنما ردها في المرة الأولىٰ لكونه رأىٰ فيها شبهة، أو رؤية منَّة عليه من الأمير لا يقدر علىٰ احتمالها عادة، لما هو عليه من المروءة، ونحو ذلك من الأمور التي تغيب عن مراعاة الخلق والرياء لأجلهم.

وأما قبوله له للمال في المرة الثانية حين كان وحده، فيُحتمَل أنه رأىٰ نفسه محتاجًا إلىٰ مثل ذلك لنفقة نفسه وعياله والواردين عليه من الفقراء، أو رآه سالمًا من الشبهة لا منَّة عليه فيه، ولا تبعة في الآخرة، فأخذه بنية صالحة، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: أنا أحب وقوع المعاصي في الأرض، وأحبُّ دوامها للخلق في كل لحظة كما أحبَّها الله تعالىٰ؛ فلاث به طلبة العلم وقالوا: هذه عقيدة فاسدة لا يجوز ذكرها فضلًا عن اعتقادها!

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا العالم ببادئ الرأي، بل يجب علينا التربص والنظر في قواعد الشريعة قبل أن ننكر عليه، فقد يكون مراده: أنا أحب وجودها في الأرض من حيثُ القسمةُ الإلهيةُ والحكمةُ، لا من حيثُ التكليفُ والكسبُ لها، لكنه

أخطأ في التعبير عن ذلك بالمحبة، وكان الأولىٰ له أن يقول: أنا أريد وقوع المعاصي في الأرض كما أرادها الله تعالىٰ، إذ المحبة لها خصوص ترجيح وحث علىٰ الفعل شرعًا، بخلاف المعاصي تسري بها الإرادة سرًّا، فلا يعلم بها العاصي إلا بعد أن يقع فيها، ويصير يندم ويستغفر عكس حال الطاعات.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا تكلَّم العالم بكلام دقيق علىٰ أفهامنا، وجب علينا التسليم له فيه حتىٰ نستفهمه عن معناه، وهناك ننكر عليه إن رأيناه فاسدًا مخالفًا للقواعد الشرعية من كلِّ وجه لا يقبل تأويلًا. انتهىٰ.

وإيضاح ما قلناه أن من كمال الوجود ما جعل الله الوجود عليه من شقي وسعيد، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وغيرها من الآيات، وذلك لتحكم حضراتُ الأسماءِ كلُّها في أهلها من «غفور» و«رحيم» و«منتقم» و«مذل» و«جبَّار» و«توَّاب» وغير ذلك، فلا بد من وجود طائع وعاصٍ في كل طرفة عين، ولولا أن الرحمة سبقت الغضب -أي غلبته كما في رواية أخرىٰ[١] - لأهلك الله تعالىٰ غالب الخلق، لأن الرحمة لا تغلب الغضب إلا إذا كان العاصون أكثر من الطائعين، كما أشار إليه نقص عدد أسماء المؤاخذة عن عدد أسماء الحنان واللطف والكرم. ومن هنا كان السيد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: إياكم أن تطلبوا من الله تعالىٰ رفع المعاصي من الأرض جملة، لأنه جهل بأحكام الله تعالىٰ، ولولا أن الله تعالىٰ أراد وقوع المعاصي في الأرض لما خلق إبليس، إذ لا يقع أحد في معصيةإلا بوسوسته. انتهىٰ.

وبالجملة، فيحتاج صاحب الاعتقاد الصحيح الجامع لأطراف الشريعة أن يكون

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» والترمذي (٣٥٤٣) وابن ماجه (٤٢٩٥).

له عدة أعين: **فعين** ينظر بها إلىٰ كمال القسمة الإلهية إلىٰ شقي وسعيد، فلا يطلب رفع المعاصي جملةً من الأرض؛ **وعين** ينظر بها إلىٰ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيجب عليه ذلك من حيثُ الكسبُ قيامًا بواجب حقِّ الشريعة؛ **وعين** يحب بها أن لا يعصي أحدٌ ربَّه قيامًا بواجب حقِّه ظاهرًا، وإن كان تعالىٰ هو المقدِّر لتلك المعصية؛ **وعين** ينظر بها إلىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ، وكونه هو الخالق لأفعال عباده، فيخفف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **لاسيما إن كان ذلك المنكر مما صرَّح الشارع بأنه من علامات الساعة**، لئلا يعارض بالتشديد في منع الناس من الوقوع فيما أخبر به الشارع، ويسعىٰ في تكذيبه فيما أخبر بوقوعه بين يدي الساعة، كما تقدم بسطه في الجواب عن خطيئة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الله تعالىٰ كما لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها؛ فلاث به طلبة العلم وقالوا: هذه عقيدة فاسدة، فقد أجمع أهل الحقِّ أنه لا يتحرك ذرة في الوجود إلا بإرادته.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث به حتىٰ يُسأل عن ذلك العلماء بالله وبأحكامه، فربما كان مراده أن الإرادة لا ترد إلا علىٰ معدوم فتوجده، ومعلوم أن وصف الزنا مثلًا بكونه فاحشة ما هو عين الزنا، وإنما هو حكم الله تعالىٰ فيه، وحكم الله تعالىٰ في الأشياء بتحريم أو وجوب أو ندب أو كراهة أو إباحة غير مخلوق، وما لم يجر عليه الخلق لا يوصف بكونه مرادًا للحق تعالىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ بغير علم، فقد علمتَ صحة قول هذا الشيخ: إن الله تعالىٰ كما لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها، لكون الحرام من جملة الأحكام الخمسة التي هي قديمة في علم الله عزَّ وجلَّ.

ومن هنا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن قديم، لاشتماله علىٰ أحكام الدِّين

الخمسة، بل لو قال قائل: إن الله تعالىٰ لم يرد شيئًا في الوجود كله، لصدق من حيثُ كونُ جميع ما برز في الوجود تعلَّق به العلم الإلهي أزلًا، فهو قديم في العلم، وإنما هو حادث في الظهور، أي بالنسبة إلىٰ علمنا لا إلىٰ علم الحق تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فخاطبه بالتكوين مخاطبة الموجود، وأضاف التكوين إلىٰ ذلك الشيء لا إلىٰ القدرة الإلهية، كما تقول لصاحبك إذا كان داخل بيتك: اخرج يا فلان؛ فيمتثل أمرك ويخرج، فليس لك فعل في وجوده، وإنما لك فعل في خروجه.

وكذلك يقال: إن إرادة الحق إنما تتعلق بإبراز ما كان كامنًا في العلم، لا بإيجاد ما كان في العلم. ومن علم ما أومأنا إليه فهم معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] [ونحوها من الآيات، لأن الله تعالىٰ لا يخبر بخلاف الواقع، وكذلك يُفهَم قول أكابر الأنبياء: (ربنا ظلمنا أنفسنا)][1]، فما قالوا ذلك إلا عن ذوق، فما تميز الحق تعالىٰ علىٰ هذا التقدير إلا بكونه يُسمَّىٰ فاعلًا، والعالم مفعولًا، إذ العالم كله لم يزل موصوفًا في العلم الإلهي بالإمكان دون الوجوب، فالإمكان له كالوجوب لله تعالىٰ، فعُلِمَ أنه يقال علىٰ فعل الزنا: إن الله تعالىٰ أراده وقضاه وقدَّره، ولا يقال في وصفه بالتحريم: إنه أراده، كما لا يُقال: إن الله تعالىٰ أراد أن يعلم معلوماته في الأزل، لأن ذلك محال.

فإن قال قائل: فكيف صح إطلاق الحق تعالىٰ الفاحشة علىٰ الفعل كما يتبادر إلىٰ الذهن؟ **فالجواب:** إنما صح ذلك لكون الوصف بالتحريم لا يفارقه ولا ينفك عنه، فصح إطلاق الفاحشة التي هي من أحكام الله القديمة، كما صح إطلاق الرجس علىٰ المشركين وعلىٰ الأنصاب والأزلام، مع أن ذواتها طاهرة في نفسها بالإجماع، لكن لما كان الرجس لا ينفك عن ذواتها، جاز إطلاق الرجس عليها شرعًا فافهم.

ولما عرضتُ هذا الجواب علىٰ سيدنا ومولانا الشيخ ناصر الدين اللقاني، قال لي: هذا جواب يُكتَب بنور الأحداق. انتهىٰ. وعلىٰ ما قررناه لك يجب عليك حمل قول

---

(١) ساقط من «ب».

أئمة السنة: إن الله تعالىٰ مريد للخير والشر، أي مريد لإظهارهما من مكنون علمه، لا مريد لإيجادهما في علمه، والله أعلم.

(١٢٥٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما بقي لي في مصر عدو مثلًا إلا فلان، فأسأل الله أن يهلكه قبلي حتىٰ لا يشمت بموتي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يليق بالأشياخ، إنما اللائق بأحدهم أن يتحمل أذىٰ الوجود كلِّه، ويود أنه لو دام أعداؤه إلىٰ أن يموت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، وحمله علىٰ أنه عاجز عن احتمال أذىٰ ذلك العدو الذي تمنىٰ موته حتىٰ لا يشمت به، وذلك لاحتمال أنه ما طلب موت عدوه إلا خوفًا عليه من الوقوع في الشماتة لأجل حصول الإثم بسبب ذلك بحكم الأصالة، وإن كان في ضمن ذلك زوال الأذىٰ الحاصل بشماتته به، وذلك لأن **الأشياخ من مقامهم الدوران مع مصالح العباد لا مع حظوظ نفوسهم**، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥٩) ومما أجبتُ به عن طالب العلم الذي إن دخل حمامًا قال للحارس: أعطني فوطة نظيفة لأني من أهل العلم؛ وإن وقف علىٰ جزار قال: أعطني لحمًا مليحًا لأني من أهل العلم، وهكذا في سائر معاملاته للناس، فلاث الناس به وقالوا: قد أفادنا فلان شرًّا بدعواه العلم، وهذا دليل علىٰ ريائه بالعلم وإعجابه وتكبره به علىٰ الناس، فهو أول من تُسعَر بهم النار كما ورد، لأنه لو عمل بعلمه ما ادعىٰ العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الطالب ولا نسبته إلىٰ الرياء بعلمه والإعجاب والتكبر به، لاحتمال أن يكون مراده تعظيم محل العلم الذي جعله الله تعالىٰ فيه، بقطع النظر عن تخصيص ذلك التعظيم بمحله هو. ومحكُّ صدقه في ذلك كونه يغار علىٰ عدم تعظيم أقرانه من طلبة العلم إذا وقع من أحد انتهاك لحرمتهم كما يغار علىٰ عدم تعظيمهم له علىٰ حدٍّ سواء، فلا ينبغي اللوث إلا إذا رأيناه تأثر عند انتهاك حرمته أكثر من تأثره بانتهاك حرمة غيره من أقرانه، لكن هذا المقام الذي ذكرناه لا يكون إلا لمن تصفَّىٰ من كدورات البشرية، وجرَّد نفسه من طلب التعظيم، وجعل التعظيم لصفة العلم فقط

من حيثُ كونُها وحيًا من الله، أو مما استُنبط من الوحي. فكأن قوله للحمامي وللجزار مثلًا: توصوا بي، إنما هي غيرة لما نُسِبَ إلىٰ الله لا لما نسب إليه هو.

وبتقدير أنه قصد تعظيم نفسه فلا حرج عليه، لأنه رأىٰ نفسه كالخريطة[1] أو الصندوق للمصحف، فطلب إكرامه وعدم انتهاك حرمته تبعًا للمصحف، ولا يعرف ما قلناه إلا من سلك طريق القوم، وعرف شرف الأرواح، وشرف ما أودعه الله تعالىٰ فيها، وعرف شرف مركبها، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ طلبة العلم بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي حضر جنازة أوصىٰ الميت بأنه لا يصلي عليه إمامًا إلا هو، فلما قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم؛ تأخر هو وقدَّم شخصًا دونه في العلم، فلاث به الناس وقالوا: كان عمله بوصية الميت أولىٰ مصلحةً له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لأنه ربما كان من أهل الاجتهاد في تقديم الأعمال بعضها علىٰ بعض، فرأىٰ صلاته مأمومًا أو منفردًا أمكن في طول الدعاء للميت، وأبعد عن رؤية الإعجاب بنفسه حين قدَّموه علىٰ جميع الحاضرين هناك.

وقد فعلتُ مثله في جنازة الحاج عليّ المنوفي ﵀ لما أوصىٰ بأنه لا يصلي عليه إلا أنا، فألقىٰ الحقُّ تعالىٰ في قلبي لما قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم: هل أنت شيخ الإسلام ولك من الذنوب كذا وكذا؟! فتأخرتُ، فقال لي فقير: خذ ذلك بتأويل علىٰ أنك شيخ من جهة شيب رأسك ولحيتك، تخرج عن العجب وتعمل بوصية الميت؛ فلم أستطع علىٰ قلبي يقبل ذلك بعد أن أُلقِيَ في قلبي أولًا ما أُلقِيَ.

وقد تقدم مرارًا في هذا الكتاب أن صلاة الجنازة شفاعة في الميت، ومن شرط الشافع أن لا يكون عليه ذنب تبعًا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن مقام الشفاعة إنما هو لهم بالأصالة، فمن لم يكن محفوظًا من الوقوع في الذنوب، فهو متفعل في مقام الشفاعة، ولا

---

(١) الخَريطةُ: وعاءٌ من جلد أو نحوه يُشَدُّ علىٰ ما فيه.

التفات إلىٰ قول من سمَّاه «شيخ الإسلام».

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقير إذا قدَّموه لصلاة جنازة كرهًا عليه، فطوَّل علىٰ الناس حتىٰ ربما فارقه أكثرهم، لأنه ربما رأىٰ علىٰ ذلك الميت ذنوبًا كثيرة وتبعات، فصار يشفع فيه عند الله تعالىٰ حتىٰ قبل شفاعته فيها كلها، كما وقع للشيخ محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦١) ومما أجبتُ به عن طالب العلم إذا تقدَّم لصلاة الجنازة حين قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم، فبادر إلىٰ التقدم وهناك من هو أعلم منه، فلاث الناس به وقالوا: ما كان ينبغي لفلان أن يتقدم، فإن المؤذن ما قال: شيخ الإسلام يتقدم إلا لفلان الذي هو في رتبة مشايخه في العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الطالب في تقدمه للصلاة علىٰ من هو أعلم منه، لاحتمال أن يكون علم من بعض أقران ذلك العالم وقوعهم في غيبته إذا تقدَّم للصلاة وأخرهم، فخاف عليهم من الإثم بسبب تقدمه عليهم، وسامح هو كلًّ من اغتابه من جهة تقدمه علىٰ من هو أعلم منه.

وقد رأيتُ شخصًا كان يقرأ علىٰ الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ عبد الحق السنباطي[1] وكانت لحيته بيضاء، ولحية الشيخ شهاب الدين سوداء، فلما قال المؤذن: شيخ الإسلام يتقدم؛ تقدم هو علىٰ شيخه، فقلتُ له: كيف تتقدم علىٰ شيخك؟ فقال: سبق إلىٰ ذهني رؤية شيبي، وسواد لحية شيخي، فحسبتُ أني أنا المطلوب. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ من تعدَّىٰ مقام الأدب حتىٰ تستفهمه عن ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) شهاب الدّين أحمد بن عبد الحقّ بن محمد السّنباطي المصري الشّافعي. الواعظ بالجامع الأزهر، الإمام العالم العلّامة. أخذ عن والده وغيره، وكان معه بمكّة في مجاورته بها سنة ٩٣١هـ ووعظ بالمسجد الحرام في حياة أبيه، وفتح عليه في الوعظ حينئذ. توفي: ٩٥٠هـ. وقال الشعراوي: ولما مات أظلمت مصر لموته، وانهدم ركن عظيم من الدّين، وما رأيت في عمري كلّه أكثر خلقًا من جنازته إلّا جنازة الشّهاب الرّملي. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٠٢) و«الكواكب السائرة» (٢/ ١١٢).

(١٢٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال: لا أعلم في مصر أحدًا أعلم مني بالشريعة؛ ولاث الناس به وقالوا: قد نهىٰ الشارع عن دعوىٰ العلم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن الله تعالىٰ مسح من قلبه العلم بكون أحد في البلد أعلم منه، فقال ذلك بلسان الحال الذي هو فيه. وهذا يقع فيه الساذجون كثيرًا، لأن الإنسان كلما علت درجته سذِجَ قلبه.

[توجيه قول سيِّدنا موسى: أنا أعلم من على وجه الأرض]

وهذا أحد الأجوبة عن السيِّد موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين ادعىٰ أنه أعلم ممن علىٰ وجه الأرض، فإنه ما قال ذلك إلا بلسان حاله ذلك الوقت. وليس عليه لوم إلا لو كان علم أن في الناس أعلم منه ثم ادعىٰ العلم، ولذلك لم يعاتبه الحق تعالىٰ علىٰ دعواه العلم، وإنما قال له: بل عبدنا خضر أعلم منك؛ لينبهه علىٰ أن الإطلاق في محل التفصيل لا ينبغي، فإن العلم علىٰ قسمين: قسم يأتي من الله تعالىٰ علىٰ يد جبريل، وقسم يأتي من الله من غير واسطة جبريل، فما أتىٰ علىٰ يد جبريل][1] له حد ينتهي إليه في أحكام التكليف؛ وما أتىٰ بلا واسطة، فليس له حد ينتهي إليه، فقول موسىٰ ﷺ: لا أعلم أحدًا أعلم مني -أي بأحكام شريعة التوراة- صدق وحق، لكونها نزلت عليه وحده، فكان أعلم من غيره بها، ولم يُرِد عليه الصلاة والسلام علىٰ الحقيقة، لأن موسىٰ لا يجهل مثل ذلك، وما تعودت الرسل أخذ علوم التشريع إلا بواسطة الملَك من جبريل وغيره، فقد علمت أنه لم يكن مراد موسىٰ بكونه أعلم إلا علمه بأحكام الشريعة، لا علمه بأحكام التعريف الإلهي للأولياء من طريق الإلهام، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا عادىٰ من هو أعلىٰ مقامًا منه في العلم وآداب الطريق وإرشاد المريدين، وصار كلُّ من عَلِمَه يحب هذا الأعلىٰ، يذهب إليه وينقصه عنده ويقول: سألتُك بالله لا تعد تجتمع بفلان؛ فسمع منه بعض جماعة

---

(١) ساقط من «ب».

وانقطعوا عن التردد على[1] هذا الشيخ العظيم، فلاث بهم وبمن نهاهم عن هذا الشيخ الناس وقالوا: لا يجوز لفلان أن ينهىٰ الناس عن الاجتماع بمن هو أفضل منه في العلم والأدب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو شيخ الطريق بتنفيره الناس عن الشيخ الذي هو أعظم منه، لاحتمال أنه لم يرَ لهؤلاء الناس الذين نفَّرهم نصيبًا عند الشيخ من طريق كشفه، فخاف عليه أن يشغلوا وقته بالتردد إليه من غير نفع يحصل لهم منه وعكسه.

ويُحتمَل أنه خاف علىٰ الشيخ من وقوعه في العجب بكثرة ازدحام الناس عليه وتفضيله علىٰ غيره، وإن كان ذلك الشيخ محفوظًا من الوقوع في ذلك، **لأن كل ناصح لم يُكلَّف إلا بالنصح بحسب مقامه لا يذوق غير ذلك، فلما خاف علىٰ نفسه من وقوعه في العجب كذلك خاف علىٰ غيره.**

ثم ليتأمل جميع من لاث بهذا العالم أو الفقير في تنفير الناس يجد جميع من نفَّرهم لم يُقسَم لهم نصيب في صحبة ذلك العالم الكبير، وإن كان عليه هو الإثم من حيثُ قصدُه عدم حصول الخير للناس من عدوه وجماعته. ولم يزل هذا التنفير يقع من شخص معروف في مصر ويبلغني ذلك، فلا أتكدر منه، وأحمله علىٰ المحامل الحسنة، فاعلم ذلك يا أخي واتبعني في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول له مريده: وعزتك وجلالك ما فعلتُ كذا، أو ما تركتُ كذا مثلًا وهو ساكت، فلاث به الناس وقالوا: هذا لفظ لا يجوز إطلاقه علىٰ مخلوق، إنما هو خاص بجناب الحقِّ جلَّ وعلا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ببادئ الرأي حتىٰ تستفهمه عن قول هذا المريد، لاحتمال أن يكون مصطلمًا لا يعرف ما يُقال له، أو ظنَّ أن ذلك المريد يخاطب الله عزَّ وجلَّ، فلذلك سكت، ولو أن ذلك الشيخ كان حاضر العقل ما أقر مريده علىٰ خطابه له بمثل ذلك.

---

(١) بالأصلين: عن. والصواب ما أثبتناه.

ويُحتمَل أن المريد أراد بذلك اللفظ الحلف بتلك العزة والإجلال اللتين خلعهما الله تعالىٰ علىٰ شيخه بين الناس، وجعلهم ينقادون له، فإن كلَّ من رفع الله تعالىٰ رتبته لا يسلم من مثل ذلك، فأخطأ في التعبير بخلاف اللفظ المألوف بين الناس. وكأنه قال: وحقِّ مقامك الذي أعطاه الله تعالىٰ لك من العلم والورع والخشية. والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لم يزل يقول لأصحابه: لي كذا كذا سنة وأنا أشهد أن الله تعالىٰ ينظر إليَّ نظر الغضب؛ [فلاث الناس به وقالوا:](١) **هذا دليل علىٰ أنه مرتكب كثيرًا من الكبائر، ولو أنه كان مطيعًا لربه، لشهد رضاه عنه ونحو ذلك من اللوث به.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا نسبته إلىٰ القرب من القنوط من رحمة الله، ولا كونه مرتكبًا شيئًا من الكبائر، بل ذلك من أعظم دليل علىٰ كمال مقامه وقربه من حضرة ربه عزَّ وجلَّ، **فإن نور الحضرة الإلهية كالشمس في الظهيرة، فكلُّ من قرب منه ظهر له من أحواله ما كان جاهلًا به.**

وإيضاح ذلك أن الإنسان كلما بعد عن حضرة الله تعالىٰ ونورها، خفيت عنه عيوبه، وكلما قرب منها ظهرت له عيوبه، فحكمه حكم من خُلِعَت عليه خلعة في ظلمة لا يعرف لونها هل بيضاء أو سوداء، فأخذ في الاجتهاد، فربما أدىٰ اجتهاده إلىٰ أنها بيضاء والحال أنها سوداء، وكذلك المريد الذي توالت عليه الطاعات من لازمه رؤية محاسنه غالبًا لحجابه بطاعاته عن حضرة ربه من حيثُ اعتمادُه عليها، فلا يكاد يرىٰ أن الله تعالىٰ يعذِّب مثله أبدًا، وأنه وفَّىٰ العبودية لله حقَّها، وما بقي علىٰ مثله لوم ولا حجة، فإذا منَّ الله تعالىٰ عليه بمقام الكمال، وقرب من نور الحضرة، ورأىٰ مساوئه، عرف حينئذ أنه استحق الخسف به لولا عفو الله عزَّ وجلَّ. وهذا هو المقام الذي كان فيه السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين، فاعلم ذلك يا أخي، وإذا بلغك عن فقير أنه يقول: إني والله قد استحقيت الخسف بي، فاشهد له بالكمال، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(١٢٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يموت له ولد، فيظهر الحزن عليه والبكاء، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يليق بالمشايخ، لأن الولد من الدنيا، وسماه الله تعالىٰ فتنة وعدوًا، فكيف يحزن عاقل علىٰ فراقه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم عند إظهار الحزن علىٰ ولده، ولا حمله علىٰ أنه حزن عليه بحكم الطبع، وإنما اللائق حمله علىٰ أنه إنما حزن مشاركةً لأمِّ ذلك الولد في الحزن، أو غيرها من أهله، ومشاركةُ المسلمين في همومهم مطلوبة، كما أشار إليه حديث: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[1]، فصورة حزن هذا الشيخ صورة حزن الإنسان بحكم الطبع، والقصد مختلف، فإن اعتقادنا في الأكابر من العلماء والصالحين أن أهل الدنيا كلَّهم لو كانوا أولادًا لأحدهم وماتوا دفعةً واحدةً ما تغير من أحدهم شعرة. وعلىٰ ذلك حملنا قوله ﷺ: «وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2] أي لمحزونون مشاركةً في الحزن لأمك إن صح أن حزنها كان بحكم الطبع، وإن كان حزنها صوريًّا فهو تشريع لضعفاء الأمة منه ومنها، لكونهم لا يقدرون علىٰ كف أنفسهم عن الحزن مثلًا، كما أوضحنا الكلام علىٰ ذلك أواخر الباب العاشر من كتابنا المسمىٰ بـ«النور الساطع والسر القامع»، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للأمير الذي صحبه: إذا أرسلتَ لنا هدية، فأرسلها سرًّا، ولا تعلِم بها أحدًا من أصحابنا وجيراننا، مع أنه كان مشهورًا قبل ذلك بالورع العظيم، فلاث به أقرانه من العلماء والفقراء وقالوا: لو مات هذا قبل هذه الأيام، لكان الناس عبدوه، ولكن نعوذ بالله تعالىٰ من سوء الخاتمة، ومراعاة المقام عند الخلق دون الله تعالىٰ!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد التأمل في حاله وقصده، فقد يكون علىٰ قدم الورع ما زال عنه، [و] علم طيبة نفس ذلك الأمير بتلك الهدية الحلال، فقبلها

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

منه وأمره بإخفائها وإرسالها، سواء خوفًا أن يتبعه أحد علىٰ مثل ذلك مع عدم حلّ تلك الهدية، أو خوفًا من وقوع الناس في عِرْضه بغير علم. ولا يجوز حمله علىٰ أنه رجع عن مقام الورع، وخُتِم له بسوء. فاعلم ذلك يا أخي، وطهِّر قلبك من السوء، لتصير تنزه الناس عن السوء، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينهىٰ جماعته عن قراءة القرآن وأحدهم جالس مع القدرة علىٰ القيام، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا أمر مخالف لأحوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين إلىٰ عصرنا هذا.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لاحتمال أنه أمرهم بذلك باجتهاد، فقاس القراءة خارج الصلاة علىٰ القراءة في الصلاة، بجامع أن كلًّا منهما مناجاة لله عزَّ وجلَّ، ومناجاة العبد ربه وهو واقف غاض طرفه بين يديه أعظم في الأدب.

وتأمل يا أخي جماعة السلطان إذا أتاهم منه مرسوم لا يقرؤونه إلا وأحدهم واقف تعظيمًا للسلطان، وما كان أدبًا مع الملوك فهو مع ملك الملوك أولىٰ، ولو وقع أن أحدًا من نوَّاب السلطان قريء عليه مرسوم السلطان وهو مضطجع بلا حاجة، لعاب ذلك عليه أهل الأدب.

ومما وقع أن خادمًا من خدَّام السلطان سليمان ابن عثمان رحمه الله سألني عن عدد ركعات الوتر، فشرعتُ أقرأ عليه حديث الوتر، فانتهض قائمًا ووضع يديه علىٰ صدره حتىٰ فرغتُ [من] الحديث، ثم جلس، فأعجبني أدبه وتعظيمه وإجلاله لحديث رسول الله ﷺ عن أن يسمعه وهو جالس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول: لولا أن قراءة القرآن في غير القيام مذمومة، ما نهىٰ الشارع عن قراءته في الركوع، فإن القرآن صفة صمدانية، ولا يليق بتاليه إلا صفة العزِّ الذي هو القيام، بخلاف الركوع والسجود، فإنهما صفتا ذلّ وتواضع، ولولا علم الحقِّ جلَّ وعلا عجز الخلق عن احتمال تجليه لقلوبهم في القيام، لكان

أمرهم بتطويل القيام زيادةً عما ورد في السنة، فلذلك نفَّس عنهم بالركوع، وإن كان هو حضرة قرب دون القيام. انتهىٰ. وقد أوضحنا الكلام علىٰ ذلك وعلىٰ ما يرد عليه من الأسئلة والأجوبة في كتاب «الميزان» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لقاصده: اذهب إلىٰ أخينا فلان النصراني أو اليهودي، فقل له: كذا وكذا؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يسمِّىٰ الكافر أخاه والحقُّ تعالىٰ قد نفىٰ الإخوة بيننا وبين الكفَّار في الدين إذا لم يتوبوا عن كفرهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، في[1] قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بجعله الكافر أخًا له، فإن الله تعالىٰ قد سمَّىٰ الأنبياء إخوةً لقومهم الكفار بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١٠٦]، وبقوله ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠] أو نحو ذلك، وما أطلقه الحقُّ تعالىٰ علىٰ الأنبياء لا يجوز الاعتراض علىٰ من تبعهم فيه، **فالنبي وكلُّ داع إلىٰ الله تعالىٰ أخ للضال، وليس الضال بأخ للداعي،** لأن الداعي قد قام بحق الأخوة بدعائه أخاه[2] إلىٰ الهدىٰ، والمدعو لم يقم بحق الأخوة حين أبىٰ واستكبر عن اتباع الهدىٰ، وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ «ليس بأخيك من احتجتَ إلىٰ مداراته» فنفىٰ عمن احتجتَ إلىٰ مداراته الأخوة دونك.

[الحكمة في عدم وصف سيدنا محمد وموسى وإبراهيم وعيسى بالأخوة لقومهم]

فإن قال قائل: فما الحكمة في كون الحق تعالىٰ لم يقل في محمد وموسىٰ وإبراهيم وعيسىٰ أنه أخو قومه مثل ما قال في نوح ولوط وصالح ونحوهم؟ **فالجواب:** ذلك لحكمة لا تُذكَر إلا مشافهة! فلكل واحد منهم جواب ليس هو للآخر.

---

(١) بالأصلين: و.

(٢) بالأصلين: أخوه. والصواب ما أثبتناه.

فعُلِمَ أنه لا لوم إلا علىٰ من يحب الكافر مع كفره لا غير. فاعلم ذلك، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ إلا بعد تأمل أو استفهام منه عن مراده، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الذي ترك زيارة علماء بلده ومشايخها، فلامه بعض الناس علىٰ ذلك، فقال: ما بقي مع أحد علم ولا أدب نأخذه منه؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يريد أنه ليس مع أحد منهم علم قُسِمَ لي آخذه منهم، لعدم قبول محلي لذلك. فلا يلزم من قوله المذكور نفي العلم عن علماء عصره ومشايخه، وكأنه يقول: إني محروم من علم علماء أهل عصري وأدبهم، لدنس قلبي وفتور عزمي عن العلم والعمل، فزيارتي لهم لماذا؟! لأن الزيارة إنما شُرِعَت تلقيحًا للقلوب بالأصالة كتلقيح النحل الإناث بالذكور.

ومن هذا يُعلَم الجواب أيضًا عن الشيخ الذي قال: ما منعني من زيارة إخواني إلا لكونهم ليسوا بأهل لقبول علمي وأدبي، فيُحمَل علىٰ أنه ما ترك زيارتهم إلا لما رآه من طريق كشفه أنهم ليسوا لهم قسم عنده من علمه وأدبه، فترك زيارتهم لعدم فائدتها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صار يأمر غلمانه أن يكنسوا الزُّقَاق الذي هو ساكن فيه ويرشوه بالماء، ويغضب علىٰ الغلمان أشد الغضب إذا تركوا ذلك يومًا واحدًا، فلاث به أقرانه وقالوا: هذا أمر ما عهدناه إلا للأمراء والجند، ومثل العلماء والفقراء يكون أحدهم غائبًا عن مثل ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لاحتمال أن يكون مقصوده بالكنس والرش عدم حصول الغبار علىٰ وجوه المارين علىٰ بابه وعمائمهم وثيابهم، شفقةً عليهم وعلىٰ ثيابهم، لا ضخامةً وناموسًا، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي [يدخل][1] الخلوة الصادقة بالحقِّ جلَّ وعلا، ثم يخرج منها بغير كرامة، ولاث به الفقراء وقالوا: الخلوة الصادقة حضرة الله الخالصة، وما دخل أحد الحضرة الإلهية إلا وقد منحه الحق تعالىٰ شيئًا من الكرامات، فأخْبِرْنا بما أفاض الله تعالىٰ عليك من الكرامات من مشي علىٰ الهواء أو علىٰ الماء، أو دخول النار من غير أن تؤثر فيك، ونحو ذلك. فقال: تعالوا أطلعكم علىٰ المشي علىٰ الماء أو علىٰ الهواء. ثم مشىٰ، فرآه الناس يمشي علىٰ الأرض دون الماء والهواء، فكذَّبوه وقالوا: هذه طريقة مكشوفة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا تكذيبه، فقد يكون صادقًا، ولكن الحاضرون يرونه يمشي علىٰ الأرض عقوبةً لهم لموضع إنكارهم، كما قال من أنكر علىٰ الأنبياء ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ [القصص: ٣٦] فالشيخ يرىٰ نفسه يمشي علىٰ الماء والهواء، ويشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك، والحاضرون يرونه يمشي علىٰ الأرض، ليحرمهم الله تعالىٰ الإيمان بكرامات الأولياء. فاعلم ذلك يا أخي، واعتبر بأهل الشعوذة، فإنهم يخيِّلون لك خلاف الواقع من حرق عمامة حتىٰ تصير رمادًا، ثم ردها في الحال صحيحة بلا حرق، ومن تخيلك زلابية وعسلًا، ولا حقيقة لذلك. وإن كنتَ تطلب الكرامة لتؤمن بها، فسلِّم للأولياء وهم يطلعونك علىٰ كراماتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتعدىٰ بعض جماعته بعض الحدود، فيلوث الناس به ويقولون: لو كان هذا صالحًا، لم تقع جماعته في شيء من تعدي الحدود، ولكن قد ذهب الصالحون وما بقي إلا النصَّابون أرباب الدعاوىٰ الكاذبة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بوجه من الوجوه، فإنه لم يقل: أنا من الصالحين، بل هو من الذين يرون نفوسهم من أفسق الناس، فلا نظر له في عيب أحد حتىٰ ينصحه ويأمره بالاستقامة، بل ولو قال: إنه من الصالحين وهو صادق في دعواه، لا ينبغي اللوث به، فقد يكون ينصح جماعته ليلًا ونهارًا، ولكن محلهم ليس قابلًا للنصح،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

كما وقع لقوم نوح، فإنه دعاهم ليلًا ونهارًا، فلم يزدهم دعوه إلا فرارًا. وقد أجمعوا على أنه ليس من شرط الكامل نفوذ البصر في كلِّ مدعو. ولو صح ذلك لم يبق لقبضة الشقاء أهل يدخلون جهنم، وقد وعد الله تعالى جهنم يملؤها.

ولما غلبت الرحمة على رسول الله ﷺ وطلب أن يكون الناس كلهم مؤمنين، أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى: ٨] الآية، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] إلى آخر النسق. فاعلم ذلك، وإياك أن تقع في عرض أحد من الأشياخ إذا تعدَّى أحد من جماعتهم حدود الله، بل اعتقد في الأشياخ أنهم من أول من يتبرأ من جماعته إذا خالفوا ظاهر الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧٤) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يُذكَر له شخص من علماء البلد أو مشايخها بخير، فيقول: ولم[1] هذا الإطناب العظيم؟! فإنه ولو وصلت رأسه السحاب هو دوننا في العلم، ومعدود عند الناس من أتباعنا؛ فلاث به جماعة هذا العالم أو الشيخ وقالوا: سلمنا أنه كان قرأ عليكم أو على والدكم، فقد يرفعه الله تعالى في العلم والشهرة عليكم، فكان من الأدب عدم تفضيلكم نفسكم عليه، وتصبرون حتى يفضلكم الله تعالى عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الذي فضَّل نفسه، لاحتمال أن يكون قال مثل ذلك حال غضب، وكلام الغضبان يُسامِح فيه العقلاء بالطريق الشرعي. وقد يكون هذا العالم ما فضَّل نفسه إلا بحق، ليفتح للناس باب أخذ العلم عنه، حين[2] تتحقق أنه أعلم ممن شكروه من أقرانه، بقرينة تواضعه مع الناس قبل ذلك وقوله: نحن من أقل الناس.

فإياك يا أخي أن تبادر إلى الاعتراض على من زكَّى نفسه بل تربص، فربما يكون أحد

---

(١) بالأصلين: لا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: حتى. والصواب ما أثبتناه.

من تلامذة أقرانه قلَّ أدبه معه، وفضَّل ذلك القِرْن عليه فحرَّك نفسه، فالعاقل من رجع علىٰ نفسه باللوم، لكونه كان سببًا في تحريك نفس هذا العالم وإخراجه عن مقام التواضع المعهود منه قبل ذلك، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ينبغي لكلِّ إنسان أن يعظِّم الأغنياء ويتواضع لهم كما يتواضع للعلماء والصالحين من غير فرق، فلاث به الناس به وقالوا: هذا مخالف لظاهر ما ورد في الحديث: «من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه»[1]. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مشهده أن الغني خازن لمال الله عزَّ وجلَّ، فأكرمه وتواضع له من حيثُ جعله الله محلًا لخزن أمواله، كما جعل العلماء والصالحين محلًا لخزن علمه وأسراره، فما عظَّم هذا الغني إلا لغرض صحيح. ويُحمَل الحديث علىٰ من تواضع للغني لغرض فاسد أو لغني كافر، فإن وضع المال عند الكافر إنما هو استدراج، لا لكرامته عليه تعالىٰ.

فإن قال قائل: هذا الجواب ربما لم يخطر علىٰ بال من أجبتَ عنه؛ فلنسأله حيث ما احتمل فعله أو قوله ذلك حملناه عليه، وخلَّصنا نحن نفوسنا من الوقيعة في عرضه، ومن سوء الظن به، وذلك أولىٰ عند كل عاقل، فاعلم ذلك واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي يقول: ما بقي الآن أحد نجده يسلم العبد في مجلسه من الغيبة والوقيعة في الناس؛ مع أنه هو لم يزل يقع في أعراض الناس، فلاث الناس به وقالوا له: أنكر أنت علىٰ نفسك في وقوعك في عرض الناس، فإنه أولىٰ بك.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٧٠) من حديث ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: من أصبح محزونًا علىٰ الدنيا أصبح ساخطًا علىٰ ربه ومن أصبح يشكو مصيبته فإنما يشكو ربه ومن دخل علىٰ غنيّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه ومن قرأ القرآن فدخل النار فهو ممن اتخذ آيات الله هزوًا» وأحمد في «الزهد» (٤٣٥) والشاشي في «مسنده» (٦٠٩)، قال السيوطي: وأورد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات فلم يصب. «الدرر المنتثرة» ص١٨٩.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ، لاحتمال أن يريد بقوله: «ما بقي أحد» نفسه وغيره، فصار يحذِّر الناس من مجالسته ومجالسة غيره رحمةً به وبهم. وكذلك القول في وقوعه في عرض الناس يجب حمله على مسوغ شرعي يبيح مثل ذلك، كالتحذير من مجالستهم لكثرة وقوعهم في الغيبة، أو لمجاهرتهم بالمعاصي ونحو ذلك، لأن مثل الشيخ أو العالم الكبير لا يجهل أن قوله: «إن فلانًا يقع في الغيبة في الناس» من جملة الغيبة المحرَّمة، فاعلم ذلك يا أخي، واحمِ لسانك وقلبك من سوء الظن بالناس، وكن دائرًا مع الشرع في أقوالك وأفعالك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي القطبية، ولا يظهر للناس شيئًا من كثرة النسك والعبادة كما عليه القوم، بل طول ليله ونهاره في التنزهات والترفهات والمآكل اللذيذة والروائح الطيبة، حتىٰ ربما ذهب إلىٰ الحمام ثلاث مرات يغتسل من الجنابة، فلاث به أهل بلده وأهل حرفته من الفقهاء والفقراء وقالوا: ما بلغنا هذا الأمر قط عن قطب.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ، ولا منازعته في دعوىٰ القطبية، إذ القطب من شأنه الخفاء في كل عصر، فتارة يختفي بالدعاوىٰ العريضة، وتارة يختفي بالصنائع والحرف التي يستبعدها الناس عادةً علىٰ الأولياء، كتاجر ومباشر وشرطي في بيت الولاة، وتارة يختفي بالمراكب النفيسة والمآكل الطيبة والروائح العاصفة من مسك وعنبر وكافور، وبخور بالند والعود، وتطبيق ثيابه بالزهور حتىٰ يصير يعرف الزُّقَاق بأنه مر فيه. وقد بلغنا ذلك من خلق رسول الله ﷺ ومن خلق عمه العباس، وخلق حذيفة بن اليمان[1] ودِحْية الكلبي[2] رضي الله عنهم. وكذلك بلغنا ذلك عن الإمام أبي حنيفة والإمام مالك والإمام زين

---

(١)) حذيفة بن اليمان العبسي أبو عبد الله، صاحب سر رسول الله ﷺ، لم يشهد بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها، وهو الذي بعثه رسول الله ﷺ يوم الخندق ينظر إلىٰ قريش وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأله عن المنافقين، استعمله عمر علىٰ المدائن، فلم يزل بها حتىٰ مات سنة ٣٦ هـ. الاستيعاب (١/ ٣٣٤)، الإصابة (٢/ ٣٩).

(٢)) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق وقيل أحد، ولم يشهد بدرًا، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام ينزل علىٰ صورته، عاش إلىٰ خلافة

العابدين، وإن لم يكن هؤلاء أقطابًا، فما على وجه الأرض قطب!

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في «الفتوحات المكية» أن من شأن القطب كثرة الجماع للنساء، والعشق للصورة الجميلة في المعنى والحس، حتى يكاد يذوب عشقًا، وأن نكاحه لمجرد اللذة والشهوة كنكاح أهل الجنة، لا بقصد إعفاف ولا نسل، وأنه لا يُطلَب منه كثرة عبادة في الظاهر كغيره، لاستغنائه بنوَّابه من الأولياء، إذ القطب ليس مُعَدًّا لتربية المريدين وتسليكهم، وإنما المراد منه جمعية القلب على الله، وتلقي الأمداد النازلة عليه، ليفيضها على العالم لا غير[1]. انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا ألسنتكم في حقِّ كلِّ من تظاهر بالولاية ولم يظهر عليه أثر من النسك والعبادة، وإلا فربما حكَّمه الله تعالى في أعمالكم الصالحة، ونقلتها الملائكة إلى صحائفه، فأصبح أكثر الناس أعمالًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قلَّ مريد أدبه عليه، فقال: أنا منكر على شيخك الذي لم يهذِّب نفسك؛ فلاث به أصحاب شيخ ذلك المريد وقالوا: لا يلزم من اجتماع الناس كلِّهم بالفقير أن يهذب أخلاقهم، لقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بقوله: «أنا منكر على شيخك الذي لم يهذب خلقك» لاحتمال أن يكون قصد بذلك المدح له في أحد وجهين، وحُجِبَ عن الوجه الآخر، أي لو أنه ألقى باله إليك لهذَّب أخلاقك بأقواله وأفعاله، ولكنه غفل عنك، فلم تتهذب لك أخلاق، فاعتقادُ هذا المنكر في شيخ المريد أنه لو ألقى باله إليه لهذَّب أخلاقه مدحٌ له، ووصفه بالغفلة نقص له، لكنه لم يستحضر هذا الوجه، وقد مدح الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وبهذا أجبت عن ولد شيخنا سيدي محمد الرملي حين قال مثل ذلك لبعض أصحابنا، والحمد لله رب العالمين.

معاوية ... «الإصابة» (٢/ ٣٢١).

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٧٠).

(١٤٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تصدر في بلده لإرشاد المريدين، وادعىٰ مقام الكمال، وهو مع ذلك يشاحح البائع أو المشتري في جديد نقرة، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا دليل علىٰ أنه لم يشم من طريق القوم وكمال الإيمان رائحة، وفي الحديث ما يشهد لأن الحق تعالىٰ يحب الذي يكون سمحًا إذا باع، سمحًا، إذا اشترىٰ سمحًا إذا اقتضىٰ[1] أي طالب بحقه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي يشاحح الناس، فقد يكون عما ظنه الناس فيه بمعزل، وإنما يشاحح الناس ليقبُح في عيونهم التساهل بحقوق الناس في الدنيا والآخرة، أو حتىٰ لا يكون لأحد عليهم منة بالمسامحة، كما عليه الكُمَّل من أهل الله عزَّ وجلَّ. فاعلم ذلك، وإياكم والمبادرة إلىٰ لإنكار علىٰ أهل الله بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول لأخيه حال الغيظ: يا عرصة يا عتبة يا جميزة ونحو ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: هذه الألفاظ ظاهرها القذف وذلك لا يليق وقوعه من فقير.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير حتىٰ تجتمع به وتستفهمه عن مراده، فربما قصد بذلك المدح لأخيه، أي أنت كالعَرْصة[2] التي يطؤها البر والفاجر، وكذلك القول في العتبة، أو أنت في النبات في طريق الفقراء كشجرة الجميز التي لا تزلزل عروقها الرياح العواصف، وليس عليه إثم في وصف أخيه بمثل ذلك إلا إن قصد ما يقصده العيَّاق والزيط، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ حمل الناس علىٰ المحامل السيئة، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يتخاصم مع أحد من المسلمين فيقول له: يا كلب يا واطي ونحو ذلك، فلاث به الناس وقالوا: مثل هذا لا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٧٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترىٰ، وإذا اقتضىٰ» والترمذي (١٣٢٠).

(٢) العَرْصَةُ: البقعةُ الواسعةُ بين الدُّور لا بناءَ فيها.

يليق بآحاد العوام، فضلًا عن العلماء والصالحين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ أو العالم حتىٰ يُستفهَم عن مراده بذلك، فقد يريد أن ذلك الشخص متكلب في أفعال الخير والمعروف لا يكاد ينفك عنها، إذ الكلب مشتق من التكلب، وهو تعلق الكُلَّاب[1] الحديد في اللحم أو في عروة حبل، فيشمل تكلبه في فعل خير. ويُحتمَل تكلبه في فعل شرٍّ ومن جعله نصًّا في الشر والحقارة، فقد جار علىٰ اللفظ وحجر واسعًا. ثم إذا استفهمنا هذا الشيخ أو العالم عن مراده وأخبرنا به، بنينا عليه مقتضاه شرعًا، وهناك إما نلوث به أو نترك.

وكذلك القول في قوله: «يا واطي» فقد يريد أنه من شدة تواضعه كل من شاء يطؤه ويستهين بجنابه، ومع ذلك فهو يعفو ويصفح. ولا ينبغي حمله علىٰ النعل الذي يكون في الرجل، فإن مثل ذلك لا يجهل الأشياخ والعلماء تحريمه، ولا ينبغي اللوث إلا علىٰ من قال لفظًا لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الكلام علىٰ آيات الصفات وأخبارها مما فيه رائحة تشبيه بالخلق، كالنسيان والاستهزاء والسخرية والمكر والخداع ونحوها، وأنه يجب تأويلها كما يجب تأويل اليد والقبضة والإصبع والجَنْب والمشي والهرولة وغير ذلك، وأنه يجب إضافتها إلىٰ كل ذات بما يليق بها من قدم أو حدوث، وأن الاسم متحد والحقيقة مختلفة، إذ القديم لا يصح لمخلوق تعقله علىٰ ما هو عليه، لعدم اجتماعه مع المخلوق في حدٍّ أو حقيقة أو جنس أو نوع، فاعلم ذلك، واحمِ سمعك وقلبك عن سماع القبيح وسوء الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقع لشخص من أعدائه عزل من وظيفة، أو موت ولد، أو غرق مال، أو طرد السلطان أو الأمير له بعد أن كان من خواص أصحابه، فأظهر الفرح والسرور، وعمل طعامًا، ودعا أصحابه إلىٰ التفرج في الأنهار والبساتين عقب ذلك، فلاث به الناس وقالوا: إذا كان مثل هذا الأمر صار يقع من المشايخ، فما بقي

---

(١) الكُلاَّبُ: حديدةٌ معوجَّة الرأس يُنْشَلُ بها الشيءُ أو يُعلَّق.

أمثالنا يلام علىٰ مثل ذلك، وكيف يدعي هذا الصلاح وهو يشمت بمصيبة أخيه المسلم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب فرحه وإظهاره السرور، لاحتمال أن يكون ذلك من حيثُ حصولُ الأجر والثواب لأخيه بذلك، وبعده عن مخالطة السلطان والأمير، فإنه قل من يتخلص من الركون إلىٰ السلطان أو الأمير إذا رأىٰ منه المحبة والتعظيم، فيصير يداهن السلطان والأمير ولا ينصحهما ولا ينهيهما عن جور أو ظلم يقع منهما. ولا يجوز حمل الأشياخ علىٰ أن ذلك الفرح والسرور والتنزه في الأنهار والبساتين علىٰ وجه التشفي للنفس والشماتة بالمسلم، فإن منصب الأشياخ يجل عن مثل ذلك، لخروجهم عن رعونات النفوس حال سلوكهم الطريق، وقربهم من حضرة الله عزَّ وجلَّ.

وإذا صح حملهم في فرحهم بمصيبة عدوهم علىٰ الفرح له من حيثُ حصولُ الثواب الأخروي، فكيف لا يصح حملهم علىٰ ذلك إذا فرحوا بمصيبة صديقهم من حيثُ الثوابُ كذلك، فالله تعالىٰ يرزقنا وإخواننا التطهر من الأدناس حتىٰ نصير نحمل إخواننا المسلمين علىٰ أحسن الأحوال إلىٰ الممات، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يقول: لو رأيتُ النبي ﷺ وأنا محتضر وقال لي: افعل كذا واترك كذا، ما فعلتُ به إلا بعد عرضه علىٰ شريعته التي بين أظهرنا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: حكم رؤية المحتضر حكم أيام التكليف وحال الصحة واليقظة، ومن كشف الله عنه الحجاب ورأىٰ النبي ﷺ يقظة، فلا فرق بينه وبين الصحابي الذي يقول: قال لي رسول الله ﷺ: كذا وكذا، ويجب عليه العمل به، ولا يلحق مثل ذلك بمن رآه في منامه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أن يكون مراده أن رؤية المحتضر كرؤية من ذهب عقله من شدَّة ما يجده من الألم، فلا يصير علىٰ يقين من أن ذلك القول قول رسول الله ﷺ، وإن كانت رؤيته لا شك عنده فيها، فاحتاط هذا العالم لنفسه في العمل بما سمعه وهو محتضر، وتوقف علىٰ عرضه علىٰ الشريعة الظاهرة قبل العمل به، فنعم ما فعل!

وقد حكىٰ الإمام القرطبيُّ عن الإمام أبي جعفر القرطبي[1] أنه لما احتضر جاءه الشيطان فقال له: مت يهوديًا، مت نصرانيًا. فقال له: تقول لي ذلك وقد كتبتُ بيدي في كتاب الترمذي والنَّسائي عن النبي ﷺ أن الشيطان يأتي إلىٰ أحدكم عند الموت، فيقول: مت يهوديًا، مت نصرانيًا. قال: فأعجز الشيطان وذهب. انتهىٰ. قال الإمام أبو عبد الله القرطبي صاحب «التذكرة»: فلما سمعتُه يقول ذلك حال احتضاره، تصفحتُ كتاب الترمذي وبعض كتاب النسائي، فلم أقف علىٰ هذا الحديث فيهما، وهما نُسَخ، أي فإن لم يوجد في نسخة، [وُجِد في نسخة][2] أخرىٰ منهما وإلا فلا ينبغي روايته، لعدم من أجازه من المحدثين. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ أحد إلا إن كنتَ أعلم منه يقينًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعرض عليه الأمراء والأكابر طول عمره أن يجعلوا له جوالي أو مسموحًا أو مرتبًا في بيت المال فيأبىٰ، ثم لما طعن في السن ودخل في معترك المنايا، صار يزاحم الناس علىٰ الدنيا، وكلُّ من مات وله مرتب يطلع للباشاه ويدخل للقاضي والدفتردار ويقول: أنا محتاج فقير، وربما خاصم من زاحمه في ذلك المرتب، فلاث به الناس من الأقران وغيرهم وقالوا: لو أن هذا عكس الأمر وتعفف عن أموال الولاة لكان أفضل، ولكن نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون بمعزل عما ظنه الناس فيه من محبة الدنيا، وإنما قصد بمزاحمته الناس علىٰ الدنيا وسؤال الولاة فيها ستر حاله قبل أن يخرج من الدنيا، فيفارق الناس علىٰ قلة الاعتقاد فيه والتعظيم

(١) أبو جعفر القرطبي أحمد بن علي بن أبي بكر المقرىء الشافعي. ولد سنة ثمان وعشرين بقرطبة، وسمع بها من أبي الوليد بن الدبّاغ، وقرأ القراءات علىٰ أبي بكر بن صاف ثم حجّ وقرأ القراءات علىٰ ابن سعدون القرطبي، ثم قدم دمشق فأكثر عن الحافظ ابن عساكر، وكتب الكثير، وكان عبدًا صالحًا خبيرًا بالقراءات. توفي: ٥٩٦هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٦/ ٥٢٨).

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

له، ليجبر خلل النقص الذي كان حصل له باعتقاد الناس له طول عمره، ووصفهم له بالصلاح والزهد والورع والعفة، وتمييزهم له على سائر أقرانه الذين كانوا بالضدِّ من حاله، وربما كان أقرانه أحسن حالًا منه في الباطن فيما بينهم وبين الله تعالىٰ. فخرجوا من الدنيا ولم ينقص من رأس أديانهم شيء، ولا كانوا يظهرون الزهد(١) والعفة سترًا لمقامهم طول عمرهم، فأراد هذا الشيخ أن يتدارك ما فرط منه، ويلحق بأقرانه في كمال المقام وعدم نقص الأجر قبل موته، ولا يذهب إلىٰ الآخرة صفر اليدين من ثواب أعماله، ويقال له في الآخرة: إنك قد استوفيتَ ثواب زهدك وورعك وعفتك باعتقاد الناس فيك في دار الدنيا، لتظاهرك بصفات الكمال، ولو أنك كنتَ سترتَ أعمالك الصالحة ولم تتميز عن الناس بشيء كما فعل أقرانك، لم يكن ينقص من ثواب أعمالك شيء.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من رأيتَه من العلماء والصالحين يزاحم علىٰ الدنيا أواخر عمره، لاحتمال أن يكون قصد بذلك فتح باب عدم اعتقاد الناس فيه حين وفَّىٰ ما كان عليه من تعليم الناس العلم وإرشاده للمريدين، وبلَّغ للناس ما أُمر بنشره من العلوم والآداب، وصار أجله بين عينيه، واشتغل بالتهيؤ للموت، والله يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سمع عالمًا يروي حديثًا عن النبي ﷺ في صفة طلوع روح الكافر وروح المؤمن، وقال في الحديث: «فتصعد الملائكة بروح المؤمن حتىٰ ينتهي إلىٰ السماء التي فيها الله عزَّ وجلَّ»(٢)، فأنكر الحديث وقال: هذا حديث

---

(١) بالأصلين: عدم الزهد. والصواب ما أثبتناه.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ وتمامه: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحًا، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تخرج، ثم يعرج بها إلىٰ السماء، فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ ينتهي بها إلىٰ السماء

باطل، أو هو مؤول بأمر الله عزَّ وجلَّ، كما قال العلماء في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وفي مثل حديث: «ينزل ربنا»(١).

والجواب: أنه لا ينبغي القول بأن الحديث باطل، لأنه حديث صحيح رواه ابن ماجه في سننه، وفي رواية أخرىٰ «حتىٰ ينتهي به إلىٰ السماء السابعة التي فيها الله تعالىٰ» فالأولىٰ التأويل لا الرد. وقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أنه تذاكر هو وبعض العلماء في هذا الحديث، فبادر إلىٰ الرد، فقال له ابن عبد البر: الحديث صحيح خرَّجه ابن ماجه في «السنن» فلا ترد الأخبار بمثل هذا القول، بل يجب التأويل علىٰ ما يليق، فإن الذين رووا(٢) هذه الرواية هم رووا الصلوات الخمس وأحكامها، فإن صدقوا هاهنا صدقوا هناك، وإن كذبوا هنا كذبوا هناك، ولا تحصل الثقة بأحد منهم فيما يرويه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ ردِّ شيء من الأحاديث إلا إن أحطتَ بكتب السنة كلِّها، ولم تجد فيها ما يشهد له، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي قال: إن الأموات لتعلم بمن يذكرها بخير، وبمن يذكرها بسوء بعد موتها؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: إن الأموات قد انقطع عملهم بمثل ذلك، واشتغلوا بما هم فيه من النعيم أو العذاب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، فقد ورد «إن الميت ليؤذيه في قبره ما كان يؤذيه في بيته»(٣). انتهىٰ. فيُحتمَل أن الميت يبلغ إليه من أحوال الأحياء وأقوالهم ما يؤذيه بلطيفة يخلقها الله تعالىٰ له، أو بملك يبلِّغه، أو علامة أو دليل أو غير ذلك، فإن الله علىٰ كل شيء قدير. ويؤيد ذلك ما جاء في النهي عن سب الأموات في نحو قوله ﷺ: «لا

التي فيها الله عز وجل....» والنسائي في «الكبرىٰ» (١١٣٧٨) وأحمد (٨٧٦٩).

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) وغيرهما.

(٢) بالأصلين: ردوا. والصواب ما أثبتناه.

(٣) أخرجه الديلمي (٧٥٤) بلا سند، عن عائشة مرفوعًا، ويشهد له ما أخرجه أبو داود (٣٢٠٧) وابن ماجه (١٦١٦) وغيرهما، من حديث عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «كسر عظم الميت ككسره حيًا».

تسبوا الأموات، فإنهم أفضوا إلىٰ ما قدَّموا»(١). فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من العلماء إلا إن كنتَ أعلم منه، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان إذا سمع كلمة من عدوه في حق صديقه يتكدر لذلك، ويقوم ويقعد، ثم لما وقع بينه وبينه وقفة، صار يسمع الكلام الكثير من الأعداء في حق صديقه فلا يتغير، فلاث به الناس وقالوا: أمس كان يحب فلانًا ويجيب عنه، واليوم صار يكرهه ولا يجيب عنه كلمة واحدة، ما كان ذلك إلا لحظِّ نفس إقبالًا وإدبارًا!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون بمعزل عما فهمه الناس عنه، وأنه كان يعلم من صديقه الضعف حين كان يرد عنه، ولما حصل بينه وبينه وقفة علم قوته وتحمله لأضعاف ذلك، فترك الجواب عنه، لما يعلم من قوة إيمانه ورضائه بما يقدِّره الله تعالىٰ عليه علىٰ يد أعدائه، أو ترك الجواب عنه خوفًا أن ينقص أجر صديقه بالجواب، فطلب توفير الأجر له في الآخرة، ثم دعا للجاني عليه بالتوبة والمغفرة.

ولا يجوز حمل هذا الشيخ علىٰ الأغراض النفسية كما يقع فيه العوام، فما دام أحدهم صُلْحًا مع أخيه فهو يحمده، فإذا وقع بينه وبينه يصير يذمه، فإن الأشياخ قد ارتفعت درجاتهم عن مثل ذلك، وصاروا لا يفعلون شيئًا إلا إن رأوا رضا الله عزَّ وجلَّ في ذلك الفعل، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: إن النفس هي الروح؛ فلاث به مجادل وقال: إن الروح غير النفس؛ ونقله عن جماعة من المتصوفة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، فقد ورد في الحديث ما يؤيده في حديث: «إن الروح إذا قُبِضَ، تبع بصرُه نَفْسَه»(٢)، فجعلهما اسمين لمسمىٰ واحد، فما دام العبد ذا حجاب فهو صاحب نَفْس، فإذا رفع حجابها صارت روحًا، ثم قلبًا، ثم سرًّا، وهي في

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣)، وأبو داود (٤٨٩٩).

(٢) أخرجه مسلم بلفظ «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» (٩٢٠)، وابن ماجه (١٤٥٤).

نفسها لطيفة واحدة، وقد أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] لم يقل: «وما تدري روح» بقرينة ما يقع للأولياء من إخبارهم بالمكان الذي يموتون فيه، والله أعلم.

(١٢٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الذي حصل لأحد من أقرانه مصيبة، فأظهر للناس الشماتة فيه، أو لم يحضر عنده كما حضر غيره من أصحابه الذين يعزونه أو يونسونه مع جماعة الوالي إن كان أحدًا شكاه من بيته، ولاث به أصحاب الشيخ الذي نزلت به المصيبة وقالوا: إظهار الشماتة بالمسلم حرام.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشامت أو الذي لم يحضر عنده للتعزية أو الاستئناس، لاحتمال أن يكون إنما أظهر الشماتة به ليعرف الناس بمقام كماله الذي كانوا يجهلونه، فكأنه يقول: انظروا إلىٰ ثباته وعدم التأثر بشماتتي أو بعدم تأنيسي له!

ولا يجوز حمل هذا الشامت علىٰ أنه شمت فيه إظهارًا لعداوته وكراهته له، فإننا لم نعلم قصده، بل لو سمعناه يقول: إنما أظهرتُ الشماتة فيه لكوني أكرهه؛ حملناه علىٰ أن هذا الشامت إنما قال ذلك إظهارًا لنقصه هو، فكأنه يشتكي مرضه الباطن لإخوانه ليسألوا الله تعالىٰ له أن يمُنَّ عليه بزوال تلك الكراهة التي هي بغير حقٍّ، أو نحمله علىٰ أن إظهار تلك الكراهة أمر صوريٌّ وهو يحبه في الباطن أشد المحبة، ويعتقد صلاحه ودينه وأنه خير منه، وإنما فعل ذلك ليشينه بذلك في عيون الناس، خوفًا عليه من العين أو من العجب بحاله ونحو ذلك من المحامل الحسنة.

وقد حملتُ أنا بحمد الله أهل حارتي لما شمتَ بعضهم بنا لـمَّا وقع صغير في خرارة ميضأة الزاوية التي بالخليج ومات، وجاءت جماعة الوالي ليربطوا من كان حفر تلك الخرارة من الفقراء، أو من أمر بها حتىٰ يغرموه الدية مثلًا ولم أتأثر منهم، وقلتُ: يُحتمَل أنهم قصدوا بإظهار الشماتة بالفقراء وعدم تأثرهم بذلك إظهار مقام الفقراء، ولو كان مثل ذلك يبعد علىٰ أمثالهم، فقد يمنحهم الله ذلك المقام حين وقع لنا ما وقع، فإن الحقَّ تعالىٰ ليلًا ونهارًا في تحويل وتغيير لأفعال عباده ومقاصدهم.

وكذلك حملتُ أصحابي الذين هربوا من الزاوية حين بلغهم أن الوالي أتى إلى الزاوية يكشف على الصغير على أنهم ما هربوا من الزاوية إلا لكثرة اعتقادهم فيَّ، وأن مثلي لا يخذل الله ولا يسلمه لمن يؤذيه، لشدة اعتنائه به ومحبته له، أو لرؤيتهم العجز في نفوسهم عن تحمل الرعب الذي يحصل من كلام جماعة الوالي، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فإنه ربما طلع الحب الفرنجي على بدن أحدهم من الاضطراب[١]، فكان هروبه من الزاوية أولى من حضوره.

ثم بتقدير أن يكون الشامت بالضد مما ذكرناه كله، وأنه إنما شمتَ على طريقة العوام والأعداء حقيقة، فلا ينبغي التكدير منه، بل اللائق أن يشكره على ذلك، لكونه بيَّن لنا عداوته لنا، ليأخذ أحدنا حذره منه، كما أن من حضر معنا في وقت الشدَّة عرفنا بمحبته لنا، لنركن إليه بعض الإركان ولا نحذره كما نحذر ذلك العدو، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي دخل على شيخ يدعي الزهد في الدنيا، فرأى عنده ثيابًا زائدة عن حاجته في فصل الشتاء أو الصيف، أو رآه جالسًا على بساط أو طَرَّاحة مثلًا، فخرج من عنده يقطع في عرضه، فلاث به أصحاب ذلك الشيخ وقالوا: هذا أمر مباح لا يجوز الاعتراض على فاعله شرعًا.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا الفقير الذي اعترض على هذا الشيخ، لاحتمال أنه قصد بذلك تنبيهه على السعي في كمال مقام الزهد في الدنيا، وأن لا يدع عنده من أمتعتها إلا ما يحتاج إليه في ذلك الوقت لا غير، ويخرِج عن يده كلَّ شيء يراه زائدًا، عملًا بقوله ﷺ لأبي هريرة: «يكفيك من الدنيا كزاد الراكب»[٢].

---

(١) بالأصلين: الطربة.

(٢) لم أقف عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، وإنما وقفت عليه من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب (١٧٨٠)، والحاكم وصححه (٧٨٦٧)، وعن سلمان ﷺ أخرجه ابن ماجه (٤١٠٤)، وأحمد (٢٣٧١١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٧٨٩١).

[سيدنا أبو ذر رضي الله عنه على المقام العيسوي]

وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يرىٰ تحريم الادخار لشيء من نقود الدنيا وطعامها وملابسها، وهو مقام عيسوي، فإن عيسىٰ عليه السلام لم يكن يحبس من الثياب إلا ما يكون عليه في الصيف أو الشتاء، ورُفِعَ إلىٰ السماء يوم رُفِعَ وعليه جبة صوف، ونعل من صوف، وكساء من صوف، فهما عليه في السماء لا يخلقان ولا يبليان حتىٰ ينزل آخر الزمان. وقد بلغنا عليه السلام أنه لم يكن له قصعة يأكل فيها ويقول: قصعتي بطني، وملعقتي يدي. وكذلك لم يكن له مخدة يضع رأسه عليها إذا نام، فوضع يومًا طوبة تحت رأسه، فأتاه إبليس وقال: يا عيسىٰ، رغبتَ في الدنيا بعد زهدك فيها، وصرتَ تنام علىٰ مخدة! فرماها عليه السلام في وجه إبليس، وصار ينام بلا مخدة حتىٰ رُفِعَ إلىٰ السماء.

فاعلم ذلك، وإياك أن تدخل علىٰ فقير فتراه جالسًا علىٰ طَرَّاحة فتحمله علىٰ أنه جلس عليها ترفهًا، وإنما الواجب عليك أن تحمله علىٰ أنه إنما جلس عليها لعذر شرعي، أو علىٰ أنها ملك لزوجته، مع أن اللائق بأمثالنا في هذا الزمان أن لا يُنكَر عليه إلا ما كان حرامًا أو مكروهًا، وأما المباح فذلك أعلىٰ مقام يكون فيه، اللهم إلا أن يأمر أحدًا من أصحابه بالإنكار عليه إذا رأوه في مباح من الرُّخَص، ليذكروه بذلك فيتركه، فلا حرج.

ومما وقع أن شخصًا دخل عليَّ يومًا، فوجدني جالسًا علىٰ فروة فوق طَرَّاحة صغيرة لوجع كان بمقعدتي، فخرج يَقْرِض في عِرْضِي ويقول: رأيتُ فلانًا جالسًا علىٰ فروة فوق طَرَّاحة، فبعض الناس يقول: هذا أمر مباح، وبعض الناس يقول: هذا لا ينبغي لفقير؛ فلم أتكدَّر بحمد الله منه، وحملتُه علىٰ تنبيهي علىٰ ترك الترفه ما أمكن، إذ النفس ربما جلست علىٰ فروة أو طَرَّاحة لعذر ثم زال ذلك العذر، فتساهلت بالجلوس علىٰ ذلك ترفهًا، فجزاه الله تعالىٰ عني من أخ خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أمر من يخل بواجب حق شريف أن يأتي بالشهادتين ويقول: برئتُ من كلِّ دين يخالف دين الإسلام؛ فلاث به فقيه

وقال: هذا أمر لا يخرج به الإنسان من دين الإسلام، وإن كان حق ذلك الشريف عظيمًا عند الله تعالىٰ. وقد خطب الإمام عليُّ بن أبي طالب ابنةَ أبي جهل علىٰ فاطمة ، وغضب النبي ﷺ لأجل غضب فاطمة، ثم خطب الناس وقال: إن فاطمة بَضْعة مني، يريبني ما يريبها، ويؤذيني ما يؤذيها، ولكن إن أراد ابن أبي طالب أن يتزوج علىٰ ابنتي، فليترك خطبة ابنة أبي جهل»[1] ولم يبلغنا أنه ﷺ أمر عليًّا أن يجدد إسلامه بإتيانه بالشهادتين.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه ما أمر تلميذه حين أخلَّ بواجب حقِّ الشريف إلا لكونه رآه فعل ذلك استهانةً بمقام الشريف، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن الاستهانة بالولد تسري إلىٰ الاستهانة بجده ﷺ، ورأىٰ حضرة الباطن في حضرة الله عزَّ وجلَّ كحكم حضرة الظاهر علىٰ حد سواء في الحكم عند الله تعالىٰ، وإن تراخت عنها في ظاهر الشريعة، فلا اعتراض علىٰ هذا الشيخ في أمره مريده بتجديد الشهادتين، لأنه أخذ له بالاحتياط في أحكام الدار الآخرة، حيث اطلع من طريق كشفه أو من طريق اجتهاده علىٰ أنه ما أخل بواجب حق الشريف إلا استهانة بجنابه.

وتأمل يا أخي لو أنه صرَّح بما في قلبه من الاستهانة، لحكم العلماء بارتداده عن الدين، وقتلوه إن لم يرجع إلىٰ الإسلام، فما تركنا قتل من أخلَّ بواجب حق الشريف إلا حملًا له إلا أنه معظِّم له في الباطن ومحب له، وإنما فعل معه ما فعل غفلةً عن مقام رسول الله ﷺ أو ذهولًا أو نسيانًا في ذلك الوقت، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٩٢) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يرد شفاعة بعض الفقراء عنده في بعض من حبسه علىٰ مال أو تأديبًا، ولاث الناس به، فقال: إن هؤلاء الفقراء ما يشفعون عندي إلا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٧٢٩) من حديث المسور بن مخرمة قال: «إن عليًا خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك، فاطمة فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد، يقول: أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله، عند رجل واحد فترك علي الخطبة. والترمذي (٣٨٦٩).

لأجل هدية يأخذونها من جهة من يشفعون فيه؛ فلاث به أصحاب الفقير وقالوا: حاشا شيخنا من ذلك!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالأمير بسبب قوله ذلك حتىٰ يجتمع به ويُعْلِمُه بحال الفقير وعفته وزهده في مثل ذلك، فإن هذا الأمر قد كثر في غالب من يدعي الفقر في هذا الزمان، فقاس الأمير حال هذا الشيخ علىٰ غيره، لعسر تمييز الصادق من غيره عليه، فإن الأمير في دائرة، والفقراء في دائرة.

وأيضًا فإن الأمير ربما قاس الفقير علىٰ نفسه هو أو علىٰ جماعته من خازندار وبردداروغيرهما، فإنه يراهم لا يشفعون عنده إلا بجُعَالة(١) يأخذونها من ذلك الشخص، فقاس الفقراء علىٰ ذلك، فأعلِم يا أخي الأمير بأحوال الفقراء، ثم اعترض عليه بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اشتُهر بالزهد والورع والعفة ومحبة إخمال الذكر، وميَّزه الناس علىٰ أقرانه بذلك، ثم سمعناه يقول لشخص من جماعة أمير أو قاضي العسكر: اذكر للأمير أو للقاضي صفاتي الحسنة، فلعله يصير يحبني ويتفقدني بهدية أو صدقة مثل أقراني؛ فلاث الناس به وقالوا: إن فلانًا قد نكص علىٰ عقبيه، ورجع عن محبة الخمول، وصار يطلب الشهرة والشهامة بعد ذلك المقام العظيم، ولو أنه كان مات قبل ذلك لكان خيرًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون أراد بذلك القول طلب الخفاء وعدم التميز عن أقرانه حين أدَّىٰ اجتهاده إلىٰ ترجيح ذلك علىٰ الشهرة بالخير والصلاح، فإن قوله: «فلعل الأمير يصير يفتقدني بهدية أو صدقة» أخفىٰ في طلب الخفاء، فإن الناس يقل اعتقادهم فيه بذلك، فيختفي بين أقرانه، كما عليه السادة المَلامتية رضي الله عنهم. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ إلا إن كنتَ أعلىٰ مقامًا منهم في

(١) الجُعَالَةُ: ما يُجعلُ علىٰ العمل من أجرٍ أو رِشْوَةٍ.

العلم بمكائد النفوس، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي وسَّع الله تعالىٰ عليه في الدنيا، ومع ذلك فيقتر علىٰ نفسه وأولاده وزوجته وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: هذا بخل عظيم؛ ونظموا فيه أبياتا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا نسبته إلىٰ البخل العظيم، لاحتمال أن يكون رأىٰ فيما بيده من الدنيا أنه حرام أو شبهة، فلم تطب نفسه بأن يأكل منه ولا يلبس، ولا يمكِّن أولاده وعياله من ذلك المال أو الطعام أيضًا، محبةً فيهم وخوفًا عليهم من مناقشة الحساب يوم القيامة، فلذلك صار يقتر علىٰ نفسه وعياله بقدر الضرورة، ويود أن الله تعالىٰ حماه من ذلك، وقسم له شيئًا من الحلال، فلا يُجابُ لسبق العلم الإلهي بذلك.

فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من تراه من أشياخ الطريق والعلماء يفعل مثل ذلك، فإن جميع الأموال التي بيد العبد اليوم قلَّ أن تسلم من الشبهات. وقد كان الفضيل بن عياض يطوي هو وأولاده الليالي والأيام لا يجدون من الحلال الذي يناسبهم ما يسد الرمق، وسف إبراهيم بن أدهم التراب مرات حين لم يجد الحلال. فعُلِمَ أنه لا يتوسع في هذا الزمان في المآكل والمشارب وغيرها إلا كل جاهل، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٥) ومما أجبتُ به عن المشايخ ببلاد الريف إذا وردوا علىٰ صاحبهم في مصر، وأقاموا عنده في الضيافة زمانًا طويلًا، سواء أكانوا مشايخ الفلاحين أو مشايخ الزوايا من الفقراء، ولاث بهم الناس بسبب طول إقامتهم وقالوا: أما كان لهؤلاء ذوق؟! يقيمون عند صاحبهم حتىٰ يحرجوه، ونسوا قوله ﷺ: «لا يحل لضيف أن يثوي عند أخيه أكثر من ثلاثة أيام إلا بإذنه، لئلا يحرجه»[1].

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦١٣٥) من حديث أبي شريح الكعبي: «أن رسول الله ﷺ قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يومٌ وليلةٌ، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتىٰ يحرجه» وأبو داود (٣٧٤٨).

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء المشايخ، لاحتمال أن يكونوا لم يتحققوا بضيقه وتحرجه، فقاسوا حاله على حالهم في الكرم، ولم يُعَرِض هو لهم بأنهم ضيَّقوا عليه، فكان لهم العذر في ذلك، وقصدوا له حصول الأجر والثواب بذلك، لقوة إيمانهم بما وعد الله به المنفق من الإخلاف عليه بأضعاف ما بذل، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلى الإنكار بغير طريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩٦) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذي يزورون أخاهم، فينامون عنده بأصحابهم، فيزيدون في العبادة تلك الليلة على [غير][1] عادتهم في بيوتهم، فلاث بهم من كان معهم من أصحابهم ولو في الباطن وقالوا: ما كنا نظن أن أحدًا من هؤلاء يقع في الرياء ويظهر للناس عملًا زائدًا على أقرانه!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهؤلاء الفقراء، بل يجب حملهم على أن ذلك وقع منهم اتفاقًا من غير قصد في الزيادة، أو اختلف عليهم الموطن الذي ينامون فيه، فقلَّ نومهم وزادوا في العمل على ما كانوا يفعلونه في المكان المألوف. ويُحتمَل أنهم قصدوا بذلك تنهيض همة إخوانهم، وتقوية عزمهم على قيام الليل ونحو ذلك، ولا يجوز حملهم على الرياء بوجه من الوجوه، والله غفور رحيم.

(١٢٩٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أمره شيخه بالاستفتاح بالجماعة في مجلس الذكر، ثم عزله من ذلك وأمر غيره، فتكدر لأجل ذلك، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا من علامة الرياء وحب الرياسة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير في تكدره بالعزل، ولا حمله على حب الرئاسة، وإنما يجب حمله على أن تكدره إنما هو خوف من شيخه من أن يكون غضب عليه وأبعده عن حضرته بعد أن كان قرَّبه وجعله موضع سرِّه. ومعلوم أن **تكدُّر الفقير**[2]

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بالأصلين: الفقراء. والمثبت أنسب للسياق.

وغيرهم وقالوا: كان الواجب علىٰ هذا الشيخ أن يجبر خاطر صاحبه ولو بثوب وشيء من الطعام، ولكن قد ذهب أهل المروءة من الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ من جهة عدم عمله كسوة أو طعامًا لأخيه الذي حج، ولا يجوز نسبته إلىٰ البخل ولا إلىٰ قلة المروءة، لاحتمال أنه قصد بذلك إعتاق أخيه الحاج من المنة، أو خاف عليه من إدخال الهم والغم عليه بإعطائه هدية لا يجد معه شيئًا يكافئه عليها، لاسيما إن كان ذلك الحاج من أهل المروءة، [وكثرت الكساوي والأطعمة عليه من أصحابه حتىٰ عجز عن مكافأتهم عليهم، فكان حكمه حكم المديون الذي كثرت عليه المطالبون في وقت واحد، فكان من حذق أصحاب المروءة](١) عدم إهداء شيء له تخفيفًا عليه، لأنه ربما قال: أنا حائر في شيء أقابل به فلان علىٰ كسوته وهديته، وما كان لي بها حاجة، ولكن استحييتُ أن أردَّ هديته عليه، فيتكدر خاطره. فمثل هذا المُهدِي أراد أن يسر الحاج بهديته فأهمه(٢) بها. وليس اللوم إلا علىٰ من ترك الهدية لأخيه بخلًا وشحًّا، وأما من قصد بترك الهدية عدم إدخال هم المكافأة عليه فلا بأس.

وأيضًا فإن جميع الأموال التي في أيدي العباد إنما جُعِلت للمحتاجين، ومن كثرت عليه الكساوي والأطعمة فليس هو بمحتاج إلىٰ تلك الهدية، فكانت كالعبث. وقد فعلتُ أنا مثل ذلك، وتركتُ كسوة ولد شيخي سيدي علي ابن الشناوي لما حج وكثرت عليه الكساوي، فالحمد لله رب العالمين.

(١٣٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يشاوره أحد في سفر التجارة، فيقول له: لا تسافر وإن سافرتَ كانت سفرة خرا عليك. فسافر وربح ربحًا كثيرًا، فلاث الناس به وقالوا: قد كذَّب اللهُ تعالىٰ هذا الشيخَ في قوله: إنها سفرة خرا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يريد بـ«الخرا» كثيرة الربح، فإن

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) بالأصلين: فأخبره.

الشارع قد ضرب ما يخرج من ابن آدم من الغائط مثلًا للدنيا، كما ورد في كتب تفسير المنام: من رأىٰ أنه يغوط علىٰ نفسه، حصل له مال بقدر ما يغوط، فصح كلام هذا الشيخ علىٰ هذا التقرير، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ليس علىٰ وجه الأرض أحد الآن أُعطِي ما أعطيتُ من العلوم والأمداد، بل قد أعطاني ما لم يعطه لأحد من الأنبياء والأولياء الذين قبلي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ ما سمعنا أحدًا قال مثلها، وهذا دليل علىٰ سخافة عقله.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد أن عين ما أعطانا ما هو عين ما أعطىٰ الأنبياء والأولياء السابقين قبلي، بل هو غيره للاتساع الإلهي. وهذا نظير ما أجبنا به عن السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]، فإنه ما قال ذلك إلا بيانًا للواقع لا تحجيرًا علىٰ القدرة، ولا تفضيلًا لنفسه علىٰ غيره، فإن ما يعطيه الله لأحد بعد سليمان هو نظير ما أعطاه لا عينه لمن تأمل.

وكذلك قول العبد: إني [لا] أشرب من بحر بيلاق هذا طول عمري، فإنه صادق في قوله لأن الماء الجاري في هذا الوقت ما هو الجاري قبل ذلك. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير علم، فإن المثلية في الوجود منقولة غير معقولة، فلا بد من زيادة جنس علىٰ جنس في الأجسام والألوان والمعارف، ولولا ذلك ما تميز زيد عن عمرو، ولكانت عين أحدهما هي عين الآخر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي صلىٰ بالناس إمامًا في المغرب فطوَّل بهم، فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: قد شوشت علىٰ الفقراء وكلفتهم بما لا يطيقون بوقوفهم بين يدي الله تعالىٰ في وقت تجليه بالعظمة حتىٰ هم بعضهم أن ينوي الخروج من الجماعة ويتم صلاته منفردًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه ظن بالمأمومين أن الله تعالىٰ

أعطاهم القدرة على طول الوقوف بين يديه في وقت التجلي المذكور كما أعطاه، فكان تطويله إنما هو لحسن ظنه بهم، ولذلك قال ﷺ لمن طوَّل بالناس من أصحابه لحسن ظنه بهم: «اقدروا الناس بأضعفهم، فإن فيهم القوي والضعيف وذا الحاجة»[1]. ونهى معاذ بن جبل[2] عن تطويله بالناس وقال: «أفتَّان أنت يا معاذ؟!»[3] أي أمختبر أنت يا معاذ قوتهم على طول الوقوف مع ثقل التجلي وعدم قوتهم؟! وليس لك ذلك، بل راعِ حال الأكثر من الناس من العاجزين وذوي الأشغال المتعبة.

وإنما طوَّل ﷺ في المغرب في بعض الأحيان وصلى فيها بـ«الأعراف» حين علم أن جميع من خلفه كان قادرًا على طول الوقوف بين يدي الله في حال ذلك التجلي، ولذلك قال العلماء: إن المأمومين إذا كانوا محصورين ورضوا بالتطويل، فلا حرج عليه في التطويل، بخلاف ما إذا كانوا في العكس.

[القراءة في الصلاة تابعة لثقل التجلي الإلهي ولخفته ولتوسطه]

واستحبوا القراءة في المغرب بقصار المفصَّل[4] مراعاةً لحال أكثر الناس، لكون التجلي الإلهي فيه أعظم. واستحبوا القراءة في الصبح والظهر بطِوَاله، لكون التجلي

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٩٨٧) من حديث مطرِّف بن عبد الله بن الشخير قال: سمعت عثمان بن أبي العاص، يقول: «كان آخر ما عهد إليَّ النبي ﷺ حين أمَّرني على الطائف قال لي: يا عثمان، تجاوز في الصلاة، واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير، والصغير، والسقيم، والبعيد، وذا الحاجة» وأحمد (١٧٩١٠).

(٢) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري، الخزرجي، المدني، البدري، شهد العقبة شابًا أمرد. كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ. أسلم وهو فتى، وآخى النبي ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب. توفي:١٨هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٤٣) و«الأعلام» للزركلي (٧/ ٢٥٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٠٥) ومسلم (٤٦٥).

(٤) قال السيوطي في «الإتقان»: «للمفصل طوال، وأوساط، وقصار، قال ابن معن: فطواله إلى عم، وأوساطه منها إلى الضحى، ومنها إلى آخر القرآن قصاره، هذا أقرب ما قيل فيه». والمفصل يبدأ من سورة «ق»، سمي بذلك لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

الإلهي فيها أخف من التجلي في وقت العصر والعشاء، لأن التجلي فيهما تجلٍّ أوسط، فكانت القراءة في الصلاة تابعة لثقل التجلي ولخفته ولتوسطه، كما يعرف ذلك المصلون علىٰ الحقيقة. وأما المحجوبون عن ذلك، فلا يدركون شيئًا من ذلك، فاعلم ذلك، واحمل إمامك علىٰ المحامل الحسنة فيما إذا طوَّل وفيما إذا قصَّر عن القراءة المشروعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كسا شيخًا آخر جبته بحضرة الناس، ثم أرسل بعد ذلك يقول له: رد عليَّ جبتي، فإني ندمتُ علىٰ إعطائها لك، لأني ما كسوتُها لك إلا لتكف عن عِرْضِي وعن غيبتي في المجالس ولم ترجع؛ فلاث بهذا الشيخ جماعة الشيخ الذي قَبِل الجِبَّة وقالوا: ما كان ينبغي له أن يعطي الجبة إلا بعد تحرير نيته.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه قصد بطلب جبته إظهار حسن خلقه وصبره علىٰ نسبته إلىٰ الغيبة في أقرانه، وعدم جوابه عن نفسه، ليقتدي به أصحابه. ويُحتمَل أنه وصل إليه بطريق صحيحة أنه يقع في أعراض أقرانه، فأراد بطلبه الجِبَّة منه أن ينبهه علىٰ التوبة والندم من وقوعه في عرض الناس وقلبه فارغ من طلب الجبة.

وقد فعلتُ مثل ذلك مع بعض أشياخ العصر، فشَرْمَط الجبة وفتقها من شدَّة الغضب، وبالغ في سبِّي وأرسلها، وقال: لسنا محتاجين إلىٰ جبة مثلك! فعرفنا بذلك أحوال فقراء العصر، وأخذنا حذرنا من الوقوع في مثل ذلك إلا بعد علمنا بزوال رعونات نفس من نعطيه شيئًا من ثيابنا، بحيث يقبل كلامنا، ويحمل كلامنا علىٰ المحامل الحسنة من تنبيهه علىٰ ترك الغيبة إن كان وقع فيها، أو تحذيره من الوقوع فيها في المستقبل، أو وقوع أحد من أصحابه فيها. وإنما جعلناه هو الذي يقع لعلمنا بأنه يحمل في حقِّه مثل ذلك ولا يتكدر، لزوال رعونات نفسه، إذ الفقير إذا زالت رعونات نفسه يصير يقبل في حقِّ نفسه كلَّ رذيلة، ويرىٰ ذلك بعض ما فيه، بخلاف من لم تزل رعوناته، فإنه لا يكاد يقبل في حق نفسه رذيلة من الرذائل.

ويُحتمَل أنه ما شرمط الجبَّة وفتقها وبالغ في سبِّي إلا لظنه فيَّ حسن الخلق، فأراد أن يبين لأصحابه حسن خلقي، ووقع في شرمطتها من باب الاجتهاد، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن بيان فضلي للناس ليقتدوا بي في حسن الخلق مقدَّمًا علىٰ عدم شرمطة الجبة وتفتيقها، لهوان الدنيا في عينه، ومحبة حصول الخير لإخوانه المسلمين. عكس من كان يحب الدنيا ويعظِّمها. فاعلم ذلك، وانتحل لإخوانك الأجوبة الحسنة ما أمكن بطريقه الشرعيِّ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قرَّر في درسه معنىٰ النبي والرسول علىٰ مصطلح العلماء، وقال: إن كلَّ رسول نبي ولا عكس، ثم قال: إن لنا حالة ثالثة يكون الرسول فيها غير نبي؛ ولم يبينها، فلاث به طلبة العلم وقال: هذا أمر ما سمعنا به، ولا رأيناه في كلام أحد!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه أورد تلك الحالة الثالثة علىٰ تعريفهم النبي والرسول من أن النبي إنسان أُوحِي إليه بشرع ليعمل به في نفسه ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو من أُمِرَ بتبليغ ذلك إلىٰ غيره أيضًا، فخرج ما لو أُوحِي إليه بأمر ليبلغه إلىٰ غيره، مع كونه لم يتعلق به، ولم يؤمر بالعمل به، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨] أو ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠]، فإن هذه حالة يكون فيها رسولًا فقط غير نبي.

وإيضاح ذلك أن للنبي ثلاث حالات: **حالة** يكون فيها نبيًّا فقط؛ **وحالة** يكون فيها نبيًّا ورسولًا، وهو ما لو أُمِرَ بتبليغ الوحي الذي أُمِرَ هو أن يعمل به عينه؛ **وحالة** يكون فيها رسولًا فقط، وهو ما لو أُمِرَ بتبليغ شيء يتعلق بغيره مما لم يُؤمَر هو بالعمل به. فقولهم: «كل رسول نبي ولا عكس» محله ما لو أُمِرَ بتبليغ عين ما أُمِرَ هو بالعمل به لغيره، فصح قول الشيخ: إنه ليس كلُّ رسول نبيًّا.

وأما علىٰ غير ما عرَّف العلماء به النبي والرسول، فإن كل رسول نبي. أما نبوته فيقول

الحقُّ تعالىٰ له: قل لأمتك كذا. وأما رسالته فبنفس تبليغه فافهم، فإنها نكتة لعلك لم تسمعها قبل ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه أن لا يكلمه أحد منهم في مسألة دينه إلا بعد أن ينتصب قائمًا بين يديه، وينهاه عن سؤاله في حاجة وهو جالس، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا ناموس لا يكون إلا للملوك والأمراء، وأما الفقراء فإنما شأنهم الذل والانكسار، ورؤيتهم الحقارة في نفوسهم، ويكرهون القيام والتعظيم لهم.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ من جهة أمره لأصحابه أن لا يسألوه في حاجة إلا وأحدهم قائم، لأن القيام ليس هو لأجله، وإنما هو للشرع والحكم الذي يسألونه عنه. وقد ثبت في السنة ما يشهد لذلك، فروىٰ مسلم وغيره عن أبي ذر قال: «انتهيتُ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة، فلما رآني قال: هم الأخسرون ورب الكعبة. قال: فجئتُ حتىٰ جلستُ معه فلم أتقار[1] أن قمتُ. فقلتُ: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالًا إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله ومن خلفه وأمامه، وقليل ما هم»[2] الحديث. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخوَّاص رحمه الله يقول: من الأدب أن لا يسأل مريد شيخه عن مسألة إلا وهو واقف بين يديه إلا أن يكون في حلقة درس، ولا ينبغي لفقيه أن يعترض علىٰ الأشياخ في أمرهم مريدهم أن لا يسألهم عن مسألة إلا وهو واقف، لأنه أولىٰ بالاتباع للشريعة وأداتها من الملوك، بل هم الملوك حقيقة، لأن ملوك الدنيا قد لا يكون أحدهم ملكًا في الجنة، بخلاف الفقير، فإنه ملك في الدنيا بزهده وورعه وقناعته واعتقاد الناس وظنهم [فيه][3] الصلاح والولاية. وأما في الآخرة فلا يخفىٰ حكمهم وقربهم من رسول الله ﷺ.

---

(١) أي لم ألبث.

(٢) أخرجه مسلم (٩٩٠)، والبخاري (٦٦٣٨).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.



وقد كان الجنيد رحمه الله يقول: مُلْك الفقراء أعظم من مُلْك الملوك؛ لأن الفقراء قد زهدوا فيما رغبت فيه الملوك من الدنيا ومناصبها وشهواتها. وكان إذا جاءه شخص يطلب منه الصحبة، يقول له: خدمتَ الملوك أم لا؟ فإن قال نعم، صحبه؛ وإن قال: لا، لم يصحبه ويقول له: اذهب فاخدم الملوك، واعرف أدبهم، ثم تعالىٰ اصحب الفقراء. انتهىٰ.

فانظر كيف جعل الجنيد الأدب مع الفقراء فوق الأدب مع ملوك الدنيا، وجعل أدب ملوك الدنيا سُلَّمًا للترقي للأدب مع الفقراء.

وما رأيتُ لهذا الأدب فاعلًا من أحد من أقراني، وأولُ ما نبهني علىٰ ذلك أغا سرور أحد خدَّام مولانا السلطان سليمان ابن عثمان، فإنه سألني عن حديث، فلما شرعتُ فيه وقلتُ: «عن رسول الله ﷺ...» نهض قائمًا، فلم يزل واقفًا حتىٰ فرغتُ من الحديث ثم جلس، فقلتُ له في ذلك، فقال: كيف يليق من عبد أن يسمع حديث رسول الله ﷺ وهو جالس؟! مع أن مرسوم السلطان لا يُقرَأ إلا والسامع قائمًا تعظيمًا له، ومعلوم أن السلطان من جملة خدَّام رسول الله ﷺ، فكلامه إذا قُرِيء أولىٰ بالأدب معه. فأعجبني أدبه وبكيتُ.

ومن هنا كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إذا فقدتم من يعلمكم أدب الفقراء، فانظروا في آداب أركان الدولة مع أكابرهم. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ الأشياخ إلا بعلم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٧) ومما أجبتُ به عن النصراني أو اليهودي الذي مرَّ عليه أهل العلم والقرآن وهم في جنازة، فلم ينهض قائمًا، ولاثوا به وقالوا: يا كلب يا قليل الأدب، أما تقوم لمشايخ الإسلام؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بهذا النصراني، بل ينبغي التربص، فربما يكون عاجزًا عن القيام لمرض، أو جاهلًا بوجوب التعظيم للمسلمين. ففتش يا أخي عن حال ذلك النصراني أو اليهودي أولًا، ثم ابنِ علىٰ كلٍّ شيء مقتضاه، وزجرك للنصراني وجعله كلبًا ببادئ الرأي تهوُّر ونقص عقل، فإن الله تعالىٰ لا بد أن يأخذ حقَّ

كلِّ من جنيتَ عليه بغير حقٍّ ولو كافرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٨) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ينكر على الصوفية ويخرجهم عن دائرة الشريعة، وإذا لاموه على ذلك يقول: إن الصوفية كذلك ينكرون علينا؛ فلاث به الفقراء وقالوا: فرق عظيم بين إنكارك وإنكارهم، لأنك تنكر عليهم لجهلك بطريقهم، وهم ينكرون عليك ليرقوك إلى المقامات العالية، مع أن ما ينكرونه عليك له وجه عندهم يوافق الصواب.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالفقيه الذي ينكر على الصوفية، لأنه ما أنكر إلا ما خرج عن دائرة علمه وعقله، ومعلوم أن الإنكار مشروع لمثل هذا، ولا ينبغي الإنكار على الفقيه إلا إذا كان إنكاره عنادًا أو تعصبًا تشفيًا للنفس، فحمل الفقيه على المحامل الحسنة أولى بكل عاقل. ومن هنا قالوا: من شأن الفقراء أن الناس ينكرون عليهم، ولا ينكرون هم على أحد، لوسع علمهم وحملهم للناس على المحامل الحسنة. وبتقدير إنكارهم فلا ينكرون إلا على من خالف نصًّا وإجماعًا لا غير. انتهى.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي للفقيه أن يقول: كما أن الفقراء ينكرون علينا، كذلك نحن ننكر عليهم، لأن إنكار الفقراء بحق، وإنكارك يا أخي بغير حق، لعدم دخولك دائرة الصوفية، لأنها ثاني مرتبة للشريعة مما يلي القطب، فقد قطع الفقير دائرة الفقهاء قبل أن يدخل إلى دائرة الفقراء، بخلاف الفقيه فإنه من الدائرة الأولى، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير المشهور بالعلم والصلاح إذا كان زفر اللسان، كثير الوقيعة في الناس، فربما يجلس المجلس فيحرقون في العلماء والصالحين والتجار والمباشرين والمحترفة والفلاحين وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: حاشا لله أن يكون هذا من العلماء والفقراء!

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار على مثل هذا إلا إن كان المنكِر قد خرق إلى صميم قلبه، ورأى قصده الفاسد بذلك السب والشتم، فإنه يحتمل أن يكون من رجال الله الأكابر الذين حكَّمهم في الوجود، وجعل جميع من فيه كالأطفال، فهوَّن عليهم أحوالهم الناقصة

أو الكاملة عندهم، ليرقيهم إلىٰ ما هو أعلىٰ منها، ولا يكون ذلك من الغيبة في شيء. وقد يكون الحق تعالىٰ أعطاه ستر المقام، وغفر له ذلك السبَّ والشتم الذي يفعله مع الناس، ومعلوم أن معاصي أهل الإسلام تحت المشيئة في المؤاخذة والمسامحة. فيُحتمَل أن الله تعالىٰ مسامح هذا العالم أو الفقير في كلِّ ما يفعل علىٰ حسب ما سبق في علمه. أو أنه تعالىٰ يَمُنُّ عليه بالتوبة كلما يقع في ذنب، ثم يبدل ذلك الذنب بحسنة مكانه كما صرح به القرآن.

فإن قال قائل: إن هذا الساب أو الشاتم لا نراه يتوضأ ولا يصلي؛ قلنا له: يُحتمَل أن يكون من أصحاب الخطوة الذين يذهبون من مشرق الأرض إلىٰ مغربها في لحظة، فيصلون في أماكن بعيدة ثم يرجعون. ويُحتمَل أن أحدهم يضرب الحجاب بينه وبين الناس في مكانه من غير انتقال، فيتوضأ ويصلي ولا يراه أحد، كما كان يقع لسيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي، فأخبرني بعض الفقراء قال: كنتُ جالسًا مع سيدي الشيخ عبد القادر يوم الجمعة في جامعه خارج باب الشعرية، فأذَّن المؤذن بين يدي الخطيب، ولم أرَ الشيخَ علىٰ باله صلاة، فأنكرتُ عليه في نفسي، فوضع كمَّه علىٰ رأسي وقال: افتح عينك؛ ففتحتُهما [وإذا نحن في الحِجر تحت المِيزاب بمكة، فصلينا الجمعة خلف الإمام، فلما سلَّم وضع كمه علىٰ رأسي ثانيًا، وقال: افتح عينيك؛ ففتحتهما][1] وإذا نحن في الجامع خارج باب الشعرية. فقال لي: هل بقي عندك شك في أن عبد القادر يصلي؟ فقلت: لا. فقال: وإياك والإنكار. هكذا أخبرني صاحب الواقعة، فيُحتمَل أن يكون هذا الفقير الذي يسب الناس ولا يرونه يتوضأ ولا يصلي من هؤلاء الرجال، والله أعلم، فاخرق يا أخي ببصرك إلىٰ قلبه، وانظر ما له وكيف حاله، ثم أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الله قد أعطاني من المقامات الباطنة كذا وكذا؛ والحال أنه لم يظهر علىٰ ظاهره من ذلك رائحة، فلاث به الفقراء وقالوا: قد ورد في الحديث: «إن المتشبع بما لم ينل كلابس ثوبي زور»[2].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأنه ربما قصد بذلك الشكر لله تعالىٰ علىٰ أمور أعطاها له في قلبه لا يمكن إظهارها للناس، إما لدقتها عليهم، وإما حفظًا لها عن خروجها عن عمل السرِّ المضاعَف في الأجر. وما ورد من النهي عن شبع العبد بما لم ينل محمول علىٰ من يفعل ذلك فخرًا وتكبرًا علىٰ إخوانه، لا علىٰ قصد الشكر لله تعالىٰ، فحكم ذلك حكم من يقول: أنا غارق في فضل الله عزَّ وجلَّ، فلا حرج عليه في ذلك، لأنه من باب المبالغة في الشكر لله تعالىٰ، والله أعلم.

(١٣١١) ومما أجبتُ به عن بعض أولاد المشايخ الذي مات والده، وصار يفضله علىٰ جميع فقراء العصر ويقول: ما بقي بعد والدي أحد يستحق أن يُعتقَد! وربما عارضه أحد في ذلك فنقص علماء البلد وصوفيتها وقال فيهم العجر والبجر، حتىٰ يكون ذلك منه المرات، وكرهه غالب العلماء والصالحين، وصاروا لا يقولون له: سلام عليكم إلا خوفًا من لسانه، فلاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: هذا من جملة الفسق، وحاشا أن يكون مثل هذا من أولاد الصالحين[1].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أولياء الله الأكابر، كما مرَّ نظيره قريبًا، فقصد بتنقيص العلماء والصالحين من أهل عصره رفع همتهم عن الوقوف مع مقاماتهم الناقصة، كما هو مشاهد في أدوار العلماء والصالحين، فكل دور ينقص عن مقام الدور الذي قبله.

فإن قلت: إن تنقيص الناس وشتمهم وذكر نقائصهم لا يسوغ مثله لأجل طلب ترقي العلماء والصالحين في المراتب؛ **فالجواب**: قد يكون الحقُّ تعالىٰ يغفر لهذا الشخص كلَّ كلام نقص به الناس عقب كلِّ كلمة. وأيضًا فربما كان هذا الشخص غافلًا عن كون التنقيص حرامًا، ولا يؤاخذ العبد إلا بالعمل مع العلم بالتحريم. وبتقدير العلم بالتحريم، فيُحتمَل أن والد هذا الشيخ كان مات علىٰ نعت اعتقاد الناس له خاصهم

---

(١) بالأصلين: الفلاحين.

وعامهم، فنزل البرزخ مُعْجبًا بنفسه، فقيَّض الله تعالىٰ له ولده فنقص الناس، فنقصوا أباه كذلك، وأخرجوه من دائرة الصلاح في البرزخ، فكان حكمه حكم من تكلَّم الناس فيه حال حياته وأزالوا عنه العجب، إذ البرزخ له وجه إلىٰ أحكام الدنيا، بدليل قبول سجدة أهل الأعراف منهم يوم القيامة. وقد تقدم أنه لا ينبغي مؤاخذة من كثرت أعداؤه وخصومه من الناس، لأنه صاحب مصيبة، فلا ينبغي لأحد أن يزيد عليه مصائب أخر، بل اللائق مسامحته، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسمع من يسب العلماء والصالحين الأحياء والأموات وهو قادر أن يقول: هذا حرام عليك بإجماع المسلمين، فلم يتلفظ له بكلمة، فلاث الحاضرون به وقالوا: اللهم إن مثلنا يخاف من إطلاق لسانه فيه زيادة علىٰ سب من ذكر، فأنت يا سيدي الشيخ ما عذرك وهو يخاف منك ومن جماعتك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون من أهل مقام الإحسان الذي يغيِّرون المنكر بتوجههم إلىٰ الله تعالىٰ بقلوبهم، كما قررناه في معنىٰ حديث: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]، أي من أن معنىٰ تغيير المنكر بالقلب أن يتوجه العبد إلىٰ الله بقلبه في إزالة ذلك المنكر، فيحول بين الزاني والزنا وبين شارب الخمر وشربه، وبين الناطق بالفحش ونطقه، فيجيب الله تعالىٰ سؤاله، وتنفلق جرة الخمر بقدرة الله، ويمتنع الزاني من الزنا بقدرة الله، ويسكت الناطق بالفحش بقدرة الله، وأن هذا هو معنىٰ الحديث عند أهل الله عزَّ وجلَّ، فإنه هو التغيير الحقيقي. وأما قول العبد بقلبه: «اللهم هذا منكر لا أرضاه» فليس فيه تغير للمنكر، بل هو باق علىٰ حاله لمن تأمل. وأما قوله ﷺ: «وذلك أضعف الإيمان» أي لأن هذا المقام لا يكون إلا لمن دخل مقام الإحسان، وصارت أفعاله مستمَدة من القدرة الإلهية علىٰ الكشف[2] والشهود. ومعلوم أن حجاب إيمان

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بالأصلين: الكسر. والصواب ما أثبتناه.

هذا يضعف -أي يرق- لغلبة سلطان مقام الإحسان عليه، فلذلك ضعُف إيمانُه وقوي شهوده، فإن ضعف الإيمان له وجهان: وجه للذم ووجه للمدح، فمن لم يكن عنده داعية لإزالة المنكر فهو مذموم، ومن كان عنده داعية لإزالته بالقلب فهو محمود.

وتقدم عن سيدي عليّ الخواص رحمه الله أنه كان يقول: إزالة المنكرات باليد للولاة ومن داناهم ممن يضرب فاعل المنكر ولا يقدر هو يمد يده إليه، وإزالتها باللسان للعلماء العاملين الذين يمتثل الناس أمرهم ولا يخالفونهم، وإزالتها بالقلب لأكابر العارفين أهل مقام الإحسان الذين صارت قوتهم من قوة الله، وبطشهم من بطش الله، وخواطرهم من الله، كما أشار إليه حديث: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به»[1] إلىٰ آخره.

فيجب حمل هذا الشيخ الذي سمع سبَّ العلماء والصالحين ولم ينكر علىٰ الساب علىٰ أنه من أهل مقام الإحسان، وأنه توجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يسكته، فنادته هواتف الحق تعالىٰ: حتىٰ يفرغ التقدير الذي قدَّرتُه عليه من السب؛ وإن كان **النهي عن المنكر لا يناقض التسليم عند الأكابر**، فافهم والله أعلم.

(١٣١٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخرج للضيف سلة عنب، أو قفة كبيرة ملآنة رطب أو فاكهة، فوضع للضيف منها بعض حبات، ووضع السلة في خزانته، فلاث به الضيوف وقالوا: هذه من علامات البخل والشح، فإن التبسط في الطعام للضيف مطلوب شرعًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا حمله علىٰ البخل، فقد يكون كُشِفَ له عن مقدار ما يخص أولئك الضيوف من تلك الفاكهة، فقدَّمه لهم علىٰ نور وبصيرة، وادخر الباقي لمن كُشِفَ له أنه من رزقهم، كما عليه الفقراء الصادقون. وإذا كان المريد يخرج عن البخل من أول قدم يضعه في الطريق حتىٰ يتجلىٰ له توحيد الملك لله وحده، فكيف يُحمَل من طعن في السن من الأشياخ علىٰ البخل؟! هذا شيء بعيد! لاسيما إن

---

(١) تقدم تخريجه.

سافر أولئك الضيوف ولم يأكلوا شيئًا آخر منه، فإنه يتبين عدم قسمة الحق تعالىٰ لهم شيئًا مما ادخره الشيخ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا إخوانكم على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يذكر الله تعالىٰ [في] مجلس الذكر في زاويته، ثم يُقرَأ عليه الفقه والنحو والأصول ونحو ذلك عقب مجلس الذكر. فلاث به بعض المتصوفة وقالوا: هذا دليل علىٰ أنه لم يذق من علم التوحيد شيئًا، إذ لو ذاق منه ذرة لخرس عقب مجلس الذكر ولم يستطع أن ينطق، لأن حضرة الله تعالىٰ حضرة بهت وخرس، ولذلك سنَّ الأشياخ للمريدين الصمت عقب مجلس الذكر، وقالوا: إن المريد إذا فعل ذلك ربما يُفتَح عليه بما لا يُفتَح عليه بالمجاهدة والرياضة نحو ثلاثين سنة. انتهىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل قراءته الفقه والنحو وغيرهما عقب مجلس الذكر، وذلك من أقوىٰ علامة علىٰ كماله، فيقرأ علىٰ رسول الله ﷺ شرعه في حضرة ربه، ويعرض عليه ما قاله علماء أمته في شرح كلامه، وما استنبطوه مما تشهد[1] له شريعته بالصحة والموافقة، فتقر بذلك عينه ﷺ، ولذلك لذة لا يقدر قدرها، وقد ذقناها والحمد لله رب العالمين، **فما رأيتُ ألذ من قراءة العلم الشرعي عقب مجلس الذكر أبدًا بحضرة الله تعالىٰ وحضرة رسوله ﷺ.**

فعُلِمَ أن من جعل هذا الشيخ محجوبًا هو المحجوب، **إذ الكامل هو من يشهد الحقَّ تعالىٰ مع الخلق، والخلق مع الحق، والحكم الشرعي مع الحاكم به والمحكوم به عليه، لا يحجبه** أحد المشاهد عن بعضها.

فاعلم ذلك يا أخي، واعمل علىٰ تحصيل هذا المقام، لتفوز بمجالسة الله ومجالسة رسوله ومجالسة الأئمة المجتهدين وأتباعهم حال تدريسك، كما عليه أكابر الأولياء كسيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، فقد بلغنا أنه كان يدرِّس في كلِّ يوم في عدة علوم إلىٰ أن

---

(١) بالأصلين: لم تشهد. والصواب ما أثبتناه.

مات، مع إجماع الأولياء على قطبيته، ولا شك أن العلم من جملة المأمورات الشرعية، وكيف يكون المأمور الذي يقرِّب إلىٰ حضرة الله يحجب عن الله؟! هذا لا يقوله عاقل، ولا من شم رائحة الطريق، وإنما هو من قول بعض الجهلة المدَّعين للطريق بغير سلوك ولا رياضة ولا مجاهدة ولا أدب، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: العقل في الصدر؛ مستدلًا بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ **[الإسراء: ٥٠-٥١]، وقال: صفة الكبر إنما تكون في القلب لأنها من أوصافه، فلاث به بعض المجادلين وقال: الصحيح أن العقل في الرأس لا في القلب.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن ظاهر هذه الآية يؤيد قوله، كما أنها تؤيد أيضًا من قال: الفهم في القلب، لأنه من صفاته. وفي الحقيقة المعترِض والمعترَض عليه لم يتواردا علىٰ محل واحد إلا من حيثُ الأوصافُ التي في القلب، أما نفس العقل [فما] عُلِمَ دليل صريح في محله هل هو في الرأس أو في الصدر، فليتأمل هذا كله علىٰ سبيل الفهم الظاهر.

وأما الفهم الباطن، فالمراد بالصدور هنا الرجوع من حضرة شهود الحقِّ جلَّ وعلا، فإن صفة الكِبَر لجرم شيء من المخلوقات لا يحصل إلا في حال إدبار العبد عن الحضرة. وأما في حال إقباله وسيره إليها، فيصغر عند العبد كل شيء في الوجود، لاستهلاكه في شهود الذات الواحدية لا الأحدية، لأن الأحدية لا تقبل وجود أحد معها، بخلاف الواحدية. وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] أي في حال رجوعهم من حضرة شهود الحق تعالىٰ، أما حال ورودهم فلا يقدر الشيطان يدخل بين العبد والرب، ولو أنه دخل لاحترق في لمح البصر، فلا يصح منه وقوع وسوسته. هذا ما ظهر لي في هذا الوقت، فمن وجد كلامًا أوضح في المعنىٰ من هذا، فليكتبه في هذا الموضع نفعًا للناس، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٦) ومما أجبتُ به عن مولانا السلطان الأعظم في سكوته ونوَّابه علىٰ قبض جماعتهم المكوس، مع كونها محرَّمة بإجماع المسلمين، وقد قال بعضهم: إن كل من قبض المكْس[1] فسق وخرج عن استحقاق الولاية الدينية.

والجواب: أن الواجب الأدب مع مولانا السلطان ونوَّابه، وحمل السلطان علىٰ أنه سكت علىٰ ذلك باجتهاد، كما حملنا غيره في الأزمان الإسلامية علىٰ ذلك، لأنه ربما أدَّىٰ اجتهاده [أنه] إذا سامح التجار في المكوس أن أموالهم تكثر ويجتمعون علىٰ أحد من المنازعين له في الملك، وينفقون علىٰ عسكره، فتقوىٰ علىٰ عسكر السلطان المتولي، فيحصل بذلك القتل والنهب والخروج من الأوطان، فإذا نقَّصوا مال التجار بأخذ المكوس من أموالهم، بطلت تلك الفتنة.

ولا يجوز حمل السلطان ونوابه علىٰ أنهم فعلوا ذلك رغبةً في الدنيا من غير مراعاة مصالح المسلمين، أو بجهل تحريمه، وحاشا مولانا السلطان أن يستحل ما أجمع المسلمون علىٰ تحريمه! بل هو من باب ارتكاب أخف المفسدتين. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق من بوجوده يستقيم الدين، ويحتمي المسلمون به من تحكم الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمرُّ علىٰ زاوية أخيه المئة مرة وأكثر، ولا يطلع زاويته، ولا يسلم عليه، ولا يرسل له السلام، فلاث به الناس وقالوا: هذا من أعظم علامة علىٰ نفسه وعلىٰ أنه عدو له.

والجواب: أن عدم زيارة ذلك الشيخ لأخيه وعدم إرسال السلام له لا يقدح في كماله، بل هو من أكبر العلامات علىٰ وجود كماله، إذ **الكامل من شأنه أن يشهد جميع الوجود في الدنيا والآخرة حاضرًا عنده**، والحاضر عند الإنسان لا يصح فيه اشتياق له، لأن الشوق لا يكون إلا لغائب ورد علىٰ العبد، فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل ذلك الشيخ الذي يمر ولا

---

(١) المَكْسُ: الضَّريبةُ.

يزور ولا يسلم على العداوة، بل يجب على العبد الفرح والسرور بعدم زيارة أخيه له، من حيثُ كونُ ذلك علامة على كمال أخيه وقربه من حضرة الله عزَّ وجلَّ، كما أوضحنا ذلك في الباب التاسع من كتاب «النور الساطع والسر القامع»، والحمد لله رب العالمين.

[الكامل قد ينقص تارة ويكمل أخرى]

فإن قال قائل: إنا نرى هذا الكامل يزور بعض الإخوان دون بعض، فهل هو ينقص تارة ويكمل أخرى؟ **فالجواب**: نعم، والأمر كذلك، فإن الوليَّ تحت جريان الأقدار، فتارة يمنُّ الله تعالى عليه بالزيادة، وتارة يمنُّ عليه بالنقص، كالبئر الذي يُسقى منها البستان، فتارةً يفيض ماؤها، وتارةً ينزح، فعُلِمَ أن الكامل لا يؤمر بزيارة أحد من إخوانه إلا إن تنزل لعقول المحجوبين، وإذا نقص عن مقام الكمال أُمِرَ بزيارة الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بينه وبين أخيه وقفة ويدعي مقام الكمال، وربما دخل عليه إنسان يزوره، فيجعل يده في يده ويقول: هذا عهد الله أنك لا تجتمع بفلان -يعني ذلك الإنسان الذي بينه وبينه وقفة- فلاث به الفقراء الحاذقون وقالوا: ما فعله هذا الشيخ ينافي مقام الكمال، فإن الكامل لا يرى في الناس إلا الكمال على صورة نفسه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه فعل ذلك تنزلًا لذلك الشخص الذي بينه وبينه وقفة، تأديبًا له وزجرًا عما وقع فيه من الرذائل، أو ليأخذ بذلك حذره في المستقبل، **ولم تزل أفعال الأشياخ واقعة بالاجتهاد، فلا يحبون أحدًا ولا يكرهونه إلا بطريق شرعي.**

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا بلغكم أن أحدًا ينقصكم في المجالس، ويقرض في أعراضكم، فارجعوا بالقلوب إلى حضرة ربكم، فإنه تعالى ما سلَّط عليكم الناس إلا بعد شرودكم عن حضرته، ولو كنتُم في حضرته لحماكم من كلِّ ما يؤذيكم.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: عليكم بعدم التظاهر بالأعمال الصالحة التي تميزكم عن إخوانكم جهدكم، فإن كلَّ من تظاهر بالأعمال الصالحة حتى أطفأ نور

إخوانه، فقد تعرَّض لأن يكون هدفًا لسهام الأقران، لأن ما كلُّ أحد يقدر على الصبر على ارتفاع أقرانه عليه، إذ هو بمثابة من يكشف سوأة إخوانه للناس حتى لا يخفى نقصهم على أحد، وكأن ما نقص الناس أحدًا من الفقراء وهو مستقيم مع الله في الباطن أبدًا، وإنما يقع تنقيصهم له إذا انعوج في الباطن مع الله، فيقيض الله له من ينقصه ليتنبه لنفسه، كما سيأتي إيضاحه في الخاتمة إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في مناجاته: اللهم إني أعترف بين يديك أني لا أعلم أحدًا يوافي القيامة أكثر أوزارًا مني ولا أقبح، وتارةً يقول: اللهم إن ذنوبي قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين فاغفر لي؛ فلاث به بعض المجادلين وقالوا له: هذا الاعتراف من قسم الكذب، ولا ينبغي للعبد مناجاة ربه إلا بالصدق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون اعتقاده أن الله تعالى يغفر ذنوب غيره من الموحدين دونه، كما عليه عمل السلف الصالح في هضم نفوسهم بين يدي الله عزَّ وجلَّ، وإذا كان العبد في مقام التملق لمولاه، فلا يطالب بتحقيق الأمر في التملق، لأنه محجوب عن كلِّ شيء فيه تزكية لنفسه، كما بسطنا الكلام على ذلك في رسالة مستقلة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: لا يصح الحضور مع الله تعالى لأحد من الأمة في الصلاة ولا غيرها؛ فلاث به بعض المتصوفة وقالوا: هذا مخالف لما قاله السلف والخلف في ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأنه قد مال إلى التنزيه لله عزَّ وجلَّ، وقليل من الناس من يذوق هذا المقام، لأنه مقام الأنبياء وكُمَّل الأولياء. وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: مقام الحضور مع الله من أعزِّ المقامات، لأن العبد إن شهد نفسه في جانب والحق تعالى في جانب، فقد حيَّز الحقَّ تعالى، ومن حيَّزه فما حضر معه؛ وإن شهد نفسه [غير الحق تعالى فما عرفه، وإذا لم يعرفه فلا يصح له معه حضور؛ وإن شهد

نفسه][1] غيرًا وعينًا معًا فما عرفه، وإن شهدها لا غيرًا ولا عينًا فما عرفه، وإذا لم يعرفه فما حضر معه، وإذا [كان كل شيء خطر ببال العبد فالله تعالىٰ بخلافه، فلا يصح لأحد الحضور معه، وما حضر معه تعالىٰ إلا من عرفه تعالىٰ][2] في سائر مراتب التنكرات بعين واحدة أو بعدة أعين لا تزاحم عين ما شهدته عين أخرىٰ كما أوضحناه في الباب التاسع من كتاب «النور الساطع والسر القامع» فراجعه، وإياك ودعوىٰ الحضور مع الله تعالىٰ إلا بكشف صحيح بحكم الإرث للأنبياء، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي عرض لجماعة الباشاه مثلًا أن يرسلوا له شيئًا من الذهب أو الفضة أو القمح أو العدس مثلًا، ثم لما أرسلوا ذلك له ردَّه وأظهر الزهد والعفة وقال: أنا لستُ محتاجًا إلىٰ شيء من صدقات الولاة ولا هداياهم؛ فلاث به حاشية الأمير وغيرهم وقالوا: هذا ملعبة بالأمراء! وخفة عقل من سيدي الشيخ، كيف يعرِّض لنا بأن نقول للأمير إنه يرسل له شيئًا، ثم لما أرسله له أظهر الزهد والعفة وكذبنا عند الأمير؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون الأمير سأله الصحبة، فأراد الشيخ امتحانه بذلك قبل أن يدخل في صحبته، لينظر هل يقف عند إشارة الشيخ أو عند إشارة نفسه، إذ الفقراء أعزُّ نَفْسًا من الملوك، فمن لم يدخل تحت طاعة الفقراء لا يصحبوه. ولا ينبغي حمل الشيخ علىٰ خفة العقل ولا علىٰ أنه يلعب بالأمير، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٢) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يدعي كراهة الرياء والنفاق [ثم يقع في الرياء][3] ويتبعه الناس علىٰ ذلك، وأن ذلك لا يقع منه باختياره، وإنما الجبر الإلهي يوقعه فيه، فلاث به الحذَّاق من الفقراء الصادقين وقالوا له: هذه حجة لا تنهض عند الله

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

تعالىٰ؛ لأنه ما كلَّفك إلا بما لك فيه قدرة مما هو مقرَّر في كتب الشريعة. ثم بتقدير أنك مجبور، فلم لا دفعت الناس عن اتباعك علىٰ الرياء، فإن الصادق من شرطه أن يدفع الآفات عنه[١] بصدقه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا المدعي، لاحتمال أن يكون صادقًا في كراهته للرياء. ولا يلزم من كونه صادقًا أن يدفع غيره عن اتباعه، فهو كاره وقوع الرياء من نفسه ومن غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دعاه الباشاه إلىٰ الحضور عنده مع العلماء والفقراء لغرض من الأغراض، فحضروا كلهم وتخلف هو من دون الناس، وقال: لا أحبُّ أن أحضر مع أحد من هؤلاء عند الباشاه، ولا أحضر إلا وحدي؛ فلاث به الأقران وقالوا: ما تخلَّف فلان إلا لكونه لا يطلع له طالعة مع الأكابر الذين يحضرون، فخاف إن حضر أن لا يظهر له مقام، أو أحب أن يتميز عن علماء البلد بقول الناس: ما بقىٰ في البلد أحد يكره التردد إلىٰ الولاة غير فلان، أو أنه ترك الحضور مع الناس لئلا يطلع أحد علىٰ الدراهم التي يعطيها له الباشاه، فيقول الناس: إنه غير ورع ونحو ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون بمعزل عما قاله الناس كلهم فيه، كأن يكون إنما تخلَّف عن الحضور مع[٢] العلماء لينصح الباشاه سرًّا بينه وبينه، فإن تعالىٰ قد أخذ العهد علىٰ العلماء بنصح ولاتهم. ومعلوم أن نصح الرعية لإمامهم في الملأ لا يقدر عليه كلُّ أمير، لقيام نفسه غالبًا، وإظهارًا لناموس الملك أمام[٣] العوام. وربما كان في الحاضرين أحد يتلمح من الباشاه أن يعطيه شيئًا من الدنيا،

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها: عن غيره.

(٢) بالأصلين: عن.

(٣) بالأصلين: بإظهار.

فيأخذ في معارضة الشيخ حين ينصح الأمير، ويجيب عن الأمير ويصفه بالعدل وعدم الجور، فيحصل اللغط والغوغاء، بخلاف ما إذا حضر الشيخ وحده، فإنما يمد باعه في الأمير، ويبالغ في نصحه بحسن سياسة ولطف، ويوفي بالعهد الذي أخذه الله تعالىٰ علىٰ العلماء.

وقد دعاني الباشاه إسكندر بمصر في سنة ست وستين وتسعمئة للحضور مع العلماء في القلعة، فقلتُ: سمعًا وطاعة؛ فلما تخلفتُ أرسل لي الجاويش مرة ثانية، فقلتُ له: قل للباشاه: قال لكم: سمعًا وطاعة، ولكن لا يحضر عندكم إلا وحده، فإني أخاف أن أداهن الباشاه بحضرة الناس خوفًا أن أخجله، فيتبعني الناس علىٰ ذلك، ويصير إثمه في عنقي. فقال لي الجاويش: هذا ليس بعذر. فقلتُ له: أخاف أن ينظر أحد إلىٰ الفتيح الذي يعطيه لي، وأنا لا أحبُّ أن يعلم أحد بأني أخذتُ مالًا من أحد من الولاة. فقال: يعطيك الفتيح بجنب لا يعلم به أحد. فقلتُ له: إني لا أرضىٰ بأن يعطيني مثل ما يعطي الناس. فقال لي: أنت طماع! خذ مثل إخوانك! فقلتُ له: إني أخاف إذا أعطاني الباشاة مالًا أكثر من أصحابي أن يأخذوه مني قهرًا في الطريق. فقال: نحن نشيعك به إلىٰ الزاوية. فلما رأيتُ الحثَّ عليَّ في الحضور، وتخلُّفَ جماعة عن الحضور إن لم أحضر، أرسلتُ للأمير حمزة أمير الحاج أن يأخذ لي الإذن من الباشاه لأحضر إجابةً لامتثال ولي الأمر، فحضرتُ ونصحتُه بما قدرتُ عليه، والحمد لله رب العالمين.

وأرسل لي الباشاة المذكور مرةً أخرىٰ أن أحضر مع العلماء لما كثر لوث العامة به في مصر، وشكوا من كثرة غلاء الأسعار، وطلب من العلماء أن يكتبوا له محضرًا بالعدل والرخاء، فقلتُ للجاويش: سمعًا وطاعة، وعزمتُ أني لا أحضر خوفًا أن أزلق في الكتابة، فيتبعني الناس علىٰ ذلك، مع أني لم أخالطه ولم أعامله، فتكون كشهادة الزور، ثم أرسلتُ ورقةً إلىٰ الأخ العزيز الأمير إبراهيم الدفتردار مضمونها أن مولانا الباشاه أرسل إلىٰ العبد ليحضر مع العلماء في القلعة، والمسؤول أن تقبلوا من العبد

قراءة ختم ويهديه في صحائفكم إن رددتُموه عني، فإني لا أنا صالح عند نفسي حتىٰ يتبرك بي، وبتقدير أني صالح ويتبرك بي، فليس من الأدب أن يدعوني إلىٰ داره بغير عذر حتىٰ يتبرك بي. وأيضًا فإن كان يدعوني في الأكل من طعامه فلستُ جيعانًا، وإن كان يدعوني ليعطيني مالًا، فلستُ بمحتاج لماله، وإن كان ليستشيرني في أمر، فأنا أعلم أنه لا يعمل بإشارتي، وإن كان لأكتب له في المحضر بأنه عادل عفيف عن أموال رعيته، فلم أخالطه حتىٰ أعرف ذلك، إنما يعرف ذلك العمَّال الذين تحت يده. انتهىٰ. فلما وصلت إليه الورقة قال: هذا نَفَس صالح، وشكرني علىٰ ذلك.

وأما ما كان من العلماء الذين حضروا، ففرَّق علىٰ كلِّ واحد أربعة دنانير، وقاسوا من العامة ما لا خير فيه من باب زويلة إلىٰ القلعة، وقالوا للعلماء: نطالبكم بهذه الشهادة بين يدي الله! فلم يكتب له أحد من العلماء في المحضر، فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والدخول في أمور الولاة إلا إن كنت علىٰ الحقِّ، وعلمتَ أن لك حالًا يحميك منهم، وذلك بأن تكون زاهدًا في الدنيا، حرًّا عن رق شهواتها، فإن الولاة إنما حكَّمهم الله في مادة الدنيا فقط، ومن زهد في الدنيا، فلا يقدر أحد من الولاة يتصرف فيه بضرب ولا حبس ولا غير ذلك من وجوه الأذىٰ ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١٣٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لكلِّ من دخل له زائرًا: إن كنتَ تزورني لا تزر فلانًا، فإنه عدوي؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من أكبر علامات الحسد والعداوة، فكيف يدعي هذا الصلاح والاستقامة ويرىٰ نفسه تستحق الزيارة دون غيره؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون الباعث به علىٰ منع الناس من زيارة فلان خوفه عليه من الاشتغال بالزائرين عن الله تعالىٰ، ووقوعه في العجب بنفسه، كما هو الغالب علىٰ الفقراء من أمثالنا في هذا الزمان. ولا ينبغي حمل هذا الشيخ علىٰ الحسد والعداوة، لأن ذلك بعيد من مقام الأشياخ. وقد يكون هذا

الشيخ قديم الهجرة في الطريق، ويرى الشيخ الذي ظهر في عصره كاليتيم في حجر وليِّه، فهو يخاف عليه أن يلعب به الشيطان، وقد كان الجنيد ﷺ يقول: قد كنَّا نعهد الفقراء يلعبون بالشيطان كالأُكْرَةُ[1]، فصار الشيطان يلعب بالفقراء. انتهى، فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الصلاح والكرم باللسان أو بالقرائن، ثم لا يراه الناس يطعم فقيرًا ولا ضيفًا نزل به لقمة، ولاث به الناس وقالوا: هذا أمر ينافي الصلاح، فما أجبل الله وليًّا من أوليائه إلا على السخاء وحسن الخلق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل عدم إطعامه الطعام في هذا الزمان، لاحتمال أن يكون لا يجد شيئًا من الحلال يطعم منه الناس، ويقول: يكفي أني آكل من هذا الطعام، وأتحمل الإثم بسببه، فلا أضيف إلى نفسي أمرًا آخر أُحاسَب عليه، فيكون لهم المهنأة بأكلهم وعليَّ الحساب -وهذا من باب «السلامة مقدَّمة على الغنيمة»- وإن ترك الضيافة من طعام الشبهة مثلًا أرجح في ميزاني من أجر الضيافة من الشبهات.

وقد يكون هذا الشيخ الذي لا يطعِم الناس شيئًا ممن اعتنى الله تعالى به، وحفظ عليه مقام العبودية، فلم يجعل لأحد على يديه رزقًا، حفظًا له من أن يرى له فضلًا على أحد من عباد الله، فينقص من مقام عبوديته. وقد يعطيه الله تعالى مع ذلك ثواب من عال الناس كلِّهم بالنية الصالحة، فلا ينقص له مال، كما عليه أكابر الأولياء، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأخذ الفقراء معه إلى بيوت الأمراء ويسألهم للفقراء شيئًا من القمح أو الأرز أو العدس أو العسل ونحو ذلك، فإذا أعطاه ذلك الأمير ما طلبه للفقراء، اختص به أو فرَّقه وفاضل بين الفقراء باختياره، فلاث به

---

(١) الأُكْرَةُ: الكرة.

الفقراء وقالوا له: كيف تأخذ شيئًا علىٰ اسم الفقراء وتتصرف فيه تصرف الملَّاك؟! ما هذا إلا قلة دين!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد الفحص عن أمره. فقد يكون السؤال وقع من الشيخ علىٰ اسم الفقراء فلم يجبه الأمير إلىٰ ذلك، وإنما قال له: أنا لا أعرف حال هؤلاء الفقراء، وما أعطي إلا لك، فافعل في ذلك ما شئتَ. فمن فرَّق هذا الشيخ واختص إلا بما هو له وحده دون الفقراء، فلا اعتراض عليه. وهذا الأمر يقع للفقراء كثيرًا، فيكرم الناس فقراءهم بالهدايا وغيرها ما داموا تحت نظرهم، فإذا خرجوا عن طاعتهم، فلا تسمح نفوسهم لهم بشيء، وإن كانت العلة مركبة من الشيخ والفقراء.

وقد وقع لي ذلك كثيرًا مع الولاة، فيهدون للزاوية شيئًا علىٰ اسم الفقراء، ولا يذكرون لي اسمًا أدبًا معي. ثم إذا رددتُه عليهم، أخذوه ولم يعطوا الفقراء من ذلك شيئًا، منهم الأمير خضر أمير الحاج، والشيخ عيسىٰ شيخ عرب البحيرة وغيرهما. فليحذر[1] فقراء الزاوية من الاعتراض علىٰ شيخهم كما عليه طائفة المستحقين في زاوية الشيخ، فإن ذلك سوء أدب، وليتربصوا في الإنكار علىٰ الشيخ حتىٰ يجتمعوا بذلك الشخص الذي أحسن إليهم ويسألوه عن حقيقة الأمر، فإذا قال: أنا ما أرسلتُه إلا لكم، فلهم الاعتراض حينئذٍ علىٰ الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يترك زيارة إخوانه ويتعلل بعدم وجود شيء يأخذه في يده لهم هدية إما مطلقًا، وإما من جهة الحل، فهو يتربص عن زيارتهم حتىٰ يجد شيئًا حلالًا يزورهم به، فلاث به أصحاب أقرانه وقالوا: هذا الأمر ليس بحجة في عدم الزيارة، ومن هو الذي يطلب من هذا شيئًا؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به لانقطاعه عن زيارتهم حتىٰ يجد هدية من حلال، لاحتمال أن يكون صادقًا في ذلك، كما عليه أهل المروءات. وكان علىٰ هذا القدم الشيخ

---

(١) بالأصلين: فليزم. والصواب ما أثبتناه.

أحمد الكعكي(١) والشيخ عبد القادر الظاهري(٢) كانا لا يزوران أحدًا من إخوانهما إلا بشيء يهديانه إليه من ملبس أو مأكل أو غير ذلك، فاعلم ذلك، واحمل إخوانك على المحامل الحسنة حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر المجاورين عنده بالاجتماع على السماط، فيأكلون مع بعضهم بعضًا، ولا يتركون ذلك تكبرًا، [ولا يأكل هو معهم](٣) فلاثوا به وقالوا: كيف يأمرنا الشيخ بالأكل ولا يأكل هو معنا، فلو أنه جلس معنا لكان أولى له، وكان يعلمنا الأدب في الأكل، ويخرج عن التميز عنا، كما درج عليه السلف الصالح.

والجواب: أن الأشياخ مجتهدون في الأمور، فربما علموا من حضورهم مع الفقراء انحصارًا وضيقًا لصدورهم وخجلًا من الشيخ، كما هو الغالب على المريدين. وربما كان عدم حضور الشيخ أنفع للفقراء من حيثُ إن مقامه أنه يعزم على كلِّ من مرَّ عليه، فربما كثروا فأكلوا غداء الفقراء أو عشاهم، وضروا بحالهم(٤). وقد يكون الشيخ طاويًا تلك الأيام، وقد يكون ذلك الطعام الذي يأكل منه المجاورون لا يليق بمقام الشيخ أن يأكل منه لعلة تقدح في حلِّه بالنظر لمقامه هو دون المجاورين. وربما خاف على المريدين إذا خالطهم من استهانة [به] في عيونهم، لاسيما إن داعبهم ومزح مع بعضهم. وأيضًا فإن الأشياخ قد خرجوا عن الكبرياء والعظمة في نفوسهم حتى صاروا يرون

---

(١) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الصالح العابد الزاهد العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الكعكي ﷺ كان يتكلم في مشكلات التوحيد بلسان غريب لا يكاد يفهمه أكابر العلماء فضلًا عن غيرهم. وكان ورده في اليوم والليلة أربعين ألف صلاة على النبي ﷺ واثنا عشر ألف تسبيحة، ويقول: إن ذلك كان ورد أبي هريرة ﷺ. مات رحمه الله خامس عشر رجب سنة اثنين وخمسين وتسعمئة، ودُفن في زاوية شيخه ببيلاق سيدي حسين أبي علي. انظر: «الطبقات الوسطى» للإمام الشعراني الترجمة (٤٢٦) طبعة دار الإحسان.

(٢) ذكر الشيخ المناوي في «الكواكب الدرية» (٣/ ٣٥٣) في ترجمة الشيخ بركات الخياط أن الشيخ عبد القادر الظاهري دفن معه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) بالأصلين: بحاله. والصواب ما أثبتناه.

نفوسهم من أحقر الخلق، ويتشرفون بالأكل مع الفقراء بخلاف المريدين، وربما تركوا الجلوس مع العميان على الأكل تكبرًا خوفًا أن يزدريهم أبناء الدنيا الذي يجالسونهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي يسافر الحجاز، ثم يسأل ناظر السحابة[1] في شيء من الزاد وفي الركوب له أو لجماعته مثلاً فيمنعه، فيقول له: لا بد أني أرافع فيك للحكَّام، وأكتبُ فيك محضرًا بأنك أكلتَ ما في السحابة، وتصرَّفتَ فيه بغير شرط الواقف؛ فيعطيه ما طلب، أو يركبه خوفًا من شرِّه، فيلوث الناس بذلك الشيخ أو العالم ويقولون: إذا كان المشايخ والعلماء صاروا لا يأخذون شيئًا من الصدقات إلا بالمرافعة في الناس والأذىٰ لهم، فما بقي أحدنا يلام علىٰ مثل ذلك!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم أو الشيخ بقوله المذكور لناظر السحابة، لأنه ربما رآه يتصرف فيها بغير غرض صاحبها، فيمنع الفقراء العاجزين الذين لا لسان لهم ولا يد، ويعطي ويُركِب من يعطيه أجرة الركوب أو يشكره بالباطل بين الولاة وغيرهم. وأيضًا فإن الشيخ أو العالم ربما يكون أتم نظرًا من ذلك الناظر، فأراد أن يجري الثواب الجزيل لذلك الواقف أكثر مما يفعل ذلك الناظر. وأما تخويفه بشهادته فيه عند الحكام ومرافعته فيه عندهم، فيُحمَل علىٰ أنه قول بلا فعل حتىٰ ينقاد له فقط.

وقد رأيتُ من فعل مثل ذلك من العلماء مع ناظر السحابة حين رآه يُرْكِب الأروام في السحابة بفلوس ويمنع الفقراء والمساكين، فجزاه الله تعالىٰ خيرًا. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والمشايخ إلا بعد الفحص الشديد عن مرادهم بما فعلوه أو قالوه، فإنهم أعرف بأمور الشريعة، وأخوف لله تعالىٰ منك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للخياط: خِطْ لي هذه الجبَّة خياطةً

---

(١) ناظر السحابة: المسؤول عن المياه والأطعمة المحمولة علىٰ الإبل والمعدة لشرب وأكل الحجاج في ذهابهم وإيابهم.

مليحةً، ونبتها لي؛ فلاث به بعض الفقراء وقالوا: من شرط الفقراء أن يكون أحدهم قصير الأمل كما درج عليه السلف الصالح، حتىٰ إن بعضهم كان ثوبه أو نعله يتفتق فلا يخيطه، ويقولون: الموت أقرب من ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير بذلك، فربما كان أقصر الناس أملًا، وإنما أراد بذلك ستر حاله بين الفقراء حتىٰ لا يمدحوه علىٰ قصر الأمل، أو يكون يعلم من نفسه منازعتها له في خياطة كلِّ شيء انفتق، فأراد بتنبيت الخياطة سد باب منازعة النفس، وأراد أنها تقبل علىٰ عبادة ربِّها من غير التفات إلىٰ ما[1] [انفتق][2]، كما قالوا في الطعام والشراب إذا تاقت نفس العبد إليه وأراد الصلاة[3]، فاعلم ذلك، واحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣١) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يعتقد في المجاذيب ويعطيهم المال فيرمونه في التراب أو البحر أو غير ذلك من وجوه الإتلافات وينكر الناس عليه ذلك، فلا يلتفت إليهم، بل يزيد في الإعطاء للمجاذيب كل ما طلبوه منه، فلاث به المتشرِّعون وقالوا له: هذا حرام عليك لما فيه من إتلاف المال لغير غرض شرعيٍّ.

والجواب عن هذا العالم: أنه ربما كان يعتقد في ذلك المجذوب أنه من أهل الكشف، فكُشِفَ له أن ذلك المال ليس هو من رزق ذلك العالم، وإنما هو رزق شخص آخر، فرماه في البئر أو البحر مثلًا، وصار يحفظه بالقلب عن أن يصل إليه أحد غير صاحبه الذي قسم الله له ذلك الرزق. وربما كُشِفَ له أن ذلك المال أو الطعام حرام، ولم يطلعه الله علىٰ صاحبه الأصلي، فأراد حرمان ذلك العالم من أكله ودخوله في تبعته في الدنيا والآخرة، وصار يحفظه بالقلب إلىٰ أن يقع في يد من يستحقه من أصحاب الضرورات.

---

(١) بالأصلين: نار. والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٧٢) من حديث أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ قال: إذا قُدِّمَ العَشَاءُ، فابدءوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم» ومسلم (٥٥٧).

وقد وقع أن سيدي الشيخ فرجًا المجذوب[1] أخذ من رجل دينارًا في بحر النيل ورماه في البحر، فابتلعته سمكة، فأخذها شخص ليأكلها. فوجد الدينار في بطنها فأخذه، ثم إنه لقيَ الشيخ فرج فقال: يا سيدي، إن فلانًا أخذ مني دينارًا ظلمًا. فقال: قد أخذتُه لك منه، ورميتُه في البحر، فابتلعته سمكة لتحفظه لك. فقال: يا سيدي، قد وقع ذلك لي البارحة وأخذته من بطنها! فقال: قد رددنا لك حقَّك، وخلصنا غريمك من الحساب يوم القيامة. انتهى. فاعلم ذلك، واحمل العلماء على المحامل الحسنة، فإنهم أعلم منك بأحكام الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نقل لشيخ آخر كلامًا ظاهره أنه نميمة، كقوله: إن فلانًا قد تكرر منه الوقوع في عِرْضِك في المجالس؛ فقام الشيخ المنقول له الكلام وقعد وتغير وظهر منه التكدر والغيظ، فلاث الفقراء بهذين الشيخين وقالوا عن الشيخ الناقل إنه نمام، وعن الشيخ الثاني إنه غير صادق في الطريق، ولو أنه كان صادقًا لدفع عنه النمام بالقلب وطهَّر حضرته من سماع الغيبة والنميمة.

والجواب: أنه قصد بإعلام الشيخ بأن فلانًا يقع في عِرْضِك أنه يستغفر له ويصفح عنه، ويسأل الله تعالىٰ أن يتوب عليه، ولم يقصد بذلك إفساد ما بين الشيخ وبين ذلك الشخص المنقول عنه أنه يقع في عرضه. ومعلوم أن الأحكام تدور مع العلل غالبًا، وهذا منها، لاسيما إن كان الشيخ الناقل يعلم من الشيخ المنقول إليه الكلام أنه ثابت القدم في معرفة الله عزَّ وجلَّ قد زالت رعونات نفسه، واتسعت أخلاقه، فصار يحتمل الأذىٰ من الثقلين لو قاموا عليه بالأذىٰ في صعيد واحد وراثةً محمديةً.

فإن قال قائل: إن الجزء البشري يَدِقُّ في الأولياء ولا ينقطع، فكان الأولىٰ للشيخ الناقل أن لا ينقل للشيخ الثاني شيئًا من ذلك، لاحتمال أن يصادف قيام بشرية ذلك الشيخ

---

(١) فرج المجذوب كان له كشف وكرامات، وكان يجمع الدراهم من الناس، ويفرقها على المحاويج، ثم يبيت لا يملك شيئًا ليله، انقطع آخر عمره في البيمارستان، وله كرامات، ودفن عند الشيخ شهاب الدين المجذوب بباب الشعرية. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٣٣)، «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٣٥).

من حيثُ الجزءُ البشريُّ الذي فيه، ودرء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح؛ **فالجواب:** قد قلنا: إن هذا الشيخ ما نقل ذلك إلا لوثوقه بثبات ذلك الشيخ في معرفة الله تعالىٰ وبعد زوال الرعونات البشرية منه، فكان ذلك الباقي ضعيفًا لا يكاد يظهر به تأثر من ذلك العدو، فكان ملحقًا بالعدم لضعفه وقلته. وقد يكون الشيخ الناقل ما نقل ذلك إلا وهو ماسك قلب المنقول إليه عن التغير، أو بعد أن توجه إلىٰ الله تعالىٰ أن يَعقِل قلبه عن ملاحظة تنقيص ذلك العدو [له جملة، حتىٰ كأنه لم يبلغه عنه شيء من الكلام أصلًا][1].

[وأما الجواب عن الشيخ الثاني][2] في تكدره وتغيره، فيحمل علىٰ أنه ما تكدَّر لحظ نفسه، وإنما تكدر خوفًا علىٰ دين ذلك المقراض أن ينقص بسببه هو، من حيثُ إنه لولا وجوده ما كان يجد من يقع في عرضه، فهكذا فليُحمَل كلام الأشياخ وأحوالهم.

وقد حكىٰ لي شيخي الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري أن امرأة من البغايا جاءت إلىٰ الشيخ أبي بكر الحديدي[3] في الأبطح والحج نازل بمكة، فقالت له: تبغي؟ فقال لها: تبغي أيش؟! فقالت: ما يطلبه الرجال من النساء! فقال: في مكة؟! فقالت: نعم، لأنها بلد المغفرة! فقال لها: اذهبي إلىٰ ذلك الرجل. فأرسلها للشيخ محمد بن عنان وهو جالس في الخيمة. فقالت له: تبغي؟ فقال: تبغي أيش؟! فذكرت له، فرماها بالحصىٰ، ثم قام وجرىٰ وراءها بالعصا، فقال: من أرسل هذه لي؟ فقالوا: الشيخ أبو بكر. فضحك القوم كلُّهم وكانوا نحو ثلاثة عشر وليًّا، منهم: سيدي أبو العباس الغمري، والشيخ محمد المُنيِّر، والشيخ علي بن الجمال[4]، والشيخ محمد السروري، والشيخ

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) أبو بكر الحديدي، أخذ الطريق عن سيدي أحد بن مصلح المنزلاوي، ورافق الشيخ محمد المنير في الحج أربعين سنة، كان يغلب عليه البسط والانشراح، ومع ذلك شديد الحرص علىٰ السنة لا يسامح أحداً في شيء من أدائها، توفي بالمدينة المنورة سنة ٩٢٥هـ. «الكواكب السائرة» (١/ ١٢٠).

(٤) ترجم له الإمام الشعراني فقال: الشيخ الصالح سيدي علي بن الجمال النبتيتي ﷺ رأيته وأنا صغير،

محمد بن داود، وقالوا كلُّهم للشيخ محمد بن عنان: إنما أرسلناها لك لتدعو لها وتنظر إليها نظرة، فلعل الله يتوب عليها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي مات شيخه وجلس للمشيخة بعده، وصار يقول لجماعة شيخه: لو عاش شيخي ورأىٰ مقامي اليوم لكان أخذ عني الطريق؛ فلاث به جماعة شيخه وقالوا له: هذا سوء أدب منك في حقِّ شيخك، وبتقدير وجود مدد معك، فأصله من مدد الشيخ رحمه الله تعالىٰ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ من أجل هذا القول، لاحتمال أن تعظيم شيخه قائم في قلبه، وإنما قصد بذلك عدم تعلق قلوبهم بشيخهم، ليتعلقوا به فيرقيهم في مقامات الطريق التي استفادها من شيخهم، أو التي كان شيخهم عازمًا علىٰ ترقيهم إليها، ولكن اخترمتْه المنية، فقصد هذا الشيخ بتَلمَذتهم له أن يرقيهم بحكم النيابة عن شيخه، ويجعل ثواب ذلك في صحيفة شيخه، كما وقع لي ذلك مع بعض جماعة شيخي الشيخ محمد الشناوي. فلا يجوز حمل هذا المدَّعي علىٰ أنه قصد بتلك الدعوىٰ الازدراء بمقام شيخه، حاشا الأخ عن مثل ذلك.

ويُحتمَل أن هذا الشيخ ترقىٰ عن مقام شيخه، فقال: «لو رآني شيخي وأنا في هذا المقام لأخذ عني» كلامًا صحيحًا ودعوىٰ صادقة، فكأنه يحكي للناس تواضع شيخه، وزوال الرعونات النفسية منه، وأنه دائر مع الفوائد حيث دارت، فيأخذ عن مريده إذا رأىٰ الحقَّ تعالىٰ أفاض عليه من جوده ما لم يفضه علىٰ نفسه هو، كما يصل الإنسان إلىٰ مقام يصير يأخذ العلم والمعارف عن نفسه، مع أن تلك المعارف كانت فيه ولا يشعر، فلما ظهرت من نفسه تلقاها عنها، فكذلك يكون حكم المريد للشيخ أن يأخذ عنه، وإن كان ذلك المدد الذي مع المريد أصله مفاض من الشيخ، فافهم. وقد وقع مثل ذلك

وكان رجلًا مهيبًا، دعا لي بدعوات وجدت بركتها. وكان سيدي أبو العباس الغمري يجله ويعظمه ويصفه بالرجولية. توفي سنة نيف وتسعمئة، ودُفن ببلده نبتيت، رحمه الله. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للإمام الشعراني الترجمة (٣٨٦) طبعة دار الإحسان.

لسيدي يوسف العجمي، فإنه أخذ عن بعض تلامذته لما علاه في المقام ﷺ. فاعلم ذلك فإنه نفيس، وانتحل للأشياخ الأجوبة الحسنة ما أمكن، وإن لم تجد لهم جوابًا يليق بهم فأمسك[1]، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أتاه مريد يطلب الطريق إلىٰ الله تعالىٰ بعد موت شيخه، فعبس في وجهه وصاح به: اخرج يا منافق من مجلسي! فلاث به الفقراء وقالوا: طريق الأشياخ إنما هو تأليف الناس علىٰ الطريق لا تنفيرهم عنها.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه رأىٰ عند هذا المريد استهانةً بالطريق، فأراد أن يعرف مقدار محبته لها، ليدخل إليها بهمَّة وصدق، وقلب الشيخ ماسك قلبه عن النفرة عنها، فصار يزجره بلسانه فقط وهو ماسك قلبه، ليريه عزَّة الطريق. ويُحتمَل أنه أراد أن يهدم بذلك ما عنده من تعلق القلب بشيخه الذي مات ليبني له بناءً جديدًا، فإن الأشياخ مجتهدون في الطريق، فلا يبني شيخ علىٰ بناء شيخ آخر، وإن كانت الشريعة تجمعهم، فاعلم ذلك فإنه نفيس.

ولم أزل أفعله مع أصحاب الأشياخ الذين ماتوا إذا اجتمعوا عليَّ بعد موت أشياخهم. وكثيرًا ما يأتيني أحدهم يسألني في حاجة، فأجد قلبه متعلِّقًا بشيخه الذي مات، فأرسله إلىٰ قبره وأقول له: توجه إلىٰ شيخك، واسأله في حاجتك، فإنه يقضيها لك إن شاء الله تعالىٰ. فإذا سأله ولم يرَ إجابة، فهناك يأتيني بقلب إن شاء الله تعالىٰ، فأقضي حاجته إن كانت متعلِّقة علىٰ توجهي له، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان بجواره مُنكَر وهو يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في إزالته فلم يزُل، فجاء شيخ آخر سكن في الحارة، فتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في ذلك المنكر، فأزاله في أول ليلة، فقال الناس: هذا هو الشيخ الصادق! ولاثوا بالشيخ الأول وقالوا: كم له يوم وهو يتوجه في إزالة هذا المنكر فلم يزُل! ما ذلك إلا لعدم الصدق.

---

(١) في «أ»: فاسكت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الأول، لاحتمال أن يكون صدق في التوجه، ولكن لم يكن جاء وقت انقضاء ذلك المنكر، فلما توجه الشيخ الثاني في إزالته، صادف انقضاء وقته، ولو أنه كان توجه الآخر إلىٰ الله تعالىٰ في إزالته قبل أن ينقضي زمنه، لم يُجَب إلىٰ سؤاله، نظير ما قررناه مرارًا في زوال المرض بسؤال بعض الفقراء، وبطب بعض الأطباء، فيدعو الفقير ويطب الطبيب ذلك المريض، فلا يجد المريض شفاءً، فيأتي فقير آخر أو طبيب آخر، فيدعو أو يطب، فيصادف انقضاء المرض، فيقول الناس: هذا هو الشيخ الصادق، أو هذا هو الطبيب العارف، والحال أن العلَّة فيه إنما هي مصادفته انقضاء المرض.

وكثيرًا ما يكون ذلك المرض مبرَمًا، فلا يُجاب أحد إلىٰ زواله. [وكذلك الحال في المنكر][1] فمن الأولياء من يعرف كونه مبرَمًا، فلا يسأل فيه ويغلب عليه التسليم فيسكت، فيقول الناس: ما بقي أحد يأمر بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر! والحال أن ذلك الولي إنما سكتَ أدبًا مع الله تعالىٰ حيث لم يترتب علىٰ سكوته مفسدة، وإلا أنكر خوفًا أن يتجرأ أحد علىٰ فعل ذلك المنكر ثانيًا. ومن الأولياء من لم يطلعه الله تعالىٰ علىٰ كونه مبرَمًا ويظن أنه معلَّق، فينكر ذلك المنكر، ولا يقدر علىٰ إزالته، فيلوث به الناس ويقولون: لو كان صادقًا لأزاله! فاعلم ذلك، **والزم الأدب مع أشياخ عصرك.**

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: ربما كان مطمح بصر الشيخين ألواح المحو والإثبات، فنَظَرَ أحدُهما إلىٰ الإثبات فظنَّ أنه مبرَم، والحال أنه يدخله المحو، فلما توجه الشيخ الثاني صادف محو ذلك المنكر، فكان السبب في إزالته انقضاء زمن المنكر لا توجه الشيخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعرف معاني جميع القرآن والسنة؛ فلاث به العلماء وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة ما سمعنا بمثلها عن أبي بكر الصديق، فضلًا عن غيره.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لأن للقرآن بطنًا وظهرًا، فالبطن ما اختص الله تعالىٰ بعلمه، والظهر ما ظهر للخلق، فما أنزل الله تعالىٰ كتابه إلا وهو يريد من عباده أن يفهموا جميع معانيه الظاهرة. ويجوز أن يجمع الله تلك المعاني كلَّها في واحد من الخلق بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، ولعل هذا الشيخ منهم، فلا ينبغي [الإنكار][1] عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٧) ومما أجبتُ به عن الميت من الأشياخ الذي جاء إلىٰ بعض إخوانه في المنام وقال: إني متشوش منك لعدم قيامك لي في الوقت الفلاني لما قدمتُ عليك؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا يدل علىٰ أنه مات وهو متضمخ بالرعونات النفسية لم يتب منها.

والجواب: أنه لا ينبغي حمله علىٰ أنه مات علىٰ شيء من رعونات النفوس، وإنما ينبغي حمل ذلك علىٰ أنه تأديب للرائي، ليصير يراعي مراتب الناس، ولا يخل بترك القيام لمن يستحق القيام بطريقه الشرعيِّ.

ومما وقع لي أنني رأيتُ الشيخ نور الدين الشوني في المنام بعد موته، فقال لي ﷺ: علمني هذه الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ. فقلتُ له: وما هي؟ فقال: «اللهم اجعل أفضل صلواتك أمدًا، وأنمىٰ بركاتك سرمدًا، وأزكىٰ تحياتك فضلًا وعددًا... إلىٰ آخرها» فإني رأيتُها تعدل كلَّ مرة منها عشرة آلاف صلاة؛ فعلمتُ أنه أراد إرشادي لها، لأصلي بها علىٰ رسول الله ﷺ، لأن الشيخ قد انقطع عمله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يصلي علىٰ ميت، ثم إذا فرغ من الصلاة عليه قبَّل رجل ذلك الميت، مع أنه ربما كان مشهورًا بالفسق، فلاث به الحاضرون وقالوا: هذه بدعة ما بلغنا أن أحدًا من السلف فعلها. وأما تقبيل أبي بكر الصديق رضي الله عنه جبين رسول الله ﷺ[2] فلا يُقاس عليه.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٧٠٩) من حديث ابن عباس، وعائشة: «أن أبا بكر رضي الله عنه قبَّل

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه لحظ من أحد من الحاضرين ازدراءً لذلك الميت، فطلب إزالته بإظهار تعظيمه وتقبيل رجله، وأن يفتح لهم باب التنصل من تبعته، لوقوعهم في عرضه يومًا من الدهر، أو فتح باب الاعتقاد فيه، لاسيما بتقبيل شيخ معتقَد في الطريق، حتىٰ ربما يتوهم أنه لولا علو مقام ذلك الميت علىٰ مقام الشيخ ما قبَّل رجله. وأيضًا ربما غفر الله تعالىٰ لذلك الميت باحتقار الناس له كما ورد[1]، وجعله شفيعًا في كلِّ من صلَّىٰ عليه، فكان تقبيل رجله بحضرة من لا يعتقده كالمذكِّر له يوم القيامة، ليشفع فينا عند ربه.

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك لما صُلِّي علىٰ الشيخ عليّ العراقي علىٰ باب جامع الأزهر، فإني سمعتُ بعضهم يقول: لو كان هذا صالحًا، ما سافر إلىٰ بلاد الروم بطلب زيادة الدنيا. فقلتُ للمنكِر: لا اعتراض علىٰ الأشياخ في سفرهم لطلب أرزاقهم التي جعلها الله تعالىٰ متوقفة علىٰ السفر، فيسافر أحدهم في طلب الدنيا وقلبه فارغ من محبتها. ثم لما قبَّلتُ رجله وهو في النعش عظُم في عين الحاضرين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمرض صاحبه فلا يعوده، ويرسل له أخوه مرارًا أن يعوده فلا يفعل، فلاث به الفقراء وقالوا: عيادة المريض سنة، لاسيما وقد طلب المريض منه ذلك، فصار عليه حقًّان.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ في ترك عيادة أخيه، لاحتمال أن يكون لحظ من المريض شدَّةَ الميل إلىٰ الخلق، والاعتمادَ عليهم دون الله تعالىٰ، فطلب الشيخ بعدم عيادته نفرةَ نفس المريض من إخوانه، لينفر منهم ويعتمد في جميع أموره علىٰ الله تعالىٰ دونهم. وقد قال العارفون: لا ينبغي عيادة مريض رأيناه يميل إلىٰ تردد الناس إليه، فكم

النبي ﷺ وهو ميت»، والنسائي (١٨٣٩).

(١) بوَّب الإمام النووي في رياض الصالحين باب تحريم احتقار المسلمين وذكر تحته حديث جندب ؓ أن رسول الله ﷺ حدث «أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالىٰ قال: من ذا الذي يتألىٰ علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك» أخرجه مسلم (٢٦٢١)، وابن حبان (٥٧١١).

ضيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس! وكم أذهبت من دين! انتهىٰ.

ويُحتمَل أن هذا الشيخ لحظ من المريض أنه ناظر إلىٰ شيء يصرفه في مرضه، فكلُّ من دخل يعوده ينظر هل معه شيء، فأراد هذا الشيخ أن يحصِّل له شيئًا ينفقه في مرضه ثم يحضر به. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ كُشِفَ له عن كون ذلك المرض عقوبةً أو كفارةً أو رفعَ درجات، فطلب دوام المرض للكفارة ورفع الدرجات، ثم يحضر عنده يدعو له إذا أشرفت العقوبة علىٰ الفراغ، فإن **الشفاعة قبل وقتها لا بقيد وقتها تحجير علىٰ الله وتغيير لما سبق به علمه**، فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكون ينعس في ورده في الليل مثلًا، فيضع إنسان في فم هذا الشيخ قطعة سكر فيستيقظ، فلاث به الفقراء وقالوا: هذا أمر عجيب يدل علىٰ ضعف داعيته للأعمال الأخروية، وقوة داعيته إلىٰ شهوات الدنيا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بسبب ذلك، لأن الكامل يُكنىٰ «أبا العيون» فعين يحب بها مناجاة الله تعالىٰ، ولا يحتاج في ذلك إلىٰ رشوة؛ وعين يحب بها الشهوات التي لا يستطيع ردَّ قسمتها له، فلا ينبغي اللوث به، لأنه أعطىٰ الجزء الذي فيه يحب الشهوات الدنيوية حظَّه، فإن الكُمَّل يطالبون بتوفية نفوسهم حظَّها، خوفًا من ظلمها باستعمالها في العبودات والمجاهدات، مع عدم الإحسان إليها بالعلف كالحكم في الدواب، وقد قالوا: تقول النفس لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتُك. انتهىٰ. **فالكامل لا يضره توفية الجزء الذي فيه يحب شهوات الدنيا حقَّه**، بل ذلك عدل منه، فإنه لو أمر ذلك الجزء بالإقبال علىٰ مناجاة الله تعالىٰ كبقية الأجزاء التي في جسده لما قدر، نظير الملل الذي يقع من العبد، ولذلك نهىٰ الشارع عن الصلاة عند غلبة النوم، لأن النائم لا يصير عنده كمال إقبال علىٰ الله تعالىٰ في مناجاته. وقد قال معروف الكرخي: من أدب العارف أن يبرِّد الماء لنفسه أيام الصيف، ليعطي نفسه حقَّها، بخلاف المريد، لأنه في مقام المجاهدة والمخالفة لأغراض النفوس. وقال العارفون:

إنما سمَّىٰ الله تعالىٰ الذي ظلم نفسه مصطفًىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر: ٣٢] أي بتحميلها من العبادات ما لا تطيق، تشجيعًا لها وخروجًا عن الميل إلىٰ الكسل والراحات كما هو الغالب علىٰ المريدين. ثم إذا خرج عن الكسل والميل إلىٰ الراحات، فحينئذٍ يُؤمَر بالعدل بين أعضائه وروحه، فيشرب الماء البارد، وينام علىٰ أوطيء الفراش، ويأكل أطيب الطعام، ويلبس ألين الثياب، ويترك الخشونات كلَّها جملةً، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن والأخلاق» وذكرنا فيها أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي كان يأمر خواص أصحابه بالإحسان إلىٰ نفوسهم، بل خرج بوجوب موافقة نفوسهم في شهواتها إذا صارت لا تحب إلا ما يحب الله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤١) ومما أجبتُ به عن العبد الذي يجد عنده خجلًا من الناس إذا اطلعوا علىٰ زلَّته أعظم من الخجل الذي يحصل له إذا عصىٰ ربه ولم يطلع علىٰ ذلك أحد من الناس، فلاث به الفقراء وقالوا: هذه استهانة بنظر الله إليه، وذلك كبيرة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العبد، لاحتمال أن يكون الباعث علىٰ شدة الخجل من الناس كونهم يهتكونه ويعيرونه، بخلاف ربه فإنه يستره، فلذلك اطمأن بحسن ظنه بربه ولم يشتد خجله منه. وأيضًا فإن الله تعالىٰ هو المقدِّر علىٰ العبد ذلك وخالق لعمله، فربما يغلب علىٰ العبد هذا المشهد، فيخف الأمر عليه، فليس قلة الخجل من الله تعالىٰ استهانةً بنظره تعالىٰ إلىٰ العبد كما قد يتوهم، بل ورد أن الله تعالىٰ إذا أراد إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم[1] الحديث، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعمم عمامته ثم ينظر إليها ويهدها ثم يعممها، ثم يحلها مرارًا، فلاث الناس به وقالوا: إذا كان هذا فعل مشايخ هذا الزمان،

---

(١) تقدم تخريجه.

فما بقي علىٰ أمثالنا لوم في عجبه بثيابه وعمامته، ولكن قد ذهب الفقراء الذين كانوا لا ينظرون إلىٰ ظواهرهم ﷺ.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بذلك تنفير جماعة يحصل له من اعتقادهم فيه سوء، فأراد تنفيرهم عنه بحَلِّ عمامته المرة بعد المرة وأن يقولوا: لو كان هذا فقيرًا صادقًا لم يلتفت إلىٰ ظاهره الذي لا ينظر الله تعالىٰ إليه كما ورد[1]. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ عرف كيفية عمامة رسول الله ﷺ أو عمامة أحد من الصالحين بطريق صحيحة، فأراد أن يلفها كهيئة السنة، فصار كلما يعمها يجدها مخالفة للسنة حتىٰ رآها وافقت السنة، فاكتفىٰ بها، والله أعلم.

(١٣٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لأصحابه: لا تقيسوا أحدًا علىٰ حالي، ولا تقيسوا حالي علىٰ حال أحد، فإني قد خرجتُ من الدوائر؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يريد بقوله: «لا تقيسوا أحدًا علىٰ حالي» يعني الناقص «ولا تقيسوا عليَّ أحدًا» كذلك، وعظِّموا مقام الناس ونزِّهوه عن مقامي، فهو تعظيم للناس واحتقار لنفسه. ولا يجوز حمل كلام هذا الشيخ علىٰ تعظيم نفسه واحتقار غيره، كما قد يتبادر إلىٰ الأفهام الضعيفة.

وقد ثبت مثل هذا اللفظ عن السيد عبد القادر الجيلي، كان يقول: «أنا من فوق معلومات الخلق، فلا تقيسوني بأحد، ولا تقيسوا عليَّ أحدًا». انتهىٰ. وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ ما رفع هؤلاء الأولياء فوق مقامات الناس إلا بالتواضع، فكيف يصح في حقِّهم أنهم يتركون التكبر في بداياتهم ويفعلونه في نهاياتهم؟! هذا أبعد من البعيد، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول عن أحد من أقرانه: بعيد أن مثله يقبل

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»، وابن ماجه (٤١٤٣).

الله له عملًا؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا من علامة عداوته لفلان وحسده له.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أنه يريد أنه بلغ في التوحيد مقامًا صار لا يرىٰ له عملًا مع الله تعالىٰ حتىٰ إن الحق تعالىٰ يتقبله منه، فهو مدح له لا ذم، **وإن كان الكمال هو شهود العبد نسبة العمل[1] له من الوجه الذي أضافه الحق تعالىٰ إليه بقوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ونحو ذلك**. ويُحتمل أيضًا أن يكون قصد بقوله: «بعيد أن الله يتقبل من فلان عملًا» تنبيهه علىٰ ما عنده من الشحناء من بعض إخوانه، ليبادر إلىٰ التوبة من الشحناء، ويصفي قلبه له، لما ورد أن المشاحن لا يُرفع له إلىٰ السماء عمل[2]، فهو إرشاد له إذا بلغه ذلك الكلام، ليخرج عن صفة الشحناء، من باب الأمر بالمعروف بحسن عبارة لا غيبة فيها ولا حسد، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي له مجلس ذكر في حارة شخص آخر له مجلس ذكر، فقال صاحب المجلس الذي في حارته: اترك مجلسك وتعالَ بجماعتك اذكر معنا حتىٰ نعلمك الإخلاص، وتخرج عن الرياء؛ فلاث به جماعة الشيخ الآخر وقالوا: إن هذا ليس بنصح، وإنما هو من باب الحسد، وعلامة علىٰ ريائه هو، ولو أنه لم يكن عنده حسد ولا رياء ما قال هذا الكلام.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون محقًّا في قوله صادقًا، فأراد لأخيه بلوغ درجة الإخلاص المعروف بين القوم، وإلا فمن المعلوم عندهم أن من شهد في نفسه الإخلاص احتاج إخلاصُه إلىٰ إخلاص.

ولا يلزم من قول الشيخ الآمر لأخيه بأن يذكر معه الحسد ولا العداوة ولا الرياء، لاسيما إن كان الشيخ المأمور من جملة تلامذة الشيخ الآمر، كما يقع ذلك كثيرًا لجماعة

---

(١) في «ب»: العبد. والصواب ما أثبتناه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيُغفَر لكل عبدٍ لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا، أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا» وأبو داود (٤٩١٦).

الأشياخ، فيجعل له مجلس ذكر في حارته في حُجَّة بُعْدِ زاوية الشيخ عنه، ويكون قصده المشيخة بذلك، فأراد شيخه بقوله له: «اترك مجلسك واذكر معنا» تخليصه من الرياء وحظِّ النفس. وبتقدير أن يكون ذلك المريد عمل مجلس الذكر بإذن الشيخ، فللشيخ منعه من ذلك متىٰ أراد، لحدوث علة قادحة في ذلك.

ثم إن قُدِّر أن ذلك التلميذ قال لشيخه: إن تركتَ مجلسك تركتُ أنا الآخر مجلسي؛ فمن الأدب أن يترك الشيخ مجلسه إن كان ذلك طريقًا إلىٰ هداية ذلك المتمشيخ، لحديث: «لأن يهدي الله تعالىٰ بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمُر النعم»[1] أي أن يجعلها في سبيل الله تعالىٰ، ولكن ينبغي للشيخ أن يأمر الجماعة الذين كانوا يحضرون ذلك المجلس بالذكر سرًّا حتىٰ لا يفوتهم مجالسة الله تعالىٰ في ذكره. ثم إذا خلص ذلك المريد من الرياء وأذعن لشيخه، فمن الأدب تجديد الإذن له في اتخاذ مجلس الذكر، كما يرجع الشيخ كذلك إلىٰ مجلسه. وقد فعل بعضهم بهذا الخلق مع مريده لما قال له: إن كنتُ أنا مرائيًا فأنت الآخر كذلك، فاترك أنت الآخر مجلسك حتىٰ تنصلح نيتك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمن يريد صحبته من التجار أو الفقهاء مثلًا: ارم متاعك في البحر، أو أسقط حقَّك من جميع وظائفك، أو طلِّق زوجتك، أو فرِّق جميع مالك علىٰ الفقراء والمساكين، ثم تعالَ. فوافقه ذلك المريد علىٰ ذلك، ولاث به المتشرِّعون وقالوا: هذا فعل حرام لما فيه من إضاعة المال، أو مكروه لكونه نزل عن وظيفته التي منها قوته، أو طلَّق زوجته الموافقة له من غير وقوع ضرر منها أو لتصدقه بما هو محتاج إليه، وقالوا: إنه لم يبلغنا مثل ذلك عن أحد من الصحابة والتابعين، وما نرىٰ وقوع مثل ذلك إلا من شدَّة جهل هذا الشيخ بقواعد الشريعة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إلا بعد الفحص عن مقامه وحاله، فقد

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٣٦٦١) واللفظ له، والبخاري (٢٩٤٢).

يكون الحقُّ تعالىٰ أعطاه القدرةَ علىٰ ردِّ ذلك المال الذي رماه مريده في البحر أو تصدَّق به، وعلىٰ رجوع تلك الوظائف أو الزوجة، فيأمره بذلك باللسان ويمسكه له بالقلب، فلا يقدر أحد يصل إليه من صيَّاد ولا غيره، ولا يقدر أحد يسعىٰ علىٰ تلك الوظيفة، ولا يتزوج تلك المرأة، حتىٰ يفرغ من زمن الامتحان ثم يرد عليه ماله بتمامه، ووظائفه بكمالها، وزوجته من غير مسيس أحد لها، كما وقع لسيدي يوسف العجمي ولسيدي مدين، ولسيدي محمد الغمري، وأتىٰ كلٌّ منهم بذلك المال من البحر وهو يقطر ماء، ويمد يده من زاويته بمصر إلىٰ بحر النيل، واستخراجها منه من غير مؤنة، فلا اعتراض إلا علىٰ شيخ يعجز عن رد ما خرج عنه مريده من المال وغيره، لما في ذلك من إضاعة المال المنهي عنها، ولما فيه من تلفت القلب إلىٰ تلك الزوجة والمال بعد فراغ الامتحان، حتىٰ لو أن الشيخ قال للمريد: إني أردُّ لك ما خرج منك بعد ذلك، وصدَّقه حرم عليه لبطلان الامتحان.

وقد قالوا: كما لا يُطالب المقلِّد إمامه بدليل علىٰ جواز ما حرَّمه غيره من الأئمة، كذلك المريد لا يطالِب شيخه بدليل علىٰ تجويزه رمي ذلك المال في البحر. وأيضًا من **شأن الشيخ الكامل في الطريق أن يبلغ درجة الاجتهاد المطلق** كما درج عليه الصادقون.

وقد وقع لأبي حفص الحدَّاد أنه زجر مريدًا وقال: إن كنتَ في طاعتي فادخل التنور واجلس في النار؛ فدخل من بكرة النهار إلىٰ آخره، فما ذكره الشيخ إلا عند الغروب. فقال: ادعوه؛ فدعوه فوجدوا النار لم تحرق شيئًا من ثيابه فضلًا عن جلده، لأن الله عند ظن عبيده به، وكذلك الشيخ هو عند ظن مريده به، فلما اعتقد المريد أن بركة الشيخ تمنع عنه أن تحرقه النار كان الأمر كما ظن.

فإن قال قائل: إن العارف بالله تعالىٰ يعلم أن حضرة الحقِّ حضرة إطلاق، فكما أقدر الشيخ علىٰ استخراج مال مريده من البحر، ربما رجع الحق عن ذلك وعجز الشيخ عن استخراج ذلك؛ **فالجواب:** أن للأشياخ علامات يعرفون بها الأمور التي يدخلها المحو والتي لا يدخلها محو، وذلك مما علم الشيخ أنه لا يدخله محو.

[دليل الصوفية في امتحان المريد بإتلاف ماله]

فإن قلت: فهل للفقراء دليل في الامتحان للمريد بإتلاف ماله؛ قلنا: نعم، قصة أيوب، فإن الله تعالىٰ سلَّط علىٰ ماله [التلف][1]، ثم لما خرج حبُّه من قلبه رد عليه ماله وأهله ومثلهم معهم، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طلب مريدُه الخروج من أمواله كلِّها أو بعضها فمنعه، فلاث به الفقراء من أقرانه وقالوا: كان الواجب عليه أن لا يمنعه من ذلك تقربًا للطريق عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون علم من ذلك المريد أن نار عزمه تخمد عن قريب، ويحصل له الندم علىٰ ماله، وإذا ندم بطل ترقيه في الطريق بذلك، فأراد الشيخ أن يسارقه بالخروج من حبِّ الدنيا شيئًا فشيئًا، حتىٰ يكون هو الخارج منها بحقٍّ وصدق من غير حصول التفات إليها بعد ذلك، كما وقع لإبراهيم بن أدهم، وقد أشار إلىٰ ذلك رسول الله ﷺ بقوله لكعب بن مالك لما أراد الانخلاع من ماله كلِّه في قصة توبته بقوله له: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»[2] فإنه ﷺ خاف عليه من خمود نار ذلك الفرح الذي حصل له بالتوبة، ويصير يقول في نفسه: لو أني أبقيتُ لنفسي وعيالي شيئًا من مالي، لكان خيرًا لي من الحاجة إلىٰ الناس.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: نحن لا نقول للمريد: ألقِ متاعك في البحر، ولا تَصَدَّق به مثلًا، بل نتركه علىٰ حاله، ونمهد له بساط الزهد في الدنيا، ونريه ما له من الحظ والمصلحة إذا خرج من ماله، حتىٰ يكون هو الخارج من ماله بنفسه، لما رأىٰ لنفسه في ذلك من الحظ والمصلحة.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٢٧٦٩).

وكان يقول: لا ينبغي للشيخ أن يقول لمريد: اخرج عن مالك إلا بعد تمهيد بسط وبيان أمارة طلب النجاة بذلك، نظير ما إذا قال رئيس المركب للركَّاب: غدًا وقت الظهر تثور ريح شديدة، من لم يرم متاعه هلك، فارموا متاعكم من هذا الوقت؛ فلا يجيبه أحد، فإذا جاء الموعد وتحققت الحقائق وثارت الريح، كان العاقل من رمى متاعه لأجل نجاة نفسه، ولو أن شخصًا قال لأحدهم: لا ترموا متاعكم في البحر واغرقوا أنتم؛ استخفوا عقله، فهكذا أمر المريد إذا هبت عليه ريح التوفيق والهداية إلى الطريق، كان هو الخارج من الدنيا بنفسه اختيارًا. فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلى الاعتراض على الأشياخ فيما يفعلون إلا بنصٍّ أو إجماعٍ أو قياس جليّ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان يصلي بلا خشوع، فدخل عليه أمير فخشع وغض طرفه وسكَّن أطرافه، فلاث الناس به وقالوا: انظروا إلىٰ هذا الشيخ المرائي!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون مشهده تعظيم صفات الحقِّ جلَّ وعلا حيثُ ظهرت والأدب معها، فلما حضر ذلك الأمير ذكَّرتْه عظمتُه بعظمة الله تعالىٰ وجلاله، فخشع لله تعالىٰ وخضع له وهو غائب عن مراءاة ذلك الأمير بعبادة الله تعالىٰ، فإن الشيخ لا يخفىٰ عليه تحريم الرياء، بل هو يناقش المريدين فيه ليلًا ونهارًا، فكيف يقع هو فيه؟!

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله يقول: لا يصح في حقِّ الكامل رياء أبدًا. فقلتُ له: كيف ذلك وهو غير معصوم؟! فقال: لأن شهود التوحيد الذوقي يمنعه من أنه يرىٰ لنفسه عملًا حتىٰ يرائي به. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ أشياخ الطريق إلا إن دخلت دائرتهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان في مجلسه مدَّاح يُطْرِب أهل المجلس حتىٰ يحصل له نقوط[1] عظيم، فحصل له تكدير من المادح، فنهاه عن المدح في مجلسه،

(١) النقوط: جمع نقطة، والنقطة مال يدفع علىٰ سبيل الهدية والإعانة.

فلاث الناس بالشيخ وقالوا: قدَّرنا أنه تكدَّر من المدَّاح، فأي عذر له في نهيه المدَّاح أن يمدح رسول الله ﷺ؟! ما ذلك إلا جهل عظيم!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، ولا حمله على المحامل السيئة، ولا على بغضه مدح رسول الله ﷺ، لاحتمال أنه اطلع من طريق كشفه على فساد نية المادح، وأنه ليس الباعث له على مدح رسول الله محبته ﷺ، وإنما الباعث له على مدحه محبة النقوط، أو قول الحاضرين: هذا أدخل من المادح الفلاني، ونحو ذلك من الأغراض النفسانية، فأراد الشيخ بإبطاله أن يعلمه الأدب اللائق برسول الله ﷺ من الإخلاص في مدحه، حتى يكون الباعث له على مدح رسول الله ﷺ محبته لا غير، ليحصل له الثواب، ويصير رسول الله ﷺ يحبُّه، فإن رسول الله ﷺ **على الأخلاق الإلهية**، فكما أن الله تعالى يكره من يعبده رياء وسمعة وعجبًا، كذلك رسول الله ﷺ يكره من يمدحه رياء وسمعة، لا محبة فيه ولا في الصلاة عليه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٠) ومما أجبتُ به عن العلماء الذين يدرسون طلبتهم دائمًا من الكراس دون ظهر القلب، وإذا جاءهم طلبتُهم في بعض الأوقات يقرؤون درسهم قالوا لهم: ما طالعنا لكم شيئًا، فتعالوا غدًا؛ فلاث بهم الناس وقالوا: هذا عجز من هؤلاء، ولا فرق حينئذٍ بينهم وبين طلبتهم، فأي فائدة للأشياخ حينئذ؟! وما هكذا كان الأشياخ الذين أدركناهم، بل كان أحدهم بمجرد ما يأذن له شيخه في تدريس العلم يصير يدرِّس من غير كراس حتى يموت، ولكن هذا كله من أكل الحرام والشبهات، فإنه يُظلِم القلب، فلا يصير ينتقش فيه علم، كالكتابة بالحبر على قعر الدَّسْت[1]، فصار العلم في ألسنتهم لا في قلوبهم.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهؤلاء العلماء لأجل تدريسهم العلم من الكراس، وقولهم لطلبتهم: «ما طالعنا لكم شيئًا». ولا يلزم من تدريسهم من الكراس أن يكونوا جاهلين بالعلم، أو ليس العلم في قلوبهم، لاحتمال أن يريد أحدهم بذلك السترة بين الأقران وغيرهم، وعدم تميزه على الناس بتدريس العلم عن ظهر قلب. ويُحتمَل أن

---

(١) الدَّسْتُ: مِرجل كبير من نحاس.

تكون مطالعته إنما هي زيادة اعتناء بتحقيق العلم وتحريره، فإنه أمانة، فيراجع فهمه فيه المرة بعد المرة، ليكون على يقين من موافقة فهمه للمنقول مثلًا.

وكان على هذا القدم جماعة من العلماء الذين أدركناهم، كالشيخ عبد الحق السنباطي[1]، والشيخ نور الدين المحلي[2]، وشيخ الإسلام ابن أبي شريف، والشيخ زكريا، فكانوا ﷺ يحفظون العبارة، ولكن يحتاطون للطلبة استبراءً لدينهم. وممن كان على هذا القدم من الأشياخ الماضين: الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، والإمام الغزالي، والرافعي، والنووي. وقيل لسيدي أحمد الزاهد: لم تمسكون الكراس وأنتم بحمد الله لا تحتاجون إلى مثل ذلك؟ فقال: يا ولدي، الستر مطلوب في هذه الدار، فإن الجالس فيها كالجالس في بيت الخلاء، فيستحب له غلق الباب عليه حتى يقضي حاجته، وإلا هتكت سريرته وظهرت عورته. انتهى. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أكثر علماء بلده في تجريحه والحط عليه، فلاث الناس به وقالوا: لولا أن هذا الشيخ على ضلال وبدعة، ما حطَّ عليه علماء الشريعة هذا الحطَّ العظيم، فإن العلماء لا تجتمع على ضلالة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ بمجرد ذم العلماء له وحطهم عليه، بل ينبغي للعبد التربص عن الذم حتى يجتمع بالعلماء ويسألهم عن سبب ذمهم له، فربما

---

(١) عبد الحق بن محمد السنباطي شيخ الإسلام الحبر العلامة الفهامة القاهري الشافعي خاتمة المسندين. ولد ٨٤٢ هـ، كان جلداً في تحصيله، مكبّاً على الاشتغال حتى برع، وانتهت إليه الرئاسة بمصر في الفقه والأصول والحديث، وكان عالماً عابداً متواضعاً طارحاً للتكليف. من رآه شهد فيه الولاية والصلاح قبل أن يخالطه، جاور بمكة وبها توفي سنة ٩٣١ هـ. «الكواكب السائرة» (١/ ٢٢٣).

(٢) علي بن محمد بن محمد بن محمد بن علي النور أبو الحسن المحلي ثم القاهري الشافعي تلميذ بقاعي ويعرف بابن قريبة -بقاف مضمومة ثم راء بعدها تحتانية ثم موحدة- وبعد ذلك بالمحلي. قال الإمام الشعراني: كان كالجبل الراسي في كمال العقل والهيبة، على وجهه الخشية والوقار، غزير الدمعة إذا ذكرت أحوال السلف. وكان مشهورًا في مصر بحل مشكلات العبارات في الفقه والأصول والمعاني والبيان وغير ذلك. توفي: ٩٢٢هـ. انظر: «مفاكهة الخلان» (٣١٩) و«الضوء اللامع» (٦/ ١٨) و«الطبقات الوسطى» الترجمة (٥٣٣) طبعة دار الإحسان.

كان ذلك من إشاعة بعض الحسدة عن الشيخ حتىٰ ينفروا الناس عنه، ويقول الناس: لولا أن هذا علىٰ بدعة ما حط عليه العلماء. وبتقدير أن يكون ذم العلماء له بحق لوقوعه في ذنب، فيُحتمَل أن الله تعالىٰ يتوب عليه من كلِّ ذنب عقب الفراغ منه، فلا يصبح ويمسي إلا مغفورًا له، و«التائب من الذنب كمن لا ذنب له». **ولا يجوز لأحد أن يعتقد في أخيه الإصرار علىٰ الذنب لأنه سوء ظن به**. وقد يكون وقوع العلماء لشبهة قامت عندهم في عقيدة الشيخ، مع أن اعتقاده موافق لاعتقاد أهل السنة والجماعة، فينقل الله تعالىٰ أعمال أولئك العلماء إلىٰ صحائف هذا الشيخ يوم القيامة، حتىٰ تصير أعماله كالجبال الرواسي، ويأتي هؤلاء العلماء إلىٰ الآخرة بأعمال كالذر والهباء. ويُحتمَل أن الله تعالىٰ يعطي الشيخ المنازل العالية في الجنة بكلام العلماء فيه، ثم يغفر للعلماء ذنوبهم، لقصدهم بالوقوع في الشيخ نصرة الشريعة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الخاتمة الموعود بذكرها في الخطبة

في ذكر بعض الأجوبة عمَّن وقع في عرضي من الأقران وغيرهم إما بقصد إيذائي أو التأديب لي

وإنما أجبتُ عنهم إظهارًا لما أنعم الله تعالىٰ به عليَّ من حسن الخلق، وليقتدي بي الإخوان في ذلك، ويحملوا كلام أعدائهم على المحامل الحسنة، كما يشهد لي بذلك ما ذكرتُه عن الناس من الأجوبة في جميع الكتب، بل أقول: إني بحمد الله تعالىٰ بلغتُ في مقام الرياضة لنفسي أنها صارت تتوسل إلى الله تعالىٰ في قضاء حوائجها بأشدّ أعدائها، وتقول: اللهم بحقِّ فلان عليك، وبما بينك وبينه من المحبة، اغفر لي أو يسّر عليَّ قضاء هذه الحاجة مثلًا. ولولا رؤيتي أن عدوي أفضل عند الله مني ما صحَّ لي أن أتوسل به إلى الله تعالىٰ في قضاء حاجتي، فلله تعالىٰ الفضل علىٰ ذلك، وهو مقام عزيز قلَّ من يتخلق به من أهل هذا العصر، وغالبهم يقابل العدو بمثل كلامه أو يسكت عنه. وأما الجواب عنه وحمله علىٰ المحبة والتأديب، فلا تكاد تجد أحدًا من المتخلقين به إلا قليلًا.

[وجوب حمل من أجاب عن نفسه وردَّ كلام الأعداء على المحامل الحسنة]

وينبغي حمل من أجاب عن نفسه ورد كلام الأعداء فيه كالجلال السيوطي رحمه الله علىٰ محمل حسن أيضًا، كأن قصد بزجرهم وتوبيخهم سدَّ باب الوقيعة في غيره من العلماء لجنابهم، لكونهم حملة الشريعة. ولا ينبغي حمل ذلك علىٰ أنه قصد التشفي للنفس والانتصار لها، بل أخبرني شيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري رحمه الله أنه حضر وفاة شيخنا الشيخ جلال الدين في روضة مقياس النيل بمصر، فقال له: يا سيدي، أسألكم المسامحة لمن أذاكم من الأقران تخلقًا بأخلاق رسول الله ﷺ. فقال: قد سامحتُهم من حين آذوني، ولكني قصدتُ بالرد عليهم تحذيرهم من مثل ذلك. انتهىٰ.

إذا علمتَ ذلك، [فأقول] وبالله التوفيق:

(١٣٥٢) مما أجبتُ به عمَّن رماني بالبهتان والزور، ونقصني في المجالس وغير ذلك، ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا لا يجوز لك وتفسق بذلك، بأنه إنما وقع في إيذائه لي

وهو في غفلة عن ربه، وعن كوني أنا وإياه في حضرته تعالىٰ إما كشفًا وإما إيمانًا، أو أنه إنما آذاني لغفلته عن كوني عبد الله أو من أمة محمد ﷺ، ولو أنه كان حاضر العقل لما كان آذىٰ [عبد] الله في حضرته، ولا من هو من أمة نبيِّه محمد سيِّد الأولين والآخرين.

ويُحتمَل أنه ما آذاني [إلا] اختبارًا لي لينظر هل أصبر علىٰ ذلك أو أتقلق منه وأضجر، فيفرح بيَ في الأول، ويحزن عليَّ في الثاني، ثم يصير يربيني حتىٰ أصير أتحمل من البلاء أضعاف ذلك. ويُحتمَل أنه ما آذاني إلا لإخلالي بواجب حقِّه، أو لمخالفتي لأغراضه المباحة، حتىٰ كاد يتميز من الغيظ. ويُحتمَل أنه ما آذاني إلا لما رأىٰ عندي من دعوىٰ الصلاح بغير حقٍّ، فأراد بذلك أن يظهر لي كذبي، لأتوب من تلك الدعوىٰ. ويُحتمَل أنه قصد بإيذائه لي إظهار مقامي للناس وصبري[1] عليه بظنه فيَّ الصلاح وأني لا أتأثر، فاعتقد أني أصبر علىٰ الأذىٰ ولا أتقلق منه حتىٰ يظهر مقامي في الفقر لمن كان جاهلًا بي، فيحبني ويأخذ عني العلم والأدب ونحو ذلك من المحامل.

ولا يجوز لي حمله علىٰ أنه آذاني حسدًا وعدوانًا ظاهرًا وباطنًا، لأن ذلك كالمحاربة لله تعالىٰ والمكابرة في المحسوس عندي! وهذا خلق غريب لم أرَ له فاعلًا من أقراني إلا قليلًا، فلا يكاد يُرَىٰ أحدٌ يقيم العذر للذي آذاه أبدًا، إنما يقابله بالأذىٰ الظاهر من قول أو فعل، أو يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل فيه، ويعتقد أن قوله «حسبنا الله ونعم الوكيل» فيه أخف من مقابلته، والحال أنها أشدُّ، **لأن الحقَّ من شأنه غالبًا أن يخذل من آذىٰ من احتسب به عليه**، فينبغي لكلٍّ من قام عليه قائم أن يتطلب من الله تعالىٰ وجه الحكمة في قيام ذلك الشخص عليه، فإن الله تعالىٰ حكيم عليم، ثم إن أطلعه الله تعالىٰ علىٰ وجه تلك الحكمة، شكر فضل الله تعالىٰ، وإلا سلَّم لمولاه كما يسلِّم المقلِّد للمجتهد، والمريد للشيخ، ولله المثل الأعلىٰ.

ولما شفعتُ عند الوزير عليٍّ الباشاه بمصر وقَبِل شفاعتي دون أقراني، تحزبوا عليَّ من كلِّ جانب، وكتبوا فيَّ قصصًا يجرحونني فيها، ورموها في الديوان، لينفروا الوزير

---

(١) بالأصلين: ووقعي.

مني، فبادرتُ إلىٰ الشكر لله تعالىٰ، وحملتُهم علىٰ أنهم قصدوا بذلك راحة سري وبدني من التعب في المستقبل في إطباق العمال عليَّ لأشفع لهم في عدم الحبس أو الترسيم أو العقوبة إذا تجمد عليهم شيء من مال السلطان. فلا يسعني إلا أن أشفع، ولا يسع الباشاه والدفتردار أن يجيباني إلىٰ ما أطلب، لأنهما مرصدان لتحصيل مال السلطان وجمعه ليرسلاه[1] له، وأنا كالمعارض لهما بتلك الشفاعات. فأصير أقاومهم في تعب، وآخر الأمر يمنعاني من الدخول إليهما شافعًا، فخاف عليَّ من ذلك الذين كتبوا القصص في تجريحي، فجزاهم الله تعالىٰ عني خيرًا في الدنيا والآخرة.

ثم إن الوزير عليًّا بحمد الله تعالىٰ لم يتغير اعتقاده فيَّ، وأرسل إليَّ السلام من الروم، وقال لي قبل أن يسافر لما أرسل لي القصص التي أرموها في الديوان: أن أعلم أن العالم له أعداء، والصالح له أعداء، والباشاه مثلي له أعداء، وكلام الأعداء لا ينبغي لأحد قبوله، لأنه أشد من قول الأعداء، لأن قولهم كالرواية وقبوله كالإجازة.

فافهم واحمل يا أخي أعداءك علىٰ المحامل الحسنة حسب طاقتك ولو متفعلًا، حتىٰ يحصل لك الإدمان والتمرين، وتقوىٰ كما قوي أهل الله تعالىٰ، وتصير تكتفي بعلم الله فيك، ولا تطلب لك مقامًا عند أحد من الخلق دونه، وإلا فمن لازمك التعلُّق كالعوام.

وقد سمعتُ أخي الشيخ أبا الفضل رحمه الله يقول: قد حصل لي خير كبير بسماع كلام الأعداء فيَّ وعدم مقابلتي لهم، وصار عندي من القوة ما لو قام أهل مصر كلُّهم عليَّ ما تغيرتُ. فقلتُ له: إنه مقام نفيس! فقال: ولا هو بذاك! فإنه مقام إبليس. فقلتُ له: كيف؟ فقال: لأن جميع أهل الأرض من الجن والإنس يلعنه ولا يتغير منه شعرة. فقلتُ له: إن رسول الله ﷺ أظهر التأثر من أعدائه لما آذوه بمكة وكذَّبوه، وصار يعرض نفسه علىٰ القبائل، ليؤوه وينصروه فلا يجيبه أحد. فقال رضي الله عنه: إنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليقتدي به أصحابه في تحمل البلاء، وهو مشاهد لأفعال الله تعالىٰ غير واقف مع الأعداء، كما هو معلوم من مقامه الشريف. وإذا كان آحاد الأولياء يشاهدون مجاري الأقدار الإلهية

---

(١) بالأصلين: ليرسلانه. والصواب نحويًّا ما أثبتناه.

في الخلق شاؤوا أم أبوا ولا يقفون مع الخلق، فكيف بسيد الأنبياء والمرسلين؟! ومعلوم عند العارفين أن أحدًا لا يتكدر من أمر إلا إن شهده من الخلق، ولو أنه شهده من الحق تعالىٰ، ما تغيرت منه شعرة، وكيف يتغير من فعل الحكيم العليم علىٰ الكشف والشهود؟!

وقد سمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: حكم من يريد أن يكدِّر أحدًا من أهل الله بكلام يقوله فيه حكم ناموسة نفخت علىٰ جبل تريد إزالته بنفختها. انتهىٰ. وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ينبغي للفقير أن يحزن علىٰ موت أعدائه من حيثُ إنهم كانوا سببًا لحصول الأجر له، لا من حيثُ كونُهم عصوا الله تعالىٰ بذلك.

وقد مات مرة عدوٌّ لأخي أفضل الدين كان يؤذيه، فأظهر الحزن عليه وقال: ما أظنُّ أحدًا بقي يأتي بعده يحصل لنا علىٰ يديه الخير مثله. فقلتُ له: فأين مرارة الأذىٰ؟ فقال: ذهبت عني بحلاوة الثواب والتخلق بأخلاق الصالحين. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٣) ومما أجبتُ به عن الأعداء في الظاهر والأصدقاء في الباطن لما دسوا عليَّ في كتابي المسمَّىٰ بـ«البحر المورود في المواثيق والعهود» وغيره أمورًا تخالف ظاهر الكتاب والسنة، ثم سكبوها في الكتاب كأنهم المؤلِّف له، ثم أعطوها لجماعة داروا بها في جامع الأزهر وغيره، فما أظنُّ سلم من الوقوع في عرضي إلا القليل من العلماء وطلبتهم، كالشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ شهاب الدين ابن الشبلي[1]، والشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني، والشيخ نور الدين الطندتاي[2] نفعنا الله ببركاتهم، بأن الحامل لمن دسَّ في كتبي ما ذُكِرَ إنما هو شدة الحسد الذي قام عنده،

---

(١) أبو العباس أحمد بن شهاب الدين: محمد بن أحمد بن يونس المصري، المعروف: بابن الشبلي، الحنفي، المتوفىٰ: سنة ١٠٢١هـ. «كشف الظنون» (٢/ ١٢٢٤).

(٢) نور الدين علي الطندتاي الشافعي، الشيخ العالم الراسخ المحقق، أخذ الفقه عن شهاب الدين الرملي، وأخذ الطريق عن الشيخ محمد الشناوي، والشيخ علي المرصفي، وكان يأمر إخوانه بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وأجيز بالإفتاء والتدريس، فأفتىٰ ودرس في حياة شيوخه «الكواكب السائرة» (٣/ ١٧٥)

فلم يطق حمله، فتنفس بما فعله من الدس، ليخفف عن نفسه الهم والغم الذي كان عنده مني، مع اعتقاده فيَّ الصلاح وأنني لا أتغير من ذلك، وأنني قد سامحتُ جميع من جنى عليَّ من هذه الأمة المحمدية، إكرامًا لمن هم من عبيده سبحانه وتعالى، ثم لمن هم من أمته ﷺ، لكونهم إخوتي في الإسلام، ثم لكونهم كانوا سببًا في حصول الأجر لي، كما أخبرني من دار بالكراريس وقال: إنما كنتُ محدوقًا[1] عنيك من جماعة؛ فعذرتُه في ذلك وسامحتُه دنيا وأخرى.

وأما من وقع في عرضي من العلماء فحملتُه على نصرة جنب الشريعة، وسلامة الباطن في تصديق أعدائي وأن مثلهم لا يكذب، ومن نصر الشريعة وجبت محبتُه، لاسيما المؤلِّف من أمثالنا، فربما زل القلم بشيء يخالف الشرع لعدم عصمتنا، فمن وقع في عرضي معذور، وإن كان الواجب عليه التثبت، لكن الإنسان خُلِقَ من عجل. ولو أن هؤلاء الذين وقعوا في عرضي كانوا أرسلوا لي تلك المواضع المدسوسة لينظروا جوابي فيها ثم يثبتوا عليه مقتضاه، لكان خيرًا لهم، فإنه لا يخلو أن أقول: هذا ليس بكلامي، فلا يجوز نسبته إليَّ؛ وإما أن أقول: هو كلامي، فعليَّ الخروج من عهدته إما بتأويله بعبارة أخرى، وإما أن أضرب عليه في الكتاب وأشكر فضلهم، لكن لم يتفق لهم ذلك، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فالله تعالى يسامحهم ويعفو عنا وعنهم في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٤) ومما أجبتُ به عمن أشاع عني في مصر أنني ادعيتُ الاجتهاد المطلق، ولاث به أصحابي وقالوا: إنما فعل ذلك ليشنَّ عليَّ الغارة، كما وقع للشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله، بأنه قد يكون يعتقد فيَّ أنني مجتهد مطلق، وقصد بذلك إظهار مقامي للناس، **إذ الاجتهاد المطلق أمر سهل بين القوم**، لأنهم يصلون في العلم إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وذلك أعلى مما ينتهي إليه الاجتهاد، لأن غايته الظن، ولذلك

---

(١) أي مُسلَّطًا عليك.

يقع للمجتهد الرجوع عن قوله، ولو أنه كان علىٰ يقين من[1] موافقته للشريعة ما رجع، إذ اليقين لا يقبل ذلك، لكونه يخبر بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها.

ولا يجوز حمل هذا الشخص الذي أشاع عني الاجتهاد علىٰ أنه قصد بذلك شنَّ الغارة عليَّ، لأني لم أسمع ذلك منه، ولا ثبت ذلك عندي ببينة عادلة. ولو أنه ثبت بإخباره لي أو ببينة حملتُه علىٰ أنه قصد بذلك اختباري، ليظهر للناس فضيلتي بالصبر عليه، وعدم المقابلة له بالسوء.

واعلم يا أخي أن **الاجتهاد سارٍ في علماء الشريعة في كلِّ عصر باستنباطهم الأحكام من كلام بعضهم بعضًا، كما استنبط الأئمة المجتهدين الأحكام من الكتاب والسنة،** [وإن تفاوتوا في قوة الاستنباط وضعفه، فإن فاتح الباب في الاستنباط من الكتاب والسنة] بمثابة فاتح الكنز أو حافر البئر في أرض معطشة، والمستنبط من أقوال العلماء كحافر القناة ومالي الخوابي[2] من البئر ليشرب الناس منها.

وقد رأيتُ بخط الجلال السيوطي رحمه الله ما نصُّه: الاجتهاد المطلق علىٰ نوعين: مجتهد مطلق غير منتسب كالأئمة الأربعة، ومجتهد مطلق منتسب متقيِّد بقواعد إمامه لا يخرج عنها وهو كثير، كأصحاب الوجوه في المذهب المخرِّجين لها من أقوال الإمام. فأما غير المنتسب فلم يَدَعِه بعد الأئمة الأربعة غير الإمام محمد بن جرير الطبري[3] ولم تسلم العلماء له. وأما المنتسب فهو الذي ادعيتُه كغيري من العلماء الماضين، كابن

(١) بالأصلين: مما. والصواب ما أثبتناه.

(٢) جمع خابية، وهي وعاء كبير من الطين يوضع فيه الماء.

(٣) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري الإمام، العلم، المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمل طبرستان. مولده: سنة ٢٢٤ هـ. قال الذهبي: كان ثقة صادقًا حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه، والإجماع والاختلاف، علامةً في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة، وغير ذلك. له مصنفات منها: «جامع البيان في تفسير القرآن» و«اختلاف الفقهاء» و«المسترشد» في علوم الدين. توفي: ٣١٠هـ. انظر: «السير» (١٤/ ٢٦٧) و«طبقات الشافعية الكبرىٰ» للسبكي (٣/ ١٢٠).

سريج والقفَّال[1] وابن دقيق العيد والشيخ تقي الدين السبكي في مذهبنا وأضرابهم. وأما في مذهب غيرنا، فكابن القاسم وأشهب وأصبغ في مذهب الإمام مالك. وكالإمام محمد بن الحسن وأبي يوسف في مذهب الإمام أبي حنيفة. وكابن بطة[2] في الحنابلة. هذا كلام الجلال السيوطي بحروفه. فاعلم ذلك، واحمل أقرانك وغيرهم على المحامل الحسنة، ولا تدخل في مناقشتهم في الباطن. فإن ذلك إلى الله. والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٥) ومما أجبتُ به عن الذين أشاعوا عني الاجتهاد المطلق في بلاد الروم، وأن أتباعي الآن في مصر نحو ثلاثين ألفًا، وأرسلوا ذلك في قصة إلى مولانا السلطان سليمان ابن عثمان، وأرشوا محمدًا الغزولي بمال وكسوة حتى حملها لباب السلطان وطلع بها أول يوم فقُبِلَت، ورسم السلطان بمرسوم لنائب مصر وللقاضي ليحرروا أمري، فعلم بذلك ولد شيخنا الشيخ أبو اللطف[3]، فدار على الوزراء والأكابر بإصطنبول، وأخبرهم بأن ذلك افتراء عليَّ، وأنني أمشي في مصر بلا حمار، وليس معي أحد من الأتباع، فرجعوا عن المرسوم، وحصل اللطف بأبي اللطف، ثم إن الغزولي طلع يأخذ المرسوم، فوجد الأمر قد تغير، فطلب المرسوم فضربوه وأخرجوه من الديوان، فكتب على باب حد السرايا: «الشيخ عبد الوهاب الشعراني سلطان البرين والبحرين» بقلم غليظ، لينظر ذلك السلطان، فيسأل عني ويوقع فيَّ فعلًا كما يفعل مع الخارجي الذي خرج على السلطان،

---

(١) الإمام الكبير شيخ الشافعية القفال أبو بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله المروزي الخراساني. حذق في صنعة الأقفال حتى عمل قفلًا بآلاته ومفتاحه، زنة أربع حبات، فلما صار ابن ثلاثين سنة، آنس من نفسه ذكاء مفرطًا، وأحب الفقه، فأقبل على قراءته حتى برع فيه، وصار يُضرب به المثل، وهو صاحب طريقة الخراسانيين في الفقه. كثير الآثار في مذهب الإمام الشافعي. له «شرح فروع محمد بن الحداد المصري» في الفقه. توفي: ٤١٧هـ. انظر: «السير» (١٧/ ٤٠٥) و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٥/ ٥٣).

(٢) ابن بطة عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان أبو عبد الله العكبري، عالم بالحديث فقيه من كبار الحنابلة، لزم بيته أربعين سنة فصنف كتبه وهي تزيد على مئة، وكان مستجاب الدعوة، توفي سنة ٣٨٧ هـ. «السير» (١٦/ ٥٢٩) و«الأعلام» (٤/ ١٩٧).

(٣) بالأصلين: الطيب. والصواب ما أثبتناه.

فرآها شخص من أصحابي هناك فمسحها من الحائط، وقد لاث جميع أصحابي بمن كتب القصة وبمن حملها إلىٰ الباب.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بمن فعل ذلك، لاحتمال أن يكون قصده أن يشهرني بالعلم في الروم، وكتب اسمي علىٰ باب السلطان ليسأل عني، فإذا سأل عني أخبره الناس الواردون من مصر عني، فأحسن إليَّ. ولا يجوز حملهم علىٰ أنهم قصدوا إضراري بذلك، لأننا لم نسمعهم يقولون ذلك، وقد مدح الله تعالىٰ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨] وهذا من ذلك. ومصداق أنهم قصدوا بذلك الخير نفوذ همتهم بأن صار السلطان يعرفني ويرسل لي السلام، ويطلب مني الدعاء، وكذلك الوزير رستم والوزير علي. وقد أرسل لي السلطان سليمان ابن السلطان سليم بساطًا أصلي عليه وأدعو له كلما صليتُ عليه، وها هو الآن عندي، أرسله مع جاويش في سابع شهر رمضان سنة أربع وستين وتسعمئة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٦) ومما أجبتُ به عن الذين تكدروا وحصل عندهم غمٌّ وهمٌّ لما أرسل لي السلطان البساط دون جميع أقراني في مصر، بأن غمهم ليس هو لأجل رفعتي عليهم عند السلطان، وإنما غمُّهم وهمُّهم علىٰ نفوسهم التي لم تتقيد بالعمل بعلمها، ولا جالست الحقَّ جلَّ وعلا في ذكره حتىٰ رفعها علىٰ من لم يذكره، كما يتبادر ذلك إلىٰ الأذهان من أن سبب الشهرة إنما إظهار الأعمال الصالحة، حتىٰ إنه بلغني أن شخصًا من أقراني شاور أصحابه أن يجلس مثلي في زاوية، ويجعل له مجلس ذكر، وقال: ليس عبد الوهاب أشطر مني! ويُحتمَل أن غم هؤلاء وهمهم إنما هو علىٰ نفوسهم التي لم تتواضع لله تعالىٰ، فلو تواضعت لرفعها فوق مقدارها.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: رفعة العبد علىٰ قدر تواضعه، فمن رأىٰ نفسه دون ألف نفس مثلًا، رفعه الله عليهم، أو مئة ألف ألف نفس رفعه الله عليهم، وهكذا. ومن هنا كان رسول الله ﷺ **أعلىٰ الخلق كلِّهم مقامًا، لأنه بلغ في التواضع حدًّا لم يشاركه فيه أحد.** انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٧) ومما أجبتُ به عن الذي قام عليَّ وأخرجني من السكن من كذا كذا زاوية، ولاث به أصحابي وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فيه، وصاروا يدعون عليه، بأنه ربما سلطه الله تعالىٰ عليَّ لحكمة، وجعله غافلًا عما يترتب علىٰ إخراجي من الأذىٰ، لا يكاد يخطر ذلك علىٰ باله ولا يقصده. ومن الحكمة أن يصير لي أسوة بالأنبياء والأولياء، فقد صح إخراجهم من أوطانهم المرة أو المرتين أو المرات، فأخرجوا نوحًا وإبراهيم وهودًا وصالحًا وشعيبًا، وهكذا إلىٰ نبيِّنا محمد ﷺ، فأخرجوه من مكة إلىٰ المدينة، ثم أرادوا إخراجه من المدينة، فمنعهم الله تعالىٰ عنه، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إلا قليلا﴾ [الأحزاب: ٦٠] فبعضهم مات وبعضهم خرج. وكذلك وقع للأولياء الإخراج من أوطانهم، كالشيخ أبي يزيد، ومحمد بن الفضل البلخي، والإمام البخاري، والإمام الشافعي، والشيخ أحمد بن الرفاعي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي، وسيدي إسماعيل الإنبابي، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، والشيخ أبي العباس المرسي، والشيخ محمد بن عنان، وخلائق لا يحصون ذكرناهم في «الطبقات» لكن منهم من مات غريبًا، ومنهم من رجع إلىٰ وطنه بعد غيبة طويلة، فربما قصد هذا الذي أخرجـ[ـني] أن يكون لي بهؤلاء الأنبياء والأولياء أسوة، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد بذلك محض الأذىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ؒ يقول: قد يكون خروج بعض الأنبياء والأولياء من أوطانهم تشريعًا لضعفاء قومهم، وإلا فاعتقادنا في أكابر الأولياء فضلًا عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن أحدهم يحتمل من البلاء والأذىٰ أضعاف ما وقع من قومه، لأن الأكابر لا يشهدون فاعلًا في الوجود إلا الله، فكيف يصح لهم التكدر مما يفعله الحق معهم بلا واسطة أو بواسطة خلقه؟! كما يعرف ذلك من سلك الطريق ذوقًا، فلو أن النبي صبر ولم يهاجر من وطنه الذي أوذي فيه، لكان ذلك عذابًا علىٰ أمته لعدم صبرهم وعدم من يقتدون به في المهاجرة، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ

ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهذه المسألة منها.

فاعلم ذلك، واحمل الذين آذوك وأخرجوك من وطنك على المحامل الحسنة، ثم سامحهم بحقِّك في الدنيا والآخرة. وأما حق الله فذلك إليه إن شاء يؤاخذهم من حيثُ تعديهم حدوده بإيذائك، وإن شاء يغفر لهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٨) ومما أجبتُ به عن الأعداء والحاسدين إذا نقصوني في المجالس، ورموني بما لم أعلم أنه وقع مني، ولاث بهم أصحابي وقالوا لهم: هذا حرام عليكم، بأنهم ما نقصوني إلا بعد شهودهم رفعة مقامي[1] عند الناس، ولولا ذلك ما أتعبوا نفوسهم في تنقيصي، فكأنهم بتنقيصي يعترفون لي بأني أعلىٰ مقامًا منهم، فلا التفات إلىٰ تنقيصهم لي بعد ذلك، لأنه كاللغو. وأما رميهم لي بما لم أعلم أنني وقعتُ فيه، فلهم بذلك الفضل عليَّ من حيثُ إنهم حذروني مما لعله يقع مني في المستقبل، لأتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في محوه وفي تدبيره لي إن كان لا يُمحَىٰ. وما رأينا أحدًا يشتغل بتنقيص أحد من الأسافل الذين لا يعبأ الناس بهم أبدًا، إنما يشتغلون بمن علا عليهم من أقرانهم وقدَّمه الناس عليهم في العلم والعمل، والزهد والورع والعفة ونحو ذلك، فيريدون بتنقيصه أن يتبعهم الناس علىٰ ذلك، ويصير مثلهم لا يلتفت أحد إليه.

وفي كلام الجلال السيوطي رحمه الله: لم تزل الأشراف تُبْتلَىٰ بالأطراف، فكان آدم مبتلىٰ بإبليس، وكان نوح مبتلىٰ بقومه، وكان الخليل مبتلىٰ بالنمرود، وكان داود مبتلىٰ بجالوت، وكان موسىٰ مبتلىٰ بفرعون، وهكذا. انتهىٰ. ونحن نقول: لم تزل الأطراف تبتلىٰ بالأشراف! فكلُّ من نصحنا في ديننا وقوَّم عوجنا فهو من الأشراف، وقد ابتُلي بنا، فجزاه الله تعالىٰ عنا خيرًا. آمين اللهم آمين.

ويُحتمَل أنهم قصدوا بتنقيصي في المجالس فتح باب رؤيتي نقائصي حين رأوني وقد غرقتُ في العُجْب، وصرتُ أستحسن أحوالي لا أرىٰ فيها نقصًا، كما يفعله الأشياخ مع

---

(١) بالأصلين: مقامهم. والصواب ما أثبتناه.

مريديهم، فلو تأمل الواحد منا لوجد عدوه أنفع من صديقه، لأن عدوه يظهر له معايبه، وصديقه يحسن له أحواله في عينه، ويمدحه في المجالس حتىٰ يكاد يهلك من العُجْب.

وكان الشيخ أبو العباس المرسىٰ يقول إذا بلغه أن أحدًا رماه ببهتان: اللهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كان كاذبًا فاغفر له. وكان يقول: عدو تصل به إلىٰ تنظيف باطنك خير لك من صديق يقطعك عن طريق مولاك. وكان يقول: الصديق يصيبك في قلبك، والعدو يصيبك في ظاهرك، فمراعاة من يصيبك في باطنك أولىٰ، لأنه محل نظر الحق تعالىٰ إليك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واشكر فضل أعدائك وفضل أصدقائك بحسب نفعهم لك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥٩) ومما أجبتُ به عن الذي أرسل معه الباشاه مثلًا مالًا ليفرقه علىٰ العلماء العاملين والزهاد والصالحين، ليدعوا الله تعالىٰ بطلوع النيل لما توقف عن الزيادة، ففرَّق علىٰ العلماء والفقراء الذين في البلد وتعداني مع شهرتي، ولاث به جماعتي وقالوا: هذا يكره شيخنا، ولو أنه كان يحبه لأعطاه قبل غيره.

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهذا، بل يجب حمله علىٰ أنه عظمني أن يعطيني شيئًا من مال الولاة، لكونه لا يسلم من دخول الشبهة فيه غالبًا، لا سيما في وقت الحاجة إلىٰ دعائي، فخاف من توقف دعائي عن[1] الإجابة إن قبلتُ ذلك المال وأكلتُ منه أو لبستُ، فحرمني منه تبعًا لما سبق في علم الله من عدم قسمته لي، فلا يجوز اللوث به، بل يجب مدحه علىٰ ذلك، وما حرمني دون غيري إلا لشدة محبته لي، وخوفه علىٰ ديني، ورجائه قبول دعائي، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي عمل نقيبًا علىٰ العلماء في وليمة عملها الباشاه، وصار يُدخِل إلىٰ الطعام من شاء، ويمنع من شاء ولو كان أفضل من الداخل، فلما دخلتُ مع الناس منعني وقال لي: ارجع يا فلان! والناس يسمعون فأبيتُ، فدفعني أرماني علىٰ

---

(١) بالأصلين: عنىٰ.

ظهري، فلاث به الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز، بأنه قد يكون الباشاه عيَّن له أسماء جماعة معينين من العلماء والصالحين، فقال: ادعهم إلىٰ الوليمة، ولم يتعرض لغيرهم، فدعا من عيَّن الباشاه فقط، ومعلوم من قواعد الشريعة أن لصاحب الوليمة أن يمنع من دخل بغير دعوة، لحديث: «من حضر الدعوة بغير دعوة، دخل مُغِيرًا وخرج سارقًا»[1].

ويُحتمَل أن يكون هذا الذي منعني قصد بمنعي من الدخول ودخول أقراني اختبار خلقي حين رآني أدعي محاسن الأخلاق، فقال: أمنعه حتىٰ أريه خلقه، ليستغفر الله إن كان سيئًا، ويشكره إن كان حسنًا، كما يفعل الأشياخ مع مريديهم إذا ادعوا مقامًا من المقامات التي لم يتمكنوا فيها، فإني إذا انشرحتُ لمنعي من الدخول وسررتُ بذلك، تبين لي وللحاضرين حسن خلقي. وإن عبس وجهي وظهرت الكآبة عليه، فكأني أنادي علىٰ نفسي بأني لم أشم من حسن الخلق رائحة، فشخص يظهر لي الدعاوىٰ الكاذبة لأتوب منها كيف يجوز لي التأثير منه مع دعواي الصلاح؟! ويُحتمَل أن يكون إنما منعني من الأكل شفقةً عليَّ، لاعتقاده فيَّ الصلاح دون من مكَّنهم من الدخول للأكل، كما تقدم في حرماني من الفلوس.

وقد أجبتُ بهذا الجواب عن ولد شيخي أبي اللطف حين عمل نقيبًا علىٰ العلماء والصالحين بإذن الباشاه إسكندر في سنة أربع وستين وتسعمئة حين توقف النيل، فأدخل المقياس جماعة، وجعل في جامع الحوش جماعة، فأراد شخص ممن هو في الجامع أن يدخل المقياس ليأكل من سماط الباشاه كالعلماء والصالحين فمنعه، فلا تسأل يا أخي ما عملوه فيه، وكان الأولىٰ عدم التكدر منه، لأن الباشاه أقامه نقيبًا عرِّيفًا، فاعلم ذلك، ورِضْ نفسك يا أخي علىٰ يد شيخ صادق، ليخرجك من الرعونات، وإلا تعب سرُّك، ووقعت في أعراض كل من خالف هواك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٧٤١) من حديث عبد الله بن عمر: «قال رسول الله ﷺ: من دعي فلم يجب فقد عصىٰ الله ورسوله، ومن دخل علىٰ غير دعوة دخل سارقًا وخرج مغيرًا» والبيهقي في «السنن» (١٣٤١٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٢٨).

(١٣٦١) ومما أجبتُ به عمَّن اعترض عليَّ في جوابي عن العلماء والصالحين الذين أرسلهم [الوالي] ليقرؤوا القرآن في المقياس، ويسألوا الله تعالىٰ في زيادة النيل حين توقف، وعمل لهم طعامًا وفرَّق عليهم دراهم، ولاث بهم أقرانهم الذين لم يحضروا ولم يأخذوا فلوسًا وقالوا: لا ينبغي الجواب عن هؤلاء، بل الذي ينبغي الحط عليهم زجرًا لهم وتنفيرًا.

والجواب: أن اعتراضهم علينا سائغ في الأصل، لكن لا ينبغي لأحد التشديد في الإنكار إلا بعد ثبوت أن ذلك الطعام أو المال حرام، فقد يكون الولاة حسبوا حساب الدعاء، وتحرزوا في طعامهم عن الحرام والشبهات كما يفعلون أيام رمضان، فإنه بلغني أن جميع الولاة يتحرزون في هذا الشهر من أكل الحرام والشبهات، ويضعون عندهم ما يعتقدون حله، والدعاءُ بطلوع النيل أهمُّ عندهم من فطر أحدهم في رمضان علىٰ شبهة، لا سيما الباشاه والدفتردار، فإن المال المتعلق بهم لجهة السلطان ينقص إذا قل ري البلاد.

وقد يحضر مع العلماء والصالحين المذكورين أحد من أصحاب النوبة كما هو الغالب، فيكتفي الناس بدعائه، ويصير حضور غيره أُنسًا بلا درك. وقد يكون في حملة القرآن من أعطاه الله إجابة الدعاء ولو أكل من الشبهات تعظيمًا له من حيث كونه عرشًا لاستواء القرآن علىٰ قلبه الحاوي لعلم الأولين والآخرين، فمثل هذا يساعد أصحاب النوبة في طلوع النيل.

وكان سيدي علي الخواص ممن قلَّده الأولياءُ السؤالَ في طلوع النيل ونزوله وختام الزرع حتىٰ يدخل الحب المخازن ويخرجوه ثاني سنة للزراعة، وكنا نذهب معه أول جمعة تأتي من ليلة نزول النقطة[1]، فكان يلبس مرقعة ويتعمم بعمامة كلِّها شراميط ويمشي حافيًا، فإذا وصلنا إلىٰ ساحل مصر، أمرنا بالوضوء، وألا يخرج أحدنا بولًا ولا غائطًا ولا ريحًا في الروضة، تعظيمًا للمقياس ويقول: إنه محل نظر الله بالخير إلىٰ أهل مصر وقراها.

---

(١) نزول النقطة: كان نهر النيل يبدأ فيضانه في أوائل الموسم الصيفي، وتحديدًا ليلة الحادي عشر من يونيو، وفيه يُبدأ عادةً بقياس قاع النيل. ثم يبدأ النيل بالتوحم وهو في عرف المصريين تلون مائه بالخضرة المسببة عن أصول النباتات المائية.

وكان يصحب معه الذهب والفضة و الخُشْكَنَان[1] المحشوَّ سُكَّرًا، ويصير يفرق علىٰ كلِّ من لقيه إلىٰ أن يدخل المقياس، وكان يعطي المعداوي دينارًا، وخادم المقياس دينارًا، ويكسح ما في سلم المقياس من الطين ويضعه في قاعة المقياس، ويحمل معه شيئًا إلىٰ حارته وبيته، فيفرِّق في خوابي البيوت والمساجد من أجل البركة. وكان يأمرنا بكشف الرأس إذا نزل إلىٰ آخر درجة من سلم المقياس ودعا، ويقول: قولوا معي: آمين. ويبكي حتىٰ تبتل مرقعته من دموعه. انتهىٰ.

فربما حضر مع العلماء والصالحين الذين حضروا في المقياس يسألون الله طلوع النيل أحد من أصحاب النوبة وأجابه الله، فلم يحتج أحد إلىٰ دعاء، فليتنبه العلماء والصالحون لمثل ذلك، وليحذروا من ظنهم أن النيل ما طلع إلا بدعائهم، إلا إن كان ذلك علىٰ سبيل حسن الظن بالله وصِلَاته، لأن شروط مثل ذلك عزيز وجودها في أمثالنا، لأن الله لا يجيب دعاء أحد وفي ظاهره أو باطنه صفة يكرهها الله تعالىٰ، فأي شخص منا يدعي سلامته من مثل ذلك وكلُّ واحد يرىٰ نفسه أكبر من أخيه وأن دعاءه أقرب إلىٰ الإجابة من دعاء أخيه؟! ولو لم يكن إلا محبة أحدنا للدنيا التي هي رأس كلِّ خطيئة، فكيف يُجاب دعاء من تضمخ بمادة كلِّ خطيئة علىٰ وجه الأرض في ظاهره وباطنه؟! فعُلِمَ أن اعتراض المنكرين عليَّ وعلىٰ الذين أكلوا من طعام الولاة صحيح، وأن الأولىٰ بنا الدعاء بالزيادة مع عدم الأكل من طعام الولاة وأخذه، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٢) ومما أجبتُ به عن الأعداء والحاسدين الذين رموني بالرياء والعُجْب، والنفاق والحسد والكبر، ونحو ذلك من كبائر الباطن، ولاث أصحابي بهم وكذَّبوهم وبرؤوني من ذلك.

والجواب: أن الأعداء المذكورين لا يجوز تكذيبهم، فإن هذه الكبائر الباطنة كائنة في كلِّ شخص ككمون النار في الحجر والشجر، ماعدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم، ولله الحمد الذين لم يرموني بالمعاصي الظاهرة التي هي مشهودة للخاص

(١) الخُشْكَنَان: خبزةٌ تُصنع من خالص دقيق الحِنْطة، وتملأ بالسُّكَّر واللَّوز أو الفستق وتُقْلَىٰ.

والعام، فكانت الفضيحة تعظم بذلك، فكان من لطفهم بنا أن رمونا بأمور غير محسوسة قد تخفىٰ علىٰ كثير من الناس.

ولا يجوز حملهم علىٰ أنهم رمونا بالمعاصي الباطنة إلا لعجزهم عن إثبات المعاصي الظاهرة، فخافوا أن يكذِّبهم الناس، فعدلوا إلىٰ الباطنة ورمونا بها لعلها تُقبَل منهم، لأن ذلك سوء ظن بالأعداء، من باب ظلم دون ظلم، فجزىٰ الله تعالىٰ الأعداء خيرًا في رميهم لي بالمعاصي الباطنة التي ربما تخفىٰ عليَّ وعلىٰ أصحابي، لآخذ حذري منها وأفتش نفسي، فإن نفس أصحابي الذين يدعون محبتي لا يكاد أحد منهم يحذِّرني من شيء من ذلك، فاعلم [ذلك]، واحمل أعداءك علىٰ المحامل الحسنة، فإنك تربح الأجر بسببهم، وإياك وحملهم علىٰ المحامل السيئة المتبادِرة إلىٰ الأذهان تخسر مع الخاسرين، وقد يكون سوء ظنك بهم أعظم من سوء ظنهم بك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٣) ومما أجبتُ به عن الذين تسلطوا عليَّ بالأذىٰ ليلًا ونهارًا من غير ذنب ظاهر، ولاث بهم أصحابي وقالوا: ما لكم ولهذا الرجل؟! وما رآه أحد منكم يشرب مُسْكِرًا، ولا يخرج الصلاة عن وقتها، ولا يزني، ولا يذكر أقرانه بسوء عند الولاة، ولا يزاحم علىٰ الدنيا، ما ذاك إلا محض تعصب عليه بالباطل!

والجواب: أنه لا يجوز اللوث بهم، لأن تعصبهم عليَّ ليس هو بالباطل، وإنما هو بحقٍّ، وذلك أن الله تعالىٰ لا يسلِّط خلقه علىٰ أحد إلا إن كان خارجًا عن حضرته، وما دام يرىٰ العبد نفسه بين يدي ربه عزَّ وجلَّ فلا يسلط عليه أحدًا، فاللوم عليَّ الذي خرجتُ من حضرة ربي إلىٰ شهوات نفسي حتىٰ تسلَّط عليَّ هؤلاء بالأذىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: إن إبليس وجميع من تسلَّط بالأذىٰ علىٰ أحد لا يتسلط إلا [علىٰ] من غفل عن ربه عزَّ وجلَّ، حتىٰ إن بعض رجال رسالة القشيري كثرت عليه الغفلة، فسأل الله أن يسلِّط عليه أحدًا يذكره بربه، فأرسل الله له أسدًا، فكان كلما غفل يعضه ويجرح بدنه. انتهىٰ. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا

تسلَّط الناس عليك بالأذىٰ، فاشتغل بالله وأكثر من ذكره، يردهم عنك، وإياك أن تشتغل بمقابلتهم، فيدوم الضرر عليك، وتُمزِّق دينَ نفسك. وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: إذا بالغ أحد في إيذائك، فاعلم أنك بالغتَ في الغفلة عن ربك، فأكثر من ذكره، أو اسكت وراقب ربك بقلبك، فإن خصمك يرجع عنك. فقلتُ له: وهل هذا خصمي؟ فقال: إنما سميتُه خصمًا تبعًا للعرف، وإلا فهو من أعزِّ الأصدقاء. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واشكر من آذاك ولا تذمه، فإنه نفعك بالأجر وذكَّرك بربك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٤) ومما أجبتُ به عمن ربيتُه وأحسنتُ إليه بما جعله الحقُّ تعالىٰ علىٰ يدي، فلما كبر صار يؤذيني ويبالغ في إيذائي حسب الطاقة، وينقل عني لمن يحبني أنني أكرهه ولا أكلمه إلا رياءً ومَلَقًا[1]، ولاث به أصحابي وقالوا له: لو كنتَ ولد حلال لفعلت معه مثل ما فعل معك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لأن المعاملة حقيقة في الإحسان إليه إنما هي طلب لمرضاة الله عزَّ وجلَّ، وكلما كافأني علىٰ إحساني إليه بالشكر والمدح في المجالس والخدمة ربما يحصل منه المكافأة وزيادة، وربما طلبت النفس منه ذلك، فذهبتُ إلىٰ الآخرة صِفْر اليدين من الأجر، فمقابلته لي بالإساءة أعظم في الإحسان من إحساني إليه؛ لأن غاية إحساني إليه إنما هو بأمور الدنيا التي ربما دخل فيها الدخيل، فلا يصل إلىٰ الآخرة منها شيء، بخلاف المسيء فإنه يحسن إليَّ بخالص أعماله يوم القيامة يوم فقري وفاقتي، كما ورد في الحديث من أخذ المظلوم حسنات الظالم، فإن لم يكن للظالم حسنات أو كانت وسبقه الناس إلىٰ أخذها، أخذ من سيئات المظلوم ووضعت علىٰ ظهر الظالم، ثم قُذِفَ به في النار[2].

---

(١) المَلَق: الود عكس ما يضمره القلب.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا

وهذا خلق غريب في الناس في هذا الزمان، فقل من ينتبه له. وقد منَّ الله تعالىٰ عليَّ بالتخلق به، فأنا أجد في نفسي المحبة لمن أساء عليَّ أكثر ممن أحسن إليَّ بأمور الدنيا. وصاحب هذا المشهد لا يرىٰ إلا محسنًا له من سائر الخلق، فمن لم يحسن إليه بماله، أحسن إليه بترك منته عليه؛ ومن لم يحسن إليه بالإحسان العادي وبالغ في الإساءة عليه، فهو محسن إليه بصالح أعماله، ولا يخلو أحد من هذه الثلاثة أمور.

وقد سمعتُ سيدي عليًا الخواص يقول: ينبغي لكلِّ من أطلق لسانه في أعراض الناس أن يكثِر من الأعمال الصالحة، حتىٰ لا يأخذه نوم في ليل أو نهار، ليعطي أخصامه منها يوم القيامة، وهيهات أن يتحصل منها شيء يعطيه لهم يوم القيامة! لعدم سلامة أعمالنا من الآفات التي تحبطها. وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول لشخص من المقاريض كان يقرأ كلَّ يوم ختمة ويقول: نحن بحمد الله بخير: لو علمتَ يا ولدي تحكُّم المظلومين يوم القيامة في أعمال الظالمين، ما طمعت نفسُك بشيء من أعمالك!

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تطلب لك مقامًا عند الخلق إن أردتَ أن تتخلق بهذا الخلق الشريف، فإن من لازم من يطلب المقام عند الخلق أن يتكدر ممن يقرض في عرضه ويذكره بالنقائص بين الناس، لأنه كلما يبني له مقامًا بأعماله يهدمه هذا المقراض، بخلاف من يطلب المقام عند الله، فإنه يعظم مقامه عند الله بكلام الناس في عرضه، وكلما هدم مقامه بغيبة أو معصية بناه بكلام الناس فيه ورآه قَوِيَ بذلك، فالحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٥) ومما أجبتُ به عن الجندي الذي لمستُه في زحمة لمسةً خفيفةً، فضربني بالدبوس ضربًا شديدًا، فلاث به أصحابي وقالوا: هذا ما يستحق هذا الضرب العظيم! ولكن أيش تقول الناس في الناس الكفرة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الجندي، فربما كانت اللمسة وقعت علىٰ خُرَاج

من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضىٰ ما عليه أُخذ من خطاياهم فُطرحت عليه، ثم طرح في النار» والترمذي (٢٤١٨).

في بدنه له مدة طويلة لا ينام الليل من شدَّة وجعه، فلما أخذ في الختام لمستِّه، فانسلخ ثانيًا، فكاد أن يخرج عقله، فضربني وهو في غير عقل. وقد يكون هذا الضرب الذي وقع من هذا الجندي ليس هو بسبب اللمسة، وإنما هو بسبب ذنب تقدَّم مني يستحق مثل ذلك الضرب، فإن الله حكيم عليم، ولا يظلم الناس شيئًا، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]. **ومن تأمل بعين الحقيقة، وجد الناس الذين يؤذونه كزبانية جهنم علىٰ حدٍّ سواء**، من حيثُ ما آخذوه إلا بذنوبه وإن كان علىٰ المكلَّف الإثم في الدنيا دون الزبانية.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: كثيرًا ما يتهم الناس أحدًا يفعل فاحشة مثلًا بامرأة معيَّنة، وتقوم البينة بذلك زورًا، وهو يعلم أنه لم يجتمع بتلك المرأة قط، فيصير الناس يقولون: مسكين هذا! اتهموه هذه الليلة بفلانة وأقاموا عليه البينة بأنهم رأوه في بيتها! والحال أنه الليلة بات عندنا من المغرب إلىٰ طلوع الشمس! فيظنون أن تلك المعاقبة بسبب تلك التهمة، والحال إنما هي بسبب أمر محقق وقع فيه قبل ذلك، وظنَّ أن الله تعالىٰ غفر له.

فاعلم ذلك يا أخي، وأقم[1] العذر لمن ضربك حتىٰ كسر عظمك وسلخ جلدك، وتفكر في ذنوبك السالفة، تجد نفسك تستحق ما وقع لها، لاسيما إن كنتَ تدعي الصلاح، فإن الصالحين تُشدَّد عليهم العقوبةُ دون غيرهم، فربما أكل الإنسان سبعين عصا بسبب تناوله شهوة مباحة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٦) ومما أجبتُ به عن الفقهاء الذين ينكرون عليَّ ويبالغون في الحط عليَّ، ولاث أصحابي بهم وقالوا: لم يزل الإنكار والوقفة بين العلماء والصوفية، ولو سلَّم الفقهاء لهم لكان أولىٰ، كما سلَّم موسىٰ عليه الصلاة والسلام للخضر.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالعلماء إذا أنكروا علىٰ أحد من الفقراء، لأنهم ما

(١) بالأصلين: افهم. والصواب ما أثبتناه.

أنكروا عليه إلا لكونه يفعل أو يقول ما لا يوافق ظاهر الشريعة، فاللوم عليه هو الذي يفعل ما يخالف ظاهر الشريعة لا على الفقهاء الذين أنكروا عليه، لأنهم ما فعلوا إلا ما أوجبه الله تعالى عليهم من حيث كونُ الشارع ﷺ أمنهم على شريعته، وأمرهم بقتال كلِّ من خالفها وأن يحموها من كلِّ مبتدع، فيا سعادة من كان مقيمًا بمثل جامع الأزهر أو مخالطًا لأهله! فإن أحدهم لا يكاد يقر أحدًا على ما يخالف ظاهر الشريعة أبدًا، فهم جند من جنود الله لكلِّ من انعوج عن طريق الاستقامة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تتكدروا من الفقهاء إذا أنكروا عليكم، لأنهم مجتهدون في الفهم، والواجب عليهم إنكار كل ما خالف عندهم ظاهر الشريعة، فكيف تطلبون منهم ترك فعل ما أوجبه الله تعالى عليهم؟! انتهى. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يتكدر من إنكار الفقهاء عليه إلا جاهل أحمق [و] من أتى بأعماله طالبًا للمقام عند الخلق بغير طريق شرعي. انتهى. وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: الواجب على الفقير أن يشكر فضل الفقيه إذا أنكر عليه، لأنه حماه من أن يُكتَب من الأئمة المضلِّين، فيكون عليه وزر كلِّ من تبعه على تلك البدعة مثلًا زيادةً على الوزر الحاصل له هو.

وكان سفيان الثوري إذا وقع منه شيء يخالف ظاهر ما كان عليه السلف الصالح ينادي بأعلى صوته بين أصحابه: لا أحد يتبعني على الشيء الفلاني، فإني خالفتُ فيه هدي السلف. وكان يقول: يجب على كلِّ من وقع في بدعة أن يحذِّر الناس من اتباعه فيها ويقول: أنا بريء ممن يتبعني عليها، ليخلص من تبعتها. انتهى. فاشكر يا أخي فضل كلِّ من أنكر عليك، لأنه قبَّح في عينك ذلك الفعل الذي ربما وقعت فيه أو تقع، لتأخذ حذرك منه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٧) ومما أجبتُ به عن الذين نقصوني عند الأمير الذي يعتقدني ويقبل شفاعتي وبالغوا في تنقيصي، ولاث أصحابي بهم وقالوا لهم: هذا حرام عليكم بإجماع المسلمين،

كيف يجوز لكم أن تجرحوا شخصًا يشفع في المكروبين والمظلوم عند الولاة؟! إنما كان الواجب عليكم ذكره بالكمالات عند الأمير.

والجواب: أن ما فعله هؤلاء أفضل مما طلبه أصحابي لي، فإن من شأن النفس محبة القرب من الأمراء لذاتهم في حجة الشفاعة عندهم في المظلومين. ومن لازم اعتقادهم فيه وتقبيل رجله وقبول شفاعاته الركونُ إليهم ضرورة مخلوطًا بحظ نفس، فيُعَرِض هذا نفسه لأن تمسه النار يوم القيامة، فجزاء هؤلاء الذين نقصوني عند ذلك الأمير الذي يعتقدني الشكر لا الذم، ويجب تقديمهم في المحبة علىٰ من رباني عند ذلك الأمير وحسَّن اعتقاده فيَّ، لأنهم نفَّروا الأمير مني حتىٰ صار لا يشتهي أن يراني، ولولا ذلك لما نفرت نفسي منه، ولا زال مني الركون إليه. فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه، ودر مع الحق حيث دار، ولا توافق حظ نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٨) ومما أجبتُ به عن جاري إذا تخاصمت زوجته مع زوجتي وتعدىٰ أذاه إليَّ، مع كونه من العلماء والصالحين عند الناس، ولاث الناس به وقالوا له: كلام زوجتك إنما هو مع جارتها، فأيش دخلك أنت في ذلك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بالجار، بل اللوم عليَّ وعلىٰ زوجتي التي لم تعمل علىٰ مرضاة زوجته، مع ادعائنا أننا أعلىٰ منه مقامًا، وأعرف منه بطريق السياسة وبإكرام الجار. ولولا أن الشارع علم منا كثرة الإخلال بحق الجار ما أمرنا بالصبر علىٰ إيذائه لنا، ولعل النكتة في ذلك كثرة اللقاء وعدم البر والمقاسمة لكلِّ شئ دخل بيننا من الهدايا وغيرها، فتحكي له زوجته ما يدخل لنا وما يقع منا، فيصغي إليها بحكم الطبع، ويصدقها في كلِّ ما تقوله، فلا يسع العاقل إلا مخالطة جاره ومسامحته. ولو أني كنتُ أفتقد جاري وأقاسمه في كلِّ شئ دخل داري لما وقع لي منه أذىٰ، بل كان هو يحارب من يؤذيني، فاللوم عليَّ لا عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦٩) ومما أجبتُ به عمَّن نفَّر أبناء الدنيا عني وحط فيَّ عندهم حتىٰ تركوا التردد

إليَّ، ولاث به أصحابي وقالوا له: أيش عمل لك صاحبنا حتىٰ تفعل معه هذا كلَّه؟!

والجواب: أن كلَّ من نفَّر أبناء الدنيا عن فقير لا يجوز لأحد اللوث به، بل يجب شكره وحمده علىٰ ذلك، فإنه لا فائدة في مجالسة هؤلاء إلا تضييع الزمان، [فربما أشغلوا مجالسهم بالدنيا](١) أو حرقوا في الناس من التجار والعلماء والفقراء والولاة وغيرهم، فلا يقوم المجالِس لهم إلا وقد تحمل من الأوزار أمثال الجبال، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا فيما صنع. وقد عدَّ العارفون من الأمور التي تقسي القلب رؤية المحبين للدنيا، وقالوا: إن النظر إليهم سهم مسموم.

وهذا الخُلق قليل من يتخلق به في هذا الزمان، بل ربما تخاصم الفقراء مع من ينفِّر أبناء الدنيا عنهم، لاسيما من كان حوله بر من الأغنياء ومشايخ العرب. ولا يتخلص فقير من كراهة من ينفِّر أبناء الدنيا عنه إلا بالزهد في الدنيا، بحيثُ يصير ينقبض للدنيا إذا دخلت عليه.

ثم إن نفَّر هذا الشخص كذلك أبناء الآخرة عني حتىٰ صاروا لا يجالسني أحد منهم، شكرتُه علىٰ ذلك أيضًا، لأن أبناء الآخرة مشغولون بالعبادة لا يتفرغون لي، واجتماعهم معي يعطلهم عن العبادة ويعطلني، مع غنىٰ كلِّ واحد منا عن صاحبه. فينبغي حمل هذا الشخص الذي ينفِّر عنا أبناء الدنيا وأبناء الآخرة علىٰ المحامل الحسنة، وأنه قصد لنا الخير ببعد الناس عنا، ولا يجوز حمله علىٰ أنه فعل ذلك بغضًا فينا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٠) ومما أجبتُ به عمَّن طلبتُ صحبته فأبىٰ وقال: أخاف أن يسرق طبعي من صفاتك النجسة، فلاث به أصحابي وقالوا: اعكس تُصِب؛ بأنه قد أصاب بعدم إجابتي إلىٰ صحبته، أخذًا بالاحتياط لي وله، **وما يفرح بكثرة الأصحاب إلا كلُّ سخيف العقل**، فإن من أقل حقوق الصاحب أن أحبَّ له ما أحبُّ لنفسي من المآكل والمشارب والملابس وغيرها، حتىٰ لو مالت نفسه إلىٰ امرأتي التي أحبُّها فمن حقِّه أن أطلقها له!

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

ومن حقِّ الصاحب أيضًا أن أوفِ عنه دَينه كلما حصل عليه دَين، ولا أحوجه لأن يطلب هو مني ذلك، ومن حقِّه أن لا أنام ولا أقرب من عيالي ولا أتهنىٰ بأكل ولا شرب إذا حصل له كرب حتىٰ يزول الكرب، ومن حقِّه أن أدخل عنه النار يوم القيامة إذا استحق دخولها، ثم لا أرىٰ لي فضلًا عليه إذا قمتُ بجميع حقوقه، فأيُّ فقير يدعي الوفاء بما قلناه من أهل النصف الثاني من القرن العاشر، فجزىٰ الله تعالىٰ من لم يصحبنا خيرًا! فإنه أراح سرَّنا من التعب والوقوع في الخيانة في الصحبة. وربما كان فينا أخلاق ردية فسرق طبعه منها، كما هو الغالب في أمثالنا، فكان وزر ذلك علينا، فالحمد لله رب العالمين.

(١٣٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات لي ولد عزيز، أو نزل بي هم أو كرب، وسلَّم الناس عليَّ وعزوني، ولا يسأل هو عني، فلاث به أصحابي وقالوا: بناقص صحبة هذا الذي قلبه فارغ منك[1]!

والجواب: أنه يجب حمل هذا العالم أو الشيخ علىٰ ظنِّه أننا لا نعتب عليه في مثل ذلك، وأن ما نزل بنا نقدر علىٰ تحمل أضعافه. وقد وقع للفضيل بن عياض مثل ذلك يوم مات ولده عليٌّ، فعزاه الناس إلا واحد من أصحابه، فقالوا له في ذلك، فقالوا: إننا إذا وثقنا بمحبة أحد لنا لا يضرُّنا وقوع مثل ذلك منه. انتهىٰ.

ويُحتمَل أنه من شدة اهتمامه بأمرنا غمَّه الحزن مثلنا، فصار يحتاج إلىٰ من يعزيه، لشدة ما عنده من الرقة والشفقة علينا. وربما كان صاحبنا المذكور له عذر باطن لا يقدر علىٰ إفشائه لنا، وربما كان خرقته رفيعة وعزم شخص من الأراذل علىٰ شكواه من أحد من الولاة ليفتشوا علىٰ ما بيده من الأوقاف وهو خائف من ذلك، فاحمل يا أخي إخوانك علىٰ المحامل الحسنة حسب الطاقة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٢) ومما أجبتُ به عن صاحبي إذا نزل بي غمٌّ أو همٌّ كأن رميتُ بعمل الزَّغَل[2]

---

(١) بالأصلين: مني.

(٢) الزَّغَلُ: الغِشُّ، ولعل المراد به هنا السحر أو ما شابه.

مثلًا، وسألتُه أن يذهب معي إلىٰ بيت الوالي فأبىٰ ولم يلتفت إليَّ بوجه من الوجوه، فلاث به أصحابي وقالوا: رحم الله الفقراء الماضين الذين كان أحدهم يفدي صاحبه بنفسه.

والجواب: أنه قد يكون ممن هو مُرْصَد لتحمل هموم الناس سرًّا، وهو يكتم ذلك عن الناس، وكثرت عليه الهموم ذلك اليوم حتىٰ أحس بأن بدنه ذائب، كالذي شرب رطلًا من السم، ثم جئتُ أنا الآخر له، فنظر فلم يجد نفسه يقدر علىٰ زيادة، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ويقع لي ذلك كثيرًا فلا يجيء آخر النهار إلا وبدني ذائب، فربما جاءتني امرأة تشكو من زوجها أو من ضرتها، فلا أقدر أصغىٰ إلىٰ قولها، فتقول لي: ما بقي أحد يحمل همَّ أحد! فاعلم ذلك، واحمل إخوانك علىٰ المحامل الحسنة لاسيما الفقراء الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٣) ومما أجبتُ به عمَّن عرض لي بأنه يأخذ عليَّ العهد بالتوبة من كلِّ معصية من مشايخ الأحمدية والرفاعية وغيرهم، ولاث به أصحابي وقالوا له: أنت غالط في نفسك! مثل سيدي الشيخ يحتاج إلىٰ أن يأخذ عليه العهد مثلك؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، بل الواجب شكره، لأنه ذكرني بالتوبة من المعاصي، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وقد بلغنا أن جماعةً من رعاة البهائم لقوا سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني، فظنوا أنه نصراني، لكون عمامته كان فيها شراميط زرق، فقالوا له: قل: أشهد أن لا إله إلا الله. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ فركبوه حمارًا وكسوه عمامة وقميصًا، وأطلقوا أصواتهم بالذكر معه حتىٰ طلعوا به بلدهم، فعرفه الناس وأخذوا يزجرون الصبيان عما فعلوه، فقال لهم سيدي عبد العزيز: ما فعلوا معي إلا خيرًا! جددوا عليَّ الإسلام وكسوني وأركبوني وأسمعوني ذكر الله. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، ولا ترَ نفسك تصلح تلميذًا لأحد من مشايخ الخرق المذكورة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٤) ومما أجبتُ به عن الذين يصدقون فيَّ ما يقوله الحسدة والأعداء، ويقولون: ليس ذلك ببعيد عن فلان لعدم عصمته؛ فلاث بهم أصحابي، فقالوا[1]: الوقف يثبت بالإشاعة، وقد أشيع ذلك عن فلان.

والجواب: أنه ينبغي حمل هؤلاء على سلامة الباطن واعتقادهم أن أحدًا لا يكذب، فحكوا ذلك عني وهم غافلون عن حكم ذلك في الشرع، كما يقع فيه كثير من الفقراء الساذجين، فإذا وجدتَ يا أخي أحدًا من هؤلاء، فإياك والمبادرة إلى الاعتراض عليه في تصديقه لما يسمعه في حقِّ الناس إلا بعد أن تعرفه بما يترتب على ذلك من الإثم. وقد رأيتُ من الفقراء من يسمع شيئًا، فيصير كل من دخل يقول له: ما دريت أيش جرى لفلان؟! ويظهر الحزن عليه، والحال أن تلك الحكاية كذب كما أخبرني بذلك من كذب عليه، فامتلأت البلد بذلك مع أنه لا حقيقة له.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من صمم على كلام سمعه وقال: إن الناس لا يشيعون شيئًا إلا وله صحة؛ فقولوا له: أتلتزم معنا أن كلَّ شيء قاله أعداؤك فيك يكون حقًّا؟ فإذا قال: لا؛ فقولوا له: وكذلك الحكم في غيرك، قد يكون ما أشاعوه عنه كذبًا. فإن قال: ما يقوله الناس عني كذب، وما قالوه عن فلان صحيح؛ قلنا له: هذه دعوى لا دليل عليها، وحينئذٍ يسكت ولا يجد جوابًا.

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تتكدر ممن لا يستبعد عليك الوقوع في أكبر الكبائر، فإنه مشى على قواعد الشريعة، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، واحفظ لسانك في حق الناس، ولا تصدِق فيهم ما يقوله الأعداء في حقِّهم، فإن جميع أعمالك الصالحة عندك لا تفي بكلمة واحدة أشعتَها عن إنسان إذا شحَّ عليك يوم القيامة ولم يسامحك، وإذا رأيتَ العيب بعينك فاستره، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٥) ومما أجبتُ به عمَّن قال لي: يا حمار يا شيطان؛ ولاث به أصحابي وقالوا

---

(١) أي الذين صدقوا إشاعة الأعداء.

له: كيف تقول مثل ذلك لحملة القرآن وطلبة العلم؟!

والجواب: أنه ربما أراد بذلك ما قاله الإمام الشافعي ... فإنه كان يقول: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان». وكم أغضبني ناس فلم أغضب لثخانة جلدي، وكم استُرضِيتُ عمَّن جنىٰ عليَّ فلم أرضَ. ومعلوم أن من كمال فعل الرجل أن يغضب إذا استُغضِب إظهارًا لأن كلام أخيه قد أثر فيه، ثم إذا استرضاه رضي وسامح أخاه بما وقع منه في حقِّه. وهذا دأب الفقير مادام سالكًا، فإذا كمل سلوكه كان له ميزان آخر خلاف هذا، فلا يغضب إذا استُغضِب. كما حُكي أن شخصًا خيَّاطًا طلب أن يُغضِب الإمامَ الشافعيَّ، فعمل له الكم الأيسر كعين الخرج[1]، والكم الآخر ضيقًا جدًّا، فأول ما رآه الإمام قال: عملتَ حسنًا، الكم الضيق أخف علىٰ الكاتب، والكم الواسع يضع فيه الكتب.

قال بعضهم: والتحقيق أن من شأن البشر أنه يغضب ممن أغضبه، ولكنه يكظم الغيظ ويتحمل الأذىٰ من الخلق، طلبًا لمرضات الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، واحمل من سمَّاك حمارًا أو شيطانًا علىٰ المحامل الحسنة، كأن يريد بالحمار من يتحمل الأثقال من صاحبه، وبالشيطان من بعُد عن[2] حضرة الله تعالىٰ ولو في ساعة من ليلة أو نهار، لأن الشيطان مشتق من الشَّطَن وهو البُعْد، فوصفك بالاحتمال، ونبهك علىٰ عدم البعد عن حضرة ربك، فجزاه الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٦) ومما أجبتُ به عمَّن وقعتُ في بلية وسألتُه أن يأخذ بيدي فيها، فلم يلتفت إليَّ، ولاث به أصحابي وقالوا له: ياما ساعدك سيدي الشيخ ورد عنك أخصامك!

والجواب: أنه ربما يكون له عذر باطن، أو خاف أن يحصل له بمساعدته لي ضرر لا يطيقه. وكان سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من أدرك منكم النصف الثاني من القرن

(١) الخُرْجُ: وِعاءٌ من شعَرٍ أو جلدٍ ذو عِدْلَيْن، ويوضعُ علىٰ ظهرِ الدابَّةِ لوضع الأمتِعة فيه، فتكون عينه واسعة.

(٢) بالأصلين: من.

العاشر، فلا يعتب أحدًا علىٰ عدم إحسانه إليه، أو عدم مساعدته في البلاء الذي نزل عليه، فإن القلوب تشتغل عن بعضها بعضًا بالبلاء النازل عليها، فلا يصير أحد له وجهة إلىٰ غيره، ومن كلَّف أحدًا أن يشاركه في بلائه، فقد كلَّفه شططًا، والأمر في زيادة إلىٰ قيام الساعة، حتىٰ إن بعض الناس رأىٰ شخصًا قد تدلىٰ صرمه من دبره وهو يجره علىٰ الأرض وهو في غاية التألم، فقال له: بالله عليك أعطني هذا الذي تدلىٰ لأطعمه لقطتي، فإنها جيعانة! وقد صار غالب الناس الآن حكمهم كصاحب هذه القطة قلبه فارغ من الألم الذي فيه صاحب الصرم، كما يُعلَم من فحوىٰ كلامه، فاعرف زمانك يا أخي، وأقم المعاذير للناس، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٧) ومما أجبتُ به عن الذين يقولون: إن أعمال هؤلاء المشايخ الذين برزوا في هذا الزمان كعبد الوهاب وفلان وفلان في حكم الفسقة، ولو تأمل الناس الذين يعتقدونهم في أعمالهم، لوجدوها كأعمال من لا يؤمن بيوم الحساب؛ ولاث أصحابي وغيرهم بهم وقالوا: إذا كان هؤلاء المشايخ أعمالهم كأعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، فمن بقي يؤمن بيوم الحساب؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث علىٰ هؤلاء وتشبيههم أعمالنا بأعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، فإن ذلك حق وصدق، فإن شرط من يؤمن بيوم الحساب أن يتعطل منه الملائكة الذين يكتبون السيئات، فلا يصير كاتب الشمال يجد شيئًا يكتبه من حين بلغ العبد إلىٰ أن يموت، ومتىٰ كتب شيئًا من السيئات، فصاحبها كمن لا يؤمن بيوم الحساب حين ارتكبها، فإنه لو آمن بيوم الحساب ما وقع فيما يُسخِط ربَّه عزَّ وجلَّ ويدخله الجحيم.

وقد قلتُ يومًا للأخ العزيز الحاج علي الفرارجي: لا يكمل العبد حتىٰ لا يجد كاتب الشمال شيئًا يكتبه طول عمره. فقال: أما أنا فكاتب اليمين متعطل معي دائمًا لا يجد شيئًا يكتبه! فأعجبني صدقه ونطقه بمثل ذلك من غير تأمل. فوالله إن بعض الناس اليوم ليس معه سوىٰ الإيمان باللسان! وليتأمل لو أوقد أحد من الولاة لعبد نارًا أو أججها، ثم زيَّن

له امرأة جميلة وقال له: أزنِ بهذه لأحرقك بهذه النار، لا يجد عنده داعية ولو مكث يأمره بالزنا ألف عام، لكون النار مشهودة له، وكذلك صاحب الإيمان الكامل بيوم الحساب لا يجد عنده داعية لمخالفةِ أبدًا، لكون الجزاء بالعقوبة، ومن شرط الإيمان الكامل عند المحققين أن يكون العذاب الذي وعد الله به من عصاه كالحاضر على حدٍّ سواء، ومتى رجح العبد العذاب الحاضر في الوقوع على العذاب الذي وعده الله به، فإيمانه كلا إيمان.

وقس على ذلك يا أخي المأمورات الشرعية التي يتركها العبد لو أنه شهد الجزاء المرتب على تركها أو الثواب المترتب على فعلها يقينًا، ما ترك شيئًا منها ولكان يفعلها. وليتأمل تارك الزكاة مثلًا لو أجج الولاة له نارًا وقالوا له: لا تخرج زكاتك لنصفحها لك صفائح ونكويك، لا يفعل إلا إذا أُكرِه على ذلك بما هو أشد من الكي بالصفائح. ولو أن يهوديًا جلس بشكارة ذهب مثلًا وقال: من أخرج زكاته من المسلمين أعطيتُه بكلٍّ نصف دينارًا ذهبًا، وصار يدفع للناس ذلك ويضاعف لهم بحسب اختياره كيف يزدحم الناس عليه يخرجون زكاتهم، ليأخذوا أضعافها، وقد وعد الله تعالى العبد بالمضاعفة إذا أخرج زكاته أو تصدق تطوعًا، فلم يؤمن أحد بذلك إلا باللسان، وذلك لا يسعد به العبد في الآخرة.

ومن شك في قولي هذا وادعى كمال الإيمان، امتحناه بأن نأتيه بالفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والغرباء الذين مرضوا والمديونين المحبوسين ونحوهم، ونقول له: أخرج مالك على هؤلاء، ويعوضك الله تعالى خيرًا؛ فإن أخرج ماله بعزم وانشراح صدر وإظهار سرور، فهو كامل الإيمان بيوم الحساب؛ وإن انقبض خاطره وامتنع، فهو ناقص الإيمان بيوم الحساب. وهذه ميزان تطيش على الذر يظهر بها حال العبد عند الله يوم القيامة من هذه الدار.

وقد كان الحسن البصري سيد التابعين مع علمه وورعه واجتهاده في العبادة ليلًا ونهارًا يقول: والله لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلتُ له: صدقتَ لا تكفر عن يمينك. ولذلك كان مالك بن دينار يقول: [لو حلف حالف أن أعمالنا أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب؛ لقلنا له: صدقت ولا تكفر عن

يمينك][1] وكان الفضيل بن عياض يقول: كيف يدعي أحدنا أن أعماله أعمال من يؤمن بيوم الحساب، وجميع أعماله تجره إلىٰ النار. انتهىٰ.

فقد بان لك أن من قال: أعمال عبد الوهاب أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب صدق وحق، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فاعلم ذلك، وإذا نقصك أحد فلا تبادر إلىٰ تكذيبه، بل تربص وفتش نفسك، فلعلك تجده صادقًا، فتأخذ في التوبة والاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٨) ومما أجبتُ به عمَّن كذبني في دعواي أنني سامحتُ جميع من جنىٰ عليَّ في مال أو عِرْض أو بدن من هذه الأمة المحمدية دنيا وأخرىٰ لغير علة ثواب وغيره، ولا أطالب أحدًا منهم بحقٍّ في الدار إكرامًا لمن هم عبيده عزَّ وجلَّ، ثم لمن هم من أمته ﷺ، ولو أنني أتيتُ يوم القيامة صفر اليدين من جميع الحسنات ماعدا الشهادتين لا أرجع عن مسامحتي لهم، ولاث بهم أصحابي وقالوا: هذا أمر ممكن، فكيف يسوغ لكم تكذيب مدعيه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بمن كذبني في ذلك، فإنه مقام عزيز الوجود منَّ الله تعالىٰ به عليَّ وأنا طائف بالكعبة في سنة سبع وأربعين وتسعمئة، وذلك أني ألهمتُ هذا الدعاء: «اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم علىٰ سيِّدنا محمد وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين، وأن تفرغ عليَّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمل به الأذىٰ من جميع الأنام، ولا أؤاخذ أحدًا منهم بحقٍّ في الدارين» فسمعتُ الهاتف من ناحية الميزاب يقول: قد أعطيناك ذلك. ثم ألهمتُ: «اللهم أفرغ عليَّ من الأخلاق المحمدية ما أتجمل به بين يديك في الدنيا والآخرة» فعلَّق الهاتف ذلك علىٰ شرط أرجو الله حصوله قبل أن أموت إن شاء الله تعالىٰ، فالمكذِّب لي في دعواي لهذا الخلق معذور، وذلك لأنه فتش في نفسه فلم يجد نفسه تقدر علىٰ التخلق به فأنكره، فذوقه صحيح، وحكمه بأنه ذلك لا يقع من مثلي غير صحيح.

ولما دس الأعداء في كتبي ما دسوا من العقائد الزائفة وأشاعوها عني في مصر

---

(١) سقط بالأصل، وقد استكملناه من قول سيدنا مالك كما ذكره الإمام الشعراني في بعض الأجوبة بهذا الكتاب.

وقُرَاها والحجاز وغيره، سامحتُ الكلَّ فيما وقعوا فيه من عرضي. وسامحتُ جميع من صدَّقهم علىٰ ذلك، وإن لم أكن أعلم بهم فالله يعلمهم. فقال لي بعض الإخوان: كنتَ صبرتَ للدار الآخرة حتىٰ تنظر أمرك فيها، فربما احتجتَ إلىٰ الأخذ من حسناتهم في نظير ما وقعوا في عِرْضِكَ. فقلتُ له: أنا أستحيي من الله أن أرىٰ حقًا علىٰ أحد من عبيده في الدنيا والآخرة، وأستحيي من رسول الله ﷺ أن أشاحح أحدًا من أمته، أو أحوجه ﷺ إلىٰ أن يسألني في المسامحة لذلك الشخص يوم القيامة بعد أن أمرني بالعفو والصفح في شريعته في الدنيا، وكيف يصير ﷺ يحُلُّ بشفاعته العقد وأن أربطها بمشحتي؟! هذا غاية سوء الأدب مع رسول الله ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧٩) ومما أجبتُ به عمَّن ذكر بعض الناس اسمي بحضرته، فقال: اسكتوا لا توقعونا في غيبة أحد؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا دليل علىٰ أن الشيخ عندك فاسق حتىٰ تخاف من وقوعك في غيبته عمدًا[١] عند[٢] ذكر اسمه، ولأي شيء لم تقل لهم: أسمعونا ذكر فلان وصفاته الحسنة؟!

والجواب: أنه لا يجوز حمل هذا الشخص علىٰ أنه ما أمر الناس بالكف عن ذكر اسمي إلا لكونه قليل الاعتقاد فيَّ، فقد يقصد بذلك خوف وقوع غيره من أعدائي وحسادي فيَّ إذا ذكر أحد من أصحابي فضائلي عندهم بحسب اعتقادهم، فيحصل الإخلال بواجب حقي والإثم لأولئك الأعداء، وهذا أمر مطلوب شرعًا. وإذا اشتُهِر إنسان بخير كزهد وورع وتميز عن أقرانه، فقلَّ أن يسمع أحد منهم شيئًا من ذلك إلا ويأخذ في معارضته عادة، ومن شك فليجرب. والله إني لأعلم جماعة الآن لا يقدرون علىٰ أن يذكرني أحد بخير، فكان حكم من كف الناس عن ذكر اسمي حكم من كف الناس عن الترضي عن أبي بكر وعمر عند الروافض خوفًا أن يسبوهما، وكوصف الشيخ محييٰ الدين بن عربي وسيدي عمر بن الفارض عند من لا يعتقدهما، فإن وقع

---

(١) بالأصلين: عندنا. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: عن. والصواب ما أثبتناه.

سب من أحد الروافض أو غيرهم ممن لا يعتقد في أولياء الله، كان ذلك في صحيفة من ذكر اسمهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٠) ومما أجبتُ به عن الذي يقع في عِرْضي بعد موتي ما دام في قيد الحياة بعدي، ولاث به أصحابي بعد موتي وقالوا له: هذا حرام عليك! وهو أشد من غيبتك له في حال حياته؛ فإنك ترجو مسامحته لك في حال حياته، ولا هكذا الأمر بعد موته.

والجواب: أن هذا قد فعل معي خيرًا، فلا يجازيه عليه إلا الله تعالىٰ، لأنه كالذي خرج لي عن جميع حسناته التي عملها طول عمره، فكأني لم أمت ولم ينقطع لي عمل، فكيف أشاححه في الآخرة؟! بل الواجب عليَّ مسامحته ورد حسناته إليه، لأنه لا أحد أسوأ حالًا يوم القيامة من مثل هذا الشخص، لأن أخصامه الذين وقع في عرضهم لا يحصون، فكيف أزاحم الأخصام بلحيتي البيضاء وعمامتي الصوف ودعواي المروءة والفتوة، وأطلب حقي ممن استغرقت الحقوقُ أعمالَه، وصار الناس يحطون علىٰ ظهره من أوزارهم؟! نسأل الله أن يعافينا من مثل ذلك، فإنه أمر لا يليق فعله ممن شم رائحة طريق القوم.

وربما كان هذا الذي استغابني بعد موتي له حقٌّ عليَّ، بأن وقعت في عِرْضه في وقت أو أوقات، فمكَّنه الله تعالىٰ بعد موتي من أخذ حقِّه مني بنظير غيبتي فيه، مسارعةً لخلاصي منها قبل يوم القيامة، فلا تعوِقني عن دخول الجنة إن كنت من أهلها، وقد ورد أن العبد ليدخل قبره ومعه من السيئات أمثال الجبال، فلا يزال يخفف من سيئاته بوقوع الناس في عِرْضِه، حتىٰ يخرج من قبره وليس عليه سيئة[١]. انتهىٰ.

فاعذر يا أخي عدوك إذا استغابك بعد موتك، فيا طول ما قهرته وأكمدته! وأدخلت عليه الغمَّ والهمَّ بإقبال الولاة والأكابر عليك، وشدة اعتقادهم فيك دونه، فإن مثل هذا من باب قهر الرجال الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ[٢]، وقد كان يود أن يتنفس بغيبتك

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٦٩) من حديث أنس بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يقول:

في حياتك، فكان يخاف من أصحابك أن يبلغوك، فتؤذيه بأضعاف ما استغابك به، وربما كلمتَ الأمير الذي يعتقدك، فأخرج عنه وظائفه، فاشكر يا أخي فضل من استغابك بعد موتك، فإنه بمثابة من يزن عنك الدَّين الذي عليك في الآخرة بوقوعه في عِرضِك.

وسمعتُ أخي الشيخ عمر البحطيطي الأزهري يقول: ما أحد أكثر إحسانًا إليَّ ممن آذاني في عِرضي أو بدني أو مالي في دار الدنيا، فإنه يأتيني بذلك أحوج ما أكون إليه، فإن شئتُ أخذتُه، وإن شئتُ تركتُه، وما أحد أكثر أمانة من الآدمي. انتهىٰ. فافرح يا أخي بمن تظن به أنه يستغيبك بعد موتك علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فإنه يريد أن يجري لك عملًا صالحًا في صحيفتك بعد موتك، اقتداءً بمن سبقك من الصالحين الذين اعتنىٰ الله تعالىٰ بهم، وأجرىٰ لهم حسنات من شاء ممن أشقاهم في الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨١) ومما أجبتُ به عن الذين كذبوني لما سمعوا عني أنني أقول: لا أدخل الجنة إن كنت من أهلها حتىٰ أشفع في جميع من آذاني في دار الدنيا قبل أن أدخل، وقالوا: بلغ من كذبه ونصبه ودعاويه الباطلة أن يدعي الصلاح في الآخرة، وما كفاه دعواه ذلك في الدنيا!

والجواب: أن من كذبني في ذلك معذور، فإنه مقام عزيز في الفتوة لا يكون لكلِّ أحد من الفقراء، وقد قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[يونس: ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، ثم إن ذلك التكذيب لا يقع إلا من عدو عدا عن طريقي، فجهل حالي من شدة الدخان الذي علىٰ قلبه، فهو معذور في الباطن، وإن كان لسان الشريعة يقضي بذنبه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إن أصحاب الفتوة من القوم لا يقنعون بمسامحة من آذاهم في دار الدنيا، بل يبدؤون بالشفاعة فيه يوم القيامة إن لم يكن الحقُّ تعالىٰ قبل استغفارهم لمن آذاهم في دار الدنيا، وذلك كلُّه منهم مبادرة لإزالة خجل من

اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال» والترمذي (٣٤٨٤).

آذاهم يوم القيامة حين يرىٰ مقامهم عند الله عزَّ وجلَّ. وإنما لم يكونوا يبدؤون بالشفاعة فيمن أحسن إليهم، لأن هذا حسنته تشفع فيه، بخلاف من أساء.

[رؤيا الشيخ التلاوي شفاعة المصنف فيمن أذاه ودس في كتبه]

ولما سامحتُ أهل جامع الأزهر في وقوعهم في عِرْضي لما دس الحسدة في كتبي ما دسوا من الأمور التي تخالف ظاهر الشريعة، لينفروا الناس من مطالعتها، رأىٰ الشيخ محمد التلاوي المالكي أنني راكب علىٰ فرس عال بسرج مذهب، ولجام مكلل بالجوهر، وأهل جامع الأزهر كلهم بين يدي، ورأىٰ العالم الذي كان دس في كتبي ما دس ورماني بالزور ماشيًا أمامي وهو ماسك بلجامي يقود به، فقال الشيخ محمد: من هذا الراكب؟ فقالوا له: فلان. فقال: ومن هذا الذي يقود به؟ فقالوا: فلان. فقال: ما خبر هؤلاء؟ فقال: إن فلانًا الراكب ذاهب إلي بين يدي الله تعالىٰ يشفع فيمن وقع في عِرضِه. انتهىٰ. فسررتُ بذلك غاية السرور، فاعلم ذلك، وصدِّق الفقراء فيما يخبرون عن أنفسهم في المواجيد، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٢) ومما أجبتُ به عمَّن كذبني لما ادعيتُ أنني أحبُّ من أساء عليَّ وقطع عِرْضِي أكثر ممن أحسن إليَّ وأجاب عني، ولاث به أصحابي وقالوا له: إنك غير مؤمن بأحوال الأولياء، ونخشىٰ عليك المقت.

والجواب: أن هذا أمر لا يذوقه إلا من سلك الطريق وخرج من رعونات النفوس، وزهد في الدنيا وجاهها وفي المقام عند أهلها، وعامل الله تعالىٰ وحده، وهو مقام عزيز قلَّ من يتخلق به، فمن كذَّب من ادعاه فهو معذور، لعدم اجتماعه بمن تخلَّق به، وإلا فكون المحسن إلينا بأعماله الصالحة أرجح عند المؤمن ممن أحسن إليه بعَرَض من الدنيا واضح، وما بقي إلا قوة الإيمان بأحوال يوم القيامة لا غير، فمن قوي إيمانه رأىٰ المحسن إليه بأعماله الصالحة أرجح، ومن ضعف إيمانه فهو بالعكس، فاعلم ذلك، وسامح من كذَّبك في تخلقك بالمقامات العالية، فإنه معذور، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٣) ومما أجبتُ به عمَّن كذبني لما ادعيتُ تساوي الذهب والتراب عندي، ولاث به أصحابي، بأنه معذور في إنكاره ذلك؛ لعزة وجود من تحقق به من الفقراء اليوم، وإلا فهو مقام يصل إليه السالك أول دخوله في الطريق، ولولا ذلك ما صح له بناء في طريق الآخرة، فإياك يا أخي أن تقول: والله مشايخ الإسلام لم يدعوا ذلك؛ لأنا نقول: إن بداية السالك في طريق القوم أن يترك الدنيا بأسرها، ويزهد في كل شيء يشغله عن ربه عزَّ وجلَّ من ذهب وغيره، وإن لم يتسوَّ عنده الذهب والتراب على حد سواء، لا يصح له إخلاص في شيء من أعمال الآخرة، بل هي مخلوطة بالآفات، ولو لم يكن سوى طلب الأجر عليها، ولو لم يعطه الله شيئًا سخط. وقد نقل الفخر الرازي عن طائفة من المحققين أن من عبد الله لثواب أو خوفًا من عقاب لا تصح عبادته، وقال: إنه كالمكره عليها بالخوف إن تركها، ولولا ذلك ما عبد ربه. انتهى.

وقد تقدَّم في هذا الكتاب أن أمر العارف يرجع إلىٰ صورة بلا نية[1]، فيرجح الذهب علىٰ التراب، ويدور مع الحكمة التي جعلها الله تعالىٰ في الوجود، فتكون صورته صورة محب الدنيا، والحال أن قلبه فارغ من صحبتها، ويطلب الثواب علىٰ عبادته من باب فضل الله عليه، لا من باب الاستحقاق، إظهارًا للفاقة والحاجة، وهروبًا من صورة الغنىٰ إذا لم يطلب ثوابًا من الله تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ ما خلق الثواب إلا لعبده، لأنه غني عن العالمين، والعمل يطلب الثواب بذاته.

وسمعتُ شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: تساوي الذهب والتراب يقع للمريدين، ولولا ذلك ما قدر أحدهم يبني في الآخرة شيئًا. وما استبعد حصول ذلك للمريدين إلا من لم يسلك الطريق. انتهىٰ. فسلِّم يا أخي للفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٤) ومما أجبتُ به عمَّن سمعني وأنا أقول: ما استغابني أحد وصدَّقه الناس فيما قال إلا وتكدرتُ علىٰ دينه أكثر من تكدري علىٰ تقطيعه في عِرضِي؛ فكذبني وقال:

---

(١) الجواب (٨٣٢) وفيه تفصيل مفيد حول مشابهة الكامل لغيره في صورة الفعل مع الاختلاف في القصد.

هذا خروج عن طبع البشر، فإن غاية ما يصل الناس إليه إذا استغابهم أحد أن يسكتوا ولا يقابلوه بسوء، مع تكدرهم منه في الباطن وكظمهم الغيظ.

والجواب: أن من كذبني في ذلك معذور، لعدم ذوقه له، وحجابه بدعواه الكمال، فلما ادعىٰ ذلك ولم يجد ذلك في نفسه أنكره، وكأن لسان حاله يقول: إذا كنتُ أنا مع علمي وتقواي لا أقدر علىٰ التخلق بذلك، فكيف بمن هو دوني؟! ولو أن هذا المكذِّب سلك أوائل الطريق، لذاق ما قلناه. **ولم يزل الناس الذين لم يسلكوا طريق القوم يقولون عن كلِّ مقام لم يذوقوه: هذا مقام الخواص، مع أنه مقام أهل البداية**، وذلك كأن يعبد العبد ربه لا خوفًا من ناره ولا رجاءً لثوابه، فإنه مقام يصل إليه العبد في أول ذوقه لمقام توحيد الفعل لله تعالىٰ، فيُكشَف له عن كون الفاعل هو الله وحده، فيصير يشهد أفعاله كلها لغيره لا يطلب عليها ثوابًا، ولا يخاف علىٰ نفسه من عقاب، ويصير ذوقه يمنعه من شهود أن له مدخلًا في الفعل، فإن كان له شيخ رقاه إلىٰ شهود نسبة الفعل إلىٰ نفسه عملًا بالشريعة؛ وإن لم يكن له شيخ هلك مع الهالكين.

ومن فهم ما ذكرناه من توحيد الفعل لله وحده خلقًا وإيجادًا، لم يتكدر ممن استغابه، لأنه ناظر إلىٰ تقدير الله ذلك عليه، لا إلىٰ من قُدِّر ذلك علىٰ يديه. ومن غاب عن هذا المشهد من الفقراء، فله طريق آخر يسامح به من استغابه، وهو رحمته لمن جنىٰ عليه ولمن أعانه من حيثُ تعديهم حدود الله، فهم لا يحبون أن أحدًا يؤاخذ بسببهم في الدنيا والآخرة، لعلو همتهم وكثرة فتوتهم.

وقول المعترض: «إن هذا الخلق خارج عن طبع البشر» صحيح في حقِّ من لم يسلك طريق القوم، وأما السالك فيقلب ذلك إلىٰ وجه آخر من باب الإيثار علىٰ النفس ورؤية الشفقة علىٰ دين أخيه أكثر مما يشفق علىٰ دين نفسه، فاعلم ذلك. فإن أردتَ عدم الإنكار عليك إذا ادعيتَ شيئًا من المقامات العالية، فأعلم المنكِر بتخلق الفقراء بها، فإذا آمن بها ثم أنكَر، فأنكِر عليه وإلا فهو معذور، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٥) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ إذا أجبتُ عن نفسي وادعيتُ أن ذلك لغرض شرعي، ولاث بي وقال: لو كنتَ صالحًا لكنتَ رضيتَ بعلم الله تعالىٰ فيك، فإن العبد إذا أساء عليه أحد بين يدي حاكم عادل لا يجور في حكمه ليس له أن ينتصر لنفسه ولا يجيب عنها.

والجواب: أن إنكار هذا عليَّ سائغ، [فكان ينبغي ألا أجيب عن نفسي][1] ولو لغرض شرعي، فما كلُّ أمر جوَّزه الشرع يكون فعله أرجح، فقد يجوِّزه وغيره أحب إليه منه، كما تقدم تقريره في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] الآية[2]، فلو أني سكتُّ علىٰ من أساء عليَّ ولم أجب، لكان أحب إلىٰ الله تعالىٰ، وفي الحديث: «أن شخصًا قال في عِرض أبي بكر بحضرة رسول الله ﷺ وأبو بكر ساكت، فلما بالغ في عِرْض أبي بكر، شرع أبو بكر في الجواب عن نفسه، فنهض النبي ﷺ قائمًا وقال لأبي بكر: كان مَلَك يجيب عنك وأنت ساكت، فلما أجبت عن نفسك ذهب الملَك وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس في مكان حضره الشيطان»[3]. انتهىٰ. فعُلِمَ أن تكذيب هذا الشخص لي، ونفي مقام الصلاح عني لا ينبغي أن أتكدر منه، لخفاء الوجه الذي ادعيتُ أني أجيب لأجله عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٦) ومما أجبتُ به عن الذي جرحني في مجلس كان أهله يمدحونني فيه، ثم دخل هذا الشخص وأخذ يذمني فيه، وبلغ أصحابي ذلك فلاثوا به.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر التفسير في الجواب (١٢٤٣).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٨٩٦) من حديث أبي هريرة أنه قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان» وأحمد (٩٦٢٤) بنحوه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٢٤٢).

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشخص، فقد يريد بذلك النفع لي خوفًا عليَّ من الإعجاب بنفسي إذا بلغني مدحي في المحافل، كما هو الغالب في أمثالنا، فكان ذمه لي بعد مدحي مصلِحًا لي كالملح في الطعام، فاللائق بي مدحه لا ذمه ولا التكدر منه، فجزاه الله عني خيرًا. ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد بذلك تنقيصي بغضًا فيَّ، فإنه سوء ظن به، وإذا حصل النفع لي، فلا عليَّ من قصده إضراري، فاعلم ذلك يا أخي واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٧) ومما أجبتُ به عمَّن نسبني إلىٰ الرياء لما أقمتُ إنسانًا يجيب عني كلَّ من آذاني وقلتُ: أنا تابع في ذلك رسول الله ﷺ، فإنه ندب حسَّانًا يجيب عنه المشركين نصرةً للدين وللشارع، وقال: لا يجوز مثل ذلك لأمثالنا، إنما ذلك لمن أخلص لله في دعائه إلىٰ الله كالأنبياء والمحفوظين من الأولياء.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ من أنكر عليَّ ذلك، فإن مثلي لا يسلم من حظِّ النفس في دعائه، أقل ما هناك طلبه الأنس بكثرة أشكاله في المرتبة دون محض إقبالهم علىٰ الله تعالىٰ. ومن شك في قولي هذا من المدعين للإخلاص، فليعرض علىٰ نفسه ما لو برز شخص من أقرانه يدعو إلىٰ الله، فانقلب إليه جميع أصحابه، ولم يبقَ حوله منهم أحد، وصاروا يبالغون في الاعتقاد في الشيخ الجديد، ويحطون علىٰ الشيخ العتيق، فإن تكدر من الشيخ العتيق شعرة، فليعلم صدق من نسبه إلىٰ الرياء بنصب من يشافه عنه. فليحذر الذي عمل شيخًا في النصف الثاني من القرن العاشر من مثل ذلك، وليفتش نفسه، فربما كان يدعي أن رد ذلك الشخص عنه ليس هو لحظ نفس، وإنما ذلك لتحصل براءته عند المدعوين، فينقادوا له لا غير، والناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٨) ومما أجبتُ به عن شيخي إذا وقعت فيَّ مصيبة أو نزلت بيَّ محنة، فتوسلت به في دفعها، فلم يأخذ بيدي، ولم يلتفت إليَّ بوجه من الوجوه وأخذتُ علىٰ نفسي منه، بأنه لا ينبغي لي أن أعتب عليه في ذلك، فربما قصد بعدم مساعدتي في خلاصي من تلك

المحنة التمرين والإدمان علىٰ تحمل الشدائد الآتية في مستقبل الزمان. فإن البلايا في كثرة كلما تقارب الزمان، فلو أخذ بيدي في تلك المحنة حتىٰ خففها عني ثم نزلت بي محنة عقبها، لهدت أركاني لنزولها عليّ من غير إدمان سابق.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إياك أن تأخذ بيد صاحبك في كل شدة، بل اترك ذلك في بعض الأوقات، ليحصل له الإدمان علىٰ الشدائد المستقبلة، وعلىٰ تحمل شدائد الدار الآخرة، فمن تحمل عن صاحبه شدائده في الدنيا، فقد أساء عليه في صورة إحسانه إليه. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لولا نزول البلايا والمحن علىٰ الناس في الدنيا، لذابت عظامهم إذا شاهدوا أهوال يوم القيامة، لكونهم لم يتقدم لهم إدمان[1] علىٰ ذلك في دار الدنيا، ومن فرح هنا حزن هناك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨٩) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ تقريبي لصديقي الذي يجيب عني الأعداء والحاسدين، وجفائي لعدوي الذي ينقصني في المجالس أو عكسه، ولاث به أصحابي وقالوا: الشيخ أعرف منك بالأحوال، ولا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به لإنكاره عليَّ ما ذُكر، أما تقريبي لصديقي لأجل جوابه عني فهو هلاك لي، لأنه يسد بجوابه عني رؤية مساوئي، فكان الأولىٰ أخذ حذري منه. وأما إنكاره عليَّ جفائي لعدوي فلا ينبغي اللوث به كذلك، فإن في جفائي له سد باب رؤية نقائصي، حتىٰ لا أكاد أرىٰ في نفسي عيبًا، فأهلك ولا أشعر، فكان الأولىٰ بي القرب منه لا جفاءه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٠) ومما أجبتُ به عن الذي ينقل إليَّ أخبار الناس ونقائصهم، ولاث به أصحابي وقالوا: هذا لا يجوز لك تأتي إلىٰ الفقراء فتحملهم الإثم بذكر نقائص الناس.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوم عليه وحده من هذا الوجه فقط، بل اللوم عليَّ كذلك

---

(١) بالأصلين: أمان، والصواب ما أثبتناه.

الذي غفلتُ عن ربي، حتىٰ وجد الناقل لعيوب الناس عندي محلًّا لذلك، فلو كان محلي مطهَّرًا من القاذورات ما ساق الشيطان إليَّ هذا الشخص بقاذورات الناس. وهذا نظير ما سمعتُه من سيدي محمد الشربيني مرارًا[1] من قوله: اللهم اجعلني ممن تزهد فيه الدنيا، ولا تجعلني ممن يزهد فيها لعلة خفة الحساب مثلًا، أي لأن الدنيا لا تزهد في عبد إلا إذا لم ترَ لها محلًا تقيم عنده فيه، فيصير الأصحاب يسحبون الدنيا إليه، والدنيا تتأخر وتنفلت من يدهم من شدة معرفتها بنفرة قلبه منها.

فليحذر الفقير الساذج من إصغائه إلىٰ قول من ينقل إليه أحوال الناس التي يستحيي العبد أن يواجههم بها، فإن ذلك حرام بإجماع، وليزجر كلَّ من نقل إليه غيبة أحد، لئلا يعود إليه ثاني مرة، ويقول له: أما وجد إبليس أحدًا يرسله قاصدًا في هذه القاذورات غيرك؟! ولا أحد أخس في عينه مني؟!

وقد كان سيدي علي الخواص ﷺ إذا نقل إليه أحد عن عدوه كلامًا يقول له: اجلس، ثم يرسل إلىٰ عدوه ويقول: هذا نقل عنك أنك قلتَ كذا وكذا في حقِّي هل هو صحيح؟ فإن قال: لا، وجب تكذيب النمَّام وتصديق العدو، وإن قال: نعم قلتُ ذلك فيك؛ قال له: اللهم اغفر لك إن كنتَ كاذبًا، واغفر لي إن كان ما قلتَه عني صدق، ثم يأخذ الفقير من ذلك الناقل حذره حسب الطاقة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: يجب علىٰ الشيخ أن يحث الفقراء علىٰ ترك نقل النميمة في الزاوية، وإن كان لابد لهم من نقلها، فلينقلوها للشيخ ليبني علىٰ ذلك مقتضاه بحسن سياسة، وإلا خربت الزاوية، وأرمىٰ الشيطان بين الفقراء العداوة والبغضاء حتىٰ يرحلوا من الزاوية من شدة الكدر والنكد، ويحذرهم من نقل أحدهم النميمة، ومن قوله إذا قيل له: من أخبرك بها؟ قال: شخص لا ينبغي ذكره، فإن بذلك يركض الشيطان في الزاوية، وإنما نهىٰ الشرع عن نقل النميمة حيث حصل بها فساد. وأما إذا حصل بها صلاح فلا بأس بذكرها، وفي القرآن العظيم قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

(١) ذكر في «الوسطىٰ» أنه التقىٰ به مرةً واحدةً فقط.

لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] فافهم. ويكون على علم الفقراء أن الشيخ نائب الحق تعالى في مناقشة إخوانه ومحاسبتهم على كلٍّ ما يقع منهم، ليخف زمن وقوفهم للحساب يوم القيامة، ويدلهم على ما يكفر ذنوبهم في هذه الدار، ليدخل أحدهم قبره وهو قليل الذنوب من تبعات الخلائق وغير ذلك، فاعلم ذلك. ولا يفتك[1] إذا نقل أحد إليك تهمة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩١) ومما أجبتُ به عمَّن رآني تكدرتُ من كلام قيل فيَّ وقال: ليس لفلان قدم في طريق القوم، وما كنتُ أظنه في هذا الجهل العظيم بنفسه؛ ولاث به أصحابي وقالوا: إنما يتكدر الشيخ لغرض صحيح.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ إذا نفى مثلي من طريق القوم، فإن تلك طريق قد نبت فيها الشوك وأحدنا غارق في شهوة بطنه وفرجه وجاهه ومحبة الاعتقاد فيه ليلًا ونهارًا، فكيف يصح لمثله الخروج عن حظ نفسه إلى الأغراض الصحيحة؟! فيجب على أحدنا الرياضة على يد شيخ مرشد حتى يخرج عن رعونات نفسه، ويصير يتكدر لغرض صحيح. وليعلم الفقير أنه لو عبد الله تعالى حتى صار في رتبة القطب لابد أن الناس فيه قسمان: محب ومبغض، كما قال الإمام مالك رحمه الله لعبد الرحمن بن القاسم[2] لما اختفى أيام الفتنة: ما تقول الناس فيَّ؟ فقال له: يا أبا عبد الله، المحب لا يقول إلا خيرًا، والمبغض لا يخفى عليكم حاله. فقال الإمام مالك رحمه الله: ما زال الناس كذلك لهم محب ومبغض، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلِّها علينا بالذم. انتهى. فعُلِمَ أن من خفة عقل الشخص أن يطلب من الناس كلِّهم أن يحبوه، فإن ذلك لا يصح لأحد، ولو

---

(١) بالأصلين: لم يفتنك. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

(٢) عبد الرحمن بن القاسم العُتقي المصري، أبو عبد الله، ويعرف بابن القاسم، عالم الديار المصرية، كان ذا مال ودنيا فأنفقها في العلم، فقيه جمع بين الزهد والعلم، وتفقه بالإمام مالك، مولده ووفاته بمصر، له المدونة وهي من أجل كتب المالكية رواها عن الإمام مالك، توفي سنة ١٩١ هـ. «تاريخ الإسلام» (٤٤/ ١١٤٩)، «الأعلام» (٣/ ٣٢٣).

كان في فضل الإمام أبي بكر الصديق ﷺ. وقد أنشدني شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله:

اعمل لنفسك صالحًا لا تحتفل ... بظهور قيل في الأنام وقال

فالخلق لا يرجىٰ اجتماع قلوبهم ... لابد من مثن عليك وقالي

انتهىٰ، فاعلم ذلك، واعذر من كذَّبك في دعواك الإخلاص في المقامات العالية، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٢) ومما أجبتُ به عن الذي يفضل أقراني عليَّ ويقول عني: إن فلانًا لا يصلح أن يكون من طلبة فلان؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: اعكس تُصِب، بأنه لا ينبغي اللوث به، فإنه مجتهد في الترجيح، ليدل الناس علىٰ مقام الراجح ليقوم الناس بواجب حقِّه، وعلىٰ مقام المرجوح ليبادر إلىٰ الاشتغال بالعلم، ليصير الآخر راجحًا علىٰ غيره. ويُحتمَل أنه من كثرة محبته فيَّ جعلني مرجوحًا، خوفًا عليَّ من العُجْب في علمي وعملي، وأنا عنده في العلم أرجح من غيري، **والخمول نعمة وغالب النفوس تأباه.**

وقد تقدم أن السلف الصالح كان أحدهم يتحرز من مدح أخيه، خوفًا من نقص أجره في الآخرة إذا أحدق الناس عيونهم إليه وعظَّموه. وسمعتُ سيدي عليًّا البحيريَّ رحمه الله يقول: إذا فاضل أحد بينك وبين أحد من العلماء والصالحين، فقل: الحمد لله الذي رأىٰ مقامي قريبًا من مقام العلماء والصالحين حتىٰ فاضل بيني وبينهم، ولو أني كنتُ عنده في مرتبة العوام ما فاضل بيني وبين أحد منهم، واحذر أن تتكدر من ذلك، فإنه دليل علىٰ قلة الإخلاص في العلم. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٣) ومما أجبتُ به عن المنكرين عليَّ إذا عملتُ مولدًا أو عرسًا، ودعوتُ إليه العلماء والصالحين والأمراء والتجار والمباشرين، ولاثوا بي وقالوا: هذا كلُّه رياء وسمعة، بأنهم قد أصابوا في إنكارهم عليَّ، لتكليفي العلماء في الحضور، وربما كان أحدهم مشغولًا في تحرير مسائل في الشريعة يتعدىٰ نفعها إلىٰ المسلمين، فيتعوق عن ذلك بحضوره عندي. وربما كان الصالح في محل جمعية في خلوته مع ربِّه عزَّ وجلَّ،

فحصل له التفرقة بخروجه إلىٰ وليمتي. وربما كان الأمير مشغولًا بتدبير أمر المملكة الذي به نظام شمل العالم. وربما كان التاجر مشغولًا بأموره وتهيئة ما اشتراه منه الناس ليسلِّمه إليهم. وربما كان المباشر وراءه كتابة في الديوان أو مباشرة في وقف ودعاه المفتش إلىٰ عمل حسابه ذلك اليوم، فيحضر وقلبه مشغول. وربما طوَّل المقرئون أو المنشدون في ذلك المحفل، فصار أحدهم متقلقًا. ويخاف علىٰ كسر خاطر صاحب الوليمة إن خرج، خوفًا أن يقوم الناس ويتبعوه في الانصراف. وربما حصل له حصر بول أو غائط، فصار في غاية التشويش، فما لمثلي أن يدعو أحدًا من الأكابر إلىٰ وليمته أبدًا إلا بنية صالحة وأني لنا بها!

وسمعتُ سيدي عليًّا الخوَّاص ﷺ يقول: من النية الفاسدة أن يدعو الفقير الأكابر وغيرهم فخرًا ورياء، ويتكدر ممن يسمعه يقول: كان مولد الشيخ الفلاني أكثر جماعة من مولد فلان. وسمعتُه يقول: لا ينبغي لفقير أن يدعو أحدًا من العلماء وغيرهم إلىٰ وليمته إلا إن جعل لهم من أعماله الصالحة بقدر ما فاتهم بحضور مولده.

ونقل الحطَّابيُّ وغيره أن أكابر السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يكونوا يدعون أحدًا إلىٰ بيوتهم، وإنما كانوا يحملون الطعام إلىٰ المسجد ويبيحونه لكلِّ الناس، خوفًا من آفة التعيين، فاعلم ذلك، واشكر فضل من أنكر عليك دعاء الأكابر إلىٰ وليمتك، فإنه نصحك، لاسيما إن كان في الطعام شبهة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٤) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي دخل علىٰ عبد الله بن بغداد حين كان بيني وبينه عداوة من أجل تردد عدوه إليَّ، وقال له: أنا من عصبتك، وعبدُ الوهاب من صف عدوك؛ فلاث به أصحابي وقالوا: هذا حرام علىٰ هذا الفقيه لما فيه من الفتنة، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث به، لاحتمال أن يكون قصد بذلك تنفير عبد الله مني حتىٰ لا يلحقني التعب من جهة صحبته والركون إليه لغرض دنيوي، ووقوعي في الإثم

بسبب عدم إنكاري عليه ما يقع فيه من ظلم الرعية وأخذ أموالهم بغير حقٍّ شرعي. ويُحتمَل أنه ما قال له: أنا من عصبتك إلا ليميل إليه عبد الله، ثم إنه يسارقه بأسباب الصلح بيني وبينه، فهو من باب المداراة لا من باب رمي الفتنة بيني وبين عبد الله أو زيادتها فافهم، فجزىٰ الله هذا الفقيه عني خيرًا، آمين.

(١٣٩٥) ومما أجبتُ به عمَّن اعترض عليَّ في قولي: اللهم اجعل جميع من يستغيب العلماء والصالحين وغيرهم يستغيبني أنا، لأني أسامح من اغتابني، وربما أن غيري لا يسامحه؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا مقام يناله الفقراء، فما لك وله؟! فقال: إنما اعترضتُ عليه لكونه لا يقدر علىٰ مثل ذلك عادةً، فخفتُ عليه أن يخل بعهده مع الله تعالىٰ، مع أن في قوله: إنه يسامح الناس دون غيره تزكية للنفس وتجريحًا للناس.

والجواب: أن الصواب مع هذا المعترض عليَّ، فإن النفس كثيرة الدعوىٰ، كثيرة الخيانة، فالعبد وإن أحب أن يفدي العلماء والصالحين بنفسه لا ينبغي له إفشاء ذلك، لكونه مقامًا عزيزًا تستلذ النفس بشفوفها به علىٰ أبناء جنسها، فجزاه الله عني خيرًا، فإن عمل السرِّ يضاعف علىٰ عمل العلانية بسبعين ضعفًا، اللهم إلا أن يريد العبد إظهار مثل ذلك ليقتدي به أصحابه فلا بأس. وعليه يُحمَل قول سيدي عليٍّ الخواص ﷺ مع كونه كان كتومًا لأعماله: والله إني لأودُّ أن أفدي جميع العلماء والصالحين بنفسي في جميع ما ينقصهم الناس به، لكونهم حملة الشريعة، وفي تجريحهم تجرؤ للناس علىٰ ارتكاب الرذائل إذا صدَّقوا أعداءهم في التنقيص، والإخلال بواجب حقوقهم، فربما وقع أحدهم في معصية أو نُسِبَ إلىٰ فاحشة فقال: أيش هو أنا بالنسبة إلىٰ فلان العالم أو الصالح؟! فيصير يستشهد به ويثبت ذلك الجرح في حقِّه لا يكاد يزول بحيلة من ذهنه، فيعدم الناس النفع بالعلماء والصالحين، ولا هكذا مثلي، فإني رجل مجهول الحال في الدنيا لستُ معدًّا للاقتداء بي. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واقبل النصح ممن أمرك بكتم أعمالك، وكذَّبك في دعواك القوة علىٰ تحمل جميع النقائص التي يرمي الأعداء بها العلماء والصالحين، فإنه مقام عزيز، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٦) ومما أجبتُ به عن عدوي إذا نزلت فيَّ مصيبة وأظهر للناس الشماتة. [ولاث به أصحابي وقالوا: إن إظهار الشماتة][1] بالمسلم لا يجوز، بأنه ربما جهل تحريم مثل ذلك، ولو أنه علم تحريمه لم يشمت بي، فينبغي لمن أنكر عليه ذلك أن يفتش حال ذلك الشامت قبل أن ينكر عليه، فإن رآه جاهلًا بمثل ذلك أعلمه بتحريمه ثم بعد ذلك ينكر عليه، بشرط أن يكون عامدًا ذاكرًا للتحريم، فإن كان ناسيًا أو غافلًا أو ساهيًا، فيدع له بالمغفرة ويسامحه، ليسامحه الله تعالىٰ إذا وقع الآخر في شماتة أحد.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله يقول: لا يخلو عدوك من أمرين إذا آذاك: إما أن يكون إيذاؤه لك بحق، فالتكدير منه حمق؛ وإما أن يكون بغير حق، فالغضب منه كذلك حمق، ويجب عليك الدعاء له بالتوبة والاستغفار له، لأنه مبتلىٰ في دينه، واللائق بك الدعاء له لا الدعاء عليه، لأنك تزيده بذلك مقتًا من الله تعالىٰ، وأين أخوة الإسلام التي أخاها الحق تعالىٰ بينك وبينه بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؟! فاعذر[2] يا أخي من شمت بك، وإياك والشماتة بأحد من المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٧) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ وصولي إلىٰ مقام صرتُ أحب العالم الذي أنكر عليَّ وأخرجني عن اتباع الشريعة أكثر ممن اعتقد صلاحي وولايتي، وجعلني من رؤوس أهل السنة والجماعة، ولاث بي وقال: هذه دعوىٰ عريضة، لخروج صاحبها عن طبع البشر.

والجواب: أن هذا المنكر معذور في إنكاره، لأنه مقام عزيز، ولا يناله إلا أفراد من الناس، وقوله: «إن صاحب هذا المقام خارج عن طبع البشر» صحيح، لأن الفقير إذا سلك بالرياضة صار مَلَكيًا روحانيًا لا رعونة عنده، بل هو دائر مع الحق حيث دار ولو كان فيه هلاكه، **وما يتمكن أحد في مقام محبة رسول الله ﷺ إلا وصار يحب كلَّ من أنكر عليه، نصرةً لجانب شرع حبيبه محمد ﷺ أكثر من نفسه**، بل يصير يكره نفسه إذا خرجت عن

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) بالأصلين: فاعذر.

ظاهر الشريعة، ويتمنىٰ لها التأديب والعقوبة، ويجعل اللوم عليها لا علىٰ المنكرين عليه.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: من تكدَّر ممن أنكر عليه فهو جاهل بمراد الشارع ﷺ، فإنه أمَّن علماء الشريعة عليها بعده، وأوجب عليهم الذب عنها بحسب اجتهادهم، ولو أن العبد كان كامل المحبة للشرع، لغار عليه أكثر من غيرته لجانب الحقيقة، لأن السلطان للشرع في هذا الدار، وأما الحقيقة فإنما ظهور سلطانها في الجنة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٨) ومما أجبتُ به عمَّن أنكر عليَّ إذا نقل أحد إليَّ نميمة، أو استغاب أحدًا في مجلسي وقال: لو كان باطنك مطهَّرًا ما تجرَّأ أحد أن ينقل إليك غيبة ولا نميمة؛ فلاثوا به أصحابي وقالوا له: هذا أمر ليس في قدرة العبد ردُّه، ولم يزل الأكابر من السلف الصالح الذين لا يصلح أحدنا أن يكون خادمًا لهم يقع في مجلسهم الغيبة والنميمة، ولكن ينكرون علىٰ ناقلها، ولم يبلغنا أن أحدًا من إخوانهم المتورِّعين أنكر عليهم في وقوع ذلك في مجلسهم.

والجواب: أن المنكر علينا مصيب، فإنه لا يُجلَب إلىٰ السوق إلا ما يُباع فيه. وأما كون السلف الصالح لم يكن أحدهم يدفع النمَّام عن مجلسه، فلا يقدح ذلك في كمالهم، لغلبة ظنهم الخير في الناس، وأنهم لا يذكرون لهم نميمة ولا غيبة، والدفع لشئ إنما يكون بعد تحققه، فعُلِمَ أن الواجب علينا تنظيف باطننا من سائر الرذائل حتىٰ لا تجد الرذائل لها موضعًا تقيم فيه عندنا، ثم بعد ذلك نجعل اللوم علىٰ أنفسنا سدًّا لباب ذكر نقائص الناس في مجلسنا إلىٰ أن نصل إن شاء الله تعالىٰ إلىٰ المقام الذي ذكره المنكِر علينا من وصولنا إلىٰ دفع النمَّام عن مجلسنا بالقلب، فإنه لولا خبث باطننا ما ساق إبليس لنا من يزيدنا قذرًا بذكر عيوب الناس. ولا ينبغي الإنكار علىٰ المنكر علينا، لأنه طلب لنا النظافة التامة، وظنَّ فينا أننا من الصالحين حتىٰ كلفنا بدفعنا النمَّام بالقلب عن مجلسنا حتىٰ لا يدخله أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سمعني أقول: إني أحب من يؤذيني وينقصني في المجالس أكثر ممن يحبني[1] ويجيب عني ويمدحني، وأحب أن أقاسمه يوم القيامة في حسناتي إن كان لي حسنات هناك، ثم لا أرىٰ أنني كافأته علىٰ ما فعله معي من الخير؛ فكذبني وقال: هذه دعوىٰ باطلة، لأن ذلك خروج عن طبع البشر!

والجواب: أن هذا الذي كذبني معذور، لأنه مقام لا يكون إلا لبعض أفراد من الفقراء الصادقين، فلما نظر هذا العالم فلم يجد أحدًا من أهل عصره تخلق به، أنكره عليَّ، ومثل هذا يجب عليَّ مسامحته لجهله بحصول ذلك لمثلي. ولا ينبغي اللوم عليه إلا لو كان يعلم مني ذلك، ثم أنكره حسدًا وعدوانًا، لا خوفًا عليَّ من العُجْب.

وممن أدركتُه قد تخلق بهذا المقام سيدي عليًا المرصفي، وسيدي الشيخ محمد الشناوي، وأخي أفضل الدين رحمهم الله تعالىٰ، فكانوا يحبون مقاسمة أعدائهم في أموالهم في الدنيا، وفي حسناتهم في الآخرة، وهو خلق غريب من أعظم أخلاق الرجال. وقد مَنَّ الله تعالىٰ عليَّ بالتخلق به، فأنا بحمد الله أحبُّ مقاسمة أعدائي لي في جميع ما يدخل يدي من الأموال، وفي حسناتي في الآخرة إن كان لها وجود من غير توقف، ثم لا أرىٰ بذلك منَّة عليهم.

وقد قيض الشيطان لي جماعة بعد جماعة في مصر لم يزالوا يرموني بالبهتان والزور الذي لا أعلم أنني وقعتُ فيه، فأشكر فضلهم علىٰ ذلك، وأرىٰ فضلهم عليَّ بذلك، من حيثُ إنهم ذكَّروني بعيوبي ونقائصي التي نسيتُها من كثرة مدح الناس لي ووصفي بالصلاح، فجزاهم الله -يعني الأعداء- خيرًا، فإني لا أقوم لهم بجزاء، ولم أزل أزداد فيهم محبة، وأذكرهم بالكمالات كلما نقصوني وآذوني، لاسيما الذين دسوا في كتبي ما دسوا من العقائد الزائفة، وأشاعوها عني في جامع الأزهر وغيره، فإني ذكرتُهم في طبقات العلماء العاملين، وسألتُ الله تعالىٰ أن يغفر لهم، وعاهدتُ أصحابي لا أدخل الجنة إلا إن دخلوها قبلي.

---

(١) بالأصلين: يكرهني. والصواب ما أثبتناه.

وإيضاح شهودي منَّة الأعداء عليَّ كلما آذوني أنهم حكموني بذلك في حسناتهم في الدار الآخرة كما ورد في الصحيح[1]، فآخذ منها ما شئتُ بقدر حقي الذي يعنيه الحق تعالىٰ هناك، حتىٰ كأن حسناتهم من جملة أعمالي أنا، وهذا أعز من الإحسان إليَّ بالدراهم والدنانير في دار الدنيا، ثم كلما آذوني أكثر كلما أحببتُهم أكثر، وسمحت نفسي بمقاسمتهم في حسناتي، مع أنهم بكثرة إيذائهم لي قد بالغوا في إثبات حقي عليهم، وتحكيمي في حسناتهم، فكما أهدوا إليَّ حسناتهم في الآخرة وإن لم يقصدوا ذلك، فكذلك من المعروف إهدائي لهم حسناتي، وإن كان إهدائي ذلك بطيبة نفس مني، وإهداؤهم لي كرهًا عليهم، لأنه حيثُ ما حصل لي النفع فلا عليَّ قصدوا ذلك أم لم يقصدوه، فكانت مقاسمتي لهم في حسناتي من باب المكافأة لهم علىٰ إحسانهم.

ثم لما تحققتُ بذلك أعطاني الله تعالىٰ عدم أخذي شيئًا من حسناتهم في الآخرة، ولو حكمني الله تعالىٰ فيها شفقةً عليهم، لأن حكم هؤلاء في الآخرة حكم الرجل الذي ارتكبته الديون لسائر الخلائق، وصاروا عليه حِلَقًا حِلَقًا وليس معه شيء، فكان من المعروف مسامحتي له، ولا أدخل عليه كربًا فوق ما هو فيه من الكرب. وقد قالوا: الرجل هو من يكون له اليد علىٰ الناس في الدنيا والآخرة.

وأنا بحمد الله إن شهدتُ لي اليد علىٰ أعدائي من وجه، فأنا أشهد أن لهم اليد عليَّ من وجوه عديدة: منها أنهم بإيذائهم لي وصبري عليهم حصل لي الإدمان علىٰ تحمل الأهوال في الدنيا والآخرة؛ ومنها أنهم فتحوا لي بإيذائهم وتنقيصهم باب شهود نقائصي وعيوبي كما مرَّ؛ ومنها أنهم أزالوا عُجْبي بأعمالي وأحوالي بذكر نقائصي، حتىٰ صرتُ أرىٰ نفسي من أقل الناس دينًا، عكس ما كنتُ أشهده في نفسي قبل ذلك؛ ومنها أنهم حكموني في حسناتهم بذلك.

ومن إساءتي أنا عليهم كوني كنتُ[2] سببًا لمقت الله تعالىٰ لهم، وهتك سوءاتهم،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) كذا بالأصلين.

وإن لم أقصد أنا ذلك، كما وقع لشخص معروف في مصر أنه افترىٰ عليَّ أمورًا فسامحتُه فيها، فما مضت ليلة حتىٰ كبسوه بفاحشة، واحتاط به أهل حارته مع جماعة الوالي، فامتلأت مصر بذلك، ومثل هذا لو أني أعطيتُه جميع أعمالي الصالحة في نظير ما حصل له من الهتيكة، لم أراني كافيه علىٰ ما حصل له بسببي، ووالله إني لأستغفر الله تعالىٰ له، وأهدىٰ في صحائفه كلَّ عمل رجوتُ قبوله إلىٰ وقتي هذا.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين بن العربي عن شيخه ابن الخطاب[1] رحمه الله قال: رأيتُ رب العزة في المنام، فقلتُ: يا رب علمني شيئًا أرويه عنك بلا واسطة. فقال: يا ابن الخطاب، من أحسن إلىٰ من أساء إليه، فقد أخلص لله شكرًا، ومن أساء إلىٰ من أحسن إليه، بدَّل نعمة الله كفرًا. قال: فقلتُ: يا رب حسبي. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ وأنت لم تسلك طريقهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٠) ومما أجبتُ به عن العالم الذي أنكر عليَّ إنكاري علىٰ من يتداوىٰ بإشارة يهودي أو نصراني وقال: لم يزل السلف الصالح من العلماء يتداوون بإشارة الكفار، من حيثُ إن ذلك أمر راجع إلىٰ أحكام الدنيا دون الدين، وقال: ثبت عن سفيان الثوري وبشر الحافي وعمر بن عبد العزيز أنهم تداووا بإشارة حكماء اليهود، ودخل علىٰ سفيان الثوري طبيبان يهوديان، فلما خرجا قال: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة، لقلتُ: إن أحدهما أطب من الآخر. ولما مرض عمر بن عبد العزيز عرضوا بوله علىٰ الحكيم الكافر، فقال: هذا بول رجل قد قطع الخوف من الله تعالىٰ كبده! وأطال هذا في الاستدلال عليَّ.

والجواب: أن علة منعي التطبب[2] بالكفار مما يخفىٰ علىٰ مثل هذا العالم، وهي خوف الميل إلىٰ الكافر بالطبع إذا حصل الشفاء علىٰ يديه بواسطة انتهاء مدة المرض، فيصير يعترف للكافر بالفضل كلما رآه، ويقول: فضلك سابق عليَّ يا معلم، فيريد هذا

---

(١) علي بن الخطاب الجريري. كان من أكابر الصالحين ومن رؤوس الأولياء الشامخين. صدره للسالكين مشروح، وبابه للمريدين مفتوح، وهو من شيوخ مشايخ العارف ابن عربي رحمه الله. «الكواكب الدرية» (١٩١/ ٢).

(٢) بالأصلين: الطبيب. والصواب ما أثبتناه.

الذي شفي من مرضه على يدي الكافر أن يعاديه بالقلب كما أمره الله تعالى فلا يقدر. وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: دوموا على عداوتكم للكفار تقليدًا للحقِّ تعالى ولو رأيتموهم عملوا من الخيرات ما عملوا. انتهى. ومن هنا كره بعض العارفين قبول هدية الكافر من حيثُ إنه يصير نعود إليه بالود. ويؤيد ذلك حديث: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»[1]. انتهى. وإنما قبل ﷺ هدية المقوقس[2] وغيره من الكفار تأليفًا لقلوبهم على الإسلام، ولعصمته ﷺ من أن يميل إلى أحد من أعداء الله عزَّ وجلَّ.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ ببغض اليهود والنصارى، مع شدة اعتقادهم فيَّ الصلاح، ولم يصدني عن بغضهم كثرة اعتقادهم فيَّ، وذلك لي بحكم الإرث الإبراهيمي من أبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فإنه محبوب إلى سائر الطوائف لا نعلم أحدًا يكرهه منهم، وكثيرًا ما يرسل اليهود والنصارى أولادهم لأدعو لهم، فأتعجب من ذلك غاية التعجب وأقول: كيف يصح لهم الاعتقاد في أهل الإسلام مع أن دينهم يخالفه؟! وهذا من جملة ما خصني الله تعالى به عن غالب أقراني. فاعلم ذلك يا أخي، واعذر العالم إذا أنكر عليك شيئًا لم يذقه ولا عرف علته، فإنه معذور، لاسيما إن كان ضد ذلك هو المنقول عن سلفه من العلماء، كما تقدم عن سفيان وبشر وعمر بن عبد العزيز، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠١) ومما أجبتُ به عن الذين آذوني في مصر، وهم ثلاثة أنفس لا غير، وسائر أهل مصر برد وسلام، وكان هؤلاء الثلاثة أعداء لبعضهم بعضًا، ولكنهم اجتمعوا عليَّ لمزاحمتي لهم في اسم الفقر لا غير، فإني لم أزاحم أحدًا منهم في وظيفة، ولا تزوجتُ لأحدهم مطلقة، ولا زاحمتُه في رئاسة حتى درجوا إلى رحمة الله تعالى، وقد ذكرتُ مناقبهم في «طبقات العلماء والصالحين» وترحمتُ عليهم، وقصدتُ بذكرهم في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) المُقَوْقِس: هو لقب واسمه جريح بن مينا، أرسل له النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه بعد صلح الحديبية، أهدى المقوس للنبي ﷺ السيدة مارية وأختها سيرين، وبلغة شهباء، وحمارًا أشهب، وثيابًا، وعسلًا، وقد ظل المقوقس على نصرانيته إلى أن مات. راجع الإصابة (٦/ ٢٩٥).

«الطبقات» دوام الترحم عليهم مادام الكتاب موجودًا.

إذا علمت ذلك، فمما آذوني به أنهم دخلوا خلوتي، فشموا عندي رائحة نبق[١] حامض، فظنوا أنه خمر، فأشاعوا عليَّ أني أشرب الخمر، ولولا شربي له ما كان عندي، فلما نازعهم الناس في ذلك، أتوا بهم علىٰ غفلة وقالوا لهم: شموا. فقالوا: نشم رائحة خمر! فأخرجتُ لهم وعاء النبق، فاستغفروا الله تعالىٰ وانصرفوا.

ومما آذوني به إشاعتهم عني أني أبغض أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، حتىٰ جاءني الأمير يوسف بن أبي أصبع يومًا، فقال لي: قل: رضي الله عنهما، فكررها عليَّ مرارًا وأنا أقول: رضي الله عنهما. فقلتُ[٢]: سله لم هذا الأمر؟ فقال: بلغني من جماعة أنك تبغضهما! ففتشتُ عن سبب هذه الإشاعة، فرأيتُ سببها محبة العجم المقيمين عند مقام الإمام زين العابدين لي، فقالوا: لولا أنه رافضي ما أحبَّه الروافض[٣].

ومما آذوني به إشاعتهم عني أنني ادعيتُ الاجتهاد المطلق كالإمام الشافعي رضي الله عنه، وحصل بذلك فتنة فأخمدت، حتىٰ انتصر لي الشيخ نجم الدين الغيطي وأجاب عني بخمسين جوابًا.

ومما آذوني به إشاعتهم عني أنني أخطئ الأئمة المجتهدين، ففتشتُ عن سبب ذلك، فقالوا: إن كلَّ مجتهد يقول: إن الحق معه دون غيره، وهذا يجيب عن الأئمة، فيرد تخطئة من خطأهم! وهذا محض تعصب منهم! فإن حمل كلام الأئمة علىٰ محامل حسنة ليس بتخطئة لهم.

ومما آذوني به وهو أعظم الأمور دسهم في كتبي العقائد الزائغة، والمسائل الخارقة

---

(١) النبق: نوع من ثمار الأشجار أصغر من الزيتونة، يعرفه المصريون باسم «النبأ».

(٢) أي قال الإمام في سره.

(٣) ومحبة الروافض له رضي الله عنه وراثة إبراهيمية، فإن صاحب مقام الوراثة الإبراهيمية تحبه جميع الطوائف مسلمهم وكافرهم، كما تقدم قريبًا.

لإجماع الأئمة، وإشاعتهم عني ذلك مدة سنة، فلا يعلم عدد من استغابني ووقع في عرضي إلا الله عزَّ وجلَّ.

ومما آذوني به إشاعتهم عني أنني من الفرق الهالكة، ففتشتُ عن سبب ذلك، فرأيتُهم أخذوا ذلك من تأليفي علوم القرآن العظيم المأخوذة من طريق الكشف دون الفكر والنظر، فإني ذكرتُ نحوًا من ثلاثة آلاف علم لا يمكن لأحد ولو ارتفعت رتبته في علم المعاني والبيان أن يستخرج منها علمًا واحدًا، وسردتها على عدد سور القرآن العظيم، وقد أخذها الشيخ شهاب الدين ابن عبد الحق، فمكثت عنده نحو شهر، فقال: الأولى لك إلقاؤها في البحر. فقلتُ: هل هي باطلة؟ فقال: لا، ولكن لعدم وصول الفهم إليها، فإني عجزتُ أن أعرف مآخذ علم منها فلم أقدر، وما عجزتُ أنا عنه، فغيري أعجز، لأني أقول في نفسي إنني عالم مصر والشام والحجاز والروم ولم أفهم منها علمًا واحدًا.

ومما آذوني به أنني أقول بجواز تقديم الصبح في وقت العشاء، والظهر في وقت الصبح، والمغرب في وقت العصر، وأرسلوا بذلك كتابًا من مكة، فما رجعتُ من سفر الحج إلا ومصر ملآنة بتلك الإشاعة، وهي بهتان وزور، وإنما نقلتُ لصاحبنا الشيخ شمس[1] الدين الخطيب الشربيني عن محمد بن سيرين وابن المنذر أنهما كانا يقولان: يجوز لمن وراءه حاجة أن يقدم الصلاة عن وقتها ما لم يتخذ ذلك عادة؛ فالتقطها شخص من هؤلاء الثلاثة وقال: فلان يقول بتقديم الصلاة عن وقتها بغير عذر شرعي، وأفتى أهل المركب بذلك، فلا تسأل يا أخي عن عدد من اغتابني في مصر وقراها.

ومما آذوني به إشاعتهم عني في مصر أنني أقول بجواز إعطاء المكوس للمكَّاسين ابتداءً من غير خوف ضرر، ففتشتُ عن ذلك، فرأيتُ سببه أنني نقلتُ عن سيدي إبراهيم المتبولي أنه كان يقول: أعطوا الخفراء خفارتهم في نحو غزة وقِطِّية[2] قبل أن يسألوكم، ولا تظنوا أن ذلك من المَكْس الحرام كما يتوهمه بعضهم، فإن المكس إنما هو ما يأخذه

---

(١) بالأصلين: شهاب. والصواب ما أثبتناه.

(٢) قطية: قرية كانت تقع في شبه جزيرة سيناء في الطريق بين مصر والشام. وقد اندثرت الآن.

الظلمة ممن هو آمن من قطَّاع الطريق، وأما من جاء في خفارة سيف السلطان فليس هو بمكس، بدليل أن السلطان إذا مات ولم تحصل ولاية لأحد، تصير الطريق مخوفة لا يتجرأ تاجر يخرج بماله في البراري والقفار خوفًا من قطَّاع الطريق، فإن قدر أن أحدًا خرج في ظل سيف نفسه أيام موت السلطان فما يأخذونه منه مكس. هذا ما نقلتُه عنه وقلتُ عقبه: هكذا قال الشيخ فليتأمل.

[ذكر بعض العهود التي دُست في «المواثيق والعهود»]

ومما آذوني به أنني أقول: يجب على العبد أن يشهد على معاملته ثمانية شهود في هذا الزمان، وأنه لا يكفي في ذلك شاهدان ولا أربعة، وأنه يستحب الوقوف على المشعوذين والحلقية وخيال الظل ونحو ذلك، وأن بنات الخطا لهم فضل على الحرائر، ولولاهن لوقع العيَّاق على الحرائر. **وهذه الأمور من جملة ما دسوه في كتاب «العهود».**

ومما آذوني به مكاتبتهم للسلطان سليمان بأنني خارجي، وأن أتباعي الآن نحو ثلاثين ألفًا، وإن لم أخرج من مصر حصل خلل في المملكة.

ومما آذوني به أنني أمنع جماعتي من الاشتغال بالعلم وأقول لهم: اشتغلوا بالذكر فقط، والحال أن قراءة كتب الفقه والأصول والنحو تقرأ عندنا طول السنة. وبقي أمور كثيرة تبنو عنها الأسماع.

والجواب عن جميع من آذاني: حصول شبهة قامت عندهم في كلامي بحسب إشاعة هؤلاء الثلاثة الذين تقدم ذكرهم، وظن الناس فيهم الخير والصلاح، وأن مثلهم لولا ثبت عندهم ذلك ما أشاعوه، مع اعتقادهم فيَّ أنني أميٌّ ليس لي قدم في علم الشريعة، [كبعض المتمشيخين في عصرهم من الساذجين الذين يعتقدون المشيخة بالجلَّاس][1] من غير علم كمشايخ الأحمدية من السمران ونحوهم، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين. وإياك والمبادرة إلى الإنكار عليَّ في إجابتي عن أعدائي، فإنه مقام يصله

---

(١) ساقط من «ب».

السالك في أوائل بدايته في الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٣) ومما أجبتُ به عمَّن قال لي: يا فاسق يا قليل الدين؛ ولاث به أصحابي وقالوا له: حاشا الشيخ من مثل ذلك، إنما هذه فتنتك أنت.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشخص إلا بعد أن يفتشني أصحابي ويجدوني سالمًا من الكبائر والصغائر والمكروهات، وهناك يجوز لهم الرد عني. وأما قبل التفتيش فإن وجدوني سالمًا منها، ساغ لهم الرد عني، وإلا فالواجب عليهم تأييد من نسبني إلىٰ الفسق وقلة الدين، فمنها الزنا واللواط، وتقديم الصلاة وتأخيرها، والكذب علىٰ رسول الله ﷺ عمدًا، وأكل الربا وسائر الحرام، والغش في المعاملات، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، وشهادة الزور، وقذف المحصنات والمحصنين، والغلول في الزكاة، واليمين الغموس، والحلف بملة غير الإسلام كاذبًا، واعتياد الكذب، والقضاء في خصومة بغير علم، والرئاسة والقيادة، فالأولىٰ: الاستحسان علىٰ الأهل، والثانية: الاستحسان علىٰ الأجانب، وتحليل المرأة إذا حنث فيها «لعن الله المحلل والمحلل له»[1]، وعدم التنزه من البول، وترك غسل الجنابة حتىٰ يخرج وقت الصلاة -قال بعضهم: وفي ذلك كبيرتان- والفجور عند المخاصمة، والكذب في أغلب الأحوال، وكتمان العلم الشرعي عن مستحِقه، وتعليمه للدنيا أو للرئاسة والتعظيم دون قصد العمل به، والغيبة والنميمة، والقذف والسرقة ولو إبرة، والسكوت علىٰ الغيبة والنميمة، وقطيعة الرحم بأن لا يصلها ببر ولا إحسان، وعقوق الوالدين، وهو مخالفتهما فيما طلباه منه من المباح، وألحق بعضهم بذلك عقوق العم والخالة، وأكل مال اليتيم بغير حق، والمراء في العلم، والجدال بغير علم، وضرب المسلم بغير حق أو زيادة علىٰ التأديب، وكتمان الشهادة وليس هناك غيره يكمل به النصاب، والخيانة للناس لاسيما الصاحب والجار، والسعاية عند الولاة بما يضر المسلمين، ومحاربة العلماء والصالحين وكراهتهم بغير حق، وإحراق الحيوان بالنار ولو برغوث أو قملة،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٣٦).

والنظر إلىٰ المرأة الأجنبية لاسيما امرأة الجار، والنظر إلىٰ الأمرد بشهوة، وإيذاء المسلمين بغير حق، وإلزام المسلم أو الذمي بما لا يلزم أو المساعدة علىٰ ذلك أو الرضا به، وترك رد السلام، والمنُّ بما يفعله من الخير ولو في نفسه، وتكذيب المسلم بغير حق، والتجسس علىٰ الناس في حديثهم الذي يخفونه عنه، ولعن من لا يستحق اللعن، وتخطي رقاب الناس يوم الجمعة، وتصديق الكاهن والمنجم، والاستطالة في عرض المسلم، والدعاء بالويل والهلاك عند المصيبة وتقرير فاعله عليه، والطعن في أنساب الناس، وتبرؤ الإنسان من نسبه الخسيس عند الناس، وانتسابه إلىٰ غير أبيه، والهجر فوق ثلاث لحظ نفس، وتعذيب الحيوان بغير حق سواء بالضرب أو بالأعمال الشاقة، وكفران نعمة المحسن، وتكفير المسلم بغير حق، وترك الإنكار علىٰ الظلمة، ولبس الحرير أو فرشه ليجلسوا عليه في بيوتهم إلا بطريق شرعي، وتمكين الناس من أن يقفوا بين يديه وهو جالس، وأذىٰ الجار بحيث يشكو منه، ومسابقة الإمام في الركوع والسجود، وعدم الإنكار علىٰ العبد إذا أبق من سيده إذا وجدوه[1] عنده، وأن يحدث في الدين ما ليس منه، وسوء العشرة للأرقاء، وعدم الإحسان إلىٰ البهائم، وسوء الظن بعباد الله، والتلفظ بالكلمة التي تعظم مفسدتها ويشتد ضررها ولا يلقي صاحبها إليها بالًا، ومشاحة العامل في أجرته بعد فراغ العمل بغير حق، وبغض أحد من الأشراف والأنصار، والاستجمار في حيطان الناس بغير إذنهم، والبغي علىٰ الناس، والوقيعة في الصالحين والعلماء، والضحك من غير عجيب كخروج الريح من إنسان، والإشراف علىٰ بيوت المسلمين، وكثرة الخصومات للناس ولو بحق في زعمه، والتبختر في المشي عامدًا، والوصال في الصوم علىٰ الأرجح، ولمس الأجنبية بغير حاجة والخلوة بها، وكشف العورة في الخلوة بغير حاجة.

ومن الكبائر الإصرار علىٰ الصغيرة أو احتقارها والتهاون بستر الله تعالىٰ، أو يكون فاعلها عالمًا يقتدي به. قال بعضهم: ويتحقق الإصرار بأن يذنب في وقت صلاة ولا

---

(١) بالأصلين: تولوه.

يتوب حتىٰ يخرج وقت تلك الصلاة، فهذه جملة من الصغائر والكبائر الظاهرة.

وأما كبائر الباطن فهي أغمض وأشد، وذلك كالكبر والرياء، والنفاق والحسد، والمكر والغل والحقد، وسوء الظن بالله أو بعباده، والغضب حمية جاهلية، والبخل والشح، وحب الصيت والسمعة، وإهمال السنن المحمدية هوانًا بها، واحتقار المسلم، والخوض بالفكر في ذات الله، وشدة الطمع فيما في أيدي الناس، وخوف الفقر، أو السخط علىٰ مقدور الله عزَّ وجلَّ، والاستهزاء بالفقراء، والمعرة بذكر الله معهم بالحركة المزعجة واقفًا أو جالسًا، لأنه تكبر علىٰ ذكر الله، وقد كان الصحابة إذا ذكروا الله يميلون كما تميل الشجرة في الريح العاصف، والحرص علىٰ المال، والتنافس في الدنيا والمباهاة بشيء من ملبوسها أو مأكولها أو مركوبها ونحو ذلك، والمداهنة في دين الله، وحب المدح من الناس بما لا يفعله ولا يقصده من الطاعات، والاشتغال بذكر عيوب الناس في المجالس ونسيان عيب نفسه، ونسيان نعم الله من عافية وقوت يوم وأمان في بيته من اللص، والعجب بالأعمال الصالحة، واتباع الأهواء المضلة عن طريق الله، والخداع لله، كأن يجاهر ربه بالمعصية ويصبح يظهر الخشوع والإطراق للناس، وعدم قبول النصح من الناصح ولو عدوًا، وانتصار الإنسان لنفسه بالباطل، وغضبه لحظ نفسه، ونحو ذلك مما هو مذكور في كتب الشريعة.

فإياكم أيها الإخوان أن تجيبوا عني من سمَّاني فاسقًا أو مرائيًا أو معجبًا بعملي أو حسوديًا ونحو ذلك وتلوثوا إلا بعد أن تفتشوني التفتيش التام، ولا تجدوا فيَّ شيئًا من الأخلاق المذمومة، وفي القرآن العظيم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [النساء: ١٠٩]، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٣) ومما أجبتُ به عمَّن قال في حقي: إني أستحق [الخسف] بي والمسخ لصورتي، وأن جميع ما أنا فيه نصب علىٰ الخلق، ولاث به أصحابي وكذبوه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا القائل، فإنه صادق فيما قال، وأين الذي يدعي في هذا الزمان سلامته من الذنوب التي يستحق بها الخسف؟! وأنه مخلص في جميع أحواله وليس عنده نصب علىٰ أحد؟! وقد درج السلف الصالح كلُّهم ﷺ علىٰ رؤيتهم في نفوسهم أنهم قد استحقوا الخسف بهم لولا عفو الله، وأنه تعالىٰ لو خسف بهم الأرض لكان عدلًا منه. وقد طلب جماعة من الفقراء كرامة من سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني فقال: يا أولادي وهل يُطلَب من عبد العزيز كرامة في آخر القرن السادس أكثر من أن الله تعالىٰ يمسك به الأرض ولا يخسفها به، وقد استحق الخسف به من سنين عديدة؟! ثم قال: والله ما أرفع قدمي وأضعها وأجد الأرض ثابتة تحتي وفي عيني قطرة دمع.

وسمعتُ سيدي عليًا البحيري ﷺ يقول: لا تظن يا أخي أن قول أحد من الفقراء: «إننا قد استحقينا الخسف بنا والمسخ بالصور لولا عفو الله» من باب التملق إلىٰ الله تعالىٰ وهضم النفس، وأنهم يظنون بنفوسهم الصلاح والخير، فإن ذلك ظن كاذب، وإنما يقولون ذلك من باب العلم واليقين نظرًا لما يستحقه جلال الله عزَّ وجلَّ من العبادات والآداب. قال: وقد خسف الله تعالىٰ بقوم كان ذنوبهم أقل عددًا من ذنوبنا وأخف قبحًا، فروىٰ الإمام أحمد البزار وغيرهما مرفوعًا «بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة»[١].

وفي البخاري عن ابن عباس مرفوعًا «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه إذ خسف الله تعالىٰ به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة»[٢]، قال ابن عباس: وذلك بزقاق أبي لهب بمكة. قال: ومن رآه حين خُسِفَ به العباس ﷺ. وروىٰ البزار ورواته رواة الصحيح مرفوعًا: «أن رجلًا كان في حلة حمراء يتبختر ويختال فيها، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة»[٣]. وروىٰ الترمذي وغيره مرفوعًا: «يبيت

---

(١) أخرجه أحمد (١١٣٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٨) بنحوه، والترمذي (٢٤٩١) وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٩٥٥).

قوم من هذه الأمة علىٰ لعب ولهو، فيصبحوا وقد مُسخِوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقذف حتىٰ يصبح الناس فيقولون: خُسِفَ الليلة بدار فلان، وليرسلن عليهم حجارة من السماء كما أُرسِلَت علىٰ قوم لوط علىٰ قبائل فيها وعلىٰ دور بشربهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم القينات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم»[1]. وروىٰ البخاري تعليقًا وأبو داود «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخمر والحرير يمسخ منهم قردة وخنازير إلىٰ يوم القيامة»[2]، فانظر يا أخي إلىٰ هذه الأمور التي خسف الله بأهلها الأرض تجد ذنوبنا أعظم منها بيقين أو مثلها، فكم نظر أحدنا إلىٰ عطفيه لما لبس ثوبًا جديدًا، وكم نظر إلىٰ عمامته بعد أن عممها، وكم أصلح طياتها موافقة لهوىٰ نفسه، وكم تبختر أحدنا في مشيته، وكم رفع نفسه علىٰ أقرانه، وكم بات أحدنا علىٰ محبة الدنيا التي هي رأس كلِّ خطيئة، وكم بات علىٰ بطر وشره وضحك ولعب ولهو، وكم وكم وكم!

وقد نقل ابن الجوزي أنه وقع في أيام الخليفة المطيع لله[3] تعالىٰ بمصر زلازل عظيمة حتىٰ خربت عدة بلاد وسكن الناس الصحراء، ووردت أيضًا محاضر شرعية أن

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الحاكم (٨٥٧٢) من حديث أبي أمامة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يبيت قوم من هذه الأمة علىٰ طعام وشراب ولهو، فيصبحون قد مسخوا خنازير، وليخسفن بقبائل فيها وفي دور فيه، حتىٰ يصبحوا فيقولوا خسف الليلة ببني فلان خسف الليلة بدار بني فلان، وأرسلت عليهم حصباء حجارة كما أرسلت علىٰ قوم لوط، وأرسلت عليهم الريح العقيم فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم بشربهم الخمر، وأكلهم الربا، ولبسهم الحرير، واتخاذهم القينات، وقطيعتهم الرحم» ووافقه الذهبي، وأبو داود الطيالسي (١٢٣٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٢٦).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري معلقًا (٥٥٩٠) من حديث أبي مالك الأشعري، والله ما كذبني: «سمع النبي ﷺ يقول: ليكونن من أمتي أقوام، يستحلون الحر والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلىٰ جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلىٰ يوم القيامة» وأبو داود (٤٠٣٩) بنحوه..

(٣) المطيع لله الفضل بن المقتدر جعفر بن المعتضد العباسي أبو القاسم، ولد سنة ٣٠١ هـ، بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي، وكانت أيامه أيام ضعف وفتور، فلج في آخر أيامه، وثقل لسانه فخلع نفسه وعهد إلىٰ ابنه الطائع لله. وتوفي بعد شهرين وأيام سنة ٣٦٤ هـ. «السير» (١٥/ ١١٣)، «الأعلام» (٥/ ١٤٧).

الله تعالىٰ خسف بأرض الري بمئة وخمسين قرية، وصارت كلها نارًا، وتقطعت الأرض وخرج منها دخان، وقذفت الأرض جميع ما في بطنها من عظام الموتىٰ في القبور. انتهىٰ.

ووقع ببلاد تبريز[1] بالعجم زلازل مات منها تحت الهدم نحو مئة ألف إنسان، ولبس الناس المسوح وصاروا يجأرون إلىٰ الله تعالىٰ، وكذلك خسف الله تعالىٰ بسبع جزائر من البحر بأهلها بنواحي عكا في أيام الملك الظاهر بيبرس أبي الفتوحات[2] بعد أن أمطرت السماء دمًا سبعة أيام. ولم يزل يبلغنا وقوع الخسف والزلازل ببلاد الروم وغيرها إلىٰ عصرنا هذا، مع أن فيهم العلماء والصالحين، ولكن في الحديث: «إذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح»[3].

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رضي الله عنه يقول: لا يستبعد وقوع الخسف به في هذا الزمان إلا كلُّ جاهل مغرور بحلم الله عليه. قال: ومن استبعد وقوع الخسف بمثله، فليعرض جميع ما فعله من الزلات التي ستره الله تعالىٰ فيها علىٰ نفسه وينظر، يجدها أكثر من ذنوب من خسف الله بهم الأرض قبلنا، فإن غاية ذنوب من قبلنا ثلاثة أو أربعة أو نحو ذلك، فهي دون ذنوب أحدنا بيقين. ولو حلف حالف بالله أن أحدنا استحق الخسف به لم يحنث. وتقدم قول مالك بن دينار رحمه الله: لو حلف حالف أن أعمالنا أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب؛ لقلنا له: صدقت ولا تكفر عن يمينك. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة

---

(١) تبريز: إحدىٰ أهم وأبرز المدن في إيران وعاصمة مُحافظة أذربيجان الشرقيَّة.

(٢) الملك الظاهر ركن الدين بيبرس. كان شهمًا شجاعًا، عالي الهمة، بعيد الغور، مقدامًا جسورًا، معتنيًا بأمر السلطنة، يشفق علىٰ الإسلام، متحليًا بالملك، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله، وإقامة شعار الملك، كثير الفتوحات، وقد حرر عدة مدن من أيدي الفرنج. وهو الذي أحيا الخلافة العباسية بعد أن بقي المسلمون ثلاث سنوات بلا خليفة. توفي سنة (٦٧٦هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» (١٠/ ٢٠٧) و«الأعلام» (٢/ ٧٩).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج البخاري (٣٣٤٦) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» ومسلم (٢٨٨٠).

للجواب عن نفسك إذا نسبك أحد إلىٰ الفسق والنصب، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٤) ومما أجبتُ به عن الذي أشاع عني في مصر أنني نصَّاب، وأنني نصبتُ علىٰ الأمير خضر أمير الحاج في سنة أربع وستين وتسعمئة، وقلتُ له: أعطني جمالًا ومالًا بقدر ما يكفيني ويكفي جماعتي وأنا أسافر معك، وأحمل حملتك أن تُرَدَّ أنت وجميع الركب وجماله سالمين من غير موت ولا غلا؛ ولاث بي الناس في مصر بتلك الإشاعة، فلا يعلم عدد من استغابني إلا الله تعالىٰ.

والجواب: أنهم معذورون في ذلك، فإنه قبَّل بطن رجلي وكشف رأسه وسألني أن أحج معه في تلك السنة، وحلف أنه لا يخرج من عندي إلا إن أجبتُه علىٰ ذلك فأجبتُه، ففهم الناس بحكم العادة بالنظر لأمثالي أنه يصرف عليَّ وعلىٰ جماعتي ذهابًا وإيابًا، فاستبعد الناس ذلك علىٰ مثلي، فمنهم من استبعد ذلك حسدًا، ومنهم من استبعد ذلك احتقارًا ، ومنهم من شنع عليَّ محبةً فيَّ وشفقةً علىٰ ديني من أني أحج بمال الولاة. وقد أبرأتُ ذمة أهل الحسد والاحتقار، فإن الحسد لا يكون إلا مع نعمة، وأما الاحتقار فهو من أهله في محله، فجزىٰ الله تعالىٰ عني جميع المنكرين خيرًا، فإنهم قبَّحوا في عيني ما لعله كان يحسن في عيني كما وقع لغيري. وما أقبح قول الناس: العالم الفلاني أو الفقير الفلاني حج هذه السنة في فضل الأمير الفلاني!

فاعلم يا أخي ذلك، واعذر من يحسدك إذا وقع لك مثل ما وقع لي، فإن غالب الناس يسألون أمراء الحج في مثل ذلك فلا يجيبون، ونحن نُسأَل فلا نجيبهم، ولا يخفىٰ ما في ذلك من الرئاسة وقيام الجاه الذي لا يحتمله الأقران، فينبغي لمن أشاع الناس عنه من العلماء والصالحين مثل ما أشاعوا عني أن يترك الحج في تلك السنة صيانةً للناس عن الوقوع في غيبته وإن كان له نية صالحة، ويحج من مال نفسه شفقةً علىٰ أديان الأقران من النقص، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٥) ومما أجبتُ به عمَّن آذاني بارتكابه الآثام بسبب تعظيم الناس لي وشدة اعتقادهم

فِيَّ، وقال: إن فلانًا من السحرة، فسحر قلوب الناس إلىٰ محبته قهرًا عليهم؛ وبتُّ تلك الليلة بلا عشاء من حيثُ تكديري علىٰ نقص دينه بسببي حين آخذتُ نفسي بالسبب وباللازم.

والجواب: أن مثل هذا الشخص معذور في [اتهامه][1] حيثُ تساهلتُ في إظهار ما صلح من أعمالي وأخلاقي، وابتديتها للناس حتىٰ عظموني واعتقدوا فِيَّ. ولو أني احتطتُ لنفسي لما ظهر مني شيء يعظمني الناس لأجله، فكان عليَّ اللوم بذلك من حيثُ إني كنتُ سببَ لازدراء الناس لأقراني، وبخس مقامهم، فرجع إثم ذلك الازدراء والبخس عليَّ.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: كلُّ فقير لا يستر نفسه ويخفي أعماله الصالحة في هذه الدار فهو مفتون، ولا ينبغي له أن يلوم أحدًا من أقرانه إذا نقصه، كما لا ينبغي له لومه في إساءته به الظن إذا سلك مسالك التُّهم.

وسمعته ﷺ يقول: الفقراء الصادقون [لا يتكدرون ممن نقصهم، لأنه سعىٰ في حفظ رأس أموالهم الذي هو الدين][2]، وإنما يتكدرون علىٰ نقص دين ذلك الحاسد مثلاً، لأنه ما وقع في إثم الحسد إلا بسببهم، ومن شأنهم أنهم يؤاخذون نفوسهم باللازم ويشكرون كلَّ من أذاهم من حيثُ إن في إيذائه الأجر، لا من حيثُ وقوعه في الإثم، فهم أصحاب عيون: **عين** ينظرون بها إلىٰ إظهار كمالاتهم للناس بحيث يُعظَّمُون لأجلها، فيستغفرون الله [بسبب ذلك؛ **وعين** ينظرون بها إلىٰ كون إيذاء الناس لهم يحصل لهم به الأجر فيشكرون؛ وعين ينظرون بها إلىٰ حصول الإثم لمن آذاهم، فيستغفرون الله][3] له ولهم.

فعلم أن من كان من أهل الطريق لا يتكدر ممن آذاه أبدًا لخروج أهل الطريق عن حظوظ نفوسهم، فقولي «ومما أجبتُ به عن من آذاني» مرادي بذلك حصول الأذىٰ لي من حيثُ شفقتي علىٰ دينه لا حصول الأذىٰ لي بقطع النظر عن شفقتي عليه، فإني بحمد الله مؤمن بيوم الحساب مشاهد لما فيه الأجر والثواب، ومن كان كذلك لا يتأذىٰ ممن

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) ساقط من «ب».

يسعىٰ في تحصيل الأجر له، بل يفرح لذلك ويحب فاعله كما يحب من يغسل له ثوبه إذا تدنس، ويحجمه أو يفصده ويخرج عنه الدم الفاسد الذي يضره، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٦) ومما أجبتُ به عن العدو الذي عجزتُ وأنا أسوق السياقات عليه أنه يطيب خاطره عليَّ، فلم يرضَ، ولاث به أصحابي وقالوا: إذا كان قتل لك قتيلًا وفعل معك ما فعل وطلب مصالحتك، وجب عليك مصالحته، لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨].

والجواب: أن اللوم في ذلك عليَّ لا عليه حيثُ تماديتُ في قلة سياسته، وخالفته فيما يطلبه مني من الأغراض، فإنه لو كان عندي سياسة وموافقة له في أغراضه ما تكدَّر مني كلَّ ذلك التكدير، ولا كرهني هذه الكراهية.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: مما يقع فيه الساذجون من الفقراء فضلًا عن غيرهم إخلالهم بواجب حقوق إخوانهم، حملًا لهم علىٰ عدم تكدرهم بمثل ذلك، فلا يتفقد أحدهم أخاه بهدية، ولا يرد عنه غيبة، ولا يمدحه إذا علم منه محبة ذلك، وإذا ذهب إلىٰ ونيمة لا يعلمه، وإذا رأىٰ أحدًا يفرق زكاة لا ينبه عليه، وإذا عمل مولدًا لا يحضره، وإذا ضعف لا يعوده، وإذا مات له ولد لا يعزيه أو لا يظهر له الحزن ونحو ذلك، وربما اجتمعت هذه الخصال كلُّها في إنسان، فتولد بسببها الحقد، فيتعب في إزالته من باطن أخيه.

وقد درج السلف الصالح كلُّهم علىٰ إقامة العذر لأخيهم علىٰ أنفسهم، ويقولون لأخيهم: اللوم علينا الذين خالفناك في أغراضك، ولو أننا وافقناك لما كرهتنا أبدًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٧) ومما أجبتُ به عن الجماعة الذين وقفوا علىٰ الباب فما سمعتُهم، فرجعوا وهم يسبونني ويقولون: هذا متكبر يزدري أهل العلم! فلاث بهم أصحابي وقالوا: هذا لا يجوز لكم، لأنه لم يسمعكم. وبتقدير أنه سمعكم، فله منعكم من الدخول متىٰ شاء ولو بلا عذر.

والجواب: أنه لا يجوز المبادرة إلىٰ اللوث بهؤلاء الجماعة، فربما عرفوا بقرائن

الأحوال مني الكبر وعدم التواضع. ومعلوم أن القرائن إحدى الأدلة. فاللوم عليَّ لا عليهم، فإنهم لو عرفوا مني شدة التواضع وأن نفسي كالتراب ما كان خطر لهم هذا الخاطر. وأيضًا فربما كنتُ ذلك اليوم عصيتُ الله تعالى، وأفسدتُ ما بيني وبينه، فسلط عليَّ من أذاني وسبني بحكم النيابة عن الحقِّ جلَّ وعلا، فإنه حيي ستير، وقد استحقيت اللعن منه بمخالفتي لأمره، وربما استحيا الحقُّ جلَّ وعلا مني أن يبلغني فألهم بعض العبيد الذين عندهم قلة حياء فسبوني وشتموني، رحمةً منه تعالى وتنبيهًا على التوبة مما وقعتُ فيه، كما قال الفُضَيل بن عياض: إني لأقع في مخالفة فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي. وقالوا: من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس. فعلمتُ أني لو كنتُ صدقتُ في التواضع ظاهرًا وباطنًا، لكان هؤلاء الجماعة يبرئوني من الكبر وازدراء العلماء.

ومما وقع أن صاحبي الشيخ العالم الصالح شمس الدين الخطيب الشربيني جاء هو وجماعة من طلبة العلم من جامع الأزهر، فدقوا الباب وأنا غائب، فلم يجبهم أحد، فرجعوا وهم يقولون: هذا شخص متكبر يزدري أهل العلم لا يجوز زيارة مثله! فلما أعلموني بذلك حملتُهم على أنهم قالوا ذلك في حقِّي من باب الاحتياط لديني، والتنبيه على أني أصلح ما بيني وبين الله تعالى، وعلى أني أفتح باب التفتيش لنفسي، فربما كانت تحب زيارة العلماء وطلبة العلم لها، وإذا كانت تحب ذلك، صح قول الجماعة أن زيارة مثلي لا يجوز. وكذلك حملتُ الشيخ شمس الدين على أن ذلك التنبيه لي الذي وقع من أصحابه إنما كان بسبب همته ومحبته الخير لي، فلما فاته ثواب اللقاء، أبدله بثواب التنبيه على ما وقعتُ فيه بيني وبين الله حتى أهانني سبحانه وتعالى، فأهانني عباده بحكم التبعية لربهم، فجزى الله الجميع عني خيرًا، فإنهم أحسنوا لي أفضل من إحسان من اجتمع بي ومدحني بالكرم وحسن الخلق والتواضع، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٨) ومما أجبتُ به عمَّن طعن فيَّ وجرحني عند الأمير الذي يقبل شفاعتي أو عند أحد من قضاة العساكر أو الدفتردار ونحوهم، وقبل ذلك منه، وصار يرد شفاعتي ويلحقني بالفسقة عرفًا بعد أن كان يعتقد فيَّ الولاية الكبرى، بأنه وافق بتجريحي وتنقيصي خيرًا، كأن

خاف عليَّ العُجْب بنفسي حين صار ذلك الأمير أو القاضي يرد شفاعة علماء مصر وفقرائها مثلًا في تلك الواقعة ويقبل شفاعتي من دونهم، وإن لم يكن ذلك العُجْب ثابتًا عندي، فيكفيني ذمًّا خطور العُجْب عندي، فربما مقتني الله تعالىٰ حين استحليتُ العُجْب بنفسي ولم أدفعه فورًا، فنعم ما فعل هذا الشخص الذي جرحني. وأما تفويته الأجر الذي كان لي في تلك الشفاعة فيمكن تحصيل بدله بالنية الصالحة. وقد يكون ذلك الشخص المشفوع فيه لا يستحق الشفاعة فيه، لتماديه علىٰ الإصرار علىٰ ذلك الذنب الذي طلبتُ الشفاعة فيه لأجله، وإذا احتمل فعل الذي جرحك يا أخي أمران: حسن وقبيح، فاحمله علىٰ الحسن.

وقد أجبتُ عن الذين نقصوا بعض مشايخ أهل العلم الذين كانوا يشفعون عند القاضي برويز قاضي العسكر بمصر سنة أربع وستين، فإن بعض أشياخنا كان يشفع عنده فلا يرد له شفاعة، فمشىٰ إلىٰ القاضي جماعة من أقرانه وقالوا له: إن الناس لاثوا بك بقبولك شفاعة فلان في الأمور التي يشفع عندكم فيها، وقالوا: لا ينبغي لمولانا أفندي أن يقبل شفاعة فلان؛ لأنه رجل بهلول أو مجذوب كلُّ من أنهىٰ إليه شيئًا صدَّقه وقبله منه، وجاءكم يشفع عندكم فيها. فقال القاضي: أنا ما قبلتُ شفاعته إلا لشكر جماعة من العلماء فيه. فقالوا له: غشوك يا مولانا فيه لأغراضهم الفاسدة. فرجع القاضي عن قبول شفاعته، وانقطع شيخنا عنه. وإنما قالوا للقاضي: «إنه بهلول أو مجذوب» لأن ظاهره محفوظ، فما قدروا علىٰ تجريحه في دينه، لتكذيب الحس لهم في ذلك بأعماله الصالحة، فحملوه علىٰ قصور النظر والهبَال.

فينبغي لكلِّ من تصدَّر للشفاعة عند الولاة وله أعداء وحسدة أن لا يشفع عند أحد من الأكابر إلا بعد مشاورته، فيقول: أنا عازم علىٰ الشفاعة عندكم في فلان، فإن كنتُم تقبلوني فأعلموني أحضر وإلا رددتُه عنكم بحسن عبارة. انتهىٰ. وذلك لاحتمال أن يكون أحد من الأقران جرَّحه عنده ولم يشعر. فاعلم ذلك، واحمل أقرانك علىٰ ما حملنا عليه أقراننا وأقران شيخنا، واحفظ[١] نفسك من الوقيعة في الناس بغير طريق

(١) بالأصلين: بحفظ. والصواب ما أثبتناه.

شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠٩) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي كان يعتقدني ويقبل شفاعتي ثم أنكر عليَّ وصار يقول: أنا لا أعتقد إلا من أظهر لي كرامة؛ فلاث به أصحابي وقالوا: الفقير إنما يشفع عندك فيما خالف الشرع، وذلك لا يحتاج إلىٰ كرامة. لأنه إنما يأمرك بشرع نبيك الثابت المقرَّر الذي لا شك فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الأمير، لأنه تكلَّم بحسب ما عنده من أن كلَّ من لم تظهر له كرامة فهو وإياه علىٰ السواء لا تمييز له عنه، لأن الكرامة تكون كالمعجزة للنبي، ولا يجب علىٰ أحد اعتقاد الولاية في إنسان إلا بعد ظهور كرامة تميزه عن العامة، هذا حكم العوام. وأما العارفون فلا يطلبون من الوليِّ إلا استقامته علىٰ الشريعة المطهرة لا غير، فتلك أعظم الكرامات. ولم يرد لنا قط في حديث أن من كُشِفَ له عن ملكوت السماوات والأرض أو طار أو تربَّع في الهواء، أو مشىٰ علىٰ الماء يُكتَب له حسنة أبدًا.

وقد قال سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ: كلُّ فقير طلب من أمير أن ينقاد له [ويعتقده ويقبل شفاعته من غير ظهور كرامة، أو تصريف فيه بولاية أو عزل][1] أو كشف عما يقع له في المستقبل فقد رام المحال. فاعلم ذلك، وإياك أن تتكدر من أمير رد شفاعتك إلا إن أظهرت له كرامة، فإنه ما طلب منك ذلك إلا لدعواك الصلاح والولاية، فاخرج عن هذه الدعوىٰ وهو لا يعود يطلب منك شيئًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي طعن فيَّ عند الأمير الذي كان يعتقد فيَّ وغيَّر اعتقاده فيَّ، حتىٰ صار يمر علىٰ زاويتي كلَّ يوم وهو ذاهب إلىٰ ذلك الشيخ، وكلَّما دخل ذلك الأمير له يقول له: إياك أن تطلع زاوية فلان النصَّاب الشيطان؛ ولاث أصحابي بذلك الشيخ وبذلك الأمير.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بكلٍّ من الشيخ والأمير، بل ينبغي حمل الشيخ علىٰ

(١) ساقط من «ب».

أنه قصد بطعنه فيَّ عند الأمير سلامتي من الميل إليه، فأحشر معه يوم القيامة، وما قدر علىٰ انقطاع ذلك الأمير عني [إلا](١) بكثرة طعنه فيَّ، فهو طالب لي الخير، وربما كان يعتقد فيَّ أنني أفرح لذلك قياسًا علىٰ نفسه هو لو أني [فعلتُ](٢) معه مثل ذلك، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا، سواء قصد ما حملناه عليه أم لا.

وأما الجواب عن الأمير فربما قصد ببعده عني رحمتي من حمل أوزاره أو مشاركته فيها يوم القيامة إذا دام علىٰ تردده إليَّ، فقصد تحويل الأمر إلىٰ غيري محبةً فيَّ. وربما قام بباطنه تعظيمي فاستحيا أن يجالسني، فصار يتردد إلىٰ من لم يقم بقلبه(٣) تعظيم له مثلي، وصار يتحدث هو وإياه بانشراح صدر. وربما رأىٰ من ذلك الشيخ الذي تركني وذهب إليه كرامات وخوارق لم يجدها عندي، فقدَّمه عليَّ بحق، لأن الكرامة للولي كالمعجزة للنبي في التأييد وصحة الاعتقاد فيه كما مر. [وربما مرَّ ذلك](٤) الأمير علىٰ زاويتي بعد أن خرج لزيارة ذلك الشيخ، فاستعظمني في عينه أن يشركني مع ذلك الشيخ، وعزم علىٰ أنه يخرج بعد ذلك بقصد زيارتي فقط. وربما استحيا كذلك من الشيخ الثاني أن يشرك مثلي معه في زيارته، فقام بواجب حقه عليه. وقد أجبتُ بنحو ذلك عمَّن طعن فيَّ عند عيسىٰ شيخ البحيرة، ومحمد بن داود بن عمر، فجزىٰ الله تعالىٰ كلَّ من نفَّر الولاة عني خيرًا، آمين اللهم آمين.

(١٤١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اطلع علىٰ كتابي المسمىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق» فرأىٰ فيه شروط تلقين الذكر، وشروط إلباس المريد الخرقة، وشروط إرخاء العذبة، وشروط الخلوة، ورأىٰ تلك الشروط مفقودة فيه، فتميز غضبًا وغيظًا، وصار يبحث عن زلاتي ويسأل عنها كلَّ من ورد عليه من أهل مصر،

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بالأصلين: بقلبي. والصواب ما أثبتناه.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.



ليصير يهجوني بها، حتىٰ إن بعض الأعداء أخبره بمسائل كان بعض الأعداء دسَّها في كتاب «العهود» فكاد أنه يكفرني، والحال أني بريء منها كما بينتُه في خطبة الكتاب حين غيرتُها بعد سنين. فقالوا له: إن هذه المسائل مدسوسة علىٰ فلان؛ فلم يلتفت إلىٰ ذلك، فلاث به أصحابي ومعارفي وصاروا ينسبونه إلىٰ الجهل بالشريعة والحقيقة. وقالوا له: إن شيخنا لم يؤلِّف الكتاب لأجلك وحدك. وإنما صنَّفه لعامة الفقراء. فذكر لهم شروط الأشياخ التي كانوا عليها في كلِّ مرتبة. فكان الأولىٰ بهذا المعترض إذا لم ير عنده شيئًا من تلك الشروط أن يتطلبها علىٰ يد شيخ ناصح ليوصله إليها. ولا ينسب سلعة الصالح إلىٰ الجهل بها نصرةً لنفسه. وخوفًا أن يقول الناس عنه: إنك لست بشيخ علىٰ ما ذكره فلان، بل كان الواجب عليه أن يحزن علىٰ نفسه ويندم ويستغفر الله الذي عمل شيخًا من غير اجتماع شروط المشيخة فيه، ويهضم نفسه ويقول: استراحت العرايا من شر الصابون! ولم يزل الأولياء في كلِّ عصر يبينون مقام الكمل من الأولياء ومقام المتشبهين بهم ليُعطَىٰ كلُّ أحد مقامه، كما عليه أبو القاسم القشيري والحارث المحاسبي وأبو طالب المكي والإمام الغزالي والإمام السهروردي وغيرهم، كلُّ ذلك نصحًا منهم للناس من أهل عصرهم ومن بعدهم. انتهىٰ.

والجواب: أنني أنا الظالم الذي أطلقتُ هذه الشروط في حقِّ الأكابر والأصاغر، مع أنها خاصة بالأكابر لا المتشبهين بهم كأمثالنا، فكأن حكمي في ذكر هذه الشروط حكم من كشف سوأة شيخ معتبر في محفل عظيم من المعتقدين والمنكرين، وقل من يثبت إذا كُشِفَت عورته بحضرة من يعتقده ولم يتغير، فكان عليَّ اللوم في ذكري لهذه الشروط مع الإطلاق. وربما كان الباعث لي علىٰ ذكرها التشفي في الأقران الذين يلقنون الذكر ويلبسون المريد الخرقة ويدخلونه الخلوة ويرخون له العذبة، ولا يخفىٰ حرمة ذلك لفساد القصد. وربما جرأني علىٰ ذلك كوني لم أتصدر لفعل هذه الأمور في بلدي، ولو أني كنتُ متصدرًا لها ربما لم أبسط اللسان بذكر هذه الشروط التي تعري من عمل شيخًا من ثياب المشيخة، وتسلخه منها كما تسلخ الحية من ثوبها، لخوفي علىٰ نفسي

أن أنكشف كغيري ويظهر للخاص والعام أني متفعل في المشيخة، ولا يخفىٰ ما يلحق العبد من الأذىٰ إذا صار لا يلتفت أحد إليه ولا يقبل يده ولا رجله ولا يأخذ منه عهدًا ولا يتلقن عليه ذكرًا، وأصل ذلك كلِّه عدم الفطام علىٰ يد شيخ.

وقد ظفر شخص ممن يخلي في مصر المريدين بنسخة من مؤلفاتي فيها شروط الخلوة وبيان ثمراتها، فلا تسأل يا أخي ما وقع فيه من عِرضِي، وسامحتُه دنيا وأخرىٰ من جهتي، وسألتُ الله تعالىٰ أن يسامحه من جهته من حيثُ تعديه حدوده بوقوعه في عِرضِي من غير سبب يبيح ذلك، فإن من أَلَّف كتابًا وحطَّ فيه عمَّن يخرج عن الشريعة وعن طريق الأشياخ من غير تعيين لأحد لا تجوز غيبته، فالعاقل من حفظ لسانه عن كلِّ شيء يلزم منه تنقيص أحد من أقرانه بـ[غير][1] طريقه الشرعي.

فإن قلت: فما هذه الشروط التي قامت القيامة علىٰ من ذكرها بسببها؟ **فالجواب:** **أما شرط من يلقن الناس كلمة «لا إله إلا الله»** مثلًا علىٰ وجه التحقق دون التشبه بالقوم، فهو أن يكون من أهل الكمال بحيث يقدره الله تعالىٰ علىٰ أن يفرغ علىٰ المريد حال قوله «لا إله إلا الله» جميع علوم الشريعة التي قُسِمَت لذلك المريد، فلا يصير يحتاج إلىٰ مطالعة كتاب بعد ذلك إلىٰ أن يموت، فإن لم يقدره الله تعالىٰ علىٰ ذلك، فليصرح للناس بأنه متشبه بالقوم لا متحقق، ليخرج عن التدليس والتلبيس، كما كان عليه جماعة من الأشياخ الذين أدركناهم أوائل النصف الأول من القرن العاشر.

وأما شرط من يرخي العذبة للمريد فهو أن يعطيه الله تعالىٰ القوة علىٰ أن يخلع علىٰ المريد حال إرخائه له العذبة سرَّ النمو والزيادة لكلِّ شيء مسه المريد أو نظر إليه، حتىٰ لو مد العمود الحجر أو الخشب لامتد معه، فيكون إرخاء العذبة لهذا المريد إشارة إلىٰ ما أُعطي من سر النمو والزيادة زائدًا علىٰ غيره من الناس، من باب التحدث بالنعمة واتباعًا للسنة. وقد بلغنا أن علي بن أبي طالب ﷺ كان إذا مد العمود الخشب امتد معه بعد أن أرخىٰ رسول الله ﷺ [له] العذبة، وكان يتوضأ وضوءًا كاملًا من كف كما رواه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

البيهقي[١]، فمن لم يعطه الله تعالىٰ القدرة علىٰ أن يفرغ علىٰ المريد ما ذكرناه فهو متشبه لا محقق. وربما أرخىٰ بعض المريدين العذبة بقصد التمشيخ. وذلك حرام كما أفتىٰ به الحافظ ابن حجر رحمه الله.

وأما شرط من يلبس المريد الخرقة من رداء أو قلنسوة أو غيرهما بأي لون كان من أسود أو أحمر أو أخضر أو أبيض. فشرطه أن يقدره الله تعالىٰ علىٰ أن ينزع من المريد جميع الأخلاق الردية حال نزعه تلك القلنسوة أو الرداء مثلًا. ثم يفرغ عليه حال إلباسه نظيرها جميع ما قُسِمَ من الأخلاق المحمدية، فلا يحتاج بعد ذلك إلىٰ علاج خلق من الأخلاق يتركه أو يتخلق به هكذا قاله الإمام الجنيد والشبلي والشيخ عبد القادر الجيلي والشيخ محييٰ الدين بن العربي وغيره، فمن لم يقدره الله تعالىٰ علىٰ مثل ذلك فليصرِّح للناس بأنه متشبه في ذلك لا متحقق، وأنه لا فرق بينه وبين آحاد الناس ولا تخصيص. فإن لم يصرِّح بما ذكر فعليه اللوم لتلبيسه علىٰ الناس وفتح باب تنقيص مشايخ السلف رضي الله عنهم، ونسبتهم إلىٰ العجز عن ذلك، ليدخل معهم في ذلك ويدخلوا معه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لمريد أن يقول: أنا خليفة الشيخ الفلاني إلا إن كان علىٰ قدم الصدق والكمال من الزهد والورع والصوم والصدقة[٢] وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن كلِّ ما يسخط الله تعالىٰ، وذلك لئلا يزري بشيخه ويقول من لم ير شخصه: إن شيخه كان علىٰ هذا النقص الذي عليه مريده، فاعلم ذلك.

وأما شرط من يدخل المريد الخلوة فأن يقدره الله تعالىٰ علىٰ أن يحمي المريد من سائر القواطع، فيدخله رصاصًا ويخرجه ذهبًا خالصًا، سالمًا من سائر الرعونات الخاصة بالخلوة، **فإن لكلِّ فعل من أفعال القوم رعونات تزول به**، كما أن لكلِّ مأمور شرعي ذنوب تُكَفَّر[٣] به من وضوء وصلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وغير ذلك.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) كذا بالأصل، ولعلها: الصبر.

(٣) بالأصلين: الكفر.

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: أقل ثمرات الخلوة في يوم وليلة أن يدخل صاحبها الخلوة جاهلًا، فيصبح عالمًا، بحيث يقرر جميع مذاهب المجتهدين، ويعرف منازعها كلَّها بما حصل له في الخلوة من أنوار الكشف، وأن يصير يمشي على الهواء والماء، ويدخل النار فلا تؤثر فيه، ويركب السبع فلا يعصي عليه، ويصير يعرف ما يمر في خواطر الناس، وما يفعله الناس في قعر بيوتهم، ومن لم يعطه الله ذلك في خلوته فهي عبث. انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ثمرات الخلوة وعلومها أواخر الباب التالي من كتاب «قواعد الصوفية» فراجعه، واعذر كلَّ حاسد من أقرانك إذا ميَّزك الله تعالى عليه بعلم أو جاه أو زهد أو ورع ونحو ذلك، وأقم له العذر باطنًا، وأنكر عليه ظاهرًا كما تنكر عليه إذا حسد غيرك، فإن كليهما محرَّم، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٣) ومما أجبتُ به عمَّن أذاني وكرهني ومزَّق عِرْضي حين نفَّرتُ عنه شيخ عرب أو أمير كان يعتقده ويحسن إليه، وزعمتُ أني إنما فعلتُ معه ذلك لشدَّة محبتي فيه، وخوفي عليه أن يميل إلى ذلك الأمير أو شيخ العرب الذي يظلم الناس فتمسه النار.

والجواب عن هذا الشيخ: أن ما فعلتُه معه خفيٌّ على غالب الناس، مؤذِنٌ بالعداوة عندهم، فلا يكاد أحد يرى أن ذلك من المحبة له، فعليَّ اللوم في ذلك الذي لم أمهد له بساطًا قبل ذلك يؤذِن بأن مثل ذلك إنما يقع مني محبةً له. ولخفاء وجه ذلك صار الناس يقولون في المثل السائر: «من أحبك أطعمك، ومن بغضك أحرمك» لاسيما والخالي اليوم من العلل أعز من الكبريت الأحمر، فلا يكاد يُرَى فقير يصحب أحدًا من أبناء الدنيا إلا لعلة دنيوية، فالعاقل من عامل الناس بقدر ما يُحتمَلونه ويشكرون فضله عليه.

وقد صحب شيخ العرب عامر شيخ البحيرة شيخًا ووعده بفلوس كثيرة وقمح وأرز وعسل، فعلمتُ بذلك فنفرتُه عنه، فلا تسأل يا أخي ما أراد يفعل معي، حتى لو أمكنه أن يثبت عليَّ الكفر ويضرب عنقي لفعل، وأقمتُ له العذر في ذلك، لأنه خلق غريب لا يفعله إلا من غلب على قلبه مراعاة الله تعالى في عباده، ورآهم كالأطفال الجاهلين

بالعواقب، فخالف أهواءهم وقال: إن تكدروا مني في الدنيا، فسوف يشكروني في الآخرة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٣) ومما أجبتُ به عمَّن عاداني وكرهني حين دعوتُ له بالأمراض وضيق المعيشة وقلة الأولاد، أخذًا من حديث: «اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئتُ به الحق من عندك، فاقلل ماله وولده، وقصر أجله»[١]، وفي رواية: «وعجل منيته».

وقد وقع لي ذلك مع شخص من فقهاء المغاربة، فقال: ترك عداوتي من قديم الزمان! ومكثتُ نحو سنة أعتذر له، مع أني بحمد الله ما دعوتُ له إلا بما فهمته من دعاء رسول الله ﷺ لمن آمن به، وعلم أن ما جاء به ﷺ هو الحقُّ من عند ربه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٤) ومما أجبتُ به عن العدو الذي لا يفتر عن تنقيصي عند الأمير الذي أشفع في الناس عنده، ولاث به أصحابي وقالوا: هذا كلُّه حسد لسيدي الشيخ.

والجواب: أنه لا ينبغي حمله على الحسد، وإنما يجب حمله على المحبة لي والشفقة خوفًا عليَّ أن يكثر اعتقاد ذلك الأمير فيَّ، فأركن إليه بقلبي ضرورة على جاري عوائد الناس، فإن كلَّ من بالغ في الاعتقاد فيهم أحبوه وركنوا إليه ضرورة، حتى إن أحدهم ربما يصير يجيب عن ذلك الأمير ويحمل جوره وظلمه على محامل حسنة، ويقيم الحجة له على المظلومين، فأراد هذا الأخ لي أن يقطع مادة الركون إلى ذلك الأمير حتى لا تمسني النار بسبب ذلك.

وأيضًا فقد ذكرنا في كتاب «الأخلاق» أن من شرط من يصحب أمراء الجور أن يوطن نفسه على تحمل تبعاتهم عنه في الآخرة وفاءً بصحبتهم، أو على مشاركتهم في تحملها، ومن صحبهم بغير هذا الشرط فهو غش، فأي شخص منا يدعي أن له قدرة على تحمل تبعات نفسه فضلًا عن الظلمة؟! فجزى الله تعالى هذا الأخ الذي نفَّر عني ذلك الأمير

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٣٣)، (٦٧٤) والطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٠٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٦١).

خيرًا، وأدخله الجنة بغير حساب آمين، اللهم آمين.

(١٤١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يغفل عن الحطِّ فيَّ والتنقيص لي بين أصحابه وتلامذته، فلاث به أصحابي وقالوا: هذا أمر مفسِق للعوام فضلًا عن الأشياخ.

والجواب: أنه لا ينبغي لأصحابي اللوث بهذا الشيخ لمجرد حطه فيَّ وتنقيصي، لاحتمال أنه رأىٰ من طريق كشفه أنه لا نصيب لأحد من تلامذته عندي، ورآهم محبين لي مرجحين لي عليه، فما قدر علىٰ تخليصهم من الميل إليَّ إلا بإظهار تنقيصي بينهم، لينفروا مني، ويصلوا إلىٰ نصيبهم في الأدب والتربية الذي جعله الحق تعالىٰ لهم عنده.

فإن قال قائل: إن مثل ذلك لا يبيح غيبة من أحبوه؛ قلنا: الشيخ مجتهد في الطريق، فربما أدىٰ اجتهاده إلىٰ أن أثم تنقيصي أحق من فوات تأديب تلامذته وتعريفهم الآداب المتعلقة بالله عزَّ وجلَّ. وأيضًا فربما كان اعتقاده فيَّ حسنًا، وأني لا أتغير من كلام قيل فيَّ، كما عليه أشياخ الطريق، ومعلوم أن الغيبة ما حُرِّمت إلا من جهة ما فيها من الأذىٰ للمؤمنين والمؤمنات، فمن لا يتأذىٰ بها ربما يقول بعض العلماء بتخفيف الإثم فيها، ويؤيد ذلك ما في الحديث من قوله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا أصبح يقول: اللهم إني تصدقتُ بعِرضِي اليوم علىٰ عبادك»[1] انتهىٰ. فلولا طيبة نفس أبي ضمضم بذلك، ما سمح أبي ضمضم بالوقيعة في عرضه، ولا قال الشارع: «أيعجز أحدكم... إلىٰ آخره».

وأيضًا فإن كلَّ من قوي إيمانه شاهد أحوال يوم القيامة بقلبه كأنها رأي عين، ومن كان هذا مشهده رأىٰ تحكيم الحقِّ تعالىٰ له يوم القيامة في حسنات خصمه يأخذ منها ما شاء، فإن فنيت وضع من سيئات نفسه علىٰ ظهر خصمه إذا شاء -يعني المظلوم- فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وأجيبوا عمَّن وقع في عرضي بهذه الأجوبة ونحوها، ولا تدنسوا دينكم بالحطِّ علىٰ من حطَّ عليَّ في حياتي وبعد مماتي، فإني صفحتُ عن جميع من عليه حق في مال أو عَرَض من جميع هذه الأمة المحمدية، كما مرَّ في هذا الباب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٢٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٥).

(١٤١٦) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي جلس بجانبه شخص في محفله، فقال له: تنحَ عني بعيدًا، فقد آذيتني بقربك مني،** أنه يجب حمله علىٰ أنه رأىٰ نفسه تدنس كلَّ من قرب منها، فقال لجليسه: إنه يتدنس بمجالسته، فيؤذي نفسه ويؤذي الشيخ من حيث سرقةُ جليسه من طبعه هو، لا من جهة أنه تأذىٰ بازدرائه له، أي لجليسه، فإن ذلك سوء ظن به وهو لا يجوز كما بيناه في الباب السابع والخمسين من كتاب «الفلك المشحون». والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٧) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أكثر من الحط عليَّ لما ألفتُ كتبًا في أخلاق القوم وبينتُ فيها ما اندرس من أخلاقهم، حتىٰ صار الناظر فيها يقول: ما بقي الآن أحد علىٰ قدم صدق، وصار يسلخ مشايخ العصر من طريق الصدق في الطريق كما انسلخت الحية من ثوبها، ولاث به أصحابي وقالوا له: هذا منك خروج عن الطريق، وما كان الواجب عليك إلا أن تمدح سيدي الشيخ في تبيينه معالم الطريق التي اندرست بعد أشياخه، كما جرىٰ عليه السلف الصالح، كأبي طالب المكي، والحارث المحاسبي، وأبي القاسم القشيري، والغزالي وأضرابهم. وأما حطك عليه يا سيدي الشيخ فذلك علامة علىٰ كثرة رعونات نفسك وحسدك ومحبتك في الرئاسة، فتريد أن لا يكون لأحد في بلدك اسم في الطريق غيرك.**

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ الذي حطَّ عليَّ لما ألفتُ هذه الكتب، وأظهرتُ فيها المناقشات في الأعمال والأقوال، لاحتمال أن يكون اطلع من طريق كشفه علىٰ ما في سريرتي من حصول العجب بأخلاقي وأحوالي حين تميزتُ بها علىٰ أقراني، وصار أهل زماني[1] يقدمونني في الاعتقاد والترجيح علىٰ كلِّ فقير في البلد، فقصد بالحط عليَّ زوال ذلك العجب الذي حصل بالتميز، كما هو الغالب علىٰ أمثالنا. ولا يجوز حمله علىٰ الحسد وحب الرئاسة وغير ذلك مما يتعلق بالسرائر، فإن ذلك أمره إلىٰ الله لا إلىٰ الخلق، حتىٰ إن بعضهم قال: إن الكشف بذلك قد يخطئ لنقص المكاشف.

---

(١) بالأصلين: أحوالي. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

فإن قال أحد من أصحابي: لم يزل الأشياخ تناقش أهل عصرها في كلِّ زمان، حتىٰ إنهم ربما أخرجوا الناس عن حقائق الإيمان واليقين تبعًا للشارع ﷺ في بيانه لأمته حقائق الإسلام والإيمان وغيرهما بنحو قوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(١)، وبقوله: «المؤمن من أمنه الناس علىٰ أنفسهم وأموالهم»(٢)، ونحو ذلك؛ قلنا: إن الشارع كان ذلك منه بوحي من ربِّه عزَّ وجلَّ، ولا كذلك غيره، فقد يخالط ذلك خفي حظ أو تشف في الأقران حين أقام الناس عليهم تلك الموازين التي ذكرها ذلك المؤلِّف وميزوه بها عن أقرانه كما هو الغالب، فكان الأولىٰ لهذا المؤلِّف أن يبقي لإخوانه رائحة عذر، كما أشار إليه حديث: «إن من البيان لسحرًا»(٣). قال الحسن البصري: ولا نرىٰ السحر إلا حرامًا. انتهىٰ.

فمثال من يكشف القناع عن حال أقرانه الناقص مثال من كشف سوأتهم للناس وقال لهم: انظروا إلىٰ عورات هؤلاء من نساء ورجال. ولاشك أن ذلك في غاية القبح، وقل من يصبر علىٰ رؤية الناس عورته، وكلُّ أحد منا مستور بثيابه بين الناس، ويسأل ربه أن يستر فضائحه عنهم في الدنيا والآخرة. ولو أن أحدنا نظر نفسه بعين الإنصاف والاعتبار، لرأىٰ ذاتها كأنها كلها عيوب ضُمَّ بعضها إلىٰ بعض، فصارت كأنها صورة إنسان.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعذروا من حطَّ علينا حين [قلنا ما](٤) قلناه من أحوال القوم بكتبنا، وأخرجناه عن دائرة المشيخة التي يدعيها، واشكروا [فضله في تنبيهنا علىٰ ما خفي علينا من فضائحنا، أو علىٰ تحذيره لنا مما يقع منا في المستقبل، أو علىٰ](٥) حصول الأجر لنا، وسعيه في رفع درجاتنا بوقوعه في عرضنا وإن لم يقصد هو ذلك، فإنه

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٠) ومسلم (٤٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٤)، وابن حبان (٤٨٦٢)، وأحمد (٢٣٩٥٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ساقط من «ب».



إذا حصل لنا الأثر، فلا التفات لنا إلىٰ القصد المخالف لذلك، ولكن اسألوا الله تعالىٰ للأعداء أن لا يؤاخذهم بالحظ فينا بأن يصلح بينهم في ذلك مقابلة لهم علىٰ ما حصل لنا من الأجر بسببهم، فإن من شأن الفقير أن يحتاط لنفسه ولإخوانه ويؤاخذ نفسه باللازم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا ذمَّك الناس فافرح من حيثُ سعيهم في إزالة ما فيك من العجب بأحوالك، وسامحهم من قلبك، وادع لهم بالمغفرة من قبل حق الله تعالىٰ حين تعدوا حدوده واستغابوك بغير طريق شرعي، فكما نفعوك بذمهم فيك، فانفعهم بالمدح والشكر لهم، وسؤال أن الله تعالىٰ يغفر لهم. انتهىٰ.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعذروا من حطَّ فيَّ حين كشفتُ سوأته بما ذكرتُه في كتبي، وطالعوه وخذوا المناقشات التي فيها في حقِّ نفوسكم، ولا تتعدوها إلىٰ أقرانكم يفوتكم النفع بها، ولا تجدوا من يرشدكم إليها من أهل عصركم إلا نادرًا، فإني لا أعلم أحدًا من أهل الطريق من عهد الجنيد إلىٰ وقتنا هذا صنَّف مثلها، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية لما حط عليَّ ونقصني في المجالس لما عمل المفتش حساب وقف زاويتي الذي هو تحت نظري، وطلع لي فائض عليه نحو الثلث، وقال له المباشرون عندي والشهود أني لا آخذ معلوم نظر أبدًا، وكلُّ شيء دخل تحت يدي من زراعاتي وغيرها أضفتُه إلىٰ ريع الوقف من غير رجوع به علىٰ أحد في الدنيا والآخرة، وفضَّلني المفتش علىٰ جميع علماء مصر ومشايخها، وقالوا: جميع من عملنا حسابه طلع عليه إلا عبد الوهاب؛ ولاث أصحابي بهؤلاء المشايخ وقالوا: بدل ما تحطون علىٰ الشيخ الذي تعفف عن مال[1] الوقف الذي تحت نظره، كنتُم تتبعونه في فعله وتشكرونه علىٰ ذلك، فهو أفضل لكم.

والجواب عن جميع العلماء والمشايخ الذين لاثوا بي: أنهم كالمعذورين في الحط عليَّ، لأني كشفتُ سوأتهم بما فعلتُه في وقفي بين الأعداء والحاسدين، فاللوم عليَّ الذي

---

(١) بالأصلين: حل. والصواب ما أثبتناه.

لم أكن توجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ في ستري في ذلك عن المفتشين، وستر أقراني فيما طلع في جهتهم من مال الأوقاف. ولو أني كنتُ توجهتُ إلىٰ الله أن يستر أقراني فيما طلع في جهتهم عن المفتشين، لربما كان الحقُّ تعالىٰ أجابني إلىٰ ذلك لموضع صدقي، كما أني لو كنتُ شفقتُ علىٰ إخواني وسألتُ الله تعالىٰ أن يطلع حسابي سواء بسواء من غير زيادة أتميز بها علىٰ أقراني، لربما كان الحق تعالىٰ أجابني إلىٰ ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يكمل الرجل حتىٰ يكون علىٰ قدم في العبادة لا يقدر أحد من أهل عصره يمشي عليه، ومع ذلك فلا يكاد أحد يشعر بكماله لما هو عليه من شدة حبِّه للخفاء في هذه الدار، فمثل هذا هو الذي يخرج من الدنيا بأعماله الصالحة كاملة موفرة لا يدخل عليها إعجاب ولا إحباط. وأما من ظهر كماله للناس فربما استوفىٰ أجر عمله في الدنيا من كثرة ثناء الناس عليه وكثرة تعظيمه، فيذهب إلىٰ الآخرة صفر اليدين من الحسنات. انتهىٰ.

ولما أقرأ أخي أفضل الدين الأطفال القرآن كان يرد خبزهم وخميسهم، فبلغ ذلك سيدي عليًّا الخواص، فقال: يا أفضل الدين، إن الله تعالىٰ لا يحب من عمل عملًا ليُشكَر عليه، فقال له: يا سيدي، أنتم تعلمون أني لم أقصد ذلك بما فعلتُ، وإنما قصدتُ تنزيه نفسي عن إقراء كتاب الله لعباده بغرض الدنيا. فقال له: حيثما شُكِرتَ علىٰ ذلك، فلا فرق بين أن تقصد ذلك أم لا، ولو كنتَ محتاطًا لنفسك لتوجهتَ إلىٰ الله تعالىٰ أن لا يطلع أحدًا من الخلق علىٰ شيء من أعمالك التي تتميز بها علىٰ إخوانك، فكان الحق تعالىٰ يسترك في أعمالك، ولا يُطلِع أحدًا علىٰ كمالك ولو كنت علىٰ عبادة الثقلين. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعذروا الناس في هذا الزمان بما تعذرون به نفوسكم إذا حصل منكم حسد أو عجب أو كبر، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق الذي دخل في محفل كبير مشتمل علىٰ أمراء وعلماء وفقراء وتجار وغيرهم، فوجدهم كلَّهم يمدحونني ويذكرون محاسني، حتىٰ فهم منهم أنهم يرجحونني علىٰ كلِّ فقير في مصر، فأخذ في معارضتهم

وذكر شيئًا من نقائصي، فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا من علامة الحسد، وأي شئ كان يضره لو وافق الناس في ذكر المحاسن أو سكت؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ ولا حمله على الحسد والعداوة، لاحتمال أن يكون قصد بذكر نقائصي سدَّ باب العجب عني بشيء من أحوالي، فإنه قلَّ عبد **يجمع غالب إخوانه على فضله وترجيحه على أقرانه إلا ويحصل عنده العجب بحاله أو يخطر له**، فكان تنقيص هذا الشيخ لي كالرقية من شرِّ العين، فلا ينبغي اللوث به، بل يجب حمله على النية الصالحة، وتجب محبته، لأنه حفظ عليَّ ديني على ما وقع فيه من مدحتي، فإنه كاد أن يذهبني[1]، فجزاه الله تعالى عني خيرًا.

ويقرب من هذا في نفعي أيضًا من سمع الناس يمدحونني فانقبض لذلك، وظهر التعبيس على وجهه، فإنه لا ينبغي اللوث به، بل يجب حمله على أنه خاف عليَّ العجب بذلك المدح، وكان على هذا القدم أخي أفضل الدين رحمه الله إذا ذمَّه أحد ونقصه في المجالس، يقول: والله إن قلب هذا نيِّر، ولولا محبته لي ما نبهني على نقصي. فاعلم ذلك يا أخي، وبالغ في محبة من ذمَّك في هذه الدار، فإنه أنفع لك ممن يمدحك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر جماعته بضرب من مدحني في مجلسه أو أقرَّهم على ضربه، ولاث الناس به وقالوا: هذا حمق وجهل عظيم لا يليق وقوعه ممن شم رائحة طريق القوم، إذ الضرب لا يكون إلا لمن وقع في حد أو تعزير، بشرط أن يكون ذلك الضرب بأمر حاكم شرعي.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ، لاحتمال أن يكون مأذونًا له في تعزير كلِّ من وقع في معصية من وليِّ الأمر، وربما كان يرى المبالغة في المدح من الكذب الذي يستحق صاحبه التعزير لتحريمه. ويُحتمَل أن يكون هذا الشيخ إنما أمر بضرب

---

(١) بالأصلين: يذهب ذنبي. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

صاحبي أو أقرَّ أصحابه عليه لما يعلم من حسن خلق صاحبي وظنه حسن خلقي، وأني لا أنتصر لمن مدحني إذا آذاه أحد علىٰ وجه حمية الجاهلية، فأراد أن يعلِّم أصحابه الاقتداء بي وبصاحبي في حسن الخلق، والحال أنه من أشد المحبين لي. ويُحتمَل أنه فعل ذلك خوفًا عليَّ من أن أصغي إلىٰ المدح، فأعجب بحالي، فأقع في الكبائر، من باب اجتهاده في حفظ ديني من النقص لا حسدًا لي ولا بغضًا. وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله يحط علىٰ بعض أصحابي وينقصه في المجالس ليبلغوه ذلك، مع كونه من أشد المحبين له ويقول: أخاف عليه من وقوعه في العجب إذا مدحه الناس وأجمعوا علىٰ جلالته ورجحوه في المقام علىٰ سائر أقرانه. انتهىٰ.

وقد وقع أن بعض المشايخ رضي الله عنه سأل أمير الحاج شيئًا من الزاد والأُدْم في طريق الحاج، فلاث به بعض الناس وقالوا: ما شيخ إلا فلان الذي هو في غاية الفقر والحاجة، وما رأيناه يقبل شيئًا عن أحد ولو جاءه من غير سؤال؛ فسألتُه عن سبب ذلك، فقال لي: أردتُ بذلك أن أميِّز مقام ذلك الشيخ علىٰ مقامي عند الناس. فقلتُ له: قد يلحقه العجب بذلك. فقال: إنما سألتُ أمير الحاج وأنا ماسك قلوب الناس أن يلقوا بالهم إلىٰ ذلك، وما قصدتُ إلا ترجيح مقامه عليَّ عند أمير الحاج لا غير، كما أني ما سألتُ أمير الحاج إلا وأنا ماسك قلبه عن أن يسمح لي بشيء، لغنائي عن ذلك بحمد الله، فإن من شأن الفقراء الصادقين أن يسألوا الناس بألسنتهم حال كونهم سائلين الله تعالىٰ أن يقسي قلوبهم عليهم ولا يعطوهم شيئًا، لأنهم إنما يفعلون مثل ذلك بيانًا لمقام إخوانهم وترجيحه علىٰ مقامهم. انتهىٰ.

ونظير ما قلناه ما ورد من قول السيد موسىٰ عليه الصلاة والسلام في مناجاته: «يا رب، نبي يأتي من بعدي يكون أتباعه أكثر من أتباعي -يعني محمدًا ﷺ- فقال له الحقُّ تعالىٰ: تأدب يا موسىٰ، فإنه لولا محمد ما خلقتُك، ولا خلقتُ سماء ولا أرضًا» الحديث، فإن موسىٰ بإجماع المسلمين ما قال ذلك حسدًا لمحمد ﷺ، وإنما قال ذلك لعلمه من طريق الوحي والكشف أن الله تعالىٰ ينزل وحيًا عليه في شرف محمد ﷺ،

[ويبين علو مقامه عليه بين الملائكة والجن والإنس، لشدة محبة السيد موسىٰ في محمد ﷺ](١) فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الحسد لأحد من خلق الله عزَّ وجلَّ، فاعلم ذلك فإنه نفيس والحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك آخر «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد» وذلك علىٰ يد مؤلفه عبد الوهاب بن أحمد الشعراني بمصر المحروسة في مستهل شهر الله المحرم، سنة ست وستين وتسعمئة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، [فرحم الله من انتفع بشيء منه ودعا لمؤلفه بمجاوزة الصراط إلىٰ الجنة](٢).

ختام النسة «أ»

وكان الفراغ من كتابته من خط مؤلفه لولد ولد مؤلِّفه، من أحيىٰ سنة جَده بجِده وجَدّه الذي أحيىٰ الله بوجوده الوجود، وبلَّغ ببركته في الدارين المقصود، دام بدوام النيرين

هو الشيخ يحيىٰ ابن الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ عبد الوهاب الشعراني

هو المؤلف لهذا الكتاب قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه بمحمد وآله

علىٰ يد كاتبه أحمد خادم الأبواب الشعرانية

وذلك بتاريخ يوم الأربعاء المبارك،

سادس جمادىٰ الثاني من شهور سنة ١٠٢٢

من الهجرة النبوية

علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام

آمين

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة من «أ».

ختام النسخة «ب»

وكان الفراغ من كتابة هذا الكتاب الشريف

يوم الاثنين المبارك خامس عشر شهر شوال،

من شهور السنة الحادية عشر بعد المئة والألف من الهجرة النبوية

علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام

والحمد لله حمدًا كثيرًا علىٰ الدوام

وكتبتُ هذه النسخة المباركة لسيدنا ومولانا السيد الحسيب النسيب، السيد حسن أفندي، نقيب السادة الأشراف بمصر حالًا، أحيا الله بوجوده الأنام، وجعله قائمًا بإحياء سنة جده سيدنا محمد خير الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام بمنِّه، آمين.

وذلك علىٰ يد الفقير إلىٰ الله تعالىٰ

محمد بن إبراهيم النجاحي بلدًا، الشافعي مذهبًا،

غفر الله له ولوالديه، ولمن دعا لهم بالمغفرة، ولكلِّ المسلمين أجمعين

آمين يا رب العالمين

آمين

وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم



فِهرِسُ المُحتَوَيَاتِ


الكتب النادرة التي ترفع لأول مرة


تم بحمد الله

ينشر هذا الكتاب لأول مرة، وهو فريد في موضوعه، إذ يتناول قضية حسن الظن بالعباد كلهم في اثني عشر بابًا، بداية من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومرورًا بالصحابة والتابعين وكبار علماء الإسلام ومشايخ الطريق والعلماء، وانتهاء بسائر المسلمين من الأمراء والأطباء والتجار والعوام، كما أجاب عن بعض الأفعال الصادرة عن غير المسلمين.

ثم ختم بخاتمة أجاب فيها عن بعض من آذوه.

وقد بلغت الأجوبة في هذه الموسوعة العظيمة (١٤٢٠) جوابًا.

وقد تضمنت الأجوبة مع ذلك دررًا من الفوائد العلمية، والإشارات العرفانية، والتوجيهات السلوكية.







